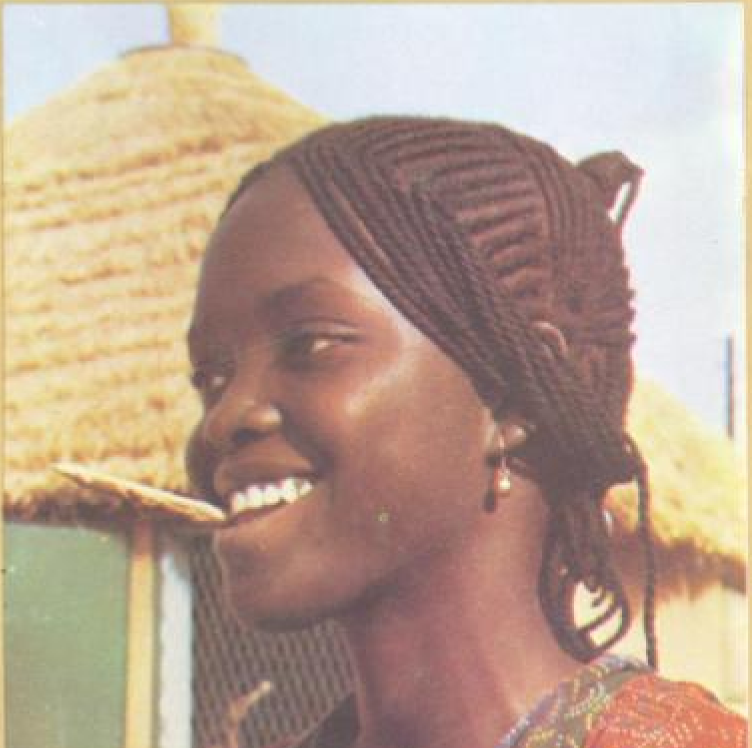
عدد ممتاز

العربي

ربيع الأول ١٤٠٢هـ - يناير (كانون ٢) ١٩٨٢



قضية
التطرف الديني
"جزء خاص"

●

الرجل الآلي :
أسطورة تتحقق

●

نحن في حاجة إلى
الأمن الثقافي

●

هدية العدد :
التاريخ العربي
في ١٤ قرناً

« السواك في كل فم » .. السنغال : الى أين ؟

خبرة الماضي



١٩٨١
أحدث غرفة لتداول العملات (Treasury Dealing Room) في الشرق الأوسط متصلة بالأقمار الصناعية وهي موجودة في المكتب الرئيسي.

١٩٥٢
أول بنك كويتي تأسس في الكويت هو بنك الكويت الوطني وكان موقعه في شارع عبد الله السالم مقابل المكتب الرئيسي الحالي.



وأحدث الخدمات العصرية

بنك الكويت الوطني كان ولايزال الرائد في مجال التطور على مدى ٢٩ عاماً. هذا التطور الذي وضع التكنولوجيا الحديثة في خدمة الزبائن الكرام، والذي أدى الى توسع البنك فأصبح يملك ٤٠ فرعاً متصلة جميعها بالكمبيوتر المركزي وذلك لتأمين خدمات فورية للعملاء الكرام.

ان هذا التطور أدخل مفهوماً جديداً على الخدمات المصرفية في الكويت دون أن يمس بتقاليد اللباقة وروح الخدمة التي كانت موجودة يوم افتتحنا أول فرع لنا عام ١٩٥٢.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك

المركز الرئيسي: شارع عبد الله السالم. ص.ب ٩٥ الصفاة، الكويت

عزيزي القارئ

كل سنة وأنت طيب . وبلادنا طيبة . وأحوالنا بخير افتقدناه كثيرا في السنة التي انتهت أمس .

وهذا العدد السنوى الممتاز من مجلة العربي ، لن أحدثك عنه كثيرا ، فهو بين يديك ، ينطق بما نبذل من جهد عنيف ليخرج كل شهر في المستوى الذى يخرج به . وان كنا نحن في اسرة التحرير آخر من ترضى عنه . وانتقاداتنا لكل عدد من « العربي » اكثر من انتقادات القراء أجمعين . فمن لا يعرف عيوبه لايتحسن ولايتقدم .

ولكن هذا العدد بالذات له صفة خاصة ،

فهذه اول مرة في تاريخ الصحافة العربية يطبع فيها من مجلة شهرية ثلاثمائة ألف نسخة - ٣٠٠,٠٠٠ نسخة - . وقد كانت طلبات الموزعين تطالبنا بـ ٣٥٠ ألف نسخة . ولكن المطبعة قد عجزت عن ادراك هذا الرقم ، خصوصا وأن معه هدية صعبة الطباعة والاخراج . . .

وفي هذه المناسبة ، نخرج عن تقاليدنا ، ونوجه شكرا خاصا الى الشيخ ناصر محمد الاحمد الصباح وكيل وزارة الاعلام الجديد . والذى بدأ في اعطاء مجلة العربي من التسهيلات الفنية والدعم المعنوى ما كان ينقصها . الأمر الذى يعد بأن المجلة سوف تبدأ انطلاقة جديدة في التحرير والطباعة والاخراج سوف يلمسها القارىء تدريجيا ولكنها لن تفوته ملاحظتها بالتأكيد . .

ان مجلة العربي يوم ولدت بدأت صفحة جديدة في عالم المجلات الشهرية العربية . .

وفي السنوات الخمس الماضية ، استفادت من الأساس المتين ، لتنطلق الى مرحلة جديدة في الشكل والموضوع ونوع الاهتمامات ، جعلها محل طلب كل مثقف عربي ، وكل طالب ثقافة ومعرفة ، بل وكل مسئول في كل بلد عربي .

واذ كنا لانرى ارقام التوزيع برهانا كافيا على التقدم في كل الحالات . الا انه بالتاكيد برهان هام .

ولكننا نعتقد أن الأساس سيظل هو التركيز على تحسين الخدمة الثقافية والفكرية التي يتوق اليها القارىء العربي الذى يهمه الارتباط بتراثه وحضارته ، ويتوق في الوقت نفسه الى ان يعيش عالم الغد المتسارع الخطا !

(المحرر)



صورة الغلاف

● ماهي صورة الواقع في أقصى الطرف الغربي لافريقيا المسلمة : في السنغال ؟ . . يحاول استطلاع هذا الشهر ان يجيب على السؤال ، بتركيز على نقطة تغريب ذلك البلد المسلم وتفكيك هويته ، والصورة لفتاة سنغالية وقد وضعت في فمها المسواك (سوشو باللغةالمحلية) . حيث شاعت هذه العادة منذ دخول الاسلام . ولازالت باقية للآن ـ (انظر الاستطلاع ص ٧٦)

قضايا عامة

عروبة وإسلام

طب وعلوم

أدب وفنون

تربية وعلم نفس

تاريخ وأشخاص

استطلاعات مصورة

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قاريء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريال ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٣٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليم ، السودان ١٥٠ مليم ، المغرب ٣ درهم ، تونس ٣٤٠ مليم ، الجزائر ٣ دينار ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريال ، الامارات العربية المتحدة ٤ درهم ، اليمن الشمالي ٣ ريال ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلس ، ليبيا ٢٥٠ درهم .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :

١ - الشركة العربية للتوزيع وعنوانها ص . ب (٤٢٦٨) بيروت / لبنان .

٢ - مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة / القاهرة / مصر .

« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة - قسم الاعلانات

الرسائل : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة : الكويت - صندوق بريد ٧٤٨ - تلفون ٤٢٧١٤٩ تلغرافيا « العربي »

AL-ARABI No.278, January, 1982
P.O.Box 748, KUWAIT

اللغة العربية حين نريدها سلاحا سياسيا

هذا موضوع احب أن أعود اليه من حين الى آخر .. احساسا مني بقيمته العميقة .. وانه في تقديري نوع من الاعمال الكبرى التي تحول مجرى التاريخ ، كالمعجزات الكبرى ، وتحويل مجاري الانهار ، وزوال حضارات وقيام حضارات ...

ولا بأس من التكرار في بعض القضايا الهامة ، فالتكرار هو وسيلة اي دعوة على اي حال .. بدءا من الدعوة الى مذهب سياسي ، وانتهاء « بالدعاية » لماركة من ماركات السيارات او التليفزيون .

ورغم ان الموضوع خاص باللغة العربية ، الا انه ليس موضوعا لغويا ولا أدبيا ، ولكنه موضوع سياسي وحضاري ..

وما اللغة فيه الا اداة ..

واللغة على اي حال - في شتى العصور واللغات - هي دائما أداة . انها وسيلة لا غاية . حتى اذا نظرنا اليها من منطق اهل البلاغة والفصاحة - قبل ان يغضب احدهم - فان البلاغة في اللغة اداة لحسن التعبير ، واتقان توصيل الفكرة او العقيدة ، وهذه هي بلاغة عصور النهضة ... في حين كانت البلاغة تصبح هدفا في حد ذاتها ، في عصور الانحطاط . فحين يتبارى الناس في اللغة من أجل اللغة معناه افلاس في الفكر والعلم اللذين خلقت اللغة كأداة لتوصيلها .

واستراتيجيًا وحضاريًا !

بقلم : أحمد بهاء الدين

تماما كالذي يركب السيارة مثلا للوصول الى هدف . والذي يركب سيارة لمجرد اظهار قدراته البهلوانية على القيادة لا غير .

واحيانا لا يشعر الناس بالشيء القريب ، الميسر ، المعمول به يوميا ، حتى ولو كان اهم وأخطر شيء . كالهواء الذي نستنشقه ونعتبره بالتالي ابسط الاشياء رغم انه مادة الحياة .

وفي هذا المجال نجد ان اللغة ابرز هذا النوع من الاشياء في صنع الحياة والحضارة . ولكن لأننا نتعلمها بالولادة والنمو ، ونستعملها يوميا في كل شيء ، لا نلتفت احيانا الى ان اللغة هي احد اهم الاشياء التي شكلت تاريخ الحضارة الانسانية ، ورسمت مجرى التاريخ ؛ اكثر مائة مرة مما ساهمت به الجيوش ، والاسلحة الباهظة ، والحروب الكبرى .

فاللغة كانت اداة الرسالات السماوية . والمذاهب الدنيوية . والمعاملات الانسانية حتى شتى درجاتها ومستوياتها . انها « العملة » الابدية الازلية المتداولة بين الناس جميعا . واذا كانت الآية الكريمة تقول « وخلقنا من الماء كل شيء حي » . فاللغة خلقت من الحضارات والفنون والعلوم كل شيء حي . اللغة أقامت حضارات وماتت مع حضارات . وملأت صفحات سمتها بالقرون .

وعندما نقول ان القومية الواحدة عمادها عادة تاريخ واحد وتراث واحد وجغرافيا متصلة ولغة واحدة ، اذكر دائما كيف كان المرحوم ساطع الحصري - ابو القومية العربية الحديثة - يتعصب بشدة لعنصر اللغة بالذات . ويعتبر انه الاول والاهم بين كل العناصر الاخرى في كيان اي قومية .

وهذا صحيح بالتأكيد . ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي نريد ان نخوض في تفاصيله ، وان كان التسليم بهذه الحقيقة هو حجر الزاوية في هذا الحديث .

وقد كان من حظ الامة العربية ان نزل فيها القرآن باللغة العربية المبينة . فخلق اللغة خلقا وجددها تجديدا وغير منطق الفصاحة والبلاغة والتأثير نهائيا . ثم نزل القرآن نصوصا محفوظة وتم تدوينها في وقت مبكر . فاكتسبت اللغة العربية بالذات قداسة ليست لأي لغة ، واستمرارية ليست لأي لغة . وهذا ليس ضد التجديد الضروري في اللغة . ولا ضد حقيقة هبوط مستوى تعبير العرب باللغة هبوطا وارتفاعا تبعا لنهوضهم وتخلفهم . فقد كانت اللغة المستعملة تصل احيانا الى ادنى درجات الركاكة . ولكن لم تتحلل تحت كل الظروف الباهظة الى لغات مندثرة « متباينة » حيث ظل القرآن دائما حافظا وعاصما لها ينتظر لحظة العودة اليه .

ولو استعرضنا ما مر على الامة العربية من امبراطوريات ومن استبداد ومن اضمحلال ومن تمزق ومن عصور مظلمة . لتأكد لنا انه لولا هذه اللغة ، وأساسها الذي صار مقدسا لا يمس ، لما كانت هناك أمة عربية الآن على الاطلاق . وبهذا الاتساع ، وبهذه القابلية التي لا حد لها لاستيعاب اهم ما فاتنا ، واحدث ما يفوتنا ، من علوم الحضارة .

والذي يعيدني الى هذا الموضوع اليوم ، ومن زاوية محددة واحدة سوف أصل اليها بعد قليل - المؤتمر الذي ساهمت بالحضور فيه او الذي انعقد منذ اسابيع قليلة في تونس ، في اطار نشاطات « المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة » المنبثقة عن جامعة الدول العربية ، اي « اليونسكو » العربية .

وقد كان اجتماعا تأسيسيا ، حضره عدة مئات من المثقفين العرب ، تحت عنوان واسع كبير هو « تخطيط التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الاسلامية » .

ولن أغرق القارىء في تفاصيل هذا العنوان الذي كتبت فيه المنظمة مجلدات ، وامتلأت حقائبنا بما قدمته من وثائق ودراسات . ذلك ان الدكتور محيي الدين صابر - رئيس المنظمة - ومساعديه يكافحون منذ سنوات لعمل شيء متكامل في هذا الموضوع . يكفي ان نذكر ان العمل لعقد المؤتمر بدأ سنة ١٩٧٦ . ولكن عجلة عمل الاجهزة العربية المشتركة - بعشرين دولة وعشرين رأي وعشرين ألف اعتبار - عجلة بطيئة . والدول لا تعطي في هذه المجالات تفويضات حاسمة لمنظماتها المشتركة .

لن اغرق القارىء في تفاصيل هذا العنوان الواسع الكبير . والبرامج المتشابكة فيه . لقد اعترضت على ذلك في المؤتمر نفسه ، لانني أوثر عادة اسلوب اختيار مهمات قليلة محددة ، لاجتماعات سريعة محددة ، كاسلوب واقعي للانجاز .

ولكنني سأقف بالقارىء فقط عند نقطة واحدة ، لا لأنني اثرتها في المؤتمر بشيء من العنف المرتجل غير المقصود ، ولكن لأنني حدثت القارىء عنها قبل ذلك طويلا .. ولأنها تدخل فيما ذكرت

عن فكرة « التصويب على هدف استراتيجي واحد عميق التأثير » الى جانب الانتشار على ساحة واسعة من المهات .. ولأنها - كما قلت في اول الحديث - ليست قضية لغة ، ولكن قضية سياسة وحضارة وانعكاس حاد على مقادير الامة العربية على المدى الطويل .

فمن المعروف ان اللغة العربية خرجت من موطنها الاصلي ، رافعة اعجوبتها القرآنية ، الى انحاء مترامية من العالم ، تحت راية الاسلام ...

وبعض الشعوب قبلت الاسلام ، وثبت فيها ، ولكن دون ان تثبت فيها معه اللغة العربية . وبعض الشعوب قبلت الاسلام ، وقبلت معه اللغة العربية ، وثبت الاثنان فيها . ومن هذه الشعوب التي ثبت فيها الاثنان ، تتكون ما نسميه الامة العربية .

ولا اعتراض على هذا . فالاسلام دين وبالتالي فهو للناس كافة . والعربية لغة وبالتالي فهي ليست بالضرورة للناس كافة..

ولكن المؤكد ان المناطق التي ثبتت فيها اللغة العربية ، حتى بمن فيها من غير المسلمين . الذين صارت العربية لغتهم ، هي التي صارت الامة العربية بأديانها المتعددة . وهي التي صارت في الوقت نفسه البذرة الصلبة للوجود الاسلامي ذاته .

فالعروبة فضلا عن اهميتها في حفظ أمة العرب بكل ما فيها ومن فيها . فهي ايضا كانت المعقل الاساسي للاسلام في مده وجزره .

لذلك لم تكن حرب الاستعمار على اللغةّ العربية هينة ولا متساهلة ، فقد طوردت الثقافة العربية - ووسيلتها الاولى اللغة - مطاردة عنيفة . احيانا من بعض الامبراطوريات الاسلامية ذاتها التي لم تفطن الى دور اللغة العربية الحاسم ، كالامبراطورية التركية مثلا . ولكن في معظم الاحيان من الامبراطوريات التي لا هي عربية ولا مسلمة ...

والخطورة التي ادعو اليها الآن وارىٰ كل الظروف مواتية لها ، بل موجبة لها .. ليست « تعريب » العالم الاسلامي كله من الصين الى روسيا الى آخر الارض .

ولكن فقط ، ان « نسترد » الى العروبة ، الشعوب التي قبلت الاسلام واللغة العربية معا . والتي فقدت بعد ذلك لغتها العربية لا طواعية واختيارا ، ولكن بالقهر والعنف والمطاردة واعواد المشانق ..

وقد حدث هذا في افريقيا بالتحديد ..

فالاسلام - والعروبة - بعد ان غطى الساحل الافريقي الشمالي كله على البحر الابيض المتوسط ، وغطى الساحل الافريقي الشرقي كله على البحر الاحمر حتى آخره . استطاع ان يقاوم في تلك المناطق بحكم ان البلاد المطلة على البحار عادة بلاد حضارات قديمة ، وبالتالي تكون لها عادة مناعة وقوة مقاومة اكثر من غيرها من البلاد المغلقة داخل حدود أرضية مغلقة من كل جانب ،

فشاطىء البحر الابيض العربي كان دائما حيا عبر آلاف السنين رغم مواجهته لاوروبا بأسرها وشاطىء البحر الاحمر الافريقي ، كان يحميه الى حد كبير ان الشاطىء الآخر عربي مسلم . فالبحر الاحمر في الواقع بحر عربي كامل من كافة جوانبه ...

ولكن سائر افريقيا ، المفتوحة على المحيط الاطلنطي ، الخاضعة أمواجه للغرب منذ مئات السنين ، هوجمت من هذا الشاطىء المفتوح ، وعبر بلاد ليس لها مقومات الكيانات الاجتماعية الراسخة العريقة ، ثم نفذت الغزوات الى ما وراء ذلك من قلب القارة المغلق الا امام طريق القوافل القديمة البدائية ، فتآكلت فيه اللغة العربية ...

وعندما تمت لاوروبا - في عصر النهضة ثم البخار وسيادة البحّار ...الخ ، - السيطرة على افريقيا ... حاربت عروبة هذه الشعوب التي كانت قد تعربت بالفعل وأخذت تجتث اللغة العربية اجتثاثا من الارض ، صاعدة بذلك الى الشمال ، حتى حاولت ذلك على شاطىء البحر الابيض نفسه . فحاولت « فرنسة » الجزائر مثلا حتى كادت تقضي على اللغة العربية فيها تماما ، لولا اصطدامها بمقاومة عنيفة كانت قمتها ثورة هائلة خالدة جبارة دامت سبع سنوات ، ومات فيها مليون شهيد ، قبل ان تستقل الجزائر وتبدأ بنفسها رحلة التعريب من جديد ...

واذكر انني عندما زرت تونس لاول مرة - بعد استقلالها مباشرة - انني زرت منطقة السوق القديم جدا - « القصبة المغطاة الموجودة في كل بلد عربي قديم » - وهناك دخلت مباني قديمة جدا ، وانزلوني الى سراديب تحت الارض فيها ، كانت تخزن فيها الكتب العربية القديمة سرا عن المحتلين وكأنها قنابل ، وتعطى فيها دروس اللغة العربية سرا وكأنها عمليات انقلابية . اذ لم يكن ممكنا ان يتعاطى الشعب لغته ، ويعلمها ابناءه ، تحت سمع وبصر المحتلين .

وقد تراجعت موجة الغزو هذه امام حركات الاستقلال العربية الحديثة . وعاد الشاطىء الافريقي كله الى لغته العربية ...

تحت هذا الشاطىء ، الصحاري الكبرى وما يسمى جنوب الصحراء ، يوجد حزام افريقي هائل يمتد من السنغال غربا على المحيط الاطلنطي ، الى الصومال شرقا على المحيط الهندي ..

هذا الحزام الافريقي الضخم كان مسلما وعربيا . وقد ظل معظمه مسلما ولكنه فقد عروبته . فقد عروبته لانه فقد لغته العربية . وكان عليه عبر القرون اما ان يعود الى اللهجات القبائلية غير المكتوبة والتي لا تصلح لأن تكون لغة حضارة ، واما ان يتعلم الانجليزية او الفرنسية ، او الايطالية ، في حالة الصومال ، وصار اسمها في القواميس « افريقيا الانجليزية وافريقيا الفرنسية » . ومازال هذا هو حال معظمها الى الآن ، حتى بعد الاستقلال ...

ما هو الأقتراح ببساطة ؟ ...

تركيز الجهود العربية ، والمال العربي المطلوب ، لاعادة تعليم هذه الشعوب اللغة العربية ...

فقط لا غير لاسترداد هذه الشعوب لعروبتها بوسائل حضارية .. لا حربية ولا انقلابية !

ما معنى هذا لو تم ؟ ...

سياسيا ، واستراتيجيا : سوف يمتد العمق العربي ، اتوماتيكيا من الشريط الضيق المحصور بين الشاطىء والصحراء .. الى أكثر من نصف القارة الافريقية كلها ...

ولن اقول ان هذه ستكون اضافة هائلة الى العالم العربي ، حتى لا يكون القول وكأنه محاولة ضم لدول قد تكون لها اتجاهات اخرى . ولكن سأقول انه في اقل القليل سيكون حزاما واقيا ضخما ، عربيا ، يحيط بجنوب الامة العربية مهما كانت توجهات تلك الدول السياسية .

فعودة تلك الشعوب الى اللغة العربية فحسب ، سيجعلها اتوماتيكيا وواقعيا تقرأ الصحف العربية ، والكتب العربية ، وتسمع الاذاعات العربية ، وترسل خريجيها الى الجامعات العربية ...

هذا نشاط ثقافي مشروع ومقبول ولن يعترض عليه احد ... ولكنه في الوقت نفسه هدف سياسي استراتيجي ضخم ، يعيد رسم مجرى الاحداث لقرون مقبلة ، في غير مجرياتها المنحرفة لقرون ماضية .

وما لا ندركه تماما بعد ان العمل السياسي ليس فقط السياسة بمعناها المباشر .

ولكن خلق حقائق ثقافية واجتماعية ومادية جديدة ، هي ايضا عمل سياسي ، غير مباشر ، نعم ، ولكنه هو الذي يقوم بتشكيل السياسة بعد ذلك تلقائيا ..

فهو بالتالي عمل سياسي بالمعنى الاستراتيجي البعيد المدى ، الحاسم الاثر ، العميق في النتيجة ... الذي يسمى في لغة العصر بـ « الاستراتيجية العليا » .

لقد انكمشت انجلترا الى جزيرتها الصغيرة والخمسة والخمسين مليون انجليزي ..

ولكن اهم ما بقي من الامبراطورية ان اللغة الانجليزية صارت اللغة الاولى في العالم . واللغة الاساسية لشعوب غير انجليزية على الاطلاق . كالهند حيث يفهم الهنود كلهم لغة واحدة مشتركة هي اللغة الانجليزية . ونصف افريقيا السوداء .

وبالتالي بقيت المدارس الانجليزية ، والصحف الانجليزية هي الاقوى تأثيرا في العالم . واذاعة الـ B. B. C الانجليزية هي اكثر ما يرهف لها العالم سمعه . الى آخره .

والآثار السياسية والاقتصادية والضاربة لهذا لا تحتاج الى بيان .

بعكس اللغة الالمانية مثلا - التي تساويها كلغة حضارة وتتفوق عليها كلغة فلسفة - ولكن ليس لها هذا الوجود ...

وعندما كان الانجليز في أوج امبراطوريتهم يقولون « لو اختارت انجلترا بين الهند وشكسبير

لاختارت شكسبير ! » لم يكن هذا كلاما انشائيا . كان حقيقة ومازال حقيقة . ضاعت الهند ولم يضع شكسبير . انسحبت الجيوش وشجبت الاساطيل ولم ينسحب شكسبير ولم يشجب .

نسأل العربي في أي مكان من الارض من شاعرك المفضل ؟

فيرد عليك مثلا : المتنبي ! لا يفكر لحظة واحدة اذا كان المتنبي قد عاش في حلب او جاء من اي قطر . وهذه حقيقة ليست ادبية ، بل سياسية ايضا ...

وحين نضيف الى هؤلاء مئات ملايين الافريقيين الذين يقولون يوما : شاعرنا هو المتنبي . او شوقي . او امرؤ القيس .. فهذا تحول سياسي حضاري تاريخي خطير ...

وقد كان من حظي انني زرت كثيرا من هذه البلاد ... وعرفت الناس فيها ، من الزعماء الكبار والحكام ... الى باعة الفاكهة في الاسواق الفقيرة .. ووصلت الى « تومبوكتو ! »...

وعرفت معرفة شخصية ، الاشواق الهائلة لدى هذه الشعوب الى اللغة العربية ، والى العروبة ، والى معرفة لغة دينهم ...

كنت اسير في الاسواق فاذا عرف العامة انني عربي قادم من مدينة الجامع الازهر .. احاطوا بي ، لا حفاوة فقط ، بل تبركا ، يمسحون ثيابي ثم يمسحون وجوههم .. فاللغة العربية - لانها لغة دينهم - مقدسة . ومن يتكلمها كأنه من الاولياء الذين يتبركون بهم ..

كنت احيانا اهرب من الاسواق حين اشعر ان الرجال والنساء البسطاء يعاملونني وكأنني « ضريح متنقل » .. لا ينقصهم الا ان يربطوا في عنقي واطراقي احجبتهم وادعيتهم !

اذن ؟

ليكن هذا المشروع مشروعا خاصا ، محددا ، قائما بذاته ، هدفا تصوب اليه مجموعة جهود من زوايا مختلفة ، تصل الى اتجاه واحد ..

لتكن هذه ساحة معركة حضارية ، تمدينية ، راقية ومحترمة ومقبولة نستطيع ان نخوضها دون قتال ولا صراع ولكنها معركة تاريخية الاثر .

لتكن هذه قضية يبذل لها من المال ، نصف ما نبذله من مال على سلاح للتكديس والتخزين ولن يكون له نفس الاثر ..

لتكن جبهة لا يجد فيها العرب خلافا بينهم ، ولا انقساما بين صفوفهم ، يحققون فيها نتائج سوف تظلهم جميعا بظلالها الوارفة الكثيفة .. القريب منهم والبعيد ..

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ■■

احمد بهاء الدين

الكتابة على الموج



شعر الدكتورة نازك الملائكة

هتفت بي : « نوقظه ، تنشر فوق نومه النجوم »
وقلت لي نصحيه فالغيوم
رطبت الزنابق البيضاء
وكان في عينيك شيء مثل صحو الورد في الصحراء
وكان ذلك الصغير لم يزل حلوا له عذوبة الكروم
ولم يزل ممددا في عربات الثلج مثل بجعة زرقاء

× × ×

هتفت بي : « نوقظ هذا الطفل من غفوته
نصب في جبهته
أشرطة البروق
تسيل تسغ الشمس في العروق
نصحبه في نزهة على خيول الريح . »
وجهك كان خاشعا كجبهة المسيح
عيناك كانتا امتدادا لزمان
كان فيه الظل لا يأتي

خلفهما ينعكس اشتعال لون الخصب
في اقبية الموت .

وقلت لي : « حبيبي جئت
صافية كنجمة الشروق
وقلت لي : « هاتي يديك ،
ان هذا الطفل نوم النار في عنابر الزيت

وشهقة الغناء في مغازة الصمت . »
ثم وضعت وردة بيضاء فوق جبهتي
رسمت باللون خطوط غنوتي
اصبحت في قلبي طعم الامس ،
والبحار ،

والبرقوق

وقلت لي : « يانجمتي انت »

× × ×

واستيقظ الطفل ، وناديناه : « يا ذوائبا حلوة ،
نابتة في شفق الربوة
وحُدتنا مع النجوم والمدى في لحظة ، نثرتنا موسيقا
اذبتنا في خضرة السُروة
ضيعتنا بين النخيل والنواعير شذى ،
اغماءة

غنْوة

صيرتنا سفينة مبحرة في ثبج الذروة
صرت لنا الدليل والطريقا
في غابة الامس ، طفوت في بحار مقلتينا
كوكبا رقيقا

وفجأة نحن اكتشفناك ، على عشب الذُرى مخنوقا

× × ×

وقلت : « يا حبيبي
أصغ الى زمجرة البحار



انظر فخلف كل اغنياتنا جنازة النهار
وخلف عينينا ينادي هاجس الغروب
ويسقط البلبل مقتولا على الأوتار
وفي الدجا يتبعنا صوت بكاء قادم
من (سلف) في عتمة (الاهوار)

من حيرة (البردي) واحزان قرى مائبة الدروب

× × ×

والحب ، والبحة في صوتك ، والكآبة
تحولت سحابة
ونجمة الشمال
أسطر حُلم شاحبٍ ممحوة الكتابة
تحيلنا في نهر الليل الى زوارق تحلم بالترحال
الى شطوط الصمت والغرابة
وقال لي وجهك : يا حبيبتي
حذار ان تصدقي اسطورة الزوال
فأمسنا مهما استباحت لونه الظلال
كثافة الموت ، وعمق الغابة »

× × ×

وجهك كان دفترا تخط فيه الريح أغنياتها
وجهك صار زرقة المحال
وجاءت الرمال
يغيظها تحقدها واستقطت حباتها
ما بين وجهينا
ليلا فلا نحن نلاقينا
ولا تغنت باسمنا وحبنا التلال . ■■

يقول ابن الاثير في الغزو التتري الذي دهم الناس في هذا الشرق الاسلامي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م : « . . . وسمعت من بعض اهلها أن رجلا من (التتر) دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا ، حتى أفناهم ولم يمد احد يده اليه بسوء . ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن انفسهم قليلا ولا كثيرا . . . نعوذ بالله من الخذلان !!! » الكامل في التاريخ ج/ ١٢ ص ٣٧٨ .

الأمن الثقافي .. من يحميه ؟

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى

الاطروحات في السوق حول « الأمن » تكاد تصبح - أو هي أصبحت - صرخة العصر انهم يتحدثون عن « الامن » كما لو كان المقابل العملي للوجود الانساني المهدد . كما لو كان الوجه الآخر للحرية الانسانية ، أو الصيغة الجديدة لحقوق الانسان . ايقاع الخوف يتصاعد في الصدور كما لم يتصاعد في أي عصر مضى . يتصاعد ، يزداد ، يصخب ولا ايقاع الطبول الوحشية في الغابة ، فالانسان لهاث وراء « الامن » .

وراء الطمأنينة ، وراء مرفأ السلامة ، هذه الكرة السابحة حيث لا تدري ، والتي أخذ يأبق منها اهلها الى الفضاء لأول مرة - أخذت تبحث عن مرفأ . . وأغمض جفنيك وتذكر : كم مرة يحدثونك عن الامن كل يوم ؟ .

دعك بالطبع من مجلس (الامن) ، الأمن هناك شيء آخر . انه كومة للشيطان تمثلها القوى الكبرى بعضها أمام بعض . مقبرة تدفن فيها تلك القوى بالتناوب آثامها ضد الانسانية ، تغرق صرخات المعذبين في الارض ، تمنح

الشرعية لجرائمها . . . وتضحك ولكن تذكر مجموعة « الامنات » الاخرى التي يملأ بعضها الاحاديث السياسية والعسكرية من نوع « أمن الخليج » ، وأمن المحيط الهندي » إمن اوروبا » والأمن العالمي » بل . . « وأمن اسرائيل » . . ويملأ بعضها الاخر أحاديث اهل التنمية والعلوم الاجتماعية والاقتصادية من مثل « الامن الغذائي والنفسي والقومي والصحي » . . . تذكر هل تراهم حدثوك ولو مرة واحدة بين كل هذه « الامنات » عن

« الأمن الثقافي » ؟ عن حفظ الهوية الحضارية للانسان ؟ ومع ذلك فان هذا الأمن قد يكون ، مع الأمن الغذائي صرختي وصرختك عن قريب ، وصرخة اولادنا في الغد ، صرخة المستقبل الانساني . . .

غوائل كونية

صحيح أن غوائل كونية تتجمع نذرها هنا وهناك منذ الخمسينات . تهديدات جديدة للانسان لم تكن من قبل في الحسبان اخذت تبرز في الافاق ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، وهي تتعقد في التكوين وتزداد في الوقت نفسه قوة في السيطرة والخطر على المصير الانساني : نضوب الطاقة السريع والمتوقع في احتياطي البترول مثلا ، وتلوث البيئة ، وانهيار التوازنات بسبب الثورة التكنولوجية ـ هي الخطر على الدول الصناعية من قنابلها الذرية والنيوترونية ، كليمنصو منذ اكثر من ستين سنة قال : « بعد الان ستكون نقطة النفط لدى الامم والشعوب بثمن نقطة الدم » . . . وبالمقابل فان الانفجار السكاني ، وزحف الصحراء ، وتزايد الجوع ، الغوال تفترس بدورها العالم النامي ، وتدمر العلاقة بين الانسان والبيئة التي يسكنها ، وتمزق البنى الاجتماعية الهيكلية المستقرة . . . ثمة ضغط بشرى متزايد من كل ناحية على طبيعة الأرض التي نعيش عليها ، وثمة تهديد عنيف للعلاقة الوطيدة التي كانت على الدوام مستقرة رضية بين الانسان وبين الطبيعة ذاتها . . ثمة عملية تدمير متماد للموارد البشرية بسبب سوء الاستغلال واضطراب التوازنات الطبيعية . . . ونتيجة لكل ذلك فان كلمة « الأمن القومي » التي ترتبط عادة في الاذهان بصراعات القوى ، وبالتوازنات الاستراتيجية ، وبالاحداث العسكرية ، والقواعد ، والغزو الاجنبي ، وبركض الاساطيل قد اتسعت دائرتها في الضمير الانساني . الرعب الكياني قد تجاوز بها تلك الحدود الضيقة ، ليدخل على « الأمن » معنى الموقف المصيرى الشامل . لقد جعله يتضمن ضرورة المحافظة على نظام مستقر للحضارة الانسانية . . .

صحيح كل هذا . . ولست انقص من وزنه الانساني مثقال ذرة . . الا ان القلق « الأمني » كان : ـ ولا يزال ـ ينصب دوما على المادة . على جانب الجسد من الانسان ، مع ان الحكمة الانجيلية القديمة ما تزال تحتفظ بقيمتها ومصداقيتها : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

ومن جهة أخرى فان « خبراءنا » الفنيين ، في ركضهم وراء الشعارات العالمية والاطروحات الفضفاضة وقضايا التلوث والبيئة والطاقة . . . يذكرون ـ كما يبدو ـ كل شيء الا انفسهم . تأخذهم دوامة التيارات غمرة بعد غمرة ، فيتبنون آلام الآخرين والمشاكل والهموم الكبرى لاهل الدنيا وينسون هموم الذات والاهل ، وتتصدع البيت بيتهم وبيت عشيرتهم الاقربين . « جعلوني ناطورة الكروم فأما كرمي فلم انطره » كذلك جاء في نشيد الانشاد . والسؤال الذى يرد هنا قد جاء في محكم التنزيل : « اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم » .

ان القضية لا تتعلق بالعدوان على الارض والمادة والجسد ، ولا بالآلام والاخطار البشرية العامة ، ولكنها تتصل بصميم الذات الانسانية بعامة ، والعربية بوجه خاص .

العرب في هذا العصر هم اكثر امم الارض أرزاء وتعرضا للعدوان .

يجب ان نعرف ـ وان نعترف ـ أن شيئا خاصا يتحطم في اعماقنا في نسيجنا الفكرى التكويني وأننا نسلب بالتدريج وعلى الصمت الهيكل البنائي الثقافي الذى تقوم عليه الذات العربية الاسلامية ، نحن نسحق حتى العظم ، بين فكي آلة تسطح ، لا تدجن الوجود الثقافي العربي فقط ، ولكن تمسح بالتدريج وفي تصميم ودأب عدوانيين ، معالمه وينابيعه ، تحرق البنية المبدعة فيه .

هل يكفى هذا التحرك ؟

بل ثمة جهود ثقافية عريضة تطرح نفسها في السوق ، الوطن العربي تنمو كل سنة جموع الطلاب فيه ، وأرقام المدارس ، وتزداد الجامعات عددا وخريجين . وثمة المعارض الفنية ، وجوقات الموسيقا ، وفرق الفولكلور ، وفنانو المسارح والسينما ، وثمة المؤسسات العلمية ، ومن يعمل على احياء التراث ، ومن يدرس ويبحث ، وثمة قوافل من الشعراء والكتاب والمترجمين ، ودور للنشر بالعشرات ، وكتب تغص بها المطابع والمكتبات ، ودوريات وصحف ، وحماية للاثار ، ونشاطات جماعية ، ومهرجانات ومؤتمرات سنوية تنعقد ، وتنفض ، واذاعات تصدح اثناء الليل واطراف النهار ، وأقنية تلفزيونية تتوزع اوقات الناس والأمسيات و . . . « كل شيء على ما يرام يا سيدتي المركيزة . . . » ـ كما تقول الاغنية الفرنسية الذائعة ـ ولكن السؤال الذى يطرح نفسه بالمقابل هو : هل هذه الحركة الثقافية كلها هي بحجم الـ/ ١٦٠ مليون انسان يملئون هذا الوطن ؟ بحجم حاجاتهم ان لم تكن بحجم طموحاتهم ؟ ان الامية تزيد

على ٨٠٪ بين هذه الملايين ولا يطبع من أي كتاب عربي او مجلة فكرية جادة اكثر من خمسة الاف نسخة في الحد الأقصى (بمعدل كتاب او مجلة لكل ٣٢ الف شخص) وقد نشر من كتب التراث خلال ٢٢ سنة (بين سنتي ١٩٥٤ و١٩٧٥ ـ ١١٩٦ كتابا بمعدل ٥٤ كتابا تقريبا في السنة ، مع ان عناوين كتب التراث المخطوط تزيد على ربع مليون » وليست النشاطات الثقافية الاخرى بأحسن حظا، ام نصر على العيش في وهم الجعجعة ولا طحن ؟

وما أذكر هذا الضعف في الكيان الثقافي العربي لأحلل أسبابه وعوامله .

ليس ذلك الآن من همي ، وانما اردت فقط الاشارة اليه ، لأنه هو الثغرة . التكوين الضعيف هو الذي تتكالب عليه الأدواء وتدمره الادواء . واذا كان الاستعمار هو اولا قابلية الاستعمار ، فان الضياع الثقافي هو اولا وقبل كل شيء قابلية الضياع . واذا كانت الحروب تبدأ في الافكار فكذلك الهزائم هناك تبدأ ، ومن هنا قلق السؤال : هل يكفي مثل هذا التحرك الثقافي ، وبهذه الوتيرة ، للصمود ، وغرس الاقدام في الارض ، في عصر يكتسح كالطوفان كل شيء ؟

نحن احدى الجبهات الاساسية التي تعاني من الصراع الدائم مع الغرب في هذا العالم النامي . تاريخنا كله صراع معه ، لعله قدرنا الجغرافي الذي وضعنا على باب الشرق ، هو الذي يحكم هذا التاريخ منذ العصر الاسلامي الاول ـ اذا نسينا العصور القديمة ـ والحقدالغربي يلاحقنا بالعدوان . ولم تكن الحروب الصليبية ولا العصر الاستعماري ، من بعد ، سوى صور ومراحل لتطورات هذا الحقد ، في شتاء سنة ١٩٦٢ ، وفي القاهرة ، قال شو ان لاي يشكو الصلف الغربي : « رغم كل عصور الحضارة التي يحملها تاريخنا ورغم كل ما اسديناه للجنس البشري ، لم ينلنا من الغرب سوى الاذلال » الم يكن ذلك الصيني الكبير ينطق باسم العرب ايضا وباسم الهند ؟ هذا الغرب حين كان بعضه متحضرا في عهد اليونان ثم الرومان هاجمنا . وحين كان متخلفا في العصور الوسطى هاجمنا أيضا باسم الصليب ، وحين استعاد قوته في العصر الحديث استعمرنا ... وها نحن اولاء في غمرة الاستعمار الثاني : التبعية الارغامية وتنمية التخلف .

الغرب ينهب العالم

والمشكلة اليوم ، في عدوانية الغرب مختلفة ، انها الاجتياح المادي والثقافي في وقت معا .

الثقل السياسي الذي يجعل الغرب (في شرقه وغربه) قوة العالم الكبرى والوحيدة ، والثقل التكنولوجي الذي يعطيه كل وسائل الأبالسة للسيطرة ، والتحكم والثقل الاقتصادي الذي يجعله اكثر فاكثر سيطرة على الرغيف العالمي ، كل ذلك يصب في ثقله الثقافي ، ويجعل هذا الثقل « غول » الثقافات الاخرى .

انهم « يغربنون » العالم ، يركعونه ونحن معه ، يحولونه عبيدا وخدما بالف وسيلة : بالتفريغ السياسي ، بتسويق الاستهلاك ، باثارة التمزقات الدينية ، باستغلال الجروح التاريخية . بفرض المخاوف الاجتماعية والمشاكل المستعارة والمصطنعة . بتشويه القيم ، بتدمير الروح ، ونشر الضياع .

« الغاية تبرر الوسيلة » كذلك قال ممثلهم السياسي الاكبر : ميكافيلي .

ان الغرب (غربا وشرقا) الذي تمكنه قواه العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية من ان يسيطر على ٩٨٪ من اعمال التنمية ، و٩١٪ من حركة التصدير ، وان يمتلك ٨٥٪ من التسلح ، ويستهلك ٨٧٪ من الطاقة في الدنيا و٩٤٪ من المنيوم العالم ، و٩٤٪ من النحاس ، ويأكل ٧٨٪ من الحبوب ، هذا الغرب يمارس ـ بذلك كله ، ومن خلال ذلك كله ـ السيطرة نفسها على صياغة الفكر والثقافة لدى الشعوب الاخرى . الغرب ، على طريقة الاقوياء في كل عصر ، لا ينظر الى العالم إلا من خلال ذاته ومصالحه وحاجاته وقيمه ، والرفاه المطمئن الذي يريد الحفاظ عليه .

« الانا » تملأ كل ساحة الرؤية لدى الغربي . وهو يفرض « أناه » على الآخرين من خلال هذه التبعية القائمة في لعبة الاقوى والاضعف ، وتحكم المنتج بالمستهلك . التخلف ليس الفقر ولكنه هذه « الذيلية » المفروضة فرضا على البشر ، والتي تغتصب خيراتهم ليكونوا في موقع الحاجة الدائمة وتقتل خصوصيتهم الحضارية لتعيد صياغتها ضمن القوالب الغربية .

انهم الان لا يسلبون الثروات المادية كما في الايام الاستعمارية البائدة ، ولكنهم يدمرون القوى الفكرية والثقافية والروحية التي يمكن ان تقول ذات يوم : لا ! للغاصبين .

العلاقة الشديدة التشابك والمتزايدة التعقيد بين البنى الاقتصادية والثقافية والسياسية في هذا العصر ، تجعل الاجتياح الثقافي جزءا اساسيا من عجلة السيطرة العالمية ،

مع البضائع نفسها تدخل الافكار التى تمهد لها .

ومع أفلام « بابای » و« ميكي ماوس » و« الكاوبوى » يصوغون للناس قيما اخرى : ومع لعبة العملة والارصدة والهوس الديني يصوغون الانقلابات والانقلابات المضادة . . . .

انهم بهذا يخلعون انياب التنين . ان ترويضه ، نزع عناصر مقاومته ، تدمير حصونه الثقافية هي الشروط الاساسية لاستغلاله باقل جهد ، واسرع وقت ، واقل كلفة .

التكنولوجيا المتطورة اعطت الغرب خاتم المارد « للتحكم في المسكونة والساكنين ، ولتجاوز ذلك الى فضاء الله ايضا . ومادامت كل الدروب تؤدى الى روما السيطرة ، فلماذا لا يستغل الغرب كل السبل الى اعشاشنا الهشة ؟ ولماذا لا يأتي الغزو من كل الدروب ؟ . . .

لقد اتى ومنذ زمن ، ومن كل الدروب ايضا . . .

ها هنا ، لابد لي - على ما يبدو - من جملة معترضة قد تطول لتدفع سوء الفهم ولعلها تزيد ايضا في ايضاح معنى « الامن الثقافي » الذى اريد . فلست ارفض ابدا ثقافة الغرب ، ولست ارضي ان تفهم هذا اطلاقا من كلامي . وليس لاحد ان يرفض هذه الثقافة بعد ان توغلت في لحمه والعظم والاعصاب فليس من فكاك . لقد دخلت في تكويننا الفكرى ، شئنا ام ابينا ، وفي تكوين غيرنا من الشعوب ، وكل من دب على هذه الارض ينعم اليوم بآلائها ، او هو في حاجة الى تلك الآلاء . عطاء الحضارة الغربية لم يعد الآن غربيا . صار إرثا للانسانية كلها . مثله تماما كمثل ما قدم العرب المسلمون للعالم وللغرب نفسه من دين وفكر وعلم وعطاء صار ملكا للبشر جميعا . . . على اننا يجب ان نفرق بين الثقافة الغربية وبين استغلال هذه الثقافة للاستعباد . بين حصان طروادة ، التحفة الفنية ، وبين الحراب التى تستغله لعبور الحصون . هذا التمييز يجب ان يكون في بؤرة الرؤية وفي مركزها . لست ارفض اذن ثقافة الغرب ابدا ، لانها على الاقل هي العصر ، ولكني ارفض ، وسأظل ارفض امرين :

الاول : ان تحل محل ثقافتي واهلي . وهل الغى الغرب فكره ودينه ومواقعه حين اخذ عن العرب ما أخذ ؟

الثاني : استخدامها العدواني ضد ثقافتي واهلي وجعلها أحد اسلحة الافناء .

ليس اكثر سذاجة من ان تطلب رفض الغرب جملة . وليس اقل منه سذاجة ان نقبله بالجملة . وان نتخذ الموقف الانتقالي ايضا .

المشكلة هنا اعقد بكثير مما نتصور . واولئك الذين يطالبون بهذا الانتقاء ويأتون عليه بمثل ما فعل الاوائل - لا يبسطون الامور فقط ويسطحونها ويجعلونها ذات بعدين ولكن ينسون الامر الاساسي وهو ان الحضارة العربية الاسلامية كانت حين اخذت عن الحضارات الاخرى في موقع الاقوى . اخذت وهي في اوج فاعليتها ونشاطها بينما كان « الاوائل » وحضاراتهم في مرحلة الشيخوخة والهزيمة . ولقد تغلت الحضارة العربية حتى بالسموم وتجاوزتها . والامر في هذا العصر مختلف جدا . . . إننا في الوقت الذى نقول فيه : يجب ان تكون ثقافة الغرب كالتراث تماما وكالثقافات الاخرى الصينية والهندية واليابانية والافريقية وكل ذات عطاء . نسغا وغذاء في ثقافة العربي ، ويجب ان نأخذ عن الطرفين المنهج والطريقة وآلة الفكر والآلاء المتاحة لبناء ثقافي جديد . في هذا الوقت بالذات ننفخ في الصور ضد التسلط الثقافي الذى يستخدمه الغرب لالغاء الانسان الاخر . « الامن الثقافي » الذى نقصد لا يعني الرفض ولكن اتخاذ الشروط الموضوعية لدفع الاطماع المبيدة . الحماية التي تهمنا ليست الحماية السلبية القائمة على المنع والرفض ولكن الايجابية التي توفر شروط التكون والنمو لبناء ثقافي عربي مميز واصيل . وتنتهي هنا الجملة الاعتراضية لنقول ان هذه الشروط مهددة بشكل متزايد وفي الصميم

وثورة المعلومات .

ان ثورة الاتصالات قد امدت القوى الاقتصادية العسكرية في الغرب بقدرات رهيبة تعرف ان البشرية لم تعرفها من قبل ابدا . وهذه القدرات ليست معطلة الوظائف ابدا ، ولا تعمل في فراغ . . . من الخبل ان نتصور ان الذين يستخدمون الحروب والاساطيل والتهديد والجامعات والمخابرات بل يستخدمون بعضا المعونات الغذائية للجياع ي اغراضهم - يستنكفون عن استغلال ما تضمه الميكرو الكترونية الجديدة بين ايديهم من قدرات الشياطين . ان عمليات الاحتراق للبنى الثقافية تتم في صمت ودأب كاملين . واذا كنا نرى على السطح مؤامرات السياسة ، و آثار « لعبة الامم » ، وزحام القواعد والاحلاف ، وبصمات المخابرات الغربية هنا وهناك ، والكلام عن « هلال الازمات » (حسب ما صورتنا بريجنسكي) ودفع المنطقة العربية والاسلامية بالتمزيق الطائفي الى الانتحار الذاتي ، فيجب الا يعمينا

ذلك عما يجري بالتوازي معه في الأبعاد الثقافية ، وفي مستويات الفكر ، والمثل ، والدين ، من المؤامرات والتدمير .

ثمة ٢٥٠٠ قمر صناعي تطوق الارض ، وتوزع التوجيه والاعلام ضمن المخططات الكومبيوترية المرسومة للآخر « المتخلف » . انه حصار جوي مضروب حول هذه الكرة الطينية ، لجعلها قفص الترويض للشعوب الرافضة .

وفي العالم اكثر من ١٣٠ وكالة انباء ، لكنها الاقزام امام العمالقة الخمس : « رويتر الانكليزية » و« الوكالة الفرنسية » . و« يونايتدبرس » واسوشيايتد برس » الامريكيتين بالاضافة الى وكالة تاس السوفياتية .

ان الاربعة الاولى وحدها تقدم ٩٠٪ من الاخبار والتعليقات العالمية التي تملأ جماجم الناس وارشيف المعلومات لدى شعوب الارض . وهي التي تدخل العالم في الحرب الباردة ، وتخرجه منها ، وتلعب بالسياسة والثورات لعبها بالاسعار .. والدماء .

وهذا التلفزيون الذي نجلس امامه الساعات الطوال ويجلس اطفالنا في انفعال وتلق سلبي مطلق ، هل تذهب صوره واتجاهاته وسلوكياته في الفضاء ؟ ...

« الكاوبوي » ، و« الهندي الاحمر » ، « والشرطي البهلوان » ، « والطبيب العبقري » الذي يكشف كل الجرائم » ، « والامريكي الفرد » الذي ينتصر على كتيبة من الالمان او اليابانيين الاغبياء ... اليس هؤلاء هم سمارنا منذ حل التلفزيون في صدور البيوت ؟ من اين ينبع لنا هؤلاء كل مساء ؟

في السبعينات كلها كانت امريكا تصدر الى العالم ما معدله / ١٥٠ الف ساعة تلفزيونية كل سنة . وكان ٧٥٪ منها يذهب لتخدير هذا العالم الثالث ... المتخلف .

بريطانيا تأتي بعدها بتصدير ما معدله ٢٥ الى ـ ٣٠ الف ساعة سنويا .

وتصدر فرنسا ما بين ١٥ الى ٢٠ الف ساعة في السنة ...

بالمقابل فان تلفزيونات الوطن العربي تملأ ما بين ٤٥ الى ٦٥٪ من ساعات البث بهذه الافلام .. وتملأ الباقي بالغناء الذي تسميه حوارا ومسرحية واغنية ونواحة و .. مباريات كروية . وتصل بعض برامج الدول مثل غواتيمالا الى ٨٤٪ ، وسنغافورة الى ٧٨٪ وزامبيا ونيجيريا الى ٦٥٪ . وماذا تفعل هذه الافلام التلفزيونية سوى فرض وتوطيد القيم الغربية ، ونماذج الاستهلاك والسلوك والبطولات الكاذبة لرجل الغرب ؟

وما الهدف من اهدائها ومن بيعها بابخس الاثمان لاهل العالم الثالث ؟

هل هو مجرد الرغبة في تسلية تلك البطون الجائعة في العلم المتخلف والترفية عنها ؟ ...

ونتذكر بجانب الاقمار وكالات الانباء وسيال التلفزيون ، تلك المنظومة التي تكملها من وسائل الغرب في التثقيف الموجه : من الوسائل المدرسة الى العاب الاطفال والى افلام السينما ، ومن مطبوعات « الموضة » والجنس ، الى الموسيقا الهستيرية وصرعات الهيبي والثقافة المصنوعة للتهريج والجماهير ، ونتذكر الى هذا كله تلك الدورة السريعة التواتر التي تدورها كل هذه المؤثرات والوسائل معا ، ومن كل فج حول رؤوسنا والصدور ، ونسأل في النهاية : اليسوا يأخذون منا حتى اولادنا من الاحضان انهم يختطفوننا ويختطفونهم في عمليات ثلاث منظمة ومتكاملة : « الغربة ، الثقافية » و« التمزيق الداخلي للهوية الحضارة القومية » ، « وتضليل الاتجاهات الثقافية » بالاهداف الزائفة او التي توطد التخلف وتنميه .

في ايام الاستعمار الأولى كانوا يتخطفون العبيد افرادا ويسوقونهم الى ما وراء البحر ، وهذا عصر العبودية الجماعية المقنعة . انهم يحرمون الرقيق ، ويعلنون حقوق الانسان ، ولكنهم يمسخون الشعوب جماعيا ، عبيدا دون هوية . ولا يضعون الاسيار والقيود في الاعناق ، ولكن في الروح .

اما الوسيلة الأخيرة من وسائل الافقار الثقافي وفرض التبعية فهي تهجير الادمغة من اوكارها المحلية . كالطيور المهاجرة تتحرك اسرابها الى الغرب . الخبرات البشرية التي تتكون رغم كل عواصف القحط في العالم النامي ، يتكفل بها نزف الادمغة : انهم يسرقونها . يتصيدونها . ينصبون لها العشرات من حبائل الاغراء .

في السبعينات كان معدل هجرة الادمغة من العالم الثالث « النامي » الى امريكا وحدها ما بين ١٠ الى ١٥ ألفا سنويا .

في سنة ١٩٧٠ مثلا امتصت امريكا ١١٢٥٠ متخصصا ، كان بينهم ٦٤٠٠ مهندس و٢٢١١ طبيبا . .

وليست الادمغة التي ابتلعتها انكلترا وفرنسا والمانيا باقل من هذه الارقام ، ولا التي يبتلعها بدوره المعسكر الشرقي بمختلف دوله . . .

والعملية مع ذلك ليست من باب التدمير الثقافي فحسب ، ولكنها من التدمير الاقتصادي ايضا . ان ذلك الرقم الذي اختطفته امريكا من المتخصصين سنة ١٩٧٠ مثلا كان يمثل معونة قدرها ٣٫٦ مليار دولار قدمها العالم النامي الى امريكا . وفي تلك السنة نفسها كان مجموع المعونات التي خصصتها امريكا لدول العالم الثالث كلها لا تزيد على ٣ مليارات فقط ، وكان اكثر من ثلثها لاسرائيل وحدها .

معالم الكارثة

ان الذي يعطي مثل هذه المؤشرات شكل الكوارث الثقافية هو اربعة امور :

الاول : ان « غربنة » العالم النامي (ومنه العربي) تتم من خلال خطط علمية تجند لها دوائر البحث والاموال والاجهزة ، وهي تعرف بالضبط ميادين عملها والاهداف التي تسعى اليها ، بينما يعيش هذا العالم مشلول الوعي ، ومعظم قياداته قد باعت نفسها للشيطان . العطاء الحضاري لكل الشعوب اليوم يزداد تبعية للغرب . يرى نفسه محكوما برغمه ، ان يمر بالاقنية الغربية ، وان يصب في صحن الغرب ليعود فيزيد من قدراته الاكتساحية .

الثاني : ان الزمن لا ينتظر . الوحدة الزمنية التي يعالج بها العالم النامي مشاكله ، وبناءه الثقافية باليوم والشهر والسنة ، مسخت في الغرب الى دقائق وثوان ، والسباق بين الوحدتين خاسر . الزمن ضدنا . وتيرته السلحفائية لدينا لم تعد من عالم التحرك الصاروخي الغربي . فالفرص تضيق وتضيق ، ودلائل التصدع تتجمع شروخا وتذرا . . .

السياسة لدينا هي - كما قال بول فالري ذات مرة - فن منع الناس من ان يتدخلوا فيما يعنيهم . وابرع الحكام انجحهم في سياسة النوافذ المغلقة . . . ومع خانقة الاعين ويوما بعد يوم تتسع لدينا دائرة المحرمات وتتسع معها دوائر الخوف . . ودوائر النفاق . . فعمل الالسنة الوحيد لوك الاكل والدعاء للسلطان بالنصر .

الثالث : ان المستقبل ليس كالماضي ابدا ، لا في قواه ولا في ايقاعه الزمني ، ولا في معطياته .

الغد ليس مختلفا جدا فقط ، ولكنه اقرب ايضا مما نتصور . واذا كان معروفا ان شعوب العالم النامي تزداد كل يوم ضعفا بينما يزداد العالم المتقدم جبروتا وسلطانا ، فان الكثرة العديدة لهذه الشعوب لم تعد شيئا مذكورا في حسابات القوى ان لم تستند الى تكوينات ثقافية صلدة ، فاعلة الحيوية ، كالتكوينات الفيتنامية مثلا ، تقنيات العصر وما وراء التقنية في الغد قد الفت دورها . والاصالة ليست سدا ضد الطوفان . ولابد من النضال المرير للحفاظ عليها ، حتى المبادىء الكبرى والاديان لا تحافظ على نفسها الامن خلال بطولة اصحابها والحاملين لها . . . .

الرابع : وهو المشكلة الكبرى بعد هذا كله اننا نحن نسهم في انتحارنا الحضاري الصامت ، نعمل على الانفراغ الثقافي بايدينا والاظافر . نلح في تدجين المبدعين منا والجموع على السواء ، ليصبحوا الفريسة السهلة للاجتياح . .

وتضيق بالمقابل حرية الانسان العربي حتى الاختناق . « كل ما يتنفسه الوطن العربي من الحرية لا يكاد يكفي لانسان حر واحد » .

وليست حرية الفكر التي تهمني لذاتها ، ولكن تهمني عقابيلها ، والدمار الثقافي الذي تخلفه؟انها تنفي معنى الانسان في الانسان . ان قتل الفكر جريمة اشد من قتل الجسد . انه يرد الانسان مجرد كائن حيواني دون هوية . ويجعل قياده نهبا لكل تسلط . من الذي يقول ان بناء الامم ليس ورقة رسمية كتبت عليها كلمة الاستقلال ، ولكنها بناء حضاري متكامل ، وان صنع الغد بناء من القش ، ان لم يقم على قاعدة ثقافية صلبة ، وان الشعوب تنهار ان لم يكن الهيكل الحديدي في داخلها لامن حولها ؟

بل يفكرون في البناء الثقافي للمواطن . كل همهم منذ سنوات وسنوات ان تعيد بناء المواطن . . . ولكن ضمن القوالب الصينية الحديدية التي يبتكرون . ولكل قالبه الذي يريد كل الجموع ان « تتقولب » فيه . كعلب « الكونسروة » الخارجة من معمل واحد يريدونها ان تكون نسخا مكررة من الاهواء والارادات الفوقية .□□

د . شاكر مصطفى .

أقوال معاصرة







■ لقد كنت الرجل الثاني . ولذا كنت أرى أكثر مما يرى الرجل الاول

الرئيس المصري حسني مبارك .

■ بسبب تردد العرب وانقسامهم ، فان قراراتهم لم تعد تخيف احدا

الزعيم اللبناني العميد ريمون اده

■ تخفيض الضرائب لمصلحة الاغنياء يحتاج الى حيلة مثل « حصان طروادة » ، ليصبح الأمر مقبولا من الفقراء الذين سيدفعون الثمن .

دافيد ستوكمان / مدير الميزانية الامريكية .

■ أجهزة الاعلام تعاني معاناة شديدة من الواقع المؤلم للامة العربية

الدكتور محمد عبده يماني

وزير الاعلام السعودي

■ كان بودي ان ينجح احد المعارضين في الانتخابات ، من اجل مصداقية التجربة الديمقراطية بتونس .

محمد مزالي

الوزير الاول بالحكومة التونسية .

■ لم ألبس تاجا في حياتي لأنه يشوه تسريحة شعري !

نانسي ريجان قرينة الرئيس الامريكي .

■ في لعبة الشطرنج ، اللاعب هو أخطر خصوم نفسه .

فاسيلي سميسلوف اشهر لاعب شطرنج سوفييتي

■ عليكم بالطبيعة ، فهي أرقى الفنون .

الرسام اللبناني بول جيرا جوسيان .

■ ان المرء لايستطيع ان يصفق لاتفاقيات كامب ديفيد

المبعوث الامريكي فيليب حبيب

■ حركة عدم الانحياز ضعفت ولم تمت .

انديرا غاندي رئيسة وزراء الهند

■ موقف سوريا من الحرب والسلم محكوم بالتضامن العربي

عبد الحليم خدام نائب رئيس الوزراء ووزير خارجية سوريا .





صورة بالأشعة ليد شوهها وأقعدها التهاب المفاصل شبه الروماتيزمى ، ثم أقامتها وحركتها المفاصل الصناعية .

الرجل الآلى

أســــطورة تتحقـــق

بقلم : الدكتور حسان حتحوت

ومن منا لم ينبهر بهذا البطل الذى طالعنا به التلفزيون فى مسلسلاته منذ سنوات قليلة . . . سـواء تحت عنوان « الرجـل الآلى » أو « الرجـل الالكترونى » أو « الرجل البيونى » أو « الرجل ذى الستة ملايين دولار » تكلفها أعداده . . حتى كان منه ذلك الانسان المسمى « السيبورج Cyborg » بعضه أصيل فى خلقته وبعضه دخيل عليه من صنع العلم والتقنية التى راحت ترتق أو ترقع أو تستبدل بالتوالف قطع غيار صناعية . . ليكون من هذا المزيج شخص واحد ، يذكرنا بمقولة شوقى عن الطائرة أول اختراعها .

« نصفه طيرٌ ونصفه بشرٌ
يا له إحدى أعاجيب القضاء »

فما هى الا سنوات قلائل حتى أصبح الخيال واقعا ، واذا بعلم « الالكتروحيويات » يجعل من أحلام الأمس حقائق اليوم ، ويغذ الخطا بأحلام اليوم لتكون حقائق غد . ونورد بعضا من كل ، منه ما استقر فما هو عند القارىء بعجيب ، ومنه الجديد الذى لم يدخل نظام التصنيع الا حديثا .

مفاصل صناعية

عشر البشر يصابون بداء المفاصل . . وعشر هؤلاء لن تجدي العلاجات والأدوية في تخليصهم من الداء المقعد والألم الممض . ولعل فكرة إزالة المفصل المريض وتركيب مفصل بديل هي أقدم الأفكار في هذا الباب ، ولكنها كانت أبطأها نضجا ورسوخا .

كانت البديلة اما ضعيفة تنوء وتتفتت ، واما غريبة على أنسجة الجسم تلفظها وتتراخى عنها . ولكن بالصبر والدأب استطاع الأطباء أن يصلوا الى السبيكة المناسبة من المعدن ، واللدينة المناسبة من البلاستيك ، والغراء الحيوي المناسب ليلصق كلا في مكانه من الجسم لصقة وثقى لا انفصام لها . ودخلت أجسام المرضى من كافة الأعمار ، ركب جديدة ، وأوراك جديدة ، وأكتاف جديدة . . ولاحق الصانع الطبي الأصابع المعوجة المشوهة العاجزة فاقامها وعدلها وحركها من جديد .

ان سيدة واحدة بدلوا في جسمها ثمانية عشر مفصلا ، فلعلها صاحبة الرقم القياسي حتى الآن . بل قرأت عن شاب ارتقى من ملازمة الفراش الى عضوية فريق أحرز البطولة في كرة اليد بفضل مفصله الفخذي الجديد .

انها بركة من بركات العلم يسبغها على ما يقرب من مائتي الف من البشر في كل عام . فلا بد أن ثوابها عند الله كبير .

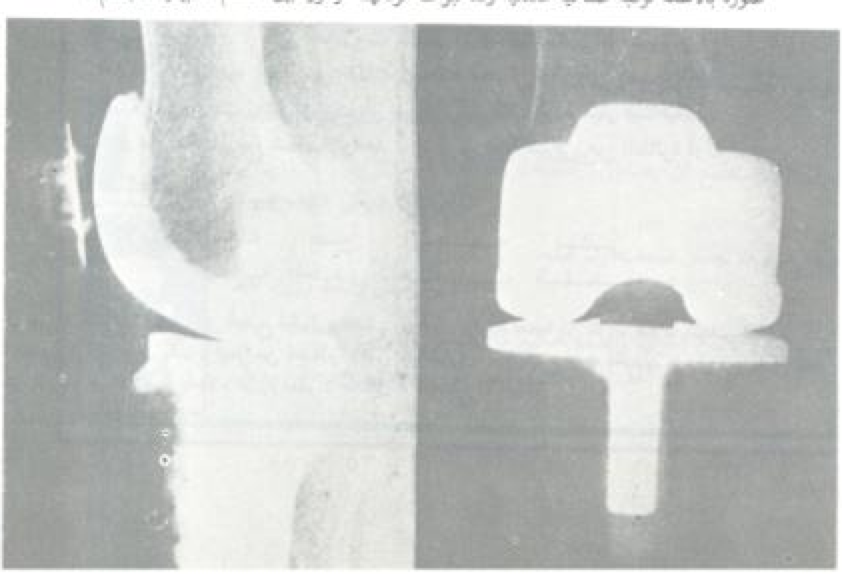
اليد الالكترونية

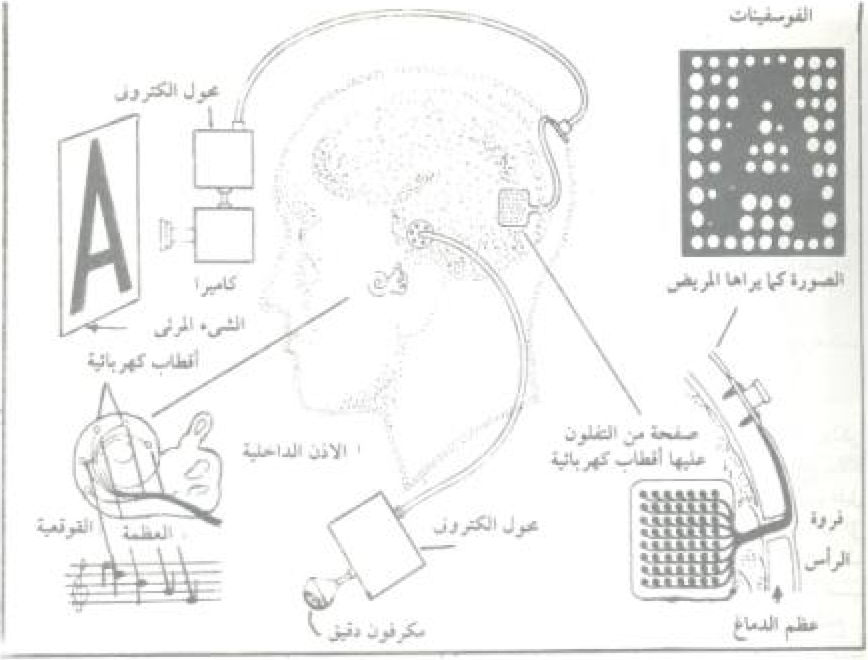
من حكمة العرب تحيتهم للمتقن منهم بقولهم « سلمت يدك » . . . ويعلم المثقف العادي أن حضارة الانسان ما كانت لتقوم لو لم يكرمه الله بهذه اليد الفريدة في تركيبها ، والتي لم تتهيأ لمخلوق اخر . حرية الحركة للأصابع ، وقدرة كل منها على أن يلتقي بالابهام ، والعضلات الدقيقة التي تتحكم في أدق الحركات ، والحساسية المفرطة لاعلى أطراف الاصابع فقط بل حساسية التحريك الدقيق والتحكم فيه . . . لولا ذلك لما أنجز الانسان الكتابة فكانت سجل فكره وسلم معرفته ، ولا عالج الآلات اختراعا وفكا وتركيبا وتعديلا واستعمالا ، ولا عرف النقش ولا الرسم ولا الجراحة ولا الحياكة ، ولا استطاع أن يصل بين حيز الفكرة وحيز تنفيذها .

من هنا كان فقد اليد مصابا جللا . . وهو للأسف آخذ في الازدياد مع نمو الصناعة بما فيها من إصابات عمل ، فضلا عن الحوادث العادية المدنية أو الحربية في عالم يزداد تعقيدا .

ولقد طالعتنا الدوريات العلمية والصحف السيارة بمحاولات ناجحة لاعادة يد بترت عن ذراعها بالجراحة الدقيقة الناجزة . . ولكن الكسب في أكثر الحالات كان مظهريا أكثر مما كان وظيفيا عمليا ، وبقيت اليد فاقدة العمل . ناهيك بأن هذه المعالجة لم يكن لها مجال ان كانت اليد المبتورة قد تهشمت أو احترقت كالحال في أغلب

صورة بالأشعة لركبة صناعية معدنية وقد تبوأت موقعها مركوزة بين العظام الطبيعية للجسم .





بصر للأعمى وسمع للأصم .. اشارات الكاميرا تحمل للمخ البصرى واشارات الميكروفون تحمل الى المخ السمعى .

الحوادث .. وحتى عقد مضى من الزمان ، كان قصارى الطب ان يركب للمريض على الطرف الأبتر لذراعه خطافا آليا مشدودا الى الكتف بكثير من الوصائل والأسلاك ، فان حرك كتفه الى على أو أسفل انفتح الخطاف ليطبق على شيء يريد الشخص أن يمسكه أو يرفعه ، ولم يكن ذلك عوضا يذكر عن اليد المفقودة ، فضلا عماكانت الكتف تعانيه من ارهاق .

ثم صنعت اليد الالكترونية فى بواكير السبعينات .. يلبسها المريض على ذراعه الأبتر ، فاذا منظرها ولونها كأنها يده ، ولكن بداخلها اعجوبة الكترونية تعمل ببطارية صغيرة،وهنا مربط الفرس كما يقولون . أن المريض الأبتر يستطيع أن يفكر فيما يريد ، أن يعمل ، وتنتقل ارادته فى مسالكها العصبية لتعطى أوامرها للعضلات فتستطيع وتتحرك ... الا ان مريضنا لن يحرك يده ، لأنها غير موجودة ، وكل ما سيتحرك هو عضلات طرف الساعد ثم يقف الأمر عند هذا الحد . فعلى طرف الساعد اذن تثبت الواح حساسة داخل اليد البديلة ، تلتقط الاشارات الواردة وتترجم اختلاجات عضلات طرف الساعد الى تيارات كهربائية تسرى فى مجموعة أسلاك ، لتحرك أجهزة ميكانيكية مركبة داخل اليد معصمها وأصابعها ، حركات تقررها تلك الاشارات العصبية المنبعثة ، من فكر المريض الى أطراف عضلاته الطبيعية ، فان فكر الشخص فى اغلاق يده التقطت الاشارة من طرف ذراعه فأحدث الأثر المطلوب فى اليد الالكترونية .. عملية عادية اذا ذكرنا أن كل من قاد سيارة فان مخه يرسل الاشارات الى يديه وقدميه فحسب ، أما بعد ذلك فأجهزة السيارات تتلقى الاشارة فتعمل ـ وكأنها امتداد لفكر السائق ـ على السرعة أو البطء أو الدوران أو الوقوف .

وبهذه استطاع المريض أن يعود الى مزاولة الأعمال الدقيقة والمعقدة بعض الشيء ، يدخل فى ذلك الكتابة ، وقيادة السيارة والطائرة والماكينة والرسم ، علاوة على حياته العادية من طعام وشراب ولبس وثياب وغير ذلك .

ويفكرون ـ وأوشكوا ـ أن يركبوا على سطح اليد حساسات تستشعر الملمس لنعومة وخشونة أو حرارة وبرودة ، فتوصل هذه بدورها جراحيا بأسلاك دقيقة الى أعصاب معينة ، لتؤدى اليد وظيفتها الحسية ، بجانب وظيفتها الحركية !!

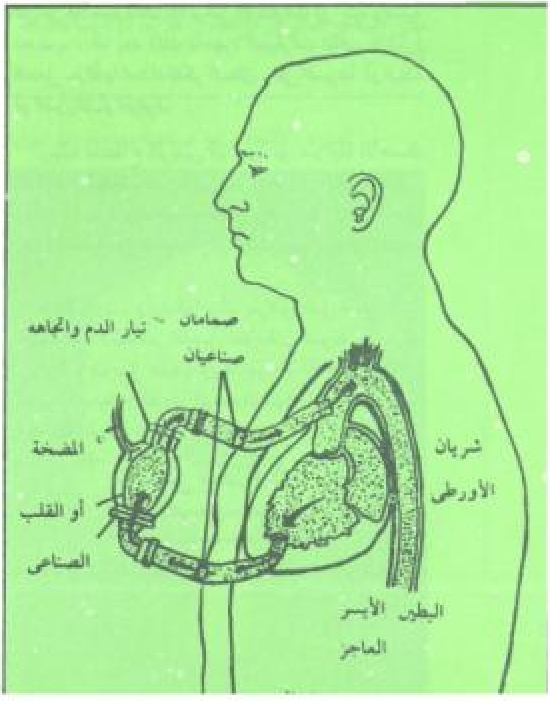
والعمى يبصرون .. والصم يسمعون

اذا ضغط الانسان عينه ضغطة مفاجئة ، أو فلتقل اذا

أصيب عليها بلكمة ، خيل له أنه يرى نقطا بيضاء ناصعة صغيرة سرعان ما تختفى ، وتفسير ذلك أن التنبيه المفاجيء لأطراف الأعصاب على شبكية العين يبعث فى هذه الأعصاب تيارات تبلغ مركز الأبصار من المخ فيترجمها بدوره الى تلك النقط البيضاء التى تسمى « الفوسفينات » . ولو سنحت الفرصة أثر حادثة أو خلال عملية جراحية فانكشف لنا هذا المركز - ويقع فى النهاية الخلفية من المخ يمنة ويسرة داخل الجمجمة - فتبهناه بتيارات كهربية ضعيفة يحملها سلك دقيق ، فان مريضنا يخبرنا أنه يرى تلك النقاط البيضاء . . على هذه العبارات نشأت فكرة العين الالكترونية فى تصور العلماء ، ثم لم يكن من الصعب ادخالها الى حيز التنفيذ . مكوناتها أولا كاميرا تلفزيونية صغيرة ، ترى الصور التى تلتقطها الى محول الكترون صغير ، فيحيلها الى تيارات كهربائية تحملها حزم من الاسلاك الدقيقة التى تنفذ خلال ثقب دقيق فى عظم الجمجمة لتنتهى الى صفيحة من مادة « التفلون » مفرودة على مكان البصر من المخ ومزودة بعدد كبير من الأقطاب الدقيقة موصولة بنهايات الأسلاك التى ذكرناها ، فكأنها شاشة تلفزيون تأتيها الاشارات كهرباء فتحيلها صورا ، ثم راحت الصناعة تتأنق فأودعت الكاميرات عينا صناعية تأخذ مكان العين العاجزة يمنى ويسرى ، وتوصل بعضلات تحريك العين ، لتتحرك كالعين الطبيعية . أما المحول الالكترونى فقد أخفى فيما يشبه اطار نظارة عادية .

وما زالوا يتأنقون فى الوصول الى صورة ملونة ذات تفاصيل أوضح وأدق !!

وعلى نفس القاعدة ابتدعوا الأذن الالكترونية ، ولكن أقطابها الحساسة لا تفرش على مكان السمع من المخ ، لأنه أصعب كشفا ، وأعصى بلوغا ، وانما تبدأ بمكروفون دقيق يفضى الى محول الكترونى تمتد اسلاكه بعملية جراحية الى داخل العظمة القوقعية فى الأذن الداخلية من عظم الجمجمة ، حيث تنتهى الأسلاك بأقطاب وثيقة تصب التيار الكهربائى الى الأطراف الشعرية لأعصاب السمع . واستطاع الأصم أن يسمع الأصوات ويميزها وان كانت نبرات الكلام المسموع تطن فى سمعه على وتيرة واحدة تحجب ما تحمله من عاطفة وتعبير ، ولكن العزم والصبر والاصرار كفيلة - كما كانت على الدوام - بالاتقان والتحسين .



القلب العليل والقلب البديل . . مضخة صناعية تضخ الدم فتقيم الحياة .

والقلوب التى فى الصدور

« الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله »

(حديث شريف) .

ولقد عرف الناس استبدال صمامات صناعية بصمامات القلب التالفة ، وعرفوا استبدال قلب صحيح مات صاحبه حديثا بقلب مريض عجز أن يقوم بمهمته فى ضخ الدم الى انحاء الجسم ، وعرفوا وضع بدائل شريانية مكان الشرايين التاجية للقلب ان انسدت ، وعرفوا تركيب منظم ضربات القلب الذى يعمل ببطارية كهربية أو ذرية صغيرة .

ولكن كل ذلك لم يحل كل المشاكل . . وكم من قلب راح الجراحون يكدون ساعات طوالا فى اصلاحه أو تركيبه ، وفى آخر العملية عندما فصلوا عن المريض المضخة الصناعية رفض القلب الجديد أو المستصلح أن يعمل ، وكم من قلب بديل لفظه الجسم ، وتفاعل ضده ولو بعد حين ، فضلا عن قلة المتاح منه عن المطلوب ، وكم من قلب طغت عليه فداحة الذبحة التجلطية ، فخارت قواه وخانه الصمود .

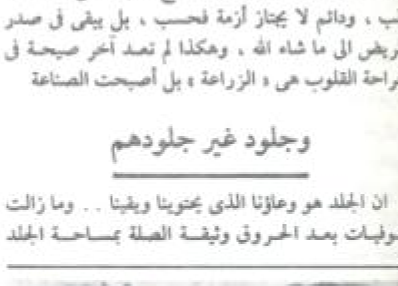


اليد الصناعية الالكترونية تنجز الأعمال الدقيقة استجابة لاشارات المخ .

ولكن ومضة بددت الظلام لهؤلاء المرضى ، حين تمكن العلماء أن يتقنوا صناعة « نصف قلب » جديد هو مضخة من المعدن والبلاستيك ، تأخذ الدم من البطين الأيسر الخامد لتضخه بقوتها الى الشريان الأورطى ، فسائر الدورة الدموية .. وبعد تجارب طويلة على الحيوانات استخدم على نحو من عشرة من مرضى البشر على مدى السنوات الثلاث الأخيرة .. ويأملون أن يتحقق على مدى السنتين أو الثلاث المقبلات تصنيع قلب كامل لا نصف قلب ، ودائم لا يجتاز أزمة فحسب ، بل يبقى في صدر المريض الى ما شاء الله ، وهكذا لم تعد آخر صيحة في جراحة القلوب هي « الزراعة » بل أصبحت الصناعة

وجلود غير جلودهم

ان الجلد هو وعاؤنا الذى يحتوينا ويقينا .. وما زالت الوفيات بعد الحروق وثيقة الصلة بمساحة الجلد



صبى فقد عينه ولا مكان بوجهه لعين صناعية ـ صنع له هذا المنظار قطعة واحدة ، تبدو كعين ومنظار معا .

المحترقة .. فان تأخر به الأجل بعض الوقت دأب أطباء التجميل على كسوته بزرعات من جلد شخص غيره عادة يلفظه جسم المحروق ، أو مما بقى من جلده هو ، وقد لا يكون قد بقى منه ما يكفى ويفى .

فاستنبط الجلد الصناعى .. نسيج من خيوط الكولاجين الصناعية وهو مادة تدخل في تركيب الجلد الطبيعى ... تستزرع عليها ـ على نمط الزراعة بدون تربة ـ مزرعة من الخلايا الليفية التى لا تثير مناعة ، ثم تذر على هذا الهيكل مزرعة من خلايا الجلد من المريض نفسه ، فما هى الا أن تتكاثر خلايا جلد المريض فتكسو الهيكل بطبقة كاملة منها بل طبقات وفي برهة وجيزة يكون المريض مستعدا لاستقبال هذه الكسوة فيكون قد اختصر تسعة أعشار الوقت ، وحصل على جلد لا يتفاعل ضده جسمه ، بل يستتر به ويتدثر .. وبعد برهة تسرح الأوعية الدموية من جسم المريض خلال جلده الجديد فتحفظ عليه حياته .

وما زال في الجعبة الكثير

وانما نقدر أن على صدر « العربى » أن يتسع لغيرنا كما يتسع لنا .. فلا بد أن نطوى الحديث ، وان كان المتحدث ـ على الأقل ـ لم يمل الحديث . كنا نريد أن نصف الدم الصناعى وهو محلول مادة كيميائية تتحد مع الاكسجين من الهواء اذ هو أغنى به منها ، ثم تتخلى عنه لانسجة الجسم ، اذ الأنسجة أفقر اليه .. وبالمثل تأخذ ثانى اكسيد الكربون من أنسجة الجسم ثم تطلقه لدى الرئتين الى الهواء زفيرا اذ الهواء أقل منه نصيبا .. فهو بديل عن نقل الدم اذا شح المتطوعون ، أو ضاق الوقت عن اجراء الفحوص التى لابد منها قبل نقل الدم الطبيعى .

وكنا نريد أن نذكر الكلية الصناعية التى تودع حقيبة كحقيبة الكتب يبقيها المريض في داره لتنوب عن كليتيه العاجزتين في تنقية دمه بمعرفته هو أو بمساعدة صديق أو قريب .

وكنا نريد أن نشيد بانجازات الفن التشكيلى واعجازاته في مجال تجميل ما تشوه من الجسم كالأنف أو العين فلا تكاد تكشفه عين الناظر البصير . وغير ذلك كثير في حوزة الحاضر وأكثر منه في حوزة المستقبل ... وسبحان من علم الانسان ما لم يعلم . و « انما يخشى الله من عباده العلماء » كما في القرآن الكريم ، ... « وخير الناس أنفعهم للناس » كما قال الرسول الكريم . ■■

د . حسان حتحوت

في الثمانينات :

تحدٍّ جديدٌ يخيِّم على علاقة الأوبك بالعالم الثالث

بقلم الدكتور حازم الببلاوي

اذا كان العالم الغربي قد افاق من صدمة النفط في السبعينات ، فان العالم الثالث هو الذي سيواجه التحدي الكبير طوال الثمانينات ، وربما التسعينات ايضا ، لانه غير قادر على تجاوز الازمة ، واعتماده على نفط الاوبك في زيادة مستمرة .

لقد بلغ سعر برميل النفط عند بداية القرن حوالي ١,٢ دولار . وبعد سبعين سنة لم يتجاوز سعر البرميل ١,٨ دولار. بل ان شركات النفط وجدت في نهاية الخمسينات أن الظروف مناسبة لتخفيض سعر النفط . فأصرت في عام ١٩٥٩ على تخفيض سعر البرميل من حوالي ٢ دولار الى ١,٨ دولار . وقد كان هذا التخفيض هو السبب المباشر الذي أدى الى قيام منظمة الأوبك في العام التالي مباشرة (١٩٦٠) . وحتى سنة ١٩٧٠ تراوح سعر البرميل بين ١,٥ ، ١,٨ دولار ثم بدأت بعض الزيادات الطفيفة منذ نهاية ١٩٧٠ حتى بلغ حوالي ٣ دولارات عشية قيام حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

فمنذ ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أول يناير ١٩٧٤ ارتفع سعر النفط من حوالي ٣ دولارات للبرميل الى ١٠,٥ دولار . وخلال الفترة ٧٤ - ١٩٧٨ تمت عدة زيادات يسيرة ومترددة حتى بلغ ١٢,٨ دولارا في ١٩٧٨ . ومع قيام الثورة الايرانية وسقوط الشاه بدأت جولة جديدة من ارتفاعات اسعار النفط ، استمرت طوال ١٩٧٩ وبداية ١٩٨٠ ليصل البرميل الى ٢٩ دولارا . ومع قيام الحرب الايرانية العراقية دخل عنصر جديد من عدم الاستقرار ، وارتفع سعر البرميل الى ٣٢ دولارا في بداية سبتمبر ١٩٨٠ ليصل الى حوالي ٤٠ دولارا في نهاية نفس الشهر .

وعلى عكس الجولة الاولى لارتفاعات أسعار النفط (٧٤ - ٧٨) فقد غلب على الجولة الثانية تعدد أسعار النفط حيث أصرت المملكة العربية السعودية على ٣٢ دولارا للبرميل ، في حين تراوحت أسعار الدول الاخرى بين ٣٥ - ٤٠ دولارا للبرميل . وأخيرا وتحت ظروف السوق تم الاتفاق (جنيف ٢٩ أكتوبر ١٩٨١) على توحيد أسعار النفط بـ ٣٤ دولارا للبرميل ووضع حد أقصى ٣٨ دولارا حسب النوعية والمكان .

وقد انعكست هذه الزيادات على دخول ومدخرات الدول النفطية . فعلى حين لم يتجاوز مجموع دخول دول الاوبك ١٥,٢ بليون دولار في عام ١٩٧٢ ، ارتفع هذا الدخل الى ١١٠ بليون دولار في عام ١٩٧٤ ، وارتفعت مدخرات (الفوائض المالية) دول الاوبك من اقل ٥

بلايين دولار في عام ١٩٧٢ الى أكثر من ٦٥ بليون دولار في ١٩٧٤ . واستمر الارتفاع في الدخول النفطية طوال الجولة الاولى ، رغم التآكل المستمر في مدخراتها ، حيث انخفضت الى أقل من ١٠ بلايين دولار في ١٩٧٨ . وجاءت الجولة الثانية لتعيد الوضع من جديد فارتفعت دخول دول الاوبك الى ٥٦٠ بليون دولار وكذلك قفزت المدخرات الى أكثر من ١١٠ بليون دولار في عام ١٩٨٠ .

نجاح العالم المتقدم

والحقيقة ان متابعة الارقام وسرد الاحجام لن يكون مفيدا مالم يستخلص منه شي مفيد لاتجاهات المستقبل . وسوف نحاول الاشارة إلى بعض الاتجاهات التي يمكن ان تعبر عن اتجاه المستقبل . ومع ذلك ينبغي الاشارة الى صعوبة التنبؤ في هذا الميدان . وسجل الدراسات المستقبلية في هذا المجال لايطمئن على الاطلاق .

ففي عام ١٩٧٢ أخرج الخبير الأمريكي أدلمان ADELMAN (كتابه عن سوق النفط في العالم ، ولم ترد فيه اشارة واحدة الى احتمال ارتفاع الاسعار ، بل أنه كان يرى أن ظروف صناعة النفط تدعو الى العكس ، أي احتمال تخفيض اسعاره ! وبالمثل فعندما قامت هيئات متخصصة وجادة بتقدير احتياجات العالم للنفط والطلب على انتاج دول الاوبك ـ جاءت تقديراتها جميعا غير صحيحة ، يستوي في ذلك منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ، أو البنك الدولي أو وكالة الطاقة الدولية .

وقد قام أحد الباحثين بحصر الدراسات التي أجريت عن تقديرات الطلب على نفط الاوبك في عام ١٩٨٥ ، فوجد أن متوسط التقديرات التي تمت قبل عام ١٩٧٢ كانت تقدر بحوالي ٥١,٦ مليون برميل يوميا ، في حين ان متوسط التقديرات التي تمت في عام ٧٤ ـ ١٩٧٦ كانت تقدر هذا الطلب في حدود ٣٨,٥ مليون برميل يوميا ، والدراسات التي تمت خلال الفترة ٧٧/ ٧٨ قدرت هذا الطلب بحوالي ٤١ مليون برميل يوميا . والدراسات الاخيرة التي تمت في ٧٩/ ١٩٨٠ قدرت هذا الطلب بحوالي ٣٤,٣ مليون برميل يوميا . وهنا فارق بين أزمة نقص ومشكلة فائض أو بين ارتفاع أسعار النفط أو انخفاضه ، وهكذا نرى الى أي حد يشوب كافة التقديرات عنصر كبير من عدم اليقين والاحتمال .

وبالرغم من هذه المحاذير ، لابأس من المغامرة ومحاولة النظر الى المستقبل . لقد أشرنا الى أن فترة الستينات كانت فترة انشاء الاوبك وتأكيد وجودها ، وأن فترة السبعينات كانت فترة نجاحها الكبير ، لماذا تكون عليه فترة الثمانينات والتسعينات ؟ .

ولعل الملاحظة الاولى الجديرة بالنظر هي نجاح العالم المتقدم في اجراءات ترشيد استخدام الطاقة والنفط بوجه خاص . فاستهلاك الطاقة كان ينمو بمعدل سنوي ٤,٥/٠ في الخمسينات و٥,٥/٠ في الستينات ، في حين أن الزيادة السنوية حتى في استهلاك النفط كانت تتم بمعدل أعلى يتراوح بين ٧ ـ ٨٪ سنويا حتى نهاية الستينات . ومنذ بداية ارتفاع اسعار النفط في ٧٣/ ٧٤ بدأت الدول الصناعية في اجراءات ترشيد استخدام الطاقة . ولم يتجاوز حجم الطاقة المستخدمة في عام ١٩٨٠ في الدول الصناعيةمستوى استهلاكها حتى عام ١٩٧٣ ، بالرغم من زيادة في حجم الناتج الكلي زيادة تعادل زيادة٢٠٪ ، أي ان الدول الصناعية قد استطاعت خلال هذه الفترة نفسهاأن تحقق وفرا يمثل ٢٠٪ من معدلات الاستخدام السابقة . وفيما يتعلق باستهلاك النفط فقد انخفض استهلاك الدول الصناعية من النفط بحوالي ٧,٥٪ في عام ١٩٨٠ عن العام السابق ، و ٣٪ في عام ١٩٧٩ ، وفي الوقت نفسه انخفضت واردات الولايات المتحدة الامريكية الى حوالي النصف (من ٨,٥ مليون برميل يوميا الى ٤,٥ مليون برميل يوميا) . كما حققت كل من ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة واليابان وفرنسا تخفيضات هامة في معدلات استهلاكها للنفط .

أما الملاحظة الثانية فهي أن الدول النامية الأخرى لم تنجح في تخفيض استهلاكها من النفط ، بل على العكس نجد معدلات زيادة هذا الاستهلاك مستمرة . فهذه الدول مضطرة لزيادة وارداتها النفطية لمواجهة اعباء الزيادة السكانية ، واحتياجات التنمية ، دون أن يكون في مقدورها الاستفادة من الوسائل التكنولوجية الحديثة ، لتطوير مصادر جديدة للطاقة ، أو ترشيد استخدامها للطاقة .

وتأتي الملاحظة الثالثة في كيفية معاملة الدول الصناعية لوارداتها من النفط من دول الاوبك . فبصفة عامة تنظر الدول الصناعية لوارداتها النفطية من الاوبك باعتباره المصدر الاخير بعد أن تستنفد المصادر الأخرى المحلية والخارجية . فالدول الصناعية تعمد الى اتخاذ اجراءات لترشيد استخدامات الطاقة والتوفير فيها ، كما تعمل على تطوير مصادرها من النفط (بحر الشمال ، الاسكا ، كندا) ومن المصادر البديلة ، ثم الاستيراد من الدول النفطية الاخرى من غير الاوبك وتطوير هذه المصادر وأخيرا وبعد استنفاد المصادر المتقدمة يأتي الطلب على نفط الاوبك ، وحتى داخل دول الاوبك نجد الدول الصناعية تفضل استيراد النفط من الدول ذات الكثافة السكانية على الدول الاقل كثافة سكانية .

وضع جديد

وفي ضوء ما تقدم فانه من المحتمل أن تواجه دول الاوبك في الثمانينات وضعا جديدا ، ليس فقط في انخفاض معدل انتاجها اليومي (حيث انخفض من حوالي ٣١ مليون برميل يوميا في عام ١٩٧٣ وأيضا في ١٩٧٩ الى أقل من ٢٣ مليون برميل يوميا عام ١٩٨١) - وانما في تزايد تعاملها مع دول العالم الثالث على حساب الدول الصناعية المتقدمة . وهذا ما يطرح قضية العلاقة بين دول الاوبك والعالم الثالث في ثوب جديد لم يعرفه الطرفان من قبل .

وقد كان النمط السائد سابقا يقوم على أساس أن تجارة النفط تتجه أساسا الى الدول الصناعية وأن الفائض الذي تحققه دول الاوبك في تجارتها مع هذه الدول يستثمر بشكل أساسي في أسواق الدول الصناعية المالية . وبهذا الشكل فقد صاحب زيادة قيمة الواردات النفطية للدول الصناعية زيادة ، مقابلة في استثمارات دول الاوبك المالية في هذه الدول . وهو ما ساعد على مواجهة أزمة الاختلال في موازين المدفوعات بين المجموعتين من الدول بأقل قدر من الصعوبات .

أما دول العالم الثالث فانها - وقد كانت في جميع الاحوال تستورد نسبا صغيرة من النفط بحيث تحصل في الاساس على معونات ، لاعلى استثمارات مالية من دول الأوبك . واذا كانت الدول النامية قد تحملت هذا الوضع ، فان هذا قد تم بأعباء كبيرة جدا ، وخاصة فيما تتعلق بحجم مديونيتها الخارجية ، فقد جاوز حجم ديون الدول النامية ٤٤٠ مليون دولار في عام ١٩٨٠ في حين لم تصل الى ٧٠ مليون دولار في عام ١٩٧٠ ، أي أن حجم الديون قد تضاعف أكثر من ستة أضعاف خلال هذه السنوات العشر .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هو : الى أي مدى ستكون دول الاوبك راغبة في توجيه جزء أكبر من استثماراتها المالية للدول النامية ، حتى تمكنها من الاستمرار في استيراد النفط في السنوات القادمة ؟

ففي خلال السبعينات كانت الدول الصناعية تمثل المستورد الاساسي للنفط من الاوبك ومن ثم فقد كانت الاستثمارات المالية لدى هذه الدول وسيلة معقولة لتمكينها من سداد فاتورة النفط . أما اذا تزايد استيراد الدول النامية لنفط الاوبك فانه لامناص من توفير وسيلة مقابلة لتمكينها من سداد فاتورة النفط . وفي هذه الحالة فانه لايكفي توفير موارد مالية لمقابلة الزيادة في قيمة وارداتها النفطية ، بل لابد أن تؤدي هذه الاستثمارات المالية الى زيادة قدرة تلك الدول على التصدير .

وعلى ذلك فان دول الاوبك يمكن أن تواجه خلال الثمانينات تحديا جديدا في علاقاتها مع الدول النامية . فهناك حاجة ماسة لزيادة الاستثمارات المالية ، وليس فقط المعونات في هذه الدول ، حتى تمكنها من مواجهة أعباء تزايد الواردات النفطية . ولكن الدول النامية تقدم من ناحية أخرى عدة مشاكل معقدة بالنسبة لامكانيات الاستثمار الانتاجي فيها ، مما لايمكن مجاوزته بمجرد توفير التمويل اللازم من دول الاوبك . وأخيرا فان حرمان هذه الدول من امكانيات مواجهة أعباء تكاليف واردات النفط المتزايدة يمكن أن يخلق حالة من عدم الاستقرار السياسي والدولي بعيد الاثر .

مشكلة العالم الثالث

وبذلك يتضح أن صدمة النفط في السبعينات قد أمكن استيعابها بشكل كبير من جانب الدول الصناعية . فهي من ناحية تمكنت من عبور فترة الازمة الشديدة بتوافر الرغبة لدى دول الاوبك في توظيف أموالها فيها . وفي نفس الوقت ساعدتها امكاناتها التنظيمية والتكنولوجية على ترشيد استهلاك الطاقة ، وتطوير مصادر أخرى نفطية ، ومصادر بديلة . وليس من المبالغة القول الآن بأن الدول الصناعية قد أفاقت من صدمة النفط في السبعينات ، وأنها تحتاج فقط الى مزيد من الوقت - ربما الثمانينات - لتحقيق الانتقال من الاعتماد على النفط المستورد من دول الأوبك الى مصادر أخرى . أما الدول النامية وهي تواجه احتياجات متزايدة من الطاقة لزيادة السكان والتنمية ، وتعوزها الامكانيات التكنولوجية للانتقال الى مصادر جديدة - فانها قد تصبح أكثر اعتمادا على نفط الاوبك في السنوات القادمة وهذا ما يمكن أن يضع العلاقة بين دول الاوبك والعالم الثالث أمام تحد جديد . □□

د . حازم الببلاوي .

● سئل نابليون ذات مرة ، لماذا تنظر الى السماء كثيرا ؟ فقال ساخرا ، لاني افكر في غزوها بعد ان انتهى من غزو الارض كلها .. فكانت النهاية قبرا ضيقا في جزيرة وسط البحار !

جزء خاص

العربي تطرح أوسع حوار حول :

قضية التطرف الديني

اشترك في كتابة هذا الجزء :

- الدكتور يوسف القرضاوى
- الدكتور احمد كمال أبو المجد
- محمد الغزالى
- المستشار سالم البهنساوى
- الدكتور عبد العزيز كامل
- خالد محمد خالد
- الدكتور محمد فتحى عثمان
- طارق البشرى

٦ علامات للتطرف الديني

بقلم الدكتور : يوسف القرضاوى

برغم اقتناعي بنبل الهدف الذى دفع مجلة « العربي »لفتح باب الحوار حول ما سمي « التطرف الديني » وبرغم ايماني بأهمية الموضوع وخطورته في واقعنا المعاصر .. لا اخفي على القارىء انني ترددت اول الامر في الكتابة فيه ، في هذا الوقت خاصة ، خشية ان يساء تفسيرها ، او تستغل في غيرما اريد ، وما ارادت المجلة نفسها .

وشيء آخر ، هو أن « التطرف الديني » اليوم في قفص الاتهام ، والالسنة والاقلام تصوب سهامها اليه من كل جانب . ولا احب لنفسي ان اكون مع الطرف القوى ضد الطرف الضعيف ، والسلطة دائما هي الطرف القوى ، وخصمها المتهم من الافراد والجماعات هو الضعيف ، وحسبه من الضعف انه لايملك الدفاع عن نفسه .

ولكني بعد تأمل وتفكر ، وجدت القضية تهم العالم الاسلامي كله ، ولاتخص بلدا بعينه ، ورأيت السكوت ليس حلا ، ووجدت رفض الدعوة الموجهة الى ، لايسعه ديني ، ولايرضيه الفرسان معركة . لذا تقحمت الكتابة ، متوكلا على الله ، وانما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى .

ففي حديث ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم قال : « اياكم والغلو في الدين ، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » (رواه احمد والنسائي وابن ماجه والحاكم ، واسناده صحيح) .

وفي حديث ابن مسعود في صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا . وهم المتعمقون الغالون في تدينهم . شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم .

وفي حديث سهل بن حنيف ، عنه ، عليه الصلاة والسلام : « لاتشددوا على انفسكم ، فانما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على انفسهم ، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات » (رواه الطبراني في الكبير والاوسط) .

وقد استعملت الاحاديث الثلاثة كلمة واحدة في التعبير عن مغبة هؤلاء المتشددين ، وهي الهلاك ، وكفى بهذا زاجرا .

وعندما يكون الحديث عن مفهوم التطرف ، فانه لاقيمه لاى بيان او حكم هنا مالم يكن مستندا الى المفاهيم الاسلامية الاصيلة ، والى النصوص والقواعد الشرعية الثابتة ، لا الى الآراء المجردة ، وقول فلان او علان من الناس ، فلاحجة في قول احد دون الله ورسوله . وبدون هذا التوثيق الشرعي لن يعير الشباب المتهم بالتطرف التفاتا الى فتوى هذا او مقال ذاك ، وسيضربون عرض الحائط بهذا الاتهام الذى يكررونه ، ويتهمون موجهيه بالتزييف ، وتسمية الاشياء بغير اسمائها .

ملاحظتان في التطرف

وأود ان أنبه هنا على ملاحظتين جديرتين بالاهتمام في موضوعنا :

الملاحظة الاولى :

ان مقدار تدين المرء وتدين المحيط الذى يعيش فيه ، حيث القوة والضعف ، له أثره في الحكم على الآخرين بالتطرف او التوسط او التسيب .

فمن المشاهد ان من كانت حرفته من التدين قوية ، وكان الوسط الذى يعيش فيه شديد الالتزام بالتدين ، يكون مرهف الحس لاى مخالفة او تقصير يراه ، حتى أنه ليعجب ان يوجد مسلم لاحظ له من قيام الليل ، او صيام

النهار ، وفي هذا ورد القول المأثور : حسنات الابرار ، سيئات المقربين .

ويحضرني هنا ما قاله ابو سعيد الخدري لمعاصريه من الصحابة والتابعين :

انكم لتعملون أعمالا هي أدق في اعينكم من الشعر ، ان كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات .

وكانت عائشة رضي الله عنها تنشد بيت لبيد بن ربيعة :

ذهب الذين يعاش في اكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وتقول : رحم الله لبيدا ، كيف لو عاش إلى زماننا هذا ؟

وكان ابن اختها عروة بن الزبير ، وقد عاش بعدها زمنا ، ينشد البيت ، ويقول : رحم الله لبيدا وعائشة ، كيف لوعاشا الى زماننا هذا ؟

وفي مقابل هذا نجد الشخص الذي قل زاده من التدين علما وعملا ، او عاش في محيط تجرأ على محارم الله وتنكر لشرائعه ، يعتبر التمسك باخذ الادنى من الدين ، ضربا من التعصب او التشدد .

وكلما زادت مسافة البعد بينه وبين الدين ، زاد استغرابه بل انكاره ، بل اتهامه لكل من يستمسك بعروة الدين ، ويلجم نفسه بلجام التقوى ، يسأل في كل شيء يعرض له او يعرض عليه : أحلال هو ام حرام ؟

وكثير من اولئك الذين يعيشون في اوطاننا باسماء اسلامية ، وعقول غربية ، يعتبرون مجرد الالتزام بأوامر الله ونواهيه ، تطرفا دينيا !

وكثير ممن غزته الافكار والتقاليد الاجنبية ، يعتبر الذين يتمسكون بآداب الاسلام في المأكل والمشرب والملبس والزينة ونحوها ، غاية في التطرف والتعصب .

الملاحظة الثانية

انه ليس من الانصاف ان نتهم انسانا بالتطرف في دينه لمجرد انه اختار رأيا من الآراء الفقهية المتشددة ، مادام يعتقد أنه الاصوب والأرجح ، ويرى انه ملزم به شرعا ، ومحاسب عليه دينا ، وان كان غيره يرى رأيه مرجوحا او ضعيفا ، لانه ليس مسئولا الا عما يراه ويعتقده هو ، وان شدد بذلك على نفسه .

ومن حقائق الحياة ، ان الناس يتفاوتون في هذه القضية ، فمنهم المتساهل الميسر ، ومنهم المتشدد المعسر ، وقد كان في الصحابة المرخص كابن عباس ، والمتشدد كابن عمر - رضي الله عنهم - .

ويكفي المسلم في هذا المقام ان يستند رأيه الذي تبناه الى مذهب من المذاهب المعتبرة عند المسلمين ، او يعتمد على اجتهاد صحيح قائم على استدلال شرعي سليم .

والواقع ان كثيرا مما ينكر على من نسميهم « المتطرفين » مما قد يعتبر من التشدد والتنطع ، له أصل شرعي في فقهنا وتراثنا ، تبناه بعض العلماء المعاصرين ودافعوا عنه ودعوا اليه ، فاستجاب لهم من الشباب المخلص من استجاب ، رجاء في رحمة الله تعالى ، وخوفا من عذابه .

ومن هنا لا نستطيع ان ننكر على مسلم ، او نتهمه بالتطرف ، لمجرد انه شدد على نفسه ، وأخذ من الآراء الفقهية بما يراه أرضى لربه ، وأسلم لدينه ، وأحوط لآخرته .

وليس من حقنا ان نجبره على التنازل عن رأيه ، ونطالبه بسلوك يخالف معتقده . كل ما نملكه ان ندعوه بالحكمة ، ونحاوره بالحسنى ، ونقنعه بالدليل ، عسى ان يدخل فيما نراه أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا .

فما التطرف اذن ، وما دلائله ومظاهره ؟

التعصب للرأى

١ - ان اول دلائل التطرف : هو التعصب للرأي تعصبا لايعترف معه للآخرين بوجود . وجمود الشخص على فهمه جمودا لايسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق ، ولامقاصد الشرع ، ولاظروف العصر ، ولايفتح نافذة للحوار مع الآخرين ، وموازنة ماعنده بما عندهم ، والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهانا ، وأرجح ميزانا .

ونحن هنا ننكر على صاحب هذا الاتجاه ما انكرناه على خصومه ومتهميه ، وهو محاولة الحجر على آراء المخالفين والغائها .

انما ننكر عليه حقا ، اذا انكر الآراء المخالفة ، ووجهات النظر الاخرى ، وزعم انه وحده على الحق ، ومن عداه على الضلال .

والعجيب ، ان من هؤلاء من يجيز لنفسه ان يجتهد في أعوص المسائل ، وأغمض القضايا ، ويفتي فيها بما يلوح له من رأي ، وافق فيه او خالف ، ولكنه لايجيز لعلماء العصر المتخصصين ، منفردين او مجتمعين ، ان يجتهدوا في رأي يخالف ماذهب اليه .

فهذا التعصب المقيت الذي يثبت المرء فيه نفسه ، وينفي كل من عداه ، هو الذي نراه من دلائل التطرف حقا .

فالمتطرف كأنما يقول لك : من حقي ان أتكلم ، ومن واجبك ان تسمع ، ومن حقي ان أقود ، ومن واجبك ان تتبع ، رأيي صواب لايحتمل الخطأ ، ورأيك خطأ لايحتمل الصواب . وبهذا لايمكن ان يلتقي بغيره ابدا ،

* - ومن مظاهر التطرف الديني : التزام التشديد دائما مع قيام موجبات التيسير ، وإلزام الآخرين به ، حيث لم يلزمهم الله به ، اذ لامانع ان يأخذ المرء لنفسه بالأشد في بعض المسائل ، وبالأثقل في بعض الاحوال ، تورعا واحتياطا ، ولكن لاينبغي ان يكون هذا ديدنه دائما وفي كل حال ، بحيث يحتاج الى التيسير فيأباه ، وتأتيه الرخصة فيرفضها ، مع قوله صلى الله عليه وسلم « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » ، وقوله « ان الله يحب ان تؤتى رخصه ، كما يكره ان تؤتى معصيته » وقوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وخبر « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن اثما » .

وقد يقبل من المسلم ان يشدد على نفسه ، ويعمل بالعزائم ، ويدع الرخص ، والتيسيرات في الدين ، ولكن الذي لايقبل منه بحال ان يلزم بذلك جمهور الناس ، وان جلب عليهم الحرج في دينهم ، والعنت في دنياهم ، مع ان ابرز اوصاف الرسول الكريم في كتب الاقدمين ، انه « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم » .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، أطول الناس صلاة اذا صلى لنفسه ، حتى انه كان يقوم بالليل فيطيل القيام حتى تتفطر أو تتورم قدماه عليه الصلاة والسلام ، ولكنه كان اخف الناس صلاة اذا صلى بالناس ، مراعيا ظروفهم وتفاوتهم في الاحتمال ، وقال : « اذا صلى احدكم بالناس فليخفف ، فان فيهم الضعيف والسقيم والكبير ، واذا صلى احدكم لنفسه فليطول ما شاء » (رواه البخاري) .

وقال لمعاذ لما أطال الصلاة بالقوم : أفتان انت يا معاذ ؟ وكررها ثلاثا .

ومن التشديد على الناس محاسبتهم على النوافل والسنن كأنها فرائض ، وعلى المكروهات كأنها محرمات ، والمفروض الا تلزم الناس الا بما الزمهم الله تعالى به جزما . وما زاد على ذلك فهم مخيرون فيه ، ان شاءوا فعلوا ،وإن شاءوا تركوا ، وحسبنا هنا حديث طلحه بن عبد الله في الصحيح ، في قصة ذلك الاعرابي الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عما عليه من فرائض ، فأخبره بالصلوات الخمس وبالزكاة وبصوم رمضان ، فقال : هل عليّ غيرها : قال لا ، الا أن تطوع . فلما أدبر الرجل ، قال : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سره ان ينظر الى رجل من اهل الجنة فلينظر الى هذا » .

ولطالما قلت : إن بحسبنا من المسلم في هذا العصر ان يؤدي الفرائض ، ويجتنب الكبائر ، لنعتبره في صف الاسلام وانصاره ، ما دام ولاؤه لله ولرسوله . وان ألم ببعض الصغائر من المحرمات ، فعنده من الحسنات مثل الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصيام رمضان وغيرها ، ما يكفر عنه هذه الصغائر ، « ان الحسنات يذهبن السيئات » ، « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » .

فكيف تسقط اعتبار المسلم بمجرد الوقوع فيما اختلف فيه من الامور : أهو حرام أم حلال . ولم يعلم تحريمه يقينا من دين الله ؟ او ترك ما اختلف فيه : اهو واجب أم سنه ؟ ولم تعلم فرضيته جزما في شرع الله ؟

والتشديد في غير محله

٣ - ومما ينكر من التشديد ان يكون في غير مكانه وزمانه ، كأن يكون في غير دار الاسلام وبلاده الاصلية ، او مع قوم حديثي عهد باسلام ، او بتوبة ، فهؤلاء ينبغي التساهل معهم في المسائل الفرعية ، والأمور الخلافية ، والتركيز معهم على الكليات قبل الجزئيات ، والاصول قبل الفروع ، وتصحيح عقائدهم اولا . فاذا اطمأن اليها دعاهم الى اركان الاسلام ، ثم الى شعب الايمان ، ثم الى مقامات الاحسان .

ولقد راعني ان وجدت بعض الشباب المخلصين من بعض الجماعات الاسلامية ، في امريكا ، قد أثاروا جدلا عنيفا في أحد المراكز الاسلامية ، لان المسلمين يجلسون على الكراسي في محاضرات السبت والاحد ، ولايجلسون على الحصر او السجاد كما يجلس اهل المساجد ، ولأنهم لايتجهون في جلوسهم الى القبلة ، كما هو ادب المسلم ، وانهم يلبسون البنطلونات لا الجلابيب البيض ، ويأكلون على المناضد لا على الارض .. الخ .

وقد غاظني هذا النوع من التفكير والسلوك في قلب امريكا الشمالية ، وقلت لهم : أولى بكم في هذا المجتمع اللاهث وراء المادة ، ان تجعلوا اكبر همكم الدعوة الى توحيد الله تعالى وعبادته ، والتذكير بالدار الآخرة ، وبالقيم الدينية العليا ، وتحذروا من الموبقات التي غرقت فيها المجتمعات المتقدمة ماديا في عصرنا ، اما الآداب والمكملات التحسينية في الدين فمكانها وزمانها بعد تمكين الضروريات والاساسيات وتثبيتها .

وفي مركز اسلامي آخر ، وجدتهم أقاموا الدنيا وأقعدوها من اجل عرض فيلم تاريخي او تعليمي في المسجد ، وقالوا : قد حولوا المسجد الى سينما ! ونسي هؤلاء ان المسجد وضع لمصلحة المسلمين الدينية والدنيوية ، وقد كان في عهد النبوة دار الدعوة ومركز

الدولة ، ومحور النشاط في المجتمع . ولايجهل احد ما رواه البخاري وغيره من اذن النبي صلى الله عليه وسلم للحبشة ان يلعبوا بحرابهم في قلب مسجده الشريف ، وسماحه لعائشة ان تنظر اليهم وهم يلعبون .

العنف والخشونة

٤ ـ ومن مظاهر التطرف : العنف في التعامل ، والخشونة في الاسلوب ، والغلظة في الدعوة ، خلافا لهداية الله تعالى ، وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم .

فالله تعالى يأمرنا ان ندعو الى الله بالحكمة لا بالحماقة ، وبالموعظة الحسنة ، لا بالعبارة الخشنة ، وان نجادل بالتي هي احسن ، لا بالتي هي اخشن « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن » .

ووصف رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله « لقد جاءكم رسول من انفسكم ، عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وخاطب رسوله مبينا علاقته بأصحابه « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك » .

ولم يذكر القرآن الغلظة والشدة الا في موضعين :

١ ـ في قلب المعركة ومواجهة الاعداء ، حيث توجب العسكرية الناجحة ، الصلابة عند اللقاء ، وعزل مشاعر اللين حتى تضع الحرب اوزارها ، وفي هذا يقول تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة » .

٢ ـ والثاني في تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها ، حيث لامجال لعواطف الرحمة في اقامة حدود الله في ارض الله « ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

اما في مجال الدعوة ، فلامكان للعنف والخشونة ، وفي الحديث « ان الله يحب الرفق في الامر كله » وفي الاثر « من أمر بمعروف ، فليكن أمره بمعروف » وقال صلى الله عليه وسلم « مادخل الرفق في شيء الا زانه ، ولادخل العنف في شيء الا شانه » .

ولاشيء يشينه العنف اذا دخله ، مثل الدعوة الى الله ، فانها تحاول ان تدخل الى اعماق الانسان ، لتجعل منه شخصا ربانيا في مفاهيمه ومشاعره وسلوكه ، وتبدل كيانه كله ، وتنشيء منه خلقا آخر : فكرا وشعورا وارادة . كما انها تهزكيان الجماعة هزا ، لتغير عقائدها المتوارثة ، وتقاليدها الراسخة ، واخلاقها المتعارفة ، وأنظمتها السائدة . . وهذا كله لايمكن ان يتم الا بالحكمة وحسن التأني للامور ، والمعرفة بطبيعة الانسان وعناده ، وجموده على القديم ، وانه اكثر شيء جدلا ، فلابد من الترفق في الدخول الى عقله ، والتسلل الى قلبه ، حتى تلين من شدته ، وتكفكف من جموده ، وتطامن من كبريائه .

وهذا ما قصه علينا القرآن من مسالك الانبياء والدعاة الى الله من المؤمنين الصادقين ، كما نرى في دعوة ابراهيم لأبيه وقومه ، ودعوة شعيب لقومه ، ودعوة موسى لفرعون ، ودعوة مؤمن آل فرعون ، ومؤمن سورة « يس » وغيرهم من دعاة الحق والخير .

وذكر الامام الغزالي ان رجلا دخل على الخليفة المأمون العباسي يأمره وينهاه ، فأغلظ له في ، القول ، وكان المأمون على قدر كبير من العلم ، فقال له : ارفق ، فان الله بعث من هو خير منك الى من هو شر مني ، وأمره : بالرفق ثم بين ذلك للرجل ، فقال : بعث الله موسى وهارون ، وهما خير منك الى فرعون ، وهو شر مني . وكانت وصية الله لهما « فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر او يخشى » !

سوء الظن بالناس

٥ ـ ومن مظاهر التطرف ولوازمه : سوء الظن بالآخرين ، والنظر اليهم من خلال منظار أسود ، يخفي حسناتهم ، على حين يضخم سيئاتهم . فالاصل عند المتطرف هو الاتهام ، والاصل في الاتهام الادانة ، خلافا لما تقرره الشرائع والقوانين ، ان المتهم بريء حتى تثبت ادانته .

هذا ، مع ان التعاليم الاسلامية تحذر أشد التحذير من سوء الظن بالله ، وسوء الظن بالناس ، والله تعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم » والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اياكم والظن ، فان الظن اكذب الحديث » .

واصل هذا كله : الغرور بالنفس ، والازدراء للغير ، ومن هنا كانت اول معصية لله في العالم : معصية ابليس .

وحسبنا في التحذير من هذا الاتجاه ، الحديث النبوي الصحيح : اذا سمعتم الرجل يقول : « هلك الناس » فهو أهلكهم . (رواه مسلم)

وهذا مع ان المسلم الحق لايغتر بعمله ابدا ، ويخشى ان يكون فيه من الدخل والخلل ما يحول دون قبوله ، وهو لايدري . والقرآن يصف المؤمنين السابقين بالخيرات فيقول في اوصافهم « الذين يؤتون ما آتوا ، وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون » وقد ورد في الحديث ، ان هذه

الآية فيمن عمل الصالحات ، ويخاف الا يقبل الله منه .

ومن حكم ابن عطاء : ربما فتح الله لك باب الطاعة ، ومافتح لك باب القبول . وربما قدر عليك المعصية ، فكانت سببا في الوصول . معصية أورثت ذلا وانكسارا ، خير من من طاعة اورثت عجبا واستكبارا .

وأصل هذا من حكمة للامام علي رضي الله عنه قال : سيئة تسوءك ، خير عند الله من حسنة تعجبك .

وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنين : العجب والقنوط .

السقوط في هاوية التكفير

٦ ـ ومبلغ هذا التطرف وغايته ، حين يسقط عصمة الآخرين ، ويستبيح دماءهم واموالهم ، ولايرى لهم حرمة ولا ذمة . وذلك انما يكون حين يخوض لجة « التكفير » واتهام جمهور الناس بالخروج من الاسلام ، او عدم الدخول فيه اصلا ، كما هي دعوى بعضهم . وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد ، وسائر الأمة في واد آخر .

وهذا ماوقع فيه الخوارج في فجر الاسلام ، الذين كانوا من اشد الناس تعبدا لله صياما وقياما وتلاوة قرآن ، ولكنهم أتوا من فساد الفكر ، لا من فساد الضمير .

ومن ثم وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « يحقر أحدكم صلاته الى صلاتهم ، وقيامه الى قيامهم ، وقراءته الى قراءتهم » ومع هذا قال عنهم « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » ووصف صلتهم بالقرآن فقال : « يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم » وذكر علامتهم المميزة بأنهم « يقتلون اهل الاسلام ، ويدعون اهل الاوثان »

وهذه العلامة الاخيرة هي التي جعلت احد العلماء ، حين وقع مرة في يد بعض الخوارج فسألوه عن هويته ، فقال : مشرك مستجير ، يريد ان يسمع كلام الله .

وهنا قالوا له : حق علينا ان نجيرك ونبلغك مأمنك ، وتلوا قول الله تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فاجره ، حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه »

ولو قال لهم : مسلم ، لقطعوا رأسه !

هذه بعض المعالم البارزة ، والدلائل الواضحة ، للتطرف اوالغلو في الدين . □□

د . يوسف القرضاوي

التطرف غير الجريمة والتشخيص الدقيق مطلوب

بقلم : الدكتور احمد كمال ابو المجد

المدخل ـ للحديث عن علاج ظاهرة التطرف ان نحاول « تحديد » الظاهرة التي نتحدث عنها .. وان نحاول ـ في ايجاز ـ عرض مظاهرها .. وتشخيص اسبابها ثم يكون حديثنا عن العلاج واخذنا به ، بعد ذلك ، لا قبله .. امرا منطقيا ترتقب ثمراته الطيبة ...

ان التطرف شيء غير الجريمة او الجناح كما يقول رجال القانون .. فالجريمة اساسا هي خروج على القواعد الاجتماعية او القانونية باتخاذ سلوك مناقض لما تقضي به تلك القواعد فهي ـ اذن حركة في عكس اتجاه القاعدة ..

أما التطرف فانه ـ في جوهره ـ حركة في اتجاه القاعدة الاجتماعية او القانونية او الاخلاقية ولكنها حركة يتجاوز مداها الحدود التي وصلت اليها القاعدة وارتضاها المجتمع ...

وهذه التفرقة بين الجريمة والتطرف تكمن فيها الصعوبة الحقيقية في التعامل مع « المتطرفين » .. اذ يبدأ المتطرف مسيرته ، كما يبدؤها سائر الناس ، من داخل القاعدة وفي اتجاهها الصحيح ولا يمكن ـ كذلك ـ بطبيعة الحال مؤاخذته خلال هذه الفترة لانه يتحرك مع القاعدة الاجتماعية وفي اتجاهها .. بينما يمكن للدولة ان تؤاخذ « المجرم » وان تحاسبه منذ اللحظة الاولى لنشاطه .. لان هذا النشاط منذ بدايته يتحرك بصاحبه في اتجاه مضاد للقاعدة الاجتماعية ومعاكس لاتجاهها .. ومن اشد الامور صعوبة تحديد اللحظة التي تتجاوز فيها عندها حركة المتطرف حدود الحركة المقبولة اجتماعيا والتي يمكن عندها فقط وصفه بالتطرف والغلو . ولهذا لا تعرف الاجهزة السياسية والامنية كيف تضع خطوطا فاصلة بين المعتدلين والمتطرفين .

ففي مجال التطرف الديني يبدأ « الفرد » متدينا عاديا « يأخذ نفسه بتعاليم الاسلام وعباداته وآدابه ويدعو الناس الى الاخذ بذلك كله .. وهذا مسلك حسن وتوجه لا يملك المجتمع ازاءه الا التعبير عن الرضا والتشجيع . ثم يواصل المتدين .. مسيرته متجها نحو التشدد مع نفسه ومع الناس .. ثم يتجاوز ذلك الى اصدار أحكام قاطعة بالادانة على من لا يتابعه في مسيرته .. وقد يجاوز ذلك الى اتخاذ موقف ثابت ودائم من المجتمع ومؤسساته وحكومته ...

ويبدأ هذا الموقف عادة بالعزلة والمقاطعة المبنى على اصدار حكم فردي على ذلك المجتمع ، بالردة او الكفر او العودة الى الجاهلية .. ثم تتحول العزلةوالمقاطعة عند البعض الى موقف ايجابي عدواني يرى معه « المتطرف » أن هدم المجتمع ومؤسساته « قربى الى الله » وجهاد في سبيله لأنه مجتمع جاهلي منحرف لا يحكم بما انزل الله .

ان حق المجتمع في وضع حد لتطرف المتطرفين ومصادرة نشاطهم يرجع الى ان المتطرف يصل بأصحابه الى الاصطدام بعديد من القواعد الاجتماعية والقانونية غير القاعدة التي بالغوا في ممارستها والأخذ بها . فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاعدة دينية واخلاقية يستحق أصحابها الثناء .. ولكن المضي في ممارستها بغير حدود ولا ضوابط من شأنه ان يدفع بهؤلاء الآمرين والناهين الى الاعتداء على حقوق ليست لهم والى تهديد أمن الافراد وحرياتهم وحقوقهم ...

هذا في ايجاز هو التطرف .. وتظل حدوده مع ذلك نسبية وغامضة .. ومتوقفة على معرفة حدود القاعدة الاجتماعية او الدينية التي يتطرف المتطرفون في ممارستها ...

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى تشخيص الاسباب والمداخل المؤدية الى التطرف الديني وجدناها بالضرورة متعددة ومتنوعة ، ووجدنا لها مكونات بعضها فكري ، وبعضها سياسي ، وبعضها اجتماعي ، .. وتتفاعل هذه المكونات بنسب مختلفة باختلاف الظروف الشخصية والموضوعية التي تحيط بالفرد والمجتمع على السواء ...

مداخل منهجية

اولا : المداخل المنهجية ..

١ ـ المنهج الحرفي في تفسير النصوص : ويعتمد على انتقاء آيات واحاديث معينة ، والتمسك المطلق بحرفيتها ، دون التفات للمقاصد العامة للاسلام في عقيدته وشريعته . ودون ملاحظة « لوظيفة » الواجبات الدينية في تحقيق اهداف عملية فردية واجتماعية .. بل ودون التفات لأسباب النزول . او معرفة باصول الاستدلال اللغوي والفقهي .. ودون تمييز بين القاعدة العامة ، والاستثناء المرتبط بسببه ، ومن هذا القبيل اعتبارهم المجتمعات الاسلامية المعاصرة مجتمعات كافرة لأنها تحكم بقوانين وضعية ، والله تعالى يقول : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون » او اباحة فريق منهم للعنف وتخريب مؤسسات المجتمع استنادا الى قوله تعالى « ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليُخزيَ الفاسقين » (الحشر ٥) .

٢ ـ اخذ المعرفة « الدينية عن طريق السماع عن الخطباء والوعاظ والاستخفاف بآراء الائمة المجتهدين ، والتسليم بحق الاجتهاد المطلق لزعمائهم في حركاتهم .

ويتصل بهذا ما وصل اليه بعض امراء تلك الجماعات من ادعاء الاجتهاد المطلق وممارسة الافتاء في أمور الدماء والاموال والأعراض .. بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وزعم بعضهم انهم يتصلون « مباشرة » بالقرآن .. ولا حاجة بهم للاستئناس بآراء علماء المسلمين على امتداد تاريخ الاسلام .. ونتيجة هذا « الافتاء » أن

يشترط بعضهم في امور تخالف صريح المعقول والمنقول ، وتخالف الشريعة مخالفة لا تحتمل التأويل . فقد قام بعض هؤلاء ـ استنادا الى مثل هذا الافتاء ـ بتزويج اخته او امه المتزوجة دون ان تطلق استنادا الى ان زوجها كافر لرفضه الدخول في « الجماعة » بعد بلغته دعوتها ، او لانه مرتد ، لخروجه منها .. واساس هذه الفتوى ان كفر الزوج الاول يترتب عليه ـ في زعمهم ـ فسخ عقد الزواج .. ولا حاجة بعد ذلك الى طلب التطليق من القاضي ...

٣ ـ الطاعة المطلقة لامير الجماعة .. وقد لا يكون على علم باحكام الشريعة ومقاصدها .. او دراية بأساليب العمل الجماعي والسياسي .. او تقوى تجعله يتحرج ويحتاط في امور الدماء والاموال والاعراض .

ان هذه الطاعة المطلقة التي تستند الى « التبعية » في المنشط والمكره هي الباب الذي يندفع منه جموع الشباب الى مصارعها والى اهلاك الحرث والنسل من حولها دون ان تتوقف لتراجع او تتدبر او تتسامل .. وهي في تقديرنا الاداة الرئيسية التي تصبح عن طريقها تلك الجماعات دولة داخل « الدولة » او نظاما يقيمه هؤلاء الشباب ويمنحونه الطاعة والشريعة والولاء .. التي سحبوها جميعا من الدولة وقانونها ومؤسساتها .

٤ ـ العزلة عن المجتمع ، والعزلة في منهج هذه الجماعات تؤدي احدى وظيفتين ، او تؤديها معا ... الوظيفة الاولى ، تجنيب اعضاء الجماعة مقارفة المنكرات التي تملأجوانب المجتمع ، وحمايتهم من ان يشاركوا في « منهج الجاهلية » . والوظيفة الثانية .. تكوين مجتمع خاص بهم تطبق فيه مبادىء الاسلام .. وتتسع دائرته شيئا فشيئا حتى تستطيع في النهاية غزو المجتمع الجاهلي من خارجه فالوظيفة الاولى اذن دينية وفكرية بينما الوظيفة الثانية سياسية وحركية ...

على ان قضية العزلة عن المجتمع في منهج « الجماعات المتطرفة » ليست بهذه البساطة بل انها تتخذ عندهم صورا مختلفة .. فهنالك الذين يفاصلون المجتمع بالشعور وبالفعل بينما تكتفي الاخرى باعتزاله ومفاصلته شعوريا .. مبررة هذا المنهج بان الجماعة الاسلامية تعيش هذه الايام « مرحلة العهد المكي » . حيث كانت الجماعة المسلمة مستضعفة لم تقو شوكتها بعد .. ويرتبون على هذا عدم وجوب صلاة الجماعة والعيدين ، وعدم تحريم الزواج من المشركات وعدم وجوب رد العدوان .. وانما يجب ذلك كله حين تصل الجماعة الى عهد « التمكين » .. ووصل الامر بهؤلاء الى اعتبار هذا المنهج جزءا اساسيا من العقيدة « فيكفر من انكر مراحلها وبالتالي يكفر من لجأ الى القوة في عهد الاستضعاف » !! (١) .

اما الذين نادوا بالمفاصلة الكاملة فقد وصلوا الى نتائج بالغة السخف والشذوذ .. فقرروا ان المشاركة في الانتخابات بالترشيح او باعطاء الصوت كفر .. كما قرروا ان الصلاة في المساجد القائمة ردة عن الاسلام لأنها معابد الجاهلية الحديثة .. ونادوا فوق ذلك بالهجرة المادية ولو الى الكهوف والجبال ، مع ضرورة مقاطعة الوظائف العامة والمدارس والجامعات .. وفي تقديرنا ان فكرة « اعتزال » المجتمع هي اخطر مكونات المنهج الفكري والحركي للجماعات المتطرفة .. فالعزلة ـ بطبيعتها ـ هي البيئة السوداء التي تتفتح فيها ابواب العقل والقلب لتستقبل كل صور العوج والانحراف .. ففيها تغيب شمس الحقيقة .. وتختلف ألوان الاشياء .. وتتداخل احجامها .. ويقف العقل والنفس معا على ابواب « فصام » حقيقي عن عالم العقلاء والاسوياء ...

وادواتهم الفكرية

ثانيا :

اما الافكار الرئيسية او ما سميناه « الادوات الفكرية » لهذه الجماعات فعديدة ..

منها فكرة « الحاكمية » لله وحده .. وما رتبوه عليها من نزع سلطة التشريع عن الجماعة .. ومغالاتهم في ذلك مغالاة سقيمة تنبع من جهل لا حدود له بمصالح العباد ومقاصد الشريعة .. والفكرة قال بها العلامة المودودي وتابعه المرحوم سيد قطب .. وجرت بها السنة وأقلام آلاف من الشباب .. وهي كلمة حق أفضت الى

١ ـ انظر مؤلف الاستاذ سالم على البهنساوي « الحكم وقضية تكفير المسلم » دار الانصار القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٣ الى ٣٦ وصحيح ـ فيما نرى ـ تقريب المؤلف بعض اراء القائلين بالمفاصلة الشعورية في مرحلة الاستضعاف من نظام التقيه .. عند الشيعة الباطنية . (ص ٣٩) .

ضرر عظيم ، حرفت عن موضعها ، وسخرت لغير ما قيلت له ..

وفي ركابها ترددت اقوال أشد تهافتا وسخفا كالزعم بان الديمقراطية كفر ، لانها تسمح للاغلبية ان تصدر تشريعات تبيح المنكرات وتحل المحرمات .. ولو أن احدا .. اي احد .. علم هؤلاء شيئا من امور دينهم ودنياهم لما بقوا في هذه الظلمات ، ولما اختلطت عليهم الامور هذا الاختلاط الذي تداخل فيه الحق مع الباطل .. والتبست معه المصالح والمفاسد ، ولما انطلقوا في الحكم على الاشياء من عالم صنعته لهم العزلة .. فصنعوا به للناس من حولهم ما صنعوا من خيط وخلط اخطر ما فيه ان آيات القرآن الكريم تغدو فيه وتروح على اطراف الالسنة والاقلام بلا منهج ولا ضابط ولا منطق ولا بصيرة .. وهو امر لا يشفع فيه حسن القصد ، ولا يعتذر عنه بخلوص النية .

٢ ـ ومنها ـ كما قدمنا ـ فكرة تكفير المسلم بارتكاب المعصية .. ووصف المجتمعات المعاصرة بالجاهلية وان صلى افرادها وصاموا وانفقوا من اموالهم ، ووصلوا ارحامهم .. وحجوا بيت الله العتيق ..

واذا كانت فكرة الحاكمية كلمة حق أفضت الى ضرر عظيم ، فان فكرة الجاهلية كوصف عام لمجتمعات المسلمين المعاصرين ، هي ـ فيما نرى ـ كلمة خاطئة .. إثمها اكبر من نفعها .. ومن سد الذرائع ان يوجه جيل الشباب كله الى اسقاطها من قاموسه .. الا حيث تشير الى فعل بعينه من افعال الجاهلية المحرومة من نعمة الاسلام وما نزل على الناس معه من الحكمة والنور والكتاب المبين .. كقوله سبحانه ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى﴾ .

وقوله (ص) لأبي ذر : إنك امرؤ فيك جاهلية ..

٣ ـ ومنها التحديد الفاسد لفكرة الجماعة التي دعت احاديث النبي (ص) الى لزومها وعدم الشذوذ عنها .. فقد ذهب كل فريق من هؤلاء الشباب الى ان جماعته ولو كانت عشرة او عشرين هي جماعة المسلمين .. وان من بلغته دعوتها ولم ينضم اليها فقد كفر .. ومن لزمها حينا ثم تركها فقد ارتد ..

وعند هذه النقطة نصل الى تحديد بعض مداخل علاج الظاهرة وتناولها التناول الصحيح .

وأول هذه المداخل ان نعرف بعض الحقائق الاساسية عن ظاهرة التطرف الديني .. منها على سبيل المثال :

١ ـ انها ظاهرة عالمية تشمل العالم الاسلامي كله .. ولا تقتصر على قطر دون قطر .. ومن هنا فان محاولة تشخيصها وعلاجها على اساس من الظروف القطرية المحلية لا بد ان يفضي الى خطأ في التشخيص وخلل في العلاج .

٢ ـ انها ظاهرة قديمة موصولة الحلقات وليست ظاهرة حديثة كما يتصور البعض .. فما ظهر دين ولا مذهب ولا قام نظام الا كان من بين انصاره متطرفون ومعتدلون .. وانما موضع الخطورة في التطرف الديني ان القاعدة الفكرية والاعتقادية التي ينطلق منها قاعدة بالغة الاتساع .. وان التعاطف والتشجيع الذي يلقاه هؤلاء المتطرفون في بداية نشاطهم باعتبارهم مظهرا حيا من مظاهر « الانبعاث الاسلامي » او « الصحوة الاسلامية » يحول في كثير من الاحيان دون رؤية مداخل الشطط ومظاهر العوج والانحراف في منهج بعضهم وافكارهم واسلوبهم في الدعوة والعمل .

٣ ـ انها كما قلنا من قبل ، ان ضاق المقام عن التفصيل ـ ظاهرة مركبة لها ابعادها الفكرية التي عرضناها ، ولها ـ فوق ذلك ابعادها ـ الاجتماعية والسياسية .. ومن ثم لا ينبغي ان يكون تشخيصها ولا علاجها منحصرا في اطار رؤية واحدة مهما بدت لها من اهمية واعتبار .

التشخيص الدقيق مطلوب

وفي تقديرنا ان العلاج يكمن في امور عديدة .. ولكنه بطبيعته علاج طويل .. لانه يخاطب البنية الفكرية والنفسية لأجيال الشباب .. وهي مخاطبة لا يمكن ان تترك آثارا باقية الا اذا أتيح لها قدر من الاتصال والاستمرار .

ـ وأول مداخل العلاج ان يتم التشخيص الدقيق .. في اطار من الاعتبارات العامة السابق شرحها ، وفي ضوء الظروف والملابسات المحلية التي تساهم في نشأة وتشكيل فكر وسلوك تلك الجماعات .. ان من الضروري الا يكون الاعتماد الاكبر في التشخيص والتحليل في شأن هذه الجماعات بين يدي اجهزة الامن مهما بدا من قدرتها ومن كفاءتها .. ذلك ان التقدير السياسي شيء والتقدير الامني شيء آخر .. واذا لم يكن من الانصاف أن نحمل اجهزة الامن فوق ما تحتمل ، وأن ننتظر منها الحل الشامل الكامل لهذه المشكلة .. فانه ليس من الانصاف كذلك أن تتصدى اجهزة الامن

لعمليات التشخيص السياسي واقتراح الحلول .. وليس من الحكمة في شيء ان يُعَوّل على تقديراتها ورؤيتها وحدها في هذه الامور .

ـ والمدخل الثاني في العلاج يتصل « بتصحيح الفكر » وتقويم « العوج » المستشري في فهم الاسلام ..

وعلى المدى القريب فان العلماء والمثقفين مطالبون بان يطرحوا المجاملة جانبا .. وان يوضحوا مواضع الانحراف والخلل في منهج تلك الجماعات وفي افكارها .. ذلك ان الحق قديم لا يبطله باطل ، وحرام أن تمسخ الشريعة السمحاء هذا المسخ النكد وان تصد النفوس الطيبة المتفتحة لقبول الحق والمقبلة عليه بفطرتها السوية .. بسبب هذا الغبار المتطاير المسمم بالكراهية والشحناء والمرارة .. المقطوع الصلة في سمته وأدابه بسمت النبي (ص) وأدابه ورحمته باصحابه وبالناس ..

ان قضايا الكفر او الجاهلية ، والحاكمية .. والاعتزال والمفاصلة .. قد صارت نهبا لاقلام الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. وتصدى للفتيا في شأنها من لا قدم له في علم او فقه .. ولا حظ له من الحكمة ولا نصيب .. فهل نسي العلماء المحققون الصادقون امانة الكلمة وميثاق الله الذي اخذه على العلماء ليبينته للناس ولا يكتمونه .. ان افكار المودودي وسيد قطب رحمهما الله موثقه .. ومنشورة .. كثير منها صالح مصلح مفيد .. ولكن منها افكارا لا بد ان ترد على اصحابها .. وان تبين المزالق التي تفضي اليها ، خصوصا حين يتصدى لتفسيرها ، وترتيب النتائج عليها اولئك الذين يتحللون من كل قاعدة للتفسير ، وكل منهج للاستدلال والترجيح لانهم ـ بزعمهم ـ يتصلون مباشرة بالقرآن ..

اما على المدى الطويل فان القضية هي قضية النظام التعليمي كله .. والتعليم الديني على وجه الخصوص .. اولايرى القائمون على هذا النظام وذلك التعليم انه قد آن الأوان لاعادة النظر في « منهج » التعليم الديني من اساسه .. وانه لا غنى عن تحديد دقيق لاهداف هذا التعليم .. وان السمت العام للاسلام ، باعتباره رحمة ونورا ومدخلا لتحقيق مصالح العباد يجب ان تكون له الصدارة في كل ما يقدم من علم في المدارس والمعاهد والجامعات .

ـ وفي المجال الاجتماعي لا يستطيع باحث ان يتجاهل حقيقة اساسية تكشف عنها دراسة ظاهرة التطرف .. وهي ان مناخ السخط الاجتماعي والاحساس بالاحباط .. وغياب العدالة التي تستقيم في ظلها موازين الثواب والعقاب ... ومعايير الفشل والنجاح هذا المناخ هو البيئة المثلى لاحياء ظاهرة التطرف الديني وغير الديني ، ولانتشار موجات التمرد والرفض بين الشباب .. اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان ظاهرة التطرف الديني ، في جزء منها على الاقل ، وبالمعالم التي حددناها لها في هذا البحث هي صورة من صور الرفض الاجتماعي والاحتجاج على غياب العدالة التوزيعية بصورها في نظام المجتمع ..

ان الاستفزاز الاجتماعي بصوره المختلفة ينبغي ان يختفي وان تقل حدته بالتدريج قبل ان نتوقع هدوء بركان التطرف الديني وغير الديني .

ـ وفي المجال السياسي لا نتردد في القول بأن التربية السياسية القائمة على احترام الحقوق والحريات ، وعلى تربية الجيل كله على قبول الرأي الآخر ، واتساع العقل والصدر للمعارضة .. مدخل كبير الاثر في تذويب ما يلجأ اليه هؤلاء المتطرفون من عزلة وانفصال وحرب باردة ضد المجتمع وفئاته واحزابه لا تلبث ان تستحيل الى حرب ساخنة مدمرة .. ان المجتمع السياسي الذي تتعايش فيه الافكار المختلفة وتعبر فيه المعارضة عن أرائها من فوق المنابر ، لا يُتيح للمتطرفين فرصة الاختلاء بأنفسهم واعتزال الحياة .. ان الذي ينشأ منذ طفولته في جو الحرية بالكلمة لن يسهل عليه في شبابه ان يستبدل بها سلاح القتل والتدمير .. والذي يجد له في صناعة قرارات المجتمع مكانا ونصيبا منذ نشأته يصعب عليه ان يفر في شبابه الى اغتراب يفرضه على نفسه .

وتبقى في النهاية كلمة .. ذلك ان ما قيل كله ليس الا مداخل ومفاتيح ، واشارات الى خيوط نراها مؤدية للعلاج .. ولكن الامر ـ كما قررنا ـ اكبر واخطر من ان يعالج على هذا النحو .. فكل كلمة من هذه الكلمات ليست الا رأس قلم وعنوانا يحمل وراءه الكثير .. ولا بد ان يؤخذ الامر بما يستحقه من عمل منهجي .. يبدأ بالتشخيص والتحليل .. قبل ان يبدأ في اقتراح العلاج والامر بعد لا يحتمل التسويف والارجاء . لان الظاهرة قائمة في اغوار العقول واعماق القلوب ..

ومالم يبدأ التعامل الفكري والنفسي مع هؤلاء الشباب فستظل الدائرة تأخذ مسارها .. تبدأ كما تبدأ دائما دعوة هادئة الى الله .. ثم لا تلبث الوجوه ان تعبس والصدور أن تضيق .. ولا تلبث فوهة البركان ان ترسل الحمم على اصحابها وعلى الناس . ●●

احمد كمال ابو المجد

حذار من التدين المغشوش

بقلم محمد الغزالى

للتدين المنحرف أسباب نفسية ، وأخرى علمية ، تظهر فى أقوال المرء وأفعاله ، وتلحظ فيما يصدره من أحكام على الأشخاص والأشياء وتتفاوت هذه الأسباب قوة وضعفا وقلة وكثرة ، ولكنها على أية حال ذات أثر عميق فى تحديد المواقف والاتجاهات . . .

والمفروض فى العبادات التى شرعها الله للناس أن تزكى السرائر ، وتقيها العلل الباطنة والظاهرة وتعصم السلوك الانسانى عن العوج والاسفاف ، والجور والاعتساف وكان هذا يتم حتما لو أن العابدين تجاوزوا صور الطاعات الى حقائقها ! وسجدت ضمائرهم وبصائرهم لله عندما تسجد جوارحهم ، وتتحرك أنفس ما فى كيانهم ـ وهو القلب واللب ـ عندما تتحرك ألسنتهم .

أما اذا وقفت العبادات عند القشور الظاهرة والسطوح المزورة فانها لا ترفع خسيسة ولا تشفى سقاما

وقد كتبت يوما كلمة عن الخطبة عندما يشتغل بالدعوة ، وتساءلت : ماذا تنتظر من رجل طبيعته شرسة الا الوعظ بقوارص الكلم وسيىء العبارات ؟

ان طبائع بعض الناس تحول الدين عن وجهته الى وجهتها هى ، فبدل أن تهدى تصد ، وبدل أن تسدى تسلب !

وقد نبه القرآن الكريم الى خطورة نفر من الأحبار والرهبان جعلوا الدين كهانة تفسد بها الفطرة وتصطاد بها المنفعة ، ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وهذا النوع من الناس آفة الأديان كلها ، وفيه يقول الشاعر :

وهل أفسد الدين الا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها
فباعوا النفوس ولم يربحوا ... ولم تغل فى البيع أثمانها

أسباب نفسية

والآفات النفسية تبدأ مع الطفولة ، بل قد تنحدر مع خصائص الوراثة ، واذا لم تذهب بها التربية الراشدة نمت مع المرء شابا ، وبقيت فى دمه شيخا !

وانظر الى رجل كأبى سفيان ، لقد كان قائد مكة وشيخها المقدم فى «الجاهلية» ، ولم يفت الرجال الذين يعرفونه أنه يحب الفخر ، وأن كلمة تنوه بشأنه قد تؤثر فى حكمه .

واقترح العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل له شيئا يطمئنه على مكانته بعد غلبة التوحيد على أم القرى ! واستجاب النبى صلى الله عليه وسلم الى عمه فقال : نعم ، من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار

أبي سفيان فهو آمن ، ومن قعد في بيته فهو آمن ـ واستراح أبو سفيان أن ذكر اسمه ومهد لتسليم مكة دون حرب !!

وقد تستتر العلة النفسية وراء الحماسة للقيم والغيرة على الحق ، وأوضح مثل لذلك الرجل الذى علق على تقسيم رسول الله للغنائم فقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ...!!

ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد يتألف بعض الناس بشيء من حطام الدنيا لأن اليقين لم يتمكن من قلوبهم وكان على الرجل الذى لم تعجبه القسمة أن يتساءل عن سرها .. أما أن يسارع الى اتهام أشرف الخلق فهذا مرض باطن !

وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم الى أن هذا الصنف يطيل الصلاة والقراءة ولكن عبادته لا تزكي سريرته ولا تشفى علته !!

وفي غزوة العسرة تساءل النبي صلى الله عليه وسلم عن كعب بن مالك ما أخره ؟ فتطوع رجل باتهامه قائلا : ألهاه النظر في برديه ! وهي كلمة مخمورة تنبيء عن الحقد ! فكعب أحد الثلاثة الذين خلفوا وقد عفا الله عنهم وتاب عليهم!!

وفي أثناء أزمة كعب جاءته رسالة من ملك الروم تستحثه على ترك المدينة ، واللحاق معززا بحاشية الملك ، فعد ذلك محنة وأحرق الرسالة ! وارتقب الفضل الأعلى حتى جاءه ـ وهو له أهل ـ بيد أن بعض الناس ينظر الى غيره بعين المقت التى تبدى المساويء وتخفى المحامد ، وينتهز أول فرصة لشبع ضغنه ... وجاء وفد الى الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم رجل ثرثارة دعي متشدق ! كلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما طوعت له نفسه أن يقول كلاما أفصح يحاول أن يسامى به رسول الله .. !وكان التعليق الذى باء به أن هذا ومثله يلوون السنتهم بالكلام كما تلوى البقر السنتها بالحشائش ولهم النار يوم القيامة .. !

وكم رأينا من سباق للكلام في الدين لا حصيلة له الا اللغو والهباء . فالوعظ لا يبلغ هدفه مهما كان بليغا اذا قارنته نية مغشوشة ..

سمع الحسن البصرى ناصحا قوى البيان لكنه لم يتأثر به فقال له : ياهذا ان بقلبي شيئا أو بقلبك ! والآفات النفسية تشيع بين ناس كثيرين فيهم المتدين وغير المتدين ، وعلماء التربية يرون هذه العلل أخطر من الرذائل المادية ، ومن المقرر أن معاصى القلوب أخطر من معاصى الجوارح ! فالكبر شر من السكر ، وان كان الشارع أعد عقوبة عاجلة للسكارى الا أنه أرجأ المتكبرين ليوم تطؤهم فيه الأقدام ، والسر في ذلك أن السكران يتناول ما يضره وحده غالبا ، فهو بالخمر يفرى كبده ويعقر عقله أما المتكبر فهو يجتاح حقوقا ويظلم مستضعفين ولا تقف دائرة عدوانه عند حد ... ولا تحسبن الكبر صعر الخد وتثاقل الخطو ! فهذه مظاهره الطفولية ! الكبر بطر الحق وغمط الناس ، وانتهاج مسلك يفرض شهوة فرد على جماهير غفيرة

وتدبر سياسة هؤلاء المرضى العتاة وهم يقلبون الحق باطلا والباطل حقا ، يقول موسى لفرعون : « قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل » ويكون جواب الطاغية وملئه « ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم » ، رجل يريد الفرار بقومه من العذاب فيتهم بأنه يريد اخراج المواطنين من أرضهم .. !فاذا عرف نفر من الأتباع الحق وآمنوا به قيل لهم : « آمنتم به قبل أن آذن لكم » ؟ سبحان الله لماذا ينتظر اذنك ؟

قديما وحديثا وجد أولئك المنحرفون من حملة الأسماء الطنانة ، فكانوا بلاء على أممهم ، ودفعت الشعوب آلافا مؤلفة من القتلى ثمنا للمجد الشخصي الذى يزعمه رجل يقول : أنا الدولة أو أنا وحدى . والاستبداد السياسي هو البيئة الخصبة لانبات هؤلاء الفراعين ، ويؤسفنا القول أنه في الشرق أكثر منه في الغرب ، وهو السد الأعظم أمام ارتقاء أمم شتى ، والسر في انتشار رذائل الملق والصغار في جنباتها

الحرية والاستبداد

وعندما أبحث عن جرائيم الانحراف بين المتدينين أجد هذا اللون من « الفرعنة » وراء جملة من المسالك التى تشجيها ، وتضيق بأهلها ، فالجماعة التى تحمل عنوان « التكفير والهجرة » مثلا نبتت أفكارها في السجون ، ونمت أشواكها وراء القضبان ، هل ادافع بهذا القول عن التطرف ؟ لا .. فأى عالم مسلم يأبى العوج الفكرى والانحرافات النفسية ، ان هذا الشاب مختل المزاج ، فصاحب الرسالة ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، وهؤلاء الشبان ما خيروا بين أمرين الا اختاروا أصعبها ، والاسلام يقدم الدليل ويؤخر العنف ، فما يلجأ اليه الا كارها ، أما أولئك الشباب فقد نظروا الى الأسلوب الذى عوملوا به ، واستبيحت به حرماتهم فلم يروا أمامهم الا السلاح !!ويوجد بين المتدينين قوم أصحاب فقر مدقع في ثقافتهم الاسلامية ، واذا كان لهم زاد علمي فمن أوراق

شاحبة تجمع كناسة الفكر الاسلامى ، والأقوال المرجوحة لفقهائه ! وهم يؤثرون الحديث والضعيف على الصحيح ، أو يفهمون الخبر الصحيح على غير وجهه واذا كانت المدارس الفكرية فى تراثنا كثيرة ، فهم مع ظاهر النص ضد مدرسة الرأى ، وهم مع الشواذ ضد الأئمة الأربعة ، وهم مع الجمود ضد التطور .

وقد سمعت بعضهم يحارب كروية الأرض ودورانها ، فلم تهدأ حربه حتى روى له أن ابن القيم يقول باستدارة الأرض ! وما زال البحث جاريا عن رواية أخرى تقول : ان الأرض تدور كى يسكت ويستكين . . !!هل بين أولئك القوم وبين الخوارج القدامى قرابة روحية وفكرية ؟ ربما . . بيد أن اتهام الخوارج بالافتئات على الأمة يمكن أن يستمع من خليفة راشد ، أعنى من حاكم وليد شورى صحيحة وله مكانته الخلقية النزيهة . أما أن يتوجه بالتهمة يزيد بن معاوية مثلا فان الرد معروف ، سيقال له : وما مكانتك أنت من الأمة ومصالحها وقيمها ؟

ان الجو الحر هو المكان الوحيد الذى يموت فيه التطرف ، ويتوارى أهله على بطء أو على عجل المهم أنهم لا يبقون ولا يستقرون !

حذار من التدين المغشوش

على أن الفساد السياسى لا يسيغ الانحراف العقائدى ولا العوج الفقهى ، وليس الدين ستارة لتغطية العيوب وانما هو طهارة منها ، وحصانة ضدها ، وفى تجاربى ما يجعلنى أشمئز من التدين المغشوش ، وأصبح دائما أحذر من عقباه . . إان المنحرفين يسترون ـ بركعات ينقرونها ـ فتوقا هائلة فى بنائهم الخلقى وصلاحيتهم النفسية ، وهم لا يظنون بالناس الا الشر ويتربصون بهم العقبات لا المثاب وهم يسمعون أن شعب الايمان سبعون شعبة ، بيد أنهم لا يعرفون فيها رأسا من ذنب ولا فريضة من نافلة ، والتطبيق الذى يعرفون هو وحده الذى يقرون . . فالسواك سنة ، ومن حقنا أن تنظف أسناننا بأى فرشاة وأى معجون ، المهم نظافة الفم ، وهؤلاء ينظرون الى من لايستعمل السواك نظرة مريبة !، لماذا لا يجعله فى عروته مع القلم ؟ ولماذا لا يخرجه فى المسجد وينظف فمه فى الصف ثم يعيده بما فيه فى جيبه ؟ هذا هو الدين عندهم !

والخلاف الفقهى لا يوهى بين المؤمنين أخوة ، ولا يحدث وقيعة ! وهؤلاء يجعلون من الحبة قبة ومن الخلاف الفرعى أزمة ، والخلاف اذا نشب يكون لأسباب علمية وجيهة ، وهؤلاء تكمن وراء خلافاتهم علل تستحق الكشف . كتب أحدهم ردا علىّ جاء فيه أن الدعوة كانت تسبق القتال فى صدر الاسلام ، ثم نسخ ذلك وأمسى القتال يقع دون حاجة الى دعوة تسبقه ! وساق حديثا لم يحسن فهمه ! وبدت لى خلال السطور المكتوبة صورة المؤلف المتحمس ، انها صورة قاطع طريق يشن الغارات على الناس باسم الدين !! ولم يكتف المسكين بتدوين هرائه حتى ضم اليه سعاية الى أولى الأمر بأن أسأت الى المرحوم الملك عبد العزيز(!) هل ذلك مسلك الأتقياء الذين يخدمون التراث النبوى ؟ان التدين يوم يفقد طيبة القلب ودماثة الأخلاق ومحبة الخلائق يكون لعنة على البلاد والعباد . . . والغريب أن التطرف لا يقع فى مزيد من الخدمات الاجتماعية ، ولا فى مزيد من مظاهر الايثار والفضل ، انه يقع فى الحرص البالغ على تقصير الازار والتنطع السخيف فى مكان وضع اليدين أو طريقة وضع الرجلين خلال الصلاة ، والاهتمام الهائل هنا تقابله قلة اكتراث ببناء دولة الاسلام الغاربة والاقبال على تجميع العناصر التى لا بد منها لاقامة حضارتنا واستعادة كياننا . . . !

والمجال المستحب للغالين فى دينهم ينفسح عندما ينظرون فى ذنوب الناس ، انهم يسارعون الى الحكم بالفسق أو الكفر ، وكأن المرء عندهم مذنب حتى تثبت براءته على عكس القاعدة الاسلامية .

ومنذ أيام ثار جدل حول تارك الصلاة كسلا فلم يذكر أحد فى شأنه الا أنه كافر ، مستوجب للقتل مخلد فى النار !

قلت : ان تارك الصلاة كسلا مجرم حقا ، ولكن الحكم الذى ذكرتموه هو فى تاركها جحدا ، وانكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة خروج من الدين ، أما الكسول فهو مقر بأصل التشريع قالوا : يقتل حتما ! قلت : لماذا تنسون حديث أصحاب السنن فى أن الرجل لاعهد له عند الله ـ بتكاسله ـ ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه !

ودخول هذه الجريمة فيما دون الشرك ، أعنى امكان العفو الالهى عنها هو رأى جمهور المسلمين ، ومذهب الأحناف الا يقتل الكسول وعلينا بالتلطف والنصح الحسن أن نقوده الى المسجد لا الى المشنقة . . . ! بيد أن المتطرفين يأبون الا القول بالقتل ، وان هذا وحده هو الاسلام . . .

ومشكلة المرأة

ومجال آخر هو قضايا المرأة ، ان حبسها وتجهيلها وابهامها هو محور النظر في شئونها العبادية والعادية جميعا ، ويجب لي النصوص والآثار التي تربطها بالمسجد ، وبالأمر والنهي والتعليم واذا خرجت من البيت لضرورة قاهرة فلا

ينبغي أن يرى لها ظفر ، هي عورة كلها ، لا ترى أحدا ولا يراها أحد ، وعندما زارت رئيسة وزراء انجلترا الشرق الأوسط قال لي أحد هؤلاء : أيسرك هذا ؟ فقلت ضاحكا : لعلها من أهل الظاهر تتبع مذهب ابن حزم الذي يجيز ولاية المناصب كلها للمرأة ما عدا منصب الخلافة العظمى ، قال : ابن حزم ضال مضل ! قلت : هو على أية حال مسلم له فقهه ! قال : ورأسها العاري ؟ قلت ألا تراه مستورا ؟ قال : لم تضرب الخمار على الجيب ! قلت : أخطأت هداها الله . . . وهداك ! انها يمكن أن تدخل في دين الله على شرط أن يعرضه عليها رجل غيرك . . . !

ومن هؤلاء المتطرفين ناس لهم نيات صالحة ، ورغبة حقة في مرضاة الله ، وعيبهم ـ ان خلوا من العلل والعقد ـ ضحالة المعرفة وقصور الفقه ، ولو اتسعت مداركهم لاستفاد الاسلام من حماسهم وتفانيهم

حدث في احدى القرى أن أرسل العمدة الى امام المسجد يخبره أن المهندس الزراعي قادم وانه ينبغي الاجتماع بالأهالي كي يقدم لهم ارشادا مهما ، ويرجو العمدة اعلام المصلين بذلك حتى يتم اللقاء ، وعندما حاول الامام الكلام في مكبر الصوت قال له طالب متدين : ان النبي صلى الله عليه وسلم منع تشدان الضالة في المسجد ، وقال انما بنيت الصلاة لما بنيت له مساجد الله ـ يعني للعبادة ـ ومنعه من أخذ المكبر ، ولما اشتد النزاع قال الطالب : لن يؤخذ المكبر الا على جثتي !! ان قياس الارشاد الزراعي على نشدان جمل تائه لأحد البدو قياس غير صحيح ، ولو فرض صحيحا فالأمر أهون من أن تقدم في سبيله جثة ، ونحن مع رفضنا لهذه المسالك نرى أن الصلف اليهودي لا يكسر حده الا فداء يستند الى هذا اليقين ، وان على المربين والقادة أن يعاملوا هؤلاء الشباب بحكمة وأن يتعهدوهم بالعلماء الواعين المتجردين ، فان هؤلاء الشباب يكرهون أتباع السلطة ، ويزدرون علمهم ان كان لديهم علم . . . ■ ■

محمد الغزالي

حتى لا تتكرر . .

وراء القضبان ولدوا . . وهكذا يتكلمون

بقلم : المستشار سالم البهنساوي *

انتشار موجة تكفير المجتمع بين الشباب له اسبابه الخاصة ، ولجوء هؤلاء الشباب الى تكفير « المرتدين » من اقرانهم الذين يعدلون عن تلك المزالق امر يستحق الاهتمام والدراسة .

لمن الثابت ان هذا الفكر ظهر لأول مرة بالسجون المصرية ، في منتصف الخمسينات ، كرد فعل لالوان التعذيب التي تعرض لها الاسلاميون المعتقلون وقتئذ .

في السجون جرى النقاش بينهم : هل يكفر من لم ينضم اليهم على اعتبار انهم الجماعة التي ورد بشأنها قول النبي (ص) « تلزم جماعة المسلمين وامامهم ، فان لم يكن لهم جماعة ولا امام ، تعتزل تلك الفرق كلها ، ولو ان تعض على اصل شجرة ، حتى يدركك الموت وانت على ذلك » .

* مستشار قانوني ، ومؤلف كتاب « الحكم وقضية تكفير المسلم » .

كما تناول النقاش امر جنود الشرطة وضباطها الذين ينفذون اوامر التعذيب واجراءات غسيل المخ . ولقد احتج من يرون كفر الجنود بآية قرآنية هي قول الله تعالى : (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) فقالوا ان الله حكم بإثم الجنود مع انهم مأمورون . كما اقتنع الشباب بأن المجتمع جاهلي ، وانهم يعيشون جاهلية القرن العشرين ، واستراحت نفوسهم لكل من وصف المجتمع بالجاهلية ، ولكن لم يدخلوا في التفصيلات ، وظلوا عند هذه العموميات .

وعندما تكررت الاعتقالات لهذه التجمعات الاسلامية ذاتها في عام ٦٥ وتعرضوا مرة اخرى لما سبق أن لاقوه في الخمسينات ـ كانت نتيجة كل ذلك ان اذاع بعض الشباب ان وراء هذه العمليات مخططا عالميا يهدف الى تطويع الاسلام ليخدم اهداف الغرب والصهيونية .

هذه الأساليب كانت الدافع المباشر لنشأة فكر التكفير الذي اعلن عن ميلاده في مايو ١٩٦٧ بمعتقل ابي زعبل السياسي بمصر ، عندما طلبت السلطة من المعتقلين تأييد الحكومة بالروح والدم .

هنا اجتهد بعض المعتقلين ليمنع البلاء عن الباقين ، فكتب صحيفة تضمنت تأييدهم للحكومة في موقفها من اسرائيل ، وبعضهم جعل التأييد مطلقا ، ولكن بعض الشباب اشاع انه تجب مواجهة الحكومة بكفرها ، وكفر من لم يعلن كفر هؤلاء الحكام . وتسرب هذا الرأي الى المسئولين عن المعتقلات من رجال الشرطة ، فجعلوا هذه وسيلة ناجحة في نظرهم لضرب المعتقلين بعضهم بعضا . ومن ثم شكلت لجنة امنية خاصة ، تتولى مواجهة المعتقلين وطلب التأييد منهم تأييدا ظاهرا ، ولتقوم باتخاذ ما يلزم من اجراءات . فكانت النتيجة ان اجاب احدهم ، وهو الشيخ علي عبده اسماعيل ان هؤلاء جميعا طواغيت يحارب بعضها بعضا لمصالح دنيوية ، وانهم جميعا في الكفر ملة واحدة ، فما كان من اللجنة الا ان عزلته ومن شاركه في هذا الرأي ، واودعتهم في عنابر خاصة بالسجن ، ومنعت عنهم الطعام والماء الا ما يمنع موتهم ، فاتفق رأيهم على كفر الحاكم ، بل كفر المعتقلين والمسجونين الذين لا يعلنون كفر الحاكم ايضا .

وهنا اخرجوا من هذه العزلة ووزعوا على جميع « العنابر » فاقاموا صلواتهم وحدهم ، واظهروا هذه الافكار وبدأ الصراع الفكري بينهم وبين بقية المعتقلين ، وخاصة الفقهاء منهم ، حتى وضعوا مذكرة في موضوع الكفر والايمان ، وتم عرضها على قيادة الجماعة الاسلامية التي اقرتها وهي التي صدرت فيما بعد في كتاب بعنوان « دعاة لا قضاة » ، بعد عدة اضافات تضمنت الاجابة على اسئلة الشباب في هذا الشأن .

تطور الفكر وتعدد فرقه

ان بداية ظهور هذا الفكر كانت بمثابة ردود الفعل لما لقيه البعض في ظرف تاريخي معين . ولم يكن هناك منهج لدى رواده الاوائل ، وهم جميعا من الشباب ، واكثرهم طلاب في الجامعات بل في المدارس الثانوية ايضا .

ولهذا بدأ الخلاف يدب بينهم وبين غيرهم ، ممن اعتبرتهم السلطة اعداء لها ، بينما يعدهم هذا الشباب كفارا لأنهم لا يعلنون كفر الحكومة . وكانت حصيلة هذه الخلافات ان تطور هذا الفكر واصبح له فرق متعددة ، اظهرها فرقتان عرفت الاولى باسم « جماعة المسلمين » ، والاخيرة باسم « الجماعة الحركية » ، وان كانوا لا يعلنون هذا الاسم .

والجماعة الاولى التي اطلق عليها اسم « جماعة التكفير والهجرة » تتميز بالوضوح والعلانية في تكفير الحاكم وجميع المحكومين الا من انخرط في جماعتهم .

اما الجماعة الاخرى فهي في الباطن تؤمن بهذا الفهم ، ولكنها لا تظهر تكفيرها للمحكومين ، وتعلن كفر الحاكم فقط . وهؤلاء يرون ان هذا الاسلوب ضرورة حركية ، اقتضتها مصلحة دعوتهم وجماعتهم في تلك المرحلة ، لأنها ـ كما يقولون ـ مرحلة استضعاف كالمرحلة المكية ، التي سبقت هجرة الرسول الى المدينة .

لقد بحثت كل طائفة عن نصوص شرعية تؤيد بها معتقداتها ، وهو ما يمكن تلخيصه بالنسبة لكل فئة على النحو التالي :

أولا : مناهج جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) :

هم يقولون ان المسلمين جميعا قد ارتدوا كفارا ، لأنهم يحكمون بغير ما انزل الله ، وانهم قد رضوا بذلك اذ لم يعملوا على تغييره واستندوا الى قول الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا

يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما) .

لقد ظل الحوار الهادي مستمرا بين معارضي هذا الفكر ومؤيديه ، حتى اثمر الحوار ثماره ، عندما اتيح لبعض ممثلي فكر التكفير ان يواجهوا بحجج مقنعة وواضحة : وكان على رأس هؤلاء شيخهم علي عبده اسماعيل . الذي دعى الى مراجعة كتاب « الاحكام في اصول الاحكام » لابن حزم الاندلسي ، وكتاب « العقيدة الطحاوية »، و « رسالة التعاليم » للامام حسن البنا .

وكانت النتيجة ان قام الرجل في صيف عام ١٩٦٩ واذاع على جماعته بعد ان صلى بهم العصر انه قد خلع التكفير كما يخلع ثوبه والقى ثوبه على الارض ، هنا اعترض شكري مصطفى ، الذي اعدم فيما بعد في تهمة قتل وزير الاوقاف الاسبق الشيخ الذهبي ، وكان وقتئذ طالبا بكلية الزراعة . وكون جماعة من عدة افراد ، عدل اكثرهم عن هذا الفكر ولم يظل معه الا شخص واحد ، كان طالبا بالثانوية . وكان شكري مصطفى يرد على منتقديه بان جماعة المسلمين قوامها من كان على الحق ولو كان فردا واحدا . وبهذا اقنع نفسه هو وفتاه انها جماعة المسلمين وان الجماعات الاسلامية والافراد في العالم كله كفار ، ما لم يبايعوا هذا الامام .

وفي نهاية عام ١٩٧١ صفيت المعتقلات فخرج شكري مصطفى وتركت له حرية تجنيد الشباب معه ولاسيما شباب الجامعات ، فاعاد النظر في فكره ووضع له كتبا شرع في نشرها ولكن حال دون ذلك اعتقاله ومن معه في قضية مقتل الشيخ الذهبي .

والتطور الذي طرأ على هذا الفكر يتركز في الآتي : ـ

ـ كفر جميع المسلمين منذ القرن الرابع الهجري .
ـ تكفير من لم ينضم الى جماعتهم من الجماعات الاسلامية في مصر وفي اي مكان بالعالم .
ـ تحريم دراسة التاريخ الاسلامي وكتب الفقه .
ـ هجرة المجتمعات المعاصرة كضرورة شرعية لنصرة الدين الممثل في جماعتهم .
ـ كفر من يرتكب اي معصية ، ولو كانت من الصغائر .
ـ تحريم الالتحاق بالمدارس والمعاهد العلمية لأن الله يقول (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) ولكن لايعملون بباقي الآية (يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

ـ العمل من خلال خطة العدو . فان كان لليهود مثلا ، مصلحة في اقامة دولة الخلافة الاسلامية من خلال رجل يصلح لتحقيق اغراضهم ، فليس هناك ما يمنع من الدخول عليهم من خلال خطتهم .

ثانيا : مناهج الجماعة الحركية

لم تكن هذه الجماعة كيانا مستقلا عن الجماعة الاولى ، فكانوا جميا يعلنون كفر جميع المسلمين ، وهذا يستلزم اعتزال المساجد ، وعدم الصلاة خلف كل مسلم حتى يوضح موقفه ، ويبايع هذه الجماعة ، وينضم اليها ، ويسمع ويطيع لقيادتها . كما يستلزم تحريم الذبائح المقدمة اليهم من آبائهم وامهاتهم وزوجاتهم ، مع فسخ عقود الزواج اذا لم تعلن الزوجة ايمانها بهذا الفكر ، وتبايع امام هذه الجماعة .

ولهذا عندما سئل قادة هذه الجماعة عن سبب تحديد مواقفهم بالنسبة لهذه النتائج التي تترتب على اعتقادهم بكفر غيرهم ـ انقسموا على انفسهم ، حيث رأى كبار السن منهم ، ان مواجهة الابوين والزوجات والعلماء والمجاهدين من المعتقلين بكفرهم سيؤدي الى سخط الجميع على هذه الجماعة وهذا الفكر ، والى انصراف الكثيرين عنهم .

ولهذا رأى هؤلاء ان فكرهم يحتاج الى ان يعرض بالتدريج ، لأن الضرورة ومصلحة هذه الجماعة تقتضي الا يعلن الا لمن آمن به ، فالمفهوم الخاص بهذا الفكر يلقن بالتدريج ، وهذا يسمى عندهم الحركة بالمفهوم ، وهي جزء من العقيدة .

وهذه الضرورة الحركية جعلتهم يخفون تكفيرهم لغيرهم وابتدعوا لذلك امرين :

○ الاول : المفاصلة الشعورية : وتقتضي عدم اعتزال المساجد والجماعات الاسلامية والعمل من خلالهم مع اعتقاد كفرهم ، فاذا صلوا خلفهم ـ مثلا ـ فلا ينوي احدهم صلاة الجماعة بل ينوي صلاة المنفرد .

والجدير بالذكر ان صلاة هؤلاء خلف من يعتقدون كفره تبطل هذه الصلاة ، ولا تصح بالمفاصلة الشعورية ، فمن نوى الصلاة منفردا وهو غير مرتبط بجماعة الصلاة لا يحل له ان يركع ويسجد مع هذه الجماعة ، فاتباعه الامام في الظاهر يبطل الصلاة .

○ الثاني : عهد الاستضعاف : رأى هذا الفريق ان أكلهم ذبائح من يكفرونهم ، وعدم فسخهم عقود زوجاتهم ، وعدم قيامهم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع لأنه كافر ـ كل هذه التناقضات بين الاعتقاد والسلوك المنافي له ، لا يزيلها الا قولهم انهم في العهد المكي عهد الاستضعاف الذي كانت تحل فيه هذه الاشياء في نظرهم . ولكن التمسك بأحكام العهد المكي لم يرفع عنهم التناقضات بل ادخلهم في تناقضات اهمها :

ـ ان هذا الاعتقاد من شأنه ان يرفع عن المسلم احكاما ثابتة كالصوم والصلاة والحج والجهاد . كما يرفع حرمة الخمر لانها لم تفرض في العهد المكي ، ومن قال بذلك فقد شرع للمسلمين واحل وحرم من دون الله .

ـ انه من التناقض البين القول بحل زواج المشركات في العهد المكي ، لأن سورة الممتحنة التي جاء فيها (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) نزلت بعد صلح الحديبية ومازال في مكة مسلمون مستضعفون . فطبقت عليهم مثلما طبقت على المسلمين بالمدينة ، وحسبنا ان السيدة زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت بمكة عند نزول هذا الحكم ففارقت زوجها العاصي بن الربيع ورحلت الى المدينة .

شبهات حول البيعة والجماعة

ولعله من الواجب ان نشير الى ان ما تمسك به هؤلاء ، في شأن تكفير المسلمين ، مما يدور حول البيعة والجماعة ، فقد قدموا للشباب فهما خاصا فيها ، يخالف ما كان عليه صحابة رسول الله (ص) وادلة ذلك بايجاز هي :

○ لقد استدلوا بحديث (من مات وهو مفارق للجماعة فانه يموت ميتة جاهلية) رواه البخاري ـ وفهموا انهم جماعة المسلمين وان ميتة الجاهلية تعني الكفر .

○ لقد غاب عنهم ان المسلمين الذين تخلفوا عن جماعة النبي (ص) وظلوا بمكة ولم يهاجروا مع النبي ، لم يحكم القرآن بكفرهم ، بل حجب عنهم الولاء وقيد نصرتهم . فقال تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) .

ـ وغاب عن هؤلاء ان نفرا من صحابة رسول الله ـ ومنهم ابو مسعود الانصاري وعبد الله بن مسعود ـ قد قالوا ان الجماعة في هذا الحديث هم اهل القبلة ، اي اهل الاسلام . وهذا يؤيده قول الله تعالى « ولتكن منكم امة » وقول النبي « لا يحل دم امريء مسلم الا باحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . فهذا الحديث جعل المروق من الدين ومفارقة الجماعة سببا واحدا لانه الخروج عن ملة الاسلام .

ـ ان بعض الصحابة لم يبايعوا ابا بكر ، وآخرون لم يبايعوا الامام عليا ، ولم يقل احدهما انه كخليفة للمسلمين يمثل جماعة الاسلام التي تكفر من لم ينضم اليها .

ـ واستدلوا بحديث (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) ولقد غاب عنهم ما يأتي :

ـ ان ميتة الجاهلية في هذا الحديث لا تعني الموت على الكفر ، للاسباب سالفة الذكر ، ولأنه قد ورد قول النبي فيما رواه البخاري ومسلم (من رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر ، فانه ان فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية) .

وفي هذا قال الامام الشوكاني ، « ميتة الجاهلية تشبيه باهل الجاهلية فليس المراد انه يموت كافرا بل يموت عاصيا » . نيل الاوطار جـ ٧ ص ١٩٤ .

ـ ان الاحاديث النبوية قد اوردت اكثر من بيعة اخذها النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة وهي : بيعة الاسلام ـ والهجرة ـ والنصر ـ والجهاد ـ والسمع ـ والطاعة ـ والموت .

والبيعة الاولى فقط هي التي يكفر من تخلف عنها ، وهي البيعة على الاسلام ، اما غيرها فيكون المتخلف عنها عاصيا فمثلا بيعة الهجرة قال الله عنها (الذين آمنوا ولم يهاجروا) فلم يرفع عنهم الايمان .

ـ ان الجاهلية ، ترد في النصوص الشرعية بمعنى الكفر وترد بمعنى المعصية ، فالاولى هي ما تتعلق بالعقيدة كالحكم بكتاب الله ، وفيها قال الله (افحكم الجاهلية يبغون) ، والثانية هي ما عدا ذلك كقول الله (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) وقول النبي لابي ذر (انك امرؤ فيك جاهلية) ومن ذلك احاديث البيعة والجماعة على النحو سالف الذكر . □□

سالم البهنساوي

القمع سببًا للتطرف وليس علاجًا له

بقلم الدكتور عبد العزيز كامل

أكتب هذه الكلمات ، وفي ذهني شريط طويل من الصراع بين الشباب والسلطان باسم الاسلام . بعض فصوله كانت في مصر ، وبعضها في اقطار اخرى الى شرقها وغربها . بعضها كان في اقدس ارض ، وفي اقدس مكان : البيت الحرام . والبعض خيوط تتجمع ، تنذر بالخطر ، في بعض اقطار الشرق الاقصى الاسلامية ، وبعضها كان في العالم الجديد ، حيث مجتمعات اسلامية ناشئة من عناصر مقيمة او وافدة ، والى هؤلاء وهؤلاء انتقلت بعض « عدوى » العنف وانفجاراته باسم الاسلام .

ولا اقصد بالشباب قطاعا من المحكومين . . من الشعب . وانما قد يكون الحاكم نفسه من « الشباب » : سنا او تصرفا . فاذا هو يجمع بين الشباب والسلطان وفي ذاته ، وله من مقومات الدولة وامكانياتها ، مايوفر له الاستجابة لما يؤمن انه الحق .

ونستطيع هنا ان نستعير تعبير ، دولة الشباب ، او « الدولة في مرحلة الشباب » من استاذ الجغرافيا السياسية فالكنبرج ، وان كانت هذه المدرسة ، قد اخلت الطريق لمدارس اخرى لاحقه ، وليس معنى إخلاء الطريق ان يضيع كل معالم النظرية القديمة ، وانما يحيا بعض ما بها في نظريات جديدة . . فالدولة اذا وصلت الى مرحلة النضج استقرت . . هذا اذا كانت ظروفها الداخلية والخارجية مما يعين على ذلك ، والا ظلت في فورة وتدافع حتى تصل الى ما تؤمن انه حقها . .

وفي عالمنا الاسلامي نشاهد كل انواع هذه الصراعات : وفي داخل الدولة الواحدة بين اجيال متتابعة ، او بين قطاعين من جيل واحد ، احدهما حاكم والاخر محكوم . ونلقاها بين دول متجاورة ، تسيطر على بعض تصرفاتها اندفاعات الدولة في دور الشباب . .

فالعلاقة بين الشباب والسلطان متداخلة ، ومتبادلة ، ومتقابلة ومن هذه الاوضاع الثلاثة ، بدرجاتها المتعددة ، نلقى صورا كثيرة التفاعلات .

من هذا التفاعل ننتقل في الموضوع خطوة لنسأل من هو الوسيط الغائب ؟

وفي كلمة واحدة اقول :

ـ الحوار العقلي . .

ولنعرض نماذج من هذا الخور في عالمنا المعاصر . مجرد نماذج لما نراه :

من المانيا : حدثني صديق عاش في المانيا فترة طويلة ، وشغل فيها مناصب في السلك السياسي ، وعنده متابعة

واعية للحياة هناك . وكنت اسأله عن العلاقة بين الشباب والدولة ، قال :

ـ تاخذ نموذجا من الحزب الحاكم الآن . ان الشباب فيه لهم اتجاه يختلف عن اتجاه القيادة السياسية . هناك نقاط التقاء سنعرض لها بعد قليل . ونقاط اختلاف تتعلق بمدى الاخذ بجوانب من الفكر الاشتراكي . . هذه النقاط يدور حولها حوار ، « داخل الحزب » ، وتحدث لقاءات بين الشباب والقيادة السياسية . ويبدي كل فرد رايه بكل حرية وشجاعة ، وبعد دراسة واعية . فالحزب مدرسة للتربية السياسية . وهو امتداد لحرية الفكر التي يمارسها الشباب في الجامعة والمراحل التي تسبقها . حتى وفي المراحل الاولى : يدور الحوار بين المدرسة والمنزل . بين الحي والمدرسة في لقاءات بين الآباء والمدرسين . والطالب في المدرسة لايلقي مصادرة على رأيه ، ولكنه يتعود من أول أمره ، ان يبدي الرأي المدروس . وان يحترم القرار الذي تنتهي اليه الاغلبية ، وان يقوم بتنفيذه . ويقودنا هذا الى امرين هامين في بناء المانيا الحديثة :

الاول : هو الشعور بالانتماء . ان الوطن ملك لجميع ابنائه ، وعليهم جميعا مسئولية المحافظة عليه ، امنا وعلما وعملا وإنتاجا .

والثاني : هو العناية بالطفل وتربيته على هذه المباديء عن طريق الأسوة الحسنة .

هذه بكل اختصار هي ، المعجزة الألمانية . وان كان الألمان لايحبون هذا اللفظ ، فالأمر عندهم جهد ونظام وعرق ، استطاعوا به ان يبنوا هذه الدولة من حطام الحرب العالمية الثانية ، حتى تصبح قوة صناعية لها وزنها العالمي . .

وتابع صديقي قوله :

ـ ولك ان تربط بين هذا ، وبين جهود المانيا وفرنسا وغرب اوربا في اقامة السوق الاوروبية المشتركة ، والبرلمان الاوربي ، ومحاولة بناء « غرب اوربا » لتقف بين القوتين العظميين : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . وما برهن به غرب اوربا على وعي بالقضايا العالمية :

اولا من خلال العمل والنظام وادخار الجهد لما هو اجدى .

وثانيا من خلال مقاومته الداعية للخطر الذي يتهدده ، من ان يصبح غرب اوروبا ميدانا للحرب النووية بين القوتين العظميين ،

وثالثا ، بالجهد الدائب في مقاومة المنافسة العتيدة لصناعات بعض اقطار الشرق الاقصى كاليابان وتايوان وكوريا ، حتى اطلق بعض الالمان على اليابان اسم . . البروسيين الصفر . كانهم المان الشرق الاقصى دقة ونظاما . . وماتدري : هل ستطلق على بعد شعوب غرب اوربا اسم : « اليابان البيض » !! . . بسبب التطور الكبير الذي حدث هناك .

□ ومن اليابان نموذج . .

ذكر لي صديق زار اليابان قريبا ، والتقى بعدد من كبار المسئولين عن الصناعة هناك وسألهم عن اضرابات العمال ؟ . . ونظر بعضهم الى بعض :

ـ لماذا يضربون ؟ انهم شركاء في المصنع . اي زيادة ، وتطوير في الانتاج ، يعود خيره على كل العاملين فيه : من رئيس مجلس الادارة الى اصغر العاملين فيه . الوقت حياة . راس مال .

وقال الصديق :

ـ كان من معظم الجالسين معنا فوق السبعين . وقابلت منهم عالما وضع خطة تأليف معجم ياباني ـ عربي ، وقدر المدة التي يستغرقها العمل بثماني سنوات مضى منها ثلاث . وكان الرجل في نحو الخامسة والسبعين . هكذا أملهم في العمل والانتاج .

وتستطيع ان تتصور عطاء مجتمع : شبابه لايؤمن بالاضراب ، وشيوخه في هذا الحماس للانتاج . .

□ ونموذج من الولايات المتحدة :

ففي دراسة نشرتها كريستيان ساينس مونيتور بقلم سارة تيري (١٩٨٠) : ذكرت كيف تحول النضال الطلابي « من المظاهرات الى المذكرات » ، وذلك عن طريق الاتصال والحوار مع اعضاء الكونجرس وادارات الجامعات ، وكيف استطاع الحوار الطلابي الواعي في عام ١٩٧٩ ان يقنع الكونجرس بالموافقة على قانون الطلاب متوسطي الدخل ، فارتفعت بذلك ـ الى الضعف ـ قيمة المساعدات المالية الفيدرالية المقدمة الى طلاب الجامعات ، والتي كانت تبلغ نحو ملياري دولار . . وذكر المقال نماذج اخرى من حوار الطلاب مع السلطات ، وتصعيده من مستوى الى مستوى أعلى ، الى الصحافة والرأي العام والقضاء ، بحيث أصبحت المظاهرات تشغل المكانة الاخيرة في سلم الوسائل .

وأكتفي بهذه الامثلة الثلاثة : من أقصى الشرق ، ومن غرب اوربا ، ومن العالم الجديد ، لأبين مكانة اسلوب الحوار الواعي وتطوير العلاقة بين الشباب والسلطة .

مقارنة :

ولو عدنا إلى أوربا بعد الحرب العالمية الثانية وفي أواخر الستينات ، لرأيتها كيف تفجرت قضايا الشباب ، بدءا من الجامعات الفرنسية في فبراير ١٩٦٨ ، وكيف انتشرت هذه الموجة فعمت اوربا وانتقلت منها الى غيرها من القارات والاقطار ، ومن بينها العالم الاسلامي . وكان محور الامر عندهم : العلاقة بين الحياة والتعليم الجامعي . فمهما قلنا في التعليم ، فان هدفه الاول ان يكسب الشاب رزقا . ان تكون في فكره وبين يديه ، وسيلة ايجابية تعينه على ان يعيش في قطره اذا كانت امامه الفرصة ، او في غيره من الاقطار اذا كانت الفرص اوسع . وظهرت اهمية الدراسات العلمية والتقنية والتطبيقية ، وبدأت مكانة العمل اليدوي تعلو الى جانب مكانة الفكر البحت . واليهما معا يحتاج التطور ، بالاضافة الى التخطيط والابتكار .

اسلوب المظاهرات العنيفة الناتج من انقطاع الحوار الواعي بين الشباب والسلطة ، قاد الدبابات الى داخل الجامعات في اوروبا ، وملأ الميادين بالمتظاهرين ، وتحول به قطاع من الشباب الى العمل في الجماعات السرية ، التي تحاكم الفرد غيابيا ، وتصدر عليه الحكم بالاعدام غيابيا ، ثم تقتله علنا !! .. وتفنن الشباب في انواع الصراع : من اصابة الأطراف السفلى ، وترك الضحية نصف حية ، الى حرب المدن في امريكا اللاتينية ، الى احتجاز الرهائن واعادتها حية او ميتة ..

وفي عالمنا الاسلامي :

واقول آسفا : أكثر من مسئول في اكثر من قطر ، كنت القاه ، فاذا ما جاء ذكر الشباب بدا سوء الظن ، وغلبت على التفكير اساليب القهر والاستبداد ، الا قليلا منهم

للأسف اقول : وكنت أسمع منهم تمجيد « المستبد العادل »

ـ ولا أدري كيف يجتمع العدل والاستبداد ـ أو يقولون : إن شعوبنا لايصلح معها الا القوة ..

حسنا .. اذا كانت القوة هي السبيل الوحيدة في الاقناع ، او على الأصح : في الطاعة بلا اقتناع ، او في النظام بلا ارادة ، فما الذي يحول بين الشباب واستخدام اسلوب يتبعه بعض القادة في تعاملهم مع الشباب ؟ ! .. القوة أمام القوة . والمفاجأة أمام المفاجأة!!

الطريق طويل :

واعتقد ان الطريق الوحيد أمامنا : هو اتاحة الفرصة لهذا الوسيط الغائب : الحوار العقلي والامر فيه ليس عصا سحرية ، او عصا معجزة تشق البحر يبسا ، وتفجر الصخر ماء ..

إنه طريق طويل .. سارت فيه شعوب أخرى غير اسلامية ، واستطاعت ان تقيم المعابر بين الشباب والسلطان . ولهذا الطريق معالم نوجزها فيما يلي :

ـ اولا : الانتماء : شعور المواطن ان الوطن ملك للمواطنين واجيالهم المتتابعة ، ومستوياتهم الاجتماعية ، وقواهم الاقتصادية . وهذا الانتماء يقوي باسلوب يعتمد اساسا على الأسوة : العمل الكثير والقول القليل . فائض انتاج دون إسراف في الاستهلاك .

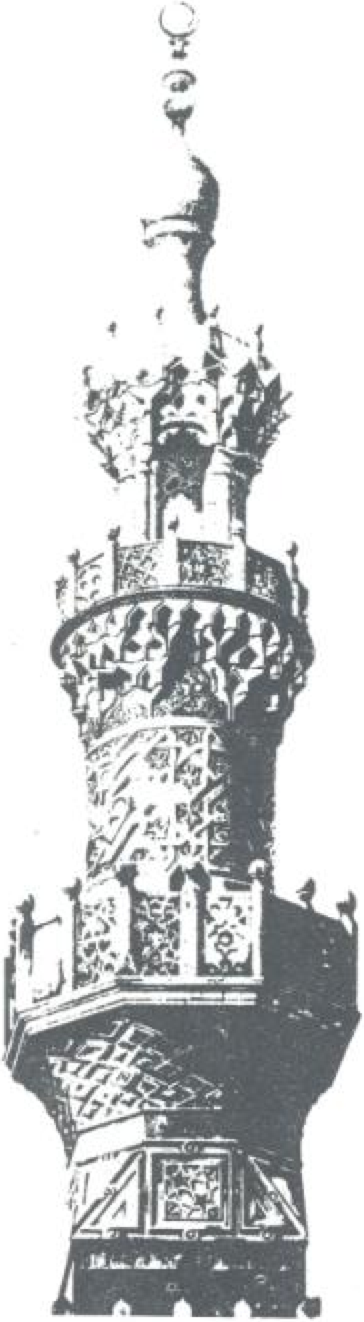
ـ ثانيا : اسلوب التربية : ذلك الذي يوثق العلاقة بين العمل والحياة ، وبين الاعداد للمستقبل ، وممارسته بنجاح . اما الشبع العلمي الكاذب عن طريق كتب ضخمة الحجم ، هزيلة المحتوى ، بعيدة عن هموم الواقع ، فمكانها ـ للأسف ـ ما نراه من إلقاء الطلاب كتبهم بعد انتهاء العام الدراسي : إما على سور المدرسة ، او التخلص منها إهداء ، او بيعا بالوزن في الدول الفقيرة .

ـ ثالثا : الربط بين العمل والأجر : وهذا الربط الصادق الذي يفتح المجال أولا للشاب ان يتكون في ظل من تكافؤ الفرص ، فلا يقعد به وضع اجتماعي او اقتصادي . ثم يفتح له المجال لان ياخذ الأجر العادل على مايعمل ، دون بطالة حقيقية او مقنعة ، يصبح بها العمل الحكومي او الاهلي ـ في بعض قطاعاته ـ نوعا من التسول المستور ، او التخدير المؤقت ..

ان الانقطاع بين الأجر والعمل الانتاجي ، يدعو الى الانقطاع بين المال والاحسان في انفاق ، فما جاء بغير جهد ، يذهب بغير جهد .. فاذا الشباب مخلوقات هشة لاتصمد أمام المغريات ، وتستجيب لأي نزوة .

ـ رابعا : التطبيق التدريجي في عالمنا الاسلامي لما أرسله الينا من كتاب ، وما تعلمناه من المصطفى عليه الصلاة والسلام .

أقول : التطبيق التدريجي ، بمفهومه الواسع ، ويشمل ـ فيما يشمل ـ النقاط الثلاث السابقة : وهي من الفطرة والاسلام . فالدين حياة : فأقم وجهك للدين



حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون » . (الروم : ٣٠)

وتأمل ما بعدها من الآيات الداعية الى الايمان والعمل والعبادة والوحدة :

« منيبين اليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ، ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » (الروم : ٣١ - ٣٢) .

ذلك ان الاقتراب الواعي من التطبيق الاسلامي على مستوى الفرد حيثما كان موقعه ، وعلى مستوى الجماعة ، يلقي في القلوب اطمئنانا ، ويوثق الصلة بين الشباب والسلطان ، ويؤكد ان الجميع على الطريق ، وفي حوار صاعد الى غد أفضل .

- خامسا : فتح الحوار الديني مع الشباب نظريا وتطبيقيا ، ليصل الى الاقناع والاقتناع . مع دراسة علمية متكاملة . لحركات الشباب الاسلامي وعلاقتها بالسلطة . ولنتفق مبدئيا على ان الحوار ليس اقناع طرف لطرف بكل ما عند الآخر . وانما هو لقاء يكون فيه كل شريك على استعداد للنزول عن رأيه - او بعض رأيه - عندما يتجلى له وجه افضل والأفضلية هنا لايحكمها مستواها الفطري المجرد ، وانما يحكمها اللقاء بين سلامة الفكرة وسلامة التطبيق .

وهذا الحوار يمتد من المدرسة بما فيها من كتب والمسجد ومابه من دروس وعظات ، والصحافة ومافيها من مقالات والكتب ومافيها من معلومات وآراء . .

ويمتد ليفتح أبواب الأجهزة التشريعية لتسمع الى الشباب وتحاوره . . ولتعود الاسرة ان يكون تعامل افرادها بالفكرة لا بالقوة . بعبارة اخرى : بقوة الفكرة لا بفكرة القوة .

وبعد . فهذه مجرد خطوط وخيوط من نسيج طويل يمتد سنوات وسنوات حتى يصبح في حياتنا عادات يومية ، كما صنع غيرنا ، وبهذا نستطيع ان نجمع بين سلامة العقيدة وسلامة اسلوب الحياة ، والمستوى الاخلاقي الذي يدعو اليه الاسلام مصدقا لما بين يديه ، مما انزل الله على انبيائه ، ومايزكو به وجه الحياة . . وعسى ان تفسح في حياتنا مكانا للوسيط الغائب بين الشباب والسلطان . ■■

د . عبد العزيز كامل

أسباب أربعة للتطرف

بقلم : خالد محمد خالد

ينشأ التطرف الديني من فراغ في النفس ، او التياث في الفكر ، او رد فعل لتطرف آخر ينتقص من نفوذ الاسلام ، او اثمار خبيث تقوده قوى غامضة لتقويض الدين وهدمه . . .

أهناك سبب خامس او سادس . . ؟؟ ربما . . ولكن ايا ما تكن فمردها جميعا الى هذه الاسباب الاربعة .

والاديان السماوية الثلاثة رزئت جميعها ـ ولا تزال ـ بهذا التطرف المقيت في شتى المراحل والعصور وكان ـ ولا يزال ـ لكل دين « خوارج » يخرجون على انماطه السديدة ، وسننه المألوفة والانيسة ، ليشفوا غيظ قلوبهم ، او يعكسوا ظلمات تفكيرهم .

والتطرف الديني هو مجاوزة الاعتدال في السلوك الديني فكرا وعملا .

او لنقل : انه الخروج عن مسلك السلف في فهم الدين وفي العمل به . .

فمسلك السلف في الاسلام هو المسبار والمقياس الذي يقاس عليه السلوك القويم .

فلقد نهل السلف من رسولهم الكريم ، وكانوا ادرى الناس باتجاهات التشريع ، وكانوا موضع احترام الكافة والخاصة ، حتى رأينا اماما عظيما كالامام [illegible]ك » رضي الله عنه يجعل عمل اهل المدينة اسا[illegible]يم الاسلام واستنباط احكامه وفقهه . .

الرسول قاوم التطرف

لقد قاوم الرسول عليه صلاة الله وسلامه التطرف مقاومة مفعمة بالحسم والحزم .

فمثلا ـ عندما اجتمع ثلاثة من اصحابه يتواصون على ان يرتفعوا بعبادتهم الى ما يؤود طاقة الانسان . . . فقال احدهم : اني سأصوم الدهر ، ولا افطر . . وقال الثاني : اني سأقوم الليل ، ولا انام . . وقال الثالث : اما انا فلن اتزوج النساء ابدا . . عندئذ ، وعندما نمى الى الرسول خبرهم استدعاهم اليه وسألهم : أأنتم الذين قلتم كذا ، وكذا . . ؟ قالوا ـ وجلين ـ نعم يا رسول الله . فقال لهم الرسول عليه السلام !

« أما والله ، انى لاخشاكم لله ، واتقاكم له ، ولكنى اصوم وافطر . . واقوم من الليل وانام . . واتزوج النساء . . فمن رغب عن سنتى ، فليس منى » !!

ان الصيام والقيام عبادتان لهما في الاسلام مكانة عالية . ومع ذلك اعتبر الرسول مجرد المغالاة فيهما عملا مرفوضا . . وذات يوم ، والرسول مع اصحابه في سفر ،وكانوا صياما ، خشى الرسول على اصحابه من وقدة الحر ولفح الهجير ، فافطر ، ونادى في اصحابه ان يفطروا . .

وامتثل الصحابة امر الرسول الا نفرا منهم واصل صيامه ، فلما نقل الى الرسول نبأهم غضب وقال : اولئك العصاة : اولئك العصاة . . اولئك العصاة !! فلما سمعوا ذلك افطروا . .

ويضع الرسول منهجا ذكيا للاعتدال والقصد فيقول عليه السلام :

« ان هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فان المنبت لا ارضا قطع ، ولاظهرا ابقى » . .

وفي متابعتنا لتاريخ السلف . سواء كانوا من أصحاب الرسول أولا . . أو من أتباعهم وأتباع أتباعهم ثانيا ـ نجد السماحة في تناول الشريعة ، والحذق في فهمها .

لانجد بينهم ـ في مجموعهم ـ سوى العقل النبيل ، والوعى الرشيد ، يبشرون بكلمات الله في تقوى نبيلة فيبعثون الحيوية والقوة في حياة الامة الروحية والخلقية . .

ولكن ، لكل دين نصيبه المحتوم من الاهواء المنطلقة ، والافكار المضللة . . ولم يسلم دين قط من التطرف والاعتساف بين نفر من اهله وذويه ولكل امة وعقيدة خوارجها ومحرفوها

ظواهر وحجج مردودة

ومظاهر التطرف الديني كثيرة . بيد انها تتلخص فيما ذكرنا ـ الخروج على مسلك السلف في فهم الدين وفي العمل به .

والتطرف في العمل صنو التطرف في الفهم ـ كلاهما تحد لسماحة الاسلام وعظمته . وكلاهما تزيد في الدين واتهام له بالتقصير . . وكأن الرسول قد بلغ رسالة منقوصة ، يجيء هؤلاء المتطرفون ليكملوها ويتموها .

خذ اليك هذا المظهر او هذا المثال : عندما تلمح سيدة او آنسة تغطى وجهها بما يشبه العباءة ولا تترك من نقابها الا فتحتين صغيرتين كفم العصفور امام عينيها . . من اين جاءت بهذا الزي العجيب ؟؟

وخذ مثلا آخر : هؤلاء الذين يرون في المجتمعات الاسلامية المعاصرة دور كفر . . اني لهم الحجة في هذا الادعاء . . ؟ !!

وصفة المسلم معروفة . . فالمسلم من يشهد أن لا إله إلا الله ويشهد ان محمدا رسول الله ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلا .

يسروا . . ولا تعسروا

× ولقد شهد مجتمع الاسلام الاول في عصر الرسول والوحي جماعات من المنافقين الذين قالوا للرسول : نشهد انك رسول الله . . . ففضح الله سرائرهم بقوله سبحانه : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون »

ولقد استأذن الرسول بعض اصحابه ليقتلوا احد المنافقين فقال الرسول : اولئك الذين نهاني الله عن قتلهم . . !!

اجل . . مادام قد شهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، فقد عصم دمه وماله ، واصبح مواطنا له كل حقوق المواطنة في دولة الاسلام .

ما ايسر ان يهرب الانسان من مسئولياته ، متذرعا باوهى المبررات واكثرها ضلالا وبطلانا . . لكن الذين يواجهون تبعاتهم ، ويبنون حياتهم وحياة امهم بناء صلبا وشامخا ، فاولئك هم الرجال حقا ، وهم المسلمون حقا . .

وقوله : « من سلك طريقا يطلب به علما ، سلك الله به طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » .

وقوله : « من خرج في طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع »

أليس قوله عليه السلام « او علم ينتفع به » واضحا في انه يعني مع علوم الآخرة علوم الدنيا التي تنفع الناس ، وتيسر لهم وسائل العيش والحياة . . ؟

الا ان الذين يقصرون مدلول هذه الاحاديث على علوم الآخرة ليسلبون الاسلام اعظم مزاياه وخصائصه . فالاسلام هو الدين الذي جمع بين حاجات الدنيا وحاجات الآخرة . . هو الدين الذي يعلم ابناءه ان يعملوا للدنيا كانهم يعيشون ابدا . . !!

اللّهم لا حول ولا قوة الا بك . .

الى علم الدنيا والآخرة

ان الاسلام يعلم ابناءه ان يركضوا الى العلم ركضا ، وان يتزاحموا حوله بالمناكب ، ويقبلوا عليه اقبال العاشق المشغوف .

وهذا العلم الذي يسوق الاسلام ابناءه اليه هو علم الدنيا والآخرة . . العلم الذي يزكي النفس ، ويسمو بالروح ، ويعرف المسلم حق الله عليه ، ثم العلم الذي يجعل من الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق المعرفة والحضارة .

وعظمة المسلم اذن ماثلة في ان الله اضاء حياته بالعلم الذي يهديه اليه ، وبالعلم الذي يمكنه من ان يجعل الحياة مرفأ آمنا ، ومكانا طيبا وانيسا لاقامته .

تناقض عجيب ومريب

هذا عن العلم ، اما عن الحضارة ، فان المتطرفين في هجوها ، والداعين لمقاطعتها يقعون في تناقض عجيب ومريب . فهم يتحدثون في « التليفون » ، ويستضيئون بالكهرباء ، ويركبون الطائرات في سفرهم الى الحج . . افلا يعلمون ان هذا كله مما افاءته الحضارة عليهم من عطاء . . ؟ !

ان المجتمع المسلم ، وان الدولة المسلمة هما اولى الناس بتبني قضية الحضارة الانسانية والغيرة عليها والاسهام في تنميتها والاخذ بالحظوظ الوافية منها ، لان الرواد المسلمين هم غارسو فسائلها ، وواضعو اساسها . .

ان الجانب النظيف من حضارة اوربا والغرب ، انما ولد وترعرع في احضان الحضارة الاسلامية . ومن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وغرناطة ، وقرطبة بدأ الموكب العظيم مسيرته .

لقد اكتشف العقل الاسلامي في ظل الدولة المسلمة وبمعونتها اروع الكشوف في جميع فروع المعرفة الانسانية . وفي نفس الوقت كان ثبات ايمانه وشموخه امرا ملحوظا ومثيرا .

ومن آبائنا « البيروني » الذي سبق « كوبرنيكس » و « جاليليو » بخمسمائة عام الى القول بان الأرض تدور حول نفسها وتدور مع كواكب اخرى حول الشمس . . وان الشمس ليست السبب في تعاقب الليل والنهار بل هي حركة الارض نفسها . .

ومن آبائنا « ابن سينا » و « الفارابي » و « الخوارزمي »

ونحن نملك « عمر الخيام » الذي لا نكاد نعرف عنه للاسف الا الجانب المرح واللاهي من حياته - بينما اوربا تعرف انه الرجل الذي طور علم الجبر وارتقى به الى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثيل الا على يد الفيلسوف الفرنسي « ديكارت » !!

ومنا « ابن خلدون » الذي لا يزال فكره موضع اعجاب واحترام العالم . .

أفنحن ، - وهذا امسنا - الذين نقاطع الحضارة حتى في ابسط مظاهرها وهو ارتداء « البنطلون » ، والقميص ونستعيض عنها بالجلباب يتوجه به الطبيب الى مستشفاه ، والمهندس الى عمله ، والطالب الى جامعته لابسا في قدميه « الشبشب » الذي يطلق العامة عليه اسم « زنوبة » . . ؟

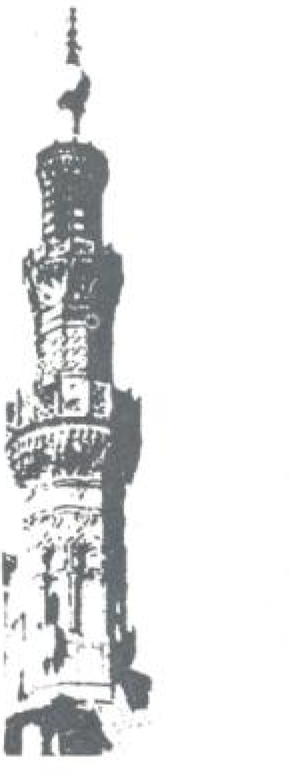
العدوان على بيت الله

ومن ابشع مظاهر التطرف الديني ذلك العدوان المسلح على بيت الله الحرام . . عصبة من الشباب . مخبولة عقولهم . . ضائقة صدورهم . . يتسللون الى اقبية المسجد الحرام ، ويملأونها بالسلاح والعتاد ، ثم يدعون الناس من فوهات بنادقهم الى مبايعة المهدي المنتظر ، الذي هو واحد منهم ، ويتسببون في ترويع المسلمين وتمريغ سمعة المسلمين كلهم في الوحل .

الفتنة كانت البداية

في رأينا ان التطرف الديني بدأ في الاسلام بالفتنة التي اودت بحياة الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » رضي الله عنه .

صحيح ان البواعث كانت خليطا من الفتنة السياسية ، والتطرف الديني ، الا انها في التحليل النهائي لها تبدو وكأنما لعب التطرف الديني فيها الدور الاساسي والرئيسي .. فقد كانت كل المآخذ التي روجها المتطرفون تعتمد في تقديرهم على مخالفات دينية ... ورغم ان الخليفة فند اكثرها ، ورجع عن بعض الاخطاء التي حسبت على حكمه ، فان المتطرفين اججوا لظى الفتنة ، واضرموا نيرانها ، وراحوا يتوسلون بالمنطق الديني وحده للتأليب على الخليفة ، والتحريض على دمه .. !!



استحلوا قتل الرجال والاطفال وسبي النساء المسلمات .. ولبثوا في ساحة الملعب مائة عام او تزيد يروعون الدنيا ، ويشغلون الحكومات .

لقد كانوا اوضح وابشع صور التطرف الديني .. ومن عجب انهم كانوا في سلوكهم العبادي من كبار العابدين ، ومع هذا فقد تجاوز بهم التطرف كل حدود العدل والرحمة والحق والعقل !!

وهذا يفتح اعيننا على « ازمة » التطرف الديني . وهي تتلخص في القلق الهستيري الذي يعانيه المتطرفون .. اما لفراغ في نفوسهم وشعورهم بالقحط القاتل .. واما لالتياث تفكيرهم وشرودهم عن جادة الصواب والحق .. واما لاحساسهم ـ الذي قد يكون صادقا بنقصان نفوذ الاسلام في المجتمع المسلم .. واما لمؤامرات خبيثة تمارسها بوسائل غير منظورة قوى خارجية . تطارد الاسلام وتعمل لاحباط دعوته ، وتمزيق وحدته .. وكثيرا ما يجيء التطرف الديني رد فعل لتطرف آخر في جانب الرذيلة والظلم والشر .

وايا ما يكن الامر ، فانه ينبغي ان نضع اعيننا على حديث رسول الله هذا ..

« ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء .

حتى اذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا واضلوا » ...

وبعد ، فالى الشباب المسلم المحب لدينه وللحقيقة نقول : تقدم في شجاعة الى الحياة الفرحة الفاضلة وخذ منها حظوظك الوافية ، ولا تعش في كآبة القلق ، ولا في ظلمات التطرف ومتاهاته ، واحمل فكرا مفتحا ولكن مستنيرا ، واجعل من نفسك صورة مضيئة للاسلام العظيم . فعندئذ تستطيع ان تنادي العالمين :

هنا ادخلوا ..
ادخلوا جميعا ..
لندعم الايمان العميق ..
ونبارك المسيرة الظافرة ...

خالد محمد خالد .

الوسيط الغائب
بين الشباب والسلطان

بقلم : الدكتور محمد فتحي عثمان

للتطرف والجنوح الفكري والعملي اسباب وعوامل متعددة : في مقدمتها الفهم الخاطىء للدين ومبادئه واحكامه ، والظروف التي تهيء له وتعين عليه . ومنها ما يلقاه الشباب من احباط نتيجة افتقادهم المثل العليا التي يؤمنون بها في سلوك المجتمع او سياسة الحكم ، ومنها الخطأ في ادراك حقيقة المثل العليا وطبيعة المجتمعات الانسانية واسلوب السعي لاصلاحها .ومن هذا الخطأ ما قد يحدث من تبسيط الاحكام وتعميمها بحيث لايكون هنالك الا اسود او ابيض ، ويغلب التشاؤم او التفاؤل على غير اساس او حساب ، فيكون اليأس من اصلاح الوضع القائم ويسود الوهم بامكان التغيير بالعنف من النقيض إلى النقيض ، بمجرد ازاحة شخص او حكم جزئي واحلال شخص او حكم جزئي آخرين محل هذا او ذاك .

وكثيرا مايستغل دعاة الايديولوجيات المختلفة هذا الضعف الفكري النفسي ، فيعملون على (استهواء) الراغبين في التغيير (العنيف) (اليسير) في نفس الوقت باسراف في التبسيط والتعميم ، وتاكيد للتشاؤم من اى اصلاح عن غير طريق العنف ، وللتفاؤل بتحقيق كل صلاح واصلاح بهذا الاسلوب الساذج الغشوم .

على ان من اهم الظروف التي تهيء لهذا الفهم الخاطىء للدين ومبادئه واحكامه وتعين عليه ، شيوع القهر والقمع بدلا من الطمأنينة والسكينة والحوار والاقناع ..وقد يشيع هذا القهر والقمع في الاسرة او المدرسة او المجتمع او الدولة ، وقد يشيع في بعض منها او فيها كلها ، ويكون رد الفعل في صورة تمرد عنيف من جانب الشباب ازاء (السلطة) التي تستخدم القمع في هذا المجال او ذاك .

ومن هنا يكون القمع سببا لاثارة التطرف والعنف وليس علاجا له .. ويشهد التاريخ بان حركات العنف بوجه عام كثيرا ما تنتشر تحت الحكم المتعسف ، وهكذا يستثير عنف (السلطة) في الاسرة او المجتمع او الدولة عنف التمرد على هذا العنف .. ومثل هذا العنف من جانب السلطة قد ادى قديما الى انتشار عنف الخوارج في ظل بعض العهود الحاكمة . وقد كان من الممكن ان يختلف الامر لوطال الزمن بعدل على بن ابى طالب او من يكون على شاكلته من حكام المسلمين ، ولربما صاروا مدرسة فكرية لاتمردا رافضا محاربا .

وليس معنى ذلك ترك الحبل على الغارب للمعتدين على امن الفرد ، والجماعة .. وانما يكفى في ذلك ردع القانون بما كفله من حماية وضمانات للافراد ازاء السلطة الادارية البوليسية الحارسة الحامية ، وبالنسبة لاجراءات التحري والتحقيق والاتهام والمحاكمة امام السلطة القضائية .وقد اخطأ خطأ كبيرا ذلك الحاكم المعاصر الذى قال عن جماعة اتهمها بالعنف في بلاده انها تمثل « خطرا استثنائيا لابد له من علاج استثنائي » ، ففتح باب التعسف من جانب السلطة والتطرف من قبل الافراد ، في بلد طالما عرف مجتمعه بايثار السلام والبعد عن العنف ، فما يزال هذا البلد يقاسي من (دورات) التعسف والتطرف من قبل السلطة والافراد حتى الان ، وهو يتكبد افدح الخسائر من ارواح المعتدى عليهم وحرماتهم حاكمين ومحكومين .

حتى لايدان الاسلام

واذا تحقق استبعاد (القمع) من جانب (السلطة)

ليكون علاجا للتطرف والعنف من قبل الافراد ، فانه ينبغي ان يقترن بذلك في المجال الوقائي الحذر من (ادانة) الاسلام ذاته بدلا من ادانة الانحراف والتطرف ، وقد يأتي ذلك عن جهل بالاسلام ومبادئه ، واحكامه ،اذ سرعان ماتنطلق بعض اجهزة الاعلام بمن فيها من غير العارفين بحقيقة الاسلام ، تدين مزج الدين بالسياسة بدلا من ان تدين العنف وتشجع الحوار المسالم المثمر البناء ، وتبارك الاختلاف في الرأى مادام نتيجة الاجتهاد الامين وفي حدوده (الكلمة) المخلصة . فالمسلمون يعرفون تماما ان رقابة الله شاملة لكل اعمال عباده حاكمين ومحكومين ، وان شريعته شاملة لكل مجالات الحياة . وانما يؤدى تورط البعض في ان يعرفوا بمالا يعرفون الى أن يفقد الشباب المسلم ـ ولاسيما في ظل الظروف والعوامل سالفة الذكر ـ كل ثقة في حكامهم وموجهيهم وفي معرفتهم للدين او اخلاصهم في اتباعه . وتزيد الهوة اتساعا بين الفريقين ، وتتعقد النفوس وتيأس من جدوى اى حوار . وقد يزيد من الحرج تورط بعض (الموظفين) من علماء الدين في ادانة المتهمين بالعنف دون انصاف او اعتدال ، والاسراف في نقد الجنوح من جانب الافراد دون نقد للحيف والتعسف من قبل السلطة . فينفر الشباب في ظل هذه الظروف المتضافرة من علم العلماء ، ويقنعون بما يمكن ان يتهيأ لهم من مقتطفات جزئية قد تلتقي مع ظروفهم النفسية الفكرية وتمردهم .وهكذا تضيع حكمة الدين الهادية وميزانه الالهي العادل واحكامه المتوازنة بين (الموظفين) من العلماء ، و (المتمردين) من غير العلماء !!

وفي هذا الحرج البالغ يحجم المفكرون المسلمون الذين يفيئون الى امر الله وعدله وحكمته دون افراط او تفريط من الميل مع هؤلاء او اولئك ، ويسكتون عن ادانة (العنف) من جانب الافراد . اذ قد لايستطيعون ان يدينوا معه (القهر) من قبل اصحاب السلطة ، فيؤثرون الصمت مع انهم لايقرون الخطأ في الجانبين كليهما . وهكذا يتهيأ المجال لان تشيع احكام منسوبة للدين في ظل تشنجات التمرد والتوتر ، ويعين على ذلك جنوح العلماء الموظفين وسكوت اصحاب التفكير الديني الهادىء الرصين .

واولى الخطوات الصحيحة في طريق علاج التطرف والعنف تهيئة المناخ الحر للحوار المخلص المثمر وكفالة الحقوق والحريات الأصيلة في ابداء الرأي والاجتماع وتكوين الجماعات بمقتضى القانون .. ولابد من ان يقترن بذلك التسليم بحق النقد وانتفاء العصمة عن كل البشر ـ حاكمين ومحكومين ، ويأتي في مقدمة هذا الباب الاقرار بالسلبيات القائمة في مجال الاسرة او المدرسة او المجتمع او الدولة .

دعوة لدراسة احكام الجهاد

ومن هذه الخطوة الاساسية ، وفي ظل المناخ الصحي الذي يتوافر على هذا النحو ، يكون واجب المجتمع الاسلامي المعاصر تبصر اهمية الحرية في بناء الاسرة والمدرسة والمجتمع والدولة ...وتبين الحقيقة الجليلة الخطر والأثر ، وهي ان الاسلام الحق الصحيح لايعنى فقط بالجواب على هذا السؤال الهام : ماهي الاحكام التي تحقق صالح الفرد والجماعة ؟ ، ولكن يعنى كذلك باجابة سؤال آخر لايقل اهمية هو : كيف يتحقق تطبيق هذه الاحكام ، وكيف يتأتى لها ان تؤتي اكلها وتثمر ثمارها . ومن ثم لاتكون الدعوة الى تطبيق شريعة الاسلام مثارا لفرض قمع آخر ونشر تسلط او فتنة من اصحاب ثمرة سلاح غشوم ، وقد اتى الاسلام لدفع الفتنة عن عباد الله وجعل الدين كله لله .

ويستدعى ذلك تسليط الاضواء على احكام (الجهاد) في ديننا وتراثنا الفقهي والواقعي لاستجلاء حقيقته الموضوعية الثابتة وظروفه التاريخية المتغيرة في غير لبس .. حتى لايندفع مسلم في عدوان عن جهل او خطأ في التأويل ، ولايتوجس غير مسلم في المجتمع الاسلامي او الدولي من شر نتيجة ما قد يسمع من بعض المسلمين او يقرأ لهم دون تقدير لظروف الزمان والمكان .

ويلحق بذلك تبين وضع الدولة وحكامها اذا كانت لاتحكم بشريعة الاسلام ، وغالبية مواطنيها مسلمون . وما اذا كانت تعتبر سلطة كافرة او مرتدة . وهل يشمل ذلك الوصف شخص الدولة المعنوى واشخاص الحكام الطبيعيين ، وتحديد مكان نظام الحكم بالنسبة للاسلام والايمان . كما يلحق بذلك الكشف عن تاثيرات الفكر التنظيمي الماركسي في فكر الشباب المسلم ، واستراتيجيته الحركية بوعي أو دون وعى وتفاعل هذه التجارب والخبرات المعاصرة في العمل ضد الانظمة الحاكمة مع مبدأ الجهاد الاسلامي واحكامه بصورة غير سليمة أوناضجة .

انها امانة كل مفكر مسلم معاصر ، مهما يلق من مشاق الارتياد لاستجلاء حقائق الاسلام ، وسط ماخيم من ركام وظلام .. وفي نور (الحرية) تستبين (الحقيقة) و (الحق) .. والله غالب على امره ■■

سيبقى الغلو
مابقى التغريب

بقلم : طارق البشرى

يصعب الحديث عن التطرف دون البدء ببيان ما هيته ، أو بالأقل الاشارة الى مدلوله العام لدى الكاتب . حتى يكون القارىء على بصيرة من المأخذ العام الذى يوجه الكاتب ، وحتى لايقوم نوع من سوء الفهم بين الاثنين فى ضبط المعانى المقصودة .

وللتطرف عندى معنى يختلف عن العنف . فحزب الوفد فى مصر مثلا لم يعتبر متطرفا رغم أنه شكل تنظيما سريا يمارس العنف فى ثورة ١٩١٩ . ولا نكاد نرى اختلافا فى الطبيعة السياسية للوفد من حيث الاعتدال أو التطرف ، عندما وجد هذا التنظيم السرى أو بعد تصفيته . والثورة الصينية لم تعتبر متطرفة لمجرد أنها أمسكت السلاح حتى انتصارها فى ١٩٤٩ . وقد يميل الكثيرون الى وصف الثورة الثقافية فى الصين بالتطرف ، رغم أنها لم تركز فى الأساس على السلاح . والمنظمات الفلسطينية يؤيد غالبها حمل السلاح . ولكنها تصنف من حيث الاعتدال والتطرف وفقا لمعيار آخر .

التطرف فى ظنى وصف يرد من قياس الأهداف السياسية والاجتماعية لتنظيم أو تيار معين . وهو يرد بالنظر الى حجم التغييرات الهيكلية التى يطالب بها فى بنية المجتمع ، السياسية أو الاقتصادية أو الفكرية . أو أنه يرد بالنظر الى مدى عجلة التنظيم فى تحقيق ما يسعى اليه . والعنف فى ظنى أدخل فى كونه اسلوبا لتحقيق الاهداف المرجوة .

قد يكون العنف مؤشرا ذا دلالة على التطرف . وقد تكون هناك علاقة طردية بينها . ولاشك أن ثمة علاقة عضوية بين نوعية التغيرات التى يستهدفها تنظيم ما وبين أساليه فى السعى اليها . كما أن هناك علاقة بين طبيعة تلك التغييرات المستهدفة ، وبين دائرة التحالفات التى يمكن للتنظيم أن يتحرك فى اطارها . وأن احتمالات استخدام العنف تزيد مع ضيق دائرة التحالفات الممكنة . على أن ذلك كله لا ينبغى أن يطمس الفارق بين التطرف من حيث هو غلو يتعلق بحجم التغييرات المطلوبة ونوعها ، أو يتعلق بمدى العجلة فى تحقيقها ، وبين العنف من حيث هو وسيلة لتحقيق تلك الأهداف . ولكل من الظاهرتين أسباب متميزة ، لا ينبغى أن تختلط عند النظر التحليلى .

وبالنسبة للعنف كاسلوب ، فقد عرفه التاريخ المصرى مثلا ، لا من حيث كونه اسلوب التنظيمات المتطرفة فقط ، انما كانت جماعات من المعارضة تلجأ اليه ، فى ظروف عدم التناسب بين حجم المعارضة السياسية للنظام ، وبين الامكانيات المحدودة لظهور هذه المعارضة من خلال المؤسسات الشرعية ، وفى ظروف جنوح بعض

الحكومات الى ما تنقطع به النياط بينها وبين الكتلة الرئيسية للرأى العام السياسى ، وفى الظروف التى كاد أن ينعدم فيها تأثير تلك الكتلة الرئيسية على قرارات الحكومة .

ويؤكد ذلك أن موجات النشاط السياسى المطبوع باستخدام العنف ، قد تكررت فى مصر فى ١٩١٠ - ١٩١٢ ، ١٩١٩ ، ١٩٤٦ - ١٩٤٨ . وهى بعينها الفترات التى لم تتح المؤسسات الرسمية والشرعية فيها للمعارضة امكانيات الظهور والتأثير بالقدر المناسب لحجم المعارضه الحاصلة . والجدير بالملاحظة هنا أن استخدام العنف لم يكن بالضرورة واللزوم ، صنيع التيارات الأكثر تطرفا من الناحية السياسية . وقد مورس أحيانا من جماعات محدودة مغلقة لا ترتبط تنظيميا بحزب أو تيار أساسى .

ومن جهة أخرى ، فان الغلو أو التطرف الذى يقاس بالأهداف السياسية ، وبمدى ما يستهدف من تغييرات هيكلية فى بنية المجتمع ونظمه ، أو يقاس بمدى العجلة فى السعى لهذه الأهداف ، هذا الغلو ذو وصف نسبى . أى أن المغالاة لاتقاس بمعيار مطلق ، انما تنسب الى التيارات الأخرى القائمة . ومقياسها يتغير بتغير الأزمان والظروف السائدة .

« معالم فى الطريق »

ان ما يسمى بالتطرف الدينى ينبغى النظر اليه منسوبا الى الحركة الاسلامية السياسية عامة فى بلده . لأنه بنسبته الى أهداف هذه الحركة يتخذ وصف الغلو أو الاعتدال . وكذلك ينظر الى التطرف اليسارى منسوبا إلى أهداف الحركة اليسارية عامة فى بلده . ومن ناحية أخرى فان الغلو هو وصف وليس حكما بالحسن أوالقبح . ويكاد يوجد فى كل تيار سياسى عام ، الغلاة والمعتدلون . ولعل الضرورات الاجتماعية هى ما يوظف كل منها فيما سخر له .

ويبدو لى أن الغلو فى التيار الدينى الحالى ، انما تصور اطاره النظرى تعاليم المرحوم سيد قطب . قد يرى البعض أن « سيد قطب » لم يقصد أمرا كهذا . ولكن أيا كان الأمر ، فالفكر المفكر لا يقف عند حدود قصده ومشيئته ، انما يمتد ويتفاعل فى موجات لم يرسم هو حدودها ولا يستطيع السيطرة عليها . والمرجح أن « معالم فى الطريق » قد صارت له تفاعلاته الموضوعية مع حركات الشباب الدينى فى هذه الأيام .

ويبدو لى كتاب سيد قطب هذا ، يمثل نظرية للحركة فى اطار الفكر السياسى الاسلامى ، تشبه كتاب لينين « ما العمل » فى اطار الحركة الماركسية وقت صدوره . وقد جاءت أهمية كتاب لينين وقتها ، أنه رفض المسلك النقابى واهتم بالنشاط السياسى الموجه للمؤسسة الحاكمة ، وانه اهتم بالحزب كمؤسسة للحركة غير التلقائية فى النشاط السياسى ، وكرابط بين النظرية وبين الحركة . أى أقام هذا الربط من خلال التنظيم حزبا أو دولة .

و « معالم فى الطريق » يصنع أمرا شبيها . فهو يقول ان بعث العقيدة هو مهمة « الطليعة » ، التى تعتبر كتيبة صدام وتمثل نوعا من العزلة عن المجتمع « الجاهلى » . ويشير الى أن كان دخول الاسلام يعنى وقتها الانخلاع التام عن الماضى الجاهلى والعزلة الكاملة عن روابطه والابتعاد عن ضغوط تصوراته . وان ليس بين الأمرين منتصف طريق ، وأشار فى « لا اله الا الله » الى معنى النفى للحاكمية القائمة ، وان لا صلح مع الجاهلية » ، ولا اتصاف حلول معها ولا تلبس ولا امتزاج ، وليس وراء الايمان الا الكفر .

على أية حال أردت بهذه العجالة أن أبين بعض خطوط الاطار النظرى للغلو الدينى السياسى . وان أوضح فكرة الانخلاع عن المجتمع القائم عنده . وما يهمنى هنا الحديث عن أسباب الغلو . ويتحدث كثيرون عن أسباب له ، لا اخالها قادرة على التفسير الكامل له . وهى أسباب (فى بعض تأويلاتها) تبتعد عن المنهج التحليلى الصائب .

يذكر البعض أن الفقر هو سبب ظهور المغالين . والفقر عامل اقتصادى وهو سبب صالح اجتماعيا لأن يفجر الحركات السياسية الاجتماعية . ولكنه هنا لا يفسر اللجوء الى التيار الدينى خاصة ، ولا يفسر وحده وفى ذاته لِمَ لم يتجه الشباب الى تيارات « التطرف العلمانى » ؟ هنا يضيف المؤولون عاملا نفسيا ، اذ حل الحجاب والجلباب مشكلة الملبس الغالى . ولكن هذا العنصر النفسى يفسد المسألة ، لأنه عنصر قد يفسر وضعا فرديا ، ولا يفسر ظواهر عمت تتطلب الاسباب الاجتماعية . والظاهرة الاجتماعية لا يصلح مفسرا لها سبب يجرى فى المجال النفسانى . ونحن هنا لانجد الفقر بحسبانه وضعا اقتصاديا ، ولكن نجده باعتباره حالة نفسية ، يراد بها أن تفسر ظاهرة اجتماعية . وفى هذا تخليط واضح .

وثمة سبب آخر يشار اليه ، هو أثر هزيمة ١٩٦٧ . والمفكرون الاسلاميون يستدلون منها على سبب لحتمية

الحل الاسلامي . اذ فشلت من قبل الليبرالية الغربية ، ثم ظهرت هزيمة ١٩٦٧ من بعد فشل الثورة الاشتراكية . ويستنتجون من ذلك أن تكاملت حلقات فشل الفكر الوافد . فلم يبق الا الاسلام . هنا نلمح في نهج التعليل اطلالا على مشكلة الصراع التاريخي القائم بين ما يمكن تسميته بالوافد والموروث في العقيدة والحضارة . ولكن الحركة الاسلامية والمغالين وجدا من قبل الهزيمة . وسيد قطب نفسه أعدم قبلها ، فهي من ثم ظرف لايصلح وحده مفسرا

ثم ان بعض المحللين من خارج الفكر الاسلامي ، لا يرون أصلا ميدان هذا الصراع العقائدي والحضاري . هؤلاء يسقطون هنا سقطتهم المنهجية السابقة اذ يحملون الظاهرة الاجتماعية على العناصر النفسانية . فالهزيمة لديهم هي يأس نفساني أوصل الشباب الى المجوع الى سكينة الغيب .

وسبب ثالث يذكره بعض دعاة الاسلامية . هو ما صادف الحركة الاسلامية من الوان البطش والقمع والعذاب في المحن المعروفة في تاريخها . والجأ ذلك الشباب منها الى تكفير هذا المجتمع وحراسه الذين يواجهون دعاة الاسلام بكل هذا العتو والفظاظة . ولكن هنا أيضا لا نجد سببا يحمل الظاهرة في امتدادها الى من لم يعرف سجون الخمسينات والستينات من شباب اليوم

هنا وعاء السببية

يسهل طبعا نقد الاسباب ، ويصعب الوصول الى السبب الأكثر اقناعا . ولكن علينا أن نحاول ، لعل الله يهدينا طرفة عين ، أو يكون خطؤنا مما يهدي الآخرين الى بعض الصواب . وعلى أية حال فأنا لا أطعن على الأسباب السابقة جملة وتفصيلا . انما أتشكك في كونها مجتمعة أو منفردة تصلح وحدها كسبب جازم للغلو الديني لأنها غير كافية أو هي تثير تساؤلات أخرى . ولأن تأويلها النفساني غير دقيق . وفيما عدا هذين التحفظين ، علينا أن نعتبر بها بوصفها من العناصر المشددة والمثيرة .

وأنا لا أبحث هنا عن سبب خاص أو عام ، انما أتلمس ما يمكن تسميته « بوعاء السببية » لهذه الظاهرة . وفي هذا الصدد تحضرني قصة الشيخ علي الغاياتي . كان شابا أزهريا يعالج الشعر ، انتقل من بلده دمياط الى القاهرة في طلب العلم . لمرف صحيفة اللواء في ١٩٠٧ واتصل بمحمد فريد وعبد العزيز جاويش . ومع تصاعد الحركة الوطنية في ١٩١٠ ، جمع من شعره ما أصدر به ديوانا اسماه « وطنيتي » ، وكتب مقدمته محمد فريد ، فقبض على محمد فريد وهرب الغاياتي الى تركيا ثم سويسرا ، حيث بقي سبعا وعشرين سنة تزوج خلالها من فرنسية وعاش عيشة اوروبية خالصة . واصدر مجلة « منبر الشرق » ، وعلا نجمه حتى صار ذا صلات واسعة بدوائر السياسة والاعلام الاوروبية .

عاد الغاياتي الى مصر في ١٩٣٧ فماذا حدث ، لم يلبث طويلا حتى عاد الى الجبة والقفطان يرتديها والى العمامة يلبسها . واطلق لحيته واعاد الى اسمه « الشيخ علي الغاياتي » والزم زوجته الفرنسية عادات سيدات الشرق تحجبا وتنقبا . ماذا حدث ؟ يوضح ذلك احمد حسين بقوله ان الرجل تحرك حركة عكسية لما شاهد بلده يتحرك اليه . رأى الانحلال فسلك الى التحفظ ، ورأى اندفاع الثلاثينات في مصر الى اللادينية فاستمسك بالدين ، ورأى الاباحية تتشح بالتطور فهتف « إني رجعي . . . » . والحق أن الرجل كان عنيدا مقاوما . لقد قبل الأوروبية في أوروبا ومارسها الى حد الزواج . ولكن لما عاد يطلب بلده لم يجده ، ووجده أوروبا نسخة مقلدة أمامه . لم يعد الى مصر ، بل « هاجر » اليها . وربط بهذا كل ما شاهده في « النسخة المقلدة » من زيف وميوعة .

أكتفي بهذه القصة لبيان ما أريد الاشارة اليه ، في فهم المنطق الداخلي للحركة الاسلامية التي تصاعد نموها في مصر في تلك الفترة عينها . أقول في هذه القصة مكمن السبب وهنا وعاء السببية ، سواء للحركة الاسلامية عامة ، او لحركة الغلو المعنية في هذا المقال خاصة . أقول نحن لن ندرك لوجود الغلو سببا معزولا عما تقوم عليه الحركة الاسلامية في جملتها . وان عزل العموم عن الخصوص هنا يفسد المسألة ويغمي عن البصر بها . أقول ان من مظاهر عدم دقة الأسباب السابقة انها عزلت قمة الموجة عن سفحها . وسؤال لماذا الغلو الديني ، هو في حقيقته وفي ظروفنا سؤالان . لماذا الحركة الدينية أصلا ؟ ، ثم لماذا غلو من يغالي فيها ؟ . وعندما ندرك للحركة الدينية سببا ، سندرك أن الغلو انما تأتى في الأساس ، من كثافة ما توافر من عناصر هذا السبب في لحظة تاريخية خاصة ، وفي بلد معين . فاذا ظهر أن قيام الحركة الاسلامية كان بسبب هجمة التغريب ، فيمكن القول بأن الغلو في التغريب ولد هذا الغلو الديني .

الغلو والتغريب

ان ما نتعارف على تسميته بالحركة الاسلامية السياسية

اليوم ، قد ظهر فى أواخر العشرين من القرن الحالى . ولظهورها فى هذا الوقت دلالته ، لأن من يراجع مطالعة التاريخ الحديث منذ الحملة الفرنسية فى أوائل القرن الماضى ، يتكشف له أن الغزو الاستعمارى الأوربى لبلادنا ،قد جرى على مدار القرن التاسع عشر فى مجالات السياسة والاقتصاد والفكر والحضارة جميعا ، فضلا عن الغزو المسلح . ويلزم الاعتراف بأن المقاومة الوطنية جرت ضد هذا الغزو فى مجالاته المختلفة ، ومنها الميدان الفكرى والحضارى لاستبقاء الهوية الذاتية للجماعة المحلية . وصار هذا الميدان من الصراع ممتدا ومتطاولا . وتصاعد احتدامه مع نشاط عوامل التغريب .

على أن هذا الوجه من أوجه الصراع الوطنى ، ظل ممتزجا ومرتبطا بالصراع الوطنى السياسى ، حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، وحتى نهايتها . ونحن نلحظ فى مصر وسائر البلاد العربية ، ارتباطا بين الحركات السياسية المقاومة للاستعمار وبين التكوين الاسلامى فى المعتقد والحضارة ، وبين حركات التجديد والاصلاح ، وذلك على مدى القرن التاسع عشر . وما كانت تأخذه القوى الوطنية من الغرب ، كان شبه محصور فى الوسائل المادية [illegible] .

ويمكن القول بأن الفكر الغربى كنظريات سياسية واجتماعية وكمصدر للاحتكام والشرعية ،لم ينغرس فى أرضنا الا فى أواخر ذلك القرن وفواتح القرن الحالى على أيدى منابر ومدارس ذات صلات وثيقة بالوافد الأجنبى . ولكنه حتى ذلك الوقت بقى شبه مفصول عن الحركة الوطنية السياسية ، ولعل الحزب الوطنى فى مصر يكون من الأمثلة الواضحة على ذلك . اذ ظل يقود الحركة الوطنية بصبغة اسلامية سياسية واجتماعية .

ولكن مع انتهاء الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٨ ، وفى السنوات القليلة التالية ، تبدل الموقف . وأهم أوجه التغير تعلقت بثلاثة أمور ، أولها ظهور ما يمكن تسميته بالوطنيين المتغربين أو بالوطنية العلمانية . وقيادة هذا التيار للحركات الوطنية ، وانطباع مشروعه للاستقلال السياسى بنماذج البناء الحضارية الغربية . وبدا هذا المتصر كما لو أنه انتصار حاسم للعلمانية والتغريب . وثانيها الغاء الخلافة العثمانية الاسلامية فى تركيا ، بما أفقد الاسلامية السياسية المؤسسة المجسدة لهويتها . وثالثها تجزئة بلادنا وتقسيمها أشلاء مبعثرة بين القوى الأوربية المنتصرة .

فى هذا الظرف التاريخى ، وقبل أن تمضى عليه سنوات قليلة ، ظهرت الحركة الاسلامية السياسية . وكانت قد انفصلت الحركة الوطنية السياسية بقيادتها ، عن حركة المقاومة الفكرية والحضارية للوافد الأجنبى . فاستوجب هذا الميدان جيشا آخر وقادة آخرين . ولقد قوى المد التغريبى والعلمانى بعد أن أكسبته القيادة العلمانية الوطنية شرعية الوجود فى المجتمع ، وبعد أن تشكل نموذج الاحياء الوطنى على وفق صيغ الغرب . فعظم الصراع واحتدم فى هذا الميدان ، تقاوم فيه الحضارة الموروثة عن وجودها ، فكرا وعقيدة . ولقد ألغيت الخلافة كمؤسسة جامعة وزالت من الوجود وتناثرت البلاد أشلاء ، فلزم لم الشمل من جديد . وليس صدفة أن تظهر الحركة الاسلامية السياسية وتنمو سريعا فى مصر ، البلد الذى لم تكن العروبة كدعوة جامعة قد انتشرت فيه بعد .

ظهرت الحركة الاسلامية مع هيمنة التغريب . وتصاعدت مع تصاعده . وهى تعتو مع عتوه . وفى اطار هذا الوعاء العام للسببية ، يمكن اضافة الاسباب الاخرى المكملة ، وهى ستكون صحيحة بقدر أو بآخر فى هذا الحيز من الصورة العامة .

ويبدو لى أن الغلو سيبقى بدرجات شتى وأشكال متنوعة وعلى فترات ممتدة أو متقطعة ما بقيت هيمنة التغريب ، ولن يضعف الا بضعفها ، أو أن يلقى أى من بلادنا مصير الأندلس . وقانا الله شر ذلك المصير . والحمد لله . ■■

طارق البشرى .

أب يبحث عن "عروسة"

بقلم : سعد كامل

ظلت هذه اللفافة الصغيرة المغلقة بعناية في ركن من مكتبة والدي العتيقة ، لم اكن اعيرها اهتماما ، اهملتها اثنى عشر عاما منذ وفاته . كانت تعترض طريقي دائما عندما كنت ابحث عن شيء مفقود ، فانقلها من مكانها الى آخر . . .

ومنذ فترة قصيرة أصابني الأرق ، فقررت ان اقاومه بالنهوض فورا والجلوس على مكتبي لاقرأ او اكتب شيئا . . لم اجد ما هو مناسب أسلي به نفسي في هذه الساعات الاولى من الصباح . . . وبينما كنت ابحث في مكتبي اعترضت طريقي هذه اللفافة المنسية منذ سنوات . فرصة وجدتها لقتل الوقت الممل ، ولأنتهي من هذا الشيء الذي لم اجد في نفسي ـ طوال هذه السنوات ـ القدرة على الحسم في ان افضها فأعرف مابها ، أو ان القي بها في سلة المهملات فيطويها الزمن مع ما طوى من اسرار واخبار .

ما كدت افتح اللفافة حتى وجدت فيها خطابات مرسلة من صديق والدي العزيز واسمه (نوفل) ردا على رسائل كان يبعث بها والدي في شبابه . كان والدي وقتها يبحث عن عروس (مناسبة) ، وقد كلف صديقه (نوفل) وزوجته ان يساعداه في هذه المهمة . وهالني ان هذه الخطابات ترجع الى سنة ١٩١٨ . اخذت اقرأ الخطابات بنهم ، كنت ابتسم احيانا ، ويسرح بي الخيال احيانا اخرى ، على طريقة البحث عن زوجة منذ اكثر من ستين عاما . ورأيت بعد ان انتهيت من قراءة هذه الخطابات انها ليست ملكا لي ، وعليّ أن اعرضها على شباب هذا الجيل ، وعلى خبراء الاجتماع ليتعرفوا على اسلوب العلاقات الاجتماعية والاسرية في هذه الحقبة من الزمن . واهمية هذه الخطابات لاتستمد من اهمية اصحابها بل لانها تعطي صورة صادقة لوضع المرأة في هذا الزمن البعيد نسبيا ، ولعلاقة الشاب بمن يريد ان يصاهرهم ، بل لعلاقات الصداقة بين الرجال ، وعلاوة على هذا اسلوب الخطابات بين الاصدقاء .

لهذا رأيت ان انقل للقارئ بأمانة صورة طبق الاصل من هذه الخطابات ـ لم احذف منها الا ما يخرج عن الموضوع ـ ومن الطبيعي ان هذه المراسلات تمخضت عن عثور والدي على (العروس) المناسبة والتي اصبحت امي بعد ذلك . . رحمها الله .

* * *

٩نوفمبر ١٩١٨

عزيزي الفاضل كامل افندي

ما ألذ ساعة قراءة خطابات الاحباب وما أكثر طرب القلب لسماع حديثهم العذب ، وما اكثر انشراح النفس وقرة العين لطمأنينتها على صحة الاخوان ! ان خطابك يا كامل افندي كان اليوم رسول العافية وبشير السرور وأن صحتي لتكمل اليوم فرحا بخطابك ، فالحمد لله الذي اوجد لي من عباده نفوسا تكسبني الفرح وتجلو الفؤاد من المرض .

قرأت خطابك ووقفت على ما به من كمين اسرارك فاحتفظت بها واني باذل جهدي مع شريكتي في الحياة لتحقيق امنيتك ان شاء الله وستبحث هي مرادك وضالتك



المنشودة حتى تكون مسرورا قرير العين منشرح الصدر ناعم البال . وان شاء الله عند ظهور اي بارقة امل سافيدك والتتمة على الله وعليك والحمد لله .

٥ ديسمبر ١٩١٨ الساعة ٩ مساء

عزيزي الفاضل

سلاما واحتراما فقد وصلتني تذكرتك وقبل وصولها بيوم واحد كنا نعمل مناورات في احد المنازل لتصيد لك عروسة حليوه وللآن اهتدينا الى ثلاث :

الاولى - قوام معتدل - بشرة خمرية - عيون سوداء - متوسطة السن - ١٩ - رب الاسرة تاجر بخان الخليلي (. . .) املاكها الخاصة ٣٠ فدانا - ليس لها المام بالقراءة والكتابة .

الثانية - جارة (لا جارية) لنا ، بنت مهندس ري الواسطى قوام متوسط - لون البشرة أبيض - عيون وشعر ورقة (لاورقة بن نوفل) متعلمة متمدينة من وسط عالي (عال) مالية خاصة لم نهتد اليها بعد - السن ١٧ تقريبا .

الثالثة - قوام مناسب - لارفيعة ولاسمينة - بيضاء البشرة - عيون عسلية - شعر اصفر - متعلمة (وكانت معلمة ومن خريجات المعلمات السنية) والدها رئيس قلم بمحكمة مصر ورزينة - تعرفها زوجتي شخصيا لانها كانتا معا في المدرسة السنية - السن ٢١ - املاك مجهولة فاختر لنفسك من تحلو ونحن في الخدمة دائما .

ويظهر ان والدي الذي كان يعمل مدرسا بمدينة بنها - قد فضل الثانية وهي بنت مهندس ري الواسطى . . ولكنه كان يتمنى على صديقه (نوفل) ان يبعث له بصورتها الفوتوغرافية . . فجاءه الرد .

٢٦ يناير سنة ١٩١٩

. . . . أما بخصوص مسألة الست جارتنا التي اخبرتك عنها فمن المستحيل الحصول على صورة فوتوغرافية او عمل صورة ، لان العائلة ليس من عادتها ذلك بالمرة . ولكن زيادة الاختلاط بينها وبين الست حرمنا اوقفتنا على معلومات تتفق تماما مع ما اخبرتك به من انها كمال وادب واخلاق طيبة . اما السيدة فلا عيب فيها خَلقاً وخُلقاً ، عينان جميلتان ووجه يمثل ذكاء وسرورا ، وان كان جسمها صغيرا دون المطلوب قليلا .

أقول (مدبرة) لما عهدته فيها الست حرمنا من حسن تدبيرها في منزلها فانها طباخة ماهرة وصانعة حلوى جميلة وقد اتحفنا منهم الليلة بهدية (بين دي سبانيا)Pain d' Espagne من صنع يدها . .

٢ فبراير ١٩١٩

. . . أما بخصوص المسألة فاطمئن جدا من جهة السيرة والاستقامة كما اننا تاكدنا اليوم من قبولهم بان تنتقل معك حتى الى السودان ، ما دام الرجل مستقيما ، وما داما في راحة معا . الست حرمنا خابرت والدتها سرا وهي (اي الشخص المقصود بالذات) لاتعرف شيئا عن ذلك الى الآن لاننا (كما اتفقنا) قد لزمنا التكتم ما امكن فهل توافقني على ذلك ؟ الآن نخطو خطوة اخرى في سبيل امنيتنا وهي أن تتكرم بارسال كرتك وتقترح من يسأل عن حضرتكم ؟

١١ / فبراير ١٩١٩

اخي العزيز الفاضل

بعد السلام تسلمت خطابك الكريم وقرأته وشرعت بالعمل بما فيه على جناح السرعة فتوصلت للنقط التالية :

التعليم - مدرسة الراهبات بالمنيا

مبلغ التعليم - سنة رابعة ابتدائي

العلاقة بين الوالد والوالدة - صفاء وحب خالص لايشوبها اي مكدر ، امكان مقابلة شخصية - لاسبيل الى ذلك لان اهلها شديدو التمسك بالعادات الاسلامية وحشمة للغاية . غير ان حرمنا تجتهد جدا في اقناع والدتها بعمل صورة شمسية لها والله الهادي . . وانني والله ياكامل أفندي اود من صميم فؤادي ان تتم هذه المسألة لك لانه لايلفني عنها الا كل خير .

٣مارس ١٩١٩

. . . اتصل بنا انك قبلت في « الكشف الطبي » الا أن « ياجدع » الوالد غير موافق على عبارة الصورة الفوتوغرافية ، لانهم كما اخبرتك حشمة خالص ، فهل لك ان ترسل من عائلتك من تراها حتى تطمئن تماما ويكون هناك من يشاركنا في الرأي لان كل عائلة لها مزاج . واود ان يكون كل شيء على كيفك بدون ابهام او غموض لان هذه مسألة لايستهان بها .

٩ مارس سنة ١٩١٩

عزيزي

(ولكن العريس - لايزال مصرا على « الصورة الشمسية » وهو يلح على صديقه ان يبذل مجهودا . فكتب صديقه يقول :)

تكلمت مع حرمي وكلفتها بالقيام توا الى منزل جارتنا لزيادة التحقق ولنتمكن من اقناعهم بضرورة الصورة الشمسية أو الوصول الى أي حل ممكن وهذه الصفات التي امكننا معرفتها لون الوجه : خمري لا ابيض ولا اسمر ـ الرقبة : معتدلة ـ الوجه : مستدير ـ العينان والحواجب سوداء ، الشعر : ناعم وأسود وطويل منسدل على كتفيها وظهرها ـ القوام : قصيرة وتميل الى النحافة اكثر من السمن ، الا ان مجموعها رقيق ودمها خفيف وتحب الضحك في اوقاته كما تميل للجد والحشمة في أوقاتها . وهي عاقلة وثابتة جدا ومدبرة ، اما من جهة الصورة الشمسية فان أمها صرحت بانها غير قادرة ان تعمل شيئا في ذلك .

. . . إني أنصح لك ان الست كريمة رضوان ، أفندي ستكون وافية بالغرض تماما وهي كما يقول فيها الشاعر (استغفر الله) كما يقول الشاعر في مثلها في الشطرة الاتية :

« لايشتكي قصرمنها ولاطول »

وان كانت الى القصر اكثر منها الى الطول والى النحافة أكثر من الى السمن ، ولكن هناك ماتسميه المنظر العام واني اقصد الانجليزي (Harmony) وعلى كل حال وعند حضور ـ الوالد ووقوفي على هذا الشأن الخطير اعرفك حالا فلا تكن قلقا .

٥ مايو ١٩١٩

أنا الآن أذهب من البيت الى المدرسة ومنها للبيت (جاي منين ؟ من المدرسة . . . ورايح فين ؟ رايح المدرسة . .) وعما قريب ستراك يا كامل افندي بين ظهرانينا في القاهرة تروح وتغدو مع حضرة حماك رضوان افندي منكبين على انتقاء أثاث منزلك الجديد وتضمان أساس سعادة ورخاء إن شاء الله .

(من الواضح بعد ذلك ان العريس قد استسلم في موضوع الحصول على الصورة الشمسية . . لشريكة حياته . . وانه اكتفى بالتوصيف الذي قدمه صديقه خفيف الظل « نوفل » . . ولهذا بدأت الخطابات تناقش المواقف العملية لاتمام عملية الزواج) .

١٩ مايو سنة ١٩١٩

عزيزي . . .

اكتب اليك هذا اليوم بعد مناورات صغيرة فلا تكن قلقا فان المسألة اوشكت ان تتم على مايرضيكما وعندي سبع نقاط اريد أن اخبرك عنها :

النقطة الاولى : مسألة الجهاز ـ ستشترك « اولادنا » في اعداده على جناح السرعة مع أسرة العروس . ومن فحوى المفاوضات ادركنا ان عندهم من يستعينون به على عمل الجهاز المتقن . واظن انهم سيكلفونه مما يربي على الاربعمائة فما فكرك في ذلك وما رأيك الصريح ؟

النقطة الثانية : مسألة تحرير العقد (الكتاب) مطلوب منك (بصفة ادبية) أن تحدد وقتا لذلك حتى يتسنى لهم اعداد « فستان » لتلك المناسبة لضرورة ذلك وانت أدرى .

النقطة الثالثة : يعتبر جهازا « بالاربعمائة » كل ما يدخل في البيت الكامل (نسبة الى كامل)من فرش وسراير وكنب وحلل وبسط ومزركشات وملابس الست وسيزاد عليه (من خارج تلك القيمة) الحلي والمصاغ لان هذه ستقدم اليها من والدتها .



النقطة الرابعة : يستحسن في الدوائر الزوجية التي من هذا القبيل ان تقدم قبل الكتاب اوقبيله هدية خاصة للعروس « شبكة » تكون ذات قيمة تقدرها أنت ، فأرسل لي ، لأسأل عن ذلك حيث يحسن أن تكون صنفا ليس عندها مثله عندها ليكون ذا قيمة معنوية خاصة تذكرانها طول حياتكيا واتنيا في سعادة وهناء .

النقطة الخامسة : انهم يتشرفون جدا بحضور الست والدتكم لزيارتهم ويعدون ذلك توثيقا لعري الصداقة ورابطة لحبين شريفين حب الامومة وحب الزوجية .

النقطة السادسة : يودون أن تكون ليلة الزفاف في مصر ، وعندهم في المنزل استعداد لاخلاء حجرة او حجرتين لذلك الغرض .

النقطة السابعة : صرحنا في مفاوضاتنا ان الصداق سيكون مائة ،

. . . وبعد فهذا ما عن لي ابداؤه لكم فاكتبوا لي عما ترونه وساتابع المساعي الى نقطة لاشريك لك فيها . .

(واضح من خطاب الصديق أن موضوع الزواج قد وصل الى نقطة اللاعودة)

ففي ٢٣ مايو . . جاء العريس هذا الخطاب من صديقه

. . . بدأت في الحال تنفيذ ما أمرت به وانني ابشرك بان كل مادارت عليه المناقشات بل المفاوضات كانت نتيجته الرضا التام .

مسألة الشبكة وجدنا بالبحث ان احسن ما يهدي بهذه المناسبة هو مايسمونه « تنايف » اى « معلقه » وهو ما يسمونه بالانجليزية Pendant ويتروح ثمنها بين ١٢ - ١٥ جنيها او ما فوق . غير ان هذا المبلغ مناسب جدا واذا شئت عند حضورك ان اكلف « الاولاد » بانتخابها فنحن في الخدمة . ولتعلم ان مبلغ الجنيهين او الثلاثة الزائدة عن المبلغ المقدر في خطابك يمكنك ان تستغنى عنه ويحسن الا تقدم هدية اخرى مثل فواكه او خلافه عند حضور الست والدتكم . . لان هذا لا لزوم البتة .

انقطعت خطابات صديق والدي فجأة ، وظهرت خطابات متبادلة بين والدي ووالدتي ويظهر ان عقد القران قد تم ،وانه سمح لهم بالتقابل ، ثم بتبادل الخطابات . .

كتب والدي يقول لوالدتي :

بنها ٩ اغسطس سنة١٩١٩
عزيزتي السيدة منيرة

أسطر لك هذا وقلبي مفعم بالفرح والسرور للمقابلة الأخيرة ، فقد تضاعف حبي لك اضعافا مضاعفة وايقنت ان شريكتي في الحياة ستكون من اعظم المؤثرات في حياتي التي ستكون ان شاء الله هنيئة . لا انكر عليك انه قبل مقابلتي اياك كان يداخل قلبي شي من الحزن والاسف ، ولكن بضع الدقائق التي مكثتها معك ابدلت الاسف سرورا والحزن هناء وسعادة . وان نغمات صوتك (الذي لم اسمعه الا هذه المرة) مازال يرن في اذني فيرقص اليه قلبي طربا .

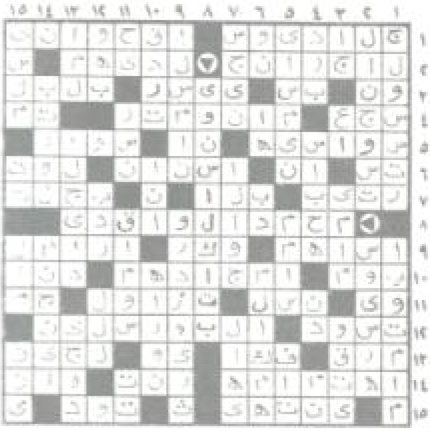
. . . هذه هي محتويات اللفافة (القيمة) التي ركنتها اثنى عشر عاما . وقد اعدت قراءة الخطابات اكثر من مرة ووصلت الى الاقتناع بان التطور الذى حدث خلال الستين عاما الماضية في العلاقات الاجتماعية هو اكثر من ثورة ، واكبر من قفزة . وهذا ينطبق بالتحديد على الطبقة الوسطى وما حولها . ولا ازعم بهذا ان ما هو كائن هو الكمال باكمله ولا ان اقول ان العلاقات الاجتماعية بين الجنسين قد اصبحت من العمق بحيث يتعرف الطرفان على احدهما الاخر المعرفة المطلوبة لمثل هذه العلاقات المصيرية . ولكن عندما اقارن كيف تزوجت انا ، وكيف تزوج اصدقائي ، وكيف يتزوج الآخرون من الجيل الجديد ، ارى ان هناك هوة كبيرة للغاية بين الماضي والحاضر القريب نسبيا والفضل في ذلك يرجع الى اتساع نطاق التعليم بين الفتيات ودخولهن ميدان العمل باعداد متزايدة كل عام ، والاتصال الواسع النطاق بالشعوب المختلفة .

قد تختلف على درجة التقدم او على مدى عمق مظاهر الردة او سطحيتها . ولكن من المؤكد ان اي شاب او فتاة في وقتنا هذا لن يقبل بعد ان يعقد قرانه على شريكة حياته ، وان يكتب لها ماكتب والدي لوالدتي (وان نغمات صوتك الذي لم اسمعه الا هذه المرة) وهذه المرة كانت دقائق معدودة . ولا أظن أن شابا اي شاب مهما بلغت تربيتة المحافظة يقبل ان يتزوج دون ان يرى زوجته الا بعد عقد القران ، فما بالنا ووالدي قد ضيع عاما بحاله في محاولة ان يظفر بصورة شمسية وخابت كل مساعيه .

رحم الله والدي ووالدتي . . اللذين تركا لنا الكثير ، وخاصة الصور الشمسية !

سعد كامل

حل مسابقة العدد ٢٧٥



أفقيًا

محمد الوقادى

رأسيًا

يونس الكاتب

اثنتان فى واحدة :

(٨) أفقيا : محمد الوقادى . ولد بالمدينة ، وأقام ببغداد حيث تولى قضاءها ، وتوفى عام ٨٢٢ م . اتصل بخالد البرمكى فأجزل له العطاء ، وقربه من الخليفة . من مؤلفاته « المغازى » ، وه فتح أفريقيا » ، وه فتح العجم » ، وه فتح مصر والاسكندرية » ، وه فتوح الشام » .

(٨) رأسيا : يونس الكاتب . نشأ بالمدينة ، ثم رحل الى الشام ولزم الوليد بن يزيد . أخذ الغناء عن معبد . من تلاميذه ابراهيم الموصلى . وهو أول من جمع الأغانى العربية ، ودونها . له كتاب « الاغانى » الذى اعتمد عليه أبو الفرج الاصبهانى . توفى عام ٧٥٢م .

الفائزون بالجوائز

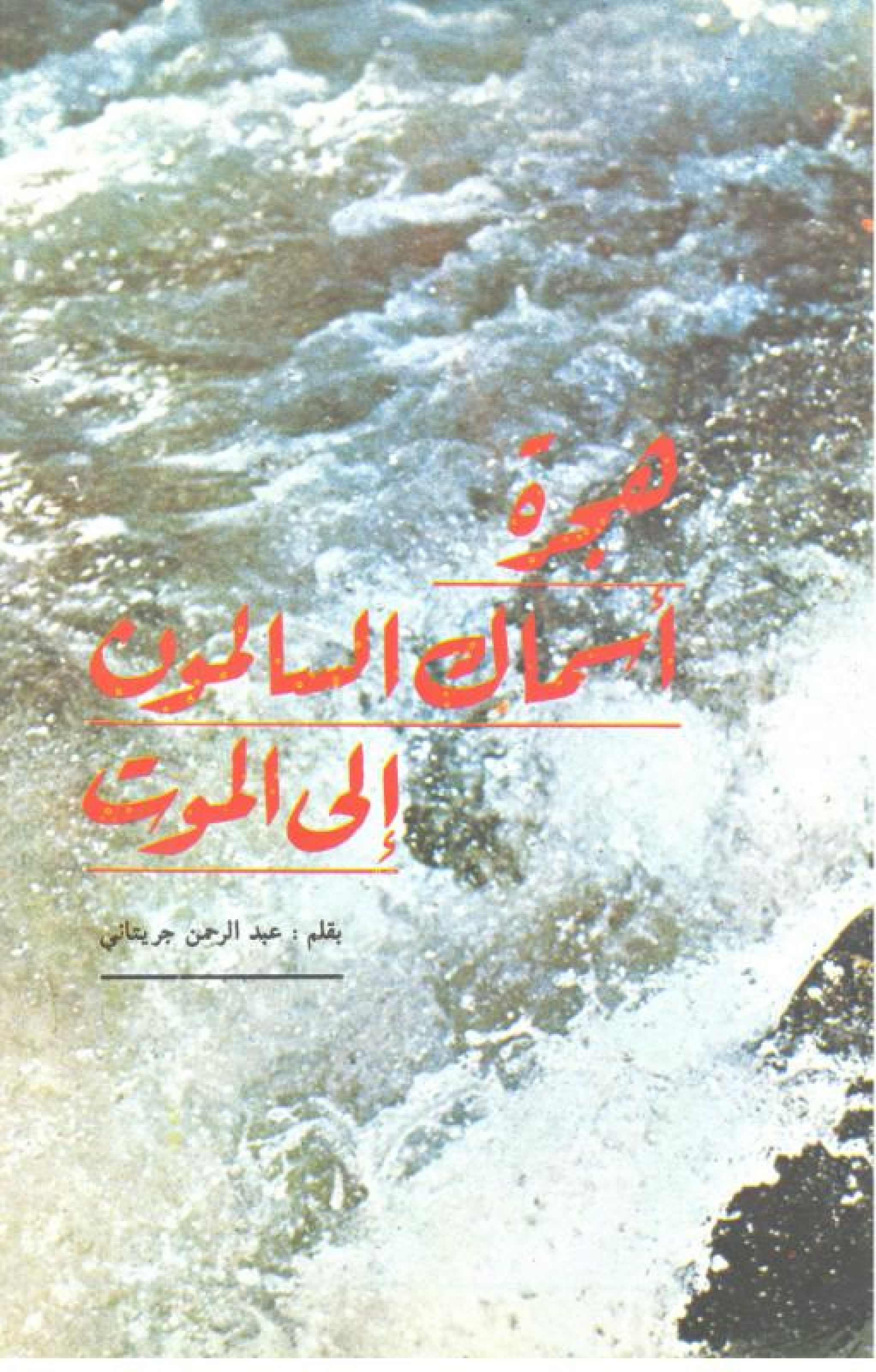
■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها :
محمد فكري عبد الجليل / بورسعيد / مصر .

■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فازت بها :
خولة نبيل ابوشاور / عمان / الأردن .

■ الجائزة الثالثة وقيمتها عشرة دنانير فاز بها :
خليل حسين احمد / بعلبك / لبنان .

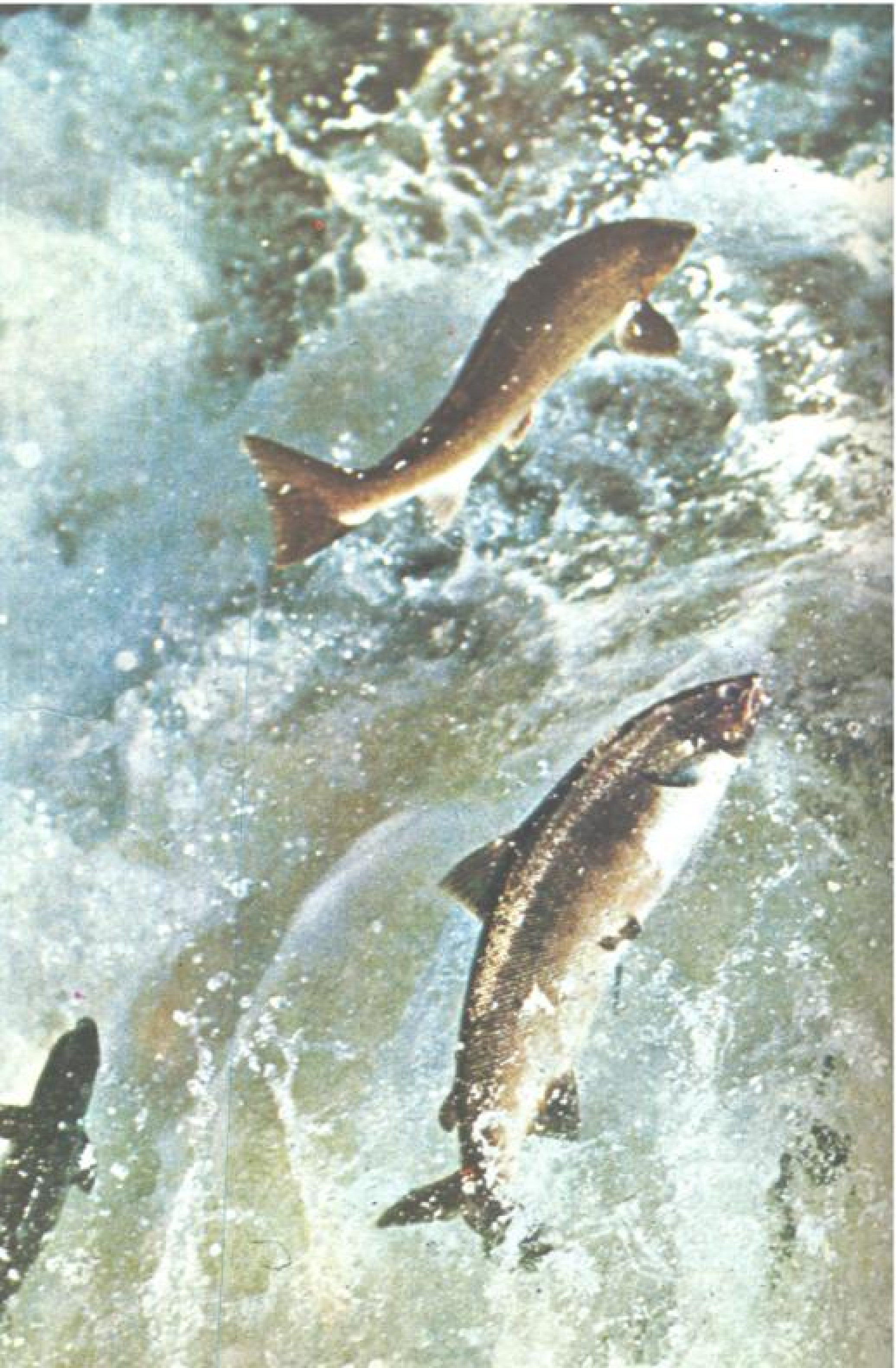
٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ الصمعاني طارق / الناظور / المغرب .
٢ ـ محمد احمد الطبطبائي / الكويت .
٣ ـ نظمية ناظم درويش / حمص / سوريا .
٤ ـ احمد احمد شلبي / صنعاء / اليمن .
٥ ـ محمود عبد الرحمن محمود / المنامه / البحرين .
٦ ـ حمد احمد محمدين / ودمدني / السودان .
٧ ـ ربحي ابراهيم الصبان / الظهران / السعودية .
٨ ـ خالد الحميد / برايتون / بريطانيا .



هجرة أسماك السالمون إلى الموت

بقلم : عبد الرحمن جريتاني



ما معنى ان تغادر مجموعات من السمك المياه المالحة وتقطع الاف الاميال وتعبر المحيطات الشاسعة والانهار في عكس جريانها وتتعرض للصعاب والمشاق ويهلك ثمانون في المائة منها في الطريق .. من اجل ان تضع بيوضها في مياه عذبة معينة . ثم تذوي بعيدا وتموت ؟

وما معنى ان تغادر مجموعات اخرى من السمك المياه العذبة ، وتقطع الاف الاميال بعد ان تعبر الانهار والمحيطات ، ويهلك ثمانون في المائة منها في الطريق ، لتصل لمكان معين في مياه المحيط المالحة تضع فيه بيوضها ثم تلفظ آخر نفس متبق لها في هذه الحياة ؟

انها امور حكمية عرفنا كيف تجري من متابعة فصول جريانها على الطبيعة . ولكن للان لم نعرف لم تجري بالشكل الذي تجري فيه ، وما الحكمة والمراد من هذا الذي يجري ؟ وأشياء كثيرة متشابهة .. ولماذا لم يضع هذا السمك او ذاك بيوضه في مكان قريب ولا يخطر لقطع كل تلك المسافات ويتحمل كل تلك المشاق والصعاب واهلاك في سبيل الوصول لذلك المكان بالذات .

ولعل فيما يجري خفاء يومىء ويدل على يد عليا قاهرة تخطط وتنفذ وتوحي لكل مخلوق أمره ولو كان من دونه هلاكه . فلا عبث ولا صدف ولا فوضى وانما نظام ما بعده نظام واعجاز ما بعده اعجاز ليجري كل شيء بمقدار وتقدير وتفصيل . والى ان يأخذ الله الارض ومن عليها .

هجرات الحيوان الموسمية المتكررة والمميزة تتحدد بتوقيت يلائم ظروف المعيشة وحفظ النوع ، وتتزامن مع اقتراب فصل الخريف ومقدم الشتاء حيث يتبدل الطقس وتتغير ظروف المناخ الى الاسوأ - امطار وثلوج وبرودة - وتقل موارد الغذاء ، فتغادر جموع الحيوان في اسراب او جماعات مكانها لتقطع الاف الاميال ارضا او فضاء الى حيث تستقر في موطنها الجديد الذي يتوفر فيه الدفء والغذاء والامان .

ودراستنا هذه لهجرة غريبة تتسم فصولها بكثير من الاثارة والتشويق ، ويصاحبها تغير كلي في الوسط المعيشي ، وتتم في ظروف لا يزال يكتنفها بعض الغموض للاسباب والوسيلة والهدف .. انها هجرة سمك السالمون وسمك ثعبان الماء .

الهجرة الى المياه العذبة :

السمك يصنف عادة الى ثلاثة انواع : سمك يعيش في المياه المالحة ، وسمك يعيش في المياه العذبة ، وسمك انتقالي يعيش فترة من حياته في المياه العذبة ويقضي فترة اخرى في المياه المالحة او العكس .. وغالبا عملية التنقل هذه تتم لغرض وضع البيض والتكاثر وحفظ النسل .

وابرز ما تتميز به هذه الظاهرة في سمك السالمون وثعبان الماء .. فسمك السالمون Salmon الكبير والناضج والذي يتراوح عمره بين (٤ - ٧) سنوات والقادم من شواطىء قارة اوروبا يتجه الى منطقة بشمال المحيط الاطلنطي في سباحة شاقة لمسافات تصل الى ٤ - ٥ الاف كيلومتر ليجتمع مع سمك السالمون القادم من بحار شرق امريكا وشرق كندا ، ثم لتكمل هذه الجماعات رحلتها الطويلة من شمال الاطلنطي الى حيث تصب الانهار الكثيرة مياهها في البحر ، ثم تتفرق جماعات السالمون وتتجه كل مجموعة سمك الى النهر الذي سبق وولدت فيه حيث ستضع بيوضها لتفقس عن سمك جديد سيخلف جيل الاباء الذي سيموت مكانه .

ورحلة العودة الى النهر الذي ولدت فيه هي اشد ما يثير العجب والغرابة ، فهي بالاضافة الى انها رحلة ممتعة ومشوقة الا انها قد تجلب الحزن والتأثر لمتتبعها حيث يرثى لحال ذلك السمك .

فجماعات السالمون بعد ان تتعرف كل منها على النهر الذي ولدت فيه بكيفية لا تزال موضع جدل - سيأتي شرح لها - تبدأ رحلة المتاعب والمشاق والصعاب التي ستسلكها كل مجموعة عبر النهر باتجاه يعاكس تياره حتى تصل الى اعالي النهر حيث المنابع المائية والانهار الصغيرة ذات المياه الصافية .

والسالمون في تسلقه للنهر يعترضه الكثير من العوائق

الطبيعية والعوائق الصناعية التي اقامها الانسان على طول مجرى النهر والتي تعتبر لعنة حقيقية تصيب هذا السمك - واخيرا فقد اقام المهندسون الماثيون على طول مجرى النهر مدارج السالمون - ويتابع السالمون رحلته وهو يغالب تيار النهر الغزير دون توقف ودون غذاء ودون راحة فيصارع المياه المتدفقة والتيار الجارف السريع بقفزات كبيرة وشاقة ، ويتخطى مساقط المياه والسدود والتوربينات وغير ذلك الى ان يصل الى هدفه وقد استنفدت كل طاقته وخارت كل قواه وصار في حال اعياء وانهاك تام .. اضافة الى ان جسمه بدأ يتهيأ فيزيولوجيا لعملية التكاثر فنما الجهاز التناسلي ونضجت الاعراس التناسلية على حساب الجهاز الهضمي .

والناظر لهذا السمك ذي اللون الفضي المبرقع الجميل وهو في بداية رحلة العودة يروعه ولا شك هيئته ، وقد تآكل جسمه واهترأ وصار كالرمم وهو في نهاية رحلة العودة حيث منابع المياه العذبة الصافية .. والسالمون وبعد معاناته المميتة يتوجه الى انسب مكان يضع فيه بيوضه الكبيرة حيث سيدفنها في اعماق هذا النهر ذي المياه العذبة الصافية في حفر خاصة تشارك في صنعها الذكور والاناث بين رمال وحصى هذا القاع ، ثم وبعد ان يلقحها الذكر في عملية اخصاب خارجي تغطيها الأنثى وتطمرها تماما .

ومن بعد ، تنتهي مهمة هذا الحيوان فيتصد بعيدا ليموت بهدوء وسلام في نفس المكان الذي ولد فيه وبعد ان خلف نسلا سيحفظ بقاء النوع وربما لاجيال قادمة . وبعد شهور يفقس البيض عن صغار ستتعرض للعديد من التحولات الاساسية التي تستمر حوالي السنتين تقضيها في مياه هذه الانهار قبل ان تنطلق خارجة الى المحيط وتتفرق في مياهه لتنمو وتكبر وتنضج ، ثم لتعود في رحلة عودة الى النهر الذي ولدت فيه لتضع البيوض .. دورات منتظمة لا تتأخر ولا تتقدم محسوبة بساعات الدهر والزمن في ميقات معلوم يخرج فيها الحي من الميت ويخرج الميت من الحي .

كيف يهتدي للطريق ؟

ولكن كيف يهتدي سمك السالمون الى النهر الذي ولد فيه ونشأ بعد ان غادره لسنوات عديدة قضاها في متاهات المحيطات ؟ ثم كيف يعود اليه بكل ثقة وبلا تردد ويتخذ مسارا لا يحيد فيه ولا يضيع رغم انه لم يعبره في حياته الا مرة واحدة وهو صغير وفي اتجاه مغاير .. لغز كبير حير علماء الحيوان وعلماء علوم البحار وشتتهم كل مشتت .. ولم يدفعهم للان الا الى تفسيرات لامور قد تقترب من الحقيقة ولكن لا تبينها .

ففي احدى التجارب العديدة لكشف بعض جوانب هذا السر الغامض جاء العلماء ببيض مخصب لهذا السمك ملقى حديثا في احد الانهار الامريكية ، وحملوه والقوه في نهر اخر (نهر ويزر في المانيا) وفقس البيض بأوانه وصار سمكا صغيرا انطلق الى البحار ليكمل دورة نموه ، وبعد اكتمال نضجه قام بهجرته المعتادة . ولكن الى اين ؟ .. انه لم يعد الى النهر الالماني ولكنه عاد الى النهر الذي اخذ منه بيضا .. وازدادت حيرة العلماء !

وفسر الامر بان عودة السمك الى النهر الذي ولد فيه انما تعود الى الذاكرة الكيمائية والتي تثبت جزئياتها - كيميائيا - في مراكز الشم Olfactory ared في الدماغ عن طريق حاسة الشم ، وسمك السالمون يشم ويتذوق رائحة ماء النهر التي تعبر فمه وخياشيمه ، ثم يقارنها بما احتفظ به ارشيف ذاكرته من رائحة وطعم للماء الذي ولد فيه .. وبعد التثبت من تماثل الرائحتين ينطلق في مسار لا يحيد عنه .. وفعلا تلفت مراكز الشم لمجموعة من سمك السالمون في احدى التجارب ففقدت القدرة على معرفة الاتجاه الصحيح للنهر الذي ولدت فيه وانتشرت انتشارا عفويا في مختلف الانهار التي امامها .

وبعض العلماء فسّر تعرف السالمون على النهر الذي ولد فيه من خاصية مدهشة لديه يهتدي بحركات الشمس عبر توجهها في الفضاء ، حيث يصحح السالمون مساره حسب توجه اشعة الشمس بعد ان يصحح انحرافها داخل الماء .. وباضاءة احواض سمك السالمون بنور صناعي وجد انه يعدل اتجاهه تعديلا تدريجيا مع اتجاه الضوء وكأنه امام شمس حقيقية .

ولنا كلمة في هذا الموضوع .. فقد تكون الذاكرة الشمية لها دلالة تعريف للسمك وقد يكون التوجه حسب حركات الشمس له دلالة اخرى .. ولكن كيف يتعرف السمك الذي اخذ بيضا من نهر ثم وضع في نهر اخر مختلف وهو ما يزال خلية جنسية - بيضة ovum - او مضغة Blastuid لم تتمايز خلاياها بعد لتشكل الاجهزة والاعضاء - كالدماغ والقلب والاطراف .

ان في الامر سرا اكبر ، ولعله ان لم يجانبنا الصواب - عامل وراثي - ففي الجينات التي تشكل كروموسومات Chromosomes الخلية الجنسية - البويضة ovum




مجموعة الصور على هذه الصفحة تسجل بعض مشاهد الفصل الأخير من رحلة سمك السالمون ، وقد اتجه الى ظلمات القاع لوضع البيض تمهيدا للانزواء واستقبال الموت .









مشاهد اخرى من الرحلة المثيرة ، اسماك السالمون تسبح ضد التيار ، وتقاوم بعنف وقوة حتى تصل الى غايتها في النهاية ، ولكن الدببه لاترحم . . . تلتقطها بمنتهى السهولة وهي منهكه ، وقبل أن تحقق امنيتها في الموت بعد وضع البيض . . .



لانثى السمك وفي الجينات التي تشكل كروموسومات الخلية الجنسية - المنوي sperm - لذكر السمك تكمن الشفرة الوراثية التي تحوي المعلومات الكاملة التي تسوق وتوجه هذه الاسماك الى النهر الذي ولد فيه اباؤها واجدادها من قبل .. وهي لا تدري لاتجاهها هذا من هدف او معنى .. ولعل هذا ما يسميه علماء الحيوان (بالغريزة) وهي كلمة مطاطة لم اجد اوسع منها مهربا لتفسير كل امر يستعصي على الفهم او الادراك او التحليل .. ولكيلا ندخل في تفاصيل علمية معقدة متشابكة في ماهيات علم الوراثة نذكر ان المعلومات الوراثية التي تسير سمك السالمون لوجهته قد نقلت اليه من البويضة والمنوي الذي كونه ، وهو بالتالي سينقلها الى نسله الذي سيتكون ايضا من دمج حيوان منوي ببويضة ... وللعلم فان ميراث الاباء والاجداد ومن سبقهم تراجعا الى اول سمكة ظهرت على كوكب الارض في العصر الديفوني منذ اكثر من (٤٠٠) مليون سنة هو نتاج تسلسل المعلومات التي يتناقلها جيل بعد جيل .

تشكل التيارات البحرية

مياه المحيطات والبحار في حركة دائمة في مختلف الاتجاهات وذلك عدا حركات المد والجزر ، فتندفع مياه السطح على هيئة دوامات وتتحرك مياه الاعماق في زحف بطيء في رحلات طويلة تستغرق ازمانا طويلة .

وسبب عدم الاستقرار هذا في مياه المحيطات انما يرجع الى حركة الارض في الفضاء ودورانها حول محورها وتعرض المياه الموجودة حوالي خط الاستواء الى اشعة الشمس المباشرة مما يكسبها طاقة حرارية اكثر من تلك التي تصيب المياه القطبية ، وهذا بالتالي يدفيء المياه الاستوائية ويجعلها تتمدد ويرتفع مستوى سطحها بضعة سنتيمترات اكثر من مياه المناطق الباردة .. وهذا التفاوت في نسب الارتفاع يحدث انحدارا طفيفا تنشأ عنه تيارات مائية تسير فيها المياه السطحية القريبة من خط الاستواء في اتجاه القطبين . أما المياه الابرد من ذلك والاثقل ـ لأن الماء تزداد كثافته بالتبريد ـ فتغوص تحت المياه الدافئة وتتجه ببطء على امتداد قاع البحر نحو خط الاستواء وهذا التبادل الذي يتم بين المياه الاستوائية الدافئة والمياه القطبية الباردة من أهم أنواع الحركة التي تحدث في المحيطات والتي تنشأ عنها تيارات السطح وتيارات الاعماق .

واهم تيارات حوض شمال الاطلنطي هو تيار الخليج Gulf Stream وفي داخل تيارات شمال الاطلنطي التي تدور بصفة مستمرة منطقة عجيبة فريدة من نوعها لما تتمتع به من مميزات بحر دافيء ومياه زرقاء صافية تطفو عليها الاعشاب والطحالب البحرية وتخلو من اي اثر للاحياء الكبيرة الفتاكة وان لم تخل من الكائنات البحرية الدقيقة اللازمة للتغذية .. هذه المنطقة سماها البحارة البرتغاليون ايام كولومبس باسم (بحر سارجاسو Sargasso) نسبة الى نوع عنب برتغالي مشهور ، وتقع شمال الاطلنطي بين جزر ازور في الشرق وجزر بهاما في الغرب بطول (٣٢٠٠) كيلو متر وعرض (١٦٠٠) كيلومتر . اذن .. انها منطقة مثالية يتوفر فيها الأمان ودفء المياه وغزارة الاعشاب البحرية والغذاء .. وهي مثالية لوضع البيوض ونمو صغار السمك .. ولذا لم يكن عجبا ان يقصدها نوع سمك ثعبان الماء بعد ان يقطع الآف الاميال في رحلة كلها تعب ومشاق وصراع ضد التيارات البحرية العاتية ليضع فيها بيوضه ويمنح الحياة لذرية جديدة تحفظ النوع ... ثم يذوي بعيدا ويموت ..

رحلة سمك الثعبان

بعكس السالمون نجد ان سمك ثعبان الماء الذي يعيش في المياه العذبة ـ يولد في البحار ـ يهاجر الى اعالي البحار ـ السالمون يهاجر الى اعالي الانهار ـ ليضع البيوض ويموت .

تجتمع ثعابين البحر القادمة من انهار اوروبا وانهار امريكا الشمالية وايسلندا والمغرب في منطقة بحر سارجاسو شمال الاطلنطي وقرب برمودا بعد ان اجتازت مياه الانهار ثم عبرت مياه المحيط الاطلنطي الواسع .

وفي هذه المياه الدافئة والصافية الزرقاء تضع بيوضها وسط تشابك الطحالب البحرية . ويفقس البيض عن اعداد كبيرة من صغار الثعابين ـ كل يسروع طوله من (٥ ـ ٦) سنتيمتر ـ تنمو في هذه المياه المالحة .. ومن يصمد منها للتيارات البحرية العاتية وخاصة تيار لابرادور القادم من الاسكيمو يركب متن التيارات البحرية لشمال الاطلنطي وتتجه صغار الثعابين التي قدم اباؤها من الانهار الاوروبية غربا مع تيار الخليج الى شواطيء اوروبا وتتجه صغار الثعابين التي قدم اباؤها من الانهار الامريكية شرقا الى شواطيء امريكا الشمالية . ذلك ان الثعابين الكبار وضعت بيوضها في مناطق محددة بدقة وقريبة من التيارات التي ستحمل صغارها الى الشاطيء الذي قدمت منه .

وتستمر رحلة صغار ثعابين البحر مع تيارات المحيط أكثر من ثلاث سنوات ، ولا تصل الشواطيء الا وقد

صارت ثعابين يافعة فتندفع منطلقة ضد تيارات الانهار السريعة الجريان في طريقها نحو منابع الانهار مخترقة الحقول وغير عابئة بشيء لتنمو في المياه البعيدة عن المصاب والداخلة في اعماق اليابسة .

وتبقى في هذه الانهار الى ان تبلغ سن النضوج الجنسي - (١٤) عاما - لتبدأ الرحلة المضادة مع جريان الانهار فتصل لمصابها ، ثم وبعد ان تتجمع في جماعات تتوغل في المحيط وهي تعاكس تياراته في رحلة طويلة مهلكة منهكة تقطع فيها من (٤ - ٥) الاف كيلومتر لتصل الى بحر سارجاسو وتضع البيوض وتموت .. ولتعيد دورة الحياة والموت من جديد .

ويبدو ان هجرة هذه الاسماك لها ارتباط وثيق بحاجتها الى التكاثر في زمن معين مقدر ومكان معين محدد ، وربما كان نضج الاعضاء الجنسية واكتمالها هو الذي يحدد موعد بدء الهجرة ومما يزيدنا حيرة وعجبا ان ثعابين البحر القادمة من الانهار الاميركية تصل الى بحر سارجاسو وتضع بيوضها في اماكن محددة خاصة بحيث لا تختلط مع بيوض ثعابين البحر القادمة من الانهار الاوروبية والتي هي ايضا تضع بيوضها في اماكن محددة خاصة .. وعندما تفقس البيوض تكون صغار السمك لكلا النوعين قريبة من التيار الذي سينقلها الى الجهة التي ورد منها الاباء ، فصغار الثعابين الاميركية تركب متن تيار الخليج لمدة ستة اشهر كاملة حتى تصل الى الشواطيء الاميركية وتلك تركب تيار شمال المحيط ليوصلها الى الشواطيء الاوروبية .. لا عبث .. امور محددة ومقدرة ومنظمة لمجماوات لا تعلم ان خللا بسيطا في دورات حياتها قد يغير من نظام الكون ... ولكن هذا لا يحدث في كون نظمه خالقه ليكون على احسن سواء وترتيب وتقدير .

دور الدماغ والغدد والهرمونات

رغم ان هجرات الاسماك لم تدرس كما درست هجرات الطيور الا ان الهجرات السلبية المعاكسة لصغار الاسماك من الانهار الى البحار والهجرات الفعالة الصاعدة من البحار الى الانهار لوضع البيوض والتكاثر شغلت تفكير العلماء ووضعتهم في حيرة من اسبابها ومسبباتها التي تؤدي بحياة ثمانين في المائة منها قبل ان تصل الى هدفها .

وارجع العلماء بواعث الهجرة الى آلية فيزيولوجية تشمل كافة اجهزة الجسم فتحدث تبدلات عميقة في فعالية الجملة العصبية وخاصة في ما تحت المهاد البصري وفي وظائف الغدد الصماء وخاصة الغدة النخامية وافرازها الهرموني المميز ثم لتبدلات اخرى في وظائف الكلى والغلاصم والخياشيم وكمية الصوديوم المطروحة .

فالافراز الهرموني الدوري - على مدار العام - والموقت - في فصل معين - يفرز بتأثير حاث الغدة النخامية من الدماغ الى ما تحت المهاد . فينشأ عنه افراز هرمونات الجونادو تروبين التي تحدث تبدلات في الافرازات الجنسية والسلوك الحركي بشكل عام - كفعل هرمونات البروجسترون والاستروجين في الانسان - وهذا يؤدي لتبدلات في جهاز تنظيم الاتزان البدني ككل وتحكم دورات الهجرة السنوية - الميتابوليزم - التي تسيطر عليها هذه الهرمونات التي تنظم كافة انشطة الجسم .. وكذلك فان الافراز الهرموني يخضع لتأثير مباشر من الاحوال المحيطة كظروف الطقس والغذاء وقرب القمر وحالته .. وان لم يثبت تأثير هذه الاحوال بصورة اكيدة .. ولعل اهم ما لاحظه العلماء على سمك السالمون في هجرته العجيبة خضوعه لقوة مسيطرة لا تدرك توجهه توجيها دقيقا في اتجاه محدد مرسوم يضعه نصب عيونه في رحلته الطويلة ولا يحيد عنه مهما كانت الموانع .. واقواها الموت .

فما هذه القوة المسيطرة التي سماها العلماء بظاهرة (الميل) .. وهي كلمة مطاطة كمثيلتها كلمة الغريزة .. الله (جل جلاله) وحده يعلم .. والله يعلم وانتم لا تعلمون (صدق الله العظيم) . ■■

سوريا - حلب - عبد الرحمن جريتاني

نكتة فرنسية :

- جارنا هذا اخلاقه سيئة .
- لماذا ؟
- كلما نظرت اليه من ثقب الباب وجدته ينظر الينا .



السنغال

في مصيدة التغريب !

استطلاع : فهمي هويدي

تصوير : اوسكار متري



الحقيقة في صورتين : « كتاتيب » الشوارع في كل مكان ، تحفظ الصغار بعضا من آيات القرآن الكريم ، ومهرجان راقص في شوارع داكار اثناء احد الاستقبالات الرسمية . . بمجرد ان عزفت موسيقى الغابة ، استجاب الجميع للنداء على الفور . . وربما دون وعي .

يبدأ العربي رحلته الى السنغال غريبا ، وينتهي منها متشككا ومستريبا !

وخلال تلك المسافة بين البدء والانتهاء ، تتوالى عليه بالضرورة وجوه اربعة للسنغال : وجه افريقي ، وآخر فرنسي ، وثالث اسلامي ورابع عربي . حيثما ذهبت تلقاك تلك الوجوه الاربعة ، مختلطة ومتداخلة ، مع اختلاف في درجة وضوح كل منها . وهو اختلاف يفترض ان ينشأ عن زاوية الرؤية ، وما اذا كان المرء على الساحل او في العمق ، في المرعى او الغابة ، في المدينة او القرية .

لكن الامر ليس دائما بهذه الموضوعية ، كما انه ليس بالبراءة التي تبعده عن شبهة الاتهام . لان تفاوت الدرجات يحدث على الارجح بفعل فاعل ، تعمد ان يبرز وجها ويطمس آخر . وهو لا يغير الحقيقة في واقع الامر ، لكنه فقط يصيبها بالتشوه والمسخ . وعندئذ ينبغي الا تصنف الواقعة باعتبارها دفعا لحركة التطور او النمو ، وانما تدخل في باب التزوير مع سبق الاصرار والترصد . الامر الذي يخرجها من دائرة الظواهر الاجتماعية ، ويرشحها - بجدارة - للمثول امام مخافر ومحاكم التاريخ . باعتبارها جريمة مكتملة الاركان ، التلبس فيها ثابت ، والاعتراف محرر سلفا ، والشهود تعدادهم اربعة ملايين نسمة !

داكار نموذج للمدينة المزورة ، التي ألبست بالعسف والاكراه قناعا فرنسيا يصدم العربي ويصده . . بل يستفربه ويستنكره !

استقبلتنا داكار بوجه مقطب ومتجهم منذ اللحظة الاولى . احتجزونا في مطارها وسحبوا جوازات سفرنا ، وقرروا ترحيلنا على اول طائرة مغادرة للسنغال . وكانت حجتهم ان تأشيرة الدخول المثبته في بطاقاتنا غير صالحة ، رغم انها صادرة من سفارة السنغال بالكويت ، ورغم انها تحمل توقيع سفير السنغال المعتمد ، ورغم انها من النوع الذي يعطى للأشخاص الذين يراد لهم ان يمنحوا اهتماما خاصا . هذه المواصفات جميعها لم تشفع لنا ، فأوقفونا في المطار . ولولا ان القائم بالاعمال الكويتي تدخل في اللحظات الاخيرة ، وطلب ادخالنا بكفالته وعلى ضمانته ، لما قدر لنا ان نجتاز ابواب المطار ، ولا ان نخطو خطوة واحدة داخل السنغال .

وفهمت فيما بعد ان المشكلة لم تكن في صلاحية التأشيرة ، ولكن المشكلة اننا عرب ، ذلك ان العربي ، كائنا من كان ، مدرج في القوائم السوداء ، ليس لدى السنغاليين بطبيعة الحال ، ولكن لدى أجهزة الأمن التي مازالت في قبضة الفرنسيين . وهنا مربط الفرس .

ان فرنسة داكار هي اشد ما يلفت نظر القادم الى المدينة ، التي كانت حتى الخمسينات عاصمة لافريقيا الفرنسية ، ومقرا لحاكمها الفرنسي العام ، ونقلت اليها العاصمة بعد الاستقلال من « سان لويس » وللدقة فان مظاهر الفرنسة محصورة في واجهات المدينة واعصابها الاساسية مرافقها ومعاهدها ، شوارعها ومتاجرها الرئيسية ، صحفها واذاعتها وتليفزيونها ومكتباتها وملصقاتها اما قلب المدينة واحياؤها العتيقة فانها تعيش حياة السنغال كاملة ، بكل بصمات الجفاف والفقر والبطالة التي امتصت رحيق الحياة منها .

كانت اقامتنا في فندق « تيرانجا » الذي لم يكن سوى مستعمرة فرنسية مصغرة ، يرطن فيها الجميع ويأكلون ويشربون ويقرءون ويتحدثون بكلمات فرنسية ،



ومتجات فرنسية . حتى السنغاليون تنكروا في ألبسة وألسنة فرنسية !

غربة داكار

في الفندق ، كما في الشارع والمتجر والمقهى ، يشعر العربي بانه مقطوع الصلة بكل ما حوله ، وبان الغربة والوحشة تطاردانه في كل مكان .

لكني وجدت بعض العزاء في رسالة عثرت عليها داخل غرفتي بالفندق ذات مساء ، مكتوبة بحروف عربية كأنما كان صاحبها ينحتها في الصخر . وفيها يقول ما نصه :

السلام عليكم - اسألكم ، هل يمكن ان تباعوني بكتابكم الذي رأي في بيتكم ؟.. والتوقيع : احمد تيجاني .

ولم يكن احمد تيجاني سوى عامل الخدمة في الطابق السابع لفندق « تيرانجا » وقد كتب هذه الرسالة بعربية ركيكة معنى واملاء - كما يبدو - عارضا على ان ابيعه كتاب « تقويم الفكر الديني » للاستاذ محمود الشرقاوي ، الذي كنت احمله لقراءته اثناء الرحلة .

وقف احمد تيجاني امامي متلعثما ، وكرر السؤال ذاته بلغة اكثر ركاكه ، وكان واضحا انه لديه بعض الالمام بقراءة العربية ، مع المام اقل بكتابتها ونطقها ، ناشىء عن عدم استخدام اللغة . سألته عما اذا كان من اتباع الطريقة التيجانية ، فقال بلسان ثقيل ان اسرته من التيجانيه وانه يريد ان يكون من اتباع الطريقة « التوحيدية » .

وفهمت انه يريد ان يتعرف على الاسلام من خارج الطريقة ، وان كل معرفته بالدين وبالعربية لم تتجاوز الدروس التي تلقاها على يد معلم موريتاني في كتاب القرية في مرحلة الطفولة ، ثم شيخ ضرير في مسجد القرية عندما صار صبيا .. ثم دفعت به الحاجة وريح الحياة الى داكار فوقع في اسرها ، واستسلم لقدره متمنيا فرصة الفكاك منه .

كان احمد تيجاني غريبا مثلي في داكار ، وكانت جلستنا ونحن نتبادل الهموم والاشواق في غرفة الطابق السابع من



في السوق يختلف الامر ، يختلط الحابل بالنابل ، وتخرج النسوة حاملات اطفالهن على الظهور لقضاء الحاجة واشباع الفضول ، ويقف رجل بمكبر للصوت يصيح بين الناس واعظا في البداية ثم جابيا في النهاية . وبائعا احيانا ، لمختلف انواع العطور والادوية والكتب والصور القديمة لكبار الشيوخ وكبار الفنانين .

وعلى الطريق تسرع الفتيات بقدور المياه ، يحملنها من الصنابير العمومية الى بيوت اطراف العاصمة





فندق « تيرانجا » تعبيرا عن ازمة لها جذورها وشواهدها الملموسة .

لقد كنا غريبين بمعايير داكار ، ولكن الصواب ان داكار ذاتها هي التي اغتربت ، بمعايير الحقيقة والتاريخ والجغرافيا .

ذلك ان فندق تيرانجا لم يكن سوى صورة مخففة لما يجري في اطراف العاصمة ، حيث النوادي المغلقة التي يمنع السنغاليون من دخولها ، باستثناء بعض كبار المسئولين ، والتي تعد بمثابة جزر اوروبية يمارس فيها كل ما يخطر على البال من نشاطات لاسوياء البشر وشواذهم . وليس « الكازينو » - قلعة القمار الشهيرة - ونادي البحر الابيض سوى نموذجين للعربدة الغربية على ارض السنغال . ففي هذين الناديين - وغيرهما - حياة كاملة منفصلة عما يجري في البلاد . لعب واسترخاء وقمار وشذوذ جنسي وعري ، وبشر يعربدون ويعيشون بالليل وينامون بالنهار . . كلهم فرنسيون واوروبيون تحملهم الطائرات في قوافل لقضاء الاجازات على مدار العام ، تحت شمس السنغال الساخنة وهناك وسط الغابات الكثيفة والخضرة الشاسعة وبرك السباحه ، وصالات الملاعب واللهو يتحللون من كل شيء ، كل قيد ، بل كل قيمة !

احيانا يذهبون الى ابعد من ذلك ، يسرقون لبن الامهات ويسوقونه في اوروبا !

فقد قالوا لي في داكار ان احدى الشركات الاوروبية ، تشتري لبن الافريقيات ، وتعبئه في زجاجات وتبيعه معقما في بعض العواصم الاوروبية ، لكي يتغذى عليه اطفال الغرب ، على اعتبار ان لبن الامهات غذاء أوفر وأصح والمرأة الاوروبية العاملة لا تستطيع ان تؤدي هذا الالتزام ، بحكم شواغلها اليومية من ناحية ، فضلا عن الاضرار « الجمالية » التي تصيب الأوروبية من جراء الرضاعة وما ترتبه من اخلال محتمل بجمال صدرها وتنسب ومقاييسه !

وحل هذه المعضلة ، اهتدى العقل الاوروبي الى حل يوفر للطفل الاوروبي الغذاء والصحة ، ويحفظ للاوروبية جمال صدرها وراحة بالها ، وكان المخرج هو ان تستحلب الامهات الافريقيات ، وتنقل ألبانها طازجة ومعقمة لتكون في متناول الراغبات ، الباحثات عن ذلك الحل السعيد !!

جورية : ادانة ابدية !

ان القصص التي تروى عن مختلف ممارسات الرجل الابيض في السنغال تشكل صحيفة اتهام تدينه الى الابد ، فقد جاء الى افريقيا الغربية طامعا في الذهب وتاجرا للرقيق ، ولا يزال الى الان يتصرف بعقلية الطامع وتاجر الرقيق .

وتظل جزيرة « جورية » الواقعة على مرمى البصر من داكار رمزا لبربرية الرجل الابيض ، واعلانا يفضح ممارساته البشعه في افريقيا .

لقد كانت جورية اهم مراكز تصدير العبيد من غرب افريقيا الى اوروبا ثم امريكا منذ القرن الخامس عشر ، ولا يزال فيها الى الان بناء عمره ٣٠٠ سنة كان يقيم فيه الزنوج قبل شحنهم على البواخر للبيع في اسواق العالم الغربي .

ورغم ان في الجزيرة ٩٠٠ شخص ، من الصيادين ورجال الادارة ، الا ان اهم ما فيها هو بيت العبيد ، المطل على المحيط مباشرة ، والمكون من طابقين اثنين . واحد ارضي يضم ١١ غرفة صغيرة ومعتمة ، كان يتوزع فيها الرجال والنساء والاطفال . وللغرف جدران سميكة ، لا يزال مثبتا في بعضها بقايا القيود الحديدية التي كان يقيد بها الرقيق ، بينما لا تزال بعض كتابات الرقيق الدامعة محفورة على تلك الجدران .

في الطابق الثاني اربع غرف كبيرة ذات ارضية من الخشب ، وملحق بها حمام ومطبخ كبيران ، بينما تطل شرفة واسعة على المحيط . . ولا يحتاج الامر الى جهد ليكتشف الزائر ان هذا الطابق الثاني للتجار وملاحي سفن الشحن ، للسادة البيض ، بينما الطابق الارضي للعبيد السود .

ان فرنسا هي رمز الرجل الابيض في السنغال ، ووكيلة اعمال الحضارة الاوروبية في غرب افريقيا ، منذ فازت بالمركز الاول في الصراع الاوروبي على ذلك الجزء من افريقيا ، وهو الصراع الذي افتتحه البرتغاليون في منتصف القرن السابع عشر ، حيث أسس الكاردينال ريشيلو الشركة الملكية الفرنسية الافريقية في جزيرة سان لوي الحالية ، وهي التي قامت بدور شركة الهند الشرقية في التمهيد لاحتلال الانجليز للهند . ولحق بهم الالمان في « جورية » ليزاحموا البرتغاليين الذين آذنت شمسهم بالمغيب في مملكة البحار والمحيطات ، وبعدهم جاء الانجليز في اواخر القرن السابع عشر ، ولكن الصراع حسم في القرن الثامن عشر ، وخلا المسرح للفرنسيين الذين انتزعوا سلطان الغرب في تلك المناطق .

وبينما كان الرجل الابيض يحوم حول سواحل القارة ، عاجزا عن النفاذ الى عمقها منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، فان العرب كانوا قد وصلوا الى غرب افريقيا مبشرين بالاسلام منذ القرن الاول للهجرة .

العرب كانوا هنا

يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان (ج ٤) : كان عقبة بن نافع مقيما في نواحي برقة وزويلة منذ ولاية عمرو ابن العاص له ، فجمع من اسلم من البربر ، وضمهم الى الجيش الوارد اليه من معاوية ، وسار الى افريقية (تونس الآن) ونازل مدنها ، واسلم على يده خلق من البربر . وفشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان (غرب افريقيا) فجمع عقبة حينئذ اصحابه ، وقال : اني رأيت ان ابني ها هنا مدينة يسكنها المسلمون . فاستصوبوا رأيه ، وبنى القيروان .

وقد هيأ تأسيس مدينة القيروان في افريقية على يد عقبة ابن نافع سنة ٥٠ هجرية ، مركزا حصينا اتخذه قاعدة لنشر الاسلام في شمال افريقيا وغربها .

من ناحية اخرى ، اشار احمد بابا مؤرخ صنغي (احدى امبراطوريات غرب افريقيا) الى وجود اثنى عشر مسجدا في مدينة غانة (كومبي صالح) حوالي سنة ٦٠ هجرية (٦٧٩م) .

والامر كذلك ، فليس صحيحا ان المرابطين هم الذين ادخلوا الاسلام الى غرب افريقيا في القرن الحادي عشر الميلادي ، كما تحاول ان تروج لذلك اكثر المصادر الغربية . والاصح انهم سعوا الى نشر الاسلام على نطاق اوسع في مناطق غرب افريقيا ، بينما كان الاسلام موجودا بالفعل منذ القرن السابع الميلادي .

وطوال تلك القرون كان المسلمون يذرعون افريقيا طولا وعرضا ، مبشرين وتجارا . ساعدهم على ذلك انهم حفروا الآبار بين واحات افريقيا ، وادخلوا الجمل لاول مرة الى الغرب الافريقي .

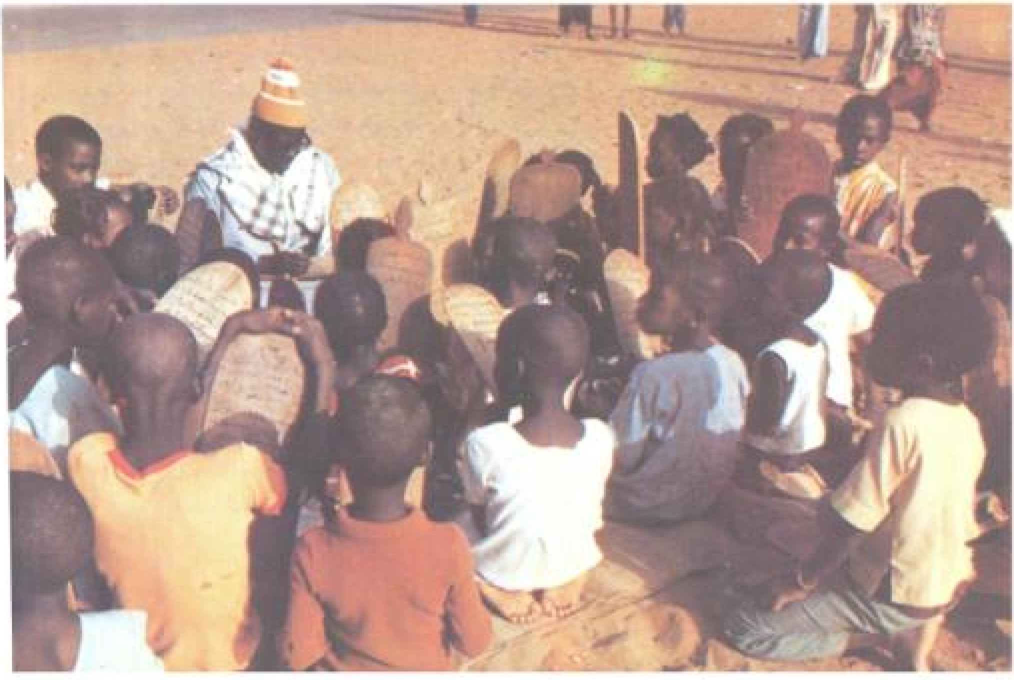
فقد عمل حفيد عقبة بن نافع ، عبد الرحمن بن حبيب الفهري (١٢٧ - ١٣٢ هـ) على حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات افريقية وبين مدينة اودغشت بصحراء المغرب الاقصى . واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة ان يعبروا الصحراء وان ينشروا الاسلام بين القبائل الضاربة فيها ، كما استطاع التجار ان يتصلوا ببلاد الملثمين وبلاد السودان (افريقيا الغربية) عن طريق ساحل المحيط ، او طريق الصحراء الذي اصلحه عبد الرحمن الفهري . واصبحت القوافل اكثر استعدادا لارتياد الطريق الى غربي افريقية . وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة ، اذ ادت الى دخول الاسلام الى غربي افريقية ، عن طريق آخر غير الطرق التي كانت مألوفة من قبل .

ويعتبر دخول الجمل الى شمال افريقيا عن طريق العرب حادثا فريدا في الصحراء الكبرى الافريقية ، فبينما لم تنتظر الحركة في الصحراء وصول الجمل ، فانه كان صاحب الفضل في جعل طرق القوافل شرايين منتظمة للتجارة والحضارة بين جزأي افريقيا شمال الصحراء وجنوبها ؟ .. حتى اصبح في مقدور القوافل ان تقطع ذلك القفر بين شمال الصحراء الافريقية وجنوبها في مدة شهرين او أكثر .

منذ تلك الازمنة البعيدة ، كان العرب هناك ، في غرب افريقيا . وقتئذ لم يكن لدولة السنغال وجود ، وانما كانت هناك مجموعات من القبائل والممالك والامبراطوريات الاسلامية التي ظهرت في غرب افريقيا



العاصمة ايضا .. حشد القوارب يصطف على شواطئ داكار ، للصيد والنزهة (فوق) وشيخ سنغالي جلس تحت شجرة وفي الهواء الطلق (تحت) يعلم الصغار على الالواح العتيقة القرآن الكريم واللغة العربية ، التي سرعان ماتنسى بعد الالتحاق بمدارس الحكومة ، ثم على الصفحة المقابلة لقطة ثانية من استجابة الافريقيات لوقع الانغام ، وهي الاستجابة التي لاتختلف كثيرا فيما بين الفتيات والامهات والجدات .





على فترات متفاوتة من التاريخ ، وأولها امبراطورية غانه التي استمرت حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم مالي ، ومن بعدها صنغي ، ثم امبراطورية التكاروره التي قامت في العصور الوسطى وبحث في القرن التاسع عشر .

سودان : ليسوا نوبة اوزنجا

كان هناك السنغال النهر ، ولكن السنغال الدولة بحدودها الحالية لم يكن لها وجود ، انما تكونت في القرن التاسع عشر ، عندما توحدت بعض شعوب تلك البقعة وقبائلها ، ولعب الفرنسيون دورا في ذلك ، ثم قسمت الحدود لاول مرة بين دول غرب افريقيا في عام١٨٩٥ .

وكان طبيعيا ومبررا الا يذكر اسم السنغال في المراجع العربية القديمة ، ولكن العرب اطلقوا « وصف السودان » على اصحاب البشرة السوداء بصفة عامة ، وانصب المصطلح من الناحية الموضوعية على سكان غرب افريقيا قبل غيرهم

ولا علاقة بين كلمة السودان في المصطلح العربي وجمهورية السودان الحالية ، التي اطلق عليها العرب مع المناطق الجنوبية لمصر « بلاد النوبة » . بينما الحبشة عند العرب هي ذاتها اثيوبيا الآن . اما العناصر السوداء الاخرى فقد ميزها العرب باسماء اخرى مثل « الزنج » ونسبوا غربي المحيط الهندي اليهم فقالوا عنه « بحر الزنج » .

والاصطخري يصف بلدان غرب افريقيا او السودان بان سكانها ليسوا « بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجه ، الا انهم اشد سوادا من الجميع وأصفى » .

وكما أطلق العرب على غرب افريقيا « بلاد السودان » فانهم سموا منطقة الشمال الافريقي الحالي « بلاد البيضان » وهو الوصف الذي تردد في كتابات ابن حوقل وابن بطوطه ،

لقد بدأ العصر التاريخي لافريقيا السوداء بالاسلام - كما يقول الباحث الفرنسي جوليه - فضلا عن ان العرب هم اول من وصف جغرافية افريقيا الغربية بوجه اخص ، وقدم للعالم اوفى معلومات عن سكانها وتاريخها كما يقول باحث فرنسي آخر هو جوسيه كو ،

فرنسا باقية

الآن تبادلنا المواقع .. صار الوجود والفاعليه والمعرفة من نصيب الاوروبيين ممثلين في فرنسا ، وصار الغياب والجهل وتلمس الابواب من نصيب العرب !

وهذا التحول في الميزان لم يحدث لان الاوروبيين عرفوا الابواب والمسالك واقتحموا الغابات فضلا عن المراعي او السافانا ، ولكن لان العرب والمسلمين دخلوا مرحلة الجزر والانحسار بعد المد العظيم ، فغابوا عن افريقيا ، وافسحوا الطريق لمواكب الغزاة والطامعين .

ومنذ آل السلطان والسيادة لفرنسا في غرب افريقيا وهي تتصرف لا كشريك فقط ، ولا كمستعمر فقط ، بل كصاحب الدار .

فقد اصبحت حدود افريقيا الغربية هي حدود فرنسا فيما وراء البحار ، واعطى مواطنوها الجنسية الفرنسية ،

وبالنسبة لفرنسا ، لم تكن السنغال مستعمرة عادية ، انما كانت القاعدة ومركز الانطلاق وجسرها الاول الى غرب القارة . على سواحلها وضعت اقدامها في البداية ، ومنها زحفت لتغزو اركان غرب افريقيا .

وبعد الحرب العالمية الثانية كانت داكار قد اصبحت عاصمة « للسودان الفرنسي » ، ومقرا لحاكم المستعمرات ، ومركزا للادارة والتجارة ومختلف المواصلات البرية والجوية للغرب الافريقي كله .

وقبل ذلك بسنوات ـ في سنة ١٩١٩ ـ كانت فرنسا قد انشأت في جزيرة « سان لويس » السنغالية التي اقترنت باسم الملك لويس الرابع عشر ، معهدا قدر له ان يلعب دور الجامعة السنغالية التي تخرج منها الجيل الاول من مثقفي غرب افريقيا .

ورغم ان الهدف من انشاء هذا المعهد كان تفريخ ابناء الثقافة الفرنسية وترسيخ الولاء لفرنسا ، الا ان بعض خريجي معهد سان لويس ظلوا يضغطون منذ الثلاثينات مطالبين باستقلال المستعمرات . ولم يجد هذا التيار فرصته

الا في اواخر الخمسينات ، عندما وصل الجنرال ديجول الى الحكم في عام ١٩٥٨ ، واعلن وقتئذ ان فرنسا تتجه الى تصفية مستعمراتها استجابة للضغوط المتزايدة من فصائل النضال الوطني . وبعد استفتاء شعبي جرى في ذلك العام حصلت السنغال على « الحكم الذاتي » ، واعلنت فيها الجمهورية في يوليو ١٩٥٨ ، الا انها ظلت ضمن المجموعة الفرنسية لما وراء البحار .

ولم يستمر هذا الوضع اكثر من سنتين ، اذ حصلت مالي على استقلالها وانفصلت عن السنغال ، التي اعلنت استقلالها بدورها ، وتولى القيادة فيها الرئيس ليوبولد سنجور . لكن فرنسا لم تغادر السنغال !

فقد جاءت من البداية متشبثة بالبقاء ضاربة جذورها في اعماق التربة السنغالية ، ناثرة بذور التخريب على اعرض قاعدة استطاعت ان تمتد اليها ، ولا تزال الخيوط الوثيقة التي تربط داكار بباريس امتن واقوى مما يتصور الذين ابهجتهم موسيقات الاستقلال واعلامه في الستينات .

لقد تمثل الموقف في تلك العبارة التي رددها سنجور اكثر من مرة : انا فرنسي !

وكان زواج سنجور من فرنسية بيضاء ، تعبيرا عن الزواج الكاثوليكي الذي عقدته فرنسا مع السنغال !

وطبقا للمعلومات الرسمية التي لا تخفيها الخارجية الفرنسية ، فان فرنسا لها اتفاقات عسكرية مع ٢٥ دولة افريقية ، ولها معاهدات دفاع وقواعد عسكرية في ٦ دول افريقية ، وفوق ذلك فلها ٦ الاف جندي من القوات الخاصة المتحركة في انحاء القارة ، غير قواتها المرابطة في القواعد البرية والبحرية . ثم ان لها في دول شمال افريقيا ١٢ الف فرنسي من المجندين الذين توفدهم لقضاء الخدمة في مشروعات مدنية ، غير ١٢ الفا آخرين يعملون في افريقيا جنوب الصحراء التي تشمل دول غرب ووسط القارة . ويقدر حجم المساعدات الاقتصادية التي تقدمها فرنسا للدول الافريقية التي تدور في فلكها بحوالي ٤ مليارات فرنك سنويا .

ألف جان كولان

وغير هذا القدر المعلن رسميا ، فان مغامرات فرنسا ومؤامراتها التي تباشرها ـ في السر والعلن ـ مستمرة في انحاء القارة التي يمتد اليها ذراعها ونفوذها . ودور القوات الفرنسية الخاصة في خلع بوكاسا « امبراطور » افريقيا الوسطى ليس خافيا على احد .

ونصيب السنغال من الوجود العسكري الفرنسي يتمثل في ١٠ الاف جندي يعسكرون في عدد من القواعد العسكرية ، المعلن منها اثنتان فقط ، احداهما قاعدة برية في تياسي ، والثانية بحرية في داكار .

لكن الوجود العسكري الفرنسي في السنغال ليس الا وجها واحدا للحقيقة . .

ففرنسا موجودة في الحياة المدنية ـ السياسية والاقتصادية ـ بابنائها الشرعيين ، وابنائها غير الشرعيين .

وحتى عهد قريب كان وزير داخلية السنغال فرنسي اسمه جان كولان ، وكما تزوج سنجور من فرنسية ، فان كولان الفرنسي تزوج من سنغالية ، هي شقيقة سنجور . وعندما انفصلا مؤخرا استقر كل منهما في الوطن الذي اختاره . . فبقي كولان في داكار ، وذهبت شقيقة سنجور لتقيم في باريس !

وثمة الف كولان آخر في الوزارات والمصالح الحكومية ومختلف المشروعات الاقتصادية والشركات الكبرى ، في كل موقع هناك « مستشار » فرنسي ، يعرف جيدا كي يديره ، وكيف يصب في وعاء المصالح الفرنسية ، بانتاجه او استيراده او مناقصاته وكافة خططه المستقبلية .

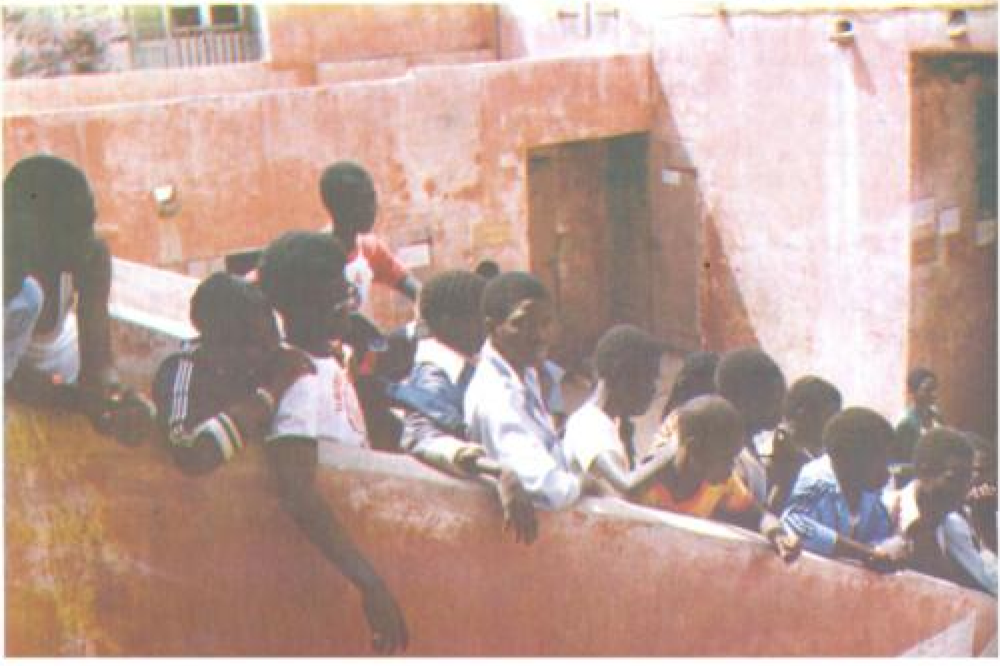
ان النفوذ الفرنسي وصل الى حد تغيير التركيبة الاقتصادية للسنغال ، لتخدم المصالح المالية والصناعية في فرنسا . وكما فعل الانجليز في مصر والهند ، عندما كان همهم توسيع نطاق زراعة القطن وتصديره لتشغيل مصانع مانشستر ، وكما فعل الفرنسيون في الجزائر التي كانت تصدر القمح ، عندما غيروا خريطة المحاصيل الزراعية بحيث تعطي الاولوية لانتاج الكروم ، لكي يمول مصانع النبيذ الفرنسية . . . كذلك فعلوا في السنغال ، دفعوا الفلاحين ، بمختلف الوسائل الى زراعة الفول السوداني (يسمونه في فرنسا فستق العبيد) حتى بات يشكل ٨٠ ـ ٨٥٪ من الانتاج الزراعي في السنغال ، وذلك لصالح كبار صانعي الزيت الفرنسيين ، ولاسيما فريق زيوت لوسيور . وتم ذلك على حساب الزراعات الغذائية ، الامر الذي رتب نتيجتين خطيرتين يذكرهما جارودي في حوار الحضارات هما :

تجويع السكان بحرمانهم من المحاصيل الغذائية ، وتسميم الارض عن طريق تشكيل طبقة من الافرازات الحمراء على سطحها تجعلها غير صالحة لاية زراعة !





الصور الثلاث من جزيرة تصدير العبيد الشهيرة ، جوريه ، الجسر المؤدي الى الجزيرة بعد النزول من الباخرة التي تحمل القادمين من داكار (فوق) ثم لقطة داخل بيت العبيد ، تلاميذ المدارس يفدون مجانا الى المكان ، حيث يستحضرون التاريخ ويرون على الطبيعة كيف كان الرجل الابيض يعامل اجدادهم . . وهم في الصورة (تحت) على الدرج المؤدي من الطابق الارضي حيث كان يسجن العبيد ، الى الطابق الثاني حيث يعيش التجاروقباطنة السفن .
اما صورة الصفحة المقابلة فهي للباب الخلفي لبيت العبيد ، الذي يدفعون منه الى السفن الراسية على الشاطئ . ومنها الى العالم المتحضر .



لكن ذلك لايهم ، طالما انه يكفل في النهاية تشغيل مصانع الزيوت الفرنسية !

حتى يتخلخل البناء

ان هذه النقلة الضخمة التي حدثت سواء في ملامح السنغال او في طبيعة الدور الذي باتت تلعبه في غرب افريقيا ، لم تكن لتتم لولا الجهود المكثفة التي بذلت من اجل تفكيك الشخصية السنغالية من الاساس . وذلك عن طريق محاولة اقتلاع مقومات هذه الشخصية كلما امكن ، وتطويع ما يتعذر اقتلاعه ، بحيث يتحول الى عنصر مسالم ومستأنس قابل بما يجري او غاض البصر عنه .

ومنذ قدم الاستعمار الفرنسي وهذا الهدف نصب عينيه ، اذ سعى منذ جاء الى فك ارتباط السنغال بالعروبة والاسلام ، بالاقتلاع او بالترويض والتسكين . وتغييرهم للبنية الاقتصادية للسنغال ، لكي تخدم المصالح الاقتصادية الفرنسية ، كرروه حرفيا في البنية الثقافية والفكرية للبلاد .

عندما قدم الفرنسيون كانت خريطة البشر في السنغال ـ ولا تزال ـ على النحو التالي : انها بلد تسكنه شعوب وقبائل شتى ، زنجية بالدرجة الاولى ، تتكلم ١٣ لهجة تختلف كل منها كلية عن الاخرى ، على رأس هذه الشعوب « الولوف » سكان الساحل ، والاكثر عددا (يشكلون الان مليونا ونصف مليون من بين ملايين السنغاليين الاربعة) ومجتمعهم مقسم الى ثلاث طبقات ، الاحرار « جامير » ـ بضم الباء ـ وهؤلاء هم الاشراف ورجال الدين والفلاحون ـ ثم الحرفيون « جيج » وهم اصحاب المهن من الحدادين الى القوالين (رواة السير والمغنون والعازفون) ـ واخيرا طبقة العبيد (جام) التي تضم الاسرى والسبايا والارقاء .

وبعدهم يأتي شعب « الفلان » سكان الصحراء شرقي السنغال ، الذين كانوا اول من اعتنق الاسلام في غرب افريقيا ، ربما بحكم انهم رعاة متنقلون وراء العشب ، طوافون بالبادية التي يقع الشمال الافريقي على طرفها الاخر ، و« التكولور » هم ثالث اهم تلك الشعوب السنغالية وهم مسلمون يسكنون وادي السنغال المحيط بالنهر ، وتأثرهم الى حد كبير بالموريتانيين في الشكل والملامح وبالولوف في النظام الاجتماعي ، لأن مجتمعهم مقسم ايضا الى ثلاث طبقات : الاشراف واهل العلم (طوروب) ثم الفلاحون (الصيادون) وبعدهم ـ في ادنى السلم ـ اهل الحرف والمهن .

ورابع تلك الشعوب في ترتيب حجم السكان هم « السرير » اهل الغابات سكان الجنوب والغرب الذين كانوا في ذلك الحين على الوثنية ، وان نشطت بينهم بعثات التبشير المسيحية بعد ذلك .

هذه التركيبة السكانية المتعددة الاصول والاوجه واللهجات ، جمع بينها الاسلام ، الذي كان قاسمها المشترك ، ونقطة التوحد والالتقاء . وهو الدور الذي لم تؤده وحدة العرق والاصل الزنجي .

وحتى يتخلخل البناء كان لابد من التركيز على ذلك القاسم المشترك ، بجهود تستهدف تقليص دوره على الاقل ، ان لم تنجح جهود القضاء عليه واستئصاله .

لكن المعركة ضد الاسلام ذاته لم تكن بالامر الهين ، ورغم ان الاستعمار الفرنسي لم يحاول تغيير معتقدات المسلمين في السنغال ، الا انه لم يتردد في بذل الجهد لتخريب تلك المعتقدات كلما امكن . لكن ذلك ايضا كان هدفا بعيد الاجل .

ولأنه كان يريد ان يجني الثمار بسرعة فان العقل الاستعماري الفرنسي قرر ان يسعى الى خلخلة نقطة التوحد في الشخصية السنغالية من باب آخر هو : اللغة العربية .

معالم المؤامرة

ذلك ان انتشار الاسلام كان يقترن دائما بانتشار اللغة العربية . لأن الضرورة كانت تفرض على كل وثني يعتنق الاسلام ان يتعلم اللغة العربية ، على الاقل بالقدر الذي يساعده على اداء الفرائض والعبادات . ومن الثابت ان اللغة العربية كانت لسان حال الامبراطوريات الافريقية القديمة ، حتى كانت العربية لغة الثقافة والادارة معا ، كما كان استعمالها شائعا بين الناس في السنغال حتى بدايات القرن العشرين . يؤكد ذلك ان بيانات السلطات الاستعمارية الفرنسية ان تلاميذ المدارس العربية في السنغال في سنة ١٩٠٨ وصل عددهم الى حوالي ١١ الف تلميذ ، من بين ٥٠ الف نسمة هم تعداد مستعمرة السنغال في ذلك الحين . وهي نسبة كبيرة جدا بأي مقياس . بل ان من الباحثين من يذكر ان مساهمة اللغة العربية في اثراء اللغات المحلية الافريقية وصل الى ٥٠٪ .

لقد كانت اللغة العربية خطرا قرر الاستعمار الفرنسي ان يواجهه ليحاصر الاسلام ويقلص دوره .

وهذا المعنى اكده الفرنسي باتجير ، مدير الشئون الاسلامية لافريقيا السوداء ، عندما اصدر مجلة عنوانها

« كارثة الاسلام » ، ظل يلح فيها على سياسة الحزم تجاه الاسلام واللغة العربية . وبنفس المنطق كتب ارنو روبير رئيس مصلحة الشئون الاسلامية لمدينة داكار في سنة ١٩١٢ يقول : يجب ان تكون سياسة فرنسا صارمة في افريقيا الغربية .. ويجب وضع حد لنشاط معلمي المدارس العربية والكتاتيب القرآنية والمرابطين في البلاد ... وتساهلنا مع هؤلاء يعني اننا نهيء بأنفسنا اعتناق الافارقة التدريجي للاسلام ، وبهذا تكون قد اخذنا بيد الاسلام ، ودفعنا عجلة تقدمه الى الامام ... » .

ومن الوثائق الدامغة في هذا الصدد ، تلك الوثيقة الهامة التي نشرها لاول مرة الاستاذ عمار هلال ، والتي تكشف موقف الادارة الاستعمارية الفرنسية ، ممثلة في رسالة كتبها حاكم السنغال الفرنسي لويس فيديرب في عام ١٨٥٧ مخاطبا حكومته ، وفيها يقول :

ان الرغبة التي يبديها الزنوج في تعلم اللغة العربية ، هي كارثة بالنسبة الينا ، وعلينا ان لا ننمي هذه الرغبة . ان اللغة الفرنسية هي التي يجب علينا ان نعلمهم اياها ، وهذا لمصلحتنا الخاصة ، ولكننا حتى الآن لم نضع اي وسيلة تحت تصرف الزنوج لهذا الغرض .

ومن بين ٥٠,٠٠٠ من الاهالي الافارقة التي تضمهم اليوم مستعمرة السنغال ألفا مسيحي ، لهم مدارس دينية لكن ٤٨,٠٠٠ ألفا من المسلمين ليس لديهم اي وسيلة لتعلم لغتنا ، ليبدءوا الاعتياد علينا ولكم سيادة الوزير النظر فيما اذا كان ذلك الوضع يشرف فرنسا ويخدم مصالحها .

وفيديرب هذا ، هو صاحب القرار الشهير الذي صدر في ٢٢ يونيو سنة ١٨٥٧ في داكار بعنوان « اصلاح التعليم العربي » ، والذي يكشف بصورة اوضح اساليب فرنسا وخططها لحصار اللغة العربية والقضاء عليها . وملخص القرار - كما اورده الاستاذ هلال - يقضي بما يلي :

١ - ابتداء من تاريخ صدوره ، لا يستطيع اي شخص في غرب افريقيا السوداء ، او في المستعمرات الفرنسية في افريقيا السوداء ، ان يباشر مهنة التعليم في المدارس العربية الحرة ، او في الكتاتيب القرآنية ، بدون ان يحصل على ترخيص خاص من الحاكم العام (الفرنسي) لافريقيا الغربية .

٢ - لا يحصل على تلك الرخصة الا الاشخاص الذين تتوفر فيهم شروط ثقافية ومهنية معينة ، وذلك بعد ان يمتحن هؤلاء من طرف لجنة خاصة ، تتكون من شيخ البلدية (فرنسي الاصل) وشخصية دينية اسلامية ومواطن مثقف ثقافة عربية عالية .

٣ - يلزم كل مرشح لممارسة التعليم العربي في المدارس الحرة بان يقدم مع طلبه شهادة تثبت حسن سيرته وأخلاقه . وتسلم له هذه الشهادة من طرف شيخ البلدية التي يسكن فيها . ولا تسلم الشهادة للشخص المرشح الا بعد تحريات دقيقة تقوم بها مصالح البلدية المعنية بالأمر . (والمقصود بالسيرة والاخلاق هنا ، هو موقف الشخص من الاحتلال الفرنسي في افريقيا السوداء وانتماؤه الايديولوجي والسياسي) .

٤ - تتولى اللجنة الثقافية التابعة للسلطة الاستعمارية مراقبة المدارس العربية الحرة وتفتيشها من وقت الى آخر .

٥ - يلزم كل معلمي اللغة العربية في غرب افريقيا ان يرسلوا تلاميذهم الذين بلغوا سن الثانية عشرة لسنة او اكثر الى الدروس الفرنسية المسائية التي تنظمها مدارس الرهبان البيض او المدارس الحكومية المدنية .

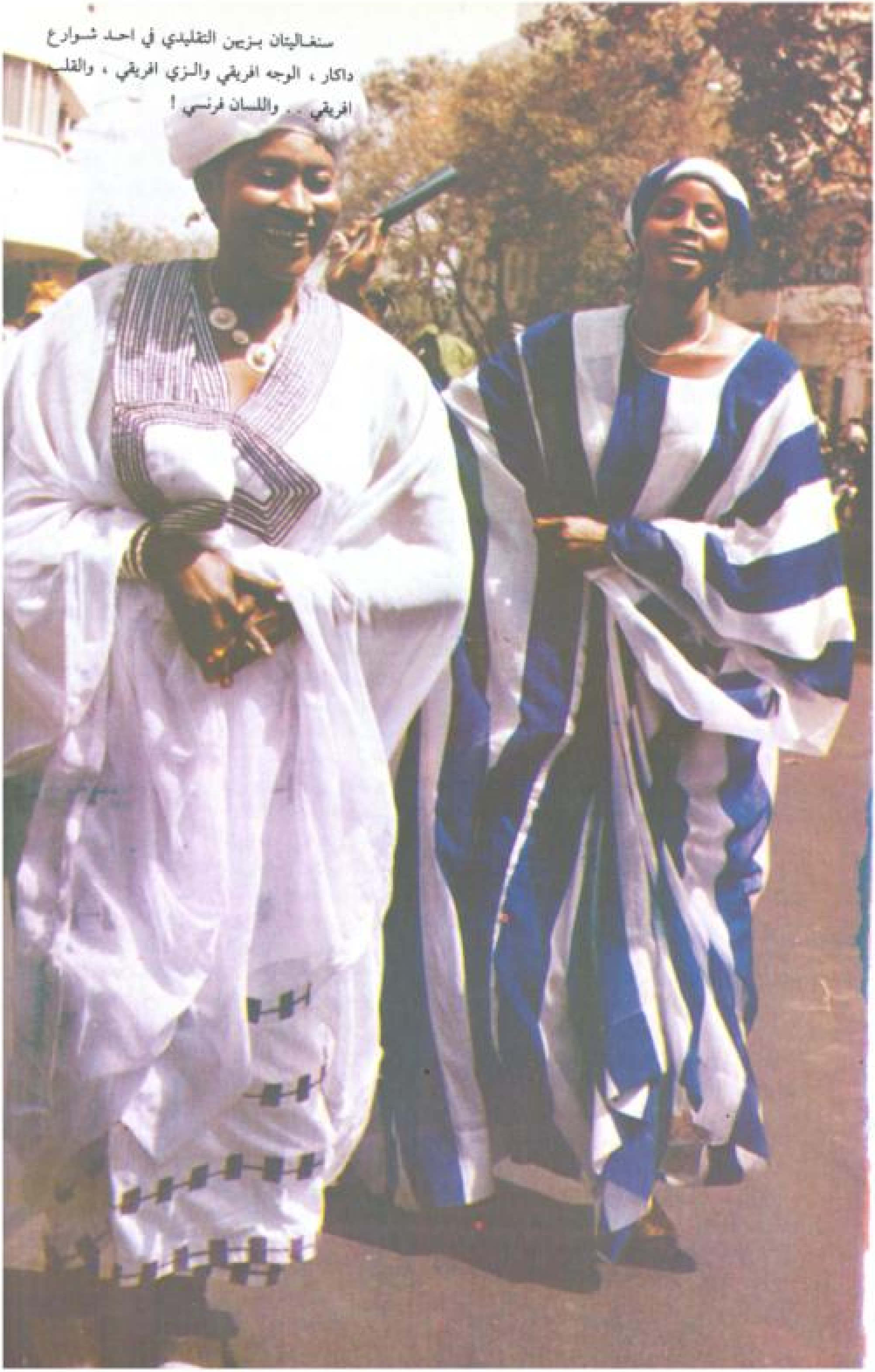
ويضيف الباحث الجزائري انه الى جانب هذا القرار الذي اصدره فيديرب الحاكم الفرنسي لافريقيا الغربية ، اصدر الحاكم الفرنسي فالبير مرسوما حكوميا بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٧٠ ينص على اجبارية تعلم اللغة الفرنسية على معلمي المدارس العربية انفسهم في غرب افريقيا ، وذلك ليعلموها بدورهم لتلاميذهم .

وقد نص قرار فالبير هذا ، على ان التلاميذ الذين يزاولون تعليمهم العربي في المدارس العربية في السنغال ، والذين لا يستطيعون التمكن من اللغة الفرنسية في مدة لا تتجاوز السنتين يطردون من المدارس العربية ، ويلتحقون بالمدارس الفرنسية ليتعلموا فيها اللغة الفرنسية فقط .

وبموجب قرار فالبير هذا اصبحت الرخص التي كانت تمنح لفتح المدارس العربية والتي اقرها مرسوم فيديرب السابق الذكر ، لا تمنح لاي شخص يدرس اللغة العربية ، الا بعد نجاحه في امتحان خاص في اللغة الفرنسية .

منافذ أربعة

وعندما تطبق تلك السياسة بقوة السلطة واصرارها على مدى قرن من الزمان ، فلن نحتاج الى جهد كبير لتصور نتائجها . فمن الطبيعي والمنطقي ان يؤدي ذلك الى اختفاء اللسان العربي ، وسد منافذ المعرفة بالاسلام ، او تضييقها على احسن الفروض . وعندئذ تصبح حالة احمد التيجاني ، عامل فندق ، تيرانجا ، صورة متقدمة جدا بل غير عادية ، اذا مالاحظنا ان الرجل من مواليد



سنغاليتان بزيهن التقليدي في احد شوارع
داكار ، الوجه افريقي والزي افريقي ، والقلب
افريقي .. واللسان فرنسي !



في كل مكان يعمل النساجون اليدويون ، على انوال بدائية يصنعون ثيابهم الزاهية الالوان . . منها يكتسون ويرتزقون .

الخمسينات ، اي انه بدأ يتلمس طريقه الى الحياة بعد عدة عقود من بدء حصار اللغة العربية ، الامر الذي يفترض معه ان الاجهاز على تلك اللغة بات مفروغا منه .

لكن ذلك لم يحدث ، وظلت اللغة العربية راسخة في التربة السنغالية ، رسوخ شجرة « البابوا » الضخمة رمز السنغال وعلامته المميزة . حتى كتبت مجلة « جنيو افريقيا » في احد مقالاتها ان « الدراسات اثبتت في سنة ١٩٦٠ ، انه في كل قرية بالسنغال هناك اربعة اشخاص او خمسة (يرتفع العدد الى ٢٥ شخصا عند التكروريين الذين يعشون قرب الحدود الموريتانية) يستطيعون قراءة العربية وكتابتها ، وان هناك آخرين من الولوفيين لا يزالون يكتبون لغتهم بالحروف العربية . » .

لقد اصاب العربية من النتوء ما اصابها فوقف نموها عند صياغات القرن الماضي واساليب التعبير فيه ، وتسلل اليها الهزال والشحوب ، الا انها لم تمت ، ولم تقتلع جذورها من تربة السنغال ، على عكس ما قدروا وتمنوا .

وذلك موقف ايجابي باي مقياس ، لأنه يعني ان اللغة العربية لازالت على قيد الحياة ، رغم ان مؤامرة اغتيالها نفذت بالفعل !

لقد كانت تلك « الرغبة التي يبديها الزنوج في تعلم اللغة العربية » ، التي اثارت حتى فيديرب الحاكم العام لغرب افريقيا في منتصف القرن الماضي ، والتي لم يتنبه الى انها جزء من التزام الزنجي ، باسلامه ، هذه الرغبة هي التي دفعت السنغاليين الى السعي حثيثا من اجل اختراق ذلك الحصار الاستعماري ، وافشال خططه في اغتيال اللغة العربية .

وكانت هناك منافذ اربعة ، استطاع السنغاليون بواسطتها ان يخترقوا الحصار ، هي : الكتاتيب ، والمساجد ، ومدارس البيوت ، والبعثات الدراسية الى الدول العربية .

وقد كان للموريتانيين دور لابد ان يذكر في تعزيز « صمود » اللغة العربية داخل السنغال . ذلك ان وضعهم الجغرافي على الضفة الثانية من نهر السنغال اقام جسورا دائمة للمدد الثقافي الذي كانت تفتقده البلاد . ولنا ان نتصور حجم هذا الدور اذا قسناه على حجم وجودهم الحالي في السنغال ، الذين يشكلون بعددهم الذي يبلغ ٣٠٠ الف موريتاني اضخم جالية اجنبية . وقد ظل هؤلاء الموريتانيون بمثابة الدعامة الاساسية التي قامت عليها بمختلف « خنادق » الدفاع عن اللغة العربية امام الغزوة الاستعمارية الشرسة .

وطوال العقود التي انقضت كان الموريتانيون ـ مع السنغاليين الذين افلتوا من الحصار ـ عاكفين على تحفيظ القرآن للاجيال المتتابعة ، وتلقينهم بعضا من علوم الفقه والنحو ، في الكتاتيب (يسمونها « دارا » من الدائرة او الحلقة) التي كثيرا ما تنعقد حلقاتها تحت ظلال الاشجار في الشوارع ، وفي المساجد التي لابد ان تتوسط قرى الولوف بوجه خاص ، حيث تبنى تلك القرى على شكل مربع تصطف الاكواخ بامتداد اضلاعه ، بينما يقوم المسجد في نقطة مركزية وسط المربع ، والى جانبه شجرة ، حيث يدرس الاطفال اولا تحت الشجرة ، وينتقلون بعد سنوات قليلة للدراسة في المسجد ، لمستوى اعلى من الدراسة . وغير هذا وذاك ، فقد انشأت كثير من العائلات العريقة ، خصوصا اسر الشيوخ البارزين وعلماء الدين ، فصولا للغرض ذاته داخل بيوتها الكبيرة ، وقد رأيت نماذج لهذه الفصول في دار الاسرة « نياس » ـ من شيوخ الطريقة التيجانية في مدينة كولك ـ حيث كان المعلم الموريتاني يجلس في غرفة مبنية من الطين ، ويتولى تحفيظ القرآن لاطفال الاسرة والحي ، على الواح خشبية عتيقة ، بينما يأكل وينام في الحجرة ذاتها . . وكانت هناك ثلاث حجرات يجلس في كل منها معلم موريتاني ، يعيش حياة الرهبان ، وقد نذر نفسه لتلك الرسالة الجليلة .

ومن تلك الاسر من سعى الى انشاء معاهد دينية ـ فصول بتعبير ادق ـ ، تدرس فيها اللغة العربية بطبيعة الحال ، كما تدرس مناهج للثقافة الاسلامية ، وان كانت تلك المعاهد تباشر نشاطاتها في دائرة نفوذ الطرق الصوفية ، بحيث تتولى رعاية ابناء الطريقة واتباعها بالدرجة الاولى .

من حلقة الى حلقة

ماذا يتعلمون ؟؟

من سير بعض اعلامهم المحدثين ، نستطيع ان نضع اصابعنا على المنابع الفكرية للثقافة العربية والاسلامية في السنغال ، وان نتصور الاطار الذي باتت تعيش تلك الثقافة في داخله . في كتابه ، « الأدب السنغالي العربي » ، استعرض مؤلفه الدكتور عامر صمب حياة بعض الشخصيات البارزة في عالم الفكر والثقافة . وكان مما ذكره عن واحد من هؤلاء الاعلام ، هو الحاج عباس سل ، الذي ولد في عام ١٩٠٩ انه « تعلم القرآن اولا على صاحب من اصحاب والده معروف بسرنج (الشيخ) علي جه ، وثانيا على الشيخ علي جي فذهب الى انكيج عند ابن لصاحب الحاج عمر وهو سرنج عمر جوب الذي علمه رسالة ابن ابي زيد القيرواني والجزء الاول لمختصر خليل ، فذهب الى جبين حيث قرأ النحو على علي

صعب . ثم قرأ على الشيخ سنجار جوب القبة ابن مالك والمقامات الحريرية فقصد قرية مصر بالقرب من سكل لتعلم العروض ، وذهب الى سان لويس وقرأ على العلامة الاديب الشهير الشيخ ابراهيم جوب كتاب الاحرار النحوي وعقود الجمان والسلم في علم المنطق والورقات في اصول الفقه والتفسير ، وعلمه السيد الحاج سعيد التورتال القبة محمد بابه .

فأعطاه السيد محمد بابه العلوي الاجازة في تعليم الحديث واعطاه السيد ابو بكر سه بن الحاج مالك سه قدس الله سرهما الورد التجاني . فشرع يؤلف وهو ابن خمسة وعشرين عاما فقال قصيدة طويلة في التوحيد » .

اي ان اللغة العربية ومختلف الدراسات الاسلامية ظلت تدرس خارج النظام التعليمي وعلى النمط الذي كان سائدا قبل قرن من الزمان ، عندما كانت مراحل التعليم هي الانتقال من شيخ (يسمونه « سرتج » عند الولوفين وه جر » عند الفلاتيين) الى شيخ آخر او من حلقة الى حلقة ، وكانت شهاداته هي الاجازات التي يمنحها الشيخ لطلابه ومريديه ، وهو الاسلوب الذي لا يزال سائدا في الحوزات العلمية للشيعة ومازالت مستمرة في المدن المقدسة مثل مشهد وقم وكربلاء .

وهذا المنحى الذي احتمت به اللغة العربية ، او لجأت اليه ، كان ضروريا لتفادي عمليات الحصار والمطاردة التي مارستها السلطات الاستعمارية الفرنسية ، منذ قبضت على مقاليد الامور في السنغال .

وكان من نتيجة ذلك ان تشوهت اللغة العربية عند عامة السنغاليين ، الذين درسوا في الصغر سواء في الكتاتيب او المساجد ، ثم امحى بالتدريج اكثر ما تعلموه ، عندما شبوا وخرجوا من طور الدراسة الى دوامة الحياة . واختلطت بقايا العربية باللهجات المحلية ، فصاروا ينطقون الضاد ، كما ينطق حرف اللام . اما حروف السين والشين والصاد والزاي والذال فقد اصبحت كلها تنطق سينا ، بينما اصبحت حروف الخاء والقاف والغين ، تنطق كلها خاء . وبهذه الصورة اصبح من المستحيل على اي عربي ان يفهم اي جملة لواحد من مسلمي الولوف التي تعد لغتهم الاكثر انتشارا في السنغال .

ومن افرازات ذلك المناخ ان اصبح اسم محمد مثلا ينطق ويكتب مد ـ ومد (بضم الدال) ـ ودود ـ ومودو ـ ومامد . وعثمان اصبحت اتمان ، وابو بكر اصبحت بوكر ، وعباس نقطت بياس ، وام كلثوم صارت ام كل (من المفارقات ايضا أن اسم آدم والحسين يطلقان على النساء وفي سيرة الشيخ عمر تال ، وهو من اكبر شيوخ السنغال ان امه كانت تدعى آدم سخنه او الشيخة آدم) . كما ان كلمة « الفا » تعني القائم ، وهو لقب يضاف الى اسماء المثقفين . . وهكذا .

اللغة من باب الشعر

لكن الموقف اختلف عند المثقفين ، الذي يمكن تقسيمهم الى فريقين . فريق واصل دراسته في دول العالم العربي ، وهؤلاء اتيح لهم تصحيح لغتهم العربية . وفريق تدرج في دراسة العربية على ايدي الشيوخ السنغاليين ، على النحو الذي مر بنا قبل قليل . وهؤلاء هم الذين يقدم لنا الدكتور عامر صعب دراسة وافية عنهم ـ لعلها الوحيدة المعاصرة ـ وهي رسالته للدكتوراه الى جامعة السوربون بباريس التي كتبها باللغة العربية ، بعد الفرنسية ، وطبعت في الجزائر باسم الادب السنغالي العربي ، بينما الاسم الذي اختاره المؤلف للطبعة العربية هو : « الهدية السنغالية من المرجان في العقود الادبية للعربان » .

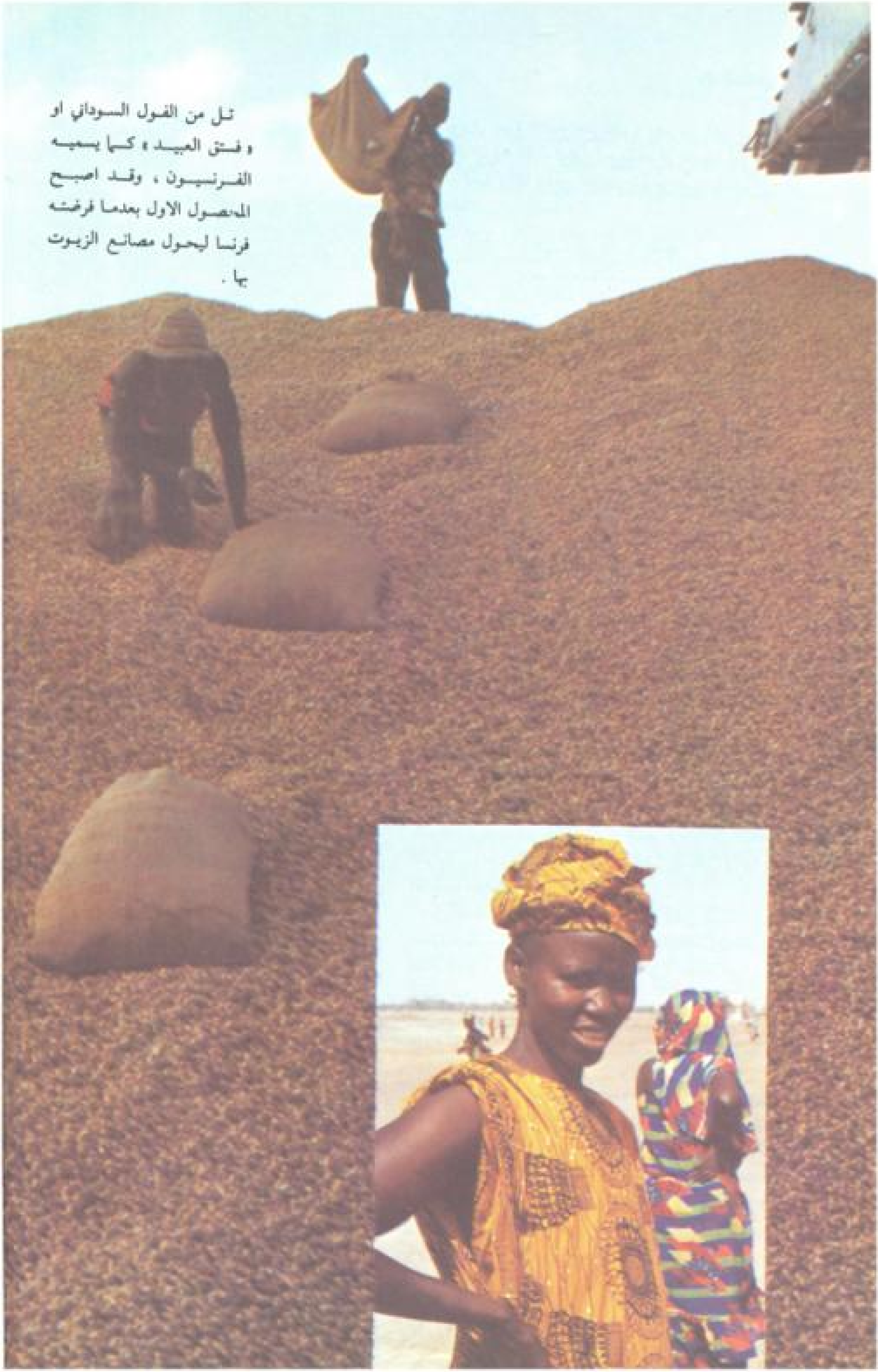
وقبل ان نبدي اية ملاحظات على نتائج هؤلاء الدارسين ، لابد ان نستحضر الظروف الصعبة التي نشأ فيها ادبهم ، وان نعتبره علامة حياة وصحة بمعايير تلك الظروف غير الطبيعية ، وان اخذنا عليه المآخذ اذا استخدمنا المعايير الطبيعية في ظروفنا نحن .

ذلك ان حال اللغة العربية في تلك الكتابات يدين الظروف التي حكمت السنغال ، ولا يقلل من جهد اولئك الكتاب باي حال . اذ يكفيهم شرفا وفخرا انهم تجاوزوا بقدراتهم وبجهدهم ذلك الحصار الذي فرض على اللغة العربية ، واصروا على ان يكتبوا بها غير منساقين في تيار الفرنسية الجارف .

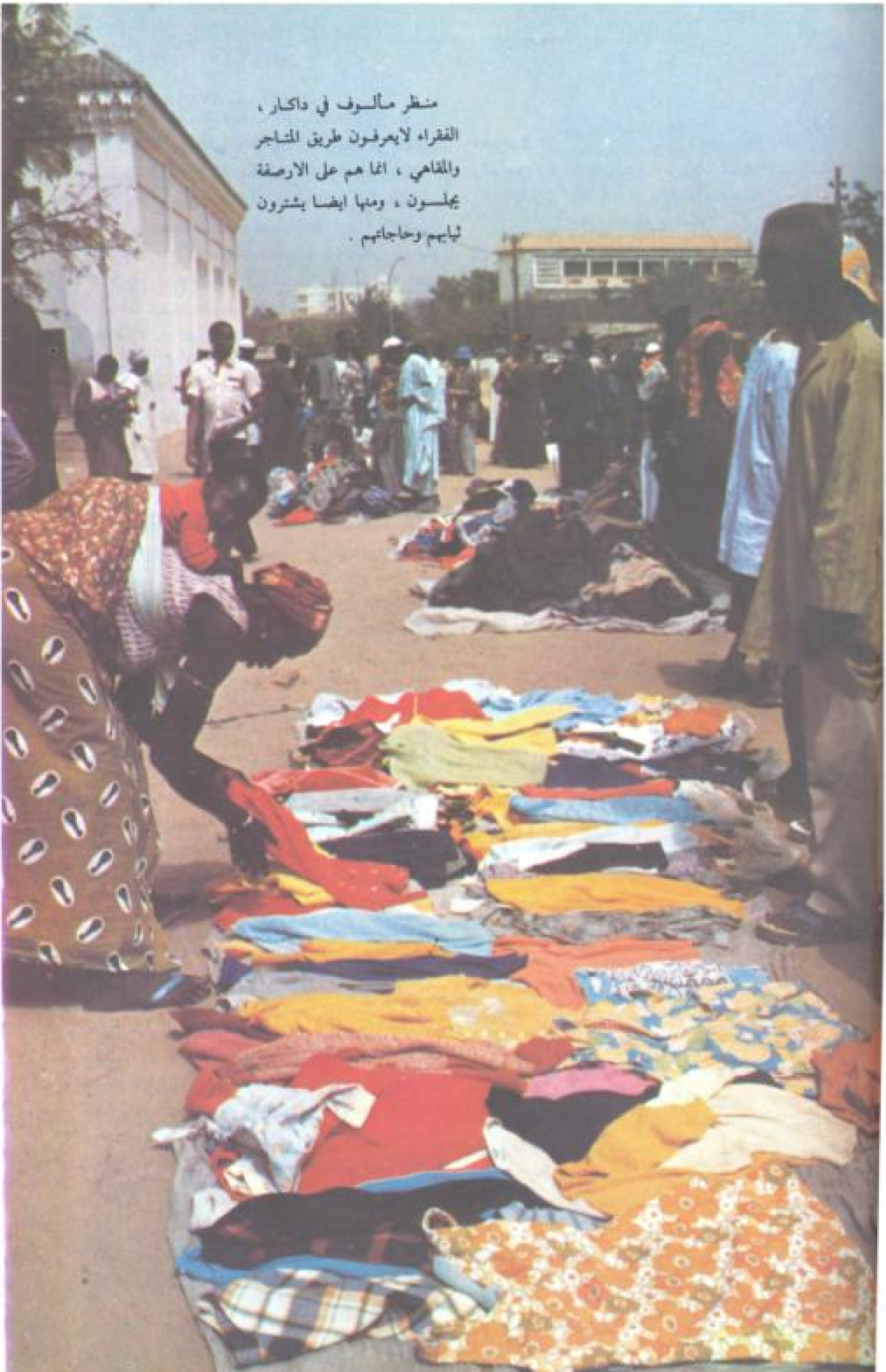
بل ان تدهور اللغة في اي مرحلة لا يمكن ان يتحمل مسئوليته نفر من الناس ، وانما يظل دائما انعكاسا لتدهور المناخ العام ، الذي كثيرا ما يؤدي الى انحطاط ادوات التعبير عنه .

ومع ذلك فان ما يمكن ان نسجله من ملاحظات على اللغة العربية عند المثقفين السنغاليين ينبغي ان يؤخذ باعتباره نوعا من الرصد ، وليس محاولة للتقييم .

اول تلك الملاحظات ان كتابات هؤلاء المثقفين تستخدم لغة القرن الماضي ، التي انقرضت من عالمنا العربي المعاصر ، وتخلصت من شوائب البديع والبيان والسجع وخفة المعنى مع هندسة اللفظ التي اتسمت بها . والاسم الذي اختاره الدكتور عامر صعب لكتابه من ذلك النوع الذي انقرض من الصياغات العربية . وهو ذات



تل من الفول السوداني أو
وفستق العبيد ، كما يسميه
الفرنسيون ، وقد اصبح
المحصول الاول بعدما فرضته
فرنسا ليحول مصانع الزيوت
بها .



منظر مألـوف في داكار ، الفقراء لايعرفـون طريق المتاجر والمقاهي ، انما هم على الارصفة يجلسـون ، ومنها ايضا يشترون ثيابهم وحاجاتهم .

الاسلوب الذي كتبت به الاغلبية الساحقة من المؤلفات والمخطوطات السنغالية ، معهد افريقيا السوداء بداكار ، ومنها مثلا : « مزاجرة لسان الحال عن رعونات النفس الضاد » ، لعبد الله جوب غامبيا ـ « لذة السمع الفاهم في تشطير صوت المذهب الحاتم » للشيخ علي بوبديم ـ « وشي الديباج في مدح صاحب المعراج » للحاج محمد بن الشيخ عبد الله ـ السيف الحديد في الرد عن عمر بن سعيد ، لاحمد بن محمد ـ « تنبيه الناس على شقاوة ناقضي بيعه آل العباس » للحاج عبد الله انياس . . . وهكذا .

وفي وصفه لاحد ربما احد مشاهير المتصوفة في السنغال ، قال انه « كان اكثر جودا من حاتم الطائي ، واكبر حلما من السموءل ، وابلغ من سحبان ، واشعر من حسان ، واصبر من الوتد على الذل ، او من احمد بن حنبل في المحن . . . » .

والملاحظة الثانية ان اكثر كتابات اولئك المثقفين تتعامل مع اللغة العربية من باب الشعر ، بل على الاجمع من بحر واحد لبحور الشعر ، هو بحر الرجز ، الذي يتميز بالخفة وكثرة الايقاع وسهولة الحفظ . بحيث اصبحت تلك الاراجيز احد المصادر الاساسية للثقافة العربية في السنغال . وهي تغطي مساحة تشمل مختلف شئون الدين والدنيا . حتى يذكر الدكتور عامر صعب في كتابه (جـ ٢ ص ٧) اثناء ترجمة حياة الحاج محمد انياس ، من اعلام الطريقة التيجانية ان له ديوانا في مدح الشيخ احمد التيجاني مؤسس الطريقة « اشار فيه الى كثير من الفنون كاللغة والنحو والتصريف والتجويد ، والرسم والتفسير واسباب النزول والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وكعلم الحديث ومصطلحه ومتونه واسانيده ، والفقه واصوله ، والمنطق وقضاياه واشكاله ، والبيان والبديع والمعاني والزمن ، والافاق والحكمة والمقولات العشر ، والهندسة ، وعلم العروض ، والكيمياء ، وعلم الكلام ، وعلم التصوف ، وتصفية النفس بالمجاهدات ، وعلم الرياضيات . . . » كل ذلك في ديوان واحد !

ويقرر الدكتور صعب في بحثه الكبير ان جل انتاج الادب السنغالي من الشعر (جـ ١ ص٤٤) وهو يعود لينقل عباره بقول صاحبها : ان براعة ادباء السنغال هي في القريض ، واورث ذلك النثر عوزا . . (ص٤٢) ، غير انه علل ذلك بان العرب اعلنوا « ان الفكرة ليست قوام لغتهم ، وانما هو الاسلوب يعبرون (به) عن فكرتهم » .

وبالاضافة الى ذلك التبرير غير المقنع وغير الدقيق ، فان الباحث اشار الى نقطة هامة تشكل احد اسباب ذيوع الشعر ، بل هذا النوع من الشعر في السنغال . عندما قال ان « السودانيين (يقصد سكان غرب افريقيا عامة) مطبوعون على الايقاع ، ويحسنون الجمع بين المشاهدة والتأمل ، وهم مجبولون على الحركات الموزونة والرمزية » .

اي ان طبيعة تكوين الانسان الافريقي ذاتها ، ذلك الفنان المرهف الحس سريع التجاوب مع النغم والايقاع ، هذه الطبيعة كانت التربة الطبيعية لنمو وانتشار تلك الاراجيز . اذ كما يهتز جسده كله عندما يستمع الى الانغام ودقات الطبول ، فان وجدانه يهتز بالمقدار ذاته عندما يستقبل الشعر المقفى ، من الاراجيز والاغاني . الأمر الذي ادى الى افقار النثر ومصادره فرص نموه وذيوعه .

وثمة سبب آخر لم يذكره الدكتور عامر صعب ، هو ان الشعر يلعب دورا اساسيا في التكوين الثقافي لابناء الغرب الافريقي ، واغلبيتهم الساحقة ـ ان لم يكن كلهم ـ يعتنقون المذهب المالكي ، حيث يلقنون اكثر معارفهم منذ الصغر بالشعر ، مثل الفية بن مالك الاندلسي ، التي تحتوي على مبادىء اللغة في الف بيت ، والفيه جلال الدين السيوطي ومنظومة ابن عاشر الفاسي في الفقه المالكي « المرشد المعين في الضروري من احكام الدين » ، غير قصائد مشاهير المتصوفة مثل محمد البوصيري في قصيدته البردة ، و « الهمزية » في مدح النبي عليه الصلاة والسلام .

الملاحظة الاخيرة ان مدائح النبي (ص) تحتل مساحة كبيرة ، وغير عادية من نتاج الادباء السنغاليين ، الذين يكتبون بالعربية ، ربما لأن اكثر هذا الادب خرج من دور وحلقات الشيوخ ورجال الدين ، سواء نظموه هم ام نظمه تلاميذهم واتباعهم . وربما نتيجة الدور الضخم الذي تلعبه الطرق الصوفية في حياة السنغال ، حيث تشكل تلك الاراجيز والمدائح ركائز اساسية لنشاطات تلك الطرق ، وربما لأن طرق هذا الباب لا يحتاج الى جهد كبير في الخلق والابداع ، وانما هو من قبيل الأبواب المتفق عليها ، خصوصا في ظل تواضع المستوى الثقافي ، الذي احطنا بظروفه وضغوطه . وفي هذا الاطار فقد كتب الحاج محمد انياس خمسة عشر كتابا شعرا ونثرا ، كلها في النبي محمد (ص) ، وفي مكتبه معهد افريقيا السوداء رصيد ضخم من كتابات اخرى مماثلة ، منها : « زبدة الاقوال في مولد سيد الرجال » لمحمد الامين ابن زبير ـ و « سعادة المريد في امداح خير المرسلين » ، و « مطلب الشفا في التوسل بالله وبالمصطفى » ، و « تيسير العسير في الصلاة على البشير النذير » ، وكلها لأحمد بمب امبك ، و« عقود الدر اليتيم في نظم اسماء النبي الكريم » ، لعبد الله جوب غاميا . .

محنة اللغة العربية

ومن الانصاف ان نقرر ان ثمة وجها آخر للصورة . ذلك ان تعليم اللغة العربية ليس منوطا فقط بـالقطاع « الاهلي » ـ اذا صح التعبير ـ ولكن العربية موجودة ايضا في مدارس الحكومة ، ـ كانت اختيارية منذ بداية الستينات . ومنذ العام الدراسي ٧٩/ ٨٠ اصبحت اجبارية لكافة تلاميذ المرحلة الابتدائية . وهي تدرس كلغة اجنبية لأن كافة المناهج بالفرنسية ، التي مازالت تعد اللغة الاولى في السنغال ، والتي يتعلم بها الطالب كافة المناهج والدروس .

ولا يزال الالزام بدراسة العربية مقصورا على تلك المرحلة الابتدائية ، وعندما ينتقل الطالب الى المرحلة الثانوية يصبح ترتيب اللغات التي يدرسها هو : الفرنسية اولا ، ثم الانجليزية وله بعد ذلك الخيار في دراسة اية لغة ثالثة ، الايطالية او الاسبانية ... او العربية . اما في الجامعة ، فمن يريد ان يدرس العربية فليس أمامه سوى الالتحاق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب .

والذي يحدث عادة ان الطالب الذي تعلم قدرا من العربية في الابتدائي ، ينسى كل ما تعلمه تدريجيا ، عندما يلتحق بالثانوي والجامعة . اي ان المرحلة الابتدائية حلت محل « الكتاب » الذي يدرس فيه الطفل السنغالي ، ومنه ينتقل الى المسجد ، ومنه يذهب بعيدا في التعليم او العمل ، بحيث ينسى كل او اكثر ما تعلمه .

ولأن دور الكتاتيب يتقلص ، بسبب اتجاه الاغلبية الى الحاق ابنائهم بالمدارس الحكومية ، والتدرج في سلم التعليم « المدني » للالتحاق بوظائف الدولة ، فان دائرة تعلم اللغة العربية للاجيال الجديدة تضيق باستمرار .

حتى قسم اللغة العربية بكلية الاداب في جامعة داكار يعاني من ظروف تعسة للغاية اذ تنقصه المراجع العربية ، بسبب ضعف الامكانيات المادية ، وربما بسبب اهماله من جانب ابناء الثقافة الفرنسية الذين يتحكمون في سياسة الجامعة . وقال لي احد اساتذة القسم ـ الذي طلب عدم ذكر اسمه ـ ان السفارات الاجنبية تتصل باقسام اللغات خاصة وتزودها بالكتب والمراجع اللازمة ، باستثناء السفارات العربية التي « تقاطع » قسم اللغة العربية . ومن نتيجة هذا الوضع ان الطالب عندما يلتحق بقسم اللغة العربية ، ويتعرف على ظروفه ، ويكتشف ان اكثر مراجعه في العربية باللغة الفرنسية ، فانه يتحول الى اقسام اخرى لدراسة لغات اخرى !

وسألني الاستاذ السنغالي : لماذا لا تتبنى الدول العربية ذلك القسم في جامعة داكار ، بدلا من ان يذهب العرب الى الجامعات الامريكية لتمويل « كراسي » ومناهج ، لاتغير من واقع الحال شيئا في امريكا ، وفيها من المظهرية والتبديد اكثر مما فيها من الفائدة ؟

ايضا قال لي الدكتور روحان امباي مدير المعهد الاسلامي في داكار ، ان ادارة المعهد طلبت من السفارات العربية تزويدها بالكتب والمراجع ، ولكنها لم تتلق سوى بعض الكتب الدعائية والسياحية والسياسية ، التي لا تفيد الباحث السنغالي باي حال !

ورغم ان النشاط السياسي للمعهد ، يتركز في البحث ، ولكنه انشأ عدة فصول مسائية لتعليم اللغة العربية والثقافة الاسلامية في عطلة الصيف ، وكان الاقبال على تلك الفصول مفاجأة ضخمة لأنه فضلا عن الاعداد الكبيرة التي تزاحمت على تلك الفصول ، فان نوعيات المتقدمين ضمت كافة شرائح المجتمع السنغالي المتعطشة الى اللغة العربية ، من عمداء الكليات الى كبار الاطباء والمهندسين والمحامين ، الى صغار الموظفين والعمال .

بحزن بالغ يقول الدكتور امباي : اننا لا نستطيع ان نستوعب كل هؤلاء ، بسبب ضيق المكان وضعف الامكانيات ونقص المعلمين ، ولكننا نختار واحدا من كل عشرة ، وتترك الباقين يلقون مصير غيرهم من الذين اغتربوا والتوت السنتهم بالفرنسية .

وفي اطار رصد الاسهام الرسمي في وجود اللغة العربية ، فان اذاعة داكار تبث برنامجا يوميا باللغة العربية ، مدته نصف ساعة (من ٦,٣٠ الى السابعة مساء) ، فضلا عن ان لوزارة الاعلام نشرة متواضعة باللغة العربية تحمل اسم « المسيرة » .

من ناحية اخرى فقد تشكل في داكار عام ١٩٧٩ « الاتحاد الوطني للكتاب والصحفيين السنغاليين الناطقين باللغة العربية » ، الذي سعى الى تكوينه بعض خريجي الجامعات العربية الجزائر خاصة ، بعد عودتهم الى السنغال ، وصارت مهمته تكريس الثقافة العربية والدفاع عنها ، وتجميع ابناء هذه الثقافة من الجامعيين ، حتى لا يجرفهم التيار الغالب على الثقافة السنغالية .

ولحداثة عمر الاتحاد الذي يقوده اثنان من خريجي جامعة الجزائر العاملين بوزارة الاعلام هما الحاج سيلا (الرئيس) والشيخ احمد تيجان اندي (السكرتير العام) ، فان اعضاءه لا يتجاوز عددهم ٤٥ شخصا ، ونشاطه لا يزال في بدايته . ولكنه لم ينج من محاولات التشويه والمطاردة ، بعد ان روجت حوله شائعات بانه يعمل لحساب بعض الدول العربية ، الامر الذي اثر على دائرة حركته ، وجعلهم يتحرجون من طلب عون اي من المؤسسات العربية ، دفعا لتلك الشبهة . □□



لم يكن سياسيا
ولا اقتصاديا فقط
ولكنه كان شاعرا
من فحول الشعر

فارس الخوري شاعراً

بقلم : عبد الغني العطري

حين اغمض فارس الخوري عينيه ، في الثاني من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٢ ، افتقد فيه الوطن العربي كله السياسي الفحل ، ذا المواقف الوطنية الصلبة ، التي تدل على الحنكة ، والعقل وبعد النظر .

وافتقدت فيه الامة رجل الاقتصاد ، ومؤسس المعامل والشركات المساهمة ، ورائد كل مشروع وطني . وافتقد فيه العلم احد اركانه ، والمجمع العلمي العربي احد اعضائه ، ومعهد الحقوق رئيسه ومديره وموجهه والمجلس النيابي ، العقل الكبير المفكر .

وأحس بفداحة المصاب ، والخطب الجلل كل فرد في الوطن العربي ، من مشرقه الى مغربه ، وادرك الفراغ الكبير ، الذي تركه غياب فارس الخوري .

وتبارى الكتاب واصحاب الاقلام ورجال الفكر ، في تعداد مآثر العلامة الراحل ، فلم يتركوا موافقه البطولية في الامم المتحدة الا عددوها ، ولم ينسوا اقدامه على حل الازمات الداخلية المعقدة الا ذكروها ، ولم تغب عن اذهانهم صورته الخالدة ، وهو يرأس المجلس النيابي السوري ، ويدير اعماله وجلساته بكفاءة نادرة .

كذلك لم ينسوا علمه ولا ادبه ، ولا حنكته ، ولا قيادته السليمة للاقتصاد السوري .

ولكنهم نسوا شيئا واحدا ... غاب عن اذهانهم ان « فارس الخوري » لم يكن السياسي ، والعالم ، ورجل الاقتصاد والقانون فحسب ... بل كان شاعرا من فحول الشعر . ولو تفرغ له وأعطاه بعض وقته وعنايته لاستطاع ان يكون بين الخالدين من الشعراء .

جرفته السياسة

طغت السياسة على مواهب فارس الخوري ، التي لا تحصى فصرفته عن الشعر ، فنسي الناس انه شاعر رقيق فحل ، ذو كعب عال في دنيا القوافي ، وان انشغاله في عوالم السياسة والاقتصاد والعمل الوطني والقومي والعلمي ، جعله ينصرف عن الشعر ، ولا يقوله الا في المناسبات ، أو عندما يجد فراغا من الوقت ... وأنى له الفراغ وسعة الوقت ؟

ورغم هذا قال فارس الخوري كثيرا من الشعر ، ووقف على المنابر في كثير من المناسبات ، ليكون بطلا من ابطال القوافي . . . كما نشرت له الصحف والمجلات كثيرا من هذا الشعر . . . وما يزال شعره موزعا في الصحف القديمة ، التي كانت تصدر في الثلاثينات وما قبلها او بعدها .

ويبدو ان الرجل كان منصرفا الى قول الشعر في مطلع شبابه ، محبا له ، ومولعا به ، ودليلي على ذلك انه في عام ١٩٠٥ نظم ملحمة تبلغ ابياتها عدة مئات ، في وصف الحرب الضارية التي نشبت بين اليابان والروس في الثامن من شباط عام ١٩٠٤ ووضعت اوزارها في الخامس من ايلول من العام التالي ، وأسفرت عن انتصار اليابان انتصارا ساحقا . في هذه الحرب الضروس نظم الفارس ملحمته ووصف وقائعها وصفا دقيقا ، وأرخها تأريخا عادلا ومنصفا . هذه الملحمة طبعت في كتيب صغير تبلغ صفحاته ثماني وستين ، وأهداها الى صديقه الدكتور حسين حيدر ، الذي قام بطبعها في مصر على نفقته ، وقدم لها تقديما جيدا ، وأثنى عليها الثناء العاطر .

وكان الدكتور حيدر قد طلب من صديقه الشاعر ان ينظم قصيدة يؤرخ بها هذه الحرب ، فلبى علامتنا الكبير طلب صديقه ، ونظم بدلا من القصيدة ملحمة ، وقسمها الى اربع قصائد طويلة ، او قل..أن شئت..اربعة اجزاء .

الملحمة المذكورة تعتبر من جيد الشعر ورائعه ، وقد نظمها فارس الخوري بأسلوب قصصي شيق ، وهو في أوج الشباب ، وقبل ان تشغله السياسة والمعارك الوطنية عن الشعر والعلم والادب . واني لأتمنى على مجمع اللغة العربية - والرجل كان عضوا بارزا من اعضائه - ان يعمل على اعادة طبع هذه الملحمة التاريخية ، طبعا انيقا متقنا ، ليعيد اليها الحياة ، ويضعها بين يدي القارىء العربي ، الى جانب شعره الموزع والمجهول . والقارىء الأصيل ، يعرف كثيرا عن جهاد فارس الخوري وعلمه ، ولكنه يكاد يجهل كل شيء عن شاعريته .

بدأ الشاعر ملحمته بقوله :

أقل شرارة تغدو سعيرا
اذا الاطماع افعمت الصدورا

ثم تطرق الى الاسباب التي دعت الى الحرب واشعلتها ، وذكر بعد ذلك جميع المعارك المهمة التي وقعت بين الدولتين المتحاربتين ، ووصف كلتيهما بما تستحق . ذكر بعضها بايجاز ، وفصل في بعض آخر ، الى ان وصل في الحديث عن وقعة مكدن ، فأفرد لها قصيدة كاملة .

لنستمع اليه يخاطب حامية مدينة بور آرثور اليابانية وبواسيها بعد الهزيمة :

حماة الحصن نقرئكم سلاما
يحمل في حواشيه عبيرا
لئن ضيقتم صدر الاعادي
فما وجدوا بكم صدرا حصورا
وان لانت قناة العزم منكم
فذاك من الشجاعة لن يضيرا
صبرتم في المضايق اي صبر
وخلدتم لكم ذكرا منيرا
اذا التسليم لطخكم بعار
فطول ثباتكم يبقى طهورا

ولا يخفي شاعرنا تأييده لليابان وانتصاره لها ، وهي التي فازت في الحرب ، وسجلت على الروس نصرا مبينا . لنستمع اليه هنا يسخر من الروس لاستهانتهم باليابان :

فعرض الجسم لا يغني فتيلا
وطول القد لا يجدي نقيرا
ألست ترى الوليد وفيه حزم
يسوم الفيل خسفا والبعيرا ؟

ووقفة اخرى نقفها مع هذه الملحمة المنسية ، نستمع فيها الى الشاعر ، وهو يصور معركة مكدن الضارية ، تصويرا حيا ، وصادقا ، يكاد ان يكون لوحة ناطقة :

فكم ايد بها بترت وسوق
بها كسرت وكم بقرت بطونا
وكم من اضلع سحقت وعنق
بها دقت ، وكم شقت بطونا
ترى رأسا بلا جسم ، وجسما

بلا رأس يفيض دما معينا
هناك فتى يئن ولا سميع
ويجأر ان يعان ولا معينا
وذلك بالعناصر مستعين
وغير مفيدة ان يستعينا
فأين بنوه لو نظروا اباهم
وقد نسي الاقارب والبنينا
تراه تشوشه الشفرات ضربا
بلا بر فتلقيه طعينا
فاما طلقة حرقت فؤادا
واما ضربة قطعت وتينا
على صدر الثرى امسى جديلا
وفي جوف الطيور غدا دفينا

دمعة على الغزي

وشعر فارس الخوري الذي استطعنا العثور عليه قليل، ينحصر في بعض المناسبات. ومن هذه المناسبات الكبرى الفاجعة التي نزلت بدمشق عام ١٩٢٩. عندما توفي الزعيم الوطني فوزي الغزي مسموما بيد زوجته. لقد هزته الكارثة ووقف يرثيه بلوعة وحرقة ويقول:

يبكيك أحرار سورية وأنت أخ
يبكيك دستور سورية وأنت أب
من للصعاب اذا اشتدت معاضلها
من للخطابة يا ملسان من خطبوا

ويشير بعد ذلك الى رفقتهما من المنفى بجزيرة ارواد فيقول:

كهوف أرواد صدت بيننا نسبا
ياحبذا السجن، بل ياحبذا النسب
حبر الجزيرة اذكى من مودتنا
فزاد حبر قلوب حشوها لهب
أخا السجون، أخا المنفى، أخا وصبا
ها فرق الموت ما قد ألف الوصب

هذه القصيدة دمعة حرى سكبها فارس الخوري على جدث الزعيم الراحل. انها تفيض بالعاطفة الصادقة واللوعة الوثابة، والحرقة على رفيق الجهاد والعمر. لنتأمل البيت الاول، ولنمعن النظر في تفجعه على فوزي الغزي. وفي البيتين الاخيرين يستعيد الشاعر ذكرياته مع صديقه ورفيق جهاده في جزيرة ارواد، ويتذكر ايام السجن والجهاد. فيأسف للموت الذي فرق بينهما، ويذرف الدمع السخين.

ولم تكن قصيدة الشاعر في رثاء الزعيم فوزي الغزي الاولى في باب الرثاء، بل سبقتها قصيدة اخرى، قالها في العام ١٨٩٥ عندما كان في الثانية والعشرين من عمره، مدرسا في «الكلية الانجيلية السورية» ببيروت التي اصبحت فيما بعد الجامعة الاميركية. وقد رثى فيها مؤسس هذه الكلية الدكتور كرنيليوس فانديك، الذي عرف بسعة علمه، وجزيل فضله على العلم والعلماء، كما كان يحب الشرق والعرب خاصة، وتزيا بزيهم في المأكل والمشرب. وقد أقيمت له حفلة تأبين كبرى ورثاه عدد من كبار الشعراء والادباء.

والقصيدة مطولة تبلغ ابياتها الثمانين وتدل على مدى لوعة الشاعر وتأثره لفقد رجل العلم ومؤسس الجامعة العلمية الكبرى، غير انها لا تخلو في الواقع من الضعف في عدد من ابياتها وقوافيها. ولعل عذر صاحبها الكبير انه كان جديدا في الشعر، بل ربما كانت قصيدته هذه اول ما وصلنا من شعره، ان لم يكن اول ما نظم.

ضاق الفؤاد

على ان خير ما قاله شاعرنا في باب الرثاء قصيدته الخالدة في رثاء شهداء السادس من ايار، اولئك الابطال المجاهدون، الذين اعدمهم جمال السفاح سنة ١٩١٦ وبينهم سياسيون وصحفيون واعضاء في البرلمان العثماني. في هذه القصيدة، تتجلى شاعرية فارس الخوري بأجلى معانيها. لقد هزته الفاجعة، وابكته وادخلت الحزن العميق الى قلبه، ومن ثم حركت مشاعره المرهفة فاستهل قصيدته بقوله:

كان التجلد في البلوى يؤاتيني
فما له حين ادعو لا يلبيني
ضاق الفؤاد بآلام تبرحني
وفاجعات بنار الوجد تكويني

وفيها يقول:

أبكي وعذرا عيني إذا ذرفت
على القطاريف منها والأساطين
على النجوم الدراري التي أفلت
وأطلعت من دموعي كل محزون
على ظلال الأفانين التي قصفت
وطول شوقي الى ظل الأفانين
على الشيوخ، على رهط الفتوة بل

على التابوت ، على القبر الميامين
على مناهل فضل غاض كوثرها
وخلفت ورد زقوم وغسلين
فياصل الحزم غراء شمائلهم
معالم للهدي ثم العرانين
بيض الصحائف ، ما خانوا ولا غدروا
أنقى وأطهر من زهر البساتين

ولا ينسى الشاعر ان يندد بالفئات التي كانت تتملق جمال السفاح وتشيد بأعماله ، وبينهم كتاب وشعراء ومفكرون . وكان فارس الخوري قد نفي الى مدينة الحسكة ، في الشمال الشرقي لسورية ، وأقام فيها ثمانين يوما ، في جو حار لاهب مع عدد من رجال الوطنية والجهاد . وحين ألغي قرار الابعاد ، وعاد الى دمشق في ٢٤ من شباط عام ١٩٢٨ استقبل واخوانه استقبالا حارا . وبين جموع المرحبين وقف الفارس ، وألقى قصيدته في تحية دمشق ، والاشادة بما حوته من خمائل ورياض وجنات

وفي سنة ١٩٢٩ اقام المجمع العلمي العربي حفل تكريم لشاعر النيل حافظ ابراهيم ، وتبارى الخطباء والشعراء في القاء كلمات المديح وقصائد الثناء على الشاعر الكبير . وكان فارس الخوري من شعراء ذلك الحفل . وألقى بصوته الجهوري ، ونبراته الرنانة القوية ، قصيدة مطولة من روائع شعره ، كان مطلعها :

ليالي الصبا قد جفاني حبورها
ولمتي السوداء اسفر نورها
تذكرت ايام السرور التي مضت
فياليت شعري هل يعود سرورها

وانتقل بعد ذلك الى الحديث عن لقائه مع شاعر النيل فقال انه جدد بلقائه عهد شبابه وايام سروره . وخاطب الشاعر الكبير بقوله :

أحافظ حييت الشآم تحية
يفوق عبير الروض منها عبيرها
رفعت لها الشعر النفيس عرائسا
بجانبها تخفي وتخجل حورها
وألبستها ثوبا من الحمد دونه
حدائقها في زهوها وزهورها

وفي الثامن من كانون الاول ١٩٤٠ اقيمت حفلة تأبين كبرى لفقيد الزجل اللبناني الكبير رشيد نخلة ، فألقى فارس الخوري قصيدة مطولة تحدث فيها عن الفقيد وعن الموت ، وطموح ابناء الارض ، وشرورهم ، ويقول في وصف رشيد نخلة :

اجدت النظم في زجل طلي
رشيق السبك ، منسجم القدود
وهذا الشعر ، شعر الشعب اجدى
له من شعر كعب او لبيد
قصائده الروائع ساريات
وكل بيوتها بيت القصيد
عروس الشعر مهما انشدتنا
بدائعه تقول لنا اعيدي

يعتذر من فحول الشعر الذين شاركوا في حفل التأبين ، يعتذر عن التقصير في الاجادة بعد انقطاعه الطويل عن الشعر :

فحول الشعر معذرة فاني
جفاني الشعر من عهد بعيد
وما ذاك الجفا الا لاني
عييت به عن الشوط المجيد
أريد الشعر منخولا ليمضي
وما المضى المراد عن المزيد
ولو هان المضي على سنه
وجن الشعر كانت من جنودي
وصفت عميق احزاني نشيدا
على فوات احزان عميد

مع السلطان عبد الحميد

وللشاعر قصيدة جاوزت ابياتها الستين في هجاء السلطان عبد الحميد ، بعد خلعه عن الحكم في عام ١٩٠٩ ويبدو ان العلامة الشاعر نظم قصيدته هذه في ساعة انفعال ، واندفاعا مع التيار ، الذي انقلب على السلطان العثماني .. ولكن « فارس الخوري » - كما يقول المرحوم محمد الفرحاني في كتابه عنه - لم يندم في حياته على شيء مثل ندمه على تسرعه في هجاء عبد الحميد ، اذ يقول الشاعر انه تأكد له فيما بعد ، بما لا يقبل الجدل ، ان هذا الخليفة الاسلامي راح ضحية ثأر اليهودية العالمية ، التي ساءها رفضه لاقتراح (هرتزل) واتخاذه مختلف الوسائل لمنع اليهود من الهجرة الى فلسطين ووضعه قانون (الجواز الاحمر) الخاص بكل يهودي يدخلها للسياحة والزيارة ، ومنعه اياهم من تملك الاراضي ، مما ادى الى حقدهم وحنقهم عليه وشروع منظماتهم مع الدول الاستعمارية بمناوأته . أما القصيدة المذكورة فهي بحد ذاتها من روائع الشعر ، بدأها بقوله :

الله اكبر والظلام قد علموا
لأي منقلب يفضي الألي ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت
أركانه وتولت أهله النقم

ويقول فيها :

غادرت أمتك المنكود طالعها
تغص مقلتها ان عدت الامم
حملتنا ما تنوء الراسيات به
كيف الصنيع وانت الخصم والحكم
فكم شكونا ولم تسمع شكايتنا
وكم دعونا وحظ الدعوة الصمم
حصدت مازرعوا ، فرقت ما جمعوا
هدمت ما رفعوا ، بعثرت مانظموا
ملكتنا فرأينا منك طاغية
لم يدر تدا له المشهود والقدم

ويختمها بقوله :

هبطت من قمة الامجاد منحدرا
كصخرة حطها من شاهق هرم
ففي هبوطك عاد الملك مرتفعا
وفي هلاكك كل الخلق قد سلموا

ويبدو ان شاعرنا طرق ابوابا عديدة من الشعر ، ولم يقف عند وصف الحروب ، وهجاء السلطان ، ورثاء الاعزاء ، ورجال الوطنية . ودليلنا على ذلك اننا قرأنا له ذات يوم قصيدة مطولة في مجلة « المضحك المبكي » التي كانت تصدر في دمشق ، يتغزل فيها بزوجته الراحلة السيدة اسماء ، ويصف اخلاقها ونبلها ووفاءها ومحبتها وتضحيتها من اجله . كما اننا قرأنا في بعض الكتب التي تحدثت عنه تخميسا لقصيدة ابن زيدون النونية المشهورة وفيها يقول :

الطيف في النوم يرضينا وان عبرا
ان عزت العين صرنا نطلب الاثرا
لا تعجبوا ان صبرنا نحمل القدرا
انا قرأنا الاسى يوم النوى سورا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

ويروي محمد الفرحاني في كتابه عن فارس الخوري انه جرى ذات يوم بحث المفاضلة بين الاديبتين الراحلتين مي زيادة وماري عجمي بحضور فارس الخوري في ايهن أفضل وأطول باعا في الأدب . فارتجل الفارس هذين البيتين :

يا رجال الاريحيه
سجلوا هذي الشهاده
ان ماري العجميه
هي مي وزياده

وذات يوم من عام ١٩٠٦ كان فارس الخوري يزور صديقه الشاعر سليم العنحوري ، فاذا بسبحة الفارس تنفرط وتتناثر حباتها على الارض ، فنهض السامرون يجمعونها ، فتم لهم ما ارادوا الا حبة واحدة ، اعيت الباحثين عنها . وانصرف الفارس الى بيته قلقا مشغول البال . وارسل الى صديقه العنحوري يطلب منه مواصلة البحث عن الحبة ويحمله مسؤولية ضياعها ان فقدت ، وكان من وحيها قصيدة تدخل في باب الاخوانيات ، وتعتبر من جيد الشعر ورائعه ويقول في بدايتها :

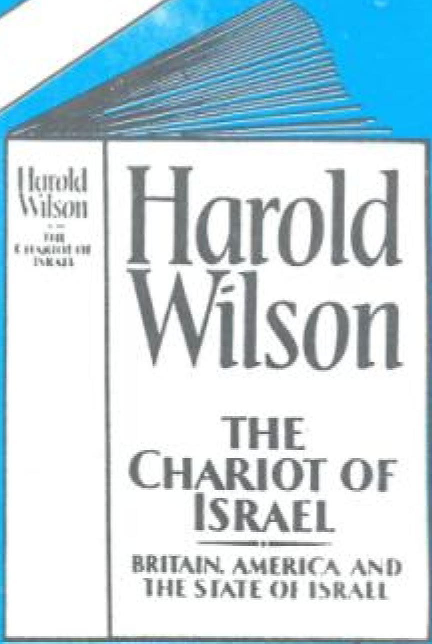
حلت بدارك سبحتي
فجمعتها وأضعت حبة
صرع الفؤاد بفقدها
وغدوت ارجو منك رأبه
هي حبة القلب التي
ملكت حشاشته ولبه
ضيعتها في ليلة
حلت بها في النفس كربة

وتبلغ ابيات هذه القصيدة الطريفة ثلاثة وخمسين بيتا .

وبعد . . . فقد كان فارس الخوري شاعرا مبدعا ، رقيق العبارة ، متين القافية في اكثر ما نظم . وكان ذا حس مرهف ، وعاطفة جياشة ، وقريحة فياضة . وقد عرضنا في هذا الحديث نماذج ومختارات من شعره ، في مواقف وطنية وقومية وعاطفية ، هي دون ريب محك للشاعرية . وكان فارس الخوري في معظمها مجليا ومبدعا .

كان للشاعر كما وصفنا ، ولكن السياسة ، والنضال الوطني ، ومجموعة من المشاغل العلمية والقومية والحياتية ، جعلته يدفن موهبة الشعر ، فخسرناه شاعرا كبيرا محلقا ، كان باستطاعته ان يقف الى جانب فحول الشعر ، ولكن وطنه العربي ، كسبه زعيما وطنيا ، يقارع الاستعمار ، ويذود عن حياض الوطن ، ويبني صرح الاقتصاد ، وتلتف حوله القلوب ، وتلوذ به الامة في الملمات ، لتستنير برأيه الراجح ، وتفيد من حكمته الحكيمة ، وتعمل بتوجيهه وارشاده .

عبد الغني العطري



« رجال مثل بلفور وتشرشل كانوا متدينين بعمق ويؤمنون بالتوراة وبفضلهم أمكن تحقيق حلم عودة اليهود الى فلسطين »
- حاييم وايزمان

عربة اسرائيل

بقلم : هارولد ويلسون

أرض الحليب والعسل .. من هدّدها وكيف ؟

عرض وتحليل : مازن حمادة

■ اليهود حلموا بفلسطين . . . وبريطانيا حققت حلمهم !

■ بلفور : الحضارة والمسيحية تدينان ، بكثير لليهود !

■ تشرشل : الوطن اليهودي في فلسطين بركة للفلسطينيين !



المؤلف هارولد ويلسون مع غولدا مائير

من يقرأ كتاب عربة اسرائيل (CHARIOT OF ISRAEL) لهارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا من عام ١٩٦٤ - ١٩٧٠ ومن عام ١٩٧٤ - ١٩٧٦ ، لن يحتاج الى تفكير طويل لمعرفة السبب وراء اختيار هذا العنوان للكتاب الذي يروي قصة اليهود والصهيونية واسرائيل قديما في عهد الفراعنة ، وحديثا في عهد رجال من أمثال تشرشل وبلفور وترومان ووايزمان . فتلك العبارة (عربة اسرائيل) وردت في التوراة (اصحاح الملوك رقم ٢) اشارة الى مسيرة بني اسرائيل شعب الله المختار .

وفي مذكراته الأخيرة قال وزير خارجية اسرائيل السابق ابا ايبان عن هارولد ويلسون انه من الساسة الاوروبيين الذين انشغلت قلوبهم باسرائيل ، وقد كان اخلاصه الشديد لاسرائيل اضافة الى توليه منصبا رفيعا في حكومة التي عندما أعلن قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ ثم توليه رئاسة الحكومة اثناء حرب يونيو عام ١٩٦٧ . . . كل ذلك كان سببا وراء اصداره هذا الكتاب الضخم (٤٠٠ صفحة من القطع الكبير) الذي يحكي فيه بالتفصيل علاقة الصهيونية بالسياسة البريطانية في هذا القرن .

وفي كتابه المليء بالمغالطات التاريخية ، يبدأ ويلسون باستعراض مفصل لاصل اليهود وهجرتهم الى فلسطين وعودتهم اليها . . ثم طردهم (سنأتي على ذلك في وقت لاحق) ثم يفسر الفكر الصهيوني قبل ان يروي ما حدث في العقود التي سبقت وعد بلفور الشهير (١٩١٧) بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، واصرار تشرشل على تنفيذ هذا الوعد ، ومشاركة الرئيس الامريكي هاري ترومان في تحقيق احلام اليهود في العالم .

ورغم ان الكتاب يحوي الكثير من الادانات الذاتية والاعتراف بارتكاب الاخطاء ، ورغم المغالطات التاريخية التي تستهدف التغطية على الحقائق المشوهة ، فقد كتب بعاطفة صادقة تجاه كل ما هو يهودي وصهيوني . ويقول هارولد ويلسون في مقدمة الكتاب ان « اعجابي بالاسرائيليين يرجع الى ايام الدراسة . . عندما كنت طفلا صغيرا » .

ويقصد بذلك دروس التوراة والتاريخ المليئة بقصص « البطولات » : جيوش الاسرائيليين وملوكهم وأنبيائهم مثل داود وسليمان ، وقصص مثل شمشون ودليلة وجوليات الجبار العملاق الذي استطاع « داود » الطفل ان يهزمه بذكائه بان رجمه بحجر من مقلاعه !

ويكشف ويلسون في الكتاب انه لم يكن وحيدا في مدى تعلقه بالتوراة والصهيونية واسرائيل بين السياسيين البريطانيين . . فهناك من فعل اكثر منه من اجل ترسيخ اقدام اليهود في فلسطين .

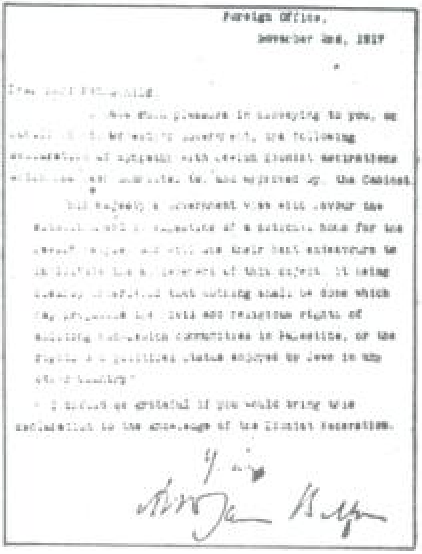
ويقول ويلسون ان اليهود كانوا يحلمون ، ولكن الساسة البريطانيين هم الذين حولوا الحلم الى حقيقة . وأول هؤلاء وأهمهم ارثر جيمس بلفور وزير الخارجية ، الذي وعد اليهود في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ باقامة وطن لهم في فلسطين . ويرجع اهتمامات بلفور باليهود وتاريخهم الى الطفولة ايضا . فبالاضافة الى نشأته الاسكتلندية ، كانت أمه تتمسك بالتوراة . وكلما كبر بلفور ازداد اعجابه بالفلسفة اليهودية وتعاطفه مع كل ما هو يهودي . ثم اصبحت مشكلة اليهود في العالم المعاصر تمثل جزءا هاما في حياته ، الى ان قال ذات يوم : ان الدين المسيحي والحضارة العالمية يدينان بالكثير لليهودية . ومن العار ان هذه الديون لم تسدد بعد . ونقلت عنه هذا الكلام ابنة اخته بلانش دوغدال .

وأورد ويلسون مقتطفات هامة في حديث دار بين بلفور وحاييم وايزمان منشيء الدولة الاسرائيلية قبل قليل من صدور « الوعد » . يقول ويلسون : في باديء الامر عرض بلفور اوغندا على اليهود لكن وايزمان المعروف بشدة دهائه قال بسرعة : (- ماذا لو عرضت عليكم باريس بدل لندن ؟) فرد بلفور :

- ولكن لدينا لندن . . .

فقال وايزمان :

- هذا صحيح . . . ولكن القدس كانت معنا عندما كانت لندن مستنقعا .


Foreign Office,
November 2nd, 1917

... the Cabinet.



تشرشل في القدس عام ١٩٢١

هذه المحاورة - يقول ويلسون وغيره - كانت الشرارة التي جعلت اعجاب بلفور باليهود يتضاعف ، حتى انه تحدث بعد لقائه بوايزمان عن الحماس والوطنية اليهودية بحيث انهم رفضوا أي بديل عن العودة الى فلسطين !

وهذه « العودة الى فلسطين » . . . لها قصة جذورها دينية ، تدعمها « نبوءات » التوراة - كما يقول اليهود والمسيحيون المتعاطفون معهم في الغرب - ولكن التاريخ يقول شيئا اخر . وقد لا يكون هناك مجال للدخول في تفاصيل تلك « النبوءات » وخاصة في ضوء التحريف الذي تعرضت له التوراة ، وايضا في ضوء غياب الحقائق التاريخية التي تحتاجها تلك « النبوءات » لاعطائها صفة المعقولية ، فقد يكون من المفيد الاشارة بشيء من العجالة الى فقرات توراتية أوردها الكاتب ، والى السرد التاريخي الذي ساقه مغلوطا لنسج قصة توحي للقارىء بان فلسطين يهودية . تقول احدى فقرات التوراة : « سيمد الله يده مرةثانية لاستعادة بقايا شعبه . وسيقيم راية للشعوب ، وسيجمع منبوذي اسرائيل ، وسيلم شمل المشتتين من يهودا من زوايا الأرض الاربع وتفسير هذه الفقرة ان الله سيعيد اليهود الى مملكة يهودا - جزء من الضفة الغربية - وهي المملكة التي دمرها البابليون قبل الميلاد وسبوا ممتلكاتها وأهلها » .

ويقول ويلسون ان الشعب اليهودي هام على وجهه لاكثر من ٢٥ قرنا وتعرض للمعاناة وتحدث عن هجرتهم الى مصر واضطهاد الفراعنة لهم . . ثم عودتهم بقيادة موسى لاحتلال أجزاء من فلسطين . وركز الكاتب على مملكة داود (١٠١٠ - ٩٧٠ ق . م) ثم مملكة ابنه سليمان (٩٧٠ - ٩٣٠ ق . م) ومن المغالطات التاريخية قول الكاتب ان اليهود حكموا خلال تلك الحقبة التي امتدت قرنا كل فلسطين ، علما بأن اليهود لم يسيطروا قط على الساحل الفلسطيني عبر العصور . وكانت تلك الحقبة هي اطول فترة تواجدوا فيها على أجزاء من ارض فلسطين . وبعد حدث سليمان - يقول الكاتب - أقام أهل السامرا (شمال الضفة الغربية) مملكة منفصلة ، لكن الاشوريين غزوها في اوائل القرن الثامن ق . م اما مملكة يهودا (الجزء الاخر من الضفة) فقد جاءها البابليون بقيادة نبوخذ نصر عام ٥٨٥ ودمروها وهدموا هيكل سليمان - الذي يقول اليهود انه تحت المسجد الاقصى في القدس - ودمروا المعابد وطردوا اليهود الذين عاد بعضهم بعد نصف قرن لاعادة بناء الهيكل وليقضوا أربعة قرون وصفت بأنها عصر اليهود الاسود .

وتوالد الغزاة على فلسطين من اليونانيين ، الى الرومانيين ، والبيزنطيين الذين حكموها خمسة قرون . وفي القرن السابع جاء الاسلام وفتح فلسطين ضمن فتح العراق وسوريا ومصر وشمال افريقيا واسبانيا وبنى الفلسطينيون القدس وقبة الصخرة وجامعه . والكاتب لا يشير الى الفلسطينيين ابدا على انهم السكان الاصليون لفلسطين . ثم جاء الاتراك والحملات الصليبية وباستثناء فترات غزو قصيرة من قبل نابليون ومحمد علي ، احتل الاتراك فلسطين حتى فترة الحرب العالمية الاولى عندما

سقطت بيد الانكليز الذين نفذوا الحلم الصهيوني .

ولعل اكبر مغالطة تعمدها هارولد ويلسون القول ان اليهود كانوا يشكلون اغلبية في مدينة القدس يوم سقوط فلسطين في يد الجنرال اللنبي - بعد سبعة ايام من وعد بلفور علما بأن عددهم لم يزد عن بضعة آلاف . ويومها نزل اللنبي عن حصانه ودخل القدس من احدى بواباتها راجلا وقال : « هكذا عادت الامم المسيحية الى القدس بعد ٧٣٠ سنة » .

ويقول ويلسون : « دخول اللنبي الى القدس كان دليلا جديدا على مدى الدعم والتعاطف البريطاني مع الصهيونية » .

وبكثير من الفخر والاعتزاز يتحدث ويلسون عن الاستيطان اليهودي في فلسطين الذي بدأ مع بداية القرن . ومع ان عدد اليهود كان يشكل أقل من ٥ بالمائة من عدد السكان الاجمالي في فلسطين يوم احتلتها بريطانيا ، فقد رفع ويلسون النسبة الى حوالي ١٥ بالمائة . وبكثير من السرد والتفصيل يورد في جزء كبير من الكتاب قصص المعاناة التي عاشها اليهود حتى انهم اخذوا يعملون من أجل الانتقام . والغريب ان الكاتب لا يعطي الانطباع على الاطلاق باحساسه او إحساس الصهيونية بعقدة ذنب من أي نوع لطرد شعب بأكمله من فلسطين في حرب ١٩٤٨ وبدلا من ذلك يشيد ببطولات اسرائيل في « حرب الاستقلال » كما يسميها عندما واجهت جيوش ست دول عربية .. وهذا ما فعلته في الحروب اللاحقة .

ولعل في ما قاله « ليان بينسكر » رفيق هيرتزل (قدس الصهيونية) في كتاب اليهود نشره عام ١٨٨١ بدعم من نائب يهودي في مجلس العموم البريطاني ، دليلا على ما كان اليهود يسببونه من اذى وضرر لكل طبقات المجتمع الذي يعيشون فيه . وانه لولا ذلك التدين العميق لدى الساسة البريطانيين وايمانهم المطلق بالتوراة ، يضاف اليه تفضيل الاوروبيين لليهود على العرب والمسلمين من جهة ، وعملهم على لم شملهم في مكان واحد (فلسطين) من جهة اخرى ، بغرض خدمتهم وخدمة اهداف الغرب في الشرق العربي وكذلك بهدف التخلص من شرورهم وكراهية رجل الشارع الاوروبي غير المتدين لليهود .. لولا ذلك لما أمكن تحقيق الحلم الصهيوني في الانتشار في الأرض العربية . قال « بينسكر » في كتابه :

« بالنسبة للاحياء يعتبر اليهودي الحديث رجلا ميتا ، وبالنسبة للسكان الاصليين يعتبر غريبا ، وللمستوطنين يعتبر قاطع طريق ، وبالنسبة للغني يعتبر فقيرا ، وللفقير يعتبر مليونيرا ومستغلا . وبالنسبة للمواطن يعتبر رجلا بلا بلد ، وبالنسبة للجميع يعتبر منافسا قذرا » .

وقد عرف اليهود كيف يجعلون الاوروبيين يسددون الثمن .. وعرفت الصهيونية من اين ومن تأخذ الوعود ؟ وكيف تعمل على تنفيذها ؟ وقد قال هيرتزل عندما اجتمعت اركان الصهيونية في بال بسويسرا في اول مؤتمر لها عام ١٨٩٧ : « في بال انشأت الدولة اليهودية . ولو قلت ذلك بصوت عال لضحك علي العالم . وربما في غضون خمس سنوات او خمسين سنة سيعرف الجميع ذلك » . وصدقت نبوءة هيرتزل . ففي عام ١٩٤٥ دفعت بريطانيا المسألة الى الأمم المتحدة وفي عام ١٩٤٧ صدر قرار التقسيم الذي رفض عربيا وفي عام ١٩٤٨ أعلن قيام اسرائيل عبر حرب ارهابية شملت اعمالا تقشعر لها الابدان ضد الفلسطينيين .. من مذابح يعرفها القارىء العربي ، بالاضافة الى اعلان الحرب على الجيش البريطاني « لطرد المستعمر » حتى تكون الحرب حرب استقلال !

ولابد من الاشارة الى دور ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني الذي كان ساهم بفعالية في تحقيق الحلم اليهودي ، ودفع الموضوع الى البرلمان البريطاني ليصبح « قضية قومية بريطانية » وفي عام ١٩٢١ عندما كان وزيرا للمستعمرات زار فلسطين وزرع شجرة وقال في كلمة امام مؤتمر صهيوني :

« شخصيا .. قلبي يمتلىء بالعطف على الصهيونية . وهذا العطف موجود منذ زمن طويل . منذ ١٢ سنة عندما كنت على اتصال بيهود مانشستر . واعتقد ان انشاء وطن قومي لليهود سيكون بركة للعالم كله بركة للعرق اليهودي المميز في جميع انحاء العالم ، وبركة لبريطانيا العظمى . واعتقد بقوة انه سيكون بركة لجميع سكان هذه البلاد (!) بدون تمييز بعرق او دين . (أي انه بركة للفلسطينيين العرب والمسلمين !) وهذه البركة الأخيرة تعتمد عليكم . ووعدنا لكم مزدوج . لقد وعدنا بمساعدة الصهيونية ووعدنا السكان اليهود الا يعانوا بعد اليوم . وكل خطوة ستتخذونها يجب ان تكون ذات فائدة اخلاقية ومادية لجميع الفلسطينيين (!) . واذا فعلتم ذلك فان فلسطين ستصبح سعيدة ومزدهرة ، وستتحول الى جنة . وستقول الكتب كما ورد في التوراة انها ارض الحليب والعسل ! » ■■

مازن حماد



أديب فرنسي معاصر

الموديانية

قراءة في أدب باتريك موديانو

بقلم : محمود قاسم

في فبراير ١٩٨١ صدرت أحدث روايات الأديب الفرنسي باتريك موديانو بعنوان « شباب » وهي تعتبر أولى رواياته التي ينشرها بعد النجاح الهائل الذي لاقته روايته السادسة « شارع الحوانيت المعتمة » التي حصل عنها على جائزة « جونكور » الأدبية عام ١٩٧٨ والتي تعتبر أهم الجوائز الأدبية في غرب أوربا .

وموديانو يعد من أهم الأسماء التي ظهرت اخيرا في عالم الرواية . . وهو يمثل جيلا جديدا ظهر ليعيد للرواية امجادها وعظمتها التي افتقدتها منذ رحيل بروست وكامي . . وهذا الجيل أغلبه من الأدبيات . لكن بالرغم من صغر سنه الا أنه يتزعم هذه الاتجاهات التي ظهرت أخيرا . . وبالرغم من انه في السادسة والثلاثين من عمره الا ان أجيالا جديدة تصغره تظهر الآن وتحاول ان تنهج نهجه .

ولد في ٣٠ يوليو « حزيران » عام ١٩٤٥ لوالد من اسرة تنتسب أصولها الى احدى المدن الصغيرة بشمال تونس . وقد عاش طفولة هادئة بين أبويه . . فاتجه الى القراءة والكتابة منذ فترة مبكرة من حياته لدرجة أن أولى رواياته قد نشرها وهو في الثالثة والعشرين من عمره

بعنوان « ميدان النجم » وحصلت على جائزتي روجيه نيريه وفينيون الأدبيتين .

وقد قال النقاد حين نشر هذه الرواية انه أديب يمزج بين عدة أدباء منهم كامي وكافكا وتوماس مان . وهؤلاء النقاد انفسهم عادوا بعد عشر سنوات لِيُجْمِعُوا أنه قد صنع لنفسه عالما « موديانو » خاصا به ولا مثيل له من قبل في عالم الأدب . خاصة بيير ديبرون الذي اسمى آدابه بالموديانية التي سنحاول إلقاء النظر حولها من خلال عرض بعض كتبه وخاصة « شارع الحوانيت المعتمة » .

نشر موديانو خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية سبع روايات منها « دائرة الليل » ١٩٦٩ ، « شوارع الحزام » ١٩٧٢ ، التي حصلت على الجائزة الأدبية للأكاديمية الفرنسية . ثم « المنزل الحزين » ١٩٧٥ التي حصلت على جائزة المكتبات . وكتيب العائلة ١٩٧٧ ، شارع الحوانيت المعتمة ١٩٧٨ التي نالت جائزة « جونكور » واخيرا « شباب » ١٩٨١ .

وبعيدا عن مجال الرواية . فقد مارس كتابة النقد السينمائي على فترات متباعدة في بعض المجلات غير المتخصصة . . واعد سيناريو فيلم « لاكومب لوسيان » الذي اخرجه لوي مال عام ١٩٧٣ . وكتب مسلسلا تليفزيونيا أثار ضجة هائلة حين عرضه في فرنسا عام ١٩٧٨ بعنوان « السيد القاضي » الذي قامت ببطولته « سيمون سينيوريه » .

لاشيء يهم

وموديانو شاب هادئ الطباع . رقيق الاحساس . يمزج بين النقاء والحياء ، يقول : « لا احب التحدث كثيرا فانا أدهش من هؤلاء الناس الذين يجيدون الكلام » .

ويقول : « الكتابة شيء صعب . لكننا نمارسها ونحن وحدنا حيث لايوجد انسان أمامك ينتظر اجابة لما تقول » وهو ذو طبيعة متفائلة يحب الحياة ولايشبه أحدا من الأدباء الذين يتسمون بعدم الاتزان الفكري او الاضطراب العصبي . فمن المعروف انه انسان متزن تماما . وتقول زوجته : « له اتزان وهدوء مع كل من تعامل معهم . وأسلوبه يمزج بين البساطة والتعبيرات المرتبكة أحيانا والغموض » .

وباتريك يردد في أحاديثه اليومية « لاشيء يهم » . . وهذه العبارة تعتبر المدخل الى كل شخصياته . فأكثر أبطاله يتسمون بأنهم شخوص لاجذور لهم . . أرواح هائمة . . يطاردها ماض غامض . كما انهم يبحثون عن هوية لأنفسهم . . ففي رواية « المنزل الحزين » نرى شمارا رجلا ضائعا يشعر بالحنين الى بلد لم يعرفه قط . . . والراوي في هذه الرواية تائه يبحث عن مأوى له في احد البنسيونات الصغيرة . . لقد اصابته حرب الجزائر بلوثة . . ونحن لانعرف له اسما . . لكن عمره ثمانية عشر عاما . وهو دائما يحاول ان يعود الى ماضيه ليتذكر احداثا مرت عليه .

وهو يرتدي فوق عينيه نظارة ذات عوينة واحدة . ويدعي ان اسمه مزيج بين الروسية والمصرية « شمس ـ لارا » . يقضي ظهيرته في مكان ظليل في ميدان اشبه باحلامه التي تعيش داخله . يلتقي بفتاة تدعي ايفون . . ويمكن ان يكون لهذه الفتاة اسم آخر . . سوزان . . اجلاتين . . . ويلتقي ايضا بطبيب يدعي مينيث . . فيشكلون ثلاثيا . . يقضون معا اوقاتهم . . سوزان وطبيبها يسكنان نفس المدينة . . وهما يختلفان عن رفيقهما الثالث الذي يفضل وضع ازهار الاوركيد على موائده . . . ويكسبون معا في مسابقة للاناقة . ويرحلون الى البحيرة ويقومون بجولات في سيارة دودج . . ويتناولون غذاءهم في ناد رياضي .

وتعيش ايفون مع الطبيب قصة حب رقيقة . . لأنها تختفي يوما . . ترى أين ذهبت ؟ . . لم يبق سوى مينيث الذي يتحول الى اطلال انسان وتصبح الحياة مجموعة من السرابات التائهة ويقول ماتيو جالي في مجلة « الاكسبرس (٨ سبتمبر ١٩٧٥) » ان لموديانو سحرا خاصا خفيا . ففي كل صفحة من صفحات روايته ترى هذا الكاتب الأثم الذي يعيش في خلسة المرتبك دوما كأنه سراب وكأنه يطارد هويته » .

ومن جديد تختفي الأسماء في رواية « كتيب العائلة » .

ويعود موديانو هذا الى الزمن الذي عاش فيه ابواه وابنته حيث الحرب العالمية الثانية . والرواي يصحبنا الى ماضيه الغامض من خلال صور أبيه التي يقدمها لنا بطريقة تلقائية من خلال ذكرياته . وفي رحلة عن هذه الصور نرى الابنة التي تعيش في قرية نويلي . اما ابواه فيعيشان في مكان صغير ويعيشان حياة أسرية هادئة . ويتحدث الرواي عن ملك مصر السابق فاروق وعن حلم شتغهاي في زمن الحروب وحول بعض من بشابعهم . تخرج

سينمائي . . مؤلف موسيقي . كما يتحدث عن حريق يصيب مدينة القاهرة . . . ويتحدث حول رجل التقى به مصادفة وهما خارجان من مشاهدة فيلم « نظام اللعبة » لرينوار .

وهذاالكتاب ليس رواية وليس أقصوصة قصيرة . . ولكنه حكايات شخصية : من أنـا ؟ . . ومن أين خرجت ؟ وكيف ؟ تلك الاسئلة التي يطرحها دائما ، لقد تحدثنا كثيرا عن طفولتنا الصغيرة . . انها تنهك ما تبقى من المزيج المرعب ، فبطلنا يتحدث حول أبيه وأمه . وحول هذا الكتيب الذي يعتبر شاهدا على حياة مؤلفه .

ومن خلال قرية توبلي إبان احداث الحرب العالمية الثانية وأزمنة اخرى تتزاحم اشبه بالتي صنعها فوكنر في اعماله . يحدثنا عن ميلاد ابنته الصغرى زينابر من خلال صورة زفاف ابويه . فأبوه يحمل اسما مزيفا لأنه يهودي . لقد تزوج تحت نير الاحتلال الالماني في بلجيكا من ممثلة سينما قديمة . وهو يبحث الآن عن أب لايعرف عنه شيئا منذ عشر سنوات ولدت خلالها ابنته الصغيرة .

وهذه الرواية شبيهة بالبيوجرافيا . ففيها يروي كيف قام بكتابة سيناريو فيلم « لوسيان لاكومب » ؟ لست كاتب بيوجرافيا صادقة . فالواقع يستلزم اضافات تجعل الوقت كاملا لأن نجتازه » انا واثق انني عشت في زمن الاحتلال طالما أنني أتذكر الاشخاص . وتفاصيل الكثير من الاحداث وهذه العبارة هي مفتاح الرواية .

ويتحدث موديانو عن زوجته التي ولدت في تونس ويتحدث عن سحر هذه البلاد . وعن اول لقاء بوالدها . ويقول ماتيوجالي ايضا » انه عند قراءة هذه الرواية فانك سوف تلحظ ان عملية البحث عن جذور تتضح اكثر من اعماله السابقة . واذا كانت احداث الرواية تدور إبان الاحتلال النازي لفرنسا . فهي الفترة التي تسبق مولد المؤلف وذلك من خلال علاقة بين أب وابنته الطفلة التي سوف يكون لها كل ما حصل عليه المؤلف في حياته . أبناء شرعيون . مسكن مريح ، ومجتمع الأجداد والاب بالرغم مما فيه من معاناة يختلف كثيرا عن علاقته بالماضي .

البحث عن جذور

ومع « شارع الحوانيت المعتمة » تتضح كل سمات الموديانية . . اللاجذور . . التيه . الاسماء التي لا قيمة لها . البحث عن جذور . فبطلنا دون اسم . انه يدعى « أنا » ولكن صاحب العمل أسماه « جي رولاند » لقد فقد ذاكرته منذ عدة سنوات وامرأته دينيس كوردنر اختفت بعد ان فقدت الذاكرة هي أيضا منذ عشر سنوات ورولاند هذا يبحث عن نفسه من مكان لآخر ومن بلدة لأخرى . فيسافر من روسيا الى الولايات المتحدة فتاهيتي وفرنسا ويعود اخيرا الى ايطاليا .

وهو في كل هذه البلاد يسمى اسما جديدا . ويهوى هواية جديدة . كما انه يلتقي بالعديد من الشخصيات الذين يكشفون له عن معنى الاحداث شيئا فشيئا . ففي تاهيتي يتعرف على صورة اقرب اصدقائه اليه . فيرى صورتها برفقة صديقتها اورلو التي انتحرت خوفا من الشيخوخة . ويتعرف على « جان ميشيل » المصور الذي كان يصور زوجته دينيس من قبل حينما كانت تعمل عارضة ازياء . . في تاهيتي ايضا يموت زميله حزنا على انتحار زوجته .

وعندما يصل الى فينسيا يخبره رئيسه بقصة رجل في الاربعين من عمره يذهب الى الشاطئ ويقاسم المصطافين اوقات فراغهم ويلتقط معهم صورا ، لكن أحدا لا يعرف اسمه ولاشيئا عن وجوده . كما ان الجميع يتناسون أن هذه الصور ستبلى يوما .

وعندما يصل الى روما ـ محطته الأخيرة ـ يتجه وهو الرجل ذو الخيال والواضح ـ كما يصف نفسه ـ الى العمارة التي كانت تسكنها زوجته . وعلى سلم العمارة يتذكر كيف رأى وجهها الفوسفوري المشع . فهو مشهد صعب النسيان وهنا يعرف اسمه الحقيقي .

لكن موديانو لا يبلغنا بهذا الاسم . ولا بهواية بطلنا . فالرواية تنتهي وكأن المؤلف قد أنهكته رحلة البحث مثلما فعل بطله . ولهذا فهو يرفع قلمه فجأة عن الكتابة .

سيد الماضي

يقول جان كلود لامي في « فرانس سوار » ، يعتبر موديانو ماهرا جدا في إعادة تركيب الايام الماضية ، لأن المستقبل لايتخذ في نظره اي اعتبار . ان هدفه الوحيد هو البحث عن الزمن الضائع . انه « سيد الماضي » لعالم بروستي جاف . وهو يتابع ابحاثه على أمل باطل لتعديل سير الوقت ، وهو في هذا الخطر الآتي الذي لايعود .

وبشأن هذه الروابط فانها تتوجه مرة اخرى لاكتشاف عالم غاص في الليالي الزرقاء للذكريات الممحوة .

تتشابك الأسماء والمواعيد والاماكن قبل ان تتفكك كرسوم المرايا المتعددة . حدد الزمن بشكل غامض ومع ذلك تجد وضوح جو الاحتلال الذي يتسلط على باتريك موديانو »

فموديانو يتساءل دوما عن كينونته . ونحن لانعرف من هي زوجته البلجيكية دينيس التي اختطفها أحد الاشقياء يوما خلال عام ١٩٤٣ على حدود سويسرا . وهذه المرأة شبيهة بالأم الهاربة المرعوبة . والمنتمية الى مكان من الصعب تحديده . ودوران سحري لانسانية صعبة الاقتناع »

وموديانو يستخدم عبارات قصيرة للغاية ويلجأ الى استخدام الحوار للتعبير عما يجيش بأبطاله . فالوصف ليس مثاليا لمثل هذا اللون من الكتابات .

ويكتب فرانسوا نورسييه عضو أكاديمية جونكور حول آخر رواياته « شباب » : « من الصعب مقاومة موديانو . فلا نعرف كيف أنه يتقدم باسلوبه الحاد قليلا . والمليء بالتلميح يمحو كل ما يكتب بعد أن يجتاز الظلال . كأنه يتحدى الذكريات فنلاحظ فجأة انه يبرز من داخل النص . مما يجعلنا نتصور أن شخوصه ينتمون الى الذاتية الغامضة والاسماء المجربة الشريدة . والكروش الكبيرة المزينة . ومهن صعبة »

ويقول ايضا عن روايته السابقة « انها تشير الى ذكاء المؤلف الذي يجرؤ ان يكون نفسه . يعرف كيف يختار الارض التي يعيش فوقها . »

وفي حديث طويل مع موديانو حول هذه الرواية يقول :

« عندما نكتب فانتا نضطر أن نقوم بدور الشاهد والاستماع وانا لا اقول التلصص . ولكننا يمكن أن نلمسها كي يمكننا أن نراقب وان نعيش في أجواء . وذلك بدلا من أن نرتبك عندما نضطر أن نقوم بدوره » ويقول :

« لي اسلوب يمكن ان يبدو اكثر فقرا دون أدنى تأثير . أنا مضطر الى معاودة العمل ومعايشة ما اكتبه . فبعض الكتاب يتسمون بنقاء الطبيعة . انهم قادرون على الكتابة . ولكن ليس لي هذه البساطة . فالكتابة لدى هي عمل صعب أكثر من النتائج التي تسفر عنها . أحاول ان أقول شيئا اقل امكانا من تقديمي لعمل رقيق . فاسلوبي ليس شديد الثراء وانا قائل خاطيء سريعا ما يكتشف أمره . ويجب علي ان اعيد قراءة ما أكتب بسرعة . »

وشخصيات موديانو هم « نحن » . امتداد لشخوص « كافكا » وبوتزاتي ومان .. الباحثون عن ذواتهم غير الموجودين ، والموجودون في نفس اللحظة . يبحثون دائما عن شخصهم النقي ولكن ترى هل يجدونه .

الكاتب كائن غير موجود

اما فيليب لابرو الناقد والمخرج السينمائي فيقول : « كنا نخشى ألا يمس اسلوب موديانو . وبناؤه الروائي سوى قلة من المثقفين . او تلك المجموعة التي كان ستندال يسميها « الحشد السعيد » . لكن موديانو له الالوف من القراء » وعندما يتحدث حول نفسه يقول :

« احب دائما ان استمع .. ان اسأل عندما يعقد معي لقاء .. فأنا اشعر كأنني مفتش شرطة موجود في مكان الجريمة . اعرف السؤال ولكنني لا أعرف الجواب . فعندما نكتب فاننا نحيا حياة الاخرين . وتبقى المثالية غائبة . وتمحي تماما . فالكاتب هو كائن غير موجود . وحياة الكاتب تمر فوق ثلاثة ارباع موائد عملة . فلا يعد لديه شيئا يفعله سوى ان يرقب نفسه وهو يكتب . »

« يقال إن فتزجرالد كان يسكر في علب الليل عوبارناس ويمكن أن يعاب عليه هذا . لكنه أعطى هذه الاحاسيس لكتاباته . فقد كان عليه ان يقضي ثلاثة ارباع عمره على مائدة عمله مثل الاخرين .

اما هيمنجواي فقد كان يكتب أكثر مما يصطاد . لاكلوس كان رب اسرة شجاع . والكتاب مثل الممثلين . فماذا يفعل ممثلونا ؟ يمثلون في ستوديوهات بولندا . حياة جريتا جاربو لاتشبه حياة الملكة كريستينيا . لكن من الممل أن نراها تتقمصها »

اما بيير ديمون الذي أطلق على كتاباته بالموديانية . فيقول ان موديانو هو التعبير عن الحياة . لكن ما الحياة .. ؟ انها ليست سوى مجموعة صور عثر عليها في علبة بسكويت قديمة .. وعقد زواج وجد في كتاب وصور امرأة في مفكرة وارقام تليفونات .. واوراق لاتقول شيئا للذي يعثر عليها » . ■■

محمود قاسم

مأساة الفيلسوف الذي خنق زوجته

بقلم : الدكتور احمد ابو زيد



حين قرع الفيلسوف الماركسي الفرنسي لوي التوسير Althusser فجر يوم الاحد ١٦ نوفمبر من العام الماضي (١٩٨٠) باب جاره في المسكن ، طبيب مدرسة المعلمين العليا بباريس Ecole Normale Superieure وهو يصيح : « لقد قتلت زوجتي » ، لم يصدق الطبيب ولا زملاء الفيلسوف الذين يسكنون نفس المبنى ما يقول ، كما اعتقد بعض تلاميذه في اول الامر ان الاستاذ كان واقعا تحت تأثير بعض التخيلات والاوهام التي كانت تراود عقله من حين لآخر نتيجة للاضطراب الذهني الذي كان يعاني منه منذ ايام الحرب العالمية الثانية ، ووقوعه في الاسر ، بينما اعتقد البعض الآخر ان الامر كان مجرد دعابة من تلك « الدعابات العملية » التي اشتهرت بها مدرسة المعلمين العليا .

ولكن حين تبين للجميع ان الجريمة وقعت بالفعل ، وان التوسير خنق زوجته بيديه حتى ماتت ـ اسرعوا بادخاله « مستشفى سانت ان للامراض النفسية والعصبية » قبل ان تأتي الشرطة ، وتقبض عليه ، وتوجه اليه تهمة القتل .

وبذلك انقذ طبيب المدرسة واساتذتها احد كبار فلاسفة قرننا المعاصرين من مذلة الموقف ومهانة التعرض للمعاملة الجافة القاسية .

ولم تمر هذه الحادثة ببساطة بطبيعة الحال ، وانما احدثت دويا في الرأي العام الفرنسي ، وهزت اوساط المثقفين في باريس بالذات هزا عنيفا ، كما استغلتها بعض الصحف المعارضة لآراء التوسير وللفكر الماركسي بعامة ، للهجوم عليه ، وعلى الماركسية ، ولاثارة الشكوك حول مدى تمسك المفكرين اليساريين بالقيم التي يدعونها لانفسهم . وبينما نجد جريدة مثل « لومانيتيه L' Humanite » الشيوعية تكتب عن الحادثة مقالا هو اقرب الى رثاء التوسير نفسه ، منه الى تأبين زوجته ، رغم انها كانت استاذة لعلم الاجتماع ، لها مكانتها واعمالها العلمية التي كانت تصدر تحت اسم هيلين ريتمان Helene Rythmann وهو اسمها قبل الزواج . وفي ذلك المقال تبدي الجريدة الأسى لمصير ذلك « الرفيق » الذي ولد بالجزائر عام ١٩١٨ وتربى تربية كاثوليكية محافظة ، والذي وقع في الاسر ايام الحرب العالمية الثانية ، وقاسى الاهوال من معاملة الالمان ، والذي تلقى تعليمه العالي في « الايكول نورمال سوبيريور » التي لا تقبل سوى المتنافسين الذين بلغوا اعلى درجات الذكاء واصالة التفكير ، والتي لا تزال تتمسك بكثير من القيم والتقاليد (البورجوازية) ، ولكن كل ذلك لم يمنعه من ان يتحول

الى الماركسية ومن ان ينضم الى الحزب الشيوعي . . . وبينما تجد جريدة لوموند Le Monde التي كانت نشرت له في ابريل عام ١٩٧٨ سلسلة من المقالات يهاجم فيها زعامة الحزب الشيوعي الفرنسي ـ تتكلم (اعني الجريدة) عما اسمته بالانتحار « الغيري » ، او الانتحار « الايثاري » ، وهو مصطلح مستمد من كتابات عالم الاجتماع الفرنسي الشهير اميل دور كايم ، وتحاول ان تفسر باسلوب علمي دقيق سلوك « التوسير » بانه في احدى نوبات الكآبة الجنونية التي كانت تنتابه نتيجة لمعاناته من الاسر قتل المرأة التي يحبها لكي يحميها وينقذها من الآلام والمتاعب التي كان هو نفسه يقاسي منها ، اذا بجريدة Le Quotidien تصيح بان المسارعة بارسال التوسير الى مستشفى الامراض النفسية والعصبية قبل وصول رجال الشرطة والقضاء هو نوع من « المؤامرة الشيوعية » ، للتحايل على القانون ، والحيلولة ضد تقديم الجاني للمحاكمة ، و(تغطية) المجرم ، وان الشيوعيين والماركسيين الذين يرفضون فكرة اهمية النظام الطبقي في المجتمع ، وينادون بضرورة القضاء عليه ـ يناقضون انفسهم ، ويعاملون احد « رفاقهم » معاملة خاصة تضعه فوق القانون ، وفوق بقية المواطنين ، وان المعنى الوحيد لذلك هو ان الوعي الطبقي سائد حتى بين الشيوعيين انفسهم ، رغم كل ادعاءاتهم ومزاعمهم ، وعلى اية حال فان الجريمة كانت تعني للاوساط الثقافية في « باريس » مأساة مزدوجة تتمثل في فقدان استاذة لعلم الاجتماع ، لها اسمها ومكانتها الاجتماعية والثقافية . وضياع احد المفكرين الذي وصفه العالم المؤرخ الفرنسي الشهير جان الينشتاين Jean Elleinstein بأنه « احد كبار فلاسفة العصر » والقضاء على فلسفته .

كيف وأين تعلم ؟

التحق لوي التوسير عام ١٩٣٩ بمدرسة المعلمين العليا ، التي تعتبر من ارقى المعاهد في فرنسا والتي تخرج منها الكثيرون من الفلاسفة والمفكرين الذين تركوا طابعهم الخاص على الفكر الفرنسي . الا ان الحرب منعته من مواصلة الدراسة . فقد اشترك في الحرب ، ووقع اسيرا في ايدي الالمان ، ثم عاد الى المدرسة بعد انتهاء الحرب ، ولكن بعد ان كانت قد اثرت هي والاسر على شخصيته ونفسيته تأثيرا جذريا عميقا . ويقول الاستاذ دوجلاس جونسون Douglas Johnson وهو من كبار الاساتذة الانجليز الذين امكنهم الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا بباريس لدراسة الادب الفرنسي والحصول على الاجريجاسيون التي تعتبر من اعلى الدرجات العلمية الفرنسية ـ ، وانه عرف التوسير في تلك المدرسة عام ١٩٤٧ وارتبط به بروابط صداقة قوية منذ ذلك الحين ، وكان التوسير يعاني من اعراض مرض الاكتئاب ، وكان يقول عن نفسه دائما انه « مرهق للغاية Tres fatigue » ، ويرد ذلك الى الفترة الطويلة التي امضاها في الاسر ، كما انه كان منطويا على نفسه الى حد كبير ، ومتباعدا عن الطلاب الاخرين الذين كانوا على اية حال يصغرونه في السن ، ولذا كان من الصعب معرفة اهتماماته او التنبؤ مقدما بتصرفاته وسلوكه في اي موقف . فكثيرا ما كانت هذه التصرفات تأتي مخالفة تماما لكل التوقعات . ولكنه كان في كل الاحوال شخصا لطيفا هادئا على درجة عالية جدا من الذكاء والكفاءة والقدرة على العمل ، بحيث انه اجتاز امتحان الاجريجاسيون في الفلسفة في صيف عام ١٩٤٨ بغير عناء ، رغم صعوبة ذلك الامتحان وقسوته ، لدرجة ان فيلسوفا مثل سارتر لم يحصل على تلك الدرجة الا بعد ان تقدم للامتحان اكثر من مرة . وقد عين التوسير بعد نجاحه مباشرة معلما للفلسفة في « المدرسة » ، ومرشدا للطلاب الذين كانوا يعدون انفسهم للتقدم لهذا الامتحان العسير . وفي ذلك الوقت تعرف التوسير على السيدة التي اصبحت زوجته فيما بعد وهي « هيلين ريتمان » . التي كانت تطلق على نفسها حينذاك اسم « هيلين لوجتيان » ، وهو الاسم المستعار الذي كانت تستخدمه اثناء « المقاومة » .

عيشة مضطربة

ولكن على الرغم من الحب العميق الذي كان يربط بين الزوجين كانت عيشتهما عاصفة نتيجة لاختلاف الامزجة والطباع ، والدخول في كثير من المناقشات التي كانت تبدأ بداية علمية هادئة ، ثم لا تلبث ان تتحول في اغلب الاحيان الى شجار عنيف ، كما ان هيلين ريتمان لم تكن تتورع عن الاشتباك في الجدل والمناقشات الصاخبة والجارحة ، ليس فقط مع زوجها بل مع اصدقائه ايضا . ولكنها من الناحية الاخرى كانت تحاول ان تبسط حمايتها على زوجها وتبالغ في رعايتها له وابعاده عن تأثير الاخرين . اذ كانت تنظر اليه طوال الوقت على انه لا يزال ذلك الشخص المريض الذي يرزح تحت اعباء تجربة الاسر بكل نتائجها الضارة ، وآثارها على نفسيته وعقليته . اي انها في الوقت الذي كانت تساعده على التخلص من آثار الحرب والاسر كانت تعامله معاملة الشخص الشاذ الغريب الأطوار الذي يحتاج الى الحماية والرعاية .

ويشهد زملاء « التوسير » انه كانت تمر عليه فترات يفقد فيها ذاكرته او على الاقل ينسى فيها كل شيء عن

نفسه وعن الاخرين ، وتنتابه اثناء ذلك حالة من الاكتئاب والارهاق ، وتصدر عنه كثير من التصرفات الشاذة الغريبة . فقد كان يستوقف زملاءه وتلاميذه في ردهات المدرسة ويسألهم عن اسمائهم وشخصياتهم ، بل انه في بعض الاحيان كان ينسى كل شيء عن نفسه هو ، ويطلب ممن يصادفه من تلاميذه تذكيره باسمه وعمله ، او بأي شيء يتعلق به وبشخصيته وهويته ، ولكنه في الوقت الذي كان يقول فيه ذلك كان يتفرس بحدة وامعان في وجه من يخاطبه ، كما لو كان يريد معرفة رد فعل ذلك الشخص على اقواله ، وبذلك لم يكن زملاؤه وتلاميذه يعرفون تماما ما اذا كان « التوسير » صادقا فيما يقول ، ام انها كانت مجرد ادعاءات يهدف منها الى معرفة رأي الآخرين فيه وفي سلوكه .

في عام ١٩٤٨ انضم « التوسير » الى الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولكن ليس هناك ما يدل بالضبط على نوع النشاط الذي كان يقوم به ، وان كان من المؤكد انه لم يكن راضيا كل الرضا عن الحزب ونشاطاته وزعاماته ، كما انه كان كثير الانتقاد لدور « المثقفين » من الماركسيين عموما ، لأنهم كانوا ـ في رأيه ـ يضيعون وقتهم وجهدهم في الصراع السياسي والايديولوجي ، وفي المقالات التي نشرها عام ١٩٧٨ في جريدة « لوموند » عارض صراحة جورج مارشيه زعيم الحزب ، وانتقد محاولته تجديد او تحديث الحزب ، وتطوير ايديولوجيته ، على اساس ان ذلك من شأنه ان يؤدي الى انفصال الحزب ، وابتعاده عن قاعدته العريضة التي تتألف من الطبقة العاملة . فلقد كان « التوسير » ينعي على الحزب انتهازيته التي كانت تتمثل في عدم ممانعته الاتجاه الى اصوات الطبقة الوسطى والبورجوازية ، ومشاركة هذه البرجوازية في الحكم ، وكان في ذلك كله منطقيا مع نفسه ، ومع الخط الذي ارتضاه لنفسه منذ عام ١٩٥٩ ولذا كان يطالب بضرورة وضع نظرية ماركسية للدولة كما يقول « دوجلاس جونسون » . وكان من الطبيعي ان توجه اليه زعامة الحزب الكثير من اللوم والتأنيب والتحذير . وكان « جورج مارشيه » يصفه بانه « ذلك المفكر الذي يقبع خلف مكتبه » مشيرا بذلك الى جهل التوسير وامثاله من النقاد والمتذمرين بالنواحي العملية في سياسة الحزب ، وبانهم يعيشون في ابراجهم العاجية مكتفين بالنقد الذي ينبع اساسا من الجهل وعدم الالتصاق بالجماهير ومن المؤكد ان « التوسير » كان يقف ضد الغوغائية في كل شيء . ولذا فانه كان كثيرا ما يوجه اللوم الى طلابه من الماركسيين لانغراقهم في الاشتغال بالسياسة واهتمامهم بايديولوجية الحزب على حساب عملهم الاكاديمي . وفي مثل هذه الحالات كان « التوسير » يتصرف من موقعه كاستاذ جامعي اكاديمي يحاول المحافظة على التقاليد الجامعية الراسخة التي كان صغار الشيوعيين يعملون على هدمها ، والقضاء عليها باعتبارها قيما بورجوازية بالية ، على ما حدث في ثورة الطلاب الشهيرة عام ١٩٦٨ حين اختفى تماما في وقت كان الطلاب يتوقعون منه المشاركة في حركتهم كما فعل سارتر مثلا . ومع انه كان يصدر في ذلك عن حبه لتلاميذه وللمعهد الذي ينتمي اليه بكل نظمه وتعاليمه ، فان الطلاب ، وبخاصة الماركسيين منهم ، اعتبروا موقفه نوعا من السلبية والهروب ، ولذا فانهم غطوا جدران الحي اللاتيني بملصقات تندد به ، وتحمل عبارة ساخرة ، وقعها وقع موسيقى في الوقت ذاته : « ما فائدة التوسير ؟ A Quoi Sert Althusser » وأيا ما تكون دوافعه لهذا السلوك فان ذلك يعتبر من الامثلة الكثيرة على غرابة تصرفاته غير المتوقعة .

نقد الماركسيين

ولم تكن المسألة ابدا مجرد انتقاد او تمرد من جانب « التوسير » على زعامة الحزب وسلوكياته واخلاقياته ، كما لم تكن مجرد رفض للسلوك الغوغائي الذي كان يصدر عن بعض الماركسيين وصغار الشيوعيين ، انما كانت المسألة تتصل في اساسها برفضه للتحريفات التي تعرضت لها اراء ماركس وكتاباته ، على ايدي عدد من الكتاب الماركسيين الذين حاولوا التوفيق في تفسيراتهم بين الماركسية وبعض المذاهب الفلسفية (البورجوازية) التي كانت الماركسية ترفضها في الاصل وتحاربها . وكان هؤلاء الكتاب يؤملون ان يؤدي ذلك (التوفيق) الى تخليص الفكر الماركسي من جموده ومن الطابع (اللاانساني) الذي غلب عليه في المرحلة الستالينية بوجه خاص . ولكن « التوسير » كان يرى ان مثل هذه التفسيرات هي خيانة للفكر الماركسي الاصيل ، وانها ادت في اخر الامر الى فقدان الماركسية لطابعها العلمي الموضوعي المميز .

كان « التوسير » يرى ان كل النظريات « البورجوازية » التي كانت تنافس « المادية الجدلية » في تفسير المجتمع والاقتصاد نظريات بسيطة وسطحية فاسدة . فالنظريات « البرجوازية » عن المجتمع نظريات ذات نزعة تاريخية Historicist ، تفترض انه يمكن رد المجتمع الى « مستوى » واحد اساسي ، بينما كانت النظريات « البرجوازية » عن الاقتصاد نظريات ذات نزعة انسانية Humanist ، لأنها انبثقت اساسا من فكرة « الانسان » الاقتصادي . وقد رفضها « التوسير »

وماعجها لأنها نظريات « ايديولوجية » وليست علمية . فلقد كان يرى ان الايديولوجيات والعلوم هما الوجهان « الطيب » و « الفاسد » للمعرفة ، وان الذي يفصلهما ويميز بينهما هو اختلاف الصورة المنهجية للاشكال التي يتمان بها .

من هنا اخذ « التوسير » على عاتقه مسئولية تنقية الفكر الماركسي من كل التحريفات لتي لحقت به . وكانت وسيلته الى ذلك اعادة « قراءة » الاعمال والكتابات الماركسية الكبرى ، وتفسيرها من جديد وتحليلها على المستويين الفلسفي واللغوي ، مستفيدا في ذلك من التقدم الرائع الذي احرزته بعض العلوم الانسانية الاخرى ، مثل : التحليل النفسي واللغويات ، والمناهج « البنائية » التي اتبعتها ، والنتائج لتي توصلت اليها ، وهي امور لم تتح لمعظم الشراح والمفسرين الذين سبقوه . وقد اعطى ذلك لتحليلاته ابعادا جديدة ، كما اكسبها درجة عالية من العمق والاصالة ، خرجت بها عن ان تكون مجرد شروح وتفسيرات . وكانت خطة « التوسير » في الاصل هي ان يشارك عدد من كبار اساتذة الفلسفة في فرنسا في هذه التفسيرات والشروح بحيث يتخذ الامر شكل مشروع ضخم متكامل . ولكن فكرته لم تلق الترحيب الكافي فاضطر الى ان يضطلع بذلك وحده وان يقدم هذه التحليلات في حلقات البحث التي كان يعقدها في « مدرسة المعلمين العليا » اعتبارا من عام ١٩٥٠ وتمخضت المناقشات التي دارت في تلك الحلقات حول الكتابات الماركسية الرئيسية عن ظهور كتابين من اهم كتبه هي « من اجل ماركس » (١٩٦٥) و « قراءة كتاب رأس المال » (١٩٦٨) . وقد ادى ظهور هذين الكتابين الى انتشار اسم « التوسير » وذيوع صيته بحيث اعتبر من اهم الفلاسفة الماركسيين في فرنسا ، كما اعتبرت اعماله وتفسيراته الركيزة التي استند اليها الحزب في اقامة نظرية ماركسية متكاملة ، يسترشد بها في كل نشاطاته ، بدلا من تلك التصرفات التلقائية التي كانت تصدر عنه من وحي الساعة وتبعا للموقف . ولكن هذا لا يعني ابدا ان « التوسير » كان الفيلسوف الرسمي للحزب ، او انه كان يتولى عملية التنظير له .

وتبدو اصالة « التوسير » في قراءته لاعمال ماركس ـ في انه قام بتفسيرها من منطلق بنائي جديد ، وكما يقول الاستاذ « الاسدير ماكنتاير Alasdaire Macintyre » : ان التوسير (فرض) البنائية على الماركسية فرضا ، اعتقادا منه ان كلا منها يتضمن الآخر ، وانها يؤلفان معا قوة هائلة اذا ارتبطا برباط وثيق ، فالطبقة التي تسيطر على المجتمع هي التي تتحكم في مفاتيح ورموز وقوانين ذلك المجتمع . وهذه المفاتيح والرموز والقوانين تتحكم في الفكر وتسيطر عليه بطريقة محكمة ، لا تترك مجالا كبيرا للفردية ، وقد اضطر « التوسير » ازاء ذلك الى ان يتبنى نظرية « ابستمولوجيه » معادية للنزعة التجريبية وللنزعة التاريخية ، شأنه في ذلك شأن كل البنائيين الفرنسيين ، وبخاصة شيخهم ليفي ستروس ، كما تبنى بالضرورة ايضا نظرة البنائيين الى العلاقة بين الكل والجزء ، وبين البناء والنسق ، حسب التعبير السائد في الكتابات الانثربولوجية البنائية . وظهر اثر ذلك بوضوح في تفسيره لبعض القضايا الماركسية الاساسية التي اسيء فهمها مثل مشكلة الحتمية الاقتصادية . فالبنائيون الفرنسيون يؤكدون من ناحية دور العقل ويرونه اسبق ـ منطقيا وزمنيا ـ على التجربة ، ولذا كانوا يعمدون الى تفسير التجربة بالرجوع الى المبادىء العقلية ، كما يعتبرون الحقيقة « معيارا لذاتها » بمعنى انها لا تحتاج الى اية شواهد امبيريقية للتدليل عليها ، وهذا موقف يعارض تماما النزعة التجريبية التي تركز على اهمية التجربة ، وتعطيها الاسبقية ، على اعتبار ان المعرفة هي تجريد من الواقع . اما النزعة التاريخية فقد عارضها البنائيون الفرنسيون ، انطلاقا من رفضهم لمبدأ التفسير التاريخي الذي يفترض تحكم السابق في اللاحق ، وتحديده له ، وكذلك رفضهم فكرة المراحل التاريخية التي كان ينادي بها في القرن التاسع عشر انصار المدرسة التاريخية ومدرسة التقدم المستمر في خط واحد او مسار واحد . بل انه يمكن القول ان المدرسة البنائية ، في الانثربولوجيا البريطانية على الاقل ، قامت كرد فعل على المدرستين التاريخية والتطورية . فالتقدم ليس مجرد عملية « تراكم » تدريجي مطرد او « اضافة » خارجية لعناصر جديدة كل الجدة الى القديم الموجود ، وانما هو بالاحرى عملية « تنمية » لنواة كانت موجودة وقائمة دائما وبالفعل ، وعلى ذلك فان التغيرات التي تطرأ على المجتمع والثقافة ـ مثلا ـ هي تغيرات جزئية تتم داخل البناء الثابت .

واخيرا فان النظرة الكلية الشاملة التي يعتنقها البنائيون ترفض ما تذهب اليه الزعة التجريبية من ان « الكل هو مجموع اجزائه » وان « العلاقة هي مجموع العناصر المتمايزة التي تدخل في تكوينها » . وهي بالتالي تنكر فكرة التجريبيين عن ان اطراف العلاقة اسبق على العلاقة ذاتها . و « التوسير » يقول صراحة في كتابه « قراءة رأس المال » حول هذه النقطة : « ان الظواهر لا توجد خارج البناء ، اي انها ليست شيئا له وجود مسبق ثم يجيء البناء لكي يضفي عليها طابعه الخاص المميز ، بل الامر على العكس من ذلك تماما اذ ان البناء يكون كامنا في ظواهره

وملازما لها . . . . كما ان الوجود الكلي للبناء يتألف من ظواهره .

وباختصار فان البناء الذي هو مجرد اتحاد او تركيب معين من عناصره الخاصة لا يتمتع بوجود مستقل خارج ظواهره ، (صفحة ١٨٨ من الترجمة الانجليزية) . .

ولكن اذا كان « الكل الاجتماعي » هو بناء ، وكان البناء (يحدد) نفسه بالتالي ، او حسب تعبيره (يحتم) عناصره ، فان ذلك يستتبع ان تكون العناصر مجرد اجزاء تشغل مواضع معينة في البناء ، وبالتالي فانها لن تكون شيئا اكثر من مجرد دعائم تحمل ذلك البناء . وهذه النظرة الكلية الشاملة ، لا تسمح بان يعطي اولوية مطلقة لاي عنصر واحد من عناصر « التكوين الاجتماعي » ، فالتكوين الاجتماعي اكثر تعقيدا من ان يرد الى عامل واحد فقط ، على ما يحدث حين تحاول الحتمية الاقتصادية رد كل شيء الى العامل الاقتصادي وحده . والبناء الاقتصادي ليس الا مستوى واحدا من « المستويات الموضوعية » التي تؤلف التكوين الاجتماعي ، وبذلك فان من الخطأ الزعم بان البناء الاقتصادي يتحكم في بقية المستويات الاخرى على ما يذهب اليه الكتاب الذين حاولوا تبسيط الماركسية ، فأساءوا اليها . ومن هنا كانت ضرورة افتراض وجود حتمية عليا او حتمية فوقية او متعددة الابعاد والاتجاهات Surdetermination ، وهي حتمية معقدة تختلف اختلافا تاما عن تلك الحتمية الاقتصادية ذات البعد الواحد او الاتجاه الواحد . وتتناسب مع تعقد التكوين الاجتماعي الذي تكون فيه الحتمية متبادلة بالضرورة دون ان يكون لاحد عناصرها اولوية او افضلية على بقية العناصر الاخرى ، ومن الصعب تفسير فكرة الحتمية المعقدة او ذات الابعاد المتعددة عند « التوسير » في ضوء النظريات التقليدية عن العلية ، ولكنها تتفق تماما وتتلاءم مع فكرة « العلية البنائية » او ما يسميه احيانا بالعلية المجازية Metonymic وعلى اية حال فان بذور « العلية البنائية » موجودة في كتابات ماركس وفرويد ، خاصة وان ماركس كان مهتما بحل مشكلة الطريقة التي يمكن للبناء وظواهره تحديد كل منها الاخر .

بنائي وماركسي . . كيف ؟

والسؤال الذي لا يزال يراود الكثيرين حتى الآن هو : الى اي حد كان « التوسير » بنائيا رغم ماركسيته او مع ماركسيته ؟ .

الواقع ان عددا كبيرا من الكتاب يعتبرون « التوسير » مفكرا بنائيا في المحل الاول على الرغم من انه هو نفسه يرفض هذا الوصف وينكره . وليس من شك في ان التوسير كان يرفض بعض القضايا الاساسية ، عند « ليفي ستروس » وان كان شارك البنائيين كثيرا من وجهات نظرهم ، مثل ذلك الولع الشديد بفكرة البناء التي تستلزم اتخاذ موقف نقدي صريح من « النزعة الانسانية » على ما يقول « جيدنز Giddens » وكذلك الولع بفكرة « الكل الاجتماعي » التي ترى ان الكل يوجد فقط في اجزائه ومكوناته او « ظواهره » حسب المصطلح الذي يستخدمه التوسير ، ومثل اعتناقه الموقف المعارض للنزعة التجريبية والنزعة التاريخية ، وغير ذلك من « المواقف » المميزة للبنائية والبنائيين . ولقد اثارت آراؤه البنائية كثيرا من النقد او الانتقاضات الماركسية الغاضبة حسب تعبير احد الكتاب ضده وضد ما يطلق عليه عادة اسم « الثورة الالتوسيرية » .

وربما كان من اهم الذين وجهوا انتقادهم وهجومهم ضده العالم المؤرخ طومسون E. P. Thompson في كتابه « عقم النظرية The Poverty of Theory » وعالم الاجتماع الماركسي سايمون كلارك Simon clarke في كتابه عن « الماركسية ذات البعد الواحد » One dimensional Marxism ولكن هناك من الكتاب والفلاسفة من يتفقون مع الاستاذ « الاسيلرماكنتاير » في قوله : « يجب ان نعترف جميعا بالجميل لالتوسير ، لأنه ادخل الماركسية الفرنسية مرة اخرى في حوار مع بقية الفلسفة الفرنسية ، باستخدامه أفكارا مستمدة من البنائية ، وفلسفة العلم ، ولأنه ألح في تخليص الماركسية من الطابع الستاليني اكثر مما فعل غيره من الماركسيين » . ومع ذلك فان هناك من يرى ان محاولة التوسير تفسير « ماركس » تفسيرا بنائيا جعلته يرى في ماركس ما لم يكتبه ماركس نفسه ، وما لم يقصد اليه من كتاباته ، وان الثورة الالتوسيرية لم تكتف بعدم السير في الاتجاه الرئيسي للماركسية وانما خرجت عليها تماما وسلكت طريقا آخر بعيدا عنها كل البعد .

ومهما يكن من شيء فالظاهر ان كل الجهود التي قام بها التوسير بصرف النظر عن قيمتها واهميتها واختلاف الآراء فيها ، سوف تتجمد ولو الى حين ، ان لم يكن قد قضى على فلسفته تماما نتيجة للظروف والاوضاع التي نشأت بعد تلك الحادثة المفجعة في نوفمبر من العام الماضي (١٩٨٠) وبعد ان ابتعد الآخرون عنه ـ كما هو الشأن دائما ـ حتى تلاميذه واصدقاؤه ، حسب ما يقول « دوجلاس جونسون » . وربما كانت هذه في الحقيقة قمة المأساة .

د . احمد ابو زيد

أنشودة الطاووس

للشاعر الروماني ايتزيك مانجر

ترجمة : الدكتور صفاء خلوصي

ولد ايتزيك مانجر سنة ١٩٠٠ في رومانيا ، وعاش قبل الحرب العالمية الثانية في بولندة ، وأمضى سني ١٩٤٠ ـ ١٩٥١ في لندن ، وهو اليوم في نيويورك ، وقد نقلنا قصيدة (الطاووس الذهبي) من كنز الشعر العالمي المجموعة التي صنفها وترجمها الى الانكليزية جوزيف ليفتويج Joseph Leftwich سنة ١٩٦١ (ص ٥٤٩ ـ ٥٥١) ولعل الشاعر الروماني استوحى قصيدته هذه من بيت المعري الخالد :

أمس الذي مرَّ على قربه
يعجز أهل الأرض عن رَدِّهِ

هكذا طار الطاووس الذهبي ضاربا في الآفاق
مشرقا ، باحثا عن امس الدابر ،
ومضى في طيرانه الى أن بلغ ممرا في تلاع ،
فالتقى شيخا تركيا يمتطي صهوة جواد هرم
فتوقف الطاووس ليسأل :
« لعلك رأيت أمس الدابر ؟ »
فقطب التركي جبينه وهزَّ رأسه ،
وردَّ قائلا : أمس ؟ كلا ، لم أره !
ثم سحب عنان جواده وراح يخُبُّ مسرعاً ،
وسُمِعَتْ قهقهتُهُ فوق التلال وهو يقول :
« ما أشدَّ حمق ذلك الطير الذهبي ! »

××××××

واستأنف الطاووس الذهبي طيرانه
شمالا ، باحثا عن أمس الدابر ،
فلمح صيادا على ساحل البحر ،
ناشرا شبكته وهو يغني .
كانت النيران تلتهب في أغنيته
وكان ثمة صبي نائم ،
وسيدة حسناء بيدها مغزل !

×××××××

فتوقف الطاووس الذهبي ليسأل قائلا :
لعلك رأيت أمس الدابر ؟

الذهبي



فقطب الصياد جبينه وهز رأسه :
أمس ؟ كلا لم أره !
وختم أغنيته بعبارة هازئة !
ما أشد حمق ذلك الطير الذهبي !)

××××××××

وأستأنف الطاووس الذهبي طيرانه
جنوبا ، باحثا عن أمس الداير ،
فرأى زنجيا وسط حقل
يُصْلِحُ خيمته المتواضعة بقش ذهبي ،
فتوقف الطاووس الذهبي ليقول متسائلا :
لعلك رأيت أمس الداير !
فكشّر الزّنجي عن أسنان بيضاء ،
وبابتسامة عريضة ذات فرحة هائلة ،
لم يجب بشيء ، وإنما اكتفى بقوله :
ما أشد حُمْقَ ذلك الطير الذهبي !
فابتعد الطاووس الذهبي ضارباً بجناحيه
غربا ، باحثا عن أمس الداير ،
فالتقى امرأة ملفعة بالسواد الداكن
راكعة أمام قبر ، كئيبة مجلّلة بالحزن ،
لم يعد الآن لدى الطاووس الذهبي ما يقوله ،
فلا حاجة للاستفسار منها ،
أو التوسل اليها برد الجواب ،
فهذه المرأة الباكية علي قارعة الطريق
هي أرملة أمس الداير !! . . .



« ان الـذى لا يعلم شيئا الا عن جيله عـاش طفلا »

« عبارة مكتوبة على واجهة مبنى مكتبة جامعة كولورادو بالولايات المتحدة الامريكية »

في البيت يتكون
الطفل القارئ

بقلم : الدكتور رشدي أحمد طعيمه

يأتي البيت في مقدمة المؤسسات الاجتماعية الاكثر تأثيرا في الطفل وتكوينا لشخصيته . انه النافذة التي يطل منها على العالم ، والمنهل الذى يتشرب منه القيم ، والنموذج الذى يتعلم منه انماط السلوك . . .

والقراءة كسلوك امر يكتسبه الطفل من مصادر متعددة ، منها البيت ، ومنها اجهزة الاعلام ، ومنها المدرسة ، ومنها الاصدقاء ، ومنها الكتب الخارجية والمطبوعات وغير ذلك مما لايتسع المقام لتفصيل الحديث فيه . .

الا انه من بين هذه المصادر جميعا يتقدم البيت بوصفه المصدر الاول الذى تتكون عن طريقه الصلة بين الطفل والكتاب ، وتنشأ بينهما علاقة يتحدد على ضوئها مستقبل الطفل القرائي الى حد كبير ،

ان الحقائق التي اثبتها البحث العلمي وايدتها الملاحظة ان الطفل الذى يشب بعيدا عن القراءة في صغره يظل عازفا عنها كارها لها باستثناء حالات شاذة لاتنقض القاعدة قدرما تثبتها ويهمنا هنا ان نجيب عن سؤالين :

الاول : ما دور القراءة في حياة الاطفال والى مدى تسهم في نموهم ؟

الثاني : ما دور الاسرة في تنمية ميول الاطفال في القراءة وتشجيعهم عليها ؟

الاطفال والقراءة

عن سبب حبه للقراءة كتب استاذنا عباس محمود العقاد كلمة قال فيها : « لست اهوى القراءة لاكتب ، ولا اهوى القراءة لازداد عمرا في تقدير الحساب ، وانما اهوى القراءة لان عندي حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة واحدة لاتكفيني ولا تحرك كل ما في ضميرى من بواعث الحركة . والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني اكثر من حياة في مدى عمر الانسان الواحد لانها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق وان كانت لاتطيلها بمقدار الحساب . فكرتك انت فكرة واحدة ، شعورك أنت شعور واحد ، خيالك انت خيال فرد اذا قصرته عليك ، ولكنك اذا لاقيت بفكرتك فكرة اخرى ، اولاقيت بشعورك شعورا آخر ، اولاقيت بخيالك خيال غيرك ، فليس قصارى الامر ان



الفكرة تصبح فكرتين او ان الشعور يصبح شعورين ، او ان الخيال يصبح خيالين .كلا . وانما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات الفكر في القوة والعمق والامتداد » .

الامر يصدق الى حد كبير مع اطفالنا ، ان للقراءة دورا في حياتهم لايقل عن الدور الذى تلعبه في حياة الكبار ان لم يزد ، فمن خلالها تدرس القيم ، وتعمق المبادىء ، وتكون الاتجاهات ، وتوسع الميول وترهف الاحساسات وينمى التذوق ، وتشبع الحاجات النفسية المختلفة وتوثق الصلة بين الطفل والصفحة المطبوعة انها باختصار تضيف الى عمره عمرا ، والى حياته حياة ما كان له ان يحظى بها لو نشأ عزوفا عن القراءة ، بعيدا عن مصادر المعرفة والتثقيف . . ان للطفل حاجات نفسية متعددة يستطيع ادب الاطفال ان يسهم في اشباعها ولنضرب امثلة اربعة لتلك الحاجات :

أ ـ الحاجة الى الامن : فالقصص التى يشيع فيها حب الاخرين وحرص افراد الاسرة بعضهم على البعض ، والتآزر بينهم في مواجهة مواقف الحياة المعقدة وشكلاتها المختلفة . نقول ان امثال هذه القصص تشبع الى حد كبير حاجة الطفل الى الاحساس بالطمأنينة والامن . انه يتابع باهتمام شديد احداث القصة ليرى كيف يسلك كل من افراد العائلة تجاه الاخرين ، كما يتابع الخط الذى تنمو فيه هذه العلاقة . ان مما يؤلمه ان يتنازع افراد الاسرة الواحدة في القصة بالشكل الذى يجعل الحياة قائمة يسيطر عليها الصراع ، ويذهب ببهجتها التنازع ويحرم الانسان من الامن فيها حرص الاخرين على الفوز مهما خلف ذلك من عواقب او اعقبه من آثار . .

ب ـ الحاجة الى الحب : ان ادب الاطفال يستطيع ان يشبع هذه الحاجة عندهم . ان الطفل الذى يقرأ قصة عن اسرة سعيدة بابنائها يشيع الحب بين افرادها اخذا وعطاء . انما تتاح له الفرصة لان يبادلهم هذا الحب ، وان تنتقل اليه هذه المشاعر ، والحاجة الى الحب كما هو معروف يبدأ اشباعها في اسرة الطفل ثم تتسع دائرته لتشمل الكون كله بمختلف كائناته . .

والطفل الذى ينشأ على حب الاخرين يتقبل منهم ضعفهم ويشاركهم آلامهم ويرثي لاشكال العجز التي تصيب بعضهم . انه يتوحد مع الكون . يحترم فيه عناصر القوة ويخافها . ويقدر فيه اشكال الضعف ويحس بها ، ولنقرأ ما كتبته طفلة صغيرة عن تأثير احدى القصص عليها . تقول الطفلة الامريكية :

« لقد اثرت في قصة (الحيوان الاعمى) تأثيرا كبيرا ، فما كنت اظن ان الحيوانات العمى تستطيع ان تتحرك هنا وهناك ، او ان تلعب ببعض الحيل . كنت اعتقد دائما انها ينبغي ان تقتل ولكنني الآن اصبحت اعتقد انه مع شيء من الصبر تستطيع الحيوانات الضريرة ان تتعلم كيف تقضى شئونها من اجل ان تعيش في هذا الكون . ينبغي ان يكون لها رفاق ، وهم اولئك الذين يرغبون في مساعدتها ، ان الحيوانات كائنات تستحق التقدير تماما كالبشر ، وعندما كنت في رحلة اقضيها في هذا الصيف شاهدت اعمى يلعب بالكمان ، لقد كان ينتقل بنفسه من مكان الى آخر ووقتها تذكرت الحيوان الاعمى الذى قرأت قصته . انني لن اتعامل مع ضرير آخر بعد ذلك الا بالطريقة التي اتعامل بها مع المبصرين . لن انظر اليه ابدا . ولن يخالجني الشعور باية حال على انه اعمى ، وبدلا من ان اعبر عن رثائي له واشفاقي عليه سوف اعبر اعجابي به لشجاعته وصبره وقدرته على ان يتعلم الاشياء بنفسه »)

لقد تعلمت هذه الطفلة من القصة التى قرأتها ان تحب كل من حرم نعمة البصر وليس فقد البصر وحده بالذى يجعل الانسان اعمى .

هـ ـ الحاجة الى تحقيق الذات : ان لدى كل منا احساسا بانه يستطيع عمل شيء ما . وان هذا الشيء ذو قيمة له ولغيره . ومفهوم المرء عن ذاته وتصورة لقدراته من الامور الهامة التى تحدد له الى حد كبير مستقبله واسلوب حياته ، ومن الكتب التى تشبع عند الطفل حاجته الى تأكيد

قصص البطولة حيث تلعب احدى الشخصيات فيها الدور الكبير ، كما ان قصص المغامرات خاصة التي يلعب الاطفال فيها دورا مؤثرا تشبع عند الطفل الاحساس بقيمته وانه شأن غيره من الاطفال يستطيع ان يلعب دورا مؤثرا . بل ان القراءة في ذاتها تمهد للطفل طريق الاستقلال عن والديه . ان القراءة نشاط يلجأ اليه برغبة وحماس اذ يجد فيها ذاته ، يقضي من خلالها فترة من الزمن بعيدا عن قيود الاخرين .

ان القراءة تخرج الطفل بسويعات من طوق عاطفة الامومة والابوة التي تعود الطفل في كثير من الاحيان على الانانية وحب الذات .

د ـ الحاجة الى المعرفة والفهم : منذ ان يدرك الطفل العالم من حوله تنشأ لديه حاجة هامة من حاجاته العقلية وهي الحاجة الى الاستطلاع . انه يجب ان يتعرف على اشياء كثيرة تحيط به يؤثر فيها احيانا وتؤثر فيه اخرى . وهو في كل يطرح اسئلة كثيرة ينشد الاجابة عليها . وادب الاطفال خاصة كتب المعلومات تقف في مقدمة الوسائل التي يمكن عن طريقها اشباع هذه الحاجة .

ان طفل القرن العشرين يعيش في عصر التكنولوجيا . عصر مراكب الفضاء وتخطي حدود الكوكب الارضي . ولاشك ان القصص الخيالية وقصص المستقبل تتيح للطفل ان يتخيله وان يتطابق معه بصورة عقلية مسبقة . ان هذه القصص تنمي لديه الخيال العلمي وتوقظ عنده الفكر الناقد وتستثير فيه الملاحظة الواعية كما تدربه على الربط بين الظواهر والتنبؤ بحركتها .

يضاف الى كل ما سبق ان قراءة الكتب والقصص تنمي عند الاطفال ثروتهم اللغوية وتساعدهم على التحديد الدقيق لمفاهيمهم فضلا عن تنمية بعض المهارات فيهم . ان قراءة الكتاب تصاحبه عادة مشاهدة الصور والرسوم وتأمل الحروف مما يدعو الطفل الى ان يمسك بالقلم ويحاول رسم مايرى او يقلد اشكال الحروف . وتعتبر هذه الممارسة بلاشك اول خطوات طريق الفن .

ولقد ثبت من كثير من الابحاث والدراسات ان الاطفال الذين يقرأون قراءات حرة خاصة بهم يأتون في مقدمة التلاميذ تحصيلا وذكاء ، كما ثبت ان عجز الاطفال في القراءة يعوق تحصيلهم . ولعل هذه النتيجة العلمية تسد على الاباء غير مشجعي القراءة الحرة عند اطفالهم منافذ الجدل .

مسئولية الاسرة

فيما يلي مجموعة من التوصيات التي يمكن عن طريقها تشجيع الاطفال على القراءة وتنمية ميولهم نحوها فيما لو لقيت من الاسرة عناية او حظيت باهتمام .

١ ـ للقدوة دور كبير في ذلك . ان القراءة شأن اي سلوك آخر تلعب القدوة فيه دورا كبيرا في تنميته ولنتصور طفلين احدهما يرى والده يتصفح قبل ان ينام مجلة او يقرأ كتابا ، وثانيهما طفل لا يعرف الكتاب منزله ولايطرق بابه . .

٢ ـ ينبغي ان يكون الكتاب جزءا اساسيا من الحياة العادية للاسرة . ما اجمل ان يتناقش الوالدان امام اطفالهما حول كتاب جميل قرأه . يعبر كل منهما عن رأيه فيما قاله المؤلف تأييدا او معارضة . حبذا لو استحث الوالدان اطفالهما على الاستماع الى برنامج اذاعي عن الكتب او مشاهدة برنامج تليفزيوني عن احدث المطبوعات . ولاشك ان تعريض الطفل لمواقف تناقش فيها الكتب ويتبادل الناس آراءهم عنها خليق بان ينمي عنده حب القراءة والشوق الى الاتصال بما يتحدث الناس عنه .

٣ ـ ينبغي تخصيص جزء من ميزانية الاسرة ولو قليلا لشراء ما يناسبها من كتب او تنظيم علاقة بين الطفل ومجلة ما يشتريها بنفسه او تشترى له ، يقرأ او تقرأ له ، وليس المهم في ذلك قدر الكتب المشتراة ثمنا او عددا وانما المهم جودتها ومداومة اتصال الطفل بها . ان كتابا يشترى كل اسبوع ويقرأ على مدى عشرة اسابيع متصلة خير من شراء عشرة كتب مرة واحدة وكفى الله المؤمنين القتال . . .

ان مما يبدو مع الاسف ان ثقافة الطفل لم تدخل بعد في حياة كثير من الاسر العربية سواء في برنامج حياتها او في ميزانيتها . ولا ينبغي ان تقف محدودية الدخل حائلا يعوقها او عذرا تعتذر به . ان من قصص الاطفال مالاتزيد قيمته عن ثمن علبه من السجاير يدخنها الاب ، او اجر مصفف الشعر تدفعه الام !

٤ ـ ينبغي اصطحاب اولادنا الى مكتبات الاطفال او اقسام كتب الاطفال في المكتبات العامة . ان تنظيم زيارات دورية لهذه الاماكن ينمي عند الطفل الاستقلال في تحصيل المعرفة ، ويدربه على استخدام الكتب واختيار ما يناسبه منها ، فضلا عن خلق عن خلق صلة طيبة بينه وبين المكتبة تستمر معه طيلة حياته ، ان من العادات التي رسخت لدى الكثير منا قصر القراءة في البيت ان كان ثمة

قراءة ، والعزوف عن القراءة بالمكتبات العامة او زيارتها ولو لماما والبقاء بها سويعات يقضيها الانسان في قراءة كتاب او تصفح مرجع من المراجع ، اللهم الا اذا عزت استعارته او كان خروجه محرما ، ومن الخير ان تنمى هذه العادة عند اطفالنا في مرحلة حياتهم الباكرة ، قبل ان يكرهوا عليها في مراحل تعليمهم المتأخرة .

٥ ـ ينبغي تشجيع كل مبادره عند الطفل للقراءة ، بل يجب ان لم تشهدها منه ان تخلقها ، مستحثيه على تصفح مجلة تمدها له او كتاب تهيئه له ولتتصور الفرق بين طفلين احدهما قد اعتاد والده استحضار مايصدر من الكتب والمجلات والقصص ـ علاوة على ما يقتنيه ـ والتفرغ لقراءة ما يمكنه وقته من قراءتها ، وثانيهما تبخل اسرته بالقرش ينفق في شراء قصة او كتاب مادام لن يمتحن فيها وليدهم .

٦ ـ ينبغي ان يستمع الوالدان الى الطفل وهو يقرأ القصة . ان الطفل يجني من ذلك متعة لاتعدلها متعة ، ان استماع الوالدين اليه وهو يقرأ وتعبيرهما المفصل عن الاعجاب بادائه ومناقشته فيما يقرأ يترك في نفسه اكثر من مجرد الميل الى القراءة ، ان هذا يشبع حاجات نفسية مختلفة منها الحاجة الى الحب ومنها الحاجة الى التقدير ثم الحاجة الى الاحساس بالذات وتوكيدها ، بل ان منها كذلك الحاجة الى الانتماء .

٧ ـ ينبغي ان يكون الوالدان على صلة مستمرة بالمدرسة يتعرفان من خلالها على عادات اطفالهم في القراءة . ميولهم نحوها . مشكلاتهم ازاءها . استعداداتهم فيها . مهاراتهم التي اكتسبوها من خلال دروسها . ان هذا بلاشك فضلا عن تمكن الوالدين من التعرف على المستويات التحصيلية لاطفالها ، يساعدهما على التخطيط المناسب لقراءاتهم وتنمية عاداتها فيهم .

حقائق هامة

وحين نطرح هذه التوصيات ينبغي ان نذكر حقيقتين هامتين في هذا الصدد واولى هاتين الحقيقتين ان النمو كما نعلم عملية شاملة متكاملة ، يؤثر فيها كل شكل في غيره ، فالنمو العقلي مرتبط بالنمو الانفعالي ، وكلاهما يتأثر بالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الطفل ، ونمو الطفل في القراءة مرتبط بغيره من أشكال النمو الأخرى . وما نريد التأكيد عليه هنا هو ان الاسرة تستطيع اجتذاب الطفل للقراءة او تنفيره منها وذلك في ضوء السلوك الذي تسلكه نحوه والاسلوب الذي تعامله به . فالتضج العقلي على سبيل المثال يعتبر شرطا لابد منه لضمان بداية سليمة للقراءة .

من هنا ينبغي الاشارة الى حقيقة اثبتها البحث التربوي وهي ان التعجيل بتعليم الاطفال القراءة او دفعهم اليها دون استعداد لها من شأنه ان يضر بالطفل اكثر من ان ينفعه . ان تعريض الطفل لموقف لم يستعد له او تكليفه بمهارة لم ينضج لممارستها يخلق فيه الشعور بعدم الثقة والاحساس بالعجز عن ان يأتي ما يطلب منه او يمارس ما يتوقع له ممارسته ، والقول نفسه يصدق على العلاقة بين القراءة واشكال النمو الاخرى مثل النمو الانفعالي والاجتماعي . ان الاسلوب الذي يعامل الوالدان به اطفالها من اقوى العوامل مساهمة في تنمية الميل للقراءة عندهم كلما كان في هذا الاسلوب تشجيع لشخصياتهم وتنمية لقدراتهم وثقة بامكاناتهم .

اما ثانية الحقيقتين فهي ان الميل للقراءة لاينمي باجبار الاطفال عليها او اكراههم على ممارستها . ولاينبغي تحت اى ظرف من الظروف ربط هذه العادة باشكال من العقوبات ان لم تمارس . كأن يقول الوالدان لطفلهما ان لم تقرأ هذا الكتاب سنحرمك من كذا وكذا . كما لا ينبغي جعل القراءة للاطفال شرطا لقيام الأسرة بأداء شيء يريدونه . ان هذا قد يخلق في نفوسهم احساسا بالعداء نحوها والشعور بانها كالدواء لايتعاطاه الطفل الا اذا كوفيء بشيء من والديه . . .

واخيرا وليس آخرا لا ينبغي ان يتوقع من ادب الاطفال ان يمس الطفل بعصاه السحرية ، فيحوله بين عشية وضحاها من شرير الى خير ، ومن غير متذوق الى ذواقة ، ومن متبلد الى مبدع مبتكر .

ان الأثر الذي يخلقه أدب الاطفال في نفوسهم رهن بتوافر ظروف معينة مرتبط بعوامل متعددة يخرج تفصيل القول فيها عن نطاق هذا المقال .

ومع ذلك فأدب الاطفال يستطيع ان يضع اللبنة الأولى نحو شخصية متكاملة للطفل مهيئا لها فرصة النمو في مختلف المجالات وفي اطار من القيم مرغوب ، والله ولي التوفيق . ■■

د . رشدي احمد طعيمه

مدرس المناهج بكلية التربية جامعة المنصورة ج . م . ع

المكعب الملون وكيفية حل لغزه

كان طالب المدرسة الانجليزي (باتريك لوست) البالغ من العمر ١٣ سنة في سويسرة ، في فصل الربيع الماضي ، يستمتع وأهله برياضة التزلج على الجليد .. حينما رأى مكعب روبك لأول مرة .. وما أسرع ما شد المكعب الفتى ، وصرفه عن التزلج ، وحمله على التفرغ له طوال أيام خمسة ، محاولا اعادة ترتيب اجزائه الملونة الاربعة والخمسين ، والموزعة على جوانب المكعب السته .. (أي بمعدل ٩ أجزاء أو مكعبات صغيرة لكل جانب) وذلك بقصد حصر الوانه الستة بجوانبه الستة .. ونجح الفتى ، وفرح بنجاحه كثيرا .. ذلك أنه أنجز أكثر بكثير مما توخى .. فهو لم يعثر على الترتيب المطلوب وحصر الألوان الستة بالجوانب الستة فحسب ولكنه اكتشف طرقا عديدة تكفل كلها الى ذلك الترتيب دون تأخير ..



وسارع الفتى الى كتابة نشرة في أربع صفحات توضح تلك الطرق .. واستنسخ نشرته على الستانسل ثم راح يبيعها لزملائه مقابل ٤٥ سنتا للنسخة الواحدة .

واتفق لأحد محرري دار النشر البريطانية (بنجون Penguin) أن سمع بقصة باتريك واطلع على نشرته .. ولما لمس ملامح النبوغ فيها وتلمس امكانية استثمارها وجنى الأرباح منها بادر الى الاجتماع بالفتى وبوالديه .. وأقنعهم بضرورة نشر تلك التعليمات والايضاحات ، موسعة ومحررة ، على نطاق واسع .. وكانت النتيجة : كتاب في ١١٢ صفحة نشرته دار بنجون وطبعت منه ربع مليون نسخة حتى الآن .

ويشرح كتاب باتريك بوست هذا ٣٦ طريقة ، أو حيلة ، لحل لغز مكعب روبك .. واعادة أجزائه إلى وضعها الأصلي (بحيث يصبح كل جانب من جوانب المكعب الستة مستقلا بلون من الوانه الستة) معتمدا في ذلك على المنطق ، لا الرياضيات ، كما فعل غيره . ويضم الكتاب فوق ذلك فصلا أخيرا يرشد القارىء الى كيفية صيانة المكعب .

أراضي المريخ تباع بأسعار بخسة

بدأت احدى الشركات ، بل الجمعيات العلميه في امريكا (جمعية الباسيفك الفلكية) بيع الأراضي على سطح المريخ .. ولا ريب أن رخص أسعار تلك الأراضي أدى الى رواجها ..

فأنت لا تدفع أكثر من ١٥/- دولارا لشراء قسيمة مساحتها (١٤٠٠٠) فدان .. وتتضاعف المساحة أربعة أضعاف لتصبح ٥٦٠٠٠ فدان .. فيما لو ضاعفت المبلغ ضعفين (٣٠ - دولارا) ! أما لو زدت هذا المبلغ قليلا ، ليصبح ٥٠/- دولارا ، لكان في امكانك شراء ١٢٦٠٠٠ فدان ، ولأصبحت بذلك من كبار الملاك الاقطاعيين على سطح الكوكب المجاور ..

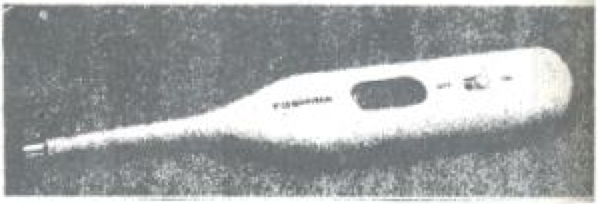
ولكن عليك أن تأخذ بعين الاعتبار طقس المريخ قبل الاقدام على دفع نقودك .. اذ تهبط حرارته عند الفجر الى ١٨٣ درجة مئوية تحت الصفر .. وتقفز بعد الظهر حتى تبلغ ٢٧ درجة مئوية .. وهذه حرارة كافية لصهر الرصاص .. وليس معروفا أن الطقس المعتدل مفقود تماما في المريخ .. فأنت تحظى بدرجة حرارة ٢٧ مئوية عند الضحى ، ولكن لمدة ساعة فقط ..

اعداد : يوسف زعبلاوي

الا أنك تستمع هناك بشروقين للشمس وغروبين بدلا من شروق واحد وغروب واحد .. وتستطيع التعمير على سطحه نحوا من ٣٠٠ سنة مريخية .. وكلتا هاتين الظاهرتين الغريبتين مردهما الى سرعة المريخ في دورانه حول الشمس وحول نفسه .

والجمعية الفلكية جادة كل الجد في بيع أراضي المريخ التي لا تملكها .. فهي تسلم المشتري شهادة استملاك أو طابو !! وخريطة دقيقة مفصلة لسطح الكوكب تبين لك موقع أرضك منه !

وتساءل بعد هذا ما المقصود بهذه الحملة التي تقوم بها جمعية علمية محترمة لبيع أراض لا تملكها .. على سطح كوكب لاسبيل الى العيش عليه .. المقصود هو جمع التبرعات لمشاريع ثقافية تنوي الجمعية القيام بها .. وقد انتهجت هذا الاسلوب الغريب لجمع التبرعات نظرا لطرافته .. أما النتائج التي حصلت عليها فكانت باهرة .. وقد فاقت التبرعات كل التوقعات . . .



الأجهزة الالكترونية في خدمة الأغراض الطبية

هذا جهاز الكتروني جديد لقياس حرارة جسم الانسان (ميزان حرارة Thermometer) يعمل الكترونيا ويقيس الحرارة فيما بين درجة ٣٤ ودرجة ٤٣ مئوية بدقة بالغة ، تصل الى جزء واحد من مائة جزء من درجة الحرارة المئوية الواحدة .. ولا يحتاج لأنهاء مهمته وتحديد درجة الحرارة بالأرقام الى أكثر من دقيقة واحدة ، اذا وضع تحت اللسان ، أو دقيقتين ، اذا وضع تحت الأبط . .

ويمتاز هذا الميزان الجديد أيضا بخفة وزنه وصغر حجمه . . فهو لايزن أكثر من . . ولا تزيد أبعاده على ٥ بوصات طولا و٨ ، من البوصة عرضا و ٤ ، من البوصة سمكا . أما الجهة التي صنعته فإحدى الشركات اليابانية .

سكر طبيعي .. مباح لمرضى السكر

● السكر صنوف كثيرة ... منها الجلوكوز والفروكتوز ومنها السكروز (Sucrose ,u, vmsgh) العادي الذي يتناوله الناس جميعا ، باستثناء مرضى السكر الذين يعانون من البدانة ، فانهم ينصحون بالامتناع عن تناوله . ونذكر من صنوف السكر ايضا صنف (كسيلوز ـ Xyiose) او ان شئت ، سكر الخشب ، الذي يوجد على الطبيعة في عدد من الفواكه والخضار كالموز والاناناس والزهرة ...... فضلا عن الخشب ، خامته الاولية ....

ويمتاز الكسيلوز في أنه يتم تحويله الى طاقة دون حاجة الى هرمون الانسولين .. وفي انه لايحظر على مرضى السكر نظرا لان تناوله لايرفع نسبة السكر في دمهم ، كما يفعل السكروز .

وقد لايرى الكثيرون جديدا في هذه الحقائق فلطالما عرفوها .... ولكنهم عرفوا بالاضافة اليها عدم جدوى

انتاج الكسيلوز اوو استخلاصه من خامته الخشب فقد كانت هذه عملية بالغة التكاليف ، حالت دون التفكير في صنع الكسيلوز .... وعرضه للبيع والشراء في الاسواق ، باسعار غالية جدا ...

من هنا كان النجاح الذي احرزه مؤخرا ثلاثة من العلماء السويسريين باعثا على الاهتمام والرجاء ...اهتمام العلماء ورجال الصناعة والتجارة ، ورجاء مرضى السكر الذين يشكون السمنة . فقد امكن لاولئك العلماء ابتكار اسلوب جديد لاستخلاص سكر الكسيلوز من الخشب ، بل من عجينة الخشب ، التي يصنعون منها الورق والكرتون ، وذلك بكميات كبيرة وبتكاليف معقولة ، محتملة فهي كفيلة بانتاج ٨٠ كيلو سكر كسيلوز من كل طن عجينة اى نسبة ٨٪ ولكن على حساب كمية الكرتون التي يمكن انتاجها من ذلك الطن ، وقد بلغت ٧٠٠ كيلو ، اى بنقصان ٢٥٠ كيلو عن كمية الكرتون التي امكن إنتاجها من طن العجينة بالاساليب التقليدية .

هذا الى جانب خامة اخرى هى تفل قصب السكر bagasse . فالطن الواحد من هذه الخامة يسمح بانتاج ١٢٠ كيلو سكر كسيلوز ... اى بنسبة ١٢٪ ...

اما تكاليف انتاج سكر الكسيلوز بهذه الطرق الجديدة فاقل كثيرا من تكاليف انتاجه بالطرق القديمة .. الا انها تفوق تكاليف انتاج السكر العادى ، كما لايخفى . اذ سيبلغ سعر كلفة سكر الخشب ثلاثة اضعاف سعر كلفة السكر العادى . ويرجح الكثيرون ان يقبل مرضى السكر على تناول الكسيلوز بالرغم من اسعاره المرتفعة نسبيا ... فهو مُحَلٍّ طبيعي كالسكر العادى تماما مع الفارق انه لاضرر منه ولا يرفع نسبة السكر في دمهم كثيرا ولا قليلا ... وهو بلا ريب البديل المفضل على السكارين والسيكلامات وسائر المحليات الاصطناعية .. اضف الى ذلك ان الكسيلوز ينفرد بميزة اخرى هي مقاومته لتسوس الأسنان ... خلافا لما عرف عن السكر العادى ...



جهاز يقيس عطش النبات

هذا جهاز جديد ، ابتكروه مؤخرا في ولاية أريزونا في أمريكا ووضعوه تحت تصرف دائرة الزراعة الحكومية في الولاية بقصد تحصه والتثبت من مزاياه تمهيدا لاقرار وترخيص استعماله .

والجهاز جهاز قياس يعمل بواسطة الأشعة تحت الحمرا .. ويحدد بالأرقام الفارق بين درجة حرارة النبات ودرجة حرارة الجو المحيط بذلك النبات ، بحيث لو زادت الأولى على الثانية لاستنتج المزارع أن زرعه عطشان وبحاجة الى رى فالعطش دليل على قلة ما في النبات من ماء ... وقلة الماء في النبات معناها قلة التبخر منه .. ولما كان التبخر هو وسيلة النبات للتخلص من فائض حرارته ادت قلة ذلك التبخر الى ارتفاع درجة حرارة النبات .. وقام ذلك دليلا على عطش النبات .

والجهود منصبة على تطوير هذا الجهاز بحيث تكون المعلومات التى يعطيها عن النبات جازمة ودقيقة .. كأن يحدد كمية الماء اللازمة لارواء النبات ووضع حد لعطشه .



.. ملاك الأمر كله في الامن والعدل

خير الدين باشا مصلح ومفكر من تونس

بقلم الدكتور : احمد عبد الرحيم مصطفى

واجه العالم العربي الاسلامي منذ القرن التاسع عشر تفوق اوروبا الفكري والمادي والسياسي في الوقت الذي واجه في نزعاتها العدوانية الاستعمارية . ونتج عن كل ذلك ان اقترنت اوروبا في فكر بعض المفكرين العرب والمسلمين بنقائض اجهدتهم وبلبلت افكارهم في البداية ، قبل ان تتضح الخطوط الفاصلة بين المعجبين بالغرب والرافضين له .

فقد كانت مشكلة الحضارة الغربية وما صحبها من غزو من اعقد المشكلات التي واجهها اكثر المفكرين : فمنهم من اتجه الى اطراح الفكر الموروث على اعتبار انه مصدر النكوص فالجمود والضعف ، وابدى حماسة للاقتباس عن الحضارة الغربية ونشر علوم الغرب ونظم حكمه واساليبه التعليمية وبثها في الشعب حتى في الشعب حتى يستيقظ ويواجه التحدي الاوروبي . ومنهم من رفض الغرب واي مسالكه ودافع عن تراثه على اعتبار انه بؤرة الكيان الذاتي ومنبع المقومات الاصلية .

واخيرا وجد من حاولوا التوفيق بين الميراث الحضاري العربي الاسلامي وبين منجزات الحضارة الغربية المتفوقة . وقد واجهت هذه الفئة الاخيرة - وما زالت تواجه - عملية اختيار وتوفيق مستمرة : اين ينتهي الاقتباس وتبدأ المواءمة ؟ كيف يمكن الحفاظ على قيم التراث العربي - الاسلامي ازاء القيم الجديدة الوافدة من الغرب ؟ كيف يمكن اختيار ما يريده العرب والمسلمون والمزاوجة بينه وبين تراثهم ؟ الحق ان كل هذه المشكلات من الصعوبة بمكان ، بحيث اختلط الامر على الفريق الذي شاء ان يمسك العصا من الوسط . واهم من هذا ان قيادات هذا الاتجاه كانت - ولا تزال - قليلة العدد لا تكفي للقيام بهذه المهمة ، كما افتقدت وحدة النظرة والهدف - وحتى الآن لا يزال هذا الاتجاه يقوم على المحاكاة والتعديل اكثر مما يقوم على الخلق والابداع . وعلى اي حال فقد اطلق على هذه الفئة اسم المجددين العصريين الذين اعتبرهم بعض المستشرقين نتاجا لليبرالية الاوروبية ، ومن ثم تفسيرهم الاسلام على ضوء الافكار والقيم الليبرالية الانسانية . . .

رحلة حياة

وخير الدين التونسي احد رواد حركة التجديد العصري في العالم العربي التي ضم سجلها اسماء رفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبده في مصر وبطرس البستاني وفارس الشدياق في الشام ومحمد كرد علي وشكيب ارسلان وغيرهم .

ولد خير الدين في عام ١٨١٠ (١) في القوقاز في عائلة شركسية ، ثم ما لبث ان نقل الى عاصمة الدولة العثمانية ـ باعتباره مملوكا ، ثم انتقل الى تونس في عام ١٨٤٠ حيث دخل في خدمة احمد باي ، وتلقى تربية دينية وعسكرية معا وتعلم اللغتين العربية والفرنسية . وكان احمد باي (١٨٣٧ ـ ١٨٥٥) حاكم تونس التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط التبعية الشكلية ـ متيقظا للخطر الأوروبي بعد احتلال فرنسا الجزائر في عام ١٨٣٠ . ومن ثم سعيه الى الاصلاح ـ وخاصة وانه كان معجبا بتجربة محمد علي في مصر . وهكذا نجده يسعى الى اصلاح الجيش وبنائه على النمط الحديث : فأسس كلية الهندسة التي كان القصد منها تدريب ضباطه تدريبا حديثا واستعان في ذلك ببعض المدربين الفرنسيين ، كما حاول تصنيع البلاد لامداد الجيش بالأسلحة والمعدات .

الا ان هذه الاصلاحات ورطت البلاد بديون كبيرة وفوائد فاحشة استنزفت اقتصاد البلاد ومهدت للتدخل الاجنبي في شئونها (وهو التدخل الذي افضى الى الاحتلال الفرنسي في عام ١٨٨١) . وعلى اي حال فبعد ان انهى خير الدين دروسه دخل الجيش ثم عهد اليه الباي بادارة المدرسة العسكرية ـ وفي عام ١٨٥٢ ارسله في مهمة الى باريس حيث أقام أربع سنوات ثم عين وزيرا للبحرية وقضى ست سنوات في صميم حركة الاصلاح الدستوري ، فكان عضوا في اللجنة التي وضعت نص الدستور ١٨٦٠ ورئيسا لمجلس الشورى مع احتفاظه بمنصب الوزارة .

وبعد ان اخفقت التجربة الدستورية في تونس فقد خير الدين ثقة الباي فاستقال من الوزارة في عام ١٨٦٢ وانسحب مؤقتا من الحياة السياسية . وفي عام ١٨٦٩ عين رئيسا للفرع التنفيذي للجنة الدولية لادارة الواردات . ووفي عام ١٨٧٣ عين رئيسا للوزراء وشغل هذا المنصب لمدة اربع سنوات شهدت عديدا من الاصلاحات : تحسين الاساليب الاجرائية في الادارة ، واعادة تنظيم الاوقاف ، والقواعد الاجرائية في المحاكم الشرعية ، وتحسين المدن واصلاح التعليم في جامع الزيتونة وتعزيز مطبعة الحكومة وتوسيعها وانشاء مكتبة وطنية ، وتأسيس مدرسة الصادقية (نسبة الى الصادق باي) التي كانت تعلم اللغات التركية والفرنسية والايطالية والعلوم الحديثة الى جانب اللغة العربية والعلوم الاسلامية . وفي عام ١٨٧٧ نقم عليه الباي لسعيه الى تحديد سلطته ـ وحينئذ انتهت حياته السياسية في تونس ، قبل ان يستدعيه السلطان عبد الحميد الى استانبول ويعينه صدرا أعظم . وفي الدولة العثمانية واجه خير الدين نفس المشاكل التي واجهها في تونس : الفوضى المالية والصراع على النفوذ بين الدول الكبرى واتجاهات السلطان الاستبدادية التي ادت الى تنحية خير الدين الذي ظل في شبه عزلة حتى وفاته في عام ١٨٩٩ .

المسلمون وتجربة الآخرين

والى جانب كون خير الدين مصلحا عظيما بحيث اطلق عليه في تونس اسم « ابو النهضة » ، فانه ترك لنا كتابا نشر في تونس اولا في عام ١٨٦٧ ، ثم اعيد طبعه في استنبول فيما بعد وعنوانه « اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك » . وقد اثارت مقدمة الكتاب المترجمة ـ تحت اشرافه الى اللغة الفرنسية والمنشورة بباريس بعنوان « الاصلاحات الضرورية للدول الاسلامية » اهتماما كبيرا في ذلك الوقت . وقد قدم خير الدين لكتابه بمقدمة حاول فيها الدفاع عن برنامجه السياسي وجعل منها مزيجا من الخبرة والتأمل والالتزام . فالكتاب اشبه ما يكون بمحاولة رجل السياسة ايجاد المبررات العقلية والنقلية لبرنامجه السياسي وجعل هذا البرنامج الذي يقتبس عن التجربة الاوروبية مقبولا لدى المسلمين ، والمقدمة اهم ما في الكتاب . وهي تشكل محاولة لاقناع معاصريه من المثقفين المسلمين بضرورة الاصلاح والتغيير والاقتباس عن اوروبا مع تقديم افكاره في نطاق اطر الثقافة العربية الاسلامية وقد كان لهذه المقدمة صدى كبير عند مثقفي القرن التاسع عشر . فقد امتدحها رفاعة الطهطاوي واشار اليها في كتابيه « المرشد الامين » و « مناهج الالباب » ، كما اثنى عليها عبد الرحمن الكواكبي واعتبر صاحبها من العرب القلائل الذين كتبوا في السياسة في القرن التاسع عشر ما يستحق الذكر .

فالمقدمة تلخص تجربة خير الدين الاصلاحية القائمة على التصدي لاوروبا عن طريق اقتباس حضارتها مع التمسك في نفس الوقت بالجامعة الاسلامية ومحاولة اصلاح شتى الاقطار الاسلامية . ولقد كان من تأثير افكار خير الدين في المقدمة على معاصريه وتلاميذه ان عزيت

الحركة الوطنية التونسية الى البذور التي بذرتها هذه المقدمة في عقولهم .

ويبدو ان خير الدين كان يضع نصب عينيه تاريخ ابن خلدون الذي عالج في مقدمته مشكلة نشوء الدول وسقوطها . وقد قسم كل منهما كتابه الى مقدمة تتناول المباديء العامة ثم الى التاريخ الصرف . وعلى حين ان تاريخ ابن خلدون يهتم بالدول الاسلامية فان تاريخ خير الدين يهتم بتاريخ الدول الاوروبية واوضاعها السياسية وقوتها العسكرية . وقد بين في المقدمة ان الباعث الاصلي لوضع كتابه امران آيلان الى مقصد واحد :

« احدهما اغراء ذوي الغيرة والحزم ، من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الامة الاسلامية وتنمية اسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة ، وترويج سائر الصناعات ونفي اسباب البطالة . واساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الامن ، المتولد منه الأمل المتولد منه اتقان العمل المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان ، وليس بعده بيان .

« ثانيهما : تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير ، الموافقة لشرعنا ، بمجرد ما انتقش في عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي ان يهجر ، وتآليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر ، حتى انهم يشددون الانكار على من يستحسن شيئا منها ، وهذا على اطلاقه خطأ محض .

« فان الامر اذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للادلة ، لا سيما اذا كنا عليه وأخذ من ايدينا ، فلا وجه لانكاره واهماله ، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله . وكل متمسك بديانة وان كان يرى غيره ضالا في ديانته ، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من اعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية ، كما تفعله الامة الافرنجية . فانهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنا من اعماله . حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم الى ما هو مشاهد . وشأن الناقد البصير تمييز الحق بسبار النظر في الشيء المعروض عليه ، قولا كان او فعلا ، فان وجده صوابا قبله واتبعه ، سواء أكان صاحبه من اهل الحق أم من غيرهم ، فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها » .

بالعدل السياسى وحده

ومعنى ذلك أن خير الدين كان يسعى الى استكناه أسباب قوة المجتمعات وتمدنها ، ويهتم بدور الدولة فى المجتمع وذلك بتحليل أسباب قوة المجتمعات المتقدمة ، واثبات ضرورة اقتباس المسلمين لأفكار أوروبا ومؤسساتها واقناع المسلمين بأن ذلك لا يتنافى مع أحكام الشريعة . وهو ينعى على بعض علماء الاسلام (الموكول لأماناتهم مراعاة أحوال الوقت فى تنزيل الأحكام ، معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية ، وأذهانهم عن معرفة الأحوال الخارجية خلية ، ولا يخفى أن ذلك من أعظم العوائق) وهو ينكر على هؤلاء أن يدعوا أنهم قادة الرأى وهم جاهلون بأحوال الأمة لا يدرون كيف يعالجون عللها وأمراضها ، ويتساءل قائلا : « افيحسن من أساة الأمة الجهل بأمراضها ؟ » . كما تجده يهاجم جهل بعض رجال السياسة بالأمور العامة التى ترتبط بها مصائر الأمم ، وتجاهل بعضهم رغبة فى مصالح خاصة وسعيا وراء الانفراد بالحكم والاستبداد بأمور الرعية . وهو يعجب ممن ينكرون عليه موقفه من استعارة « ما يستحسن من أعمال الافرنج » وكيف أنهم لا ينكرون على أنفسهم مجاراة الأوروبيين فى الملابس والأثاث والمساكن ، فى حين « يمتنعون فى مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها » .

وهو يؤكد امكانية نهوض المجتمعات الشرقية ـ فالمجتمعات الأوربية كانت متخلفة ومتأخرة ومستعبدة لملوكها ـ ويجب أن ـ « لا يتوهم أن أهلها وصلوا الى ما وصلوا اليه بمزيد خصب أو اعتدال فى أقاليمهم اذ قد يوجد فى أقسام الكرة ما هو مثلها أو أحسن » . كما يجب ألا يعتقد أن ذلك من آثار دياناتهم ـ اذ الديانات النصـ ـية ولو كانت تحث على أجراء العدل والمساواة لدى المحاكم ، لكنها لا تتداخل فى التصرفات السياسية ، فالمجتمعات الأوربية لم تصل الى ما وصلت اليه الا « بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة وملاك ذلك كله الأمن والعدل » وكل ما يحتاجه الأمر بالنسبة الى نهوض الشعوب الاسلامية هو « اغراء ذوى الغيرة والحزم ومن رجال السياسة والعلم وتحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين » .

أما فيما يتعلق بمفهوم الأمة فان خير الدين كان يعنى بها الأمة الاسلامية لا الأمة القومية ـ التى تتمركز الخلافة فيها فى السلطنة العثمانية التى كانت تتجه اليها الأنظار كلما تغلغل العدوان الأوربى فى دارا لاسلام ، الأمر الذى مهد لحركة الجامعة الاسلامية التي قيض لها ان تتحول الى حركة

سياسية على يد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) الذي استغلها في الترويج لخلافته وتخويف الدول الاوروبية الطامعة في املاكه .

على ان خير الدين اعتبر العدل والحرية الاساس السليم الوحيد للدولة فـ«الظلم ، مؤذن بخراب العمران» . وهو يستشهد على ذلك بما ورد في الفصل الثالث من الكتاب الاول من مقدمة ابن خلدون «من ادلة ، ناهضة على أن الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان وبما جبلت عليه النفوس البشرية كان اطلاق ايدي الملوك مجلبة للظلم على اختلاف انواعه ،، كما هو واقع اليوم في بعض ممالك الاسلام ، ووقع بممالك اوروبا في تلك القرون عند استبداد ملوكها بالتصرف المطلق في عبيد الله من غير تقيد بقانون عقلي . . . ولا شرعي . . . وما اشرف بعض ممالكهم على الاضمحلال وسلب الاستقلال الا بسوء تصرفهم الناشيء عن اطلاق «ايديهم» . لهذا يعتبر خير الدين العدل الاساس السليم الوحيد للدولة بمعنى تقييد سلطة الحاكم : اولا بالشريعة وثانيا بالمشورة ، يجريها مع اهل الحل والعقد الذين ليسوا منتخبين كما هو الحال في الغرب «وذلك ان تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية ـ وفرض الكفاية اذا قام به البعض سقط الطلب به من الباقين واذا تعينت به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص» .

نظرة الى المستقبل

واهم من هذا ان الامة الاسلامية لايمكنها ان تنهض الا اذا ادركت اسباب تفوق اوروبا وسعت الى الاقتباس عنها وبخاصة في المجالات العسكرية والاقتصادية ، فخير الدين لا يجاري السلفيين الذين يؤكدون على الذات باسترجاع الماضي ، بل يمثل النظرة المستقبلية التي تدعو الى الاقتباس الاختياري عن التمدن الاوروبي باعتبار ذلك اجدى وسيلة لمواجهة خطر الغزو الاوروبي . لهذا نجده يهتم بالتربية التي لاتزدهر الا بقيام المؤسسات السياسية القائمة على الحرية والعدل اي البرلمانات المسئولة ـ فالاتجاه الحديث الخاص بمسئولية الوزير لايتناقض مع الفكرة الاسلامية الخاصة بالوزير الصالح الذي يسدي النصح دون خوف او ملق ـ ومن هنا ما يذهب اليه من ان البرلمانات والصحافة الحرة تتمشى مع مبدأ الشورة في الاسلام ـ بمعنى ان اعضاء البرلمان المعاصرين ليسوا سوى العلماء والاعيان في الدولة الاسلامية اي «اهل الحل والعقد» .

وبالضرب على هذا الوتر لا يعتبر خير الدين الشريعة قانونا محددا ومفصلا يتضمن واجبات الفرد والحكومة بصورة جامعة مانعة ، وذلك بحكم ان الظروف تتغير وبالتالي تتغير الشرائع والسياسات ، بحيث لا يقتضي تطبيق الشريعة معرفة النصوص فحسب ، بل معرفة الظروف التي على ضوئها يجب تطبيق النصوص طبقا لمبدأ المصلحة ـ ومن هنا يكون اول شروط الاصلاح السليم اتفاق العلماء ورجال الدولة بحيث يكون العلماء على اتصال بروح العصر لكي يكون لمشورتهم وزن .

ولان خير الدين قد تناول القضية التي شغلت بعض التابعين من معاصريه المسلمين من امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورفاعه الطهطاوي ورشيد رضا والكواكبي وشكيب ارسلان ، وان عبر عنها كل منهم بشكل مختلف ، وهي قضية كيفية امكان المسلمين ان يصبحوا جزءا من العالم الحديث دون ان يتخلوا عن دينهم ، مما يجعله من رواد التحديث في العالم الاسلامي . وهو يشبه الطهطاوي بوجه خاص في انهما قد نشئا على التربية التقليدية قبل احتكاكهما الفعلي بالحضارة الاوروبية ، ثم كتبا تجربتيهما وقدماها لمعاصريهم من المسلمين ودافعا فيها عن الحضارة الحديثة بمفاهيم اسلامية تقليدية . كما نلمس في خير الدين محاولة واعية لمحاكاة نظيره التونسي ابن خلدون الذي عالج في مقدمة تاريخه الشهيرة اسباب الانحطاط والتخلف التي يعتبرها البعض الاساس الذي قام عليه علم الاجتماع الحديث . وكلا المفكرين الاسلاميين كانا على يقين من اهمية الاطار التاريخي في تحليل اسباب ازدهار الامم وانحطاطها ـ وليس ثم شك في ان المنهج الذي اتبعه خير الدين اكثر ملاءمة للفكر العصري لانه يدخل في نطاق الاطار التاريخي فيصبح ذا معنى . ويبدو لنا ان التأثير الكبير لابن خلدون على خير الدين قد نشأ من اشتراكهما في مواجهة صعوبة التوفيق بين المتناقضات والتباينات في التاريخ والفكر الاسلاميين ، واهتمامها بايضاح ما اعتبر تأخرا في وضع المسلمين . ولا تتمثل عصرية خير الدين في تقبله للاطار التاريخي ، كما انها لا تدخل في نطاق المحتوى الاسلامي بحكم انه تقبل المناهج الغربي في التحليل . ولكنها تتمثل في الفكرة السائدة لدى كثير من المسلمين عن التاريخ الذي يمثل الحق والصدق من الناحية الدينية ويبدو من ثقته الشديدة بفعالية العقل انه اعتنق مبادىء حركة الاستنارة الاوروبية ، ومن ثم اهتمامه باهمية التربية والتعليم وتأكيده على حرية الانسان في الاختيار والطبيعة الاجتماعية النفعية للاخلاق وتحكيم العقل في شئون الحياة . ■■

د . احمد عبد الرحيم مصطفى

هل تعلم ؟

■ ان الشعر ينمو بمقدار ـ ١٢ ـ مليمترا تقريبا فى الشهر وتتوقف سرعة نموه على درجة حرارة الجو ، فهو فى الصيف اسرع نموا منه فى الشتاء .

■ ان عدد شعرات الرأس يقدر بنحو ـ ١٣٠ ـ الف شعرة ، ولكن الانسان الموفور الشعر الأحمر فيقدر بتسعين الف شعرة ، بينما يصل عدد شعرات الرأس الى ـ ١٤٠ ـ الفا .

■ انه فى اليوم الواحد يتساقط من ٢ الى ١٠٠ شعرة ، ولكن الانسان الموفور الصحة يستعيدها فى اليوم نفسه ، كما أن مدة حياة الشعرة لا تزيد عن سنتين ثم تسقط .

■ ان الذباب الذى هو عدو الانسان الأكبر قد وجد له عدو لدود يفترسه قبل أن ينمو وهو النمل الصغير الذى يكثر حول الأقذار حيث يضع الذباب بيضه فيلتهم البيض قبل أن يتحول الى ذباب .

■ وان الطيور هى أكثر الحيوانات شرها فى الأكل بالنسبة الى أجسامها .

■ وانه يوجد فى افريقيا الجنوبية ضفدعة يبلغ طولها ٦٢ سنتيمترا .

■ وان شرايين الجسم البشرى يبلغ طولها ستمائة الف كيلومتر .

■ وان الفلاحين فى أوروبا الى أوائل القرن التاسع عشر ، كانوا ينامون وأقدامهم لا رءوسهم على الوسائد ، اعتقادا منهم أن الاقدام أكثر من الرءوس معاناة فى النهار ، ولذلك فهى أجدر منها بالراحة .

■ وانه اذا وقفت على قمة جبل يرازو فى كوستاريكا تستطيع أن ترى المحيطين الهادى والأطلسى فى وقت واحد .

■ وان تحت المحيط الباسفيكي ٢٥ جبلا ناريا ..

■ انه يوجد فى الأقطار التى تعنى بزراعة النخيل ما يزيد عن ٥٠٠ نوع تعرف بأسماء مختلفة ؟

زرع الكلى

أحدث إنجاز طبّي في الكويت

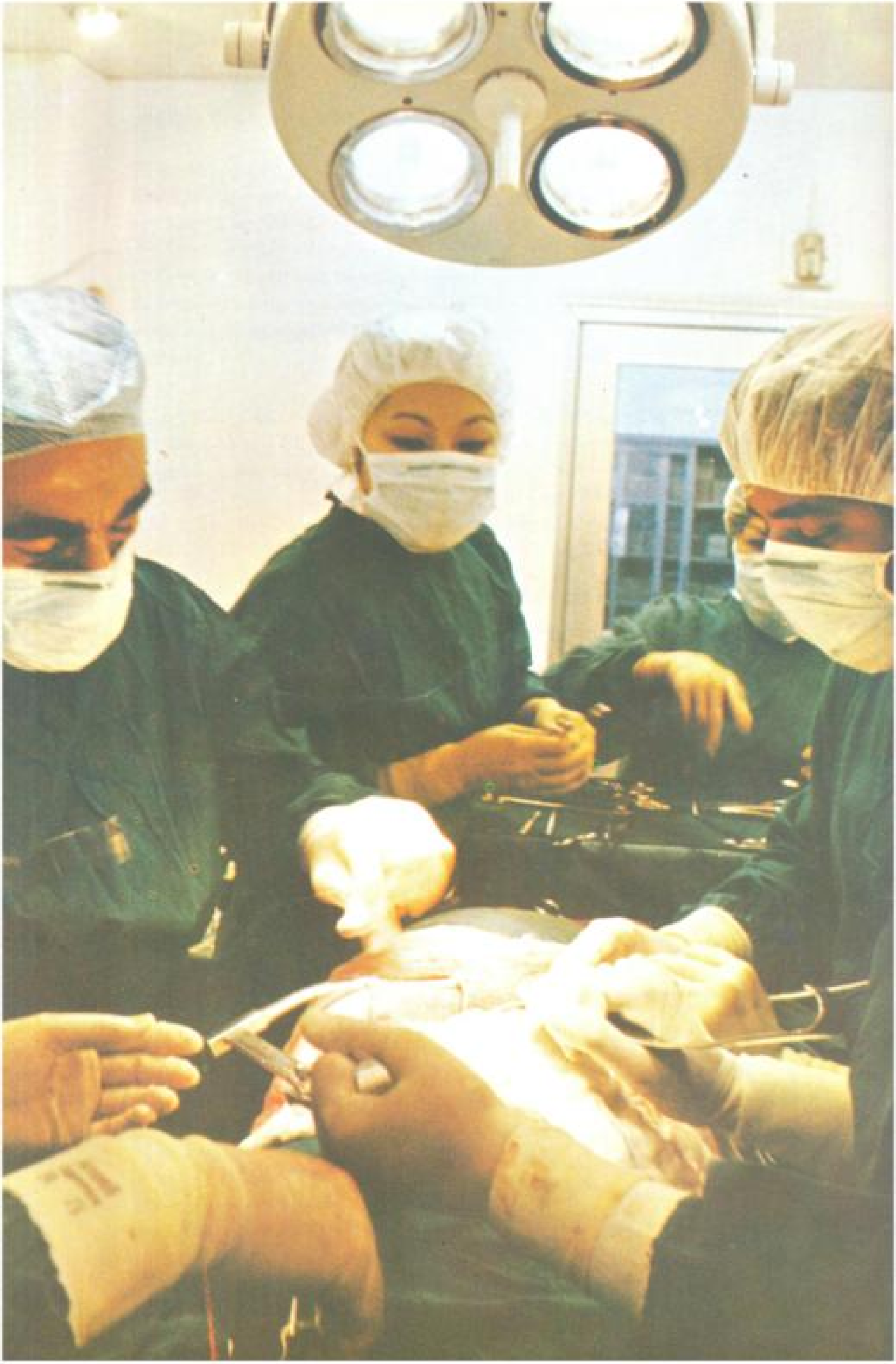
استطلاع : منير نصيف

تصوير صلاح آدم



ثلاث صور في غرفة العمليات . الاولى « تحت » الى اليمين اثناء عملية تخدير المريض . والثانية الى اليسار اثناء استئصال كلية المتبرع . والثالثة فوق الى اليمين اثناء تجهيز الكلية تمهيدا لزرعها .





وقامت في الكويت وحدة زرع الكلى ..

كان المشروع في رؤوسنا كما يقول الدكتور نائل النقيب وكيل وزارة الصحة وهو يحدثنا عن الانجازات التي حققتها الكويت في علاج العديد من الحالات المرضية التي كان « السفر للخارج » هو سبيلنا الوحيد لعلاجها حتى بضع سنوات قريبة مضت ، وفي لندن بصفة خاصة !

ثم يقول : « وكنا ننتظر عودتهم ـ اذا عادوا ـ ونستمع اليهم وهم يحدثوننا عن الذي رأوه في العيادات الخاصة التي دخلوها وعولجوا بها وانفقوا فيها عشرات الألوف من الدنانير : « لاشيء جديد ، كل الذي صنعوه لنا هناك ، سبق ان قدمتموه لنا هنا في بلدنا وفي مستشفياتنا وبسخاء وبلا مقابل ! » .

ويقول الدكتور النقيب : « ونعود الى موضوعنا .. فكرة اقامة وحدة زرع الكلى كانت موجودة منذ اوائل السبعينات ، ثم تحقق تنفيذها اخيرا منذ عامين ، او في شهر فبراير عام ١٩٧٩ على وجه التحديد ، وقد كان من الممكن ان يتأخر افتتاح الوحدة لولا وجود الرجل الذي اضطلع بمسؤولية اخراج هذا المشروع الانساني الى حيز التنفيذ ... انه الدكتور جورج منصور ابونا استاذ الجراحة بكلية الطب بجامعة الكويت .. لقد زرتم الوحدة ورأيتم حجم العمل الذي يجري فيها ، ومدى النجاح الذي حققته ، ولكننا لم نبلغ بعد الهدف الذي نسعى اليه .. فلن تظل هذه الوحدة قاصرة على زرع الكلى وحدها ... سوف يصدر قرار خلال الشهور القليلة المقبلة بانشاء قسم جراحة زرع الاعضاء لا الكلى وحدها .. اي زرع القلب والكبد والبنكرياس والكلية وسوف يبدأ العمل قريبا في بناء هذا القسم الجديد بجوار مستشفى ابن سينا في الصباح ... وتبرعت بتكاليف البناء عائلة المرحوم حامد اليوسف الذي توفاه الله منذ عامين اثر عملية زرع كلية في احد مستشفيات المانيا وقبل ان تبدأ وحدة زرع الكلى في الكويت عملها باشهر قليلة !

ويقول وكيل وزارة الصحة : « وسوف نفتتح بمشيئة الله هذا القسم الجديد ، الذي سيكون الاول من نوعه في العالم العربي في اواخر عام ١٩٨٣ ، اي بعد عامين من اليوم ، وستبلغ تكاليف المباني وحدها حوالي مليون ونصف مليون دينار » .

في وحدة زرع الكلية

ونعود الى موضوعنا ... الى وحدة زرع الكلى التي انتقلت منذ شهور قليلة الى مقرها الجديد في مستشفى مبارك الكبير ، احد احدث مستشفيات الكويت ، وهو المستشفى الجامعي الذي يواجه المبنى الجديد لكلية الطب ، ويتلقى فيه طلبة الكلية دراساتهم العملية هناك ... وفي قسم خاص بالطابق الثاني ، منفصل تماما عن بقية اقسام المستشفى ، كان لقاؤنا بالاستاذ الدكتور جورج ابونا الذي اصطحبنا في جولة في اقسام الوحدة ... رجل هادىء يتكلم بصوت اكثر هدوءا ، وعندما يسترسل ، لا تملك الا ان تلمس معنى حديثه في نظرات عينيه اللتين تلمعان بذكاء لا يمكن ان تخطئه ، وفي حركات اصابع يديه ... تلك التي انقذت حياة الالوف من المرضى الذين جاءوا اليه يطلبون الشفاء على مدى عشرين عاما او يزيد .

وتقدمنا ، معه وهو ماض في شرح كل شيء عن اي شيء تقع عليه اعيننا ، وحتى قبل ان نسأل ... هنا معمل للكيمياء الحيوية Bio Chemistry وتجري فيه الفحوصات اللازمة للمرضى الذين يعدون لزرع الكلية .

وعلى مقربة من المعمل ، الكلية الاصطناعية في قسم آخر ، وهي التي تقوم بعملية غسيل دم المريض ، وتحضيره لعملية زرع الكلية اذا توفرت ! فاذا لم تتوفر ، لجأ المريض الى العودة للوحدة بمعدل ثلاث مرات اسبوعيا لغسيل دمه او تنقيته من السموم . وهي عملية لا تعدو ان تكون اكثر من محاولة لاطالة عمر المريض ، فربما عثروا له على كلية ، اعادته الى الحياة الطبيعية من جديد ، وانقذته من الموت

ثم مختبر وظائف الكلى وينقل اليه دم المريض والبول ، حيث يتم تحليلها بعد عملية زرع الكلية للتأكد من قيامها بتأدية وظيفتها . هذه التحاليل الأخيرة تجري مرة كل يوم على الاقل بعد اجراء الجراحة مباشرة لمراقبة التطورات التي تطرأ على المريض ..

ثم ماذا ؟

المرضى الذين زرعت لهم كلية جديدة وكتبت لهم معها



الدكتور نائل النقيب وكيل وزارة الصحة .. وحدة زرع الاعضاء (الكلية والقلب والبنكرياس والكبد) . هي مشروعنا المقبل وسوف يتم انجازه في نهاية عام ١٩٨٣ باذن الله .

حياة جديدة . . . حتى الان كان الاب والام والاخ والاخت هم الذين اسهموا في انقاذ حياة الخمسين مريضا الذين اجريت لهم جراحة زرع الكلية في هذه الوحدة منذ انشائها قبل ثلاثة اعوام تقريبا . فالعثور على الكلية السليمة التي يمكن زرعها للمريض ، كان ومازال المشكلة الاولى التي تواجه زرع الكلى منذ مولدها القريب في الكويت ، ولكن هذه قصة اخرى نرجيء الحديث عنها حتى نصل اليها ونحن ننقل قصص بعض المرضى الذين عاشوا ليرووها !

ونبدأ بالحديث عن قصة هذه الوحدة . . . في البداية كان مقرها مستشفى الامراض الصدرية وقد سبقتها دراسات وافية فلما اكتملت ، وانتهى المسؤولون من مهمة اعداد الكوادر الطبية والتمريضية اللازمة ، كان الافتتاح لاول واحدث وحدة من نوعها في الشرق الاوسط بشهادة الاساتذة الجراحين الذين زاروا الوحدة ، فقد كتب البروفسور مايكل وودراف من كبار اساتذة الجراحة بكلية الطب بادنبره في اسكتلندا ، يقول : « لقد حققت وحدة زرع الكلى لشعب الكويت الخدمات الطبية التي كان يحصل عليها في الدول الغربية المتقدمة ، بل وافضل منها » . وقال البروفسور فؤاد داغر ، استاذ الجراحة بجامعة ماريلاند ان وحدة زراعة الكلى انجاز يحق للكويت ان تفخر به ، فهو لا يقل عن اي مركز مماثل في الولايات المتحدة الامريكية ، كما ان النتائج التي حققتها الوحدة خلال تلك الفترة القصيرة من انشائها تعتبر شيئا خارقا للعادة » .

وفي مستشفى الامراض الصدرية بقيت الوحدة من شهر فبراير عام ١٩٧٩ في ذكرى الاحتفال بالعيد الوطني

● زرع الكلى

لدولة الكويت ، حتى اول يوليو عام ١٩٨١ عندما انتقلت الى مقرها الحالي في احد احدث مستشفيات الكويت وأكبرها . . . مستشفى مبارك الكبير ، واصبحت تضم الان خمسة اطباء يعاونون رئيس الوحدة في مهمته الانسانية وهم الدكتور حسين عبد الفتاح يوسف استاذ طب التخدير ، والدكتور صلاح خليل والدكتور محمود سمحان عارف ، والدكتور اوتيل كومار والدكتور جون .

قصة مجيئه الى الكويت

قلنا للدكتور ابونا : « كيف جئت الى الكويت ؟» .

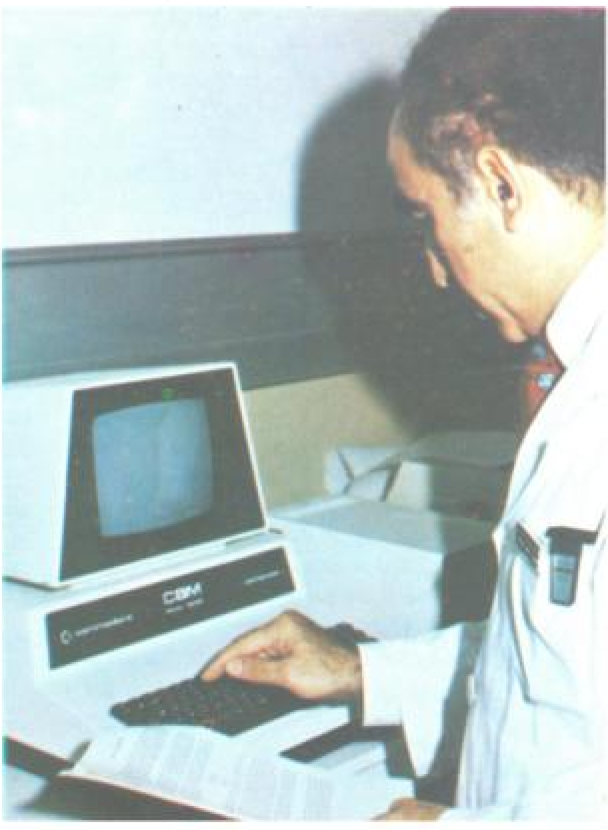
« لم أنس يوما انتمائي للارض التي نبت فيها . . . لقد ابتعدت عن بلدي العراق فترة تزيد على الثلاثين عاما ، ولكن هذه الغيبة الطويلة لم تستطع ان تنسيني وطني الاصلي . . . انا عربي ، ولم تغير الجنسية الكندية التي احملها الدم العربي الذي يجري في عروقي . كنت كلما حققت نجاحا في عملي بعد ان انهيت دراساتي الجامعية العليا تذكرت بلدي واهلي ، وقلت لنفسي : « هم ايضا في حاجة الى علمي وعملي ، فلما عرضت عليّ وزارة الصحة الكويتية المجيء لتولي هذا المنصب كأستاذ للجراحة في جامعة الكويت ، قبلت العرض . . وجئت ، لانني وجدت في المشروع الانساني الكبير الذي يعدون له تحديا لي . . وبدأنا في انشاء وحدة زرع الكلى . . بدأنا من لاشيء ، ووصلنا بحمد الله الى كل شيء . . . اذا استطعنا ان نحل المشكلة الرئيسية التي تواجهنا ، وهي توفير الاعداد الكافية من الكلى لانقاذ حياة الاعداد المتزايدة من المرضى الذين يحتاجون الى زرع كلية جديدة ، نكون قد ازلنا اكبر العقبات التي تقف في طريق انطلاقنا بغير حدود ، فالعملية كلها تتوقف على توفر هذا العضو الصغير « الكلية » ، الذي لا يزيد وزنه على مائتين وخمسين جراما في المتوسط ، اي ربع كيلوجرام . . . وكل الكلى التي حصلنا عليها حتى الان من الاقارب الذين تبرعوا بها لانقاذ حياة ابنائهم وآبائهم . . . ولكن هؤلاء وحدهم لا يكفون . . . ماذا يصنع المريض المحتاج الى كلية وليس له اقرباء ؟ ان الاحصائيات تقول ان بين كل مليون نسمة نجد ان هناك ستين مريضا بالكلى في حاجة الى زرع كلية سنويا . . . والحل في رأيي يكمن في توعية الاخوة المواطنين بالتبرع بالاعضاء التي حقق الطب نجاحا في نقلها من شخص الى آخر ، بعد الوفاة . . . ان ثواب هؤلاء عند الله كبير .

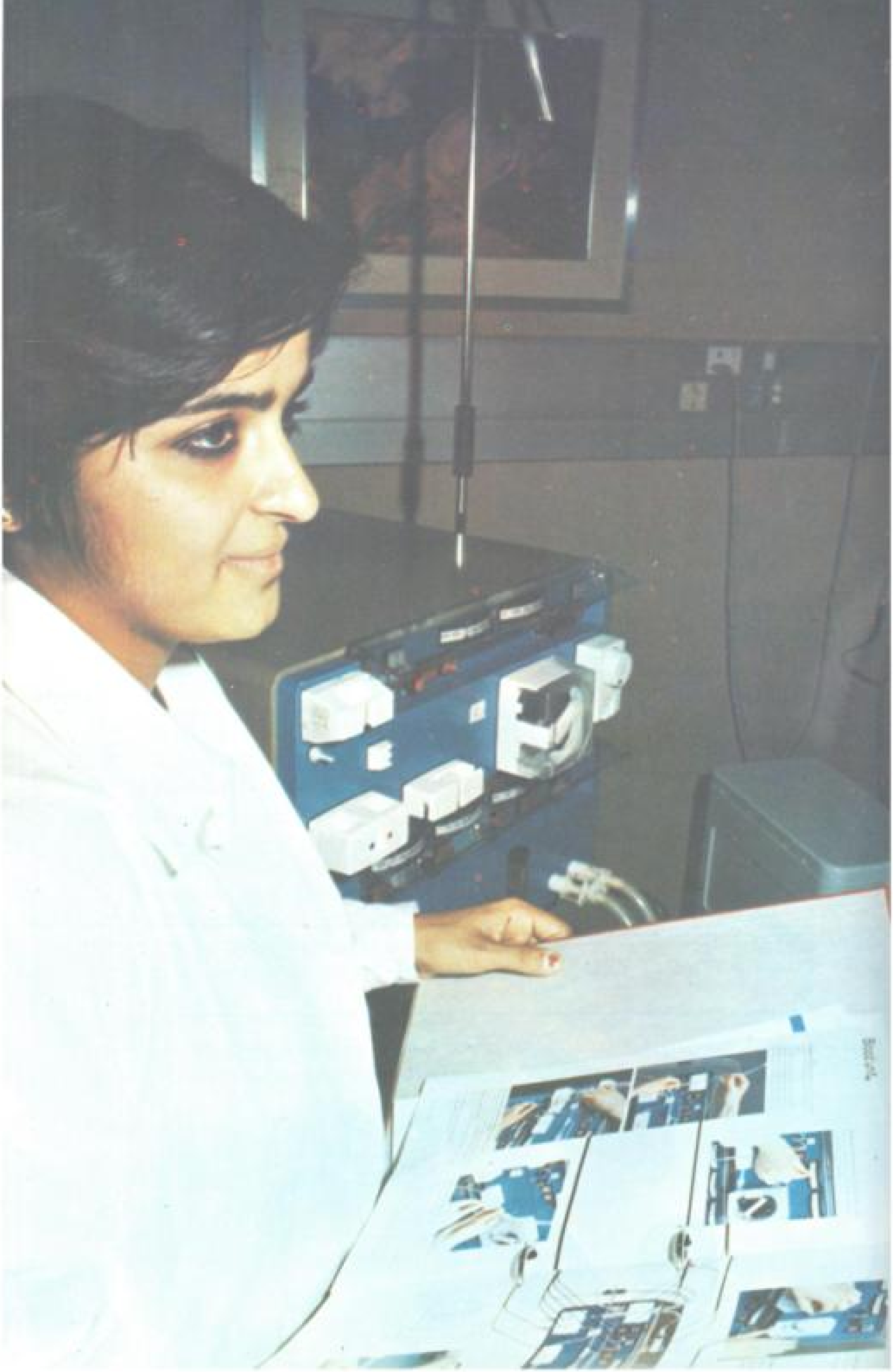


جهاز حديث للعناية المركزة بوحدة زرع الكلى في مستشفى مبارك الكبير .

ماجده محمد صادق ، طالبة كويتية بالسنة الخامسة بكلية الطب بجامعة الكويت اثناء تدريبها على جهاز تنقية الدم بوحدة زرع الكلى .
(الى اليسار)

الاستاذ الدكتور جورج ابونا يراجع تسجيل المعلومات الخاصة بأحد المرضى على جهاز الكومبيوتر .





ثم يقول : « في كندا وفي امريكا يوقع المواطنون المتبرعون باعضائهم على اقرار ، وتنقل اسماء هذه الاعضاء « الكليتين مثلا او القلب او الكبد والبنكرياس او كلها » في مكان مخصص لها في رخصة قيادة السيارة ، فاذا تعرض السائق لمكروه ، نقل الى المستشفى على الفور واجريت له جراحة نظيفة لنزع الاعضاء المتبرع بها . . . كل ما تحتاج اليه هنا هو شيء من التوعية . ان الاحصائيات المزعجة تقول ان اكثر من اربعمائة شخص يلقون حتفهم في حوادث السيارات سنويا في الكويت وحدها .

سألنا الاستاذ الدكتور حسان حتحوت رئيس قسم الولادة وامراض النساء بجامعة الكويت عن وجهة نظر الشرع في هذا التبرع ، باعتباره من ابرز الدارسين لهذا الموضوع :

قال : « زراعة الكلى وغيرها من الاعضاء اللازمة للحياة فرض كفاية على المجتمع ، يغني فيه البعض عن الكل ولكنه فرض واجب الاداء . وقد شرع عمر انه ان هلك رجل بقرية من الجوع لزمت اهلها ديته كانهم قتلوه ، والقياس قريب بالنسبة لمن تتوقف حياته على الكلية المطلوبة . ونعتقد ان القيام بهذا الواجب من اعظم القربات الى الله ، وكأن فيها تطبيقا مباشرا للآية الكريمة « من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا » . ومن يتبرع باحدى كليتيه فكأنه ساهم في احياء نفس ، على شرط الا يكون تبرعه نتيجة احراج ولا ضغط ، والا يكون التبرع مضرا بصحته هو ، والطبيب دائما يتأكد مسبقا من هذين الشرطين على الدوام . واذا كان الحي يقدر ان يستغني عن كلية فالميت اقدر ، ولاشك ان في الوصية بالكلية بعد الوفاة - او من متوفى الحوادث - تحقيقا لمصلحة تجب ما سواها من الاعتبارات وقد استقر في ديننا انه « حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله » هذا والمؤمنون فيما بينهم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وكالجسد ان اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء » .

وعند وكيل وزارة الصحة وجدنا حلا آخر لتوفير الكلى لمن هم في حاجة اليها . قال الدكتور نائل النقيب ان الوزارة في سبيل انشاء صندوق لجمع التبرعات من المواطنين الكويتيين لشراء الكلى !

أعضاء للبيع !

ولكن هل هي للبيع ؟ المفروض الا تكون كذلك ، فهناك اتصال مستمر بواسطة اجهزة « التلكس » بين مراكز زراعة الكلى في جميع انحاء العالم ، لنقل الكلية من المركز الذي يتوفر لديه فائض الى المركز الذي يحتاج اليها . وهناك ما يقرب من ثلاثمائة مركز لزرع الكلى في جميع انحاء العالم . وقد قامت كلها خلال العشرين سنة الاخيرة . . . وهي الفترة التي شهدت تقدما ملموسا في زرع الكلية ، فمع هذا التقدم قامت مشاركة فعالة بين مراكز زرع الكلى في كل بلد من بلدان العالم ، ونقصد بذلك بين المدن الكبرى في البلد الواحد وجاءت هذه المشاركة ايضا كنتيجة حتمية للوعي الصحي والثقافة الاجتماعية وادراك الافراد لاهمية عمليات زرع الكية وما تتطلبه من تعاون بين افراد المجتمع الواحد . ثم تطور هذا التعاون ليصبح تعاونا دوليا بفضل الاتصالات الشخصية بين القائمين على هذه المراكز او الوحدات من الجراحين والاطباء المعالجين .

ولكن الانباء التي تناقلتها الصحف روت لنا قصصا جديدة في الاونة الاخيرة . . . لقد بدأ الناس يعرضون احدى كليتيهم للبيع . فالانسان يستطيع ان يعيش حياة عادية بكلية واحدة ، فلماذا يحتفظ بالكليتين ؟ وفي معظم الاحيان طبعا ، تكون الحاجة المادية هي الدافع وراء اقدام شخص ما على بيع كليته . هي ايضا نتيجة للوعي

الفريق الطبي بوحدة زرع الكلى في احد اجتماعاتهم الدورية من اليسار الدكتور أنيل كومار والدكتور صلاح خليل والاستاذ الدكتور جورج ابونا والاستاذ الدكتور حسين عبد الفتاح والدكتور محمود سمحان والدكتور جون .



الصحي ، فلولا علمه بانه يستطيع ان يعيش بكلية واحدة ، لما اقدم على بيع الاخرى .

خمسون جراحة نجحت كلها

قلنا للدكتور ابونا : « هل نجحت كل عمليات زرع الكلى التي قمتم باجرائها في الوحدة منذ انشائها ؟ » .

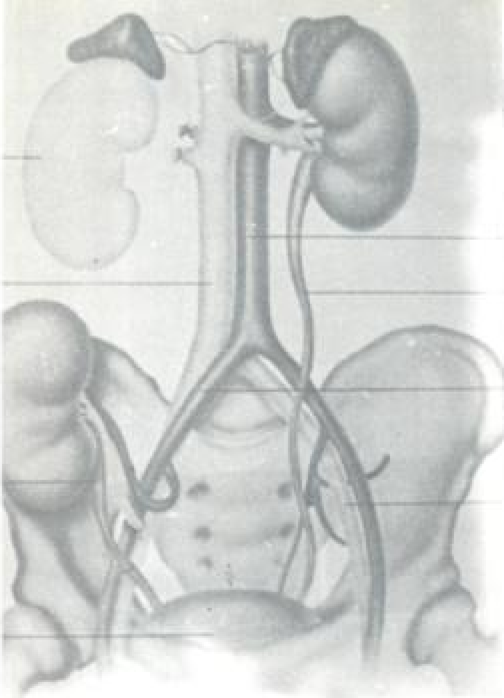
قال : « نعم . لقد اجريت عملية زرع الكلية خمسين مريضا حتى الان . وكل المرضى كانوا مصابين بهبوط تام مزمن بالكليتين . وقد كان من الممكن اجراء ضعف هذا العدد من العمليات لو توفرت لدينا الكلى ، ولكن للاسف كان هذا هو كل ما استطعنا الحصول عليه من الكلى التي قدمها الاقارب ، لاقاربهم المرضى ، وكانت الجراحة رقم ٥٠ للطفلة فاطمة التي قدمت لها امها احدى كليتيها . لقد تردد على الوحدة اكثر من مائة وخمسين شخصا منذ افتتاحها قبل ثلاثة اعوام تقريبا ، وسجلوا اسماءهم لدينا . لكن للاسف مات اكثرهم لانهم لم يجدوا من يتبرع لهم بكلية وبقي منهم ٧٨ شخصا مازالوا يعيشون على الامل ، وعلى تنقية دمهم بالكلية الاصطناعية .

« ومع هذه العمليات الجراحية التي تمت بنجاح ، ومازال اصحابها يعيشون بيننا ويحيون حياتهم العادية ، اجريت ايضا سبع عمليات زرع ذاتي او benhc surgery أي نزع الكلية واخراجها من الجسم ، ثم تبريدها وفتحها وتنظيفها من الحصيات التي تملأها وهي عادة تكون باعداد واحجام كبيرة ، واخيرا اعادة نفس هذه الكلية الى مكانها من جسم المريض . هذه الجراحة من احدث ما توصل اليه الطب ، وقد انقذت حياة الالوف من المرضى ، فقد كانت هذه الكلية في الماضي تستأصل ويلقى بها على اساس انها لم تعد صالحة للعمل بسبب استحالة ازالة الحصيات التي تحتويها وهي في مكانها داخل جسم المريض ! » .

أول محاولة لزرع الكلية

وما دمنا في مجال الحديث عن تطور جراحة الكلى وزرعها ، هل تستطيع ان تعرف على وجه التحديد متى كانت اول جراحة او محاولة لزرع الكلية ؟

ويقول الاستاذ الدكتور جورج ابونا : « في عام ١٩٥٠ ، وكانت كما تسميها « اجتهاد جراحي » ، عندما



صورة توضيحية للمكان الذي تزرع فيه الكلية الجديدة في شكلها النهائي .

قام الدكتور دافيد هيوم الاستاذ بكلية الطب بجامعة هارفارد ، باجراء اول عملية زرع كلية . ولكن الجراحة وان كانت في حد ذاتها ناجحة ، ما لبثت ان اودت بحياة المريض .

« ولم يكن امام الدكتور هيوم الا ان يستمر في محاولاته فالمرضى الذين كانوا يأتون اليه كان ميئوسا من شفائهم ، وكان الامل الوحيد يكمن في احتمال نجاح هذه الجراحة .. ومضى في محاولاته حتى بلغت عدد عمليات زرع الكلى التي اجراها تسعا ... وفي الحالات التسع توفي المرضى ، فلم يكن الطب قد توصل بعد الى انتاج الكلية الاصطناعية التي تقوم بتحضير المريض من ناحية ، كما لم نكن قد توصلنا بعد الى علاج لعملية رفض الجسم لاي عضو غريب عليه !

« وقبل ان استرسل ، اتوقف قليلا لاعطي هذا الجراح حقه ... لقد مات الدكتور هيوم في حادث سقوط طائرة كان يقودها بنفسه عام ١٩٧٣ .. ولكنه ذهب بعد ان كان قد شهد نجاح عمليات زرع الكلى التي كان رائدا لها ، واجرى بنفسه عدة جراحات ناجحة ، وكنت احد تلاميذه في جامعة رتشموند بولاية فيرجينيا عام ١٩٦٩ .





الدكتور خليل ادهم عباس مع امه .. جاءا خصيصا من لبنان .. وأعطت الأم كليتها لابنها ونجحت الجراحة وعاد الاثنان الى لبنان مرة اخرى .

الام زينب قرعلي اعطت ابنها احدى كليتيها لقد جاءت من لبنان خصيصا لتهب ابنها الحياة مرة اخرى . (الى اليمين)

الطفلة فاطمة . العملية رقم ٥٠ زرعوا لها الكلية التي اعطتها امها لها . وبدأت فاطمة تتماثل للشفاء . (الى اليسار)

باسل الابن . اعطى كليته لابيه محسن صدقي وانقذه من موت محقق بعد ان تعطلت الكليتين عنده عن العمل تماما . (الى اسفل)





الدكتور جورج منصور أبونا

× ولد في الموصل بالعراق لأبوين عراقيين .

× سافر الى انجلترا وهو صبي في السادسة عشرة من عمره للدراسة .

× اتم دراسته الثانوية والجامعية ، وتخرج في كلية الهندسة . وقد حصل على البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية ثم البكالوريوس في الهندسة الكهربائية ، فقد كان يعشق الرياضيات ، ولكنه مالبث ان احس انه قد ضل الطريق ، فقد كانت امنيته دائما منذ طفولته ان يصبح طبيبا .

× التحق المهندس جورج منصور ابونا بعد ذلك بكلية الطب بجامعة نيوكاسل وحصل على بكالوريوس الطب ، وقضى ثماني سنوات في المستشفى الجامعي في نيوكاسل وحصل على الماجستير في الجراحة ثم الدكتوراة ، وعين مساعد استاذ بالجامعة .

× بعد حصوله على الزمالة من كلية الجراحين الملكية باربع سنوات ، سافر في اجازة بدون مرتب الى امريكا وعمل بجامعة كلورادو وجامعة فيرجينيا لمدة ثلاثة اعوام ، تدرب خلالها في زراعة الاعضاء وجراحة الأوعية الدموية .

× عين استاذا مساعدا لرئيس قسم زرع الاعضاء في جامعة جورجيا .

× انتقل الى جامعة البرتا بكندا حيث عين استاذا ورئيسا لقسم زرع الكلى والكبد ، وهناك اجرى اول عملية ناجحة لزراعة الكبد في كندا التي قضى فيها خمس سنوات قبل ان يأتي الى الكويت .

× زار بغداد لأول مرة بعد مغادرته لبلاده العراق في عام ١٩٧٧ عندما وجهت اليه الدعوة للحضور اليها كاستاذ زائر .

× متزوج واب لاربعة اطفال .



منصور سلمان ، زرعوا له كلية منذ عامين ، وقد عاد الى حياته الطبيعية ، انه لم ينس الاطباء الذين انقذوا حياته .. فهو يأتي لزيارتهم من آن لآخر ، يعمل في وزارة الداخلية .

« ولعل الجراحة الوحيدة التي اجريت في الخمسينات وفي عام ١٩٥٥ على وجه التحديد وتمت بنجاح وعاش بعدها المريض رغم كل المخاطر التي كانت تتهددها بالفشل ، هي التي اجراها الدكتور جوزيف مري . والسبب ان الجراحة اجريت لتوأم متشابهين . . . وشجعه هذا على المضي في طريقه فقام باجراء العديد من العمليات الجراحية لتوائم متشابهين Identical Twins، كانت كلها ناجحة ، وعاش المرضى ومازالوا احياء يرزقون .

جائزة نوبل لطبيب عربي

« ان التقدم الحقيقي لزرع الكلى بدأ في اوائل الستينات ، عندما قام فريق من العلماء الاخصائيين في علوم المناعة باجراء العديد من التجارب العلمية التي اسفرت عن اكتشاف وجود مناعة قوية في جسم الانسان ضد اية انسجة او اعضاء تدخل عليه من انسان غريب . وكان احد هؤلاء العلماء من اصل عربي وهو الاستاذ « بيتر مدور » من لبنان ، وقد حاز على جائزة نوبل للعلوم في عام ١٩٦٠ على هذا الاكتشاف العلمي الهام .

« وعلى اثر ذلك بدأ اكتشاف العقاقير المهبطة لهذه المناعة التي هي السبب الرئيسي في رفض الاعضاء والانسجة الغريبة على الجسم . وهكذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ زرع الاعضاء باكتشاف الأمصال المضادة للخلايا اللمفاوية المسببة لعملية الرفض او الطرد Anti Lymphocytes Globulin وكان احد الذين اسهموا في اكتشاف هذا المصل سير مايكل وودراف استاذ الجراحة بكلية الطب بجامعة ادنبره باسكتلندا . وقد زار الكويت في شهر مايو من العام الماضي ، بدعوة من وزارة الصحة ، وزار وحدة زرع الكلى ، وسجل اعجابه وتقديره لهذا الانجاز الكبير » .



سعود الدوسري في طريق خروجه من المستشفى لقد اجريت له عملية زرع الكلية منذ بضعة اشهر ومازال يتردد على المستشفى لاجراء الفحوصات الروتينية . يعمل في محطة الاقمار الصناعية .

« ثمة تطور آخر كان له ايضا اثر كبير في التقدم الذي حققته جراحة زرع الكلى ، وهو حفظ الاعضاء التي يراد نقلها وزرعها ، وقد امكن التوصل الى حفظ الكلية بحالة جيدة لمدة ثلاثة ايام بفضل تبريدها وامدادها بالأوكسجين والجليكوز » .

ومع هذا النجاح الذي حققته عملية زرع الكلية ، تضاعف اهتمام الحكومات والافراد ، وبدأت حملات توعية على جميع المستويات في مختلف بلدان العالم لاقناع الافراد بالتبرع بالاعضاء الحيوية . . . وكان من نتيجة ذلك ان ارتفع عدد عمليات زرع الكلى الى خمسة الاف عملية سنويا في العالم كله ، بينما لم يكن هذا العدد يتجاوز الخمسمائة عملية سنويا منذ عشر سنوات .

لقاء مع المرضى

وفي الممرات الهادئة النظيفة التقينا بمجموعة من المرضى الذين اجريت لهم عمليات زرع الكلى في اول وحدة متكاملة من نوعها في الشرق الاوسط . . . حقيقة كانت هناك عمليات لزراعة الكلية في مصر وايران وتركيا والعراق ولبنان ، ولكن لم يقم في اي منها مركز او وحدة خاصة بزرع الكلى وحدها تتوفر فيها الامكانات التي توفرت لهذه الوحدة الحديثة بالكويت .

وفي غرفهم الخاصة ، كان لنا لقاء مع القصص التي جلسوا يروونها لنا . . كل واحد منهم له قصة مع المرض الذي اصابه في كليتيه ، ومع الكلية الجديدة التي زرعوها له ومن اين جاءت ؟

× الدكتور خليل ابراهيم العباس (٤٠ سنة) طبيب اطفال بمستشفى عكا والهلال الاحمر الفلسطيني في بيروت . متزوج واب لاربعة اطفال . بدأت متاعبه مع الكليتين بعد ولادته بعام واحد اثر اصابته بمرض . وعاش عليلا واجريت له عدة عمليات جراحية ، واخيرا جاء الى الكويت ، ولم يكن وحده ، لقد جاءت معه امه التي اعطته احدى كليتيها . . . الام والابن بصحة جيدة . حقيقة لابد من مراقبة المريض لفترة زمنية طويلة بعض الشيء قد تمتد لعدة اشهر بعد خروجه من المستشفى للتأكد من عدم حدوث اية مضاعفات ، وكان كل شيء يؤكد انه سيعيش وان كلية الام قد انقذته من موت محقق .

× حسن علي صالح ، لبناني ، جاء خصيصا من بيروت لاجراء عملية زرع كلية بعد ان ظل مريضا عدة سنوات تعطلت خلالها الكليتان عن العمل تماما . وظل يعيش معتمدا على الكلية الاصطناعية التي كانت تقوم بعملية غسيل او تنقية لدمه طوال هذه الفترة . جاءت معه ايضا امه الحاجة زينب قرعلي واعطته كليتها وانقذت حياته .

× فاطمة محمود بدران (١٢ سنة) وهي ايضا لبنانية ولكنها تقيم مع والديها في الكويت ، وهي تلميذة بمدرسة النزهة المتوسطة . عاشت تعاني من مرض في الكليتين منذ ان كانت طفلة في عامها الثاني . اعطتها امها ايضا احدى كليتيها ، وكانت هذه هي الجراحة رقم ٥٠ بوحدة زراعة الكلى .

من اجل كل العرب

لقد قامت وحدة زرع الكلى في الكويت من اجل كل العرب . يقول الدكتور ابونا ان ثلثي المرضى الذين يترددون على الوحدة يأتون من الخليج ومن عمان وسوريا والاردن ولبنان وحتى من فلسطين المحتلة . . .

ووفرت وحدة زرع الكلى مئات الالوف من الدنانير التي كان المرضى ينفقونها في الخارج مقابل اجراء هذه الجراحة التي كانت تكلف مبلغا يتراوح بين ١٥ و٢٠ الف جنيه استرليني من اللحظة التي يدخل فيها المستشفى لاجراء العملية حتى خروجه منها بعد شهر تحت المراقبة ثم الاقامة قريبا من المستشفى لمدة خمسة اشهر اخرى تحت المراقبة ايضا للتأكد من نجاح الجراحة مائة في المائة .

بقي ان تتوفر الكلية نفسها من اجل انقاذ حياة الالوف من البشر الذين ينتظرونها . □□

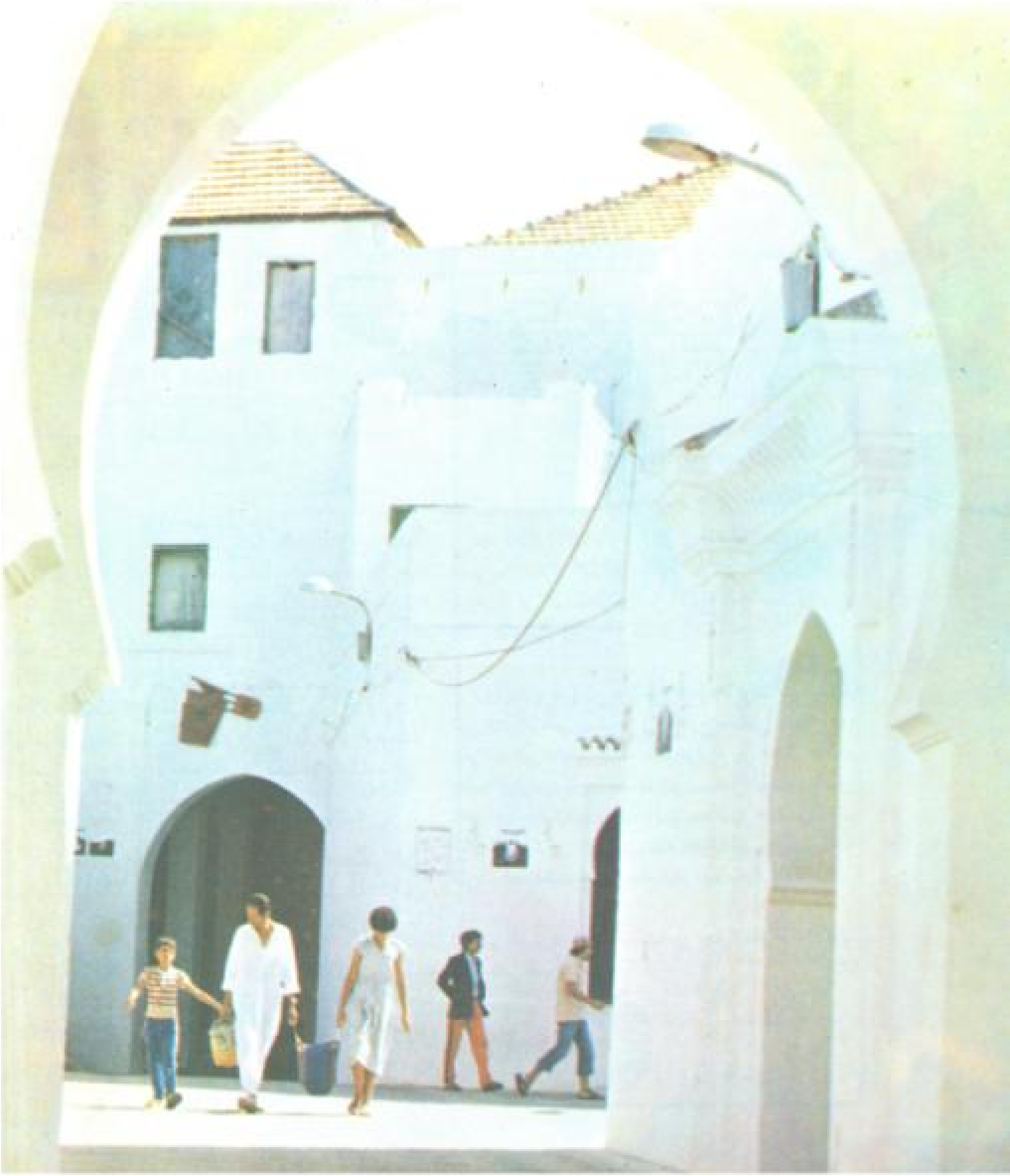
منير نصيف

أيام حالمة على شاطيء المحيط الاطلسي

من الكويت على الخليج.. إلى "أصيلة" على المحيط!

استطلاع:
مصطفى نبيل

أجمل قصور أصيلة وقد تحول الى قصر للثقافة.





سور أصيلة وأبراجها ساعة الأصيل (الى أعلا) واللوحات الجدارية التي جمل خلالها أبناء أصيلة قصبتهم



خلال هذه الرحلة ، انتقلت من الكويت على الخليج العربي الى « اصيله » على المحيط الاطلسي ، اي من أقصى المشرق العربي الى اقصى المغرب العربي ، تشدني مدينة مغربية لا تكاد تراها في العديد من الخرائط ، ومنها تدلف الى المغرب كله ، تتابع مشاكله وقضاياه ومعركته نحو التحديث والتنمية ، والتي تشكل تجربة أصيلة الخاصة جزءا متميزا فيها . . .

انها مثل العديد من المدن العربية المنتشرة على طول الوطن العربي ،تاريخ « محفوظ » قامت فيه بدور هام ، وتحولت اليوم من مصنع للحضارة الى مستودع ما تبقى منها ، وهي أحد الثغور العربية كانت الوظيفة الحربية أهم عناصر تاريخها ، وتحولت تلك الوظيفة من الأصل الى الصدى ، واكتفى السور والبوابات والأبراج القديمه بلعب دور متحفي . . .

تطل من خلالها ـ وهي احدى مدن الحدود الاستراتيجية الحرجة ـ على مشاهد متتالية من الصراع بين الشرق والغرب ، بين العرب وأوروبا . . .

وهذه الرحلة في أحد جوانبها تمرد على المألوف ، فعادة تجذبنا المدن الكبرى والعواصم الرئيسية ، ويفوتنا ان البداية الصحيحة ينبغي أن تصل الى اقصى وابعد قرية عن العاصمة ، والتي اذا وصل اليها التغيير فيكتب له البقاء ، وينعكس اثاره بالضرورة على المدن الكبيرة ، ويخلصها من ابرز مشاكلها . . الهجرة الدائمة من الريف الى المدن والعواصم . . .

ولنبدأ الرحلة من أولها . . .

المطار الذي انتهت اليه رحلتنا هو مطار طنجة ، المدينة التي تفيض بالسحر والغموض ، والطريق من طنجة الى أصيله تحف به أشجار السنديان والدوم القائم بين النبات البري ، تمر خلاله بالتلال والجبال والأنهار الصغيرة التي تصب في المحيط . . . .

تتحرك سيارتنا في أحد المواقع الاستراتيجية الخالدة ، فهي تقترب من بوغاز جبل طارق ، وتكون كل من سبتة وطنجة وتطوان وأصيلة ، مربعا من الارض يشكل شبه جزيرة ، ويبرز شاطىء المغرب برأس ضخم عرضه من سبته الى سارتل نحو خمسين كيلو مترا ، وطوله من كلا الخاتين الغربي والشرقي ، أي من طنجة الى اصيلة ، ومن سبته الى وادي مرتين حوالي اربعين كيلو مترا .

وهذه الاراضي من أخصب الأراضي المزروعة بين الربا الوادعة ، المكسوة بالأزهار والنباتات .

ولأنها اقرب مناطق أفريقيا الى أوروبا تشاهد على طول الساحل الممتد من طنجة الى اصيله تخيمات اقامها عدد من السياح الاوربيين القادمين من الدول الأوروبية المختلفة بسياراتهم وكرفاناتهم وخيمهم الى هذه المنطقة الدافئة

دفء أهلها

داخل أصيله تشعر بالنشاط والحيوية ، المدينة من حولك لها طعم خاص ، اهم ما يميزها طابعها القديم ، واستغرقتني اسوار وبوابات وبيوت قصبتها ـ حيها القديم ـ انها بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ٢٠٠ الف نسمة ، وهي مثل اغلب مدن المغرب تقبع مدينتها القديمه في الرباط وراء الاسوار وحول الاسوار تقوم المنشآت الحديثة . . . .

في القصبة البيوت تتسم بالبساطة والتواضع ، والذوق الرفيع ، كل نوافذها زرقاء في لون المحيط ، وهي لا تتجاوز الطابقين ، جدرانها بيضاء نظيفة كأنها طليت لتوها ، تكاد تكون متواصلة احسنت الأيدي في الحفاظ عليها ، البيوت تنطوي على ذاتها ، تصون اسرارها وعالمها الداخلي .

تعلو الارض وتهبط ، وتتداخل الازقة ، وتنتصب البوابات الحجرية القديمة ، وتدخلها وكأنك تعبر من زمن الى زمن وليس من مكان الى مكان ، وازقتها تشذ عن مثيلاتها ، فلا فضلات امام الأبواب ، بل على جانب كبير وبهيج من النظافة ، لوحات جدارية جميلة في العديد من اتجاه ازقتها ، وقد رصفت الازقة في ذوق وجمال ، مما اظهر مدى سحر وعبقرية وحلاوة المدينة القديمة ، تشعر في ازقتها بمدى كرم اهلها ، والود الذي يقابلون به الغريب وأنت تمر بزنقات لا تتسع الا لمرور شخص واحد . . .

أيام اصيله الصعبة :

عاشت اصيله في الماضي القريب اياما صعبة ، عندما أخذ اهلها يهاجرون منها الى المدن القريبه وخاصة الى



صاحب القصر الشريف الريسوني مع روزيتا فوربز، وأطفال أصيلة داخل القصر يتعلمون من ديكوراته رقة الذوق .

طنجة ، وعانت قلعتها واسوارها وبيوتها القديمة من الاهمال الطويل ، وفي ذات الوقت اخذ الكثير من الاجانب الذين عاشوا في المغرب يسعون الى شراء بيوتها القديمة ، بعد ان اختاروها ليعيشوا فيها سني تقاعدهم ، فهذا بيت قنصل اسبانيا السابق في طنجة ، وذلك بيت سفير السويد السابق وبيوت أخرى لعدد كبير من الاجانب هنا يكونون خارج أوروبا وقريبين منها في نفس الوقت . . .

وهي ظاهرة تدعو الى التأمل ، فاولئك الذين يختارون البيت المغربي بطبيعته المتميزة ويفضلون معالم الحياة القديمة ، هم أنفسهم الذين سبق لهم وحاولوا تدمير هذا النمط من الحياة ، بمجموعة القيم والمفاهيم التي بذروها وأنماط الحياة الاستهلاكية الغربية التي أشاعوها ، مما حاصر وأضعف معالم الحياة المغربية القديمة ، وصرف العديد من حرفيي الصناعات اليدوية القديمة في صناعاتهم .

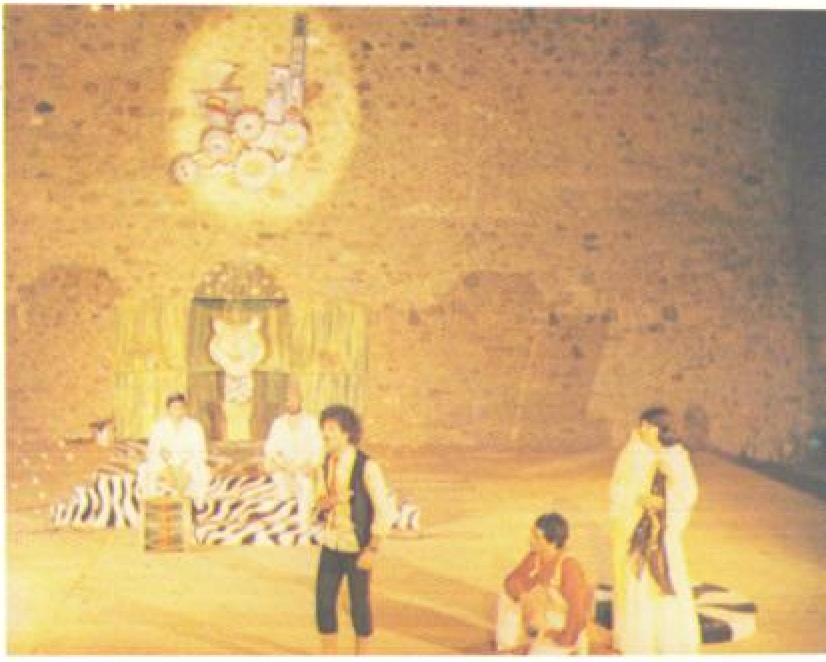
واستمرت هذه الأيام الصعبة ، وقبل ان تكتمل المأساة ويتغير وجه اصيله ، ظهر جيل من الشباب من ابناء المدينة ، لم يكتف بالشكوى أو الصراخ من اجل مدينتهم ، بل صمموا على اعادة اصيله الى سابق مجدها ، لتعود وتحتوي ابناءها وينتعشوا داخلها ، ويعيدوا للمدينة بعض ما قدمت اليهم ، فقد شهدت ازقتها طفولتهم ، وتربى الذوق لديهم بين جدرانها ومن طراز عمارتها . . .

وحقق هؤلاء الشباب نجاحا باهرا ببساطة الحل الذي توصلوا إليه . . فلم يسع هؤلاء الشباب كما جرت العادة ـ لدى الحكومة في الرباط يطالبونها بالقيام بالمشروعات الضرورية التي تعيد النبض الى مدينتهم ، مثل المطالبة بترميم آثارها واقامة مرافق عصرية بها ، فمطالبهم لن تكون هي الوحيدة فالحكومة مثقلة بالمطالب ، ولم يلجأ شباب أصيلة الى الحلول التقليدية ، بل سلكوا طريقا خاصا بهم ، وكان طريقا بسيطا ، فهكذا دائما الاعمال الكبيرة ، المطر ينهمر في بساطة معجزة ويعقبه الخصب





الفنانة الصغيرة في محاولاتها الفنية الأولى ! (الى اليمين أعلا) واحدى فرق « الكناوة » المغربية التي جاءت تقدم عروضها (الى اعلا) .



الثنائي الفرنسي في حفل موسيقي داخل قصر الريسوني .



والنهاء ، والتجربة العميقة هي بالضرورة سهلة كتحرير الماء ، كحفر الأمطار للأنهار الكبيرة . .

كون شباب أصيله فريق عمل وحملوا الفرشاة والمعدات المختلفة ، وداروا بها في انحاء مدينتهم يرسمون جدرانها ، يرصفون طرقاتها ، وينظفون احياءها بابسط المواد ولكن بذوق وجمال ، وكانوا مع كل لوحة جدارية يرسمونها يجذبون اعدادا كبيرة من المتطوعين للعمل . .

وحققت هذه البداية الكثير مما داعب خيال أبنائها ، ومع هذه البداية تعاقبت وتداعت الاعمال وكان من الضروري للامساك ببداية الخيط ، ان تجد هذه الافكار جماعة منظمة لتحقيقها ، والبلدة تعج بالنوادي السياسية والجمعيات المختلفة ، ويجري فيها حوار عميق بين الاصالة والمعاصرة ، بين التعريب والتغريب ، وتزدحم بكل المدارس الثقافية والاتجاهات السياسية . . .

وتشهد المدينة منافسة على كسب تأييد مواطن أصيله العادي . . .

وكانت جمعية المحيط الثقافية هي التي نظمت المشروع ، ورسمت خطة احياء المدينة وتجميلها ، وأخذ المشروع يتطور مع تطور أعضاء الجمعية . . . .

وحسمت جمعية المحيط مناقشات طويلة ، فالبعض كان يرى ضرورة البدء بمعالجة المشكلة السياسية التي سيؤدي حلها الى المدخل الطبيعي لأي تغير ، واصرت جماعة المحيط على انه يمكن تحويل القضية العامة الى مجموعة من القضايا التفصيلية يمكن مواجهة كل منها على حده ، وان علاج اي من هذه القضايا سيؤثر ايجابيا على القضية الرئيسية ، والمهم هو الوصول الى المدخل الصحيح والعملي . . .

ويستمر الحوار ويتطور بين نخبة اصيلة ومثقفيها ، وتخرج به جمعية المحيط ليكون له تأثير مباشر على حياة اهالي اصيلة ، وتخلق صلة مباشرة بين القضايا الاساسية والمهمات التي يمكن ان يؤديها ابن أصيلة . . . .

قصر الثقافة

وكانت خطوة جمعية المحيط التالية هي ترميم قصر الريسوني ، وتحويله الى قصر للثقافة وجهزت به قاعة كبرى للمحاضرات والعروض المسرحية والسينمائية ، واقامت فيه ورشا مجهزة للتشكيل الحفري ومسرحا في الهواء الطلق الى جانب آثار المدينة القديمة واسوارها ، ثم قاعة لعرض الاعمال التشكيلية . .

ويكاد يقع قصر الثقافة في قلب القصبة ، وقد تحول الى خلية نحل ، وكانت لنا فيه وقفة طويلة لما يمثله ، أقامه الشريف أحمد الريسوني يوم كان حاكما على اصيلة ، وهو تحفة فنية رائعة يعكس مجموع القيم الحضارية والجمالية لصاحبه ، ويقف فنا وجمالا واتساعا مع اعظم القصور . .

وهو عربي أندلسي بصحنه ، وردهاته ومقصوراته ، وبالنقوش البديعة على جدرانه التي كانت الآيات القرآنية والشعر العربي مادتها ، ينقسم الجدار الى جزء من الفسيفساء برسومه وألوانه المختلفة وجزء من الجص المنقوش والثالث من الخشب المحفور باشكال هندسية من دوائر ومنحنيات ، ووسط الصحن نافورة من الرخام ، حوضها قطعة واحدة من المرمر الدقيق ، وتعلو الصحن قبة الزجاج ، ويطل على الصحن طابق ثان به بهو الاستقبال وسقفه من الخشب المحفور ، وهذا البهو يقود الى بهو آخر لا يفصل بينهما سوى صف من الأعمدة والأقواس .

يحكي الريسوني وقصره فصلا من تاريخ اصيلة والمنطقة التي خضعت للاحتلال الاسباني وهو نموذج مثير لأحد شخصيات عصره التي تصدت للغزو الأجنبي . . .

ويردد أهل اصيلة . . . « ان القصر هو الريسوني محبا للخلود بفكره وعمله وضميره ، بكرمه وحبه للحياة ، واستعداده للدفاع عنها . . . »

وصادر هذا القصر الأسبان ، وبقي مهملا حتى سويت قضية الأملاك الاسبانية في المغرب وخلال هذه الفترة استأجره من السلطات الاسبانية نائب أصيلة ورئيس جمعية المحيط لعشر سنوات ، بمبلغ رمزي قدره درهم مغربي واحد عن كل سنة . . . !

والريسوني شخصية جذبت اهتمام العديد من الكتاب ، وقدمته الكاتبة ، البريطانية روزيتا فوربز في كتاب أطلقت عليه « سلطان الجبل » ، والذي تحول فيما بعد الى فيلم سينمائي . . . ومازال المغاربة يختلفون حول شخصية صاحب القصر ، فمن قائل انه قاطع طريق ، ومن يؤكد انه زعيم وطني قاوم الغزاة ، وليس هذا غريبا فقد كانت حياته حافلة تنقل خلالها من السجن الى الحكم ، ومن قتال الاسبان الى التحالف معهم ، ومن

كهوف الجبال في حياة شاقة الى القصر بحياته الناعمة ، كما كان أول من أخذ احد الدبلوماسيين الامريكيين في طنجة « رهينة » .

ابن اصيلة

وهو احد الذين يعتزون بتراثهم ممن يعيشون في جبال المغرب ووهادها ، وهو الشريف الذي يعود اصله الى النبي الكريم ، وتحركه المظالم التي لايجد سبيلا الى مقاومتها ، وفي قصته شبه بحكاية روبين هود الغابات البريطانية او خط صعيد مصر ، فلم يتوان عن تحقيق عدالته ، فيأخذ من القادرين ويعطي المحتاجين ، ويروي لروزيتا فوربز بدايته بالقول .. « جاءتني امرأة تشكو اعتداء اللصوص على بيتها وقتل زوجها وولدها ، فاركبتها فرسا واندفعت مع رجالي تبحث عن القتلة واللصوص ، وادركناهم عند احد الوديان فقتلناهم جميعا وردذنا للمرأة ما سرق منها ، وعلمتني تلك المرأة ان المعرفة ليست في الكتب وحدها ، فابن القبيلة يولد على السرج والبندقية في يده ... وكما تحرك في بداية حياته لانقاذ امرأة اعتدى عليها تحرك فيما بعد في مواجهة الغزاة ، الذين استباحوا حرمة بلاده ....

وتطور دوره ، فاصبح يشن الغارات على القرى ، يؤدب الظالمين ، وينهب اموال المعتدين ، ويوزع ما جمعه على ابناء القبائل جميعا وسار في الناس « ما هذا بقاطع طريق بل قائد رجال ، وفارس فرسان » .. وسرعان ما انتهى به هذا المسلك الى سجن الصويرة ....

وعقب الافراج عنه اصبح سرجه وبندقيته للوطن ، وبدأ رحلة جديدة بخطف القنصل الامريكي في طنجة ايون برد يكاريس في ١٨ مايو عام ١٩٠٤ ، وارسل الرئيس تيودور روزفلت سبع مدرعات حربية الى طنجة ، وطلب من سلطان المغرب الاعتذار ، والزمه بدفع الفدية التي حددها الريسوني والتي تبلغ قيمتها ٧٠ الف دولار ، واعلن الرئيس الامريكي شروطه : « برديكاريس حيا ... او الريسوني ميتا » ، وبعد خمسة اسابيع من التوتر دفع السلطان المبلغ الى الريسوني ، وافرج عن القنصل الذي اخذ يتحدث عن الريسوني كعربي شريف المحتد كريم الاخلاق ..

وكانت هذه أول عملية اخذ دبلوماسي امريكي رهينة ، والتي اعلن خلالها انه يطلب المال الامريكي من اجل انفاقه على أبناء حركته ، كما أعلن ان هدف عمليته الضغط على الحكومة الامريكية لتمنع الدول الاوروبية من المضي في خططها ضد المغرب ، ولم يفته ان يقول : « ان هذا العمل سيطرح قضية المغرب على المسرح العالمي ، ويحطم حصار الصمت المضروب حول معاناة الشعب المغربي ! » .

ومرة أخرى تصالح الريسوني مع السلطان وتم تعيينه حاكما على طنجة ، التي كانت مرتعا للتآمر الدولي والدسائس الاوربية ، وأعاد الريسوني الامن والنظام الى المدينة وضواحيها ، وروع الاجانب مما شاهدوه من الرؤوس المعلقة في السوق ، فحكم النظام الذي فرضه سيقف سدا منيعا دون اطماعهم في المدينة ، وعندما اقتربت عدالة الريسوني من رقاب الافاقين والنصابين من الاجانب اصبح الريسوني عقبة كأداء امام المخططات الدولية ، فقرر مؤتمر الجزيرة مطالبة السلطان بعزله ...

حاكما لاصيله

استدعى السلطان عبد الحفيظ الريسوني ، وافضى اليه بهمومه قائلا : « الاجانب يطمعون في بلادنا ، ويسعون للاستيلاء عليها ، ويجب ان يتعاون كل ابناء المغرب للدفاع عنها .. » ورد الريسوني : « والله لوكان هذا هو موقف السلطان عبد العزيز ما قاتلته ، ولو دعا للجهاد لكنت اول من لبى الدعوة .. »

واختاره السلطان الجديد حاكما على اصيلة » ، وعندما بدأ تقسيم المغرب بين فرنسا واسبانيا وفرض الحماية على المغرب ، وسقط شمال المغرب في ايدي الاسبان عام ١٩١٢ ، ثارت القبائل وكانت تنتظر الكلمة للانطلاق ، واطلقها الريسوني ، وبدأ قتال الاسبان ، وعجز الاسبان عن اجتياز اسوار المدن ووجدت اسبانيا ان الريسوني زعيم لا ينازع ، فاتفقت معه على ان يكون له الجبل وللاسبان المدن ..

الاستلاب الثقافي

نعود لنتابع تجربة اصيلة ، تعايش حياتها اليومية التي عبر عنها احد المدرسين المصريين الذي عمل في المدينة مدة اربع سنوات ، في رواية سماها « اصيله » ، ووصف الحياة والمشاكل الاجتماعية وحيرتها بين تراث عريق وعصرية كاسحة ، وهي الظاهرة التي يطلق عليها في المغرب كلمة « الاستلاب » الثقافي الذي تعيشه أجيالها الجديدة ..

احدى القرويات في السوق ببضاعتها وقبعتها الاسبانية . (الى اليمين) .



أبناء أصيلة يتجمعون في مسرح « القمرة » تحت أسوار القلعة ، وفرقه « وجدة » تقدم اعمالها .





خارج القصبة ، يخرج سكان اصيله الى الشاطىء الرملي الابيض الذي يمتد على طول الساحل وفي الاصيل تمنع السيارات من المرور ، وتحمل العديد منها ارقاما من مختلف البلدان الاوربية ، ويختلط الاهالي بالسياح ، انها ساعة النزهة والاستعراض ، ترى الازياء من كل نوع ، الزي المغربي المميز الى جانب الزي الاوروبي ، الموسيقى التي تنبعث من المقاهي تختلط فيها الموسيقى الشرقية مع الموسيقى الغربية الصاخبة .

واصبح من معالم هذا الجو رؤية الفنان جورج البهجوري يرسم احدى لوحاته وقد التف حوله شباب المدينة وفتياتها ، واغلب المقاهي على الشاطىء مازالت مملوكة للاسبان ، فمازالت آثار الوجود الاسباني ملحوظة في القبعات الخوص على شكل المظلة التي ترتديها الفلاحات في السوق والحقول ، وفي تاثيرات العمارة الاسبانية في الكنيسة المقامة فوق اعلى التل ..

ينتهي الطريق الساحلي الى السوق الذي يزدحم بالصناعات المغربية ، التحف والبرانس والمصنوعات الجلدية والزرابي والمصنوعات الفضية ، ومن المصنوعات المغربيةالمختلفه التي يقبل عليها الاجانب ، صناعة الخناجر والبواريد - البنادق - ، وخاصة تلك البارودة الطويلة الرفيعة العنق والواسعة القبضة والتي انتقلت من اكتاف المرابطين الى الزينة بعد فقدانها لعزها في ساحة الوغى ..!

ويوم الخميس هو يوم السوق الاسبوعي الذي ياتي إليه الفلاحون بمنتجاتهم من حول اصيله لتسويقها ويجذب السوق عددا من الفنانين التشكيليين يستوحون منه اعمالهم .

واصيله مثل غيرها من المدن العربية الصغيرة والبعيدة عن العاصمة ، تعاني من مشاكل لا حصر لها يقول العلامة عبد الله كنون في تفسير ذلك .. « اصيله جزء من منطقة الاستعمار الاسباني ، وكان للسيطرة الاسبانية بعد انتقامي واضح في المغرب ، فقد جاء هذا الاستعمار وضمن دوافعه تصفية الحسابات القديمة ، كما كانت هناك فروق واسعة من الناحية التقنية بين الاسبان والفرنسيين ، وقد انعكست هذه الفروق في مزيد من التخلف في المناطق الاسبانية .. »

وهذه المشاكل جانب من الظروف التي كان على النخبة المثقفة من ابناء اصيلة مواجهتها ، والذين يؤكدون انها اصبحت في طريق الحل ، بعد ان انتقلت المدينة من وضعها الهامشي الى الضوء الساطع ، ولا يمثل ما يقوم به ابناء اصيلة من جهود ثقافية وفنية سوى البداية ..

الخروج من الهامشية

وعندما بدأت تجربة العمل الثقافي لجماعة المحيط ، وظهرت نتائج ذلك العمل البسيط المعجز وصل تاثيره الى كل الافاق ، فالعالم المعاصر شده الشوق الى الاصالة ، الى الطابع المحلي في مواجهة الطابع الغربي الكاسح ، حنين الى سماع المغني والتفاعل معه بدلا من شرائط التسجيل .. !

واستجابت جمعية المحيط ، واقامت موسما سنويا في اصيلة دعت اليه عددا من الفنانين والمثقفين العرب والاجانب ، واقامت مهرجانا فنيا يغلب عليه الفن التشكيلي والفنون المغربية ...

ولنـدع محمد بن عيسى نائب اصيلة ورئيس جمعية المحيط يروي هذه التجربة ، يقول :

« كان موسم اصيلة خروجا من اسلوب ثقافة النوادي والمناسبات ، ثقافة الفئات النخبوية وثقافة المعارض الفنية في اروقة الميسورين ، وامامنا حشود الشباب الذين تعلموا في المدارس الاستعمارية ، وتشبعوا بقيم فكرية وسلوكية أغرقتهم في كثير من الاحيان في الاستلاب والتبعية ، ونمت لديهم عقدة الهوية ، يواجهون كل يوم بعملية المسخ لقيمهم وتراثهم وشخصيتهم .

وامام جمعية المحيط انسان العالم الثالث ، الفنان المبدع الأصيل ، يتطلع الى عرض اعماله ، وتقديرها ، وجد نفسه في الطريق الى « كان » او « الفنيون » ، في فرنسا ، او سالسبرج في النمسا،أو البندقية في ايطاليا ، لعله يثبت أن عمله قد جاز على مقاييس الابداع وسلامة الذوق .. بل وظل انسان العالم العربي ، المفكر الفنان ، والأديب لايتوفر لديه ارض لقاء ، يجتمع فيها مع معاصريه من مفكري وادباء العالم الاخرين ، وكانت حصيلة كل هذا التأمل الاستقرار على تبني مدينة اصيلة لتكون ارضية لطموحاتنا ، وتطلعاتنا ، ومنبتا لبذور الفعالية الثقافية الجماهيرية بمعناها الشامل شكلا ومضمونا ، ففي اصيلة البيئة الانسانية والعمرانية ، وبساطة البيئة الطبيعية والجمالية ، وطموحنا ان تتحول أصيلة لتصبح قلعة لحماية حرمة الانسان وتراثه وقيمه الحضارية ، ولتكون رمز الخروج بالممارسة الثقافية من العواصم والمدن الكبرى الى المدن الصغيرة ، التي فُرض عليها الهامشية في الحياة الثقافية ...

وهي خطوة على الطريق للخروج من التقليدية وشيوع التوجس في العالم الثالث ، والموسم ليس اكثر من بداية صغيرة تتطور الى اعمال كبيرة ، وهذا النشاط الذي تشهده أصيلة « تبته » ربما تعطي ثمارها بعد اجيال ، وبراعم هذه الشجرة ما تشهده ورش الاطفال في قصر الريسوني ، وفي الذوق العام الذي يزدهر خلال الموسم ، وبعد أن تحولت أصيلة الى نقطة مركزية تفتحت عليها العيون ، واصبحت حديث الناس ، بعد ان كانت نقطة هامشية لايحسب لها حساب ، فقد درج على تسمية المناطق البعيدة اسم « المغرب غير النافع » !

ويضيف الفنان محمد المليحي أحد ابرز المساهمين في جمعية المحيط : « ان أصيلة تشكل اجابات عن اسئلة عديدة تطرح في أنحاء كثيرة من العالم العربي ، اي اتجاه ثقافي وفني ينبغي اعتماده ، انها مختبر ثقافي لمعرفة اي شكل من اشكال التعبير هو الافضل . . »

ويعود محمد بن عيسى ليضيف « ان تجربة اصيلة لها ايضا جانبها التنموي والاقتصادي ، فالتنمية تستهدف الانسان ، وهو اداتها ، والانماء لايكمن في الموارد والخطط الخمسية فحسب ، بل في قدرات الانسان الابداعية ، ومنذ الموسم الاول عام ١٩٧٨ وحتى الموسم الرابع افتتح في اصيلة ثلاثة فنادق ، وصيدليتان ، وعيادتان ، واستطاع اهل اصيلة التعرف على قضاياهم وادراكها من خلال الندوات والمناقشات والنماذج التي قدمت » .

« فهذه الاسوار والآثار شواهد عظمة اصيلة وبطولة اولئك الذين نزفوا دماءهم عند أسوارها ،وقد تحول هذا التاريخ المجيد الى كومة من الاطلال ، وفي وسطها ترى دورا قليلة وحياة فقيرة يعيشها سكان قليلو العدد . . »

وهذه بعض مشاهد التاريخ . . اصيلة في كامل عزها يصفها الجغرافيون والرحالة مثل البكري والادريسي بصورة زاهية . . « محاطة بسور ذي ابواب وكان بها قصر وبنيان واسواق . . »

ويأتي مسلسل الصراع بين الشرق والغرب ، ويخرج العرب من الاندلس ، وتفشل الحملات الصليبية في الشرق ، وتتعرض اوروبا للهجوم العثماني ، وبدل أن يذهب البرتغاليون للقتال بعيدا بدأت سلسلة هجمات على الموانىء المغربية ، انتهت باختناقها جميعا واحتكار التجارة في البحر الابيض ، وبعض هذه الوقائع مازالت تعيشها المغرب حتى اليوم ، فما زالت سبتة ومليلة في أيدي الاسبان منذ هذا التاريخ . . . .

وكانت أولى محن اصيلة بعد واقعة العقاب التي هزم فيها الجيش القشتالي الجيش المغربي في القرن الثالث عشر .

ومحنتها الثانية كانت عندما استغل البرتغاليون الفوضى التي عاشتها المغرب في اخر ايام الأسرة المرينية فقاموا بهجوم بحري على ميناء اصيلة عام ١٤٩٧م ، وبلغ عدد القتلى من اصيلة الالفين وبلغ اسراهم خمسة الاف ، وكان من بين الاسرى زوجتا السلطان محمد الشيخ وابنه وابنه الذي اصبح بعد قضاء سبعة اعوام في الاسر سلطانا على المغرب . . .

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحولت أصيلة الى قلعة محصنة ذات اسوار منيعة وبروج ، انطلق منها البرتغاليون مرات عديدة ، وكان اخرها محاولة ملك البرتغال سباستيان الاول في يوليو ١٥٧٨ على رأس جيش من ٢٠ الف مقاتل ، تقدم به من أصيلة الى القصر الكبير ، فواجهه الجيش المغربي عند وادي المخازن ، وألحق به هزيمة ساحقة ، وقتل الملك سباستيان وعدد كبير من قادة الجيش البرتغالي ، وعادت اصيلة الى المغرب عام ١٥٨٩م . . .

واستولى الاسبان على اصيلة ـ كما رأينا ـ ايام الريسوني ، والذين لم يكونوا اكثر من تناسخ للروح الصدائية القديمة . . . في شكل صورة جديدة هي الاستعمار بمعناه الحديث . . .

فكم عدد المرات التي اعيد فيها تحصين المدينة وبناء اسوارها . . . ؟!

وكم من الضحايا قدمتهم أصيلة دفاعا عن موقعها . . ؟!

وأليس سعيها اليوم لاسترداد مجدها القديم ، وشق طريقها الخاص له ما يبرره . .

لقد وصفها ياقوت الحموي بقوله « أصيلة مدينة أزلية » ، وها هي ذي تجربتها الجديدة تثبت حقيقة أزليتها ■■

مصطفى نبيل



ـ ميلينا ترفع شالها : الفوز يعني بداية تحقيق احلام الاحد .. فرقة البوزوكي تعزف لحن « ممنوع في يوم الأحد » . وميلينا ترفع شالها ...

ميلينا ميركوري وزيرة :

أحلام الأحد .. وحقيبة الإثنين !

بقلم : فاروق عبد العزيز

لم يعد ريجان الممثل الوحيد الذي دخل الى عالم السياسة من باب الفن ، ميلينا ميركوري وزيرة الثقافة في اول حكومة اشتراكية يونانية دخلت السياسة من الباب ذاته . مع فارق واحد هام هو ان ريجان فشل في التمثيل ، بينما ميلينا كانت حتى آخر لحظة ممثلة عظيمة وناجحة

في يوم مشمس من ايام شهر سبتمبر عام ١٩٥٩ كانت ماريا اماليا ميركوري (الشهيرة بميلينا اي العسل المصفي باليونانية) تستعد لتصوير اللقطة التالية في فيلم «ممنوع في يوم الاحد» . المكان غاص بالفنيين الذين انهمكوا في الاعداد لنزول ميلينا الى البحر ومعها ستة ممثلين . على مقربة من موقع التصوير كان امتداد ارصفة ميناء بيريه (بيرايوس باليونانية) . حيث كان عمال الميناء يعملون حينا ويتطلعون صوب فريق التصوير حينا آخر .. بعد قليل صرخ المخرج جولز داسين : آكشن ! .. لم تمض ثوان حتى دوت صرخة اخرى . هلع الجميع وتوقفوا عن



ـ شباب الباسوك المتحمسون يزرعون الشوارع حاملين الاعلام في ليلة الاحد . ليلة فوز حزب باباندريو . . وميلينا .

التصوير . . وتطلعوا تجاه العمال فوجدوا بعضهم يحمل عاملا اصيب اصابات بالغة اثناء العمل . . نظرت ميلينا صوب الجميع وقالت لنفسها اريد ان اعبر عن هؤلاء !

هل تصلح هذه المقدمة لتقديم امرأة سياسية ؟ . . .

كان خصومها يستغلون نفس القصة التي روتها بنفسها ليتهموها بالميلودراما والبعد عن الواقع في شباك الفن . . ماها ومالشباك الصيادين الفقراء وحمالي الارصفة ؟ !

ولكن ميلينا لم تهتز . فقط كان عليها لكي تحقق ما تريد ان تكافح اثنين وعشرين عاما اخرى لكي تنتقل من كرسي الحالمين الى كرسي الوزارة . وهذا هو ما تم قبل شهرين تماما . والأن بوسعها ان تسترجع تاريخها . . الذي يعرفه الخصوم جيدا وان انكروه في معارك الانتخابات . لا بأس فهذه هي ألاعيب السياسة !

الفن والسياسة

ولدت ميلينا في ١٨ اكتوبر عام ١٩٢٣ في اثينا لعائلة تمارس الحياة السياسية . ولسبب مجهول عارض والدها دراستها للفن وغرامها بالمسرح منذ سن السابعة عشرة . ولكنها اصرت بعنفوان الشباب على تحدي والدها وزير الدولة السابق ونائب عمدة اثينا .

« لم اكن اعارض اختيارات والدي ونصائحه فيما يتعلق بمستقبلي ، ولكن عيني كانت تتفجران بالرغبة في احتراف الفن . . لم اكن متيمة بالفن كما يقولون ولم استوح وحيا من فوق جبال الاولب . لقد كنت اريد ببساطة ان اخرج طاقة حية في اعماقي رغم انني كنت طفلة مدللة تحصل



ـ ميلينا : في السادسة والخمسين تحقق حلما . . . ولكن هل نستطيع تنفيذه دون ميلودرامية اثيرة عنها ؟

على ما تريد . وبسبب اشتغال والدي بالسياسة نشأت وعيني على الفن واخرى على السياسة » .

في عام ١٩٥٥ قدمها المخرج اليوناني الكبير مايكل كاكويانيس في اول ادوارها السينمائية « ستيللا » . في مهرجان كان حيث عرض الفيلم التقت بالرجل الذي قدر له ان يلعب اكبر الادوار في حياتها الفنية والسياسية معا : المخرج الاميركي جولز داسين ، الذي كان يعيش متنقلا بين العواصم الاوروبية اثر قراره بمغادرة بلاده عقب اصطدامه بلجنة مجلس النواب للنشاط غير الاميركي ، « التي تزعمها السناتور مكارثي للتحقيق فيها اسمته تغلغل النشاط اليساري في هوليوود .

كان ذلك في نهاية الاربعينات ومرة اخرى في مطلع الخمسينات . رفض جولز داسين المثول امام اللجنة معتبرا مجرد تشكيل اللجنة عملا غير ديمقراطي . كما رفض الشهادة ضد زملائه الذين انضموا في مرحلة من المراحل الى الحزب الشيوعي الاميركي . كما رفض اخيرا ان يوضع على اية قائمة من اي نوع . ولم يكن جولز داسين من بين قائمة العشرة الممنوعين في هوليوود ولكنه كان ضمنا بين قوائم اخرى غير معلنة ففضل الهجرة الى حين تزوح شبح المكارثية . .

في كان التقى بميلينا . .

« وجدت افكارها عن العالم وعن بلادها شديدة البساطة ولكن شديدة العمق . شدته اليها حيويتها ورغبتها في ان تكون ممثلة عظيمة ومواطنة عظيمة . . ولا بد من ان اعترف انها جعلتني يونانيا قلبا وقالبا . . .

لا احب الربط بين مبادئي السياسية ومبادىء ميلينا . ولكننا نتفق في كل شيء . . واذا اختلفنا فنحن نختلف في امور المنزل . . فقط » .

بعد عامين قدم داسين زوجته في الفيلم المأخوذ عن العمل الادبي الشهير لنيكوس كاز انتزاكيس « المسيح يصلب من جديد » . كان عنوان فيلم داسين : « هو الذي يجب ان يموت » ثم عملت ميلينا مع مخرج اميركي آخر مطرود كزوجها من الجنة الهوليودية ولنفس الاسباب ، وهو جوزيف لوسي ، في فيلمه « الفجرية والسيد » قبل ان يقدمها داسين مرة ثانية في اهم اعمالها في الستينات وهو « ممنوع في يوم الاحد » . . . ويقوم فيه داسين بدور سائح اميركي يعظ فتاة الليل (ميلينا) وينجح في ابعادها عن الغواية . . . وفي عام ١٩٦٠ تقاسمت ميلينا مع جان مورو جائزة احسن ممثلة في مهرجان كان وحصلت على ترشيح لها لجائزة الاوسكار . . .

وتتضمن قائمة افلامها التالية في الستينات افلاما مثل « فيدرا » من اخراج جولز داسين (١٩٦٢) والمنتصرون لكارل فورمان (١٩٦٣) و « توبكابي » لجوالزداسين (١٩٦٤) و « والعاشرة والنصف مساء صيف (١٩٦٦) لداسين أيضا و « مرح مرح مرح » لنورمان جويسون في عام (١٩١٩) . ولتسع سنوات أخرى لم تقدم ميلينا عملا سينمائيا ، قبل أن تقدم رائعتها « صرخة امرأة » في عام ١٩٧٨ من اخراج داسين أيضا وهو الفيلم المأخوذ عن اسطورة ميديا والذى تقوم فيه ميلينا بدور ممثلة مسرحية تبحث عن الابهام عند قيامها بدور ميديا . وتجد في ميديا حقيقة معاصرةتقضى فترة عقوبة في السجن لذبحها أولادها الثلاثة اثر خيانة وهجر زوجها لها .

« كنت واعية بما أريد »

ولكن هل كانت ميلينا واعية طوال الوقت بأنها تريد أن تكون امرأة سياسية ؟ وهل انعكس ذلك على فنها في السينما أو في المسرح ؟

« نعم كنت واعية بما أريده . . ولكن وعيى تطور من شعور وجدانى ميلودرامى - كما يقول خصومى - الى وعى منظم يكتسب الخبرة يوما بعد يوم . . ولكن يمكنك أن تقول أن الخيط المميز في كل أفلامى وأعمالى المسرحية هو أنه لا توجد سياسة . فقد آمنت طوال الوقت بأنه لا سياسة في الفن ! »

وحافظت ميلينا على سياستها فلم تمثل فيلما واحدا يعرض اتجاهاتها السياسية أو اتجاهات زوجها . . قال خصومها « ان ميلينا ممثلة مسرح ممتازة ولكن ذلك انعكس على أدائها في السينما . . فهى تبالغ كما لو كانت تصرخ فوق خشبة مسرح يونانى قديم . . وقد انتقل ذلك الى خشبة المؤتمرات السياسية . . . »

في منتصف الستينات قررت ميركورى دخول الحياة السياسية رسميا . « أعلنت ذلك في خطاب « ميلودرامى » ألقاه أمام عدد قليل من سكان بيرايوس - الميناء الذى سمعت « الصرخة » فيه قبل أعوام . . وفي خطابها الذى القته في نهاية عام ١٩٦٦ قالت « أن أهل بيرايوس وعمالها الفقراء بحاجة الى من يقدر مشاعرهم ويتفهم مشاكلهم . انني أسعى الى التعبير عن هؤلاء ! »



● ميليناميركوري

ولكن آمالها السياسية سرعان ما تعرضت للتهديد الحقيقى عندما أعلن العسكر انقلابهم فى عام ١٩٦٧ . الأمر الذى يدفع بميلينا الى الهجرة المؤقتة واعلان الحرب على « العصبة العسكرية الحاكمة » .. المخرج اليونانى الأصل كوستاجا فراس أخرج فيلما بوليسيا سياسيا عن عصبة الكولونيلات بعنوان « زد » (ومعناها باليونانية انه حى) والموسيقار اليونانى ميكيس ثوراداكيس هاجر أيضا وشن حملة واسعة من أجل عودة الديمقراطية الى اليونان ..

وكان ثمن « ثورة » ميلينا هو اعلان رسمى صدر عن حكومة الكولونيلات باعتبارها « عدوة للدولة » ، فصودر جواز سفرها وسحبت منها جنسيتها اليونانية ، الأمر الذى قطع تماما جسر عودتها الى بلادها طالما ظل الكولونيلات فى الحكم ...

مقعد فى البرلمان

ولكن ميلينا لم توقف نشاطها السياسى . أوقفت نشاطها الفنى تقريبا . وبالتأكيد لم تمثل أفلاما منذ عام ١٩٦٩ . وتفرغت للعمل السياسى المنظم فى المهجر . ولم يقدر لها العودة الى بعد سقوط الكولونيلات فى عام ١٩٧٣ . فى العام التالى تقدمت للترشيح للبرلمان عن دائرة بيرايوس التى حلمت بتمثيلها . خسرت الانتخابات بفارق بسيط من الأصوات .. كانت ميلينا قد انضمت رسميا الى حزب الباسوك الاشتراكى لتنظيم عملها السياسى .. وبعد ثلاثة أعوام وبالتحديد فى نوفمبر ١٩٧٧ فازت ميلينا بمقعد عن بيرايوس فى البرلمان اليونانى ..

وبعد أربعة أعوام فى البرلمان هاهى ذى تنتقل من أحلام الأحد الذى صورته فى ميناء بيرايوس الى مقعد الوزراء حاملة حقيبة الثقافة والعلوم فى أول حكومة اشتراكية فى اليونان .. ولنتأملها الآن كما وصفها شاهد عيان عشية اعلان نتيجة الانتخابات ... ميلينا تجلس على مقعد هزاز أمام شاشة التلفزيون . خلفها ملصق يمثل انتصار حزب الباسوك . الأصدقاء القدامى يفدون الى داخل غرفتها للتهنئة بفوز الحزب . التلفزيون قبل الأخبار يعزف موسيقى فيلم « ممنوع فى يوم الأحد » ... وبقليل من السخرية الدرامية نستطيع أن تدرك أن نجاحها الوشيك لم يكن ممنوعا فى يوم الأحد .. فاليوم أحد والأخبار تعلن أن ماريا أماليا ميركورى قد عينت وزيرة الثقافة والعلوم فى حكومة أندرياس باباندريو . قالت ميلينا فى فرح « ميلودرامى » : الا ترون أن يونان سعيدة ...

بامكاننا الآن أن نتوجه جميعا الى شاطىء البحر .... »

اليوم يوم أحد ، وهى فى السادسة والخمسين تحقق أحلام الأحد ... أهل بيرايوس الذين أحبوا أفلامها وأحبوها يخشون أن تتساهم حين تتسلم الحقيقة غدا .. الاثنين ... ولكن زوجها جولزداسين يتذكر : « لقد كنت مع أندريه مالرو يوم تسلم الحقيبة . لقد تلفت وقال : يا لله .. ماذا عساى فاعل بهذا الشىء الآن .. ان ميلينا تسأل نفس السؤال اليوم » ....

ولكن ميلينا فنانة . وهذا يعنى أنها قادرة على الحلم . ففى وزارتها فوجئت بثلاثة آلاف موظف لم يتسلموا رواتبهم منذ ثلاثة أشهر ... وهى تحلم بأن تنشر الثقافة خارج أثينا وسالونيك بل وتحلم بمضاعفة ميزانية وزارتها ثلاثة أضعاف ... بل هى قادرة على أن تعلق على زميل مهنة ... كان ممثلا مثلها وصار رئيسا لدولة كبرى ... رونالد ريجان : « كان ممثلا سيئا بأيديولوجية سيئة، ولكنها تستدرك بدبلوماسية .. » أعنى كان ممثلامتوسط القيمة ولكن بايديولوجية سيئة » .

قليلون هم الممثلون أو الممثلات اللواتى تسنح لهن الفرصة أو على الأقل أن يكن مع موضع تحقيق الحلم ...

سائرات على الدرب

سبقت ميلينا على هذا الدرب - درب الحلم والعمل السياسي - كثيرات . هذا مادمنا نتحدث عن النساء السياسيات ، طفلة الثلاثينات والاربعينات المعجزة شيرلي تمبل هجرت السينما بعد ان كبرت لتلتحق بالسلك الديبلوماسي لبلدها كسفيرة للولايات المتحدة ... فانيسا ردجريف التحقت بحزب العمل البريطاني في مطلع الستينات كفترة لا تزيد عن ستة اشهر قبل ان تهجره لفترة

طويلة . وفي عام ١٩٧٢ التحقت بحزب العمال الثوري وما تزال ترشح نفسها عن دائرتها في مانشستر كلما سنحت لها الفرصة ابتغاء الحصول على مقعد في مجلس العموم البريطاني . وتحاول فانيسا ان توحد مجرى عملها السياسي والفني لكي يؤثر كل جانب في الآخر .

جين فوندا تزعمت منذ نهاية الستينات حملة شعبية ضد حرب فيتنام وسمحت بالاشتراك مع زوجها توم هايدن مجموعة الحملة من اجل السلام في الهند الصينية » . وبعد انسحاب القوات الاميركية من فيتنام واعلان توحيد فيتنام وجهت اهتمامها صوب الاسلحة النووية وقضايا اجتماعية اخرى . ولهذا الغرض انتجت ثلاثة افلام : الاول عن فيتنام وهو « العودة الى العطف » ، والثاني عن محطات القوى النووية وهو « المرض الصيني » ، والثالث عن وضعية المرأة المعاصرة في المكاتب وهو خمسة الا تسع دقائق » . . .

ومنذ شهرين اسست جين فوندا تجمعا سياسيا جديدا عنوانه « الحملة من اجل الديموقراطية الاقتصادية » تقدم من خلاله تصورها لتحقيق الديمقراطية الاقتصادية في الولايات المتحدة . . .

هذه مجرد امثلة للنساء السياسيات طبعا . لا يمكننا مناقشتهن كظاهرة محددة المعالم . فهن كغيرهن في قطاعات اخرى نسوة مسيسات . ولكن ساحة الضوء التي يسرن فيها كبيرة . . ومساحة حركتهن بالناس اوسع . . هذا هو كل ما هنالك . . .

واذا لم يكن رونالد ريجان اول ممثل يصل الى رئاسة الجمهورية ، فان ميلينا اول امرأة سياسية فنانة تصل الى مقعد السلطة التنفيذية . ويستطيع المرء ان يقول في هدوء ! والآن . . . لقد مضت احلام الاحد . . . وامام ميلينا « اثنين » طويل جدا مع فرصة نادرة لتحقيق آمال البنت الايام انها لم تكن اضغاث احلام . ■■

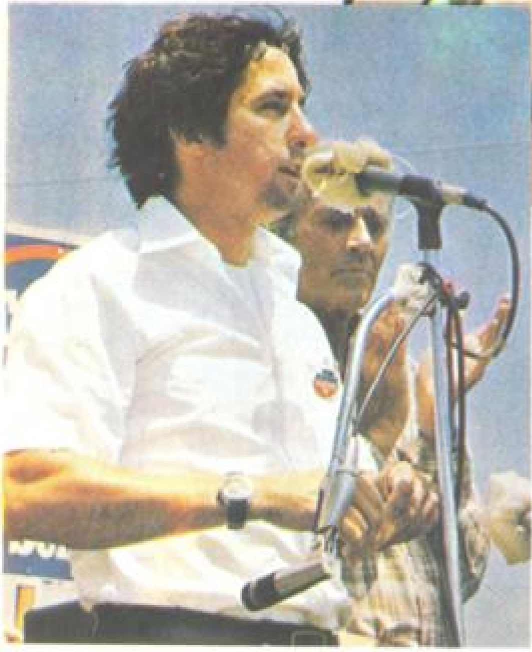
فاروق عبد العزيز

ـ فانيسارد جريف : سبقت كل نساء الفن المسيسات تقريبا . بدأت وهي في اوج نجوميتها في مطلع الستينات . واليوم هي عضو اللجنة المركزية لحزب العمال الثوري ومرشحه من مانشستر ومناصرة مقاتلة لقضايا العرب .





ـ جين فوندا : اكتشفت ذاتها على مشاعل الحرب الفيتنامية .. اسست حركة العمل من اجل السلام في الهند الصينية في مطلع السبعينات . وحاولت بعد انتصار الفيتنام ان تتسع بآفاق حركتها لتعالج قضايا اخرى في المجتمع الاميركي مثل المفاعلات النووية ووضعية المرأة ... وهي تسعى الى توحيد عملها السياسي بابداعها الفني واست اخيرا حركة الديمقراطية الاقتصادية لتكون تعبيرا سياسيا عن افكارها .



ـ توم هايدن : زوج جين فوندا الذي شاركها تأسيس حركتها منذ عام ١٩٧٢ يفضل البقاء في الظل لانه يعتقد ان زوجته « اقدر » على معالجة هذه الامور السياسية .

مقالات وكلمات

■ كل مزاج يجب أن يكون قصيرا .. وكذلك كل جد

فولتير

■ عندما يكون الشيء مثيرا للضحك .. فابحث جيدا حتى تصل الى الحقيقة الكامنة وراءه .

برنارد شو

■ الطاغية الوحيد الذى أتقبله فى هذا العالم . هو ذلك الصوت الهامس الذى يتردد بين جوانحى .

غاندى

■ الشخص الذى له حق الانتقاد .. هو الشخص الذى يمتلك قلبا راغبا فى المساعدة .

ابراهام لنكولن

■ ليس هناك منظر يبدو لنا أكثر كآبة من الصواب .. عندما لا يكون فى جانبنا .

لورد هاليفاكس

■ احب دائما أن أستمع الى انسان يتحدث عن نفسه ... لأننى لن أسمع عندئذ الا أشياء طيبة .

ويل روجرز

■ اسم الرجل أو المرأة الحسن جوهرة روحيهما .

شكسبير

■ ليست الألقاب هى التى تكسب الناس المجد ، بل الناس هم الذين يكسبون الألقاب مجدا .

ماكيا فيلى

■ ما دامت هناك حياة فهناك أمل .

شيشرون

■ حتى صداقة الأعداء تخفف من وقع البلية .

كالديرون

■ لا تقلد الأشرار لأنهم كثرة ، ولا تمقت الكثرة لأنهم لا يشبهونك .

سنيكا

■ حذار من النساء الجميلات يا صديقى .. فعندما تبدأ رقتهن .. تبدأ عبوديتنا .

فكتور هيجو

■ قد تعد المرأة عجز الرجل عن التخلص منها .. نوعا من الحب .

باكون

■ تجنب حب المرأة .. ولا تخف من كراهية الرجل .

سقراط

وقومنا بلا عيون . . .

مثل جذوع النخل منخوبون .



اليمن
في ديوان شاعر يمني معاصر

بقلم : احمد محمد عطية

اليمن بلد التراث والاساطير والملاحم والسير الشعبية والشعر ، الذي زود الحضارة العربية والثقافة العربية باصول كثيرة من الفنون الادبية والتمثيلية ، من الحكاية والقصة والرواية والملحمة الى الشعر الفصيح والشعر العامي والشعر التمثيلي والحوار الشعري . ولم تتوقف اليمن عن الابداع الفني في احلك عصور الاستعمار والامامة والقهر ، بل كان الادب والشعر بوجه خاص وسيلة التحدي واداة التعبير عن صراع الشعب اليمني مع قوى الظلم والتخلف والاستبداد وطموحاته للتغيير الحضاري والسياسي والاجتماعي .

ومع ان « اليمن بلد الشعراء » الا انه ظل مظلوما ، اذ ان شعره « منشور ولكنه غير منتشر خارج اليمن ، لم يقدمه النقاد المتخصصون الى الشرائح العريضة من قراء الشعب العربي » كما قال احمد بهاء الدين في حديثه الشهري بالعربي (مارس ١٩٨١) . والحق ان هذا الظلم ينسحب على نتاج الادب العربي الحديث في كثير من الاقطار العربية . فقد تكونت مناطق مجهولة من الاعمال الادبية المغفلة نتيجة للفواصل والحواجز المتعددة التي وقفت في سبيل تداول اعمال الادباء العرب على امتداد الوطن العربي ، بدءا من الحدود المصطنعة والنظرة الاقليمية التي تحصر الادب داخل كل قطر ، مرورا بقيود الجمارك والرقابة ، وانتهاء بالخلافات السياسية العربية .

والشعر اليمني الحديث شعر سياسي يمثل بلدا يرنو للتغيير ، وترتبط بداياته في أواخر الثلاثينيات وأوائل الاربعينيات بظاهرة سياسية واجتماعية هامة في التاريخ اليمني ، هي ظاهرة الهجرة والفرار الى خارج اليمن . اذ اضطر عشرات الآلاف من اليمنيين الى الهجرة من اليمن ، في ظل حكم الامامة المتخلف البشع « فرارا من الظلم وبحثا عن العمل » ، كما يقول الدكتور عبد العزيز المقالح في كتابه « الابعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن » (ص ١١) ، وذلك بعد سقوط آخر واجهة حضارية للسيطرة العثمانية الىر تحقق استقلال اليمن عام ١٩١٨ ، الذي لم يكن استقلالا بل عزلة عن الحضارة وطغيانا من الحكام الجدد . وارتبطت بدايات الشعر اليمني الحديث مع بدايات حركة الهجرة اليمنية ونشوب الحرب العالمية الثانية وتحديات مواجهة الطغيان والتخلف والتحجر ، الذي دفع حكم الامامة الى محاربة الشعر اليمني الحديث ويصر على تكريس القصيدة التقليدية منكرا كل تجديد في القصيدة اليمنية الحديثة ، حتى صارت العصرية في الشعر جريمة تسفك من اجلها الدماء ، كما جاء في تهديد مشهور لولي العهد « احمد حميد الدين » قائلا « انه سوف يروي سيفه من دماء العصريين » . (المرجع السابق ص ٤٤) وكانت تهمة العصرية قناعا لتهمة الجماهيرية ، اذ روع حكام الامامة من انتشار الشعر اليمني الحديث وتبشيره بالتغيير والتقدم وارتباط الجماهير به وبشعرائه .

وكانت تلك بدايات التحدي التي واجهها الشعر والشعراء في اليمن . فقد انفض الشعراء من مجلس الامير حميد الدين « واعتبروه كأبيه الامام مستبدا متخلفا » . وشحن هذا التحدي الشعر اليمني بالوطنية والالتزام السياسي والدعوة للتغيير ، وطور قصائده من ابواب الشعر التقليدية ورؤاه القديمة الى تجديد بنية القصيدة وصورها ورموزها وايقاعاتها وموضوعاتها السياسية والاجتماعية التي صارت تشكل « ثلاثة ارباع حجم الشعر المعاصر في اليمن » كما ذكر الدكتور المقالح في دراسته عن الشعر المعاصر في اليمن .

ويمثل الشاعر اليمني الدكتور عبد العزيز المقالح الشعر اليمني الحديث اصدق تمثيل ، اذ تتجسد في شعره كل مميزات هذا الشعر السياسي العربي المتجدد الغني بالايحاءات والرموز التراثية والعصرية . ويضيف المقالح اليه تجديدا في شكله معمقا صورة اليمن قضيته الأثيرة وهمه الاكبر ومنظاره الذي يرى من خلاله العالم ، ومحبوبته الوحيدة التي لا يكف عن التغني بها وابداع الشعر من اجلها .

الشاعر والناقد

فالدكتور عبد العزيز المقالح صوت شعري مميز ، ينضم بجدارة الى ابرز وجوه حركة الشعر العربي الحديث . وهو شاعر عربي يستوعب تاريخ امته وشعبه وبلده ، ويعبر عن الضمير الجمعي العربي وعن معاناة وطموحات الانسان العربي في اليمن لمستقبل عربي افضل ، ويضيف الى الشعر العربي نهجا شعريا عربيا جديدا واصيلا بابداعه لمركب شعري جديد يبتعد عن التغريب ، ويمزج بين التراث والمعاصرة ، فيخلق رموزه العربية الشفافة من خلال تضمين قصائده الأساطير والشخصيات المأخوذة من التراث العربي والتراث الشعبي اليمني والتاريخ النضالي للشعب العربي في اليمن ويشحنها برؤى ومضامين عصرية ، مما حمل كلماته الشعرية « وقصائده وصوره بأبعاد اسطورية وتاريخية وتراثية وعمق تجربته الشعرية ، وقدم انموذجا فذا لاحياء التراث العربي وتوظيف ايجابياته في خدمة المعاصرة ووصل الماضي العربي بالحاضر العربي .

كتب د . المقالح خمسة دواوين شعرية هي : « لابد من صنعاء » ، « مأرب يتكلم » ، « رسائل الى سيف بن ذي يزن » ، « هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي » و « عودة وضاح اليمن » ، وقد ضمها مؤخرا في ديوان كبير اظهر تكامل تجربته الشعرية وجسد صوت الشاعر المميز وقضاياه المحورية الأثيرة وطرق ادائه واساليبه الفنية الحديثة .

والمقالح شاعر سياسي ، كأغلب الشعراء المحدثين في اليمن ، يؤمن بان الشعر « هو صوت ضمير الشعب والشاعر » كما قال في مقدمة ديوانه الاول . وهو ايضا ناقد سياسي واجتماعي يجمع في دراساته النقدية بين المناهج الاجتماعية والتاريخية والفنية ، فهو يعني بالعمل الادبي « كواقعة اجتماعية وتاريخية » قدر عنايته به « كوثيقة فنية » كما قال في دراسته للشعر اليمني المعاصر ، وهي اول دراسة جامعية عن الشعر اليمني الحديث ومراحل تطوره ، نال بها الشاعر رسالة الماجستير من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤ . كما حصل على الدكتوراة في اطروحته عن « شعر العامية في اليمن » سنة ١٩٧٧ ، وغادر اثرها القاهرة عائدا الى اليمن ليترأس مركز الدراسات اليمنية

بجامعة صنعاء ، بعد ان امضى زهرة سنوات شبابه في القاهرة مندوبا لبلاده في الجامعة العربية حتى عام ١٩٦٧ ، ومتفرغا لدراسة الادب ونقده ومواصلا الابداع الشعري حاملا اليمن في قلبه وفكره ووجدانه ، محتضنا الابداعات اليمنية في الشعر والقصة والرواية ، عاملا على نشرها والتعريف بها في حب حقيقي لليمن وكل ما هو يمني .

فاليمن هي محبوبته الوحيدة وحلمه الدائم . ليس في ديوان الشاعر عبد العزيز المقالح اغنيات حب او قصائد غرام كسائر الشعراء ، انما توجد اناشيد حب لمعشوقته الوحيدة اليمن . . . وحتى في قصيدته الغرامية الوحيدة « بطاقة اليها » فانه يعبر عن هموم اليمن ويحملها وينطلق منها ، ويعلن فشله في الوصول الى تلك الحبيبة الشخصية بسببها ، مع انه يحمل لها كل تراث الحب العربي ، غير انه معذب صامت فقير بين العشاق الصاخبين المتخمين ، لانه قادم من بلاد القات والقيد والسجن ، فلا يملك لها عطرا ولا نفطا ولا ذهبا ، وعبثا يقول لها ان صحنه ابلغ من كل الخطب . فترد على لسانه صور اليمن الصادقة الغاضبة في قصيدته حبه الفريدة . وتظل اليمن الحبيبة الوحيدة المسيطرة على شعره ، منذ ديوانه الاول « لابد من صنعاء » الى احدث دواوينه « عودة وضاح اليمن » ، المحبوبة واحدة والصور متعددة والابعاد وفيرة وعميقة ، بعمق التراث اليمني وثراء الواقع اليمني وجدلية العلاقة بين بيت الذات الموضوع ، والامتزاج بين الخاص والعام .

لابد من صنعاء

جاء الديوان الاول للمقالح بعنوانه وقصيدته الافتتاحية « لابد من صنعاء » ترجمة شعرية لمشاعر الشاعر نحو صنعاء المدينة والرمز لليمن كلها ، وتعبيرا عن مشاعر الحنين والغربة والتوق للعودة الى صنعاء جديدة واليمن الجديدة التي يحلم بها الشاعر وسواه من المهاجرين والمغتربين اليمنيين في منافي المشرق والمغرب بعيدا عن صنعاء واليمن ، فلا مفر من العودة الى صنعاء وان طال السفر :

يوما تغني في منافينا القدر
(لابد من صنعاء وان طال السفر)
لابد منها . . حبنا . . اشواقها
تدوي حوالينا الى اين المفر ؟

ويظل حلم العودة الى صنعاء يتحدى واقع المنافي ومعوقات سفن الرحيل ووخز ابر الشاطيء اليمني .
هكذا يركب الشاعر مفردات قصيدته « لابد من صنعاء » ويصوغ صورها الواقعية ، محاولا البعد عن التعبيرات التقريرية المباشرة ، الا انه لم يوفق في تجنبها في بداية رحلته الشعرية ، كما اسرف في استخدامه لبعض المفردات والصيغ المكررة « كلحن الغربة » و « تسمر القيد » و « الصبح الاغر » و « زيف الصور » ، وغيرها من الكلمات الكليشيهية . اذ كان الشاعر يخط كلماته الشعرية الاولى ، ولم يبدع بعد كلماته الجديدة وقاموسه الشعري الخاص . فطغت الخطابية على قصائد ديوانه الاول نتيجة لحماسته لثورة اليمن ، فهو من ابرز شعراء الثورة ، استقبلها بقصائده الثورية الحماسية التي بثتها اذاعة الثورة منذ لحظاتها الاولى ، لبداية تجربته الشعرية وتغلب مفهومه السياسي للشعر . فهو يمجد الثورة والاستقلال ورجال الثورة ويهاجم خصومها بأكثر الكلمات ثورية وعنفا ومباشرة .

واذا كان الشاعر يوجه بعض قصائد ديوانه الاول الى عبد الناصر وسميح القاسم وام هاشم وسواهم من ابطال العروبة والاسلام ، الا انه يوميء من خلالهم الى اليمن ولا يبتعد عنها . فهو يحذر الشاعر الفلسطيني سميح القاسم من مغادرة فلسطين المحتلة فقوته في ارضه وفي سجنه ، ومن ثم يوميء الى خطأ الهجرة اليمنية عن ارض اليمن ، في قصيدته « مكانك قف » . وهو يرى عبد الناصر ذلك الذي قال لليمنيين انتم بشر ، والذي صاح في الاطلال « ثوري » ، « تحركي » فثارت الاحجار والشجر وثارت اليمن ، وان « جيشه القادم هو جيش صلاح الدين » وان الشاصر قد عاد من حطين ، وان الشمس العربية غمرت ليل بلقيس ، في قصيدته « فوق ضريح عبد الناصر » و « رحلة شمس » . كما جاءت السيدة زينب « ام هاشم » « ام الاحرار » تحمل النيل قناديلها من الزيت الاخضر عبر البحر الاحمر ليزرعه في الاحضان اليمنية ، وهي من الصور التشكيلية المعبرة عن دور مصر في اليمن ، وعن ثورة اليمن ، في قصيدته « تحت قنديل ام هاشم » . فالشاعر لا يبتعد عن اليمن وهو رغم المباشرة والحماسة ، يمزج قضية اليمن بقضايا الوطن العربي كله برؤية قومية واعية ظلت تلازمه وتميز شعره منذ اصدر ديوانه الاول .

مأرب يتكلم

في ديوانه الثاني « مأرب يتكلم » - الذي اصدره المقالح بالاشتراك مع الشاعر اليمني عبده عثمان - يشيد الشاعر

بناء عالمه الشعري الجديد ، وتتقدم صور اليمن نحو الاغتراف من التاريخ اليمني والتراث اليمني وتمزج بينها وبين رؤية الشاعر للواقع اليمني المعاصر . فلا يبتعد الشاعر عن يمنه ، ولا يتخلى عن رؤاه السياسية والاجتماعية والحضارية ، ولكنه يدمجها في مركب شعري جديد مشحون برموز التاريخ والتراث والأساطير الشفافة والمعبرة . ويقطع شوطا اكبر في طريق التخلص من فيض الحماسة المنبرية والتسطيح السياسي المباشر ، كما يظهر في كلمات وابيات قصيدته « مأرب والفأر والانسان » .
فيسقط الشاعر احداث سد مأرب المنهار ، المعروفة ، على الواقع اليمني المتخلف المنهار ، ويعيد تركيبها فيبعثها ويحييها في رؤية عصرية جديدة ، يقارن فيها بين التقدم الحضاري في العالم ، الذي وصل الى القمر وقاد النجوم ، والتخلف اليمني القابع على جدار سد مأرب المنهار ، حيث يقود الفأر اليمن الجريحة والشعب الممزق من الرجال الجوف المنخوبي العيون لا يرون ، كالنخيل الاجوف ، يرضخون لقهر السيف او يهاجرون هاربين .

هكذا تتشكل لوحة اليمن المتخلفة المقهورة وتتجسد ابعادها البشعة من مفردات وكلمات تجمع بين وقائع التراث اليمني ودروس التاريخ اليمني ومعطيات الطبيعة اليمنية ، تصاحبها رؤية سياسية ترفض بعنف بالغ مكونات تلك اللوحة الكئيبة التي يقدمها الشاعر في صياغة شعرية ذكية تدعو الى الرفض وتتصاعد دراميا بالمتلقي نحو ضرورة الثورة ، التي يرمز لها الشاعر بالسيل الذي يتمنى عودته ليطيح بكل صور الواقع المتخلف المقهور . فالرمز بسيط وشفاف وقريب من فكر اليمني ووجدانه ، ومن ثم فان اسقاطه على الواقع ومزجها معا برؤية الشاعر ومنظوره السياسي يضيء قصيدته ويسهم في توصيل شعره دون افتعال رموز اجنبية غامضة وغريبة عن الوجدان العربي . ويشحن جماهير المتلقين بالوعي والثورة دون ان يردد كلماته الاولى المباشرة او يسقط في الخطابية والحماسة المنبرية :

تقيحت افكارنا ، تقيح النهار
على جدار سدنا المنهار
ومنذ هاجرت رجاله
وودعت حزينة ديارها
في رحلة بلا قرار
ونحن تائهو الخطى
يقودنا فأر
ويستبيح عرضنا والوطن الجريح فار
وقومنا بلا عيون
مثل جذوع النخل منخوبون
صابرون
نقبل السيف الذي يذبحنا
ونعبد الجزار
لكم تمنيت لو ان (سيلا عارما) يمر من هنا
يزورنا للمرة الاخرى
يحمل ما تبقى من نخيل
يسوق مشفقا
ما ابقت الايام من رجال
ويغسل الجبال من احزانها

ويغرق الاطلال

سيف بن ذي يزن

وفي ديوانه الثالث « رسالة الى سيف بن ذي يزن » ، تتعمق صورة اليمن الشعرية ويتبلور من خلالها صوت الشاعر واسلوبه المتفرد المميز في احياء التراث العربي اليمني وتوظيفه في خدمة الواقع اليمني المعاصر وتثويره وتحديثه وتقدمه . فينتقي الشاعر من التراث اليمني شخصية « سيف بن ذي يزن » ، ذلك المناضل اليمني المعروف في التاريخ اليمني وفي التراث الشعبي العربي ، كمحارب صلب ضد الاحتلال الحبشي لليمن . ويصوغ الشاعر هذه الشخصية التاريخية صياغة شعرية ملحمية درامية تعيد بعث تلك الشخصية الثرية الموحية ، فيمتزج الرمز بالاسطورة والتراث الشعبي بالواقع المعاش المعاصر ، ويستمد الشاعر من شخصية سيف اليمنية التراثية شهادة ودرسا بامكانيات الشعب العربي في اليمن للنضال من اجل الحرية والحضارة والتقدم ، ويومىء من خلالها الى يمنه الاثيرة ، التي يبدع من اجلها شعره ويجدده ويصله بينابيع التراث العربي واصول الحضارة العربية .
وتتجلى صور اليمن واسلوب الشاعر المميز في مجموعتين من القصائد عنونها الشاعر بـ « رسائل الى سيف بن ذي يزن » و « يوميات سيف بن ذي يزن » .

فتتخلق صورة اليمن عبر تلك الشخصية المعروفة في السيرة الشعبية ، ونطالع تنويعات ثرية على لحن سيف بن ذي يزن ، المهاجر المنفي ، والبطل المناضل ضد الاستعمار الحبشي ، والفارس الأمل في تحرير اليمن وتقدمه ، ويعيد الشاعر صياغة احداث سيرة سيف بن ذي يزن ويومىء من خلالها الى معاناة اليمن المعاصرة ، فيعبر الشاعر عن معاناة المنفى اليمني وعن ضرورة العودة

الى الحبيبة اليمن او « منية النفوس » حبيبة سيف في الاسطورة الشعبية ، اليمن السجينة التي تنتظر ـ سيف ـ البطل والرمز والثائر المخلص لليمن العروس السجينة ، فتمتزج الاسطورة بالواقع لتشكل بالرمز صورة اليمن الشعرية :

حزني عليك
تنطفىء على جبينك الاعوام
وفي المنافي تذبل الاحلام
تنكسر الاقمار في عينيك والشموس
وتورق الدموع ، تثمر الآلام
وفي مدينة الظلام
تذرع ليل الارض باحثا عن « منية النفوس »
« وفية النفوس » ها هنا في الدار
تنسج ثوب العروس في سجونها
تصارع الكابوس
تنتظر الثوار

وضاح اليمن

ويتصاعد تصوير الشاعر لليمن بابداع صوره فنيا وموضوعيا في احدث دواوينه « عودة وضاح اليمن » . ليتطور الشكل الفني في قصيدة « عودة وضاح اليمن » نحو القصيدة المدورة ، القريبة من قصيدة النثر ، ولكنها تتميز بتلاحق صورها وايقاعاتها الموسيقية ووحدتها العضوية وكثافتها التعبيرية . وينتقي الشاعر من التراث اليمني شخصية « وضاح اليمن » الثرية ، وهي شخصية اسطورية لشاعر يمني نسجت الاساطير حول قصة حبه لروضة محبوبته اليمنية التي حالوا بينه وبينها ، فهاجر من اليمن ثم عاد اليها ليلتقي بحبيبته ويفاجأ بانها اصيبت بمرض الجذام الخطير المعدي ، وحول قصة حبه الاخرى لام البنين زوجة الوليد بن عبد الملك . ومعروف ان الرواة اختلفوا حول شخصية وضاح اليمن ونشأته وقصص حبه بل وتشككوا في وجوده اصلا ، حتى ان طه حسين ، (في كتابه « حديث الاربعاء » ج ١ ط ١٢ ص ٢٣٥) ينكر وجوده ويقول ان شخصيته هي « من اختراع الشعراء اليمانيين » وان شعره منتحل انتحالا ، ولكن قصة غرامه بروضة هي التي استأثرت باهتمام طه حسين ووجد فيها موضوع مأساة موسيقية حديثة او اوبرا عصرية .

ويأتي الشاعر اليمني الحديث عبد العزيز المقالح ليحقق رؤية طه حسين ويحيي مأساة وضاح اليمن وروضته ، ويتقمص شخصية الشاعر محاورا « روضه » او اليمن الحبيبة والرمز والواقع . مكتفيا باسلوبه التعبيري القصة التراثية محملا كلماته ومفرداته ايماءات وايحاءات عصرية ثرية مازجا الاسطورة بالواقع ، متخطيا الصياغة الشعرية التقليدية والتصوير الفوتوغرافي والسرد النثري والتقريري ، في حوار تمثيلي جديد يدور بين وضاح اليمن وحبيبته روضة لدى عودته من هجرته ، وهو حوار بين الشاعر المهاجر وحبيبته اليمن . فيتحدث الشاعر عن وحدته وضياعه في الغربة والنفي وحنينه للعودة الى الحبيبة . وتلومه الحبيبة لتركها وحيدة منبوذة جائعة وحولها مئات الموائد وينكر الشاعر متألما هروبه ، ويتفانى في تصوير حبه للحبيبة اليمن بارق الكلمات واعذبها :

« أأهرب عنك ؟ وانت نصيبي من الارض والشمس والقمر المتلألىء في وطني واغترابي ، ولون اكتئابي وضحكي ، وبيتي ومقبرتي وسحابي .. تحت جلدي تعيشين ، نبكي معا ونصلي ، نجوع ونعري .. يضبطنا عسس الليل والمخبرون فاكتب اسمي واخفيك تحت دمي ... »

وتشكو روضة ، الرمز والقناع ، من مرضها وجذامها الذي يأكل لحمها ، وتسأل ـ وضاح ـ الشاعر ، الاسطورة والواقع ، هل افته « ام البنين » عن حبها . فينفي الشاعر ايحاءات روضة الحبيبة الرمزية والواقعية بنسيانها او هجرها او خيانة حبها فهو لا يحب احدا سواها ، معبرا عن غربته في وحدة الهم العربي . « لا وعينيك ياروضة الحب ، ما خنت عينيك ، بل كنت مغتربا رهن صندوق يحمله الفقر والجوع والخوف ، عبر شوارع بغداد ، في ترب النيل ، بين قرى الشام ، ابحث عن هدهد يتعرف حزني يدل على محنتي وانكساري . وكانت دموعي تغنيك ، تكتب شعرا يناجيك ياروضة الحب ، ياأخت بلقيس يأأمها ، ياحفيدتها البكر ، ياشمسنا في الليالي ، ومصباحنا في الظلام البهيم » .

فيصل الشاعر عبد العزيز المقالح بقصيدته التعبيرية المدورة « عودة وضاح اليمن » الى ذروة تطوره الفني والموضوعي بابداع لغته الشعرية وقاموسه الشعري مكملا صوته الشعري الخاص والمميز ، مطورا شعره الى دراما عصرية تغترف من تراث اليمن العربي الاصيل ، وتعبر عن حبه الأثير لليمن .

القاهرة ـ احمد محمد عطية

أسرة اللغة العروبية "السامية"

تقدمت الدراسات اللغوية في عصرنا حتى بلغت من السعة والعمق ما لم تبلغه قبل ، وقد كادت تستوعب كل اللغات الدائرة والحية ، وكان من أثر ذلك أن قسم العلماء اللغات أسرا على وفق القرابة بين بعضها وبعض ، في نظمها الصوتية ، والنحوية ، والصرفية ، والمعجمية ، أو أصول الكلمات .

وقد ظهر ان أعظم الأسر اللغوية ثقافة وحضارة في التاريخ : الأسرة الآرية (الهند جرمانية) والأسرة العروبية التي سميت (السامية) خطأ وتضليلا كما سنبين .

أما الأسرة الآرية فتنتمي اليها معظم لغات الغرب ، ولغات أخرى .

وأما الأسرة العروبية فتنتمي اليها اللغات التي شاعت في قلب العالم القديم وأهمها اليوم لغتنا العربية ، وقد اندثرت معظم هذه اللغات ، ولكن الحفريات الاثرية مما قبل قرنين حتى اليوم في العراق والشام ومصر واليمن والاناضول ومواقع أخرى كشفت كثيرا من نصوص هذه اللغات فصار العلماء يقرءونها ، ويقارنون بينها ، ويعرفون قواعدها ، ويضعون لها المعاجم . ومن هذه اللغات الاكادية والبابلية والآشورية (العاشورية) والكنعانية والفونية (الفينيقية) والعبرية والآرامية (السريانية) ثم كشف العلماء منذ بداية هذا القرن عن لغات أخرى في شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها ، منها الأوجارتية والثمودية والصفوية في الشمال والمعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية في اليمن جنوبا .

وقد ظهر من دراسات هذه اللغات والمقارنة بينها في قواعدها وكلماتها - أنها ترجع الى أصل لغوي واحد ، بل ظهر انها كانت لهجات للغة واحدة ، وان أقرب هذه اللغات او اللهجات اليها هي لغتنا العربية التي يرجع الفضل في بقائها حتى الآن الى خصائصها العالية والى القرآن الكريم ، فانتشرت وتقدمت مع انتشار الاسلام .

وهذه اللغة الأم هي التي سميت (السامية) كما سميت اللغات المتفرعة عنها كذلك . كما ظهر ان الشعوب التي كانت تتكلمها تعود الى عنصر واحد ، ووطن واحد ، هذا الوطن هو الجزيرة العربية وهذا العنصر تنتمي اليه كل القبائل التي كانت تسكن هذا الوطن الذي لم يعرف له اسم يجمع كل أجزائه غير اسم واحد ، هو (بلاد العرب) وكان يتوطنه منذ آلاف السنين ، وخلال ذلك نما وتفرع قبائل وشعوبا وبقي بعضه في الجزيرة ، وهاجر معظمه الى البلاد الخصبة المجاورة ، بسبب ما حل به من قحط ، او بسبب الحروب بين القبائل ، فهاجر بعضها الى العراق (بين النهرين) وبعضها الى الشام ، ثم تسرب بعضها الى مصر وشمالي افريقية او هاجر الى اوربا قبل ان تصل اليها القبائل الآرية او بعد وصولها .

وأول من اطلق على هذه اللغات اسم السامية هو العالم اللغوي الالماني (شلوتزر) وذلك في اثناء دراساته للشعوب القديمة ولغاتها ، ليدل به على قرابة هذه الشعوب التي وجد ان التوراة تنسبها او تنسب بعضها الى سام بن نوح عليه السلام ، كما ينتسب اليهود أو العبرانيون اليه .

وحين نرجع الى النص التوراتي الذي اعتمد عليه « شلوتزر » نجد انه يذكر اسماء شعوب لا تربطها وشيجة نسب بشعوب الجزيرة العربية ، سواء من استقروا بها ، او من هاجروا منها ، فهو يعد منها مثلا « العيلاميين » و « الليديين » وكان الأولون يقطنون قديما الى الشرق من العراق ، والليديون يقطنون الى الشمال منه ، كما ان النص التوراتي يخرج من هذا النسب شعبا كالكنعانيين لا شك اليوم في أنه من شعوب الجزيرة العربية . وكانت نظرة التوراة في هذا التقسيم بين من هم من نسل سام ، ومن ليسوا منه - نظرة سياسية على هوى اليهود او

بقلم : محمد خليفة التونسي

العبرانيين في عصر تدوين التوراة ، اذ كانوا على علاقات حسنة بالعيلاميين والليديين فأدخلوهم في قرابتهم ونسبوهم معهم الى سام ، على حين كانوا على عداوة مع الكنعانيين كعداوتهم اليوم للفلسطينيين (خلفاء الكنعانيين في موطنهم نفسه من الشام) فأبعدوهم عن نسب سام كأنهم غرباء .

وقد يكون « لشلوتزر » عذر او عذران في استعماله كلمة السامية في الدلالة على هذه اللغات وشعوبها اولا : لأن اسم « سام » الذي تعده التوراة ابا لهذه الشعوب كان لشلوتزر النجدة العاجلة المناسبة لما يريد ، وثانيا : لأن دراسة هذه اللغات كانت في أوائلها فكان بعض هذه اللغات مجهولا كالمعينية والسبئية في اليمن وكالأوجاريتية في الشام ، ولم تكن قد اتسعت الدراسات المقارنة في هذه اللغات ولا بينها جميعا .

وكان علماء اليهود اول من فطن الى القرابة بين لغتهم العبرية وبعض لغات هذه الشعوب كالعربية والسريانية ، ومعروف ان كثيرا من المستشرقين « يهود » وهؤلاء هم الذين تمسكوا بكلمة (سامية) مصطلحا ، ليكسبوا توراتهم صبغة القداسة والعراقة ، وليزعموا بعد ذلك ان العبرية اصل هذه اللغات وأعرقها وأهمها جميعا ، وقد أضافوا كل هذه اللغات الى « سام » الذي يزعمون انهم من سلالته ، بل أتاح لهم ذلك ان يخصوا انفسهم باسم السامية والساميين حتى ان هذا الاسم في الغرب يطلق على اليهود وحدهم ، وحتى انه اذا ذكرت كراهية شعوبه هناك لليهود الذين يقيمون بينها - لتعاليهم عليها ، ومكايدهم ضدها - لم تدل تلك الكلمة الا على عداوة اليهود دون غيرهم من الشعوب التي تسمى سامية ، وكأنهم وحدهم هم الساميون ، مع ان من الراجح اليوم انه لا صلة نسب بينهم وبين هذه الشعوب ، بل هم دخلاء فيها ، وهكذا كانوا غرباء عنها منذ أيام موسى عليه السلام حتى اليوم .

مهما يكن من شيء فان هذه الشعوب تنتمي الى اصولها في الجزيرة العربية « والعروبة » كلمة جامعة لشعوبها وللغاتها ايضا فلماذا نحن - العرب - نتمسك بكلمة « السامية » وعندنا كلمة « العروبة » وهي اصدق دلالة على شعوبنا ولغاتها .

لقد ضاق بكلمة « السامية » كثير قبلي من علمائنا الاجلاء ، ولكن لا اعرف ان احدا منهم وضع كلمة جامعة تحل محلها في الدلالة فليتنا نستعمل النسب الى العروبة فنقول اللغات « العروبية » والشعوب « العروبية » للدلالة على هذه اللغات اللاتي هن شقيقات لغتنا من أمنا الوحيدة « العروبة » وللدلالة ايضا على اشقائنا في الموطن الاول وهو الجزيرة العربية قبل ان تفترق شعوبا ، فيقيم في جزيرتنا من يقيم ، ويهاجر منها من يهاجر ، وقبل ان تصير لهجات لغتنا الاولى لغات متمايزة ، لتطورها مع توالي الاجيال ، ولاختلاط المهاجرة منها ايضا بلغات غريبة .

لقد فطن بعض علمائنا قبل قرون الى أن بين اللغتين « الكنعانية » و « العربية » تشابها ، ومن هؤلاء الفيروزابادي من علماء القرن الثامن الهجري ، فهو حين تكلم عن (كنع) في قاموسه قال : « الكنعانيون امة تكلمت بلغة تضارع العربية أولاد كنعان بن سام بن نوح عليه السلام » ولم يبين احد من علمائنا وجوه التشابه ، وعذرهم ان الكنعانية لم يبدأ الكشف عنها الا منذ قرنين ، ولم يكن قد ظهر ان العبرية فرع من الكنعانية .

إننا لا نعرف عن « سام » هذا الا ما ذكرته التوراة من انه « ابن نوح » وما نسبته له من ذرية جعلتهم اصولا لشعوب . ثم تناقلت ذلك عن التوراة او عن اليهود افواج من المؤرخين الدينيين الذين كانوا يجهلون ما نعرف اليوم من حقائق عن هذه الشعوب ، فاحتضنوا هذه الاسطورة كما احتضنوا غيرها من أساطير يهودية ، وهذا ما يسمى في تراثنا الاسلامي بـ « الاسرائيليات » ولكن « العروبة » حقيقة تاريخية في دلالتها على موطن واحد محدد هو الجزيرة العربية ، وعلى امة سكنت هذا الموطن ، وعلى شعوب تفرعت منه ، وعلى لغة واحدة تفرعت منها لغات هذه الشعوب ، لهجرتها عن موطنها الى مواطن اخرى ، خالطت فيها شعوبا غريبة عنها . ولا عجب ان يرى علماء هذه اللغات ان أقربها الى اللغة الأم « العروبة » هي لغتنا العربية ، لانها ظهرت ونمت في قلب الجزيرة العربية ، واحتفظت بكثير من أصالة العروبة .

أفلا يكفي هذا عندنا لتجاهل كلمة « السامية » ، واحلال كلمات العروبة و « العروبية » محلها . اننا نعلم ان ترويج مصطلح بدل آخر من اشق الامور ، ولكننا من رواج كلمة العروبة و « العروبية » بدلا من « السامية » غير يائسين . ■■

جلجامش

طوفان ما قبل الطوفان

بقلم جمال الكناني

الكتب السماوية جميعها تكاد تتفق فيما تروي من قصص الانبياء عليهم السلام .. قصص نوح وموسى ويونس ويوسف وغيرهم تكاد ترد بنص واحد في التوراة والانجيل والقرآن .. ونحن نأخذ ذلك قضية مسلمة ، دون ان نجد فيه ما يدعو الى دهشة او عجب ، اما الذي يدعو الى الدهشة حقا فهو ان نعثر في مخلفات الادب السومري في العصر الالفي الثالث قبل الميلاد ، على ملحمة شعرية عن ملك اسمه جلجامش ، تروي قصة طوفان كطوفان نوح تماما ..

وقصة الطوفان الذي سبق طوفان نوح لا تتضح لسامع او قارىء لا يعرف قصة الملك جلجامش بتفاصيلها ، كما وردت في ملحمة شعرية دونتها اليانة هومر .

احداث ملحمة جلجامش تدور في العصر الالفي الثالث قبل ميلاد المسيح عليه السلام وشعر الملحمة من مخلفات الأدب السومري ، يروى ان ملكا عظيما اسمه جلجامش عاش في « ارش » او « اوروك» في بلاد ما بين النهرين وتربع على عرشها .. وملكنا هذا ليس كما نعرف من الملوك .. فثلثاه من صلب الالهة وثلثه الباقي من ظهر انسان ... امه كأم أشيل من بعده ، كانت الهة .. وورث منها جلجامش جمالا مفرطا وقوة .. وورث عنها القلق وعدم الاستقرار .. وورث عن ابيه الادمي ، انه كائن غير مخلد يجوز عليه الموت ... ومأساة الملحمة هي الصراع بين رغبات الالهة ، وقضاء الانسان وقدره ..

عندما دخلت حواء

كان جلجامش الملك يعرف كل شيء .. عرف بلاد العالم كلها .. كان عاقلا حكيما .. انكشف له سر الاشياء .. وهو الذي نقل الينا قصة سبقت الطوفان الذي ظهر في عصره .

في ارش (اوروك) بني جلجامش اسوارا واستحكامات ومعبدا (لانو) الهة القبة الزرقاء ومعبدا (لاشتار) الهة الحب .. طاف حول العالم فلم يجد خيرا من رجال ارش (اوروك) او اشجع منهم .. اما هم فكانوا يتهامسون في بيوتهم ويتحدثون عن « صلفه الذي لايهدأ ليلا او نهارا .. وعن شهوته التي لم تفلت من برائنها عذراء .. وكيف انه لم يترك في البلاد عشيقة لعشيقها ، فلم تنج منه لنبيل بنت أو زوجه ... ومع ذلك فهو راعي المدينة وهو عاقل مهذب ، ذو عزم وتصميم » .

وغضبت الالهة على جلجامش وقالت لآلهة الخلق « يا (اوروو) لقد صنعته وعليك ان تخلقي كفوا له ، يكون انعكاسا لشخصه .. يكون كنصفه الآخر ، اخلقي قلبا قويا عاصفا يتصدى لقلبه القوي العاصف » .. وتجسمت في خيال الالهة صورة فغمست يديها في الماء ثم قرصت بعض الطين ثم جعلته يسقط من يدها .. فكان (انكيدو) وله فضائل اله الحرب نفسه .. جسمه كان خشنا وشعره طويل كشعور النساء ، مموج كشعر (نسابا) الهة الحنطة .. جسم كان مغطى بشعر كثيف مثل جسم (ساموكان) اله الماشية ... ولم يكن فيه من الادمية شيء ... لا يعرف شيئا عن الارض او الزراعة ... كان يأكل العشب مع الغزلان ويقاسم الوحوش عيون الماء ..

رآه احد الصيادين ذات يوم فروع لمرآه ، وراح يشكو لابيه .. فقال له ابوه « يا بني في ارش (اوروك) ملك اسمه جلجامش ، لم يغلبه حتى اليوم مخلوق .. هو قوي



قوة نجوم السماء .. اذهب الى ارش (اوروك) وحاول لقاءه واشرح له قوة المخلوق الذي رأيت واطلب منه ان يعطيك واحدة من بنات الهوى من معبد الحب ، واترك لها امر هذا الوحش الذي رأيت ، علها تهزمه وتتغلب عليه باغرائها وغنجها .. دعها تتربص له عند العين التي يرتوي منها وهي عارية عن كل لباس ، فاذا رآها راح يحضنها فتنبذه الوحوش » .

واطاع الصياد اباه ولقي جلجامش وعاد ومعه بنت من بنات اللذة والهوى ... فلما رآها (انكيدو) بهره جمالها .. وقضت معه ستة ايام وسبع ليال ... فلما عاد الى اصحابه من الوحوش وجد انها قد انفضت من حوله وانها تفر منه هاربة ... ولم يستطع ان يتعقبها لانه كان يحس بضعف شديد .. فعاد الى بنت الهوى فأخبرته ان يصحبها الى ارش (اوروك) حيث جلجامش .. فقال « حسنا ... خذيني اليه الجداء والهبرة ... انا الذي ولدت فوق هذه التلال .. انا اقوى الجميع » .

ولقي (انكيدو) رجلا يجري في الغاب فزعا فسأله عما يخيفه ويفزعه فقال له الرجل ان جلجامش يتأهب للزواج ويسوم الناس عذابا .. فوعده (انكيدو) بأن يسرع الى ارش (اوروك) ليتحدى جلجامش .. ودخل ارش (اوروك) ودهش الناس لما رأوا ... قال قائل منهم انه صورة لجلجامش .. وقال آخر انه اقصر منه .. « وقال غيره » عظامه اكبر .. هو الذي رضع البان الوحوش .. هو لاشك كفو جلجامش » .

وتم اعداد سرير العرس . . . ووقفت العروس تنتظر عريسها . . . وسار جلجامش في اتجاه بيتها . . لكن (انكيدو) وقف في عرض الطريق يسده على جلجامش . . فتماسكا وتصارعا وزلزلت الارض زلزالها واهتزت عمد البيوت وجدرانها . ورفع جلجامش خصمه الى اعلى ثم طرحه على الارض . . وهدأت ثورة غضبه لما قال له (انكيدو) . . « ليس لك في العالم كله مثيل . . امك التي ولدتك رفعتك فوق هامات البشر » . . . وعانق جلجامش خصمه (انكيدو) وتصادقا وتحابا ما عاشا . .

ليس هناك ما نخاف

ورأى جلجامش فيما يرى النائم غابة واسعة فيها مخلوق قوي جبار يدخل الرعب في القلوب ويمثل كل ما في العالم من شرور . . فلما افاق من نومه قص رؤياه على صديقه (انكيدو) فاكد له ان الرؤيا صحيحة وان المخلوق اسمه (همبابا) ، وقد عينه الاله (انليل) حارسا على الغاب . . وانه مخلوق مرعب مخيف . . اذا زأر كان له هدير العاصفة ، انفاسه السنة لهيب . . وفكاه هما الموت نفسه . . فمن ذا الذي يجسر على اقتحام هذا الغاب وفيه هذا الحارس ؟

وعجب جلجامش من قول صاحبه وقال « يبدو انك تخاف هذا المخلوق . . كن مطمئنا يا صاحبي واترك امره لي » فقال « انكيدو » « لو كان لابد لمولاي من دخول الغاب . . فعليك اولا بالاله شماش (شمس) ، استأذنه لأن الغاب من ارضه » .

واستأذن جلجامش في دخول الغاب وقال للاله شماش « تأكد ايها الرب اني اذا مت هناك فلن اموت نادما على شيء . . . اما اذا عدت سليما فسأقدم القرابين شكرا للاله شماش » .

وراح جلجامش للحدادين يأمرهم ان يصنعوا السيوف والرماح والدروع . . واخذ الحدادون يصوغون سيوفا زنة كل منها ستون رطلا ، واعدوا (لانكيدو) قوسا ونشابا من خير ما صنع الحدادون .

واجتمع شيوخ المدينة وحكماؤها وتشاوروا فيما بينهم ، وقرروا ان يطلبوا من جلجامش العدول عن قراره وقالوا « همبابا ليس كالرجال الذين كتب لهم الموت . . . اسلحته لا يتصدى لها مخلوق والغاب الذي يسكنه طوله الف فرسخ » .

سمع جلجامش كلامهم ثم قال « كيف الجواب على هذا الكلام ؟ هل اقول اني أخاف همبابا ؟ الست اهلا لمثل هذه المخاطرة ؟ هل ابقى في عقر داري حتى ينتهي اجلي ؟ لا . . سأذهب الى الغاب لاستأصل الشر من منبته . . ثم . . ثم اصلي بعد ذلك للاله شماش » .

واتم الحدادون مهمتهم وحملوا السيوف والسلاح الى جلجامش وصحبه ، وبارك شيوخ المدينة بطلهم واوصوه بالحذر وهو ينازل عدوه ، وطلبوا منه السماح (لانكيدو) بان يتقدم الركب لانه يعرف الطريق كما سبق له ان رأى (همبابا) . . ثم قالوا (لانكيدو) « نوصيك بملكنا خيرا ارعه بعينيك وقلبك وروحك ورده الينا سالما » فقال (انكيدو) « الى الامام . . . الى الامام فليس هناك ما نخاف . . اتبعوني فانا اعرف اين يسكن « همبابا » . . ودعا الشيوخ لجلجامش وصحبه بالنصر والسلامة . . .

وسار جلجامش ومن معه صوب الغاب ، يطلبون العدو الذي يمثل كل ما في العالم من شرور ، وجرت للجماعة احداث واحداث ، لا مجال لسردها هنا ، قبل ان يدركوا الغاب . . فما ان وصلوا حتى بدأ جلجامش يقطع شجرة من اشجار الارز . . . فلما سمع همبابا صوت الفأس يحطم شجرة من اشجار الغاب الذي يحرسه ، غضب وثار . .

لابد من موت همبابا

وخرج (همبابا) من بيته الحصين المبني من شجر الارز . . واحس الملك ومن معه بخروجه فقال (انكيدو) « تقدم يا ابن ارش (اوروك) فليس هناك ما نخاف » . . واقبل عليهم همبابا كالوحش الضاري ، وركز نظراته الحمراء على جلجامش ، فتمتم الملك صلاة للاله شماش ، ودعا الريح والعواصف والزوابع والاعاصير والفيضان والرعد والبرق . . دعاها جميعا لتهب في وجه (همبابا) . . فوقع (همبابا) في قبضتها ولم يستطع حراكا . . وصاح جلجامش واقسم برأس امه وابيه ليدخلن بيت (همبابا) واخذ يقطع اشجار الارز التي تسد الطريق . . وتقدم (همبابا) وكأنه ثور وحشي نبيل مكتوف اليدين ، والدموع تنهمل من عينيه وقال « دعني اتكلم يا جلجامش . . ولدت ولا اعرف لي ابا او اما . . ولدت على سفح هذا الجبل ونصبني (انليل) حارسا على الغاب . . . أطلق سراحي . . أعطني حريتي اكون خادمك وانت مولاي وسيدي . . اقطع الاشجار بنفسي وابني لك منها قصرا . . » ورق له قلب جلجامش . . ولكن (انكيدو) حذره من غدر (همبابا) وكيده وقال « لابد من موت همبابا والا فلن نعود الى الوطن سالمين . . » فرفع جلجامش سيفه وضرب (همبابا) وتبعه (انكيدو) بطعنة ثانية نجلاء . . واعاد جلجامش الكرة . . وخر (همبابا) صريعا . . واهتزت الجبال وطقطقت السماء برعد مخيف واتهم الاله (انليل) وسأل جلجامش « لم ارتكبت هذه الحماقة . . اذهب عليك لعنة الالهة » .

لا دوام ولا خلود

مرت بجلجامش احداث جسام منها موت صديقه وصفيه (انكيدو) فبكاه وحزن عليه اشد الحزن ، واخذ بعد ذلك يضرب في الارض ويهيم على غير هدى ، ينشد لنفسه القلقة الموزعة بعض الهدوء والسكينة . . . وبلغ في تطوافه حديقة الالهة ، حيث الاشجار تحمل الدر والجوهر ثمرا . . هناك مر بامرأة الكروم (سيدوري) وهي جالسة

على شاطىء البحر ومعها كل ما وهبتها الالهة من اوان ذهبية . . . .

وقالت (سيدوري) لنفسها « ترى اين يقصد هذا العابث ؟ » ثم راحت واغلقت بوابتها في وجهه واحكمت رتاجها فقال « ايتها الفتاة . . يا صانعة النبيذ . . لم توصدين الباب في وجهي . . سأكسره حتما ، فأنا جلجامش ، قاتل ثور السماء ، وحارس غاب الارز . .

قتلت (خمبابا) ومعه اسود الغاب » فقالت « ان كنت حقا من تقول ، فلم شحوب وجهك ؟ » قال « السبب هو اليأس الذي يملأ قلبي . . صديقي واخي مات وهو عزيز علي . . ادركه الموت رغم حبي له . . بكيته حتى جف دمعي . . وهذا هو ما يخيفني من الموت . . وهذا اهيم على وجهي ، لا يستقر لي قرار . . . ولكن ياصانعة النبيذ . . ما دمت قد رأيت وجهك . . فلا تجعليني ارى وجه الموت » فقالت « اي مكان تقصد ؟ الا تعلم ان الالهة فرضت الموت على الانسان يوم خلقته ؟ الا تعلم ان الالهة تحتفظ لنفسها بالحياة والخلود ؟ ما عليك الا ان تأكل ملء بطنك ، وان تلبس افخر الثياب . . ارقص وامرح واسعد زوجتك باحضانك فهذا هو كل نصيبك من الحياة » ثم نصحته ان يسير على الشاطىء الى حيث يجلس النوتي العجوز . . فلما لقيه سأله جلجامش عن الدوام والخلود فقال العجوز « لادوام لنا ولا خلود . . اترانا نبني بيوتنا لنعيش ابدا ؟ هل يتقاسم الاشقاء ميراثهم ليحتفظوا به الى الابد ؟ هل يدوم فيضان الانهار ؟ لا خلود ياصاحبي منذ بدء الخليقة . . القضاة وام الاقدار معا يحددون اقدار الرجال يخصصون لكل حياة وموتا دون ان يعلنوا موعد الموت » فقال جلجامش « اصدقني القول . . كيف دخلت انت في زمرة الالهة وكيف حصلت على حياة ابدية ؟ » قال العجوز « سأكشف لك عن هذا السر الغامض واطلعك على سر الالهة »!

واصنع الفلك بأعيننا

ونتوقف هنا لحظة ، لأننا مقبلون على قصة طوفان جلجامش الذي سبق طوفان نوح ونذكر القارىء ببعض ما ورد في القرآن الكريم وفي سفر التكوين عن طوفان نوح ، حتى يتمكن القارىء من المقارنة بين طوفانين بينهما الآف السنين .

قال تعالى في سورة هود (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل » .

وجاء في سفر التكوين « فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد اتت امامي ، لأن الارض امتلأت ظلما منهم ، فها انا مهلكهم مع الارض . . اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار ، وهكذا تصنعه ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه . وتصنع كوى للفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق وتصنع باب الفلك في جانبه مساكن سفليه ومتوسطة وعلوية تجعله . فها انا آت بطوفان الماء على الارض لاهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما في الارض يموت ولكن اقيم عهدي معك فتدخل الفلك انت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك . . . » .

وفي ضوء ما ورد في الكتب السماوية نعود الى حديث النوتي العجوز الذي وعد بأن يطلع جلجامش على سر الالهة وقال « اتعرف مدينة (شوروباك) على ضفاف الفرات ؟ وكان العمر قد تقدم بالمدينة وما فيها من آلهة . . كان فيها (آنو) رب القبة الزرقاء ، وابو الالهة كلهم . . و (انليل) مستشارهم ، و (نيونورتا) المساعد ، و (انوجي) المشرف على القنوات كما كان هناك (ايا) .

كان الناس يتكاثرون كالارانب ، وكان العالم يخور خوار الثور . . وايقظت هذه الضوضاء الالهة من سباتها واقلقت راحتها . سمع (انليل) هذه الضجة فلما انعقد مجلس الالهة قال لهم ، ضجة البشر هذه لا تطاق ولا تحتمل . . لقد تعذر النوم علينا » . واجمعت الالهة رأيها على استئصال الجنس البشري . . ولكن الالهة (ايا) حفظا لوعد كانت قد قطعته على نفسها ، راحت واعلمت جلجامش بقرار الالهة وحذرته ، وهمست له في نومه « اتفقت الالهة على استئصال الجنس البشري فاهدم بيتك وابن لنفسك فلكا واهجر ما تملك وانج بحياتك واحتقر متاع الدنيا ، وليكن طول سفينتك مساويا لعرضها ولتكن مسقوفة واحمل فيها بذور كل كائن حي واعلم ان الاله (انليل) غاضب علي ولم اعد استطيع العيش في ارضه كما انه سينزل عليكم المطر مدرارا ليدرككم الطوفان ويهلككم » .

الطوفان الكبير

وما ان بزغت شمس اليوم الاول بعد علمه بما سيحدث ، حتى اجتمع جلجامش باهل بيته فلما اعلمهم بالخبر بدأ الاطفال في حمل القار وجاء الرجال بكل ما يلزم لبناء السفينة . . . وفي اليوم الخامس نصب جلجامش بدن السفينة واضلعها ثم ثبت عليها الالواح ، وكان سطحها المربع مائة وعشرين ذراعا في مائة وعشرين ذراعا . . وبني ستة طوابق تحت السطح العلوي فكان للسفينة بذلك سبعة طوابق قسمت بفواصل الى تسعة اقسام وجاء الحمالون بالزيت في قرب وصبوا القطران في الفرن ومعه الزيت والاسفلت . . . ونحرت الذبائح للناس ، وذبح من الخراف واحد كل يوم ، وصرفت للعمال حصص من النبيذ . . فكان احتفال الناس بالمناسبة مثل احتفالهم بعيد رأس السنة الجديدة . وفي اليوم السابع تم بناء السفينة ، ولم يكن انزال السفينة سهلا ، اذ كانت اثقال الموازنة

تتحول من جانب الى جانب . . ووضع جلجامش على السفينة كل ما عنده من ذهب ، وضع فيها كل حيوان حي ، وافراد اسرته واقاربه ، والحيوان البري والمستأنس وكل العمال المهرة . . . وفي الموعد المحدد ، الذي يرسل فيه الاله شماش ذلك المطر المدمر والزوابع ، دخل جلجامش السفينة واحكم غلق ابوابها .

وعند بزوغ الفجر ظهرت في الافق سحابة سوداء ، ورعدت السماء ، وحطم الاله (نرجال) السدود وحطم (نينورتا) حواجز المياه ، ورفع قضاة جهنم السبعة مشاعلهم فاضاءوا الأرض كلها وعم السماء اليأس لما احال اله العواصف النهار ليلا وحطم الارض كما يتحطم الفنجان ، وهبت العواصف والزوابع والأعاصير طول اليوم وازدادت الامطار قوة وعنفا وخاف الالهة وطأة الطوفان فهربوا الى السموات العليا . . . وصرخت الالهة (اشتار) كما تصرخ المرأة حضرها المخاض « ترى لم امرت انا بكل هذا الشر ؟ امرت بتدمير الناس لانهم ليسوا ناسي وهم الآن جثث تطفوا على سطح المحيط » .

واستمرت العواصف والامطار ستة ايام وست ليال . . واستمر الفيضان والطوفان حتى حل اليوم السابع . . وهدأت عواصف الجنوب ، وهدأ البحر وانحسر ماء الطوفان . . وخيم على الدنيا سكون .

وفتح جلجامش كوة السفينة وغطت اشعة الشمس وجهه فانحنى رأسه وبكى . . . لم ير حوله الا خرابا من ماء . . بحث عبثا عن ارض . . ولكنه رأى بعد ذلك جبلا على بعد اربعة عشر فرسخا . . وعند الجبل رست السفينة ولم تتحرك . . وظلت على سكونها سبعة ايام . . . وفي اليوم السابع اطلق جلجامش حمامة ، فلما لم تجد ارضا تحط عليها عادت الى السفينة بعد ذلك اطلق طيرا من طيور السنونو ، ولكنه عاد بدوره الى السفينة ، فاطلق غدافا اسحم رأى ان الماء قد غاض فأكل ما وجد وحلق في الجو قليلا ثم اختفى . . . وكوم جلجامش ومن معه خشب الارز والآس على سفح الجبل وقدموا للالهة قربانا . . فلما شم الالهة رائحة البخور هرعوا الى مكانه والتفوا حوله .

وهنا نعود الى سفر التكوين نقتبس منه ما يعين القارىء على مقارنة طوفان بطوفان « وحدث من بعد اربعين يوما ان نوحا فتح طاقة الفلك التي كان عملها وارسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الارض ، ثم ارسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الارض فلم تجد الحمامة مقرا لرجلها فرجعت اليه الى الفلك . . فلبث ايضا سبعة ايام اخر وعاد فارسل الحمامة من الفلك فاتت اليه الحمامة عند المساء ، واذا ورقة زيتون في فمها . . وبنى نوح مذبحا للرب واخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد محرقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه لا اعود العن الارض ايضا من اجل الانسان » .

. . . . ونعود الى جلجامش حيث الالهة ملتفة حول البخور . . وجاءت الالهة (اشتار) ورفعت العقد الذي كان حول جيدها ، بما فيه من جواهر السماء وقالت « ايها الالهة الموجودون هنا الآن . . بحق هذا العقد اعهد اني سأذكر هذه الايام الاخيرة كما اذكر هذه الجواهر حول عنقي ، وانني لن انساها . . التفوا ايها الالهة حول هذا القربان الا (انليل) فانه ممنوع من ان يقربه لانه سخر هذا الطوفان دون ان يفكر في عواقبه وحكم على الناس بالدمار » .

فلما ظهر (انليل) ورأى من نجوا من الطوفان غضب غضبا شديدا وقال « ما كنت اريد ان يبقى مخلوق واحد » وهنا تدخلت الالهة (ايا) وقالت « كيف يا اعقل الالهة تقدم على عمل كهذا دون تفكير ؟ » .

وهنا توجه (انليل) الى السفينة واخذ بيد جلجامش وبيد زوجته ثم لمس جبين جلجامش وجبين زوجته وباركهما وامر ان يعيشا بعيدا عند مصب الانهار .

• • • •

تلك قصة جلجامش وطوفان عصره ، كما وردت في الملحمة الشعرية المنقوشة على اللوحات التي عثر عليها علماء الاثار في القرن التاسع عشر . . وقصة هذه الكشوف الاثرية في ايجاز هي أن شابا انجليزيا اسمه اوستن هنري لايارد **A.H. Layard** بدأ رحلة في عام ١٨٣٩ الى سيلان في صحبة صديق له . . ولكن مسيرته تعطلت في ارض ما بين النهرين بسبب استطلاع بعض هضاب اشورية . . وطال التأخير وامتد من اسابيع الى سنوات . . واكتشفت في تلك الفترة **Nineveh and Nimrod** وحمل « لايارد » من هذه الحفريات الى المتحف البريطاني مجموعة كبيرة من التماثيل الاشورية مع الاف من لوحات فخارية مكسورة جمعها من مكان تلك الحفريات . وتولى هنري رولنسون حل طلاسم اللوحات ، كما ان « رسام » وهو احد معاوني « لايارد » نجح في عام ١٨٥٣ في الكشف عن بعض لوحات مكتبة قصر « نابنقة » ، كانت ملحمة جلجامش وقصة طوفان ما قبل الطوفان جزءا منها .

والثابت ان اللوحات الاثرية التي تحمل ملحمة جلجامش وقصة طوفانه ترجع الى العصر الثالث الالفي الثاني قبل الميلاد ، اي قبل طوفان نوح بفترة طويلة . . زد على ذلك ان هذه الملحمة كانت معروفة في العصر الالفي الثاني قبل الميلاد ، بدليل ان رواية منها كانت محفوظة في ارشيف عاصمة الحيثيين في الاناضول ، وكانت مكتوبة بلهجة من اللهجات السامية والحورانية .

ومن يدري . . فلعل طوفان جلجامش لم يكن اول طوفان عرفه العالم . . . اما ما نرجوه فهو ان يكون طوفان نوح هو اخر ما يصيب عالمنا الذي يعيش في ظل القنابل الذرية والهيدروجينية والنترونية ! □□

أوكسفورد ـ جمال الكتاني

لواء الاسكندرون

قرأت استطلاعكم الهام « مغامرة للعربي من سبتة الى مليلة » وذهلت ذهولاً شديداً اذ انني لم اكن اعلم بأن تلك الشواطيء التي لا يُشك بعروبتها ترزح تحت الاستعمار الاسباني ، وعلى الفور تساءلت : اما آن الأوان لان تقوم مجلتنا العزيزة بمغامرة اخرى بعنوان : « مغامرة للعربي من انطاكية الى اسكندرون » حيث ان لواء الاسكندرون احد الاراضي العربية السورية الذي قدم كهدية من قبل فرنسا الى تركيا وتم ضمه وتتريكه عام ١٩٣٩ . كما ضم اقليم كيليكية قبل ذلك بكثير اثناء التسويات التي اعقبت الحرب العالمية الاولى .

عمران الحلبي
حلب/ سوريا

عجائب الدنيا السبع

ذكرتم في استطلاع اندونيسيا الذي نشر في العدد ٢٧٤ من العربي في تعليق على الصورة المنشورة على الصفحة ٨١ بانها احدى عجائب الدنيا السبع ، وكانت صورة لمعبد بوذي اسمه بوروبيدادور . . .

الحرب السرية مستمرة

الحرب السرية التي تشنها الصهيونية ضد العرب ليست وليدة اليوم ففي عام ١٩٥٣ وقّع مردخاي ما كلف أمرا سريا يقضي بتشكيل مجموعة قتالية خاصة للقيام باعمال ارهابية داخل اراضي الدول العربية المجاورة وعين آمرا لهذه المجموعة التي نالت رقما سريا هو ١٠١ ، وزير الدفاع الصهيوني الحالي آريل شارون ، وكان آريل شارون ستئذ برتبة ملازم ثان في المخابرات الاسرائيلية ، ومن بين مرؤوسيه كان مردخاي غور (رئيس الاركان الاسرائيلي في الاعوام١٩٧٤ - ١٩٧٨) ورفائيل ايتان (الرئيس الحالي للاركان العامة للجيش الأسرائيلي .)

وكانت أكبر عملية للوحدة رقم ١٠١ هي الغارة على قرية قبية الفلسطينية يوم ١٤ تشرين الاول من عام ١٩٥٤ حيث داهم افراد حرس شارون القرية وفجروا (٤٥) دارا على سكانها فاستشهد (٦٦) شخصا واصيب اكثر من ٧٥ بجروح .

ويعترف موشي شاريت الذي كان رئيسا لوزراءاسرائيل في مذكراته التي نشرت مؤخرا ان الحكومة الاسرائيلية سعت الى تصوير عمليات الجيش الاسرائيلي الارهابية على انها تصرفات فردية ، ويذكر شاريت ان بن غوريون أصر بعد الهجوم على قبية ، على عدم تضمين البيان أية اشارة الى مسئولية الجيش الاسرائيلي .

اكتب هذا لاقول ان الحرب السرية ضد العرب مستمرة بنفس الاساليب التي كانت متبعة قبل اكثر من عقدين من الزمان . . وخير شاهد على قولي هذا هو تلك التفجيرات التي حدثت في لبنان والاغتيالات التي تتم على يد الصهاينة للقيادات الفلسطينية في مختلف انحاء العالم .

والعجيب الغريب ان سادة الارهاب يصفون منظمة التحرير الفلسطينية بأنها منظمة ارهابية دون حياء ولا خجل .

مصطفى عبد الكريم
روما/ ايطاليا

ونحن نعرف ان عجائب الدنيا السبع هي :

١ ـ حدائق بابل المعلقة بناها نبوخذ نصر
٢ ـ الهرم الاكبر لخوفو
٣ ـ منارة الاسكندرية
٤ ـ معبد ارتميس (ديانا) في ابسوس
٥ ـ ضريح هاليكرناسوس في آسيا الصغرى .
٦ ـ تمثال زيوس في اوليا
٧ ـ تمثال (ابولو) العملاق (كوزوس) في رودس

فهل العجيبة التي اوردها العربي هي الثامنة ام ماذا ؟

عبد اللطيف درو
حلب/ سوريا

العربي :

الحقيقة ان العجائب السبع هي تلك التي ذكرتها والمعبد البوذي يكاد يكون احدى هذه العجائب وهذا ما قصده الكاتب .

عبد اللطيف درو
حلب/ سوريا

العربي :

الحقيقة ان العجائب السبع هي تلك التي ذكرتها والمعبد البوذي يكاد يكون احدى هذه العجائب وهذا ما قصده الكاتب .

رأي مغربي

اني من المعجبات بمجلة العربي التي غزت جميع البيوت المغربية وجميع ادمغة الشباب المغربي لكونها تحمل شتى المعلومات التي لا تقدر بثمن ، فهي تطلعنا على عدة جوانب نجهلها مثلا بلاد الخليج فمعظم المغاربة يجهلون هذه البلدان ، وقد كانت مجلة العربي صلة وصل بين بلدان الخليج وبلاد المغرب العربي .

آمل ان تكثر مجلة العربي من استطلاعاتها عن بلدان المغرب العربي حتى تقوي الروابط بين مختلف الشعوب العربية وتتوثق العلاقات الثقافية ، فيشعر المواطن في بلاد المغرب ان المشرق العربي قريب اليه .

الاواكس Awacs

ظهرت الاواكس (بفتح الهمزة وتسكين الواو)لاول مرة في مناورات سلاح الجو الامريكي التي اجريت في اواخر سنة ١٩٧٦ ودخلت اولاها الخدمة في صفوف هذا السلاح في مارس ١٩٧٧ ، ولقد بدأت الحاجة الملحة لهذه الطائرة تظهر بعد التقدم الكبير الذي طرأ على الطائرات السوفيتية والتي اصبح بامكانها مهاجمة اهدافها والاقتراب منها على ارتفاعات منخفضة جدا مما لايعرضها للاكتشاف بواسطة اجهزة الرادار الارضية الغربية ، ومن هنا فلقد بدأ التفكير في انشاء نظام للرادار الطائر الذي يمكنه اكتشاف مثل هذه الطائرات حتى وان كانت تطير على ارتفاعات بالغة الانخفاض ، وهكذا جاءت الاواكس الى الوجود والاواكس هي اختصار للعبارة الانجليزية : Airborn Warning And Control System (AWACS) وهي تعني نظام السيطرة والانذار المحمول جوا . . وهو نظام معقد وحديث جدا تنفرد به الولايات المتحدة الامريكية ولايوجد له مثيل معروف سوى نظام الانذار المبكر المحمول جوا والمعروف باسم « نمرود» Nimrod والذي تصنعه بريطانيا (وان كان هذا الاخير يعمل فوق الماءفقط) .

والان ما هي الاواكس ؟ من الخارج هي طائرة عادية بوينج ٧٠٧ ، او ان شئنا الدقة فهي من طراز كي سي ١٣٥ KC 135 وهو الطراز العسكري من البوينج ٧٠٧ ، وهي طائرة عديمة النوافذ يرتفع من جسمها قرب مؤخرتها قرب كبير محمول على دعامتين ، والقرص يبلغ قطره ٣٠ قدما بينها ترتفع الدعامة الواحدة نحو ستة أقدام ويعرف هذا القرص بالرادوم radome ويحتوي هذا القرص او الرادوم على هوائيات او قرون استشعار رادارية قوية تصل قوتها القصوى الى مليون وات ، وهو يدور بمعدل دورة كاملة كل عشر ثوان يمسح خلالها السماوات المحيطة ، وحين تكون الطائرة على ارتفاع ٣٠ الف قدم (اقصى ارتفاع لها

هو ٤٢ الف قدم) فانه يمكنها اكتشاف الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة في دائرة نصف قطرها ٢٤٠ ميلا بينها الطائرات التي تطير على ارتفاعات اعلى يمكن كشفها حتى مسافة ٣٩٠ ميلا وهذا في حد ذاته تفوق عظيم على اجهزة الرادار الارضية التي يكون مداها اقل من ذلك بكثير .

وتصل دقة الاجهزة على متن هذه الطائرة الى درجة عالية جدا فعلى سبيل المثال يمكن للعاملين امام اجهزة هذه الطائرات ان يميزوا بين هدف ارضي عادي كسيارة سريعة مثلا وبين طائرة نفاثة تجري على ممر المطار في سبيلها للاقلاع ، وعلى شاشات الرادار فوق هذه الطائرة والتي يبلغ عددها تسعة فان الاهداف لاتظهر كنقاط ضوئية مثلما يحدث على شاشات الرادار التقليدية ، ولكن الاهداف هنا في الاواكس تظهر على هيئة معلومات تتم صياغتها عن طريق برمجة آلية معقدة .

ورغم افتقار الاواكس لأي نوع من التسليح ، مما تصبح معه معرضة لان تصبح صيدا ثمينا وسهلا الا انها قادرة على حماية نفسها وذلك عن طريق اجراءات التشويش الالكتروني ضد اجهزة الرادار المعادية ، أو عن طريق الطيران المنخفض تحت مستوى الاكتشاف لرادارات العدو ، ولكون هذه الاواكس تستعمل شعاعا راداريا رفيعا جدا ، فانه يصعب التشويش او الشوشرة على اجهزتها المعقدة ، كما انها يمكنها ان ترصد كافة الاجراءات ، التي تتخذ للتشويش عليها .

وتمتلك الولايات المتحدة الآن نحو اربع وعشرين من هذه الطائرات التي يبلغ ثمن الواحدة منها حوالي مائة مليون دولار ، ولقد عرضت الولايات المتحدة ايضا ان تزود قوات حلف شمال الاطلنطي بسبع وعشرين طائرة من هذا الطراز للقيام باعمال المراقبة على طوال الحدود التي تفصل دول الحلف عن دول حلف وارسو . .

الدكتور عصام السيد علي
ج . م . ع . الاسكندرية

أسرار ارتفاع ضغط الدم

قرأت في العدد (٢٤٧) من العربي مقالا للدكتورة صبيحة الدباغ ، تحدثت فيه عن الكتاب الذي ألفه البروفيسور فيليب ساير ، المتعلق بارتفاع ضغط الدم ، ولاحظنا ان مقالها كان عبارة عن مجرد اشارة عابرة للكتاب الموضوع باللغة الفرنسية والمترجم للانكليزية . اذ ذكرت اسم المؤلف وسعر الكتاب بالجنيهات الاسترلينية دون ان يكون مقالها باسطا بوضوح ومعالجا بدقة لهذا المرض الخطير . ان الكثيرين يودون لو تبسطت الكاتبة بالحديث لانهم بحاجة الى معرفة الاسرار الفعلية لمرض ضغط الدم .

ماجد ابو قوس
حلب/ سوريا

ان مجلتكم لن تبخل علينا في كونها باخرة تحمل القارىء العربي من مكان لآخر وتعرفه بمعالم وطنه العربي الكبير .

امنة لطبال
القنيطرة ـ المغرب

دعوة الى كتاب

مجلة العربي

تدعو السادة كتاب مجلة العربي بإرسال عناوينهم وأسمائهم الثلاثية عند ارسال مقالاتهم الى المجلة حتى يسهل علينا تحويل مكافأة ما ينشر لهم من هذه المقالات .

كما اننا ندعو الاساتذة المذكورة اسماؤهم ادناه موافاتنا بعناوينهم وأسمائهم الثلاثية كي نتمكن من ارسال مكافأة مقالاتهم التي نشرها العربي في عددي اكتوبر ونوفمبر/٨١ وهم :

١ - الاستاذ علي شلش

٢ - الاستاذ محمد مصطفى

٣ - الاستاذ جورج حليم

٤ - الاستاذ احمد عساف

٥ - الاستاذه سلمى شلاش

ادارة المجلة

أبو العرّيف

تأليف : سومرست موم

ترجمة : شوقي جلال

كنت مهيأ لأن أكره ماكس قلادة ، حتى قبل أن اعرفه . وضعت الحرب أوزارها منذ قليل ، وتكاثفت حركة سفن الركاب عبر المحيط . وبات عسيرا توفر سبل الراحة للمسافرين . وأصبح لزاما عليك أن تقنع بأي شيء يقدمه لك القائمون على شئون السفينة . ليس لك أن تطمع في مقصورة خاصة بك ، لذا شعرت بالامتنان أن خصصوا لي واحدة بها مضجعان فقط . ولكن عندما سمعت اسم رفيق السفر الذي يشاركني مقصورتي غاص قلبي بين جوانحي . احسست وكأن المقصورة كوة مغلقة فاسدة الهواء . فليس أسوأ على المرء من أن يشاركه انسان آخر مقصورة واحدة اسبوعين كاملين (اذ كنت مسافرا من سان فرانسسكو الى يوكوهاما في اليابان) . ولكن لعلني كنت نظرت الى الأمر بقدر أقل من الفزع لو كان اسم رفيق السفر سميث أو براون .

صعدت الى ظهر السفينة ووجدت أمتعة السيد قلادة سبقتني الى هناك . احسست بالعزوف نحوها ، ولم أشأ النظر اليها . حقائب كثيرة ملأى بالبطاقات التي تحمل اسم صاحبها ، وصندوق أمتعة ضخم للغاية . رأيت أدوات زينته معروضة بعد أن اخرجها من مكانها ، ولحظت أنه عميل للسيد كوتي ، وذلك حين رأيت فوق حامل المغسلة عطره ودهان شعره . ووجدت فرشاة السيد قلادة الأبنوسية تحمل اسمه مكتوبا بأحرف من ذهب . انني لم أحب السيد قلادة على الاطلاق . أخذت طريقي قاصدا قاعة التدخين . وطلبت مجموعة من أوراق اللعب وبدأت العب وحدي لعبة الصبر المعروفة ، والتي يمكن أن يلعبها شخص واحد . لم أكد أبدأ اللعب حتى وقف رجل فوق كتفي يسألني ان كان على صواب في ظنه أن اسمي هو كذا .

وأردف قائلا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة كشفت عن صفين من الاسنان المنضودة البراقة :

ـ « انا السيد قلادة » .

ـ « آه ، نعم ، أحسب أننا نقتسم مقصورة واحدة » .

ـ « أرى في هذا بعض الحظ . أنت لا تعرف مع من ستقيم . سعدت سعادة بالغة عندما علمت أنك انجليزي . نحن الانجليز لا نملك الا أن نهفو الى بعضنا ونتجمع معا في الغربة . . . ولعلك تعي ما أقصد » .
نظرت اليه بعينين طارفتين .

وعدت اسأله ربما بطريقة تخلو من كياسة :

ـ « هل أنت انجليزي ؟ »

ـ « طبعا . لا أخالك تراني امريكيا . أليس كذلك ؟ انني بريطاني حتى النخاع هذا هو أنا » .

ولكي يبرهن السيد قلادة على صدق قوله أخرج جواز سفره ولوح به مبتهجا أمام عيني .

لقد كان للملك جورج رعايا كثيرون يتصفون بصفات غريبة . فالسيد قلادة قصير القامة ، قوي البنية ، حليق الذقن في أناقة ، أسمر البشرة ، لحيم الانف أعقفه ، عيناه الواسعتان فيهما صفاء وبريق ، وشعره الاسود الطويل مجعد صقيل . يتحدث في طلاقة ليس فيها شيء من الانجليزية مع افراط في حركات يديه . وأيقنت يقينا جازما انني لو تفحصت هذا الجواز البريطاني لافتضح أمر السيد قلادة وتبين انه مولود تحت سماء زرقاء أصفى من السماء التي نعرفها في بريطانيا .

وسألني : « ماذا تريد أن تشرب ؟ »

نظرت اليه في شك . فقانون حظر المشروبات الكحولية لا يزال نافذا ، وكل الظواهر تؤكد أن السفينة ليست فيها قطرة واحدة . وعادتي أنني اذا لم اكن ظمآن وبحاجة الى ماء فانني لا أدري أي شيء أبغضه أكثر من



الأخر المياه الغازية أم شراب الليمون . ولكن السيد قلادة رشقني بابتسامة شرقية ، وقال :

ـ « ويسكي بالصودا أم مارتيني صاف . . . ودس يديه في جيبي بنطلونه وأخرج زجاجتين ووضعهما أمامي على المائدة . وأخذت المارتيني ونادي النادل وطلب منه وعاء ثلج وكوبين .

قلت له :

« كوكتيل رائع » .

« حسن . هناك كميات وافرة ان شئت . قل لكل أصدقائك على السفينة ، ان كان لك أصدقاء ، انك عرفت نديما يملك كل ما في الدنيا من خمر .

كان السيد قلادة ثرثارا . تحدث عن نيويورك وعن سان فرانسسكو . ودخل في حوار عن المسرح والسياسة والفن التشكيلي . له نزعة وطنية واضحة ، اجتماعي ودود يحب معاشرة الناس . واذا كنت أمقت الكبرياء الزائفة الا انني أرى ان من اللائق تماما أن يضيف محدثي ، اذا كان غريبا كلمة السيد الى اسمي عند مخاطبتي . ولكن السيد قلادة نأي عن هذه الشكليات ظنا منه ولا شك أنه يريحني ويجعلني على سجيتي .

لم يصادف السيد قلادة هوى في نفسي ، كنت قد وضعت أوراق اللعب جانبا حين جلس الى جواري وهأنذا أشعر الآن وكأن حديثنا في أول لقاء قد طال وامتد بما فيه الكفاية ، فاستأنفت اللعب .

وقال السيد قلادة :

ـ « الثلاثة فوق الأربعة » .

لا شيء يثير السخط وأنت تلعب لعبة الصبر أكثر من أن يقال لك أين تضع الورقة التي قلبتها قبل أن تكون لديك الفرصة للتفكير بنفسك ؟ .

وصاح :

ـ « ها هي . . . ها هي . . . العشرة على الولد » .

أنهيت اللعب وقلبي يفيض غيظا وكراهية . واذا به يمسك مجموعة الورق ويقول

ـ « هل تحب حيل أوراق اللعب ؟

أجبته قائلا :

ـ « لا ، بل أكره حيل أوراق اللعب » .

ـ « حسن . سأريك هذه الحيلة فقط » .

وعرض ثلاث حيل . نهضت من مكاني وقلت له سأقصد غرفة الطعام لأتخذ مكانا لي على احدى الموائد » .

فقال « آه . حسن جدا . لقد اخترت لك مقعدا . . . » . . . .

« قلت لنفسي حيث أن لنا مقصورة واحدة فلنجلس معا الى مائدة واحدة أيضا . »

رغم انفي ، لم يفارقني السيد قلادة . . .

انني لم أشاركه فقط المقصورة والوجبات الثلاث كل يوم على مائدة واحدة ، بل انني لم استطع التجول على ظهر السفينة دون أن يلاحقني . كان عسيرا على أن ازجره لم يشعر يوما ما أنه غير مرغوب فيه . بل كان على يقين في نفسه أن السعادة تغمرك حين تراه مثلما تغمره هو حين يراك . ولو كنت في بيتك وألقيت به من حالق أو رفسته بقدمك فوق الدرج وصفقت الباب في وجهه فلن يراوده أدنى شك في أنه زائر موضع ترحيب واكرام كبيرين . وهو اجتماعي محب للاختلاط ، استطاع خلال ثلاثة أيام أن يتعرف على كل ركاب السفينة . دس أنفه في كل شيء ، أشرف على المباريات ، أجرى عديدا من المزادات ، جمع نقودا لشراء جوائز للمباريات الرياضية ، ونظم مسابقات للعب الجلة والجولف كما نظم حفلات موسيقية وأعد حفلات رقص بالملابس التنكرية . تراه موجودا دائما في أي وقت وفي أي مكان . وهو يقينا الرجل الذي حظي بأكبر قسط من الكراهية على ظهر السفينة .

اطلقنا عليه اسم السيد « ابو العريف » ـ اي الذي يعرف كل شيء ويتكلم في كل شيء بل ناديناه باسمه هذا مواجهة . واعتبر هذا الأسم مجاملة منا وتكريما له . ولكنه يصبح شخصا لا يطاق وقت وجبات الطعام اذ نظل تحت رحمته فترة تقارب الساعة . يفيض حيوية وحماسا ، جدلا ، ثرثارا مولعا بالجدال . يعرف كل شيء أفضل من أي انسان آخر ، والاختلاف في الرأي معه اهانة تمس غروره وكبرياءه . ولا يغفل موضوعا مهما كان تافها حتى يثنيك عن رأيك ويفرض عليك اسلوبه في التفكير . انه الفتى العارف العليم بكل شيء . جلسنا ذات مرة الى مائدة الطبيب . ولم تفت السيد قلادة الفرصة ليفرض نفسه على الحضور ويتصرف كما يحلو له فقد كان الطبيب متكاسلا وأنا في حالة لا مبالاة باردة عدا شخص يدعى رامساي كان يشاركنا جلستنا . وهو رجل جامد التفكير مثل السيد قلادة شديد الاستياء من تلك الثقة المفرطة التي يتصف بها . ودار بينهما حوار لاذع طويل يثير السأم .

كان رامساي موظفا في القنصلية الامريكية في مدينة كوبي في اليابان ، ضخم الجثة ، شحيا ، يحمل كتلة من الدهن الرخو تحت جلده المشدود ، وتبرز طيات جسمه البدين في شكل نتوءات منتفخة من تحت ملابسه جاهزة الصنع . كان في طريقه عائدا الى مقر عمله ، بعد زيارة عاجلة بالطائرة الى نيويورك ليحضر زوجته معه بعد عام كامل لها في وطنها . وزوجة السيد رامساي امرأة فاتنة رائعة الجمال ، رقيقة الحواشي ، خفيفة الظل حلوة الدعابة . ونظرا لأن القنصلية تدفع أجورا زهيدة فانها ترتدي دائما ملابس غاية في البساطة بيد أنها تعرف كيف تنتقي ملابسها . واستطاعت أن تحقق لنفسها وضعا متميزا يسمو بها على أقرانها . ولعلني ما كنت آبه لها أو أعيرها اهتماما خاصا لولا أنها تتصف بخاصية قد تبدو شائعة بين النساء ولكنها لم تعد واضحة في سلوكهن الآن . واذا تطلعت اليها يأسرك حياؤها ، الذي يتألق على جبينها كزهرة تزين معطفا .

وذات مساء ، وبينما كنا نتبادل أطراف الحديث على الغداء ، عرجنا مصادفة الى موضوع اللؤلؤ . وسبق أن أفاضت الصحف في الكتابة عن اللؤلؤ الصناعي الذي اتجهت اليابان الى تصنيعه . وأشار الطبيب الى أن هذا سيؤدي حتما الى نقص قيمة اللؤلؤ الطبيعي وأن اللؤلؤ الصناعي ممتاز وسوف يصل قريبا الى حد الكمال . واندفع السيد قلادة كعادته وخاض في الموضوع الجديد المثار . وقال كل ما يمكن أن يقال عن اللآلىء . لا أحسب ان السيد رامساي يعرف شيئا عن اللآلىء ولكنه لا يملك مقاومة فرصة متاحة ليدلي بدلوه . ولم تمض خمس دقائق حتى ألفينا أنفسنا في خضم جدال حاد وملتهب . سبق لي أن رأيت السيد قلادة متقدا حماسا ، طلقا ذرب اللسان ، ولكنني لم أره أبدا على النحو الذي رأيته عليه الآن . وأخيرا قال رامساي شيئا كأنما لدغه به واستثاره ذلك أنه ضرب المائدة بجماع يده وصاح قائلا : ـ

ـ « حسن . أنا لا أتحدث الا عما أعرفه جيدا . انني قاصد اليابان لأبحث عن كتب صناعة اللآلىء وتجارتها هناك ، فتجارة اللؤلؤ مهنتي ، ولن تجد تاجرا واحدا من تجار اللؤلؤ الا ويسلم بصواب ما أقول . فأنا الخبير العليم بكل شيء عن اللؤلؤ وما دون ذلك فلا قيمة له . »

ها هنا خبر جديد نعرفه ذلك أن السيد قلادة على الرغم من ثرثرته الطويلة لم يسبق أن قال لأحد ما هي مهنته ؟ . ولكن ذهب ظننا تخمينا أنه قاصد اليابان في رحلة تجارية .

سومرست موم
١٨٧٤ - ١٩٦٦

وليام سومرست موم كاتب وروائي انجليزي . ولد في باريس وعاش هناك حتى توفي أبواه وهو في العاشرة . درس الطب ولكنه لم يمارسه . ذاع صيته مع أول روايتين له « ليزا » ١٨٩٧ و « مسز جرادوك » ١٩٠٢ . وحفزه هذا على مواصلة الكتابة واتخاذها هدفه وحرفته . واشتغل أيضا بكتابة المسرح خلال الاعوام العشرين الاولى من هذا القرن . ولكن شهرته الكبيرة جاءت حصاد كتابة القصص القصيرة . يؤثر دائما الكتابة بضمير المتكلم ويرى أن هذا أوقع في نفس القارىء . ويجيد استخدام الحبكة والحوار ولهذا حرص التلفزيون الانجليزي على مسرحة قصصه .

وبعد أن فرغ من حديثه تطلع الى الحضور حول المائدة في زهو وخيلاء .

وأشار الى سلسلة تتحلى بها مسز رامساي وقال :

ـ « انهم لن يستطيعوا أبدا انتاج لؤلؤة صناعية يعز على خبير مثلي أن يدرك حقيقتها بطرفة عين . . . صدقيني يا مسز رامساي ان السلسلة التي تتزينين بها ستظل محتفظة بقيمتها دائما ولن تنقص درهما . »

تورد وجه مسز رامساي خجلا ، ودست السلسلة داخل ثيابها . انحنى رامساي الى الامام وطاف ببصره علينا وقد ومضت ابتسامة في عينيه .

ـ « اليست سلسلة جميلة تلك التي تتحلى بها مسز رامساي » .

أجاب السيد قلادة :

ـ « لقد لحظتها على الفور . . . آه ، قلت لنفسي هذا هو اللؤلؤ الاصيل » .

ـ « لم اشترها بنفسي بطبيعة الحال . ولكن أود أن اعرف كم تساوي في رأيك ؟ » .

ـ « آه . . . تجاريا تساوي قرابة خمسة عشر ألف دولار . ولكن اذا اشتريتها من سوق المجوهرات فلن يدهشني اذا قلت لي انك دفعت مبلغا يصل الى ثلاثين ألفا . »

ابتسم رامساي ابتسامة فيها غطرسة واشمئزاز وقال :

ـ « قد تدهش اذا عرفت أن مسز رامساي اشترت هذه السلسلة من مركز تجاري عشية سفرنا من نيويورك ودفعت ثمنا لها ثمانية عشر دولارا . »

تدافع الدم الى وجه السيد قلادة وقال :

ـ « هراء . انها ليست أصيلة فحسب بل انها من أروع ما رأيت حجما وتكوينا . »

ـ « هل تراهن على ذلك ؟ أراهنك مقابل مائة دولار على انها صناعية . »

ـ « اوافق

وقالت مسز رامساي :

ـ « آه يا إلمر » انك لا تستطيع أن تراهن على شيء يقيني لا ريب فيه .

وارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة ، وخفتت نبرة صوتها قليلا .

ـ « هل لا استطيع أنا ذلك ؟ أكون أحمق لو تركت فرصة يسيرة سانحة كهذه للحصول على المال . » واصلت حديثها قائلة :

ـ « ولكن كيف تبرهن على صدق ما تقول ! الامر لا يتعدى رأيي أنا مقابل رأي السيد قلادة .

وهنا قال السيد قلادة :

ـ دعيني أفحص السلسلة واذا كانت زائفة سأخبرك على الفور . لا مانع عندي من أن أخسر مائة دولار .

ـ « اخلعيها يا عزيزتي . دعي السيد المحترم يفحصها كما يحلو له .

ترددت مسز رامساي لحظة ، وضعت يديها على المشبك ، ثم قالت :

ـ « لا استطيع فكها . . . يكفي أن يصدق السيد قلادة ما أقول ويأخذ كلمتي .

ساورني شك بأن حدثا مؤسفا يوشك أن يقع ، ولكن لم أجد ما أقوله .
قفز راماساي من مكانه وقال :

ـ « سأفكه أنا » .

وتناول السلسلة للسيد قلادة . وأخرج هذا عدسة مكبرة من جيبه وتفحص السلسلة بدقة .

ارتسمت على وجهه الاسمر الناعم ابتسامة ظفر وانتصار ، وكان على وشك الحديث لولا أن وقع بصره فجأة على وجه مسز راماساي . بدا وجهها شاحبا للغاية حتى خيل لمن يراها أنه سيغمى عليها فورا . أخذت تحملق فيه بعينين واسعتين تفيضان فزعا ، وضراعة يائسة ، بدا الأمر واضحا تماما حتى انني دهشت كيف لم يلحظ زوجها هذا .

كف السيد قلادة عن الحديث فاغرا فاه . تدافع الدم بشدة الى وجهه . يكاد كل من يراه ان يلمس الجهد الكبير الذي يبذله ليتحكم في نفسه .

ثم قال :

« اخطأت الحكم . انها تقليد محكم للغاية ، ولكن ما ان تفحصتها بعدستي المكبرة حتى وضحت لي الحقيقة . واحسب ان ثمانية عشر دولارا ثمن معقول لهذه السلسلة اللعينة » .

اخرج حافظة نقوده وناول راماساي ورقة بمائة دولار دون ان ينبس ببنت شفة .
وقال راماساي وهو يمسك بالورقة :

« لعلك تتعلم من هذا الا تزهو وتفرط بالثقة في نفسك مرة اخرى » .

ولحظت يدي السيد قلادة ترتجفان .

وذاعت القصة كما تذيع كل القصص على ظهر السفينة ورأيناه وقد تخلى كثيرا عن مزاحه تلك الليلة . وبدا لنا وكانها دعابة طريفة ان السيد « ابو العريف » قد اسقط في يده مرة . ولكن مسز راماساي انسحبت الى مقصورتها تشكو صداعا حادا .

استيقظت صباح اليوم التالي وشرعت احلق ذقني ، بينما استلقى السيد قلادة على سريره يدخن سيجارته . سمعت فجأة صوت حك بالارض . تلفت ناحية الصوت فرأيت رسالة مدفوعة تحت عقب الباب . فتحت الباب وتطلعت خارجه ولكني لم ار احدا . التقطت الرسالة وعرفت انها باسم ماكس قلادة . كان الاسم مكتوبا باحرف مفردة كبيرة . ناولته الرسالة .

تساءل : « ممن ؟» ثم فتحها وند عنه صوت « آه » .
لم يخرج من المظروف رسالة بل ورقة مالية بمائة دولار . . . تطلع ناحيتي واحمر وجهه . مزق الغلاف وريقات صغيرة وناولنيه وهو يقول :

هل تفضلت والقيت بها خارج المقصورة ؟» .

فعلت ما سألني ، ثم تطلعت اليه مبتسما .

قال : « لا احد يرضى بأن يجعل الناس منه احمق سفيها الى النهاية » .

سألته :

« هل كانت اللآلىء أصيلة ؟ »

أجابني بقوله :

« لو كانت لي زوجة فاتنة صغيرة ما تركتها وحدها في نيويورك عاما بأكمله وأنا مقيم في اليابان » .

في هذه اللحظة لم أعد أمقت السيد قلادة . أخرج حافظة نقوده ودس فيها بحرص الورقة المالية ذات المائة دولار .

من ذلك الانسان ؟

- من هو الحكيم ؟... هو الذي يتعلم من كل ما يصادفه .
- ومن هو القوي ؟... هو الذي يتحكم في عواطفه
- ومن هو الغني ؟.. هو الذي يقنع بما عنده .
- ومن ذلك الانسان ؟... لا احد !

(بنيامين فرانكلن)

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منها أما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير ـ و٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٧٨ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول مارس (١٩٨٢) .

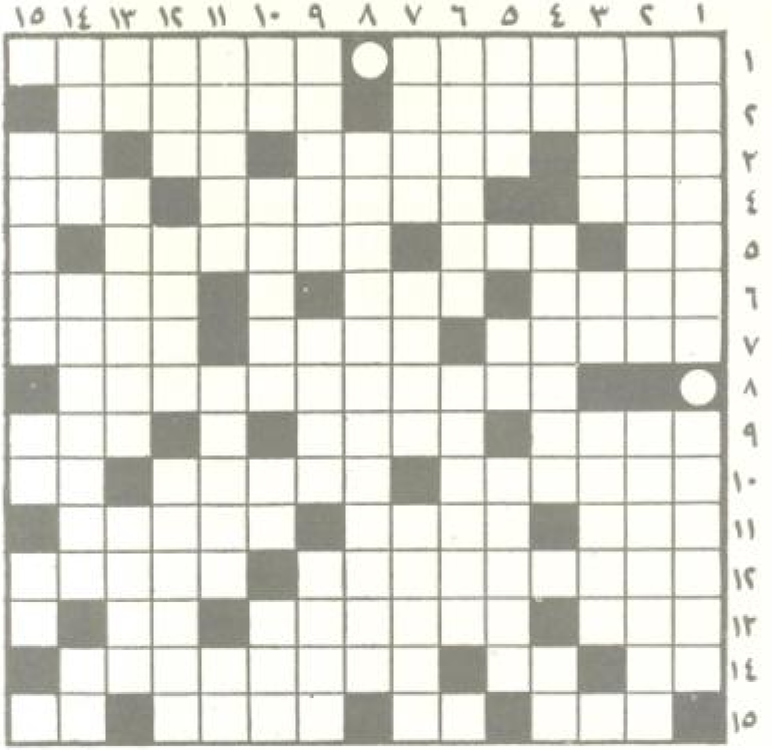
اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) افقيا اسم شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم رجل ادعى النبوة ، ثم أسلم وحارب مع المسلمين .

كلمات أفقية :

(١) من العناصر الكيميائية ـ كتاب مقدس .
(٢) رائد النظرية النسبية ـ من النهار .
(٣) تبسط ـ في الفم ـ للتخيير ـ للاستفهام .
(٤) أزمات شديدة ـ أوفياء ـ سأم .
(٥) نصف كلمة (نواح) ـ تجل ـ يعلون .
(٦) كلمة (تليد) مبعثرة ـ أدمى ـ أسلم .
(٧) ثقيلة ـ أعند النواقص ـ عليل .
(٨) شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات .
(٩) لقب شاعر غنائي عربي ـ أشيد ـ سهل .
(١٠) من الآلات الموسيقية ـ استحكامات عسكرية دفاعية ـ اكتمل .
(١١) اقترب ـ شهر ميلادي ـ مخرج سينمائي فرنسي معاصر .
(١٢) كاتب قصة عربي معاصر ـ من الانبياء .
(١٣ تجدها في كلمة (صواب)ـ استعداداتهم الفطرية ـ مقام موسيقي .
(١٤) مقام موسيقي ـ نصف كلمة (سامة) متحف شمع شهير بلندن .
(١٥)سهاد ـ حرفان متشابهان ـ تدريب ـ أرشد .

كوبون مسابقة العدد ٢٧٨



كلمات رأسية :

(١) عاصمة نيبال ـ من العناصر الكيميائية .

(٢) مهندس هرم سقارة المدرج ـ المقاصد المضمرة .

(٣) عاصمة أوربية ـ حرفان متشابهان ـ لائق .

(٤) حرفان أبجديان متتاليان ـ من الاسماء الحسنى ـ في العين .

(٥) كلمة (تقي) مبعثرة ـ قط ـ طائر .

(٦) ولاية أمريكية ـ عالم كهربائي شهير .

(٧) طقس ـ ناسك ـ يبتغيه .

(٨) رجل ادعى النبوة ، ثم أسلم وحارب مع المسلمين . .

(٩) من أوقات الصلاة ـ في الرحم ـ أسلحة حربية قديمة .

(١٠) يخصني ـ قدموا ـ للتعريف ـ معبر .

(١١) لاتقبل ـ دولة قديمة في غرب تركيا ـ نصف كلمة (تامر) .

(١٢) حروف متشابهة ـ فسيح ـ ينذر وجودهم .

(١٣) دق ـ صفاته الحسنة ـ صاحب نظرية في التطور مثل نظرية دارون .

(١٤) قصر ـ اسرة حاكمة ايطالية من القرن الخامس عشر ـ رغب .

(١٥) على ظهر الجمل ـ كشف ـ حرفان متشابهان .

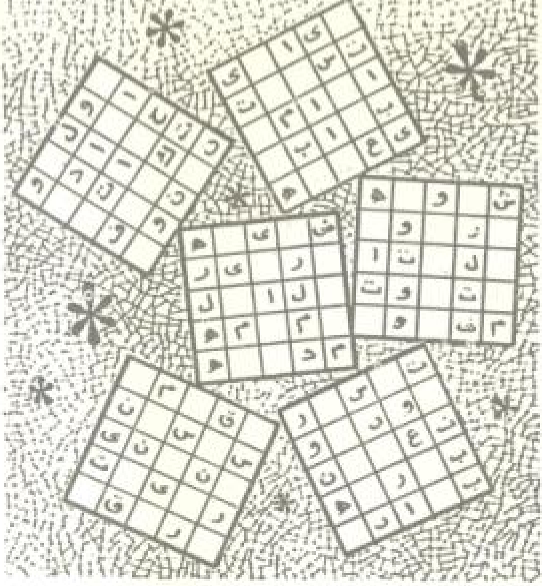
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الاحرف الأربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

مؤرخ و فيلسوف عربي ، وواضع أسس علم الاجتماع

(١) خالق (٢) نهزم (٣) أحاكي (٤) فاتوا (٥) طائر (٦) فلك (٧) واسع (٨) طيور (٩) أزمان طويلة (١٠) يلهو (١١) فاكهة (١٢) من المجموعة الشمسية (١٣) ترضى (١٤) أتباع أحد الاديان (١٥) شهر ميلادي (١٦) حيوان .

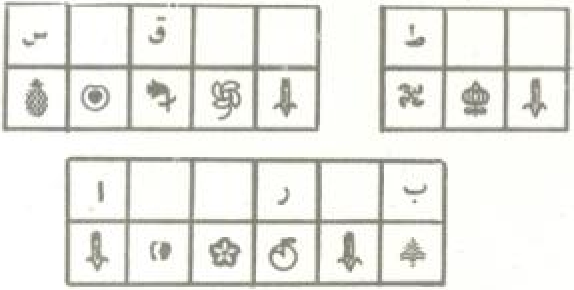




العواصم

أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحرف الناقص في المربعات الستة ، ورتب الحروف الستة لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها .هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يحث على :

تسليم الامر لمن يفهم فيه

الحلول

حول الدائرة السوداء :

عبد الرحمن بن خلدون .

العواصم :

كيجالي .

مثل عربي :

اعط القوس باريها .

مِنَ المسرح العَالَمِيّ
سِلْسِلَةٌ ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول يناير ١٩٨٢

العدد ١٤٨

جريمة قتل في الكاتدرائية

تأليف : ت. س. إليوت
ترجمة وتقديم : صلاح عبد الصبور
مراجعة : د. أمين العيوطي

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يناير - كانون ثاني
١٩٨٢ م

صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي

تأليف الأستاذ
صلاح الدين حافظ

٢٥٠ فلساً

الكتاب التاسع والأربعون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت



أورينت تذكرك بالوقت.. على أنغام الموسيقى
ORIENT
QUARTZ
MUSIC ALARM
إليك آخر ما توصّلت إليه أورينت. ساعة
كوارتز رقمية جديدة مع ضوابط تنبيه متعددة
الاستعمالات وسهولة التحكم. نغمات معدودة من
"ماريليس" كتنبيه أول. وإذا رغبت، هناك نغمات
مزيجة أكثر، أو موسيقى دائمة - كل ساعة. هذا مثال
آخر على التقنية الخلاقة لساعة أورينت، أول ساعة
في العالم بمنبه موسيقي. هناك مجموعة كاملة من
ساعات أورينت كوارتز لتختار منها. وكل ساعة
منها تعطيك أكثر بكثير من مجرد الوقت. بنعومة و رقة.
ORIENT اورينت
Manufacturers: ORIENT WATCH CO., LTD.
Official & Exclusive Exporters and Distributors to the Middle East:
JAPAN OVERSEAS CORPORATION
7-8-4, Minami-Aoyama, Minato-Ku, Tokyo. TEL 407-5901, TLX J26896 TIMETEST

إربح

١٤٪ في السنة

لومبارد

ودائع ذات المدة المحددة

المدة المحددة للايداع :

سنة	١٤٪ في السنة
سنتين	١٣٪ في السنة
٣ سنوات	١٣٪ في السنة
٤ سنوات	١٢٪ في السنة
٥ سنوات	١٢٪ في السنة

الحد الأدنى للايداع : ٥٠٠٠ جنيه استرليني، تدفع الفوائد سنويا
أسعار الفوائد المذكورة سارية إلى حين ارسالها للطباعة

هذه بعض المنافع للودائع ذو المدة المحددة لدى لومبارد :

- سيربح رأس مالكم معدّل فائدة محدد لمدة الايداع
- جميع الفوائد تدفع بدون خصم أية ضريبة
- الاحتفاظ على السرية الكاملة في جميع المعاملات
- نظرا إلى عدم وجود رقابة النقد في المملكة المتحدة سوف ترد أموالكم أما بالعملة الاسترلينية أو بأية عملة أخرى حيثما كنتم

هناك أسعار فوائد أخرى تتراوح مدتها بين السنة والخمس سنوات حيث ان الفائدة المستحقة تدفع شهريا أو كل ثلاثة أشهر أو نصف سنويا أو ودائع ذو إخطار للسحب بعد ثلاثة أشهر أو ستة أشهر. للحصول على تفاصيل لبرامج الايداع وأسعار الفوائد نرجو من سيادتكم ان تملأوا الكوبون وارساله إلى مدير حسابات الايداع.



Lombard North Central
Deposit Accounts

LOMBARD NORTH CENTRAL LTD
DEPT. 182,
17 BRUTON STREET,
LONDON W1A 3DH, ENGLAND
Telephone: 409 3434

أرجو أن ترسلوا لي تفاصيل برامج حساب الايداع لديكم.

الاسم : ____________________

العنوان : ____________________

____

عضو في مجموعة الناشيونال وستمنستر بنك والتي يفوق رأسمالها واحتياطاتها عن ١٨ بليون جنيه استرليني

العنوان المسجل Lombard House, Curzon Street, London W1A 1EU, England

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في النواحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - بيبليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٥٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .**

٢ - كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .**

٣ - كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .**

٤ - كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .**

٥ - دور جريدة **فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .**

سلسلة **وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :**

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٣٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .


BOMBEAT
DR-01
AUTO REVERSE
• راديو ٤ موجات (FM/MW/SW1/SW2).
• طاقة بث بقوة ١٤ واط (٧ واط X ٢).
• نظام ٤ مكبرات للصوت وباتجاهين.
RT-200S
TOSHIBA
توشيبا


المجموعة الذهبية
GOLDEN SERIES MK II
26"
CTP 8470G
الرفاهيّة الذهبيّة تأتيكم بمزيد من الفخامة المثيرة
تفخر سانيو بتقديم الرفاهية الذهبية للشاهدين ضمن مجموعتها الذهبية من التلفزيونات ذات الألوان المتألقة مع الميزات العديدة الملحقة بالمسات الذهبية سواء كانت هذه التلفزيونات تعمل أم لا. والآن تقدم سانيو تشكيلة التلفزيونات الملونة مارك ٢ بنفس المميزات المعهودة بتألقها إضافة إلى مدى أوسع لمستويات الطاقة (٩٠ - ٢٨٠ فولت) ومتمتعة بلمسات نهائية أكثر تألقاً وبذلك تقدم سانيو الرفاهية الذهبية مع التشكيلة الذهبية لتلفزيونات مارك ٢ الملونة والتي تأتيكم بمزيد من الفخامة المثيرة.
(تعتبر الصورة العليا التلفزيون الملون CTP 8470G قياس ٢٦ بوصة بالنظام الرقمي وبالتحكم عن بعد والذكية بمشتركة التشكيلة من التلفزيونات مارك ٢)
CTP 6457G
٢٠ بوصة
بال/سيكام.
CTP 6468G
٢٠ بوصة، ٤ أنظمة
CTP 3452G
١٤ بوصة
بال/سيكام.
SANYO
سانيو

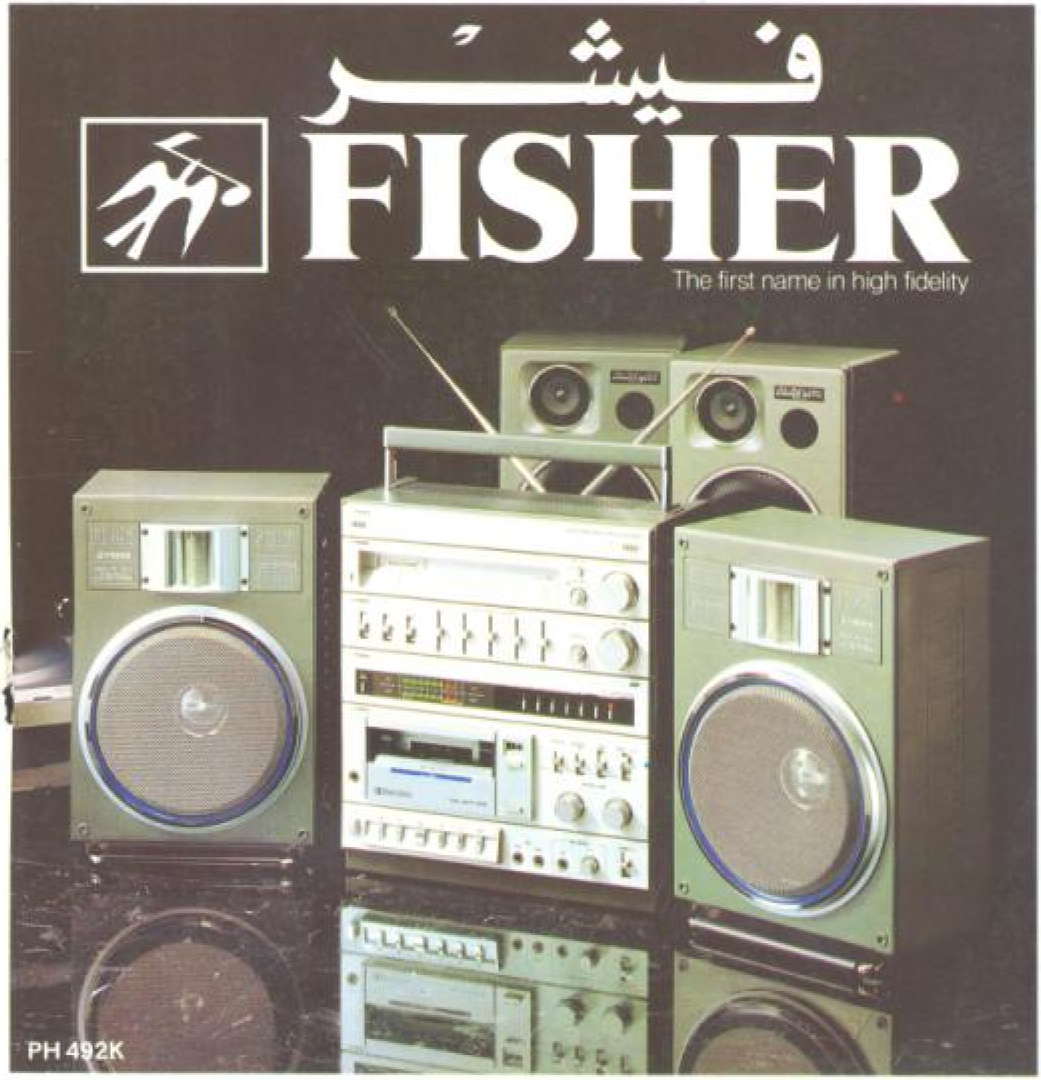
العربي

التكنولوجيا ومشاكل نقلها للوطن العربي

ربيع ثان ١٤٠٢هـ - فبراير (شباط) ١٩٨٢



ابن سينا في الكويت | عشرون عاما في حياة التلفزيون |



أروع أجهزة السمعيات المحترفة من منتجة أول ستريو.

ان ستريوهات فيشر بمختلف أحجامها تعني الفخامة. غنية بأناقتها مع أحدث مفاتيح التحكم وصوت طبيعي يشعرك وكأنك تعيش في عالم ما تسمعه. ستريوهات فيشر ذات مزايا لا تضاهى فهي مقدمة من شركة تملك رصيدا من الخبرة في عالم الستريو والهاي فاي أكثر من أي شركة أخرى في العالم، فلقد اخترعت فيشر الستريو ومازالت تطوره منذ أكثر من ٤٠ سنة.

PH 492K

هاي فاي نقال. راديو ٤ موجات. ستريو MW/SW1/SW2/FM مسجل كاسيت مع خزانتي أكواليزر ومكبرات للصوت باتجاهين قابلين للفصل. إيقاف أوتوماتيكي. استيعاب شريط عادي أو CrO2 أو معدني بالإضافة إلى توصيلات إضافية للفونوغراف ومكبرات الصوت والعديد من الزوائد الأخرى.

عزيزي القارىء

كانت مناسبة الاحتفال بذكرى مرور ٢٥ عاما على استقلال الكويت ، هو التوقيت الذي اختارته وزارة الاعلام الكويتية لتزيد من حجم العربي ، مضيفة الى المجلة ملزمة جديدة ، ابتداء من الشهر الحالي فصاعدا ، وذلك بهدف توسيع نطاق الخدمة التي تقدمها للقارىء ، بالاضافة الى المحاولات المستمرة لتعميق هذه الخدمة في كل اتجاه .

وأرادت وزارة الاعلام بهذه الاشارة الذكية ان تبعث برسالة ضمنية الى القارىء العربي في كل مكان تبلغه في طياتها بأنه طرف في الاحتفال بذكرى استقلال الكويت وأنه شريك في هذه المناسبة ، وانه اذا كانت الكويت قد حرصت على ان تؤدي دورها ومسئوليتها العربية في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية ، الا انها لا زالت حريصة على مواصلة هذا الدور ، بمختلف الصور والاساليب . . . . . .

نعم ، لقد رفعت الوزارة سعر العربي بنسبة ٥٠٪ لاول مرة منذ ٢٣ عاما ، وقلنا وقتئذ « ان ذلك القرار اتخذ بناء على طلب شركات التوزيع » ، وان قضية الربح ليست واردة في تلك الزيادة ، لان المجلة رغم الزيادة ، لا تزال باقل من تكلفتها الحقيقية ، لان المنطلق الحقيقي للمجلة هو المسئولية والرسالة » . . . ثم جاء قرار وزارة الاعلام ليعزز كل ما قلناه ، ويهدي الى كل قارىء عربي في ذكرى العيد الوطني ملزمة ثقافية جديدة .

أما جهد المجلة في اتجاه التجديد والتعميق ، فنحسب ان قارئنا الذكي قدر رصده طوال الأشهر الاخيرة ، والذين فاتتهم هذه الملاحظة فليراجعوا مواد هذا العدد والاعداد التي تليه .

المحرر



صورة الغلاف

● محمود ياسين وسعاد عبدالله .. في مشهد من ابن سينا المسلسل التلفزيوني الكبير الذي يعود بنا الى تراثنا العربي الاسلامي الذي يهتم تلفزيون الكويت بالعودة اليه كلما سنحت الفرصة مع مقدم القرن الهجري الجديد . [طالع ص ٧٢]

قضايا عامة :

قضايا حيوية :

اعـداد مصطفى نبيل

عروبة واسلام :

طب وعلوم :

اجتماع :

أدب وفنون :

تاريخ وأشخاص :

استطلاعات مصورة :

متنوعات

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : احمد بهاء الدين
مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريال ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليم ، السودان ١٥٠ مليم ، المغرب ٣ درهم ، تونس ٣٥٠ مليم ، الجزائر ٣ دينار ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريال ، الامارات العربية المتحدة ٤ درهم ، اليمن الشمالي ٣ ريال ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلس ، ليبيا ٢٥٠ درهم .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :

١ - الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/ لبنان .

٢ - مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/ القاهرة/ مصر .

« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة - قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ - تلفون ٤٢٧١٤١

تلغرافيا « العربي »

ALARABI. No 279, February 1982
P.O. Box 748 KUWAIT

عندما يكتب الكاتب في غير اختصاصه :

الجواد العربي

كان أبعد ما يخطر على بالي ان اكتب يوما عن « انساب الخيل » !

فالانسان ، مهما زعم لنفسه من « فضول ثقافي » ، ولو من باب العلم بالشيء لا غير ، لا يمكن ان يلقي ولو نظرة على كل ما تتيحه الكتابة والثقافة من فروع . ومع الزمن يزداد المرء معرفة وتشوقا للاطلاع ، ولكنه يزداد معرفة بحدوده ، وقصوره ، وبالتالي يحذف من « مجالات فضوله » ـ ولا اقول مجالات اطلاعه ـ الكثير من الفروع .

و « انساب الخيل » فن أعرف أنه من أقدم آداب وفنون التراث العربي بالذات . اقدم من مثيله في أي أدب في العالم . ولكن ، مالي وانساب الخيل ؟ ... وانا اولا لست فارسا ولا رياضيا ولكنني من « الكتاب الجالسي القرفصاء » كما يسمى تمثال الكاتب المصري القديم مع انه لا يجلس القرفصاء ولكنه يجلس متربعا في وقار وجلال ..

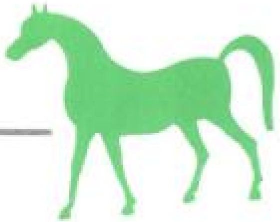
ثم انني انتمي الى عصر صارت فيه « انساب البشر » غير مهمة ، فلم يعد هاما لويس « الثامن عشر » او « ادوارد الثامن » وانما نحن في عصر شعاره :

ان الفتـى مـن يقـول ها انذا
ليس الفتـى مـن يقـول : كان ابي !

او هذا ما نحاول ان نؤكده ونعمقه في العقل العربي المعاصر ...

ولكن الذين كتبت عليهم لعنة « حب الكتب » يعرفون ولا شك ذلك الضعف احيانا ازاء كتاب ما .. لمجرد جماله !

وهذا ما أوقعني في شراك ذلك الكتاب الضخم ، الباهظ ، لمؤلفة انجليزية شهيرة بالاسم والتخصص الذي لا يعنيني ، هي « ليدي ونتويرث » وكتابها ـ غير الوحيد ـ عن « الجواد العربي الاصيل ! »



● من اقدم رسم لجواد عربي اصيل
على قبر فرعوني سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

.. سيِّد جياد التاريخ !

بقلم : أحمد بهاء الدين

● « على قمة الدنيا » تعليق للمؤلفة



وبالتالي ، ارجو ألا يتوقع القارىء مني ، ان احاول التعرض للجانب الاكبر - والاهم في الاغلب - من الكتاب عن اصول الخيل انثروبولوجيا وتشريحيا واخلاقيا وجماليا ، ومتابعتها الدقيقة لعائلاتها العالمية وتطورها عبر القرون ، والجداول الاحصائية ، واشجار النسب .. الى آخره . فاكثر هذا قرأته ولم افهم . ولم احاول ان اكسر دماغي في متابعته واستيعابه .

انما هي جعلت محور كتابها يدور حول اثبات ان الجواد العربي هو اعظم جياد العالم . وهذا طبعا يطرب قلب اي عربي ، ولو لم تكن الادلة كافية .. فما بالنا وهي تقدم آلاف الادلة ، والمقارنات ، والهجرات ، وأثار التزاوج والاختلاط ، غير تاركة قارة من القارات ؟

ثم ان هذا البحث العذب المضني ، وجدت فيه ما أنجذب إلى قراءته من تاريخ بشري .. حضاري واجتماعي وعسكري .. ومن حب هائل لأجمل وأنبل المخلوقات في عالم الحيوان ..

وقد اثارني الى الكتابة عنه ، وعدم الاكتفاء بمتعة قراءته - ما ألاحظه - كمتفرج على رفوف المكتبات - في انحاء الدنيا - حركة التأليف الاجنبية الضخمة عن الخيل .. وعدد المجلات الاجنبية الشهرية ، والفصلية عن الخيل . والمجلات التي تنشر اخبار نجوم الخيل في انحاء العالم ، كما تنشر اخبار نجوم السينما او ابطال كرة القدم .. فيما اعلم ، فان هذا الاهتمام لم يعد له وجود في المكتبة العربية منذ قرون . رغم اننا نحن العرب - فيما اعلم ايضا - اصحاب اعظم سلالات الخيل ، ومؤسسو فن الكتابة عن الخيل .. وقد تربينا منذ قرأنا الشعر الجاهلي على ابيات لا آخر لها ولا حد لجمالها في وصف الخيل . فالجواد كان رفيق العربي منذ عرف الحياة . ولا يوجد حتى الآن - تقول المؤلفة - في العالم جياد تضارع الجواد النجدي .. حسب نقاء دمه وسلالته .

أجمل زوجة وأعظم جواد !

ومن حكايات مصر المسلية ، انه بعد عزل الخديوي عباس ، عرض الانجليز عرش مصر على امير اسمه حسين كمال الدين،فرفض العرش قائلا:«ماذا أريد من الملك؟.. وعندي اجمل زوجة واعظم جواد » وكنا ونحن صغار نضحك من حماقته .. التي ترك بها عرش مصر للسلطان - الملك بعد ذلك - فؤاد الاول !

فلماذا تركنا الكتابة في هذا الفن .. خصوصا واننا - مثلا - لم نكتب عن الدبابة بعد ؟

وللمؤلفة « ليدي ونتورث » أربعة كتب قبل هذا الكتاب عن نفس الموضوع ..



● المؤلفة في شبابها



● المؤلفة تطعم اثنين من جيادها العربية في مزرعتها في انجلترا .



وفي الكتاب ٢١٣ صورة باللونين الابيض والاسود . و ٣٩ صورة ملونة ، وعشرات الجداول والارقام .. ورغم ضخامة حجم الكتاب ، وارتفاع ثمنه - « ستون دينارا كويتيا » ، اي مائتي دولار - الا ان الطبعة التي في يدي هي الطبعة الثالثة !!

وبالنسبة للبشر - او تلك قناعتي - انهم في خصائصهم الاصلية متساوون ، طبعا هناك الذكي والغبي ، والنشيط والبليد ، ولكن اقصد « الشعوب » بوجه عام . وانهم يتفوقون او يتأخرون لظروف موضوعية وتاريخية وبيئية .. الى آخره . وان النظريات الهتلرية عن تفوق الجنس الآري ، ثم ترتيب الاجناس درجات .. كلام فارغ وفاشستي واستعماري . ولكن يبدو ان الامر غير ذلك في سلالات الحيوان . وهذا - كما يكتشف المرء - بديهي أو منطقي . فالحيوان ليس كالانسان في عقله وقدراته التي خصه بها الله ، وفي قراءته وذاكرته التاريخية .. الى آخره . ولذلك فالسلالات حتى بعد آلاف السنين ، تبقى مختلفة في صفاتها - والوراثة هنا بالتالي عنصر أساسي - ودرجة نقاء السلالة .

وانجلترا بالذات ، مثلا ، تفخر بجيادها ، وهي طبعا متقدمة جدا في استيراد الخيل منذ قرون ، واستنباط سلالات منها ، وتربيتها وتدريبها ، وتلك إحدى المعارك الاساسية التي تخوضها المؤلفة الانجليزية بشراسة ودقة معا ، لتثبت بالرقم والتاريخ والسلالة واحيانا بالاسم .. ان اعظم جواد حتى الآن هو الجواد العربي ، حتى الذي لا يحظى بكل ذلك ، وان كل نجم بزغ كان جوادا عربيا .. مسمية عائلات الجياد ومتى تزاوجت ومتى افترقت ، كأنها تؤرخ لعائلات ملكية ..

وبوجه عام ، فهمت ان الجياد في القارات الخمس ، على تعدد عائلاتها تنقسم اساسا الى نوعين : نوع من ذوات « الدم الساخن » ونوع من ذوات « الدم البارد » .

والجياد من ذوات الدم البارد قد تكون أحسن في صفات ومهمات معينة : في هدوئها ، في ساحات القتال ، وفي جر العربات والمعدات الثقيلة .. الى آخره ..

اما الجياد ذات الدم الساخن .. فهي الاكثر جمالا ورشاقة ، والاكثر نبلا وشهامة وعاطفة ، والاكثر ذكاء ووفاء ، وهي الاسرع بما لا يقاس .. فهي ملكة حلبات السباق بلا منازع ، وجياد العظماء عبر عصور التاريخ . هي الجياد « السادة » وليست الجياد « الخدم » اذا جاز التعبير ..

والجياد ذات الدم الساخن جياد كلها « سامية » كالعرب الساميين . وهي العظمى بين عائلات الجياد السامية .



● جواد عربي اسمه « سيسرون »



واذا كان العالم قد عرفها من مراكز تجارتها الكبرى القديمة : بغداد ودمشق والقاهرة واسطنبول ، الا ان أرقاها وأثمنها هي الجياد التي جاءت الى تلك الاسواق من نجد بالتحديد .. تلك الهضبة الواسعة الجرداء التي تتوسط شبه الجزيرة العربية ، حيث صاغتها الطبيعة القاسية المتطرفة صياغة خاصة ، خالصة ، نقية ، غير مختلطة ، في حدة هذه الصحراء ، وتطرفها وحاجتها الى الشجاعة والنخوة والعاطفة والذكاء والسرعة الفائقة .

ومن هذا المنطلق ، تتصدى المؤلفة لاشهر السلالات الممتازة في انجلترا وغيرها .. لتثبت انها ممتازة حسب نسبة الدم العربي فيها .. وان القول بأن لها صفات ذاتية خاصة بها غير صحيح ..

وتدلنا المؤلفة على ان اول ملامح مرسومة للجواد العربي الصميم .. توجد في رسوم الفراعنة المصريين القدامى من كبار الفاتحين .. وفي اللوحة الواحدة تجد ان الجواد العربي الاصيل هو الذي يركبه الفرعون نفسه ، واقل منه يركبه سائر قواده وجنوده .. وذلك منذ اربعة آلاف سنة ...

وتروي المؤلفة ـ في حالة انجلترا مثلا ـ أن أعظم الجياد التي عرفوها ، وفيها دم عربي ، جاءت عبر الامبراطورية الرومانية التي كانت تجلبها من مستعمراتها في مصر وسوريا وتركيا وشمال افريقيا .. مختلطة طبعا ومتزاوجة بأجناس اخرى .

إنهم يقتلون الجياد !

ولكن بقي الحصان متفوقا بدرجة « عروبته » .

حتى جاء الملك هنري الثامن الشهير . وضاق ذرعا بالجواد العربي .. الذي قلنا انه دقيق التكوين ، ليس حمال اثقال ، فكانت الجياد الممتازة لا ترتاح الى هنري الثامن ببدانته الهائلة ، ودروعه الحديدية واسلحته الثقيلة ، وتتأبى عليه .. وكما كان يقطع رؤوس زوجاته اصدر امرا باعدام كل الجياد ذات الدم العربي في انجلترا بقانون خاص لهذا الغرض .. حتى لا يسبقه سواه ! وقصر استيراد الجياد على المصادر الاوروبية : هولندا والمانيا وايطاليا .. وهي جياد ضخمة الحجم ، عريضة الظهر ، معقولة السرعة .. واختفت الجياد العربية في هذه المذبحة الملكية ، الا اعدادا قليلة جدا ، نجح اصحابها في اخفائها .. في الاطراف البعيدة من الجزر البريطانية !

ثم جاء جيمس الاول فبدأ يرسل لاستيرادها .. وتلاه « كرومويل » بطل الثورة الفارس الذي يعرف مزاياها فاكثر من استحضارها .. حتى جاء شارل الثاني فأعاد اليها مجدها الكامل بتربيتها ، والاستكثار منها ، والعناية بها .



● لوحة نادرة : دزرائيلي رئيس وزراء انجلترا منذ قرن ، يثبت مزايا الجواد العربي بالقفز به على المائدة داخل البيت امام ضيوفه !

ومن تلك الفترة فقط ، بدأ ظهور « الجواد الانجليزي » المتميز ، عبر تزاوجه مع الجياد العربية الاصيلة ، السامية ، ذوات الدم الساخن .

ومع ذلك ـ تروي المؤلفة ـ انه في تلك القرون الغابرة كان ثمن الجواد الممتاز يساوي ٢٥ جنيها مثلا ، أما اذا جاء جواد « عربي خالص تماما لا تشوب سلالته اي شائبه » فان ثمنه يصل الى ٢٠٠٠ جنيه .. اي عشرة امثال ثمن احسن جواد انجليزي مهما تعددت اصوله !

وحين تركز المؤلفة على الجواد العربي تقسمه الى درجات :

الاول : هو ابن نجد ، الهضبة الوعرة في قلب شبه الجزيرة .

والثاني : هو الجياد النابعة ـ من نفس العائلة ، من الشرق .

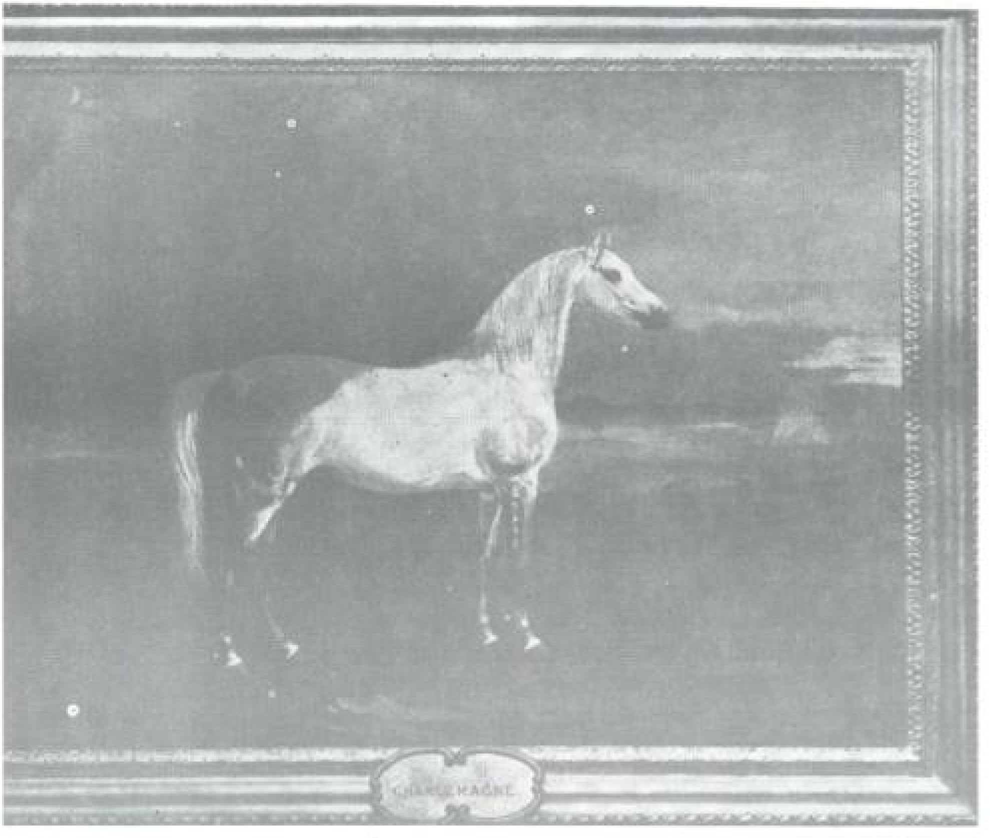
والثالث : هو الجياد التي ترعرعت الى الغرب من تلك البقعة .

وتشرح كيف ان نجد ، على تفردها وتوحدها ، الا انها كانت في العصور الاولى أرض امطار ومياه جارية في الأخاديد ..

وتروي الاساطير الاولى ، من الاسطورة التي تقول ان أبا الجياد العربية كان جوادا جامحا لمحه لاول مرة اسماعيل بن ابراهيم هائما في الصحراء ، فظل يطارده حتى ظفر به ..

● محمد علي باشا بعد ألف سنة !





● جواد عربي
اسمه « شارلمان »
مرسوم سنة ١٨٢٩



اي انه « أدم » الجياد جميعا ! الى الاسطورة التي تقول انها كانت خمسة جياد ، لا يعرف ما قبلها ومن الخمسة توزعت العائلة ..

وهي ترجح ان اسماعيل بن ابراهيم ،والعرب المستعربة جميعا من نسله ،كان اول من روض جوادا عربيا .. بعد ان كبر وانتقل الى نجد ، التي كانت في رأي بعض الجيولوجيين كما ذكرنا ارض امطار وخضره ومياه مخزونة ، ولكنها اخذت تجف مع الزمن عبر آلاف السنين . وتعزز هذا بآخر وأشهر الرحالة الانجليز« جون فيلبي » ايام الملك عبدالعزيز بن سعود ، في وصفه للآبار الواسعة العميقة جدا ، الجافة تماما . بدليل ان كثيرا من الخيل الشهيرة سميت في الجاهلية « سباح » وهو وصف يمت للماء والسباحة بصلة .

وتتحدث عن بدء تسميات لانواع الخيول العربيةفي الجاهلية ، التي يساء فهم ترجمتها في الغرب ، فوصف « العجوز » AL - Agouz معناه في رأيها النقي السلالة منذ القدم . ووصف « الاهوج » ليس بمعنى الاحمق ولكن ذلك الجواد البري ، الطلق ، الحر تماما ، العنيف والدقيق معا ، المندفع في السباق والصيد والقتال دون رهبة .. والذي يرقص رقصا بديعا على دقات الطبول واهازيج الصحراء .. وتقول انهم كانوا يسمون الخيل المخلوطة بالسلالة الفارسية «الباردة » ادراكا منهم لما ذكرناه سابقا من تفرقة الجياد بين ذوات الدم الحار وذوات الدم البارد ، وتطورت تلك الكلمة فصار يطلق على الخيول الفارسية في اوروبا وصف انه من سلالة « البردان BARDAN » .

وكان العرب يطلقون اسماء « الخيل » و « الجياد » على الخيل المستأنسة .. اما كلمة « فرس » فيطلقونها زهوا على الجواد البرى .. الذي اصطاده صاحبه ولم يتناسل ويستأنس بعد ..

وتعتقد المؤلفة أن أول ما صدرت الخيول العربية كان الى مصر . حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ـ اي منذ اربعة آلاف سنة ـ ورسومه في مصر لا تخطىء العين الخبيرة اصله ، ولا





● صورة تذكارية اهداها الامير (الملك) فيصل سعود الى المؤلفة
في ١٦ ديسمبر ١٩٢٤ بمناسبة زيارتها لمواقع الخيل العربية .

وصفه في المعارك : فهو دقيق العظم ولكنه شديد الصلابة ، وشكل رأسه أقرب الى رأس الغزال ... وعيونه واسعة واضحة بشكل ملفت مميز .

وتقول المؤلفة ان قبائل العرب بدأت في تربية الخيول وتزويجها ، واقتنائها كثروة او كتجارة ثمينة منذ القرن الخامس الميلادي ، اي قبل الاسلام بأكثر من قرن . وتذكر أولى القبائل التي بدأت ذلك .

جواد أدخل صاحبه التاريخ !

ثم تسرد أمثلة كثيرة من الجياد التي اشتهرت بالاسم ، حتى فاقت اسم صاحبها . فهناك الفارس الذي ادخل اسم جواده التاريخ ، مثل عنترة بن شداد وحصانه « الأدهم » وأبوه شداد وحصانه « الأبجر » وهناك الجواد الذي ادخل اسم صاحبه التاريخ .. مثل « نعمة » التي ادخلت صاحبها « الحارث » التاريخ في كتب الخيل ، و « اليحموم » الذي ترى انه ادخل اسم المنذر ملك الحيرة التاريخ .. في كتب الخيل على الاقل .

وتروي قصصا جاهلية ـ لا أعرف مصدرها ـ عن روايات الخيل . قصة « ابو زيد وعالية » الذي تظاهر بحب عالية سنين حتى يتمكن من سرقة جواد أبيها . وقصة « الاعرج » الذي كان يتشاجر مع زوجته لأنه كان يفضل جواده على ابنه في تغذيته بلبن الابل .. وكيف حاولت التخلص من الجواد فتخلص منها هي وقال ما معناه : ساعة الخطر الداهم ، واذ تركن كل قبيلة الى الفرار لا يلتصق بي ويبقى معي الا الفرس .

وبنت رئيس القبيلة التي اخذت أسيرة في غارة من قبيلة اخرى تريد الحصول على هذا الفرس البارد . فانتهزت الفرصة وهي في الاسر ذات ليلة وقطعت اذن فرس ابيها ، حتى تعرف كل العرب فرس من هذه .

وكل رواياتها تدور حول ما ذكرنا : من ان العلاقة الحميمة النادرة بين الجواد وصاحبه كونت صفات الجواد العربي النفسية تكوينها الذي يميزها عن سائر الخيل ...

وفي فصل مستقل تتعقب « ليدي ونتويرث » أكبر شعراء الجاهلية وما قالوه من ابدع الشعر في جيادهم .. عنترة .. وامرؤ القيس .. وعمرو بن كلثوم ، ولبيد ، التي تقول انه عاش ١٤٥ سنة ، تسعين سنة منها في الجاهلية وخمسا وخمسين بعد الاسلام . وهي تترجم صفحات كاملة من ذلك الشعر البديع الى الانجليزية .. ولا أحد بين يدي دواوينهم لأنقل أصلها العربي ، ولا ارتكب سخافة ترجمة ذلك الشعر الخالد من الانجليزية الى العربية !

وكيف ان بعض الجياد قد خلدها اصحابها حين ماتت بدفنها في مقابر ، وكتابة شعر الرثاء فيها على شواهد قبورها !



● لوحة من قصة المصور تخلد ذكرى جواد عربي لأنه تناسل مع اكبر عدد من الجياد الانجليزية «مات في سنة ١٧٥٤»

ثم تنبثق دعوة الاسلام ، وتشرح المؤلفة كيف ان الاسلام بفتوحاته الكبرى ، هو الذي اعطى الجياد العربية فرصتها التاريخية .. اذ اثبتت للعالم الواسع ـ تحت ابطالها ـ مزاياها الهائلة في قطع المسافات الشاسعة بسرعة مذهلة ـ رحلة خالد بن الوليد الصاعقة السرعة من العراق الى اليرموك بالشام .

ووقفة خالد بن الوليد وأبي عبيدة الجراح امام جحافل بيزنطة .. وسلاحهم القوي هو ١٢ ألف فارس يركبون جيادا عربية نجدية جسيمة ..

وترى ان احمد بن طولون هو الذي اعاد الى مصر اقتناء الخيول العربية الاصيلة بالآلاف .. وبعده بألف سنة على عهد محمد علي باشا جلب ابراهيم باشا موجة جديدة منها كانت من أهم أسلحة فتوحاته ..

ومن تلك الفتوحات والهجرات عبر ألف واربعمائة سنة انتشرت الخيول العربية عبر القارات .. وكان لابد ان تخالط غيرها وتتناسل .. وتصبح أحفادها بمئات الآلاف .. محتفظة ببعض صفات « الدم الحار » بنسب مختلفة .. وتطير سمعتها ـ بعد قرون ، كما سبق ـ الى سائر القارات .

وفي الكتاب صفحة كاملة لنصوص أوامر ملكية انجليزية لحراس الموانئ، والثغور بالسماح للتاجر فلان بالدخول ومعه كذا جوادا .. وبالطبع ظلت القيمة الخاصة للجواد العربي النقي ـ لا الهجين ـ وكانوا يسمونه في انجلترا ARABIST ARAB تمييزا له عن الجواد العربي بالمعنى الاوسع ، وهو الذي يجري في عروقه دم عربي .

ثم تتعقب المؤلفة في فصل آخر بدء العرب في « التأليف العلمي » عن الخيول العربية ، لا بمجرد قول الشعر . وأهم ما بقي من تلك المؤلفات وما ضاع هو ما كتبه «أبو عبيدة »الذي ولد بعد سنة ١٠٦ من الهجرة .. والاصمعي .. و« ابن قتيبة » بعدهم بقرن تقريبا .. وكتاب « الاغاني » لأبي الفرج الأصفهاني » .. وتقول ان ما في كتاب الاغاني عن الخيل قليل ناقص .. اذ ليس فيه الا ما كان للغناء .. وان أبا الفرج الاصفهاني له كتاب آخر مخصص لموضوع الخيل وحدها ، ولكنه مفقود .

وكل هذا انقله على ذمة المؤلفة « ليدي ونتويرث » ! بل انها تميز بين خيول قحطان وخيول عدنان .. دون ان يخلو بحثها العلمي المفصل من لفتات ذكية حين تضع بين العناصر المميزة لتكوين الجواد العربي « علاقته الفريدة بصاحبه البدوي ، المتنقل ، الذي يعطي الجواد عاطفة حميمة ، حيث لا غنى عنه ، فتتكون لدى الجواد العربي تلك الخاصة العاطفية ، وحرص البدوي على سلالة جواده .. فهو له اخ ورفيق وزميل وخدين ، ومن ذوي القربى ! ويدقق في زواج فرسه اكثر مما يدقق في زواج ابنته ..» .

❋

ثم ماذا ؟

ثم اني بقدر ما تمتعت بالكتاب بقدر ما ارهقت نفسي ، فالعقل والقلب كانا يجوبان ويلهثان وراء ذلك التاريخ الحافل للخيل .. بحوافرها الدقيقة النحيلة .. عبر القرون وعبر القارات وعبر الحروب ...

وحين هممت بمحاولة تقديم الكتاب الى القارىء كان الامر أصعب . فالامر يحتاج الى اكثر من خبير .. وانا اخوض في أدغال من المعلومات لا أعرفها .. وليس أمامي سوى الاشارة الى عناوينها .. والاعتذار عن قصورها واخطائها ..

ثم لا اعرف اين اتوقف في عرض هذا المجلد الضخم .. وأبوابه .. فاضطر الى وقفة مباغتة .. عند كلمة جعلتها المؤلفة عنوانا لأحد فصول كتابها .. اذ وقف سيد الحروب في العصور الحديثة ، نابليون بونابرت ، بعد انتصاراته الساحقة ، يقول لجنرالاته :

ـ ايها السادة .. انكم بالحصول على الدم العربي يمكنكم تربية اعظم انواع الخيل ، العربي خير الف مرة من اي سلالة اخرى .. لاننا بالحصول عليه نحصل على المزايا الهائلة الكاملة في ذلك الدم النقي !

هذا عن دم الجواد العربي ..

ماذا ياترى عن دم الانسان العربي ؟ ■■

احمد بهاء الدين

أقوال معاصرة



■ باعلان ضمها للجولان ، فان اسرائيل قد زرعت بذور حرب خامسة فى الشرق الأوسط .

المعلق العسكرى الأمريكى درومبدلتون

■ مصر العربية ستحتاج اليها أمريكا ، ومصر وحدها هى التى ستحتاج الى أمريكا .

محمد حسنين هيكل



■ الشاعر يؤثر و يتأثر بالثقافة العربية والعالمية ومن لا يؤثر ولا يتأثر يموت .

الشاعر محمود درويش

■ كل رئيس أمريكى تقدم اليه يوميا تقارير سرية عن محاولة اغتياله .

الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر

■ لن يرانى أحد بعد الآن فى حلبة الملاكمة أو حولها ، وإنما سأكرس بقية حياتى للتبشير بالاسلام وللمسلمين السود .

محمد على كلاى



■ المملكة العربية السعودية لا تعادى المعسكر الاشتراكى ، وتستطيع أن تقيم علاقات ودية معه ، حتى مع عدم وجود علاقات دبلوماسية .

الأمير فهد بن عبد العزيز

■ فلسطين أعقد قضية فى العالم .

محمد يوسف العدسانى ـ رئيس مجلس الأمة الكويتى



■ انه غالبا ما يكون ساخرا ، ونادرا ما يكون مرحا .

مجلة تايم الامريكية فى تقديمها لرجل العام

الذى اختارته : الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران

■ اننا ما زلنا فى أسوأ أيامنا رغم مؤشرات التقدم البادية .

مرجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا

■ خسائر صناعة تكرير النفط العالمية بلغت ١٠ مليارات دولار عام ١٩٨١.

مجلة ايكونوميست البريطانية



للدكتور حسان حتحوت

متقدمون ومتخلفون

اسفرت حقبة ما بعد الحرب العالمية الاخيرة الى قسمة العالم لدول متقدمة ودول متخلفة ومالبثت اللباقة السياسية العامة ان لم تقل التمويه السياسي الى اطلاق لقب الدول النامية على الدول المتخلفة .. والتعبير في ذاته مهذب فهو لا يجرح الشعور ولا يسيء الأدب ، وان كان عند الذين اطلقوه لا يغير واقعا ولا يدل على معنى جديد .. وهو فيما أراه ضرب من اللعب على أوتار سذاجتنا ، وايهام لنا معشر الدول « النامية » بأننا فعلا على طريق التقدم وأننا بالغوه عما قريب او بعيد .

والحق ان تعبير « الدول النامية » اكذوبة كبرى ... فالتقدم شيء نسبي .. لا يكفي انك تتقدم في اتجاه ما بسرعة ميل في الساعة لكي تدعى لنفسك او لغيرك انك تتقدم . لأنه اذا كان غيرك في نفس الوقت يتقدم في ذات الاتجاه بسرعة مائة ميل في الساعة ، فالحصيلة العملية انك تتخلف الى الوراء بسرعة تسعة وتسعين ميلا في الساعة ! فاذا أسعدنا الحظ بساعة صفاء في البصيرة والبصر وتجرد مما يحتوينا من آفاقنا الذاتية القريبة ، واستطعنا ان نخرج من نطاق أنفسنا فننظر الى المجتمع الانساني العام ، فيهولنا ان نبصر بوضوح وجلاء لا أننا نتأخر فحسب ، ولكن أن نتبين ان التاريخ الانساني منذ بدايته لم يشهد فترة تزداد فيها الهوة بين المتقدمين والمتخلفين اتساعا بسرعة اكبر من سرعة ذلك في عصرنا الحاضر .. ولازالت آخذة في التسارع يوما وراء يوم .

ثابت ان الانسانية حصلت من العلم في السنوات المائة الاخيرة مايكافيء ما حصلته على مدى التاريخ البشرى منذ عشرات الالوف من السنين .. هذه مذهلة بسيطة : اما المذهلة المركبة فهي أنه ثابت كذلك ان السنوات الخمس القادمة ستشهد مضاعفة كل كمية المعلومات التي بين يدى الانسان اليوم !! في تسارع فلكي فجرته الانجازات الأخيرة في العلوم والتقنية ..

وأخشى ما أخشاه أن يظن قارئي ان ما أكتب عربدة قلم ، او شطحة أديب . . بل هو المقام العلمي الذى كل شيء فيه بمقدار . . وهو أمر في بلاد العلم في بؤرة الاهتمام وأراه في بلادنا خارج أفق الوعي .

ولا أحسب مشروعات السنوات الخمس او العشر او الخمسين بنافعتنا ان كانت آمالنا كالجزرة يعلقونها على عصا ممدودة من رقابنا تغذ السير للوصول اليها وهي في الحاضر وفي المقبل قريبة على الرؤية بعيدة على المنال كسراب بقيعة .

ولا أظن استثمارات دولنا الغنية بشافعة لها في تأمين مستقبل الجيل الحاضر او الأجيال المقبلة . . فما دامت الهوة بيننا وبين المتقدمين تزداد اتساعا فليس في المستقبل الا ان قبضاتهم على مقدراتنا ستزيد احكاما وحبالهم حول رقابنا ستزيد خناقا .

انه العلم ! وفي يقيني انه « السلطان » الذى ورد في التعبير القرآني « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا ، لاتنفذون الا بسلطان » . . والعلم هبة الله ونعمته على الانسان يتجلى ذلك في اول مانزل من القرآن « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » . . والعلم جائزة من سعى له وجعل طلبه فريضة وطلبه ولو بالصين وسخر له أعينا تبصر وآذانا تسمع وافئدة تفكر . . هذه سنة الله لا تحويل لها . . كان المسلمون كذلك ردحا من الزمن فحملوا شعلة العلم وكانوا السادة القادة . . ثم قصروا عن ذلك وقام به غيرهم فلم تتبدل سنة الله .

ليس لنا من أمل في الحاضر ولا المستقبل الا ان كان استثمارنا الاول والاكبر هو العلم والتعليم . . له الافضلية على ما سواه سواء أكان حماية النظام ام اقامة العمران . الاستثمار في العلم والتعليم . . لاشكليا ولا عدديا ولا غوغائيا . . لا مظهر العلم مع التفريط في الاتقان تحت ضغط مطالب الجماهير . . ولا الشهادة الجامعية التي يحصل عليها الخريج ولم يزل أميا بكل مقياس جاد . . ولاحشو الرؤوس بمثل ملء الجردل الذى ينكب بعد الامتحان . .

الاستثمار في التعليم المتقن منذ الطفولة . . ورياض الاطفال أهم عندى من كليات الجامعة فهي الاساس والركاز . .

الاستثمار في التعليم . . واجب عام . . ينبغي ان تصب فيه الثروة العربية داخل حدودها وخارج حدودها . . وهو أمر مكلف جدا . . ولكنه امر المصير : والا فستغرق السفينة . . وسيهلك ركاب الدرجة الأولى وركاب الدرجة الثالثة على السواء . ■■

رأي جديد في قضية

نقل التكنولوجيا الحديثة إلى العالم العربي

نحو نظام يختفي فيه اغترابنا عن حضارتنا

بقلم : اسامة امين الخولي

الفجوة بين الآمال العريضة والواقع المرير تحتاج الى مراجعة جادة ونظرة مدققة .

قضيت ربع القرن الماضي من حياتي العاملة مشتغلا بشكل أو بآخر بقضايا العلم والتكنولوجيا وبما يمكن أن يقدماه لجهود التنمية في وطننا العربي . وشهدت خلال هذه الفترة الحرجة من حياة أمتنا العربية انحسار آمال عراض في حصيلة جهود التنمية وتضوع فكرنا حول حقيقة التحدي الذي يواجهنا كمجموعة من دول العالم الثالث الذي يطلق عليه الآن اسم الجنوب في علاقاته في النصف الاخير من القرن العشرين بالدول الغنية او ما اصبح يسمى الآن « الشمال » ولقد وصل الامر ببعضنا اليوم الى ما يشبه اليأس من امكانية الوصول الى شيء مما كنا نتصوره قريب المنال منذ عقدين أو اقل قليلا . ولقد دعاني هذا في السنوات الاخيرة الى وقفة مع النفس ومراجعة للأمر في محاولة لاستيعاب خبرة الماضي والخروج منها بدروس مستفادة في المستقبل . وبرزت خلال المراجعة نقاط ناقشتها في سياقات علمية متخصصة . شجعني القائمون على أمر « العربي » على عرضها على القارىء العربي المثقف واشراكه في الحوار حول قضية اصبحت اليوم مصيرية بكل ما تحمله الكلمة من معان .

الفرق بين العلم والتكنولوجيا

ويقتضي منا الامر اليوم ان نتطرق الى تحديد بعض المفاهيم الأساسية التي ارى في توضيحها وتأييدها ضرورة في سياق النظر المدقق في الماضي والتطلع بنظر ثاقب نحو المستقبل،واولها أمر ما فتئت اكرره في أكثر من سياق وهو يشير في كل مرة قدرا من الجدل واحيانا الدهشة واقصد به أهمية التفرقة الواضحة بين « العلم » و « التكنولوجيا » . لقد تسرب تلازم هاتين الكلمتين الى احاديثنا وكتاباتنا منذ اواسط الستينات وقبلها . واذا

كان تلازم الكلمتين في المجتمعات المصنعة يعكس قيام علاقة عضوية وثيقة ووجود تفاعل حي ومثمر بينهما ، قادر على تحويل الاكتشافات العلمية الى تكنولوجيات لانتاج سلع وخدمات متداولة في المجتمع بسرعات متزايدة كما اوضح لنا الكاتب الفرنسي سيرفان شرايبر في كتابه المعنون « التحدي الامريكي » والذي اثار ظهوره في اواخر الستينات ضجة ودويا ترددت اصداؤهما في وطننا العربي . اذا ما كان هذا واقعا في ذلك « المتقدم » فان مثل هذه العلاقة الوطيدة التي تؤتي اكلها كل يوم ليست قائمة بأي حال من الاحوال في المجتمعات النامية واكاد اجزم بانها لا تشكل واقعا محسوسا في اي ركن من أركان الوطن العربي شرقه أو غربه . ويوم تقوم هذه العلاقة في ربوع وطننا او في اجزاء منه فاننا سنكون قد حققنا هدفنا المنشود ووصلنا الى غاية الطريق .

لا هوية للعالم

وربما كان النشاط العلمي امرا واضح المعالم لكثيرين منا لأنه في جوهره جهد مارسه الانسان منذ آلاف معدودات من السنين بدرجات متفاوتة من النجاح في محاولة مستمرة لفهم هذا الكون الذي يحيط به ، ولفهم نفسه وخباياها وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض في مجتمعاتهم . والتراث العلمي لا تقيده اعتبارات هوية العالم ، جنسه أو عقيدته أو وطنه ، فهو عالمي بكل ما في الكلمة من معنى يتداول بيسر في ربوع العالم وبلا مقابل تقريبا ، وحرية تداول نتائجه تقليد حرص عليه رجاله دواما وعلى الرغم من كل الاختلافات السياسية والصراعات الدولية ، ومن حق كل صاحب عقل مبدع ونظر مدقق ان ينضم الى عشيرة العلميين طالما حققت أعماله العلمية المعايير الدقيقة المتعارف عليها لتقييم هذه الأعمال . ومن أبناء الوطن العربي علماء أجلاء تعرفهم محافل العلم الدولية وتقدرهم بينما هم يمارسون نشاطهم بين ظهرانينا ودون أن يتركوا ديارنا واذا لم يكن العلم حرا تماما في عالم اليوم الذي مارس تصفية « المتقدم » عملية تحويل منجزاته الى انتاج في سوق البيع والشراء ، فانه ما زال الى حد كبير يتمتع بحرية كبيرة .

مزيد من الحرية

وأجدني منساقا هنا وبحماس الى استطراد لعله الا يكون في غير موضعه ونحن نمحص الماضي ونشخصه . لا اظن اننا نختلف كثيرا على ان الاجواء العربية تحتاج عموما الى توفير مزيد من الحرية والانطلاق للفكر الجريء الخلاق واللازم لدعم جهد التنمية دون قهر او كبت بدعاوى زائفة عن مقتضيات الأمن الداخلي او الخارجي او اعتبارات تعزي زورا وبهتانا الى حرصنا على قيمنا الدينية ، والدين الحنيف منها براء . ولعله من الطريف ان نلاحظ ان هذا الخلط بين الغيبية في التفكير والايمان بالغيب ، وهي قضية حسمها الفقهاء الأوائل بوضوح في القرون الاولى للاسلام ، يقود علماء اجلاء لهم اسهامهم العلمي المقدر الى مزالق لا هي من العلم ولا هي من الدين في شيء . في مثل هذه الاجواء الخانقة يصبح المفهوم السائد في المجتمع عن العلم هو انه ضرب من الكشف عن الغيب ومحاولة لاماطة اللثام تدريجيا عن حقائق علمية ثابتة لا تتغير يكون لها وجودها الخاص والمنعزل عن فكر الانسان ووجوده ، بينما العمل العلمي في حقيقته سعي انساني متواضع نحو فهم أفضل للعالم من حولنا ، وهو كأي جهد بشري يصيب ويخطيء ، فلم نعرف ابدا نظرية علمية واحدة ، أي نموذجا عقليا يساعدنا على فهم الظواهر المحيطة بنا ، لم تهدمها او تعدلها نظرية لاحقة ، والمشاهد أن مثل هذه النظرية للعلم على أنه امر ثابت لا جدال فيه تستخدم في المجتمعات غير المستنيرة كوسيلة لتكييف الرأي العام وتوجيهه وجهات معينة ، وأسلوبا لابعاد المواطن العادي عن دائرة الحوار بدعوى عدم درايته بخبايا العلم ولعزل الرأي الآخر بدعوى انه « غير علمي » . وتتردد عندئذ ادعاءات زائفة عما أثبته العلم الحديث من جدوى هذا الأمر او ضرر ذاك ، تتبدل من يوم لآخر وتتناقض مع نفسها ، حسب مقتضيات الأحوال الراهنة .

الانسان الصانع

اما اذا نظرنا الى التكنولوجيا فاننا نجد أنها مجموعة من المعارف والخبرات المكتسبة التي تحقق لمجتمع ما انتاج ما يحتاجه من سلع او تقديم متطلباته من الخدمات ، وهي بهذا قديمة قدم نشأة « الانسان الصانع » والذي تعلم من خلال خبراته كيف يوفر لنفسه الطعام والغذاء والكساء والمأوى وسبل السفر والدرس واللهو الى آخر متطلباته المتزايدة ، كل هذا يجري وفاء لطلب اجتماعي معين يتغير من زمن الى زمن ، ومن مكان الى مكان ، ومن مجتمع الى آخر : ولقد اتقن الانسان تكنولوجيات كثيرة وطوّرها بما يلائم احتياجاته وبيئته على امتداد عشرات الآلاف من السنين دون ان يكون له رصيد من العلم بمعناه الحديث المتعارف عليه اليوم ، ولم يقدم العلم اسهاما ذا قيمة في تطوير التكنولوجيا الا منذ قرون معدودات لم يتجاوز عددها بعد عدد اصابع اليد

الواحدة . ومن المهم لنا اليوم ان نؤكد على هذه الحقيقة حتى لا تضيع في غمرة حماسنا لما لدى الآخرين تكنولوجيات كثيرة اصلية تمثل خبرة آلاف السنين وجهود أجيال متعاقبة من الأجداد في فهم بيئتهم والتعرف على خصائصها المميزة والتعامل والتكيف معها بحكمة وفي توازن دقيق حساس يؤدي الاخلال به الى نتائج مدمرة لا سبيل لاصلاحها بعد وقوعها .

الطلب الاجتماعي

والتكنولوجيا والتي عرفناها هنا على انها المعارف والخبرات ، ليست اذن هي السلع او الخدمات التي توفرها التكنولوجيا . وبالتالي فان اقتناء منتجات التكنولوجيا لا يعني اكتسابها ، والمشاهد ان جهودنا في التنمية قد انصرفت الى اقتناء النتاج دون تملك ناصية المعارف التي ذهبت في تحقيقه . وربما كان دافعنا الى هذا هو تعجلنا في اللحاق بالآخرين . ولعله قد اصبح واضحا الآن أن هذا أمر لن يتحقق بحكم التعريف لاننا سوف لا نقتني ما يستحدثه « المتقدمون » الا بعد ان ينتجوه ويستخدموه ويبيعوه لنا في الوقت المناسب وبالشروط المناسبة لهم . ولعل كثيرين منا لا يدركون ان التكنولوجيا الواحدة قد تستخدم لعدة اغراض وفي انتاج سلع تبدو لاول وهلة وكأنه لا علاقة بينها ، فتكنولوجيا انتاج بعض مستحضرات التجميل هي ذاتها التي تستخدم في انتاج بعض انواع المفرقعات وتكنولوجيا انتاج ابراج الدبابات من الصلب هي ذاتها التي تنتج التوربينات التي تستخدم في استغلال مساقط المياه لتوليد الكهرباء .

والذي يحدد المنتجات المطلوبة من السلع والخدمات هو ما يسميه رجال الاقتصاد « الطلب الاجتماعي » . ويقتضي هذا الامر منا بدوره وقفة تأمل . اننا نعيش في عالم تطورات فيه سبل الاتصال بمعدلات لا سابق عهد لنا بها.فالانسان المعاصر يتنقل في كل ارجاء العالم بسرعة وسهولة لم نكن نعرفها حتى منذ نصف قرن مضى ووسائل الاتصال الالكترونية عبر الاوطان والقارات والمحيطات ميسرة زهيدة الكلفة وهكذا ، فان العالم الثالث ينهمر عليه سيل دافق ، بل فيضان جارف ، من الآراء والافكار والقيم عبر اجهزة الاعلام القائمة على هذه الوسائل الحديثة في الاتصال . وهذه القيم الآتية من الخارج والتي تغذيها حملات التسويق والاعلان لهذا المنتج او ذاك بوسائل مؤثرة قائمة على ما اكتسبه الانسان من معارف بخبايا النفس وطرق التأثير فيها ، كل هذا يخلق طلبا اجتماعيا على سلع بالذات ويعطيها في اولويات احتياجات الناس مكانا متميزا قد لا يعكس بالضرورة ترتيب الأولويات الراشد بعيدا عن هذه التأثيرات الغريبة الزائفة ، بل والمدمرة لنسيج المجتمع وكيانه وقيمه واصالته .

التبعية التكنولوجية

إن كل سلعة تأتي الينا من مجتمع غريب تحمل في ثناياها قيم هذا المجتمع واسلوب حياته وهو ما عبر عنه احد المفكرين الغربيين بقوله ان التكنولوجيا تحمل في ثناياها الشفرة الوراثية للمجتمع الذي انتجها ، مشبها إياها بالجينات في خلايا الكائنات الحية والتي تنقل الصفات المتوارثة من جيل الى جيل . وهناك امثلة تحليلية كثيرة تناولت تأثير ادخال السيارة الخاصة والجرار الزراعي مثلا الى مجتمع وكشفت عن عمق هذه التأثيرات وتغلغلها الى ابعد بكثير مما قد يخطر على البال لاول وهلة . وتتلازم مع هذه الاعتبارات الاجتماعية الحساسة اعتبارات اخرى اقتصادية مادية لا تقل عنها خطورة لأنها تربط اقتصاد المجتمع المستورد ارتباطا قويا باقتصاد المجتمع المنتج للسلعة التي يشتد الطلب الاجتماعي عليها بينما لا يملك المجتمع نفسه وسائل انتاجها محليا . وهكذا نتحدث اليوم عن التبعية التكنولوجية او الاستعمار التكنولوجي وندرك اخيرا ان الاستقلال السياسي الذي حققناه والنمو الاقتصادي لم يكونا وحدهما كافيين لتحقيق الاستقلال المنشود ونقدر ان المعارف التكنولوجية هي سلاح الاستعمار الجديد ووسيلة سيطرة اصحاب هذه المعارف على محتاجيها.

سلع تباع وتشترى

وهنا يبرز فرق آخر جوهري بين العلم والتكنولوجيا ، فبينما الاكتشافات العلمية كما رأينا متاحة في غالبيتها لا قيد على تداولها ولا مقابل مادي للحصول عليها ، فان الانجازات التكنولوجية سلع تباع وتشترى ولها سوقها الدولية التي يجري التعامل فيها بشروط قد لا يتصور الكثيرون مدى قسوتها واجحافها بمشتريها . ولقد نشط العالم الثالث في السنوات الاخيرة في محاولة تصحيح هذا الوضع والاتفاق من خلال منظمة الأمم المتحدة المعنية (مؤتمر المتحدة للتجارة والتنمية في جنيف والمعروف باسم اونكتاد) لصياغة « مدونة سلوك » لتعاقدات نقل التكنولوجيا الا انه يواجه مقاومة شديدة من اصحاب التكنولوجيا حالت دون الوصول الى اية نتائج ذات قيمة في هذا المضمار رغم استمرار المفاوضات لعدة سنوات وما

زال الحوار مستمرا حتى الآن دون كبير امل في احراز نجاح قريب .

تركة الاستعمار الغربي

والامر الثاني الذي اريد ان اتناوله بشيء من التمحيص هو التسليم مسبقا بأن نمط الحياة كما عرفناه في الحضارة « الغربية » المعاصرة هو النمط الذي نرغب في مجتمعاتنا كما هو ودون تعديل ، والذي تهدف اليه في النهاية جهود التنمية ، ولا شك ان هذه تركة عصور الاستعمار الغربي والرغبة المنطقية لمحاكاة من قهرونا لكي نتفوق عليهم وربما كان ضد امرا مفهوما في الماضي ولكن نظرة فاحصة الى واقع هذه الحضارة التي نتوق الى تقليدها كفيلة بدفعنا الى اعادة النظر في الامر ، وينطوي هذا التسليم الساذج بهذا الهدف على مسلمات فرعية ثلاث قد نوجزها في الامور الآتية .

اولا : ان نمط التنمية الذي سار عليه هذا العالم « المتقدم » مرغوب فيه لذاته وانه مناسب لنا في حاضرنا ومستقبلنا .

ثانيا : ان محاكاة هذا النمط ممكنة في العالم المعاصر وفي المستقبل مثلما كان تحقيقه من قبل ممكنا في الماضي لهذه المجتمعات .

ثالثا : ان تجاربنا الذاتية في سعينا لاقامة هذا النمط في بلادنا قد حققت قدرا من النجاح يدفعنا الى الاستمرار في هذا السبيل .

وكل هذه الامور ـ في تقديري ـ غير صحيحة بالمرة ، فالحصيلة المتزايدة من الدراسات المتعمقة في الادبيات التنموية تقدم لنا أدلة كثيرة على ان هذا النمط قد اصبح غير مرغوب فيه وان مساوئه المادية والمعنوية تزعج اصحابه وان علامات التمزق الداخلي في هذه المجتمعات قد غدت واضحة للعيان وان تيارات العنف والاغتراب والصراعات بين الفئات فيه قد دعت الكثير من عقلاء هذه المجتمعات الى اطلاق صيحات التحذير والدعوة الى تغيير المسار ووقف تيار الاندفاع نحو الهاوية .

هذا الترف لا نملكه

ثم ان هذا العالم المتقدم ، شرقه وغربه ان كان قد اعتمد في تحقيق نمائه والوصول الى ما وصل اليه اليوم على استنزاف الموارد الطبيعية التي بدت وقتها وكأنها بلا حدود ، فاننا لا نملك اليوم مثل هذا الترف ، وملامح نفاد انواع حيوية من هذه الموارد قد غدت واضحة ، كما في حالة النفط مثلا ، ولن تتاح لنا الآن فرصة بناء صرح التنمية في بلادنا على اساس من الاهدار البيئي المسرف والاتلاف البيئي المدمر الذي أصبح يهدد حياة موارد غذاء الانسان في البر والبحر وصحته بل والمناخ على سطح الكرة الارضية كلها ، فعلماء الارصاد الجوية يتوقعون ان ترتفع درجة حرارة الغلاف الجوي في مطلع القرن القادم مما قد يؤدي الى تغيرات جذرية وخطيرة في مناخ العالم كما عرفناه حتى الآن .

ولقد غدا جليا لنا الآن أن جهود التنمية التي قامت في بلادنا على اساس محاكاة ذلك العالم « المتقدم » قد انتهت بنا الى عكس ما كنا نتوقع ، فلقد اتسعت الهوة بيننا وبين ذلك العالم الذي نسعى للحاق به من ناحية وانتهت بنا في نفس الوقت الى اتساع الهوة بين فئتين داخل مجتمعاتنا ، فئة تحاكي العالم « المتقدم » وتعتنق مثله وترتبط به في الوفاء باحتياجاتها لانه وحده القادر على توفيرها لها ، وفئة اخرى عريضة ازدادت فقرا وعزلة عن الفئة الاولى ، وعلى الرغم من كل جهود التنمية . وشهدنا ما اتى به هذا من مظاهر القلق الاجتماعي والاستقطاب الخطر بين تينك الفئتين وما يوفره هذا من ارضية خصبة لظهور تيارات متطرفة ، يمينا ويسارا ، بدأنا نحس بها بوضوح وندرك خطورتها في اكثر من مكان في الوطن العربي اليوم .

تغريب الانسان العربي

فإن كان علم الآخرين ، او على الأحرى تكنولوجياتهم ، قد ادت بنا الى تغريب الانسان العربي عن حضارته ، فهل سنترك الامر لقوى خارجية لا حكم لنا عليها تصوغ حياتنا وتشكلها وفق مصالحها من خلال التبعية التكنولوجية والسيطرة على اسواق التكنولوجيا . ان خلاصنا من هذا المأزق يكمن في نجاحنا في بناء نظام يختفي فيه اغترابنا عن حضارتنا او بقل لتصبح سادة العلم والتكنولوجيا نوجههما حيث نريد إرساء عقلانيا على الجوانب الايجابية من قيمنا الحضارية الموروثة وفي توازن بين البيئة والموارد وتطلعاتنا لحياة رغدة كريمة يسودها العدل وتتحرر فيها ملكات الانسان العربي ليختار بحرية ما ينفعه وليبدع في ايجاد ما يحتاج اليه ولا يجده في العالم من حوله . وقد تكون لنا عودة لمحاولة النظر في شيء من هذا في فرصة قريبة . ■■

الكويت ـ أسامة امين الخولي

الشاهد الوحيد الحي يروي :

قصة محاكمة عمر المختار وإعدامه

بقلم : محمد المنصف

شاهد عيان يكتب لاول مرة قصة الزعيم العربي الكبير عمر المختار ، انه السيد محمد المنصف الذي حضر المحاكمة وشاهد تنفيذ حكم الاعدام ، هو هنا يروي فصلا من التاريخ الحي الذي عاصره ، بل وشهد اهم فصوله ..

والكاتب من ابناء بني غازي ، وقد عمل في سلكها القضائي ، وانتقل للعمل في الكويت منذ عام ١٩٥٦ .

كثيرا ما راودتني فكرة تسجيل ما عاصرته من نضال شهيد الحرية والانسانية عمر المختار - او سيدي عمر - كما نطلق عليه في ليبيا ، ولكني كنت انتظر مرور نصف قرن على استشهاده ..

وألحت الفكرة - من جديد - عند ظهور رائعة مصطفى العقاد وعرض فلمه « عمر المختار » ، الذي عرض - بالمصادفة - بعد انقضاء نصف قرن على استشهاده بعد ملحمة نضاله ، وذكرني الفلم بما شاهدته في صباي ...

وقد أهمل الفلم انقطاع حبل المشنقة عند تنفيذ حكم الاعدام ، وتعليق سيدي عمر على ذلك بقوله : « يلعن بوك دوله .. حتى احبالها بايده .. » كما ظهر غرازياني في الفلم وهو يدخن لفافة من التبغ مع انه كان لا يدخن بل يكره التدخين ..!

من عمر المختار ؟

عمر المختار (١٨٦٣ - ١٩٣١) هو من الجبل الاخضر من اعمال ليبيا الشرقية وبالتحديد من منصرفية « البطنان » حيث ولد هناك في سنة ١٨٦٣ ميلادية وهو من قبيلة امنفه المتصل نسبها كما يدل اسمها ببني مناف بالحجاز ، وهي حلقة من سلسلة النسب النبوي الشريف .

في صباه تتلمذ على رجال قمم في العلم والزهد والجهاد - منهم المجاهد المعروف السيد احمد الشريف وعمه السيد المهدي والعلامة سيدي احمد الريفي نسبة الى ريف المغرب الاقصى منشأ الامير عبدالكريم الخطابي . تحفظ القرآن الكريم وعنهم اخذ علوم الدين والدعوة اليه ، حتى صار منذ شبابه داعية متجولا ما بين السودان وتشاد ووسط وشرقي افريقيا .

وفي الخامسة والعشرين من عمره تولى مشيخة زاوية العبيد من أعمال مدينة المرج واقبل عليه الطلبة ، حتى من غير العبيد بل من قبائل العرفة والسلاطنة والدرسة والمسامير ولا زال حفدة هؤلاء يذكرون ما رواه لهم اجدادهم عن سيدي / عمر ، الذي كان يعلمهم علوم الدنيا والدين ، حتى كان يشجعهم على ممارسة الحرف



الصورة الحقيقية الوحيدة لعمر المختار

كالبناء والنجارة والحدادة . وزرع الارض المحيطة بالزاوية ووزع نتائجها على التلاميذ . والمجاورين .

ومن هذا المجرى الذي فتحه عمر انساقت اليه بقية الزوايا المبثوثة على الجبل الاخضر وبرقة البيضة بل وتونس والجزائر والسودان وتشاد وجبل ابي قبيس بمكة المكرمة وما ان استوت هذه الاصلاحات بالزوايا على سوقها وعمرت بشباب يدرس ويغرس ، يصنع في هذا الفجر البهيج والمبشر بالفتح ، حتى بزغ هنا بطرابلس فجر آخر موحش أظلمه دخان قنابل ايطاليا التي غزت مدينة طرابلس الغرب في شهر سبتمبر من عام ١٩١١ الميلادي . وهنا تاقت نفس الشاب المدعو عمر المختار الى الجهاد بعد ان أمسك بخنجره الصغير لا غير وأقسم ليجاهدن في سبيل الله . فالها عنوة أمام طلبته وما قصده

حصل منهم وقالوا بصوت واحد (احنا وراك ياعمر) .يوسار عمر الى درنة . وفي طريقه الطويل من زاوية العبيد الى درنه وهذا يكاد يكون طول الجبل كله اي الـ ٣٢٠ كيلومتر وعمر يخطب بأعلى صوته وقوة نبراته في التجمع المار بها . وتبع ذلك الصوت عدا طلبته المئات من راغبي الجهاد وساروا يواكبونه حتى وصلوا (دور) وهذه اللفظة تعني المعسكر درنة . وهناك التقوا

في وادي ابي منصور وشلالاته بالسيد الاماء احمد الشريف ، وهو متمنطق بكامل عدته ومعه فرسان المدينة فانضم اليهم الوافدون وانضم الجمع الى الجيش التركي والذي كان يقوده القائد المؤمن التركي انور باشا . وكأن لسان حال مسيرتهم ينشد : انا واخي وابن عمي على عدوي ...

كما ذكت نفوسهم لتلك النسمات الفائحة والدفق العذب الهادر والحدائق ذات البهجة الدانية قنواتها . ثم بقي عمر المختار يقوم بالواجب في جهاد (بدور درنة) وتفقد خطته الاساسية المكلف بها الا وهي مشيخة زاوية جردس العبيد . فتجده هنا كما تجده هو عينه هناك يطارد ضيوف الشيطان . وما أقسى هؤلاء الطليان الذين مهما كتب فيهم الكاتب وأبدع لا يأتي الا بحبة من حمل نخلة . ثم ان الاستعمار الايطالي ذاق المرارة التي لم يكن يتصورها .

ولما عجزت ايطاليا عن المدن التجأت لمفتاح أخر يسهل عليهم به فتح الباب الذي صممت ايطاليا حتى على كسره . هذا المفتاح هو فتح وتجهيز معركة وما يلزم لها في خليج سدرة وهو موقع حساس حصين وذو مواقع ثلاثة : العقيلة والبريقة والزويتينة وجريا على قاعدة خير الامور الوسط اختارت ايطاليا وقيادتها « البريقة » وهنا برزت في تاريخ الجهاد الليبي « معركة البريقة » هنا يبرز لنا اسم عمر المختار ثانية . وسمع السيد عمر اذ بلغ معهم السعي الآن حيث اصبح رجلا سويا ان ايطاليا اعدت في رمضان من سنة ١٣٤١ (٥٠٠٠) جندي جلهم مصوع اي من (ارتيريا) و ١٠٠ سيارة ودبابة في طليعتهم وما يصحبهم من تجهيز كبير . وفجأة برز اسم عمر في معركة البريقة حيث دخلها عن طريق مدينة اجدابيا مقر القيادة الايطالية التي جهزت بها هذه القوة وكذا مكان هجوم الطليان على البريقة وفي هذه المتصرفية الغربية من البلاد وعلى خليج سدرة قبيلة كبيرة شهيرة تدعى « قبيلة المغاربة » وهم ليسوا مغاربة من المغرب وانما سموا كذلك لوجودهم في غربي ولاية برقة وكرسي الحكم لها في عاصمتها « اجدابيا » واتصل عمر بأعيان قبيلة المغاربة فوجد القوم يستعدون للنزال ضد الهاجم الغاشم تحت امرة الفضيل المهشهش وصالح باشا الاطيوش .

واصطدم الفريقان عند موقع اسمه سيدي بلال وتعرقلت دبابات الجيش الايطالي بمن فيها لعدم صلاحية الارض الرملية لسيرها وكانت فرصة سانحة للمجاهدين وكان يسميهم الطليان « العصاة » والمصوع يسمونهم « فلاقة » .

فهجم عليهم ذلك الجيش القليل من قبيلة المغاربة وفيه السيد عمر المختار ولم تنقشع شرور تلك المعركة التي مات فيها خلق كثير . وقد أبلى فيها السيد عمر المختار والحاج فجة السوداني بلاء حسنا . وعلى ذكر هذا الرجل المتطوع من السودان فانني سمعت من وجهاء المجاهدين قصصا بطولية عجيبة ساعده عليها قوة ساعده وبسطة جسمه في عدة معارك كبيرة مع الجيش الايطالي . وكان دائما الى جانبه السيد عمر المختار . ومن الذين أستشهدوا في معركة البريقة السيد ناصر بن الاعمى والسيد ابراهيم الفيل .

وليست هذه اول معركة يشترك فيها السيد عمر كما جنح الى ذلك الكثير من المؤرخين . ونحن ذكرنا قبل معركة البريقة قتال السيد عمر المختار في (دور درنة) وبلاءه الحسن رغم صغر سنه . فانت ترى انه منازل من اول صباه .

بعد هذه المعارك المرتفع أوراها في الشق الشرقي رأت ايطاليا ان تركز على نزال اشد في هذا الشق اذ ان **الشق الغربي « طرابلس » قد انطفأت الجذوة فيه بعد** استشهاد ابطال كانوا هم السواعد . منهم الشيخ رمضان السويحلي الباروني باشا الذي هاجر الى عمان كما هاجر البشير السعداوي وأخوه نوري الى بلاد الشام . وغيرهم من ابطال الجهاد الليبي استشهدوا اوهاجروا الى مصر او تونس او السودان وتشاد وبعضهم وصل بلاد النيجر واداي وتيكتو . بل ومنهم من لا يزال هناك من كبار التجار

هذا ما كان من أمر هؤلاء . أما ما كان من أمر عمر المختار فانه ضم اليه عددا من المجاهدين وترك وطن المغاربة ليعسكر ويحمي حمى الجبل الاخضر بكامله من كل المعتدين .

بعد هذا التنصيب اخذت المعارك بالجبل الاخضر يصعد ميزان حرارتها اكثر من اي حرارة وميزان آخر عرفه الكفاح الليبي . لان الاستعمار الايطالي هو في اشد الحاجة الى الجبل الاخضر ومساحته لتهيئته لسكنى اولاده . وايطاليا ضيقة الانفاس من ازمة الضغط السكاني . وهناك ايضا مكانة هذا الجبل الذي استغله الرومان من قبل كما أن هناك موانىء كانت تصدر الى روما الحبوب من هذا الجبل عينه . ولا يزال ميناء (رأس الهلال) قائما وهذا كان حلم بنيتو موسوليني الزعيم الايطالي (١٩٢٢/١٩٤٣) ولكن صمود عمر المختار وجبهاته الثلاث هذه حالت دون مركبة موسوليني في سرعتها وكادت ان تتحطم اذ قرر في احدى جلساته في مجلس الشيوخ التخلي عن ليبيا تماما . لما ان رأي ان ميزانيات الحرب في الجبل كانت بالملايين .

وقد بلغت المعارك بالجبل في عشرين شهرا فقط اكثر من ٢٦٦ معركة . هذا حسب احصاء وزارة المستعمرات الايطالية وقد يكون هذا غير حقيقي واعترف غرازياني اخر ولاة برقة بهذا العدد تقريبا .

مفاوضات وجس نبض

ولما رأت ايطاليا ورجال اقتصادها تأرجح ميزان الدولة العام بسبب ضخامة تكاليف الحرب في ليبيا الشرقية ارتأت السياسة العليا ان تعين شخصية معتدلة ذات منصب كبير . فاصدر الملك فكتور عما نويل مرسوما بتعيين المارشال (المشير) بطرس بادوليو واليا عاما على ليبيا .

واتفق على تأليف وفد من الطرفين لمعرفة مطالب المجاهدين وكان الوسيط في اللقاء هو مدير الحاسة السيد

السيد احمد البناني رئيس المجلس ـ النيابي ـ الذي حوكم فيه المختار



عبدالله بالعون وهيأ الجو لذلك واختيرت منطقة سيدي ارحومة من متصرفية المرج ، وكان التلاقي بين الوفدين في يوم ٥ محرم سنة ١٣٤٨ مع « حذر » متناه من السيد عمر حتى المصورات وكانت الة التصوير ذات الخمار الاسود وقتئذ معهم تأمر بحجزها لدى سيد حميد وهو مهندس ميكانيكي يعمل مع المجاهدين في اصلاح الغنائم من الاسلحة حتى ينتهي التفاوض الذي دام اربع ساعات وربع الساعة ، ولم يسمح عند الوداع الى بصورتين فقط بشرط الا يكشف معالم المكان ، الاولى للسيد عمر منفردا والثانية للوفدين معا تحميها حراسة المجاهدين .

وجوه الوفدين

كان وفد المجاهدين يتألف من السيد عمر المختار والشهيد الفضيل بواعمر قائد جبهة درنة والسيد حسن محمد الرضا السنوسي ومن كل قبيلة من قبائل الحرابي مستشار ، اما الوفد الايطالي فكان برئاسة الوالي العام الجديد المشير بادوليو وعضوية والي برقة دومينيكو سيشلياني والسنيور داود باشي متصرف المرج والسيد الشارف الغرياني الذي كان يجاهد ثم قعد مع الخوالف واعد له بستان وسكن بالبركة ومرتب ٥٠٠ فرنك شهري ، وانعم على احمد الشارف باشا الغرياني بوشاح الفران كوردوني اكبر وسام ايطالي ،وكانت ايطاليا تريد ان تعامل عمر المختار نفس المعاملة وكذا السيد حسن الرضا الذي سقط في يده وشنق والف له دور خاص اطلق عليه في ذلك اليوم دور الدقيق لان ايطاليا أمدته بأكياس من الدقيق ، وكاد سيدي عمر يتميز من الغيظ بانشقاق الحسن الرضا ، وقال له : « ياحسن لو صبرت لكان عطاء الرب انفع لك ، وكان ضمن الوفد كذلك مدير الخاصة والمترجم اللبناني اصلا الخواجا خوري الذي كان يعمل بولاية بني غازي . وقدم عمر المختار مطالبه للحاكم الايطالي ، الذي وعد ان يقدمها لحكومته ، ومضت ستة اشهر بدون اي رد ، فقد كانت المفاوضات من اجل كسب الوقت .

وعاد استئناف القتال وكانت فاتحته اول رمضان سنة ١٣٤٩ بمعركة الكفرة والتي باحتلالها ضاقت الحلقة على السيد عمر المختار وجنده لانه كان يتسلم عن طريقها المدد المصري الذي كان يأتي بطريق الجغبوب وهذه ايضا احتلتها ايطاليا (والشكر على هذا المدد للأمير عمر طوسون فيا اخلصه من امير وهو صاحب أسياء ميادين في مدن ليبيا) . وفي هذه الاثناء عينت



المجاهد السيد احمد الشريف

ايطاليا واليا جديدا لبرقة واعطته كل صلاحيات يجربها ضد من سمتهم (عصاة) هذا هو (رود ولفوغرازياني) او كما تلقبه دولته (بطل بئر تغرفت) في ليبيا الغربية ، وهو ايضا فاتح مقاطعة فزان بالجنوب الليبي ، لم تكن تعرف في هذه الايام سوى صحيفة (بريد برقة) وهي اسبوعية ويصدرها على حسابه عمر فخري بك المحيشي واخبارها قليلة تنشرها في اربع صفحات متوسطة .

سياسة ابادة وعزل !

ما ان تربع رودولفو غرازياني على كرسي الحكم حتى بدأ فورا بسياسة جديدة لم تسلك من قبل ، فأمر بترحيل كل سكان الجبل مع أنعامهم الى مناطق نائية سهلية في ثلاث مناطق ، فاستقرت نجوع قبائل الحرابي في هذه المناطق تحيطهم الاسلاك ، ورسم لكل فرد منهم تموينا يوميا هو ١٠٠ غراء من الشعير ، ونصب عليهم حراسا غلاظا شدادا بأيديهم السياط .

وقصد غرازياني من هذا عزل المجاهدين عن بني شعبهم الذين يمدونهم بثروات طائلة من الانعام والحبوب وكذا في موسم جني العسل وما أكثره بهذا الجبل وهو من أجود أنواع العسل بالعالم ، لم اتذوق مثله الا باليمن

الشمالي لان مسارح النحل في مروج نبتها غير مزروع بل طبيعي .

كيف اسر عمر المختار

من المألوف لدى السيد عمر صحبة نفر من جيشه لتفقد المعسكرات ، وفي احدى هذه المرات كان يقوم بهذا الواجب ، فهوجم من طرف كمين نصبه له الايطاليون ، وصار بين الطرفين قتال بالسلاح وكان افراد الكمين من المرتزقة الليبيين فتقدم احدهم ورمى جواد السيد عمر وآخر رماه بكتفه فوقعا معا على الارض واخذ بالايدي وطير الخبر الى متصرف المرج ، وأخذ السيد عمر الى مدينة سوسة البحرية ، ومن مينائها في طراد حربي الى بنى غازى وكلنا نعرف الطراد « اورسيني » القابع دائما في ميناء المدينة لحراسة السواحل وفعلا كان هو الذى نقل السيد عمر الى البلد ثم الى سجنها .

ثم ابرق الى الوالي رودولفو غرازياني ان يحضر ، فلما حضر وتحقق من شخصيته بالسجن فاذا بالسجن يحاط بجدره وباعاليه ، ويمنع المرور في شارعه ، كل هذا جرى بامر غرازياني . ثم أعلن انه سيحاكم بقاعة المجلس النيابي في ميدان الملك في ١٩٢٠/٩/٩ .

المحاكمة

ولما وصلت وقفت امام مدرج المبني بين صفين من الحضور وقف امامها صف آخر من الجندرمة ، ونزل السائق وفتح بابها وهو من الخلف ونزل سيدى عمر بين اثنين من الجندرمة مكبلا بسلسلتين طرفاهما بيد الجنديين ، وهو ملتف بجرده ونقابه كالعادة الدائمة فيه على رأسه عرفت من نزولة ان حالته الادبية والنفسية قوية ، أدركت ذلك من نزلته النشطة وخفة حركته رغم سنه ، وادخل للمجلس وبعد فترة اذن لنا بالدخول .

ولما وصلت وقفت امام مدرج المبني بين صفين من الحضور ، وقف امامها صف آخر من الجندرمة ، ونزل السائق وفتح بابها وهو من الخلف ونزل سيدى عمر بين اثنين من الجندرمة مكبلا بسلسلتين طرفاهما بيد الجنديين ، وهو ملتف بجرده ونقابه كالعادة الدائمة فيه على رأسه ، عرفت من نزوله ان حالته الادبية والنفسية قوية ، أدركت ذلك من نزلته النشطة وخفة حركته رغم سنه ، وادخل للمجلس وبعد فترة اذن لنا بالدخول .

ولما جلست تحققت تماما من هيئة السيد عمر وجدته ربعة به احديداب ، يشع وجهه حمرة زائدة ، ويلبس حذاء عسكريا .

القاعة مربعة الأرجاء تحت قبة ضخمة ليس بها مقاعد ثابتة بل كراسي مصففة ، وفي صدرها منصة المحكمة وعن يسارها وقف سيدى عمر بين حارسين والسلسلتان تكادان تصلان الارض من طولها وعن يسار المنصة (المدعى العمومي) وقبالة المنصة منصة أخرى للمحامي ، وهذه الاماكن بعيدة عن مقاعد الجمهور ، ودخلت هيئة المحكمة من حجرة جانبية قوامها رئيس واربعة اعضاء ومعهم المترجم ، واخذت أماكنها وسأل الرئيس عن طريق المترجم :

أعيد نفس الكلمات والجمل كما نطقها هو بنفسه وعلى لهجتنا ولازلت احفظ في ذاكرتي الطبيعية منظره والفاظه اقوى من اى (فيديو)

● من انت ؟

ـ انا عمر المختار » ولأول مرة نسمع ذلك الصوت المهيب الذى دوت له كل ارجاء القاعة ، ان صوت عمر المختار يصحبني حتى هذه الكتابة ـ صوت جهورى فصيح اكبر منه بكثير » .

ـ ياعمر المختار انت في هذا السن المتقدم وتحارب ايطاليا ليش ؟ وهنا تلعثم المترجم وأزهق فامر الرئيس فورا بابداله وأوتي بآخر واعاد عليه نفس السؤال



كاتب المقال في صباه

« لاتقل تحارب او تقاتل ربنا كتب علينا وفرض الجهاد واحنا قاعدين نجاهد فيكم انتو اللي غصبتم الوطن ، والجهاد فرض واجب على كل مسلم »

● انت تحارب دولة ايطاليا الفخيمة التي جاءت لتعلمكم وتدلكم على حياة احسن ؟

ـ ايطاليا جت طامعه في الجبل الاخضر تملكه اذا قدرت ، والا حتى بالقوة لشنو ؟ بيش اتقسمه وتسكن فيه شناها ، واطلع منه أهله ، وترميهم في الصحرا ، لو كان موش نحن قاعدين لها راهو تم هضا من زمان اصبار ارانا تو قاعدين في الصحرا .

وبعد هذا السؤال فتح الرئيس درج المنصة واخرج منه (مرايات طبية) وفي اللهجة المرايات هي النظارات سائلا لمن هذه ؟

ـ هدين مرایاتي طاحت مني في الملطم (اى المعركة) عطيهن لي يلزمني

ـ لارد (واعادها الى درج المنصة .)

ثم اشار الرئيس الى حذائه (عجيب المنظر وكأن كل فردة منه دبابة صغيرة وقد فارقته الرابطات فما خلته الا افواه تصرخ على فراق صاحبها وهذا الحذاء ؟

ـ هو غنيمة منكم !!

● عمر المختار لماذا قتلت الضباط الايطاليين ؟

ـ ما قتلناهم الا بين قتلتو انتو عيالنا اللي اسرتوهم

● هم ضباط متعلمون خسرت عليهم دولتهم المال ..

● عمرك ؟

● ـ سبعين .

● اين تسكن ؟

ـ الجبل الاخضر .

● في اى مكان منه ؟

ـ كله .

ـ واعيالنا مسلمين ومؤمنين ومجاهدين حتى هم

● عمر المختار ، من يدكم ويساعدكم على حربنا كل هذه السنين الطويلة ؟ والتي خسرنا فيها الكثير من الانفس والاموال ؟

ـ الله

اما دفاع المحامي وكلام المدعى العام ـ اللذين لم يقاطعا المحكمة قط ـ فكانا اخصر من جلسة الخطيب بين الخطبتين .

رفعت الجلسة

بعد اعلان رفع الجلسة واختفاء الهيئة للمداولة في نفس الحجرة التى خرجا منها كانت مداولة قصيرة لعشر دقائق تقريبا ، وبقيت القاعة كما هي هدوء وصم بكم

وعادت الهيئة وجلست ونطق رئيس المحكمة بالحكم وباللغة الايطالية وباسم الملك فكتور عمانوبل الثالث ملك ايطاليا

المترجم : يا عمر المختار حكمت عليك محكمة ايطاليا الفخيمة وباسم الملك بالاعدام شنقا .

« انا لله وانا اليه راجعون » نطق بها سيدى عمر كنطقه السابق لاتلعثم ولا اضطراب ولا وجل ، بل بدون ان يتمايل من مكانه

ايها الاخ القارىء ما اثبت قلب هذا الرجل ، ما رأيت قط أثبت واجرأ واشجع منه ، انا الذى بعد ذلك جلست كمستشار ، ورأيت من اهوال هذا المنصب مايفتت العظم في اى بلاد جلست فيها ، وحتى ساعتي هذه لم أشاهد مثل عمر المختار او اختلط به .

عمر يباح

تسللت بين الناس ، لانتصب امام باب القاعة بالسرعة الممكنة لأرى كيف يصعد سيدى عمر كما رايته كيف نزل من (كروسة) السجن القاتمة ـ كما تقدم لك وصفها ـ وساعدني الحظ ان يكون مكاني بجانبها وهي المحروسة ايضا وهي بدونه .

ودلف السيد عمر المختار من باب المحكمة (اى المجلس النيابي سابقا) بكل حماس ونشاط ونزل المدرج كذلك ومشى من أعلى درجة به الى (الكروسة) حوالى خمسة عشر مترا من طريق معبد ومرشوش بالماء (لان البلدية كانت ترش الشوارع كل صباح) ولما فتح له باب (الكروسة) وامتدت اليه ايدى الحارسين ليساعداه رفضها وصعد بنفس وارجل نشطة وحمرة ذاك الوجه الصبوح لم تبهت ، شاهدتها في نزوله كما شاهدتها في موقفه بالقاعة ، وشاهدتها ايضا عند صعوده ، ومعنى هذا ان الحكم لم لم يفت في معنويته

دائما كانت اذاعاتنا واعلامنا يومئذ هي الشوارع ، ومن غد أذاعت لنا الجدران بالشوارع في المناشير ان

السكة الحديد مجانية لمن يريد السفر الى بلدة سلوق جنوب بنى غازى ليشاهد تنفيذ الحكم في قائد (العصاة) عمر المختار ، ولا اكتم ما اعتراني في يوم المحاكمة ، اذ كنت لا احس باني امشي على الارض ، وساعة نومي كنت الصق وجهي للحائط حتى لا تشعر بدموعي ، جدتي التي كانت تشاركني غرفتي ، واضطررت الى الصيام لأني لم أستسغ الطعام.

وفي اليوم الموعود ذهبت باكرا الى محطة سكة الحديد فوجدت بها طلبة المدارس الايطالية وافرادا معدودين من ركاب لم اعرف منهم احدا ، وركبنا لوجهتنا وهي « سلوق » اى حوالي ٥٤ كيلو جنوب بنى غازى ، وما ان وصلنا حتى رأينا المكان غاصا بالجندرمة وافراد من الجيش بمدرعاته ، واصطف الناس على هيئة مربع في وسطه مشنقة ، وبعد وصولنا وصلت سيارة مغطاة نزل منها السيد عمر المختار وقورا ، فاخذه ضابط وسلمه الى الجلاد ، وبعد قراءة الحكم ووضع الحبل في عنقه « انقطع الحبل » ، وقع سيدى عمر على الارض وقال قولته المشهورة ولازلنا نتندر بها : « يلعن بوك دوله ، حتى احبالها بايده !! »

وأعيدت الكرة بحبل أخر اى والله .. « يأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » وكأني بلسان سيدى عمر في تلك اللحظة الاخيرة من عمره يردد آية سورة التوبة :

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله ؟؟؟ »

طريقان انفتحا في سلوق في ذلك اليوم الاغبر المليء بالعجاج الاحمر وكيف لا يحمر وطينها احمر من تراب المغرة او لعلها حمرة دم القتال جاءت تودع سيدها الذى سادها طول عمره ، طريقان : طريقنا .. قضبان حديد وقاطرة فيها مكان وتصدية الصفير من القطار وتصدية التصفيق من طلاب ابناء الطليان تلاميذ المدارس الذين انشرحت صدورهم ، والطريق الذى انفتح مرة واحدة فهو الذي سار عليه عمر ، وافترقنا في ملتقى الطريقين !! ذاك الطريق هو الطريق الثاني .

كيف واين دفن عمر المختار ؟

لم يحمل او يدفن نهارا بل احتفظ بجثمانه حتى جن عليه الليل وحمل الى مقبرة السيد محمد عبيد بضاحية اسمها « الزريرعية وهي تبعد كيلوين عن المدينة ، وسلمه ثلاثة ضباط الى القبار هناك (وهو الرجل المدعو الأحمر) واخفي في رمس على يسار السائر الى روضة السيد محمد عبيد ، وظل الرمس مجهولا من تلك السنة اى ١١ سبتمبر عام ١٩٣١ (٤ جمادى الأولى ١٣٥٠) حتى يوم جلاء الجيش الايطالي عن بنى غازى سنة ١٣٦٤ ، وتأسست في تلك السنة جمعية عمر المختار فاشهرت الرمس وجعلت منه قبرا ، مرمرته واحاطته بسياج من حديد ، مع شاهد كتب عليه اسم وتاريخ وفاته ، ودامت تحتفل بهذه المناسبة كل عام ، وفي سنة ١٣٧٦ نقل الجثمان الى مكان آخر في جنوب المدينة في ميدان قرب الملعب البلدى حيث شيد له مدفن آخر على نمط مدفن المرحوم زعيم مصر الخالد وبطلها سعد باشا زغلول (١٠ شارع سعد باشا بالقاهرة) وهو محل لجلة من جميع الزائرين ، ثم عاد ونقل للمرة الثالثة الى بلدة سلوق البعيدة التي شنق بها ١٦ سبتمبر سنة ١٩٨١ .

للتاريخ أمانته

أقول لحفظ أمانة التاريخ ان ما أسمعه كثيرا من ان السيد عمر المختار بعد تنفيذ الحكم فيه وضع في طائرة علت به الى ١٠٠٠ متر ورمي منها ، وهذا لم يحصل أيضا ، اذ لما كبرت سألت القبار المدعو « الاحمر » والذى كلفه الضباط بدفنه في تلك الليلة التي أتي فيها بالجسد الطاهر لدفنه بسيدى عبيد - سألته اذا كان جسده تكسر او تهشم فتعجب وقال بالحرف الواحد « ما نسمعه كله كذب ، جسم سيدى عمر سليم كله ماعدا طلقا بكتفه » ، وكذا نسمع بالبلاد العربية هذه الاشاعة ، واشاعة مثلها أن ايطاليا افنت كل عائلة المختار ، والحال المعروف والمشاهد غير هذا ، فابن السيد عمر طيب وفي خير ورزق وفير وكذا السيد احمد ابن اخيه وهو يتنقل بمنصب متصرف بين متصرفيات الجبل . هذا ما أعلمه حتى يوم هجرتي ١٩٥٥/٧/٧ او بناء على ما اسمع من الزوار هنا .

فرحم الله عمر رحمة واسعة ، وعزاء فيه لكل مجاهد يسير على سبيله والى ابنه وعائلته بمناسبة نصف قرن لاستشهاده . ■■

محمد المنصف
مستشار قضائي سابقا

من الضابط أنور السادات إلى الضابط خالد الاسلامبولي

صفحات مطوية من ماضينا القريب لفهم العوامل والأسباب

بقلم الدكتور سعد الدين ابراهيم

قبل ان ندخل في تعريف التطرف ومظاهره واسبابه ، نرجو ان نشرك القارىء في هذه الاعترافات لثلاثة من « المتطرفين » ـ في زمانهم ومكانهم طبعا . فالتطرف كما سنرى هو مسألة نسبية للغاية . ولكن يجمع بين المتطرفين الثلاثة الذين نعرض لاعترافاتهم ، هو انهم فكروا ودبروا وحاولوا تنفيذ واحد او اكثر من الاغتيالات السياسية لحكام ، او مسئولين سياسيين من معاصريهم . وكان الاغتيال في تلك الحالات جميعا بمثابة « حكم وطني » من جانب « المتطرفين » ضد حكام « مستبدين » او « خونة » . والاعتراف في لغة القانون هو « سيد الادلة » ..

الاعتراف الاول

« كان الشيخ جمال الدين (الافغاني) موافقا على خلع (الخديوى اسماعيل) .. واقترح على انا ان اقتل اسماعيل .. وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما ، نتهامسه فيما بيننا . وكنت انا موافقا الموافقة كلها على قتل اسماعيل .. ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة » .

(الشيخ محمد عبده : راى الشيخ محمد عبده في تاريخ عرابي ـ ص ٣٥٤)

الاعتراف الثاني

« ان الاغتيالات السياسية توهجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة على انها العمل الايجابي الذى لا مفر من الاقدام عليه اذا كان يجب ان ننقذ مستقبل وطننا .. وفكرت في اغتيال كثيرين وجدت انهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين مستقبله ... وفكرت في اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا . ولم اكن وحدى في هذا التفكير . ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير . وما اكثر الخطط التي رسمتها في تلك الايام ...كانت لنا اسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نستتر بالظلام ، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هي الامل الذى نحلم به ؛ وقمنا بمحاولات كثيرة في هذا الاتجاه ، ومازلت اذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق الى نهايته ... واذكر ليلة حاسمة في مجرى افكارى واحلامي في هذا الاتجاه . كنا قد اعددنا العدة للعمل .. واخترنا واحدا ، قلنا انه يجب ان يزول من الطريق . ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ، ووضعنا الخطة بالتفاصيل . وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسي مع جماعات التنفيذ وسار كل شيء طبقا لما تصورناه . كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق في اماكنها التي حددت لها ، اقبل الواحد الذى كان يجب يزول ، وانطلق نحوه الرصاص ... وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الافلات الى النجاة ، وادرت محرك سيارتي وانطلقت

اغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابي الذى رتبناه .. وفجأة دوت في سمعي اصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .. »

(جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، ص ٣٣ ـ ٣٥)

الاعتراف الثالث

« .. بمجرد ان عاد الى كياني كمواطن حر طليق كان اول عمل قمت به هو تكوين الجمعية السرية .. فكيف تتحرر الذات بدون ان يتحرر الوطن ؟! كان ذلك في سبتمبر سنة ١٩٤٥ ... اتصلت بعمر ابو على شقيق زميلي سعود حسين الطيار الذى سبق ان ارسلناه لروميل وضربت طائرته . وعرفني بشاب اسمه حسين توفيق اتضح انه كان يمارس قتل الجنود الانجليز في المعادى قبل ان ينضم الينا ... ربما كان هذا العمل مجرد تدريب ، ولكن المهم ان نتخلص ممن كانوا يساندون الانجليز في ذلك الوقت ... وكان على راس هؤلاء في نظرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد الذى سقط في نظرنا منذ ان فرضه الانجليز بقوة السلاح في ٤ فبراير ١٩٤٢ .. فلا شيء يعادل خيبة الامل التي يصاب بها الشباب في زعيم كان يوما مثلهم الاعلى .. واصبح في نظرنا خائنا لمصر ولشعبها يحتم علينا واجبنا الوطني ان نزيله من طريقنا .. ولذلك قررنا التخلص منه .

كانت عادة النحاس ان يذهب في يوم مولد النبى الى النادى السعدي وهو مقر حزب الوفد ليلقى خطابا بهذه المناسبة .. وصادف ذلك يوم ٦ سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت انا وبعض افراد الجمعية السرية تنتظر خروج النحاس من جاردن سيتي الى شارع القصر العيني حيث يوجد النادى ... كنت قد دربت اعضاء الجمعية على استعمال القنابل اليدوية .. وكان الذى سيقوم بالعملية حسين توفيق .. وفعلا القى القنبلة في الوقت المناسب ولكن سائق النحاس فوجيء وهو ينطلق بعربة ترام تصطدم به فاسرع لكى يتحاشاها .. كان فرق السرعة ست ثوان لااكثر .. ولكنها كانت كافية فعندما انفجرت القنبلة كان النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار .. فانسحبنا في هدوء .. حيث توجهنا الى مقهى استرا ، مكاننا المفضل .. في نفس المقهى قررنا التخلص من امين عثمان الذى تولى وزارة المالية طوال حكم النحاس بعد ان فرضه الانجليز في ٤ فبراير .. »

(انور السادات : البحث عن الذات ، ص ٧٠ ـ ٧١)

لقد صدرنا هذا المقال بالاقتباسات السابقة لكي تدلل على ان بعض الزعماء الذين أصبحوا قيادات شعبية ودينية قد فكروا في الاغتيالات السياسية ، ودبروا لها ، وحاولوا تنفيذها .

ان اللجوء الى العنف لحسم الخلاف السياسي ليس جديدا على الساحة الاسلامية او العربية او المصرية . وهو ليس حكرا او وصمة في جبين شعب دون شعب من شعوب العالم . بل انه ليس وقفا على طبقة دون طبقة في اى مجتمع . واى استعراض للاغتيالات السياسية الكبرى في التاريخ القديم والوسيط والمعاصر تثبت ذلك ـ ابتداء من اغتيال يوليوس قيصر في روما القديمة ، الى اغتيال الخلفاء الراشدين في دار الاسلام ، الى اغتيال الجنرال كليبر الفرنسي خليفة نابليون في القاهرة ، الى اغتيال الرئيس الامريكي ابراهام لنكولن في واشنطن ، والرئيس جون كيندى بعده بحوالي القرن في احد شوارع مدينة دلاس . هذا عدا محاولات الاغتيال العديدة التى يقصر المقام عن ذكرها .

ويربط الناس عادة ، وخاصة المعاصرين منهم للحديث ، بين فعل الاغتيال وظاهرة « التطرف » . ومن هنا لايزداد الاهتمام بدراسة « التطرف » دراسة متعمقة الا في اعقاب حوادث الاغتيال السياسي ، او العنف ، او المواجهة المسلحة بين بعض الجماعات من ناحية ، وسلطات الدولة من ناحية اخرى . فماذا يعنى « التطرف » ، وما هي اسبابه عموما ، وما هي اسبابه خصوصا في وطننا العربي ؟

في الملاحظات السابقة تحدثنا عن « التطرف » بصفة عامة ـ دون ان نخص بالحديث اى نوع من التطرف .

هناك خطأ شائع بتقسيم التطرف الى انواع مضمونية او شكلية دون وضوح المعيار المنطقي لهذا التقسيم . فاحيانا يصنف التطرف حسب مضمونه كأن يقال « تطرف ديني » او « تطرف طبقي » او « تطرف قومي » او « تطرف سياسي » او تطرف عنصري » واحيانا يصنف التطرف حسب الوسيلة او الشكل التنظيمي او الاسلوب التكتيكي ، وما الى ذلك .

ولكن ايا كان مضمون التطرف ، فانه حينما يتخذ شكلا سلوكيا جماعيا ينطوى على تحدى السلطة القائمة فانه يصبح تطرفا سياسيا . فالتطرف الديني ـ بمعنى الخروج عن المعتاد او المتعارف عليه في العقيدة والشعور والسلوك لدى اغلبية الناس ـ قد لايكون تطرفا سياسيا طالما لم ينطو على تحدى سلطة الدولة ، او امن المجتمع . فالتصوف والطرق الصوفية مثلا ، تعتبر تطرفا دينيا

بالمعنى الحرفي للكلمة لانها تختلف عما اعتادته اغلبية الناس في المجتمع الاسلامي من حيث العقائد والعبادات . ولكن التصوف ليس تطرفا سياسيا لانه لاينطوى على تحد للسلطة ولامن للمجتمع .. لذلك لا يعتبره معظم الناس تطرفا . »

وطبعا الذى يقيم الدنيا ولايقعدها في السنوات الاخيرة هو ظاهرة « التطرف الديني السياسي » .. فيا لم يكن العنصر السياسي موجودا في مسألة التطرف الديني لما اهتمت به الدوائر الغربية والمحافل الدولية ، ومراكز البحث العلمي ، وحكام العالم الاسلامي انفسهم . فبعد ماحدث في ايران لم تعد هذه الاطراف قادرة على تجاهل الظاهرة .. وبعد ما حدث في مصر ـ اغتيال الرئيس السادات ـ ومن قبلها محاولة الاستيلاء على الحرم المكي في نوفمبر ١٩٧٩ تحول الاهتمام الى ما هو أكثر من ذلك بكثير .

ماذا يعني التطرف

التطرف بمعناه البسيط جدا هو الخروج عن الوسط ، او البعد عن الاعتدال ، او اتباع طرق في التفكير والشعور غير معتادة لمعظم الناس في المجتمع ، والايمان العميق بصحة هذه الطرق وصلاحها والاستعداد للتضحية في سبيلها .

ومن هنا فان معنى التطرف هو شيء نسبى تماما . فالاغلبية او السلطة الحاكمة ، هي التي تصف غيرها بالتطرف ممن يختلفون معها في التفكير او الشعور او السلوك اختلافا واضحا . ويصبح هذا الوصف دمغا « بالانحراف » والخروج عن المقبول . وبالتالى فلابد من تقويم « الانحراف » ـ اما بالاقناع والاغراء او العقاب . كل هذا من وجهة نظر السلطة .

والملفت لنظر الباحثين في ظاهرة التطرف ، هو ان المجتمع او السلطة الحاكمة فيه قد لاتنزعج كثيرا طالما ان التطرف ظاهرة فردية وليست جماعية ، وطالما انها على مستوى التفكير والشعور وليست على مستوى السلوك . فالتطرف الفردى يمكن عزله بسهوله على انه حالة هوس او جنون ـ ويتراوح العزل هنا بين الاشفاق والتجاهل ، الى الايداع في احد المصحات العقلية او احدى المؤسسات العقابية .

اما الذى يزعج السلطة والمجتمع حقا فهو ان يتحول « التطرف » من المستوى الفردى المتناثر الى المستوى الجماعى المنظم ، ومن الشعور او التفكير فقط الى مستوى السلوك الظاهر . حينا يحدث هذا التحول تشعر السلطة (بفرض ان السلطة تمثل المجتمع) بالخطر . وتبدأ في المقاومة والهجوم حفاظا على نفسها وعلى المجتمع الذى تمثله .

ومن ناحية اخرى لاينبغي ان تنخدع بظواهر الاشياء . فيا قد يبدو تطرفا دينيا قد يكون في الواقع صيغة ايديولوجية للتعبير عن اوجاع حضارية واقتصادية واجتماعية وسياسية تعانى منها شرائح معينة في المجتمع اكثر من غيرها . وبالتالي يصبح « التطرف الديني » هو فقط صيغة واحدة من صيغ بديلة للاستغاثة والتعبئة والتحدى .. كما سنرى .

ما الذى يدفع بعض الناس الى التطرف ؟

طالما كان النظام الاجتماعي السياسي السائد في اى مجتمع قادرا على مواجهة متطلبات الاغلبية الساحقه لافراد الشعب ، واشباع احتياجاتهم الاساسية فلاخطر على هذا النظام من ظاهرة التطرف السياسي الجماعى المنظم . ولكن حينا يتعثر النظام القائم عن مواجهة المشكلات الداخلية او الخارجية .. وحين يطول اجل هذا التعثر وتتفاقم تلك المشكلات .. فان اعدادا متزايدة من افراد المجتمع تخلص الى أن هناك عطبا اساسيا اما في جوهر وفلسفة النظام او في ادائه ، أوفيهما معا . ومن هنا يبدأون البحث عن بديل يخرجهم ويخلص مجتمعهم من المشكلات المتفاقمة . وكلما اشتدت حدة المشكلات وتحولت الى مايشبه الازمة اصبح البديل المطلوب مختلفا تماما عن النظام القائم . وكلما زاد اختلاف البديل المطلوب عما هو قائم وممارس بالفعل ، اصبحنا بصدد ما يسمى « بالتطرف » .

التطرف ـ اذن ـ هو مؤشر او انعكاس لتعثر النظام السياسي الاجتماعي في مواجهة الازمات الداخلية او الخارجية .

والذين يتطرفون هم اكثر افراد المجتمع حساسية بنتائج ومضاعفات هذا التعثر . انهم ضحايا فشل النظام .

وتقول لنا نظريات علم النفس الاجتماعي ان الفشل يولد الاحباط . وان الاحباط يخلق في داخل الافراد شحنات انفعالية عدوانية . وان هذه العدوانية الداخلية قابلة الى التحول الى عنف خارجي فردى وجماعي .

طبعا هناك مسالك وبدائل اخرى للتعامل مع الاحباط . وليس من الضرورى ان يتحول الى عدوانية

ثم الى عنف خارجي . من ذلك مثلا ، احساس من يخبرون الاحباط ان هناك املا حقيقيا في تجاوز الفشل الفردي او في اصلاح النظام السياسي الاجتماعي القائم ، الذي يؤثر في حياتهم بطريق مباشر . او غير مباشر . ولكن مع غياب او اندثار هذا الامل في الاصلاح والخلاص يصبح المناخ مهيئا للتطرف .

اذا كان هذا النموذج التفسيري للعدوانية والعنف مقبولا ، فان السؤال يصبح : ما هي العوامل التي تؤدي الى الاحساس الجماعي بالفشل ، ثم بالاحباط ، وبالتالي بالعدوانية ، ثم بالتطرف والعنف ؟

مقولة الفجوة بين الامل والواقع

من المسلم به أن آمال الافراد في اي مجتمع تفوق في معظم الاحيان ما يمكن انجازه . ولكن طالما ظلت الفجوة بين الامل والواقع معقولة الحجم وثابتة على حجمها ، فان الافراد يقبلونها كاحد سنن الحياة . ولكن حينما تتسع الفجوة فجأة ، وتستمر في اتساعها فان ذلك يولد احساسا بالفشل والاحباط ، ويؤدي الى شحنات عدوانية داخلية . وهنا قد يلوم الافراد انفسهم . ويؤدي ذلك بدوره الى شحذ الهمم او الى الاستسلام واليأس . ولكن اذا خلص الافراد الى ان السبب في الفشل لايرجع اليهم وانما يرجع الى التركيبة السياسية الاجتماعية الاقتصادية السائدة في المجتمع من حولهم ، فان الشحنات العدوانية الداخلية تتحول الى تهيؤ واستعداد لاستخدام العنف ضد النظام السياسي الاجتماعي القائم . وتصبح المسألة هنا مسألة بحث عن تكييف ايديولوجي وتنظيم ووسائل لتغيير هذا النظام .

مقولة العدالة التوزيعية

يقول لنا علماء الاجتماع ان الذي يحدد ما اذا كان الافراد سيخلصون الى لوم ذواتهم او الى لوم النظام السياسي الاجتماعي القائم على مايحدث من فشل واحباط يتقرر في ضوء معادلة توزيع الثروة والسلطة في المجتمع . والعبرة هنا هي بمقارنة ما يحصل عليه الفرد مقارنا بغيره من افراد المجتمع . ويمكن حساب ذلك بمعادلة بسيطة يستخدمها الافراد بوعي او بلاوعي وهم يقارنون انفسهم بالآخرين :

العدالة التوزيعية = حجم استثماراتي المادية والمعنوية
= نصيبي من الثروة والسلطة
= استثمارات الشخص الآخر المادية والمعنوية =

نصيبه من الثروة والسلطة

فاذا تساوت استثماراتي او مجهوداتي مع مجهودات الاخرين فانني اتوقع ان يكون عائدي من الثروة والسلطة والتقدير المعنوي متساويا مع ما يحصل عليه الآخرون . واذا كانت مجهوداتي ضعف مجهوداتهم فانني اتوقع ان احصل على ضعف عائد كل منهم . واذا كان مجهودي نصف مجهودهم فانني أتوقع الحصول على نصف عائدهم .. وهكذا : اي اختلال واضح في تلك القاعدة التوزيعية ينشأ عنه شعور بالظلم . فالقاعدة لاتساوي بين الناس مساواة حسابية مطلقة ، وانما تساوي بينهم في الفرص ، وتساوي بينهم مساواة نسبية في توزيع الثروة والسلطة كل حسب جهوده وكفاءته وانجازه . الاخلال بالقاعدة يتحول الى شعور بالظلم . والشعور بالظلم يتحول الى سخط . والسخط يهيىء الفرد للتمرد والثورة ، ويدفعه الى « التطرف » واستخدام العنف .

مقولة الحرمان النسبي

يقول لنا علماء النفس والاجتماع ان هناك مبدأ آخر متصل بالمقولتين السابقتين ، له تأثيره الكبير في احساس الناس بالتبرم وعدم الرضا ، حتى اذا كانت احوالهم المعيشية في تحسن . هذا المبدأ هو ما يسمى « بالحرمان النسبي » فرغم ان شخصا قد يكون احسن حالا مما كان عليه في الماضي ، الا انه يرى آخرين تتحسن احوالهم بدرجة اكبر او بمعدل اسرع منه . ويصبح الحرمان ـ طبعا ـ اكثر حدة اذا كانت احواله لاتتحسن بينما تتحسن احوال الاخرين . ويشتد الحرمان اضعافا مضاعفة اذا كانت احواله تتدهور بينما احوال الاخرين في تحسن مطرد . الحرمان النسبي بدرجاته المختلفة يؤدي الى الاحساس بالسخط . وذلك بدوره يخلق لديهم تهيؤا لاستقبال واعتناق الافكار الناقدة للنظام الاجتماعي السياسي ، والداعية للتمرد عليه ، والثورة ضده ، ويصبح الاستعداد للتطرف واستخدام العنف مسألة واردة تنتظر الظرف الملائم .

حالة مصر والتطرف الديني المعاصر

ان المراقب المتعمق للساحة المصرية يمكنه بلاعناء ان يفسر ظاهرة ما يسمى « بالتطرف الديني » في ضوء المقولات الثلاثة السابقة . ولم تشهد مصر منذ الاربعينات مثلما شهدت خلال عقد السبعينات من اتساع هذه الظاهرة بكل ما تنطوي عليه من عنف جماعي ... دموية مسلحة واغتيالات ضد اجهزة

وشخصيات الدولة المصرية .

وتشير بحوثنا الميدانية حول ظاهرة التطرف والعنف الديني السياسي الى مجموعة من الشواهد والنتائج التي تؤكد صدق المقولات التي طرحناها سابقا :

من ذلك مثلا :

١ ـ زيادة موجة التدين بين الشباب في السنوات التي اعقبت هزيمة ١٩٦٧ ، وهي الهزيمة التي كشفت عجز النظام المصري خاصة والانظمة العربية عامة . وقد تضافرت الهزيمة مع اختناقات اجتماعية واقتصادية حادة في السنوات التالية .

٢ ـ تحول هذه الموجة التدينية التي كانت هلامية وانسحابية وغيبية في البداية (اواخر الستينات) الى حركة سياسية تمردية ناقدة خلال السبعينات . واخذ هذا التيار الديني السياسي العام يطرح بدائله الايديولوجية لمواجهة ازمة المجتمع العربي بالعودة للاصالة الاسلامية وتطبيق الشريعة واقامة النظام الاجتماعي الاسلامي العادل .

٣ ـ في احشاء هذا التيار الاسلامي السياسي العام تكونت العديد من الجماعات المنظمة داخل الجامعات وخارجها ، بعضها علني يدعو الى فكره سلميا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبعضها سري يعمل تحت الارض ويعد « لهم » ما استطاعوا من « قوة ومن رباط الخيل » ، وذلك توطئة لحرب ضروس على مجتمع « الشرك والجاهلية والفساد » .

٤ ـ حاول نظام الرئيس الراحل انور السادات ان يستغل ذلك التيار الديني ، ليضرب به القوى السياسية المناهضة له في اوائل السبعينات ، وخاصة من الناصريين والاشتراكيين والماركسيين . ونجح تكتيكيا ومرحليا فيما اراد ـ او هكذا بدا الامر .

٥ ـ ولكن مع بعد خفوت تلك القوى المناهضة لحكم وفلسفة السادات ، بدأت الجماعات الدينية نفسها في اظهار تبرمها بالحكم وبسياساته الاربع الرئيسية منذ منتصف السبعينات ، وهي سياسات : الانفتاح ، والديموقراطية ، والتحالف مع الغرب ، والتصالح مع اسرائيل .

٦ ـ بدأت بعض هذه الجماعات الدينية المسيسة تترجم تبرمها وسخطها الى مواجهات مسلحة لاسقاط النظام او لاضعافه . وكان اول هذه التحديات المسلحة بواسطة منظمة التحرير الاسلامي بقيادة الدكتور صالح سرية ، والتي اصبحت تعرف في وسائل الاعلام باسم جماعة الفنية العسكرية ، وذلك في شهر ابريل ١٩٧٤ . ثم تلتها جماعات اخرى تحت اسماء مختلفة وذات قيادات واساليب متباينة . وسمعنا عن تنظيمات مثل « حزب الله » بقيادة وكيل النيابة يحيى هاشم ، و« جماعة المسلمين » بقيادة طه الصاوي ، وجماعة « المتعزلة شعوريا » بقيادة عبد المنعم الصبروتي و« التكفير والهجرة » بقيادة المهندس شكري مصطفى . وسمعنا عن « جند الرحمن » و« الجهاد » .. وغيرها .

٧ ـ كانت كل مواجهة دموية مع السلطة المصرية اشد من سابقتها . ففي حادث الفنية العسكرية كان عدد المتهمين ٩١ شخصا (١٩٧٤) ، وفي حادث اختطاف ومقتل الدكتور حسين الذهبي كان عدد المتهمين ٢٥٨ شخصا ، وفي احداث سبتمبر ـ اكتوبر ١٩٨١ وصل عدد المقبوض عليهم حوالي ١٦٠٠ شخص (٩٠٠ قبل اغتيال الرئيس السادات ، و٧٠٠ بعد الاغتيال) .

٨ ـ لم تجد محاولات الدولة المصرية في محاصرة ظاهرة التطرف الديني . فرغم كثافة الهجوم الاعلامي ، والملاحقة ، والمحاكمات والاعدامات وعقوبات السجن ، ظل الاتباع يهرعون وينضمون الى هذه الجماعات ـ كما تشهد بذلك الاعداد التي شاركت بطريق مباشر أو غير مباشر في المواجهات العنيفة مع السلطة المصرية . ويرجع ذلك الى استمرار ازمات النظام الداخلية والخارجية ، والى الحصاد الهزيل الذي جلبته سياسات النظام الاربع .

من هم المتطرفون الدينيون في مصر ؟

الذين انضموا الى جماعات العنف الديني السياسي في مصر تغلب عليهم قسمات سوسيولوجية مشتركة اهمها :

١ ـ انهم من الفئات الشابة في العمر ، وخاصة من هم في العشرينات والثلاثينات من اعمارهم . وهي فئات تتمتع بقدر عال من الطاقة والحيوية والقلق والمثالية .

٢ ـ انهم من طلاب وخريجي الجامعات ، ومن اكثر العناصر تفوقا وانجازا ـ بدليل ان نسبة عالية منهم تدرس في او تخرجت من كليات الطب والهندسة والصيدلة والفنية العسكرية . وهذه كلها تشترط تحصيلا دراسيا عاليا في المرحلة الثانوية للالتحاق بها . كما ان برامجها والدراسة فيها تتطلب درجات عالية من الذكاء والمثابرة والانضباط .

٣ ـ انهم يتحدرون من شرائح الطبقة الوسطى ، وخاصة الطبقة المتوسطة الدنيا ، اى طبقة صغار الملاك في الريف والحضر وصغار التجار والموظفين الحكوميين .

٤ ـ ان غالبيتهم ولدت وقضت المرحلة الاولى من عمرها في الريف او في المدن الصغيرة .... ولكنها حين التحقت بصفوف الجماعات الدينية كانت قد وفدت للمدن الكبرى ـ مثل القاهرة والاسكندرية واسيوط والمنصورة ـ للدراسة او العمل . وفي هذه المدن الكبرى شهدت هذه العناصر الشابة متناقضات المجتمع المصرى وقتذاك بهولها وبشاعتها . واحست في خضم المدينة الكبيرة بالدونية والضياع والاستغراب واصبح الاسلام بالنسبة لها ملجأ وملاذا وسبيلا للخلاص من الضياع والحرمان والهوان بالنسبة لها كافراد وبالنسبة لوطنها كمجتمع وامة .

المفارقة الكبرى

هذه الملامح والخصائص تشير الى ان ما نسميهم « بالمتطرفين » قد اتوا من صلب المجتمع المصرى ، ومن اهم شريحة في الطبقات الوسطى . وهذه الشريحة كانت وستظل اهم مصدر للحيوية السياسية والاجتماعية في مصر . انها الشريحة التي افرزت معظم زعماء مصر الوطنيين خلال القرن الاخير ، من احمد عرابي والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وجمال عبد الناصر .

وخلاصة القول هي ان « متطرفي » اليوم في مصر لم يهبطوا علينا من المريخ ، او يفدوا الينا من مجتمع آخر ، ولم يأتوا حتى من « اطراف » المجتمع المصرى ـ ولكن من قلبه وصلبه .

والمتطرفون في مصر اليوم شأنهم شأن المتطرفين المصريين السابقين ابتداء من احمد عرابي ، ومرورا بالمتطرفين الثلاثة الذين سجلنا اعترافاتهم في صدر هذا المقال (الشيخ محمد عبده ، وجمال عبد الناصر ، وأنور السادات) .

بل ان المفارقة التاريخية الساخرة هي اننا لو غصنا في الظروف والملابسات والاشخاص التي احاطت باغتيال السياسي المصرى امين عثمان باشا ، واغتيال الرئيس المصرى أنور السادات لوجدنا اوجه شبه عديدة بين شخصين من الذين اشتركوا في كلا الاغتيالين . كلاهما ضابط مصرى شاب ، من الطبقة الوسطى الصغيرة ، يملأه السخط والغضب على ما يفعله القادة السياسيون في بلاده ، ويطحنه الغلاء والحاجة والحرمان النسبي ، ويشعر في قرارة نفسه ان هناك ظلما فادحا يقع بالوطن وبه شخصيا ، ويؤمن ان احد سبل الخلاص هو في التخلص من القيادة السياسية . فاذا لم يمكن ازاحتها من مقعد السلطة بالوسائل الديموقراطية السلمية التى بدت لكليهما مسدودة او زائفة ، فلا بأس من التخلص من هذه القيادة بالاغتيال . الضابط المصرى الشاب الاول الذي اشترك في اغتيال امين باشا عثمان كان اسمه انور السادات . والضابط المصرى الشاب الثاني الذي اشترك في اغتيال الرئيس انور السادات كان اسمه خالد الاسلامبولي .

الخلاصة

التطرف الديني السياسي هو استجابة طبيعية حادة لوجود ازمة اجتماعية حضارية حادة في العالم العربي الاسلامي . لقد تعثرت كثير من الانظمة الحاكمة بمنطقتنا في المواجهة الخلاقة للتحديات الخارجية وعلى راسها اسرائيل ، والهيمنة الغربية ، وتكريس الاستقلال الوطني ، وتاكيد هوية حضارية اصيلة . وتعثرت هذه الانظمة في التعامل الخلاق مع القضية الاجتماعية السياسية الداخلية ، وفشلت بدرجات مختلفة في تلبية المطالب الرئيسية لقطاعات المجتمع المختلفة ـ وفي مقدمتها الحاجات الاساسية للطبقات الدنيا ، والمشاركة العادلة في الثروة والسلطة للطبقات الوسطى .

التعثر الخارجي والفشل الداخلي تآزرا وتفاعلا معا منذ نهاية الستينات ليخلقا المناخ الخصب لنمو الحركات المتطرفة في عالمنا العربي الاسلامي . واختلطت في هذا المناخ القائم هموم الفرد مع هموم المجتمع ، وتداخلت مشكلات الذات مع مشكلات الوطن ، واصبح البحث عن طريق للخلاص النفسي والشخصي هو في الوقت ذاته بحثا عن طريق للخلاص الاجتماعي والقومي .

وكان شباب الطبقة الوسطى هم اكثر قطاعات المجتمع التي تقاطعت عندها : الازمة الخارجية مع الازمة الداخلية للمجتمع العربي الاسلامي ، وهموم الافراد مع هموم الاوطان . لذلك كانوا اكثر الفئات احساسا « بالالم » . وبفضل مايتمتعون به من طاقة وطموح ومثالية وقلق . كانوا اكثر الفئات تهيؤا لتحويل الالام الى حركة سياسية احتجاجية ساخطة لتحدى النظام الاجتماعي السياسي بأعنف الوسائل ، بصرف النظر عن عقلانيتها .

د . سعد الدين ابراهيم

الحقيقة فيما بين

شيخ الأزهر والشيخ كشك !

بقلم فهمي هويدي

لم يسأل احد :لماذا سار الناس وراء الشيخ كشك ، واعرضوا عن شيخ الازهر ؟

والشيخ كشك لم يعد مجرد واعظ مصري يجيد السيطرة على مشاعر مستمعيه ، وانما بات شخصية لها مكانتها في العالم العربي والاسلامي ، وجدت تسجيلاته منتشرة فيما بين طهران وداكار ، ومجموعة شرائطه تباع بالكامل فيما بين بيروت والمغرب ، في حين فرغت هذه التسجيلات وصارت كتبا معروضة في لندن !

الرجل اذن ليس فردا ، وانما ظاهرة تستحق الدراسة والمناقشة .

ايضا فان شيخ الازهر ليس مفترضا فيه ان يكون « مسئولا مصريا كبيرا » ـ وان صار كذلك ـ وانما هو رمز لاهم مؤسسة ثقافية في العالم الاسلامي منذ عشرة قرون . ولست هنا اتحدث عن شخص بذاته ، خصوصا وان كثيرين لم يعودوا يعرفون من هو شيخ الازهر وانما اتحدث عن دور ووظيفة تمثلت في الازهر ، وكانت مكانة شيخه من قيمة هذا الدور .

ان المقابلة بين الرجلين تعبير عن المقابلة بين ما يمكن ان يسمى تجاوزا باسلام الشارع والاسلام الرسمي .. او فيما بين اسلام الجماهير واسلام الحكومة . والموقف في مجموعه اعلان لاتنقصه الصراحة عن فشل محاولة « تأميم » المنابر الاسلامية ، وتحويلها الى ادارات ومؤسسات ، وتسكين شاغليها على وظائف ودرجات .

ان الشيخ كشك هو اختيار الجماهير ، وشيخ الازهر من اختيار الحكومة . وقد كان ولاء كل منهما للجهة التي اختارته تاما غير منقوص . الاول حمل كل سخط الناس وغضبهم وأعلنه من فوق المنبر ، والثاني حمل كل رغبات الحكومة واجراءاتها ، وحولها الى فتاوى شرعية اعلنها من صحن الازهر !

وكان الخاسر في القصة كلها اثنين : الازهر ، والحكومة !

نعم ، لقد دفع الشيخ كشك حريته ثمنا لما أداه من دور . لكن ذلك لم يقلل من قيمته ، وظل « الشيخ الاكثر رواجا » ، ولايزال ـ كما كان ـ واحدا من زعماء الشارع الاسلامي .

❋

نعود الى السؤال : لماذا اعرض الناس عن شيخ الازهر ؟

لماذا اصبح الازهر يلعب دورا هامشيا ، في وقت يتنامى فيه المد الاسلامي ، ويفترض معه أن يكون لمثله من المؤسسات الاسلامية حضور قوي يتناسب مع حجم الظاهرة ؟

لماذا خرج الازهر من دائرة التأثير ، وصار مفعولا به ، وليس فاعلا ؟

لماذا اصبحت قيمة الازهر السياحية ، تنافس مكانته العلمية ؟

اننا نتجنى على الازهر اذا حملناه كل مسئولية تلك الصورة المحزنة التى آل اليها حاله . لكننا نغالط انفسنا اذا أعفيناه من المسئولية . فالازهر ـ فى حقيقة الامر ـ مظلوم وظالم فى آن واحد !!

الازهر مظلوم لاسباب عديدة :

ـ لانه ضحية محنة الاختيار التى مازلنا نعيشها ، ذلك ان احدا لا يعرف على وجه التحديد ما اذا كان دور الازهر ـ بما يمثله ـ مطلوبا فى نسيج الحياة العامة ام لا . لا اقصد ان يكون تحت الطلب حين تبحث عنه ، ولا ان يكون جاهزا للصد والرد عندما تحدث انحرافات او فتن . لا اقصد ان يؤدى وظيفة الاطفائى الذى يذكره الناس فقط عندما يشب حريق هنا او هناك ، ولا يعيرونه اهتماما فيما عدا ذلك . وانما اقصد توفر القناعة بأن دور الازهر هو احد الدعامات التى يقوم عليها المجتمع . وبتعبير آخر ، فان الاختيار الاسلامى ذاته لا يزال محل نظر وجدل ، الامر الذى انسحب على مختلف منابره ورموزه .

ان الازهر ، كأى عضو فى الجسم ، ينمو ويشتد ساعده اذا ما كان له دور ووظيفة ، ويضمر ويتعثر نموه ، اذا ما اهمل وعطلت وظيفته .

ـ لانه فى غيبة الاختيار الحاسم ، تراوحت وظيفته بين ان يكون معهدا لتخريج الوعاظ ، او جامعة تستوعب الذين لم تسمح لهم درجات نجاحهم بالالتحاق بالجامعات الاخرى « المحترمة » او معملا لتكوين الكوادر التى تعد لتلعب ادوارا سياسية فى مختلف دول آسيا وافريقيا ، او جهازا لمكافحة الالحاد والشيوعية .

ـ لانه تحول من منبر الى مرفق . من منارة علم وقلعة فكر الى ادارة حكومية ، تدور فى فلك السلطة والسلطان . ويقاتل رئيسها لكى يصبح بدرجة نائب رئيس للوزراء ، ويعتكف فى بيته احتجاجا على أنه فى درجة وزير ، ويؤرقه كثيرا ان لا تجدد له « الخدمة » بعد المعاش .

وقد حدث ذلك بالفعل ، ويقاتل المدرسون فيها من اجل درجة او علاوة ، او الفوز بعضوية بعثة الحج او الانضمام الى قوائم الموفدين الى الخارج للقراءة والوعظ فى شهر رمضان !

عرفت شيخا للازهر كان مصابا بشلل نصفى ، وكان يتحرك بصعوبة ويجرجر جسده على ساق واحدة ، ولكنه كان شديد الحرص على ان يذهب الى المطار فى كل استقبال او وداع رسمى ، ليظهر فى الصورة ، مؤكدا الحضور والولاء . وعرفت شيخا آخر كان يصاب بالغم والحزن عندما لا يجد مكانه فى الصف الاول من مقاعد العروض والحفلات . وعرفت شيخا ثالثا ارتدى بدلة وربطة عنق ، وكان حليق الذقن ، عندما كان مديرا لاحد المراكز الاسلامية فى دولة غربية ، ثم ارتدى عمامة وجبة عندما عاد ليجلس على احد مقاعد السلم الوظيفى المتقدمة فى الازهر ، ثم اطلق لحية كثة عندما جاء دوره فى المشيخة .. وكان جاهزا لكل اشارة مائلا مع كل مسارات الريح ، مادامت صادرة عن السلطة وموافقة لهواها .

ـ لانه كان يطلب منه ان يظل فى دور التابع والممثل . عطل فيه مفعول ادوات الارسال ، واصبح مهيأ فقط للتلقى والاستقبال . اذا رفعت رايات الاشتراكية طلب منه ان يعلن ان الاشتراكية من الاسلام ، وان النبى عليه الصلاة والسلام هو الاشتراكى الاول فى التاريخ . واذا انقلبت الآية وظهر عصر الانفتاح ، فان الاشتراكية تصبح كفرا ، والتأميم يصبح من المحرمات ، وان حرمة مال المسلم هى الوسيلة والهدف . واذا تصاعدت حدة المواجهة ضد اسرائيل صار الجهاد حقا وواجبا ، وبات الصلح محرما على كل مسلم ومسلمة . واذا سعى البعض للصلح اطلقت حمامات السلام من فوق المنابر ، واصبح شعار الجميع « ادخلوا فى السلم

كافة » .. واذا حل « اسبوع النظافة » انطلقت الحناجر مرددة ان « النظافة من الايمان » ، واذا حل « أسبوع المرور » تحول الارسال الى موجة اخرى تشدد على ضرورة السير على اليمين ، لان « اصحاب اليمين » هم اهل الجنة .. وهكذا !!!

واذا كان الازهر مظلوما لهذه الاسباب ، او غيرها ، فمن الحق ايضا ان تذكر انه ظالم لسبب واحد ، هو انه قبل ذلك كله !

❊

قبل ان تقلم اظافره ويستأنس ويعين على درجة في الحكومة ، وقبل ان يشحب ضياء المنارة لتدور عجلة المرفق ، كان ارسال الازهر باهرا ، ومعبرا عن حس الجماهير وكبريائها ..

عندما قدم عسكر الفرنسيين في الحملة الشهيرة على مصر عام ١٧٩٨ ، كان الازهر هو الحصن ومعقل المقاومة . بعث المشايخ في البداية الى رئيس عسكر الفرنسيين يسألونه عن مقاصدهم ، كما يقول الجبرتي ، وانتهى الامر بعد محادثات ازهرية ـ فرنسية ، بان أصدر المحتلون بيانا على اهل مصر يعطيهم الأمان و يؤكد نياتهم الطيبة . ولجأ قائد الحملة الى المشايخ ليؤلف منهم اول ديوان لتسيير دفة البلاد برئاسة الشيخ عبد الله الشرقاوي ، شيخ الجامع الازهر .

ولكن ادوات « الارسال » في الازهر لم تكن قد تعطلت . فظل الازهر يدعو الى تحرير البلاد وخروج الغزاة ، بالبيانات والمظاهرات التي تقدمها المعممون ، حتى ضاق بهم الفرنسيون ، وضربوا الازهر والحي المحيط به بالمدافع ، ثم احتلوا الازهر بخيولهم طوال ايام ثلاثة ، وقبضوا على بعض المشايخ الذين اتهموا بالتحريض على المقاومة ، واعدموهم سرا .

لكن مقاومة الازهر لم تضعف ، وظل عند موقفه في تحدي الغزاة ، حتى خرج من بين صفوفه ذلك الازهري الحلبي سليمان ، وقتل كليبر ، خليفة نابليون « وصاري عسكر الفرنسيين » .. وهنا بلغت المواجهة ذروتها ، وجن جنونهم ، فاعدموه مع ثلاثة آخرين من زملائه ، وعاشت القاهرة في ظل جو من الارهاب لم تعرفه .

كان الازهريون هم وقود الثورة على الغزاة ، وكان شيوخ الازهر هم مجلس قيادة الثورة ، وكان الجامع الكبير هو مقر جبهة التحرير ..

وعندما توالت الضربات العنيفة على الازهر ، تصدى لها شيوخه بكل مايملكون من قوة . وعندما اشتد الارهاب وصار فوق الطاقة ، لم تلن عزيمتهم ، ولم يستسلموا ، لكن شيخهم الشرقاوي قرر مع زملائه ان يغلقوا ابواب الازهر باحكام ، طوال عام كامل !

لقد كان هناك خطر عظيم يهدد الامة ، فتصدى الازهر له قدر طاقته ، وعندما تجاوز ضغط الخطر حدود الطاقة ، اغلق الازهريون ابواب جامعهم ، ومضوا يناضلون في الشوارع .

قد يقول قائل ان ثمة فرقا في القياس ، واختلافا في الاطراف .

ربما كان ذلك صحيحا ، لكنه يظل في حدود الجزئيات والتفاصيل ، وليس الكليات . اذ ان جوهر القضية انه كان هناك خطر يهدد الأمة في جانب ، وكانت هناك فاعلية في الازهر على الجانب الآخر . ثم كان الازهر يستشعر بغير تكلف ولا افتعال ان قيمته ليست في انه جامعة او مجلس للفتيا ، ولا في انه بوق للسلطان وناطق بلسانه ، ولكن قيمته الحقيقية في انه رمز يجسد احلام الجماهير وكبرياءها ، ففعل مافعل .

هل هي قضية الازهر وحده ؟

نقسو عليه ونظلمه اذا قلنا نعم . لان الازهر ليس وحيدا في الساحة . انما هو واحد من المنابر ، وجزء من المناخ العام . ورغم انني من دعاة استقلال الذمة المالية للعلماء ، وتوفير الحصانة لهم ، « وفك الارتباط » بينهم وبين السلطة ، الا ان ثمة بعدا آخر - اكثر عمقا - للمشكلة ..

ان القضية - من ناحية اخرى - هي قضية الفاعلية المطلوبة من اي منبر يفترض فيه انه يعبر عن ضمير الامة . بل ان الامر كله وثيق صلة بمشكلة السلطة والناس ، والعلاقة بينهما في الدول النامية بوجه عام .

ذلك انه بات من مسلمات العالم النامي ، او المتخلف بتعبير ادق ، ان يمتد تاثير السلطة الى كافة المؤسسات ، خصوصا منابر التعبير عن الجماهير . وقد نتحدث عن عالم آخر غير عالمنا ، عندما ندعو الى انفصال المؤسسات عن السلطة ، بل نقبل حتى اشعار آخر ان تكون ثمة علاقة بين تلك المؤسسات وبين السلطة احتراما للشرعية واقرارا بالواقع . ولكن السؤال الحيوي هنا يتعلق بصيغة تلك الصلة ، وهل هي علاقة حوار ام علاقة تبعية ؟

المشكلة . بل المأساة ، ان السلطة في العالم النامي ترفض علاقة الحوار ، وتصر على علاقة التبعية ، الامر الذي يؤدي الى تقويض الدور الفاعل لكافة المؤسسات شرعية ودستورية وقانونية وثقافية . وربما كان ذلك هو المدخل الاساسي لمحاولة تقييم دور الازهر او غيره من المؤسسات .

المشكلة هي في ذلك التوجه نحو الغاء دور المؤسسات القيادية ، واستبدال القائد الفرد بها . ثم السعي الحثيث الى ترويض تلك المؤسسات القيادية وتحويلها الى مؤسسات امنية ، تحرس السلطان ولاتحرس الناس .

المشكلة ان عقل الجماعة لم يعد مطلوبا ، وان الخيار المطروح على جماهير العالم النامي يتراوح بين عقل القائد الفرد وعضلات « جماعته » !

غيبة الديمقراطية الحقيقية هي المشكله ، وعودة الديمقراطية الحقيقية هي الحل .

وتلك العودة المرجوة هي بداية الطريق نحو فاعلية ذات قيمة لكافة المؤسسات ، وبينها الازهر الشريف .

لكن المحظور الكبير يقع عندما يتعامل البعض مع غيبة الديمقراطية ، كما يتعامل الشيعة مع غيبة الامام ، اعني بمنطق الانتظار و الترقب .

واذا كان ثمة قاسم مشترك بين الحالتين ، يتمثل في حلم الجماهير بان تقترن عودة الديمقراطية او عودة الامام ، بعدل يسود الارض ، الا ان هناك فرقا هائلا يتعين الانتباه اليه . هو ان انقطاع غيبة الامام الغائب يتم بمعجزة ، وبالدعاء الى الله . اما انقطاع غيبة الديمقراطية فانه لاياتي على جناح المعجزة . ولم نعرف انه يمكن ان يأتي بالدعاء او الابتهال الى الله .

الديمقراطية تعود عندما تسعى اليها الجماهير ، وتصر على ذلك المسعى .. هكذا ببساطة شديدة !

والحقيقة تتغير عندما يريد لها الناس ان تتغير .. والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

هل هذا اكتشاف جديد ؟

لا على الاطلاق،انما المحزن في الامر انه اذا كانت غيبة الديمقراطية هي وجه للأزمة ، فانما الوجه الاخر يتمثل في تلك « الغيبوبة » التي يعيش فيها اكثرنا !



من التراث الحديث

لبنان

الدكتور طه حسين *

قصدنا الى لبنان حين تقدم فصل الصيف ،وازدحمت الفنادق بالمصطافين حتى استعان اصحابها اهل القرى ، يضيفون عندهم من لا يجدون له مكانا في فنادقهم . وكنت قد سمعت بهذا كله قبل أن اعبر الصحراء الى فلسطين ، واستوثقت من هذا كله حين بلغت القدس واقمت فيها اياما . ولكن مع ذلك مضيت الى لبنان ، فلم يكن بد من المضي اليه ، ومضيت الى هذه القرية بعينها لكثرة ما حدثني الناس عنها ، والى هذا الفندق بعينه لانه كان اضخم فنادق القرية بناء ، وأرحبها فناء ، واكثرها حجرات وغرفات ، واجدرها ان يؤوي من يطرقه بعد ان تقدم الصيف . فلا اكاد ابلغه حتى يلقاني صاحبه بهذا السيل المتدفق من التحية والتكريم ، قلت لصاحبي : لقد شملتني بكرمك ، وغمرتني بلطفك . واني لسعيد بسكنى القلوب . ولكنك ترى أن القلوب لا تغني عن الحجرات والغرفات شيئا ، وان الذين احتملوا مشقة السفر منذ أن اشرقت الشمس الى ان كادت تجنح الى الغروب مصوبين ومصعدين ، تخفضهم السيارة وتخفض القرب ، احوج الى غرفة يتخففون فيها من عناء السفر ، والى سرير يلقون عليه ثقل التعب منهم الى قلوب يجدون فيها الحب والود والبر والحنان . فاذا اجتمعت لهم سكنى القلوب وسكنى الغرفات ، كانوا اسعد الناس سعادة وانعمهم نعيما ... قال صاحبي ، وقد اخذه ضحك عريض عميق : فانتم اذن اسعد الناس سعادة وأنعمهم نعيما ، لأنكم تسكنون القلوب دائما وستسكنون الغرفات متى اصبتم شيئا من اكواب الشاي هذه التي يسعى اليكم بها الخدم .

---

* عام ١٩٤٩ .

قال صاحب الفندق مبتسما في حديثه الشعري العذب : ايها احب اليك : ان تسمع صمت الطبيعة ام ان تسمع ضجيجها وعجيجها ؟ قلت متضاحكا في شيء خفي من الوجل : فان هذا موضوع خطير خصب يحسن ان ترجيء الخوض فيه الى الغد ، بعد ان أكون قد اخذت من الراحة بنصيب . قال وقد اغرق في الضحك : هيهات يا سيدي ، فانك مضطر الى ان تجيب على هذا السؤال لاعرف اين انزلك ، والى اي نوع من غرفات هذا الفندق يجب ان آويك . فان غرفاتنا يطل بعضها على جهة البحر فلا يسمع الساكن فيها الا صمت الطبيعة الهادئة المطمئنة ، يرى البحر من بعيد ينبسط امامه الى غير حد ، ولكنه لايسمع له هديرا ولا زئيرا ، وانما ينعم بمنظره الرائع ، ونسيمه البليل العليل . وبعض غرفاتنا يطل على هذه الجنة المنبسطة التي ترتفع اشجارها العتيقة في السماء ، وفي هذه الجنة من صرير الجنادب ما يشق على السمع اول الأمر ، ولا يتيح للناس ان يسمع بعضهم حديث بعض الا في شيء من الجهد والعناء . فاين تريد ان تنزل ؟ واين تحب ان تقيم ؟ اتؤثر صمت الطبيعة وهدوءها والاشراف على البحر والجبل جميعا ام تؤثر لغط الطبيعة وصخبها والاشراف على الزهر والشجر ؟ قلت فاني متعب مكدود من اللغط والصخب ، فالراحة احب الي ، والهدوء آثر عندي . قال : لا بأس ، ومع ذلك فينبغي ان تزوروا الغرفات الصامتة والغرفات الصاخبة ، وان تختاروا بعد التجربة والممارسة . قلت : ذلك اليك ، وهؤلاء رفاقي طوّفْ بهم في الغرفات والحجرات كما تشاء ، وانا راض بما يختارون .

ومضى معه الرفاق فغابوا عني ساعة وجدت فيها شيئا غير قليل من الراحة ، وفكرت في اثنائها تفكيرا يمازجه الاشفاق والرضا في صاحب هذا الفندق الذي يحب الحديث ولا يكاد يتحدث الا شعرا . ولكن لم ألبث ان وجدت الطمأنينة ، فهذا الرجل مشغول بفندقه وضيفه ، ولن يفرغ لي من دون هؤلاء الضيف الذين يزدحم بهم الفندق ، والذين لا تنقضي حاجتهم ، والذين لا يجدون ما يعملون فهم في حاجة الى ان يقولوا ويسمعوا . ثم أقبل علي ومعه الرفاق ينبئونني بأنني سآوي الى غرفة صامتة اذا كان الليل ، واذا احتجت الى الراحة اثناء النهار ، وسأنفق اكثر النهار في جنة الفندق ، أتبوأ منها حيث أشاء ، فهي واسعة فسيحة ظليلة مختلفة ، فيها الاماكن التي تجمع من سكان الفندق والقرية طلاب الحديث واللعب والمنادمة ، وفيها الاماكن التي يأوي اليها محبو العزلة والراغب ان يفرغ لنفسه أو لكتابه ، او لما احب من عمل ، وفيها اماكن الرياضة للاعب التنس وغير التنس من هذه الالعاب التي يحبها الشباب وكثير من الشيوخ . وهم ان يمضي في تفصيل جنته الى ابعد من هذا ، لولا اني نهضت وقطعت حديثه قائلا : الخيرة اذن فيما اخترتم ، فلنمض الى غرفاتنا الصامتة لنتخفف من اثقال السفر ، ولنتهيأ لساعة العشاء .

وانفقت في هذا الفندق شهرا وبعض شهر ، ناعما بالراحة المريحة والهدوء الذي يملأ القلب رضا ، والنفس مرحا ، والعقل نشاطا ، عاكفا على القراءة والاملاء ، فاذا ضقت بالقراءة والاملاء ، اخذت في الحديث مع الرفاق والزائرين ، فاذا رغبت في شيء من الشعر الحي دعوت صاحب الفندق الى مكان صامت ، وتركته يتحدث الي بما شاء من الوان الحديث . واذا هو يحدثني في شؤون لبنان على اختلافها ، وينشدني في هذه الشؤون شعرا عذبا حلو اللفظ والمعنى جميعا ، في لهجة لبنانية . وربما اعجبتني المقطوعة من هذا الشعر فاستعيدها ، واومىء الى صاحبي فيكتبها لأحملها معي الى مصر ، ولأعود اليها من حين الى حين .

وكنت اظن اول الأمر ان صاحب الفندق هذا شخص نادر في كرمه وشعره وروايته وحبه للحديث ،

ولكني لم اكد اعرف اللبنانيين والحدث اليهم ، واسمع منهم على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، حتى استيقنت ان الكرم فيهم خلق قد فطروا عليه ، وان الشعر غريزة قد اتيحت لكثيرين منهم ، بعضهم يستغلها فيحسن الشعر في لهجته اللبنانية ، او في اللهجة الفصحى ، وبعضهم لا يكاد يحفل بها فتشيع في حياته ، واذا هو شاعر على غير ارادة منه في حس مرهف ، بذوق مترف ، وطبيعة مصفاة ، وما اظن احدا يجادلني في ان اللبناني هو اشد الشرقيين حبا للطبيعة ، وكلفا بها ، وتذوقا لمحاسنها ، وقدرة على تصويرها .

قل ان سحر لبنان هو مصدر هذا المزاج الخاص او علل هذا المزاج بما شئت ، ولكن امتياز اللبناني في دقة الحس ورقة الشعور وترف الذوق شيء ليس فيه شك .

تلمس ذلك حين تلقى الرجل الساذج من اهل لبنان في داره اليسيرة الساذجة ، فلا تحس فقرا ولا حاجة ، ولا ضيقا ولا املاقا ، وانما تحس تأنقا وعناية ، ولا تشك في ان الذوق قد عمل في ترتيب هذه الدار وتنسيقها ، حتى اصبحت تصور الرضا والامن والدعة والاطمئنان الى العيش والابتسام للحياة .

وان انس فلن انسى يوما ازمعنا فيه نتروض في لبنان ، فلم نكد نرفع ايدينا من طعام الغداء حتى انحدرت بنا السيارة الى بيروت ، ثم صعدت بنا الى عالية ثم مصعدة ومصوبة ، ونحن نتقلها هنا وهناك ونيامن بها مرة ، ونياسر بها مرة اخرى ، حتى اذا اقبل الاصيل كنا قد بلغنا شتورة ، وقد اخذ منا الجوع والظمأ لكثرة ما صعدنا وما صوبنا ، ويامنا وياسرنا ، في هذا الهواء البارد الذي كان يذكرنا بقول المتنبي :

وشعاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

فلما بلغنا شتورة مجهودين مكدودين جياعا ظماء اسرعنا الى فندقها الاصيل ، فيتلقانا صاحبه بما تعود اللبنانيون ان يتلقوا به الضيف من التأهيل والتسهيل والترحيب ، ويسعى بنا الى غرفة الطعام ، وهناك يقدم الينا ما شاء الله من طعام مختلفة الوانه ، وفاكهة مختلفة فنونها ، وشاي لم اشرب مثله قط جودة نوع ودقة صنع . وهممنا ان ننصرف ، وطلب صاحبي الحساب الى احد الخدم ، قال الخادم مبتسما ، هيهات ، لا حساب انما انتم ضيف صاحب الفندق . ونحن نلح ونلح ، والخدم يلحون في الاباء ، حتى اضطررت الى ان اسعى الى صاحب الفندق خجلا مستخذيا لكثرة ما اسرفنا على انفسنا وعلى مضيفنا .

كنا نظن اننا سائحون نشتري حاجتنا من احد الفنادق ، ولا نستشير في ذلك الا طاقتنا على الاكل والشرب ، وقدرتنا على اداء الثمن . فاذا نحن ضيف قد اسرفنا على من ضيفنا ، فأنا حائر بين الشكر والاعتذار ، وصاحب الفندق مندفع في تحيته واغتباطه بانا قد مررنا به ، ونزلنا عليه ، واصبنا من طعامه وشرابه ، ولولا امتناعنا والحاحنا في الامتناع لما صدرنا عنه وايدينا فارغة من بعض ما كان عنده من الطيبات .

كذلك انفقت تلك الاجازة في لبنان ، فاي غرابة في ان اعود الى لبنان كلما اتيحت لي العودة اليه : حياة ناعمة باسمة ، وقوم كرام في غير جهد ولا تكلف ، وجو معتدل يعفيك من القيظ ، ولا يعرضك لما تتعرض له اذا عبرت البحر الى اوروبا من المطر المنهمر ، والسماء المظلمة ، والجو العابس بين حين وحين .

■ ■

أول خريطة للزهرة .. توأم الأرض

جحيم فوق الكوكب الذي تغنى الكثيرون بجماله !

بقلم الدكتور المهندس مظفر صلاح الدين شعبان

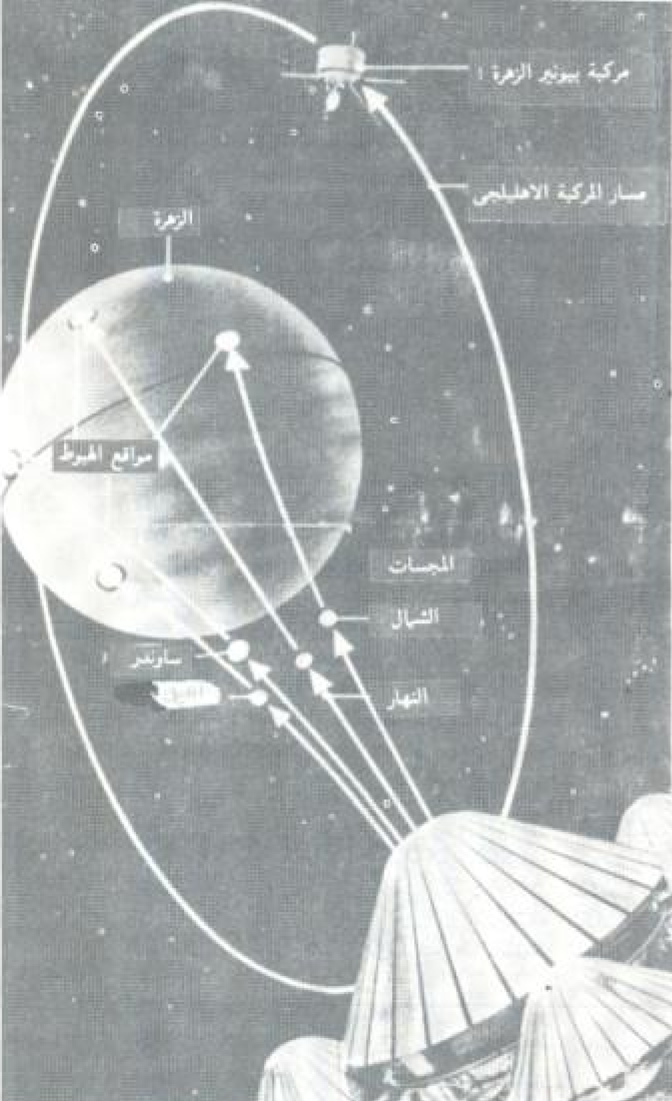
من غير المعروف حتى الآن متى بدأ الانسان القديم بمراقبة السماء والنجوم . ومما لا شك فيه ان انظار اجدادنا الاولين قد انبهرت لدى رؤية نجم المساء والصباح : الزهرة . فهذا الكوكب هو اول النجوم التي تظهر مساء، كما انه اخر النجوم التي تختفي صباحا . ونظرا لان هذا الكوكب يتمتع بجمال خاص لذا شاء الاغريق تسميته باسم الهة الجمال لديهم : فينوس .

والزهرة هي جارتنا السماوي - فهي تقترب من الارض حتى تصل الى مسافة ٨٣ مليون كيلو متر ،بينما الكوكب التالي رهو كوكب عطارد - اقرب الكواكب الى الشمس - لايقترب منا الا الى ضعفي هذه المسافة . ولعل اهم ما يميز الزهرة انها تتوارى عن الانظار خلف « حجاب » سميك من السحب الذهبية البراقة مما يمنع رؤية وجهها الحقيقي . وعلى الرغم من قربها الشديد منا ، الا اننا نعلم عن كواكب المجموعة الشمسية اكثر بكثير مما نعرف عن الزهرة . وحتى عن كوكب بلوتو الذي يبعد عن الأرض حوالي ٦ الاف مليون كيلو متر ، فاننا نعرف اكثر مما نعرف عن الزهرة « المحجبة » .

نظر كثير من العلماء الى الزهرة على انها توأم الارض . وهناك كثير من المبررات التي تدفع الى هذا الاعتقاد . فقطر الزهرة ١٢ الف كيلو متر وهو اقل فقط ب ٦٥٣ كيلو مترا من قطر الارض ،كما ان وزنها يعادل ٨٢,٥ بالمائة من وزن الارض . وهكذا فان كثافتها الوسيطة تساوي ٥,٢٣ (والرقم الارضي ٥,٥٢) . وقد تخيل كثير من الكتاب سطح الزهرة وكأنه « جنات عدن » اذ تصوروا سطحها مغطى - على مد النظر - بغابات شبيهة بالغابات الاستوائية الارضية .

وفي السنوات الاخيرة ، كانت المركبات الفضائية قد هتكت كثيرا من اسرار الزهرة ، وبدأت الصورة المخمليه الجميلة تختفي من الاذهان تدريجا لتحل محلها صورة الجحيم الذي يغطي هذا الكوكب الجميل .

وقد تبدد حلم النعيم في توأم الارض عندما قامت مركبات فينيرا السوفياتية في الستينات باختراق حجاب الغيوم الذي يغطي الزهرة والذي يعيق رؤيتها بواسطة جميع المناظير الارضية او حتى المحمولة على المركبات الفضائية . وقد وجدت المركبات تحت هذا الحجاب البراق فرنا حاميا اذ بلغت درجة الحرارة عند سطح الزهرة حوالى ٥٠٠ درجة مئوية وهي كافية لصهر كثير من المعادن مثل الرصاص والتوتياء . كما ان الضغط الجوي قارب على سطحها مائة ضعف ضغط الهواء على سطح



احصائيات الزهرة

البعد عن الأرض : ٣٨ مليون كيلو متر على الاقل .

البعد عن الشمس : ١٠٨ ملايين كيلو متر على الاقل .

القطر : ١٢١٠٤ كيلو مترات .

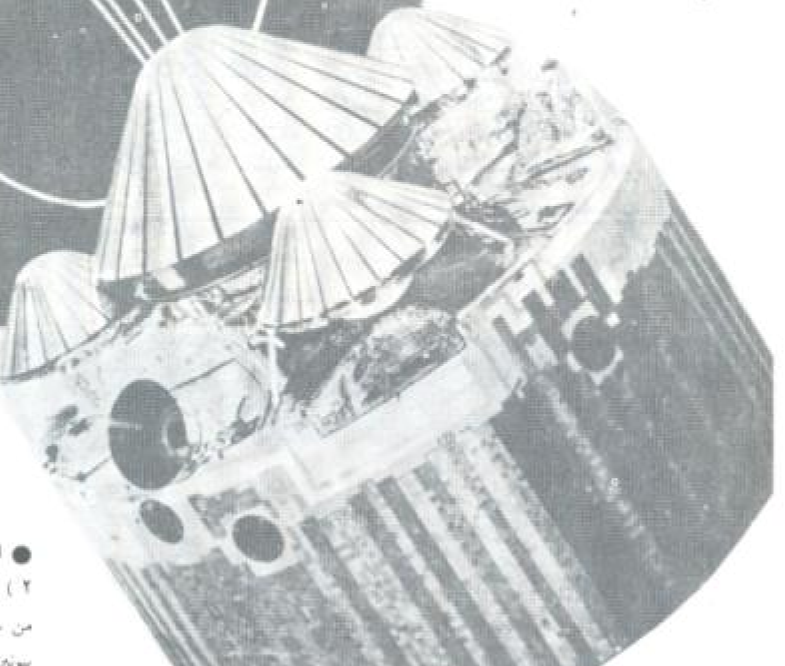
الكتلة : ٨٢,٥ بالمائة من كتلة الارض .

قوة الجاذبية اصغر ب ١/٧ من قوة جذب الارض

سنة الزهرة :٢٤٤,٧ يوما ارضيا

يوم الزهرة : تدور حول نفسها مرة كل ٤٣ يوما ارضيا (وهكذا تكون سنتها اقصر من يومها)

الغلاف الجوي :يصل ارتفاعه الى ١٨٠ كيلو مترا (على الارض ٥٠٠ كيلو متر) .



● الباص الفضائي (بيونير الزهرة ٢) يقذف ٤ مجسات في مواقع مختلفة من سطح الزهرة بينما تستمر مركبة بيونير الزهرة في مسح سطح الكواكب بواسطة الرادار .

الأرض ، مما يعجز الانسان عن تحمله اكثر من ثوان معدودات .اما جو توأم الارض فهو خانق تماما اذ ان ٩٣ بالمائة منه على الاقل يتكون من غاز ثاني اكسيد الكربون تسبح منه سحب من حمض الكبريت الذي يكون معظم المعادن بسرعة رهيبة ويذيبها .تحمل هذه السحب عواصف عاتية تصل سرعة الريح فيها الى ٣٦٠ كيلو مترا في الساعة الواحدة ، ما يجعل السحابة تدور حول الزهرة دورة كاملة في غضون اربعة ايام فقط . اما عن الماء فهو معدوم تقريبا في جو الزهرة .

الباص الفضائي

في التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ انطلق « الباص الفضائي » الامريكي نحو شقيقة الارض ترافقه مركبة بيونير (١)التي كان عليها الدوران حول الزهرة ورصدها ، بينما حمل الباص الفضائي الذي اطلق عليه اسم بيونير ٢ اربعة مسابر لتخترق حجاب الزهرة الكثيف ولتصطدم بسطحها في ٤ مناطق متباعدة . وقد ابدت « الحواس الالكترونية » المشاهدات والقياسات التي اجرتها المركبات السابقة ،لكنها اضافت الى معلوماتنا مفاجآت جديدة .

على ارتفاع ١٥٠٠٠ متر فوق سطح الزهرة بلغت درجة الحرارة ٣٧٧ درجة مئوية ،جن بعدها جنون هذه المقاييس ،فقد تبين ان كمية حمض الكبريت في الجو اكبر بكثير مما كان يتوقع سابقا الا ان اكثر ما اثار الاستغراب هو ازدياد الضياء ووضوح الرؤية على ارتفاع ١٣٠٠٠ متر في الجانب المعتم من الزهرة والذي كان يخيم عليه الظلام ولا يصله نور الشمس . وقد فسر هذا الضياء بانه احتراق عنصر الكبريت في جو الزهرة ، وقد صور احد الكتاب هذا المشهد بقوله « ان الزهرة تحترق .. » وقد اظهرت القياسات المرسلة الى الارض ان جو الزهرة يشبه مستنبتا زجاجيا « تقوم فيه سحب غاز ثاني اكسيد الكربون بدور السقف والجدران الزجاجية ،فهذه الجدران تسمح لاشعة الضوء الشمسي باختراقها الى سطح الزهرة الذي يمتصها ويحولها الى حرارة . الا ان الزجاج يمنع تسرب الحرارة الى الخارج مما يجعل درجة الحرارة في جو الزهرة ترتفع بدون توقف محولة الجو الى أتون مشتعل .ويتخوف بعض الباحثين من ان الحضارة الصناعية على الارض تحرق كميات متزايدة من الوقود الذي يخلف مزيدا من ثاني اكسيد الكربون مما سيؤدي الى ازدياد درجة حرارة الارض . وقد يؤدي ذلك الى ذوبان الجبال الثلجية في القطبين الشمالي والجنوبي مما سيولد فيضانات مدمرة لاجيالنا القادمة .وبالتالي فان دراسة فعل « المنبت الزجاجي » في الزهرة ربما يساعد الانسانية على تجنب حدوثه على الارض .

إلا ان الباحثين رغبوا في رؤية وجه الزهرة .. وهذا ما كشفته اعين الرادار المحمولة على متن بيونير واحد .

اعين الرادار

من المعروف ان التصوير لا يعدو كونه التقاط الاشعاعات الضوئية الصادرة عن الجسم المراد تصويره ،لكن الاشعاعات الصادرة عن سطح الزهرة تعكسها «المرآة » ، التي تشكلها غيوم ثاني اكسيد الكربون .ولحسن الحظ فان موجات الرادار بمقدورها اختراق هذه السحب فتصطدم بسطح الزهرة وتعود الى

● اعمق وديان الزهرة وهو يقع الى الشرق من هضبة افروديت ،يبلغ عمقه ٣٠٠٠ متر تحت سطح المنطقة المنبسطة .



مركبة بيونير واحد التي تدور حولها دون اية اعاقة تذكر . وقد استمرت بيونير واحد في اصدار اشعاعات الرادار ومسح سطح الزهرة طوبوغرافيا بشكل تشكل شرائح ـ بلغ عرض كل منها ١٠٠ متر في كل مرة ـ أكثر من سنة ونصف ثم تبثت النتائج الى الارض .. وبعد جمع هذه الصور حصل العلماء على اول الصور لسطح الزهرة . وان كانت صورة من وراء حجاب الزهرة الكثيف .

الخريطة الاولى للزهرة تمثل ارضا قاحلة ترتفع فيها هضاب شاهقة ووديان عميقة ،لكن لا اثر فيها للماء او الحياة . حوالي ٦٠ بالمائة من سطح الزهرة مكون من ارض سهلية متموجية لا يتباين الارتفاع فيها اكثر من ١٠٠ متر فقط . وقد اتخذ العلماء هذه السهول اساسا لقياس الارتفاعات كما يقيسونها على الارض منسوبة الى سطح البحر . ويعتبر علماء هيئة بحوث الفضاء والطيران الامريكية (ناسا) هذا السهل المنبسط على انه قارة وحيدة شاسعة . وتشير الدراسات السابقة انه يتكون ـ على الارجح ـ من صخور تشبه الجرانيت تحتها طبقات من البازلت . تتخلل هذه السهول بعض الحفر الدائرية التي يصل قطر بعضها الى ٦٠٠ كيلو متر . وهي توحي بانها ناتجة عن اصطدام الزهرة بنيازك « شهب » عملاقة . وقد شوهدت مثل هذه الحفر على القمر والمريخ وعطارد وحتى على اقمار المشتري . وقد وجد مثلها حتى على ارضنا الا ان الرياح والعوامل الجوية الاخرى قد سوتها مع المناطق الاخرى عبر ملايين السنين ،الا ان واحدا منها لايزال مكشوفا حتى الآن في غرب الولايات المتحدة .

> يتركب الغلاف الجوي بصورة رئيسية من ثاني اكسيد الكربون (٩٣ ٪ اما الباقي فيتكون من كميات صغيرة من الغازات المعروفة (كالنتروجين) ، والغازات النادرة (مثل الارغون ، الهيليوم) وكميات ضئيلة من بخار الماء .يضاف الى ذلك بعض المواد الحمضية مثل ثاني اوكسيد الكبريت وزهر الكبريت وكلور الهيدروجين .

تضاريس الزهرة

ترتفع فوق سهول الزهرة هضبتان . اعلى هاتين الهضبتين واكثرها احتواء للنتوءات اطلق عليه اسم هضبة عشتار نسبة الى الهة الحب والحرب البابليه . وهذه الهضبة تقارب قارة استراليا حجما .والانحدار السريع لسفوح هذه الهضبة وبروز بعض صخورها الكبيرة يوحي بانبثاق البراكين في هذه المناطق قبل ملايين السنين .

بالقرب من الحافة الشرقية لهذه الهضبة شوهد اعلى جبال الزهرة . وقد اطلق عليه اسم جبل ماكسويل . وهو يرتفع عما حوله بحوالي ٩٠٠٠ متر . ويرتفع عن السهل بحوالي ١٢٠٠٠ متر .وعلى سبيل المقارنة فان جبل ماكسويل اعلى من جبل افرست (اعلى قمة على سطح الارض) بحوالي ٣٠٠٠ متر .

الهضبة الثانية سميت باسم الهة الحب والجمال افروديت . الا انها لا تضاهي هضبة عشتار في الارتفاع . لكنها بالمقابل اكبر اتساعا وتقارب حجم قارة افريقيا بدون نتوئها الجنوبي . كذلك يقع الى شرق هضبة افروديت قرب منخفض عميق يهبط ٣٠٠٠ متر عن سطح السهل ،وهو اعمق وديان الزهرة .

وهكذا اصبحت الخريطة الاولى لسطح الزهرة جاهزة تقريبا . ويبحث العلماء عن تسميات مناسبة للبقع المتميزة فيها . والاتجاه الحالي نحو اطلاق تسميات طريفة تزيل عن الخريطة طابع الجفاف وتفيض عليها بعض الجمال والرقة .

على مدى سنة ونصف سنه قامت مركبة بيونير (١) الدواره حول الزهرة بمسح سطحها على شكل شرائح عرض كل منها مئة متر وكأنها تقرأ في كتاب . وكلما قرأت سطرا بثت المحتوى الى الارض . ومع كل سطر من « ملحمة » الزهرة الجديدة كانت اضغاث الاحلام التي شغلت كثيرا من كتاب قصص الخيال العلمي خلال السنوات العشرين الماضية ـ تتلاشى الى غير رجعة .

كانوا يتصورون الزهرة سهولا من الخمائل المطلة على المحيطات التي لا يحدها نظر . ولكن هذا التصور تحطم على صخور الزهرة الجرداء .. وبدلا من الماء والحياة فقد وجدوا جحيما لا يطاق ؛ ■■

طوكيو ـ د . مظفر شعبان

المنفى شرط اساسي للكاتب



انتوني بيرجيس

الإبن الشرعي لعصر العنف والتمرد

بقلم : محمود قاسم

يسمونه الآلة الكاتبة المتنقلة - يكتب في كل مكان - ويمارس اكثر من نوع من الكتابة . من الرواية الى القصيدة والسيناريو والمسرحية . والتمثيلية والتليفزيونية . انه الآن انشط واهم الادباء في انجلترا ..

اعماله تتوالى الواحد تلو الاخر . والنجاحات تتواصل . يسافر كثيرا هنا وهناك ولا يكف عن الحركة . انه انتوني بيرجيس .

وبالرغم انه لا يعيش جزءا طويلا من السنة داخل بلاده . ويتحدث ويكتب بطلاقة ست لغات الا انه انجليزي من رأسه الى اخمص قدميه . واذا كانت اللغة الانجليزية حسب رأيه « صعبة جدا في كتابتها » الا انها وسيلته الاولى في التعبير خاصة بالنسبة لرواياته التي يعدها افضل الوان الكتابة حتى الآن ..

ولد انتوني بيرجيس عام ١٩١٧ في شمال انجلترا بمانشستر في اسرة كاثوليكية . كان ابوه عازفا على آلة البيانو . أما والدته فكانت تعمل في الصالات الموسيقية . وقد ماتت وهو لا يزال طفلا . وكان من اسباب انغلاق الطفل وجود أم أخرى غير أمه تتسم بالتعصب الديني الشديد . استطاع ان يتعلم من خلال ابيه الرقص والغناء والعزف على البيانو . التحق بجامعة مانشستر بعد ان ترك المدرسة الكاثوليكية وكان يتمنى في اول الامر ان يصبح عازفا الا انه قرر ان يهجر عالم الموسيقا كي يصبح أديبا . وقد ساعدته موهبته الادبية أن يقوم بالقاء المحاضرات والندوات الادبية في الجيش ابان تجنيده . وقد ترك بلاده لاول مرة عام ١٩٤٢ متجها الى جبل طارق ثم اوربا . وهناك اختلط لاول مرة بعالم يختلف عن بلاده . ورأى بشرا آخرين لا يتكلمون الانجليزية . وفي عام ١٩٥٤ سافر الى ماليزيا حيث التحق باحدى الوظائف التي وفرت له الوقت كي يمارس الكتابة . وقد اصيب عام ١٩٥٩ بمرض اضطره الى العودة الى وطنه ، وقال الاطباء انه لن يعيش اكثر من عام . ولذا عزم أنتوني ان يترك لامرأته ثروة فكتب في اقل من عام خمس روايات . لكن القدر لم يوافه منيته . وانما جاء على امرأته . فتزوج من امرأة ايطالية هاجر معها الى مالطا ثم ظل يتنقل - فيما بعد - بين البلاد حتى استقر اخيرا في مونت كارلو واختارها لنفسه كمنفى



ارنست هيمنجواي .. هذا اللعين



لقطة من فيلم « البرتقالة الآلية »

« يعد المنفى شرطا اساسيا للكاتب . وانا سعيد دوما حين اجد نفسي هناك حيث لا اسمع الكثيرين من الناس يتحدثون بالانجليزية التي افتقدتها . فبدوت كأنني قد بترت لساني في الوقت الذي اجد انه لزاما على ان اكتب بلغة وطني »

والمنفى يشكل بالنسبة للكتابات وحياة الكاتب علاقة خاصة . ففي روايته « حق الرد » نرى المدرس الذي يعمل في مدرسة خاصة ولا يرضى بالاوضاع التي تنتهجها ادارة المدرسة فيقرر ان يهجر البلاد الى اوروبا .

في عصر العنف

وقد جلبت روايته « البرتقالة الالية » الشهرة الواسعة خاصة بعد نجاحها كفيلم سينمائي اخرجه ستانلي كيوبريك . وقد اتبع فيها اسلوبا اقرب الى ما كان يفعله مواطنه الدوس هكسلي في رواياته . فهو يدخل فقرات طويلة لها علاقة حميمة بالعمل الاساسي بعدة لغات اخرى خاصة اللغة الروسية . وتنتمي هذه الرواية الى ادب الخيال السياسي الذي يميل بيرجيس الى الكتابة فيه . حيث ينقل تجربة اغتصاب حدثت لزوجته عن رجال اشرار . فمن المعتاد ان نشاهد صورة الضحايا في الصحف بعد ان يتم ارتكاب الجرائم . لكننا لم نر ابدا صورا تبين لنا الجريمة اثناء وقوعها . فقد حاولت مجموعة من الجنود اغتصاب فتاة جميلة لكن عصابة اليكس تنقذ الفتاة من براثن الجنود . كي ينالوا منها بكل وحشية . وهذه العصابة تميل الى كل ألوان السادية والعنف اثناء ممارستها للسلوك الاجرامي . فهي تختطف رجلا مخمورا ومعه زوجته فيضربونه بشدة ويغتصبون زوجته امام عينيه بوحشية لا نظير لها مما يؤدي إلى ان يصاب الزوج بالشلل لهول ما رأى امرأته تموت اثناء اغتصابها .

هذه كلها اشياء ناتجة عن استعمال الاليات لدخائلنا . فقد تحول عالمنا الى كتلة من العنف والدماء . حيث نرى في النصف الثاني من الرواية عملية غسيل مخ لاليكس في احدى المصحات يتحول على اثرها المجرم المتوحش الى انسان ذليل خنوع مطيع . اذا ضربه انسان انحنى ليقبل حذاءه وعندما اختبروا قابليته للجنس فقدموا له فتاة عارية ساحرة تقيأ ! وقد اثارت هذه التجربة الرأي العام . فطالبه باجراء عملية غسيل مخ لاليكس كي يعود مرة اخرى الى طبيعته . فنحن في مجتمع تملؤه الذئاب . وعلى هذه الذئاب مواجهة بعضها . والقوي هو الذي سينتصر في النهاية ..

وبالرغم ان بيرجيس يؤكد على العنف في رواياته كما سنرى . الا انه يرى انه لا علاج لمجتمعنا المعاصر سوى بالعودة الى التعاليم التي جاءت في الكتب السماوية . وهو يكن اعجابا خاصا للسيد المسيح عليه السلام . فيكتب حوله رواية « رجل الناصرة » ويرى ان حياة المسيح تشكل صدى لمأساة . ودرسا للتحمل . ومعاناة نفسية للتلاميذ . فلكل انسان كلماته وسماته . وهو يرى ان المسيح رجل مثلنا . ينبثق من محيط كمحيطنا . رجل كانت له معجزاته الصغيرة التي لا تتوقف . كثيرا كاحياء الموتى وشفاء المرضى . ولكن كانت له معجزة

كبيرة واحدة هي التي جعلت منه رسولا . وجعلتنا نؤمن له . هي انه استطاع ان يكون منا . واكبر منا . استطاع ان يكون المسيح الذي نعرفه جميعا . وقد تحولت هذه الرواية الى مسلسل تليفزيوني اخرجه فرانكوزيفا يريللي عام ١٩٧٧ الذي يقول حول المسيح « لم يكن المسيح ابدا ثوريا . ولكنه يهودي حتى آخر أنفاسه . وهو لم يتخل عن ابنه ولا عن روما . وقد ولدت المسيحية بعد وفاته » .

ونتيجة لمعيشة انتوني بيرجيس في مونت كارلو حيث التأثر الواضح بفرنسا وتاريخها ، يختار اهم شخصية في تاريخ البلاد ليقدمها في روايته « سيموفونية نابوليون » التي نشرها عام ١٩٧٦ . ويتناول علاقات نابوليون العاطفية ومغامراته في البلاد التي غزاها مثل مصر وإيطاليا وروسيا . وهو يتبع القائد الفرنسي الى هذه البلاد كأنه اب يراقب ابنه في مسيرته . ويحاول تعديل مساره والتعاطف معه والتغاضي عن اخطائه مهما فعل . فنابوليون هو ابن الثورة الذي يريد ان ينشىء امبراطورية عظيمة فوق اطلال اوروبا الاقطاعية المهدمة التي عاث من الطغاة والجياع . لكن الثورة كانت اول من حطم قائدها . وأتت عليه بعد ان حقق لها الكثير . فقد مات نابوليون كي يبقى الى الابد حلم شعوب أوروبا .

ويقول الناقد جيل لابوج في مجلة « كانزان » الادبية - ١٥ ابريل ١٩٧٧ . كي نقرأ هذا الكتاب مثلها كتب . فيجب ان تكون عينك على الكتاب والاخرى تسمع بها السيموفونية الثالثة لبيتهوفن . وان تدور داخلك الحركة الرابعة في السيموفونية .

كتاب القرن العشرين

وفي عام ١٩٧٨ نشر بيرجيس ثلاثة كتب مرة واحدة . الاول عن ارنست هيمنجواي بعنوان « هذا اللعين هيمنجواي » وفيه يتحدث عن الاحترام الذي يكنه للاديب الامريكي العظيم .. ويتحدث عن لقائه به خلال عام ١٩٤٤ ابان الحرب العالمية حينما زار فرنسا . ذلك اللقاء الذي جمعه بمالرو « يا للخسارة انه لم يكن لهذه المجموعات أية افكار واضحة وهي تجتمع في باريس ».

أما الكتاب الثاني فهو رواية بعنوان « روما تحت المطر » وفيها يتعرض لحياة « رولان بيرار » احد كتاب السيناريو الذين يعيشون في اوروبا بعيدا عن بلادهم . لقد اصبح ارملا بعد زواج دام ستة وعشرين عاما . وبعد ان ماتت زوجته يشعر انه قد استرد حريته التي اغتصبت منه . فيشيع زوجته الى مثواها الاخير دون ان يشعر بالاسف على ذلك . ويقرر ان يرحل الى روما كي يستقر فيها .. وهناك يتعرف على امرأة تعمل مصورة فوتوغرافية ما تلبث ان تتركه لترحل الى الشرق الاوسط لتصور أحداث حرب الخامس من يونيه . بينما يبقى بيرار وحده في غرفة المرأة يكتب سيناريو فيلم تموله هوليود وتقوم ببطولته اخته . وفي هذا السيناريو يمزج بيرجيس بين تجربته الخاصة وأحاسيسه الذاتية وبين ابطاله الذين يصنعهم بنفسه ...

أما الرواية الثالثة التي صدرت في نفس العام ١٩٨٤ - ١٩٨٥ فهو يعود فيها الى ادب الخيال السياسي مرة واحدة . وقد قارن النقاد بين هذه الرواية وبين رواية بنفس العنوان للكاتب جورج اورويل . لكن الشخصيات هنا تختلف . فنحن امام ديكتاتور عصري يدعى بيف . ربما هو صورة جديدة من بيفان . وهو يعيش في عصر ملك يدعى شارل الثالث وهناك مملكة تسمى بمملكة العمال يتزعمها بيف العامل الذي يود ان يستولي على الحكم كي يصنع لنفسه كل القوانين التي تسود المملكة الفوضى والاغتصابات في شوارعها . ويفقد بيف امرأته بعد ان اصيبت في حريق في احدى المستشفيات . كان عمال المطافي في اجازة حين احترقت زوجته . وهذه التجربة تدفع الشاب ان ينضم الى مجموعة من الشباب المتشردين الذين يعيشون على هامش المجتمع العبثي ويمارسون الاغتصابات والقتل ويسيلون الدماء ويقضون اوقات فراغهم في تعليم اللغة اليونانية ويتزعم بيف هذه العصابة .

وفي منتصف عام ١٩٨١ ينشر روايته الثالثة حول العنف الذي يجتاح العالم والذي تنبأ به في رواية « البرتقالة الالية » . وقد اطلق على هذه الرواية « قوى الظلام » التي سميت بـ « كتاب القرن العشرين »

حيث يتناول بيرجيس سبعين عاما كاملا من القرن العشرين مؤكدا على مظاهر العنف داخله . وقد نشرت مجلة الاكسبريس الفرنسية حديثا طويلا مع بيرجيس في العدد الصادر في ٢٥ سبتمبر عام ١٩٨١ منشورة منه بعض المقاطع لالقاء الاضواء على فكر بيرجيس حول العنف والارهاب الدولي . فهو يقول « حاولت في اول الامر ان اعطي صورة حول العالم الذي اعرفه .. منذ سنوات ميلادي عام ١٩١٧ وحتى الآن . افكر جديا ان هذا الكتاب قد بيع جيدا في الولايات المتحدة لانه طويل جدا . فالامريكيون لا يحبون ان يشتروا كتابا يمكنهم قراءته في جلسة واحدة . مثل اعمال فرانسواز ساجان . انهم يشعرون بالغلبة اذا ما اشتروا شيئا ليس على مزاجهم . ففي مساكنهم تجد دائما الكتاب السميك الثقيل الذي تضعه على دولابك ويمكنك ان تحتفظ به كي تقرأه يوما . هذا الامر يضمن نجاح الكتاب بينما انا لا اعلق اية اهمية حول هذا الموضوع .

اللغة موسيقا العمل الروائي

ويقول ان هذه الرواية قد استقبلت جيدا في المملكة المتحدة لكن بشيء من الحذر . لانه يتصور ان القارىء الانجليزي له مفهوم خاص حول العمل . وهذا الامر يختلف عنه في ايرلندا او فرنسا او اي بلد آخر . وعن بطل روايته تومي يقول « انه شاذ جنسيا وكاثوليكي » وهذا الموقف الديني المتشدد داخله يتضارب مع سلوكه الجنسي . فالكنيسة ترفض الشذوذ الجنسي . وعليه فانه يلزم وجود الهين وقوتين . احدهما للجنس والاخر للكنيسة ، الذي يطلب منه ان يتخلص من كل شروره . فهو اب اسرة كما انه مجرم ، ليست له وظيفة سوى ان يؤلف روايات شعبية . ويشعر تومي بالتمزق تجاه هاتين القوتين فيرفض ان يختلط بأعماله مع هذا العالم . يشرك معه البابا كارلو في حل مشكلته . يقول له انني احس انني انسان غير موجود . فانا لم اصبح شاذا باختياري وتومي يؤمن بحرية الاختيار . وعندما نختار فاننا نفضل الاحسن . فيجب ان يظل الشر خارجا .. يقول له البابا « الانسان حر فيما يفعل لانه كائن طيب »

يلتقي تومي بالبابا كارلو ثانية عام ١٩١٨ الذي يخبره ان الحرب قد انتهت . لكن الحرب ليست سوى وسيلة للتعبير عن صفات رائعة داخل الانسان . مثل الشجاعة وروح التضحية والاتحاد وحب الزملاء . وتطرح هذا السؤال « هل يجب اختيار الشر مثل ذلك الذي تقع تحت طائلته كي يمكن تحقيق نتائج مرضية » هل يجب ان نتمنى قيام حرب جديدة . وتكون الاجابة البديهية هي الرفض . فكارلو يرى ان ضرر الحرب اكثر من خيراتها .

ويقول بيرجيس ان كارلو كومباناني هو نفسه البابا يوحنا الثامن « هذا الرجل بالنسبة لي هو اكثر الرجال خطورة في القرن العشرين . وبالطبع فقد كانت هناك النية في تنصيبه قديسا . وعندما كنت اقيم بروما كتبت مقالا عددت فيه مجموعة من الوقائع ضده وقد اعتبر الفاتيكان ان هذه المقالات يجب ان توضع في ملف الشيطان .

وانتوني بيرجيس يهتم جدا باللغة التي يكتب بها . فهو يرى ان اللغة بمثابة موسيقا العمل الروائي بأكمله . ويرى ان البناء الروائي هو عماد العمل نفسه . وعالمه ينقسم الى قسمين هما العالم الطبيعي الذي نعيش فيه والعالم التحتاني الذي يعيشه كل انسان منا خاصا بنفسه لا يعرفه الاخرون ولا يجيد احد التعبير عنه « يجب ان يكون هناك معبر طويل بين العالمين ، فنحن نتعلق بعالمنا التحتاني دون ان نعرف اننا مسلوبون اليه . فنحن لسنا الذين نبحث عن الله او الشيطان . عن الخير والشر . نحنّ متعلقون بهم بصورة او بأخرى . فربما يكون هذا « تحتاني » وربما هذا افضل وربما يكون الامر جنسيا »

والعنف الذي يجتاح العالم الآن وتنبأ به « بيرجيس » في الستينات هو العنف الابله الشرير ، وهذا العنف مرفوض تماما . فاذا كان الكاتب يكره الطمأنينة العقيمة مثل كراهيته للحرب المدمرة ، فان الكاتب يوجه في اعماله المتعددة التي تحلل العنف وظواهره نداء الى ان تنبض القلوب من جديد . تنبض بالحب والانسانية . وان يتجه العالم الى الوحدة والخير والطمأنينة ابان السلام أكثر من وقت الحرب . ■■

محمود قاسم

الترجمة : هل هي خلق وابداع ؟

بقلم : د . عيسى المصو

كثر النقاش في هذه الايام حول طبيعة الترجمة ودورها الذي تقوم به في حياتنا الادبية ؛ كما عرض الكثيرون من الباحثين لمشكلة الترجمة ولدعوى قصورها عن اداء ما يشتمل عليه النص من افكار ودلالات وجمال لفظي .

وليست هذه المشكلة حديثة العهد فطالما كانت موضع الدراسة والمناظرة بين القدماء . فمنذ أن قام العرب بنقل فلسفة اليونان الى اللغة العربية صادفوا مشقة وعسرا ولم يكتب النجاح الا للقليلين منهم خصوصا ان الكثيرين نقلوا اثار اليونان عن اللغة السريانية لا عن لغتها الاصلية . فالسيرافي ، وهو من علماء العربية في القرن الثالث الهجري ، وممن واكبوا حركة ترجمة هذه الآثار يتحفظ في الترجمة عامة . ففي رسالة كتبها لمتى بن يونس يقول : « ان لغة من اللغات لا تطابق لغة اخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في اسمائها وافعالها وصروفها وتاليفها وتقديمها وتأخيرها ، واستعارتها وحقيقتها . » وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان ان الترجمان « ينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيهما سواء وغاية » الا ان هذه المسائل لم تحل دون تبوء الترجمة مكانة مرموقة في الانتاج الادبي العام . اذ جمع الاستاذ يوسف داغر في مجلد نشر في بيروت إحصاء للقصص التي ترجمت في القرن التاسع عشر وفي اوائل هذا القرن فكان عددها عشرة آلاف قصة .

ومهما تكن طبيعة معضلات الترجمة الا ان الجدل لا يزال اليوم قائما حول مدى ما تنطوي عليه من ابداع ، ان المترجم عند بعضهم هو الذي يقوم بتفهم الافكار والاقوال في النصوص الاصلية ونقلها وحينئذ يعد من الفنانين المبدعين ، وهناك من يعتقد ان عملية نقل اثر ادبي من لغة الى لغة اخرى تنطوي على درجة الابداع والايحاء نفسها التي ينطوي عليها هذا الأثر .

ولكن من الناحية الاخرى يذهب البعض الى ان الترجمة ما هي في الاصل الا مهارة من المهارات التي يمكن اكتسابها وصقلها وتطويرها ، وانها تصل الى اعلى ذرا الكمال عند اولئك الاشخاص الذين يفصحون عن احساس مرهف في اسلوبهم عندما يمتلكون تلك المهارة ، وانه اذا ما اراد المترجم ان يدلل على اصالته الفنية وجب عليه ان يأتي بالنص الاصلي للعمل الفني .

لا شك ان بوسع المترجم الملهم اعادة خلق عمل فني باسلوب يجعله يبدو وكأنه عمل جديد . ومن الادلة على ذلك ما قامت به كونستانس جارنيت في ترجمة آثار دوستويفسكي الى الانجليزية والتي لايوازيها الا عمل يكون قد كتبه دوستويفسكي انكليزي . ولكن لا يجب ان يغيب عن البال انه في مثل هذه الحالات كان هناك أثر فني في اللغة الاصلية . وما الترجمة الا عمل منبثق عنه .

ويدعي هؤلاء ايضا انه ليس للمترجم حق ملكية افكار الاديب الذي يقوم بترجمته ، وانه في احسن الاحوال ما هو الا قناة لايصال هذه الافكار ، وانه من الخطأ الفاضح الافتراض ان المبدع والناقل هما في نفس الاهمية ، والا كان انبوب نقل النفط في نفس اهمية النفط الذي ينقله .

على ان هناك مبررا لقيام مثل هذه الافتراضات التي لها علاقة بطبيعة المترجم المحترف وميوله . فمثل هذا المترجم المتجرد من صفة الخلق الفني قد تكون له عادة ميول اكاديمية ويعمل على محاكاة الاصل والاشادة به . مكتسبا عن طريق التعامل الوثيق بالنص ارتباطا غريبا مع الفنان الاصيل ، بحيث قد يخيل اليه انه هو المسؤول عن افكار الكاتب لا مجرد المعبر عنها . ولا يجب ان يغيب عن افكارنا انه رغم الصفات الخلاقة التي يجب على المترجم امتلاكها الا انه مجرد وسيط بين الفنان والجمهور ، فهو يتحدث بالنيابة عن الفنان ، وان كان يتحدث باسلوبه هو مراعيا الاصل بامانة .

ان الترجمة الخلاقة هي للمعنى والروح لا للكلم والحروف ، فمن البديهيات الادبية استحالة الفصل بين الشكل والمضمون . وتشترط فيها الامانة المتناهية للنص ، وهذا ما ذهب اليه الاستاذ أربري الذي قام بترجمة القرآن الكريم في منتصف الخمسينات من هذا القرن . ومهمة الترجمة صعبة المراس بل هي فيا ذهب اليه صاحب « المقتطف » الدكتور يعقوب صروف ، وهو من اكبر المترجمين العرب « صعبة واصعب من التأليف » . وقد قال يوجين نيدا في كتابه « نحو علم للترجمة » ان « مهمة المترجم مهمة صعبة في الاساس ومهمة لا يشكر عليها في اغلب الاحيان ، فاذا ما ارتكب غلطة انتقد بشدة ولكنه لا يمتدح سوى امتداح تافه عندما ينجح في عمله » .

تنطوي عملية الترجمة على مشاكل عديدة وصعوبات جمة حتى عندما تتوفر في المترجم الامانة والتفاني في عمله واتقانه للغتين ، فيا الاتقان الا ركيزة واحدة فقط من ركائز الترجمة الناجحة ، فنظرا لاختلاف هندسة الجملة من لغة لاخرى يضطر المترجم الى التقديم والتأخير والى عمليات تنظيمية لتتناسق ترجمته مع النهج المألوف في اللغة المترجم اليها . ناهيك عما يصادفه المترجم من مشكلة جمال اللفظ وموسيقاه . فقد يؤثر الاديب استعمال لفظة ما على اخرى في لغته الاصلية لا لشيء الا لانها تتميز برنة معينة او لانسجامها مع ما سبقها او لحقها من ألفاظ مما يؤدي الى الانسجام اللغوي الذي لا ينبو على الاذواق أو تمجه الأسماع . فاذا اضفنا الى كل ذلك المحسنات اللفظية ، وحرص المترجم على عدم مخالفة المشهور من القواعد التقليدية تتبين لنا دقة موقفه .

إن استجلاء المترجم للمعالم الكبرى ولأدق تفاصيل النص حتى تتراءى له في احجامها الحقيقية وفي ركائزها الاساسية ، وكذلك استجلاؤه للأسس والمفاهيم التي ينطوي عليها النص في جوهره ومظهره ، وتجنبه المزالق التقليدية في الترجمة ، ومن ثم تحديد طريقته واستقلال شخصيته ، واعطاء الكلمة حجمها الطبيعي . كل ذلك يجعل من عملية الترجمة عملا فعالا خلاقا ، مثيرا ومثمرا ، داحضا النعلة التي يتذرع بها البعض من ان الترجمة مهارة وحسب . افلم يصبح الكثير من الاعمال المترجمة آثارا ادبية بدورها بسبب الشكل الذي ابدعت فيه والذي ضمن لها الشهرة والخلود ؟ .

عِلْيَةُ القوم

بقلم : حافظ احمد امين

أسارع ـ قبل أن يتهمني القارئ بالرجعية ـ فأقول إنني لا أعني بـ « العلية » الفئة الحاكمة ، او أصحاب المال والمركز الاجتماعي ، وانما أعني بها أفرادا ـ لاطبقة ـ يتصفون بصفات لايستطيع أن يبلغها سِفْلة الناس لمجرد حصولهم على الثراء أو القوة أو الشهرة .

قد يصل أحد السفلة الى أعلى المناصب ، وقد يكون الثراء بسبب تجارة وضيعة ، وقد يكون الزعيم ممثلا للدهماء والغوغاء ، ولكن هذا لن يجعل منهم « علية » أو صفوة ، وانما سيجعل من الامة أمة بائسة ، ومن الحياة حياة لاتحتمل .

فإن لم تكن صفات « العلية » هي امتلاك الثروة أو النفوذ او المركزالاجتماعي ، فما هي صفاتها إذن ؟

لعل أهم مقياس يميز بين « العلية » و « السفلة » ، هو نوع التغير الذي يحدث للفرد اذا ما نال مالا أو منصبا أو فراغا . فالشخص من العلية اذا كسب مالا نفع به وانتفع ، واذا نال نفوذا أفاد وأصلح ، واذا حصل على فراغ أنتج وأبدع . أما الشخص من السفلة فالمال عنده لايعني الا الغرق في المتعة ، والنفوذ لايحقق الا المصالح الشخصية ، والفراغ ليس الا للفساد والافساد .

و « العامة » وسط بين العلية والسفلة ، ويختلف الفرد من العلية عن الفرد من العامة في أن الأول قوي بشخصه ، أما الثاني فلا تظهر قوته الا اذا اجتمع بأمثاله ،ولايظهر نفعه هو وأمثاله الا اذا قادهم رئيس من العلية ، قادر على تنظيم الجماعة وتوجيهها لتحقيق أهداف راقية .

فإن لم يكن للعامة رؤساء من العلية ، يقودونهم الى مافيه الصالح العام ، فسد كل شيء ، وعم الاضطراب والبلاء ، واقتصرت اعمال العامة على (تكدير الماء واغلاء السعر وتضييق الطريق) كما كانوا يقولون قديما .

كذلك من أهم ما يتميز به العلية عن العامة وعن السفلة ، الطريقة التي يتم بها تحفيز كل منهم للقيام بالأعمال الصالحة وترك الأعمال الفاسدة .

يقول أنو شروان ـ ملك فارس العظيم ـ : «سُس خيار الناس بالمحبة ، وامزج للعامة الرغبة بالرهبة ، وسُس سفلة الناس بالاخافة »

وللعرب أقوال مأثورة تشير الى هذا المعنى : « العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة . » و « إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا . » ... الخ

فاذا نحن جمعنا هذا النوع من المأثورات ، رأيناه لايخرج عن معنيين اثنين : الاول : ان سفلة الناس لاتشغلهم الا الحوافز المادية ، كلما نالوا منها شيئا زاد تهالكهم على طلب المزيد منه . بينما تنتقل العلية من الناس ـ بمجرد حصولهم على أقل قدر من ضرورات الحياة ـ الى طلب العلم والاحترام والمحبة والتميز .

الثاني : أن السفلة ـ مهما أعطيتهم ـ لايفكرون ـ ولو للحظة واحدة ـ فيما يجب أن يقدموه مقابل ما حصلوا عليه .

ولعل من أهم ما تقاس به درجة رقي الأمم أو انحطاطها ، مكانة الصفوة فيها . فاذا كان علية القوم هم أكثر الناس مالا وأعلاهم منصبا وأوسعهم صيتا وأقواهم مركزا ، دل ذلك على رقي الأمة وتفوقها ، ولو كانت أمة صغيرة أو فقيرة ، وان كان الثراء والنفوذ من نصيب السفلة دل ذلك على انحطاط الأمة وتأخرها ، ولو كانت أمة كبيرة أو غنية . وقد قال عمرو بن العاص مرة : « موت ألف من العلية خير من ارتفاع واحد من السفلة . »

سئل أحد نجوم المسرح العربي منذ بضعة أشهر : « لماذا تقدم المسرحيات الكوميدية الراقية كما كنت تفعل ؟! ولماذا يتهمك النقاد الآن بالاسفاف والتهريج ؟ » قال : « انظروا الى أي من الناس تتدفق الأموال الى جيوبه في زماننا ، ثم تعالوا واسألوني سؤالكم . »

كنت أقرأ مرة كتابا عن نجيب الريحاني ، فأدهشني أنه بدأ حياته الفنية مهرجا هزليا يقدم اسكتشات (الفرانكو آراب) في كباريهات عماد الدين ، أثناء الحرب العالمية الأولى . وهي عروض تافهة المضمون ، حقيرة المعنى . ثم انتقل الى عرض المسرحيات الكوميدية الراقية ـ نسبيا ـ في الثلاثينات والأربعينات .

كان نجيب الريحاني ذا عقلية تجارية من الدرجة الأولى ، يعرف كيف تتدفق الأموال الى جيوبه . وما انتقاله من (الفرانكو آراب) الى (الدنيا لما تضحك وحكم قراقوش) وغيرها الا نتيجة انتقال الأموال من جيوب الطفيليين والسماسرة وأغنياء الحرب ، الى جيوب الطبقة المتوسطة الجديدة ، التي خرجت من ثورة ١٩١٩ بمكان لايستهان بها .

قل لي اذن : الى أي الناس تتدفق الأموال ؟، وعلى أي الناس تعرض المناصب ، ومن من الناس يكثر ذيوع أسمائهم وصورهم في الجرائد والاذاعة والتليفزيون ؟، أقل لك مقدار رقي الأمة أو انحطاطها ، ولاجرم ، فالعامة ـ وهم الأغلبية ـ تتطلع دائما الى الأمثلة الناجحة ، والنجاح ـ كما تتصوره عقولهم ـ يتركز في احراز المال والجاه والنفوذ ، فان وجدوه من نصيب المثقفين والفاضلين والأكفاء ، تطلعوا الى اكتساب الثقافة والفضل والكفاءة ، وان وجدوه من نصيب السفهاء والفاجرين والتافهين ، تشبهوا بهم أملا في اكتساب بعض المغانم .

يحكي أن ملكا من ملوك العجم كان معروفا بالذكاء وحسن السياسة ، وكان اذا أراد محاربة أحد الملوك بعث اليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته ، قبل أن يظهر محاربته . فكان يقول لعيونه : « انظروا الى الملك ، هل ترد عليه أخبار رعيته على حقائقها ؟ وانظروا الى الغني في أي صنف هو من رعيته . أفيمن اشتد أنفه وقل شرهه ؟ وانظروا الى القوام بأمره أممَّنْ نظر ليومه وغده ، أم ممن شغله يومه عن غده ؟ » فان قيل له ان الملك لايخدع عن أخباره ، والغني فيمن قل شرهه واشتد أنفه ، والقوام بأمره ممَّنْ نظر ليومه وغده ، قال : اشتغلوا عنه بغيره ، وان قيل له ضد ذلك قال : نار كامنة تنتظر موقدا ... اقصدوا له . »

نجاح الأمة اذن في ارتفاع عليتها ، مع ضمان ألا تعمل هذه العلية على تكوين طبقة فيما بينها ، بحيث يرث أبناؤها ما كان لآبائهم من أموال ونفوذ ومراكز دون أن تنطبق عليهم صفات آبائهم .■■

نحو قانون دولي متطور

بقلم الدكتور فرج الله فتحي

يدور جدل واسع حول مدى الزام قواعد القانون الدولي ، ومدى مسايرته للأوضاع الدولية المتغيرة ، ودور محكمة العدل الدولية في تطبيقه ، وقضية برشلونة تراكشن مثل حي على هذا القصور . .

برشلونة تراكشن « Barcelona Traction » ، شركة مركزها الرئيسي في كندا ولكن ليس لها في الواقع اي ارتباط بكندا فلا تضم اي مساهم يحمل الجنسية الكندية ، لا بل ان ٨٠٪ من المساهمين فيها يحملون الجنسية البلجيكية . وتملك شركة بلجيكية واحدة اسمها سيدرو « Sidro » ، ٧٥٪ من اسهمها .

برشلونة تراكشن هذه كانت تنفذ في اسبانيا اعمالا كبيرة الحجم . وكانت تملك بمفردها كل حافلات منطقة برشلونة وعددا كبيرا من المعامل الكهربائية فيها .

بعد الحرب العالمية الثانية تعرضت هذه الشركة لصعوبات في دفع بعض الديون المستحقة عليها بسبب عدم تمكنها من الحصول على العملة الصعبة من الحكومة الاسبانية . تقدم احد الدائنين بدعوى ضدها امام محكمة في منطقة روس احدى ضواحي برشلونة التي اصدرت حكمها بشهر افلاس الشركة في ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٨ . وقد بيعت كل اموال الشركة ، نتيجة حكم الافلاس الذي صدر ضدها ، بسعر منخفض للمجموعة الاسبانية خوان مارش .

كل هذه الاجراءات تمت دونما ان تبلغ البرشلونة تراكشن رسميا في مركزها الرئيسي بكندا .

□ الملاحظة الأولى : ان اسهم الشركة البلجيكية سيدرو ، التي تملك لوحدها ٧٥٪ من اسهم البرشلونة تراكشن ، كانت قد حولت الى شركة اميركية اسمها سيكوريتاس قبل حرب ١٩٣٩ لكي لا تتعرض الى الحجز خلال الاحتلال الألماني . . ولقد نجحت العملية لأن الالمان لم يحجزوا على الاسهم . وبعد شهر افلاس البرشلونة تراكشن وبالضبط في ٣ أيار (مايو) ١٩٤٨ اعادت سيكوريتاس الى سيدرو اسهمها والتي بحسب ما ادعت سيدرو ان هذه الاسهم كانت ، في الحقيقة ، دائما لها وانها لم تتخل عنها لسيكوريتاس الا لتجنيبها خطر الحجز .

هذه هي وقائع القضية بكثير من الاختصار وقبل ان نستعرض موقف محكمة العدل الدولية منها نجد من الضروري ان نبدي الملاحظتين التاليتين :

□ الملاحظة الثانية : ان بلجيكا ـ استنادا الى اتفاقية قديمة مع اسبانيا ـ يمكن ان تقاضي الاخيرة امام محكمة العدل الدولية بينما لم يكن هنالك اتفاقية مماثلة بين كندا واسبانيا . . . اذن فان اللجوء الى محكمة العدل الدولية ان كان ممكنا فهو معطى فقط الى بلجيكا ضد اسبانيا .

والمعلوم ان التقاضي امام محكمة العدل الدولية يمكن ان يتم في حالتين :

□ الحالة الأولى : اذا كان هنالك اتفاق بين الدولتين المتنازعتين على التقاضي امام المحكمة .

□ الحالة الثانية : اذا كان هنالك التزام مسبق وحيد الجانب من دولة ما بقبول الاحكام الصادرة عن المحكمة الزاميا .

وقد اثير موضوع التقاضي امام المحكمة منذ مدة في قضية رفعتها كل من نيوزيلندة واستراليا على فرنسا محتجة على التفجيرات الذرية التي تقوم بها .

وبينت فرنسا في ردها على الدعوى انها ان كانت قد قبلت بالزامية احكام محكمة العدل الدولية في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٥٩ فانها قد سجلت تحفظا في ٢٠ أيار (مايو) ١٩٦٦ تستثني فيه النزاعات المتعلقة بالدفاع الوطني .. وانها تستند الى هذا التحفظ من اجل رد الدعوى .

وكان من الطبيعي ان تبدأ بلجيكا بتحريك الموضوع .. ففي عام ١٩٥٨ تقدمت بدعوى الى محكمة العدل الدولية باسم البرشلونة تراكشن ضد اسبانيا ولكنها سحبتها في عام ١٩٦١ وعادت في عام ١٩٦٤ لتتقدم بدعوى جديدة ولكن هذه المرة باسم المساهمين البلجيكيين في الشركة لا باسم الشركة نفسها .

على هذه الدعوى الاخيرة ردت اسبانيا بأربعة اعتراضات :

١ ـ ان دعوى عام ١٩٦٤ هي نفس دعوى ١٩٥٨ وان اختلفتا في الشكل .

٢ ـ ان اسبانيا كانت ، في الاتفاقية المعقودة مع بلجيكا ، قد قبلت التقاضي امام محكمة العدل الدولية الدائمة التابعة لعصبة الامم وان هذا القبول لا يمتد الى محكمة العدل الدولية التابعة لهيئة الامم المتحدة .

٣ ـ ليس لبلجيكا الصفة باقامة الدعوى على اسبانيا على اعتبار ان الشركة كندية .

٤ ـ ان الشركة لم تستنفد طرق التداعي الداخلية ضد القرار الذي اصدره قاضي منطقة روس لكي تتمكن من عرض الموضوع على محكمة العدل الدولية .

رفضت المحكمة الاعتراضين الاول والثاني وقبلت الاعتراضين الثالث والرابع واصدرت قرارا لصالح اسبانيا باغلبية ١٥ صوتا ضد صوت واحد هو صوت القاضي الممثل لدولة بلجيكا « **Ad-hoc** » .

رأي الأغلبية

بعد دراسة الملفات تبين بانه ليس هنالك قاعدة دولية عامة يمكن تطبيقها على هذه القضية لذلك . وعلى اعتبار ان هناك فراغا قانونيا في هذا الموضوع ، يجب العودة الى القواعد العامة للقانون الداخلي المنظمة لامور الشركات المغفلة « **Anonymes** » .

من هذه القواعد العامة المتعلقة بالشركات المغفلة فان المحكمة تلفت النظر الى قاعدة تقول : « اي ضرر يصيب شركة ما فانه يصيب الشركة بصفتها شخصية اعتبارية لا المساهمين فيها كافراد وان كان مجموعهم يشكل الشركة » .

ونتيجة لهذا فانه ان كان من الطبيعي ألا يسر المساهمون في شركة ما اذا تعرضت الى مصيبة كبيرة فان حق الدفاع عن مصالح الشركة يعود ـ على الرغم من ذلك ـ للشركة نفسها بصفتها شخصا اعتباريا لا للافراد المساهمين فيها .

وقد تقدمت بلجيكا بعدد من الحجج لحماية المساهمين البلجيكيين :

الحجة الأولى : لابد وان يكون هنالك قاعدة عامة من قواعد حقوق الانسان في الملكية تسمح لبلجيكا بان تتدخل من اجل الدفاع عن ملكية مواطنيها .

هذه الحجة رفضت من قبل المحكمة . وقد برر الرفض بما يلي : « قد يكون هنالك قاعدة تسمح للدولة بالتدخل من اجل حماية مواطنيها ان تعرضوا لتمييز عنصري . ولكن بالنسبة للملكية ، ان وجد حق لحماية الملكية الاجنبية فانه يحصر في العلاقة بين الدولة المتعرضة للحق والدولة التي ينتمي اليها المالك .. وفي هذه الحالة ان مالك الشركة هو كندا التي هي لها الحق حصرا بتحريك الدعوى .

الحجة الثانية : ان كندا لم تحرك ساكنا لانه لا يمكن ان تتقدم بدعواها الى محكمة العدل الدولية على اعتبار انه لا توجد اتفاقية بينها وبين اسبانيا تسمح لها باتخاذ مثل هذه الخطوة .

وقد ردت المحكمة على هذا بان باب محكمة العدل الدولية ان كان مغلقا امام كندا فانها كانت تستطيع ان تلجأ الى طرق اخرى لمقاضاة اسبانيا .. وبكل الاحوال ان عدم تمكن كندا من اللجوء الى محكمة العدل الدولية لا يعطي لبلجيكا صفة مقاضاة اسبانيا .

الحجة الثالثة : ليس لكندا الحق بالتدخل لأن ليس لها اي ارتباط فعلي بالشركة .. وقد استندت بلجيكا في حجتها هذه على قرار كانت قد اصدرته محكمة العدل الدولية في قضية نوت بوم « **Notte Bohm** » .

في العهد الهتلري طلب بعد شهر واحد من اعلان الحرب من قبل المانيا واثناء وجوده في امارة ليشتنتاين

التجنس بجنسيتها وحصل على الجنسية بسرعة كبيرة . عاد الى غواتيمالا بعد ذلك مباشرة وظل فيها الى ان حجز على امواله وطرد منها عام ١٩٤٣ بسبب الحرب على اعتبار انه الماني الجنسية ، فعاد الى ليشتنتاين حيث طلب من حكومتها الاحتجاج على قرارات الحكومة الغواتيمالية .

تقدمت ليشتنتاين بدعوى الى محكمة العدل الدولية تطلب فيها اعتبار نوت بوم تابعا لامارة ليشتنتاين لانه يحمل جنسيتها كي تتمكن من الاحتجاج بهذه الجنسية تجاه غواتيمالا . لكن المحكمة لم تحكم لصالح الطلب المقدم من ليشتنتاين وقد بنت قرارها على المبررات التالية :

« ان سلطة الدولة في اعطاء الجنسية هي سلطة تقديرية . لذلك يحق لامارة ليشتنتاين ان تتجاوز الشروط المفروضة عادة من اجل الحصول على الجنسية ويعتبر من قرر لصالحه حق التجنس مواطنا له الحق في ان يحتج بجنسيته تجاه الدولة التي منحته اياها . وعلى هذا الاساس فان نوت بوم يظل حاملا لجنسية ليشتنتاين ويستطيع ان يحتج بهذه الجنسية تجاهها .

هذا هو الموقف الذي اتخذته محكمة العدل الدولية في قرارها الصادر في ٦ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ .

وقد بنت المحكمة بان مناقشة هذه الحجة من قبلها ليست واردة ، ذلك لأن اسبانيا وايضا بلجيكا قد افترضتا ، منذ بداية التقاضي ، امكانية تدخل كندا للدفاع عن الشركة ولو من الناحية النظرية .

الحجة الرابعة : اجل ... ان الشركة كندية الجنسية ولكن الرقابة عليها تتم من قبل البلجيكيين . وان موضوع الرقابة « **Controle** » ، هو المعيار الذي يجب الاستناد اليه من اجل تبرير تدخل دولة ما من اجل حماية مواطنيها المساهمين في شركة ما حتى وان كانت اجنبية .

وقد رفضت هذه الفكرة ايضا من قبل المحكمة على اعتبار انه لا يوجد قاعدة في مثل هذا الموضوع .

الحجة الخامسة : ان كان هنالك انتهاك لحق ما فانه يمكن لاكثر من طرف التدخل لحماية هذا الحق ... وقد استندت بلجيكا في هذا الى قضية الكونت برنادوت الذي اغتيل في فلسطين حيث اعطت محكمة العدل الدولية حق التدخل لصالحه الى كل من منظمة الامم المتحدة التي كان يعمل فيها ودولة السويد التي كان يحمل جنسيتها .

ولم تقبل هذه الحجة ايضا . وقد بررت المحكمة رفضها بالفكرة التالية : قد يكون في الشركة بعض المساهمين الذين لا يحملون الجنسية البلجيكية . وكيف يعالج الامر ان وجد شخص يحمل منها واحدا ؟ . فهل تستطيع دولته ان تتدخل لحماية مصالحه ؟

الآراء الشخصية

هذه هي الحجج التي قدمتها بلجيكا وهذا هو رأي اغلبية اعضاء المحكمة فيها . على انه الى جانب رأي الاغلبية برزت في هذه القضية عدة آراء شخصية جديرة بالاهتمام .

اما القاضيان جيسوب وجروس فقد اوضحا بان هنالك مبدأ يسمح للدولة بالدفاع عن ثروتها الوطنية بشكل عام ... وفي هذه القضية فان المساهمين في الشركة هم من البلجيكيين لذلك فان بلجيكا يجب ان يكون لها الصفة لحمايتهم لأنها من خلال ذلك تحمي ثروتها الوطنية ان قصر الذي من المفروض ان يحميها عن حمايته .

لماذا صوتا اذن الى جانب الاغلبية ؟!

لأنهما - كما بينا - يشكان في واقعة واحدة هي : هل شركة سيدرو - التي تملك ٧٥٪ من اسهم برشلونة تراكشن - هي في الحقيقة شركة بلجيكية ؟ .. ان المحامين الذين مثلوا بلجيكا لم يتمكنوا من اثبات ذلك بشكل مقنع وظلت هناك كثير من النقاط الغامضة في علاقة سيدرو بالشركة الاميركية سيكوربتاس .

ويذهب القاضي تاناكا في رأيه الشخصي اكثر من ذلك فيقول بان الدولة تستطيع دائما - في حالة وجود تعد - ان تمارس حمايتها على مواطنيها ان كانوا مساهمين في شركة اجنبية سواء أمارست الدولة التي تحمل الشركة جنسيتها هذا الحق أم لم تمارسه ؟

ولكنه هو الاخر صوت الى جانب الاغلبية لأنه يرى بان واقعة التعدي لم تحصل ، ذلك لأن بلجيكا لم تتمكن من اثبات وجود عملية تواطؤ بين قاضي منطقة روس ومجموعة خوان مارش .

وبعد .. لئن كان الحكم الذي اصدرته محكمة العدل الدولية في قضية برشلونة تراكشن هو لصالح اسبانيا ، فان الاراء الشخصية التي تبناها بعض القضاة تدل دلالة واضحة على ان القانون الدولي بشكله الوضعي الحالي لا يتماشى مع الظروف الجديدة .. ومن الجدير ان يكون الحكم في هذه القضية انطلاقة تحول نحو قانون دولي جديد متطور .. هذا ما يتمناه الجميع الا الذين كان قد صيغ القانون الدولي لتأمين مصالحهم . □□

غرباء في المولد

قصة : سعد مكاوي

- معذرة .. انا غريب عن هذه البلدة .. هل تستطيع ان تدلني على قهوة المحطة ؟

كان مجرد وجه في زحام المولد . ذلك الرجل الاشيب بسترته القديمة ومشيته البطيئة وهيئته المسترخية . فلما سألته التفت الي بنظرة عدائية عكرة ادهشتني ، وارتجفت يده وهو يصرخ في وجهي :

- تأكد انني اعرف هذه الحيلة المستهلكة !

- حيلة ؟ انما اسألك عن قهوة المحطة .

واجهني محتدما بالغضب كما لو كنت قد شتمته :

- ياناس !.. الا تتركون احدا في حاله ؟

- انه مجرد سؤال بسيط .

- بسيط ؟!

ودفع بقبضة يده في صدري :

- انا اعرف حيلكم هذه .. انا لم اعش عبثا .. انا شيخ مجرب .. تستوقفني .. تسألني وأجيبك .. تأخذ وتعطي في الكلام معي .. عملية تحريض على الاشتباك معك في علاقة لابد ان لك من ورائها هدفا ...

- الحل الوحيد اذن هو ان يذهب كل منا في حال سبيله .

- لابد انك درست عددا كبيرا من رواد المولد قبل ان تختارني .. هذا شيء واضح .. بعد دراسة لعدد من الناس قلت لنفسك : هذا هو الشخص الذي يلزمني .

- ياساتر !.. كل هذه الظنون لأن رجلا غريبا عن البلدة سألك عن الطريق ؟.. على كل حال . معذرة .. وعن اذنك .

قبض على ذراعي بقوة :

- أعرف توعك هذا وأعرف انك قلت لنفسك : هذا الرجل هو مطلبي . فان مظهره ناطق بأنه على ابواب الموت ..

كانت قسمات وجهه كلها ترتجف حتى ملئت نفسي مع الدهشة بالاشفاق عليه . فلعل هذا الشيخ الفاني يتوقع في كل لحظة ان يسقط ميتا . ولعل هذه هي الفكرة المتسلطة التي تجعل منه هذا المخبول .

قلت له مترفقا به ما استطعت :

- إن أنا الا عابر سبيل ألقى عليك سؤالا ربما قبل ان تجتني من امامك .



يده القابضة على ذراعي تهزني :

- فلماذا اخترتني أنا من دون الناس جميعا لهذا الاستجواب ؟

- مجرد مصادفة

ومض في عينيه بريق ما

- من انت ؟ ولماذا تستجوبني ؟

- انا لا استجوبك

- بل الحقيقة

- هذه هي الحقيقة ، هل تريد ان ابتسم لك ؟

- ولماذا تكلمني عن الموت ؟

- انت الذي بدأت بالكلام عنه

- أنا ؟

- قلت ان من ينظر اليك يرى انك على ابوابه

استرخت القبضة بعض الشيء :

- هذا صحيح .. انا قلت هذا .. مع اني انضح بالسعادة رغم اني أحيا وحيدا .. هل تريد ان اعترف لك بشيء ؟

- انت حر ، كما اني انا ايضا حر اذا سمحت لي .

- أليس من أجل هذا الغرض كلمتني ؟

- اي غرض ؟

- ألـم تقصدني دون غيري من أجل أن أدلي لك باعتراف ؟

- بالطبع لا

- اليـك اعترافي كاملا .. أنا في بعض الاحيان أحس برغبة عاتية في أن أصرخ ..

- تصرخ ؟

- نعم

- والسبب ؟

- بغير سبب .. لمجرد الصراخ .. فجأة أحس اني اريد في قلب هذا الزحام الـكثيف من الناس ان أصرخ .. ألا تحس أحيانا أنت الآخر انك تريد ان تصرخ ؟

- هل يريد هذا المولد الذي يحتويني أن أسقط في النهاية في مخالـب مخبول أو في دوامة الشراعة ؟ هل أقول أنا الآخر كما يقولون ، مدد ياساكن الضريح ؟ كيف أتخلص منه ؟

- أليس لك أهل تكلمهم ويكلمونك ؟

- ولا اصدقاء . الصداقة ماتت من عشرين سنة

- أليست لك زوجة ؟

تعكرت نظرته وهزتني قبضته :

- اخرس ياقليل الادب !

لم أجد مفرا من التلطف اليه بشيء من الملق :

- إنما أردت بسؤالي أن أعرف عنك المزيد مادمنا قد تكلمنا وتصادقنا .

شملني بنظرة مستريبة :

- ولماذا تريد أن تعرف عني أشياء أخرى ؟

- ألسنا الآن صديقين ؟

- ماذا تدبر لي وراء عظام جبهتك العريضة هذه ؟.. أنا لا أحب أصحاب الجباه العريضة ..

- لا شيء .. صدقني واسمح لي الآن أن أنصرف .

- تنصرف ؟

- أليس هذا من حقي ؟

- أليس من حقي أنا أيضا أن أتكلم ؟ أن أصرخ ؟

- لكن ، ألا يلتف الناس حولك متسائلين اذا صرخت فجأة ؟

- وماذا يقول هذا العالـم ؟.. هل يجهر بنفس السؤال الذي يدور الآن وراء جبهتك العريضة ؟.. لماذا يصرخ هذا الانسان ؟ هل هو مجنون ؟

- لا .. أبدا .. أنت سيد العقلاء .. واستأذنك الآن في أن أذهب فألقي صديقا ينتظرني .. الدكتور عبدالله طبيب المركز . هل تعرفه ؟

- تنصرف دون ان تستمع مني الى الاجابة عن سؤالك ؟

- أي سؤال ؟

- ما أخبثك .. ها أنت تتظاهر بأنك نسيت آخر سؤال في استجوابك اللئيم .. نعم ياسيدي .. كانت لي زوجة من عشرين سنة وكنت زوجا سعيدا هل أقولها لك مرة أخرى بصوت أعلى ؟

وأخذ يصرخ والناس تتلفت :

- اعلموا يامن لا تتركون أحدا في حاله أني كنت زوجا سعيدا .. سعيدا .. سعيدا ..

حاولت ان اهدئه لكنه استمر في الصراخ :

- أليس لي الحق في أن أصرخ معلنا أني كنت سعيدا مع زوجتي ؟ هل هذه جريمة ؟

- ياصديقي .. ما الداعي لكي تستثير بهذا الاعلان الحاد غيرة الآخرين منك ؟

- الآخرون ؟.. ان المصيبة دائما هي وجود الآخرين .

- لا مفر من هذا الوجود .

- هل تهتم بهم انت الى هذا الحد ؟

- لا مفر من هذا الاهتمام .

- اني أنا لا أعبأ بالآخرين .

- كما تريد .. كل ما يلزم هو أن تهدأ قليلا ..

- لماذا اهتم بهم والواحد منا يصرخ بينهم فيستمعون اليه ويضحكون .. ثم يغضبون من صراخه

فيخرسونه .. ولهم في ذلك ألف وسيلة .. حتى وأنت لا تتكلم بسوء عن أحد منهم .. حتى لو كان كلامك كله عن زوجتك الوفية ..

وعاد يصرخ والناس تتوقف :

- يا اولاد الـ .. زوجتي كانت أحسن الزوجات .. هل تسمعون ؟.. كانت أحسن الزوجات الى أن اختفت ذات يوم .. وسوف أعرف السبب في اختفائها يوم أجدها .. ولسوف أجدها .. هل تسمعون ياأولاد أل ...؟

لم ينصرف الناس عنا غير مجذوبة سيئة الرائحة دميمة الشيخوخة ، توقفت عندنا بشعرها القذر الهائش تحت عصابة رأسها الخضراء ، وعلى بطنها الهائلة تتأرجح عقود من المسابح ، وصرخت في وجهه :

- تأدب يارجل .. انت في رحاب مولانا الشرملصي .. ألم تسمع المنشد وهو يتغنى منذ قليل بساكن الضريح الذي كان يأتي بفاكهة الصيف في الشتاء ، وبفاكهة الشتاء في الصيف ؟..

تأدب واطلب المدد .

التفت اليها ولمع في عينيه بريق عجيب وهو يطيل التحديق في وجهها :

- اني دائم البحث عنها في كل مكان .

- أسمعت عن كرامات الشرملصي أم لم تسمع ؟

- ولسوف أجدها رغم كل هذا الزحام المخيف .

- صاحب الليلة كانت تتكسر له قوانين الوجود .. يستطيع ان يرد الغائب .. ان يعيد اليك زوجتك الهاربة ..

- الغالية الطاهرة .

- بدلا من ان تضيع وقتك مع هذا الرجل الذي تكلمه ، هلا قصدت اعتابه وتمسحت باستاره ؟

اردت ان انتهز فرصة اشتباكها وانفلت لكنه استوقفني باشارة صارمة :

- انتظر يا صاحبي !

- اذهب فافعل ما نصحتك به الشيخة واطلق اسري يرحمك الله .

صار وجهه المتهلل ناطقا بفرحة خارقة :

- لقد كتبت لك ان تشهد معجزة .. انها هي !.. هي !..

زوجتي امينة !.. أمامك أيها الاحمق .. هذه هي !.. تعالي يا أمينة .. تعالي نعود الى بيتنا ، حيث لا نسمع لغوا ..

ومد يده الى ذراع المجذوبة الشوهاء ، وهو يناجيها :

- تعالي يا امينة الى حيث ينعدم الآخرون !.. اين كنت طوال هذا الدهر يا امينتي ؟.. اني منذ تركتني لا أفعل شيئا غير الدوران حول نفسي في بيتنا وأنا احدث الجدران عن جمالك واخلاصك وحبك ..

صدر عن انف المجذوبة صوت كريه :

- عوضني يارب عوض الصابرين !

قبض على ذراعها وهو يهتف :

- مدد .. مدد ياشرملصي .. لسوف أوقد لك شموعا واقدم على عتباتك نذورا ..

والتفت نحوي وفي نظرته فرحة جنونية :

- وانت ياصاحبي ما قولك في هذه المعجزة ؟

غمزتني العجوز بركن عينها المجردة من الاهداب :

- خذه الى بيته قبل ان يتلقفه المخبرون .

- لا أعرف بيته .

- ألست صاحبه ؟

- لا أعرفه .. الصدفة السيئة وحدها هي التي القت به في طريقي .

تلسطفت المجذوبة الى الرجل وهي تهرش ما تحت ابطها :

- اين بيتك هذا الذي تصغي اليك فيه الجدران ؟

- بيتنا ياامينة .. هل نسيت فردوس العشق والاخلاص ؟

مرة اخرى صدر ذلك الصوت الكريه من انفها :

- انا شفاعات يامهبول .. شفاعات محسوبة الشرملصي .

- تعالي الى جنة الوفاء .. حيث كنت افرش الحب تحت قدميك وبين ذراعيك .. حيث كان الجيران يحسدونني على طهرك واخلاصك .. حيث لم يكن في الدنيا رجل غيري .. هل نسيت ايامنا ولياليها ؟

دفعت بقبضتها في صدره :

- اسمع يامهبول .. اذا لم تكن تعرف مكانا تأوي اليه تعال لتقضي بقية ليلتك معي في السرادق الكبير .

تلمس باصابعه المرتجفة اطراف احدى المسابح الكبيرة المدلاة على صدرها الهابط :

- ما هذا الذي فعلته بك الدنيا ؟.. كيف انتهى بك الحال الى ان صرت مجذوبة في الموالد ؟.. لكن لا عليك مما حدث .. لابد انك كنت معذورة .. امامنا بقية العمر كلها يا امينتي الطاهرة ..

- أفق يارجل .. أفق .. لست امينة .. انا شفاعات .

- هيا بنا الى الجنة .

- أولى بك ان تدخل الضريح وتخشع عند المقام وتنفث نفسك في بكوة ترجحك . فما انت اول ولا آخر رجل خانته امرأة .

قبل ان يرد غمرتنا برائحتها وضجيجها وغبارها دفقة بالدفوف من اتباع طريقة وافدة ، وخلال عبورها الزائط سنحت لي الفرصة التي كنت انتظرها ، فانحشرت في موجتها متواريا عن الاشيب وحلمه الاخرق .

وانتقيت من الزحام وجها مريحا :

- من أين أسلك الى قهوة المحطة ؟

لكن الكثافة عصرتني برائحتها الزخمة ، وطوت ارادتي وهي توجهني الى حيث تشاء ، واعادتني الجموع المتدافعة الى الضجر والاعياء ، الى الدوران حول المحور ، الى الاحساس الغامر بالملالة والاغتراب .

في المقهى آخر الامر وجدت الدكتور عبدالله يتأهب للانصراف يأسا من ظهوري ، فاعتذرت له بحكاية الرجل المسكين الذي اغتصب من وقتي ساعة .

- تصور ان يتجسد حلم حياته المتسلط بهذه السهولة المذهلة في شخص مجذوبة ساقتها الصدفة .

ضحك صديقي وهو يستطعم الحكاية :

- المهم هو ان ظهورها انقذك من خطره .

- وأوقعها هي في قبضته .

- مثل هذا المخبول قادر على ان يرغمها على اصطحابه الى بيته .

ولم نكن قد فرغنا من شرب أكواب القرفة عندما توضحت ضجة غير بعيد . فقصد بعض الزبائن مع صبي المقهى مكانها ثم عادوا يلغطون بعد ان استطلعوا أمرها .. جريمة قتل وراء السرادق الكبير على شط الترعة .. رجل خنق امرأة .. شيء شنيع .. في مثل هذه الليلة المباركة .. لا يمكن ان يكون الامر كذلك . فقد تمكنت رغم التزاحم من القاء نظرة على الجثة .. انها عجوز فانية .. ولم يلبث ان ظهر في مدخل المقهى مجذوب يلطم وجهه وهو يتواثب :

- الشيخة شفاعات .. خنقها الكافر بلا رحمة .. ملقاة على الارض جاحظة العينين ولسانها خارج فمها ..

قلت لصديقي وأنا أدس ثمن القرفة والبقشيش في يد صبي المقهى :

- هيا بنا يادكتور .. لنذهب الى موقع الجريمة .

- هل عندك الشجاعة على ان تحضر تشريح الجثة ؟

- لا ، ولا اجد متعة في مشاهدة لسان مدلى خارج الفم او ضابط شرطة التقط الفرصة ليشخط وينطر في الناس . ولكني أعرف القاتل وأتمنى أن أرى وجهه في هذه الساعة .

- صاحبك المخبول الذي كاد يفسد علينا لقاءنا .. تتصور اذن ان تكون مقاومة العجوز لاسم امينة باسم شفاعات ، اي مقاومة الوهم باسم الحقيقة ، هي التي جعلته يطبق باصابعه على عنقها حتى الموت ؟

قبل ان نتحرك ظهر من ركن الشارع تجمع لاغط يسعى في اتجاه مركز الشرطة ويتقدمه ضابط شاب متعاظم وبين يديه جنود ومخبرون يدفع بعضهم الناس ويسوق بعضهم الآخر الرجل الاشيب في غير هوادة ، فانبرى المجذوب لاستقبال المسيرة وهو يحاول الهجوم على القاتل المستسلم :

- ياكافر يابن الكافر .. شنقك لا يكفي .. ان المشنقة قليلة على قاتل الكرامات ياشفاعات .

واعتلى صبي المقهى أحد الكراسي وصاح :

- اسلخه حيا ياحضرة الضابط .. اسلخه حيا ..

لوحت للاشيب بيدي فلمحني ولوح لي هو الآخر بيده المحكومة بالقيد الحديدي ، وجهد ان يعلو صوته على عجيج الموكب الصخاب :

- بارك لي ياصاحبي .. بارك لي .. لقد وجدت امينتي وجدتها .. وها نحن معا والى الابد نزف الى الجنة ■■

سعد مكاوي

الوقواق
نموذج مثير للإنتهازية والاستعمار

بقلم الدكتور : عبد المحسن صالح

لو أن أحدا أراد أن يؤلف قصة عن الانتهازية ، او التنشئة الطفيلية ، او استغلال الغير لتربية اطفاله بطريقة لا تطرأ على عقل بشر ، فلا مناص من الالمام بعناصر الموضوع من « ارشيف » حياة العائلة الوقواقية ، نسبة الى طائر « الوقواق » أشهر أنواع هذه العائلة على الاطلاق !

فأحداث القصة التي سنقدمها بعد قليل ، تنطوي على عناصر من الضلال والتضليل ، وتتطلب كثيرا من المكر والخديعة والذكاء ، ورغم ان الذكاء - وما يتصل به من سلوك فيه تخطيط ودهاء - موهبة حازها الانسان دون سائر المخلوقات ، رغم ذلك ، فان لطائر الوقواق - وبعض الانواع الأخرى التي تتبع العائلة - سلوكا بين الطيور أنكى وأضل من سلوك عصابات « المافيا » بين البشر !

الحياة الأسرية معدومة

دعنا اذن نختار نوعا واحدا من الأنواع الكثيرة التي تضمها العائلة الوقواقية ، وليكن هذا النوع ممثلا في الوقواق ، ولنقدمه هنا مدعما بالصور حتى لا يقال ان قصته الغريبة تنطوي على شيء من الخيال .

لكن قبل ان نقدم الوقواق ، كان لزاما علينا ان نتعرف اولا على العائلة الوقواقية التي تضم ١٢٧ نوعا ، تختلف في الشكل والحجم واللون والسلوك ، وهي ايضا موزعة على قارات العالم المختلفة ،فمنها مثلا الوقاويق الافريقية والامريكية والأسيوية ..الخ ، ومع ذلك فمعظمها يهاجر من دولة الى اخرى ، او من قارة الى قارة ، في رحلات يقطع فيها مئات وآلاف الأميال ، ومن هذه الأنواع يوجد ٤٧ نوعا لا تعيش في حياة أسرية كالتي تعرفها مع الطيور ، اي بناء العش ، ووضع البيض ، وحضانته حتى فقسه ، ثم رعاية الأفراخ وتغذيتها ، حتى تطير وتعتمد على نفسها .

وطبيعي ان لأنثى طائر الوقواق - كما لاناث الأنواع الاخرى التي على شاكلتها - ذرية ، لكنها - قبل التلقيح والاخصاب - لا تبني لها عشا ، بل توزع بيضها على اعشاش الطيور الأخرى ، وتتركها فيها لقدرها ، وكأنما هي تعيد في أذهاننا صورة اللقطاء من البشر ، فأمهاتهم تتركهم تحت رحمة الأقدار ، أو لمن هم أقدر وتربيتهم ، مع الفرق طبعا بين دوافع مجتمعات الطير والبشر ، او سلوك هؤلاء وهؤلاء !

يعني هذا ان اناث الوقاويق وذكورها ، لا تعرف عن مصير أفراخها شيئا ، ولا كذلك شكلها وحجمها وسلوكها ولونها ...الخ ، لكن كل هذا قد لا يهمها بقدر ما يهمها ان تتخير لبيضها العش المناسب ، للنوع المناسب ، وفي الوقت المناسب ، فاذا أخطأت في اي بند من هذه البنود ، لحق الهلاك بأفراخها .

خداع مضبوط من البداية

فالعش المختار أو المناسب يجب ان يكون لنوع من الأنواع التي تضع بيضا يشبه بيض الوقاويق في الحجم واللون ، أي ان التزييف هنا يبلغ منتهاه ، ولدرجة ان العين البشرية قد لا تستطيع التمييز بين بيض الوقواق ، وبيض الطائر المخدوع ، ولقد قدم لنا العالم الألماني الطبيعي « وولفانج فيكلر » من قسم فسيولوجيا السلوك الحيواني بمعهد ماكس بلانك بألمانيا صورا لبيض انواع الوقاويق المخادعة ، وبيض الطيور المخدوعة او المجني عليها ، ولقد اخترنا بعضها هنا لنعرضها عليك ، ففيها ما يغني عن اي شرح او كلام

وبمجرد ان يفقس طائر الوقواق من بيضته ، يرتكز بظهره على بيض الطائر الآخر ، وهو هنا يزحزح واحدة و حافة العش .





تلتقط أنثى الوقواق بيضة من عش الطائر المحتى عليه ، فتحطها لتأكلها ، اولتلقيها ارضا .



وأخيرا ينجح في رفعها الى الحافة ، حيث يعطيها دفعة أخيرة لتسقط الى الارض قبل ان تفقس ، ويموت الفرخ الذي بداخلها ، وعندئذ يعود الى البيضة الاخيرة لتلقى نفس المصير .



ثم تضع بيضتها الوحيدة بين البيضات الباقية ، فيصير عددها مضبوطا (هذه الصورة والصور التالية بعدسة الفنان الطبيعي بول ترونشيل) .



يبلغ التمويه او الخداع منتهاه عندما يتشابه بيض الطائر المخادع (الى اليسار) وبيض الطائر المخدوع (الى اليمين) والصورة توضح ذلك تماما ، وهي لانواع من طيور العائلة الوقواقية مع انواع اخرى من الطيور المخدوعة . وعادة مايكون بيض الوقاويق اكبر من بيض الطيور المحتضنة عليها ، او قد يقاربه حجما ولونا !

فرخ الوقواق وأمامه أمه غير الشرعية ، وقد أحضرت له حشرة تهواها . ففتح منقاره ليتلقى غذاءه لاحظ حجم الفرخ بالنسبة للعش وبالنسبة للطائر البالغ المحتضن عليه !



يمكن ان يقال في مثل هذا المجال ، ومع ان بيضة هذا قد تختلف قليلا في الحجم ، ونادرا في اللون عن ذاك ، الا ان الطير المجني عليه لا يفطن لذلك ، فليست الطيور من اهل الفطن على أية حال !

الذين راقبوا هذه الطيور في الطبيعة ، لاحظوا ان اناث الوقواق ترقب الطيور الأخرى التي تبني أعشاشها ، وتتعرف على النوع الذي يضع بيضا شبيه اللون ببيضها ، ونحن لا نعرف كيف تعرف .. لكن معرفتها قد يسميها البعض وحيا او الهاما او غريزة ، وهي الفاظ بديلة لجهلنا بما كان ويكون من مبهمات الامور ، وعندما يتوصل الانسان لحل هذه المبهمات او الأسرار ، تتجلى له فيها نظم مذهلة ، تشهد بحق ان كل شيء يخضع لبروجرامات معقدة ، وتخطيطات مقدرة ، فاذا أخل الكائن الحي بشروطها ، فقد يؤدي ذلك الى كارثة في حياة الفرد خاصة ، والنوع عامة ، وهذا ما لم يحدث ، بدليل ان هذه الانواع لازالت مستمرة في حياتها وصمودها قبل ان يظهر الانسان على هذا الكوكب بملايين السنين !

وتوقيت مضبوط !

ان اختيار العش المناسب ، ذي البيض المناسب ، لا يقل اهمية عن اختيار الوقت المناسب ايضا ، اذ على انثى الوقواق ان تعرف الجدول الزمني لوضع بيض الطيور الأخرى ، والفترة اللازمة لفقسه ، وبحيث يتوافق زمن فقس بيض الوقواق قبل فقس البيض الآخر بيوم او بعدة ساعات ، أو أحيانا معه ، لأن التأخير قد يصبح في غير صالحه ، لأسباب ستوردها فيما بعد .

ولا شك ان مهمة انثى الوقواق مع جدولها الزمني صعبة ومعقدة ، لأنها تنتج ما بين ١٠ - ٢٠ بيضة مخصبة في الموسم الواحد ، وتضع بيضة واحدة كل يومين ، ولهذا تستمر عملية الوضع ما بين ثلاثة وستة اسابيع ، وعليها ان تقدر لكل بيضة زمنها وتاريخها لتفقس قبيل بيض الطيور المجني عليها، ولقد دبرت كل هذه الأمور تدبيرا حسنا، وكأنما هي قد دربت عليها تدريبا متقنا ، رغم انها قد تكون التجربة الأولى في حياتها ، ومع ذلك فهي تمارسها وكأنما هي موجهة اليها توجيها يغم فهمه على العقول المدركة !

المهم ان انثى الوقواق عندما تتوجه الى العش المضبوط ، في التوقيت المضبوط ، لتضع فيه بيضة واحدة ، كان لابد ان تقوم بتمثيلية لتخيف صاحبي العش ، فتبعدها الى حين ، حتى تؤدي مهمتها ، ولقد زودتها الحياة بمؤهلات جسدية تساعدها على ذلك ، فهي اكبر منها حجما، وشكلها يشبه شكل الصقور الصغيرة، ومناورتها حول صاحبي العش المنكوب توحي بأنها تبغي بهما شرا ، ولهذا يهربان الى حين ، فتضع بيضتها بين بيضهما ، ثم لابد ان تحبك خيوط التمثيلية ، حتى لا يفطن صاحبا العش الى وجود بيضة زائدة ، فتعمد الجانية الى التقاط بيضة من بيض الطائر المجني عليه فتلقيها ارضا ، أو قد تأكلها ، ثم تنطلق الى حال سبيلها ، لتدبر أمورها لوضع البيضة التالية، وعندما يعود الطير الطريد الى عشه ، يجد كل شيء على ما يرام ، فالعدد مضبوط ، والشكل واللون مطابق للمواصفات ، ولهذا يرعى البيضة الغريبة ، وكأنما هي قد خرجت من صلبه !

الفرخ السفاح

لقد أتت أنثى الوقواق شيئا نكرا ، لكن فعلتها قد تهون اذا ما قورنت بفعلة فرخها الذي ما ان يخرج من بيضته اعمى عريانا ، حتى يقوم بعملية ابادة جماعية مع اصحاب الوطن او العش الأصليين ، وهو سلوك بشع ووحشي ، ولم يسبقه في ذلك أي طفل آخر من اطفال العالمين .. لا في طير ولا حيوان ولا انسان ، يستثنى من ذلك افراخ انواع الوقاويق الأخرى .

وبدون الدخول في التفاصيل ، يقوم الطفل الأعمى العريان بتفتيش العش الذي رعاه وآواه ، فان وجد فيه بيضا ، فانه يتخذ من كل بيضة وضعا خاصا ، وكأنما هو قد درب عليه من قبل ، ويحاول زحزحتها بذيله ، الى ان تتدحرج وترتكز في تجويف على ظهره ، وكأنما الطبيعة قد زودته بهذا التصميم ، لتيسر له فعل السوء ، ولا يزال الفرخ السفاح يبذل جهودا مستميتة اثناء غيبة الوالدين الأصليين للبحث له عن طعام ، حتى ينجح في القاء البيضة خارج العش ، ثم يكرر نفس العمل مع ثانية وثالثة ..الخ ، الى ان يخلو له الجو ، فلا يظهر في العش فرخ آخر سواه .

او قد يخرج فرخ الوقواق الى الحياة ، فيجد الافراخ الاخرى غير الشقيقة قد سبقته في الفقس ، وهنا تكون مهمته في التخلص منها أشد وأنكى .. صحيح انه أعند منها قوة ، وأكبر حجما ، لكن الخلاص من البيض أيسر بكثير من الخلاص من الأفراخ التي قد تقاوم وتستميت ، وقد ينجح في التخلص من بعضها ، وقد يفشل ، ومن أجل هذا تحرص انثى الوقواق على ان يكون توقيت خروج فرخها محددا باليوم ، وربما بالساعة ، حتى يكون التعامل مع البيض أهون ، والابادة اضمن !

أسئلة حائرة

بعد ان قدمنا هذه الصورة البشعة من صور الحياة ، فان بعض عناصرها لازالت غامضة على الأفهام ، ولابد ان تجول بالذهن اسئلة حائرة ، اولها : لماذا لا تبني انثى الوقواق عشها ، لتضع فيه بيضها ، لتكون لها ذريتها ، وتمارس امومتها ، كما هو الحال في الكائنات الأخرى ؟

لو أنها فعلت ، لكان الهلاك من نصيب افراخها ، إذ أنها قد تعيد الى الأذهان قصة هابيل وقابيل ، لأن كل فرخ يخرج الى الحياة ، انما يخرج بغريزة موجهة لابادة غيره ، وهو في ذلك لا يستطيع ان يميز بين اشقائه ، او بين الأفراخ الأخرى غير الشقيقة ، وكأنما الأم تعرف ايضا ذلك ، لأنها مارست عملية الابادة الجماعية عندما كانت ضيفة في عش طائر آخر ، وبهذه « المعرفة » او الغريزة المسجلة ، لا تضع في اي عش الا بيضة واحدة ، لأنها لو وضعت بيضتين ، فلابد ان يقضي احد الفرخين على شقيقه ، ويصبح حالها كحال الأخوة الأعداء !

وسؤالنا الثاني : ولماذا لا يعيش فرخ الوقواق مع الأفراخ الأخرى ، فلا يجز والديها اللذين ربياه جزاء سنمار ، او لا يقطع اليد التي امتدت اليه بالاحسان ؟

الواقع ان فرخ الوقواق نهم للطعام نهما شديدا ، لدرجة انه يستطيع ان يستهلك منه في اليوم الواحد حوالي ثلث او نصف وزنه ، ويعني هذا انه لا يشبع أبدا ، وقد تأتي الطيور الاخرى لتطعم هذا الجوعان دوما ، علّه يكف عن « الصوصوة » وعن ارهاق والديه غير الشرعيين ، ولهذا ينمو الوقواق نموا سريعا ، ويصبح أكبر حجما من والديه بالتبني ، وأكبر كذلك من العش الذي أواه ، ولهذا يهجره ، ويعيش على حافته ، ويبدو ان الطير المخدوع يسعد بذلك، خاصة عندما يرى فرخا بهذه القوة والحيوية والنمو السريع ، ولهذا لا يدخر جهدا في امداده بالمزيد ، وقد يكون للطير الأصلي في العش فرخ من صلبه ، لكنه لا يهتم به كثيرا مثلما يهتم بفرخ الوقواق الذي يملك من سعة الحيلة والمناورة ، بحيث يحجب كل طعام قادم عن اترابه ، ويحظى به وحده ، فيأكل هو وينمو ويسمن ، وغيره يجوع ويهزل ويموت ، ولهذا فما أبشع صورة الاستعمار والانتهازية والخداع ، وكأنما المستعمر هنا يحصل على كل الخيرات ، وأصحاب العش او الوطن لا يحصلون حتى على الفتات !

توازن له مغزاه

وسؤال أخير : ولماذا اذن هذا التخطيط البشع من البداية ؟.. وهل من وراء ذلك حكمة خافية ؟

نعم .. فما قد نراه نحن بنظرتنا السطحية القاصرة قسوة ، قد ينطوي على رحمة ، او ان ما نراه شرا ، قد يكون خيرا ، ربما مصداقا لما عبرت عنه الآية الكريمة « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » !

صحيح ان أول ما يطرأ على الذهن ان انواع الطيور المجني عليها لا شك مظلومة ، لأن حكم الاعدام قد سبق عليها بالجملة ، والذي ينفذ الحكم هي اناث وافراخ الوقاويق ، وهذا يعني القضاء عليها وانقراضها ، طال الزمن او قصر !

لكن الحقيقة غير ذلك على الاطلاق ، اذ ان الجناة والمجني عليهم لا يزالون يعيشون كما عاشوا قبل ذلك بملايين السنين ، ومع ذلك فلو ترك الأمر للأنواع المجني عليها لتتكاثر دون ضابط او رابط ، لأدى ذلك الى انفجار سكاني رهيب ، وعندئذ قد لا تجد ما تأكله ، وبهذا تحدث بينها مجاعات رهيبة ، والمجاعات قد تؤدي الى اوبئة ، والأوبئة تبيدها بالآلاف والملايين ، فكأنما النوع هنا سيصبح ظالما لنفسه ، وجانيا على ذريته ، ومخلا بأحد قوانين الحياة التي تبغي التوازن بين الآكل والمأكول ، او العرض والطلب ، او الانتاج والاستهلاك .. الى آخر هذه الأمور التي نعرفها في حياتنا حق المعرفة ، والتي تتمثل لنا في ظاهرة الانفجار السكاني ، ونحاول ان نجد لها حلولا عن طريق حبوب منع الحمل ، او التعقيم ، او الارشاد والنصيحة ، لكن هذه المحاولات لم تتمخض عن نتيجة تذكر .

ويبدو اننا قد خرجنا من موضوع الى موضوع ، وما ذلك بخروج ، لان أفراخ الوقاويق خاصة ، واناثها عامة ، بمثابة صمام الأمان ، لتحد من ظاهرة انفجار السكان ، خاصة وان الطيور المجني عليها تتكاثر بسرعة رهيبة ، فكأنما الوقاويق قد جاءت لتكون كالمبارد التي تبرد ما يزيد عن الحاجة ، فتتسلط على نسبة معينة من اعشاش الطيور ، فتبيد افراخها ، ويأتي بدلا منها نسبة محددة من الوقاويق ، لتؤدي مهمتها ، وكما رسمت لها الحياة طريقها .. وكلما زادت العشوش ، زادت المبارد الحية (أي الوقاويق) وكلما نقصت هذه ، نقصت تلك ، وبحيث تبدو الصورة الحقيقية امام الدارسين المتعمقين صورة مثالية تخضع لمبادىء الانضباط بين الأنواع ، والتوازن بين الافراد ، والتناسق بين الانتاج والاستهلاك ؛ وكأنما هذه الصورة ينطبق عليها المعنى الذي ورد في القرآن الكريم « والارض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » ■■

الاسكندرية ـ د . عبد المحسن صالح

عشرون عاماً في عمر

تلفزيون

استطلاع : منير نصيف





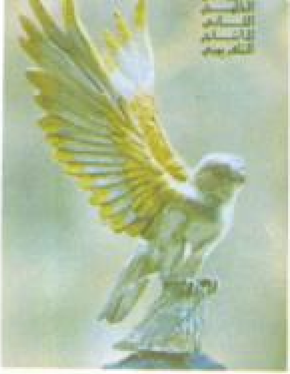
محمد السنعوسي وكيل وزارة الاعلام المساعد لشئون التلفزيون - كان اول مخرج كويتي في تلفزيون الكويت منذ عشرين عاما .

قاعة المراقبة الرئيسية بمبنى التلفزيون الجديد بمجمع الاعلام . انها تحوي احدث ما توصل اليه العلم من اجهزة ومعدات . (الى اليسار)

الصقر . ذلك الطائر الذي كان له دور في حياة اهل الكويت في صيد الحبارى . اختير ليكون شعارا للمهرجان الثاني لتلفزيون الخليج .

الكويت

تصوير : اوسكار متري





يحتفل تلفزيون الكويت هذا الشهر بعيد ميلاده العشرين . ولكنه سيكون احتفالا غير عادي . فهو يأتي مع احتفال الشعب الكويتي بعيده الوطني .. هل هي الصدفة ، تلك التي جمعت بين العيد الصغير .. عيد ميلاد التلفزيون ، والعيد الكبير ، ذكرى استقلال الكويت في شهر واحد ؟

تاريخ تلفزيون الكويت يقول غير هذا . فقد واكبت الناشئة الصغيرة النهضة الثقافية والحضارية والعمرانية في الكويت منذ اعلان استقلالها دولة ذات سيادة .. في شهر فبراير (شباط) عام ١٩٦١ بدأ تلفزيون الكويت يقدم وجه الكويت الجديد .. وفي اليوم الخامس والعشرين من نفس الشهر احتفلت الكويت باستقلالها وعيد جلوس أميرها .

حديثنا في هذا المكان عن السنوات العشرين من عمر تلفزيون الكويت . وماذا صنعت به ، وماذا صنع الجهاز الصغير معها ؟ ولكن قبل ان نمضي في هذا الحديث ، نتوقف برهة تتأمل هذه الاستعدادات الكبيرة التي انتهت لتوها من أجل استضافة مهرجان الخليج الثاني للانتاج التلفزيوني .. عنوان فقط لتفاصيل لم نكن نعرف عنها أكثر مما نشرته الصحف الكويتية في سطور .

ومع محمد السنعوسي وكيل وزارة الاعلام المساعد لشئون التلفزيون ، ورئيس المهرجان ، جلسنا نستمع الى قصة المهرجان ، ونرى معه الصورة التي ستنقلها محطات التلفزيون في كل دول الخليج ..

عيد وعيد

قال الرجل الذي عاصر التلفزيون الكويتي منذ مولده ، فكان فيه اول مخرج ، واول موظف من الرواد الاوائل الذين رافقوه في رحلته عبر السنوات العشرين من عمره .. قال محمد السنعوسي : « هذا المهرجان ، واقصد به مهرجان الخليج للانتاج التلفزيوني الذي سيعقد في الفترة ما بين ١٧ و ٢٣ فبراير الجاري ، يأتي في نفس الوقت الذي نحتفل فيه بالذكرى العشرين لانشاء تلفزيون الكويت ، وايضا في نفس الوقت الذي ينعقد فيه مؤتمر وزراء اعلام الدول العربية الخليجية في الكويت ايضا .. هذه المناسبات الاعلامية الهامة ، هي في واقع الحال تشكل الاطار العام للاحتفالات بعيد الكويت الوطني يوم ٢٥ فبراير ..

« انني اعتقد ان مهرجان الخليج للانتاج التلفزيوني هو بمثابة مظاهرة اعلامية هادفة تتمثل فيها ثمرات الفكر والخبرات الفنية والانجازات التقنية التي تحققت في ميدان الانتاج التلفزيوني الخليجي بصفة خاصة والعربي بصفة عامة . ثم هو بعد ذلك - اي المهرجان - سيكون ملتقى للمعنيين بهذا القطاع الاعلامي والحضاري لتبادل الرأي والخبرة والتجربة وتوثيق الصلات والروابط بين العاملين في مجال الانتاج التلفزيوني على النطاق الخليجي والعربي ، فسوف تتاح لهم فرصة عرض انتاجهم من البرامج المختلفة وتقييم خصائصه المهنية والابداعية من الناحيتين الفنية والتقنية .

سيكون الشعار الذي سيرفعه المهرجان هو : « نحو انتاج تلفزيوني خليجي وعربي أفضل » وسوف يستمر انعقاده مرة كل عامين ، وستكون الكويت مقرا دائما له .. ويستهدف تحقيق اهداف عدة في مقدمتها كما حددها الاستاذ السنعوسي ، العمل على رفع مستوى الانتاج التلفزيوني بما يحقق له المكانة العربية والعالمية ، وتطوير الاساليب التلفزيونية في التعبير الفني والأداء التقني ورفع مستواه بتنمية روح التنافس وتشجيع المواهب المبدعة وتأصيل العطاء الذي يستلهم التراث ويستمد مادته من البيئة والواقع الاجتماعي والحضاري . بالاعتماد على الطاقات والمهارات المحلية وتنميتها وتعميق الطموحات الاعلامية المشتركة على مستوى الوطن العربي ، وكذلك تنظيم اللقاءات الفنية والفكرية بين القيادات الاعلامية لتبادل الآراء حول اساليب الانتاج التلفزيوني ومواضيعه وخطط المستقبل لتنمية التعاون



الشيخ صباح الاحمد يتحدث الى رضا الفيلي في لقاء أجراه معه للتلفزيون الكويتي منذ أكثر من خمسة عشر عاما عندما كان الشيخ صباح وزيرا للارشاد والانباء .

فيما بينها وتشجيع الانتاج المشترك بين المؤسسات التلفزيونية العربية .

« وهناك اهداف اخرى كثيرة تدخل تحت هذا الشعار الذي يرفعه المهرجان الذي استعدت له الكويت . من بينها تنمية روح النقد البناء والتقييم العلمي السليم ، الأمر الذي يسهم بصورة ايجابية في تحديد خصائص الانتاج المبدع ، وكذلك تنمية عملية تبادل البرامج بين الاطراف الخليجية وبقية اقطار الامة العربية بصفة عامة ، ثم ايجاد فرصة كافية للاطلاع على التجارب الدولية من الناحيتين الفنية والتقنية فلا شك ان هذه التجارب سوف تنعكس أثارها على التطبيق العلمي للبرامج المعدة للعرض وعلى تقييمها موضوعيا .. كذلك سوف يسهم المهرجان في التعريف بالانتاج التلفزيوني الخليجي ويتيح الفرصة لتقديم العاملين فيه وتوثيق الروابط بينهم وبين بقية العاملين في حقل الاعلام والانتاج التلفزيوني بصفة خاصة في سائر اقطار العالم العربي ، وما يرافق ذلك من تيسير لفرص الحوار المثمر بينهم » .

مظاهرة اعلامية

ويختتم وكيل وزارة الاعلام لشئون التلفزيون حديثه عن المهرجان بحديث آخر ايضا عن المهرجان ! يقول : « هناك تفاصيل أخرى كثيرة عن مهرجان التلفزيون ، والحديث عنها طويل ، ولكن الا ترون معي انها ظاهرة اعلامية فنية قومية تستحق التسجيل . كل المهتمين بشئون التلفزيون وأنا واحد منهم - طبعا - سعداء بهذه المظاهرة ، لأنها اولا تأتي قبل ايام قليلة من احتفال الكويت وبقية اشقائها العرب ، بالعيد الوطني الكويتي ، ولأنها ثانيا خطوة هامة في الاتجاه الصحيح نحو الشعار الذي سيرفعه المهرجان هذه المرة وفي كل مرة يعقد فيها في نفس الموعد في نفس المكان كل عامين : « نحو انتاج تلفزيوني افضل .. في الخليج العربي .. وفي بقية العالم العربي » .

ثم ماذا في المهرجان ؟

فيلسوف فلاسفة العرب ، ابن سينا : المسلسل التلفزيوني الجديد الذي بدأ انتاجه قبل شهور من انعقاد المهرجان .. وحشدت له الكويت مجموعة من ألمع نجوم السينما والمسرح العرب . فيقوم محمود ياسين بدور ابن سينا ، واحمد الصالح « ابو عبدالله » ابو ابن سينا ، وسناء جميل أمه « ستاره » ، وسعاد عبدالله صديقته « سعده » ، واحمد الهزيم معلمه « الشيخ الناتلي » ، وكنعان حمد « ابو سعده » ، واحمد عبدالحليم « الامير نوح بن منصور » ، امير بخاري وسعد اردش ، صديق ابن سينا ، وكان طبيبا اسمه « محمد الشيرازي » وابراهيم الصلال « السلطان محمود » ، احد سلاطين فارس وجوهر سالم الامير « مجد الدولة » يعالجه ابن سينا



باقر الشيخ حبيب من اوائل المصورين على الكاميرا التلفزيونية .

تلفزيون الكويت في ميناء القديم « شيرات » بقيت حتى بعد النهضة العمرانية الكبيرة التي شهدتها الكويت في السنوات الاخيرة ، ثم التلفزيون في ميناء الحديث بمجمع وزارة الاعلام .







جاسم الغريب احد قراء نشرة الاخبار امام احدث الكاميرات التي يقرأ المذيع الاخبار من خلال شاشة صغيرة على عدستها .



عبدالرحمن الحوطي وكيل وزارة الاعلام المساعد للشئون الهندسية يتفقد اول جهاز فيديو استورده التلفزيون في مبناه القديم .





عبدالحسين عبدالرضا وسعد الفرج في مشهد من مسلسل «درب الزلق» .. انهما من رواد المسرح الاوائل الذين اسهموا في تطوير الحركة المسرحية في الكويت .

ويتخذ منه ابنا روحيا وغيرهم كثيرون . لقد كتب المادة العلمية للتلفزيون الدكتور عبدالهادي ابو ريده ، وكتب الحوار والسيناريو مصطفى محرم والمرحوم مصطفى بهجت .

ويأتي ابن سينا زائرا غير عادي للمهرجان .. فيجد من حوله ترحيبا وحفاوة بهذا الضيف الكبير العظيم الذي أثرى الفلسفة وأثرى الطب ، وكان علما في المشرق العربي .

ويأتي ابن سينا مع فجر القرن الهجري الجديد الذي احتفل بمقدمه المسلمون في الشرق والغرب ومازالوا يحتفلون ..

ابن سينا

فيلسوف فارسي عرقا ، عربي لغة وثقافة ، إغريقي روماني فلسفة وطبا وعلما .. بيئته الكبرى الدولة العربية الاسلامية التي عاش فيها وكتب فوق ارضها مؤلفاته الفلسفية والطبية التي نقلت الى اوروبا باللاتينية ، يوم كانت هذه لغة الدرس والعلم هناك . وشاعت مؤلفات الفيلسوف العربي وذاعت واصبحت من مراجع اهل العلم .

هو ابو علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا ولد في قرية قريبة من بخاري في تركستان في عام (٣٧٠هـ) ٩٨٠م ، وتوفي عام (٤٢٨هـ) ١٠٣٨م .



امل جعفر وهي ايضا من اوائل المذيعات الكويتيات تقدم عرضا للبرامج في مبنى التلفزيون القديم .

عاش ثمانية وخمسين عاما مليئة بالفكر والعمل والانتاج .

في بخاري ، كما يقول ابن سينا عن نفسه في « حكاية ابن سينا » تعلم الصبي الحساب على يد رجل يبيع البقل . وكان ان جاء الى بخاري ابو عبدالله الناتلي ، فانزله ابوه دار الاسرة رجاء ان يتعلم ابن سينا منه ، وكان الصبي قبل قدوم الناتلي يشتغل بالفقه ويتردد فيه الى اسماعيل الزاهد .

وترك ابن سينا بخاري ، وراح يتنقل بعد ذلك من بلد الى بلد ومن امير الى امير ، وقد يعجب المرء من وفرة تآليفه وغزارة علمه على الرغم من عدم استقراره وتفرغه للعلم ، فهو إما على سفر في طريق او محبوس في سجن او متوار في داره او وزير يصرف الامور .

وسقط مريضا بالكولنج ، وحاول مداواة نفسه ، ولكن المنية عاجلته وخمدت الشعلة التي لم تنطفيء حتى يومنا هذا . كانت اشهر مؤلفاته « الشفاء والقانون » والشفاء الذي عناه ، هو شفاء النفس من عللها واخطائها ، وهو مقسم اربعة اقسام ، هي المنطق والطبيعة والرياضة ، وما بعد الطبيعة . وكتاب « النجاة » وهو مختصر كتاب الشفاء ، وليس في الكتابين من علم الاخلاق او السياسة شيء .

مليون دولار

لقد ترجم الاوروبيون الكثير من هذا الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر الميلادي الى القرن السادس عشر ، وكان يدرس في جامعات اوروبا .

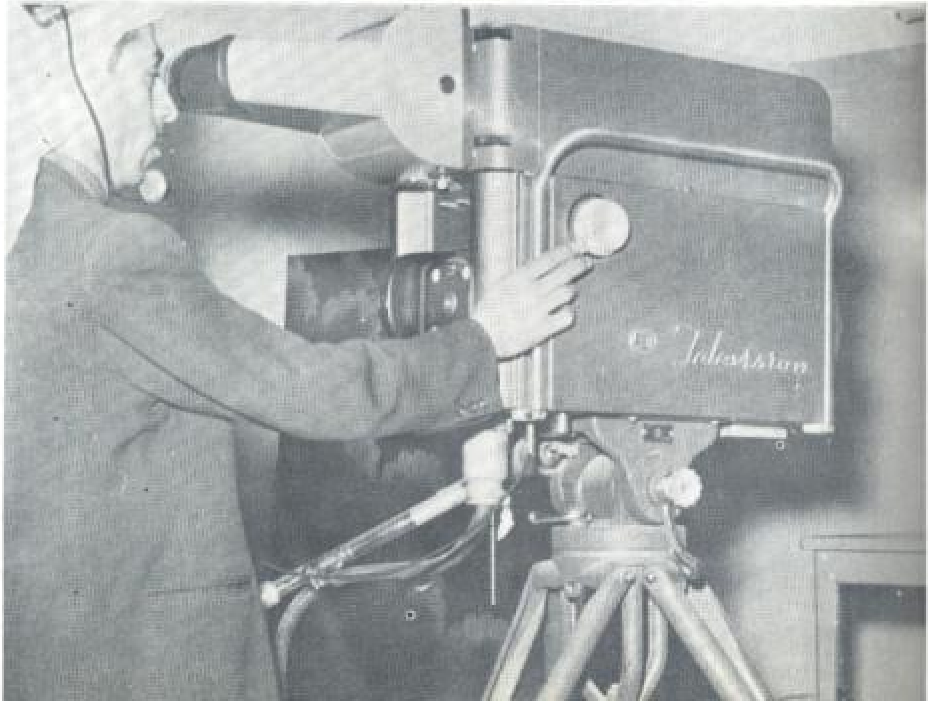
وهناك كتابه « القانون في الطب » وهو موسوعة طبية مؤسسة على علم الطب في اليونان ، وفي العهد الروماني الامبراطوري ، وعلى مؤلفات عربية ، والقليل منه كان من نتائج تجاربه هو . ولكن الذي تعلمه من تجاربه الخاصة ، فقده ، او فقد اكثره اثناء تنقله الكثير ! وقد شاع استخدام هذا الكتاب في الدولة العربية ، وفي اوربا ، فقد ظلت جامعاتها تدرسه هناك قرونا طويلة .

ان هذا المسلسل التاريخي الذي سيعرض على الشاشة الصغيرة في ثلاث عشرة حلقة ويتكلف انتاجه اكثر من مليون دولار امريكي (٣٠٠ الف دينار كويتي) يكتسب عظمته من عظمة الشخصية التاريخية الاسلامية التي يجسدها .

بداية القصة

ونعود الى موضوعنا .. تلفزيون الكويت في عيده العشرين ..

ولكل قصة بداية . وبداية تلفزيون الكويت كانت في محطة ارسال صغيرة يمتلكها أحد التجار الكويتيين ،





سعاد عبدالله داخل الهودج فوق ظهر جمل يقوده جوهر سالم في مشهد من مسلسل الرحيل.
(الى اليسار)

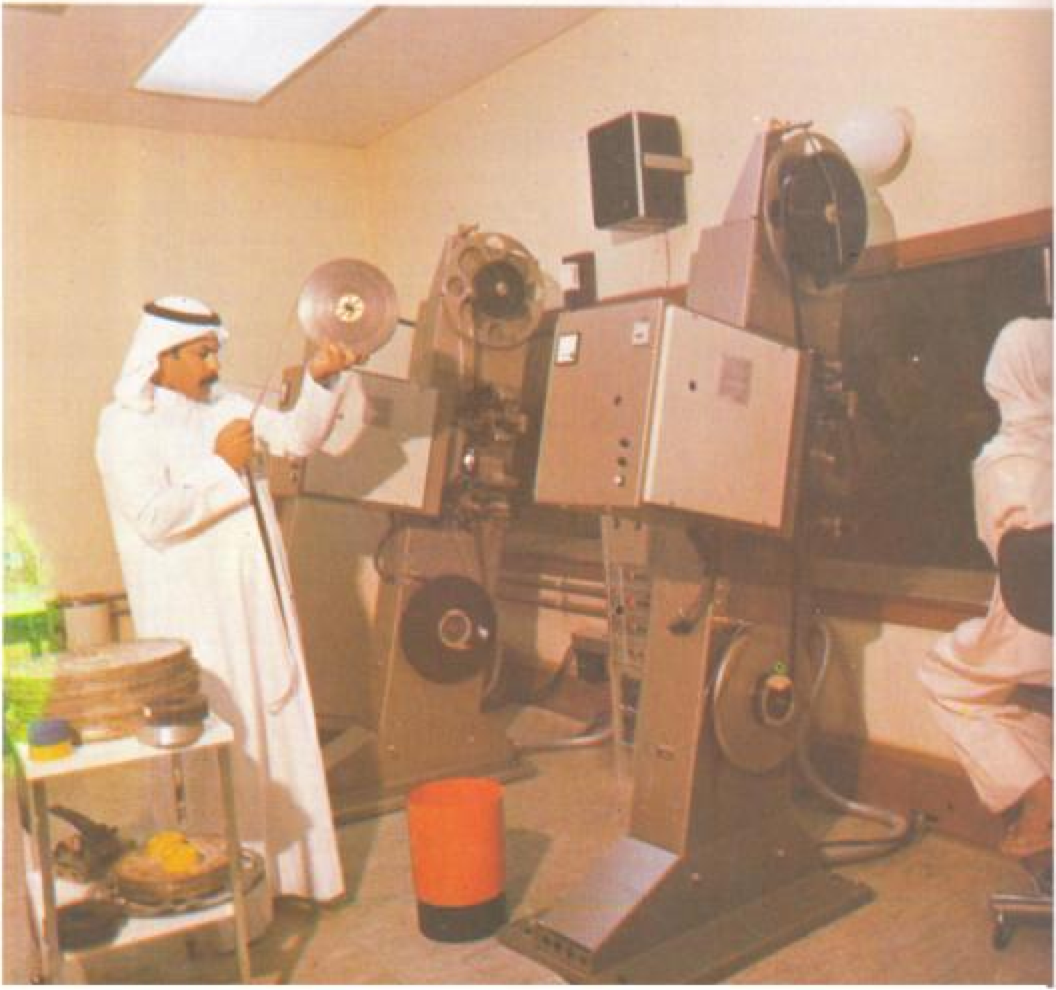
مشهد من مسلسل جحا ويظهر فيه عبدالله الحبيل، وطيبة الفرج .. عرض في التلفزيون الكويتي منذ عامين. (الى أسفل)

احدى سيارات النقل الخارجي وهي مجهزة بجميع المعدات المطلوبة لتصوير اي مناسبة خارج الاستوديوهات. (الى اليسار أعلى)

جانب من المعدات الخاصة بالعرض السينمائي لاعمال الدوبلاج وغيره في مبنى التلفزيون الجديد « مراقبة السينما ». (الى اليسار أسفل)







وكان كل نشاطها ينحصر في بث بعض أفلام الرسوم المتحركة والافلام الأجنبية لسكان مدينة الكويت وحدها . اما الضواحي « البعيدة » فلم يكن لساكنيها نصيب في متابعة ما كان ينقله هذا الجهاز الجديد على شاشته الصغيرة لاخوانهم المحظوظين الذين يسكنون في قلب المدينة . فقد كانت قوة المحطة أضعف من ان تبث الى ابعد من تلك الدائرة الصغيرة التي لا يزيد قطرها على بضعة كيلومترات ! كان ذلك في عام ١٩٦٠ والكويت تستعد لليوم الذي انتظرته طويلا يوم اعلان الاستقلال .

ومع البداية دائما ذكريات وذكريات .. والذين يروونها هم هؤلاء الذين عاصروها وملأت صورها البعيدة مخيلتهم ، وكأنها مازالت ماثلة أمامهم كما لو كانت أحداثها تعيش معهم كل يوم كل ساعة كلما جاء الحديث قريبا منها وعنها ..

بين هؤلاء الذين عاشوا قصة تلفزيون الكويت منذ بدأت ، رضا الفيلي الذي يشغل الآن منصب مدير المكتب الفني بوزارة الاعلام .. لقد كان رضا اول صوت كويتي انطلق من تلفزيون الكويت عندما بدأت الدولة تشرف عليه ، وكان اول وجه كويتي ايضا ظهر على الشاشة الصغيرة في تلك الأيام الاولى من عمر المولود الجديد . يومها كان يعمل في الاذاعة الكويتية التي سبقت التلفزيون بعدة سنوات ، وكان شابا صغيرا لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره . « استدعيت ذات صباح .. قالوا لي انني انتقلت الى التلفزيون وأن عملي الجديد سيكون قراءة نشرة الاخبار . وذهبت الى استوديو التلفزيون .. « شبرة » او غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها على ستة أمتار مربعة قامت فوق ارض من الرمال على شاطىء دسمان ولا شيء اكثر من ذلك .. على الباب الخارجي ، كان هناك اثنان في انتظار وصولي زكي طليمات أحد أعمدة المسرح في مصر ، وكان يومها يعمل في الكويت من اجل المساهمة في بناء المسرح الكويتي ، وسعدون الجاسم الذي كان مراقبا صحفيا بدائرة المطبوعات والنشر في ذلك الوقت . وكانت مهمة زكي طليمات تعليمي فن الالقاء « لان الناس الآن لن يسمعوا صوتا فحسب ، ولكنهم سوف يشاهدون ايضا صاحب الصوت وهو يتكلم ! والالقاء هو الالقاء .. وهو فن ولابد من اجادته ! هكذا كان استقباله لي وهو يمد لي يده مصافحا .

« اما في الداخل ، داخل « الاستوديو » التلفزيوني ، فكانت هناك كاميرا واحدة يعمل عليها شاب هندي يقوم باداء كل ما يطلب اليه من عمل فني ، وآلة عرض سينمائية ومصباح كهربائي قوي « كشاف » من النوع الذي يستخدمه المصورون في استوديوهاتهم !

وبدأت اقرأ النشرة الاخبارية التي كنا ندعمها بصور الشخصيات التي نقصها من الصحف والمجلات .

ذكريات وذكريات !

ويمضي رضا الفيلي يتذكر : « ستة او سبعة من العاملين هم كل موظفي التلفزيون في ذلك الوقت ، كان محمد السنعوسي هو المخرج ، وباقر الشيخ حبيب المصور التلفزيوني الوحيد الذي يعمل على الكاميرا اليتيمة وباسمة سليمان وأمل جعفر وماما أنيسة وسهيلة الحاج ابراهيم وأنا .. ثم بعد ذلك اثنان او ثلاثة من الفنيين العاملين في مطبعة دائرة الاعلام ، ولم يكن لديهم اي فكرة عن اجهزة البث ، ولكنهم جاءوا بهم رغم ذلك ، وطلبوا اليهم ان يعملوا ، وراحوا يعملون في ضبط



امينة الشراح بدأت عملها التلفزيوني في أوائل الستينات ، وكانت تقدم مجلة التلفزيون .



باسمه سليمان من أوائل المذيعات الكويتيات في التلفزيون . ولقاء مع الفنان وديع الصافي .

الصوت والصورة .. ونجحوا ، كيف ! لا أدري .. وكان بينهم محمد مهنا ، وهو الآن من كبار رجال الاعمال !

وهكذا كانت البداية مع هذا « الاختراع الجديد » الذي دخل الكويت منذ عشرين عاما وكان له اثر كبير في حياة المواطنين . لقد نقلهم الى صور وانماط من الحياة غريبة عنهم ، من الغرب ومن الشرق على السواء ..

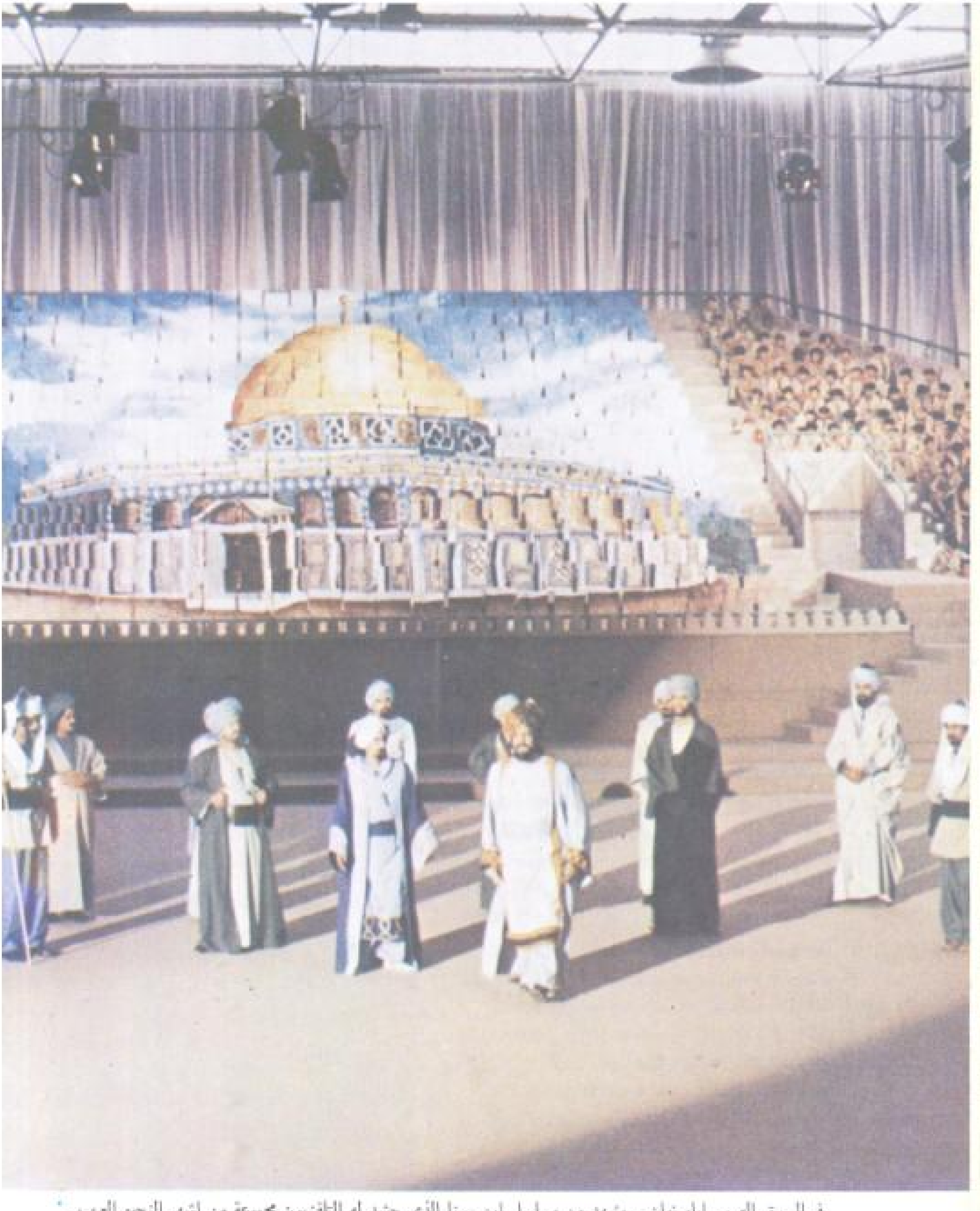
« لقد اسهم التلفزيون ومازال يسهم في انتعاش المسرح والحركة الرياضية وكرة القدم بصفة خاصة والغناء والطرب ثم صيانة التراث والعادات والتقاليد من خلال الحركة المسرحية التي واكبت تطور التلفزيون وانطلاقاته » .

وقد كانت الانطلاقة الاولى في عام ١٩٦١ عندما انتقل التلفزيون الى الادارة الحكومية فقد شرعت الدولة في انشاء محطة المطلاع التي اخذت تبث البرامج على جهازي ارسال اكثر قوة ، وكانت خطوة جديدة مهدت فيما بعد .. في عام ١٩٦٤ على وجه التحديد الى تحقيق خطوة اكبر عندما ضوعفت قوة الارسال بحيث اصبحت التغطية التلفزيونية تشمل جميع مناطق الكويت وبعض المناطق المجاورة التي تقع شمالي البلاد وشرقها ، كذلك تم تشييد محطة ارسال اخرى في الروضتين ، واصبح التلفزيون يبث برامجه خلال تلك الفترة على القناتين «٦» و « ١٠» .

ولكن الجهود لم تتوقف عند هذه الحدود الضيقة فقد مضى المسؤولون في محاولاتهم لتحسين جودة الارسال وزيادة قوته وتوسيع مجال تغطيته الجغرافية . وبدأت الدولة ممثلة في وزارة الاعلام في عام ١٩٧١ في تشييد محطة ارسال فيلكا التي اخذت تبث على القناتين «١٠» و « ٨ » وبفضل هذه القوة الجديدة استطاع تلفزيون الكويت ان يغطي دول الخليج وشرق الجزيرة العربية وجنوب العراق ومنطقة عبدان .

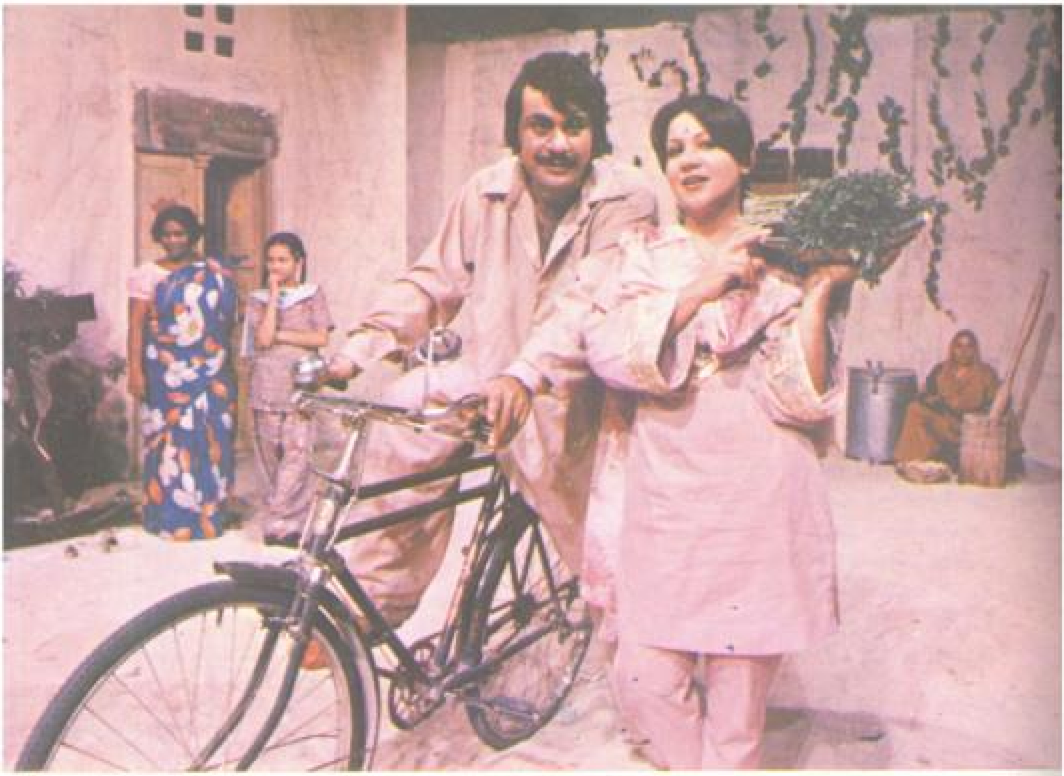
التلفزيون الملون

ثم كانت الانطلاقة الثانية في عام ١٩٧٤ عندما دخل تلفزيون الكويت عصر ارسال البرامج الملونة الى جانب البرامج العادية التي كانت تتناقص بالتدريج خلال العامين التاليين على بدء الارسال الملون . وشهد



في السوق العربي ايام زمان .. مشهد من مسلسل ابن سينا الذى حشد له التلفزيون مجموعة من اشهر النجوم العرب .

(فوق) مشهد من ميلاد امه الذى عرض في مولد القرن الهجرى الجديد (وفوق الى اليسار) عبد الحسين عبد الرضا
وسعاد في بساط الفقر (وتحت الى اليسار) مشهد آخر من مسلسل ابن سينا .




٤٥٠ الف جهاز

بلغ عدد اجهزة التلفزيون في الكويت ٤٥٠ الف جهاز موزعة على بيوت السكان الذين بلغ تعدادهم حوالي مليون ونصف مليون نسمة الآن اي بمعدل جهاز لكل ثلاثة . وبلغت نسبة الأسر التي تستخدم اكثر من جهاز في البيت الواحد حوالي ٨٪ .
(احصاء)

وسيلة أساسية من وسائل الاعلام ، ولذلك فاننا نجد ان برامجه تلتزم الى حد بعيد بالتصنيف الذي اعتمدته منظمة اليونسكو الدولية ، ويتم توزيع هذه البرامج بنسب مدروسة تشتمل على البرامج الاعلامية والتعليقات السياسية والبرامج التثقيفية والتوجيهية وكذلك البرامج العلمية والتعليمية ثم برامج الثقافة والفنون والآداب ، وأخيرا البرامج الترويحية التي تشمل اعمال الدراما والموسيقا والغناء والمنوعات والبرامج الرياضية ومباريات كرة القدم .

وقد اكدت البحوث والدراسات التي اجريت حول برامج التلفزيون خلال مسيرته ، مدى التوفيق الذي حالف القائمين على هذا الجهاز في التخطيط لبرامجه . وازاء هذا التنوع المدروس في البرامج والتخطيط الواعي لاهداف الخدمة التلفزيونية ، بدأ التلفزيون في اوائل السبعينات بث الدورة البرامجية الصباحية خلال اشهر الصيف بمعدل اربع ساعات يوميا ، ومازال التلفزيون يبث برامجه الصيفية الصباحية كل عام حتى اليوم .



التلفزيون الكويتي تطورا من حيث الكم والنوع في عام ١٩٧٩ حين بدأ البث على البرنامج الثاني بمعدل ٢١ ساعة اسبوعيا ، ما لبثت ان ارتفعت في العامين الاخيرين الى ٢٨ ساعة في الاسبوع ، وبذلك اصبح مجموع ساعات الارسال في تلفزيون الكويت ٨٦ ساعة اذا أضفنا الى هذا الرقم ساعات الارسال على البرنامج الاول ، والتي ارتفعت في الآونة الاخيرة الى ٥٨ ساعة اسبوعيا . هذه الزيادة المطردة في ساعات الارسال واكبها توازن بين البرامج العربية والبرامج الاجنبية من ناحية وبين البرامج المحلية والبرامج العربية من جهة أخرى . وقد كان الاهتمام بهذا التوازن من اهم مقتضيات طبيعة التركيب الديموغرافي لمجتمع الكويت الى جانب التنوع القائم بين فئات المشاهدين للبرامج التلفزيونية بمختلف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية والتعليمية والمهنية ، ثم بعد هذا تنوع جنسيات المقيمين الذين يساهمون مع اخوانهم من ابناء الكويت في عملية بناء وتطوير البلاد في شتى مجالات الحياة .. وهي عملية بدأت خلال سني ما بعد الاستقلال وربما قبلها ، ومازالت ماضية في طريقها المرسوم ، وهو طريق يتطلب تضافر جهود كل الكفاءات المخلصة .

ارشاد وتثقيف وترفيه

وقد اهتم القائمون على برامج التلفزيون بأن يجعلوا من هذا الجهاز أداة للارشاد والتثقيف الى جانب كونه

لقد جاء هذا التطور الكبير بعد عام تقريبا من انتقال التلفزيون الى مجمع الاعلام الذي زود بالامكانات الفنية المتطورة وأحدث ما توصل اليه العلم في مجال البث التلفزيوني .. فمع الانتقال الى المبنى الحديث بدأ البرنامج الثاني الذي أمكن عن طريقه تحقيق التوازن المطلوب بين البرامج العربية والاجنبية التي يبثها تلفزيون الكويت !

برامج كثيرة بدأت بعد فترة وجيزة من بداية البث التلفزيوني منذ عشرين عاما ، واستمرت وتطورت معه في مسيرته عبر السنين التي اعقبت مولده . مثلا بعد انقضاء حوالي العامين من انتقاله الى الادارة الحكومية ، ومع وصول اول سيارة للنقل الخارجي ، بدأ التلفزيون في نقل صلوات الجمعة والمناسبات الوطنية والمباريات الرياضية والأحداث الهامة التي تشهدها الكويت . كما بدأ في عمليات النقل الخارجي بعد انشاء محطة الكويت الارضية للاتصال عبر الاقمار الصناعية .. وهما محطتان في واقع الحال ، لا محطة واحدة ، احداهما ترتبط بالقمر الصناعي فوق المحيط الهندي ، والثانية بالقمر الصناعي فوق المحيط الاطلسي ، واستطاع سكان الكويت ان يشاهدوا بفضل هذا الاتصال العالمي الذي وفرته المحطتان هبوط الانسان على سطح القمر في نفس لحظة اتمام هذا الانجاز العلمي الكبير ، وغيره من احداث عالمية اخرى كثيرة ومن بينها مباريات كرة القدم من أقصى الشرق الى أقصى الغرب .

هناك ايضا برنامج « لقاء مع مسئول » وهو من البرامج الناجحة التي تتعرض للمشاكل والموضوعات الحيوية التي تشغل الجمهور ، وكيفية ايجاد الحلول لها . وقد بدأه رضا الفيلي منذ عشرين سنة ، وكانت لقاءاته تذاع على الهواء مع مسؤولين كويتيين ومع شخصيات سياسية عربية واجنبية زائرة الى جانب اللقاءات التي كان يجريها مع الفنانين والأدباء الكويتيين في ذلك الوقت .



مريم الصالح ومريم الغضبان ، اول فنانتين كويتيتين تقدمتا في جرأة للعمل على المسرح والتلفزيون .



محمود ياسين في لقطة من ابن سينا في ساحة قصر فارسي قديم بالاستوديو رقم ٨٠٠ بمبنى التلفزيون . (فوق) لوحة فولكلورية .. اللباس الشعبي في كويت الغوص والصيد . (أسفل) ولقطة من البرنامج الذي اعد لنتائج مسابقات رمضان ووزع تلفزيون الكويت للفائزين فيها جوائز ثمينه . (الى اليسار) سعاد في دور « عبلة » .. مشهد من اوبريت بساط الفقر . (الى اليسار أسفل)

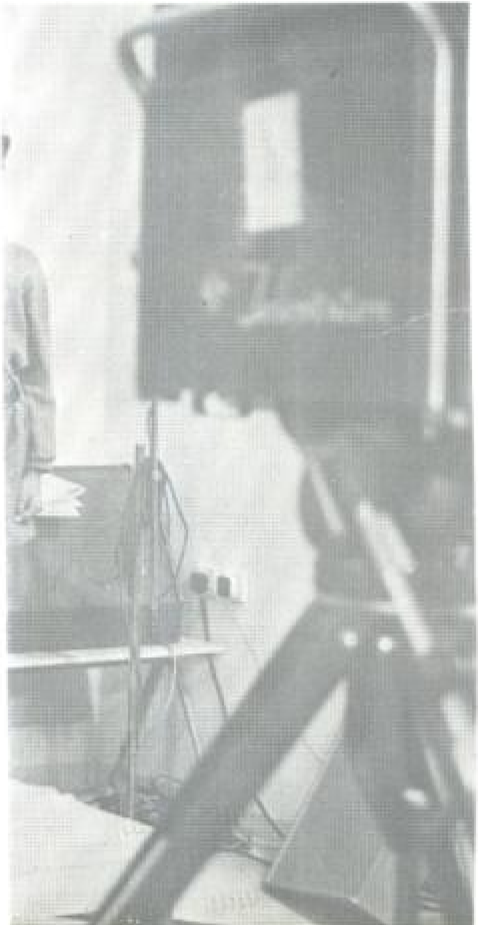








الفنان صقر الرشود من رواد الحركة المسرحية ونجوم الشاشة الصغيرة فقده أهل الخليج منذ بضع سنوات .



احصاءات

❊ عدد العاملين بتلفزيون الكويت ١٥٠٠ موظف فني واداري .

❊ ينتج تلفزيون الكويت ما يقرب من نصف ما يعرضه من برامج محليا عن طريق سبعة استوديوهات في مقره الجديد ، اربعة للانتاج ومساحة كل منها ٨٠٠ متر مربع ، واستوديوهان للتنفيذ مساحة كل منهما ٣٠٠ متر مربع ، واستوديو واحد للأخبار مساحته ١٦٠ مترا مربعا .

❊ تحتوي مكتبة التلفزيون على اكثر من ٦٣ الف شريط فيديو من بينهما ٦٥٠٠ شريط للتسجيلات المحلية ، اما المكتبة السينمائية فتحتوي على اكثر من عشرة آلاف فيلم سينمائي من بينها ١٥٠٠ فيلم اعلامي او ثقافي ، كما يوجد حوالي الفي اسطوانة موسيقية من الشرق والغرب الى جانب اسطوانات المؤثرات الصوتية ، واكثر من الف ومائتي شريط تحمل العديد من التسجيلات العربية والاجنبية المنوعة .

ثم البرامج الفولكلورية ، وقد اهتم محمد السنعوسي باخراجها وبثها ايضا على الهواء مباشرة وقد بدأ منذ لحظة وصول الكاميرا الثانية بعد مولد التلفزيون بفترة وجيزة ، وكان من بين فرق الفنون الشعبية التي اهتم التلفزيون بتقديمها ، فرقة حمد بن حسين البحرية وفرقة عوده المهنا والمرحوم عواد سالم في فنونه الشعبية وفي فن « المالد » .

صفحات من تاريخ العرب

ومن بين البرامج التي أثرت المكتبة العربية في تلفزيون الكويت تلك الصفحات من تاريخ الكويت التي جمعت الرواد الأوائل في شتى مجالات الحياة .. « النوخذة » او قبطان السفينة والغواص والسقّار والمحارب وصاحب المهنة والحرفي ، حتى امتلأت القائمة بما يربو على المائة من هؤلاء الرواد الذين انتقل معظمهم الى رحمة الله ، ولكن بقيت تلك اللقاءات معهم تحكي دورهم في حياة كويت الأمس . لقد كان للسيد سيف مرزوق الشملان دورهام في تحقيق هذا البرنامج « حتى لا ننسى » .

وكان للاهتمام الخاص الذي أولاه الشيخ جابر العلي بالشخصيات العربية البارزة من اهل الفكر والفن ، أثر كبير في هذه الثروة التي يفخر تلفزيون الكويت بوجودها في مكتبته ، فقد قام التلفزيون من خلال مندوبيه باجراء لقاءات مع الدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد وميخائيل نعيمه والدكتور فؤاد صروف وكمال جنبلاط والدكتور احمد زكي وكثيرون غيرهم ممن كان لهم دور طليعي في مجال الفكر والعلم والادب والفن كما تم

« ماما انيسة » مع اطفالها وكانت اول سيدة كويتية تقدم برامج الاطفال في تلفزيون الكويت منذ نشأته ، ولا يزال برنامجها يشد اطفال الكويت اسبوعيا .





جهاز حديث للتحكم في الصوت (تحت الى اليمين) معمل طبع وتحميض الافلام (فوق الى اليسار) صالة تركيب المؤثرات الصوتية واخيرا (تحت الى اليسار) مشهد من ميلاد امة ، وكان من اكبر الاعمال التلفزيونية التي حولت صالة مباريات كرة السله بالنادي العربي الى استوديو كامل .







تسجيل جميع اغاني ام كلثوم ثم اعيد تسجيل بعضها لمحطات تلفزيونية عربية كانت قد فقدتها او لأنها لم تكن متوفرة لديها .



محمد جابر الممثل المسرحي في مشهد كوميدي ، وقد عرف في معظم تمثيلياته باسم « العيدروسي » .

لقد ساهم التلفزيون بعد هذا في دعم البرامج التعليمية في المدارس باعتباره من أهم وسائل الايضاح قدرة على التفسير لما يتميز به من الجمع بين الصورة المتحركة والكلمة المنطوقة ، وقطع التعاون والتنسيق بين تلفزيون الكويت ووزارة التربية شوطا بعيدا في هذا المجال ، بعد ان اصبحت البرامج التعليمية تبث الى الطلبة في فصولهم مباشرة !

صحافة المستقبل

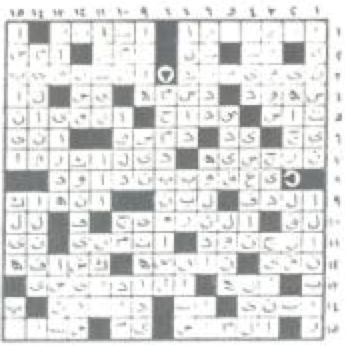
يقول محمد السنعوسي : « الى جانب دور التلفزيون الثقافي التعليمي الترفيهي ، فانني أرى فيه ، بعد التطور المذهل في انتاج الاجهزة التلفزيونية حتى اصبح المرء قادرا على حمله في جيبه ، صحافة المستقبل .. انه اليوم وسيلة الاتصال الدولي بفضل تسخير اجهزة الكمبيوتر ومحطات الاقمار الصناعية .. في لحظة حدوثه تسمع الخبر وترى الصورة .. انه اذن صحيفة المستقبل » .

ويقول رضا الفيلي : « كانت هناك احداث واحداث على مدى العشرين عاما التي انقضت من عمر تلفزيون الكويت ، وقد شارك في تغطيتها .. ولكنني اعتقد ان اهم وابرز ثلاثة احداث خلال هذه الفترة كانت رحيل الشيخ عبدالله السالم رحمه الله في عام ١٩٦٥ ، على المستوى المحلي ، وانعقاد مؤتمر القمة العربي الاول في فندق فلسطين بالاسكندرية في عام ١٩٦٣ على المستوى القومي وكنت مكلفا ، بتغطية اجتماعات المؤتمر ولقاءات الملوك والرؤساء ثم هبوط الانسان على سطح القمر ١٩٦٩ على المستويين العلمي والعالمي » :

ثم ماذا ؟ يقول وكيل وزارة الاعلام لشئون التلفزيون : « في اطار الشعار الذي يرفعه المهرجان : « نحو انتاج تلفزيوني افضل » اعكف الأن على مشروع جديد يستهدف قيام شركة تابعة للقطاع الخاص ، الهدف منها ايجاد منافسة مع تلفزيون الكويت تستهدف في النهاية الوصول الى الافضل . وبجانب اعمال هذه الشركة في بث البرامج ستقوم ايضا بانتاج الافلام المحلية والعربية والعالمية . وسوف تكون شركة مساهمة ، المستفيد منها في النهاية هو المشاهد ، الذي اريد ان اقول له في ختام هذه الرحلة ارجو ان تكون البرامج الجديدة في العام الجديد قد اعجبتك وارضت تطلعاتك وشدتك اكثر الى الجلوس امام الشاشة الصغيرة » .

منير نصيف

حل مسابقة العدد ٢٧٦ ●



أفقياً

يعقوب بن داود

رأسياً

محمد بن واصل

اثنتان فى واحدة

(٨) أفقيا : يعقوب بن داود . اشترك في ثورة ابراهيم بن عبد الله ضد المنصور . عينه المهدى وزيرا ثم سجنه . أطلق سراحه هارون الرشيد ، ورد عليه ماله . توفي بمكة عام ٨٠٣م .

(٨) رأسيا : محمد بن واصل . ولد بحماه وتوفي بها عام ١٢٩٧م . اتصل بالملك الظاهر بيبرس ، فأوفده في مهمة الى مانفريد ملك صقلية . ثم منحه لقب قاضي القضاة ، وشيخ الشيوخ . له « نخبة الفكرة » في المنطق ، و « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » .

الفائزون بالجوائز

الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها :

هويدا عمار ـ بيروت / لبنان .

الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها :

عباس عبد الله احمد السواحلي / أم درمان / السودان .

الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها :

هبة محمود الخماس / الكويت .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ قيس يوسف القبندي / المنامة / البحرين .

٢ ـ صلاح محمد فايق / القوه / مصر .

٣ ـ عدنان زين العابدين / الدار البيضاء المغرب

٤ ـ عز الدين مهوس / حيدرة / الجزائر .

٥ ـ طالب عثمان جاويش / دمشق / سوريا .

٦ ـ سمير خليل السلطي / عمان / الاردن .

٧ ـ نجيب محمد علي الشيباني / تعز / اليمن الشمالي

٨ ـ السيد طيبة محمد طيبة / صلالة / سلطنة عمان


ESPAÑA

سيحظى العام الميلادي الجديد ـ ١٩٨٢ ـ بلقبين عالميين .. فهو « عام المسنين » حسب قرار الامم المتحدة .. و« عام كأس العالم » طبقا لتقاليد ملايين الملايين من عشاق اللعبة الشعبية الأولى في كوكب الارض .. وهي « كرة القدم » .. طبعا !



بطولة كأس العالم لِكرةِ القدم

الكويت والجزائر في نهائيات كأس العالم .. لأول مرة في التاريخ

بقلم : عادل شريف

ملصق اعلاني لمسابقة كأس العالم لكرة القدم لعام ١٩٨٢ .. ستزدان به كل ارجاء اسبانيا اثناء اقامة البطولة .

كأس العالم .. هل يكون من نصيب الكويت ؟

ولن تستقطب اسبانيا اهتمامات الدنيا كلها في الصيف القادم .. بصفتها الدولة السياحية الاولى في العالم فحسب ، بل لانها ايضا ستستضيف على ارضها ـ في ١٤ مدينة من مدنها ـ من ١٣ يونيو حتى ١١ يوليو .. بطولة كأس العالم الثانية عشرة لكرة القدم .. وهي البطولة التي تسمى « أعظم مهرجان رياضي عالمي بعد الالعاب الاولمبية » !

وتؤكد الاحصائيات ان حوالي نصف سكان العالم .. سيتابعون عن طريق الاقمار الصناعية احداث كأس العالم من على شاشات التلفزيون .

وهذا المهرجان الكروي الكبير .. يهل على الدنيا مرة واحدة كل سنوات أربع ..

فكرة قديمة !

يعزى فضل تطوير وتعصير وتقنين لعبة كرة القدم وتعميم قانونها الموحد في الدنيا كلها الى ما بذله الانجليز من جهود منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر ..

فقد كونت انجلترا عام ١٨٦٣ اول اتحاد لكرة القدم في الكرة الارضية .. وبدأت انجلترا « اول » مسابقة كروية منظمة في عام ١٨٧١ وهي « بطولة كأس انجلترا » .. و « أول » بطولة دوري في عام ١٨٨٨ .. و « أول » اعتراف بالاحتراف في عام ١٨٨٥ .

وكانت انجلترا أقوى دول العالم كرويا .. فهي تؤمن بانها « مهد كرة القدم » و « سيدة كرة القدم » ! . ولم لا وقد فازت ببطولة كرة القدم في أول دورة اولمبية ادرجت هذه اللعبة في برنامجها الرياضي ؟ ـ وكانت العاب لندن الاولمبية ١٩٠٨ ـ وكررت انجلترا فوزها في العاب ستكهولم الاولمبية ١٩١٢ .. كما عجزت كل الدول عن قهرها كرويا الا في عام ١٩٢٩ على يدي اسبانيا خارج أرض انجلترا .. وفي عام ١٩٥٣ على ايدي المجر .. في داخل انجلترا ذاتها .

ومع الاستعلاء .. كان الانجليز ـ وما يزالون ـ يشكون في اي امر يقع خارج جزيرتهم .. ولا يتقبلون اية فكرة « اجنبية » الا بعد حذر وتحفظ شديدين !

ولذلك لم يرحبوا كثيرا بفكرة تكوين اتحاد دولي لكرة القدم « الفيفا » لان سبع دول « اجنبية » وهي فرنسا وهولندا وبلجيكا واسبانيا وسويسرا والسويد والدنمرك .. هي التي وافقت على تكوينه في باريس عام ١٩٠٤ .. بناء على اقتراح من « اجنبي » فرنسي هو روبير جيران !

وقد دعا رجل الاعمال الهولندي كورنيليوس هيرشمان سكرتير عام « الفيفا » الى اقامة بطولة عالمية لكرة القدم .. ولكن لم يكتب النجاح لجهوده التي جمدها مرحليا .. قيام الحرب العالمية الاولى في صيف عام ١٩١٤ .

صدام شخصيات

والغريب ان نجاح تنظيم بطولة كأس العالم لكرة القدم .. قد تعثر لمدة ستة وعشرين عاما بسبب منافس قوي عنيد هو .. الالعاب الاولمبية ، الاولمبية لا تعترف الا بشيء واحد .. وهو الهواية الخالصة الكاملة ، ولذلك قام صراع عنيف ـ علني وسري ـ بين رجلين فرنسيين وهبا كل حياتهما .. للرياضة !

الاول هو البارون بيير دي كوبيرتان باعث الالعاب الاولمبية القديمة في سنة ١٨٩٦ .. والثاني هو المحامي جول ريميه رئيس الاتحاد الفرنسي لكرة القدم ..

ورئيس « الفيفا » منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٥٤ . وكان دي كوبيرتان يرى الاكتفاء ببطولة كرة « الهواة » .. بينما كان ريميه يرى ان الانغلاق الاولمبي يعني حرمان أمهر اللاعبين وأبرعهم .. من تقديم فنونهم الرفيعة المستوى للملايين من عشاق كرة القدم !! والمهرة المحرومون هم اللاعبون « المحترفون » الذين يتخذون من كرة القدم مورد رزق وعملا منتظما ووظيفة دائمة ..وهم في نفس الوقت الذين لا تعترف بهم الحركة الاولمبية .. رغم ان مستواهم أعلى من اللاعبين الهواة !

وكان ابرز الدعاة لتنظيم بطولة كأس العالم .. مساعد ريميه وهو هنري ديلوني اقرب صديق لريميه وسكرتير الاتحاد الفرنسي لكرة القدم الذي اطلق عبارته الخالدة :

ـ « من المستحيل لكرة القدم الدولية ان تقام في اطار الالعاب الاولمبية وحدها .. لان الكثير من الدول التي اعترفت بالاحتراف ونظمته في مجال كرة القدم .. لا يمكن ان تمثل في مسابقات الكرة الاولمبية .. بأعظم وابرع وامهر لاعبيها .. وهم المحترفون ! »

اطرق الباب .. بقوة !

وواصل المحامي الفرنسي النبيل التحمل حول ريميه

وصديق عمره هنري ديلوني دعوتها .. على طريق الشوك والمعارضة الشديدة .. لفكرتها الخلاقة الجديدة .. فكرة اقامة بطولة كأس العالم المفتوحة لكل المنتخبات القومية .. سواء كانت من المحترفين او الهواة .. او من الفئتين معا ! ومع كل فشل في تصويت « الفيفا » على الفكرة كان ريميه يردد « لا تيئس يا هنري .. سنحاول ثانية .. في الاجتماع القادم » !

وهلت بشائر النجاح في « المدينة البيضاء » ـ هلسنكي عاصمة فنلندا ـ عندما نجح ريميه في الحصول على موافقة « الفيفا » في عام ١٩٢٧ على تكوين لجنة فرعية .. تتفرغ لدراسة وسائل وطرق تنظيم بطولة كأس العالم .

وشهدت امستردام عاصمة بلد طواحين الهواء .. تحقيق اروع احلام ريميه واكثرها جوحا في مايو ١٩٢٨ عندما وافق « الفيفا » على تنفيذ الفكرة .. رسميا !

وفي مايو ١٩٢٩ اجتمع « الفيفا » في مدينة برشلونة الاسبانية ـ التي ستشهد الافتتاح الرسمي لبطولة كأس العالم يوم ١٣ يونيو ١٩٨٢ ! ـ وقرر منح اوروجواي شرف تنظيم اول بطولات كأس العالم في يوليو ١٩٣٠ .

أشهر ركلتي كرة قدم !

وقد تمت الموافقة على ذلك القرار التاريخي رغم معارضة شديدة من اسبانيا والسويد وهولندا والمجر وايطاليا .. لان القوى العظمى الاوروبية « الكروية » .. كانت تغار من القوى الكروية الصاعدة الواعدة المتوعدة في امريكا اللاتينية عامة .. ومن اوروجواي خاصة !

وكان سر اختيار اوروجواي الصغيرة المغمورة .. هو فوزها ببطولة كرة القدم الاولمبيةفي دورتي باريس ١٩٢٤ وامستردام ١٩٢٨ ..واحتفالها بعيد استقلالها المئوي في ١٩٣٠ .. ووعدها ببناء ملعب جديد ضخم اسموه « سنتناريو » اي « المئوي » .. واعلانها في كرم عربي تحملها لنفقات سفر واقامة كل الفرق القومية الاجنبية التي ستحضر الى عاصمتها منتفيديو للاشتراك في اول بطولات كأس العالم١٩٣٠ .

وكانت القفشة الكروية العالمية الشهيرة .. تقول عن اوروجواي الصغيرة ـ وكان تعدادها يقل عن مليوني نسمة في ذلك الوقت ! ـ وتصرها الكرويين الاولمبيين ، « لقد دخلت أوروجواي التاريخ .. وخريطة العالم .. بركلتي كرة قدم !!! »

الاستعلاء .. واضواء الميناء !

وشحبت الروح الرياضية الى حد ان اوروبا لم يشترك منها في اول بطولات كأس العالم سوى : فرنسا وبلجيكا ويوغوسلافيا ورومانيا التي حرص ملكها كارول على اختيار منتخب بلده بنفسه .. والحصول لافراده على اجازة بمرتب من الشركات التي كان بعضهم يعمل بها ، بل وكان كارول يحضر تدريب الفريق بنفسه !

ومن بقية انحاء العالم جاءت امريكا والمكسيك وشيلي والبرازيل وبوليفيا واوروجواي وبيرو وباراجواي .. ليصل عدد المشتركين من البلد المضيف الى ثلاثة عشر فريقا قوميا .. ورغم ان الاشتراك كان مفتوحا للدنيا كلها .. وبلا تصفيات !

ومع ذلك بقي الانجليز على استعلائهم وواصلوا مع اتحادات بريطانيا الكروية الاربعة (انجلترا وسكتلندا وايرلندا الشمالية وويلز) جدلهم حول تعريف « الهواية » و « الاحتراف » وكيفية تعويض اللاعب الهاوي عن وقته الضائع .. وقاطعوا مسابقات كرة القدم الأولمبية .. وخرجوا من « الفيفا » .. ولم يشترك الانجليز في بطولات كأس العالم الا منذ عام ١٩٥٠ .

أما اصحاب الفرح في أوروجواي الصغيرة .. ذات الكرم العربي الحاتمي .. فقد خرج أهل عاصمتها الى الميناء الذي تلألأ تحت الأضواء .

وباتوا على رصيفه يرقصون ويغنون ـ وبعد أن اتموا بناء ستار « سنتناريو » في زمن اسطوري وهو ثمانية شهور ! في انتظار « الكونت دي فيردي » وهي السفينة التي أقلت فرق اوروبا القومية .. ومحام فرنسي نبيل نحيل .. عشق هو الآخر كرة القدم عشقا مبرحا .. وتبرع من جيبه بثمن كأس العالم الذهبية (وكان خمسين ألف فرنك بعملة ذلك الزمان) والتي صاغتها ايدي المثال الفرنسي الشهير أبيل لافير .. والتي اطلقوا عليها اسم « كأس جول ريميه » تكريما للصابر الظافر .. جول ريميه !

ولم يستقبل اجنبي في ميناء « مونتفيديو .. في حرارة وحماسة .. كما استقبل أهل اوروجواي محاميا فرنسيا نحيلا هو .. جول ريميه !

تطورات .. هامة !

.. وفاز البلد المضيف اوروجواي .. باولى بطولات كأس العالم .. بعد ان قهر اخطر منافسيه وجاره « اللدود » الارجنتيني .. وسط اجراءات امن لم يسبق لها مثيل .

وواصلت القافلة مسيرتها الظافرة . وتصاعدت شعبية كرة القدم .. وتضاعف حب الناس لها مع كل جولة من جولات كأس العالم .

وفازت ايطاليا بالبطولة في ٣٤ و ١٩٣٨ .. وبعد اجازة اجبارية فرضتها الحرب العالمية كررت وروجواي فوز هاتي ١٩٥٠ .. ثم جاء دور المانيا في ١٩٥٤ عندما فجرت اقسى مفاجآت كأس العالم وقهرت فريق المجر « الذهبي » على غير المتوقع .. وبعد ذلك بزغ نجم البرازيل مع ظهور بيليه « ملك الكرة » وفازت ببطولات ٥٨ و ٦٢ و ١٩٧٠ .. وانتزعت انجلترا الكأس في بطولة ١٩٦٦ ـ بعد عودتها الى حظيرة « الضيف في ١٩٤٦ » ـ وكررت المانيا الغربية نصرها في ١٩٧٤ وتلتها الارجنتين في ١٩٧٨ .

وعلى مدى نصف قرن اصبح لنجوم كأس العالم مثل « بوشكاش » المجري و « فونتين » الفرنسي و « بيليه » البرازيلي و « بكنباور » الالماني الغربي و « زامورا » الاسباني و « ياشين » الروسي و « ريفيرا » الايطالي .. شهرة تفوق نجوم الفنون والآداب والعلوم وحرزي جوائز « نوبل » !

وقد ادخل « الفيفا » تطورات كثيرة على نظم ولوائح بطولة كأس العالم ..

ومن اهمها النظام الجديد الذي يطبق في بطولة ١٩٨٢ لاول مرة .. وكان من اسباب الاخذ به كفاح طويل قامت به بلدان قارتي آسيا وافريقيا . في نهائيات كأس العالم .. ثم ارتفع التمثيل الى فريقين قوميين اثنين لكل قارة .

وقد منح ذلك التطوير الفرق القومية العربية في قارتي آسيا وافريقيا .. فرصة وصول اكثر من فريق قومي عربي كروي الى نهائيات كأس العالم .

وقد كانت مصر اول بلد عربي وصل الى نهائيات كأس العالم .. وكان ذلك في بطولة عام ١٩٣٤ .. وتألق منتخب المغرب في بطولة ١٩٧٠ .. ومنتخب تونس في بطولة ١٩٧٨ .

ولا شك ان مجرد وصول فريق قومي الى نهائيات كأس العالم .. يشكل انجازا رياضيا ضخما .. تتصاعد اهميته لو حقق الفريق نصرا كبيرا في هذه الساحة الدولية .. والمنافسة الساخنة العالمية .. التي تتابعها الدنيا كلها باهتمام متزايد وحرص متصاعد .

وكانت الامة العربية تتابع انباء مسابقات التصفيات في عام ١٩٨١ .. التي اشتركت فيها ١٠٦ دولة من كل قارات العالم الخمس .. بشوق ولهفة .. وخاصة عندما وصلت منتخبات الجزائر والمغرب الى نهائيات التصفيات الافريقية .. والكويت والسعودية الى نهائيات التصفيات الآسيوية .

ولكم سعد الوطن العربي الكبير بتأكيد وصول اول فريق قومي عربي الى نهائيات كأس العالم ٨٢ » .. وكان ذلك الفريق هو منتخب الجزائر الذي قهر فريق نيجيريا القومي في ٣٠ اكتوبر الماضي

الكويت والجزائر في نهائيات كأس العالم .. لاول مرة

وتصاعدت فرحة الامة العربية بوصول كل من الكويت والجزائر لنهائيات كأس العالم عام ١٩٨٢ بعد فوزهما في تصفيات افريقيا وآسيا . ليصبح للعرب اكثر من ممثل واحد ..

ومن الاعماق نرجو للفرق العربية تحقيق المزيد من الامجاد على ارض الاجداد ـ اسبانيا ـ في مباريات كأس العالم الثانية عشرة لكرة القدم . حتى ترتفع الراية العربية خفاقة عالية في اعظم مهرجان رياضي بعد الالعاب الاولمبية في الكرة الارضية .. كرة القدم .. وكأس العالم الذهبية . ■■

عادل شريف

صلاة

■ قال لي صديق مرة : أنا لا أصلي كما تصلي « فقلت : « كيف تصلي » ؟ فقال : « على البيانو » .

الهدية تعبير عن

علاقة انسانية

رافض الهدية :

اما لئيم .. او بخيل



الهدية

موضة العصر .. أم تقليد تراثي ؟

بقلم : الدكتور فخري الدباغ

يقول شعر اسكندنافي قديم :

الناس الكرماء والابطال ..

لهم الحياة الفضلى ،

انهم لايخافون ابدا ...

لكن الجبان يخاف من كل شيء ،
والبخيل يخاف الهدايا دائما ..

يتبادل الناس الهدايا في جميع بقاع العالم : في الحضارات المتقدمة جدا ، وفي أبسط المجتمعات البدائية . واكتسبت الهدايا نوعا من التقليد والعادات والاعراف بحيث غدت وكأنها جزء حيوي من حياتنا الاجتماعية . بل ان من لايتبادل الهدايا يدخل في باب الغربة والشذوذ ، كمن يعتكف وينعزل عن العالم ، أو كمن يؤمن بمبدأ دخيل أم غريب أو منحرف ..

ولعل حكم الهدية وحتمية ادائها يثقل على بعض الناس ويحرجهم لحلولها او وجوبها في اوقات عسرة او مؤلمة أو مفاجئة ، فيتولد لديهم شعور بالتلكؤ والتباطؤ أو التشكيك في ضرورتها . ثم ينقلب ذلك الشعور احيانا

الى اتخاذ موقف نفسي حانق يهاجم مبدأ تبادل الهدايا ويعتبرها عادة كريهة او بدعة نزقة او تقليدا باليا يدل على النفاق او التباهي او الدعاية او التسابق الكاذب . وقد يصح ذلك في احيان متفاوتة ، اذ كثيرا ما يفسد الانسان المعاصر التقاليد القديمة بابتكارات حديثة او يطمس معالم واصولا عريقة باضافات او تعديلات سمجة وسخيفة ،لكن ذلك لن يغير ما في الحقيقة من معنى ومدلول .

ان الانسان المعاصر يتصرف وكأنه مخلوق اليوم والساعة ، فيستهجن ويستغرب من عادات متغلغلة في مجتمعه عمق التاريخ ـ تاريخ الجنس البشري ـ وتاريخه هو . وتستغرب اذا قلنا ان الهدايا التي تبدو وكأنها « موضة العصر » ماهي بالحقيقة الا عميقة الجذور وذات اسس واصول اخلاقية ونفسية ودينية واقتصادية منذ آلاف السنين .

لذلك استهوتني مسألة تبادل الهدايا في مناسبات الاعياد والافراح والزواج والولادة وحتى في المصائب والاحزان والاحداث المؤلمة . ورحت ابحث في تاريخ وسيكولوجية وانثروبولوجية الهدية منذ اوائل التاريخ وحتى يومنا هذا .. وعثرت على طرائف وحقائق مفيدة في كتب تاريخية واجتماعية تبحث في عادات الاجناس والاعراق والثقافات القديمة .. اضافة الى التراث العربي والاسلامي ..

للهدية رموز وطقوس

كان الانسان البدائي يعتقد ان الشيء المعطى كائن حي له روح وفيه تكمن قوة تحركه وترتبط بصاحب الهدية ، فاذا اعطاه الى شخص آخر فان الروح الكائنة فيه تضمن رجوعها اليه بعدئذ او رجوع ما يعادلها من قيمة . وهذا هو الضمان الاول برجوع الهدية بما يقابلها او يعادلها على الاقل .

الهدية في القديم تملك اذن روحا مؤثرة .. فهي ليست شيئا جامدا او تافها .واذا كانت عقيدة الانسان القديم الجاهل خاطئة بالطبع ، فان شعور الانسان المعاصر يزيد بصورة غير مباشرة هذا الاتجاه ، لانه يتوقع من الهدية ان تحدث مفعولا في الجانب المقابل المهداة له . وهذا التأثير النفسي لا يمكن ان تجرده من المعنى الاولي البدائي ـ وهو امتلاك الهدية للروح او للتأثير .

ان وجوب العطاء اذن يحتم وجوب الرد . فالعطاء دليل التقرب الى الشخص المعطى باعتباره متداخلا في صاحبه الاول ومتكاملا معه . ووجوب العطاء ـ الذي هو دليل المحبة يستوجب قبول الشيء المقدم مهما كان صغيرا او تافها ، لان العبرة في القصد والنية والوجدان . فقبول الهدية تعبير عن قبول المحالفة والمشاركة والقربى . والامتناع عن العطاء او الامتناع عن الاخذ معناه رفض المشاركة والتحالف ، وهو في حكم اعلان الحرب الخاصة او العامة ، او بمثابة الجبن والبخل كما رأينا في مقطع الشعر الاسكندنافي في اول المقال . وهنالك قصيدة طويلة من (الهفاماليا) لقبائل (إدا) الاسكندنافية ، اخترت منها هذه المقاطع التي تقول : يجب ان يكون الانسان صديقا لصديقه

وان يرد الهدية بهدية

يجب ان يقابل الضحك بالضحك

والزور بالكذب ..

انك لتعلم ان كان لك صديق تثق فيه

وتريد أن تحصل منه على نتيجة ..

يجب ان تمزج روحك بروحه .. وتبادله الهدايا

وتلزم غالبا بزيارته ..

الهدايا .. والقرابين

والقرابين التي كان يقدمها الانسان القديم للآلهة كانت بالحقيقة أشبه بالهدية لوجه الآلهة والطبيعة . وكان اتلاف الشيء واهداره (كالقائه في البحر او احراقه) يعني الحصول على الامن والسلام وكأن في تلك الاشياء أرواحا حية ذات تأثير على حياة الانسان . فالقرابين تبعد الارواح الشريرة والسوء بصورة عامة ، وتمنع لعنة الناس وتصد حلول المصائب على صاحب القربان .. وكان القربان واجبا على الانسان تجاه الآلهة . والاحسان ماهو الاعطاء للناس لوجه الآلهة ، اي ان الاحسان قربان غير مهدور . وهو مقبول لدى الآلهة كمشاركة الاغنياء للفقراء في ثرواتهم ، وهي أسلوب لتحقيق مبدأ العدالة ، كما انه اساس الصدقة التي لاتعتبر منة او فضلا بل واجبا .

وفي سورة الاحقاف (جاء في القرآن الكريم : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وماكانوا يفترون » .الآية ٢٨ .

ويقول المثل الماووري : « بقدر ماتأخذ قدم عطاياك ، وسوف تكون سعيدا جدا .. »

وللتأكيد على (روحية) الاشياء المهداة ، فان بعض القبائل ـ وخاصة قبائل الماووري البدائية maoris ـ تعتقد أنها اذا احتفظت بهذه العطية دون رد هدية بالمقابل فيمكن ان يصيبهم منها شر خطير لحد الموت . ويعني ذلك أيضا ان الشيء المأخوذ ليس جامدا ، فالهدية تتبع معطيها على الرغم من تخليه عنها ، ويظل لصاحبها حق على المرسلة إليه (المنتفع بها) .

فتناوب وتسلسل تبادل الهدايا في الحفلات والمناسبات يصبح المحور الاساسي المتحكم في الدورة الالزامية للثروات والتعويضات والهبات بين الناس ـ كما هي الحال بين قبائل (الساموا) Samoa ونيوزيلندة New Zealand .

لقد بلغ معنى الالتزام والشرف والطقوس الدينية أوجه في عهد السومريين والبابليين والفراعنة والهنود القدامى .

الهدية أصل التجارة

وبتتبع وتدرج هادىء نكتشف شيئا آخر في تبادل الهدايا . فالهدية التي لها روح مؤثرة ، والعطاء (الواجب) من صاحب الهدية والأخذ (الواجب) من المهدى له يترتب رد حسن واهداء مقابل في مناسبة اخرى ..

وهكذا اصبحت الهدايا نوعا من « العقد التجارى » العرفي : اى عطاء ـ واخذ ـ ورد . ويتضح ذلك في عدة مجتمعات بدائية في آسيا والشرق الاوسط وأوربا . فالمبادلات والعقود كانت تتم بشكل هدايا (نظريا) ، وبصورة اختيارية (ظاهريا) ، لكنها تقع وتتبادل نفسها بالاخذ والرد بصفة الزامية (عرفية) .

وهكذا ، فان مجتمعات ماقبل التاريخ وجدت لها نظما (دينية ، قضائية ـ اخلاقية)حددت بصورة تقريبية أشكالا للانتاج والاستهلاك فاصبحت تمتلك بذلك جانبا سياسيا واقتصاديا ويترتب على ذلك ان يصبح تقديم شيء ما الى شخص معين بمثابة تقديم هذا الشيء نفسه للذات نفسها ـ ومن هنا يتحتم التبادل . وهكذا تتحرك العجلة الاقتصادية تحت غطاء حقيقي من شعور ديني واخلاقي . ففي قبيلة (بولينيزيا) اتخذت الهدية شكل (التعاقد) المنسق او بشكل القرض الكلي .

ويكمل النظام الفطرى الأول للاقتصاد بوجود ثلاثة التزامات تتعلق بالتنظيم الاجتماعي الاقتصادى عند عشائر (بولينيزيا) مثلا ، هي : .

أ ـ لزوم قبول الهدية او القيام بكرم الضيافة (لأنهم ليسوا احرارا في الامتناع عنها ، وليسوا احرارا في رفضها ...) فكلمة (تاهو) tahu البولينيزية ترمز للطعام بصفة عامة ، وتعنى ايضا « عدم احتقار الغذاء » لمن يرفض الطعام المقدم له .

ب ـ لزوم العطاء . فالامتناع عن العطاء واهمال الاستضافة يعد في حكم الرفض او النفور ، وهو مايعادل إعلان الحرب باعتباره رفضا للمشاركة والتحالف .

ج ـ لزوم رد الهدايا ضمانا لاستمرارية الروح الكامنة في الاشياء .

ان قوانين العقود الرومانية والجرمانية القديمة تستمد جذورها من فكرة التبادل ، اذ ان نظام القرض يضع الدائن في موقع افضل من المدين ويجعله قادرا على استبعاد وحصر المدين (المحتاج اليه) . ودعى هذا النظام الرومانى بال (Nexum)والجرمانى بأل(wadium)كما يعتقد ذلك العالم (هوفلين) Huvelinالذي يربط كل ذلك بفكرة رمزية عن السحر وروحية الهدية والدين .

اما شرائع السومريين والبابليين والهنود القدامى فتقاربها عموما وليس تفصيلا ، لكنها لاتنفصم عن فكرة حتمية التبادل والعقود في الهدايا والقرابين والديون ، لأنها في المجتمع البدائي الأسبق كانت تستند على فكرة أن المتعاملين مع بعضهم بالأخذ والعطاء يعتقدون ان لكل منهم نوعا من حق الملكية فيا يملكه الآخر ، ووجوب رد الهدية نهاية الدورة او بداية جديدة للتبادل ـ اى الدورة التالية .

أخلاقيات الهدايا

بما ان الهدية اكتسبت صفات دينية ـ اجتماعية ـ اقتصادية تدخل في تأطير وتسيير سلوك الانسان في المجتمع البدائي ، ثم المتحضر ، فقد اصبح للعرف والتقليد « اخلاقيات » ومبادىء مترتبة عليها ونابعة منها بحكم النظام او القيمة او القانون .

وهكذا وجدنا في قبائل (ادا) الاسكندنافية .. وفي رومانيا ، والمانيا الجرمانية ، وفي سومر وبابل والهند والصين ، وفي جزر آسيا الجنوبية الغربية وافريقيا . ففي مجموعة قبائل بولينيزيا يتم تبادل الهبات والهدايا بين الاسر والعشائر والقبائل في عدة مناسبات مثل : الولادة .. والختان .. والمرض .. وبلوغ الفتاة سن الرشد .. والتجارة .. وكذا مناسبات العزاء والمصائب .

ثم تطور الاحسان (التعاقدي) الى مفاهيم السخاء والكرم والشرف والمكانة والنفوذ كوسيلة للمبادلة واصول الكرم عند قبائل (الاندياس) و (ميلانيزيا) وبعض قبائل افريقيا ،ومنها تطورت الحفلات والضيافات والزيارات وتقديم الهدايا وورودها في مناسبات اخرى كما يجري في (كاليدونيا الجديدة) اثناء حفلات (البيلو ـ البيلو) Pilou — Pilou ، وبين قبائل جزر (التروبرياند) اثناء حفلة (الكولا) Kola ..

ومنها تطورت ايضا مفاهيم الشرف وتأثيره في الحياة الاجتماعية وفي مفهوم الثقة والائتمان كما تجدها في شمال غربي امريكا . فالتبادل كان بالمقايضة ولم تكن هناك (مداينة) الا بعد ان تعقدت الحضارة .

ان اخلاقية الهدية أدت الى ترسيخ تلك المفاهيم والقيم المشتقة من معنى الشرف والكرامة وتأثيره كضمان قوي لرد ما قدم من هبات الى جانب قوة الأشياء الروحية . ولذلك ظهرت العقوبات الاجتماعية لمن لاعهد له ولايقوم بالوفاء بديونه ، اذ تحددت مسبقا في المجتمع البدائي واجبات ثلاثة هي : العطاء ـ والاخذ ـ والرد .

الهدية عند الاسلام والعرب

اذا كان الاهداء والهبة ظاهرة نفسية ـ اجتماعية ، فهي ايضا صلة ربانية تربط الانسان بالخالق والكون وتفرز وتصنف العلاقات الانسانية ودرجاتها . ولقد وردت كلمات ومرادفات متنوعة في القرآن الكريم تدل على الاهداء ، منها مثلا :

١ ـ هدينا : « .. ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا » ـ سورة الانعام (٨٤)

٢ ـ هدية : « .. واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » ـ سورة النمل (٣٥) .

« فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون » ـ سورة النمل (٣٦) .

٣ ـ ووهبنا : جاءت في تسع آيات كريمة (مريم ، الانبياء ، العنكبوت) .

٤ ـ وهبت : « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي » ـ الاحزاب (٥٠)

٥ ـ الوهاب : جاءت في ثلاث آيات كريمة .

٦ ـ هب : جاءت في سبع آيات كريمة « وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم » الصافات ـ (١٠٠) .

٧ ـ يهب : جاءت في آيتين .

٨ ـ قربانا : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الاخر .. » ـ المائدة (٢٧) .

كل ذلك يدل على ان الهبة يمكن ان تأتي من الله ، ويمكن ان تتم بين البشر ، وانها دلائل النبل والتقدير أو وسيلة لاستبار نفوس الآخرين وردود افعالهم وتصرفاتهم . فملكة سبأ تختبر الملك سليمان بهديتها ، وتهب المرأة نفسها زوجة لمن تحبه وتحترمه شرعا ، ويختبر الله عباده او يكافئهم بهباته .

وفوق كل ذلك حض على الكرم والسخاء . فالهدية في حكم الاسلام والعروبة ليست عادة آلية صامتة ، بل عامل حركي في العلاقات الاجتماعية لان السخاء يسمو بالعلاقات الاجتماعية ،اما الانغلاق ورد الهدية فهو دليل البخل او التعاسة الروحية .

وفي السيرة النبوية ذكر لحوادث كثيرة كان يتقبل فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الهدايا مهما كان نوعها ـ تواضعا ومودة منه ـ ، ولم يرد هدية الا لمشرك . فعن علي (رضي الله عنه) ان النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل هدية احد ملوك كسرى (ويقال احد التابعين له) ، وان الملوك اهدوا اليه فقبل منهم ، اما هدية المشرك فكانت مردودة . فعن عياض بن حمار انه اهدى للنبي (صلى الله عليه وسلم) هدية (وقيل ناقة) فقال : « اني نهيت عن زبد المشركين » .

وقال تعالى في كتابه الكريم « واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله اذا تردى » ـ الليل (٨) . ويروى جابر (رض) : « وكفى بالمرء شرا ان يحتقر ما قرب اليه .. » و « هلاك بالقوم ان يحتقروا ما قدم اليهم » .

اذن ، فتعاليم الاسلام والعروبة اضفت على تبادل الهدايا الذي كان عادة قديمة وعريقة مسحة اخلاقية

واضحة المعالم من علو الشأن والنبل والواجب الديني ، واكدت ان الهدية والسخاء ورحابة الصدر يمكن ان تذلل كثيرا من الشدائد او التباغض الاجتماعي علاوة على انها يمكن ان تكون وسيلة لزيادة التماسك والمحبة الانسانية .

هدايا العصر

.. في التقاليد والاعراف الهندوسية القديمة ان العطاء والهبة (الطعام) من ضرورات الخير والبقاء . ان الارض وهي تخاطب الشمس (البطل راما) تقول :

استقبلني (يامن سيتلقى الهبة) ..

أعطني (ايها المعطي ..) ،

فباعطائي ستتكون من جديد .

اما (انا) آلهة الطعام نفسها فتقول الشعر التالي :

ان من يتناولني قبل تقديمي للآلهة ولارواح الوسي ،

ولاسياده وضيوفه .. ، يقضي علي تماما

فهو في جنونه هذا يبتلع سما ..

فاقضي عليه ويقضي علي في وقت واحد

وكل ذلك دليل على اهمية الكرم والعطاء ، فان عدم دعوة الآخرين للمشاركة في طعام معناه قتل جوهره واتلافه في ذاته ويعني اتلافه بالنسبة للاخرين . ويعتبر الاحسان جارحا للشخص الذي يتقبله . وتتجه كافة الجهود الى الغاء السيادة غير المباشرة (والمؤذية) للمحسن الغني . فرد الدعوة امر يقتضيه « الذوق السليم » .

بقيت هذه الاخلاقيات حتى يومنا هذا . فالى قبل خمسين عاما في المانيا وفرنسا كانت القرية بأكملها تشارك في حفلة الزواج ، اما تغيب احد الافراد فيعد بادرة سيئة ودلالة (الحقد) والاذى السحري . وفي فرنسا ، عند ولادة طفل يحمل كل واحد من اهل القرية معه البيض او هدايا رمزية ..

فاذا ما عدنا بعد هذه الجولة السريعة في الحضارات والمجتمعات القديمة الى حاضرنا ، انتبهنا الى اشياء كثيرة غابت عنا ، هي ان معظم ما نؤديه اليوم من « اعراف الهدايا » وتقاليدها هي اشكال متطورة ونابعة من تقاليد قديمة جدا . فالمثل العربي الذي يشير الى مقابلة المثل بالمثل .. او معاملة الناس بمثل ما يعاملونك به .. والخير والشر بالشر ، ماهي الاتعبير جديد لروحية التبادل والتقرب الوجداني من الناس .

لكننا اليوم في موقف احسن بكثير من موقف اجدادنا ، لان الهدية اليوم تجردت وانسلخت عن المفهوم التجارى التعاقدى . فللعقود والديون قوانينها الخاصة ، لكن الهبة اليوم تجردت عن روحيتها المؤذية ورمزيتها ككائن حي .. والهدية اليوم لم تعد استعبادا ولا تهديدا ، بل اصبحت تعبيرا انسانيا عن المحبة والوجدان والتقرب . فلا يوجد انسان معاصر يمكن ان يصبح تابعا او عبدا ذليلا لصاحب الهدية . وفي سورة (التغابن) من القرآن الكريم آيات عن وظيفة الهدية الانسانية ..

فماذا تبقى اذن من رمزية ومدلول لهدية العصر ! انها استمرارية الترابط الانساني لاغير دون تكليف او تبذير . فالرسالة (والكارت) الجميل وباقة الورد تعوض عن معنى الهدية . وعطاؤها في مناسبتها واجب ، لكن من يرفضها لاشك انه ـ كما قال الشعر الاسكندناقي قبل مئات السنين ـ لاشك انه بخيل او جبان .. او لنقل لئيم يعلن العداء . ■■

د . فخري الدباغ

استاذ الطب النفسي

كلية طب الموصل ـ العراق .

وبقيت الصورة !

● كان الرسام الهولندي « رامبراندت » من عشاق الفن الاسلامي ، وقد اقتنى مجموعة كبيرة من التحف الاسلامية . وعندما اضطرته ظروفه المالية الى بيعها ، قام بعمل رسوم دقيقة لها .

من قصص الامراض الوراثية

المعرفة شيء هام والامل هو الأهم !

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

عندما نقاسي من مرض ما ، تمتد معاناتنا فترة من الزمن ، قد تكون أياما أو اسابيع ، وقد تطول أشهرا أو سنوات . غير أنها لا تعد شيئا كبيرا امام المعاناة من الامراض الوراثية ومشاكلها ، التي تمتد عبر أجيال وأجيال وأجيال ، وتبقى كالسيف المسلط تهدد العائلة لدى كل حمل وعند كل ولادة ، بل وتهدد الروابط العائلية والحياة الزوجية في صميمها .

ولقد أصبح الاختصاص في الامراض الوراثية ميدانا هاما من ميادين الاختصاصات الطبية ، يزداد غنى كل يوم بالابحاث العلمية الجديدة والاتساع الكبير في المعارف الطبية . وكل ذلك يؤدي الى تطور المشورة الوراثية .

ويقصد بالمشورة الوراثية عرض مبسط للمعلومات المتوفرة عن مرض وراثي ما ، يوضح أسرار هذا المرض للأهل ويبين لهم احتمالات تكرر حدوثه في حمول تالية أو لدى أقرباء المريض . ومساعدتهم على رسم خطة العمل المناسبة حسب ظروفهم الخاصة .

وهنا سوف أعرض بعض حالات وراثية حولت الي لابداء الرأي فيها ، وهي بمجموعها غير نادرة ، غير انها قد تثير لدى بعض القراء الملل والسأم ، لكنها لا تفتأ تذكرني بأهل المرضى وقد ارتسمت على وجوههم علائم القلق واليأس ، وقد احمرت منهم العيون وانهمرت على وجناتهم الدموع ، وتذكرني بالوقت الطويل الذي قضيته مع كل عائلة منصتا أحيانا ومشيرا حينا . أليست مهنة الطبيب ان يواسي مريضه ويمسح دمعته ؟ .

فمن هذه الحالات اذكر قصة زوجين في حوالي الثلاثين من العمر ، وهما ابنا خالة ، راجعاني وقد توفي لهما ثلاثة اطفال بعيد الولادة ، وكان سبب الوفاة في كل مرة مرضا نادرا يسمى مرض « الكلية عديدة الكيسات » . ولم تكن في عائلتهما حالات مماثلة من قريب أو بعيد . وكانا يحملان العديد من نتائج الفحوص الطبية الضرورية ، والكثير من الصور الشعاعية ، ونتائج تشريح جثتي طفلين من اطفالهما الثلاثة . وكان ذلك كله يشير الى المرض الخطير ، مرض الكلية عديدة الكيسات .

وقد خصصت لهذين الزوجين وقتا طويلا كي يفرجا عن مكنونات صدريهما ، ثم شرحت لهما ان هذا المرض ذو أنماط مختلفة من الوراثة ، غير انه يرجع في حالتهما كونه ذا وراثة مقهورة جسمية ، ويعني ذلك ان احتمالات تكرره

هي ٢٥٪ في كل حمل ، فلا تعني ولادة طفل مريض ان الثلاثة الآخرين سيكونون طبيعيين ، كما شرحت لهما انه لا يمكن في الوقت الحاضر اجراء اختبارات اثناء الحمل لتشخيص هذا المرض بصورة اكيدة ، وبالتالي ليس امامهما سوى المحاولة من جديد لانجاب طفل سليم ، خاصة وان الاطفال المرضى لا يعمرون طويلا . وأذكر أن هذين الزوجين قد خرجا من العيادة وقد خفت همومهما قليلا ، وعادا بعد اكثر من سنة وهما يصحبان طفلا جديدا اثبتت الفحوص انه سليم تماما من ذلك المرض . ولا تسل عن فرحتهما بهذا الطفل ، رغم ان سيف المرض الوراثي سيبقى مهددا لهم في كل حمل تال بنسبة ٢٥٪ . ولا تسل عن فرحتي ـ وأنا الذي أومن ان الطبيب يجب ان يضع عواطفه جانبا ـ من قال ان الطبيب لا يفرح كما يفرح مريضه ؟

وثمة حالة اخرى ، زوجان راجعاني ولديهما ثلاثة اطفال : بنت طبيعية وطفلان ذكران مصابان بضمور عضلي مترقي . هذا المرض الذي تبدأ أعراضه بعد السنة الاولى أو الثانية من العمر ، فبعد أن يكون الطفل قد بدأ بالمشي والركض وصعود الدرج ، تراه ينتكس ويصبح شبه مقعد مع الايام ، حتى أنه قد لا يستطيع القيام بأبسط الجهود العضلية .

وقد شرحت للأهل بعض المعلومات المبسطة عن هذا المرض الذي ينتقل عن طريق الامهات ويصيب قسما من الذكور من ابنائهن . كما ان قسما من البنات قد ينقلن هذا المرض في المستقبل لابنائهن ايضا . وذكرت للزوجين انه توجد فحوص بسيطة يمكن باجرائها احيانا معرفة ما اذا كانت اخوات المريض أو خالاته حاملات لهذا المرض أم لا . وتشبه وراثة هذا المرض وراثة مرض الناعور أو الهيموفيليا ، وهو وجود اضطراب في تخثر الدم لدى الاطفال المصابين . ويذكر التاريخ قصة امرأة حملت هذا المرض عبر ممالك اوروبا ، اذ نقلته الملكة فكتوريا ملكة انكلترا الى بعض بناتها اللاتي تزوجن من ملوك اسبانيا وروسيا . وكان من ضحايا هذا المرض الابن البكر لنيكولاس والكسندرا ، قيصر روسيا وزوجته ، اللذين لجأا بحثا عن شفاء هذا المرض الى راسبوتين الراهب الماجن الخليع ، فكان هذا الأمر اسفينا دق في نعش امبراطورية روسيا القديمة .

وأعود الى قصة الزوجين السابقين ، فقد رأيا بعد تفكير وتدبر ان يتوقفا عن الانجاب ، وألا يتحملا المخاطرة من جديد بانجاب طفل ثالث مريض .

ولا بد ونحن نتكلم على الامراض الوراثية من الكلام على المنغولية ، وهو غالبا مرض غير وراثي ، غير انه احيانا قد يكون وراثيا . ويتصف هذا المرض بتخلف عقلي وصغر في الرأس وضعف في العضلات وبعض مظاهر اخرى كاتجاه الفتحة العينية نحو الاعلى ، وضخامة اللسان وانخفاض سرج الانف ومظاهر أخرى .

وعادة يراجعنا الأهل وفي ذهنهم سؤال مهم وهو : هل سيتكرر هذا المرض في الحمول القادمة ؟ والجواب ليس سهلا . بل يقتضي اجراء بعض الفحوص ، كفحص الكروموزومات لدى الطفل ، وانطلاقا من هذا الفحص يمكن التوجه الى المشورة الصحيحة . وبالتالي يمكن الوقاية من هذا المرض بالاسقاط العلاجي اذا تم تشخيصه بصورة اكيدة في بداية الحمل . (وأذكر أننا قد أجرينا العديد من هذه الفحوصات في جامعة واشنطن في سانت لويس ، ولم نصادف مرة واحدة جنينا مصابا بهذا المرض . وبالتالي لم نتعرض للموقف الصعب وهو هل يسقط الجنين أم لا .)

وإن أنس فلن أنسى زوجين راجعاني ومعهما طفل مصاب بمرض نادر هو بيلة الفنيل كيتون . وهو واحد من مجموعة امراض الحموض الامينية .

ونظرا لأهمية هذا المرض وامكانية علاجه ، يتم في الولايات المتحدة فحص كل طفل وليد على الاطلاق بحثا عن هذا المرض ـ وقد كان الطفل الذي راجعني في حالة تخلف عقلي ومظاهر أخرى متقدمة للمرض حصلت نتيجة تأخر التشخيص . وقد توفي هذا الطفل فيما بعد . وقد شرحت للأهل احتمالات تكرر حدوث هذا المرض . وعندما أنجب الزوجان ثانية أجرينا للطفل الجديد الفحوصات اللازمة التي أثبتت وجود هذا المرض لدى الوليد أيضا ، فكان ان عولج ببعض مركبات الحليب الخاصة التي جعلت الطفل ينمو بصورة طبيعية وكأنه ليس مصابا بهذا المرض . مثبتا ان كون المرض وراثيا لا يعني بالضرورة انه ليس له علاج .

وثمة حادثة اخرى ، فقد ولد لزوجين طفل مصاب باتشقاق في الشفة العليا وشراع الحنك ، وقد فحص هذا الطفل من قبل بعض الاطباء الذين ذكروا للأهل ان هذا المرض وراثي وقد يتكرر حدوثه في الحمول القادمة . وقد أثر هذا الامر على الحالة النفسية للوالدين . وأصبحا على شفير الطلاق . وعندما راجعاني وقمت بفحص الطفل وجدت ان حالته ليست انشقاقا معزولا في الشفة وشراع الحنك بل هو جزء من مرض نادر هو تثلث الكروموزوم ١٣ (أي وجود ثلاثة ازواج منه عوضا عن زوجين كما هي الحال لدى الطفل الطبيعي) . وهو مرض لا يعمر المريض فيه طويلا . وغير وراثي ويندر جدا ان يتكرر حدوثه . وقد اقتنع الوالدان بذلك . وأنجبا فيما بعد طفلا طبيعيا ، وهكذا خففت المشورة الوراثية من همومهما وأنقذت حياتهما الزوجية .

واكتفي بهذه الامثلة القليلة ، ناصحا الاهل أن يبحثوا دائما عن النقاط الايجابية في مثل هذه الامور . وعلينا كأطباء ألا نضعف أو نستكين امام الامراض . فما لا نستطيع تحقيق الوقاية منه فقد نستطيع ـ باذن الله ـ علاجه . وما لا نقدر على علاجه جذريا ، فلا أقل من علاجه عرضيا . « أليس لكل داء دواء يستطب به » ، كما يقول الشاعر ؟

المرأة والأسرة

من أجل أبنائي

بقلم : منير نصيف

الناس يختلفون .. البعض يعيش رسالة ، وفريق يهب حياته للخير .. والغالبية تكافح من اجل تحقيق أمانيها في الحياة .. وكلهم في الطريق سائرون .. المهم ان يصل المرء الى تحقيق شيء .. وهو لن يحقق شيئا كما يقول إيمرسون ، الا اذا احس بالآخرين وتحمس لشيء .. لقضية .. لشخص معين او اشخاص كثيرين ...

هذه خمس قصص من الحياة .. بعضها لأناس خرجوا ولم يعودوا .. وبعضها لأناس خرجوا من الحياة التي الفوها ثم اعادهم الحنين اليها ..

والناس كالشجر .. الشجرة الكبيرة العجوز التي امتدت جذورها في الارض وتشعبت ، اذا اقتلعوها من مكانها ماتت .. والشجيرة الصغيرة التي تجد الماء والغذاء والهواء على السطح انها في اي ارض تعيش ..

منذ سنوات ليست بعيدة ، ربما تزيد على نصف القرن بقليل ، فوجئت احدى المدن الصغيرة في دولة من دول العالم النامي ، بفتاة جميلة صغيرة تطرق الابواب باحثة عن مكان تبيت فيه ليلتها .. وكان واضحا انها غريبة على هذا البلد ، فهي لا تتحدث لغة أهله ! وسألوها من اين جاءت وماذا تريد ؟

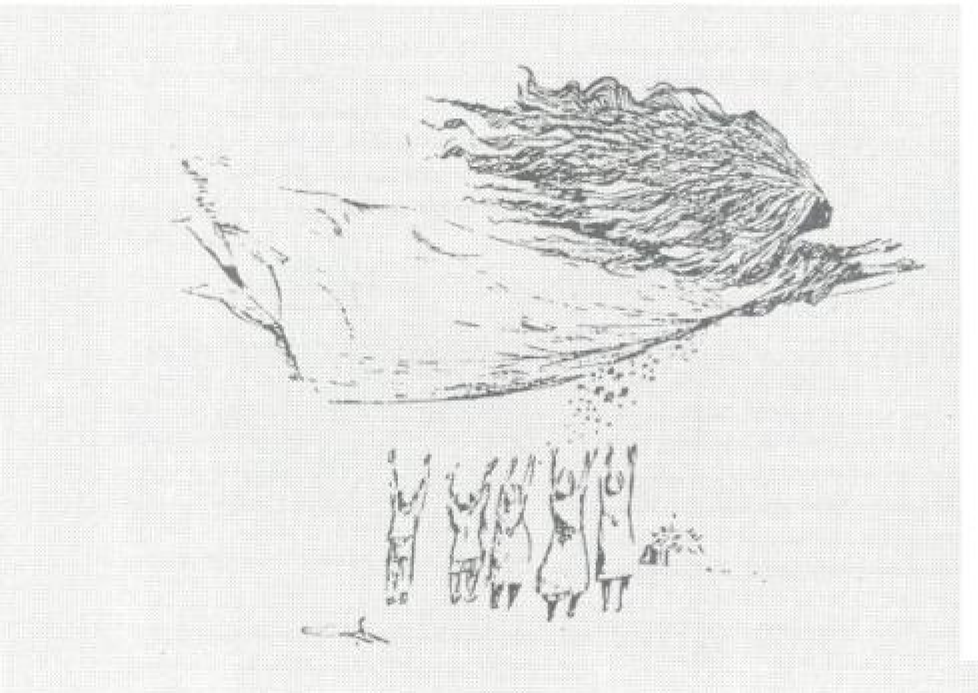
ولم تمض ايام قليلة حتى كان اهل البلدة كلها يعرفون قصتها .. لقد جاءت من آخر الدنيا ، تركت اسرتها ، وخرجت من بيت والديها تحمل حقيبة صغيرة وضعت فيها ملابسها ، وركبت البحر ، وجاءت تحمل في صدرها قصة حب كبير عاشت معها شبابها وشيخوختها .. ولم تعد الى الباب البعيد الذي خرجت منه أبدا ، فقد وجدت الحياة التي كانت تبحث عنها في احضان المدينة الصغيرة ومع اهلها ، هنا في هذه الارض الجديدة التي تبعد ألوف الأميال عن الشاطيء الذي ودعته وهي لا تدري انها لن تراه مرة اخرى !

وفي هذا العالم الجديد المجهول افتتحت الفتاة الجميلة الصغيرة ملجأ للايتام ، بدأ في حجرة وانتهى في مبنى كبير مازال يحمل اسم « الأم » التي كانت قلبا رحيما لكل طفل وطفلة ألقى القدر بهما الى ظلام الحياة !

وقالوا : « لابد انها عرفت معنى ان يكون الطفل بلا أم ولا أب .. لابد انها كانت هي ايضا يتيمة الابوين ! »

ثم اكتشفوا انها تنتمي الى اسرة طيبة ، وان والديها كانا يعرفان كل شيء عن هذه الرغبة التي كانت تتملكها ، وعن الصوت الذي كان يدعوها الى الذهاب الى هذا المكان البعيد من اجل هؤلاء الصغار الذين حرموا من اجمل متع الحياة .. من حنان الأبوين .

المهم انها عاشت وماتت في المكان الذي أحبته وسط « ابنائها واحفادها » !



رحلة اخرى مع الكتاب !

وفي قصة بنجامين فارجيون رئيس تحرير احدى اكبر صحف نيوزيلندة منذ اكثر من قرن من الزمان ، رحلة من نوع آخر .. فهو لم ينس ابدا الباب الذي خرج منه ، رغم حياة الحرمان التي عاشها قريبا من هذا الباب ، فعند عتبته وحوله وقريبا منه كان اول لقاء له بالحياة التي أحبها !

لقد جاء فارجيون الى لندن صبيا صغيرا ، وكان مولعا بالقراءة ، ولكنه كان فقيرا معدما يعرف تماما ان لا سبيل الى الوصول الى الكتب التي يحلم بها ، فهو لا يملك ثمن وجبة غذاء فاين له بثمن الكتاب ؟ كان يحلم ، وكان يصحو من حلمه دائما وهو يفتش في جيوبه عن الثمن الذي سيدفعه لصاحب الكتاب الذي اعجبه !

ولكن حرمان الصبي الصغير لا يلبث ان يزول ، هكذا فجأة عندما يجد قدميه قد تسمرتا بالأرض وهو في طريق ذهابه الى عمله في الصباح .. ففي النافذة الزجاجية التي امتلأت بالكتب ، رأى كتابا مفتوحا .. ولم يضيع وقته ، فقد راح يقرأ حتى وصل الى نهاية الصفحتين ، واستأنف مسيرته وهو يتمنى لو ان يدا امتدت لتقلب الصفحة !

وفي اليوم التالي ، وجد الصبي ، وهو ذاهب الى عمله ، كعادته كل صباح ، وجد قدميه تذهبان به ، دون ان يشعر الى نفس المكان حيث النافذة الصغيرة التي وقف أمامها بالأمس يقرأ .. ونظر الى الكتاب ، ولم يصدق عينيه .. لقد امتدت يد بالفعل وقلبت الصفحة .. ومضى يقرأ ويكمل ما قرأ حتى وصل الى نهايتها .

ومضت الصفحات تقلب .. والصبي يقرأ حتى وصل الى نهاية الكتاب .. في هذا اليوم كانت المفاجأة .. لقد خرج اليه صاحب المكتبة العجوز ، ومد اليه يده مصافحا وقال له : « أنت ضيفي ياصديقي الصغير .. وتستطيع منذ الآن ان تدخل المكتبة وتقرأ اي كتاب يروق لك في أي وقت بلا مقابل ! »

وكبر الصبي ، وسافر الى نيوزيلندا .. ونجح واصبح واحدا من اكبر الصحفيين والكتاب فيها ، ولكنه لم ينس صاحب المكتبة الذي فتح له قلبه ، وسمح له باطلالة عبر نافذة مكتبته على عالم الفكر والمعرفة .. لقد عاد اليه يبحث عنه ولكنه كان قد ذهب في رحلة اللاعودة .. ووجد ابنه يجلس في مكانه .. وقدم له نفسه وروى له قصته مع أبيه .. ودهش عندما وجده يعرف كل

تفاصيلها .. وسأله : « هل عدت لتقرأ ؟ » .

قال : « بل عدت لأرد دينا طوق عنقي .. هذه هدية صغيرة للمكتبة .. انها مجموعة الكتب والمؤلفات التي وضعتها اثناء السنوات التي غبت فيها عنكم ! » وكانت كلها مهداة للاطفال الذين عرفهم في صباه .. كل الاطفال !

رماد الحياة

ومع الصبية الصغيرة « ليز توماس » التي عرفها العالم من خلال كتابها « رماد الحياة » نعيش رحلة اخرى غريبة لفتاة لم تكن تتجاوز بعد عامها الرابع عشر عندما بدأت قصتها مع الحرب والدمار .. في هذه السن المبكرة والحرب في فيتنام تفتك بالآلاف وتحرق من حولها كل شيء .. كانت « ليز » تتسابق في الحصول على الصحف التي تصل الى مدرستها في مقاطعة ساسكس بانجلترا وكانت تقرأ ولا تملك الا البكاء وهي ترى من القتال ابشع صورة !

كانت الصبية الصغيرة تحب الحيوانات ، والجياد منها بصفة خاصة . وكانت تعنى بها وترعاها .. ثم اكتشفت ان هناك من هم أولى بهذا الحب .. البشر مثلها ، وذهبت الى احد المستشفيات لتتعلم شيئا .. اي شيء عن رعاية المرضى . وعندما أحست أنها تعلمت شيئا ، تقدمت الى المنظمات التي تتلقى طلبات المتطوعين للسفر الى فيتنام ، ولكنها صدمت عندما رفضوا طلبها لان سنها مازال صغيرا ..

وقضت « ليز » عاما كاملا تنتظر .. واخيرا فوجئت باحدى الجمعيات الخيرية الصغيرة في بريطانيا تبلغها بقبول طلبها .. وسافرت ليز الى فيتنام .

وفي شهر سبتمبر من عام ١٩٧٢ ، كانت الفتاة حيث ارادت ان تكون في قلب شوارع سايجون والحرب المريرة المدمرة تدخل مراحلها الاخيرة .. وعاشت « ليز » ثلاث سنوات مع الاطفال الذين فقدوا آباءهم في الحرب ، ومع النساء اللواتي سقطن على الأرض ولم يجدن يدا واحدة تمتد لتعيدهن الى الحياة الكريمة ، ومع البؤساء الذين فقدوا كل شيء وخرجوا يهيمون على وجوههم في الشوارع التي امتلأت برائحة الموت !

ثم عادت « ليز توماس » الى لندن لتضع كتابها « رماد الحياة » .. كل شيء حولته الحرب الى رماد . قالت وهي تودع فيتنام : « لقد أحببت كل شيء فيها .. عشت حياة ابنائها الفقراء .. كانت تجربة لم تتح لاحد قبلي ، حتى الدبلوماسيين والجنود .. قلة ربما من الصحفيين هم الذين رأوا جانبا منها ولفترة قصيرة ! » .

ونجحت ليز توماس في ان تقدم لنا في كتابها هذا الشعب الصغير الذي مازال يكافح حتى اليوم من اجل البقاء .. وهي تختتم كتابها : « كنت اتمنى ان امضي في رحلتي حتى النهاية .. ان هناك شعبا عظيما على ضفاف نهر الميكونج ينتظر منا اكتشافه ! » ولكن اين هذه النهاية التي عنتها « ليز » ولا متى كان يمكن ان تجيء ؟ لا احد يعرف . المهم انها عادت الى حياتها الاولى والى مدرستها ، وخيولها ، بعد ان عاشت تجربة شعب يحترق ولكنه يرفض الموت .

مابعد الهجرة !

والبعض يهاجر يخرج من الباب الصغير الضيق الى العالم البعيد الواسع سعيا وراء المعرفة ، واتفقوا على تسمية هذا البعض بالعقول المهاجرة . ولكنها هجرة موقوتة ، قد تستمر ولكن الى حين ، فعندما يشعر صاحب العقل المهاجر انه بلغ ما كان يصبو اليه من علم وخبرة ومعرفة ، وجدناه يحن الى ارضه وبلده مرة اخرى ، فيعود ..

كان بنيامينو جيلي مغني الاوبرا الايطالي ، يغني لأمه ، وكان فقيرا محروما ، وهو الذي غنى في ايطاليا كما لم يغن احد مثله من قبله او من بعده . عمل في متجر صغير لبيع الادوية مقابل بضع ليرات ، كان يدخرها ليضعها في يد أمه في نهاية يوم عمله الطويل ، وكان يعتمد على الطاهي الطيب القلب الذي كان يقدم له من الباب الخلفي فضلات الطعام التي يتركها الزبائن في اطباقهم ، ولا ينسى بعد ان تمتلىء معدته ان يغني له ثم يشكره ويمضي في طريقه مسرعا الى البيت .

وترك جيلي قريته الصغيرة القريبة من روما ، وسافر الى اسبانيا والى الارجنتين ثم الى نيويورك حيث وصل الى القمة هناك .. ولكنه لم يحتمل الافتراق عن اسرته .. كانت الاسرة الصغيرة هي زوجته كوستانزا وابنته ريتا وابنه الصغير انزو .. وقضى احد عشر عاما « كانت بمثابة قصة حب بينه وبين الامريكيين الذين حمله اعجابهم به الى البيت الابيض حيث دعي الى الغناء للرئيس الامريكي وضيوفه !

ولكنه ما لبث ان حمل اسرته في النهاية وعاد الى إيطاليا الى اسرته الكبيرة والى قريته الصغيرة ريكاناتي على بحر الادرياتيك .. مع فارق واضح هو انه اصبح الان قادرا على ان يعيش في فيلا فاخرة ، وان يخصص بيتا جيلا لأمه

العجوز . وكان يقول : « انا لا اختلف عن اي طفل آخر . . لقد ولدتني امي مثل بقية الاطفال ولكن ربما اكون قد تعلمت الغناء قبل ان اتعلم الكلام ! » وعن السنوات التي ابتعد فيها عن بلده . . .

يقول جيلي : « انا لم اغترب ، لقد كنت اعيش في « ايطاليا الصغيرة » ! فقد كان يقصد الحي الايطالي في نيويورك ويأكل « الاسباجيتي » ويغني ويجمع حوله ابناء بلده من الايطاليين المهاجرين . . وفي اوقات فراغه بعيدا عن الغناء والعمل ، كان يقدم مواهبه لاعمال الخير ، فيعلن عن اقامة حفل خيري ، ويقف المغني العظيم على خشبة المسرح ، ويغني ويظل يغني طول الليل ، وفي اليوم التالي يجمع ايراد الحفل ويذهب به الى المستشفى الايطالي في نيويورك ويقدمه « هبة » باسم مواطن يحن الى بلده !

هنا ايضا في قريته الصغيرة المطلة على البحر ، مضى يغني ويغني في ميدانها الكبير وكان يجمع الاموال التي يدفعها مواطنوه ويقدمها لمستشفى القرية والصليب الاحمر وبيت العجائز !

العمة العجوز الطيبة

وفي ضاحية صغيرة باحدى المدن الكبيرة ، عاشت سيدة عجوز في بيت كبير لا يشاركها فيه احد . . فقد كبر الابناء وهجروا البيت منذ سنوات ، ولم يعد يربطها بابنائها سوى تلك الخطابات التي كانت تصل منهم تحمل حبهم وشوقهم الى الأم التي تركوها مع وحدتها وتحمل في بعض الاحيان مبالغ من المال تساعدها على مواجهة اعباء الحياة .

لقد هاجر الابناء الاربعة الى بلاد بعيدة ، وحاولوا ان يأخذوا أمهم معهم . . ولكنها رفضت ، فقد كانت دعوتهم بمثابة محاولة لاقتلاع شجرة من جذورها الممتدة المتشعبة في الارض !

وقنعت بحياتها الجديدة مع الجيران وأهل الحي الذي قضت فيه مع اطفالها اجمل سني عمرها . . كانوا كلهم يعرفونها ، فقد كانت دائما هناك في بيتها لا تبرحه . . وكانت تجد السعادة في تلك اللحظات التي تقضيها وراء زجاج نافذتها ترقب الاطفال وهم يلعبون ويلهون ، وكأنهم اجتمعوا في هذا المكان القريب من بيتها ومن نافذة حجرتها ، من اجلها ، ومن اجل ان يكونوا قريبين منها ، ومن ابتساماتها الحانية وهي تنقل بصرها بينهم وبين الخيوط الصوفية التي انهمكت في تحويلها الى شيء يبعث الدفء الى هذه الاجسام الصغيرة التي تملأ دنياها بالحياة . . كانت لا تكاد تنتهي من حياكة احدها حتى تبدأ في اعداد الثاني ، ولا يمر الشتاء الا ويكون كل اطفال الحي قد لبسوا القمصان الصوفية التي صنعتها بيديها وقضت شهور السنة كلها في اعدادها .

الشجرة العجوز !

كان اطفال الجيران ، هم كل حياتها في وحدتها . . تصحو معهم في الصباح ، ومن وراء نافذتها تلوح لهم بيدها مودعة وهم يتسابقون للصعود الى سيارة الاوتوبيس الكبيرة التي تقلهم الى المدرسة . . وهي هناك مرة اخرى عندما يعودون من مدرستهم في المساء . . فاذا انشغلت عنهم او تأخرت في الوصول الى النافذة في ذهابهم او في عودتهم سمعت صياحهم ينادونها : « اين انت ايتها العمة العجوز الطيبة ؟ » .

ومنذ ايام كانوا كلهم ضيوفها ولكنها لم تعد تستضيفهم كثيرا لانها لم تعد تملك مالا كافيا كما كان الحال قبل ان يرحل الابناء الذين قدمت لهم كل ما كان عندها وهم يستعدون لرحلتهم مع المجهول في هذا العالم البعيد الذي اختاروه لاتمام تعليمهم العالي وبدء حياة جديدة فوق ارضه ! كم كانت تتمنى لو انهم بقوا معها ! لقد كانوا كل حياتها . . اعطتهم عمرها وماذا بعد ان رحل الدهم ، وكانت امنيتها ان تقضي ما تبقى لها من عمر قريبة منهم ومن ابنائهم ، ولكنهم تركوها وذهبوا . . ذهبوا يبحثون عن حياة افضل ومستقبل اكثر اشراقا . .

وعادت الى ضيوفها الصغار الذين اعطتهم كل حبها فهي ترى فيهم ابناءها واحفادها . . وراحت تقدم لهم الهدايا واللعب والفطائر . . وقضت معهم امسية جميلة حافلة بالذكريات . .

وبقيت الشجرة العجوز حيث هي . . في الارض التي نبتت فيها وكبرت وتفرعت . . اما الفروع الصغيرة فقد انتقلت الى ارض جديدة راحت تبحث فيها عن رزق جديد . هل يعودون الى الباب الذي خرجوا منه وتركوا وراءه أمهم العجوز ؟ ربما ! ولكن ربما ايضا لا يرون هذا الباب مرة اخرى ، فالشجيرات الصغيرة ليس لها جذور بعيدة ممتدة في الارض ! ■■

منير نصيف .



حدث في أمريكا :

أرحام للايجار

بعشرة آلاف دولار يستأجر الرحم لمدة ٩ شهور !

اعداد : منيب حمدان

ثلاثة كيلو جرامات من اللحم الساخن المغمغم لقاء حفنة من الدولارات : هناك في الولايات المتحدة يوجد « بياضات » متجردات من العاطفة تماما يصنعن أطفالا تحت الطلب .

عشرة آلاف دولار ...هذا هو ثمن الصفقة . واتفق الاطراف الثلاثة : المالكة الشابة والزوجان المستأجران على ثمن الايجار . انه سعر بخس لقاء حمل مدته تسعة أشهر . لقد خرجوا بارتياح بعد الزيارة الاولى للمحل : انه جميل ، نظيف ، صحي ... وقضي الامر . هناك اجراءات أخيرة ينبغي القيام بها قبل شغل الموضع ألا وهي توقيع العقد : الشابة روزي تضع رحمها المفروش باحدى بويضاتها تحت تصرف السيد والسيدة تيورمان . وسيحل الزوجان فيه بطريقة مباشرة ، والأوفق بطريقة اصطناعية أي التلقيح ضمن انبوب اختبار وذلك بنقل ذنين الحيوان المنوي للأب الى رحم المالكة ـ ولا عجب في ذلك لأننا في مرابع قوم ظرفاء ـ والجنين الملقح المكتتب عليه من قبل الزوجين المبتاعين يقطن في هذا الرحم طوال الفترة المطلوبة لاتمام نضجه . وأمر مفروغ منه ان يذهب الوليد ليسكن عند « أهله » السعداء حال اخراجه من المنزل الأول . ولن يسمع البتة أي كلام عن مؤجرته القديمة . لاهو ولا أحد سواه . هذا مانص عليه العقد .

وابن الغربيين ستتخلى عنه الام « الباضة » وسيعترف به الأب البيولوجي وتتبناه بالتالي الزوجة العقيم . ياله من عاقبة سعيدة ! كل شيء سيعود إلى ماكان عليه بخداع ثلاثي الأطراف .

نسخة ثانية عن فيلم ١٩٨١ من انتاج الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان « وريثات » للمخرج مارتا ميزاروس وهو الذي أورده في فيلم هنغاريا عام ١٩٣٦ مساومة مماثلة !! ليلي مونوري سيدة غنية إلا أنها عقيم كانت قد استأجرت ، كما ورد في الفيلم ، صديقتها إيزابيل هيوبيرت ، وهي فتاة يهودية محتاجة ، وذلك بمشاركة فعالة من زوجها . « ياله من فتاة حسناء ! » عبرت المحرضة عن مقاصدها الى شريكها ثم أردفت : « اذا وافقت فسوف تصنع لي طفلاً رائعا ، وأرغب أن تكون أنت أباً له » .

ولا يظنن أحد أن ذلك بدعة سينمائية . هذا ما اوضحه الدكتور باركر في مؤتمر رابطة الأطباء

النفسانيين الأمريكيين الذي انعقد مؤخراً في مدينة نيو اورلينز بولاية لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية. لقد قام الدكتور باركر بدراسة هي الاولى والفريدة من نوعها، شملت ٦٠ حالة سلّط فيها الأضواء على ممارسة سرية في طريقها للانتشار في الولايات المتحدة وفي أماكن اخرى.

والامهات البديلات (mothers Surrogate) لدى الدكتور باركر، يقدر عمرهن في المتوسط بخمسة وعشرين عاما، نصفهن من الكاثوليك والنصف الآخر بروتستانت، ٥٠٪ منهن غير متزوجات و ٥٠/ متزوجات وغالبيتهن برفقة أطفال. أما سويتهن التربوية فانها تتراوح بين شهادة الدروس الابتدائية والدكتوراة، مع نسبة عالية جدا ممن يحملن ديلوما في رعاية النسل ويتراوح دخلهن السنوي بين /٦٠٠٠٠ و ٥٥٠٠٠/دولار وجميعهن من أوساط ثقافية واجتماعية متشابهة. وبعبارة اخرى سيدات كغيرهن من النساء. ومن دواعي الفضول في هذا الامر أن الباعث الأول لهؤلاء الراغبات المستعارات قد لا يكون المال. بالطبع هناك ٨٠٪ من بينهن يطالبن بأجورهن. أما الـ/ ٢٠ ٪ الباقيات فلا يبدين انزعاجا من أن يعاودن العملية في نهاية العام، ضمن التعريفة المتوسطة أي ١٠٠٠٠ دولار مضافا اليها اجور العناية الطبية. بيد أن جوابهن الأول، الذي هو على طرف لسانهن عندما يطرح عليهن المحلل النفسي: لماذا اخترت القيام بهذه المهمة: «أحب أن اكون حبلى «الحبل هو أحلى تجربة في حياتي !» - «أشعر أنني أكثر سعادة، أكثر كياسة، أكثر انوثة عندما أنتظر مولودا». أو في رواية اخرى أكثر غموضا فذلك هو عطاء الذات وروح التضحية وحاجة التكفير عن خطيئة ما. وتوضح ذلك إحدى هؤلاء النساء وقد أبلت من عملية اجهاض سابقة: «لقد قتلت طفلا وارغب في التعويض عن ذلك بأن أهب مولودا الى عائلة تفتقر اليه».

نساء بلا احساس

هؤلاء الوالدات المحترفات يثرثرن كثيرا في الكلام عن العاطفة التي يشعرن بها لحظة تسليم الوليد الجديد في ختام حملهن. الغالبية بينهن ينكرن او ينتقصن من الانفعال الذي يعشنه من جراء فقدان ذريتهن: «لم أكن سوى راحم» - «لقد عملته لانسان آخر» - «لم يكن من زوجي». انهن متجردات من العاطفة، غافلات غير عابئات بما يفعلن. «الطفل ... لاأعرفه ولا أرغب في التعرف عليه»، وليس خطأ عندما يقلن: «هو ليس مني»، حتى إنهن يحجبن تماما اسهامهن في الوراثة. وكيف يتحملن من لا علاقة لهن به. ومن فوق سرير السلعة المعروضة تتم الصفقة: ثلاثة كيلوغرامات من اللحم الزهري المغمغم والذي مازال ساخنا يحمل حرارة احشاء امه لقاء حفنة من الدولارات.

في هذه اللحظة بالذات يخشى أن تغص الام وأن يفسخ العقد وأن يتحول الاتفاق السري الى أشياء اخرى. دونيس ثرونغ، من مدينة اركاديا، بولاية كاليفورنيا نشرت الخبر مؤخرا في زاوية «الاتجار بالاطفال» لقد وقعت، منذ سنة خلت، عقدا مع جيمس وبجورنا نويس، زوجين من ولاية نيويورك، وجاء في العقد: ستحمل لصالحها طفلا من جيمس وستلقيه الى بجورنا يوم ولادته. لقد قبضت الشيك وشرعت في العمل. وساعة المخاض حصل مالم يكن متوقعا. لقد قررت دونيس الاحتفاظ بطفلها. وتمسكت به بشراسة. أما الواهب، من جهته، فيعتبر أن غبنا قد لحقه في حقوقه من حيث أنه قد دفع مالا وهو المنسل، وقدم شكوى بحق «الباغية» التي خالفت الشرع.. طيش وصفاقة.. في شهر يونيو (حزيران) الماضي بت حكم قضائي لصالح الأم البيولوجية. وحصلت بموجبه على حق رعاية طفلها. ويحق لها أيضا أن تفرض نفقة على الأب.

من هم هؤلاء الآباء الذين يستأجرون لصالح زوجاتهم المتعطلات، نساء لهن جهاز انتاج على خير ما يرام ...؟ الآباء الستون الذين يستخدمون الامهات البديلات» كما يسميهن الدكتور باركر، جميعهم متزوجون، جميعهم ينقصهم طفل لاسباب مرضية، جميعهم فشلوا بعد محاولات عديدة في تبني أطفال بيض. جميعهم لجئوا الى هذا الحل بعد أن أعيتهم الحيلة. المطلوب اذاً: محام، لكي يتدبر العقد، توقيعان، ... ولا من رأى ولا من درى.

انه الحرمان من نعمة البنين بلا ريب. لا يقدر هذه النعمة حق قدرها إلا من ضنت عليه الحياة الدنيا بها ... وهذا يذكرنا بأمر النبي ابراهيم وامرأته سارة التي بلغت «من العمر عتيا» ولم يرزقها الله ولدا، فما كان منها الا أن باركت له الزواج من جاريته هاجر التي أنجبت له اسماعيل. بيد ان ذلك لم يزدها الا شغفا بالاولاد الى ان جاءت الملائكة وبشرتها بغلام قريب (إسحق). ومن يومها والازواج المحرومون من هذه «الزينة» يبحثون عنها فمنهم من سلم بقضاء الله وقدره ومنهم من ارتضى

لنفسه أن يتبنى ولدا . إلا ان أحداً لم يتوقع أن تصل الامور حد الاتجار غير المشروع برمز البراءة . ومن هنا تأتي الصدمة التي نشعر بها عند سماعنا خبرا من هذا القبيل . ولكن لنجد في البحث عن الباعث الأساسي . هل هو القانون الذي أصبح محطة سخرية الناس ؟ هل هي الخيانة الزوجية وتغيير المولود ، أم تزوير الحالة المدنية .... ؟ وما يحرمه القانون يمكن أن يقره الاجماع الاجتماعي الذي يتجاوزه ويطغى عليه . والتفاوت بين التشريع والعرف العام امر واقع . القوانين تتغير واحكام القضاء تتغير معها . فهي تكفل اليوم ما أدانته البارحة . وبوسعنا تماما أن نتصور ، في المستقبل القريب او البعيد ، أن يدخل بنك الحيوانات المنوية « في العرف العام بمباركة من المشرع ، والأمر ذاته بالنسبة لبنك البطون « الأرحام » .

والحيوان المنوي المغفل يخصب بويضة معروفة ليهب الحياة لطفل لاتكون عهدته شرعياً للواهب ، فهذا الاخير أصبح حقيقة منسية ، وهو غير مسؤول عنه . تماماً كما يحدث اثناء نقل الدم من شخص الى آخر بحاجة اليه لينقذه من مصاب أليم . وقد يحدث ذلك مع زوجين ، ولكن الزوج هو العقيم هذه المرة ، حينئذ تأتي الزوجة الخصيبة بالحيوان المنوي لتحمل منه وبالتالي يتبناه الزوج العقيم . أو يحدث العكس كما سبق .

ولادة غير شرعية

ما يصدم المرء هنا ـ ناهيك عن الجانب الاخلاقي ، في هذه العملية الثلاثية الاطراف ـ هو أمر من نوع آخر تماما . هذا النهج الذي يمس سليقة الحياة وهذا الاحتقار الصارخ للمرأة التي يقتصر دورها في الحياة على التبييض دون سواه واستخدام جسمها كما تستخدم الصندوق ، اي انها آلية انتاج فقط ، انه نكران شخص ووضعه في درك الادارة لحساب شخص اخر بالنسبة اليه كل شيء يشترى ، بما في ذلك الرحم . واخيرا هذا الحساب البارد ، هذه الصفقة الغريبة بين الطرفين المتعاقدين . فمن جهة زبانية يوفرون لأنفسهم« بباخسة » ويدفعون لها الأجر كعاهرة ، ومن جهة اخرى مرتزقة تحتقر رحمها وذلك بفصله كاملا عن حياتها العاطفية . فهل الرغبة بالطفل تبرر أبشع تجارة عرفتها البشرية الا وهي الاتجار باللحم البشري ...؟

امر لايحتمل ، هذا التخلي المتعمد عن طفل تسقطه أمه وتتجر به حتى قبل أن ترى عيناه النور . وحتى قبل أن يتكون . فهل هذه أرجحية من قبل« بباخسة » الاطفال ؟ انه بالاحرى غاية في الجفاف ... وفضلا عن ذلك انه تناقض وجداني غريب لهذه المرأة التي يتنازعها تياران : الأول يدفعها للقبول حبا بالمال ، والثاني يعمل بعكس الأول وهو رفض الطفل جسديا ونفسيا . صدمة نفسية غريبة لطفل يعرف بينه وبين ذاته ـ طوال حياته داخل الرحم ـ أنه سيتم التخلي عنه من قبل تلك التي تحمله . على هذا المنوال أفضى لي طفل طبيعي وعي حقيقة الامر وقد تلقفته مرضعات بالاجر لينتهي به المطاف أخيرا في بيت أجداده ويصبح باعث هم وقلق دون مقابل ، يقول الطفل :« ان امي لم تكن هنا يوم مولدي » . العبارات ذاتها يمكن أن يطلقها هؤلاء الاطفال ـ الذين يتم شراؤهم على المخطط ويسلمون بالمراسلة : « ان امهاتنا لم يكن هنا ... » . وبالواقع أمامنا شخصيتان : البائعة والمبتاعة ، والاثنتان هما في حكم الغافلتين ، الأولى نفسياً ، والثانية جسديا .

عن مجلة لونوفيل او بسيرفاتور الفرنسية ـ العدد (٨٨٣)

كيف خرجت الحمى ؟

■ كان أنتيجوناس سيكلوبس أبرز قواد الاسكندر العظام ، ذهب مرة الى ابنه يعوده ، وكان مريضا ، فالتقى عند باب غرفته بفتاة جميلة ، خارجة من عنده ، ولما دخل عليه القاه قد أبل ورجعت اليه الصحة ، قال الفتى : « قد ذهبت عنى الحمى » فقال أبوه : « نعم . لقيتها خارجة وأنا داخل »

لم أرَ من قبل مثل هذا الجمع بين قمة الود وقمة النفور ـ يحيى حقي



النشّار: عميد أدباء الإسكندرية

بقلم فؤاد دوارة

عاش حياته الطويلة كلها في الظل .. لا لأنه كانت تنقصه الموهبة الأصلية ، ولا لأنه كان شحيح الانتاج .. فقد كان شاعرا موهوبا ، وناشرا مجيدا ، ومحدثا بارعا ، ومترجما قديرا سريعا .. حتى روائع الشعر الانجليزي كان يترجمها في سهولة ويسر شعرا عربيا رصينا ...

لماذا اذن لم يلمع اسمه ، ولم يحتل مكانته الجديرة به بين كبار ادباء جيله .. جيل العقاد والمازني وطه حسين والرافعي .. بالرغم من انه نشر كثيرا الى جوارهم في كبريات المجلات الادبية كالسياسة الاسبوعية (والرسالة) و (الثقافة) .. وكانت تلك المجلات من اهم أسباب شهرتهم وذيوع صيتهم ؟!

وربما لانه ظل مخلصا لمسقط رأسه الاسكندرية مصرا على الاقامة الدائمة بها معظم سني عمره يأبى ان يهجرها الى العاصمة حيث تتركز كل الاضواء وعوامل الشهرة .. ولم ينتقل اليها الا في سنواته الاخيرة ، بعد انتهاء خدمته في الحكومة ، ليعيش الى جوار وحيدته ، وكانت تعمل موظفة بوزارة الثقافة ، قبل هجرتها مع زوجها الى لندن .

.. وربما لانه كان خجولا منطويا على نفسه ، يؤثر العزلة ، ولا يتقن استخدام العلاقات الشخصية في الدعاية لنفسه ولانتاجه ..

.. وربما لانه وزع طاقته بين الشعر والنثر والترجمة ، وخص الترجمة بالجانب الاكبر من جهوده وفضل المترجم مازال منكورا في بلادنا مهما عانى وابدع ...

ايا كان السبب ، فلا شك ان عبد اللطيف النشار عاش حياته الطويلة كلها بعيدا عن الاضواء ، لا يكاد يعرفه غير ادباء جيله ، ومثقفي الاسكندرية ، حيث كان ينشر انتاجه في صحفها المحلية بانتظام وبخاصة في « البصير » و« السفير » اليوميتين قبل احتجابهما .. ويحرص على المشاركة في المنتديات الادبية واحتفالات المدينة بمختلف المناسبات .. حتى اصبح من ابرز معالمها الثقافية ، واستحق بجدارة لقب « عميد ادباء الاسكندرية » .. وان لم يصل صيته الى العاصمة التي تحتكر كل مفاتيح الشهرة والمجد ...

ولذلك فقد سعدت بصدور ديوانه(*) اخيرا ولو بعد وفاته بست سنوات .. ورأيت فيه معنى انسانيا وحضاريا ، يتمثل في الوفاء لاديب كبير لم يقدر له ان ينعم بالشهرة في حياته ، والتقدير للجهد الاصيل ولو بعد زمن طويل .. وهو معنى يحمل الامل لنفوس العاملين الجادين بان جهودهم لا بد ان ترى النور يوما وتجد التقدير .. ولو بعد حين ..

تواضع النحلة

كان لا بد ان القاه ، وان تتوثق الصلة بيننا ، فانا من ابناء الاسكندرية ، عشت فيها اكثر من نصف حياتي ، وشقيقي الاكبر الكاتب محمد دواره كان من اصدقائه الحميمين ، زامله سنوات طويلة في عدة صحف ومجلات .. وعن طريقه تعرفت به ، وقابلته معه مرات عديدة ..

وحينما التحقت بقسم اللغة العربية بآداب الاسكندرية ، كانت اسرة القسم برئاسة استاذنا الكبير محمد خلف الله احمد ، تقيم العديد من الندوات والمهرجانات الادبية ، وتدعو اليها ادباء المدينة وشعراءها ، وكان « النشار » من احرصهم على تلبية تلك الدعوات ، والمشاركة بقصائده فيها .. وهكذا تجددت اللقاءات وتكررت ...

وشاءت الظروف ان اسكن ـ بعد تخرجي وزواجي ـ بالقرب من مسكنه بشارع امير البحر بحي محرم بك ، فتوثقت صلتنا اكثر واكثر ...

ما من مرة عدت فيها في ساعة متأخرة من الليل الا وجدته ساهرا في مقهاه الاثير المواجه لمحطة الترام ، مكبا على القراءة او الكتابة .. ولا يمكن ان يدعني انصرف دون ان اشاركه جلسته ساعة او اكثر ، نقضيها في احاديث ومناقشات لا تنتهي ، وقد تطول احيانا حتى يغلق المقهى فنتممها ونحن سائران في شوارع الحي الهادئة .. باعتبار ما كان ...

وما زلت اذكر حماسته الشديدة لافكاره وآرائه المتجددة بتجدد قراءاته الغزيرة .. فقد كان يتابع ـ بالاضافة الى جميع الصحف والمجلات المصرية ـ اهم الصحف والمجلات الانجليزية ويقتني ثروة من الكتب العربية والانجليزية ، يحمل معه دائما منها ، ويملأ جيوبه بعدد كبير من الاقلام من كل نوع ...

سمعت من بعض عارفيه ان اباه اعطاه ـ في شبابه ـ مهر العروسة ليدفعه الى والدها ففوجيء به يعود بعد بضع ساعات وامامه عربة يجرها حمار ، وفوقها تل كبير من الكتب .. اشتراها بمهر العروسة !

وفي كل مرة لقيته كنت اجده متحمسا لفكرة جديدة غير فكرة الامس .. وما اقل ما حقق من تلك الافكار والمشروعات الطموحة .. وما اندر ما تحدث عن ماضيه وما حققه فيه من انتصارات وامجاد شأن غالبية الادباء حتى صغار السن منهم ...

كان معتدا بمواهبه وانتاجه ، ولكنه كان يعتقد في قرارة نفسه انه لم يقل بعد شيئا هاما يستحق البقاء

(*) « ديوان عبد اللطيف النشار » ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧٨ ، ٤٤٠ ص ، ٦٨٠ قرشا .

والخلود .. ومن هنا جاءت كثرة افكاره ومشروعاته التي يرغب في تحقيقها .. وكان انتاجه غزيرا متدفقا حتى آخر ايامه .. وبعد ان تجاوز السابعة والسبعين .. كان يعمل دائما بجد واصرار وحماسة ، كأنما ليحقق وجوده ، كالنحلة لا تكف عن افراز العسل دون ان تنتظر جزاء او ثناء من احد ...

مكافح وصوفي

في كل يوم له شعر جديد .. يقنع بانشاده في اي منتدى يدعى اليه . فاذا لم يدع اكتفى بقراءته على بعض زملاء الوظيفة بمحكمة الاسكندرية الكلية ، او اصدقاء المقهى .. وقد لا ينشره بعد ذلك ، وقد ينشره باحدى المجلات الصغيرة المغمورة .. نظير اجر ضئيل احيانا ، ودون اجر في اغلب الاحيان .. فأفادت من انتاجه مجلات عديدة استغلت قناعته وتواضعه ، فبخست اجره او حبسته اصلا ...

لعل هذه الاستهانة من جانبه بانتاجه كانت من اهم اسباب استهانة الآخرين به ..على اني لم اسمعه مرة واحدة يشكو من خمول الذكر او تجاوز الشهرة له .. ولم احس انه عانى من ذلك باى شكل .. والا لأثر ذلك في حجم انتاجه وتدفقه ...

وكان محفوظه من الشعر العربي والانجليزى كبيرا يكثر من الاستشهاد به في احاديثه . اذكر مناسبات عديدة كان يسمعني فيها ابياتا باللغة الانجليزية ، ثم يتبعها بترجمته العربية لها .. وقد ينشد ترجمة اخرى للأبيات نفسها ليقارن بينهما .. دون ان يهفو او يتعثر ..... فاعجب لذلك الموهوب الذى لم يحصل الا على الشهادة الابتدائية كيف اجاد اللغتين فهما ونطقا ، وسيطر على ادبها بصورة تفوق كثيرا من اساتذتي في الجامعة ..

لا تكتمل هذه الملامح التي احاول أن ارسمها لشخصيته الا بهذه الصورة البارعة التي رسمها له صديقه الاديب الكبير يحيى حقي في مقال قديم له .

« اذا ذكرته باحثا عن خلقته التي اريدت له في الحياة لم يمثل لذهني يوم عرفته وهو في ربيع الشباب ، بل ايام شهدته وهو في شتاء الشيخوخة ، حينئذ استطعت ان اقول انني عرفته . هو الآن هو ، اما من قبل فكانت مراحل عمره خطوطا تجريبية تريد ان تتجمع لترسم صورته الصادقة . ليس هو هو الاحين اصبح له ، في شيبته البيضاء ، فم يروعك تعبيره الاليم عن العطش ، لا ماء في الارض يرويه ، لم يُعَانِ منه فجأة ، بل بعد لهثان طويل كأنه قضى عمره كله يجرى وراء غاية تهرب منه .. السعادة ؟ .. معنى الوجود ؟ لقاء النفس وجها لوجه .. ام لقاء وجه الله سبحانه .

« مكافح وصوفي معا ، هكذا كان ، ونظرة شاخصة حائرة بين ان تعلق بك كالغراء تريد ان تحتويك بود داخل فؤاده ، وبين ان تهملك نفورا منك ، وتتجاوزك الى افق بعيد كأنما يريد ولا يريد ان يفضي لك بسر مهول ... انه يلتمس ويرفض معا استجابتك له .. لم ار قط مثل هذا الجمع بين قمة الود وقمة النفور ، لاعن عمد ، بل لغلبة حساسية مفرطة ... »

مرحبا بالعرج

وتحدثنا وحيدته « رفيقة » في تصديرها لديوانه عن نشأته وبعض جوانب حياته ،فتقول انه ولد بدمياط سنة ١٨٩٥ ، وورث موهبة الشعر عن ابيه وجده الكبير ، وتعلم في الكتاب حيث حفظ القرآن ، ثم بالمدرسة الابتدائية حيث اتقن اللغة الانجليزية ، اذ كانت تدرس بها جميع المواد ايام الاحتلال البريطاني ، فاهله ذلك للاشتغال بالترجمة في سن مبكرة ، وظل ينشر ترجماته وكتاباته وشعره في الصحف والمجلات اكثر من ستين عاما

وبعد ان تعرف بأهم كتاباته تختتم حديثها قائلة :

« رغم تفكيره العميق المتزن وآرائه الصائبة المجددة في شتى ضروب الفن ومناحي الحياة ـ فقد كان شديد التواضع والانزواء ، قليل الكلام عن نفسه ، غير منصف لها ولا لادبه وعلمه واطلاعه الغزير .. ولعل في وظيفته الرتيبة المملة في المحاكم دخلا كبيرا في ذلك اذ يقول : »

« ثلاثون عاما في المحاكم افسدت
بياني .. فاصبحت الغبي المغفلا »

ويضيف احمد مصطفى حافظ جامع ديوانه انه منذ وفاة شريكة حياته انطلق في بوهيمية محببة اليه ، والواقع ان كل من عرفه يعلم ان هذا الانطلاق البوهيمي كان دائما من معالم شخصيته الثابتة منذ شبابه المبكر . وكان لرحلته الطويلة الى لندن حيث تقيم ابنته ابعد الاثر في تفكيره وكتاباته وشعره . ومن ذلك قوله :

« .. سبعة الاشهر فيها ساعة
ثم مرت .. لكل منتهاه
وأراني الله في شيخوختي
ما تمناه فؤادي في صباه

.. لندن يجهلها ابناؤها
والذي في ارضها القي عصاه
والذي جاء قد جاء فيها دارسا
حصر الهم لنيل « الدكتوراه »
.. انما يعرفها مثلي انا
قارىء يدرك اسرار الحياه
يصعد الاهرام من اسفلها
ثم يعلو وهو يدري مرتقاه »

وبعد عودته من لندن اصيب في حادث تصادم اسفر عن اختلال في مشيته ، فاوحى له ذلك بقصيدة طريفة جعل عنوانها « يا مرحبا بالعرج » يقول فيها :

« نحو الثمانين ولا ابتلي
بعلة .. هل ذلكم يعقل !!
ما دامت الأرؤس في صحة
فهين ان تبتلي الارجل
(ابو الوفا) و (المازني) مثله
كلاهما في مشيه يحجل
وكنت اذا امشي يقال انبري
لا يعرف الريث ولا يعجل
وصرت (تيمور لنك) في مشيتي
بل علة في مشية اجل
قد طالما اخطأت في صحتي
فالآن اذا أغضب لا أركل !

والاشارة في البيت الثالث الى الشاعر المعروف محمود ابو الوفا والاديب الكبير ابراهيم عبد القادر المازني ، وكلاهما كان يعرج في مشيته كالقائد التتري تيمور لنك الذي ذكره الشاعر في البيت الخامس ، كما ذكر بعد ذلك الاديبين الانجليزيين ولتر سكوت وبيرون ، وكانا مصابين بنفس العاهة ... فكأنه جمع في قصيدته الذاتية اسماء اشهر من اصيبوا بالعرج مثله .. على مدى التاريخ ...

ابو الفرج .. « الاسكندراني »

وقارىء الديوان يلمس بيسر تام قوة شاعرية « النشار » وتدفقها .. فما من مناسبة وطنية او اجتماعية او فنية او شخصية الا وله فيها غناء او قصيد .. حتى لكأنه كان « يغرف من بحر » كما كان يقول القدماء عن « البحتري » ...

وهكذا جمع الديوان نماذج ممتازة من شعر الوطنية متأجج الحماسة الى جوار شعر الغزل يفيض رقة وشجنا ، والشعر الوجداني الصوفي الحائر والفلسفي العميق المتأمل .. بالاضافة الى قدر كبير من المراثي والاهاجي والمداعبات الساخرة .. ووصف الطبيعة ، وطبيعة الاسكندرية الساحرة بصفة اخص ، فهي مسقط رأس الشاعر ومرتع احلامه وصبواته ، ولولا تعلقه الشديد بها ، وحرصه على عدم هجرتها الى العاصمة لكان له شأن آخر في حياتنا الادبية ...

وبالرغم من ضخامة حجم الديوان (٤٤٠ صفحة من القطع الكبير) فهو لا يضم كل شعر « النشار » ، فله ديوانان صغيران نشرهما منذ اكثر من نصف قرن ، وهما « جثة فرعون » » و « نار موسى » بالاضافة الى قصائده العديدة التي لا تزال موزعة بين صدور الحافظين وعشرات الصحف والمجلات المعروفة وغير المعروفة .. ومن اهمها ملحمة طويلة عن « جهنم » عارض فيها « المعري » و « دانتي » .

وترجم النشار « رباعيات الخيام » شعرا عن ترجمة « فيتزجيرالد » الانجليزية ، وديوانا من الشعر الصوفي لاميرة فارسية عنوانه « زين النساء » والعديد من روائع الشعر الانجليزي .

ونشر مئات المقالات والدراسات في مختلف الموضوعات الادبية والاجتماعية ، من اهمها سلسلة بعنوان « حديث الاحد » ، واخرى بعنوان « الاغاني لابي الفرج الاسكندراني » ، ارخ فيها للادب العربي بمنهج جديد .. كما الف عددا من المسرحيات القصيرة ، وترجم كما هائلا من القصص والمسرحيات ، و ٢٥ رواية من روائع الادب العالمي من اهمها :

ـ « كوخ العم توم » للامريكية هارييت بيتشر ستو .

ـ « الابله للروسي فيدور دستويفسكي .

ـ « انا كارنينا للروسي ليوتولستوي .

ـ « حاجي بابا الاصفهاني » و « حاجي بابا في لندن » للانجليزي تشارلز كنجزلي .

ـ « خالتي » و « وكيل البريد » للهندي رابندرانات طاغور .

ترى متى يقدر لكل هذه الاعمال ان تجمع وتنشر وتدرس ، وفاء وتقديرا لجهد اديب كبير مخلص ومتواضع .. وقبل ذلك استكمالا لحلقة هامة مهملة من حلقات ادبنا الحديث .. وما اكثر حلقاته المهملة .. والمجهولة !!

■■

القاهرة ـ فؤاد دواره

مقالات في كلمات

■ لعقل المرأة ما لجسمها من المزايا والعيوب .. فهو خلاب ولكنه ضعيف ...

شيشرون

■ ما أسرع شرف الرجل الى العطب .. اذا كان معلقا بثوب المرأة .

جورج صاند

■ المرأة أشد أعدائنا .. لأنها تملك قياد اللذات ، وهذا سر قوتها .

أنا تول فرانس

■ الطريقة الوحيدة التي تعمد اليها المرأة في اصلاح الرجل .. هي مضايقته الى درجة .. يكره معها الحياة .

أوسكار وايلد

■ يتحتم علينا أحيانا أن نتحدث الى المرأة حسب انوثتها ... تماما كما ينبغي أن نتحدث الى المجنون حسب جنونه ..

برنارد شو

■ لا ترفع يدك على امرأة الا اذا كنت تعلم أن شفتيك عاجزتان عن تحقيق مآربك

بيرون

■ اذا حرمت المرأة من الجمال .. لم تتلذذ من الحياة الابنصفها ..

مدام دي مونتاران

■ ما يعانيه المرء من الخيال ، أكثر مما يعانيه من الحقيقة .

سنيكا

■ الأشرار يتقربون الى الملوك بمساويء الناس ، والأخيار يتقربون اليهم بمحاسنهم .

افلاطون

■ ثلاث شرارات قد اشتعلت نيرانها في جميع القلوب : الخيلاء والحقد والجشع .

دانتي

■ لا تصغى الكبرياء أبدا الى صوت العقل او الطبيعة أو الدين .

نابليون الأول

■ دموع الأطفال هي توسلات ، فان كانت لاتجاب تصير أوامر .

روسو

■ لا تبتسم فينوس في منزل كله دموع

شكسبير

■ الراحة حساء العمل اللذيذ .

بلوطارخوس

■ من يداوم على رذيلة واحدة أنجبت له رذيلة أخرى .

فرانكلين

■ الرذيلة موشاة بالغنى ، أما الفضيلة فبالفقر .

ديوجينس

لغتنا بين صيادلتها وأطبّائها

الصيدلة حرفة معروفة فهي كما عرفها علامتنا العبقري البيروني : « معرفة العقاقير المفردة بأجناسها وانواعها وصورها المختارة لها وخلط المركبات من الأدوية بكنه نسخها . والصيدلي عنده « هو المحترف بجمع الادوية على أحمد صورها واختيار الأجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التي خلدها أهل الطب » وحديثا عرفها المعجم الوسيط إجمالا بأنها « مهنة الصيدلاني . وعلم الصيدلة يبحث فيه عن العقاقير وخصائصها وتركيب الأدوية وما الى ذلك » والعشّاب اخص من الصيدلي او الصيدلاني ، نسبة الى العشب ، لأن الاعشاب بخاصة مدار بحثه .

والعطار شبيه به ، نسبة الى العطر لأن مجال بحثه العقاقير العطرة وما يلتئم معها بخاصة. وإن كان هو والصيدلي يهتم بالعقاقير في المواليد الثلاثة (الجماد والنبات والحيوان) .

والطب معروف ايضا بفرعيه : الوقائي والعلاجي ، وقد يداوي الطبيب الامراض بالادوية او يلجأ الى غيرها كالجراحة والحمية بعامة أو خاصة لفترة معينة او النزهة او سماع الأغاني والالحان ، او تغيير المكان .

وهناك الطب النفسي ــ وهو فرع حديث ، وان كان القدماء قد عرفوا جوانب منه ــ وهو يعني بمعرفة امراض النفس وانحرافاتها ليعيدها الى سوائها إن أمكن ، او يسري عنها على الاقل وقد يستعين بطبيب الجسم علاج مريضه

ولا بد للطبيب أن يطبب مرضاه فردا فردا ولو اتحدوا في المرض ، لان لكل منهم فرديته نفسا وجسما . وأتعس الأطباء حالا من يقصر نظره على المرض ، دون ان يلاحظ فردية المريض ، ولا غنى في التطبيب عن الصيادلة والاطباء . ولكن اذا تصدى الصيادلة للتطبيب كانوا خطرا على المريض لجهلهم به ، اذ ليس كل دواء صالحا لعلاج كل المرضى اذا كان مرضهم واحدا . والدواء لايكون ناجحا الا اذا وافق خصوصية بنية المريض وأحواله الصحية نفسية وجسمية .

وكذلك لكل لغة صيادلتها وأطباؤها .

أما صيادلتها فهم اللغويون فيها ، فهم يعرفون قواعد أنظمتها الصوتية والنحوية والصرفية كما يعرفون معجمها او مفرداتها ، إلى جانب أعاريضها او طرائقها في نظم الشعر .أو هكذا ينبغي أن يكون .

أما أطباؤها فهم من يتحدثون بها او يكتبون ، ولا غنى لهؤلاء عن معرفة ما يعرفه اللغويون منها ، او معرفة ما يلزمهم منها لأداء ما يعبرون به عما في أنفسهم . وإن لم يتوسعوا مثلهم فيها .

وأهم هؤلاء هم العلية المثقفة من البلغاء ولا سيما الشعراء ، لان للشعر مضايقه بسبب بالوزن ، ثم بالقوافي او الفواصل في النظم ، ولكي يسهل على الشاعر العبور خلال المضايق لا بد له من تقديم وتأخير وحذف او زيادة وايثار لفظ على غيره .

والبليغ ــ ولا سيما الشاعر ــ اذا طالت ممارسته الواعية للقول ، وخبرته بأساليبه ، انتهى به ذلك الى ان تصبح اللغة عنده سليقة او كالسليقة ، فلا يعاني في مراعاة القواعد ما يعانيه غير البليغ ، وهو لسمو فكره وثقته باصالته وتمكنه من اللغة ، قد يخالف قاعدة عامة الى قاعدة خاصة ، او الى ما يصلح ان يكون قاعدة خاصة إذا الحدت دواعي المخالفة ، ليكسب عبارته خصوصيتها المقصودة ، أو ليساير قاعدة لغوية اخرى او يحقق خصوصية شخصيته فيما يقول ، فهو يتوسع على بصيرة من أمره وأمر اللغة ، لا عن جهل بها .

والغالب على اللغويين في كثير من اللغات ان يقرروا قواعدها العامة كما يستنبطونها من أدبياتها البليغة ويشيرون أحيانا مع القاعدة الى أمثلة تخالفها مما يوجد في اقوال بعض البلغاء ، ولكنهم لايجرحون بليغا أو يخطئونه .

ونضرب لذلك مثالا مشابها من لغتنا .

تدخل « إن » التوكيدية المشددة على الجملة الاسمية ، فينصب بعدها المبتدأ ويرفع الخبر او يبقى مرفوعا ، وقد جاء في آية قرآنية ما يخالف هذه القاعدة « ان هذان لساحران » مع رفع طرفي الجملة وجاء في بيت لعمر بن أبي ربيعة ــ وهو ممن يحتج بشعره ــ قوله على لسان صاحبة له : ــ

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن خطاك خفافا ان حراسنا أسدا .

بنصب طرفي الجملة (حراس واسد) .

فاللغويون في تلك اللغات يكتفون بمثل هذه الاشارات في توضيح القاعدة وبيان مخالفتها في هذين المثالين دون تجريح ولاتأويل .

اما اللغويون عندنا فيلجئون الى التأويل في مثل الأية ، لتبقى لهم قاعدتهم مطردة ، فيقولون مثلا « اسم ان ضمير الشان » فكأن العبارة « انه هذان لساحران » ويقولون مثلا في عبارة « ان حراسنا اسدا » ان فيها خطأ أو شذوذ ا ، وكان أرفق وأوفق لو قالوا « انها تجري على لغة قوم من العرب » اذا كانوا يعرفون ذلك ، او لو قالوا « ان الشاعر حجة وقد لجأ الى التوسع مراعاة للقافية حيث لا لبس في المعنى » لأن العرب اذا صح لهم اداء المعنى تسامحوا في العبارة كما قال بذلك علامتنا « ابن جني » وكذلك لو قصدوا بكلمة شذوذ مجرد المخالفة لا التجريح .

ولكن كثيرا من اللغويين عندنا يتشددون فاذا وصفوا لفظا بالشذوذ لا يعنون غالبا القلة او الندرة ، بل يعنون التجريح بالتخطئة ، وقد يصفونه بأنه من لغة رديئة او ضعيفة او ليس من اللغة العالية ، كأنما اجتمعت لهم كل لغات العرب او لهجاتها ، وميزوا كل طبقاتها جودة ورداءة وقوة وضعفا وعلوا وانخفاضا ، مع انهم لم يحيطوا بما بقي منها مما تجده مفرقا في الدواوين والمعاجم مخطوطة ومطبوعة ، ومع ان ما ضاع منها كثير أو كما قال ابو عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قاله العرب الا قلة ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » وابو عمرو قائل هذا هو الذي يقول عنه محمد بن سلام الجُمَحيُّ « كان ابو عمرو اوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها » .

ولا نعدم بين طليعة علماء العربية ـ ولا سيما النحاة بعد أبي الاسود الدؤلي ، ولم يكد القرن الهجري الاول ينتهي ـ من نصّبوا أنفسهم أوصياء على اللغة او بلغاتها فكانوا يخطئون منهم من خالف القواعد التي استنبطوها أو استنبطها العلماء الذين سبقوهم في البحث والتقعيد ، واقدم هؤلاء ـ فيمن نعرف ـ عيسى بن عمر الثقفي ، وعبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي ، فان عيسى قد خطأ النابغة الذبياني (الجاهلي) في قوله معتذرا الى النعمان ، معللا خشيته من وعيده اياه :

فبت . كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم ناقع

فيقول عيسى ان الصواب « ناقعا » وعيسى مخطىء في هذه التخطئة لان « ناقع » يجوز ان تكون نعتا سببيا مؤخرا لكلمة « ضئيلة » وهي فاعل مرفوع ، وقد أخر النعت مراعاة للوزن والقافية .

ثم عبد الله ـ وهو من رواد القياس في العربية ـ كان يخطىء شاعرنا الفرزدق في بعض ابياته ، ومن ذلك أنه سمعه يقول في قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) ويشكو اليه شح الازراق في البادية :

وعض زمان ـ يابن مروان ـ لم يدع
من المال الا مسحتا او مجلّف

فسأله على اي شيء ترفع « مجلف » ؟ فأجابه « على ما يسوءك وينوءك » وروى انه زاد في جوابه : « علينا ان نقول ، وعليكم انتتأولوا » وأصر الفرزدق على قوله ، وزاد على ذلك أن هجاه ، فكان مما قاله فيه :

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا

فأخذ عليه عبد الله قوله « مواليا » وكان يرى ان الصواب « موال » وقياس عبد الله صحيح ، فالمعطوف على المنصوب ، ينصب مثله ولكن قد ورد في القرآن الكريم عطف مرفوع على منصوب وتأول النحاة في ذلك تحقيقا لقاعدتهم ، كما أن الفرزدق أجرى « مواليا » مجرى أمثالها من الجموع الصحيحة الآخر على وزن « مفاعل » ، وهذا من باب التوسع ، مراعاة للقافية .

وقد بقي أمثال هذين اللغويين في كل عصر حتى اليوم يتبعون ما يرونه مآخذ على البلغاء ومن دونهم في طبقات القول من الشعراء والكتاب والمحاضرين وهم غالبا أميل الى التشدد في تلمس ما يرونه مآخذ ، ولامزجتهم أثرها في ذلك ، ونحن لا نضيق بتشددهم ، لانه يحمل اصحاب القول على تحري الصواب فيما يقولون ، والتثبت منه ، ولكن اللغويين قد يصلون الى حد التنطع ، وهذا ما لا ينبغي التسليم لهم به ، ومن التنطع مطالبة أصحاب القول بأعلى درجات البلاغة او باللغة الفصحى ، وهي لا تتيسر لكل قائل ، وتكفي منهم صحة العبارة او اللغة الفصيحة على وجه مقبول لان البلاغة درجات .كذلك المواهب أنواع ودرجات .

كتاب جديد :

تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى

عرض وتعليق : د . أحمد عبدالرحيم مصطفى

تثير هذه الترجمة موضوعين رئيسيين : أولهما ضرورة التقويم المتزن لجهود المستشرقين،وثانيهما حاجتنا الى الانفتاح على مزيد من التراث العالمى المتنوع دون الارتباط بثقافة معينة والافادة من كل ذلك فى اثراء الثقافة العربية الصاعدة . فلقد أثار الاستشراق بعض الأحكام الجزئية التى اعتبرته قرينا للاتجاهات الاستعمارية واداة للغزو الثقافى دون ادراك لكون المستشرق انما يسعى الى تعريف ابناء ثقافته بما غمض عليهم من أوضاع بلدان وثقافات غريبة عليهم ، دون أن يكون هدفه الأساسى توجيه دراساته الى العرب والمسلمين دون غيرهم .

والمستشرق ينتمى ـ قبل كل شىء ـ الى ثقافة معينة توجه تفكيره شاء أو أبى ، مهما حاول أن يصطنع الموضوعية ، ومن ثم فلا نتوقع منه أن يتمشى مع مسلماتنا أو أن يصدر من الأحكام ما يرضينا ، على أن ذلك لا يجب أن يجعلنا نغض الطرف عن الجهود الجبارة التى بذلها كثير من المستشرقين الذين حاولوا استجلاء تاريخنا وثقافتنا واجتهدوا فى التحليل وتطبيق المناهج العلمية ولفتوا الأنظار الى قضايا حيوية لم يسبقهم أحد سواء فى الكشف عنها أو فى تفسير كنهها ويكفى أن نستعرض بعض الأسماء اللامعة فى دنيا الاستشراق لكى ندرك ما ندين لبعض المستشرقين فى مجال اثراء تراثنا العربى الاسلامى والغوص فى منابعه الأصلية والقاء الأضواء على كثير من جوانبه : فهناك كارل بروكلمان صاحب « تاريخ الشعوب الاسلامية » و« الحضارة الاسلامية » وهاملتون جب صاحب « الاتجاهات الحديثة فى الاسلام » و« تاريخ الأدب العربى » و« المجتمع الاسلامى والغرب » « وبرنارد لويس صاحب » العرب فى التاريخ و« اصول

تأليف : فاسيلي فلاديمير وفتش بارتولد (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠)

نقله عن الروسية : صلاح الدين عثمان هاشم

نشره المجلس الوطني للثقافة وللفنون والآداب ـ الكويت :

اللجنة الوطنية للاحتفال بدخول القرن الخامس عشر الهجري .

(١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)

الاسماعيلية » و« الشرق الأوسط والغرب » وفاسيلي فلاديمير وفتش بارتولد صاحب الكتاب الذي تقدمه للقراء العرب وجاستون فييت صاحب الباع الطويل في الدراسات الاسلامية وغيرهم كثيرون . ولا شك أن كل هؤلاء وغيرهم قد قدموا للدراسات الاسلامية أيادي بيضاء تذكر فتشكر . فاذا لم نرض عن بعض آرائهم واستنتاجاتهم فباب الاجتهاد مفتوح لمن يريد .

دعوة الى مخطط للترجمة

ولكي تنفتح على التراث العالمي لا بد من تضافر الجهود لوضع مخطط عربي شامل لترجمة امهات الكتب التي تمس تراثنا وتاريخنا ، على أن يستعان في ذلك بكبار المثقفين العرب الذين يملكون نواصي اللغات الأجنبية ويتقنون أساليب اللغة العربية ، بالاضافة الى تضلع كل منهم في الحقل الذي ينقل الينا انجازاته .

فلقد آن الأوان لتنظيم عملية الترجمة التي غلب عليها في كثير من الأحيان طابع الاستعجال جريا وراء التكسب واستغلال حاجة القارىء العربي الى التزود بنتاج الفكر العالمي ، وانني أضم صوتي الى صوت الصديق صلاح الدين عثمان هاشم الذي حاضر في الكويت وكتب أن أهمية الترجمة في الوقت الحاضر تفوق بعض الجهود المبذولة في مجال التأليف وان النهضة العربية الاسلامية في صدر الاسلام لم تزدهر الا على أثر قيام العرب والمسلمين بالترجمة عن الهندية والفارسية واليونانية واللاتينية . فلا شك أن العالم الخارجي قد سبقنا في كثير من الميادين خلال الفترة التي ران علينا فيها الجمود والتخلف ، وان اللحاق به يستلزم جهودا مكثفة تدعمها الحكومات العربية ... فنأخذ من عقول الآخرين ما يمكننا من الوقوف على أقدامنا واللحاق بهم في الوقت المناسب .

وفيما مضى انبهرنا بالتراث الغربي فأخذنا نقدر آدابه بغض النظر عن قيمتها العملية ، فقمنا بترجمتها في حد ذاتها بحيث اكتسبت في النهاية اهمية لاتتناسب مع محتواها وطغت على كثير من نتاج الغرب في غير ذلك من المجالات ، ونظرا لأن الكثيرين من المهتمين بانجازات أوروبا كانوا يتقنون اللغة الفرنسية بوجه خاص الى جانب اللغة الانجليزية في المحل الثاني ، فقد حجب ذلك عنا جوانب كثيرة من تجارب شعوب أخرى لا تقل عن الانجليز والفرنسيين اصالة وتجديدا . حقيقة لقد عرفنا الروس من خلال آداب تولستوي وجوركي وتشيخوف ودستويفسكي وبوشكين التي جرى نقلها الى اللغة العربية عن طريق ترجماتها الانجليزية والفرنسية . وحقيقة أيضا لقد تذوق بعضنا موسيقا ريمسكي كورساكوف وتشايكوفسكي وختشادوريان وعرفنا الروس البلاشفة باعتبارهم مروجي الايديولوجية الماركسية (نظريا وعمليا) ، خاصة وقد نقلت الى اللغة العربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية بعض المؤلفات السوفييتية التي تعالج السياسة والاقتصاد والتاريخ ، وان تكن الغالبية العظمى من هذه المؤلفات تستلهم التفسير المادي للتاريخ والمادية الديالكتيكية . ورغم ذلك فان المكتبة العربية لم تتعرف على الكثير من الجهود الروسية في المجال الأكاديمي الصرف ، خاصة وأن اللغة الروسية نادرة التداول في الوطن العربي لأسباب تاريخية وجغرافية معا . لهذا فان الجهد الذي قام به الصديق صلاح الدين عثمان هاشم في نقل كتاب « تركستان في فترة الغزو المغولي »[1] لمؤلفه . فاسيلي فلاديمير وفتش بارتولد ـ من اللغة الروسية الى اللغة العربية يسجل اتجاها الى مزيد من التعرف على التراث الروسي في مجال لم يتسن للكثيرين أن يتعرفوا عليه ـ

(١) آثر مترجمو الكتاب الى اللغة الانجليزية ان يجعلوا عنوانه « تركستان حتى الفتح المغولي » ، في حين ان مترجمه الى اللغة العربية قد آثر ان يجعل عنوانه « تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي » وذلك قياسا على محتواه .

أعنى ما أسهم به الروس في مجال الاستشراق بعد أن استلزم توسع روسيا القيصرية في آسيا الوسطى الاسلامية خلال القرن التاسع عشر الاهتمام بالاسلام وبالدراسات الاسلامية خاصة وقد لعبت تركستان دورا بارزا في التاريخ الاسلامي العام وزودت الحضارة الاسلامية ببعض كبار فقهائها ومفكريها .

المرجع الأول

ولقد أولع بارتولد بالتاريخ منذ أن تفتح ذهنه ، والتحق ـ قبل أن يبلغ العشرين ـ بكلية اللغات الشرقية بجامعة سان بطرسبورج ، منتسبا الى قسم اللغات العربية والفارسية والتركية والتترية . وبعد أن درس العربية والفارسية والتركية انكبّ على دراسة تاريخ القطار الشرقين الأدنى والأوسط في العصور الوسطى وما ان تخرج في جامعة سان بطرسبورغ حتى قام ـ بناء على توجيه من استاذه ف . رمروزن ـ بعدة رحلات عملية على حسابه الخاص (وكان أبوه سمسارا بالبورصة ميسور الحال) زار خلالها فنلندة والمانيا وسويسرا وشمال ايطاليا والنمسا والمجر والمانيا وبولندة ، ثم عكف على كتابة بحثه « عن تركستان في فترة الغزو المغولي » الذي تقدم به في عام ١٩٠٠ للحصول على درجة الماجستير . وبعد أن أقرت الرسالة قررت الجامعة أن تمنح بارتولد درجة الدكتوراة في تاريخ الشرق « نظرا لمستوى الرسالة الرفيع » وعينته مساعدا بها ـ وكان ذلك بداية سلم نشاطه الجامعي في التدريس والتأليف والاشتراك في مختلف اللجان والمؤسسات الأكاديمية ، مما اتاح له فرصا لزيارة آسيا الوسطى بهدف دراسة خزائن مخطوطاتها والقيام بالكشوف الأثرية والقاء بعض المحاضرات . كما زار القوقاز . وكثيرا من بلدان أوروبا الغربية بالاضافة الى الولايات المتحدة الامريكية والبلقان وتركيا ومصر . ورغم اشتغاله بالتدريس وانخراطه في نشاط العديد من الجمعيات والمجلات والمؤتمرات العلمية في الداخل والخارج فان ذلك لم يكن على حساب نشاطه العلمي الذي كانت له الأولوية في مجال اهتماماته ، فقد عكف على دراسة تاريخ ايران وبلاد ما وراء القوقاز والأقطار العربية بالاضافة الى تاريخ الشعوب التركية ـ المغولية ، رغم أن تاريخ آسيا الوسطى قد استحوذ على القسط الأكبر من اهتماماته . ولقد نشر بارتولد خلال حياته ما يزيد على أربعمائة أثر علمي ما بين بحث ومقالة ونقد وتعليق ، كما حرر ٢٤٦ مقالة لدائرة المعارف الاسلامية حول تاريخ آسيا الوسطى وجغرافيتها التاريخية ـ وكل ذلك مما جعله يعتبر خلال العقد الثاني من القرن العشرين سواء في روسيا أو خارجها أكبر عالم في تاريخ الشرق في العصور الوسطى . وفي مختلف ألوان نشاطه العلمي نجده يبدى مقدرة بارزة على التحليل النقدي للمصادر ـ ولمعرفته الجيدة بالعربية والتركية وكان أول من اعتمد في أبحاثه على عدد كبير من المخطوطات ومنها الكثير الذي كشف النقاب عنه وحلل مادته ، مما جعله يبز معاصريه ممن نشطوا في مجال الاستشراق . حقيقة أنه كتب في تاريخ الاسلام والخلافة العربية في صدر الاسلام ، وحقيقة أيضا أنه تناول تاريخ ايران الاجتماعي والثقافي وجغرافيتها التاريخية ، بالاضافة الى تاريخ القوقاز وما وراء القوقاز وتاريخ الشعوب التركية والمغولية ونظمها وتاريخ المسكوكات والنقوش الاسلامية . الا أن الكتاب الذي تعرض له والذي اعتبر المرجع الأول في تاريخ آسيا الوسطى الاسلامي هو الذي تسبب في شهرته ـ ويسجل هو ذاته ان هذا الكتاب يعد أول محاولة لعرض تاريخ تركستان اعتمادا على المصادر الأولية ، وأول كتاب يهتم بظروف الحياة الاجتماعية وأسلوب الحياة الاجتماعية الشعبية في آسيا الوسطى الاسلامية .

الأعمال الكاملة في ٩ أجزاء

ورغم قيامه فيما بعد بدراسة تاريخ تلك المنطقة والمناطق المجاورة لها بالتفصيل في كثير من بحوثه ومقالاته ، الا أنه لم يجر تعديلا أساسيا على الأحكام العامة التي توصل اليها في باكورة حياته العلمية ، مما يدل على سلامة المنهج الذي اتبعه منذ البداية ذلك أن اعتماده على كثير من المصادر التي لم يسبقه أحد الى استعمالها ، ومن ذلك المواد المخطوطة ، وعقده مقارنة دقيقة لمتون الوثائق مما أتاح له صياغة هذه المادة التاريخية في عمل تركيبي بديع مزج بين الجغرافيا التاريخية لآسيا الوسطى وتاريخها السياسي منذ القرن السابع الميلادي الى القرن الثاني عشر . وفي عام ١٩٢٨ ترجم الكتاب الى اللغة الانجليزية ـ وجاءت الترجمة منقحة ومزيدة بقلم المؤلف نفسه الذي أجرى بعض التعديلات الجزئية على بحثه على ضوء ما ظهر من مواد جديدة منذ نشر الطبعة الروسية الأصلية . وفي عام ١٩٣١ ظهرت الترجمة الأوزبكية للكتاب ، وفي عام ١٩٥٨ ظهرت طبعة انجليزية ثانية احتوت على اضافات وزيادات وتصحيحات بقلم الاستاذ ف . ف . مينورسكي ، ثم ظهرت طبعة انجليزية ثالثة في عام ١٩٦٨ تحت اشراف المستشرق البريطاني سي . اي .

بوزورث . وفى عام ١٩٦٠ صدر قرار عن سكرتارية قسم العلوم التاريخية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية يقضى باصدار طبعة كاملة لآثار بارتولد - التى ترجم الكثير منها الى لغات حية متعدد - وذلك فى تسعة أجزاء كبيرة - وظهر الجزء الأول فى عام ١٩٦٣ وهو يضم كتاب تركستان » . ولقد أثبت بارتولد فى كتابه أن فتح العرب لبلاد ما وراء النهر فى أوائل القرن السابع الميلادى قد استتبع قيام علاقات اجتماعية جديدة واستقرار الدين الاسلامى فى المنطقة بصورة نهائية وبروز نظام للحكم يتصف بالمركزية ووضع نظام جديد للضرائب . هذا بالاضافة الى انتشار اللغة العربية وأدابها ، ورضوخ الطبقة العليا من ملاك الأراضى الايرانيين المحليين (أى الدهاقنة) التام للفاتحين العرب واندماجها بقمة شرائحها بالصورة التى ادت الى بروز طبقة حاكمة جديدة من ملاك الأراضى . كما يسجل ما بلغته بلاد ما وراء النهر وخراسان فى القرنين التاسع والعاشر من تقدم اقتصادى يتمحور حول ظهور لون جديد من المدن ، وبالاضافة الى هذا فان درس خطط سمرقند وبخارى وغيرهما من مدن آسيا الوسطى ، واستخلص من دراسته هذه أن حياة المدن قد انتقلت خلال القرنين التاسع والعاشر من الشهرستانات الارستقراطية القديمة الى الضواحى التى يسكنها التجار والحرفيون . ويمضى بارتولد بعد ذلك فى تحليل حركات الهجرة والغزو التى قام بها حلف القبائل التركية الرحل فى أواخر القرن العاشر والنصف الاول من القرن الحادى عشر معتبرا اقامة الترك للدولتين القراخانية والسلجوقية تسجيلا لمرحلة جديدة فى تطور مجتمع بلاد وما وراء النهر وخوارزم وخراسان ، مما تمخض عن التمهيد للسيادة السياسة التى أحرزتها الزعامات العسكرية للترك الرحل وانتشار نظام الاقطاع العسكرى الذى أدى الى تدهور أجهزة الحكومة المركزية .

وفى الفصل الثالث من الكتاب يستعرض بارتولد تاريخ آسيا الوسطى خلال القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر كما يستعرض نظام حكم شاهات خوارزم ويخلص الى أن قوة دولتهم كان ظاهريا فعليا بدليل سهولة قضاء المغول عليها . وفى ثنايا ذلك نجده يستعرض السلطة الروحية التى تمتع بها صدور بخارى من آل برهان ويتناول الثورة التى قام بها الحرفيون فى هذه المدينة . وفى الفصل الرابع يستعرض الفترة التى تلت الغزو المغولى ويصف مجتمع المغول الرعوى فى أوائل القرن الثالث عشر ونظام حكمهم ومهاراتهم العسكرية .

منهج مترابط

هذه هى أهم الموضوعات التى يتناولها بارتولد فى كتابه « تركستان » وفق منهج تاريخى مترابط أقرب الى الماركسية وان لم يكن المؤلف ذاته ماركسيا . فهو يبرز الصراع الطبقى والانتفاضات التى قامت بها الفئات الشعبية ضد الطبقة الحاكمة ، ويذهب الى أن قيام دولة ما يرتبط بصورة قطعية بوجود الطبقات وان الحكومة انما هى أداة للطبقة المتسلطة خلال صراعها من الفئات الشعبية ، وهكذا نجده فى تحليله لبعض الحركات التى قام بها الفلاحون فى آسيا الوسطى وايران يذهب الى أن مثل الطبقات العليا قد بادروا خلال فترتى الفتح العربى والغزو المغولى الى التصالح مع الحكام الأجانب حفاظا على امتيازاتهم وأراضيهم ، مما جعل الحركات الشعبية المستندة الى الفلاحين وسكان المدن تتصدى لكل من الغزاة الأجانب والارستقراطية المحلية فى نفس الوقت . وفى ثنايا استعراضه للدور التاريخى لحركة الشيعة وغيرها من الحركات الدينية نجده يؤكد فى أكثر من موضع أن التشيع قد انتشر فى الأوساط الريفية قبل غيرها وان الانتفاضات الدينية كان الطابع المميز للحركات الشعبية ، كما يطبق التفسير الطبقى على الصراع بين الحنفية والشافعية بعضهم وبعض وبينهم معا وبين الشيعة ، فهو يرى أن الشافعية كانت تمثل الطبقة العليا فى المدن وأن الحنفية كانت تمثل أصحاب الحرف والطبقات الوسطى الحضرية . على حين ان اتباع المذهب الشيعى كانوا من الفلاحين سكان الريف المحيط بالمدينة ، واهتمام بارتولد بالتاريخ الاجتماعي وتاريخ الصراع الطبقى والحركات الشعبية فى آسيا الغربية والوسطى يبرز بصورة أوضح فى أبحاثه الأخرى أكثر مما يظهر فى كتابه « تركستان » الذى اهتم فيه بايضاح العلاقات الخارجية لدول آسيا الوسطى وتاريخها السياسى وجغرافيتها التاريخية والاقتصادية .

وهناك ناحية تستلفت الاهتمام فى الفلسفة التاريخية لدى بارتولد ، وهى عدم أخذه بالنظريات العنصرية التى استهوت كثيرا من المفكرين الأوربيين فى زمانه ، بما فى ذلك بعض الروس من أمثال دانليفسكى . فقد انتشت أوروبا بتوفيقاتها المادية التى أتاحت لها أن تنهض وتسيطر على الشعوب المتخلفة فى آسيا وأفريقيا ، فى الوقت الذى روجت فيه نظرية التطور لكون البقاء للاصلح ، وراح الكثيرون - من أمثال نيتشه - يبشرون بظهور الانسان الأعلى مما مهد لظهور « آراء

خاصة يتفوق بعض الأجناس على الأخرى بالفطرة ونتيجة لمكونات عرقية موروثة . وهكذا نجد المؤرخ الانجليزي فرود Froude يفسر انتصار الانجليز على الأسبان في القرن السادس عشر تفسيرا عنصريا ، ويطرح كثير من الألمان نظرية الجنس الآري التي لا تستند الى أساس علمي معقول ، ويفخر بعض المفكرين الفرنسيين بمنجزاتهم الحضارية والعسكرية ويرجعونها الى تفوق جنسهم ، ويمجد بعض المفكرين الروس قيم مجتمعهم الريفي التي راحوا يبشون تفوقها على القيم المادية الغربية ، ويطلق الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج صيحته الخاصة بأن الشرق شرق والغرب غرب وانهما لن يلتقيا ، ويتكلم كثير من الأوروبيين عن « رسالة الرجل الأبيض » الذي نيطت به مهمة تحضير « المخلوقات الدنيا » في العالم غير الأوروبي . ورغم مغريات كل عقد التفوق الأوروبية هذه فقد التزم بارتولد عن قناعة بتساوي الناس في الشرق والغرب . ورد تخلف الشرق الى الظروف التي وجهت النشاط الذهني الى وجهات مغايرة دون وجود فروق جوهرية بين طبيعة كل من الانسان الشرقي والغربي ، فهو اذن يستنكر نظرية السيادة العنصرية وفكرة التفوق الأوروبي ، ورغم انصافه للدور التاريخي لامبراطورية جنكيز خان ، وابرازه للجوانب الايجابية في نظام الحكم لدى المغول فانه لم يوافق على ما نسب الى الشعوب المنحدرة عن أصول مغولية وتركية من موهبة خاصة ومقدرة فائقة في المجالات العسكرية والادارية والتنظيمية ، وهو ما ذهبت اليه النظريات « الطورانية » التي قيض لها أن تلعب دورها في تدمير الامبراطورية العثمانية .

ومن هذا المنطلق الانساني يهاجم بارتولد مذهب الامبريالية الذي أخذ به بعض المستشرقين في أوروبا الغربية ـ وهكذا لم يسخر قلمه في الدفاع عن فتوحات روسيا القيصرية وسياستها الاستعمارية في آسيا الوسطى والقوقاز ، بل انه رفض بشدة طلب وزير الداخلية ماكاروف تحويل مجلة « عالم الاسلام » التي اشترك بارتولد في اصدارها الى بوق للسياسة القيصرية الاستعمارية مما ترتب عليه اقصاؤه عن رئاسة تحريرها . ورغم تأثره في أواخر حياته بالمذهب الماركسي واستمرار نشاطه العلمي في المجالين الاجتماعي والتنظيمي وشغله مناصب علمية هامة في الاتحاد السوفييتي في أعقاب ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، فانه لم يعتنق الماركسية باعتبارها فلسفة شاملة تحكم تفسير التاريخ . خاصة وأنه لم يتخلص تماما من أثر المذهب المثالي في فكره ، وهو المذهب الذي جعله يؤمن الى آخر حياته بدور المؤثرات الحضارية في سير التاريخ . فقد فسر الأحداث والظواهر التاريخية على أنها وليدة تأثير شعب متحضر على شعب آخر أقل منه حضارة ، وكان مقتنعا بأن قوانين التطور التاريخي على كل الشعوب بغض النظر عن الزمان والمكان ، وبأن التعميمات والمفاهيم النظرية لا يمكن أن تكون لها أهمية علمية الا اذا استندت الى أساس قوي قوامه تحليل الوقائع المستمدة من دراسة دقيقة ومقارنة للمصادر .

كتاب « تركستان »

هذه لمحة عن مكانة كتاب « تركستان » ومؤلفه ، أما مترجمه الصديق صلاح الدين عثمان هاشم فقد تخصص في دراسة التاريخ بجامعة القاهرة ، وبعد تخرجه توجه الى باريس للالتحاق بكلية الدراسات الشرقية حيث درس اللغات الفارسية والتركية والمغولية قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي السوداني الذي أتاح له تمثيل بلاده في العاصمة السوفييتية حيث الم باللغة الروسية . وكان قد قرأ كتاب « تركستان » في ترجمته الانجليزية ، ثم قرأه مرة ثانية في أصله الروسي خلال اقامته بموسكو ، كما اطلع على أكثر ما كتبه بارتولد ، وأخيرا قرر نقل الكتاب من الروسية الى اللغة العربية ، ولم تكن هذه هي تجربته الأولى في الترجمة بل لقد سبق له أن ترجم كتاب « الأدب الجغرافي العربي » لكراتشكوفسكي » وهي الترجمة التي جرى استقبالها بقدر كبير من التقدير ، في الوطن العربي وفي الخارج ، لما تميز به صلاح الدين عثمان هاشم من دقة وأمانة . وحين قرر نقل كتاب « تركستان » الى اللغة العربية اعتمد على الطبعة التي أصدرتها أكاديمية العلوم السوفييتية في عام ١٩٦٣ ، وقام بمراجعة الأصل الروسي على الترجمة الانجليزية التي ظهرت في عام ١٩٢٨ والتي أشرف عليها المؤلف نفسه . وتختلف الطبعة السوفيتية الجديدة عن الطبعة الروسية التي ظهرت للكتاب في مطلع هذا القرن في أنها تضم فصلا جديدا وجد بين أوراق المؤلف بعد وفاته « الفصل الخامس » وهو الفصل الذي قام ناشروه السوفيت من تلامذة المستشرق الكبير وغيرهم باعداده النهائي بعد تزويده ببعض التعليقات وتوضيح الرموز المستعملة في الاشارة الى المخطوطات واجراء زيادات في الحواشي ، وكذلك قام المترجم العربي باضافة بعض التعليقات والمقتطفات من المؤرخين المسلمين واستدرك ما فات على الناشرين السوفيت من مراجع ، مع الاشارة بوجه خاص الى الطبعات والترجمات العربية الحديثة ، كما أثر في

بعض المواضع التى لخص فيها بارتولد أقوال المؤرخين المسلمين أن يورد هذه الأقوال أحيانا برمتها ، وقام بشرح معانى بعض الالفاظ التركية والمغولية التى أكثر المؤرخون المسلمون استعمالها . واضاف الى الترجمة فى صورة ملحق النص الفرنسى الكامل لمحاضرة كان قد القاها فى الجمعية الآسيوية بباريس عن « الألقاب الصحيحة لأحد خانات بلاد ما وراء النهر » وتضمنت تصحيحا لوهم وقع فيه بارتولد . كما أضاف ملحقا آخر صحح فيه بعض الأخطاء التى وردت فى الترجمة الانجليزية للكتاب ، وزود الترجمة العربية بعدد من الخرائط وشجرات أنساب الأسر الحاكمة ونظرا لأن الطبعة السوفيتية قد تضمنت فى حواشيها اشارات ومقتبسات عديدة من مقال العلامة الفرنسى بول بليو المعنون : « ملاحظات على تركستان السيد بارتولد[٢] » فقد رأى المترجم العربي أن يلحقه بترجمته مصورا . كما استباح لنفسه ـ مقتفيا فى ذلك أثر القائمين على الترجمة الانجليزية الأولى ـ أن يعدل العنوان الأصلى ليجعله « تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغول » .

وبعد أن اكتملت ترجمة االكتاب الى اللغة العربية تبنى المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت نشرها ، ودعا المترجم الى البلاد حيث القى بعض المحاضرات المتعلقة بهذا الجهد بوجه خاص وبأهمية ترجمة أمهات الكتب الأجنبية الى اللغة العربية بوجه عام . وراجع الطبعة بنفسه حتى يجنبها مزالق الأخطاء المطبعية ويقوم على فهرستها . واننا اذ نعرف القارىء العربى بهذا الجهد الضخم الذى بذله الصديق المترجم ، نتمنى له خالص التوفيق فيما يخطط له من جهود مماثلة ، ونثنى على المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت لتبنيه لهذا الجهد ، راجين أن يواصل المجلس جهوده فى هذا المضمار وأن توضع خطة عربية متكاملة تستهدف نقل أمهات الكتب الكلاسيكية المعاصرة مما جادت به قرائح الكتاب بالخارج الى لغة الضاد . ■■

أحمد عبد الرحيم مصطفى

---

(٢) بليو من علماء الغرب القلائل الذين أجادوا اللغتين الصينية والمغولية اجادة تامة ، وهو مالم يتح لبارتولد ـ ومن ثم قيمة استدراكاته .

سر القوة

■ كل الضوضاء عبث . فاحرص على خفوت لفظك ، وهدوء تفكيرك ، وسكون عاطفتك . فاخفض من صوتك ، وترقب انصات من يسمعك ، فاذا فى كلمتك الخافتة تكمن القوة المتفجرة

(البرت هبرر)

السعادة

■ السعادة : بنت المشقة ، ومن خطأ الرأى أن يظن المرء أنه يستطيع أن يدرك السعادة عن طريق اشباع العاطفة ، ومثله كمثل من يحاول أن يأكل الجمال . ولن تدرك السعادة حتى تصيدها ختلا ، فهى تحب أن ترى الناس يكابدون ويكدون ويكدحون ويضحون . ولن تجدها فى القصور بل تجدها مستكنة فى الحقول والمصانع ، أو محومة على زحام الأعمال . انها تضع على رأس الطفل المكب تاجا لا يحس به .

هارولد نيكلسون

اعداد : يوسف زعبلاوى

العقاقير السحرية فقدت الكثير من فاعليتها ولم تعد سحرية

● المقصود هنا المضادات الحيوية Antibiotics التي ظهرت قبل نحو ٤٠ سنة والتي بهرت الناس جميعا بفاعليتها الخارقة ، وقدرتها على الشفاء من طائفة من الامراض الخطيرة والاوبئة المعدية التي طالما نشرت الموت او الرعب في مشارق الارض ومغاربها .. نذكر من هذه الامراض على سبيل المثال السل والتيفوئيد والسفلس .. فقد انتشرت هذه الامراض وشاعت ، وتسببت بالتشويه وادت الى الموت في كثير من الاحيان .. حتى ظهرت المضادات وانتشرت .. فلم تعد تلك الامراض مميتة ولامفزعة .. كما كانت .

والسير الكسندر فلمنج هو صاحب الفضل في اكتشاف البنسلين سنة ١٩٢٨ كما هو معروف .. والعالمان فلورى Florey ، وتشين Chain ، هما المسؤولان عن عزل البنسلين . بحيث امكن استعماله في معالجة المرضى سنة ١٩٤١ .. لاعجب اذن ان ظفر العلماء الثلاثة . في أن معا ، بجائزة نوبل سنة ١٩٤٥ .. والبنسلين . كما لايخفى ، هو المضاد الاول .. زمنا وقيمة .. وقد اطلقوا عليه وعلى اشقائه اسم « المضادات » نسبة الى التضاد او التنافر القائم بين المكروبات ، ويعرف بالاصطلاح العلمي Antibiosis .. وقد عرف علماء الاحياء في القرن ١٩ هذا التضاد وعرفوا بموجبه ان صنفا من المكروبات قد يعرقل نمو صنف آخر . ولما كان هذا التنافر هو الاساس الذي تقوم عليه فاعلية البنسلين وأشقائه كانت التسمية Antibiotic ..

ولكن المضادات التي اعتبرت سحرية في بادىء الامر لم تعد سحرية في السنوات الاخيرة .. فبعض الامراض والاوبئة الخطيرة التي توارت ، او كادت ، في الخمسينات نتيجة لاستعمال المضادات .. اخذت جراثيمها مؤخرا تستعصى على المضادات وتهدد بالعودة الى الانتشار ثانية .. لذا كانت الندوة التي عقدت في مدينة بوسطن بامريكا في شهر اغسطس الماضي والتي اشترك فيها ١٥٠ عالما قدموا لها من ٢٦ بلدا مختلفا .. لايقصد سوى البحث والتداول في الظاهرة الخطيرة التي ذكرنا وفيما عساهم ان يفعلوا من اجل وضع حد لها ...

وتبين لعلماء الندوة ان الاسراف والتسيب في استعمال المضادات انما هو السبب الرئيس في تقلص فاعليتها .. فهي تباع دون وصفة طبيب في بلدان العالم الثالث .. ويصفها الكثيرون من الأطباء لمعالجة حالات عرضية ابسط بكثير من ان تعالج بالمضادات . كالزكام مثلا ، وذلك استعجالا لشفاء مرضاهم .. وقد يصفونها لمعالجة حالات اخرى غير قابلة لتعالج بالمضادات اصلا .. وذلك على سبيل الخطأ والصواب .. او بدافع الثقة الكبيرة التي يولونها هذه العقاقير ... اضف الى ذلك اقبال المزارعين على اضافة المضادات الى علف حيواناتهم .. وذلك حرصا على الوقاية وسلامة صحتها وبقصد تجنيبها الامراض وتنشيط نموها .. وهكذا تسربت المضادات الى مايتناول الانسان من طعام .. من اصل حيواني او نباتي .. وأدى هذا وذلك الى انتشارها وادى بالتالي الى ظهور صنوف جديدة من البكتريا تتميز بمقاومتها للمضادات او اكتساب الصنوف القديمة منها مزيدا من مناعة ضدها .

من ذلك البكتريا المعروفة باسم Staphylococcus aureus ، التي اشتهر البنسلين ، بادىء ذي بدء ، بفاعليته الخارقة ضدها .. اصبحت لاتستجيب له الآن في حوالي ٩٠ ٪ من الحالات .. وقل مثل ذلك في البكتريا E. Coli .. فقد

تضاعف انتشار التهابات المسالك البولية الناجمة عنها في انجلترا وولز بنسبة ٥٠٠٪ وذلك تبعا لتضاؤل فاعلية المضادات ضدها .

يقول والتر جلبرت ، احد ... هارفارد والحائز على جائزة نوبل .. « قد يأتي يوم تستعصي فيه الالتهابات البكترية عامة على المضادات بنسبة ٨٠٪ او حتى ٩٠٪ .. فالاسراف في استعمال المضادات ماض في تحويلها الى مستحضرات عقيمة ، وقد كانت في الامس القريب ادوية سحرية .. »

والحديث عن فقدان المضادات لفاعليتها غير الحديث عن آثارها الجانبية الضارة .. التي تترتب هي الاخرى على التسيب في استعمالها .. فمن المعروف ان الكلورا مفينكول يعطل انتاج كريات الدم الحمراء في نخاع العظم bone marrow ، بحيث ينبغي عدم وصفه الا في حالات الضرورة التي تتعرض فيها حياة المريض للخطر .. والمعروف ايضا ان الستربتومايسين يسبب الصمم اذا طال استعماله امدا طويلا .. والتتراسيكلين يعرقل نمو الاسنان في الاطفال اذا اسيء استعماله .. وكذلك البنسلين يسبب الحساسية لبعض الناس ، الامر الذي يوجب الحرص في استعماله ، علما بان البنسلين يظل المضاد الامن من غيره .



اجهاض التوءم المشوه

كانت عمليات الاجهاض التي تستهدف طرح أحد التوءمين دون الآخر ، متعذرة على كبار الجراحين ، ان لم نقل مستحيلة .. حتى نجح الاطباء مؤخرا في اجراء مثل هذه العمليات ، في بلاد السويد اولا ، ثم في الولايات المتحدة الامريكية ثانيا .. وهذه قصة المرأة الامريكية التي اجريت لها العملية لاول مرة في امريكا ...

كانت في الأربعين من عمرها وكان حملها الاول .. وهو حمل محفوف بالمخاطر ، كما لايخفى .. واجرى لها الفحص الأمينوسي (التخطي) Amniocentesis .. وهو الفحص الذي يكشف عما اذا كان الجنين سويا او يعاني من علة فطريه Genetic defect. وقد اجرى لها هذا الفحص وهي في الاسبوع السابع عشر من حملها فتبين انها حامل بتوءم من نوع fraternal. وان احد التوءمين سليم بينما الاخر معتل ويشكو من آفة الطفل المغولي down syndrome .. وخيرت المرأة بين الابقاء على حملها والاستعداد للعيش مع طفل مشوه في جميع كيانه .. او الاجهاض .. الذي لامفر من ان يقضي على كلا التوءمين ، السوي والممسوخ في آن معا ... وعز على المرأة التخلي عن حملها وعن التوءم السوي ... لاسيما وان حملها هذا قد يكون الاخير في حياتها ، وصعب عليها تقبل التعاسة والعذاب اللذين سيملآن قلبها مدى الحياة بسبب مولد توءمين ... احدهما مسخ .

وشاءت الاقدار ان تراجع المرأة الحامل الدكتور توماس كيريني Kerenyi الشهير في عمليات التوليد واحد كبار العاملين في مستشفى جبل سيناء المعروف في امريكا ... وابدى هذا

الطبيب استعداده لاجراء عملية الاجهاض التصفي ، التي نجح الجراحون السويديون في اجرائها والتي تستهدف طرح التوءم المعتل دون المساس بالتوءم السوى .

وقبلت المرأة تحفظات الدكتور كيريني ووقعت التعهد المألوف في مثل هذه الحالات .. حتى اذا كان الاسبوع العشرون من حملها ادخلت المستشفى واجريت لها شتى الفحوص التي تستوجبها عملية الاجهاض التي ذكرنا ..

وكانت الخطوة الاولى في تصوير الرحم من الداخل .. وذلك بواسطة اجهزة تعمل بالموجات فوق الصوتية ultrasonic . وما اسرع ما ظهرت الصورة واضحة على شاشة تلفزيون صغيرة ، صورة التوءمين داخل الرحم .. وهكذا اصبح في وسع الطبيب الجراح اجراء العملية بيديه .. ومشاهدتها في الوقت نفسه بعينيه ... كما أصبح في وسعه رؤية كلا التوءمين : السوى والمشوه .

ثم كانت الخطوة الثانية الحاسمة ... اذ ادخل الدكتور كيريني ابرة طويلة في بطن الحامل وخرق الكيس الامينوني (التخطي) Amniotic sac حتى وصلت الى الجنين المعتل ... ثم غرس الابرة في قلب ذلك الجنين بالذات ... ولما كان القلب صغيرا جدا . بعرض نصف بوصة فقط ... طاشت واخطأت الهدف ، وفشل الجراح في محاولته الاولى .. هذا بالرغم من انه كان يرقب ويرى بوضوح على شاشة التلفزيون كل ما كان يجريه داخل رحم المرأة .. واضطر الطبيب للقيام بمحاولته الثانية .. فأصاب النجاح .. اذ غرس الابرة في القلب بالذات ، وتمكن من سحب الدم من قلب الجنين بالقدر الذي يكفل القضاء عليه .. وقد بلغ ماسحبه حوالى ٣٠ غرام ... اى ما يعادل ٤٠ ـ ٥٠٪ من دم الجنين . ومالبثت ضربات قلب الجنين ان اخذت بالتباطؤ ... حتى توقفت تماما واصبح التوأم جثة هامدة ...

وخشي الجراح ان يكون قد قضى على التوءم السوى بدلا من المعتل .. اذ قد يكون التوءمان قد تحركا بحيث حل الواحد منها محل الاخر ... دون ان ينتبه الطبيب الى ذلك ... فعمل على سحب عينه من دم التوءم الحي واجراء التحليل المناسب لها genetic analysis فاثبت له هذا التحليل ان التوءم الحي هذا هو التوءم السوى ..

وولدت المرأة بعد استكمال فترة التسعة شهور فكان مولودها طفلا سويا سليما بلغ وزنه حوالى ٣ كيلو جرامات .. ثم لفظت ، بعد ولادته بقليل ، بقايا التوءم الميت التي لم يزد وزنها على ١٢٠ غراما ...

فاصوليا الشمس
نبات جديد استحدثه العلماء

● يبدو ان الهندسة البيولوجية قد تخطت مرحلتها الأولى التمهيدية وبدأت تعطي ثمارها الطبية . من تلك الثمار البكتريا التي تلتهم البترول وتقضي على التلوث ، وقد اوردنا خبرها في عدد نوفمبر الماضي .. ومنها خبر الفاصوليا الجديدة التي نجح علماء جامعة وسكونسن في مدينة مديسون بأمريكا في تخليقها ..

سموها (فاصوليا الشمس) نظر لأنها مولدة من الفاصوليا الفرنسية ومن دوار الشمس .. والفاصوليا الفرنسية هذه غنية بالبروتينات .

وكانت الخطوة الاولى التي خطاها العلماء الامريكيون في عزل الجينات المنتجة للبروتين في الفاصوليا التي ذكرنا .. ثم عمدوا الى نقل تلك الجينات الى خلايا دوار الشمس ودمجها فيها .. ولكن هذه عملية صعبة ودقيقة ولامفر من اللجوء الى الحيلة للقيام بها . وكانت حلية علماء وسكونس في ترك المهمة الى بكتريا مرض Crow gall لتقوم بها ... واستجابت هذه البكتريا وأدت مهمة النقل .. نقل الجين البروتيني من الفاصوليا الفرنسية الى دوار الشمس ، على اكمل وجه ممكن ...



الهجرة إلى المجهول

شعر : علي شبيب

نحن العشاق المسكونين بنار الحب المسعوره
نلتهم الورق اليابس في الغابات
نتمرغ فوق الغيمات
ونحاور أطيار الحانات
في مدن الحب المسحوره

××

في صمت الارض المهجوره
نتعبد من غير كلام
وبماء العين المسحوره
نتوضأ كالزهر البرى
ونحلم بالعشب النامي

××

نحن العشاق المسكونين بسحر الهجرة للمجهول
في صحبة ربان آت
من شاطيء بحر الأنوار
نترقب نجمك ـ سيدتي
يتوهج في الفجر المقتول
ويمزق اشرعة الابحار
لتغطي غاب الاسوار

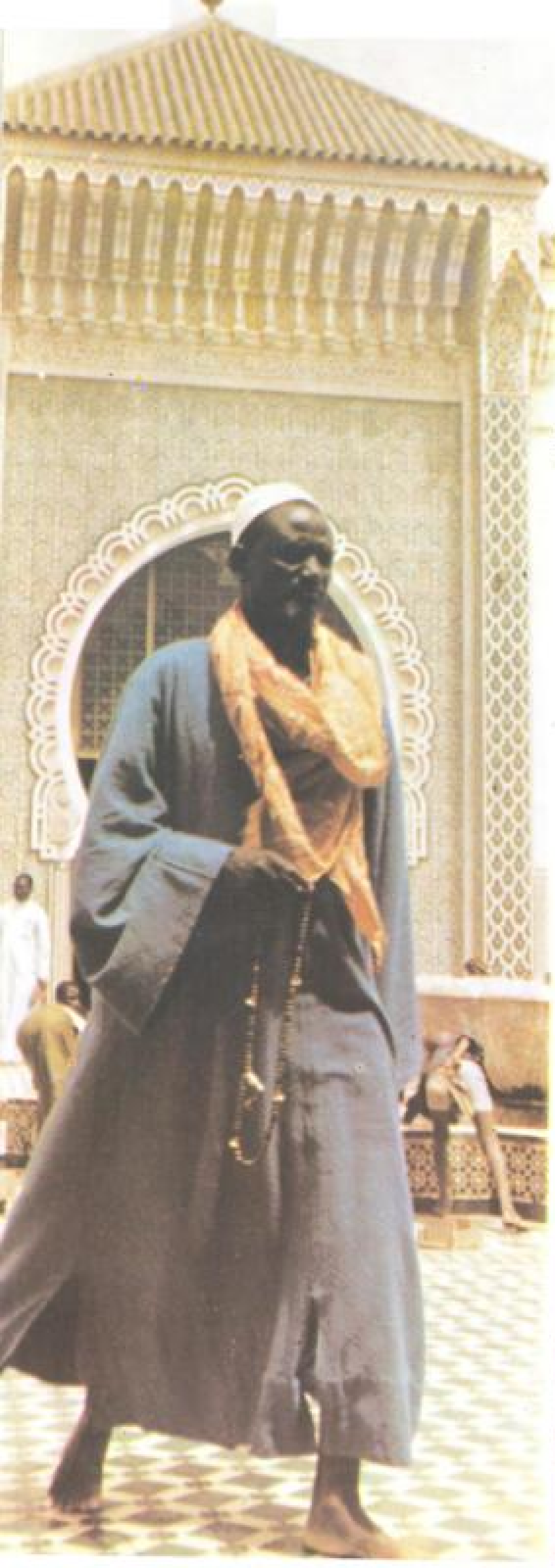
××

أذار يومضى سيدتي
من يطفيء ضوءك في الامطار ؟
والابحار
نترقب نجمك في أذار ■

مسلمو السنغال بين الحقيقة والطريقة

سيدنا عيسى بن سيدنا متجون على الارجوحة مع زوجاته اللاتي لايعرف عددهن ، وبعض من أولاده وبناته ، في شرفة بيته قرب داكا .





استطلاع : فهمي هويدي

تصوير : اوسكار متري

أحد اتباع الطريقة التيجانية ، تميزه « سبحته » المستطيلة حيث ذهب .



في السنغال تختلط الحقيقة بالطريقة ، حتى لايكاد المرء يعرف اين يبدأ كل منها واين ينتهي . وهل الحقيقة هي التي صنعت الطريقة أم أن الطريقة هي كل الحقيقة ؟ !

يقع القادم في اللبس حتما ، اذا بقي في داكار فلن يرى سوى وجه واحد للحقيقة ، قل انه الحقيقة على « الطريقة » الفرنسية . واذا نزح خارج العاصمة فسوف تلاحقه الطريقة حيثما ذهب ، تحاصره في الاغلب ، وتدهشه بالتأكيد ، وتثير لديه الف سؤال حول الاسلام الافريقي ، وحول الدور الفرنسي في تعليب الاسلام وتطويعه وتشتيت قواه الفاعله .

ان غربة العربي في داكار ، لا يفوقها الا شعوره بالصدمة كمسلم . ومحاولات الاستعمار الفرنسي اغتيال اللغة العربية في السنغال ولي السنة الناس ، كانت مصحوبة بجهد حثيث ودائب لتجميد عقائدهم في قوالب بذاتها ، بحيث تأخذ من المسيحية الشكل والاطار ، وتأخذ من الوثنية المضمون والرموز والطقوس ، وتأخذ من الاسلام اللافتة !

وما كان ذلك ليحدث لو ان العالم الاسلامي في بعض وعيه وانتباهه ، وما كان للمخطط ان يرى النور لو ان التربة لم تكن مهيأة ، والساحة خالية ، والطرق مفتوحة وسالكة . لكنهم استغلوا الغيبة والغيبوبة ، وحرثوا الارض ، وغرسوا ، وسقوا ورووا ، ثم جنوا .. وعندما كنا هناك رأينا الثمار تملأ العين وتدمي القلب !

لم يتحقق لهم كل ما أرادوا وتمنوا ، هذا صحيح ، ولكن لا أحد ينكر انهم نجحوا في بلوغ الكثير مما خططوا له ، وان جاءت الرياح احيانا بما لم يشتهوا ، وظهر وسط الزرع نبت اصاب حلوقهم بالمرارة والاذى . فذلك يظل استثناء على القاعدة ، وشذوذا عن المألوف ، ونغمة نشازا في المعزوفة السائدة والمقررة .

السنغال والعلمانية

في البدء قالوا ان السنغال بلد « علماني » مثل الوطن الام : فرنسا . حيث الدين في الكنيسة وفي الضمير ، ولا شأن له بالشارع . الدين في جانب والدولة في جانب . ثم جاءوا بالنموذج المسيحي وطبقوه حرفيا على مجتمع مسلمي السنغال . فكما ان المسيحيين ينتمون الى دين واحد ، ومذاهب متعددة ، لكل مذهب كنيسة ورئاسة .. كذلك رسموا خريطة الواقع الاسلامي .. فليكن الجميع مسلمين ، ولا مانع من ان يعتنقوا المذهب المالكي . ولكن ليقسم المسلمون الى ٤ طرق صوفية رئيسية ، تعترف بها الحكومة وتتعامل معها . على رأس كل طريقة « بطريرك » اسمه « خليفة جنرال » اي الخليفة العام ، ولا مانع من ان يتبعه خلفاء صغار مطارنة ، لكن المعترف به هو ذلك « الخليفة جنرال » ! وهو حر في اتباعه ، وفي تنظيم البناء الهرمي لطريقته ، سواء على مستوى الفروع (الابرشيات) او على مستوى السلم القيادي ، القسس والكهنة ، وله الورد والسر ، الذي لا يلقن الا للمريدين ، ولديه كتب الطريقة وعهودها .. وهو الذي ينظم الاحتفالات الدينية بمختلف المناسبات المقررة في تقاليد وأعراف الطريقة . وعلى الحكومة ان توفد ممثلا لها في تلك المناسبات .

وذلك هو الجسر الوحيد الذي يلتقي فيه الدين بالدولة . بعد ذلك يذهب كل الى حال سبيله ، الخليفة الى قيادة الطريقة ، والحكومة الى سياسة الدنيا .

بالمنطق « العلماني » لم يعد للثقافة الاسلامية اي مكان في مدارس الحكومة . اذ لا شأن للدولة بهذه القضية . وبنفس المنطق استبعد النشاط الاسلامي من خريطة العمل السياسي .

فتعددت التجمعات السياسية يمينا ويسارا ، وحظر تأسيس اي تجمع اسلامي ، على اعتبار ان ذلك مما لا تقبله الدولة العلمانية ، فضلا عن اية ممارسات اسلامية مكانها في الزوايا وعبر الطريقة وشيخها ..

وقد ظل منع تدريس الدين بالمدارس مستمرا خلال العشرين سنة التي اعقبت الاستقلال ، اي طوال حكم الرئيس سنجور ، وطوال تلك الفترة كان تحقيق هذه الامنية يشكل مطلبا شعبيا التقى عليه الجميع . وبعد خروج سنجور من الحكم بعشرين يوما فقط ، وفي ظل حكم الرئيس الجديد عبده ديوف ، وهو مسلم من ابناء المدرسة الفرنسية ، تقرر ادخال مادة الدين في المدارس الابتدائية لاول مرة .

نظرة على الخريطة

يرصد الدكتور روحان امباي ، مدير المعهد الاسلامي في داكار ، خريطة الواقع الاسلامي في



الشيخ عبد العزيز سي

الخليفة العامة للطريقة التيجانية

السنغال على الوجه التالي :

× يتوزع شعب السنغال بملايينه الاربعة ، بين الاسلام (٩٣٪) والمسيحية (٥٪) والوثنيه (٢٪) . المسلمون يتركزون في الشمال والشرق والغرب (المناطق المتاخمة للشمال الافريقي والساحل) . والمسيحيون على السواحل (مناطق تمركز القوى الاستعمارية خصوصا في سان لويس وجزيرة جورية) والوثنيون في الجنوب ، حيث مناطق الغابات التي تتمركز فيها قبائل سيرير وسكان كازاماتس الادنى ، وهؤلاء يتسرب اليهم الاسلام تدريجيا . خصوصا وان قبائل الولوف المسلمة ، تحيط بقبائل السيرير ، مما يتيح فرصة الاتصال والتأثير بصفة دائمة .

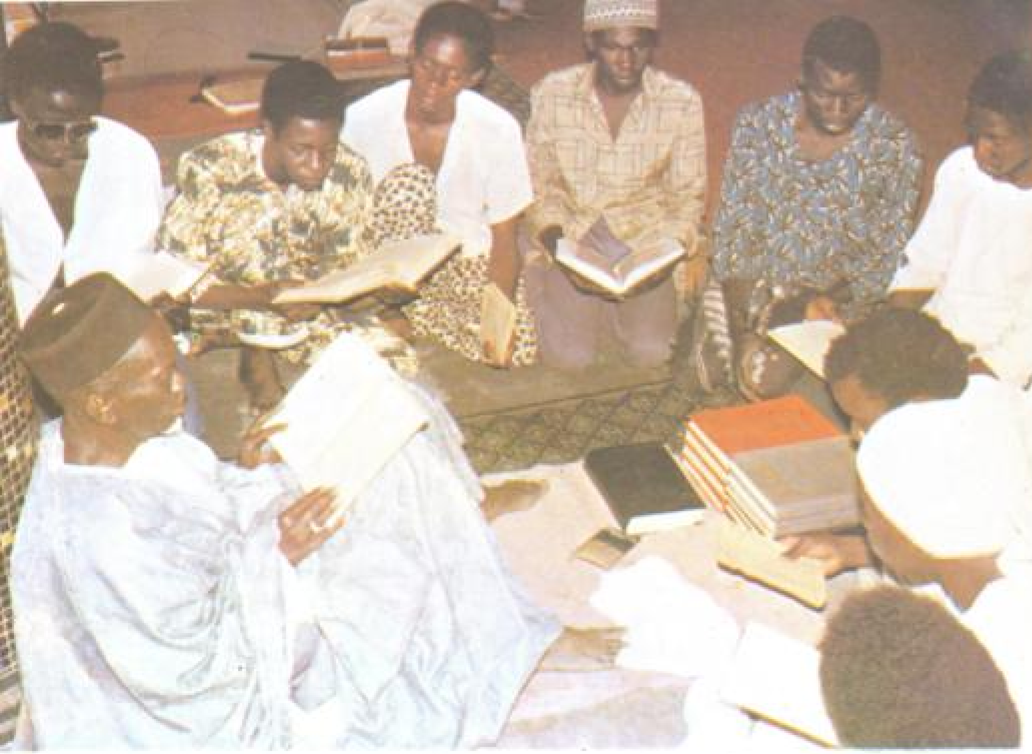
× المسلمون يدينون بالمذهب المالكي ، شأن مسلمي الشمال الافريقي ، وقد اعتبرت القيروان ، التي أسسها عقبة بن نافع في العام الخمسين من الهجرة ، قلعة المذهب المالكي ، منذ ولي القضاء فيها عبدالسلام سحنون (٧٧٦ - ٨٥٦م) صاحب كتاب « المدونه » في مذهب الامام مالك . وظلت القيروان ، على ما ذكرنا ، هي القاعدة التي انتشر منها الاسلام الى انحاء غرب افريقيا ، فضلا عن شمالها . ومن حلقات فقه المالكية بها خرج عبدالله بن ياسين ، قطب دولة المرابطين ، في رحلته التي بدأت بالدعوة الى تصحيح عقيدة البربر ، ثم اعتزاله في الرباط عند نهر السنغال ، ثم خروجه مجاهدا وفاتحا وموحدا للصحراء في القرن الحادي عشر .

× واذا كانت المالكية هي المذهب السائد الا ان الهجرة اللبنانية جاءت معها بالمذهب الشيعي ، ويقدر عدد اللبنانيين في السنغال بحوالي ٣٠ الف شخص ، ٩٠٪ منهم مسلمون . وهؤلاء اكثرهم من الجنوب ، ومن اتباع المذهب الشيعي . ثم ان الهنود والباكستانيين القادمين الى السنغال حملوا معهم ايضا افكار القاديانية (نسبة الى غلام احمد القادياني الهندي الذي ادعى النبوة في القرن التاسع عشر) وقد حاولوا تأسيس مركز لهم في داكار ، ولكن السلطات المعنية رفضت التصريح لهم بذلك ، خصوصا وان الرابطة الاسلامية في السعودية اعلنت في تقرير شهير لها خروجهم على تعاليم الاسلام .

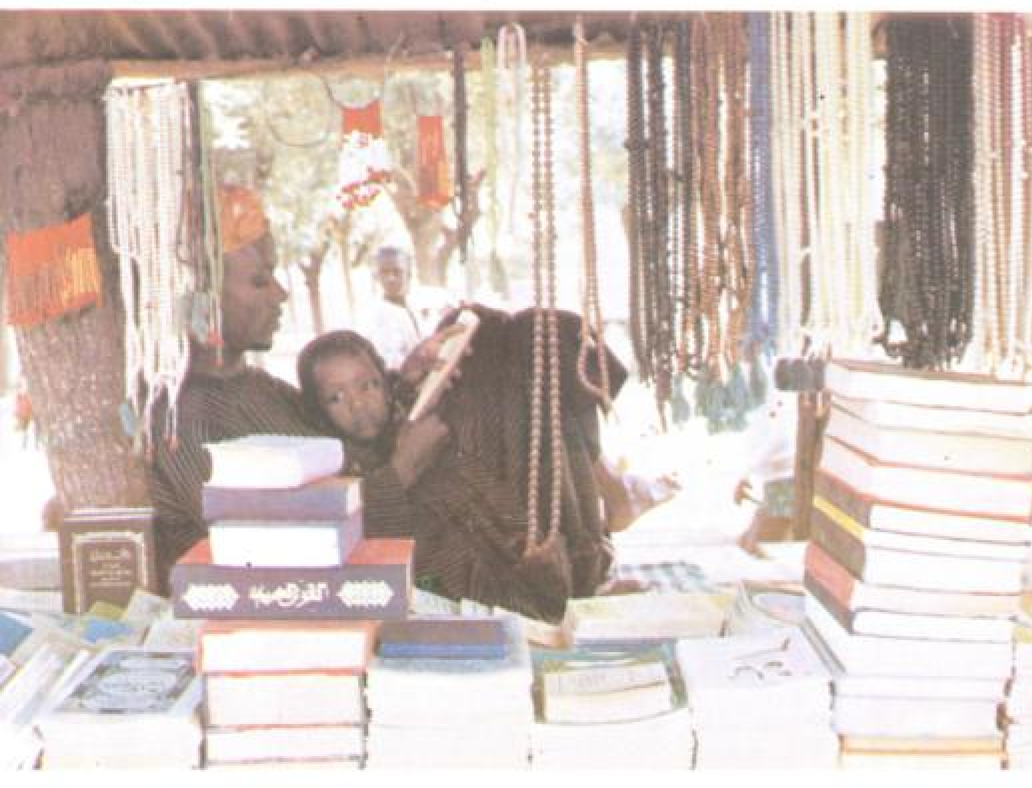
× تتوزع اكثرية عامة المسلمين على اربع طرق صوفية هي ، بترتيب ظهورها على المسرح السنغالي : القادرية - ثم التيجانية - ثم المريدية واللاهينية . ولكل طريقة « خليفة جنرال » (عام) ، وان كان ذلك لا يمنع من وجود خلفاء آخرين داخل الطريقة الواحدة ولكن الحكومة تتعامل مع واحد فقط . وان كان تعدد الخلفاء يكاد يكون محصورا في التيجانية التي يتوزع ولاء اتباعها على ٦ خلفاء .. واحد منهم فقط « جنرال » . وهو « تصميم » فرنسي في الاساس بشقيه ، فاسم الخليفة اقتبسه الفرنسيون وأطلقوه على شيخ الطريقة و « جنرال » وصف فرنسي ايضا لعمومية سلطانه على الطريقة وكأنه « بابا » او بطريرك .

× ان هذه الطرق قد اختارت « عواصم » لها ، تصنف في التعريف العام بالسنغال بانها مدن مقدسة ، اسوة بالمدن المقدسة عند الشيعي . حتى يصف الدكتور عامر صمب هذه (✽) العواصم على النحو التالي : مدينة « طوبي » هي « مكة المريدية » ومدينة « كولك » هي قبلة النيسينية (فرع من التيجانية ينسب الى الشيخ عبدالله انياس) وقرية كمبرين هي قطب اللاهينية ، ومدينة انجاسان هي « كعبة » القادرية ، ومدينة « جنبية » هي « مكة » التيجانيين لاحد شيخو (فرع آخر) ومدينة توادون هي الزاوية الكبرى لمن تبع طريقة الحاج مالك سه (وهو الفرع المعترف به رسميا من التيجانيين ، وخليفته « جنرال ») .

(✽) د . عامر صمب الادب السنغالي العربي - ج ١ ص ٣٦ .



في زاوية الحاج مالك سى بتيواوان ، جلس الشيخ أحمد الأمين يلقن التلاميذ مبادىء الفقه المالكى .





وبعد صلاة الجمعة ، وقف الرجال يتسامرون بثيابهم النظيفة والزاهية الالوان ، التي لاتظهر الا في الاحتفالات (الى اليسار)

مشهد يتكرر في مداخل « المدن الم[illegible]ة » ، وقرب المساجد في انحاء السنغال ، كتب شيوخ المالكية ، وأراجيز الطرق الصوفية تملأ الأرصفة .

وطبقا لتقدير الدكتور روحان امباي ، الذي ضمنه رسالته للدكتوراه حول الاسلام في السنغال ، فان ٥٠٪ من السكان تيجانيون (حوالي ٢ مليون) بينما المريديون يمثلون ٣٥٪ من السكان (مليون ونصف مليون) ، والقادريون في حدود ٢٥٠ الف شخص ، واللاهينيون ٣٠ الفا فقط .

وذلك يعني ان الدور الاساسي يقوم به التيجانيون والمريديون . غير ان الدكتور امباي يقول تعليقا على تلك الارقام انه « اذا كان التيجانيون اكبر عددا ، الا ان المريديين اقوى شوكة » .

وفي رأيه ان المسلم السنغالي بصفة عامة مقتنع بان اسلامه لا يصح الا اذا انتمى الى احدى تلك الطرق ، وان الاسلام بلا طريقة يظل اسلاما ناقصا .

الاشراف في المقدمة دائما

ورغم هذه التقسيمات فاننا نستطيع ان نحدد هذه المعالم المشتركة لتقاليد ومعتقدات المسلمين السنغاليين .. فثمة اعياد ومناسبات يلتقي عليها الجميع ، وفي مقدمتها عيد الاضحى (تبسكي) وعيد الفطر (كور) والمولد النبوي (جمو) وعاشوراء (تمخرت) ، وذلك غير اعياد كل طريقة ، مثل مولد الشيخ او وفاته ، او نفيه ، كما سنرى بعد قليل . وللتنسيق بين احتفالات الطرق ، فان ذكرى المولد النبوي مثلا يحتفل بها في يوم واحد ، لان الدولة لا تستطيع ان توفد ممثلها الرسمي الى احتفالات كافة الطرق في نفس اليوم . وهذا الاشكال يحل عن طريق توزيع الاحتفالات بالمناسبة ذاتها على مدار العام ، حيث يحضرها رجال الطريقة في كل منطقة ، ويشهدها الموظفون الرسميون في المحافظة او المدينة والقرية .

وتشكل طبقة الاشراف قمة السلم الاجتماعي ، وهو امر غريب مستغرب اذا علمنا ان الانتساب الى آل البيت كان امرا يحرص على ترويجه ملوك افريقيا الغربية القدماء ، ليدعموا مكانتهم بين المسلمين (وتلك قيمة يحرص عليها الى الان بعض الحكام في العالم الاسلامي) .

الصوفية والوثنية

وخلال القرون التي تعايش فيها الاسلام مع الوثنية ، بعد ما تقطعت اكثر الجسور بين غرب افريقيا والعالمين العربي والاسلامي ، ثم جاء الاستعمار فأحكم الحصار وأجهز على ما تبقى من تلك الجسور ، حدث التأثير والتأثر بين الجانبين . وتسربت الى عقائد المسلمين وعوائدهم بعض التقاليد الوثنية .

وينتشر الاعتقاد بالسحر والعمل به بين الجنسين على السواء ، فالنساء يحملن التعاويذ لتجنب الحمل او لاتقاء الجنون ، والصيادون يعلقون في شباكهم تعاويذ من جذور نبات او قرون حيوان حتى يصيدوا صيدا كبيرا .

وقد كان المرتع الاوسع نطاقا لذلك الخلط بين ما هو اسلامي وما هو وثني ، هو الطرق الصوفية ، فذلك عالم قائم بذاته لا يقوم على ممارسات فردية وسلوكية في نطاق تقاليد الاسرة ، وانما يقوم على اوضاع تم « تقنينها » وترسيخها تحت مظلة الطريقة حتى تحولت الى اعراف تلتزم بنمطها شرائح عريضة من المجتمع ، تحت قيادة منظمة نشيطة . وهو ما تلعب فيه المنافسة بين الطرق دورا هاما .

وهذا الخلط بين ما هو اسلامي ووثني ، لا يخل بمقولة استثمار الاستعمار لتلك الارضية ، ومحاولة تطويع عناصرها لخدمة مصالحه ومخططاته ، او سعيه الى تصميم البناء كله بمنطق كنسي ، يبرره انتماء المستعمر والنموذج الذي استخلصه من تجربته الخاصة .

فقد التقت الطريقة في اكثر من نقطة - وعن غير قصد - مع تركيبة القبيلة الافريقية . اذ اخذت الطرق الصوفية مكان الجمعيات الوثنية الماضية في صورة اوسع وأعظم (*) واحتل شيوخ الطرق ومن تعلق بهم من المدعين ، مكان الكهنة والسحرة ، وكان « الورد » واسرار الطريقة بمثابة التميمة التي يتسلح بها الافريقي .

وبتعبير الدكتور عامر صمب فانه « والحالة هذه ، وجد الاسلام موضعا مواتيا لنمو الطرائق الصوفية في السنغال » .

لكن ثمة ملاحظة هامة ينبغي ان تساق هنا ، وهي ان هذا الاطار الذي نتحدث عنه للطرق الصوفية ، يعبر عما انتهى اليه حال اكثر هذه الطرق ، في ظل حالة الحصار التي عايش في ظلها الاسلام السنغالي . وهي نهاية تختلف كثيرا عن البدايات التي كان فيها رجال الطرق الصوفية هم المبشرين والدعاة والمجاهدين .

(*) هوبير ديشان - الديانات في افريقيا السوداء ص ١٢٩ .

بل اننا اذا شئنا الانصاف ، فينبغي ان نذكر ان الطرق الصوفية هي التي حمت الاسلام وحفظته في غرب افريقيا ، فقد كانوا حراس الدين واللغة العربية ، منذ تقطعت صلات غرب افريقيا بشمالها ، وبمختلف انحاء العالم العربي ، وقدر للطرق ان تكون المؤسسات الاسلامية الوحيدة التي تحملت تلك المسئولية التاريخية .

في السنغال تستطيع ان تتعرف على الطريقة التي ينتمي اليها اي شخص ، اذا سقط امامه شيء فجأة ، او التقى بواحد من رفاقه . عندئذ يهتف الرجل على الفور باسم شيخه ، اما ان يقول « تيجاني » او تال - تال (نسبة الى الشيخ عمرتال) او بمبا (نسبة الى احمد بمبا) مؤسس المريدية ، اولاهي - لاهي ، وهو هتاف اتباع الطريقة اللاهينية .

القادرية جاءت اولا

وتاريخيا فان القادرية هي اقدم الطرق الصوفية في السنغال . أسسها محمد عبدالقادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام ١١١٦م (٥٦١هـ) اي في اوائل القرن الثاني عشر . وقد دخلت الى غرب افريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي ، على ايدي مهاجرين من قوات (بضم التاء) ، وهي واحة في النصف الغربي في الصحراء ، واتخذوا من ولاته - احدى مدن البربر - اول مركز لطريقتهم ثم لجأوا الى تمبكتو ، ومنها شقت الطريقة سبيلها الى السنغال (*) الان . وقد تم ذلك بواسطة الشيخ سيد احمد البكائي الكنتي (كانت القادرية قد انقسمت الى ثلاث فرق ، بينها فرقة حملت اسم القادرية البكائية) . ثم حمل الرسالة ابناؤه من بعده .

وخليفة القادرية في السنغال الان اسمه الحاج يحيى كونتي (٥٥ سنة) ومقره في بلدة اجاسان على بعد حوالي ٩٠ كيلومترا في الشمال الشرقي لداكار ..

وصلنا بعد الظهر الى مقره الذي اقيمت الى جواره بيوت عديدة من الاتباع ، فيا وضعت حواجز عدة تعترض الطريق الى مسكنه . استأذنا في الدخول ، فأذن لنا .

كان جالسا في هدوء بالغ وسط حجرة واسعة على بساط فوق الارض ، مرتديا جلبابا أزرق مطرزا ، وطاقية بلون كحلي تغطي رأسه . في جانب من الحجرة وضع سرير غطته ستائر تدلت من حمالة علوية ، لمنع الحشرات من ازعاج القائم . والى جوار السرير اريكة طويلة ، صفت على ظهرها بعض الكتب واشرطة التسجيل ، الى جوار هاتف ، غير ساعة على الجدار توقفت عقاربها عند الحادية عشرة و ٥٥ دقيقة .

تحلق حوله اربعة من الاتباع ، كان احدهم يجيد العربية ، وقد تولى الترجمة بيننا وبين الخليفة ، الذي بدا واضحا انه يفهم العربية وان عجز عن النطق بها .

في البدء رفض ان تلتقط له اية صور ، وبدا غير مستريح ولامرحب باللقاء ، وان ابتسم بين الحين والآخر .

رد على اسئلتي بتحفظ واقتضاب فقال : نحن من اصل قرشي ، مذهبنا مالكي ، وعقيدتنا اشعرية ، وفي السلوك والعمل نتبع طريقة الجنيد .

سألته كيف يصبح المرء قادريا ، قال ان الشرط الاساسي ان يكون الشخص مسلما . قلت ان هذا لا يكفي . قال ان هناك أمورا لا تشرح باللسان ، وانه اذا قام المرء بترديد الاذكار والصلوات فان النور يملأ قلبه ويكون مؤهلا لان ينخرط في الطريقة .

ثم نصحني بقراءة كتاب « الفيوضات الربانية » للشيخ عبدالقادر الجيلاني ، اذا اردت ان اعرف اكثر عن الطريقة .

سألته عن الفرق بين القادرية والتيجانية ، فقال : ان المسألة محصورة في الاختلاف بين الاشخاص ولكن المضمون واحد .

سألته عن انتشار القادرية ، فقال : ان اكثر اتباع الطريقة من جمهورية مالي ، وان لهم اتباعا آخرين في نيجيريا وساحل العاج وغينيا وموريتانيا .

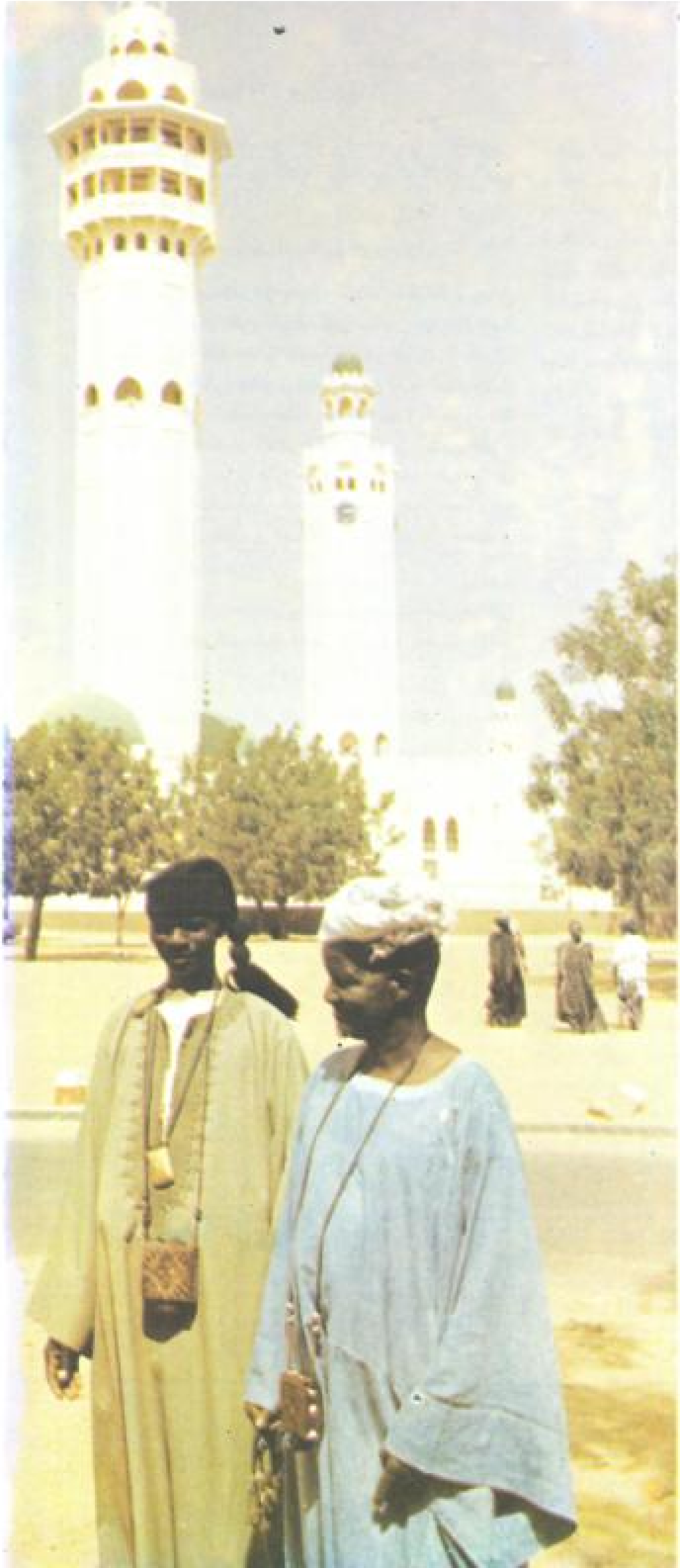
في مقر التيجانية

وعندما قلت لمرافقي اريد ان التقي خليفة التيجانية ، سألني : اي خليفة تريد ؟ وفهمت ان التيجانية هي الطريقة الوحيدة التي يتعدد فيها الخلفاء ، حتى وصل عددهم الى سته ، وكان منطقيا ان نبدأ بلقاء الخليفة « جنرال » الحاج عبدالعزيز سه ، الذي تعترف به الحكومة « ممثلا شرعيا » للتيجانية ، ثم انه هو الذي يعطي للخلفاء الآخرين اذنا مكتوبا ومؤرخا يسمح لهم بان يباشروا مهامهم تجاه الاتباع .. ذلك ان السلم التنظيمي للطريقة يبدأ بالخليفة العام ، ثم

(*) سير توماس ارنولد - الدعوة الى الاسلام - ص ٣٦٥ .







شيخ المريدية ، عبد الأحد امبكى ، في حجرته الخاصة ، عندما دعانا للقائه ، في وقت الراحة ، ليجيب على اسئلة العربي .

اثنان من أتباع الطريقة المريدية في طوبا ، قرب المسجد الجامع ، وقد علق كل منهما « المختومس » في رقبته ، علامة المريدية المميزة .

جلست بعض النسوة أمام الضريح لقراءة الفاتحة والدعاء .

الخلفاء ، ولكل واحد من الخلفاء مجموعة من « المقدمين » والمقدم هو الوسيط بين الخليفة والتلاميذ او الموالين الذين هم اتباع الطريقة .

ذهبنا اليه في مقر التيجانية « تيواوان » .

وهي مصادفة ان يتجاور معقلا اقدم طريقتين في السنغال ، وان تكون المسافة بين انجاسان وتيواوان خمسة كيلومترات فقط ، فاذا كانت القادرية قد ولدت بالعراق في القرن الثاني عشر ، ووصلت الى بلاد السنغال في أواخر القرن الخامس عشر ، فان التيجانية قد ولدت بالجزائر في احضان القادرية خلال القرن الثامن عشر ، ولم تستغرق سوى عقود محدودة حتى شقت طريقها الى السنغال ومختلف دول غرب افريقيا . وصار حجم وجود كل من الطريقتين في السنغال اكبر بكثير من حجمه في كل من العراق والجزائر .

وبينما كانت القادرية مشرقية مدت جذورها الى المغرب . فان التيجانية اخذت طريقا عكسيا ، فقد كانت مغربية مدت جذورها الى المشرق .

أسسها الشيخ ابو العباس احمد بن محمد بن المختار التيجاني ، الذي ولد في بلدة عين ماضي بالجزائر ، عام ١٧٣٧ ، وتنقل الشيخ التيجاني بين تلمسان ومكة والمدينة والقاهرة ، وتتلمذ لشيوخها ، ثم أسس طريقته ورحل الى الصحراء في سنة ١٧٨٢ ، ثم عاد الى فاس بعد سبعة عشر عاما ، واتخذ مركزا لنشر دعوته . وعند التيجانية ، فان شيخهم ابا العباس هو « خاتم الاولياء » وهو ممن رأى النبي عليه الصلاة والسلام في اليقظة وليس في المنام ، وقد اخذ منه الاوراد والاذكار وبينها « جوهرة الكمال » وهي محفوظة يرددها التيجانيون كل يوم ، كما سنرى .

« وقد اخبر بميلاد هذا الشيخ (التيجاني) وبمقره من الارض وزمنه الاولياء قبله ، كالحافظ الترمذي في كتابه المسمى بختم الاولياء ، وابن عربي الحاتمي والشيخ محمد اليدالي في « الذهب الابريز على تفسير كتاب الله العزيز » والشيخ سيدي المختار الكنتي رضي الله عنه عد (الله) الذي جعله في دهر خاتم الاولياء الشيخ التيجاني رضي الله عنه .

بعد وفاة مؤسس الطريقة ، توزعت القيادة بين سلالته وابرز تلاميذه الشيخ علي حرازم مؤلف اهم كتب التيجانية « جواهر المعاني وبلوغ الاماني في فيض سيدي ابي العباس التيجاني » حتى تدخل القدر ، ولعب « الحج » دوره في تبادل الافكار وتلاحقها . حيث كان بين الحجاج الافارقة في عام ١٨١٧شاب من « اشراف » التكلولور اسمه عمر الفوتي تال ، يصفه سيرتوماس ارنولد بقوله « يظهر انه كان رجلا كريم السجايا ، ذا نفوذ شخصي ، ومظهر يوحي بالسيطرة والقوة ، وكان ابنا لاحد المرابطين (يقصد الفقهاء) وتثقف ثقافة دينية متينة ، واشتهر بعلمه وورعه (*) »

في الحج التقى بأحد « مقدمي » التيجانية ، وهو الشيخ محمد الغالي ، الذي كان من رفاق مؤسس الطريقة ، الذي أبلغه « السبحة » التيجانية ، وعينه خليفة للتيجانيين في افريقيا العربية ، وبعد عودته مارا بدمشق والقدس والقاهرة ، وهي المرحلة التي استغرقت خمس سنوات ، قدر للشيخ عمر ان يلعب دورا بارزا في تاريخ الاسلام بغرب افريقيا .

كان الحاج عمر من بلدة « هالوار » شرقي مدينة « بودور » السنغالية ، ومنذ ولادته في عام ١٧٩٧ تلقى تعليمه على يد ابيه الفقيه الشيخ سعيد تال وتنقل بين الزوايا وحضرة العلماء في السنغال وموريتانيا ، حتى قدر له ان يقوم برحلة الحج ويعود مجاهدا ورافعا لواء التمرد على شيوخ الطريقة القادرية الذين اثار تساهلهم وتراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه »

ومضى الشيخ عمر يجمع من حوله الانصار والعتاد ، حتى استطاع ان يحشد جيشا من ٤٠ الفا وظل حوالي ١٥ عاما يقاتل على ثلاث جبهات : الوثنيه والجهل بتعاليم الدين لدى القبائل التي اعتنقت الاسلام ، وقوى الاستعمار الفرنسي . وتجمع من حوله خلق كثير واعتبروه « مهدي » آخر الزمان ، خصوصا بعد ما حقق انتصارات واسعة ، حتى شبهه الدكتور صمب بالاسكندر الاكبر ونابليون ، الامر الذي مكنه من ان يقيم سلطنة ضخمة تمتد طولا حوالي الف كيلو متر ، من حدود موريتانيا الحالية الى فولتا العليا « تسع اكثر من ثلاثين مملكة » ثم قتل وهو في سن السبعين ، مخلفا تلك السلطنة الواسعة ، فضلا عن ذرية كبيرة من الابناء والبنات ، بلغت بشهادة احد احفاده ، ٢٥ ذكرا و ٢٥ انثى !

٦ خلفاء للطريقة

الآن ، وبعد قرن وربع على مقتل الشيخ عمر ،

(*) الدعوة الى الاسلام - ص ٣٦٧ .

اصبحت قيادة التيجانية موزعة بين ٦ عائلات ، بعضها من سلالته والبعض الاخر من سلالة « اشراف » آخرين .

في طريقنا الى دار الخليفة العام للتيجانية ، الحاج عبدالعزيز سه ، ابن الحاج مالك سه ، بتيواوان ، اجتزنا فناء رمليا واسعا ، وتتناثرت على جانبيه حجرات متراصة ، بدا واضحا ان بعض شاغليها ممن يعملون في خدمة الشيخ وتلاميذه الذين يتوافدون عليه في افواج يوميه . ووصلنا الى سكنه المقام من طابق واحد . صعدنا عشر درجات ، وانتظرنا حتى عاد الينا مرافقنا بالاذن ، ثم دخلنا الى قاعة واسعة تناثر على ارضيتها بعض الرجال والنساء في خشوع ، بينما جلس الشيخ على مقعد وثير ، مكسو باللون الاخضر ، والى جانب المقعد وضع سرير غطي ايضا بملاءة خضراء منقوشة . كان الصمت مخيما على المكان ، فجلسنا في هدوء طرف القاعة . كان الشيخ يتحدث بصوت هادىء ، وبين الحين والآخر كان يشير الى الجالسين ، فيرفعوا ايديهم بتمتمات وادعية . وعندما يصل وافد جديد ، يتقدم نحو الشيخ منحنيا ، ويقبل يده ، ثم يتراجع في حذر ويندس بين الجالسين .

أشار الينا الخليفة لكي نقترب ، فجلسنا بين يديه . بصوته الواهن ، وبعربية سليمة ، اعتذر لنا بمرضه ، وبأن الطبيب نصحه بألا يتكلم كثيرا . ولكن شابا من الجالسين قبالته انبرى محذرا اياه من مغبة الكلام مع رجال الصحافة ، الذين لا يعرفون اقدار الخلفاء ، ويشوهون عباراتهم ، وحذره ايضا من التصوير ، لان الصور تظل عرضة للعبث والتشويه . ناقشته فيما قال ، بينما الخليفة بقي ملتزما الصمت ، وقد نهض احد اتباعه وراءه يدلك له عضلات الظهر ، ولكن الجدل طال ، وصاحبنا مصر على وجهة نظره .. ولم يكن هناك مفر من الانسحاب بعدما بدا ان الخليفة يميل الى عدم الكلام ، سواء اقتناعا بوجهة نظر تلميذه ، ام بسبب ظروفه الصحية .

وكما ان للتيجانية مسبحة خاصة ، فان احتفالهم بذكرى المولد النبوي له خصوصية تفوق احتفالهم بأي مناسبة اخرى . حتى يقال في السنغال ان التيجانية « متخصصون » في الاحتفال بالمولد ، كما ان غيرهم متخصص في احتفالات اخرى كما سنرى .

واذا كان الاحتفال بعيد الفطر والاضحى يتم في بيوت المسلمين وعبر بعض الطقوس الاجتماعية ، الا ان احتفالهم بذكرى المولد له اعراف مختلفة تماما . فالخليفة يحتفل بالمناسبة في موعدها المتعارف عليه ، وعلى الاتباع ان يحتفلوا بعد ذلك وبشكل منتظم طوال السنة . والاعداد لاحتفال الخليفة يجري منذ بداية العام . اذ العادة ان يدفع التيجاني كل شهر ما يعادل دولارا او دولارين لشيخه المحلي ، وعندما تحل الذكرى يتوجه اتباع الطريقة جميعا في افواج زاحفة نحو تيواوان ، ويسلم كل « مقدم » او شيخ محلي حصيلة اشتراكات اتباعه الى الخليفة ، التي تغطي بطبيعة الحال نفقات اقامة الاتباع في ضيافة الخليفة على مدار يوم او يومين .

في تيواوان ، يلتقي الجميع ضيوفا على الخليفة العام ، يسهرون ويهللون ويسبحون في حلقات تستمر حتى الصباح . الرجال في جانب والنساء في جانب آخر . ويتولى الخليفة ترتيب نومهم واطعامهم طوال فترة الاقامة ، ثم يعودون بعد ذلك الى قراهم .

ادت التقاليد المتعارف عليها ان يقوم شيخ الطريقة المريدية بزيارة الخليفة العام للتيجانية في مناسبة المولد النبوي ، ويقدم اليه هدايا تتمثل في ٥٠ بقرة وما يعادل ١٠ ملايين فرنك افريقي (حوالي ٤٠ الف دولار امريكي) وهو نوع من التعاون في تحمل مسئوليات الخلافة تجاه الاتباع ، الذي يرده خليفة التيجانية لخليفة المريدية في مناسبة اخرى .

من مشاهير قيادات التيجانية

ويصنف الشيخ ابراهيم نياس ، من مشاهير قيادات التيجانية ، باعتباره واحدا من رواد الدعوة الاسلامية في افريقيا اذ انه أسس في عام ١٩٤٥ « جمعية انصار الدين » التي مدت نشاطاتها الى مالي والنيجر وغانا وموريتانيا مما أنشأ نزعة اسماها « التربية » وهو منهج في تكوين تلميذ الطريقة قال الشيخ ابراهيم انه انتهى اليه بعد ان اجرى عدة تجارب صوفية تمكن من اعداد التلميذ وصقله بصورة افضل ، تجعله اصدق ايمانا واكثر تفانيا في حب الله واشد ارتباطا بالمثل العليا للمتصوفة ...

ولعل اهم انجاز حققته اسرة نياس هو اقامة « معهد كولخ » الاسلامي ، الذي اقيم في طرف المدينة عام ١٩٦١ ، ويضم الآن ٨٠٠ طالب من السنغال ، ومن ٨ دول افريقية اخرى . يدرسون فيه المرحلتين الابتدائية والاعدادية . وليس امام خريجيه اية فرصة لاكمال دراستهم في داخل السنغال . الامر الذي يضطرهم لانتظار المنح الدراسية من مختلف الدول العربية



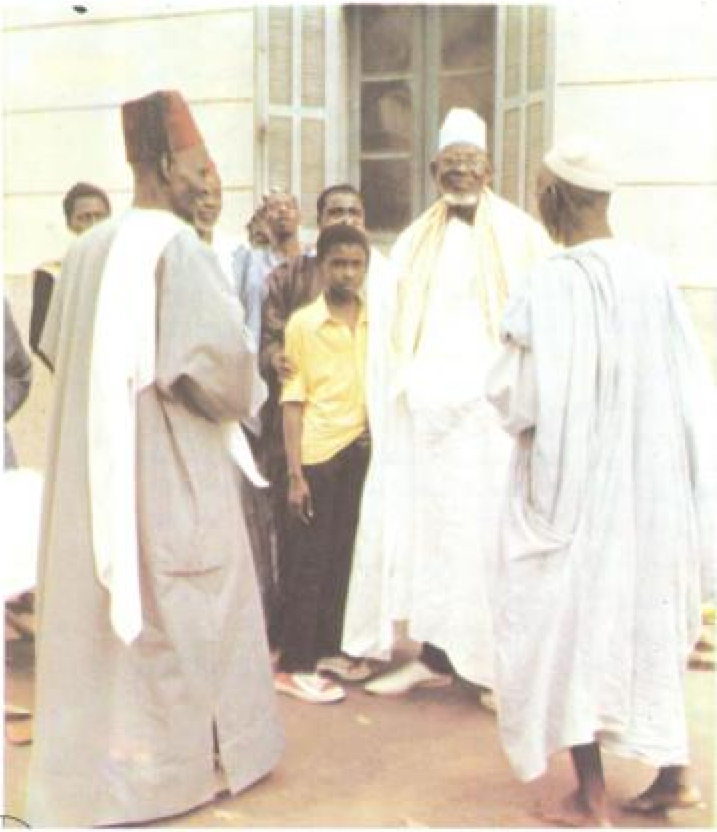
شيخ القادرية الحاج يحيى كونتي ، الذي رفض التصوير ، واضطررنا لشراء صورته من الخارج .



الشيخ عبد الله انياس ، خليفة التيجانية في كولخ خطبة الجمعة .







شقيق الخليفة يتمدد مستمتعا بالدفء تحت أشعة الشمس ، بينما جلس الاتباع يحدثونه على الرصيف .

الشيخ منتقى تال ، من خلف التيجانية مع بعض اتباعه في داكار .

أمام احد المساجد وقف الاتباع ، ولاحظ الشكل الهندسي والزخارف الاسلامية على نوافذ وجدران ومئذنة المسجد .

لتحقيق ذلك الامل .. وعندما يطول انتظار بعض خريجيه ، ولا تدركهم تلك المنح ، فان منهم من يتوجه مشيا على الاقدام الى ليبيا او الجزائر او مصر ، ليحاول الالتحاق بمعاهدها الدراسية .

ورغم فقر امكانيات المعهد المادية ، حيث يتكدس كل من ١٢٠ طالبا في الفصل الدراسي ، وحيث تتواصل الدراسة في الصباح والمساء ، الا انه يلعب دوره الجليل في حماية الثقافة العربية والاسلامية وهو يعتمد في ذلك على سبعة مبعوثين من الازهر الشريف ، يؤدون رسالتهم في تجرد الرهبان وشجاعة الجنود المجهولين وصبر المحتسبين .

ان بعض جدران المعهد قد اقيمت ولم تكمل بسبب نقص الموارد المالية . واكثر طاولاته ومقاعده مستهلكة ، والضيوف العرب يجيئون بين الحين والآخر ويعبرون عن أسفهم لتلك الصورة ، ثم يعودون الى بلادهم ، وأكثرهم ينسى ، رغم انهم في كولخ لا يزالون يتعلقون بتلك الوعود وينتظرونها .

نعم ، ان كل طلاب المعهد من تلاميذ الطريقة التيجانية ، (في استمارات قيد الطلاب بند تتحدد فيه الطريقة التي ينتمي اليها كل طالب) ومع ذلك فان الدور الذي يؤديه المعهد لا يمكن التقليل منه .

وصلنا الى كولخ في يوم الجمعة . وشهدنا موكب خروج الخليفة الى الصلاة بثيابه الناصعة البياض ، وقد أحاط به تلاميذ التيجانية وهم يرددون « لا اله الا الله محمد رسول الله » بينما مظلة خضراء غطت رأس الخليفة تحميه من شمس الظهيرة الساخنة .

في المسجد القى الحاج عبدالله الخطبة باللغة العربية ، ثم القاها باللغة المحلية ، وام الناس ، ثم عاد في موكب مماثل ، وبدل ملابسه البيضاء التي بللها العرق ، ثم جلس معنا .

كان بيته ذو الطابق الواحد ، مطلا على ميدان فسيح . في ركن من فنائه اقيمت حجرات المعلمين الموريتانيين ، التي تؤدي دور الكتاتيب . وقد ظهر لنا احدهم محييا وفخورا بثلاثة من الصغار استحضرهم ليقرأوا امامنا بعضا من سور جزء عم .

في الداخل كان البيت مليئا بالمريدين والاتباع ، ما بين قاعد وممدود على السجاد . وكانت جدران حجرة الاستقبال الواسعة مغطاة بمكتبة ضخمة امتلأت صفوفها بالتفاسير وكتب الفقه والحديث .

حاول الخليفة ان ينبهنا الى ضرورة الحذر في الحكم على الاشياء في بلد فقير وتنتشر فيه الامية كالسنغال . والى أهمية التفرقة بين تعاليم الطريقة وممارسات البعض من المشعوذين والاميين ، وضرورة الا تحمل تلك الممارسات على الطريقة . وشدد على فكرة ان الطريقة ليست دينا ولا مذهبا ، ولكنها اسلوب في معرفة الله والتقرب اليه .

وبينما هو جالس على مقعده يتحدث ، جاء أحد من الاتباع وأمسك بقدمه ماسحا بيديه جوربه الابيض ، كمن يلتمس البركه .. وواصل الحاج عبدالله حديثه قائلا ان لقاءنا مع الشباب في كولخ سوف يعطينا صورة اوضح لواقع جديد في المدينة .

في المساء جاءوا ، جمع كبير من الشباب القارىء والدارس والعائد من المعاهد العربية . وكان شاغلي ان أسألهم عن الاضافة الفكرية التي حصلوها من دراساتهم في عواصم المشرق . واكتشفت ان اهم ما عادوا به هو المعرفة الجيدة باللغة العربية .

كان دفاعهم عن الطريقة حازما ومستميتا ، وكان رفضهم مستمرا لفكرة شاغتهم بها تدور حول امكانية الدعوة الى الاسلام من خارج قالب الطريقة ولافتة الصوفية .

واستمر الحديث حتى منتصف الليل . وكانت هذه اول وآخر مرة وجدت فيها « مجتمعا » في السنغال بهذا الحجم يتحدث العربية .

تال .. تال

في الصباح عدنا الى داكار لموعد آخر ..

قصدنا مقر الخليفة منتقى تال ، من خلفاء التيجانية ايضا ، وحفيد الشيخ عمر تال ..

اختلفنا في البداية . ذهبنا الى داره في احد الاحياء الشعبية بداكار ، حيث استقبلنا جمع من الصبية ، وخراف مربوطة الى جانب الدار ، وطيور تقفز هنا وهناك . دخلنا الى فناء غطي جزء مسقوف منه بالحصير ، وكان الشيخ منتقى واقفا بقامته المديدة وطلعته المهيبة وسط بعض الاتباع . وعندما رآنا ابلغ المرافق بأن موعدنا في مقره الآخر بالمدينة ..

سبقناه الى هناك ، حيث كان بعض الاتباع جالسين امام الدار ، على رصيف الشارع الواسع ، ينتظرونه ايضا . على الحصير جلسوا ، بينما تمدد رجل مكتنز على

مقعد طويل ، تطفح على وجهه آثار النعمة ، وقد ارتدى ثيابا ذات ألوان جميلة وزاهية ، وغطى رأسه بطاقية مستطيلة وجذابة ، بينما تدلت من بين أصابعه مسبحة تيجانية طويلة . ابتسم لنا الرجل ، الذي لم يكن يعرف العربية ، ثم انصرف للحديث مع الجالسين على الحصير . وفيما بعد ، فهمت انه شقيق الخليفة ، ومهتم بشئون الاسرة أكثر من اهتمامه بشئون الطريقة .

بعد دقائق ، توقفت سيارة « شيفروليه كابريس » بيضاء ، هبط منها الحاج منتقى فهب الجميع وقوفا ، تحية واحتراما . دخلنا وراءه الى البيت عبر ممر طويل . توقف الرجل عند باب الحجرة حتى هيأ له احد التابعين مقعده في الصدارة .

جلس الشيخ منتقى القرفصاء ، في وضع يشابه تمثال الكاتب المصري الشهير في عهد الفراعنة ، فأسرع تابعه الى نافذة جانبية نادى منها على الجالسين في الخارج ، الذين توافدوا في لحظات كل واحد سلم عليه بيديه ثم مسح وجهه تبركا . جلسوا في خشوع كأن على رؤوسهم الطير . تكلم الحاج منتقى بلغة الولوف لمدة عشر دقائق . ولم أفهم من كلامه سوى بعض الآيات القرآنية والاحاديث . وكان واضحا انه يعظ الجالسين ويوجههم . انهى كلامه بقراءة الفاتحة ، وبدعاء رفع الجميع أيديهم وردده ، ثم تقدموا منه ركوعا وحيوه وانصرفوا .

سألته : ما الفرق بينكم وبين غيركم من التيجانيين ؟

قال : لا فرق ، فكلنا أتباع سيدي ابي العباس .

قلت : ما الفرق بين التيجانيين والطرق الأخرى ؟

قال : اسلام التيجانية هو الاسلام الكامل . هو الأكثر التزاما بالقرآن والسنة والمحمدية .

قلت : هل يعني ذلك نقصانا في اسلام الآخرين ؟

قال : انا اعرف نفسي فقط . لا اعرف الآخرين .

قلت : هل ترى امكانية لان يعبر المسلم عن التزامه بدينه ، دون الارتباط بالطريقة ؟

قال : ذلك ممكن طبعا . ونحن لا نلزم احدا بطريقتنا . والناس هم الذين يأتون الينا .

قلت : هل تعتقد ان للطريقة دورا في تقدم المجتمع ، أم ان دورها مقصور على مخاطبة ضمائر الناس وعقائدهم ؟

قال : الطريقة تساعد الناس على معرفة الله . وليس مطلوبا منها اكثر من ذلك .

سألته عن رأيه في وضع الاسلام بالسنغال ، فقال ان عدد المسلمين يتزايد ، والوثنيون من اقليم كازامانس يقبلون باستمرار على اعتناق الاسلام . لكن المطلب الذي نتمنى تحقيقه هو الاعتراف بالمدارس القرآنية من جانب الحكومة ، لانه بغير ذلك ستختفي تلك المدارس تدريجيا ، ولن يكون هناك اي وجود لامكانية تعليم القرآن الكريم .

قلت : هل انت متفائل ؟

قال : بالعكس ، انا متشائم للغاية !

دور المريديه

بقيت بعد ذلك المريديه واللاهيتية ..

وقد وصف مارتي المريدية بأنها « تعاليم اسلامية مصبوغة بعقلية قبيلة الولوف » ومما ينقل عن الرئيس السنغالي السابق ليوبولد سنجور قوله : لو كنت مسلما لاصبحت مريديا .

واذا كانت اشارة مارتي محملة بأبعاد وثنية في الطريقة ، فان عبارة سنجور واعجابه وحماسه للمريديه ، انطلقا من فكرة انها طريقة افريقية مائة بالمائة ، ليست مستوردة من المشرق كما في القادرية ، ولا من المغرب كما في التيجانية . هي ابنة شرعية للتربة الافريقية ، باعرافها وموروثاتها ، التي كان سنجور واحدا من دعاة الالتصاق بها وهو يرفع لافتة احياء كل ما هو زنجي ، تمسكا بالاصالة وامتدادا للجذور .

وللمريديه « امام مهدي » هو « الشيخ الخديم » احد بمبا ، و « مدينة مقدسة » ، او كعبة في قول آخر - هي طوبا ، وتراث يقوم كله على اراجيز « الخديم » يتوسل بها البعض ، ويتعبد بها آخرون والجميع - المتوسلون والمتعبدون - لا يعرفون ولا يحفظون غيرها . تحيتهم وكلمة السر - والسحر - عندهم هي « بمبا » وعلامتهم المميزة هي « المختومي » وهو حرز موضوع في كيس من الجلد بحجم الكف ، يطوق الرقبة ويتدلى الى منتصف الخصر ، ويرتدونه فوق الثياب . اذ كما ان للتيجانية مسبحة فللمريديه « مختومي » ولكل علامته المسجلة !

هم الاقوى شكيمة ، كما قال الدكتور روحان امباي مدير المعهد الاسلامي في داكار .

اكثر زعامات البلاد السياسية تدين بالولاء لخليفة المريدية .. ومنذ كان رئيسا للوزراء ، فان عبده ديوف ،

الذي صار رئيسا للجمهورية ، يزور الخليفة في « قصر الخلافة » - كما يسمونه - ويقضي في حضرته يوما كاملا كل ثلاثة اشهر .

وهم قوة اقتصادية يحسب لها الف حساب . فاغنى الاغنياء منهم ، بدءا ببابكر كيبي اغنى رجل في السنغال الذي يملك نصف داكار ، لا يتبرع لمشروعات الخليفة الا بالمليون ، الى جيلي مي (اسمه الاصلي عبدالقادر الجيلاني) ثاني اغنى الاغنياء ويمول اهم المشروعات ، الى صغار التجار الآخرين . الامر الذي اضطر معه التجار اللبنانيون المهاجرون الى الانخراط في الموجة . وتعليق صورة احمد بمبا في متاجرهم ، اعلانا عن الولاء وجذبا للزبائن .

واكثر العاملين في المشروعات الانتاجية منهم ، اذ ان مبادىء المريدية تنقسم الى قسمين : الترقية والعمل . وقد كان اتباع « الخديم » ينقسمون الى من يترقى والى من يعمل (※) وقد ادى ارساء قيمة العمل في تعاليم الطريقة الى اقبال نسبة ليست هينة من العمال والاجراء في مختلف القطاعات عليها .

وهم قوة تنظيمية ضخمة . اذ سعوا الى تشكيل « تجمع مريدي » في كل مؤسسة . فغير اتحاد الطلبة المريدين في جامعة داكار ، هناك تجمعات مماثلة في المصانع والوزارات .

وعندما يريد الخليفة ان ينفذ مشروعا مهما كان نوعه ، اقتصاديا او معماريا ، ومهما كانت تكاليفه ، فليس عليه سوى ان يعلن ذلك عبر الاذاعة ، وهي رهن اشارته دائما . وعندئذ تتوافد جموع التابعين ، بمالهم وسواعدهم ، استجابة لتلك الاشارة .

لأجل هذا كله ، فان الحكومة تتعامل مع الطريقة بميزان خاص ، حتى انها لم تتردد في ان ترسل وفدا الى خليفتها للتعبير عن الاسف والاعتذار ، عندما نشرت مجلة « باري ماتش » الفرنسية تحقيقا مصورا عن المريدية ، اعتبر بمثابة اساءة لها ، وتشويها لسمعتها !

الشيخ الخديم

شيخهم هو « احمد بمبه امبك بن محمد ، الشهير بمبر انتسل بن حبيب الله ، المعروف بمام بل بن محمد الكبير ، المشهور بمهرم بن حبيب الاول محمد محمد الخير . ولد سنة ١٨٥٣ وقيل سنة ١٨٥٥م ، في قرية امبك بول ، التي أسسها جده في عام ١٧٨٩ .

وقد تصادف ان ولد الشيخ احمد بمبا في نفس الوقت الذي بدأت فيه فرنسا استعمارها الرسمي على السنغال (١٨٥٤) وكرست فيه جهودها لتصفية جيوب المقاومة ، التي تمثلت بالدرجة الاولى في القضاء على زعماء الممالك المنتشرة آنذاك الذي تصدوا للزحف الاستعماري .

وكغيره من ابناء الاسر المتدينة ، فقد بدأ رحلته بحفظ القرآن الكريم وما تيسر من كتب الفقه والتراث على ايدي شيوخ عشيرته ، ويصفه الدكتور صمب بأنه كان « آية في الحفظ والاتقان » .

وينقل عنه قوله انه كان يحفظ النصوص الكثيرة من مختلف الفنون ، من توحيد وتصوف وادعية وفقه ، كابن عطاء الاسكندري الشاذلي ، ودلائل الخيرات ونفح الطيب ، والرسالة القشيرية وتواليف السنوسي .

بدأ رحلته « قادريا » وذهب الى موريتانيا حيث تتلمذ على آل الشيخ سيدي الكبير ، شيخ القادرية هناك . « وقد تعلم في موريتانيا - ايضا - بعض مبادىء الشاذلية والتيجانية »

« وفي حوالي سنة ١٨٩٣ حاول الشيخ الخديم فتح طريقة خاصة لنفسه . ولذا ابدى ميلا للانتقائية من جميع المبادىء التي اقتبسها من القادرية والشاذلية والسنوسية » .

وظهر من البداية ان الشيخ احمد بمبه رجل زاهد في الدنيا ، ذاهل في حب الله ونبيه سابح في بحار التصوف وآفاقه العلوية ، على تمكن من اللغة العربية ، يجيد الحفظ والتأمل والتغني غير انه قليل البضاعة في الفقه والعلم . وهو ما انعكس على ارثه الذي خلفه ، والذي غلبت عليه الاشعار الغنائية والاراجيز . وبعض الكتابات الوعظية المتواضعة . نص واحد يمكن اعتباره « فقها » كتبه الشيخ بمبه في شرح كتاب الاخضري في الفقه المالكي .

وكان موقفه من الاحتلال الفرنسي مسالما للغاية . ولما قال له احد امراء زمانه انه سيقاتل الفرنسيين ، كان رده : اني لمتيقن بان الله هو الذي ارسل هؤلاء الاجانب لاستعمار بلادنا . وان قاتلتهم حرضت اناسا على ان يقتلوا مجانا ، وان عاشوا اعتنقوا الاسلام .

(※) د . عامر صمب - الأدب السنغالي العربي ج ٢ ص ٢٤٧

ولم يشفع له موقفه هذا ، اذ خشي الفرنسيون من اتساع نطاق دعوته ، ودس له الدساسون ، فقررت السلطات الفرنسية نفيه الى الجابون . وفي قرار نفيه لم يذكر ان له موقفا من المحتلين ، وانما نص القرار على ابعاد احمد بمبه عن السنغال ، واحتجازه بضعة أعوام على الاقل في قطر بعيد كالجابون ، حيث لا فعالية لمواعظه التعصبية .

وقد اقسم الشيخ احمد بمبه ومترجموه - يقول الدكتور عامر الصمب - انه لم يطلب الدنيا ، وان عهد الجهاد بالسيف قد انقضى .. ولكن القرار كان مبيتا ، فصدر القرار في ٥ سبتمبر عام ١٨٩٥ وحملته سفينة الى الجابون وفي ذلك قال قصيدة شهيرة مطلعها :

أسير مع الابرار حين أسير
وظن العدى اني هناك أسير

قضى الشيخ هناك حوالي سبع سنوات ، حتى توسط له احد كبار المتصوفة الموريتانيين الشيخ سيديه بابا شيخه ، فعاد الى بلاده في ٨ نوفمبر ١٩٠٢ .

لكنه بعد ستة أشهر من عودته اتهمه المدير الفرنسي بأنه أخل بالنظام العام ، فأبعده الى موريتانيا في ١٣ يونيو سنة ١٩٠٣ ، قضى هناك أربعة أعوام ، في زاوية الشيخ سيديه بابا ، ثم عاد في أواخر سنة ١٩٠٦ ، وحددت اقامته في قرية جثين ، « على الا يتجاوز عدد اتباعه خمسين مريدا ، وعدد منازله عشرين خصا » .

وفي عام ١٩١٢ ، سمحت له الادارة الفرنسية بالانتقال الى « جوربيل » مقاطعة الطريقة حاليا ، وكتب المدير الفرنسي يقول : « لم أعثر في مؤلفات احمد بمبه على اي شيء يتعلق بالتعصب الديني بوجه أخص ، ولا مع اي شيء معاد لنا » .

قضى احمد بمبه ١٥ عاما في جوربيل ، ثم مات في ١٩ يوليه سنة ١٩٢٧ ، تاركا كما من الاشعار بروح اتباعه حينا انها ملأت سبعة صناديق ، وحينا يقولون انها عادلت ٧٠٠ كيلو جرام في الوزن . « وأما مكتبته فكانت ضخمة حتى ملأت مصاحف القرآن فقط بيتا عظيما ، وأكد الشيخ محمد الامين جوب انه قد أحصى ٨٠٠ مصحف مخطوط ، اذ كان الشيخ الخديم يحب القرآن حبا جما .. وكان الناس يكتبون بأمره مصحفا كاملا في ثلاثة ايام » !

لكن الاهم من ذلك انه ترك طريقة استقرت دعائمها ، وذاعت تعاليمها وصارت تلعب دورا هاما ليس فقط على الصعيد الروحي ، ولكن عن الصعيد الاقتصادي ايضا . خصوصا بعدما أتيح للشيخ احمد بمبه خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة في حياته ، ان يطبق فكره في ترسيخ قيمة العمل . وان ينشيء اقطاعات زراعية عديدة ، يعمل فيها الاتباع ، حيث يأخذون كفايتهم من الانتاج ، كل قدر حاجته ، ثم توجه الحصيلة الباقية الى نشاطات اخرى ، ومنها شراء ارض جديدة واستزراعها .

وكان مما تركه الشيخ الخديم ايضا تلك القرية التي أسسها في عام ١٨٨٧ ، وأطلق عليها اسم طوبي ، والتي صارت فيما بعد عاصمة المريدية ، ومركز ثقل هاما في حياة السنغال .

مكتبة الغوث الاعظم

قطعت بنا السيارة ١٤٥ كيلومترا من داكار ، حتى وصلنا الى ايوب طوبا ..

مرت بنا السيارات عبر مساحات شاسعة من الارض اصابها الجفاف بالتشقق والشروخ ، واستحال لون الاشجار اصفر من الظمأ ، وتناثرت أعداد الماشية في ارجائها ، هزيلة ضامرة ، وقد نتأت عظامها حتى كادت تطفو فوق الجلد .. وحدها اشجار « البابوا » ذات الجذوع الضخمة كانت ثابتة وصامدة . كأنما اريد ان تظل رمزا لاستمرار الحياة في السنغال ..

قرب طوبا ظهر شريط سكة حديد فوق السطح . وقال لي المرافق ان هذا الشريط اقيم خصيصا لينقل الاتباع في المناسبات ، خصوصا في عيد المريدية الاكبر ، ذكرى نفي الشيخ احمد بمبه في ١٨ صفر من عام ١٣١٣ هجرية (٥ سبتمبر ١٨٩٥) . اذ كما تتميز التيجانية بحجم احتفالها بذكرى المولد النبوي ، فان ذكرى الغيبة الاولى للشيخ بمبه هي عند المريدية اهم اعيادها على الاطلاق ، يليها في الاهمية ذكرى وفاته في ١٩ محرم عام ١٣٤٦ .. لكن ذكرى انتقاله الى الآخرة تظل بمثابة العيد الاصغر .

في ذكرى الغيبة تتوقف الحياة في انحاء السنغال . فلا عمل في الوزارات ، ولا في المصانع ولا المتاجر . ولا حتى سيارة تاكسي في العاصمة . تصاب الدولة بالشلل لمدة يوم او يومين ، حيث يتوجه مئات الالوف من المريدية ، بزوجاتهم وابنائهم وبناتهم ، الى طوبا ، وتتحول المدينة الى صورة مصغرة ليوم الحشر . جميعا ينزلون في ضيافة الخليفة ، وان كان كثيرون يحرصون على ان يقتنوا بيوتا في ارجائها ، مما عمرها بسرعة مدهشة ، حتى باتت تزيد - والعهد على المرافق - بمعدل عشرة مساكن يوميا .

مررنا بشارع واسع ، اصطفت على جانبيه محلات تبيع كل شيء من غذاء وكساء ، الى ان اوقفونا في نقطة منه مع رتل من السيارات المتقدمة . وفهمت ان السيارات تخضع للتفتيش لمنع دخول السجائر والمشروبات الروحية . خصوصا بعدما لوحظ ان البعض يسيء استخدام تجمعات المريدية في السكر والعبث .

توقفت السيارة في ميدان فسيح ، عنده بلغ الصخب واختلاط الاصوات ذروته . تبين ان للخليفة حرسه الخاص ، الذي لا علاقة للدولة به ، مررنا بحجرات الحرس في البداية ، ثم ادخلونا بعد ان خلعنا احذيتنا الى باحة رملية فسيحة ، ومسقوفة . في ارجائها تناثرت حلقات من الرجال والنساء ، بعضهم وقف وبين يديه كتيبات الشيخ بمبه . منها كانوا ينشدون بأصوات صارخة ومتشنجة . وبعضهم جلس يناقشهم في علو الصوت والتشنج . وفي الاركان توزع خلق من كل الاعمار ، شيوخ وشباب ورجال ونسوة ، شد المرافق على ذراعي كمن لدغه عقرب . اشار الى ركن قصي وقال : هذا هو الخليفة . فهمت بالذهاب اليه ، واذا به يجذبني بقوة قائلا ان الامر ليس بهذه البساطة ، وانتا يجب ان نستأذن اولا ، وتقدم هو نحوه ، وعندما اقترب منه خر جاثيا على ركبتيه ، وظل يزحف في حذر الى ان اقترب منه . لم يلتفت اليه الرجل ، وانما مضى يستمع الى اتباعه الذين كانوا يتحدثون اليه من على البعد بأصوات هامسة ، بعد ان يتقدم الواحد منهم جاثيا ، اذا استطاع ان يفوز بتقبيل يده كان بها ، وان لم يستطع بسبب التزاحم حول الخليفة فانه يظل في مكانه على البعد ، يملأ عينيه بطلعته ، ويمني نفسه بقبلة اليد في فرصة لاحقة .

كان الخليفة عبدالاحد امبكي جالسا فوق الرمال ، متكئا على حاشية وضعت له ، وقد وضع على رأسه عمامة صغيرة ، وارتدى جلبابا ازرق ، بينما غطى عينيه بنظارة سوداء ، وتدلى على صدره « حرز » المريدية المختومي .

اخيرا تشجع مرافقي وخاطبه . اسر في اذنه بالأمر ، ثم عاد ومعه تعليمات الخليفة : ان نتناول الغداء اولا ومن ثم نلقاه ، وحتى يتم ذلك سترتب لنا زيارة لبعض معالم طوبي ، خصوصا المسجد ، ومكتبة « القطب الاعظم » ومشروع الجامعة ، بعد دقائق جاءنا شاب من افراد الاسرة اسمه الشيخ مصطفى امبكي . كان يجيد اللغة العربية واصطحبنا في « طواف » بالمدينة ، استغرق ساعتين . وكان كل من يلقاه يسلم عليه وينحني ليقبل يده ويمسح بها جبهته ، وفهمت ان هذا هو التقليد مع كافة افراد اسرة الشيخ بمبه ، يعبر به الاتباع عن الولاء ، ويتبركون بمدد من نفحات الشيخ ، التي سرت الى سلالته .

من ناحية اخرى فان المطبعة والمكتبة تقومان على طباعة المصاحف التي يكتبها تلاميذ المريدية بخطهم ذي السمات المغربية ، ثم كتابات الشيخ احمد بمبا ، التي تطبع بكميات هائلة ، وتروج على اوسع نطاق ..

وغير المصاحف المريدية ، وكتابات شيخ المريدية ، ليس في ارفف المكتبة الكبيرة كتاب واحد يتجاوز تلك الدائرة . ولان المصاحف مكتوبة بأيدي التلاميذ ، أيا كانت نباهتهم ، فهي عرضة دائما لأن تتخللها الاخطاء ، رغم الجهد الذي يبذل داخل المطبعة لمحاولة تلافي تلك الاخطاء ، وقد عثرت في صفحة واحدة من نسخة للمصحف على ثلاثة اخطاء ، اثنان منها خطأ في الهجاء والثالث كان كله ساقطا من السطر .

قال لي الشيخ مصطفى ان في المكتبة مائة الف كتاب ، لم استغرب الرقم ، طالما ان المطبعة تعمل منذ سبع سنوات ، ولا هم لها الا اعادة الطباعة ، فضلا عن ان هناك ٤٩٣٨ نسخة من كتاب واحد للشيخ باسم « الفلك المشحون » ، المصنوع من الذكر والسر المصون . واذا افترضنا ان هناك كتبا اخرى للشيخ بمبه مطبوعة بنفس الكمية وموضوعة على ارفف المكتبة الضخمة ، فان حوالي عشرين كتابا من مؤلفات الشيخ العديدة كفيلة بأن تغطي الرقم مائة الف !

في حضرة الخليفة

بعد الغداء دعونا الى لقاء الخليفة .

كانت صورته في ذهني مازالت متأثرة بما سمعته عنه في داكار . انه رجل عنيد قوي الشخصية ، شديد التأثير على اتباعه ، ويعرف كل شيء مما يجري في الاعصاب الحساسة للدولة ، بسيط في مظهره وتقديمه لنفسه ، ولكنه ليس من الطراز السهل . والبعض يقول ان تحرش المريدية باتباع الطريقة التيجانية في سنة ١٩٨٠ ، وهو الامر الذي كان يمكن يؤدي الى حرب أهلية ، لم تكن ارهاصاته بعيدة عنه . فقد كان يمارس نوعا من استعراض القوة والنفوذ ، لكنه تدخل في الوقت المناسب - وقبل ان يتفاقم الامر ـ وتعاون مع جهود الدولة وخليفة التيجانية للسيطرة على الموقف . حتى مرت تلك الأزمة

بسلام ، كما مرت من قبل ، وبغير خسائر كبيرة اشتباكات اهل الطريقتين في عامي ٥١ و ٥٦ .

مررنا ببعض المنعطفات - ونحن حفاة - ثم وجدنا أنفسنا قبالة الشيخ عبدالاحد امبكي ، وفي حضرته ، كان جالسا على الارض في بساطة وغير تكلف ، وقد اسند ظهره الى سرير عريض ، واستبدل العمامة بطاقية من الصوف ذات لون اسود . وظلت نظارته السوداء على عينيه ، بينما ظهرت في ذقنه الصغيرة شعرات بيضاء ، زادته هيبة ووقارا .

استقبلنا بود ، وسألنا عبر المترجم ، ماذا تريدون ؟...

من الدقائق الاولى بدا انه ربما فهم بعض كلماتنا العربية ، لكن المؤكد أنه لا يجيد التحدث بها .

قال لي ردا على بعض الاسئلة ، انه كرس حياته لخدمة الاسلام . وفي هذا السبيل فانه لا ينجز هدفا حتى ينتقل الى هدف آخر . واقام موضوع الجامعة هو احد اهدافه الاساسية في الوقت الراهن .

سألته عن رأيه في أوضاع المسلمين في السنغال ، فقال ان المهم هو العقيدة ، انه لا شأن له بالسياسة .

وردا على سؤال آخر قال انه يعنيه التطور المادي الحاصل في السنغال ، وان التطور العقيدي والروحي هو الاساس .

وعن علاقة المريدية بالطرق الصوفية الاخرى قال : ليس هناك سوء تفاهم ولا خلافات . كما انه ليس هناك وقت للاتصال واقامة العلاقات . كل فريق منصرف لشئونه .

وعما تكتبه الصحافة عنه وعن المريدية ، قال ان الصحافة لا تهمني . فهي ليست منبرا ولا وسيلة لنشر الدين ، ومن هنا فانها خارجة عن دائرة شواغله .

سألته عن نشاطات الطريقة ، فقال انهم مهتمون اولا وآخرا بتربية الناس وترغيبهم في الدين ومعرفة الله .

وردا على سؤال حول حصر نشاط المريدية في السنغال وعدم وجود فروع او امتدادات لها خارجها ، شأن الطرق الاخرى .. قرأ الآية : « يا ايها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ...» ثم ابتسم وقال نحن نلتزم بهذا التوجيه ونحاول ان نرشد ابنائنا وأهلنا فقط !

وعلى هامش المريدية هناك « البايفالية » غلاة الطريقة ، التي تشكل ابرز علامات تيار العودة الى الوثنية في المضمون ، مع الاحتفاظ بلافتة الاسلام وشكله

سيدنا عيسى ابن سيدنا متجون

واللاهينية هي العلامة الاخيرة على الطريق الذي انعطف اليه مسار الطرق الصوفية في السنغال . هي الطريقة الرابعة ، وخليفتها هو رابع الخلفاء « الجنرالات » او العامين !

خارج أسوار الطريقة

هذه هي مؤسسات الاسلام الاربع المعتمدة لدى الدولة ، والتي سعى الاستعمار الفرنسي على تثبيتها ، وحصر النشاط الاسلامي في حدودها ، لا يتجاوزه بأي قدر . لكن قراءة الواقع بامعان في السنغال تكشف عن ان دور الطرق وتأثيرها يشكل جزءا من الحقيقة ، هو الجزء البارز والظاهر على المسرح ، والتي حرص منطق الاستعمار وادواته على حجب ما عداه عن الانظار سواء ارادوا بذلك « تقزيم » الاسلام ، او انهم لم يستطيعوا الا ان يروه في صورة مؤسسات وكنائس بذاتها ، كما قلت من قبل .

في السنغال يظل الاسلام يخرج عن نطاق سلطان شيوخ الطرق وتأثيراتهم . واذا كان للطرق اقلامها ومراكز حركتها ، الا ان ولايتها لا تغطي كل الرقعة السكانية ، او رقعة الايمان بالله بتعبير ادق . ففي خارج المواقع التي تسيطر فيها الطرق الصوفية على الشارع والمسجد والمدرسة ، ثمة مواقع تعرف اسلاما آخر اشترك الجميع في زرعه وتثبيته ورعايته .

على انه اذا كانت الطرق الصوفية قد استطاعت ان تسيطر على الشارع في مرحلة ، بتشجيع من السلطة الاستعمارية متفاوت في الدرجة ، فان هذا المنطق كله قد بدأ في التغير تدريجيا منذ الاستقلال في اول الستينات . ليس فقط بسبب الغياب الرسمي لتلك السلطة ، ولكن ايضا لان هناك اجيالا من المتعلمين ظهرت خلال العشرين عاما الاخيرة ، وبظهورها ونموها حدثت متغيرات كثيرة في الساحة السنغالية . مما اسهم في ايقاف وتصحيح بعض التجاوزات التي كانت تمارس من قبل بعض الزعامات الدينية . ومما ادى ايضا الى اتساع رقعة الاستقلال الفكري لدى هذه القطاعات . الامر الذي قلص من نفوذ رجال الطرق .

بعيدا عن الضوء ، يعيش في السنغال اسلام لا علاقة للطرق الصوفية بمسيرته ولا بأهله . ولان النشاط محدود ، ولا يخضع لاطار منظم ، ولانه يمارس خارج

المسرح المقام رسميا ، فان النظرة الاولى لا ترصده ولا تلتقط معالمه .

ومن علامات ذلك الوجود ، ان عديدا من القرى السنغالية تعرف نوعا من المدارس الصغيرة او الكتاتيب التي تعلم الصغار اللغة العربية والقرآن الكريم ، ويشرف عليها رجال ونساء ، ليسوا موظفين حكوميين وليسوا تابعين لرجال الطرق ، وانما يدفع لهم اهل القرى رواتبهم في نهاية كل موسم حصاد .

وغير تلك المدارس او الكتاتيب ، فان عديدا من المتعلمين اتجهوا الى انشاء جمعيات للثقافة الاسلامية في انحاء السنغال ، وعندما انشىء اتحاد لتلك الجمعيات في العاصمة ، انضمت اليه ٤٠ جمعية من الاقاليم ، ولا تزال هناك جمعيات لم تعلن انضمامها بعد للاتحاد .

الاتحاد الثقافي الاسلامي

وهذا الاتحاد له قصة ترجع الى الخمسينات ، عندما اجتمع في الجزائر بعض الشبان السنغاليين ممن شغلوا بهموم بلادهم ، وكانوا موفدين من قبل اهلهم للدراسة في الجزائر والمغرب والقاهرة ليحصلوا ما تعذر تحصيله في السنغال ، من دراسات في اللغة والفقه . كان لقاؤهم في عام ١٩٥٦ ، وفيه التقت وجهات نظرتهم على نقطتين : الاولى ان الطرق الصوفية في وصفها آنذاك كانت اداة طيعة للاستعمار ، والثانية انه من الضروري ان يختار هؤلاء الشبان صيغة للتحرك تتجاوز القوالب التي صبها الاستعمار ، وصادر بها النشاط الاسلامي .

في العام التالي التقوا في داكار ، وقرروا انشاء « الاتحاد الثقافي الاسلامي » الذي أعلن رسميا عن بدء نشاطه في ابريل سنة ١٩٥٣ . ومن البداية تحركوا في اتجاهين : اتجاه يستهدف انشاء « مدارس الاكواخ » في القرى لتعليم الصغار اللغة وتعاليم الاسلام ، ولتحقيق ذلك بثوا دعوتهم في مختلف المناطق للاكتتاب في انشاء تلك المدارس المتواضعة . واتجاه يستهدف الانضمام الى القوى الداعية الى الاستقلال ، والتي تمثلت في حزب الاستقلال الافريقي ، وكان من مقتضى ذلك ، كما يقول رئيس الاتحاد احمد عيان تشاء ان وجدت هذه المجموعة من الشباب نفسها تحارب على جبهتين : رجال الطرق الصوفية الذين استنكروا محاولتهم القفز فوق الطرق والتحرك على ارض مستقلة ، والسلطة الاستعمارية التي استفزها انضمامهم الى حزب الاستقلال الافريقي .

أما السلطة الاستعمارية فانها اصدرت قرارا باغلاق « مدارس الاكواخ » التي أنشأها شباب الاتحاد الثقافي ، واعتبرت نشاطها غير مشروع .

عندئذ تعثر نشاط الاتحاد الثقافي الاسلامي لعدة سنوات ، وبعد الاستقلال لجأت قياداته الى حيلة اخرى ، هي اشراك ابناء زعامات الطرق الصوفية في الاتحاد ؛ وأكثر هؤلاء كانوا من المتعلمين ، الذين ساعدهم شبابهم على قبول بعض الافكار التي طرحها الاتحاد الثقافي . وكانوا متحمسين بدرجات متفاوتة لفكرة تنقية الدين من الخرافات والشوائب التي علقت به . فضلا عن ان بينهم من اشترك مع شباب الاتحاد الثقافي في انتقاد ممارسات رجال الطرق الصوفية التي تسيء الى الاسلام .

وهكذا تكون اتحاد الجمعيات الثقافية الاسلامية من ٦ جمعيات في سنة ٦٢ ، وتولى رئاسته الشيخ عبدالعزيز ممثلا لزعامة التيجانية . ولكن الذي حدث ان ابناء الزعامات الطريقية لم يستطيعوا ان يسهموا في انجاح مهمة الاتحاد العام ، اما بسبب ضغوط من الزعامات الكبيرة ، او بسبب اهتمام كل منهم بشئون الطريقة التي ينتمي اليها .

ومع ذلك فان وجود الاتحاد ذاته ، كان حافزا لآخرين على ان يكرروا المحاولة بصورة أخرى ، متجاوزين اخطاء الاتحاد العام . وهذا ما يحاوله الآن اعضاء جمعية « النهضة الثقافية الاسلامية » - وهم ايضا من خريجي الجامعات العربية - الذين يتحركون بخطى أسرع وبحماس اكبر خصوصا وأن عمر تجربتهم لا يتجاوز سنتين . وغير جمعية النهضة هناك تجمعات اخرى تمضي في نفس الاتجاه ، لتحقيق ذات الهدف .

والى جانب هؤلاء وأولئك ثمة تيار آخر لا يقوم المثقفون فيه بدور كبير ، وانما يحركه بعض الوعاظ والدعاة الغيورين على الدين ، وجهدهم ينصب ايضا في اتجاه رفض منهج الطرق الصوفية ، ومحاربة البدع . وهؤلاء متأثرون الى حد كبير بتعاليم الدعوة الوهابية التي وصلت الى السنغال عبر افواج الحجاج الذين يسافرون بمتوسط ٤ آلاف شخص . وهؤلاء يشكلون تجمعا غير معلن يعرف باسم « جمعية الفلاح » ونشاطهم يتركز اساسا في داكار ، حيث تعرف السلطات الحكومية الكثير عنهم ، فضلا عن أن المساجد التي يخطبون او يلتقون فيها شائع خبرها بين الجميع .

هل كنت على حق حين قلت في البداية أن هذا التمزق الذي صار اليه حال مسلمي السنغال يدعو الى الشك والاسترابة ؟!



العالم كله في حكاية من ألف ليلة وليلة

بقلم : عباس خضر

عجيب هذا الكتاب .. دائرة معارف تحوي كل شيء في شكل فني مسل ممتع ؛ فيه المجون وفيه الجد ، ومهارة الفن فيه تذويب الجد في قالب الهزل كما يذاب الدواء في الشراب الحلو .. بل كما توجد الفيتامينات في عصير الفاكهة ..

الجارية « تودد » عالمة راسخة في العلم ، الى جانب ما حباها الله من حسن وجمال ، ومع علمها الوافر وفكرها الثاقب لاتزال في ميعة الصبا . قالت للخليفة هارون الرشيد : يا سيدي ، اني اعرف النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة ، وأعرف فن الموسيقا والغناء ، وعلم الفرائض والحساب والمساحة ، وأروي اساطير الأولين ، واحفظ القرآن العظيم واعرف قراءاته وعدد سوره وآياته وأحزابه وسجداته وما فيه من ناسخ ومنسوخ ومكي ومدني وأعرف الحديث الشريف دراية ورواية ، ونظرت في علوم الرياضة والهندسة والفلسفة والمنطق والفلك ،

وضربت بالعود وعرفت مواد النغم وحركات الأوتار وسكناتها . فان غنيت او رقصت اطربت وفتنت ...

بعني يا سيدي

وكان صاحبها الفتى قد أتي على ما ورثه عن أبيه التاجر الغني ، ونفد جميع ماله ، انفقه على ملاهيه وخلانه ، وهو لم يتعلم حرفة ولم يزاول تجارة ، ولم يبق له الا هذه الجارية « تودد » خلفها والده في جملة ما خلف . لما رأت ما آل اليه امره رثت لحاله وقالت له :

ـ يا سيدي ، احملني الى امير المؤمنين هارون الرشيد ، واطلب ثمني منه : عشرة آلاف دينار ، وإياك أن تبيعني باقل من هذا المقدار فان استغلاني فقل له :

ـ يا أمير المؤمنين ، وصيفتي تقوّم باكثر من عشرة آلاف دينار ، اختبرها يعظم قدرها في عينيك .

ومما يذكر ان ذلك يتكرر في حكايات أخرى : أن يرث شاب ثروة أبيه الطائلة وفي جملتها جارية يحبها ، فيسرف ولا يعمل ، وهو لا يحسن عملا ، فتتبدد الثروة ، ويتنكر له الاصدقاء الذين كانوا يلتفون حوله وهو في النعمة والثراء ، فتقترح عليه الجارية حلا لا حلّ غيره ، وهو أن يبيعها ، فيفعل ، ثم تجرى الحوادث تبعا لذلك .

يحمل الفتى الجارية « تودد » الى الخليفة ، ويطلب ثمنا لها عشرة آلاف دينار كما أوصته مؤكدة .

ويدهش الخليفة من حديث « تودد » عن نفسها وسعة علمها ، ولا يكاد يصدق ، أتكون فتاة بهذا الجمال وفي هذه السن على هذا المستوى من العلم والمعرفة ؟

استدعاء العلماء والحكماء

التفت الى صاحبها وقال له :

ـ اني سأحضر من يناظرها في جميع ما ادعته ، فان اجابت وصح قولها دفعت لك ثمنها وزيادة .

ـ يا امير المؤمنين حبا وكرامة .

فكتب امير المؤمنين الى عامل البصرة بان يرسل اليه ابراهيم بن سيار النظام ، وكان اعظم اهل زمانه في البلاغة والشعر والتنطق ، وأمره ان يحضر العلماء والفلاسفة والاطباء والمنجمين والمهندسين . فما كان الاقليل حتى حضر الجميع الى مجلس امير المؤمنين ثم أمر بالجارية ، فحضرت وبدت كأنها كوكب درى ، وسلمت ، وقالت :

ـ يا امير المؤمنين ، مر من حضر ان يناظرني .

فقال لهم :

ـ اريد منكم ان تناظروا هذه الجارية ، كل في اختصاصه .

السمع والطاعة لله ولك يا أمير المؤمنين .

اطرقت الجارية وقالت :

ـ أيكم العالم في الفقه والحديث ؟

قال العالم :

ـ انا ذلك الرجل الذى طلبت .

ـ اسأل عما شئت .

ـ انت قرأت كتاب الله ، وتدبرت آياته ومعانيه ؟

ـ نعم .

ـ من ربك ومن نبيك ومن إمامك وما قبلتك ومن اخوانك وما طريقتك وما منهاجك ؟

ـ الله ربي ومحمد نبي ، والقرآن امامي ، والكعبة قبلتي والمؤمنون اخوتي ، والخير طريقي ، والسنة منهاجي .

العقل في الدماغ

ـ ايتها الجارية ، بم عرفتِ الله ؟

ـ بالعقل .

ـ وما العقل ؟

ـ العقل عقلان : عقل موهوب وعقل مكسوب ، فالموهوب هو الذى خلقه الله عز وجل ، والمكسوب هو الذى يكسبه الانسان بتأدبه وحسن معرفته .

ـ احسنت ، اين يكون العقل ؟

ـ يقذفه الله في القلب فيصعد شعاعه في الدماغ حتى يستقر .

واستمر العالم الفقيه يسأل الجارية عن مسائل الصلاة والوضوء والزكاة والصيام والفرائض والسنن وهي تجيبه عن كل ما يسأل بفصاحة لسان وعلم وبيان ، حتى كاد يستوعب ما فصّله المؤلفون الفقهاء في هذه

الأبواب ، حتى سألها عن معاني الصلاة والصوم والحج والجهاد في اللغة ، فقالت :

ـ الصلاة الدعاء ، والصوم الامساك ، والزكاة الزيادة ، والحج القصد ، والجهاد الدفاع .

وقف الرجل قائلا :

ـ اشهد يا أمير المؤمنين ان الجارية اعلم مني بالفقه ..

انزع جبتك

ولكن الجارية قالت له :

ـ سألتني عن كثير ، وانا اسألك سؤالا واحدا ، فان اجبت فيها ، والا اخذت جبتك وتركتك تخرج بدونها .

ـ قولي يا جارية .

ـ ما فروع الاسلام ؟

لم يجب ، انتظرت برهة ثم قالت :

ـ انزع جبتك وأنا افسر لك ...

قال الخليفة :

ـ فسّري وانا انزع لك ما عليه من ثياب .

قالت :

ـ هي اثنان وعشرون فرعا : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء برسوله ، وكف الأذى ، واكل الحلال ، واجتناب الحرام ، ورد المظالم الى اهلها ، والتوبة ، والفقه في الدين ، وحب الجليل ، واتباع التنزيل ، وتصديق المرسلين ، وخوف التبديل ، والتأهب للرحيل ، وقوة اليقين والعفو عند المقدرة ، والقوة عند الضعف ، والصبر عند المصيبة ، ومعرفة الله تعالى ومعرفة ما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة اللعين إبليس ، ومعرفة النفس ، ومجاهدتها ، والاخلاص لله .

فامر الخليفة أن تنزع جبة الفقيه وطيلسانه ، فنزعها وخرج مقهورا .

ثم قام لها رجل آخر وقال :

ـ اسمعي يا جارية ما صحة السّلم (بفتح اللام) ، أي البيع باجل ؟ .

ـ القدر المعلوم ، والجنس المعلوم ، والأجل المعلوم .

ـ احسنت ، فما فروض الاكل ؟

ـ الاعتراف بان الله تعالى رزقه ، وشكر الله عليه .

ـ فما الشكر ؟



ـ صرف المرء جميع ما أنعم الله به عليه فيا خلق لأجله .

ـ فيا سنن الاكل ؟

ـ التسمية ، وغسل اليدين ، والجلوس على الورك الايسر ، والأكل بثلاث اصابع ، والاكل مما يليك .

ـ احسنت فاخبريني عن عقائد القلب واضدادها .

ـ هي ثلاثة واضدادها ثلاثة : الأول اعتقاد الايمان وضده الكفر ، والثاني اعتقاد السنة وضده البدعة ، والثالث اعتقاد الطاعة وضدها المعصية .

ـ فاخبريني عن ثلاثة تمنع ثلاثة .

ـ نعم ، روى عن سفيان الثورى أنه قال : ثلاثة تذهب ثلاثة : الاستخفاف بالصالحين يذهب الآخرة ، والاستخفاف بالملوك يذهب الروح ، والاستخفاف بالنفقة يذهب المال .

ـ اخبريني عن شيء ، وعن نصف شيء وعن لا شيء .

ـ الشيء هو المؤمن ، نصف الشيء هو المنافق ، واللاشيء هو الكافر .

فرض الفرض

ثم قالت :

ـ يا امير المؤمنين ، انه سألني ما سأل ، وانا اسأله سؤالا واحدا فان أتى بجوابه فذاك ، والا اخذت ثيابه وانصرف بسلام .

فقال لها الفقيه :

ـ سلي ما شئت .

ـ أخبرني عن فرض الفرض ، وعن فرض في ابتداء كل فرض وعن فرض يحتاج اليه كل فرض ، وعن فرض يستغرق كل فرض ، وعن سنة داخلة في الفرض ، وعن سنة يتم بها الفرض .

فسكت ولم يجب بشيء ، فامرها الخليفة بان تفسرها ، وامره ان ينزع جبته ويعطيها اياها فقالت :

ـ يا فقيه ، فرض الفرض معرفة الله تعالى ، والفرض في ابتداء كل فرض شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، والفرض الذى يحتاج اليه كل فرض الوضوء ، والفرض المستغرق كل فرض ، الغسل من الجنابة ، والسنة الداخلة في الفرض تخليل الاصابع وتخليل اللحية الكثيفة ، والسنة التي يتم بها الفرض الاختتان .

عند ذلك تبين عجز الفقيه وقام قائلا :

ـ أشهد الله يا امير المؤمنين ان هذه الجارية أعلم مني في الفقه وغيره .

ثم نزع جبته مقهورا .

وسألها عالم القراءات عن القرآن وآياته وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومكيه ومدنيه .. الخ ، فاجابته اجابات تدل على علم غزير واستشهدت باحاديث نبوية كثيرة ، فلما سمع الرجل كلامها قال في نفسه : ان هذا لعجب عجيب كيف تكلمت هذه الجارية بذلك كله ، ؟ لابد ان أحتال لعلي اغلبها ، واستمر يسألها وهي تجيب غير متوقفة ولا مترددة ، فنهض قائما وقال :

ـ هذه الجارية يا امير المؤمنين اعلم مني بالقراءات وغيرها .

فقالت الجارية :

انا اسألك سؤالا واحدا ، فان اجبت فذاك ، والا نزعت ثيابك .

قال الخليفة : سليه ، فقالت :

ما تقول في آية فيها ثلاث وعشرون كافا ، وآية فيها ست عشرة ميا ، وآية فيها مائة واربعون عينا ، وحزب ليس فيه جلالة ؟

فعجز عن الجواب : فقالت :ـ

ـ يا أمير المؤمنين ، ان الآية التي فيها ثلاث وعشرون كافا في سورة البقرة وهي آية الدين ، وان الآية التي فيها ست عشرة ميا في سورة هود وهي قوله تعالى : قيل يا نوح اهبط بسلام منا ... الآية ، وان الآية التي فيها مائة وأربعون عينا في سورة الأعراف وهي قوله تعالى : « واختار موسى قومه سبعين رجلا » ولكل رجل عينان .. وأن الحزب الذى ليس فيه جلالة هو سورة اقتربت الساعة وانشق القمر ، والرحمن ، والواقعة .

وانصرف رجل القراءات خجلا بدون جبته كمن قبله .

علم الابدان

ثم تقدم اليها طبيب ماهر وقال :

ـ فرغنا من علم الأديان فتيقظي لعلم الأبدان .

ـ هات ما عندك يا طبيب الابدان .

ـ خبريني عن الانسان كيف خلق وكم في جسده من عرق ، وكم من عظـم ، وكم من فقـر ، وأين اول العروق ؟ ، ولم سمي آدم آدم ؟

ـ تبدأ بآدم ، سمي كذلك لأدمته اي سمرته ، وقيل لأنه خلق من أديم الارض ، وخلق الله آدم مركبا من اربعة عناصر وهي الماء والتراب والنار والهواء ، فكانت الصفراء طبع النار وهي حارة يابسة ، والسـوداء طبع التراب وهو بارد يابس ، والبلغم طبع الماء وهـو بارد رطب ، والدم طبع الهواء وهو حار رطب ، وخلق الله في الانسان ثلاثمائة وستين عرقا ، ومائتين وأربعين عظمة ، وثلاث ارواح : حيواني ونفساني وطبيعي ، وجعل لكل منها حكما ، وخلق الله له قلبا وطحالا ، ورئتين وستة أمعاء ، وكبدا وكليتين واليتين ومخا وعظما وجلدا ، وخمس حواس : سامعة ، وباصرة وشامة وذائقة ولامسة ، وجعل القلب في الجانب الأيسر من الصدر ، وجعل المعدة أمام القلب ، وجعل الرئة مروحة للقلـب ، وجعـل الكبـد في الجانب الأيمن محاذية للقلب ، وخلق مادون ذلك من الحجاب والامعاء ، وركب ترائب الصدر وشبكهـا بالاضلاع .

ـ أحسنت ، فاخبريني كم في رأس ابن آدم من بطن ؟ .

ـ ثلاثة بطون وهي تشتمل على خمس قوى تسمى الحواس الباطنية وهي الحس المشترك والخيال والمتصرفة والواهمة والحافظة .

الحياء يمنعني

واستمر يسألها في دقائق الطب المعروفة اذ ذاك وهي تجيب على كل ما يسأل بطلاقة وفصاحة لسان ، وحدث ان سألها عن شيء مما يكون بين الرجل والمرأة .. فطأطأت خجلا ثم قالت :

ـ والله يا امير المؤمنين ما عجزت بل خجلت وان جوابه على طرف لساني ولكن يمنعني الحياء من التلفظ به ......

فلما فرغ سأنته هي السؤال المعضل ، فسكت ولم يجب بشيء ، وحق عليه ما حق على غيره ، من قبل ، اذ خرج مقهورا فاقدا طيلسانه .

ثم قام اليها النظّام وقال لها :

ـ اخبريني عن شيء اوله وآخره روح .

ـ عصا موسى حين القاها فاذا هي حية تسعى .

ـ اخبريني عن اربعة عشر كلموا رب العالمين .

ـ السموات السبع والأرضون السبع لما قالتا : أتينا طائعين .

ولما انتهى دور النظام جيء بالشطرنج والنرد ، وغلبت ملاعبيهـا ، وانصرفـا مقهـورين يرطنـان بالافرنجية ...

ثم جيء بعـود في كيس من أطلس ، فاخرجته « تودد » ووضعته في حجرها وانحنت عليه انحناء والدة ترضع ولدها ، وضربت وغنت ، حتى ماج المجلس ، وطرب امير المؤمنين ، وقال لها :

بارك الله فيك وجزى من علمك خيرا .

وامر لمولاها بالف دينار ، وقال لها :

ـ يا تودد ، تمنّي ما شئت .

ـ اتمنى أن تردني الى سيدي .

فردها اليه واعطاها خمسة آلاف دينار لنفسها .

معطف الف ليلة

وبعد فلو تأملنا في حياتنا الفكرية لرأينا كثيرا من تلك الافكار المغروسة في عقولنا موروثة عن اسلافنـا الذين كانوا يتلقون تلك الحكايات ويغرمون بها .

ومع حشد ذلك المضمون الكبير في الحكاية نلحظ انه « مدهوس » في الشكل الفني بحيث يشعر القارىء بالمتعة دون أن يتسرب اليه اي ملل ، بل على العكس يشوقه السياق وما اشتمل عليه من وسائل التشويق الى متابعة القراءة فيحصل على المتعة والفكرة في آن .

عندنا كثيـرون يتصـدون لكتابـة القصـة وليس عندهم ما يقولونه من خلال القصص ، فتأتي قصصهم خالية من اي مضمون ، يدعون ان الفن هكذا وما هو هكذا الا ان يكون فنا فارغا لا يستحق اضاعة الوقت في قراءته ، ليتهم يخرجون من معطف الف ليلة كما خرج كتاب الروس من معطف جوجول . ■■

القاهرة ـ عباس خضر



النوم

ظواهره السوية والمرضية

بقلم الدكتور عماد شمسي باشا

النوم ظاهرة فسيولوجية من ظواهر الحياة الانسانية والحيوانية السوية فحياة الانسان خلال سنوات عمره متناوبة بين صحو ونوم في دورة مستمرة متعاقبة منذ ان يأتي الى هذا العالم وحتى يودعه . دورة لا تدرك اهميتها وخطرها الا حين يصيبها الخلل والاضطراب او تتحول من حال الصحة الى حال المرض . وكثيرا ما نسمع ان الحرمان المديد من النوم اصبح في عصرنا الحاضر احدى الوسائل التي تستخدم مع المعتقلين في السجون لانتزاع الاعترافات منهم او للتأثير على افكارهم وبنيانهم النفسي بكامله فيما اصبح يسمى في ايامنا هذه بعمليات غسل الدماغ ..

ولقد ظلت اسرار هذه الظاهرة « النوم » مجهولة لعلماء الحياة والنفس فترة طويلة من الزمن ، فكانت عملية النوم عملية محيرة حقا ، دارت حولها الأساطير والخرافات واكتسبت الكثير من صفات الغيبيات والروحانيات في نفوس الأقدمين خاصة ما يتخلل النوم من احلام ورؤى لم يكونوا يجدون لها تفسيرا الا عند اهل البصر بالامور الدينية او عند اهل الكشف من الاولياء والصالحين .

ومع التقدم العلمي الكبير الذى استطاع ان يجلو بعض اسرار هذه الظاهرة الا ان جانبا مهما منها ما يزال مغلفا بالغموض ، وما تزال الدراسات الحثيثة الدؤوبة تعمل في شرق وغرب للوصول الى مزيد من العلم بحقيقة النوم .. وهي واصلة دون شك الى ما تريد .

آلية النوم

يقضي الطفل بعد ولادته معظم ساعات يومه نائما ، وتتناقص هذه الساعات كلما تقدم به العمر ، وكذلك يصبح النوم عنده مرتبطا بحلول الليل . ويلاحظ ان الانسان كلما تقدم به العمر نقصت ساعات نومه الليلي حتى اننا نجد الشيوخ كثيرا ما يستيقظون في ساعات الصباح الاولى ولكننا نجدهم في الوقت ذاته يكثرون من الغفوات النهارية التى تؤمن لهم على مايبدو ـ الكفاية اللازمة من النوم مما يجعلهم يختصرون ساعات نومهم الليلي . ولقد أمكن تقسيم فترة النوم اعتمادا على دراسات التخطيط الدماغي الكهربي الى خمس مراحل متعاقبة تتحكم فيها آليتان فسيولوجيتان متناوبتان .. ففي المرحلة الاولى للنوم تسترخي عضلات الجسم وتسدل الأجفان وتبدأ العينان بالتحرك من جانب الى آخر ، ونجد أن مخطط الدماغ الكهربي في تلك المرحلة يشير الى تناقص تدريجي في الشحنة الكهربيةالمسجلة عما كانت عليه قبل الدخول في النوم ، مع تواترات متعددة السرعة ، وعندما ينتقل الانسان الى المرحلة الثانية ـ وهي مرحلة أكثر عمقا من سابقتها ـ نلحظ تبدلا في مخططات الدماغ الكهربية . فتظهر موجات يتراوح تواترها بين ١٢ ، ١٤ دورة في الثانية تتداخل مع

موجات أخرى اعلى شحنة وابطأ تواترا ..

أما المرحلتان الثالثة والرابعة فتظهران على مخطط الدماغ بازدياد في نسبة الموجات بطيئة التواتر عالية الشحنة .

ثم تأتي المرحلة الخامسة التي تعود معها حركات العينين السريعة ، ويزداد التوتر في عضلات الفكين في حين تصبح عضلات الرقبة والجذع والاطراف رخوة تماما بعد ان تعتريها بضعة ارتجافات خفيفة ، ويطلق علميا على المراحل الاربعة الأولى للنوم طور حركات العين اللاسريعة ، أما المرحلة الخامسة فتسمى طور حركات العين السريعة ، وكل هذه المراحل تتم بصورة ارادية ودون ان يشعر بها النائم على الاطلاق ...

ولقد وجد أن الانسان في نومه الطبيعي يمر بشكل متتابع من المرحلة الاولى الى المرحلة الرابعة من الطور الأول في مدة زمنية تستغرق دقيقة يكون معظمها في المرحلتين الثالثة والرابعة ثم يبدأ الطور الثاني (طور حركات العين السريعة) الذي يمكن الاستدلال عليه من ازدياد حركات الجسم ، ومن تبدل التخطيط الكهربي للدماغ وانتقاله من نموذج المرحلة الرابعة الى نموذج المرحلة الثانية ... وتتكرر الدورة من طور الحركات اللاسريعة الى طور الحركات السريعة وبنفس الترتيب من اربع الى ست مرات خلال الليل تبعا لطول فترة النوم وقصرها ...

متى نشعر بالحاجة الى النوم ؟

يظن ان هنالك مواد تتشكل في الجسم نتيجة للسهر او الصحو المديد تؤثر على الخلايا المسئولة عن بدء النوم . هذه المواد لم يمكن الكشف عنها او اثبات وجودها عند الانسان بيدأأمكن حديثا عزل مادة كيماوية سميت العامل .C.S.F من السائل الدماغي الشوكي لحيوانات تجربة حرمت من النوم . وعندما حقنت حيوانات اخرى بهذه المادة دخلت في النوم مدة استمرت ست ساعات تقريبا .

وما الذي يفعله الحرمان من النوم ؟ ولا جدال في ان النوم ضروري لاجسامنا حتى تكون صحيحة معافاة قادرة على الحياة بكفاءة وفاعلية ، فالحيوانات تموت ان هي حرمت من النوم لعدة أيام . اما الانسان فانه حين يعرض لهذا الحرمان يطرأ عليه الكثير من العلامات والاعراض المرضية المتهكة . ان الانسان الذي يحرم من النوم لفترة تتراوح بين ٦٠ ـ ٢٠٠ ساعة يشعر بتعب متزايد واستثارة مفرطة ، فهو يواجه صعوبة في التركيز وفي التعامل مع المحسوسات ، ويضطرب تقديره للزمان والمكان .. ومع تزايد هذا الحرمان تراه يصاب بالاهلاس وتتتابه الأوهام ولا سيما في مجال الاحساسات البصرية واللمسية ، وكما يضطرب الأداء الحركي للمحروم من النوم بشكل ملحوظ وخاصة الاعمال التي تتطلب دقة وانتباها فانه يصاب بمجموعة من العوارض الأخرى كرأرأة العينين (اهتزازها Nystagmus) وارتجاف اليدين وغياب تعابير الوجه واضطراب النطق والبطء الواضح في تداعي الافكار .. ويمكن لهذا الانسان المصاب بمجمل الاعراض السابقة ان يستعيد صحته وعافيته اذا ما نام بضع ساعات فقط ، بمعنى انه لا يحتاج الى نفس العدد من الساعات التي حرم فيها من النوم كي يسترد نشاطه ووعيه .

ورب سائل يسأل : ما عدد ساعات النوم المثالية لانسان صحيح الجسم موفور العافية ، وللجواب على هذا التساؤل نقول إنه لا يوجد عدد مثالي لهذه الساعات وأن الناس يختلفون في هذا الامر اختلافا بينا فنجد اشخاصا يكتفون بثلاث ساعات او اربع خلال يومهم كله ويحتفظون مع ذلك بكامل نشاطهم وحيويتهم في الوقت الذي نجد فيه اشخاصا آخرين ينامون اضعاف هذه المدة ولا يشعرون بالراحة او الاكتفاء ، فالقضية شخصية اذن الى حد كبير وتختلف من انسان الى آخر تبعا للكثير من العوامل والعادات والمؤثرات ...

اضطرابات النوم أو الأرق

يمكننا أن نعرف الارق بأنه الرغبة في النوم دون التمكن منه . وهو يشمل كل اضطراب في مدة النوم او عمقه . وتسهيلا لتصنيف مسببات الأرق الى شكلين اساسيين يحتاج التمييز بينهما الى خبرة الطبيب وحنكته . الشكل الاول ويسمى بالارق البدئي Primary وهو الأرق الذي يعاني منه الانسان دون ان يكون لديه اية شكاوى او اعراض او مبررات خاصة تمنعه من الاستغراق في النوم . وبالاستماع الدقيق للقصة المرضية لهؤلاء نجد ان شكوى الأرق عندهم شكوى لها تاريخ طويل ، حيث يندر لهؤلاء الاشخاص ان يستمتعوا بنوم مريح هادىء ، وهم يلجئون في سبيل ان يحصلوا على ساعات من النوم العميق الى اساليب مختلفة وطرق متنوعة من دوائية وغيرها حتى يصبح النوم والحصول عليه شاغلهم الاول والاخير ويصبح محور اهتمامهم وتفكيرهم . ونلاحظ ان النوم عند هؤلاء الاشخاص قصير المدة ، يتخلله صحو متكرر كما نلاحظ ان هؤلاء يتحركون كثيرا اثناء نومهم لأنهم لا يشعرون

بالاستغراق المريح في هذا النوم .

اما الشكل الآخر من الأرق ويسمى بالأرق التالي فينجم عن اسباب اخرى متعددة بعضها ظاهر واضح وبعضها الآخر يحتاج لصبر الطبيب وتعاون المريض حتى يمكن كشفها ومعرفة دواعيها . فالشخص الذي يشعر بالبرد في سريره يصعب عليه النوم وكذلك الجائع الذي يظل يتقلب في سريره بسبب معدته الخاوية ، والشخص الذي يقاوم الحاجة الى إفراغ مثانته او امعائه لسبب او لآخر ، كل هؤلاء اشخاص لا يستطيعون النوم .

ومن الاسباب الهامة للأرق الألم ... بمختلف انواعه واماكنه وخاصة ألم العمود الفقري او انضغاط الاعصاب وألم القرحة المضمية الليلي والألم الناجم عن الأورام الخبيثة كلها تحرم الانسان من نوم هادىء هو أحوج ما يكون اليه ... كما ان التعب العضلي الشديد الناتج عن جهد ثقيل اثناء النهار قد يسبب عند الشخص ـ حين يأوي لفراشه ـ حسا مزعجا في ساقيه او ظهره يمنعه من النوم ومثل ذلك الخدر او التنميل الذي تحسه بعض النسوة في اصابع ايديهن وفي اذرعهن بعد ساعات قليلة من النوم ويكون سببا للاستيقاظ وفرك الايدي ونفضها وتدليكها في محاولة للتخلص من هذا الخدر المزعج ...

الشكاوى النفسية لها نصيب ايضا

تعتبر الامراض والشكاوى النفسية من اهم اسباب الارق او اضطراب نظم النوم السوي ، فالتوتر المستمر الذي يتعرض له الشخص كرد فعل لهموم العمل ومتاعب الحياة ، والجهد الفكري او الذهني الشديد الذي يلازم الشخص حتى حين يأوي الى فراشه قد تترك عضلات هذا الشخص في حالة تشنج دائم تمنع عنه النوم او تؤخره ، ويكون من نتيجة ذلك ان يتأخر هذا الانسان في نومه في صباح اليوم التالي وان يستيقظ متعبا كسولا ضعيف الهمة . كما ان الخوف او القلق او الاحلام المزعجة هي أسباب كثيرة المشاهدة في حالات الأرق وحتى في حالات الخوف من النوم .

والهمود او الاكتئاب أيا كان سببه قد يحدث من جملة ما يحدث عن اعراض اضطرابات في نظم النوم قد يبدو على شكل ارق مديد أو نوم مضطرب تتخلله الأحلام المزعجة .

وقبل ان ننتهي من تعداد أسباب الارق الشائعة لا يفوتنا ان نذكر ان الشيخوخة وما تحمله في ثناياها من تصلب في شرايين الدماغ لها اثرها المميز على النوم ، فالمسن يستيقظ عادة في ساعات الصباح الباكرة ولا يستطيع بعدها متابعة النوم ، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ فترات من النوم النهاري على شكل غفوات قصيرة متكررة تعطيه زادا كافيا من النوم مما يجعله يستيقظ باكرا في الصباح اغلب الايام .

كثرة النوم

الوجه المقابل للأرق هو كثرة النوم او النوم المديد ، فهنالك حالات مرضية معينة يكون النوم المديد أحد اعراضها نذكر منها على سبيل المثال بعض التهابات الدماغ او داء النوم الافريقي ، كما ان اورام الدماغ عموما تحدث وسنا قد يصل لدرجة النوم الكامل ، اضافة الى الرضوض الدماغية وبعض الامراض الغدية كقصور الغدة الدرقية (Hypothyroidism) التي تؤدي الى مثل هذه الحالة .

وهنالك شكل آخر من النوم او الميل الزائد اليه يحدث عند اصحاب البدانة المفرطة فيما يسمى طبيا بمرض بيكويك (Pickwickian) حيث تجد المريض شديد البدانة . يشكو من ضيق النفس حتى وهو في حالة الراحة ويكون محتقن الوجه غالبا ويقضي معظم وقته نائما ...

ومن الحالات الخاصة لكثرة النوم حالتان مرتبطتان بعضهما ببعض غالبا وهما ما يسمى الناركولبسي Narcolepsy والكاتابلكسي Cataplexy. فما هما هاتان الحالتان ؟

أما الناركولبسي فهو مرض يمتاز برغبة لا تقاوم للنوم تنتاب المريض عدة مرات في اليوم وتدوم لفترة قصيرة تكون غالبا في حدود (١٠ ـ ١٥) دقيقة ، ويصحو المريض منها على اثر لمسة او صوت ، وهذه النوبات القصيرة من النوم تأتي غالبا في فترات الهدوء او نقص الفاعلية الجسمية كأن يكون المريض جالسا في محاضرة او في اجتماع ما ، وكثيرا ما تسبب للمريض حرجا اجتماعيا كبيرا ، وتترافق هذه الحالة غالبا مع ما يسمى الكاتابلكسي .

وأما الكاتابلكسي وهو تعبير يصف حالة تفقد فيها قوة العضلات فجأة اثر انفعال شديد كالضحك الشديد او الحزن او الغضب فتجد المريض في مثل تلك الظروف يسقط بهدوء على الارض بشكل تدريجي انسيابي دون ان يفقد وعيه ويبقى على حاله مدة دقيقة او دقيقتين . وكما ذكرت آنفا فان هذه الحالة تترافق غالبا بالحالة السابقة ،

حالة الناركوليبسي - وهذان المرضان يصيبان الذكور اكثر من الاناث وخاصة في اول الشباب ويستمران مع المريض حتى الكهولة ، ويبدو ان لهما علاقة بالوراثة ولا يعرف سبب واضح لهذين المرضين كما ان تخطيط الدماغ الكهربي لهؤلاء المرضى يبدو سويا عادة .

وهناك حالات أخرى للنعاس أثناء النهار وكثيرا ما يتعذر علينا ايجاد سبب عضوي معين لهذه الشكوى فقد تكون قلة النوم ليلا سببا لهذا النعاس النهاري ، وقد يكون التقيد اوالالتزام بالراحة المفروضة لأسباب طبية ـ قلبية مثلا ـ سببا داعيا لهذا النعاس النهاري وخاصة في فترات معينة كفترة ما بعد الافطار او ما بعد الغداء ، أو قد يكون النعاس ناجما عن أدوية يتعاطاها المرء لأمراض اخرى كبعض أدوية ارتفاع التوتر الشرياني او الصرع او المهدئات فضلا عن ان الكحول والمسكرات الاخرى تحدث مثل هذا النعاس او الميل للنوم النهاري عند من يتعاطاها .

حالات مرضية مرتبطة بالنوم

كما أن هنالك شكاوى مرضية يرتبط حدوثها بالنوم ولا تحدث خارج وقته الا نادرا منها مثلا خدر النهايات والمشي اثناء النوم والصرع الليلي .

أما خدر النهايات أو Acroparesthesia فهي شكوى كثيرة الحدوث عند النساء متوسطات العمر ، حيث تشكو المريضة من احساس الخدر والنمل في اصابع اليدين بعد ساعات قليلة من بدء النوم وقد يمتد هذا الخدر إلى الذراع وقد يحدث في ذراع واحدة او في الاثنتين معا وكثيرا ما يترافق الخدر مع الم يشبه حس الحرق وتستيقظ المريضة بسبب هذه الاحساسات المزعجة وتلجأ لفرك اليدين او لنفضها بشدة وكثيرا ما تجد الراحة بعد هذه الحركات ، وقد تستمر هذه الاعراض لفترة طويلة دون ان يجدي معها العلاج نفعا ، وقد تحس المريضة بان يديها اصبحت متورمة او متيبسة بعد مضي فترة على هذه الشكوى ، وهذه الحالة تحتاج لاختصاصي في الأمراض العصبية فقد يكون الامر ذا اهمية جدية ويتطلب عملية جراحية بسيطة في الذراع تزيل الضغط عن العصب المسئول عن هذه الاحساسات .

ثم المشي اثناء النوم وهي ظاهرة تكثر عند الاطفال بعد بدء النوم بفترة قصيرة عادة ، اذ نجد الطفل وقد نهض من فراشه وبدأ بالمشي مفتوح العينين دون ان يصطدم بما أمامه من اشياء مألوفة لديه ، وقد يقوم ببعض الاعمال كفتح نافذة او تشغيل مذياع ، وهو لا يصحو عادة اذا خوطب ولكنه قد يعود لسريره ان امر بذلك وقد يتفوه اثناء مشيه ببعض الكلمات أو العبارات غير المفهومة ، وفي الصباح التالي لا يتذكر شيئا مما قام به ليلا ... ويعتبر الكلام اثناء النوم شكلا بسيطا من الظاهرة السابقة ويحسن عرض تلك الحالات على الاختصاصي لدراستها .

والصرع الليلي Nocturnal epilepsy وهي نوبات من الصرع تحدث بعد وقت قصير من دخول المريض في النوم او قبيل استيقاظه ، ولها نفس صفات الصرع العادي ، وقد تنتاب المريض نوبات الصرع في النهار اثناء الاستيقاظ ايضا وقد ينحصر حدوثها في فترة النوم ، وتعالج معالجة الصرع العادي بادويته الخاصة .

كيف تتغلب على الارق ؟

في ختام هذه العجالة عن النوم واضطراباته لابد لنا ان نتحدث قليلا عن علاج الأرق . ويحسن في البدء ان نذكر بعض الشروط التي يجب ان تتحقق حتى ينعم الانسان بنوم هادىء ، فلنحاول اولا ان يكون عشاؤنا خفيفا خاليا من الاطعمة الدسمة عسيرة الهضم ، وان نقلل قدر الامكان من شرب المنبهات كالشاي والقهوة ، وان نترك ساعتين على الاقل بعد العشاء للراحة قبل ان نأوي الى الفراش ، ويستحسن عمل مشوار قصير ، فرياضة المشي تعطينا قدرا صالحا من الانتعاش والراحة .. ويأتي بعد ذلك دور غرفة النوم التي يجب ان تكون غرفة هادئة معتدلة الحرارة ، جيدة التهوية وان نحرص على أن يكون فراشنا دافئا وخاصة في الشتاء ، ولا بأس ان نمضي بعض الوقت في قراءة مجلة او كتاب ممتع طريف وان نبتعد قدر الامكان عن المواضيع المثيرة العنيفة التي تترك أثرها السيىء في نفوسنا حينا نغمض اعيننا لنخلد للنوم .

أما الأرق فعلاجه يكون بمعرفة السبب . فالمتألم لا ينام قبل ان يزول ألمه ، والخائف او القلق لا ينام قبل ان يزول خوفه وقلقه . ولن يكون الحل مطلقا في الاعتياد على حبوب منومة نبتلعها الليلة تلو الليلة ، ونأخذ منها مانظن انه يغنينا عن حل مشاكلنا ومواجهة واقعنا ، واذا اضطررنا الى ذلك فلابد ان يكون الامر بمشورة الطبيب ولفترة قصيرة وبمقادير مقننة ، فالمنومات ادوية ، ولكل دواء تأثيراته الجانبية التي قد تكون ضارة ، ولعل اخطر هذه التأثيرات هو الادمان والاعتياد حتى لقد يصبح من العسير تركها .

الكويت ـ د . عماد شمسي باشا

سقوط ايطاليا

أزمة يثيرها فيلم يوغسلافي

بقلم : الدكتور جمال الدين سيد محمد

اجتاز المخرج اليوغسلافي لوردان زافرانوفيتش امتحانا عسيرا فقد حصل عن فيلمه الجديد « سقوط ايطاليا » على جائزة احسن فيلم وهي جائزة « ارينا » الذهبية في مهرجان بولا الاخير بيوغسلافيا ، كما حصل ايضا على جائزة الجماهير وهي جائزة « الوعل الذهبي » وبذلك حصل الفيلم على ترخيص بالاشتراك في مهرجان فينيسيا الايطالي .

وبالرغم من حصول المخرج على هاتين الجائزتين فان فيلمه « سقوط ايطاليا » اثار بعد عرضه وحتى بعد حصوله على الجائزتين عاصفة من الجدل والمناقشات والانتقادات . واصبحت هناك جماعة تؤيده وتمدحه وجماعة تعارضه وتقدحه وجماعة ثالثة تؤيد بعض جوانبه وتعارض وتنتقد البعض الآخر فيه .

فلماذا كل هذه الضجة وهذه الانتقادات ؟ وهل هي ضجة مفتعلة ؟ ام هي مجابهة جادة لاتجاه جديد في السينما اليوغسلافية الحديثة ؟ .. هذه هي بعض الاسئلة العديدة التي تطرح نفسها على المرء وتعتصر ذهنه باحثة عن الجواب الشافي . ولكي يتأتى لنا ذلك لا بد ان نعرف اولا ما هو مضمون هذا الفيلم اليوغسلافي الجديد ؟ .

فكرة وموضوع الفيلم

فيلم « سقوط ايطاليا » يتناول الاحداث التاريخية التي جرت باحدى الجزر الواقعة على ساحل دلماسيا بيوغسلافيا في عام ١٩٤٣ ، اي خلال الحرب العالمية الثانية . والفيلم ليس فيلما تاريخيا يهدف الى عرض وابراز الحقائق التاريخية . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها ان احداثا تاريخية معينة هي الدافع الى تصوير مثل هذا الفيلم واخراجه . وقد تم ابراز كل ما سبق انهيار ايطاليا واستسلامها اثناء الحرب العالمية الثانية وما لحق هذا الانهيار ، على انه عرض عام لهذه الحقبة التاريخية وما جرى بها من احداث متنوعة ، وعلى انه عرض لنوعيات معينة من البشر وأشكالهم وألوانهم . ولم يكن التركيز اساسا على الحرب والقتال والمعارك التي جرت بين الجيوش والجنود ولكن كان التركيز على الحرب وعلى القتال الذي جرى بين البشر بعضهم البعض .

ومن المعلوم أن مؤلفي سيناريو الفيلم الاديب ميركو كوفاتش والمخرج لوردان زافرانوفيتش قاما بالبحث والتنقيب عن الاحداث الاصلية التي جرت على هذه الجزيرة خلال الحرب العالمية الثانية . واجريا لقاءات متعددة مع الاشخاص الذين اشتركوا في هذه الحرب وخاضوا غمارها ومع ضحايا الاحتلال الفاشي لهذه المناطق . وتتمثل الفكرة الاساسية للفيلم في ان هذه الجزيرة الصغيرة تمثل مرآة صغيرة تجسد الحرب باهوالها ورعبها اللاإنساني وما فيها من انتقام مريع وفوضى لا نظير لها وهلاك للناس ، ابريائهم وأشرارهم .

ويصل العدو الايطالي المحتل الى هذه الجزيرة ومعه توابعه من الجلادين والانتهازيين والخونة ، ويقوم كل منهم قدر استطاعته باثارة المتاعب والمشاكل وبث سمومه وشروره على الشعب اليوغسلافي البائس وتسليط العقاب والتعذيب على رقاب افراده . ثم بعد كل هذا



تستلم ايطاليا فيقوم الشعب المستعبد المضطهد باسلوب بدائي انفعالي ساخن ـ شأنه في ذلك شأن شعوب البحر الابيض المتوسط ـ بالانتقام من المحتل الأثم ورد الصاع صاعين له . وفي هذا الاطار العام وضع المؤلفان قصة الفيلم الحقيقية عن « دافورين » القائد البارتيزاني من قواد جيش التحرير اليوغسلافي . و « دافورين » ثائر زاهد وهب نفسه وحياته وروحه للكفاح وللالتزام وللانضباط الحزبي المحظور ، بل ومن المحرم تماما على رجال البارتيزان الخوض في اية علاقات غرامية مع زميلاتهم من الجنس اللطيف وكانت عقوبة المخالف هي الاعدام الفوري رميا بالرصاص .

ويبلغ الالتزام لدى القائد البارتيزاني درجة عالية ، لدرجة انه بناء على بلاغ من زميلته البارتيزانية « بوجيتسا » التي تهيم به ، وبناء على عدم انكار كراسنا الفتاة الثرية الجميلة يعدم الاخيرة وكذلك حبيبها نيكو . وهو يقتلها خلسة في لحظة من لحظات حبها لاسباب طبقية . وفيما بعد حينما تسأله والدة الحبيب المقتول نيكو بعد ان تحررت من سلطان العدو : هل هو الذي قتلها بطلقات مدفعه الرشاش ؟ لا يستطيع ان يجيب جوابا ولم تكن لديه الشجاعة لان يعترف بذلك .

وبعدما يتولى دافورين السلطة باعتباره المحرر يقع هو ايضا في الحب ويقدم على الزواج من حبيبته فيرونيكا البرجوازية ايضا . وسيخوض غمار تجربة هذا الحب وكأنه اول واسمى شكل من اشكال الحرية اي انه ليس هناك خلاف بين الحرية وبين الثورة . الا ان البطل يقع وتتهمه زميلته البارتيزانية « بوجيتسا » التي لا يحبها رغم انها تعرض عليه نفسها وهي عارية تماما . وفي الختام ينفذ العقاب على « دافورين » بطلقات من المدفع الرشاش لشقيق دافورين الذي عين قوميسيرا سياسيا جديدا .

ثوار يخطئون

والحقيقة ان الفيلم عبارة عن دراما اخلاقية ، فهو يتعرض للتصرفات الاخلاقية لكل من دافورين وبوجيتسا ولوفرو شقيق دافورين ، وهم يحملون لواء الحرية والتجديد . فالاول دافورين يقتل دون ان يكون لديه اي دليل على الاثم المرتكب ، بل على العكس من ذلك تشاهد الاسلحة والمعدات التي استولت عليها كراسنا ونيكو من الايطاليين المحتلين ، اي انهما من الابطال المقاتلين . وبوجيتسا تحطم بكل فظاظة القواعد الجمالية لمبادئها العقائدية لانها تقول شيئا وتفعل شيئا أخر . ولوفرو الدوغماتي يقتل اخاه بلا اي دفاع لكي يبرهن على تمسكه والتزامه بخط الحزب . الاول غير ملتزم والثانية منافقة والثالث كالآلة . انهم ثوار يخطئون كغيرهم من البشر . انهم يقتلون ويجسدون امراض الحرب التي لا تشمل فحسب الانهيار والسقوط العسكري او الجسماني بل ايضا السقوط الاخلاقي في المقام الاول . اذن فالسقوط والانهيار لم يكونا من نصيب ايطاليا فحسب ! .. وربما هذه الفكرة في حد ذاتها والرموز التي تتضمنها هي التي تثير حفيظة النقاد وانتقاداتهم اللاذعة .

والسيناريو يلتزم باتجاه معين ، ويعرض لنا المخرج بشكل خاص سلسلة من الصور المؤثرة الخلابة عن الحرب . الا ان السيناريو ينوه في التفسيرات النفسية للاشياء وللابطال وللعلاقة بينها ولتصرفاتها . والدوافع الداخلية للشكلة لا تعكس انعكاسا عميقا . وهناك خط فكري مسبق يربط شخصيات الفيلم . وهكذا تصبح هذه الجزيرة الصغيرة وكأنها مسرح يدخل اليه المؤلفان حسب مخطط متفق عليه ـ مجموعات متباينة من الناس لكي يلعبوا ويؤدوا هذا الدور او ذاك حتى يبرروا

فكرتها وبالتالي يبدو وكأن المؤلفين قد ابتعدا عن هذه التراجيديا الانسانية وهي لا تثير اهتمامها بقدر ما تثير نفسوها ومشاعرها .

رؤية جديدة للتاريخ

اذن ففيلم « سقوط ايطاليا » عبارة عن استعراض شعري للتاريخ ولأحداثه يهدف ان يتم اعادة تجسيده بالروح وبالافكار وبالاخلاق ، وفي هذا المضمار تضاف النسبية الى الحقائق التاريخية او يتم تحويلها بحيث تصبح رموزا ومدلولات ، ويتحول البشر الى علامات من الاستفهام . وهكذا تتحرك هذه الصورة المضطربة نحو الخيال وتكتسب خصائص اسطورية وتتعدد صور ومشاهد حياة بعض الناس الذين يعيشون وكأنهم في العصور البدائية . والبحر هنا هو الملجأ البدائي للبشر ، وهو منقذهم من المحن والاضطهاد ، الا انه في وسط لهيب الحرب يصبح البحر مكانا لاختبار قدرة تحملهم . وقد تجمع على هذه الجزيرة الصغيرة ضعاف الناس واقوياؤهم واصحاؤهم ومرضاهم ، السريعون منهم والمتلكئون . وهم جميعا يحبون ويكرهون ، ويبتهجون وينتحبون ، ويقيمون الصلاة ويطلقون اللعنات ، وكأنهم في سفينة نوح التي يحاول الشيطان اغراقها بمن فيها .

وهذا التاريخ المصور بلغة شعرية ينقسم الى قسمين : قسم يسبق استسلام ايطاليا ، وقد عرض المخرج في هذا الجزء صورا للحياة والطباع والعادات باسلوبه التعبيري المعروف وبشكل ايحائي . ومن الجلي قرب هذا المنظر العام وهذه الانواع البشرية وهذه الاخلاق وهذا الجو العام من نفس المخرج وهو يجيد معرفته الا انه لم يرتفع لحظة واحدة الى مستوى الصدمة وشدتها او يهبط الى مستوى الغريزة الملتهبة للحب والجنس . وهو لا يهتم بالمنطق وبالروح بل يسير وراء رغبته في معرفة متاعب الجسد .

وبعد ذلك حينما تنهار ايطاليا يزداد العنف . ومن الاعماق القاتمة لهذا الشعب يستيقظ الغضب التلقائي الكامن والانتقام الوحشي من المحتل المنهار . ولذلك نشاهد كيف يتم غرس الخطاطيف والآلات الحادة في ظهور واجساد الايطاليين ومن تبعهم من الاعداء . وتبدأ رقصة الموت وفيها يتبخر كل شيء بما في ذلك الانسان والطبيعة والحياة . ويسود الظلام الحالك وتضيع السماء ويتخضب البحر باللون الاحمر وتشاهد مشاهد غامضة لأناس فقدوا انسانيتهم ، والفرق ليس كبيرا بين تلك المشاهد الغامضة وبين غيرها من المشاهد الاخرى ، نظرا لسطحية الاولى وضحالة افكارها لدرجة ان القمصان السوداء البشعة التي يرتديها المحتلون الايطاليون تبدو في مقابل ما يحدث على الجانب الآخر ـ اي لدى أفراد الشعب اليوغسلافي الثائر ـ وكأنها قمصان للصبيان .

وهناك عبارة تتكرر على ألسنة شخصيات الفيلم وهي : « كل هذا تياترو » ! .. وهذه العبارة تؤكد بتكرارها هذا فكرة المؤلف عن الحرب وشرورها ومضارها بغض النظر عن اتجاهاتها ودوافعها واهدافها . والمخرج في فيلمه هذا يفلسف الحقائق ويضفي معايير نسبية على محاربة الفاشية والحرب التي وجهتها ضد الشعوب اي انها تصبغها بالصبغة العقائدية . وكثيرون في يوغسلافيا لا يقبلون مثل هذا التفلسف للحقائق .

الانتقادات الموجهة للفيلم

وقد استقبل النقاد بوجه عام فيلم « سقوط ايطاليا » استقبالا طيبا ولهم كثير من الملاحظات عليه ، وهذا ليس بمشكلة على الاطلاق . انما المشكلة كلها في الانشقاق الذي حدث بين النقاد والجماهير حول هذا الفيلم ، فهم لم يتفقوا على نجاحه التام او على فشله الذريع . وانما تجد لكل ناقد او لكل مجموعة من النقاد ولكل مشاهد او لكل مجموعة من المشاهدين رأي خاص في هذا الفيلم .

ونحن لن نتعرض هنا لكل القضايا والمشاكل التي اثارها النقاد والجماهير فهذا يفوق طاقة هذا المقال ، وانما نريد ان نركز على القضية الجوهرية والاساسية التي اثيرت حول هذا الفيلم وهي معالجة الفيلم لاحداث تاريخية حقيقية . وفي هذا المضمار هوجم المخرج هجوما شديدا بالفاظ جارحة وخارجة لدرجة انه لقب بالفاشي واشيع انه سيتم منع عرض الفيلم واشياء كثيرة من هذا القبيل .

وقصة حب القائد البارتيزاني كما يرى بعض النقاد ليست مقنعة من الناحية الفنية . ومع ذلك فالمتفرج يظل مشدوها ومأخوذا بالمناظر التسجيلية للحرب ويتعايش مع قصة حب القائد ومع نقاط ضعفه وكأنها حكاية في المرتبة التالية من الأهمية ، وكأنها قصة عابرة وهذا يناقض ما أراده مؤلفا الفيلم . وينفعل المشاهد انفعالا عميقا مع المشاهد المعروضة للاحتلال وللمحتل ، ويمتلكه الاضطراب عندما يرى الشعب وهو يتألم ، ومن جهة اخرى يتأثر المتفرجون بالمشاهد الاصلية للعنف والقسوة من جانب لابسي القمصان السوداء من المتواطئين مع المحتل الايطالي .

ويعتقد المخرج لوردان زافرانوفيتش ان موضوعات افلامه هي التي تثير له المشاكل . خاصة وانه يتعرض لمعالجة موضوع حرب التحرير القومية اليوغسلافية . ويرى المخرج انه عند المشروع في مثل هذا العمل فلا بد ان يتخلى المرء عن الدفاع وعن الاستعراض وعن الاثارة . ولا بد ان يعرف ويدرك مقدما انه سيكون بانتظاره الكثير من المحن والمشاكل الآتية من اليمين ومن اليسار . ويتحدث المخرج زافرانوفيتش عن فيلمه فيقول « انه محاولة للتحدث عن الثورة اليوغسلافية بأسلوب متعدد التراكيات . وأنا لست من ذلك النوع من المبدعين الذي بامكانه عن طريق التحقيقات الصحفية ان يقول للمشاهدين بافضل اسلوب ما يريد ان يقوله في الفيلم . فلغتي فيلمية . ولكن ما يمكنني ان اقوله بوضوح تام ان ثورتنا (يقصد الثورة اليوغسلافية) لم تكن عظيمة للغاية وعلى قدر كبير من الاهمية لانها لم تكن بلا أخطاء . لقد كانت لثورتنا اوهام خلال بحثها عن سبيلها . ونجحت الثورة بالذات لأن رجالها كانوا رجالا عاديين ولأن الثورة خلقت في نفوسهم عددا لا يحصى من الثورات الصغيرة . وفي هذا المضمار كان من الممكن حدوث أخطاء وانحرافات ونضوج وارتجالية ثم الابتعاد عن الارتجالية . وهذا هو ما يجعل ثورتنا ثورة عظيمة ويجعل كل ما هو انساني ليس ببعيد عنها . وقد قال مؤخرا احد النقاد في المناقشة التي دارت حول المائدة المستديرة في مهرجان بولا ان جميع المشاكل المتعلقة بالافلام التي تتعرض للنضال التحريري اليوغسلافي تبدأ منذ تلك اللحظة التي يشرع فيها المؤلفون في تقديم رؤيتهم الشخصية لهذا النضال . وانني في الحقيقة لم أسمع منذ فترة طويلة بمثل هذا الكلام الفارغ . فهذا يعني انه بينما كان كتاب السيناريو يعرضون تصورات غيرهم وبينما كانوا من قبل يختلقون الاساطير والمشاهد المثيرة لم تكن هناك مشاكل فيما يتعلق بأفلام حرب التحرير . فأي تصور ينبغي ان اعرض ان لم أعرض تصوري انا الشخصي كيوغسلافي ؟ .. وانني اعتبر ان الرؤية النقدية للثورة واعادة تقييم بعض الاحداث تسهمان في تدعيم الثورة . فلماذا اذن تثار الشكوك في نواياي ؟ ! » (١)

تدخلات السياسة

هكذا طرح المخرج لوردان زافرانوفيتش تصوره بشأن موضوع فيلمه الاخير « سقوط ايطاليا » واخذ النقاد يهاجمونه من كل اتجاه لا لشيء الا لانه عرض تصورا للثورة اليوغسلافية وحربها من اجل تحرير البلاد ـ يخالف التصور المتعارف عليه الذي ألفوا ان يروه في الافلام اليوغسلافية المماثلة . ولكن صمود الفيلم رغم هذه الموجة العاتية من الهجوم عليه ثم حصوله على جائزة أحسن فيلم ثم جائزة الجماهير ، يؤكد مايقال من انه يقف وراء الفيلم ومخرجه بعض الساسة الذين أدركوا ان اثارة مثل هذه الموضوعات « المقدسة » عن حرب التحرير اليوغسلافية يمثل جزءا من الانفتاح العام ليوغسلافيا واضفاء الطابع الديمقراطي عليها .

وفي عالمنا المعاصر نجد ظاهرة تستحق التوقف والتأمل فبمجرد ان يقدم الفنان او المبدع عمله الى الجماهير تختطفه وسائل الاعلام والنقد باحثة عن اغواره واعماقه باذلة كل ما في وسعها لكي تقوم بتشريحه وتفسيره علها تعثر على اجابة للسؤال الكبير وهو : ماذا اراد الفنان ان يقول بعمله الفني هذا . ومن اجل هذا يتم وضع الفنان وكذلك عمله الفني على سرير الطبيب والمحلل النفسي والمفسر السياسي ويتم عصرهما وتمزيقهما الى قطع وتشريحها ثم وصلها ثانية .

وهذا هو ما حدث بالنسبة لمخرج فيلم « سقوط ايطاليا » الذي اطلقوا عليه الكثير من الاوصاف والالقاب ، وكل هذا لأن فيلمه متميز وأثار ـ ومن المؤكد انه سيثير في المستقبل ـ الكثير من الجدال والمناقشات رغم ان الجميع يعترفون له بجودة الاخراج . والاساس في هذه الموجة العاتية من النقد ان المخرج تجرأ وتعرض للحقائق التاريخية الخاصة بحرب التحرير اليوغسلافية بشكل مغاير للمألوف او المتعارف عليه ، وبعبارة ادق لأنه أوحى في فيلمه بفكرة التشابه والتماثل بين الحروب وشرورها بغض النظر عن دوافعها وعن المشتركين فيها .

ختاما ، لقد قدم زافرانوفيتش فيلما جديدا للجماهير اليوغسلافية وحصل به في مهرجان بولا لعام ١٩٨١ على أرفع جائزتين ، بيد انه بعد حصول الفيلم على هاتين الجائزتين باسبوعين فحسب سقط الفيلم جماهيريا عند عرضه في العاصمة اليوغسلافية . فهل سيسقط المخرج زافرانوفيتش بفيلمه كما سقطت ايطاليا في حربها ؟ .. سؤال ستجيب عليه الايام القادمة التي تشهد تغيرات كثيرة حتى في ساحة السينما اليوغسلافية . ■■

د . جمال الدين سيد محمد

(١) مجلة نين اليوغسلافية ١٩٨١/٨/٩ ص : ٣١ ـ ٣٣

قصة من الجزائر

الوصية

بقلم : عبد الحميد بن هدوقة

زجاجة « السيروم » تقطر برتابة وانتظام قطرة قطرة . قلب المريض ينبض نبضا متثاقلا . أحد الأبناء الجالسين هناك راح يعد قطرات المصل النازل من الزجاجة الى الانبوب البلاستيكي المثبت بذراع المريض . أحد الاختصاصيين يراقب خريطة النبض على جهاز بالغرفة . أجهزة الانعاش على أهبة لتقدم للمريض في أي لحظة ما يحتاجه من عون .

المريض ينظر الى الزجاجة نظر الميت ، لا خفقة ، لا رعشة . على شفتيه ابتسامة حولتها رغوة السيروم الى اصفرار ساخر .

انه حي بكل ذرات عقله . لكنه لا يستطيع الكلام . لا يستطيع الحركة .

الابن الاول في عينيه دمعتان تترقرقان وهو يقول في نفسه : « لو انقطع السيروم عن تغذية هذا الجسم الهزيل لانتهى الأمر ! »

الابن الآخر يفكر : « انه حي ، حتى لو بقي بلاسيروم لما مات ! لأنه هكذا هو ، يتحدى الموت دائما . لا يموت ! »

الابن الثالث تنغصه قضية الوصية . تشغل كل خواطره : « المأساة أنه لو لم ينطق ، يموت قبل كتابة الوصية ! »

الابن الرابع في المرحاض . . .

الابن الخامس بالمطبخ يطارد احدى العاملات !

الابن السادس يغط في نومه . رأى في المنام أن عزرائيل ملك الموت ، جاء ليقبض روح الأب لكن بدلها قبض روحه هو ! انه في حلمه المزعج يحاول تخليصها منه !

الابن السابع يسبح بسبحة من ذهب ، على الطريقة العربية . . .

الابن الثامن . . .

الابن . . .

المريض ينظر الى الزجاجة . الزجاجة تتحول الى ثريا منيرة بجامع الأزهر على ضوئها تشكلت حلقة من الطلاب المسلمين ، يتوسطها أستاذ أزهري ، ملامحه تشع ذكاء وحيوية . أخذ يقرأ قصيدة قدمها له الطالب (المريض) . . .

الشيخ الأستاذ الأزهري يقرأ القصيدة على الطلبة ، بعدما قرأها لنفسه :

« أقسو على نفسي ،
« أهجر أولادي وبيتي ،
« أهجر زوجتي .
« أنسى حبي الكبير وأنا صغير !
« أهجر خمري وملذاتي ،
« أحيى ليالي في خلوتي .
« أحادث نفسي ،
« بالأغنية الجديدة ،
« بالحياة الجديدة ،
« حيث الأفق والشاطىء يتعانقان ،
« بأذرع وردية - لا زوردية !
« حيث الخبز والحرية يتضاحكان ،



« على شفتي فتاة عربية ،
« هي الحب صار أغنية !
« أقسو على نفسي ،
« أفتش في متاهات ضميري ،
« في أقاصي وجودي ،
« في ذرات دمي ،
« عن نقاط جديدة ،
« عن حروف جديدة ،
« لأغنية جديدة ،
« حيث الأفق والشاطيء يتهامسان ،
« بالكلمة الجديدة .
« حيث الخبز والحرية يتناجيان ،
« بأسماء جديدة ،
« في أرضي الجديدة ! »

البسمة - الحلم تغمر وجه المريض . أحد الأبناء يلاحظ انبساط وجه المريض : « لا يموت . انه يسخر منا . يمكن أن يبقى هكذا قرونا ! »

الابن الأول لا ينظر الى الوجه ، ينظر الى الزجاجة ، تطلق قطراتها في مهل . يتساءل : « ما قيمة الحياة اذا تحولت الى أجهزة خارجية ، ليست هي أجهزة الجسم ؟ »

المريض يستمع الى الصوت العذب (بحيرا - الأزهري) يقول له :
« أنت يا بني لن تكون كشمعة الشمع ، تضيء على الناس باحتراقها ... أنت شمعة من كهرباء ! . هاهاها ! ... »

يضحك الشيخ الأزهري . وجد الكلمة ... « شمعة من كهرباء » ! في الأزهر البحث كله عن الكلمة ! الكون كله كلمة ! رسالات الأنبياء كلمة ! أحكام الجلادين كلمة ! الحب كلمة ! ...

وجد الكلمة : « أنت شمعة من كهرباء تضيء ولا تذوب ! هاهاها ! ... »

الطلبة يضحكون . الضحك على كل حال أحسن من الدرس ... الطالب - الشاعر لا يضحك . يستمع ، يفكر في الاضاءة بلا احتراق ! « بحيرا - الأزهري » مصيب ... « أقسو على نفسي ، لا أحترق . لا أحترق ! »

الشيخ الأزهري فتحت نفسه القصيدة للحديث :

« كنت أرغب كثيرا في الالتحاق بالجندية . تعتريني في بعض المرات حالات لا أستطيع تصويرها لكم . أتمثل نفسي ضابطا ! أرى الناس أمامي صغارا ، صغارا أمام فوهة بندقيتي . صغارا بشكل غريب ! وأروح أحلم . ملتذا بالقوة التي أعطتني اياها البندقية والبذلة العسكرية ! وعندما يعود أبي في المساء من عمله بمزرعة الباشا - كانت مصر كلها مزارع باشوات ، حتى خان الخليلي - عندما يعود ، أعرض عليه رغبتي فيرفض ، وأروح أحاول تحسين حياة الجندية في نظره . أصور له جوانبها المضيئة . أزوقها بكل الألوان التي يسعفني بها خيالي ، لتبدو له مضيئة جميلة . لكنه لا ينثني . خلق لبناء الأهرام ، كأجداده ! يقول : « كل شيء ولا الجندية ! » ، عاطفته « البوصيرية » طاغية على مشاعره وأفكاره . حاولت اقناعه عن طريق الدين . قلت له : « ان الجندية هي الطريق الى الجنة ! » كل الفاتحين هم الآن في الجنة ! لكنه

كان دائما يجيب : «هل الباشا كان جنديا ؟ هل جده كان جنديا ؟ رأيته في المنام في الجنة ! ناولني لبنا أشربه من واد بالجنة !» أحاول افهامه أن وادي اللبن رمز . أقول له : «ان حرمانك وعملك ببستان الباشا هو الذي أراك جنته في المنام . علينا نحن أن نبني جنتنا . الجندية هي الطريق ...» لكنه كما قلت لكم : من بناة الأهرام ! يبنيها للباشوات .

أما خالي فذلك شيء آخر . كان دائما يقول : «الذي يريد صنع مستقبله في بلدنا عليه أن يلتحق بالشكنة ، لا بالمدرسة !»

الطالب - الشاعر يعي كل ذلك . يبتسم : «الجنة تحت ظلال السيوف ، لا في أروقة الأزهر ! الحلم ليس دخانا يعرج الى السماء ، هو سيف مضيء !»

الجانب الفارغ من الزجاجة أشد ضوءا من الجانب الممتلىء . ومع ذلك فالجنة تحت ظل السيف !

المصل يقطر في مهل . في استطاعة الموت ان ينتظر . في استطاعة الحياة أن تتمدد . الحلم يختلط بالشعر وبالموت : «أقسو على نفسي ... أفتش في متاهات ضميري ... في ذرات دمي ، عن نقاط جديدة ، عن حروف جديدة ، عن أغنية جديدة ...»

يختلط كل ذلك في ذهنه . الحالة المرضية التي هو فيها صيرت الذكريات بلا زمن . بلا فضاء . المسكنات أزالت جوانب العنف والمرارة من حياته الماضية . كل الاشياء التي عاشها من قبل ، هاهي ذي تتحرك في خياله بلا أصوات !

انسحب الأبناء من الغرفة ما عدا الابن الاول . الزجاجة توشك ان تلفظ من فمها آخر قطرة . ينظر الى وجه المريض . تستولي عليه الحيرة والذعر ! يتأهب ليصرخ ، لكن الكلمات كانت أثقل من حركات الممرضة التي غرزت الابرة في الزجاجة الجديدة بمجرد أن لاحظت انتهاء السابقة . تساءل وهو يشاهد المريض أغمض عينيه ؟ طمأنته الممرضة : «اغفاءة عادية تشبه النوم وليست نوما .»

فكر الابن أن الوصية التي هي مثار جدل بين الاخوة ، منذ ان تدهورت حالة المريض لا معنى لها . الحياة التي ترتبط نهايتها ، في أحسن الأحوال ، بزجاجة مثل هاته التي أمامه ، حياة لا تستحق وصية . ثم ان القانون واضح : يأخذ كل ذي حق حقه . فلم الوصية ؟

المريض يفتح عينيه . ينظر الى الابن الباقي بالقرب منه . ينظر الى الزجاجة . يحس بنشاط ذهني . تبرز في نفسه قصيدته القديمة ، يوم ان كانت أحلامه أكبر من رأسه ... الشيخ الأزهري يثني عليه : «أنت شمعة من كهرباء !» مسكين ذلك الشيخ ! شمعة الكهرباء عندما تحترق ترمى ، لا تضيء على أحد . الباشوات يخرجون في الظلام ، عندما تحترق الشموع ! خان الخليلي ملك للصاغة . مسجد الحسين يصلي فيه الصاغة والباشوات . أما الفقراء فينامون حواليه بالعراء ! لن أكتب وصية ... كلهم ... لا ، أنا الذي عبدت لهم الطريق ، طريق القساوة ! أقسو على نفسي . أهجر بيتي وأولادي . أهجر زوجتي ...»

تبرز في ذهنه صورة الزوجة الجميلة : «كم هي جميلة ! نور برز فجأة في حياتي المظلمة . عطر ملأ كوني شذا . حقيقة جعلت لحقيقتي غاية ! بالجمالها ! أحببتها ... كم أحبها ! هأنذا أتركها لأزواج آخرين !»

الغربة سيذوقها كل انسان ، غربة الموت !

الزجاجة لابد أن تفرغ !

«هل أحبتني ؟ أوصي بمن تتزوج من بعدي ... لا ، لن يكون . لا أوصي لزوجتي بأحد . لتتزوج حرة كما تريد . أنا أرغمتها على الزواج بي ، لكنها في النهاية أحبتني ! قالت : «أحببتك لأنك صامت مثلي !» هل أحبتني حقا ؟ أنا شمعة من كهرباء ، اذا احترقت احترقت ...»
أقسو على نفسي ،
أهجر اولادي وبيتي ،
أهجر زوجتي ...

«وراعي قريتنا الصغيرة لم يكن متزوجا . بل كان متزوجا ... أغنامنا !» الخوجة «هو الوحيد الذي كان يملك أغناما . ضرب أحد القرويين بسوطه . قال له القروي : «لا تضربني أنا ابن عمك .» انهال عليه بقساوة وهو يضحك : «خذ يا بن عمي !» أيام اللعنة ...»

ود أن يقوم على رجوع هذه الذكرى المؤلمة لنفسه ، لكنه وجد نفسه قد فقد التصرف في أعضائه امتلكه الغضب . أحس بسحابة كثيفة تغطي الجوانب المضيئة في

ذكرياته : « لو يتزوجها من بعدي خوجة ؟ « خذ يا بن عمي ! . . . »

تزداد السحابة تكثفا . تصير ظلاما صلبا !

تقوم في نفسه خاطرة مضيئة . ترتفع الى حيز العقل : أبناؤها لا يقبلون . يمنعونها من كل خوجة « وخواجة ! » أبناؤها . . .

الابن السابع يسبح بمسبحة من ذهب !

الابن السادس خائف من عزرائيل . . .

الابن الثامن مغرم بالاستماع الى اذاعات الخارج لمعرفة ما يجري بالداخل !

الابن التاسع يشرب « جوني » . . . .

الابن العاشر يدخن « غولواز » . . . .

الابن . . .

لا أوصي . . .

الابن الخامس بالمطبخ مغضبا : « لا شك أنها لمن هو أقوى مني ! »

أغضبته العاملة المنزلية العروب . حاصرها في احدى زوايا المطبخ . التصق بها . وقبل أن يقبلها فاضت المقلاة على الموقد . تخلصت منه !

: « اللعينة ! لها عشيق ! أطردها لأعرف من هو : اخرجي أيتها اللعينة ! اخرجي من هنا اللحظة ! اخرجي كلك . . . بنهديك ، بخصرك ، بعجزك ، بعينيك ، بشفتيك ، بسنواتك الست عشرة . اللحظة ! »

الممرضة تخرز الابرة . المريض يقول في نفسه : « خذ يابن عمي ! »

الأبناء يدخلون الغرفة . يسألونه عن حالته . لا يجيب ، لا يستطيع الاجابة . ينظر اليهم واحدا واحدا . يبتسمون له . يلتفت أحدهم الى رئيس المشرفين على العلاج . . . الجواب هو هو : « الحالة مستقرة .

- « هل يمكن الحديث معه » - « لا يستطيع الاجابة » . - « أليست هناك وسيلة لانطاقه ؟ » .

- « ليست هناك وسيلة . » - « لو كتبنا أسئلة وطلبنا اليه أن يجيب بنعم أو بلا ؟ » - « لا يستطيع » .

- « لو طلبنا اليه أن يجيب اشارة : « نعم » ، يخفض بصره ، « لا » يرفعه ؟ » - « ذلك ممكن . » .

يتقدم صاحب المسبحة الذهبية ووراءه الآخرون : « نرجو لك طول العمر . نرجو لك استعادة صحتك ونشاطك . بدونك لسنا شيئا . أنت أبونا . أنت الذي جعلت منا العظيم عظيما والوجيه وجيها . يدك علينا . نريد أن نلقي عليك أسئلة . تجيبنا عليها اشارة « نعم » ، تخفض بصرك ، « لا » . ترفعه . الأعمال واقفة . الناس ينتظرون منا الرد على مسائل كثيرة . نحن لم نصل فيما بيننا - لحد الآن - الى حل . نرجو لك طول العمر . جاوبنا اشارة :

« من يأخذ البرنس ؟ »

المريض لا يخفض بصره ولا يرفعه .

« من يأخذ البندقية ؟ »

المريض لا يجيب .

« من يسير معامل المياه الغازية ؟ »

المريض لا يجيب .

« من يتولى المزرعة والبقر والديون ؟ »

المريض يواصل صمته .

« من . . . »

يتدخل رئيس المشرفين على العلاج . يلاحظ لهم أن الجواب عن كل تلك الأسئلة يتعب المريض . الأسئلة وحدها تتعبه .

يتساءلون ماذا يفعلون ؟ المريض ينظر اليهم . لا يخفض بصره ولا يرفعه . على شفتيه يشع باستمرار ذلك اللمعان الذي يشبه البسمة والسخرية والوعيد !

لاحظ أحد الأبناء أن صياغة الأسئلة لم تكن صالحة . لا يمكن الجواب عليها بنعم أو بلا . وأن الأفضل أن يكون السؤال هكذا : يتقدم أحدهم ، يسأل المريض : هل يأخذ البرنس الذهبي مثلا . . . وهكذا ، الى آخر الأسئلة . . .

تدخل الابن السابع ليلاحظ للآخرين أن السؤال الحقيقي ينبغي أن يكون على ممتلكات الأم . أجاب الابن الثامن ، بأن القضية تحتاج الى ترو ، والى مرونة . ينبغي أولا ان يحسم أمر البرنس والبندقية . على الأقل ليطمئن الفلاحون وعمال معامل المياه الغازية . ثم ينظر من بعد في ممتلكات الأم : « لسنا ندري هل مازال حية ؟ وهل لها أبناء آخرون ؟ » - « يقينا أن لها أبناء غيرنا ! » - « من قال لك ؟ . . . » .

تدخل الابن السابع حينما كثر الأخذ والرد حول احتمال وجود أبناء آخرين فاقترح : « نسأله سؤالين فقط ، عن البرنس الذهبي وعن البندقية . نقف أمامه ويضع كل واحد منا يده على صدره عند ذكر السؤال . فان خفض بصره عند وضع أحد منا يده على صدره . فمعنى ذلك أنه وافق . وان رفعه فهو غير موافق . - « وان استمر على حاله . لم يرفع بصره ولم يخفضه ؟ - « سوف نرى » .

تقدموا من جديد الى المريض . ألهمه الابن السابع في الطريقة التي اتفقوا عليها وقال له : « ياطويل العمر . لا ترهق نفسك . نحبك أن تحيا أبدا . أن تبقى لنا سيدا وسندا . أجبنا - شفاك الله - يحصرك : من يأخذ البندقية ؟ »

يضع الأبناء أيديهم على صدورهم ويمرون أمامه واحدا بعد الآخر . . . لكن المريض لا يجيب . لا يرفع بصره ولا يخفضه .

يتقدم الابن السابع من جديد : « ياسيدنا ، يامن أحبنا وأعزنا وصمد للزوابع من أجلنا ، يارقيق القلب : من يأخذ البرنس ؟ »

يصطف الأبناء من جديد . يضعون أيديهم على صدورهم ، ويمرون أمامه واحدا بعد الآخر . . . لا جواب ! المريض لا يرفع بصره ولا يخفضه . نظراته يشع منها الزجاج لا العاطفة .

يحتار الأبناء : « ما العمل ؟ »
يتكلم الابن الأول : « لو أجلنا هذا الأمر الى ما بعد الممات . أتحبون . . . »
يقاطعه الابن السابع : « لو أوصى الرسول (ص) لما ذبح الحسين ! »

المريض سمع الحديث . عيناه الجهتا الى زجاجة السيروم . رئيس المشرفين يرجوهم أن يخرجوا الى الغرفة المجاورة ويتحاوروا هناك .

خرجوا الى الغرفة المجاورة : - « انه يعاني من آلامه ، ألم تبق في قلوبنا ذرة من رحمة ؟ »
- « لو عملتم برأيي لما وصلنا الى هنا . . . » - « لماذا لا نذهب الى ضريح سيدي عبد القادر ، نذبح عنده ثورا ، ونقيم زردة كبرى . نتوسل اليه بها أن يأخذ الى جواره أبانا ، ويريحه من عذابه . بعد ذلك يسهل الأمر ؟ » - « سيدك عبد القادر لا يستطيع شيئا . نحن الآن في حاجة الى وصية . فاذا مات قبل كتابتها فسوف تكون الفادحة بالنسبة الينا ! » - « أخشى أن لا يموت وينتقم منا ! » - « لابد أن يموت . لابد ! » - « لماذا لابد ؟ » - « لأنه اذا لم يمت لا يبقى خلافنا معي . » - « هل من الضروري أن نختلف ؟ » - « أخشى أن نموت واحدا بعد آخر ، ويبقى هو ، يبقى الى ما لا نهاية ! » - « أنت ابنه الأول لماذا لا تتكلم ؟ » - « رحمة بكم ! » - « ما معنى هذا الكلام ؟ » - « قلت لكم ان له أبناء آخرين . . . » - « أبناء آخرين ، أين هم . . . ؟ » - « يظهرون بعد موته ! » - « هل له حياة سابقة لا نعرفها ؟ » - « بالطبع ، مادام هو أبونا . . . نحن نعرف حياته بعد ميلادنا لا قبله . » - « حديثك ينقص . لذلك لم أتكلم ! »

المريض ينظر الى الزجاجة . الزجاجة تقطر قطراتها المتوالية . لا تعرف لماذا تقطر ، ولمن تقطر . لا تسأل ان كان ما يخرج منها حياة تسر ، أو موتا يحزن . قد يكون كل ما في الكون يتصرف بنفس الأسلوب !

الزجاجة لا تعرف المريض . لا تعرف أن حياته مهمة جدا . هو يعرف ذلك . يعرف ذلك منذ اللحظة التي رمى فيها العمامة الأزهرية ، ليمسك البندقية ! الفلاح الجزائري في اللحظة الحاسمة رمى العمامة ، عرى رأسه ! عندما تصير البنادق هي الألسنة ينبغي للعمامة أن تستريح . في القديم ، كانت العمامة رمزا للرجولة . . . لكن الدنيا تغيرت . العمامة لم تعد رمزا ترتاح اليه النفس . الرؤوس كبرت مطامحها ! .

حذره بعض زملائه من خطورة المغامرة . لكن حكاية الشيخ الأزهري حسمت في نفسه كل تردد : « الذي يريد صنع مستقبله . . . عليه ان يلتحق بالثكنة لا بالمدرسة ! » حقا ، أمام البندقية يصغر رجال ويعظم آخرون ، في كل زمان ومكان . الخيزران البربرية أنجبت هارون الرشيد ، والبربرية الأخرى أنجبت عبد الرحمن الداخل ، ولكن التاريخ لم يحفل بها احتفاله بذبحها البربرية ، بالرغم من كل الملابسات . . . البندقية كتبت أسماء بنور أزلي في مسيرة التاريخ ، لينير الطريق الى عشاق البنادق في كل زمان ومكان . تاريخ الملوكية الطويل أو قفته في لحظة بندقية ، هنا أو هناك ! قرون الاستعمار البغيض والغطرسة والأحذية الثقيلة التي داست كرامات الشعوب ، أوقفتها عصي الرعاة وفؤوس الفلاحين في لحظة مضيئة ! الطريق واضح أمام الطالب الأزهري . . .

ثم تصعب الحياة وتصلب . تتعقد وتسترسل . ثم تغيب الشمس حتى لا تكاد تطلع . ويطول الشتاء والليل . ويتعانق الأمل والألم تعانقا مقدسا . تهون الغوالي . تصغر أشياء الحياة ، ويصغر معها الرجال . وتبقى البندقية وحدها القيمة . ووحدها الشرف . ووحدها الأمل !

وتلك المرأة الجميلة ، فاتنة الرجال وقاتلة الرجال ! تحنو على الطالب الأزهري فتنيله منها ما أنالته غيره من عشاق الذرى . لكن تنيله هو في لحظة ما أنالته غيره في

ستين ! ثم تحتف به . ثم تلين له . تدفعه الى حبها في يأس ، وعن حبها في أمل . تتكشف له شيئا فشيئا أحابيلها ومحاسنها معا . تعطيه من ثغر واحد الحب والمرارة . لكنه في كل ذلك لا يشكو ولا يئن . تغض الطرف عن عيوبه الريفية والأزهرية معا . تحدثه عن ماضيها المثقل باللعنات والأمجاد ! تحدثه عن المستقبل الذي تعود لها فيه عذاريها وطهارتها . تعده . تمنيه . ثم تعده ، حتى ليرى المستقبل البعيد أمامه ، ويراها فيه عذراء . . . « آه ، من جفائها وشقائها ، آه ، من وعيدها ووعيدها » لكن حبها يملأ عينيه فلا يرى سوى حبها . فتقول له : « حذار ، ان الحب لا يلد أكثر من الشعر ! البنادق هي التي تلد القادة ! » .

يحدثها في ملوغ شفاف ملتهب : « من جداول أحلامي أروي ظمأك . من ألحان راعي قريتنا الصغيرة أؤلف لك أغنية . أغسل وجهك بحفنة من أشعة الفجر ، كل فجر ! أكسو روحك بالشفق تنسجه بتدقيق . أكتب لك شعرا كضحك الاطفال براءة . كثغاء الخراف وداعة . كعطر الزهور شذا . أصعد كل صباح الى أعلى سماء وأنادي في الكون باسمك ، حتى تصبحي أنت الكون . كم أحبك وأنا أتألم ! كم أحبك وأنا أحلم ! اني لأري ذلك المستقبل الذي حدثتني عنه ذا سحر . . . وأراك فيه تخطرين في ثوب من أشعة الفجر ! » .

تحتضنه . تقبله . تذوب عطفا على جسمه النحيف الهزيل . تود لو تجمع له كل جداول حبها السائلة في الماضي البعيد ، ليزداد عزما ومضاء .

يسير الى مستقبله بخطا ثابتة ، ليصطاد النجوم والأشعة ! تصطف الدبابات في صفوف طويلة لتحجب النهار .

تطير الطائرات في غطاء كثيف لتمنع الضوء من الوصول الى الأرض .

تضيء الأرض بنورها هي . . .

والمرأة الجميلة واقفة تتفرج !

انها لا تخاف الليل وقد غازلت القمر !

ويتقلص المكان فيصير غرفة . ويتقلص الحلم فيصير زجاجة !

وتشتد رغبة الأبناء لمعرفة الوصية : « ترى ماذا سيقول في الوصية ؟ » - « ترى ماذا سيترك لنا في نهاية الأمر ؟ . . . »

يدخلون الغرفة من جديد . ينظرون اليه . ينظر اليهم . يتقدم الابن السابع :

« أيها العزيز الذي احترمناه وأحببناه . . . »

الابن الرابع : « ايها العزيز الذي نحترمه ونحبه »

الابن السابع : « كن كأبي بكر ! »

الابن الرابع : « كن كعمر ! »

الابن الاول : « كن رسولا ! »

يتدخل المشرف على العلاج : « من فضلكم ، انه في حالة ارهاق ! »

يخرجون الى الغرفة المجاورة ينتظرون . . .

تبقى كلمات ضائعة في فضاء الغرفة . لم تصل مباشرة الى وعي المريض ، الا الكلمة الأخيرة : « كن رسولا » . يتحدث المريض الى نفسه باجهاد : « أكون رسولا ؟ رسول من ؟ أنا عاشق ! »

تتخذ ملامح الزوجة الحبيبة في خياله وجودا قويا . يسمع صوتها يحدثه ، يحذره ، ينبهه : « لا تكن غبيا . أنا لم أخلق لواحد ! لست كسائر النساء . أحب من أحبني ، لكن لا يمحو في نفسي حب اللاحق حب السابق ! لست ملكا لأحد . أنا من نمط آخر . . . حبي أوسع من ان ينحصر في واحد ! خذ مني ما أمنحك . أرو شبابك وهمك . كن كعابر سبيل أصابه ظمأ فوجد عينا ماؤها ثجاج . . . لا تسأل من شرب قبلك ، ولا من سيشرب من بعدك ! »

المريض يتذكر كل ذلك . يروعه ذلك المنطق الصارم ! يا إلهي ! ما أصغر حبي ، وما أقصر أحلامي ! »

« لا تسأل ، من شرب قبلك ، ولا من سيشرب من بعدك ! »

ثم تتلاشى الكلمات في وعيه . وترتسم زجاجة المصل أمامه ، وفي ذرات شعوره : « أنا شمعة من كهرباء ، تنكسر ، تتحطم . . . لكن النور يبقى . النور لا يتحطم ولا يحترق . شمعة أخرى ويعود . لست مصدرا للنور . لم أكن سوى شمعة بعض الوقت ، لابراز القليل القليل من النور ، لم تكن الخيوط دائما صالحة . . . العواصف تأتي على أصلب الأعمدة . ينبغي لاستمرار التيار أعمدة كثيرة ! »

يدخل الابن الأول . يحدث أباه بهدوء : « أيها المسافر ، قل لأبنائك ان سألوك : « لم أترك لكم سوى أم . فهل تقسم الأمهات ؟ »

ينظر المريض اليه مليا . يبتسم له . يقبله بنظراته . يغمض عينيه !

الجزائر- عبد الحميد بن هدوقة

حوار القراء

اصل تسمية عمان

● جاء في استطلاع عمان العدد ٢٧٥ شهر تشرين اول سنة ١٩٨١ وفي الصفحة ٨٢ ما يلي : بان مصادر عربية تنسب اسم مدينة عمان الى عمان بن لوط ، وتستتم ذلك بان ياقوت الحموي يفسر الاسم بقصة طريفة يقول فيها . ان لوطا خرج من سدوم لم ينج غيره وأخوه وبنتاه ، وقد خافت البنتان ان ينقطع نسلهما . فقررتا ان تقيا نسلا من الاب والعم واسقتهما نبيذا ثم ضاجعت كل واحدة منهما ، واحدا في غير وعي منهما وكانت النتيجة ان ولدت واحدة ابنا أسمته عمان تنسب الى العم ، وولدت الثانية ولدا اسمته قاب (الكرك حاليا) من الأب ولما كبرا وصارا رجلين بنى كل واحد منهما مدينة بالشام وسماها باسمه ...الخ

- تعلمون بان لوطا من الانبياءالذين ذكرهم الله في كتابه (القرآن الكريم) وقد نجاه الله من قوم فاسقين حيث جعل الله بلادهم عاليها سافلها . ثم اذا راجعنا سورة يوسف في القرآن الكريم يقول عن يوسف . « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » وقد جاء في السورة ايضا « ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين الاية ٢٣و٢٤ وقد عصمه الله عن اعمال الفحش لانه من الانبياء . والانبياء معصومون عن الاعمال السيئة وخاصة الاعمال التي ذكرت عن النبي لوط والتي تخل بالشرف . ولا يجوز ان ينسب الى نبي اعمال تغضب الرب سبحانه وتعالى ، وان كثيرا من هذه الاقوال هي (اسرائيليات) لتشويه سمعة الانبياء فأرجو بيان ذلك في مجلتكم والسلام عليكم .

عبدالسلام مأمون

صحفي متقاعد - سوريا

***

من شعر القراء

« هل عدل ملامة من يود ؟ »

يلوم أخا الهوى والشيب قوم
وهل عدل ملامة من يود ؟
ألم بي المشيب وليس عارا
ولا عار اذا ابيض القرند
وحل الحب من صغري بقلبي
وكان لجمره اللفاح وقْدُ
واشقاني غرامي في حياتي
وكان لشقوتي جزر ومد
يتوق القلب تحنانا لعهد
سعيد ، ما كذاك العهد عهد
سيبقى حبنا ذكرى ونجوى
ولسي مثلما كنا ، ونغدو

محمد زينه - سوريا

جوائز « العربي »

● أستغرب أن تظل قيمة جوائز العربي على حالها طيلة هذه السنوات .. والمعروف ان المجلة خصصت مائة دينار كويتي كل شهر للفائزين في مسابقتها الشهرية وذلك منذ صدور المجلة .. ولا يخفى عليكم ان مائة الدينار سنة ١٩٥٩ غير المائة سنة ١٩٨١ ، لذا ارجو ان تعيدوا النظر في هذا المبلغ لتشجيع القراء على الاشتراك في هذه المسابقة .

عمر سعيد جندوح

المكلا - اليمن الديمقراطي

قارىء عربي في نيويورك

● العربي ، ليست ككل مجلة ، فهي مجلة خرّجت أجيالا من الشبان الذين تثقفوا بروح الوطنية اذ نقلت اليهم الثقافة العربية والعالمية بمختلف أشكالها . والعربي تسجل المزيد من الانجازات والعلامات المضيئة وسط هذا الضباب المحيط بالامة العربية ..

إنني ألمس الاحترام الذي تكنه جماهيرنا لهذه المجلة التي حاولت عدة مجلات ان تنافسها لكنها لم تصمد وبقيت العربي .

أتوجه لكل مثقفينا لأن يواصلوا اكتساب ثقافتهم من العربي ، وليثقفوا بواسطتها أجيالنا الصاعدة ، لانها فعلا مرجع لكل من يهتم بالادب والثقافة العربية .

طارق حبيب
جامعة نيويورك

خشنوا ورقوا

● جاء في باب حوار القراء ، في العدد ٢٧٦ صفحة ١٣٩ الدروز وأمير الشعراء في البيت الرابع - كما يلي :

ولكن ذادة وقراة ضيف
كينبوع الصفا خشن ورق

وصحتها :

ولكن ذادة وقراة ضيف
كينبوع الصفا خشنوا ورقوا

ويمكن الرجوع الى « الحديقة لمحب الدين الخطيب » طيب الله ثراه .

فؤاد سليمان زين الدين - الكويت

دعوة الى كتاب مجلة العربي

● تدعو السادة كتاب مجلة العربي بارسال عناوينهم وأسمائهم الثلاثية عند ارسال مقالاتهم الى المجلة حتى يسهل علينا تحويل مكافأة ما ينشر لهم من هذه المقالات .

كما أننا تدعو الاساتذة المذكورة أسماؤهم ادناه موافاتنا بعناوينهم واسمائهم الثلاثية كي نتمكن من ارسال مكافأة مقالاتهم التي نشرها العربي في عددي اكتوبر ونوفمبر / ٨١ وهم :

١ - الاستاذ علي شلش

٢ - الاستاذ محمد مصطفى

٣ - الاستاذ جورج حليم

٤ - الاستاذ احمد عساف

٥ - الاستاذة سلمى شلاش

ادارة المجلة

تشاد واللغة العربية

● ذهبت في سبتمبر الماضي في مهمة الى تشاد ففوجئت هناك بأن أكثرية السكان تتكلم اللغة العربية (٧٠٪ تقريبا) وان دين الأكثرية هو الاسلام .. وقد رأيت من المفيد ان توفد مجلة العربي بعثتها لعمل استطلاع عن هذه الدولة الافريقية .

وتشاد تقع في قلب افريقيا وليس لها منافذ بحرية ويبلغ عدد سكانها حوالي خمسة ملايين نسمة ينحدر قسم كبير منهم من قبائل عربية تقطن القسم الشمالي من البلاد الذي يطلق عليه اسم منطقة السهل .

واهم القبائل التشادية العربية هي : سلامات نسبة الى بني سليم وهم اكثر عددا من غيرهم ، ثم الراشد والهوازم .. ثم الحزام اي بني مخزوم وبني وائل والزيدة وغيرها .

وفي العاصمة نجامينا يتكلم اكثر السكان اللغة العربية بلهجة شامية او بلهجة قريبة للهجة العراقية ، ورئيس الجمهورية من اصل عربي ويتكلم العربية وكذلك جميع الوزراء فان جميع وزرائه يتكلمون العربية وديانتهم الاسلام .. وقد لاحظت ان بعضهم يجد صعوبة بالغة عندما يتكلم الفرنسية بينما اللغة العربية ينطقونها بطلاقة سواء في مكاتبهم او بيوتهم .

فكم هو مفيد ان تقوم « العربي » بعمل استطلاع عن هذا البلد الافريقي العربي .

الدكتور ع . با
دمشق / سوريا

اقتراح إصدار فهرس عام

● إن الثناء على مجلتكم ليس بالشيء الجديد او الغريب، ان مجلتكم عزيزة علينا بقدر ما هي عزيزة عليكم. ومن منطلق الحرص على رفع مستوى المجلة فاني أقترح اصدار فهرس عام - كهدية العربي - على غرار الفهارس التي صدرت في أعداد يناير. على ان يكون حصيلة هذه الفهارس من أول عدد حتى آخر عدد.

ان اصدار مثل هذا الفهرس سيعيننا كثيرا على تنظيم قراءتنا وتحديد مسارها، اننا بدون الفهارس نتخبط في القراءة، نبحث عن كل شيء ولا نجد شيئا.

حسين عبدالله عبدالقادر بارجاء
حضرموت - اليمن الديموقراطي

الى بعض الفائزين في مسابقات العربي

تدعو إدارة مجلة العربي الاخوة التالية اسماؤهم الذين سبق ان فازوا بجوائز في مسابقات العربي السابقة لارسال عناوينهم كاملة حتى يتسنى لنا ارسال جوائزهم وهم:

١ - حسن ابراهيم عباس

٢ - محمد علي الشامي

٣ - منى جاسم النصراوي

٤ - لطفي محمد ابو بكر

إدارة العربي

المغرب العربي واللغة العربية

● أريد عبر هذه السطور الموجزة لفت انتباه مفكرينا ومثقفينا، الى حقيقة في غاية الاهمية وفي غاية الخطورة في ذات الوقت وهي اهمالهم او تجاهلهم لما يجري في المغرب العربي عامة. وفي الجزائر بالذات، من تآمر على اللغة العربية، من طرف الدول الأوروبية، خاصة فرنسا، التي كانت لها قدم راسخة في المنطقة.

أعتقد أن الكل على علم بما قاسته اللغة العربية، وما تقاسيه منذ الاستقلال «اي استقلال الجزائر». من أجل إثبات وجودها كلغة وطنية وحيدة في البلاد.

ولا يخفى على الجميع. المعارك التي خاضها المثقفون والمخلصون على مختلف الجبهات من أجل إحقاق شرعية هذا الوجود، وما قام به طلبة الجامعة الجزائرية في السنوات الاخيرة يبين عمق هذا الصراع. وكنا ننتظر من اخواننا اصحاب الفكر والقلم في مشرقنا ان يكونوا معنا في المعركة. فيقوموا باجلاء حقيقة ما يجري، ويدحضوا ما تكتبه الصحف الفرنسية خاصة من تشويه وتمييع للقضية، دون ان يتصدى لها احد.

ايها الاخوة ان لم نقم نحن العرب بالدفاع عن لغتنا ونشرها، فمن ذا الذي يقوم بذلك؟ أننتظر ان تقوم الدول الغربية بالدفاع حتى عن لغتنا وشخصيتنا؟. كان من المفروض بل من الواجب علينا، ان نعلمها لغير الناطقين بها، على غرار ما تفعله دول الغرب في بلادنا، لا أن نتركها تباد وتقتل دون رحمة في عقر دارها، على مسمع ومرأى من ابنائها دون ان نكلف انفسنا عناء الدفاع والتصدي. واخيرا وليس آخرا، أقترح على السادة محرري باب «قضايا حيوية» في مجلة «العربي» ان يولوا جزءا من تفكيرهم، واهتمامهم لهذه القضية ويتصدوا لدراستها ويعرفوا القارىء العربي في مختلف مواقعه بحقيقتها، لأنها من أهم قضايانا الحيوية ان كانت لنا قضايا حيوية فعلا

عباس عبدالحميد / الجزائر



وثيقتان ...

رحلة الحج في القرن ١٩

للفقيه الطنجي الحسن الغسال
بقلم الدكتور عبد العزيز التمسماني

واقع المغرب في القرن ١٦

للفقيه يوسف بن عابد الادريسي
بقلم الدكتور أمين الطيبي

هاتان وثيقتان ، إحداهما كتبها الفقيه الطنجي الحسن الغسال ، يروى فيها رحلته الى أداء فريضة الحج « وقد أسماها » الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية » . والثانية لفقيه مغربي آخر هو يوسف بن عابد الادريسي ، الذى هاجر الى حضرموت فى القرن السادس عشر ، وأملى سيرته ورحلته منذ بدأ الدراسة فى فاس الى أن وصل الى جنوب اليمن

فى الوثيقة الأولى صورة لرحلة الحج فى القرن التاسع عشر ، وفى الثانية صورة لواقع المغرب الأقصى فى القرن السادس عشر .

رحلة الحج فى القرن ١٩

بقلم : الدكتور عبد العزيز التمسمانى خلوق

يثير الانتباه هذا الفقيه الطنجى ، الحسن الغسال ، الذى لم يترك ميدانا لم يدل فيه بدلوه . ونحن هنا نستعرض مخطوطة هامة خلفها يحكى فيها رحلته الحجازية فى القرن الماضى والتى أطلق عليها اسم : الرحلة الطنجرية الممزوجة بالمناسك المالكية .

ينتمى الحسين بن محمد الغسال الى أسرة شغلت مناصب مخزنية[1] ولد بطنجة عام ١٢٨٣ ـ ١٨٦٦ : نشأ بها ، وبدأ دراسته على فقهائها ، فحفظ القرآن بكتاتيبها وقرأ بعض المتون ، ثم فارق مسقط رأسه ، فانتقل عام ١٨٨٥ ، الى فاس لمتابعة دراسته بجامع القرويين الذى كان له أثر بالغ فى تفتيح براعم ذهنه الناشىء وتثقيف ذوقه المشبع بالروح الاسلامية ، وتكوين ثقافته الدينية ، فلازم مجالس العلم وأقبل على الموسوعات اللغوية والفقهية قراءة ودرسا . أقام بها ثلاث سنوات ثم شخص الى طنجة فالتحق بدارالنيابة ، وعمل بها كاتبا وبعدئذ شغل منصب ناظر الاحباس ، كما عين عضوا فى لجنة التعويضات عقب حوادث الدار البيضاء عام ١٩٠٧ . كلف فى العهد الحفيظى واليوسفى بعدة مهام ادارية . كان كثير السفر ، فتعددت رحلاته السياسية وزياراته[2]، ذهب عام ١٨٩٨ ، الى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج [3] .

صحب السفارة المغربية الى لندن عام ١٩٠٢ ، وكان ضمن الوفد الذى قابل فى ابريل ١٩٠٣ ، ادوارد السابع بمناسبة زيارته جبل طارق . أدركه أجله بمراكش يوم الجمعة ١٤ اغسطس ١٩٣٩ ، ترك الحسن الغسال ، فضلا عن رحلاته الاربع ، التآليف التالية المخطوطة ، المحفوظة بمكتبة السيد محمد الغسال بطنجة ، وقد رتبتها

---

(١) كان أبوه الحاج محمد الغسال الطنجى من أمناء المراسى فى عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن ومولاى الحسن ، اذا رجعنا الى سنة ١٨٦٤ ، نجده مكلفا مع الحاج الطاهر بنانى بأمانة مرسى طنجة . وعندما قام سيدى محمد بن الرحمن بتحصين طنجة وتزويدها بوسائل الدفاع ، بعث اليهما الرسالة التالية :

« خديمنا الأرضيين الحاج الطاهر بنانى والحاج محمد الغسال وفقكما الله وسلام عليكما ورحمة الله وبركاته وبعد ، فان تفقد آلة الجهاد مطلوب وعليه فانظروا ما بثغر طنجة من اقامة المدافع والمهاريز على سبيل التفصيل بأن تذكروا ما لكل مدفع هناك من الكور وما لكل مهراز من البنب وماليس له شىء أصلا لتعرف ما يزاد لكل واحد مما له اقامة وما يوجه عليه من الاقامة للذى ليس له شىء وعينوا قرمة كل واحد بعد أخذ قياسها وتحقيقها لتوجه على الخاص من بر النصارى ان شاء الله تعالى والطبجية هم الذين يحققون ذلك ويبينونه بيانا شافيا والسلام » فى ١٨ رجب الفرد عام ١٢٨١ » (الوثيقة فى ملك الأسرة الغسالية) .

وفى ١٨٦٧ كان الحاج محمد الغسال من الأمناء المكلفين بمداخيل ديوانة مليلية ، وعين من جديد ، عام ١٨٨٧ ، أمينا بمرسى طنجة وقد كتب اليه مولاى الحسن يأمره بتغطية نفقات الوفود الطلابية :

« خديمنا الأرضى الحاج محمد الغسال وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد ، وصل كتابك بأن المتعلمين الذين

حسب تاريخ تأليفها :

- علاج الحمى - ١٣١٧ - ١٨٩٩ .

- ايضاح البرهان والحجة فى تفضيل ثغر طنجة - ١٣٢١ - ١٩٠٣ .

- اتحاف خبيث المآكل وثقيل الحركة والهيكل - ١٣٢٣ - ١٩٠٥ .

- جواز الصيد بالبارود - ١٣٢٦ - ١٩٠٩ .

- سلسلة الذهب فى الأمن من العذاب - ١٣٢٧ - ١٩١٠ .

- تقييد فى طاعة الامام والخدمة مع ذاك المقام - ١٣٢٨ - ١٩١١ .

- مفتاح التيسير فى أحكام التسعير . ١٣٢٨ - ١٩١١

- اثبات الخوارق بما ورد فى الرعد والصواعق - ١٣٣١ - ١٩١٣ .

- التحذير من أموال اليتامى - ١٣٣٤ - ١٩١٦ .

- رسالة فى وجوب الهجرة من دار الهوان والحسرة - ١٣٣٤ - ١٩١٦ .

- نبذة يسيرة مفيدة فى وصف النحلة الظريفة - ١٣٣٨ - ١٩٢٠ .

- اتحاف العصريين بكرامات الصالحين - ١٣٤٠ - ١٩٢٢ .

- الاسلوب اللطيف فى اسمه تعالى اللطيف - ١٣٤٤ - ١٩٢٦ .

- التعريف والاعلام بفضيلة الخطوط والاقلام - ١٣٤٦ - ١٩٢٨ .

- منهج الأماجد فى تنوير المساجد .

- سؤال عن لعب الكرة وجواب .

قراءة فى « الرحلة الطنجوية »

تعد هذه الرحلة[4] حلقة بارزة فى أدب الرحلات الحجازية ، فهى تعكس المتاعب التى كان يكابدها الحاج المغربى أثناء رحلته الشاقة على متن السفن الأوربية فى القرن الماضى . دوّن الفقيه الطنجى انطباعاته وملاحظاته ، مركزا فيها على انماط السلوك وأشكال الحياة التى أثارت اهتمامه ، ملما بالنظم الاقتصادية وبعادات السكان وتقاليدهم ، مهتما فيها بالحديث عن وقوفه على المآثر وزيارته المساجد ومقابر المشهورين من الصلحاء ، وعمن قابلهم من رجال العلم .

استهل رحلته بتحديد غايتها ، فبين فى المقدمة ، هدفها وهو أداء فريضة الحج وشرح السبب الباعث لها « لما دعتنى الأشواق الى حج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه الصلاة والسلام ومشاهدة الاثار العظام والتمتع بزيارة الصحابة وآل البيت الكرام المعتنى الله

كانوا ببلاد البلجك بقصد تعلم الصنائع السلاحية ووردوا لطنجة فسألتهم عن موجب القدوم فأجابوا بأنهم حصلوا ما كانوا بصدده فانزلتهم ورتبت لهم المئونة حتى تأمر بما يكون فى شأنهم وصار بالبال توجيههم لحضرتنا الشريفة والسلام فى ٥ شوال عام ١٣٠٤ » .

توفى الحاج محمد الغسال بطنجة يوم ١٥ ربيع الثانى ١٣٠٥ - ٣١ ديسمبر ١٨٨٧ .

(٢) سجل انطباعات عنها فى مجموع مخطوط اشتمل على :

أ - الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية عام ١٣١٥هـ .

ب - الرحلة لمعروسة مراكش . ١٣١٨هـ .

ج - تقييد الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الانجليزية ١٣٢٠هـ .

د - الرحلة لجبل طارق لمقابلة الانجليز . ١٣٢١هـ .

(٣) من أخطر التحديات التى واجهها مغرب القرن التاسع عشر تواجد المجلس الصحى الدولى فى قلب المملكة ، كان ينتهك الحرمات ويستفز المشاعر ويستصدر القرارات الجائرة ضد السفن العائدة بالحجاج ، وقد أثارت هذه المواقف حيرة المخزن وقلقه لعلمه بشدة وقعها على الرأى العام المحافظ . وتجدر الاشارة الى أن هذا المجلس قرر تصعيد اجراءاته

تعالى .... فبادرت اليها واستعملتها بالكيفية الواردة في الأحاديث الصحيحة النبوية فلم أر والحمد لله الا خيرا من رب البرية » . ثم ذكر الحسن الغسال محتواها ، فقسمها الى خمسة فصول : « رتبتها على مقدمة وفصول خمسة للغرض المقصود وخاتمة . فأما المقدمة ففي ذكر ما الهم العزم على الارتحال . وأما الغرض المقصود ففي ذكر ما يحدثه السفر الى الاياب وحط الرحال . وأما الخاتمة فيما نشأ عن ذلك » . وأودع نفس المقدمة مادة فقهية تناولت مناسك الحج وآدابه ، مستندا ، في عرضه الى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الأئمة وفحول الفقهاء .

عنى الحسن الغسال ، في الفصل الأول بالاشارة الى الانطلاقة فقد خرج من طنجة في سفينة انجليزية « في ابتداء الرحلة المباركة كان ابتداؤها لهذه الوجهة السعيدة من طنجة مسقط رأسي يوم الخميس الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « بارك لأمتي يوم الخميس » موافق سابع شوال الأبرك عام خمسة عشر وثلاثمائة والف وهو السادس والعشرون من ابريل العجمي . وفي الساعة العاشرة من يومنا هذا ركبنا على اليمن والبركة في بابور الانجليز المسمى مامى دينا الذي هو من جملة بابورات كمبانية بابينسى الانجليزية قاصدا ثغر الاسكندرية بعدما انعم علينا سيدنا وولي نعمتنا أعزه الله وأعلى أمره بعلة وافية .

دوّن مذكراته على شكل يوميات فيمد القارىء بمعلومات هامة تمس بعض نواحي الحياة في المراسي التي توقف بها « وفي صبيحة يوم السبت الذي هو اليوم الثالث من ركوبنا رسا البابور بمرسى الجزائر . فنزلت اليها ولما سرحت الطرف في البلد رأيتها مرتفعة في جبل ، وحول المرسى أبنية مشيدة وقرب المرسى بطحاء متسعة وهناك جامع كبير للخطبة ، وسائر المباني كلها جميلة المنظر وفيها حوانيت لبيع البضائع النفيسة والتحف الظريفة » .

ثم انتقل الركب الى مالطة فقدم العديد من البيانات ، واضعا طرقها وبعض مآثرها ، وكان اهتمامه بالنظافة كبيرا، وبعد العشاء من يوم الاثنين الذي هو اليوم الخامس من ركوبنا وصلنا لمرسى مالطة وبتنا بها بقية الليل ، وفي الغد نزلت اليها فاذا هي من أعظم مراسي الانجليز بالبحر الابيض في الحسن والتحصين ، وهذه المرسى مرتفعة في جبل حتى أن أغلب طرقهايصعد اليه بدرج وغالبها مبلط بالخشب لتقليل دوي العربات وهي أكمل ما ينبغي من التنظيف وبها أسواق عامرة ومخازن كبار واسعة لبيع البضائع على أصنافها الرفيعة وأحسن ما فيها سوق الخضر لاتقانه ونظافته وترتيبه وقد تزودت منه بقدر ما دعت الحاجة ، ومن جملة ما يرى في هذه المرسى قصر الحاكم لجميل بنايته وعجيب صنعته وتوجد فيه عدة أشياء عتيقة كالسلاح والرماح القديمة » .

من الاسكندرية الى المدينة المنورة

أعطى معلومات عن الظواهر المناخية المتعلقة بالرياح التي تهب في مثل قوله عن الساحل المصري « ولما قربنا للاسكندرية تغير الهواء واشتد الأمر علينا غاية لكثرة الرياح وهيجان البحر » . وتحدث عن كل مدينة أو قرية حل بها ، مشيرا الى تسميتها وتاريخها

الوقائية بعيد وباء الكوليرا الذي تسرب الى المغرب عن طريق الحجاج سنة ١٨٩٥ . وفي هذا الصدد ، فاه أحمد بن موسى باخبار الممثل الانجليزي نيكلسون ، خلال سفارته الى مراكش ، عام ١٨٩٦ ، بعزم المخزن على اشعار الشركات الملاحية بعدم نقل الحجاج من المغرب الى الديار الحجازية وأن القرار يدخل في اطار عزم المولى عبد العزيز على منع الحج . لم يخف نيكلسون تخوفه من عواقبه فقدم للمخزن ضمانات شافية غير أن المجلس الصحي واصل إهاناته وانتهاكاته ، مما دفع المخزن الى التفكير في منع الحج سنة ١٣١٤ / ١٨٩٧ ، كما يتجلى ذلك من رسائله الى المجلس . وبينا كانت القيادة المخزنية تنتظر جواب المجلس لتخطو على ضوئه خطوتها الحاسمة ، اذا بمذكرة ترد عليها من طرف هذا الأخير ، تخبرها بظهور وباء الطاعون في الهند وتدعوها الى منع الحج . وتفضل السيد محمد الغسال فأعارني الرسالة التي بعثها السلطان مولاي عبد العزيز الى نائبه محمد الطريس في شأن ابحار الحسن الغسال وتسريح الحج :

« خديمنا الأرضى الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد ، وصل جوابك عن الاستفهام المتقدم لك في شأن تسريح الركوب للحج هل زالت موانعه وارتفعت اسبابه أم لا ؟ بأن المنع انما كان للحادث الناشىء عن تغير

والاحداث المتصلة بها . وقد أفاض فى وصف كل المراحل التى مر بها من الاسكندرية الى المدينة المنورة فقدم تفاصيل مسهبة عن آثار القاهرة الهندسية ومتنوعاتها ومؤسساتها التعليمية . وأشار ، فى هذا الفصل الأول ، الى بعض المتاعب التى كان الحجاج يواجهونها حين وصولهم الى مرسى الينبوع « وقبل غروب شمس يوم السبت أرسينا بمرسى الينبوع وهى أقرب المراسى الى المدينة المنورة على البحر الأحمر وبتنا تلك الليلة بالمركب . وفى صبيحة الغد نزلنا اليها فاذا هى بلدة بدوية محضة ونعوذ بالله من هوائها ومائها فانه أجاج ممزوج بملوحة ، فاذا وصل الحجاج اليها انتظروا القوافل التى توصلهم الى المدينة المنورة وفى الاياب ينتظرون المراكب التى تنقلهم الى بلادهم ويطول مقامهم هناك أياما كثيرة وبسبب ذلك يكثر عناؤهم ويسوء حالهم وتفتك فيهم الامراض » .

خصص الفصل الثانى لزارات المدينة المنورة ، فأورد فى غضونه وصفا لقبابها ومقابرها ومساجدها ، وقد جعلها من أجمل المدن الحجازية بأسواقها ومناخها وسكانها « وأما هواء المدينة فهو صحى جدا ولذلك تجد أهلها فى غاية الرقة واللطافة والشفقة زيادة على ما هم عليه من الصلاح والورع والأدب وحسن المعاشرة وهم أحسن بلاد العرب على الاطلاق فى مكارم الأخلاق » . ودوّن فيه كل ما وقعت عليه عينه فيها كحديثه عن خدمة الحجرة الشريفة « أما خدمة الحجرة الشريفة وسدنتها الذين يقومون بحراستها فهم فتيان من الأحابيش على هيئات حسان وصور ظريفة ولبوس نظيفة وشيخ الحرم هو كبير العبيد الأغوات » .

وانطوى الفصل الثالث على وصف للربوع الحجازية التى مر بها وهو قاصد مكة وسجل فيه ملاحظة عن بعض الأعراب وسوء معاملتهم للحجاج . وضمن الفصل الرابع مشاهداته ومزاراته المكية فوصف الطواف والسعى بين الصفا والمروة والتوجه الى منى وعرفة ، مبينا المناسك التى قام بها وحرص فيه على تسجيل ما ارتسم فى ذهنه من أحوال الحياة الاقتصادية وعناصر نشاطها التجارى « وأما تجارة مكة فجلها بيد الهنود وغالبها من صنف العطريات والأقمشة الحريرية الهندية والشامية » . وتكلم عن العملات السائدة فى المعاملات التجارية « والنقود التى تروج فى مكة هى النقود التركية والمصرية فضية وذهبية والقروش الهندية وبوطيرة والريال أبروم الهندى والابرة الانجليزية والابرة العثمانية والكنى المصرى وليست لهذه النقود قيمة ثابتة هناك كنقود طنجة وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات » .

محنة فى محجر الطور

انكب فى الفصل الخامس على وصف المراحل التى اجتازها منذ خروجه من مكة حتى وصوله الى طنجة ، مشيرا فيه الى التجربة القاسية التى عاشها مع بعض حجاج العالم الاسلامى العائدين من الديار المقدسة فى المحجر الصحى بالطور الواقع فى الشاطىء الغربى من شبه جزيرة سيناء ، مبرزا ، بشكل صارخ ، الصعاب التى كابدوها « وفى صبيحة يوم الاربعاء وصلنا لجبل الطور ، وبنفس ما أرسينا فيه صعد الينا طبيب

الهواء ببلاد الهند وقد صلح الآن كغيره من سائر تلك الأقطار ولم يبق فيها شىء لما كان موجبا للمنع وطلبت الانعام على كاتبك الحسن الغسال بكتاب الركوب من هناك لعزمه على ذلك مع صاحبيه ، وصار بالبال أما زوال تلك الموانع وارتفاع اسبابها فقد سررنا بذلك ، فلله الحمد وله المنة أبقى الله المسلمين فى عافية وكفانا واياهم المهمات وها نحن أصدرنا أوامرنا الشريفة لعمال المدن والثغور بتسريح ذلك لمن أراده وعدم العود لمنع أحد منه ، وأما كاتبك المذكور فقد أمرنا خدامنا أمناء مرسى طنجة باركابه كأمثاله مع صاحبيه كذلك من غير كراء يلزمهم فى الجميع ، وكتابنا الشريف لهم به يصلك طيه والسلام فى ١٩ رجب عام ١٣١٥ » .

(٤) اعتمدنا على النسخة الأصلية التى كتبها المؤلف بخط يده ، وهى فى ملك أسرته

وتقع الرحلة من صفحة ٢٢ الى ١٤٩ . وقد استشهدت بفقرات منها حرصا على اتاحة الفرصة أمام القارىء ليتعرف على اسلوبه ، فنقلتها دو تغيير ، ولكنى اهتممت بوضع النقط والفواصل توخيا للوضوح .

الكرنطينة للفحص عن صحة الحجاج وأعلن بأن نزولنا لا يمكن الا بعد اقامتنا فى البابور سبعة أيام ورجع لحال سبيله ، وبقى الحجاج بعضهم فوق بعض فى حالة يرثى لها من شدة الضيق وتجيء إلينا مرة فى اليوم فلوكة حاملة مئونة رديئة بثمن غال ولا يشترى الانسان منها ما يلزمه لضروريته التى لا بد له منها الا بعد مشقة عظيمة ، من كثرة الازدحام والهرج . وبعد مضى سبعة أيام رخصوا لنا فى النزول الى المباخر وأركبوا الحجاج فى قوارب وبابور صغير يجرها . وقبل النزول أعلن بعض الملاحظين بألا تأخذ معنا عفشنا الا الفراش وبعض الملابس ليس الا وما زاد على ذلك يترك بالبابور حتى يضع على أيديهم حين ينتهى أمد الكرنطينة ، وما نزلنا البر الا بعد مشقة عظيمة ، ثم إن من دفع من الحجاج نصف ابرة مع كسر قدموه لموضع التبخيرة ، ومن عجز عن دفع القدر المذكور لفقره منع من الدخول له ، فيظل نهاره تحت الشمس المحرقة ، ومن فقراء الحجاج من بقى ثلاثة أيام على هذه الحالة السيئة حتى انتهى التبخير لسائر الحجاج الذين أدوا القدر المشار اليه . وعند الشروع فى التبخير سلبوا الحجاج من ملبوسهم وستروا عورتهم بقمصان زرقاء والقوا تلك الحوائج فى مكينة التبخير . وبعد تمام هذه المعاملة الفظيعة أشار الطبيب باصطفاف الحجاج على نحو النظام العسكرى ليختبر صحتهم واحدا بعد واحد ثم يرشه بماء كريهة الرائحة ، وعند انتهاء التبخير أمر بخروج الحجاج من غير الطريق التى سلكوها أولا ، وهناك يجد كل واحد منهم ملبوسه ملقى على الأرض مبخرا ، فمنها ما هو محروق ، ومنها ما يقطر ماء تصعد منه روائح كريهة ، ولا تسمع حينئذ الا صياح الحجاج ، فهذا يبكى على حوائجه أحرقت له بما فيها ، وهذه تلطم خدها على ضياع حليها ، ثم أخرج الجميع الى محجر الصحة حائطين بهم العساكر النظامية . وكل الطريق رمال بعيدة المسافة قطعها الحجاج راجلين سواء كانوا رجالا ضعافا أو نساء أو أطفالا فى شدة الشمس الرمداء ، ولا شفقة ولا رحمة فقد نزعها الله من قلوبهم .

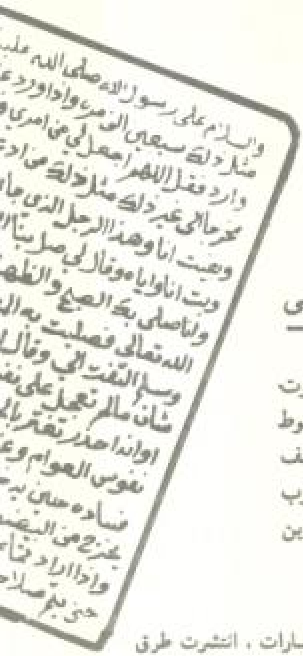
وبالجملة فلا تسل عن معاملتهم اياهم اذ يقصر القلم عن وصفها ويذوب الفؤاد من هولها . وحين قرب انتهاء أمد الكرنطينة بيومين رخص الطبيب للحجاج بالحضور على تبخير ما فى صناديقهم الموضوعة فى البابور ، فلا ترى الا جلها أو كلها مكسرة ، والحوائج التى فى وسطها ممزقة تلعب بها النار ويغطيها الغبار ، وترش بالماء الكريه الرائحة . ولما رأيت هذا الفساد الفادح لم يسعنى اذ ذاك الا أن بذلت دريهمات من طرف خفى لبعض الملاحظين الذين يكشفون عن الصناديق ارتكابا لأخف الضررين كى يغضوا الطرف عنها ، وبسبب ذلك سلمت حوائجى كلها من الآفات والحمد لله .

الاسبان فى جليليه

هذا بعض ما يقاسيه حجاج بيت الله الحرام فى محجر الطور ، وقد ذكرته على سبيل الجملة ، والا فلا يسعه مسطور ، والى الله ترجع الامور . وكانت مدة اقامتنا على هذه الحالة التى تتفطر لها القلوب عشرين يوما ما بين البحر والبر .

وقفل الفقيه الطنجى راجعا الى طنجة ، فسجل ملاحظات طريفة عن مرسيلة ومليلية السليبة التى يقول عنها« وهذه المرسى من مستعمرات اسبانيا متخذة عندها لسجن مرتكبى الجرائم الفظيعة » ، وقد رأيت شرذمة منهم تخدم فى البناءات وتنظف الطرقات الى غير ذلك من الأشغال الشاقة وعليهم ورديات أى عساس من العسكر حاملة السلاح عسة عليهم . ومن علامات هؤلاء المساجين حلق اللحية حتى الشارب ولبس البربطة من الدوم وكسوة مخصوصة بهم ليمتازوا عن غيرهم . وبهذه المرسى عدة تجار المسلمين من أهل فاس وغيرهم يتعاطون التجارة مع القبائل الريفية »ومنها يبحر الى جبل طارق قاصدا طنجة وفى صبيحة يوم السبت عند الساعة التاسعة وصلنا لجبل طارق . وكان نزولنا عند الفاضل الأرضى وكيل سيدنا الطالب السيد عبد السلام بو زبان بدار الوكالة السعيدة » وعاد الحسن الغسال الى مسقط رأسه يوم الأربعاء فاتح صفر .

وخلاصة ما يمكن أن نقوله هو أن « الرحلة الطنجوية اضافة مهمة فى أدب الرحلات الحجازية . تعطينا فكرة عن ثقافة كاتب بدار النيابة الطنجية فى نهاية القرن الماضى ، سجل انطباعاته فى لغة عربية سليمة تدل على دقة ملاحظته .



والسلام على رسول الله صلى الله عليه
مثل ذلك سبعين الف مرة واذا اورد
وارد فقل اللهم اجعل لي من امري
محرما الى غير ذلك مثل ذلك
وبت انا وهذا الرجل الذي
وبت انا واياه وقال لي صل بنا
وانا اصلي بك العشاء والظهر
الله تعالى فصليت به
وسلم التفت الي وقال
شان مالم تعجل على نفس
اوانا احذر تغتر
نفوس العوام
بخرج من

واقع المغرب فى القرن ١٦

بقلم الدكتور أمين الطيبى

المخطوط الذى نتحدث عنه لفقيه مغربى استقر فى بلاد حضرموت فى أواخر القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد . وفى المخطوط الذى عثر عليه فى بلدة تريم بوادي حضرموت يستعرض الفقيه يوسف بن عابد الحسنى الادريسى سيرته منذ حداثة سنه فى بلاد المغرب الأقصى ، ذاكرا أسباب توجهه الى المشرق وهو فى الخامسة والعشرين من العمر واستقراره فى حضرموت .

وقد أملى المؤلف سيرته هذه فى بلدة مرية بحضرموت وهو يناهز السبعين من العمر (١٦٢٧ م) ، وكان قد مضى عليه فى حضرموت نحو أربعين سنة . ان الأحداث التى يتطرق اليها المؤلف تغطى نصف قرن (١٥٧٦ ـ ١٦٢٧ م) . ويلاحظ أن ثلاثة ارباع المخطوط يتناول الأحوال الاجتماعية والتعليمية السائدة فى المغرب فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، أى على عهد السلطان السعدي أحمد المنصور ، الملقب بالذهبى . ولا يتطرق صاحب المخطوط الى الأحداث السياسية أو الى الدول والسلاطين ، بل يقتصر ، أثناء سرده لسيرته وتنقلاته على الحديث عن الأحوال الاجتماعية ، كما يتحدث بشىء من الاسهاب عن مدارس مدينة فاس وعن الطرق الصوفية المنتشرة آنذاك ، فى أنحاء المغرب الأقصى . وفى المخطوط معلومات عن وسائل الدفاع التى اتخذت على سواحل المغرب لمجابهة غارات البرتغاليين من البحر . ولا يترك الفقيه الصوفى يوسف بن عابد الادريسى مناسبة تمر دون التأكيد على نسبه الحسنى الادريسى الشريف وانتمائه لطريقة الشيخ أحمد زروق المنبثقة عن الطريقة الشاذلية .

وكما هو معلوم فان المغرب الأقصى كان قد تعرض فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لهجمات الأسبان والبرتغاليين ، الذين تمكنوا لفترة من احتلال عدد من المدن والمواقع على الساحل ، ونظرا لعجز سلاطين بنى وطاس عن التصدى لهذه الغارات ، انتشرت طرق الصوفية والمرابطين فى البلاد ، وأخذت على عاتقها الجهاد ضد الغزاة . وقد أخذ الوضع يتبدل لصالح المغرب ، منذ منتصف القرن السادس عشر ولا سيا بعد الهزيمة الكبرى التى منى بها البرتغاليون فى واقعة وادى المخازن فى عام ١٥٧٨ م ، وتولى الحكم على الأثر السلطان أحمد المنصور السعدي . وكان الفقيه يوسف بن عابد قد قدم الى فاس لتلقى العلم فى مدارسها ، فى أول عهد هذا السلطان وفى فترة انتصار المغاربة فى وقعة وادى المخازن ، ومع ذلك فان من الغريب أنه لايشير اليها . كما ان مغادرته للمغرب بعد خمس سنوات من تولى هذا السلطان الحكم لايمكن تفسيرها بسوء الأحوال فى البلاد ، اذ شهد المغرب فى الربع الاخير من القرن السادس عشر فترة ازدهار واستقرار وهدوء .

لأجل الخلوات للذكر

بعد أن يعطى المؤلف فى أول المخطوط نبذة عن دولة الأدارسة الذين ينتسب اليهم يقول انه أملى سيرته ليذكر أسباب انتقاله من المغرب الى الجهات اليمانية والجهات الحضرمية . فهو من أهل انقاد ما بين مدينتى فاس وتلمسان وفى جهات انقاد نهر كبير يسمى ملوية وقد توجه لطلب العلم فى فاس سنة ١٥٧٦ م ، وهو ابن

واحدة وعشرين سنة ، ويبقى في مدارسها يتردد بينها وبين مدينة مكناس . وهو يقول انه غلب عليه اسم الفاسي لاقامته في مدينة فاس ولأنها دار آبائه الأدارسة ، التحق بمدرسة مصباح حول جامع القرويين بفاس ، وكانت تضم ثلاثمائة من الطلبة ، ويقول انه سمع أن بفاس اثنتي عشرة مدرسة لطلبة العلم . ونستدل من ذلك ، ان مدارس فاس كانت تضم قرابة اربعة آلاف طالب . كما درس في مدرسة الوادي حول جامع مدرسة الأندلس ، وهي مرصودة لمن جاء من طلبة العلم في مشارق مدينة فاس .

وحدث أثناء زيارته لمدينة مكناس أن انعقد لسانه ومحى القرآن من صدره ، فاستشار أحد شيوخه ، وأخذ يبحث عن العلم اللدني والتصوف . ثم تحسنت حاله ، وأكثر من زيادة قبور الأولياء ، كأبي يعزى ، والشيخ عبد السلام بن مشيش من أقطاب الشاذلية ، وكذلك المشايخ في الرباطات على ساحل البحر .

ولما رجع الى فاس ، درس علوما منها : الرسالة المعروفة لابن أبي زيد القيرواني ، ودرس في النحو الأجرومية وشرح الألفية ، وكتاب ابن حاجب في الفقه ، وكتب السير والبردة وشرحها وتفسير القرآن . وكان يقرأ في جامع القرويين علم الحساب وعلم المواقيت والنجوم ، لاحتياج الانسان اليها في معرفة القبلة ، « لأجل خروجي (كما يقول) الى أماكن خالية من العماير لأجل الخلوات للذكر » .

وفي أثناء مقامه بفاس ، حلت بأهل انقاد كارثة طبيعية ، اذ أصاب زرعها ريح جاءت له من مشرق انقاد «ولابقى فيه شيء . بينا بلاد فاس ونواحيها الى بلاد تازة سالمة من هذه الرياح » . وعلى الأثر نزح أهله ، واستقرا في مكان يسمى وادي اللبن ، قرب مدينة فاس . ولم يلبث أن تلقى نبأ وفاة معظم أقاربه . بسبب وباء اجتاح الجهة ، وكاد يفقد صوابه لهذه الفاجعة .

أكثر الفقراء من الشاذلية

ثم قام الفقيه يوسف بن عابد بجولة في اقليم السوس بجنوب المغرب الأقصى ، وهو يلاحظ أن « أكثر الفقراء (الصوفية) في زمننا هذا في المغرب ، تغلب عليهم طريقة الشاذلية » . وفي وادي درعة (وادي درا في المخطوط) زار الشيخ أحمد بن عمر العروسي ، ثم توجه لزيارة الشيخ أحمد بن موسى السياح ، قرب ساحل البحر ، ويلاحظ المؤلف « ان في هذه الجهة عماير وعلماء وأولياء يتعاطون التصوف . الا ان اللغة العربية ما يعرفونها ، وما يتكلم بها الا من دخل بلاد المغرب مثل فاس ومراكش ونواحيها » . ثم توجه الى وادي ترودانت ، وعند مصبه في البحر المالح « قلعة أهل الاسلام ... فأدخلوني القلعة ، وطلعت مع الجند الذين فيها ، واذا هي حاكمة على البحر الجميع والبحر تحتها ، وفيها مدافع منصوبة الى جهة البحر مقابلين بها العدو (أي البرتغاليين) ... ولولا ترسموا في خيرا ما أطلعوني رأس القلعة لئلا يظنوا أني جاسوس عليهم من الكفار » .

وقد سمع بوجود صومعة (برج) وراء الساقية الحمراء فيها المتعبدون ، وكان يرغب في زيارتها ، الا أنه قيل له ان الصومعة بعيدة ، ولكنه علم من الرعاة في شطوط المفاوز « ان الكفار « البرتغاليين » لا يزالون يتصيدون للمسلمين في هذه الأمكنة ، وان للكفار في هذه الجهة مراسي يرسون فيها المراكب ليسرقوا أطراق (أي قطعان ابل) البدو ، الذين يرعون حول ذلك المرسى » .

مر الفقيه يوسف بن عابد بمدينة مراكش في طريق العودة الى فاس ، وأقام فيها أياما يتردد على من فيها من الاولياء والعلماء والفقهاء ، وهو يشيد بتقوى أهل مدينة مراكش ، ويقول « فلله الحمد والمنة على قوة الاسلام » .

ويلاحظ أن المؤلف يضبط أسماء المواقع والأعلام ضبطا دقيقا ، وهو يستعمل كثيرا من العبارات العامية الدارجة . وتتخلل المخطوط أخطاء املائية ونحوية كثيرة لعلها ترجع الى الناسخ . ومن بين العبارات الغريبة في المخطوط استعمال المؤلف لكلمة (الحارة) بمعنى النكبة ولكلمة (الغدر) بمعنى الظلمة ، كما يذكر « دمينة مكناس » ، وكانت بمثابة مجرجصحى في ظاهر المدينة . ■■

د . أمين الطيبي

نزهة العقل الذكي بجوائز الدع

مسابقة العدد

□ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الأولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت : مسابقة العدد ٢٧٩ : وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول ابريل (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم مؤسس دولة حكمت مصر . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم ملك وشاعر عربي من القرن الثاني عشر .

كلمات أفقية :

(١) فنان ايطالي من عصر النهضة ـ من أشهر المتصوفة الاسلاميين .

(٢) عم الرسول عليه الصلاة والسلام ـ عقل ـ حرفان متشابهان .

(٣) من الحبوب ـ من العلوم الاساسية ـ لايثبت على حال .

(٤) سهولة ـ نصف كلمة (فسرت) ـ شاعر فرنسي شهير من القرن التاسع عشر .

(٥) طراوة ـ جزيرة سياحية تابعة للبرتغال .

(٦) تجدها في كلمة (أنياب) ـ من مصادر مياه الشرب ـ جاء الينا .

(٧) من المحيطات ـ تقوى ـ عاصمة أوربية .

(٨) مؤسس دولة حكمت مصر .

(٩) من الذهون ـ من الغازات ـ فرد .

(١٠) خلق ـ أسعدها ـ فرعون شهير .

(١١) لقب ولي عهد انجلترا ـ جزيرة بالبحر الابيض المتوسط .

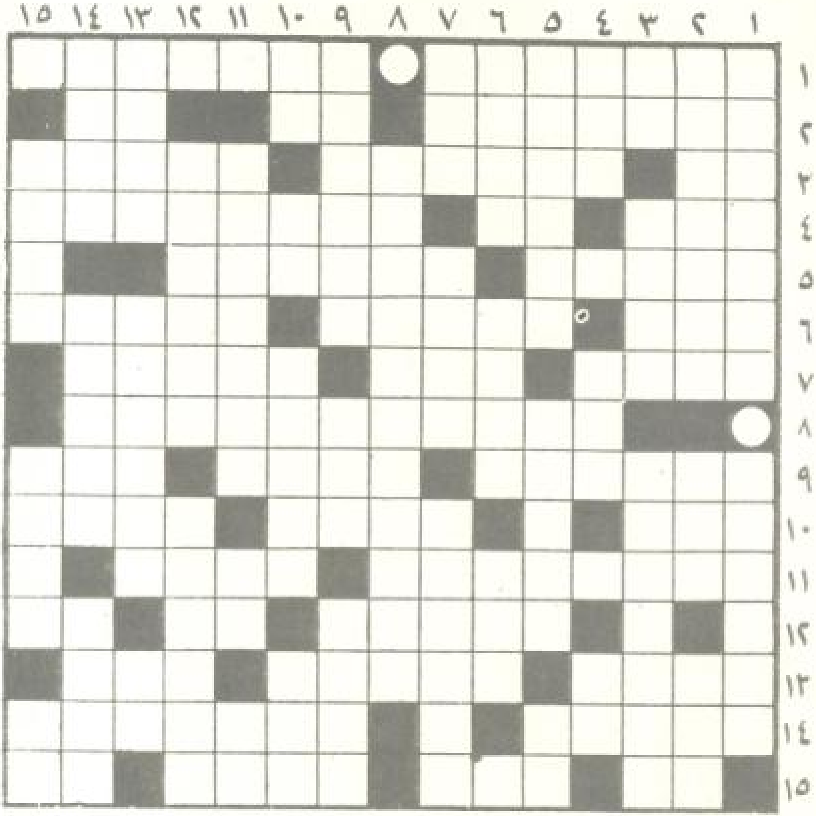
(١٢) نشاط بلا احتراف ـ جواهر ـ حرفان متشابهان .

(١٣) عطر ـ جائزة الحدوث ـ لب .

(١٤) من الابراج ـ حيوان منقرض .

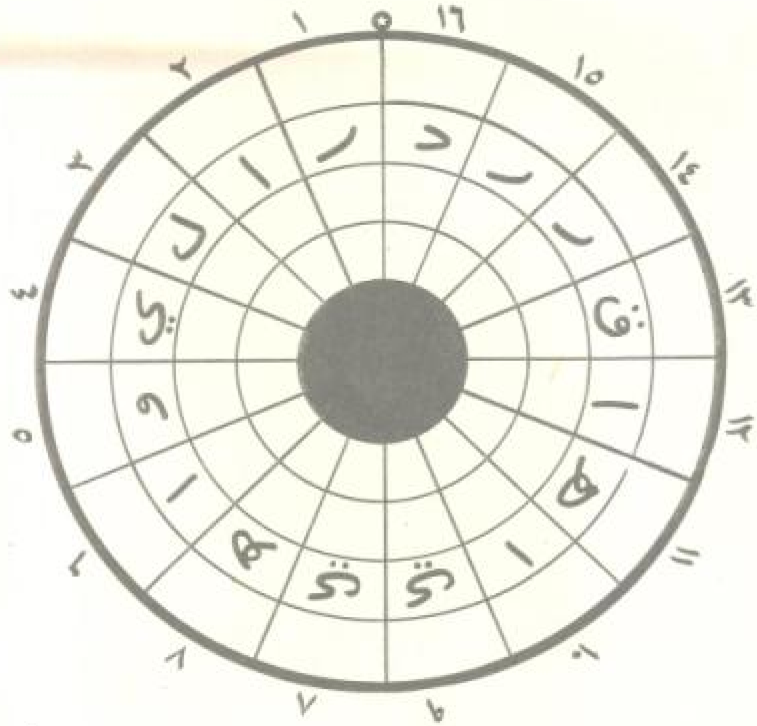
(١٥) ضمير ـ وطأ ـ يستمع ـ حرف جر .

كوبون مسابقة العدد ٢٧٩



كلمات رأسية :

(١) قسيس وطبيب من أعلام الكتابة الفكاهية الفرنسية ـ من الفاكهة .
(٢) من أشهر فلاسفة العصر العباسي الثاني ـ حرف ابجدى ـ حيوان قطبي .
(٣) من الاسماء الخمسة ـ في الطليعة ـ أطول أنهار أمريكا الشمالية .
(٤) أدوس ـ قنوط ـ عظم .
(٥) يعتادها ـ حسن ـ دك .
(٦) يمس ـ عاصمة توجو ـ وحدة قياس زمن .
(٧) غذاء كامل ـ من أدوات الحداد ـ موقعة بحرية انتصر فيها اليونانيون على الفرس .
(٨) ملك وشاعر عربي من القرن الثاني عشر .
(٩) من الاسماء الحسنى ـ قصد مضر ـ من المحيطات .
(١٠) حرفان متشابهان ـ مقام موسيقى ـ أحوال ـ سهل .
(١١) معركة قديمة بين الفرس والاغريق ـ رغب ـ قال حرفيا .
(١٢) اناشيد دينية ـ من أسلحة الجيش .
(١٣) أعجبت ـ اله فرعوني ـ روى .
(١٤) عتيق ـ دبلوماسي ومكتشف جغرافي نرويجي شهير ـ من الكليات الجامعية .
(١٥) قناة شهيرة ـ بخت ـ دق .



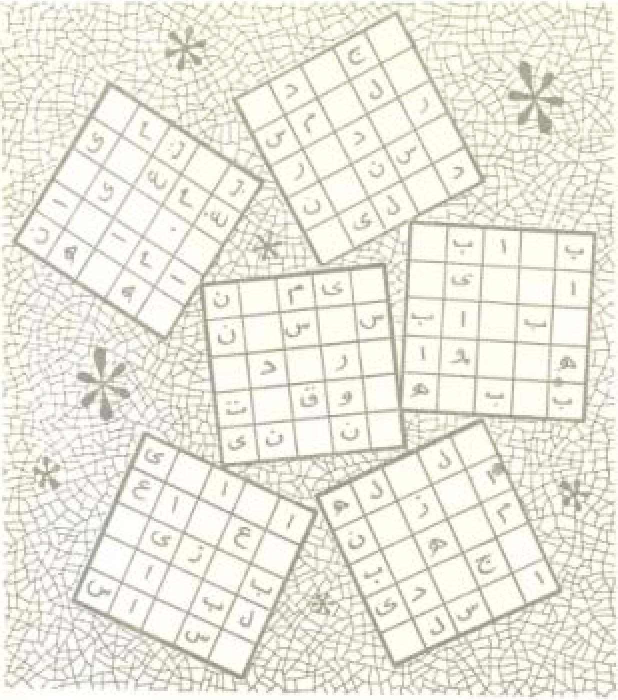
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الاحرف الاربعة ، والتى تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم موسوعى عربي ، من أشهر أعماله « حى بن يقظان »

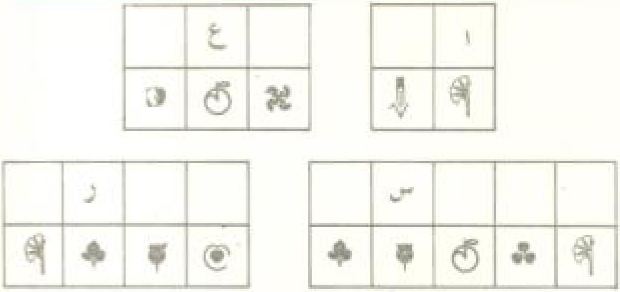
(١) أتلو (٢) في الصحراء (٣) يرتفع (٤) دان (٥) ريب (٦) حيوان (٧) يشارك (٨) صوت الأفعى (٩) عتيق (١٠) توم (١١) يخشى (١٢) عاصمة عربية (١٣) تقع (١٤) مبذر (١٥) يعدو (١٦) نفير .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتب الحروف الستة لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يشير الى :

انفراج الامور بعد استحكامها

الحلول

حول الدائرة السوداء :

أبو بكر محمد بن طفيل .

العواصم :

لواندا .

مثل عربي :

ان بعد العسر يسرا .

مِنَ المسرح العالمي
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول فبراير ١٩٨٢

١٤٩

حفل كوكتيل

تأليف : ت . س . إليوت
ترجمة وتقديم : صلاح عبد الصبور
مراجعة : د. أمين العيوطي

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

فبراير - شباط
١٩٨٢ م

التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية في الوطن العربي

تأليف :
الدكتور محمد السيد عبد السلام

٥

الكتاب الخمسون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

نصائح من أكبر مؤسسة لتصدير اللحوم والمواشي في العالم

تعتبر استراليا في طليعة البلدان المصدرة للحوم والمواشي ، وهي تتعامل في هذا المجال مع مايزيد عن مائة دولة في مختلف أنحاء العالم .. وقد بلغت الصادرات الاسترالية من لحوم الابقار والاغنام والماعز المبردة والمثلجة في العام الماضي نحو مليون طن .

وتتولى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تصدير مثل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم والمواشي . وللشركة عدد من المكاتب في الشرق الاوسط ، والاسواق العالمية الكبرى .

وتهتم هذه المكاتب بترويج اللحوم وتقديم الاستشارات والمساعدات المباشرة للمستورد .



كيف تساعد الشركة المستورد

يعمل لدى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي خبراء متخصصون بالتسويق والاقتصاد والتنمية وفن الاعلان بهدف تنشيط التجارة مع استراليا .

فاذا كنت بحاجة الى بعض المعلومات عن توفر اللحوم والمواشي وتوعياتها واجراءات الشحن والشروط الصحية وسواها من المعاملات والاعلان ، فما عليك الا أن تتصل بالمدير الاقليمي للشرق الاوسط ، السيد فيليب روسال أو المدير الاقليمي للمكتب الاوروبي السيد رالف هود .



الشحن

تقوم الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بدراسة وتحديد كميات وأسعار اللحوم والمواشي المراد شحنها وكذلك وسائل الشحن الممكنة عبر الطرق الدولية .

التأكيد على النوعية

ان الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تستخدم جهازا من الفنيين داخل استراليا وخارجها لمساعدتك في تقديم طلباتك والتأكد من أن المنتجات التي أرسلت لك تطابق المواصفات المطلوبة بما في ذلك ذبح المواشي على الطريقة الاسلامية

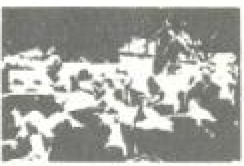
وهناك كتيبات تتضمن معلومات عن كافة اعمال الشركة والاصناف التي تتعامل بها يمكن الحصول عليها من المكاتب الاقليمية للشركة .

أذون التصدير

تطبق الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بعض الشروط المالية والانتاجية في تعاملها مع المصدرين حتى تجنب العملاء أي اشكالات أو مضايقات هم في غنى عنها .

أين تجد النصيحة

في امكانك الحصول على أي نصيحة او استشارة في هذا المجال عن طريق :



السيد / فيليب روسال
ممثل
« يانين سنتر »
الشركة الاسترالية للحوم والمواشي
ص . ب (٥٦٢٢)
هاتف ٢٤٤٠٠٩
تلكس ٩٠٩٤٧٦ AMLC BN
المنامة / دولة البحرين

أو

MR. RALPH HOOD 9 KINGSWAY LONDON, WC. 2 ENGLAND

AUSTRALIAN MEAT & LIVE-STOCK CORPORATION

AM 3075

بنك جرينْدلز (جيرسي)
لأفضل الخدمات البنكية الشخصية



يوفر بنك جريندلز (جيرسي) ذ.م.م خدمات بنكية متعددة ومتنوعة وسرية تامة لعملائه، منها:

- أسعار فائدة منافسة على الودائع وبجميع العملات الرئيسية.
- ضمانات على جميع أنواع الأصول الموجودة في جيرسي.
- نصائح حول الاستثمارات والضرائب.

وللمزيد من المعلومات حول فتح حساب في بنك جريندلز (جيرسي) يرجى تعبئة الكوبون المرفق حيث نرسل لكم كتيب يحتوي على جميع المعلومات والتسهيلات الخاصة التي يقدمها بنك جريندلز لعملائه.

£ STERLING		US DOLLARS	
* ١٣¼ %	£2.500 3 months fixed period	* ١٠¾ %	$5.000 3 months fixed period

جرينْدلز

مجموعة مصرفية دولية بموجودات تزيد عن ٣٫٣٠٠ مليون جنيه استرليني وأكثر من ٢٠٠ مكتب وفرع في أكثر من ٣٨ دولة.

* أسعار الفوائد المذكورة سارية إلى حين إرسال الإعلان للطباعة

تدفع الفائدة بدون خصم للضرائب من أي جهة.
والمبالغ الأكبر يمكن أن تجتذب فائدة أعلى. ودائع تحت الطلب وغيرها متوفرة أيضاً.

Mr. Graham Thomas, Grindlays Bank (Jersey) Ltd.,
P.O. Box 80, St. Helier, Channel Islands.

Please send me details of your deposit accounts in Jersey and a brochure outlining other personal banking services.

PARAB

Name ____________________

Address ____________________

____

____

P S-P

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥,٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير – وثائق – يوميات – ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٥٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي)

منشورات المجلة :

- تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها :

١- كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) ١٩٧٩ .
٢- كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الإله أبو عياش) . ١٩٧٩ .
٣- كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) ١٩٧٩ .
٤- كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥- دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بعدن (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

- سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :

الكتاب الأول : وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت – كلية الآداب والتربية – الشويخ – دولة الكويت

ص . ب : ١٧٠٧٣ – الخالدية

الهاتف : ٨١٦٨٠٧ – ٨١٦٧٩٩ – ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

تلفزيون توشيبا
جهاز لكل مكان
في العالم.

مع تلفزيون توشيبا ذات الأنظمة الأربع للبث الملون، باستطاعتك إستقبال البث التلفزيوني الملون الجميل من أي نظام رئيسي للبث الملون في العالم... بال، سيكام أو إن تي اس سي. بالاضافة الى ذلك، فإن تلفزيون توشيبا يحتوي منظما أوتوماتيكيا للفولطية، مما يؤمن ملاءمة جهازك أوتوماتيكيا لأي تيار كهربائي في أي دولة من العالم.
سارعوا الى مشاهدة تلفزيون توشيبا ذات الأنظمة الأربع للبث الملون، وتمتعوا بمشاهدة العالم.





C-1427QB ١٤ بوصة
- إستهلاك الكهرباء [illegible]
- الأبعاد (الحجم) [illegible]
- الوزن [illegible]

C-1827QB ١٨ بوصة
- إستهلاك الكهرباء [illegible]
- الأبعاد (الحجم) [illegible]
- الوزن [illegible]

C-2027QB ٢٠ بوصة
- إستهلاك الكهرباء [illegible]
- الأبعاد (الحجم) [illegible]
- الوزن [illegible]

[illegible]

TOSHIBA | توشيبا

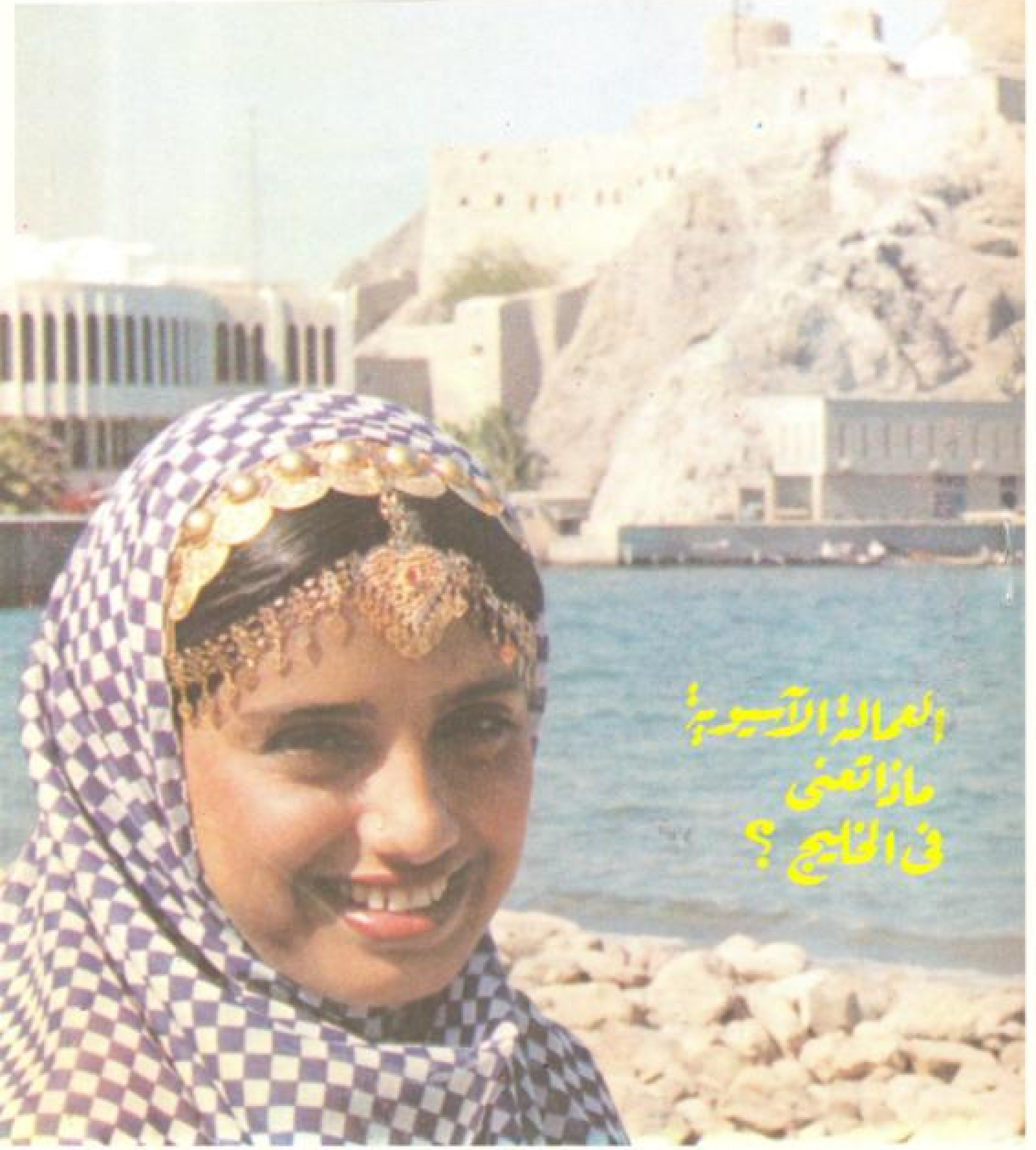
TOKYO, JAPAN

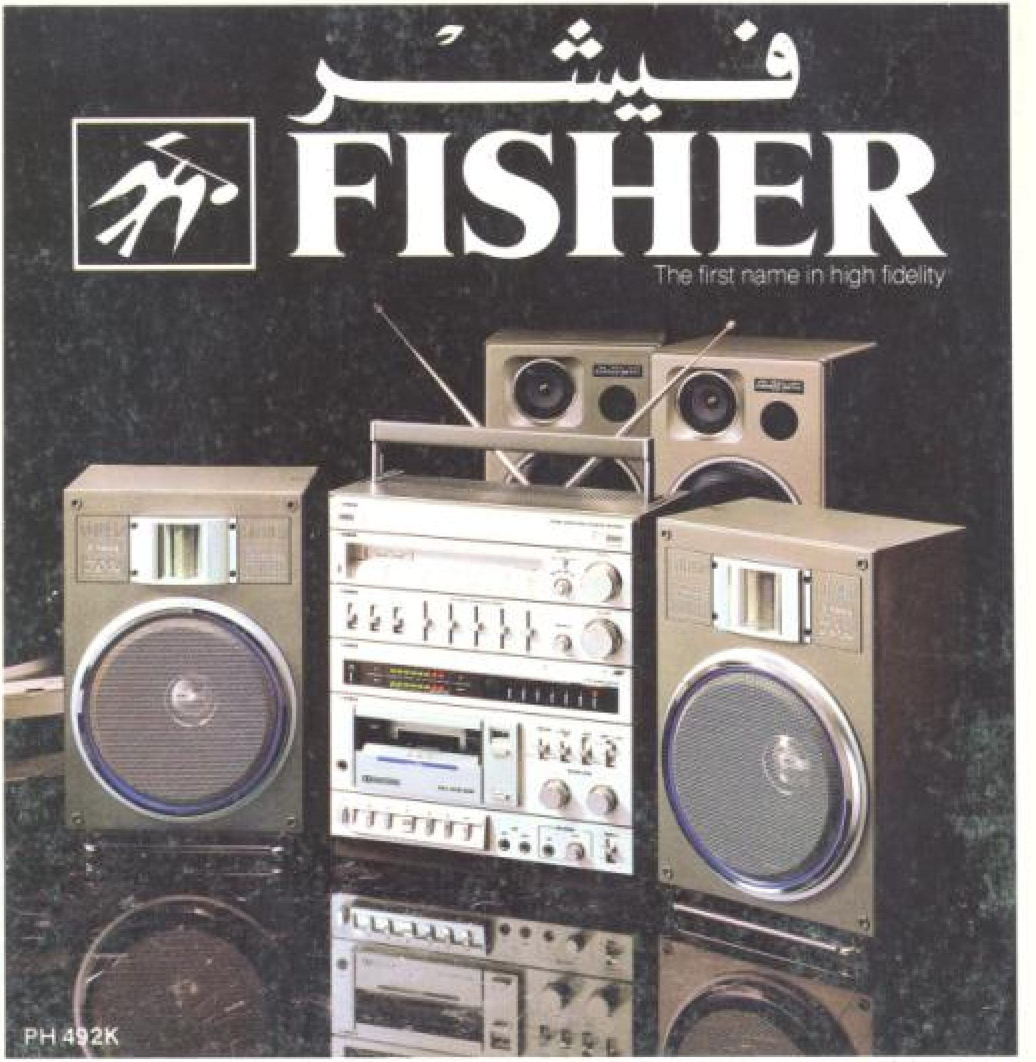

المجموعة الذهبية
GOLDEN SERIES MK II
26"
CTP 8470G
الرفاهيّة الذهبيّة تأتيكم
بمزيد من الفخامة المثيرة
تفخر سانيو بتقديم الرفاهية الذهبية للمشاهدين ضمن مجموعتها الذهبية من التلفزيونات
ذات الألوان المتألقة مع المميزات العديدة المتمثلة بالأمسات الذهبية
سواء كانت هذه التلفزيونات تعمل أم لا. والآن تقدم سانيو تشكيلة
التلفزيونات الملونة مارك ٢ بنفس المميزات المعهودة بتألقها إضافة
إلى مدى أوسع لمستويات الطاقة (٩٠ - ٢٨٠ فولت) ومتممة بلمسات
نهائية أكثر تألقاً وبذلك تقدم سانيو الرفاهية الذهبية مع التشكيلة
الذهبية لتلفزيونات مارك ٢ الملونة والتي تأتيكم بمزيد من الفخامة المثيرة.
CTP 6457G
٢٠ بوصة
بال/سيكام
CTP 6468G
٢٠ بوصة، ٤ أنظمة
CTP 3452G
١٤ بوصة
بال/سيكام
SANYO سانيو

العربي

جمادى الاولى ١٤٠٢هـ
مارس (آذار)١٩٨٢ م

في سلطنة عُمان : ٥٠٠ قلعة وحصن تروي التاريخ .





أرفع أجهزة السمعيات المحترفة من منتجة أول ستريو.

ان ستريوهات فيشر بمختلف أحجامها تعني الفخامة. غنية بأناقتها مع أحدث مفاتيح التحكم وصوت طبيعي يشعرك وكأنك تعيش في عالم ما تسمعه. ستريوهات فيشر ذات مزايا لا تضاهى فهي مقدمة من شركة تملك رصيدًا من الخبرة في عالم الستريو والهاي فاي أكثر من أي شركة أخرى في العالم، فلقد اخترعت فيشر الستريو ومازالت تطوره منذ أكثر من ٤٠ سنة.

PH 492K

هاي فاي نقال - راديو ٤ موجات - ستريو MW/SW1/SW2/FM مسجل كاسيت مع عزافات أكوالايزر ومكبرين للصوت باتجاهين قابلين للفصل - بحث أوتوماتيكي - استيعاب شريط عادي أو CrO_2 أو معدني بالإضافة إلى توصيلات إضافية للفونوغراف ومكبرات الصوت والعديد من الزوائد الأخرى.

عزيزي القارئ

ليس من عادة العربي ان ترد على منتقديها . فالنقد تحية لها . وحين لا يجد الكثيرون مجلة يهتمون بها مدحا وقدحا الا العربي فهذه تحية لها . حتى ولو من الذين في قلوبهم مرض ، ممن لا تشغل بأمرهم سطور هذه المجلة .

حامل لقب دكتوراه سمى نفسه « اكاديميا » وانتقد « العربي » لانها ليست اكاديمية !

وحمل لقب « الدكتوراه » لا يجعل المرء اكاديميا ، اذا وقفت ثقافته عند رسالة الدكتوراه . ومجلة العربي ليست مجلة اكاديمية . انها مجلة يقرؤها عدة ملايين .

والناس يتساءلون عن سر انتشار مجلة العربي .

السر بالضبط انها - وكتابها اساسا - يستندون الى خلفية اكاديمية حقيقية ، ثم يعمدون الى تبسيط المعلومات الاكاديمية ، دون ابتذال ، بحيث تصبح في متناول القارىء المهتم ، غير المتخصص ، وهو فن لا يتقنه الا القليلون . ولذلك يشكو البعض من صعوبة بعض موادها ، ويشكو البعض من سهولة تناولها . ولكن هذا غير رأي الاغلبية الساحقة التي تدرك بفطرتها هذا السر .

وحامل لقب الدكتوراه المذكور يستطيع ببساطة ان يتصفح هذا العدد ، ويسأل نفسه : اي كاتب فيها ليس أرفع منه اكاديمية ؟ : د . حسان حتحوت ؟ د . محمد الرميحي ؟ دكتور جلال امين ؟ دكتور ادريس الكتاني ؟ دكتور البوطي ؟ د . سيد عمار ؟ د . عبدالمحسن صالح ؟ د . صالح ذرب ؟ د . عبدالغني سعودي ؟ د . صلاح بركات ؟ د . عبدالعزيز المقالح ؟ د . محمد موفاكو ؟..

هذا في بند « الدكاترة » فقط ، ولم نذكرهم جميعا ، فضلا عن الذين ليسوا دكاترة ولكنهم أعمق وأوسع ثقافة من آلاف الدكاترة ! وهذا كله في عدد واحد !

ولكننا نجد بعض « الاكاديميين » المزعومين ، دون المستوى . وهو عذر مقبول ، لعدم نشر مقالاتهم ، نجد أنفسنا مضطرين للاشارة اليه !

المحرر



صورة الغلاف

● الى عمان تذهب العربي هذا الشهر، في رحلة حول قلاعها وحصونها العريقة وعددها ٥٠٠ منتشرة في انحاء السلطنة التي تعد اغنى بلاد العرب بتلك الابنية التاريخية .. ومن طول البلاد وعرضها، فان القلاع والحصون تروى العديد من فصول التاريخ الغنية والمثيرة .. [انظر الاستطلاع ص ٩٩].

قضايا عامة

عروبة واسلام

قضايا حيوية

طب وعلوم

أدب وفنون

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير: أحمد بهاء الدين

مدير التحرير: فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريالات ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليم ، السودان ١٥٠ مليم ، المغرب ٣ دراهم ، تونس ٣٥٠ مليم ، الجزائر ٣ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريالات ، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم ، اليمن الشمالي ٣ ريالات ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلس ، ليبيا ٢٥٠ درهم .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات
المراسلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١
تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :
قسم الاشتراكات
المكتب الفني ـ وزارة الاعلام
ص . ب (١٩٣) ـ دولة الكويت

على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام ، طبقا لما يلي :

فلس دينار
ـ الكويت والبلاد العربية ٥٠٠ / ٢ (ديناران ونصف)
ـ بلاد غير عربية ٥٠٠ / ٣ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL-ARABI. No. 280, MARCH, 1982.
P.O.Box 748, KUWAIT.

اجتماع

استطلاعات مصورة

أبواب ثابتة



خير الدين التونسي

فكرة القانون وقضية

هذا الحديث .. استئناف لحديث سابق ، كتبته قبل سنتين . واعرف ان هذه مقدمة غير جذابة لأي حديث . ولكن ماذا نفعل وقضايانا بطيئة .. ومردود الكلام قليل .. وقد يهل المطر فتثمر البذور وتخضر الارض ، او يستمر الجفاف فتموت البذور المنثورة وتبقى الأرض قاحلة ..

وقد وعدت القاريء وقتها باستئناف ذلك الحديث عن « شرعية السلطة في العالم العربي » . ولكن الاحداث تقاطعنا .. وتجبرنا على الانعطاف عن الطريق الرئيسي الى اتجاهات جانبية .. بسبب الحفريات والمطبات لتي تجعل المرور متعذرا ..

وقد اعادني الى هذا الحديث كتاب من سلسلة « عالم المعرفة » التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ... وهي ارقى سلسلة في اللغة العربية ، وتضارع ارقى سلسلة بأي لغة ... والكتاب معروف لاهل القانون ـ وانا خريج حقوق ـ وهو كتاب « فكرة القانون » بقلم القانوني الانجليزي الشهير دينيس لويد . وقد ترجمه وراجعه قانونيان عربيان : سليم الصوص ، وسليم بسيسو .. وقد سعدت بترجمته لانه صار في متناول الجميع ... اي من غير اهل القانون المتخصصين .

ونحن الذين درسنا القانون نعتقد انه كما ان الفنون والآداب والثقافة يجب ان تكون مشاعة بين كل اهل التخصصات والمهن والمواطنين الآخرين ... فكذلك يجب ان يكون الامر بالنسبة للقانون ...

وليس معنى ذلك ان يعرف كل مواطن مواد القانون المدني والجنائي والتجاري وغيرها .. كما يعرف عبد الوهاب وام كلثوم وفيروز .. ولكن ان يعرف « فكرة القانون » ، وما هو « القانون » ؟

ذلك ان الناس ـ حتى المسئولين في معظم الحالات ـ يظنون ان اي ورقة مرت بالمراحل « التشريعية » المختلفة حسب نظام كل بلد ... اي من حاكم فرد او من مجلس قيادة او من برلمان او حتى من استفتاء شعبي .. تصبح « قانونا » جديرا بهذا الأسم الجليل ..

وهذا غير صحيح ..

ومن هنا يعتبر هذا الحديث مكملا للحديث عن مشكلة « الشرعية في العالم العربي » ، وما خلصنا اليه من أن انعدام الشرعية في أي مجتمع ـ على اختلاف ألوان الشرعية ، هو اعمق مشكلة يواجهها العالم العربي في البحث عن صيغة لحياته حاضرا ومستقبلا . ولأذكر القاريء بأن

بقلم : أحمد بهاء الدين

الشرعية في العالم العربي

« الشرعية » قد تكون وراثية وجمهورية انتخابية أو ثورية ، ولكن هناك شروط هي التي تضفي على هذه « الاشكال » تتلاءم مع كل مجتمع وتراثه ، وتكوينه ، وحاجته الطبيعية في الاستمرار ، وفي التغيير ، بما يلائم ظروفه في المرحلة التي يعيشها و « التشريع » غير « الشرعية » . . وان تشابهت الكلمتان . .

من أفلاطون إلى باكونين

والتشريع - الذي هو القانون - لا يهمنا هنا-كما قلت-تفاصيله ، ولكن يهمنا فكرته ، فلا حياة لأي مجتمع بدون قانون ما . فهو موضوع يهم الجميع . وأبسط الناس وأقلهم معرفة يعيش من خلال « قوانين » دون ان يعرفها . .

كما ان « القوانين » التي تحكم حياة الناس ليست كلها « مكتوبة » في مواد ، كما قد يتصور الناس . .

ان اول « مجتمع » انساني . . بل « جماعة » انسانية ، وجدت على الارض ، ما كانت « لمجتمع » الا على « قانون » ، او مجموعة من الاعراف والتقاليد والسلوكيات متعارف عليها . . . تتبعها الاغلبية ، ومن يعصيها يكون خارجا عليها . .

وعندما نجد اصل كلمة « الخليع » في اللغة العربية منذ الجاهلية - نجد ان اصلها ذلك الذي « خلعته » قبيلته عنها ، وتخلت عن حمايته ازاء القبائل الاخرى . . لأنه خرج عن قيم واعراف وسلوكيات قبيلته . . .

ففي اكثر المجتمعات بدائية كان هناك قانون . وبغير ذلك ما قامت مجتمعات من الاصل . حتى المجتمعات التي تؤمن بالجن والشعوذة وتعبد الشمس او النار او المطر وتقدس رئيس القبيلة . . . وتعطيه الحق في مائة زوجة او في كل نساء القبيلة . . . كالحال في اواسط افريقيا . .

وهذا لم يمنع ان يكون كثير من اكبر المفكرين العقلانيين من اعداء فكرة القانون ذاتها . . . او في فكرة شيء من هذا . . . من افلاطون صاحب الجمهورية المثالية التي هي قانون عنيف - الى « باكونين » و « كروبتكين » زعماء المذاهب الفوضوية في القرن التاسع عشر . . . الذين بشروا باختفاء الدولة اي باختفاء القانون . . .

وما زالت صيحة « جان جاك روسو » تدوي في الآفاق . حين قال : ان الشر بدأ في العالم كله حين وضع اول انسان اول علامة على قطعة ارض وقال « هذه ملكي » ، فمنذ تلك اللحظة بدأت الحدود والقيود . وبدأت الصراعات . وولدت القوانين . وان الحل هو العودة الى الطبيعة . . حين لم يكن هناك نص مكتوب . .

وقد لعبت هذه الصيحة دورا كبيرا في قيام الثورة الفرنسية . وتأثر بها ـ وما زال ـ مفكرون كثيرون بطرق شتى . ولكن هذه الصيحة كانت « اولا » رد فعل تراكم « قوانين » ظالمة صارت سدودا في طريق تقدم البشرية . لأن هذه « العلامة » الاولى التي وضعها اول انسان على قطعة ارض وقال هذه ملكي ، تحولت عبر القرون الى عسف امراء الاقطاع والى رقيق الارض . . الى آخره . وكانت « ثانيا » مستحيلة . . . لأن العالم الذي تقدم بعد عصر النهضة وازدحم ، وعرف المدن الكبيرة ، والعلاقات المعقدة ، لم يكن ممكنا ان يعود الى حياة الرعاة من جديد . .

عندما يلتقي النقيضان

والغريب ان فكرة الغاء الدولة والغاء القانون يلتقي عندها اقصى اليسار واقصى اليمين . . فالفوضويون ـ وهو مذهب له فلسفته ، ينتمي اليه فيما اعتقد منظمات مثل « الالوية الحمراء » في ايطاليا ـ يرون ان « الدولة » هي مصدر كل شر ، لأن الدولة للاقوياء ، ولو اختفت لساد العدل . . والمحافظون المتطرفون ـ مثل رونالد ريجان ـ يرون ايضا ان الدولة هي مصدر كل شر ، وانه كلما تركت الدولة الناس وشأنهم فسوف يسود قانون آخر عكسي يؤمن به ، وهو : ان يكون البقاء للاقوى . . وان هذه هي سنة الكون !. .

ومنذ البداية كما ذكرت ، وبشكل تلقائي ، لم يجتمع ناس في جماعة الا حول « قانون » او « عرف » غير مكتوب ، له نفس وظيفة القانون . . .

ولكن ، منذ بداية نشوء الفكر وقيام الحضارة ،كان هناك تفريق بين قانونين يتحمس كل فريق من اهل القانون لاحدهما :

القانون الطبيعي . .

والقانون الوضعي . .

وكان طبيعيا ان يبدأ الفكر الانساني بالانتماء الى القانون الطبيعي . فقبل رسالات السماء ، وقبل العلم ، كان الانسان متأثرا في كل نواحي حياته بالطبيعة . وبقوى غيبية لا يدركها . وبالتالي لابد ان يكون هو نفسه جزءا من هذه الطبيعة . اذن فالقانون السليم ـ مكتوبا او غير مكتوب في البداية ـ هو المستمد من الطبيعة . وغايته يجب ان تكون هي محاولة تحقيق اكبر درجة من الانسجام بينه وبين الطبيعة . .

كان من حقائق الطبيعة مثلا ان البقاء للاقوى . . في الغابة كما في المجتمع البشري . فكما ان من حق الاسد الذي خلق سيدا على الحيوانات ان يأكل اي فريسة . . فمن حق اي قبيلة او جماعة قوية ان تقتل وتسلب وتسبي قبيلة او جماعة اقل منها قوة .

ومع تقدم الانسان البطيء ، ادرك أن هذا ليس « عدلا » ، وان إحدى غايات اي قانون لابد ان تكون تحقيق درجة من العدل . .

الانسان والقانون الوضعي

ومع ذلك فقد امتدت فكرة القانون الطبيعي عبر القرون . فقد اخذ بها الاغريق ولكن من زاوية « عقلية » : فأهم دور للاغريق في الحضارة هو تقديسهم للعقل الذي ظل مؤثرا الى الآن . . وبالتالي قالوا : ان هذا الكون ـ بالتحليل العقلي ـ لابد وان له منطقا اوجده ، وقوة خلقته ، وقانونا يسيره . . فالانسان اذن عليه ان يتلاءم مع هذا الكون ، ولكن من منطلق التحليل العقلي لا الاكتفاء بالظواهر كما فعل البدائيون . لقد حاولوا فهم ما وراء هذا العالم . ما هي « فكرته » الاساسية ؟.وان القوانين التي يضعها الانسان يجب ان تحاول الاقتراب من الفكرة المثالية الكامنة وراء هذا الكون والقوانين التي تحكمه والتي يمكن معرفتها بالعقل المجرد . فالطبيعة هي امر واقع ، وهي المقياس ، الذي يجب استخدامه في معرفة ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي . . .

وتنوع العزف على هذه النغمة الاساسية ابتداء من افلاطون وارسطو الى من جاءوا بعدهما . ولكن مع عصر النهضة في اوروبا لم يعد لدى الانسان سلاح واحد هو العقل المجرد ، لقد ظهر العلم . ومع العلم ظهرت « التجربة » . وبدأ عصر الشك الذي جسده « ديكارت » ، بل وضع الشك في مقام عال حين قال : انا اشك إذن فانا موجود ! اي جعل الشك معيار الوجود .

في هذا الجد الجديد ظهر النوع الثاني بعد القانون الطبيعي « وهو القانون الطبيعي » .

والفكرة واضحة من الاسم : ان علينا ان نبحث ـ علميا وفكريا ـ ما هو موجود . ما هو طبيعي ، ولكن ليس علينا ان نعتبره مثلا اعلى لا عن طريق الخرافة ولا عن طريق العقل المجرد . الطبيعة فيها الخير والشر . وليس صحيحا ان الانسان طيبا وخيرا بالسليقة والاصل . فقد قتل قابيل اخاه هابيل . وبالتالي فيجب ان « يضع » الانسان قوانينه ويقلل الشر ويزيد الخير ويعالج الادواء المولودة مع الطبيعة .

كان فرسان هذه القضية « كانت » و « لوك » و « هيوم » . . . وغيرهم كثيرون . .

وقال « كانت » قولا شهيرا : ان هناك ما هو كائن بالفعل ، وهناك « ما يجب ان يكون » . وعلى الانسان ان يتدخل فيما هو كائن ليقترب به الى ما يجب ان يكون . . .

ألسنا نروض الانهار التي تغرق الناس بفيضاناتها ؟ . . ألسنا نقاوم الامراض والاوبئة ؟. اذن علينا ان نروض المجتمعات البشرية . . بالقانون « الوضعي » . . وسيطر منطق القانون الوضعي وما يزال . .

دور هام للرسالات السماوية

ولكن ، كان هناك تيار وسط ، لم يجد تعارضا حادا بين الطبيعي والوضعي ، بل حاول ان يجعلها متكاملين ، في طلب الحياة الاحسن . . .

وايا كان منبع هذا التيار ، ففي تقديري ان منبعه الاكبر هو الرسالات السماوية والاديان . . . فالاديان تعطي « الطبيعة » ـ مادية وبشرية ـ قيمة كبيرة لانها من خلق الله . ولكل شيء حكمة ، الخير والشر على السواء ، اذن فهناك احترام كبير للابقاء على الصلة بين الانسان مهما بلغ علمه

وعقله ، وبين الطبيعة . وبالتالي فالقانون الطبيعي سيظل دائما له حكمة وله نفع وله مكان . والانسلاخ عنه مستحيل .

وفي نفس الوقت ، نزلت الاديان بأحكام تقترب وتبتعد عن القوانين ، ولكن فيها قدر من القانون . بعضها وضع مجرد قيم اخلاقية ، طالب بها البشر ، فهي قانون - والفرق بين القانون والاخلاق قضية كبيرة ، ليس مجالها هذا الحديث - ولكنها في هذا المجال قانون . . . وبعضها - الاسلام بالذات - نزل بالقيم والاخلاق ، ولكنه اضاف اضافة هائلة مختلفة نوعيا لا كميا ، الى بند ما يعتبر قانونا ، فقد نزل مقننا لاشياء كثيرة تنظم حياة الانسان بل وتنص على العقوبات ، وفي مجال كالزواج والطلاق والارث مثلا ينظمها تنظيما شاملا محددا .

ومع ذلك فهو لم يلغ العقل ولم يحرم الانسان من حق التفكير والاجتهاد على ضوء نصوصه ، وتغيير التفكير والاجتهاد وتطويره من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان . .

فهو اذن قوة كبرى في ساحة الاخذ بالقانونين معا ، الطبيعي والوضعي ، او الطبيعي والالهي والوضعي ، وفي ساحة الاخذ بمنطلق الحث على التكامل والانسجام بينها حين يضع الناس قوانينهم مفصلة . . . .

ولعلي أسرفت في هذه المقدمة التاريخية ، التي لا بد منها في تصوري ، لكي نقترب من موضوع فكرة القانون كما يجب ان نفهمها في حياتنا المعاصرة . والتي ينقص مجتمعنا ادراكها والتي تكمل فكرة « الشرعية » . . لأن التشريع ووضع القوانين هو ترجمة الشرعية واسلوبها في ممارسة شرعيتها . .

سيادة القانون . .

عندما تصبح « نكتة » !

ان ما ذكرته في الحديث السابق عن « شرعية السلطة في العالم العربي » ينطبق على هذا الحديث .

فالمعيار واحد . .

السلطة حقيقة موجودة . وتتخذ اشكالا شتى .

ولكن شرعيتها ليست في مجرد وجودها فهذا معيار شكلي . والاقتصار عليه يؤدي الى المهالك . لأنه يؤدي الى الانفصام بين المجتمع والسلطة التي يفترض انها تمثله .

والتعريف المأخوذ به في كتب العلوم السياسية هو ان شرعية السلطة توجد « اذا كانت السلطة تمثل الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام بنسبة كبيرة ، تشارف الاغلبية ، في المجتمع » .

فهو - كما نرى ، - معيار موضوعي ، لا شكلي . .

الشكليات ليست الاساس

دستور غير ملائم لهذه الشروط ، برلمان لا يمثل هذه الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام . . وزارة منتخبة من هذا البرلمان ، كل هذا لا يوجد الشرعية . .

فما أسهل فرض الدساتير ، وتزوير الانتخابات وتزوير الاستفتاءات . فالشكل شرعي ولكن الجوهر غير شرعي .
نفس الشيء ينطبق على القانون . . . وهذه هي « فكرة القانون » .
لابد ـ في فهمي وقناعتي ـ ان يكون القانون فيه جزء نابع من « طبيعة » المجتمع . . . كما ينبع الماء من مصدر طبيعي . لابد ان يكون جزءا من الطبيعة البشرية لمجتمع ما ، كالماء الذي هو جزء من الطبيعة الجيولوجية . فكل مجتمع له « جيولوجيا » في تراثه وبيئته وتاريخه وتكوينه النفسي وقيمه السلوكية والدينية والاخلاقية . .

ولا بد ان يكون القانون فيه جزء وضعي، ولكنه لابد ان يكون وضعيا بالشروط والتعبيرات السابقة ، معبرا عن الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام للنسبة الغالبة في المجتمع لان الاجماع شبه مستحيل .
حتى في « الشرعية الثورية » التي تأتي لتحطم شرعية وتقيم شرعية جديدة ، والتي تستهدف تغيير المجتمع لابد لكي تنجح ان تكون رد فعل لمشاكل حقيقية وآنية بحلول تعبر عن العقل العام والضمير العام والارادة العامة لأغلبية المجتمع . . . بصرف النظر عن « شكل التعبير » الذي قد يكون ركيكا او بليغا ، ولكن شرط البلاغة اساسي في (موضوعية التعبير) . .
اذن ؟ . .
فحين نتحدث عن سيادة القانون فهذا عنوان عام جميل . لكن لا يجب الاستسلام له . . مهما احيط بشكليات القوانين : من توقيعات ، واقرارات ، واستفتاءات ، كلها جريحة ومجرحة بشكل او بآخر . .
سيادة القانون هنا نكتة . .
وهذا سر رد فعل الشعوب حين لا تطيع ـ في اغلبيتها ـ القوانين ، وتقابلها بسلبية هائلة انها « تخضع » لها بحكم القوة لا بحكم احترام القانون . « والخضوع » على العكس يعلم الناس عصيان القانون . ولكنها لا « تطيع » الا القوانين المعبرة عن الارادة العامة والضمير العام . . . يطيعها حتى المخالف لها . . . ومن حقه ان يدعو الى تغييرها . . . وهو يفعل ذلك سلميا . . . ذلك انه يعرف انه ولو خالفها فهي تعبير عن ضمير عام وارادة عامة . ولا سبيل امامه الا ان يقنع الضمير العام والارادة العامة بأن يتغيرا .
هذه الفجوة بين « روح القانون » المتصاعدة من هذه الينابيع وبين « القوانين » النابعة من السلطة « والقوة » وحدهما . . . هي الفجوة الثانية بين الشرعية واللاشرعية . .
وهي السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة . . والنهايات العنيفة . . والاخاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار والتطور البناء المطرد . .
وهو امر ادراكه مسألة حياتية ومصيرية للامة العربية وهي في مرحلة انتقال حضاري متلاطمة الامواج لا يعصمها من الغرق في دواماتها . الا هذه الشرعية الموضوعية بكل مستوياتها ، وكافة وجوهها . ●●

احمد بهاء الدين



للدكتور حسان حتحوت

عن الرؤساء

ذات صيف كنت ازور الولايات المتحدة خلال رئاسة الرئيس جيمي كارتر .. كانت تتلبد في الجو سحب ازمة مدارها ان اخا الرئيس قد تلقى من احدى الدول البترولية مبلغا من المال على سبيل القرض . وامثال هذه السحب في امريكا قد تنقشع بسلام ولكنها قد تبرق وترعد وتصبح طوفانا قد يقتلع ساكن البيت الابيض نفسه عن كرسيه . وما امر نيكسون ايام ووترجيت ببعيد ! المنظر الذي لاانساه بثته شاشة التلفاز بين الرئيس وبين معلق تلفزيوني .. كان لقاء بين ندين ، فلو لم تعرفهما لاحترت من الرئيس ومن المذيع ؟ ، بل مالبث ان استحال اللقاء الى مايشبه الامتحان الشفوى العسير . كان المذيع فيه هو الاستاذ الممتحن والرئيس هو الطالب المجيب ..

كان السائل يعتصر المسئول اعتصارا لايحده وجل ، والرئيس يجيب ويحاور في ادب وتواضع وابتسامته العتيدة على شفتيه .. والملايين ترى وتسمع وانا من بينها ارى واسمع واتعجب .

لم يكن ما اشهده بدعا على ولاعلى ثقافتي ولا على تراثي .. ففي تاريخنا ان عمر بن الخطاب كان على المنبر يشجب المغالاة في قيمة المهور فتعترض عليه امرأة من مكانها وتقاطعه مستشهدة بكلام الله . وفي اقل من لحظة يكون تعقيب امير المؤمنين « اصابت امرأة واخطأ عمر » . بل اكثر من ذلك نشهد في تاريخنا رسول الله النبي الملهم يوزع قواته استعدادا لمعركة بدر ، ولكن واحدا من جنده يأتيه فيسأله عن خطته « أوَحْيٌ أوْحَى به الله اليك ، فليس لنا متقدم عنه ولامتأخر ، ام هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » ويجيب النبي المعصوم بل هو الرأى والحرب والمكيدة ... فيشرح له الرجل وجهة نظره في عيوب الخطة ويعرض عليه خطة بديلة شارحا مزاياها . فينزل النبي على رأيه ويغير الخطة على حسب ما

اشار المؤمن النصيح دون ان يضيق صدره او يعتبر ان في تصرف الصحابي انتقاصا للولاء ولاعدوانا على مقام النبوة ....

دار كل ذلك في رأسي في مكاني امام التلفاز .. عجبت كيف يكون هؤلاء الناس اقرب منا الى قيمنا وأوفى تنفيذا لتراثنا واشبه منا باسلافنا ! ... نظرت لواقعهم وواقعنا فادركت اننا كنا بهذا اولى منهم ، ولو لم نضيعه لكان مكاننا في العالم الاول لا العالم الثالث .

شتان بين أن يكون لكل فرد قيمته ، فثروة الامة من البشر حاصل جمع افرادها ، وبين ان يكون في كل امة فرد واحد والباقون ظل له يتحركون بحركته وابواق لاتنطق الا برأيه ولاتنفذ الا مشيئته .

امتد خيالي الى بعض بلادنا وقلت ماذا يحدث لانسان إن تخطى حاجز الخوف ، وقال لفلان إنك اخطأت في كذا او الاصوب ان تفعل كذا ؟ ... وادركت لماذا كانت هناك ملايين وملايين تعيش وتمشي في الاسواق وتدور في رحى العمل ولكنها معطلة فكريا وموءودة رأيا في زمان تعداده يعتبر الرؤوس لا الابدان ؟ .

وذكرت قرارات في غاية الخطورة وبالغ الاثر على بلاد وعباد تتخذ لاحصيلة نقاش ولا مشورة ولااكتراث برأي امة ، ولكن يبرمها فرد واحد .. وما اضعف مجتمعا مركوزا على فرد واحد .

وتأكدت لاللمرة الاولى بل للمرة المليون بعد المليون ان مفتاح الباب الذي يعبر بنا من حيث نحن الى حيث نريد يتلخص في كلمة واحدة هي « الحرية » .

ولقد جرب غيرنا الحرية فلم تؤذهم ، وأثراهم تباين الآراء والافكار ولم يفقرهم ...ومازال عدونا يعبث في ارضنا ويسخر التيار لصالحه ويكيل ويتبجح ، وحكومته تدين بكراسيها الى اغلبية صوت برلماني واحد ...

كنت في تلمذتي أردد مع جيلي قول جمال الدين الافغاني ان الشرق في حاجة الى مستبد عادل .. والآن تغيرت نظرتي الى الامور فايقنت ان المستبد لايمكن ان يكون عادلا ، وان امور الشعوب لايمكن ان تحملها كتفا مستبد ولاتحملها الا الشعوب . وان دولة تعقم فلا تنجب الا رجلا هو الكفء الوحيد على تسيير امورها لايمكن ان تجد لها مكانا بين الدول الا في الدرك الدون والمكان الحضيض .

الحاكم المثالي من كان أقوى من نفسه واكبر من الكرسي ، واكثر حبا لوطنه منه لشهوة السلطان ، واشد وعيا وحسا بان عمر الفرد لمحة خاطفة اذا قيس بعمر الوطن ، وان كل حال الى زوال وليت كل حاكم يعتبر بحكمة قرأتها منقوشة في قصر حاكم عربي « لو دامت لغيرك ما اتصلت اليك » . ■■

الآثار السلبية
لغزو العمالة الآسيوية للخليج والعالم العربى

بقلم الدكتور محمد الرميحى

نحن امام ظاهرة فريدة ليس في الخليج العربي فقط وانما في العالم ، تلك الظاهرة هى أن يكون المهاجرون اغلبية عددية في بلد ما . ففي معظم اقطار الخليج العربي اليوم تصل نسبة السكان الوافدين الى درجة الوضع الحرج ، السياسى أولا ثم الاجتماعى والثقافي والاقتصادى . على الرغم من ان هذه الظاهرة قد بدأت مع تدفق عائدات النفط الا انها اخذت منحنى خطيرا في السبعينات حيث اصبحت الاغلبية المهاجرة الى هذه الاقطار من ثقافات غربية كليا عن ثقافة المنطقة الخليجية العربية ، وهى ظاهرة مازالت في تزايد .

تقدر الارقام العامة الاولية المنشورة ان هناك حوالى خمسة ملايين عامل اجنبي في اقطار الخليج النفطية (اقطار مجلس التعاون) منها على الاقل ثلاثة ملايين ونصف مليون من المهاجرين غير العرب معظمهم من اقطار آسيوية .

ظاهرة الهجرة الأسيوية الى اقطار الخليج هى الآن (في اوائل الثمانينات) بحجم وكثافة لم يسبق لها مثيل ، وعلى الرغم من الكتابات الكثيرة في المجلات المتخصصة والسيارة ، والندوات العلمية التى عقدت لدراسة هذه الظاهرة في داخل المنطقة وخارجها ، والتوصيات التى انبثقت من الاجتماعات الرسمية للاجهزة ـ المختصة ـ بالرغم من كل ذلك فما زالت الظاهرة في تفاقم .

المهاجرون ايضا لهم قضيتهم سواء كانوا عربا أم اجانب وهى قضية تستحق ان تدرس وتقدم لها الحلول الا اننا بصدد الحديث في هذا المقال عن الغزو الودى الأسيوى لاقطار الخليج ، ما له وما عليه .

عوامل الجذب والطرد :

مجتمعات الخليج مجتمعات حديثة النمو ، متعددة التغيرات النفسية والاجتماعية ، وهي فقط في مدة لا تتجاوز ثلاثين سنة وجدت نفسها تتحول من تشكيل اجتماعى بسيط يعتمد على الرعى والزراعة والغوص على





اللؤلؤ الى تشكيل اجتماعي يعتمد على اقتصاد حديث ونام وهو النفط ادى الى انشاء علاقات اجتماعية معقدة . صاحبت هذا التغير ولاتزال مجموعة من المتغيرات الهيكلية التي ضربت البناء الاجتماعي بشدة ، ولا زلنا نلاحظ آثار هذا التغير ، ولكننا بعيدون عن رصد نتائجه النهائية حتى الآن . من عناصر هذا التغير التحول في التركيب السكاني ، فقله عدد السكان النسبي في هذه الاقطار وضخامة المشاريع التي اعتمدها هذه المجتمات لتطوير بنيتها الاساسية ، جعل تدفق اليد العاملة الأجنبية ظاهرة طبيعية . وقد حاولت هذه المجتمعات الاكتفاء في البداية عن طريق العمالة العربية المدربة او غير المدربة او عن طريق توطين أهل البادية . كان ذلك في الستينات من هذا القرن ، الا ان سرعة التطور ومساراته خاصة في بداية النصف الثاني من السبعينات فرض توجها آخر هو استيراد العمالة الأسيوية .

لقد ساعدت على هذا التوجه مجموعة من العوامل ، اولها ، القلة النسبية لعدد السكان المحليين (على الرغم من تزايد الهجرة من البادية الى المدن واستقرارها هناك) وكذلك قلة اليد العاملة المدربة وضعف التكوين العلمي والعملي لهذه الايدي العاملة كما ان التوظيف عند بناء الأجهزة الحكومية الجديدة ادت الى بطالة مقنعة كثيفة في القطاع الحكومي ، والمشترك . كما ادت الى انتفاء الاستخدام الأمثل لليد العاملة المحلية . وحتى القوة العاملة المدربة جزئيا (المتعلمة وشبة المتعلمة) وجدت طريقها الى التوظيف الحكومي السهل ، مما أدى الى ما يعرف اليوم (بالبطالة المقنعة) وهي تكديس موظفين في الوزارات والمصالح الرسمية فوق الطاقة والحاجة .

مجموعة هذه العوامل جعلت الطلب على الأيدي العاملة الأسيوية يبدو وكأنه أمر طبيعي ،

في مقابل ذلك فان هناك عوامل اخرى في بلاد المنشأ جعلت من توجه هذه الايدي العاملة الى منطقة الخليج العربي جزءا من استراتيجية متكاملة .

لقد تزامن اشتداد الطلب على الأيدي العاملة الأسيوية في الخليج مع تزايد البطالة في كثير من الدول الأسيوية ، نتيجة اسباب اقتصادية منها الوضع الاقتصادي الدولي ،

وكذلك سياسية ، وعلى الأخص تصفية القواعد العسكرية الامريكية في بعض بلدان جنوب شرق آسيا بعد انتهاء الحرب الفيتنامية سنة ١٩٧٥ ، فزادت البطالة مثلا في تايلاند بعد وقف حرب فيتنام ، حيث فقد آلاف العمال المهرة وشبه المهرة اعمالهم بعد اغلاق القواعد الجوية الامريكية في شمال شرق تايلند . عوامل الطرد هذه جعلت من فرص العمل في الخليج العربي لهؤلاء العمال فرصة ذهبية وهي ايضا فرصة ذهبية لحكومات دول المنشأ . فمن جهة امكنها التخلص من بطالة متزايدة بكل ما تعنيه من شرور اجتماعية واقتصادية في بلدانها ، ومن جهة ثانية الحصول على دخل خارجي من العملة الصعبة نتيجة تحويل ما يحصل عليه هؤلاء العمال من اموال الى بلدانهم .

تدويل الخليج بشريا :

الظاهرة التي ندرسها هي ليست ظاهرة اقتصادية فحسب ، ولا سياسية بل هي قبل كل ذلك انسانية . من هنا تأتي صعوبة تناول الموضوع فالمخاوف متعددة على رأسها المخاوف السياسية ، فالاعداد العمالية المتواجدة حاليا في الخليج تفوق مجموع اعداد ابناء المنطقة نفسها ، كما ان المخاطر الاجتماعية والثقافية ماثلة للعيان . لذلك ، فالأراء التي تطالب بترشيد استخدام العمالة الآسيوية تقوم بهذه المطالبة من قبيل دفع الضرر المحدق ، وتفادي وقوع الأسوأ لابناء المنطقة وعروبتها ، وليس من موقف القلبي ضيق أو اقتصادي محدود . ولكن ما هي تلك المخاوف وكيف تتجسد ؟

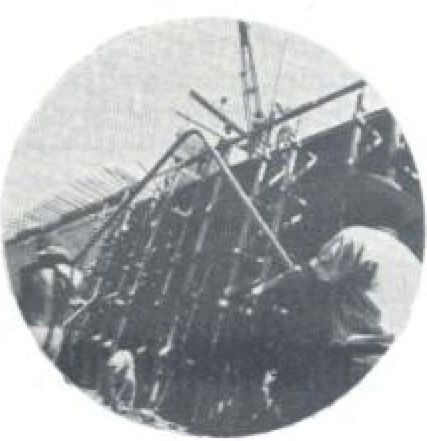
جملة من القضايا يمكن الاشارة اليها في هذا الصدد منها :

أ ـ القضية السياسية : تتزايد الاشارة الى الاخطار السياسية التي قد تمثلها هذه العمالة الاسيوية الآخذة في النمو في منطقة الخليج ، فهناك بعض الجاليات الآسيوية تتعدى مجموعها في بعض اقطار الخليج مجموعة السكان المحليين ، وبعض من هذه الجاليات تعيش في معسكرات عمل شبه عسكرية ، بجانب ذلك التخوف فالمصالح التي تتكون نتيجة التحويلات المالية الضخمة من المهاجرين الى بلدانهم من جهة ، وتخلص تلك البلدان من بطالة عمالية واسعة من جهة اخرى ، قد يترتب عليه بمرور الوقت بعض الحقوق لهذه الجاليات الكبيرة تضطر ان تدافع عنها بلدان المنشأ في المستقبل كحقوق قائمة ومستمرة وثابتة . واصبحت هناك اصوات من هذا القبيل تسمع في برلمانات وحكومات المنشأ تطالب بعدم تخفيض نسبة العمالة المهاجرة الى بلدان الخليج من بلادها ، وتطالب فوق ذلك بحقوق اخرى لا يرفضها في الواقع العملي الرأى العام العالمي . لقد شهدنا نمو هذا النوع من الحقوق بالتقادم الزمني لجاليات مهاجرة في بعض البلدان الاوروبية على الرغم من ان تلك الجاليات لا تكون الا نسبة ضئيلة من مجموع اعداد السكان .

وفي حالة اقطار الخليج فان تلك الحقوق العامة التي تكتسبها الجاليات المهاجرة تعني قلب التكوين السكاني رأسا على عقب ، ومحو عروبة وثقافة المنطقة وربما الى الأبد . ولدينا بعض المؤشرات اليوم حول هذا التطور المستقبلي .

لقد علق تقرير رسمي في تايلند على وضع العمالة التايلندية في الخليج بقوله . . . (ان الأوزة التي تضع ذهبا يجب ان توضع تحت رعاية مناسبة) . ويناقش البرلمان الهندي بين فترة واخرى وضع العمالة الهندية في الخليج ، كما ان هناك تقارير بدأت تنشر وبعضها من منظمات دولية عن وضع العمالة الآسيوية في الخليج ، على سبيل المثال ، منها تقرير صادر عن جمعية (معادات الرق وحماية حقوق الانسان) . وهي منظمة غير حكومية مقرها في لندن ، كلها اشارات الى الاستخدام السياسي الذي يمكن ان يستثمر ، ان استمرت فوضى استخدام العمالة الآسيوية دون ضابط او رقيب ، حتى تصل الأمور الى درجة ان اى قرار يتخذ في هذا الموضوع الحساس في اتجاه ترشيد العمالة ، قد يكون عندها غير قابل للتطبيق

(ب) القضية الاقتصادية : هناك نسبة كبيرة من العمالة الآسيوية في الخليج هي في الحقيقة ترف حضاري ـ فتقدر بعض الدراسات ان ثلث العمالة الآسيوية هي من خدم المنازل والمربيات والسائقين الخصوصيين وعمال



المطاعم والفنادق وعمال التنظيف ، وهذه كلها أعمال غير فنية يمكن رسم سياسات باتجاه الاستغناء عنها او على الاقل الحد منها ، إما عن طريق ترشيد استخدامها او من خلال « ميكنة » بعض هذه الاعمال . كما ان هناك قطاعات من العمال الأسيويين خاصة في مجال البناء والتشييد لا يستفيد الاقتصاد المحلي منهم قيد أنملة ، فهم يعيشون في مجمعات عمل خاصة بهم ، وتجلب لهم كل ما يحتاجونه من مواد استهلاكية من بلدانهم الاصلية ، ولا يستفيد منهم السوق المحلي الا في النزر اليسر ، وفي مقابل ذلك فان (الدولة) في الخليج تتكلف من تواجد هذه العمالة مصاريف باهظة نتيجة الضغط على الخدمات التي تقدمها الى هذا القطاع ، والذي يستخدم المنشآت العامة والطرق ، ووسائل النقل والمؤسسات الصحية واماكن الترفيه . ومعظم هذه الخدمات قد صممت لاستيعاب قدر معين من الناس ، وعندما تقوم العمالة الأسيوية باستخدامها ـ بالطبع انسانيا لا يمكن منعها من ذلك الاستخدام ـ تكون النتيجة ان يتدنى مستوى الخدمات العامة نتيجة كثافة ذلك الاستخدام . كما أنه في نفس الوقت يحرم المواطن من تطويرمثل هذه الخدمات مثل وسائل العلاج وتوفر اسرة المستشفيات . . الخ من الخدمات عدا الضغط على خدمات مثل الماء ـ والذي هو في شح نسبي ـ والكهرباء الباهظة التكاليف . ولو أن البعض لا يرى هذه المصاريف الباهظة غير المنظورة والتي بسببها تضخم استيراد العمالة الأسيوية .

(جـ) القضية الصحية والاجتماعية والثقافية : امراض جديدة بدأت تغزو المنطقة وبعضها عاد اليها من جديد بعد ان اعلن عن استئصاله . من الامراض المستجدة مرض الجذام الجلدي (جريدة الاتحاد ٢٠ / ٩ / ١٩٨١) ومن الامراض العائدة مرض السل الرئوي ، واذا تذكرنا ان الكثير من العمال الأسيويين يعملون في المنازل او في الاماكن التي تقدم الطعام كالمطاعم والفنادق ، تبين لنا خطورة الوضع الصحي . تزداد تلك الخطورة نتيجة سكن هؤلاء العمال في مساكن ـ في الغالب ـ غير صحية واعتمادهم على وجبات قليلة من الطعام وغير مغذية . من اجل زيادة ما يوفرونه من مال ، اضافة الى كل ذلك تدني الوعي الصحي لدى قطاعات كبيرة منهم حيث تعودوا في بيئتهم الاصلية ونتيجة الى الجهل وقلة الامكانيات على عادات صحية واجتماعية مضرة صحيا .
كما ان العادات الاجتماعية التي تنقلها هذه العمالة تؤثر تأثيرا كبيرا على قطاعات هامة من المجتمع العربي في الخليج ، خاصة الاطفال ، والشباب من خلال المربيات والخدم والسائقين . عدا التأثيرات النفسية والاجتماعية الاخرى الناتجة من تواجد قطاعات ضخمة في المجتمع من الرجال العزاب اليافعين . وتزدهر انواع معينة من الجرائم في هذه المجتمعات المهاجرة المحصورة كمتعاطي المخدرات والخمور بجانب انتشار الجرائم الاخلاقية والسرقة مما يشغل الجهات الأمنية ، بل وحتى الجريمة المنظمة التي يكون الدافع لها الطموح الشخصي ، حيث يندفع بعض الوافدين الأسيويين الى القتل في بعض الاحيان للحصول على المال .

ويمكن ان تعبر اعلانات (خرج ولم يعد) التي تنشر في الصحف اليومية في الخليج عن ازمة البحث عن مكسب اكبر ، عندما يترك العامل الأسيوي مقر عمله الذي استقدم من اجله كي يبحث عن عمل آخر فيه مردود مالي افضل . وتحمل العمالة الأسيوية العادات والقيم والثقافة بمعناها العام معها الى مجتمعات الخليج العربي الحديثة والناشئة فيتكون من جراء ذلك اختلاط ثقافي غريب من اللغات واللهجات والعادات والتقاليد تجعل من بعض المظاهر الثقافية مسخا ، فلا هو بعربي ولا هو بآسيوي بل خليط من هذا وذاك .

عربي أم غير عربي

من المظاهر المهمة المصاحبة للعمالة الآسيوية في الخليج العربي دفاع بعض المواطنين عن تواجدها من خلال منظور مصلحي خاص ، ففي كثير من التحقيقات الصحفية المحلية تجد ان بعضا من المقاولين في القطاع الخاص وبعضا من المواطنين يدافعون عن تواجد العمالة الآسيوية حتى غير المدربة والتي تشكل عبئا على الاقتصاد الوطني وعلى التنمية بشكل عام ، يدافع هؤلاء عن تواجد العدد الهائل من العمالة الاجنبية من منطلق المصلحة الخاصة ، وكمثال على ذلك ما أوردته جريدة (الاتحاد) الصادرة في دولة الامارات العربية المتحدة (عدد ٢ يوليو ١٩٨١) حيث تكلم عدد من المقاولين المحليين في ذلك اللقاء ، وقدموا اسبابهم لتفضيل العمالة الآسيوية ، من هذه الاسباب ان تلك العمالة تقبل بمرتبات اقل ، ولا تبدى اية ملاحظات على ظروف العمل ، او مكان الاعاشة ونوعية الطعام . . بعكس العامل العربي . . الذي يدقق في كل شيء ، ولا يسكت عن اي وضع غير ملائم !!

هكذا يرى بعض من يفضل العمالة الآسيوية الاسباب التي تدفع الى استمرارها وتكاثرها ، وتأتي على رأس قائمة التفضيل رخص تكاليف اليد العاملة الا ان ذاك الرأى يبقى مصلحيا وشخصيا حيث لا يحسب الثمن الاجتماعي والاقتصادى الباهظ الذى يدفعه المجتمع ككل نتيجة لتوفير جزء من التكاليف الشخصية على بعض افراد المجتمع بجانب الخسارة التى يتحملها الوطن العربي من جراء فقدان دخل يأتي من تشغيل يد عاملة عربية محتاجة الى ذاك الدخل . وكذلك فان الخسارة التى تتحملها الاقطار الخليجية في تحويل التكنولوجيا التى تشترى من الغرب باثمان باهظة الى العمال الآسيويين دون ان يستفيد منها العامل العربي او المحلى هي خسارة باهظة رغم كونها غير منظورة .

من الملاحظ ان الاقبال على اليد العاملة الآسيوية لا يأتي فقط من الافراد او الشركات المحلية المتوسطة والصغيرة العاملة في قطاع البناء والانشاء ، انما ايضا من الشركات الغربية التى تحصل على عقود عمل ضخمة من اقطار الخليج . فهى تتوجه من اجل تضخيم الفائدة العائدة عليها الى الاقطار الآسيوية لجلب العمالة الماهرة من جهة والرخيصة من جهة اخرى حيث لا تتقيد بقوانين عمل او حقوق متوسطة المدى لهذا النوع من العمالة وبالطبع ذاك يساعد دون العناية بالعمالة المحلية او العربية . وكذلك تتوجه بعض المؤسسات الرسمية في الخليج لتلبية حاجاتها في قطاعات فنية معينة الى ذلك السوق الرخيص ، فيغرق الخليج في عمالة اجنبية متنوعة وتحول الموارد المالية الى الاقطار غير العربية المصدرة للعمالة .

قطر آسيوى مثل (تايلند) يصل ما يحول اليه من الخليج سنويا في السنوات الثلاث الاخيرة من السبعينات الى خمسمائة مليون دولار . وتأتى تلك التحويلات في المرتبة السادسة من مصادر الدخل القومي التايلندى . واذا عرفنا ان العمال التايلنديين ليسوا هم اكبر الجاليات الآسيوية في الخليج ، تبين لنا الاعتماد الكبير على مصادر التحويل الخارجية لهذه الاقطار الآسيوية على العمالة المصدرة الى اقطار الخليج . في بعض دول المنشأ المصدرة للعمالة من يشكو أن العمال المهاجرين يعودون الى بلدانهم الاصلية بوسائل مالية اكبر وعادات جديدة ، تختلف عما الفه المواطن الآسيوى العادى في بلده ، وهذا يفسر ظاهرة تهرب العمال الذين تنتهي مهامهم من العودة الى بلدانهم الاصلية ، فهم يتنقلون من مكان في الخليج الى آخر حتى لو استدعى ذلك التهرب من قوانين الاقامة والعمل الامر الذى يزيد من حدة التوتر الاجتماعي .

وتزدهر اعمال (الكفالات) التى بموجبها يجلب المواطنون العمالة الآسيوية ، وليس بالضرورة لتشغيلها في منشآت تابعة لهم ، او في اعمال خاصة بهم وانما يجرى تأجيرهم من الباطن او اطلاقهم في السوق المحلى على أن يدفعوا جزءا من دخلهم لهذا المتعهد . ويتصاعد الطلب على العمالة الآسيوية في جميع اقطار الخليج الى درجة انه حتى البلدان الغنية بالعمالة المحلية نسبيا في المنطقة بدأت مؤشرات احصائية فيها تشير الى ان العمالة الآسيوية سوف تفوق عدد السكان المحليين في التسعينات (احصاء ١٩٨٠ في البحرين . وتشير المؤشرات الاحصائية الاخرى بنفس الاتجاه في بقية بلدان المنطقة .

ان هناك نقصا مزمنا في قوة العمل المحلية ، وتزايدا مستمرا في قوة العمل الوافدة مما يطرح علينا سؤالا كبيرا وهو ماذا سوف تؤدى اليه هذه العمالة الاجنبية المتزايدة ؟ بالطبع سوف تؤدى الى زيادة في التوتر الاجتماعي والتلون الثقافي الشديد ، كما سوف تؤثر على خطط التنمية .

لقد بدأ البعض يتساءل ما هي اهداف التنمية في منطقة الخليج ، ومن يستفيد منها في الواقع العملي بعد دخول العمالة الأجنبية مجالات اقتصادية جديدة كانشاء وكالات الخدمات والمقاولة من الباطن ، وفتح المحلات التجارية اى الاستقرار شبه الدائم . ثم اذا اعتمد المجتمع في تقديم خدماته الاساسية على اليد العاملة الوافدة والبعيدة عن ثقافته وحضارته فكيف يمكن ان يستمر في الاعتماد على ذلك .

ان استمرار (عقدة الخواجة) واحتقار العمل اليدوى من جماعات محلية واسعة ، لن يؤدى الى قيام اليد العاملة المحلية بالاعمال التي تقوم بها اليد العاملة الوافدة ، وسيظل الاعتماد المرفه على تلك اليد العاملة لفترة طويلة حتى الوصول الى الدرجة الحرجة .

يتواجد اليوم على ارض الخليج حوالى عشر جنسيات آسيوية مختلفة متفاوتين في اللغة والثقافة والدين ، وبينهم اكثر من لهجة ولغة وديانة ، ويتخصص بعضهم في اعمال معينة (خدم للمنازل) كالهنود والسيلانيين ، والفليبيين في اعمال الفنادق والكوريين في اعمال الانشاء . وقد درست هذه الظاهرة على جميع المستويات السياسية والاكاديمية الى درجة ان بعض المجالس التشريعية قد خصصت فيه جلسات خاصة لمناقشة الموضوع (المجلس الوطني الاتحادى في دولة الامارات ، الاتحاد ٢٤/٣/١٩٨١) الا ان سياسة موحدة وايجابية لم يتوصل اليها بعد . والموضوع في اساسه قرار سياسي وتخطيطي من الدرجة الاولى ، فاذا اتخذ قرار بترشيد هذه العمالة واستخدامها بشكل افضل بالتنسيق مع امكانيات العمالة العربية والمحلية نكون قد وضعنا ايدينا على مفاتيح الطريق السليم لتفادى كارثة حضارية قد تبدأ فقط بغزو ودى ■■

بين سقراط وتلميذه

● قال سقراط لاحد تلاميذه : « يجب ان تتزوج يابني ، فانك ان ظفرت بزوجة طيبة عاقلة صرت سعيدا .. وان اخذت زوجة طائشة مناكفة صرت فيلسوفا ! ... »

سيدة وسيدة

● السيدة الظريفة هي التي تكون روح الحفلة اثناء وجودها فيها ..

السيدة الثقيلة هي التي تصبح روح الحفلة بعد ان تغادرها .

السيدة الاولى يكون الحديث « معها » عذبا شهيا ، اما السيدة الثانية فيكون الحديث « عنها » اعذب واشهى !

خرافة الحاجات الإنسانية غير المحدودة

بقلم : الدكتور جلال أحمد أمين

لا أعتقد أن أحدا ممن يشتغلون بأي علم من العلوم الاجتماعية سوف ينكر أن وراء ما يطرحه من نظريات تكمن دائما افتراضات خفية ، لا يذكرها صراحة ، ولكنه سلم بها تسليما مسبقا ، ويتركها تتحكم في تفكيره واستنتاجاته .

من بين هذه الافتراضات الخفية في علم الاقتصاد ان الانسان يفضل دائما أن يحوز كمية من السلع والخدمات أكبر مما يحوزه بالفعل . فهو يعتبر من قبيل المسلمات انه ، كما أن العدد ٤ أكبر من ٣ ، فان العدد ٤ هو أيضا « أفضل » من العدد ٣ ، اذا تعلق الأمر بما يحوزه الفرد أو المجتمع من السلع المادية أو الخدمات .

واذا كان الاقتصادي نادرا ما يذكر ذلك صراحة ، فان هذا الاعتقاد يكمن وراء كثير من أفكاره ونظرياته .

تجد هذا الافتراض كامنا ، مثلا ، وراء تعريف الاقتصادي لعلمه ابتداء . فالتعريف الشائع لعلم الاقتصاد هو أنه ذلك العلم الذي يبحث في التوفيق بين الموارد المحدودة والحاجات الانسانية « غير المحدودة » . فهذا التعريف نفسه يقوم على افتراض ان ليس هناك حدود لما يحتاجه الانسان ويطلبه ، وانه مهما بلغ دخل الفرد فانه لن يكف ابدا عن طلب المزيد ، أو انه على الأقل لن يرفض المزيد منه . وما كان الأمر ليكون كذلك لولا ان الفرد يفضل دائما المزيد من السلع .

لكل معدة حدود

وهذا الافتراض يكمن أيضا وراء كل نظريات التنمية الاقتصادية . فرفع معدل النمو ينظر اليه الاقتصادي دائما على أنه شيء مرغوب فيه ، على افتراض ان ما ينطبق على الفرد ينطبق ايضا على المجتمع : كلما زادت السلع زادت الرفاهية . وحتى اذا أبدى الاقتصادي تحفظا ، وهو أمر نادر الحدوث ، حول أثر ارتفاع معدل التنمية على الرفاهية ، فتحفظاته لا تتضمن خروجا عن افتراضه الاساسي هذا . فهو قد يتحفظ مثلا على رفع معدل التنمية اذا أضر الامر بعدالة توزيع الدخل ، ولكن هذا لا يتعدى القول بأن زيادة الدخل لبعض الأفراد (الفقراء) أهم من زيادة الدخل لغيرهم . أما الغرض الاساسي ، وهو ان الجميع

يرجبون بالمزيد من السلع . فيا يزال قائما لا يمس .

قد تذكر الاقتصادي ما أشار اليه ابو علم الاقتصاد نفسه ، آدم سميث ، من ان هناك حدودا لما يمكن ان تستوعبه المعدة الانسانية ، قاصدا ان هناك حدودا لما يمكن ان يطلبه المرء من الغذاء . ولكن الاقتصادي يجد من السهل الرد على هذا بقوله انه ، حتى فيا يتعلق بسلعة ضرورية كالغذاء ، نجد الانسان لا يكف عن التفنن في تحسين نوع غذائه وتطوير الخدمات المتصلة به . فهو بعد ان يتناول انواع الغذاء الضروري ، يلجأ الى اضافة كماليات الغذاء ، ثم يتفنن في ابتداع وسائل جديدة لاعداده وتناوله ، ثم يلجأ الى تناول غذائه في المطاعم التي تتفنن بدورها في ابتداع مختلف أنواع الخدمات الجديدة المصاحبة لتناول الطعام ، من اختيار طريقة تنسيق الموائد الى اختيار زي الخدم الذين يقدمون الطعام ، الى عزف الموسيقى اثناء تقديمه ...الخ . قد يكون هناك حدود للمعدة الانسانية حقا ، ولكن هذا لا يعني ان هناك حدودا لقدرة الانسان على الاستمتاع بالطعام . أو هكذا يقول لنا الاقتصادي . فاذا كان هذا صحيحا بالنسبة لشيء يتعلق بحاجات الانسان البيولوجية ، فيا بالك بالآلاف المؤلفة من السلع والخدمات التي تثير خيال الانسان وعواطفه التي لا يمكن ان نتصور لها نهاية .

من الواضح إذن ان اثارة الشك في صحة هذا الافتراض وواقعيته من شأنها ان تثير الشك في كثير مما يقدمه لنا الاقتصادي من نظريات وما ينصح به من سياسات . فهل لنا أن نحاول اختبار مدى صلابة هذا الاساس الذي تستند اليه كثير من النظريات والسياسات الاقتصادية ؟

دعنا نبدأ على الفور بالزعم بأن العكس تماما قد يكون هو الصحيح . وهو ان هناك حدودا لقدرة الانسان على الاستمتاع ، ليس فقط بأية سلعة أو خدمة على حدة ، بل بكل السلع والخدمات مأخوذة ككل . لقد دأب الاقتصادي على التسليم بذلك فيا يتعلق بأية سلعة أو خدمة منظورا اليها على حدة (فقال بقانون تناقص المنفعة الحدية) ولكنه يفترض عكس ذلك فيا يتعلق بقدرة الانسان الكلية على الاستمتاع . على ان لدينا من الدلائل ما يشير الى ان ما ينطبق على سلعة واحدة ينطبق أيضا على السلع جميعا مأخوذة ككل .

تشكيك في افتراض الاقتصادي

دعنا نلاحظ أولا ان التأمل الذاتي ، اي ملاحظة كل منا لنفسه قد تؤيد هذا الذي نزعمه . وسأضرب مثلا بنفسي ، على ان لدي ميلا قويا الى الاعتقاد بأن ما ينطبق علي في هذا الصدد ينطبق على غيري أيضا . لقد بدأت حياتي طالبا ثم أصبحت استاذا ، وتزوجت وأصبح لي أطفال ، وعشت في أكثر من بلد ، ومررت مثل غيري بتجارب ناجحة وأخرى فاشلة ، وبفترات أعوزني فيها المال وأخرى من بحبوحة العيش . فاذا بي أجد ان قدرتي على الاستمتاع بالحياة لم تتعد حدا معينا في جميع الظروف ، لم يتغير كثيرا مع تغيير ظروف حياتي العائلية أو العلمية أو المالية ، ومع اختلاف البلاد التي عشت فيها ، كما أن قدرتي على المعاناة لم تتعد ايضا حدا معينا . ألا يصح لي أن افترض اذن ان لدى كل امرىء منا طاقة معينة لا يستطيع تجاوزها من حيث القدرة على الاستمتاع والقدرة على المعاناة أو ان لكل منا حدا اقصى لما يمكن ان يجنيه من الحياة من متعة وحدا أقصى لما يمكن أن يصل اليه من الشعور بالألم .

ثم دعنا نتساءل ثانيا : الا تؤدي بنا الى نفس النتيجة ملاحظتنا لاصدقائنا ومعارفنا وذوينا ؟ الا نميل مثلا الى ما يشبه القطع بان فلانا ذو قدرة عالية على التمتع بالحياة ، نلمسها في تفاؤله المستمر او سهولة اثارته ، أو صبره على الوحدة أو على العوز المادي ، وآخر ذو مزاج سوداوي ، قليل المرح ، مائل الى الحزن والتشاؤم ، قليل الصبر على نوائب الحياة ؟ وما الذي تعنيه هذه الملاحظة الا ان الناس تتفاوت في قدراتهم على الاستمتاع وعلى التألم ، ولكن لكل منهم بدوره حدا اقصى لهذه القدرة لا يستطيع تجاوزه ؟

ثم فلنتساءل ثالثا : بل كيف يكون الأمر غير ذلك ونفس الانسان يسكن جسدا محدودا بأبعاد معينة وطاقات لا يستطيع تجاوزها ؟ فليست المعدة الانسانية وحدها ذات أبعاد محدودة ، بل ايضا ذراعاه وساقاه وصدره ودماغه . فاذا كان يستمتع بالسير على قدميه فان هناك حدودا لطاقته على السير ، واذا كان يستمتع بالقراءة أو الحديث فان هناك حدودا لهذا الاستمتاع ايضا ترسمها حدود ذكائه وفهمه وخياله .

قد يكون صحيحا ان الثراء والدخل لا حدود لها حقا ، اللهم الا ما قد تتسع لقيده دفاتر البنك ، وقد لا يكون هناك حدود لما يمكن ان يحصله الفرد من علم اللهم الا ما قد يكون للذاكرة الانسانية من حدود ، أما قدرة الفرد على الاستمتاع بهذا أو بذاك أو بغيرهما فالارجح انها محدودة بنفس ما يحد قدرات الانسان العادية والعقلية والعاطفية .

بل أي شيء أوضح من أن حياة الانسان نفسها محدودة بزمن معين ، أي ان الوقت المتاح للانسان ، وهو مورد يعتبره الاقتصادي لازما لاستهلاك اية سلعة أو خدمة ، هو أيضا مورد محدود ، ولكن كونه محدودا يضع بدوره حدودا على « الحاجات الانسانية » وقدرة الانسان على الاستمتاع بأي مورد آخر . ان هذا قد يسمح لنا بأن نذهب الى حد القول بأن قول الاقتصادي « ان الموارد المتاحة محدودة ولكن الحاجات الانسانية غير محدودة » يتضمن تناقضا من حيث ان واحدا من أهم الموارد اللازمة لاشباع الحاجات الانسانية ، وهو الوقت ، تضع أيضا حدا للحاجات الانسانية نفسها .

انه متى وصلنا الى هذه النقطة في التشكيك في افتراض الاقتصادي انه ليس هناك حدود للحاجات الانسانية ، وجدنا ان الاستعاضة عن هذا الافتراض بالفرض المعاكس وهو ان لكل انسان قدرة محدودة على الاستمتاع (وعلى الألم ايضا) من شأنه ان يلقي ضوءا جديدا على بعض الظواهر التي يتجنب الاقتصادي عادة مناقشتها ، بدعوى انه لا سبيل للحديث حديثا علميا عنها ، أو يتخذ منها موقفا نجده ممجوجا وسخيفا بسبب اصراره على التمسك بافتراض قدرة الانسانية اللانهائية على الاستمتاع بالحياة .

من ذلك مثلا ما نلاحظه ونذكره في حديثنا العابر من ان زيادة ما يحوزه الفرد من سلع كثيرا ما لا تقترن بزيادة درجة سعادته . ونحن كثيرا ما نذكر هذه الملاحظة على استحياء قد يكون مبعثه الخشية من ان نتهم بالحسد أو الغيرة ، أو قد يكون مبعثه قوة الاعتقاد الشائع بان « زيادة السلع خير من قلتها » او اصرار الثري على التظاهر بأنه أكثر استمتاعا بالحياة من الاقل ثراء ، كما قد يكون مبعثه ان هذا النوع من الملاحظات ليس هناك وسيلة لاثبات صحته أو خطئه بسبب صعوبة أو استحالة قياس درجة الاستمتاع بالحياة أو السعادة . على ان هناك بعض الاحصاءات التي قد تعطي بعض التأييد لهذه الملاحظة العابرة . ليس هناك بالطبع أي نوع من الاحصاءات التي يمكن ان تدلك على ما اذا كان الناس في مجتمع معين كانوا أكثر أو أقل سعادة في وقت معين عما كانوا في وقت سابق ولكن يمكننا ان نسأل فردا او مجموعة من الافراد عما اذا كانوا يعتبرون انفسهم أكثر أو أقل سعادة بين تاريخين ، مع اتخاذ اجاباتهم كمؤشر تقريبي للغاية ، ولكنه أفضل من عدمه ، عن حقيقة شعورهم . وهذا هو ما قام به بالفعل بعض علماء النفس في الولايات المتحدة ، اذ قاموا بعشرة استقصاءات على فترات منتظمة في الفترة فيما بين ١٩٤٦ و ١٩٧٠ ، سئلت فيها عينة عشوائية كبيرة من الافراد ، تنتمي الى فئات مختلفة من الدخل والى مهن مختلفة ، السؤال الاتي : « اي وصف من الاوصاف التالية تعتبره أقرب الى وصف حالتك : سعيد للغاية - سعيد الى حد ما - لست سعيدا جدا - لست سعيدا على الاطلاق ؟ » فاذا بالنتيجة ان نسبة الاجابات التي يصف أصحابها أنفسهم بأنهم سعداء للغاية ، او سعداء الى حد ما ، او ليسوا بسعداء جدا ، لم يلحقها اي تغير يذكر طوال فترة الخمسة والعشرين عاما المذكورة . وهي نتيجة ملفتة للنظر خاصة اذا عرفنا انه خلال هذه الفترة زاد متوسط الدخل الحقيقي في الولايات المتحدة بنحو ٦٢٪ . ألا يمكن ان نجد في هذا بعض التأييد لافتراض ان قدرة الانسان على الاستمتاع بالحياة لها بالفعل حدود لا يمكن تجاوزها ؟

ولكن اذا كان هذا الذي نقوله صحيحا ، كيف لنا ان نفسر اقبال الناس اقبالا لا حدود له على زيادة دخولهم ، وانكباب الدول على رفع معدل النمو ، مهما كان المستوى الذي يبدأون منه مرتفعا ؟ بعبارة أخرى : ما جدوى ان نصب المزيد من الشراب في اناء ممتلىء ؟ اليس هذا هو التبديد بعينه ؟

تفسير ذلك في اعتقادي هو ان المجتمعات الغنية ـ كالأفراد الاثرياء سواء بسواء ـ غير قادرة على رؤية عشرات الثغرات والثقوب التي يتسرب منها الشراب ، فلا الاناء يمتلىء ولا نحن نكف عن صب مزيد من الشراب في محاولة لا جدوى منها لزيادة مستوى رفاهيتنا ؟

زيادة السلع : ماذا تعني ؟

ان ابسط مثال لهذا التبديد هو ما تخلقه زيادة السلع والخدمات نفسها من ارهاق وتفقات نفسية واجتماعية لا يمكن التخلص منها الا بانتاج المزيد من السلع والخدمات . فتزايد عدد السيارات مثلا يخلق من المشكلات الناجمة عن الازدحام والضوضاء والتلوث ما لا يمكن تلافيه ، ولا يمكن تلافيه على الاطلاق ، الا بتشييد مزيد من الطرق والجسور ، ومضاعفة عدد اشارات ورجال المرور والقائمين باصدار رخص السيارات ورجال الاسعاف ...الخ . والامعان في انتاج مختلف السلع التي لا هدف منها الا تخفيض العمل العضلي ، كمختلف وسائل المواصلات والمصاعد الكهربائية والسلالم المتحركة والمكانس الاتوماتيكية وغيرها من الادوات الكهربائية المستخدمة بالمنزل ،

تخلق بدورها الحاجة الى مختلف انواع السلع التي لا هدف منها الا تعويض الخسارة الناجمة عن تخفيض النشاط الجسماني ، كمستلزمات الالعاب الرياضية والرحلات وأنواع الغذاء المضادة للسمنة ، والادوية المعوضة عما فقده الانسان من صحة نتيجة الامعان في استهلاك وسائل الراحة ...الخ . وهكذا نجد ان زيادة الكميات المنتجة من هذه السلع التي تقوم بمهمة تعويضية بحتة ، لا تتضمن في الواقع اضافة الى الرفاهية بل تقتصر مهمتها على محاولة الابقاء على مستوى الاشباع السابق . انها لا تزيد الاناء امتلاء بل تعويض عما شرب منه . وهنا ينطبق على التنمية ما قيل مرة عن الزوجة . فكما ان الزوجة ، على حد تعبير زوج ماكر ، هي خير من يشاركك في تحمل المتاعب التي ما كانت لتوجد لولا الزواج ، فان التنمية الاقتصادية هي خير علاج للمشاكل التي ما كانت لتوجد اصلا لولاها !

على انه ليس هناك في الحقيقة نهاية لما يمكن تعداده من امثلة على انتاج لا يزيد من مستوى الرفاهية بل يعوض عما فقد من انتاج قديم . فهناك العديد من السلع التي تفتل هي نفسها ما كانت تولده سلع اخرى من منفعة ، ومن ثم فهي لا تضيف الى الرفاهية بل تحل مصدرا جديدا محل مصدر قديم لنفس الدرجة من الاشباع . ولعل أوضح مثال لذلك ما يترتب على التغير المستمر في الموضات ، في الازياء والسيارات والاجهزة الكهربائية ...الخ . اذ تؤدي الموضة الجديدة الى الاستغناء عن الموضة القديمة دون اية زيادة واضحة في الرفاهية .

أو فلنتأمل اقبال المرء ، عندما يزيد دخله أو ثروته عن حد معين ، الى الاقبال على انواع من المخاطرة والمغامرة ما كان ليخطر بباله القيام بها عند مستويات أدنى من الدخل . فالاقبال على المقامرة مثلا يمكن النظر اليه على انه محاولة يائسة من الرجل الثري لزيادة رفاهيته ، فيقوم بتعريض نفسه عمدا للالم المرتبط بانعدام اليقين بما اذا كانت عجلة الروليت سوف تستقر عند اللون الاحمر ام الاسود ، ثم بتعريض نفسه عمدا ايضا للخسارة ، بجلوسه ابتداء الى مائدة القمار ، طمعا في ان يفوز بلذة تعويضها ! وكأني بالمقامر ، وقد حار في الاهتداء الى استخدامه لامواله يزيد مباشرة من رفاهيته ، ومتعه ثراؤه نفسه من عدد من مصادر المتعة الاخرى ، كمتعه السير على الاقدام مثلا ، أو المتعة المستمدة من العمل لكسب الرزق ، لم يجد أمامه من وسيلة للحصول على متعة جديدة الا بتعريض نفسه للالم أملا في الاستمتاع بالقضاء عليه .

بل ان بامكاننا النظر الى الحملات الدعائية للسلع الجديدة على انها تؤدي في المجتمعات الثرية وظيفة مماثلة لتلك التي تؤديها المقامرة . فهذه الحملات تتعمد هي ايضا خلق شعور بعدم الرضا لا يزول حتى يقوم المتعرض لهذه الحملات بشراء السلعة الجديدة المعلن عنها . وكأن وظيفة هذه الحملات هي افساح مجال جديد تحتله السلعة المراد بيعها في « اناء » المستهلك ذي القدرة المحدودة على الاستمتاع ، ولا يتم خلق هذا المكان الجديد الا بتخفيض مستوى الاستمتاع الذي كان قد بلغه المستهلك من قبل . هذا الشعور بعدم الرضا قد يتم خلقه عن طريق اشعار المستهلك بالخجل من نفسه أو بالغيرة من غيره اذ يرى عن طريق الاعلان ، ان الناس من حوله قد بدأوا يستهلكون تلك السلعة التي لم يبدأ هو في استهلاكها بعد . او عن طريق اشعاره بالتقصير في اداء « الواجب » اذا لم يقم باستهلاك السلعة او الخدمة المعلن عنها ، كالاعلان عما يمكن ان يقدمه الزوج لزوجته في عيد زواجهما ، او عما يمكن ان يقدمه الابن لامه في عيد الام ، او عن شراء بوليصة للتأمين على الحياة لصالح الاولاد ، او عن المكان الذي « يجب » ان يقضي فيه عيد رأس السنة ...الخ .

أشباع الحاجات الاساسية

وحيث ان الوقت المتاح للمستهلك « للاستمتاع » بكل هذه السلع والخدمات هو بالضرورة محدود بعدد الساعات التي يستطيع المرء ان ينفقها كل يوم على الاستهلاك ، بعد طرح ساعات النوم والعمل ، فان اضافة سلع جديدة الى ما بحوزته لابد ان يكون على حساب الوقت الذي ينفقه في الاستمتاع بالسلع القديمة . يكفي ان نذكر انفسنا بمن نصادفه من افراد تراكمت لديهم السيارات او المنازل او قطع الاثاث التي لا يكاد اصحابها يتذكرونها ، بل ان يستعملوها ، وكلهم ينطبق عليهم المثل الدارج « عين الانسان أكثر اتساعا من معدته » بل اننا جميعا في مواجهة السلع الاستهلاكية كالمتضور جوعا قبل جلوسه الى مائدة الطعام ، نتصور بسبب ما نشعر به من جوع ان قدرتنا على استهلاك الطعام هي قدرة غير محدودة ، ثم سرعان ما نصاب بخيبة الامل ! اذ نكتشف ان هذه القدرة محدودة للغاية ، وان التهام صنف من الطعام لابد ان يكون على حساب صنف اخر . ولعل تصوير الاقتصادي لقدرة الانسان على الاستمتاع وكأنها قدرة لا حدود لها كان مفهومها في عصر كان الانسان فيه بالفعل « يتضور جوعا » اذ لم تكن الحاجات الانسانية الاساسية لغالبية الناس ، قد تم

اشباعها بعد . ولكن هذا التصوير اصبح من الضروري طرحه جانبا بعد ان تكررت تجاربنا ومشاهداتنا للمجتمعات المسماة بمجتمعات الرخاء ، حيث رأينا تكرار الشعور بخيبة الامل في ان يزيد مستوى الاشباع عن حدود معينة .

لقد شاع في السنوات الاخيرة في بعض دوائر الاقتصاديين استخدام شعار « اشباع الحاجات الاساسية » ومؤداه أن التركيز في عملية التنمية يجب الا يكون على مجرد زيادة متوسط الدخل للمجتمع ككل ، بل على اشباع الحاجات الاساسية لأشد فئات المجتمع فقرا ، كالمأكل والملبس والمسكن ، على اساس ان القضاء على أشد صور الفقر قسوة هو اولى الاهداف بالاهتمام ، وان زيادة متوسط الدخل للمجتمع ككل لا تتضمن بالضرورة تحقيق هذا الهدف ، اذ قد تذهب زيادة الدخل لمن كانوا يتمتعون بالفعل بمستويات عالية من المعيشة . على ان هذا الشعار لم يجتذب حتى الان الا عددا محدودا من الاقتصاديين ، ولا يزال الجزء الاكبر من الاقتصاديين الاكاديميين في الغرب وفي بلادنا على السواء يعتبر رفع هذا الشعار أقرب الى التعبير عن عاطفة نبيلة منه الى العلم . والراجح لدي ان سبب نفور معظم الاقتصاديين الاكاديميين في الغرب من هذا الشعار هو نفسه سبب نفورهم من اثارة اية دعوة الى اعادة توزيع الدخل ، وهو الاعتقاد المتأصل لديهم منذ زمن طويل باستحالة المقارنة بين مستويات الاشباع العائدة على افراد مختلفين . فمنذ وقت طويل والاقتصادي الغربي يرفض القول بان اعادة توزيع الدخل من الاغنياء الى الفقراء من شأنه زيادة مستوى الاشباع للمجتمع ككل ، من حيث ان المنفعة العائدة من جنيه اضافي يعطي للفقير اكبر من المنفعة التي يفقدها الغني بفقده لنفس المبلغ .

يرفض الاقتصادي الغربي هذه الحجة بقوله انه ليس هناك أي سبيل للمقارنة بين ما يفقده الغني من منفعة في حالة اعادة التوزيع وما يكسبه الفقير . فالاثنان عالمان مختلفان كل الاختلاف ، لكل منهما ميوله وذوقه الخاص ، ومن ثم فلا سبيل لطرح الخسارة النفسية التي تتحقق لاحدهما من النفع النفسي العائد على الاخر .

ان هذا الموقف قد يكون مقبولا في ظل الافتراض الاقتصادي التقليدي بانه ليس هناك حدود لقدرة المرء على الاستمتاع بالسلع والخدمات ، ولكن متى بدأنا نشكك في صحة هذا الفرض ، كما حاولت ان افعل ، فان الخسارة النفسية العائدة على الغني من فقدان جزء من دخله تصبح هي ايضا أمرا مشكوكا فيه ، بينما يمكن القطع بان الفقير الذي لم يصل بعد الى مستوى من الدخل يمكنه من اشباع حاجاته الاساسية لم يبلغ بعد اقصى قدرته على الاستمتاع بالحياة واستخدام كافة طاقاته المادية والعقلية . فالمقارنة هنا هي بين زيادة مؤكدة في المنفعة وخسارة مشكوك فيها . ■■

القاهرة - د . جلال أمين

عنف الهجاء عند شوقي

● كان المرحوم احمد شوقي مقلا في باب الهجاء ، ولكنه كان عنيفا مؤلما في أهاجيه ، من ذلك ابياته الاربعة التي ارسلها الى المحتفلين بتكريم احمد فتحي زغلول « باشا » في فندق شبرد على اثر ترقيته وكيلا لوزارة الحقانية وقد كانت هذه الترقية هي الاجر الذي قدمه اليه الانجليز على اثر الحكم الذي اصدره على اهل دنشواي :

اذا جمعتم امركم وهممتمو	باهداء شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة	وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تكتبوا شيئا اليه فحسبه	من الكتب حكم خطه بيمين
ولا تقرأوه في «شبرد» بل اقرأوا	على ملأ في دنشواء حزين

أقوال معاصرة



■ سأبقي قائدا للسودان حتى يحقق أهدافه في التنمية والوحدة والسيادة .

الرئيس جعفر النميري

■ ميزانية الرئيس ريجان العسكرية ليست الا ميزانية حرب نووية .

الادميرال الامريكي المتقاعد جين لاروك

■ ان بيجين يتهلل ابتهاجا وهو يرى العالم لا يستسيغ سياسته ، لكي يحولها الى مكسب سياسي كبير داخل اسرائيل .

تشارلز دوجلاس هيو

رئيس تحرير التايمز للشئون العربية والدولية



■ على واشنطن ان تبرهن ان السادات لم يمت بسبب صداقته للولايات المتحدة .

غسان تويني

مندوب لبنان لدى الامم المتحدة

■ اذا كان اليمين استعماريا فاليسار لم يكن دائما معاديا للاستعمار .

الرئيس الجزائري الاسبق (احمد بن بللا)

■ كل ادارة جديدة تصل الى الحكم في الولايات المتحدة وهي مصممة على تغيير العالم .



هنري كيسنجر

وزير خارجية امريكا الاسبق

■ ما حدث في بولندا يؤكد ان الانظمة الاشتراكية بصورتها الراهنة في اوروبا الشرقية خسرت قدرتها على التجدد والابداع ، ودخلت طور العلاقات غير الودية مع شعوبها وطبقاتها العاملة .

بير لينجوير

الامين العام للحزب الشيوعي الايطالي



■ التهمة التي تلصق بالغرب دائما هي انه مجرد مجموعة من المجتمعات الاستهلاكية .

« الكسندر هيج »

وزير الخارجية الامريكي

■ انا لم اضل طريقي في الصحراء ، ولكنها أم ، ماذا تتوقعون ان تفعل غير الذي فعلته ؟

مارك تاتشر

ابن رئيسة وزراء بريطانيا



هل نحن مقبلون على عصر جليدي ؟

بينما نتمتع بشتاء دافىء وشمس مشرقة فى وطننا العربى ، تجد وسائل الاعلام من صحافة واذاعة مرئية ومسموعة تبث أخبار موجات قاسية من البرد ، وعواصف ثلجية ، وريح صرصر عاتية تقذف بأمواج البحر المدمرة الى شواطىء القارة الأوروبية وكندا والنصف الشمالى من الولايات المتحدة الأمريكية .

بقلم : الدكتور محمد عبد الغني سعودي



في مدينة مينا بوليس بولاية ميسوري الامريكية ايضا وجد هذا الرجل نفسه امام هذا التشكيل الجليدي الغريب . من اين جاء ؟ لقد كان مخزنا اكلته النيران وجاء البرد فحول الماء الذي اطفأ السنة اللهب الى هذا المنظر الغريب !



في المانيا بلغ سمك الثلوج المتساقطة اكثر من نصف متر .. هكذا بدت السيارات وكأنها شبح في بحر من الجليد !

إن ما حدث في شتاء ١٩٨١ / ١٩٨٢ لم يكن الأول من نوعه في هذا العقد ، بل تكرر أكثر من مرة في أعوام ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ ، حتى لقد أصبح موضوع التغير المناخي حديث الدوائر العلمية ، سواء كان خاصا بانخفاض درجة حرارة الشتاء غير المعتادة في أوروبا وأمريكا الشمالية ، أو خاصا بظاهرة الجفاف المتكرر في أفريقية جنوب الصحراء والهند وجنوب آسيا .

وقد أثار تكرار هذه الظواهر في النصف الثاني من القرن العشرين أسئلة وتكهنات عن المستقبل ، هل ما يحدث الآن مجرد صدف عابرة في مسار المناخ المعتاد أم هو جزء من نمط مناخي جديد يتنامى باضطراد ، ويختلف عن نمط المناخ الذي عاش فيه معظم جيلنا ؟

يبدو أن التفسير الثاني هو الأقرب الى الصحة ، فهناك اجماع الآن بين علماء المناخ على أن النمط المناخي الذي اعتدناه في طريقه الى التغير ، فقد خرج المجتمعون من الحلقة البحثية التي عقدها اتحاد معاهد الدراسات المتقدمة في مدينة بون بالمانيا الغربية عام ١٩٧٤ ، بأن الاتجاه المناخي الحالي الذي يميل الى البرودة سوف يستمر الى نهاية هذا القرن ، وان هناك كارثة مناخية محتملة في نهاية العقد القادم ، ومن المتوقع أيضا أن يكون المناخ أكثر تقلبا منه في العقود الماضية ، واذا كانت حاجة الدول والشعوب للعمل شديدة للغاية ، فان الوقت المتاح قصير أيضا للغاية » .

يتفق الجيولوجيون على أن نشأة الأرض ترجع الى نحو ٤٦٠٠ مليون سنة مضت ، فاذا فرضنا وحذفنا الأصفار وأصبحت ٤٦ سنة فقط ، فان الديناصورات تكون قد نفقت منذ ستة شهور ، وظهر الجنس البشري الحالي منذ نحو اسبوع ، ولكن الأهم في موضوعنا هذا ، أنه بنفس مقياس الزمن شهدت الأرض عصورا جليدية رئيسية منذ تسع سنوات ونصف ، وسبع سنوات وثلاثة أرباع السنة ، وست سنوات وربع ، واربع سنوات ونصف ، ومنذ نحو ثلاث سنوات ، وبدأت آخر سلسلة من العصور الجليدية منذ أقل من اسبوع ، وتقهقر آخرها منذ ساعة ، هذا غير العصور الجليدية الصغيرة أو الفرعية .



في أمريكا .. في اكبر مدنها .. نيويورك ، لم يعد الناس يمشون على أقدامهم ، لقد راحوا يتزلجون فوق الثلوج التي غطت الشوارع .

دروس من تاريخ المناخ

وليس في استطاعة الابحاث المناخية الان أن تضع نموذجا دقيقا لما يمكن أن يحدث بالضبط اذا استمر التبريد الشديد في العقود القادمة ، فكلما ازدادت الدراسات الخاصة بالغلاف الجوى ، ازداد احساسنا بقصور المعرفة في هذا المجال ، ورغم ذلك فهناك دروس يمكن استخلاصها من دراسة تاريخ المناخ قد تعطينا مؤشرات للمستقبل .

■ ان المناخ متغير ، فقد تغير على طول تاريخ الأرض الطويل من مناخ جليدى تغطى فيه الثلاجات مساحات كبيرة من اليابس الى فترات دفيئة ، كما حدث في العشرة آلاف سنة الأخيرة ، بل حدثت تغيرات مناخية في نطاق القرون وصحبتها تغيرات بيئية .

■ ان العصور الجليدية أطول بكثير من الفترات الدفيئة ، فعلى حين تستغرق الدورة الجليدية أحيانا ١٠٠ الف عام ، تكون بدايتها فترة دفيئة تشبه الفترة التي نعيش فيها أو أكثر دفئا ، ثم تبرد تدريجيا حتى تبلغ ذروة البرودة لتعود مرة أخرى الى الدفء ، مثل هذه الفترات الدفيئة لم تستغرق سوى ١٠ في المائة من المليون سنة الأخيرة ، أى عشرة آلاف عام .

■ يميل المناخ الى التغير بسرعة أكثر منه تدريجيا ، فالتغير من مناخ جليدى الى مناخ دافىء قد لا يستغرق أكثر من قرن ، وان كانت الاستجابة الكاملة للانماط الحيوية والتكيف التام مع البيئة الجديدة قد يأخذ وقتا أطول .

■ ان التغيرات المناخية لا بد ويصحبها تغيرات حضارية ، فالتغيرات المناخية البسيطة التى حدثت في العشرة آلاف سنة الأخيرة ، غيرت من قدرته على تطويع البيئة ، مما أدى الى تغيرات حضارية هامة .

■ عندما يزداد المناخ برودة ، ويطول الشتاء في أوروبا وأمريكا الشمالية ، يصحبه جفاف وقلة ظاهرة في أمطار الهند وجنوب شرق آسيا ونطاق الدول الافريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى مباشرة .

■ ما نظن أنه مناخ عادي (دفء) في الوقت الحاضر ليس بمناخ عادي بالمنظور الطويل المدى (القرون وعشرات القرون) فان حالة الدفء التي سادت في النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٠ ـ ١٩٤٥) تعتبر فترة شاذة . فهي أدفأ فترة مرت بها الأرض منذ الف عام .

■ المناخ ظاهرة عالمية . ولا يمكن أن يتغير في اقليم دون أن يؤثر في أقاليم الأرض بعامة ، والدليل على ذلك أنه في الفترات التي تشتد فيها البرودة في أوروبا وتتقدم الثلوج نحو الجنوب ويصحبها ضعف في هبوب الرياح الموسمية على الهند وغرب أفريقية وبالتالي تصاب بالجفاف .

ويجب أن نشير الى أن اختلاف المتوسطات الحرارية التي ينشأ عنها التبريد أو التسخين قد يكون ضئيلا للغاية . قد يكون كسرا عشريا من الدرجة المئوية ، فعلى سبيل المثال كانت هناك زيادة نحو ٠,٦ من الدرجة المئوية بين عامي ١٨٠٠ ـ ١٩٤٠ ، وكان هناك هبوط ٠,٣ مئوية منذ ذلك الحين . فارتفاع متوسط الحرارة أو انخفاضه لأجزاء من الدرجة لمدة طويلة قد يكون مؤشرا لتغير مناخي . كذلك يلاحظ أن الفرق بين ماتعتبره حالات متطرفة في المناخ هو فرق ضئيل . فمتوسط الحرارة في نصف الكرة الشمالي في عصر الجليد الصغير Little Iceage في النصف الثاني من القرن السابع عشر (حين كانت الأسواق والمعارض تقام في لندن فوق نهر التيمز المتجمد) كان أقل بدرجة أو درجتين مئويتين عن المتوسط الحالي ، بل وحتى في آخر عصر جليدي مرت به الأرض منذ ١٨ الف عام (عندما كانت الجزر البريطانية مغطاة بالجليد) لم يكن الفرق في المتوسط الحراري يزيد على ست درجات .

من التبريد الى التسخين

اذا رجعنا لعملية التبريد التي أصابت الكرة الأرضية في القرن الثاني عشر الميلادي نجد أن الغطاء الجليدي في شمال الأطلنطي تقدم نحو الجنوب ، وازدادت برودة ايسلند وجرينلند وتحولت الجبال السوداء التي اعتاد الفيكنج أن ينزلوا بها في جرينلند الى جبال بيضاء بسبب ما غطاها من ثلوج ، وتراجعت غابات كندا وسيبيريا نحو الجنوب . كما يعد القرن الثالث عشر عصر الأوبئة والمجاعات في أوروبا ، وكثرت خلاله ثورات الفلاحين ، وأودى التجمد بحياة أكثر من نصف مليون من المزارعين الروس ومعهم ماشيتهم في القرن السادس عشر ، وتكررت المجاعات في ايرلندا وألمانيا بسبب العواصف الثلجية التي أتلفت المحاصيل . من ثم كانت الهجرة الى العالم الجديد ، ولا يقل أهمية عن هذا وذاك حالات الجفاف الشديدة على الهند وجنوب أسيا وافريقية جنوب الصحراء .

ولكن الحرارة بدأت في الارتفاع في أوائل القرن العشرين ، ودخل العالم أمثل فترة مناخية ، وفي هذه الفترة التي انتهت عام ١٩٤٥ تقريبا ، تغير عالم البشر ، وازداد السكان بصورة درامية ، فقد مر تاريخ البشرية كله حتى عام ١٨٣٠ ليصل عدد السكان الى الف مليون ، ثم أخذ مائة عام فقط ليبلغ الالف مليون الثانية عام ١٩٣٠ . ولكنه بعد ذلك أخذ ٣٠ عاما فقط ليبلغ الالف مليون الثالثة عام ١٩٦٠ ، ثم ١٦ عاما ليبلغ الالف مليون الرابعة عام ١٩٧٦ ، ومن المتوقع أن يزيد سكان العالم على ٦ الاف مليون عام ٢٠٠٠ ، وهكذا أمكن بفضل المضادات الحيوية والمبيدات الحشرية القضاء على كثير من الأمراض الوبائية ، فضلا عن امكانيات زيادة الانتاج الغذائي في جنوب وشرق أسيا ، بفضل الأبحاث العلمية على البذور والتسميد حتى عد عقد الستينات بعقد الثورة الخضراء .

عود الى البرودة وشواهدها

ولكن هذا الاعتدال المناخي انتهى ، وبدأ المناخ يعود الى ما كان عليه بين عامي ١٦٠٠ ، ١٩٠٠م وتتمثل الشواهد فيما يلي :

■ انخفاض متوسط درجة الحرارة في نصف الكرة الشمالي بمقدار ما ارتفع قبل القرن العشرين ، وتمر المنطقة دون القطبية في أوراسيا وأمريكا بحالات شديدة من التجمد .

■ ازداد سمك الغطاء الجليدي فجأة في نصف الكرة الشمالي بنحو ١٣٪ في شتاء ١٩٧١ / ١٩٧٢ وظل على هذا المستوى من الزيادة .

■ نمو الغطاء الجليدي فوق القارة القطبية الجنوبية بنحو ١٠٪ خلال عامي ١٩٦٦ /١٩٦٧ ، ومازال يزداد سمكا .

■ ازداد شتاء نصف الكرة الشمالي طولا من متوسط ٨٤ يوما عام ١٩٦٧ الى مائة واربعة أيام عام ١٩٧٧ .



في مدينة سانت لويس بولاية ميسوري ، بدا التمثال الصغير أحد معالم المدينة وكأنه يطل من وسط سحب من الجليد !

■ انخفض موسم الانبات في بريطانيا بمقدار اسبوعين .

■ ظهور صقيع منتصف الصيف في ولايات الشمال الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية .

■ ازداد معدل تكرار حالات الجفاف في شمال غرب الهند واقليم الساحل في غرب افريقية (موريتانيا ـ السنغال ـ فولتا العليا ـ مالي ـ النيجر ـ تشاد) . وهلاك ملايين البشر ، نتيجة لتراجع الرياح الموسمية ، وقد سجل هذا التراجع أيضا في اليابان . وهكذا تكرر دروس تاريخ المناخ .

قلق على قلق

هكذا بدأ قلق جديد على المناخ ، يضاف الى أنواع القلق الاخرى الخاصة بالمستقبل كزيادة السكان واستنزاف الموارد ، والبحث عن مستويات معيشة أفضل ، وتعدى الاهتمام بالمناخ علماء الجغرافية والارصاد الجوية الى علماء السياسة .

هذا التحول المناخي سوف تكون له أثارة الرهيبة اذا لم يخطط له ، فالتغير المناخي لابد وان تقابله مرونة من الذين يعيشون في ظله ، ولعل سلسلة الصدمات والمتمثلة في الانخفاض الحاد في الانتاج الزراعي الناتج عن الجفاف المتكرر) التي شهدتها الهند وأجزاء من الصين واستراليا وغرب افريقية ووسط وجنوب امريكيا اللاتينية ، بل والاتحاد السوفيتي خير دليل ، أي أن الاضطراب الاقتصادي أصبح على مستوى عالمي ، فانتاج الغذاء الذي ازداد بمعدل ٣,١٪ سنويا بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ ، وبنحو ٢,٧٪ سنويا بين عامي ١٩٦٢ ، ١٩٧٢ ، انخفض عام ١٩٧٢ بنحو ١٪ ، واستمر هذا الانخفاض ، وبالتالي هبطت موارد العالم من الحبوب ، واضطربت الاسواق وارتفعت الاسعار ، حتى بدأت الحكومات شبه عاجزة عام ١٩٧٦ عن الاستجابة الفورية للازمات الغذائية التي انتشرت في انحاء متسعة ، فقد انخفض رصيد العالم من الحبوب بالتدريج ، كان هذا الرصيد يكفي ١٠٥ يوم عام ١٩٦١ ، ثم ٨٩ يوما عام ١٩٧٠ ، ثم ٥٥ يوما عام ١٩٧٣ ، ثم ٣٥ يوما عام ١٩٧٥ ، الى ٣١ يوما عام ١٩٧٦ وهكذا ، وبينما كانت دول غرب أوربا هي المستورد الوحيد للحبوب قبل الحرب العالمية الثانية ، أصبح العالم كله مستوردا لها باستثناء أمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلند والأرجنتين .

ومن ناحية أخرى هل سيظل سكان الأقاليم التي يزحف الجليد نحوها وسكان الأراضي التي أصابها التصحر في أراضيهم رغم أن بقاءهم فيها معناه الهلاك ؟ ولكن هل الهجرة متاحة كما كانت في الماضي ؟ ■■

د . محمد عبد الغني سعودي
الاستاذ بقسم الجغرافية ـ جامعة الكويت

مصادر الدراسة

1. crisbin tickell :
Climatic Change and World AFFAIR
harvard studies of international affairs. No. 37, 1978

2. Bryson R. A. :
"The Lessons of climatic history"
Environmental Conservation. vol. 2, No. 3, 1975

3. GREGORY K. J. And williams R. F. :
"Physical Geography from the News Paper"
Geography vol. 66 No. 290, 1981.



هكذا يتكلم النمل

وهكذا يبنى مملكته الغامضة !

بقلم : الدكتور/صلاح بركات

لكل نوع من الكائنات الحية لغة يتفاهم بها افراده فيا بينهم ، هذه اللغة لاتملك مفردات كثيرة ، وانما لها مفردات محددة ومعينة ، والمعنى لها يدور في فلك ثلاثة امور بشكل عام ، الخطر ، الغذاء ، التزاوج والالقاح

والتعبير عن هذه الامور يتم بطريق الاشارات الصوتية او الضوئية عند بعض الانواع ، او بطريق الحركات والاوضاع المعينة لاعضاء من الجسم او للجسم كله عند انواع اخرى ، ونجد أنه كلما ارتقينا في سلم التطور ، وجدنا هذه الطرق قد تطورت ، وتلاءمت مع مستوى ذكاء النوع ، واتسع مدى استعمالها ، الى ان نجدها قد وصلت الى اعلى رقيها (!) عند الانسان فتراه قد اتخذ لغة صوتية ونوّع مفرداتها ، ليعبر عما يجول بخاطره .

ان عالم النمل ، عالم قائم بذاته ليس داخل الانواع الحشرية فقط وانما داخل رتبة غشائية الأجنحة المنتسب اليها ايضا ، فانواعه المعروفة تزيد على ٦٠٠ نوع . هذا النوع من الحشرات متميز عن غيره سواء بطريقة سلوك افراده ، او بطريقة عيشه الاجتماعية والتي تذكرنا بالمجتمعات البشرية ، حيث الاختصاص بالأعمال ، واقتسامها ، كما نجد بأن هذه الحيوانات تعمل على تربية مواش لها ، نعم !! مواش ، كما نربي نحن ، كي تستحلب الغذاء منها ، وبين قبائل النمل تقام الحروب الضروس . وتكون الغنائم من حصة الغالب لخدم أسيادها الجدد .

لقد اكتشف خلال السنوات الاخيرة بان حشرات النمل تبث عدة انواع من المواد الكيميائية الطيارة ، هذه المواد تقذف تحت ظروف خاصة ، فتبدو كاشارات او رموز يقصد بها معنى معين ، وهذا مايتبين ويظهر على سلوك افراد النمل اضافة لهذه المواد الكيميائية فان هناك طريقة أخرى للاتصال وتتم بواسطة قرني الاستشعار ، والزوج الاول من الارجل ، ويتبع هذا النوع من الاتصال خاصة في اوكار النمل المظلمة بالاضافة الى المواد الكيميائية التي لها رائحة معينة تميزها . وداخل هذه الأوكار يتم معظم نشاط النمل .

لغة الرائحة وحمض النمل :

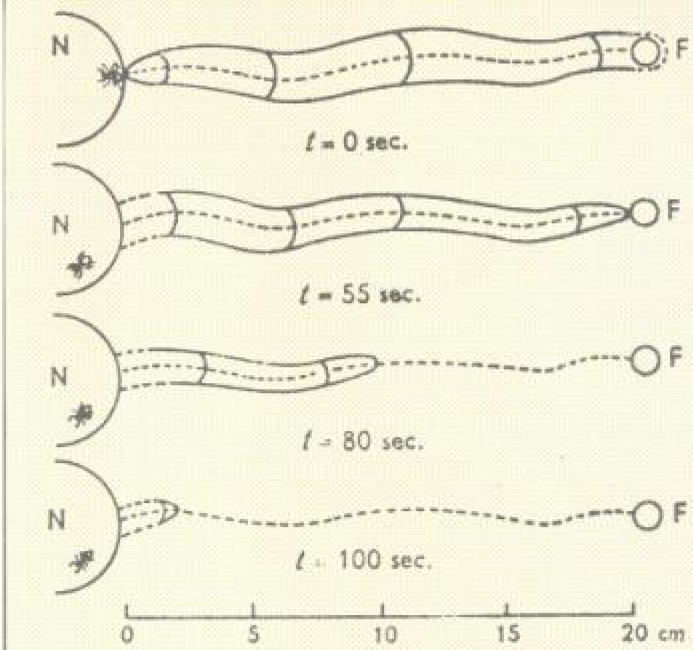
ان الاشارات الكيميائية يمكن ان تعرف اما عن بعد ، أي بطريقة الشم او بالملامسة المباشرة ، كما يمكن ان تكتشف عند بعض الانواع عن طريق التذوق ، بل ان هناك بعض المواد لايكون لها مفعول الا عندما تكون بالمعدة ، هذه المواد تفرز بشكل منتظم عند تغير الحالة الفيزيولوجية او البيئية او تغير الشكل الظاهري للأفراد لنفس النوع ، هذه المواد ذات فعلين اما للجذب ، او التنفير ، وفي الحالة الاخيرة ، نرى ان رد الفعل لها يكون مباشرا ، بصورة تصرف خاص ومعين .

ان العلامات أو الآثار التي تتبعها أفراد النمل ناتجة عن أفرازات لغدد معينة ، عديدة الخلايا ، متواجدة بالرأس أو في الشرج ... ، وهناك افرازات غدة دوفور وهي غدة تفرز مواد قلوية تنفتح على قاعدة شوكة بطن الحشرة كما عند نمل ميرنيسينmy.rnicenes, تستعمل لتسجيل علامات على الطريق ، او لاثارة سلوك معين عند النمل في بعض الاحيان ويتم هذا عند نوع الاتا Attaبواسطة غدد سامة ، وبغدد بافان واخيرا بواسطة الغدد الشرجية عند النمل فورميسينFormicines .

تعليم او تأشير الطريق :

هذه المواد المرشوشة ، تنجذب إليها العاملات بشكل عجيب فمثلا نجد النوع سولينوبسيسsolenopsis sacvissima وهو نوع من انواع نمل النارFourmis de Feu يستعمل افرازات غدة دوفور والتي لاتحتوي اكثر من ٠,٠٠٥ مم^3 من السائل ، لذا فاننا نجد ان عاملة واحدة تخطط الطريق لمسافة أقل من خمسين سنتميترا ثم تأخذ التعليم عاملة اخرى وهكذا .. ، اما كيف يتم هذا التأشير ؟! فالعاملات تعتمد لذلك طريقة ميكانيكية خاصة ـ فافرازات غدة الدوفور تسيل على طول الابرة الموجودة في نهاية البطن ، هذه الابرة تمس سطح الارض خلال مسيرة الحشرة في مسافات منتظمة ومحددة ، وفي هذا المس يتم سقوط بعض الافرازات من الغدة السابقة والعديمة اللون . هذه الخطوط الصغيرة الناتجة عن مس الابرة بسطح الارض ، ماهي الاعبارة





الوكر : N

الغذاء : F

الوقت بالثانية : T

يترك نمل السولينوبسس **Solenopsis** ما بين وكره وغذائه ٢٠سم شريطا طوله ٤٠سم وعرضه ٢سم ، ويلاحظ اختفاء الرائحة لنصف المسافة خلال ٨٠ ثانية .

عن مراكز لبث الرائحة ، صحيح ان تركيز جزئيات الرائحة منخفض ولكنه كاف ومؤثر ، وبعد عدة مرات من مرور العاملات فان تخطيط الطريق يتأكد ، لان النمل يستمر في افراز هذه المركبات المعطية لارائحة

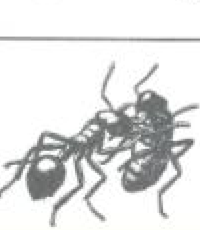
وقد لوحظ انه في حالة ازعاج نملة بواسطة حيوان متطفل أو اذا لحقها اذى خلال اجراء التجارب عليها ، فانها تبدي اضطرابا في سلوكها وسيرها ، والأغرب من ذلك أن العاملات التي تصل وتحتك بها تضطرب هي الأخرى . ربما يبدو للوهلة الأولى بان نقل هذه الامور يتم عن طريق قرون الاستشعار . لكن التجارب اظهرت بان نقل هذه المعلومات يتم بوجه آخر ، فالعاملة المنزعجة او المتأذية ، تفرغ كل ما بحوزة غددها الفكية للخارج ، والمادة المفرزة تتبخر وتترك حول نقطة خروجها كرة مشبعة بهذه المادة نصف قطرها ٦ سم ، ويستمر هذا الاشباع لمدة ١٣ ثانية ، فأية عاملة تدخل هذا المجال فانها تعاني انجذابا لمصدر الرائحة ، وكلما اقتربنا من العاملة ، ازداد تركيز هذه المادة ، ولهذا نجد انه عندما يتعدى تركيز هذه المادة ، حدا معينا ـ مثلا ٣سم من النملة او العاملة المصابة ـ فان العاملة التي وصلت الى هذه المسافة ، تطلق اشارات الخطروالتحذير .

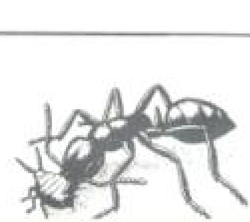
وتبين من تجارب أخرى ان التراكيز المختلفة من الرائحة تعطي وتسبب ردود فعل متباينة بمعنى ان اصدار وبث روائح مختلفة التراكيز عند النمل يشكل معان مختلفة لديها .

من خلال مراقبة النمل تبين للباحثين انه يستعمل ابرته في تعليم وتخطيط الطريق في حالة رؤية غنيمة ما ، وكلما كانت تلك الغنيمة كبيرة ، كان فريق النمل الخارج من الوكر اكبر ، وهذا يدل على ان هناك تفاهما ما بين افراد النمل ، وفسر هذا التفاهم على النحو التالي :

ان روائح النمل المفرزة تتبخر خلال وقت معين ، فاذا كانت الغنيمة صغيرة نوعا ما ،فان قلة من النمل تكفي لحملها الى الوكر ، ولذلك نجد ان الرائحة المبثوثة لتأشير الطريق سرعان ماتختفي ، وهذا ما يسبب ايقاف وصول عاملات جدد لمكان الغنيمة ـ ولوحظ أيضا أنه إذا اكتشفت مجموعة من النمل غنيمة ما ، وكان عددها كافيا لحملها فانها تعود بها الى الوكر دون ان تعلم الطريق ، بمعنى ان عدد النمل الذاهب الى العمل يرتبط بكمية المادة المفرزة للرائحة ، فكلما كان افرازها كبيرا كان عدد افراد النمل العامل كبير .. هذه الروائح









الصادرة خاصة بكل نوع من انواع النمل ومن خلال تجارب العالم ويلسون Wilsonتبين ان غدد الدوفور هي المسؤولة غالبا عن تأثير الطريق .

المادة المسببة لذعر النمل :

ان كل مربي النحل Les abeillesيعلمون انه يجب الحذر التام اثناء نقل او تحريك المنحل لئلا تسحق احدى النحلات . فان حدث هذا ، فان امكانية الاصابة بوخزها يزداد بشكل كبير . وحتى عام ١٩٦٤ كان يعتقد بان المادة المسببة للذعر عند النحل ماهي الا المادة السمية نفسها . لكن العالم Maschwitz « ماشويتز » مع كثير من الصبر والأناة استطاع عزل الغدد الموجودة حول الابرة الواخزة : غدة دوفور وغدة كوشفينكوف Kochevnikov وغدد عمد الابرة ... فتبين له ان الافرازات السمية ليس لها تأثير وان المادة المسببة للذعر ماهي الا عبارة عن مادة زيتية بالقرب من الابرة .

أما عند النمل فالامر مختلف بسبب كثرة الانواع ، وكثرة تنوع سلوكها .

ان ظاهرة الهروب والتراجع نادرة الوجود عند النمل . بل على العكس فاننا نجد ان هناك استقطابا للنمل نحو مكان صدور اشارات الخوف والتحذير ، وهذا التوجه الجماعي نحو هذه النقطة يمثل بحد ذاته هجوما مضادا . وحالة الفرار لاتكون الا في حالة كون الانذارا آتيا من خارج الوكر ـ مثلا من قرب فريسة بدأت العاملات بالتهامها ـ فحدوث امر ما ، ربما يجعل هذه العاملات تهرب لأوكارها . وهذا لايحدث الا عند الانواع الضعيفة مثل لازيوس lasius وتابينوماItapinomaاما النمل الأشقر او الاحمر كالنوع فورميكا بوليكتينا polyctena Pormica اوفورميكا روفاFormica rufaفانه لايهرب ابدا ، بل يدافع عن نفسه من المضايقات بافراز حمض النمل المركز كما يحاول ان يعض كل من يقترب منه ، وتكوين هذا الحمض يتم في غدد خاصة موجودة بالناحية البطنية وتشكل حوالي خمس حجم البطن . وتركيز هذا الحمض من ٤٠ الى ٥٠ ٪ وفي حالة الشعور بالاستعداد للهجوم والقتال ، فان عاملة من النمل يمكنها افراز حوالي مليجرام واحد من مركبات حمض النمل وهذا يعادل تقريباه.. مغ من حمض النمل . فلوقدرنا ان هناك ٥٠ ألف نملة داخل وكر على اقل حد فانها تعطي ٢٥ كغ من حمض النمل Formic acid وهذا كاف لقتل وابعاد اكبر الحيوانات .هذا الحمض له تأثير لاذع ومسبب للحك والاحرار في مكان قرص نملة واحدة فقط .

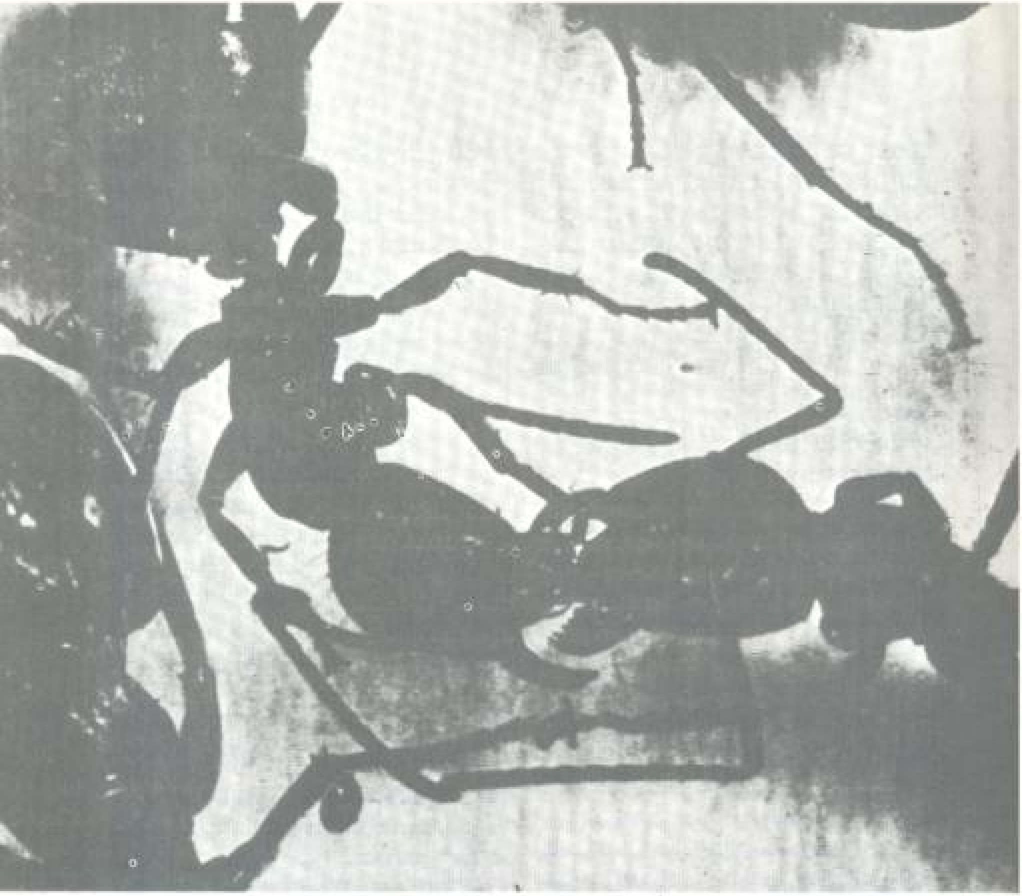


فظاهرة الخوف والهروب عند النمل والحشرات الاجتماعية الأخرى نادرة الوجود ، بالمقارنة مع بقية الحشرات ، التي تعيش بصورة انفرادية ، وانعدام هذه الظاهرة ربما يرجع الى احساس تلك الحشرات بكثرتها ، أو ان هناك من أفراد نوعها من يدافع عنها . فحشرات النحل والنمل لا تهرب من الانسان حين رؤيتها له .

تمييز الروائح :

لقد تبين من خلال مراقبة ودراسة النمل أن لكل نوع افرازات معينة تعطيه بالتالي روائح خاصة ويعني ذلك ان لكل وكر من النمل رائحة خاصة . ويعمل النمل على اعطاء نوعين من الآثار التي يعلم بها الطريق :

اثار الاستكشاف ، وهي اثار تخلفها طليعة العاملات المستكشفة للمنطقة المجاورة للوكر ،وهذا معروف عند



الانواع المتنقلة مثل بونيرين Ponirines ودوريلين Dorylines وهكذا فان عاملة من النوع ميكابونيرا فوتين megaponera foetens والمتجولة داخل الغابات او السهول بحثا عن وكر النمل سهل الاستلاب والسرقة ، هذه العاملة تعمل على تأشير طريقها لتتبين طريق العودة لوكرها ، ومن ثم قيادة رتل من اقرانها لغزو ذلك الوكر المعلم ، والى الآن لايعرف كيف يتم نقل هذه المعلومات ؟؟ ولا الغدد المعطية لهذه المواد المعلمة ؟؟

ـ وآثار البحث عن الغذاء وطلب النجدات ، وتبقى لفترة طويلة وتكون هذه مختصة بكل الانواع التابعة للعائلة الواحدة .

لغة قرون الاستشعار

يمضي النمل فترة طويلة من حياته داخل أوكاره المظلمة ـ ووسائله البصرية لاتخدمه في اتصاله مع اقرانه لانعدام الضوء ، لذا فان افراد النمل تعمد الى استعمال قرون الاستشعار والزوج الأول من ارجلها كطريقة لاتمام عملية الاتصال والتفاهم ، وتبدأ النملة عادة بالتعرف على غيرها بملامسة جسمها أولاً ومن ثم تعمل على لمس الرأس وقرون الاستشعار لتحديد طبيعة الفرد الملموس من عاملة أو جندي .. والملامسة هذه لاتكفي للتحديد ، وانما تلعب الرائحة دورا في اتمام عملية المعرفة هذه . فقرون الاستشعار تحتوي على اعضاء تتميز بحساسيتها للمواد الكيميائية وهذه الاعضاء تلعب دورا هاما في تأمين التوجيه الصحيح للاتصال ، ومن خلال مراقبة النمل فان حركات اللمس بالقرون او الارجل تزيد في سرعة التقيؤ .. تقيؤ المواد الغذائية ـ ويبدو ان الفرد الآخذ لهذه المواد غالبا ما يكون البادىء في لمس قرون استشعار المعطي وفي استعمال ارجله ، اما الفرد المعطي او المقيىء فتقتصر حركته على لمس رأس الآخذ بصورة

عفوية ، اما العامل المحدد لكون الفرد من النمل آخذا او معطيا فهو الجوع ، فمن كان اكثر جوعا من الآخر كان هو الاخذ ، والاخر هو المعطي ، هذا ما استنتجه والس Walles وهناك ظاهرة اخرى لقرون الاستشعار وهي حركتها نحو الأعلى والاسفل مع حركة الرأس الى الأمام ، هذه الحركة تحدث عندما تجد احدى العاملات مكانا للغذاء ، وهذا ما يذكرنا برقص النحل ، اضافة لذلك فان هذا النوع من الاتصال يحدث أيضا فيما اذا دخلت احدى القرائس او الحيوانات وكر النمل .

ابقار النمل ومحاصيله الزراعية

هناك بعض الظواهر موجودة عند بعض الحيوانات منذ مئات السنين . فزراعة الفطريات مثلا وتربية المواشي معروفة من قبل النمل ، قبل ان يعرفها الانسان . فان كان الانسان يرى انه خير الكائنات ، فليس هذا الا لسبب واحد ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد فضله ، وانعم عليه بالنعم التي انعم بها على كل خلقه ، فهداه الى معرفة طبائع وصفات الكائنات ليستفيد منها ، وسهل له معرفة خصائص الجوامد ليصنع منها ما يفيده ... ولهذا جعله خليفته في الأرض .

وقد اطلق العالم رومر Reaumur هذا الاسم على الحشرات الارقية (أرقة) Pucerons وهي حشرات عسلية تفرز أو بالاحرى تتبرز سائلا سكريا تعشقه حشرات النمل وهذا السائل يعتبر غذاءاساسيا لبعض الانواع من النمل ، ولهذا السبب تقريبا نرى عاملات النمل على اغصان الاشجار والنباتات ، وخاصة المفضلة لدى هذه الحشرات ، وتعتبر الحشرات الارقية ضارة بالنباتات لسببين :

اولها ـ بامتصاصها لعصارته ، وبالتالي تحرم النبات من المواد الغذائية . فينمو ضعيفا ، ويكون ثمارا او حبوبا رديئة المواصفات والجودة وكذلك قلة عددها .

والامر الثاني يتم عن طريق افراز هذه المواد السكرية التي تتجذب وتنمو عليها الفطريات الضارة ، وربما تنفذ الى داخل النبات عن طريق الثقوب التي تحدثها الحشرات الأرقية لامتصاص عصارة النبات . اضافة لذلك فان كثرة الثقوب هذه في منطقة معينة تسبب تكوين الدرنات ، والنمل لايذهب لحلب ابقاره هذه ، بل نجده يبني احيانا « حظائر » حقيقية لها داخل التربة من اجل منعها من الابتعاد ومن اجل اعطائها الراحة الكاملة لتدر عليه كميات اكثر من هذه المواد السكرية ، ويتحاشى النمل كثيرا اذى هذه الحشرات ، ويعاملها بلطف ظاهر ، ولم لا ؟! بل أن هناك نوعا من النمل يدعي ليشلينتين Lichlentein يعمل على تربية الصغار والاعتناء بها كما يجب ، اما افراز هذا السائل فيتم عن طريق ملامسة النمل لقرون الاستشعار لحشرات الارقية .

أما النوع المسمى سيشزو نورا فينوستا SCHIZONEURA VENUSTA فهو عبارة عن ارقة كبيرة خضراء اللون تعيش على بعض أنواع النباتات التجيلية ، هذه الحشرة تكون ضعيفة كثيرا في الطور المجنح لها ، وضعيفة القدرة حتى على حفر التربة والوصول الى جذور النباتات . ولهذا فاننا نراها قد توضعت على قاعدة النبات التي تريد ان تتغذى على عصارته ، وتقبع منتظرة مجيء النمل ، وهذا لايتأخر في معرفة مكانها ، ويبدأ اولا بتمزيق أجنحة هذه الحشرات حتى لاتقدر على الهرب ، ومن ثم تحفر ممرا على ساق النبات باتجاه الجذور داخل التربة . ولا تتأخر حشرات الارقة باستعمال هذا الممر للنزول والوصول الى الجذور للتغذي وامتصاص عصارتها .

وبعد مدة من الزمن تتوالد وتتكاثر ويحاط الآباء بالعديد من الصغار عديمة الاجنحة ، وهكذا فلا تلبث ان تكبر هذه المستعمرة ، اما النمل فيعمل على ترتيب مساكن خاصة لهذه الحشرات حول الجذور ، وعندما يظهر جيل جديد من الارقات المجنحة ، فان هذه الحشرات عليها ان تطير بعيدا وتتزاوج مع غيرها لتكوين اجيال جديدة لاستمرار نوعها ، لذا فاننا نراه يفتح ابواب الخروج من الممرات لهذه الحشرات ، اما لماذا تمت هذه المشاركة ؟ لان النمل لايملك فما متكيفا لامتصاص رحيق الأزهار ولا اجنحة يستطيع بفضلها تخطي الشعيرات الغدية الموجودة على كؤوس الازهار والتي تقف حائلا لوصول النمل للازهار .

زراعة الفطريات :

هناك انواع من النمل تبني اوكارا ضخمة بكل معنى الكلمة فمثلا النوع الآتا Atta تنقل من اوكارها ما يعادل ٢٢م³ من التراب حسب تقديرات الباحث اويتوري autuori . واوكار هذا النوع تحتوي على الآلاف من الغرف المحتوية على فتيتات اوراق النباتات الناعمة والممزوجة مع تربة الغرفة . في هذه التربة العضوية يغرس النمل فطرياته الخاصة ، وقام الباحث



السابق بدارسة أحد اوكارها وعدّ هذه الغرف فوجدها ١٩٢٠ غرفة ، منها ٢٤٨ غرفة في طور العمل والنشاط ، أي أنها كانت بنسبة ١٣٪ ، وكل واحدة من هذه الغرف عبارة عن مزرعة حقيقية لتربية الفطريات ، وكل مزرعة تزن ٣٠٠غ . فلو حسبنا وزن الغرف التي هي في طور العمل لكان ٧٤,٤كغ . ولو حسبنا ذلك لكل الغرف الموجودة في الوكر لوصل الى ٥٧٠ كغ . ومن هذا يتبين لنا مقدار وزن الاوراق النباتية وكميتها ، تلك التي يجلبها النمل لاوكارها . ولو افترضنا وجود عشرة اوكار في منطقة ما ، وهذا ممكن جدا ، فان كمية الاوراق اللازمة تبلغ حوالى ٦ اطنان ولهذا نفهم لماذا يحترس المزارعون من هذا النوع من النمل !

ولوحظ عند بعض الانواع الاخرى وجود غرف طويلة تصل مقاييسها الى أكثر من متر واحد يتخذها النمل كمستودعات له ، وهناك بعض الانواع لاتستخدم نظام الغرف هذه ، وانما تكتفي بغرفةواحدةاقطارها من ٤٠ ـ ٥٠ سم اما عند نوع الاتا السابق الذكر فتصل مقاييس هذه الغرف الى ما بين ٢٠ ـ٣٠

تنقل عاملات النمل قطع الاوراق النباتية الصفراء والخضراء ، ومن ثم تعمل على تقطيعها لاجزاء صغيرة ، هذه الاجزاء ترش او تسقي بسوائل النمل الشرجية ـ التبرز ـ وتمزج هذه القطع بالتربة ، ثم يأتي النمل باجزاء من الفطر (الميسيليوم) وتزرع في هذه الطبقة ـ ، ولاينتهي عمل النمل عند هذا الحد بل يقوم برعاية مزرعته ويحوبها من اطرافها ويمسها بقرونه الاستشعارية ، ويلمس خيوط الفطر ، ويأكل منها عند الحاجة ، والامر الغريب عند هذا النوع من النمل (الاتا) هو محافظته على زراعة الفطر بشكل نقي للغاية بالرغم من وجود العديد من انواع البكتريا والفطريات مع فطره الخاص المزروع ، وبالرغم من كل هذه الشوائب فان فطره المفضل هو الذي ينمو فقط ؟؟ وفسر هذا بان النمل يفرز مواد كيميائية ـ مبيدات ـ لمنع نمو الكائنات الأخرى ، من هذه المواد :

ـ مواد مانعة ومثبطة لنمو الفطريات غير المرغوب فيها :

ـ مواد مانعة لنمو البكتريا .

ـ مواد مشجعة خاصة لنمو الفطر المطلوب .

هذه المواد لم تدرس بعد بالقدر الكافي ، فالعلماء يفضلون الى الآن استخدام المركبات النباتية المصدر ودراسة هذه المواد ، ربما تفتح طريقا لاستعمالها كمواد مضادة ـ مضادات حيوية ـ لنمو البكتريا والفطريات المسببة للأمراض ، هذه من الناحية الطبية ، وهناك تطبيق آخر لهذه المواد من الناحية الزراعية فيمكن استخدامها كمبيدات فطرية او بكترية .

هذه الانواع من الفطريات والتي يربيها النمل خاصة ، لاتتواجد بصورة رئيسية الا معه وربما يعود السبب في ذلك ، الى التركيب الكيميائي الخاص لبراز النمل والمشكل مع اوراق النباتات والتربة وسط النمو للفطريات ، ووجود الألفة ما بين الفطر والنمل ، كل يجد الآخر بما ينقصه من هذه الانواع الفطرية ، والفطر هو كلودو سبوريوم النملي CLODOSPORIUM myrmecophilumوالمتواجد واللازم لنمل ديدورولاسيوس Dendrolasius ولوحظ انه في حالة قلة البراز الخاص للنمل ،فان النمل يعمل على تغذية فطرياته بجلب براز الحشرات الاخرى بالاضافة الى قطع الاوراق النباتية .

الحصادون

هناك نوع من النمل يدعى « ميسور» معروف بانتشاره بشمال افريقيا ـ وأطوال اوكاره تبلغ مابين ٧و١٠ م بعمق يساوي٢م هذا النوع ـ وليس الوحيد ـ يعمل على جمع الحبوب ونقلها لاوكاره وهناك انواع اخرى مثل « فيدول » وبوكونوميرمكس وقد لاحظ العالم لينسكوم ان نمل الحصاد يزرع محاصيل الحبوب (قمح ـ شعير) عام ١٨٦٤ حول اوكاره مستنتجا من ان اوكار النمل ـ نمل الحصاد ـ غالبا ماتكون محاطة بنباتات الحبوب وهذه الظاهرة فسرت بأن النمل يقوم بزراعة مقصودة لهذه المحاصيل ، ويبين الباحث وهلرWheeler طريقة الزراعة هذه بأن العاملات تعرض بشكل دوري قسما من محاصيلها المخزونة للشمس وخاصة الحبوب والبذور التي بدأت بالانتعاش ، أي اعطاء بدايات الساق والجذر ـ فاذا صادف هطول الامطار اثناء عرض هذه البذور ، فان العاملات تتركها تنمو وتكبر ، وهناك انواع من النمل تفضل جمع الحبوب الزيتية لاستخراج الزيت منها ، وتستعين العاملات لتكسير الحبوب القاسية او لتقطيع الفرائس الكبيرة بنوع خاص من الجنود ، تتميز بفكوكها القوية والكبيرة . هؤلاء الجنود أشد رقة من العاملات نفسها .. وهكذا فالارض معمورة تنبض بالحياة ، وبالكائنات ، تجهل أكثرها وكلما ازددنا معرفة ! ازددنا معرفة بجهل انفسنا فسبحان الله عالم كل شيء .

■■

مراكش ـ دكتور صلاح بركات

استغاثة من غرب افريقيا

من ينقذ اللغة العربية من مؤامرة اغتيالها ؟

فهمي هويدي

أنقذوا اللغة العربية من مؤامرة اغتيالها !

هذه استغاثة أو صرخة لابد أن تصل الى كل الأسماع والضمائر العربية . أعود فأسجلها هنا بالحاح وعلى عجل ، بعد رحلة ثانية وطويلة الى غرب افريقيا . شاهدت فيها بصورة تملأ العين وتدمى القلب ، حجم وفداحة الجرم الذى يرتكب فى حق اللغة العربية ، وكثافة وشراسة الحصار المضروب حولها ، وبسالة الرجال العزل الذين يحاولون باستماتة مدهشة اختراق الحصار والتشبث بالحرف العربى ، وغرسه وتعميمه وحمايته .

ان ثمة « جريمة مستمرة » ترتكب فى حق اللغة العربية ، الفاعل فيها مدان تاريخيا وحضاريا والساكت عليها ، والقادر على وقفها ، شريك فى الجرم جهل بالأمر أم تجاهله . والعرب معنيون بالأمر قبل غيرهم ، ومطالبون بالتحرك قبل غيرهم . تحركا يتسم بالجدية ، ولا يكتفى فيه بمجاملة « اخواننا الأفارقة » ، كأن القضية تهمهم وحدهم ، وكأن التصدى لحلها ليس احدى صور « التعاون الدولى » والالتزام بميثاق الامم المتحدة وحقوق الانسان !

وأحسب أن تلك قضية فوق خلافات العرب ، اذ يفترض أن يتفق عليها الجميع من المحيط الى الخليج ، المحبون للاسلام والرافضون له . والتقدميون والمحافظون . والقابلون والصامدون الصامتون ، وأهل المشرق وأهل المغرب ، وكافة فصائل وقبائل وملل ونحل الأمة العربية .

لقد ألغيت اللغة العربية من اللغات الرسمية فى أكثر دول غرب أفريقيا . وهى التى كانت لغة الادارة والثقافة حتى نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن . واحتلت اللغة الفرنسية مكانها بعد ما ماوجهت اليها ضربات قاصمة وقاضية على مستوى السلطة وبين قطاعات المثقفين ، حتى لم يعد بين الذين ينتمون الى الشرائح العليا فى كل دول غرب افريقيا من يعرف اللغة العربية ، فيما خلا استثناءات شاذة تدخل فى نطاق « الأخطاء » التى لم يمكن تداركها .

لقد أصبح التعليم بالفرنسية ، والثقافة والصحافه والاذاعة بالفرنسية ، وصارت أقسام اللغات فى الجامعات تضم لغات تمتد من الانجليزية الى الاسبانية والصينية ، وتسقط من الاعتبار اللغة العربية ، فى بلاد ذات اغلبية اسلامية ساحقة .

لقد مررت بدول اتجهت الى اصدار صحف باللغات المحلية ، ورغم أن بين سكانها قبائل عربية ، الا أن اللغة العربية هى الوحيدة التى استثنيت من القرار ، بحجة أن مطابع الحكومة تستخدم الحروف اللاتينية ، الأمر الذى يتعذر معه اصدار طبعات عربية من الصحف الداخلية ، اللهم الا اذا امكن كتابة

الكلمات العربية بالحروف اللاتينية ؟ ، كما قال لى أحد المسئولين المتفرنسين !!

وسمعت الكثير من القصص التى تروى عن « تفانى » بعض هؤلاء فى حصار اللغة العربية وحربها ، ومنهم مسئول استقبلته الحكومة الفرنسية استقبال الأبطال الأفذاذ ، وأغدقت عليه الأوسمة وأقامت له حفلات التكريم ، لأنه قضى سبع سنوات وزيرا للتربية والتعليم فى دولة غرب افريقية ، سد خلالها كل المنافذ والأبواب أمام اللغة العربية ،. وفتحها جميعا على مصاريعها للغة الفرنسية .

ورغم ضراوة هذه الحرب المستمرة منذ عقود عديدة ، فان الجماهير المسلمة والعزلاء هى التى تولت صد العدوان على اللغة العربية وحمايتها طوال تلك العقود .

لقد شاهدت على الطبيعة الاقبال المذهل على الكتاتيب التى تعلم اللغة العربية وتحفظ القرآن الكريم . واصرار الآباء على مقاطعة التعليم الفرنسى ، والتعلق بأية فرصة هزيلة لتعليم أبنائهم العربية .

ورأيت رجالا باعوا ما يملكون ، واكتتبوا فيما بينهم ، وتحدوا الظروف القاهرة ، ثم أقاموا مدارس أصبحت تعج الآن بمئات التلاميذ فى مراحل التعليم المبكرة .

ورأيت ءاخرين نذروا أنفسهم لتعليم الصغار لقاء كسرات خبز وبيضات معدودات تقدم اليهم فى نهاية كل اسبوع ، وقد اعتكفوا كالرهبان ليل نهار لأداء تلك الرسالة ، حتى أخلوا حجرات من بيوتهم لينام فيها التلاميذ ، ويظلوا تحت أعينهم طول الوقت .

ورأيت شبابا رفضوا كل اغراء ، وتخلوا عن كل طموح فى الحياة ، وكرسوا أنفسهم لاقامة فصول تدريس اللغة العربية ، حتى بنوها بالطين طوبة طوبة ، ولم تسعفهم امكانياتهم فاجلسوا الصغار على الأرض المتربة التى كانت لهم مقعدا وطاولة ، ثم مضوا بأظافرهم وبالأحجار يكتبون الدروس العربية على الجدران .

ورأيت الصغار يكتبون الخط العربى على ألواح جذوع الأشجار ، بأقلام من البوص والغاب ، ومداد هو خليط من الفحم والصمغ والماء ، وضع فى أوعية منحوتة فى الحجر ،. ومنهم من حفظ القرآن كله ،ومنهم من حفظ المعلقات السبع !

ورأيت ءاخرين ينطلقون بعد الغداء بحثا عن الحطب والخشب ، يوقدونه نارا عندما يحل الظلام ، يتحلقون حولها وعلى نورها يقرأون ، بأصوات عالية تخترق الحجب وتتحدى كل الذين تآمروا على اللغة العربية عبر السنين الطوال .

ورأيت بيوتا تمتلىء بالفرحة وتغمرها السعادة ، عندما يكمل الابن حفظ القرآن الكريم ،وتقيم لذلك احتفالا متواضعا يتصدره الاستاذ ، ويتقاطر عليه أهل الحى مباركين ومهنئين . ويكافأ الاستاذ على انجازه بهدية تتراوح بين وجبة طعام تملأ المعدة أو ثوب يستر الجسد .

ورأيت كبارا فى السن والمقام يجلسون فى صفوف محو الأمية كل مساء ،ليحاولوا تعلم الحرف العربى ، بعد أن فاتتهم تلك الفرصة فى الماضى ، بينما أمروا زوجاتهم بالذهاب الى فصول النساء وتركوا صغارهم « عهدة » عند شيوخ الكتاتيب !

بكل ما يملكون يقاومون ويصمدون ويصدون ، لكن امكانياتهم العاجزة تظل قاصرة عن مواجهةالهجمة الشرسة والكاسحة التى تستهدف القضاء على اللغة العربية واجتثاثها .

لقد دبرت فرنسا الجريمة طوال سنوات استعمارها لغرب افريقيا . منذ اللحظة التى أدركت فيها أن اللغة العربية شىء يختلف عن اللغات المحلية ، مثل الولوف والبمبرا والهاوسا وتماشق . وتبينت أن العربية هى عنصر وحدة يلتقى عليه الأفارقة ، فضلا عن أنها جسر يربط بين الأفارقة والاسلام من ناحية ،

وبينهم وبين العرب من ناحية أخرى . منذئذ ، اعتبر الاستعمار الفرنسي أن اللغة العربية سلاح للمقاومة ينبغي ابطال مفعوله وافساده . فاعلنتها على الحرف العربي حربا لا هوادة فيها ولا رحمة ، وصنفت الكتاتيب والمعاهد العربية باعتبارها « جيوبا » لهذه المقاومة ، « وأوكارا » مشبوهة تشكل خطرا على الأمن العام .ولم تكتف سلطات الاستعمار الفرنسي بالحصار ووقف بعثات السفر للدراسة الى الخارج .

وانما استندت الاشراف على المدارس العربية في افريقيا الغربية الى أجهزة الأمن ، وليس الى وزارة التربية والتعليم ! ولا يزال هذا الوضع مستمرا في بلد مثل « مالي » الى الآن . اذ تشرف وزارة الداخلية على المدارس العربية . بينما لا يدخل في نطاق اشراف وزارة التربية والتعليم سوى التعليم الفرنسي ، أو صيغة مزورة للتعليم العربي تحمل اسم « مدارس الفرانكو آراب » . أما التعليم العربي الصرف على تواضعه ، فانه بين أيدي « المربين » المختصين في وزارة الداخلية !!

وعندما اضطرت فرنسا الى انهاء احتلالها الرسمي لغرب افريقيا ، كانت قد جندت لاستمرار تلك الرسالة « ميليشيات » مزودة باسلحة فتاكة ، ونصبت في كل منعطف كمينا للغة العربية ، حتى لا يصل أبناؤها ـ ان وجدوا ـ الى أي موقع متقدم . وحتى يظل التشرد والبطالة هما مصير أي دارس للغة العربية . وان أراد أن يعمل ، فليس أمامه الا أن يلقي خطبة الجمعة في المساجد لاناس لايفهمون العربية ، أو يقرأ على الموتى بعضا من آيات القرآن الكريم . وان أراد أن يواصل تعليمه فليس أمامه الا أن يقضي بقية عمره واقفا على السفارات العربية ، أو يلقي بنفسه في أي بلد عربي متوسلا ومستعطفا ، بعد أن يقطع الرحلة مشيا على الأقدام ، أو عبر طائرة يدفع كل الأهل ثمن تذكرتها من قوتهم ودمهم !

ان الدول العربية لم تسكت ، هذا صحيح ، ولكن أكثر ما فعلته كان في غير الاتجاه الصحيح . وبغير الاسلوب الصحيح .. وأكثر ما أخشاه أن يتنبه العرب الى خطورة الأمر في غير الوقت الصحيح !

من الدول العربية من حصر نشاطه ودعمه في اقامة المساجد وتزيينها بالبسط والثرياوالقباب والمآذن العالية . ولم يكن المسجد على أهميته هو المطلب الملح ، لأن كل مكان يصلح للسجود فيه هو مسجد عند المسلمين ، ولم يكن لمساجد المسلمين في عصر النبوة مئذنة ولا قبة ولا بسط ولا ثريات . وفي بعض الدول الافريقية أماكن معروفة لصلاة الجماعة في زوايا الشوارع ، محاطة بصف من الأحجار المتراصة ، يتوسطها حجر يشير الى القبلة .. وهو يؤدي الغرض بكل جدارة ، بينما في ظروف كتلك التي تعيشها الدول الافريقية تحتل المدرسة أولوية تقدم على المسجد ، ويعد الاصرار على توجيه الموارد المحدودة الى المساجد دون غيرها ، عملا فيه من الضرر النسبي أكثر مما فيه من المنفعة .

وللانصاف لابد أن نسجل أن من الدول العربية من أسهم فعلا في تأسيس مدارس اللغة العربية أو اقامة بعض المراكز الثقافية العربية . لكن ذلك الاسهام ظل قطرة في بحر ، فضلا عن أنه لم يتصل بجهود أخرى حتى يثمر ويحقق هدفه المنشود .

ومن الدول العربية من قدم المنح الدراسية واستقدم المبعوثين وأرسل المدرسين ، الا أن دائرة تأثير هذه الخطوات محدودة النطاق ، وتدخل في باب التسكين أو براءة الذمة ، ولا ترقى الى مستوى المواجهة الجادة للمؤامرة المدبرة للقضاء على اللغة العربية .

ومما يؤسف له أن احدى الدول العربية وقعت في الأسابيع الماضية اتفاقية لتأسيس مركز تربوي ، نص في عقده على تطبيق المناهج المحلية (الفرنسية بطبيعة الحال) في ذلك المركز أو المعهد ، ثم تدريس اللغة العربية ضمن المناهج . وهو مالا يضيف جديدا الى الأمر الواقع ، لأن أكثر دول غرب افريقيا تطبق حيلة فرضها الاستعمار الفرنسي ومررها على الحكومات بعد الاستقلال . وتتمثل هذه الحيلة في بدعة « الفرانكو آراب » وهي مدارس وسط بين الفرنسية الخالصة ، والعربية الخالصة التي تدرس الفرنسية . وانما فرنسية خالصة تدرس منهجا رمزيا في العربية ، حتى توهم الجماهير أنها تدرس العربية ، بينما يستغرق الدرس العربي أكثر من ساعة في الاسبوع كله . بحيث أن خريج هذه المدارس اذا التحق

بالجامعة ـ ودروسها فرنسية ـ فان بضاعته من العربية تظل هشة وقابلة للنسف والسقوط من الذاكرة في الشهور الأولى .

وثمة حلم افريقي لايزال معلقا على مشروع قررته منظمة المؤتمر الاسلامي في عام ١٩٧٤ باقامة جامعة اسلامية في النيجر ، في موقع ممتاز وعلى ربوة عالية تطل على نهر النيجر الكبير ، وقرب مدينة « ساي » التي اشتهرت بوفرة علمائها وفقهائها في الماضي ، ولا تزال تعيش على هذه السمعة الى الآن .. وهي تبعد عن العاصمة نيامي بحوالي ٤٠ كيلومترا .

ذهبت الى مقر « الجامعة » ، فلم أجد فيه سوى أحجار متناثرة وأشجار برية ، تزحف بينها السحالى ، والحشرات الصحراوية بكل أمان واطمئنان ليس هناك جدار واحد منذ صدر القرار قبل سبع سنوات .

وقيل لى ان مكاتبات ومخططات عديدة تبودلت بين الجهات المعنية ، وان تفصيلات بناء المرحلة الأولى قد أعدت على الورق ، لكن مشكلة التمويل لم تحل . اذ أن تلك المرحلة تتكلف ٦٠ مليون دولار ، بينما المبلغ المتوفر لدى صندوق التضامن الاسلامي ، الذي يباشر العملية في حدود ١٨ مليون دولار . ولا يعرف أحدكم سيمر من الزمن حتى يتوفر المبلغ ، الذي يغطى الحصة الباقية فضلا عن تكاليف البناء التي تتزايد عاما بعد عام !

وللكويت تجربة بناءة في هذا الاتجاه ، عندما أسست مكتبا « للخليج والجنوب » ، تحمل على مدى سنوات عديدة مسئولية كبيرة تجاه اليمنين الشقيقين في المجالين الانشائي والثقافي ، توجت بعملية انشاء جامعة صنعاء . وتستطيع منظمة المؤتمر الاسلامي ، وهي قادرة ، أن تخطو خطوة مماثلة ، فتنشىء مكتبا لحماية اللغة العربية ، يتولى انشاء المدارس وايفاد المبعوثين وتنظيم الاشراف عليهم .

غير أن مجال الحركة لا يزال واسعا خارج اطار المنظمة ، وخارج دائرة المصالح السياسية والهياكل الرسمية . وأعرف عددا من الأثرياء العرب يقدمون اسهامات مختلفة في هذا الاتجاه تتم في نبل وصمت ، وبعيدا عن الأضواء والدعاية . منهم من ينفق على بعض المبعوثين ، ومنهم من يسهم في بناء مدرسة ، كلها أو بعض فصولها . ومشكلة هذه الجهود انها مبعثرة وغير منظمة ، الأمر الذي يضعف من فعاليتها لأنها تعالج حالات محدودة بقدرات محدودة . وسوف ينقلب الحال اذا التقت هذه الجهود ، وصبت كلها في اتجاه واحد .

وعلى سبيل المثال فان في جمهورية مالي ٢٠٠ مدرسة أهلية عربية ، ابتدائية واعدادية تضم ٥٠ الف تلميذ هؤلاء ينتظرهم مستقبل مجهول ، لأنه لا توجد في طول البلاد وعرضهامدرسة ثانوية عربية واحدة ، واذا استمر الحال كما هو عليه الآن فسوف تذهب كل تلك الجهود هباء ، لأن خريجي المرحلة الاعدادية في تلك المدارس اما ان يلتحقوا بالمدارس الفرنسية ، ليمحى بمضى الوقت كل ما حصلوه بالعربية ، أو أنهم سيذوبون في المجتمع ـ خارج دائرة التعليم ـ فلا شئ ، وتموت لغتهم العربية تدريجيا .

وسوف يكون عملا بناء ومثمرا للغاية ان تتضافر الجهود من أجل انشاء مدرسة ثانوية عربيةفي عاصمة مالي ، تنقذ مئات ـ وربما ألوفا ـ من هؤلاء التلاميذ المهددين بالضياع .

وهذا مثل واحد ، وغيره أمثلة كثيرة ، يمكن الخوض فيها اذا حان وقت الدخول في التفاصيل .كما أني لست أشك أن هناك آخرين من ذوى المعرفة والخبرة يستطيعون أن يضيفوا الكثير في هذا المجال .

لكن الأهم من ذلك هو أن تقام حلقة الوصل الاولى بين تلك الجهود المبعثرة .. حتى يتم ذلك ، وكيف ؟.. ذلك أمر في علم الغيب ، ومرهون بارادة الأطراف المعنية .

لكنى قد بلغت ، اللهم فاشهد !

أرقـــام

تلد النساء ولا يزيد العالم

العالم غدا ، سؤال مثير !

لكن الاكثر اثارة ان نعرف اننا مقبلون على عصر من طراز خاص : تلـد فيـه النسـاء .. ولايزيد فيه العالم !

علماء السكان يعتبرون ذلك انقلابا بل هو « اهدأ واهم ثورة في التاريخ » . ورجال الارقام يترجمون الامر في عبارة موجزة : بدأ العالـم في الثمانينات وعـدد سكانـه (٤ , ٤) بلايـين .. وبعـد (١٣٠) سنـة سوف يصبـح الرقـم (٥, ١٠) بلايين .. ثم يتوقف كل شيء .. يزيد العالم او ينقص !

انهـا رحلـة تثبيـت عدد سكـان العالـم ، اغرب ، واطول رحلة في التاريخ . ففي الماضي كانت الشعوب تتناقص في بعض الاحيان بسبب الاوبئة والامـراض وعـدوان الطبيعـة .. وفي الماضي القريب كانت الاعداد تتزايد بالضرورة تحت تأثير التطـور والاكتشافـات العلميـة والطبية .. فلما جاء القرن التاسع عشر احدث ذلك نوعين من التأثير : صحة افضل تزيد عدد السكان .. وتصنيع وتعليم وتحضر اكثر مما يزيد الميل لضبط هذا العدد ! .. حدث ذلك في اوربا وأمريكا الشمالية حيث استغرق الامر (١٥٠) عاما كاملة لينخفض معدل الخصوبة ، ولتبدأ تباشير عصر جديد تتساوى فيه اعداد القادمين والذاهبين من الحياة . انه عصر التثبيت !

كسـب الاوربيـون والامريكيـون « سبـاق الاطفال والموارد » .. وكسب الا خرون خبرة من

سبقهم فاجتاز السوفييت رحلة تخفيض معدل الانجاب من اربعين عاما خلال النصف الاول من هذا القرن ..واجتاز اليابانيون نفس الرحلة في ٢٥ عاما خلال النصف الثاني من القرن .

كان شبح الجوع يخيف الجميع . فالموارد لم تعد تكفى الحاجات الاساسية لنصف سكان العالم .. اى ان اكثر من بليونين لايحصلون على المأكل والملبس والمسكن المناسب .. و .. سوف يزيد العدد بقرار فردى لامرأة تحدد : كم تنجب ؟ .. ومتى تنجب ؟ .. وربما شاركها الزوج او اتخذ القرار بدلا منها .. ولكن وفي النهاية يبقي الامر متأرجحا بين قرار خاص .. وظروف عامة تتعلق بالتنمية والتعليم واشتغال المرأة واستقلالها ..و .. في جميع الاحوال فسوف يحدث ذلك التحول الذي تشير له دراسات الامم المتحدة ومنظماتها المشتغلة بشؤون السكان . سيكون امام العالم ثلاثة احتمالات : ارجحها ـ وفقا للسياسات الجارية ـ هو ذلك الذي يقول : يتوقف العالم عند الرقم (١٠,٥) بلايين عام (٢١١٠) .

سيمر العالم بمرحلة تخفيض الخصوبة .. ثم مرحلة التثبيت . ومن الطبيعي الا يصل الجميع للمرحلة الاخيرة في وقت واحد وسوف يصل الاغنياء اولا .. ويصل الفقراء اخيرا .. وسوف يسجل الاغنياء اشكال رحلة بدأوها بالفعل حين وصل الى حد التثبيت في السنوات الاخيرة (١١) بلدا اوروبيا بينها الدولتان الألمانيتان والنمسا وتشيكو سلوفاكيا وبريطانيا والدنمرك .

وبتحديد اكثر سوف تتساوى الكفتان : من يأتون للحياة ومن يفارقونها وبما يجعل عدد السكان ثابتا .. سوف يحدث ذلك في اوربا باكملها بعد خمسين عاما .. وفي امريكا الشمالية بعد ثمانين عاما .. اما في شرق آسيا فالامر يحتاج (١١٠) أعوام .. ثم .. يأتي السوفييت وامريكا اللاتينية وافريقيا.

عندما تصل افريقيا للتثبيت يكون الكل قد سبقها . فافريقيا هي الاكثر انجابا . وهي الشاهد على حقيقة تقول : « كلما زادت الوفيات .. زاد عدد السكان » . قد يكون الامر غريبا . ولكن عندما تزيد وفيات الاطفال وتفقد الأم اطمئنانها .. يزيد النسل ولايقل ، وحتى يقل السكان .... لابد ان يزيدوا اولا .

ايضا ، فان افريقيا شاهد على حقيقة ان الفقراء اكثر انجابا تشاركها في ذلك آسيا باستثناء صيني يرفع الشعار : « طفل لكل اسرة »

على اى حال فان افريقيا سوف تصل ، وحين يحدث سيكون العالم كله « محلك سر » وسوف يكون (٩٠٪) منه ـ حسب توقعات الامم المتحدة ـ فيما نسميه الآن : العالم النامى انه عند الفقراء ..

ومع ذلك فانه غد افضل لانه ينقذنا من غد اكثر فقرا .

محمود المراغى

لنبدأ بازالة اسباب العنف السياسي

التطرف الديني كرد فعل للتطرف اللاديني

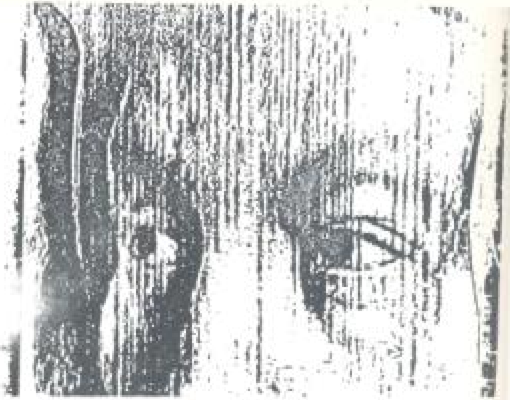
بقلم : الدكتور ادريس الكتاني*

من بين المصطلحات الجديدة التي ترجمها الاعلام العربي عن الاعلام الغربي أخيرا ، بمناسبة تطور الصراع داخل العالم العربي والاسلامي ، ضد الاستعمار والهيمنة الغربية ، نجد عبارة « التطرف الديني » تتسرب بسهولة ويسر عبر وسائل الاعلام العربية ، فتسهل على الكتاب والمحللين للاحداث مهمتهم ، بل هي توجههم أو توحي اليهم على الاقل ، بنقطة الانطلاق في تفسير الظاهرة الاسلامية الجديدة ، واعطائها وصفا معينا لهدف خاص .

في مطلع العام الثاني من القرن الخامس عشر الهجري ، وبداية سنة ١٩٨٢ الميلادية ، توجد الحضارة الغربية المادية بوجهيها الرأسمالي والشيوعي ، في موقف مواجهة وعداء للدين . الدين المسيحي التقليدي لهذه الحضارة بعقيدته اللاعقلانية ، وكهنوته ورهبانيته ونظامه الاكليرجي ، وتاريخه ، لم يستطع الوقوف امام التطور الفكري ، والتقدم العلمي والمادي لشعوب هذه الحضارة ، فبينما اكتفت الثورات الغربية للعالم الرأسمالي بفصل الدين عن الدولة ومؤسساتها السياسية والادارية ، ونظامها التربوي ، وقفت الثورة الشيوعية منه موقف الانكار الفلسفي ، والعداء الايديولوجي الكامل ، وهكذا أصبح الفكر الشيوعي الماركسي يمثل عمليا موقف « التطرف اللاديني » الذي لايعني الحياد ، وانما الرفض الصريح للدين .

ولم تختلف نظرة شعوب الحضارة الغربية هذه الى الاديان الاخرى ، وخاصة الاسلام ، عن نظرتها الى الدين المسيحي ، ان لم تكن أسوأ منها ، فله عندها مفهوم مترسخ واحد ، ينطلق من الصورة التي ترسبت في اذهانها عن المسيحية فاذا أضفنا اليها بالنسبة الى الاسلام الصورة السيئة التى رسمتها المسيحية والاستعمار خلال قرون من العداء والصراع مع الحضارة الاسلامية ، ادركنا حقيقة « المفهوم » الكامل للدين الاسلامي في الغرب ، حيث تندمج فيه معاني « الرجعية ، والتخلف ، والبداوة والقسوة والعنف ، والقبلية والطائفية » على اعتبار انها من خصائص او نتائج الفكر الاسلامي ، والابحاث التي تم القيام بها اخيرا في مواد الكتب المدرسية ومناهجها التاريخية والجغرافية والحضارية في بعض الدول الاوروبية ، وفي

* أستاذ علم الاجرام بكلية الاداب بجامعة محمد الخامس بالرباط



الولايات المتحدة نفسها تؤكد هذه الحقيقة ، بل ان الكتب والمناهج التعليمية التي ورثناها نحن في المغرب العربي عن الاستعمار مليئة بخطوط ومحتويات هذه الصورة السيئة .

على أن هذا « المفهوم » لم يقتصر على شعوب الغرب وحده ، فالاجيال العربية ـ الاسلامية التي تعلمت في الغرب ، أو درست في اوطانها في المدارس الغربية ، او طبق المناهج الغربية ، وهي التي تتصدر الشرائح العليا في اغلب البلاد العربية ـ الاسلامية ، هذه الاجيال ان لم تكن هي نفسها تؤمن بهذا المفهوم بنسبة ثمانين أو تسعين في المائة ، فهي على احسن تقدير واقعة تحت تأثيره الفكري ـ الثقافي بنسبة خمسين بالمائة ، وهذا هو سر انسياقها وتبعيتها ، بوعي او بدون وعي ، للتيارات المادية للفكر اللاديني الغربي . ووقوفها من قضية الدين ببلادها موقف الحياد او اللامبالاة

في هذه الظروف الفكرية والحضارية لمجتمعين مختلفي الحضارة والدين واللغة والتاريخ ، ويتميز حاضرهما بصراع حاد على جميع المستويات ، اذا شئنا ان نتعمق في تحليل ماسمي ب « التطرف الديني »فعلينا ان نتساءل اولا :

ـ من الذي اطلق هذا المصطلح ؟

ـ وعلى من اطلق بالذات ؟

ـ وماهي الصفات المحددة لمفهوم (التطرف) ؟

ـ وما هو الهدف الخفي من اطلاقه ؟

والخبراء المتتبعون لسير الصراع المذكور لايختلفون في الاجابة على هذه الاسئلة .

فالاجهزة الاستعمارية الغربية التي تشرف على توجيه الاعلام الغربي ووضع الصيغ والمصطلحات النفسية والاجتماعية الملائمة لمخططاتها السياسية في العالم العربي ، هي التي اطلقت عبارة« التطرف الديني »كما استعملت عددا من المصطلحات الاخرى ، من بينها على سبيل المثال :

ـ أزمة الشرق الاوسط
ـ الدول المتطرفة والدول المعتدلة
ـ الدول الفقيرة والدول الغنية
ـ العالم الثالث
ـ الاضطرابات في العالم الثالث
ـ حقوق الانسان .

هدف المصطلحات

ولكل من هذه المصطلحات هدف استعماري يغيب عن اكثر الذين يعنيهم الامر ، في الوقت الذي يقعون ـ بجهلهم ـ في احبولته .

وهكذا فان قضية اغتصاب فلسطين ومؤامرة الغرب الاستعماري مع الصهيونية العالمية لتأخير نهضة العالم العربي ـ الاسلامي مائة عام أخرى ، هذه القضية البالغة الخطورة ، يجب التقليل من أهميتها ، واحاطتها في الاعلام العالمي بالغموض ، واعتبارها مجرد « أزمة » عابرة بين دول المنطقة ، نتيجة صراع ديني وقومي بين اليهود والمسلمين وخلاف حول حدودها ! . ومع ذلك ، فالاعلام العربي يتحدث هو نفسه يوميا عن « أزمة الشرق الاوسط » .. !

وبعض الدول الافريقية « الفقيرة » هي غنية بمعادنها وثرواتها الطبيعية ، ولكن الاعلام الاستعماري يريد اقناعها دوما بانها فقيرة لتستمر في خدمة واستجداء الدول الاستعمارية الغنية ! .

ولعلنا لانحتاج الى شرح الغموض المقصود من عبارة « الاضطرابات في العالم الثالث » ، فهذا وزير الدفاع الامريكي السابق هارولدبراون يقوم بهذا الشرح قائلا : (ان الخطر الاكبر على الامن الامريكي ليس هو التهديدات الاستهلاكية ، او التوسع الروسي ، بل هو تكاثر حالات الاضطراب والتمرد الخارجة عن دائرة النفوذ الامريكي في بلدان العالم الثالث » ، وهو يعني حركات التحرر التي تقاوم السيطرة الاستعمارية والفساد .

ولعل من اغرب التفسيرات التي سمعناها لمصطلح « حقوق الانسان » ، ما صرح به مسؤول أمريكي اخيرا من « ان الولايات المتحدة ستستمر في الدفاع عن (حقوق الانسان) ، ولكن ليس على حساب أصدقاء

الولايات المتحدة ! » .

وحتى عبارة « محو آثار العدوان » التي اطلقت بعد هجوم اسرائيل على البلاد العربية سنة ١٩٦٧ ، وكان يبدو أنها مصطلح عربي ، لعبت دورا اعلاميا منذ ذلك التاريخ ، في التركيز على العدوان الجديد واغفال العدوان القديم .

ونعود للاجابة على السؤال الثاني :

ـ من هم المعنيون بالتطرف الديني ؟

ـ انهم المسلمون فقط من شعوب وحركات وجمعيات ، فاليهود ، مثلا ، رغم كل ما قاموا به من ارهاب وقتل واحراق وتخريب للمسلمين وديارهم منذ قيام اسرائيل وحتى الآن ، لايعتبر عملهم « تطرفا دينيا » ! .وما تقوم به حكومات مسيحية كالفيلبين ضد المسلمين ، لم يصفه احد في الغرب بانه « تطرف ديني » ! .

ثم ما هي الصفات المحددة لمفهوم « التطرف الاسلامي » في الاعلام الغربي ؟ .

العنف واللامعقول

ـ تجيب عن هذا السؤال وكالة فرانس بريس في تعليق لها بعنوان : (العنف واللامعقول في الشرق العربي) بتاريخ (٩ـ١٠ـ٨١) قائلة :

« يرى كثير من المراقبين في الغرب أن الدقة والجرأة وقبول التضحية بالنفس هي سمات الاعتداء الذي راح ضحيته رئيس جمهورية مصر ، ... لقد ألقى المهاجمون بأنفسهم في فم الاسد تقريبا ، وهاجموا هدفهم من الامام في الوقت الذي كان الرجل محاطا فيه بآلاف من الجنود ورجال الشرطة .

ان هذا المزيج من الدقة في الترتيب ، والجرأة المجنونة في التنفيذ (٥٠ ثانية) ، يتكرر في كل اعمال العنف تقريبا التي يتميز بها صعود التطرف الاسلامي منذ عامين أو ثلاثة اعوام ، ... ان ما يلفت نظر المراقبين في اعمال المتطرفين ، هو تلك القيمة المثالية التي يريدون اضفاءها على عملهم ، والتي تتغلب كثيرا على السعي الى تحقيق كسب فوري .

... وسواء كانت قصص البطولات والمغامرات التي تحكي حقيقية او مختلقة فالواقع أنها تؤثر على الخيال الشعبي ، وترضي حب العرب لبطولة لم تعد ميادين القتال تحققها لهم .

.... ولاشك ان الانتحاريين الذين قتلوا الرئيس ، ارادوا ان يثبتوا لشعب أصابه الذهول ، كيف يستطيع المسلم حتى الآن ان يموت في سبيل معتقداته .

.... ان الصعود السريع للامعقول في العالم الاسلامي هو الذي يتجلى بذلك في وضح النهار ، فلا تستطيع أي دولة عربية ان تشهر اليوم بانها في مأمن هذه الظاهرة الرهيبة ، كما ان رخاء الغرب أصبح الآن تحت رحمة اشخاص ، الموت بالنسبة لهم خير لايطاوله خير آخر » .

ان المجال الآن لايتسع للتعليق على هذا التحليل ، واهميته ليست فقط في توضيح النظرة الغربية لما تسمية بالتطرف الاسلامي ، ولكن ايضا في اجابة التحليل على السؤال الرابع الذي ألقيناه :

ـ ما هو الهدف من اطلاقه ؟

ان التحليل المذكور يستشف منه بوضوح ، أن عبارة « التطرف الديني » تهدف لضرب عصفورين بحجر واحد :

١ ـ تخويف وتأليب الحكومات والرأي العام العربي ضد الحركات الاسلامية بصفة عامة ، باعتبار انها منبع خطر دائم عليها يتميز بالتطرف الديني ، بدل التعاون معها ضد الخطر الحقيقي الاجنبي المتمثل في الامبريالية والصهيونية .

٢ ـ تخويف وتأليب الحكومات والرأي العام الغربي ضد الحركات الاسلامية بصفة عامة باعتبار انها مصدر خطر جديد « غير معقول » يقف حائلا ضد رخاء الغرب ؛ اذ من (غير المعقول) ان تصبح الشعوب التي حكمها الاستعمار بالامس سيدة نفسها ، بل وتتحكم في مصير أسيادها السابقين ! .

والتطرف اليساري واليميني :

ان ما يسمى بالتطرف الديني لايمكن ان يعتبر شذوذا خارجا عما تعرفه ظاهرة العنف والاجرام التي تتميز بها حضارة الغرب المادية المعاصرة ، فحوادث العنف الاسلامية لاتزال أقل خطرا بكثير من حوادث الارهاب التي تعرفها ايطاليا والمانيا واسبانيا وانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها من دول العالم ، وقد تحدثت مجلة تايم الامريكية في شهر نوفمبر ١٩٨١ الماضي عن (المتطرفين اليمينيين) في المانيا الغربية وتصاعد عملياتهم الارهابية ، التي ارتفع عددها من ٦٠٦ عملية في عام ١٩٧٧ ، الى ١٥٣٣ عملية في عام ١٩٨٠ ،

واشارت الى ان الحركة المسئولة عن عمليات الارهاب ارتفع عدد اعضائها من ١٤٠٠ في السنة الماضية الى ١٨٠٠ وقد جاءت هذه الزيادة في وقت يتواصل فيه التأييد السياسي للمتطرفين اليمينيين .

وفي نفس الوقت تحدث أريك بوغ رئيس المكتب الاتحادي للبوليس الجنائي عن (المتطرفين اليساريين) الذين ينتمون الى الخلايا الثورية ، ويشكلون اكبر خطر على الامن الداخلي في جمهورية المانيا الاتحادية ، وانهم اكثر خطورة من جناح الجيش الاحمر ، الذي قام بمحاولة اغتيال الجنرال فريدريك كروسي قائد القوات البرية الامريكية في أوروبا .

وهكذا تمر اخبار « التطرف اليميني » و « التطرف اليساري » في الغرب بهدوء تام في الوقت الذي يدق فيه الاعلام الغربي يوميا « ناقوس الخطر » ضد « التطرف الديني » ! .

لماذا اذن يصف الغربيون ارهابهم بالتطرف اليميني او اليساري وارهابنا بالتطرف الديني ؟ ، هل فقط لانه عندهم يصدر من مسيحيين لادينيين ، وعندنا من مسلمين متدينين ؟! ، هذا لاتقوم به حجة ، طالما أن المتدين وغير المتدين ، المسلم والمسيحي ، قد يكون لهما رد فعل واحد تجاه الشعور بالظلم والاعتداء ، ولذن يجب البحث عن أسباب العنف من طبيعة هذه الاسباب ، واذا كان الاعلام الغربي قد تجاوز هذا الموقف الموضوعي ، ليحكم مسبقا على كل عنف سياسي يصدر في العالم العربي الاسلامي بانه صادر عن نزعة دينية محضة ، فهذا يكشف طبيعة التضليل المقصود للاعلام الغربي ، في استعماله عبارة « التطرف الديني » .

ان الاسلام ، كما هو معروف ، ولا يسعنا المقام لذكر الادلة على ذلك هنا ، لايقر العنف والارهاب ، لانه دين التسامح والسلام ، والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والعنف السياسي الذي عرفه العرب منذ فجر الاسلام ، والذي بدأ بقتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين واثنين من احفاد الرسول عليه الصلاة والسلام هما الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ، والذي ذهب ضحيته مئات الشهداء من حفدة الرسول وصهره الامام علي بن أبي طالب ، خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، وعدد كبير من العلماء ورجال الفكر والسياسة حتى اليوم ، هذا العنف هو (ظاهرة سياسية عربية) ، ولم ينعته أحد من المؤرخين او الكتاب ، بانه عمل ديني ، أو تطرف ديني ، وسيكون من السخف والبلاهة ان يدعي احد بان قتل الخلفاء الراشدين ، وحفدة الرسول وآل بيته وأنصار دعوته ، هو عمل اسلامي ، او سلوك يوحي الدين بممارسته .

أسباب العنف السياسي :

يدخل العنف السياسي في الاطار العام لتعريف الجريمة ، اذ هو سلوك مخالف للقانون الجنائي ، ولذلك فان البحث عن أسباب هذا السلوك ، يجب ان يخضع لنفس المنهج الخاص بعلم الاجرام . ومن المعروف في قواعد علم الاجتماع انه لايمكن تفسير حادث وقع في مكان معين إلا بحادث آخر وقع في جهة اخرى من المكان . ذلك ان الحياة الاجتماعية هي عبارة عن مسلسل من ردود الفعل ، ورد الفعل العنيف من طرف انسان او جماعة متجانسة ، ضد فعل انسان او جماعة معارضة ، قد يكون نتيجة سلسلة من الافعال الاستفزازية المتراكمة ، التي لايقوى أحدها بمفرده على أحداث رد الفعل ، ولذلك يقول المثل الشعبي المغربي : (حك على الشياتة يرجع راجل) اي ان الانسان الضعيف الذليل الذي يشمت به الناس ، اذا انت تجاوزت حدود منطقة قابليته للاهانة ، بتكرار عمليات الاذلال والاحتقار ، فانه سيثور ويتحول الى رجل مكتمل الرجولة .

وشعور الجماعة بالظلم والقهر ، او بالاستبداد والاستغلال ، سواء من خصم داخلي ، او عدو خارجي ، لابد ان تكون له انعكاسات سلبية ، ويتبلور رد فعله في صياغة فكرة ، تعبر عن قيمة من قيم المجتمع ، يشترك افراد الجماعة في ابرازها كقوةمثالية مقدسة ، قادرة على مواجهة قوة الخصم ، وقد تطول مدة صياغة الفكرة ، او مدة تحويل الفكرة الى عقيدة او مدة تحويل العقيدة الى عمل ايجابي يمثل رد فعل الجماعة ، تبعا لمستوى ثقافتها ، وقدرتها على انجاز عمليات رد الفعل بنجاح ، وتبعا أيضا لمستوى ثقافة الخصم ، وقدرته على احباط عمليات رد الفعل لدى الجماعة .

وقد قامت الشعوب العربية الاسلامية خلال المرحلة الاستعمارية بمسلسل ردود الفعل الذي انتهى باستقلالها السياسي في فترات زمنية مختلفة ، تبعا لما شرحناه آنفا ، وتمثل رد فعل النظام الاستعماري الكامل بالثورة الشعبية المسلحة ، بينما اقتصر رد فعل نظام الحماية والانتداب على المقاومة السياسية ، والحركة الفدائية المسلحة .

ويلاحظ انه بعد مرور عشرات السنين على هذا الاستقلال ، وخاصة منذ الغزو الصهيوني المدعم بالتحالف الامبريالي ، عجزت اغلب الحكومات العربية عن :

وضع اسلوب مستقر للحكم يضمن الحريات العامة ، والعدالة الاجتماعية ، ويستمد سلطته مباشرة من الشعب ، سواء طبق الشريعة الاسلامية ، اوحسب النظام الديمقراطي الغربي .

وضع حد لمشاكل الشعب المتزايدة ، وضمان حقوق المواطنين في الشغل والتعليم والصحة والسكنى ، وتطبيق قوانين الضمان الاجتماعي ضد العجز والحاجة والمرض والشيخوخة على جميع المواطنين .

تحقيق الوحدة العربية ، سواء باسم القومية العربية او باسم المذهب الاشتراكي رغم كل الجهود التي بذلتها الحكومات المعنية . وكان من اهم عوامل فشلها انطلاقها من وهم انشاء دولة عربية واحدة وتجاهل النظام الوحيد الناجح في الغرب والشرق ، القائم على الاتحاد الفيدرالي .

مواجهة اسرائيل ، وكأنها الدولة التي لاتقهر ، بحجة انها حليفة الولايات المتحدة . ومعاملة هذه الاخيرة وكأنها الاهة الارض التي بيدها ملكوت كل شيء مع انها عانت الهزيمة أمام ارادة شعبين دونها عدة وعددا .

أمام تراكم مسلسل العجز والقصور والجمود ، وعدم القدرة على تحسين الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعوب العربية ، وتزايد الشعور بالقهر والهزيمة والاحباط والمذلة امام اسرائيل وحلفائها الغربيين ، في ظروف واوضاع لعل العرب لم يعرفوا في تاريخهم الطويل اشد منها قساوة ومهانة ، كان لابد ان تكون هناك ردود افعال ، في مستوى الافعال وفي حجمها ، ولكن من طرف من ؟ الأحزاب شريكة الحكومات في مسؤولية الحكم ، لاينتظر طبعا ـ ان يكون لها رد فعل . الجماعات الشعبية الاخرى التي ظلت خارج المسؤولية والمشاركة في الحكم ، هي جماعات اسلامية كعموم الشعب ، ولانها لاتحمل شعارا او عنوانا غريبا ، هي المؤهلة بحكم قيمها الاصلية السلفية لظهور ردود الفعل في اطار « ظاهرة العنف السياسي » العربية التاريخية التقليدية

البديل الوحيد

لعبت الاحزاب الوطنية العربية في مرحلة مقاومة الاستعمار دورا عظيم الاهمية في الحصول على الاستقلال ، وكانت في اغلبيتها اسلامية الفكر والروح والعقيدة ، وهذا ما جعلها تكتسب التأييد الشعبي الساحق الذي حقق لها الانتصار . وبعد الاستقلال اخذ نفوذ هذه الاحزاب يتضاءل ويتقلص بسبب عدة عوامل اهمها :

انغماس اغلب قادتها في الاستمتاع بمكاسب الاستقلال ، وفتور علاقاتهم بالقاعدة الشعبية نتيجة لذلك ، وبالتالي فتور روح التضحية والحماس في هذه القاعدة التي خاب املها في عهد الاستقلال ، الذي لم يحقق لها ما كانت تحلم به من تقدم وازدهار .

(مقدرة الانتهازيين والوصوليين على التسرب لمراكز القيادة والسلطة واستعمالها لخدمة المصالح الخاصة والشخصية .

عدم ثقة السلطة السياسية بالاحزاب الوطنية التقليدية ، وقيامها بانشاء احزاب خاصة بها تدين لها بالولاء ، ولكنها لاتملك رصيدا شعبيا .

وهكذا وجد الشعب نفسه بين احزاب فقد ثقته بها ، وأخرى لا علاقة له بها ، وتم عمليا (فك الارتباط) بين الشعب والسلطة السياسية . واذا كانت هذه السلطة لاتجد اية صعوبة في ترشيح من يمثل الشعب وينطق باسمه ، في المجالس ووسائل الاعلام ، فان افراد الشعب الذين يشعرون بالكبت والحرمان ، حتى من حق المعارضة او ابداء التذمر والسخط ، يلتجئون ـ بحكم الضرورة وحتمية رد الفعل ـ الى المقاومة السرية باسلوب « العنف السياسي » الذي اصبح (ظاهرة عالمية) بفضل وسائل التدمير والتفجير الحديثة ، وتطور تقنيات العنف والارهاب .

اذا اقتنعنا بأن « العنف السياسي » مهما كانت اسبابه ، هو عبارة عن سلوك مخالف للقانون الجنائي ، وبهذا يعتبر نوعا من الاجرام الذي هو ثمرة الخلل الموجود في ابنية ومؤسسات المجتمع ، فان الاسلوب العملي لمنع الجريمة يتركز على منع اسبابها وعواملها . وقد فشلت جميع اساليب العلاج القائمة على الردع والزجر حتى الآن . ولذلك فان كل محاولة لعلاج « العنف السياسي » باسلوب الوعظ والارشاد الديني ، مع استمرار الاسباب والعوامل الدافعة اليه ، سيكون مآلها الفشل أيضا .

اذن لنبدأ بازالة اسباب (العنف السياسي) . وقبل ذلك ، علينا ان نبدأ بتشخيصها .

هذه هي (القصة العربية) التي لم تتم فصولا بعد ، في انتظار من يمثل دور البطل . ■■

الرباط ـ د . ادريس الكتاني



الأم في عيدها..

بقلم : الدكتور عمر الدقاق

منذ الأزل كانت قوام الأسرة وكان الأبناء ينسبون اليها

لماذا

في المكانه : قيل ام القري وام الكتاب وفي الانتماء يقولون الوطن او اللغه الأم .. وليس الاب ؟ الأم لم تأخذ مكانها في التراث الشعري العربي ورد اعتبارها الشعراء المحدثون .. خاصة شعراء المهجر

قلما عرفت لغات اهل الارض كلمة مشتركة بينها تضارع كلمة « الأم » ففي بنية هذه الكلمة حيث حرف الميم هو العمدة . يلاحظ ايضا ان حرف الميم قاسم مشترك بين لغات الامم يدور على السنتها ولا سيا السنة اطفالها على الدوام ، مع اختلاف يسير في سائر حروف الكلمة .

ومن المرجح وفقا لما يجنح اليه علماء الالسنيات والانتروبولوجيا ان ما فطر عليه الطفل البشري في أي مكان من هذه الدنيا ، من مناغاته امه بصوت : ما او مام او مامي او ماما .. الخ او ما شابه ذلك ، انما هو اصل اطلاق تسمية (الام) على ذلك الكائن الانساني عبر العصور وعلى اختلاف الامكنة وتباين الاقوام .

والأم في اللغة تعني فيا تعنيه : الاصل والاساس والسنخ والجذر والمنبع والمنبت والمنشأ . وفي سالف العصور الموغلة في القدم كانت الام في الجماعات البدائية هي قوام الاسرة وعمدتها . وقد ظل البشر دهورا طوالا ينتسبون الى أمهاتهم دون آبائهم ، باعتبار هذا الولاء اصرح نسبا واوضح انتماء . وعلى ذلك تشيع في كثير من اللغات المعاصرة عبارة (لغة الام) ويراد بها اللغة الاصيلة ، فلم يقولوا لغة الاب ، لافتقار هذه العبارة الى الدقة ، اذ الاصالة الحقيقية انما تسري الى الطفل من خلال امه ، لانه هو مولود من رحمها وملتصق بها ، وملازم اياها في طور تكونه ونموه . فكأن المرء في طفولته يرضع اللغة من فم امه مع رضاعه اللبن من ثديها سواء بسواء .

ومن هنا ايضا يتردد على الألسنة تعبير (الوطن الأم) أي الوطن الاول والاساس وان تعددت بعد ذلك الاوطان ، ويقصد به وطن المولد والمنبت والمنشأ ...

دلالات مجازية

وعلى هذا الغرار توسع الناس في استعمال لفظ الام عن طريق المجاز ويعنون به دوما الاصل او الجذر او نحو ذلك ، فالمرأة التي تتولى عملا اساسيا في مؤسسة ما ، من دير او مشفى او مشغل تعرف ـ ولا سيا في بلاد الغرب ـ باسم الام ، بل ان لفظ الام يطلق على كل امرأة مسنة بوجه عام ، وهذا طبعا من قبيل الاحترام والتقدير ، لما تنطوي عليه كلمة ام من هالة محبة عميقة لدى كل انسان . كذلك ـ وربما للسبب نفسه ـ يطلق في بعض لغات الغربيين اسم « الام الكبيرة » على ما يسميه العرب مثلا الجدة ، اذ لا وجود لمرادف هذا اللفظ في معاجمهم ، كما لا تحتوي لغتهم لفظا بعينه للحماة بل يسمونها بالفرنسية مثلا (الام الجميلة Labellemere) ، وهذه التسمية تبدو لنا غريبة بالاستناد الى معناها الحرفي ، وهي ايضا قلما تطابق الواقع في مدلولها وذلك لانتفاء صفة الشباب والنضارة في ادنى الاحوال ، والكلمة عندهم بطبيعة الحال لاتمت الى معناها بنسب ولعلها فقدت هذا المعنى اللغوي الدقيق على مر العصور . وقد يكون في هذا التعبير السمح مايرضي نساء كثيرات ، لان تسمية الامور باسمائها الصريحة او المباشرة قد تكون ذات وطأة على بعض النفوس ، ومعلوم ان حموات كثيرات في المجتمعات العربية يتعضن من هذه التسمية المباشرة ويؤثرن ان يدعون بكلمات اخرى بديلة مثل ماما او الست الكبيرة او امرأة العم ..

ومن هذا القبيل عبارات جمة تنطوي على كلمة الام وتدور على الألسنة مثل ، المؤسسة الام ، اي الكبرى تمييزا لها عن سائر الفروع ، والينبوع الام اي الاغزر ، كذلك يقال : الكتاب الام او النسخة الام ، وايضا الفكرة الام بالنسبة الى بحث او موضوع ، واللوحة الام اي الاصيلة ... وتقول العامة : ام الزيت او ام الخمرة اي اولها والصفوة منها ، كما تقول ام الخل اي ما يتكون في اعلى الزجاجة من خلايا بكتيرية او خمائر تطفو على سطح ذلك السائل .

ام الكتاب .. ام المؤمنين

اما في الفكر العربي الاسلامي فقد ذاع تعبير « ام الكتاب » اي سورة « الفاتحة » التي لقبت بذلك لكونها تتصدر آيات الله البينات في مستهل المصحف الشريف . كذلك عرفت مكة المكرمه في لسان العرب وعقيدتهم وتاريخهم بانها (ام القرى) اي سيدة المدائن ورائدة البلدان لما انطوت عليه من قداسة وعراقة بفضل قيام الكعبة المشرفة في وسطها منذ عصور سحيقة ..

كما غلب في تراث الاسلام لقب (ام المؤمنين) على السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي عليه الصلاة والسلام ، فهي فضلا عن كونها اول نسائه ، فقد حدث في عهدها الانعطاف العظيم في حياة محمد (ﷺ) حين اختاره الله لنشر الرسالة ، فاذا هي تشجعه وتسانده ، وتغدو بذلك اول امرأة في التاريخ تعتنق الاسلام ، والمرأة الرائدة الاولى التي جعلها المسلمون بمثابة ام للمؤمنين .. وشبيه بذلك مارسخ في عقيدة المسلمين من

ان الخمرة ام الكبائر والرذائل ، اي أصلها ومصدرها وما كان من هذا القبيل ..

وفي هذا المجال المجازي لكلمة الام مضى العرب يقولون مثلا : « ضربه على ام راسه » ، اي على اخطر موضع في جمجمته ، او اعلى جزء واهمه في رأسه ، ويقولون ايضا « رآه بأم عينه » ، اي شاهده عيانا وعلى وجه اليقين .

وقد اطلق الاولون على الارض التي ينبثق من ترابها كل شيء اسم (الام) ايضا . فقال الشاعر الجاهلي امية بن ابي الصلت :

الارض معقلنا وكانت امنا
فيها مقابرنا وفيها نولد

كما قال الشاعر الاخر :

امنا الارض من ثراها خلقنا
واليها بعد الممات نعود

ولا يبعد ان ينطوي هذا التعبير في الاصل على دلالة ميثولوجية سالفة .

على ان لكلمة (الام) اخيرا في لغة العرب اهمية خاصة من حيث الدلالة تسمها بالتميز . فكلمة (الامة) ، من حيث بنيتها ، وثيقة النسب بكلمة الام . وهذه ظاهرة لفظية ربما تفردت بها العربية من حيث هذا الارتباط الدلالي دون سائر اللغات ، اذ الفرق بين الام والامة لا يتعدى صفة الشمول ، فالام والامة كلتاهما تدل على الاصل او الجذر ، ومنهما يكون التحدر واليهما يكون الانتماء . كما ان الاختلاف اليسير بين الكلمتين في المبنى هو الذي اقتضى ـ على حسب مفهوم فقهاء اللغة ـ هذا الاختلاف النسبي في المعنى .

في العقائد السالفة .. والاسلام

اذا كانت النفس الانسانية منطوية بطبيعتها على كتلة من العواطف وجملة من المشاعر فما من ريب في ان عاطفة الامومة انبلها ومشاعر الام تجاه فلذة كبدها اصفاها .

ومنذ الازل عمر الكون واتصل النوع بفضل الام . حتى ان ديانات غابرة وعقائد سالفة ارتكزت الى حد بعيد على تقديس الامومة واجلالها ، واعتبار الام اصل الخصوبة والانجاب ومنبع الخير والبركة . ويعتقد علماء الاجتماع وفقهاء اللغات ان تأنيث اسم الشمس في اللغات السامية دليل على هذا الرأي ، لان الشمس في زعمهم ولادة للنور ، دفاقة للحرارة ، جلابة للخصب . وثمة تصاوير وكتابات جمة تتجلى من خلال الاثار الشرقية الغابرة والعاديات الموغلة في القدم وتبرز عاطفة الامومة وتجسد دور الام في الحياة .

ثم احلت الاديان السماوية الام بوجه عام منزلة سامية واولتها احتراما مستحقا . فالسيدة مريم العذراء ام السيد المسيح عليه السلام تبوأ مقاما عاليا في عقيدة المسلمين وفي عقيدة المسيحيين على حد سواء . وقد خصها القرآن الكريم كما خص السيد المسيح بكثير من آيات الاحترام والتبجيل ، فضلا عن ان سورة خاصة في المصحف الشريف سميت (سورة مريم) . ومن جهة اخرى غدت السيدة العذراء على مر العصور هي الملهمة الاولى لقرائح المبدعين في العالم ، إذ حفزتهم على خلق روائع من الفن الرفيع على صعيد الادب والموسيقى والنحت والتصوير ...

وفي الاسلام ـ ولا سيما من جانبه الانساني والخلقي والتربوي ـ اهتمام خاص بشخصية الام وموضوع الامومة ، سواء أكان ذلك في تناولها مستقلة او مقترنة مع الاب ، وكثيرا ما حض القرآن الكريم والحديث الشريف على بر الوالدين وطاعة الابوين والايصاء برعايتهما والاشادة بفضلهما . وفي مقابل ذلك استهجن الاسلام عقوق الوالدين والاساءة اليهما ، وكان هذا من اسس التربية الاسلامية القويمة التي تنطلق من قوله تعالى في القرآن الكريم :

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا . اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما ، فلا تقل لهما اف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

فاول مايلفت الانتباه في هذه الآيات انها جعلت عبادة الله والاحسان الى الوالدين على صعيد واحد ، وفي هذا منتهى التقدير . والايات في مجملها معان سامية ترقى الى ذروة مراتب التلطف والتهذيب ، والوفاء والانسانية ، كما تسمو الى قمة منازل المحبة والاحترام وعرفان الجميل . وهي في الوقت نفسه تتوج اشد النظريات والاراء التربوية اصالة واكثرها نبلا .

وتنطوي السيرة النبوية على جملة من الاحاديث الشريفة في هذا المجال ايضا ، فقد قال النبي (ﷺ) مرة لصحابته : « الا ادلكم على اكبر الكبائر ؟ » قالوا : « بلى يارسول الله قال : « الاشراك بالله وعقوق

الوالدين » . وهذا الحديث الشريف صورة مشابهة لما حض عليه تعالى في كرام آياته التي سلفت ، فكما جعل الله عبادة الخالق ومحبة الوالدين في منزلة واحدة ، جعل رسوله الكريم الاشراك بالله وعقوق الوالدين ايضا في درجة واحدة .

وفي خبر آخر ان رجلا مضى الى النبي (ﷺ) وقال : جئت ابايعك على الهجرة وتركت ابوين يبكيان . فاجابه عليه الصلاة والسلام : « ارجع اليهما فاضحكهما كما ابكيتهما » .

وقد خص القرآن الكريم المرأة بواحدة من اطول سوره ، وهي (سورة النساء) . وكان النبي (ﷺ) يكن للمرأة ـ هذا المخلوق الانساني الوديع ـ كل عطف ، ويحض في احاديث جمة على رعايتها والترفق بها ، فضلا عما منحه اياها الاسلام من حقوق واعاده اليها بعد الجاهلية من اعتبار .

وروى ان رجلا جاء رسول الله فقال : يارسول الله من احق الناس بحسن صحبتي ؟ فاجابه : « امك ، قال : ثم من ؟ قال : امك ، قال ثم من ؟ قال : امك ، قال : ثم من ؟ فقال : ابوك » .

على انه ما من عبارة دارت على الالسنة وسارت في الافاق اكثر من القولة الذائعة للنبي العربي : « الجنة تحت اقدام الأمهات » . حتى لقد رددها كل ابن انثى في دنيا العروبة والاسلام . وقريب من هذا الحديث الذائع ما اثر عن النبي ايضا حين اتاه رجل وقال : « يارسول الله ، اني اردت الغزو فقال له الرسول (ﷺ) : هل لك من ام ؟ قال : نعم ، قال فالزمها ، فان الجنة تحت قدميها » .

ويبدو جليا ان هذا النهج القويم قد ترسخت جذوره بعد ذلك في النفوس وتأصلت عناصره في السلوك . فنحن نقع على قصة أخرى مشابهة اوردها صاحب « الامالي » اذ نقل ما وقع بين ابي الاسود الدؤلي وامرأته من نزاع حول احقية كل منها بولدهما . فاحتكما الى الوالي زياد بن ابيه حتى يقضي بينهما . فامر زياد كلا منهما ان يمسك بطرف من طرفي الولد ويشده اليه بقوة ، فمن صار اليه الولد بات له . وهنا صاحت الام مذعورة دعه له فانه ولده . حينئذ قضى الوالي بالولد للام .

عظمة الأم

فاذا كان الايثار قوام عاطفة كل ام تجاه ولدها في سبيل ان تحتفظ به وتصون حياته فلا تطيق ان تتمزق اوصاله او يتحرق جسده فان التضحية بحياة الولد الغالي في مقابل ذلك ليموت ميتة اشرف من الحياة ، انما هي في حقيقتها اعلى مراتب التجلد واسمي مراقي الحلم كما انها تعبير عن ذروة الانتصار على النفس الجائشة وكبح جماح العاطفه الهائجة .

اجل في مقابل هاتين الصورتين الانسانيتين للام الرؤوم ، ام علقمة وام صخر اللتين تمثلان الاصالة المتألقة للام ، الام الجازعة الحانية ، الام المشفقة المتسامحة ، تتجلى لنا من وجهة اخرى خلال تراثنا الحافل صورتان رائعتان لجانب آخر ظليل من شخصية الام ، الام العظيمة الصابرة ، الام الابية الشجاعة ..

انه في فجر الاسلام ، وفي طور اندفاع رسالته خارج الجزيرة العربية غلبت روح الجهاد على النفوس حتى استرخصت الارواح في سبيل اعلاء كلمة الله . وهكذا مضى اولاد الخنساء الاربعة مع كتائب المجاهدين الى بلاد فارس تحت راية الاسلام . وحين عاد الجيش الى الوطن بعد معركة القادسية المظفرة كان قد خلف في تلك البقعة التاريخية الدامية جمعا مباركا من الشهداء الابرار ، وفي جملتهم اولئك الشبان الاربعة الذين استشهدوا هناك جميعا .. كانت الخنساء ، بقامتها النحيلة ، في عداد الجموع التي خرجت لاستقبال شبابها البواسل . وما ان اقبل عليها بعض المجاهدين وهم يتهيبون لقاءها ، حتى وجموا وانعقدت السنتهم لهول الخبر وفداحة الخطب . ولكنها كسرت طوق الصمت وجمود الموقف لتسأل بلهفة عن نتيجة الغزو . عندئذ اخبروها بنبأ الفتح المبين ثم ما وقع من قضاء الله .. تنفست الصعداء ، وعاد البشر الى اسارير وجهها المتغضن ، ثم راحت تدعو ربها ، وتناجي ارواح اولادها الطاهرة ، بصوت شجي رخيم ملؤه الرضى والايمان : « الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم ، وارجو الله ان يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

ياله من نمط فذ من الامهات يقارب في تألقه وعظمته روعة الاسطورة برغم انه نابع من اعماق الواقع ، الواقع الحي البسيط ، وهو في الوقت نفسه نموذج متميز قل ان يكون له نظير في تاريخ الشعوب .

وعلى هذا الغرار نحن واجدون في غمار التراث الاسلامي الحافل ، ومن خلال مطولات كتب الادب العربي القديم اخبارا جمة اخرى عن مواقف واقوال تتصل بموضوع الامومة ، وتنبيء عن اخلص المشاعر وانبل العواطف . ومن هذا القبيل ما اورده المبرد في كتابه (الكامل) حين قال : « حدثني المازني قال :

رأيت رجلا يطوف بالبيت (الكعبة) وامه على عنقه وهو يقول :

احمل امي وهي الحمالة
ترضعني الدرة والعلالة

اي انه يحمل امه الان وفاء لبعض الدين ، اذ طالما حملته في بطنها ثم حضنته في حجرها وراحت ترضعه درة بعد درة من لبنها .

هل انصف الشعراء الأم

والان ، لا بد لنا من الاعتراف ـ ان الادب العربي الذي يولي موضوع الام اهتمامه قل ان نجد له حيزا كبيرا في تراثنا الحافل . وهذه ظاهرة غريبة تستوقف النظر ، لما عرف به الشعر العربي من نزعة غنائية بارزة . اجل لماذا لم يلتفت الادب العربي عبر عصوره المديدة ومن خلال اعلامه وفحوله التفاتا حقيقيا الى الام وموضوع الامومة ؟ الحقيقة ان هذا امر يصعب تفسيره ويعسر تبريره ، ولا سيما ان التعاليم الاسلامية في جملتها ، وعلى راسها آيات الله البينات والاحاديث النبوية الشريفة قد ضربت اروع الامثال للناس في هذا الصدد ، وكانت في ذلك رائدة للادباء والشعراء . يضاف الى ذلك ان الاسلام اورث المجتمع العربي منذ فجر تكوينه نظاما اسريا وطيدا متلاحما ، كما حض على بر الوالدين ، ورفع من شأن المرأة ومنحها حقوقا جمة ، فضلا عن انه انجب عظيات الامهات .. ومع ذلك فان المرأة ، سواء اكانت اما أم اختا أم زوجة ، لم تكن بالاجمال مصدر وحي أو الهام للشاعر العربي ، واغلب الظن في رأينا ان ذلك المجتمع العربي ظل امدا من الزمان ، برغم اسلامه وتحضره واقعا تحت تأثير المفاهيم الجاهلية السائدة والتقاليد القبلية السالفة ، واكثرها لم يكن يولي المرأة عامة ذلك الاهتمام المنشود .

واذا ما تصفحنا دواوين الشعر العربي ، وهي بطبيعة الحال تشكل شطرا كبيرا من جملة نتاجنا الادبي وتكاد تعدل جبلا في حجمها ، لهالنا الا نعثر خلال هذه الغزارة الطاغية الا على صفحات معدودات لا تشفي الغليل تجاه ذلك الركام البالغ من اشعار العرب في سائر الموضوعات .

وهكذا كادت الام تغيب عن الشعر العربي ، على غزارته وغنى موضوعاته ولولا فئة قليلة من الشعراء الذين رادوا هذا المجال وابدعوا فيه ، من مثل ابي فراس وابي العلاء والشريف الرضي وابن سناء الملك .. لهممنا ان نصم غالبية الشعراء العرب بالعقوق وتبلد الشعور ، حتى كأنهم لم يتبثقوا في رحم ولم يغتذوا من ثدي ولم يرتعوا في حضن ...

والحق ان صورة المرأة في الشعر العربي اما وزوجا وبنتا ، لم تتألق على الوجه المنشود الا في هذه العصور الحديثة ، وما ذلك الا بفضل انكسار طوق التقاليد الرثة والمفاهيم البالية التي كانت تحول بين الشاعر وبين مناجاة من يحب .

لقد بكى الشاعر احمد شوقي امه بلوعة ، ومثله فعل معروف الرصافي وشبلي الملاط وخليل مطران ، كما برع في تناول موضوع الامومة ابراهيم المنذر والياس فياض وصالح الشرنوبي ومحمود ابو الوفا وابو القاسم الشابي وفدوى طوقان ، ثم بدر شاكر السياب وسليمان العيسى واسعد علي ومحمود درويش .. حتى بتنا نجد بين ايدينا للمرة الاولى في تاريخ ادبنا العربي دواوين بعينها خص بها بعض الشعراء الاوفياء أمهاتهم ، من ذلك مطولة « ملحمة الامومة » للشاعر محمد العدناني وديوان (امي) للشاعر عمر بهاء الأميري . كما نجد في الوقت نفسه وعلى صعيد مشابه دواوين شعرية بعينها افردها بعض الشعراء المفجوعين لزوجاتهم او بناتهم ، من مثل عبد الرحمن صدقي وعزيز اباظه وعبد المعين ملوحي ، مما لم يكن ايضا مثله معهودا من قبل . وكل هؤلاء فاضت قرائحهم باعذب الشعر وارقه .

على ان العطاء الصادق الدافق في موضوع الام والامومة انما تم في هذا العصر بفضل ادباء المهجر ، من امثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وايليا ابو ماضي وامين مشرق وشكر الله الجر وشفيق معلوف ورياض معلوف والياس قنصل وزكي قنصل والياس فرحات والشاعر القروي .. الذين اغنوا موضوع الامومة ورفعوا من شأنه في صرح ادبنا العربي .

لقد كان الحنين الى الام ، الام الصابرة التي خلفها ذلك المغترب التاعس وراءه وطوح بنفسه في اقاصي الارض ، ارهف صفحة في سجل الشعر المهجري الطريف .. اجل استطاعت تلك العنادل المهاجرة وهي في تلك الربوع الاعجمية النائية ان تسد اخيرا الثغرة وتصوغ في موضوع الامومة دررا يتألق بها جبين ادبنا العربي مدى الدهر . وبذلك فقط تم شد وتر جديد الى قيثارة الشعر العربي باتت تنبعث منه اشجى الانغام واعذب الالحان . ■■

حلب ـ د . عمر الدقاق

ألا يكفى ٢٠ عامًا لدراسة مشروع الموسوعة العربية ؟

بقلم : مصطفى نبيل

منذ مطلع الخمسينات وهناك أفكار ومشروعات تتناول إنشاء موسوعة عربية تجمع ثقافة العصر وتيسرها لمن يحتاج اليها ، والشروع في الصناعة الثقيلة في مجال الفكر والثقافة . . . .

وها نحن في الثمانينات ومازالت الموسوعة العربية مجرد افكار ومقترحات ومشروعات واكداس واعمال اللجان المختلفة . . . .

رغم اتفاق الجميع على الدور البارز الذى قامت به الحركة الموسوعية في النهضة الاوربية الحديثة ، ومساهمتها في نشر الوعي والثقافة والعلم على أسس عقلانية ثابتة ، والكل يجمع على حاجة البنية الثقافية العربية المعاصرة الى حركة موسوعية شاملة ومتجددة ، تساهم في إثراء العقل العربي ليأخذ مكانه من جديد في مسيرة التقدم الانساني .

واستمر هذا النقص في المكتبة العربية رغم الدور الهام الذي ينتظران تقوم به الموسوعة في توحيد المصطلحات الاجنبية ، وقيام معرفة شاملة يمتزج فيها التراث العربي بما قدمه العلم الحديث . . . .

« فلا يوجد شعب في عالمنا المعاصر ، الا وله دائرة معارف كبرى بلغته القومية ، فدائرة المعارف اشبه بمستكملات الاستقلال والسيادة ، بل ورمز لتقدمه العلمي والثقافي . » . . . كما يقول ـ بحق ـ الدكتور صلاح هاشم .

وكان للاعمال الموسوعية على الدوام في التراث العربي دور هام ، يدل على ذلك : معجم ديوان الادب لأبي ابراهيم الفارابي ، ومعجم تاج العروس للزبيدي ، ومعجم الصحاح للجوهري ، ولسان العرب لا بن منظور ، والقاموس المحيط للفيروز ابادي ، واساس البلاغة للزمخشري والمصباح المنير للفيومي ، ومحيط المحيط للبستاني ، ومعجم البلدان لياقوت ، ولو اخذنا عهد المماليك بمصر مثلا لوجدنا العديد من دوائر المعارف بالنسبة لعصرها ، نهاية الارب في فنون الأدب للنويري والذي وصل به المؤلف الى ٣١ مجلدا ، ومصنف القلقشندي « صبح الاعشي في صناعته الأنشا » في ١٤ مجلدا . . هذه ليست اكثر من امثلة عن الاهتمام بالاعمال للموسوعية في التراث العربي . . . .

وفي العصر الحديث كانت دائرة المعارف العربية حلم الكثيرين ، فقام رواد اوائل مثل شبل شميل ، واسماعيل مظهر ، وفريد وجدي ، وعباس العقاد ، والبستاني بتقديم نظرات موسوعية شاملة ، وانتجت مجهودات فردية لعدد من كبار المفكرين العرب عددا من هذه الأعمال :

- موسوعة الاعلام ، مكونة من عشرة اجزاء ، وتتناول اعلام العالم العربي وبعض المستشرقين كتبها خير الدين الزركلي .
- معجم قبائل العرب من ٣ مجلدات ومؤلفه عمر رضا كحالة ، الذي يتناول كافة القبائل العربية في البلاد العربية والافريقية . . . . . .
- دائرة المعارف للبستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٧) ، وأعد فيها فؤاد البستاني مؤسس مشروع دائرة المعارف ١١ جزءاً تنتهي بحرف العين ، وطبعت عام ١٩٠٠ م .
- دائرة معارف فريد وجدي : وهي من عشرة اجزاء .
- دائرة المعارف الاسلامية ، ألفت باللغة الانجليزية والفرنسية والألمانية وصدرت ترجمتها العربية في القاهرة في اعداد دورية منذ عام ١٩٣٣ ، وأضيف لها تعليقات وشروح ، وكان يصدرها احمد الشناوي ، وابراهيم زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس . . . وصدر منها ١٤ مجلدا

● الموسوعة العربية الميسرة نقلا عن موسوعة كولومبيا ومضافا اليها مواد عربية هامة . تمت كل هذه الاعمال في الوقت الذي لم يكن لدينا كل هذه الجامعات ، وعندما كان تمويل هذه المشروعات يمثل عبئا ثقيلا على من يتولاها ، وعندما لم يكن يتوفر كل هذه المطابع ودور النشر والمنتشرة في الوطن العربي . . . . . . !

وقد تعثرت مشروعات الموسوعة العربية التي بدأت في الخمسينات نتيجة لتفرق الكلمة وبسبب المنافسات الاقليمية ، وطبيعة الاداء البيروقراطي الذي اتسمت به اعمال الجامعة العربية منذ نشأتها ، والخلط الفاضح في أولويات العمل الثقافي . . !

وتصور - عزيزي القاريء - اي خير كان سيعم على الثقافة العربية اذابدأ هذا المشروع كما كان مقررا له في مطلع الخمسينات ، وكم من الاموال كان يمكن توفيرها ، وكم عدد الاجيال الذين سيشبون وهم يتمتعون بالعمل الموسوعي وتقوم ثقافتهم على اساس متين ؟ ! . . . .

وبعد عشرين عاما مازال مشروع الموسوعة العربية كمية من القرارات والتوصيات التي تحتاج الى من ينقلها الى حيز التنفيذ وهي :

■ مشروع الموسوعة العربية الذي تقدمت به وزارة الدفاع السورية . (العربي العدد ٢٧٤)

■ مشروع قدمه المجلس الوطني في الكويت منذ عام ١٩٦٤ لترجمة كاملة لدائرة المعارف البريطانية ، ثم تطور المشروع فاستضافت الكويت واليونسكو العربية عدة لجان قدمت دراسة وافية لدائرة المعارف العربية الذي استقر مؤخرا على ان تقوم على ركيزتين : التأليف والترجمة ، على أن يغلب على العلوم الانسانية التأليف ، ويغلب على العلوم الأخرى الترجمة .

■ واصدر وزراء الثقافة العرب في اجتماعهم الأخير في نوفمبر الماضي قرارا باختيار بغداد مقرا لهذه الموسوعة . . . .

ومازالت هذه المشاريع جميعا تراوح في مكانها . ونعرض هنا با يجاز المراحل المختلفة التي شهدها مشروع الموسوعة .

بدأت الفكرة عندما تبنى وزراء المعارف العرب في اجتماعهم الاول في القاهرة عام ١٩٥٣ مشروع الموسوعة ، وقامت لجنة تضم الاساتذة أحمد أمين ومحمد شفيق غربال وساطع الحصري والدكتور محمد بديع الشريف بدراسته ، وقدمت مشروعها الذي قدرت تكاليفه بسبعة الآف جنيه مصري ، على أن تصدر الموسوعة في اربع مجلدات ، وبعد مراجعة الموسوعات المختلفة وتعريب كافة المصطلحات الاجنبية . .

ولم ير المشروع النور ، ومضت الأيام وتزايد عدد الدول العربية التي حصلت على استقلالها ، وانتقلت بعض هذه الدول من الفاقة الى الرخاء ، وبعد ثماني سنوات تعود اللجنة الثقافية التابعة للجامعة العربية وتصدر توصية جديدة . . بتأليف لجنة تحضيرية من ستة أعضاء من العلماء العرب وبحث الامكانيات الفنية والمالية والبشرية اللازمة للمشروع . . . .

ومنذ عام ١٩٦١ أصبح مشروع الموسوعة بندا دائما أمام كل اجتماع لمجلس الجامعة العربية وأمام مؤتمرات وزراء التربية والتعليم العرب . . . .

وتتغير الاسماء وتقوم منظمات جديدة ، وتتحول الادارة الثقافية الى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومع ذلك لا يتجاوز المشروع مرحلة البحث والدراسة . . !

ويتقدم المجلس الوطني في الكويت بمشروعه عام ١٩٦٤ ، والذي يكون اكثر تحديدا فيقترح ترجمة الموسوعة البريطانية الى اللغة العربية كمرحلة اولى ، وتعود من جديد لجنة الخبراء وتوصي . . . « أن تؤلف المنظمتان الدولية (اليونسكو) والعربية لجنة من مندوبي الدول والخبراء لدراسة مشروع اصدار موسوعة شاملة باللغة العربية ، سواء أكان ذلك بالتأليف أم بالترجمة ، والاقتباس من الموسوعات الاجنبية ، ام بالطريقتين معا . . »

وتعود الكويت وتستضيف عددا من المختصين والعلماء لوضع خطة تنفيذ المشروع ، وعقد اجتماع في نهاية عام ١٩٧٨ ، ويوصي المجتمعون بضرورة تكوين مؤسسة ذات جهاز خاص يتكون من : مجلس أمناء يضم عددا من العلماء العرب ويتولى الاشراف على المؤسسة مجلس مديرين يتولى الشؤون الادارية ، وهيئة تحرير تتولى كل ما يتعلق باعداد المادة العلمية ، وحددت عشر سنوات مدة زمنية للمشروع ، وأن يخصص مبلغ عشرين مليون دولار توفرها مساهمات الدول العربية الاعضاء . . . .

وهنا نتساءل : ألم يكن من الاجدر منذ البداية ان يصدر القرار باقامة هيئة مستقلة ذات ميزانية خاصة مع برنامج زمني محدد ؟ !

وحتى الآن : لم تتشكل هذه الهيئة المستقلة ، وبالتالي لم يوضع تحت تصرفها المال اللازم لانجاز هذا المشروع الكبير . . . .

ردا على الذين ينكرون الاحتفال بالمولد النبوي

ليس كل جديد بدعة

بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

البدعة ، بمعناها الاصطلاحي الشرعي ، ضلالة يجب الابتعاد عنها ، وينبغي التحذير من الوقوع فيها . مافي ذلك ريب ولا خلاف .

وأصل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيا اتفق عليه الشيخان « من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وقوله فيا رواه مسلم : « ان خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدى محمد ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

ولكن ما هو المعنى المراد من كلمة « بدعة » هذه ؟

هل المراد بها معناها اللغوي الذي تعارف عليه الناس ، فيكون المقصود بها اذن ، كل جديد طارىء على حياة المسلم ، مما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا احد من أصحابه ، ولم يكن معروفا لديهم ؟ ..

إن الحياة ما تزال تتحول بأصحابها من حال الى حال ، وتنقلهم من طور الى آخر .. ولا مطمع في امكان التغلب على قانونها هذا ، وربطه بمسار من الثبات والجمود على حالة واحدة ، على مر الازمنة والعصور . وحتى الفترة القصيرة التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم مع اصحابه ، لم تمد الحياة خلالها على نسق مطرد ثابت ، بل استقبل النبي واصحابه منها اطوارا اثر اطوار .. ولكن (لحسن حظ ذلك الرعيل الاول) كان المصطفى صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، فكان يرحب بسنة الحياة هذه ، دون اي مقاومة لها او ثورة عليها . فكم من عرف جديد ايده ، وكم من كشف طارىء على حياة الصحابة والعرب رحب به ودعا اليه ، بعد أن تأمل فرآه لا يخالف من اصول الدين واحكامه شيئا . بل ربما يسر سبيل احيائه والاخذ به على خير وجه . حتى استظهر علماء الشريعة الاسلامية من ذلك ، القاعدة القائلة : الاصل في الاشياء الاباحة ، واستنبط من ذلك علماء الحنفية وآخرون ... ان العرف ـ بقيود معينة ـ مصدر لايستهان به من مصادر الشريعة واحكامها .

لا يعقل ـ إذن ـ أن يكون المقصود بالبدعة هذا المعنى اللغوي العام . بل ما رأينا واحدا من علماء المسلمين وفقهائهم ذهب في تفسير البدعة وتعريفها هذا المذهب العجيب . وانما تنطوي الكلمة على معنى اصطلاحي خاص ، فما هو ؟

البدعة والدين

أمامي تعريفات كثيرة للبدعة ، كلها يدور في فلك معنى اصطلاحي واحد ، وان تخالفت من حيث الصياغة

والاسلوب . ولكني اختار منها تعريفين عرفها بها الامام الشاطبي في كتابه الاعتصام وذلك لسببين : احدهما ـ ان الشاطبي يعد في مقدمة من خدم هذا البحث وتناوله بالشرح والتحليل من جوانبه . ثانيهما ـ انه يعد من اكثر العلماء المتقدمين محاربة للبدعة وتشددا في الابتعاد عنها .

التعريف الاول ، انها « طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله عز وجل » والتعريف الثاني انها « طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية » .

وانما رددها الشاطبي رحمه الله بين هذين التعريفين ، نظرا لرأي من حصر البدعة في العبادات ، ولرأي من عممها في سائر انواع السلوك والتصرفات . على انه مال فيما بعد الى ان البدعة انما تختص بالعبادات سواء منها القلبية وهي العقائد او السلوكية وهي سائر انواع العبادات الاخرى .

ولا يعنينا الآن أن نقف عند هذا الترديد باي نظر او تمحيص . انما الذي يعنينا ان نلاحظ قولهم في التعريف : « طريقة في الدين مخترعة .. » .

اذن ، فلكي ياخذ السلوك معنى البدعة وحكمها ، يجب ان يمارسه صاحبه على انه داخل في بنية الدين وانه جزء لا يتجزأ منه ، مع انه في واقع الامر على خلاف ذلك .. وتلك هي روح البدعة وسر تحذير الشارع منها ، وذلك هو الملاحظ في تسميتها : « بدعة » .

والمستند الذي يشكل الدليل القطعي على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « من احدث في امرنا هذا ماليس منه .. » إذ المقصود بـ « امرنا هذا » الدين ، كما هو واضح ، وقوله عليه الصلاة والسلام فيما اخرجه الطحاوي : « ستة لعنهم الله وكل نبي مجاب : الزائد في دين الله ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط بالجبروت يذل من أعز الله ويعز به من أذل الله ، والتارك لسنتي ، والمستحل لحرم الله ، والمستحل من عترتي ما حرم الله »

ويتضح من ذلك ان مناط انكار البدعة وردها على صاحبها ، ان المبتدع يقحم في بنية الدين وجوهره ما ليس منه . ولما كان المشرع هو الله عز وجل ، لم يبق مجال لاي تزيد او تغيير على شرعه .

اما سائر الافعال والتصرفات الاخرى ، التي قد تصدر من الانسان ، دون ان يتصور انها جزء من جوهر الدين او واحد من احكامه ، وانما يندفع اليها ابتغاء تحقيق هدف او مصلحة له ، دينية كانت او دنيوية : فهي ابعد ما تكون عن احتمال تسميتها بدعة ، وان كانت مستحدثة في حياة المسلمين غير معروفة لهم من قبل ، بل مآلها ان تصنف إما تحت ما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سنة حسنة ، او تحت ما سماه : سنة سيئة . وانت تعلم انه صلى الله عليه وسلم قال فيما رواه مسلم وغيره « من سن في الاسلام سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها بعده ، من غير ان ينقص من اجورهم شيء ، ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير ان ينقص من اوزارهم شيء » .

ماهو المعيار

ويحتاج بيان هذا الامر الى تفصيل طويل ، ولكنا نقتصر منه على الموجز التالي :

ـ ان كانت الافعال والتصرفات التي تصدر من الانسان (مما لايدخل في معنى البدعة التي تم بيانها) تتعارض مع اوامر او نواه ثابتة في الشرع ، فهي تسمى مخالفات (محرمة او مكروهة) لشرع الله عز وجل . لا فرق بين ان تكون هذه المخالفات مستحدثة او تكون قديمة معروفة كالمباذل الاخلاقية والاندية التي تشيع فيها المنكرات . وامرها واضح لا يحتاج الى بحث .

ـ وان كانت مرسلة ، اي غير معارضة ولا موافقة لشيء من احكام الشرع وآدابه التفصيلية . فهي تصطبغ ، من حيث احكامها ، بلون الآثار والنتائج التي تحققها . اي فما كان منها مؤديا الى تحقيق واحدة من سلم المصالح الخمسة التي جاء الدين لرعايتها (الدين والحياة والعقل والنسل والمال) فهو من قبيل السنة الحسنة ، ثم انه يتفاوت ما بين الندب والوجوب ، حسب شدة الحاجة اليه لتحقيق تلك المصلحة ، اذ قد يكون من ضرورياتها الذاتية وقد يكون من حاجياتهم الاساسية ، وقد يكون من تحسينياتها المقيدة ... وما كان منها متسببا الى هدم واحدة من تلك المصالح او الاضرار بها ، فهو من نوع السنة السيئة ، ثم ان درجة سوئه تتفاوت حسب مدى الضرر الذي قد يلحقه بتلك

المصلحة ، فقد يكون مكروها وقد يصبح محرما . اما ما كان منه بعيدا عن اي تاثير ضار او مفيد لسلم تلك المصالح ، فهو من قبيل المباح او من قبيل العفو ، كما يعبر بعضهم .

واذا استوعبنا هذه الحقيقة ادركنا انه ليس ثمة مايسمى بالبدعة الحسنة ، كما توهم ذلك بعض الباحثين . بل البدعة لا تكون الا ضلالة قبيحة ، وذلك لضرورة انها تعني التزيد على الدين والاضافة اليه . وهو لا يمكن ان يكون حسنا بحال من الاحوال .

وانما يدخل هذا الذي توهموه (بدعة حسنة) فيما سماه النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة الحسنة ، وهو ما اصطلح الاصوليون على تسميته فيما بعد بالمصالح المرسلة .

ومن امثلة هذه السنة الحسنة تلك الاحتفالات التي يقوم بها المسلمون عند مناسبات معينة ، كبدء العام الهجري ، ومولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعند ذكرى الاسراء والمعراج ، وذكرى فتح مكة وغزوة بدر ، ونحوها ، مما يتوخى منه تحقيق خير يعود الى مصلحة الدين ، سواء على مستوى الضرورات او الحاجيات او التحسينيات .

ومن المفروغ منه ان ذلك كله مشروط بألا تستتبع هذه الاعمال آثارا ضارة تودي بجدوى ما حققته من المصالح او تلحق الضرر بمصلحة مقدمة عليها .

« المولد » ليس بدعة

هذا ما نعتقد انه المنهج العلمي الذي لا بديل عنه ، عند الخوض في ذكر البدع ومحاربتها وجذب الناس عنها . ولا ريب ان اتباع المنهج العلمي يوصلنا الى هذا القرار :

ان احتفالات المسلمين بذكرى مولده عليه الصلاة والسلام والمناسبات المشابهة ، لا تسمى بدعة قبل كل شيء . لان احدا من القائمين على امرها لا يعتقد انها جزء من جوهر الدين وانها داخلة في قوامه وصلبه ، بحيث اذا اهملت ارتكب المهملون على ذلك وزرا . وانما هي نشاطات اجتماعية يتوخى منها تحقيق خير ديني .

ثم انها لا تدخل تحت ما يسمى بالسنة السيئة ايضا ، ان روعي في اقامتها ان تخلو من الموبقات وان تهذب عن كل ما قد يعود على الخير المرجو منها بالنقض او الافساد .

واذارأينا من يخلطها بما يسيء الى نتائجها ، فان التنبيه يجب ان يتجه الى هذا الخلط ، لا الى جوهر العمل بحد ذاته . والا فكم من عبادة صحيحة مشروعة يؤديها اناس على غير وجهها ، فتؤدي الى نقيض الثمرة المرجوة منها . افيكون ذلك مبررا للتحذير من ادائها والقيام بها ؟

نعم ، ان اجتماع الناس على سماع قصة المولد النبوي الشريف ، امر استحدث بعد عصر النبوة ، بل ما ظهر الا في اوائل القرن السادس الهجري . ولكن افيكون ذلك وحده كافيا لتسميته بدعة ، والحاقه بما قال عنه المصطفى عليه الصلاة والسلام : كل من احدث في امرنا هذا ماليس منه فهو رد ؟ اذن فليجردوا حياتهم من كل ما استحدث بعد عهده عليه الصلاة والسلام ـ ان كانوا يستطيعون ـ فان كل ذلك من البدع !

أقول بعد هذا كله : فلنفرض أننا مخطئون في فهم « البدعة » على هذا النحو ، وان الصواب ما يقوله الآخرون من ان كل ما استحدثه الناس ، حتى مما لايدخلونه في جوهر الدين واحكامه ، بدعة محرمة ـ فان المسألة تغدو عندئذ من المسائل المختلف في شأنها والخاضعة للاجتهاد .

ومما هو معروف في آداب الدعوة الى الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ان القائم بهذا الشأن ينبغي (كلما وقف في موقف عام) ان ينتهي عن المنكرات المجمع على انها كذلك ، ولا ينصرف عنها الى النهي عما اختلف فيه المسلمون من المسائل الاجتهادية التي لا يكلف المجتهدون فيها باكثر من الوقوف عندما قضت به اجتهاداتهم وفهومهم . اذ الامعان في النهي عن هذه المسائل لا يمكن ان ينتهي الا الى اثارة اسباب الشقاق وتصديع وحدة المسلمين وبث عوامل البغضاء فيما بينهم

وان في حياتنا ومن حولنا من المنكرات الشنيعة والمفاسد الخطيرة ، التي لا خلاف في مدى جسامتها وسوء آثارها ، ما يكفي لان تمضي العمر كله في معالجتها والسعي الى جمع الكلمة وتوحيد الصف للقضاء عليها . فلماذا تتشاغل عن هذا الذي اجمعت الامة على انه من المنكر الذي لا عذر في السكوت عليه ، ثم تشتغل بالانتصار لاجتهاداتنا الشخصية ومحاربة ما يقابلها ويكافئها من الاجتهادات الاخرى ؟

انتشار الآلة .. هل جعل الحياة أكثر آلية ؟

بقلم حافظ أحمد أمين

يقال عن الحياة انها آلية ، اذا تشابهت فيها الايام ، وتكررت الأفعال ، ومضى الزمن على وتيرة واحدة ، واصطبغت المعيشة بلون واحد لايتغير ، وخلت العلاقات من المشاعر الفياضة ، والأعمل المبدعة ، والأحداث المثيرة ، وتحرك الناس فيها كالآلات ، وشاعت بينهم أحاسيس الملل والضجر والرتابة .

فهل صحيح مايردده الفلاسفة والمفكرون ، ومايصوره الأدباء والفنانون ـ منذ اختراع الآلة ـ من ان استعمالها وانتشارها ، جعل حياتنا المعاصرة أكثر آلية من حياة أجدادنا ؟

في البداية ، وقع معظم تأثير الآلة على عمال الصناعة ، وكان أكثرهم من الفلاحين ، الذين تركوا الريف سعيا وراء أجور أعلى في المصانع ، أو جريا وراء سكنى المدينة ، حيث الحياة أكثر تنوعا من حياة القرية ، أو هربا من بطالة عمت الريف بسبب ميكنة الزراعة ، فكان أسوأ ما واجهه هؤلاء العمال الظروف الجديدة في العمل :

تلوث وقذارة ، ومخاطر وضوضاء ، وخوف دائم من التطور المستمر في الآلة ، ذلك التطور الذي يؤدي ـ غالبا ـ الى الاستغناء عنهم ، واحساس بالفارق الشاسع بين حياتهم وحياة أصحاب المصانع ـ وهو فارق لم يكن يحسونه بنفس الحدة مع أصحاب الأراضي الزراعية ـ أما شعورهم بالملل والضجر ، ورتابة العمل على الآلة ، فكان يأتي في المرتبة الرابعة أو الخامسة ، اذ لم تكن حياتهم في القرية من قبل أكثر تنوعا أو اثارة ، ولم تكن علاقاتهم فيها أكثر حرية أو ابداعا ، كذلك لم يكونوا على درجة من الوعي أو الثقافة ، بحيث تصبح اهتماماتهم الروحية سابقة لاهتماماتهم المادية أو في مستواها .

ولم يمض قرن واحد من الزمان حتى تحسنت ظروف العمل في المصانع تحسنا ملحوظا : نقصت القذارة والضوضاء والمخاطر ، والأعمال الشاقة ، والأعمال الميكانيكية الرتيبة ، وقلت ساعات العمل ، حتى بلغت النصف (من ١٤ ساعة الى ٧ ساعات يوميا) أو الثلث (من ٤٥٠٠ الى ١٥٠٠ ساعة تقريبا سنويا) ، وتضاعفت الأجور والمزايا الاجتماعية ، اذ كان للتطور التكنولوجي أكبر الأثر في تحسين الآلة وظروف العمل ، كذلك كان من مصلحة القائمين على النشاطين الصناعي والتجاري ، تكبير الطبقة المستهلكة لسلعهم وخدماتهم ، وانحصرت المشكلة في أن القائمين على مؤسسات المجتمع لم يعملوا على زيادة وعي العمال الصناعيين أو نشر الثقافة الرفيعة بينهم ، فكان لتزايد المكاسب المادية وأوقات الفراغ ، والانخفاض النسبي في المكاسب الثقافية ، أثره في تزايد الفساد ومظاهر الانحلال ،

الآلية في الموظفين

ثم أخذت الآلة تغزو باقي المهن والوظائف ، بدأت بالوظائف الصغيرة كالأعمال الحسابية والرقابية ، وتدرجت حتى غزت أعمال التخطيط والمتابعة والاشراف ، بل واصدار القرارات وتغيير الاتجاهات ، وكما يجلس الآن العامل الصناعي أمام الآلة ، يضغط على الأزرار ، أو يحرك الأذرع والروافع ، فتخرج السلع وتتدفق المنتجات ، يجلس الموظف أمام الأجهزة الكهربائية والمعدات الالكترونية ، يضغط أيضا على الأزرار أو يدير الأقراص ، فتخرج البيانات وتنجز الخدمات ، كذلك يجلس المدير الى مكتب متصل بأنظمة

عديدة ، نظام يمده بالمعلومات ، وآخر يمده بالخبرات ، وثالث يمده بالأنباء والتوقعات .

وكما ألصق المفكرون صفة (الآلية) على حياة عمال الصناعة ، ألصقوها على حياة الموظفين والمديرين والرؤساء ، وهو وصف فيه ـ هذه المرة ـ قدر من الحقيقة ، ذلك لأن هذه الفئات كانت تتمتع في الماضي بكثير من حرية الحركة ، والتفكير الخاص ، والابداع المتميز ، ومع هذا فلم تكن صفة الآلية هذه مشكلتهم الأولى ، وانما كانت المشكلة تناقص الأهمية والاعتبار .

في الماضي ، كان للموظف أو للمدير (كفرد) شأن واعتبار : كان حاملا للمعلومات ، مختزنا ، للخبرات ، ناقلا للاخبار ، متنبئا بالأحداث ، مراقبا للنظام ، مانعا للأخطار ... الى آخر هذه الصفات والأعمال التي غزتها الأجهزة الحديثة .

وقد اختلفت ردود الأفعال باختلاف الموظفين والمديرين ، فمنهم من لم يدرك طبيعة التطور وحتمياته ، فأراد أن يعيق عملية اكتساب النظام للأهمية ، وأصر ان يكون هو شخصيا صاحب النفوذ ومحور الاهتمام ، المصدر الأوحد للمعلومات ، والحامل الفريد للخبرات ، وحامي نفسه من الأخطار والأعداء ، فأرهق نفسه ارهاقا شديدا ، ومع هذا الارهاق أفسد كثيرا من الأعمال ، وأغضب كثيرا من الرؤساء والمرؤوسين ، الى أن طرده النظام أو قتله .

كذلك جهل كثير من العاملين طبيعة التطور ، فواصل بعضهم معاملة المديرين وكأنهم ما زالوا يتمتعون بكامل السلطة ويتصرفون بكامل الحرية ، وأصابته الدهشة عندما رأى أن قرارات المديرين غير مطابقة لآرائهم أو لشخصياتهم ، أو لاتتفق مع علمهم وكفاءتهم ،

وهناك من أدرك ضرورة التنازل للأجهزة والأنظمة عن كثير من نفوذه وأهميته ، فهو يفهم طبيعة العصر وحتميات التطور ، ويعمل على تغذية منصبه بأحدث نظم المعلومات ، وكل ما يلزم من خبرات متخصصة ،

ومنهم من يسعد ـ في بادئ الأمر ـ بالمزايا التي يوفرها له المركز الجديد ، فيرضي بأن يكون مسيرا من النظام ، عاملا في حدوده ، مطبقا لقواعده ، فاذا ما طال الزمن ، وزالت الفرحة ، تحركت من جديد بواعث الطموح ، فلم يجد منفذا لاكتساب القوة الا أن يسرق النفوذ من الأجهزة والأنظمة ، هنا يكون مصيره كمصير سائق سيارة يقودها في عكس اتجاه المرور .

وهناك موظفون ومديرون يفهمون تماما ما حدث من انتقال الأهمية منهم الى الآلات الحديثة ، ويدركون تلك الخيوط التي تربط مقاعدهم بالأجهزة والأنظمة المختلفة ، ومع ذلك فهم غير قادرين على التأقلم ، لما لهم من شخصيات يصعب دورانها في اتجاه الآلة الكبيرة وبنفس سرعتها .

ويفسر كثير من المفكرين والفنانين ما يصيب الناس في عصرنا من أمراض نفسية وعصبية ، بأن الحياة أصبحت مضجرة مملة ، اصطبغت بالآلية وغلبت فيها الأعمال المتكررة ذات الوتيرة الواحدة ، وهو تفسير أراه بعيدا عن الصواب ، ذلك ان الأعمال لم تكن في الماضي بأقل رتابة أو قسوة ـ بما في ذلك أعمال ربات البيوت في منازلهن ـ وانما سبب ذلك ـ في رأيي ـ جهلنا بطبيعة العصر ومتطلباته ، أو عجزنا عن التأقلم مع مواصفاته ، مع أننا تخففنا من كثير من أعباء الأعمال ، وزادت أوقات الفراغ ، وأصبح في امكاننا تأكيد ذواتنا خارج العمل ، بعد أن أنقص العمل بعض أهميتنا .

وكان لهذا التغيير في شكل المجتمع أثره على العلاقات بين الأفراد والطبقات ، فقاعدة الهرم ـ وان كانت في الماضي شديدة الفقر ـ الا أنها كانت تشعر بأنها جزء متصل بالبناء كله ، يمده بكل الخير وأسباب الحياة . والطبقة الوسطى ـ وان كانت صغيرة الحجم ـ الا أنها كانت تشعر بالأمان والاستقرار ، وتدرك تميزها وتفوقها ، أما القمة فقد كانت أكثر ثباتا ورسوخا فلما أصبح مجتمعنا على شكل المسلة زاد البعد (النسبي) بين القمة والقاعدة ، فكان لابد لنا من التأقلم مع الشكل الجديد .

نعم ! علينا ـ اذا كنا من الرؤساء ـ أن ننقل احساسنا بالأهمية من كوننا أصحاب مناصب ، الى كوننا أفرادا متميزين ، وأن نعوض مافقدناه من اعتبار أثناء العمل بما اكتسبناه من امكانيات واوقات فراغ . وعلينا ـ ان كنا من المرؤوسين ـ أن ندرك ادراكا كاملا بأن أهمية رؤسائنا من أهمية الأنظمة التي تدور في فلكها ، وأن نفهم أن انتشار الآلة في أعمالنا قد أمدنا بكثير من المكاسب التي جعلت حياتنا ـ عموما ـ أقل آلية من حياة أجدادنا ، الذين لم يعرفوا الآلة . ■■



على الربابة

قصة : عباس خضر

لم يكن يقدر ان سيكون بينه وبين المعلم شيحة علاقة ، وان كان يشعر بشيء يربطـه به ، اول ما استرعى انتباهه حديثه او غناؤه على الربابة في الاذاعة ، يحكي عن « ابو زيد الهلالي » و « دياب بن غانم » و « الزناتي خليفة » و ..الخ .

يقول بصوته الرخيم منغما ممتزجا بصوت الربابة :

« اول مانبدي نصلي على النبي »

وكان ذلك بدا في الاذاعة ، جديدا وان كان قديما عريقا تنغرس جذوره في الماضي . وقد تفتحت عليه اذنه وهو صغيرمايزال في القرية ، فما كان شيء يأخذ لبه ويستولي على مشاعره مثل شاعر الربابة هناك . كان يبدأ مثل مايبدأ الان المعلم شيحة بقوله :

« اول مانبدي نصلي على النبي »

وهوالآن طالب في الجامعة بالقاهرة ، تحدث مع زملائه عن الطعام والمطاعم بالمدينة ، قال انه يحب الباذنجان المقلي .. فقال له زميل خبير :

ـ هل ادلك على مطعم تأكل فيه احسن باذنجان مقلي ؟

ـ نعم ولك الشكر .

ـ انه مطعم فول صغير في شارع الخليج ، اتأنف الاكل في مطاعم الفول ؟ قال بصراحته الريفية :

ـ انها الاكثر استعمالا عندي ، وقلما اذهب الى غيرها مثل « الحاتي » وغيره ، مما هو خطر على المبلغ الذي يجيئني من البلد ، قل لي بسرعة اين بالضبط أجد ذلك المطعم ؟

كان يتطلع الى اللافتات المعلقة على المحال وهو سائر في شارع الخليج ، فوجد لافتة معلقة بباب المطعم الموصوف : لافتة غريبة ظريفة تدل على ان صاحب المطعم غير عادي .. فنان لابد :

« السندوتش العادي بخمسة مليات ـ السندوتش بحق وحقيق بسبعة مليات .. الاكلة الهنية لاتكلفك اكثر من قرشين ! »

عزم على ان يأكل « اكلة هنية » وبطبيعة ميله لابد ان تحتوي على باذنجان مقلي ولابد ان يؤكد ذلك في الطلب .

كان المعلم جالسا الى منضدة وبيده سكين يقشر بها باذنجان . قال توفيق (الطالب) :

السلام عليكم يا معلم .

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، اهلا بسيدنا الافندي (لغلام المطعم) تعال ياولد انظر الاستاذ .

« ابن بلد بحق وحقيق »

هكذا قال توفيق في نفسه ، وهو معجب بابناء القاهرة الاصلاء الذين يسمى الواحد منهم « ابن بلد » ، وكان يفتنه في القاهرة « الذوق » الذي يبدو في تصرفات كثير من الناس ، ولاسيما العاملون بالمحال التجارية واصحابها ، اذ يرحبون بالذين يغشون محالهم للشراء ، ويعرضون عليهم البضائع بطريقة كلها « ذوق » . ويأسف ـ بعد سنين طويلة تغيرت فيها الحال ـ على تقلص « الذوق » حتى ليتساءل آسفا : اين القاهرة التي عرفناها وعشنا فيها زمنا ؟ما كان اسعدنا فيه وأسفا عليك ياقاهرة ! حتى سائق سيارة الاجرة الذي كان يمشي الهوينى بسيارته الى جانب من يتوسم فيه انه سيركب ويقول : « تاكسي يابيه ؟» ذهب ، ذهب مع الريح ..

ثم تذكر انه قرأ في اللافتة الكبيرة قبل ان يدخل اسم صاحب المطعم « المعلم شيحة » .. ورد هذا الاسم على ذهنه قبل ذلك ، ايكون المعلم شيحة شاعر الربابة في الاذاعة ؟ ولم لا ؟ صحيح ان الاسماء تتشابه ، ولكن هذه « التفاتين » تقرب الامر .. لمح وهو يتناول قطعة من البلانجان المقلي ذهبية اللون شهية المذاق ـ لمح كتابا في يد « المعلم » أوراقه صفراء يدنيه من عينيه كأنه يعاني من قراءته .. اه لابد هو ، وهذه قصة من القصص الشعبية يقرؤها في صمت بعد ان فرغ من تقشير الباذنجان .

غسل توفيق يديه وجففها بالفوطة المعلقة بجوار حوض الغسيل ، ثم اقترب من المعلم بدافع من فضول محبب :

ـ ماهذا يامعلم ؟

ـ قصة « خضرة الشريفة » أم ابوزيد الهلالي .

ـ هل تحب قراءة هذه القصص ؟

ـ جدا يا استاذ ...

ـ توفيق ، اسمي توفيق

ـ عاشت الاسامي يا استاذ توفيق

وتم التعارف بين توفيق والمعلم شيحة ، ومن بقية الحديث عرف الاول ان الثاني قراءته عاجزة .. يكاد يكون اميا ، وان كان يحفظ كثيرا من القصص الشعبية عن ظهر قلب ، وانه ورث هذا الفن مع التلحين على الربابة من والده الحاج زناتي الذي كان ينشد ويعزف على الربابة في قهوته بالقاهرة .

ـ كانت « قهوة زناتي » اشهر قهوة في سيدنا الحسين ، ألم تسمع عنها ياأستاذ توفيق ؟

ـ أ .. سمعت ، الله يرحمه .

وفي المرة التالية التي حضر فيها توفيق الى المطعم ـ اتصل الحديث بينه وبين المعلم شيحة ، عرف منه ان المسئولين في الاذاعة يطلبون منه ان يتصرف في القصص بما يناسب الاحوال الحاضرة ، وانه يعاني من هذا التصرف ، اذ كثيرا مايراجعونه فيه ويطلبون التغيير .

شعر توفيق بما يتخلل كلام المعلم شيحة من شكوى خفية تكاد تعبرعن عجزه في التغيير والتبديل الى جانب عجزه في القراءة الذي اعرب عنه بقوله :

ـ أصبح نظري ضعيفا

ـ لاعليك يامعلم ، ان كنت تسمح لي بمعاونته في ذلك .

ـ ليتك تفعل يا استاذ ، كم اكون شاكرا لك .

واخذ توفيق الكتاب الذي يعد منه المعلم شيحه مايذيعه في الاذاعة ويحاول ان يجعله مناسبا للاحوال الحاضرة .

ولاول مرة يقبل « النص » في الاذاعة بدون كلام .

وبعد عدة اسابيع ـ كان يذاع ذلك كل اسبوع ـ قدم المعلم شيحة لصديقه الطالب ورقة مالية قال له في حياء وهو يحاول دسها في يده :

ـ اللقمة الهنية تكفي ميه ..

فان الاجر في الاذاعة كان قليلا ، لايذكر الى جانب الكسب الكبير الذي يكسبه المعلم من الفول والفلافل والباذنجان المقلي .

قال توفيق للمعلم شيحة وهو يعيد اليه يده بما فيها :

ـ لايامعلم ، عيب .. كيف اقاسمك هذه اللقمة ؟ وعلى اي حال نحن صديقان وليس بيننا مايوجب ذلك .

ثم قال وهو يصر على الرفض على حين يحاول المعلم ان يضع الورقة في جيبه وهو يردها اليه في عزم :

ـ نحن فلاحون ، وانت ابن بلد ، ولانحن ولا انتم يليق بنا ذلك ..

اثر ذلك في نفس المعلم شيحة كل التأثير ، وحمله جميلا لاينسى لتوفيق .

وتوطدت الصداقة بين الاثنين . وعرف المعلم مسكن توفيق وزاره فيه .

●

وفي يوم من الايام دق باب المسكن ، ففتح توفيق ، واذا هو يرى غلام المطعم يحمل طبقا كبيرا مغطى ومعه خبز ملفف بفوطة نظيفة وهو يقول :

ـ المعلم بيقول لك تغد بهذا .

وتناول منه الطبق والخبز ، ودفع الغطاء فوجد طعاما مصنوعا من بيض وعجين فول الطعمية ، وهو ما يسمى « عجه » وحوله قطع من الباذنجان المقلي الذي يحبه توفيق . ويعجب كيف يجعله المعلم ذهبي اللون مع انه يراه في المطاعم الاخرى اسو... ربما كان ذلك لانه يزيل القشرة السوداء ويقليه ... ت نظيف .

شعر توفيق بمزيج من شعورين : الاول فوري هو سروره بالطعام الشهي ـ والثاني اعقبه اذ احس ان هذا اجر مقنع ..

داخله الاحساس الثاني فلم يسترح اليه برغم حالة .. طرأت عليه اصبح فيها في اعسار مالي يهدده بالانقطاع عن الدراسة ، اذ انقطع عنه ماكان يأتيه من والده بسبب مشاحنات عائلية ابدى فيها رايا لم يعجب الوالد العنيد ..

وتكرر ارسال الطبق ، وتكررت المشاعر ، وان كان السرور بالطعام قد انحسر ليفسح المجال لذلك الاحساس !

هل يقطع صلته بالمعلم شيحة ، ويتجشم في هذا ما يتجشم ، فهو عزيز عليه لايحب ان يقطع حبل الود بينه وبينه ؟ ام يظل يجاري الامور ؟ واذا قطع الصلة افلا يكون نذلا ؟ وان استمر في علاقته به .. ولم لا ؟ سأل نفسه هكذا قبل ان يتم الجملة ، وجاءه صوت من داخله يقول له :

يا أخي أنت متشدد أكثر من اللازم .

ـ الا ترى في هذا شيئا ؟

ـ كلا ، انت رفضت ان تاخذ اجرا على اعداد القصص ، وما يرسله اليك من الطعام اشياء بسيطة تعد من قبيل التحيات والتهادي بين الاصدقاء ، على أنني لا ارى معنى لرفضك الاجر ، ولاسيما في هذه الظروف التي وقعت فيها .

ـ اتريدني ان اطلب الاجر الذي عرضه علي وابيته ؟ لا ، لايمكن هذا مهما كانت الظروف ، حتى لو صح في وقته فانه لايصح الان .

ـ طيب لا اقل من ان تتقبل الهدايا بنفس راضية .

ـ بل قل صراحة : بنفس مفتوحة وشهية ؛ انا اعرفك فانت صاحب بطنة !

ثم حدث ان قدمت ـ بدلا من غلام المطعم ـ سميحة ابنة المعلم شيحة ..

قدمت بالطبق ومايصاحبه .. وكان مما يصاحبه في هذه المرة صنف من الحلوى . استقبلها توفيق برقة .. تليق برقتها وبشكر جميل ، فهي فتاة صغيرة متفتحة

كالوردة الندية ، يزينها الخجل الذي يفتقده في بنات الجامعة زميلاته ، الواحدة منهن تحملق فيه وهي تكلمه .. تضع وجهها في وجهه كأي زميل ، لاتغض الطرف ولاتطرق كما اعتاد ان يرى ذلك في القرية بين النساء والرجال .

وامتد به التفكير فيا حوله ، قال في نفسه :

ـ مالي ارى القوم في هذا البلد مختلفين ؟ بل ارى تناقضا بين نوعين من الناس : زملائي طلبة الجامعة المتأنقين في زيهم الافرنجي ذوي ابهة وشموخ ، ولكن اين الصديق الذي يعتمد عليه بينهم ، الذي تجده وقت الشدة ؟ وعلى عكس هذا ، النوع الثاني من « اولاد البلد » الذين يعد الواحد منهم صاحب صاحبه بحق « وحقيق » .

وسميحة « بنت البلد » القاهرية تشبه منيرة بنت خالي التي حجبوها عني لما كبرت كما زعموا ، والعجيب انها لاتكاد تحتجب عن غيري .. لان امي تلمح بانها ستكون زوجة لي في المستقبل ، كأن لا ارادة لي ، ولكن هيهات ..

ما احلى سميحه وهي تبتسم وتبرق عيناها وهي مطرقة خجلة قد احمرت وجنتاها مثل الباذنجان الذي يتفنن ابوها في اعداده وقليه بالمطعم ..

وكأن شعر بشيء أسرع بابعاده عن خاطره بهزة رافضة من راسه قائلا في جمجمة : لا .. لا .. قالت سميحة لامها في سياق الحديث عن توفيق :

ـ انه تاخذه الجلالة .. انه من اولياء الله الصالحين .. قالت الام وهي تمصمص شفتيها :

ـ يمكن (ملتفتة الى ابنتها في جد) دعي هذا واستذكري دروسك كي تنجحي في الامتحان وتاخذي الشهادة .

ـ كم اتمنى ان ادخل الجامعة يا امي !

ـ ما اظن اباك يوافق ..

نظرت البنت في استكانة وانكسار ، وبدت كالوردة الذابلة !

●

لم ينم توفيق ليلة امس الا خطفات تتخللها كوابيس .. فقد كان يفكر اين يذهب بعد الطرد من المسكن .. اذ تاخر عن دفع الاجرة ثلاثة اشهر ، وليس هناك ـ كما يقضي القانون ـ الا الدفع او الطرد ، والدفع يبدو مستحيلا ، وصاحب البيت لايتورع عن اي شيء يخوله له القانون ،وقد انذر فعلا واوقع على اثاثه « الحجز التحفظي » .

... ودق باب السكن ، وفتح الباب ، واذا سميحة تمد له يدها بورقة اسرع بقراءتها .. ايصال من صاحب البيت بانه تسلم اجرة الشهور الثلاثة المتأخرة .

عجبا ! كيف وقع هذا ؟ ثم سألها :

ـ من اعطاك هذه ؟

ـ ابي ..

فعلها المعلم شحتة .. ولكن من اين علم ذلك الشيطان .. بل ذلك الصديق الذي ليس كمثله صديق ؟ ■■

عباس خضر

على قبر كلب

■ أصيب كلب اللورد بايرون الشاعر بالسعار ، فمرضه الشاعر ، ثم دفنه في أنقاض كنيسة قديمة ، وأقام على مدفنه قاعدة من الحجر نقشت عليها الكلمات التالية : »

« قرب هذه البقعة ترقد رفات من كانت صفاته جمالا بغير غرور ، وقوة بغير صلف ، وشجاعة بغير شراسة ، وجميع فضائل الانسان بدون نقائصه .»

نحن نأكل البلاستيك

بقلم : دكتور السيد عمار

هل يتخيل انسان أنه يأكل البلاستيك مع طعامه ويتعاطاه مع شرابه ويستنشقه مع الهواء ؟وانه يدخل جسمه مع الدواء ، وفى أثناء العمليات الجراحية وعند نقل الدم اليه من عبوات البلاستيك ؟ .

كل هذا يحدث ولسنا نمزح اذا قلنا أن البلاستيك يتسرب من طقم الاسنان الصناعية أو من حشو ضرس الى جسم الانسان . وهناك مصادر أخرى نتعاطى عن طريقها البلاستيك رغم أنفنا !

ولهذا فقد نظمت ادارة الغذاء والدواء الأمريكية بالاشتراك مع البرنامج القومى للسموم مؤتمرا علميا دوليا بخصوص التأثيرات الصحية للبلاستيك والمواد الداخلة فى تركيبه . وقد عقد هذا المؤتمر فى شهر يونيو من هذا العام و حضرته مع عدد كبير من المهتمين بعلوم الدواء والسموم والصحة العامة ورجال التشريعات القانونية وممثل صناعات البلاستيك ، وعشت معركة الانسان والبلاستيك على الطبيعة من جميع زواياها العلمية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية . فقد كان اهتمام الحاضرين يختلف من مهتم بتأثير البلاستيك السام على الجسم الى من يهتم بالتشريعات التى يجب فرضها لحماية الانسان من أخطار البلاستيك ، وبالطبع كان اهتمام منتجى البلاستيك منصبا على الآثار الاقتصادية التى يمكن أن تنجم عن مثل هذا المؤتمر اذا ما توصل الى نتيجة تدين البلاستيك بأنه ضار بالصحة العامة .

والبلاستيك من أحدث المخترعات التى أدت الى تقدم صناعى وعلمى واقتصادى منذ الخمسينات من هذا القرن . وقد يكون من المفارقات الغريبة أن ينعقد المؤتمر فى مبنى وزارة الصحة الأمريكية بشارع الاستقلال حيث يطل هذا المبنى على متحف الفضاء والهواء الأمريكى والتابع لمجموعة متاحف معهد سميثونيان . والزائر لهذا المتحف يحس وينبهر بعظمة أبحاث الفضاء والتى لعب البلاستيك دورا كبيرا فيها .

والبلاستيك يتركب من مادة عضوية مبلمرة Polymer وزنها الجزئى كبير جدا . وهناك أكثر من خمسين نوعا من البلاستيك يمكن تقسيمها الى نوعين : الأول ينصهر بالحرارة ويشمل الفينيل والاكريليك والنايلون والنوع الثانى يقاوم الحرارة مثل الميلامين .

أصبح جزءا من حياتنا

والبلاستيك لم يعد لنا غنى عنه فى حياتنا اليومية فمنه تصنع الأرضيات وستائر الحمامات وأغطية الأرائك ومقاعد السيارات وخراطيم المياه والملابس وعبوات لحفظ المياه واللبن وأكياس لحفظ وتغليف اللحوم والدواجن والأسماك والوجبات الجاهزة ومعاطف الأمطار والأطباق والأدوات المنزلية وغير ذلك . أى أن البلاستيك أصبح جزءا من حياتنا يلازمنا فى مأكلنا ومشربنا وفى غرف نومنا وفى سياراتنا وبدون أن ندرى فهو يتسرب الى أجسادنا .

ولقد كان استعمال البلاستيك في الصناعات الدوائية وفي الاستعمالات الطبية ثورة حققت الكثير من الانجازات والتطورات التي لم يكن من الممكن أن تحدث بدون استخدام البلاستيك . فقد أدى البلاستيك الى انتاج المحقن البلاستيك التي تستعمل لمرة واحدة والتي حلت مكان الحقنة الزجاجية التي تحتاج الى تعقيم كما أنها عرضة للكسر . وكذلك أدى التقدم في صناعة البلاستيك الى انتاج عبوات لقطرات العين ونقط الأنف سهلة الاستعمال وخفيفة الحمل . وانتشر استعمال العبوات البلاستيك لحفظ الأدوية والمحاليل الطبية وفي بنوك الدم لحفظ الدم لحين نقله الى المرضى والجرحى . ولا يمكن أن تنكر دور البلاستيك في تقدم الجراحة حيث تستعمل الخراطيم والأنابيب المصنوعة من البلاستيك في جراحات القلب والصدر وأجهزة الكلى الصناعية . كما حل البلاستيك محل الغضاريف في عمليات الركبة والمفاصل الصناعية . ودخل البلاستيك في مواد صناعة الأسنان .



ولكي يكتسب البلاستيك الخام الخواص التي تؤهله للقيام بأدواره المختلفة تضاف اليه مواد عديدة تبلغ أحيانا خمسين بالمائة من تركيبه . وهذه المواد الكيميائية تكسب البلاستيك الليونة وتطيل من عمره وتمنع عوامل الأكسدة ، وتكوين شحنات استاتيكية عليه . أضف الى ذلك المواد الملونة والصبغات المختلفة . واهم المواد التي تضاف الى البلاستيك الخام والتي تنتقل الى جسم الانسان هو ما يسمى بالمواد البلاستيكية (Plasticizers) وهي حقيقة المواد التي تعطي البلاستيك خواص اللدونة والمرونة ، وتحول بودرة البلاستيك الخام إلى البلاستيك الذي نراه على الطبيعة . وهذه المواد تعرف باسم الفثالات (Phthalates) وهي مشتقة من حمض عضوي يعرف باسم حمض الفثاليك . ولقد عرف ان كل هذه المواد التي تدخل في تركيب البلاستيك تذوب في محتوياته وتتسرب بذلك الى جسم الانسان . كما انها تتطاير تحت تأثير الحرارة ويستنشقها مع الهواء . ولهذا فقد حرصت التشريعات الدوائية على اجراء اختبارات على البلاستيك المستعمل في الصناعات الدوائية والطبية لضمان خلوه من آثار سامة . وهذه الاختبارات تجري على حيوانات التجارب بحقنها بمحلول من الملح او من الزيت الذي حفظ بالبلاستيك لعدة ايام لتقدير مدى الآثار السامة التي يمكن أن تحدث للارانب والفئران . كما ان بعض قطع البلاستيك الذي يستعمل في المفاصل الصناعية تزرع في عضلات الحيوانات لدراسة مدى ما تحدثه من التهابات . واذا اجتاز البلاستيك هذه الاختبارات بنجاح فانه يمكن استعماله دون خوف من آثاره الضارة .

كيف يتسرب الى الجسم ؟

وبالرغم من ذلك فقد استبان ان هذه الاختبارات غير كافية اذ ان الاستعمالات المختلفة للبلاستيك قد تؤدي الى تراكم المواد الداخلة في تركيبه وخصوصا

الفثالات في جسم الانسان،فمثلا وجد ان كمية الفثالات التي تنتقل من أكياس حفظ الدم الى الدم نفسه كميات كبيرة فقد قدرت مادة الفثالات التي تحتويها الوحدة الكاملة لنقل الدم وهي ٦ لترات والمحفوظة لمدة اسبوعين عند درجة ٥م بمقدار ربع جرام وهي كمية لا يمكن التغاضي عنها عندما تنتقل الى انسان تجري له عملية نقل الدم . وايضا اتضح ان المريض الذي تجري له عمليات جراحية في القلب والصدر تنتقل اليه كميات كبيرة من مادة الفثالات بل وتظهر بعد ذلك في افرازات جسمه من بول وعرق .

وباجراء الاختبارات على آلاف الاشخاص العاديين وجد أن دماءهم تحتوي على كميات لا بأس بها من الفثالات والتي لا يمكن ان يكون لها مصدر آخر سوى البلاستيك . وليس هناك تفسير مقبول لهذا غير ان هذه المواد دخلت جسم الانسان عن طريق الغذاء والماء والدواء والهواء .

حتى مع الجنين !

وبتحليل السائل المحيط بالجنين فى الرحم وجد به مادة الفثالات . وهذا مؤشر خطر لأنه يعنى أن هذه المادة انتقلت من الدورة الدموية للأم عبر المشيمة الى الجنين وربما تحدث عواقب وخيمة على الأجنة فى بطون أمهاتها وربما بعد ولادتها أيضا .

وربما كان احتواء النباتات على مادة الفثالات أمرا غريبا فهى لا تأكل ولا تشرب ولا تتعامل مع البلاستيك فى أية صورة كانت . الا ان البلاستيك الذى يتخلص منه الانسان بإلقائه فى مقالب القمامة قد تحلل وسرى الى التربة مع المياه الجوفية ومياه القنوات وامتصه النبات ليقدمه للانسان مرة أخرى .

وبالرغم من أن البلاستيك بوضعه الحالى لا يشكل خطرا لتسمم حاد ـ وممكن أن يحدث عن طريقه ـ الا أن المشكلة الحقيقية والتى دعت الى اثارة موضع التسمم بالبلاستيك هو ادمان الانسان اللاشعوري على استعمال البلاستيك وتراكمه فى داخل الجسم على مر السنين ، ويرى العلماء ضرورة بحث هذا الموضوع لكشف أغواره والتعرف على التغيرات البيولوجية للانسان والتى يمكن أن تحدث تحت تأثير مادة الفثالات وغيرها من مكونات البلاستيك على المدى الطويل .

ويتركز التفكير على تأثير هذه المواد على الخلايا ومكوناتها والتغيرات التى يمكن أن تحدث فى الجينات وبالتالى قد تؤدى الى تغيرات فى الصفات الوراثية للانسان وظهور طفرات وعوامل مرضية فى الأجيال القادمة .

دراسة تراكم البلاستيك فى الجسم

كذلك يشمل البحث الآثار التى قد يحدثها تراكم البلاستيك فى الجسم ، واحتمال أن تؤدى الى أورام وأمراض سرطانية بحكم أن البلاستيك ومكوناته مواد غريبة قادرة على تغيير الوظائف الحيوية للخلايا وتحويلها من خلايا طبيعية الى خلايا سرطانية كما يشمل التفكير تأثير مكونات البلاستيك على الجنين أثناء فترة الحمل وما يمكن أن يحدثه من آثار سامة اما أن تؤدى الى العيوب الخلقية أو عيوب فسيولوجية تظهر أعراضها على الطفل بعد الولادة .

والخطة المقترحة لدراسة التسمم بالبلاستيك يمكن أن تنقسم الى ثلاث مراحل . مرحلة تعريض الخلايا لمكونات البلاستيك ودراسة التغيرات التى يمكن أن تحدث بها ، والمرحلة الثانية دراسة احصائية على السكان والأشخاص والعاملين الذين يتعرضون للبلاستيك بمعدلات كبيرة ومقارنة حالاتهم الصحية بغيرهم ممن لا يتعاطون البلاستيك لا شعوريا . والمرحلة الثالثة اجراء الاختبارات على حيوانات التجارب المختلفة باعطائها كميات يومية من البلاستيك على مدى طويل يصل الى ثلاث سنوات ، وفى خلال هذه الفترة تدرس حالة هذه الحيوانات والتغيرات الحيوية والمرضية التى يمكن ان تحدث لها ومقارنة ذلك بحيوانات تجارب مماثلة تحت نفس الظروف ولكن دون أن يقدم لها البلاستيك فى أى صورة كانت .

وبعد أن تجمع كل المعلومات المطلوبة سوف تقوم اللجان العلمية المختصة بتقييمها وتضع تصورها وتوصياتها بخصوص استعمالات البلاستيك وتعرض الانسان له ، وسوف يتلو ذلك أن توضع التشريعات التى تضمن سلامة الانسان من مكونات البلاستيك اذا ثبت تأثيره السام ووضع معدلات للتعرض اليومى للانسان فى شتى الصور الممكنة . وسوف تكون تلك القرارات واالتشريعات ملزمة لعدة هيئات رئيسية مهمتها مراقبة الآثار الضارة والسامة للكيماويات والأدوية والأغذية ، ومن بين هذه الهيئات وكالة حماية البيئة وادارة الغذاء والدواء ولجنة حماية المستهلك .

مصر ـ د . السيد عمار



بقلم خير الدين التونسي *

إلى ذوي السياسة والعلم

لما كان الـ... الحامل على الشيء متقدما عليه طبعا ، ناسب ان نقدمه وضعا ، ان الباعث الاصلي على ذلك أمران آيلان الى مقصد واحد : أحدهما : إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الاسلامية ، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة ، وترويج سائر الصناعات ، ونفي أسباب البطالة . وأساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الأمن ، المتولد منه الأمل ، المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الممالك الأوروباوية بالعيان ، وليس بعده بيان .

ثانيهما : تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير ، الموافقة لشرعنا ، بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر ، و تآليفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر ، حتى أنهم يشددون « ١ » الانكار على من يستحسن شيئا منها . وهذا على اطلاقه خطأ محض .

فان الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة لاسيما إذاكنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لانكاره وإهماله ، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله . وكل متمسك بديانة وإن كان يرى غيره ضالا في ديانته ، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الافرنجية . فانهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنا من أعماله ، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم الى ما هو مشاهد . وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه ، قولا كان أو فعلا فان وجده صوابا قبله واتبعه ، سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم . فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال . والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها[1] .

ولما أشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم ، أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برأيه وحفر خندقا للمدينة في غزوة الأحزاب ، عمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين ـ وقال سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ « لا تنظر الى من قال وانظر إلى ما قال » .

وإذا ساغ للسلف الصالح أخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما رأوه من الآلات النافعة . حتى قال الغزالي : « من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه » فاي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين اليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد ؟

وفي سنن المهتدين للعلامة الشيخ المواق المالكي ما نصه : « إن ما نهينا عنه من أعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا ، أما ما فعلوه على وفق الندب أو الايجاب أو الاباحة فانا لا نتركه لأجل تعاطيهم إياه لأن الشرع لم ينه عن التشبه بمن يفعل ما أذن الله فيه » .

وفي حاشية الدر المختار للعلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفي ما نصه : « إن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر » .

على أنا إذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من أعمال الافرنج نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات[2] ونتائجها ولا يمتنعون منها فيما يضرهم . وذلك أنا نراهم يتنافسون في الملابس وأثاث

المساكن ونحوها من الضروريات ، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية ، والحال أن جميع ذلك من أعمال الافرنج . ولا يخفى ما يلحق الأمة بذلك من الشين والخلل في العمران وفي السياسة .

أما الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تأخر الأمة في المعارف .

وأما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذي هو أصل مهم من أصول المكاسب ، ومصداق ذلك ما نشاهده من أن صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجي بثمن يسير ، ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة بأضعاف ما باعه . وبالجملة فليس لنا الآن من نتائج أرضنا إلا قيمة موادها المجردة دون التطويرات العملية التي هي منشأ توفر الرغبات منا ومن غيرنا . ثم إذا نظرنا الى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها فان وجدناهما متقاربين خف الضرر ، وأما إذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لامحالة .

وأما الخلل السياسي فان احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها لاسيما إذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التي لو يتيسر شراؤها زمن الصلح لا يتيسر ذلك وقت الحرب ، ولو بأضعاف القيمة .

ولا سبب لما ذكرناه الا تقدم الافرنج في المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية ، فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن في ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام نفعه بمجرد أوهام خيالية ، واحتياط في غير محله ؟

ومما يحسن سوقه هنا قول بعض المؤلفين من الأورباويين في السياسات الحربية : « إن الممالك التي لا تنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك أن تكون غنيمة له ولو بعد حين » .

وخص التراتيب الحربية لأنها موضوع كتابه ، وإلا فالواجب مجاراة الجار في كل ما هو مظنة لتقدمه ، سواء كان من الأمور العسكرية أو من غيرها .

ومما يؤيد ما قررناه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعاصم بن ثابت من حديث : « من قاتل فليقاتل كما يقاتل » .

ويوضح معناه ما تضمنته وصية الصديق لخالد بن الوليد ـ رضي الله عنهما ـ حين بعثه لقتال المرتدين ، فقال : « يا خالد ، عليك بتقوى الله والرفق بمن معك » ـ الى أن قال ـ « والخوف عند أهل اليمامة ، فاذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر ، ثم إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به ، السهم للسهم ، والرمح للرمح ، والسيف للسيف » .

قلت : ولو أدرك هذا الزمان لأبدل ذلك بمدفع الششخان ومكحلة الابرة والسفينة المدرعة ونحوها من المخترعات التي تتوقف عليها المقاومة ، ولا يحصل بدونها الاستعداد الواجب شرعا الذي يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعي في تهيئة مثلها . أو خير منها ومعرفة الأسباب المحصلة له .

وبناء على ذلك يقال هنا : هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا ؟ وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسس على دعامتي العدل والحرية ، اللذين هما أصلان في شريعتنا . ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك ؟

● من كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك سنة ١٨٦٧

(١) حديث نبوي شريف .

(٢) يستعمل هنا خير الدين هذه الكلمة في معناها العام وهو المؤسسات العصرية الأوربية ولكنه لا ينفك يستعملها في معنى أخص في بقية مؤلفه وهي الاصلاحات التي اعتمدتها السلطنة العثمانية وبعض ولاياتها ابتداء من ١٨٣٩ / ١٨٧٦ .

الواقع الجزائرى في كتاب جيل القصاصين

بقلم : مصطفى بلمشرى

انعكست مظاهر الفكر الجزائري انعكاسا مباشرا في الادب الجزائري ، فجاءت صور الاديب ناطقة بخصائص مجتمعه مطبوعة بمعطياته الفكرية وأرائه الحياتية . والقصة الجزائرية تأتي في مقدمة الفنون الادبية ، بحيث احتلت مكانة مرموقة على الساحة الادبية وأصبحت تحمل سلاح التغيير وتسهم في صناعة الحياة بأسلوب ابداعي ونضالي يرفد المسيرة الثورية . .

والقصة الجزائرية حاولت أن تتجاوز دائرتها المرسومة للوصول الى الواقع الاجتماعي الذي يعيشه الشعب الجزائري فعكست بكل واقعية مطامح الحياة وصراعاتها ، بحيث استمدت مواضيعها من الواقع المعاش ، فكانت القضايا الاجتماعية مادة خصبة لها . فالقاص الجزائري لم يعدْ أسير خياله يستمد منه قصصه بل نزل الى الحياة العامة العادية بقطاعاتها المختلفة مجسدا ذلك في عمل فني ناضج ومتكامل .

الشهداء يعودون

ومن الكتاب الجزائريين الذين صوروا لنا الواقع الاجتماعي في نتاجهم القصصي ، الطاهر وطار الذي قدم للمكتبة الجزائرية أعمالا أدبية قيمة جديرة بالدراسة والتحليل ، ومن هذه الاعمال مجموعته القصصية « الطعنات » ، التي عالج الكاتب من خلالها كفاح الانسان مع الحياة وصراعه من أجل التطور والتقدم ، وأبرز اماني بالتحرر من التخلف والتبعية ، كما جسد أماله في العيش ، فقد عمد القاص في هذه المجموعة القصصية إلى تحليل الحوادث ومناقشتها وتحليل النفوس وسبر أغوارها ، بما لا يتنافى مع الطبيعة والواقعية أو يتعارض مع اللمحة الفنية .

أما مجموعته الثانية التي تحمل عنوان (الشهداء يعودون هذا الاسبوع) ومن بين هذه المجموعة تتناول قصة (الشاعرة الناشئة والرسام الكبير) التي رسم فيها الكاتب لنا ملامح البطلة التي كانت تعيش في الاوهام مع الرسام ، فهذه الفتاة شاعرة مغرورة لأنها مازالت مراهقة وفي بداية الطريق ، انها لاتبالى بالاشياء المحيطة بها ، طموحها هو أنها ستصل الى القمة في المجال الشعري .

فالكاتب صور حياة هذه الشاعرة الناشئة بكل تناقضاتها وايجابياتها ، فاستطاع القاص من خلال

تحليل الحوادث أن يرسم مشاعر شخصيته المحورية وأن يبرز طموحاتها المستقبلية وعلاقتها بالمجتمع الذي تنتمي اليه .

أما قصة (الشهداء يعودون هذا الاسبوع) والتي تحمل المجموعة اسمها ، فهي منسوجة من الواقع الاجتماعي المعاش وخاصة منذ فجر الاستقلال ، فمضمون القصة اجتماعي سياسي في الوقت نفسه ، لأن القاص يكشف لنا عن بعض الخونة الذين وقفوا بجانب الاستعمار الفرنسي أثناء الاحتلال ، واليوم اندسوا في صفوف المناضلين وراحوا يمارسون جميع الوسائل لتحقيق مآربهم الشخصية ،فتستروا بستار النضال في وقت الغفلة قبل أن تقف الجزائر أن على قدميها . فالقاص صور لنا موقف هؤلاء الخونة من عودة الشهداء ، انه موقف حرج وصعب ، فعودة الشهداء تكشف العملاء الذين لم يشاركوا في الثورة التحريرية .

ان الظروف الجديدة والتحولات الكبيرة هي الأرضية التي تمت عليها القصة الاجتماعية الجزائرية ،فالتحولات الجذرية استطاعت أن تحفر أخاديد حضارية جديدة ذات أثر عميق على الساحة الادبية . وفي هذا الصدد يطالعنا القاص أحمد منور بمجموعته القصصية الاكثر صدقا والأوضح دلالة ، تحت عنوان (الصداع) فهي تصور هموم الانسان المعاصر في المجتمع الجديد وتطلعاته الى مستقبل أفضل ، ذلك الانسان الصامد المناضل الذي يعمل دائبا على تغيير معالم الطريق في مجابهة قوية دون كلل . لقد وفق الكاتب في عرض المشاكل الاجتماعية والأحداث بصراحة وجرأة ، لقد جسدت قصصه معاناة الشعب الجزائري ونضاله من أجل التغلب على مشاكله والقضاء على التخلف . فكان لهذه المجموعة وقعها الجيد في نفوس القراء والادباء على السواء . فقصة (أكل البصل) تعكس بعض الامراض الاجتماعية التي ورثها شعبنا عن الاستعمار ، كالمحسوبية والبيروقراطية والاهمال في أداء الواجب والروتين . بطل هذه القصة شاب كان يشتغل في فرنسا ولكنه فضل العودة الى وطنه للمساهمة مع اخوانه في تشييد بلادهم وبناء صرحها ،فالبطل «مسعود» يذهب الى احدى الشركات الوطنية يبحث عن العمل ، فتسلم له ورقة كتبت عليها قائمة الأوراق اللازمة لتكوين الملف مع المدة المحددة لاتمامه وتقديمه الى الادارة . فيسارع مسعود في تكوين الملف ويذهب من ادارة الى أخرى وفي كل مرة تواجهه حواجز من بيروقراطية وعدم تقدير المسئولية ، وهكذا يقضي أياما متنقلا من مصلحة الى أخرى دون جدوى وتنتهي المدة المحددة وملفه مازال ناقصا ، فتضيع فرصة العمل منه . فهذه المشاكل المتعددة التي تعترض سبيل كل مواطن يناضل من أجل لقمة العيش مازال الشعب الجزائري يتخبط فيها وهو يحاول جاهدا للقضاء عليها ومحاربتها ، والقاص احمد منور استطاع صياغة هذه المشاكل والاحداث في قالب قصصي رائع .

أما بالنسبة لمجموعة (أخاديد على شريط الزمن) للقاص بشير خلف التي تمثل شكلا أدبيا ، فقد استمد الكاتب عناصر قصصه من الحياة الاجتماعية ، ومن بين هذه المجموعة نتعرض لنماذج لها علاقة وطيدة بالمجتمع .

فقصة (الارض تنتحب)تعالج هذه القصة موضوع الهجرة من الريف الى المدينة ، فالنزوح الريفي كان ومازال السبب الرئيسي في ظهور بعض الآفات الاجتماعية كالتسول والبطالة والسرقة وغيرها من المعضلات التي تعرقل تقدم المجتمع فبطل الريف إلى المدينة القصة ، شاب يدعى (علي) يعيش في القرية مع أبيه المشلول والعاجز عن القيام بأي نشاط أو عمل يعيش منه . فيترك هذا الشاب القرية متجها ألى العاصمة بحثا عن العمل ، ولكن بمجرد وصوله الى المدينة تتغير الصورة التي كانت مرتسمة في ذهنه ،بحيث بقي أياما دون عمل ولاسكن ، وشاءت الاقدار أن يلتقي بشاب من قريته يعمل هناك ،فيسكنه معه ريثما يحصل على عمل ويجد سكنا . وبعد مكوث أيام وشهور في العاصمة يحصل الشاب على عمل مناسب له ، وفي نهاية كل شهر يرسل لأبيه جزءا من مرتبه . ولكن حب الشاب لارضه يجعله يعود الى القرية لخدمة الارض بعدما مارس الحياة في المدينة وذاق مرارتها وصعوبتها . فالقاص قد استعمل لغة واضحة سهلة بعيدة عن البناء اللغوي المعقد مما جعل رواجها كبيرا لدى القراء بمختلف مستوياتهم الثقافية والفكرية .

ازمة التعريب

والقصة الثانية من نفس المجموعة (هي الوجه البشع) انها تطرح قضية التعريب الذي شمل الادارات والمؤسسات العامة وهذا من أجل توفير العمل لكل شاب يحمل شهادات باللغة العربية هذا من جهة ومن أخرى استرجاع الشخصية العربية الجزائرية التي حاول الاستعمار طمسها وتشويهها .

بطل القصة شاب تخرج حديثا من الجامعة حاملا شهادته التي ستسهل له وجود عمل شريف في الادارة الجزائرية ، ولكنه تخيب آماله وتتبدد أحلامه ، اذ أعياه

البحث عن عمل في جميع الشركات والمؤسسات الوطنية دون جدوى لانه يحمل شهادة بالعربية ، فلم يجد أمامه سوى مهنة التعليم التي انخرط فيها وهو لايملك أي موهبة أو استعداد نفسي لمارستها ، . انه غير مؤهل لتعليم التلاميذ لأن مزاجه لايسمح له بذلك . فالقاص وفق الى حد بعيد في تجسيد هذه المشكلة الوطنية العويصة ، بالاضافة الى تسليط الضوء على هموم هذا الشاب ونضاله الاجتماعي مّن أجل العيش في ظل العدالة الاجتماعية فالقصة تمتاز بالسهولة في الالفاظ وتساويها مع المعاني الى جانب البراعة الفنية التي تبرز في ترتيب الحادثة وتساوقها حتى تصل الى العقدة فالحل ولكن نهايتها كانت مؤلمة بحيث حمل هذا الشاب الى المستشفى بعد صدمة نفسية حدثت لها عند رؤيته لوجه بشع لعجوز كانت أمام باب الادارة . أما قصة (السم القاتل النفس القاص . فمضمونها يدور حول الخلافات التي تحدث في كثير من الاسر الجزائرية ، منها عدم قبول الزوجة العيش مع أم الزوج . فهذه القصة نموذج حي لتلك الاخلاق الفاسدة التي عشعشت في عقول بعض النساء الجاهلات . فبطل القصة شاب يعيش مع زوجته في منزل أمه التي نشأ يتغذى من أخلاقها النبيلة السامية . ولكن الزوجة تحاول ابعاده عن أمه ولما سمعت الام بالخبر ثارت ثائرتها على ابنها وزوجته ، وبعد خلاف ونزاع ، يغادر الابن منزل امه ليسكن مع زوجته في بيت مستقل . ولكن الام تصاب بمرض فتنقل على اثره الى المستشفى ، وبعد أن تجرى لها عملية جراحية وتنجح ، يأتي الابن لعيادة أمه حاملا معه دجاجة محمرة قامت باعدادها لها زوجته ، لكن الزوجة الماكرة وضعت السم داخل هذه الدجاجة ، وبما أن الطبيب منعها من أكل لحم الدجاج لانه عسير الهضم ترفض الام أكلها فيضطر الى ارجاعها الى البيت ، واثناء الطريق تخطر بباله فكرة هي أن يأخذ هذه الدجاج الى أم زوجته ، وهكذا تموت أم الزوجة بعد أكلها للدجاجة المسمومة . ان هذه القصة تمتاز بقدر كبير من الواقعية الاجتماعية ، فأحداثها ذات صلة وثيقة بالواقع الجزائري المعاش ، أما من حيث الشكل فالقاص وفق في توظيف لغته الفنية الناضجة التي نقلت القصة محبوكة لا تناقض ولاشرود .

بين الواقع والتقاليد

أما القاص خلاص جيلالي الذي أكد حضوره الفني في مجال القصة ، فهو الآخر حاول صياغة الواقع برؤية ابداعية جديدة ، لانه وعى التطور الحاصل في المجتمع بفضل الثورات الكبرى التي جاءت لتحرير الانسان اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ، فكان لهذه التحولات الكبيرة انعكاسات عميقة في قصصه . فمجموعة (أصداء) تتصل اتصالا وثيقا بالحياة اليومية وتصور حياة الشعب بما فيها من معاناة ومشقة . ومن بين قصصه الاجتماعية ، نختار قصة (الدوامة) التي تعالج قضية شاب جزائري ذهب في بعثة تعليمية الى فرنسا ومكث هناك أربع سنوات حصل في نهايتها على شهادة مهندس الكتروني ،وأثناء اقامته في ديار الغربة تعرف على فتاة باريسية من أسرة غنية ، أبوها صاحب شركة عظيمة قد عرض عليه وظيفة محترمة ولكن الشاب يقع في دوامة ولا يدري هل يوافق أم يرفض هذا المنصب . فيطلب سعيد (بطل القصة) من أب الفتاة أن يمهله وقتا للتفكير . فسعيد يجد نفسه في موقف حرج ، فهو ان قبل هذا المنصب فيكون قد تخلى عن وطنه والمساهمة في بناء اقتصاده . وبعد مايقضي ليله ساهرا ، انطلق في الصباح الباكر الى الشوارع وصعد سيارة أجرة ، وطلب من سائقها ان يتوجه الى مطار أورلي ليعود الى الجزائر .. اننا نلمس في هذه القصة دقة التصوير والتحليل النفسي للشخصية المحورية ، والتركيز على الشخصيات التي تفاعلت مع الاحداث تفاعلا ايجابيا .

ومجموعة الكاتب القاص عبد الحميد بن هدوقة ، هي الاخرى تجسد لنا واقع الانسان العربي المعاصر الذي يهدده الخطر ، ويتعرض لنفس المشاكل سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية ، وقد استطاع القاص أن ينقل لنا قطاع الحياة اليومية بلغة مرنة بسيطة سواء في السرد أو في الحوار . لان ابن هدوقة من الادباء الذين احتكوا بشكل مباشر بالحياة العامة في شتى المستويات ، وعاش بتجارب الناس المتنوعة وظروفهم المتباينة .

ونختم هنا بالاشارة الى بعض الكتاب الذين تناولوا في قصصهم الجانب الاجتماعي من حياة الشعب الجزائري ، ونذكر منهم القاص (أبو العيد دودوا ، ومجموعته «الطريق الفضي » ، ومحمد العالي عرعار صاحب المجموعة القصصية (الحالم) والتي تنقلنا الى أعماق المجتمع الجزائري مصورة العادات والتقاليد الجزائرية والتي تعتبر جزءا من الشخصية الجزائرية ، كما تهتم هذه القصص بمعالجة بعض الامراض الاجتماعية التي ورثها الشعب عن الاستعمار الفرنسي ،وما قبل البعد» للقاص الادرع الشريف ، وكل هذه القصص قد نزلت الى الحياة العامة المختلفة تصور واقعها بما تجد في هذا الواقع من غزارة وتنوع ، محاولة ابراز المشاكل الحياتية على جميع الاصعدة . ■■

الجزائر ـ مصطفى بلمشري

اللسان المرّ وعالم عبد الوهاب الأسواني

بقلم يوسف الشاروني

يشتمل هذا الكتاب (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١) على روايتين قصيرتين أولهما « اللسان المر » ، أما الأخرى فهي « ابتسامة غير مفهومة » . وسنقصر حديثنا على الرواية الاولى .

وما تزال البيئة الاسوانية شبه الريفية شبه الصحراوية حيث يضيق وادي النيل هي مسرح الاحداث الأثير عند عبد الوهاب الأسواني في روايته « اللسان المر » ، بينما بيئة القاهرة والاسكندرية هي مسرح الأحداث في روايته « ابتسامة غير مفهومة » ، وهذا التقابل بين بيئتي الروايتين كان قد جمع بينهما عبد الوهاب الأسواني في روايته الاولى « سلمى الأسوانية » (فازت بالجائزة الاولى لمسابقة الرواية بنادي القصة بالقاهرة عام ١٩٦٦ ونشرت عام ١٩٧٠) . والتقابل عنصر أساسي من عناصر البناء الروائي عند عبد الوهاب الأسواني كما سنرى .

تبدأ حركة القصة في « اللسان المر » من أولها سريعة ، ومن خلالها نتعرف ـ في الفصل الأول ـ على معظم الشخصيات الرئيسية .

نتعرف أولا على « شمروخ » ، وكرمه البالغ وشخصيته المتباهية وقلبه الطيب . رجل فشخار يحب الافتخار كما وصفه معوض بن عبد الغني الجوابري . فهو يرتدي على رأسه عمامتين من البفته ـ في هذه البيئة الحارة « الشمس قاسية رغم فصل الشتاء » (ص ٣٠) ـ كل عمامة تزيد على خمسة أمتار ، وثلاثة جلابيب صوفية . وهو يوزع هداياه على أهل النجع على أثر وصوله من السفر . وتكون بتول بنت محمد علي السوالمي من أوائل من يقابله . ورغم فارق السن بينهما الا أنه حين ضمها الى صدره أحس بنهديها المتمردين على صدره ، فسرت في جسده رعدة . أمسك بذقنها الناعم وقبلها في خدها ... نسي نفسه وطالت القبلة اكثر مما يجب . ولقد أنب شمروخ نفسه على تصرفه هذا مع بنت في سن أولاده . « تعصرها على صدرك ، تضايق خدها الناعم بشعر ذقنك النابت ، ثم تزعم أنك أصيل النسب ، وان جدك الاكبر كان من أصحاب رسول الله » (ص ٥) . وسيفسر هذا الموقف تصرفات شمروخ تجاه بتول فيما يلي ذلك من أحداث .

أما « بتول » فان المؤلف يعرفنا بها في هذا الفصل على انها فتاة تجمع بين الجمال والفقر . « استدارت لتخرج فتبعتها الانظار . شالها القطيفة الأحمر المتآكل الاطراف ينسدل على قامة سمهرية وساقين برونزيتين ممتلئتين ، وقدمين كبيرتين حافيتين . حينما توارت عن الانظار عادت الى الواقفين عقولهم . » (ص ٥) .

ثم نتعرف على « مغربية » التي أطلق عليها شمروخ « بنت كذاب القبيلة » ، كما وصفته هي بدورها بأنه « مر اللسان » . كما نتعرف على العمدة الذي يقبل بدوره ليأخذ نصيبه مما يوزعه شمروخ من هدايا . ثم الشيخ علام الذي يستخدم في حديثه لازمة فكهة حين يصف الرجل أو المرأة بأنه مطين أو مطينة .

أما عبد الغني الجوابري والد معوض فاننا نتعرف عليه في الفصل الثالث وهو يتصف بالبخل الشديد، ومن هنا تنبع كل تصرفاته وفي مقدمتها موافقته أو عدم موافقته على زواج ابنه معوض من بتول.

ومن الحديث الذي يدور بين الشيخ علام والعمدة يضع المؤلف أيدينا على القضية المحورية لروايتنا. فبتول من قبيلة السوالم يتقدم لها معوض بن عبد الغني من قبيلة الجوابر. «تكلم بشأنها مع أمها دون علم أهله» (ص ٩). ولكن أباه رفض لأنه بخيل يريد أن يزوجه ابنة عمه حتى لا يتزوجها غريب يشاركهم في ارضهم ونخلهم. بينما أرجع شمروخ هذا الرفض الى ان الجوابر يقولون ان نسب السوالم الذي تنتمي اليه بتول وشمروخ وعلام والعمدة نسب مشكوك فيه ولهذا يرفضون الزواج منهم. لهذا أقسم ثلاثا بالطلاق من نسائه الثلاث إن لم يتم هذا الزواج. وعندما حاول العمدة والشيخ علام ان يثنياه اتهمهما بالمداهنة واتهما يعتبرانه مجنونا يحلف بالطلاق من غير تفكير. فانصرف العمدة بينما اتهم الشيخ علام شمروخ بأنه يريد خراب البلد. «يا فقري الوجه، يا مر اللسان، يابن زينب المطينه». (ص ١٢).

وفي الفصل الثاني يقدم لنا المؤلف شخصيتي معوض وبتول. كما يقدم لنا تلك البيئة الأسوانية المتواضعه من خلال حركة الأحداث. لقد تعلم عبد الوهاب الاسواني ان الفن الروائي فن ماكر، لهذا توارى في الرواية الجانب التسجيلي ـ الا في حالات قليلة ـ وحرص على ان يجعله يتخلل العمل الفني فلا ينفصل عن الجانب الحركي. فقد كان الفصل بين الجانبين الحركي والتسجيلي أو الدرامي والوصفي أو التصويري والتقريري مما أخذ عليه في روايته سلمى الأسوانية. ففي هذا الفصل يطلعنا المؤلف ـ من خلال حركة معوض وبتول وما يدور بينهما من حوار ـ على جانب من طبيعة هذه البيئة الأسوانية. فنستحضر غابة النخل التي تلتقي فيها بتول بجرتها مع معوض بحماره، والصحراء على شاطىء والمصانع على الشاطىء الآخر. وما تنتجه الارض من محاصيل كالقمح والبلح والمانجو والترمس. ويضع ألفاظا متناثرة هنا وهناك مما يستخدم في البيئة كأنها البهارات تضفي لونا محليا على الحوار مثل: أريدك بمعنى أحبك، ومحقوق أي مخطي، والشطر أي الثدي، والقسم ببحر الله الطاهر. ونستمع الى اللهجة فاذا هي خليط من البدوية والصعيدية والسودانية. والروح القبلية التي تهيمن على النظام الاجتماعي. وتقاليد الجنازات، فعندما يموت رجل من السوالم ينزل الكل المناحة وتضرب الطبول عليه سبعة أيام.

وفي الفصل الثالث يقدم لنا المؤلف والدي معوض. أما في الفصل الرابع فيقدم لنا مولد الشيخ عامر. وينقسم هذا الفصل الى ثلاثة أقسام: القبائل النوبية تتوافد على المولد، ومن خلال متابعة تحركات معوض وبتول نعرف لمحة عن المولد وجذوره التاريخية. ثم يتسلل معوض من المولد وتسلل وراءه بتول الى منزل تلك المرأة الزنجية مفرطة البدانة «كهرمان» التي نجحت في ان تهيء لها جو الخطيئة فارتكباها، اذ قدمت لمعوض خمر العرقي، وشجعتهما على الانفراد باحدى حجرات المنزل التي أغلقا بابها، بينما كانت هي تتلصص عليهما باشتهاء يفضح دوافعها الكامنة التي تتلهف على رؤية وقوع الخطيئة، لأنها ـ فيما يبدو ـ محرومة من أية علاقة سويه في عالمها الخاص. وتعتبر كهرمان هي المقابل لشمروخ الذي يحاول الجمع بين الحبيبين شرعا وعلنا، وان كان بدافع شبيه بدافع كهرمان ولو أنه أكثر خفاء. وتعود اخيرا الى المولد لنجد أن العطش قد استبد بنساء السوالم، واستنجدن بشيخ العرب شمروخ. فأسرع ـ بما عرف عنه من شهامة وفشخرة معا ـ في جلب السقائين من على شاطىء النيل على بعد ساعتين من المولد. فتحرك موكب ضخم طويل أوله حمير وآخره جاموس، وشمروخ يركض بجواده في المقدمة والمؤخرة والوسط، «أنت أسرع.. وأنت أمسك القربه جيدا.. وأنت هل تريد مساعده؟ اسرعوا وليكن في علمكم عند دخول المولد كل واحد منكم يخرج من فمه صوتا «أر... أر... أر...» لحماره كي ينهق. سأعطيكم اشارة خاصة، عندما أريد للحمير أن تنهق. أريدها كلها ان تنهق دفعة واحدة، وفي لحظة واحدة مفاجئة. يجب ان يكون الموكب مثل يوم القيامة. لا بد ان يجعل أهالي القرى يتحدثون عنه سنة كاملة بعد عودتهم الى قراهم. فاهمين. أنا ادفع في القربة الواحدة ستة قروش». (ص ٣٦) وقد كان نجاح شمروخ في ارواء عطاشى المولد تمهيدا أو تنبؤا بنجاحه في تزويج معوض وبتول.

نقطة مقابل نقطة

ومن زاوية مقابلة يلتقط المؤلف الموقف مرة عن طريق بضعة سياح ببنطلوناتهم القصيرة وآلات تصويرهم معلقة في أعناقهم يحدقون في هذه الجموع البدائيه، والجموع في مقابل ذلك تشير اليهم وتقول «انظروا الى البلهاء». (ص ٣٠). ومرة عن طريق طالب جامعي يقول لزميله ذي السوالف

الطويله : تفرج على منظر أهالي النجوع البعيدة وقرى غرب النيل . لو جاء بعض الصحفيين الاجانب هنا لفضحونا في أوربا (ص ٣٩) .

وتستنجد أم بتول بشيخ العرب شمروخ بعد أن تروي له ما وقع بين ابنتها ومعوض ، فيضع خطته التي يبدأها ـ بمعاونة بعض الشبان المتحمسين ـ باختطاف معوض ، ثم يختطف محمد على السوالمي والد بتول في شوال ، ثم يرسل الدعوات طالبا تقوطه الحقيقيه فقد كتب في الدعوات أن « معوض » ابنه . ويتم العرس . وتحول نجع السوالم الى زحام يفوق زحام مولد الشيخ عامر لمشاهدة غوازي مدينة اسنا اللاتي أحضرهن شمروخ . وبعد العرس يذهب شمروخ لفك وثاق محمد على السوالمي فيجده قد مات ـ ربما كمدا ـ فتقبض عليه الشرطة ويخرج من قريته في طريقه الى السجن مرفوع الرأس . ان عبد الوهاب الاسواني حريص ألا يترك احدى الكفتين مرفوعة ، فبعد ان نفرح معه بشهامة شمروخ وبخاصة نجاحه في حل هذا المأزق ، ونحتفل معه بهذا العرس الباذخ ، نعود فتنقبض لتلك النهاية التي مات فيها والد العروس وقبض بسببها على شمروخ . ونلاحظ هنا انه اذا كان رفض زواج معوض من بتول يقوم على أسس قبليه ، فان فرض زواجها تم على الاساس القبلي نفسه .

ان عبد الوهاب الأسواني حريص على ان يقوم بناؤه الروائي على اساس نقطة مقابل نقطة كما عبر عن ذلك الاستاذ سامي خشبه في مناقشة اذاعية حول هذه الرواية . فهو يقدم أولا بيئته الأسوانيه بحب ورفض معا كما جاء على صفحة الغلاف الاخيرة للرواية . وهو يقدم الخلفية العامة لروايته كالبيئة الجغرافية أو الطبيعية والاجتماعية . في مقابل التركيز على لقطات محددة وجزئيات بعينها . هناك أيضا تقابل بين الشيوخ كالعمدة والشيخ علام ومحمد على السوالمي والد بتول وعبد الغني الجوابرى والد معوض الذين وقفوا يحولون دون زواج بتول من معوض أو على الاقل لم يتحمسوا له . وبين الشباب الذين عاونوا « شمروخ » في فرض هذا الزواج باختطاف معوض ووالد بتول ثم كتابة الدعوات واعداد حفل الزواج وانجاحه .

وتقابل آخر بين عالم الرجال وعالم النساء ، حيث ينفصل العالمان طبقا للتقاليد ولا ينفصلان طبقا لواقع الحياة . فالنساء والرجال يتقابلون في السوق وفي المولد وعلى القوارب والمراكب ، ومن الممكن للمرأة ان تدخل مجتمع الرجال وتحصل على هديتها كما فعلت بتول ، وأن تقول رأيها فيهم بل تشتمهم ، كما كانت تفعل جدة مصطفى في رواية « سلمى الأسوانية » ومنصورة زوجة الشيخ درويش في رواية « وهبت العاصفة » (١٩٧١) . يمكن أن يحدث هذا اللقاء الشكلي ، بينما هناك انفصال نفسي بين العالمين .

وهناك التقابل بين كهرمان وشمروخ ، كل يريد ان يجمع بين معوض وبتول . كهرمان تدفعها دوافع شهويه أوضح وأعنف ونجحت في ان تجمع بينهما في الخطيئة وفي سرية . وشمروخ تدفعه دوافع جنسية أكثر خفاء ، ونجح في ان يجمع بينهما علنا وشرعا .

ثم نصل الى تلك النهاية ذات الطرفين المتقابلين : نهاية سعيدة بالنسبة لمعوض وبتول ، ونهاية مفجعة بالنسبة لوالد بتول وشمروخ . فننتقل من زغاريد العرس الى ولولات الموت ووحشه السجن ، من ماض عرفناه الى مستقبل مجهول المصير . هناك أخيرا ذلك التقابل بين قبيلتي السوالم الكثيرة العدد ، الفقيرة الكثيرة المشاغبة . وقبيلة الجوابر القليلة العدد الدمثة التي تتمتع بمستوى معيشي أفضل .

والواقع ان محورا رئيسيا من محاور البناء الروائي عند عبد الوهاب الأسواني هو هذا التقابل القبلي . نجده في رواية سلمى الاسوانيه بين قبيلتي البراطيم الكثيرة العدد والمساعيد قبيلة مصطفى راوي القصة الأقل عددا والأكثر شجاعة ، وتصل الخلافات بين القبيلتين الى حافة المعركة دون نشوب المعركة ذاتها . كذلك في روايته « وهبت العاصفة » بين أهل السبيل الكثيري العدد وأهل الشرقيه الأقل عددا والأكثر شجاعة . واذا كان التقابل القبلي يمثل رافدا جانبيا في « سلمى الاسوانيه » ليحل محله تقابل أشمل بين المجتمع الحضري متمثلا في الاسكندرية والمجتمع شبه البدوي المتمثل في النجع بجزيرة المنصورية بمديرية أسوان ، فان التقابل القبلي في رواية « وهبت العاصفه » هو محور الرواية الرئيسي وأساس الصراع الدرامي من أولها الى آخرها ، ويصل الصراع بين المجموعتين الى حافة الحرب أيضا دون وقوعها ، وتتكشف حدة الصراع حين تتوقف على نهايته مصير العلاقة العاطفية بين حسين من أهل الشرقيه وبدويه من أهل السبيل . أما الخلاف القبلي في « اللسان المر » بين السوالم والجوابر فلم يرتفع الى حد التأهب للحرب ، لكنه كائن ومعترف به بحيث أصبح اساسا من أسس الحياة اليوميه . وليست علاقة معوض ببتول الا ادانة لهذا الخلاف ، وليس ما ارتكباه من علاقة غير مشروعه الا تصعيدا لهذه الادانة . ■■

يوسف الشاروني

من بلجراد

رحلة الأدب العربي في يوغوسلافيا

بقلم الدكتور محمد موفاكو

للأدب العربي في يوغسلافيا رحلة جديرة بالرصد والملاحظة

ومع أن يوغسلافيا كدولة هي كيان حديث ، اذ انها تشكلت في اواخر ١٩١٨ ، الا ان الأدب العربي له تقاليد عريقة في هذه المناطق التي تتشكل منها حاليا يوغسلافيا . ويعود هذا طبعا الى لقاء وتعايش شعوب هذه المناطق بالعرب في اطار امبراطورية جديدة ، الامبراطورية العثمانية ، والى انتشار الاسلام بين شعوب البلقان ، وبشكل خاص لدى الالبانيين والبوسنويين . وكان من

نتيجة هذا ان اصبحت اللغة العربية لغة اساسية لدى مسلمي المناطق الحالية في يوغسلافيا . وقد نبغ في هذه اللغة عدد كبير من الشعراء والكتاب ، حين قام بعضهم بأول ترجمات للادب العربي الى لغاتهم القومية ، على حين نبغ قسم آخر في الكتابة بهذه اللغة . وعلى هذا ، لدينا في هذه الفترة التي استمرت لعدة قرون ، شكلان لتواجد الادب العربي ـ الشكل الاول ما ترجم من هذا الادب الى

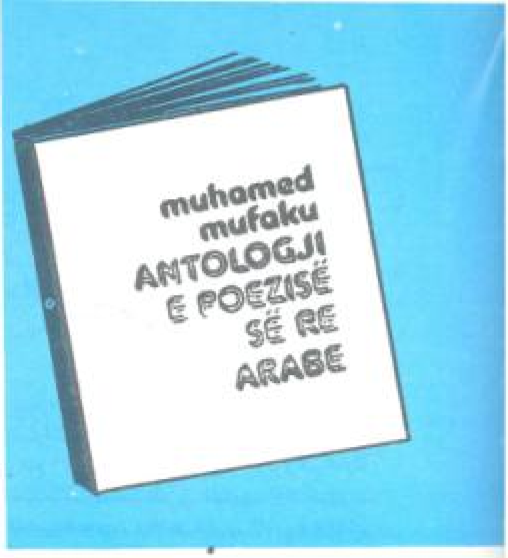
اللغات القومية ، اما الشكل الثاني فيمكن اعتباره كامتداد للادب العربي حيث انه كتب اصلا باللغة العربية . ونحن نعتقد انه ليس هناك ما يمنع من ادراج هذا الأدب في اطار الادب العربي ، مع ان كتابه ليسوا من العرب ومع انه كتب في البلقان ، اذ انه يماثل ذلك الادب الذي كتب في الاندلس والذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من الأدب العربي .

وللاسف فان هذا الادب العربي في البلقان لم يعط حقه من الاهتمام حتى الان ، اذ انه لدينا اكثر من ٢٠٠ اسم نبغوا وكتبوا في اللغة العربية . وفي هذا الاتجاه ينبغي ان نشيد بما قام به محمد البوسنوي المعروف بالخانجي ، الذي نشر في القاهرة سنة ١٣٤٩ هجرية كتابه «الجوهر الاسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة» ، الذي احتوى على الكثير من الشعراء البوسنويين الذين كتبوا بالعربية .

ذكرنا ان يوغسلافيا كدولة تشكلت لاول مرة في اواخر ١٩١٨ وتلاشت خلال الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد في عام ١٩٤١ ، ثم عادت لتتشكل في هذه الحدود الحالية في عام ١٩٤٥ . وهذه المعطيات مهمة ، في الحقيقة ، لأنها ستفيدنا في تتبع الادب العربي في هذه المناطق . وعلى هذا ، فمن الأفضل ان نعالج موضوع الادب العربي في يوغسلافيا على مرحلتين ، في يوغسلافيا القديمة ، ومن ثم في يوغسلافيا الحديثة .

مع تشكل يوغسلافيا كدولة ، في اواخر ١٩١٨ ، دخلت في حدودها تلك المناطق التي كانت غنية بالتقاليد الثقافية الاسلامية بتواجدها في اطار الامبراطورية العثمانية ، كالبوسنة وكوسوفا واجزاء من مكدونيا والجبل الاسود ، حيث برز فيها ايضا ذلك الادب العربي المكتوب بالعربية .

● مادة المقال القيت في محاضرة للكاتب بالكويت في يناير ١٩٨٢ .



ومع هذا الشكل الجديد للدولة بقي فيها ذلك الجيل الذي كان يكتب سابقا باللغة العربية . ومن هذا الجيل ، هاجر قسم الى تركيا في العشرينيات والثلاثينيات ، على حين بقي قسم آخر حتى وفاته في يوغسلافيا . وقد استمر هذا الادب العربي المكتوب بالعربية في يوغسلافيا القديمة باستمرار هذا الجيل على قيد الحياة ، خلال العشرينيات والثلاثينيات ، حتى تلاشى هذا الادب فيما بعد . وكنا قد اشرنا الى عينة من هذا الادب ، في دراسة مشتركة لنا مع الدكتور نعمت الله حافظ ، نشرت في « العربي» وتناولت احد ابرز الشعراء في تلك الفترة ، الا وهو الحاج عمر لطفي بشاريزي ، الذي توفي في سنة ١٩٢٩ .

وقد جاء انقراض هذا الادب لعدة اسباب ، وربما يأتي على رأسها ذلك الاضطهاد الذي مورس على حريات المسلمين في يوغسلافيا القديمة . حيث حرموا من الحقوق الثقافية الطبيعية ولذلك فلا يمكن ان نتوقع مع وصول نسبة الامية الى ٩٠٪ في مناطق المسلمين ، تواجد ادب ما .

بداية الأدب المترجم

أما فيما يتعلق بالادب العربي المترجم في يوغسلافيا القديمة ، فقد ارتبط هذا بتأسيس اول فرع للاستشراق في بلغراد ، في سنة ١٩٢٥ ، بفضل المستشرق فهيم بايراكتاروفيتش Fehim Bajrektarovic (١٨٨٩ - ١٩٧٠) ، الذي يعتبر من افضل المستشرقين اليوغسلاف على الاطلاق . ولكن مع هذا ، فقد انصب اهتمام اساتذة الفرع على الدراسات اكثر مما على الترجمات . ولذلك لا نجد في فترة يوغسلافيا القديمة ، التي امتدت حوالي عشرين عاما ، اية ترجمة لكتاب ما من الادب العربي ، بل اقتصرت الترجمة على بعض القصائد التي نشرت في بعض المجلات المتفرقة ، بحيث يمكن القول ان الادب العربي كان في حكم الغائب في اذهان اليوغسلافيين في تلك الفترة .

واذا انتقلنا لفترة الحرب العالمية الثانية ، وهي الفترة التي تلاشت فيها يوغسلافيا كدولة ، لا نجد شيئا يستحق التوقف عنده فيما يتعلق بالادب العربي . وهذا يبدو طبيعيا لان اهتمامات الناس كانت منصبة على المشاكل الحياتية والامور السياسية بالدرجة الاولى .

ومع انتهاء هذه الحرب عادت يوغسلافيا للظهور ثانية كدولة بهذه الحدود التي نراها اليوم . ومع ان يوغسلافيا الحديثة تختلف جذريا عن يوغسلافيا القديمة ، فيما يتعلق بسياستها الداخلية ازاء حقوق المسلمين فيها وبسياستها الخارجية المتعاطفة مع العرب نجد لدينا مرحلتين مختلفتين اثرتا ايضا في الاهتمام بالادب العربي . ففي المرحلة الاولى ، التي استمرت حوالي عشرين سنة ١٩٤٨ - ١٩٦٦ ، سادت في يوغسلافيا سياسة « القبضة القوية » ، التي مارست انواعا من الضغط على المسلمين في يوغسلافيا لحملهم على الهجرة الى الخارج . وعلى هذا فقد كان نشاط المسلمين فيها ، الذين يرتبط بهم اساسا الاهتمام بالادب العربي ، محصورا وضيقا للغاية . ولكن ، ضمن هذه الفترة ، مع بداية ونمو العلاقة الحميمة التي ربطت بين الرئيسين تيتو وناصر ، شهدت يوغسلافيا بعض الانفراج في الداخل والكثير من الانفتاح في الخارج على العرب والعالم العربي .

في بداية هذه الفترة لدينا بداية جديدة في مركز البوسنة ، في سراييفو ، حيث اسس في عام ١٩٥٠ فرع جديد للاستشراق ، كما تأسس في نفس السنة معهد للاستشراق في ذات المدينة ، ولهذين المركزين اهمية كبيرة فيما يتعلق بالادب العربي لاحقا . فمن هذين المركزين تخرجت بعض الكوادر النشطة التي ستهتم بالادب العربي وبالتعريف به عن طريق الترجمات . وفي منتصف الخمسينيات لدينا اول ترجمة جدية ، الا وهي ترجمة الاستاذ بسيم كوركوت Besim Korkut المبسطة لحكايات من « الف ليلة وليلة » ، التي ترجمها في كراسات متلاحقة خلال سنوات ١٩٥٣ - ١٩٥٥ ، وفيما بعد ، مع حرب السويس والثورة الجزائرية ، اشتد اهتمام اليوغسلاف بالعالم العربي ، الشيء الذي انعكس ايضا على الاهتمام بالادب العربي .

« هجمة » على الادب العربي

وخلال هذه الفترة ، وخاصة في اواخر الخمسينيات نرى « هجمة » على الادب العربي ، حيث نشرت مئات

الترجمات ، في مختلف اللغات في يوغسلافيا . فبالاضافة الى الاهتمام الكبير بالادب الشعبي العربي ، حيث نشرت مئات الحكايات الشعبية من مصر والسودان والجزائر وسوريا وحتى من العربية السعودية ، نجد ان الاهتمام بالادب العربي كان شاملا ، فقد نشرت خلال هذه الفترة ترجمات لبعض الشعراء الجاهليين ، ومن ثم اللاحقين لهم ، كما نشرت ترجمات كثيرة من الادب العربي الحديث ، وشملت هذه الترجمات الاخيرة الشعر العربي الحديث من عصر النهضة (احمد شوقي) الى الشعر المعاصر (بلند الحيدري وشوقي بغدادي الخ) ومرورا بالشعر المهجري (جبران ، ابو ماضي الخ) . وبالاضافة للشعر انصب اهتمام المترجمين على القصة ، وخاصة القصة المصرية (تيمور والشرقاوي) والجزائرية (ديب وحداد) . وربما يبدو هذا طبيعيا بسبب العلاقات الخاصة التي ربطت حينذاك بين يوغسلافيا من ناحية ومصر والجزائر من ناحية اخرى . ويتضح هنا ان ميزة هذه المرحلة هي تبعثر الترجمات في مختلف الصحف والمجلات اليوغسلافية من الشمال الى الجنوب وبالتالي عدم وجود ترجمات ذات نفس اطول في كتب خاصة . و ولدينا هنا استثناء وحيد تمثل في صدور مجموعة شعرية للشاعر عبد الوهاب البياتي بعنوان « قصائد في المنفى » **pesme v iZgnanstvu** ، التي صدرت في مدينة صغيرة كروشفيتس **Krusevac** ، عام ١٩٦٥ .

في الستينات بقي الاهتمام يتزايد بالادب العربي ليشمل مزيدا من الشعراء والكتاب الجدد ومن مختلف عصور الادب العربي . الا ان الجديد حقا في هذه الفترة هو تخلص مسلمي الجنوب من الالبانيين من العزلة والضغوط التي كانت مفروضة عليهم في عام ١٩٦٦ ، ومنحهم كيانا اصبح يعبر اكثر بكثير عن ذاتهم . وعلى هذا نرى ان الجنوب اليوغسلافي وبالتحديد اقليم كوسوفا وعاصمته بريشتنا سيصبح فورا منافسا قويا للشمال في الاهتمام والتعريف بالادب العربي . وفي هذا الاطار فقد صدر اول كتاب مترجم من النثر العربي الحديث في الجنوب وليس في الشمال . فقد نشر في بريشتنا عام ١٩٦٨ مجموعة قصصية لمحمد تيمور بعنوان « الحاج شلبي وقصص اخرى » **Haxhi Qelebi dhe tregime tjera** ، تلك التي اعدها وترجمها المستشرق اليوغسلافي المعروف حسن كلشي (ت ١٩٧٦) .

وبالمقارنة مع ما سبق تتميز السبعينات بانها قمة بالنسبة للاهتمام والتعريف بالادب العربي في يوغسلافيا . ففي بداية هذه الفترة (١٩٧٣) افتتح في مدينة بريشتنا فرع ثالث للاستشراق بفضل المرحوم حسن كلشي . وسيكون لهذا الفرع لاحقا دور هام في تركيز الاهتمام بالادب العربي في الجنوب . وتتميز اساسا هذه المرحلة بكونها مرحلة الكتب ، وليست مرحلة الترجمات المبعثرة كما في السابق . وهذا يدل طبعا على تضج في تفهم وتذوق الادب العربي قبل التعريف به .

اهم الكتب والترجمات

وسنتعرض فيما يلي الى اهم الكتب التي صدرت خلال هذه السنوات وذلك حسب تاريخ صدورها .

في عام ١٩٧١ صدرت في سراييفو اول واهم محاولة جديدة للتعريف بالشعر العربي القديم . وقد صدرت هذه المجموعة بعنوان « الشعر العربي القديم » **Stara arapska pocZija** ، وباعداد وترجمة المستشرق المعروف سليمان غروز دونيتش **Sulejman GroZ-donic** ، وهذه المجموعة تعوض عما فات بتقديمها تعريفا ممتازا للشعر الجاهلي . وقد تصدرت هذه المجموعة دراسة مهمة وطويلة للمستشرق غروز دونيتش ، تعتبر من اهم ما كتب حول هذا الموضوع .

وبعد هذا نرى مزيدا من التخصص بالاهتمام وبالتعريف بالادب العربي . وفي هذا الاتجاه صدرت في سراييفو ايضا مجموعة شعرية لعبد الوهاب البياتي بعنوان « رسائل حب للمرأة » . وقد اعدها وترجمها ايضا المستشرق غروز دونيتش ، الذي كتب عن هذا الشاعر دراسة تفصيلية .

وتتميز سنة ١٩٧٧ بكونها قدمت لنا ثلاثة كتب جديدة صدرت من ثلاثة مراكز .

ففي الجنوب في مدينة بريشتنا صدر في هذه السنة كتاب لفت النظر اليه الا وهو « نار على الرابية » **Zjarr ni breg** ، الذي قام باختيار اشعاره الشاعر المعروف علي بودريميا **Ali Podrimja** ، ومع ان هذا الكتاب يعبر عن طموح كبير لتغطية التجربة الشعرية في بلدان عدم الانحياز ، نجد ان للشعر العربي فيه حصة الاسد . ففي هذا الكتاب اشعار جيلة لاحد عشر شاعرا عربيا من اولئك اللذين يترجم لهم عادة (البياتي ، محمد ديب ، درويش وغيرهم) . والجديد حقا في هذا الكتاب هو وجود شاعر كويتي لاول مرة في كتاب يصدر في يوغسلافيا ، الا وهو الشاعر الاستاذ خالد سعود الزيد .

وفي نفس السنة صدرت في بلغراد مجموعة شعرية بعنوان « الشعر العربي » **Arapska pocZija** وعلى الرغم من صغر حجمها (١٢٧ صفحة من الحجم الصغير) ، فقد تضمنت هذه المجموعة اشعارا مختلفة منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحالي . وقد طبعت هذه

المجموعة في تيراج مرتفع بالمفهوم اليوغسلافي فقد نشرت في ٢٠ الف نسخة .

اما الكتاب الثالث ، الذي صدر في هذه السنة فهو مجموعة مختارة من قصص الكاتب المصري يوسف ادريس . وقد صدرت هذه المجموعة في سرايفو بعنوان « شيخ بابا **Sejh Baba** » وقام بترجمتها عدد من المستشرقين .

وفي عام ١٩٧٨ لدينا اسهام جديد وجدي تمثل في ترجمة اول رواية من الادب العربي الحديث ، الا وهي رواية (الايام) **Dani** ، للكاتب المعروف طه حسين .

وفي نفس العام صدرت اول مجموعة تحاول التعريف بالشعر الفلسطيني وقد قام باختيار هذه المجموعة وترجمتها الناقد الالباني لوان ستاروفا **Luan Starova** . وميزة هذه المجموعة بكونها قد ترجمت ، بعكس ما سبقها عن اللغة الفرنسية . وقد تضمنت هذه المجموعة سبعا وعشرين قصيدة طويلة وقصيرة (ثمانية عشر شاعرا من مختلف الاجيال والاتجاهات ، من هارون هاشم رشيد الى سعيد الزرقا ، ومرورا بسلمى الجيوسي وتوفيق زياد ومعين بسيسو وفدوى طوقان وسالم جبران وسميح القاسم ومحمود درويش .

وقد جاء هذا الديوان الذي صدر في اقصى جنوب يوغسلافيا في مدينة ستروغا ، الحدودية ، ليعكس الاهتمام المتزايد في يوغسلافيا بالفلسطينيين وادبهم . وفي عام ١٩٧٩ لدينا كتابان جديدان ، لكل منهما قيمة خاصة .

ففي هذه السنة صدر في الجنوب ، في مدينة بريشتنا ، انتولوجيا الشعر العربي الحديث ، من اختيارات وترجمة محمد موفاكو . وهو يعد اول محاولة موسعة في يوغسلافيا لرصد وتعريف الشعر العربي الحديث ، الذي انتشر بعد الحرب العالمية الثانية .

وفي السنة ذاتها صدرت في مدينة صغيرة ، كروشفيتس **Krusevac** ، مجموعة اخرى من الشعر الفلسطيني المعاصر من اختيار المستشرقين راده بوجوفيتش واسعد دوراكوفيتش وتتميز هذه المجموعة عن السابقة ، التي اعدها لوان ستاروفا ، بكونها قد ترجمت عن العربية مباشرة .

في اتجاه التخصص

وفي عام ١٩٨٠ نجد عودة للاهتمام بالشعر العربي . وقد تمثل هذا بصدور تقديم جديد للشعر العربي في جزءين ، تناول الجزء الاول منها شعر المشرق العربي **Savremena arapska poeZija Istoka** ، والثاني شعر المغرب العربي **Savre mena arapska poeZija Wapada** وقد قام باختيار قصائد هذين الجزءين المستشرق راده بوجوفيتش ، الذي مر ذكره ، على حين قام بالترجمة هو وعدد من المستشرقين .

في السنة الماضية لدينا اخر كتاب ، الا وهو : قصص سورية ١٩٣١ ـ ١٩٨١ ، التي صدرت في الجنوب ، في بريشتنا ، من اختيارات وترجمة محمد موفاكو . وهو يمضي في اتجاه مزيد من التخصص في تعريف الادب العربي اذ يتضمن ثلاثا وعشرين قصة لسبعة عشر كاتبا من سوريا .

السنة الحالية قد تكون قياسية ، اذ يتوقع ان يصدر خلالها ثلاثة كتب على الاقل من الادب العربي ، واحدمنها يتناول الشعر السوري الحديث ، والثاني الشعر الكويتي والثالث عن القصة العربية .

وفي الواقع ، وعلى الرغم من السياسة الخارجية المتعاطفة مع العرب التي تنتهجها يوغسلافيا ، نجد ان الداخل او الرأي العام لم يتشكل ولا يتشكل بشكل مواز مع هذه السياسة . وفي القطاع الثقافي والاعلامي خاصة نجد بعض الظواهر التي تعبر عن فهم مغلوط للامور التي تتعلق بالثقافة العربية او بالعرب عامة . ومن المثير ان نذكر هنا ان الصديق المستشرق راده بوجوفيتش قد كتب مرة تقريرا مفصلا ، بيادرته الذاتية ، وارسله الى وزارة الاعلام والاتحاد الاشتراكي للشعب العامل حول بعض الامور غير الطبيعية ، التي تبث تأثيرا سلبيا حول الثقافة العربية والعرب . وقد استثارت هذه الظاهرة ـ قلة ما يترجم من كتب من الادب العربي ـ الناقد المعروف لويس عوض خلال زيارة له الى يوغسلافيا . وعلى اعتبار ان العرب يبحثون عن اليهود وراء كل عمل ، فقد وجد الناقد عوض ضالته في وزير الثقافة اوتو دينش الذي كان يهوديا .

الا ان هذا ، في الحقيقة ، تبسيط كبير للموضوع ، الذي يحتاج الى تحليل اوسع بكثير . فلاشك ان لعقدة الغرب ، التي نجدها خاصة في الشمال الدور الاكبر في هذا ، على حين نجد في الوسط اليوغسلافي تأثير ذلك التداخل بين تركي ـ عربي ، الشيء الذي كان قد ترك موقفا ما حتى تجاه العرب . مع هذا وذاك ، ان فترة السبعينات هذه ـ التي مثلت قمة في التعريف بالادب العربي في يوغسلافيا ، تبشر باهتمام اوسع وتعريف افضل للادب العربي في المستقبل ، الشيء الذي سيؤدي بالتأكيد الى تقارب كبير بين شعوب يوغسلافيا والعرب . ■■

محمد موفاكو

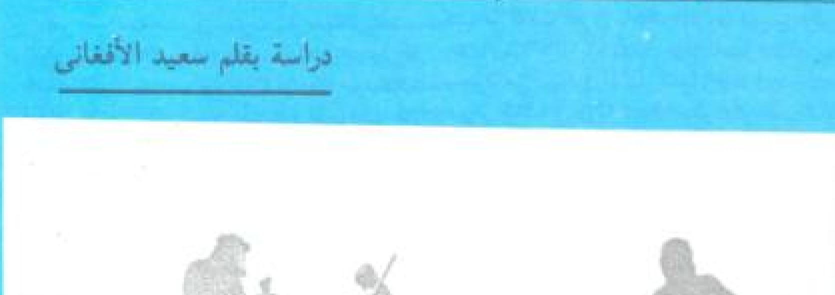


قصة الخط الحديدى الحجازى لم تتم فصولاً..

لجان ودراسات وقرارات حتى مارس ١٩٨١ عادت بالوضع إلى ما كان عليه فى عام ١٩٤٧

الباحثون الغربيون يخفون أن إنجلترا وفرنسا - وليس العرب - هم الذين خربوا الخط وأوقفوه

دراسة بقلم سعيد الأفغانى



نشرت مجلة العربى فى العدد ٢٧٦ (نوفمبر ١٩٨١) خلاصة انتقائية لكتاب باللغة الانجليزية ألفه د . وليم أوكسنوالد OCHSENWAID ، قدمها الاستاذ سليمان موسى بعنوان (سكة حديد الحجاز : القصة والمغامرة .. والنهاية) ، أشار فى ختامها الى استئناف الخط سيره بعد الحرب العالمية فى أعوام (١٩١٩ - ١٩٢٤) ،والى أن « الأحداث السياسية فى « بلاد العرب أدت الى توقف العمل على الخط بين معان والمدينة المنورة وهو يشير - فيما قدرت - الى حرب السعوديين لملك الحجاز الشريف الحسين بن على واستيلائهم على ملكه الذى كان الخط الحجازى فيه ، والى وقوع شمالى الشام قبل ذلك فى قبضة الاحتلال الفرنسى ، ووقوع جنوبيه فى قبضة الانجليز .

وما أعرض له هنا قاصر على ماحدث بعد ذلك من مساع بذلت لاعادة الخط ، وخطوات تحققت ثم تعثرت .. حتى اذار (مارس) سنة ١٩٨١ .

لاشك فى أن « خط سكة حديد الحجاز كان أهم منشآت الدولة العثمانية وأضخمها على الاطلاق او « ان تكاليف انشائه أقل بكثير من تكاليف خطوط السكة التى أنشأتها الشركات الأجنبية فى الدولة العثمانية » . وهذا يشير الى ما كانت - ومازالت - تبتزه الشركات الأجنبية من أموال الشعوب الضعيفة بشهادة هذا المؤلف الأجنبى ، كما يفسر تسرب ثروات الشعوب بالجملة الى الحكومات الاستعمارية وشركاتها وأفرادها ،وويل لمن يقع فى اشراكها من الافلاس المادى والمعنوى .

لم تكن العراقيل التى بثتها انجلترا وفرنسا فى طريق هذا الخط بالأمر الهين ، أما فرنسا التى كانت تملك امتياز خط دمشق - بيروت)وخط (دمشق - المزيريب) فـ (كانت تتقاضى على نقل القضبان الحديدية وغيرها من حاجات الخط (أجوراعالية وهذا وحده هو الذى اضطر الدولة العثمانية الى انشاء خط فرعى بين (حيفا ودرعا) لتتفادى الأجور الفاحشة التى فرضتها الشركة الفرنسية . ولما اضطرت الدولة الى الاستدانة من (بورصة باريس) تشدد الفرنسيون فى شروطهم التى كانت من جملتها « أن يتولى أحد الفرنسيين ادارة خط سكة حديد الحجاز لمدة عشر سنوات .. واذا أرادت الدولة العثمانية أن تؤجر خط السكة من دمشق الى معان فينبغى أن يكون التأجير لخطوط السكة التى تملكها الشركات الفرنسية » . ولو تم هذا لكان كفيلا بالاجهاز على المشروع ، لكن الله سلم ، فقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وتوقفت الاتفاقية بطبيعة الحال .

هذا ما كان من فرنسا وشركاتها ، أما انجلترا فكانت تراقب .. حتى اذا وجد مهندسو الدولة العثمانية فى دراساتهم أن موقع «طابة » على البحر الاحر افضل من موقع العقبة لضيق رقعة البحر على رأس الخليج ..ووصلت قوة عسكرية الى « طابة «لاحت الفرصة لمترقبيها فتحرك الانجليز » وأعلنوا أن طابة جزء من سيناء ، وأن سيناء تابعة لمصر الواقعة تحت حكمهم الفعلى ، ثم وجهوا انذارا الى السلطان ، فاضطرت الدولة الى الاذعان وسحبت جنودها من طابة » .

المعجزة ودور انجلترا

أراد الله أن يتم هذا المشروع بمعجزة ، فتم سنة ١٩٠٨ ، واتصلت دمشق بالمدينة المنورة ، وأراح الله الحجاج من الأقطار الاسلامية : الهند والأفغان وايران والاناضول ومسلمى روسيا والبلقان والمغرب عناء اجتياز الصحراء بين دمشق والمدينة . وأثبت الزمن أن مناوشة انجلترا وفرنسا لهذا المشروع كان عن وعى وحساب دقيق للفوائد التى تعود منه على الدولة وعلى الاقطار العربية ، اذ كانت كل منها تتحفز للانقضاض على ما تقدر عليه من بلاد العرب : فرنسا تطمع فى شمالى الشام (سورية ولبنان واسكندرون اليوم) ، وانجلترا تريد ابتلاع جنوبى الشام (فلسطين والأردن اليوم) والعراق . ومهد لذلك الانقلاب فى استانبول ، الذى كان فى حقيقته نجاحا لدسائس الدول الأجنبية ، فخلع صاحب المشروع السلطان عبد الحميد ، واستولى على الحكم فى المملكة العثمانية حزب الاتحاد والترقى ربيب المحافل الماسونية والسفارات الأجنبية بزعامة (الدونمة) يهود سلانيك المتظاهرين بالاسلام ، فكانت تصرفات هذا الحزب (متفجرة) بعثرت المملكة العثمانية ، فلم تر بلادها خيرا بعد ذلك حتى اليوم .

كان حساب انجلترا وفرنسا بالغ الدقة فى (تعجيز) الدولة العثمانية دون انجاز خط الحجاز ، وظهر ذلك عيانا ملموسا بعد سنين ، حين نشبت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ وتراجعت الجيوش التركية أمام الحملات البريطانية ، وكان الخط صاحب الفضل الاول فى (ثبات) القوات العثمانية فى جنوبى فلسطين نحو عامين فى وجه قوات بريطانية متفوقة ، وهكذا أيضا « استطاعت حامية المدينة المنورة أن تستمر فى المقاومة نحو ثلاث سنوات ، ولم تستسلم الا بعد انتهاء الحرب بشهرين ، آخر سنة ١٩١٨ ، وكان ذلك بفضل سكة الحديد . »

أما الذى لا يصرح به المؤلفون الأجانب ، فهو أن انجلترا كانت وراء تخريب الخط وأمامه ، وكان مسئولوهم ولا سيما (لورانس) لا يألون جهدا فى تحريض البدو ، واغرائهم بالذهب الانجليزى المتوهج على تدمير الجسور ونزع القضبان الحديدية ونسف القطارات بكل ما أوتوا من قوة حتى بعد تراجع الأتراك وانقطاع الأمل البتة من استقلالهم منه وبعد حلول الاحتلال البريطانى فى بلاد العرب . وليس صحيحا قول المؤلف : « اعتبر العرب خط السكة هدفا عسكريا فى الدرجة الأولى من الأهمية ، فأخذوا يشنون الغارة عليه ، ويعملون على نزع قضبانه وتدمير جسوره ومحطاته وتخريبه ونسف القطارات التى تسير عليه . » كل هذا يصح اذا استبدل المؤلف كلمة (بريطانيا) الفاعلة الحقيقية بكلمة (العرب) التى وضعت خطأ وزورا ، فالذى اعتبر الخط هدفا عسكريا فى الدرجة الأولى (الانجليز) لا العرب اذ لم يكن للعرب يومئذ أثر ما ،لا فى قياداتهم ولا فى أى من أهدافهم وأسرارهم الحربية .ان الضباط البريطانيين هم المتصرفون وحدهم فيا حصل حينئذ فى هذه البقعة من الأرض العربية (دمشق ـ المدينة) كتصرفهم المطلق فى مصر وعدن .

انقشعت الحرب العامة عن قيام حكم عربى مستقل فى سورية ، ومثل الأقطار الشامية مندوبون من كل بلد فيه ، تألف منهم المؤتمر السورى الفلسطينى الذى أعلن مبايعة فيصل بن الحسين ملكا على سورية ، وقامت امارة فى شرقى الأردن عليها الأمير عبدالله بن الحسين . وانصرف أولو الأمر فى كل ناحية الى تأسيس الدولة واقامة المؤسسات الضرورية للحكم من جيش ومجالس ووزارات وادارات وسائر ما يقتضيه الحكم المستقل من أجهزة وأعباء ، على حين مضت انجلترا وفرنسا فى مفاوضات سرية كيف تقتسمان بلاد حلفائها العرب وكأنها غنائم حرب ؟ ولم يمض على فرحة العرب شمالى الشام (سورية ولبنان واسكندرون) باستقلالهم سنة واحدة حتى انجلت المفاوضات السرية عن التهام الانجليز فلسطين والأردن والعراق ، وانقضاض فرنسا على شمالى الشام . وكان الخط الحجازى قد أصلحت أجزاؤه فى عهد الاستقلال هذا ، واتصلت الشام بالمدينة كسابق عهدها قبل الحرب ، فلما تم تنفيذ المخطط البريطانى فى هذه البقاع سنة ١٩٢٤ تعطل الخط وتوقف كل شىء .

كان لابد من هذا التعقيب على (التعتيم) الذى يلف به المؤلفون الأجانب الجرائم الهدامة ، التى عمت بها حضاراتهم الاستعمارية حلفاءهم العرب السذج فى الحرب العالمية الأولى ، قبل الشروع فى بيان المساعى التى بذلت حتى اليوم لاعادة تسيير الخط الحجازى .

الشعب يتبنى المشروع

وقع تعطيل الخط نكبة على اقتصاد سورية

وفلسطين والأردن ،فقد كان نشاطه طول العام يعود بالخير والنماء على التجارة والصناعة ،أضافة الى ما يخلفه موسم الحج من ثراء على هذه المناطق التى يؤمها حجاج الشرق الاسلامى وشمالها وغربيه أحيانا ، يقطنون فيها شهرا فى المعدل يبيعون فيه ما حملوا من بلادهم من بسط ومنسوجات وتحف ، ويتزودون منها ما يحتاجون اليه فى سفرهم الى الحجاز ، وعند عودتهم منه الى بلادهم ، فتنشط فى الموسم صناعات محلية كثيرة أهمها المنسوجات الشامية والتحف الصوفية من القدس ...

هذا التدهور الاقتصادى وتعطل الأعمال نالا جميع أفراد الشعب بالضيق ، حتى الحج نفسه قل الاقبال عليه لأنه لم يبق من وسيلة اليه الا طريق البحر على البواخر الأجنبية حينئذ ، وأنا أعفى القارىء من سرد ما قاساه الحجاج من الاهمال فيها والاحتقار وسوء المعاملة بعد الأجور الفاحشة التى تقاضتها البواخر منهم ، مما يبقى حديث الحجاج فى الأسمار من العام الى العام . والشرع لأقل من هذا قد أسقط الفرض على المسلم رفعا للحرج ، لكن أهل العلم يكتمون عن العامة بيان ذلك والله سائلهم عما كتموه من العلم ولهذا حديث آخر .

من أجل ذلك تألفت جمعيات ولجان ووفود تطالب الحكومات بالسعى لاعادة تسيير الخط رحمة بالبشر ، وانقاذا للركود الاقتصادى الذى تأثر به كل مواطن ، مسلما أو غير مسلم ، لكن السلطتين الاستعماريتين قابلتا الالحاح الصارخ بالصمم المطبق ، وكيف تسمعان وهما اللتان - فى اخراب المشروع - تعدان ذلك من ثمرات انتصارهما ، كأن خرابه من غنائم الحرب .

يشير المهندس الباحث الاستاذ عبد الوهاب المالكى فى بحثه عن الطرق والمرافىء فى بلاد الشام الى أن مشروع الخط لم يقتصر فى الأصل على وصل دمشق بالمدينة المنورة ، بل كان فى الحسبان مد فروع منه الى مكة وجدة وغيرهما مما تقتضيه المصلحة ، وقال : « ومنع من اتمام الخط الانقلاب العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد - موجد هذه الفكرة ومؤسس هذا العمل الكبير - وتوقف ورود الاعانات من الاقطار الاسلامية » . وبعد أن قرر « أن ميزانيته مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار أنه وقف اسلامى » وصف وضعه أول عهد الاحتلال بقوله :

أما حالته بعد انسحاب الدولة العثمانية من الشام ودخول جيوش الحلفاء فانه كان تام الأجزاء من حيث وضعه الأساسى ، ولم يطرأ عليه الخراب الا فى الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران .. أما الخطوط الحديدية فظلت سليمة فى الجملة سوى بعض نقاط قليلة يسهل اصلاحها وتشييدها .. وأما حالته من حيث الآلات والأدوات ومعامله وقاطراته ومركباته وشاحناته وغير ذلك من لوازم التعمير ووسائط سيره فقد بلغت من الجودة درجة يندر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات فى البلاد التى خاضت غمار الحرب العالمية طول هذه المدة [١] ويستمر المهندس المالكى فى وصف حالته الخط بعد الاحتلال واقتسام الغاصبين له فيقول : « قسم فى بدء الاحتلال ثلاثة اقسام

استولت بريطانيا العظمى على قسم فلسطين ... وتسلمت الحكومة العربية الفيصلية قسم سورية ، اما القسم الثالث فقسم الحجاز وهو اطول مسافات الخط وهو قسم غير مثمر لوقوعه فى البادية ، ولخراب جسوره واكثر محطاته [٢] ويعرج على اغتصاب فرنسا لمؤسسة الخط بقوله »ولما دخل الفرنسيون دمشق فى شهر تموز ١٩٢٠ تركوا ادارة (خط) الحجاز تسير على ما كانت عليه فى عهد الحكومة الفيصلية ، حتى آذار سنة ١٩٢٤ ، والغيت بعد ذلك ، وأحيلت ادارة الخط الى شركة (دمشق - حماة وتمديداتها) الفرنسية » .

بعد انتظار ٢٥ عاما

لم يكن أمل فى أن يحظى اجماع الأمة على وجوب تسيير الخط بشىء من اهتمام المحتلين الغاصبين ، فكان علينا أن ننتظر خمسة وعشرين عاما ، وحربا عالمية ثانية يتقرر بانقضائها سنة ١٩٤٥ استقلال سورية والأردن ، واستئناف جهود الشعوب بجمعياتها ومجالسها وأفرادها الالحاح على الحكم الوطنى المستقل سنين حتى تتحرك الحكومات فتؤلف لجانا رسمية فى سورية والأردن والسعودية ، وبعد الدراسة اجتمع مندوبو الدول الثلاث التى يمر الخط فى أراضيها : سورية والمملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية ، وأبرم بعد المداولة (اتفاق ١٨ نيسان ١٩٤٧ م) الذى جاء فيه :

أولا - يعتبر الفرقاء الذين يمر الخط فى أراضيهم بأن هذا الخط وقف اسلامى تجرى المحافظة عليه كما تجرى المحافظة على الأوقاف الاسلامية .

ثانيا - ان الخط بفروعه وتمديداته هو وحدة كاملة غير قابلة للتجزئة .

ثالثا - على الفرقاء الذين يمر الخط بأراضيهم أن يعيدوا للخط جميع ما يعود له من حقوق وممتلكات

وجعلوا كلا من الحكومات الثلاث تقوم باصلاح ما في أرضها من هذا الخط . وقف الأمر عند هذا لكن الواقع أن الأمر بقي على ما كان عليه . قاصرا على انتظام سيره من دمشق الى عمان .

عاد نشاط الجماهير في ملاحقة حكوماتها ، وهذه استجابت بعد لأي فالفت لجانا تدرس . ثم يجدد موعد لاجتماع اللجان الثلاث ، ويتكرر ذلك الى أن اتفق على اجتماعها في الرياض ،فصدر عنها (بروتوكول رقم ١) في ٢٤ / ١ / ١٩٥٤ يعرض على الحكومات الثلاث وقد جاء في ملحق مادته الرابعة :

١ ـ ان شركة الخطوط الحديدية الحجازية المعروفة باسم (الخط الحديدي الحجازي ... بسائر فروعه وتمديداته وحقوقه ومنشآته سواء أكانت تحت اشراف حكومات الدول الثلاث الموقعة على هذا النظام أم خارجة عن هذا الاشراف في الوقت الحاضر(يريد ما في فلسطين المحتلة)وقف اسلامي . وقد اتفقت الحكومات الموقعة على هذا النظام على اعتبار هذا الخط مؤسسة دولية ذات شخصية حقوقية واستقلال مالي ، وعلى اسناد ادارته الى (مجلس ادارة دولي) يؤلف على الوجه المبين في المادة الثانية من هذا النظام .

٢ ـ يتألف المجلس من عضوين من كل حكومة من الحكومات الثلاث الموقعة على هذا النظام ومن المدير العام . وكان الملك سعود رحمه الله قد حسم نقاشا حول نفقات الدراسة بتبرعه بمليوني ليرة سورية للدراسة » .

٢ مليون ليرة للدراسة

ثم عقد اجتماع في الرياض بين وزراء المواصلات الثلاثة أسفر عن اتفاق ٢٠ / ١ / ١٩٥٥ نصت مادته الثانية على (رصد المليونين من الليرات السورية اللذين تبرع بهما صاحب الجلالة الملك سعود المعظم لنفقات الدراسة الفنية اللازمة لتنفيذ المشروع) .

وكان قد اتفق على (بروتوكول رقم ٣) في ١١ / ١٠ / ١٩٥٤ ينص ملحقه الرابع على الحقوق والامتيازات التي للخط بموجب الفرمانات السلطانية التي حددت أوقاف الخط في مختلف البلدان جاء فيه :

أما الامتيازات وحقوق الخط فهي مبنية فيما يلي مع الاشارة الى وثائقها :

١ ـ امتياز انشاء واستثمار مرفأ وأرصفة مدينة (حيفا) (هي اليوم تحت احتلال اليهود) بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ١٧ رمضان سنة ١٣٣١ .

٢ ـ امتياز تملك واستثمار ثلاثة حمامات في محطة (الحمة) ، بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٢ .

٣ ـ امتياز استثمار كافة الشلالات الواقعة على مسير الخط الحجازي وعلى مسافة (٦٠) كيلومترا بموجب الادارة السلطانية على مسير الخط الحجازي وفي حوالي (عمان) بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ٢ رمضان سنة ١٣٢٢ وكتاب الصدارة العظمى تاريخ ٥ منه ومنع التحري على المعادن قرب حدود الخط الحديدي الحجازي .

٥ ـ منع بيع الأرضين المجاورة للخط الحديدي الحجازي وعلى مسافة (١٠) كيلومترات من كل جهة من الخط بموجب كتاب الصدارة العظمى رقم ٥٧ وتاريخ ١٦ آيار سنة ١٣٢٦ .

٦ ـ منع أملاك شركة (الداليجانس) وطريق شوسه (دمشق ـ بيروت) الى الخط الحجازي بموجب الادارة السلطانية في ٢٣ رجب ١٣١٩ .

٧ ـ امتياز استثمار الأشجار المدعوة (تشير ميشا) في البانيا بموجب الفرمان السلطاني تاريخ ١٣٢٢ .

٨ ـ امتياز استثمار معادن الفحم الحجري والحديد في ولاية (أدنة) في تركيا بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ٢٧ شوال سنة ١٣٢١ » . ولا يخفى أن حمامات الحمة هي اليوم في مغصوبات الاحتلال الصهيوني يستثمرها الصهيونيون كما يستثمرون غيرها من الأوقاف الاسلامية التي استولوا عليها غصبا وعدوانا .

وننتظر أشهرا أخرى حتى تجمع هذه البروتوكولات مع ملاحقها والاتفاقات ليصدر فيها جميعا قوانين .

ففي سوريا مثلا صدر القانون (رقم ٦٧) وتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٥٥ أوله :

أقر مجلس النواب وأصدر رئيس الجمهورية القانون الآتي :

مادة ـ يصدق اتفاق وزراء المواصلات لكل من الحكومات الثلاث : المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية والجمهورية السورية المعقود في الرياض بتاريخ ٢٥ جمادى الأول سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ٢٠ / ١٠ / ١٩٥٥ م والملحق القانون والاتفاقات والبروتوكولات السابقة له المنصوص عنها في المادة الأولى منه والمرفقة بهذا القانون وهي :

١ ـ الاتفاق المعقود فى دمشق ... فى ١٨ / ٤ / ١٩٤٧ م

٢ ـ البروتوكول رقم (١) المعقود فى الرياض ... فى ٢٤ / ١ / ١٩٥٤ مع ملاحقه المرفقة

٣ ـ البروتوكول رقم (٣) المعقود فى الرياض

٤ ـ البروتوكول المعقود فى الرياض .. فى ١٤ / ١٠ / ١٩٥٤ مع ملاحقه المرافقة له .. الخ » ٣ «

كلام على الورق

ثم لجان جديدة واجتماعات ، واتفاقات و .. مما لا يسرك سرده .. وبعد احدى عشرة سنة اقترح عقد اتفاق موحد يحل محل القانون(٦٧) ، فووفق على ذلك ، وتوج اجتماع اللجان باجتماع وزراء المواصلات فى الحكومات الثلاث ، وصدر ما سموه بالاتفاقية الموحدة ، وقد صدرت فى سورية بمرسوم تشريعى برقم (٨٨) وتاريخ ٧ / ٨ / ١٩٦٦ م[٤] وجاء فى فصله الثانى (أحكام عامة) :

المادة ٢ ـ الخط الحديدى الحجازى بسائر فروعه وتمديداته وحقوقه وأملاكه وامتيازاته وقف اسلامى عام ذو شخصية حقوقية وذمة مالية مستقلة ، وهو يشكل بهذه الصفة وحدة كاملة غير قابل للتجزئة .

المادة ٣ ـ تحافظ الحكومات الثلاث على الأقسام الواقعة فى أراضيها من هذا الخط . وعلى حقوقه وأملاكه وامتيازاته محافظتها على الأوقاف الاسلامية .

المادة ٤ ـ تلتزم الحكومات الثلاث بالعمل مجتمعة ومنفردة بجميع الوسائل الدبلوماسية ، وعن طريق جامعة الدول العربية على المطالبة بأملاك الخط وبحقوقه وامتيازاته فى الأراضى الواقعة خارج حدودها ، وتمكينه من استردادها واستغلاله لمصلحته .

المادة ٥ ـ تؤكد حكومات الدول الثلاث تعهدها بتمويل مشروع انشاء الخط من (معان) الى المدينة ، وتغطية نفقاته التى قدرت بموجب البروتوكول رقم (٦) المؤرخ ١١/٧/ ١٩٦٣ بـ (٩٨) مليون ليرة سورية ، كما تتعهد بتغطية جميع النفقات اللازمة لاصلاح الخطوط لاعادة تسييره بين دمشق والمدينة المنورة ، وذلك كله بالتساوى[٥] فيما بينها » .

والفصل الرابع يتعلق بتأليف هيئة عليا للخط الحديدى الحجازى ، وفيه :

المادة ٩ ـ أ ـ تشكل الهيئة العليا للخط الحديدى الحجازى من وزراء المواصلات المختصين لدى حكومات الدول الثلاث .

ب ـ تمثل الهيئة العليا حكومات الدول الثلاث فى كل ما يتعلق بتنفيذ المشروع وفى الاشراف على الادارة المشتركة لاستثمار الخط وادارة أوقافه ، وذلك وفقا لأحكام هذا الاتفاق .

المادة ١٠ ـ تتخذ الهيئة العليا مدينة دمشق مقرا رسميا لها ، وتعقد اجتماعاتها فى المقر المذكور ، أو فى أى مدينة أخرى باتفاق أعضائها »

هذا كل ما على الورق مما يعنينا ، لكن شيئا ما على الطبيعة لم يظهر ، غير (٦٦) مترا من أول الحدود السعودية (!) ثم توقف العمل سنة ١٩٦٨ كما توقف بحث الموضوع ، ولكن الرواية لم تتم فصولا :

صادف ذلك استئناف كلام فى الموضوع فى الأقطار الثلاثة ، وبين المسؤولين ، فبدأت اللجان تجتمع ، وهبط عليها رأى ظاهره فيه الرحمة ، وخلاصته أن الخط الحجازى خط ضيق أكل عليه الدهروشرب ، عرضه لا يتجاوز (١٠٥ سم) واصلاح ما خرب منه ترقيع لا يساير ما بلغه تقدم هذه المصلحةدوليا فى هذه السنين السبعين التى مرت على انشائه ، وان الخير فى انشاء خط جديد عريض كسائر الخطوط الدولية بعرض (١٤٠ سم) .. فتلقف هذا الرأى البراق ، وووفق عليه .. .واعلن عن مناقصة دولية للشركات العالمية للقيام بدراسة لهذا المشروع سنة ١٩٧٧ . وفى سنة ١٩٧٨ وقع الاختيار على شركة (دوش كنسول) التى شرعت فى تحضير الدراسة ، وبعد عامين قدمت دراستها مطبوعة فى عشرين مجلدا كاملة الخرائط والتخطيطات والمصورات ، واستقرت منها نسخة فى مكتبة (الهيئة العليا للخط الحديدى الحجازى) ، وكانت نتائج الدراسة كلها ايجابية . فماذا كانت النتيجة ؟

اجتمعت اللجان بعد اطلاعها على الدراسة فى آذار سنة ١٩٨١ ، واتخذت قرارا باعتمادها وبأن ينفذها كل فى أرضه وعلى نفقته (!!) فرجعنا الى ماكنا عليه فى سنة ١٩٤٧ م وقد مربك ولم تربح الا دليلا جديدا على كروية الأرض فقد أتممنا الدورة فى (٣٤) عاما رجعنا بعدها الى نقطة الانطلاق .

أما بعد فلا تعليق !

سعيد الأفغاني .



التوابل
.. دواء وغذاء !



بقلم : الدكتور صالح مهدي ذرب

التوابل هي تلك المواد التي نحصل عليها من النباتات والاعشاب ، ذات الرائحة العطرية ومنها ذات الرائحة الحادة وتستعمل التوابل في الأكل ، وغالبية التوابل لها خواص دوائية . وقد استعملت وما زالت تستعمل حتى يومنا هذا في الطب الحديث والطب الشعبي ، لعلاج الكثير من الحالات المرضية .

وقديما كان كل من الكمون والأنيسون ينمو بكثرة على سواحل البحر المتوسط بصورة طبيعية وكان عبق الروائح يملأ تلك السواحل ويضيف اليها جوا شاعريا جميلا . وبعيدا كان عبق القرنفل وجوز الطيب يملأ جبال الجزر البركانية حيث لا دخل للانسان في جمال تلك الطبيعة . وتعلم الانسان القديم استعمال التوابل وأعشابها ذات الروائح الطيارة بعد مرور زمن طويل ، ولكننا لا نستطيع الجزم كم طال ذلك الزمن ... ولابد انه قد جمع أوراق وثمار وبذور وحتى جذور تلك الأعشاب ذات الروائح الطيبة والتي كانت تحيط به وقد سماها واستعملها لعدة أغراض رغم مشاكله الكثيرة وتشتت أفكاره وعدم أدراكه للعديد من الأمور التي كانت تحيط به .

وكما كان الانسان البدائي لا يجيد فن الطبخ ولكنه مثل انسان اليوم كان يميز بين ما يحب وما يكره فكان يختار غذاءه النباتي من النباتات ذات الرائحة الطيبة والطعم المستساغ ويتجنب النباتات ذات الطعم المر . وكان في صراعه المستمر من أجل البقاء يلاقي الكثير من المتاعب والأحداث ، فيصاب بالجروح والرضوض ويعاني من الألم بحثا عن مأكله ومشربه ، وكانت التوابل وأعشابها مرجعه عند كل ضائقة ، فكم سأل نفسه ... هذه الأعشاب الجميلة بزهورها وطيب رائحتها لابد فيها شفاء لآلامه وعلاج لأمراضه . وهكذا وبمرور الزمن بدأ الانسان حياة جديدة وبدأ معها باستخدامه للتوابل في علاج أمراضه وفي غذائه وفي أعمال السحر والعبادة . ويقال بدأ تطور استعمال التوابل من الأم الى ابنتها . وقد كانت البداية التي لم يطمسها الزمن من بلاد وادي الرافدين حيث السومريون الذين اكتشفوا فن الكتابة حوالي ٣٣٠٠ ق . م ودونوا الكثير من استعمالاتهم للتوابل والأعشاب الطبية وتبعهم الاشوريون والبابليون في ذلك .

التوابل عند البابليين والاشوريين

كان السمسم إحدى تلك النباتات التي استخدمها البابليون كمصدر للغذاء واستخلص منه الزيت وصنع منه الخمر . وكانت منتجات السمسم من الهدايا الثمينة التي تقدم الى الامراء والملوك . وكان لبذور السمسم القيمة الغذائية والمادية العالية عند أهل بابل وكانوا يحضرون العديد من المنتجات الغذائية . ولزيت السمسم استعمالاته العديدة عند البابليين فقد كان يستعمل كمرطب للجلد وفي تدليك الجسم وكذلك استعمل في صناعة العطور وهو الزيت الوحيد الذي استعمله البابليون .

وقد طور البابليون زراعة التوابل والأعشاب الطبية واشتهرت الحدائق المعلقة بزهورها وروائحها الزكية بتلك



من التوابل ..

التوابل عديدة ومنها مثلا الثوم "Garlic" الفلفل "Pepper" الانيسون "Anise" الكرويا "Caraway" الكرفس "Celery" الدارسين "Cinnamon" القرنفل "Cloves" الكمون "Cumin" الشبت "Dill" الشمار "Fennel" الزنجبيل "Ginger" الاكليل "Rosemary" النعناع "Mint" الخردل "Mustard" جوز الطيب "Nutmeg" البصل "Onion" البقدنيس "Parsley" الزعفران "Saffron" الزعتر "Thyme" السمسم "Sesame" وغيرها الكثير .

الأعشاب والنباتات الطبية والتي تحدثت عنها القصص والحكايات ، والحقيقة ان للحدائق المعلقة الأثر الكبير في تطور اقتصاد البابليين حيث نمت تجارة التوابل عندهم . والاشوريون مثل البابليين كان لهم الولع الكبير في علم الطبيعة وملاحظة نمو وفسلجة النباتات .

وترك البابليون والاشوريون العديد من الوصفات الطبية التي استعملت فيها التوابل بصورة رئيسية .

وكان الاطباء والكيميائيون الأشوريون على بينة من الاستعمالات الدوائية لتلك الأعشاب وتوابلها والتي تجاوز عددها المائتين ، ومنها الكمون ،الشبت ،الشمار ، الزعتر ، الزعفران ، والسمسم .

غذاء بناة الاهرامات

وفي حضارة وادي النيل وصحوة الانسان البدائي على ضفاف النيل قبل آلاف السنين من ظهور المسيح ، ظهر المصريون وكانوا في البداية عبارة عن عدد قليل من العوائل والقبائل تفرقوا في أرجاء مصر حتى تكاثروا وصاروا مملكتين عرفتا بمصر الجنوب ومصر الشمال وحوالي ٣٤٠٠ ق .م توحدت تلك المملكتان حيث بدأ بناء حضارة كبيرة ، ولم يختلف المصريون عن السومريين في تدوينهم لحضارتهم ، واعتقد القدماء المصريون بعودة الروح الى الجسد بعد الموت . وما المومياء الا دليل على ذلك حيث استعملوا التوابل والأعشاب في حفظ أجساد ملوكهم ، وأجادوا فن التحنيط ، ومن النباتات التي استخدموها في ذلك الكمون والأنيسون وغيرها ، واستعملوا الدارسين بعد جلبه من خارج مصر . وكذلك استعمل المصريون التوابل والنباتات الطبية بكثرة ولأغراض عديدة في أفراحهم وأحزانهم كغذاء وعلاج .

ان العمال الذين شيدوا الاهرامات في مصر والتي يجاوز ارتفاع إحداها الاربعمائة والخمسين قدما والتي تجاوز عدد العمال الذين شيدوها مائة الف عامل ، كانوا يعملون في دوريات ، ويستبدلون كل ثلاثة أشهر وعلى مدى عشرين عاما وهي المدة التي استغرقها بناء الاهرامات حيث نقلوا مليونين وثلاثمائة الف قطعة من الأحجار الضخمة وكان كل ما يقتات عليه اولئك العمال ـ تحت وطأة شمس الصحراء ـ من غذاء يتكون في أغلبيته من البصل والثوم . ومن ذلك نجد مدى الفائدة العظيمة لتلك المادتين الغذائيتين .

وكما أن للتوابل استعمالاتها الدوائية عند المصريين فقد اكتشف العالم الألماني « جورج مورنتز ابرز » (١٨٣٧ - ١٨٩٨) أسماء بعض التوابل والأعشاب التي استعملت دوائيا في كتابات ألفت أو كتبت في ١٥٥٢ ق .م ومن تلك النباتات السمسم ، الكرويا ، الزعفران ، وقد استعملت التوابل في الغذاء وفي صناعة العطور ، كما كان لها استعمالاتها في المواسم الدينية مثلهم في ذلك مثل البابليين والآشوريين . وتمت تجارة التوابل في مصر وأصبح لها الأثر الكبير في اقتصاد مصر وأنشئت مراكز وأسواق للتصدير ، واشتهرت مدينة الاسكندرية وتطورت بوصفها احدى تلك المراكز المهمة للتصدير .

وهكذا وحتى القرن الثالث عشر كان للهنود الشرقيين مكانة مهمة في تجارة التوابل والتعاطي بها واشتهرت جزيرة جاوه في ذلك فهي من أهم الأماكن التي تطورت فيها هذه التجارة ، وقد جلب أهلها القرنفل وجوز الطيب من جزر أخرى . ومن هذه الجزيرة أبحر التجار العرب بسفنهم المحملة بالقرنفل ، وجوز الطيب والزنجبيل والفلفل غربا . وبالاضافة الى تطور تجارة العرب مع جنوب الهند فقد تمت علاقة تجارية وثيقة مع الصينيين وجلبوا لهم الكثير من البهارات والنباتات الطبية وتطور منها طب الأعشاب عند أهل الصين .

وفي القرون الوسطى

ولم يختلف استعمال التوابل دوائيا في القرون الوسطى عنه في العصور القديمة فقد اعتمد الانجلوسكسانيون على التوابل والاعشاب في علاج أمراضهم ، واستعملوا الشبت ، النعناع ، الشمار ، البقدونس ، ونبات المريمية .

فاستعملوا الشبت لبعض الامراض الجلدية وأوجاع الرأس كما استعملوا الشمار لعلاج الكحة أو السعال والاحتقانات التي ترافق النزلات الصدرية ، كما أن الانجلوسكسانيين استعملوا الشمار لعلاج قرحة اللثة وقرحة المثانة .

ووصفوا النعناع لعلاج الجروح العميقة خصوصا جروح الرأس بعد خلط النعناع مع كمية من الكبريت والخل وتحويله الى عجينة خفيفة توضع على منطقة الجرح من حين لآخر .

وكما ان للبقدونس استعمالاته الدوائية عند الانجلوسكسانيين فقد استعملوه ضد لسعات الافاعي السامة وآلام الاعصاب واستعملوا المريمية "Sage" لحرقة المقعد .

وكان من الوصفات الدوائية لعلاج عضة الافعى في القرون الوسطى وصفة سميت بالخمرة العجيبة وتتكون من الشمار ، الزعتر ، المريمية ، الاكليل ، القرنفل ، الفلفل ، الدارسين ، جوز الطيب ، والزنجبيل وكانت تعد كنقيع لعلاج لسعة الافعى السامة وعضة الكلب ولسعات الديدان السامة "Venomous Worms"

وكان هناك ايضا مسحوق التوابل لعلاج الصداع وعسر الهضم وهو يتكون من الانيسون ، الدارسين ، الهيل ، الشمار ، الكمون ، الزعتر ، القرنفل ، البقدونس ، الزنجبيل ، الزعفران ، المريمية والفلفل الأسود . وهذا الخليط الذي جاءنا من القرون الوسطى ايضا قد استعمل لعلاج أوجاع الرأس ولتقوية البصر ، وتسهيل الهضم وطرد الغازات ويدعى هذا الخليط « منظف المخ » .

ووصفت أوراق إكليل غار Laurel Leaves لعلاج التشنج العضلي واستعمل الكمون لعلاج أمراض المفاصل وتصلب الأطراف ، كما ان للخردل استخداماته ضد نزلات البرد وللبصل استعمالاته الدوائية ايضا في زيادة نمو الشعر .

استخدام يومي في زماننا

وبمرور الزمن ازداد استخدام التوابل بصورة مستمرة في عدة مجالات فقد اصبح استعمالها في الطبخ الحديث يوميا لاعطاء الوجبات الغذائية النكهة والطعم الجيدين وكذلك لزيادة الشهية .

ولا يخفى عنا استعمال مصانع الاغذية للتوابل وأعشابها في حفظ أو اعطاء الأغذية المعلبة النكهات الجيدة واستعملت الزيوت الطيارة المستخلصة من التوابل لهذا الغرض مثل زيوت الأنيسون ، الدارسين ، الكرفس ، القرنفل ، الزنجبيل ، والنعناع وغيرها . كما ان لهذه الزيوت استعمالاتها العديدة في صناعة العطور ومساحيق التجميل وتدخل ايضا في صناعات اخرى مثل صناعة الخمور والأدوية .

وبزيادة السكان وتبادل الخبرات بين الأمم والشعوب ولحاجات المجتمع الجديد المستمرة فقد تطور استعمال التوابل في العصر الحديث . وهذا التطور هو امتداد لاستعمالات التوابل وأعشابها في العصور القديمة والوسطى .

ففي عصرنا هذا ورغم عدم اعتقاد البعض خصوصا أولئك الذين تتأثر مصانعهم ، باستخدامات الاعشاب وتوابلها في مجالات الطب ورغم حرص اكثر دساتير

الادوية المعروفة وحذرها الشديد من اعطاء البهارات خواصها الدوائية واستعمالاتها الطبية .. رغم هذا فقد نشأ عالم منفرد لهذه العقارات الطبيعية يدعى الطب الشعبي وما من أمة في عصرنا هذا لا يوجد بها طب شعبي طورته من قصص الماضي وحكايات الاولين .

ومع هذا فقد استخدمت الأعشاب وتوابلها وزيوتها في الطب الحديث فهي في المراهم والمستحضرات الدوائية الأخرى . وقد ثبت علميا قوة بعضها الهائلة ضد الجراثيم والفطريات حيث عجزت المواد المصنعة عن القيام بنفس فعاليتها ، ويستخدم العديد من الناس بذور الأنيسون Aniseed كطارد للغازات وللمغص المعوي ويستخدم زيت بذور الانيسون "Aniseed" كطارد للبلغم وأيضا للفلفل الحلو استعمالات دوائية في علاج امراض المعدة .

ان لزيت الدارسين قوة هائلة كمبيد للجراثيم ويستخدم في الطب الشعبي والطب الحديث في مجالات عديدة .

كما يستخدم القرنفل كملطف في بعض المستحضرات الدوائية وكعلاج في اضطرابات المعدة وطارد للغازات في مستحضرات دوائية اخرى . وكما يعرف الكثيرون من عامة الناس استخدامات زيت القرنفل كمخدر موضعي ويستعمله الكثيرون في آلام الاسنان فان له خواص أخرى كقاتل للجراثيم مثلا .

ان زيت الكرويا له فعالية كبيرة ضد الامراض الجلدية والكرويا مفيدة للمغص المعوي وكطاردة للغازات .

الثوم والنعناع والبصل

وللثوم استعمالات كثيرة في الطب الشعبي والطب الحديث فهو يدخل في المستحضرات الدوائية التي تستعمل لالتهابات القصبات الهوائية ولعلاج السعال والنزلات الصدرية وكما ان لنبات الاكليل استعمالاته العديدة في الطب الشعبي فلا يوجد له استعمال في الطب الحديث ولكن لزيت الاكليل خواص جيدة في معالجة الآلام الروماتيزمية .

النعناع هو الآخر ينشط ويقال انه مفيد في التخلص من حصوة المرارة ومقو للكبد وزيت النعناع يدخل في العديد من المستحضرات الدوائية ، ورغم ان البابليين استخدموا السمسم في معالجتهم لامراض عديدة فلا يوجد اليوم في الطب الحديث شيء عنه وعن استعمالاته عدا استعماله كمرطب للجلد .

وللبصل فوائد في التهاب القصبات ،أما الزعتر فيستعمل حتى يومنا هذا كثيرا فهو طارد للغازات ، منشط يفيد في علاج التهاب القصبات وفي السعال الديكي وزيت الزعتر له خواص ضد الجراثيم والفطريات .

وبعد كل ما تقدم فللتوابل وأعشابها مزايا طبية تفوق تلك المستحضرات ذات الاعراض الجانبية الغير معروفة والغير محددة في بعض الأحيان . وكم منا استخدم ذلك الزيت او تلك العشبة لعلاج مرض جلدي او التهاب معين بعد عجز المستحضرات الدوائية عن شفائه !

ومن الحوادث التي حدثت لي قريبا في صيف هذا العام أنني اصبت بحساسية شديدة فزاد عطاسي وتفاقم الرشح حتى بت لا استطيع التنفس وفتح عيني أمام نور الشمس ، بعد تناولي ذلك الدواء وتلك الكبسولات دون جدوى قررت الذهاب الى حديقة كبيرة بجوار سكني علني أجد ضالتي هناك . وهي حديقة تحتوي على نباتات طبية عديدة فهي حديقة علمية إذن BOTANICALGARDENفي مدينة برمنجهام - انجلترا - وبعد ان دفعت مبلغا زهيدا توجهت الى قسم الاعشاب وعند اقترابي منها وقطفي بعض الأوراق الصغيرة من النباتات المختلفة ودعكها خلسة بين يدي أخذت اشمها حتى فتحت مجاري انفي وصدري وهكذا وبعد حوالي العشرين دقيقة اختفى كل شيء لا عطس ولا رشح ولا أي أثر الى تلك الازمة التي جعلت صباحي حزينا . وأخذت بعد ذلك أقرأ أسماء النباتات التي استخدمتها وكانت النباتات كلها معلمة باسمائها العلمية . كانت أعشاب الاكليل ، الشمار ، الشبت ، الكرفس ، الكرويا ، والبصل القرعوني ، والبقدونس والانيسون . وهكذا عشت بقية اليوم بسعادة وصحة . وفي كل يوم تطالعنا المجلات العلمية عن اكتشافات جديدة في عالم النواتج الطبيعية عن ذلك النبات أو تلك العشبة او زيت تلك البذور وخواص طبية جديدة تضيف الى الطب الحديث انتصارات جديدة .

ولو تحدثنا عن استعمالات التوابل في الطب الشعبي في عصرنا هذا لما استطعنا ان نقف عند حد فقد يطول الحديث وللحديث صلة . ■■

د . صالح مهدي ذرب

كلية الصيدلة

جامعة الفاتح - طرابلس - ليبيا



أريك سيجال

مبشر في عالم يفتقد الحب!

أريك سيجال وزوجته كارين في مهرجان الكتاب بنيس

بقلم محمود قاسم

لم يحدث كثيرا ان ترجم كتاب في نفس الشهر الذي صدر فيه من اللغة الانجليزية الى كل لغات اوربا . وقد حدث هذا اخيرا مع رواية « رجل وامرأة وطفل » . الرواية الثالثة للكاتب الامريكي اريك سيجال ، الذي يمثل ظاهرة فريدة وغريبة بين الادباء المعاصرين في جميع انحاء العالم . وكما قالت عنه جريدة لوموند الفرنسية « لقد جرؤ سيجال أن يقدم لنا كتابا لم يجرؤ شخصا أن يكتبه . لكن كل العالم كان ينتظره . »

فماذا فعل الرجل ؟ ثلاث روايات تتسم بالبساطة الشديدة . قصة حب بسيطة بين اوليفر باريت وجينفر . ثم قصة حب اخرى بين امرأة ورجل يربطهما طفل . موضوع مكرر ومعاد . وليس فيه اي لون جديد . . صياغة عادية وبسيطة . ولا يوجد ادنى افتعال او تجريب في كتاباته . ومع ذلك فقد تحول الى احد اشهر الكتاب في السبعينات .

وسيجال ظاهرة فريدة للغاية . لماذا هذه « النجومية » الشديدة ؟ . وهل الرومانسية التي اعاد صياغتها هي

بالفعل رومانسية سبعينات القرن العشرين . الكثير منا يودون ان يحبوا بنفس النقاء الذي احب به اوليفر حبيبته . ولكن ليس بنفس الاسلوب الذي احب به اوليفر ايضا تانسي . واذا كانت الامراض قد فرقت بين ملايين العشاق عبر التاريخ . واذا كان هناك الملايين من الآباء الذين رفضوا تزويج ابنائهم من بنات فقراء . واذا كان هناك ايضا نفس العدد من النساء عرفن ان رجلهن له زوجة أو طفل . الا ان الاشياء تسير ببساطة . ومن هنا فان شخصيات سيجال ناجحة . فاذا كنا نعجب بشخصيات مركبة مثل سمرد يباكوف وروكنتان لانها تمثل الجانب المعقد والمركب داخل كل منا . فان شخصيات سيجال تمثل اسقاطا لما نوده من بساطة في اساليب حياتنا . واهم هذه الاساليب هي قصص الحب التي نعيشها . ولذا فان سيجال بدأ سلسلة نجاحاته مع « قصة حب » . . .

٧جوائز اوسكار

واريك سيجال نفسه يعيش حياة بسيطة للغاية . فقد ولد في بروكلين بنيويورك عام ١٩٣٧ . . وحصل على دبلوم من جامعة هارفارد . حيث تعلم اللغة اللاتينية . واليونانية . لعدة سنوات وذلك قبل ان يلتحق بجامعة ييل ثم بتكتون . وبعد ان تخرج من الجامعة بدأ الكتابة في العديد من المجلات . وقد اعد للجامعة مجموعة من الدراسات حول اصل اللغة اليونانية ثم بدأ يعد للمسرح مجموعة من المسرحيات التي عرضت في برودواي . وفي عام ١٩٦٤ اعد اول سيناريو قام ببطولته فريق الخنافس الغنائي تحت عنوان « الغواص الأصفر »وقد حقق بروايته « قصة حب » نجاحا وشهرة بعد ان بيع منها اربع وعشرون الف نسخة في اشهر قليلة . وما لبث ان ازدادت شهرتها بعد ان انتقلت الى الشاشة الفضية في فيلم من اخراج ارثر هيللر . . وقد حصل الفيلم على سبع جوائز اوسكار .

وهذه الرواية بسيطة للغاية . نحن امام شخصيتين فقط . يتسمان بالبساطة ويخلوان تماما من كل العقد التي يتسم بها ابناء جيلنا من الشباب . اوليفر باريت طالب بكلية الحقوق . يتحدث في اول الامر عن فتاته التي يحبها « ماذا تقول عن فتاة في الخامسة والعشرين عندما تموت ؟ « كم هي جميلة . شديدة الذكاء . كانت تحب موزار وباخ والخنافس وانا » . . . وجنيفر اوجيبي فتاة جميلة رقيقة تشاكسه في اول لقاء لهما . وتتوطد العلاقة بينهما الى ان تغدو حبا جارفا « ويذهب الفتى مع محبوبته الى قصر ابيه الشامخ كي يعرفه عليها . لكن اوليفر الاب يرفض ان تنتمي اسرته العريقة الى فتاة من عائلة متواضعة الحال . ويحذر ابنه من نتائج هذه العلاقة وبأنه لو اصر على الاقتران بها فسيحرمه من الميراث . لكن اوليفر يقرر الا يتخلى عن فتاته . يمارس عملا متواضعا ليكسب ويقيم اودهما معا . يتزوجا ويعيشا اياما سعيدة لكنها قليلة . يفاجيء بعدها ان حبيبته قد اصيبت بداء خبيث يتطلب علاجه مبلغا كبيرا . ويفكر الفتى . فعليه اما ان يترك فتاته تموت او يطلب معونة والده . وفعلا يختار الحل الثاني . وعندما يفهم الاب باريت المشكلة التي يعاني منها ابنه يقدم له شيكا . لكن ماذا يفعل المال مع المرض . تموت الفتاة بين ذراعي حبيبها ليخرج الى الطريق . ويجد اباه يعلن عن اسفه . يرد عليه ببساطة « الحب هو الا تعرف ابدا معنى كلمة « آسف » »

ويقول جاك كابو في « الاكسبريس » ان هذه الرواية تمثل حدثا أدبيا ضخما . فنجاح قصة حب يعتبر ظاهرة اجتماعية . ويقول بير دوميه « انها تمثل السعادة الحقيقية للشباب الامريكي » والحقيقة ان هذه الرواية جاءت في فترة توترت فيها الكثير من اعصاب شباب العالم . فبعد ثورات الشباب في اوربا في اواخر الستينات . ومقابل الكثير من التوابيت العائدة من فيتنام . . . وظهور حركات الرفض الشبابية المتمثلة في العديد من الاتجاهات جاءت هذه الرواية لتعيد التوازن الى الشباب . . كي يمسحوا دموعهم المنهمرة على المسكينة جيني . التي فارقت عشيقها . وقيل ان العالم يعود بذلك الى الرومانسية

رحلة ثانية في الرحلة

ويبدو ان سيجال لم يجد الجديد في جعبته . فعاد بعد خمس سنوات ليستكمل « قصة اوليفر » بعد وفاة زوجته بمرض الكيموكين . فبعد مواصلة الرحلة ضد صعاب عديدة من اجل زواجهما فان المرض يأتي على ثمار هذا الكفاح . وفي اولى صفحات الرواية نرى مراسيم دفن جيني . يجلس امام المقبرة حتى يرى التابوت ينزل الى مثواه الاخير حاملا بداخله محبوبته . والعالم حول اوليفر لا يحس به كثيرا . تطلب منه امه ان يعود الى قصره . اما قبل والد جيني فيقول له بعد عام ونصف ان عليه ان يقترن بامرأة اخرى « لو كنت انت بدلا من جيني فانها كانت ستفعل . لانها ليست من النوع الذي يذهب الى الدير » . . ويصبح أوليفر محاميا ناجحا فينغرس كلية وسط مهام عمله . ولكنه أحيانا يشعر بالحاجة الى أمرأة أخرى . « لايمكنني أن أكون وغدا » ؛ وهو دائما يراجع نفسه ويحاول أن يدخل بيت فتاة تعرف عليها . لكنه

يتراجع في آخر لحظة . « كل العلاقات تعقيدات بأسلوب أو بآخر » . ويجد نفسه يذهب الى أحد المحللين النفسيين . ويقص عليه رغبته في تجربة جديدة . يقول له « عليك بممارسة الرياضة » .

وفي الصباح يقابل مارسي وهي تمارس الرياضة . ومارسي أمرأة تختلف كثيرا عن جيني . لكن بها أشياء تشبهها . فاذا كانت جيني قد دللته منذ أول لقائهما معا في اعدادي . فان مارسي تسمية باتشو أيضا ذات ابتسامة عذبة مثل جيني تمارس الرياضة في الصباح الباكر يمكنها أن تهزمه في لعبة التنس . وهي تتمتع بثراء فاحش . وهي مطلقة تميل الى أن تحب بعقلها بجانب عواطفها تشجعه أن يندمج معها . لكنه يتصرف باسلوب فتى صغير يمارس التجربة لأول مرة . فلا يطرأ على باله أن يفكر في الصعود الى غرفتها في الفندق عندما تشير له بذلك . وفي نفس الليلة يأخذ سيارته ويذهب الى الكوبري الذي كثيرا ما قابل جيني فوقه . ويخلو الى نفسه وفي اليوم التالي يزور نفس الاماكن التي شاهدت أحلى ايامه مع جيني كي يجتر ذكرياته . وعندما يحدث مارسي في الهاتف ويذهب لزيارتها في عملها يفاجيء بثرائها فيقول « قضيت حياتي اتظاهر بالفقر » تسأله بعد عدة أيام « أتشعر ببعض الذنب لانك فكرت في جيني ؟ » فيرد « بالعكس . بل لانني لم اعد افكر فيها »

فهو يرفض في أول الامر ان يتولى ادارة مصانع ابيه بعد تقاعده . الا انه يقرر ان يفعل عندما يدرك ان المصانع في خطر . ومارسي تقوم بدور مباشر في هذا التحول . فهي تحبه لكن هذه العواطف لا تجعلها تنقطع عن الانهماك في عملها . ومن هنا ندرك أن امثال اوليفر غير موجودين . وان الانسان المعاصر عليه ان يمزج بين شاعريته وبين العالم المادي الذي يحيط به . فمارسي فتاة تعمل في حقل التصوير السينمائي وفي تصوير الأزياء . وهي تصطحب معها اوليفر لتجعله ينسى كل علاقة له بجيني . وعندما تدرك أن من الصعب ان يفعل تقول له بكل وضوح انها لا تقبل ان تشاركها امرأة فيه . حتى لو كانت ميتة . وفي النهاية يقف اوليفر على نفس الكوبري ليردد مقتنعا ان على الاحياء مواصلة الحياة .

ويقول فرانسوا فورسيه عضو اكاديمية جونكور الادبية ان « سيجال » قد انتق ليجعل الروايات الشعبية للقرن التاسع عشر تمد لك احد الأسرار التي تحول القارىء الى عالم سحري وثرى .

رجل وامرأة وطفل

اما احدث روايات سيجال التي نشرت في العام الماضي والتي ترجمت ـ كما اشرنا ـ الى عدة لغات اوربية في نفس العام فانها تدور حول « رجل وامرأة وطفل » ، وهذه الرواية يحاول فيها المؤلف تأكيد رومانسيته في مواجهة العنف والدماء والكوارث سواء في الادب او السينما او حتى تمثيليات التليفزيون . ولان سيجال لا يمكنه ان يكتب الا اللون الرومانسي . ولان قدراته الادبية محدودة للغاية فقد اختار ان تكون روايته الاخيرة حول نفس الموضوع . رجل وامرأة وبينهما طفل . المدرس روبرت بكويت الذي يعمل في احدى المعاهد الكبيرة يعيش حياة سعيدة مع زوجته وابنائه . وهذه السعادة يقطعها فجأة اتصال تليفوني من باريس يخبر الزوجة ان زوجها قد خانها يوما اثناء رحلة العشرين عاما التي عاشها معها . في احدى رحلاته العابرة الى باريس « نداء تليفوني عاجل . اتبه روبرت بيكويت الى وظيفته كمدرس » . وهناك طفل كان من نتاج تلك العلاقة العابرة . ويشكل الامر صدمة شديدة لزوجته شيللا . فهي لا يمكن أن تحتمل خيانة زوجها . لقد تصورت ان العشرين عاما التي عاشتها معه كانت بلا اساس . تسأله : « بوب لماذا كنت تريدني ان اعرف . لماذا ؟ فيرد لانني لا اعرف ماذا افعل . ولأنني تصورت انك ستساعديني وانني لست سوى وغد اناني »

لقد قتلت عشيقته السابقة نيكول جيرين في حادث سيارة . وتركت ابنها الذي يبلغ من العمر تسع سنوات . انه الآن يتيم . وابوه هو روبرت الذي يجد نفسه في موقف حرج . ولذا فان عليه ان يحدث امرأته . وتقف زوجته موقفا غريبا . انها ترفض في اول الامر هذه النزوة العابرة التي اصابت زوجها . ثم تجد ان عليها ان تفعل شيئا بالنسبة للطفل .

واذا حاولنا ان نقيس كتابات سيجال باللون الرومانسي الذي انتشر في القرنين الماضيين سنجد نفس الشخصيات ونفس المواقف . فنحن في هذه الاعمال نجد شخصيات محدودة العدد محدودة الابعاد . العاشق الوله الذي يتيه حبا ويغرق في الخيالات الدافقة . ويعيش في عالم شبه مثالي . لكنه يواجه من بعض القوى الخارجية التي تحاول تحطيم سعادته . الاب المتعجرف . او مرض مزمن . واذا كان السل قد اتى على ماتون ليسكو . فان الداء الخبيث يأتي على جينفر . وتلعب بقية الشخصيات دورا سطحيا للغاية لكنها ايضا تلعب دورا في بلورة مشاعر الابطال . قبل

الـذي يحب ابنته ويعاملها كصديق . تناديه باسمه المجرد . . وهذه العلاقة بين الاب وابنته تعكس نفس البساطة للعلاقة العاطفية التي تربط الفتاة بزميلها اما مايسي فانها تختلف . اكثر واقعية وثراء . وهي تعتبر نقلة اخرى انتقلها سيجال . ولذا لم تحقق روايته الثانية نفس النجاح الذي حققته الرواية الأولى . فقد كنا نتوقع ان يرتبط اوليفر بفتاة لها نفس الشاعرية والسرقة التي كانت لجنيفر . ولكنها تقول ببساطة متناهية : « لا اقبل ان تشاركني امرأة فيك حتى لو كانت ميتة » .

والحب في مثل هذه الروايات شديدة التطرف . يمكنه ان يؤدي الى الانتحار . او الموت . والعاشق يتسم بالاخلاص الشديد . وأوليفر يظل اكثر من عامين غير مرتبط بأية امرأة بعد رحيل زوجته . وهو كثيرا ما ينادي فتاته الجديدة باسم جيني . بل انه يهرب الى الاماكن التي جمعتهما سويا كي لا يشعر انه يخونها . . ويقول قيل له « لو كنت انت بدلا من جيني فانها كانت ستفعل لانها ليست من النوع الذي يذهب الى الدير » كما ان الزوجة في آخر رواياته تصطدم بشدة عندما تعلم بخيانة زوجها في ايام كانت تتصوره اوفى الاوفياء .

كاتب غير موهوب

والتباين واضح في هذه الروايات . ابناء الاغنياء الذين يغرمون بابناء الفقراء . . والاغنياء يسكنون القصور الفاخرة . يملكون الكثير من الاراضي الشاسعة والمصانع الكبيرة . اما الفقراء فيعملون اعمالا متواضعة . في المخابز ويسكنون في بيوت بسيطة . وهذا التباين رأيناه في كل الروايات الرومانسية التي شغفنا بها . ونحن في سن المراهقة . كما ان الموت يلعب دورا في هزم اللذات وتفريق الجماعات . فاذا كان الموت هو الذي فرق بين جيني وأوليفر فانه يفرق ايضا بين مايسي واوليفر لان موت جيني ما زال يتسلط على عقل المحامي الناجح . .

واذا كانت رواية « قصة حب » قد وزعت أربعاً وعشرين الف نسخة وترجمت الى العديد من لغات العالم منها اللغة العربية . فان هذا لا يدل على ان العالم اصبح رومانسيا بين ليلة وضحاها . فنفس القارىء الذي شغف بهذه الرواية شغف ايضا برواية « طاردالارواح الشريرة » لويليم بيتر بيلاتي التي تصور تقمص شيطان لفتاة في التاسعة من عمرها ويثير الكثير من الرعب في البيت الذي يسكنه . . الدماء . والجنس . والعنف . نفس الشباب الذين تمتعوا بالعملين . قرأوا ايضا العديد من روايات التقمص والكوارث . وكتبا أخرى مليئة بالجنس . ويمكن لكاتب مثل سيجال . اذا كان لديه موهبة حقا - ان يكتب اعمالا مخالفة . مليئة بالجنس او الرعب . او الدماء بنفس النجاح . فالقارىء في الغرب الآن شغوف بكل هذه الالوان المتطرفة . وانا لا اقول ان الرومانسية لم يعد مرغوبا فيها . ولكني اقصد الرومانسية المبالغ فيها مثل اعمال سيجال . لدرجة ان القارىء بدأ يتحول شيئا عنها وان كانت لا تزال تجد جمهورها . وهناك أعمال كثيرة تمزج بين الجو الرومانسي والكثير من مظاهر الحياة اليومية . والمعاناة النفسية . التي يعيشها انسان العصر . لان الانسان منا بطبعه رومانسي مهما تقدم به العمر . ولكنه يفضل ان تمتزج رومانسيته بما يحس من معاناة . ولهذا فاعتقد ان اعمال سيجال ستختفي بعد عشر سنوات ولن تجد ما تجذب به الناس . لانها اساسا خالية من كل جديد . والدليل على ذلك انه عندما عرض فيلم « قصة حب » في العام الماضي في كل دول العالم لم يلق نجاحا يذكر . وان قصة اوليفر قد فشلت في السينما ولم يوزع الكتاب ملايينا مثل الرواية الأولى . وبالتالي فان سيجال هو احد الادباء غير الموهوبين الذين يحاولون الضحك على ذقون القراء ليحقق كسبا سريعا . ■■

محمود قاسم

بين عصامي وعظامي

كان هارمودياس يتحدر من سلالة طويلة من الاسر الكريمة ، فعير ايفيكراتس - وكان قائدا ولكنه ابن حذاء - بوضاعة أصله ، فكان جواب ايفيكراتس : « أن مجدي يبدأ بي ، ومجدك ينتهي بك » .

مادة جديدة تـغـني عـن الخيط والابرة في الـعـمـلـيـات الجراحية

درج الجراحون منذ زمن بعيد على رتق جروح عملياتهم بالخيط والابرة .. وحظي هذا الاسلوب بقدر كبير من الثقة على مر الاجيال ... حتى بدا كانه الاسلوب الوحيد الذي يمكن للجراحين الاعتماد عليه .. ولكن انباء الطب والعلم فاجأتنا مؤخرا بخبر اسلوب جديد يمتاز على اسلوب الخياطة بمزايا عديدة ..

وقوام الأسلوب الجديد الذي ابتكروه في النمسا لصق الجلد على جانبي الجرح بمادة لاصقة مناسبة بدلا من قطبه او درزه بالخيط والابرة ..

وتسمى المادة الجديدة (Fibrin Seal) وتتكون من مادتين .. احداهما لاصقة صنعوها من الفيبرينوجين (Fibrinogen) ومن الزلال او البومين Albumin ، ومن بروتينات اخرى توجد في الدم . اما المادة الثانية فمصنوعة من الخمائر المخثرة ، الثرومبين (Thrombin) بالتحديد ، ومن كلوريد الكالسيوم (Calcium Chloride) .

وتسخن المادتان حتى تبلغا درجة حرارة جسم الانسان .. (٣٧) درجة مئوية .. ثم تخلطان ، ويعمد الجراح الى استعمال الخليط السائل ، نقطة نقطة ، بواسطة المحقنة (السيرنج) .. حتى يتصل الجلد بعضه ببعض وتتم تغطية الجرح ..

وقد جربت هذه المادة الجديدة على نطاق واسع في أوروبا .. وتقول الطبيبة الجراحة المعروفة في جامعة فيينا ـ هيلين متراس Dr. Helene Matras وهي صاحبة البحث الذي ادى الى تطوير المادة اللاصقة الجديدة ، تقول ان قيمة هذه المادة انما تتجلى بصفة خاصة في معالجة ضحايا الحرائق .. في الامكان تطعيم المكان المحروق من الجسم بمزيد من سرعة وبما يكفل اصلاح الاوعية الدموية بمزيد من سهولة . على ان ميزة الطريقة الجديدة الكبرى انما هي في عدم تركها اي اثر او تشويه كالذي تتركه الطريقة التقليدية .. طريقة الخياطة والقطب .

اضف الى ذلك ان المادة الجديدة؟ تصلح العظام وتعيد تشكيلها .. وتصلح غلاف المخ .. وهي صالحة ايضا لوصل الأعصاب اذا تعرضت لقطع .

وتستطيع مادة الفيبرين ، فوق ذلك ، ان تلعب دور المنقذ في حالات النزيف الطارئة التي كثيرا ما تحدث أثناء اجراء العمليات الجراحية .. فتعرض المريض لخطورة بالغة اذ ان من شأن المادة الجديدة ان توقف النزيف وقفا تاما وعلى الفور ..

مكعب روبك ثانية

هذه صورة واقعية حقيقية لا زيف فيها ولا تركيب ولا تأليف .. فهذا القرد الذي ترى ، والذي ينتمي الى فصيلة ريزس (Rhesus) ، ادرك المطلوب فعله بمكعب روبك ـ وذلك بعد ان اوضحه له العلماء بواسطة وسائل الايضاح التي درجوا على استعمالها في مخاطبة القردة ـ فراح يحاول حل اللغز ... حتى اذا شده المكعب شدا مضى يعيد المحاولات ويكررها حتى مضي عليه ١٥٠ ساعة وهو يحاول بلا طائل !

هل من شك بعد هذا في ان مكعب روبك هو صرعة العام الماضي ، الأولى والمميزة .. وقد استأثر باهتمام الحيوان بعد بني الانسان .. وهل من عجب في اقدام بعضهم على تسمية سنة

اعداد : يوسف زعبلاوي

١٩٨١ برمتها سنة المكعب ؟

ومهما يكن من امر ، فلا مفر للمرء من ان يعجب لهذا المكعب ، ويتساءل عن سر استثاره بالاهتمام وشده لكل من حاول حل لغزه .. في بلدان الغرب المتقدمة على الأقل .

الجواب بكلمة واحدة : التحدي .. فانت مطالب بالبحث عن الوضع الصحيح للمكعبات الصغيرة الملونة .. الوضع الذي يحصر كل لون من الوان المكعب الستة في وجه من وجوهه الستة ... وهو وضع يبدو لك سهلا قريب المنال .. وهو في واقع الحال صعب ، ان لم نقل شبه محال ..

ذلك ان الاوضاع غير الصحيحة التي تمضي في تقليبها بحثا عن الوضع الصحيح تعد بملايين الملايين .. اذ يبلغ عددها على وجه التحديد : (٤٣,٢٥٢,٠٠٢,٢٧٤,٤٨٩,٨٥٦,٠٠٠) ذلك ان كل وجه من وجوه المكعب الستة يشتمل على ٩ مكعبات صغيرة .. كل واحد منها قابل للتحريك في شتى الاتجاهات بزاوية ٣٦٠ درجة ... فانت في محاولة العثور على الوضع الصحيح اشبه بمن ضل سبيله في احدى غابات الامزون الشاسعة وظل مصرا على البحث عن ابرة ضاعت منه في تلك الغابة .. ومن يدري فقد يسعفك الحظ فتعثر على الوضع الصحيح بالصدفة في غضون ساعات او ايام او حتى اسابيع .. وقد تمضي شهور بطولها بلا طائل .. علما بان الرقم القياسي كان ٢٨ ثانية ..

على ان باستطاعتك الاعتماد على قواعد رياضية او هندسية رصينة بدلا من الصدفة .. وعليك في تلك الحال الرجوع الى احد الكتب التي صدرت في الشهور الماضية بقصد ايضاح تلك القواعد .. وتكاثرت تلك الكتب حتى تجاوز عددها ... بل عدد ما عرفناه منها .. الخمسين .. وراج بعضها في مشارق الارض ومغاربها حتى بلغت مبيعاته (٢,٣٠٠,٠٠٠) نسخة !

ويشكو الكثيرون من الصعوبة التي لقوها في فهم هذه الكتب .. وهم يقارنونها بالصعوبة التي يلقونها في حل لغز المكعب عمليا .. فيفضلون الأخيرة لانها على الأقل لا تبعث على مثل الملل الذي تسببه قراءة تلك الكتب !



شجرة الرجولة السحرية

من المعروف ان الكثيرين من الرجال معرضون لفقدان قواهم الجنسية نتيجة الاصابة بمرض عضوي ، كالسكري مثلا ، او بآفة نفسية مستعصية . .

ومن المعروف ايضا ان معالجة مثل هذه الحالات صعبة للغاية ان لم نقل متعذرة . . فالعقاقير الكيماوية التي توصف لعلاجها لا تفي بالغرض ، في الغالب ولا تخلو من آثار جانبية خطيرة ، في الغالب ايضا .

لا عجب اذن ان شاع بين عامة الناس ، ومنذ اقدم الازمنة ذكر اشجار وخضر معينة قالوا انها تساعد الرجال على استرداد قواهم .

الا ان العلماء لم يجدوا في تلك النباتات الشعبية وامثالها ما يثبت الآثار المزعومة التي نسبها اليها العامة . . ولكن العلماء لم ينفوا امكانية وجود هذه النباتات . . فمملكة النبات الواسعة تشمل حتما تشمل الكثير مما هو غني بالفيتامينات . . والكثير مما هو غني بالاملاح المعدنية ، كالحديد والكلس الخ . . ولابد انها تشمل ايضا ما هو غني بالهرمونات الجنسية الكفيلة باسترداد الرجال لقواهم المفقودة .

لذلك كانت لا لتقارير العلمية التي وردتنا من كندا في اواخر السنة الماضية ذات اهمية وخطورة بالغة . فهي تتحدث عن شجرة افريقية استوائية (يوهمبي **Yohimbe**) وتؤكد ان عصارتها (يوهمباين **Yohimbine**) ذات اثر فعال في رد الكفاءة الجنسية الى من فقدها من الرجال . .

وما كانت التقارير لتؤكد ذلك لولا التجارب العلمية التي اجراها العالم الفارو موراليس **Alvaro Moralis** ، اخصائي المجاري البولية (**Vrologist**) واعوانه الباحثون العاملون في جامعة كوينز في مدينة كنجستون في ولاية اونتاريو في كندا .

حصر هؤلاء العلماء تجاربهم في ٢٣ رجلا من الذين افقدتهم الامراض العضوية (لا النفسية) قواهم الجنسية وحرمتهم ، وحرمت زوجاتهم ايضا ، نعمة اللذة التي بدونها تفقد الحياة الكثير من رونقها . . . وراحوا يرقبون اثر عصارة اليوهمباين فيهم . . . وقد اعطوهم هذه العصارة حقنا لمدة تتراوح بين ٨ - ١٠ اسابيع . ثم فحصوهم . . فوجدوا ان تحسنا كبيرا قد ظهر على عشرة منهم . . . فقد اصبح هؤلاء قادرين على الممارسة الجنسية بكفاءة وشدة . . . تامة واستطاعوا الحفاظ على هذه الكفاءة والشدة حتى النهاية . اما الباقون (١٣ رجلا) فكان تحسنهم محدودا . ولعل ذلك يعزى الى كون المادة التي حقنوا بها لم تكن عصارة شجرة اليوهمبي الطبيعية وانما البديل الكيماوي الذي استحضروه وصنعوه في المختبرات . .

ومهما يكن من امر . . فقد وجد العلماء الكنديون في نتائج تجاربهم الاولية هذه ما يشجعهم على القيام بتجارب اخرى واسعة وبالغة الدقة . . وستشمل هذه التجارب ١٢٠ رجلا من المحرومين الذين حالت بينهم وبين الممارسة الجنسية لا الامراض العضوية فحسب وانما الآفات النفسية ايضا . . . وستعتمد هذه التجارب عصارة اليوهمباين الطبيعية ، بالذات ، فضلا عن المادة الكيماوية البديلة . . كالتي استعملت في التجارب الاولى . . وقد لا تنتصف هذه السنة ١٩٨٢ حتى تعطي هذه التجارب الواسعة نتائجها ، فتمهد السبيل لظهور عصارة اليوهمباين في الاسواق . .

اما كيف تحدث هذه العصارة الاثر الذي تحدث . . فلغز ما زال العلماء ... عاجزين عن ... سرا ازاءه . . فالعلماء على علم بان العصارة المذكورة تؤثر في افراز الادرينالين . . عند خواتم الاعصاب وفي انحاء شتى من الجسم . . ولكنهم يجهلون حتى الآن ما اذا كان اثرها ايجابيا يضاعف افراز الادرينالين ام سلبيا يحد من ذلك الافراز او يكبحه . . ؟!

٥٠٠ قلعة وحصن

تروى التاريخ فى سلطنة عُمان

استطلاع : صادق يلي

تصوير : فهد الكوح

● ميراني أحد حصون مدينة مسقط التي بناها البرتغاليون في القرن السادس عشر عندما بدأ التوسع الاوروبي في المشرق ، وتمتاز هذه القلاع بقوتها ومناعتها .



القلاع والحصون في سلطنة عمان من أعظم آثارها المعمارية ، وتتراوح القلاع الرئيسية بين مبان ضخمة شيدت على مدى مئات السنين ، مثل قلعة بهلاء والرستاق اللتين بنيتا أيام احتلال الفرس لعمان ، وبين قصور محصنة مثل قلعة الحزم ومثل قلعة جبرين التي شيدت اصلا لتكون مقرا للحكام .

هناك ما يقرب من خمسمائة قلعة او حصن او برج دفاعي لا تزال آثارها باقية في طول البلاد وعرضها ، وهناك خطأ شائع مؤداه ان البرتغاليين الذين حكموا سلطنة عمان في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين هم الذين بنوا هذه القلاع ولكن الحقيقة انه لا توجد سوى ثلاث قلاع برتغالية في جميع انحاء البلاد : اثنتان في مسقط العاصمة وهما قلعة ميراني والجلالي ، وواحدة في مطرح التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن مسقط ، اما بقية القلاع فقد بناها العمانيون أنفسهم في فترات تاريخية متفاوتة .

فسلطنة عمان لعبت دورا تاريخيا بارزا في المنطقة ، وهي من الدول العربية الخليجية القليلة التي لها تاريخ حافل موغل في القدم . بالاضافة الى انها كانت تسيطر على الطرق التجارية بين الشرق والغرب وافريقية ، كما انها حلقة الوصل بين شبه الجزيرة العربية وافريقية . فقد كان البحارة والتجار العمانيون معروفين في موانئ العالم المتباعدة وقاموا برحلات منتظمة الى شواطيء شرق افريقية والهند وامتدت رحلاتهم الى الصين .

بهلاء والرستاق

عندما جاء الاسلام كان الازد هم التجمع القبلي الرئيسي في عمان ، بزعامة ملكين هما عبد وجيفر ، فاعتنق العمانيون الاسلام طواعية ، وتدل المصادر التاريخية على ان الفرس كانوا مستقرين في المناطق الزراعية الخصبة غير انهم رفضوا اعتناق الاسلام مما جعل الازد يهاجمونهم في عاصمتهم دستاجرد ، ولعب العمانيون دورا هاما في انتشار الاسلام ، عندما اصبحت البصرة مركزا هاما للفتوحات الاسلامية التي استهدفت الامبراطورية الفارسية ، وبلغ الازد ذروة قوتهم بعد حوالي ٦٠ عاما من بلوغ دعوة الاسلام لهم ، ففي تلك الفترة سيطر قائدهم المهلب بن أبي صفرة سيطرة تامة على البصرة ، وكانت المجموعة العمانية في جيشه أكبر المجموعات على الاطلاق .

أما أهم آثار الفرس في عمان فهي قلعة الرستاق ، وقلعة بهلاء ، وهما أقدم قلعتين لا تزال آثارهما باقية حتى يومنا هذا ، فقلعة الرستاق تتكون من عدة أبراج ـ وأشهرها برج كسرى ـ اسمه الفرس ايام حكمهم لعمان ضمن تحصيناتهم الحربية ، وكلمة رستاق تعني بالفارسية المنطقة الامامية او الواقعة على الحدود ، ولا يعرف التاريخ الحقيقي الذي بني فيه هذا الحصن ، وتعد قلعة الرستاق أعلى قلاع عمان قاطبة ، وقد تتابعت عليها عدة حكومات منها إمامة الجلندي بن مسعود ثم دولة النباهنة ودولة اليعاربة ، وكانت كل دولة تزيد او ترمم او تكبر بعضا من تحصينات هذه القلعة ، وفي العصور المتأخرة اقام عليها الامام أحمد بن سعيد البوسعيدي أبراجا وتحصينات عدة وتبعه الامام احمد بن عبد الله الخليلي سنة ١٩٣٦ فاقام بعض الحواجز والتحصينات الدفاعية .

اما القلعة القديمة الاخرى والتي يعود تاريخها الى ما قبل الاسلام فهي قلعة بهلاء ، وبهلاء مدينة تبعد عن مدينة نزوي المشهورة نحو ٣٠ كيلومترا وتشتهر بصناعة الفخار والنسيج ، بالاضافة الى مزارع النخيل والليمون والفاكهة ، ويقال ان هذه القلعة بنيت أيام حكم الفرس لعمان ، وتمتاز بأن أسوارها تمتد نحو سبعة اميال ، كان يجوبها الحرس والجنود في دوريات .

تشمخ قلعة بهلاء الى علو ١٥٠ قدما فوق السهول المحيطة بها . وهي تطل على بساتين النخيل وعلى مزارع القمح والشعير والبرسيم ، ويعود الجزء الشمالي الغربي منها الى العهد الجاهلي ، اما القصبة الجنوبية الشرقية فتعود الى عهد الدولة النبهانية ، اما بيت الجبل الكائن في الزاوية الشمالية فقد بني في العقد الاخير من القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد شهدت قلعة بهلاء حروبا وقصفا بالطائرات في عام ١٩٥٧ ، ومدينة بهلاء ذات اكتفاء ذاتي من المواد الغذائية والمياه .

بنيت السلالم الداخلية للقلعة كالأسوار الخارجية من الطين وهي مطلية بالجص والصاروج الذي يشبه الى حد كبير مادة الاسمنت المعروفة الآن ، وهي مادة أقوى من الاسمنت كانت تصنع في عمان في العصور الغابرة .



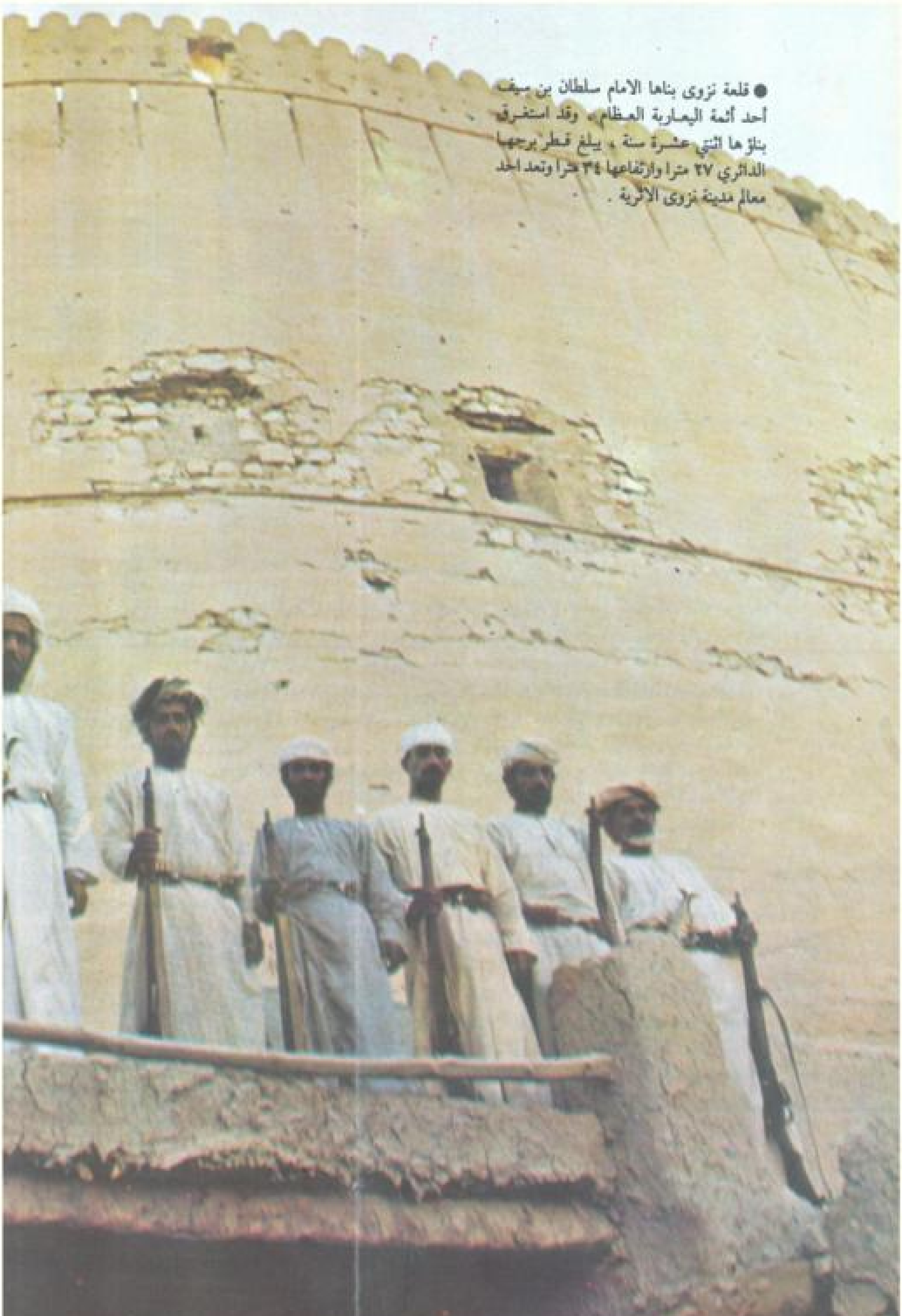
معظم الحصون والقلاع العمانية الحديثة بنيت في مناطق تكثر فيها زراعة النخيل والحمضيات

ميراني والجلالي

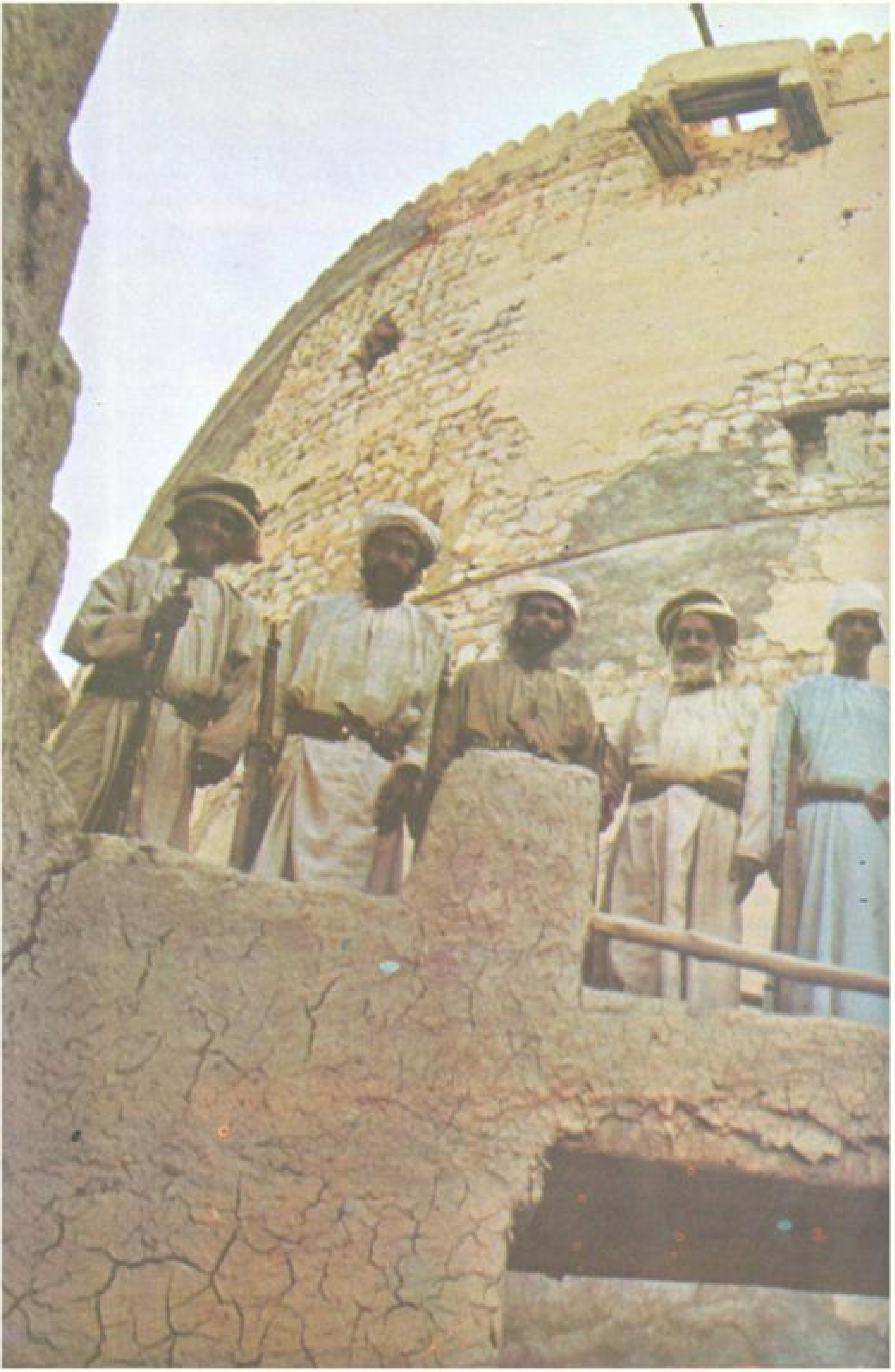
مع بداية القرن السادس عشر الميلادي بدأت حركة توسع الدول الاوروبية في المحيط الهندي حين دعتها الحاجة الى البحث عن طرق جديدة للتجارة ، وكان البرتغاليون اول الدول الاوروبية التي حاولت تأسيس امبراطورية عظيمة في المشرق ، فبعد ان زاد البرتغاليون قوتهم البحرية والعسكرية في المحيط الهندي ، انطلق (الفونسودا البوكيرك) الى المحيط يقود اسطولاً مؤلفاً من خمس سفن حربية ، فاستولى على سكوتا وجعلها قاعدة لحصار البحر الاحمر ثم سعى الى الاستيلاء على هرمز التي كانت في ذلك الوقت تسيطر على تجارة الخليج ، وكان من الطبيعي ان يلتفت البوكيرك الى موانئ عمان التي وجدها في حالة مزدهرة يساندها ازدهار الزراعة في الداخل ، فدمر ميناني قلهات ومسقط واحرقهما ، كما عاث البوكيرك تقتيلاً وتدميراً في « خورفكان » وهو في طريقه الى هرمز ، حيث الحق الهزيمة بالاسطول الهرمزي الضخم ، وقام ببناء سلسلة من القلاع البرتغالية التي بنيت في البلاد المطلة على المحيط الهندي والخليج .

ومع ذلك فان البرتغاليين لم يعطلوا نمط الحياة والتجارة في الخليج ، ونظراً لانهم كانوا يعيشون في قلاعهم الكبيرة موصدين عليهم ابوابها ، فقد ظلوا معزولين عن اهالي البلاد ولم يكن بين الفريقين تعاطف يذكر ، بل لم تكن العلاقات بين العمانيين والبرتغال في يوم من الايام علاقات سهلة ، ومع ذلك ظل البرتغال يتمتعون بالسيادة على الخليج والمحيط الهندي ، ولكنها كانت سيادة تواجه تحديات .

لقد بنى البرتغاليون قلعتين عظيمتين هما قلعة ميراني والجلالي ، فقد تم بناء قلعة ميراني عام ١٥٨٧ م على يد القائد « بكوار » على نفس البقعة التي كان القائد « دون جواء اللشبوني » قد اقام قلعته فيها سنة ١٥٢٢ والتي هدمها القائد التركي الادميرال « بيرين رسيس » ، لقد طلب القائد « بكوار » من نائب الملك البرتغالي في الهند بأن يأذن له ببناء قلعتين للدفاع عن مسقط فسمح له ببناء « قلعة ميراني » و « قلعة الجلالي » وتزويدهما بكل ما تحتاجانه من وسائل الحماية والتحصينات ، وتوالت المباني حتى عام ١٦١٠ فأضيف الى قلعة ميراني برج كبير لمنع قوارب الصيد العمانية من ان تمر بجانب القلعة وتحتفظ قلعة الميراني بأبرشيتها القديمة وقد ذاعت شهرة قلعة ميراني



● قلعة نزوى بناها الامام سلطان بن سيف أحد أئمة اليعاربة العظام، وقد استغرق بناؤها اثني عشرة سنة ، يبلغ قطر برجها الدائري ٣٧ مترا وارتفاعها ٣٤ مترا وتعد احد معالم مدينة نزوى الأثرية .



حتى اصبح يضرب بها المثل في قوتها ومناعتها .

اما قلعة الجلالي فتقع على سفح جبل عال مطل على قصر العلم ، وهي معروفة ايضا بالقلعة الشرقية وقد بنى البرتغاليون قلعة اخرى في مطرح . ومما يجدر ذكره ان البرتغاليين حاولوا بث روح التبشير للدين المسيحي وذلك ببناء ثلاث كنائس إحداها كاتدرائية ملحقة بدير الفسطين ، وكنيسة أخرى تقع اليوم قرب السفارة البريطانية في مسقط قرب قلعة جلالي ثم المعبد الصغير في قلعة ميراني وهي لا تزال باقية حتى وقتنا الحاضر ، ولم نستطع زيارة هاتين القلعتين لأن المسئولين في السلطنة يستخدمونها لبعض الامور الامنية للبلاد .

خروج البرتغال من عمان

لم يصبر العمانيون على احتلال البرتغال لأرضهم ، فقاموا بعدة ثورات اهمها الثورة التي حدثت في هرمز وتوابعها على ساحل عمان وفي مدينة مسقط ومدينة قريات وصحار سنة ١٥٢١ ، كما ان الاتراك العثمانيين استاءوا من استمرار الحصار البرتغالي للبحر الاحمر فأرسلوا حملات بحرية لقتال البرتغاليين في المحيط الهندي ، وقد استطاع الأتراك بقيادة « علي بك » من فتح مسقط بعد ان باغتوا البرتغاليين ، فهربوا الى الداخل ، وكانت هذه الهزيمة مدعاة للحكومة البرتغالية الى اصدار اوامرها بزيادة التحصينات وبناء قلعتين عظيمتين هما قلعتا ميراني والجلالي .

وقد مهد الامام ناصر بن مرشد الطريق لاخراج البرتغاليين من عمان عام ١٦٤٣ وتلاه ابن عمه الامام سلطان بن سيف الذي كان رجل حرب من الطراز الاول فتمكن أن يلحق بالبرتغاليين الهزيمة نتيجة خدعة حربية مكنت العمانيين من مهاجمة قلاعهم بنجاح ، وكان استسلام القائد البرتغالي في مطرح للامام سلطان بن سيف بمثابة خاتمة النفوذ البرتغالي في عمان .

الاباضية والامامة

المعروف ان سلطنة عمان تتبع المذهب الاباضي ، وهذا المذهب من اقدم المذاهب الاسلامية ، ويرجع المؤرخون نشأته الى جابر بن زيد ، وكان من كبار التابعين الذين نشروا الثقافة الاسلامية في القرن الاول الهجرى ، أخذ جابر بن زيد العلم عن عبد الله بن عباس ، وعن السيدة عائشة زوجة النبي ـ عليه الصلاة السلام وعن عبد الله بن عمر ، وقد اشتهر اتباع جابر بن زيد باسم



برج قلعة نزوى الشهيرة وهما من أرفع قلاع عمان قاطبة .

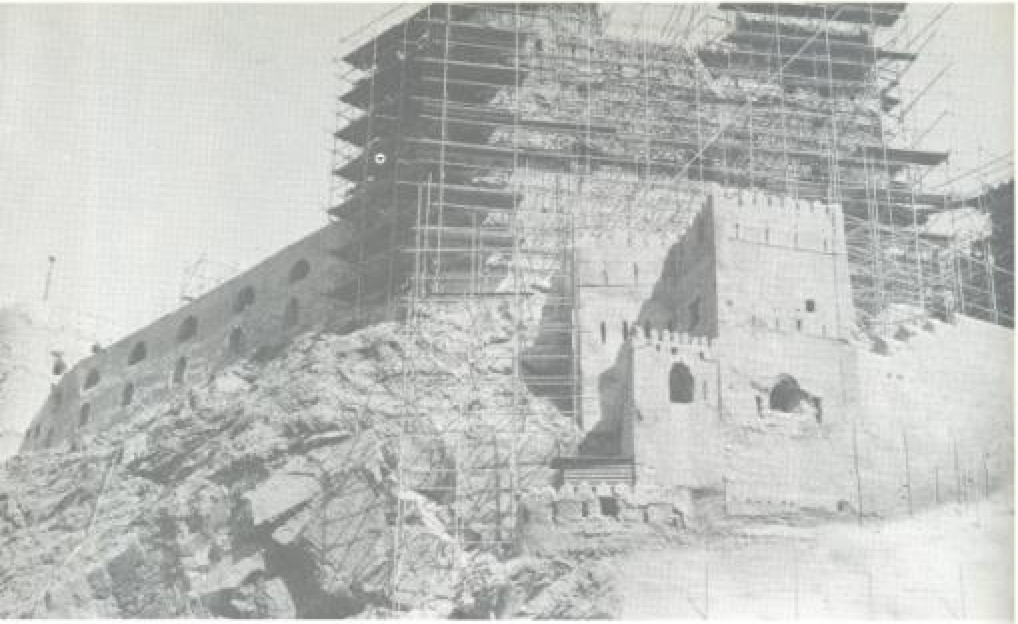
الاباضية نسبة الى قائدهم عبد الله بن اباض التميمي ، والاباضية رجال تقييد لا تقليد ، واهل اعتماد على الحق لاعلى الخلق ، يتعبدون بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، فليس لهم مذهب خاص يتقيدون به تبعا لعالم خاص من علماء المسلمين كأبي حنيفة أو أحمد بن حنبل أو غيرهم من علماء المسلمين .

يعتمد الاباضيون على ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله الأمين على الصحيح من الاوامر الشرعية متبعين سنة الخليفتين ابي بكر وعمر ، وفي اعتبارهم ان الولاية والبراءة هما محور الايمان وبها تقوم دعائمه .

لقد استطاع مشايخ الاباضية استغلال المشاكل التي واجهتها الدولة الأموية ، فأوعزوا الى اتباعهم باعلان الأمامة في بعض المناطق ، واستطاعوا تأسيس امامة اباضية في كل من حضرموت واليمن وعمان ، ومنذ ذلك التاريخ اصبح تاريخ عمان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمذهب الاباضي ، بحيث لا يمكن فهم تاريخ ذلك القطر بمعزل عن تاريخ الحركة الاباضية . وقد انتشر المذهب الاباضي في بعض اجزاء من امارات الخليج واليمن وفي زنجبار وفي بعض مواقع من افريقية الشرقية واجزاء من بلاد المغرب في شمال افريقية .

الامامة واليعاربة

يرجع نشوء الامامة في عمان الى التطلعات المثالية للمذهب الاباضي التي استهدفت اقامة الدولة



عمليات ترميم القلاع والحصون في السلطنة تجري على قدم وساق .

الاسلامية ، وقد ساعدت الاحداث والاختلافات المذهبية في العراق وما تركته من تأثير على الأزد الحافز الضروري لنشوء الامامة ويعد الجلندي بن مسعود الامام الأول ، وقد اختير اماما عام ٧٥١م ولكن امامته لم تدم طويلا ، استمرت الامامة بعد ذلك فترة ثلاثمائة سنة او تزيد دون انقطاع ، كان تعيين الامام يتم عن طريق الانتخاب ، ويصف لنا المؤرخ العماني سليل بن رزيق الذي عاش في القرن العاشر الميلادي كيفية انتخاب الامام وطريقة تعيينه ، فقد اجتمع اربعة من الوجهاء ذوي المكانة والفضل في منزل الامام الذي سيتم اختياره ، وتم الاتفاق في ذلك الاجتماع على المباديء التي تحكم البلاد على أساسها ، ومن عادتهم ان يبايع المجتمعون الامام ويجتمع حشد من الناس يمثلون عددا كبيرا من المدن العمانية حيث يلقى عليهم كلمة يدعو فيها الناس الى مبايعته ، فيخف الناس الى بيعته بان يقدموا اليه فرادى او مثنى ، ثم يعين الامام ولاته على كل المدن والمناطق ويعتمد جباة للصدقات ويصلي بالناس صلاة الجمعة .

لقد مارس هؤلاء الأئمة المهام الروحية والسياسية والعسكرية مجتمعة ، وكان الامام الزعيم الروحي الذي يؤم الاهلين في صلاة الجمعة ، كما كان يعتبر محكمة التمييز العليا في كل الامور الدينية بالاضافة الى ادارته لشئون الحكم ، وجباية الضرائب في الحدود التي كان يستطيع فيها فرض ارادته .

أئمة اليعاربة وحصونهم

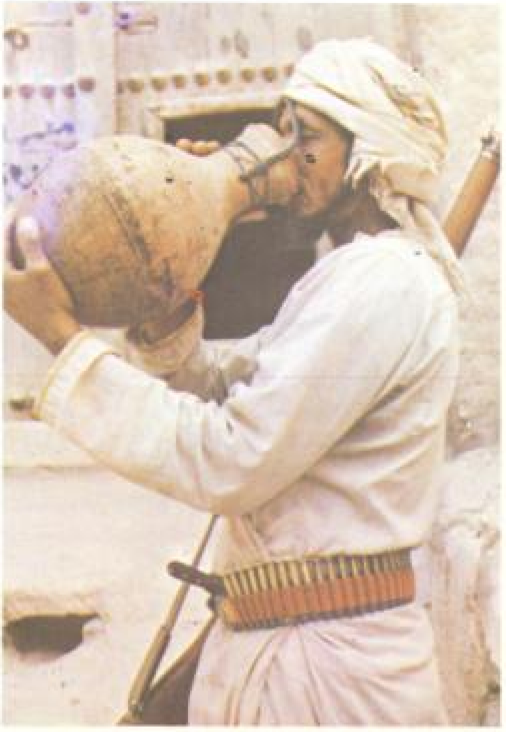
يعد الامام ناصر بن مرشد وابن عمه سلطان بن سيف من أوائل أئمة السلالة اليعربية التي تمكنت من اجلاء البرتغاليين من مواقعهم الحصينة في عمان ، ويعد حكم اليعاربة من الفترات المزدهرة للبلاد ، فقد ادى توحيد البلاد في ظل حكام أقوياء الى بعث قوة البلاد البحرية والعسكرية ، وازدهار التجارة ، وتشجيع العلم وانتشاره والى تشييد العديد من القلاع الحصينة التي تجمع بين المتانة والقوة والجمال والاناقة .

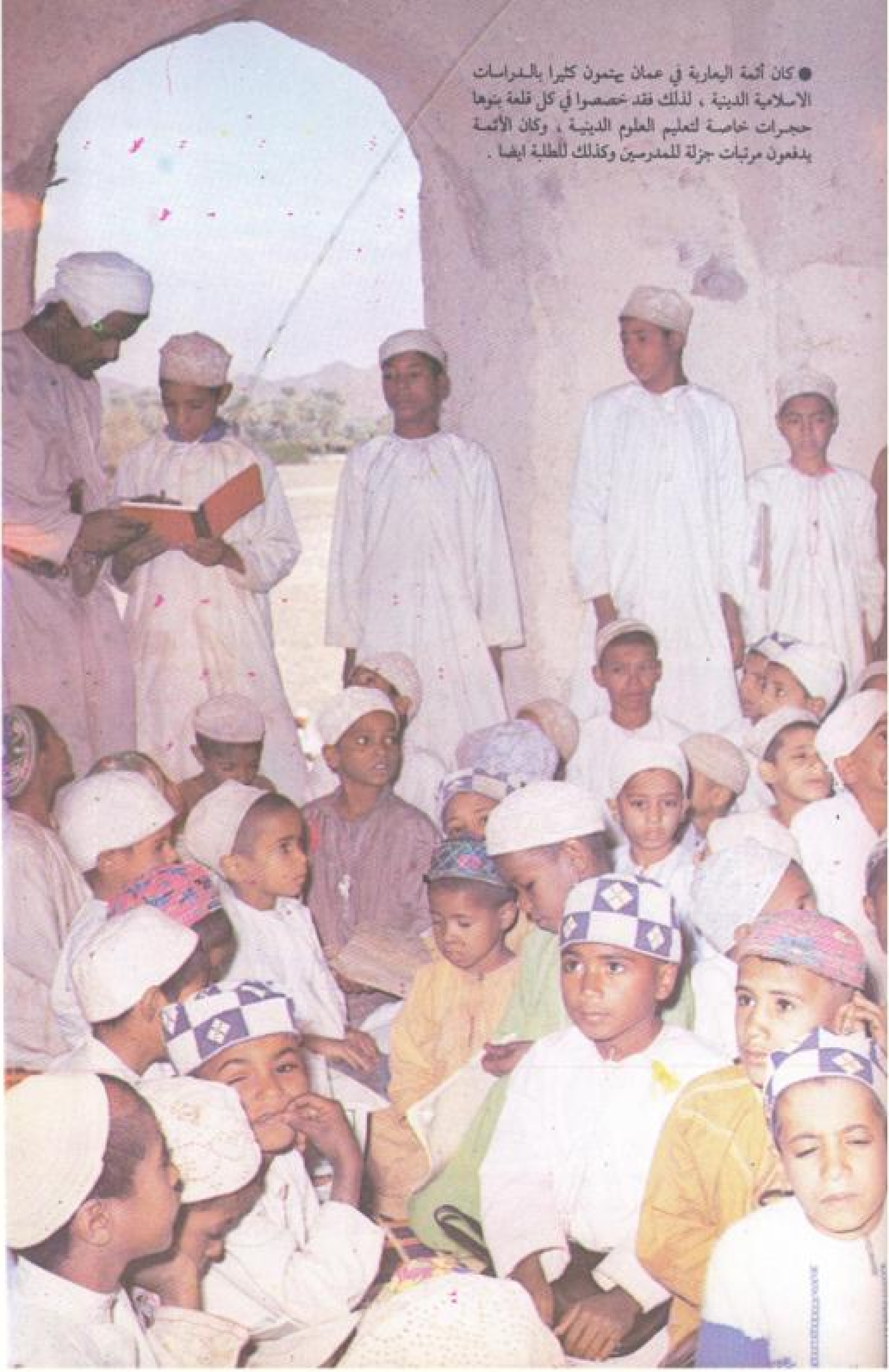
بنى الامام سلطان بن سيف بن مالك اليعربي القلعة المستديرة في « نزوى » ، وقد استغرق بناؤها اثنى عشر عاما وانتهى بناؤها عام ١٦٦٨م ، يبلغ قطر برجها الدائري ٢٧ مترا ، أما ارتفاعها فهو ٣٤ مترا وهي عبارة عن كتلة من الصخور ـ وللقلعة سبعة ابواب ثم فتحات عدة لمرامي المدافع ثم مساقط تستخدم في حالة الحصار ، بأن يسكب من خلالها الزيت او العسل الحار اثناء دخول الاعداء القلعة ، وقد اولى المسؤولون في السلطنة عناية خاصة بترميم هذه القلاع ، ووضعت دراسات شاملة لترميمها واعادتها كما كانت عليه من قبل ، ومدينة « نزوى » تعد اليوم من المراكز الادارية الكبيرة في سلطنة عمان ، يتراوح سكانها بين ٥٠ ألفا الى ٦٠ الف نسمة ، ويزاول اهلها الزراعة والتجارة ، وتمتاز « نزوى »





● أحد حراس قلعة بهلاء يمسك قفلا أثريا كان يوصد به احد ابواب تلك القلعة القديمة . (أعلاه) حارس القلعة يطفيء ظمأه بشربة ماء من وعاء فخاري تقليدي تشتهر بصناعته مدينة نزوى في عمان الباطن . (أسفل) .





● كان أئمة اليعاربة في عمان يهتمون كثيرا بالدراسات الاسلامية الدينية ، لذلك فقد خصصوا في كل قلعة بنوها حجرات خاصة لتعليم العلوم الدينية ، وكان الأئمة يدفعون مرتبات جزلة للمدرسين وكذلك للطلبة ايضا .

بزراعة النخيل والتمور والحمضيات بكافة انواعها . يقول السيد محمدبن احمد الحارثي والي مدينة نزوى : « ان هذه المدينة تشتهر بكثرة نخيلها ، واشهر انواعها الخلاص والرزيز والهلالي ، بالاضافة الى زراعة الحمضيات والحبوب وفي نزوى معهد زراعي ، ومدرسة ثانوية داخلية تخدم سكان المناطق القريبة ، ومعهد زراعي قدم خدمات جليلة للمزارعين .

أفلاج المياه

المعروف ان سلطنة عمان هي احدى الدول الخليجية المتميزة بكون الزراعة هي أحد المصادر الرئيسية لحياة شعبها ، لذا اتبعت نظاما فريدا هو نظام « الافلاج » او القنوات المائية ، فقد ابتكر العمانيون طريقة هندسية فريدة من نوعها منذ القدم للانتفاع بالمياه الجوفية وهي سارية الى يومنا هذا وتعرف (بري الافلاج) ، للذلك بذل الانسان العماني كل جهده من اجل ضمان انسياب مستمر للمياه بدون انقطاع طوال العام ، فقام بحفر الافلاج لايصال المياه الى الأراضي الزراعية القريبة من منابع الافلاج ، لذا فان الافلاج هذه تعد من الاركان الطبيعية والضرورية في حياة المزارع العماني الذي يقوم بزراعة اشجار الفواكه والنخيل والحبوب طوال العام ، كما نشأت القرى والمدن حول تلك الافلاج ، والفلج يبلغ عدة كيلومترات ، ولهذا فهو يمر بمناطق متعددة ويتم توزيع مياهه على المزارعين بحيث يأخذ كل واحد منهم من مائه حسب نصيبه ، لان مياه الفلج يعتبر ملكا لاهله . ويبلغ عدد الافلاج في السلطنة حوالي اربعة الاف فلج ، وهذه الافلاج يختلف بعضها عن بعض بالنسبة للمساحات التي ترويها ، فهناك افلاج يبلغ طولها ١٢ كيلومترا وفلج يبلغ طوله نصف كيلومتر .

قلعتا الحزم وجبرين

أما أهم قلعتين بنيتا خلال حكم الائمة اليعاربة فهما قلعتا « الحزم » و « جبرين » ، فقلعة الحزم التي تقع في قرية الحزم تبعد عن العاصمة « مسقط » بنحو ١٢٠ كيلومترا ، قام ببنائها الامام سيف بن سلطان بن سيف اليعربي عام ١٧٠٨م وهو الذي شارك في محاربة البرتغال وجلائهم عن مسقط ، ومطاردتهم في الخليج .

تمتاز قلعة الحزم بموقعها الحصين على الشريط الساحلي وتعد من المباني الهندسية الرائعة ، وتحكي كتب التاريخ ان مبالغ هائلة انفقها الامام سيف في بناء هذا الحصن وتمتاز



بوابة قلعة الحزم الحصينة وتظهر المسامير والنقوش العمانية بارزة .



فيصل بن علي وزير الثقافة والتراث القومي قال : وضعنا خطة متكاملة لترسيم القلاع والحصون في السلطنة .



هكذا تبدو قلعة جبرين من الداخل بعد أن تم ترميمها .

هذه القلعة بعدم وجود اية اخشاب لسقوف القلعة ، واما سقوف القلعة فهي عقود مستديرة ثابتة على اسطوانات وسوار ضخمة مبنية بالجص والحجر الاصم ، ولايقل مساحة عرض الجدار الواحد عن ثلاثة امتار ، وللقلعة عدة ابواب ضخمة ، وهذه الأبواب لا تلتقي بممر واحد وفي القلعة عدة مدافع اثرية برتغالية واسبانية كانت تستخدم لضرب العدو من مسافات بعيدة . وفي القلعة عدة سلالم خاصة لصعود الخيل ، بالاضافة الى ممرات سرية عرض كل متران بارتفاع مترين وهذه الممرات السرية تمر بجهات الحصن الاربع وتخرج بعد ذلك الى المدينة كما ان لكل طريق منفذا يؤدي الى خارج الحصن اذا حصل اي حصار على القلعة ، كما ان في القلعة غرفا كانت تستخدم لتدريس القرآن والدراسات الدينية ، وهناك مساقط يحمي الزيت او العسل ويصب من خلالها على الاعداء ، اذا ما داهموا الحصن او الابواب الرئيسية فيه ، وقد بني الحصن بطريقة تسمح بدخول الهواء البارد الى حجرات الحصن او الممرات والصالات الرئيسية بحيث يكون الجو مريحا ايام الصيف ، كما يخترق الحصن فلج ذو مياه ثابتة تتدفق مياهه حتى الآن لسقي من في الحصن وري النخيل الكثير الذي يحيط بالحصن ، وهناك آبار عدة كانت تستخدم في حالة الحرب اذا ما انقطعت مياه الفلج من قبل الاعداء .

جبرين

أما قلعة جبرين فهي الاخرى من القلاع المهمة التي بناها ائمة اليعاربة اثناء حكمهم ، وهي من اجمل قلاع عمان .

بنيت هذه القلعة في أواخر القرن السابع عشر ، واصبحت مقر العلوم والفنون والصناعات العمانية بناها الامام بلعرب بن سلطان سنة ١٦٧٠ ، وقد صممت القلعة في البداية لتكون قصرا ريفيا أنيقا لاقامة هذا الامام زمن السلم ، وقد عدل بعد ذلك بان اضيفت اليه زيادات دفاعية من كل نوع ، فحول الى معقل جيد التحصين .

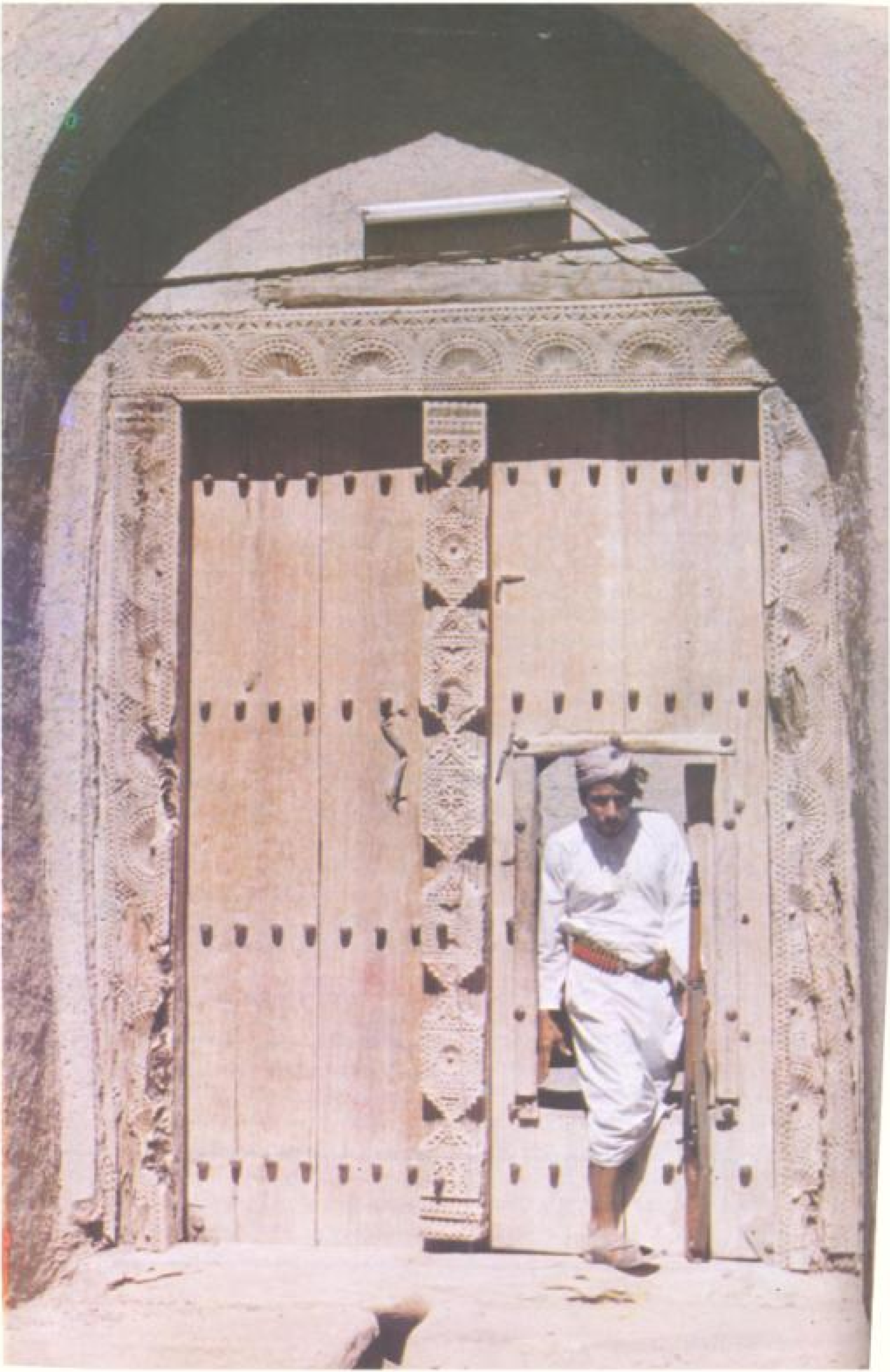
تقوم قلعة جبرين وسط واحة صغيرة في منطقة تكثر فيها اشجار النخيل وتطل القلعة على مباني البلدة المتواضعة المبنية باللبن والطين وتسمى البلدة اليوم « جبرين » وتبعد عن مسقط العاصمة نحو ١٥٠ كيلومترا ، وواحة جبرين وسط سهل واسع عند نهاية السلسلة الكبرى الاولى من الجبل الاخضر .

يقول الاستاذ يوجينيو كالديري اخصائي الآثار الذي قدم دراسة هندسية تاريخية لهذا الحصن ، ان البرجين اللذين يقفان شمال هذا القصر وجنوبه يسيطران على مساحة واسعة تكاد تخلو من النبات ، وموقع المبنى يوحي



● قلعة جبرين بناها الامام بلعرب بن سلطان اليعربي وهي من اجمل قلاع عمان على الاطلاق . (اعلى) احد الابواب الخشبية الضخمة لقلعة نزوى وتلاحظ الزخرفة الخشبية العمانية التي تمتاز بها معظم ابواب القلاع (الى اليسار) . يهتم المسؤولون عن القلاع بتشديد الحراسة على القلاع والحصون والمعالم الاثرية خوفا من تعرض هذه الآثار للعبث او السرقة . (اسفل) .





بان له قيمة استراتيجية عظمى ، ولكن اذا نظرنا اليه من خارجه تتبدى نواقصه بسبب عزلته عن اي معقل طبيعي يسهل الدفاع عنه ، وواضح ان اجهزة الدفاع عن المبنى قد اضيفت في فترة لاحقة وهي تدل على أنها للردع لا لشن الحروب ، وفي هذا الحصن فلج يشق المبنى من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ويضم المبنى رفات منشئه الامام بلعرب بن سلطان الذي توفي سنة ١٦٩٢م .

هذا الحصن ارضه مستطيلة مقياسها ٤٣×٢٢مترا مربعا ، ويتراوح ارتفاعه بين ١٦ ـ ٢٢ مترا على مكانين متعارضين قطريا ، ينتهي المبنى ببرجين كبيرين اسطوانيي الشكل ، متصلين بجدران المبنى الرئيسي ، والبناء كله من حجارة كبيرة مرصوصة بطين وجص تكسوها طبقة سميكة من الجص ، ويحيط بالمبنى سوران من اللبن والباب الرئيسي للقلعة يقع في الزاوية الشرقية للحصن .

وفي داخل الحصن . . . فهناك صحنان متجاوران تحيط بهما حجرات مختلفة في طبقتين او ثلاث بحسب ارتفاع البناء ، وغالبية الحجرات الرئيسية ترتفع حوالي ٨ امتار ، وهي حجرات استقبال كبيرة سقوفها مستوية مصنوعة من كتل خشبية ، بها طاقات عالية مقسومة الى قسمين : الأعلى مزدان بشبكة من الجص من الجانب الخارجي تسمح بالتهوية والنور ، اما الجزء السفلي فيكاد يكون على مستوى ارض الحجرة ، ويمكن اغلاقه بدفتين صغيرتين من الخشب . والسقف الخشبي محفور ومزخرف وغالبا ما يزدان بكتابات من آيات القرآن الكريم او الشعر او رسوم لبعض الزهور .

يقول الاستاذ يوجينيو كالدبري ان وجود شبكات من الجص المركبة من أشكال مثمنة الاضلاع يعود الى تأثير فارسي زمن الصفويين ، وهو طراز سائد ببلاد فارس ، وهذا الطراز متوفر في بعض ابنية مدن عمان وخاصة في مدينتي « مسقط » و « مطرح » ، ويبدو هذا الطراز من البناء في قصر او قلعة جبرين بوضوح ، كما ان الهيئة المعمارية فارسية ، وهي تشبه الى حد كبير العمارة الصفوية في قصر (جهل ستون) في اصفهان .

وكان في هذه القلعة مدرسة علمية كان الامام بلعرب بن سلطان اليعربي يدفع لمدرسيها رواتب ثابتة ، كما كان يدفع للطلبة منحا تكفي تكاليفهم . ولكن نشأ خلاف بينه وبين اخيه سيف بن سلطان ادى الى الفوضى بين الاهلين ، واستطاع سيف بن سلطان فرض سيطرته على كل القلاع الرئيسية مما اعطاه قوة كافية ضمنت له البيعة بالامامة في حياة اخيه بلعرب ، وانتهى الامر الى ان وجد بلعرب نفسه محاصرا في قلعته جبرين ، ودفن بلعرب في ضريح جميل تحت قلعة جبرين .

ترميم القلاع

والحقيقة ان المسؤولين في السلطنة أولوا هذه القلاع كثيرا من اهتمامهم وذلك بترميم هذه القلاع ودراستها من قبل الاخصائيين ، لذلك جاء العديد من علماء الآثار الايطاليين والألمان والانجليز لابداء الرأي وتقديم المشورة للطريقة المثلى للحفاظ على هذا التراث القومي ، لقد شاهدنا عمليات الترميم هذه في عدة حصون ، منها « حصن مطرح » القريب من مسقط ، وكذلك « قلعة الجلالي » وهناك عمليات ترميم تجري على اجزاء من قلعة نزوى وقلعة الحزم وقلعة جبرين .

وكان لنا لقاء مع معالي السيد فيصل بن علي وزير التراث القومي والثقافة ، كي نتحدث معه عن جوانب تخص القلاع والحصون والسياسة الرشيدة التي يتبعها في ترميم هذه القلاع ، وكان اول سؤال لنا عن الخطة التي وضعتها وزارة الثقافة لتقصي الاعداد الوفيرة للقلاع في السلطنة فاجابنا قائلا : ان وزارة التراث القومي قد وضعت خطة متكاملة لدراسة القلاع والحصون في مختلف انحاء السلطنة ثم كتابة تاريخ مفصل عن كل حصن او قلعة واصداره في كتاب ضخم يحكي تاريخ واسماء من أسسوها ، واننا بهذا العمل سوف نوضح جانبا مشرقا من جوانب تاريخنا المجيد .

وعن ترميم القلاع والحصون قال سعادته : « ان الوزارة تقوم الآن بترميم بعض القلاع التي لها اهمية ، وتمثل جانبا من جوانب تاريخنا القومي ، هناك عمليات ترميم لقلعة مطرح ، وكذلك قلعة الجلالي في مسقط كما اننا نولي اهتماما كبيرا بالقلاع التي اسسها ائمة اليعاربة في « نزوى » و « الحزم » و « جبرين » لما لهذه القلاع من اهمية كبرى في تاريخنا الحديث كما انه بالامكان المحافظة على هذه الابنية لان معالمها واضحة وبامكان الاخصائيين والمهندسين اجراء الترميمات اللازمة واعادتها الى سابق عهدها » .

وحول سؤال عن امكانية ادخال بعض الأجهزة التقنية الحديثة على هذه القلاع للصوت والضوء ، وعرض هذا في المناسبات الوطنية والقومية قال سعادته : « انه حتى الآن لم تحدد خطة لذلك ونأمل في المستقبل القريب ان تدخل مثل هذا المشروع على آثارنا الخالدة ، لنواكب النهضة العالمية التي سبقتنا اليها بعض الدول ، ونجسم تاريخنا المجيد الحافل لابناء وطننا العزيز » . ■■

صادق يلي

حل مسابقة العدد ٢٧٧

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
١	م	ا	ت	ز	ى	ن	ى	●	م	ن	ى	س	و	ت	ا
٢	ا	ج	ا	ر	ب	هـ	م	■	ى	ع	ى	د	■	خ	ل
٣	ر	م	■	ع	ل	ل	ا	■	ل	ا	■	ى	س	ا	ق
٤	ك	د	ت	■	و	ا	م	■	ا	ن	ا	■	ع	ل	ى
٥	و	ب	ى	ل	هـ	■	هـ	ا	ن	ى	ب	ا	ل	■	و
٦	ن	ن	■	ن	ا	س	■	ل	و	■	و	ل	■	ب	د
٧	ى	م	ل	ك	■	ل	غ	ط	■	ا	ظ	ا	ف	ر	■
٨	●	ا	ب	و	ج	ا	ب	ر	ا	ل	ب	ت	ا	ن	ى
٩	ا	ج	■	ل	ى	ل	■	ط	و	ك	ى	و	■	ا	و
١٠	ب	د	ى	ن	■	ا	ل	و	ر	ى	■	ن	ق	ر	س
١١	و	■	م	■	و	ت	■	ش	ا	ر	ع	■	هـ	د	ف
١٢	ت	م	ى	ى	ز	■	ر	ى	ن	و	ا	ر	■	ش	■
١٣	م	ى	ت	ر	ن	ى	خ	■	ى	س	■	م	س	و	ر
١٤	ا	و	■	ب	■	ر	ى	■	و	ى	ل	ا	ت	■	د
١٥	م	ل	ح	ط	ع	ا	م	■	س	ن	ب	ل	هـ	■	ى

أفقيا
أبو جابر البتانى
رأسيا
الطرطوشى

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا :

أبو جابر البتاني . فلكي ومهندس عربي ، من أهل حران ، كانت له كشوف فلكية هامة في حركة الأوج الشمسي ، وفي رصد الخسوف والكسوف . وكان أول من اخترع النسب المثلثية .

(٨) رأسيا : الطرطوشي . فقيه مالكي ولد بالاندلس ، وتوفي بالاسكندرية عام ١١٢٦ م . كثير الاسفار . وضع « سراج الملوك » ، و « المواعظ » و « بر الوالدين » .

الفائزون بالجوائز

■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : بديعة بو صالحي / مليانة/ الجزائر

■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : اميد نوري محمد /السليمانية/ العراق

■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : كافي بوشعيب / الدار البيضاء / المغرب

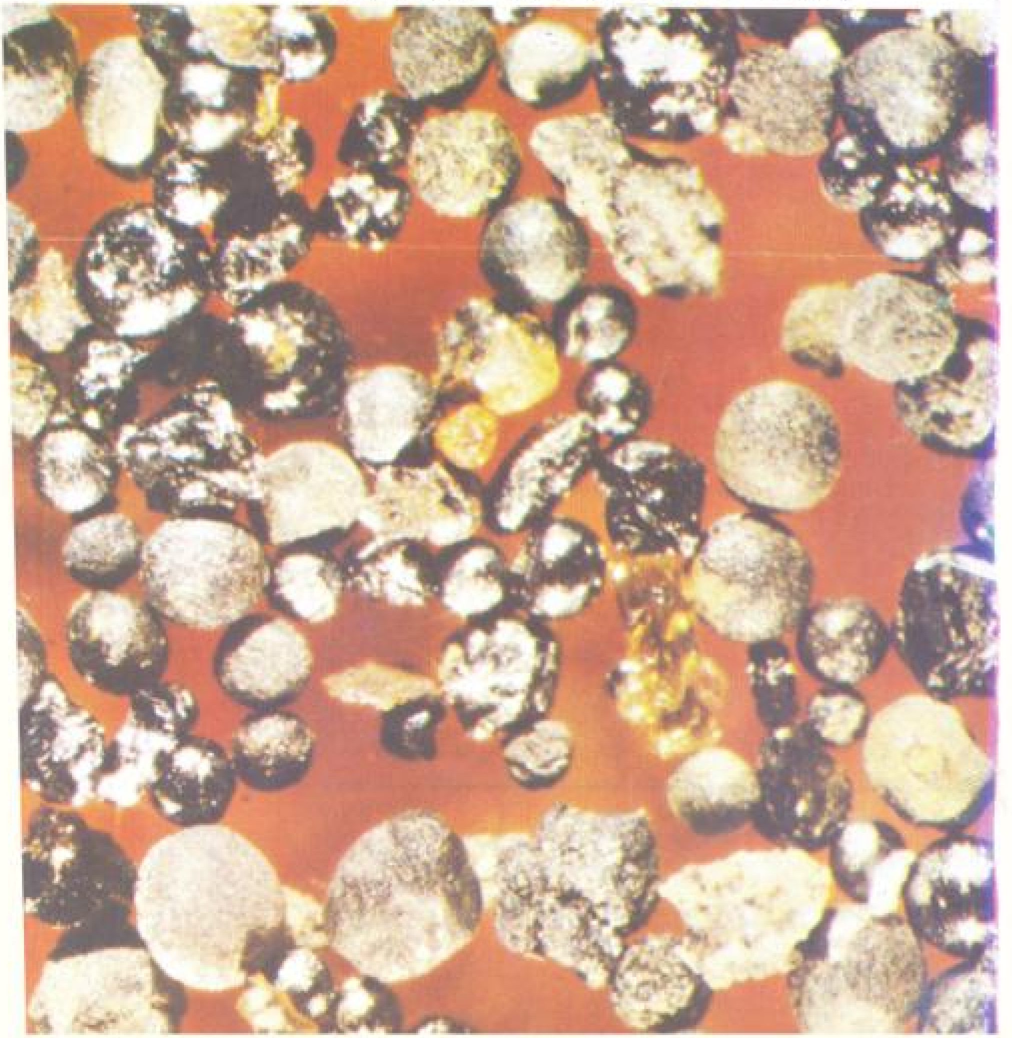
٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ عزالدين أحمد عبد الرحمن ـ الخرطوم / السودان
٢ ـ راغب مصطفى السمري ـ دقهلية / مصر
٣ ـ امين فتحي عبد الواحد ـ الكويت
٤ ـ مازن محمود غانم ـ دمشق / سوريا
٥ ـ محمد محمد كامل عاشور ـ بلجرش / السعودية
٦ ـ سلوى الحداد ـ بيروت / لبنان
٧ ـ علوي علي احمد الزبيري ـ صنعاء / اليمن الشمالي
٨ ـ شعبان نمر عبد العزيز ـ رأس الخيمة / الامارات العربية المتحدة

وكالات أنباء تهبط من السماء

بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

عينات من غبار متساقط من الفضاء وقد كبره لنا الميكروسكوب المجسم مئات المرات ، وهو ليس كالغبار الأرضي في تكوينه وطبيعته ، ولهذا يحمل في طياته بعض أنباء السماء (راجع المتن) .





الصورة توضح قطاعا رقيقا في نيزك صخري سقط في الهند عام ١٩٧٦ .. وفيه يرى العلماء تكوينات غريبة ، توضح ما مر به من احداث في السماء ، وتعكس في الوقت ذاته جزءا من قصة نشأة المجموعة الشمسية .

قد يعن للبعض ان يزيل الغبار المتساقط على كتاب مهجور ، او مكتب او تحفة او ما شابه ذلك ، وهو لا يعلم ان من بين هذا الغبار « زوارا » قد هبطوا من السماء ، ونحن ـ بطبيعة الحال ـ لانستطيع ان نميز بعيوننا المجردة هؤلاء الذين اندسوا بين الغبار ، لأن الزائر منهم لايختلف في الشكل عن الغبار ، وان كان يختلف في المضمون !

وعلى هذا المضمون الذي هبط الى الارض من السماء ، انصبت دراسات وبحوث العلماء ، فلهذه الدراسات مغزى ومعنى ، لأن ما هبط غبار سماوي يحمل في طياته بعض الأنباء ، فكأنما هو بمثابة لوح مسطور بلغة سرية .. من فك رموزها ، وعرف طلاسمها ، تفتحت له اسرار مطوية ، لتعطيه فكرة مبدئية عن الكون وما حوى ، والفضاء وما طوى !

ومع هذا الغبار المتساقط دوما ، قد تسقط ايضا كسف من السماء على هيئة قطع من المعادن والاحجار ، وهي هنا اصدق وأغزر انباء من الغبار ، اذ ينظر العلماء اليها كما ينظر علماء الآثار الى حجر رشيد الذي تضمن طلاسم اللغة المصرية القديمة ، وبها قرءوا تاريخ الفراعنة ، وعرفوا انماط فكرهم وحياتهم وعباداتهم ... الخ . وكذلك تكون الأحجار المتساقطة من السماء ، فكأنما كل حجر منها بمثابة حجر رشيد الكون » ، لأن تكويناتها تحمل ايضا في طياتها لغات خاصة لا يعرفها الا علماء الطبيعة الكونية ، وكأنما هي بدورها تقرئنا تاريخ السماوات كيف قامت ، وبأجرامها وافلاكها قد استوت وسارت !

كلام لاشك غريب ومثير .. فماذا يعني كل ذلك حقا ؟

الحصيلة بملايين الأطنان

يعني ان لكل فرع من فروع المعرفة رواده المتخصصين ، فكما ان هناك علماء متخصصين في الذرة والطب والبيولوجيا والأرصاد والفلك والاليكترونيات وما شابه ذلك ، كذلك يوجد علماء متخصصون في دراسة طبيعة الكون ومادته ونشأته وتطوره .. الخ ، ولقد كنا ـ الى عهد قريب ـ لانستطيع ان نحصل على عينات من مادة الأجرام السماوية ، لكي ندرس تكوينها ، الا ان هذه العينات كانت تأتي الينا بالمجان ، ودون ما حاجة الى ارسال صواريخ كونية ، لكي تحضر لنا عينات من الاجرام السماوية .. فالجرم الوحيد الذي هبط الانسان عليه ، وحصل على عينات من صخوره كان القمر ، لأنه اقرب جسم سماوي الى الارض ، ومع ذلك فقد تكلفت هذه العملية بلايين الدولارات !

لكن المعرفة بطبيعة الكون والحياة تستحق ذلك وزيادة ، ومع هذا فقد كانت السماء كريمة معنا غاية الكرم ، لأنها تمنحنا في كل يوم ما يزيد على ثلاثة آلاف طن من المادة الكونية ، اكثرها ـ او حوالي : ٨٥٪ منها ـ على هيئة غبار ، والباقي معادن واحجار ، وهي ما نعرفه باسم الشهب والنيازك (انظر دراستنا في عدد سابق من هذه المجلة بعنوان مهرجان من ضياء .. تتجلى في السماء) .

على انه في تقدير آخر قد تصل هذه الكمية الى حوالي خمسة ملايين طن سنويا ، اوحوالي ١٣ الف طن يوميا ، اذ عندما صعد عالم الفيزياء الأرضية هانزبيترسون الى أعلى جبل في جزر هاواي ، وبعيدا عن اية مصادر ارضية وصناعية منتجة للغبار ، وجمع ما يتساقط هناك من غبار كوني على سطح الجبل ، او في قاع المحيط ، وجد ان الكمية تصل الى هذا المقدار المذكور آنفا !

وفي يوم ٨ فبراير عام ١٩٦٩ عثر العلماء على آلاف من الاحجار المختلفة الأحجام ، وقد تفتت من نيزك كبير سقط في منطقة خلوية بوادي « السريوديل فال دي أليتري » في شمال المكسيك ، وبلغ حصيلة ما جمعوه حوالي اربعة اطنان جادت بها السماء ، وكأنما هي كانت هدية قيمة للعلماء ، وعليها أجروا دراسات اوضحت ان تكوينها يحمل في طياته قصة نشأة المجموعة الشمسية منذ آلاف الملايين من السنين ، وقبل أن نوضح معنى هذا الاكتشاف المثير ، كان لزاما علينا ان نشير الى ان عدد الشهب والنيازك التي تتساقط يوميا نحو الأرض تنقسم الى ثلاثة أقسام ، ويعتمد هذا التقسيم على الاوزان أو الأحجام فأولها يتساقط بمعدل ٢٠ الف نيزك ، ويصل الى الارض على هيئة كتل صغيرة ، قد يزن كل منها جراما أو اكثر ، في حين ان اكثر من ٢٠٠ مليون شهاب ـ في حجم حبيبات الرمل ـ يدخل الغلاف الهوائي يوميا ، ويسبب توهجا خاطفا ، فتراه العين البشرية بوضوح في ظلام الليل ، وتوهج الشهب يدل على تفتتها واحتراقها وتحولها الى غبار دقيق يتساقط بدوره ليختلط بغبار الأرض ، او يتجمع على قاع البحار والمحيطات ، هذا بالاضافة الى بلايين فوق بلايين من غبار كوني آخر تجذبه الارض نحوها من اعماق الفضاء ، ولا يسبب لضآلته توهجا .

وكل هذا وغيره يعرفه العلماء ويعايشونه ليل نهار ، وهو فوق ذلك يثير افكارهم وتساؤلاتهم ، كما يثير ايضا فينا نفس التساؤلات .. فمن اين يجيء هذا الغبار ، او تلك الحجارة والمعادن ؟ .. وهل يعني ذلك ان الفضاء موبوء بمثل هذه الأجسام والجسيمات على الدوام ؟ .. وما هو مصدرها او نشأتها ؟ .. الخ

مصادر الشهب والنيازك

تتفق معظم المراجع العلمية على أن مصدر الاجسام الصلبة ـ اي النيازك ـ التي تسقط على الأرض ، تأتي أساسا من حزام مثير يعرف باسم حزام النجيمات أو الكويكبات ، وهو ـ كما ترى في الصورة المنشورة ـ يقع بين مداري كوكب المريخ وكوكب المشتري ، اي يبعد عن الشمس ما بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ مليون ميل ، وفي هذا الحزام المداري تتبعثر بلايين البلايين من الأجسام الصلبة التي تتراوح اوزانها ما بين جرامات الى ملايين الاطنان ، حتى لكأنك تحسب الكتل الكبيرة منها بمثابة جزر فضائية ، او جبال عظيمة سابحة في مداراتها حول الشمس ، اذ قد يصل قطر الكتلة الواحدة مئات الأميال !

ولاشك ان هذا الحطام المبعثر في حزام يبلغ سمكه عشرات الملايين من الأميال قد اوقع العلماء في حيص بيص ، فمنهم من يقول ان هذا الحطام كان لكوكب قائم في مدار ، ثم تحطم نتيجة لكارثة كونية ليست معروفة اسبابها تماما ، لكن معظم العلماء يتفق على ان حزام الكويكبات قد فشل في تجميع هذه الأشلاء ، او ذلك الحطام في جرم سماوي كبير ، ليصبح كوكبا ذا مدار حول الشمس اسوة بكواكب المجموعة الشمسية الصلبة القريبة نسبيا من الشمس مثل عطارد والزهرة والارض والمريخ ، او في توابع لهذه الكواكب مثل القمر ، او الاقمار الأخرى المحيطة ببعض الكواكب ، ومنهما الكوكبان الضخمان المشتري وزحل اللذان لايتكونان من مادة صلبة ، بل اساسا من غازات .. فكأنما هذا الحطام بمثابة مرحلة انتقالية بين الكواكب الصلبة القريبة من الشمس ، والكواكب الغازية البعيدة جدا عن الشمس . فلا هي تجمعت في كوكب صلب ، ولا هي بالكوكب الغازي .. بل بين بين !

هل يعنى هذا ان الكواكب التي نعرفها ـ ومنها ارضنا بطبيعة الحال ـ كانت قبل ذلك هباء منبثا ؟ ثم تجمع هذا الهباء شيئا فشيئا بمرور عشرات ومئات الملايين من السنين ، ليصبح اجراما لها وزنها ؟ .. وما يدرينا أن ذلك قد حدث حقا ؟

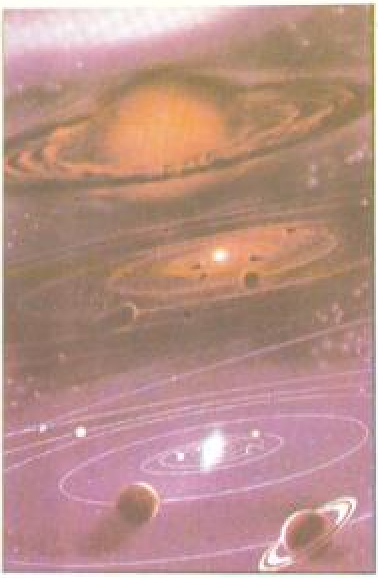
ان الشواهد الكثيرة التي جمعها العلماء من مصادر مختلفة تشير الى ذلك ، ومن ضمن هذه المصادر تبرز الكويكبات ، او ما يحل بارضنا من الكتل الصغيرة والكبيرة التي تسقط عليها كنيازك او غبار دقيق ، ففي طياتها سجلات كونية قديمة تشير الى اصلها وفصلها ، اي ان البداية كانت من غازات وغبار دقيق ، ولقد تجمع هذا بفعل قوى الجاذبية التي تلعب لعبتها الأزلية في كل الاجرام السماوية ، فمنها ما يصبح شمسا ومنها ما يصير كوكبا صلبا ، وغيرها يكون كوكبا غازيا ، او قد يبقى حطاما ، دون ان تواتيه الظروف المناسبة لكي يتجمع كما تجمع غيره في شموس وكواكب واقمار لها كيانها ومداراتها التي نعرفها فيما بين ايدينا من سجلات كان للعلم فيها صولات وجولات !

هل يعني ذلك ـ مرة اخرى ـ ان الشمس قد نشأت بدورها من ذلك الهباء المنبث في ارجاء السماوات ؟ .. ومن اين جاء ؟

هو ذلك ، لكن قصة نشأة الشموس والكواكب طويلة ومثيرة ، وقد تباعد بيننا وبين موضوعنا هذا ، لكن يكفي ان نشير هنا اشارة عابرة الى ان الكون ذاته يحتوي على ما هو قديم ، وما هو حديث ، ومنه لايزال في دور التكوين .. فكل ما يموت منه يعوض « بولادة » جديدة ، وفيه دائما الخامة الضخمة جدا التي تصلح لتكوين بلايين من الشموس والكواكب والاقمار ، ثم ان الجديد الذي لايزال في دور التكوين ، انما يعتمد في تكوينه على رفات القديم الذي تحطم وراح ، لكن ذلك موضوع أخر طويل ، وقد نرجئه لدراسة قادمة ، وعلينا الأن ان نعود لموضوعنا الذي نحن بصدده ، ولنتساءل مرة اخرى : كيف تأتينا هذه الحجارة والصخور والمعادن ، لتتساقط على ارضنا ؟

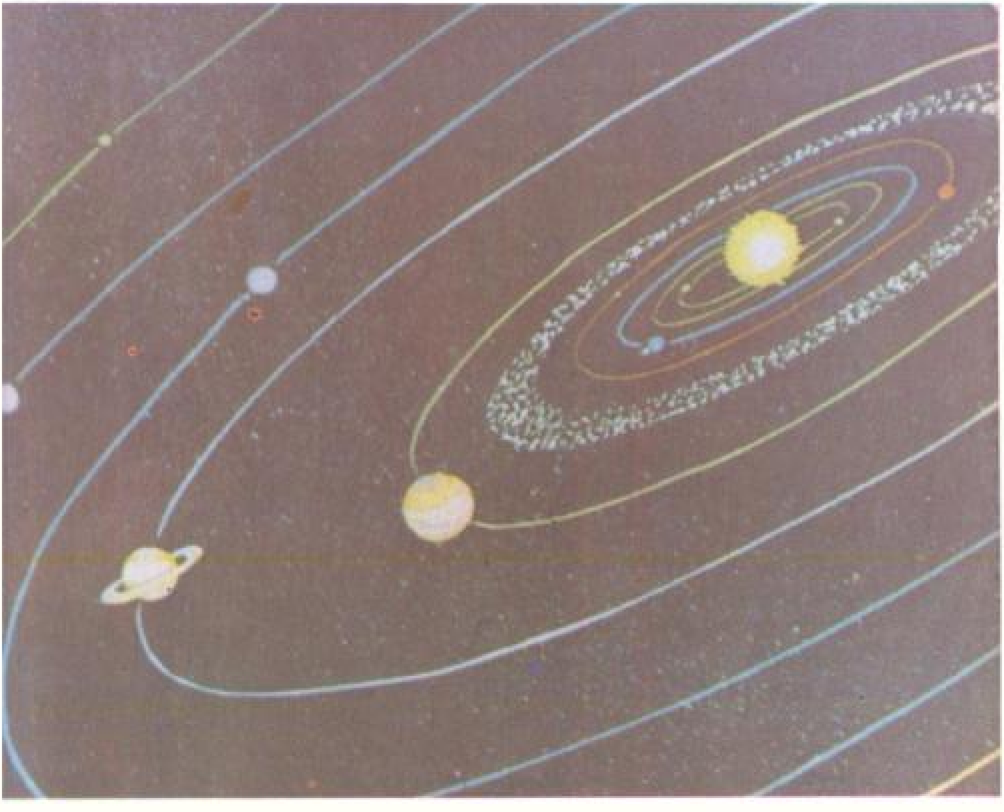
مكانس كونية !

تأتينا اساسا من بقايا المادة التي مازالت شاردة في مجال المجموعة الشمسية ، وعلى الاخص من ذلك الحزام العريض من الكويكبات التي تدور بين مداري المريخ والمشتري ، وسبب زيارتها لأرضنا او اي جرم سماوي آخر في المجموعة الشمسية ، انها قد تنحرف عن مداراتها نتيجة لقوى الجاذبية التي تتسلط عليها مما حولها من كواكب وأقمار ، وهي عملية جد بطيئة ، لكن اعطها عمرا طويلا ، تعطيك آثارا من شظاياها الهائمة التي



الصورة توضح مراحل تكوين المجموعة الشمسية من سحابة ضخمة من ايدروجين وغبار (أعلى الصورة) ثم تجمع شتاتها شيئا فشيئا على هيئة شمس تدور حولها كواكبها ، وما تبقى يسقط الى ارضنا كغبار وشهب (راجع المقال) .

نموذج مصغر للمجموعة الشمسية ، وفيها يظهر حزام الكويكبات بين كوكبي المريخ والمشتري ومنه تأتينا بعض النيازك التي تتساقط على بعض كواكب المجموعة الشمسية ، ومنها ارضنا وقمرنا .





. حفرة عميقة وواسعة أحدثها نيزك سقط في ولاية اريزونا .



واحدة من السدم السماوية الضخمة ، وفيها تنتشر بعض النجوم القديمة أو الحديثة أو التي لا زالت في دور التكوين ، وفي هذه الغلالات التي تشبه الدخان تنتشر كميات ضخمة من الأيدروجين والغبار الكوني ، ومنها تتكون النجوم والكواكب ، ولقد تكونت مجموعتنا الشمسية من سديم مماثل منذ حوالي ٤,٥ بليون عام .

تهبط على هيئة نيازك كلما وجدت في مسارها كوكبا او قمرا .

ثم ان قوى الجاذبية الملازمة لأي جرم سماوي تنتج منه ، وتمتد حوله الى مسافات كونية ضخمة ، وهي تجذب نحوها اية غبارة شاردة ، او حجارة هائمة او قطعا معدنية سابحة في فضائها العظيم ، فكأنما كل جرم هنا بمثابة « مكنسة » كونية تلتقط كل ما يدخل في مجالها من « قمامة » او غبار ، وتجذبه اليها ، حتى تنظف الفضاء الذي تسبح فيه من كل شاردة وواردة ، لكن هيهات ، لأن هناك منبعا دائما لمثل هذا البلاء الذي يتساقط علينا من السماء ، وبحيث تكنس ارضنا وحدها ما يتراوح وزنه ما بين ٣٠٠٠ ـ ١٥,٠٠٠ طن يوميا ، ومعظم كناستها غبار يتساقط علينا بالليل والنهار .

لكن قد يحدث ان تجذب الارض كتلا متفاوتة من تلك « الهوام » السماوية . وقد يهبط الصغير منها ـ وهو كثير نسبيا ـ دون ان يترك اثرا ، او يسبب تدميرا ، ومع ذلك ، فان الامر لا يخلو من زيارة مباغتة قد تهوي بجوارها مصائب القنابل النووية ، وقد تحدث آثارا لا يعلم احد مداها ، وليس ذلك من قبيل التكهنات او الافتراضات ، بل له آثار واضحة تدل عليه ، وتشير اليه .

ففي الربع الخالي من المملكة العربية السعودية ، وقعت عينا المستكشف ج.ب. فيلبي على أثرين يدلان على سقوط نيزكين كبيرين نسبيا بالقرب من منطقة وبر التي كان يتجول فيها عام ١٩٣٢ ، ولقد ترك النيزك الأول حفرة في الرمال بلغ قطرها حوالي مائة متر ، وعمقها حوالي ١٢ مترا (اي بارتفاع بناية مكونة من اربعة طوابق ومساحة فدانين بالتقريب) .. وترك الثاني حفرة اصغر (حوالي نصف الأولى) ، وكان من نتيجة شدة الارتطام بالرمال ان توهجت واحترقت فانصهرت وظهر الأثر على هيئة مواد تشبه الزجاج

نيازك اضخم ، وحفر اكبر

وتعتبر الحفرتان الموجودتان في المملكة العربية السعودية من الحفر الصغيرة نسبيا اذا ما قورنت بحفرتين اخريتين في كل من استراليا واريزونا بالولايات المتحدة .. ففي استراليا اكتشف احد الطيارين في عام ١٩٣٢ من الجو حفرة بلغ قطرها ٨٦٠ مترا ، وعمقها ٥٠ مترا ، ولما كانت المنطقة التي سقط فيها النيزك من المناطق الوعرة التي يصعب الوصول اليها ، فقد تأخر استكشافها لمدة ١٦ عاما ، وعندما وصلت اليها بعثة علمية في عام ١٩٤٨ ، واستكشفت ما فيها وما حولها ، وجدت شظايا النيزك وقد تبعثرت على مساحة واسعة ، وتمكنت البعثة من جمع ٦٥ كيلوجراما من الحطام ، هذا ومما يستحق الذكر هنا ان الحفرة تشبه الى حد بعيد الحفر التي توجد على سطح القمر .

على أن أشهر وأكبر حفرة تركها نيزك تكمن في ولاية اريزونا ، اذ يبلغ قطرها حوالي ١٢٤٠ مترا ، وعمقها حوالي ١٨٠ مترا ، وقد عثر المستكشفون على آلاف القطع النيزكية التي انتشرت على مساحات واسعة كأشلاء متطايرة من النيزك الكبير ، ويقال ان كتلته كانت ـ على اقل تقدير ـ ١٥ الف طن !

وطبيعي ان عدد النيازك الكبيرة المتساقطة اكثر من ذلك ، ولا يجب ان نقارنها بعدد الحفر التي تدل على آثارها ، لأن معالم الحفر تطمس وتختفي بمرور عشرات الملايين من السنين ، ويرجع ذلك الى عوامل التعرية والتغطية القائمة على كوكبنا ليل نهار ، وبحيث يصبح دوام الحال من المحال ، فكم من جزر طمست ، وانهار ردمت ، وجبال تفتت ، وبحيرات جفت وزالت ، وغيرها جاءت .. الى آخر هذه الظواهر التي لايختلف عليها اثنان .. صحيح ان العملية بطيئة ، لكن الزمن الطويل الذي يقدر بملايين السنين يؤدي الى تغيير جد كبير .

اذن .. فلدى العلماء سجلات كثيرة عن هذه الاحداث ، ومعلومات غزيرة عن طبيعة الاجسام التي هبطت من السماء ، ولهذه الاجسام تصنيفات وتقاسيم تميزها الى انماط شتى ، منها مثلا النيازك المعدنية التي تتكون اساسا من الحديد ، أو الحديد والنيكل ومعادن اخرى مشعة توجد بتركيزات ضئيلة ، وهي تختلف في تكوينها وطبيعتها عن اي معادن او سبائك ارضية ، وهذه تكون حوالي ٦٪ من مجموع النيازك المتساقطة على كوكبنا ، ومنها نيازك تتكون من حجارة مختلطة بحديد ، وتشكل ١٪ من الحصيلة النيزكية ، والباقي ـ اي ٩٣٪ ـ يتكون من حجارة تنقسم بدورها الى انماط اخرى لها تكوينات مختلفة تختلف تماما عن التكوينات الحجرية الارضية .

وطبيعي اننا لن تدخل هنا في التفاصيل ، فليس مجالها هنا لكن يكفيني ان تذكر ان العلماء قد امتلكوا وسائل كثيرة لتحديد اعمارها ومصادرها وطباعتها ، وما مر بها من عمليات كونية شكلتها وجعلتها على الحالة التي جاءت بها الينا ، ولقد اتضح ان عمر بعض هذه النيازك يرجع الى ٤,٦ بليون سنة مضت ، أي من عمر

مجموعتنا الشمسية ، في حين ان بعضها اقدم من عمر المجموعة الشمسية بحوالي مائة مليون عام !

فصل من فصول كتاب نشأة الكون

والواقع ان الغبار والنيازك المتساقطة من الفضاء ليست الا مقدمة هامة في كتاب نشأة الكون عامة ، والمجموعة الشمسية خاصة ، او بمعنى آخر نقول : ان هذه الاجسام والجسيمات هي بقايا متخلفة من السديم السماوي ، او السحابة الكونية المشتتة التي تجمعت ببطء شديد ، لتتكون منها الشمس وكواكبها واقمارها منذ اكثر من ٤،٥ بليون عام ، وطبيعي ان لكل بناء نفايات ، وان بعض هذه النفايات لازالت هائمة في الفضاء ، ولا زالت كذلك تتساقط بكثرة على الكواكب والاقمار ، أو فيما نراه اليوم على سطوحها من حفر وأخاديد وبقايا صلبة ، أو فيما يراه العلماء بمناظيرهم الفلكية الجبارة في ارجاء السماوات .

ولقد التقطت هذه المناظير كل ما هو غريب ومثير ، إذ ما اكثر ما أوضحت من السدم او السحب الكونية التي تنتشر خارج مجموعتنا الشمسية ، وكأنما هي غلالات رقيقة غاية الرقة ، وكل غلالة منها تقاس ابعادها بآلاف وملايين السنوات الضوئية ، وما هذه الغلالات الا جسيمات وذرات وجزيئات وحبيبات دقيقة تنتشر في محيطات هائلة من الايدروجين ، والايدروجين هو اخف عناصر الكون واكثرها انتشارا ، اذ يكون حوالي ٩٩٪ من العناصر المنبثة في ارجاء السماوات او في سدمها المنتشرة كجزر معزولة في أرجائها .

وطبيعي ان الايدروجين يدخل اساسا في تكوين الشموس او النجوم ، وفي اتونها يدخل في تفاعلات نووية معقدة ، ويتمخض عن ذلك كميات هائلة من الطاقة ، ويتحول الايدروجين الى عناصر اثقل فأثقل ، مثل الهليوم والكربون والفوسفور والحديد .. الخ ، وتستمر هذه العملية مئات وآلاف الملايين من السنين ، وبعدها تهرم النجوم وتموت ، وقد تنفجر فجأة ، فتنطلق من جوفها كتلا ضخمة لتتبعثر في الفضاء ، فتبرد وتسبح فيه على هيئة اشلاء ، لكن لاشيء الى فناء ، اذ تشتغل قوى الجاذبية من جديد ، فيتجمع ما تشتت من أموات النجوم ، ليدخل في تكوين اجرام سماوية جديدة ، وكأنما ما يحدث بين البشر ، له مثيل مما يحدث في السماوات ، اذ ان ما يعود الى الارض على هيئة اموات ، يبعث مرة اخرى على هيئة احياء ، او هو ما نطلق عليه دورة العناصر بين الاموات والاحياء ، وكذلك يكون حال السماء .

والواقع أن العلماء يشهدون بمناظيرهم ولادة نجوم جديدة ، وموت نجوم قديمة ، ولا بد ـ والحال كذلك ـ ان مجموعتنا الشمسية ـ بما فيها ارضنا ـ قد ولدت كما ولد غيرها ، ولا بد ان يكون لها بداية ونهاية ، وقد تكون بدايتها من اشلاء نجوم اموات ، ولقد جاءت النيازك ، وتساقط الغبار بانباء تحمل في طياتها سطورا من كتاب الكون الخالد ، فهذه النفايات المتساقطة هي بقايا ضئيلة للغاية من تلك المادة الضخمة التي كانت يوما مشتتة في سديم ، ثم تجمعت لتكون لها كينونة وحياة ، وينشأ على كوكب منها مخلوق يبحث ويفكر في اصل الكون والحياة . ■■

الاسكندرية ـ دكتور عبد المحسن صالح

قناعة

● ذهبت صبية في الثامنة من عمرها الى بنك معروف ، وطلبت مقابلة مديره لامر هام . فلما ادخلت اليه ، وسألها عن ذلك الامر ، ذكرت انها تجمع تبرعات لاحد نوادي الاطفال ، ويسرها ان يساهم في ذلك . فعرض عليها المدير ورقة من فئة الريال واخرى من الفضة لها نفس القيمة لتختار احداهما فاخذت القطعتين معا وقالت : « لقد علمتني امي ان اكون قنوعة ، ولهذا اختار القطعة الفضية لانها اصغر ولكني اخشى ان تضيع مني ، ولهذا سأضعها في هذه الورقة الاخرى » .

الملاحة العربية ..

الصورة لاحدى سفن الملاحة وقد عانقت بضائعها رافعات « التنزيل » الى السيارات ثم الى الاسواق الكويتية .



سفير الخليج
إلى موانئ العالم

استطلاع : يوسف الشهاب

تستقبل موانئ الكويت يوميا آلاف الاطنان من البضائع من مختلف انحاء العالم التي تربطها مع الكويت علاقات تجارية



ليس غريبا ان تلعب الملاحة البحرية دورا بارزا في منطقة الخليج العربي ، وليس غريبا ايضا ان يرتاد ابناء هذه المنطقة البحار بأمواجها المتلاطمة، يجوبون موانئ العالم المختلفة في رحلات سندبادية تروي الكثير من الحكايات والمواقف مع التجارة والبحر ، حكاية انسان الخليج الذي ولى وجهه شطر البحار في العصور السالفة حينما شحت اليابسة عليه بخيراتها وراحت الفاقة الطاغية تطارده أينما ذهب ، وحط برحاله فوق سطح الارض .

الخليج .. والملاحة

لقد ساعدت مياه الخليج العربي وموقعه الجغرافي الهام على الملاحة منذ العصور الماضية ، وساعد هذا الخليج كذلك على تطور وسائل الملاحة تمشيا مع متطلبات كل عصر ومع توسع التجارة فيه .

والخليج العربي .. هو السطح المائي الذي يشمل مدخل الخليج العربي المعروف بخليج عمان ، ثم القسم الشمالي من الخليج الذي يمتد من مضيق هرمز في اتجاه شمالي غربي حتى رأس الخليج عند سهول العراق . أما طول السطح المائي بقسميه من القاعدة فيبلغ ٩٠٠ ميل ، ويزداد عمق هذا السطح المائي من الشمال الى الجنوب حيث يبلغ أقصى عمقه جنوبي مضيق هرمز .

أهل الملاحة

عاش الانسان في منطقة الخليج العربي ملاحا فوق المسطحات المائية التي وصلت اليها سفنه ليخلق له موردا اقتصاديا ، واستطاع ان يبعث فوق هذه البحار الحياة والقوة ، وتألق نجم عرب الخليج تجارا ووسطاء للتجارة بين الشرق والغرب منذ عصور قديمة ، واستمر ذلك التألق في الصعود تمشيا مع الحياة وتطورها الاقتصادي والصناعي . فاحيل الشراع الى التقاعد لتأتي المكنات الحديثة فتحل مكانه لتزيد من سرعة السفينة وتزيل العناء عن سواعد الرجال الذين يقضون نهارهم مع حبال الشراع ، كما انزوت المراكب الخشبية في مكان بعيد وتراجعت أمام زحف السفن الحديدية العملاقة التي دخلت الملاحة لتؤدي دورها مع توسع التجارة وزيادة الاتصال التجاري بين دول العالم ..

جفوة الماضي التي استفادها ابناء الخليج من رحلاتهم البحرية وتجارتهم في موانئ الدول المختلفة دفعت وشجعت على الاستمرار والارتباط مع البحر بطرق حديثة وبوسائل ملاحية متطورة وبآفاق أوسع وأشمل ، سواء في زيادة وسائل الاتصال الملاحية كالبواخر العملاقة وغيرها أو في اعدادها وأنواعها وحتى كيانها وأعمالها ، تمثل هذا كله في ميلاد هيئة « الملاحة العربية المتحدة » كرمز من رموز التعاون الخليجي بين دول المنطقة ، وقد تأسست هذه الهيئة في الاول من يوليو عام عام ١٩٧٦ برأس مال قدره ٥٠٠ مليون دينار كويتي دفع منه ٢١٩٫٦٦٦٫٦٦٦ دينار كويتي ، ساهمت في تسديده ست دول خليجية هي : الكويت والمملكة العربية السعودية ، والبحرين ، والعراق ، والامارات المتحدة ، وقطر .. ولكل دولة من هذه الدول أعضاء يمثلونها في عضوية مجلس الادارة ..

مبنى الملاحة العربية ، مقره الكويت ، أما
مجلس ادارته فهو من دول المنطقة المشاركة





عبد العزيز الصلات
مدير عام الملاحة العربية

تعاون خليجي

يأتي إنشاء هيئة الملاحة العربية المتحدة نموذجا آخر جديدا في إطار التعاون الخليجي المشترك ، سواء أكان هذا التعاون بين دول مجلس التعاون الخليجي أم بين الدول التي لا تزال خارج نطاق هذا المجلس .

هذا الحرص من دول المنطقة على وجود أكثر من سبيل في ميدان التعاون هو الذي دفعها الى انشاء شركة الملاحة العربية المتحدة ، لتأخذ على عاتقها مسؤولية الوصول الخليجي الملاحي الى موانيء العالم المختلفة .

● اسطول النقل البحري

وحتى تسير هذه الشركة فوق طريق واضح ومدروس ، فان الدول الخليجية المؤسسة - وهي ست دول - قد وضعت أغراضا لهذه الشركة الاقليمية حددتها في مجموعة نقاط هي :

– القيام بجميع عمليات الملاحة والنقل البحري

– والقيام بجميع العمليات التي ترتبط بأي سبب كان بالملاحة والنقل البحري

– ثم بيع واستئجار وشراء واستغلال وتهيئة وتملك جميع أنواع السفن والمراكب والوسائط العائمة ووسائط النقل البحري .

كما أن للملاحة العربية دورا يسمح لها بالقيام بكافة العمليات المتصلة بأغراضها ، ومن ذلك أن تعقد جميع الاتفاقات والعقود التي من شأنها تنمية أعمالها المختلفة في سبيل تحقيق ذلك على الوجه الاكمل .

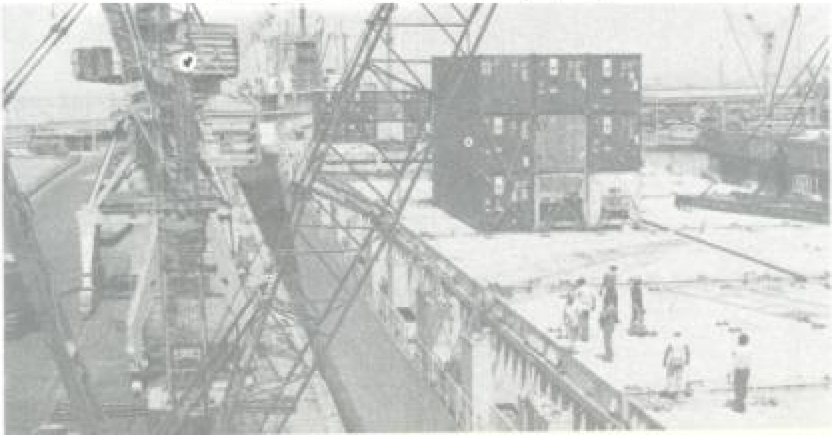
وتشترك ايضا بطريق التوصية او شراء أي شركة أخرى مماثلة لها في أغراضها ، أما مدة استمرار عمل هذه الشركة الخليجية فقد حددت بخمسين سنة قابلة للتجديد لفترة أو اخرى ..

الكويت .. مقرها الرئيسي

حينما وضعت اتفاقية التأسيس من جانب الدول الخليجية المؤسسة لها ، اختيرت الكويت مقرا رئيسيا لها ، كما أن اتفاقية التأسيس قد أباحت فتح فروع لها في الدول الخليجية المساهمة .

ومن أجل تقديم خدمة ملاحية متكاملة في شحن ومناولة البضائع وتخليصها ، فقد أوجدت لها شركات

تستخدم موانيء الكويت كل حديث من آلات التفريغ . الصورة تمثل جانبا من عملية التفريغ فوق الموانيء الكويتية





الاتصال اليومي المستمر مع بواخر الشركة في البحار ومع موانى العالم تكون دائما عبر .. « التلكس » والبرقيات كما هو موضح بالصورة (أعلى) .. احدى سفن الملاحة العربية ، تقوم بتفريغ حمولتها من البضائع فوق الميناء انها حركة الحياة اليومية في عمر تجارة الكويت (اسفل)





تملك شركة الملاحة العربية اسطولا بحريا هو من اكبر اساطيل العالم . الصورة لاحدى سفن الاسطول البحرى للملاحة . انها بعض سفراء الخليج بالخارج ..

متفرعة عنها لتقدم للشاحنين احدث التسهيلات ، وجرى ايضا توسيع نشاطات الملاحة العربية في اسواق الشحن . .

يقول السيد « عبدالعزيز الصلات المدير العام للملاحة العربية » : نحن في شركة الملاحة العربية تسعى الى تنويع اسطولنا الملاحي للمساعدة على مرونته لتسيير البواخر من خط الى آخر لتلبية الاحتياجات المختلفة للشحن البحري . ان اسطول الشركة يتكون من ٦٠ باخرة حديثة ، منها ٤٠ باخرة ـ حمولة كل منها ٢٣٫٨ الف طن شحني ، وسعة كل منها مليون قدم مكعب .



ويستطرد المدير العام في حديثه معنا فيقول : وهناك ايضا ١٣ باخرة ـ حمولة كل منها ١٣٫٥٠٠ الف طن شحني ، لنقل الحمولات العامة حيث يبلغ مجموع قدرتها التحميلية حوالي ١١٫٢٨٫٠٠٠ طن ساكن ، هذا بالاضافة الى سبع بواخر حاويات طاقة ـ اربع منها ١١٦٠ حاوية ـ وطاقة ثلاث منها ٨٠٠ حاوية ، ويبلغ



مجموع قدرتها التحميلية سبعة آلاف وأربعون حاوية نمطية .

وتسأل مدير عام الملاحة العربية عن خطوط اسطول الشركة فيجيب : « يمكن القول بدءاً ان اسطولنا هو أكبر اسطول في العالم تقوم بواخره في رحلات على خطوط منتظمة لنقل البضائع العامة ، وهو ايضا من احدث اساطيل العالم الملاحية سواء من حيث عمر السفن او من حيث تجهيزاتها المختلفة ، وتعتبر معدات شحن البضائع الموجودة على سفن البضائع العامة أكثر تطورا في نوعها حيث تضم رافعات يمكنها في وقت واحد القيام بعملية التفريغ على جانبي السفينة ورفع حمولات ثقيلة من وزن ١٠٥ طن ، هذا بالاضافة الى ان الفتحات المزدوجة للعنابر تسهل تفريغ وتحميل البضائع بشكل أكثر أمنا ويمكنها استقبال حمولات ـ طول كل منها ٢٠٠ قدم .

هذا التوسع في الاسطول والحرص على توفير كل حديث يدخل عالم الملاحة ساعد الملاحة العربية المتحدة على تسيير بواخرها في حوالي ٢٨٠ رحلة الى دول اوربا والشرق الاقصى والبحر الابيض المتوسط والولايات المتحدة وذلك في عام ١٩٨١م ، أما اجمالي الاطنان المشحونة من البضائع العامة فقد بلغ حوالي ٣٫٧ ملايين طن شحن ، ونقل حوالي ٥٠٫٠٠٠ حاوية ، ومن المنتظر زيادة عدد الرحلات باضافة ٤٠ رحلة اخرى إلى رحلاتها المعتادة خلال العام الحالي وسوف تؤدي هذه الاضافة الى زيادة اجمالي الاطنان المشحونة من البضائع العامة الى حوالي ٤٫٣ ملايين طن شحن ونقل حوالي ٩٠٫٠٠٠ حاوية نمطية ، كما تقوم بواخر الشركة بنقل بضائع مختلفة من منطقة الخليج الى الشرق الاقصى بعد ان كانت حركة النقل مقتصرة على اتجاه واحد .

مواكبة التطور

ومرة أخرى نحاور المدير العام للملاحة العربية السيد عبدالعزيز الصلات ، حول طموحات الشركة ، فيقول لنا ان « الملاحة العربية المتحدة » في طور المفاوضات الآن مع احواض بناء السفن للتعاقد معها على بناء ٦ بواخر حاويات طاقة كل منها تتراوح بين

لم تعد البحار تعرقل حركة الاتصال بين دول العالم ، بعد ان ظهرت على السطح السفن العملاقة التي سهلت نقل السلع وبأسعار مناسبة ـ الصورة لاحدى سفن الملاحة العربية وهي تمخر عباب البحر محملة بالسلع .





تهتم الشركة بتدريب رعايا دول الخليج انطلاقا من دورها في تشجيع ابناء الدول المساهمة فيها . والصورة لاحد رعايا دول الخليج يتابع قراءة ما جاء بالتلكس مع موظف عربي آخر .. (الى اليمين) وأحد قباطنة اسطول الملاحة العربية . قال لنا انه يصحب معه في كل رحلة مساعدا له من ابناء المنطقة لتدريبه على قيادة البواخر العملاقة للملاحة العربية . (أعلى)

الدرعية .. احدى سفن الملاحة . وفي الصورة (الى اسفل) تبدو وهي تقوم بتفريغ حمولتها من السلع ..





حركة التفريغ لا تتوقف الا في فترات الاستراحة .. انها التجارة التي عرفتها الكويت منذ قديم الازمان ..

١٥٠٠ و ١٨٠٠ حاوية نمطية ، ثم يضيف قائلا : وسيكون الهدف من بناء هذه البواخر مواكبة التطور السريع في حركة نقل الحاويات الذي تشهده منطقة الخليج العربي ، وهذه البواخر سوف تأخذ مكان البواخر المستأجرة التي تشغلها الشركة في الوقت الحاضر والتي يبلغ عددها ٤ بواخر كما انها سوف تغطي الزيادة احتياجات النقل المستقبلية ، ومن المنتظر ان يتم استلام هذه البواخر خلال عام ١٩٨٣ ان شاء الله .. أما الحاويات والحديث للسيد الصلات ، فانه من المنتظر ان تتعاقد الشركة على شراء ١٥ الف حاوية نمطية لتنضم الى اسطولها الحالي الذي يبلغ ١٠ الاف حاوية وذلك لتستبدل بالحاويات المستأجرة ، حاويات مملوكة لنا ، ففي هذا مميزات ضخمة اقتصادية واضحة كما ان الشركة قامت بربط اكبر عدد ممكن من موانئ الدول المساهمة بموانئ البلدان التي تتعامل معها تجاريا .

بين ادارات الملاحة العربية المتحدة وأقسامها تجولنا لمعرفة عناصر تكوين هذه الشركة الخليجية ، واذا نحن نرى العمل يسير كما يجب في مثل هذه الاماكن ، هدوء في العمل وانجاز مستمر تمشيا مع رحلات البواخر اليومية وحاجياتها ومتطلباتها سواء الفنية او البشرية او حتى الغذائية ، وفي ركن آخر من هذه الاقسام تقع غرفة « التلكس » والاتصال البحري بين الشركة والبواخر التابعة لها ، كما ان رسائل « التلكس » تتابع على الشركة من دول العالم التي تصل اليها البواخر ..

حركة الميناء

ثم نتابع جولتنا الميدانية الى ميناء الشويخ حيث ترسو بواخر « الملاحة المتحدة » لتفرغ حمولتها الى أسواق الكويت ، ونلتقي بأحد « القباطنه » الذي طرحنا عليه سؤالا حول طبيعة عمله بالباخرة ، فقال ان دور القبطان هو دور كبير وهو الاول والاخير في الباخرة سواء حين رسوها بالميناء او في عرض البحر ، ويضيف محدثنا قبطان الباخرة « الدرعية » ان بواخر الملاحة المتحدة تصل الآن الى دول عديدة سواء في الشرق او الغرب ، كما ان هنالك مساعدا للقبطان من احدى دول الخليج المساهمة بالشركة يكون على ظهر الباخرة خلال رحلاتها ، وهذا ينطلق من حرص الشركة على اعطاء الفرص لشباب المنطقة من اجل قيادة البواخر التابعة لها في المستقبل .

منذ ان ظهرت الملاحة العربية المتحدة الى حيز الوجود وهي تأخذ على عاتقها مسؤولية تدريب شبان الدول الخليجية للقيام بقيادة بواخرنا .

هذا ما بدأ به مدير شئون أفراد الاسطول بالخليج السيد حامد ذو الفقار عندما سألناه عن دور الملاحة العربية في ايجاد هيئات بشرية من ابناء الدول المساهمة في الشركة ، ثم أضاف : « ان هناك الان ٣٢١ شخصا من مختلف الجنسيات العربية اوفدتهم الشركة للتدريب البحري كضباط وضباط هندسة وضباط راديو في كل من المملكة المتحدة والاكاديمية العربية للنقل البحري في الشارقة وأكاديمية الخليج العربي للدراسات البحرية في البصرة .

ومدة تدريب هؤلاء تصل الى حوالي اربع سنوات

وعندما سألناه عن عدد الضباط الذين لدى الشركة أجاب : ان عددهم الان حوالي ١٥٥ وضابطا مهندسا عربيا ، ومعظمهم تدربوا على نفقة الشركة كما ان هنالك ١٤٠٠ ضابط ومهندس اجنبي يعملون على بواخر الملاحة العربية المتحدة .

يوسف الشهاب

طرائف عربية

حكمة

● قيل لفيثاغورث : « من الذي يسلم من معاداة الناس ؟ » قال : « من لم يظهر منه خير ولا شر . » قيل : « وكيف ذلك » ؟ قال : « لأنه ان ظهر منه خير عاداه الأشرار ، وان ظهر منه شر عاداه الاخيار . »

اللذات

● قال الحسن بن سهل للمأمون : « نظرت في اللذات فرأيتها مملولة خلا سبعة : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الوطيء ، والنظر الى الحسن من كل شيء . » فقال له المأمون : اين انت من محادثة الرجال يا ابن سهل ؟ » فقال : « صدقت ، هي أولاهن . »

لحوق البوار بذوي النباهة اسرع

● كان لاعرابي جارية يهيم بحبها ، فقال له الخليفة عبد الملك بن مروان : « اتشتهي ان تكون الخليفة ، وتموت جاريتك الحبيبة ؟ » قال « لا » : فقال له ماتتمنى ؟ فقال : « العافية » قال : « ثم ماذا ؟ » قال : « رزق في دعة لايكون لاحد فيه منة » قال : « ثم ماذا ؟ » قال : الخمول فاني رأيت لحوق البوار بذوي النباهة اسرع . »

وصفة صوفي لمريض

● قال احد الرجال : مررت ببلاد المغرب على طبيب ، والمرضى بين يديه وهو يصف لهم علاجهم . فتقدمت اليه وقلت : « عالج مرضي يرحمك الله » فتأمل في وجهي ساعة ثم قال : خذ عروق الفقر ، وورق الصبر ، مع أهليلج التواضع ، واجمع الكل في إناء اليقين ، ثم صب عليه ماء الخشية ، واوقد تحته نار الحزن ، ثم صفه بمصفاة المراقبة ، في جام الرضا ، وامزجه بشراب التوكل ، وتناوله بكف الصدق ، واشربه بكأس الاستغفار ، وتمضمض بعده بماء الورع ، واحتم عن الحرص والطمع ، فان الله تعالى يشفيك ان شاء الله .

العشق بين يحيى بن أكثم ، وثمامة بن أشرس

● قال المأمون ليحيى بن أكثم : ما العشق ؟ فقال : سوانح تسنح للمرء يهيم بها قلبه وتتأثر بها نفسه . فقال له ثمامة وكان حاضرا : اسكت يا بن أكثم : فانما عليك ان تجيب في مسألة طلاق او محرم قتل صيدا ، اما العشق والحب فمن مسائلنا . فقال المأمون : « قل يا ثمامة فقال : هو جليس ممتع وصاحب سالك ، مذاهبه غامضة ، واحكامه جارية ، يملك الابدان وارواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعقول والبابها ، قد اعطى عنان طاعتها ، وقوة تصرفها . » فقال المأمون : « احسنت يا ثمامة » واجازه وقال للجالسين في بلاطه : « من يصف العشق بصفة مثلك فانت طبيبه الحاذق » .

اجالس قوما لايغتابونني

● قال بعضهم : خرجت يوما ازور المقابر ، فرأيت البهلول ـ وكان من عقلاء المجانين ـ فقلت له : « ما تصنع ها هنا ؟ » قال : اجالس قوما لا يغدرونني ، وان غفلت عن الآخرة يذكروني ، واذا غبت لا يغتابونني . »



عن التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان

عرض وتقديم الدكتور محمود زكي

تتميز فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بزيادة الاكتشافات العلمية بشكل ملفت للنظر . ولقد اختص العقدان الاخيران من هذه الفترة بأكثر هذه الاكتشافات عددا واثرا في الحياة . ولذلك حار الناس في اختيار اسم يطلقونه على هذه الفترة ليعبر عن أعظم كشف علمي حدث في اثنائها . فكثير من الكشوف التي تمت خلالها عظيمة ومؤثرة كما قلت .

أطلقوا عليها « عصر الذرة » ، ثم بهرتهم ابحاث الفضاء ومنجزاتها ، فسموها عصر « غزو الفضاء » ثم ادركوا ان الالكترونيات كانت سبب كل هذه النجاحات فسموها « عصر الالكترونيات » . ثم فوجئوا بالبيولوجيين يغزون الحياة ذاتها في كل ميادينها ولم يستثنوا اي نوع من الاحياء : النبات ، الحيوان ، حتى الانسان نفسه . والعقل الذي يقف خلف كل هذه الاكتشافات ويقوم عليها ،اصبح نفسه ميدانا للدراسة والبحث . فهل يطلقون على الفترة ذاتها عصر الهندسة الوراثية .

ماذا نسمي عصرنا ؟

لعل كثرة هذه الاسماء لا تعبر الا عن امر واحد ، وهو ان هذه الكشوف كانت عديدة وعظيمة . وهي معالم متقدمة جدا على طريق حياة الانسان فوق هذه الارض ومن حولها .

وحتى يواكب الناس هذه النهضة العلمية المتحركة على مدار الساعة ، كانت وسائل نشر المعرفة ـ وعلى رأسها الكتاب ـ هي الوسيلة التي تقدم هذه الكشوف حتى قبل ظهورها ، وعمرت المكتبات في العالم بالكتب العلمية للعلماء والكتب العلمية للرجل العادي . كل المكتبات في معظم اللغات الا المكتبة العربية الحديثة ظلت خالية تماما من هذا النوع من الكتب ، ولعل هذه الظاهرة تفسر الصورة المتأخرة التي تعيشها او لعلها انعكاس لهذه الصورة .

واخيرا نشرت سلسلة « عالم المعرفة » التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت في شهر ديسمبر الماضي كتاب الدكتور عبد المحسن صالح استاذ الميكروبيولوجيا في جامعة الاسكندرية عن « التنبؤ العلمي ومستقبل الانسان » .

وكما يقول العنوان ، يتحدث الكتاب عن « التنبؤ العلمي » وعن « مستقبل حياة الانسان » . ولعل المؤلف يريد اصلا ان يعرفنا بمجريات الامور في معامل هندسة الوراثة في البلاد المتقدمة ، والبحث في هذا العلم قديم قدم الانسان ذاته ،او على الاقل قدم البحوث العلمية منذ نشأتها القديمة ، ومنذ طفرتها الحديثة . ولكن هندسة الوراثة قد شهدت هزة عنيفة في السنوات العشر الاخيرة عندما افرزت المعامل الاكتشافات العديدة الخطيرة التي يقول عنها المؤلف انها « كانت وستكون أكثر اثارة من غزو الفضاء ، او اية ثورة تكنولوجية اخرى » لانه سيكون لها اثركبير على حياة الانسان نفسه .

ومع كل هذه الاهمية يقول المؤلف ـ وهو صادق ومحق ـ « ان الدول العربية قاطبة ولم تسمع بها ، سوى نفر جد قليل منها » . وهو تقرير حال صحيح كما قلت ، ولكنه ايضا اعتراف مر ، لانه يعبر عن واقعنا المتخلف . فبينما يتدارس الرجل العادي في غير بلادنا اثر هذه الحقائق الجديدة على حياته ، لا يزال اهلونا لا يعلمون عنها شيئا ما ، واغلب الظن ان أمرهم سيبقى هكذا حتى يفاجئوا بآثار هذه الاكتشافات تأخذ عليهم حياتهم ، وتكبلهم في ديارهم كما فعلت من قبل القوة الذرية ، وكما تفعل الآن الثورة التكنولوجية . من هنا كان فضل الدكتور عبد المحسن انه يعرف القارىء العربي بهذا العلم ، ومستقبل اثره ، ومن هنا كان لزاما تسليط الاضواء على هذا العلم الجديد .

يدرك المؤلف ان الموضوع الذي بين يديه مازال عمر البحث فيه دون العشر سنوات ، وهو يريد ان يسبق الزمن بأثر هذه الكشوفات على الاجيال القادمة ، وهو حريص على ان يعرف القارىء أمرين: أولها ما تم الكشف عنه بالقدر الذي تسمح به ظروف الكتاب ، وثانيها ان ينقل للقارىء العربي تصوراته وتصورات غيره من العلماء عن التنبؤات التي بنوها على اساس هذه الكشوفات .

من هنا كان لابد ان يخصص فصلا عن التنبؤ العلمي ، ويبدو واضحا ان هذا الفصل جاء متعزلا عن باقي الكتاب الا من حيث انه يخاطب قوما لم يعتادوا الحديث حول المسائل العلمية ، ويخشى المؤلف ـ وهو محق ـ ان يعتقد القارىء ان محتويات الكتاب قد تكون من باب الخرافات والشعوذة ، ويبدو ان المؤلف كان يدرك هذا المعنى عند القارىء العربي من زمن طويل ، فلقد نشر في نفس السلسلة « عالم المعرفة » كتابها حول « الانسان الحائر بين العلم والخرافة » .

معنى التنبؤ العلمي

في الفصل الاول من الكتاب يثبت المؤلف معنى « التنبؤ العلمي » في عقل القارىء ، ويبين انه ليس رجما بالغيب ، ونراه يستعين بآيات عديدة من القرآن الكريم ، ليؤكد بها انه لا ينكر ان مفاتح الغيب كلها بيد الله ، وانه وحده المتصرف في الغيب بقدرته ، وكأنما يخشى ـ ولعله ايضا على حق ـ ان يكون الفهم الخاطىء لمعنى التنبؤ العلمي « معارضا لوحدانية الله في معرفة الغيب ، وان يكون هذا الفهم الخاطىء سببا في لفظ الفكرة التي يريد ان ينشرها عند القارىء العربي .

ولقد كان المؤلف مدرسا ذكيا حقا عندما شرح معنى التنبؤ العلمي . فهو يضرب الامثلة المتصاعدة التعقيد حتى يوضح الفكرة للقارىء ثم يثبتها في ذهنه ، فلا يعود للخلط بين قدرة العلماء على التنبؤ او التصور لمكتشفات المستقبل ، وبين الشعوذة والرجم بالغيب وهو ما ينكره العلم ايضا .

كانت الأمثلة التي بدأ بها المؤلف بسيطة في مستوى فهم كل الناس ، كأن يتنبأ كل الناس ان شخصا ما سيموت لو ترك بلا ماء او طعام ، ثم ينتقل الى مثال يعرفه معظم الناس ويتعاملون به يوميا وهو التنبؤات

الجوية التي يبنيها اربابها على حقائق علمية مرصودة ، ويثبت في اذهان الناس مدى صحتها ، ثم يصل بالقارىء بعد نقلات اكثر تعقيدا الى تنبؤات الفلكيين عن كسوف للشمس بأنه سيحدث في العام ٢١٨٦ اي بعد حوالي ٢٠٦ اعوام من الآن ، وانه سيكون اطول كسوف حدث للشمس في تاريخ حياتها . ورغم ان المثال الاخير يعد صعبا على القارىء المثقف غير المتخصص ، لكن الامثلة السابقة التي عرضها المدرس الذكي تكون قد اعدت ذهن القارىء ان يوافق على هذا التنبؤ البعيد المدى .

والمؤلف ادرك الحقيقة المرة وهي ان القارىء العربي خالي الذهن اصلا عن موضوع الكتاب « مستقبل الانسان » ، رغم ان هذا حديث معظم الناس في بلاد اخرى ، ولذلك قدم هذا الفصل ليعد به ذهن القارىء ، وصحيح ان الامثلة التي اوردها المؤلف للتدليل على علمية التنبؤ كانت كلها من علوم غير علوم الوراثة كعلم الفلك مثلا ، ولكن العذر واضح ، فالموضوع الذي بين يدي المؤلف لم يزل عمره عشر سنوات فحسب ، وهذه حقيقة توضح فضل المؤلف على القارىء العربي ، وهو يقدم له آخر ما يدور من تنبؤات في مختبرات الميكروبيولوجيا وهندسة الوراثة في البلاد المتقدمة .

والفائدة من هذا الجهد لا تخفي على لبيب ، فحتى يتحدث شخص ما عن مستقبل حياة الانسان لا بد ان يسرد كثيرا من الكشوفات العلمية التي يبنى عليها هذه التنبؤات ، وفي ذلك نشر للمعرفة بين الناس ، خصوصا في عالمنا العربي وعلى الاخص اذا كانت من المعارف الحديثة المتقدمة .

يحدثنا المؤلف مثلا عن التناسل التزاوجي الذي يحدث في الانسان من ذكر وانثى ، والذي كان سببا في هذا الرقي النوعي يتميز به كل مخلوق يصل للحياة عن هذا الطريق التزاوجي . ويلفت النظر الى ان هذا التزاوج يحدث ايضا في النبات ، فالبذرة التي تنمو منها الساق عبارة عن جنين كامن ، كان ـ قبل ـ قد تكون عندما لقحت بيضة مؤنثة بطلع مذكر ، غير ان هذا النبات ذاته يمكنه ان ينمو كاملا بدون البذرة الام ، لو ان جزءا من الساق استنبت في التربة المناسبة ، وهذا النوع من التكاثر يسميه العلماء « التكاثر الخضري » والعجيب ان حيوانا كالهيدرا يقف بين المملكتين الحيوانية والنباتية ، فلو انه قطع اربا فينمو كل جزء منه حتى يصبح « هيدرا » بالغة كاملة النمو تماما ، كما تنمو الشجرة المثمرة من جزء من ساق الشجرة الام .

وينجح العلماء ان يعزلوا خلية واحدة من خلايا الضفدع ثم يقومون بتنميتها لتصير ضفدعا بالغا ، دون الحاجة الى ذكر وانثى كما تقتضي نواميس خلق الضفدع التي نعرفها ، ويكون نمو الضفدع من الخلية الواحدة او من جزء من الضفدع البالغ ، هو نمو خضري كنمو الشجرة من جزء من ساق الشجرة . وكان المعروف أن التكاثر لايتم في حيوان كالضفدع الا بالطريق التزاوجي .

والناس يعرفون ان الانسان لا يتكاثر الا بالطريق التزاوجي اي من ذكر وانثى ، فماذا لو جرى عليه ما جرى على الضفدع ، وامكن تنمية انسان عن جزء منه ، وهذا يعني استنبات الانسان كما جرى استنبات النبات والهيدرا والضفدع ؟

ان التكاثر بغير الطريق التزاوجي أنتج مخلوقا مطابقا تماما للمخلوق الام . نسخة كربونية لا تحمل فرقا بالمرة . فيها مزايا او سيئات المخلوق الاصلي ويمكنها ان تحل محله في كل شيء . ويتنبأ الدكتور عبد المحسن ألا يكون ذلك « لمن هب ودب » بل يكون وقفا على العباقرة والمفكرين لانهم الذين يعمرون الكون . والاكثار من هؤلاء امر مندوب اليه ، فان لم تستطع ذلك فلا اقل من ان تستبدل بعض أعضائهم المعطوبة كالقلب او المخ او الكبد او غيرها بشبيهها او بديلها من المخلوق النسخة . وبذلك تنجح على الاقل في مد أعمار هؤلاء الى امد طويل .

يرى الدكتور عبد المحسن ـ كما قلت ـ ان يكون ذلك وقفا على اهل الخير ، ولكن الانباء كانت قد سبقت صدور الكتاب ، وكان المثل الذي ضربه معارضو هذه الابحاث في عام ١٩٧٩ هو ادولف هتلر الذي يعتبر في عرف العالم الغربي اكبر مخرب عرفه التاريخ ، والانباء تروي في الايام التالية لصدور الكتاب ان ثريا كبيرا لا ينجب ذرية ترث ما جمعت يداه من ثروته ، فقرر ان يمول ابحاثا لتنتج شبيها له يرث هذه الاموال . والخطير في النبأ ان هذا الثري من اكبر زعماء المافيا في العالم .

أخطار التقدم العلمي

صحيح ان التقدم العلمي سلاح ذو حدين .

ولقد فشل العالم من قبل في تقليم اظافر السلاح النووي وتكسير انيابه حتى يمكن استئناسه لخير البشرية وهو يحمل خيرا كثيرا ، لكن شره ما زال مستطيرا ، ينذر بخراب الدنيا دفعة واحدة ، وكأنما لا ينقصها الا مليون

لحرب جديد يحمل كل منهم سلاحا نوويا يحصد به الارواح ويجعل عاليها سافلها .

ويستمر المؤلف في تنبؤاته الوردية فيذكر ان المعامل قد استطاعت ان تتحكم في المادة الـ D.N.A الحية والتي تقود اشارات التفاعلات الحيوية في الكائن الحي . وتمكنت التكنولوجيا من دمج D.N.A من نبات مع D.N.A. من الجرثومة المعوية Ecoli وظهر مخلوق جديد خليط من النبات والحيوان .

والذين عكفوا على تخليق هذا المخلوق انقسموا على انفسهم ، منهم من خشي ان يكون وحشا ضاريا لايدع على الارض ديارا ، فحطم ما انتجه وأبرأ ذمته من اثم خراب الدنيا كما اعتقد ، ومنهم من ظن ان خيرا يمكن ان يكون من وراء هذا المخلوق الجديد . ولكن الخوف من شره المحتمل مازال يراودهم ، فغلقوا عليه ابواب المعامل حتى يرى الناس في أمره رأيا ، وتقوم المؤتمرات والمساجلات حول المخلوق ولم تقعد بعد ، ومازال الجدل مستمرا حول هذا الامر .

مخلوق حسب الطلب

وكنت قد كتبت في مجلة العربي في سبتمبر ١٩٧٩ تحت عنوان « مخلوق حسب الطلب » ـ وذلك بعد تسريب أنباء قدرة المعامل على دمج مادة النبات بمادة الـ E. CODI ـ اتنبأ يوما ان يخرج للحياة انسان نبت في رأسه شجرة يأكل من ينعها ما يشتهي ، ولكن التصور لم يعجبني ، ولا اظنه أعجب الكثيرين ، وها هو ذا الدكتور عبد المحسن يعرض تصورا افضل واكثر قبولا ، الم اقل من قبل ان تنبؤاته كلها وردية .

يتصور المؤلف ان يتمكن العلماء من دمج المادة الحية في النبات بالمادة الحية في الانسان ، وسيظهر «الانسان الاخضر » ولان الجلد هو اكثر الانسجة قبولا للاصباغ في الجسد الآدمي فسيلتقط المادة الخضراء القادمة من النبات ليحتفظ بها . والمادة الخضراء في النبات هي صبغ الكلوروفيل الذي يتصيد الطاقة من الشمس فتكتفي النبات مئونة البحث عن الطاقة من مصادرها الاخرى ، وجلد الانسان في وصفه التشريحي يغلف الجسد كله . وسيكون الجلد الاخضر او « الكلوروفيلي » اقرب الانسجة الانسانية الى اشعة الشمس وبقدر يسير من هذه الاشعة يستطيع الانسان الاخضر ان يقوم بعملية « التمثيل الضوئي » .كما يقوم بها النبات ، . وهكذا يصبح الانسان « ذاتي التغذية » وليس « رماما » كما يقول المؤلف . وبذلك تختفي المشكلة الكبرى التي يقاسي منها العالم ، خصوصا العالم الثالث ، مشكلة نقص الاغذية . فكل امرىء يكفيه جلده مشقة البحث عن الطعام وهكذا يعتمد الانسان على نفسه في تحصيل غذائه ويصبح « ذاتي التغذية » كالنبات وبعض الحيوانات الاولية جدا .ولا ادري كيف يواجه اصحاب مثل هذه التصورات المتشيعين لنظرية التطور ، وقد بدأت بالانسان في ظنهم من الكائن الأدنى حتى ارتقت الى وضعه الذي تعرفه وهو في عرفهم اخر حلقات التطور .

ان الفكر التكنولوجي خلف هذه الابحاث يثير الاعجاب حقا ، لكنه يبقى متخلفا تماما اذ وضعت له مقاييس تهتم بانسانية الانسان ، وليس بحيوانيته او جسده الذي يشابه فيه شكليا عددا من الحيوانات ، والذي يشابه في وظيفته كل الحيوانات واغلب النباتات . فالتغيير في الشكل او في وظيفة هذا الجسد امر قد يثير كثيرا من الجدل ولكنه سيتوقف يوما ما .

فاذا كانت المقاييس التي تقيم هذه الابحاث تهتم بانسانية الانسان فسيكون محتما ان تجيب على تساؤلات عديدة .

المؤلف يعرض لبعض تساؤلات الدكتورة June goofield التي وردت في كتابها عن « هندسة الوراثة والتلاعب بالحياة » .

تساءلت جون جود فيلد فيما عرض المؤلف عن مدى احقية العلماء في تنظيم هذه الابحاث ، والاستمرار فيها ، او فرض القيود عليها . وكنت اتمنى ان يعرض تساؤلاتها الاساسية والاصلية عن الفوائد التي قد يجنيها الانسان في حل مشاكله الآنية مقابل البلايين التي تنفق على هذه الابحاث ، ناهيك بالمقابل الخطر جدا وهو الاخطار التي يتوقعها العلماء انفسهم من هذه الابحاث .

العجيب ان الدكتورة جودفيلد تسأل في اكثر من موضوع في كتابها : لماذا لاتوجه هذه الابحاث لتنهي الى الابد امراضا تفتك بالملايين من البشر ، وتعوق ملايين اخرى كالبلهارسيا والملاريا ؟ الاعجب ان بلاد جود فيلد خالية تماما من البلهارسيا والملاريا ، بينما تعتبر البلاد العربية من المناطق الموبوءة بهذه الامراض . ولكن النظرة الشمولية تبقى من خصائص العلماء حقا ، ولذلك يقيسون الكشف العلمي بمدى مايقدم من خير للانسان دون تمييز .

لقد قدم الدكتور عبد المحسن للمكتبة العربية اول

كتاب علمي مستقبلي ، يجد فيه القارىء غير المتخصص في هندسة الوراثة قدرا كبيرا من المعلومات التي كشفت عنها المختبرات ، ولقد عرضها كلها باسلوب المدرس الذكي المتمكن من مادته ، ولذلك يشد الانتباه اليه فلا يدعه الا وقد نقل اليه كل مايريد .

البحث العلمي وتركيب المجتمع

عرض الدكتور عبد المحسن كل تنبؤاته المتفائلة ولقد كنت اتمنى ان يتعرض ايضا للضجة الكبرى التي قامت منذ سنوات على اثر الاعلان عن الاكتشافات التي قد تهز التركيب الاجتماعي للانسان كما نعرفه الان .

لقد شارك في مناقشة آثار هذه الابحاث على المجتمع كل قطاعات المجتمع ، ومازال النقاش ممتدا من السياسيين على الاقل . قام السيناتور ادوارد كينيدي - وكان رئيس اللجنة الصحية في الكونجرس - يقول في جامعة هارفارد وسط العلماء في عام ١٩٧٥ « كان جيلا ان يفكر العلماء في الآثار الاجتماعية المترتبة على نتائج ابحاثهم . لكن ذلك لم يكن كافيا . لان العلماء قرروا منفردين ان يضعوا التكييف القانوني لهذه الآثار ، وذلك اكبر من امكانياتهم ، فكيف نسمح لهم ان يقيموا سياسة عامة في الخفاء » . لم يقف الامر عند السياسيين ولكن كل الناس شاركوا في ذلك ، منهم الصحافي ، والمحامي ، ورجل الدين حتى صناع السينما وافلام التلفزيون ، ظهروا علينا بأفلام مثل « ثدرة الشيطان » او « الرجل الاخضر » او غيرها ، المهم ان المجتمع كله لم يغفل امرا قد يمسه منه سوء .

كنت اتمنى ان يعرض الكتاب لهذا الجانب ، لانه يؤكد حق الفرد في ان يشارك في صنع الحياة التي يحياها وتركيب المجتمع الذي هو عضو فيه ، ولااظن انه يغيب عن اللبيب اننا في بلادنا احوج كثيرا الى هذه المناقشات منا الى البحث عن الكشوفات العلمية على عظمة ماجاءت به من فكر . فنحن في حاجة حقا الى تنمية الشخصية العربية بقدر حاجتنا الى تحديث العقل العربي ان صح التعبير .. ■■

د . محمود زكي

قول سديد

املك زمام نفسك حين تزعجك صغائر الأمور ، واحتفظ بقواك لعظائمها ، فما يضنيك الجبل الذى تستقبله ، بل الحصاة تكون فى نعلك .

انما تنتصر المرأة بالتشبث لا بالكفاح ولا بالشجاعة ، انها كالاعلان تنال ما تريد بالتكرار

(ول دورانت)

المقام الأول

■ ان المدنية وهى كلمة أسيء استعمالها كثيرا ، تمثل ما هو أعظم من التليفونات والمصابيح الكهربائية . فهى النشوة بآيات العقل ، والولوع بالجمال والشرف والرقة ، والأدب ولطف الحس ، وهى جميعا « لاتقاس بمقياس ولا توزن بميزان . ولا تبلغ المدنية ذروتها الا حيث تظفر هذه الأشياء بالمقام الأول فى الحياة » .

(دافيد جريسون)

الأم التي عرفت لحن الحياة !

بقلم منير نصيف

هذه قصة من واقع الحياة .. قصة امرأة قاومت الهزيمة وسخرت من الموت . رفضت ان تحبس جسدها المريض في فراشها حيث كان يجب ان يكون . لقد نسيت آلامها وغسلت دموعها وخرجت الى الحياة تعيش كل لحظة فيها كما لم تعشها من قبل !

قال لها الاطباء : « كل ما نستطيع ان نفعله لك هو ان نضيف بضعة اشهر الى عمرك . لن تعيشي الى الشتاء القادم ، فالمرض ينتشر بسرعة في جسمك ولا سبيل الى ايقافه ! »

وكان الشتاء قد انتهى أو أوشك عندما خرجت من المستشفى الذي كانت تتردد عليه للعلاج ، بعد ان سمعتهم يتحدثون في صراحة هذه المرة ، فقد كانت توسلاتها لهم اقوى من كل محاولة بذلوها لاخفاء حقيقة مرضها . كانت تريد ان تعرف وصممت ، ولم يجد الاطباء مفرا في النهاية من ان يقولوا لها كل الحقيقة !

وعلى الرصيف البارد وقفت تشير بيدها الى سيارة تاكسي تقلها الى البيت الذي تعيش فيه مع ابنائها الخمسة في ريف مقاطعة سامكس بانجلترا .. كانوا هم كل اسرتها بعد أن مات والدهم منذ عدة سنوات وتركهم ... بنتين وثلاثة أولاد اكبرهم في الخامسة والعشرين واصغرهم في الثامنة عشرة . اما هي فقد كانت قد جاوزت عامها الستين !

لقاؤها بالحياة

وفي حديقة البيت كان لقاؤها الأول بالحياة الجديدة التي عرفت الآن ولأول مرة متى ستجيء نهايتها ... وشاهدته من بعيد والسيارة تقترب بها .. انه البستاني ، لابد انه جاء ليزرع لها الزهور التي اشترتها ... وحيته بابتسامة ، وكادت تمضي في طريقها الى الداخل ، ولكنها توقفت وانحنت تلتقط احدى زهورها ... وقالت وهي تمسك بها وتتأملها في اعجاب .

ـ تستطيع أن تبدأ الآن .
ـ ولكن الشتاء لم ينته بعد يا سيدتي !
ـ لنجرب ، فلم يعد امامنا متسعا من الوقت !
ـ وقت .. اي وقت ؟!
ـ انس ما قلته لك ، وحاول ان تزرع هذه الزهور .. انها من النوع النادر وقد جئت بها خصيصا من باريس .. انها زهور الليلاك الفرنسية .

ورفع البستاني فأسه وراح يضرب بها في الارض التي



كانت الثلوج مازالت تغطي اجزاء منها .. كان مرحا على غير عادته في هذا اليوم .. وكان يغني ولكن في صوت خفيض .. وفجأة وجدت نفسها تشاركه الغناء ، ثم تدور حول نفسها وتدخل البيت اخيرا ..

في هذا اليوم احتواها شعور غريب .. قررت بينها وبين نفسها ان تعيش كل لحظة من ايامها الباقية . لن تتردد بعد اليوم على المستشفى الذي كانت تعالج فيه . لن تقول شيئا لابنائها مما سمعته اليوم . سوف تنعم بحياتها القصيرة وستملأ يومها بالسعادة ، وسوف تجدها في كل شيء حولها .

وبدأت من الحديقة .. المكان الذي احبته دائما قبل مرضها ، وكانت تقضي فيه اجمل ساعات يومها ، وكان الشتاء البارد الثقيل قد رحل .. وعادت اليها ، قالت للبستاني : « غدا لن اكون في حاجة اليك ، تستطيع ان تذهب في اجازة ، سوف ادفع لك اجرك ، ولكن دعني اقوم بما تقوم انت به .. سأرعى الزهور وأسقيها وأقف بينها أحدث الطير وأتأمل الطبيعة .. انني أستطيع ان احفر القنوات طول اليوم ! »

وأشرقت الشمس

وأمسكت بالفأس .. واشرقت الشمس ، واعتدلت في وقفتها ودارت على عقبيها لتلقي نظرة على هذا الدفء الجديد الذي عاد بعد غيبة طويلة وراء سحب الشتاء .. وحلق عصفور صغير وكان يغرد ، وردت عليه وهي تضحك . وجاء اطفال الجيران يحيون « الجدة » الطيبة ، هكذا كانوا ينادونها ، رغم ان احدا من ابنائها الكبار لم يمنحها حفيدا بعد ! وتركت الفأس وجلست فوق الحشائش الخضراء ، وجلسوا حولها ، وراحت تحكي لهم ، وتعلقت عيونهم الصغيرة بها .. ولكنها تذكرت .. لماذا لا يساعدونها في اعادة التراب حول الزهور التي زرعتها ، ومدوا أيديهم الصغيرة .. كل يد كانت تحمل حفنة من التراب وتحاول ان تضعها في مكانها .. وهي تعمل معهم وتمضي في سرد حكاياتها الجديدة .. حتى انتهوا وانتهت من اعادة كل شيء الى مكانه الذي يجب ان يكون فيه .. وقامت وتبعوها .. ودعتهم الى بيتها ، لتقدم لهم قطع الحلوى واكواب الحليب .. لقد كانوا جميعا ضيوفها الصغار قبل الغروب . وعندما وقفت تودعهم ، تمنت لو انهم بقوا معها فترة اطول .. وعندما غابوا عن عينيها احست بهدوء عميق غريب يلف المكان .. حتى العصافير ذهبت هي الاخرى الى اعشاشها لتنام !

وحول مائدة العشاء .. كان لقاؤها باسرتها الصغيرة ، الابناء الذين عادوا من مدارسهم واعمالهم .. شيء غريب لم يفتهم ان يلحظوه .. لم تكن امهم تشكو ، كما تعودت ان تفعل ، من الآلام التي يسببها لها المرض اللعين .. كانت تبتسم وتحكي لهم عن اليوم الجميل الذي قضته مع الزهور والاطفال والعصافير .. هل زال عنها الألم تماما ؟ ابدا لقد كان هناك .. ولكنها لم تشأ ان تسبب لهم مزيدا من القلق .. لقد امضت السنوات الاربع الاخيرة تتألم وتشكو . من الآن سيكون هناك الم ولكن بلا شكوى .. يجب ان يمر كل شيء بهدوء .. يجب الا يشعر احد من ابنائها بآلامها .. يجب الا يعرف احد بما قاله الاطباء لها في زيارتها الاخيرة للمستشفى الذي كانت تعالج فيه .. كل ما يهم الآن ، انها مازالت معهم ، سعيدة بوجودها وسطهم .. المهم هو اللحظة التي تعيشها اما الغد فهو يوم آخر !

وطبعوا على جبينها قبلة المساء .. وصعدت الى غرفتها والقت بجسدها المتعب المريض على الفراش .. كانت تتألم ولكنها احست في تلك الليلة ، وربما لأول مرة منذ شهور طويلة مضت انها تريد ان تغمض عينيها وانها تريد ان تنام !

رحلة مع الألم

ومرت الأيام .. وجاء أول الشهر .. وفوجئوا بها

ترتدي ملابسها على غير عادتها لتذهب الى البنك . .

ـ ولكن لماذا تتكبدين لك هذه المشقة . . الم نكن نحن نصرف لك قيمة الشيك في اول كل شهر ! ماذا حدث ؟

ـ لاشيء ، اكثر من مجرد انني ارغب في الخروج . . ان المشي اصبح رياضتي المفضلة . . ثم انني اريد ان اذهب الى السوق !

وعلى الطريق الهادىء وسط الاشجار التي اصطفت على جانبي القناة راحت تسير في خطى ثابتة بطيئة . . كانت صغيرة الجسم نحيلة القوام . . ولكنها بدت في هذا اليوم عملاقا . . . فقد كان الشيء الذي فاتها ان تلحظه ، وهي ذاهبة في اول رحلة لها الى المدينة القريبة ان ابناءها الخمسة قد خرجوا وراءها ووقفوا يرقبونها في دهشة وهي تخطو خارج أسوار البيت الذي حبست نفسها وراء جدرانه منذ ان داهمها المرض الخطير !

ومشت . . كان الألم يباغتها احيانا في مشيتها ، فتتوقف ريثما تلتقط انفاسها ثم يزول عنها فتمضي في رحلتها . . ومرت بها اكثر من سيارة توقفت عندها تماما : « هل تستطيع ان تساعدك يا سيدتي ؟ » .

وكانت تشكرهم ، ثم لا تلبث ان تعود الى طريقها تكمل الرحلة الطويلة . .

ولكن الاعياء ما لبث ان ألح عليها في النهاية ، ولم تجد مفرا من ان تبحث لنفسها عن مكان تستطيع ان تجلس فيه بعيدا عن اعين المارين حتى لا تلفت النظر !

وعلى صخرة صغيرة بجوار القناة جلست تستريح ، ثم ما لبثت ان نهضت مرة اخرى . ومضت في اصرار تقاوم الالم والتعب حتى بلغت في النهاية وجهتها . وكان النهار قد انتصف او كاد . وقصدت الى البنك فورا وانهت معاملاتها ، ووضعت مالها في حقيبة يدها ، وهمت بالانصراف . . ولكنها ما لبثت ان توقفت عند لافتة صغيرة تقول : « من اجل العجائز والمرضى ! » . . انها عجوز مثلهم . . . ومريضة مثلهم . . الفرق الوحيد بينها وبينهم ان الله قد اعطاها ! ومدت يدها واخرجت من حقيبتها مبلغا من المال وضعته في الصندوق الصغير المثبت تحت هذه الكلمة القصيرة التي شدتها واستوقفتها ثم خرجت مسرعة تبحث عن طريقها الى السوق . .

واحست برغبة في تناول قدح من الشاي ، فقصدت اقرب مقهى وجلست الى مائدة صغيرة على الرصيف في مواجهة الشارع .

ومن هذا المكان . . في هذه الساعة كان لقاؤها بصور جديدة من الحياة وكأنها تراها لاول مرة . . . الناس الذين كانوا يمرون امامها وكأنهم في سباق مع الزمن . . . كلهم يمشون بسرعة كما لو كانت الحياة سوف تتوقف بعد لحظات مع كل خطوة يخطونها . . . وراحت تتأمل وجوههم . . . بعضها جاد صارم كما لو كان صاحبها مقبل على معركة . . . بعضها ضاحك وكأنه يريد ان يقول لمن حوله : « العمر حقا قصير . . ولكنه قطعا يتسع لوقفة مع النفس ! » وبعضها ساخر تعلوه ابتسامة مليئة بالحياة . . .

واعجبها هذا الوجه الذي امتلأ بالسخرية ، فراحت تجول ببصرها بسرعة حتى اذا مارست عيناها على واحد منها ، توقفت عنده وتأملته وتمنت لو انها اصطحبته معها في رحلة مع الحياة التي يراها ، فهي تشعر انها تشاركه هذه الرؤية !

واحست بالجوع . . واكلت ، وقامت ، ولكنها لم تستطع ان تقطع رحلة العودة الى البيت مشيا على الاقدام ، كما جاءت ، فقد كان الالم قد اشتد عليها ، وكادت مقاومتها له ان تنهار . واستقلت اول سيارة صادفتها وعادت الى البيت . . عادت لتجد ابناءها الخمسة في انتظارها وقد استبد بهم القلق . انها اول مرة تقضي فيها النهار كله خارج البيت في المدينة منذ ان داهمها المرض قبل اربع سنوات !

ومضت الايام ، والجدة ، العجوز مع رحلاتها ، وكانت رحلات قريبة مع الحاضر الذي تعيشه احيانا ، وبعيدة مع الماضي الذي عاشت معه طفولتها في احيان كثيرة . . ومع المستقبل المخيف الذي لن تراه في بعض الاحيان ! المهم انها لم تعد تحبس نفسها في غرفتها مع الالم كما تعودت ان تفعل على مدى السنوات الاربع الماضية . .

لن انتظر النهاية !

ثمة شعور غريب كان ينتابها في كل مرة كانت تقف فيها امام مرآتها تتأمل وجهها الشاحب والتجاعيد التي حفرتها السنون والمرض ، وكانت تقول لنفسها : « لن اجلس في انتظار النهاية . . . سوف اتركها تبحث عني ، من يدري فربما ضلت الطريق اليّ ! »

وخرجت الى الحقول التي أمضت طفولتها بين احضانها . . ورفعت ذراعها النحيل تحيي الفلاح الذي كان يقود جراره ومن حوله زوجته واطفاله الصغار يرقبونه ويمرحون . . ورأت فيهم حياتها هي مع اخوتها ، فقد كان ابوها مزارعا . . هي ايضا نبتت في الارض مع الزرع والشجر . . ودعوها الى تناول الغداء معهم ، وقبلت الدعوة واكلت كما لم تأكل من قبل وانقضى اليوم ، ولم تعد الى البيت قبل ان تتأمل الغروب وترقب قرص الشمس

وهو يغوص في الافق . في تلك اللحظة مرّ برأسها خاطر ، هي ايضا سوف تذهب ... ولكن الشمس سوف تشرق غدا من جديد .. اما هي فلن يكون لها عودة .. لقد مضى الشتاء ، ثم اشرقت شمس الربيع وجاء الصيف وأوشك على الانتهاء .. وقريبا يبدأ شتاء جديد .. وبين ثلوجه المتساقطة سوف تجيء النهاية !

ولكنها لم تستغرق طويلا في التفكير ... عادت الى بيتها وصعدت الى غرفتها ، واحست بالالم يعاودها ، ولكنها لم تأبه كثيرا به . اغمضت عينيها واستسلمت لنوم هادىء رغم كل شيء !

وفي الصباح صحت في ساعة مبكرة وكأنها على موعد . ونزلت مهرولة الى الحديقة ، ووقفت عند بابها تنتظر ... ومرت بضع دقائق قبل ان يصل اوتوبيس المدرسة ... وخرج جيرانها الصغار ... اصدقاؤها الاطفال وتبادلوا تحية الصباح ، واحست بالدنيا تبتسم لها مع صيحاتهم البريئة ولكنها احست بشيء آخر .. لقد بدأ الهواء البارد يلسع وجهها .. لقد اقبل الشتاء !

وعادت الى غرفتها .. وأخرجت ملابسها الصوفية الثقيلة ووضعت جسمها النحيل فيها ، كان واضحا انها تستعد للخروج .. وسألها ابناؤها وهم يتناولون طعام الافطار : « هل تنوين الذهاب الى مكان ما اليوم ؟»

ـ نعم ، ولكنني لا اعرف بالضبط الى اين انا ذاهبة ! .

ولكنها كانت تعرف .. كانت تريد ان تذهب الى المستشفى ، فهي لم تعرض نفسها على الاطباء الذين كانوا يشرفون على علاجها منذ عام تقريبا .. لقد اوشكت « الرحلة » على الانتهاء !

وذهبت ، واستقبلها طبيبها الخاص كما لو كان يستقبل صديقا عزيزا غاب عنه طويلا .. كان اللقاء حارا مع الممرضات اللواتي عرفنها وعرفتهن على مدى السنوات التي كانت فيها تحت العلاج !

وبدأ الطبيب يجري الفحوصات والتحاليل ، وهو مشفق عليها وعلى نفسه من الصدمة .. فهذا هو الوقت الذي حدده لرحيلها بعد ان يئس من جدوى العلاج وتوقف عن المضي في محاولاته لمنع انتشار المرض !

ـ كيف تشعرين الآن ؟

ـ انني اتألم يا سيدي .. ولكنني لا أستسلم للالم ، ولاأعبأ به كثيرا .. حتى الاقراص المهدئة لم اعد استعملها .. لقد اخفيتها حتى لا تمتد اليها يدي في لحظة ضعف !

وانتهى الطبيب من مهمته ... وعاد اليها يقول في ذهول : « لقد شفيت يا سيدتي تماما توقف انتشار المرض . سوف تعيشين هذا الشتاء وكل شتاء .. انها معجزة ! »

ـ كيف ما الذي حدث ؟ هل انت واثق يا سيدي ؟

لحن الحياة

ثم انفجرت تبكي كما يبكي الاطفال . سوف تعود الى بيتها .. والى ابنائها ، وستحتفل بوصول اول حفيد لها ، الم تقل لها زوجة ابنها الاكبر انها تنتظر حادثا سعيدا . وستصبح « جدة » كما يناديها اطفال الجيران !

ولكنها لم تعد الى البيت في هذا اليوم .. لقد خرجت الى الشارع تتأمل كل شيء فيه .. وجوه الناس .. السيارات الحدائق .. كل شيء وكأنها تراها لأول مرة في حياتها ... واحست بانها جائعة .. فقصدت اقرب مطعم وجلست تأكل ..

وفي المساء عادت الى البيت محملة بالهدايا .. للابناء .. وللحفيد الذي يستعدون لاستقباله .. ولاطفال الجيران وللبستاني الذي اعطاها فأسه وترك لها الارض تفلحها وتزرعها بالزهور .. لقد ولدت اليوم من جديد !

○○○

وقعت احداث هذه القصة في عام ١٩٦٧ ، ولكن من الذي رواها بكل هذه التفاصيل ؟ انه اصغر ابنائها .. وكان الوحيد بين اخوته الذي عرف المصير المؤلم الذي كان ينتظر امهم ، فلم يتركها تغيب عن عينيه لحظة واحدة ... كان يصحو معها ، ويسبقها الى حيث تريد ان تذهب ، كان يتبعها دون ان تشعر به ، وتعود الى البيت دائما قبل ان تصل هي اليه !

وفي شهر ديسمبر من العام الماضي وقبل الاحتفال الذي أعدته الاسرة للسنة الجديدة ، وضعت « الجدة » العجوز رأسها ونامت لاخر مرة .. ونشرت الصحف نبأ رحيلها ، وراحت تذكر القراء بقصة المرأة التي تحدت الموت ...

انها لم ترسم لوحة جميلة .. ولم تنظم قصيدة رائعة ... ولم تعزف مقطوعة موسيقية جديدة ... ومع ذلك فقد كانت هذه الام الجدة العجوز التي ماتت اخيرا عن ستة وسبعين عاما .. كانت هذه المرأة فنانة لأنها عرفت كيف تعزف لنفسها لحن الحياة ... لقد احبت الحياة فاحبتها الحياة وانتصر الحب . ■■

منير نصيف

فضولي « ذو اللسانين »

ابن العراق الذي أصبح شاعر اذربيجان

بقلم : الدكتور محمد جليل مصطفي

الشاعر فضولي محمد بن سليمان ، شاعر فذ في عصره . وقد كان له شأن بالغ قبل ما ينيف على اربعة قرون في العراق والشرق الادنى .

وتتسابق الدول لاحياء ذكراه وتكريم تراثه . ومن هذه الدول ـ اذربيجان ، التي تعتبره شاعرها الاكبر . وتكرمه ـ ايضا ، افغانستان ، وايران ، والهند ، وتركيا . ناهيك عن العراق ، الذي في ارضه ولد ، وفي ارضه دفن ، وفي ربوعه كانت مهاد صباه ، وتراتيل شعره الاولى ، فهو ، اذن ، شاعر العراق والشرق الادنى ، او « ذو اللسانين » كما يسميه الاستاذ الدكتور حسين علي محفوظ .

ولد محمد بن سليمان ، الملقب بـ (فضولي البغدادي) في الحلة (بالعراق) حيث كان والده مفتيا فيها . وربما كان ميلاده في العقد الاخير من القرن التاسع الهجري .

وقد ترك الكثير من الشعر ، والمؤلفات في بعض فنون القول ، والرسائل ، وعلم الكلام وكتب بالعربية والفارسية ، والتركية ، ويعتبر شاعر الاذرية الاكبر ، ورائد الادب التركي . ويعده الدكتور حسين علي محفوظ ، الذي حضر مهرجانه في باكو (عاصمة اذربيجان السوفيتية) ، عام ١٩٥٨ ، عنوان النثر التركستاني ، ونابغة العراق في القرن العاشر الهجري ، تتداول الايدي دواوينه ، ويحتذي الشعراء حذوه ، ويروي المتأدبون قصائده .

وقد آثر ، في شيخوخته ، الاعتزال ، والزهد ، والتبتل ، والعبادة ، وتكريس نفسه لها . فاختار (كربلاء) ، التي كان يسميها « اكسير الممالك » ، مقرا ظل فيه حتى ادركه الاجل بوباء الطاعون عام ١٥٥٦ ميلادية ، ودفن في كربلاء ، على خط جنوبي صحن المشهد الحسيني ، تجاه باب القبلة ، على ما يقول الاستاذ محفوظ .

شاعر الفقراء

يعتبر فضولي عن حق عبقرية زمانه ، فقد نبغ في الآداب الرئيسية الثلاثة في عصره ، نعني بها : الادب العربي والفارسي والتركي . وقد تعمق في الادب الفارسي ، فحذا حذو الشيرازيين الكبيرين : سعدي ، وحافظ ، وانتهج نهجها ، وأثمر هذا الاحتذاء والانتهاج ثمره ، فقدم فضولي كتابه الرائع « انيس القلب » .

وقد درس فضولي دراسة جيدة في اذربيجان ، فكتبت فيه الاطروحات والدراسات الطوال ، وعقدت فيه الفصول تلو الفصول ذلك ان « فضولي » كان شاعر الفقراء ، فقد كان ابيا لايدين لظلم ، شامخ الروح لا يعرف الذل ، ولذلك كان ايثاره الزهد وعكوفه على العبادة ، بعيدا عن المغريات .

كما ان كتاب عصره قد اثنوا عليه ، فقال فيه الصادقي : « انه نسيج وحده في الكلام العربي والتركي والفارسي » ، اما امين احمد المؤرخ الهندي المشهور فقد قال فيه : انه فاق لداته بالفضل ، وسبق اقرانه في الفهم

والذكاء ، وهو في قرض الشعر باللسانين علم ـ حاز قصب السبق ، وتجاوز الحد ».

ويعترف الاتراك به رئيسا للشعراء واستاذا للكل ، بل ان الاديب التركي المشهور ، عبد الحق حامد ، يلقبه « بالشاعر الاعظم » ، و« شيخ الشعراء » ، و« اعظم شعراء المشرق » ويحرص ادباء اذربيجان السوفيتية ، عندما يحلون في ربوع العراق ، على زيارة قبره في كربلاء ، وكان اول من زار قبره ، في العهد الجمهوري الشاعر الاذربيجاني الكبير رسول رضا ، ولا زالت وفود الادباء والفنانين الاذربيجانيين تحج الى قبره ، بين وقت وآخر ، معظمة ذكراه.

ومن اثار « فضولي » التي خلدته « انيس القلب » بالفارسية ، و« حديقة السعداء » بالتركية ، و« ديوان فضولي » بالعربية ، والتركية والفارسية ، و« وشكايت نامة » بالتركية ، و« ليلى ومجنون » بالتركية ، و« مطلع الاعتقاد في علم الكلام » وغيرها.

على ان اشهر آثاره ، على الاطلاق ، هو (ديوان فضولي) ، والذي ترك فيه غررا من روائع حكمه واقواله المأثورة ، على طريقة المعري ، والمتنبي ، وسعدي الشيرازي ، وحافظ الشيرازي ، وجلال الدين الرومي.

لقد تأثر فضولي بالشعر العربي كل التأثر ، وكتب بالعربية مثل اي شاعر عربي متمكن في فنه .وقد تجلى التأثير العربي كذلك في مؤلفاته التي كتبها بالفارسية والتركية.

عن الظلم والظالمين

وكان يرى مثل ابي العلاء المعري ، ان الرعية (اي اناس الفقراء ـ الذين هم الشعب) هي الاساس . ذلك لأن الرعية هي التي تنبت الخيرات ، وهي التي تزرع وتكدح ، فلماذا يظلمها ذوو السلطان ، ولماذا يمعن الظالمون في ابتزاز الفقراء ، مع ان هؤلاء الفقراء هم الذين صنعوا هذه الخيرات ، ولعل هذه التساؤلات والحيرة التي ألمت بشاعرنا المرهف الحس ، هي التي دفعته (بين اسباب عديدة اخرى) الى العكوف على العبادة والزهد بالدنيا ومغرياتها . مع انه كان يستطيع لو اراد ان يكون من اكبر شعراء البلاطات العثمانية ، او الصفوية.

يقول فضولي :

ـ « لا تضع ـ ايها الحاكم الظالم ـ

منشارك على نخلة الزارع ،

لتصنع منها عرشا لك ،

فقد تعهدها من أجلك ».

وهو يخاطب السلاطين بمثل هذا :

ـ « ما تعمل ايها السلطان ،

بعرش سيتحطم كالسفينة ،

في ذلك الطوفان ،

الذي يتفجر من عيون الفقراء »

بل يتوعدهم بالويل والثبور ، اذا ابتزوا مال الفقير ، مذكرا في ذلك بالمعرى ومقولته المشهورة : ـ

« مل المقام فكم اعاشر امة
امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم اجراؤها »

حيث يقول فضولي في فقيره المعذب :

ـ « هو يؤدي اليك الضريبة
فعلى من الضريبة
اذا كنت انت
الافة التى تبتز ثمره !

كان فضولي يمقت الظلم والظالمين ، وكان يرى محقا ان الظالم مهما كان لا يعدو ان يكون مجرما يبتز الكادحين ابتزازا.

ـ « لا تظنن الامير سخيا
ولا تحسبن عطاياه مرسومة للاعيان
ان احسان المضطر لا يسمى كرما
هو مجرم ، واعيانه جباة ... »

وظل فضولي على مقته للظلم والظالمين ، طوال حياته ، بل انه ليكره حتى ان يظلم ابنه : فليختر ابنه الطريق الذي يريد لحياته ، وليعتمد على نفسه ، قبل كل شيء ، لان الاعتماد على النفس هو سبيل التربية القومية.

أولادكم وأخلاقكم

اما قرض السنن القديمة على النشء فلن يأتي بجدوى . وثمة مقولة تربوية ـ اخلاقية هامة ، تنسب للامام علي ، تقول : « لا تخلقوا اولادكم بأخلاقكم ،

فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم ».

وقد ترجم الدكتور حسين علي محفوظ شعره هذا الذي احتوى نصائحة لولده. وليسمح لنا القارىء الكريم ان نقدم له مقتطفات منه، لقيمته وأهميته، سواء في حقل الابداع الفني ـ والرؤى واعتاد الفلكلور والتجربة معا، أو في حقل التربية والمعارف الاجتماعية والنفسية والفلسفية يقول فضولي:

« ـ مشيت في هذا العالم المظلم
فمررت ببستان.
فيها عجائب لا تحصى
زارع كبير
يتعهد منذ زمان طويل جدا
شجرة
سعى كثيرا حتى اخرجت الاغصان والاوراق
ثم طلع الثمر
ومازال يؤتى غذاءه
ويظل على الشجرة
مادام فجا لم ينضج
فاذا اينع .. فلابد ان يفترقا
فتقطف الثمرة

ولا يلبث فضولي، بعد أن قدم هذه المعطيات لحقلية فكرية ـ جمالية ـ فنية وحتى فلسفية ان يستخلص الدرس الذي ينبغي من هذه اللوحة التي رسمها باتقان، وامدها بكل مقومات الحياة الموارة، والخصوبة. ومن بعض معطيات هذا الدرس نفهم ان لوحة فضولي هذه (وهي لوحة جميلة، دافقة بالحيوية، والالف انما هي طريقة للاستنتاج الفلسفي الجمالي ـ التربوي البليغ وهذا الاستنتاج الذي ينتهي اليه فضولي يتفق تماما مع معطيات السيكولوجيا والتربية الحديثة في التربية المستقلة، وتحمل المسؤولية. والممارسة ـ سبيلا للمعرفة ـ هي النمو وازدهار الشخصية، ونضوجها، وتقديم العطاء الخصب، وتأديتها دورها في المجتمع الحي، المتطور. فيقول فضولي وللقول دلالته:

« أنعم النظر في الحقيقة
الفاكهة: انت
والشجرة: أنا
والبستان: الزمان »

« صرفت نقد عمري
من اجل رعايتك
والآن تكاد تبلغ السماء طولا ....
فعش وحدك يا بني..
فان فرخ البازي، اذا استطاع الصيد
خير له ان يطير
ويفارق العش .. »

هذا هو فضولي ـ شاعر الشرق الكبير، وربيب الثقافة العربية الاسلامية والمسهم فيها، على شتى المستويات.

وذلكم هو بعض مما يسمح به الحيز، والمقام، في الحديث عنه، وعن تأثراته الجمة بالحضارة، والثقافة العربية وعطائها الانساني الخصب(*) ■■

د. محمد جليل مصطفى

---

* يجل تركمان العراق، بصفة خاصة ابداع فضولي وذكراه. ويجدر بنا ان نشير الى ان التماثل وثيق جدا بين اللهجة الاذربيجانية واللهجة التركمانية. فالناطقون بهاتين اللهجتين (من لهجات الشعوب الناطقة باللغات التركية) يفهم بعضهم البعض دونما عناء يذكر. ويعد الدكتور ابراهيم الداقوقي، رئيس اتحاد الادباء التركمان في العراق دراسة موسعة عن فضولي العظيم.

الحوادث لا تلد الرجال

● الابطال الصناديد والجبناء الرعاديد لا تلدهم الحوادث الجسام، بل تكشف الغطاء عنهم حتى يراهم الناس. فالمرء ينمو نموا ساكنا لا يحسه، كما يمشي او ينام، حتى يصير ضعيفا اوقويا. وأخيرا يقع في مأزق ضنك يكشف عما صار اليه مره.



سلامة موسى



هكسلي



برنارد شو



د . أحمد زكي

بين العالم والأديب

بقلم محمود محمود

كل معرفة بشرية أساسها التجربة الفردية . الأديب يشاهد ويصور ، والعالم يرى ويختبر ويضع النظريات العامة .

من الشائع في الاوساط الثقافية والتربوية في الشرق والغرب ، قديما ، وحديثا ان الثقافة اما علمية واما ادبية . غير ان هناك قلة من المفكرين حاولت ان تدعو الى الوصل بين الثقافتين وسد الثغرة القائمة بينهما . ومن هؤلاء المفكر الانجليزي ماثيو ارنولد الذي عاش في القرن التاسع عشر واحس ان الفكر الغربي متأثر الى حد كبير بالثقافة الاغريقية الهلينية على الرغم من تطور العلوم في عصره تطورا كبيرا فنادى باعداد جيل جديد من المتعلمين تكون الآداب قوام دراسته مع الايام بشيء من العلم الحديث . ثم جاء من بعده ت . هـ . هكسلي فعكس الآية وقال بل ندرس العلوم أساسا ونخلفها بشيء من الآداب والمواد الاجتماعية ، وحذا حذوه « سنو » في كتابه « الثقافتان » .

وهناك من يقسم الدراسة الى نظرية : كالأدب والتاريخ واللغات ، وعملية : كالطب والهندسة والعلوم .

ونظرة فاحصة تهديننا الى ان هذا التقسيم باطل من اساسه ، فمن ذا الذي قال ان اللغة ـ مثلا ـ ليست عملية ، وهي اساس التعامل بين البشر ، بل ولدراستها الآن معامل تعرف بالمعامل اللغوية تسجل فيها الاحاديث والدروس على الاشرطة ، ويستمع الدارس اليها ويجيب عما يرد فيها من سؤال او يردد عباراتها في محاولة لتقليد النطق الصحيح لها ، وتسجل على اشرطة اخرى اجابات الدارس وعباراته ، ثم يعاود الاستماع الى ما سجل ليقوم بمقارنته بالاجابة الصحيحة والنطق السليم ليقوم لسانه المعوج ويتعلم سلامة العبارة . واذن فالمادة « وهي اللغة » عملية ، وطريق دراستها قد تكون عملية كذلك .

ثم من ذا الذي قال ان العلوم ليست نظرية ؟ والهندسة والرياضيات والفيزياء والكيمياء ليست سوى نظريات قد تبلغ قمة التجريد .

الانسان نقطة الالتقاء

وسواء اخذنا برأي ارنولد من تغليب الاداب على العلوم ام اخذنا برأي هكسلي من تغليب العلوم على الآداب ، فلقد بات حتما علينا الا نتعصب لناحية واحدة دون الأخرى وألا نقصر الثقافة على منهج واحد دون الآخر ، خاصة وان التفرقة بين ما هو علم وما هو ادب كثيرا ما تكون افتراضية لا تقوم على تعريف جامع مانع لكل منهما .

ويدفعنا هذا الجدل الى ان نتساءل : ما هي وظيفة الادب ؟ وعلى اي اساس سيكولوجي يعتمد ، وما هي اهم مميزات اللغة الادبية ؟ كما نتساءل ؟ من ناحية اخرى ، ما هي وظيفة العلم ؟ وعلى اي اساس سيكولوجي يستند ؟ وما اهم مميزات اللغة العلمية ؟

ثم ما مدى العلاقة بين العلم والادب ؟ انهما قطعا ليس مجالين يستقل كل منهما عن الآخر تمام الاستقلال ، ويمكن للعالم ان يتأدب وان يكتب علمه بلغة ادبية تتميز بجمال اللفظ وروعة الاسلوب ، كما كان يفعل المرحوم الدكتور احمد زكي الرئيس السابق لتحرير هذه المجلة ، كما يمكن للأديب ان يتعلم بمعنى ان ينتفع بالمادةالعلمية فيما يكتب ، كما فعل مثلا هـ . ج ولز في الادب الانجليزي الحديث حينما كتب قصة « الرجل الخفي » و « مكنة الزمن » وغيرها ، وكما فعل سلامة موسى في ادبنا العربي الحديث حينما اتخذ من نظرية التطور ومن التحليل النفسي مادة لما كتب ، وكما يفعل الدكتور مصطفى محمود في الأدب العربي المعاصر .

وما أكثر المواقف التي استغل الادباء فيها العلم ، فقد استخدم جورج برنارد شو في مسرحياته « الانسان والسوبر مان » و « الفتاة السوداء تبحث عن الله » و « عود الى ميتشولح » كثيرا من نظريات دارون ، وتعرضه لها بالنقد في كثير من المواضع .

ثم ان الادب في جملته يبحث في « الانسان » : طبائعه ومشاعره ، والعلم كذلك يتعرض « للانسان » من تشريح جسمه ، وتحليل نفسه ، ودراسة نظمه الاجتماعية . (فالانسان) نقطة التقاء بين الثقافتين .

هذه القضايا الثقافية

والواقع اننا حينما نقول « الانسان » فقد نعني بهذا اللفظ كل من يحيا فوق سطح هذه الارض من البشر ، أي « الجنس البشري وهذا المبحث من العلوم . وقد نعني بها مجموعة من الافراد تمثل ثقافة من الثقافات في فترة من فترات التاريخ او فوق بقعة معينة من الارض وذلك عندما نقول مثلا « الانسان البدائي » او « الانسان الغربي » او « الانسان العربي » وبهذا اللون من المعرفة يعني المؤرخون ودارسو المواد الاجتماعية . اما اذا عنينا « بالانسان » فردا بعينه من ملايين البشر الذين عاشوا او يعيشون فوق هذا الكوكب ، فان ذلك يكون من مجالات الاديب الذي يهمه الفرد الفذ دون ان يخرطه في سلك مجموعة من المجموعات ، وهذا الفرد الفذ يستحوذ على خيال الاديب فيصوره شخصية في مسرحية او رواية . وصفات الشخصية ـ في نظر الأديب قدر من الاقدار يحدد مصير الفرد ولا تكون له في هذا القدر حيلة ، فقد كتب عليه ، كما كتب عليه لون جلده وارتفاع قامته . ويعني الادباء المحدثون بدراسة علم تحليل النفس الانسانية ويستعينون به في رسم الشخصيات التي يختارونها لأدبهم وفي بيان ما يصدر عنها من سلوك

هذه القضايا الثقافية التي تتعلق بمجالات العلوم والآداب تناولها بالبحث المستفيض الكاتب الانجليزي المعاصر الدوس هكسلي في كتاب له معروف عنوانه « العلم والادب » .

يقول هكسلي في هذا الكتاب ان كل معرفة بشرية أساسها التجربة الفردية الخاصة . الاديب يشاهد ويصور ويعبر ، والعالم يشاهد ويختبر ويضع النظرية العامة . الا ان مشاهدة الاديب خاصة به وحده لا يشاركه فيها احد ، في حين ان مشاهدة العالم تتفق في الكثير مع ما يرى غيره من الناس . ومن ثم كان التعبير

الادبي اسلوبا خاصا بصاحبه . والتعبير العلمي لعالم شديد الشبه بتعبير غيره من العلماء .

بيت يحترق

وتوضيحا لذلك نضرب للقارىء المثل الآتي : نفرض ان هناك بيتا تشتعل فيه النار ويحترق ويصعد منه الدخان واللهيب ، إن هذا المنظر حينما تقع عليه العيون يثير في اصحابها انطباعات متشابهة وأخرى غير متشابهة ، ومن المتشابهات أسباب الاحتراق هل هي من عود ثقاب ألقي به اهمالا او عمدا في مادة قابلة للاشتعال ؟ .. ام من كهربي من الاسلاك ؟ أم غير ذلك من الاسباب العلمية ؟ ثم هذا الدخان المتصاعد من اين مصدره ؟ وفي مثل هذه الامور يتشابه تأثير النار في المشاهدين ، ويتشابه التعبير عنه ، فهو من المباحث العلمية ، ولا يكون خلاف الا في مدى مطالعة الخبرة للواقع العلمي .

اما ما يراه احد المشاهدين من جمال في الصورة او من احساس بالهلع والفزع ، او ما يشعر به من عطف على المصابين ، او من نقمة الهبة ، من ظلم الانسان للانسان ، او غير ذلك من المشاعر والاحاسيس ، فذلك من الامور الخاصة الشخصية التي تختلف اختلافا جذريا من فرد الى اخر . ومن امثال هذه الانطباعات يستمد الاديب عادته التي يصوغها شعرا أو نثرا ، ولا يتفق فيها تعبير كاتب مع تعبير كاتب أخر . وبناء على ما تقدم يكون العلم تعبيرا عن التجارب البشرية المشتركة ونقل هذه التجارب الى الآخرين مرتبة مسببة ، والادب كذلك تعبير عن التجارب البشرية التي لا تكون بالضرورة مشتركة ونقل هذه التجارب الى الآخرين دون ترتيب وبغير ابداء الاسباب ، لانها تجارب خاصة بصاحبها قد يحسها غيره وقد لا يحسها ، في حين ان التجارب البشرية التي ينقلها العلم للآخرين مشتركة موضوعية ، ولا تختلف في عمقها من فرد الى آخر .

ولذلك فان العالم حينما يعبر عن حقائق علمية يلجأ الى لغة مشتركة بينه وبين غيره من العلماء في نفس مادته ، وهذه هي مصطلحات العلم ، التي تعجز اللغة احيانا عن التعبير عنها فيصوغها العالم فيما يسمى بالمعادلات الرياضية .

ان عبارة العالم لا تحتمل الا تفسيرا واحدا ومعنى واحدا في الوقت الواحد . اما عبارة الاديب فذات دلالات كثيرة تتنوع بتنوع خبرات الافراد ، والاديب البارع يأخذ لفظ العامة ويعمق معناه ويتوسع في مدلوله ويثريه بايقاع الاسلوب وبتحميله اشارات وتلميحات تتداعى منها المعاني في اذهان القراء .

نظرة .. ونظرة !

وقد يعبر الاديب عن موضوع ما هو بعينه موضوع العالم ، ولكنه يتعرض له من زاوية أخرى ويضوع آراءه او خياله في اسلوبه الخاص وفي شكل او قالب معين . خذ القمر مثلا لما أقول . يكتب عنه رجل العلم من حيث اوجهه وفلكه والطريقة التي يعكس بها ضوء الشمس «وهو فيما يكتب قد يخطىء، وقد يصيب ، ويكتب عنه الاديب من حيث أثره في نفسه والشبه بينه وبين وجه حبيبته أو بينه وبين « الزورق أثقلته حمولة من عنبر » . وقد يكون ذلك في مسرحية او رواية او قصيدة شعر . فالقمر مادة للكتابة للعالم والاديب على حد سواء لكن العالم يستخدم قوانين المنطق ويحاول التعريف ويتجاهل الأثر النفسي او الايحاء . اما الاديب فلا تعنيه الا الاثارة النفسية الخاصة وما توحي به ، ولا يهمه ان يشاركه غيره في مشاعره .

يحاول العالم ببحثه في الضوء مثلا ان يتوصل الى قانون عام يثبت بالتجربة ولا يخالفه فيه احد ، بل ولا يستطيع ان لزم العقل وسبيل الاقناع . اما الاديب فيعبر عن احساسه الخاص في لحظة معينة ، لا يقصد الى تعميم ولا يهدف الى وضع قانون يخضع للتطبيق ولا يحتمل المعارضة .

ينظر العالم الى الزهور ويبحث فيها كيف تنمو وكيف تصطبغ بألوان مختلفة « ويصنعها انواعا ، ويبحث في العوامل التي تدعو الى ازدهارها او ذبولها .

وينظر الاديب الى زهرة واحدة في لحظة واحدة ، لا تهمه قوانين الطبيعة ، وانما يهمه جمالها يضفي عليها حياة ، ويبتهج لها يانعة ، ويألم لها ذابلة او « ميتة » .

ويبحث العالم النفسي في اسباب الشعور بالحب او الجنون او العظمة او الخوف او غير ذلك من المشاعر التي تنتاب الانسان . اما الاديب فلا يأبه بالاسباب العلمية ، انما يرى هذه المشاعر مجسدة في اشخاص : الملك لير ، ماكبث ، هاملت ، قيس ولبنى ، مجنون ليلى وغير هؤلاء ، ممن يلتقي بهم في الحياة او يصورهم ، من خياله ، كل منهم شخصية فذة ، لا يمثل الا نفسه ، وليس سلوكه قانونا للناس اجمعين .

التفسير والوصف

والعالم الحق صادق ، وكذلك الأديب الحق صادق .

العلم يفسر والأدب يصف ، واسلوب العالم كالحساب والارقام ، واسلوب الاديب يتأتى بالمحسنات اللفظية ، ويلجأ الى الاستعارة والتشبيه والمجاز .

والعلم فيه الخطأ وفيه الصواب ، ولا يضفي على الامور احكاما خلقية . اما احساس الاديب فالاصل فيه صدق الشعور ، ولا تستطيع ان تقول لصاحب الحس المعين انك كاذب . وله احكام خلقية على المواقف وانماط السلوك .

واذا كان العالم يكشف عن قوانين الذرة فليس مما يهمه ان تصنع منها القنابل المدمرة او ان تستخدم في علاج المرض ، ولكن الاديب الحساس يألم للتدمير ويتهلل للتعمير .

ولما كان العالم يعالج الحقائق الواقعة ويحللها ويصوغها في قوانين تقبل التطبيق ، والاديب يعالج العواطف والمشاعر المتغيرة ولا يحاول ان يحولها الى قوانين لها صفة العموم ويكفيه ان تكون تعبيرا صادقا عما يدور بنفسه ازاء مشهد من المشاهد في لحظة من زمان ـ لما كان الامر كذلك فان كثيرا من الناس يرون الفائدة في دراسة العلوم لانها حقائق ابدية ازلية ، ولا يرون جدوى في الادب لانه لا يعبر الا عن صاحبه . وفي هذا الرأي خطأ شديد ، لان احساس الاديب هو كذلك حقيقة من الحقائق وصفة من صنع الله ،والعالم الذي يتعرض له الاديب فيما يكتب هو هذه الدنيا التي يولد فيها المرء ويعيش ويموت ، هو هذه الدنيا التي فيها الحب والكراهية ، وفيها النصر والهزيمة ، واليأس والامل ، والبهجة والالم والعادات والتقاليد ،والقناعة والجشع ـ كل ذلك وغيره مما ينبعث عن الغرائز والمشاعر والعواطف ، هو من حقائق هذه الدنيا ، وهو مادة للاديب لا تنفد ، يعبر عنها بصور مختلفة ، وفنون متنوعة بأية لغة من اللغات .

المدنية الفاضلة !

والاديب الفحل هو الذي يتفرد باسلوب ينأى به عن التعابير الشائعة على ألسن العامة من الناس . ويستطيع الدارس المتعمق حينما يقرأ لاديب بارع يخفى عليه اسمه ان يقول هذا من انشاء فلان . هذا قول الجاحظ او اسلوب طه حسين او شعر شكسبير .

والاسلوب الادبي بحاجة الى مقدرة ليست من خصائص الاسلوب العلمي فليس من الامور الهينة ان تعبر عن الاحساس بالحب او الجمال . حتى لقد قيل : (لا يعرف الشوق الا من يكابده) وليس من اليسير ان تنقل الى من يسمع الى قولك صوت العصفور او لون الزهرة او مذاق الطعام والشراب او رائحة العطر او الملمس الناعم . اللهم الا ان كان ذلك عن طريق التشبيه وبالتقريب والسيطرة الكاملة على اللفظ واللغة ، والأديب وحده هو الذي يحاول ذلك .

وأخيرا أود أن اقول ان الحضارة المتكاملة فيها علم وفيها أدب كما انها تستند الى العقيدة الدينية والفلسفة والفنون . فليفكر وليعمل كل امرىء في مجاله لعلنا نستطيع ان نجعل من الدنيا مدينة فاضلة تستحق ان يعيش فيها الانسان .

القاهرة : محمود محمود

شجاعة

● روى « صموئيل بيبس » انه شهد مرة احد المحكوم عليهم بالاعدام يصعد الى المشنقة في هدوء وثبات . ولما سئل عن شعوره حينذاك كان جوابه انه قال : « انني لا اعبأ بالموت بل أرحب به على انه ما كاد يشعر بحبل المشنقة يلتف بعنقه حتى اخذ في البكاء والتوسل الى المشرفين على التنفيذ ان يأمروا الجلاد بالترفق في لف الحبل ، حتى لا يؤلمه « الخراج » الصغير الذي في قفاه » .



طبيب الأسرة

يجيب على هذه الاسئلة نخبة من الاطباء

مرضى السكرى

● اذا كان نقص الانسولين هو سبب مرض السكري . فلماذا لا يكون العلاج بسيطا ومؤكدا بمجرد استخدام الانسولين ولو بغير استشارة الطبيب ؟

منذ اكثر من خمسين عاما عندما اكتشف الفسيولوجي الكندى « بنت » وزميله غدة البنكرياس وأن من ضمن خلاياها خلية تفرز هرمون الانسولين . منذ ذلك الحين وقضية مرضى السكرى تبدو بسيطة كما يلاحظ السائل . ولكن التقدم الكبير في علم التكنولوجيا مكن الباحثين من تقصي الحقيقة في مجالات عديدة . ولقد اصبح معروفا ان مرضى السكرى ليسوا فقط المصابين بعطب في خلايا البنكرياس التي تفرز هرمون الانسولين ، وان تعويضهم بالانسولين من الخارج يحل مشكلتهم . ان نسبة هؤلاء لا تزيد على عشرين في المائة فقط من مرضى السكرى الذين يترددون على الاطباء ويسميهم الاطباء النوع الاول من مرضى السكرى لأن مشكلتهم أبسط وحلها اسهل .

اما باقي مرضى السكرى والذين يسميهم الاطباء النوع الثاني من مرضى السكرى فانهم في اغلب الاحيان يفرزون كميات طبيعية من الانسولين بل ان بعضهم قد يفرز انسولين اكثر من المعدل المطلوب . والمثال على ذلك اغلب مرضى السكرى المفرطى السمنة فكلهم يفرزون كميات من الانسولين عادية او فوق العادية ، وكل هذه الكمية من الانسولين تتجه الى الخلايا ذات العلاقة بعمل الانسولين دون معوقات . غير ان المشكلة تقابلها عند جدار هذه الخلايا التي ترفض ان تستقبل الانسولين كلية وذلك أمر نادر ، وهذا يتفاوت من مريض لمريض .

والخلية المستهدفة من الانسولين في العادة تستقبل منه ما يكفي حاجتها ، فالانسولين يساعد هذه الخلايا على استخدام وتخزين سكر الجلوكوز على شكل طاقة تقدم الحرارة والنمو والقدرة على اداء الوظائف البيولوجية المطلوبة .

وحتى يقوم الانسولين بهذا العمل في الخلايا ، فان هذه الخلايا يجب الا ترفض حضوره وتتعرف عليه من ضمن ملايين الجزئيات التي تصلها ، وعلى سطح جدار الخلية مواضع قليلة مهمتها تمييز جزيء الانسولين واستقباله من بين الملايين الاخرى من المواد التي تلامس هذا السطح ، وان اى اضطراب يحدث في هذه المواضع بسبب عدم قدرة الانسولين على الاتصال بالخلية حتى يمكنها من الحصول على الطاقة التي تلزمها ، الامر الذى يؤدى الى خللها الوظيفي والذى سيصيبها نتيجة لهذا النقص .

ولقد تمكنت التكنولوجيا الحديثة من استنباط وسائل لقياس قدرة الخلية على استقبال الانسولين ، وبينت ان حالة المواضع المستقبلة ليست ثابتة ولكنها متغيرة الأحوال وبسرعة ، وان عوامل من الجسم ذاته او من خارجه يمكن ان تكون سببا في هذه التغيرات المستمرة . مثلا كمية الطعام التي يتناولها الانسان ، كمية السعرات الحرارية في هذا الطعام ، مكونات الطعام ، مجرد تناول الطعام ، ممارسة

التمرينات الرياضية ، او حتى حدوث اي اصابة في الجسد او تغير نفسي طارىء . كل هذه عوامل تغير من عدد المواضع التي يمكنها ان تستقبل الانسولين على جدار الخلية زيادة ونقصا .

ولعل المثال المفيد حقا في هذا المجال هو السمنة المفرطة ، فهي مصحوبة بنقص في عدد مستقبلات الانسولين على جدار الخلية وبذلك تعمل على تعطيل عمل الانسولين . ولكن بضعة اسابيع من التغذية المنضبطة يمكنها تصحيح الاوضاع بزيادة عدد مستقبلات الانسولين من جديد .

ان العوامل التي تؤثر في هذه المستقبلات ليست محدودة ولكنها عديدة ومتداخلة . والامر يحتاج لخبير في المشكلة حتى يمكنه وضع يده على العامل المؤثر في كل مريض على حدة .

من هنا كان لا بد من وجود المتخصصين في علاج مرضى السكري . وكان لابد من استشارتهم حتى يمكن الوصول الى اصل الداء الحقيقي ، وهذا اول الطريق الصحيح للعلاج .

منظار البطن

● أعطاني الطبيب موعدا لعمل منظار لبطني .. وذهبت دون ان اعرف حقيقة هذا المنظار فهل تستجيب « العربي » فتكتب شيئا عن هذا المنظار ؟

ـ منذ عرف الانسان الطب والعلاج وهو يسعى لمعرفة دقيقة عن مكان المرض ونوعيته واسلوب عمله او بمعنى أصح الى تشخيص صحيح ومؤكد .ولكن ذلك لم يكن دائما في متناول اليد لان المرض اى مرض يكمن في داخل الجسد . وان ظهرت بعض علاماته او آثاره خارج الجسد فهي لا تشير بشكل دقيق الى اسم المرض بالتحديد . لان الاعراض لأمراض عديدة تكون متشابهة بدرجة كبيرة .

من هنا كانت محاولات الاطباء ـ عبر التاريخ عديدة للبحث عن الوسيلة التي تساعدهم في الوصول الى اسباب المرض والى تشخيص أقرب ما يكون الى الصحة ، فاستخدموا وسائل عديدة ، كلها يمكن لغويا ان تطلق عليها اسم « مناظير » جمع « منظار » حتى وان كان النظر ليس الحاسة الوحيدة التي تستعملها . فسماعة الطبيب مثلا منظار نسمع به اصواتا داخل الجسد ثم نتصور اسبابها من الخبرة العملية السابقة . والاشعة منظار لانها تمكننا من رؤية صورة للاجسام الصلبة في الجسد كالعظام او حين بلع جسم صلب لا تنفذ منه الاشعة السينية كقطعة نقدية « مثلا » . ولقد تحايل الاطباء فجعلوا المريض يبلع مادة غير منفذة للاشعة ولكنها في قوام لين كالعجينة « تسمى الباريوم » وتبقى هذه المادة في جوف المعدة والامعاء فتشكلها ، وعند تصوير البطن نستطيع ان نرى الجوف لان فيه العجينة وبذلك يمكننا التعرف على مشاكله . ولقد حقنوا في الاوردة مواد من النوع الذي لا يسمح بمرور الاشعة وبذلك امكن تصوير هذه الاوردة والشرايين ، وحين افرزت الكلية هذه المواد امكن تصوير الكلية والحالب والمثانة أيضا . اذن فالاشعة منظار ، وكل المناظير هي محاولات للنظر في داخل جسم الانسان بدون اجراء عمليات جراحية .

ورغم الفائدة الكبيرة للمناظير التي ذكرتها لكنها لا تشبع رغبة الطبيب في ان يرى جوف البطن رؤية مباشرة مما يضطره احيانا الى اجراء عملية فتح بطن فقط لا ستكشاف المرض . ولما جاء عصر الثورة التكنولوجية ظهرت معه الخيوط الضوئية . ولقد مكنت هذه التكنولوجية من نقل الضوء عبر أنابيب منحنية ، ونبتت عند الاطباء فكرة المنظار البطني . وهي عبارة عن انبوبة صلبة قطرها حوالى السنتمتر يمكن غرزها في جدار البطن الى جوفه .ولقد ركبت عليها عدسات مكبرة اتصلت بها خيوط ضوئية ، تنقل الضوء الى داخل جوف البطن ، وتغرز الانبوبة في جوف البطن تحت مخدر عام و يوصل اليها الضوء

من حزمة الخيوط الضوئية ، وما على الطبيب الا ان ينظر في العدسة فيرى تجويف البطن كله ويتبين من داخله ما تمكنه الرؤية منه . ومن ثقب جانبي يجريه الطبيب في جدار البطن يمكنه ان يدخل ادوات دقيقة ورفيعة ويستطيع ان يجري بها بعض العمليات الجراحية . كل ذلك دون ان يفتح جدار البطن الا بمقدار ثقب صغير . لا يجوز مقارنته بجرح العملية الجراحية الكبيرة بل ان اثر الجرح يزول تماما في وقت قصير .

سن اليأس عند السيدات

● انقطع الطمث عندي رغم أني لم أبلغ العقد الخامس من العمر .. وعندما راجعت الطبيب قال لي : لقد بلغت سن اليأس .. فاعتراني شعور باليأس من هذا التعبير، فما الذي يحدث للمرأة في هذا السن ؟

ان التغيرات التي تحدث في خلايا كل الاحياء بعامل الزمن هي تغيرات حتمية . ولا فرق فيها بين الذكر والانثى ، ولكن الانثى في الثدييات ومنها الانسان تتميز بتغيرات اخرى تحدث في الجسد بشكل دوري تكون في الانسان مرة كل حوالي شهر ويطلق عليها « العادة الشهرية » ، وهي مصحوبة بظهور الطمث الشهري .

وهذه الدورات وظيفة فسيولوجية كالهضم والتنفس ، ودقات القلب ، وخلافه ، وهي ترتبط بعمل خلايا الغدد الصماء بصفة عامة ، وخلايا المبيض بصفة خاصة وكبيرة ويسري على خلايا هذه الغدد ما يسري على باقي خلايا الجسد من اثر لعامل السن . ولكن تأثر خلايا المبيض يكون اكثر وضوحا وذلك ان العلامات الظاهرة لكل الناس كالطمث والقدرة على الحمل تختفي . وتصبح عسيرة ثم مستحيلة ، يحدث ذلك في المرأة عند حوالي سن الثامنة والاربعين الى الثانية والخمسين ، في اغلبية السيدات . ولكن ظهور العادة الشهرية قد يمتد عند بعض السيدات حتى سن الخامسة والخمسين واستمرار حدوث العادة الشهرية الى سن متأخرة او انقطاعه في سن مبكرة احيانا عند الاربعين او ربما قبلها يتوقف على عوامل كثيرة كالطقس والتغذية والعوامل الوراثية .

وقد لوحظ ان الفتيات يحضن مبكرا في الجو الحار وان العادة الشهرية يتأخر ظهورها عند الفتيات اللاتي لم يحصلن على تغذية سليمة اثناء فترة الطفولة والصبا . كما لوحظ ان العادة الشهرية تظهر في سن مبكرة عند بعض الفتيات وتختفي ايضا في سن مبكرة كما لوحظ ايضا حدوث الظهور المبكر للطمث والاختفاء المبكر او العكس في عدة فتيات من اسرة واحدة مما يشير الى ان الامر يتوقف على عامل وراثي في مثل هذه الاسرة .

وفي بعض الاحيان يكون انقطاع الطمث حدثا عاديا ومتوقعا ويمر بدون آثار نفسية ولا مرضية ، ولكن بعض النسوة تظهر عليهن علامات عصبية حادة وانقباض نفسي شديد . ويبدو ان اسباب كل هذه الانفعالات النفسية يرجع الى قناعة مثل هؤلاء السيدات ، ان انقطاع العادة الشهرية وعدم القدرة على الانجاب يلغي دورها في الحياة وتصبح محكوما عليها في باقي عمرها ان تعيش النهاية فحسب ، وهذا شعور مخيب للآمال ومعكر لصفو الحياة . ولعل هذا الشعور في حد ذاته كاف ليصيبها بقدر كاف من اليأس وربما كان هذا الشعور هو السبب في تسمية هذه المرحلة التي تصلها المرأة « بسن اليأس » وهذه بلاشك تسمية خاطئة لان التغيرات التي تحدث لخلايا المرأة في هذه المرحلة هي سنة طبيعية كما قلت ، تحدث للرجل والمرأة ولذلك فان بعض المجتمعات التي وعت حقائق الحياة تسمي هذه المرحلة من العمر « بسن الربيع » ولعلها كذلك خصوصا عند المرأة .

لغة صامتة في الزي الشعبي الفلسطيني

بقلم: نمر سرحان

ان الازياء الشعبية الفلسطينية التي لا نزال نشاهد أشكالها وألوانها المختلفة والجميلة داخل الوطن المحتل ، وفي مخيمات الفلسطينيين وأماكن تجمعهم عبر الارض العربية والعالم ، ما هي الا بقايا أزياء قديمة توارثها الناس جيلا عن جيل ، وطائفة عن طائفة . وما التباين الذي نلمحه على سطح هذه الازياء الا انعكاس لمؤثرات تاريخية ، دينية ، اجتماعية ، اقتصادية ومناخية .

والزي الشعبي الفلسطيني كان معروفا على أرض فلسطين منذ أقدم الأزمنة ، وكان التطريز في الماضي السحيق يخدم اغراض الطبقات الحاكمة والكهنة والنبلاء ، والتي كانت ملابسهم تطرز بخيوط الذهب والفضة ، وكان يقوم بهذه المهمة لصالح تلك الفئات الممتازة حرفيون متخصصون ، ويحصلون لقاء ذلك على مبالغ طائلة . وبالتأكيد كانت مهنة التطريز بعيدة عن تناول الفئات الشعبية والتي كان فوق طاقتها الحصول على خيوط الذهب والفضة . وبدلا من هذه الخيوط كانت تلك الفئات الفقيرة تستعمل الابرة والخيوط القطنية والحريرية لتطريز ثيابها . وترسم موتيفات تعبر عن خرافاتها ومعتقداتها الشعبية وتقاليدها وملامح بيئتها .

إن أول المؤثرات التي ساعدت في تشكيل ملامح الزي الشعبي الفلسطيني هي تلك الوظيفة الاجتماعية التي تقوم بها الازياء ، فهذه الازياء عبارة عن « لغة صامتة » تعبر عن جنس لابسها وفئته الاجتماعية وانتمائه الطبقي ، ووجهة نظره للحياة ، كما أنها تفسر لنا المشاعر الانسانية الداخلية التي تمور في نفسه والتي يحاول ان يعبر عنها . وفضلا عن ذلك فان طبيعة الزي واسلوب زخرفته او مجرد مظهره البسيط ، كل ذلك يعبر عن الظروف المعاشية والموقع الذي يحتله الفرد في المجتمع ، او هو تعبير عن وجهة نظر المجتمع في ذلك الشخص . ولا شك ان هذه العبارات النظرية بحاجة للكثير من التفصيل . ويجوز لنا الافتراض بأن كلا من الرجل والمرأة كانا يرتديان نفس الثوب البرميلي الشكل ، ثم اخذ الرجل يحرف شكل ثوبه حتى وصل الى شكل « الدماية » او « القنباز » الفلسطيني ، والذي هو في حقيقته ثوب مشقوق ومشدود بحزام واستمر الرجل يميز بين نفسه والمرأة ، فاتخذ العقال ووضعه على « الكوفية » . ومع الزمن اصبح العقال رمزا للرجولة .



وقد رأينا كيف أن القاتل كان يدخل بيت المقتول يوم الصلح بلا عقال رمزا للاستكانة والخضوع والتجرد من صفات الرجولة . وكان الرجل الذي لم يثأر لقتل ابن عشيرته يخلع عقاله رمزا لفكرة مؤداها انه لم يصل بعد لمرحلة الرجولة الكاملة التي لا تكتمل الا بأخذ الثأر .

وبصورة عامة يمكن القول بأن مؤثرات نفسية وفسيولوجية ، فضلا عن مؤثرات اجتماعية عديدة جعلت من زي المرأة زيا في غاية الجمال والزخرفة ، في حين اقتصر زي الرجل على مظهر عادي بسيط ، ويمكن ان نفسر ذلك في وجهة نظر المجتمع نحو المرأة ، وفي المركز الذي اختاره ذلك المجتمع لجماهير النساء ، ففي حين كان ينصرف الصبي الفلاح الفلسطيني ابتداء من سن العاشرة من العمر الى مساعدة والده الفلاح في الحقل ، كانت البنت تلزم البيت وتتفرغ لخدمته ، والاستعداد للزواج

المبكر الذي كان شائعا في الحياة الشعبية الفلسطينية فيما قبل الخمسينات من هذا القرن . وكانت البنت تعاني من فراغ طويل ، ولذلك كان عليها ان تبدأ في تعلم الخياطة والتطريز ، وتأخذ في إعداد ثوب العرس الذي كان يستغرق منها سنوات طويلة ، وفضلا عن ذلك تبدأ في إعداد قطع الثياب المطرزة وأغطية الفراش والاواني وصنع المناديل المزخرفة بالحرير والخرز ، ولم يكن الصبي ليفعل ذلك اعتمادا على انه سيصبح الرجل المنتج في البيت .

وهناك دافع آخر لذلك ، فالرجل هو الذي يختار عروسه ، والبنت تجلس في البيت بانتظار العريس صامتة ، ولا يجوز ان تخطب عريسها او تعلن حبها . ولذلك نشأت تلك المنافسة الصامتة بين النساء على الرجل ـ عريس المستقبل . وكان لا بد للبنت من ان تلفت انتباه الرجال واجتذابهم من خلال قدرتها على زخرفة ثيابها وجسدها ، والحصول على سمعة طيبة ، وتأتي هذه السمعة ، بعد الأصل والجمال الطبيعي ، من خلال « العدله » ـ اي المهارة في صنع الثياب وخدمة البيت ، وعبر سنوات الانتظار هذه كان على البنت ان تنجز انتاج مجموعة من الثياب والمناديل والمنسوجات التي تعتبر جزءا من جهاز العروس . وهكذا أصبحت الازياء الشعبية في غالبها لنا نسويا ، فبينما نجد الرجل يكتفي بالدماية والحطة والعقال ، نجد ان ملابس المرأة تزداد كثرة وتنوعا ، فهناك الثوب المطرز ، والسروال المطرز والتقصيرة والعصبة والاكمام الزاهية الالوان ، وغطاء الرأس المشغول بالحرير والخرز والشطوة التي هي اشبه بطربوش مزخرف بالليرات الذهبية ، ومن اجل ذلك كانت تلك الصفة والشكة على جبين المرأة والتي تضم حشدا هائلا من ليرات الذهب العصملي (العثماني) وقطع العملة الفضية (الوزري والخيري) ، وكانت تلك الوقاة وهي الطاقية الصغيرة تحت غطاء الرأس والتي تثبت المرأة عليها الريالات الفضية ـ ابو عمود وابو ريشة وكان ذلك الكردان « قلادة » الذهبي الذي يتدلى على الصدر والى جواره عقد القرنفل وعقد الكارب والبغمة التي تحمل الحجاب ، وقلائد الفضة التي تتدلى منها شتى العملات الفضية . ويمكننا تفسير كل هذا الحمل الثقيل من الحلي في اتجاهين :

الاتجاه الاول مادي ، فالمرأة تظل في خوف دائم من ان يتزوج زوجها امرأة اخرى ويهجرها ، او ان يموت زوجها فتصبح أرملة فقيرة ، ولذلك نراها تكتنز كل ذلك الذهب والفضة خوفا من عثرات الزمان .

والاتجاه الثاني هو اتجاه جمالي بحت يهدف الى اجتذاب الرجل والحصول على رضاه وحبه وبالتالي حمايته لها وانفاقه عليها .

ويكمن في دور المرأة هذا ، السر في أن الفنون اليدوية وعلى الاخص ما كان في مجال ثياب النساء وزخرفة الجسد وصناعة الحلي ، قد تفوقت على أية فنون اخرى في الحياة الشعبية ، لقد تراجعت قدرة المرأة في المجالات الاخرى امام اصرارها على اتقان صناعة الثياب وتطريزها والتفنن في الحصول على الحلي . وكانت المرأة القروية تكدح في الحقل وتقوم بتسويق الفواكه والخضر ومنتجات الحيوان من اجل اكتناز المال على شكل حلي وادوات مطرزة ، ففي هذه المواد قيمة اقتصادية كامنة يمكن تحويلها الى نقد ، وفيها سحر كامن يجتذب الرجل ويغلب لبه .

الزوجة الثانية تتكلم

ونجد في المأثورات القولية الفلسطينية صورة لموقف تلك المرأة التي تجد نفسها زوجة ثانية او زوجة مهجورة من خلال هذه الاغنية التي تبث فيها امرأة حزينة شكواها من الرجل الذي انصرف الى زوجته الجديدة وترك تلك المرأة المسكينة للحزن والآهات . واغمض عينيه عن كل تلك الاساليب التي تتبعها في التزين لتجتذبه :

يامبعق بما
يا مأصعب الظرة

منْ عاشَرْها ليلة
يصبير ع حكم الله
أهلي وجيراني
ما طاقوا نيراني



والكلب عزّاني
في ليلة الظرة
غسّلت لهُ راسي
وقلت له تفظل
قالي القرعَ برّة

التقليد والتطور التاريخي :

لما كانت الازياء علامة التجدد وأمارة الحيوية ، ولما كانت الرغبة في التقليد عاملا حاسما في التغير فقد كان لهذا الاثر عامل قوي في استمرارية تشكيل جديد أدى الى عملية تطوير مستمرة للزي الشعبي الفلسطيني . لقد ترك الشاب القروى الفلسطيني ابتداء من الاربعينات من هذا القرن العمة او الكفية ـ وهي نوع من الطربوش الملفوف عليه قماش حريري او غباني ـ ليكتفي بالحطّة والعقال . واستغنى عن الحزام الحريري الثقيل العريض واكتفى بحزام من الجلد او « الجنزير المطعم بالحرير » او حزام مشغول بالخرز .

وتحول المركوب الثقيل الى حذاء عادي بسيط ، ولا شك ان هذه التجديدات كانت مجرد بدعة من الشباب ، الا انها ما لبثت ان اصبحت تقليدا متعارفا عليه .

وبالاضافة لدور الشباب في التجديد فهناك دور الاغنياء في القرية الذين يبدأون بارتداء « موضة » جديدة من الزي او استعمال نوع جديد من القماش للايحاء بغناهم وعلوهم الاجتماعي ، حتى اذا ما صار ذلك الزي معروفا لدى العامة ومستعملا على نطاق الوسط الشعبي تركوه وبدأوا بزي جديد . وهذا ما يؤكد النظرية القائلة بأن الزي الشعبي الشائع اليوم كان زيا برجوازيا بالامس . ولا بد من التوضيح بأن الانتقال من زي قديم لزي جديد يحتاج لمرحلة من النضال والمعارضة . وفي ذلك يقول الناس : « اللي بغير لبسه بغير جنسه » . ولذلك يقاوم الناس في الوسط الشعبي لبس القبعة والبنطلون القصير والقميص الشفاف والثياب التي تبرز مفاتن المرأة ، وذلك عائد لكرههم لنموذج الصهيوني القادم من

اوروبا وامريكا ، والذي يرون فيه ليس مجرد نموذج هجين ، بل غاز مستوطن يهدد وجودهم ويزاحمهم في لقمة عيشهم . وفي ذلك حفاظ غريزي على السمات الاصلية للقرية وهو تعبير داخلي عن المنافسة بين الشيوخ والشباب ، فالاولون يخشون على نسائهم وبناتهم من ان يغويهم اولئك الشباب الذين يلفتون الانظار بازيائهم الحديثة وطريقة ارتدائها وبشعرهم المتحرر من اي غطاء للرأس .

ولكن التقليد والتطور التاريخي كانا اقوى من مقاومة الجيل السابق . وهكذا ومع قدوم مرحلة الانتداب البريطاني على فلسطين حصلت تطورات جذرية على الزي الشعبي ، ففي فترة ما قبل العشرينات كانت هناك فروق بارزة بين منطقة واخرى في فلسطين في اسلوب تطريز الثياب ، وفي نوعها أيضا ، وكانت هناك مناطق معروفة بتميزها في موتيفات التطريز ، وعرفت بقدرتها على تزعم القرى المجاورة في مجال الموضة ، ومن هذه الاماكن : بيت دجن ، رام الله ، بيت لحم ، وبئر السبع ، وعندما استعمر البريطانيون فلسطين احضروا معهم تأثيرات التغييرات الصناعية في اوروبا على شكل مواد جديدة من القماش والخيوط وتكتيك جديد في التطريز . وهكذا دخلت تأثيرات جديدة وعززتها التحسينات التي طرأت على المواصلات ، ودخلت السيارة الى البلاد ثم دخلها القطار ، وساعد ذلك في الانتقال وبالتالي التمازج بين الموتيفات في التطريز واساليب قص القماش وتفصيل الثياب . وعلى صعيد ملابس الرجل اخذ العمال الفلسطينيون الذين يعملون في معسكرات الجيش البريطاني يقلدون جنود الاحتلال بارتداء البلوز والجاكيت والقميص والبنطلون . وبعد ذلك ازداد التمازج بين سكان فلسطين عندما حصلت النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ وهاجر مليون فلسطيني من وطنهم ليسكنوا في اكواخ متلاصقة في مخيمات المنفى او في الاحياء الشعبية من مدن الضفة الغربية والاردن ولبنان . وقد ساعد ذلك على خلق تشويش واختلاط في موتيفات التطريز للقرية الواحدة ، وصارت القروية الفلسطينية تختار الموتيفات التي تعجبها من اكثر من ثوب تقليدي واحد ليظهر ما يمكن تسميته بالزي الشعبي الفلسطيني الجديد في عصر المخيم .

بعد حرب ١٩٦٧

وهناك عامل هام وجديد وهو الصراع العربي الصهيوني على امتلاك فلسطين ، فالصهاينة الذين وجدوا انفسهم يمتلكون كل فلسطين بعد حرب ١٩٦٧ ظلوا يحسون بأنهم بحاجة لاثبات ثقافي يسبغ الشرعية على اغتصابهم للارض الفلسطينية ، وهكذا اخذوا يشغلون الايدي العاملة العربية الرخيصة في صنع وتطريز زي شعبي فلسطيني يسوقونه في العالم بعد ان يلصقوا عليه شريطا يحمل عبارة « صنع في اسرائيل » ليساعدهم ذلك في حملتهم الدعائية الكاذبة في انهم يمتلكون ذلك التراث الثقافي ، وفي نفس الوقت اخذت « دائرة الثقافة والتراث الشعبي » التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك مؤسسة « صامد » التابعة لحركة « فتح » تسوقان الزي الشعبي الفلسطيني في الخارج حاملا هويته العربية الفلسطينية الصحيحة والأصيلة . وانبرت لمهمة التصدي هذه « جمعية انعاش الاسرة » في البيرة داخل الوطن المحتل ، وكذلك « هيئة موسوعة الفولكلور الفلسطيني » في عمان ، في الاردن للرد على ادعاءات العدو الصهيوني والتي طرحت شعار : « الشعب صاحب الثقافة هو صاحب الارض » . وبدأت مؤسسات شعبية وتجارية في عملية جمع وتسويق للزي الشعبي الفلسطيني تارة وعملية انتاج ازياء شعبية بأسلوب جديد ولكنها تحمل الموتيفات التقليدية ضمن توزيع جديد . وظل العدو الصهيوني مستمرا في عملية « سرقة مكشوفة » للزي الشعبي الفلسطيني لدرجة ان هذا العدو اعتمد زيا شعبيا ليكون « زيا للمضيفة الجوية الاسرائيلية » . وقاد هذا التنافس الى عملية تسابق على اقتناء وتطوير الزي الشعبي ، وقد ادى كل ذلك الى تغيير جذري في شكل الثوب وموتيفاته وتوزيعها . وقد تم ادخال الآلة لانتاج كثيف لذلك الزي ، وهكذا دخل هذا العمل الفني اليدوي الدقيق والجميل الى عصر المكننة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل هذه التأثيرات فقد ظل « الزي الشعبي العربي الفلسطيني » يملك « شخصيته المتميزة والتي لا مثيل لها » بشهادة مديرة دائرة الاثنوغرافيا في المتحف البريطاني ، الانسة شيلا ويره . وان استقلال الشخصية الفنية

لاسلوب التطريز وصناعة الثوب الفلسطيني ، بالطبع لا ينفي وجود التأثيرات الحضارية والانسانية القادمة من الخارج ، فهناك بعض وحدات التطريز الفلسطيني من الممكن تتبع اصولها في السجاد الفارسي واليوناني ، كما انه لا يمكن انكار تلك التأثيرات التي جلبها العثمانيون اثناء حكمهم لفلسطين فترة زمنية طويلة . ورث العثمانيون حضارة بيزنطة وكانت لهم صلاتهم الواسعة وعلاقتهم التجارية الكبيرة التي ساعدت هجرة منسوجات ووحدات تطريز من جنوب روسيا والبلقان . وهذا ما يفسر وجود بعض الموتيفات الفلسطينية في بلدان البحر الابيض المتوسط ودول اوروبا الشرقية التي كانت في يوم ما جزءا من ممتلكات الامبراطورية العثمانية .

الاثر الديني :

يمكن تتبع الاثر الديني في الزي الشعبي الفلسطيني من خلال ملاحظة ان هذا الزي يحقق فكرة الاحتشام الكامل ، فهو اولا فضفاض لا يبرز مفاتن الجسد ولا يهدف لتحقيق الاثارة الجنسية ، وكذلك فهو يضمن تغطية كامل العورة للمرأة واكثر من حدود عورة الرجل . انه يغطي كافة الجسد ما عدا الوجه والكفين والقدمين لكل من الرجل والمرأة ، كما يحرص هذا الزي على تغطية شعر الرأس للجنسين .

وتظل هناك مسألة الحجاب للمرأة ، فالمرأة القروية الفلسطينية لا تحجب وجهها ، بعكس المرأة في المدينة . ويعود ذلك الى التركيبة السكانية في فلسطين وكذلك للوضعية الطبقية للسكان .

التأثيرات المحلية :

عند القاء نظرة على اطلس الزي الشعبي الفلسطيني يمكن ان نميز ثلاث مناطق مختلفة . ولو تصورنا خطا وهميا يمر من شمال يافا حتى نهر الاردن وآخر من جنوب الكرمل حتى طبريا ، لانقسمت البلاد الى ثلاثة قطاعات شمالي وجنوبي ، وقطاع ثالث فيما بينهما . وفي القطاعين الشمالي والجنوبي نلاحظ وجود الثوب النسوي الذي يغطي جزءا كبيرا منه تطريز بالحرير ، واما القطاع الاوسط فيسود فيه ثوب شبيه بالثوب في المنطقتين الآخرتين لكنه غير مطرز الا بصورة لا تكاد تلمحها ، ويقتصر التطريز فيها على الوصلات بين القطع ، وهناك تطريز على فتحات الاقدام في السراويل ، وقليل من الزخرفة بالخرز والحرير على المناديل والاغطية .

ويمكن ان نفسر ذلك بان المنطقة الوسطى ، خلافا للمنطقتين الشمالية والجنوبية ، يتكثف فيها دور بارز للمرأة في مساعدة الرجل في العمل ، وبذلك تجد النساء وقتا قليلا للتطريز ذلك التطريز بحد ذاته هو ثمرة الفراغ ، وبذلك يقول المثل الشعبي الفلسطيني : « قلة الشغل بتعلم التطريز »

ويمكن ان نضيف لذلك ان طابع شمال فلسطين هو طابع عملي يقدس العمل ويعطيه اهمية كبرى بالمقارنة مع الجنوب . وهناك قول مأثور يفسر ذلك :

« بلاد العز والناموس قبلي ، وبلاد الخير دنيها شمال » .

ففي الجنوب الفلسطيني تسود بصورة اكبر تقاليد البادية العربية ، مثل تقاليد الضيافة الصحراوية والتمسك بالقيم والعادات البدوية . اما بلاد الشمال فهي بلاد منتجة كثيرة العطاء ، وذلك بفضل تكاتف جهود المرأة والرجل . وما التطريز الذي نجده في الشمال الا محصورا في المناطق شبه البدوية في الجليل ، اما قرى الشمال والوسط حتى حدود الكرمل فهي تعتمد الثياب المصنوعة من منسوجات مطبوعة ، وتزخرف بالكشاكش والدانتيل والذي يحتاج لوقت قصير نسبيا لتثبيته على الثوب .

واذا كان من الصعب وضع حدود فاصلة نهائية بين المناطق التي تطرز والتي لا تطرز فان ذلك يعود لتأثيرات محلية مثل وجود مناطق طائفية مثل مناطق الدروز التي اشتهرت بتطريز مميزوهكذا تبدو البلاد على صغر حجمها

مليئة بالمناطق المختلفة التي تتميز الواحدة فيها عن الاخرى تميزا كبيرا .

لقد تركز الفلاحون والشغيلة في القرية في حين سكنت المدينة مجموعات بورجوازية تعيش على التبادل التجاري واستغلال جهد الفلاحين العاملين في ممتلكاتها الاقطاعية في الريف . وكذلك سكنت في المدن الفلسطينية في العهد العثماني عائلات الجنود والضباط الاتراك والاكراد والدالاتية المنخرطة في الحاميات العثمانية التي كانت تتخذ من المدينة مقرا لها . وهكذا كانت المرأة القروية بحاجة للعمل اليومي ، وبالتالي فهي لا تستطيع البقاء في البيت ووضع الحجاب ، في حين تفرغت نساء التجار والاقطاعيين والعسكريين للعمل البيتي وكانت في غنى تام عن مقابلة الرجال والاحتكاك بهم . وعاشت المرأة في المدينة في مجتمع مغلق ، لدرجة ان بعض نساء العائلات الاقطاعية التي كانت تعيش في القرى الكبيرة تتزوج وتعيش طوال حياتها دون ان تعرف ما يجري خارج البيت

ولا بد من ملاحظة ان ذلك الثوب القروي - في غالبيته ـ وكذلك هلايه المدنيّة الفلسطينية كانتا من القماش الاسود . ويجوز لنا ان نستشف من ذلك التأثيرات الدينية التي كانت تفرض على المرأة ان ترتدي ثيابا غير جذابة خارج البيت .

ونحس بالاثر الديني واضحا عند استقراء موتيفات التطريز والتي هي في غالبيتها الساحقة تمثل وحدات نباتية وهندسية ، مع حالات قليلة وجدت فيها طيور . وهذا يعكس وجهة النظر الاسلامية في كراهية التجسيد ورسم الصور الآدمية والحيوانية كرها في تقاليد الوثنية التي هزمها الاسلام .

مصير الزي الفلسطيني

ان الزي الشعبي الفلسطيني يتكرس الآن بشكليه التقليدي والمطور ، فالشكل التقليدي يحتل الآن ساحات المتاحف والمطبوعات وبطاقات البريد ، والشكل المتطور يتغلغل الآن ليصل الى كل بيت فلسطيني تقريبا . اعني البيت الذي لم يعتمد ارتداء هذا الزي بصفة تقليدية .

واصبحت الكوفية الفلسطينية المرقطة هوية للمقاتل الفلسطيني ورمزا للانتماء الى فلسطين ، وتأخذ هذه الكوفية طريقها للاستعمال اليوم عبر اشكال مختلفة . ان قطاعات واسعة من شعبنا ترتد الآن لتشد بالايدي والتواجد على كل ما يربطها بالوطن المحتل ، وعلى الاخص أية قطعة من قطع الزي الشعبي . وليس ادل على هذا التمسك من ان نلاحظ بأن هذه الكوفية المرقطة تشق طريقها الى الاستعمال النسوي على شكل حزام ، شال ، لفحة . وفي كل هذه الحالات تجد الكوفية تحمل شرابات بالوان حمراء وخضراء وبيضاء وسوداء الوان العلم الفلسطيني .

لقد تم تطوير ثوب المرأة الدجانية والتلحمية ، مثلا ليصبح ثوب الموضة المطرز بموتيفات تقليدية على شكل عصري جميل منساب وبقماش معاصر غالي الثمن ، ويتم التطريز الان باتجاه صناعة ثياب قصيرة واخرى اقرب ما تكون الى البلوز والقميص الذي يتم ارتداؤه فوق البنطلون وفي كل يوم تفرخ قطع التطريز التي كانت تستعمل في صناعة الزي الشعبي الفلسطيني لتصنع منها اغطية للاثاث المعاصر ، واخرى على شكل وسائد وأرائك توضع في البيت والسيارة . ودخلت هذه القطع المطرزة الى داخل الاطارات لتتحول الى لوحات تعلق على جدران البيوت والمؤسسات العامة . وهناك الاطقم الكاملة من اغطية الاثاث والتي تتألف من العديد من القطع وتكلف المئات من الدنانير ، وتدخل بقوة الى ارقى الفنادق والمحلات العامة .

وتزين اجزاء الزى الشعبي الفلسطيني واجهات ابرز المحلات التى تتعامل بصناعات الاراضي المقدسة داخل الوطن المحتل وخارجه في كل مكان من العالم . ان مصير الزى الشعبي الفلسطيني لا ينفصل ابدا عن مصير الشعب نفسه .

وفي كل يوم تتزايد فيه الامال باستعادة حقوق هذا الشعب يتزايد الاهتمام بهويته الثقافية وفي مقدمة مكوناتها : الزى الشعبي . □□

عمان ـ الاردن نمر سرحان

كلمات في المـرأة

* المرأة مثل الزهرة . . اذا اقتلعت من مكانها تتوقف عن الحياة .

شكسبير

* المرأة أقرب الكائنات الى الكمال . . إنها وسط بين الرجل والملاك .

بلزاك

* المرأة أحلى هدية قدمها الله سبحانه الى الانسان .

سقراط

* المرأة نصف الحياة . . اذا كانت مخلصة لزوجها .

هوميروس

* المرأة هي أكبر مربية للرجل ، فهي تعلمه الفضائل الجميلة . وأدب السلوك . . ورقة الشعور .

اناتول فرانس

* المرأة شعر الخالق . . والرجل نثره

نابليون

* إن الزوجة الحقيقية هي التي تستطيع خلق الجمال في قلب الرجل ، وان لم تكن جميلة . . ينبغي ان تكون قادرة على الخلق والايحاء والابداع . .

طاغور

* اعظم اهانة تلحقها امرأة برجل . . قولها انها تزوجت منه شفقة عليه . . لا حبا فيه .

جبران خليل جبران

* المرأة تحيا لتسعد بالحب . . والرجل يحب ليسعد بالحياة . .

جان جاك روسو

* عجبت من رجل نصف جاهل . . لا يكفيه من المرأة ان تكون نصف عليمة .

احمد شوقي

* المرأة قادرة على ان تلهم الرجل دائما اعظم اعماله ثم تمنعه في النهاية من اتمامها .

مارك توين

* سمعة المرأة كالمرآة النقية اللامعة . . تتأثر من اقل نفس يقرب منها .

سرفانتس



٤٠ألفا يعملون بالتنجيم في المانيا الغربية

عودة التنجيم إلى الغرب قفزة كبيرة إلى الوراء

اعداد :محمود مساد

تشهد أوروبا الغربية حاليا حمى جديدة القالب ، قديمة الاسلوب .. إنها حمى التنجيم والمنجمين ، بحيث أخذ كلام هؤلاء يحتل مكان الصدارة ، في الصحف اليومية والمجلات وكذلك في الاذاعة والتلفزيون وبقية وسائل الاعلام الرسمية الأخرى ، وعلاوة على ذلك فقد أخذت بعض الأوساط من الباحثين والعلماء تضفي على التنجيم صفة العلمية ، وتغلفه بشيء من المنطق ..

وتجدر الاشارة الى ان حديث المنجمين اصبح يؤثر بشكل مباشر على الرأي العام ، الذي أخذ بدوره يعكس هذا في سلوكه الاجتماعي والسياسي والثقافي ..... الخ ، كما سنلاحظ في هذا الموضوع .

ففي ١٩٨١/١١/٢٠ طالعتنا جريدة « بيلد » الألمانية الغربية الواسعة الانتشار (توزع اكثر من ٦ ملايين نسخة يوميا) بعنوان كبير يقول : « هكذا سيكون عام ٨٢ » مخاطر اندلاع الحرب ، وفرص احلال السلام ... مصير المستشار شميت محكوم لمحاولات الاغتيال وتفشي البطالة .. هذا ما تشير اليه النجوم » .

وهذه التصريحات صدرت عن المنجمة الفرنسية « اليزابيث تيسية » ، التي تزود الجريدة بأخبار النجوم عن القدرات الصغيرة والكبيرة للأمة الألمانية ، على حد تعبير تلك الجريدة ، كما تقوم هذه المنجمة بتقديم برنامج اسبوعي في التلفزيون الالماني ..البرنامج العام .. بعنوان « مشاهد من عالم التنجيم » .

وليست الوسائل الاعلامية الخاصة والعامة هي الطرف الوحيد الذي يرى من الضرورة الاستعانة بالمنجمين واستشارتهم وتخصيص زاوية او برنامج منتظم لهم ، بل إن العديد من رجال القانون وارباب العمل والمعلمين والعمال ، وربات البيوت وغيرهم من عامة الشعب في المجتمعات الغربية يحملون هذا الرأي .

وقد أصبح للمنجمين « عيادات » خاصة ، كمكتب مستقل مجهز بالعقول الاليكترونية وعدة اجهزة حساب معقدة ، او في احدي غرف المنزل ، لاستقبال المراجعين ، الذين يبحثون عن الحظ الضائع في المستقبل الغامض .

وغدت مراجعة الناس للمنجمين بشكل منتظم ، كمراجعتهم للطبيب او المحامي مثلا ، كما اصبح للمنجمين ـ في المانيا الغربية مثلا ـ اتحاد معترف به رسميا يحمل اسم « اتحاد المنجمين الالمان » ، واصبحت مهنة التنجيم تسجل في الهوية الشخصية او جواز السفر مثل بقية المهن .

وقبل ان اتابع الحديث عن هذه الظاهرة ، أود التأكيد على أن موقفي يتعارض تماما مع هذه الظاهرة ، وما تحمله من معتقدات ، بغض النظر عما تطرقه من تنبؤات ، تشاؤمية كانت أو تفاؤلية ، لان معتقداتنا ومبادئنا ترفض كل هذا ، فقد كذب المنجمون ولو صدقوا ، الا انني ارى من الضرورة بمكان إبراز هذه المنزلقات التي انحدر اليها الفكر الغربي في عصر تسميه عصر التكنولوجيا والتقدم العلمي والحضاري .

ولضيق المجال ، وتجنبا للملل الذي قد يصيب القاريء من تعدد الأمثلة والأسماء والبلدان والظواهر التي تتعلق بهذا الموضوع ، أكتفي بحصر حديثي عن هذه الظاهرة في المانيا الغربية » ، مع العلم بان العجائب في البلدان الغربية الاخرى لا تقل عنها .

« حرفة » التنجيم

اتسعت حرفة التنجيم في ألمانيا الغربية بشكل لم تشهده من ذي قبل ، حتى في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى والثانية ، كما ازدهرت التجارة المرتبطة بهذه البدعة ، لتشمل افتتاح معاهد ومدارس خاصة ، ونشر مئات من الكتب والمجلات والمفكرات المتخصصة في هذا المجال بكميات هائلة .

ونتيجة لاقبال الناس الهائل على المنجمين ، فقد ازداد عدد الذين يمتهنون التنجيم ، بحيث وصل الى اكثر من ٤ آلاف منجم في عام ٨١ ، اي ضعف ما كان عليه العدد قبل سنتين .

اما نسبة الالمان الذين يؤمنون بهذه الأشياء ، ويقرأون عنها باستمرار فقد بلغت في هذا العام ٥٤٪ من الشعب الالماني الغربي ، اي بزيادة ١٠٪ عما كانت عليه قبل سبع سنوات . والكثير من هؤلاء يؤمن أن الشمس والقمر والنجوم هي التي تتحكم بمصائر البشر ، ويؤمنون كذلك بأنه لا بد من البحث عن تفسيرات تتعلق بكل منهم ، ولهذا فهم يذهبون لمراجعة المنجمين ، لاعطائهم الاسعافات اللازمة لهم في مجاراة هذه الحياة الغامضة .

ويقوم المنجم برسم مخططات الأبراج وتجمعات النجوم وحركتها ، وإعطاء تفسيرات لها ويتقاضى مقابل ذلك أجرا ، حسب امكانيات المراجع . ويتراوح هذا الاجر بين ٣٠ « مارك » وعدة آلاف من الماركات للمراجعة الواحدة .

وقد بلغ ما أنفقه الشعب الالماني على التنجيم في هذا العام اكثر من ٦٠ مليون مارك ، وهذا يوازي عدد السكان الذين يعيشون في المانيا الغربية .

وان الهوس التنجيمي بدأ ينخر أعماق الناس ، وهذا ما بدأت وسائل الاعلام تدركه وتتعامل معه ، ولو

صادف ان نسيت احدى الصحف نشر أبراج الحظ والنجوم في احد الايام فان أبواب الجحيم تنفتح عليها من القراء ، الذين ينهالون بالشتائم عبر الهاتف ، ويبدأون بالتخطيط في كل اتجاه ، لا يدرون ماذا يجب عليهم ان يفعلوا في مثل يوم النحس هذا : أيبقون في المنزل ، ام يذهبون للنزهة ؟ هل يتوجب عليهم استثمار اموالهم ؟

أين وكيف ؟

أسباب هذه الظاهرة

يرجع الايمان بالتنجيم ، حسبما تم الاجماع عليه في مؤتمر « رابطة الجنائيين الالمان » الذي عقد مؤخرا في مدينة فرانكفورت الى الظروف السيئة والازمات الاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها المجتمع ، وكذلك التخوف من اندلاع حرب عالمية مدمرة . ويستند هؤلاء في تقييمهم الى ما اكدته التجارب السابقة ، حيث أن مثل هذه الظروف والعوامل ، كانت وما تزال تشكل العنصر الحاسم في تزايد عدد المنجمين والمؤمنين بقراءة البخت . علاوة على هذا فهناك عوامل اخرى تتمثل في القلق البالغ ، والناجم عن استمرار غلاء المعيشة وقلة توفر فرص العمل للعديد من الناس ، والفائض المالي الذي فاق كل التصورات عند البعض الآخر ، واخيرا افلام الرعب والخيال التي تقذف بها هوليوود للاسواق وما يترتب عليها من نتائج خطرة على الذين يشاهدونها .

ويقول عالم النفس والمنجم بيتر نيهكتة ، الذي يتبوأ مركز رئيس « اتحاد المنجمين الالمان » . « ان جميع الناس يسبحون على موجة من الغموض ، ويبحثون عن منقذ ، ومن واجبنا نحن المنجمين ، القيام بالاسعافات والمساعدات التنجيمية اللازمة لانقاذهم ! وتزويدهم باللازم لمساعدتهم في حياتهم » .

ولو صادف ان طلب احد الناس مكتب المنجم « ماركوس فوتورس » على الهاتف في فرانكفورت ، فانه يسمع شريطا مسجلا يقول : « انا اخبرك بما ينتظرك ، واعطيك نصيحة تجفف دموع خيبة الامل ... فانا ابصر اليوم ما سيحدث في الغد .. سأزيل مخاوفك ان نظرت في نفسك ومستقبلك »

من يمارس التنجيم ؟

اغلب الذين يمارسون مهنة التنجيم هم من العاطلين عن العمل ، او الذين تحظر عليهم الدولة ممارسة المهنة التي تم تأهيلهم لها ، وذلك لاسباب فكرية او سياسية . يضاف اليهم ربات البيوت ، اللواتي يتمتعن بذكاء ملحوظ ومقدرة ادارية ، ويردن تأمين مورد مالي لاعانة الزوج على تغطية نفقات البيت والعائلة .

وهناك العديد من المنجمين ، الذين يمارسون هذه المهنة ،بالاضافة الى مهنتهم الأساسية ، أي بعد الدوام الاساسي ، حيث يجهزون غرفة الاستقبال في المنزل لتصبح على شكل « عيادة » تنجيم ، لاستقبال المراجعين فيها .

وتجدر الاشارة الى ان العديد من طلبة الجامعات قد تركوا دراساتهم الجامعية وتحولوا لدراسة التنجيم في أحد المعاهد المتخصصة لان مدة الدراسة اقصر والمنهاج اسهل ، وتحقق دخلا معقولا .

ويقتصر هذا القطاع من الطلاب على طلبة العلوم الاجتماعية بشكل اساسي ، لا سيما وان الخريجين من هذه العلوم يعانون من البطالة الحادة نظرا لعددهم الضخم .

وهناك العديد من الناس يقومون « بكشف » اسرارهم بأنفسهم ، أي ينجمون لذاتهم ولافراد عائلتهم ، فتراهم يقتنون كتب ومفكرات التنجيم ويشتركون بالمجلات المتخصصة في هذا المجال ، علاوة على شراء الالات الحاسبة والاجهزة الاليكترونية الصغيرة ، اللازمة لهذا الغرض ، وعند تعرضهم لأي إشكال في هذا الأمر يلجأون للاستفسار عنه ، سواء للتلفزة او للصحف اوللمنجمين المختصين .

لقد وصل الحد عند المنجمين الى اعتبار التنجيم شيئا علميا ، وهذا ما حدا ببعض « العلماء » الى تأييد هذه المقولة ، وأخذوا يروجون لها بين الناس ، فزاد عدد ارباب العمل والحقوقيين والكتاب والفنانين والممثلين الذين يأتون للمنجمين لاستشارتهم ، وهذا ما اذهل رجال العلم الحقيقيين ، ودفعهم لدراسة هذه الظاهرة .

وقامت مجموعة عمل مشكلة من ١٨٦ عالما لاستطلاع الرأي حول التنجيم ، وضمت هذه المجموعة ١٤ عالما حصلوا على جائزة نوبل ، وعددا اخر من العلماء البارزين مثل كونراد لورانس ، عالم السلوك والطبائع الشهير ، وهانس بيتي ، عالم الفيزياء ، وجون ايكلز عالم الدماغ ، وفرانسيس كريك ، عالم الكيمياء الحيوية وغيرهم .

الأجرام ومصائر البشر

وكانت نتيجة هذا الاستطلاع ، أن اغلب من تم

استطلاع رأيهم ، يعتقدون بوجود قوة في الأجرام السماوية ، تتحكم بمصائر البشر ، ويعجز علماء الطبيعة عن تفسير هذه الظاهرة ، او التأثير عليها ، وبهذا ضاع أمل العلماء واخفقوا في التأثير على هؤلاء الناس ، الذين يؤمنون بالتنجيم ، حيث لم يتمكن العلماء من طرد هذه القوة والمعتقدات الشيطانية للنجوم من رؤوسهم .

ويعد هذه الدراسة أجمع العلماء ، رغم النتيجة الآنفة الذكر ، على أنه ليست هناك أية علاقة بين العلم السائد في المجتمعات البشرية ، وبين التنجيم . وعبر جميع الحقب التاريخية كان المنجمون يتجنبون مواجهة العلم حتى لوكانت هذه المواجهة مقتصرة على المناقشة وحدها ، وبقي العرف السائد عند العلماء عبر التاريخ ان « التنجيم عبارة عن شكل خاص من اشكال السحر والشعوذة » .

وجميع التنبؤات ، التي حاول المنجمون من خلالها استباق الاحداث قد اثبتت خطأها ، وهذا ما اشارت اليه احدى المجلات الامريكية « نيشونال انكويرور » ، حيث قالت ان من ضمن ٣٦٤ تنبؤ تم رصده من قبل المجلة ، لم يقارب الحقيقة سوى اربعة تنبؤات فقط وهذا احتمال ضئيل جدا صادف أن حصل ، ولا يمكن تثبيته كنهج علمي او اعتماده كاسلوب للتعامل به .

والامثلة على التنبؤات التي اثبتت خطأها كثيرة جدا ، فقد تنبأ المنجم الالماني هانس غينيون ، بان شرق اوروبا سيشهد اضطرابات داخلية حادة على غرار اضطرابات بولندة في بداية آذار (مارس) ١٩٨١ لكن شعوب هذه البلدان لم تقم باي عمل من هذا القبيل .

أما المنجم الذي سمى نفسه « تونى بونين » من ميونيخ ، والذي منح نفسه لقب بروفيسور في علم التنجيم ، فقد تنبأ بنجاح باهر للمستشار هيلموت شميت في الفترة ما بين حزيران (يونيو) وايلول (سبتمبر) من نفس العام ، لكن شميت أخذ يغوص في ازمات ... الواحدة منها أعنف من سابقتها ، وتم نقله للمستشفى لاضطرابات حادة وخطرة في القلب

واخيرا تنبأ فرولين ناوار ، منجم البورصة والسوق المالي لمدينة زيوريخ بصعود حاد في حركات الاسهم واسعارها ، في نهاية عام ١٩٨١ فاتت الأزمة البولونية ، واحداث عديدة غيرها وشلت الحركة المالية في جمع الاسواق المالية العالمية .

في نهاية الحديث يتأكد لنا وجود فراغ كبير في فكر العديد من الناس في المجتمعات الغربية ، ولا يعرف المرء هناك من أي مورد يجب أن تغرف ليملأ هذا الفراغ ، ويتبادر الى الاذهان بان القائمين على الأمر في هذه المجتمعات يعمدون للحيلولة دون ملئه بما هو حيوي وانساني ، ولهذا سيبقى الانسان هناك معرضا للوقوع في العديد من المنزلقات الفكرية ، التي تؤذي الآخرين احيانا ، وتأتي بالضرر عليها نفسها في احيان اخرى .

■■

عمان ـ محمود مساد

تعلموا ... منه

× افاق النبي عليه الصلاة والسلام من نومه وهو على فراش الموت فسأل السيدة عائشة :ـ
ماذا فعلت بالذهب ؟
فقالت : اي ذهب ؟
فقال : الدنانير السبعة .
فأجابته : انها عندي .
فأمرها ان تنفقها على الفقراء .. ثم عاد الى إغمائه فلما صحا أعاد السؤال عن الدنانير ... وعرف انها لم تنفقها بعد .. فأعاد الأمر رغم مابه من الم وقال : « ما ظن محمد بربه انه يلقى الله وهذه عنده .. أنفقيها كلها صدقة .. ان النبي لا يورث » .

اللغويون أدلاء، لا أوصياء

سئل حبر الامة : عبدالله بن عباس رضي الله عنهما « ما الفقه ؟ » فأجاب « علم الرخص » والجواب كلمة من أبلغ جوامع الكلم ، فهي تدل على سماحة نفس وفكر ، وعلى بصيرة نافذة بفقه الدين وروحه السمحة ، وبفقه النفوس البشرية في أحوالها المختلفة ، وما تطيقه وما لا تطيقه من تكاليف في كل حالة ، وباعذارها حين تعدل عن العزائم الى الرخص [1] فيما تنزع اليه او تسلكه رغبة في اليسر .

فأحكام الفقه العامة التي يؤخذ بها البشر أو يأخذون بها أنفسهم مع الاقتدار في الأحوال العادية أحكام قليلة سهلة المعرفة ، ولكن من الصعب معرفة الأحكام الفقهية الميسرة التي ينبغي تطبيقها في الأحوال الطارئة او غير العادية ، كما يصعب تقدير عذر كل واحد بمفرده ، في الحالة الطارئة الخاصة به ، ثم تطبيق الحكم الميسر عليه عندئذ ، لرفع الحرج عنه ، ومنع شعوره بالتأثم عند المخالفة .

ولكن بعض من يتعاطون الفقه يشددون في أخذ الناس بالفرائض او بالواجبات ، أو ما هو أولى في الدين في حال الاختيار ، ولا يحاولون أن يعرفوا الاعذار لاصحابها ، كل على حدة ، فيسدون عليهم كل أبواب الرخص ، ويشككونهم في شرعية تصرفاتهم عند أدنى مخالفة وان كانت لا تخرج عن حدود المباح لهم شرعا ، وليس لهؤلاء المتفقهين حجة في هذا التشدد الا جهلهم برخص الدين ، أو رغبتهم - ولو عن حسن نية - في حمل الناس على ما هو أولى وأمثل ، أو انطباعهم على التشدد فطرة مع معرفتهم أن الله لم يجعل على الناس في الدين من حرج وانه يريد بهم اليسر لا العسر ، وأنه لا يكلف نفسا الا وسعها ، وان الناس ليسوا سواء في القدرة والعجز ، وأن أحوال الفرد النفسية والاجتماعية مختلفة ، والقدرة درجات والعجز درجات .

وهكذا ينزع كثير من اللغويين في التشدد مع الشعراء والكتاب والخطباء وغيرهم من القائلين او المتكلمين ، ليحملوهم على الناس اعلى درجات الفصاحة او البلاغة ، وليس هذا ميسورا لكل شاعر او كاتب او خطيب ، ولا يكتفون من أكثر القائلين بسلامة العبارة وحدها مادامت تؤدي معناها في يسر ، وان كان القائل لا يريد الا مجرد الكشف عما يعنيه ، لا ان يعد من البلغاء او فرسان البيان ، ومع ان البلاغة ملكة انسانية وليست معرفة لغوية .

ونعرف من تاريخ علوم لغتنا ان البحث عن قواعدها النحوية كان أسبق من سواه وان الباحثين عن هذه القواعد وغيرها كانوا يعتمدون في استخراجها على استقراء نصوصها المأثورة ، ولا شك أن بحوثهم تستحق من عارفيها كل تقدير وإعجاب ، ولكنهم ـ مع بذلهم غاية ما استطاعوا من جهود متواصلة في جمع النصوص ، واستقراء القواعد النحوية وغيرها منها ـ لم يحسن اكثرهم الالتفات الى كل ما تيسر لهم جمعه ، ولم يتوسعوا في استقراء القواعد منه ، فأهملوا نصوصا كثيرة كانت أمامهم بتعلات واهية .

كانت أمامهم نصوص القرآن بكل قراءاته ، وكلها سنة متبعة صحيحة السند ، سواء في ذلك متواترها وأحادها وشواذها ، وكانت أمامهم الأحاديث النبوية وما أثر عن بلغاء الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وكانت أمامهم نصوص العرب التي اعتمدوها سندا ومصدرا للغة في قلب الجزيرة العربية (الحجاز ونجد) دون أطرافها ، وأهم ما في ذلك شعر الجاهليين والاسلاميين حتى نهاية فترة الاحتجاج التي حددها بعضهم بمنتصف القرن الهجري الثاني وحددها آخرون بنهايته .

---

(١) عزائم الدين : هي التكاليف التي فرضها الله على البشر ، والرخص هي ما شرعه من وسائل التيسير للتخفيف عن المكلف على وفق حالته ، وهي نوعان : رخصة ضرورية ، ورخصة حاجية ، وتكون الرخص بفعل شيء ممنوع (وهي رخصة الفعل) أو بترك شيء واجب كترك المسافر للصوم في رمضان (وهي رخصة الترك) ثم للمسافر في رمضان ان يصوم او يفطر (وهي رخصة الترفيه) .

بقلم : محمد خليفة التونسي

فماذا فعلوا بهذا التراث الضخم ؟

ليتهم اتبعوا طريقة إمامهم الخليل ، وهو صاحب أعظم عبقرية عربية رياضية اشتغل بلغتنا فاجتمع له من نصوصها أو متنها ما لم يجتمع لسواه ، ونفذ الى ما لم ينفذ اليه غيره من طرائق تعبيرها ، سأله رجل « أخبرني عما وضعت مما سميت عربية (اي القواعد) أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فأجاب : « لا » فسأله : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ » فأجابه : أحمل على الاكثر وأسمي ما خالفني لغات » .

ليت علماء العربية عندئذ اتبعوا هذه الطريقة المثلى في جمع متن اللغة ونصوصها واستنباط القواعد منها مع الوقوف عند هذا الحد دون طعن فيما يخالف ما عرفوه ، لقد طعن بعضهم في بعض قراءات القرآن وكادوا يهملون الحديث النبوي وأقوال البلغاء من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى نهاية عصر الاحتجاج كما حددوه ، وبلغ من جرأة أحدهم ان طعن في شعر النابغة (وهو جاهلي) وطعن آخر في شعر الفرزدق (وهو في القرن الاول) وطعن آخرون في أشعار شعراء آخرين من الداخلين في عصر الاحتجاج ، واتهموا أصحاب هذه الأشعار بالخطأ لغويا لا لمجرد المخالفة

ومن أين اعتبروا هذه الأقوال وغيرها خطأ ؟

اتهموها بذلك لانها تخالف القواعد التي استنبطوها ، مما تيسر لهم من النصوص ، مع ان استقراءهم للشواهد ناقص ، فقواعدهم غير شاملة للقواعد العامة للغة ، ولا للقواعد الفرعية ، ولكنهم لما لم يجدوا قواعدهم مطابقة لبعض قراءات القرآن ، اتهموا أصحابها مع فصاحتهم بالخطأ في نقلها أو حاولوا ان يؤولوا فيها لتسلم لهم قواعدهم ، ومن تعلاتهم الواهية في عدم النظر الى بعض قراءات القرآن عدم وثوقهم - تعنتا - برواتها ، وانها ليست قراءة النبي نفسه ، ومن تعلاتهم في عدم النظر في الحديث النبوي ان رواته جوزوا النقل بالمعنى ، فكان من أثر ذلك اختلاف نص الحديث الواحد ، وان بعض نقلة الحديث كانوا غير عرب .

ونسي هؤلاء المتعنتون ان رواية الحديث بالمعنى - وان لزم فرضها عقليا - ليست أمرا يقينيا وقوعه ، وعلى فرض وقوعه فان تغيير لفظ فيه بلفظ لا يمنع الاحتجاج به ، لان رواته يتحرون ضبط ألفاظه بكل ما وسعهم من جهد ، وكان أحدهم اذا شك في لفظ اثبت هذا الشك ، وذكر كل الوجوه التي يظنها له ، غلوا في التحري والامانة ، ثم ان هؤلاء الرواة - وان غيروا اللفظ مع ضبط المعنى - كانوا فصحاء يحتج بكلامهم ، فأولى بالاحتجاج ما ينقلونه عن النبي عليه السلام . كما نسي هؤلاء المتعنتون ان الرواة - وان لم يكونوا من اصل عربي - فقد نشئوا واستووا في بيئات عربية فصيحة ، فغير العربي والعربي هنا سواء ، مع هذه التربية في البيئة الفصيحة .

ومن هذا وغيره نعرف ان كثيرا من العلماء قد أغفلوا - عفوا او قصدا - كثيرا من النصوص الصحيحة ، وكان استقراؤهم ناقصا ، ثم انهم حاولوا جعل قواعدهم منطقية ، واللغة لا تخضع في تطورها للمنطق وحده ، لهذا ينبغي ان نتخذ من اللغويين أدلاء لنا في اللغة ، فنهتدي أو نستأنس بما يرون ، ولا نتخذ منهم أوصياء يتحكمون فينا تحكم الوصي بالقاصر ، وعلينا أن نعيد النظر فيما قالوه ، والاسباب لدينا أكثر تهيؤا ، لأننا نملك اليوم من النصوص الفصيحة اكثر مما كانوا يملكون ، ومراجعها أمامنا أكثر وأشمل وأقرب ..

ان اللغة العربية لغتنا ولها بيننا مهمة قومية ودينية وانسانية عظمى ، شئنا ذلك او ابينا ، وبينها وبيننا حقوق وواجبات ، فهي تملكنا ونحن نملكها ايضا ، وامام كل حق واجب ، وامام كل واجب حق ، ونحن معها أحرار ، ولكن لا حرية بلا مسئولية ، ولا مسئولية بغير حرية ، فعلينا ان نعرف حدودها البعيدة ولا نكتفي بمعرفة حدودها كما حددها اللغويون ، بل نوسعها الى أبعد ما تستطيع طبيعتها ، وذلك من خلال التوسع في دراسة كل ما نستطيع جمعه من نصوصها الفصيحة ، واستنباط كل ما نستطيع استنباطه من آراء ، فنزيدها حيوية على حيوية .

ولنا ، أو علينا - كل منا حسب قدرته - اذا وجدنا سندا فصيحا لاي لفظ - ننطقه او ينطقه سوانا - ان نرتضيه مرحبين ، ونعده من لغتنا ولو كان مخالفا لآراء اللغويين ، أو ما وضعوه من قواعد ضيقة ، وننشد مع المتنبي :

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر القوم جراها ويختصم

مأساة

قصة اوهنري

ترجها عن الانجليزية بتصرف : جمال الكنانى

« اوهنري » صاحب هذه القصة القصيرة ومئات غيرها ، هو الاسم المستعار الذي يكتب تحته وليام سيدني بورتر ، الكاتب الامريكي الذي ولد عام ١٨٦٢ .. كان ابوه طبيبا ، واما امه فقد ماتت وهو في الثالثة من عمره ..

لما بلغ وليام سدني السنة الخامسة عشرة من عمره ، اشتغل صبيا في صيدلية لعمه ، وبعد ذلك بسنوات عمل صرافا في احد البنوك ، فلما استدعى للتحقيق معه بتهمة الاختلاس من المصرف فر هاربا .. ثم انضم الى اثنين من المجرمين اتفقا طريقه لابتزاز المال من مصارف مدينة اوستن .

بعد سرقة كبرى هرب وليام سيدني الى المكسيك ومعه ثلاثون الف دولار ، وهناك قضى عدة سنوات في لهو وعبث ، بعدها عاد الى مدينة اوستن حيث دخل السجن لمدة ثلاث سنوات عقابا له على سابق اشتراكه في عدد من جرائم السرقة .

وفي السجن لقي وليام حارسا طيبا اسمه اورن هنري Orrin Henry احسن اليه ولم ينس وليام عطفه .. فاتخذ اسمه اسما مستعارا يكتب تحته ، وهكذا خلد اسم هذا السجان .

في عام ١٩١٣ نشر اوهنري ما كتب في ١٢ مجلدا اعتبرت في بابها عملا كلاسيكيا .. وقصص اوهنري هي نوع القصص التي يرويها الناس بعضهم لبعض ، وهي توادر لها بداية ووسط ونهاية . والنهاية تحتوي على ما في القصة من عقدة او حيلة او مغزى ولهذا تتشابه قصص اوهنري كثيرا .. وهي على عكس قصص « توماس هاردي » مثلا ، لا يمكن تمديدها او مطها روايات كاملة .

ونجد فيما يصور اوهنري من افراد « عاديين » جرعة ضخمة من « العادية » ودقة تميز حبكة قصصه الى درجة قد لا ترضى الذين لا يرون للحبكة مكانا في العمل الفني .. ولكن ليس في اسلوب اوهنري او في حواره الطبيعي او دعابته الحلوة ما يسيء الى اي ذوق .

اوهنري يخلق شخصياته بغاية ما يمكن من الاقتصاد والايجاز وينفث فيهم حياة حقيقية ويخرج من افواههم كلمات تدفع المعالجة الدرامية في القصة فورا .. على ان الذي مازه تماما هو نثره الموجز السهل الممتنع الذي يبدو وكأنه اسلوب انسان بدائي خلق كوميديا مترفا .

وعالم اوهنري يعج بكل نوع من انواع الافراد العاديين الذين تصادفهم كل يوم .. ولكنه عالم لم تدخله شخصية واحدة غريبة او غير مألوفة .. اوهنري هو صاحب القصة التالية .



هارلم ...

نزلت مسز فنك الى الطابق الكائن تحت الطابق الذي تسكنه لتزور صديقتها مسز كاسدي . قالت مسز كاسدي في زهو وعجب وتياه « اليست رائعة تماما » ؟

وادارت رأسها لكي ترى مسز فنك ما تقصد وما تعني .

كانت احدى العينين متورمة نصف مغلقة وحولها كدمات خضراء قرمزية بنفسجية .. شفتها السفلى مشقوقة يسيل منها الدم ، وعلى خديها آثار حمراء لاصابع غليظة . وعلقت مسز فنك على الموقف « زوجي لا يمكن ان يضربني او يؤذيني هكذا » .. ولكن مسز فنك لم تنجح في اخفاء شعورها الحقيقي تماما .. فهي في دخيلة نفسها تغبط جارتها على اهتمام زوجها بها الى هذا الحد الموجع .

ورفعت مسز كاسدي رأسها شامخة وقالت « انا لا ارضى ولا اقبل زوجا لا يضربني مرة واحدة في الاسبوع على الاقل . ليعبر عن تقديره وادراكه لوجودي .. ولكن الجرعة الاخيرة التي كالها جاك لي لم تكن صغيرة .. « العلقة » كانت بالحق ساخنة .. والنجوم ما زالت تتراقص امام عيني ، ولكني مطمئنة . تسيكون بقية الاسبوع خير زوج في المدينة باسرها . سيرضيني تماما ويكفر عما فعل . هذه العين المتورمة ثمنها تذاكر للمسرح وقميص من الحرير الاسود على الاقل ! »

وردت مسز فنك في خور « انا ارجو ان يظل المستر فنك « جنتلمانا » لا تتطاول يده على »

وضحكت مسز كاسدي واستغرقت في الضحك .. ثم قالت « لالا يا « ماجي » انت تنطقين بلسان العاجز .. لسان الغيرة .. زوجك رجل رخو ، بارد يعجز حتى عن

صفع وجهك .. رياضته المفضلة هي حمل الجريدة اليومية عند عودته الى البيت .. اليس هذا هو الحق الخالص ؟ »

وتلعثمت مسز فنك « انه يتصفح الجريدة .. لكنه لا يتسلى بضربي »

وضحكت مسز كاسدي ، راضية قانعة فخورة . ثم عادت تعرض زينتها .. واوسمتها وكشفت عن كدم هائل ، زيتي اللون له اطار برتقالي ، يزين ما فوق ثديها ...

وتهالكت مسز فنك على كرسي قريب .. وفي عينها حسد واعجاب ...

كانت هي ومسز كاسدي تعملان قبل الزواج معا في مصنع الورق .. وهي الآن تسكن مع زوجها المستر فنك في الشقة التي فوق شقة « مام » وزوجها .. وبين المرأتين ود والفة لا يجوز معها التمويه او التظاهر .

وغلب حب الاستطلاع مسز فنك « هل يوجعك ضربه لك » ...

وصرخت مسز كاسدي صرخة حبور وسعادة « يوجعني ؟ ضرب الحبيب كأكل الزبيب . ولكن هذا لا يمنع ان تعرفي الحقيقة .. تصوري بيتا من الطوب الاحمر انهار عليك بكامله .. في يد جاك اليسرى قوة مائة حصان .. وثمنها .. تذاكر للمسرح . في اليمنى مطرقة عزرائيل .. وثمنها قميص من الحرير الاسود او فستان على الاقل .. ونزهة نهرية يوم الاحد »

وقالت مسز فنك وكأنها تحدث نفسها « ولكن : لِمَ يضربك ؟ » .

ـ « عبيطه ! لِمَ ؟ لانه يعود يوم السبت مليئا حتى الثمالة .. فيجدني امامه .. وهل هناك غيري من يحق له ان يضربه ؟ الويل له ان ضبطته يوما يضرب امرأة غيري .. والاسباب الاخرى ؟ آه .. يضربني احيانا لان العشاء غير جاهز .. واحيانا لان العشاء جاهز .. انه لا يأبه بالاسباب .. يذهب الى الحان ويجرع ما شاء ويحتسي حتى يتذكر انه متزوج .. فيعود الى البيت ليضربني .. في ليالي السبت احرك الاثاث حتى اذا سقطت تحت وابل ضرباته لا اشق رأسي على ركن كرسي .. لكماته اليسارية رائعة .. شعر .. موسيقا .. اغيب عن الوعي احيانا بعد اللكمة الاولى .. فاذا كنت اطمع في اسبوع ممتاز ، وان كنت احتاج الى بعض الملابس الفاخرة ، فاني اعود الى وعيي وانتصب واقفة واتلقى المزيد من

السيمفونية .. هذا ما كان ليلة امس .. جاك يعرف اني اريد قميصا من الحرير الاسود .. وانا اعرف ان ثمن القميص يزيد عن عين واحدة متورمة ، اوكدم تافه على الصدغ .. اراهنك انه يحضر القميص هذه الليلة !!!

وراحت مسز فنك تسبح او تغرق في خضم من افكار سوداء .. ثم قالت « مارت لم يمد يده على طول حياته .. هو كما تقولين .. يدخل البيت صامتا ويصرف وقته بين صفحات الجريدة .. لا اذكر اننا خرجنا للتنزه معا في يوم من الايام .. ولكنه يشتري لي كل ما احتاج » ولفت مسز كاسدي ذراعها حول كتف صاحبتها معزية « ايتها المسكينة .. اصبري فامثال زوجك قلة من الرجال نادرة .. ولو تعدد امثاله ما فضل زواج واحد .. الزوجات المتذمرات اللائي تسمع عنهن .. لا يحتجن لاكثر من رجل يلهب ظهورهن مرة في الاسبوع .. ثم يقبلهن ويشتري لهن الحلوى والحرير فيصبح لحياتهن طعم .. كل ما تمنيت من الدنيا رجل قوي يسيطر علي ويوجعني ضربا كلما ثمل ثم يحتويني بين ذراعيه عندما يفيق .. والله يحفظني ويقيني من رجل لا يستطيع هذا .. او ذلك ! وزفرت مسز فنك زفرة ساخنة ولم تقل شيئا .

وفجأة امتلأت ردهة الدار بضجيج .. وانفتح الباب لان المستر كاسدي ركله بقدمه .. ودخل محملا بالطرود .. واندفعت زوجته نحوه تلف ذراعيها حول عنقه .

وقال كاسدي لزوجته مداعبا « هالو .. ايتها الصغيرة العجوز ثم تخلص من احماله واحتواها بين ذراعيه ورفعها في حضنه « معي تذاكر للمسرح .. ولو فتحت هذه الطرود فمن يدري ؟ .. ربما قميص من حرير اسود .. اه .. مسز فنك ، مساء الخير . لا مؤاخذة لم اراك اول الامر .. كيف حال مارت زوجك ؟ »

ـ بخير يا مستر كاسدي .. شكرا .. استأذن اذ لا بد ان اعود فقد حل موعد وصوله سأحضر لك غدا ما طلبت » .

وعادت مسز فنك الى شقتها وسكبت من دموعها ما سكبت .. دموع قد يظن البعض ان لا معنى لها .. دموع لا يعرف معناها ومدلولها الا امرأة اخرى في نفس الموقف ...

« لِمَ لا يضربها مارت ؟ انه في حجم المستر كاسدي .. وربما في قوته .. اتراه لا يحبها ؟ انه لا يتعارك معها ابدا .. انه دائما مكفهر الوجه .. كسول .. صحيح انه يعولني .. ويعطيني من مصروف البيت كفاية ..

ولكنه يتجاهل ملح الحياة .. وتوابلها .

تمنت مسز فنك لو ان زوجها يثور مرة .. يغضب احيانا .. يدق الارض بقدمه . ولمدة لحظات احست بكره شديد لجارتها مسز كاسدي .. كرهت جروحها وكدماتها وعينها المتورمة نصف المغلقة وهداياها .. والقبلات التي تغطي وجهها والاحضان .. وثوراتها ، وعراك الوحشية والحب البهيمي .. و .. و ...

وعاد المستر فنك الى الدار كالعادة .. في تمام السابعة .. هادئا وادعا .. فهو رجل مستأنس يحب بيته ...

ـ اتريد عشاءك يا مارت ؟

ـ ن . ن . ن . نعم

وبعد العشاء اختلى بجريدته .. وخلع حذاءه ووضع قدميه على وسادة وثيرة . اليوم التالي هو يوم اول مايو ـ عيد العمال ـ يوم عطلة للمستر فنك والمستر كاسدي .. في الصباح حملت مسز فنك ما كانت مسز كاسدي قد طلبت منها ونزلت الى شقتها .. مسز كاسدي كانت في قميصها الاسود .. من حرير .. وزوجها قد اعد برنامجا لقضاء يوم العطلة ... رحلة نهرية و « بك نك » ثم مسرح .. ولساحية النهار .. كفاية من البيرة ..

وتحركت أفاعي الغيرة في قلب مسز فنك وعادت الى شقتها وفي عينيها شواظ من نار . ما اسعد جارتها .. ولكن هل السعادة وقف عليها ؟ اليس زوجها عدلا للمستر كاسدي . وطافت بخاطر مسز فنك فكرة رائعة جهنمية .. لا بد وان تثبت لجارتها ان في العالم رجالا غير المستر كاسدي ، وان زوجها واحد منهم .. وانه يستطيع ان يضرب ويلكم ويوجع ويؤلم .. ثم يحنو .. ويشتري ...

المستر فنك لم يكن قد اعد اي برنامج لقضاء يوم العطلة ... والمسز فنك كانت قد حشت الغسالة بكل ما تريد غسله .. والمستر فنك متراخ في مقعده يقرأ جريدته .. كالمعتاد . ودارت الفكرة في رأس مسز فنك واختمرت .. اذا لم يقم زوجها بضربها ولكمها .. اذا لم يثبت رجولته .. اذا لم يستعمل حقوقه الزوجية .. فواجبها هو ان ترغمه على ذلك وتدفعه دفعا ...

اشعل المستر فنك غليونه واخذ يدلك قدمه في كسل وتراخ .. وهو يفكر في وجبة الغذاء .. اما ضرب زوجته فامر لا يخطر له على بال ..

وتصاعدت الى شقة مسز فنك ضحكة رنانة مجلجلة من صميم شقة مسز كاسدي واحست مسز فنك انها هي المقصودة بهذه الضحكة .. وهنا تراقصت الشياطين ولعبت العفاريت وحلت لحظة العمل .. فاتجهت الى زوجها وكل خلية في جسمها مشدودة ...

« قم ايها المتسكع الكسول .. اتوقع ان اقضي حياتي في خدمة مخلوق قبيح مثلك ؟ هل انت رجل ام كلب من كلاب المطابخ ؟ »

وسقطت الجريدة من يد زوجها وظل ساكنا لا يتحرك .. جمدت الدهشة اوصاله ... وخافت هي ألا يضربها .. لعل الاثارة لم تكن كافية فقفزت نحوه كالنمرة ولطمت وجهه في عنف ثم لكمته لكمة اسالت الدم من شفته .. والغريب انها احست في تلك اللحظة نحو زوجها بحب لم تحس به من سنين .. ولكنها واصلت الجهاد ، وهي تتمنى ان ينهض زوجها ليتربع على عرش مملكته .. وينهال عليها ضربا .. فتعرف انه يحبها .. يحبها .

وانتصب الرجل واقفا فسددت الى وجهه لكمة اخرى ولطمت وجهه ثم اغلقت عينيها لتنعم بضرباته ولكماته تنهال عليها .. وانتظرت في لهفة ...

في الشقة التي تحت شقة المسز فنك كان المستر كاسدي يكفر عن ذنبه ويرش « البودرة على جروح زوجته وكدماتها ... وعلى عينها المتورمة .. التي سدت تماما .. وصدر من شقة المسز فنك صوت امرأة عاليا مدويا ...

وعجب المستر كاسدي « مارت وماجي يتعاركان ؟ أهما يتعاركان على حد علمك ؟ هل اصعد اليها لاكون حكما ؟ »

ولمعت عين مسز كاسدي المفتوحة .. وقالت لالا انتظر حتى اتبين انا حقيقة الامر » وطلعت الى فوق .. ولقيتها مسز فنك عند باب المطبخ وقالت مسز كاسدي في فرح « عزيزتي ماجي هل ... هل ؟

واقبلت مسز فنك نحوها ووضعت رأسها على كتفها وراحت تبكي في يأس .. ونظرت اليها مسز كاسدي فاذا بالدموع تسيل على وجه لاخدش فيه ولا كدم « قولي يا ماجي الا دخلت لأسأله .. هل آلمك ؟ هل اوجعك ؟ وقالت مسز فنك في يأس « بحق السماء لا تفتحي الباب . وبحق الصداقة لا تطلعي احدا على سري .. لم يلمسني ولم يمسني بسوء .. انه .. انه .. يغسل الغسيل .. يغسل الغسيل !! ■■

اوكسفورد ـ جمال الكتاني

حوار القراء

الرسول أبا وجدا

● من قراءتي لمقال « الرسول أبا وجدا » للاستاذ / رابح لطفي جمعة بالعدد رقم ٢٧٦ نوفمبر ١٩٨١ وجدت تحت عنوان : انما اموالكم واولادكم فتنة بصفحة ١٣٦ : « ويروون انه صلى الله عليه وسلم خرج في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل الحسن أو الحسين فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدةالصلاة ... » واستفساري هنا يقع على كلمة صلاتي العشاء حيث ان معلوماتي المتواضعة عن الصلوات أنها خمس ، فلماذا ذكر في هذا المقام ان للعشاء صلاتين ؟

أرجو شاكرا الرد على استفساري

جاجس حكيم انطفانوس
مصر

العربي :وقع هنا خطأ مطبعي فقد كان قصد الكاتب ان يقول « خرج قبل صلاة العشاء » فليس في فريضة العشاء غير صلاة واحدة فقط .

الموطأ

● اطلعت على حل مسابقة العدد ٢٧٤ المنشورة في العدد ٢٧٧ من مجلة العربي ، واستغربت ان ينسب واضع المسابقة كتاب « الموطأ » إلى أبي محمد بن وهب في الوقت الذى اجمعت فيه كتب الفقه على أن واضع كتاب الموطأ هو مالك بن انس .....

عمر عبد العزيز الامي
البقعة ـ الاردن

العربي :

الموطأ هو كتاب ألفه مالك بن انس كما تقول .

الاحاديث الضعيفة

● انني من قراء مجلتكم الغراء التي ارجو لها المزيد من التقدم لتنمية ثقافتنا وازالة ما علق بأذهان الكثير من شبابنا من اوهام واباطيل فيما يتعلق بتراثنا وتاريخنا وحضارتنا .

لهذا ارجو من كتاب المقالات التاريخية والدينية « بشكل خاص » عند الاستشهاد بآية قرآنية ، او حديث نبوي شريف ان يبينوا رقم السورة والآية ، وكذلك مصدر الحديث مع بيان درجة صحته . لأن مجلتنا الغالية دأبت على ذكر احاديث بين ضعيفة وموضوعة كما جاء في عدد ايلول من مجلة العربي من قول

بينا العسر اذ دارت مياسر

● لدى مطالعتي للصفحة اللغوية المنشورة في عدد نوفمبر ٨١/ من العربي ، لاحظت ان كاتبها الاستاذ محمد خليفة التونسي قد استشهد ببيت شعر اورده كالتالي :

فبينما هما عنت البعد عانة
قد انتظمت لها وقد طبقت شحما

وقد ورد عجز هذا البيت في معظم كتب الادب على هذا النحو

فبينا هما عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

وهذا البيت مأخوذ من قصيدة للحطيئة مطلعها .

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل
بيداء لم يعرف بها ساكن رسما

محمد عامر رمضان
عمان/الاردن

ينسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم « ان من عشق فعف فكتم فمات ، مات شهيدا . » وهذا الحديث موضوع . انكره الامام السيوطي ، وابن القيم وكذلك الشيخ ناصر الدين الالباني في سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة واثرها السيء في الامة برقم ٤٠٩ ص ١٣ من المجلد الاول الجزء الخامس ....

عبد الرزاق العزاوي
الرقة

أمنيات العام الجديد

● بمناسبة بدء العام الجديد ارجو ان تحقق لنا المجلة - نحن قراء العربي - بعض الامنيات ومنها :

- ان تستطلع المجلة بعض المدن العريقة والتي اصبحت اثرا بعد عين ... بعد ان كانت شهرتها تطبق الآفاق .... وعلى سبيل المثال ... مدينة « قفط » احدى قلاع الحضارة في مصر القديمة والتي تعد بحق واحدة من اقدم مدن الاستقرار الحضاري في العالم .

- ان تقوم المجلة بتقديم كتب التراث الغالية الثمن مثل : الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ... كتب الجاحظ .... رسائل عبد الحميد الكاتب .... دواوين فحول الشعراء.... الى جانب كتب التفسير والفقه .

نور علي احمد
قفط / مصر

خير الدين الزركلي

● نشرت العربي في العدد ٢٧٤ ص٥٦ ان خير الدين الزركلي ترك درته النفيسة كتاب الاعلام في ثلاثة اجزاء ، ومما يجب ان يضاف ان هذه هي الطبعة الاولى ، اما الثانية فكانت في عشرة اجزاء .. التي شملت الادباء والشعراء والفلاسفة والفقهاء والاطباء والقضاة والمشارقة والمستشرقين على مدى القرون الاربعة عشر الماضية .

وقد رتبه صاحبه على الحروف الابجدية لاسم المترجم فان اتحد الاسم انتقل الترتيب الى الاب مقتفيا نهج كتب كثيرة تخصصت في التراجم اشهرها « وفيات الاعيان » لابن خلكان .

والاعلام يساعد الباحث بالتغلب على العقبة التي تصادفه حين يجد اسمين احدهما للشهرة والثاني لا يعلم به الا القليل من المختصين الدارسين لتاريخ الادب والعلم ..

وقد يذكر الشخص مرة باسمه ومرة بكنيته ومرة بلقبه . وللتمثيل على ذلك نجد ان الشاعر المشهور ابا العلاء المعري اسمه احمد بن سليمان وان المتنبي اسمه احمد بن الحسين وان الشريف الرضي اسمه محمد بن الحسين وان الجاحظ اسمه عمرو بن بحر وان الشاعر ابا العتاهية اسمه اسماعيل وان العجاج الراجز اسمه عبد الله بن رؤبة وبدلا من ان يتحير الباحث ويقضي وقتا طويلا او قصيرا حتى يعرف الاسم الاصلي والشهرة وانهما لمسمى واحد ، ووجهين لعملة واحدة ، فان مؤلف الكتاب يساعد محب المعرفة وطالب العلم اعظم المساعدة فيذكر الشهرة في مكانها من ترتيب الحروف ثم يرشد القاريء الى اسم المترجم ليجد المعلومات التي يقدمها في ترتيب حروف الاسم ، ومن مميزات الكتاب انه يذكر التاريخ الهجري الذي كان سائدا في العصور الماضية وبجانبه التاريخ الميلادي الذي غلب استعماله في العصر الحديث ، وهذه عقبة تصادف الباحثين عند تحقيق الميلاد والوفاة ..

عبد الرحمن احمد شادي

قارىء من حيفا

● بعث الينا يقول : احييكم كعربي على هذه الوجبة الفكرية التي تتحفوننا بها شهريا .

ونحن هنا - للاسف - اصبحنا كالغرباء على موائد اللئام ، ننتظر بفارغ الصبر ان تأتينا مجلة العربي تحمل رياح اهلنا وتصلنا بهم وتقوي ارتباطنا بعالمنا العربي الكبير .

فأرجوكم ان تهتموا بارسال اكبر عدد من نسخ هذه المجلة الينا .

عبد الله نجيب الشيخ
قرية عسفيا - حيفا /فلسطين

استهلوا « العربي » بالقرآن

● ارى ان هذه المجلة الجامعة لشتى مجالات العلوم والثقافة مازالت تتسع في كل عدد من اعدادها لبعض من آي الذكر الحكيم ، كأن تستهل بالبسملة او بآية تختارونها من كتاب الله عز وجل .

السيد على المصلي
كفر الشيخ

غربة العربي

● تعقيبا على ما ذكره فهمي هويدي في مقاله « فصل في غربة العربي » حول المعاملة التى يلقاها العرب فى مطارات الغرب وفي بلاده ، احيطكم علما بانني كنت في جنيف في صيف عام ١٩٧٧ وقد دخلت فرنسا اربع عشرة مرة ، وبت في باريس ثلاث ليال متوالية ، ولم يطلب مني جواز سفري ، لا على الحدود السويسرية الفرنسية ولا في الفندق الذي نزلنا فيه بباريس .

وفي عام ١٩٧٩ دعيت الى الاشتراك في المؤتمر الاميركي العربي الرابع الذي عقد في مدينة كراكس ، فسافرت الى فنزويلا وعدت منها الى جنيف ، ومن جنيف الى حلب ، ولم تفتح حقائبي الا في مطار عربي . اما في مطارات اوروبا واميركا . فكانت كل المعاملات تتم في لحظات كنت اشعر خلالها انني انسان له حرمته وكرامته .

عبد الله يوركي حلاق
حلب - سوريا

تصحيح

● حدث خطأ مطبعي في بعض مقالات عدد يناير /٨٢ (الممتاز) ... فوضع اسم الاستاذ الدكتور عبد العزيز كامل تحت عنوان مقال « القمع سبب للتطرف وليس علاجا له » في الصفحة ٤٨ والصحيح ان كاتب هذا المقال هو الاستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان - اما المقال المنشور في الصفحة ٥٦ من نفس العدد تحت عنوان « الوسيط الغائب بين الشباب والسلطان » فهو بقلم الدكتور عبد العزيز كامل .

لذا اقتضى التنويه .

المحرر

هدية العربي

● ان الهدية مع الاسف الشديد لم يحصل عليها القراء من الباعة في كافة انحاء العالم العربي والاسلامي تقريبا بل يستغلها الباعة ويبيعونها وحدها بسعر المجلة وجميع قرائكم يشكون من هذه الاعمال الاستغلالية ! وفي العام الماضي رفعنا عدة شكاوي الى مؤسسة الاخبار التي توزع العربي في جمهورية مصر العربية ونبهناهم الى هذه الأعمال الاستغلالية من طرف الباعة علنا لبيع الهدية بسعر المجلة مع انها هدية مجانية ، فلم يتخذ قسم التوزيع للمجلة اية اجراءات في هذا الموضوع بتاتا ونظرا لان للهدية قيمة فقد اشتريناها منفصلة عن المجلة رغم أنفنا مع الاسف الشديد ....

ارجو عند اصدار هدية مع العدد القادم الممتاز بمناسبة انتهاء سنة ١٩٨٢ واستقبال سنة ١٩٨٣ ان شاء الله فاننا نقترح ان تلصق مع المجلة حتى لا يتمكن الباعة من التلاعب فيها .

الدكتور عبد المجيد حسن
الاستاذ بجامعة القاهرة

الثقافة العربية في الفكر الإسباني المعاصر

اعداد : الدكتور محمد عبد الله الجعيدى

تميزت الفترة الأخيرة من الحياة الثقافية فى مدريد بكثرة الكتب المنشورة فى مختلف فروع المعرفة . ومن الطبيعى أن تمتد هذه الظاهرة الى الكتب التى تعالج الموضوع العربى بمختلف أشكاله من أدب وتاريخ وفلسفة وعلوم .. الخ . وكيف لا ، والموضوع العربى يجد ـ اليوم ـ قبولا لدى القارىء الأسبانى الذى بدأ يعى أن التراث العربى هو التراث الأقرب وهو التراث الأكثر تأثيرا فى ثقافته ، بدأ القارىء منذ فترة ـ وبفضل الجهود التى بذلها ويبذلها الكثير من المستعربين المتفهمين للقضية العربية حضارة وتاريخا ـ يتخلص من الروح المتعصبة التى طالما حقنته بها الكنيسة والعناصر الفاشية التى تكن عداء لكل ما هو عربى .. ناهيك عن جهود أولئك المستعربين الذين يعملون فى الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة ودور هؤلاء فى التعريف بواقعنا العربى تعريفا ايجابيا وموضوعيا .

وهنا اكتفى بتقديم بعض هذا النتاج الذى كتبه أساتذة اسبان فى حقل الثقافة العربية على أمل أن يتاح لى أو لغيرى من العارفين باللغة الاسبانية تقديم أعمال أخرى نشرت أو ستنشر قريبا فى الموضوع العربي .

السياسة كعلم وحيد عند الفارابي

صدر مؤخرا في العاصمة الاسبانية كتاب « السياسة كعلم ديني وحيد عند الفارابي » للدكتور سلفادور توغالس . ويتضمن الكتاب ١٣٦ صفحة من الحجم الكبير . والحقيقة أن هذا الكتاب في منهج تأليف يسير في خط يهدف الى تعميق فهم الفلسفة العربية في اطار الفكر الانساني . والمؤلف متخصص في موضوع الفلسفة العربية وعلاقتها بالفلسفة الاغريقية القديمة والحديثة . وهذا أمر له أهميته حيث أنه لا يمكن فهم فلسفة ارسطو مثلا دون الاستعانة بالدراسات والتفسيرات العربية لهذا الموضوع . كما أن تأثير الفلسفة العربية في الفلسفة الغربية المسيحية ودراسته يكشفان عن زيف ادعاء « مدرسة جامعة Lovaina » التي تذهب الى أن ماهو جيد في الفلسفة الاسبانية في العصور الوسطى يعود الى ارسطو ، وأن ما هو سيء في هذه الفلسفة يعود الى العرب وفي ذلك ـ كما هو واضح ـ إجحاف وتعصب أعمى لا مبرر له ضد ما هو عربي . فالعرب هم الذين عرفوا الغرب بفلسفة أرسطو وهم الذين وضعوا التفسيرات التي اعتمد عليها المسيحيون الغربيون في دراسة فلسفة ارسطو في العصور الوسطى .

ليست تقليدا ونقلا

فالفلسفة العربية ليست تقليدا كاملا للفلسفة الاغريقية ولكنها عدلت فيها وابدعت وأضافت الكثير ، وفي هذا تصحيح لتفسيرات المدرسة الاسكولاستيكية للفلاسفة العرب وخاصة لفلسفة ابن رشد ، حيث ذهبت هذه المدرسة الى أن ابن رشد لا يعترف بوحدة الفكر الانسانية بعد الموت » هذا ما ذهب اليه سانتو توماس والبرتو ماغنوس . بالرغم من ان ابن رشد يرى في فلسفته ان البشر جميعا يتحولون بعد الموت الى وحدة عقلية (فكرية) واحدة ، وبهذا تختفي الفروق الفردية في الذكاء عند البشر بعد الموت .

فالخط الحديث الذي تنتهجه الابحاث الفلسفية (في مجال الفلسفة العربية) في اسبانيا يؤكد على أصالة هذه الفلسفة ، وهي أصالة تكمن في تمثلها للثقافات القديمة من هندية وفارسية وبابلية ومصرية قديمة .. الخ وبصورة رئيسية في تمثلها للثقافة الاغريقية . ان تمثل وتحليل كل هذا التفكير القديم جنبا الى جنب مع التفكير الديني الاسلامي سيؤثر فيما بعد تأثيرا قويا في الفلسفة المسيحية . وبهذا سوف يمتزج الفكر الرئيسي بالفكر الفلسفي الاسلامي الديني . فقد تمثلت الفلسفة الاسلامية الثقافة الوثنية وعدلتها حسب الدين الاسلامي ومفاهيمه .

وفي هذا الخط الذي تنتهجه الدراسات الفلسفية (العربية) في أسبانيا يسير كتاب « السياسة كعلم ديني وحيد عند الفارابي » . حيث يمكننا أن نعتبر العنوان ملخصا شديد الاختصار لمضمون الكتاب . وشرحه يفشي لنا بمضمون الكتاب .

فالعنوان كما نرى « قد يكون فاضحا » بالنسبة لمسلم ، حيث تصبح السياسة علما دينيا وحيدا ، فتوضع موضع القرآن .. وهنا بالاعتماد على الكتاب نفهم أن السياسة كعلم وحيد عند الفارابي تأتي من كلمة غير عربية وهي الكلمة اليونانية « police » ومعناها : المدينة أو علم المدينة الذي يعني اندماج الفرد في الجماعة من خلال التكوين الجماعي للوصول في النهاية الى الحلول بالله من خلال العقل الفاعل لتحقيق السعادة الجماعية عبر وحدة الله مع العقل الفاعل .. وفي ذلك تأكيد على ضرورة أن يكون للفرد بعد اجتماعي ينتمي اليه .. أي أن الانسان الفرد لا يحقق انسانيته الا بانتمائه للمجتمع .

فقبل ماركس وروسو وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع دافع الفارابي عن البعد الاجتماعي للانسان كعنصر أساسي في المجتمع .

وهنا يأتي السؤال : أين تكمن سعادة الانسان ؟ . ان سعادة الانسان كما يراها الفارابي تكمن في امتلاك بقية الافراد من خلال الحب والمعرفة : بمعنى أنه يتوجب عليك أن تحب من تريد امتلاكه أولا ثم يتوجب عليك أن تعرفه جيدا ثانيا . فلكي تكون سعيدا عليك ان تتحد بالآخرين من خلال الحب والمعرفة .

فالانسان (الفرد) يحب ويعرف بقية الافراد ومن ناحية أخرى فان الله يعرف ويحب البشر جميعا من خلال اتصاله بهم روحيا . وهكذا فالاتصال بالله يكون من خلال وحدة الجماعة : أي الاتحاد بها بالحب والمعرفة . ومن لم يتحد بالجماعة يكون خارج الخلية البشرية وبعيدا عن المحبة الالهية . هذا هو طريق السعادة عند الفارابي ، فلكي تحب وتعرف الله أو تحظى بحبه عليك أن تتبادل هذا الاحساس أولا مع بقية أفراد جماعتك .

وهكذا يستخلص المؤلف أن السياسة هي العلم الوحيد الذي يجب الأخذ به . وكل علم غير السياسة يجب أن ينطوي تحت لوائها . فالطفل أولا وأخيرا يتوجب عليه أن يتعلم السياسة . بها يبدأ وعندها ينتهي . انه لرائع أن يكشف لنا المؤلف عن أن الفارابي هو أول من ذهب الى هذه الأهمية للسياسة .

الفارابي والقرآن والدين

ونسير مع الكتاب ونتساءل : أين يكون موقع القرآن كعلم ديني عند الفارابي ؟ .. فالقرآن هو الوحي الالهي للنبي من خلال الملاك ، والسياسة هي وحي الله للفيلسوف من خلال العقل الفاعل . فمحتوى الوحيين كما نرى هو واحد ، فوحي الله للنبي نزل بلغة مجازية لكي يفهمها عامة الناس ، مثل عبارة « يد الله فوق أيديهم » . أما وحي الله للفيلسوف فقد نزل بلغة الحقيقة المجردة .

ونواصل رحلتنا مع الفارابي وعلم السياسة ، ونتوقف لنضع سؤالا أو نتوقف لأن السؤال قد وضع نفسه أمامنا : ما هو الدين عند الفارابي ؟ .. وهنا نواصل المسيرة لنجيب على هذا السؤال من خلال قراءة الكتاب . فالدين عند الفارابي هو اللغة البشرية التي يستخدمها الله . وبهذا نفهم معنى وجود ديانات عديدة في صورة شعوب : أي أن لكل شعب ديانته . ومع ذلك فهناك ـ كما يرى الفارابي ـ حقيقة دينية واحدة . وهي السياسة أو مضمون السياسة ، وهي حقيقة تصل مباشرة من الله الى النبي بمفهوم مجازي ومن الله للفيلسوف بمفهوم مجرد .

وبهذا يمكننا أن نفهم عنوان الكتاب : « السياسة كعلم ديني وحيد عند الفارابي » .

ومن العنوان ندخل الى المقدمة : وقد حاول المؤلف فيها الكشف عن حياة الفارابي (٢٥٧ فاراب ـ ٣٣٩ دمشق) مركزا على تلك الظواهر التي تكشف لنا عن البعد الاجتماعي للفارابي : اسرته وأصله التركي ولغته الفارسية وثقافته العربية وانتماؤه الى الجماعة الاسلامية وتكوينه تكوينا اسلاميا ـ أما جغرافيا فيطوف الفارابي بأكثر مراكز الثقافة العربية ازدهارا فقد ولد في بيئة تعرف فيها معرفة جيدة ثقافات الماضي المختلفة : الايرانية والهندية والمصرية القديمة والبيزنطية والاغريقية والمسيحية والاسلامية ، كل هذا مكن الفارابي من درس وتحليل الماضي على ضوء القيم الاسلامية أي أنه جمع بين العقل والعقيدة .

وتدرس المقدمة أيضا أثر الفارابي في كل البيئات الثقافية اللاحقة له : الثقافة العربية في المشرق والاندلس ، وأوروبا اللاتينية في العصور الوسطى باعتبارها منبعا للثقافة المسيحية في العصور الوسطى التي عنها صدرت الثقافة الحديثة في أوروبا .

ولن يفوتنا في هذا التعليق القصير على الكتاب أن نشير الى نقطة هامة تتعلق بفكر وفلسفة المعلم الثاني « الفارابي » ، وهي ما أسماه باحصاء العلوم : حيث يقسم الفارابي العلوم الى ثلاثة أقسام : أولها العلوم التقديمية . وثانيها الفلسفية . وثالثها العلوم الدينية . فالأولى تتضمن العلوم والنحو والمنطق (مع الأخذ في الاعتبار ان المنطق يتضمن الخطابة والشعر وهذا يكشف عن الأهمية التي يعيرها المعلم الثاني للحقيقة) . والثانية تتضمن علم الطبيعة وعلم النفس وعلم ما وراء الطبيعة . والثالثة تتضمن علم الكلام وعلم الفقه وعلم السياسة .

فالسياسة والفلسفة هما علم واحد . وبالمقابل فان الفارابي لايعتبر من العلوم علوما مثل علم الكلام الذي يقلل من شأنه ، والفقه الذي يعتبره صناعة اكثر منه علما نظريا .

وقبل ان الخص ما أراه جديدا في هذا الكتاب احيط القارئ المهتم علما بان المؤلف يعد ترجمة اسبانية لكتاب الحروف للفارابي ويعد ايضا ببليوغرافيه تشمل المخطوطات والمطبوعات والترجمات والدراسات حول الفارابي . اما الجديد في هذا الكتاب فيتمثل فيما يلي : ـ

١ ـ انه يكشف عن البعد الاجتماعي للانسان عند المعلم الثاني .

٢ ـ انه يكشف عن المعنى الشمولي لعلم السياسة .

٣ ـ ان سعادة الانسان تكمن في اتحاده مع كل البشر ، من خلال الكل الانساني وفي حلوله بالله .

٤ ـ إن الملة هي التعبير الانساني للوحي الالهي .

٥ ـ انه لاتوجد في الكون غير حقيقة واحدة ، وهي

حقيقة مضمون الوحي الالهي التي تصل بصورة مجازية للنبي وبصورة ذاتية مجردة للفيلسوف .

وبهذا استحق الفارابي ان يسمى « المعلم الثاني » بعد المعلم الاول « ارسطو » .

ابن بطوطة يظهر في مدريد

عن الدار الوطنية للطباعة والنشر « Editora Nacional » صدرت مؤخرا الترجمة الاسبانية لكتاب « تحفة النظار في غرائب الامصار » لمحمد بن عبد الله بن ابراهيم الطنجي المعروف بـ « رحلة ابن بطوطة » . ويحتوي الكتاب على ٨١٢ صفحة تشمل نص الرحلة بجزئيه ومقدمة طويلة كتبها المترجمان سيرافين فانخول غرثية وفيديريكو اربوس ايوس ـ وملاحظات تصل الى الخمسمائة ملاحظة تقريبا ، وعدداً من الخرائط التوضيحية .

والحقيقة ان ترجمة كهذه تكتسب اهميتها من حيث انها تقدم للقارىء الاسباني وجهة نظر جديدة تتعلق بالموضوع الذي يعالجه الكتاب ، حيث ان هذا القارىء طالما استقى معلوماته عن هذا الموضوع من مصادر غربية فهمت الامور وفسرتها من وجهة نظرها الغربية عن اوضاع وظروف المنطقة وخاصة ما تعلق منها بالعادات والتقاليد العربية والاسلامية هذا بالاضافة الى ان في الكتاب شيئا جديدا غير موجود في مصادر اخرى مثال ذلك مملكة مالي الكبرى التي سبق ابن بطوطة منجو بارك الانجليزي ورينه كايبه الفرنسي بقرنين من الزمان في الوصول اليها ووصف احوال شعوبها .

وتعرض مقدمة الترجمة لاصول ادب الرحلة العربي ، منذ ان كان للرحالة اهداف غير هدف الرحلة ، مثال ابن خرداذبة صاحب البريد وابن حوقل الذي كان يعمل لصالح الخليفة العباسي ، والادريسي ذي الاهتمامات العلمية في حقل الجغرافية ، والبكري الذي كان يقوم بابحاثه لصالح روجيرو الثاني ملك صقلية بعد سقوطها في يد المسيحيين ، حيث كانت العربية هي لغة الثقافة في بلاط روجيرو .

وفي القرن الثاني عشر الميلادي يفتتح الرحالة المغاربة والاندلسيون صفحة جديدة في تاريخ ادب الرحلة العربي . فاثناء خروجهم لزيارة البيت الحرام واداء فريضة الحج كانوا يتجولون في الاقاليم الشرقية للوطن العربي والعالم الاسلامي فيصفون تلك الديار وصفا ادبيا رائعا كما نلمس عند ابي حامد الغرناطي ، هذا في حين غلب الطابع العلمي على مادونه البكري والادريسي في الفترة السابقة وتكمن اهمية ما كتبه الغرناطي في وصفه لبلاد الروس (روسيا وبلغاريا والمجر ..) قبل اقل من قرن من اجتياح المغول للمنطقة . وفي هذه المرحلة الثانية نجد ابن جبير الذي تكمن اهمية مادونه في وصف سوريا وفلسطين وبغداد ومكة .

وثالث هؤلاء الرحالة المتخصصين حقا في الترحل بمعناه الدقيق هو ابن بطوطة المولود في طنجة سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) الذي درس دراسة يسيرة في مسقط راسه وفي الثانية والعشرين من عمره قصد زيارة الاراضي المقدسة وحج بيت الله الحرام . فسار بموازاة الساحل الجنوبي للبحر المتوسط حتى وصل الاسكندرية ، ومنها سار بمحاذاة النيل حتى وصل صعيد مصر ، ومنه بمحاذاة الساحل الغربي للبحر الاحمر الى سيناء وفلسطين ودمشق ومنها الى البيت الحرام . واجتاز الصحراء الى بغداد وشيراز واصبهان : ثم عاد عن طريق شط العرب الى بغداد فالموصل ، ثم عاد الى مكة فاليمن فالصومال فعمان فالبحرين عائدا عبر الصحراء الى مكة ، ثم اخترق البحر الاحمر الى السودان والنوبة وصعيد مصر ، فالقاهرة فاللاذقية ومنها بحرا الى القسطنطينية ، فالاناضول فتركستان فخوارزم فبخارى فالسند فالهند فجزر الهند الشرقية فالصين جنوبا ، ومن هذه الاخيرة عن طريق شاطىء السند الجنوبي ومرورا بالعراق والشام ومصر عاد الى بلاده حتى وصل تونس فقام بزيارة لسردانية (جزيرة) ووصل فاس سنة ٧٥٣هـ ومنها خرج فتجول في الاندلس وعاد الى بلاده فتوغل في الصحراء الغربية الكبرى الى السودان الغربي ومملكة مالي الكبرى . وله

يرجع الفضل في اكتشاف هذه المنطقة . وعاد سنة ٧٥٥هـ الى فاس حيث امر السلطان ابو عنان بتدوين الرحلة واختار لذلك كاتبا اديبا من مجلس علمه ، هو الفقيه الاندلسي ابن جزي الكلبي . وامر بتولية ابن بطوطة القضاء في السوس حتى توفي سنة ٧٧٦هـ .

ملاحظات على الترجمة

وبالرغم من كثرة الرحالة المسلمين قبل ابن بطوطة مثل الاصطخرى والمسعودي والغزال وبعده مثل العياشي الذي اهتم بالمظاهر الدينية والفقهية وغلب على رحلته الطابع العلمي خلافا لأقرانه من الرحالة المتخصصين ، فان ابن بطوطة كما يقول الاستاذ محمد عبد الله عنان في مقال صدر له اخيرا في مجلة العربي (مايو ١٩٨١) « يتفوق عليهم جميعا من سائر الوجوه الدراسية والزمنية والكشفية والوصفية وغيرها .. ويجب ان يعتبر ابن بطوطة ، ليس اعظم الرحل المسلمين ، بل واعظم الرحل قاطبة في العصور الوسطى » .

لقد خرج الشاب ابن بطوطة في رحلة استمرت ثلاثين عاما متنقلا بوسائل التنقل البدائية التي كانت متيسرة في عصره من سير على الاقدام او ظهور الحيوان او القوارب الشراعية فتجول في كل ماكان معروفا بانه العالم في تلك الفترة ، معتمدا على شيمة الضيافة العربية والاخوة الاسلامية حيث كان ينزل في الزوايا والرباطات والخوانق فينال مساعدات الوجهاء والقضاة والحكام والعلماء والسلاطين على شكل طعام او لباس او مأوى او وسيلة مواصلات .

وقد القى المترجان الاضواء على نص الرحلة حيث اجتمعت فيه فروع المعرفة المختلفة من عادات وتقاليد ووصف للبيئة الطبيعية والمذاهب الدينية والفقهية والمعلومات التاريخية الثابته التي يشير اليها ، ومظاهر الحياة الاقتصادية من اسعار وموازين وعملات مستخدمة ومقاييس ، فيصف كل ما كانت تقع عليه عيناه من موجودات . واحيانا كان يسهب في وصف موجودات خيالية كطائر الرخ وديوك الصين وغيرها ، وهي فقرات قد يكون ابن بطوطة تعمد وضعها لجعل النص اكثر تشويقا .

اما لغة النص فهي ـ كما يعرفها القارىء العربي ـ تحمل خصائص عصرها التي تسهل احيانا وتصعب اخرى على الفهم ، ويتضمن فقرات كثيرة مأخوذه عن ابن جبير وخاصة تلك النصوص التي يغلب عليها طابع السجع ، وابن بطوطة يشير احيانا الى انه اخذ هذه النصوص عن ابن جبير واحيانا اخرى لايشير ، مما جعل المترجان يشيران الى ذلك بين الحين والحين في ملاحظاتهم الهامشية .

اما الاصل المعتمد في الترجمة فهو النص العربي الذي نشرته دار صادر للطباعة والنشر سنة ١٩٦٤ في بيروت باشراف كرم البستاني مع الاستعانه احيانا بطبعة ديفريمري سانغيناتي الصادرة في باريس سنة ١٨٥٤ ، واذا اخذنا في الاعتبار الفروق بين الطبعات المختلفة تكشف امامنا مدى الصعوبة التي وجدها المترجان في التعامل مع النص حيث ان بعض الفقرات كانت تتقطع احيانا فتحدث ارتباكا في تواصل النص .

كما يبدو من الملاحظات التي وضعها المترجان أنهما قد وجدا صعوبة في فهم بعض الاسماء غير العربية (فارسية وصينية .. الخ) ، حيث ان بعض هذه الاسماء قد اختفى في الوقت الحاضر ، ويبدو ان ابن بطوطة نفسه قد ادرك هذه الصعوبة فحاول تحريك اصواتها حيث ـ كما يعلم القارىء العربي ـ نجده يذكر ان الحرف كذا من الكلمة ينطق بفتح او ضم او كسر .. الخ .

فكثيرا ما توقف المترجان ليضعا لنا ملاحظه تصحح خطأ لغويا او معنويا او تشرح ظاهرة من الظواهر الغريبة على القارىء الاوربي العادي مثل العمرة ، عيد الفطر ، الحج .. الخ . اما بالنسبة للقارىء عامة فيمكن ان تكون نافعة تلك الملاحظات المتعلقة بالعادات والتقاليد والحياة والتاريخ والبيئة .. الخ في المناطق التي لايعرفها .

وهناك شيء ظريف في الترجمة حيث انها تستخدم او حاولت بقدر الامكان استخدام الكلمات الاسبانية ذات الاصول العربية وهي مفردات تصل الى الخمسة الاف لايستخدم منها اليوم الا اربعمائة مفردة تقريبا . وهذا جهد مشكور للاستاذين المترجمين حيث انهما بهذا ـ وهو رأي خاص ـ يعملان على احياء هذا الاثر الحضاري عظيم الاهمية . اما أن ذلك افضل أو اسوأ فهي قضية تظل قابلة للمناقشة ، ولكن رأينا ان استخدام هذه المفردات يعمل على احيائها واعطاء النص المترجم نفحة تراثية وخاصة اذا ما تعلق الامر بنص كتب في العصور الوسطى .

وقد استعان المترجان احيانا بالترجمة الفرنسية او الانجليزية للرحلة لحل بعض مغالق النص ، وبذلك استطاعا الكشف عن بعض الاخطاء فجلاها

كملاحظات ، وقد كثرت ملاحظات هذا النوع حول النص الفرنسي،اما نص الترجمة الانجليزية فيبدو لحداثة نشره اقل تورطا في هذه الاخطاء .

وهكذا نرى ان هذه الطبعة الاسبانية الصادرة في مدريد للرحلة تقدم صورة تاريخية جغرافية واقتصادية فولكلورية .. الخ ، لحقبة من تاريخنا العربي .

واخيراً بالرغم من بعض المبالغات التي نجدها في ثنايا الرحلة يمكنني القول بان ابن بطوطة يعتبر من اكثر رحالة العصور الوسطى واقعية ، وتتمثل اهمية هذه الواقعية واهمية الرحلة في انها ـ كما سبق ذكره ـ رواية رحالة مسلم للقارىء الاوروبي الذي ما عرف غير روايات رحالته مصدرا للمعلومات عن العالم الاسلامي .

موسوعة تاريخ الفكر الإسلامي

عن دار الباانتا للطباعة والنشر صدر كتاب « تاريخ الفكر في العالم الاسلامي منذ بدايته حتى الاشتراكية العربية » للاستاذ ميغل كروث ارنانذث ، ويحتوي الكتاب على جزءين الاول في ٢٩١ صفحة والثاني في ٤٣١ صفحة من القطع الكبير .

ويكمل هذان المجلدان موسوعة تحاول التأريخ للفكر العربي والفكر الاسلامي . وهما خلاصة رحلة مع هذا الفكر بدأهاالمؤلفسنة ١٩٤٩ في « الاندلس » الذي صدر سنة ١٩٥٧ في جزءين ، وفي « الفلسفة العربية » الصادرسنة ١٩٦٨ » و« ابن عربي المرسي » سنة ١٩٧٧ الخ .

لقد كان تاريخ الفلسفة في الاندلس « خطوة اولى نحو قيام تاريخ عام للفلسفة والفكر العربي والاسلامي . وهو اول كتاب يكتسب هذا الشكل في موضوعه حيث ان ما سبقه تمثل في بعض الأعمال الجزئية المتفرقة بهذه اللغة او تلك .

والخلاصة التي يمكن فهمها من قراءة الكتاب هي ان الفكر الاسلامي ينبع في الشرق ويتحول ويزدهر فيبلغ القمة في الاندلس ، كما هو الحال عند ابن رشد ، ونفس الشيء يحصل في التصوف حيث ان علمه بلا منازع هو « محيي الدين بن عربي المرسي الاندلسي » ويمتد حكمنا هذا على فلسفة التاريخ حيث ان علم هذا العلم هو عبد الرحمن بن خلدون الاندلسي الاصل .

ويدرس الكتاب الفلاسفة العرب والمسلمين في المشرق والمغرب فيكشف عن تأثرهم بمن سبقوهم من فلاسفة عرب ومسلمين واغريق او من اي جنسيات اخرى ، ويكشف عن تأثيرهم في من تلاهم من مفكرين وفلاسفة في مختلف انحاء العالم .

ومحور الكتاب هو ابن رشد حيث ان اغلب المجلد الثاني مخصص لهذا الفيلسوف باعتباره اكثر الفلاسفة العرب تأثيرا في حركة الفكر العالمي ويرى المؤلف ان ابن رشد قد سبق عصره بقرون ، والكتاب باختصار يعطي صورة واضحة للفكر العربي في الاندلس . ويؤكد على ان هذا الفكر قد بلغ في القرن الثاني عشر الميلادي درجة من التطور والرقي لم يبلغها الفكر الغربي حتى القرن السادس عشر .

وفي « الفلسفة العربية » تتوسع رقعة البحث الجغرافية لتشمل فلاسفة عربا من المشرق اما الحيز التاريخي للكتاب فيمتد من ولادة الاسلام حتى ابن خلدون في القرن الخامس عشر ويعدل هذا الكتاب بعض الاحكام الواردة في الكتاب السابق ، مثال ذلك تفسير فلسفة ابن سينا وخاصة رأيه فيا وراء الطبيعة حيث يشمل هذا التعديل نقطتين : « الاولى في مفهوم الوجود والثانية في مفهوم الدليل على وجود الله .

ويبدأ الكتاب بأوليات الفكر العربي منذ الارهاصات الاشتراكية الاولى في عهد النبوة ، وامتزاج ذلك او تطعيمه بافكار الفلسفة الاغريقية ، ثم يدرس الفلاسفة المشارقة : الكندي والفارابي وابن سينا ، وردة الفعل التي تركها ابن سينا في الغزالي . وينتقل الكتاب الى الاندلس فيدرس اصول فكرها متمثلا في ابن مسرة وابن حزم وابن السيد وابن العارف في المرية .

ثم يتلو ذلك فصل لدراسة فلاسفة الاندلس ابن باجة وابن طفيل وابن رشد . ثم يدرس التصوف الاندلسي ويركز على ابن عربي بوجه خاص . ويختتم الكتاب بدراسة الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون حيث يتم التركيز على تفسير ابن خلدون لفلسفة التاريخ وتطبيق ذلك على تاريخ البربر الذي كان ابن خلدون يعرفه معرفة جيدة وكان على اتصال بالحكام . فكان امينا للسلطان الحفصي ثم امينا للسلطان المريني ثم سفيرا لملك غرناطة النصرية في بلاط الملك بدرو : ملك قشتالة الذي كان بلاطه في اشبيلية .

ويأتي اخيرا « تاريخ الفكر في العالم الاسلامي منذ بدايته حتى الاشتراكية العربية » بمجلديه ليسد فراغا في المكتبة الفكرية التي كانت تفتقد الى عمل ذي صفة شمولية مختصرة في هذا الموضوع منذ الدعوة النبوية الشريفة حتى الاشتراكية العربية المعاصرة .

نقض ورد

فاذا استعرضنا ما لدينا في هذا الموضوع من دراسات وجدنا المبرر لوجود دراسة كهذه : فكتاب عبد الرحمن بدوي « تاريخ الفلسفة الاسلامية » يصل حتى القرن الثاني عشر ، ولاتنكر بانه افضل ماكتب في الموضوع ثم نجد كتابين لهنري قربان (بالفرنسية) أولهما بعنوان « الفلسفة الاسلامية » وهو مختصر يصل الى القرن الثاني عشر الميلادي ، وثانيهما في اربعة اجزاء بعنوان في الاسلام الايراني « ويعالج الفكر الايراني الشيعي منذ مولد فكرة الشيعة حتى الفكر الشيعي ، وهناك عمل آخر جمع فيه م . شريف مجموعة من الدراسات لكتاب مختلفين وهو اكثر من حيث الفترة التاريخية التي يدرسها من الاعمال السابقة .

وهكذا فكتاب الاستاذ ميغل يجمع هذه المتفرقات .

الذات وبهذا فالكتاب يبين سطوره واضحة الفكرة يعترف بوجود فكر عربي اصيل ويرفض بكل شدة ماذهب اليه ماسينيون وقربان من أن الفكر العربي مغلق على نفسه ويصدر عن الاسلام وحده دون قبول اي مؤثرات حضارية من الخارج . وفي نفس الوقت يرفض ما ذهب اليه رينان وغوتيته من ان الفكر العربي فكر اغريقي مكتوب بالعربية ، ويعتبران ابن رشد فيلسوفا عالميا يكتب بالعربية ، وهذا كما هو واضح فيه اجحاف بحق ابن رشد وحق الامة والحضارة التي ينتمي اليها ابن رشد . كما يرفض المؤلف ماذهب اليه الباحث الاسباني اسين للايثوس في المبالغة في التركيز على التأثير المسيحي في الفكر الاسلامي . وفي نفس الوقت يبتعد المؤلف ويرفض ماذهب اليه الشاعر ادونيس (علي احمد سعيد) من حيث ان الفكر العربي اذا اريد له ان يتطور ويصبح مفهوما فعليه ان يبتعد عن الارتباط بالدين ، حيث يعتبر ادونيس ان الفكر العربي بعد ابن رشد غير موجود ، وبالطبع فالمؤلف يرفض ذلك ويؤكد العكس فيدرس مفكرين وفلاسفة كبارا اثبتوا وجودهم بعد ابن رشد مثل ابن خلدون وابن عربي وابن سبعين وابن طلموس وحتى لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي الذي كان مفكرا بالاضافة الى كونه كاتبا هذا اذا ما تركنا ما يذكره من مفكرين وفلاسفة مسلمين غير عرب جاءوا بعد ابن رشد مثل ميراداماد المتوفي سنة ١٦٣٢م والملا صدرا المتوفي سنة ١٦٤٠م وغازي سعيد القمي المتوفي سنة ١٦٩٥م من ايران . وموبيد شاه المتوفي في نهاية القرن السابع عشر الميلادي من شبه القارة الهندية ... الخ .

هذا بالاضافة الى الفصل الرابع والعشرين الذي خصصه لدراسة المدرسة الشيخية في ايران وهي مدرسة تعيش اليوم ظروفا خاصة في ايران .

ويعلل الكاتب اضمحلال الفكر العربي . في الأندلس بزوال السلطان العربي عن هذه الديار . فمنذ القرن الثاني عشر بدأ هذا السلطان في الاضمحلال وفي بداية القرن الثالث عشر لم يبق الا المملكة النصرية بغرناطة . أما في شمال أفريقيا والشرق فان غزو تيمورلنك وانتصار العثمانيين أديا الى اضعاف العنصر العربي كما أن عصبية الغزاة دفعتهم الى عمليات اضطهاد همجية ضد العنصر العربي في كل من فلسطين وسوريا وغيرها ...

وبهذا يقدم الكاتب الدليل على أن الفكر العربي قد واصل مسيرته بعد ابن رشد وان الاماكن التي تعرض فيها هذا الفكر الى عملية جزر ، كانت هي نفس الأماكن التي تعرضت للغزو والقهر ، وهكذا يمكننا أن نفهم معنى استمرارية هذا الفكر الاسلامي في ظل الدولة الصفوية في ايران واختفائه في ظل السيطرة التركية ، فقد سمحت الدولة الصفوية لرعاياها ـ ما لم يتدخلوا في شؤون الحكم ـ بحرية التفكير أما الأتراك فقد حجروا على الفكر مثله في ذلك مثل سائر فروع المعرفة الأخرى .

كتاب للجمهور غير المتخصص

فالكتاب كما جاء في المقدمة هو « كتاب تاريخي

علمي للجمهور المثقف غير المتخصص » حيث ان المتخصصين في هذا الموضوع في العالم يعدون على أصابع اليد .

ويمكنني تلخيص خلاصة المجلدين فيما يلي :

١ ـ التأكيد على أهمية وغنى هذا الفكر .

٢ ـ ان هذا الفكر العربي الاسلامي غالبا ما تقدم على الفكر الغربي كما هو الحال عند ابن سينا وابن رشد وابن خلدون الذين سبقوا وتفوقوا على مفكري وفلاسفة الغرب ، فابن سينا يتفوق على توماس الأكويني ، وابن رشد يتفوق على الفلندي سيجر دى برابنتي الذى كان استاذا في جامعة السربون في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وابن خلدون يتفوق فكرا ونظرية على الفيلسوف والعالم الألماني هيجل المتوفى سنة ١٨٣٠ تقريبا .

٣ ـ يهدف المجلدان الى جانب ما سبق نشره من مجلدات الموسوعة الى اعطاء القارىء الغربي فكرة صادقة وصحيحة عن الوضع الاجتماعي في العالم الاسلامي .

٤ ـ يهدف الكتاب الى التعريف بالفكر الاسلامي المعاصر وهو يكاد يكون مجهولا في العالم الغربي .

٥ ـ يهدف الكتاب الى اعطاء فكرة عن الوضع الحالي للفكر العربي المعاصر ودوره وفعاليته . وبالرغم من ايمان الكتاب بفعالية وقدرة هذا الفكر على حل المشاكل التي يعانيها الوطن العربي لو سمح له بلعب دوره بحرية فانه يرى أن السياسة تزاحم هذا الفكر وتقيده ولا يستخدمه السياسيون الا بصورة جزئية وذلك لتحقيق مصالحهم الآنية .

والحقيقة أن الاستاذ ميغل ارنالدث ينطلق في موقفه هذا المتفهم للقضية العربية من قناعة طالما عبر عنها في كتبه ومقالاته الصحفية . ففي ١٩٥٦/١١/٩ وأثناء العدوان الثلاثي على مصر نشرت له جريدة « غاثيتا رجيونال » الصادرة في مدينة سلمنقة مقالا يوضح فيه نازية « اسرائيل » وانها تعمل على تفكيك الوحدة الطبيعية للأرض والأمة العربية وأن وجودها يخلق أزمة دائمة في الوطن العربي ، وفي أول اكتوبر سنة ١٩٧٠ أكد في جريدة « التقدم » الصادرة في سلمنقة أيضا على أن وجود اسرائيل في الوطن العربي شبيه بوجود الخلايا السرطانية في الجسم الانساني .

وفي ١٩٧٩/١٠/١٦ أكد في مقال نشرته جريدة « الباء » المدريدية على حق الشعب الفلسطيني في تحقيق مصيره واسترداد حقوقه وانتقد بعض الأنظمة التي « اطلقت حتى الآن تسع عبارات نارية على الشعب الفلسطيني مقابل عيار واحد أطلقته ضد اسرائيل » . ■■

مدريد ـ د . محمد عبد الله الجعيدي

حوار

● كتب رجل الى أبي العتاهية فقال :

يا أبا اسحق اني	واثق منك بودك
فأعني بأبي انـ	ـت على عيبي برشدك

فاجابه ابو العتاهية :

اطع الله بجهدك	راغبا أو دون جهدك
اعط مولاك الذى تطـ	ـلب من طاعة عبدك

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها إلينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٨٠ » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول مايو (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) افقيا اسم فقيه ومؤرخ ومحدث عربي . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فقيه مصري من القرن العاشر .

كلمات أفقية :

١ ـ أقصى حدود العمران في جنوب العالم ـ فراشة .

٢ ـ قرصان انجليزي شهير ـ من الحواس ـ كشف .

٣ ـ في البيضة ـ فنان تشكيلي مصري معاصر ـ سكن .

٤ ـ عمر ـ نهر أفريقي .

٥ ـ تبتغيها ـ فترة .

٦ ـ يسبي ـ قر ـ من الزهور العطرية .

٧ ـ قدم ـ في الفم ـ مقام موسيقى ـ حيوان .

٨ ـ فقيه ومؤرخ ومحدث عربي .

٩ ـ لم تتزوج ـ من سور القرآن الكريم ـ حرف أبجدي .

١٠ ـ طراز ـ تجمعات سكانية ـ فكا ـ أسكن .

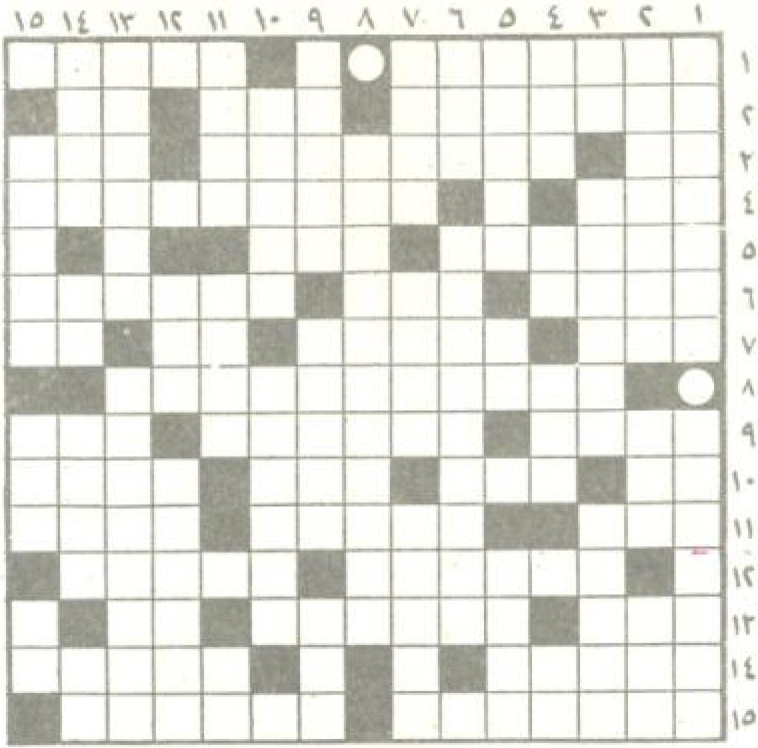
١١ ـ يكشف ـ يقارب ـ عاتبت .

١٢ ـ ولاية أمريكية ـ يقاسي .

١٣ ـ لعل ـ الامطار الغزيرة ـ عاشق .

١٤ ـ من الفاكهة ـ عقيدة سماوية .

١٥ ـ أوبرا لموزار ـ الموجز .



كلمات رأسية :

١ ـ دولة أوربية ـ من رواد المسرح العربي .

٢ ـ من سور القرآن الكريم ـ للاستفهام ـ تجدها في كلمة (سوربون) .

٣ ـ مقام موسيقي ـ كاتب اغريقي ساخر ـ مدينة ألمانية اشتهرت بصناعة البورسلين .

٤ ـ كلام خفيض ـ فات ـ بت ـ غير ناضج .

٥ ـ نائبه ـ من الاقارب ـ تجدها في كلمة (هواية) .

٦ ـ مناطق زراعية ـ عالم بصريات عربي ومؤلف مسرحيات خيال الظل .

٧ ـ آثار جروح ـ عملة عربية ـ شهر شمسي .

٨ ـ فقيه مصري من القرن العاشر .

٩ ـ يستخدم في العاب التسلية ـ فقدان فرصة العمل ـ رغبا .

١٠ ـ من أماكن الترفيه ـ من دول أمريكا اللاتينية .

١١ ـ ينسكب ـ العبودية ـ يجري في الشرايين .

١٢ ـ قاد ـ من أوقات النهار .

١٣ ـ اندحار ـ موسيقار عالمي شهير ، اشتهر بموسيقاه الدينية .

١٤ ـ قصدا ـ في الذراع ـ أجرح ـ منطوق حرفي .

١٥ ـ من الفاكهة ـ وحدة قياس كهرباء ـ لفظة ألم .

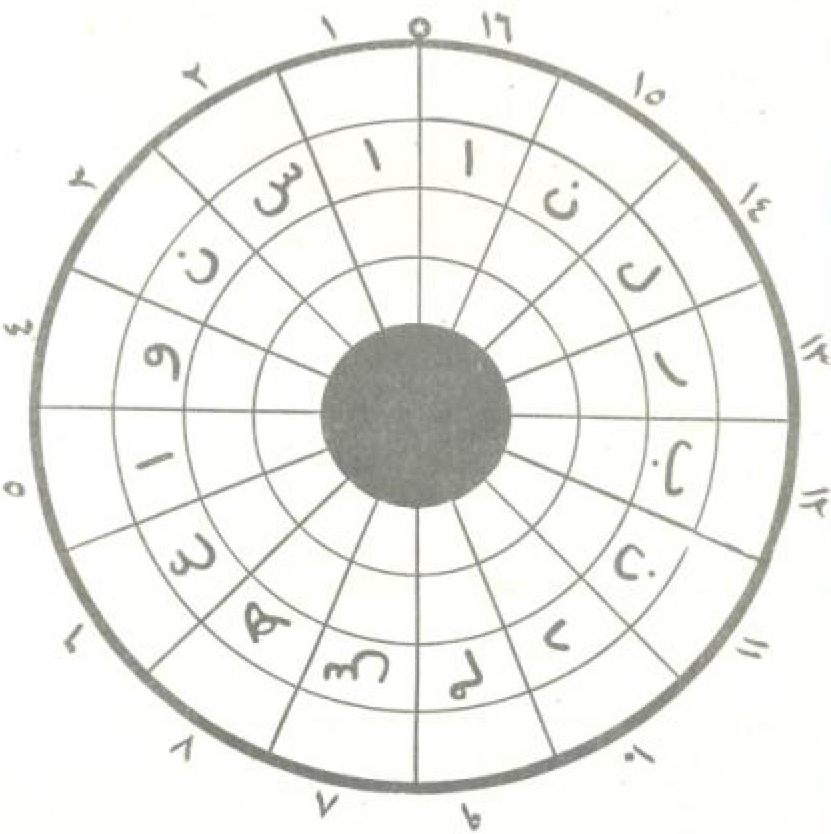
كوبون مسابقة

حول الدائرة السوداء

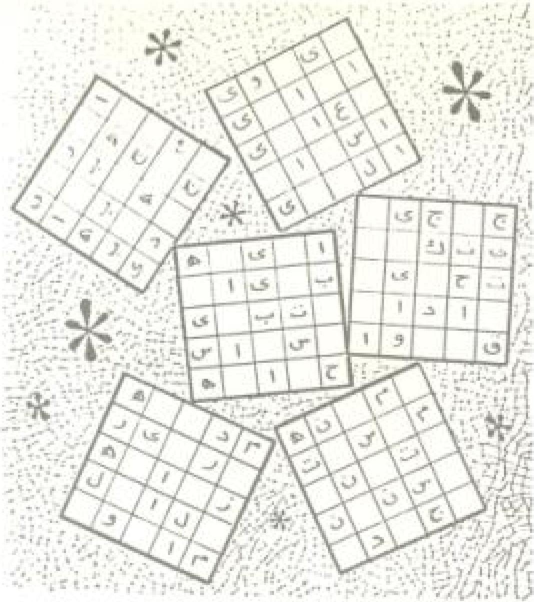
ضع الكلمات ذات الاحرف الاربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

جغرافي عربي وضع كتاب « تقويم البلدان »

١ ـ مدينة فلسطينية ـ ٢ ـ أطيل ـ ٣ ـ يسلم ـ ٤ ـ قران ـ ٥ ـ عتيق ـ ٦ ـ قاصي ـ ٧ ـ أدركا ـ ٨ ـ أعوم ـ ٩ ـ قبيح ـ ١٠ ـ صائب ـ ١١ ـ كسبا ـ ١٢ ـ طريق ـ ١٣ ـ في الصحراء ـ ١٤ ـ شحيح ـ ١٥ ـ طقس ـ ١٦ ـ مرتفع .

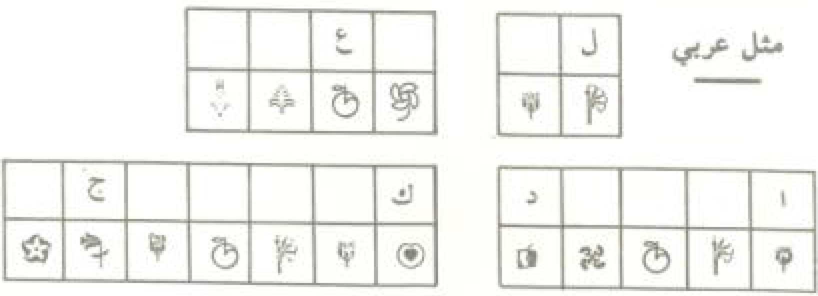


العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها .

هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يشير الى :

الوصول الى المعرفة عن طريق التجربة و الاختبار

الحلول ١

حول الدائرة السوداء :

أبو زيد أحمد البلخي .

العواصم :

رانجون .

مثل عربي :

لا يعرف العود كالعاجم .

ما هو الشيء المشترك بين هؤلاء الأشخاص؟



بنك الكويت الوطني طبعاً.

لكل منهم إحتياجات مالية ومصرفية مختلفة، لهذا فهم يتعاملون مع بنك الكويت الوطني.

الجميع، من أطباء، ومدراء شركات ورجال أعمال وحتى الأطفال، كلهم يجدون لدى بنك الكويت الوطني خدمات شاملة تناسب كافة المتطلبات والأعمار.

حسابات إدخار، حسابات جارية، حسابات أمانات، قروض شخصية، حسابات إيداع، شيكات سياحية وشهادات إدخار، جميع فروع بنك الكويت الوطني تقدم شيئاً مشتركاً، الخدمة التي تحتاجها.

لكافة احتياجاتكم المالية، اتصلوا بأي فرع من فروعنا الأربعين المنتشرة في كافة أنحاء الكويت.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك.

شارع عبد الله السالم - ص. ب ٩٥ صفاة، الكويت - تلفون: ٢٤٢٢٠١١ (٢٠ خطاً) - برقياً: ناشيونال - تلكس: ٢٢٤٥١

Are You Ashamed Of YOUR English?



— expert tuition for Pitmans, LCC or RSA Exams could be your answer!

A GOOD COMMAND OF ENGLISH can bring you success! It can improve your chances of promotion — increase your earning power — get you a better job, and enhance your social life. You can learn it quickly and easily.

To help you be successful, we offer you a unique, easy to understand, home-study training for a Diploma in Business English. You are also prepared for Pitmans, LCCI and RSA exams.

Your training teaches you English — both written and spoken — and how to use it in your job. English grammar is made simple. You learn how to increase your vocabulary. You are shown how to construct sentences, how to write business letters, office memoranda, minutes of meetings, reports and lots more. You also learn how to speak English clearly and distinctly with the help of cassette tapes. You thus get a really practical and thorough training in Business English.

If you work in business, commerce, administration, an office of any kind — or use English in any way in your life — the Business English Course is the training for you. It has been specially developed by leading businessmen and teachers to help you be more successful.

In fact, we are so confident that you will be completely satisfied with it, we let you have the first parts on trial. If you don't like them, send them back and your fees are returned without question.

Your Business English training will take you about 6-8 months to complete. It is conducted entirely in English, and has been specially written for people whose mother tongue is not English. If you understand this advertisement, you will also understand the prospectus, giving fuller details — which is sent FREE on request. Don't miss your chance! Write NOW for your copy, including checkable proof of big success by ordinary men and women. Send your name and address in BLOCK CAPITALS to Business Training Ltd., Dept. AAB182, Sevendale House, 7 Dale Street, Manchester M1 1JB, England.

'Accredited by the Council for the Accreditation of Correspondence Colleges'.

Advanced Business English training is available for people whose standard of English is up to GCE "O" level or equivalent. Please ask for separate details.

BUSINESS TRAINING LIMITED
Dept. AAB182,
Sevendale House,
7 Dale Street,
Manchester,
M1 1JB,
England.

Please send me free details by air of your specialist home-study course in Business English and how I can qualify for my Business Training Diploma.

NAME AND ADDRESS IN BLOCK CAPITALS PLEASE

Surname ....

Other names ....

Address ....

....

من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية

تصدرها فى مطلع كل شهر

وزارة الإعلام فى الكويت



أول مارس ١٩٨٢

١٥٠

نقيب كوبينيك

تأليف : كارل تسوكماير

ترجمة وتقديم : د. عبد السلام اسماعيل

مراجعة : د. مصطفى ماهر

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مارس - آذار
١٩٨٢ م

السينما
في الوطن العربي

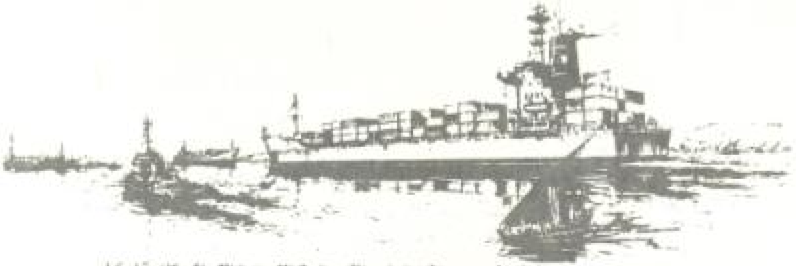
تأليف :
جان الكسان

٢٥٠ فلساً

الكتاب الواحد والخمسون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

أكبر عقد في تاريخ بناء السفن قيمته ٤٠٠ مليون دولار



رسم تصويري لاحدى سفن الحاويات الجديدة التي تم التعاقد على بنائها

تم في ٣٠/٦/١٩٨١ توقيع عقد بين شركة الملاحة العربية المتحدة (ش . م . ع) وشركة هايو نداي لبناء السفن بقيمة ٤٠٠ مليون دولار ، وستقوم هايو نداي بمقتضى هذا العقد ببناء تسع سفن حاويات حمولة كل منها ٣٥ ألف طن ساكن (١٨٤٦ حاوية) بالاضافة الى تصنيع ١٤ ألف حاوية .

المواصفات الفنية

الطول الكلي : ٢١٢,٠٠ متر

العرض : ٣٢,٢٠ متر

العمق : ١٨,٦٠ متر

الغاطس حسب التصميم : ١٠,٥٠ متر

السرعة : ١٨ عقدة

استيعاب الحاويات : ١٨٤٦ حاوية نمطية تتضمن ١٥٠ حاوية مثلجة .

المحرك الرئيسي : بقوة ١٨,٤٠٠ حصان انجليزي بمعدل ١٠٦ دورة في الدقيقة كحد أعلى ، و ١٦,٧٠٠ حصان بريطاني بمعدل ١٠٣ دورة في الدقيقة (في الحدود العادية) .

التصنيف : لويدز ١٠٠أ١ ـ باخرة حاويات

يبدأ توريد هذه السفن جميعها في عام ١٩٨٣ .

وسيبدأ استلام هذه السفن والحاويات في أوائل عام ١٩٨٣ . وقد فازت هايو نداي بهذا العقد لأنها قدمت أفضل العروض بالاضافة الى المرونة التي أبدتها الشركة حول مواعيد التسليم حسب مواصفات شركة الملاحة العربية المتحدة .

شركة هايو نداي

نشاطاتها :

تجارة دولية ، بناء السفن ، سيارات ، هندسة كهربائية وميكانيكية ، مقاولات عامة وشحن خدمات اصلاح السفن ، معدات صناعية ، تسهيلات بحرية ، آليات عربات سكك حديدية ، معدات كهربائية ، معادن كيماويات .

المقر الرئيسي :

485-1, Shinsa - Dong, Kangnamku, Seoul, Korea.
Tel:562- 4141/ 4170, kpo box.672, Cpo box 8943
TLX. K24119 HDSNGSA, K23175-7
K23101. HDCORP.

مكاتب ما وراء البحار في الشرق الأوسط :

الكويت : TEL: 611881, 637812, 616775 TLX: 22794, HYDKWT.

الرياض : TEL: 478-3743, 478-9694, TLX: 20097 HYDRYD

الدمام : TEL: 83-22750 .TLX: 601207 OTASHN.

جدة : TEL: 894275 TLX: 400040 HYDJED.

أبوظبي : TEL: 8250536, 820928, TLX: 23381 HYUNDAI.

بغداد : TEL: 93182 TLX: 2595 HDBAC:

البحرين : TEL: 671011, 671015, TLX: 8518 HYDBAH .

قطر (الدوحة) : TEL: 25032, TLX: 4039 HYDQAT .

مجموعة هايونداي

شركة الملاحة العربية المتحدة (ش.م.ع)

رولكس "آرنولد پالمر"
دائماً تدور ستين



في نادي غولف « بيركدايل » الملكي لوحة تحيي ذكرى أشهر ضربات اللاعب « آرنولد پالمر ».

حدث ذلك أثناء المباراة التي أقيمت عام ١٩٦١ في بريطانيا للاعبين المؤهلين فنياً لدخول المباراة.

عندما انتهت رمية « پالمر » الخامسة عشرة - وكان « داي ريش » الويلزي يتحدّثه ويحفّزه - بأن استقرت الكرة تحت شجيرة خفيضة.

وما أن أمسك « پالمر » بالمضرب "رقم ٥"، حتى أدركت جمهور النظارة أنه يحاول قذف الكرة الى المرج الأخضر على بُعد ١٥٠ ياردة.

وفيما بعد، قال « پالمر » أنه لم يسبق له أن ضرب الكرة بهذه القوة، حيث انه قطع الشجيرة بضربته وفصلها عن الأرض وانطلقت الكرة بعيداً نحو الهدف.

ضربات جريئة كهذه هي التي اكتسبت « آرنولد پالمر » المقام الرفيع وجميع ألقاب البطولة في هذه اللعبة. والساعة التي يتقلدها شبيهة به من حيث القوة والدقة والشهرة.

إنها « رولكس داي - ديت » التي اكتسبت هي أيضاً أرفع مقام مُستطاع ونالت لقب « الكرونومتر السويسري » الذي يصبو اليه كثيرون.

الواقع، وعلى الرغم من أن إنتاجها لا يُشكل سوى جزء ضئيل من الإنتاج الإجمالي للساعات السويسرية، فقد حصلت رولكس على ما يقرب من نصف الشهادات التي مُنحت في أي وقت مضى لصانعي الساعات الكرونومتر.

عندما يقذف « پالمر » الكرة بمضربه تنطلق بسرعة ١٥٠ ميلاً في الساعة. ويساوي وزن قوة الصدمة الدافعة القصوى ما يزيد على الطن.

ومع ذلك، يستطيع « پالمر »، بضربة فنية دقيقة، أن يُدخل الكرة في الحفرة ويُحرز معها قصب السبق.

هذا الجمع بين القوة الخارقة والدقة البالغة هو الذي جعل من « آرنولد پالمر » أشهر لاعب عرفته مضمار الغولف.

إحساس كهذا ليس غريباً عنا.

ROLEX
رولكس



ساعة رولكس « داي-ديت » كرونومتر مصنوعة من ذهب عيار ١٨ قيراطاً، مع سوار متلائم

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبدالله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل أعدادها الى أيدي نحو ٠٠٠ر١٢٥ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .
الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) ، ١٩٧٩ .
٢ - كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) ، ١٩٧٩ .
٣ - كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) ، ١٩٧٩ .
٤ - كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥ - دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -
الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ ، ١٩٧٩ .

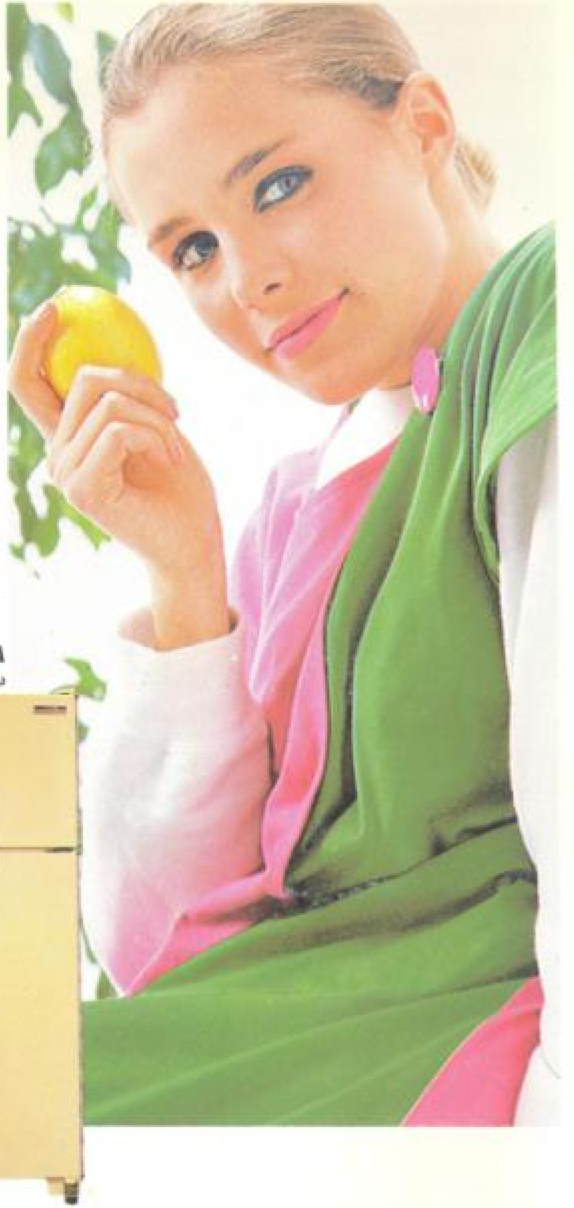
العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

انا أحبّ الأفكار المبتكرة التي تضفيها توشيبا على عالم الثلاجات

تكنولوجيا توشيبا أضافت أفكارًا مبتكرة ورائعة على الثلاجات ، منها ما يسمّى « التبريد المباشر » « Direct Cool » بحيث تقوم وحدات التبريد بدفع الهواء البارد مباشرة داخل الثلاجة وحجرة التجليد ، ممّا يؤمن تبريدًا سريعًا وأكثر فاعلية . بالإضافة ، تتمتع الثلاجتان الظاهرتان أدناه بقفل يدوي مما يؤمّن راحة البال . كما وأن ثلاجة « GR-1002EWG » تنفرد بوجود موزّع خاص بها للماء البارد ، ممّا يجعل منها ثلاجة لا تقدّر بثمن في أيام القيظ والحرّ . فاذا كنتم تبحثون عن ثلاجة ، لا غنى لكم عن توشيبا ، التي تقدّم لكم الأفكار المبتكرة لحفظ أطعمتكم طازجة .

توشيبا



GR-1002EWG
ثلاجة

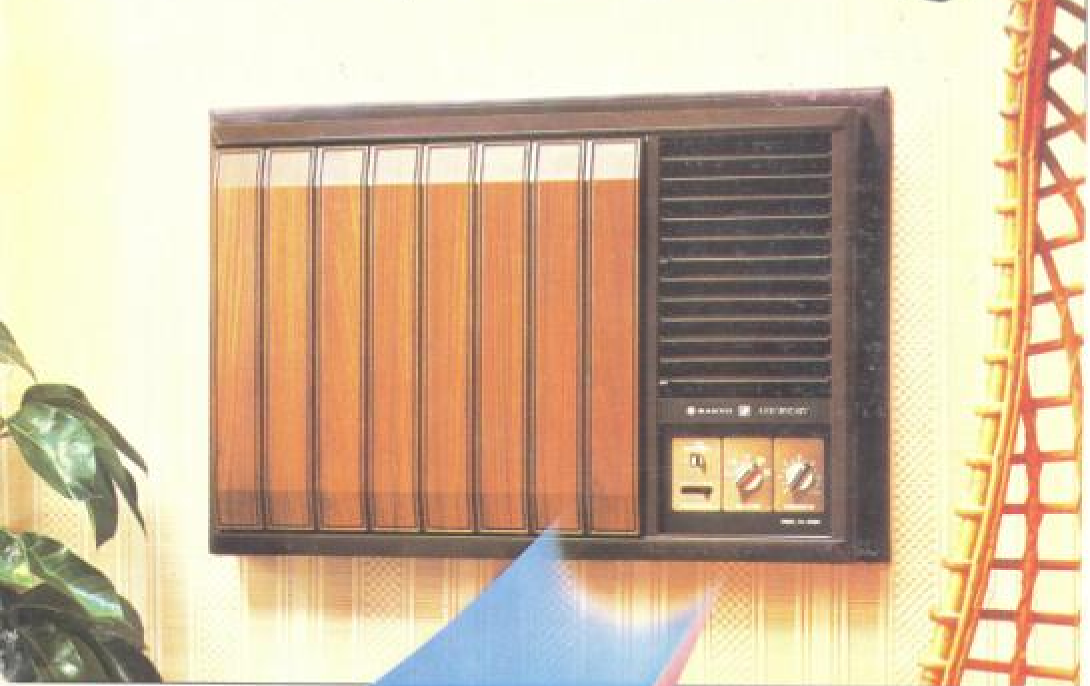
GR-1002EA
ثلاجة



TOSHIBA | توشيبا

TOKYO, JAPAN

راحة مضاعفة



SA 185BE

COOL

HOT

جهاز واحد من سانيو للتبريد والتدفئة المريحة طوال العام.

لاحاجة بك إلى مضاعفة معدات التحكم الحراري في منزلك لمضاعفة راحتك. إن جهازاً واحداً من سانيو يوفر لك البرودة صيفاً والدفء شتاءً. كما أن الضاغط الرحوي من سانيو يوفر التبريد والحرارة الكافية إلى جانب خفض الإهتزازات واستهلاك الطاقة وهكذا تتنعم بتكييف الهواء طوال العام بأكثر من مجرد مضاعفة راحتك.



تتوفر تشكيلة واسعة من مكيفات هواء سانيو الرحوية في طاقة تتراوح من ٦٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ بي تي يو/ساعة لمضاعفة راحتك فعلاً في جميع الغرف.

SANYO سانيو



هذه هي الحياة

العربي

جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ
ابريل (نيسان) ١٩٨٢

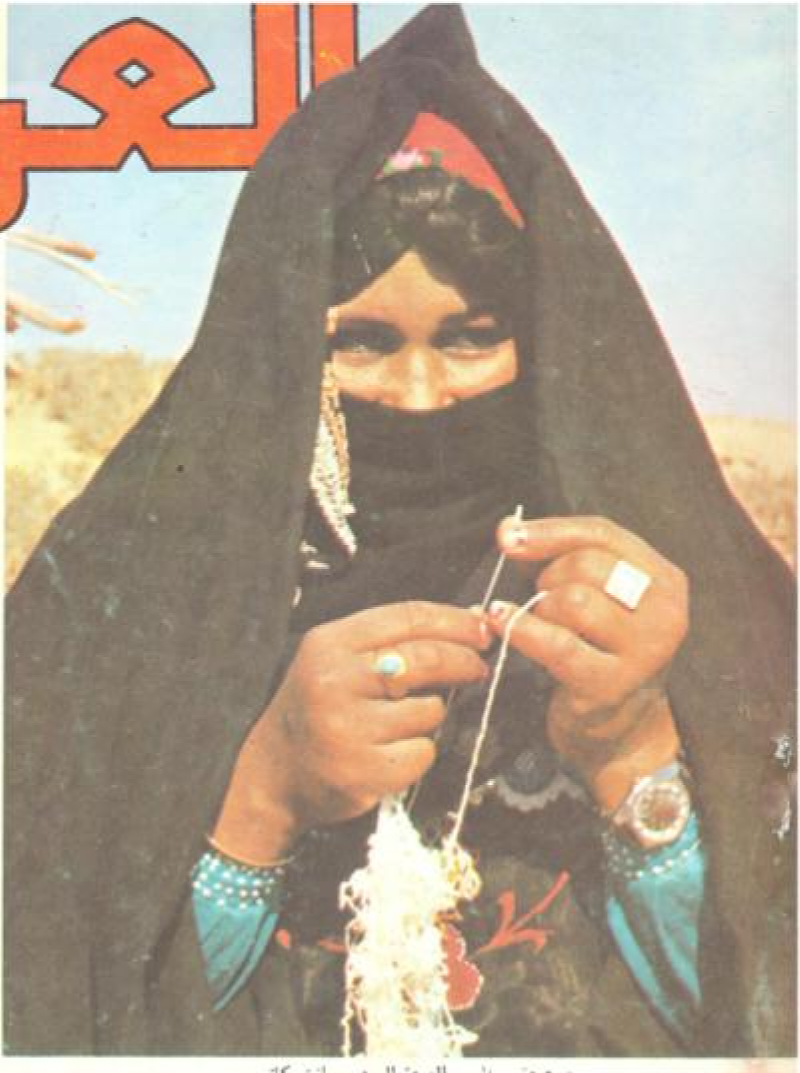
دير سانت كاترين رحلة في سيناء

●

تقلبات السياسة وتقلبات الطقس

●

المماليك .. رواد النهضة الثانية



مع عودة سيناء .. العودة الى دير سانت كاترين




المجموعة الذهبية
GOLDEN SERIES MK II
26"
CTP 8470G
الرفاهيّة الذهبيّة تأتيكم
بمزيد من الفخامة المثيرة
تفخر سانيو بتقديم الرفاهية الذهبية للمشاهدين ضمن مجموعتها الذهبية من التلفزيونات ذات الألوان المتألقة مع المميزات العديدة المختومة باللمسات الذهبية سواء كانت هذه التلفزيونات تعمل أم لا. والآن تقدم سانيو تشكيلة التلفزيونات الملونة مارك ٢ بنفس المميزات المعهودة تألقها إضافة الى مدى أرحب لمستويات الطاقة (٩٠ - ٢٨٠ فولت) ومختومة بلمسات نهائية أكثر تألقاً وبذلك تقدم سانيو الرفاهية الذهبية مع التشكيلة الذهبية لتلفزيونات مارك ٢ الملونة والتي تأتيكم بمزيد من الفخامة المثيرة.
(تعتبر الصورة العليا للتلفزيونات الملونة CTP 8470G قياس ٢٦ بوصة بالنظام الرباعي وبالتحكم عن بعد والذكي بمبرمجة التشكيلة من تلفزيونات مارك ٢)
CTP 6457G
٢٠ بوصة
بال/سيكام.
CTP 6468G
٢٠ بوصة، ٤ أنظمة
CTP 3452G
بوصة
بال/سيكام.
SANYO
سانيو

عزيزي القارئ

تنعقد في عمان هذا الشهر اجتماعات المؤتمر السنوي الاول للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية ، في محاولة جديدة لدفع المسيرة المتعثرة لحلقات تلك البحوث ، التي طالما نادى الكثيرون باستكمالها وتذليل الصعوبات التي تواجهها .

ويعنينا في جدول اعمال المجمع الناشيء امران من الاهمية بمكان ، هما موسوعة الحضارة الاسلامية ، والفهرس الشامل للذات العربي الاسلامي المخطوط . ذلك ان العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه ، لم تتوفر له الى الآن موسوعة تعرف بالحضارة الاسلامية ، مكتوبة بايدي ابناء تلك الحضارة . كل الذي عرفناه هو ترجمات منقولة من هنا وهناك ، لا تخلو من جدية في البحث ، ولكنها لا تخلو ايضا من الهوى والغرض ، وحتى هذه الترجمات فانها في المكتبة العربية لا تزال ناقصة لم تكتمل ...

وتظل تلك الموسوعة حلما عربيا واسلاميا واملا ينادي به ابناء هذه الامة ، الامر الذي يدعونا الى ان نحيي اي بادرة تسعى لتحويل الحلم الى حقيقة ، وان كنا على يقين من ان هذا العمل الكبير يحتاج الى حشد ضخم لمختلف العقول والخبرات العربية ، وقد يحتاج الى اسهام مختلف المنظمات الثقافية في العالم الاسلامي ، فضلا عن حاجته الى تنسيق يتيح للجميع ان يشاركوا فيه ، ويتجنب التكرار مع جهود اخرى هنا وهناك .

وبالمثل ، فانه من المستغرب ان يظل التراث العربي المخطوط بغير ترتيب او فهرسة الى الآن ، الامر الذي يكرس الجهل بذلك التراث ، ويضيع على الباحثين فرصة ثمينة في الاطلاع على ذخائره نتيجة لذلك الوضع الشاذ

ان قضية فهرسة التراث العربي ، خطوة اساسية تسبق اي جهد ضروري لتحقيق ذلك التراث والانتقاء منه .. وذلك ايضا عبء يفوق طاقة فريق محدود من الباحثين ، ويستوجب توسيع نطاق المساهمة الى اقصى حدود ممكنة ، لتتحقق الرسالة على النحو المرجو .

اذا لانحيي المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية فقط ، ولكننا نشفق عليه ايضا من جسامة المسئولية التي تصدى لها طوعا واختيارا .!

المحرر



صورة الغلاف

○ الصورتان من سيناء ، التي تشد اليها كل الابصار هذا الشهر ، والاستطلاع عن دير سانت كاترين الذي يمثل علامة بارزة في وجه شبه الجزيرة ، بوجوده وبكل ما يرمز اليه .. [انظر الاستطلاع ص ١٠٠]

قضايا عامة

عروبة واسلام

طب وعلوم

أدب وفنون

تربية وعلم نفس

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : احمد بهاء الدين
مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريالات ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليم ، السودان ١٥٠ مليم ، المغرب ٣ دراهم ، تونس ٣٥٠ مليم ، الجزائر ٣ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريالات ، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم ، اليمن الشمالي ٣ ريالات ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلس ، ليبيا ٢٥٠ درهم .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات
المراسلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٣٧١٤١
تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :
قسم الاشتراكات
المكتب الفني ـ وزارة الاعلام
ص . ب (١٩٣) ـ دولة الكويت
على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام ، طبقا لما يلي :

فلس دينار
ـ الكويت والبلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)
ـ بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL-ARABI.No. 281,APRIL,1982.
P.O.Box 748,KUWAIT.



المعلومات فى الوطن العربى

الأزمة .. والبدعة .. والرسالة !

بقلم الدكتور : أسامة أمين الخولي

يبدو لي وكأن الحديث في مسألة المعلومات قد أصبح اليوم في وطننا العربي « بدعة » يسير وراءها الناس دون موضوعية أو عمق في الرؤية ، وإنما باعتبارها مظهرا من مظاهر المعاصرة ومجاراة الذوق السائد . ويجري الحديث في مناسبات كثيرة وسياقات متنوعة عن مراكز المعلومات ونظمها و « بنوكها » كتأكيد على أن المتحدث يساير الزمن ويواكب تيار التقدم .

ولقد سارعت هيئات ومؤسسات عدة في بلادنا فأنشأت مراكز و « بنوك » المعلومات وجرت في هذا - كعادتنا في التطوير التكنولوجي - الى اقتناء المعدات الحديثة من أجهزة التصوير الدقيق ثم الحسابات ، وجعلت من القاعات الأنيقة المظهر ، المكيفة الهواء التي تؤدي هذه الأجهزة الخلابة « مزارات » تحرص المؤسسات على أن يتفقدها الضيوف فيمرون بها مرا سريعا ليشاهدوا تجربة عملية ، سبق اعدادها والتدرب عليها أكثر من مرة ، لاستخراج بيانات أو معلومات أو مخططات بصورة مرضية وجذابة في ثوان معدودات .

وأذكر هنا أنني دخلت أحد المستشفيات فوجدت « الحاسب النظامي » قابعا وراء الباب الرئيسي مباشرة في غرفته الزجاجية تومض أضواؤه الملونة وتدور أشرطته الممغنطة وتخرج من طابعته الأمتار من الأسطر والأرقام وتتراءى على شاشته كتابات ورسومات . وكأن هذا هو آخر ما وصلت اليه علوم الطب أو كأن منظر الحاسبة كفيل

أحمد بهاء الدين
يعتذر عن كتابة مقاله
« حديث الشهر »
ويواصل الكتابة في العدد
القادم باذن الله

بأن يبعث في نفس المريض وذويه الاطمئنان الى كفاءة المستشفى في برء المرضى .

وكنت كلما دلفت الى واحدة من هذه « المزارات » أتساءل عن حجم المعلومات الكامنة في أحشائها ، وعن قيمتها الحقيقية لأصحاب البيت ، وعن عدد المستفيدين منها ، وعن طرق تحديث المعلومات ، وعن معدلات هذا التحديث ، وعن كلفة هذا كله ، ثم أخيرا ، عن جدواه وأثره في تيسير العمل ورفع كفاءته وترشيد ادارته .

ويسوقنا هذا التأمل الى مسألة أخرى تطرقت لها في حديث سابق عن التنمية التكنولوجية في بلادنا ، وهي مسألة ذلك الفيض الغامر من « المعلومات » الذي ينهمر علينا من عالم « المتقدمين » بأقل التكاليف - بل وأحيانا بلا مقابل - والذي لا يكاد أحدنا أن يملك منه فرارا أينما حل ، فهو يلاحقه في الصحف والراديو والتلفزيون والدوريات والنشرات الاعلامية ، ويشكل هذا الطوفان الكاسح فكرنا ونظرتنا الى الأشياء والأحداث ، ويغرس في وعينا قيما وأنماطا للحياة تمليها المصالح المباشرة لأصحاب هذه المعلومات وناشريها . ولقد دعا هذا الأمر دول « العالم الثالث » للمناداة باقامة « نظام اعلامي دولي جديد » ، تأكيدا لحقنا في حماية أنفسنا من هذا السيل الذي يصيب كيان مجتمعاتنا في الأساس . واندفعت منظمة « اليونسكو » - في تهور محمود - للعمل على صياغة ملامح مثل هذا النظام ، فقامت قائمة الدول الغربية واتهمتنا بخنق الحريات وتكميم وسائل الاعلام . وكادت العواصف التي هبت أن تطيح بالمنظمة الدولية ، فاضطرت - واضطررنا معها - الى التراجع عن موقفها « الراديكالي » . ولم تهدأ الزوبعة الا عندما اطمأن السادة الى أنه لن يحدث تغيير ذو قيمة في واقع الحال الراهن . ولن أخوض في هذا الأمر هنا ، بل أتركه لمن هو أكثر مني اتصالا بخباياه من رجال الاعلام ووسائل الاتصال الجماهيري ، مكتفيا بالتنويه بعلاقته بما نتعرض له هنا .

انفجار أم تراكم ؟

تستحق هذه الظواهر المحلية والدولية نظرة تأمل ومراجعة نتعرف بها على كنه المعلومات وعلى بعض السمات المميزة لها ، وربما لكي نكشف عن موقف مجتمعاتنا منها ، لأنه لا يخلو - فيما أرى - من تناقضات هامة . ولنبدأ أولا بما درجنا على ذكره في أكثر من مناسبة من أننا نعيش مرحلة « انفجار » المعلومات التي تتزايد الآن بمعدلات فلكية . ولقد جاء في عدد آخر من « العربي » ان السنوات الخمس القادمة ستشهد مضاعفة كل كمية المعلومات التي بين يدي الانسان اليوم ، بمعنى أن ما سيستجد من المعلومات خلال هذه السنوات الخمس سيساوي كل ما حصل عليه الانسان من معلومات منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا . وقد يكون هذا صحيحا في جوهره ، وان زاد البعض عدد السنين من خمس الى عشر أو أكثر قليلا ، وانما الواقع الذي يستحق أن نذكر به هو أنه ليس ثمة (انفجار) ، فلم يحدث تغير مفاجىء في حجم المعلومات ، يفصل بين ماض كانت فيه المعلومات قليلة ، وبين حاضر زادت فيه المعلومات فجأة .

وما يقال اليوم كان صحيحا منذ مئات السنين ، وسيظل صحيحا ما لم يطرأ (انفجار) حقيقي يغير الوضع الراهن . وحقيقة الأمر هي أن المعلومات ، شأنها في هذا شأن ظواهر اجتماعية وبيولوجية كثيرة ومعروفة ، ظلت تنمو بمعدلات مركبة ثابتة لعدة قرون خلت . ولعل أقرب تمثيل لهذا هو « الفائدة المركبة » التي كنا نتعلم تقديرها في دروس الحساب في المدرسة . فالزيادة كل عام تمثل نسبة ثابتة من رصيد أول العام . ومن ثم ، فان مضاعفة رأس المال (أو حجم المعلومات) كل عشرة أعوام مثلا تعني زيادة سنوية لا تتجاوز ٧٪ في العام الواحد . ومن الطريف أن نسترجع هنا شكوى صدرت في مطلع القرن

السابع عشر ـ أي منذ أكثر من ثلاثة قرون ونصف من الزمان ـ عن كاتب انجليزي جاء فيها : (ان أحد أمراض هذا العصر هو تضاعف عدد الكتب . ان المرء ليعجز عن هضم هذا القدر الغزير من المادة التافهة التي تخرج علينا كل يوم في هذا العالم) (بارنابي ريتش عام ١٦١٣) !!

ومن المعروف لدى البيولوجيين وعلماء الاجتماع ان الظواهر التراكمية لا يمكن أن تستمر الى الأبد في تزايدها . وهناك شواهد كثيرة على أن معدلات التراكم تتباطأ ثم تبدأ في التقهقر حتى يتحقق نوع من التوازن تحكمه الامكانات والطاقات المتاحة . ويختل هذا التوازن عند ظهور عامل جديد يتيح فرصا تكمن معروفة قبلا لعودة ظاهرة التراكم المركب مرة أخرى حتى يتحقق التشبع والتوازن ثانية ، وهلم جرا . ولقد شهدت دنيا المعلومات هذه الظاهرة أكثر من مرة في التاريخ الحديث . فعندما زاد عدد الكتب والدوريات ظهرت المستخلصات ، وعندما تجاوز عدد المستخلصات في دنيا العلوم الطبيعية وحدها الثلاثمائة ، جاءنا الحاسب الالكتروني ليقوم بالوظائف الببليوجرافية للمستخلصات نفسها . الا أن ظهور المستخلصات ومستخلصات المستخلصات لم يوقف ظهور الكتب أو الدوريات التي استمر عددها في التزايد .

أنواع المعلومات

الأمر الثاني الذي يستحق التنويه هو أهمية التفرقة بين أنواع متباينة من المعلومات ، لكل منها خواصه واحتياجاته في المعالجة والتداول . واستبعد هنا الوثائق الأصلية ذات القيمة التاريخية والتي تختص بها دور الوثائق والمخطوطات وانتقل بنوع من مصادر المعلومات لا يتقادم مع الزمن ولا نستغني عنه هو كتب التراث وأمهات المؤلفات في العلوم التقليدية . ان اضافة جديدة في الفلسفة مثلا لا تعني تقادم كتب ارسطو أوابن سينا أو ديكارت . لا تصور مركزا للمعلومات في هذه الدراسات (نعرفه في تراثنا باسم خزانة الكتب ونسميه اليوم عادة المكتبة) يخلو من هذه المراجع . ان الاضافات الجديدة في هذه المجالات تقوم بالطبع على قاعدة من الاسهامات السابقة ، ولكنها لا تحل محلها . ومن المهم أن نذكر هنا انها لا ترتبط ارتباطا عضويا وثيقا بها ، فالعلاقات بين الاسهامات ، قديمها وحديثها ، علاقات فضفاضة مرنة ولا تشكل كيانا مرصوصا محكم الأوصال .

وهذا هو عكس الوضع في العلوم الطبيعية والحيوية . فبينما يكون الابداع العلمي هنا مرتكزا هو أيضا على اسهامات سابقة ، الا أن الترابط بين السابق واللاحق عضوي ووطيد ، بحيث ينجم عنه تقادم السابق وفقدانه قيمته كمعلومات . ويتم هذا التقادم اليوم في بعض المجالات بسرعات مذهلة بحيث لا تتجاوز فترة التقادم في الفروع سريعة التطور ثلاث سنوات فقط ، يصبح بعضها السابق غير ذي قيمة تبرر الاحتفاظ به بشكل يسمح باتاحته اذ أن أحدا لا يحتاج اليه بعدئذ ، فالانجازات السابقة إما أن تتخلل كيان المعارف العلمية هابطة الى قواعده لتصبح أصولا مسلما بها وجزءا أصيلا مما يعلم حتى في المدارس ، واما أن تنسخ فتنسى . وينعكس هذا على أجهزة المعلومات واتاحتها ولا تصبح (المكتبة) كما عرفناها الأسلوب الأمثل لتقديم خدمة المعلومات في هذه الظروف الجديدة التي تتقادم فيها المعلومات ولا تتداول فتصبح ذات قيمة تاريخية مشكوك فيها ، في الغالبية العظمى من الحالات .

أما اذا انتقلنا الى عالم التكنولوجيا ، فاننا نواجه موقفا جديدا آخر . ولقد ذكرنا فيما سبق أن التكنولوجيا مهارات ومعارف غايتها النهائية انتاج سلعة أو تقديم خدمة ذات قيمة اقتصادية ـ اجتماعية . وهنا لا يكون النشر والاعلام هدف صاحب هذه المعارف ، بل انه يلجأ الى شيء من هذا اثباتا لحقه في نصيب من عائد استغلال هذه المعارف ، بل اننا نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا ، ونقول ان مصلحته تتأتى عن طريق الكتمان الذي يحول بين المنافسين وبين الاستفادة منها بلا مقابل . وهكذا تصبح المعلومات التكنولوجية سلعة تباع وتشترى ، وهو ما سنتعرض له بشيء من التفصيل فيما بعد .

والطريقة التي تصاغ بها براءات الاختراع بحيث تسجل حق صاحبها بلا منازعة دون أن تفصح عن تفاصيل تسمح للغير بالتقليد ، مثال للبراعة في التوفيق بين احتياجات الاعلان اثباتا للحق والكتمان حرصا على المصلحة !

مورد ومصدر قوة

لقد أصبحنا ندرك اليوم ان المعلومات مورد مثل الموارد الطبيعية من الثروات المعدنية والأرض والمياه ، أو مثل الموارد البشرية . ولدينا شواهد كثيرة منذ القدم على أن هذا المورد يستغل لخدمة أهداف التنمية وليس في مجالات الأمن القومي أو السياسة الخارجية فقط ، ولكننا مع هذا قد لا نتوقف كثيرا عند الصفات الشاذة لهذا المورد والتي تميزه عن غيره من الموارد .

ان هذا المورد العجيب لا ينقص أو ينضب بانتقال جزء منه الى الغير . ثم انه مورد متجدد يتزايد كل يوم ، بل

ويتضاعف ـ كما رأينا ـ كل خمس سنوات أو أكثر . وهو بعد هذا كله قادر أيضا على أن يتيح لنا موارد جديدة لم تكن معروفة وعلى زيادة العائد من استغلال المعروف منها . فالمعلومات تحول المواد التي لم نكن نعرف لها قيمة الى موارد طبيعية جديدة عالية القيمة حقا . ونحن لم نعرف الا في مطلع هذا القرن ، ان « مادة البوكسيت » مادة خام تستخلص منها معدن الألومنيوم الذي عم استخدامه في كل مكان تقريبا . والمعلومات كشفت لنا عن قيمة مياه البحر كمصدر لمعدن المغنسيوم ابان الحرب العالمية الثانية وعن قيمة خام اليورانيوم في توليد الطاقة .

ويعني هذا ان المعلومات مصدر قوة أيضا لأي مجتمع يحسن استخدامها .

وهذه القوة تتجاوز مفهوم الاستخبارات في مواقف الصراع العسكري الى مجالات التكنولوجيا واستغلالها في مشروعات التنمية .

فاذا ما ركزنا على هذا الجانب الأخير واسترجعنا ما قلناه في أكثر من مناسبة من أن المعلومات التكنولوجية سلعة تتداول في السوق مقابل ثمن يؤديه ذلك الذي يريد أن يشارك صاحبها فيها ، فاننا حتى ونحن ننظر للمعلومات كسلعة ، نجدها ذات صفات غريبة لا نجدها في السلع الأخرى . فمن الممكن بيعها لأكثر من مشتر واحد في نفس الوقت دون أن ينتقص هذا من رصيد صاحبها أو أي من مشتريها . وهي سلعة لا تخضع تماما لأساليب التسويق المعروفة . فتقدير قيمتها بالنسبة للراغب في شرائها عملية تحمل في ثناياها تناقضا لا سبيل للتغلب عليه . فمن أجل أن يتحدد لها ثمن ، لا بد للمشتري من أن يتعرف على جوهرها . وهذا يعني بدوره الحصول على قدر منها على الأقل قبل اتمام الصفقة . وبمجرد الكشف عنها للمشتري يفقدها قدرا كبيرا من قيمتها بالنسبة له وبالتالي يؤدي الى تدهور قيمتها السوقية .

وأخيرا ، فانه مع تطور وسائل تكنولوجية حديثة لاقتناص المعلومات وعلى الرغم من الأساليب المناوئة وطرق التمويه والاخفاء ، فما زالت الشواهد تشير الى أن حجب المعلومات كلية عن الراغبين في اقتنائها يكاد أن يكون أمرا مستحيلا اليوم . وهذا يزيد من تدهور قيمة المعلومات مع مرور الزمن ويدعو الى الاسراع في بيعها .

وعلى هامش هذا ، نشير الى أن صعوبة اخفاء المعلومات الآن قد دفعت القوتين العظميين الى التسليم بشرعية جمع المعلومات عن نشاطات الطرف الآخر في اتفاقيات الحد من التسلح النووي مثلا) . كل هذا يعني ان ميكانيزمات السوق التقليدية في مجتمعات الاقتصاد الحر لا تصلح لسوق المعلومات وذلك لصعوبة تحقيق مبدأ « المنافسة الشريفة » في التعامل في هذه السلعة الغريبة .

المعلومات ليست المعارف

ان كل هذه الصفات الشاذة للمعلومات تنشأ عن التسليم بأن لها قيمة . وهذه المسلمة تحتاج بدورها الى وقفة تأمل في واقع بلادنا اليوم . ان مجرد وجود المعلومات ليس كافيا لتحقيق الاستفادة منها . والمعلومات بصورتها الفجة التي تخرج بها عادة ليست سوى المادة الخام التي تصنع منها العقول ـ معارف ـ ذات قيمة . ولنا في تجاربنا أمثلة كثيرة لتكنولوجيات حصلنا على حق استغلالها وفشلنا في تحقيق المردود المتوقع من حيازتها . وأنا شخصيا أشك كثيرا فيما اذا كانت مشكلتنا هي أساسا نقص المعلومات ،



بقدر ما هي القدرة على استغلال المعلومات وتحويلها الى « معارف » .

وتحويل المعلومات الى معارف يعني ببساطة الجمع بين أكثر من معلومة في انتقاء واع . والنظر في هذا الحشد من المعلومات المنتقاة بعين ثاقبة تستخلص منها معلومات جديدة تماما (أي معارف) ليست موجودة في أي من المعلومات الأولية الفجة .

ان هذا التفاعل الكيماوي الخلاق بين المعلومات أمر مألوف لنا تماما في مغامرات أجهزة الاستخبارات بل هو محور القصص البوليسية . والاستخبارات العلمية ـ التكنولوجية حافلة بالأحداث المثيرة التي لا تقل في غرابتها وتشويقها عن مغامرات أبطال قصص اجاثا كريستي وسيمونيه . وفيها أمثلة مدهشة لاستخلاص المعارف من المقارنة المدققة للمعلومات سواء أكانت بيانات أم صور منشورة ، أو من تحليل أجزاء ومكونات صغيرة من أجهزة كبيرة معقدة . ولا تخلو هذه الأنشطة من التصرفات غير المشروعة ، مثل السرقة والاختطاف واستراق السمع على الاتصالات والتصوير من بعد . الا أن هذا كله يكون عديم الجدوى ما لم يكن وراءه الجهاز القادر على استغلال المعلومات التي يجري جمعها بهذه الطرق وتحويلها الى « معارف » .

ويحضرني هنا مثال بسيط لما أعنيه بالفارق الجوهري بين المعلومات والمعارف ، هو ما حدث لصديق يرأس جهازا انتاجيا كبيرا في قطر عربي ، عندما جاءه زائر أجنبي يتفاوض معه في صفقة تكنولوجية هامة . فقد لاحظ الصديق ـ وهو رجل دقيق الملاحظة ـ ان من بين الأوراق التي أمام زائره صفحة سجل فيها تاريخ حياة الصديق والمناصب التي تولاها وحالته الاجتماعية وميوله وهواياته . كما لاحظ خلال جلسات المفاوضات ان الزائر على معرفة مفصلة بأحوال الجهاز الذي يرأسه الصديق وبهيكله التنظيمي وبأسماء كبار المسؤولين فيه وبحجم انتاجه وموازنته المالية وبمشروعاته المستقبلية . وقبيل سفر الزائر سأله الصديق عن مصدر كل هذه المعلومات مبديا دهشته من توفر كل هذه المعلومات لديه . وأخبره الزائر انه زود بها قبل سفره وأنها كلها مستمدة من بيانات منشورة ومتداولة وانه ليست من بينها معلومة واحدة سرية أو مقيدة التداول . وان السر هو في تجميعها بشكل منظم ومتواصل وفي تصنيفها وتخزينها بأسلوب مناسب ثم اتاحتها له بصورة تعزز مهمته وتعين على تحقيقها على أفضل وجه .

ان الحديث عن اكتشاف علمي جديد وعما يمكن أن يتحقق من تطبيقه بنجاح كما ينشر في دورية متخصصة معلومة مثيرة للاهتمام . ولكنها بهذا الشكل ليست ذات قيمة لمتخذ القرار . فهي معلومة فجة تحتاج الى تقييم والى تجميع معلومات أخرى حولها وتمحيصها لتصبح معارف يمكن لصانع القرار أن يتخذها أساسا لقراره بحد أدنى من الاطمئنان . وأرقام المعاملات المالية لمؤسسة كما تظهر في موازنتها ليست سوى بيانات تحتاج الى جهد في تقييمها ومقارنتها بمعلومات أخرى من داخل المؤسسة ومن خارجها لاستخلاص ما تنطوي عليه من معارف قبل أن يستشف منها كبار المسؤولين أداة المؤسسة ومدى نجاحها في تحقيق أهدافها .

ان تنمية القدرة على استغلال مورد المعلومات تعكس مدى استنارة المجتمع واهتمامه بتأصيل مفاهيم جمع المعلومات بشكل منظم وتصنيفها بأسلوب منطقي واستخلاص آخر قطرة من المعارف منها . وهو مالا يكون حتى يدرك صانع القرار حاجته الى هذا كله ويتخذه أساسا لاتخاذ القرار . أما عندما يسود أسلوب « اتخاذ القرار بالالهام » فان هذا يعني تحقير قيمة المعلومات واهمال دورها في اتخاذ القرار .

السياسة القومية للمعلومات

ويقودنا هذا الى القضية الجوهرية التي تأتي فوق هذا كله ، ألا وهي مسألة موقف المجتمع من المعلومات ، أو السياسة القومية للمعلومات . فاذا نظرنا أولا في العالم من حولنا ، فلا مفر من التسليم بأن أيا منا لا يرحب كثيرا بتقديم معلومات مفصلة عن نشاطاته أو نشاطات الجهاز الذي يعمل فيه أو الذي هو مسؤول عنه . فهناك احساس له منطقه ومبرراته بأن مثل هذه المعلومات قد تستغل في غير صالح مقدمها وقد تستخدم ضده . وهذه ظاهرة معروفة في العالم كله وللدول « المتقدمة » في مواجهتها أساليب معروفة ومقننة . والمسألة في حقيقتها تتعلق بالممارسة الديمقراطية في المجتمع ، وبحق المواطن في معرفة ما يدور في بلده . ونذكر هنا باحتدام النقاش في أكثر من دولة في السنوات الأخيرة حول هذا الحق وحول الرقابة الشعبية على الأجهزة الحكومية وحول احتياجها الى الحصول على المعلومات من أجهزة الدولة

والمسألة أيضا متعلقة بحق المواطن في المشاركة في اتخاذ القرار والتي تقتضي أن يكون على بينة من الأمر الذي يشارك في اتخاذ القرار بشأنه ولقد أدى هذا الاصرار ، وبعد تزايد الأنشطة السرية لأجهزة المخابرات ، الى صدور قانون « حرية المعلومات » في الولايات المتحدة في عهد الرئيس كارتر والذي جعل من حق المواطن الأمريكي أن يطلع على وثائق الحكومة ومراسلاتها . ولعلنا نذكر الضجة التي ثارت حول احتفاظ هنري كيسنجر بوثائق وتسجيلات خاصة بعمله بعد أن ترك منصبه . ونذكر

أيضا ان تسجيلات نيكسون في البيت الأبيض أيام مؤامرة ووترجيت وكشف فضيحتها . تنظم لها أجهزة معلومات حكومية جلسات استماع مفتوحة للمواطنين . بل ويشاركهم فيها الزوار الأجانب أيضا .

ولقد صاحب هذا الاصرار على حق المواطن في الحصول على المعلومات تقييد حرية الحكومة والشركات في جمع المعلومات الشخصية عن المواطنين وتداولها واتاحتها لآخرين . ولقد نشأت في السنوات الأخيرة مع تطور القدرة الهائلة للحاسبات على اختزان المعلومات وتصنيفها واسترجاعها وارتباط هذا بوسائل الاتصال الالكترونية القادرة على ارسال المعلومات بصورة مكثفة جدا ، أي بمعدلات تفوق بآلاف المرات أية سرعة نعرفها لوسائل الكتابة أو الطباعة الآلية . مشكلة جديدة حول تداول المعلومات عبر الحدود الوطنية .

وهناك اليوم هيئات في الغرب وفي الأمم المتحدة تناقش أمر تقييد اخراج المعلومات الوطنية من بلد ما الى دول أخرى بهذه الوسائل وتطالب بفرض رقابة صارمة على هذه العمليات . وتتركز الجهود الآن في المؤتمرات وجماعات العمل وحلقات النقاش حول بلورة عرف دولي يتفق عليه في هذه المسألة التي جاءت مع التحام الحاسبات مع وسائل الاتصال فيما نسميه اليوم « الاعلامية » أو « المعلوماتية » أو « الانفورماتيك » (نقلا عن الكلمة الفرنسية) . وبهذا تكون محاور السياسة القومية للمعلومات هي حق المواطن في الحصول عليها حرمة حياته الشخصية والسيطرة على ما يخرج من الدولة من معلومات . وربما . ما يدخل اليها أيضا لو تجددت مساعي النظام الاعلامي الدولي الجديد وحققت قدرا من النجاح .

ولست أعرف لأي قطر عربي سياسة معلنة واضحة المعالم في أمر المعلومات . ولكن هذا لا ينفي وجود سياسات ضمنية نتعرف على مضمونها من واقع الممارسات . وربما استطعت أن أوجزها في تعميم مخل بالقول بأننا ، وان كنا ندرك من خلال تجارب مريرة دفعنا ثمنا غاليا قيمة المعلومات في أيدي أعدائنا ومنافسينا . الا أننا لا نبذل جهدا رئيسيا ومستمرا لبناء قدراتنا في هذا المجال . اللهم الا في مجالات جمع المعلومات عن المواطنين وتعقب نشاطاتهم « غير المرغوب فيها » .

ونحن في وطننا العربي بالقطع لا نعير أهمية كبيرة للمعلومات في تناولنا لقضايا التنمية . والشاهد اننا نعتبر الخبرة الأجنبية مصدر هذه المعلومات والقادرة على تقييمها . بل والمسؤولة عن تطبيقها في جهد التنمية ونحن نتصرف الى انشاء مراكز المعلومات واقتناء المعدات الحديثة دون أن نهتم بما ستحتويه من المعلومات ودون أن ندرك بوضوح حجم الجهد الهائل والانفاق الكبير اللذين يتطلبهما جمع المعلومات وتصنيفها قبل تخزينها واسترجاعها . وهو الجهد الذي لا تغني المعدات فيه فتيلا . ونحن لم نوجه اهتمامنا الى تنمية قدراتنا على تحويل المعلومات الى معارف وعلى استغلالها في ترشيد جهد التنمية وتعظيم عائده . ونحن بعد هذا ما زلنا بعيدين عن اتخاذ موقف حصيف يجمع بين القدرة على حماية المعلومات الحساسة ، واتاحة المعلومات الضرورية لقيام مجتمع ديموقراطي يحقق المشاركة المستنيرة لمواطنيه . وتنظيم الجهد القومي في جمع المعلومات وهضمها وتحويلها الى معارف فعالة في جهد التنمية . والى التعامل من موقف المساواة مع الغير في سوق المعلومات ●●

أسامة أمين الخولي

المتزوجون !

● اشتكى جحا قديما من المتزوجين فقال : « لعن الله الذين تزوجوا قبلي والذين تزوجوا بعدي .. لا الذين تزوجوا قبلي نصحوني ، ولا الذين تزوجوا بعدي اعتبروا بي ! »

● قالت امرأة لزوجها الاعمى : آه لو كنت مبصرا ! لرأيت بشرتي الناصعة وخدودي الوردية . لرأيت عيني النجلاوين تحت اهدابي الساحرة !

فقاطعها زوجها قائلا : لو كنت كما تقولين .. لما تركك المبصرون لي !



للدكتور حسان حتحوت

القفاز

كنت في السنة الثالثة في المدرسة الابتدائية حين اشترت لي والدتي اول قفاز لبسته في حياتي . كان بسيطا من قماش سميك بسيط ولكنني فرحت به أولا لانه وقي يدي بعض برد الشتاء ، وثانيا لانه سهل على حمل حقيبة الكتب ، وثالثا وهو الاهم هو انه كان دفعة نفسية كبيرة لي ، فقد كنت انظر بنوع من الغبطة الى الصنف من الناس الذي يلبس القفاز ، وهأنذا اكسر الحاجز وارتقي السلم واصبح واحدا منهم بين عشية وضحاها .

وكبرت رويدا فتعلمت رويدا ان القفافيز كذلك رتب ودرجات ، . وفي عالم القفافيز تعلمت ان الجلد ارقى من القماش ، وان المبطن بالوبر غير المبطن بالصوف ، وانهما دون المبطن بالفراء ، وان الناس حتى في قفافيزهم مقامات . وتعلمت كذلك من ملاحظتي لاستعمال القفافيز ان لها لغة ايمائية ذات دلالة وان لم يحملها صوت كلام ولا حرف كتابة . ومازلت اذكر يد الملك المتراخية الكسول ترد التحية في العرض العسكري ، او يد الجنرال الالماني اثناء الحرب العالمية تخبط يده الثانية بقفازيه دلالة صلابة وصلف ، او قفاز الحسناء في ثياب السهرة تضعه وتنزعه فكأن يديها تتحدثان خلال القفاز ، وللناس لغات غير لغة اللسان والآذان .

وكبرت اكثر فتعلمت اكثر ، وكان مما تعلمته على كبر امر لمت نفسي كثيرا ان فاتني ادراكه منذ زمان بعيد . . اذ اكتشفت ان القفافيز ليست نوعا من الملبوسات فقط ولكنها كذلك نوع من الناس . ونظرت حولي وما زلت انظر فاذا الحمى يموج بتلك القفافيز ذات الهياكل البشرية والحقيقة القفازية . الواحد فيهم لا حول له ولا طاقة الا وهو ملبوس في يد ان تحركت تحرك وان سكنت سكن . . . ولقد يرفع ويضع او يمسك او يدع او يصفع أو يصفح او يقبض او يبسط ، ولكنه يعلم ويعلم الناس جميعا انه فيما اتى وفيما ترك لم يصدر عن ذاته وانما عن اليد التي تلبسه .

فهي صاحبة الادارة وهي صانعة القرار وهي المتحرك والمحرك اما هو فقصاراه ان يكون لها قفازا !

والعجب العجيب ان الناس وهي تختار مناهجها ومساراتها يوجد فيهم من يختار اختيارا ان يكون قفازا . والمختار غير المضطر . . اعرف منهم من حصل العلم حتى استقام لـه مكان مرموق في مهنة مربحة ، ثم هو من اسرة ذات ثروة ثم هو من بعد ذاك وذاك ليـس ممن خفيت عنهم معاني العزة والكرامة ، فقد طالما تحدث عنها ، ومع ذلك فقد رأيته ينخرط بالكامل في سلك القفازية .

لم يكن خاملا ولم يعوزه الطموح بل الحق انه كان في غاية الطموح . . . ولكن طموحه كان طموحا قفازيا . . كان ارتقاؤه في سلم الحياة لا رقيا ذاتيا ولكن تدرجا من ان يكون قفازا ليد ليصير قفازا ليد اقوى ثم ليد اقوى . . ثم ليد اقوى . وكان عماده في ذلك ان يؤكد على الدوام نقاءه القفازي وجودته القفازية . وانه في اليد التي تلبسه مريح مريح لايعوق حركة ولا يتبرم بـسكنه ولا يحجم عن نقله من اعلى لاسفل او من شمال ليمين . . ولقد يتخذ هو من خارجه قفافيز ثانوية أو ثالثية او اكثر طبقات فطبقات . . ولكن همه هو في اليد التي يغلفها ويأتمر بها ، لان فيها مكانته كما أن فيها سمعته ودعايته ، فربما أفلت شمس القوة عن تلك اليد او ربما تطلعت يد اقوى منها الى قفاز أصيل فهذه اذن فرصته في الترقي ، وربما تحقق له يوما امله المنشود في ان يكون قفازا مباشرا لأقوى يد بين البلاد والعباد فيتوج حياته بان يكون بحق رئيس القفافيز .

في مطالع حياتي الجامعية حدث سوء تفاهم بيني وبين رئيس الجامعة التي كنت بها صحبه ثبات كل منا على موقفه . واراد صديق لي من الدراية بالقفازية ان ينصحني مشكورا بردي عن موقفي المتصلب ، فقال انه لما كان يدعي لاجتماع برئاسة فلان (من كبار القفافيز آنذاك) ، لبحث موضوع معين ، كان يعد مذكرتين قانونيتين احداهما تؤيد الموضوع والأخرى تعارضه ، ويدور النقاش حتى اذا تحسس الرأي الذي يميل اليه رئيس الاجتماع ، مد يده الى حقيبة فاخرج المذكرة المناسبة التي تثبت ان هذا هو الرأي الذي يراه فعلا وانه الرأي الصواب والمذكرة جاهزة وكل شيء تمام !

يخيل لي ان من طبيعة الحياة البشرية ان يتقاسم الناس دور الايدي ودور القفافيز ولعل الشاعر العربي احس بنحو ذلك حين قال .

البيت لا يبتني الا لـه عمد ... ولا عماد اذا لم ترس اوتاد
لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا

هذا طبعا بشرط توفر الأعداد المناسبة والنسب المناسبة من الايدي ومن القفافيز . .

الخطورة المحذورة تكون في المجتمعات التي تؤول مقدراتها الى يد واحدة . . . . فهذه بلاد لا امل لها في الحياة نظرا لفقرها الشائن في الامخاخ والعقول . . فالبلاد لا تحيا ولا يمكن ان تحيا برأس واحد متصل بشبكة هرمية شاسعة قوامها ملايين وملايين من القفافيز . ■■

تقلبات السياسة وتقلبات الطقس

بقلم الدكتور محمد صفي الدين ابو العز

توصلت مجموعة من كبار الباحثين بتكليف من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الى حقيقة في غاية الأهمية والخطورة ، مفادها أن أهم التحديات التى ستواجه الولايات المتحدة في السنوات القادمة ، انما تتمثل فيما يمكن أن ينجم عن التغيرات المناخية المرتقبة ، من تأثيرات بالغة الخطورة على سياسة الولايات المتحدة وعلى علاقاتها العالمية ، وهي تغيرات ستلعب ـ بلا جدال ـ دورا أساسيا في تحديد ورسم السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وخاصة في عالم يشهد تغيرا جذريا في ظروفه المناخية ويمكن أن ترتبط بها مجاعات تتفشى في بقاع شتى من العالم ، وقد تترتب عليها هجرات سكانية واسعة النطاق ، فضلا عن تأثيرها في حجم الانفاق على الوقود ، وفي تغير أنماط الانتاج ، والاستهلاك والطعام الانساني . ويمكن القول بأن هنالك مايشبه الاجماع على أن الطقس العالمي « سيتآمر » في المستقبل القريب على المنجزات الانسانية ، وعلى ماحققه الانسان خلال قرون طويلة من الصراع مع الطبيعة .

ويرى نفر من المتيورولوجيين أن مثل هذه التغيرات التى تحدث على خريطة العالم المناخية ، انما تعنى في الحقيقة عودا بنصف الكرة الشمالى ، الى حالة الطقس « الاعتيادية » بعد خمسين عاما من الطقس المعتدل الذى قطع فترة من المناخ البارد ، امتدت نحو ثمانية قرون ، كما يرون ، أيضا أن عالمنا اليوم يمضى نحو « عصر جليدى جديد » سيصبح فيه توفير الطعام بمثابة الموضوع المركزى المحورى في سياسة أية حكومة من الحكومات .

ويعد الاستاذ « ريد برايسون » استاذ المتيورولوجيا في جامعة ويسكنسن في الولايات المتحدة ، أول من أثار فكرة « الشذوذ المناخي » ابان نصف القرن الاخير الذى شهد « أمثل مناخ زراعي » منذ القرن الحادى عشر ، فقد نجحت خلاله ـ وخاصة في الستينات ـ « الثورة العالمية الخضراء » التي أدت الى تزايد الانتاج الزراعي في أغلب بقاع العالم نتيجة استخدام البذور والتقاوى المحسنة ، وترشيد الاستخدام المائى ، والتوصل الى أنسب الوسائل العلمية لمقاومة الآفات والحشرات والتوسع في استخدام المخصبات الكيميائية والعضوية ، مما أدى الى التقليل من احتمالات التعرض للمجاعات . . كما تميزت الفترة ذاتها بانتظام هبوب الموسميات على شبه جزيرة الهند ، وجنوب شرقي آسيا وبقلة تذبذب الامطار في غربي أفريقيا وبتراجع الأنهار الجليدية « الألبية » نحو نصف ميل في

المتوسط عما كان عليه تقدمها في ١٨٦٥ . فالكرة الأرضية كانت - اذن - في أوج دفئها ، وفي أمثل فترات انتاجها الزراعي .

ورغم اختلاف الآراء حول تحديد تاريخ بداية التغير المناخي العالمي الا أنها متفقة جميعا في أن عالمنا يمضي الى البرودة .«*

« سيناريو » التغير المناخي :

وقد استطاع « برايسون » على ضوء الملامح المناخية « للحقبة الباردة الجديدة » (١٦٠٠ - ١٨٥٠) أن يضع تصورا أو « سيناريو » لما يمكن أن يحدث في العقود القادمة على النحو الآتي :

(ستتعرض المناطق الشمالية من الولايات المتحدة لامطار أغزر بكثير من نصيبها الحالي ، في الوقت الذي سيطبق فيه الجفاف على المناطق الوسطى المطلة على خليج المكسيك وولايات الجنوب الغربي والروكي ، كما سيصبح نطاق القمح الشتوي في السهول المرتفعة أغزر مطرا وان كان هذا لن يؤثر على اغلاله للقمح . . . . أما بالنسبة لبقية العالم ، فستتعرض الهند للجفاف والمجاعة كل أربع سنوات ، وهذا يعني أنها ستحتاج الى ما بين ٣٠ ، ٥٠ مليون طن متري من احتياطيات القمح العالمية للحيلولة دون موت ما يقرب من مائة وخمسين مليونا من أبنائها جوعا . كما ستجتاح المجاعات الصين كل خمس سنوات ، مما سيقفز بوارداتها من القمح الى نحو ٥٠ مليون طن ، وفي نفس الوقت سيؤدي امتداد الغطاء الجليدي جنوبا ، وفي سهول كندا الى انخفاض انتاجها من الحبوب الى نصف الكمية الحالية ، وما قد يعنيه هذا من انخفاض صادراتها بنحو ٧٠٪) .

ويبني الأستاذ « برايسون » نبوءته هذه على تحليل الاحصاءات المناخية العالمية تحليلا رياضيا دقيقا اتضح منه « أن الهواء القطبي البارد آخذ في الامتداد والتوغل جنوبا منذ منتصف الأربعينات تقريبا - ليحل تدريجيا محل الهواء المداري الدافيء الذي كان ينتشر فوق نصف الكرة الشمالي قبل ذلك التاريخ .

ويعني هذا القول تعرض الأرض للتبريد التدريجي ، الذي يعزي الى ما طرأ على الغلاف الغازي من زيادة هائلة في نسب كل من الغبار البركاني - والغبار الانساني (الذي من صنع الانسان) وثاني أكسيد الكربون مما يؤدي الى الحيلولة دون وصول حرارة الشمس الى سطح الارض . ورغم توقف النشاط البركاني منذ أوائل القرن الحالي الا أن كثيرا من البراكين في العالم قد استأنفت نشاطها في العقود الاخيرة ، كما أصبح الغبار الذي يثيره الانسان يشكل ما يقرب من ٣٠٪ من الكمية الاجمالية للغبار في الغلاف الغازي ، بالاضافة الى ما قد ترتب على الاسراف في استهلاك الوقود العضوي (الأخشاب والفحم والبترول) من تزايد كبير في نسبة ثاني أكسيد الكربون في الجو - وكانت نتيجة هذا زيادة برودة نصف الكرة الشمالي ، وتقدم الغطاء الجليدي القطبي وتوغله صوب الجنوب .

ويذهب العالم الميترولوجي السوفييتي « ميخائيل بودايكو » الى أبعد مما ذهب اليه « برايسون » ، فهو يتنبأ في « السيناريو » الذي تصوره للتغيرات المناخية القادمة بانخفاض متوسط درجة الحرارة العالمي بنحو ٨ ر٢°ف ، وهو ما سيؤدي الى اطلاق الانهار الجليدية ، والغطاءات الجليدية ، وفي حركة زحف داهم على العروض الأدنى . واذا استمر المعدل في انخفاضه ٧ ر ٠°ف اضافية ، ففي هذا بداية لاطباق تسعين ألف عام من الجليد الكاسح الذي يمكن أن يكون مشابها في امتداده وتأثيره لجليد العصر الجليدي الثامن الذي انتهى منذ نحو عشرة آلاف سنة .

ويرى الكاتب الانجليزي « نيجل كالدر » أن العصر الجليدي الجديد على وشك أن يحل بنا ، وأن فترة العشرة آلاف سنة من الدفء ، قد قاربت على الانتهاء ولن تستمر لأكثر من مائة عام على أفضل الاحتمالات . وهو يرى في « السيناريو العالمي » الذي وضعه لتصوره فيما يمكن أن يحدث خلال العصر الجليدي القادم أن أكثر من ١٢ دولة ستمحى تماما ، وتتحول الى صحار جليدية قاحلة مثل : كندا وجرينلنده ، وأيرلنده والجزر البريطانية والدانمارك والنرويج والسويد وفنلنده ونيوزلنده . . . وغيرها ، وأن أغلب مساحة كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة ، ستتعرض للتجمد الواسع النطاق ، في حين أن المساحة العظمى من افريقيا جنوبي الصحراء وشرقي أمريكا الجنوبية ، ستتعرض للجفاف الشديد . كما أن بقاعا أخرى من العالم مثل الصين ، والمكسيك ، والأرجنتين ، واستراليا ، ستتعرض في أجزاء منها للتجمد وفي أخرى للجفاف - أما حوض البحر المتوسط (الوطن

---

* أنظر مقال بعنوان « هل نحن مقبلون على عصر جليدي ؟ » . . العربي مارس ٨٢/ ص ٢٦ .

العربي) وتركيا وايران فسيسود بها « أمثل مناخ » وخاصة أن صحارى أفريقيا وجنوب غربي آسيا ، ستنال حظا أوفر من المطر .

واذا صحت حسابات « كالدر » فمعنى هذا ، أن أكثر من نصف سكان الكرة الارضية يمكن أن يموتوا جوعا وبردا ، وخاصة أن نحو اثنى عشر قطرا ستتحول الى أرض جليدية جرداء ، على النحو الذي تبدو به اليوم قارة أنتاركته .

ويميل اليوم عدد كبير من علماء الآثار والمؤرخين الى مراجعة الكثير من النظريات الاقتصادية والسياسية التي تفسر ازدهار الحضارات القديمة وتدهورها كحضارات وادي نهر السند ، وآسيا الصغرى (الحيثية) وجزيرة كريت (المايسينية) والامبراطوريات الاسلامية في غربي افريقيا (كامبراطورية مالي) وهم يرون أن انهيار أغلب هذه الحضارات لم ينجم عن تعرضها للمخاطر الخارجية ، أو لعوامل التحلل السياسي والاجتماعي الداخلي ، بقدر مايرجع الى تعرضها لتغيرات مناخية فجائية اضطربت معها الأوضاع الديموجرافية ، كما اختل بسببها التوازن البيئي . ومن المتناقضات الساخرة أن حضارتنا الراهنة بكل ما بلغته من آفاق في التقدم التكنولوجي والعلمي قد أحاقت بالبيئة من التدمير والتخريب ، ما لا يمكن أن يصوره خيال . فمن اجتثاث للغابات الى افراط في الرعي على سفوح المرتفعات الى استهلاك جنوني لكافة مصادر الوقود الحفري (بترولا كان أم فحما) الى نفث لغازات وأبخرة سامة وقاتلة ، الى تسابق أسراب هائلة من الطائرات التي تفوق سرعة الصوت في الستراتوسفير . . . وما يمكن أن تسببه من اضطراب في دورة الهواء فيه - كل هذا قد أثر بلا شك في اضطراب الطقس الحالي والاخلال بالنظام البيئي على نحو أصبحت معه حياة الانسان ومنجزاته الحضارية جلها ، مهددة بالضياع والانهيار .

ومنذ العصر الحجري الحديث حتى عهد قريب ، لم يكن للانسان من سبيل أمام تغيرات المناخ سوى الهجرة والانتقال ، فهو في كفاحه من أجل العيش ، يقتفي حيوانات الصيد التي يعتمد عليها في غذائه ، وينتقل الى الغابة فيقطع أشجارها ويحل الزراعة محلها ، ويفرط في حفر القنوات والآبار ونحت سطح الارض - ويؤدي هذا الى الاخلال بالتوازن الطبيعي ، فيتغير المناخ وتجف الأنهار والآبار ، ويتوقف النبات عن النماء ، فتموت القطعان ، أو تبحث عن مواطن جديدة ، ويضطر الانسان هو الآخر الى الهجرة الى سهول أخصب ، أو أودية أغزر ماء وأينع زرعا ، أو غابات تتوجها مظلات من الخضرة المستديمة ، ليعيد الكرة وتبدأ دورة جديدة من دورات الفناء !!

آثار سياسية

وقد شهد نطاق « الساحل » في غربي أفريقيا - وهو نطاق الحشائش الذي يحف بالبحر الصحراوي الكبير في شمال القارة - فترات من الازدهار النباتي المرتبط بزيادة الأمطار ، فقامت الامبراطوريات القديمة (مثل غانا - ومالي - والسونجي - والبورنو) ولكنها سقطت بعد أن زحفت الصحراء جنوبا - وزحفت معها موجات عارمة من بدو الصحراء وأصبح « ساحل » الصحراء أكثر امتدادا نحو الجنوب ، وقادرا على اقامة أود مايقرب من ٢٤ مليون نسمة من الرعاة والزراع ، الذين واتاهم الحظ في التغلب على مشاق البيئة وصعابها ، ولكنه سرعان ما تخلى عنهم منذ عام ١٩٦٨ ، عندما لم يصل تأثير الرياح المطيرة الى « اقليم الساحل » خلال ستة مواسم متتالية وتحولت ملايين الافدنة من الارض الزراعية الى صحراء جرداء قاحلة ، ونفق من قطعان الماشية ما يتراوح بين ٣٠٪ ، ٧٠٪ ومات جوعا وعطشا ما يربو على الثلاثة ملايين نسمة من سكان دول الاقليم الست (مالي - موريتانيا - فولتا العليا - النيجر - السنغال - تشاد) في أسوأ « مجاعة مناخية » عرفها القرن الحالي .

أما الاحياء فقد تركوا مضاربهم ، وضلت بهم السبل ، فلا هم قادرون على الهجرة شمالا ، لخوفهم من الضياع في الصحراء القاحلة ، ولا على الانتقال جنوبا الى غابات ساحل غانة بمدنها وأراضيها المتفجرة بالبشر . فتجمعت فلولهم في بعض المدن والقرى ، بلا ماء أو طعام أو مأوى أو رعاية ، ليقعوا فرائس لعديد من الامراض الوبائية . وقد شملت هذه الهجرة ما يربو على العشرة ملايين من سكان « اقليم الساحل » .

وفي نفس التوقيت الذي عمت فيه المجاعة هذا الاقليم ، تكررت القصة في أثيوبيا ، وأريتريا ، وبعض بقاع من الصومال ، وشرقي السودان ، وأوغنده ، وبلغ حجم الوفيات في عام ١٩٧٣ أكثر من أربعة آلاف في كل أسبوع . وقد فشلت الحكومة الأثيوبية في اغاثة المناطق المنكوبة ، مما حدا بها الى طلب المعونة من العالم الخارجي ، بعد أن قضت المجاعة على أكثر من مائة ألف من سكانها نتيجة الجفاف الذي نجم عن عدم وصول الرياح الموسمية المطيرة - ولعل من أخطر النتائج التي ترتبت على هذا التغير المناخي ، سقوط أقدم وأطول حكم ملكي في التاريخ

الحديث ، فأنزل هيلاسيلاسي عن العرش بعد ٤٤ عاما من الحكم المطلق ، وتغيرت دفة التوجيه السياسي لأثيوبيا تغيرا جذريا .

تطورات مرتبطة بالمناخ :

ورغم اختلاف الآراء حول تحديد التاريخ الذي بدأ فيه « العصر الجليدي الصغير » ـ والذي يحدده البعض بمطلع القرن السابع عشر ، والبعض الآخر ، بمنتصف القرن التاسع عشر ، الى مؤكد بأنه بدأ في عام ١٣٢٠ ، الى قائل بأنه حل اما في عام ١٤٣٠ أو في عام ١٦٦٠ ـ الا أن هذه الآراء كلها تجمع على تحديد نهايته في منتصف القرن التاسع عشر ـ ويحاول علماء « التاريخ المناخي » حصر أهم التغيرات التي حدثت قبل منتصف القرن التاسع عشر فيما يلي :

● في عام ١٢٧١ تجمدت مياه بحر الشمال وأوقفت التحرك الواسع النطاق الذي كانت تقوم بها جماعات الفايكنج في شمال غربي أوربا ، وتوقفت أيضا جهودهم في الكشف الجغرافي في شمال المحيط الأطلنطي ـ وقد أصاب التجمد أنحاء واسعة من شبه جزيرة اسكندناوه واسكتلنده ، وأيسلنده فغطاها الجليد في كل أشهر السنة تقريبا .

● يعد القرن الثالث عشر « قرن » البرودة والأوبئة والمجاعات في أغلب أنحاء أوربا ، فقد كثرت خلاله ثورات الفلاحين على الاقطاع ، وشاعت حالة من الفوضى والاضطراب في كثير من أنحاء القارة .

● ومنذ عام ١٤٣١ (وهو العام الذي استشهدت فيه « جان دارك ») وحتى نهاية القرن الخامس عشر ، كانت تجتاح أوربا عواصف ثلجية هوجاء امتد تأثيرها الى جنوب القارة ، وأسفرت في كثير من السنوات عن تجمد الأنهار الألمانية ، وعن اتساع نطاق الجليد المتراكم فوق مرتفعات اسكندناوه وجبال الألب ، كما أصبحت جرينلنده قاعا جليديا صفصفا ، بعد أن قضى الجليد على أغلب سكانها (في سنة ١٤٥٠ تقريبا) .

● في مطلع القرن السابع عشر (١٦٠٠ م) أودى التجمد بحياة أكثر من نصف مليون من الفلاحين الروس ، بعد أن دفنت محاصيلهم وقراهم فماتوا بردا وجوعا ـ وقد بلغت هذه الموجة الباردة أوجها خلال العقد الممتد من عام ١٦٤٣ ـ ١٦٥٣ م . غير أن الجفاف أصاب انجلترا ابان ذلك القرن فتحول نهر التيمس في صيف عام ١٦٦٠ م ، الى مخاضة ضحلة ، وتعرضت مدينة لندن للحريق الهائل الذي دمر مبانيها وشرد مئات الآلاف من سكانها ، وان كان قد أدى الى القضاء نهائيا على مرض الطاعون ـ الذي كان يتفشى في المدينة من وقت لآخر على مدى القرون الثلاثة السابقة للحريق الكبير .

● أدى الشتاء القارس الذي تعرضت له اسكتلنده ، وأيسلنده ونيوانجلاند وأيرلنده في عامي ١٧٣٩ و١٧٤٠ م ، الى ارتفاع معدلات الوفيات في هذه البقاع ولعل أعلاها كان في أيرلنده ، حيث دمر الصقيع محصول البطاطس ـ وهو الغذاء الأساسي لسكانها فحدثت مجاعة البطاطس الشهيرة التي كانت سببا في هجرة نحو نصف مليون من سكان أيرلنده الى العالم الجديد .

● تعرضت فرنسا في عام ١٧٨٨ م لتقلبات جوية حادة ، صاحبها تغير مناخي فجائي من الجفاف الكامل ـ الذي حرق مساحات كبيرة من حقول القمح ـ الى عواصف البرد الكبير الأحجام التي اجتاحت البلاد في ١٣ يوليو ، وقضت قضاء نهائيا على ما تبقى من المحصول ، وفي العام التالي (١٧٨٩) حلت المجاعة في كل أنحاء فرنسا وخرجت جماهير البارسيين الحانقة الى الشوارع معلنة تفجير الثورة الفرنسية بعد سقوط الباستيل .

● تكررت « مجاعة البطاطس » في أيرلنده في مطلع القرن التاسع عشر (عام ١٨٠٠) وفي عامي ١٨٤٥ ، ١٨٤٧ نتيجة تدمير المحصول بعواصف الثلج التي اجتاحت الجزيرة ، وفي كل مرة كانت تخرج منها موجات حملت أكثر من مليون من المهاجرين الجياع المفلسين الى العالم الجديد ، وخاصة عندما كانت تتفشى الأوبئة بين السكان على غرار ما حدث في عام ١٨١٦ الذي أودى فيه انتشار التيفوس ـ الذي كثيرا ما يسمى بمرض المجاعة ـ بحياة أكثر من ٢٥٪ من السكان .

وقد جاءت مع « مجاعة البطاطس » الأخيرة الأخيرة نهاية « العصر الجليدي الصغير » ، فمنذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر والمتوسطات الحرارية في تزايد والفصول المناخية أكثر استقرارا ، كما بدأ الكثير من الأنهار الجليدية في الذوبان التدريجي ، ودخل العالم في أمثل فترة مناخية استغرقت العقود العشرة الماضية ، مما حدا بنا الى الاعتقاد الخاطىء بأنها أصبحت تمثل القاعدة المناخية الاعتيارية ، في حين أنها لم تكن الا حقبة قصيرة طارئة ـ وقد بلغت منجزات الانسان ابان هذه الفترة أوجها ، فقد تضاعف سكان العالم نحو أربعة أمثال ،

وارتفعت مستويات المعيشة الى آفاق لم تكن تدور بخلد أحد ، كما مضت الثورة الصناعية والتكنولوجية قدما في انطلاقها من أجل توفير الجهد الانساني كما بلغ الانتاج الزراعي والحيواني والسمكي أقصى درجات نموه وتطوره .. غير أن جميع هذه الانجازات كانت مرتبطة بالنهم الانساني في التهام الموارد البيئية ونزحها ، ومازال الانسان ماضيا في استنفاد ما تبقى منها ، في وقت تتصاعد فيه معدلات النمو السكاني ، مما يدعو الى التساؤل المتشكك حول امكانية تلبية احتياجات البشرية المتنامية في المستقبل القريب رغم الجهود التي بذلت فيما أصبح يسمى بالثورة الخضراء وفي تسخير العلم والتكنولوجيا لتوفير موارد أرحب للانسانية جمعاء .

وتدل كافة التوقعات على أن مشكلة الغذاء في الدول النامية ستزداد تفاقما اذا ما تعرضت « الارض » لتغيرات مناخية كتلك التي يتنبأ بحدوثها عدد غير قليل من علماء المناخ ، ويكفي ـ للتدليل على أثرها ـ القول بأن الهكتار (٢,٥ فدان) الواحد من الارض الزراعية في قارة آسيا يكفي انتاجه الآن لغذاء ٣,٥ نسمة ، أما اذا انخفضت درجة الحرارة بنحو ١,٨°ف ، فلن ينتج الا ما يكاد يكفي غذاء شخصين اثنين فقط ، وقد يصل الأمر في الصين الى تناقص عدد من يقيم أودهم الهكتار الواحد من الارض المزروعة ، من سبعة الى أربعة أشخاص اذا انخفضت درجة الحرارة بنفس القدر .

المناخ وسلاح الغذاء :

يصنف الأطباء العسكريون الجرحى الذين يسقطون في ميدان أية معركة عسكرية الى ثلاث فئات ، فئة يمكن أن تعيش سواء عولج أفرادها بسرعة أم لا ، وغالبا لا يقترب أطباء الميدان منهم ، وفئة ثانية من الجرحى محتم عليهم الموت بصرف النظر عما اذا كانوا سيعالجون أم لا ، ولهذا يتركون لمصيرهم المحتوم ، والمجموعة الأخيرة من المصابين هم الذين يمكن القول أن تكتب لهم الحياة ، اذا تم علاجهم الفوري ، وهؤلاء هم الذين تتركز عليهم رعاية الأطباء وعنايتهم . ويرى خبراء « وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية » أن عالم اليوم المهدد بانتشار المجاعة بسبب زيادة احتمالات تغير المناخ ، يمكن أن « تفرز » أقطاره وتصنف أيضا الى فئات ثلاث : تضم أولاها الاقطار التي تستطيع أن تمضي في مسارها ودون ماحاجة الى علاج سريع لمشكلة الغذاء فيها . وتضم الثانية الاقطار التي تفاقم انتشار المجاعة فيها ، ولا تستطيع المعونات أو وسائل العلاج المسكن ، أن تحول بينها وبين التردي الى مصيرها المحتوم .

وأما المجموعة الثالثة فتضم أقطار العالم التي يمكن أن يجدي فيها العلاج بالمعونات والمساعدات ، اذا ما تدوركت على وجه السرعة .

والولايات المتحدة الأمريكية وحدها هي التي تملك القدرة على اجراء هذا « الفرز الثلاثي » بحكم كونها دولة الوفرة والفائض الغذائي الرئيسي في عالم اليوم ، ومن بين المئتي وحدة سياسية التي توجد في عالم اليوم ، هنالك سبعة أقطار فقط يمكن ادراجها في عداد دول الفائض الغذائي ، أي أنها تنتج من محاصيل وسلع الغذاء الرئيسية أكثر مما تستورد ، وتسهم قارة أمريكا الشمالية وحدها بأكثر من ٩٠٪ من كمية المحاصيل الغذائية المصدرة او المطروحة للتداول في السوق العالمي .

وتقدر منظمة الغذاء والزراعة عدد الذين يتضورون جوعا من بين الأربعة بلايين الذين يمثلون سكان العالم اليوم ، بنحو ٥٠٠ مليون نسمة ، ومن المتوقع أن يزيد هذا العدد في العقود القليلة القادمة نتيجة ما يمكن ان يسمى « بالقنبلة السكانية » وللتغيرات المناخية التي ستؤدي الى نقصان الانتاج العالمي من الغذاء ، فبعد ثلاث سنوات اي في ١٩٨٥ سيزيد عدد سكان العالم بنحو ٢٥٪ ليصبح خمسة بلايين نسمة . ويتوقع المتفائلون ان يبلغ عددهم ٦,٤ بليون نسمة في نهاية هذا القرن ، في حين يقدره المتشائمون بما يقرب من الثمانية بلايين ، وفي كلتا الحالتين لن يستطيع انتاج الغذاء في مناخ يتغير الى الأسوأ ، اي يلبي متطلبات واحتياجات الغذاء الانساني الاساسية .

ومن هنا تبرز اهمية سلاح الغذاء في السنوات « الباردة » القادمة وخصوصا وان الولايات المتحدة لها التفوق الكاسح واليد الطولى في استخدامه فقد بلغ اجمالي مبيعاتها من المواد الغذائية في عام ١٩٧٦ ما قيمته ٢٢ بليون دولار ، أي أكثر من خمسة أمثال ما حصلت عليه من تصدير السلاح ، ونتاج التكنولوجيا الامريكية ـ والذي لم يزد كثيرا على ٤ بليون دولار في نفس السنة ، فالفائض الأمريكي الغذائي سيمثل ـ اذن ـ في السنوات القادمة سلاحا حاسما .

وتعتقد وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية ، انه اذا استمر المناخ العالمي في اتجاهه العام نحو البرودة ، فقد يؤدي هذا الى خفض انتاج الغذاء في كل من كندا والاتحاد

السوفيتي ، والصين ، بالاضافة الى زيادة احتمالات الجفاف في كل من المناطق الواقعة تحت تأثير الموسميات ، غير ان الولايات المتحدة الامريكية ستظل قادرة على تلبية احتياجات العالم من الغذاء ، بشكل عام ، فيما عدا السنوات التي قد يتدهور فيها انتاجها المحلي (مثلما حدث في عام ١٩٧٢) والتي عليها ابانها ان تتخذ الخيار بين اطعام الدول الغنية المصنعة او الدول الاقل نموا الفقيرة !!

ويرى خبراء وزارة الزراعة الأمريكيون ، ان انتاج الغذاء في الولايات المتحدة يمكن زيادته بشكل ملحوظ ، اذ يمكن زيادة انتاج الحبوب الغذائية بنحو ٥٠٪ في عام ١٩٨٥ ، ومن بينها زيادة نسبتها ٣٣٪ في انتاج القمح وحده ، مما سيؤدي الى زيادة قيمة صادراتها من محاصيل الغذاء الى ما يتراوح بين ١٧٥ و ٢٠٠ بليون دولار سنويا . غير انه من المتناقضات الساخرة أن فقراء العالم لن يكون لهم قبل بتحمل أسعار هذه الحبوب الغذائية التي ستشتد المنافسة عليها ، بينهم وبين القادرين على الشراء في الدول الصناعية المتقدمة ، ومعنى هذا ان الدول الاقل نموا ستزداد فقرا على فقر ولن تكون قادرة على توجيه مدخراتها - اذا ما وجدت - نحو الآفاق والمجالات التنموية طالما أن عليها انفاق الجزء الاعظم منها ، او كلها للحصول على الغذاء المرتفع الثمن ، المطروح في السوق العالمية .

ومن المؤكد - بالاضافة الى كل هذا - أن محنة هذه الدول ستزداد تفاقما في السنوات القادمة ، ازاء التصاعد المطرد في اسعار النفط - التي ارتفعت بأكثر من أربعة أمثال ما كانت عليه قبل بروز أزمة الطاقة العالمية في عام ١٩٧٣ - وفي أسعار كافة المشتقات البترولية من مخصبات ، الى مبيدات حشرية الى غير ذلك من المستخرجات البترولية الضرورية لرفع الانتاجية الزراعية ومما لا شك فيه أن مسئولية الارتفاع غير المنضبط في أسعار البترول ومشتقاته انما ترجع في المقام الاول الى نهم الدول المصنعة المستمر في استهلاك البترول ، والتنافس فيما بينها من أجل ضمان استمرارية تدفقه اليها .

دور الولايات المتحدة

والولايات المتحدة الامريكية باعتبارها تمثل « سلة خبز العالم » فسيلقى على كاهلها عبء سياسي وأخلاقي لا قبل لها بتحمله ، فعليها ان تقرر كم الانتاج الغذائي الذي ستحتفظ به للاستهلاك المحلي ، وأن تقرر الى أي مدى ستقبل جماهير الشعب الامريكي بخفض مستوى معيشتها لاطعام الآخرين ؟ وهل ستمنح هؤلاء فائضها على سبيل الاعانة ، أم ستطرحه في السوق العالمي لمن يدفع أكثر ؟ وهي التي ستحدد من الاولى بهذا الفائض ؟ وبأية كمية ؟ فهي اذن ستملك القدرة على ان تقرر ايا من الشعوب يحيا وأيها يموت !! طالما انها تملك كل اوراق لعبة الغذاء العالمي . وتستطيع الولايات المتحدة بموقعها الاحتكاري في تصدير الانتاج الغذائي ، ان تلعب دورا بالغ الخطورة في العلاقات الدولية ، اذ يمكن ان يضفي عليها هذا قوة وفعالية ، وقدرة على السيطرة الاقتصادية والسياسية ، تفوق كثيرا ما بلغته من شأن في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ويرى الكثيرون ان الولايات المتحدة الامريكية قد تجد نفسها - في المستقبل القريب - مضطرة لان تضع معايير لتوزيع معونتها الغذائية على الصعيد العالمي ، وقد تتخذ بعض هذه المعايير أبعادا أخلاقية ، فعلى سبيل المثال : هل تكافيء الدول التي استطاعت ان تطبق بنجاح سياسات صارمة لتحديد النسل بمنحها ما تحتاج اليه من معونات غذائية ؟ وهل ستجد الولايات المتحدة نفسها في موقف يجعلها تفرض العقوبات الغذائية على الدول - التي تبجل وتقدس تقاليدها ومعتقداتها في النسل والانجاب !!! - أو على دولة كالهند - التي اصبحت قوة نووية على حساب تنمية الانتاج الزراعي ؟ وكيف تسمح الولايات المتحدة لنفسها ان تجوع مواطني الدول التي ترجع اسباب عوزها الى السياسات الخاطئة التي يتبعها حكامها ؟

ومما لا شك فيه ان معدلات النمو السكاني المرتفعة ستستمر في التصاعد في دول العالم الثالث - بصورة عامة - وفي الاقطار الاقل نموا على وجه الخصوص ، على الرغم من الجهود المبذولة - في الوقت الحالي - لتنظيم الاسرة وتحديد النسل وهي جهود ستظل قاصرة عن خفض النمو السكاني السريع ، أو انقاص معدلات الخصوبة المرتفعة في هذه الأقطار ، التي سيصبح لزاما عليها اما ان تواجه تزايد احتياجات السكان من الغذاء ، أو تتعرض لمخاطر الهزات والزلازل السياسية ومن المؤكد ان هذه الاقطار لن يكون في مقدورها استيراد احتياجاتها من الغذاء مع ارتفاع اسعاره العالمية ، ومن غير المحتمل ايضا ان تتلقى من الدول الغنية من المعونات الاقتصادية ما قد يعينها على مواجهة ازمات الغذاء كما انه من المستبعد ان تتمكن من زيادة قدرتها الذاتية على انتاج الغذاء - في الوقت الحاضر على الاقل - لمجموعة معقدة من العوامل السياسية والاقتصادية والحضارية .

وتسهم الولايات المتحدة في الوقت الحالي بنحو ثلاثة ارباع صادرات الحبوب العالمية ، ويكاد يجمع المراقبون

على تزايد نصيبها في العقود المقبلة ، وهذا أمر سيؤدي بلا جدال الى ازدياد الاعتماد عليها وما يمكن ان يتبع هذا من تزايد فعاليتها وقدرتها السياسية بالنسبة لدول العجز الغذائي الاقل نموا كما أن عليها ان توزع فائضها الغذائي بين الدول الغنية والمشترين الفقراء !!!

وسواء تعرض الطقس العالمي للتغير بالاتجاه نحو البرودة في العروض العليا ، أو استمرت فترة « الطقس الامثل » التي بدأت في الثلاثينات فمن المؤكد في كلتا الحالتين ان يتعاظم دور الولايات المتحدة كأكبر محتكر لتجارة الحبوب الدولية ، وتزداد قدرتها وفعاليتها السياسية على الصعيد العالمي .. وخصوصا في الدول الفقيرة - حيث يمكن ان يرتبط تزايد النفوذ الامريكي فيها بقدرتها على مدها بالغذاء . ولابد ان يسفر هذا في كثير من هذه الاقطار - عن اشتعال جذوة الشعور بالوطنية وعن رفض النفوذ الامريكي ومعارضته ، ومقاومة مثل هذا الارتباط الاعتمادي سواء بالثورة على نظم الحكم التي تقبله ، او قد تلجأ هذه الدول - ايضا - بمساندة الاتحاد السوفيتي والصين ، الى المطالبة بفرض اجراءات دولية تضع ضوابط حاكمة للتداول في المطروح من الحبوب في السوق العالمي .

البعد السياسي

ولا يمكن بأي حال من الاحوال اغفال الآثار السياسية التي يمكن ان تنجم عن تناقص المواد الغذائية في الدول الفقيرة ، في قراها وفي مدنها على حد سواء ، فقد يصبح سكان الريف - المحافظين في المعتاد - أصعب قيادا ، وأكثر صياحا ورغبة في التغيير والتجديد ، اذا ما هددهم خطر الجوع ، كما لابد أن ينخفض مستوى معيشة الطبقات الوسطى من سكان المدن ، بارتفاع اسعار الغذاء وما يمكن ان يسفر عنه هذا من هزات « سياسية » واجتماعية ، فيزداد الفقراء فقرا فتزعزع سلطة الحكومة المركزية وتشل قبضتها وتصبح سهلة التعرض للاطاحة والسقوط .

ولعل أخطر ما يمكن ان ينجم عن جنوح المناخ العالمي نحو البرودة تحول كثير من دول الفائض الى دول مستوردة (مثل كندا واستراليا) ودخول عدد من القوى العالمية الكبرى حلبة التنافس من أجل الحصول على الغذاء ، في وقت يمكن ان تصل فيه اسعار الحبوب الغذائية الى أرقام ، لم يدر بخلد أحد في يوم من الايام ان تصل اليها ، ومن أمثلة هذه الدول الاتحاد السوفيتي والصين ، واليابان ، بالاضافة الى مجموعة « التسع » وليس من المستبعد ان تلجأ مثل هذه الدول الى استخدام أسباب القوة التي تملكها من أجل الحصول على متطلباتها الغذائية .

وهذا يمكن القول - بصورة عامة - بأن التغير الملحوظ الذي يشهده المناخ العالمي منذ الستينات في هذا القرن انما يمثل عودا بالعالم الى نمط المناخ الذي كان سائدا منذ أكثر من أربعة قرون خلت ، وهو باختصار شديد يمثل احلالا لنمط عصر المناخ الجديد محل المناخ الامثل زراعيا الذي كان يمثل شذوذا مناخيا ساد العالم ابان العقود الستة الماضية . وهذا يمثل عقد الستينات والسبعينات مرحلة اتسمت بأحداث سياسية متتابعة ، تردد صداها في كثير من جهات العالم ، وكثير منها يعزى - في المقام الاول - الى عوامل مناخية ، فعلى سبيل المثال :

ربما يرجع سقوط « نيكيتا خروتشوف » وانقصاؤه عن السلطة في الاتحاد السوفيتي الى فشل مواسم الزراعة السوفيتية لعدة سنوات متتالية - لعوامل مناخية بالدرجة الاولى - وقد حدا هذا بالفلاح السوفيتي ، الى ذبح الماشية لكي يتوافر الطعام - ولا يمكن لاحد ان يقلل من ردود الفعل السياسية التي ترتبت على ابعاد « خروتشوف » .

كما ان تدفق البنغاليين العارم الى شمال شرق الهند نتيجة عدم وفاء الموسميات بمواعيدها وتناقص امطارها ابتداء من عام ١٩٦٨ يعد من بين العوامل الرئيسية التي اسهمت في انشطار دولة باكستان ونشوب الحرب الهندية الباكستانية واعلان قيام دولة بنجلادش .

ولا يمكن لاحد ان ينسى الكوارث المحزنة التي ألمت بدول اقليم « الساحل » في غربي افريقيا - والتي نجمت - عن حلول الجفاف ، وانعدام سقوط الامطار بداية حلول عام ١٩٦٨ ولسنوات سبع متتالية - وأودت بحياة أثر من ثلاثة ملايين من أبناء الدول الست . مالي ، تشاد ، موريتانيا ، فولتا العليا ، النيجر ، والسنغال .

كما لا يمكن لاحد ان ينسى ما حدث في اثيوبيا وفي الصومال - في نفس الفترة تقريبا ، وقد أسفرت هذه التطورات المناخية الأصل عن تعرض عدد من هذه الاقطار للقلاقل والاضطرابات السياسية كما تزايد اعتمادها على المعونات الغذائية التي تتيحها الامم المتحدة ، وتعزز ارتباط اغلب هذه الاقطار (باستثناء أثيوبيا) بالولايات المتحدة كمصدر رئيسي للغذاء . □□

د . محمد صفي الدين ابو العز

أقوال معاصرة







■ متى تكف امريكا عن اعتبار منازعات العالم الثالث صراعا بين الشرق والغرب ؟!

جان بييركدت ـ وزير التعاون الفرنسي

■ ساشعر بأني سجين حتى تعود حرية التعبير الى تركيا .

بولنت اجاويد

رئيس وزراء تركيا السابق بعد الافراج عنه

■ امريكا لم تكن في اي وقت من الاوقات صديقة للعرب .

الرئيس الليبي معمر القذافي

■ انتهى عهد « البصم » الخليجي ، ولن يقال بعد اليوم لدول الخليج « لقد اجتمعنا وقررنا » .

عبدالله بشارة

الامين العام لمجلس التعاون الخليجي

■ نعم ، ان لدي قلبا !

هنري كيسنجر ـ وزير خارجية امريكا الاسبق

■ نحن لا نطالب بالقمر .

ياسر عرفات

رئيس منظمة تحرير فلسطين

■ أعطني قضية ، أعطك إعلاما !

حسن اللوزي وزير الاعلام في اليمن الشمالي

■ لقد تحرك المبعوث الامريكي فيليب حبيب ، عندما أجبر الاسرائيليون على النوم في الملاجىء .

الرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجية

■ لا يمكن مقارنة تجربة امريكا في فيتنام بالسلفادور ، لاننا ذهبنا الى فيتنام باعين مغمضة بينما ذهبنا الى السلفادور باعين مفتوحة !

الكاتب الامريكي الساخر ارت بوكوالد

■ رجل الشرطة المثالي الذي يستطيع ان يتخذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب ، لم يولد بعد !

رونالد جريجوري رئيس الشرطة في يوركشاير

■ الكذب والمباهاة للفت النظر اخطاء ارتكبتها ، ولا اريد لابنائي ان يقعوا فيها .

الفنانة جين فوندا

خرافات اقتصادية شائعة :

خرافة المستهلك الرشيد

بقلم الدكتور :جلال أحمد أمين

ان صورة المستهلك الرشيد ليست تعبيرا مضللا فقط ، ولكنها باتت أقرب إلى الخيال منها الى الحقيقة !

فمنذ أن كنا تلاميذ صغارا نتلقى دروسنا الأولى فى الاقتصاد ، وحتى أصبحنا نعلم تلاميذنا الاقتصاد ، ونحن نقول « دعنا نفترض أن المستهلك شخص رشيد » .وقد كنا نقبل هذا الفرض على أساس أنه ، حتى وان لم يكن فرضا واقعيا تماما ، فهو على الأقل يبدو لنا وكأنه تبسيط معقول للواقع .

وكان معنى هذا الفرض البسيط الذى دأبنا على قوله : ان المستهلك شخص يحوز كمية معينة من الدخل ، يعرفها أيضا تمام المعرفة ، ويواجه عددا من السلع والخدمات التى يعرف صفاتها وخصائصها ، فيشترى من كل منها كمية معينة بحيث يحصل منها كلها على أكبر قدر ممكن من المنفعة أو المتعة أو الاشباع فان لم يكن الأمر كذلك لكان من مصلحته ، ولقام بالفعل ، باعادة توزيع دخله بين مختلف السلع والخدمات بحيث يصل فعلا الى أقصى قدر من الاشباع .

افتراض مضلل

ان الاقتصادى كان دائما على استعداد للاقرار بوجود بعض الاستثناءات القليلة ، ولكنه لا يعتبر هذه الاستثناءات من الأهمية بحيث تدفعه الى اسقاط هذا الافتراض . من هذه الاستثناءات مثلا تأثير العادة . فالمستهلك قد يستمر فى شراء سلعة معينة ، بكمية معينة ، بحكم العادة وحدها حتى بعد أن يصبح ما يحصل عليه منها من اشباع أقل مما كان .

كذلك يقر الاقتصادى أن واقعية هذا الفرض تستند أيضا الى مدى تحقق فرض آخر هو قابلية السلع للتجزئة ، وهى قد لا تكون كذلك . فانا للأسف اذا شرعت فى شراء سيارة ، لا أجد أمامى سيارة بألف جنيه وأخرى بتسعمائة وثالثة بثمانمائة .. الخ ومن ثم قد أجد نفسى مضطرا الى أن أنفق على السيارة أكثر ما كنت أحب . ولكن فيما عدا هذه الاستثناءات أو التحفظات



تظل صورة المستهلك فى ذهن الاقتصادى هى صورة لشخص يملك زمام أمره ويتحكم فى مصيره ، يحصل على ما يحب (فى حدود دخله طبعا) ولا يحصل الا على ما يحب .

والذى أريد قوله فى هذا المقال هو أنه قد آن الأوان للاعتراف بأن هذا التصوير للمستهلك قد أصبح يتعارض مع الواقع لدرجة يتعين معها الكف عن استخدام هذا الافتراض كلية ، وان افتراض الرشاد فى المستهلك ، وافتراض قدرته على الوصول الى أقصى قدر من الاشباع ، وان لم يكن يتعارض تعارضا صارخا مع حقيقة الأمور عندما كان يكتب الاقتصاديون الأوائل ، قد أصبح اليوم يتضمن من التضليل أكثر مما يتضمن من تصوير الواقع أو حتى من الاقتراب منه

لقد كان الاقتصاديون الأوائل يتصورون مستهلكا ينفق دخله فى الأساس على ضرورات الحياة ، كالماء والملبس والمسكن . وهى أشياء يسهل على المرء أن يعرف صفاتها المادية الحقيقية ويتحقق منها ، كما يسهل عليه أن يتنبأ بمقدار المنفعة أو الاشباع الذى يحصل عليه من استهلاكها . أما الآن فان جزءا كبيرا من الدخل ، هو الجزء الأكبر فى المجتمعات المسماة بمجتمعات الرخاء ، ينفق على سلع وخدمات لا يمكن اعتبارها من قبيل الضرورات ، وكثير منها يتميز بدرجة عالية من التعقيد ، سواء فى طريقة صنعها أو حتى فى طريقة استهلاكها ، من التلفزيون والمكنسة الكهربائية الى الحاسب الالكترونى وأجهزة التسجيل .. الخ وهذا النوع من السلع من الصعب على المستهلك العادى ، الذى يمثل الغالبية العظمى من الناس ، أن يحيط بصفاته المادية وقدرته على تلبية حاجاته ، أو أن يعرف على وجه الدقة مقدار المنفعة التى يمكن أن يحصل عليها منه ، أو على الفترة الزمنية التى يمكن أن يتوقع دوام هذه المنفعة خلالها . فشراء المستهلك لهذا النوع من السلع ، يكاد أن يتضمن دائما نوعا من المقامرة ، أشبه بشراء « ورقة اليانصيب » ، والتى لا يعرف ما اذا كانت ستدر عليه ربحا حقيقيا أو ستصبح مجرد قصاصة من الورق عديم القيمة .

ثم ان هذه الأنواع الجديدة من السلع أصبحت تتطلب فى كثير من الأحيان سلعا وخدمات مكملة ، لا يمكن الاستمتاع بالأولى الا بوجود الثانية ، وتزداد هذه الحاجة الى السلع المكملة كلما زادت السلعة تعقيدا . والمستهلك كثيرا ما لا يعرف على وجه الدقة ، ولا يقول له البائع مقدما ، مدى اعتماد السلع التى يشتريها على سلع أخرى . أو تجده على الأقل لا يعرف على وجه الدقة ما سوف يكلفه الحصول على هذه السلع المكملة أو الخدمات الكفيلة بصيانتها . فنادرا ما يعرف المشترى لسلعة كهربائية وقت شرائها تكلفة استهلاك الكهرباء اللازمة لاستعمالها ، أو تكاليف صيانتها . وشراء تذكرة الطائرة قد يبدو لمن يعتزم السفر وكأنه كفيل بالوصول به الى المكان الذى يريد بلوغه ، فاذا به يكتشف أن هناك عددا لانهاية له من السلع والخدمات التى يتعين شراؤها لاتمام السفر بالفعل ، من تكاليف الانتقال الى المطار الى استخراج تأشيرات الدخول الى رسوم تجديد جواز السفر الى ضريبة المطار وهى نفقات يكاد يستحيل عليه مقدما أن يعرف مقدارها على نحو الدقة ولا حتى أن يتنبأ بضرورتها . واذا بكل اتفاق قديم يورطه فى اتفاق جديد ويستحيل عليه بعد لحظة معينة ، بعدما تورط فيه من اتفاق ، أن يعود أدراجه ويلغى المشروع بأكمله .

بين العادة والصدفة

وفى عصر تتعدد فيه أصناف السلع وأنواعها بدرجة لم يعرف لها مثيل من قبل ، بحيث يواجه المستهلك عشرات الأصناف من الجبن أو اللحم ، وعشرات المجلات الأسبوعية والشهرية ، والمسرحيات والأفلام والفرق الموسيقية وعشرات القنوات التلفزيونية والبرامج الاذاعية ، يصبح من العبث أن تفترض ان المستهلك قادر على المقارنة بين المنفعة المتوقعة من كل من هذه الاصناف وبين أثمانها ، لكى يحقق أقصى اشباع ممكن من دخله . واذا بالمستهلك مضطر الى أن يترك نفسه تحكمه العادة أو الصدفة أو الايحاء من البائع ، وليس هناك أى سبب للاعتقاد بأن الاختيار سيكون متفقا مع ميوله الحقيقية ، بل وقد تكون نتيجة الاختيار أسوأ مما كانت عندما كانت الأصناف المطروحة أمامه محدودة العدد . اذ كثيرا ما يجد المستهلك نفسه فى مواجهة سلع رديئة قامت بطرد السلع الجيدة » من فوق رفوف المحلات التجارية ، أو أمام اتجاهات متكررة بتجربة أصناف جديدة لا تستحق التجربة . لا عجب أن شبه أحد الكتاب حالة المستهلكين فى العصر الحديث بحالة الجالس فى مطعم صينى ، حيث يواجه بقائمة طويلة من اصناف الطعام التى يجهل كل شيء عن تسعة أعشارها على الأقل ، فاذا به يطلب صنفا سبق أن جربه ، ولكنه ليس بالضرورة أقرب الاصناف المتاحة الى ذوقه ، أو يطلب صنفا هو أبعد ما يكون عما يريد .

ولسنا فى حاجة الى تكرار ما هو معروف من خضوع المستهلك المستمر لخداع الحملات الدعائية ، ولكن هذا الخداع لم يعد الآن يقتصر على مجرد ترغيب المستهلك فيما هو ليس بحاجة اليه ، كتغيير طراز السيارة أو جهاز التسجيل ، بل أصبح فى كثير من الأحيان يندرج فى باب الكذب المحض فالكتب الجديدة مثلا أصبحت تحمل عناوين ضعيفة الصلة بمحتويات الكتاب ، ولكنها أكثر اجتذابا لاهتمام المستهلك ، وتحمل على غلافها مقتطفات مما كتبه النقاد عن الكتاب ، ممهورة بامضائهم ، ولكنها تسقط من هذه المقتطفات ما قد يكون قد أشار اليه النقاد من عيوب فى الكتاب .

وقل مثل ذلك عن اعلانات الأفلام السينمائية ونشرات الوكالات السياحية .. الخ على أن جزءا كبيرا من الحملات الدعائية للسلع يشترك فى نوع من الخداع .ذلك أنه حتى لو صدقت هذه الدعاية فيما تزعمه عن الفترة التى يمكن أن تدوم خلالها السلعة من الناحية المادية البحتة ، دون أن تبلى أو تتوقف ، فهى دائما تحاول خداع المستهلك فيما يتعلق بفترة دوام المتعة المستمدة من السلعة ، أو تحاول إيهام المستهلك بأن المتعة التى يمكن أن تجلبها له السلعة سوف تدوم مدة دوامها المادى .. وهو أمل سرعان ما يظهر أنه أمل موهوم ، فسرعان ما تعجز السلعة عن توليد المتعة التى ظن المستهلك أنها ستستمر . مثال ذلك الآلات الموسيقية التى تكاد لا تحتاج الى عازف ، اذ سرعان ما يكتشف المستهلك أنها تفرض عليه درجة من السلبية تتنافى مع أية متعة حقيقية ، أو نوافذ السيارة التى يمكن فتحها واغلاقها بالضغط على زر ، اذ سرعان ما يكتشف أن فترة الاستمتاع بها قد لا تمتد لفترة أطول من لحظة الزهو بها ، لأول مرة ، أمام المعارف والجيران .

مع انتشار الاحتكار

ثم أن نمط الحياة الحديثة يتميز ، أكثر منه فى أى وقت مضى ، باضطرار المستهلك الى الدخول فى نوع من التعاقد غير محدد الشروط يضع المستهلك نفسه بمقتضاه تحت رحمة البائع بحيث لا يصبح للمستهلك مفر من قبول كل ما يستجد من الشروط ، ومنها ما لو علم به مقدما ما كان ليرتبط بهذا التعاقد ابتداء . الأمر الذى يعنى فى نهاية الأمر أن مقدار الرفاهية (أو الاشباع) الذى يحصل عليه بالفعل أقل بكثير مما كان يتوقعه . وأبسط مثال على ذلك دخول المستهلك على مطعم دون أن يكون لديه أكثر من فكرة تقريبية جدا عما يمكن أن تكلفه الوجبة فيه ، فاذا به يستدرج الى استهلاك ما كان فى غنى عنه ، والى أن يدفع مقابل ما يستهلكه أكثر بكثير مما كان يتوقع ، ويكون اكتشافه لذلك بعد فوات الأوان . ولكن هذا مجرد مثال بسيط لما يتعرض له المستهلك باستمرار ، ابتداء من تعاقده مع مصلحة التليفونات على تركيب تليفون فى منزله ، تحتفظ المصلحة بمقتضاه بتغيير الشروط والاسعار كما تشاء ، الى الحاق أولاده بمدرسة لا تكف عن مطالبته بدفع ما لاطاقة له بدفعه ثمنا لخدمات حقيقية أو موهومة ، الى استدعائه كهربائيا الى منزله لاصلاح عيب فى أجهزته الكهربائية أو تركه لسيارته فى جراج لاصلاحها دون أن يدرى شيئا عما يمكن أن يطالب به فى النهاية . ومع انتشار الاحتكار ، لا يكون أمام المستهلك المسكين بديل عن قبول مثل هذا النوع من التعاقد ابتداء ، والاستمرار فيه حتى بعد اتضاح ما يتضمنه من استغلال .

وكلما أمعن المجتمع فى زيادة انتاجه من السلع

الكمالية والتفنن فى اضافة أنواع جديدة من السلع كلما زادت نسبة السلع ذات « الآثار الجانبية » التى يتعذر علينا أن نعرفها مقدما على وجه الدقة . فيوما بعد يوم يكتشف أن دواء بدأ استخدامه منذ سنوات له آثار جانبية شديدة الضرر بالصحة ويتم منعه من التداول ، أو يكتشف أن مادة كيماوية معينة تستخدم فى انتاج بعض السلع الاستهلاكية قد تكون من الاسباب المؤدية الى الاصابة بالسرطان ، أو أن الافراط فى استخدام نوع المبيدات الحشرية يؤدى الى التسمم ، أو أن الاستعانة باللبن الصناعى عن لبن الأم الطبيعى قد يحرم الطفل من بعض ما يحتاجه للنمو .. الخ وكلما زاد هذا النوع من السلع أصبح ذلك الافتراض الذى يتصور المستهلك عالما علما كاملا بطبيعة السلع المستهلكة وآثارها على رفاهيته ، أبعد أكثر فأكثر عن الواقعية . وأصبحت صورة « المستهلك الرشيد » أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة .

من الرشد الى الحيرة

أضف الى كل ذلك أن كلا منا بطبيعته يعانى من بعض صور اللاعقلانية التى تسمح للمنتج أو البائع باستغلالها لصالحه . فنحن جميعا نحب الشيء المألوف ونركن اليه ، ولكننا أيضا سرعان ما نمل ونحن نحب الجديد والطريف ، وليس فى هذا أو ذاك ما يمكن وصفه باللاعقلانية لولا أننا نتصور دائما أن قدرتنا على الاستمتاع بالشيء الجديد أكبر وأطول عمرا من قدرتنا الحقيقية . ونحن فى هذا نشبه الطفل الذى يصر على الحصول على لعبة جديدة ولا تفلح معه أى محاولة لاقناعه بأنه سرعان ما يزهدها ويملها ويرغب فى غيرها . ومهما حاولت أن تذكر الطفل بتجاربه السابقة مع لعبه القديمة وكيف ترك الواحدة منها بعد الأخرى بمجرد أن زالت عنها الجدة ، فانه يصر على أن هذه اللعبة الجديدة ليست كغيرها ، وان قدرته على الاستمتاع بها أطول عمرا . هكذا تبدو نحن تماما تجاه مختلف سلع الاستهلاك التى تعرض علينا ، ومختلف الموضات التى يرغب المنتج فيها ، اذ نميل الى أن نتصور أن قدرتنا على الاستمتاع بأى منها سوف تستمر زمنا أطول بكثير مما تستمر فى الحقيقة .

كذلك نجد كلا منا يميل فى بعض الأحيان الى تعليق أهمية مبالغ فيها ودون مبرر على الاستمتاع الحالى على حساب الاستمتاع فى المستقبل وفى أحيان أخرى تفعل العكس ، ولكن بصورة لاعقلانية أيضا . فنحن أحيانا نتصرف ، بصدد .. سلع الاستهلاك ، وكأننا سوف نموت غدا ، فنبالغ فى الانفاق على ما يحقق لنا منافع فورية ، مضحين فى سبيل ذلك بالاستمتاع فى المستقبل ، شأننا فى ذلك شأن الطفل الذى لا يستطيع الانتظار الى وقت وجبة الغذاء فيصر على تناول الحلوى الآن ، ولو أفسد ذلك عليه متعة الوجبة الكاملة . ولكننا أيضا نتصرف فى بعض الأحيان وكأننا نعيش أبدا ، فيؤجل الاستهلاك يوما بعد آخر وسنة بعد أخرى ، بالاضافة الى مدخراتنا على أمل أن يأتى يوم نرتاح فيه تماما من عناء العمل ونبدأ فى الاستمتاع بما سبق لنا ادخاره ، فاذا بهذا اليوم لا يأتى أبدا . والنتيجة فى جميع الأحوال أننا نتصور أننا نعمل على زيادة رفاهيتنا دون أن ننجح فى ذلك . فان الامعان فى زيادة الاستهلاك على أمل تحقيق استهلاك أكبر فى المستقبل كثيرا ما ينتهى الى التضحية بالاثنين .

هل آن الأوان أن يكف الاقتصادى عن الحديث عن رشد المستهلك وعقلانيته وأن يحدثنا بدلا من ذلك عن حيرته وضعفه وتناقضاته ..؟ وبدلا من أن يحدثنا عن المستهلك الرشيد أو ليس أولى به أن يحدثنا عن المستهلك « الغافل » الذى تعمل قوى لانهاية لسلطانها على استمرار غفلته .. ؟ . ■■

القاهرة - د . جلال أمين

الذئب والمرأة

ذهب الذئب فى الصباح ليبحث عن فريسة له ولذئبته فمر على كوخ فى الغابة فسمع امرأة تقول لطفلها : اسكت والا ألقيت بك من النافذة فيأكلك الذئب ـ فجلس طوال النهار عند النافذة ينتظر فلما أقبل المساء سمع المرأة تقول لطفلها انك هادىء وجميل فاذا جاء الذئب ليأكلك قتلناه : فلما سمع الذئب ذلك عاد الى زوجته جائعا فسألته هذه لم عدت بغير طعام ؟ فأجابها : حدث هذا لاني صدقت امرأة ...

مستقبل عينيك
في العدسات اللاصقة

بقلم : الدكتورة سرى فايز*

بعد ان غزت العيون في معظم ارجاء العالم فاحتضنتها الاجفان ، وارتاحت لها القرنيات وقيل انها مفاتيح النور والبصر لأنها تصحح عطل القرنية من سوءات الانكسار وعيوب الانحراف ترى هل ستعايش العين ابدا وهل حققت نصرا باهرا في عالم البصريات لايجارى ؟ . .

مع ان العيون الاصطناعية قد عرفت منذ اكثر من ٤٥٠٠ عام ، حيث وجدت في مومياء الفراعنة عيون اصطناعية عاجية ، الا ان العدسات اللاصقة بدأ صنعها في نهاية القرن التاسع عشر وان كان قد تنبأ الانسان بها قبل ذلك بقرون . فالفنان الشهير ليوناردو دافنشي كتب عنها في القرن السادس عشر حيث وصف كؤوسات زجاجية تملأ ماء وتوضع على العين فتغيم البصر . وفي القرن السابع عشر تحقق للعالم ديسكار ان القرنية تفقد قوتها الكاسرة عند تماسها بالماء لأن مشعري الانكسار في الماء وفي القرنية متماثلان . وأول من فكر بها كعلاج لتصحيح البصر هو العالم الفيزيائي توماس ينغ في القرن الثامن عشر .

وقبل ان اخوض في ميدان العدسات وانواعها واستطباباتها قد يفيدنا ان نمر بلمحة عن قدرة الانكسار في العين . الانكسار بمفهوم الفيزياء الضوئية تعني تغيير المنحى المتوازي للاشعة الضوئية تجميعا أو تفريقا حين تعبر وسط عدسة محدبة او مقعرة فتتلاقى في بؤرة حقيقية أو وهمية . والانكسار بمفهوم العين هو انعدام توازي الاشعة عندما تعبر العين الى داخلها فتنحرف الخيوط الشعاعية وتتقارب لتتلاقى في بؤرة ما ، اما على الشبكية ان كانت العين صحيحة الانكسار . واما أمام الشبكية ان كانت العين حسيرة البصر أو ذات قوة كاسرة كبيرة . واما خلف الشبكية ان كانت العين مديدة البصر أو ذات قوة كاسرة ضعيفة .

أما الاوساط التي تتولى مهمة الانكسار في العين فهي اثنتان : القرنية أي الجزء الشفاف الامامي من العين ثم العدسة البلورية وهي جسم شفاف محدب الوجهين يقع خلف البؤبؤ أو انسان العين . ويبلغ معدل القدرة الكاسرة في العين ستين كسيرة . أربعون كسيرة منها ، تعتبر قوة القرنية ، وعشرون كسيرة قوة العدسة البلورية . اذن فالقرنية تقوم بالعبء الاكبر من وظيفة الانكسار ، التي تعتمد قوة أو ضعفا على مدى تحدب القرنية ، ونقاء شفافيتها وسمكها وانتظام سطحها . وقد وهبها الله كل الخواص التشريحية والفسيولوجية لتبقى ذات قوة موزونة مقدرة لأنها خط الدفاع الأول لحماية باطن العين ، ولأنها مدخل النور اليه ، شديدة الحساسية لما تحتويه من الياف عصبية حسية غزيرة ، وشديدة النقاء لأنها لاتحتوي عروقا دموية ولالون لها وبقدرة عجيبة تتضح كل زيادة للماء فيها ، حتى لاتعتكر ويضطرب انتظامها . وهي تتغذى من اوكسجين الجو ، من خلال طبقة الدمع الرقيقة التي ترطبها ، ومن العروق الدموية التي تحيط بها ومن ماء العين الذي يملأ البيت الامامي .

أما اذا اختلفت وظائف القرنية ، واختل انتظام تحدبها وتعكرت فهنا لابد من اللجوء الى مايردف ويصحح قدرتها الكاسرة ، وهنا يأتي دور عدسات النظارة فاذا فشلت هذه العدسات اللاصقة ، واذا لم تفد الاخيرة فيلجأ لجراحة القرنية . ولقد درج تعبير العدسة اللاصقة بلغتنا العربية كترجمة غير دقيقة للتعبير الاجنبي **contact lens** . ولعل الاصح تسميتها بالعدسة الماسة لانها ليست

---

* استاذة جراحة العين في جامعة بغداد والجامعة الاردنية سابقا .



شكل يمثل عينا مديدة البصر ، وتتوضع البؤرة الضوئية أو الخيال المرئي فيها خلف الشبكية . وعينا سوية البصر : ينطبق الخيال فيها على الشبكية . وعينا حسيرة البصر : يتوضع الخيال فيها أمام الشبكية .

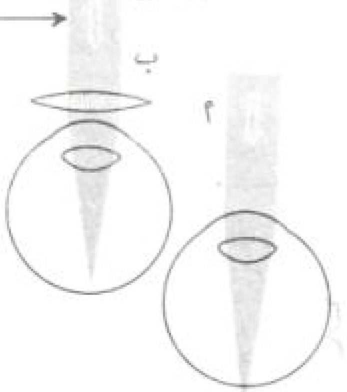


لصوقة بالمعنى الدقيق لكلمة الالتصاق بل تمس العين وتفصلها عن القرنية دائما طبقة رقيقة من الدمع لابد منها لئلا يتثنى ويضطرب سطح القرنية كلما تحركت العدسة عليه .

في البدء كان الزجاج

صنعت العدسات اللاصقة أولا من الزجاج وقد كانت بطريقة النفخ الزجاجي ، ثم ارتقت الى طريقة صبها حسب قوالب تطبع شكل وتحدب القرنية والصلبة عليها كما هو الامر في صياغة قالب الأسنان الاصطناعية ، ثم يبرد الزجاج ويلمع ويشذب حتى تصبح العدسة صافية لامعة ملساء السطوح . العدسة هذه كبيرة الثلث المركزي فيها يتوافق مع قرنية العين والثلثان المحيطان يتوافقان مع الصلبة في العين ، ولها سطحان مقعر يلاقي سطح العين ويقابلها ، ومحدب خارجي تتوضع عليه قوة العدسة الملائمة وهذا السطح يلامس بطانة الاجفان كلما تحركت اغماضا أو رمشا .

وقد بدأت في عام ١٩٥٠ حقبة جديدة في تاريخ العدسات اللاصقة حيث استعملت العدسات اللاصقة البلاستيكية الصلبة ، من مادة المثيل ميثاكريليت ، وصنعت صغيرة لتغطي القرنية فقط . ولقد ساهم عدد من علماء الفيزياء والفيزيولوجيا وعلماء الكيمياء البلاستيكية في ارتقاء وتقدم صناعة العدسات اللاصقة البلاستيكية ، فوضعت المؤلفات التي لايكاد يستطيع أن يحيط بها الفرد في اطار حياته المهنية ، لقد كانت الاتجاهات جميعا تسعى لصنع عدسة رقيقة لايزيد قطرها عن ٧ـ ٨ ملم ولاتزيد سماكتها عن ١/١٠ ملم تنحت من اقراص صغيرة بلاستيكية بواسطة مكائن خاصة . ولكن التقدم الصناعي في العدسات اللاصقة فاق كل شي حتى اصبحت تصنع عدسات لاتزن اكثر من اجزاء من المائة من الغرام ، وخاصة التي توضع جراحيا في البيت الامامي من العين بدلا من عدسة العين المريضة . ولكن مهما اتقن صنع العدسات اللاصقة ومهما بلغت من الخفة والصقل ودقة التفصيل فهناك عيون لاتستطيع بأية حال أن تتجاوب معها وتتقبلها ، بل تبقى تحس بأن هنالك جسما غريبا يهيجها ويقلق امنها ، وهنا تمخضت الابحاث في أجزاء شتى من العالم بدأتها تشيكوسلوفاكيا في أواخر الستينات بصناعة العدسات اللاصقة اللينة ، التي تحتوي نسبة معينه من الماء ، والآن تنتشر الشركات المصنعة للعدسات اللينة في انحاء الارض تتفنن في انتقاء مواد عدساتها ، من حيث المقاومة ، والرقة واللين . وأخذت الشركات المصنعة تتنافس فيما بينها ويقوم كل منها بشتى الدعايات لتصريف بضاعته وخاصة في العالم الثالث كل يدعي أن عدساته هي الأفضل والأحسن . ثم أوجد ما يسمى بالعدسات اللاصقة اللينة الدائمة التي يدعي صانعوها بامكانية ابقائها في العين ليل نهار ولعدة شهور . وكما كان هنالك مؤيدون لها وقف الكثيرون من الاخصائيين يعددون مضارها حسب ماتأتي به الأيام من اختلاطات واضطرابات عند من يستعملون تلك العدسات الدائمة ، ومن ناحية اخرى دخل الابداع والتفنن في صنع العدسات الى عالم العدسات



أ - عين حسيرة البصر يقع خيال الاشياء المرئية فيها أمام الشبكية لأنها ذات قوة عالية الانكسار .
ب - صحح سوء الانكسار بعدسة مقعرة مبعدة خففت من حدة انكسار العين فابتعدت الخيال نحو شبكية العين

الصلبة . فصنعت العدسات اللاصقة النافذة للأوكسجين كالعدسات السليكونية التي تصنع من مادة شبيهة بتلك التي يصنع منها مقبض فرشاة الأسنان والات عديدة بلاستيكية اخرى .

والعدسة المثالية كما يتصورها الاخصائيون عدسة خفيفة الوزن صغيرة ولكن لدرجة لاتصعب رؤيتها على المريض الذي يستعملها ، صافية جدا ، ملساء السطوح ، مرهفة الرقة ، بحيث لاتنطوي طوعيا على نفسها ولاتنكسر بسهولة ، عالية المرونة بحيث لاتمطط أو تغير ابعاد انحرافها ولاتتأثر بتغيرات الجو ، سهلة التناول والاستعمال ، لاتتلوث بسرعة ، ويمكن تنظيفها بسهولة ، ولايتغير لونها أو شكلها مع الاستعمال ، تتحملها العين الانسانية ، حتى لو بقيت في العين ابد الدهر دون أنْ تؤثر على انتظام خلايا القرنية السطحية ودون ان تتعارض مع شفافيتها . ولاتعترض طريق الدمع الى سطح العين . وينفذ الأوكسجين عبرها بسهولة الى القرنية وهي مع ذلك ليست باهظة الثمن ويستطيع ان يتحملها الصغير والكبير . الغني والفقير . وتستطيع ان تصحح كل اسواء الانكسار من مد وقصر وحرج غير منتظم . ترى هل تتحقق تلك العدسة ؟ يبدو ان الجواب في بطن المستقبل من يدري ما يحدث بعد تلك القفزات الواسعة السريعة التي انجزها صنع العدسات اللاصقة .

متى تلزم العدسات اللاصقة ؟

نظريا يمكن ان تكون العدسات اللاصقة بديلا لعدسات النظارة ولكن هنالك حالات خاصة لابد فيها من وصف العدسات اللاصقة والنصح بها . وبدونها لاوسيلة اخرى تعيد النظر السوي للمريض وتمكنه من الرؤية الدقيقة وهي كالآتي :

حالات الانكسار العالية : كقصر البصر الشديد ، ومد البصر ، في هاتين الحالتين تكون عدسات النظارة سميكة جدا وهذا بسبب أولا : تشويها لشكل الوجه وثقلا على جسر الانف والاذنين قد يسبب الصداع وتحددا في الساحة البصرية وفي حدة البصر وتشوها في كل الأشياء المرئية . أما العدسات اللاصقة فتهب المريض بصرا سويا مريحا وهي خفيفة الوزن مهما علت درجة سوء الانكسار وتعطي لابسها مجالا بصريا واسعا خاليا من عيوب التضيق والتشوه والزوغان وتعيد للوجه شكله الطبيعي . اذن هنا تكمن فائدتان في لبس العدسات اللاصقة . تجميلية وبصرية

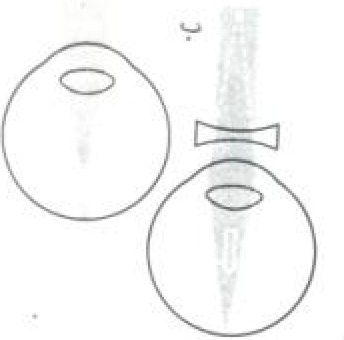
● حرج البصر العالي وخاصة اللامنتظم : عندما تخرج هندسة القرنية عن اطار التحدب الكروي الواحد ، أو الثنائي ، ويصبح انكسار القرنية الضوئي غير منتظم وهي الحالة المسماة « اللاانقطيه » ، عندها تلزم العدسة اللاصقة التي تصحح البصر وقد تصنع المعجزة في تقويم ما زاغ منه . ويدخل في هذا الحقل ما يسمى بالقرنية المخروطية فهنا لا مناص من استعمال العدسات اللاصقة . والبديل هو عملية ترقيع القرنية .

● وفي الحالات الجراحية : بعد استئصال الساد العيني أي تعتم العدسة البلورية وتكثفها ، تصبح العين ضعيفة الانكسار وتحتاج الى عدسة معيضة فاما توضع العدسة اللاصقة على القرنية أو تزرع جراحيا في داخل العين . وكذلك بعد عمليات ترقيع القرنية حين يلتئم الجرح وتبقى القرنية كثيفة أولا منتظمة الانحناء . وايضا في حالات جروح القرنيات وتمزقاتها وتقرحاتها حيث يلتئم الجرح ويشفى ولكن يخلف ندبة بيضاء مشوهة للبصر لن يصحح فيها الا العدسات اللاصقة

● حالات تشوه العين : لعل العين اغلى واجمل ما يحتويه الوجه فاذا تشوهت العين بسبب افة ما اتخذ الوجه صورة اخرى وتبدل فتأتي العدسة اللاصقة التجميلية لتجمل العين فتعيضها عما فقد من اجزاء ملونة بها وتعيد لها ما ضاع من بصرها وشتان بين شكل العين في الحالتين .

وعند وجود فروق بين العينين ، سواء كانت فروقا في الانكسار أو في الحجم أو في اللون أو في الشكل يمكن للعدسة اللاصقة أن تلعب دورا كبيرا في محو الفروق وايجاد التوازن . وحتى لو كانت العين فاقدة البصر كليا

أ ـ عين مديدة البصر ذات قدرة كاسرة ضعيفة يتوضع خيال الاشياء المرئيه فيها خلف الشبكية .
ب ـ صحح سوء انكسار العين بعدسة محدبة الوجهين مقربة اعادت الخيال ووضعته على شبكـة العين .



ومشوهة الشكل يمكن وضع عدسة لاصقة تجميلية تخفي وراءها عيب التشوه . فتغني عن اللجوء لاستئصال العين ووضع عين اصطناعية وفي ذلك توفير للحركة الطبيعية للعين نفسها . ولقد انتشرت منذ عقد من الزمن عدسات لاصقة ملونة يستطيع بها الشخص تغيير لون عينيه للازرق أو الاخضر أو الرمادي حسب المناسبات والضرورات ، ولعل اهم استطباب هنا ، حالات البرص العيني حيث تكون العين فاقدة لصباغها الطبيعي وفي هذا مافيه من تعرض للوهج الضوئي الشديد وحالة وخوف الضياء والدماع واضطراب البصر والرأرأة العينيه .

● ولادخال الدواء للجسم : في العيون التي جف دمعها وعطلت غدد الدمع فيها عن الافراز تستعمل انواع علاجية معينة من العدسات اللينة لها قدرة على امتصاص الماء بنسبة تفوق ٧٥٪ من وزنها فتهب العين رطوبة دائما وتحمي شفافية القرنية من الجفاف ، وقد لجأت شركات الادوية حديثا لتغيير القطرات العينيه ذات التراكيب الشتى بجسيمات صفيحية تشبه العدسات اللينة تغرس في احد ارتاج الملتحمة فتهب عطاء مستمرا للعين من تلك المادة الدوائية وتغني المريض عن وضع القطرات العينيه باستمرار ، كما في حالات داء الزرق العيني .

الوجه الآخر

لا بد من وجود ذلك ما دامت ستبقى في دائرة الاتقان والتطور مهما بلغ العقل المفكر او اليد الصانعة من درجة الاتقان . وما دامت جسما غريبا يوضع على قرنية حساسة شفافة . فاذا لم تكن العدسة اللاصقة دقيقة القياس حسب ما تتطلبه القرنية فهي لا شك ضارة حيثما افرطت في التحدب سعة أو ضيقا عما يلزم القرنية التي تتعايش معها . لأن عدم تناسقها مع القرنية مدعاة لأذى القرنية وظهور الندب عليها وغزوها بالعروق الدموية . لذلك كان لا بد من الدراية والخبرة لدى من يثبت العدسات اللاصقة ويجب ان يكون ذلك دائما تحت اشراف طبيب اخصائي في العيون ومما يؤسف له ان تثبيت العدسات اللاصقة اخذ ينمو نموا تجاريا في بعض بلدان الشرق الأوسط ، فيقوم بتثبيتها المتمرنون والفنيون دون اشراف طبي وقد يرافق ذلك تقرحات عينيه والتهابات لاحيلة للتقي ازاءها . ولا يجوز ان توضع العدسات في العين الا بعد التأكد من نظافتها ، وخاصة اللينه منها التي لا بد من تعقيمها قبل وضعها في العين ، والا اصبحت موردا رئيسيا لالتهابات العين وخمجها ومن الالتهابات ما هو شديد الضراوة قد يأتي على العين والبصر .

ومن مساوئها ان تفقد فجأة أو تكسر ، أو تجتاحها الجراثيم والطفيليات كما يحدث عادة في العدسات اللاصقة اللينه المهمله . فيتغير لون العدسة وتنعدم شفافيتها ، أو تمطط أو تصبح شنزة الحواف أو مجرحة السطوح ، ولصغرها وشفافيتها يسهل فقدها . لذلك وجب دائما ان يكون المريض حريصا عليها دقيق العناية بها . ولما كانت تستغرق الوقت الطويل ممن يثبتها كانت كلفتها غالية ، لذلك قامت شركات تأمين خاصة بالعدسات اللاصقة .

ومن مساوئها صعوبة استمرار وضعها ونزعها عند بعض الاطفال الذين هم بحاجة لها ، وما يرافق ذلك من عبء اضافي على الأم ، أو الأبوين . وعند هبوب الرياح المحمله بالاغبره ينصح باتقاء استعمالها لئلا تحدث تخريشا واحمرارا ودماعا للعين حين تتسلل ذرات الغبار والتراب بين العدسة والقرنية فتحدث ألما شديدا .

وبعد ، هذه هي العدسات اللاصقة التي يستعملها الآن ملايين من الناس في اصقاع العالم والتي تفوقت على عدسات النظارة في مجالات كثيرة ولكنها لم تستطع القضاء عليها . فما زال للاخرى محاسنها ، ومؤيدوها . العدسة اللاصقة بعد أن كانت حلم القرون الماضية اصبحت حقيقة هذا العصر ، فهذه الصفيحة الرقيقة الفهانة الشفافة كثيرا ما تكون الخط الفاصل بين العمى والبصر ، وبين الظلام والنور . ترى هل ستصبح في المستقبل تاريخا قديما باليا ؟ ■■

عمان ـ د . سري فايز سبع العيش

في الذكرى
الخامسة



محمود حسن اسماعيل
كانت حياته شعراً

بقلم الدكتور ـ عبد العزيز كامل

هذه صفحات من ذكريات عريضة مع الشاعر الكبير .. لمحات من حياة الفنان ، وقراءة في ابداعه الشعري .

كانت ولادة محمود حسن اسماعيل في ٢/ ٧/ ١٩١٠م في قرية النخيلة ، موكز ابو تيج بمحافظة اسيوط من صعيد مصر ، وكانت وفاته فجر الاثنين ٢٥/ ٤/ ١٩٧٧ بالكويت .

ودواوينه التي صدرت في حياته : اغاني الكوخ (١٩٣٤) ـ هكذا اغني (١٩٣٧) ـ أين المفر ؟ (١٩٣٧) ـ نار وأصفاد (١٩٥٩) ـ قاب قوسين (١٩٦٤) ـ لا بد (١٩٦٦) ـ التائهون (١٩٦٧) ـ هدير البرزخ (١٩٦٩) ـ صلاة ورفض (١٩٧٠) ـ السلام الذي اعرف : قصيدة طويلة ألقاها في مهرجان الشعر الدولي يوم ١٥/ ٨/ ١٩٦٩ بمدينة ستروجا بمقدونيا في يوغسلافيا ، ثم ألقيت بعد هذا ثلاث مرات بناء على دعوة ادارة المهرجان في حفلاته في مقدونيا ـ نهر الحقيقة (١٩٧٢) .

وكان له عند رحيله خمسة دواوين أخرى هي : صوت من الله ، وقد صدر عن دار الشروق ١٩٨٠ ـ ملحمة رياح المغيب ـ ديوان الحب ـ موسيقا من السر ـ موسيقا الجنائز . وعندما أهداني محمود ديوان نهر الحقيقة ، علق امام ديوان موسيقا الجنائز . . بكلمة « ضاع » .

عند الوفاة كنت في الخرطوم ، ورأيت حزن الاخوة في السودان عليه . وعدت الى الكويت وسمعت من الأهل والاصدقاء والاطباء ، كيف تعاونوا معه في لحظات تضطرب فيها الخطا ، وتتداخل المسارات ، ثم تلتقي الجهود وقد نفذ سهم القضاء .

أيام عاشها في الكويت ، محاطا بكل مشاعر الحب والرعاية .

كان نهاره عملا وتأملا ، ثم يفرّغ الى وحدته ليلا في بيته بحي الرميثية . لا يفتح بابه ـ كما تعود ـ إلا بإذن وحذر ، ولعدد محدود جدا من الاصدقاء . .

حتى جاء زائر على غير انتظار . وهل يطلب القدر إذنا ؟

وفي لحظة ، ينفجر شريان وتدور في رأسه معركة صامتة : الغازي فيها دم القلب ، والهدف شمس العقل . .

وتغربُ الشمس في الشفق الدامي . .
ويسكن القلب . .
وتنتهي المعركة .
وأن الى ربك المنتهى . .

عندما تكون الحياة شعرا

وهذا الحديث عن محمود ليس تحليلا ولا عرضا لشعره ، فدواوينه بيننا ، ولكن يعرض لمشاهد من حياته ، تبين أنه كان يحيا الشعر . المشاهد نفسها صور شعريةٌ حيّة : مشاهد من لقائه مع الاوفياء ، ومع المنافقين . من تناوله القضايا وتناوله الطعام . من افراحه واحزانه وآلامه . من حُبّه الحياة وتجنُّب ذكر الموت ، إلا في صورة حياة متجددة . ومِنْ حالات الابداع عنده . من تفاعله مع احداث العروبة الكبرى . بعض هذه المشاهد كان في الكويت وبعضها في مصر : أذكرها متدفقة كما تتدفق الحياة . .

في عطلة آخر الاسبوع ، جمعتنا مائدة الغداء ، وأدار نظره بين الاطباق :

ـ ماهذا ؟

قلت : ورق عنب محشو

قال : أبعده عني . إنه منافق .

ثم قال : وهذا ؟

قلت : كفت . . لحم وخضروات وأرز .

قال : أبعده عني أيضا . إنه منافق

ثم قال : وهذا الارز . قرِّبْه إليّ . وهذا اللحم . وهذه الخضروات الطازجة . هؤلاء اصدقائي . . ومِنْ بعدها الفاكهة .

قلت : ماذا تقصد بالصداقة والنفاق هنا ؟

فابتسم قائلا : أنت تعلم أنني قاسيت كثيرا من المنافقين ، الذين يظهرون مالا يبطنون . يكفي ما لقيت منهم ، لأزهد في طعام يذكرني بهم !! هذا ورق عنب بداخله أرز وخضر . ظاهره غير باطنه . وهذا الكفت أخلاط تجمعت : لحم وأرز وخضروات . هذه مخبآت . . . !! . أما الارز واللحم والدجاج ، فظاهرهم كباطنهم . هؤلاء اصدقائي على المائدة .

عندما تخطوه في الترقية

ونتنقل من مائدة الطعام الى المكتب . إلى عمله في إذاعة القاهرة .

وكان له أكثر من زميل يجيدون التزلف والتسلق . ولم

تكن عند محمود هذه القدرة ، ولا الاستعداد لها ، ولا الرضا بها .

لقيته يوما عند الاستاذ محمود شاكر في منزله بمصر الجديده - والود بينهما قديم . كان هذا بعد ان استولى زميل على درجة كان شاعرنا ينتظرها ، وهو بها احق . . يقول :

- دخلت على زميلي آكل حقي - محتجا ، فقام الرجل وانحنى امامي بكل احترام . . أتعجبُ دائما من ضخامة جسمه ومرونة انحنائه !! تدريب . تدريب طويل ، ذكرت معه القواصين الذين كانوا يصحبون السفراء : يحملون السيف ، ويجلسون الى جوار السائق . كل عمل القواص ، أن يقفز في خفة ليفتح الباب ، وينحني أمام السفير ، فاذا عاد فتح له الباب ، وانحنى ، ثم اغلق الباب ، وقفز الى جوار السائق .

أكيد أن هذا الرجل انحدر من ذُرِيَّة قواصين كانوا يعملون في السفارات .

ويتابع محمود وصفه :

- وابتسم « صديقي » . الفم مفتوح . الاسنان ظاهرة . شكل ابتسامة بلا ابتسام . كأنها فتحة فم قرصان . لا ينقصها الا الخنجر المعترض بين فكيه ، لتكون يداه في حرية ، ثم ليطعن بالخنجر في لمح البصر . تصورت خنجرا بين اسنانه . غريبة كانت ابتسامته ، وانحناؤه ، وأدبه الجم معي !! . ويا ولد : هات قهوة للاستاذ محمود بك . ويقوم ليقدم لي سيجارة . ويتلطف في إشعالها . . . أغرقني الرجل في كل هذا ، وبأن الامور قسمةٌ ونصيب . ويهمس قائلا : هناك ترقية قريبة ، وحركة تكميلية . . تخدير . تخدير !!

ونسأل : وما بعد يا أستاذ محمود ؟

يقول : لا بعد . خرجت وقد ازدحمت كل هذه الصور في ذهني . هذه الابتسامة الجافة ، كأنها ابتسامة صانع توابيت موتى . عندما يفرك يديه ، وينظر الى حالك تقودك وانت تخرج الثمن ، لا الى وجهك الذي يعلوه الحزن .

الآن تذكرت - يقول محمود - عندما اقترب موعد الترقيات ، وبادرني الصديق ، بتهنئة باكرة ماكرة كاذبة ، ويناديني باللقب المنتظر ، وهو يخطط لاغتصابه ، في دأب النمل وصمته ، حفرا في الأرض ، ومشيا على الحائط ، وتسلقا على الاغصان !! .

حب الحياة

ولم تكن لمحمود مع الموت صداقة او مودة . .

كان يتجنبه ، ويتجنب ما يذكره به من المواقف والاماكن والطرق . والموت في شعره يتحول الى حياة وامل وامتداد وخلود . . في ديوانه « صوت من الله ١٩٨٠ » يقول في قصيدة عنوانها الحمد لله . .

يا ربنا لك الصلاة
والحمد من كل الحياة
بكل ما تحيا الحياة تعبدك
وكل ما فوق الثرى يوحدك
وكلنا ندعوك يا رباه
يا ربنا لك الصلاة والحمد من كل الحياة . .

وتأمل تكرر لفظ « الحياة »

وفي قصيدته « مع الامل » من ديوان « نهر الحقيقة » يقول :

وجودي أمل
وعمري أمل
وكل حياتي أمل
ومهما تكن خافيات الأجل
فإني امل
ودرب جديد لنشط الامل

والفكرة كثيرة الصور والتواتر في « نهر الحقيقة »

أحسست بحبه الحياة لأول مرة عندما التقينا يوما في مصر الجديدة . وفي طريق العودة الى الجيزة - حيث يسكن محمود - أردت ان أختصر المسافة فأسلك طريق صلاح سالم (الموازي لجبل المقطم شرق القاهرة والى شرقه المقابر) . وسألني :

- أي طريق تسلك ؟

قلت : طريق صلاح سالم

قال : لا . طريق وسط المدينة أفضل .

قلت : إنه كثير الازدحام . إشارات المرور فيه كثيرة

قال : ولو . طريق وسط المدينة .

قلت : لمَ ؟

قال : عندما أسلك طريق صلاح سالم أرى كل هذه المقابر الممتدة ، من العباسية حتى مصر القديمة ، أتصور شواهد القبور أيد رخامية باردة ممتدة تشير إلي وتدعوني . لا بد ان أذهب يوما . ولكن هذا الحشد من الايدي الرخامية الداعية الى الموت شيء كثير . لا داعي لطريق صلاح سالم . وسط المدينة بين الأحياء أفضل . وتزداد رهبة هذه الشواهد ليلا وفي ضوء القمر . هذه الايدي الرخامية الباردة .

قلت : كما تريد . تسلك إن شاء الله طريق وسط المدينة . .

وفي الطريق سألته :

- ألا تشارك في تشييع جنازات الاصدقاء ؟

قال : لا ، ولا أحب الذهاب إلى سرادقات العزاء .

قلت : ألم تشيع مَرَّة ميتا ؟

فابتسم في حياء وهو يقول :
ـ مرة واحدة . ولم أعد لها .
قلت : لعله كان عزيزا عليك ؟
قال : لا . انا لا أشيّع جنازة عزيز . كان هذا الزميل يعمل معنا ، وكان شديد الايذاء لزملائه فاردت ان أحصي الذين يُشيّعونه . وكانوا قلة . سبعة عشر زميلا ، أحصيتهم ، ثم انصرفت .

مع الادوية

ويرتبط بهذا شدة اهتمامه بالأدوية ، ومصادقة الصيادلة والاطباء . كان له صديق صيدلي في الجيزة (بمصر) يكثر من الجلوس اليه ، والاستماع منه ، وسؤاله عن أحدث ما عنده . وأحب ان يكون أحد أبنائه صيدليا . ولا يكتفي بمعرفة اسم الدواء وفائدته ، ولكن يسأل عن تركيبه . ادوية الضغط . الفيتامينات . الجهاز الهضمي الخ . كأن زجاجات الادوية عنده متاريس يحتمي وراءها من الموت والمرض . خطوط دفاع ملموسة يراها امامه . قريبة من يده . في حجرة نومه حيث يكون . وأصدقاؤه الأقربون يعرفون فيه هذا الشغف بالادوية ، والاعجاب بالصيادلة وطول التأمل في رُفوفها وأسمائها .

وعندما فاجأته الأزمة الأخيرة ، ومن بعدها الرحيل ، كان الى جواره خط الدفاع من زجاجات الادوية . غيرها امر الله « فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . (النحل : ٦١)

دعته ظروف العمل الى ان يكون عضوا في لجنة يرأسها شاب حديث التخرج . وكان الشاب سعيدا باللقب العلمي امام اسمه ، فخورا به ، كأن اللقب يفتح له الطريق الى تصدر المحافل العلمية . ويتكلم الشاب ، ويفيض في القول . ومحمود في الجلسات صامت طويل التأمل . وفي اللجنة صديق له ، يلحظ طول صمته وصبره ، وقدرته على ضبط نفسه . ويسأله مرة بعد الجلسة :
ـ ما رأيك فيما يقول رئيس اللجنة ؟
فيبتسم ، ويلوذ بالصمت

وفي يوم من أيام الشتاء ، وهم يخرجون من اجتماع ، كان المطر غزيرا . ورأى محمود رئيس اللجنة يسرع الخطا الى سيارته . الصورة غريبة . كان يرتدي حذاء مرتفع الكعب عن المعتاد ، فمال جسمه الى الامام . ويحمي رأسه بكيس ورقي ، ويده تمسك الكيس حذر الرياح ، وأخرى مرسلة توازن الجسم المائل . اتجاهات ثلاثة في جسم سريع الحركة .

ويطيل محمود التأمل ، ثم تنفرج شفتاه عن ابتسامة ، ويقول كلمتين يركز فيهما ألمه وسخريته ، وصبره الطويل في الجلسات على ما يسمع من رئيس اللجنة :
ـ ينقصه ذيل !!
ماذا كان يقصد ؟
المعنى ـ كما يقولون ـ في بطن الشاعر .

كيف يكتب ؟

سألته مرة : كيف تكتب ؟ فقال :
حين تنفعل نفسي بموقف ، أحس أنها تمتلىء الى درجة لا اجد معها وسيلة الا أن أمسك القلم واكتب . . القلم هو الطريق الوحيد عندي للخلاص من هذا التوتر . صُور تتدافع في ذهني وتتشكل وتتحول الى كلمات .

أحيانا أُعِدّ قصيدة لمناسبة ، ولكن لا بد من هذا التهيؤ النفسي ، الذي اعيش به في جو القصيدة ، ومن احساسي بهذا الامتلاء الذي يسبق ميلاد القصيدة .
فسألته : أريد مثالا محددا ؟
قال : تذكر حريق المسجد الاقصى (وكان في ٢١ اغسطس ١٩٦٩) بعيد هزيمة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ، التي أوحت الى نفسي « هدير البرزخ » . وجاء الحريق بعد الهدير . وحدثتني لألقي قصيدة في احتفال وزارة الاوقاف بذكرى الاسراء والمعراج . ظلت المعاني والصور تتداعى في نفسي ، دون ان اكتب . وتجمعت ، وتجمعت ، وعندما جلست لأكتب كنت كأني أنقل من صحيفة ذهني . كنت أحس لفح لهيب الحريق ، ومشاهد الاطفاء ، وأنين المنبر ، وتجمع ماضي المسجد وحاضره ، وصلوات الأنبياء ، ودعاء العابدين . .
ويتابع محمود قوله :
ـ ظللت اكتب ، حتى قبيل موعد الحفل ، وفيه كتبت الأبيات الأخيرة . وعندما جئت المسجد ، كنت أعيش القصيدة ولا أكاد أرى أحدا حولي . واستقبلني من أجلسني الى جوارك ، في المحراب . . ولم يخف توتري ، ولم يعد إليّ الهدوء إلا بعد القائها ، وانتهاء الحفل ومبارحة المسجد » .

وفي ليالي الاظلام التام في معارك الاستنزاف بين مصر واسرائيل (١٩٦٩) ، كانت تتجمع الافكار في نفسه ، ويجد نفسه مدفوعا الى تسجيل شعره فيتحسس طريقه الى الاوراق والقلم ، ويكلف أحد أبنائه بايقاد مصباح بدوي صغير ، وأحيانا يجلس في الشرفة وفي ضوء القمر ، ويشير أحد أبنائه الى موقع الكتابة فيكتب ، ثم يحدد له موقع البيت التالي ليتابع الكتابة ، حتى يفرغ ما في نفسه . وقد يتكرر هذا في الليلة الواحدة . يكتب ويرقد ، ثم يعود إلى الكتابة ثم الرقاد . .

وطويلة كانت تأملاته ووحدته في مصر والكويت ، مع الليل والصحراء والنهر والخليج .

ولمحمود دور كبير في الكلمات الطيبة التي نسمعها في الاذاعة صباحا تحية وتبشيرا وخيرا .. برامج يمكن ان نسميها جميعا « صباح الخير » . وكذلك في التوجيه الى الاحاديث الدينية الطيبة صباحاً .

أذكر يوما في مكتبه في الاذاعة بالقاهرة . قال لي :

- أحيانا احس ان بعض الاحاديث الدينية صباحا زئير !! ..

ما حديث النار والعذاب ، والناس ذاهبون الى اعمالهم ؟ ! .

أحس احيانا ان أقدامي تلتف ، وأكاد أسقط ، عندما أسمع هذا في الصباح . الناس يحتاجون الى الكلمة الطيبة . مع الشروق تحية مشرقه ..

وكانت لنا تجارب . وأحسب أن محمودا ، ظل يسعى لاقرار وتوسيع هذا الخط الذي سرى في الاذاعات العربية ، من كلمات الصباح الطيبة ، في الاحاديث الدينية ، والبرامج المنوعة التي تجمع بين الكلمة والنغم والبسمة والحكمة والمعلومات الطريفة .

مرحلتان

واذا كان لي أن أقسم الاعمال الشعرية لمحمود حسن اسماعيل الى مرحلتين ، فاحسب ان أهم ماهز نفسه من أعماقها كانت هزيمة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . كانت - بحق - زلزالا عنيفا عصف بنفسه . وإنتاج محمود بعدها يختلف اختلافا واضحا عما قبلها . وهذه السنوات العشر الاخيرة من عمره شريحتان ، أولاهما هي أكثر خصبا وانتاجا : مابين الهزيمة ومعركة رمضان المجيدة في اكتوبر ١٩٧٣ . حتى اسماء الدواوين لها طابع متميز : التائهون . هدير البرزخ . صلاة ورفض . السلام الذي اعرف . نهر الحقيقة ... كأنها جميعا ملحمة متتابعة الفصول تبدأ بالتيه وتنتهي بالحقيقة .

نعم . بعض قصائد هذه الدواوين سابق للهزيمة ، ولكن لعلها كانت نبوءات ونُذُر . وحين جمعها في ديوان مع أخواتها التي عاصرت الأحداث ، بدت الوحدة الفكرية والفنية فيها .

ولا تجد فيما قبل الهزيمة ، هذا النفس الطويل المتمثل في « هدير البرزخ » الذي يود أن يخرج منه قومه الى النور الجديد . أو تجده في « السلام الذي اعرف » وهي تصوير إنساني شامل لما ينبغي ان تقوم عليه الحياة : ثورة على الظلم ، واستعادة لحق ، وعدلا بين الناس ، وإخاء شاملا .

تحية منه وإليه

في ختام قصيدة : السلام الذي أعرف يقول محمود :

من الشرق ناري ، ونوري
وشمسي التي لا تغيب
فيا أصدقائي
إذا عاد حر إلى أرضه في الصباح
وعادت مع النور تبسم كل الجراح
وكفّت عن البغي ، نار السلاح
وذابت مع اللون كل العناصر
وبادت من الأرض كل المجازر
ومالت عليها رياح التآمر
وسطو العصابات .. من كل باغ وغادر
وفكت عُراها حبالُ الخيام
ولم يبق فيها شريد مضام
وغنت مع الطير أمّ وطفل
وسبّح للحبّ غصن وظل
سأشدو ..
وتشدو جميعا بلحن السلام
ويشدوه حقل ودرب وبيت
وناى به من جراحي شدوت
ومن عللي الثائر الحر .. جئت !!

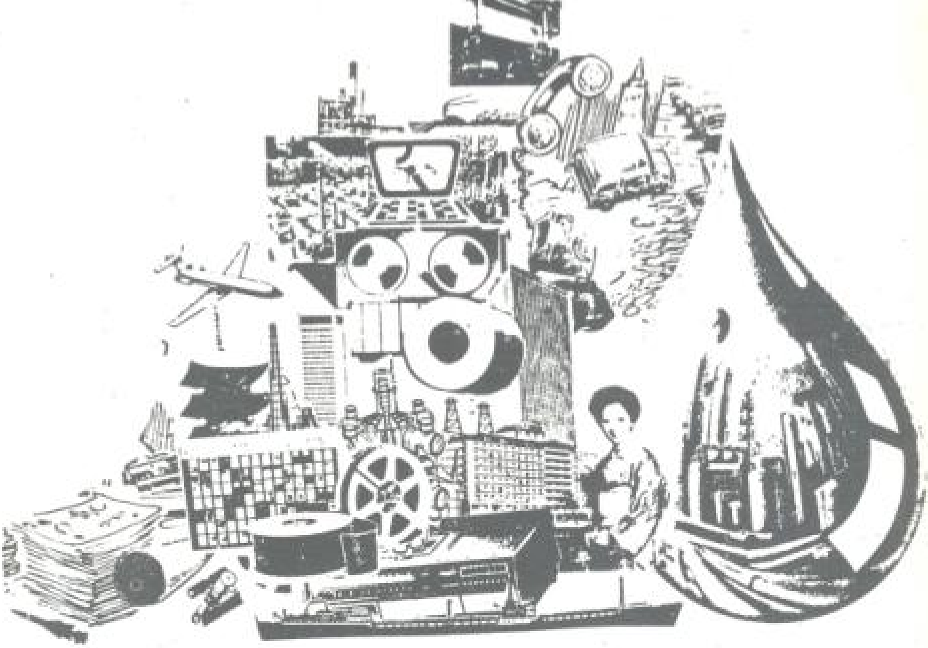
وبعد : فقد عاش « محمود » يحمل خضرة الريف بين جنبيه ، وشموخ النخلة في كبريائه ، وخصب الأرض الطيبة في عطائه ، وتدفق النيل في مداه .. عاش مصري الوطن ، عربي اللسان مسلم العقيدة ، إنساني النظرة . تتكامل هذه الدوائر عنده ، دون إهدار لاحداها على حساب الاخرى . عاش وترا مشدودا بين الوجود والخلود . يغني لكل هذه الآفاق . وعودوا الى « نهر الحقيقة » لتروا صورا من نظراته على قمته العالية وقد جاوز الستين . صورا يصالح بها الكون في آفاقه : الحب - الحياة - الارض - النهر - الطريق - الشمس - الامل - النفس البقاء - الصلاة ... كلها من عناوين قصائده في الكتاب ....

وندع شاعرنا في نهر الحقيقة يناجي ربه قائلا :-

الهي .. وفي كل شيء رأيتك
الهي .. رأيتك ، إني سمعتك
تعاليت .. لم يبد شيء لعيني
تعاليت .. لم يَشْدُ صوت بأذني
ولكن نورا بقلبي يُطل .. ومن طيفه كل نور يهل

ولتكن هذه الأبيات تحية ، منه وإليه ، في ذكراه الخامسة .

د. عبد العزيز كامل



معركة اليابان وأوروبا في ميدان الاقتصاد والصناعة
أحد أهم المعارك التي تدور في عالم اليوم

لغز اليابان!

بقلم: الدكتور عبد الامير العبود

ازدادت مخاوف دول السوق الاوربية المشتركة في السنوات الاخيرة من التوسع المذهل الذى تميز به موقع اليابان في الاقتصاد الدولي ، حيث اصبحت المنتجات اليابانية تنافس منتجات دول السوق الاوربية المشتركة على الصعيد الداخلي والدولي ، نظرا لما تتمتع به تلك المنتجات من رخص الاسعار وجودة النوعية ولم تعد هذه المنافسة مقصورة على عدد قليل من السلع ، بل اصبحت تتضمن قائمة طويلة من السلع الهامة ذات الموقع المؤثر في اقتصاديات تلك الدول .

ومما زاد من قلق دول السوق الاوربية المشتركة هو ذلك التحول الذى حصل مؤخرا على هيكل التجارة اليابانية الاوربية ، فالصادرات اليابانية الى دول السوق الاوربية المشتركة اصبحت تتضمن اليوم الكثير من السلع المصنوعة الهامة داخليا « ودوليا » ، بل مجموعة

من السلع التي تعتبر دول السوق الاوروبية المشتركة نفسها هي الرائدة في انتاجها وتسويقها داخليا « ودوليا » بدليل ان الصادرات اليابانية اصبحت تتضمن اليوم مجموعة من السلع الاستهلاكية الهامة كالسيارات واجهزة التسلية الالكترونية والانسجة والساعات والحاسبات وآلات التصوير الى جانب سلع استثمارية باهظه القيمة كالفولاذ والسفن والمكائن والمعدات . بينما تكون صاردات دول السوق الاوروبية المشتركة الى

اليابان اساسا من السلع الاستهلاكية البذخية كالوسكى والتسلية والحقائب اليدوية والشراب والملابس والسيارات . والاختلاف الذى حصل على هيكل التصدير مؤخرا » هو ان السوق الاوروبية المشتركة اصبحت تصدر من السلع الاستثمارية الى اليابان اقل بكثير مما تستورده منها ، وان بعض السلع اليابانية اصبحت تكتسح اسواق اوربا الغربية بشكل مذهل خاصة السيارات والمسجلات واجهزة الفيديوتيب والتلفزيونات الملونة والسفن والموتورسيكلات وقد

ترتب على هذا التطور غير المتكافىء في المبادلات التجارية بين هذين القطبين الدوليين ظهور العجز في الميزان التجارى لدول السوق الاوروبية المشتركة ازاء اليابان منذ عام ١٩٧٣ . وتفاقم هذا العجز في السنوات الاخيرة حتى بلغ ٦/٠٣ مليار دولار عام ١٩٧٧ ثم ازداد الى ٧/١٧ مليار دولار عام ١٩٧٩ وكان مقدار العجز خلال الاشهر الثمانية الاولى لعام ١٩٨٠ وحدها ٥/٢٨ مليار دولار كما يتضح ذلك من الجدول التالي :

ومما يخيف دول اوربا الغربية هوان هذه المشكلة لم تعد مشكلة تجارية بحتة اطارها التنافس لكسب الاسواق او الحصول على الربح انما اصبحت لها اثار اجتماعية واقتصادية خطيرة باتت تهدد دول السوق في السنوات الاخيرة . ذلك لان منافسة السلع اليابانية هي سبب تعثر الكثير من الصناعات الاوربية وعجزها عن مواصلة الانتاج ، بل الكثير من هذه الصناعات اضطرت الى غلق ابوابها والبعض الاخر كانت امام ضرورة تقليل انتاجها او العجز عن استيعاب انتاجيتها القصوى . وقد ترتب على ذلك تعرض اعداد كبيرة من العمال الاوربيين للبطالة . ولهذا عندما كان يجرى النقاش عن ازمة الكساد والبطالة التي عاشتها دول اوربا الغربية كانت المنافسة اليابانية تطرح كاحد العوامل المسببة لتلك الازمة .

عوامل التفوق الياباني

ولكن ما هي عوامل التفوق الياباني على دول السوق الاوربية المشتركة . وكيف استطاعت اليابان التي لايشكل سكانها سوى ٢ر٧٪ من سكان العالم والتي لا تبلغ مساحتها سوى ٢٥ر٪ من مساحة العالم ان تحتل خلال الثمانينات من هذا القرن قرابة ١٠٪ من الانتاج الصناعي العالمي و ٨٪ من مجمل التجارة الدولية ؟ ، ولماذا كسبت رهان المنافسة على الموقع الثاني بعد الولايات المتحدة الامريكية في الاقتصاد العالمي الراسمالي ؟

الميزان التجارى لدول السوق الاوربية المشتركة مع اليابان (بمليارات الدولارات)

	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠ كانون الثاني ـ تشرين
الاستيراد	٨ر٧٥	١١ر١٠	١٣ر٤٢	١٠ر٣٦
التصدير	٣ر٥٣	٤ر٧٥	٦ر٣٥	٥ر٠٨
عجز الميزان التجارى	٥ر٢٢	٦ر٣٠	٧ر١٧	٥ر٢٨

المصدر: Wilholm Hafarkamp

الاسباب التي تكمن اساسا « في العوامل الذاتية لتطور الاقتصاد الياباني ، والتجربة الفريدة في النمو والتطوير التي اعتمدتها اليابان لنفسها والتي سنحاول الاشارة الى اهم اتجاهاتها تباعا » :

١ ـ ارتفاع الانتاجية

قد يكون هذا العامل هو العامل الرئيسي لانخفاض التكاليف في الاقتصاد الياباني خاصة خلال عقد السبعينات والثمانينات من هذا القرن ، لقد كان تحقيق السبق التكنولوجي احد الاهداف المركزية ، فاليابان منحت البحث والتطوير اهتماما « خاصا » وكانت لها تجربة رائدة في تشجيع البحث والتطوير في كافة جوانب الانتاج ، ولم تكتف بخلق التكنولوجيا داخليا من خلال اهتمامها بكافة جوانب البحث والتعليم والتأهيل واعادة التأهيل ، بل مارست دورا « مبدعا » في تطويع التكنولوجيا الاجنبية وفقا « لبيئتها الاجتماعية ومتطلبات انتاجها . فما ان يظهر اختراع في العالم الا وبادرت الى شراء براءة ذلك الاختراع ونفذته في الحال ، وما كانت تبخل في شراء البحوث والوثائق العلمية وبراءات الاختراع وتراخيص الانتاج وغيرها من جوانب التقدم التكنولوجي ، بينما كانت اوربا الغربية تتلكأ احيانا » من تنفيذ ما يحصل لديها من مبتكرات واختراعات لما تنطوي عليه من تكاليف باهظة ، ومثال الفيديوتيب الذي اخترعه الاوربيون وأنتجه اليابانيون دليل واضح على ذلك .

ولم يكن السبق التكنولوجي هو العامل الوحيد لارتفاع الانتاجية في اليابان بل هنالك عوامل عديدة منها ان المصانع اليابانية تستنفد طاقتها القصوى على افضل وجه . ولا توجد في اليابان عطل طويلة كتلك التي في اوربا ولا مشاكل تعدد وجبات العمل . وكانت حصيلة هذه العوامل ان الانتاجية في اليابان تنمو بوتيرة اسرع من الاجور طوال السنوات الاخيرة .

وبالمقابل فان الاجور في أوروبا الغربية تنمو بمعدلات اسرع من الانتاجية .

٢ ـ انخفاض الاجور

والاجور في اليابان منخفضة عن مستوياتها في دول اوربا الغربية ، والعامل الياباني قنوع الطبع لايطالب بزيادات غير اعتيادية لاجوره كنظيره الاوربي ، والنقابات اليابانية لاتبالغ في المطالبة بزيادة الاجور .... هذا العامل يعتبر تأريخيا « احد العوامل التي ساعدت اليابان على تخفيض تكاليف منتجاتها قياسا » الى دول اوربا الغربية .

٣ ـ مراعاة التحولات في هيكل الاقتصاد الدولي

لم يكن الطلب في السوق المحليةهو المحدد لهيكل الصناعة اليابانية على غرار ما يحصل في اوربا انما كانت اليابان تنطلق من الطلب في الاسواق الدولية ، ولهذا كانت تمنح الافضلية لتلك المشروعات التي يلاقي انتاجها طلبا « متزايدا » في السوق الدولية ، وهي تراعي في انتاجها كافة متطلبات السوق الدولية من حيث النوعية والسعر وشروط التبادل ، بل ما يميز الاستراتيجية الاقتصادية اليابانية انها كانت تتابع التحولات التي تحصل في هيكل الاقتصاد الدولي ثم تحاول التكيف حسبما يستجد من تغيرات في هذا الهيكل اولا « باول ، بمعنى اخر ان هذا القبول الذي تحظى به السلع اليابانية في الاسواق الدولية انما هو حصيلة مرونة الاقتصاد الياباني وتكيفه السريع لما تتطلبه مواصفات السوق الدولية سواء » في الامد القصير او الامد الطويل .

٤ ـ رخص المواد الاولية

تحظى اليابان بسبب موقعها الجغرافي القريب من مصادر المواد الاولية خاصة في الشرق الاقصى ، والشرق الاوسط بميزة الحصول على نسبة عالية مما تحتاجه من مواد اولية باسعار ارخص مما تحصل عليه دول اوربا الغربية .

٥ ـ التربية الاجتماعية

لا يمكن فصل هذا التفوق الذي حصلت عليه اليابان في المجال الدولي عن طبيعة وسلوك الفرد الياباني وما يتميز به من حب للعمل واطاعة للنظام وتقبل للتطوير ، هذه الطبيعة التي جاءت نتيجة لما استقر عليه المجتمع

الياباني عبر التاريخ من قيم اجتماعية وتقاليد واعراف كانت اليابان تحرص على ترسيخها والحفاظ عليها عبر كافة المؤسسات المؤثرة في تربية هؤلاء الافراد ابتداء من العائلة ومرورا » بكافة مؤسسات التربية والتعليم .



٦ - جمود الاقتصاد الاوروبي وتعثره

اليابانيون يتحدثون احيانا « عن خرافة السباق بين السلحفاة والارنب عند الحديث عن التفوق الياباني على دول اوربا الغربية ، حيث غطت الارنب بالسبات العميق عندما وجدت نفسها قد سبقت الارنب مسافة طويلة في بداية السباق . هذا السبات ساعد السلحفاة على الوصول الى النهر وكسب الرهان اخيرا » . وهكذا فمن عوامل التفوق الياباني ان اوربا الغربية غطت بالسبات خلال عقد الستينات والسبعينات نتيجة ما كانت تعانيه من مشاكل وازمات اقتصادية كانت اليابان بعيدة عنها كازمة الكساد والتضخم وازمة البطالة وازمة النقد وهو ما ساعد اليابان على التفوق مستعينة بخطواتها المتواضعة والمتواصلة .

اتهامات منظمة السوق الاوربية المشتركة

لا تعتقد منظمة السوق الاوربية المشتركة بان العوامل الذاتية لنمو الاقتصاد الياباني وحدها هي التي تقف وراء زحزحة .. موقع دول اوربا الغربية في الاقتصاد الدولي وبروز موقع اليابان فيها . بل انها تفسر ذلك بمجموعة من الاجراءات الاقتصادية التي اصبحت تطبقها اليابان في السنوات الاخيرة والتي تشكل خرقا « للقواعد والاعراف السائدة في الاقتصاد الدولي والتي نستعرضها كالاتي : -

١ - ان اليابان كانت تستنسخ وتقلد براءات الاختراع وتراخيص الانتاج .

٢ - انها تخفض سعر الين فنيا في سبيل دعم صادراتها .

٣ - انها تطبق سياسة الحماية سواء عن طريق الرسوم الكمركية او غيرها من الاجراءات .

٤ - ان اليابان تطبق سياسة الاغراق .

٥ - انها تبالغ في تطبيق اجراءات التصدير .

٦ - انها اعتمدت المنافسة سبيلا لتكوين مواقع احتكارية في الاسواق الخارجية .

٧ - انها تعرقل الاستثمارات الاجنبية غير المباشرة داخل حدودها .

لكن أيا من هذه الادعاءات لم يكن قابلا للاثبات لكي يناقش سواء « على مستوى منظمة الجات او غيرها من المنظمات او خلال المفاوضات التي يشترك فيها الطرفان .

سبل مجابهة التفوق الياباني

البدائل التي تمتلكها دول السوق الاوربية المشتركة لمجابهة التفوق الياباني عديدة لكن اغلبها عسيرة التنفيذ غير مضمونة النتائج : -

١ - فهذه الدول لا تستطيع تخفيض الاجور سبيلا لتخفيض التكاليف لان الاسعار الداخلية في اوربا تتسلق بالارتفاع والعامل الاوربي اعتاد على نمط من المعيشة لايقبل التنازل عنه والنقابات الاوربية تدعم عمالها في هذا الشأن .

٢ - والارتفاع بالانتاجية هدف تكتنفه الكثير من المصاعب ، وان كان اكثر البدائل فعالية ، ليس لان العامل الاوربي والنقابات الاوربية ترى في تطبيق الانتاجية المرتفعة شبحا « يذكرها بخطر البطالة فحسب ، وانما لان اختيار الانتاجية المرتفعة يعني الكلفة الباهظة والتضحية بالمعدات القديمة ، وهو ما تعجز عن تحقيقه الكثير من القطاعات التقليدية . واختيار الانتاجية

المرتفعة لا يضمن لكافة القطاعات التقليدية امكانية الوقوف بوجه السلع اليابانية فطالما ان كلفة بعض المنتجات الاوربية تعادل الضعف تماما » لما هي عليه في اليابان فان من الصعب الاعتماد على الانتاجية لتعويض هذا الفرق في التكاليف الذي تسببه كما لاحظنا عوامل كثيرة .

٣ ـ ازاء المنافسة الحادة التي تعاني منها دول السوق الاوربية المشتركة في اسواقها الداخلية من جراء رخص السلع اليابانية ، لم تجد دول السوق لمجابهة هذه المشكلة بديلا افضل من فرض القيود التجارية على السلع اليابانية كقيود الحصص والرسوم الكمركية ، غير ان تطبيق هذه القيود محدود بما تسمح به الاسس والمبادىء التي تلتزم بها دول السوق الاوربية المشتركة تجاه الدول ذات الاقتصاد الحر خاصة من خلال عضويتها في منظمة الجات او المنظمات الدولية الاخرى .

٤ ـ اذا كانت البدائل السابقة عسيرة التنفيذ غير مضمونة النتائج فالبديل المطروح للنقاش كافضل البدائل التي تساعد للوقوف بوجه الزحف الياباني هو اجراء التحولات الجذرية في الهياكل الاقتصادية لدول السوق الاوربية المشتركة ، فعلى هذه الدول ان تتنازل تدريجيا » عن تلك القطاعات الكثيفة العمل وان تتجه للتركيز على تلك القطاعات التي تتميز بكثافة راس المال ، عليها ان تطور سلعا جديدة وان تركز على اقامة تلك القطاعات التي تساعد على توسيع موقع اوربا في الاقتصاد الدولي كصناعة الافران الذرية والمعامل الجاهزة ، والطاقة الشمسية ، ووسائل النقل وغيرها من المنتجات التي تتميز بطلب متزايد في الاقتصاد الدولي .

٥ ـ ان هذا التفوق الذي حققته اليابان على المستوى الدولي انما هو برهان تجربة فريدة في الادارة والانتاج والتطوير والتسويق نجحت اليابان في تطبيقها والمطروح للنقاش امام دول السوق الاوربية هو ضرورة دراسة هذه التجربة والاستفادة منها ، والتحري عن آفاق جديدة للتعاون بينها وبين اليابان ، هذا البديل يطرحه اليوم الكثير من المسؤولين في منظمة السوق الاوربية المشتركة .

الاستنتاجات

ان عوامل التنافس بين اليابان ودول السوق الاوربية المشتركة التي يناقشها هذا البحث تثير جوانب جديرة بالتأمل والنقاش وهي حصيلة تجارب هذين القطبين الدوليين في مضمار النمو والتطور واساليب الهيمنة على الاسواق الدولية ، وبعض هذه الجوانب ينبغي على الدول خاصة الدول العربية منها ان تتناولها بالبحث والدراسة لفرص الاستفادة منها في مسيرتها التنموية ، ولعل من ابرز هذه الجوانب : ـ

١ ـ ان النمو السريع لموقع اليابان في الاقتصاد الدولي انما هو حصيلة النموذج الفريد الذي اعتمدته اليابان لنفسها سبيلا للنمو والتطوير والدخول الى الاسواق الدولية ، هذا النموذج جدير بالدراسة والبحث لفرص الاستفادة منه خاصة تلك الجوانب المتعلقة بالبحث والتطوير والادارة .

٢ ـ ان الارتفاع بالانتاجية يعتبر في عالم اليوم احد الجوانب الاساسية لعملية التطور والنمو بكافة تفاصيلها ، بل ان السباق بين دول العالم في مضمار التطور هو بالاساس سباق حول الارتفاع بالانتاجية ، ويبدو ان الارتفاع بالانتاجية رهين والى حد بعيد بكيفية الاستفادة من آخر منجزات العلم والتكنولوجيا خاصة تلك الجوانب المتعلقة بالبحث وبراءات الاختراع والوثائق العلمية وتراخيص الانتاج .

٣ ـ ان المرحلة الراهنة هي مرحلة التشابك بين الاقتصاد الدولي والاقتصادات الوطنية حيثما يمارس الاقتصاد الدولي تاثيرات ايجابية او سلبية واسعة على الاقتصادات الوطنية.لذلك فان اسلوب التنمية اينما حصل ينبغي أن يراعي التحولات التي تطرأ على هيكل الاقتصاد الدولي في سبيل اختزال المؤثرات السلبية واستيعاب المؤثرات الايجابية التي قد يمارسها الاقتصاد الدولي .

٤ ـ ولعل مسألة مثيرة وخطيرة اكتشفها الباحث من خلال المصادر التي اعتمدها في بحثه هذا ، هي ان دول اوروبا الغربية في كافة مفاوضاتها الرسمية التي اجرتها مؤخرا مع اليابان ، كانت تطالب اليابان بتقليل صادراتها الى دول السوق الاوروبية المشتركة والتوجه نحو الدول النامية خاصة دول الشرق الاقصى والشرق الاوسط ، وكان هذا هو احد الحلول القليلة التي وافقت عليها اليابان ، هذه الظاهره ان كانت لها دلالات كثيرة فهي تدل في كل الاحوال على ان الدول المتطورة عندما تعاني من المشاكل تحاول بالاخير قذف مشاكلها على الدول النامية .

د . عبد الامير العبود

... لجأ اليها للشفاء .... فاذا بها موطن الداء ...

السّاحرة

شعر :
جمال حماد

أحقاً سوفَ تَشفيني   من الكهّان والسحْرِ
وأعطتني تمائمهَا   لتحميني من الضرِّ
وأوصتني بآياتٍ   لأتلوهَا مَعَ الفجْرِ
وخرزاتٍ أعلقهَا   لطرْدِ العيْنِ والشرِ
ومنْ أسواقِهَا جلَبَتْ   بُخوراً ناجعَ الأثَرِ

******

تعاويذُ وأدعيةُ   لردِّ الشرِّ والحسَدِ
لأشفي منْ جراحَاتٍ   ينوءُ بحمْلِهَا جَسَدِي
سقيمِ النفسِ أرّقَني   بلاءُ الهمِّ والسُّهْدِ
عليلٌ لا يفارقني   عذابُ اليأسِ والكمَدِ
وآلامٌ أكابِدُهَا   كسهْمٍ باتَ في كبدي

******

دواء أنتِ أمْ داءْ   وجُرحٌ أنتِ أمْ بَلْسَمْ
وخيرٌ أنتِ أم شرُّ   وحلو أنتِ أم علْقَمْ
أتسحرُني وتشفيني   ومنْ جُرحِي تداويني
وبعدَ البرءِ ترميني   بسهم الحب يكويني
لهيبُ الوجْدِ أرّقَني   وقلبي في الهوَى سلَّمْ



وجئتِ اليومَ ترقبني   بما أعددتِ من فتّك
وأنتِ الساحرُ العاتي   فكيف الفكُّ من سِحرِكْ
وأنتِ الآسِرُ القاسيْ   فلا افلاتَ منْ أسرِكْ
وأنت الآمرُ الناهي   فلا إمْهالَ في أمرِكْ
وشعري صاغ ألحانا   وقلبي ذاب في حُبّكْ
وفكري بات مَسْحوراً   يهيمُ اليوم في حُبّكْ

******

أحقاً سوف تحميني   من الكهّانِ مالكتي
دعيهُمْ إنَّ سطوتهم   تلاشت عند ساحرتي
فما سحر يخوفني   سوى من لحظ فاتنتي
وما أسرٌ يؤرقني   سوى قضبان آسرتي
وشعري لا يطاوعني   فأنت اليوم ملهمتي

******

دواءٌ أنْتِ أمْ داءْ   وجُرحٌ أنْتِ أمْ بلسم
وخير أنْتِ أم شرٌ   وحلو أنْتِ أمْ علقم
أتسحرني وتشفيني   ومن جرحي تداويني
وبعد البرء ترميني   بسهم الحب يكويني
لهيبُ الوجْد أرّقني   وقلبي في الهوى سلم

محنة اللغة العربية بين المشرق والمغرب

بقلم فهمي هويدى

عندما كتبت عن محنة اللغة العربية في افريقيا ـ في العدد السابق ـ لم يخطر لي وقتئذ ان البيت العربي من زجاج ، كله في رأيي ، وبعضه بالتاكيد !

ذلك ان المحنه لها امتدادات واشكال مختلفه في عالمنا العربي ذاته ، وان اخفت ادلتها اللافته العريضه الممتده من المحيط الى الخليج ، والاغتيال قائم وثابت في كافة « الدفاتر » العربيه . وسواء تم ذلك بالخطأ والاهمال ، او مع سبق الاصرار والترصد ، فذلك لا يغير من واقعة الاغتيال ، وانما ينسحب اثره فقط على « التكييف القانوني » لموقف الجاني ، ويظل القتيل هو القتيل ولو طوقنا عنقه بالمخمل والحرير !

ولقد تلقيت خطابات عديدة ، انهالت كالمطر بعد نشر مقال الشهر الماضي حول هذه « المحنه » في افريقيا ، تراوحت بين لفت النظر والنقد في كتابات المشارقة ، وبين الاستغاثة والاستنفاذ من جانب المغاربة . ومعذرة لاستخدام هذا التقسيم ـ الذي لن يسلم من نقد الغيورين والمتحمسين ـ فاسلافنا لم يعرفوه ، منذ اكتفوا بالهوية الاسلامية يقدمون بها انفسهم . وكان الواحد منهم يسيح في ديار الاسلام من اقصاها الى اقصاها ، ويتبوأ مكانه حيث يذهب ، وليس في وثائقه الا تلك الهوية . بها خرج ابن بطوطه من طنجه ليعين قاضيا في دلهي . وبها خرج ابن خلدون من فاس ليحتل مكانه شيخا للشافعية في القاهرة .. وهو الذي كان يعرف بانه التونسي مولدا ، الفاسي منشأ ، الغرناطي او التلمساني دارا ، المصري وفاة ومدفنا !

ولكن عملية التفتيت والتجزئة التي حدثت تشكل محنة أخرى على أي حال !

لقد استخدمت تعبير المشارقه والمغاربه ، ليس فقط لأن الاصطلاح استقر ودخل قاموس اللغة والسياسه ، ولكن ايضا لان طبيعة الرسائل التي تلقيتها مختلفة في المشرق عنها في المغرب .

فكتابات المشارقه كانت تشكو من اهمال اللغه وتلح في الدعوة الى اتقانها ، في حين ان كتابات المغاربه كانت تتحدث عن مصير اللغة العربية ، والاخطار التي تتهددها .

في المشرق كانوا يعالجون الامر من زاوية درجة الاهتمام باللغه . بينما المغاربة كانوا يركزون على نوع الاهتمام ، وهل تكون العربية او لاتكون .

اي ان فريقا كان شاغله تغليب اللغة العربية على العامية ، وتطهير الكتابات العربية من فلك اللهجات المحلية التي لا تضعف اللغة العربية فقط ، ولكنها تكرس الاقليميه وعملية التفتيت والتجزئه . ثم كيفية الارتقاء باللغة وتذوقها ، بحيث يعود للغة جمالها ورونقها الذي عرفت به ، ويعود للادب العربي وجهه المشرق وقبوله العام .

وقد امتدت شواغل هذا الفريق ايضا الى عملية تعريب العلوم ، التي تعثرت في اكثر الجامعات العربيه ، وقطعت شوطا جيدا في القطر السوري .

وكان من بين الاسئله التي طرحتها الرسائل المشرقية وهي تنعى ما آل اليه حال اللغة العربيه ، ما يلي :

- لماذا تنشر مجلة العربي مقالات لكتاب يستخدمون بعض الكلمات العامية ، وبالاخص في القصص التي هي نوع من الادب ، ويفترض فيها مزيد من الالتزام بالفصحى (صاحب الرساله يتطوع باخراج هذه القصص من نطاق الادب ويعتبرها نوعا من « قلة الادب » بالمعايير اللغوية !)

- لماذا ج اذا كنتم غيورين على العربيه فعلا - والكلام موجه الى العربي ايضا - لا تدققون في مراجعة المقالات التي تنشر ، والتي تتخللها اخطاء في النحو والاعراب ؟

- لماذا لا تنتقدون الزعامات العربيه التي تتحدث من على المنابر الدولية بغير العربيه ، وبعضهم يتكلم في المؤتمرات الصحفية بغير لغته ، وبعضهم يلقى بيانات هامه في بلاده مليئه بالسقطات اللغوية . اليس هذا انتقاصا من قدر اللغه ، وعدوانا على كرامتها ، من جانب ممثلي الشعوب العربية ؟

- لماذا لا تطالبون بثورة ثقافية تنقي العقول العربية من شوائب « الاعجميه » التي علقت بها ، وتراجع كتب المدارس ومناهج التعليم ، وتدقق في مستوى المعلمين ، وتغسل في امة العرب « عار » المهانه التي تلقاها اللغة ؟

- لماذا التمسك بالعربيه ، في حين ان فرص العمل والتقدم الوظيفي مفتوحة على نطاق اوسع للذين يجيدون اللغات الاجنبية ؟ .. الا تلاحظون في اعلانات الوظائف - يضيف صاحب الرسالة - ان اكثرها يشترط اجادة الانجليزية او الفرنسية ؟

على هذا النسق مضت الرسائل المشرقيه ، بعضها يطرح ملاحظات صائبه ، وبعضها يوجه اسئله محرجه ، وبعضها يطالبنا بما لا نستطيعه ، او ينتهزها فرصة ليكشف جانبا من عوراتنا ، ثم يسألنا عن مصير كتابات بعث بها الينا ، رغم انها في « غاية الفصاحه » !

●●●●

ورغم اني اتفق مع اكثر ما قيل ، ما امكن نشره وما لم يمكن ، الا انني لا استطيع ان اخفي دهشتي ممن يدعون الى التركيز على اللغة العربيه و « قطع اللسان غير العربي » ، ذلك ان مطالبتنا بحماية اللغة العربيه واتقانها لا تعني على الاطلاق مخاصمة اللغات الاجنبيه الاخرى . ولولا انه قد يكون مطلبا يتعذر تحقيقه لدعونا الى بذل الجهد ذاته في تعلم تلك اللغات الاجنبيه . والغلو في الحماس للعربيه يضر ولا ينفع ، الامر الذي يدعونا لان نضع المسألة في اطارها الصحيح والمفيد في الوقت ذاته ، فالاولويه ينبغي ان تعطى للغة العربية في جميع الاحوال ، ومن الخير والمصلحة - وربما من الضروري في بعض الاحيان - ان تتوفر للجميع فرصة دراسة اللغات الحية الاخرى . واذا كان لا مفر من الاختيار ، فليكن انحيازنا الى اللغة العربيه مطلقا . اذ من البلاهة ان تكون هناك اجزاء من وطننا العربي خاليه من المدارس الابتدائيه ، ومعتمده على الكتاتيب في الاغلب ، ثم نطالبها بالاهتمام بالانجليزية او الفرنسية !

اما قضية تذوق اللغة العربية والادب العربي ، فانني اسجل هنا رأيا للدكتور طه حسين يحلل فيه اسباب « نفور الناس » من الادب العربي - على تعبيره - وينتقد فيه « اساتذة الادب » الذين « خيل اليهم ان التجديد في درس الادب انما يكون اذا صيغت كتب الادب العربي صيغة كتب الادب الاجنبي . وارخ الادب العربي على نحو ما يؤرخ الادب الاجنبي .. حتى نشأ نوع من الادب جديد ، لا هو بالعربي القديم ، ولا هو بالاجنبي الحديث . وانما هو شيء بين بين ، قصر عن ذاك ، ولم يبلغ هذا . وعشنا على هذا الادب حينا ،

ولكن شكوى الناس لم تنقطع ، ونفورهم من الادب العربي وانصرافهم الى الاداب الاجنبيه لم يزدد الا شده والحاحا . . . وقام بين الناس واساتذة الادب سور من اليأس عميق صفيق حال بينهم وبين ان يفهم بعضهم بعضا . فاما الناس ، فاستيأس اكثرهم من الادب العربي ، واخذوا يروضون انفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بالاداب الاجنبيه . واما اساتذة الادب فاستيأسوا من الناس ، واستيقنوا ان الحضارة الاجنبيه قد أفسدت العقول والقلوب ، وعكفوا على درسهم هذا المشوه يعيدونه ويبدئونه ، ثم يعيدونه ويبدئونه ، ويزجونه زجا في نفوس التلاميذ » .

ثم يضيف الدكتور طه حسين قوله : « وليس الادب العربي اقل صلاحا للبقاء واستحقاقا للعناية الخصبه والدرس المنتج من الآداب الاجنبيه مهما تكن . وكل عيب الادب العربي انه مجهول لا يحسنه اصحابه ولا يتعمقونه . وكل ما يحول بين الادب العربي وبين الحياة والخصب والنفع ان مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئة رديئة ، لم تنظم بعد . ولم يتناولها الاصلاح كما تناول اصلاح المناهج العلميه الاخرى . فالناس يدرسون الطبيعة والكيمياء وغيرهما من العلوم التجريبية درسا صحيحا مستقيم المناهج كما تدرس في اوروبا ، ولكنهم لم يوفقوا بعد الى هذا الحظ من الشجاعة الذي يكفي لان يتصور الادب كما تتصور العلوم ، ولان يدرس الادب كما تدرس العلوم » .

كتب الدكتور طه حسين هذه الشهادة في عام ١٩٢٩ ، في تقديمه للطبعه الاولى من كتاب الاستاذ احمد امين فجر الاسلام . . اي انه اطلق هذا الرأي قبل اكثر من نصف قرن من الزمان ، في عصر شوامخ الادب وعندما كانت الفصحى لها مقامها واعتبارها . .

ونستطيع بغير عناء ان نتصور فاجعة الدكتور طه حسين لو اطل علينا في هذا الزمان . . لكني اكتفي بشهادته منذ نصف قرن ، وما فيها غنى عن التعليق ، سواء ما اتصل منه بالذي كان ، او بما هو كائن فعلا !

* * * *

واحسب ان هذا السرد كله سيعد عند المغاربه من قبيل الترف الفكري ، لان الخطب عندهم أفدح ، فاللغه العربيه تخوض صراع وجود ، لم تنهزم فيه ، لكنها لما تنتصر بعد !

والرسائل القادمه من مختلف دول المغرب العربي تقول بصريح العبارة ان هناك اعداء للغة العربيه ، يكمنون في كافة المؤسسات التعليمية والبيروقراطيه ، يحاربون الحرف العربي بشراسة بالغة ، سواء كان ذلك في منهج تعليمي ، او كتاب ثقافي عادي ، او صحيفه او مجلة سيارة .

نعم ان سياسة الحكومات مع التعريب ، لكن اكثر منفذي تلك السياسات ضد التعريب . لانهم ابناء المدرسة الفرنسية ، تربوا فيها وتغذوا عليها ، ولا حياة لهم بدونها ، وانتصار اللغة العربية او حتى انتشارها ـ يعني بداية النهاية لهؤلاء .

ان من بين ابناء تلك المدرسة الفرنسية من يقول صراحة ان اللغة العربية يجب ان تعامل كاللغة اللاتينية ، اي تبقى لغة الفقهاء والوعاظ واهل « الكهنوت » فهي لا تصلح لغير ذلك . اما لغة العلم والمعرفة فيجب ان تكون الفرنسية دون غيرها . هذا ما قاله احد الخبراء المغاربة ، مستندا فيما ذكره في رسالته الى تجربة شخصية خاضها هو ، وانتهت باستقالته من منصبه احتجاجا على استمرار سياسة « الفرنسة » .

وفي غير ذلك تركز الرسائل القادمه من دول المغرب العربي على النقاط التالية :

- « الغزو الثقافي » الفرنسي ، المتمثل في المراكز الثقافية ، التي تتوفر لها امكانيات ضخمه و « تشكل دولة داخل دولة » ، كما تقول احدى الرسائل . ثم جيش الفرنسيين الذين يقضون الخدمة العسكرية في اعمال مدنية « وراء البحار » ، ومعظمهم يعمل في المؤسسات الثقافيه المختلفة . يضاف الى هؤلاء جيش المعلمين الفرنسيين المنضم الى سلك التعليم الرسمي . وقد بلغ عدد هؤلاء المعلمين في المرحلة الثانويه وحدها باحدى دول المغرب ، ٧٥٠٠ معلم ومعلمة .
- تطبيق سياسة الازدواجيه في لغة التعليم ، بحيث تدرس « العلوم » باللغة الفرنسيه ، وتدرس العربيه

باعتبارها لغة يرغم على دراستها الطالب ليعرفها ، لا ليتعلم بها . الامر الذي خلق « انتكاسة مروعه » في البناء العام - كما يذكر استاذ جامعي - لان الازدواجيه انتقلت من اللغة الى الفكر ، ومن الفكر الى الشخصية ، ومن الشخصية الى الولاء . الولاء المزدوج للحضارتين الغربية والعربيه ، في عملية توفيق او تلفيق . . وقد اصبحت هذه البدعة قانونا مقدسا يتحدى النظام التربوي المعمول به عالميا ، ويتحدى مبدأ الاستقلال الوطني ، وكل القيم والمشاعر الوطنية ايضا .

● انشاء اقسام فرعية لتعليم فرنسي كامل في اطار التعليم الرسمي ، يتجاوز الازدواجية بعيوبها ، بتقديمه نموذجا افدح ، تلغى فيه اللغة العربيه بالكامل ، وخطورة هذا الامر انه لا يتم في المراكز الثقافيه الفرنسية ، وانما يتم تحت مظلة التعليم الرسمي !

● توزيع المناهج بحيث تطوق ليس اللغة العربية وحدها ، بل الثقافة الاسلامية ايضا . حتى ان مادة التربيه الاسلامية كانت تعطى ٢٥ دقيقة فقط اسبوعيا في المرحلة الثانوية باحدى الدول ، في حين ان « الفلسفة المادية » خصصت لها ٨ ساعات في الاسبوع . وبعد ضغوط شعبيه واسعة رفعت حصة التربيه الاسلاميه الى ٥٠ دقيقة في الاسبوع . واعتبرت مادة ثانويه ، حتى حذفت تماما من امتحان الشعب الثماني التي يشتمل عليها امتحان البكالوريا ، واحتفظ بها فقط في شعبة التعليم الاسلامي الأصيل ، التي لا يمثل عدد تلاميذها سوى ٥ في الالف من مجموع طلاب الثانوية !

● فتح الأبواب على مصاريعها لكافة مواد الثقافة الفرنسيه من الصحف اليوميه الى الكتب الى البرامج التليفزيونيه ، وافلام السينما ، وتخصيص اوقات طويلة للبرامج الاذاعية والتلفزيونية التي تقدم باللغة الفرنسية .

● محاربة خريجي الجامعات العربيه ، ابناء الثقافة العربيه ، وابعادهم عن الوظائف المختلفة . وفي رسالة من الجزائر قال كاتبها انه تخرج من الجامعه في ظل التعريب ، ومكث سنتين بلا عمل ، حتى اصدرت الحكومة قرارا يلزم المؤسسات المختلفه بتعيين جميع هؤلاء الخريجين ، ولولا هذا القرار الصريح من رئاسة الدولة « لظللت وغيري بلا عمل ، عقابا لنا على اننا درسنا باللغة العربية » .

● السعي الى اثارة قضية « العرق » لتعويق مسيرة اللغة العربيه ، مثل الدعوة الى كتابة اللغة البربرية ، وهي لغة منطوقة ولما تكتب بعد ، ثم الدس في علاقة العرب والبربر ، والترويج لمقولة ان تثبيت اللغة العربيه يتطلب من الاخرين (البربر) قدرا من التنازل عن هوياتهم . والقائلون بذلك يتجاهلون ان البربر تعلموا العربيه وتعلقوا بها على مدار التاريخ ، باعتبارها لغة القرآن والاسلام الذي يدينون به ، ولم يطلب منهم ان يغيروا جلودهم !

خلاصة الامر ان اللغة العربيه تعيش محنة حقيقيه في دول شمال افريقيا ، بل تخوض معركة ضاريه ، تتعرض خلالها لكل صنوف التجريح والحصار والاهدار . الامر الذي يحتاج الى مواجهة على نفس المستوى من القوة ، ويتطلب من كل المعنيين بالامر ، محليا وعربيا ، تضافرا وتنسيقا ويقظة كاملة . اذ ثبت بالتجربه ان القرار السياسي وحده لا يحسم نتيجة المعركه ، وان القضية بحاجة الى حشد وتعبئه ، على المستوى المحلي والعربي ، وهو ما يمكن ان تسهم فيه المنظمة العربيه للثقافة والعلوم ، التابعه لجامعة الدول العربيه ، خاصة وان ذلك احد هواجسها وشواغلها . .

اني لا املك حلا او اقتراحا محددا في هذا الصدد ، لكن فقط أشير الى ان الامر بحاجة الى مناقشة عربيه واسعه للبحث عن هذا الحل ، والاتفاق على « استراتيجية » لمواجهة هذا الحصار وتلك المطارده التي تلاحق اللغة العربيه .

وقد قالها لي احد الوزراء في النيجر صراحة : « ان مستقبل اللغة العربيه في غرب افريقيا مرتبط الى حد كبير بمستقبلها في دول شمال افريقيا العربيه . . » .

من يسمع ؟ . . من يقرأ ؟ . . من يتحرك ؟ !

من يعيش أكثر ؟

محمود المراغي

العالم يملك خريطة واحدة . هناك الخريطة الجغرافية ، او الخريطة الاجتماعية وخريطة ثالثة للبشر .. وكم يعيشون في كل منطقة .

وعلى الخريطة الثالثة يبرز أكثر من نتوء يلفت النظر . اثيوبيا حيث يموت الانسان في سن الاربعين كمتوسط عام .. واليابان والسويد حيث يعيش الانسان ـ في المتوسط ايضا حتى السادسة والسبعين .

وتضاريس الخريطة الثالثة يجري تقسيمها حسب الدخل : منخفضو الدخل والذين يتواجدون في ٣٦ بلدا ويقل متوسط دخل الفرد بينهم عن ٣٦٠ دولارا في السنة ... هؤلاء يموتون في السابعة والخمسين ...

ويأتي بعدهم متوسط الدخل في ستين بلدا ، وترتفع اعمارهم في المتوسط ، وحسب التوقعات عند المولد الى ٦١ سنة . بعدها : تأتي الدول الصناعية في الشرق والغرب ، ـ ذات الدخل المرتفع . والعمر المديد .. من (٧٢ ـ ٧٤) عاما في المتوسط .. تلك هي رحلة الحياة هناك !

الأرقام نشرها البنك الدولي اخيرا ، وفيها يظهر اكثر من قانون ...

● فكلما زاد الثراء زاد متوسط الاعمار ، وكلما زاد الفقر قلت الاعمار . ومن بين الدول الصناعية الـ (١٤) فانه لا توجد دولة يقل فيها متوسط العمر عن (٧٠) سنة ، بينما تسجل (١٨) دولة من ذات الدخل المنخفض متوسط اعمار يقل من ٤٥ سنة للفرد !

● ولأن لكل قانون استثناء فان بعض الفقراء يخوقون حاجز الفقر .. فيعيش اهل الصين ٦٤ سنة وسيريلانكا ٦٦ سنة وفيتنام ٦٣ سنة ! .. ايضا فان بعض الاثرياء يعيشون اقل ، ويحدث ذلك في دول الفائض البترولي حيث يهبط المتوسط الى ٥٦ سنة .. باستثناء واحد تسجله الكويت حيث يرتفع المتوسط الى سبعين عاما .

على أي حال فان الاستثناء لا يلغي القاعدة : الأثرياء يعيشون أكثر ويلغون اعتقادا شاسعا بان البيئة الزراعية هي الأفضل ويثبتون ان الثراء الملوث بالصناعة خير من الفقر المرجع ببيئة نقية غير ملوثة .

ولكن ...

يبدو في الأفق قانون أخر ... فالأعمار الأطول للبلاد الباردة .. والعمر المديد يكاد يحتكره الشمال .. وان كان الاستثناء ايضا واردا في الجنوب الحار ! ■

" العودة إلى فرويد "

جاك لاكان
وبناء اللاشعور

بقلم : الدكتور أحمد أبو زيد

في عددها الصادر بتاريخ ٩ يناير ١٩٨٠ نشرت جريدة الموند الفرنسية خطابا من عالم التحليل النفسي الشهير ومؤسس مدرسة باريس الفرويدية Ecole freudienne de paris جاك لاكان ، يعلن فيه للعالم أجمع انه بلّغ اعضاء (مدرسته) بان المدرسة تعاني من بعض المشاكل الحادة المزمنة وأنه انتهى الى أن حسم هذه المشاكل لن يتيسر الا عن طريق (حل) المدرسة - او الجمعية - ذاتها ، وانه يتعين على الذين يريدون استمرار الارتباط به ان يقدموا طلبا بذلك في غضون عشرة أيام من تاريخ النشر .


فرويد

وقد اثار ذلك الخطاب كثيرا جدا من التعليقات والمناقشات الحادة التي كشفت عن شدة الصدمة التي أصابت أوساط المشتغلين بالتحليل النفسي والمفكرين والمثقفين عموما في فرنسا . وان كانت بعض هذه التعليقات لم تخل من السخرية والتهكم واتهام جاك لاكان بالغرور وحب الظهور وجنون العظمة ، وهي اتهامات غير جديدة على أية حال وانما ترجع الى الوقت الذي كتب فيه رسالته للدكتوراه عن جنون العظمة او البارانويا ، ولكن رغم ذلك كان ثمة شعور عميق وحقيقي بالأسى والحزن لحل هذه « المدرسة » ، وذلك على الرغم من ان جاك لاكان خلال السنوات الأخيرة كان يميل الى الانزواء والتباعد تاركا معظم شئون « المدرسة » لتلاميذه وأتباعه ، بحيث اعتقد الكثيرون انه كان مريضا وعلى وشك الموت ، وزاد من ذلك الاعتقاد ان لاكان كف في العامين الأخيرين عن عقد الندوة التي كان يعقدها بانتظام كل اسبوعين منذ عام ١٩٥٣ . والتي كانت تمثل في الستينات والسبعينات حسب قول بيير جوريس Pierre joris احد المعالم الرئيسية في الحياة الفكرية في باريس ، اذ كان يلتقي فيها - الى جانب كبار المشتغلين بالتحليل النفسي - عدد كبير من أبرز المفكرين من أمثال ميشيل فوكو وكلارا مالرو وجيل دبلوز وفيلكس جاتاري وفيليب سولرز وجان بيير فاي ولوي التوسير ، بل وكلود ليفي ستروس زعيم المدرسة البنائية الفرنسية .

ثم جاءت الصدمة الاخيرة حين مات جاك لاكان في التاسع من سبتمبر ١٩٨٠ وهو في الثمانين من عمره ، وتوقف بذلك عطاؤه نهائيا ، ومع أنه كان قد نشر بعض البحوث التي كان يقدمها في ندواته مع بعض المقالات الاخرى في كتابه المسمى « كتابات Ecrirs » عام ١٩٦٦ ، ومع أنه نشر ايضا بعض مجلدات تحت عنوان « حلقات بحث Seminaires » كما ظهر مجلد آخر ضمن نفس المجموعة بعد وفاته بأيام ، فان الجزء الأكبر من كتاباته وآرائه وأفكاره وتعليقاته لم ينشر بعد .

هل هو « مهرج » حقا ؟!

وعلى أية حال فلقد ازداد الخلاف حول لاكان بعد موته بحيث نجد أن هناك من يعتبره أحد كبار المفكرين « البنائيين » في فرنسا وأحد أعمدة التحليل النفسي « البنائي » وانه الشخص الذي عمل على تجديد شباب نظرية فرويد في التحليل النفسي وخرج بها الى مجالات جديدة لم تخطر على بال فرويد .

فقد أفلح لاكان في أن يخرج في تفكيره بين الفلسفة واللغويات والمنطق الرمزي والانثربولوجيا ونظرية المجموعات والطوبولوجيا وعلم النفس والرياضيات ، ومن هنا كان المتحمسون له يرون في تفكيره وكتاباته نوعا من الأصالة والعمق الذي يختفي على أية حال وراء أسلوبه المعقد الشديد الغموض . ولكن هناك من الناحية الأخرى من يعتبر لاكان مجرد « مهرج » يتلاعب بالكلمات والألفاظ ويخدع قراءه ومستمعيه عن طريق استخدام التعبيرات والجمل المبهمة الغامضة التي يتعمد في اختيارها ، اعتقادا منه ان الغموض والابهام والتعقيد ترفع مكانته أمام القراء الذين لا يكادون يفهمون منه شيئا .

والواقع ان كتابات البنائيين الفرنسيين جميعا تتميز بدرجة عالية جدا من الصعوبة والتعقيد ، وهم يبررون ذلك بأن وجود قدر من الابهام والغموض كثيرا ما يكون ضروريا لاظهار مدى تعقد التجربة الانسانية . إلا ان جاك لاكان يتفوق على كل البنائيين الفرنسيين في ذلك المجال ، وهو نفسه يعترف بذلك ويقول صراحة ان (عملية) فهم تفكيره تحتاج الى سبع سنوات ، كما يقال : « « انها حقيقة امبيريقية انه بعد عشر سنوات سوف يصبح كل ما كتبته واضحا ومفهوما لدى الناس » . فالأمر اذن يحتاج الى الصبر الطويل والمثابرة ولذا فليس من المستغرب ان نجد جامعة فانسن Vincennes قد خصصت في وقت من الاوقات مقررا دراسيا كاملا لدراسة وفهم صفحة واحدة من كتابات لاكان . وفي أحد البرامج التلفزيونية التي ظهر فيها لاكان عام ١٩٧٤ بدأ كلامه بقوله ان معظم المشاهدين (اغبياء) بغير شك ، وانه من الخطأ ان يحاول تقريب الامور الى أفهامهم . ولذا نجد ان بعض الكتاب يذهبون الى ان هذا الغموض المتعمد وذلك التعالي على الآخرين هما وسيلة لامكان المحافظة على سلطته ، وانه يستغل عمدا خوف الناس من ان يظهروا بمظهر العاجز عن فهمه ويجد لذة ومتعة في ذلك . وفي ذلك يقول جالين ستروسن « ان الزمن لن يكون رحيما به او شفوقا على سمعته ، وان تأثيره سوف يتضاءل كما سوف تتآكل أصالته». وهناك من يزعم انه كان يهتم بالتفكير النظري اكثر من اهتمامه بمرضاه . وان ذلك ألحق الاذى بنظرياته وبمرضاه على السواء وان اسلوبه في العلاج كثيرا ما كان يؤدي الى الفشل واليأس والشقاء والمرارة بل انه تسبب في انتحار عدد من مرضاه .

إلا ان الذين يرمون لاكان بهذه التهم يعترفون في الوقت ذاته بأنه أفلح في أن يدفع التحليل النفسي في



جاك لاكان

فرنسا دفعة قوية جدا بحيث أصبح يبدو للفرنسيين كما لو كان « ظاهرة فرنسية بالضرورة » . وليس ذلك بالامر اليسير الهين في بلد مثل فرنسا حيث لا يعطي الناس اهتماما كبيرا بالتحليل النفسي ولا يبدون نحوه كثيرا من الاحترام . ففي استطلاع أجري عام ١٩٨٠ حول نظرة الباريسيين الى التحليل النفسي ، ذكر ٦٥٪ من الاشخاص الذين أجابوا على السؤال أنهم يرفضون ان يمارس عليهم التحليل حتى ولو كان ذلك بالمجان . وهذا يبين لنا مدى الجهد الذي بذله لاكان لكي يؤسس مدرسة متكاملة تحمل شعارا لها « العودة الى فرويد » قاصدا بذلك ضرورة إعادة دراسة أعمال فرويد وقراءتها قراءة متعمقة وتخليص التحليل النفسي من الشوائب والتشويهات والانحرافات التي لحقت به على أيدي (المعالجين النفسيين)

الأنا .. وجنون العظمة

ولد جاك لاكان عام ١٩٠١ في عائلة غنية او بورجوازية كما يقول هو نفسه ، ودرس الطب ثم العلاج النفسي وأتم رسالته للدكتوراه عن البارانويا عام ١٩٣٢ ثم انضم عام ١٩٣٤ الى الجمعية الباريسية للتحليل النفسي وفي عام ١٩٣٦ كان يرتاد الأوساط السيريالية ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الشباب المثقف ، نشر بعض القصائد في المجلات السريالية ، وأتيحت له فرصة الاتصال بعدد من المفكرين من أمثال بول اليوار واندريه مالرو وجورج باتاي وجان لوي بارو . كما قدم بحثا بعنوان « مرحلة المرآة في تطور الطفل » أمام الجمعية الدولية للتحليل النفسي ، أوضح فيه رأيه عن مدى اساءة فهم فكرة « الانا » الفرويدية ولكنه ذهب الى القول بأن الخاصية الاساسية المميزة للانا هي جنون العظمة او البارانويا ، وقد ادى به ذلك ليس فقط الى معارضته بعض أراء فرويد نفسه بل وايضا الى الاصطدام بتعاليم مدرسة « سيكولوجيا الأنا » التي كانت لا تزال في ذلك الحين تتلمس طريقها وتحاول ان تنمو وتتطور .

بعد الحرب العالمية الثانية تمزقت أوصال الجمعية الباريسية للتحليل النفسي ، ومع ان لاكان عمل جاهدا للمحافظة عليها ونفخ الحياة فيها ، فان التوترات والمشادات والخلافات الداخلية التي بلغت أشدها في اوائل الخمسينات أدت عام ١٩٥٣ الى انقسامها الى ثلاثة أقسام ، وبالتالي الى تكوين ثلاث جماعات متميزة . وقام لاكان إزاء ذلك بتأسيس الجمعية الفرنسية للتحليل النفسي التي تعبر عن نظرته الخاصة الى التحليل النفسي ووظيفته ، ولكن قام صراع شديد داخل هذه الجمعية حول طريقة تدريس التحليل النفسي وفلسفة هذه المادة والهدف منها بل وممارسة التحليل النفسي ذاته ، وانتهى ذلك الصراع الى حل هذه الجمعية عام ١٩٦٣ وتأسيس مدرسة باريس الفرويدية ECOLE FREUDIENNE DE PARIS التي أشرنا اليها ، وهي جماعة كانت تهدف في المحل الأول الى توكيد اهمية البحث عن المعرفة ، والغريب ان تنتهي كل هذه الجهود الطويلة المضنية الى اعلان حل هذه الجمعية عام ١٩٨٠ كما ذكرنا ، مما دفع بعض المهتمين بالدراسات اللاكانية (نسبة الى لاكان) الى ان يصفوا جاك لاكان بقولهم : ان افضل ما يميز لاكان هو انه كان « غير لاكاني » فقد كان يهدم بيديه ما سبق له ان قام ببنائه وتشييده ... وساعد على ذلك ما اشتهر به لاكان من سوء العلاقات مع غيره من الزملاء والمفكرين المعاصرين ، بل وايضا من التلاميذ والمريدين الذين كانوا في محاولتهم توكيد شخصيتهم يخرجون على تعاليمه وتعاليم مدرسته في التحليل النفسي .

المفسر الوحيد لفرويد

كان جاك لاكان يحب دائما ان ينظر اليه الآخرون

على انه هو « المفسر الحقيقي الوحيد » لنظرية فرويد رغم ان افكاره وآراءه كانت تختلف اختلافا كبيرا ومثيرا عن آراء وأفكار علماء التحليل النفسي الكلاسيكيين ، اذ كانت تعتمد في المحل الأول على محاولة تقليص التجربة البشرية وردها الى عدد من « المعادلات اللغوية » . ولقد لعبت اللغة في تفكيره وفي تفكير كل الفلاسفة البنائيين الفرنسيين دورا أساسيا . بحيث يمكن القول انهم جميعا كانوا مصابين بنوع من الهوس باللغة او على الأصح بالطابع النظامي او النسقي للغة وبما يسميه جون ستروك بالقدرة الانتاجية اللامتناهية للغة .

المفسر الوحيد لفرويد

كان جاك لاكان يحب دائما ان ينظر اليه الآخرون على انه هو « المفسر الحقيقي الوحيد » لنظرية فرويد رغم ان افكاره وآراءه كانت تختلف اختلافا كبيرا ومثيرا عن آراء وأفكار علماء التحليل النفسي الكلاسيكيين ، اذ كانت تعتمد في المحل الأول على محاولة تقليص التجربة البشرية وردها الى عدد من « المعادلات اللغوية » . ولقد لعبت اللغة في تفكيره وفي تفكير كل الفلاسفة البنائيين الفرنسيين دورا أساسيا . بحيث يمكن القول انهم جميعا كانوا مصابين بنوع من الهوس باللغة او على الأصح بالطابع النظامي او النسقي للغة وبما يسميه جون ستروك بالقدرة الانتاجية اللامتناهية للغة .

فليست اللغة (شيئا) يأتي به كل فرد الى الحياة حين يولد ، انما هي نظام او نسق يولد فيه كل أفراد المجتمع ويتدرجون فيه منذ الطفولة ، وبذلك فانها تؤلف أهم عنصر في التنشئة الاجتماعية ، وعلى هذا الاساس يمكن اعتبار اللغة ظاهرة (لا شخصية) من حيث انها تتعدى الافراد ، كما ان استخدام اللغة في عملية الاتصال مع الآخرين ، او حتى مع انفسنا ، يعني بالضرورة تنازل الفرد عن جانب او جزء من فرديته والتسليم به للآخرين . فلو كان لكل فرد لغته الخاصة التي ينفرد بها عن الآخرين والتي تختلف عن اللغة التي يتكلم بها غيره لما أمكن لهؤلاء (الغير) ان يفهموه ولاستحال بالتالي كل اتصال بين الناس . وحين يكتسب الفرد اللغة من المجتمع فانه يتمثل في الوقت ذاته كل العناصر الثقافية السائدة في ذلك المجتمع ولذا فان التحليل النفسي يجب ان يأخذ العنصر اللغوي في الاعتبار . فالطفل مثلا حين يتعلم اسم أبيه ويتمثله فانه يتمثل في الوقت ذاته عداوة الاب ازاء رغبات الطفل الجنسية نحو الام . فالفعلان متماثلان ، حسب قول لاكان ، خاصة وانه يمكن التعبير عنهما لغويا في اللغة الفرنسية بجملتين لهما نفس الوقع الصوتي ، وهاتان الجملتان هما LE NOM DU PERE (اسم الاب) و LE NON DU PERE (انعدام الاب) ، وقد حاول لاكان ترجمة هذا الموقف في شكل معادلة جبرية معقدة أثارت استخفاف الآخرين ، وهذه العمليات التي تعطي معنى سيكولوجيا لبعض الألفاظ التي لها نفس الوقع الصوتي والتعبير عنها في شكل صيغ ومعادلات شبه جبرية معقدة تؤلف احدى الركائز الأساسية التي يقوم عليها نسق تفكير لاكان ، اي انها ليست عمليات هامشية او ثانوية يمكن اغفالها او التغاضي عنها رغم كل ما يشوبها من تعقيد وغموض وابهام .

بالاضافة الى تلك المحاولات التي قام بها لاكان لرد الطبيعة الانسانية الى نمط لغوي رمزي فانه اعطى جانبا كبيرا جدا من اهتمامه لدراسة (العقد) وتتبع الطرق المختلفة التي يمكن بها ربط عدد من الخيوط معا . وكان يعتقد ان ذلك يساعد على الوصول الى نموذج العلاقات الداخلية التي تتفاعل في النفس البشرية . وكان يصف ذلك العمل بانه محاولة لاختراع هندسة جديدة اطلق عليها اسم (هندسة السلاسل) اي سلاسل العقد . وهذا كله يكشف لنا عن موقف لاكان من الحقائق السيكولوجية التي كان يعتقد انه لن يمكن دراستها وفهمها الا باتباع النموذج الذي تقدمه العلوم الطبيعية ، وقد جعله ذلك يمضي سنوات طويلة في محاولة الكشف عن الصيغ الرياضية اوا الماثيمات (MATHEMES) التي يمكن رد الحقائق السيكوتحليلية اليها . وقد برزت أهمية هذه الصيغ الرياضية في النسق الفكري اللاكاني حين عقدت (مدرسته) مؤتمرا في عام ١٩٧٦ استمر ثلاثة أيام خصصها كلها لدراسة الصيغ الرياضية التي يمكن التعبير بها عن مشكلات الانسان في المجتمع . وقد طبقت نظريته على كل المشكلات التي يمكن تصورها . فهناك صيغ رياضية للانحرافات الجنسية ، وصيغ رياضية لما يسميه (بناء العقد المركبة) بل وصيغ رياضية للصيغ الرياضية ذاتها وهكذا . وكانت السبورة تمتلىء أثناء جلسات المؤتمر بكل انواع المعادلات والنسب والمعدلات والاسهم واشكال العقد وما الى ذلك . وبينما كان بعض الحضور يبدون كثيرا من الاهتمام والحماس كان البعض الآخر يعترف بصراحة وفي أسى بأنهم لا يفهمون شيئا على الاطلاق مما يدور حولهم ، بينما كان البعض الثالث يتظاهرون بالفهم حتى لا يقللوا من اهمية انفسهم في أنظار الآخرين وحتى لا يظهروا بانهم

أقل من غيرهم في القدرات العقلية .

ويكفي ان نشير هنا الى انه على الرغم من كل ما قاله عن اللاشخصانية فان اللغة التي كان يستخدمها لاكان في كتاباته هي لغة (خاصة) بل وذاتية الى حد كبير ، كما ان تركيب الجمل عنده تركيب غريب ومعقد بطريقة متعمدة ، لانه كان يريد منها ان (تمثل) بدلا من أن تشرح وتفسر العمليات اللغوية في اللاشعور . ويقول آخر ، انه كان يهدف من الكتابة بهذه الطريقة ان يدلل ويبرهن على أن اللاشعور يعمل باستخدام (الدلالات) او الرموز وليس باستخدام (المدلولات) او الأشياء والموضوعات التي ترمز اليها المصطلحات والألفاظ التي يطلق عليها اسم (الدلالات) . ولذا كانت اللغة التي يكتب بها بعيدة كل البعد عن السلاسة والوضوح اللذين تتميز بهما اللغة الفرنسية العادية ، فليس الوضوح بالنسبة له او بالنسبة لكل البنائيين الفرنسيين ميزة او فضيلة ، فاللغة فيها ما هو أكثر وأعمق وأهم من مجرد السلاسة والوضوح التي قد تجعلنا نتوهم اننا نملك اللغة ونتحكم فيها او اننا نفهم الاشياء دون ان نحتاج الى بذل اي مجهود عقلي لذلك ، وغموض الاسلوب وتعقده هو خير وسيلة للقضاء على ذلك الوهم .

لقد كان لاكان ينادي ويردد ويؤكد طيلة الوقت على ضرورة العودة الى فرويد بحيث اعتبرت هذه العبارة رمزا على مدرسته وعلى موقفه الخاص . وكان يقصد من ذلك ضرورة اعادة دراسة أعمال فرويد وبخاصة الاعمال المبكرة دراسة تفصيلية حسب نهج علمي دقيق ، ولكن الغريب في الأمر هو ان أعمال لاكان نفسها لا تؤلف وحدة متماسكة او مطردة كما انها لا تقوم على مصطلحات وحدود دقيقة ومحددة ، فالمصطلح الواحد يستخدم بمعان كثيرة مختلفة ، مما يسبب كثيرا من الحيرة والاضطراب لدى القارىء ، ولقد حاول لاكان تبرير ذلك بان كتابته عن اللاشعور مثلا لم يكن القصد منها مجرد شرح بناء اللاشعور وتقريبه الى الافهام وانما ايضا تبيين مدى تعقد وغموض اللاشعور وان خير وسيلة لذلك هي استخدام الفاظ ومصطلحات وعبارات معقدة وغامضة ومبهمة تتناسب مع طبيعة اللاشعور الغامضة والمبهمة ، وان استخدام المصطلحات والعبارات السهلة الواضحة في معالجة هذا الموضوع الصعب خليق بان يجعل القراء يعتقدون خطأ انهم يفهمون طبيعة اللاشعور . واذا كان هذا هو في الحقيقة هدف جاك لاكان في استخدام ذلك الاسلوب الغامض المعقد المليء بالمعادلات الرياضية فانه يكون قد نجح بغير شك الى أبعد الحدود في تحقيق ذلك الهدف نظرا لان كثيرا من كتاباته يعز تماما عن الفهم نتيجة لكثرة التشبيهات المعقدة المبهمة وللعمليات شبه الرياضية والمصطلحات غير الدقيقة التي يستخدمها .

مسألة ثانوية بحتة !

ولقد سبق ان ذكرنا ان لاكان ظل حتى آخر حياته يثير الجدل حوله . فلقد كان يؤخذ مثلا في ذلك الغرور والاعجاب بالنفس والتعالي على الآخرين ، لدرجة ان مجلة المجتمع الجديد NEW SOCIETY تصفه وهي في مجال رثائه وتأبينه بانه (بريمادونا) يختال زهوا في معطفه المصنوع من « الاستراكان » الرمادي ، كذلك كان المشتغلون بالتحليل النفسي يعيبون عليه قصر الفترة التي كان يمضيها مع مرضاه ، اذ لم تكن الجلسة تزيد على خمس الى عشر دقائق ثم اختصرها في آخر حياته الى دقيقة واحدة او دقيقتين نظير مبلغ ضخم . ولم يكن لاكان يأبه لذلك اذ كان يعتقد انه من الحمق تحديد فترة معينة بالذات يتمسك بها المحلل النفسي . لان المهم هو تحقيق التواصل بين المحلل والمريض وهي عملية يمكن ان تتم في لحظة واحدة ، ينبغي بعدها انهاء الجلسة بدلا من الانتقال الى موضوعات اخرى قد تكون لها آثار وخيمة على المريض ذاته نتيجة لما تسببه له من اضطرابات ومن تداخل في المشاعر والوجدانات والمفهومات . ولقد كان لاكان حتى آخر حياته يؤمن بضرورة الجمع بين النظر والتطبيق . ولذا ظل يمارس التحليل النفسي حتى آخر حياته ويستقبل مرضاه بنفس الحماس الذي يستقبل به تلاميذه ومريديه في ندواته نصف الشهرية ، ولم يكن يؤمن كغيره من المحللين في ان مهمة التحليل النفسي هي العلاج ومحاولة اسعاد المريض ، وانما كان يعتبره وسيلة للكشف عن (حقيقة) الشخص وان العلاج مسألة ثانوية بحتة . كل ذلك جعل حياة جاك لاكان سلسلة طويلة من الصراع والصدام مع المشتغلين بالتحليل النفسي في فرنسا وخارجها كما جعله هو وأعماله وكتاباته هدفا لانتقادهم وهجومهم ، وهو هجوم لم يتوقف بموته كما تدل على ذلك الكتابات الكثيرة المليئة بالنقد اللاذع والسخرية والتي ظهرت ولا تزال تظهر حتى الآن في المجلات العلمية بل وايضا في الصحف والجرائد العادية . ولكن هذا الهجوم هو في حد ذاته دليل واضح على المكانة التي كان يشغلها وعن الدور الذي قام به والاثر الذي تركه ليس فقط في المشتغلين بالتحليل النفسي بل وايضا في أوساط المثقفين والمفكرين الفرنسيين بوجه عام . ■■

أحمد أبو زيد

السرطان : يصيب الرجال أكثر من النساء

ترجمة الدكتور صلاح بركات

نشرت مجلة العلم والمستقبل (١) الفرنسية ، تقريرا عن الأبحاث التي يقوم بها باحثو المعهد الوطني العالي للابحاث الطبية بفرنسا في مجال الأمراض السرطانية جاء فيه :

« تشكل الأمراض السرطانية ٢٠٪ من نسبة الوفيات بالأمراض المختلفة ، محتلة بذلك المرتبة الثانية ، في سلم تعداد الوفيات بفرنسا بعد امراض جهاز الدوران كما يعتبر السبب الأول للوفاة عند البالغين ما بين ٢٥ و٦٤ سنة »

وقد قام الباحثون في هذا المعهد بدراسة احصائية للامراض السرطانية نشرت تحت عنوان « السرطان ، تطوره ، وعدد وفياته من عام ١٩٥٤ الى ١٩٧٦ » في هذه الدراسة تم تحليل عدد الوفيات بالأمراض السرطانية المختلفة ، والتغيرات التي طرأت على الاصابات بالامراض السابقة ، خلال هذه الفترة ، وكما اظهرت هذه الدراسة الاصابات السرطانية الجديدة .

اعتمد في هذه الدراسة على الحالات المرضية المؤدية الى الوفاة فقط ، مظهرة بذلك خيبة العلاج الطبي لهذه الامراض او التأخر في التشخيص المبكر لها ، وبينت الدراسة الاحصائية لعام ١٩٧٦ ان كل ١٠٠ شخص يموتون بتأثير الأمراض السرطانية بفرنسا ، كان منهم ٥٩ رجلا و٤١ امرأة ، ونسبة الوفيات بهذه الأمراض تكون بشكل اعظم ما بين سن ٥٥ و٧٤ سنة عند الرجال وما بين ٣٥ و٥٤ سنة عند النساء .

وارتفاع معدل الوفيات عند الرجال يعود خاصة الى الاصابة بسرطان الرئة واصابة القسم العلوي من مجرى الهضم والتنفس (التجويف الفموي ، البلعوم ، والحنجرة ، والمريء) بهذه الأمراض ، ونسبة مجموع

1 — cancer : Les hommes plus que Les femmes (1979) Science et Avenir No. 393 pp. 13—14

هذه الامراض تتعدى الثلث فتصل الى ٣٩٪ . اما نسبة هذه الامراض عند النساء فلا تكاد تصل الى ٧٪ . ويعتبر سرطان الثدي عند النساء ، اهم الامراض السرطانية اذ يصل الى ٧ر١٦٪ ، يتبعه سرطان القولون ، الجزء السفلي من الامعاء الغليظة ، والمستقيم فتصل نسبتهما معا الى ١٦٪ ، اما نسبتهما عند الرجال فتصل الى ٩ر١٠٪ .

يأتي بعد ذلك سرطان المعدة وسرطانات الانسجة اللمفاوية ، والنسج المكونة لكريات الدم ، خاصة في نخاع العظام ، ونسبة هذه الامراض متساوية عند الرجال والنساء ، اما امراض السرطان المتعلقة بالجنس ، كسرطان البروستات والرحم ، فتصل كل منهما الى ١٠٪ تقريبا .

وحتى نستطيع مقارنة معدل الوفيات بفرنسا مع غيره من البلدان الصناعية ، ودراسة التغيرات لهذا المعدل خلال فترة زمنية طويلة ، يجب اتباع طريقة حسابية واحدة . وكما نعلم فان امراض السرطان تزداد مع زيادة العمر للانسان ، وان توزيع هذا العدد من السكان يمكن ان يتغير من بلد لآخر ومن زمن لآخر ايضا ، وهذا العدد من السكان يتضمن مختلف الاعمار ، وكلا الجنسين ، كما في احصاء فرنسا لعام ١٩٦٤ . وبهذا القياس فان فرنسا تحتل المرتبة الثالثة في سلم عدد الوفيات بامراض السرطان بعد المانيا الغربية وانكلترا بشكل عام . وبالمرتبة الثالثة ايضا في عدد الوفيات للرجال بعد انكلترا وفنلندا . وتكون فرنسا بالمرتبة الاخيرة لمعدل الوفيات للنساء بعد السويد وايطاليا والولايات المتحدة الامريكية .

ونجد ان الفرق مابين معدل الوفيات للرجال والنساء بالامراض السرطانية عاليا اذ يصل الى الضعف . فيكون في حالة الرجال ٣١٢ لكل ٠٠٠ر١٠٠ نسمة وعند النساء يكون ١٥٥ امرأة لكل ٠٠٠ر١٠٠ نسمة .

والدراسة التحليلية للفترة الواقعة ما بين سنتي ١٩٥٤ و١٩٧٦ ، تظهر بان معدل الوفيات بالامراض السرطانية قد انخفض بشكل عام . فمعدل الوفيات عند النساء قد تراجعت بـ ١٣٪ اما عند الرجال فقد ارتفعت حوالي ٣٠٪ . وهكذا يبدو لنا بان الامراض السرطانية قد ازدادت لدى الرجال .

وظاهرة الارتفاع هذه ، تعود خاصة الى السنين الاخيرة ، بسبب ارتفاع الاصابة بسرطان الرئة وسرطان القسم العلوي من مجرى التنفس والهضم ، والمريء ، وهذا يعود الى استهلاك التبغ والكحول المتزايد . فمعدل الوفيات بامراض سرطان الرئة قد ازداد بـ ٥٠٪ خلال الـ ٢٢ سنة الفاصلة ما بين عامي ١٩٥٤ و١٩٧٦ ، ويتعلق خاصة بالاشخاص المسنين الذين تجاوزوا سن ٦٥ سنة . اما الامراض السرطانية الاخرى التي هي في طور التصاعد فهي سرطان القولون وسرطان المستقيم بالنسبة للرجال ، وسرطانات الاغشية اللمفاوية والاغشية المكونة للدم . وسرطان البروستات والثدي ايضا ، اما عند النساء فنجد ان سرطان القولون والمستقيم قد انخفضت وكذلك سرطان الرحم ، اما الامراض السرطانية للمعدة ، فقد انخفضت ايضا عند كلا الجنسين وخاصة عند النساء . ويمكن ان يعزى هذا الانخفاض بصورة ما الى استعمال النوعية الجيدة من الغذاء .

ولقد اشار فريق الابحاث في المعهد المذكور الى ان ارتفاع معدل الوفيات ببعض الامراض السرطانية يمكن ان يرجع الى عدة امور منها :

- يمكن ان يرد الى الظروف البيئية الجديدة مثل ارتفاع استهلاك التبغ والكحول .

- كما يمكن ان ترجع هذه الزيادة الى زيادة المقدرة على التشخيص لاسباب الوفاة ، خاصة عند كبار السن ، بعد ان كانت ترد الى امراض غير محددة بدقة .

اما من جهة انخفاض عدد الوفيات بالامراض هذه ، فيمكن ان تنسب الى الترابط ما بين ارتفاع المقدرة على التشخيص المبكر للاصابة ، واستعمال العلاجات الطبية المناسبة ، هذا الترابط ادى في معظم الحال الى الشفاء من المرض .

واظهرت ايضا هذه الدراسة بان هناك بعض الامراض السرطانية تتركز في مناطق معينة من البلاد ، وان بعضها يختص بطبقة معينة من المجتمع ايضا .



دفاع عن العقل والضمير العربيين

طه حسين

والشك على الطريقة الأزهرية

بقلم : الدكتور عبدالعزيز المقالح

لم يكن هذا المقال تحية اليه في ذكراه الثامنة ، ولن يكون دفاعا عنه ضد الاتهامات الباطلة الكثيرة . ولا دفاعا عن صمت تلاميذه المنتشرين على طول الساحة العربية إزاء الهجوم الذي يكال لاستاذهم العميد . لكنه محاولة متواضعة للدفاع عن العقل العربي ، والضمير العربي ، وعن بوادر النهضة الفكرية والثقافية ، عن ذلك الرجاء الذي كاد يقترب ثم ابتعد ، ويوشك الآن على الانطفاء .

وبادىء ذي بدء تجدر الاشارة الى ان طه حسين ليس المستهدف الوحيد في حملة الافتراءوالكيد الاخيرة ، فالحملة تستهدف كل أقطاب الفكر العربي الاسلامي ، وكل المستنيرين في الوطن العربي ابتداء من ابي ذر الغفاري في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وقوفا عند آخر كاتب أو صاحب رأي يرفض أن يتقدم الى حملة « صكوك الغفران الجدد » لكي يمنحوا كتاباته صك الاعتراف ، وحق الانتماء الى دائرة الكتابات الاسلامية . وعندما يكون الجانب الحي والمشرق من الفكر الاسلامي القديم منه والحديث ، وعندما يصبح جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وبقية مدرسة التنوير والاحياء في الفكر الاسلامي المعاصر عندما يكون كل هؤلاء مدانين ومحاصرين في قفص الاتهام ، فكيف يستطيع كاتب ما ، ان يدافع عن طه حسين ، ذلك الكاتب الازهري المتمرد الذي شاعت من حوله الأقاويل ، ورماه خصومه بأشنع النعوت وأحط الألقاب .

بين الاختلاف والخلاف

وحتى نفهم طه حسين الازهري الذي استبدل الطربوش بالعمامة ، والقبعة بالطربوش ؛ ثم استغنى عن أغطية الرأس مفضلا عليها جميعا الشعر الابيض ، ينبغي ان نقرأ كل مرحلة من مراحل حياته وتنظر الى تفاصيلها المتغيرة بموضوعية ، وحبذا لو تمكنا أن ننظر اليها من خلال المقارنة الهادفة والأمنية الى مراحل حياة مشاهير المتمردين الأزهريين الذين سبقوه بمئات السنين والى غيرهم من المتمردين في اطار الفكر الاسلامي ، وفي مقدمتهم أحب الشعراء اليه وأقربهم الى نفسه أبو العلاء المعري . أكثر المتمردين الاسلاميين حدة وأشهرهم صوتا وأقواهم حجة . فلم يكن طه حسين وان لبس القبعة - ان كان قد لبسها - حينا من الزمن ، لم يكن الا متمردا اسلاميا ازهريا ، تكونت جذوره الفكرية في الازهر الشريف ، ونمت وكسبت شكلها الاجتماعي والنفسي واللغوي في أروقة الازهر وفي حلقات مشايخه المتصارعين مذهبا والمختلفين لغة وأسلوبا ، والمحافظين جميعا على أن يظل الازهر منارة اسلامية تهدي وتنشر الايمان والفهم الصحيح ، وتضع الاتجاهات المتصارعة تحت راية الاسلام الذي جمع في اطاره العقلاني الرافض للكهانة كل أصناف الصراع الحيوي الخصب .

كما تجدر الاشارة بعد ذلك ، الى ان الاختلاف في الاسلام - وليس الخلاف - رحمة ، وهو رحمة ، لانه من عناصر الحياة ، ولأنه يخلق التنوع ، ويقود الى الابتكار ، ويمنع الاضطهاد والقسر .

لذلك كله وفي ضوء هذه الحيثيات الموضوعية ، فان من حق خصوم طه حسين أن يتصوروه كما يشاءون ، ملحدا ومبشرا فرنسيا ، وماركسيا ، ومتمردا هادما ، ومن حق أنصاره ان يتصوروه ايضا كما يشاءون ، مفكرا اسلاميا مستنيرا ، وعالما ازهريا متمردا ، ومن حقهم جميعا ان يتقبلوا أفكاره كلها او بعضها ، وان يرفضوها كلها او بعضها . انما ليس من حق احد ان يدعي الوصاية على الفكر الاسلامي أو يسعى الى أن يصوغ هذا الفكر الواسع الرحب على شاكلة افكاره هو . وفي حدود قدراته العقلية والنفسية . كما انه ليس من حق أحد - بل لا يليق بأحد - ان يختلق على مخالفيه الرأي من الأقوال والأفعال . ما لم يقولوا وما لم يفعلوا ، كما حدث ويحدث - على سبيل المثال - في الكتابات الاخيرة التي تناولت آثار طه حسين وجهوده الفكرية والثقافية ، فقد وصل الزيف والتضليل في بعض تلك الكتابات الى درجة لا تسيء الى طه حسين وحده وحسب وإنما تسيء كذلك الى الفكر العربي والضمير العربي ، وتشوه - ربما دون ان تدري - الحسنات القليلة الممثلة في افكار مرحلة النهوض وتحويلها الى نقائض وعيوب ينبغي الخلاص والبراءة من أصحابها .

ومن بين الاتهامات المبالغ فيها ، والمسئول عنها طه حسين التهمة الثقيلة التالية (اذا كان هناك تخريب في الثقافة المصرية فان المسئول عن هذا التخريب هو طه حسين لانه بتشككه في الثقافة العربية قد أحدث نوعا من التفريغ في العقل العربي) والذي أطلق دخان هذه التهمة استاذ جليل وباحث يحترم قراءه ، ويحترمه قراؤه وهو الاستاذ محمود محمد شاكر . وهي تهمة تعطي لطه حسين من التأثير السلبي والخطورة السلبية أكثر مما تعطيه للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة ، وهي تمنح ذلك الشيخ الضرير قدرة خارقة لم تكن عفاريت الاساطير ، في القصص القديم تمتلك بعضا منها ، وفي تقديري ان مثل هذه المبالغات في القاء التهم ، وفي هدم الحسنات والسيئات معا ، هي التي تشكل بحق نوعا من التفريغ في العقل العربي المعاصر ، وتجعل القارىء العربي الذي لم يعد يكتفي بتكوين معارفه الثقافية من قراءة ما يكتبه الاستاذ شاكر وأمثاله ، تجعله حائرا متشككا غير قادر على المقارنة بين فكر رافض لا يقوم على اساس من البحث والتمحيص وبين فكر رافض لا يتوقف عن الجدل حول أغلب الأفكار المطروحة من قبل العصر . بين الدعوة الى الغربة الروحية والعقلية ، وبين الاكتفاء بالخواء الروحي والعقلي .

كان متمردا .. وأزهريا

لقد كان طه حسين زميلا ازهريا للاستاذ شاكر ، سبقه الى ذلك المعهد العتيد وتعلم على مشايخه الاجلاء اساليب الحوار وطرائق الرفض والقبول ، وكانت ظروفه الاجتماعية وتكوينه النفسي يهيئانه لغير ما تهيأ له الاستاذ شاكر . وقد كان الازهر - منذ بدء ظهوره - منارة علمية وجامعة للفكر الاسلامي باجتهاداته المختلفة التي عبرت عنها المذاهب والآراء المتصارعة في اطار الدين الواحد . لم يكن مؤسسة دينية تعد القساوسة والمبشرين ، وانما كان جامعة تصقل العقول وتنير الاذهان وترفع من اللغة والاداب والعلوم . وقد أثبت تاريخ الازهر ان ليس في الاسلام مؤسسة دينية كتلك التي كانت في المسيحية . وذلك لسبب واحد ، هو ان الاسلام قد ساوى بين معتنقيه ولم يعط لأحد منهم حق الغفران او منع الغفران عن الآخرين فليس في الاسلام كهنوت ولا مجلس كنسي ، وسلطة الفقهاء في الاسلام سلطة دنيوية لا دينية ، يقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (وليس يجب على المسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به من أحد الا من كتاب الله ومن كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه)

(الشيخ محمد عبده : الاعمال الكاملة ، ص ٢٨٦)

لم يقل هذا الكلام طه حسين ، ولا غيره من الافندية ، اصحاب الطرابيش او القبعات . وانما قاله شيخ الازهر نفسه ، وهو شيخ خرج من الازهر وتلقى دراسته في نفس الاروقة التي أخرجت طه حسين وعلمته التمرد العقلي ورفض كل ما يتنافى مع كتاب الله ، وقد تردد الصبي الضرير الذي أصبح بعد ذلك الشيخ طه ، على رواق الشيخ محمد عبده وحضر جانبا من درسه واستقى بعضا من تمرده الذي بدأ أزهريا واستمر ازهريا من ذلك الشيخ الذي أطلق عليه علماء عصره على اختلاف اتجاهاتهم لقب « الامام » تقديرا لعلمه واعترافا بمواقفه التجديدية التي كانت بمثابة المؤشر الذي لا يخطىء الى عبور عتبة العصر الحديث .

نعم ، كان طه حسين متمردا ، ولكنه كان متمردا ازهريا ، وفي تمرده من فضائل الازهر الشريف الكثير جدا ، وفي نقده اللغوي والبياني والتاريخي ما يذكر بمنهج الاقدمين ، وما يؤكد بأنه كان مستوعبا لأرفع ما بلغته الثقافة العربية في عصور الازدهار ، وانه كان على الما واسع وشامل لعلوم الحديث والفقه والادب والشعر والتاريخ . وانه لم يكن أقل من بقية زملائه الازهريين اسرافا في الخوض في قضايا النحو والصرف وعلم البيان ، وكل هذه الملاحظات العابرة تؤكد أزهريته وتشير الى ما كان له من ثقافة عربية أصيلة ممتدة الجذور ، وتخرج بعد ذلك بنتيجة منطقية محصلتها تقول ان الجامعة المصرية ، وان باريس والسربون لم تقدم لطه حسين الازهري سوى صقل معلوماته وتدريبه الى ارتياد أساليب البحث العلمي والمنهج الموضوعي الذي لم يخرج كثيرا عن منهج الاقدمين وان كان بحكم ثقافة العصر قد أضاف اليه قدرا من التركيز على ملامح البيئة الاجتماعية والسياسية . وفي دراسته للشعر الجاهلي ، ثم في دراساته لشعراء العصر الاسلامي والعصرين الاموي والعباسي فيها جميعا صوت الناقد العربي القديم وصورة ما خلفه الاقدمون من أصول لغوية ومن مناهج لغوية ونقدية .

وتلك الملاحظة تجرنا بالضرورة الى مناقشة وجيزة للاتهامات الخطيرة التي لاحقت طه حسين والى المعركة التي دارت من حول كتاب (في الشعر الجاهلي) والتي ساعدت طه حسين - كما سترى - على اشاعتها والتمهيد لها بما زعمه من تأثره بالمنهج الديكارتي . ونحن نزعم - منذ البداية - ان طه حسين في كل ما ذهب اليه من آراء في هذا الكتاب لم يكن الا ناقدا عربيا ازهريا ، وان ذلك الكتاب ، وهو أخطر كتبه على الاطلاق وأحفلها بالتمرد والاثارة ، هو أقرب كتبه الى المنهج الازهري وأشدها ارتباطا بالاساليب الازهرية القائمة على « الفنقلة » ، وتقليب الآراء على وجوهها المختلفة ، كما انه ايضا أوضح كتبه تأثرا بالنقاد العرب الاقدمين الذين شككوا في كل شيء ووضعوا أسس العقلانية في الدراسات الادبية ، سيما في نقد الشعر بخاصة .

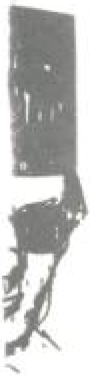
مدرسة الشك

ولعل محمد بن سلام الجمحي يشكل المدرسة الاولى التي تلقى عنها طه حسين أساليب الشك واخبار الانتحال الشعري . فقد ردد الاخير عن الاول كل ما ذهب اليه من آراء انكارية ، ومن آراء تثير الشك في الوجود الحقيقي لكثير من الشعر والشعراء . ولم يزد طه حسين على ما ذهب اليه ذلك الناقد القديم وغيره من النقاد القدماء الذين شايعوه في طريقه سوى التوسيع في الشرح والتركيز على مواطن الاثارة ، أما ما عدا ذلك فان آراءه في الانتحال وثيقة الصلة بآراء ابن سلام الجمحي ، ومن يرد ان يستزيد في هذا المجال فليقرأ كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام . وحينئذ ربما

يطمئن الى ازهرية طه حسين والى ان جذور تمرده عربية اسلامية وليست ديكارتيه فرنسية . أما ما زعمه لنا طه حسين نفسه . وما ردده بعد ذلك بعض النقاد من انه قد اصطنع اسلوب المنهج الديكارتي القائم على الشك ففيه من المبالغة والظهور بمظهر الاخذ بأساليب البحث العلمي الحديث ما لا يقل عن مبالغة الخصوم ، وهو ما يتناقض مع معظم كتابات طه حسين . وما يتناقض مع [illegible] العقلاني اليقيني الذي لم يصاحبه الشك الا مرة واحدة في كتاب (الشعر الجاهلي) وعاد بعده يقينا يتعامل مع التراث ومع التاريخ الادبي بروح الازهري الاقرب في كتاباته وآرائه الى المنهج المحافظ منه الى النهج المتمرد .

ان ديكارتية طه حسين المزعومة اشاعة صدرت عنه اولا . فقد أثبت في أكثر من مكان من كتاباته أنه اصطنع المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت ، وفي كلمة اصطنع قدر كبير من التواضع فلم يقل - مثلا - انه التزم . ومع ذلك تبقى كلمة اصطنع موضع شك حين تقارن بين المنهجين . ويستطيع القارىء غير المتخصص فضلا عن القارىء المتخصص ان يدرك ان بين منهج ديكارت ومنهج طه حسين بونا شاسعا . منهج الاول فلسفي ومنهج الآخر ادبي صرف . شك الاول وسيلة لليقين وشك الآخر وسيلة للانكار . كان ديكارت فيلسوفا شغلته قضايا الجوهر والبحث عن الكائن الوحيد ، وحقيقة الذات والوجود المستقل عن الذات وغيرها من القضايا الفلسفية التي لم يشر اليها طه حسين لا من قريب ولا من بعيد فيما كتب من كتابات ، وهذا لا يعني ان طه حسين لم يقرأ ديكارت او لم يقرأ عنه . لكن الذي لامراء فيه انه لم يتأثر بفكره او منهجه بنفس الدرجة التي تأثر بها بمناهج الكتاب والمفكرين الاسلاميين الذين قرأ لهم وعنهم في الازهر عندما كان طالبا يعب العلوم التقليدية بنهم عظيم ، ويمكن القول بعد ذلك ان شك ديكارت كان منصبا على القضايا العقلية بينما كان شك طه حسين منصبا على القضايا التقليديةوعلى الامور المتعلقة بالشعر والادب ، واذا كان الاخير قد اقترب من الدين فانما في مجال اقتراب الدين نفسه من الادب ، وفي حدود لا تثبت كفرا ، ولا تفيد انكارا .

ومن كل ما تقدم نرى ان شك طه حسين قد كان كما اسلفنا القول شكا ازهريا ، بمعنى انه نشأ عن دراسته الازهرية ، واذا كانت الجامعة او السوربون قد صنعا شيئا فانما ذلك الشيء هو صقل العقل المتمرد الشاك وجعله أكثر معاصرة ولينا ، وهو بهذا المفهوم لا يصبح



شك ديكارت وانما شك ابن سلام الجمحي ، وشك الجاحظ ، وقد كان طه حسين لصيقا بآثاره ، وهو شك ابي العلاء المعري ، وقد كان اهم اساتذة طه حسين وأقربهم الى نفسه وأكثرهم تأثيرا على عاطفته ، ويمكن القول بان المعري قد كان بالنسبة له المثل الاعلى وقد منعه روح العصر ووسائله المختلفة من أن يصوغ حياته بعد ان صاغ نفسيته على غرار حياة ذلك الشاعر المفكر الشاك القلق الرافض . ثم لماذا بعد هذا وذاك لا يكون شك ابن خلدون الذي افتتن به طه حسين وشغل به نفسه طوال سنوات بقائه في باريس . وقد نال بدراسته عنه درجة الدكتوراه من « السوربون » وابن خلدون - كما هو معروف - أحد المؤسسين الاوائل لمنهج البحث في علم الاجتماع فضلا عن منهج البحث في علم التاريخ ، وهو منهج يقوم على دراسة القوانين الخاصة وتتبع القواعد المؤدية الى كشف الظواهر الاجتماعية والتاريخية ، وما يصدر عن ذلك من رغبة الى دراسة الشعراء تبعا لاختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم .

مخاطر الاتهامات الباطلة

ولعل اولئك الذين يرمون طه حسين بتهمة التغريب والفرنسة لا يصنعون شيئا سوى انهم يتهمون انفسهم ، ويدينون ذكاءهم بالقصور عن فهم الماضي العربي الاسلامي وما وصل اليه المفكرون والنقاد والكتاب الاسلاميون من تطور في اساليب البحث العلمية القائمة على التحليل والنقد ، ومحاولة الوصول الى الكشف عن القوانين الاجتماعية والادبية مما يجعل جهدهم العظيم جزءا لايتجزأ من التجارب الانسانية الفاعلة والمفيدة لكل البشر . ولست أدري ما الذي سيحدث اذا تحقق لدعاة النكوص من المتعصبين هدفهم في انكار كل ابداع وتحطيم كل محاولة لاقامة منهج عربي اسلامي لدراسة الظواهر السياسية والاجتماعية والفنية والادبية . ان كارثة دينية وقومية توشك حينئذ ان تنزل بالعرب وتحيلهم الى مجموعة رعاة في الصحراء ، تماما كما كانوا قبل الاسلام ، وقبل القرآن هذا الكتاب العظيم الذي لبى حاجة العقل الانساني ودعا الى التفكير والتغيير ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ومن هنا فلابد ان نتنبه الى مخاطر الاتهامات التي من شأنها ان تسحق طاقات الابداع القادمة وان تشوه مظاهر الابداع القائمة ، وان تنتبه كذلك الى المزالق التي تجعل من كل المبدعين والمتمردين والداعين الى تغيير الاوضاع الجامدة خطرا داهما وشرا مستوردا ، وأعود الى

تكرار التساؤل السالف وهو لماذا لا يكون ابن خلدون الذي حاول اعادة تنظيم التاريخ العربي وفقا لمنهجه القائم على ربط التاريخ بعلم الاجتماع قد ترك أثرا كبيرا في توجيه الطالب طه حسين واغراه الى اعادة دراسة الادب العربي ، او بالاصح الشعر العربي وتنظيم المقاييس النقدية بعيدا عن الاحكام العاطفية والآراء المضطربة . لقد تمرد ابن خلدون على اساليب المؤرخين السابقين وعاب المنهج التقليدي في كتابة التاريخ والذي يقوم على السرد ونظام الحوليات ، وأنكر كثيرا من المسلمات في التاريخ العربي ، واستخدم الاستقراء والتحليل والتركيب دون ان يذهب الى باريس أو يتلقى دروسه في اي جامعة من جامعات الغرب ، واكتفى بما تلقاه من علوم في الجامع عندما كان الجامع مدرسة للعلوم ، ومركزا استراتيجيا لاعداد المسلمين للسلام والحرب ، وقبل ان يصبح محكمة للتفتيش ومكانا لسب المخالفين في الرأي ، والسائرين على دروب الاجتهاد .

ومن السهل اثبات الاسباب التي دعت طه حسين الى الاقبال على ابن خلدون واعداد دراسة عنه ، وان هذا الاقبال لم يأت عفوا أو صدفة وانما صدر عن رغبة عربية اسلامية في ايصال ما انقطع من حوار عربي اسلامي مع اساليب البحث القائمة على الملاحظة والموضوعية . لقد كان المنهج هو ما ينقص الطالب العربي والانسان العربي في بداية القرن العشرين ، وقد تكفل طه حسين من بين سائر الاساتذة والمتخصصين بان يقلب في اوراق العصور ، وفي الواقع المعاصر بحثا عن النهج الغائب وقد أفاد من معرفته بقواعد المنهج التاريخي عند ابن خلدون ، واصطنع هذه المعرفة في الدراسات الادبية ، وحينما بدأ في تدريس تاريخ الادب العربي في الجامعة المصرية ، لم يكن قد غاب عنه منهج ابن خلدون ، ولا طريقته المحصه في دراسة الاراء والوقائع والاحداث التاريخية وفي مقدمته بخاصة وقد استلهم هذا المنهج في دراسة الشعر الجاهلي فكانت الكارثة التي جعلته يتراجع عن كل احلامه ويقنع من الغنيمة بالاياب ..

لقد خاب مسعى طه حسين ، واظهر العرب المعاصرون في مختلف اقطارهم من الحرص على سلامة الشعر الجاهلي ، ومن الخوف على المعلقات ما لم يظهروا من الحرص على احتلال الفرس ومن الخوف على اوطانهم من الاحتلال ، وقد تصدى علماء الازهر الشريف لزميلهم المارق الذي سبق لهم ان حرموه من شهادة العالمية قبل ان يلتحق بالجامعة المصرية وقبل ان يذهب الى فرنسا ، وكان تصديهم العنيف لافكار ذلك الزميل ولمنهجه « المستورد » يزيد كثيرا عن التصدي الذي كان ينبغي ان يواجه به استعماري خبيث يدعى « وليم كوكلكس » كان يكتب في مجلة الازهر داعيا الى استبدال العامية المصرية باللغة العربية الفصحى ، لان العامية لغة الشعب المصري بينما العربية لغة مستوردة قادمة من الصحراء ، وتتعارض مع احلام ابناء الشعب المصري في بناء حياة التقدم والتطور الانجليزيين !!

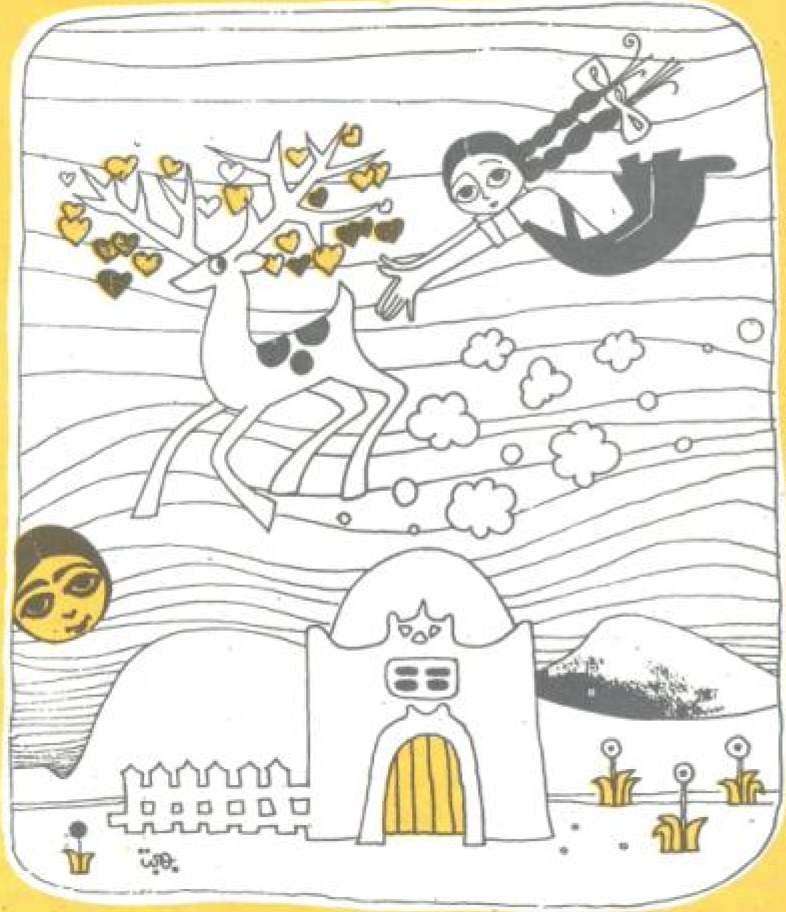
وليس غريبا ما حدث في العشرينات من هذا القرن ، وليس غريبا ايضا ما يحدث في الثمانينات من القرن نفسه ، فالشعوب عندما تسكن الى الجهل وتصبح كما قال المفكر الاسلامي مالك بن نبي ، (مأمن دون كهرباء) اي فاقدا لكل ديناميكيته وحيويته عندما تصل الشعوب الى مثل هذا الحال فليس غريبا ابدا ان تحطم مصابيحها وتخلد الى الظلام والى النوم ، واذا ما حاولت الاقلية ايقاظ الكثرة النائمة هبت الكثرة النائمة في وجه الاقلية وأوسعتها شتما وتشهيرا وأذى .

يقول الدكتور طه حسين معبرا عن هذه الحقيقة المؤلمة في الصفحات الاخيرة من كتابه (مرآة الاسلام) يقول : (وما أظن المصريين نسوا جهاد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده - رحمهما الله - في هذا السبيل ، وما لقيا من السخط عليهما والمكر بهما ، والتنكر لمن ذهب مذهبهما او اختلف الى دروسهما . وليس لهذا مصدر الا ان النائمين يكرهون اليقظة ، ويكرهون بالطبع من يدعوهم اليها ، كما ان الذين استراحوا الى الجمود لا يبغضون شيئا كما يبغضون الحركة والداعين اليها . ومع ذلك فقد نامت الامة الاسلامية قرونا طوالا ، ولكنها حين استيقظ بعض الممتازين منها ودعوها الى اليقظة في الحاح ، اتيح لها في الوقت القصير شيء لا بأس به من التنبه بل شيء لا بأس به من التقدم وان لم تزل بعيدة اشد البعد عن ان تكون جديرة بتاريخها الاسلامي البعيد) .

د .طه حسين : مرآة الاسلام ، ص ٣٥٩

لا اريد ان اكون متشائما فأنساق وراء محاولة جادة لاثبات ان ذلك الشيء الذي لا بأس به من التقدم الذي تحدث عنه طه حسين قد اختفى ، وان اليقظة المؤقتة قد عادت لتكون نوما عميقا تتخلله الاحلام المزعجة والشتائم البذيئة ، وتقطعه بين حين وآخر الدعوة الصارخة الى تكريس الجهل وحماية اصنامه وسدنته ، والقضاء على كل صوت يحاول ان يزعج النائمين او يستدرج عقولهم نحو التفكير . ■■

صنعاء - د . عبدالعزيز المقالح



الغزال

قصة : فريدة النقاش

كنت اجري وابكي . واخذت اجري وابكي . . وكان زمار يعزف على الناي ، يشده رجل آخر اليه ويتضاحكان . . هل هو ناياتي ام زمار . . يا عم . . ؟ لم يرد . حتى حين وجدني ابكي لم يرد . . . قلت ياعم ، هل هذا الغزال يخصك . . نظر الي وابتسم . . وحين لم يرد قلت سوف امسك انا به حتى لايضيع . هذه حديقة مزهرة فيها ورد لم اعرفه ابدا من قبل ، كل الورود التي في الحدائق صديقاتي ، اما هذه فلا اعرفها . يعزف الرجل

لحنا غريبا لم اعرفه ابدا . كل الالحان كنت اعرفها ، ولكن هذا اللحن آه . . لا اعرفه . . هادىء كالموت .

كانت اختي الصغيرة التي تبتسم وتبكي لتخيفني قد جلست على الجبل العالي تطل على الارض الواطئة . الغزال يطلبني . اخذت اجري وابكي . . تتشابه البيوت الواطئة ، لكن بيتا جميلا هناك له باب ملون بالاخضر والاحمر . . له وردة تتطلع الى الشمس . . . . . عرفته حين كنت اجري وابكي من قبل . . لحقني العازف : ناياتي ام زمار ؟ . . لم يرد ايضا . . اجري اكثر لاحتضن الغزال قبل ان يلحق بي . . ايها الغزال ياغزالي . . حين لم يرد هو حدقت في الشمس فوجدت صورتي ضاحكة ترتسم عليها . قلت لها انتظريني انت والشمس حتى آتي به . . . . هدني التعب اخذت اسير . . البيت كأنه يبتعد لكنني اعرفه ، فيه جدتي ومبخرة واطفال يلعبون ، تفوح منه رائحة الخبز الساخن في كل وقت . . اعرفه نعم اعرفه . . قلت الاخيرة وانا اجري واجري . اطلقت صرخة شيطانية . . فالذعر ملأني حين وجدت شرطيا على جانب الطريق . وكانت الشمس خلفي . . شدني من ضفيرتي . . اه متى كبرت ضفيرتي من جديد . . فرحت بها اكثر من خوفي . . انتزعتها منه واخذت اجري . صرخ الشرطي صرخة الليل رغم ان الشمس ساطعة وفيها صورتي . . من اين اتى الشرطي بالليل فجأة ياغزالي . . صرخت استعين به على صرخة الليل . . كنت اريد صرختي اعلى فوجدتها لا تخرج . . ايها الزمار هل سرقت صوتي . . التفت فلم اجده . . واصلت السير بعد التعب بحثا عن غزالي لم أجده منذ برهة صغيرة كان يجري . . متى اختفى ؟! حين مزق الشرطي ثيابي . . متى مزق الشرطي ثيابي ؟ . . لكنني البسها الآن لابحث عن غزالي . يلوح لي من جديد غزال فاتن لم اشهد مثله من قبل رغم انني اعرف الالوان والالحان . الا سابقته على الطريق الوعر . . جاذبته . . استدرت مرة لارى ما إذا كان الشرطي يلحقني فلم اجد غزالي . . . ياحسرتي اين غزالي ؟ . . اخذت اجري وابكي من جديد . . كل هذا البكاء الذي يغسل البحر . . قالت المرأة التي تلبس الحداد تحاذيني الحديث . . . .

ـ متى اتيت ؟

ـ منذ زمن بعيد

ـ تطاردين الغزال مثلي

ـ منذ زمن بعيد

ـ لماذا تلبسين السواد ؟

ـ منذ زمن بعيد

ـ انت مملة

واصلت السير والبكاء . . آه لو وصلت الى البيت . . البيت ذي الباب الملون بالاخضر والاحمر وله وردة تتطلع الى الشمس . . لو وصلت اجد الغزال ينتظرني . . لم يعدني من قبل ، لكنه حتما سوف ينتظر فانا قد تعبت وحين تعبت انزاحت غمامة كانت تحلل سماء الليل . . صار خطوها في العلا كأنه خطوى انا في الارض . ارتسمت لي غزالا . . قلت غزالي الحي والا فلا . . قلب ابي ظل ينبض طويلا بعد ان مات ، عرفت ذلك باللمس والنفس . . ابي لم يطارد الغزال لكنه حل على الموت . كل الاعضاء تتشابه ماعدا القلب ، ناديت الغمامة كأنني اتلمسها :

ـ من اي الاشياء اتكون انا ؟ . . قالت من الحصى والرمل والرذاذ والنجوم .

ـ طيب !

واصلت السير . . بات الشرطي بعيدا جدا والبيت اقترب . هذه رائحة البخور اشمها . العطر والدلال يا غزالي الذي يقترب . تعثرت خطاي اوشكت على الوقوع وضحكت نفسي . الظلمة توغل . . المرأة التي لم تكن تبكي سمعتها تبكي . . انها تخاف ، فالاشجار تقترب من بعضها ، عويل الليل وخضرة الليل وحصى الليل آه قد وصلت ، وعلى الباب ارتميت كقطة مبلولة احدثت صوتا . صرخة الليل تأتيني من بعيد . قلت لكنه لايراني ، انا التي اتفتح عند الباب الملون . . يا غزالي لاتدق الباب ، أعرني هذا القرن الجميل ادق فتفتح لي الشجرة . لم يرد كان قد ابتعد . . أنا اكف عن المطاردة لانني تعبت . غفوت قليلا فانزاح البيت ووقف الليل فلاحقته من جديد . . قلت الجد . . الجد لاينفع البكاء . . الجد الجد لاينفع البكاء . الالحان تأتيني متداخلة . . التي اعرفها والتي لااعرفها تدخل الى فيخرج صوتي . . صورتي تأتيني من الشمس مزينة بوردة اعطيها صوتي فتغني . أرفع يدي لاقاتل الشرطي ، فلا ترتفع . . وارفع صوتي لانادي اهلي فلا يرتفع . ايها الليل الا تنجلي ابدا ؟ . . ياغزالي لاتخذلني ، بات الوصول وشيكا وها انت تختفي . . آه هي القناة الصغيرة . . المعبر الهش . لاحقتني ذات السواد الكثيف ، قالت اعبري ياهند اعبري . .

ـ اسمي ليس هندا ، اسمي الخنساء

ـ تبكين صخرا

ـ لا . . احارب حربة

ـ هذا ليس سيفا

ـ لكنني احارب

ـ منذا الذي حل لك الضفيرة ؟

تلمست شعري . اخذت اجري وابكي ، الضفيرة محلولة ومبلولة . .

آه يا شرطي الليل لو اقتربت من الغزال ، قتلته ياشرطي الليل . . أسندت ضفيرتي المبلولة على الباب الملون . . اعد نفسي للغزال الذي لم يأت ، لم يدق الباب بعد . . لكن الباب اختفى والبيت ايضا . . بقي جسدي مرصعا بالورود والنجوم والندى وضفيرتي محلولة ومبلولة لاتستند الى شيء . . . .

صحت يا صخر . . انا الخنساء جئت . . اختي التي تبتسم وتبكي لتخيفني . . اه رحلت . . اختارت الأرض الـواطئة . . والغـزال . . الغزال خـذلني وخـذلته . . اتنفس قليلا . . اجمع الـورود والنجوم والنـدى واتادي صخرا من جديد . . حتى لوكنت قتيلا ياصخر يمكنك ان تطارد الشرطي وان تلحق بالغزال . . حتى لـو كنت قتيلا . . ابكي دون ان اجري . . انـه الشـوق يغلبني ويقعـدني . . تحيت الورود والنجوم تلك التي بجانب القلب لارشقها على البيت لكنه اختفى . . اطبقت يدي على النـدى . . البيت البيت اختفى ، المتجرة وجدتي والخبز الساخن . . الارض الواطئة تبتلعه . .

غزالي يبتسم لألحق به آه . . انا ألحق به دون صخر . . ياغزالي هذه القفار . . الليل اسلم للنهار قفرا موحشا . . ما هكذا تنجلي . . اقطع الطريق من جديد . . اعود الى المرأة والزمار وأختي والشرطي . . لا احـد . في الليل رحلوا . . الآن اسقط في الغمـامة اشـدهـا الى الارض تعانق . هي تبكي وانا ابكي وتنبت شجرة جديدة امسك بجذعها وهـو يطلع خفية من الارض . . آه يا غمامة روحي . الـطريق وعر والغـزال كـأنـه الـوهـم . . ادق الارض الآن . ادقها ، اجري ولا ابكي . . اوصدت باب التحولات والدموع قفار ، على جانبي الطريق لظى وجد في خـطوي ، اتجهم وادق الارض واخـاف . الشمس لاتضحك وليست بها صور وتحرق . اخلع حذائي الذي لم اكن البسه هناك لاحرق قدمي في جحيم القفار . هيا . .

قلت هيا لأتذوق الحريق . تورمت قـدماي . ابكي ولا اجري . ابحث عن شجرة لارتاح لا اجد الا جذعا اقف فوقه . . ثم استأنف السير في الجحيم . . نمت الشجرة ثم احتـرقت في الجحيم . بقي الجـذع للذين يسيـرون ولايرحلون الى الابد . . اسير . . الغزال صـورة تبين وتختفي . البيت اختفي . حلت جذوع جديدة لاشجر . انه الندى الذي انفرط من يدي . انه الندى .

كـل الاشيـاء والنـاس خلفي . . استـدرت فلم اجدها . . اللظى والصور تفسخ الأشياء قبل ان ترحل . اللظى يتعقبني . يرتطم بي فنشتعل معا في القفـار . تأتي الغمامة خلسة فتطفىء النار التي انتصبت في قلب الطريق ثم ترحل . انا واللظى المغسول تـوءمان . بـان الطريق مقفـرا وخاليا . المس القفـار والخلاء بيـدي الاثنتين واصابعي العشر . امضي بثبات كأنني اعرف الطريق منذ الف عام . ياصخر لا اسمع صوتي . يلوح الغزال باكيا او ضاحكا لا أميز . باللمس باللمس فقط . الغزال يبتعد بعد ان حاذاني وكنت أتوهج . اجري ويجري . ابكي ولا يبكي يبتسم مـرة ويختفي . يـا هـذا الخلاء المؤلم عنـد اللمس ، هـل يتـألم الغـزال . يخلع القـرنـين الملونين ويلوح . الجري يضنيني اما البكاء فلا . الدموع والغمام والندي تلوح ايضا وتبتعد . تنفصل عني فـاصبح لظى وجريا وخـلاء . اجرى واستـغفـر العاصفـة . . اجرى واستغفرها امشي خلفـا واتدحرج في الخـلاء . تبتعد العاصفة لانه لاشجر بل جذوع . تحمل الغزال بهدوء وهي ترحل . اجري واستغفرهـا بعد ان قمت . هـذا الغـزال اريده . . . حط طـائر عـلى صـدري ، اخـذت ارضعه وانا اجري وابكي واخذت اجري وابكي . في آخر . . آخر الطريق على حافة الارض عند خضرة الليل وحصى الليل وعويل الليل كان الغزال يتألم في العاصفة وبـدير ظهـره لي . . اطلقت صرختي النارية . . . ياغزالي .

■■

فريدة النقاش

لغز !

● عاد كاتب اشتهر برواياته البوليسية المثيرة ، الى شقته في لندن بعد اجازة امضاها في احدى الضواحي ، فوجد جماعة من اللصوص قد اقتحمـوا الشقـة وسرقوا كل ما بها من مال وثياب ، ورأى على مكتبه بطاقة هذا نصها : « هذا لغز ... فهل لك ان تحاول حله في اوقات فراغك ... ايها الكاتب الكبير » .

● حل مسابقة العدد ٢٧٨●

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
١	ك	ا	ل	س	ي	و	م	○	ا	ل	ت	و	ر	ا	ه
٢	ا	ي	ن	ش	ت	ي	ن	■	ل	ي	م	و	ن	ه	■
٣	ت	م	د	■	ق	و	ا	ط	ع	■	ا	و	■	م	ا
٤	م	ح	ن	■	■	م	غ	ل	ص	و	ن	■	م	ل	ل
٥	ن	و	■	ا	ب	ن	■	ي	ر	ف	ع	و	ن	■	س
٦	د	ت	ي	ل	■	ج	ر	ح	■	د	■	ا	ا	م	ن
٧	و	ب	ي	ل	ه	■	ا	ه	ج	و	■	ص	ق	ي	م
٨	○	■	■	ط	ر	ف	ه	ب	ن	ا	ل	ع	ب	د	■
٩	ر	ا	م	ي	■	ا	ب	ن	ي	■	ي	■	ه	ي	ن
١٠	ا	ل	ن	ف	ي	ر	■	خ	ن	ا	د	ق	■	ت	م
١١	د	ن	ا	■	م	ا	ي	و	■	ل	ي	ل	و	ش	■
١٢	ي	و	س	ف	ا	د	ر	ي	س	■	ا	ي	ل	ي	ا
١٣	و	ا	ب	■	م	ي	و	ل	ه	م	■	ل	ا	■	ا
١٤	م	ي	■	م	ه	■	م	د	ا	م	ت	و	س	و	■
١٥	■	ا	ر	ق	■	ه	ه	■	م	ر	ا	ن	■	د	ل

أفقيا

طرفة بن العبد

رأسيا

طليحة بن خويلد

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : طرفة بن العبد . شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات في القرن السادس الميلادي . بدد ثروته وهام متشردا ، ثم اتصل بملك الحيرة ومدحه الى أن غضب عليه الملك فأمر بقتله .

(٨) رأسيا : طليحة بن خويلد . ادعى النبوة في قومه ومن جاورهم ، بعد وفاة الرسول فأرسل أبوبكر اليه خالد بن الوليد ، فانتصر عليه ، وفر طليحة ، ثم عاد مسلما . وكان ذا بلاء في فتوح فارس في عهد عمر بن الخطاب .

الفائزون بالجوائز

الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : جعفر حسن خطاط/ بنيد القار/ الكويت

الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : محمد زكي عبده احمد/ الاسكندرية/ مصر

الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : فتح الله محمد محمود/ لواء الجوف/ اليمن الشمالي

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا فاز بها كل من :

١ ـ السباعي محماد بن علي/ وجدة/ المغرب

٢ ـ امين عبدالله احمد العلي/ الاحساء/ السعودية

٣ ـ الياس خليل كرداشة/ مأدبا/ الاردن

٤ ـ سنده ذنون يونس/ الموصل/ العراق

٥ ـ عماد عبدالعزيز عبد علي/ المحرق/ البحرين

٦ ـ عائشة خطر غنيم/ طرابلس/ لبنان

٧ ـ محمد شريف فرحان المحمد/ القامشلي/ سوريا

٨ ـ صلاح ميرغني برهان/ عطبرة/ السودان

المماليك

رواد النهضة الثانية في الإسلام

بقلم : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور



دأب بعض الباحثين الغربيين على اتخاذ الامبراطورية الرومانية القديمة مثلا يحتذى فى قيامها وسقوطها ، وخاصة عند تقليل ضعفها ومحاولة وضع أسباب لهذا الضعف ، محتذين فى ذلك حذو المؤرخ المعروف جيبون فى كتابه الشهير « تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها » .

وكان أن لجأ بعض المستشرقين ـ أمثال فلهوزن ونيكلسون ـ عندما عالجوا مرحلة التدهور والتفكك فى تاريخ الدولة الاسلامية الى الاستعانة بنفس المعايير التى وضعها جيبون ، حتى لقد تمادى بعضهم وعقد نوعا من المقارنة بين أوضاع الامبراطورية الرومانية وأوضاع الدولة الاسلامية فى مرحلة الضعف التى المت بكل منها .

ومع اعترافنا بأن هناك عوامل داخلية وخارجية متشابهة ـ اقتصادية واجتماعية وسياسية ـ تؤدى الى ضعف الدولة وربما سقوطها ، الا ان طبيعة الدولة الاسلامية من حيث النشأة والتكوين ، والصفة الروحية التى اتسمت بها منذ مولدها ، وظروف الزمان والمكان التى أحاطت بها ، والروابط المعنوية والدينية والفكرية التى ربطت بين الشعوب التى تألفت منها على اختلاف أصولهم وجذورهم وبيئتهم البشرية . كل ذلك يجعل الفارق فى نظرنا كبيرا فى حالة المقارنة بين الامبراطورية الرومانية من ناحية والدولة الاسلامية من ناحية أخرى ، سواء فى حالة القوة أو حالة الضعف .

ولعله من الفوارق الكبرى بين الحالتين ان الامبراطورية الرومانية ارتفعت وسقطت ، وليس لها الا قلب واحد تتركز فيه الحياة السياسية والحربية ـ والى حد كبير ـ الحضارية ونقصد بهذا القلب مدينة روما ، وكانت النتيجة أنه عندما سقطت روما فى قبضة بعض جموع الجرمان فى أواخر القرن الخامس للميلاد ، جاء ذلك نذيرا بسقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، واعتبر المعاصرون هذا الحدث علامة على قرب قيام الساعة وفناء العالم ، وظل الشعراء لعدة قرون تالية ينظمون القصائد فى رثاء روما ، وأخذ الناس يفسرون ما حل بهم من نكبات فى ضوء سقوط روما ، لأنه لا أمن ولا استقرار ، ولا سيادة ولا كرامة ، ولا رخاء ولا حضارة الا فى ظل روما وامبراطوريتها .

قد يقال ان القسطنطينية قامت فى القرن الرابع للميلاد ـ فى أواخر العصر الرومانى ـ لتصبح روما جديدة ولكننا نرد على ذلك بان القسطنطينية لم يقدر لها مطلقا منذ انشائها وحتى سقوطها فى قبضة العثمانيين بعد أحد عشر قرنا ان تحمل تراث روما الحضارى . لقد حملت دائما لواء الحضارة اليونانية لغة وفكرا ومنهجا ، حتى عندما تغلبت المسيحية على العالم الرومانى ، أبت كنيسة القسطنطينية الا أن تنحو نحوا مغايرا مستقلا عن كنيسة روما ، ووقفت الكنيستان وجها لوجه موقفا يتسم بالعداء لبعضها البعض .

أكثر من رئة

أما الدولة الاسلامية ، فاتصفت دائما ليس بقدرتها على البقاء والحياة فحسب ، بل أيضا بقدرتها على العطاء وتجديد شبابها ، ومنذ قيام الدولة الاسلامية وجدت لها أكثر من رئة تتنفس بها حضاريا ، وانتشرت هذه المراكز الحضارية شرقا وغربا ، فكان من جملتها بخارى وأصبهان وغزنة والبصرة والكوفة والموصل وحلب والفسطاط والقيروان وفاس ومراكش وغرناطة واشبيلية ، ... سواء كان قلب الدولة فى المشرق : المدينة

أو دمشق أو بغداد أو القاهرة ، أو في المغرب قرطبة ، فإن هذه المراكز الحضارية في الدولة تفاعلت مع بعضها البعض ، وأعطت بعضها البعض ، وأخذت من بعضها البعض . وفي ظل الاسلام بمثله وقيمه وروحه ، وبفضل العربية التي أمدت هذا الجهاز الضخم بلغة جميلة كانت خير أداة للتعبير وربط الآراء والأفكار . لقد كانت تلك المراكز الحضارية التي انتشرت شرقا وغربا أشبه بمحطات ضخ أو تقوية تعمل كل منها في دائرتها على تدعيم تيار الحضارة الاسلامية العربية والنهوض بها والمحافظة على تراثها وتوسيع آفاقها .

والمعروف في التاريخ أن دولة واحدة على مر العصور لم يقدر لها البقاء على حال واحد من الرفعة والقوة ، وإنما التاريخ أيام يداولها الله ـ عز وجل ـ بين الناس . وفي مرحلة معينة خضعت الدولة الاسلامية لنظام الدورة التاريخية ، فتعرضت للضعف والانقسام السياسي . وأخذ ذلك يبدو واضحا عليها منذ القرن الرابع للهجرة . ومع ذلك بقيت الدولة متماسكة حضاريا بفضل روابط الاسلام والعروبة .

وإذا كانت بغداد قد قدر لها أن تكون مركزا للحضارة الاسلامية في أوج مجدها وذروة عظمتها في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، فإن الصدمة التي أصابت المسلمين بسقوط بغداد في قبضة التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كانت عنيفة وقاسية . ذلك أن بغداد لم تكن مجرد حاضرة من حواضر الاسلام الكبرى وإنما كانت حاضرة الخلافة الاسلامية . وباسمها ارتبطت صفحات من أزهى صفحات الاسلام وحضارته .

لقد ظلت رغم ما أصابها من ضعف سياسي قبلة أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى أن أهل الشام عندما حلت بهم كارثة الغزو الصليبي في أواخر القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر للميلاد ـ لم يجدوا بدا من إرسال الوفود إلى بغداد يطلبون النجدة . وعلى الرغم من أن الخلافة العباسية كانت عندئذ أضعف من أن تنهض بدور ملموس لصد العدوان الصليبي ، فإن نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين ظلوا يشعرون المسلمين بأهمية الخليفة العباسي في بغداد ، وكلما أحرزوا نصرا مرموقا على الصليبيين أرسلوا الرسل إلى بغداد مبشرين بالنصر لأن المعركة كانت معركة الاسلام ، وليست معركة دولة أو شعب بعينه .

وإذن فقد كان وقع سقوط بغداد في قبضة التتار بداية غير عادية ، ونكبة هي الأولى من نوعها في تاريخ الدولة الاسلامية منذ قيامها ، ويكفي أن قامت بهذه الغزوة جموع وثنية لا تعرف من أنواع السلوك إلا القتل والاحراق والتخريب . اشتهرت بعدائها للاسلام فهدمت الجوامع وأحرقت المؤسسات الدينية وقتلت خليفة المسلمين وآل بيته . هذا إلى أنها وقفت موقفا عدائيا من حضارة الاسلام وتراثه . فألقى التتار بآلاف الكتب والمؤلفات في نهر دجلة ، عدا ما أحرقوه وأتلفوه . وهكذا كان من الممكن أن تكون الضربة التي حلت بالاسلام وحضارته على أيدي التتار ضربة قاصمة قاضية لولا ما اتصف به الاسلام من قدرة على الثبات وتخطي العقبات . وتعدد في مراكز الفكر والحضارة ، بحيث إذا أصيب أحدها انتقل مشعل الحضارة بسرعة ـ ودون توقف ـ إلى مركز آخر .

وإذا كان حكام الشام ـ من بني أيوب ـ قد اهتزوا أمام خطر التتار وقرروا الاستسلام اعتقادا منهم بأنهم أمام قوة يتعذر عليهم مواجهتها ، فإن المماليك الذين كانوا قد استولوا عندئذ على زمام الحكم في مصر أثبتوا بسرعة أنهم فرسان الاسلام الجدد . القادرون ليس على حماية أهله وأرضه فحسب بل أيضا حضارته . ولم ينجح المماليك في تخليص مصر من حملة صليبية كبرى بزعامة لويس التاسع فحسب وإنما نجحوا أيضا في إنزال هزيمة كبرى بالتتار عند عين جالوت على أرض فلسطين ، وطاردوهم حتى أجلوهم تماما عن بلاد الشام . وبذلك أدخلوا هذه البلاد تحت حكمهم . واكتسبت دولتهم في

آنية نحاسية أثرية نقشت عليها
كتابة عربية بأسلوب الكوفي





التاريخ اسم دولة البرين والبحرين ، لأنها تشمل مصر وبر الشام ، ولسلطانها السيادة على مياه البحرين : المتوسط (بحر الروم) والأحمر (بحر القلزم) .

القاهرة والخلافة العباسية

وسرعان ما تواكبت الأسباب لتجعل زعامة العالم الاسلامي تنتقل الى القاهرة في عصر سلاطين المماليك الذي امتد من أواسط القرن الثالث عشر للميلاد حتى أوائل القرن السادس عشر . وفي الوقت الذي تمكن سلاطين المماليك في القاهرة من دحر التتار وطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، أخذت الهزائم تحل بالمسلمين في الأندلس وشمال أفريقية على أيدي القوى الأوربية المسيحية ، مما جعل حكام المغرب الاسلامي يرسلون السفارات والوفود الى القاهرة يطلبون النجدة .

وبالاضافة الى هذه الزعامة السياسية والحربية تحققت للقاهرة في عصر سلاطين المماليك زعامة روحية كبرى جاءت نتيجة لاحياء الخلافة العباسية فيها . ذلك أن المسلمين أحسوا بفراغ روحي ضخم بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي التتار ، اذ الفوا أنفسهم دون خلافة شرعية وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان أن عجل سلاطين المماليك باحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وحصلوا على تفويض بالحكم من الخلفاء العباسيين الجدد ، مما أضفى عليهم وعلى سلطتهم صبغة شرعية . ومهما يقال من أن نفوذ الخلافة العباسية في القاهرة ظل محدودا طوال عصر سلاطين المماليك ، فان الحصيلة هي أن القاهرة غدت في نظر المسلمين جميعا مقر الخلافة العباسية الشرعية ، مما حقق لها ولحكامها مكسبا أدبيا ومعنويا لا حدود له . وتشهد على ذلك الوفود والقصاد ورسل الحكام والملوك والأمراء الذين أخذوا يفدون على القاهرة من مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، يحملون الأموال والهدايا ويقدمون الولاء ويطلبون التأييد من الخليفة العباسي ليكتسب حكمهم القوة والشرعية .

ولم تلبث هذه الزعامة السياسية والحربية والروحية التي تحققت لمصر في الشطر الأخير من العصور الوسطى ـ على عصر سلاطين المماليك ـ أن واكبتها نهضة حضارية ضخمة امتدت آفاقها لتشمل شتى جوانب الحياة الفكرية والتعليمية والاجتماعية والفنية ... وغيرها ، حتى لقد أطلق بعض الباحثين على ذلك العصر اسم عصر النهضة الثانية في الاسلام . ومن الواضح أن هناك عدة عوامل تجمعت لتجعل هذه النهضة حقيقة واقعة وتدفعها دفعا الى الأمام ، وتضمن لها الازدهار والريادة [١] .

فبالاضافة الى أن تربة مصر بالذات عرفت منذ أقدم عصور البشرية بأنها تربة حضارية ، فانها في ظل الاسلام كانت من أولى بلاد الدولة الاسلامية التي قامت فيها مدرسة فكرية ضخمة تعبر عن روح الدين الجديد ، ويكفي أنه نزل بها مجموعة من كبار الصحابة ، أشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذي وصف بأنه أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ظلت مدرسة الفسطاط بمصر أمدا طويلا تغذي الحياة الفكرية في شمال أفريقية حتى قبل أن مدرسة القيروان انبثقت عن مدرسة الفسطاط وتدين لها بالكثير .

ثم كان انتقال الخلافة العباسية الى مصر في عصر سلاطين المماليك ، مما أدى الى هجرة كثيرين من علماء المسلمين الى مصر بالذات ليعيشوا على مقربة من الخلافة وينعمون ببركتها . وفي ذلك يقول السيوطي ـ من كبار علماء عصر سلاطين المماليك ـ ما نصه : « اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الاسلام فيها وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رحال الفضلاء ... »

يضاف الى ذلك ان مصر في عصر سلاطين المماليك تمتعت بقسط من الأمن والاستقرار لم يحظ به قطر آخر من أقطار المسلمين في المشرق أو في المغرب سواء . ففي المشرق اجتاح التتار البلاد حتى نهر الفرات ، وفي المغرب اشتد الضغط الصليبي على المسلمين في الأندلس

---

(١) الريادة : الرائد من يتقدم القافلة ليكشف لها الطريق ، ويدلها على ما فيها من منافع واخطار . (العربي) .



قنديل لجامع موجود في متحف داليم ببرلين من عصر المماليك

وشمال أفريقية .وبذلك لم يبق آمنا قادرا على أن يرد للأعداء الصاع صاعين سوى دولة سلاطين المماليك . حتى الاقليم الشامي فى هذه الدولة لم يقدر له أن ينعم بالأمن والاستقرار على طول الخط ، لأن التتار فى العراق كانوا ينتهزون الفرصة ـ بين فينة وأخرى ـ للاغارة على الشام وتخريب مدنه الكبرى مثل حلب وحمص ودمشق .

أزهى عصور الاقتصاد

ومن المعروف أن الاشتغال بالعلم وشتى ألوان النشاط الحضارى يتطلب مناخا هادئا يشعر فيه الجميع بالأمن والاستقرار ، لذلك اختار كثير من العلماء والفنانين ومهرة الصناع فى العالم الاسلامى النزوح الى مصر فى ذلك الدور والاقامة فيها . يذكر ابن حجر أن بعض علماء الشام وغيرهم من بلاد المسلمين فى ذلك العصر قالوا عن بلادهم « هذا بلد ضيق عن علمى » وهجروها الى مصر .ومن يتعمق قليلا فى مصادر عصر سلاطين المماليك يلمس أن عددا كبيرا من علماء ذلك العصر ينتسبون اسما الى دمشق أو عسقلان أو بيت المقدس أو افريقية ، ولكنهم ارتبطوا فكريا بمصر ، وقضوا بين جنباتها معظم سنى حياتهم يعلمون أو يتعلمون ، وعلى أرضها أنتجوا وألفوا أشهر كتبهم ومؤلفاتهم .

على أن أية نهضة حضارية لا بد لها من موارد اقتصادية كافية تغذى نشاطها وتفى بأسبابها وتشجع القائمين عليها من علماء وفنانين ونحوهم . هذا فضلا عما تتطلبه اقامة المدارس والمؤسسات الدينية والاجتماعية والصحية والمرافق العامة من أموال . وهنا تدخلت الظروف لتجعل من عصر سلاطين المماليك أزهى عصور تاريخ الاقتصاد المصرى . فبالاضافة الى غنى مصر وثروتها الطبيعية ووفرة خيراتها ـ مما كان مضرب الأمثال فى تلك العصور ـ اذا بظروف طارئة تجعل من مصر فى عصر سلاطين المماليك قصبة التجارة العالمية بين الشرق والغرب .

ذلك أنه وجدت فى العصور الوسطى عدة طرق سلكتها التجارة العالمية بين الشرق الآسيوى والغرب الأوروبى . وعبر هذه الطرق استمد الغرب الأوروبى ما كان يحتاج اليه من بضائع وغلات لا غنى له عنها فى تلك العصور ، وبخاصة التوابل والبخور ، ولكن حركة التتار التوسعية فى القرن الثالث عشر للميلاد سدت معظم هذه الطرق بسبب سيطرتهم عليها وافتقار التجار فيها الى الأمن والسلامة .ومن هذه الطرق ، الطريق البرى عبر آسيا إلى جنوب روسيا ، والطريق البرى عبر سمرقند الى العراق والأناضول وموانىء الشام ، وطريق الخليج والبصرة الى بغداد فالشام أو القسطنطينية . وبذلك لم يبق آمنا بعيدا عن سيطرة التتار وتهديدهم سوى طريق البحر الأحمر فمصر ، ثم تحمل البضائع برا أو فى النيل الى ساحل البحر المتوسط حيث يحمل التجار الأوربيون من الاسكندرية أو دمياط .

وهكذا سيطرت دولة سلاطين المماليك على التجارة العالمية بين الشرق والغرب واحتكروا الأصناف المربحة من هذه التجارة ، وجنوا من وراء ذلك ثروات ضخمة ظهر أثرها فى النهضة الحضارية الضخمة التى ارتبطت فى التاريخ بتلك الدولة والتى انعكست صورتها فى شتى نواحى الحياة ، وخاصـة الاجتماعية والثقافية والفكرية .

فالحياة الاجتماعية اتصفت فى ذلك العصر بالنشاط والبذخ ، والمبالغة فى الاحتفال بالأفراح والأتراح



والاسراف فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، وصارت المدن المصرية - وبخاصة القاهرة - موضع دهشة واعجاب الرحالة الأجانب والمسلمين الذين زاروا مصر فى ذلك العصر . فالرحالة برنارد دى بريدنباخ قال انه يعتقد أنه لا توجد مدينة أخرى فى العالم أجمع تضاهى القاهرة فى كثرة سكانها واتساع مساحتها وتنوع مرافقها وعظمة ثروتها . وجيهان تنود قال إن القاهرة تبلغ ثلاثة أضعاف مدينة باريس وانها تفوقها فى العظمة والتقدم . أما الرحالة المسلمون فقد قالوا الكثير ومنهم ابن بطوطة الذى زار مصر على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون ، فوصف القاهرة قائلا « هى أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بها ماشئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ... » ولعل خير ما يشير الى نشاط الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك ، هو ذلك العدد الضخم من المنشآت العامة التى زخرت بها المدن المصرية فى ذلك العصر ، مثل الوكالات والفنادق والبيمارستانات والأسبلة والحمامات وأحواض شرب الدواب ونحوها .

وفى دنيا الثقافة

ان أبرز معالم هذه النهضة الاسلامية التى ارتبطت باسم مصر من ناحية وبعصر سلاطين المماليك من ناحية أخرى ، كان فى الجانب الفكرى الثقافى ، الأمر الذى تشهد عليه آلاف الموسوعات والكتب والمؤلفات التى لم تترك لونا من الوان العلوم والفنون الا عالجته : العلوم الدينية واللغوية ، الأدب ، التاريخ ، الجغرافيا ، الخطط ، نظم الحكم والادارة والعلوم الطبيعية والعقلية والتجريبية على اختلاف فروعها ، فن الحرب والقتال والسلاح وأنواعه ، السفن والأساطيل ، الغناء ، الفلاحة ، حتى كتب الطهى وأنواع المأكولات ، والعلاقات الجنسية ... وللأسف لم ينشر من هذه الثروة سوى القليل ، وما زالت الغالبية مخطوطة موزعة بين متاحف ومكتبات العالم .

وليس حقيقيا ما يظنه البعض من أن ازدهار الحياة العلمية فى ذلك العصر جاء نوعا من التعويض النفسى الذى أحس به الناس إزاء سيطرة طبقة من المماليك غريبة عنهم ، دخيلة عليهم ذلك أن هذه النظرة المبالغ فيها والتى نادى بها بعض المستشرقين ونقلها عنهم بعض الكتاب العرب دون وعى أو دراسة كافية لذلك العصر ، هى فى الواقع بعيدة عن الصحة . فلا دليل يقوم على أن أهالى البلاد أحسوا بأن حكامهم غير مرغوب فيهم . وحسب المماليك أنهم مسلمون أقاموا شعائر الاسلام ، ودافعوا عنه ضد أعدائه ، وجاهدوا فى سبيل الله وحموا البلاد والعباد من عدوان المعتدين . ان حب الناس لحاكم بعينه وكرههم لحاكم آخر انما توقف على السيرة الشخصية لهذا الحاكم أو ذاك ، ونرى أهالى مصر فى بعض الحالات يتمسكون بسلطان من سلاطين المماليك ويقفون الى جانبه ضد خصومه وينادون بعودته الى العرش اذا عزله منافسوه ، مثلما فعلوا مع السلطان الناصر محمد بن قلاون . ويثورون ضد سلطان آخر ويتظاهرون ضده مثلما فعلوا مع كتبغا وبيبرس الجاشنكير . والغالب أن الناس كثيرا ما رأوا فى بقاء المماليك فى الحكم ضرورة ، ولم تظهر كراهيتهم للمماليك الا فى أواخر أيامهم عندما انفرط عقد نظامهم ، واتضح عجزهم عن توفير النظام والأمن ، واختلط الاوضاع الاقتصادية ، مما أذن بسقوط دولتهم . أما زمن ازدهار الدولة واستقرار أمورها فلم ير الناس فى المماليك الا حكاما مسلمين يعملون على حماية حدود الدين والدنيا .

وحسب المماليك أنفسهم أنهم لم يكونوا بعيدين عن النشاط الفكرى الذى ازدهر فى عصرهم ، وقد وصف المؤرخ ابن تغرى بردى السلطان الظاهر بيبرس بأنه « كان يميل الى التاريخ وأهله ميلا زائدا . ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب » . كذلك جاء فى كتاب « مجالس الغورى » الذى حققه ونشره استاذنا المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام ، ان السلطان الغورى كان يحرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل اسبوع وقد بحثت فى تلك المجالس مختلف المسائل العلمية والتاريخية والدينية والاجتماعية ، وتناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء أو الفقهاء بحرية تامة . وكثيرا ما كان السلطان بنفسه هو الموجه للمناقشة فيبدأ كل مسألة بعبارة « قال حضرة مولانا السلطان .. » كذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى مصر انهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية بل تصدى بعضهم لاقراء الطلبة



صورة من كتاب في الفروسية من العصر المملوكي

والتدريس لهم . ويكفى أن نشير الى بعض أعلام المؤرخين فى ذلك العصر ممن ينحدرون من أصل مماليكى ، مثل بيبرس الدوادار وابن تغرى بردى وابن إياس وغيرهم .

وخير ما يوضح النشاط العلمى الذى شهدته مصر فى النهضة التى ارتبطت بعصر سلاطين المماليك ، كثرة المدارس التى تسابق السلاطين والأمراء فى بنائها ووقف الأوقاف عليها ، حتى بنوا فيها « ما ملأ الاخطاط[٢] وشحنها » على قول القلقشندى . أما ابن بطوطة فيقول عن مدارس مصر فى القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر للميلاد « لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها » . وقد عدد المقريزى ـ فى خططه ـ الكثير منها .

والمعروف أن المدرسة فى ذلك العصر كانت أشبه بالجامعة اليوم ، أى انها كانت معهدا للتعليم العالى ، فكان يختار للتدريس فيها كبار علماء العصر . وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر يصدر بها توقيع من ديوان الانشاء . وفى هذا التوقيع يقدم السلطان النصح للمدرس بأن يظهر « مكنون علمه » للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه ، منشرح الصدر ، ليستميل اليه طلبته « ويربيهم كما يربى الوالد ولده » . وكذلك عليه « أن ينظر فى طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال » . وجرت العادة ان يعين معيد أو أكثر لكل مدرس ، ليعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس حتى يفهموه ويحسنوه .

أما الطلبة ، فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التى يدرسونها بحيث « لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة ، بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية » . وكثيرا ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية وسمعته بين طلاب العلم حتى قيل إن ابن حجر ـ وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجرى ـ اعتاد أن يجتمع حوله ـ فى حلقة العلم ـ بضعة آلاف من طلاب العلم .

وارتبطت هذه النهضة الفكرية والثقافية والتعليمية الكبرى فى عصر سلاطين المماليك بالعناية القصوى بانشاء المكتبات ، وتزويدها بالنافع من الكتب فى كل علم وفن . وقد اطلق على المكتبة اسم « خزانة الكتب » ، وعلى أمين المكتبة اسم « خازن الكتب » ومهمته الاشراف على ما فى المكتبة من كتب عديدة « من تفسير وحديث وفقه ولغة ومعان وبيان وبديع واصول فقه

(٢) الاخطاط : احياء المدينة او اقسامها ، واحدها : خط . وقد كانت الكلمة مستعملة في مصر ، حتى اوائل هذا القرن ، وحلت محلها الآن كلمة : « قسم » و « اقسام » . (العربي) .



وأصـول دين ومنطـق ، وغيـر ذلك من نحـو وصرف وغيرها .. ومن طلب منه كتابا في علم من العلوم أو فن من الفنون يدفعه له لينتفع به في المدرسة .. » حسبما جاء في وثيقة حجة وقف السلطان الغوري .

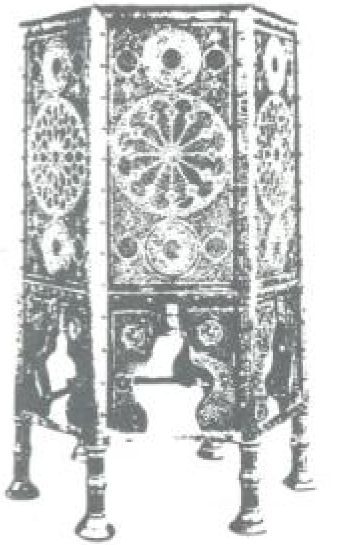
أرقى الفنون

واذا كانت الكتب والمؤلفات التي تكتظ بها مكتبات العالم اليوم وهي خير شاهد على تلك النهضة الكبرى التي ترتبط بعصر سلاطين المماليك ـ في جانبها الثقافي والفكري ـ فان الآثار والمخلفات الفنية تعتبر خير شاهد على تلك النهضة في جانبها الفني . وهناك حقيقة أجمع عليها العلماء ـ ولا جدال فيها ـ هي أن الحياة الفنية في الاسلام بلغت اسمى درجات الرقي والروعة على عصر سلاطين المماليك . وما زالت بقايا العمائر المماليكية في مصر والشام من مساجد وخانقاوات وقصور ومدارس وقباب وغيرها ـ فضلا عن التحف الرائعة التي تزخر بها دور الآثار في العالم . تشهد بمدى سمو الحياة الفنية في ذلك العصر ، وان جولة في القاهرة بالذات بين آثار ذلك العصر لرؤية نماذج منها مثل مدرسة السلطان حسن ـ المعروفة خطأً باسم جامع السلطان حسن ـ وقبة السلطان قلاوون ، ومدفن السلطان الظاهر برقوق ، ومدفن قايتباي بالصحراء الشرقية ... أو من العمائر المدنية قصر بشتاك وقصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ، وقصر الأمير طاز بشارع السيوفية ، ووكالة الغوري ووكالة قايتباي ، وحمام بشتاك .. لتشهد بما بلغه فن العمارة الاسلامية في ذلك العصر من روعة في التصميم ورشاقة في الشكل وجمال في الذوق ، وقدرة فائقة على الجمع بين الاساليب الفنية المعروفة في ذلك العصر .

أما في الرسوم والزخرفة والتصوير ، فان عصر سلاطين المماليك ترك مجموعة ضخمة من الزخارف والتصاوير والرسوم تشهد جميعا برقي الحس الفني وسموه . ويلاحظ على تلك الرسوم والزخارف انها اتصفت بالطابع العربي الواضح . ويؤكد الباحثون أن تعرض العراق لغزو التتار في القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر للميلاد ـ ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير الى أراضي دولة سلاطين المماليك ، بعد أن هاجر الى هذه الاراضي كثير من فناني المشرق والعراق فرارا من خطر التتار . لذلك اتصفت التصاوير التي ترجع الى عصر دولة سلاطين المماليك بمحافظتها على التقاليد العربية بشكل واضح ، وخلوها ـ الى حد كبير ـ من المؤثرات المغولية التي ظهرت في البلاد التي حكمها التتار .

وهكذا نرى مساجد ذلك العصر وقد زخرفت بوحدات جميلة من رسوم نباتية أو هندسية ، فضلا عن الآيات القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي . أما سقوف المباني ، فقد زينت بالرسوم المذهبة ، وكسيت جدرانها بالفسيفساء الملونة الرائعة ، في حين زخرفت الواجهات من الخارج على هيئة طبقات أو مداميك أفقية احداها فاتحة اللون تليها أخرى حمراء داكنة .

من ابدع التحف المعدنية المملوكية كرسي من النحاس المخرم ذو ستة اضلاع محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة .



على أن رقى فن الرسم والزخرفة فى عصر سلاطين المماليك لم يقتصر على العمائر، وانما شمل الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبلور، فضلا عن أغلفة الكتب. وتمتاز الأوانى العديدة - الخزفية والزجاجية - التى ترجع الى عصر سلاطين المماليك، والتى تنتشر فى متاحف العالم اليوم بما عليها من رسوم نباتية رائعة الشكل أو أشكال هندسية دقيقة، أو صور للحيوانات والطيور. وربما جاءت هذه الزخارف بالمينا البارزة، وبعضها عبارة عن رنوك مختلفة الأشكال، كالنمر أو السبع أو النسر. ومعظم المشكاوات الباقية من ذلك العصر مدهونة بالمينا، ومزخرفة بأشرطة فيهاكتابات، مثل «عز لمولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين عز نصره» أو آيات قرآنية. مثل «وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل» أو «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح».

ومثل هذا يقال عن زخرفة النسيج التى بلغت فى عصر سلاطين المماليك درجة ملحوظة من الرقى والروعة، وتوجد بدار الآثار العربية بالقاهرة قطع من النسيج ترجع الى ذلك العصر، عليها زخارف جميلة فى شكل عبارات، مثل «العز الدائم والاقبال» و«سعادة مؤيدة ونعمة مخلدة».

غزال ... والاستاذ المصرى

أما الأغلفة الجلدية للكتب فقد عنى بزخرفتها بماء الذهب وتزيينها برسوم دقيقة عبارة عن أشكال هندسية متشابكة.

وهذه الأجزاء المذهبة من الغلاف الجلدى كثيرا ما كانت تضغط أو تزخرف بحيث تتوسطها جامات مزينة بقطع رقيقة من الجلد على شكل نباتات. وبلغ فن زخرفة الكتب روعته فى المصاحف التى توجد بدار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة نادرة منها، ترجع الى عصر سلاطين المماليك. ولم يعن الفنانون بزخرفة غلاف المصحف أو فاتحته فحسب وانما زخرفوا أيضا سائر صفحاته، وبخاصة فواصل السور والآيات. وامتدت هذه الظاهرة الى الكتب الدينية غير الاسلامية، اذ عنى الفنانون غير المسلمين فى دولة سلاطين المماليك بزخرفة الانجيل والتوراة، وعثر على بعض نسخ منها وقد نسخت بخط عربى جميل، وزينت برسوم هندسية ونباتية وفق التقاليد الفنية العربية.

ومثل هذا يقال عن رقى فن النحت والحفر، سواء فى الرخام أو الحجر أو فى الخشب والعاج. أما الفنون الصغرى التى تشمل الصناعات الحرفية الدقيقة المعبرة عن تفوق الصانع ومهارته الفنية وذوقه الجميل ودقة عمله، فقد بلغت هى الأخرى درجة الابداع، وتجلى ذلك سواء فى صناعة الخزف والزجاج، أو النسيج والسجاد أو الخشب والعاج أو المعادن.. ويضيق المقام عن التطرق الى ما بلغه فى التكفيت وفن التطعيم فى ذلك العصر، من رقى وروعة. وكثير من القطع الفنية وخاصة الخزفية - التى ترجع الى عصر سلاطين المماليك، عليها أسماء الفنانين الذين صنعوها، مثل «غزال» و«الاستاذ المصرى».

وبعد فان الكلام عن النهضة الحضارية، فى عصر سلاطين المماليك يطول، بحيث يتطلب كل جانب منها عدة مجلدات لتوفيه حقه. وزاد من وهج هذه النهضة انها جاءت فى عصر ضعفت فيه مشاعل الحضارة فى بقية أنحاء العالم الاسلامى، مشرقه ومغربه. لقد سبق لمصر أن شهدت فى عصورها الاسلامية حالات من الانتعاش الحضارى، وبخاصة أيام الفاطميين، ومن قبلهم الطولونيين والاخشيديين. ولكن بريق هذه النهضات بدأ خافتا الى حد ما أمام قوة الاشعاع الحضارى المنبعث عندئذ من بغداد وقرطبة. أما فى عصر سلاطين المماليك فى مصر فقد تلألأ نور الحضارة قويا ساطعا وسط ظلمة شبه تامة احدقت بالعالم الاسلامى فى أواخر العصور الوسطى، بعد أن انطفأت شعلة الحضارة العربية الاسلامية فى بغداد والمشرق من ناحية، وخمدت جذوتها فى الأندلس والمغرب من ناحية أخرى. ولم يبق من هذه وتلك إلا وميض خافت يظهر حينا ويختفى أحيانا.

ولعله لا يقلل من شأن المماليك بعد ذلك أنهم انحدروا من أصول غير عربية. لقد غدت العروبة منذ أمد بعيد عروبة الحضارة والأحاسيس والمشاعر، وليست عروبة الدم والعرق، حسب المماليك أنهم كانوا مسلمين، جاهدوا فى سبيل الله، ونجحوا فى حماية الاسلام - فى منطقة هى بمثابة القلب من أكبر خطرين معاصرين هدداه. هذا الى أنهم لم ينجحوا فى حماية حضارة الاسلام وحفظ تراثه من الضياع فحسب، بل نجحوا فى انماء هذه الحضارة حتى حققت فى كثير من الميادين قدرا من الازدهار لم تحققه فى عصر آخر. ■■

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

مهرجانات من ضياء تتجلى في السماء !

بقلم : الدكتور عبدالمحسن صالح

كنا نجلس في الخلاء في ليلة صيف يلفها الظلام ، وبينما نحن نتحدث في أمور الدنيا والدين ، انطلق فجأة صوت أحد القرويين ، وقد بدت في نبراته سمات الرهبة وهو يتمتم ويقول « سهم الله في عدو الدين ، يحرق القوم الكافرين » !

وكان بجواري أحد أبناء المدن ممن ليس لهم اختلاط بالريف وعاداته ، ولا يعرف أنماط التفكير الساذج الذي يسيطر أحيانا على عقل كل من يرى ظاهرة طبيعية لا يعرف لها تفسيرا ، ولقد سألني همسا : ماذا أصاب صاحبنا؟ .. وما هو سهم الله ؟.. ومن هو عدو الدين ؟.. ولماذا قال ما قال على أية حال ؟

وشرحت لصاحبنا ان القروي قد رأى شهابا يبرق في الفضاء الخارجي ، ثم يحترق ببريق لامع ، وهو يعتقد - نتيجة لأفكار قديمة متوارثة - ان الشهاب ليس الا سهما أطلقه الله على أحد الشياطين الذي أراد أن يصعد الى الفضاء ، ليتنصت على الانباء ، أو يعرف أخبار السماء ، لكن الله لم يمكنه من ذلك ، فقتله بسهم حارق ، وهذا جزاء كل شيطان رجيم على حد اعتقادهم !

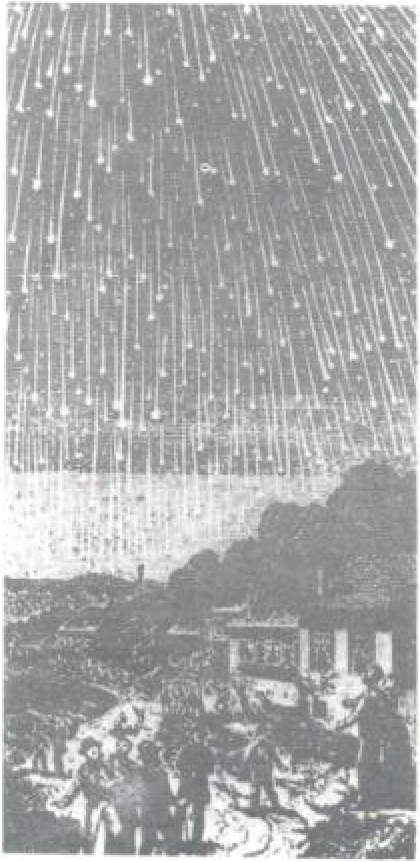
هذه الظاهرة تتكرر ملايين المرات بالليل والنهار ، لكنها تظهر بوضوح تام في الليالي المظلمة الصافية ، وكثيرا ما رآها الناس من قديم الزمن ، فأثارت حيرتهم وتساؤلاتهم ، ولما عجزوا عن تعليلها ، حاكوا حولها الحكايات والأساطير التي تناسب عقائدهم وبيئاتهم ، فمن قائل انها سيوف أو سهام تلهو بها الملائكة ، ومن قائل انها مقذوفات من النجوم ، أو أنها شرر من جهنم ينطلق على المارقين ، أو أن السماء ذاتها لها سقف مرفوع فوق الارض ، ومن هذا السقف قد تتساقط كتل على هيئة حجارة أو كسف ذات أحجام مختلفة ، وأشكال متباينة ، وألوان وتكوينات مميزة ، فكانت لها بين الناس قدسية خاصة ، ولم لا ، مادامت السماوات مصدرها !؟.. ثم إن كل آت من السماء ، له جاذبية ، وفيه بركة ، ولا شك أنه ينطوي على معجزة - على حد ما يعتقدون !

بين الحقيقة والعقيدة

ولقد ظل الناس يقدسون هذه الأحجار المتساقطة من السماء ، ردحا طويلا من الزمان - ولا يزالون - والبعض ينظر اليها كمعجزة ، لأن المعجزة هي كل ظاهرة كونية أو طبيعية يعجز العقل عن تعليلها ، وعندما تفسر التفسير العلمي الذي يتمشى مع طبيعة الكون ونواميسه ، ينتفي منها عنصر المعجزة .. فعندما سقط من السماء حجر كبير قرب مدينة « اينزيشايم » بسويسرا في نهاية القرن الخامس عشر ، حمله الناس الى كنيسة قائمة هناك ، وحفظوه فيها ، وعليه تعليق يقول « في ١٦ نوفمبر عام ١٤٩٢ حدثت معجزة فريدة من نوعها ، اذ سقط بجوار مدينة اينزيشايم حجر يزن ٢٦٠ رطلا فيما بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة ، ومصحوب بفرقعة وضوضاء استمرت فترة ، وانتقل صداها الى الأماكن البعيدة ، ولقد رآه طفل وهو يسقط في حقل قريب ، ويحدث فيه حفرة عمقها خمسة أقدام ، ولقد رفع هذا الحجر وحمل الى الكنيسة ووضع فيها باعتباره شيئا ينطوي على معجزة ... الخ » .

وفي القرن الثامن عشر سقط على اليابان حجر آخر ، وحمله الناس وحفظوه في معبد « اوجي » ، ولقد استمر أهل المنطقة - ولفترة طويلة - في تقديم قرابين سنوية في نفس اليوم الذي سقط فيه الحجر من السماء ، واعتبروه حجرا مقدسا يستحق التبجيل والخشوع !

وثمة حجر آخر سقط على الهند في القرن التاسع عشر ، والتف الناس حوله،وكانوا يأتون اليه من كل فج وصوب ، ليحيطوه بباقات من الزهور ، ويدهنوه



الشكل يوضح انهمار الشهب كوابل من السماء حدث ذلك عام ١٨٣٣ .

بالزيد والزيوت العطرية ، وأقاموا على المكان الذي سقط فيه بنيانا ، واعتبروه مقاما ومزارا .

ويذكر ب .ل . براون في كتابه « النيازك والمذنبات والبشر » أن أقدم تسجيل يوضح قدسية هذه الأحجار القادمة من السماء يرجع الى أسر بناة الأهرام في مصر القديمة ، اذ وجد المنقبون في أحد الأهرامات عقدا يحتوي على بعض قطع أو شظايا صغيرة من نيزك حديدي ، ويرجع تاريخ هذا العقد الى حوالي ٣٢٠٠ ق.م .

وتشير معظم الكتب العلمية التي تناولت هذا الموضوع الى ان بعض الكتب المقدسة قد أوردت صورة غير واضحة لسقوط بعض هذه النيازك من السماء ، ففي كتاب براون - على سبيل المثال - يذكر « ان اقدم السجلات - رغم انها غير مفهومة القصد تماما - هو ما جاء في الاصحاح العاشر ليسوع في العهد القديم « وبينما هم هاربون من امام اسرائيل وهم في منحدر بيت حورون ، رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء الى عزيقة فماتوا ، والذين ماتوا بحجارة البرد هم أكثر من الذين قتلهم بنو اسرائيل بالسيف ! .. وحجارة البرد - اي الكتل من الثلج الصلد - لا تميت كما تميت النيازك مثلا ، لأن النيازك حجارة أو معادن حقيقية تسقط من السماء ، وهذا هو سر التعليق الذي أشار اليه براون ، وقال انها غير مفهومة القصد ، وهو يرجح ان تكون الحجارة منسوبة الى النيازك ، وليس الى البرد ، خاصة وان هذه النيازك قد سجلت على مدى التاريخ الطويل للأرض وهي تتساقط كرذاذ أخاف الناس وأرهبهم ، وربما كانت الحجارة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم أقرب الى هذا المفهوم ، مما جاء في اصحاح العهد القديم .. ففي سورة الفيل ما يشير الى ذلك - ربما تلميحا لا تصريحا .. « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .. وواضح ان الحجارة هنا كانت ملتهبة ، نتيجة لاحتكاكها الرهيب بالهواء الجوي ، ووصولها الى درجة الانصهار !

العلم يتردد في تقبل الظاهرة

ولقد ظل سر هذه الحجارة التي تتساقط من السماء مجهولا الى عهد قريب نسبيا ، وحتى العلماء الاوائل الذين عاشوا في القرن الثامن عشر ، لم يأخذوا هذه الظاهرة على محمل الجد ، واعتبروها من الخرافات التي لازالت تعشش في عقول الناس ، لدرجة أن الأهالي الذين يقطنون في ضاحية باريس ، كانوا يتوجهون الى الاكاديمية الفرنسية للعلوم - وهي أكبر هيئة علمية تضم نخبة ممتازة من العلماء - حاملين معهم بعض هذه الحجارة والمعادن السماوية ، ليعرضوها على العلماء ، فلا يعيرون ما أحضروا معهم اهتماما ، وكانوا يودعونهم بأدب ، رافضين الدخول معهم في استفسارات أو مناقشات ليس من ورائها طائل .

وتحت ضغط الناس وتأكيدهم أنهم رأوا بعض هذه الحجارة تسقط بالفعل من السماء ، تنازلت الاكاديمية ، وكلفت ثلاثة من علمائها - وكان من بينهم العالم الكيميائي الفرنسي الشهير لافوازييه - ببحث المسألة ، وجاء التقرير ليقول : ان هذه الاشياء ليست سماوية ، بل حجارة ارضية عادية ، ولقد اتخذت شكلها الغريب

نتيجة لتفريغ الكهربية الجوية فيما يعرف بالصاعقة ، فأكسبها سطحا يشبه الشيء المصهور والمحروق !

ويقال ان الرئيس الامريكي توماس جيفرسون كان قد سمع عن اثنين من العلماء الامريكيين المرموقين انهما شاهدا بأعينهما بعض هذه الحجارة وهي تتساقط ، فامتعض وقال : لقد كان يفضل ان يسمع ويصدق ان هذين الاستاذين الجامعيين يكذبان فيما يقولان ، على ان يقررا انهما رأيا حجارة تسقط من السماء !

الوحيد الذي نظر الى هذه الظاهرة نظرة أصيلة هو « ف . كلادني » التشيكي ، والمعروف ببحوثه الرائدة في الموجات الصوتية ، اذ جمع كل ما له صلة بهذا الموضوع في كتاب طبع عام ١٧٩٤ ، وقدم فيه من الدلائل الدامغة ما يؤكد ان الحجارة التي رآها الناس تهبط من السماء ظاهرة صحيحة ، لكن سر عدم تقبل العلماء والناس لها ، هو ما وقر في عقولهم من ان السماوات لا يمكن ان تتلوث بمثل هذه « القمامة » بل هي فضاء جميل تسبح فيه الكواكب والأقمار والنجوم ، وهي مصدر هبوط الملائكة - لا مهبط الحجارة والحديد ، أو هذا البلاء المتساقط من السماء !

والغريب أن أحدا في زمان كلادني لم يصدق ما جاء في كتابه ، بل اعتبروه مخرفا مضللا،وعلق أرائه يعلق أحد النقاد تعليقا ساخرا فيذكر« ان كلادني يناقض كل ما وقر في العقول من تصور جميل للنظم الكونية ، ولا يبالي بالعواقب الوخيمة التي يمكن ان تحل باخلاقيات الناس من جراء ذلك » - أو بمعنى آخر ، فان كلادني يبدو وكأنما هو يشكك الناس في عقيدتهم ، فيجعلهم ينظرون الى السماوات نظرة اخرى مخالفة لما تخيلوه لها من أنها الملكوت المسالم الصافي من كل شائبة ، وهي ليست كذلك حقا ، فقد أظهرت الكشوفات فيما بعد ان السماوات ليست كما تخيل الناس ، بل ان العكس هو الصحيح ، فهي بيئة معادية للانسان (أو أي كائن ارضي) أشد العداء !

حجارة ومعادن سماوية للبحث العلمي

ورغم ان أصوات المعارضين قد زمجرت وتعالت ، الا أن قافلة العلم قد سارت ، وعلى مر عشرات السنين زادت حصيلة العلماء في هذا الموضوع المثير ، اذ تجمعت بالفعل أكوام من هذه الحجارة والمعادن الغريبة ، وأفسحوا لها أهم الأماكن في المتاحف العلمية ، ومن حسن الصدف : أن كاتب هذا المقال كان في الولايات المتحدة في ابريل من العام الماضي ، حيث دعاه أحد العلماء المصريين المقيمين في نيويورك الى حفل افتتاح صالة « أرثر روس للنيازك » بمتحف التاريخ الطبيعي ، وتبع ذلك ندوة تحدث فيها ثمانية من أشهر علماء الشهب والنيازك والظواهر الطبيعية والفيزياء الكونية والعلوم الفلكية ... الخ ، ولقد تجولنا في صالة النيازك لنرى رؤية العين تلك الحجارة والمعادن التي تساقطت بالفعل من السماء ، وقد عرضت عرضا حسنا ، فتباينت أشكالها ، واختلفت ألوانها ، وتعددت طباعها وأحجامها ، فمنها ما لا يزيد عن حبة من خردل ، أو عدة جرامات ، أو كيلوجرامات أو عشرات ومئات كيلوجرامات ، أو قد تصل الى عدة أطنان ، فهناك كتلة كبيرة مقامة على ستة أعمدة من الصلب ومعروضة في صالة خاصة ، وتزن حوالي ٢٨ طنا ، وتتكون أساسا من الحديد والنيكل .. ومما يذكر ان هذه الكتلة الهائلة تعتبر أضخم كتلة معروضة في متحف ، وثانية أكبر الكتل المكتشفة حتى الآن ، إذ يوجد أكبر نيزك في جنوب غرب أفريقيا ، وتم اكتشافه في عام ١٩٢٠ ، ويزن حوالي ٥٩ طنا .

وطبيعي ان هذه النيازك لا تعرض فقط في المتاحف ليتفرج عليها الناس ، بل تذهب أجزاء منها الى معامل العلماء لاجراء تحاليل وتجارب فيزيائية وكيميائية ، لمعرفة عناصرها وأصلها وتاريخها ومصدرها .. الى آخر هذه الامور التي يجد فيها العلماء منفذا هاما يرشدهم الى بعض أسرار المجموعة الشمسية خاصة ، والكون عامة .. أي كأنما هذه النيازك بمثابة « وكالات » أنباء سماوية ، تتساقط على الارض ، وتحمل في طياتها أخبارا يتوق العلماء الى معرفة تفاصيلها ، علها ترشدهم عن التاريخ القديم للسماوات ، وكيف نشأت وتطورت .. لكن ذلك موضوع آخر طويل ، وسنرجعه لدراسة أخرى قادمة .

وثمة سؤال هنا قد يطرأ على الذهن : ما هو الفرق بين الشهاب والنيزك ؟

الواقع ان الشهاب هو جسم مندفع من السماء صوب الغلاف الهوائي ، وعندما يحدث الاحتكاك الرهيب بين هذا الجسم وبين جزيئات الهواء في طبقات الجو العليا ، يحدث توهج شديد ، وكأنما هناك جسم لامع يندفع بسرعة فائقة ، ثم لا يلبث الا لحظة خاطفة ، وبعدها يختفي عن الأنظار ، حيث يتحول الشهاب بعد ذلك الى غبار دقيق يتساقط ببطء شديد نحو الأرض .

ومن كان له صبر على مراقبة هذه الظاهرة ، وتوجه ببصره نحو السماء في ليلة صافية معتمة ، فلا شك أنه سيسجل حوالي خمسة شهب في كل ساعة ، لكن هذا

العدد قد يرتفع الى عشرين شهابا في الساعة في أوقات محددة من السنة .. اي في فجر يوم ١٢ اغسطس من كل عام (في نصف الكرة الشمالي) حيث تدخل الارض في مدار بعض الشهب باتجاه برج كوكبة الجبار . او بعد منتصف ليلة ١٣ ديسمبر من كل عام من اتجاه برج الجوزاء .

لكن قد يحدث ما هو أكثر اثارة ورهبة من ذلك ، وبحيث يعطي في الاذهان انطباعا لا يمكن ان ينسى . اذ تأتي السماء بظاهرة غريبة ، وكأنما هي تحتفل بألعابها النارية كما يحتفل البشر بأعيادهم القومية . لكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث . وقد تتكرر مرة واحدة في كل جيل . اذ حدث ان انهمرت هذه الشهب في عام ١٨٣٣ كوابل من ألعاب نارية . أو كأنما كانت تشبه انهيار الثلج من السحب (وربما كانت الاشارة التي جاءت في العهد القديم ظاهرة تشبه تلك الظاهرة - كما سبق أن قدمنا) .. هذا ومما يذكر ان معدل تساقط هذه الشهب كان في حدود ٣٥ الف شهاب في كل ساعة . ثم تكررت هذه الظاهرة مرة اخرى في عام ١٨٦٦ . وآخرها كان في عام ١٩٦٦ . حيث امتدت بين شمال غرب الولايات المتحدة وشرق الاتحاد السوفيتي . وكانت أكثر وضوحا في ولاية اريزونا الامريكية . حيث شاهد بعض الناس هناك « مهرجانا » سماويا . تنطلق فيه المقذوفات الضوئية الساطعة . التي كانت تندفع بسرعات هائلة . ولقد بدا هذا الحدث المثير في الساعة الخامسة من صباح يوم ١٧ نوفمبر . وبدت السماء وقتها وكأنما هي تكاد تشتعل . مما أصاب بعض المشاهدين بحالة من الذعر والهلع . وظنوا ان نهاية العالم آتية . ويرجع ذلك الى غزارة الشهب المندفعة . اذ قدر معدل سقوطها نحو الغلاف الهوائي بحوالي ٣٠٠ الف شهاب في الساعة الواحدة .

وما لا يحترق يهبط الينا

ان هذا التوهج الذي يبدو كسهام منطلقة في السماء ، يرجع الى السرعة الرهيبة التي تندفع بها الشهب في الفضاء . ثم دخولها في جاذبية الأرض . فتنطلق نحوها بسرعة تتراوح ما بين ١١ كيلومترا في الثانية الواحدة كحد أدنى . ٧٢ كيلومترا/ ثانية كحد أقصى . ويرجع هذا الاختلاف الى دخول الشهب في اتجاه أو عكس اتجاه حركة الارض في مدارها . اذ تنطلق الارض بدورها في الفضاء بسرعة ٢٩ كيلومترا في الثانية الواحدة . فكأنما الشهب هنا تجري وراءها . أو تندفع نحوها . وهذا يعلل لنا بعض الاختلاف في سرعتها بالنسبة لارضنا .

وطبيعي انه كلما كانت السرعة أكبر ، والشهاب أثقل ، كان التوهج أعظم .

على ان أكثر الشهب التي تنطلق نحو الارض لا يزيد حجمها عن حجم حبيبات الرمل . أو ربما اضأل بكثير . اذ قد يتراوح سمكها - في هذه الحالة - ما بين ١٠ - ١٠٠ ميكرون (الميكرون جزء من الف جزء من المليمتر) . وهذه لا تحدث الا توهجا ضئيلا لا يكاد يرى من على الارض بالعين المجردة . لكن الذي يرى كسهام متوهجة هي الحبيبات التي في حجم حبة الرمل . أو أكثر . ونتيجة لاحتكاكها بغلاف الهواء على ارتفاع حوالي مائة كيلومتر . تتوهج وتتفتت الى غبار خفيف يتساقط علينا من السماء دون ان نحس بسقوطه أو وجوده بيننا .

وبجوار هذه الشهب الصغيرة . توجد أيضا أجسام أكبر تتراوح أوزانها بين عدة جرامات أو عشرات الأطنان . وعندئذ يحدث الاحتكاك بمعدلات أضخم ، ويتفتت منها ما يتفتت نتيجة لانصهار سطوحها من شدة الحرارة . وقد يؤدي اندفاعها الى حدوث صدمة عاتية يسمع صدى صوتها كقنابل منفجرة . وكلما دخلت في الغلاف الهوائي أعمق . كانت المقاومة أشد . والوهج أعظم . وما يتبقى ويصل منها الى الارض على هيئة كتل من الحجارة أو المعادن . يعرف باسم النيازك . وهي التي أثارت اهتمام الناس من قديم الزمن . ولما لم يجدوا لها تفسيرا معقولا . فسروها بحكايات وأساطير ومعجزات تريح عقولهم !

لكن مما لا شك فيه ان الشهب والنيازك تحمل في طياتها بعض أسرار السماء . ومن أجل هذا يعتبرها العلماء بمثابة رسل تحمل في طياتها بعض « الوثائق الكونية » التي تكشف عن التاريخ القديم جدا لتكوين المجموعة الشمسية خاصة . والكون عامة . ثم انها بمثابة « عينات » مجانية تأتينا من السماء . دون ان يكلف العلماء انفسهم مشقة الحصول عليها من الفضاء . وكأنما هذه الكميات الهائلة التي يتقبلها كوكب الارض على هيئة أتربة وحجارة ومعادن سماوية - كأنما هي بمثابة « حجر رشيد » الكون . وفيها يقرأون الطلاسم التي توضح لنا ان لكل شيء بداية ونهاية .. « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

فماذا نعني بكل ذلك حقا ؟

هذا دراسة أخرى قادمة . لنعلم ما لم نكن نعلم من أسرار الكون والحياة .

الاسكندرية ـ دكتور عبدالمحسن صالح

اعداد : مصطفى نبيل

عودة إلى قضية ...
"الإنتحال في الشعر الجاهلي"

بقلم الدكتور : يوسف بكار - اربد

« دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي » (دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩) مأثرة جديدة من مآثر الدكتور عبد الرحمن بدوي في خدمة التراث العربي الاسلامي . يضم هذا الكتاب المترجم عشرة من أبحاث المستشرقين ومقالاتهم حول الشعر الجاهلي ، جمعها الدكتور بدوي وترجمها عن لغات أصحابها التي كتبت بها : الألمانية ، والانجليزية والفرنسية ، ثم صنفها في ضربين : الأول « صحة الشعر الجاهلي » والآخر « رواية الشعر الجاهلي وتدوينه » .

يندرج في الضرب الأول ستة أبحاث :

- من تاريخ ونقد الشعر العربي ، لتيودور نولدكه .
- ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة ، لفلهم الفرت (وليم ألورد) .
- نشأة الشعر العربي (١) ، لمرجوليوث .
- في مسألة صحة الشعر الجاهلي ، لارش برونليش .
- « مقدمة لديوان جرول بن أوس الحطيئة » و« وجن الشعراء » لجولد تسيهر .

ويضم الضرب الآخر الأبحاث الأربعة التالية :

- الرواية والرواة عند العرب ، لاوجست اشبرنجر .
- تعليقات على دواوين القبائل ، لجولد تسيهر .
- التأثيرات الوراثية والمشاكل التي تضمها رواية الشعر العتيق ، لريجي بلاشير .
- استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربي القديم ، لكرنكوف .

وغني عن القول أن جمع هذه الأبحاث وترجمتها ونشرها في كتاب واحد عمل عظيم يستحق صاحبه الشكر والتقدير ، لأنه يتيح فرصة الاطلاع عليها والافادة منها لعدد كبير من الدارسين والباحثين الذين لم يتسنَّ لهم الوصول إليها في مظانها الاولى وبلغاتها الأصلية .

---

١ - ترجم هذا البحث ايضا ، الدكتور يحيى الجبوري بعنوان « اصول الشعر العربي » ونشره في كتاب مستقل (مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٨) .

مقالات الكتاب وأبحاثه ليست موضوعا للبحث الآن، فثمة ما هو أولى منها، وهو ما قد يهم كثيرين - وخاصة المعنيين بالشعر الجاهلي والمشتغلين به -، لما قد يثير من جدل ونقاش واعتراض. إن هذا «الأولى» ينحصر فيما اثاره الدكتور بدوى من قضايا في «تصديره» هو للكتاب، وفي «ملحقه» الذى ترجم فيه، باختصار، للمستشرقين أصحاب البحوث، سوى جولد تسيهر، الذى أحال في ترجمته على ماكتبه عنه في تراجم كتابه «التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية».

لماذا الضجة؟

لقد «نبش» الدكتور عبد الرحمن بدوى في «التصدير» قضية «الانتحال في الشعر الجاهلي» فدافع بقوة وحماسة عن المرحوم الدكتور طه حسين، وهاجم بشدة وضراوة كل اللذين تصدوا للرد عليه ومناقشته في كتاب «الشعر الجاهلي» وبديله «في الادب الجاهلي» دون ان يستثني منهم أحدا! وها هو ذا يقول: «كلما أتذكر الحملة الشعواء الهوجاء التي أثيرت حول كتاب «في الشعر الجاهلي» (سنة ١٩٢٦) وبديله «في الادب الجاهلي» (سنة ١٩٢٧) للدكتور طه حسين، فان عجبي لا ينقضي:

اولا: لأن ما قاله عن انتحال الشعر الجاهلي، وفساد رواته ورواياته، وما اضيف اليه أو حذف منه هو كلام سبق ان قاله وأشبع القول فيه علماء الادب واللغة القدماء منذ القرن الثاني للهجرة وخصوصا في القرنين الثالث والرابع.. (ص ٥).

ويستشهد بمحمد بن سلام الجمحي (١٣٩ - ٢٣١هـ) صاحب «طبقات فحول الشعراء»، وينقل نصوصه المعروفة - ولا حاجة لذكرها - في المسألة، ثم يسجل نتائجها، ويقول: «تلك هي النتائج التي انتهى اليها ابن سلام الجمحي، والاسباب التي ساقها لبيان منشأ الانتحال والتزييف والزيادة في الشعر الجاهلي. وهي هي عينها النتائج والاسباب التي اوردها الدكتور طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» و«في الادب الجاهلي» او كتابه الواحد المعدل هذا.

فعلام إذن هذه كل الضجة الزائفة التي اثيرت حول هذا الكتاب، حتى نعتوا صاحبه بما شاءوا من النعوت؟ فاتهموه بالمروق والتهجم على التراث العربي العريق والرغبة في تحطيم امجاد العرب والانسياق وراء «مؤتمرات» المستشرقين (ولهذه الكلمة في ذهن كل او جل المشتغلين بالادب العربي معان غريبة ممعنة في التضليل والايهام والتهاويل!) فهل كان ابن سلام... «مستشرقا» هو الاخر و«متآمرا» على التراث العربي القومي؟ اننا لم نجد لأى واحد من الكتاب القدماء ابتداء من القرن الثالث الهجرى طعنا في الرجل بأى معنى من هذه المعاني، انما كان عالما وناقدا ممتازا أوتي البصيرة النافذة في النقد التاريخي فاستطاع أن يصل الى النتائج التي أتينا على ذكرها.

وكان ذلك في أواخر القرن الثاني الهجرى (الثامن الميلادى) وأوائل الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، فكيف ينكر على رجل في القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادى)، الوصول الى نفس النتائج - كذا -، وأن يزيد عليها كما يقتضيه تقدم البحث العلمي؟» (ص ١٠ - ١١).

هذه واحدة....

وثانيا: «ان الدكتور طه حسين في كتابه ذاك لم يكن اول باحث في العصر الحديث بحث في صحة الشعر الجاهلي واسباب الانتحال فيه، بل كان على العكس من ذلك تماما، آخرهم».

وراح الدكتور بدوى يستعرض، تاريخيا المستشرقين اللذين عنوا بالقضية ويذكر أبحاثهم فيها، فابتدأ بنولدكة الذى فتح باب البحث فيها عام ١٨٦١، وانتهى بيروتليش صاحب مقالة «في مسألة صحة الشعر الجاهلي» التي نشرها عام ١٩٢٦ ردا على مرجوليوث في بحثه «نشأة الشعر العربي» الذى نشره عام ١٩٢٥ في مجلة «الجمعية الآسيوية الملكية».

في جهل فاحش

وخرج الدكتور عبد الرحمن بدوى بعد استعراضه المفصل بنتيجة هامة خطيرة، لا مندوحة من أن أثبتها كاملة. يقول:

«والشيء المؤسف حقا هو ان كل هذه الابحاث قد بدأت في الستينات من القرن الماضي ونمت واتسعت، بينما ظل «المشتغلون» بالادب العربي في العالم العربي والاسلامي بمعزل تام عنها، وفي جهل فاحش بها. وربما كان في هذا التفسير للدهشة الحمقاء التي قوبل بها كتاب الدكتور طه حسين ولو كانوا على علم بما كتبه القدماء من

علماء العربية مثل الجمحي ، واقصد بالعلم هنا : الفهم الدقيق والتبصر ، لا مجرد الاطلاع ، ثم لو كانوا اطلعوا على ابحاث المحدثين من المستشرقين التي بدأت قبل ذلك بأكثر من خمسة وستين عاما لما رأوا في كتاب « في الادب الجاهلي » شيئا غريبا او مستنكرا لو خلصت نياتهم ، ولرحبوا به بوصفه اسهاما عربيا له قيمته في هذا المجال ، ولواصلوا السير في هذا الطريق الواعد بالنتائج العظيمة لكن ما حدث في مصر والعالم العربي كان على النقيض تماما : فلم يقتصر الامر على الردود المعنتة في الجهل والادعاء التي نشرت في سنوات سنة ١٩٢٧ وما تلاها ، بل كان الأدهى هو ما كتبه « أساتذة » الادب العربي من كتب ، وما حضره تلاميذهم من « رسائل جامعية » لنيل الدكتوراه ، ولكنها تكشف عن جهل هؤلاء واولئك التام بكل ما نشر قبل ذلك بمائة عام او يزيد من ابحاث ودراسات نضرت وجه البحث في الشعر الجاهلي وتقدمت به خطوات هائلة ، هم عنها جميعا غافلون ولا اريد أن اذكر اسماء ، لأني لا أستثني منهم أحدا » (ص ١٣) .

واثار الدكتور بدوى في « الملحق » الشكوك ، اذ وجه من خلال كلامه على « وليم ألورد » نقدا شديدا وخطيرا لنفر من خيرة المحققين والمشتغلين بالتراث من العرب . فحين وقف ، وهو يعدد اعمال هذا المستشرق في خدمة التراث العربي ، عند « مجموع اشعار العرب » الذى اخرجه في ثلاثة اجزاء قال : « وهذه النشرات الثلاث تدل على امتلاكه ناصية اللغة العربية فقها وادبا ، وعلى قدرته الفائقة على التحقيق الفيلولوجي الدقيق لنصوص الشعر العربي القديم . وعلى الرغم من مرور اكثر من خمسة وسبعين عاما على صدورها ، فانه لم تصدر لهذه الكتب تحقيقات خير من تحقيق ألورت لها ، وما صدر من طبعات فانها اما منقولة عنها بعد تجريدها من جهازها النقدى الممتاز . واما طبعات ملفقة بعيدة عن كل اصول التحقيق العلمي للنصوص ، ومن هذا النوع الاخير طبعة « الاصمعيات » التي صدرت في القاهرة سنة ١٩٥٣ . . . . .

والاعجب من هذا ما كتبه (احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون في مقدمة طبعتهما (ولا اقول نشرتهما) لكتاب (الاصمعيات) فبدلا من ان يذكرا الفضل لصاحبه ، وهو ألورت راحا يرميانه بالشتم والاهانة غير اللائقين ويبدو ان هذه « عادة » سار عليها بعض المتصدين لاعادة طبع ما سبق ان نشره المستشرقون بعد تحقيق علمي دقيق بذلوا فيه كل سعي جميل ولا يسعنا الا الأسف على انتشار هذا الجحود بين « المتصدرين لطبع بعض النصوص الادبية القديمة ، وهو جحود لا يتطلي على احد من اهل العلم الحقيقيين » (ص ٣١٥ - ٣١٦) .

واخيرا ، هل تستحق قضية « الانتحال في الشعر الجاهلي » وما يتعلق باذيالها ، التي نبشها جميعا الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وعاد الى اثارتها بعد اكثر من نصف قرن على « ضجتها » الكبرى ، ان تطرح من جديد في ضوء آرائه وملاحظاته واتهاماته التى اودعها « تصدير » كتابه المترجم هذا و« ملحقه » ، وفي ضوء بحوث المستشرقين التي ترجمها ، وهل يكون العود - اذا ما عدنا اليها - أحد ؟ !

لا كهنوت في اللغة

بقلم : محمد خليفة التونسي

لا كهنوت في الاسلام ، ولا في لغة كتابه الالهي وهي لغتنا العربية ، فقد اقام الاسلام جملة تعاليمه على اساس وحدانية الله ، فلا يشبهه شيء من خلقه ، وان كان وجودهم منوطا به ، ومن ابرز تعاليمه تكريم الانسان وعقله ، وإلزامه مسئوليته الفردية في مجتمعه بقدر استطاعته ، ورفع كل حجاب بينه وبين خالقه ، حتى رسل الله ، صلواته عليهم ! ليسوا في الاسلام الا مبلغين ، مبشرين ومنذرين وهذه مهمتهم العظمى التي امتازوا بها ، وفضلوا على الاخرين ، ولكنهم ليسوا عليهم مسيطرين .

ولهذا ليس في الاسلام - كما في معظم الاديان الاخرى - هيئة يمكن ان تسمى « رجال الدين » الا كما يقال « رجال الاقتصاد » ، او « رجال الطب » بمعنى الخبراء وان كان للدين قدسيته التي لا يقارن بها اي نشاط بشري .

ومع هذه المزايا العظمى للاسلام حاول بعض علمائه ان يقيموا من بينهم هيئات ، فتكون لكل هيئة سيطرتها على عقول اتباعها وضمائرهم فيما تبيح وفيما تمنع ، ولا تظهر معالم هذه السيطرة كما تظهر في الاستكثار من الممنوعات بغير سند مكين من اصول الدين ، واصول الفطرة والعقل ، وجعل بعضها مكروهة وبعضها محرمة .

وعلى هذا النحو سار كثير من علماء لغتنا ، فتشددوا في الأخذ بما استنبطوه من قواعد مع ان منهجهم في استنباطها لم يكن اقوم المناهج الدراسية .

ومن يتفقه في انظمة لغتنا ـ كما ينبغي ان يعيها من نصوصها الفصيحة المأثورة ، ويقارن بينها وبين ما دونه اللغويون من قواعدها ـ فلابد ان تتكشف له شدة غيرتهم على استمرار اللغة الفصيحة ، وجهودهم الضخمة التي بذلوها جيلا بعد جيل ، حتى ارسوا ما استنبطوه من قواعد لها ، ولكنه يكشف ايضا ان أنظمة اللغة اوسع واسمح من قواعدهم لانهم أقاموها على استقراء ناقص ، وان معظمهم كان ينقصه التذوق الفني لادبها كما يحسه الادباء ونقاد الأدب الذين يجيدون الغوص ـ على درجات ـ في النصوص ، ليعوا مقاماتها وأسرارها العميقة .

ولو درسنا تراجم اللغويين لراعنا ان كثيرا من مشاهيرهم لم يكونوا يحسنون الكلام بالفصيحة ، ولا الكتابة الأدبية بها ، بل كانوا يدرسونها لتلاميذهم بلغتهم الدارجة المحلية ، وان من مشاهيرهم من كان اذا اراد كتابة رسالة الى صديق استعان ببعض تلاميذه ليكتب له مايريد .

وقد اشرنا في (العدد ٢٨٠) الى اهمال كثير من اللغويين بعض أصول اللغة ، اي نصوصها الفصيحة ، ومما اهملوه بعض قراءات القرآن ، وجملة احاديث النبي عليه الصلاة السلام ، وأقوال آل بيته وصحابته والتابعين ، وكثير من الشعر الجاهلي والاسلامي الذي لم يكن متاحا لهم الاطلاع عليه كما يتاح لنا اليوم بعد جمع هذا كله في كتب قديما او حديثا ، مطبوعة ، وقد تعللوا في رفض بعض ذلك بتعلات واهية ، ذكرنا بعضها في المقال ذاته ، واظهرنا وهنها .[١]

من أسباب ظلم اللغه

ومن اسباب ما يظهر على قواعد لغتنا ـ ظلما ـ من جمود ، ان علماءنا الأوائل ـ وضعوا منها ما وضعوا على قدر جهودهم الضخمة المشكورة ـ وامامهم العبقري في ذلك الخليل بن احمد ـ ودون ما استنبطوه في كتب ، أهمها واشهرها واجمعها الكتاب و لسيبويه » ، الذي يكادون يجعلون له القول الفصل أو الارجح في القواعد حتى الآن ، فلما جاء من بعدهم عكفوا على ما دون في كتب القواعد ، يدرسونها ويشرحونها ، او يختصرونها ، مع دعمها غالبا ، ولا يحاولون إلا نادرا ان يتوسعوا في الاطلاع على النصوص الفصيحة وتذوقها ادبيا ليكتسبوا سليقتها ، ويعرفوا دقائقها ويستدركوا ما فات الأوائل من قواعد ولو فرعية مع ان الكلام نشاط نفسي يستخدم اللغة ليعبر بها ، فهم ينظرون الى قواعدهم كأنها القواعد الرياضية أو الطبيعية لا تتخلف ، وليست قائمة على أحوال ذوقية أو نفسية متنوعة ، أو ظروف متغيرة .

ويندر ان تجد لغويا اديبا كاتبا او خطيبا ، مهما يبلغ حظه من الرواية ، ومن ابرز الأمثلة على ذلك ما يرويه ابن الاثير في كتابه « المثل السائر » عن المبرد القائل عن نفسه « ليس احد في زماني الا ويسألني عن مشكل من معاني القرآن ، او معاني الحديث ، او غير ذلك من علم العربية ، فانا إمام الناس في زماني هذا ، ومع ذلك إذا عرضت لي حاجة الى بعض اخواني ، واردت ان اكتب اليه شيئا في امرها ـ احجم عن ذلك ، لانني أرتب المعنى في نفسي ثم احاول ان اصوغه بالفاظ مرضية ، فلا أستطيع ذلك » .

---

(١) ضاق المقام عن ذكر اسباب أخرى حملتهم على التضيق في قواعدهم ، منها أن اكثر اللغويين كانوا ومازالوا لا يعرفون قراءات القرآن ولو الماما ، وليسوا من المتوسعين في الاطلاع على كتب الحديث النبوي وأقوال الصحابة ومن تلاهم من الفصحاء . ومن الاسباب شيوع الخلافات منذ أواخر القرن الأول بين اهل الحديث واهل الرأي سواء في الفقه او في غيره من علوم الدين ، مع ما حاولته كل طائفة من تأييد مذهبها بإشاعة بعض الاحاديث بل وضع بعضها في ذلك . وهناك التوسع في النزعة العقلية منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد بلغت هذه النزعة اوجها ـ على درجات ـ عند « المعتزلة » من المتكلمين وعند من سموا « اهل الرأي » من الفقهاء . والى جانب ذلك كله الاسباب السياسية والمنافسات الشخصية بين عالم وغيره من معاصريه ، والمنافسات الاقليمية كما حدث بين الكوفة والبصرة .

وصدق هذا الامام فيما يقول عن نفسه وفيما يمكن ان يقال في آخرين ممن هم دونه علما باللغة وآدابها وقواعدها ، لان الادب موهبة ، ولا بد معها من تدرب وخبرة لتسهل لصاحبها العبارة المناسبة لما في نفسه من المعاني الخاصة أو العامة .

بل ان المطلع على تراجم علماء اللغة يعرف ان بعض من يعدون فيهم أئمة لم يكونوا يحسنون تدريسها باللغة الفصيحة ، بل بلهجاتهم الدارجة ، وقد شاهدنا في زمننا من لا يكاد يند عنه شارد مما هو مدون من القواعد في كتبها المتداولة اليوم ، وهو مع ذلك لا يحسن كتابة سطور في اي موضوع ، بل منهم من لا يحسن قراءة سطور فصيحة قراءة صحيحة ، وان كان ليدرس اللغة في ارقى المعاهد التعليمية عندنا اليوم .

نحن لا شك تلاميذ علمائنا ولا سيما الكبار ، ومن الكنود الذي ينبغي ان نتنزه عنه التنكر لفضلهم ، او التهوين من قدرهم وقدر اعمالهم العظيمة ، وجهودهم الدائبة في حفظهم لمأثورات الاسلاف جيلا فجيلا ، ولكن كل ذلك وغيره من الفضل المذكور المشكور ، ينبغي الا يحملنا على تجميد عقولنا أمامهم ، والوقوف عند الحدود التي وضعوها واعفاء انفسنا من تحمل مسئولياتنا الفردية والجماعية ، فذلك إهدار لكرامتنا وكرامة عقولنا بل لا بد لنا من الرجوع الى كل النصوص الفصيحة امامنا الآن مما لم يتيسر لهم ، فنعيد البحث ونستدرك ما فات الاسلاف ، وان كنا نحفظ لهم غاية التوقير ، وباب الاجتهاد أبوابه مفتوحه أمام كل قادر على اقتحامها بكفايته .

وتقسم ما تركوا من ذلك قسمين : الاول ما أجازوه من قواعد والفاظ ، لأنهم لم يجيزوه غالبا الا بسند ، وندر أن كان سندهم ضعيفا ، كما يظهر من طعن بعضهم في بعض الاسناد ، والقسم الثاني هو ما منعوه او أنكروه ، لانهم لم يجدوا له سندا يقنعهم ، اما لفقد السند او لتهوينهم منه ، وليست اسنادهم المعتمدة عندهم اقوى والقسم الثاني هو الاحوج الى المراجعة ، وفيه فليتنافس المتنافسون .

هل هناك أزمة فن تشكيلي عربية ؟

بقلم فريد منصور

كثر الكلام مؤخرا ، حول أزمة فنية ، يواجهها الفنان التشكيلي العربي ، فلا يجد عنده لها حلا ، ولا يرى لنفسه منها مخرجا ، وذلك امر طبيعي ، في الواقع اذا ما نحن تعمقنا في بحث الاسباب التي أوجبت ذلك ، واذا ما تتبعنا المسيرة الفنية العربية ، تاريخيا وفلسفيا ، خلال القرن الحالي .

منذ حوالي قرن تقريبا ، وباحتكاك الدول العربية بالفن التشكيلي الغربي ، بدأت قلة من الموهوبين العرب ، في هذا البلد أو ذاك ، تمارس فن الرسم والنحت . وبالطبع ، لم يكن ، هنا ، يومذاك ، اي مثال لفن عربي محلي يقتدى به ، وبالتاكيد ، لم يكن ثمة اية تقنية فنية عربية يستقى منها (ومن هذا الواقع ، ههنا ، كانت بادرة الازمة الفنية التشكيلية التي تشكل موضوع هذا المقال) .

ذلك أن الحضارة الاسلامية ، في البلدان العربية خاصة ، لسبب او لآخر ، لم تنتج اي شيء يذكر ، في ميداني النحت والتصوير ، بل ان تيارها الفني كان قد انصب كله في مصب الهندسة المعمارية ، وما رافقها من فنون الكتابة والزخرفة .

وهذا التيار كان قد كون لنفسه ، بطبيعة الحال ، عالما فنيا رائعا ، اصيلا وغنيا ، وفاعلا ، أثر أشد التأثير في الفنون العالمية ، في ذلك الحين ، وخاصة منها ، الفن

الاوروبي الذي يدعى « القوطي » Gothic Art

وشرع بعض الفنانين العرب ، يهاجرون الى أوروبا يتلقون عنها التقنية . الا ان الفنان العربي كان يعود منها ، ليس فقط بالتقنية هذه ، بل وبتأثر طبيعي ومنتظر ، بالمدارس الفنية ايضا التي كانت مزدهرة في البلدان الغربية المختلفة يومذاك .

وكان هذا البعض يمارس الفن ، بعد عودته الى بلاده ، بالتقنية الغربية ، وبالفكرة الفلسفية الغربية اسلوبا وشكلا ، وان كانت الموضوعات التي اختارها لاعماله الفنية محلية عربية .

مثال هؤلاء ، في القطر اللبناني : مصطفى فروخ ، وعمر الانسي وغيرهما .

بدايات بارزة في مصر

ثم تقدم الفن ، في بعض البلدان العربية ، بصورة بطيئة ، خلا مصر ، فقد قامت فيها ، شبه نهضة فنية ، أكسبتها النهضة العلمية القومية السياسية زخمها ، يومذاك ، فافرزت قلة من الفنانين الا أنهم تحلوا بموهبة بارزة وبارادة صلبة ، وعزم طموح .. فأتوا بأعمال فنية يحسب لها حساب ، في مجال الفن العربي الحديث ..

وقد شعر هؤلاء الفنانون المصريون ، بالطبع ، بازمة ما ، تحيط بهم : هي ازمة فن عربي محلي .. شعروا بعد عودتهم من دراساتهم ، في معاهد أوروبا ، انهم بتقنيتهم وافكارهم الفنية الجديدة ، غرباء في وطنهم وديارهم .. فلا فنهم كان له مكان بارز في الغرب - اذ كان ثمة فنون غربية محلية ، تفوق فنهم وتبزه - ولا هو بالمحلي الشرقي بالاحرى ..

فمن هم اذن ؟ وماذا عساه يكون فنهم ؟

.. من هنا بدءوا الكفاح ..

ولا شك ان ما ساعدهم ، في كفاحهم يومذاك ، وفي التماس طريق الخلاص ، هو تلك الاعداد الضخمة من الآثار الفنية الفرعونية ، الموزعة ، منذ آلاف السنين ، في شتى انحاء مصر ، الناطقة بجمالية راقية اصيلة ، والمتميزة بتقنية محلية فذة .

وتساءلوا : هل ثمة من بأس ، الآن ، في العودة قليلا ، الى هؤلاء الأجداد ، نخاطبهم ويخاطبوننا ، ان لم يكن عبر الهيروغليفية ، (اي اللغة الفرعونية المكتوبة) فعبر لغة الفن وحدها ، التي يفهم عنها ، في اي زمان ومكان ؟

وهكذا كان ، فبرغم صعوبة الطريق ، ومشقة التجربة ، قد برز ، خاصة في فن محمود مختار ، - ومحمود سعيد وغيرهما - ذلك المزيج من الشرقي - الغربي ، من الفرعوني - الاوروبي ..

وكان هذا الصراع عند مختار (ورفاقه) هو صراع من اجل ايجاد هوية ، او استعادة شخصيته ، وتثبيت القدمين ، باعتزاز ، في مواجهة الفن العالمي ، وخاصة منه الاوروبي ..

ولقد نجح هذا الفنان الكبير في ماسعى اليه ، وضحى من اجله .

أهمية فن مختار

ولقد رأى كاتب هذه السطور بأم عينه ، أجانب ، من أوروبيين وغير أوروبيين ، يزورون اعمال محمود مختار ، في متحفه الخاص في (الجزيرة) بالقاهرة .. وذلك كيما يطلعوا على فن خاص ، محلي ومميز . فن مصرى عربي حديث ، وليس مجرد فن من فنونهم الغربية ذاتها ، مقلدا ومشوها (كما هو الحال عندنا اليوم في لبنان خاصة ، وفي بعض البلدان العربية عامة) ، مع اشد الاسف !! . كما رأى كاتب هذه السطور ، بام عينه ايضا ، زمرا من الشبان والشابات ، يفدون ، من معاهد الفنون العليا ، بالقاهرة ، الى ذلك المتحف عينه ، يرسمون عن اعماله ، ويدرسون فنه ويتلمسون اسلوبه ، ويستطقون منه الروح المحلية اولا وقبل اى شيء .

وتشعر اول ما تشعر ، ان هؤلاء الطلاب يترددونَ على اعمال محمود مختار ورفاقه ، ليس بدافع الاكراه او الواجب الدراسي المفروض عليهم ، بل بواسطة جاذب تلقائي طبيعي ، ورغبة داخلية حقيقية ، وذلك رغم كل ما يحيط بهم من الفنون الغربية ، ومن الاساليب والمدارس العالمية الحديثة ، سواء اكان ذلك من خلال الكتب والمطبوعات والافلام ، او في متاحف اوروبا نفسها ، والغرب عامة وكذلك حال الزوار الأجانب ايضا . فهم يؤمون المتحف ، بدورهم ، تلبية لرغبة داخلية ملحة ، ولقصد ميت قصدوا اليه من سفرهم من بلادهم ..

هذا ما كان قد فعله هؤلاء الفنانون الاصيلون ، وجاهدوا من أجله . وهذا ما كان من امر معالجة الازمة الفنية العربية يومذاك .. فهل انتهت هذه الازمة ؟ ام هي قد عادت بعد هؤلاء ، الى الظهور ، بالحاح اكثر ؟ ولماذا ؟

هذا ما قد يجيب عليه مقال قادم .

الشاعر محمد بن يحيى الارياني هو الرئيس السابق لمحكمة النقض والابرام العليا في اليمن . عمره الان ٧٥ عاما ، وعندما توفيت زوجته قبل اشهر قليلة ، وغابت من حياته بعد صحبة تجاوزت نصف قرن ، كتب هذه القصيدة .

دمعة أسى

للشاعر محمد بن يحيى الارياني



من نصف قرن ونيّف قد أنست بها
في خير عيش فلاهمّ ولاكدر
اذا طغى الخطب واسودت نوازله
تبسّمت فتجلى ليله العكر
كانت ضماد جروحي وهْي دامية
هى الحياة ، هي الدنيا ، هي العمْر

****

يا نفحة من جناب الله طيّبة
مسكيّة العَرف يزكو عرفها العطر
قدسية الروح ، أطهار عرائقها
لم يثن من عزمها سقْم ولاكبَر
طهر الضمير فلاغلّ ولاحسَد
عفّ اللسان ، فلا لغو ولاهذَر
سمحا طيبة الاعراق من نفر
سموا كأنّ لهم فوق السُّها وطر
آباؤها الطُهر أحيا في ضمائرنا
كأنما القوم ما ماتوا ولا قبروا
لما توارت وحلّت في مضاجعهم



ضاءت بهم وتسامت فيهم الحفر
كانت مثالا من التقوى لها صلة
بالله ، أخلاقها (القرآن) تزدهر
هالوا التراب عليها وهي نيّرة
كالشمس تحت سحاب الأفق تستتر

****

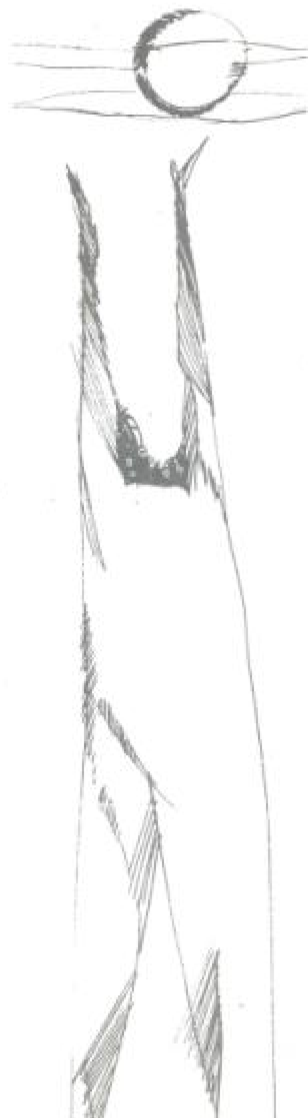
يا ربة البيت يا مشكاة بهجته
العيش بعدك مر كله صبر
في كل زاوية منك به أثر
اذا مررت عليه يبكي الأثر
كانت لنا فيه أوطار تعلّلنا
باختفائك عنه انتهى الوطر
وحولنا في زواياه ، لنا شجر
فروعها أينعت منا لها ثمر
مازال منك بأفكاري وفي بصري
وفي سويداء قلبي تطلع الصور
تسودّ في عيني الدنيا اذا خطرت
كأنما الكون ، لاشمسٌ ، ولاقمر

****

بكتك (اريان)[1] وانهالت مدامعها
وكاد يبكيك من جدرانها الحجر
وناح (ريمان)[2] واهتزّت جوانبه
وكاد للهول والمأساة ينفطر
عشنا عليه زمانا في شبيبتنا
والدهر سلم ، فلا خوف ولا خطر
كأن ساحاته العُليا لناحرم

(١) موطن الشاعر وزوجته

(٢) حصن منيع قريب من اريان عاش الشاعر فيه فترة شبابه



لا لهوَ في عيشنا فيها ولا بطر
مازلت أذكر فيها خطونا وأنا
وأنت نحبو الى أن عاقنا الكبَر
أصداء أقدامنا فيها لها نغم
وخطونا لم يزل فيها لها أثر

****

إن أنس لا أنس أسفارا لنا جمعت
حياتنا وخطا أعمارنا سِر
ست وخمسون عاما كلها سفر
ألقيت فيها عصاك وانتهى السفر
أما أنا فغضا الترحال تدفعني
للخطو في الدربِ ، مرسوم بها القدر
(ياربة البيت يا مشكاة بهجته
العيش بعدك مر كله صبر)
ماذا ورا الموت ماسرّ الحياة فقد
تاهت بأسرارها الألباب والفكر
ماذا ترين وراء الموت ، هل كشفت
لك الحقيقة عما تحجب الستر
جحافل الموت تمضي وهي مسرعة
فيها العظات وفيها للورى عبر
ورقدة الموت طيّ القبر دائمة
لاصحوَ فيها ولا نوم ولا سهر
لا أمس فيها بذكراه يحركها
ولا غد بأمانيه له أثر
ان الحياة وإن طالت لها أمد
إليه ينتهي الترحال والسفر

****

استقبلتك من الرحمن رحمته
دامت عليك إلى أن يحشر البشر
صلى الاله على قبر نزلت به
ما طاف بالبيت أقوام وما اعتمرا



الوحدة العربية

بقلم : الاستاذ عبد الحميد بن باديس *

المسألة العظيمة هى الوحدة السياسية للأمة العربية من المحيط الهندى الى المحيط الأطلنطى .

وأما العظيان فهما الأمير شكيب أرسلان وسعادة سليان باشا البارونى .

ولا تحسن الكلام دار بينهما فى بيان حقيقتها وامكان تحقيقها وأسباب تحقيقها مما يحتاج رجال النهضة العربية الى دراسته والعلم به ليكونوا فى سيرهم على بصيرة حتى لا يتقهقروا ولا يتهوروا . بل كان خطابا من شكيب فى شأنها فكان رد من البارونى عليه باعلان البراءة منه ، جزاء اعلانه البراءة من مسلمى المستعمرات ، ثم دعا أهل العلم الى ابداء رأيهم فقال : « ولعل علماء الاسلام الغيورين على دينهم يبدون رأيهم فيمن يعلن البراءة من مسلمى المستعمرات المعذبين لارضاء أعدائهم ومعذبيهم من المستعمرين لينسد هذا الباب فلا يدخل منه غيره بعد اليوم » . الرابطة العربية عدد ٧٧ .

لم ينقل الباشا نص كلام الأمير ، ونصه كما نقلته « الجزيرة » الدمشقية فى عددها الصادر فى ٢٤ رجب الماضى : « أما طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش فهذه بلاد عربية وان كان فيها بربر أكثر من العرب ، فان ثقافة هؤلاء البربر عربية وهم على كل الأحوال مسلمون ، فهذه الأمة هى منا ومعنا كما ان قلوبنا متحدة بيننا وبينهم ، ولكن هناك أسباب جغرافية تمنع اتحادنا معهم اتحادا فعليا ، وهم ليسوا من برنامجنا ولا نتكلم على الوحدة معهم لأننا نجعل لنا أعداء أقوياء ونحن فى غنى عن ذلك الآن .

نحن نريد تحقيق وحدتنا العربية فى آسيا ، ولكن وجود وحدة سياسية من إخواننا مسلمى شمالى افريقية (يعنى : تكون منهم فيما بينهم) لا يمنع أن يكون بيننا وبينهم وحدة لغوية ثقافية دينية اجتماعية وأن تكون قلوبنا مرتبطة بقلوبهم فى السراء والضراء » .

فأين هى براءة الأمير من مسلمى المستعمرات التى زعمها الباشا .أم كيف يكون متبرئامن يقول « فهذه الأمم هى منا ولنا ومعنا كما أن قلوبنا متحدة بيننا وبينهم » ويقول « بيننا وبينهم وحدة لغوية ثقافية دينية اجتماعية و ... قلوبنا مرتبطة بقلوبهم فى السراء والضراء » .

---

* رئيس جمعية العلماء الجزائريين كتبها عام ١٩٣٧ .

فيا بقي إلا أنه لايرى إدخالهم في برنامج الوحدة السياسية العربية بين الشعوب العربية غير المستعمرة حتى لا يثير ثائرة الأعداء الأقوياء الذين لا حاجة باثارة عداوتهم الآن ويرى الى هذا وجود وحدة سياسية من مسلمي شمالي إفريقيا .

وهذه نظرية سياسية محضة قابلة للأخذ والرد وكل وجوه المناقشة غير أنها لا تعد عند أحد براءة من مسلمي المستعمرات كما زعم الباشا .

وقد زار الاستاذ محمد تيسير ظبيان الكيلاني صاحب « الجزيرة » الأمير وأخذ منه تصريحا برأيه في الوحدة العربية نشره في العدد الصادر في ٦ شعبان من « الجزيرة » وهو كلام ـ كما قال الاستاذ ـ واضح صريح لا يحتاج الى تفسير أو توضيح . وهذا نصه :

« فيا يتعلق بالأمصار الراقعة في شمال افريقيا يرى أن يكتفى في الوقت الحاضر بايجاد صلات معنوية وروابط روحية بينها وبين هذه الأقطار (يعني : غير المستعمرة) التي خطت خطوات موفقة في سبيل الوحدة العربية حتى أصبحت فكرة اتحادها وتضامنها ليست من الامور الصعبة والمسائل الخيالية كما كان يتوهم الكثيرون .

ولكن عطوفته يرى أن اثارة الوحدة السياسية بين هذه المجموعة الأسيوية والمجموعة الافريقية في هذه الظروف العصيبة ، مما يثير علينا مشاكل جمة ومتاعب عديدة لا قبل لنا باحتمالها ودرئها ونحن مازلنا على عتبة الاستقلال والسلطان القومي » .

وهذا التصريح جلي في ان الامير لا يعارض الا في اثارة الوحدة السياسية في هذه الظروف لما يخشى من مشاكل ومتاعب فأين هذه البراءة التي زعمها الباشا وهول بها ؟

غير أن هنالك ملاحظة لا بد من ابدائها وهي أن روح المقال ـ في نظرنا ـ روح هدم لماضي شكيب ارسلان برمته وتصويره بصورة الرجل المادي الذي ما كان يحركه الا حب المال . وعزيز علينا ـ والله ـ مثل هذا النكران من رجل عظيم لرجل عظيم ، ويحزن لنا ـ والله ـ ومفتت لأكبادنا أن نسرع هذه السرعة في هدم عظمائنا سواء أكان الهادم الباروني لأخيه شكيب أم العكس أم غيرهما . واننا لنعرف هذه الروح الهدامة فينا معشر الشرقيين ولكننا ما كنا نظنها تبلغ المستوى الذي رقيه الباروني ومثله .

فيا ليت قومنا يذكرون ـ دائما ـ قول أبي الحسن بن الرومي :

لا تضع من عظيم قدري وان كنـ ـت مشارا اليه بالتعظيم
فالشريف العظيم ينقص قدرا بالتعدي على الشريف العظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ ـر بتنجيسها وبالتحريم

بل ليتهم يتأدبون بأدب الله في قوله جل جلاله « ويؤت كل ذي فضل فضله » فلا ينكرون الاحسان الكثير لأجل السوء القليل ، ان كان هذا السوء القليل .

هذا رأينا فيا بين الأمير والباشا أما رأينا في الوحدة السياسية وفي عروبة شمال افريقيا فسنبديه .

هذا وكأنني بـ : م . سارو وغيره يضمون كتابتي هذه الى حججهم على ما يرمون به الأمير وما يرموننا به . ونحن ما أنكرنا يوما ما بيننا وبين عظماء امتنا الاسلامية والعربية من روابط متينة وعلائق قوية وان لم تكن بيننا معرفة شخصية ولا كتابية .

ونحن نكلف بالعظمة وندافع بالحق ، ولو لم تكن منا ، فكيف بها اذا كانت منا ـ وقديما قال شاعرنا أبو عبادة البحتري :

وأراني من بعد أكلف بالأشـ ـراف طرا من كل سنخ وجنس

اذا قلنا العرب فاننا نعني هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقا الى المحيط الاطلانطيقي غربا ، والتي فاقت سبعين مليونا عدا تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقدارا عظيما من دمها وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة .

هذه الأمة العربية تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ، ورابطة الألم ، ورابطة الأمل ، فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها ولا محالة . ولكن هل بينها وحدة سياسية ؟ هذا هو الموضوع الذي طرقه الأمير شكيب ارسلان وقال فيه كلمة السياسي العملي والخبير المحنك فتعرض له سليمان باشا الباروني بمقال تقضناه عليه في الجزء الماضي وفضحنا ما فيه من خطأ وتحامل .

الوحدة السياسية لا تكون الا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم ، وتتعاقد على تنفيذها ، وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يدا واحدة ، فهي مقتدرة على الدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها ، وما الأمم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمرا لنفسها فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها ، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها . وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها فكيف يعتمد عليها في خارجيتها ؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول .

واذا نظرنا الى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة فاننا نجد منها شعوبا مستقلة استقلالا حقيقيا فهذه تمكن بينها الوحدة السياسية وتجب .

ثم نجد شعوبا أخرى وهي شعوب الشمال الافريقي المصابة بالاستعمارفهذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون ، ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها في دائرة وضعيتها الخاصة على ما يناسبها من الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة ، مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها ، ونحن نعلم أن الواقع اليوم في شمالنا الافريقي العربي هو هذا بعينه ، فنقول ـ بكل صدق وصراحة ـ ان كل شعب من شعوب هذا الشمال مستقل تمام الاستقلال بخططه في سياسته ، لا نعرف هيئة منهم تتصل بهيئة مع عمل الجميع على تغذية الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة .

والأمير شكيب الذي تعده الدول المستعمرة ألد أعدائها وتنسب اليه ـ ظلما وزورا ـ كل حركة تقع في الأمم المصابة باستعمارها ، يصرح في خطابه بعدم الوحدة السياسية بين شعوب العرب المغلوبة على أمرها وشعوبهم المستقلة ، لأنه ـ وهو أكبر مدافع عن العرب والاسلام في الغرب والشرق ـ رجل عمل ليس بخيال ، وسياسي مجرب خبير يعرف ما يقول ويفرق بين العمل المثمر والقول الفارغ الذي يثير الضجيج لينسب صاحبه الى الغيرة والحماس ، وان كان يثير الغبار ويكدر الجو في نواح أخرى . هذا رأينا في الوحدة السياسية بين شعوب العرب . ونحن نعتقد أنه هو رأي جميع اخواننا العاملين في هذا الشمال .

جونتر جراس

نجم الأدب الألماني المعاصر

بقلم : محمود قاسم

تشهد المانيا في السنوات الاخيرة نهضة ادبية وفنية تعيد بها امجادها التي عاشتها فيما قبل الحروب العالمية . والمتتبع للاسماء التي ظهرت في مجال الادب والسينما يمكن ان يتأكد الى اي حد تحاول المانيا ان تقف شامخة تصنع من جديد جيته وكافكا ومان في مجال الادب . وفرتز لانج ومرناو في مجال السينما . ولن نعمل على رصد مجموعة الأسماء في المجالين لكن الربط الذي تم اخيرا بين الأدب والسينما واتجاه المخرجين الى تجسيد شخصيات ادبية صنعها جراس وهاينرش بول وهانز فرتز ريختر والفريد اندرسون . فضلا عن شخصيات جسدها ادباء آخرون من فرنسا مثل مرجريت يورسنا وباتريشيا هايسميث . .

اذا كانت جماعة ٤٧ هي التي عملت على خلق الجيل الادبي الذي ظهر في الثلاثين عاما الماضية . وتلاميذ هذا الجيل . فان اعلان اوبر هاورن الذي اعلنه السينمائيون عام ١٩٦٢ ساعد ايضا على خلق جيل من السينمائيين الذين غزوا اخيرا كل اقطاب الدنيا بافلامهم . ونحن لن نعقد مقارنة بين كل من الأدب والسينما في المانيا . وانما سنركز على دور جماعة ٤٧ في خلق جيل ادبي جديد من خلال جونتر جراس واعماله التي قدمت السينما أحدها . فنال الفيلم الجائزة الكبرى ني ١٩٧٩ . وجائزة اوسكار لأحسن فيلم اجنبي في العام التالي .

وعن جماعة ٤٧ يقول الدكتور مصطفى ماهر (العدد ٢٤ من مجلة الفكر المعاصر) . « فلولا هذه الجماعة ولولا تشجيعها لما انطلق جونتر جراس كما انطلق . ولما ظهر في الوقت الذي ظهر فيه وملأ فراغا كبيرا » .

وكان لقيام هذه الجماعة علاقة بايقاف وموت المجلة الادبية « النداء » فقد نادى بعض الادباء الشبان في اوائل عام ١٩٤٧ بمناقشة احوال الأدب والعمل على نهضته من خلال انشاء جماعة تسمى باسم العام الذى أسست فيه . تعمل على نهضة الأدب وتشجيع الابداع الادبي واكتشاف المواهب الجديدة . وقد انشأت فيما بعد جائزة باسمها لافضل الكتابات في مجال الرواية .

مدينة ملتهبة

ومن احضان هذه الجماعة نشأ اديبنا جونتر جراس ـ الذي ولد في عام ١٩٢٧ في مدينة دانتسج عن ابوين نصف بولنديين . ونصف ألمانيين ودانتسج مدينة ملتهبة كما يقول جراس في « طبله » فقد جرت عليها احداث هامة في ثلاثينات هذا القرن . كانت مدينة حرة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ يغلب عليها السكان الالمان . ويمتزج بهم غير قليل من البولنديين . فهي تقع في نصف المسافة بين قسمى المانيا القديمة . اى بين بروسيا الشرقية وبين مجموعة المناطق الالمانية الاخرى . تقع عند ملتقى نهر الموتلاو وفرع الفايكسل المسمى بالفايكسل . وتمتلء باعمال العمارة



جونتر جراس

البديعة . وتعج بكثير من الوان النشاط التجاري خاصة . ومن الواضح ان موقع هذه المدينة يعرضها للجذب والشد بين قوتين . الاولى المانية والثانية بولندية . وكانت الغلبة تارة تتوج هذه وتارة تلك . فلما نشأت دولة بولونيا بعد الحرب العالمية الاولى طالبت بدانتسج وبخليجها المطل على بحر البلطيق ، ولكن شكلها الالماني وروحها الالمانية حالا دون ذلك . واتخذت عصبة الامم في ذلك الوقت حلا وسطا هو جعل المدينة مدينة دولية حرة وتحت اشرافها . (الفكر المعاصر العدد ٢٤)

وقد وصف جراس المدينة وصفا دقيقا في روايته « الطبلة » وجعل اغلب احداثها تدور بداخلها كما ان هذه الرواية تعتبر سيرة ذاتية مغلفة للكاتب . فأبوه كان يعمل بقالا المانيا . أما امه فمن القاشوبين . وهم قبيلة سلافية لها لغتها الخاصة . وقد تربي جونتر في جو غريب يشهد مولد الرايخ الثالث . وظهور كتاب « كفاحي هتلر » واعادة تنظيم حزب النازي . فقد انضم وهو في العاشرة من عمره الى منظمة « اشبال هتلر » ثم الى منظمة اخرى تسمى « شباب هتلر » عام ١٩٤١ اى بعد اندلاع الحرب بعامين . ثم جند في المشاة الالمانية في السابعة عشرة وفي عام ١٩٤٤ ترك مدينة دانتسج مثلها فعل اوسكار . وفي العام التالى وقع في اسر الامريكيين بعد ان جرح . ثم اطلق سراحه وعمل بالزراعة والمناجم وقطع الاحجار وبيع الصحف .

وفي عام ١٩٤٩ التحق جونتر جراس باكاديمية الفنون في دوسلدورف فدرس الرسم والنحت . وبدأ يمارس الكتابة والعزف على بعض الآلات . وقرض الشعر وكتابة المسرح . « لم اكف ابدا عن الكتابة » . ببساطة كنت اود ان اغوص في الامور اليومية . بدأ هذا مع مسرحيتي « الشعب يعيد تجربة ثورة » كنت في الواقع اتصور ماذا يحدث في برلين عام ١٩٥٣ »

وفي عام ١٩٥٢ تعرف على زوجته السويسرية آنا . راقصة الباليه التي كتب حولها بعض اشعاره وانجب منها اربعة ابناء . وفي سنة ١٩٥٥ حاول ان ينضم الى جماعة ٤٧ الادبية . لكنه لم ينضم اليها سوى عام ١٩٥٨ بعد ان قرأ على اعضائها الفصول الاولى من روايته « الطبلة » ويتحدث جراس حول هذه الجماعة في المانيا . ليس لدينا رأسمال ادبي . وقد اردنا ان نغطي مرة في العام ثروتنا من الأدباء . فأنشأنا الجماعة ٤٧ . بدأ الامر من خلال كتاب جيل هاينرش بول . هانز فرنر ريختر . والفريد اندريتش . كان الامر يتعلق بايجاد حدود جديدة للتفكير الادبي . أفرع الحقل العنصري ولغته الفاسدة من الاشتراكية الوطنية .

حاول ريختر ان يصدر مع اندريتش مجلة « النداء » بينما حاول الامريكيون منع نشرها . وقد تكونت الجماعة ٤٧ من كتاب حاولوا ان يؤسسوا مجلة . كانوا يجتمعون في اماكن مختلفة . وخاصة الأماكن الريفية . « كنا نجتمع مرتين سنويا في اول الامر . ثم انتهى الامر باجتماع واحد . وقد عقد آخر اجتماع لهذه الجماعة عام ١٩٦٧ ، وأما خلال السبعينات فقد توقفت . حيث رحلت من برلين الغربية . والجدير بالذكر انه قد هجر برلين عام ١٩٥٦ قبل ان ينشر طبلته ليقيم في اوربا خاصة باريس اربع سنوات كي يعود بعد ذلك الى بلاده بعد ان نال شهرته الواسعة .

وبعد ان نجحت روايته الاولى توالت اعماله الروائية . مثل « القط والفأر » و « سنوات كلب » و « مخدر موضعي » ثم « يوميات » . و « الترسة » واخيرا « لقاء في وستفاليا » وفي مجال الشعر نشر ديوانا . أما في المسرح فقد قدم مجموعة من المسرحيات القصيرة مثل « الطهاة الاشرار » و « الفيضان » كما كتب مجموعة أغان للاطفال فضلا عن الكتب السياسية مثل « رسائل عبر الحدود » ـ ومن المعروف ان له مواقف سياسية سنحاول التعرض لها .

ترجمة حياته

روايته « الطبلة » تعتبر سيرة ذاتية للكاتب بالرغم انه ينكر اى صلة بين اوسكار وبينه . تدور احداثها في مدينة دانتسج مع اوسكار ما تسيرات الذي ولد في عام ١٩٢٤ ويحكي قصته مع نهاية القرن الماضي حين تعرفت جدته ذات الجيب الواسع على كوليا تشيك الهارب من العدالة .

« ذات مساء في نهاية اكتوبر . كانت جدتي آنا برونسكي جالسة ارضا في ثيابها على حافة حقل البطاطس . في الصباح يمكننا رؤية مكان جدتي مقابل العديد من المعجبين . او تجلس تأكل الخنزير المسكر كالمولاس . وهي تعطي للحقل آخر ضربة من الحفار . وأخيرا هاهي جالسة ارضا في ثيابها بين سلتين ممتلئتين تقريبا ، واوسكار مدين كثيرا لهذه « الجونلة » الواسعة .
فقد كانت ترتدي اربع جونيلات معا . كانت يوما تجلس في حقل البطاطس حين رأت رجلا قصيرا يهرب من الجنود فيطاردونه . ويطلب منها ان تخبئه اسفل جونلاتها الى ان يمر الجنود . وبعد ان يخرج من مخبئه يذهب مع المرأة ليعيشا معا حتى يتمكن مرة اخرى من الهرب والذهاب الى بلاد ما وراء البحار ليعيش ثريا كما يقال ، كان يؤكد : أن جدي قد شوهد بعد الحرب العالمية الثانية في بافالو بالولايات المتحدة تحت اسم جو كولتشك تاجر اخشاب

وتلك كانت لعبته »

« صورة امي في الثالثة والعشرين من عمرها تشير الى امرأة جميلة تغمز . ذات رأس مستدير . كانت امي تنظر دائما الى صورتها . لقد تعرفت على القريد ماتسيرات حين كانت تعمل ممرضة .. وكان هو جريحا في الحرب الاولى . وعندما خرج من المستشفى آثر ان يبقى معها ويتزوجها وكان نتاج زواجها اوسكار . وتفرح أجنس بابنها وتقول انها ستقدم له هدية في عيد ميلاده الثالث عبارة عن طبلة من الصفيح » كان المولود اديبا مفكرا منذ خروجه الى الدنيا ، فلما سمع وعد الام باعطائه طبلة ، ورأى الفراشة تحوم حول النجفة . وتقبل عليها معبرة عن نفسها ، وفكر في الحيوانات التي تعبر عن نفسها بالطبل ، ثم في البشر في المناطق التي ما زالت تعيش على الفطرة وكيف يعبرون عن ذوات نفوسهم بالقبل . استقر في ذهنه انه سيتخذ الطبلة الموعودة وسيلة للتعبير عن افكاره ، واحاسيسه ورغباته »

فوق جلد دب أبيض

« كنت طفلا جميلا . في الشهر الثامن . اكبر سنا بشهرين من ستيفن برونسكي الذي تظهر صورته في نفس الصفحة التالية والذي يلمح بشرود شديد »

« فيما بعد كنت أنام فوق جلد دب أبيض . كان عمري سنة ونصف سنة عندما وضعوني في عربة اطفال امام مبنى خشبي تغطيه الداتيلا التي تبدو في صورة معتنى بها تحت مرقد الثلج »

واوسكار يدرك منذ الوهلة الأولى ان له ابوان يعيشان معها . ولذا فهو يقرر أن يعبر عن رفضه لهذا السلوك المشين الذي تتصرفه امه في عيد ميلاده الثالث بان يلقي بنفسه من فوق سلم البدروم كي يصاب بصدمة عضوية ويتوقف عن النمو الجسماني »





لقطة من فيلم « الطبلة »

واوسكار يطارد امه وهي تذهب الى شقة برونسكي . وهو يعرف اشياء لا يعرفها آخرون . ولديه القدرة على تحطيم العديد من الاشياء بان يطلق صرخة ويقرع طبله .

يتحول اوسكار الى مراقب لما يحدث في الدنيا في ذلك الوقت الذي استولت فيه النازية على البلاد .. الاحتفالات الكبيرة التي يحضرها ذوو القمصان البنية . وتعزف الموسيقى ويغنى فيها اناشيد الدانوب الازرق . لكن طرقات طبلة اوسكار تفسد هذا الاحتفال المتزمت وتحوله الى احتفال راقص يرتص فيه كل ذوي الوجوه المتخشبة . كما يرقب اوسكار امه وهي تتركه عند اليهودي ماركوس لتذهب الى صديقها . يصعد الصغير الى قمة منزل عال قريب من الفندق الذي فيه امه مع صديقها ويصرخ طارقا طبله فينكسر كل زجاج الفندق .

ويصبح اوسكار هناك دائما حتى عندما يذهب ابوه وامه مع رفيق لهما الى الشاطىء للنزهة ، فيصطادون رأس وعل يملؤها السمك . تتقيأ آجنس قرفا وتلتصق ببرونسكي . تشعر آجنس بالندم فتذهب الى الكنيسة لتعترف . لكن اوسكار يفسد عليها اعترافها وحينما يشتد عليها الاحساس بالذنب تحاول الانفجار بطريقة غريبة حين تأكل السمك ، ثم تمزق شرايينها وتموت . تكون اول طعم للحرب حين تنهال الرصاصات على البولنديين ويقبض على يان بعد معركة طويلة ثم يقتل . فلا يبقى له سوى الفريد الذي ينزع صورة بيتهوفن ليضع مكانها صورة هتلر . ويرتبط اوسكار بفتاة صغيرة تساعد اباه في اعماله . الا ان الفريد يغازل الفتاة من جانبه مما يدفع الصغير ان ينهال على ابيه ضربا وركلا ويقرر ان يلتحق بالسيرك الذي وعد الزامه يوما بالعمل معهم .

في السيرك !

مرت السنوات طويلة باوسكار حتى بلغ من العمر اربعة عشر عاما . واصبح ناضج العاطفة واكثر وعيا وادراكا لما يحدث . وفي السيرك يرتبط بالقزمة الحسناء روزيتا رادنا ويذهب مع السيرك الى فرنسا حيث يقضي هناك اوقاتا ممتعة على الشاطىء الازرق . لكن قوات الحلفاء تغزو الشاطىء وساحل نورماندي ويقتلون صديقته الجميلة . فيعود لالمانيا ويجد في المنزل طفلا جديدا هو ثمرة زواج ابيه من الموظفة الصغيرة . وهناك يشهد نهاية الحرب ونهاية هتلر . ويرفع الأب من جديد صورة بتهوفن لتعود مكانها ويرمي بصورة هتلر . بينما يدخل الجنود الروس الذين لا يقلون عجرفة عن النازيين ويفرغون في الفريد رصاصا .

وفجأة يجد اوسكار ان اسباب توقفه عن النمو قد زالت . لقد بلغ الحادية والعشرين من العمر وعاد مرة اخرى الى نموه الطبيعي .

ويتصل اوسكار بعد ذلك بالحياة السياسية . حيث ينتقل الى مدينة دسلدروف على نهر الراين « بالرغم من اطلاق الرصاصات ، تخلص اوسكار من العجلة التي يتزلق عليها . اصيب باغماء شديد . سمعت العصفور صوت الغراب .. اعلن ليو للناس انه يكبر . ينمو . يكبر . اوسكار ليس اوليس . اولا لانه عند عودته لم يجد شيئا قد تغير . فحبيبته التي يجب ان يسميها بنلوبي لم تكن سوى نزوة ، فهي دائما مع ابيه ما تسارت وتفضل ان ترحل دائما مع اوسكار »

ويرتبط بعلاقة مع ماريا زوجة أبيه ويعامل الصغير على انه « ابني » . اما ماريا فعندما رأتني امام المرآة قالت لي : ابق عندنا يا اوسكار . فانهم سوف يرحبون بك . وساعدتني ان ارتدي ملابسي » ويكبر اوسكار ويصبح في الثلاثين من العمر . يعيش في اكثر من مكان ويعمل في اكثر من وظيفة « اما عن حياتي فلست أخاف السحر الاسود . وعندما اود ان اخاف فانه يتسرب داخل جلدي . ويبقى في داخلي حتى يتبلج الصباح نائما اغلب الوقت »

ويحدث ان تكتشف الشرطة جثة ممرضة عشقت اوسكار فترة من الوقت فتتجه الشبهة حوله . ويقرر

وضعه في احدى المصحات العقلية ومن هناك يدون مذكراته .

يحكي ما يشاء !

اما روايته تخدير موضعي . ففيها يتناول موضوعا مختلفا تماما . وتقع الرواية في ثلاثة اجزاء . الاول يتناول اير هارد ستاروش لاشياء كثيرة لم تحدث فهو يحكي ما يشاء . وعلى القاريء ان يفهم منها ما يهمه . وستاروش مهندس يهوي الادب والتاريخ . ويعمل مدرسا في الاربعين من عمره . ويهتم بمعالجة اسنانه . وعلاقتها بالألم . ومعالجتها علاقة عضوية هامة . هذا التيار الذي يصدم نفس العصب كل مرة ، هذا الالم الذي ليس في الواقع ـ شديدا جدا والذي يمكنني ان احصره في موضع لا يفارقه . يؤثر في ، يهزني ويظهر على وجهي اوضح من كل هذه الصخور التي تظهر آلام العالم التي ـ برغم شدتها ـ مازالت مجردة لانها لا تمس اعصابي .

اما طبيب الاسنان فهو يهتم بالصحف . وهناك شريزم تلميذ ستاروش وخطيبته فيرونيكا التي تقرأ حول الشيوعية . وجراس يهتم بالتجريب الى حد غريب داخل هذه الرواية . فهو لا يقسم عمله الى فصول . كما اننا لا نعرف الكثير حول الراوي . ولا حول العديد من الشخصيات التي تظهر وتختفي فجأة . كما أن التداعي الحر وعدم الالتزام بالترتيب المنطقي في الارواء قد برز الى حد بعيد . ويقول محمد الحديدي في كتابه « نماذج من الرواية العالمية » . وان كنا لا نرى مبررا للتفرقة بين الزمن والمكان من الوجهة النفسية فلكل انسان مكانه او فضاؤه . كما يرى عدد من كبار فلاسفة الرياضة المعاصرين ، أن اهم ما جاءت به النظرية الخاصة للنسبية . هو الوحدة الكاملة للزمن والمكان وانتهاء وجود أي منها بمفرده وهي ايضا تعني بالشكل الى الحد الذي يتاه فيا تقدم . وليس هناك عقدة ولا حبكة ، بل لعله ليست هناك رواية . اما الالتزام فمن اوضح ما في الرواية ، ان جونتر جراس يعبر عن موقف يتسق تماما مع مذهب اصحاب الرواية الجديدة . فهناك وعي بالمشاكل العالمية ولكن التزام الرواية بها لا يصل الى مستوى ما عرف عن المؤلف من التزام بالقضايا السياسية لبلاده واسهامه العملي فيها .

اما مسألة الشخصيات ، فلعل « تخدير موضعي » من اكثر الروايات اهتماما بها ، كشخصية المدرس والطالب وخطيبته ، والماريشال الألماني وابنته ، ثم طبيب للأسنان الذي ينفرد بنزعة روائية لا يشاركه فيها اطباء الرومان انفسهم ، كل هذه الشخصيات متميزة اشد التميز تنطق بالحقيقة التي لا تنكر . اللهم الا اذا كان هناك لأهل الرواية الجديدة زمنهم الخاص هم ايضا ؟ »

السمكة تتكلم !

وتأتي رواية « الترسة » لتعبر عن عالم ارضي واقعي آخر . من خلال جو غريب مثل الذي صنعه في اعماله السابقة . فنحن نرى سمكة من نوع الفلاوندر تتكلم ممثلة لروح العالم المعاصر . وهذه السمكة مخلوق ماكر ذات فم ملتو وعينين غريبتين على كل جانب من رأسها . . وهذه السمكة المفلطحة ـ كما تسمى في اوربا ـ هي ايضا ذكر متهم يردد احد الموضوعين الاساسيين اللذين يعزف عليهما جراس في روايته « القوة » . او الصراع الابدي بين الرجال والنساء ، والموسيقى . اما الأخرى فهي اهمية المطبخ والتغذية في التاريخ . فكم أكل الادميون من لحم الترسة منها . . والجنس والطعام موضوعان يعبران عن الضوضاء الجافة . والروح والعالم والتاريخ . . فنحن نجد في هذه الرواية الطويلة كبقية اعمال جراس . صيادا وزوجته ، وذلك من خلال حكاية شعبية حول الرجل الذي يطلق قبضته السحرية بعد أن تعده السمكة بتحقيق رغباته . وفي الحكاية الشعبية التي نعرفها جميعا حول الصياد وعروس البحر فان زوجة الصياد تحطم حظ زوجها السعيد بسبب جشعها . اما الزوجة لدى جراس فانها تختلف . فهي توافق ان يلقى زوجها بالسمكة في بحر البلطيق بعد أن وعدته السمكة ان تمده بالمعرفة عن العالم الخارجي .

وصياد جراس يعيش في نظام اجتماعي يعود النسب فيه الى سلالة الأم . والأم هنا ذات ثلاثة اثداء وكأننا نعيش من خلال « بروميثيوس » الذي جعل النساء تسرق النار من الآلهة . . لكن سمكة جراس تعطي الانسان المعلومات المتعارضة التي تعيد السيطرة الى الرجل . يمكنك أن تستخدم النار ايضا في صهر للمعادن من الصخر . والمعدن يمكن ان يصهر الى رؤوس حراب . وقوس . وهكذا تولدت شهوة الانسان ورغبته في التجوال وارادة الكفاح والفرد وقدرته على صنع الاساطير . ومحاولة الاقتناع باللا معقول المؤلم وهكذا بدأ اول فصل في التاريخ . . »

« وأوا » . سمكة الصياد تمر خلال العديد من عمليات التحول والتغير في الشكل حينها تغلي وتشوي وتخبز وتسلق خلال عدة قرون . . فقد اخترعت « توجا » خلال العصر الحجري ما يسمى بشوربة السمك . ثم تمتزج الوثنية والمسيحية . في « مزيج كاثوليكي » . ونرى نساء تتفنن في استغلال السمكة دهنها . . شوكها . فدوريتا القديسة اجادت استغلال الدهن . ومرجريت راش تحاول أن تخفي بدانتها لايهام الناس بأنها حامل . وتمر القائمة من

خلال اوبئة وحروب ورأسمالية واشتراكية .. وتنتهي بخطبة عامل شحن بولندي تقتله الشرطة . في اضرابات عام ١٩٧٠ .

وفي النهاية تتعب السمكة من القذارة والآلام التي سببها الناس في العالم « ناديت عليه من البحر ابان ازمة البترول كي انهي اتفاقنا . لا نتوقع منكم اي شيء بعد ذلك ايها الأباء .. لا شيء سوى الحيل والمراوغات » .

فقراء العالم !

وتسمح السمكة لنفسها ان تقع في براثن ثلاث من الاناث . وهنا تتحول الرواية الى اللون الكوميدي . فتقدم الى المحاكمة . وتكون المحاكمة متعلقة بعمليات الطهي والعلاقات بين الرجل والمرأة : ويتحدث جراس حول هذه الرواية . فيقول « في اول وهلة تبدو كأنها كتاب سياسي الا أن .. « الترسة » هي قصة حول التغذية منذ اربعة الآف عام . هذه القصة تغرق في الأساليب التاريخية الكلاسيكية .. اننا نعاملها كحد اقصى . باسلوب الحكايات النادرة . وانا افكر دائما بعمق في سؤال حول التغذية . فهي مسألة سياسية هامة اليوم . في عالم يعتمد على التطور العلمي والحقائق الكبرى التي يعرفها . لكن نصف سكان العالم اليوم هم قوم فقراء . وهذا ليس فقط كارثة . لكنه قبل كل شيء امر مؤلم »

ويقول « كنت اود ان اكتب كتابا لا يرتبط من جانب ضيق بالسياسة اليومية . الانتخابات في بودنشباخ . مستقبل الحزب الاشتراكي أو شيء من هذا القبيل . كنت أود أن اهرب الى الحاضر بسرعة . بدأت أبحث . وسرعان ما فهمت انني عندما احاول ان اكتب قصة حول تغذيتنا واغذيتنا . فيجب ان نتناول ما جاء بالكتب المدرسية وايضا حول المرأة »

« ودور المرأة معروف تماما . في قصة مطبخنا ـ وكاملة في التاريخ الرسمي ـ مدام بومبادور . ماري تيريز . انديرا غاندي . سوف يرشهم التاريخ بالزهور في كل مرة يتحدثون فيها حول الرجال »

« لقد تكلمت في « الترسة » حول نساء مجهولات . بطلاتي هن احدى عشرة امرأة نرى من خلالهن التطورات التي طرأت على اغذيتنا . انهن ثائرات حقيقيات . بطلاتي هن احدى عشرة طاهية . الاولى اسمها آنا . تعيش في العصر الحجري . وآخرهن امرأة تعمل في مقصف في محل ليشين بداتنسج . يعيش الصياد اديك وزوجته اليزابيل في فقر مدقع . يسكنان كوخا حقيرا . اليزابيل تسبب لزوجها حياة تعيسة . تود ان تتغير حياتها » ان تصبح ثرية . اما هو ففير قادر ان يرضى رغباتها .

ذات يوم يصطاد اريك سمكة جادة . تتكلم . لديها معرفة شاملة . يلقيها في البحر . وكي تشكره السمكة فانها تعود لتقدم نصيحة تتعلق بوظيفته . كي يحقق رغبات زوجته . لكن طلبات اليزابيل ليست لها حدود . فبعد منزل من حجارة وقصور وسلطات امبراطورة . وتاج البابا . فانها تتطلع الى سلطات الله . الامر كبير هذه المرة . فيعاقب اريك وزوجته . هذه هي الاسطورة . « في الترسة » قلبت الآية .

لقاء في وستفاليا !

صورت صورة حول العلاقة بين الرجل والمرأة . تستغرق القصة اربعة الاف عام . نرى الترسة الخالدة تتدخل في الحركات النسائية منذ نهاية القرن الماضي حتى ايامنا . ويجب ان نقول ان الترسة في لحظة ما سوف تحاكم وتدان من النساء الراديكاليات ..

الترسة هي روح العالم . لم تتوقف خلال قرون من ان تعلم الناس طرق حكم العالم ونسائه . ان الامر لا يتعلق من جانبي بمعاداة المرأة .

وفي احدث رواية نشرت له عام ١٩٨١ « لقاء في وستفاليا » يتناول جراس ربما لاول مرة موضوعا تاريخيا . يحاول فيه ان يجري عملية اسقاط للحروب التي شهدتها المانيا في القرن العشرين من خلال احداث تدور في حرب الثلاثين عاما التي دارت في ١٩٤٧ . عندما قهر السويديون والفرنسيون قوات المانيا .

تتجمع مجموعة من الكتاب في وستفاليا كي يصنعوا اللغة الالمانية ويطلبوا السلام من الامراء . اعدوا امورهم . اشرب البيرة . لعق الحساء في فندق بليوشكا عام ١٧٧٠ وفي نفس المكان الذي ارتاده بريخت عام ١٩٣٧ . ويصنعون الام الشجاعة من خلال الفندق . نفس الام التي صورها بريخت بعد ذلك في مسرحيته الشهيرة . وهؤلاء الادباء الشعراء بدافع كل منهم عن فكرته وعقيدته .

ويقول جراس ان فكرة هذه الرواية قد الهمها له الاديب الالماني هانز فيرنز ريختر الذي يعجب به كثيرا . وانه قد فعل ذلك احتفاء ببلوغ صديقه السبعين . « بحثت عن فكرة كهدية . كنت اريد الا اكتب رسائل خاصة . لكن ان اصنع تاريخا . فكرت في بضعة اشياء من خمس عشرة الى عشرين صفحة . لكن في نفس الوقت . فكرت ان أحول تاريخ الجماعة ٤٧ الى عصر مختلف لكنه مقارب للصورة النهائية لحرب الثلاثين عاما ■■

الاسكندرية : محمود قاسم

طرائف عربية

جمل من عهد عاد

● سأل احد الأدباء من بعض الوزراء أن يهدي اليه جملا ، فأرسل اليه الوزير جملا ضعيفا نحيفا . فكتب الاديب اليه :
حضر الجمل فرأيته متقادم الميلاد ، كأنه من نتاج قوم عاد ، قد افنته الدهور ، وتعاقبته العصور ، فظننته احد الزوجين اللذين جعلهما الله تعالى لنوح في سفينته ، وحفظ بهما جنس الجمال لذريته ، ناحلا ضئيلا ، باليا هزيلا .

لو القي الى السبع لأباه ، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه ، وقد طال للكلأ فقده ، وبعد بالمرعى عهده ، لمّ ير العلف الا نائما ، ولا يعرف الشعير الا حالما ، وقد خيرتني بين أن اقتنيه فيكون فيه غنى الدهر ، أو اذبحه فيكون فيه خصب الرحل . فملت الى استبقائه لما تعلم من محبتي للتوفير ، ورغبتي في التثمير ، وجمعي للولد وادخاري للغد ، فلم اجد فيه مدفعا لغناء ، ولا مستمتعا لبقاء ، لانه ليس بأنثى فيحمل ، ولا فتى فينسل ، ولا صحيح فيرعى ، ولا سليم فيبقى .

فملت الى الثاني من رأييك ، وعملت على الآخر من قوليك : اذبحه فيكون وظيفة للعيال واقيمه رطبا مقام قديد الغزال .

فأنشدني ، وقد أضرمت النار ، وحددت الشفار ، وتشمر الجزار :

اعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائدة من ذبحي ، وانا لم يبق فيّ الا نفس خافت ، ومقلة انسانها باهت ، لست بذي لحم فأصلح للأكل ، ولا جلدي يصلح للدباغ ، ولا صوفي يصلح للغزل ، فوجدته صادقا في مقالته ، ناصحا في مشورته ، ولم أدر من اي أمريه اعجب : أمن مماطلته الدهر بالبقاء ام من صبره على الضر والبلاء ، والسلام .

نيران العرب

● النيران عند العرب خمس عشرة نارا ، وهي :
(١) نار المزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة ، واول من اوقدها قصي بن كلاب .
(٢) ونار الاستسقاء ، كانوا في الجاهلية اذا تتابعت عليهم السنوات جمعوا ما قدروا عليه من البقر ، وعلقوا في عراقيبها وأذنابها خشب العشر والسلع ثم صعدوا بها في جبل وعر واضرموا فيها النار وعجوا بالدعاء . ويرون انهم يمطرون بذلك .
(٣) ونار التحالف ، لا يعقدون حلفا الا عليها ، يطرحون فيها الملح والكبريت فاذا شاطت قالوا : هذه النار قد شهدت .
(٤) ونار الغدر ، كانوا اذا غدر الرجل بجاره اوقدوا له نارا بمنى ايام الحج ثم قالوا هذه غدرة فلان .
(٥) ونار السلامة توقد للقادم من سفره سالما غانما .
(٦) ونار الزائر والمسافر ، وذلك انهم اذا لم يحبوا الزائر او المسافر أن يرجع أوقدوا خلفه نارا ، وقالوا ابعده الله واسحقه .
(٧) ونار الحرب ، وتسمى نار الأهبة ، توقد على يفاع مرتفع اعلاما لمن بعد عنهم .
(٨) ونار الصيد يوقدونها فتغشى ابصاره .
(٩) ونار الاسد ، كانوا يوقدونها اذا خافوه لانه اذا رآها حدق اليها وتأملها .
(١٠) ونار السليم ، وهي للملدوغ اذا سهر .
(١١) ونار الكلب يوقدونها حتى لا ينام .
(١٢) ونار الفداء كانت ملوكهم اذا سبّوا قبيلة وطلبوا منهم الفداء كرهوا ان يعرضوا النساء نهارا لئلا يفتضحن .
(١٣) ونار الوسم التي يَسِمُون بها الابل .
(١٤) ونار القرى وهي اعظم النيران .
(١٥) ونار الحرتين وهي التي أطفأها الله لخالد بن سنان العبسي حيث دخل فيها وخرج منها سالما وهي خامدة .

هكذا يغنون في الأردن

بقلم : توفيق أبو الرُّب

.. من الغريب حقا ان الشعب الاردني في الضفة الشرقية ، لايزال الى الان يقيم معظم الوان غنائه الشعبي ، في اعماق البوادي واقاصي الريف ، على بحور الشعر الفصيح ، التي اكتشفها الخليل بن احمد الفراهيدي في القرن الثاني للهجرة ! .. ذلك على الرغم من انه لا يعلم شيئا من امر هاتيك البحور ، ولا يسمع بأسمائها او باسم مكتشفها ، ولا يدرك التفاعيل التي تتألف منها ، او الزحافات والعلل التي قد تعتورها !

.. ومن المدهش حقا ان بعض الابنية العروضية ، التي اهملها العرب القدامى اهمالا كليا او جزئيا ، فلم ينظموا اشعارا منها البتة ، او نظموا منها اشعارا قليلة نادرة ، يجدها الباحث تشكل بعض الالوان الرئيسية في الغناء الشعبي الاردني ، وحتى الالوان القليلة جدا ، التي يتعذر اثبات صلتها ببحور الخليل ، فان الباحث اذا ما تأمل في النصوص الشعبية التي تغنيها ، فيمكنه ان يلحظ في يسر ان كل لون فيها يتألف من تفاعيل ثابتة محددة ! لذا فانه يستطيع في سهولة ان يقننها عروضيا على نحو ما فعل الخليل سابقا ، وان يقدمها كبحور جديدة ، يمكن للشعراء ان يعتمدوها ، وان ينظموا منها القصائد الفصيحة العذبة !

.. وهذا ما جعلني اعتقد جازما في كتابي « دراسات في الفولكلور الاردني » ان بحور الشعر هي في الاصل طرق غنائية عربية قديمة ، والا ، فكيف نفسر وجودها الآن في غناء البدو المعاصرين الموغلين في بداوتهم ، الذين يعيشون في اعماق الصحارى المنعزلة ، اذا لم يكونوا قد ورثوها عن اسلافهم العرب القدامى ، وظلوا يحافظون عليها في الفيافي الى الآن ، كما ورثوا وظلوا يحافظون الى الآن ، على كل مظهر عربي قديم ، سواء في ذلك اللباس والخيمة ، وحياة التنقل والرعي ، والرباب والعادات ، وحتى الغزو الذي ظلوا يمارسون عادته على الطريقة الجاهلية القديمة حتى مطلع القرن العشرين ! .. وهذا ايضا في الوقت نفسه ، يؤكد رأي الدكتور طه حسين في نشأة بحور الشعر ، وذلك حين عرض لرأي القدماء والمحدثين فيها فقال : « القدماء والمحدثون يضطربون حين يريدون ان يتبينوا نشأة اوزان الشعر العربي ، ولست ادري لم يأبون الا ان يحددوا لهذه النشأة نظاما ومقياسا ، على ان القدماء اقرب الى القصد من انصار القديم ، فهم قد اراحوا انفسهم ، وزعموا ان العرب توهمت اعاريض نظمت عليها الشعر ، ثم اخذوا يعدون بحور الشعر ، ويحصون اعاريضه ، وضروبه وقوافيه ، اما المحدثون فقد ارادوا ان يتجنبوا هذا الغموض ، فاندفع بعضهم في الخيال ، حتى زعم ان الشعر العربي ، انما اشتقت اوزانه من حركات الابل حين تقطع الصحراء ، والشيء الذي لا سبيل الى الشك فيه ، هو ان وزن الشعر العربي كوزن غيره من الشعر ، انما هو اثر من آثار الموسيقى والغناء ، فالشعر في اول أمره غناء ، ومن ذكر الغناء ذكر الوزن ، والواقع انا لا نعرف في تاريخ الامم القديمة ان الشعر والموسيقى قد نشأ مستقلين وانما نشأ معا ، ونميا معا »[1]

(١) في الادب الجاهلي ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ص٣٢٣ .

الوان جديدة الاوزان

.. وقد اكتشفنا ان هناك الوانا غنائية اردنية عديدة، تقوم على اوزان عروضية جديدة، من ابرزها لون عذب شجي الموسيقى، يغنيه الأردنيون بمقطوعات شعبية كثيرة، اشهرها جميعا القصيدة التي يدعونها «الجوفية» والتي يظل الرجال يرددونها في الاعراس الشعبية متعاكسة منتظمة، ومطلع هذه القصيدة الطويلة يقول:

يا بو رشيدة قلبنا اليوم مجروح
جرح غميق بالحشا مستظل
جابوا الطبيب مددوني على اللوح
قلت برخا لما عشيري يطل[٢]
ظليت انادي وأطرق الباب بالسيف
عيّوا هلك يابابهم يفتحوا لي[٣]

ومن أرشقها ايضا مقطوعة اخرى يقول مطلعها:

قالوا الوداع قلت: يازين لا..لا
ما هو بحقك تغيب عني دقيقة
سبحان من جمّل وكمل تعالى
الجسم ناعم والملابس رقيقة

ولدى ادنى تأمل عروضي في النصوص الغنائية الكثيرة لهذا اللون، يتبين انه يكاد يلتزم التزاما دقيقا بالوزن التالي «مستفعلن مستفعلن فاعلاتن».

وقد استعرضنا الابنية العروضية السبعة والعشرين التي ذكر ابن القطاع الصقلي (٤٣٣-٥١٥هـ) ان العرب قد اهملوها، ولم يأت لهم منها شعر البتة فلم نجده بينها، لذا فقد قمنا في كتابنا السابق بتقديم هذا اللون كوزن عروضي جديد، وقد سميناه بحر «الجوفية» نسبة الى رقصته الشعبية المشهورة، وقد جاء مفتاحه العروضي هكذا:

جوفيه أنغامها ساحرات
مستفعلن مستفعلن فاعلاتن

وهناك ألوان أخرى غير هذا اللون جديدة الاوزان، قمنا بتقنيها عروضيا على ذاك النحو في كتابنا السابق، كنا نود لو نستطيع ان نتعرض هنا لاوزانها او التمثيل لها بمقطوعات شعبية، بيد ان طبيعة هذه المقالة الموجزة لا تسمح بذلك، ولكننا مع هذا، نحب ان نتعرض للون واحد منها، تغنيه مقطوعات شعبية كثيرة، تقوم كل شطرة منه على الوزن «مستفعلن فعلان»، ومن امثلته الشعبية:

عمي يبو الفانوس
نوّرْلِ فانوسك
لاتمش نص الليل
خوفي على افلوسك

يابو جكت بني
الشوق جننّي
بالله ياولفي
تعطف وترحني

وهذا الوزن شائع في غناء كثير من الشعوب العربية الشقيقة، بخاصة في منطقة الخليج وأما في اليمن فقد ذكر الدكتور محمد عبده غانم في مقالته التي نشرها في مجلة «العربي» تحت عنوان «هكذا يغنون في صنعاء» انه يسمى هناك «الحميني»، ووزنه معروف «بالقوما»، ونقل عن صفي الدين الحلي انه ذكر في كتابه «العاطل الحالي» ان هذا الوزن قد اخترع في العراق مع وزن «المواليا» في العصر العباسي الاول (٤)، ولعل من ابرز ملاحظاتنا على مقالة الدكتور غانم تلك، انه استشهد فيها بنصوص معروفة القائل، بينما ما نثبته هنا هو نصوص غنائية، لا يستطيع ان يدعيها احد، لأن الشعب الاردني على اختلاف قطاعاته وتعاقب اجياله، قد شارك في نظمها، لذا تراها غير محكمة النظم، من حيث العروض والقافية والترابط بين الابيات!... هذا شيء مقتضب عن بعض الألوان الغنائية الجديدة الاوزان، واما بحور الشعر المستعملة والمهملة، التي لا تزال تعيش في الغناء الشعبي الأردني، فكثيرة واهمها:

البسيط بأنواعه

يلاحظ على بحر البسيط، انه لا يزال يعيش بقوة في الغناء الشعبي الاردني الحالي، فالبسيط التام هو احد الالوان الاردنية الرئيسية، ومن امثلته الشعبية الغنائية:

يا مرحبا يا هلا امنين الركب مشوين؟
اقبل علينا الضحى يازين تقباله
جوك النشامي لفوا وابشرى يازين
عقبان فوق الهجن وأسود خياله[٥]

(٢) برخا: مهلا، عشيري: عشيقي.
(٣) عيوا: رفضوا وابوا، هلك: اهلك
(٤) العربي، العدد ٢٥٥ شباط ١٩٨٠
(٥) النشامي: الفوارس، لفوا: اتوا. الهجن: الابل

وانسور جوا السما متلفعه بالغين
تهدر هدير الرعد ع القوم صيالة(٦)

كذلك يشكل مخلع البسيط احد الالوان الغنائية الاردنية الشعبية المتميزة ، ويدعونه « المجيني » ، ويلاحظ التسمية انه لون بدوي الاصل ، ولعلنا انتبهنا الى كلمة « المجن » في المقطوعة السابقة ، فهي جمع « مجين » ، ويطلقونها على نوع من الجمال ، ومن امثلة هذا اللون الغنائية :

العين عافت لذيذ النوم
ولا هي على السهد مليومة(٧)
والكبد صدت عن المطعوم
من يوم ما فارقت « سلومة »
مزيونة حرجت بالسوم
والردى دائيا يومه

ولدى تمعن كثير من نصوص هذا اللون ، يلاحظ انه طرأ على وزن مخلع البسيط في الغناء الشعبي الاردني تغير عروضي طفيف ، فقد حذف الحرف الأول المتحرك من تفعيلتي الضرب والعروض ، بحيث اصبحت التفعيلة « فعولن » بعد سقوط الحرف المتحرك منها « فعلن » بتسكين العين ، اذن فالوزن العروضي الدقيق لهذا اللون هو « مستفعلن فاعلن فَعْلُنْ » .

ومن الطريف ان بناء مجزوء البسيط « مستفعلن فاعلن » ، الذي لا تكاد تعثر على قصيدة فصيحة قديمة او حديثة منه ، نجده يشكل احد الالوان الغنائية الشعبية الاردنية الرئيسية ، بحيث نستطيع ان نعثر على مقطوعات شعبية كثيرة ، تدور في فلكه العروضي نحو :

يابو سنين الذهب
واخدود محمرة
قربك شهد للقلب
وفرقتك مرة

قومي اركبي ع الفرس
يا شمس الملاحي
هلك عليك حرس
بسيوف وارماح

وقد لاحظنا على هذا اللون ، ان تفعيلة العروض تكون دائما صحيحة ، اي « فاعلن » اما تفعيلة الضرب ، فتكون فيه مقطوعة ، اي محذوفة آخر الوتد المجموع ، بحيث تكون « فاعلْ » بتسكين اللام .

وكذلك المتدارك

والحق انه لا ينافس بحر البسيط على الاستئثار باكبر عدد من الالوان الغنائية الشعبية سوى المتدارك ، فالعامية الريفية الاردنية التي تميل الى اشباع الحركة والتسكين ، نراها في الغناء تشغف بتشعيث (٩) تفعيلة هذا البحر « فاعلن » بحيث تغدو معظم تفاعيله في البيت الغنائي الواحد « فعلن » بتسكين العين ! عندئذ يغنيه الفلاحون الاردنيون بطرق عديدة شتى ، مستعينين على ذلك بلازمات غنائية متنوعة مثل : « بالليل ياعيني بالليل » و « يسعد عينك ياتايلون » و « ياكبير همي لاحه » وغيرها ! .. واما البدو الاردنيون فيغنونه في الاعراس بطريقة جماعية ، بحيث تشترك معهم في ذلك النساء اللائي « يحوشين » ، اي يرقصن امامهم بالسيوف ، ويسمونه الحداء ، ومن مطالعه الشهيرة عندهم :-

وأريد القصد ع الحاشي
يربوعي ردوا عليا(١٠)

ومن الجدير ملاحظته على هذا المطلع ، ان تفعيلة المتدارك تظهر في عجزه كما هي في الاصل اي فاعلن .
كذلك كثيرا ما يفتتحون حداءهم بالصلاة على النبي فيقولون :

اول ما نبدي واتقول
ابذكر امحمد والرسول
الف مرة الو اقبول
اتصلي عليه صلوات

---

(٦) الغين : الغيم ، وابدال النون من الميم ، ظاهرة لغوية قديمة ، وشاهدها في هذا الاسم نفسه قول شاعر من بني تغلب يصف فرسا :

قانت حيوتي بعثنان طرف ... شديد الشد ذي بذل وصون
كأني بين خافيتي عقاب ... يريد حمامة في يوم غين

(٧) مليومه : ملومه
(٨) حرجت بالسوم : غلا مهرها ، ويقصد بذلك المعشوقة « سلومة » .
(٩) التشعيث هنا حذف العين من « فاعلن » فتصبح « فالن » وتنقل الى « فعلن » بسكون العين .
(١٠) اقصد ع الحاشي : اغني الحداء مع « الحاشي » او المرأة التي ترقص امامي بالسيف .

ومن الجدير ملاحظته على عجز البيت الثاني ، ان تفاعيل المتدارك على اختلاف صورها الثلاث قد التقت فيه ، الأولى جاءت مشعثة اي « فعلن » بتسكين العين ، والثانية على الأصل اي « فاعلن » ، والثالثة مخبونة[١١] اي « فعلن » بتحريك العين ! .. والحداء فن عربي اصيل ، ويقال : ان اول من ابتدعه مضر بن نزار او غلامه ، وذلك عندما صاح احدهما متألما فقال « وايداه .. وايداه .. هيا ... هيا ، فاحرنجمت الابل بعد ان كانت متفرقة !

.. وهناك لون غنائي آخر متميز يقوم على الوزن العروضي « فاعلن فاعلن » في كل شطرة ! وبحر المتدارك لم ينظم في الماضي ـ حسب علمنا ـ مجزوءا الا بست تفعيلات ، ومثاله قول الشاعر القديم :

قف على دارهم وابكين
بين اطلالها والدمن

ومثال هذا اللون في الغناء الشعبي الاردني ، تلك المقطوعة الذائعة التي يقول مطلعها :

ريدها ريدها
كيف ما ريدها
وردة يا هل
والعسل ريقها

يسير زمزم عليه
حارسا لا ينام
والصبايا عليه
مثل رف الحمام

ونظرا لرشاقة موسيقى هذا اللون ، فقد غني عربيا كما غناه عالميا المطرب الهندي « راج كومار » !

والرجز والرمل

وهناك لون غنائي رئيسي آخر ، يتضح لدى ادنى تأمل عروضي في مقطوعاته الكثيرة انه مجزوء الرجز « مستفعلن مستفعلن » ، ومن امثلته هذا المطلع الشهير :

يا بنت يللي بالجبل
طلي تشوفي ارجالنا

انتن غواكن شعركن
حنا غوانا افعالنا[١٢]

وهناك لون رئيسي آخر يعود الى بحر الرمل المحذوف تفعيلة العروض وتفعيلة الضرب غالبا ، اي « فاعلا » اذ من النادر ان ترد تفعيلة عروض الرمل تامه اي « فاعلاتن » ، وانما تأتي في الغالب محذوفة السبب الخفيف الأخير ، وقد سها الأستاذ هلال ناجي حين اورد في قبول ودون محاكمة ما ذكره ابن القطاع الصقلي عن اصل دائرة الرمل فقال : « واهملت العرب بناء هو اصل دائرة الرمل ، فأصل دائرة الرمل مبني على « فاعلاتن » ستة اجزاء ، ولكن العرب لم تستعمله الا محذوف العروض « فاعلا » والشاهد على اصل دائرة الرمل :

ما لقلبي لا يبالي بملام
في سليمى ولا يعطي قياده[١٣]

... والحق ان هناك اشعارا وردت عن العرب من الرمل التام العروض والضرب ، كما هو في الأصل ، لكنها قليلة . كقول المتنبي :

انما بدر بن عمار سحاب
هطل فيه ثواب وعقاب
انما بدر رزايا وعطايا
ومنايا وطعان وضراب
ما يجيل الطرف الا حمدته
جهدها الايدي وذمته الرقاب

ومن الغريب حقا اننا عثرنا على نصين بدويين اردنيين من الرمل التام العروض والضرب ، اي كما هو في الأصل ، ومطلع النص الاول يقول :

البواشق ما تصيد الصيد كله
لو تجمع سود ليله مع نهاره

واما الثاني فمطلعه :

ساهر بالليل ما جاني نوادي
من امور الشيخ جراهن علينا[١٤]

هذا .. ولعل من ابرز الملاحظات العامة على الغناء الشعبي الأردني غياب بعض البحور التي تبدأ تفاعيلها بأوتاد مجموعه ، او بفواصل صغرى مثل بحر الطويل والوافر والكامل وغيرها !

---

(١١) الخبن هنا هو حذف الألف الثانية من « فاعلن » فتصبح التفعيلة « فعلن » بتحريك العين .

(١٢) يقول : انتن تحبين التزين والجمال ، ونحن نهوى الحرب والقتال !

(١٣) هلال ناجي « الانتفاع من تراثنا العروضي لتجديد شعرنا المعاصر » مجلة افكار الاردنية .
العدد السادس والثلاثون ، صفحة ١٧ ، عمان ، ايلول : ١٩٧٧ .

(١٤) نوادي : ندماء ، وفي هذا بلاغة عربية اصيلة تلتمس في باب المجاز المرسل . فهو شبيه بقوله تعالى « فليدع ناديه » .

الهزج التام

.. لكن المدهش حقا ان بحر الهزج التام يشكل احد الالوان الغنائية البدوية الاردنية ، والهزج لا يستعمل على صعيد الشعر الفصيح الا مجزوءا باربع تفعيلات فقط ، وقد ذكر ابن القطاع الصقلي الهزج التام ضمن الابنية العروضية السبعة والعشرين ، التي زعم ان العرب اهملتها ، ولم يأت لهم فيها اشعار البتة ، وقد مثل له بقوله :

« بنفسي من اذا بدت رأيت البدر في التم على غصن من البان »[15] وقد ظهر لنا ان بناء الهزج التام لا يزال يعيش على صعيد الغناء البدوي الاردني والعربي حتى اليوم ! . .

اما على صعيد الغناء البدوي الاردني فتأمل عروض هذه الابيات ، التي سمعناها تغنى في عتوية على الرباب في احدى البوادي الاردنية ، والتي تقول :

يبو محمود كل الجود بهدومك
وبا يامير نلت الخير بقدومك[16]
بذلت المال والحلال يا غالي
لدى العربان صيتك شاع وعلومك[17]

● ● ● ●

صودي هالذيب بالبطين سلاني
وأنا وحدي بنص الليل سهراني[18]
غشاني الهم من محبوب جافاني
ايا محبوب ما تيخاف من ربك[19]

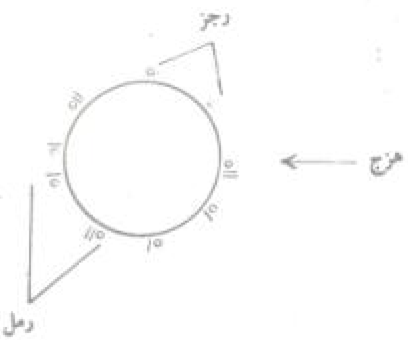
● ● ● ●

والمقطوعة طويلة ، وهناك مقطوعات اردنية غيرها ، ولكننا مضطرون كما قلنا للايجاز الشديد ، واما على صعيد الغناء البدوي العربي ، فلعلك قد سمعت هذه الاغنية البدوية الشائعة ، والتي تغنيها الاذاعات العربية منذ زمن ، فتأمل في عروض مطلعها :

عليم الله مقلت الآه ولا مرة
وأنا بالحب معرف خيره من شره

فالابيات دون ريب من الهزج التام ، ولكننا في الختام قد نتساءل :

كيف استطاع الخليل بن احمد اذن ان يدرك بأن بحر الهزج يتألف نظريا من ست تفعيلات ، على الرغم من انه لا يستعمل الا مجزوءا اي باربع تفاعيل ، « مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن » فيكون الجواب في تصورنا : ان الخليل عندما لاحظ ان هناك تشابها عروضيا بين كل من بحر الهزج وبحر الرجز وبحر الرمل ، ابتكر لها جميعا دائرة عروضية واحدة ، هي دائرة الهزج او المجتلب ، التي تنظم تفاعيلها تنظيما هندسيا دائريا على هذا النحو ، الذي نراه في هذا الرسم التالي :



وجد نفسه مضطرا في اثناء محاولة ابتكار هذه الدائرة العروضية او بايحاء منها الى الافتراض بأن تفاعيل الهزج في الاصل ست تفعيلات كعدد تفاعيل كل من شقيقيه : الرجز والرمل ، ذلك لأن دوران تفاعيل البحور الثلاثة في الدائرة العروضية وتكاملها يقترحان عليه ذلك ، بل ويشترطانه كما نرى !

وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على عبقرية الخليل العلمية من جهة ، كما يدل على شدة محافظة الغناء البدوي المعاصر ، واصالته وعراقته من جهة اخرى . ■■

اربد ـ توفيق ابو الرب

---

(١٥) هلال ناجي ، الانتفاع من تراثنا العروضي « افكار » العدد ٣٦ ، صفحة ١٧
(١٦) بهدومك : ثيابك
(١٧) الحلال ، الشياه والاغنام
(١٨) البطين : الخلاء او السهل
(١٩) غشاني : ساورني وداهمني .

دير سانت كاترين

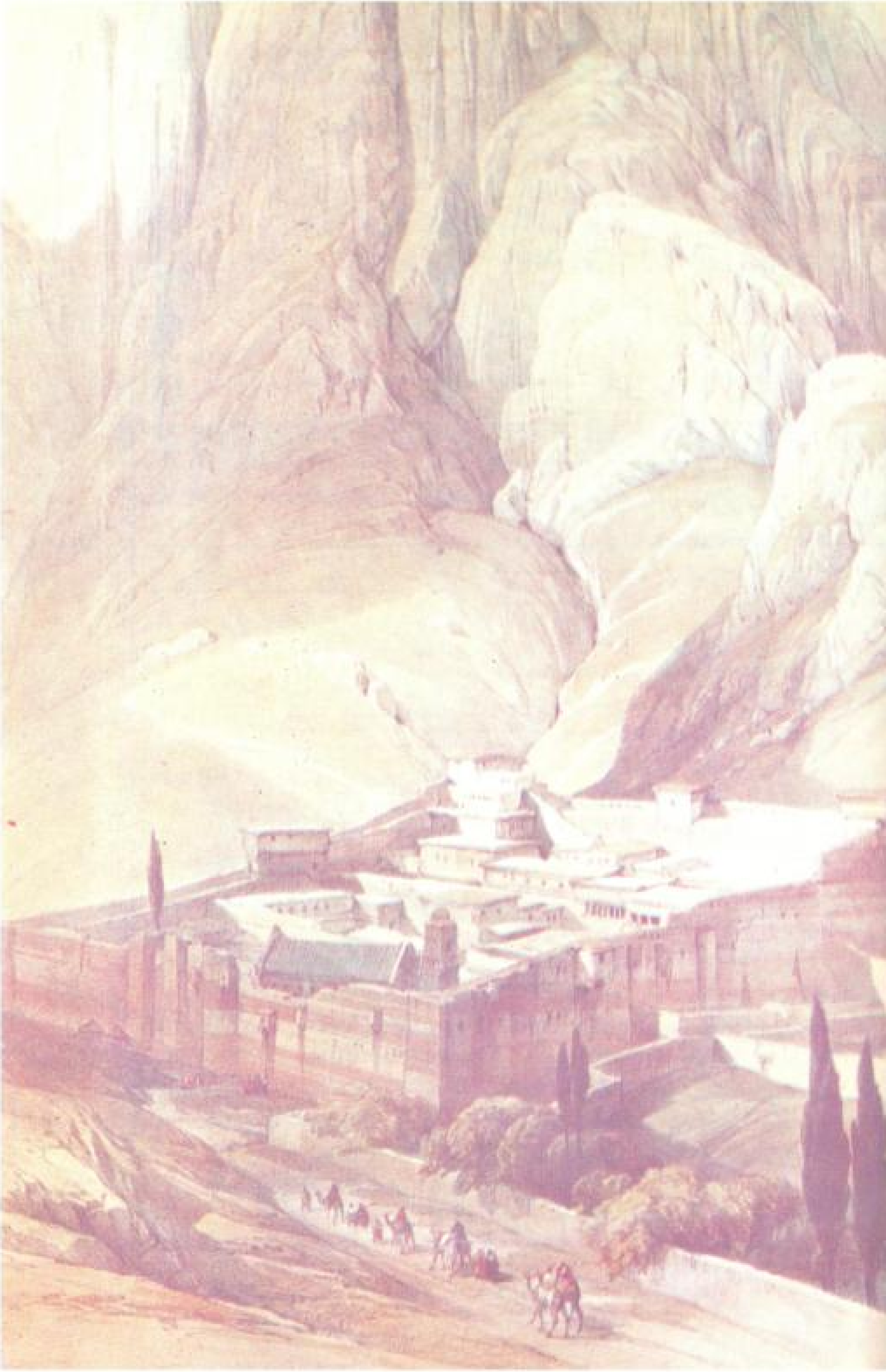
رحلة في سيناء
وسط القفر المخيف العظيم

تحقيق : مصطفى نبيل

تصوير : اوسكار متري



الدير المحصن بأسواره عند سفح جبل موسى ، والذي يقع في واد غني بعيون الماء . ولوحة للرسام دافيد روبرتس لدير سانت كاترين في حضن جبل موسى في عام ١٨٣٩ .



عندما وصلت الى مشارف سانت كاترين ، كنت قد قطعت رحلة مثيرة وغنية بالتجارب والمناظر الخلابة . .

تقول خلالها سيناء الكثير بعمق صمتها ، فروح الخلود التي تتحرك على صفحة الفضاء وتسكن قلوب ابنائها ، هي التي تضفي على سيناء مكانتها كأرض للتأمل والتفكير . .

وعندما وصلت الى الوادي المقدس طوى ، وأمام الدير الذى صمد لأحداث الدهر صمود الجبال من حوله ، كنت أقف أمام رمز وشاهد على السماحة والقدسية والخلود .

مع خيوط الصباح الأولى تحركت بنا السيارة من القاهرة ، متجهة الى شبه جزيرة سيناء ، وبالتحديد الى دير سانت كاترين ، الذى كان استمراره وتفرده مقصد الرحالة ومحل اهتمام الباحثين والمؤرخين . .

كم شعرت بالاسى ـ بعد سقوطه في الاسر ـ لانه لم يبق لى زيارته في قلب سيناء .

وكم مرة رسمت بخيالي وقراءاتي صورة عن هذا الدير وعزلته وسط الصحراء ؟ !

بيننا وبين هدفنا ٤٧٠ كيلو متر ، معظمها في صحراء سيناء القاحلة ، وقد بدأت الرحلة سهلة عندما كنا نقطع الطريق بين القاهرة والسويس ، لا يقلقنا سوى أن تفوتنا « المعدية » التي تنقل السيارات من قناة السويس الى شرقها .

ورغم ان القناة لعبت دورا بارزا في الملاحة العالمية ، وثورة في التواصل بين دول العالم ، الا انها اقامت عازلا مائيا بين الوادى وسيناء . . !

ساعدنا الحظ ووصلنا الى المعديه ـ التى مازال يديرها الجيش ـ في الوقت المناسب ، اما نفق الشهيد احمد حمدى اول اتصال برى يربط بين آسيا وافريقيا منذ شق قناة السويس ، فلم يفتح بعد للعبور !

لا يمكن ان يعبر المرء القناة ، ويمر بالسويس ، ولا تثور في نفسه الذكريات والمشاعر المختلطة ، فهذه المنطقة تعلقت بها العيون والآذان يوم كانت جبهة ضاريه للقتال ، وعندما كنت اتردد عليها خلال حرب الاستنزاف ، وكانت مبانيها قد تحولت الى أنقاض !

الحت الذكريات ونحن نعبر الى ارض سيناء ، الحركة كثيفة من هذا المعبر ، مما يدل على عمليات التعمير التى تشهدها سيناء وها نحن أولاء على مشارف بوابة مصر الشرقية

مازالت آثار تحصينات العدو قائمة ، والتى استخدم فيها خط السكة الحديد الذى كان يقطع القنطرة ـ العريش ، من حولنا الطبيعة الخاصة لسيناء التلال والكثبان والرمال على طول البصر ، اول ما صادفنا بعد « الشط » بلدة « عيون موسى » ، فالعديد من التجمعات السكانية المتناثر في هذا الفضاء الشاسع تبدأ بلدانها بما ينم عن وجود سر الحياة ، « العين » او « البئر » ، عين سدر ، عين الجديرات ، ثم بير لحفن وبير العبد وبير الجفجافه وبير الحسنة . . وهكذا ، لقد رسمت المياه هنا طريق الحياة ، وتركزت تجمعات السكان حول بئر ، أو خدمة لطريق ، أو مستعمرة لمعدن هام ، أو نقطة حراسة . .

تقطع ذات الدرب الذى كان يقطعه الحجاج في الماضى في العديد من نقاطه ، والذى كان يسير جنوبا على محاذاة خليج السويس الى نخل والطور والعقبه ثم الحجاز ، تقطع السيارة الطريق وتتوالى الصور والذكريات ، فالطريق من السويس الى سانت كاترين غنى بالتجارب المثيرة والمناظر الخلابه ، واكثر ما استوقفنى الجبال التى تتغير ألوانها مع تغير ساعات النهار ، وما يتحدث به صمت سيناء الخاص .



خريطة سيناء

أمشي فوق ارض شاب عليها الزمن ، ومرح في أعطافها التاريخ ، ولعبت رغم عزلتها وقسوتها دورا تاريخيا هاما ، اسمها في العهد القديم « القفر العظيم المخيف » ، وهي « التيه الرهيب » الذى تاه في شعابه بنو اسرائيل عندما غضب موسى على قومه الذين تركوا الله وعبدوا الصنم ، وهي بالنسبة للباحثين في الثقافات القديمة ، المكان الذى ظهرت فيه لأول مرة الأبجدية التى تتكون من حروف ، واسمها الذى اطلقه عليها الفراعنه ـ ووجد على آثارها منقوشا بالهيروغليفية هو « توشريت » اى ارض « الجدب والعراء » . . . ، وهي لدى المؤرخين . . « ساحة المعركة الدائمة بين الشرق والغرب » ، أما بالنسبة لاهل مصر فهى العقبة القصية الكأداء التى ينبغي على أي جيش أن يتغلب عليها ، وقد شهدت سيناء مالايقل عن ٥٠ حربا كبرى في تاريخها ، من المكسوس وحتى الصهاينة ، حتى إن تراب سيناء قد امتزج بالدم المصرى ، ربما اكثر من أى رقعة أخرى في التراب الوطنى . .

يصدق هذا ابتداء من شاروهن المكسوس ، وقادش تحتمس ، الى قرقميش البابليين ، وحطين صلاح الدين ، وعين جالوت قطز ، وحتى مرج دابق الغورى ، وحمص ونصيبين محمد على ، فهى معبر أرضى وجسر استراتيجى ، عبرت عليه الجيوش منذ فجر التاريخ . .

رغم أن حدود سيناء هى اقصر حدود مصر فتبلغ ٢٠٠ كيلومتر ، الا انها أخطرها ، وهي بوابة مصر الاولى ومدخلها الشرقي ، والقانون الخالد الذى يمكن استخلاصه من احداث التاريخ يقول : « ان الذى يسيطر

تآخ خالد بين منارة المسجد وبرج الكنيسة وجبل سيناء .



شيخ قبيلة الجبالية مع أحد رهبان الدير . علاقة وثيقة بين البدو والرهبان طوال اربعة عشر قرنا .



على الشام يهدد مصر استراتيجيا . . »

فاذا كان مثلث سيناء هو العقده التى تربط افريقيا بآسيا ، فان المثلث الشمالي منها والذى يمثل خطه الجنوبي السويس ـ رفح ، هو حلقة الوصل المباشرة بين مصر والشام ، هو منطقة الحركة والمرور ، أما المثلث الجنوبي اسفل هذا الخط فهو منطقة العزلة والالتجاء . . .

وسيناء لمصر مثل خيبر للهند ، بل هى مدخل افريقيا كلها . .

وهى لهذا ليست مجرد رمال جرداء وليست فراغا او عازلا كما يراد لها ان تكون ، بل هى عمق جغرافي ، وانذار مبكر يمكن ان تقايض فيه الزمان بالمكان . . بل اذهب ابعد من ذلك واقول . . ان معنى سيناء قد اصبح في الوقت الحالي يتجاوز مصر وامن مصر ، فقدرها ان تكون درع العروبة من المحيط الى الخليج . .

ومنذ سنوات ليست بعيده ، كان قطار الشرق السريع ينقل المسافر من اوروبا الى الشام ، وكان قطار فلسطين ينقله حتى القنطرة .

فارضها ليست الرباط البرى مع آسيا فحسب ، وانما مع القارة الأوربية ايضا . .

التقصير . .

ويمضى بنا الطريق . . وتبدو الصحراء الشاسعة للوهلة الاولى . . غير مسكونة ، فلا ترى الا القليل النادر من معالم الحياة ، فالواحات قليلة متناثرة في انحاء القفر الواسعة ، والبدو موجودون في كل مكان . مساحة سيناء تبلغ ٦١ الف كليومتر أى ثلاثة اضعاف مساحة دلتا النيل ، وسكانها اقل من سكان طنطا او المحلة الكبرى ، فيبلغ تعداد البدو فيها حوالى ٥٥ الف نسمه ، يتوزعون في بقع خضراء من النخيل الغزير المتناثر ، ينصبون خيامهم حيثما وجد مرعى لقطعانهم ، وجوههم كالصقور ، لباسهم وفنونهم مميزة ، خيامهم وجمالهم مزينه بألوان زاهية ، يشعرون من يلتقى بهم في جوف الصحراء بحدبهم وكرمهم ، يرى عدد من الباحثين انهم النموذج الحي لحياة البدو الفطرية منذ الازل . .

لقد صادفنا مركزين رئيسين لهم ، الأول في وادى غرندل ألقريب من أبوزنيمة والثاني في وادى فيران في نهاية رحلتنا ، يسكنون خيم الشعر في غرندل وفي حماية صخور الجبال في فيران ، في بقع خضراء من النخيل المتناثر الذى تحيطه المراعي .

وكان الشعور الذى تملكنى تجاههم بينما كنت أسمع رواياتهم ، ومعاناتهم الطويلة في ظل الاحتلال ، هو الشعور العميق بالتقصير ، تقصير أبناء الوادى عندما أهمل المصريون طويلا الصحراء واستغرقهم الوادى المكتظ . !

هو تقصير يمتد بعيدا في التاريخ الحديث ، يبدأ مع شق قناة السويس ، ثم مع الاحتلال البريطاني الذى عين احد الضباط الانجليز حاكما عاما لسيناء ، ويرث كل جيل تقصير الجيل السابق ، ويأتي العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، ويفطن الكتاب للخطر ، ويدعون الى تعمير سيناء كعمل له الاولوية،فهو عمل استراتيجي بالغ الخطورة ، لكي لاتترك أطراف مصر فراغا ومرتعا ، وانه في تعمير سيناء الاستجابة الطبيعية للتحدى الصهيوني ، عن طريق مشاريع التنمية والاستثمار والتخطيط ، فالحدود الآمنه هى الحدود البشريه الكثيفه الصلبة . . .

ويدعو الكتاب والمفكرون الى وضع حد للتقصير والقضاء على تخلف المواصلات ، وانهاء عزلة سيناء ، من رعاة رحل الى سكان للمدن التى تقوم في المواقع الانتاجية المختلفة .

ونادى الكتاب ، باستصلاح الأراضى ، والتوسع الزراعى على طول الضفة الشرقية للقناة ، وعلى امتداد الساحل الشمالي ، وفي كل الرقع المبعثرة على طول أودية سيناء ، ومسح مصادر المياه ، واستغلال مالم يستثمر منها ، سواء الامطار او المياه الجوفيه ، ومد مياه النيل الى سيناء ، وقد كان النيل قديما يصب في غرب سيناء ويعبر اليها عبر القنطرة . .

كما طالبوا بنقل ثلاثة ملايين مصرى من سكان الوادى الى سيناء ، وكان ممكنا أن يتغير مسار الاحداث لو كان لرأى الخبراء وزن ، ولكنه لم يحدث شيء من ذلك سوى القليل الذى بدأ قبيل عام ١٩٦٧ ، عندما بدأت بعض التجارب الزراعية التي نجحت على سواحل سيناء الشمالية باستخدام المياه الجوفية ، والذى استولى عليها المستوطنون الصهاينه وادعوها لانفسهم ، كما أقيمت أول سحاره تنقل المياه عبر القناة امام الاسماعيلية ، وبقيت سيناء منطقة عسكرية لايدخلها المصرى الا بتصريح !

وأذكر أني وجدت نفسى وجها لوجه مع هذا الشعور بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، عندما اندفع بعض الشباب المتطوع وسافر الى بور سعيد ليشترك في القتال الذى انتهى قبل وصولهم ، وقبل احكام السيطرة الاسرائيلية على سيناء ، أقاموا مركزا في بور سعيد وآخر في نهاية بحيرة البردويل . وكان هدفهم البحث في دروب سيناء عن أفراد الجيش المنسحب ، يقدمون للجرحى الذين أرهقهم العطش في الصحراء الاسعافات الاولية ، ثم ينقلون بزوارق الصيد الصغيرة الى بورسعيد ، ولم يمض وقت الا وكانت شبكة من بدو سيناء الذين يعرفون شعابها ، يساهمون في هذا العمل ، كما ساهم الصيادون في بحيرة البردويل ، وشاهدنا ـ في هذا الوقت ـ ارتفاع نسبة المرض من بدو سيناء ، بسوء التغذية وامراض اخرى عديدة .

واليوم ، لم يعد مقبولا ان تظل قناة السويس عامرة على احدى ضفتيها ، وهى الضفة الغربية وحدها ، بل ينبغي ان تزدوج بالعمران الكثيف على كلتا الضفتين .

وقد حان الوقت الذى يجب فيه ان تمتزج مشاريع التعمير بمشاريع الدفاع ، فتكون كل وحدة بشرية وحدة إنتاج ودفاع معا . .

مع بدو سيناء

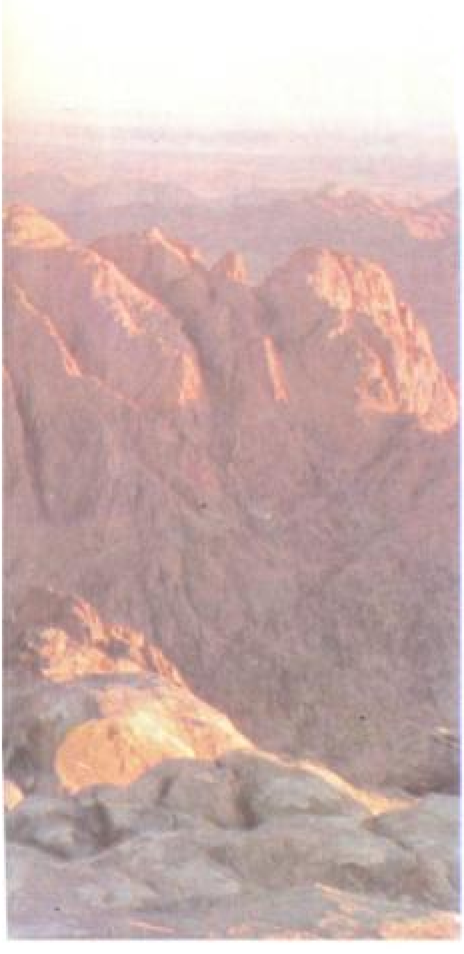
بدو سيناء يجيدون التعامل مع الطبيعة القاسية ، يعرفون الدروب بالنجوم وحركتها ، وذوو خبرة خاصة في تقصى الأثر ، يعرفون الوقت بلا ساعة ، ويتوقعون المطرودون

هذا أحد حقول النفط في سيناء ، ومازالت معارف عديد تبحث عمن يستغلها ، وتتكلف المرحلة الاولى من تعمير سيناء ٣٠ مليون دولار ، والمرحلة الثانية ضعف هذا المبلغ ، و٢٣٠ مليون دولار وستة اعوام لاعادة خط السكة الحديد . .





جانب من الدير الذي أعد لاستقبال الضيوف ، وعدد من السياح يتفقدون نفائس الدير.







بعض الأيقونات المعروضة في متحف الدير. (الى اليمين)

إحدى السائحات مع أبنائها، أمام الجامع التي تحاول رسم منارته. (الى اليمين أسفل)

جبال سيناء وتعم الالوان، وثلاثة من البدو في هذا « القفر المخيف المظلم ». (الى أسفل)



أرصاد جوية ، ويتنبؤن باتجاه الريح ، مازالوا في عزلتهم الطويلة يعيشون بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة ، ومن الأحاديث التي دارت على ألسنتهم . يمكن تقديم صورة مختصرة على بعض هذه العادات . فمازالت الشهادة تؤدى بواسطة ما يعرف عندهم باسم « البشعة » أي ملامسة سطح معدن ملتهب باللسان ، ويكتشف القاضي او شيخ القبيلة مدى صدق ما يرويه المتهم ، ومازال شيخ القبيلة يتولى بالقانون القبلي العتيد حل المشاكل التي تنشب بين افراد القبيلة ، وينتشر هنا تعدد الزوجات ، فمازالت بنت البادية لم تحصل على حقوقها بعد ، فالعروسة لا رأى لها في شريك حياتها اذا كانت بكرا ، ومازال لكل قبيلة خاتمها الخاص الذى تضعه عن طريق الكى على ابلها ، ولها مناطقها التي يحق لها زراعتها أو رعى ابلها ، عالم كامل ، وكانها قارة منسية من التقاليد والعادات !

والتجمع البدوى او بالأحرى الشتات البدوى في سيناء هو حلقة الوصل بين قبائل الجزيرة العربية والشام ووادى النيل ، فلهذه القبائل امتدادات في وادي النيل وصحراء النقب وصحراء الاردن وجزيرة العرب . .

وتتكون قبائلها من ٢٥ قبيلة رئيسيه . لكل منها منطقة نفوذ وموطن خاص ترعى فيه ، فمثلا قبيلتا الشدايد والحويطات تمتد من صحراء سيناء والنقب ومحافظة القليوبية ، اما قبيلة اولاد سعيد فتمتد من قليوب الى منطقة الطور ، وقبيلة الترابين يسكنون غزة وسيناء والجيزه ، وقبيلة العليقات تعيش في الطور وفي اسوان ، ويمتد العديد من اصول سكان بلبيس الى بدو سيناء . . وهكذا . .

ارض الفيروز

وكان توقفنا في الواحات ومع السكان ، توقفنا في سدر وابوزنيمه وابو رديس ، وهى منطقة تشهد عمليات استخراج المعادن ، قضينا ليلة واحدة في أبو رديس ، احدى مدن النفط على خليج السويس ، والتي بها مطار يستقبل طائرات شركة النفط ، وبها فيلات انيقه على الشاطىء مزودة بالمياه الساخنة والباردة ، وتضم مجموعة من الخبراء والفنيين الذين عشقوا الصحراء ، وادركوا ان في سيناء مستقبل الوطن كله . .

وفي لقاء طويل مع احد المهندسين الشباب ، شاهدت جيلا جديدا واعدا قال :

« ان ما يتم استخراجه من المعادن في الوقت الراهن هو الجزء الظاهر من جبل الجليد الذى يختفى عن العيون ، فالتقديرات تؤكد غنى سيناء بالمعادن المختلفة ، وهي ثروات تستعصى على الكسالى الذين يفتقرون الى الخيال ، وهذه الارض تقدم فرصة ذهبية توقظ خيال واحلام الاجيال الجديدة ، القادرين على خلق الحلول المبتكرة في مواجهة الطبيعة القاسية . وهي تقدم للشباب الطموح الحل لعديد من مشاكله التي يواجهها في الوادى المكتظ الذى لم يعد يلهب الخيال ، فمن هنا يبدأ التحدى الحضارى . . وهذه الصحراء على أية حال ليست في قسوة سيبريا الشاسعة ، على الشباب الذين يحلمون بارتياد المجهول والسفر الى اقصى الارض ، ان يأتوا الى هنا ، ولن تقدم لهم سيناء الرسالة الخالدة فحسب ، بل تقدم واقعا ملموسا ، فهذا هو النفط تتوزع آباره على طول خليج السويس ، وتقديرات كبيرة حول وجوده في خليج العقبه ، فمصر لا تقدم لهم مجرد صندوق من الرمال ، وانما صندوق من ذهب ، كانت سيناء منذ الفراعنه منجم مصر للذهب والنحاس والمعادن النفيسه ، وهي الآن بئر بترولها الكبرى ، ومركز أمنها ، كان هدف اجدادنا من سكان الوادى على الدوام حماية الوادي من الغزاة وتأمين طرق التجارة ، واستغلال مناجم النحاس والفيروز ، حتى اطلقوا عليها « ارض الفيروز » ، وارضها حبلى بالمنجنيز في ام بجمه وابو زنيمه ، والفحم في الشمال عند المغارة ، والرمال البيضاء والكاولين في الغرب من شبه الجزيرة ، والفوسفات في شرقها عند امتداد العقبه ، غير احتمالات بلا حدود للحديد والذهب .

وهي لن تستعصى على جيلنا ابدا . .

وروى الشاب والاسى في نبراته : « كيف تحولت



كهوف في الجبال هي بيوت البدو في وادى ثيران .

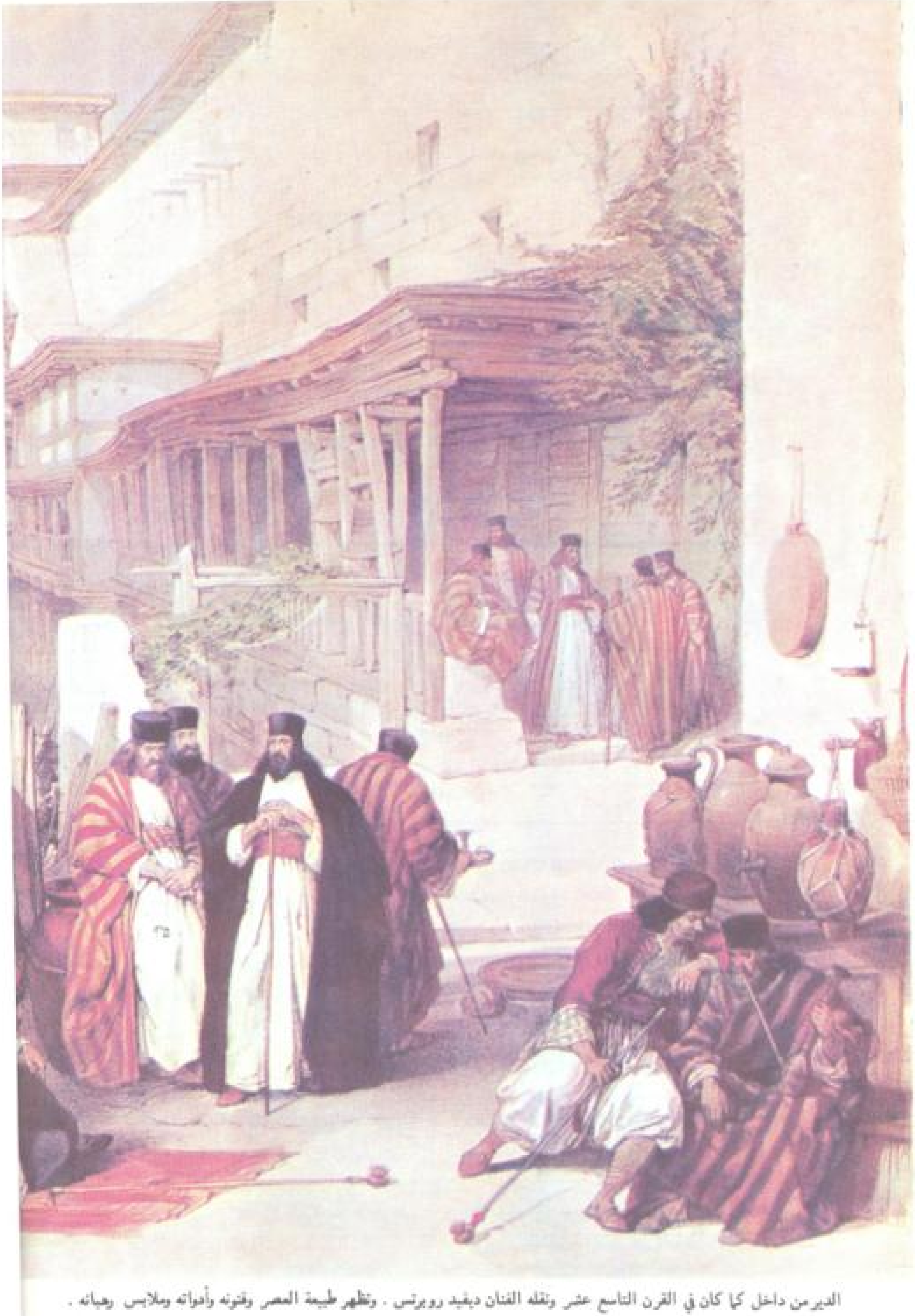
شركة سيناء للمنجنيز الى ورش للصيانة تتبع حقول ابو ردبس ، فعندما حانت ساعة الجلاء الاسرائيلى ، حملوا معهم كل ما يمكن حمله من الالات والمعدات ، بل وضربوا المناطق السكنية ، وحرقوا بعض الطرق في حركات مسرحيه ، انهم يثبتون دائما أنهم برابرة القرن العشرين .

وطالب بضرورة ان تمتزج مشاريع التعمير بمشاريع الدفاع ، وابدى تخوفه وقلقه من عمليات التعمير ، وكيف تتم باسلوب عتيق وتتسم باسلوب بيرو قراطى ، فالعمل يجرى من اجل مبنى لمجلس المدينة وآخر لرئيسه ولموظفيه وهكذا ، ولكن الدخول الصحيح هو الزحف الانتاجي حول مواقع الانتاج ومشاريعه . . .

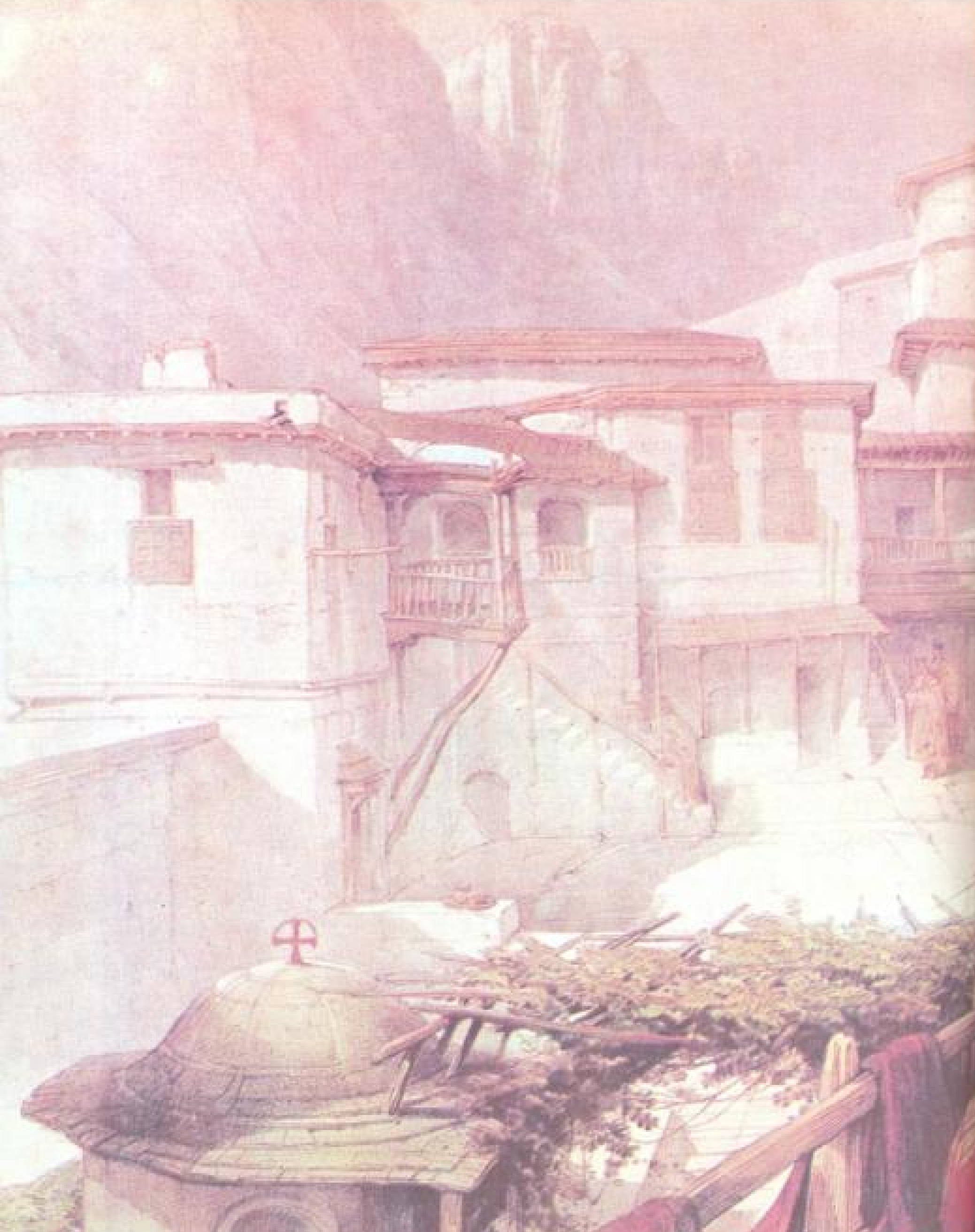
وحتى وصولنا الى مدينة ابو ردبس تقطع الطريق في محاذاة خليج السويس ، تظهر زرقة البحر الاحمر التى يقطعها بين حين وآخر زورق صياد او شباكه ، فسواحل سيناء والتي تمتد على طول سبعمائة كيلو متر ، ساحل البحر الابيض في الشمال ، وخلجان ضخمة :السويس والعقبه ، وبحيرات عميقة :التمساح والمره واخرى ضحله كالبردويل . .

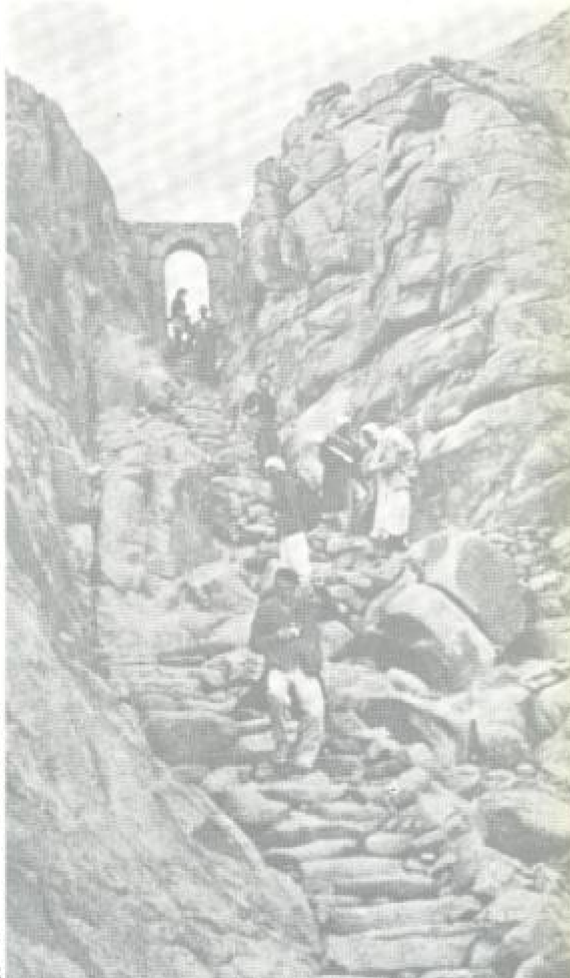
وهي جميعها ذات امكانيات كبيرة في الصيد ، وهي جاهزة لتكوين شركات كبرى لاستغلال الثروة السمكية .

ومن ابو ردبس توغلنا شرقا في عمق سيناء ، متجهين الى أعلى الجبال المصريه ، الى نقطة متوسطة بين خليج



الدير من داخل كما كان في القرن التاسع عشر ونقله الفنان ديفيد روبرتس . وتظهر طبيعة العصر وفنونه وأدواته وملابس رهبانه .




الطريق الى قمة الجبل ، والذى ينتهي ببوابة الغفران .

السويس وخليج العقبه ، لا حظنا بوضوح ان سيناء ليست صحراء ذات وتيرة واحدة ، الجبال الوعره بالوان الطيف التى لم أشاهد لها مثيلا فى اى مكان ، الوان الأصفر والبنى والبنفسجى ،نغم الالـوان من حولنـا يصحبه موجات عاليه من جبال الجرانيت التى تتجه الى خليج السويس ، هذا هو اذن « القفر المخيف العظيم » لم يتبدل ، وهنا تتنفس هـواء نقيا جافا لم يتنفسه احد من قبل . .

نغم الالوان

اتطلع الى الافق ، ونحن نقترب من هدفنا ، تقف جبال سيناء شامخه ، تضاريسها تشبه سطح القمر ، تتحرك في بقعة لها مكانتها الخاصة في الاديان السماويه الثلاث . وجاء ذكرها في القرآن الكريم في اكثر من موضع ، وكانت على الدوام هدفاً لاعداد كبيرة من المؤمنين الذين يزورون الاماكن التي جاء ذكرها في القصص الديني .

وتتابع على زيارتها الرحاله والفنانون والمؤرخون ، يسجلون ملاحظاتهم ويرسمون لوحاتهم ويجمعون ويحققون الروايات الدينيه ومواضعها والطريق الذى سلكه النبي موسى ، ومازالت المواضع والطرق محل جدل العلماء وتحقيقهم . الطريق للمعبد يقترب من الوادى المقدس طوى ، يقترب من ديرسانت كاترين ، وعلى مرمى النظر تبدو قمتا جبلي موسى وكاترين ـ أعلى قمم سيناء للعيان ، وخلف الأودية تبد أشجار الدير السامقة في الوادى ، ويظهر الفندق الجديد على ذات الشق الذى كانت تقام عليه خانات الطريق ومن نفس أحجار الجبل . .

أحسست انه ليست انماط الحياة وحدها هى التى تضفى على سيناء مكانتها كارض للتأمل والعبادة ، بل انها روح الخلود التى تتحرك في صفحة الفضاء وتسكن قلوب البشر .

قال مرافقى وهو يحبس أنفاسه . . « ها نحن أخيرا قد وصلنا » . .

تقف امام دير على شكل حصن ، في واد بين جبال شاهقه ، وكأنه سفينة وسط موجتين من الجبال العاليه ، وقد اقيم فوق هضبة يبلغ ارتفاعها ٥٠١٢ قدما فوق سطح البحر ، وهذه الهضبة تمتد عند سفح جبل من الصوان الاحمر ، هنا تشاهد مرة اخرى نغم الالوان وتغيرها مع ساعات النهار فاللون عند الشروق ليس مثله عند الغسق . .

نحن امام مدينة فريده ، اقيمت وسط فراغ لانهائي من اجل عبادة الله ، وصمدت في موقعها لاحداث الدهر صمود الجبال التى حولها . . انه جزيرة الحياة والخضرة والنماء ، وسط بحر شاسع من الرمال والصخور ، موقعه يكفي ليثير الشعور بالرهبة وسط تلك العزلة الهائلة ، يحيط بالدير سور كبير ارتفاعه يبلغ ١٥ مترا ، تنتشر فتحاته في كل الاتجاهات ، وعرضه يقرب من المترين ، ولاتزيد مساحته على فدان ونصف ، وبجواره حديقة الدير التي تزدهر فيها أشجار الزيتون والمشمش واللوز ، وتصدح على اغصانها الطيور بين اشجار السرو العتيقة .

دخلت الى الدير من دهليز طويل متعرج له ثلاثة ابواب حديديه ضخمه ، وتذكرت روايه انجليزيه اسمها « الافق المفقود » ، والتى كانت تحكى قصة رجل انزلقت قدمه من فوق جبال الهملايا فوجد نفسه في مدينة تاريخية قديمة ، بطراز مبانيها ولباس أهلها ، ومعتقداتهم ، ونمط حياتهم ، وكذلك هنا فانت أمام قارة باكملها بتراثها الروحى وعلاقتها بالله والوجود . انزلقت اليها وكأن عدت الى اربعة عشر قرنا من الماضى بفنونها ومخطوطاتها وعاداتها ، فداخل أسوار الدير ، بلدة صغيرة قديمة ، بأزقتها وطراز مبانيها ، مساحات صغيرة ، وممرات مغطاة ، ومبان عتيقة بيضاء في فوضى تشكيلية جميلة ، مبان من طابقين أو ثلاثة تساند بعضها على بعض ، وهكذا الاديرة مدن صغيرة تعتمد على ذاتها دون ان تنتظر عونا من الخارج .

وداخل الأسوار عدة كنائس تبلغ ثماني عشرة كنيسة ، والى جوار الكنيسة الرئيسية جامع يرجع تاريخه الى العهد الفاطمى بمنارته ذات الطراز الخاص ، يتميز بمنبره ومقعده ، وبالدير صومعة للرهبان ، ومخازن للحبوب ، ومطابخ وأفران ومعصرة لزيت الزيتون ، وجناح خاص لاستقبال الضيوف ، ومكتبة تضم آلاف المخطوطات القديمة ومتحف يضم مئات التماثيل والصور . .

أتجول في القرون الوسطى احد الاماكن المقدسة . .

فهذا بئر موسى فى الجانب الشمالى من كنيسة الدير التى التقى عنده النبى موسى بابنتي شعيب عندما كانتا تسقيان قطيعهما ، وهذا المدخل القديم فى الجانب الغربى من برج الكنيسة التى كان الزوار حتى القرن الماضى يرفعون فوق جدار الدير برافعة تدار باليد فيما يشبه المصعد ، ويوجد فوقه نافذة مراقبة لمتابعة ما يجرى حوله ..وهذه معصرة الزيت بطرازها القديم . ونظام جيد لصرف المياه خلال المطر والتى كثيرا ما تسقط عليه الأمطار كالسيول ..

الحياة هنا تشبه الحياة فوق ظهر سفينة ..وللأجراس عندما تدق وسط هذا الصمت العميق نغم خاص ..

كنوز سانت كاترين .

وخلف أسوار الدير يعكف مجموعة من الرهبان الروم الأرثوذكس على عزلتهم عن العالم وفى عزلتهم ينسون الزمن وتعاقب الأيام ..

يبدأ يوم الرهبان قبل شروق الشمس ، يبدأ بالصلاة من الفجر وحتى السابعة ، يتناولون وجبة جيدة فى الظهيرة ، ويقضون معظم أوقاتهم فى الصلاة والتأمل ، ويتوزع عليهم العمل ، فلأب هارون مسئول المكتبة ، وآخر يحمل مفاتيح كنوز الدير من القطع واللوحات والأيقونات التاريخية ، بأحد مفاتيحه الضخمة يفتح البوابة الحديدية التى بها النفائس ، ويضم الدير بضعة عشر راهبا يؤلفون كيانا رهبانيا مستقلا ..

لم أشعر بالترحيب المتوقع من رهبان الدير ، ربما لأنهم سئموا أن يكونوا محل فضول السياح والزائرين الذين يتوافدون على المكان ، وربما تحرجهم الزيارات التى لا تنقطع عن العزلة التى يفضلونها ، أو لعل تجربتهم مع المحتل الاسرائيلى جعلتهم أكثر ميلا الى التوجس !

اكتفيت بلقاء الأب جريجوريوس الذى يعرف بعض العربية ، فأغلب رهبان الدير من اليونانيين الذين لا





قاعة الكنيسة وهي من أجمل آثار العمارة البيزنطية في مصر ، تبين صور الكنيسة وقاعتها وتكشف ما تضمه من زخارف ونقوش . (الى اليمين) وإحدى البدويات في وادي غرندل ، الفن الفطري في بيئة صحراوية .

يجيدون العربية .

وعندما سألته : لماذا لا يوجد في الدير رهبان مصريون .. ؟

أجاب : ان عدد الروم الأرثوذكس في مصر لا يتجاوزون ٢٠٠٠ نسمة . تفقدنا مبنى الدير وحدنا ، وفي المكتبة التقينا بالأب هارون ، الذي قال : « هنا تحتفظ بعدد كبير من الايقونات النادرة » ، الجدران من حولنا غنية بالايقونات المعروضة ، ويأتي صوت الأب هارون قائلا : « في كل العالم ، لا يوجد سوى هذا الدير الذي يقدم فكرة متكاملة حول الايقونات البيزنطية في القرنين السادس والسابع .. » ففي هذه المنطقة أمكن الحفاظ على تراث ديني وفني ، ونجحت هذه الأيقونات من التدمير ، بعد أن قرر الامبراطور البيزنطي تدميرها في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع ، باعتبارها أصناما ، وتمكن هذا الدير الذي لا يخضع للسلطة البيزنطية من حماية جميع ايقوناته ، بل ووفد الينا مع الزائرين ما يعتزون به من الايقونات ، وأصبح الدير يضم عددا من أندر الرسوم واللوحات وتوجد ١٥٠ أيقونة معروضة يشاهدها الزوار .

كما أنقذ الدير بجوه الجاف وعزلته في الصحراء وبصمته وعبقه وجباله ، ثروة أخرى من المخطوطات ، فيه ثلاثة آلاف مخطوط من أندر المخطوطات في العالم ، وحافظ على نصوص عربية وسريانية وأثيوبية وجورجية تحكي ١٥٠٠ سنة من تاريخ الفكر الانساني .

ومكتبة الدير هي المكتبة الثانية في العالم بعد مكتبة الفاتيكان من حيث عدد وقيمة المخطوطات التي تضمها ، وأهم ما في مكتبة الدير « السجل السينائي » « نسبة الى سيناء » ، وهو أثمن مخطوط في العالم لاحتوائه على أقدم نص يوناني للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ..

رفات وجماجم رهبان الدير منذ انشائه ، أليست هذه عادات المصريين القدماء ..



التسامح .. والتساهل

وتحكى قصة فقدان صفحات من الكتاب المقدس صورة من صور التسامح الذى يصل الى حد التساهل ، جاء الى الدير أحد الألمان واسمه كونستانتين فون تزوندورف فى عام ١٨٤٤ وتبين أهمية صفحات من الكتاب المقدس ١٢٩ صفحة من جلد الرق تغطيها كتابة مخطوطة ودقيقة بحروف واضحة وكبيرة ، وادرك انه عثر على كنز ثمين ، فهذه الصحائف جزء مهم مما أصبح يعرف اليوم باسم « مخطوط سيناء » ، وهو أحد أقدم نسختين موجودتين للكتاب المقدس فى كل أرجاء العالم ، أما النسخة الثانية فتوجد فى مقر الفاتيكان بروما وتعرف باسم « مخطوط الفاتيكان » ..

وقد كتب المخطوطان باللغة اليونانية ، مما يعزز الافتراض القائل بأن ذلك تم فى مصر حوالى عام ٣٥٠م ، كما قدم رهبان الدير الى الرحالة الألمانى ٤٣ صفحة منها لدراستها ، ، وفى زيارته الثالثة للدير عام ١٨٥٩ ، عثر على ٣٤٧ صفحة أخرى ، ووافق الرهبان على اعارته تلك الصفحات لدراستها ، على أن يعيدها بعد أن يفرغ منها ..

ولكن تزوندروف خان الأمانة ، وأهدى هذا المخطوط القديم الى قيصر روسيا اسكندر الثانى ، ثم باعت الحكومة السوفيتية هذا المخطوط للمتحف البريطانى بمبلغ نصف مليون دولار ، بعد أن نشر تزوندورف نص المخطوط ، والذى كان له أبلغ الأثر على الطبعة المنقحة التي صدرت للكتاب المقدس باللغة الانجليزية فى أواخر القرن التاسع عشر .

وعندما يناقش هذا الموضوع مع رهبان الدير يسارعون ويبرزون صورة لخطاب كتبه الرحالة الالمانى باللغة اليونانية فى سبتمبر عام ١٨٥٩ يتعهد فيه باعادة صفحات المخطوط الى الدير بعد أن يفرغ من دراسته !

وما زال الدير يحتفظ بـ ١٣ صفحة من صفحات الكتاب المقدس .

ارسطو فى الدير

وقد قامت جامعة الاسكندرية بتسجيل وتصوير كافة المخطوطات والايقونات ، فى مشروع مشترك مع جامعتى ميتشجان وبرينستون ، وسجلت جميع مقتنياته على ميكروفيلم ، وحصلت مكتبة الكونجرس على نسخة من كل هذه المخطوطات .

وقد أنفقت المؤسسات العلمية الأمريكية ربع مليون دولار فى بداية الستينات لتصوير كل ما فى الدير من كتب ومخطوطات وأيقونات .

واكتشف الرهبان عام ١٩٧٥ عددا من المخطوطات يبلغ ١١٠٠ قطعة فى غرفة كان يظن انها مستودع لأشياء قديمة ، قرروا أن يحتفظوا بها لأنفسهم عندما كانوا فى ظل الاحتلال الاسرائيلى .

ومؤخرا سمح للباحثين بدراسة هذه المخطوطات ، وهى تشتمل على أجزاء من الكتاب المقدس خطت فى القرن الخامس والسادس والثامن ، ونسخة من رسائل بولس ترجع الى القرن الحادى عشر ومعها ترجمة عربية ، وقطع متناثرة من نسخة لأعمال ارسطو يرجع تاريخها الى العصور الوسطى ومخطوط لالياذة هوميروس عمرها الف عام وعليها شروح نثرية ..

وليس مستبعدا أن تحتوى على مفاجآت أخرى ، وهذه المجموعة من أهم الاكتشافات الثقافية فى عصرنا ، وبعد التحقيق والبحث ستكشف عن أسرار عالم بأكمله من الثقافة والتراث .

ومن المخطوطات العربية التى يحتفظ بها الدير ، رسائل تمنح الأمان لرهبان الدير كتبها حكام مصر المتعاقبون ، ويرجع بعضها الى القرن الأول الهجرى ، وضمن مخطوطاته مخطوط لعلى بن عيسى يتناول الكحالين الذين يصنعون الكحل ، ومن يغوص فى آلاف مخطوطاته لابد أن يقدم ما هو نادر ونافع ..

ويرمز هذا الدير وما تقوله مخطوطاته وتلك الرحلة التي قطعناها على بلد استمرت حدوده كما هى لمدة طويلة ، استمرت كما وصفها الفراعنة منذ عهد مينا الى مصر المعاصرة ، فعند خط رفح العقبة وضع الفراعنة لوحات الحدود ، ويذكر اليعقوبى رفح كآخر أعمال الشام ، ويشير « الى موضع يقال له الشجرتين ، هى أول حد مصر ، ثم العريش ، وهى أول أعمال مصر .. » .

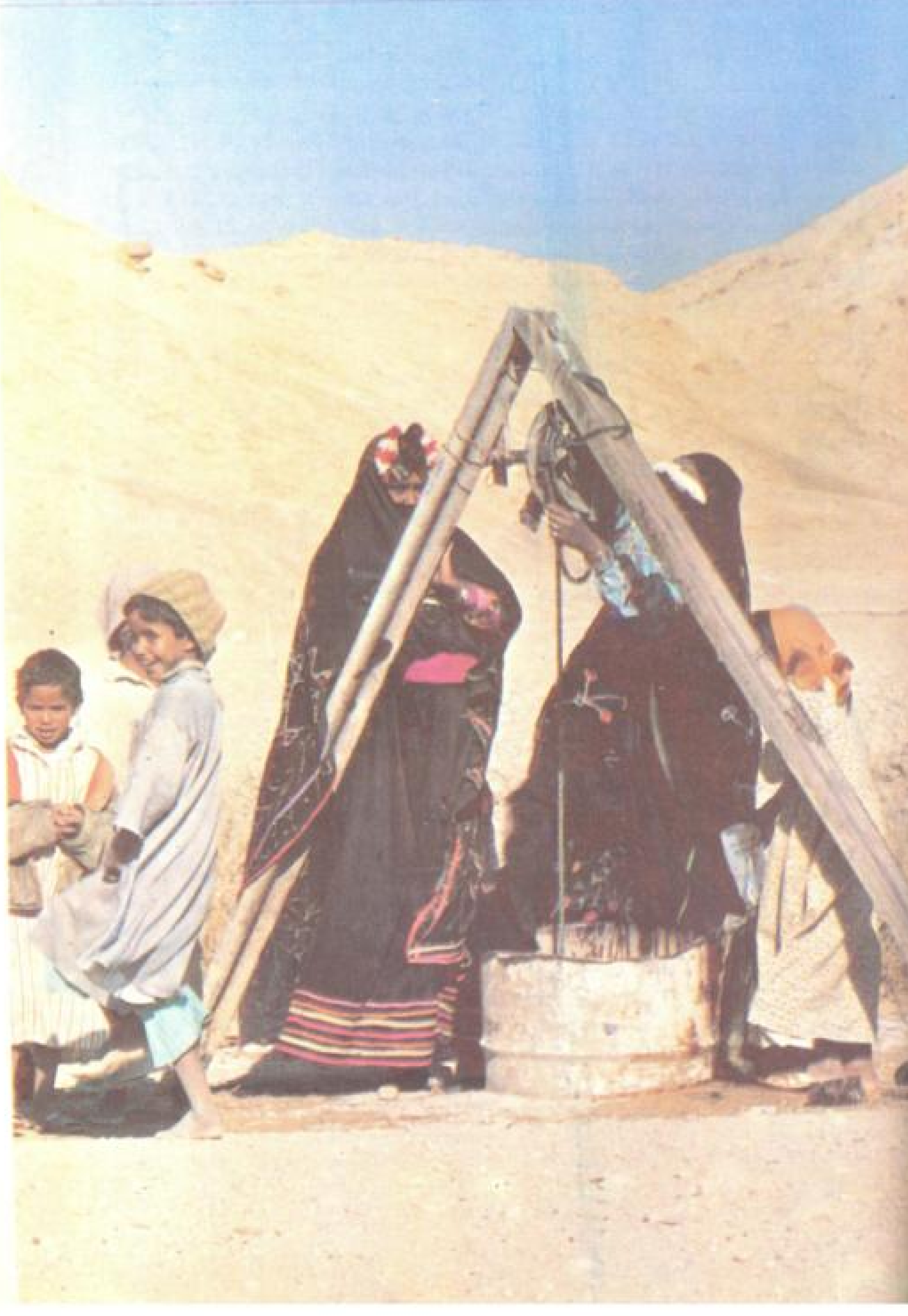
ويذكر بعده الهمذانى .. « وطول مصر من الشجرتين اللتين بين رفح والعريش الى أسوان وعرضها من برقة الى أيله (ايلات حاليا) هى مسيرة أربعين ليلة .. » .

كانت حدود مصر الاموية أو العباسية وحتى مصر العثمانية ..



سجل الفنانون على الدوام بريشتهم الدير والوادي والجبل ، وهذه لقطة للفنان عبدالغني أبو العينين وثلاث من لوحاته لدير سانت كاترين . الخيمة والعائلة وفنون الصحراء . (الى أسفل)





حول البئر عين الحياة في الصحراء .

الأديرة في مصر

وسيناء تدعو للتفكير والتأمل ..

فعندما دخلت المسيحية مصر في القرن الاول الميلادي ، وقبل ظهور الاسلام ، كانت القبطية هي النسخة المصرية من المسيحية ، وقامت مصر بدور هام في تاريخ المسيحية ، وكان تاريخ المسيحية في القرون الخمسة الأولى ليس سوى تاريخ الكنيسة القبطية ، ويقول المؤرخ المصري صبحي وحيد ، انه ما من بلد اثر في انتشار المسيحية أعمق مما فعلت مصر ، وكانت كنيسة الاسكندرية أولى وكبرى كنائس المسيحية قاطبة ..

وهذا الدير ، في هذه المنطقة الوعرة المتطوحة ، يحكي الكثير ، ويرمز للكثير ، يرمز لتلك المرحلة التي تعرضت فيها مصر للاضطهاد الروماني الوثني ، فابتكرت اضافتها الخاصة وهي الرهبنة التي يتمثل تجسيدها في الدير وليس غريبا ، أن نجد توزيع الأديرة في مصر ، أما عند أطراف الوادي ابتداء من أسوان حتى مصر القديمة ، وأما في أركان وزوايا الصحراء بعيدا .. ويضيف الدكتور جمال حمدان ..

« كان الدير هو طابع وبصمة مصر ، وأصبح الدير المصري ، هو النسخة الأم لأديرة أوروبا كلها .. بل وبقي حتى اليوم العديد من نظم ومراسم وتقاليد الكنيسة في أوروبا مقتبسا من الكنيسة المصرية ، وبقيت بعض المؤثرات للديانة الفرعونية القديمة مثل الغناء الديني والموسيقى الكنسية وحتى البخور ،

وفي العصر البيزنطي دخلت مصر القبطية في علاقة مكثفة مع الامبراطورية الرومانية الشرقية وكان لمصر أكبر الأثر في العمارة البيزنطية ، خاصة العمارة ذات الطابع الديني ، فمثلا البناء الديني الايرلندي يشبه البناء القبطي الى حد بعيد ، وقباب الكنائس البيزنطية وعقودها واقبيتها مأخوذة من مصر ، وكان السقف ذو القباب ابتكارا فرعونيا أصيلا ، وبالمثل في الايقونات والزخارف والنقوش .. »

وفي العصر البيزنطي بلغت سيناء قمة جديدة في حيويتها ، عندما اعتنق في القرن الرابع الامبراطور قسطنطين وأمه الامبراطوره هيلين المسيحية ، وظهرت الكاتدرائيات تباعا في سيناء ، وكانت سيناء قبل انتصار المسيحية قد اصبحت ملاذا للهاربين بالعقيدة من وجه الكفرة والطغاة ، منذ القرن الثاني لجأ الكثيرون من المضطهدين الى وادي فيران ، وهؤلاء قدسوا جبل « سربل » باعتباره طور سيناء ، واصبح الوادي مقرا لأبرشية صغيرة ، وفي عام ٣٢٧ م ، زارت الامبراطورة العجوز هيلين الأرض المقدسة ، ووصلت الى جبل موسى ، واعجبت بالبلدة التي قامت في وادي فيران ، وأقامت كنيسة صغيرة للعذراء ، ثم قام الامبراطور جوستنيان في عام ٥٣٠ م بتوسيع هذه الكنيسة الصغيرة ، لتصبح كنيسة منيعة وقلعة وديرا ، وبعد عدة قرون أعيدت نسبتها الى القديسة كاترين ، والتي يقول عنها أحد كتيبات الدير .. هي عذراء شهيدة من الاسكندرية ، عاشت في القرن الرابع الميلادي واعتنقت المسيحية على يد زاهد ، وعندما بلغت الثامنة عشرة ذكرت أن السيد المسيح قد ظهر لها في الحلم في صورته كطفل بين ذراعي العذراء ، ووضع في اصبعها خاتم خطبة من ذهب ، وعندما استيقظت وجدت الخاتم في أصبعها ، وأخذت تدعو لدينها ، فواجهها الامبراطور بخمسين فيلسوفا يناقشونها ، ولكنهم جميعا ما لبثوا أن تحولوا الى الدين الجديد ، فألقى الامبراطور بها الى السجن ، وأمر بتعذيبها حتى تكسرت عظامها فوق عجلة مسننة ، ثم أمر بقطع رأسها .. »

وهذا الدير على مذهب الروم الارثوذكس ، كان في الماضي تابعا لكنيسة القسطنطينية ، وأساقفته يختارون من اليونان ، الا أنه دير مصري داخل نطاق الكرازة المرقسية وأسقف الدير تابع روحيا ومعنويا لكنيسة مصر .

هذه الكنيسة بيزنطية اذن . بنيت سنة ٥٤٢ ميلادية ، وانتهت بعد سنتي ٥٦١ و ٥٦٥ ..ولم تمض فترة وجيزة ودخل الاسلام مصر عام ٦٤٠ م .. فلم تمس هذه الكنيسة بأذى ، وظلت قائمة خلال أربعة عشر قرنا ، تحتل موضع الاعزاز والتكريم .

وهو بهذه الاستمرارية رمز للسماحة ، ففي هذا المكان كانت العقيدة الراسخة ، حق كل فرد في اختيار عقيدته ، هذا في الوقت الذي يقوم فيه الدير بعيدا وسط صحراء لايعمرها غير البدو الذين صانوا الدير بوازع من دينهم . فقد أمر الاسلام الحنيف بالتسامح ورعاية رجال الدين .

البدو والرهبان

وتقوم علاقة وثيقة بين رهبان الدير وقبيلة الجبالية من حوله ، والتي أمضت حياتها جيلا وراء جيل تعمل في خدمة الدير ورهبانه ، قبيلة تعتنق الاسلام ، ولكن

حياتها الى جوار الدير وهذه الاماكن المقدسة ، رسمت نمط حياتها ، وهي تعيش في مدينة سانت كاترين وفي وادي فيران ، ورجالها أشداء يعملون كادلاء في الجبال المحيطة بالدير .

والدير مسئول عن امداد القبيلة بالخبز كل صباح ، يهبط من قمة الدير مصعد خشبي يحمل أرغفةالخبز للبدو المنتظرين ٦٠ أرغفة لكل شخص .

وقد التقيت بشيخ القبيلة الشيخ أحمد سليمان والذي قال .. هناك اتفاق بين قبيلة الجبالية والدير ينص على تقسيم المنافع بين قبائل وادي فيران ، عقد عام ١٩٠٩ ويقسم هذه المنافع بين الجبالية والصوالحة وأولاد سعيد والعلاجات ، وأما ما يتعلق بالسياح فيخص قبيلة الجبالية وحدهم .

وبعد جولتنا في مكتبة الدير ومتحفه ورحلتنا بين الأيقونات والمخطوطات واعماق الماضي ،ندخل قاعة الكنيسة ، مبناها عمره ١٤ قرنا ، ولم يسبقها من الكنائس سوى كنيسة أيا صوفيا في اسطنبول أرضية الكنيسة من الرخام ، وتبدو الكنيسة بأعمدتها وجدرانها المبطنة بالرخام البديع وعروق سقفها الخشبية المنقوشة فوق قوس الهيكل قطعة فنية تمثل نموذجا لدقة الصنعة والذوق ، وأهم ما تشتهر به نقش جميل بالفسيفساء يضم آلافا من مكعبات الزجاج والحجر الصغير الملون فوق لوح من الذهب المصقول تمثل السيد المسيح في الوسط وعلى يساره النبي موسى .

كما يوجد فوق القدس أيقونات تظهر رسم النبي موسى وهو يخلع حذاءه ورسم آخر وهو يتسلم لوحات الوصايا العشر تحت سقف يختلط فيه اللونان الذهبي والأحمر ، عندما تدخل اليه أشعة الشمس .

تقود القاعة الى غرفة مضاءة بالشموع ، وهي تقوم على أحد الاماكن المقدسة ، فوق العليقة الملتهبة التي كلم الله فيها موسى ، وأمره بأن يخلع نعليه ..

وداخل الدير جناح للضيوف ، يستضيف فنانين وباحثين ، أو الراغبين في العزلة من أجل التفكير والتأمل والعبادة ، وحجراتها بسيطة متقشفة ، وفي كل غرفةسرير او سريران ومنضدة عليها ابريق ماء ، وادخل الى الدير محطة لتوليد الكهرباء ، وتتوقف الانارة في الدير في ساعة محددة ليتفرغ الجميع للنوم أو التأمل ..

وأقام الدير استراحة جديدة خارج أسواره ، تتسع لأعداد غفيرة من السياح الذين يأتون الى الدير لقضاء ليلة أو ليلتين ، وتشمل الغرفة تسعة أسرة ، وتستخدمها المجموعات السياحية ..

وزيارة الدير للمتدينين طقوس خاصة عسيرة ، اداها بكاملها زميلي المصور ،فالزائرون يصعدون الجبل قبيل الفجر ، في طريق شقه عباس الأول مؤخرا ويصلون القمة قبل شروق الشمس ، ليروا الشروق ، ومن فوق الجبل يستطيع الزائر أن يرى البحر الأحمر جنوبا وخليج العقبة شرقا وعلى قمة الجبل توجد مقصورة شعيب وبوابة الغفران ، ومسجد و كنيسة ، وأخيرا يهبطون الى داخل الدير ، في المكان الذي تجلى فيه الرب لموسى ..

«وهل أتاك حديث موسى ، اذ رأى نارا ، فقال لأهله ، امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودي ياموسى اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري .. » سورة طه .

●●●●

وعندما انتهت زيارتنا وجدتني في الحديقة أخطو داخل مبنى صغير أبيض ، يمتلىء بأكوام من العظام والجماجم البشرية ، وأوضح لي أحد المرافقين ، ان هذه العظام هي بقايا أجيال من رهبان الدير السابقين ، ينتظرون في هذا المكان ساعة البعث والنشور .. »

وتساءلت .. أليست هذه عادة مصرية قديمة ، ما زالت آثارها في مقابر الفراعنة ! وجاء صوت احدى السائحات ، تلخص تجربتها .. قائلة جئت من بلاد بعيدة اشاهد الخلود ، والاستمرارية الرائعة ، وقدرة هذا المكان على قهر الزمن .. »

وبدأنا رحلة العودة ، ، وبدلا من أن نعبر القناة من الاسماعيلية ، عبرنا من نفق الشهيد أحمد حمدي بتصريح خاص .

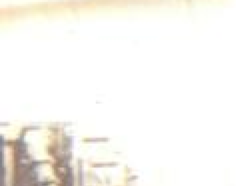
وهو عمل كبير وبداية صحيحة ، فلم يعد مقبولا ارتباط سيناء بمصر عبر القناة على جسر سكة حديد قابل للتدمير ، أو على مجموعة معديات تعترض تيار الحركة في القناة ، بل لا بد من عدد من الأنفاق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات البرية والحديدية مثلما تنقل المياه ، لتعود الاستمرارية ووحدة الوطن بين الوادي وسيناء ..

وهو طريق طويل شاق ، حان الوقت أن تقطعه مصر. ■■

مصطفى نبيل .



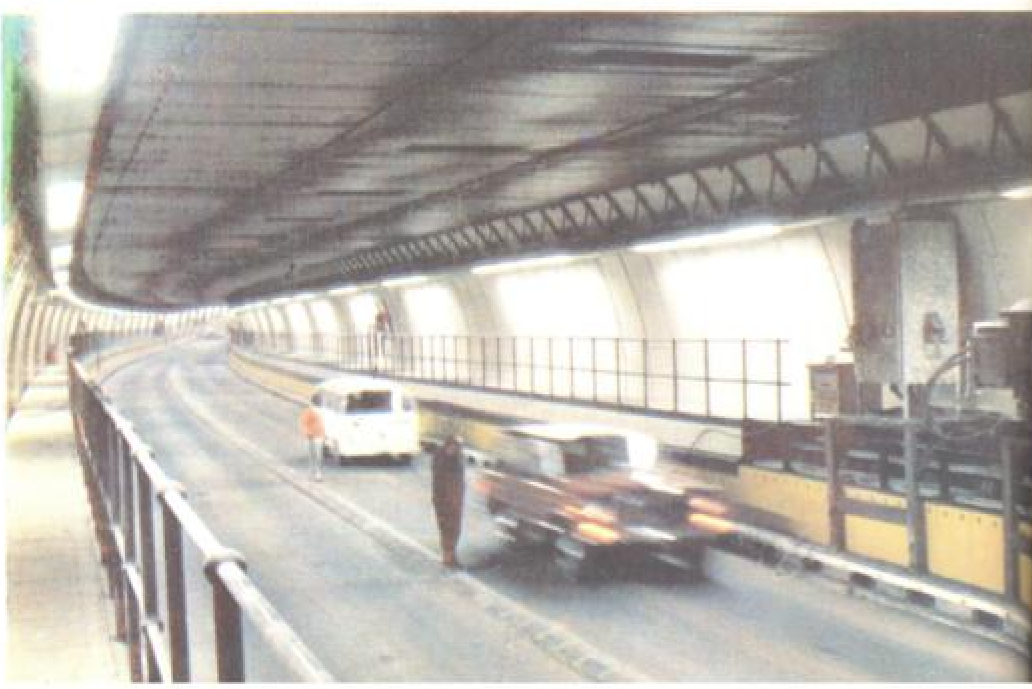






تبتعد البدوية في الصحراء عن عدسة التصوير ، ورغم المشقة كانت هذه اللقطة التي تظهر العلاقة بين السكان والمكان . (الى أعلى) .. وتبدأ الرحلة من الدير الى قمة جبل موسى قبل الفجر يبدأون مسيرتهم ويصلون الى القمة بعد خمس ساعات مشيا على الأقدام ، وفوق الجبل يغسلون خطاياهم ، والنفق الذي يربط أرض سيناء بوادي النيل . (الى اليسار)







طبيب الأسرة

يجيب على هذه الاسئلة نخبة من الاطباء

العقاقير المهدئة للاعصاب

● نصحني الطبيب مرارا بعدم تناول العقاقير المهدئة للاعصاب دون ان يشرح لي مضارها ... فارجو ان اقرأ شيئا عن العقاقير المهدئة في مجلتكم كي امتنع عن اقتناع .

بسام محمد اسعد
البصرة/العراق

ليس متشك في ان الحياة الحديثة باندفاعهاوتغيراتهـا السريعة الوقع تضع الجهاز العصبي تحت تأثير الضغط الشديد والتوتر المستمر . ولقد لجأ الانسان في السنوات الاخيرة الى استخدام العقاقير المهدئة لمقاومة هذا الضغط العصبي الهائل الذي تفرضه ظروف الحياة الحديثة ووقعها السريع والمثير لكنه اكتشف بعد وقت ان هذه العقاقير لا تحل له مشاكل جديدة .فالعقاقير المهدئة لا ترفع عن كاهله ضغط الحياة ولا تقلل من وقعها وآثارها ولكنها فقط تقلل من حساسية الجهاز العصبي لمايدور حوله ، وبزوال أثرها تعود هذه الحساسية الى طبيعتها فيجد الوقع قد ازداد سرعة ، والضغط قد اشتد عنفا ، ويكون لزاما على الانسان ان يواجه مشكلة ازداد حجمها كبرا ويجد انه ليس له مفر من ان يقتحم معركة اكبر ، او أن يلجأ مرة اخرى الى العقاقير المهدئة ، وفي هذه المرة نجده يلقي بنفسه في الدائرة المفرغة حقا فلن تكفيه الجرعة السابقة ولكنه يجب ان يزيد عليها بقدر الزيادة في حجم المشكلة ، والملاحظ انه في اغلب الاحيان اذا بدأ الانسان سلوك هذا الطريق فانه غالبا ما ينتهي الى الادمان الشديد لهذه العقاقير المهدئة دون ان يجد حلا لمشكلاته بل على العكس يكون قد وقع في ورطة الادمان ، وهي ورطة شديدة حقا قد تنتهي به الى مستشفى الامراض العقلية .

والغريب ان العالم الذي يصنع هذه الحبوب المهدئة ويصدرها لنا لنشتريها بالاموال الكثيرة انتبه لهذه المشكلة وأقام حربا على هذه العقاقير في بلاده ، فهذا الدكتور/ايفان جولدبرج مدير معهد العقاقير النفسية في نيويورك يقول انه يعتقد الآن ان الاطباء في امريكا اصبحوا يؤمنون بعلاج الضغوط الحياتية اليومية بدون عقاقير .

والمنظمة الحكومية الامريكية للتحذير من سوء استخدام العقاقير . تنشر في تقريرها عن عام ١٩٨٠ ان نسبة استخدام العقاقير المهدئة قد قل عن العام السابق بنسبة ٢٧٪ ولقد سبق هذا النقص في نسبة المستخدمين لهذه العقاقير حملات مدروسة من التوعية بخطورة هذه العقاقير واضرار استخدامها .

ولعل افضل وسائل التوعية ضد هذه الوسائل البديلة للتخلص من اسباب ضغط الحياة . والعجيب حقا ان كل النصائح التي قدمت في هذا المجال لم تخرج عن الرغبة في العودة الى الفطرة الاولى للانسان ، فأهم وسائل تهدئة الاعصاب هي ان يبقى الانسان مشغولا طيلة وقته بأمور يحبها ويعشقها ، تبعده لحين عن بيئة المشكلة ، ولقد كان معروفا طيلة الحرب العالمية الثانية عن تشرشل قائد هذه الحرب المنتصر

انه كان يختلي بنفسه على شاطيء البحر المتوسط ليرسم لوحات لهذا البحر وما حوله من مناظر جميلة بينما الحرب كلها تقع في قلبه وعلى شواطئه ... ولكن تشرشل يقول انه انتصر على هتلر بالرسم قبل الدبابات لان هدوء اعصابه الذي اكتسبه من فترات الاسترخاء في الرسم مكنه من حسن تنظيم قواته .

يبقي أن يلتزم الانسان بعد ذلك بالاعتدال في كل شيء : في الطعام فيزيل منه كل المثير للمعدة والاعصاب من حيث النوع او الكمية ، التمرين المناسب لتكوين كل جسم ، والمناسب لظروف كل سن ، فتلك وسيلة مهمة لتهدئة الاعصاب واكساب البدن لياقة تمكنه من التغلب على مشاكله ـ النوم الهاديء في البيئة الهادئة ، وسيلة لقطع الاستمرار في تحمل اعباء المشكلة ولتمنح الجسد راحة يستعد بعدها لمصارعة الحياة من جديد .

تشقق الاظافر

● لا حظت تشققا في اظافر يدي .. فهل يعني هذا ان خللا داخل جسمي قد حصل ؟

آمنة عبد الرحيم دمشق/سوريا

ـ هذا الاستفسار يشغل بال كثير من الناس ، ولان الاظافر مثل الشعر ليست انسجة حية على الاقل في الجزء الظاهر منها ، فان مظهرها يمثل مشكلة طبية . فقد تبدو عليها تغيرات على اثر صدمة عصبية عنيفة او بعد الاصابة الشديدة بالحصبة عند الاطفال وعندها يظهر احيانا خط متعرج على جذور الاظافر تحت الجلد وهذا مكان لا تراه العين الا بعد ان يخرج من تحته الجلد . ولأن هذا يستغرق حوالي خمسة شهور فان ظهوره يكون متأخرا ولا يمثل مشكلة في حينه ، غير المظهر ، ولما كان معروفا ان تزايد نمو الاظافر سينهي هذه المشكلة فان الطبيب لا يقيم وزنا كبيرا لمثل هذه الظاهرة .

وبعض امراض الجلد كالصدفية والاكزيما يمكن ان تحدث نقطا او خطوطا ، واحيانا اجزاء سوداء أوربما الوان مختلفة فوق سطح الظفر .

والالتهابات تحت الظفر او اصابة الاصبع بضربة شديدة من مطرقة مثلا او عند انحشار الاصبع خطأ ، عند قفل الابواب كباب السيارة او سقوط جسم ثقيل على الظفر ، كل هذه الاصابات تسبب لونا أزرق تحت الظفر يكون سببه تجمع دموي في هذا المكان يختفي غالبا بعد حوالي شهرين في معظم الاحيان اذا لم تكن الاصابة بالغة بحيث تبقي على شكل الظفر سليما .

ومن اصعب الالتهابات علاجا تلك التي تقع تحت الظفر . لأن الظفر كما قلت نسيج ميت لا تجرى فيه شعيرات دموية يمكن ان تحمل مضادات حيوية تعمل على قتل الجراثيم والفطريات التي تختفي تحت الظفر وكأنها في حصن ولذلك يلجأ الاطباء الى نزع مثل هذا الظفر للوصول الى مكان هذه الجراثيم وهي عملية مؤلمة .. يجب ان تتم تحت تخدير فعال ،لان هذه المنطقة التي يغطيها الظفر غنية جدا بالنهايات العصبية . من هنا كان خلع الظفر مؤلما جدا ، وكانت الفترة بعد الخلع مزعجة لان المريض يجب ان يحافظ على هذه المنطقة بنفسه بعد ان فقدت الظفر وكان حمايتها الطبيعية ، وستكون اي ضربة ولو بسيطة على مكان الظفر مؤلمة ..ولكن الظفر سرعان ما ينمو نموا نظيفا بعد ان زالت الجراثيم ويقوم بدوره في حماية المنطقة . ونسمع عن وصفات شعبية للمحافظة على سلامة الاظافر ومظهرها السليم ، ولكن الحقيقة ان احسن وصفة علمية هي المحافظة على الغذاء السليم وممارسة الحياة الصحيحة التي يكون للهواء الطلق والرياضة نصيب كبير فيها .

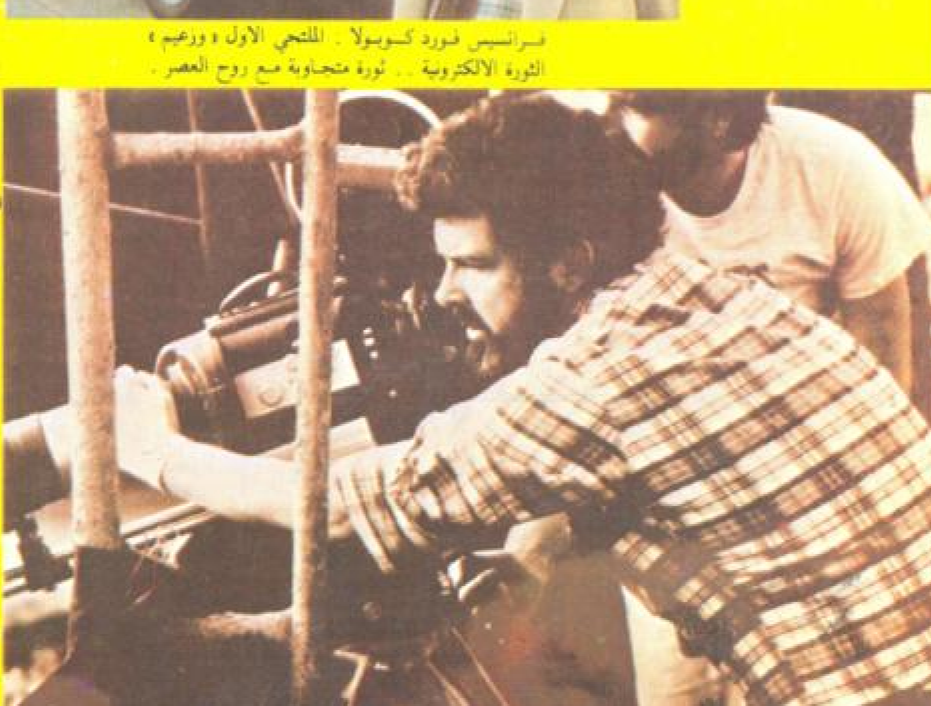
والمحافظة على الاظافر لها اهمية كبيرة فيجب تقليمها بشكل دوري منتظم ، وان عدم تعريضها لخدوش او تشققات يمكن ان تتسلل منها الجراثيم الى تحت الظفر ، ولبس القفازات اثناء العمل أمر ضروري حتى تبعد الاظافر عن المواد الكاوية وتمنع انغماسها في المياه مدة طويلة ، لان ذلك يبعد طبقات الظفر عن بعضها ويسهل تسلل الجراثيم بينها .

السينما الالكترونية ثورة الثمانينات





فرانسيس فورد كوبولا . الملتحي الاول « وزعيم » الثورة الالكترونية .. ثورة متجاوبة مع روح العصر .



ملامح من ثورة الالكترونات في غرفة المراقبة والتحكم . هنا يطابق المخرج بين ما يصور فيلما وبين السيناريو المصور من قبل .



بقلم : فاروق عبد العزيز

مطار ماكارن اعيد بناء جزء كبير منه في زويتروب وشوارع المدينة مغسولة بالمطر في هذه الفانتازيا الموسيقية .





في شوارع زويتروب - لاس فيجاس الحلم كما اراده كوبولا .

في التاسع من ابريل عام ١٩٧٩ وقف المخرج المنتج الاميركي الشاب الكبير فرانسيس فورد كوبولا ليعلن من فوق منصة الاحتفال الحادي والخمسين لاكاديمية الفنون والعلوم السينمائية (التي تمنح جائزة الاوسكار) اننا نتوقع امرا ما بين عشية وضحاها سيجعل الثورة الصناعية تبدو كما لو كانت مجرد تجربة صغيرة . انني استطيع ان ارى ثورة في الاتصالات مجالها الافلام والفنون والموسيقى والالكترونيات الرقمية والاقمار الصناعية .. وفوق هذا وذاك النبوغ الانساني .

- انها ثورة ستجعل اساتذة الفن السينمائي (الذين ورثنا عنهم هذه الصناعة) يعتقدون بامكانية تحقيق لأشياء كانت تبدو مستحيلة في الماضي . . .

في الماضي كانوا يصورون الافلام على هـذا النحو . حكاية او قصة مكتوبة يتناولها كاتب سيناريو ينقلها الى مراحل ومشاهد ولقطات . منتج يمول العملية الانتاجية ومخرج يختار الممثلين المناسبين لـلادوار . . . تدريبات وتصوير . . . وبعـد انتهاء التصوير داخـل ـ خـارج الاستديو يجلس المخرج مع المتير لاجراء المونتاج اللازم وتركيب الصوت واعداد نسخة العرض النهائية . . .

كـانوا يفعلون ذلـك منـذ عشـرات من هـذا القـرن واستمروا يفعلونه مع تحسينات متصلة اقتضتها ظروف التطوير واتساع السـوق . فمثلا بدلا من ان تكون خامة الفيلم الاساسية النايترات (القابل لـلاحتراق بسـرعة) اصبحت مادة من السليلويد الملون وبـدلا من التصوير بامكانيات اقل في الاضـاءة اتسعت امكانيات الاضاءة خارج الاستوديو الى حد استخدام ١٠٠٠ لمبة . . . والى جـانب مساحة الشاشة العادية ٣٥مم دخلت السينما سكوب والسينراما والـ ٧٠مم (واخيرا ولكن على نطاق محدود للغاية الفيلم الـ ١٤٠مم) . . .

طوال اكثر من سبعة عقود من عمر السينما ظلت القصة هي محور الابتكار . ودار التطوير والتغيير حول اساليب الانتاج ووسائله . بالطبع خضع تناول الحكاية لاتجاهات ومـداخل مختلفة ولكن ظلت في الافلام ـ كـل الافلام ـ حكاية ما . وفي اي تصوير لمستقبل السينما المتطور لايمكن ان يخلو من اعتبار الحكاية عنصرا اساسيا في البناء السينمائي . . . .

مع التلفزيون بدأ عصر الفيديو . . . ولم يشك احد منذ البداية في ان تطورا رهيبا سيطر على وسائل الاتصال ـ ومن بينهـا السينمـا ـ خـلال النصف الثـاني من هـذا القـرن . . . وعنـدمـا استخـدم المخرج الممثل جـاك نيكولسون وحدة فيديو منذ ثلاثة اعوام فصور جنبا الى جنب الكـاميرا السينمائية مشـاهد فيلمه ، بدأ النقـاد والباحثون وعلماء الاتصال يتحدثون عن ثورة وشيكة . قال نيكولسون : « انني بهذه الطريقة اضمن ان اشاهد ما صورته خلال اقل من نصف ساعة دون انتظار لنتائج تصوير اليوم rushes . كما يمكنني بهذه الطريقة من ضبط كـل شيء في المشهد بتصوير التدريبات بـالفيديو قبل التصوير النهائي للمشهد سينمائيا . . . بهذا اتحكم اكثر في نتائج عملي . . . »

وقبل عامين تحدث المخرج المعروف جان لوك جودار عن اعتزاله التصوير بالكاميرا السينمائية مؤقتا واعتكافه لتطوير تقنيات الفيـديـو وتطـويعهـا لخـدمـة الفن السينمائي . . .

بيد ان ما كان ينقص نيكولسون وجودار وغيرهما لم يكن اكثر من كلمتين : النبوغ والمال !

الكترونيات اصحاب اللحى !

من بين جيل المخرجين الجدد في هوليوود هناك اثنان : الاول هو فرانسيـس فولا كوبولا والثاني هو جورج لوكاس كلاهما ملتح . الاول لم يتعد اربعينياته الاولى ، والثاني لم يصـل بعـد الى الاربعيـن . الاول صـاحـب « الاب الروحي » بجزئيه « والمحادثة » « والرؤيا الان » ، والثاني صاحب « حرب النجوم » و « الامبراطورية ترد الهجوم » و « الباحثون عن تابوت العهد المفقود » . . كلاهما روح السبعينات بنوعية الافلام التي ينتجها على تباينها . فالاول ينظر الى السينما باعتبارها فنا جادا له رسالة كبرى في مجتمعـه ، والثاني يعشق التسليـة وجمهـور حفـلات « الماتينية » . ولكنهما روعا معا السبعينات بـالارقام التي يتعـاملان معها على النحو الذي جعل اهل هـوليوود القـدامى يمصمصون الشفاه عجبا . التقيت بـالمخرج العجوز كنج فيـدور فاعرب لي عن شعوره : « هـذان الملتحيان يحملان على كاهليهما نصف صناعة السينما الامـيـركية . لقـد كنت احلم قـديما بجزء من اي رقم يتداولانه لاصنع معجزات . » لكم تغيرت الدنيا » .

تغيرت فعلا . . . .

فالملتحيان يتداولان معا ارقاما تصل الى خمسة بلايين دولار ! كلفة الافلام جنونية في الولايات المتحدة . . ولكن عندما ينجح فيلم جماهيري تحصل فـورا وخلال ساعات من العرض في خمسمائة دار للعرض في امريكا على ٤٥٪ من تكاليفك وارباحك . . . فمثلا تكلف « حرب النجوم » حوالي ٢٢ مليون دولار وحصد خلال عامين ثلاثمائة مليون !!

قرر الملتحيان ان ينشيء كل منهما واديه الخاص ارتحلا عن هوليوود الى سان فرانسيسكو . هناك انشأ كوبولا شركته الخاصة « افلام زويتروب » مستوحيا اسم جهاز قديم لعرض الصور مهد لاختراع السينما . اما لوكاس فاشترى واديا خاصا به اسماه « وادي لوكاس » . . . وعاد كوبولا الى لوس انجلوس ـ هوليوود ليشتري « جنرال استوديو » ويحوله الى « استوديوهات زويتروب » . . ولكن مـاذا عكف الاثنان عليه داخل واديهما ؟ شراء وخطف العلماء ! التكتم والسرية وحقوق اختراع وافلام حديثة !



مصمم الصورة فيتوريو ستورارو (مدير تصوير كوبولا « في الرؤيا الآن » والحائز على الاوسكار) يراقب من على شاشة صغيرة ما يدور في مكان التصوير الفعلي . انه هنا ليس مدير تصوير . انه مصمم الصورة وينفذها مدير تصوير آخر .

فيديو الكتروني ....

كوبولا رجل حالم . وهذا مطلوب فكل تطور انساني وليد حلم قديم وحلم جديد . وقد خطر له وهو يصور فيلمه الاوبرالي العظيم « الرؤيا الآن » في ادغال الفلبين في ظروف بالغة القسوة لمدة ثمانية عشر شهرا وبميزانية تعدت ثلاثين مليون دولار ... خطر له ان يحلم بالعودة الى الفكرة التي انطلقت منها استوديوهات زويتروب في الاساس : ان تكون مظلة لكل المواهب من ممثلين ومخرجين ومنتجين . يديرونها بانفسهم ويمارسون فيها العمل الفني الخلاق بعيدا عن سلطان البيروقراطية ورجال الاعمال في هوليوود . ومضى كوبولا قليلا مع احلامه فتصور انه لابد ان تكون ثمة طريقة اكثر يسرا لصناعة الافلام من الذهاب الى الغابة كل مرة ... طريقة ميسورة ادبيا وماديا ... »

كان يريد العودة الى الاستوديو والتمتع بالتحكم في العمل من اوله الى اخره بين جدرانه . والواقع ان ما اراده كوبولا هو العودة الى نظام الاستوديو القديم الذي يختص بنجومه ومخرجيه وكتابه . وهو النظام الذي تمرد عليه هو وغيره في منتصف الستينات وانتهت معه حقبة كبرى من حقب هوليوود .

ولكن هذا عن الجو . ماذا عن التكاليف ؟

بروسبيرو والثمانينات

بعد ان خان الحظ « التجاري » فيلمه « الرؤيا الآن » قرر كوبولا ان يصب اهتمامه على تخفيض تكاليف تصنيع الافلام ، كتب حلما جديدا بعنوان « واحد من القلب » : فانتازيا موسيقية تدور احداثها في لاس فيجاس . وبدأت المشكلة حين اتخذ كوبولا قرارا بالا يصور في مدينة لاس فيجاس الحقيقية .. قرر فرانسيس التصوير في الاستوديو لسببين : اراد ان يخلق لاس فيجاس من الخيال ... مدينة بلا قذارة ولاقبح ولاسوقية .. مدينة حلم يسقط فيها الخيال دون الحلم ، وهذا هو مايدور الفيلم حوله على اية حال . اما السبب الثاني فهو ان كوبولا قرر ان يجرب معداته الالكترونية « الجديدة » ...

ولكن المشروع توقف برمته في ربيع عام ١٩٨٠ بسبب الحاجة الى المال !

وهرع كوبولا الى الصحافة ووسائل الاعلام الاخرى . اجتمع بثلاثمائة منهم في الميدان الرئيسي بمدينة لاس فيجاس التي بناها في استوديو زويتروب ... قال لهم : « لقد افلست وان حلمي بسينما الكترونية يوشك على الضياع » .

بعدها تلقى كوبولا عدة ملايين من بنوك

وشــركـات . . . واقتـطع منها حـوالي مليـون دولار لاستكمال نفقات المشروع الالكتروني . . . وبعد ستة اشهر من العمل المتصل منذ سبتمبر ١٩٨٠ توصل خبراء كوبولا الى نظام الكتروني يجعل من صنع الافلام عملا اكثر كفاءة واكثر يسرا واكثر ابتكارا . . . واعلن توماس براون المشرف على وحدة السينما الالكترونية في « زويتروب » « ان السينما الالكترونية ستمكن فرانسيس من ان يصنع فيلمه ويراه كاملا حتى قبل ان يصور لقطة واحدة منه » !!

وفي غرفة العمليات او « غرفة الحرب » التي انشأها كوبولا لهذا الغرض كان كل ما عليه هو ان يجلس مثل بروسبيرو في « عاصفة » شيكسبير ، ويراقب ما يدور عبر شاشات مراقبة الفيديو . وغرفة الحرب جهزت على عجل (كما لو كانت في ظروف حربية) لكي تنطلق منها السينما الالكترونية او ثورة الثمانينات الجديدة .

الرؤية المبكرة ؟

كان حلم صناع الافلام منذ تشارلي تشابلن حتى انجمار برجمان هو ان يتوصلوا الى صيغة يمكن بمقتضاها ان يستعيضوا عن « الخيال » بالواقع ، او بعبارة اخرى ان يروا الفيلم واقعا مطابقا لخيالهم قبل ان يصوروه . . . كل ما فعله كوبولا هذا العام هو انه جعل ذلك ممكنا جدا وادخل خبراؤه مصطلحا جديدا في قاموس السينما هو « الرؤية المبكرة » PREVISUALISATION الذي سيوفر على المخرج ان يعض بنانه عندما يشاهد فيلمه على طاولة المونتاج قائلا : اخ : لو تمكنت من فعل كذا او كذا . وسيوفر على المنتج اموالا طائلة وعلى الممثلين والفنيين مجهودات كبيرة قد تكون ضائعة . ان الرؤية المبكرة ثورة حقيقة تسعى نحو كمال العمل السينمائي وهي ـ اخلاقيا ـ فرصة ثانية تمنح للفنان كي يراجع الهامة ومصادر وحيه . انها باختصار حلم يتحقق .

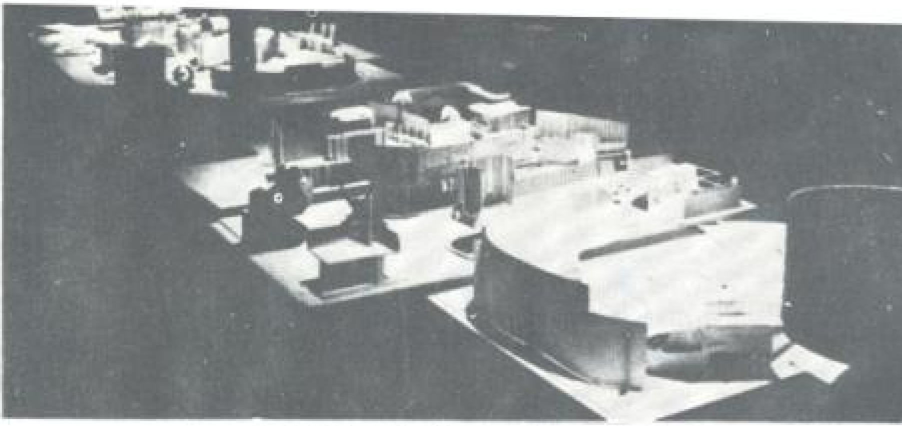
كيف تتم الرؤية المبكرة ؟

انها في الاصل نظام توليف . بمعنى ان المخرج يأخذ قصته (الحكاية هي الاصل في هذا الفن لثمانية عقود حتى الآن) ويدفع بها الى القسم الفني الذي يرسم المشاهد بالتسلسل الوارد في السيناريو (القصة السينمائية) وينقل المخرج السيناريو بهذا الشكل على شريط فيديو اسطواني VIDEO DISC بعد ذلك تضاف الموسيقى (في مرحلتها الاولى غير النهائية) وجمل الحوار المتضمنة في السيناريو وبعض المؤثرات الصوتية ، وينتج عن هذا كله شكل صوتي وبصري للـ نها قبل شهور من بدء تصوير الفيلم فعليا . وعندما يبدأ الممثلون تدريباتهم يتم تصوير ذلك ايضا بالفيديو . وبعملية مونتاج بسيطة تحل تدريبات الممثلين محل الرسوم المصورة ذلك كله قبل ان يدخل الطاقم الى الاستوديو او بعد التصور .

هذه رؤية مبكرة للفيلم . وفي هذه المرحلة يمكن للمخرج ان يستفيد بفرصة الابتكار الثانية (بعد الفرصة الاولى وهي تخيل الفيلم على الورق ـ السيناريو) يمكنه ان يعيد ترتيب بعض المشاهد في بناء الفيلم ويقطع مالا لزوم له .

جانب من غرفة المراقبة حيث يراقب المخرج تصوير فيلمه من بعيد .





غرفة الحرب . الرسوم على الجدران والماكيتات
(والنماذج المصغرة) تخدم مرحلة الرؤية المبكرة .

بعد ان يبدأ التصوير الفعلي للفيلم ينال المخرج فرصته الابتكارية الثالثة : فان كل مايصور من الفيلم ينقل بعد تحميضه الى شريط فيديو مرقم بارقام خاصة . ويمكن للمخرج على الفور ان يبدأ توليف « مونتاج » الفيلم على الفيديو . وبعد ان ينتهي من ذلك يمكنه ان يدفع الشريط الى مونتير فيلمه ليطابق ببساطة بين الشريط المرقم وبين النسخة السالبة من الفيلم (النيجاتيف) . وهذا يعني انه يمكن الحصول على نسخة مؤلفة من الفيلم في زمن وجيز للغاية بعد انتهاء التصوير . وهذا توفير اخر ملموس في الزمن وفي المال . اما ما تفخر به زويتروب حقا فهو « نظام الترقيم الكودي » CODING SYSTEM فهذا اختراع خاص بزويتروب .

يقدور السينما الالكترونية ان تمكن المخرج من متابعة كل مشهد وكل لقطة على اجهزة مراقبة فيديو من داخل « غرفة الحرب » (غرفة المراقبة) وبهذا تمكنه من التحكم والسيطرة على كافة العناصر : الاضاءة . حركات الكاميرا . ادارة المشهد . وحتى المونتاج . كل هذا يبدأ بدور التصوير الفعلي .

بهذا تعطينا السينما الالكترونية فيلما كاملا خلال كل مرحلة من مراحل تنفيذ الفيلم السينمائي . ولهذا قامت شركة زويتروب بعرض خاص لفيلم كوبولا « واحده من القلب » في مدينة سياتل في ١٥ مارس/ الماضي ورصدت رد فعل المشاهدين قبل نهاية خطة التصوير المقررة بشهر كامل !

ومع ذلك لازال المشروع الالكتروني في مراحله الاولى ... فالخطوات الهامة التالية ستكون تمكين الرسامين من الرسم بقلم حبر سائل مباشرة في النظام الالكتروني ذاته . وبعد ذلك يتم ربط ذلك بالسيناريو المكتوب عن طريق وحدة تحليل الكلمات . وفي الخطوة التالية سيؤدي ذلك الى تزويد المشروع الالكتروني بقاعدة معلومات جبارة الى الدرجة التي تمكنك من الاشارة الى قسم من السيناريو باستخدام قلم حبر سائل . فاذا كنت رجلا اقتصاديا فسيزودك النظام الالكتروني بمعلومات عن الميزانية . واذا كنت مونتيرا فسيستدعي لك الصور التي تريدها . واذا كنت مصمما فسيمكنك استدعاء تصاميمك الاصلية بابعادها المطلوبة . ان الهدف النهائي للسينما الالكترونية لم يتحدد بعد . ولكن المطلوب بعد هذه المرحلة هو الوصول الى فيديو في مستوى بالغ التحديد والكفاءة سيرحل « بالفيلم » بعيدا عن صناعة الفيلم كلية ... صناعة الفيلم التقليدية بالطبع .

كنا نتصور قبل عشرين عاما ان السينما الالكترونية مجرد حلم . وان ماكان يقوله الناقد الفرنسي لوي ماركوريل في كتابه عن السينما الجديدة عن « الافلام التي ستصنعها العقول الالكترونية بعد حشوها بالبرامج الملائمة لكي تشتريها من فوق رفوف الاسواق المركزية مجرد خيال ... حسنا ... هذا ممكن الان . ولكن مايفعله كوبولا شيء اخر .

انه يؤكد ان الموهبة الابتكارية البشرية تعلو فوق الالكترون وان كل مايفعله هو تفجير ثورة الالكترون السينمائي لخدمة ينبوع النبوغ الاساسي الذي لاينضب .

مبدئيا وفرت مرحلة السينما الالكترونية الاولى عند كوبولا في « واحدة من القلب » ملايين من الدولارات . واضافت متعة اكبر في صناعة الافلام تساوي متعة بروسبيرو وهو يشاهد ويرقب العالم امامه .

واذا كان كوبولا قد اعلن عن اكتشافه فما زلنا نتوق الى سماع انباء الملتحي الاخر ـ جورج لوكاس المعتكف في واديه . فربما كان يخبيء لسينما العالم ثورة اخرى لاتقل اهمية ـ ولا جاذبية ـ عن ثورة السينما الالكترونية

فاروق عبد العزيز

رجل فقدته الكويت

أحمد البشر الرومي

الغوص فى البحر والغوص فى التاريخ !



بكت الكويت أحمد البشر الرومي . هذه الشخصية العريضة التي عاشت رحلة الكويت من الغوص الى النفط ، ثم اختار ان يشارك في تجربة بلده من خلال الغوص في التاريخ .

بقلم : عبد الرزاق البصير

كان مولده في سنة الف وتسعمائة واثنين على وجه التقريب . أقول ذلك لان الكويت في تلك الايام كانت لاتهتم بتسجيل المواليد . وربما أرخت تاريخ مواليدها بهطول مطر غزير او بوقوع حادثة من الحوادث ولكنه كان ـ رحمه الله ـ يؤكد لنا بأن تاريخ ميلاده في تلك الأعوام . فَقَدْ فقد والدته وله من العمر ثمان سنين ويحسن بنا ان نتذكر هنا بان الجهل كان يخيم على هذه المنطقة مما يجعل للخرافات قوة تفتح طريقها بسرعة الى العقول فليس من المستغرب اذا وجدنا من يرى تدريس الهندسة والتاريخ والحساب لونا من الوان الخروج على تعاليم الدين الاسلامي الحنيف . ولكن الله أنقذ صاحبنا أحمد بن بشر بن مبارك الرومي حيث أخذه والده الى المدرسة المباركية وله من العمر اثنتا عشرة سنة وبقي فيها مدة خمس سنين على انه لم يكتسب في هذه المدة الاشيئا قليلا من العلم . فقد كان شغوفا باللعب مهملا للدرس فأخذه والده الى كتاب يديره السيد هاشم الحنيان لمدة قصيرة ثم أعاده الى المدرسة المباركية حيث اقبل على الدرس كأحسن ما يكون الاقبال وتخرج منها وله من العمر ثماني عشرة سنة .

انخرط بعد ذلك في مهنة الغوص مدة لاتقل عن عشرة أعوام كان في أثنائها يقرأ للشاعر الضرير صقر سالم الشبيب مختلف الكتب الادبية والفلسفية وكان لايفهم عنه شيئا في أول الامر لكن الشاعر « صقر » كان يحرص على توضيح بعض الامور الادبية لقارئه وكان يطلب منه ان يحفظ بعض ما يقرأ له فصادف ذلك النشاط الادبي استعدادا في في نفس ذلك الفتى . فما هي إلا أن أخذ يقتني بعض الدواوين ويصطحبها معه حين يذهب الى البحر .
وحين بلغ العقد الثالث من عمره بدأت انوار التطور تنتشر في الكويت وذلك عندما اشترك بعض المستنيرين في بعض الصحف المصرية وأصدر الاستاذ عبد العزيز الرشيد مجلة « الكويت » ، وجد صاحبنا شغفا شديدا في ما تنشره الصحف فأقبل عليها يقرؤها ويبشر بما فيها من آراء التجديد غير مكترث بانتقاد المحافظين .

وكان اكثر الناس يصفون من يقرأ الصحف بانه عصرى ، وهذه اللفظة تعني التساهل في التقاليد والعادات ، بل تعني الخروج على تعاليم الدين . واستمر صاحبنا يسلك هذا السبيل ناصرا للتطور مقاوما للجمود حتى انه كان ينشر اشعار السيد مساعد الرفاعي في هجاء المتزمتين وكان الشيخ عبد العزيز الملجي على راسهم . وكان صاحبنا ياخذ هجاء السيد مساعد لذلك الشيخ ويوصله اليه وكان الشيخ يرد على السيد مساعد بخطبه في المسجد . ومما يؤسف له حقا ان آثار تلك الخصومة قد ضاعت ولم يبق لنا منها شيء فقد كان الناس في تلك الايام لايحفلون بالتدوين .

وهكذا خاض صاحبنا هذه التجربة الفكرية فكان من دعاة الاصلاح والتطور الى جانب عمله في البحر ثم التجارة والتدريس حتى سنة الف وتسعمائة وثمان وثلاثين ، وهي سنة لها اثرها في تاريخ هذه المنطقة لان الدعاة الى التغيير وجدوا الفرصة سانحة بان تكون دعوتهم دعوة واقعية فتحقق لهم معظم ما كانوا يسعون اليه . وهو

انشاء مجلس تشريعي يرتكز على ان يكون الحكم معتمدا على النظام الديمقراطي . وينبغي هنا ألا ننسى ان هذه الخطوة الجريئة كانت قفزة عظمى بالنسبة الى تلك الفترة وهي خطوة تلقاها كثير من الناس بالاستغراب لانهم لم يكونوا يفهمون ما كان ينادي به اولئك المجددون من ان الامة مصدر السلطات . فما كان من المجلس الا ان انشأ جمعية اطلق عليها « كتلة الشباب الوطني » كان من اهدافها نشر الوعي السياسي والقومي وتفهيم الناس ان انسانية الانسان لاتتحقق الا بقوة القانون . فانضم الى هذه الكتلة كل من كان لديه استعداد للتطور وان لم يكن وعيه لتلك الدعوة الاصلاحية وعيا متكاملا .

رحلة عريضة

وتفرض علينا الامانة التاريخية ان نشير الى ان الحركة الاصلاحية والدعوة الى التغيير لم تكن مقصورة على الكويت في تلك الفترة وانما كانت عامة تشمل معظم منطقة الخليج العربي . وتفصيل ذلك يحتاج الى بحث طويل منفرد . ومهما يكن من امر فقد كان صاحبنا من اهم اعضاء تلك الكتلة ، اذ كان من المتحمسين لنشر مبادئها السياسية والقومية وقد كانت اول معرفتي به في تلك الايام وكان وعيي السياسي بسيطا كما كانت معرفتي بشروط الانتساب الى الجمعيات السياسية بسيطا ايضا . ويبدو انه - رحمه الله - ادرك ذلك بالنسبة لي فكان يجلس الى جانبي في اكثر الاحيان وكان يوضح لي ما تعنيه تلك الخطوة التي كانت الكويت تعيشها في تلك الايام . واستمرت صلتي به الى مجيء الظروف التي عصفت بتلك الجمعية السياسية وتفرق اعضاؤها سالكا كل منهم طريقه في الحياة وكنت القاه من حين الى حين وكانت اكثر احاديثه تمس الناحية الفكرية وما تعنيه حرية الفكر من معان وسلوك . وكان يلح في انتقاده الشديد للمتزمتين الذين يصورون ان تعاليم الدين الاسلامي السمحة تدعو الى التضييق والتحريم في معظمها . وكان - رحمه الله - يقرأ لي في مجلة المنار والمقتطف والهلال وغيرها من الكتب والدواوين الشعرية ، غير ان الظروف لم تكن تسمح لي ان يكون لقائي معه متقاربا كما نحب فقد كان سفر كل منا الى بعض البلاد يباعد بيني وبينه وهكذا اخذت صلتي به تقوى يوما بعد يوم حتى اصبحت صداقة حميمة تعرفت خلالها على كوكبة من المستنيرين كالاديب القصاص الاستاذ فهد الدويري والشاعر النابه الاستاذ احمد مشاري العدواني والاستاذ الفنان حمد الرجيب وغيرهم ممن اتسعت آفاق تفكيرهم وكانت تعقد جلسات رفيعة تتحدث فيها احاديث مختلفة تمس النواحي الاجتماعية والسياسية والفكرية .

ومهما يكن من امر فان هذا المستنير مع كل فرد من أصدقائه طريقة خاصة تجعله محببا الى نفسه . وأعتقد ان كل من قدر له متابعة مسيرة حياة فقيدنا العزيز تتجلى له عدة أمور لعل اهمها انه كان يفرح فرحا لا مزيد عليه إذا نجح في تجديد عقل من العقول حتى انه كان يبشر اصدقاءه كما يبشر التاجر اصدقاءه حين يربح بصفقة تجارية كبيرة .

وامر آخر أود ان اقف عنده وقفة فيها شيء من التأمل لانه أثمر ثمرا نافعا في دنيا الثقافة وأعني به الصبر والجلد على البحث فلم يكن ينشر مقالا الا اذا كان يتضمن بعدا تاريخيا يخفى على الكثيرين ، وخير شاهد على ذلك هذه المجموعة من مقالاته التي نشرها في مختلف الصحف ثم جمعت في كتاب وأنت لاتكاد تقرأ هذه المقالات حتى يستبين لك صبر كاتبها وأناته في البحث وكمثال على ذلك نأخذ كلمته التي كتبها حول « المقر » فقد أورد حول هذه البقعة ما رواه ياقوت وغيره من علماء الجغرافيا من كلام حولها وما قاله الشعراء وما وقع من احداث حول تلك البقعة ثم اخذ يوضح تقصير المتقدمين وضعف عنايتهم واهتمامهم بتعيين الاماكن وتحديدها تحديدا دقيقا كما يقتضيه البحث العلمي يقول - رحمه الله - المقر موضع مشهور ذكر في الشعر العربي وفي شعر الفرزدق وجرير على الاخص . يقول عنه ياقوت في معجمه ما نصه : المقر علم مرتجل لاسم جبل كاظمة في ديار بني دارم) الى ان يقول : (ومن المؤكد ان المقر موضع حول كاظمة سواء اكان جبلا أم اكمة ام موضعا كما جاء في معجم ياقوت . وما دمنا محرومين من نصوص واضحة تعين لنا « المقر » بالذات فليس امامنا الا ان نتعرف على المواضع القريبة من كاظمة (الجهراء) لعلنا نجد من اسماء واوصاف بعض الامكنة القريبة منها ما ينطبق على « المقر » الذي نبحث عنه فمنطقة كاظمة ليس فيها جبل اللهم الا ما يقع في ناحية الشمال منها وذلك ماندعوه اليوم بالمطلاع) .

ويمضي كاتب المقال في بحثه عن هذا الموقع بصورة دقيقة مشيرا الى ان قبر الفرزدق يقع في هذه البقعة راويا كثيرا من الاحداث التي وقعت للذين استجاروا بقبر غالب والد الفرزدق وما قاله الفرزدق في ذلك من اشعار ، كذلك يروي الاشعار التي قالها الراعي والاخطل والتي فيها ذكر للمقر ثم يختم مقاله هذا بهذه الفقرة التي تقول (ان كل بقعة من ارضنا لها قصة ولها تاريخ ولو لم يهمل التاريخ اكثر تلك الحوادث واهم تلك القصص لكانت لدينا ثروة ادبية قد نجد فيها الممتع من الاقوال والمهم من الاحداث) .

الأمثال الكويتية المقارنة

وهذه المجموعة من المقالات تجرى على هذا النسق الذى يشهد بتمكنه من البحث وحبه للتدقيق . وهناك دليل آخر يبرهن على حبه للبحث واخلاصه لهذه الأمة وهو كتابه الضخم الذى اطلق عليه (الامثال الكويتية المقارنة) يقع في ثلاثة اجزاء وقد طبع منه جزءان بلغ عدد صفحاتها الفا ومائتين وسبعا وعشرين صفحة انفق في تأليفه اكثر من خمس وعشرين سنة . وقد احتوى هذان الجزءان على الف ومائتين وخمس واربعين مثلا رتبها على حسب المواضيع حسب حروف الهجاء فجاءت على هذا النهج (الاجتهاد ، الاحسان ، الاختيار ، ادب المائدة) . (البحر ، البخل ، البيع والشراء) . (التأني ، التباهي ، التباين والاختلاف ، التبعية) (الدنيا) . (الذل والهوان) (الرزق ، الرشوة ، الرعاية) . اما الجزء الثالث فانه يضم ثمانمائة مثل على وجه التقريب وهذا النسق الذى اصطنعه - رحمه الله - في هذا الكتاب لم اجده في ما قرأت من كتب الامثال . اما طريقته التى سلكها في هذا السفر فانه يروى المثل الكويتي ثم يورد ما يقابله في الامثال العراقية والسورية والفلسطينية واللبنانية وفي الجزيرة العربية والمصرية والليبية والمغربية والجزائرية ، كما يروى ما يقابلها من الامثال باللغة العربية الفصحى وما تضمنه من شعر الشعراء ، وهذا يعنى ان المؤلف جمع الكتب التى الفت في الامثال التى تمثل بها اقطارنا العربية ومن يقرأ هذا الكتاب يتضح له مابذله المؤلف من جهد وبحث لايقوم به الا من امتلأت قلوبهم بحب البحث والدراسة . ومن المؤكد ان المؤلف لم يبذل كل هذا الجهد الا لمعرفته ان الامثال تعبر عن تجارب الامم في الحياة مما يفتح للباحثين معرفة الكثير من النواحي الاجتماعية والسياسية والادبية ، ومما يزيد في قيمة هذا السفر تلك الدراسة المستفيضة التى كتبها الاستاذ صفوت كمال والتى استعرض فيها ما تشير اليه امثال الامم من تجارب وعبر كما استعرض كتب الامثال القديمة فهي تعتبر بحق مدخلا لهذا اللون من آداب الامم .

وهناك دليل ثالث يشهد على انه لا يقدم على بحث الا بعد ان يهيء له كل ما يحتاج اليه من استعداد . هذا الكتاب هو (المصطلحات البحرية) فقد تحدث عن مصطلحات السفينة جزءا جزءا كما تحدث عن مصطلحات ادوات الغواص وكل ما يمت الى الغوص بصلة . ولما كانت مهنة البحر لاتقتصر على منطقة الخليج وانما يشترك فيها كثير من الامم وهى قديمة في التاريخ لهذا اقتنى صاحبنا معاجم باللغة التركية والفارسية والهندية والمترجمة مفرداتها الى العربية ليتأكد ما اذا كان في المصطلحات البحرية ما هو مقتبس من تلك اللغات . اضف الى ذلك انه اقتنى دواوين الشعراء الذين تطرقوا الى البحر في اشعارهم وقرأ ذلك كله كديوان طرفة بن العبد وديوان العجاج وابنه رؤبة والفرزدق وغيرهم من الشعراء الذين يوجد في دواوينهم .

ومن حسن توفيقه ان الله قيض له باحثا شغوفا بالبحث ترتاح نفسه كل الارتياح حين يحتاج الامر الى تحقيق معضلة تاريخية او لغوية او مشكلة تتصل بالبحوث الشعبية هو الاستاذ صفوت كمال ، وخير برهان على صحة ما أقول مشاركته الواضحة في مساعدة المؤلف من حيث التنسيق والمراجعة لكتب الامثال ، ومادمنا في ذكر مؤلفات فقيدنا العزيز فانه لابد وان نشير الى جمعه لاشعار صقر سالم الشبيب ، ذلك الشاعر الذى اشرنا الى ملازمته له في اول هذه الدراسة ، وكان شعره مبعثرا في دفاتر واوراق مهملة فانكب عليها يجمعها وينسقها . حتى اذا ما تم له ذلك كتب مقدمة درس فيها الشاعر بصورة مفصلة استغرقت تسعا وعشرين صفحة ، فقد تحدث عن اسرة الشاعر صقر وتاريخ ولادته كما تحدث عن اخلاقه وعن صلة الشاعر باصدقائه ودرس مستوى شعره . ولولا جهود المرحوم احمد البشر لضاع شعر هذا الشاعر في جملة ما ضاع من آثار كثير من شعراء الكويت . وانت اذا قرأت تلك المقدمة لاتجد فيها كلمة واحدة يشير فيها الى ما صادفه من مشقة ومصاعب في جمعه لشعر هذا الشاعر مما يبرهن على ان أستاذنا لم يكن يشغله سوى الاخلاص للادب والعلم والتاريخ ، وأنه يكره الحديث عن نفسه . هذا وقد خلف مكتبة عامرة بلغت ما يقرب من خمسة الاف كتاب عدا ما فيها من وثائق ومخطوطات نادرة واوراق سجل فيها احداثا تاريخية ومختارات شعرية وطرائف ادبية ولغوية ، سيجد فيها الباحثون معينا ثريا يثمر اطيب الثمار وقد رأى - رحمة الله - ان يكون نفعها عاما شاملا لذلك اوصى ان تنقل الى المكتبة العامة ، وحين اختاره الله الى جواره في ٦ يناير ١٩٨٢ حزنت عليه الكويت أشد الحزن ، وحين بلغني نبأ وفاته بكيته بكلمة قلت فيها .

بعد ثلاثين عاما من الصحبة

الحق أيها الأخ العزيز أن قلمي أصبح عاجزا عن رثائك لأني لم استطع ان الائم بين الموت وبين نفسك التى امتزج بها الفرح طوال عمرك المديد . فقد أحببتك اكثر من ثلاثين

سنة ما وجدتك مضطربا في يوم من الايام على الرغم من الخطوب التي المت بك واكثرها شديد يضطرب له اعظم الرجال ولكنك كنت تلقاها مطمئن القلب ثابت القدم ،قد اخبرتني انك تعرضت للموت يوم ان كنت تمارس مهنة الاباء والاجداد .. تلك المهنة المحفوفة بالاخطار واعني بها مهنة صيد اللؤلؤ من اعماق البحار ، فقد كنت من الغواصين المهرة الذين يحتملون الشدائد وقد كنت من الربابنة المشهود لهم بدقة الفهم وحسن الخلق ، ولقد مررت في حياتك المديدة بتجارب كثيرة لم يمر بها الا القليل من الناس ، فما من نشاط اجتماعي او ثقافي الا وكان لك فيه نصيب كبير ، فقد ربيت فئة صالحة من رجال الكويت يوم ان كنت مدرسا في الشرقية . ثم اخذت تتنقل في الوظائف الحكومية من ادنى الدرجات يوم ان كنت موظفا بسيطا في الجمارك الى اعلى الدرجات ، حين اصبحت وكيلا مساعدا في وزارة المالية . ولقد ساهمت اعظم مساهمة مع اخوانك الذين سعوا لنشر العلم في اقطار الخليج العربي وفي اليمن الشقيق . وكنت في جميع احوالك تتصف بدقة ملاحظة غريبة فقد كنت تحمل معك آلة التصوير تصور بها الوثائق والاماكن الاثرية ما وجدت الى ذلك سبيلا وشاركت في النشاط السياسي ايام مطالبة المثقفين بالحياة الديمقراطية قبل ثلاث واربعين سنة ، والذين يعرفون تاريخ الحياة السياسية في الكويت يشهدون انه لم يشترك في ذلك النشاط الا من يملك شجاعة عظيمة تجعله يقدم على الاخطار ولقد كانت تلك الأيام هي اول الطريق لمؤاخاتك فكنت اقرب الاخوان الى نفسي لأنني وجدت فيك صفاء كصفاء نسيم الصباح ونزاهة قل ان ارى مثلها الا عند القليل من الاخوان ثم اخبرتني فيما بعد انك كنت تكتب ما يصل اليك من الانباء وما تعرفه من الاحداث في تلك الايام التاريخية حتى تجمعت لديك وثائق لاتكاد توجد عند احد . ومما يشهد بدقة ملاحظاتك الغريبة ان أحد اخواننا من الاساتذة الاجلاء الذين ما يزالون يبذلون كل ما في وسعهم لاعلاء شأن الكويت ارسل اليك بطاقة تحمل دعوة زواجه قبل ثلاثين سنة وكنا في تلك الايام لانعرف مثل هذه الوسائل . لكن استاذنا كان قد تعلم في مصر وفي اوروبا فاصطنع هذه الوسيلة وقد انجب ابنا وفقه الله في حياته فتخرج مهندسا ، وشاء الله له ان يقترن باحدى الفتيات من بنات وطنه فارسل اليك والده بطاقة تحمل دعوة زواج ابنه وكنت حاضرا حفل ذلك الزواج وقد كانت المسرة تملأ قلوبنا جميعا لكنك ايها الصديق العزيز أبكيتنا في ذلك الحفل البهيج فقد اخرجت البطاقة التي تحمل زواج والده واعطيته اياها قائلا لو كنت اعرف انني سأبقى الى حين زواج الحفيد لاحتفظت بهذه البطاقة .

اما تجردك للعلم والبحث فانه معروف لكل من اتصل بك فكم من طالب يسرت له السبيل ليبلغ ما يحتاج اليه من الكتب النادرة وهيهات ان انسى تلك الأيام التي كنا نعمل فيها مع لجنة التراث العربي ، وكنت على كبر سنك اوفرنا حظا من النشاط تقرأ كتب التراث بصورة دقيقة وتبدي ما يعن لك عليها من ملاحظات لا يمنعك عن ذلك برد الشتاء القارس ولا حر الصيف اللاهب . وقد كان هذا شأنك في لجنة الفنون الشعبية التي كنت من انشط المساهمين فيها فقد بذلت كل ما في وسعك لتسجيل الاغاني القديمة ايام كانت آلات التسجيل نادرة الوجود وكنت تحرص أشد الحرص لتنظيم واتقان ما تظفر به من اغان كويتية قديمة ، وقد اخبرتني قبل مدة أن الطبيب قد أنبأك بأنك مصاب بانسداد أحد شرايين القلب ، فتلقيت هذا النبأ المخيف بثغر باسم ونفس مطمئنة . وحين اخبرتني بذلك ذعرت اشد الذعر وكنت تقول لي كيف يكون خوفك علي أعظم من خوفي على نفسي . وكان هذا شأنك حين الم بك المرض الخبيث قبل خمسة اعوام فثبت له دون خوف او جزع ومن ذا الذي يصدق انك كنت عازما على السفر الى القاهرة في هذا الأسبوع لأنك وجدت أحد المؤرخين يشير الى ما يؤكد ان للكويت نشاطا ثقافيا قبل اكثر من ثلاثة قرون ، وقد استقى مؤرخنا هذا من مخطوطة موجودة في مكتبة الوثائق بالقاهرة وكنت اشعر ان الضعف باد عليك فكنت الح عليك بان تؤخر هذه المهمة وكنت تجيبني بأنك اذا ظفرت بهذه القضية التاريخية فان ذلك سيضاعف من قوتك وستعود اوفر نشاطا لان نفسك ستمتلىء بالسرور فما من شيء احب اليك من ان تعثر على حل قضية تاريخية او كلمة لغوية .

وعندما امتدت يد القدر لتضع النهاية لرحلة عمرك ، وابلغني ولدك بالنبأ المفجع وجدتني اردد هذه الابيات .

يا راحلا أكبرتك الحادثات وما أكبرتها عند تليين وتشديد

أبكيت حتى العلا والمكرمات وما جفت عليك مآقي الخرد الخود

وبات أهلك والاصحاب كلهم عليك ما بين محزون ومعمود

يبكون فقد امرىء للخير منتسب بالبشر منتقب في الناس محمود

رحمك الله أيها الأخ الأستاذ الجليل وطيب ثراك وإنا لله وإنا اليه راجعون ■■

عبد الرزاق البصير

مقالات في كلمات

■ الزواج أمر له خطورته عند المرأة .. وأكثر منه عدم الزواج .

(بنتلي)

■ للآن لم يكتشف الرجل الطريقة التي تقبل بها المرأة نصيحته حتى زوجته .

(بلزاك)

■ في استطاعة المرأة ان تطمس معالم العبقرية عند زوجها ، او ان تساعده على اظهارها .

(لا مارتين)

■ لو جردنا المرأة من كل فضيلة .. لكفاها فخرا أنها تمثل شرف الأمومة .

(جوبير)

■ الرجال من صنع المرأة ، فإذا أردتم رجالا عظاما أفاضل .. فعلموا المرأة ما هي عظمة النفس ؟ ، وما هي الفضيلة ؟ .

(جان جاك روسو)

■ قد يؤدي السوط بالمرأة الى الرذيلة .. ولكنه لا يمكن ان يدفعها الى الفضيلة .

(اميل زولا)

■ النساء يجدن متعة في ادخال السرور على الناس .. أكثر مما يجدنها في ادخالها على أنفسهن .

(روشيدير)

السعادة والمرأة :

■ ان الرجل يتصور السعادة .. ولكن المرأة هي التي تقوده اليها .

(بيكنسفيلد)

■ يجب أن نربي المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها في نفسها لا في غيرها .

(قاسم امين)

■ جميع النساء السعيدات متشابهات ، أما المرأة التعبسة فلا يشبهها شيء .

(ليوتولستوي)

■ المرأة تحيا لتسعد بالحب .. والرجل يحب ليسعد بالحياة .

(جان جاك روسو)

خيوط من ضوء وسط الظلام

بقلم : منير نصيف

لأنه يكره الوحدة ويهرب منها ، فقد كان يجد السعادة عندما يضحك ويرى الناس يضحكون معه حتى الآمه. عندئذ كان يحس أنه لم يعد وحده !

كان عالما ومعلما قضى أكثر من خمسة وثلاثين عاما ينقل فكره وعلمه الى عقول زملائه وتلاميذه في هارفارد ، أقدم وأكبر جامعات أمريكا . كان ممتلئا حيوية ونشاطا في الظاهر على الأقل . فقد كان في داخله يشكو المرض . في صباه كان مصابا بالاكتئاب الذي دفعه في مرات كثيرة الى التفكير في الانتحار . وعندما تقدم به العمر كان قلبه قد اعتل . لقد أرهقه بالعمل . ولكن ربما كان ايضا الحب الذي امتلأ به هذا القلب للناس والدنيا أكبر من ان يحتمله !

ومع هذا مضى يصارع المرض . فلم يكن يؤمن بأن الراحة التي نصحه بها الاطباء هي العلاج لعلته .. كان صراعه مستمرا مع مرضه ، وكان ينتهي دائما بظهوره فجأة أمام طلبته في قاعة المحاضرات ليحدثهم في علم النفس الذي كان فيه استاذا . فاذا انتهى من محاضرته راحوا يلاحقونه في رحلته عائدا الى البيت . كانت صحبته متعة !

كان يقول ان الفلسفة ليست علما فحسب ، ولكنها تجربة واستكشاف وتغيير ونمو .. وكانت هذه الرحلات التي يدعو طلبته الى القيام بها هي « قلب » تعاليمه ومفتاح شخصيته . فقد قضى صاحبها كل سنى حياته يغوص في أعماق النفس البشرية .. وكان يخرج من هذه الرحلات أكثر اقتناعا بان « العكاز » الوحيد الذي يستطيع ان يتكىء عليه المرء هو نفسه ! كان يقول لأصدقائه وزملائه كلما جاءه واحد منهم يشكو اليه رتابة الحياة :

« ان الوقت يمضي ، وأنت واقف في مكانك لا تتحرك . دعك من الشكوى واذهب .. اخرج الى العالم الواسع من حولك . ابحث عن موضوع لكتاب جديد . هل فكرت في عبور المحيط الى الجانب الآخر ؟ لماذا لا تبحث لنفسك عن وظيفة جديدة . خطاك في مشيتك لا تتغير .. انها دائما هي هي لا تبطىء ولا تسرع .. لماذا لا تجرب الجري مرة ؟ » .

ثروة فكر

هكذا كان وليام جيمس المعلم العالم الفيلسوف ، الذي كان يكتب ويحاضر بنفس الاسلوب الذى يوزع



وليام جيمس



به الرجل الثري ما يملك من مال على اعمال الخير .. ولكنه كان يقف وحده وسط هذه الاسرة الثرية التي ينتمي اليها .. والده هنري الفنان الذي يتمتع بثراء فكري ومادي ، وكان فيلسوفا . وشقيقه هنري ايضا المؤلف القصصي المعروف الذي كان يكتب قصصه باسلوب الفلاسفة . وأخيرا هو « وليام » وكان على النقيض منهما .. فقد كان يقدم لنا فلسفته باسلوب قصصي مازال الالوف يقرءونها في كتبه حتى اليوم .

مع كتابه العظيم « مبادىء علم النفس » عاش الالوف من القراء في مناخ المرح الفلسفي ، وهو الاسلوب الذي اختاره لشرح فلسفته في معظم كتاباته ومحاضراته . وكان يلذ له ان يحكي قصته مع احد طلبته الذي قال له يوما : « ولكن ياسيدي ، ارجوك ان تكون جادا ولو مرة واحدة » ويقول وليام جيمس : « وابتسمت ، وذهبت اليه حيث كان يجلس وقلت : اذا فعلت ، فسوف اعود الى وحدتي . وانا اهرب من الوحدة انني اشعر بسعادة عندما أراكم تضحكون معي »

كان يضحك ويسخر من الدنيا ، حتى اذا ما خلا إلى نفسه ، عاوده الشعور بالألم والاكتئاب .

قلب متعب !

اشتدت وطأة المرض عليه يوما ، وكان قد تقدم العمر به ، وحملوه الى المستشفى لعلاج قلبه المتعب .. في البداية منع الاطباء زيارته وخاصة عندما رأوا الافواج الهائلة من طلبته وزملائه الذين كانوا يجيئون ثم لا يلبثون ان يعودوا وفي عيونهم دمعة حيرة وقلق . ولكنهم كانوا دائما يتركون اسماءهم وبطاقاتهم ومعها دعوات بالشفاء للرجل الذي كان لهم أبا وأخا واستاذا . ولكنه لم يعد يكن يشعر بهم لانه كان مريضا .

وكانت غرفته تضيق بباقات الزهور التي يحملونها له يوميا .. وتصل الزهور ويبقى اصحابها بعيدا حتى تعود اليهم الممرضة او الطبيب لينقل اليهم الرسالة : « السيد وليام جيمس يشكركم ويؤكد لكم ان غيبته عنكم لن تطول »

ولكن فترة العلاج طالت ، وجاءت من بعدها فترة النقاهة .. وشيئا فشيئا بدأت اعداد الزائرين تقل وتقل .. وعندما سمح له الاطباء باستقبالهم في غرفته .. لم يجدوا احدا .. حتى الزهور التي كانت تمتلىء بها غرفته الصغيرة قد ذبلت وحملوها مع القمامة .. لم يبق منها غير زهرة الأقحوان التي كانت تحمل بقية من حياة وتذكره بآخر زيارة لطلبته مع البطاقة التي حملت اليه حبهم وتمنياتهم له بالشفاء !

الفيلسوف يبكي

وأحس بمرارة وحملته تجربته الجديدة مع المرض الى الايام البعيدة التي كان فيها مازال صبيا والى الشعور الذي احتواه في هذه السن المبكرة من حياته عندما احس بقوة خفية تدفعه الى التخلص من الحياة التي كرهها قبل ان يعرفها ويجربها !

قال يصف مشاعره : « احسست بالوحدة وانا راقد في فراشي افكر .. هل نسيني ابنائي حقا ؟ لابد ان العالم

من حولي ، خارج هذا المجال الضيق الذي يحتويني يسير في هدوء ونظام ، وقد نسي كل من فيه كل شيء عني ! هكذا خيل له .. واحس بعينيه تدمعان .

ومضت بضعة ايام ، وجاء الطبيب يعوده في غرفته وقال له كلاما مطمئنا .. « ربما نسمح لك بالعودة الى البيت في خلال اسبوع او أقل او أكثر .. انت الآن قد شفيت تماما ، ولكنك مازلت في حاجة الى الراحة ! »

وغادر الطبيب الغرفة ، ولكنه ما لبث ان عاد .. لقد تذكر شيئا .. نسي ان يعطي مريضه الرسالة التي وصلته بالبريد في هذا الصباح . وأمسك بها وراح يفضها في لهفة كما لو كان ينتظرها منذ وقت طويل . وقرأ :

العالم أصبح أقل سعادة !

« سيدي .. منذ ايام كان موعد محاضرتك الاسبوعية . الاستاذ الجديد رجل لطيف . ولكنه ليس انت . لقد افتقدناك ياسيدي . افتقدنا ابتسامتك ، وسخريتك وحديثك الشيق . افتقدنا نزهاتنا مع فكرك وفلسفتك ونحن نسير معك في رحلة العودة الى البيت في المساء .. ليست هذه هي المرة الاولى التي نفتقدك فيها .. في مثل هذا اليوم في مثل هذه الساعة من كل اسبوع .. موعد محاضرتك لنا ، كنا نشعر ان شيئا هاما في حياتنا قد تغير . ان العالم الصغير الذي كنت تعيش فيه معنا اصبح اقل سعادة بدونك . ترى هل كنت تدرك هذه المشاعر التي نحس بها قبل ان ننقلها لك ؟ عد لنا بسرعة .. اننا نصلي من أجلك »

وبكى وليام جيمس مرة اخرى وهو يطوي الرسالة ويضعها في هدوء بجانبه .. ولكنه ما لبث أن عاد اليها مرة اخرى ، وراح يعيد قراءتها مرة ومرتين وثلاث ! ثم وجد يده تمتد لأول مرة ليضغط بأصبعه على زر الجرس . فهو لا يذكر انه طلب شيئا معينا منذ ان حملوه الى هذه الغرفة في هذا المستشفى الكبير قبل اكثر من خمسة اسابيع .

وجاءت الممرضة .. « هل من خدمة ياسيد جيمس ؟ »

- نعم ، اريد ورقا وقلما !
- ولكن ..
- ليس هناك لكن . اريد ورقا وقلما . أنا أعرف ان الطبيب يمنعني من القيام بأي مجهود . اطمئني فما أنا مقبل عليه لا يمت لاي مجهود بصلة .. انني فقط اريد ان اسجل بعض مشاعري ..

عد لنا بسرعة !

وراح يكتب : « قرأت الرسالة عدة مرات .. كنت اتوقف عند كل كلمة حوتها ، فقد كان لكل منها نكهة خاصة ، شدتني العبارة الأخيرة .. « عد لنا بسرعة » .. سوف اعود اليكم يا أبنائي . لم أعد أشعر الآن بالوحدة التي كنت أعيش فيها قبل وصول هذه الرسالة . لم أعد أحس بالألم الذي كان يعصر قلبي عندما تصورت ان العالم قد نسيني .. ولكنني كنت معذورا . كيف لي أن أعرف ما يدور في عقول وقلوب الآخرين دون ان ينقلوه لي .. في هذا العالم المعقد ، ترى الكثيرين يحجبون حقيقة مشاعرهم نحو الآخرين .. انهم يبخلون بكلمات الحب والتقدير والاعجاب ، تماما كما يفعل البعض بماله في الخزائن الحديدية المغلقة . لو عرف هؤلاء ماذا تصنع هذه الكلمات بالانسان في لحظات الضيق واليأس ، لما بخلوا بها لحظة واحدة . انها الخيوط المضيئة في ظلام الحياة الكئيبة التي يعيشها الانسان الذي ظن انه قد حرم من الحب »

لقد كان صراع وليام جيمس للخروج من آلامه دائما هناك في كل مرة وقف فيها يحدث طلبته في علم النفس عندما خرج من مستشفاه واستعاد بعض صحته ونشاط قلبه المتعب . لم يستطع عالم آخر ان يقدم لنا مثلما قدم جيمس من نصائح عملية في كيف نعيش حياة أفضل ؟ كيف نستغل طاقاتنا من أجل البناء ؟ كيف ننمي انتاجنا وروح الخلق فينا . كيف نتخلص من هذا الشعور الوهمي بالتعب ؟

« عادة » الشعور بالتعب !

وهو يذهب في فلسفته لهذا « الوهم » الى الحد الذي يقول فيه ان التعب او بمعنى أصح الشعور بالتعب هو « عادة » عند غالبية الذين لا يكفون عن ترديد « انا متعب ، متعب » .

أما لماذا هو متعب ؟ فهذا هو السؤال الذي قدم لنا جيمس اجابة مقنعة عليه عندما قال : « ان غالبيتنا يشعرون بالتعب كل يوم ، لا بسبب جهد بذلناه ، ولكن لمجرد اننا « تعودنا » على ان نشعر بالتعب في ساعة معينة او بعد قدر معين من النشاط الذهني او الجسماني ! ثم هو يحدثنا بعد ذلك عن نفسه ، وكيف كان يتخلص من الشعور بالتعب « بالخروج في نزهة » قال : « كنت اترك الكتابة عندما ابدأ أحس بالتعب والملل ، واقرأ في

الجيولوجيا وعلم الصوت والثورة الفرنسية والسانسكريتيه وأخيرا فلسفة تشارلز بيرس . فاذا انتهيت من قراءاتي او نزهتي ، عدت الى الكتابة من جديد » .

كيف نعيش حياة افضل ؟

يقول وليم جيمس : « نحن ننسج مصائرنا ، كل شيء نفعله ، كل عمل نأتيه سيئا ام طيبا يجعل من السهل علينا ان نفعله مرة اخرى .. والرجل الذي عود نفسه على العمل الطيب ، سوف يجد نفسه شامخا وسط الأعاصير التي تعصف بكل شيء حوله . ازرع العمل تحصد عادة . ازرع العادة تحصد شخصية . ازرع الشخصية تحصد مصيرا » .

ومن اتعس التجارب التي عاشها وليام جيمس ، تجربته مع « والترز » صديق شقيقه هنري وهو يذكر تلك الليلة التي اضطر فيها ، وربما لاول مرة في حياته ، الى الخروج عن الهدوء الذي عرف عنه ليصيح بصوت مرتفع : « بحق السماء ما الذي يجري في هذا البيت . انا لم استطع ان اقرأ كلمة واحدة منذ مجيء السيد والترز . ماذا حدث ؟»

وكان جيمس في مكتبه عندما فتح شقيقه هنري الباب ليستقبل صديقه الذي جاء على غير موعد ومعه مشكلته .. انه يعمل مدرسا في احدى المدارس الثانوية بمدينة بوسطن . انه يعيش مشكلة مع تلاميذه . انه لا يعرف اين يقف ؟ ولا ماذا هو فاعل معهم ؟ . وراح يتحدث . كان منفعلا . وكان صوته يعلو ويعلو وهو ماض في سرد متاعبه . بالأمس رافق تلاميذه في رحلة في قلب المروج الخضراء ولكنهم ما كادوا يبدأون رحلتهم حتى عربدت السماء وهطلت الأمطار ، وبحث عنهم ليدعوهم الى العودة .. ولكنه لم يجد أحدا .. لقد اختفوا .. ذهبوا الى حيث لا يدري .. ربما كانوا يبحثون عن ملجأ يقيهم من المطر ! ولكن المطر توقف ، ولم يظهروا وجلس داخل السيارة التي أقلتهم ينتظر .. ولكن أحدا منهم لم يعد . اين ذهبوا ؟ .. وغابت الشمس ، ولم يعودوا .. وأخيرا عاد وحده ليواجه العاصفة . اين ذهب تلاميذك ؟ وكيف تركتهم يذهبون ؟

اين كانوا ؟

وأخيرا عادوا .. في صباح اليوم التالي مع شروق الشمس .. ولم يعودوا الى المدرسة وانما عادوا الى بيوتهم ! ماذا حدث ؟ واين كانوا ؟ وكيف قضوا ليلتهم ؟ في بيت مزارع في القرية . لقد استضافهم في بيته واشعل لهم نار المدفأة وقدم لهم الغذاء والغطاء وقبلوا ضيافته وهم سعداء ، فقد كانوا يريدون ان يتخلصوا من قبضة السيد والترز بأي ثمن . الرحلة كلها منذ البداية كانت عبئا ثقيلا على نفوسهم .. انهم لا يحبون مدرسهم فهو يعاملهم بقسوة وينظر اليهم نظرته الى مخلوقات لا تعي ولا تدرك !

وعبثا حاول هنري ان يهدىء من ثورة صديقه والترز وهو ينقل له اتهام تلاميذه له .. لقد واجهه مدير المدرسة بما يقوله تلاميذه عنه ونقلوه الى وظيفة إدارية لا علاقة لها بالتدريس !

شخصية الطفل

ماذا قال وليام جيمس في التربية ؟ انه لم يلم المدرس .. ليس والترز بعينه ، وانما اي مدرس يقع في مثل ما وقع فيه ، وانما يلوم الذين أشرفوا على تربية هؤلاء التلاميذ في طفولتهم .. لو ان آباءهم أدركوا في وقت مبكر أن هؤلاء الاطفال سوف يكبرون ليصبحوا مجموعة من العادات تمشي على رجلين ، لكانوا أكثر حرصا على تربيتهم في جو يسوده النظام والطاعة .

ثم يقول : « من الغباء ان تفترض ان كل خطوة يخطوها الطفل في مسار تعليمة تثير اهتمامه لابد لنا من أن تشجع روح المغامرة والكبرياء فيه ، وسوف نجده يقتحم المصاعب بقوة وشجاعة . إن النصر الذي يحققه الطفل في مثل هذه الظروف يصبح نقطة تحول في شخصيته » .

انها لمحة سريعة من بعض أفكار الفيلسوف العالم صاحب نظرية الذرائع ، او الفلسفة التي تتخذ من النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية وصدقها .. لقد عاش وليام جيمس ٧٠ عاما مع قلبه المتعب المريض .. هل كان عالما ام اديبا ام فيلسوفا ؟ كان كل هؤلاء ، ولكنه كان يعتقد ان كل انسان يمكن ان يكون ايضا فيلسوفا مثله ، فهو الذي قال : « عندما يمتلىء الرأس بالعلم ، وعندما يفيض القلب بالحب ، يصبح المرء أحد رجلين اما عالما او فيلسوفا ، وربما الاثنين معا »

منير نصيف

ليس الا..

يا بخيل الوصال ، يا باذل الحسن
ظلمت المحب بخلا ، وبذلا
ان تجد بالوصال جودك بالحسن
بلغت المدى عطاء ، وعدلا

○○○

لاتلم حيلتي إذا ما تهاوت
بين عينيك .. فالجلال أطلا
وتدفق من الجلال جمالا
وترفق إذا الجمال تدلى
وارو من عمقك المطهر عمقي
إنني ظامىء إليه ... فهلا ؟

○○○

لا تدعني بلا منى أو وعود
شاردا حول (ربما) أو (لعلا)
لا تدعنا لصدفة .. قد تواتي
أو تجافي ، أما كفى ما تولى ؟
آن إن نملك الهوى بيدينا
نحن أحرى بما نريد ... وأولى

○○○

يا حبيبي .. فان صدقت لقائي
ونأينا عن الفضول محلا
فابدأ الملتقى بوعد وليد
قبل (أهلا) لدى اللقاء (وسهلا)



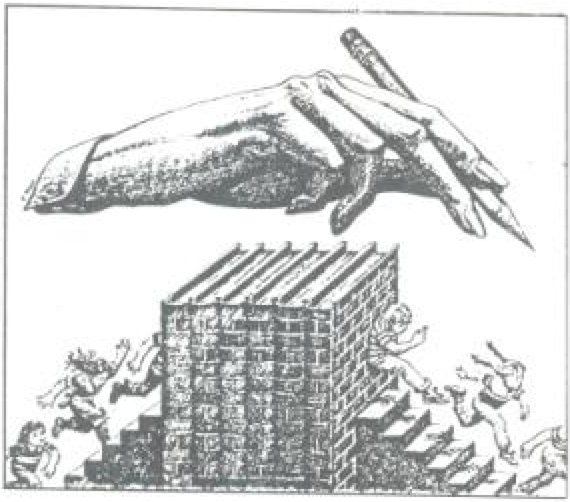
محمد مصطفى البسيوني

الفيوم - جمهورية مصر العربية

فأنا اشتهي وعودك قولا
مثلما أشتهي وعودك فعلا
ثم هيا إلى حديث عجيب
ليس إن تنته الأحاديث يبلى

ooo

لا تسلني: لم اللقاء؟ فإني
عاجز في الجواب قلبا وعقلا
ان تكن قد سألت نفسك هذا
فأعني.. إذا جوابك دلا
إننا نلتقي معا ليس إلا
حسبنا الملتقى معا.. ليس الا



رسالة

من بيروت

كتب كتب

● مأزم الشباب العلائقي واشكال التعاطي معه
د . زهير حطب و . د . عباس مكي - بيروت :
معهد الانماء العربي ، ١٩٨١، ٢٤٥صفحة

أصدر المعهد هذا الكتاب ضمن سلسلة الدراسات الانسانية ، علم النفس ، وهو دراسة ميدانية حول قضيتين اساسيتين هما ، أولا : اسلوب ممارسة الاهل للسلطة ، وما يتصف به هذا الاسلوب من حدة ، وذلك باستعراض الانماط السلطوية التي يمكن ان تحكم علاقة الوالدية بالابناء الشباب . ثانيا : ردود فعل الشباب . وتعتبر هذه الدراسة تتميما لدراسة ميدانية سابقة اجراها المعهد حول طبيعة السلطة التي يمارسها الاهل على ابنائهم الشباب ، وقد صدرت عام ١٩٧٨ في كتاب بعنوان « السلطة الابوية والشباب : دراسة ميدانية نفسانية حول طبيعة السلطة وتمثلها » .

المرأة في الاسلام وفي الحضارة الغربية : محمد جميل بيهم . بيروت : دار الطليعة ١٩٨١ . يتضمن هذا الكتاب مقالين كبيرين كتبهما محمد جميل بيهم - الاول عام ١٩٢١ والثاني عام ١٩٢٧ عن المرأة في الحضارة العربية الاسلامية وعن المرأة في الحضارة الغربية الحديثة . وهما يتضمنان عرضا مقارنا لوصفها القانوني كما نصت عليه الشرائع ، وتحليلا ونقدا لوضعها العملي في كل من المشرق والمغرب في العصور الحديثة . والنتيجة التي يخلص اليها بيهم من هذه المقارنة هي ان الاسلام قد أعطى المرأة الشيء الكثير ، ولكن التخلف الاجتماعي والحضاري حرمها حتى مما أجازه لها الاسلام .

وقد قدم للكتاب جورج طرابيشي بمقدمة مطولة درس فيها بعض جوانب الفكر النسائي العربي في اوائل هذا القرن .

● مصر في ربع قرن (١٩٥٢ - ١٩٧٧) : دراسات في التنمية والتغير الاجتماعي .
تحرير . سعد الدين ابراهيم بيروت : معهد الانماء العربي ، ١٩٨١، ٥٤٦ص .

ضمن سلسلة دراسات التاريخ الاجتماعي للوطن العربي أصدر المعهد هذا الكتاب الكبير الذي ساهم فيه كل من : سعد الدين ابراهيم بالفصل الاول تحت عنوان مدخل الى فهم مصر ، نزيه نصيف الأيوبي بالفصل الثاني : تطور النظام السياسي والاداري في مصر (١٩٥٢ - ١٩٧٧) ، وعلي الدين هلال بالفصل الثالث : تطور الايديولوجية الرسمية في مصر : الديمقراطية والاشتراكية ، والسيد ياسين بالفصل الرابع

عن التوازن الطبقي في فكر النخبة السياسية بين الادراك والممارسة ، وحسن حنفي بالفصل الخامس : الدين والتنمية في مصر ، وعمرو محيي الدين وسعد الدين ابراهيم بالفصل السادس : اشتراكية الدولة والنمو الاقتصادي ، وكريمة كريم بالفصل السابع عن اعادة توزيع الدخل القومي بين الحضر والريف في مصر ، وجودة عبد الخالق بالفصل الثامن : الانفتاح الاقتصادي والنمو الاقتصادي في مصر (١٩٧١ - ١٩٧٧) ونادر الفرجاني بالفصل التاسع : التنمية والموارد البشرية ، ونوال السعداوي وسعد الدين ابراهيم بالفصل العاشر عن التنمية والتحول الاجتماعي للمرأة والاسرة في مصر ، وسعد الدين ابراهيم بالفصل الحادي عشر عن التنمية في مصر : الحلم الذي لم يتحقق بعد . بالاضافة الى خاتمة الكتاب عن عروبة مصر .

● الرواية والايديولوجيا . سعيد علوش . بيروت : دار الكلمة للنشر ، ١٩٨١ .

يتناول الكتاب بضعة مواضيع منها : الظاهرة التاريخية ، الحديث الروائي والايديولوجيا ، الظاهرة التحليلية والتاريخية في الرواية في المغرب العربي ، الظاهرة الاوتوبيروغرافية في الرواية في المغرب العربي ، مكونات الحديث النقدي والبناء التاريخي . والكتاب يتضمن كذلك لقاءات مع الروائيين التونسيين والجزائريين وفضلا عن انتولوجيا الرواية بالمغرب العربي ، وبيوغرافيا مختصرة للروائيين في المغرب العربي .

● الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والرواية الأموية ، إحسان سركيس . بيروت : دار الطليعة ١٩٨١ .

يدرس المؤلف في كتابه الحياة الجديدة في مرحلة صدر الاسلام والدولة الاموية من خلال المزاوجة بين الادب والتاريخ ، معتبرا أن الادب كان له في هذه المرحلة الدور الكبير في التعبير عن جوانب هامة من الحياة . ومن الموضوعات التي درسها : تطور النثر في صدر الاسلام ، الشعر من خلال العصبية ، الخوارج ، شعر الغزل ، جدلية الشكل والأسلوب ، انطلاقة النثر الفني .

● في النقد الادبي : لجنة من الباحثين ، تقديم عبد اللطيف شرارة . بيروت : مؤسسة ناصر للثقافة ، ١٩٨١ .

يتألف الكتاب من عدة فصول منها : النقد والنظريات النقدية ، النقد عند العرب ، الانواع الادبية بين النثر والشعر ، مدارس النقد ومذاهبه ، وجاء في المقدمة : « ان حصاد الفكر العربي مشروع ثقافي ، يربط الحاضر بالمستقبل ويستعيد الثقافة العربية المذكورة والمنسية ويقدمها الى القاريء في سلسلة كتب ، كي يلقي ضوءا جديدا على الكاتب والمكتوب ، وكي يخلق صلة جديدة بين القاريء والكاتب ، بين الحاضر والماضي » .

● تاريخ جبل عامل : محمد جابر آل صفا . بيروت : دار النهار ١٩٨١ .

يعرض الكتاب لتاريخ جبل عامل السياسي والثقافي ، وخاصة ما يتعلق بالادارة التركية وثورات الشيعة وخروجهم وخصائص الحكم الاقطاعي وأثره . ويفصل الكتاب وضع جبل عامل في التاريخ القديم ، الى نشأة حركة الثورة العربية في بداية هذا القرن واصطدامها بالحكم العثماني ودور العامليين في هذا الاطار . وفي الفصل الاخير توثيق للحياة العلمية والادبية في جبل عامل ، وخاصة المدارس في جزين وميس والكرك وشقرا وجنويه والكوثرية وجباع وبنت جبيل .

● تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي : د . عباس ابو صالح ود . سامي مكارم . بيروت المجلس الدرزي للبحوث والانماء ، ١٩٨١ .

يؤرخ هذا الكتاب للطائفة الدرزية في لبنان وسورية بشكل اساسي ، مع لمحة موجزة جدا في ختام الكتاب عن دروز فلسطين . فيتناول في ايجاز ما يسمى باسلاف الموحدين الدروز وظروف نشأة دعوة التوحيد الدرزية . ومن ثم يعرض لوضع الدروز وادوارهم السياسية فقط في عهود الامارات التنوخية والمعنية والشهابية حتى سنة ١٩٢٧ عند نهاية الثورة السورية الكبرى التي اندلعت بمبادرة درزية وانتهت بنفس المبادرة ايضا . ومن الناحية الشكلية البحتة يطرح الكتاب ما يتصل بالشؤون السياسية والعسكرية الدرزية في المشرق ، العربي ، مع غلبة واضحة في الحديث عن دروز لبنان .

● الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية : خالد القشطيني . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١ .

يتألف الكتاب من تسعة فصول هي : العنصرية السامية ، العنصرية الآرية والكولونيالية ، الفكر العنصري في القرن التاسع عشر ، العرق ونقاء العرق والتفوق العرقي ، ابعاد المدرسة العنصرية ، نيتشه وترونشكة ، العنصرية الصهيونية في التطبيق ، اسرائيل وابناء حام ، مسألة اليهود الشرقيين .

● دولة الامارات العربية المتحدة : احمد خليل عطوي . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٨١ .

يؤرخ المؤلف نشأة دولة الامارات ويعود الى جذور تاريخ الخليج العربي في العصور القديمة (السومري ، الفينيقي ، الفارسي) ويقدم تاريخا موجزا للخليج بعد الاسلام الى عصر الاستعمار ، مع دراسة لكل امارة على حدة ، ودراسة مفصلة عن انشاء اتحاد الامارات .

● صفحات مطوية من تاريخ العراق : محمود شبيب . بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١ .

يشتمل هذا الكتاب على ستة فصول : بكر صدقي واليسار العراقي . انقلابات دون رصاصة واحدة . مهمة عراقية سرية في طهران . عبد الله بعود . المفتي والدونشي والقوهرر . رحلة سياسية حالمة الى بغداد .

● البعد التكنولوجي للوحدة العربية : د . انطوان زحلان . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨١ .

يعالج الكتاب في ثلاثة فصول موضوع السوق العربية للتكنولوجيا ، والبعد الجغرافي السياسي ، والنقل والتكنولوجيا والقوى البشرية والمؤسسات والسياسات ، ليبين مدى ارتباط انهاء التبعية التكنولوجية العربية ، ومدى تحقيق التعاون العربي والوحدة العربية بانهاء التبعية على المستوى القطري ، والاستقلال التكنولوجي من خلال التعاون العربي على مختلف المستويات .

● الابعاد السياسية لقضية الجنوب اللبناني : بيروت . المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ، ١٩٨١

يضم الكتاب مجموعة من المحاضرات حول الموضوعات التالية : البعد القومي لقضية الجنوب لمنح الصلح ، البعد الوطني لقضية الجنوب ، لفواز طرابلسي ، البعد الفلسطيني لقضية الجنوب لماجد ابو شرار ، الابعاد الدولية لقضية الجنوب لمحمد علي مقلد ، موقف القانون الدولي لعبد العزيز قباني ، المواجهة هي الخيار الوحيد لفيصل حوراني .

● التصور القومي في فكر جمال عبد الناصر . مارلين نصر . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨١ .

يقع الكتاب في اطار عودة التيار القومي العربي الى التأكيد على الروابط الحضارية والسياسية التي تجمع العرب وتشدهم بعضهم الى بعض . والكتاب بالتالي محاولة علمية لبناء تشخيص شامل لتصور عبد الناصر القومي العربي انطلاقا من خطبه التاريخية وتحليل دلالة المفردات فيها . ويعالج الفصل الثاني بداية تكون الوعي العربي لدى عبد الناصر قبل عام ١٩٥٢ مركزا على العناصر السياسية والاجتماعية والثقافية التي ساهمت في تكون ذلك الوعي . وبعد احصاء وتصنيف المفردات القومية في الخطاب الناصري تستخلص المؤلفة المفاهيم القومية الاساسية مثل : الامة العربية والقومية العربية والوحدة العربية .

● السودان : المأزق التاريخي وافاق المستقبل . محمد ابو القاسم حاج حمد . بيروت : دار الكلمة ، ١٩٨١ .

يجمع هذا الكتاب بين البحث التاريخي والتحليل السياسي الفكري لوضع السودان العربي الافريقي وتركيبه وموقعه ، كما يطرح مشكلة المثقف السوداني امام التركيبة المزدوجة الطابع والمضمون للمجتمع السوداني ، في اشكال من الهيئات الاجتماعية المتباينة في مسار نشأتها وتطورها على نحو غير متكافىء وتشتت في علاقات الانتاج المتداخلة بأساليب غير متقاربة . وتهدف فصول الكتاب الى الكشف عن هوية السودان الحضارية والاجتماعية والثقافية وتركيبته وتاريخه ، والى التعرف على السودان من الداخل .

● في المسألة القومية الديموقراطية . ياسين الحافظ . بيروت . دار الطليعة ، ١٩٨١ .

يشكل هذا الكتاب الجزء الثالث من الاعمال الكاملة لياسين الحافظ ، وتنقسم موضوعاته الى ثلاث مجموعات : الأولى حول تجربة الوحدة المصرية - السورية ، تطور وعي عبد الناصر والثانية : الطائفية وأزمة لبنان الدائمة . الحرب الطائفية اللبنانية حرب طائفية ام تقدمية وعلمانية . أطروحات حول مسألة الاقليات في لبنان . العلمانية شرط لتجاوز الطائفية . ملاحظات حول المسألة الطائفية في مصر . والثالثة عن الماركسية والايديولوجية الدينية العربية . واللغة العربية والتقدم العربي .

● نافذة على المستقبل د . سليم الحص . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٨١ .

يعرض المؤلف تجربته في الحكم ومعايشته للاحداث السياسية وطريقة التعامل معها خلال سنوات اربع هي مدة توليه رئاسة الحكومة اللبنانية (١٩٧٦ - ١٩٨٠) .

والكتاب مجموعة من المحاضرات والمداخلات حول قضايا اقتصادية ومالية وسياسية القاها المؤلف في مؤتمرات





عربية وندوات لبنانية .

● الاسلام في معركة الحضارة . منير شفيق . بيروت : دار الكلمة للنشر ، ١٩٨١ ، ٢٠٦ ص .

يقدم الكتاب ردودا على جوانب في فكر الحضارة الاوروبية المعاصرة وامتداداتها خارج حدودها . وتنبع جدته من ان مؤلفه من الكتاب القلائل الذين رفضوا تلك الحضارة بعد ان وقفوا على ارضها ردحا طويلا من عمرهم ونهلوا من المدرسة الماركسية قدرا ليس بالقليل . واتجهوا الآن للوقوف على ارض الاسلام . والسؤال الذي يطرح نفسه في الكتاب هو الى اي حد استطاع المؤلف النجاة من تأثيرات الفكر المتغرب وهو يرد عليه والى اي حد يستطيع الوقوف على ارض الاسلام دون ان يحمل معه ، كما يقول هو نفسه ، كثيرا او قليلا من جراثيم ذلك الفكر ،. وهذا مما لا يحكم عليه الا بعد القراءة المدققة .

● النقد الفني : دراسة جمالية وفلسفية . جيروم ستولنيتز ترجمة د . فؤاد زكريا . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١ ، ٧٧٠ ص .

دراسة هامة يؤكد المؤلف فيها على ضرورة اتخاذ العمل الفني محورا لكل ما يقال في ميدان النقد ، واساسا لكل تذوق . كما يعالج المؤلف بما فيه الكفاية موضوع ارتباط الفن بسائر جوانب النشاط الانساني . كما يبدو في بعض المواضع ميالا الى النظرة الشاملة المتكاملة للفن . ومن عناوين ابواب الكتاب : التجربة الجمالية ، طبيعة الفن ، المادة والشكل ، تركيب الفن ، النقد الفني .

● السائح والترجمان : توفيق يوسف عواد . بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨١ .

الكتاب اقرب الى الحوار الذهني منه الى المسرحية العملية ، فهو يقوم على الحوار الداخلي الملحمي ، حوار « البشر المتخلفين في صراعهم المتشبث بعضهم مع بعض ، وذلك في جو مشحون بالعنف يصطدم فيه الواقع بالخيال ، ويتداخل الوعي واللاوعي ، ويمتزج بالتالي النثر والشعر مما يطبع الكتاب كما يقول عمر ابو ريشه ، بطابع يضعه في مرتبة لم يبلغها اي كتاب في العربية منذ اوائل القرن العشرين حتى اليوم .

● معارك خالد بن الوليد . العميد الركن د . ياسين سويد . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢ .

دراسة تاريخية عسكرية شاملة لمعارك خالد بن الوليد في الجزيرة العربية والعراق والشام في مطلع الفتوح الاسلامية . تبرز خصائص الفن العسكري الذي تميز به القائد العربي ، وتقدم تحليلا لمعاركه من الوجهتين الاستراتيجية والتكتيكية ، وتعتمد المنهج العلمي الحديث في التحقق من الحوادث وتحليلها واستخلاص نتائجها .

● ديوان شعر الخوارج . جمع وتحقيق الدكتور احسان عباس . بيروت : دار الشروق ٣٢٣٠ ص .

طبعة رابعة لديوان شعر الخوارج يقدم فيها المحقق ثلاثمائة واحدى وثلاثين قصيدة ومقطوعة وهو رقم يزيد بكثير عن عدد القصائد والمقاطع الشعرية الواردة في طبعات الديوان السابقة ، مع شرح وافر لها .





● الاعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي . تحقيق وشرح وتحليل د . جلال شوقي . بيروت : دار الشروق ١٩٨١ .

الكتاب يحقق اثار الشيخ بهاء الدين العاملي في الرياضيات وبخاصة كتابه « خلاصة الحساب » الذي لخص فيه الحساب والجبر واعمال المساحة في عصره . كما يعرض بالدراسة للمسائل الحسابية والجبرية المتنوعة التي ساقها العاملي في كتاب آخر له يعرف بكتاب « الكشكول » .

● اسهام علماء المسلمين في الرياضيات . تأليف د . علي عبد الله الدفاع تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي . بيروت : دار الشروق ١٩٨١ .

يقدم هذا الكتاب اسهام علماء المسلمين في العلوم الرياضية خلال العصر الذهبي للمعارف الاسلامية الذي امتد من حوالي القرن السابع الميلادي حتى القرن الثالث عشر للميلاد وقد قام علماء المسلمين في الرياضيات خلال هذه الحقبة بتعميم مفهوم الاعداد عما كان معروفا عند اليونان ، وطوروا علم الجبر وارسوا دعائمه ونظمه وحفظوا اعماله بعلم الهندسة ، وطوروا حساب المثلثات وقاموا بحساب واعداد جداول دقيقة لدوائر حساب المثلثات واكتشاف الكثير من المتطابقات في هذا الفرع من العلم الرياضي .

● صور المستقبل العربي د . ابراهيم سعد الدين و . د . علي نصار و . د . اسماعيل صبري عبد الله و . د . محمود عبد الفضيل . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية وجامعة الامم المتحدة ، مشروع المستقبلات العربية البديلة ، ١٩٨٢ .

يتكون الكتاب من ثلاثة فصول ومقدمة وقد طرحت المقدمة اهمية الدراسات المستقبلية ومفهومها . بينما تضمن الفصل الاول عرضا لصور المستقبل العربي كما يمكن استخلاصها من خلال النماذج العالمية الرئيسية مع بيان طبيعة الافتراضات التي بنيت عليها الرؤية الدولية للمستقبل العربي وتحليل لمدى امكان الاعتماد على هذه الدراسات . اما الفصل الثاني فقد تضمن قراءة نقدية لاهم الوثائق الاستراتيجية المختلفة التي وضعتها المنظمات العربية المتخصصة في محاولة للتعرف الى محاولة الى ما تحتويه هذه الوثائق من عناصر للرؤية الاستراتيجية الشاملة للمستقبل العربي . وتضمن الفصل الثالث تحليلا للاسباب الملحة التي تدعو لاجراء دراسات مستقبلية من نوع جديد وطرح لطبيعة المنهج الذي يجب ان يتبع في هذه الدراسات ، وابراز لاهمية انجازها بواسطة الباحثين العرب انفسهم . ■■

جهاد فاضل

كيف يتعلم الطفل الصدق ؟



هذه هي أخطر أنواع الكذب عند الأطفال

بقلم : الدكتور ملاك جرجس

لعل أخطر أنواع الكذب عند الاطفال هو الكذب بغرض الاستحواذ ، والكذب للانتقام والكراهية ، وكذب الخوف من العقاب ، والكذب لمقاومة السلطة ، والكذب تقليدا للاباء والكذب المزمن .

الكذب بغرض الاستحواذ

كثيرا مانجد الطفل أو الحدث الذي يعامل بقسوة من والديه ، ومن ثم يفقد الثقة فيهم ، وأيضا الطفل الذي يتصف والداه بالمبالغة في رقابته ، نجده دائما في سبيل تحقيق رغباته ، يلجأ الى الكذب للاستحواذ على الاشياء كالنقود ، أو الحلوى أو اللعب ، فاذا سألته هل معه نقود ؟ . . أجاب بالنفي في حين أن معه مايكفيه ويزيد ، واذا سألته هل في دولابه او خزانته حلوى ، اجاب لا وطلب شراء حلوى جديده . . . أو قد يدعي ضياع لعبة له ليشتري له والده لعبة أخرى . . كل ذلك بهدف الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الاشياء ، وذلك لفقدانه الثقة في ذويه .

ان الطفل عندما يفقد الثقة في البيئة ، يشعر بالحاجة الى امتلاك أكبر قدر ممكن من الاشياء ، وهو يكذب في سبيل تحقيق ذلك . . . كأن يدعي أنه مطلوب منه عشرة قروش للمدرسة وهذا غير صحيح ، وانه يريدها لمجرد

الاستحواذ عليها او لشراء حلوى قد يكون هو في غير حاجة اليها ، انما ليضيفها الى ما لديه من حلوى مكدسة . . . الى غير ذلك من الامثلة الشائعة لكذب الاطفال بغرض الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الاشياء .

الكذب للانتقام والكراهية

وقد يكذب الطفل لاسقاط اللوم على شخص ما يكرهه او يغار منه ، وهو من أكثر أنواع الكذب خطرا على الصحة النفسية ، وعلى كيان المجتمع ومثله ومبادئه . ذلك لان الكذب الناتج عن كراهية وحقد فهو كذب مع سبق الاصرار ، ويحتاج من الطفل الى تفكير وتدبير مسبق بقصد الحاق الضرر والأذى بمن يكره . ويكون هذا السلوك عادة مصحوبا بالتوتر النفسي والالم . ويكون الكذب في مثل هذه الحالات تنفيسا عن الكراهية المكبوتة في نفس الطفل ضد من يكرهه ، وقد يكون هذا النوع من الكذب أحد أعراض حالة نفسية مرضية .

وقد يحدث هذا النوع من الكذب بين الاخوة في الاسرة الواحدة ، وذلك بسبب التفرقة في المعاملة بين الاخوة . فالطفل الذي يشعر بأن له أخا محظيا عند والديه ، وانه هو منبوذ أقل منه قبولا في المنزل ، قد يلجأ الى الكذب فيتهمه باتهامات يترتب عليها عقابه أو سوء سمعته . هذا كما يحدث نفس الشيء بين التلاميذ في المدارس نتيجة الغيرة لاسباب مختلفة منها كون الطفل أو التلميذ له أو ليس له مركز ممتاز بين أقرانه ، او لتقدمه على غيره في الدراسة الى غير ذلك من الاسباب .

ويحدث الكذب الانتقامي بشكل واضح في مجتمعنا بين الفتيات . فتكذب أحداهن متهمة أختا لها تغار منها بأنها على علاقة بفتى الجيران ، او قد تلجأ فتاة الى اتهام فتى كذبا بمحاولة التقرب منها ، وذلك لما في الثقافة الشرقية من حساسية نحو علاقة الفتى بالفتاة ، وقد يكون السبب الدافع للانتقام هو العكس تماما . . . أي لعدم قيام الفتى بالاهتمام بها واظهار اعجابه بها ، أو لانه يظهر اعجابه لزميلة تغار هي منها .

لذلك فانه يجب على الاباء والمدرسين ورجال التربية عامة أن يقابلوا مثل هذه الاتهامات بالحذر الشديد ، كما يقابلوا اتهامات الابناء والزملاء المختلفة المتبادلة بالحذر الشديد ، لان اغلبها له دوافع نفسية انتقامية ، بل ان هذا النوع من الكذب خليق بأن يثير في الاباء والمعلمين اشفاقا على الصغير ، ويدفعهم الى العناية به لتخليصه بأسلوب مرن متفهم - من هذا النوع من الكذب . لانه لو اعتاد عليه لكان سببا في تحطيمه واعتلال صحته النفسية . ذلك لان أسلوب الانتقام بالكذب والكراهية لكل من ينافسه ، أسلوب غير صحي . ولايساعده على التقدم في الحياة .

كذب الخوف من العقاب

كثيرا ما يتصف الاطفال في الاسر التي يسود فيها نوع من النظام الصارم والعقوبة الشديدة بالكذب خوفا من العقاب ، كما يسود هذا النوع من الكذب في الاسر حيث يختلف الاباء والامهات في طريقة معالجتهم لمشكلات الابناء ، فيشتد الاب الى درجة مفرطة وتلين الام لدرجة كبيرة .

في مثل هذه الظروف نجد أن الطفل يتفنن في الكذب وينتقل من كذبة الى أخرى مستخدما ذكاءه ، ولايضيره لكي يفلت من العقاب ان يلصق تهمة ببريء سواء كان أخا له أو زميلا ، وكل هدفه الدفاع عن نفسه .

والكذب الدفاعي هو أكثر أنواع الكذب شيوعا وقد يلجأ اليه الاطفال جميعا من وقت لآخر خوفا من أن تقع عليهم عقوبة ما سواء في المدرسة أو في المنزل ولكن قد يندفع على هذا النوع من الكذب الطفل القلق نفسيا لدرجة مرضية كما يزداد كذبه كلما كانت معاملته على أخطائه قاسية لذلك فان الأباء الذين يلجأون الى ضرب أطفالهم وعقابهم بهدف أن يقولوا الصدق ، انما يدفعونهم دفعا الى الكذب . . . بل والى الادمان عليه . وهو أسوأ أنواع الكذب واضرها لارتباطه بالخوف ، ولانه يصاحبه عادة شيء من الغش والخداع ، وهما أيضا نوعان من السلوك يستلزمان التخطيط مسبقا والتدبير ، بعكس أنواع الكذب الاخرى التي أساسها الالتباس وأحلام اليقظة أو ضعف الذاكرة حيث لايدرك الطفل أنه يكذب ، بل ويتضايق لو وصفناه بالكذب .

هذا وقد لقي كذب الاطفال عناية كبيرة في الدراسات النفسية ، وقد أجمعت أغلب هذه الدراسات على أن حوالي ٧٠٪ من أنواع سلوك الاطفال الذي يتصف بالكذب ترجع الى الخوف من العقاب وعدم استحسان البالغين وقبولهم لسلوكهم ، وحوالي ١٠ ٪ منها ترجع الى ميل الاطفال الى احلام اليقظة والخيال وعدم الدقة في نقل التفاصيل والالتباس وحوالي ٢٠٪ منها ترجع الى غرض الغش والخداع والكراهية .

كذب الأبناء تقليد لكذب الآباء

كثيرا ما يخدع الأباء الاطفال فيكذبون عليهم في كثير من الامور ، ومن ثم يتقمص الاطفال الاباء ويلجئون الى نفس السلوك في حياتهم وامثلة ذلك

ـ خروج الاباء ليلا بعد وضع الاطفال في الاسرة وبعد أن يناموا ، ظانين أن أطفالهم لن يكتشفوا خروج آبائهم .. ثم يحدث أن يكتشف الاطفال ذلك ، ومن ثم ينامون في كل ليله وهم في حالة قلق نفسي وخوف وتوجس من أن والديهم قد يخرجان من المنزل بعد أن يناموا .

ـ أخذ الطفل الى نزهه أو سينما ثم يكتشف أنهم أخذوه لطبيب الاسنان .

ـ أن يعد الاباء الطفل بشراء حلوى أو ملابس جديده أو لعبة اذا نجح في المدرسة أو في مناسبة العيد القادم ... أو في أي مناسبة يحددانها له ، ثم لايفون بالوعد رغم نجاح الطفل أو حلول المناسبة ، وينتحلون الاعذار الواهية المتكررة .

ـ ارتكاب الطفل خطأ ما ثم وعد الاباء له بأنهم لن يفضحوه أو يشهروا به أمام أقاربه أو أصدقائه ، ثم يلجأون الى التشنيع به أمامهم كلما سنحت مناسبة مما يشعر الطفل بالذله وبأنهم لم يصدقوه القول والوعد .

مثل هذا السلوك من الاباء لايغرس في الطفل اتجاها قويا نحو قول الصدق والوفاء بالوعد ، مما يؤثر على فرص نجاحه في الحياة في المستقبل .

الكذب المزمن

هو حالة مرضية .. قد نجد فيها الطفل أو الحدث نفسه مدفوعا الى الكذب لاشعوريا فيكذب في أغلب المواقف ويعرف عنه أنه كاذب دائما ... ويكون الطفل عادة غير ناجح في حياته المدرسية ويعاني شعورا شديدا بالنقص ، وشعورا بعدم القبول سواء من الاسرة أو من أقرانه لاتصافه بالكذب .. ومن شدة الشعور بالنقص مع العجز في النجاح قد يلجأ الى السرقة ـ في أغلب الأحيان ـ ليحقق رغبته الشديده في النجاح أو في تحقيق أهدافه كطفل .

ومن الحالات التي صادفتني في العيادة النفسية الحالة الآتية :

طفل عمره ١١ سنة متعثر في دراسته رغم كونه فوق المتوسط من حيث الذكاء ، له أختان أكبر منه وأخت أصغر منه ، وهو بذلك الولد الوحيد ... كان يسرق كل ما تصل اليه يداه من نقود في المنزل ، ولايسرق أبدا من غير المنزل ... ويصرف النقود على الذهاب للسينما في أوقات المدرسة ـ تعطيه المدرسة بيانا بدرجات امتحاناته الشهرية في الاسبوع الاول من كل شهر ... حصل على الشهادة في شهر نوفمبر .. مزقها لانه راسب في عدة مواد ... ثم أخذ يكذب بأن المدرسة لم تعطه الشهادة ... وفي الشهر الذي تلاه قال ان المدرسة غيرت نظام الشهادات الشهرية .. وجعلته نصف سنوي .

أخذ يهرب من المدرسة ، واكتشف والده ذلك كما اكتشف سرقته نقودا من المنزل ، وفي جلسة هادئة معه اعترف بذلك ووعد بعدم تكراره ، ولكنه استمر في نفس السلوك .

ولكونه وحيدا كان والداه لايسمحان له بالاشتراك في رحلات مع المدرسة .. خوفا عليه فذهب الولد الى طبيب يشرف على علاج العائلة من وقت لآخر ، وقال له « والدي يرجوك أن تكتب لي رسالة لناظر المدرسة كي يسمح لي بالاشتراك في رحلة المدرسة .. فاتصل الدكتور بوالد الطفل تليفونيا واكتشف كذبه وحيلته ... ولكنه رجا الوالد ان يسمح لابنه بالاشتراك في الرحلة .

وكان هذا الابن يذهب أيضا لطبيب الاسنان بمفرده لانشغال والده في عمله ، ومرض والدته في ذلك الوقت ولرفضه أن تذهب معه احدى أخواته البنات ... فكان يقول أن موعده مع الطبيب الساعة الرابعة بعد الظهر في حين أن الموعد كان الساعة السادسة ، ولذلك كان يقضي خارج المنزل وقتا من الساعة الثالثة حتى الساعة السابعة مساء في اليوم الذي يذهب فيه الى طبيب الاسنان ، متجولا في الشوارع ... وهكذا كانت حياته سلسلة من الاكاذيب .

ان هذا الغلام مدفوع دفعا قويا بعوامل لاشعورية للكذب ... لقد نشأ مدللا لانه وحيد ولأن عائلته ظروفها الاجتماعية والاقتصادية حسنة للغاية .

ولكن بعد أن تعود على اجابة كل رغباته في الصغر حتى بلغ السابعة وهو في منتهى التدليل ، أصيبت العائلة بكارثة اقتصادية جعلت الأب يعمل ليل نهار ليتمكن من أن يعول العائلة ، واصبح المستوى الاقتصادي أقل بكثير عن ذي قبل ... هذا كما أصيبت الام بمرض مزمن أقعدها عن الحركة كثيرا ... وقد كان الولد نتيجة لتدليله أقل نجاحا من أخواته البنات في دراسته ... وكانت الاخت الكبرى ـ نتيجة مرض الأم ـ تدبر شئون المنزل ، وعاملته في غاية من القسوة ... مما زعزع مركزه كولد وحيد مدلل لمدة طويله ... وكان له مركز ممتاز ، وكنتيجة لسوء سلوكه وكذبه ، اتجهت عاطفة الابوين نحو البنات أكثر من الابن ، فاصبح الابن يشعر بالاضطهاد .. ويفقده عطف الابوين ، أحدهما لانشغاله طول اليوم وحتى ساعة متأخرة من الليل ، والآخر الام لمرضها واعتمادها على ابنتها الكبرى .

كيف نعالج كذب الاطفال ؟

كي نعالج كذب الاطفال .. يجب دراسة كل حالة على حده وتقصي الباعث الحقيقي الدافع الى الكذب ، وهل

هو كذب بقصد حماية النفس خوفا من عقاب ؟ . أو بقصد حماية صديق والتستر عليه ، أو بقصد الظهور بمظهر لائق وتغطية شعور بالنقص ، أو أنه كذب التباسي مرجعه خيال الطفل واحلام يقظته ، أو عدم قدرته على التذكر ، الى غير ذلك من الدوافع والاسباب ... انه من المهم أيضا أن نتعرف على حقيقة الامر وعما اذا كان الكذب عارضا أم أنه عادة عند الطفل ، وهل هو بقصد الانتقام والتشفي أو أنه بدافع لاشعوري مرضي .

ومن المهم أيضا أن نعير سن الطفل الاهمية اللازمة فلو كان الطفل دون سن الرابعة من العمر فلا نتزعج لما ينسجه خياله من قصص أو وقائع غير صحيحة ولكن يجب علينا أن نساعده على أن يدرك الفرق بين الواقع وبين الخيال مستخدمين في ذلك الدعابة والمرح ، دون أن نتهمه بالكذب أو نؤنبه على ما يؤلفه من قصص خيالية .

اما اذا كان عمر الطفل بعد سن الرابعة أو الخامسة فيجب ان نحدثه عن أهمية الصدق وفوائده ولكن بروح كلها محبة وعطف واعزاز وقبول ، دون أن يكون حديثنا له مغزى النصيحة والتأنيب . كما يجب أن نكون على درجة كبيرة من التسامح والمرونة اذا لجأ الطفل الى اسلوب الطفولة والخيال من وقت لاخر دون أن نتهمه بالكذب ، ويكفي أن نذكره دائما بأنه قد أصبح كبيرا ويفرق بوضوح بين الواقع والخيال وبين الصدق والكذب ، دون لوم أو عقاب ، هذا كما يجب أن يكون الاباء خير مثل يحتذي به الطفل فيقولوا الصدق ويعملوا معه ومع غيره بمقتضاه حتى يصبحوا قدوة صالحة للابناء الصغار .

بعض النصائح العامة

١ ـ يجب أن نتبين هل الكذب عارض ... أم أنه متكرر مزمن ، والدافع أو الدوافع له .

٢ ـ يجب أن ندرك أن الكذب قد يكون عرضا ، وقد يكون مصحوبا بأعراض أخرى كالسرقة أو شدة الحساسية أو العصبية الزائدة ونوبات الغضب ، لذلك فإن علاج الحالة يجب أن يبحث عن الدوافع والحاجات النفسية التي تسببت في ظهور هذا العرض أو هذه الاعراض .

٣ ـ لاجدوى من علاج الكذب بالعقاب والتهديد والتشهير والسخرية ... ان العقاب والتهديد لن يردعا الطفل عن الكذب بل سيتسببان في اعراض أخرى كما أن التشهير والسخرية لها أثر ضار للغاية على شخصية الطفل .

٤ ـ ان العلاج يجب أن يبدأ بالبيئة التي يعيش فيها الطفل أو الحدث ، من حيث أسلوب المعاملة والحياة الاجتماعية للطفل ... يجب أن نساعد الطفل على الحصول على استجابات طيبة مع الأصدقاء والراشدين ... وبمعنى آخر يجب أن نشبع في الطفل حاجاته النفسية الضرورية ، وهي الشعور بأنه محبوب والشعور بالثقة في النفس ، ذلك لان توفير جو المحبة والشعور بالامن للاطفال يساعد الطفل على الصدق .

٥ ـ يجب أن يدرك كل من في البيئة خصوصا الاباء أن الطفل يتقمص سلوك من حوله ، ومن ثم يجب ان يكونوا قدوة للاطفال ، فالآباء والامهات الذين يتباهون بالاكاذيب يدفعون أبناءهم الى تقليدهم في سلوكهم .

٦ ـ يجب أن نتيح للطفل فرصا للمغامرة المعقولة والاستمتاع بحياة مشوقة ، فالحماية الزائدة للطفل ومنعه من الاختلاط واللعب والتفاعل الاجتماعي تضر بشخصيته وتدفعه الى الكذب وتجعله يتطلع الى المشاركة الوجدانية في السلوك الاجتماعي لاقرانه وتشعره بالكبت والضيق والملل .

٧ ـ يجب أن يشعر الطفل بأنه يعيش في بيئة مرنة متسامحة ، وان نعوده على الحب والتسامح ، وأن نبعده عن تنمية الاتجاهات السلوكية التي تدفعه الى الكراهية والانتقام ، ولايتأتي ذلك أبدا عن طريق النصائح والمواعظ ، فهذه لن تجدي شيئا لطفل تعلم الكذب وتعلم حب الانتقام والكراهية ، انما يكون العلاج عن طريق القدوة الحسنة وعلاج دوافع سلوكه السلبي واسبابه في البيئة .

٨ ـ يجب أن نتجنب الظروف التي تشجع الطفل على الكذب ، وتضطره للدفاع عن نفسه ، ويجب اذا اعترف الطفل بكذبه الا نعاقبه لأن عدم عقابه يشجعه على قول الصدق ويشعر بالامن والطمأنينه نحونا .

٩ ـ يجب أن نكون أوفياء اذا قطعنا عهدا مع الطفل لانه يصاب بصدمه قوية اذا خالفنا الوعد ومن ثم يتحلل من الالتزام بالصدق في أقواله .

١٠ ـ يجب أن نقلل على قدر الامكان من النصح والوعظ كأسلوب علاجي ، ذلك لان العلاج يجب أن يعتمد على دراسة الأسباب والكشف عنها وعلاجها .

وخلاصة القول يجب علينا اشباع حاجات الطفل النفسية ، وأن ندرك متى يمكنه أن يفرق بين الواقع والخيال فنبصره بأهمية الامانة والصدق فيما يقوله ويفعله ، ونشجعه على ذلك ... مع عدم المبالغة والقلق على تنشئة الطفل على الصدق ... فان الطفل اذا نشأ في بيئة شعارها الصدق قولا وعملا فانه ينشأ صادقا وأمينا ، ولايعاني الشعور بالنقص ومن ثم يلجأ الى التعويض او المراوغة او الانتقام أو العناد عن طريق الكذب . ■■

د . ملاك جرجس

هل أنت حالم "رومانسي"

نحن نعيش في عالم تتحكم فيه المادة بشكل صارخ . والواقعية في الفن والادب هي النزعة السائدة هذه الايام بينما تنزوي الى ركن تلك النزعات الرومانسية ، ومن ناحية اخرى فنحن ـ كبشر ـ في حاجة دائمة الى جرعات من الحكم أو الرومانسية حتى نستطيع ان تكون اكثر حساسية تجاه بعضنا البعض ، وان تتذوق الجمال بشكل خاص وبذلك تتلمس الجانب الرقيق من حياتنا ومن الوجود بشكل عام .

وفي هذا الاختبار محاولة للتحقق من مدى رومانسيتك او . . احساسك الحالم ؟

الأسئلة :

١ ـ حينما تتجول لشراء بعض الاغراض ، هل يتملكك الاعجاب بالاغراض قبل النظر الى ثمنها ؟

٢ ـ هل اعجابك بالاشياء شيء مختلف عن اعتبارات الموضة او الاناقة ؟

٣ ـ هل تستمتع بعملية البحث والتنقيب داخل محلات بيع التحف والكتب القديمة ؟ !

٤ ـ هل تحتفظ بالخطابات القديمة والبطاقات المرسلة اليك دون ان يخالجك شعور بالاسف على ذلك في أي وقت ؟ !

٥ ـ هل تشعر بأن جو أي منزل يتأثر الى حد بعيد بتاريخه السابق ، وبمن سكنوه قبلا ؟

٦ ـ هل تخلب لبك ، الجبال والجزر والاماكن المهجرة ؟

٧ ـ هل تحب ارتداء الملابس الغريبة او (التنكرية) للحفلات والجلسات الجماعية ـ مثلا ـ ؟

٨ ـ هل تحلم (بيقظة) احياناً انك انسان آخر او انك تعيش في مكان آخر او في عصر آخر ؟

٩ ـ هل الموسيقى أو الخطابة ، او القراءة والتلاوة بالقاء جيد وصوت رخيم تشدك بشكل ملحوظ ؟

١٠ ـ « ثمة اشياء كامنة في الارض والسماء ، اكثر من تلك التي حلمت بها في فلسفتك » . هذه العبارة من مسرحية هاملت لشكسبير. هل توافق على مضمونها ؟ !

١١ ـ هل انت وفي للآخرين ؟ وهل يؤذيك بشدة عدم وفاء الاخرين لك ؟

١٢ ـ هل اعجابك او تقديرك للاخرين له اساس تحدده انت سلفا ؟

١٣ ـ حينما تحب شخصا اخر ، هل تدافع عنه حتى لو كان ذلك ضد رغباتك ؟ !

١٤ ـ هل يضايقك رؤية الناس تعساء . وهل تسعى لمحاولة اسعادهم ؟ !

١٥ ـ في نفس الحين ـ هل تلوم الاخرين لعدم حساسيتهم او اهتمامهم بمشاعر وآلام غيرهم ؟

١٦ ـ هل تنقاد بسرعة إلى شخص ما لمجرد أنه يتفق معك في ميولك وأهوائك ! ؟

١٧ ـ هل تتحمس لمجرد اسباب عادية وغير شائعة ؟

١٨ ـ هل تفضل تكوين قلة من الاصدقاء وطيدي الثقة بك في حين ترفض تكوين عدد اكبر من المعارف ذوي العلاقة السطحية بك ؟

١٩ ـ هل . . . . . تحزنك متغيرات الحياة اليومية وهل تفتقد الناس لمدة طويلة من الزمن ؟

٢٠ ـ حينما تحب ؟ وحينما تسير بينكما العلاقة الى امد معقول ؟ هل ترتبط بها (او به) للابد ؟

النتيجة :

* احسب خمس (٥) درجات عن كل اجابة (بنعم) .

* الدرجات المثالية من (٦٠) ، (٧٠) . اذا كانت درجاتك فوق ذلك فأنت رومانسي جدا .

* الدرجات من (٥٠) ـ الى (٦٠) مقبول .

* اما اذا كانت درجاتك اقل من (٥٠) فأنت واقعي جدا وبالفعل ينقصك جانب مهم جدا من الحياة وهذا من الممكن ان يحولك الى شخص عديم الحساسية تجاه الآخرين ويجعلك بمثابة عامل احباط وهدم لمعنوياتهم ومشاعرهم .

---

* طبيب الامراض النفسية بجامعة جالواي بأيرلندا

البدانة ومرض السكري في النساء

الدكتور احمد كسبة
Dr. Ahmad Kissebah
طبيب مسلم وأحد كبار العلماء الباحثين في كلية الطب في جامعة وسكونسن في الولايات المتحدة .. والذي يهمنا هنا هو الأبحاث التي أجراها مؤخرا حول السمنة ، بل سمنة النساء بالذات ، وعلاقتها بمرض السكري .. والتي أوصلته الى نتائج جديرة بالاهتمام ، نوجزها فيما يلي :

١ ـ البدانة في النساء بدانتان ، علوية تظهر فوق الخاصرة وتشمل البطن والصدر ...الخ . وسفلية تظهر تحت الخاصرة ، وتشمل الوركين وأعلى الساقين .. (انظر الرسم)

٢ ـ وتتشابه البدانتان ظاهرا .. إلا أنهما في واقع الحال مختلفتان .. فاحداهما تعرض المرأة للاصابة بمرض السكري .. وهي البدانة العلوية ... أما بدانة الساقين والوركين ، فلا تعرضها لهذا المرض اللعين ، من قريب ولا من بعيد .. وتختلف بدانة البطن والصدر ايضا في أن في الامكان التخلص منها سواء عن طريق التحكم بالاكل او ممارسة الرياضة .. او غير ذلك من أساليب التخسيس .. أما البدانة السفلية فالحد منها صعب للغاية ان لم تقل شبه مستحيل .

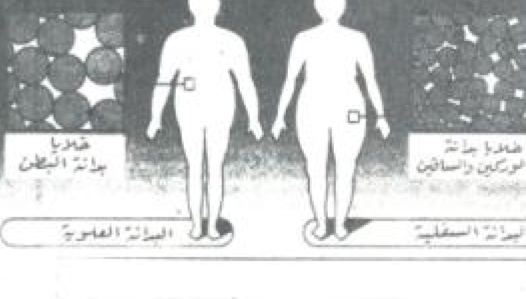
وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى أن نسبة السكري في الدم ترتفع مع زيادة الوزن ، كما هو معروف .. ويقدر الأطباء ان احتمالات ظهور مرض السكري أو استفحاله تتضاعف ضعفين مع كل زيادة في الوزن تبلغ ٢٠ رطلا او نحو ذلك ..

٣ ـ وتختلف البدانتان ايضا في أن خلايا الشحم في بدانة البطن والصدر أكبر حجما منها في بدانة الوركين والساقين ...

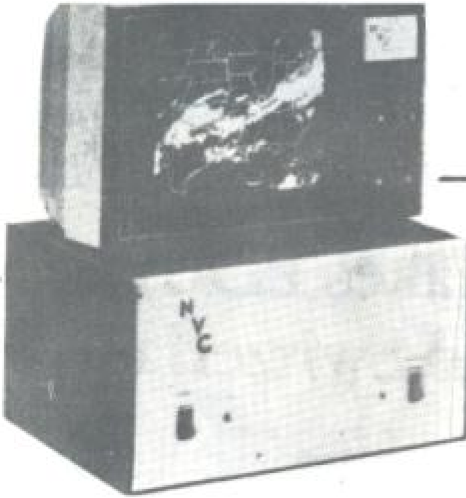
أما التجربة التي أجراها الدكتور أحمد فقد استغرقت ست سنوات وشملت ٥٢ امرأة ... ٢٥ منهن من ذوات البدانة العلوية ، و١٨ من ذوات البدانة السفلية والبقية (٩ نساء) من ذوات الوزن المعتدل .. وقد راعى العالم المسلم وحدة الطول ووحدة السن في اختيار نساء تجربته جميعا ... ووحدة الوزن في البدينات منهن ، وحرص على ألا يكن من اللواتي اكتشفن إصابتهن بالسكري مسبقا ..

واثبت التحليل في النهاية ان كل المصابات بالبدانة العلوية كن مصابات بمرض السكري ايضا .. خلافا للفئتين الاخريين ، فئة المصابات بالبدانة السفلية وفئة الوزن المعتدل .. فقد ثبت عدم اصابة افرادها بالسكري ، كثيرا ولا قليلا .

وتبين للدكتور كسبة ، الى جانب ذلك ، أن ٤٠٪ من النساء الامريكيات يعانين من البدانة ، وان البدانة في ربعهن بدانة علوية .. وهو يؤكد على ضرورة اجراء الفحص



اعداد : يوسف زعبلاوى



والتحليل للمصابات بالبدانة العلوية . بين حين وآخر . ويحضهن على العمل على تخفيض الوزن حتى ولو لم تثبت اصابتهن بمرض السكري .

تحلية ماء البحر بالتبريد

● كثرت الابتكارات المتصلة بتحلية ماء البحر ، في المدة الاخيرة .. ولعل اهم هذه المبتكرات الاسلوب الجديد الذي يتخذ من الغاز الطبيعي المسيل (LNG) اساسا له .

ذلك ان عملية تسييل الغاز او تحويله الى سائل ـ وذلك بقصد تقليص حجمه وتسهيل خزنه ونقله ـ تتطلب برودة فائقة (١٦١,٥) درجة مئوية تحت الصفر .. ومن شأن هذه البرودة ان تحول ماء البحر الى بلورات جليد (ice crystals) لدى ملامسته الغاز المسيل ..

ثم تأتي الخطوة الثانية .. خطوة عزل ملح البحر وفصله عن البلورات الجليدية .. ثم ترك هذه البلورات وشأنها لتذوب وتصبح ماء عذبا ..

وحسبنا ان الجهة التي ابتكرت هذا الاسلوب ومضت في تطويره ليست سوى وزارة التجارة والصناعة اليابانية (MITI) وبالتحديد ، مركز تحلية ماء البحر في تلك الوزارة .

جهاز جديد « يسرق »

الارصاد الجوية

ما أكثر الاقمار الصناعية التي ترصد الطقس والتقلبات الجوية .. وما أكثر الصور التي تبثها هذه الأقمار لكل من اراد التقاطها .. ولكن المشكل ليس في الصور المتاحة للجميع بالمجان ، وانما بالمحطات التي تستطيع التقاط هذه الصور . ذلك ان هذه المحطات كانت حتى الآن بالغة الثمن . وقد بلغت تكاليف الواحدة منها حوالي (٢٠٠,٠٠٠) دولار ..

من هنا كانت أهمية الجهاز اللاقط الجديد الذي ابتكره علماء أمريكيون (في جامعة منزوتا في مينابوليس) والذي لا يكلف سوى ٧٠٠٠ دولار ..

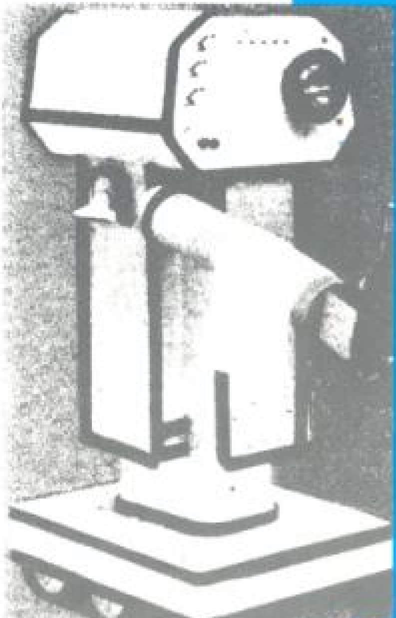
وقوام هذا الجهاز الصغير الحجم شاشة فيديو صغيرة (انظر الصورة) وهوائي (اثنين) من طراز الصحن بقطر (٦) اقدام ومتصل بكمبيوتر ..

أما رخص الثمن فيعزى الى أن الجهاز الجديد بلا آلات طابعة .. وانه « يسرق » صور الطقس سرقة .. فهو لا يلتقط هذه الصور لدى انطلاقها من الاقمار الصناعية الى الارض .. وانما لدى اعادة بثها من المحطات الارضية الى أقمار صناعية اخرى ، تقوم بتوزيعها على مختلف المراكز في شتى أرجاء الارض .

ولا تخفى الحاجة الماسة الى مثل هذا الجهاز .. ولعل مضخات انتاج البترول العاملة في عرض البحر او في أعماق الصحراء ، وشركات الشحن ، والمطارات ايضا هي في طليعة العملاء الذين سيقبلون على شراء جهاز الارصاد الجوية الجديد .

الرجل الالي
سيحل مشكلة خدم
المنازل

● **واخيرا نجحوا في صنع الرجل الآلي Robot الذي طالما انتظرت ظهوره ربات البيوت .. او ان شئت ، الالة التي تقوم بشتى الاعمال المنزلية .. وكأنها ربة بيت ، او خادمة هندية او غير هندية ...**



فهذا الذي ترى في الصورة والذى لايشبه الرجل ولا المرأة من قريب ولا من بعيد .. لايزيد طوله على ١٣٥ سنتمترا ويستطيع القيام بمختلف الأعمال المنزلية ، من كنس وغسل صحون الخ .. ويستطيع كذلك القيام بواجبات الضيافة واداء الخدمات المطلوبة اثناء تناول الطعام .. اضف الى ذلك ان الآلة مزودة بساعة زمنية الكترونية ، وبراديو ـ مسجل ... ولها ذراع واحدة ويد واحدة تستطيع بها التقاط الاشياء ، حتى الصغيرة منها ... فضلا عن نقلها من مكان الى اخر .. والاطرف من ذلك ان الآلـه ناطقة وتستطيع التكلم بوضوح تبعا للشبكة الالكترونية التي زودت بها ..

وتجدر الاشارة الى ان هذه الشبكة متصلة بهوائي لاسلكي .. او جهاز ارسال اذاعي صغير ، واشرطه كاسيت . وقوامها جهاز كمبيوتر صغير دقيق يتلقى تعلياته من هذه الاشرطة او ذاك الجهاز .. جهاز الارسال .. فهو اذن يقوم مقام المخ في بني الانسان ...

وبالرغم من ذلك كله فالآلة ليست كاملة ، باعتراف مخترعها .. فهي عاجزة حتى الآن عن تحاشي الاصطدام باثاث البيت الذي تعمل فيه .. نقول حتى الآن نظرا لان المخترع ماض في تطوير محسّات (Range Sensors) خاصة بالرجل الالي وتكفل له تحاشي الاصطدام ، باثاث او جدار الخ ..

ويبلغ ثمن الرجل الالي بطرازه العادي ـ/١٥٠٠٠ دولار . اما طرازه المحسن (المجهز بتلفزيون ملون وجهاز ستريو) فيبلغ ثمنه ١٧٥٠٠ دولار . ولاندرى كم سيبلغ ثمنه حين يجهز بالمحسات السالفة الذكر في مستقبل قريب .

المعتمد بن عباد صريع الدهر

بقلم : الدكتور رجاء عيد

تلك الجنة العربية التي دخلها العرب على أسنة مشرعة ، وسيوف لامعة في السنة الثانية والتسعين للهجرة هذه هي الأندلس تسمق مآذنها بالاسلام وهؤلاء العرب لم يفسدهم الترف ولم تبطرهم النعمة ، واذا هم منطلقون ليفتحوا جنوبي فرنسا .

ها هي ذي دولة الأمويين الجديدة في المغرب بعد سقوط حكمهم في المشرق يرفع رايتها من جديد صقر قريش (عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك) .

ولقرون ثلاثة تظل الأندلس ممتدة السلطان مرهوبة الجانب ، والفردوس العربي لا وهم يخطر على بال بأننا سنفقده يوما . كيف وهذا واحد من صانعي مجدها عبدالرحمن الناصر أرهب الأعداء المتربصين في شمالها وغربها ووحد بين عناصرها المختلفة وبلغت الأندلس قمة حضارتها وثرائها .

ويتولى الحكم صبي يتسلط عليه بعض الطامحين ، ويكون ذلك إيذانا باضعاف البيت الأموي وتنازع أهله ، ثم انقضاء حكمه حيث توالى على الحكم خلفاء ضعاف . وفي سنة ٤٢٢ خلع آخر خلفاء الأمويين .

بدأت تصوح شجرة الأندلس الباسقة ، وتخفت أنوار مآذنها العالية .

لقد تمزقت دويلات وتقسمت الى طوائف ، وأصبحت الدولة الواحدة أربع عشرة دولة .

العناصر المتباينة التي استقرت في الأندلس أسهمت في وجود هذه المزق في جسد الدولة الواحدة ، كان بها العرب والبربر والصقالبة والمستعربون . وكل عنصر يحاول ما أمكنه أن يكون له شيء من الأمر .

وها هي ذي الأندلس جريحة تثخنها بعشرة جسدها بين البرابرة الذين كانوا تولوا الأمر في الجزء الجنوبي منها ، وبين الصقالبة في جزئها الشرقي ، وبين سوى هؤلاء في أجزائها الباقية « بنو حمود في مالقة ، وبنو زيري في غرناطة ، وبنو هود في سرقطه ، وبنو ذي النون في طليطلة ، وبنو الافطس في بطليوس ، وبنو جهور في قرطبة ، وبنو عباد وملوك أشبيليه .. ومن هؤلاء المعتمد بن عباد » .

في وسط هذه المنحنيات التاريخية التي يتغير في أثنائها وجه التاريخ يصبح من يعايشها محاصرا بمصاعب التاريخ كله وهو يعاني من مخاض التغيير وتصبح مقاومته بطولة تراجيدية مؤلمة .

آخر اهداب الكبرياء

هذا هو المعتمد بن عباد وسط هذا المنحنى التاريخي العنيف ،وهذا هو يخلف أباه (المعتضد) على عرش أشبيليه وعمره تسع وعشرون سنة . وقد مارس الحكم صغيرا إذ ولاه أبوه حكم إحدى المدن ولما يتجاوز الثانية عشرة ، وأسند اليه بعد ذلك قيادة الجيش الذي حاصر مدينة (شلب) .

المعتمد بن عباد يتولى أمر أشبيليه وسحب العاصفة تتجمع في كل نواحي الافق المربد : حوله يتربص كل

أمير بين حوله ، وتزداد الفجيعة حين يستعين بعض هؤلاء بالعدو المتربص .

ويسود وجه الأفق بفجيعة العرب حين تسقط (طليطلة) وما كان لطليطلة من مكانة ومهابة ، وها هو ذا الفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة يشتط في طمعه ويتدخل في شئون بعض امارات ملوك الطوائف ، بل ويعين بعضهم على بعض .

هذه الامارة التي يتولاها (المعتمد بن عباد) أشبيليه تحاول متمسكة بأهداب آخر شعاع من نور العروبة القديم ، ممثلا في المعتمد ، أن تحفظ كبرياءها أو ما تبقى منه .

يرسل الفونسو السادس الى المعتمد طالبا زيادة الجزية التي اضطر العرب لدفعها عندما هان شأنهم في الاندلس ، ويكون طلبه مثقلا بمزيد من الاذلال والتجني ، - فيطلب أن تدخل امرأته - وكانت على وشك الوضع - جامع قرطبة كي تلد فيه ، وان ينزل امرأته بمدينة الزهراء في أثناء إقامتها . ويغلظ رسول الفونسو في الطلب .

يا للكبرياء العربي المهيض !! أهكذا يربد وجه الزمن وتقبح الأحداث ؟

هذا هو المعتمد يثور دمه العربي له . واذا هو يمسك آلة كانت بين يديه يسقط بها رأس الرسول المتبجح ويأمر بصلبه منكسا بقرطبة .

ويبلغ الفونسو ما أصاب رسوله فينفجر غضبه ويقسم ليغزون أشبيلية ويقضي على هذا الكبرياء العربي ممثلا في المعتمد الذي يحاول أن يستقطر شعاع ضوء في حلك الأفق المحيط به . ها هما ذان جيشان يجردهما الفونسو في طريقهما الى أشبيلية ، وهما يسيران في طريقين مختلفين يسفكان الدم ويهدمان ما شيد ، ويخربان ما عمر .

ويلتقي الجيشان على مقربة من قصر المعتمد ويدفع الغرور بإحدى القائدين وقد اشتدت الحرب الى أن يكتب الى المعتمد متبجحا (اشتد عليّ الحر فالقني من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي ، وأطرد بها الذباب عني) ويرد عليه ابن المعتمد على ظهر رسالته (قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجنود في ايدي الجيوش المرابطية تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله) .

لم يكن أمام المعتمد إلا أن يستعين بدولة المرابطين في المغرب مع ادراكه انهم يتطلعون الى كل ملوك الطوائف . ولم يكن يخفى عليه اطماع (يوسف بن تاشفين) أميرها . لكنه يحس بعروبته أن كرامة العرب قد أهينت وابتذلت لابد من دم يغسل عنها العار ، ولو كان دمه سوف يهرق مع كل الدماء لذلك فهو لا يقبل تحذير المحذرين ، ويقول كلمته وقد حفظها التاريخ ووعاها (رعي الجمال خير من رعي الخنازير) ويعني أنه ان تغير عليه ابن تاشفين وصار أسيرا له ، فذلك خير له اذ يرعى جمال ابن تاشفين في الصحراء من أن يكون أسيرا للاعداء المتبجحين يرعى خنازيرهم في أسرهم له .

لقاء القائدين

هاهو ذا (يوسف بن تاشفين) يعبر البحر الى الأندلس ليقف بجانب المعتمد ، ويرسل المعتمد ابنه للقاء القادمين ويقدم لهم ما يحتاجون .

هاهما : المعتمد ويوسف يتعانقان ويتعاهدان على الجهاد وبذل النفس وهاهم ملوك الطوائف يسارعون بتقديم ما يقدرون من مؤن وسلاح .

ويلتقي الجمعان : وهاهو ذا المعتمد على رأس جيش وابنه على رأس جيش ويوسف بن تاشفين ومن معه .

وهاهو ذا يوسف بن تاشفين يرسل الى قائدي الاعداء بدعوة الى الاسلام أو الجزية أو الحرب فيستشيطا غضبا .

وهاهو ذا المعتمد في غمار المعركة يحيط به الاعداء من كل جانب ، والجراح تثخنه والدم يسيل منه وتعقر تحته ثلاثة أفراس ، وكلما غير له فرس طالته السيوف والرماح ، ويقبل جند المرابطين واختلطت الدماء بالأرض ، ويتأخر النصر لكن الصبر مازال زاد المقاتلين حتى أذن الله به ، فانهزم العدو ورفرفت رايات النصر على أشبيلية ، وعاد ابن تاشفين الى بلده بعد أن ودعه ابن المعتمد في الطريق ودماؤه وجراحه لما تزل تسيل منه وتثخنه .

هذه هي وقعة (الزلاقة) وقد صفا وجه الزمن قليلا . وهاهم أولاء الشعراء في مجلس المعتمد وما كان أكثر بره لهم واحتفائه بهم يجدون في ظله الدعة والخير والعطاء الوفير وتطالعنا من أسمائهم : ابن زيدون الذي وجد الأمن في (أشبيليه) المعتمد بعد سجن وتعذيب ، ونجد ابن حمديس وابن عمار وغيرهم .

هذا (ابن حمديس) وقد وقف يهنىء بالنصر العظيم غداة وقعة الزلاقة فيقول :

ليهنأ بنو الاسلام أن أبت سالما
وغادرت أنف الكفر بالذل راغما
كشفت كروبا عن قلوب كأنما
وضعت عليها من هواك خواتما
صبرت لحر الطعن والضرب ذائدا
عن الدين واستصغرت فيه العظائما
رحناك من وقع الصوارم والقنا
فكان لنا في حفظك الله راحما
وكم شجة في حر وجهك لم يزل
لك الحسن منها بالشجاعة واسما

انضافت في سجل التاريخ سطور أخرى لمنزلة المعتمد وهيبة أمارته حين حاصر (يحيى بن ذي النون) قرطبة ، ولا يجد أميرها (عبدالملك) من سلالة بني جهور الا ان يستعين بالمعتمد ، ويرسل جيشا الى قرطبة مما يجبر ابن ذي النون على الانسحاب وفك الحصار ، وهنا يطمح (ابن المعتمد) في الاستيلاء على قرطبة ويتمكن ابن المعتمد من تحقيق مطمعه ، ويموت عبدالملك من الصدمة حيث حمل وأهله الى جزيرة اختيرت منفى لهما .

ويسخر القدر . الكأس نفسها وقد سقي المعتمد منها عبدالملك ، يديرها القدر على المعتمد نفسه .

القطر المر !

تبدأ أول قطرة من الكأس حين ولي (المعتمد) ابنه على قرطبة ويستطيع أحد المغامرين الطامعين أن يتسلل خلسة ببعض أنصاره ويقتلون ابن المعتمد .

ويتتابع القطر المر . هذا يوسف بن تاشفين يتطلع الى الاستيلاء على امارات ملوك الطوائف ، وهاهم أولاء يحسون جميعا بذلك الخطر ، فيكتبون اليه مستعطفين « .. وان استبقاءك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك » .

واذا كان (يوسف بن تاشفين) حاول في رده أن يطمئن ملوك الطوائف الا انه قد بيت الامر على غير ذلك . يدفعه قومه الذين تبلغهم مظاهر الترف البالغ وحياة المتاع الخالص لدى ملوك الطوائف وقد شاهد منه في أثناء وجوده بالاندلس - وهم مازالوا في تقشف البادية - صورا من الترف والمتاع قد أسخطت عليهم قلوبا ما تزال على فطرة وتشدد وتدين .

لقد ساعد المرابطين في ذلك فقهاء الأندلس الذين رأوا أن الاعداء يزداد جمعهم ، وملوك الطوائف يزداد تفرقهم .

ويشرع المرابطون في القضاء على ملوك الطوائف .

ويندفع (سير بن ابراهيم) قائد المرابطين مستوليا على ممالكهم واحدة بعد أخرى ، وينظر (المعتمد) فلا يجد نصيرا ، الامارات حوله تتساقط كأوراق الخريف ، واعداؤه من الشمال يتربصون به ومن الغرب نصيره القديم قد انقلب عليه ، وجنوده تزحف الى قرطبة حيث يحكمها المأمون ، ولد المعتمد ، ويحاول ان يدفع عنها ما لا قبل له به ، ولا يستطيع ؛ ويبلغ المعتمد مقتله .

أسد أشبيلية محوط بغابه جموع الصائدين ، ويتساقط ما حول الغاب من امارات الطوائف .

ويستجمع البطل المحاصر من كل مكان دماء شهامته وجماع كبريائه ويحاول أن يدفع ما استطاع ما لا قبل له به ، ويشتد حصار المرابطين له ، وهو لا يلين ولا يضعف ولكنه يقاوم كأبطال التراجيديا حركة الزمن الرهيبة .

الخيانة تفرخ في داخل أمارته فيدخلون عليه من أحد الأبواب التي غدر منها أصحابها ، ولكنه عنيد لا يستسلم ، ويحارب ومن وقف معه جموع المغيرين ، ويستطيع أن يسد باب الغدر ، ويعودون من الوادي فيردهم ثانية . ويأتي الليل والبطل الجريح مازال صلب العود ، عازما على القتال حتى يسيل دمه ، وجموع المرابطين تزحف حواليه من كل مكان ، ويدوم القتال أياما ، ونذر المأساة تستطير من كل جانب وتفرق القوم من حوله . ولم يبق حوله سوى بعض الأوفياء واذ هو في قبضة الأسر .

في الاسر والذل

ولا يكف الدهر عن عبثه وكيده ، وهذان ابناه : المعتمد والراضي مازالا يقلعتين لهما . لا تنالها يد المرابطين . وقد أبيا الاستسلام ، ولكن أهل بيته وقد ضاق بهم كل شيء وضاق حولهم كل شيء يجبرانه على الكتابة اليهما ليستسلما لكنهما يرفضان مهانة الأسر ، وتتصارع في نفسيهما مشاعر العطف على الأب الأسير والوالدة الأسيرة ، ومشاعر العزة والأباء وقد رضعاها من هذين الاسيرين أيضا ... ويستسلمان ويؤسر المعتمد . أما أخوه الراضي فيغدر به أسره ويقتله ويخفي جسده .

ياكيد الدهر ، ويابؤس الأيام . مازال عطاؤك المريد يدخر ما فوق الاحتمال .

هذا هو المعتمد الشجاع النبيل تسير به سفينته مع أهله مخترقة البحر لترسو على ساحل المغرب . ليقيم أياما بطنجه ، ثم الى مدينة (مكناسه) ويأمر أسره بنفيه الى مدينة (غمات) .

البطل المهيض الجناح يرسف في القيود ، وأبناؤه بين أسر وقتل وتشريد .

وهذا ولد له يعمل في حانوت صائغ طلبا للقمة العيش وهؤلاء بناته يغزلن الناسا للقوت .

المجد القديم والشجاعة التي بلغت فوق الخيال حين بلغت أوجها في الزلاقة وفي اقامة عريش في حديقته مجلل برءوس الاعداء وكان يقول المعتمد كلما مر عليه : في مثل هذا البستان (فليتنزه) كل ذلك كأنه لم يكن .

عطاؤه الذي لا ينفد للشعراء ولغيرهم قد نفد ، وهذا واحد من شعرائه يمر على طريق . فيا لبؤس ما يرى ابن المعتمد وقد تغير وجهه بدخان الكير الذي ينفخ فيه عند صائغ يعمل عنده ، والجواد مغلول في أسره ، فيبكي قلبه شعرا :

طوقت من نائبات الدهر مخنقة
ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد طوقك في دكان قارعة
من بعد ما كنت في قصر حكى إرما
ياصائغا كانت العليا تصاغ له
حليا وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى
هول رأيتك عنه تنفخ الفحما

ولم يبق الا وفاء شعرائه له ، فالمحنة التي أصابت أميرهم الجواد الشاعر لم تزدهم الا مزيد وفاء ، ويعبر كثير منهم البحر ليزور الأمير الأسير . ويحاول الأمير أن يمنح ما يحتاج اليه ، فيعتذرون عن قبول شيء فيا أكثر ما جاد لهم بكل شيء .

ويدخل عليه شاعره الأثير لديه (أبو بكر بن اللبانه) فينظر الى المعتمد وقد أحاطت بساقيه حلقات الحديد ، وهو لا يقدر على تحريك قدم ، ويتذكر شاعره أيام المجد الراحل حيث عاش في نعمة المعتمد وسط جنة وحرير ، فينتحب أمام المعتمد ، حتى اذا هدأت نفسه بعض الشيء ناحت نفسه بأبياته :

انفض يديك من الدنيا وساكنها
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كتمت
سريرة العالم العلوي (أغمات)
طوت مظلتها ، لا بل مذلتها
من لم تزل فوقه للعز رايات
رماه من حيث لم تستره سابقة
دهر مصيباته نبل مصيبات

الصلاة على الغريب

ولا يكف الدهر عن عبثه الفاجع وكيده الأليم - هذا هو الفارس العربي الشجاع والأمير المهيب والذي أرهب الأعداء طيلة ثلاثة وعشرين عاما ، هاهو ذا يموت ، ولا أحد يعلم أي بطل في كفن متواضع ، وينادي على جنازته للصلاة عليه (الصلاة على الغريب) ..!!

هذه وصاته الأسيانة الموجعة :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت
بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا
بالموت أحمر بالضرغامة العادي
ولم أكن قبل ذاك النفي أعلمه
أن الجبال تهاوي فوق أعواد

ها هو ذا قبره في صحراء مقفره ، لكن أوفياءه من الشعراء والذين تقلبوا في أيام نعمائه يتلمسون الطريق اليه وهاهو ذا واحد منهم يطيف بقبره وهاهي ذي دموعه ترفض حتى يتغيم أمامه كل شيء وهاهو ذا يخر على التراب يقبل في لونه الرمادي مثوى الراقد في صمت وكبرياء .

وهاهي ذي أحزانه ينظمها في أبياته الشكل :

ملك الملوك أسامع فأنادي
أم قد عدتك لدى السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن
فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا
وجعلت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعي
نيران حزن أضرمت بفؤادي
فاذا بدمعي كلما أجريته
زادت على حرارة الأكباد

وتستمر أبياته الباكية وصوته المنزوف أسى يجمع حوله الناس ، واذا هم في لوعة لوعته واذا الجميع يبكون بطلا تعاهدته النكبات وتصالحت عليه الأرزاء ، وظل صلب العود قوي الارادة .

■ ■

د . رجاء عيد

كلية الآداب - جامعة صنعاء

إنسان وإنسانية وإنسانيون

بقلم : عبد الله يوركي حلاق

١ ـ الانسان :

مما لا شك فيه ، ان الباحث في أمهات معاجمنا عن معاني : « انسان وانسانية وانسانيون » سيصاب بخيبة أمل كبيرة ، لأنه لن يجد في هاتيك المعاجم مدلولاً صحيحاً ، ولا تفسيراً واضحاً لتلك الكلمات الثلاث التي تدور كل دقيقة ألوف المرات على ألسنة الناس .

ففي « لسان العرب » وهو من أكثر المعاجم العربية شهرة وأوسعها مادة ، جاء في تعريف « الانسان » كلمتان فقط ، وهما : « الانسان معروف » .

وقد علق الكاتب المهجري الكبير الاستاذ نظير زيتون على ذلك فقال : « ولو أن أحد الطلبة اقتفى أثر لسان العرب في قوله : « الانسان معروف » لسقط في الامتحان ،لأن ما عده اللسان معروفا ظل مجهولا » .

ثم يذكر اللسان معنى جديدا للانسان هو آدم ، وان بني الانسان هم أبناء آدم ، وأن الانسان مشتق من النسيان .

وورد في قاموس الفيروزابادي : « الانس ـ البشر كالانسان ، الواحد إنسي جمع أناسي وأناسية وأناس ، والمرأة انسان وبالهاء عامية » ثم يعدد معاني أخرى للانسان ، كالانملة ورأس الجبل والأرض لم تزرع والمثال يرى في سواد العين ، ولكنه يهمل تعريف الانسان البشري الذي اهتمت المعاجم الاجنبية بوصفه وبيان كل ما يتعلق به ، وبالمجتمع الذي يعيش فيه .

وحكى ثعلب : « جاءتك الناس » بمعنى جاءتك القبيلة أو القطعة . وقد ندر مجيء انسان في الشعر كقوله :

تمري باتسانها انسان مقلتها
إنسانةٌ في سوادِ الليلِ عطبولُ

والعطبول : المرأة الجميلة الفتية الطويلة العنق . ج : عطابل وعطابيل .

وجاء في قاموس « محيط المحيط » للمعلم بطرس البستاني : « الانسان البشر ، أو آدم وذريته للذكر والانثى . وانسانة بالهاء عامية ، وسمع في الشعر :

انسانةٌ فتانةٌ
بدرُ الدُجى منها خجِلْ

ويستطرد البستاني قائلا : « وذهب الكوفيون إلى أن الانسان مأخوذ من النسيان وهمزته زائدة .

قال ابن عباس ، انما سمى انسانا لأنه عهد اليه فنسي . قال الشاعر :

لا تنس هاتيك العهود فإنما
سُميتَ إنساناً لأنك ناسِ

وذهب البصريون الى أنه مأخوذ من الانس وهمزته أصلية وهو الأصح لأصالة الهمزة في أمهات اللغات .

وقال الشاعر المهجري فوزي المعلوف ، في النشيد الحادي عشر من ملحمته الرائعة « على بساط الريح »

وعنوان ذلك النشيد « رقيٌّ كاذب » :

ما دعوةُ الانسانِ منْ أسمِ
لكنْ دعوةُ الانسانِ منْ نسيانهْ
نبي الخيرَ حينَ أوغلَ في الشرِّ
فداسَ الضميرَ في عصيانهْ

غير أن ما أغفله المعجميون القدامى من تعريف الانسان ووصفه واختلافه عن الحيوان الأعجم ، التفتت اليه الموسوعات العربية التي صدرت في هذا القرن نذكر في طليعتها « دائرة معارف القرن العشرين »(١) لمحمد فريد وجدي . فبعد أن عرف أولئك المعجميون الانسان بأنه حيوان ناطق ، وانه اسم جنس يطلق على آدم وعلى كل من ذريته ذكرا كان أو انثى ، قامت الموسوعة الوجدية فوصفت الانسان وصفا علميا ومنطقيا مسهبا ، وذكرت أنه من الحيوانات الفقرية الثديية ، وأنه أول ما يوجد على حالة خلية حية في مادة الرجل ، ثم يكون جنينا ، ثم يولد طفلا . ويمضي الاستاذ محمد فريد وجدي ، في سرد كل ما يختص به الانسان كالنطق والعقل والحس والذوق وقوة الملاحظة والتفكير والقدرة على الابداع ، ويذكر ما قاله فيه رهط من كبار الفلاسفة والعلماء ،والأطباء والشعراء ، ويورد آيات من القرآن الكريم منها « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .

ولم يفت صاحب هذه الموسوعة أن يتصدى لمذهب داروين ويناقشه مناقشة جادة . والجدير بالملاحظة والتنويه ، أن الاستاذ وجدي خصص لتفسير كلمة الانسان أكثر من ست وثلاثين صفحة من دائرة معارفه . وهذا ما لم تفعله المعاجم العربية السابقة . لأن اللاحق من أصحاب تلك المعاجم ، كان يتوكأ على من سبقه ويردد أقواله ، وأحيانا يحذف منها ما يزيدها غموضا ، أو يضيف اليها بضع كلمات لا تنقع غليل الباحث المدقق .

والانسان في اصطلاحنا اليوم ، هو المرء المهذب الطيب المتحلي بالعطف واللطف والمروءة ومكارم الأخلاق . يقال : فلان انسان بكل ما في الانسانية من معنى ، أي أنه على جانب مرموق من المحامد النبيلة ، والسجايا الجميلة الأصيلة .

واذا أريد ذم أحد قيل فيه ، انه لا يتحلى بصفات الانسان ، ولا يعرف شيئا من المعاني الانسانية .

وبهذا اتسع المجال للفظة « انسانية » وهي لفظة جديدة لا يرقى عمرها اللغوي في معاجمنا الى أكثر من قرن وبضعة أعوام .

٢ ـ الانسانية :

كان اخواننا اللبنانيون أول من انتبه في مطلع نهضتنا الأدبية الحديثة ، الى فوائد الاستقصاء والاشتقاق والاستنباط ، وقد أوجدوا العديدَ من الالفاظ العربية لكثيرٍ من الأسماء الأجنبية الداخلة على لغتنا ، كالسلك البرقي (للتلغراف) والحافلة (لعربة الترام) والمنطاد (للبالون) والجريدة (للجورنال) والمطعم لمكان الطعام في الفنادق وغيرها(٢) .

والمعروف أن المعلم بطرس البستاني المولود في الدبية ـ لبنان عام ١٨١٩ والمتوفي عام ١٨٨٣ أول من اشتق من لفظة انسان مصدراً صناعياً ذكره في قاموسه « محيط المحيط »(٣) قائلا : « الانسانية ما اختص به الانسان من المحامد كالحلم والجودة وكرم الاخلاق » وهو مصدر مستحب استقبله الكتاب بالاعجاب وراحوا يستعملونه في كتاباتهم .

والانسانية في مفهومها الصحيح الصريح ، خلُق سامٍ ينبثق من صميم القلب الطيب ، ويدفع صاحبه الى حقول الفداء دفعاً ، لأنه لا يرتاح ، الا اذا أحسن وجاد ونفع .

ونحن نجد جميع المتفانين في ميادين الانسانية ، اناسا لا يريدون من العيش ، سوى ارضاء ربهم ، واشباع النزعة الخيرية في أعماق كيانهم . فأحسن لذات الوجود عندهم ، تتجلى في مسح دمعة يتيم ، وتغطية منكب عريان ، واطعام بائس بات على الطوى ، ومداواة عليل يهدده الداء الوبيل بالموت المحتم .

وكما أن البخيل اللئيم ، لا يستطيع أن يكون كريماً فاضلاً مهما حاول وتصنع الفضل والكرم ، هكذا أرباب

---

(١) صدرت في عشرة مجلدات بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٥ .

(٢) وضع هذه الالفاظ احمد فارس الشدياق المولود في عشقوت ـ لبنان عام ١٨٠٤ والمتوفي في استنبول عام ١٨٨٨ .

(٣) يقع في مجلدين كبيرين تم طبع المجلد الاول في ٧ آب ١٨٦٧والثاني في عام ١٨٧٠ .

الانسانية . لا يستطيعون أن يكونوا أنانيين ممسكين ، لأن كل قطرة من دمائهم ممزوجة بالمحبة والرحمة ونكران الذات .

يقول نظير زيتون في كتابه « الانطلاقات الانسانية » ان لفظة انسانية انتقلت الينا من الغرب في مطلع القرن المنصرم على أثر انتشار الثقافة الغربية في الشرق العربي ، فجاءت الانسانية ترجمة دقيقة واضحة المدلول معنى ومبنى لكلمة "HUMANITE" .

ولم تنحصر عملية الاشتقاق بعلماء اللغة وحدهم ، بل تعدتها الى العامة وبعض المشتغلين بالادب ، فصاغوا من اسم (آدم) مصدراً صناعياً آخر وقالوا (آدمية) كما اشتقوا (العصامية) من (عصام) و (الانانية) من (أنا) . وكم نحب ان تستمر عملية الاشتقاق والاستنباط ، لتظفر لغتنا بألفاظ جديدة تزيدها ثراء ورواء .

٣ ـ الانسانيون :

الانساني ترجمة صادقة لكلمة HUMAIN الفرنسية ، وقد عرفناها منذ قرن ونيف ، وتداولتها أقلامنا على نطاق واسع في مجالات الخير والمعروف ، وفي وصف الاريحيين الطيبين وأصحاب القلوب الكبيرة الذين يضحون بأوقاتهم وأموالهم في سبيل الاعمال الانسانية ، وتوطيد دعائم المحبة والسلام بين الناس كافة .

وجمع انساني « انسانيون » . والانسانيون في كل زمان ومكان ، دعاة الرفق ، ورسل الرحمة ، ومشاعل تتقد في دروب الحياة ، لتبدد ظلمات الجهل والفقر والمرض ، ولتضيء الشعاب الموصلة الى القمة البعيدة عن مستنقعات البؤس والذل والهوان .

انهم حريصون على كل ما من شأنه ، ان يوفر لأخيهم الانسان ، السعة والحرية والكرامة . ولهذا يعملون من أجله بصمت ، ويستهينون المصاعب والأخطار . وكثيراً ما يحلو لهم أن يعيشوا في الجزر النائية ، والاحراج المنعزلة في أقاصي الدنيا ، ليخدموا أقواماً بدائية ، تحكمهم شريعة الغاب ، وتسيطر على عقولهم الخرافات والأساطير .

ولقد سقط كثير من هؤلاء الانسانيين في معترك نضالهم ، فمنهم من قتلته الأوبئة في مجاهل الأرض ، ومنهم من افترسته الوحوش الضارية في المناطق التائهة في خط الاستواء ، ومنهم من فتكت به أيدي العابثين بالأنظمة والمتنكرين للمصلحين ، ومنهم من غدا طعاماً شهياً لأكلة لحوم البشر .

ومع ذلك ، فان شعلة الانسانية ما زالت وستبقى الى الأبد ، متقدة في القلوب الشفيقة والنفوس الرحيمة ، فلكل عمل كبير ثمن غال ، وثمن انقاذ الانسان من أغلى الأثمان .

انه عرق ودموع وسهاد يقرح الجفون ويدمي العيون ، بل هو أشق من ذلك وأمر ، انه تضحية بالحياة ذاتها . وفي التضحية خلود الروح ، وتغلب البقاء على الفناء . ■■

حلب ـ عبد الله يوركي حلاق

من شعر المتنبي

● كان المتنبي يأبى شرب الخمر ويكرهه . فالزمه سيف الدولة بن حمدان فشرب ذات ليلة عنده . فصدرت منه هفوة وندم لوقته فقام وانصرف وبقي لا يحضر مجلسه . فاكثر بطلبه حتى حضر فامره بالشرب فامتنع واقسم أن لا يشرب ابدا خمرا . وانشد يقول :

رأيت المدامة قلابة	تهيج للمرء اشواقه
تسيء من المرء تأديبه	ولكن تحسن اخلاقه
وبالامس مت بها موتة	وهل يشتهي الموت من ذاقه

عصر الجزار

مزيج الطغيان والمثابرة مع النذالة والجرأة !

بقلم : قسطنطين خمار

شهدت البلاد السورية في القرن الثامن عشر احداثا مروعة واتتابتها ضروب من المظالم وصنوف من المآسي ، نتيجة لاستقلال بعض الولاة والحكام الاقطاعيين بالمقاطعات التي دانت لسلطانهم فعاثوا بها عتوا وبرعاياهم طغيانا .

ذلك ان هؤلاء الولاة الذين كانت اولى واجباتهم فرض القانون وتطبيق النظام كانت كثرتهم من العجز الحربي والسياسي بمكان ، وكثيرا ما كانت الدولة العثمانية تغيرهم باستمرار فمنهم من لم يكن يمكث في الحكم اكثر من سنة او سنتين فكان همهم الاكبر وشاغلهم الاوحد ان يجمعوا اكبر مقدار من المال يستطيعون ولذا لجأوا الى سلب الرعية ممارسين اشد انواع الظلم وادهى صنوف الاستبداد فلا غرو ان شهدت البلاد في هذا القرن انهيارا في الاحوال الأمنية والاقتصادية وانحطاطا في حياة السكان كما كان من نتائج هذه الاوضاع السائدة ازدياد تدريجي في اهمية الشيوخ المحليين ، هذا عدا ان الاستبداد بحد ذاته من طبيعة الانسان اذا لم يجد رادعا يردعه وحائلا يصده . .

وقد بلغ (احمد باشا الجزار) حاكم عكا والمسيطر على سائر البلاد السورية طوال الربع الاخير من القرن الثامن عشر القمة في ذلك وحلق فيه تحليقا ما عليه مزيد فبز جميع نظرائه قسوة وفاقهم طغيانا ساكنا البلاد جورا والشعب رعبا حتى ضرب به المثل في القسوة على مر الاجيال التالية فقيل « اظلم من الجزار » الا ان حكمه الاستبدادي هذا على الرغم من كل ما شابه من المآسي لم يعدم جوانب مشرقة من اصلاحات جمة ودفاع مجيد عن الوطن بصده الحملة النابليونية الفرنسية عن الشرق مما غير وجه التاريخ كما سنري فيما بعد . .

المولد والنشأة

كان مولد الجزار في اوائل العقد الرابع من القرن الثامن عشر في احدى قرى البوسنه ـ وقد نشأ وترعرع فيها فتى شرس الاخلاق سيء السلوك ويروي انه ارتكب جرما اخلاقيا ، قيل انه اغتصاب امرأة اخيه مما اضطره الى الفرار من وجه ذويه طريدا شريدا حتى عاصمة السلطنة العثمانية (الأستانه) حيث عمل حمالا في الميناء ثم عاملا في الزوارق ، ملاقيا اسوأ معاملة ، فاغتنم فرصة سانحة في رسو المركب الذي كان يعمل فيه في احدى موانىء الاناضول ، وفر منه عائدا الى التسول آنا والسرقة حينا ، سائرا على غير هدى الى ان باع نفسه اخيرا الى نخاس يهودي صادف مروره في احدى الموانىء فضمه الى ما كان قد ابتاعه من الاولاد وتوجه بالجميع الى القاهرة حيث كانت سوق الرقيق رائجة وحكام مصر كلهم من المماليك . وهناك باعهم الى تاجر آخر أسلم الجزار على يده وتسمى (أحمد) وكان قد اصبح شابا بهي الطلعه ، طويل القامة ، قوي العضلات ذا وجه مشرب بالحمرة ـ ولا ريب ان جميع هذه الاهوال التي قاساها وشظف العيش الذي صبغ حياته السابقة قد ولدت فيه عقدا انعكست فيما بعد ، عندما دانت له السلطة ، على تصرفاته من عتو واستبداد ومظالم وكأنه بذلك ينتقم من البشرية جمعاء .

كانت مصر في هذه الفترة مسرحا لنزاعات مستمرة بين مماليك معظمهم رقيق مشتري في صغره ، حالهم كحاله ، لا تهدأ بينهم المعارك ولا تفتر المذابح بغية الوصول الى الحكم والثروة ، لا يرعون في ذلك عهدا ولا دينا . وقد مكنته شجاعته الفائقة من الدخول في خدمة علي بك الكبير حاكم مصر واعظم مماليكها شأنا ، فنال رتبة (البكويه) ولشدة بطشه وفتكه ببدو اقليم (البحيرة) الذين ابدوا



مجلس احمد باشا الجزار .. لوحة انجليزية من القرن التاسع عشر

احد خصوم علي بك اطلق عليه لقب (الجزار) فاصبح يدعى (احمد بك الجزار) . واصبح الجلاد المفضل لدى سيده يمتهن قطع الرؤوس . وكان هذا اللقب الجديد مدعاة فخر واعتزاز له وبات يشعر بنشوة هائلة كلما رأى رؤوس قتلاه تتدحرج ودماءهم تهرق . واصبح اسمه عند الناس مرادفا للرعب ولازمه هذا اللقب طوال حياته ، واغدقت عليه الأموال فاصبح يمتلك الخيل والسلاح والجواري الحسان ويقيم حفلات الأنس والطرب موزعا المآكل الشهية على فقراء الحي - الا انه عندما رفض امرا بقتل احد المماليك - وكان له صديقا وتأكد من غضب علي بك عليه وعزمه على اعدامه ، فر من منزله متخفيا بلباس احدى جواريه حتى وصل احدى الموانىء فاستقل مركبا متوجها الى الأستانة يعرض خدماته على الباب العالي وكان ذلك عام ١٧٧١ م وسنه انذاك يقارب الاربعين ، الا ان آماله خابت في الحصول على ما كانت تحدثه به نفسه من مكانه ، فولى وجهه شطر سورية ونزل في ضيافة الأمير يوسف الشهابي في دير القمر - وكانت شهرة بطشه وجبروته قد سبقته ، فحمله هذا الأمير كتاب توصية الى عثمان باشا والي دمشق من قبل الباب العالي ، فجعله هذا الأخير قائدا لمفرزة من اربعين رجلا وسلمه ميناء بيروت فرمم اسوارها بهمة ونشاط فائقين وبنى فيها ابراجا عدة حتى منحه الأمير يوسف الشهابي لقب (قائد أعلى) - الا انه لما كانت شيمته الغدر ، تحصن في بيروت واغلق ابواب الاسوار دون الأمير يوسف وحرم عليه دخولها ، وزيادة في التهديد والوعيد قبض على رجلين من اتباع الامير فقطع رأسيهما ثم اجلس كلا من الجثتين على خازوق ونصبهما على الاسوار واجرى مذابح شنيعة في المدينة وفتنا طائفية حتى ارهب القوم لدرجة لم يعد يفكر بعدها اي منهم بالعصيان ، وبلغ من سخريته بسيده الأمير يوسف ان أمر بصنع (فزاع) على مثاله وعلقه على احد ابواب المدينة .

ولما أخذ ببناء سور متين للميناء دفن عشرين رجلا احياء ضمن السور زاعما ان هذا يدعم البناء ومخرجا سواعد هؤلاء الضحايا من بين الاحجار عليها تصلح لربط السفن - الا انه اخذ يغدق الهبات على جنوده مشجعا اياهم على الشراب والعبث والفحشاء ، واهبا اياهم الآلات الموسيقية مبتهجا بآثامهم ، اذ ان معظمهم كان من الاشقياء والمجرمين وبذلك عم خطرهم وامتلأت المدينة منهم رعبا ودانوا له بالطاعة العمياء ، وقد نجح في حكم المدينة مدة عام واحد وكان سكانها في هذه الفترة لا يزيدون عن ستة آلاف نسمة .

الصراع مع ظاهر العمر

والواقع انه كان رجل السلطنة العثمانية الذي كانت

بحاجة اليه لتنفيذ خططها باعادة (ايالة صيدا) الى الحكم المركزي الفعلي بعد ان قويت شوكة ظاهر العمر حاكم عكا لدرجة ان نفوذه وسلطانه كانا هما السائدين على هذه الايالة ومعظم فلسطين . فوجدت في الجزار رجلا ذا بأس يمكنها الاعتماد عليه للحد من سيطرة ظاهر . ولكن خصوم الجزار تألبوا عليه وحاصر بيروت دروز الجبل بقيادة الامير يوسف وساندهم في ذلك الاسطول الروسي بضرب المدينة وجعل في اسوارها ثغرات كثيرة ، ولما لم يتلق من الدولة العثمانية مساعدة عملية ووجد ان المدينة ساقطة لا محالة وان ايامه باتت معدودة ، لجأ الى الدهاء والخديعة فارسل من يبلغ ظاهر العمر انه يعترف بخصومته الشريفة وانه على اتم الاستعداد للانضمام اليه ضد قوى السلطنة العثمانية اذا أمنه وحاشيته ، وكان في اثناء ذلك قد اخرج من بيروت ، بطريقة سرية ، الاموال والامتعة والتحف الثمينة التي كان الامير يوسف قد أئتمنه عليها . ولما كان ظاهر العمر قد سمع بشدة مراس الجزار وشجاعة جنوده وبأسهم في القتال اجبر حلفاءه قادة الاسطول الروسي والجيوش المحاصرة على السماح للجزار وحاميته بمغادرة بيروت مع المحافظة على شرفها العسكرى ، ودخل الامير يوسف والروس المدينة فوجدوها خاوية على عروشها ، اما الجزار فأبحر بجنوده الى صيدا ثم صور وكان يفترض ان يسير من هناك بجنوده الى منطقة نابلس لينضم الى جيش ظاهر العمر ليسانده في محاربة العصاة واخضاعهم ، الا انه كعادته غدر بظاهر ، كما غدر سابقا بسيده القديم يوسف . وتوجه الى دمشق منضما لجيوش الدولة العثمانية ، ومجددا بذلك ولاءه وتبعيته للباب العالي الذي ما زال ناقما ومصمما على القضاء على ظاهر العمر الزيداني المتمرد عليه والمنفرد بالسلطة على مناطق واسعة من البلاد السورية ، فرحب بفعلة الجزار هذه وعزم على مكافأته في اول فرصة . . .

ارسلت الدولة العثمانية عمارة بحرية بقيادة حسن باشا لضرب المقر الرئيسي لظاهر وهي مدينة عكا ، من البحر كما تقدمت جيوشها من دمشق وتم لها الاستيلاء على المدينة بعد ان فر منها ظاهر وقتل خارج اسوارها ، وعندها استدعي الجزار ، ثقة من الدولة العثمانية انه من اتباعها وولته عكا عام ١٧٧٥ م فوجدها في حالة بائسة اثر الحصار البري والبحري وقد هجرها معظم سكانها الى المناطق المجاورة فطلب من الاهالي الفارين العودة لاستعادة امتعتهم ومقتنياتهم . ولما تأكد من عودة معظمهم حرم عليهم مغادرتها تحت طائلة الاعدام وبذلك امتلأت ثانية بسكانها القدامى ، الا انه بقي في حاجة ماسة الى المال فقام بفرض الضرائب الجمركية على معظم السلع . كما اجبر وكيل القنصلية الفرنسية والتجار الفرنسيين على اقراضه الاموال واحتكر معظم المرافق التجارية . ولما وجد ان خزائنه امتلأت بالاموال شرع باصلاح الاسوار واتقان البنيان وذلك بتسخير اهالي القرى المجاورة للعمل ثلاثة ايام في الاسبوع بالتناوب ثم انشأ اسطولا صغيرا . كما مكنته موارده المالية من تأليف فرقة فرسان من ابناء البوسنة والبانيا من (٨٠٠) فارس ومن مرتزقة المغاربة الف جندي من المشاة . ثم اخذ باستقدام اللصوص والفارين من وجه العدالة جاعلا منهم حرس شرف له وبذلك اصبح لديه قوة مقاتلة فاعلة من مرتزقة البشانقة والارناؤوط والاكراد والمغاربة .

تسلم ولاية صيدا

وبعد ان فرغ من ذلك وآنس من نفسه القوة العسكرية والمالية تولى امر ابناء ظاهر العمر فقضى عليهم جميعا . وبذلك دانت له قطاعات صفد وطبريا التي كانت ما تزال تحت سيطرتهم فسر ذلك الدولة العثمانية فعينته في النصف الثاني من تشرين اول (اكتوبر) عام ١٧٧٥ واليا على صيدا ومنحته رتبة الباشوية !

وفي شباط (فبراير) من عام ١٧٧٦ م منح رتبة (وزير) واصبحت الدولة العثمانية تخاطبه في جميع الفرامانات والمراسلات باللقب الجديد (الوزير احمد باشا الجزار) وزيادة في اعتراف الدولة بفضله يرد سلطتها على جميع المقاطعات التي كانت تابعه للزيادنه منحته ما كان يعرف (بالمالكان) اي حق الحكم مدى الحياة وبهذا استمر الحاكم على هذه البلاد حتى وفاته عام ١٨٠٤ م اي ما يزيد على ٢٨ عاما . الا انه على الرغم من ذلك لم يغير مكان اقامته في عكا ، ولم يكن يؤم صيدا (مع انها كانت المركز الرسمي للايالة) اكثر من شهرين في العام الواحد . وبعد ان دان له معظم الجليل اخذ بمهاجمة البلاد الواقعة الى الشمال من صفد وجبل عامل مما كان يعرف في ذلك العهد (بيلاد بشاره) وكان على زعامتها ثلاثة بيوتات من الشيعه الذين كانوا يدعون (المتاوله) او (بني متوال) ـ وهي : علي الصغير وناصف النصار وحيدر الفارس فهزمهم جميعا بعد معارك طاحنة وتسلم قلعة (هونين) وقلعة (الشقيف) وقلعة (جباع) فقتل الكثيرين وسلب الاموال وسبى النساء حتى كانت المرأة تباع بثلث قرش . وبعد ذلك اخضع مدينة صور ، كما هاجم جنوده بيروت فهرب معظم سكانها واحرقوا وقتلوا وباعوا الاسرى وارسلوا اليه منهم الكثير فقطع رؤوس البعض واجلس آخرين على الخازوق . .

الحاكم المطلق في الشام

وبعد ذلك ولي وجهه نحو منطقتي نابلس وجنين فاخضعهما . الا انه عجز عن الاستيلاء على قلعة (سانور) في منطقة جنين وكان يسيطر عليها يوسف الجرار على الرغم من محاصرته لها اربعة اشهر ، وعلى الرغم من تكرار مهاجمته لها بعد ذلك . وبذلك ازداد ايمان الدولة العثمانية رسوخا به وسيما انه كان لا يتوانى عن ارسال الاموال والميرى ، اي الضرائب الحكومية ، لها باستمرار فتسلم منها براءة بتعيينه واليا على دمشق عام ١٧٨٠ . وكان من مهام والي دمشق امارة الحج فهو الذي يسير بقافلة الحجيج الى مكة ويحميها من هجمات البدو في الطريق ، وقد تولى هذه المهمة وولاية دمشق اربع مرات في حياته اذ ان الدولة العثمانية كانت تمنح الايالة لمن يرسل اليها الاموال الاميرية في انتظام فتعزل الواحد لتولي الآخر تبعا للمبالغ المرسلة . وقد اظهر الجزار سخاء متناهيا بارسال الهدايا والذهب الى السلطان العثماني وحاشيته مما مكنه من الحصول على ايالة طرابلس في تلك الفترة بالاضافة الى ايالة دمشق .

وبذلك خضعت له سوريا باسرها من اقصاها الى اقصاها ، فانتشر عماله من اللاذقية شمالا الى غزة جنوبا كما انه سيطرته على الشوف والجبل اللبناني وكان على امرائها وشيوخها ان يرضوه بالاموال لابقائهم في سدة الحكم ، مما اضطرهم الى ظلم رعاياهم واثقال كاهلهم بالضرائب ليتمكنوا من جمع ما وعدوا به الجزار الذي كان يبقى عنده ابناءهم ومدبري ماليتهم احيانا رهائن لديه في عكا حتى اذا تقاعسوا عن ارسال الأموال المطلوبة قام باعدام الرهائن ، وكان لهذه الغاية يلقي بذور الشقاق بين امراء افراد العائلة الواحدة الحاكمة فكم من مرة فعل ذلك بين الامير يوسف الشهابي وخاله الامير اسماعيل ثم بين الامير يوسف واخوته كما اخذ فيما بعد يحرض الامير الفتى بشير الشهابي (الكبير فيما بعد) على الامير يوسف ثم ابناء الامير يوسف على الامير بشير . كل ذلك تبعا للمبالغ التي يستطيع دفعها كل منهم فمن زادها له ساندة وتنكر لغيره وهكذا . . وفي احدى المرات طلب من الامير يوسف الشهابي ستمائة كيس (وكان الكيس يحتوي ٥٠٠ قرش) وهذه مبالغ باهظة اذا ما تذكرنا قيمة النقد الشرائية في ذلك العهد ، بدليل انه عندما شح المطر في احدى السنين وحصل قحط ارتفع سعر مد القمح الى ثلاثة قروش . . .

ولما زاد الأمير بشير عما دفعه الامير يوسف سر الجزار منه كثيرا ، وكافأه بوضع الامير يوسف وخازنه الشيخ غندور وسعد الخوري (جد حبيب باشا السعد رئيس الجمهورية اللبنانية فيما بعد ١٩٣٤ - ١٩٣٦) في السجن المعروف في عكا (بحبس الدم) ثم اعدمهما . ولا تزال وصية الشيخ غندور محفوظة بخط يده في نحو ثلاث صفحات وكان قد كتبها في حزيران من عام ١٧٩٠ بمجرد استدعاء الجزار . اذ قلما كان يؤمل من يستدعيهم الجزار الى عكا بالحياة بل يوقنون انها دعوة الى الآخرة . ومن طريف ما في نهايتها . . (واوصى اولادى بخوف الله وبتجنب العشرة السيئة وعدم القراية في كتب الغزل بل كل ما عندنا من كتب الغزل فلتبع . ولتكن قرايتهم في الكتب الروحية والتواريخ والحكمة . ولتجتنبوا السكر والنساء ويتدرعوا بالعفاف . وهذا خطي وختمي محرره غندور ولد سعد الخوري) مما يعطي صورة عن العصر . . .

جنون وصواب وقسوة !

وكانت حاجة الجزار الى الاموال لا تقتر ليتمكن من الاحتفاظ بجيش قوي ، اذ كان هو عماده الوحيد ، فولاء هؤلاء الجنود المرتزقة كان يتوقف على انتظام دفع رواتبهم ، ولذا عمد بالاضافة الى ما كان يجبي من الضرائب ويفرض من المغارم ويصادر من الاموال والممتلكات الى انتهاج سياسة اقتصادية تزيد موارده وذلك بتشجيع التجارة الدولية وكان يقوم بمعظمها تجار فرنسيون . واخذ بتصدير كافة السلع وبنوع خاص (القطن) من ميناء عكا ، فعلى الرغم من كل مظالمه كتب القنصل الفرنسي في عكا الى دولته عام ١٧٨١ م يقول : « لا سبب للشكوى من الجزار فالتجارة الفرنسية مستمرة كالعادة على الرغم من انه ذو طبيعة استبدادية ولا يعترف بأي قانون سوى ارادته الخاصة » وكتب آخر : « ان الجزار مزيج من جنون وصواب وجودة وقسوة ونذالة وجرأة » الا انه فيما بعد عندما آنس من نفسه القوة ودانت له معظم بلاد سوريا اعتمد سياسة اقتصادية تهدف لاحتكار التجارة وكانت اولى خطواتها احتكار القطن فحدد اسعاره ومنع بيعه او شراءه من قبل اية وكالة الا هو . وعندما حاول التجار الاجانب تذكيره بالاتفاقات المعقودة مع الدولة العثمانية سخر من ذلك وافهمهم ان لا سلطان غيره فهو وحده الأمر الناهي ، في الاراضي التي يحكمها ، ثم امتد احتكاره الى الحبوب فاجبر المزارعين على زراعة القمح ومنعهم من بيعه او تخزينه وصدر جميعه الى مصر والمناطق المجاورة .

وكانت نتيجة ذلك ارتفاع حاد في اسعار الحبوب وصل الى ٤٠٠ ٪ فأخذ ببناء الشون (جمع شونه) اي الاهراء

الضخمة وخزن فيها البذار واخذ بتوزيعها على المزارعين في بدء موسم الزرع ولما امتد حكمه الى ولاية دمشق فعل مثل ذلك في غلال حوران . واصبح جميع المحصول يباع الى وكلائه في عكا ومنهم فقط يستطيع التجار ان يشتروا ولم يجرؤ اي كائن على الاحتيال اذ كانت سفنه وعيونه تراقب الشواطىء والموانىء بدقة سيما وانه كان قد حظر على اية سفينة مغادرة الميناء بعد الساعة الثامنة مساء ، وبذلك لم يعد هناك اي مجال للتهريب ، كما كانت اية محاولة من قبل التجار الفرنسيين لشراء القمح من الفلاحين يكون الرد عليها دون رحمه . ومثل هذه المحاولات ادت الى طرده التجار الفرنسيين من عكا وصيدا عام ١٧٩٠ فهو وحده يقرر اي المحاصيل يجب ان تتج للتصدير . وبذلك كانت موارده الماليه تنمو باضطراد بالاضافة الى الرسوم الجمركية الباهظة التي كان يفرضها على جميع الصادرات والواردات هذا عدا الغرامات الخاصة التي كان يفرضها بين حين وآخر على التجار والسكان المحليين ومصادرته الاملاك والمقتنيات الخاصة لسبب او لآخر ، الا ان الدخل الاكبر كان يأتيه من الضرائب المباشرة التي كان يفرضها على الرعية من ضرائب الميري وما إليها ، بطريقة ادارية فذه ، كل ذلك جعله على جانب كبير من الثراء حتى قدر القنصل الفرنسي في عكا عام ١٧٩٢ م ثروته باربعين الى خمسين مليون قرش بينما كان الباب العالي قدر ثروة سلفه ظاهر العمر الزيداني عند وفاته عام ١٧٧٥ م بخمسة وعشرين مليون قرش اي ان الجزار استطاع خلال سبعة عشر عاما من حكمه مضاعفة ثروته .

فهذه الثروة مكنته من بناء قوته الحربية الهائلة وحملت اليه ولاية دمشق اربع مرات كما مكنته اثناء ذلك من حماية قوافل الحجيج وقمع كل عصيان في اي جزء من البلاد التي تحت سيطرته . وقد حصلت عليه ثورة من قبل بعض مماليكه في ٣ ايار (مايو) من عام ١٧٨٩ م فقمعها دون رحمة ، وهذا مما زاد رغبته في جمع الأموال وتقوية جيشه ، اذ رأى نفسه وحيدا ، غريب الدار ، لا جذور شعبية له ، تكتنفه الكراهية من جميع رعاياه لشدة ظلمه وجبروته ولا مكان يلجأ اليه اذا انكسرت شوكته ، سيما بعد ان شعر ان الباب العالي قد شجع هذه الثورة عليه سرا للحد من نفوذه بعد ان تعاظمت قوته كثيرا وجعلته يتطاول على السلطنة ولا يأبه لاوامرها ، كما ساعدت فرنسا على ذلك بطريقة خفية . ولما تأكد من ذلك قام بطرد التجار الفرنسيين من عكا وصيدا كما اسلفنا ومنع اي ممثل لفرنسا من العوده الى عكا ، ولولا شدة دهائه وحنكته لما تمكن من القضاء على هذه الثورة الا ان ذلك زاد من طغيانه واصبح شك حتى في من يصطفيهم وزاد اهتمامه بمرتزقته ، دل بالكثيرين منهم سواهم سيما وخزائنه عامرة .

وعلم ان لا ملاذ له الا مدينته المحصنة فزاد من تقويتها وان لا سند له الا جنوده فأولاهم جل اهتمامه . وبقي مسيطرا ومطمئنا إلى وضعه المتين حتى علم باستيلاء نابليون على الاسكندرية عام (١٧٩٨ م) . . . .

التصدي لنابليون

تأكدت الدولة العثمانية ان نابليون اذا استمر يحرز الانتصارات فلا بد من ان يستولي على البلاد السورية ويهددها في عقر دارها فوجدت في الجزار القوي الحكام الذين يمكن الاعتماد عليهم ، ولذا وضعت سورية باسرها تحت امرأته ولقبته في نهاية هذا العام : والي دمشق وطرابلس ومصر وامير الحج وسر عسكر مصر ـ وعندها اخذ يعد الموانىء السورية التي تحت امرته للحصار وخاصة عكا مقره الدائم . تمكن نابليون من الاستيلاء على الموانىء الفلسطينية مرتكبا فيها ابشع المجازر حتى وصل امام اسوار عكا في ١٩ آذار ١٧٩٩ م فقام باربع عشرة محاولة لنسف الاسوار الا انها باءت بالفشل بعد ان ابدى المحاصرون من ضروب الشجاعة والاقدام ما يعد من المعجزات . فشنوا ما لا يقل عن ٢٦ هجوما على مراكز الجيش الفرنسي . كان اولها حتى قبل ان يهاجمهم الفرنسيون ، ومثل هذه الهجمات والبعثات الانتحارية اعترف بها مؤرخو الحملة الفرنسية واكبروها . اذ ان الجزار كان قد بث في جنوده روحا قتالية عالية فكان يظهر على الاسوار ويقاتل معهم قتال المستميت ـ حقا كانت تنجده مساعدات كثيرة فقنصل انكلترا في الاسكندرية كان قد ارسل له ١٢٠٠ قنبلة و ٤ آلاف كله ومدفعين من البرونز ، كما ان الاسطول الانكليزي الذي رابط في مياه عكا بقيادة السير سدني سمث اخذ يضرب الجيش الفرنسي من البحر كما استولى على خمس سفن فرنسية قدمت لمساعدة جيش نابليون البري ، نقلت مدافعها الضخمة الى اسوار عكا واستنجد الجزار بالفرنسيين الحاقدين على نابليون وهما (دي تروملين وفيليبو) وقد نظما وسائل الدفاع على الاسوار ووجها الـ ٢٥٠ مدفعا التي كانت منصوبة عليها كما اقترحا بناء سور داخلي بالاضافة الى السور القائم وقاما بنصب متاريس خلف المراكز التي كانت عرضة للهجوم . ويعزو كثير من المؤرخين صمود المدينة ودحر نابليون عنها الى السير سدني سمث هذا وذلك لأن معظم معلوماتهم مستقاة من مراسلاته الشخصية والتي اضفى فيها على نفسه وبحارته كل ثناء ووصل في ذلك الى اقصى حدود المبالغة مهملا الى حد كبير الاشادة ببطولة المدافعين عن المدينة وعزيمة الجزار . الا ان بعض المؤرخين الفرنسيين المتصفين وشهود الحملة النابليونية

اتصفوا الجزار وجنوده واكدوا ان عدم تمكن نابليون من فتح المدينة يعود الى هؤلاء ، اكثر من اي عامل آخر على الرغم من اعترافهم بعون السير سدني سمث ، وبفتك الطاعون بعدد لا يستهان به من الجنود الفرنسيين حتى اضطر نابليون الى رفع الحصار في ٢٠ آيار (مايو) ١٧٩٩ بعد ان دام شهرين . وبدحر نابليون ادى الجزار الى الدولة العثمانية خدمة جلى لم يستطع اى من ولاتها ان يقوم بها وهي الامبراطورية العثمانية من ان يحتلها جيش اوروبي قوي مدرب .

اما مظالم الجزار التي تحدث بها الركبان فكانت اكثر من ان تحصى ، مظالم شملت قطع الرؤوس والشنق والقتل افراديا وجماعيا بالخناجر والسيوف والفؤوس واستعمال الخازرق . وقد روى شاهد عيان انه شاهد اربعين رجلا يصطفون امام الأسوار لاجلاسهم على الخازوق الواحد بعد الآخر ، ولم ينج من بطشه حتى رجال حاشيته فكثير منهم فروا خفية ، امثال الياس ابراهيم اده الذي فر الى الشوف ويوسف القرداحي الذي فر الى اوروبا . اما مديرا ماليته مخائيل وبطرس السكروج فقتلهما وصادر اموالها كما انه جدع انف خازنه حاييم فارحي اليهودي وقلع عينه واودعه السجن حيث بقي فيه الى حين وفاة الجزار . كما كان يضع الاحياء ضمن الاسوار ويأمر بالبناء عليهم وقد شوهدت فيما بعد كثير من الهياكل العظمية ضمن الاسوار لدى تساقط بعض حجارتها . وعند عودته من الحج في احدى المرات واكتشافه خيانة احدى جواريه روى انه نضا عنها ثيابها ثم قطع ثدييها وبعد ذلك بقر بطنها والقى باحشائها الى السقف ثم امر باضرام كومة من الحطب حرق فيها ٣٧ من جواريه اذ كان يقبض على الواحدة منهن من شعرها ويلقيها في النار . وفي رواية اخرى انه جعل كلا منهن في كيس وضع فيه ثعبانا وهرة ثم امر بالقاء الأكياس في البحر .

وبعد حادثة الخيانه هذه داخله شعور بأن الناس يسخرون منه في قرارة نفوسهم وان لم يستطيعوا اظهار ذلك خوفا ورعبا فتشفى منهم بصلم الآذان وجدع الأنوف وسمل العيون . ويروى انه أمر مرة أحد الحلاقين بسمل عين احدهم فارتجفت يد الحلاق ، فقام الجزار بنفسه في العمل بأن وضع اصبعه في عين المحكوم مقتلعا عينه وملقيا بها في وجه الحلاق ليعلمه كيف يجيد حرفته . ومما يروى انه كان يقتل على هواه جميع طبقات الناس سواء كانوا من العامة او من الخاصة او من ارباب الحرف والصناعات كيفما اتفق ، ثم يطرحهم خارج الاسوار طعاما للوحوش ثم يأمر المنادين ان يخرج اقرباء القتلى لدفن الموتى دون ان ينبسوا ببنت شفه وان اية امرأة تبدى عويلا تقتل فورا .

السياسة العمرانية

الا انه من الناحية الاخرى قام باصلاحات جمة واعمال عمرانية خلدت ذكره حتى غدت مدينة عكا في عهده ـ على حد قول فولين رحالة القرن الثامن عشر ، أعظم مدن الساحل ، فقد جر المياه من ينابيع قرية الكابري الى مدينة عكا وبنى المسجد الذي عرف باسمه على طراز مساجد استامبول الفخمة ، ذا قبة كبيرة ومئذنة دقيقة الصنع غاية في الاتقان وقد عد هذا المسجد بحق ابدع مظهر للبناء في سوريا كلها في العهد العثماني . وكان قد استخدم في بنائه الكثير من الأعمده واللوحات الرخامية التي أمر باحضارها من آثار قيساريه وصيدا وصور ودير المخلص (حيث لا تزال هذه اللوحات شاغرة في الدير) . وقد احاط ساحة هذا الجامع باروقة مقبية قائمة على اعمدة من الرخام والغرانيت وجعل في ساحته مدرسة عرفت باسمه (المدرسة الاحمدية) لتدريس العلوم الدينية وما تزال قائمة الى يومنا هذا . كذلك جعل في ساحة المسجد مكتبة قيمه . وقد دفن فيما بعد في ضريح خاص به في ساحة مسجده هذا . واقام عند مدخل الجامع سبيلا للماء فخم البناء يعرف (بسبيل الطاسات) كما ابتنى حماما على درجة كبيرة من الفخامة والزخرف والاتساع على نمط حمامات استامبول الكبيرة ، وجعل في وسطه بركة رخامية ويعرف هذا الحمام (بحمام الباشا) وقد حوله الصهيونيون بعد احتلالهم المدينة عام ١٩٤٨ الى متحف .

كذلك بنى قرب الميناء الخان المعروف (بخان العمدان) أو (خان العواميد) لكثرة ما فيه من الأعمدة الضخمة التي امر بجلبها من آثار قيساريه ، وذلك ليكون مستقرا للقوافل وجعل في وسطه بركة رخامية كبيرة .

ومن مآثره انه لما استنجد به والي القدس لترميم المسجد الأقصى ان ارسل له بعثة من البنائين المعماريين الحاذقين ليقوموا بهذا العمل وأوكل امر هذه البعثة الى مدير جمرك عكا جريس مشي . . .

عاش الجزار بعد انتصاره الهائل على نابليون خمس سنوات حاكما مطلقا لا يكدر صفوه امر وكانت وفاته عام ١٢١٩ هـ ـ ١٨٠٤ م فتبارى الشعراء في ذمه وتعداد مظالمه مؤرخين ذلك ■■

قسطنطين خمار

مدير دائرة التربية والتعليم بمنظمة تحرير فلسطين في لبنان

حسنة باجي

قصة عميد الادب التركي : نجيب فاضل

ترجمة الدكتور : محمد حرب

كنت اقضي مدة خدمتي العسكرية الاجبارية ، ضابطا احتياطيا ، في تلك القرية قصبية ، عندما جاءوا لي بامرأة تبلغ الستين من عمرها ، لتقوم بشئون منزلي ، وكانت ضخمة الجسم ذات تعبيرات شابة ، صبت من قالب مميز ابتداء من النعل البلاستيكي الذي يحاكي الحذاء في قدميها حتى غطاء رأسها الذي يحاكي الحرير .

- ما اسمك ؟

- حسنة باجي .

- المطبخ والغسيل والكي وما الى ذلك من الامور التي تعرفينها أليس كذلك ؟

- يعني ! .. بقدر ما أعرف .

- كم تريدين ؟

- ما تدفعه .

- تولت مسئولية البيت . والبيت ذو طابقين يقع على شاطئ البحيرة ، قبلت العمل بشرط ان تأتي في الصباح وتعود في المساء .

كانت تصل عندما أكون على وشك التوجه الى عملي ، وكانت تعود منه بعد عودتي اليه بقليل .

ولدت هذه السيدة مع القرن العشرين . اصلها من (وان) ، أتت الى هذه المنطقة الغربية من الاناضول ، مع التعبئة (وهذا اسم للحرب العالمية الاولى) . واسهمت في نقل الذخيرة فوق ظهرها اثناء حرب الاستقلال الوطنية . لم تتزوج ، لا اقارب لها ولا أحباب ، وليس لها في دار الدنيا احد .. فقدت جميع أقاربها في التعبئة .

كانت تدخل البيت في الصباح كالظل . أفهم انها جاءت ، من اصوات الاواني الصادرة من الغرف ذات الموقد والتي تشبه المطبخ . تعد الافطار على مفرش تفرشه على قطعة خشب تستخدمها كمائدة ، ذات أربع ارجل لم يهذبها يد نجار بعد . تعد الشاي بلون رائق صاف جميل الحمرة يطلقون عليه دم الأرنب ، ثم تأتي أمامي لتجلس على صندوق ثم تنكب في التفرج علي وكأنها تتفرج على نوع من حيوان غريب .

وكنت مجبرا على اخذ طعام العشاء من المطبخ لأن حسنة باجي رتبت كل شيء وذهبت الى كوخها في اطراف القصبة .

لم اكن متصلا بأحد في هذه القصبية التي كانت قرية وكبرت . تأتي عربة في الصباح عقب حضور حسنة باجي ، لتأخذني وتقلني الى الثكنة العسكرية التي تقع خارج هذه القرية ، وهناك ايضا لا تلتفت عيناي نحو شيء قط غير عملي وواجبي .



اجد نفسي وانا في هذا المكان ، بعيدا عن منزلي وموطني ومعارفي . تثير اعصابي بفظاعة في هذا المكان ، بعض اعلانات وملصقات افلام السينما المحلية ، التي اراها في شوارع هذه القرية النائية اراها خطوطا قفزت اليها من المدينة الكبيرة . أجد نفسي في منفى عجيب . يخيل إلى ان البحيرة ذات اللون الأزرق النيلي امام بيتي ، وما حولها من جبال احاط بها الضباب ، قد اضافت بيني وبين استانبول مسافة لا يمكن قطعها . كان كل شيء باليا وقديما وفارغا وثقيلا جدا ، من البعوض الذي يملأ فترينات الخردواتي في السوق ، الى علب صابون الحلاقة الملفت كثيرا للانظار وحتى الى وجه حسنة باجي .

ان العصرية مثل رشاش الطين ورذاذه تنثره سيارات النقل عند مرورها في الطين والوحل فيقع هندام القصبة ويسوءها ، ولا تترك شيئا هناك يسمى الشخصية افكر قائلا : « لم تعد الشخصية غير البضاعة المغشوشة التي يشتريها السائحون مخدوعين ، وهم في السوق المغطى ، تبدو من بعيد وتشاركني نفس الفكرة : القبة الظريفة التي تشبه الهرم وتعلو مقبرة سلجوقية ، تحولت الى مخزن للشعير ، على الطرف الشمالي من البحيرة .

وفجأة حدث حادث ألهب هذه اللامبالاة الموجودة في ذلك العالم الفارغ الراكد . قال لي العطار ذو اللحية الغبراء ، بائع القرفة وحب الهال والسنامكي ، وهو الوحيد الذي كنت اقصده في القصبة ، قال لي وهو يقلب السكر في الشاي الرائق ذي الحمرة الجميلة :

ـ هل انت مسرور بحسنة باجي ؟

ـ وماذا ان كنت مسرورا أو وغير مسرور .

ـ انها سعيدة بك كثيرا .

لماذا ؟

ـ انت تصلي .

ـ شيء غريب . أهذا سبب ؟

ـ لا تقل هذا ! ان حسنة باجي تضع على ظهرها قفة وتجمع الحطب والأغصان المتساقطة من الاشجار ، تبيعه وتتعيش بثمنه . كما انها لا تذهب الى بيت احد .

ـ لماذا اذن جاءت عندي ؟

ـ السبب اني جعلتها تثق بك . قلت لها اي نوعية من الرجال انت ، لا يغرنك صمتها الدائم . انها امرأة وقور . والشموع توقد في كوخها كل ليلة وحتى الصباح لا احد يعلم ماذا تفعل في الكوخ . لكنك لو سألت أحدا من اهل القصبة عنها سيقول لك ان حسنة باجي عارفة بالله .

ـ لم اكن اعرف هذا ، فهي لم تتحدث معي .

ـ انها لا تتكلم الا اذا كان للكلام مناسبة . اشد ما يغضبها هم اولئك المسلمون الشكليون .

ـ « وماذا تعني كلمة مسلمون شكليون » ؟

ـ الذين يعيشون اليوم وليس لهم من الاسلام الا الاسم والشكل .

وعند طعام الغداء ، جاءت حسنة باجي امامي كعادتها وجلست تلمحني ، وبينما هي كذلك سألتها :

ماذا تعملين في دارك بالليل ؟

ـ اجلس وأفكر .

ـ فيم تفكرين ؟

ـ في ربي .

ـ الا تنامين قط ؟

ـ العمر يمضي في النوم .

ـ يقولون انك في صلاة وتلاوة القرآن وذكر الله حتى الصباح .

ـ لم يقولوا صدقا ، فمن انا ؟ ، ومن هو الانسان الذي يستطيع ذلك ؟

ـ اذن من هم الذين تسميهم بالمسلمين الشكليين ؟

ـ هؤلاء الذين تزدحم بهم الجوامع ، ومع ذلك هم لايدخلونها : كلنا .

اخذت حسنة باجي ـ فجأة ـ في ناظري معنى جديدا كل الجدة ، بحالها هذا لم استطع حتى ذلك اليوم النفاذ من قشرته ورؤية الجوهر الذي يرقد في اعماقه . انكببت على معرفة حيلة هذه المرأة بعمق اكثر :

ذبح ثوار البلقان ، في الحرب العالمية الاولى ، والد حسنة باجي ، ووالدتها واخواتها امام عينيها ، وفي اللحظة التي كان هؤلاء الثوار على وشك الاعتداء عليها وبينما هي تقاوم وتتخبط وملابسها تتمزق إلى قطع متناثرة . انقذها الهجوم المضاد الذي قام به في هذه اللحظة ، رجالنا . أخذها رجل عجوز خير ، وأتى بها الى هنا . ثم مات هذا ايضا . وأصبحت حسنة باجي وحيدة . رفضت كل من تقدم للزواج بها .

الحال دائما نفس الحال . سلمت وجهها تماما لله .

اثناء حرب الاستقلال ، وعندما كانت فتاة في العشرين من عمرها ، وقفت منتصبة القامة امام الجامع في صلاة الجمعة وصاحت بأعلى صوتها موجهة نداءها الى داخل الجامع :

ـ أيها المسلمون ! ارفعوا رؤوسكم من السجود ، اخرجوا من صلاتكم ، إن صلاتكم غير نافعة ، اطردوا الكفار من بلادكم أولا لكي تستطيعوا السجود لله !

وكان وقع هذا الكلام شديدا مذهلا أدهش كل الذين سمعوها . سجل اكثر الموجودين في الجامع اسماءهم في حرب العصابات وتوجهوا للقاء العدو ـ وكانت تعمل معهم كرجل .

وذات يوم استدعاها قائد القوة اليونانية التي كانت احتلت



القصبة فترة من الوقت . واخذ يتحدث معها امام الموجودين معه ولكن عندما بدأ يخدش حياءها هبت وخطفت السونكي الذي كان موجودا في ركن قريب ثم تناولت درعا واحتمت به وصاحت بالقائد قائلة :

ـ لا أدري ان كنت أنت رجلا أم لا ! لكني لست امرأة ! !

ولم يفعل بها القائد شيئا قط .

حسنة باجي ، امرأة لم تمس يدها ، يد رجل طوال حياتها .

ومن ذلك اليوم ، تعيب على كل من يقابلها وتلقنه هذا الدرس :

ـ كن مسلما ! لا تكن مسلما شكليا .

أما القصبة ، فهي مسرورة بهذه المرأة « نصف المجنونة » التي يلفها هذا الوقار ، المدفون في داخلها ، والرجل الوحيد الذي تثق به وتمر على دكانه وتدخل بيته وتقبل الجلوس على مائدته ، هو صديقنا العطار الملتحي .

سألني ذات يوم :

ـ لماذا تصلي في بيتك ولا تصلي في الجامع ؟

ـ اني أسأم الرتابة الشكلية التي أراها في الجامع مع اقامة الشعائر . كما تنتابني احيانا احوال اجد نفسي فيها راغبا في الصلاة منفردا ، لا يراني احد .

ـ شعورك طيب على كل حال . انما يجب الا يكون ذلك مانعا لذهابك الى الجامع اذهب . . . اذهب الى الجامع .

صلاة الجمعة ، والخطيب على المنبر ، والمسلمون : بعضهم وضع « الكاسكيت » على رأسه ، وبعضهم يربط رأسه بمنديل والبعض ليس قبعته الدائرية الكبيرة وشدها على رأسه حتى وصلت الى اذنيه يستمعون الى الوعظ باكتاف غير مبالية ، واذا بصوت من الخلف ، من مكان النساء المفترض عدم حضورهن الجمعة ، ينطلق قائلا :

ـ ياسيدنا الامام ! ماذا تقول ؟ ! ولمن تقول ؟ ! !

ادار كل من في الجامع رأسه بدهشة مخيفة ، وبينما يبحثون عن صاحب الصوت رأوا فجأة حسنة باجي ، وقد قامت واقفة على قدميها .

ـ هبطتم بالاسلام الى درك الصلاة الشكلية بأجسامكم ، والى اطلاق آهات حلقات الذكر عندما تواجهون كل مالا تستطيعون فهمه .

الاضطراب لا يوصف : الرؤوس تبحث عن بعضها متسائلة عما يجب عمله .

ـ هيا قوموا واندفعوا الى الشوارع ! اسألوا عما حدث للأمانة ! اين المسلمون ؟ أين هي ديار المسلمين ؟ ما هذه الحياة التي لا يقبلها حتى الكلاب !

خوف عظيم .

تتخطى حسنة باجي صفوف الرجال ، وحذاؤها البلاستيكي في يدها ، تتخطى رقابهم لتصل الى باب الجامع ولتدفع بنفسها الى الخارج ، وهي ماتزال تصيح :

ـ أأنتم مسلمون ؟ اين انتم من الاسلام ؟ وانفلت في اثرها شخصان .

واحد من الناس يقول : ستقبض عليها الشرطة الآن .

وذهبا بحسنة باجي الى مركز الشرطة : الى الضابط المعروف بطيبة قلبه .

يسألها الضابط :

ـ انت لم تتفوهي بشيء من هذا ، اليس كذلك ؟ يقولون انك دعوت المسلمين للثورة ، لاصحة لهذا يا حسنة باجي ، اليس كذلك ؟

ركزت حسنة باجي عينيها اللتين تشبهان السونكي الذي سحبته على الضابط اليوناني اثناء حرب الاستقلال .

ـ حدث هذا أو لم يحدث ، لا ادري ، لكن الذي ادريه ان المسلمين غير موجودين .

ـ هل أسند اليك احد مهمة البحث عنهم ؟

ـ قبل الآن بنحو من اربعين سنة دخلت الجامع وكنت ابحث عن مسلمين بهذه الصفات .

ـ وهل وجدتهم ؟

ـ وجدتهم . ولا اجدهم الآن .

ـ تبحثين عنهم ضد من ولا تجدينهم ؟

وبينما انتظر ، وأنا في اشد حالات القلق ودقات القلب السريعة ، انتظر الجواب الذي ستنطق به حسنة باجي ، اذا بعينيها قد اتسعت دهشة ، ثم القت بجوابها :

ضد أهل المدن المترفين !

وفي اليوم التالي ، وعندما لم تحضر حسنة باجي الى منزلي ، سألت عنها فعلمت انها بعد ان باتت ليلة في مركز الشرطة ، حلت القفة مرة اخرى ، بتوصية من الضابط الطيب القلب وذهبت لتجمع الحطب والاغصان المتساقطة من الاشجار من الجبل ، وعندما طلب منها ان تعده بانها لن تذهب الى الجامع مرة اخرى ، قالت :

ـ حتى لو ذهبت ! ماذا سأفعل ؟ اذ ليس في الجامع احد . ■■

ترجمة/الدكتور محمد حرب

حوار القراء

دولة البحرين والعربي

● مجلتكم لا تصلنا في موعدها أول كل شهر ، وكثيرا ما تتأخر الى منتصف الشهر بل حدث أنها تأخرت أكثر من ذلك علما بأننا في دولة بعيدة ، بل نحن على بعد نصف ساعة بالطائرة من الكويت ونأمل أن تصل المجلة الى أيدينا في موعدها كما هو عندكم في الكويت . وان كان ردكم بأن هناك صعوبات تواجه طباعة المجلة بسبب أحداث لبنان فلم لا تطبع المجلة في مطابع الكويت . .

من دولة البحرين
أخوكم : يوسف الشعبان

« العربي » : مجلة العربي تطبع على مطابع دولة الكويت ، وليس على مطابع لبنان ، كما ذكرت .

●

السنغال

● قرأت استطلاع مجلتكم الغراء عن السنغال في العدد ٢٧٨ وعرفت من خلال هذا الاستطلاع القيم المحاولات التي ترمى الى تغيير الهيئة الحضارية لهذا البلد .

ولكن ثمة خطأ في الخريطة الموضحة لموقع السنغال بالنسبة للدول الافريقية . ففي جنوب غربي السنغال توجد وحدة سياسية صغيرة المساحة هي غينيا بساو وليست غامبيا كما هو موضح بالخريطة ، أما غامبيا فهي وحدة سياسية صغيرة المساحة تتوغل في السنغال نفسها وهي ذات شكل ملتو ويبلغ طولها حوالي ٣٠٠ كم وبعرض يتراوح بين ٢٠ ـ ٤٠ كم . وتعتبر هذه الدولة امتدادا طبيعيا وبشريا للسنغال .

وجدير بالذكر أنه لم ترسم هذه الدولة في الخريطة الموضحة .

محمود محمد الشرقاوي
طنطا / مصر

أرمينيا الصغرى

طالعت في العدد ٢٧٧ من العربي تحقيقا بعنوان « المماليك داوية الاسلام » وفيها صادفت بعض المعلومات الخاطئة التي وردت بشأن مملكة أرمينيا الصغرى . فهذه المملكة لم تكن من القوى التي أفرزتها الحركة الصليبية في اقليم قيليقية كما ورد في التحقيق بل كانت موجودة قبل مجيء الصليبيين بأكثر من قرن من الزمان (تأسست عام ١٠٨٠) وكانت هذه المملكة في البدء متعاونة مع التتر الا أنه مع مرور الزمن انقطعت الصلة بين الطرفين وتحولت الى عداء ولا سيما أن التتر كانوا يحتلون بلاد الأرمن في اقليم أرارات فكيف الصداقة بينهما ؟

كثيرا ما أخطأ المؤرخون والمحققون في تفسير العلاقات بين مملكة أرمينيا الصغرى والصليبيين بل أن بعضهم ذهب الى درجة اعتبر فيها مملكة أرمينيا الصغرى احدى الامارات الصليبية ، ولكن الواقع مغاير تماما ، اذ أن مملكة ارمينيا الصغرى لم تكن صليبية ولم تتشكل من هجرة الأوربيين اليها ،بل كانت مملكة أرمنية تشكلت من هجرة الأرمن اليها من وطنهم الأصلي أرمينيا بعدما عانوا من اضطهاد المغول والأتراك القادمين من أواسط آسيا لاستيطان بلادهم .

وأدلة هذه الحقائق كانت ماثلة للعيان حتى مطلع الحرب العالمية الأولى عندما كانت قيليقية تزخر ببقايا الأرمن فيها حتى تجاوز عددهم فيها المليون نسمة ، الى أن المجازر التي تعرض لها الأرمن من قبل السلطات التركية في عام ١٩١٥ أدى الى تبعثرهم واختفائهم من قيليقية وهذا هو سر وجود الطوائف الأرمنية العديدة في بلاد المشرق العربي حاليا .

هراج اسحق / حلب

« الامن الثقافي من يحميه »

حديث الدكتور شاكر مصطفى في العدد رقم «٢٧٨» ... جاء ليسلط الضوء من جديد ، ومن خلال رؤية مخلصة .. وحرص حقيقي على مصلحة هذه الامة .... ولا اجمل من ربطه الثقل السياسي والثقل التكنولوجي بالثقل الثقافي الغربي الذي اصبح بالفعل «غولا» على الثقافات الاخرى ، ولا سيما ثقافتنا العربية .. التي حكم عليها بالانصهار تدريجيا في وعاء الثقافة الغربية ، او بالفقر الثقافي من خلال التبعية الملعونة ممثلة بهجرة الادمغة عن مواطنها الاصلية .. لتصب بالتالي عطاءه في شريان الثقافة الغربية . في حين ... تبقى نحن في الدول النامية (وبالأخص) في شرقنا العربي ، تتلقف كل غث مريض من وسائل الثقافة الغربية الموجهة بدءا بلعب الاطفال وافلام السينما وانتهاء بالموسيقا المجنونة .. ناهيك عن قصص الجريمة التي تتنافى مع اخلاقنا وثقافتنا العربية ...

.. والحق ، ان كلمات الدكتور مصطفى شحنتنا شوقا - الى الاصالة - الى طابع الثقافة العربية ، لمواجهة الطابع الغربي الكاسح قبل ان نتغرب ونتغربل » .

... انها وبحق مشكلة .. تحتاج الى رجال أمن .. من نوع اخر .

فوزي عوض الله حسين
الزرقاء / الاردن

●

اخلاق الحرية

● قرأت في عدد - ٢٧٧ - العربي - صفر ١٤٠٢هـ - كانون ١٩٨١ مقال الدكتور احمد كمال ابو المجد ، المعنون بـ « اخلاق الحرية وأخلاق الاستبداد » واحب ان اتساءل عن معنى وجود كلمات اجنبية بالمقال مع العلم ان السيد الدكتور قد ترجمها ، وانا لا اطيق ان ارى في مجلتي العزيزة اي وجود لحروف اجنبية ، ولان العربية - كما يعرف الجميع - مليئة وواسعة الثراء بكل المعاني والمفردات ، ولا حاجة للاستعانة باللغة الاجنبية مطلقا لوضع كلمات اجنبية في نص عربي ، اقول ذلك لأني قضيت فترات طويلة مع هؤلاء الاجانب . الذين لا يطيقون ان يشاهدوا او يسمعوا كلمة عربية فكيف نحن نكتب بلغتهم ؟ .

وليد كنعان . تايوان
الصين

أويا الأمس

● ورد في باب الاستطلاع الرائع « أويا الأمس طرابلس اليوم » من العدد ٢٧٧ لمجلتنا العربي الغراء الآتي :

« لقد كانت لبده من بين اكبر المدن وأوسعها عمرانا في العصر الروماني وبصورة خاصة في عهد الأباطرة من أسرة سويروس ١٩٣ - ٢٥٥م الذين يتحدرون من أسرة عريقة من مدينة لبده نفسها » ..

من المعروف أن اسرة سويروس أو سيفروس انتهت عام ٢٣٥م وليس في عام ٢٥٥م والدليل على ذلك أن آخر أباطرتها هو سيفيروس الكسندر (٢٢٢م - ٢٣٥م) وذلك على حد قول الدكتورين لطفي عبد الوهاب يحيى وعبد اللطيف أحمد علي في كتابيهما عصر الامبراطورية الرومانية .

كما ورد في الاستطلاع أيضا أن قوس ماركوس أوريليوس بني سنة ١٦٣م تكريما له ولكن المرجح أن معظم التماثيل للأباطرة والشخصيات البارزة كانت تقام بعد موت أصحابها .

فالامبراطور ماركوس أوريليوس ارتقى العرش من سنة ١٦١م - ١٨٠م .

عبد الله محمد حاج عبدو
حلب / عفرين / الجمهورية العربية السورية

قضية التطرف الديني

● قرأت في عدد يناير/ ١٩٨١ الجزء الخاص بقضية « التطرف الديني وقد اعجبني في هذا الجزء اسلوبه الهادىء الرزين والذى يخاطب عقول الشباب المسلم بدون غموض وينير لهم الطريق ، اننا نفتقد مثل هذه المقالات الجيدة ونرجو الاستمرار في طرح قضايا اخرى تهم الشباب ، ومعذرة فانا لم اكن اشترى مجلة العربي من قبل ، والآن اصبحت مدمنا على قراءتها .

وحيد عبد الحفيظ محمد
جمهورية مصر العربية

●

سقوط غرناطة

● أثناء قراءتي لمقال الاستاذ عبدالله عنان الموسوم « لماذا تهمل الجامعات تاريخ الأندلس » بالعدد ٢٧٧ من العربي لفتت نظرى هذه العبارة « ... قبل سقوط غرناطة النهائي في يد الاسبان سنة ١٤٩٤م » .

والمعروف أن غرناطة سقطت في يد الاسبان ١٤٩٢م لا سنة ١٤٩٤ كما جاء في المقال ، وهذه السنة (أى ١٤٩٢ توافق سنة ٨٩٨ هجرية وهي نفس السنة التي اكتشف فيها كريستوف كولومبوس أمريكا) .

أمل مصطفى
الدار البيضاء / المغرب

دنيا العرب

● قرأت قصيدة دنيا العرب للشاعر محمد الحلوى « صفحة ٢٠ ـ العدد ٢٧٦ » يصور فيها حالة العرب .

ويبدو ان الشاعر الحلوى راح يعالج قضايا امتنا ويصف لها الدواء دون ان يشخص المرض جيدا . فقد وردت بعض الالفاظ مثل « امم ، شعوب » بينما العرب امة واحدة وشعب واحد ولغة وتاريخ وآمال وآلام واحدة . واذا اعتبرنا هذه الالفاظ هي مجرد شكل فلا سبيل الى المضمون الا من خلال الالفاظ ، وأضع بين يديكم بعض الابيات مستبعدا الفاظ « امم ـ شعوب » قال الحلوى :

هل أدركت أمم العروبة داءها
فاستنهضت لعلاجه حكماءها
خدعوا الشعوب واوهموها ان في
تلك المذاهب عزها وثراءها
هل حققت قمم العروبة مطمحا
لشعوبها هل كفكفت اهواءها
واذا الشعوب استسلمت في طاعة
عمياء ضلل حبها رؤساءها

أقول

ان العروبة لا تكاشف داءها
فاستنهضت لعلاجه حكماءها
خدعوا النفوس واوهموها ان في
تلك المذاهب عزها وثراءها
هل حققت قمم العروبة مرتقى
لطموحها هل كفكفت اهواءها
واذا القلوب استسلمت في طاعة
عمياء ضلل حبها رؤساءها

ومن اراد الطريق والعلاج السليم فلن يفقد الوسيلة ، والادب نوافذه مفتوحة لكل رياح النقد مادام غايته نبيلة .

فاروق حكيم
سوريا

نزهة العقل الذكي بجوائز العربي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

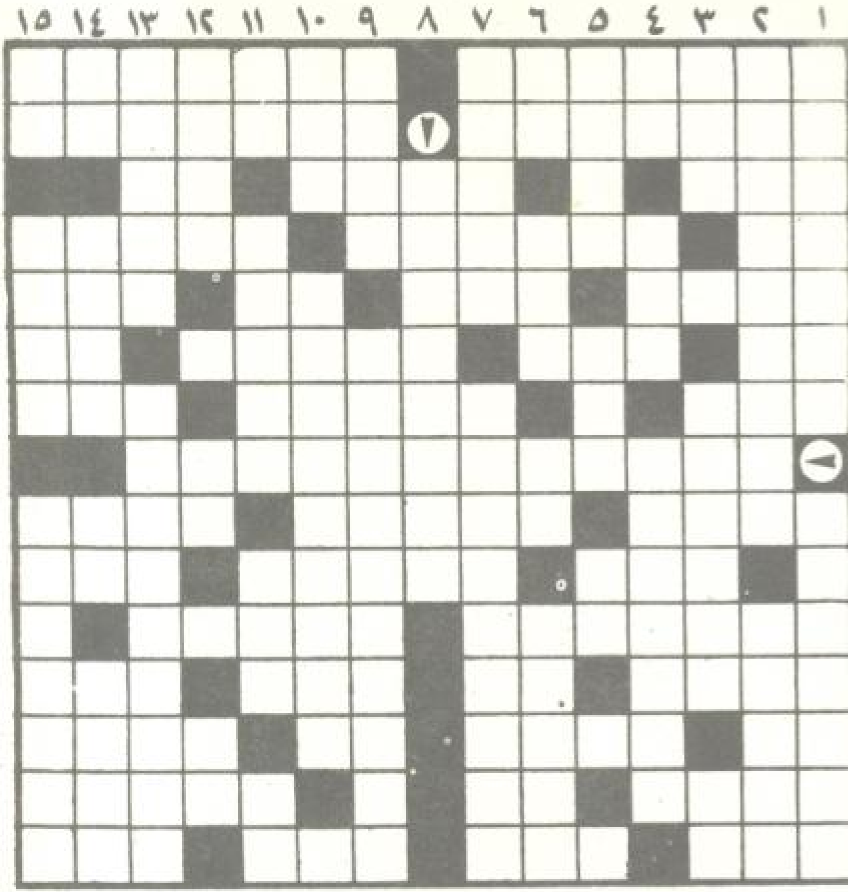
ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٨١ » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول يونيو (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم عالم رياضي اسلامي . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم طبيب وجراح اندلسي .

كلمات أفقية :

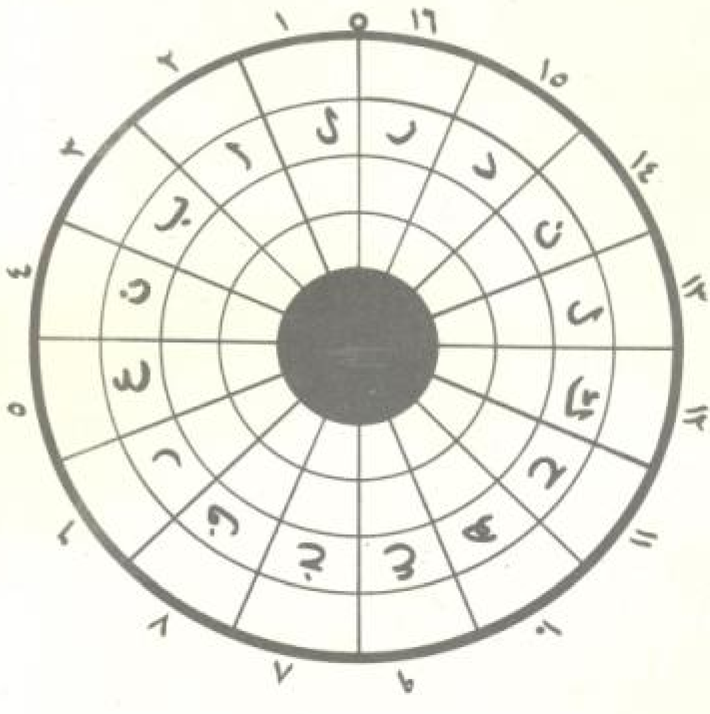
(١) عالم ايطالي وضع أسس علم التشريح المجهري ـ شاعر عباسي .
(٢) من البرمائيات ـ يأتي بعد الفعل .
(٣) أخرج النفس ممدودا ـ بحيرة افريقية ـ نصف كلمة (طافت) .
(٤) حرفان متشابهان ـ كثرة التغير من حال الى حال ـ في الأصابع .
(٥) متكرر الايقاع ـ من التشويات ـ للتعريف ـ قتال .
(٦) للتفسير ـ جشع ـ أفزعنا ـ نصف كلمة (نياط) .
(٧) أمال ـ أراقب حركته ـ انحنى وطأطأ رأسه .
(٨) عالم رياضي اسلامي .
(٩) أحصل على ـ مجاري مائية صغيرة ـ لاعب .
(١٠) خلط ـ شهر شمسي ـ بدا .
(١١) احتفال زمني ـ أعداد .
(١٢) مجيد ـ نصف كلمة (فاته) ـ في الفم ـ من امارات الخليج .
(١٣) للتعريف ـ يقصد ـ نصف كلمة (وهاب) يذهب .
(١٤) قذيفة ـ كثيف ـ ضد السم .
(١٥) يفك ـ سخاء ـ راية ـ علم .



كلمات رأسية :

(١) كاردينال كان رائدا للسياسة الفرنسية في القرن السابع عشر ـ الأفضال .
(٢) أصغر دولة مستقلة ـ نبات سام .
(٣) من المكاييل ـ موقعة بحرية انتصر فيها اليونان على الفرس قبل الميلاد ـ نصف كلمة (تلجأ) .
(٤) حرف استفهام ـ تجل ـ من أنواع البكتيريا .
(٥) يستفسر ـ سكن ـ ألغى .
(٦) رمز رياضي ـ مكتمل ـ نصف كلمة (سقوط) ـ يغير من شكله .
(٧) يزدري ـ عالم بصريات عربي من القرن الحادي عشر .
(٨) طبيب وجراح اندلسي .
(٩) حيوان أليف ـ أهم كتب دارون .
(١٠) شرع ـ شهادة جامعية .
(١١) نصف كلمة (وادى) ـ مجرى مائي ـ يضاف للاسم ـ اكتمل .
(١٢) تمج ـ صديق ـ نصف كلمة (سفير) .
(١٣) في الباب ـ نادى رياضي عالمي معروف .
(١٤) نصف كلمة (أعين) ـ عملة اوربية ـ نصف كلمة (هادى) ـ كساد .
(١٥) سئم ـ من الفصول ـ كاتب وأديب عربي معاصر .





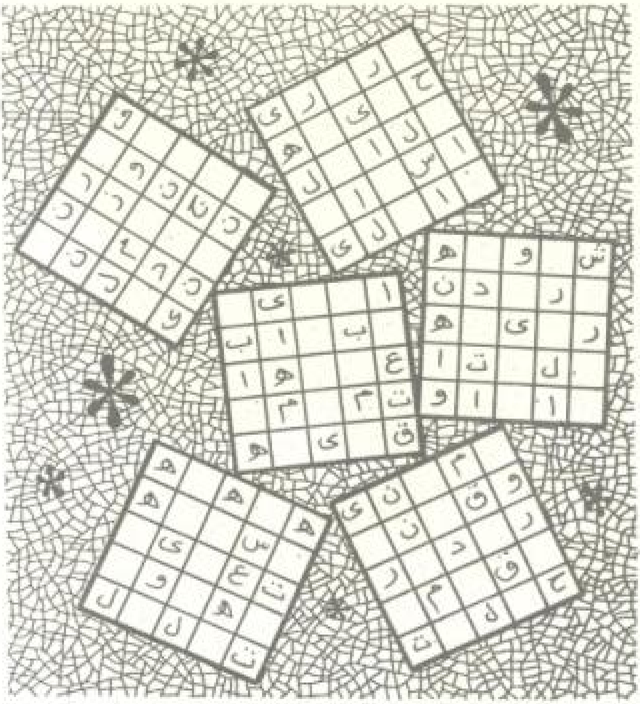
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الأحرف الأربعة ، والتي نعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

مخترع كيميائي من أصل بلجيكي اخترع ورق التصوير

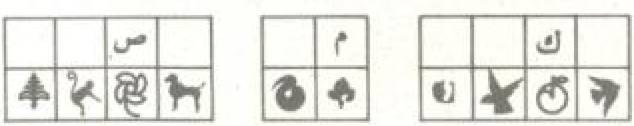
(١) طائر (٢) ثمين (٣) يظهر (٤) صبر (٥) يساعد (٦) من الحشرات (٧) من السلك الدبلوماسي (٨) يدس (٩) اختبر (١٠) بقر (١١) أتى (١٢) ربب (١٣) مؤذن الرسول (١٤) أخبر (١٥) أكتب (١٦) أبغى .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات سميكة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يشير الى :

من يرتدي الكثير من الملابس

الحلول

حول الدائرة السوداء :	العواصم :	مثل عربي :
ليو هنتريك بيكلاند .	كمبالا .	أكسى من بصلة .

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

دعوة

الى الترشيح لجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

تمشيا مع أهداف مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وتحقيقا لأغراضها في تدعيم الانتاج العلمي وتشجيع العلماء والباحثين . تقوم المؤسسة بتخصيص جوائز في مجالات العلوم والآداب والفنون وذلك وفق برامجها السنوية وخططها على المدى البعيد والقريب

ومن خلال هذه الجوائز تسجل المؤسسة اعترافها بالانجازات الفكرية المتميزة التي تخدم التقدم العلمي وتساعد على النهوض بالمجهودات المبذولة لرفع المستوى الحضاري في مختلف الميادين

أ ـ على مستوى الوطن العربي بما فيه الكويت :

تمنح المؤسسة في كل من الحقول الخمسة الآتية : ـ

١ ـ العلوم الأساسية : في الرياضيات **Mathematics**

٢ ـ العلوم التطبيقية : في مجال العلوم البيئية والتطبيقية **Environmental Applied Sciences**

٣ ـ الآداب والفنون : في القصة القصيرة* **Short Story**

٤ ـ احياء التراث العربي والأسلامي : في الفلك عند العرب **Arabic Astronomy**

٥ ـ العلوم الاقتصادية والاجتماعية : في مجال تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي **Human Resoures Development in the Arab World**

* لأحسن مجموعة قصصية صدرت في كتاب خلال ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ ذات مستوى فني رفيع وأهداف قومية واجتماعية بلغة عربية فصيحة . وليس المقصود بذلك دراسات عن القصة القصيرة

جائزة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار كويتي (١٠٠٠٠ د . ك) لكل من (واحد أو أكثر) أسهم بصورة رئيسية وقدم اضافات جديدة في الحقل

ب ـ على مستوى دولة الكويت

تمنح المؤسسة في كل من الحقول آنفة الذكر جائزة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار كويتي (١٠٠٠٠ د . ك) لكل كويتي (واحد أو أكثر) أسهم بصورة رئيسية وقدم اضافات جديدة في الحقل

ويشترط في من يحصل على جائزة المؤسسة

(١) أن يكون النتاج مبتكرا وذا أهمية بالغة بالنسبة الى الحقل المقدم فيه خلال العشر سنوات الماضية

(٢) أن يكون المرشح من أبناء الأقطار العربية

(٣) تقبل المؤسسة طلبات المتقدمين وترشيحات الجامعات والهيئات العلمية كما يحق للافراد الحاصلين على هذه الجائزة ترشيح من يرونه مؤهلا لنيلها ولا تقبل ترشيحات الهيئات السياسية

(٤) يتضمن الترشيح السجل العلمي للمرشح ونبذة مختصرة ... عن حياته ونتاجه العلمي ومبررات ترشيحه لنيل هذه الجائزة

(٥) لا يعاد الانتاج المقدم الى مرسله فاز المرشح أو لم يفز

(٦) لا تقبل الاعتراضات على قرارات المؤسسة بشأن منح الجوائز للفائزين

(٧) على الفائز أن يقدم محاضرة عن الانتاج الذي نال الجائزة عنه

(٨) تقبل الترشيحات ابتداء من ١/٣/١٩٨٢ الى ٣١/١٠/١٩٨٢

(٩) ترفق مع الترشيحات اربع نسخ من الانتاج المقدم وترسل على العنوان الآتي :

السيد/ مدير عام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
ص . ب (٢٥٢٦٣) الصفاة
الكويت

تقدم المؤسسة مع الجائزة النقدية ميدالية تقديرية وشهادة تبين مميزات الانتاج بصورة مقتضبة



مِنَ المسرح العالمي

سلسلة ثقافية

تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام في الكويت

أول ابريل ١٩٨٢

١٥١

من الأعمال المختارة

يوجين أونيل - ٥

الإله الكبير براون

ترجمة وتقديم : د. عبد الله عبد الحافظ

مراجعة : د. طه محمود طه

نصائح من أكبر مؤسسة لتصدير اللحوم والمواشي في العالم

تعتبر استراليا في طليعة البلدان المصدرة للحوم والمواشي ، وهي تتعامل في هذا المجال مع مايزيد عن مائة دولة في مختلف أنحاء العالم .. وقد بلغت الصادرات الاسترالية من لحوم الابقار والاغنام والماعز المبردة والمثلجة في العام الماضي نحو مليون طن .



وتتولى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تصدير مثل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم والمواشي . وللشركة عدد من المكاتب في الشرق الاوسط ، والاسواق العالمية الكبرى .

وتهتم هذه المكاتب بترويج اللحوم وتقديم الاستشارات والمساعدات المباشرة للمستوردة .

كيف تساعد الشركة المستوردة

يعمل لدى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي خبراء متخصصون بالتسويق والاقتصاد والتنمية وفن الاعلان بهدف تنشيط التجارة مع استراليا .

فاذا كنت بحاجة الى بعض المعلومات عن توفر اللحوم والمواشي ونوعياتها واجراءات الشحن والشروط الصحية وسواها من المعاملات والاعلان ، فما عليك الا أن



تتصل بالمدير الاقليمي للشرق الاوسط : السيد فيليب روسال أو المدير الاقليمي للمكتب الاوروبي السيد رالف هود .

الشحن

تقوم الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بدراسة وتحديد كميات وأسعار اللحوم والمواشي المراد شحنها وكذلك وسائل الشحن الممكنة عبر الطرق الدولية .

AUSTRALIAN MEAT & LIVE-STOCK CORPORATION

AML 1875

التأكيد على النوعية

ان الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تستخدم جهازا من الفنيين داخل استراليا وخارجها لمساعدتك في تقديم طلباتك والتأكد من أن المنتجات التي أرسلت لك تطابق المواصفات المطلوبة بما في ذلك ذبح المواشي على الطريقة الاسلامية

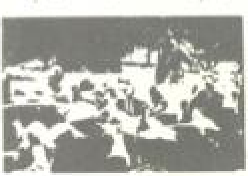
وهناك كتيبات تتضمن معلومات عن كافة اعمال الشركة والاصناف التي تتعامل بها يمكن الحصول عليها من المكاتب الاقليمية للشركة .

أذون التصدير

تطبق الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بعض الشروط المالية والانتاجية في تعاملها مع المصدرين حتى تجنب العملاء أي اشكالات أو مضايقات هم في غنى عنها .

أين تجد النصيحة

في امكانك الحصول على أي نصيحة او استشارة في هذا المجال عن طريق :



السيد / فيليب روسال
ممثل « باتين سنتر »
الشركة الاسترالية للحوم والمواشي
ص . ب (٥٦٢٢)
هاتف ٢٤٤٠٠٩
تلكس ٤٩٠٩٤٧٦ AMLC BN
المنامة / دولة البحرين

أو

MR. RALPH HOOD 9 KINGSWAY LONDON, WC. 2 ENGLAND

بسم الله الرحمن الرحيم

المعهد العربي للتخطيط بالكويت
ص ب ٥٨٣٤ الصفاة الكويت
الهاتف: ٤٢٥٢٦١ - ٦
العنوان البرقي: كوينست - تلكس ٢٢٩٩٦ كت

THE ARAB PLANNING INSTITUTE-KUWAIT
P.O.Box. 5534 Safat, Kuwait
Tel 425261 _6
Cable KUWINST, Telex 22996KT

اعلان

عن شغل وظائف في الهيئة العلمية لدى المعهد العربي للتخطيط بالكويت

يعلن المعهد العربي للتخطيط بالكويت عن حاجته لشغل وظائف لاعضاء الهيئة العلمية في المعهد للقيام بالتدريب والبحث العلمي وتقديم الاستشارات كل في مجال تخصصه . اعتبارا من أول أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٨٢ . ويشترط في المتقدم للوظائف المذكورة أن يكون حاصلا على درجة الدكتوراه في مجال تخصصه ، مع خبرة بحثية وتطبيقية في أجهزة التخطيط بالبلدان العربية والمؤسسات المتصلة بها . ويمكن التغاضي عن شرط الدكتوراه في حالات استثنائية اذا توفرت خبرة طويلة وعميقة بمجال التخصص .

هذا وسيتم التعيين وتحديد المرتب طبقا لسني التخرج والخبرة في احدى الدرجات والتخصصات التالية : خبير مساعد (مدرس جامعي) ، خبير (أستاذ مساعد) ، مستشار (استاذ) .

١ ـ تخطيط القوى العاملة :

يكون تخصصه الاجتماع أو الدراسات السكانية مع خبرة في تخطيط القوى العاملة والتعليم ، مع معرفة باستخدام وتطبيق الاساليب الكمية في تخطيط القوى العاملة .

٢ ـ تخطيط التنمية :

ويكون تخصصه التخطيط الاقتصادي مع خبرة عملية في أجهزة التخطيط في مجال التحضير للخطة القومية ومراحل اعدادها ومتابعة تنفيذها وتقييم أدائها .

٣ ـ الحسابات القومية :

ويكون تخصصه الاقتصاد القياسي أو الاحصاء التطبيقي أو الحسابات القومية ، مع معرفة عميقة في تطبيق نظم الحسابات القومية ونظام الموازين في عمليات التخطيط للتنمية .

٤ ـ التخطيط الاقليمي :

يكون تخصصه المستوطنات البشرية أو التخطيط الاقليمي والحضري مع خبرة عملية في مجال تنظيم الاقاليم الاقتصادية والتخطيط السكاني وتخطيط المدن .

٥ ـ تخطيط الخدمات (التخطيط الصحي) :

يكون تخصصه تخطيط الخدمات الاجتماعية أو الصحية والتخطيط لمشروعاتها مع خبرة بحثية وتطبيقية في هذه المجالات .

٦ ـ تخطيط النقل والمواصلات :

يكون تخصصه اقتصاديات النقل والمواصلات ، مع خبرة عملية وتطبيقية في أجهزة التخطيط المختصة في هذا القطاع .

ترسل الطلبات بالبريد باسم مدير المعهد العربي للتخطيط بالكويت مباشرة ، وذلك في موعد لا يتجاوز آخر شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٨٢ ، ويذكر بالطلب فرع التخصص المراد شغله ، ويرفق به نسخة غير قابلة للرد من كل بحث أو مؤلف منشور في تخصصه تمهيدا للعرض على اللجان العلمية لفحص الطلبات المقدمة .

عنوان المعهد العربي للتخطيط بالكويت
ص . ب ٥٨٣٤ ـ الصفاة ـ الكويت

LOOKING FOR AN INTERESTING, HIGH-PAY CAREER?

GET INTO THE EXCITING WORLD OF COMPUTERS

إذا كنت تفكر في وظيفة ممتعة ومجزية للغاية ولها مستقبل باهر من خلالها تستطيع الوصول الى القمة ، فما عليك إلا أن تسأل نفسك سؤالين هما : ما هي الصناعة الواسعة الانتشار في كافة ارجاء العالم ؟ وكيف يمكن الوصول اليها ؟ لست في حاجة لمن يخبرك أن الكمبيوتر يجيبك عن السؤال الأول . أما الاجابة عن السؤال الثاني فهي بنفس السهولة وهي التحاقك بمركز الكمبيوتر العالمي في برمجة **وتشغيل الكمبيوتر او كصاحب مهنة في الكمبيوتر** مؤهل تأهيلا جيدا .

هل انت كفء ؟

ومع ان هذا العمل يحتاج افرادا مؤهلين تأهيلا جيدا إلا ان ثورة الكمبيوتر لم تبدأ بعد ، فالفرص العظيمة في انتظار النساء والرجال المؤهلين . والحكومة البريطانية وهي ترعى أحد مراكز الكمبيوتر قد أعلنت عن وجود اكثر من ٢٠,٠٠٠ وظيفة في صناعة الكمبيوتر في المملكة المتحدة فقط . وليس كل واحد مناسبا لهذا العمل مع انه ليس بالضرورة ان تكون ضليعا في الارقام . ولكن تحتاج ان تكون قد قطعت دراسة المرحلة الثانوية . فاذا كان هذا الشرط متوفرا لديك فان معهد تدريب الكمبيوتر العالمي يؤهلك لوظيفة هامة في صناعة الكمبيوتر .

نحن نعطيك المؤهل المطلوب .

فلدينا كافة أجهزة الكمبيوتر الحديثة وكل أنواع الوسائل البصرية ، والاساتذة الاكفاء والخبراء في العمل ، وسوف نزودك **بجهاز كمبيوتر تحتفظ به** على الدوام كما نعدك لامتحانات معهد الفنون الملكي (RSA) المعتمدة في الداخل والخارج وشهادات في برمجة الكمبيوتر وتشغيله وكافة التفاصيل الاخرى . ونحن الكلية الوحيدة الخاصة التي لها مركز امتحانات داخلي للـ (RSA) .

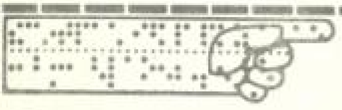
مصاريف الدورة :

تبدأ مصاريف الدورة الدراسية من ١٢٠٠ استرليني . رسوم التسجيل ٢٥ جنيه استرليني .

اطلب نشراتنا

اذا كنت فوق ١٧ سنة ونجحت في مرحلة التعليم الثانوي فيسرنا أن نبعث لك بنشراتنا مجانا للاطلاع على كافة التفاصيل الخاصة بالامتحانات والفرص المتاحة والدورات العالمية للتدريب على أعمال الكمبيوتر .

اكتب لنا اليوم



CTI

Computer Training International

Dept. 300 , Avon House, 360 Oxford St., London W1, England.

I certify I meet the educational requirements of your college and would like to receive the London prospectues.

Name ______________________________

Address ______________________________

____

______________________________ Age ______________

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

ابريل
١٩٨٢ م

النفط والعلاقات الدولية

وجهة نظر عربية

د. محمد غانم الرميحي

الكتاب الثاني والخمسون

٢٥٠ فلساً

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبدالله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٥٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي)

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .
٢ - كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .
٣ - كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .
٤ - كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥ - دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الاصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية .

تصدر عن جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١

رئيس التحرير د. عبدالله العتيبي

مدير التحرير عبدالعزيز السيد

- تتناول المجلة الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية بما يخدم القارىء والمثقف والمتخصص .
- تعالج موضوعات المجلة الميادين التالية :

اللغويات النظرية والتطبيقية - الآداب والآداب المقارنة - الدراسات الفلسفية الدراسات النفسية - الدراسات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانية - الدراسات التاريخية - الدراسات الجغرافية - الدراسات التربوية - الدراسات حول الفنون (الموسيقى - التراث الشعبي - الفنون التشكيلية - النحت ... الخ) - الدراسات الاثارية (الاركيولوجية) .

- تقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر :

البحوث والدراسات - مراجعات الكتب - التقارير العلمية - المناقشات الفكرية .

- مواعيد صدور المجلة : كانون ثاني - نيسان - تموز - تشرين أول .
- تنشر المجلة ملخصات للبحوث العربية بالانجليزية ، وملخصات بالعربية للبحوث الانجليزية .

ثمن العدد : للأفراد ٤٠٠ فلس
للطلاب ٢٠٠ فلس

الاشتراكات السنوية

	داخل الكويت	في الخارج
- للمؤسسات	١٠ د.ك.	٤٠ دولاراً أمريكيا
- للأفراد	٢ د.ك.	١٥ دولاراً أمريكيا
- للاساتذة والطلاب	١ د.ك.	١٠ دولارات أمريكية

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عدة سنوات .
- قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .
- جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير :-

ص.ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة)

الكويت - الشويخ - ت : ٨٢١٦٣٩ - ٨٩٧٦٨٩ - ٨١٥٤٥٣

أنا أحب الأفكار المبتكرة التي تضفيها توشيبا على عالم الثلاجات



تكنولوجيا توشيبا أضافت أفكارًا مبتكرة ورائعة على الثلاجات، منها ما يسمّى "التبريد المباشر" "Direct Cool" بحيث تقوم وحدات التبريد بدفع الهواء البارد مباشرة داخل الثلاجة وحجرة التجليد، ممّا يؤمن تبريدًا سريعًا وأكثر فاعلية. بالإضافة، تتمتع الثلاجات الظاهرتان أدناه بقفل يدوي مما يؤمّن راحة البال. كما وأن ثلاجة "GR-1002EWG" تنفرد بوجود موزّع خاص بها للماء البارد، ممّا يجعل منها ثلاجة لا تقدّر بثمن في أيام القيظ والحرّ. فاذا كنتم تبحثون عن ثلاجة، لا غنى لكم عن توشيبا، التي تقدّم لكم الأفكار المبتكرة لحفظ أطعمتكم طازجة.

توشيبا

GR-1002EWG
ثلاجة

GR-1002EA
ثلاجة



TOSHIBA | توشيبا

TOKYO, JAPAN

راحة مضاعفة





SA 185BE

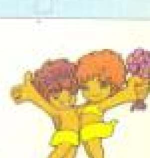
جهاز واحد من سانيو للتبريد والتدفئة المريحة طوال العام.

لا حاجة بك إلى مضاعفة معدات التحكم الحراري في منزلك لمضاعفة راحتك. إن جهازاً واحداً من سانيو يوفر لك البرودة صيفاً والدفء شتاءً. كما أن الضاغط الرحوي من سانيو يوفر التبريد والحرارة الكافية إلى جانب خفض الإهتزازات واستهلاك الطاقة وهكذا تنعم بتكييف الهواء طوال العام بأكثر من مجرد مضاعفة راحتك.



تتوفر تشكيلة واسعة من مكيفات هواء سانيو الرحوية في طاقة تتراوح من ٦٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ بي تي يو/ساعة لمضاعفة راحتك فعلاً في جميع الغرف.

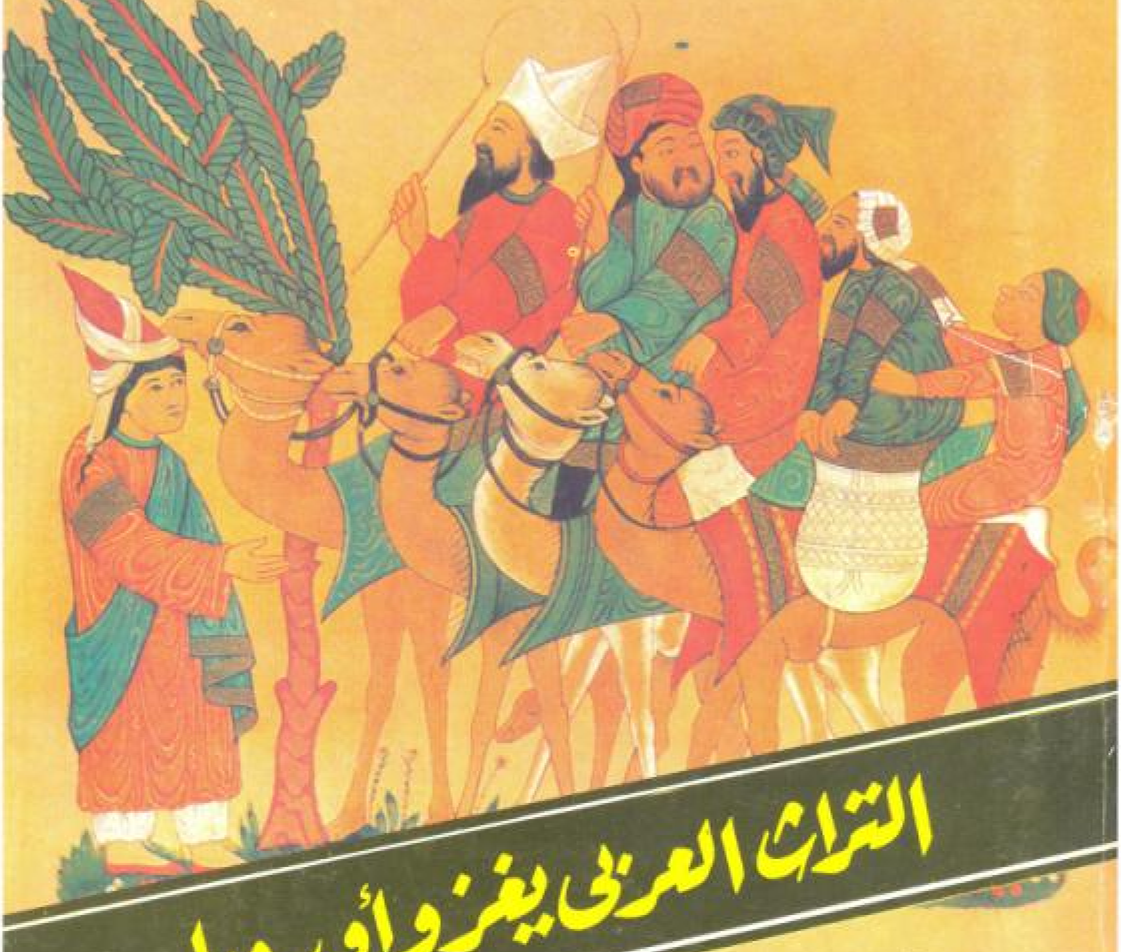
SANYO سانيو



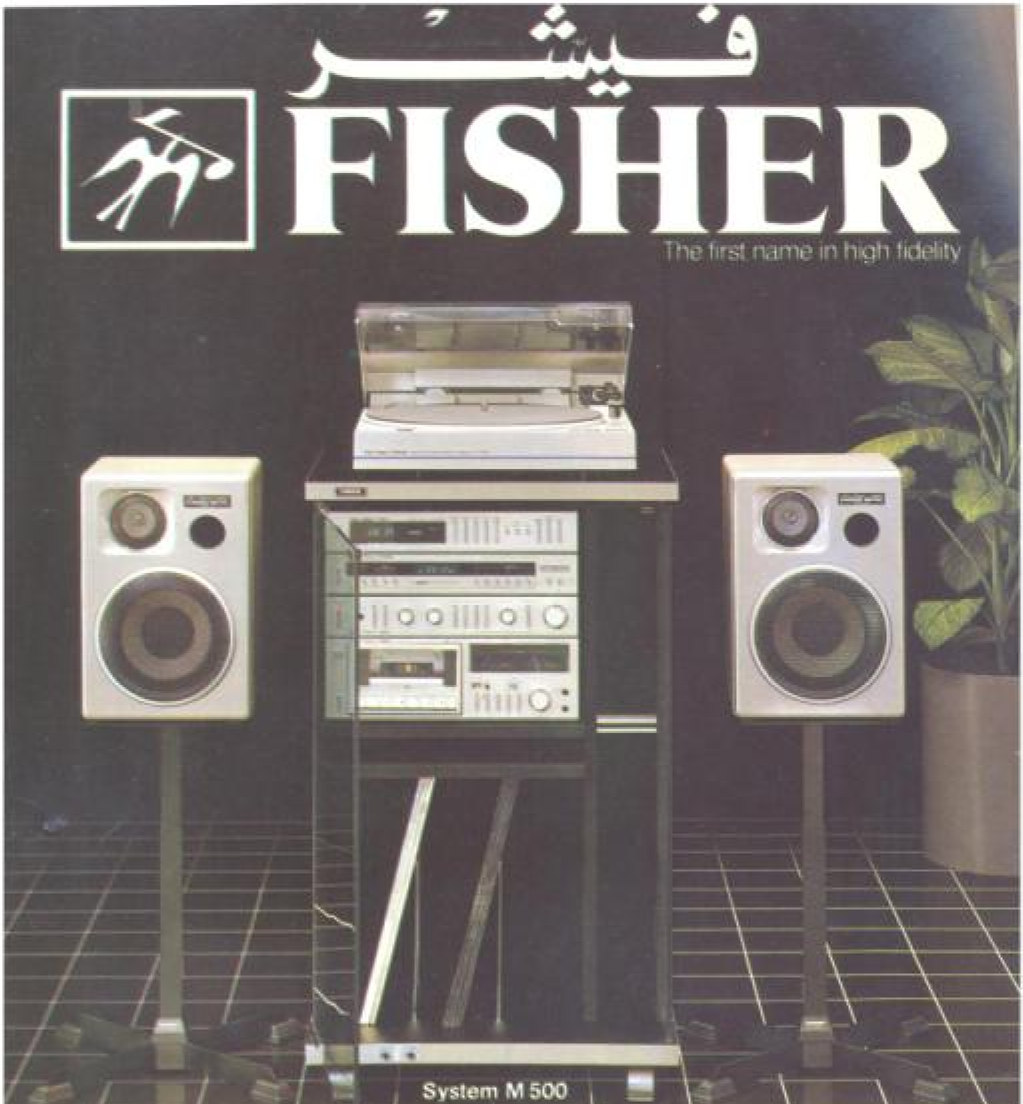
هذه هي الحياة

العربي

رجب ١٤٠٢هـ - مايو (أيار) ١٩٨٢



التراث العربي يغزو أوروبا



ارفع اجهزة السّمعيّات المحترفة من منتجة أول ستريو.

ان ستريوهات فيشر بمختلف احجامها تعني الفخامة. غنية بأناقتها مع احدث مفاتيح التحكم وصوت طبيعي يشعرك وكأنك تعيش في عالم ما تسمعه. ستريوهات فيشر ذات مزايا لا تضاهى فهي مقدمة من شركة تملك رصيدًا من الخبرة في عالم الستريو والهاي فاي اكثر من أي شركة اخرى في العالم، فلقد اخترعت فيشر الستريو ومازالت تطوره منذ اكثر من ٤٠ سنة.

System M500

وحدة موسيقية بحجم مثالي، طاقة بث قوة ٤٠ واط، متوفرة مع منسق نبرات لاستقبال دقيق ومتواصل، إمكانية برمجة التوقيت للحصول على عمليات أوتوماتيكية مختلفة، باحث أوتوماتيكي عن المحطات على موجتي AM/FM.

عزيزي القارئ

لا يملك أي عربي الا ان يحني رأسه إكبارا وإجلالا لموقف الجماهير العربية الفلسطينية في الضفة الغربية ، الذين خرجوا يدافعون عن كبريائهم الجريح بالطوب والعصي وإطارات السيارات .

لقد قدر لنا أن نعيش معهم تلك اللحظات عبر برقيات وكالات الأنباء ، وصور الصحافة العالمية ، وأشرطة التلفزيون ، التي كانت تنتزع لقطات سريعة لتسجل أحداث كل يوم . ورغم ضيق تلك القنوات ، وقصورها أحيانا ، فقد كانت كلها شهادات مجد للجماهير الغاضبة والرافضة للاحتلال . الامهات العجائز اللاتي وقفن في شموخ أمام الرصاص والهراوات وقنابل الغاز المسيل للدموع .. والفتيات اللاتي تصدرن التظاهرات ولم يأبهن بالأيدي الغليظة التي امتدت تجرجرهن من شعورهن الى الحافلات المظلمة والمخافر .. أما الصبية والشباب والرجال ، فقد كانوا ، كعهدنا بهم دائما ، رموزا تشرف هذه الأمة ، وربما تشفع لها في الكثير مما تستحي منه وتخجل .

لقد كان بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس المعزول ، عندما قذفوا بعكازيه الخشبيين بعيدا ، فيما وقف على ساقيه المبتورتين ، ثم مزق قميصه وفتح صدره ليستقبل الرصاص ، كان الرجل في وقفته العاجزة تلك ، عملاقا ملأت صورته المهيبة كل العيون ، بل ارتفعت هامته سامقة الى عنان السماء .

كان أكبر مما تصوروا ، وكان أقوى مما تصوروا ، بل كان - وهو المعزول والأعزل - تجسيدا عميقا لحقيقة الاصرار العربي الفلسطيني على رفض الاغتصاب والاحتلال ، والتشبث بالحق الى آخر رمق .

وهو أمر محزن ومخجل أن تخرج التظاهرات في تل أبيب متضامنة مع النضال الفلسطيني ، ولا نسمع أو نقرأ عن مسيرة واحدة في أي عاصمة عربية !

نقول ذلك على استحياء ، وذكرى تقسيم فلسطين تحل بعد أيام ، في ١٥ أيار (مايو) ، بينما الضفة تغلي ، ونحن كما تعلمون !!

(المحرر)



صورة الغلاف

● هي ظاهرة تحتاج الى رصد وانتباه ، ذلك الاهتمام الكبير بكتب التراث العربي في العواصم الأوروبية ، باعادة طباعته وتقديمه في أجمل ثوب يبرز عناصر الابداع والثراء المدفونة فيه ، وهو ما تفتقده في تذوق تراثنا والترويج له [انظر مقال حديث الشهر ص ٦]

قضايا عامة

عروبة واسلام

طب وعلوم

آداب وفنون

علم نفس واجتماع

شخصيات وتاريخ

قضايا حيوية

اعداد : مصطفى نبيل .

استطلاعات مصورة

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير أحمد بهاء الدين
مدير التحرير فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس . السعودية ٤ ريالات . العراق ٢٠٠ فلس . الأردن ٢٠٠ فلس . سوريا ٢٠٠ قرش . لبنان ٢٠٠ قرش . مصر ١٥٠ مليم . السودان ١٥٠ مليم . المغرب ٣ دراهم . تونس ٣٥٠ مليم . الجزائر ٣ دنانير . البحرين ٣٠٠ فلس . قطر ٤ ريالات . الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم . اليمن الشمالي ٣ ريالات . اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلس . ليبيا ٢٥٠ درهم .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات
المراسلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١
تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :
قسم الاشتراكات
المكتب الفني ـ وزارة الاعلام
ص . ب (١٩٣) ـ دولة الكويت
على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام . طبقا لما يلي :

فلس دينار
ـ الكويت والبلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)
ـ بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL - ARABI. No 282 MAY, 1982
P.O. Box 748 KUWAIT

التراث العربي



يغزو أوروبا

بقلم : أحمد بهاء الدين

من المألوف ان يقدم المرء الى القارىء كتابا جديدا ، او نظرة جديدة في كتاب قديم . ولكنه ربما كان من غير المألوف ان يقدم الكاتب الى قرائه مجرد « طبعة » من كتاب معروف . . .

ولكن الذى يحب الكتب ، احيانا يقوده حب « موضوعات » الى الكتب الى حب « الكتب » ذاتها . وبالتالي يقوده هذا الهوى الى حب « الطبعة الجميلة » للكتاب .

وقد قال شوقي : ومن الحب ما قتل !

وبالتأكيد يمكن القول : ومن الحب ما يفلس صاحبه !

وقد عرفت هذا النوع من حب الكتب . الذي يبدأ طبعا بحب قراءة الكتب ـ وانا صبي شاب ـ في دار الكتب او بالاقتراض . . ثم تطور الى حب اقتناء الكتب وليس الاكتفاء بقراءتها . وكأن المرء حين يقتني الكتاب فانه « يتملكه » كما يتملك اى معشوق . ومن هذا الصنف ناس كثيرون . ليست بضاعتهم الكتابة ولكنهم انفقوا مالديهم في اقتناء مكتبات هائلة . . ولكن الامر يتفاقم اذا اغرم صاحب الهواية بالطبعات القديمة ، او النادرة . . ولا اقول المخطوطات . . او بالطبعات الانيقة الفاخرة لكتب معينة ، لها عنده منزلة خاصة . .

وقد مررت بمرحلة . . غرقت فيها في عالم « المزادات » التي كانت تقام في القاهرة لبيع المكتبات التي تركها اصحابها . . لشراء طبعة نادرة او ثمينة من كتاب معين . وهو امر غريب . فالكتاب بموضوعه ، وسطوره ، ومحتواه ، ومؤلفه ، ومتعة قراءته في ارخص طبعة لاتقل عن متعة قراءته ولو كان مكتوبا بماء الذهب . .

ولكن الكتاب الجميل ، هو احد فروع الفن الجميل . واحيانا يوجد من يحب ان يرى كتابا اثيرا لديه في أبهي حلة وأجمل طباعة واخراج . حتى ولوكان هذا يعبر عن حب اقتناء قطعة من الفن الجميل ، واقتناء النص الثمين ، في جسد واحد . كالمعشوقة التي فيها الذكاء والجمال معا !

العرب أول من عرفوا فن الاخراج

ولعل العرب أول من عرفوا فن اخراج الكتاب كفن جميل قائم بذاته . ولست أزعم انني مطلع على مالدى الحضارات الأخرى في هذا المجال . ولكن « القرآن الكريم » كان عبر كل العصور ومنذ ألف وأربعمائة سنة تقريبا ، موضوعا لأعظم الخطاطين والمخرجين . . وكأن بالفنانين المسيحيين وضعوا أعظم انتاجهم منذ القدم في رسم جدران الكنائس . . ولما كان الفنان المسلم ليس في مذهبه تزيين المساجد بالرسوم للاشخاص . . فقد صب طاقته الفنية في كتابة القرآن ، والتنافس في نسخه قرنا بعد قرن . وامتد هذا المزاج الى بعض النسخ النادرة القليلة من الكتب الأخرى . . فوق النقوش البديعة التي اخذت تزين المساجد في عواصم الحضارة العربية والاسلامية . .

وفي عصر المطبعة ، لم يزدهر هذا الفن كثيرا . اذ جاءت المطبعة مع اضمحلال الدولةالاسلامية والعالم العربي . . وكان غيرنا ، من اهل عصر النهضة الاوروبية الذين جاءوا غزاة او تجارا او رحالة الى بلادنا ، قد اخذوا يسجلون نقوشه ويطبعونها وينقلونها الى متاحفهم . .

وفي السنوات الاخيرة ، ومع اليقظة العربية ، ثم احساس العرب من جديد بقيمة تراثهم القديم ومكانهم الجديد في العالم ، ثم احساس العالم بهم واهتمامه بمعرفة مالديهم . . بدأت محاولات لأن يدخل ناس منا في هذا المجال . .

وما اريد ان أتحدث عنه اليوم ، كتاب ، ومجموعة كتب . . . كل منها أصدره ناشر لا اعرفه . وبالتالي لا اعرف هل هم ناشرون محترفون ام هواة . لان ما صنعوه في اتقان الحرفة وجمال الهواية شيء يفوق الوصف .

الاول ، هو كتاب من القطع الكبير ، الذي يمكن ان تكون كل صفحة منه لوحة مستقلة بديعة بحجمها وإتقان طباعتها . . .

إن اسم « روائع الفن الاسلامي » . وفيما عدا اللوحات المطبوعة فيه . . ليس فيه الا مقدمة تروى ان نابليون بونابرت حين جاء الى الشرق غازيا منذ قرنين جلب معه عشرين رساما من أعظم رسامي فرنسا في ذلك الوقت ليسجلوا فنون ذلك الشرق الغامض الغريب : المساجد . المساكن . الملابس . السلاح . الاواني .

وقد عاد نابليون بهذا الكنز الى باريس . وكان الرسامون بعد نهاية الحملة الفرنسية الى مصر قد تفرقوا في المشرق منجذبين بكنوزه المفاجئة . . فلم يتم طبع هذه اللوحات لاول مرة في ثلاثة أجزاء الا بعد عشرين عاما .

والكتاب الجديد ، الذي أتحدث عنه ، هو مختارات من هذه الكمية الضخمة في جزء واحد ، « جمعها واختارها ونشرها سعيد صلاح » . . . وفي الكتاب ان المطبوع منه خمسمائة نسخة فقط ، مع تعليقات وشروح بالانجليزية والعربية . . .



وما أجدر أن توجد بعد ذلك طبعة بالآلاف لا بالمئات . حتى تتجه الى العاشق الفنى ايضا لا الى الاوروبي فقط . وان كان تقديم هذا التراث البالغ الجمال . . الى اوروبا والعالم الخارجي . . عملا عظيم القيمة . . ولا نريد ان ننزل من اعالى الفن الجميل الى سفوح الاعلام ونقول ان مثل هذا يعطى العالم عن العرب فكرة لا تعطيها عشرات المكاتب ومئات المحاضرات وملايين الدولارات . . .

مع ستة من الاعلام العرب

على أن العمل الذى أريد أن أقف عنده وقفة أطول ، اذ يجتمع فيه النص والرسم والفن هو تلك المجموعة التي تتكون كل منها من صندوق واحد بديع بعنوان « من التراث البديع » . . . وفي كل صندوق سبعة كتب مستقلة ، هي :



* ابن خلدون : في المعاش والكسب والصنائع (وهو مختارات من مقدمة ابن خلدون الشهيرة)
* ابن طفيل : رسالة حي بن يقظان . . .
* ابن فضلان : رحلة الى بلاد الصقالبة . .
* الابشيهى : في عجائب المخلوقات
* بهاء الدين بن شداد : سيرة صلاح الدين الايوبي
* ابن حزم : طوق الحمامة .
* والكتاب السابع ، من تأليف كاتب فرنسي متخصص معاصر ، هو « اندريه ميكايل » الاستاذ في معهد فرنسا ، بعناون « الانسان والعالم : ستة كتاب عرب » ، يتحدث فيه عن الكتب الستة المصاحبة في نفس الصندوق .

أما السبب ، فهو ان الناشر اصدر نفس المجموعة في طبعتين : طبعة باللغة العربية ، وطبعة باللغة الفرنسية . . وكل طبعة من ألفى نسخة ، مرقمة . .

وهذه المجموعة التي لا اعرف مثيلا سبقها عدة مزايا فذة . . . .

فالجمال البديع . والعناية والاتقان والبذخ في نوع الورق والطباعة والخط والرسم والاخراج ، ؟ لا نظير له . . . . .

وجمع هذه الاعمال الستة الخالدة في التراث العربي ، بين دفتى صندوق ورقي واحد انيق ، يضاعف قيمة كل عمل منها لو كان بمفرده .

وكل كتاب منها ، في آخره مجموعة من الرسوم العربية والاسلامية النادرة ، التي تمت بصلة الى موضوع الكتاب . . ومختارة بلاشك بعناية هائلة ومجهود غير عادى .

ففي آخر كتاب « رسالة حي بن يقظان » لابن طفيل ، نجد الناشر يقدم الجزء الخاص بالرسوم قائلا : « هذه الرسوم مستمدة من مخطوطة فريدة تتضمن الترجمة الفارسية لكتاب « منافع الحيوان » لأبي سعيد عبيد الله بن بختيشوع - ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م - وقد نسخت هذه المخطوطة وزوقت في مراغة باذربيجان سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨م - وهي محفوظة في مكتبة بيير بونت مورجان بنيويورك تحت رقم ٥٠٠ ، وتنشر باذن من مكتبة بيير مورجان » .

وفي آخر كتاب ابن خلدون ، يقدم لنا الناشر الجزء الخاص بالرسوم البديعة بقوله « هذه الرسوم مستمدة من احدى مخطوطات كتاب « المقامات » للقاسم بن على الحريرى - البصرة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م - وقد نسخ هذه المخطوطة وزوقها يحيى بن محمد الواسطى في بغداد سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧ م ، وهي تتضمن تسعة وتسعين رسما تصور الحياة الاجتماعية في عصرها . . اخترنا منها : القرية ، الشحاذ ، دكان الحجام ، القابلة ، الغازلة ، السوق ، الحانة ، سفينة في بحر عمان ، نزهة في بستان ، تعليم الصبيان ، القاضى ، المكتبة العامة ، الكاتب ، خطبة في مسجد ، مجلس الوالي ، الفرسان . تنشر باذن المكتبة الوطنية بباريس ، المخطوطة رقم ٥٨٤٧ عربي » .

وطوق الحمامة لابن حزم رسومه من مخطوطة في مكتبة الفاتيكان . . وهكذا . . .

وحتى في مجال تنفيذ هذا العمل ، تجد في آخر كل كتاب « هذا هو الكتاب رقم كذا من سلسلة« التراث العربي » . أخرجه ورسم غلافه وخط عناوينه محيي الدين اللباد . انجزه المركز الجرافيكي العربي بالقاهرة . صف حروفه مركز الطباعه الحديثة ببيروت . وطبع في مطابع وريجر في ضاحية مون روج ، بباريس ، على ورق فرجيه ارجو ماري بريد . . الخ »

حتى نوصل رسالة الحضارة الى الجميع

ولعل ذكر هذا يبدو وكأنه اسراف في التفاصيل . . ولكنني قصدت ان اوضح الجهد الهائل الذى بذل اولا في جمع رسوم الكتب ، ثم في اخراجها وطبعها في احسن الاماكن بين القاهرة وبيروت وباريس وبمساعدة أمهر الفنانين . ذلك اننا بصدد « جمالية » الكتب فوق قيمة محتوياتها . فكل مجموعة في تقديرى تزين بيتا . فهى مجموعة كتب خالدة ومجموعة تحف باهرة الجمال في نفس الوقت . ولا اعرف عملا في هذا المستوى .

والعمل صادر عن داري نشر مشتركتين معا فيا يبدو : « منشورات المتوسط » و« منشورات كتابة » . وعندما تحريت من بعض العارفين في باريس ، عرفت ان الناشرين هما : الياس صنبر وفاروق مردم بك . وعلى متابعتي لحركة النشر فانني لا اعرف ـ بعد ـ هل هما ناشران قديمان محترفان ام انهما ارادا ان يبدءا شيئا جديدا تماما . . فكان هذا العمل البالغ الرقى . . .

وقد اشتريت لنفسى نسخة عربية ، ونسخة فرنسية . . .

وكان اهتمامى أكبر بأن أختبر أثر النسخة الفرنسية على من يزورنى من أجانب دبلوماسيين أو صحافيين ، وأدباء . . فكان أثرها هائلا . . . لا يكاد يصدق : فكل كتاب من المجموعة كنز : كنز في مفاجأة الموضوع لهم ككتاب ابن خلدون الذى كتب في علم الاجتماع والعمران وفلسفة العمران منذ ستمائة سنة . . كل ما قاله ـ اساسا ـ بعده بقرون : ادم سميث في فلسفة الاقتصاد الحر ، وكارل ماركس في فلسفة الاقتصاد والتفسير المادى للتاريخ ، وشبنجلر وتوينبي في فلسفة وتحليل نمو الحضارات وافولها . . وغيرهم وغيرهم . . وكنز في الجزء الفني الملحق بكل كتاب من رسوم سبقت كل رسوم عصر النهضة في اوروبا بقرون سحيقة . .

هذه أشياء يعرفها في العالم المتقدم اليوم طبعا « خاصة المتخصصين » من المستشرقين وغيرهم . ولكنها لا تذهب الى أبعد من ذلك . . .

وقد نجح الناشران في اختيار الترجمات الفرنسية الموجودة أصلا . . لكبار المتخصصين الفرنسيين . . باشراف اليونسكو والمعاهد العلمية الفرنسية . .

ولكنني أزعم أن صدور مثل هذه المجموعة ، بهذا الشكل المتقى ، الانيق ، يمكن ان يوصل رسالة تلك الحضارة وعراقتها الى شرائح أخرى أوسع وأوسع . . .

ان ثمن المجموعة الواحدة يصل الى مائتى دولار . وهو ثمن غال طبعا ولكنه في مستوى نفقاتها ، والطبعة المرقمة التى لا تزيد عن الفى نسخة من كل لغة .

.. متى تغزو بلادنا العربية

ومرة أخرى أتساءل عدة أسئلة :

لماذا ياترى لا تطلب الدول أو الهيئات أو الجامعة العربية طبعات أخرى ، تهديها الى شرائح اكثر من الالفى مشتر لكل مجموعة ؟ ان تكاليف مؤتمر واحد كفيل بمضاعفة عدد المطلعين على هذا التراث . . .

وأتساءل :

هل من الممكن ياترى أن يقوم الناشران باصدار طبعة اخرى مماثلة ، لكن تباع فيها الكتب السبعةفرادى ، بحيث تصل الى من يحب أن يشترى كتابا واحدا .. او كتابا بعد الاخر .. ويدفع في الكتاب المفرد بهذا الشكل ما يساوي ٢٥ دولار تقريبا ؟

وأتساءل :

.. اذا كان الأنجح ـ وأنا لا أعرف كل صعوبات النشر ـ ان تصدر من نفس العمل بعد زمن طبعة أكبر عددا وأقل سعرا .. وصولا لنفس الغاية . . .

هذه أمور متروكة للناشرين . . .

ولكنني أسأل نفسي :

هل مازالوا يا ترى يدرسون ابن خلدون ـ مثلا ـ في مدارسنا العربية ، وفي جامعاتنا .. كما درسناه ونحن تلاميذ أم حدث تطور ؟

إن قراءة تلك المختارات من مقدمة ابن خلدون ، بواسطة اى شاب عربي ، كفيلة بان تفتح عينيه على أمور بالغة القيمة .. وعلى ان تضع قيمة التراث ـ الحي منه ـ في ذهنه في اطاره الصحيح . وان يعرف طريقه الى هذا التراث حين يرى القيمة المعاصرة المذهلة لمافيه . . .

و« رسالة حى بن يقظان » ؟

و« طوق الحمامة » ؟ ..

في تجربتي كتلميذ أنهم علمونا كيف نكره هذه الاشياء ونستخف بها . وما أظن أن الشباب في مجموعه غير انطباعه هذا ، الا القلة الذين كتبت لهم اهتماماتهم بعد ذلك ان يعودوا الى تلك الاشياء في مراحل اخرى من العمر والتجربة والنضج ..

ان الالتفات العالمي الى العرب كبير . وبالتالي الى تراثهم ، والى انتاجهم المعاصر ايضا ..

وهذه الثقافة تغزو اوروبا الآن بهذه الجهود المبعثرة .

متى تغزو بلادنا العربية ؟■■

أحمد بهاء الدين .

المنبر والزهر والصخر

بقلم : الدكتور عبد العزيز كامل

يستوقف نظري مدخل قطاع من شبابنا الى الاسلام . وحين أقول : شبابنا ، لا اقصد فقط جمهور المترددين على المساجد ، والمتابعين للبرامج الدينية في اجهزة الاعلام المقروءة والمسموعة والمنظورة ، والانتاج الثقافي الاسلامي ، وانما اقصد ايضا قطاعا غير قليل من الدعاة الى الله ، الذين اندفعوا في خطوط فكرية حصروا فيها انفسهم .

المنبر والزهر

وأود ان اذكر مثالا له نظائر كثيرة . وقبل هذا المثال ، اؤكد ان الامثلة الفردية لا تصلح ان تكون قواعد عامة . ولكن هذا المثال القريب نموذج لاتجاه لمسته بنفسي في اكثر من قطر اسلامي وتابعت محاولات تعديله من مواقع المسئولية التنفيذية ، ومن خلال اجهزة الاعلام .

فمن قريب كنت أودي صلاة الجمعة في مسجد كبير ، وكانت خطبة الامام عن الاسراء والمعراج . عرض ما لقيه الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في مكة من أذى وعنت . ذكر الحصار الاقتصادي في شعب بني هاشم . وذكر عام الحزن ووفاة خديجة وابي طالب ، وذهاب الرسول الى الطائف وما لقيه من صدود وجحود .. ويأتي الاسراء والمعراج يمسح عن قلب الرسول ألما ، ويستضيفه الرحمن الرحيم في السموات العلا ... ووقف الامام عند فرض الصلاة وانها صلة بين العبد ومولاه . هي معراج الارواح ومسراها .. وكنت من قلبي ادعو الله له وهو يحبب الصلاة الى الناس . وهي عروة الاسلام الوثقى ونقطة الانطلاق الى كل الخير ، وقرة عين المصطفى عليه الصلاة والسلام ...

كانت الخطبة الاولى باقة زهر فواحة الاريج ، وهدية المنبر الى الناس .. ومضت الخطبة بكل هذا التوفيق .

ثم جاء الصخر !

وما ان بدأت الخطبة الثانية . حتى كأني أرى على المنبر خطيبا آخر .. بدأ يختفي الوجه السمح ، ويرتفع الصوت . تدافقت العبارات كأنها صخور متحدرة في سيل جامح : أيها الناس ماذا بقي بين ايديكم من دينكم ؟ لم تبق الا الصلاة ، وقد ضيعها كثيرون . وهي آخرها تفقدون . اين الاسلام ؟ اين شعائره ؟ اين احكامه . ومحاكمكم لا تحكم بما انزل الله . اجهزة اعلامكم تبعدكم عن طريق الله . الاذاعة اذى .. التلفزيون تلف .. ترك الشباب بيوت الله الى ملاعب

الكرة . كان آباؤكم يعرفون اسماء المجاهدين ، فاصبح ابناؤكم يعرفون اسماء اللاعبين ...

وتحول الجو الصافي في خطبته الاولى الى غبار ـ ثقيل ـ ضاقت به الأنفاس .

لم أكن أستطيع تبين ملامح كثير من الوجوه . فنحن في المسجد صفوف صلاة . ومن السنة الجلوس في سكينة ووقار ، دون تلفت او حديث . كلنا الى القبلة نتجه ، وفي حضرة الخطيب نستمع دون ان يكون من حقنا ان نبدي اي اعتراض .

شريط من الخير

كان يخطب وفي ذهني شريط آخر يدور :

ألا يصلي الناس ؟ ألا يحجون ؟ ألا يزكون ؟ ألا يتراحمون ؟ وهؤلاء الذين حولي في بيت الله . وقد صحب الوالد ولده ، والصديق صديقه ، جاء الشيخ الكبير يحمل على كتفيه اثقال السنين . وهذا الشاب المتفتح للحياةوالامن والمستقبل . وهذا الصغير بملابسه الجديدة وفرحته الوليدة ، يتلفت حوله فرحا بهذا الجمع الكبير . تجربة جديدة هو بها سعيد . ووالده الى جواره في هدوء يربت على ظهره ليستقر . وهو في قلقه الفرح ونظراته السريعة ، كأنه طائر على غصن رطيب في الصباح .. ثم تجمد البسمة على شفتيه ، عندما يندفع الامام في عنف الخطاب ، وينكمش الى جوار أبيه يحتمي به من غضب يحس به ولا يدري له سببا ..

ذكرت جهودا تبذل في ارض الاسلام ، نرجو لها المزيد ، ودوائر من الخير تتسع . جاليات جديدة . مؤلفات . وسائل اعلام .. اجيال جديدة في الشباب تجمع بين أصالة الاسلام وتفتح الحياة من حولها .

كنت أسمع الخطيب ، وشريط الخير يمر في ذهني ، كأن اذاعتين تداخلتا ..

ذكرت في جلستي كيف تطور العمل الاسلامي وانتقل من التعميم الى التخصيص . جيل جديد من ابنائنا تركوا الحديث في عموميات العمل الاسلامي الى خصوصياته : كيف يرقى التعليم ؟ كيف يتطور ليكون اكثر ملاءمة للحياة المعاصرة . والمستقبل الذي ينتظر أبناءنا ؟ في اكثر من مرفق من مرافق حياتنا صاغوا قواعد الاسلام ومبادئه ، قوانين صالحة للتطبيق . اكثر من تجربة في مجال الاقتصاد الاسلامي . بعضها صادفه النجاح وبعضها فشل . والتجربة والخطأ وجهان لاي تطور .

وهذا الوعي الدائم والتجدد بقضايانا المصيرية ، رغم الضغوط والمؤامرات العالمية ... اليس دليل خير ؟.

وأستعيد ما بين المسلمين من صراعات لن يستفيد منها الا تجار الاسلحة والحروب صانعو ومستوردو مواد الانشاءات التي تهدمها الحروب .. وهذا النزيف من ثروات المسلمين . والقاتل والمقتول كلاهما مسلم . ورصيدهم ـ جميعا ـ في تناقص . وثرواتهم تتحول الى أرصدة الآخرين ... وأسائل نفسي قائلا :

ـ وسط العاصفة يحتاج الربان الى الأعصاب الهادئة والرؤية الواضحة .. ايها التدقيق الاماء .. ايها الخطيب والواعظ : كن عونا واخا ، ولا تكن قاضيا او شريكا في تعذيب إخوانك .

واقيمت الصلاة ، ودعوت الله ان يلهمنا الثبات في الامر والعزيمة على الرشد ...

لا اريد ان اعاتب الخطيب على منهجه .. فلو فعلت ، لوقعت فيما انهاه عنه . ولكن كيف السبيل الى الارتقاء لمستوى الخطبة والعظة ؟

وساءلت نفسي :

ـ ترى لو كانت الرؤية امامه اكثر وضوحا ، لابتغى اليها سبيلا ؟ فما ابعاد هذه الرؤية التي يتفجر بها الماء من الحجارة ، وينبت الزهر وسط صخور الحياة ، ويكون في طريق العاملين روحا وريحانا وعونا ؟

مكتبة الامام

شيء من هذا تعاونت فيه مع اخواني في وزارة الاوقاف بالقاهرة منذ اواخر الستينات ، ومع احتفالنا بمرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن الكريم .

كانت الفكرة تعاونية :

ان يقوم نفر من الأئمة ، يتوفر لهم المكان والوقت والتفرغ والمراجع المتجددة ، ليضعوا بين ايدي اخوانهم المادة العلمية التي يمكن الاستناد اليها في اعداد عظات الجمعة ودروس الدعوة .

المراجع الاصلية موجودة : من كتب التفسير والحديث الشريف والفقه والتشريع والتاريخ والاخلاق والحضارة الاسلامية .

ولكن تأتي ضرورة اطلاع الائمة على التطورات الجديدة في العالم الاسلامي ، وجهود اخوانهم في المناطق البعيدة عنهم ـ ماذا يعرف الامام ـ في عاصمة من عواصم الشرق الاوسط عن الجهود الذاتية لاخوانه في كندا او في الولايات المتحدة : او امريكا اللاتينية ؟ واحيانا تصنع اللغة حاجزا .. وعلينا ان نشق هذا الحاجز ... ثم ما جهود اخوانه في يوغوسلافيا مثلا ؟ وفي الشرق الاقصى ؟

نعم : هناك جهود تقوم بها جامعات اسلامية للتعريف بالأقليات الاسلامية ومعاهد متخصصة في ذلك . وهي جهود مذكورة ومشكورة . ولكن الهدف الذي أتوخاه أن تكون تجارب اخوانه في نشر الدعوة ميسرة بين يديه . أن يكون لدينا « مختار » يقدم اليه جهود اخوانه ، ويستطيع هو إن قام بتجربة ناجحة أن يرسلها اليه ليطلع اخوانه عليها . أن يكون هناك حوار مستمر وخصب بين الدعاة ومن الممكن ـ ابتداء ـ أن تقوم احدى مجلاتنا المعنية بالشؤون الاسلامية العالمية بدور « الوسيط » بين علماء الدين . أن تكون هي « المنبر » الذي تلتقي عنده التجارب ويعين على رؤية أكثر وضوحا .

بل نستطيع أن نفيد من تجارب غيرنا من الأديان في قضايا ربط الدين بالحياة . وبابراز المضمون الاجتماعي والاقتصادي للدين . وبيان المادة العلمية للقضايا الحيوية في العالم الاسلامي . والرد على الشبهات . أو طلب الرد على الشبهات ، بحيث تصبح المجلة نوعا من « غرفة عمليات » للدعوة الاسلامية ، تتلقى التجارب والمشكلات . تنشر منها ما يعين على الارتفاع بمستوى العظات ، وتحيل المشكلات على مختصين ـ أكثر من واحد ـ ليبدي كل منهم وجهة نظره فيزداد الحوار خصوبة ، والاعصاب هدوءا ، والتناول موضوعية ، والاهداف وضوحا .

وقد يحتاج الى تحليل التجارب :

أن يتناول الكاتب موضوعا واحدا ويعرضه بأكثر من طريقة ويبين مزايا كل منها وأهدافها . وفي تعدد زوايا الرؤية ما يعين على مزيد من الوضوح . ولنذكر مثالا موجزا من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

الهجرة كمثال

١ ـ أحيانا يأتي التركيز على الجانب المعجز منها : الغار . الحمامة والعنكبوت . الغصن المتدلي . وهذه الثلاثة كانت حماية إلهية للغار الذي أوى اليه الرسول وأبو بكر . ومن قبل هذا كيف خرج الرسول والقوم نيام ومهمتهم الحراسة . وفي الطريق الى المدينة كيف ساخت قوائم فرس سراقة بن مالك . كيف بارك الله في شاة أم معبد العجفاء ، فدر لبنها بما يكفي الرسول ومن معه ، وأصحاب الشاة جميعا ..

٢ ـ وأحيانا يأتي التركيز على الجانب التخطيطي فيها ، والجهد البشري : لتقسم المسؤوليات على الأفراد المشاركين فيها ، دور علي بن أبي طالب في المبيت في فراش الرسول ، وبقاؤه ليرد الودائع .

دور أسماء وعائشة في اعداد الطعام ، ثم تقوم أسماء بحمله الى الغار .

دور عبد الله بن أبي بكر في جمع الأخبار من قريش ليحملها الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

دور عامر بن فهيرة في مروره بأغنامه على آثار أسماء وعبد الله ، ورواحه الى الغار ليسقي الرسول وصاحبه .

دور عبد الله بن اريقط في حفظ الرواحل ثم قيامه بمهمة الدليل من مكة الى المدينة ..

هنا يبرز عنصر التخطيط وتقسيم الأعمال ... وحتى الاستعانة بغير المسلم اذا كان محل ثقة . فعبد الله بن اريقط لم يكن يومئذ قد أسلم .

٣ ـ وأحيانا يأتي التركيز على اختيار « المكان » وعلاقته بمكة . وصلاحيته كقاعدة للانطلاق وهنا نفرق بين هجرة الايواء في الحبشة ، وهجرة الانطلاق في المدينة . وكيف ان الهجرة كانت « عربية » المصدر والهدف ، وان بيئة الجزيرة العربية بعامة والحجاز بخاصة كانت وقتئذ أنسب البيئات ليظهر فيها الدين الجديد : فهي منطقة محايدة بعيدة عن نفوذ الروم والفرس مما يجعل من السهل ـ نسبيا ـ عليها قبول الدين من هذه الأرض البيضاء ـ فلا ترى الروم فيه هزيمة أمام الفرس . ولا ترى الفرس فيه هزيمة أمام الروم ، وكانتا القوتين المتنافستين وقتئذ على السيادة ولما « هاجرت » قاعدة الاسلام من مكة الى المدينة ثم استقرت فيها حتى عام ٣٥ هـ . « هاجرت » منها مرة ثانية الى الكوفة ثم الى دمشق وبغداد وغيرها من العواصم ، وبقيت للجزيرة العربية مكانتها كمهد ومنطلق للاسلام ، دون أن تعود اليها العاصمة الكبرى فيه ..

زوايا كثيرة يمكن أن تدرس بها الهجرة ، يمكن عرضها ، وعرض أهدافها ، ونختار من الأهداف ما هو أنسب لظروفنا الحالية .

ونحن في حاجة الى تأكيد التخطيط العلمي في ظل الايمان . نؤمن بالمعجزة ، ونؤمن أنها لا تعود ، ولكن التخطيط مستمر ، والايمان مستمر ، وصدق رسول الله اذ يقول في حديث شريف رواه الامام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما :

« ما من نبي الا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وانما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله الي به . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ».

مضى عهد الآيات الكونية والمعجزات . القرآن هو المعجزة الباقية . القرآن وحي يدعو الى العلم والتخطيط . هو هدية الله وهدايته الى الناس جميعا ، هو فوق مستوى العنصرية والعصبيات الضيقة .

الدين والحياة

وحيثما كانت زوايا الرؤية لأي تجربة يعرضها الامام أو الخطيب ، فانها تبدأ أساسا بالمعرفة الصحيحة ، وهو ما حاولته تجربة « مكتبة الامام » في سلسلة عنوانها « الدين والحياة » يقوم باعدادها نفر من الأئمة ، يختارون في كل نشرة موضوعا واحدا ، (كمثال الحرب النفسية) يذكرون ما يرتبط به من الآيات الكريمة مع ذكر رقم الآية واسم السورة والأحاديث الشريفة ، مع تخريجها وأقوال الأئمة ، ونصوصا من التاريخ ، واقتباسات أدبية ، ونصوصا لكتاب معاصرين من مختلف الثقافات ، والأساس في كل هذه النقول أن تكون واضحة المصادر ، بحيث يستطيع الامام اذا أراد الاستزادة أن يرجع ، الى المصدر ، وبهذا يتوفر للعاملين في الحقل الاسلامي ـ على أساس تعاوني فيما بينهم ـ مواد علمية موثقة ونامية ، فتكون كل نشرة « مكتبة صغيرة » للموضوع ، ودليلا لأهم المراجع التي تعنى به ، دون أن تكون قيدا على حريته في الاختيار .

وأعود الى المسجد ..

وأنظر الى صفوف الصلاة وقد جاء كل مصل متطهرا ، وجلس أمام الامام صامتا ، والى القبلة متوجها .

هؤلاء المصلون أمانة . ورقتهم أمانة . وعلينا أن نحسن القول معهم ليزدادوا على المسجد اقبالا . وله حبا ، ولعظاته استماعا ... « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ... (فصلت : ٣٢ ـ ٣٥) .

وليكن « الصخر » أساسا في البناء ، وليكن « الزهر » كلمات طيبة يهديها المنبر الى المصلين ، لتكون لهم عونا على طريق الحق ■■

د . عبد العزيز كامل

أقوال

■ مفتاح البطن لقمة ومفتاح الشر كلمة .

■ كلام الملوك ملوك الكلام .

■ كل سر جاوز الاثنين شاع .

■ لكل مقام مقال ولكل دولة رجال .

■ من يرصد الريح لا يزرع ومن يراقب السحب لا يحصد .

■ ما أضيق العيش لولا فسحة الامل .

■ من الصغائر تعرف الكبائر .



للدكتور حسان حتحوت

الغـــالى والرخيص

كنت منذ وقت ، اشهد مؤتمرا طبيا في احدى كبريات المدن الامريكية .. تبادلنا الحديث فاذا الزملاء الامريكان مشغولو الخاطر بارتفاع قيمة اقساط التأمين ضد مخاطر المهنة .. اصبح الواحد منهم إن اخطأ اقل خطأ ، عرضة ليقاضيه المريض امام المحكمة ، فاذا ثبت الاتهام حكم بتعويض كبير ، فلم يكن مفر من ان يغطي الطبيب نفسه بمظلة شركة للتأمين ، ولم يكن مفر من ان تزداد قيمة التأمين ارتفاعا .

ودخلنا الى احدى جلسات المؤتمر .. كان المتحدث طبيبا من احدى دول اسيا .. كان يقدم تجربة بلاده في تعقيم النساء تفاديا لتفاقم مشكلة زيادة السكان . كان سعيدا بنجاح برنامجهم ، وكثرة زبائنهم لدرجة ان الاطباء كانوا اقل من المطلوب ، فاذا هم يدربون الممرضين على عملية ربط الانابيب خلال فتحة صغيرة بالبطن ، ويصف اشتداد ضغط العمل فاذا هم لا يعقمون الآلات الجراحية بين عملية واخرى ، وانما يكتفون بغسلها بالماء والصابون ..

الذي ادهشني ان الحضور من الامريكان والأوربيين صفقوا له تصفيقا شديدا .... صفقوا له وكأنه بطل قومي ... هؤلاء الذين زادت قيمة المريض في بلادهم حتى ليدفع له بحكم المحكمة تعويض باهظ لأقل خطأ يرتكبه الطبيب ، يصفقون لقيام غير الاطباء بعمليات فتح البطن بدون تعقيم آلات الجراحة .

قلت : سبحان الله . اذن ، فهناك اعتراف عمل بأن فى عالمنا صنفين من البشر ، صنفا غاليا عندهم ، وصنفا رخيصا عند غيرهم ، وان كانا معا ينتميان الى الاسرة الانسانية ، والامم المتحدة التي اعلنت حقوق الانسان وتساوى الناس فيها .

لم تكن المفاجأة لي مجرد وجود هذه التفرقة وانما نفاذها الى الوسط الطبي ، واما خارجه فالتفرقة موجودة ولا زالت موجودة وهي تمارس على نطاق واسع قاتل ..

من الصحافة الأمريكية نفسها عرفت ان بعض المنتجات التي ثبت ضررها للبشر ومنع استعمالها في السوق الامريكية ما زالت تصدر الى دول العالم الثالث ... ولا اعني ان المخزون منها هو الذي يصدر حتى يتخلص منه منتجوه وينتهي الامر ، وانما قرأت ان احدى الشركات اعلنت سحب احد منتجاتها من السوق الامريكية ، مع استمرار انتاجه ليباع الى دول العالم الثالث .. كثيرة ومتعددة .. منها مبيدات حشرية ثبتت سميتها على الحيوان والانسان .. ومواد كيميائية تستعمل في صناعة الأغذية المحفوظة ذات علاقة سببية ببعض السرطانات ، وسجائر نسبة القار بها اضعافها في امريكا ، وعشرات من المواد الاخرى التي تتخلل صناعات كثيرة .. اما المستهلكون فهم مع الأسف الشديد ـ اما لأنهم لا يعلمون ، وإما لأن الاشخاص المعنيين منهم يعلمون ولكن للشركات المنتجة وسائل تستطيع بها ان تتخطى العقبات ، وتذيب المقاومات وفي الحالين تذكرنا قول الشاعر .

ان كنـت لا تدري فتلك مصيبة او كنـت تدري فالمصيبـة اعظم

ولست اكتب ذلك لانني اكره امريكا فقلبي بحمد الله لا يحمل كرها ، بل انني اقدر في الحياة الامريكية اشياء طيبة ، ولكن أمريكا نفسها تساءلت اكثر من مرة لماذا تبدو صورتها في العالم اسوأ مما تتوقع ، رغم البلايين التي تنفقها في المعونات والمساعدات ؟ ولقد حاول كاتب امريكي منذ سنوات ان يجيب على هذا السؤال فالف كتابه المشهور « الامريكي القبيح » مركزا على النواحي السياسية ، وارى ان امريكا فيها خير كثير ولكنها ما تزال محتاجة الى النصيحة المخلصة التي تبصرها بان مشكلتها الكبرى ليست في جحود الغير ، ولكن في نظرتها هي الى بني الانسان ، وتعاملها معهم على مفهوم ان الناس صنفان غال ورخيص .. في الناس الاغنياء والفقراء ، والمتعلمون والجهلاء ، والمتقدمون والمتخلفون ، والاقوياء والضعفاء .. ولكن الحذر كل الحذر والخطر كل الخطر في ان يجرنا ذلك كله الى ان نتوهم ان هناك انسانا غاليا وانسانا رخيصا .. فالنفس الانسانية « قيمة » وليست « سعرا » والقيمة متساوية في كل الناس ، ويوم يستقر ذلك في صميم الوجدان الامريكي ويعمل به على النطاق العالمي في السياسة او التجارة او الثقافة على حد سواء ، يوم تحل القيمة الانسانية محل القيمة النفعية ، يوم نعتنق « نحن جميعا » بدلا من « نحن وهم » .. فتسعد امريكا ويسعد العالم .

ولست اريد ان اكون كمن يؤذن في مالطة ويترك قريته بلا اذان ... حذار يا اخوتي العرب ان تتعاملوا فيما بينكم بمنطق العربي الغالي والعربي الرخيص .. حذار ان تقعوا في محظور الاستقطاب الى اغنياء وفقراء ، ثم تنبوا من ذلك الى غال ورخيص .. ان العالم الواسع الأقدر على استيعاب تلك التناقضات ـ قد اخذ ينوء بها وتنوء به .. وعالمنا العربي المحدود لا يمكن ان يتماسك ازاءها دون ان تزلزله زلزالا عنيفا لا يبقى ولا يذر .

ان كنا نقول للعالم « كلكم لآدم .. وآدم من تراب » .. فأحرى ان نقول لأنفسنا « كلكم لاسماعيل بن ابراهيم » ... فلا تضيعوا ولا تميعوا ولا فضل الا بالفضل .

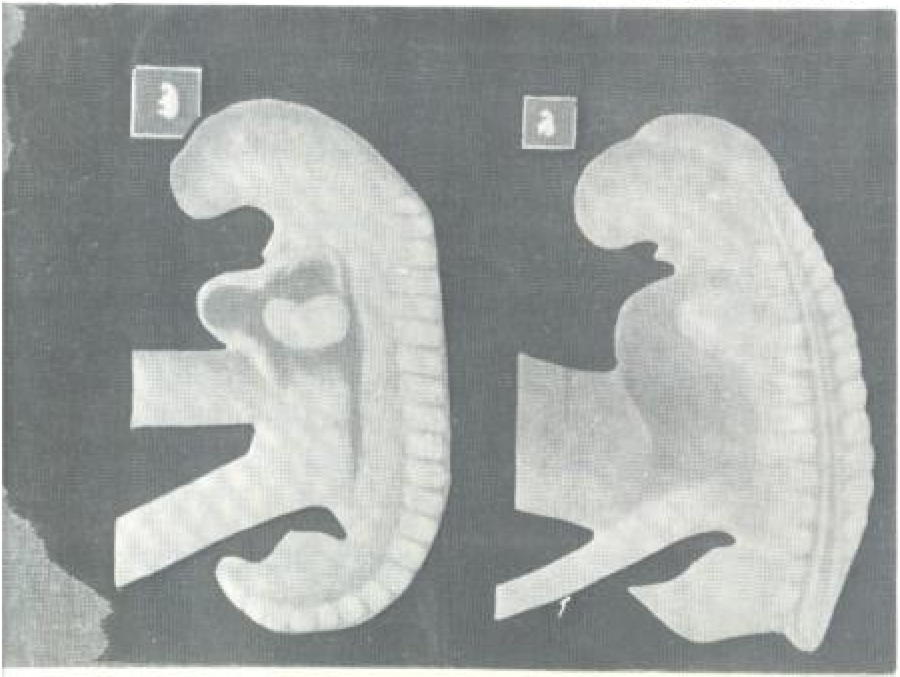
بعد طفل الأنبوب

بنوك الأجنة المجمدة قنبلة علمية جديدة !

بقلم : الدكتورة ليلى إبراهيم

يبدو أن طفل الانابيب ربما سيعود ليظل دائما الحدث العلمي رقم واحد ، ولفترة طويلة مقبلة .. فبالرغم من ان العملية أصبحت روتينية ومضمونة الى حد كبير ... حتى ان نبأ ميلاد اول طفلة للانابيب في امريكا قبل ايام قليلة لم يحظ الا باهتمام يعد ضئيلا نسبيا اذا ما قورن بتلك الحفاوة العلمية والانسانية البالغة التي استقبلت بها لويز براون عام ١٩٧٩ في العاصمة البريطانية ...

الا ان العلم اخيرا ، وفي هذا الصدد ، يبدأ مرحلة جديدة .. لا اقل من وصفها بأنها مرحلة خطرة بل وشائكة ايضا .. !



تفجر الموقف فجأة حينما أعلن مجموعة من الاطباء الانجليز ومنهم الرواد الاول لتجارب طفل الانابيب د. باتريك ستبتو و د. روبرت ادوارد انهم بصدد انشاء بنك للأجنة المجمدة .. الجاهزة للانقساء بمجرد زراعتها في اي رحم ـ بمعنى بويضة انثوية يجرى تلقيحها بحيوان منوي خارج الرحم بادئة في الانقساء الفعلي لتكوين جنين ، تحفظ بتبريدها لدرجة حرارة معينة توقف نشاطها لكن لا تقتل قدرتها على معاودة الانقساء والنمو مرة اخرى . وذلك اذا ما تم استزراعها في رحم السيدة التي تعاني من العقم لأي سبب غير متعلق بالرحم ذاته .

والأبحاث المبدئية لهذا المشروع البالغ الجرأة الانسانية والعلمية معا يتم تحت اشراف الكلية الملكية لعلوم الوراثة والولادة البريطانية !

يتزوج أخته أو أمه !

انفجر الحدث العلمي مدويا في كل الأوساط المهتمة بالأمر .. وتردد صداه في العالم كله . وتوالت عناوين الصفحات الاولى في الجرائد والمجلات الانجليزية تسأل عن حقيقة الحدث .. حتى أن جريدة التايمز في عددها الصادر في ١٠ فبراير .. كتبت تقول ان مسز تاتشر قد كلفت لجنة اخلاقيات الطب البريطانية بدراسة الموضوع وتقديم دراسة وافية عنه تستطيع من خلالها الرد على مجموعة الاسئلة والاستفسارات التي انهالت عليها في مجلس العموم .. فرد عليها رئيس اللجنة طالبا مهلة اكبر ليستطيع مناقشة الامر مع كل الاطراف المعنية به !.....

ولم تكتف جريدة الجارديان بكتابة الخبر وتفصيلاته .. لكنها انضمت ايضا الى جمهور السائلين .. فطرحت مجموعة التساؤلات التي حول الأبعاد الاخلاقية للحدث قائلة « من أدرانا ان الأخ سيتزوج يوما أخته .. وربما أمه !. لو ان الباب ترك مفتوحا لمثل هذه البنوك الجديدة التي تستثمر أجنة مجهولة الهوية !

حتى العلماء، ذاتهم يقفون بين معارض ومؤيد للتجربة .. فمنهم المتحمس لها كالبروفسور روجر شورت رئيس مجلس الابحاث الطبية لزراعة الاعضاء في جامعة ادنبره والذي صرح ان الدعوة لوقف مثل هذه التجارب الرائدة بمثابة خطوة للخلف .. لان تجارب تجميد الاجنة وتخزينها ليست الا امتدادا للممارسة الاكلينيكية الروتينية التي تجرى في مجال اطفال الانابيب . كما ان هذا يعطي املا كبيرا في تجنب الكثير من الامراض الوراثية والخلقية التي يمنى بها اطفال أبرياء !.....

في ذات الوقت صرح د . ادوارد انه تمكن من جعل الجنين ينمو نموا طبيعيا خارج الرحم لمدة تسعة ايام ، وبينما يؤيده د . روبرت ونستون في ضرورة استكمال الابحاث ، الا انه يرى انه من الافضل ان يتم تجميد الجنين بعد التأكد من اخصابه في فترة لا تزيد عن ٤٨ ساعة !.....



● الأسبوع الأول : حيث تبدأ الخلايا في الانقساء .. التي تواجه الداخل تنشأ عنها الأعضاء الداخلية كالكبد والرئة والبنكرياس . بينما التي من الخارج ينشأ عنها الجلد والفم والجهاز العصبي . بينما ينشأ عن طبقة الخلايا ما بين الداخلية والخارجية الدم والعضلات والهيكل العظمي .

● الأسبوع الثاني : حيث تتميز منطقة الرأس ومنطقة ما سيكون النصف الأسفل وبداية النسيج العصبي .

الأسبوع الثالث : تبدأ الخلايا المكونة للجهاز الدوري البدائي في التجمع لينشأ منها فيما بعد القلب والشرايين والاوردة .. وتتميز خلايا المخ .

« حتى الان ، فان التجربة ناجحة تماما في تجميد أجنة حيوانات التجارب ... واعادة استزراعها في رحم الحيوانات الأمهات .. فما الذي يمنعنا من الاستفادة بذات النجاح مع الانسان ؟ »

هكذا يتساءل العالمان د. ستبتو و د. روبرت ادوارد في دهشة !....

ولكن هناك ايضا الرأي الأخر .. حيث يقف د. ميشيل توماس رئيس لجنة اخلاقيات الطب البريطانية وأحد الذين يجرون بنجاح عمليات الاخصاب خارج الرحم ليعلن انه لا بد من اعطاء الناس الوقت الكافي ليقرروا وجهة نظرهم في الموضوع كقضية اخلاقية قبل ان تكون علمية !

قيود في امريكا

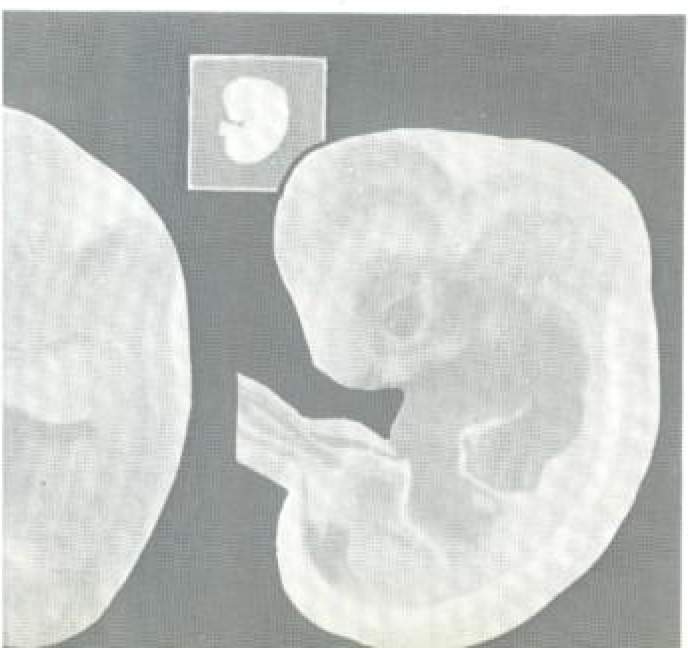
بالطبع كان للحديث ردود فعل عالمية اخرى .. فبالرغم من ان بريطانيا تعتبر القاضي والقضية .. الا ان الولايات المتحدة كانت قد قامت بتشكيل لجان لمناقشة الموضوع .. بل وشرعت مجموعة من القوانين تحدد مسار أبحاثها في هذا الصدد ، تقضي بان الابحاث على الاجنة يمكن تقبلها فقط اذا ما كانت تستهدف الحفاظ على حياة الجنين او الحصول على معلومات لا يمكن الوصول اليها الا عن هذا الطريق .

وتقضي أيضا بضرورة الحصول على إقرار بالموافقة من المرأة والرجل على التجربة ، وحددت المدة التي يمكن ان تظل فيها البويضة خارج الرحم بأربعة عشر يوما فقط .

ولقد كانت فكرة طفل الأنابيب في البداية مجرد خيال علمي راود د . باتريك ستبتو .. شاركه فيه زميله وصديقه د . ادوارد وشجعهما على بداية تحقيقه اصرارالسيدة ليزلى براون ورغبتها التي لم تهدأ يوما في الحصول على طفل تحمله في أحشائها .. ورفضها الدائم لفكرة التبني .. مما دفعها لعرض اى تضحية قد تثمر برحمها الجاف اي برعم امل !....

كانت تعاني من انسداد كامل في الانابيب الرحمية والتي تصل المبيض بالرحم وعبر احداهما تنزلق في كل شهر بويضة واحدة من احد المبايض .. لتسقط في الرحم .. انتظارا لعملية الاخصاب والتي تنشأ من اتحاد البويضة بحيوان منوي واحد (يختلف الوضع في حالة التوائم)

كان هذا بالطبع عائقا دائما لاخصاب بويضات السيدة براون الى ان عرض عليها د . ستبتو ان يجري لها اول عملية لاخصاب بويضة خارج الرحم .. فوافقت على الفور .. وفي تكتم شديد بدأ العالمان عملهما فانتظرا ان استكملت البويضة نموها .. وبجراحة صغيرة استخرجوها من المبيض ثم دفعوا بها الى اناء اعد خصيصا وبه السائل المنوي لزوجها وحينما تأكدوا من



الأسبوع الرابع : تتميز الزوائد الاربع التي ستنمو منها فيما بعد الاطراف الاربعة ، وتبدأ الدورة الدموية .

الأسبوع الخامس : تتميز خلايا المخ الى طبقات ثلاث . وتنمو أكثر زوائد الأطراف . بداية الشريان الأورطي والرئوي معا ، وينفرد النسيج العصبي في القلب والذي يعطيه القدرة على النبض الذاتي .

الأسبوع السادس : تأخذ العين شكلها الطبيعي في محجرتها وتتلون الشبكية ويتحددشكل الأنف .

الأسبوع السابع : بداية تكون العضلات والجهاز البولي والتناسلي .

نجاح عملية الاخصاب اعادوها مباشرة الى مناخها الطبيعي وبدأت السيدة براون تشعر باعراض الحمل الحقيقية .. وسرت من رحمها النبضة التي طالما تمنتها لتدفع الى وجدانها أخلد المشاعر الانسانية .. الأمومة .. وتتالت الاحداث الى ان كان مولد لويز .. وهي الان حامل للمرة الثانية وبذات الطريقة وتحت اشراف د . ستبتو مرة أخرى « فلويز ترغب في اخ صغير » هكذا تعلق السيدة براون في سعادة .

وعلى مستوى العالم .. فهناك ٢٠ تجربة ناجحة .. ثمان تمت تحت اشراف د . ستبتو وتسع لتجارب اخرى في ملبورن باستراليا ، والباقي في امريكا ـ مركز نورفلك ـ حيث وضعت أخيرا إحدى الامهات أول الغيث الامريكي .. طفلة جميلة تزن ثلاثة كيلوجرامات ونصف ، بعد ولادة طبيعية سهلة ، أسمتها اليزابث .

ألف في قائمة الانتظار

وحسب احصاءات د. ستبتو فانه نجح حتى الآن في زرع البويضة المخصبة في رحم ٣٣٨ أما من مجموع ٤٣٦ . وقد نجح الحمل في ٧٤ حالة وتمت الولادة في ثماني حالات .. ولا تزال هناك ٤٨ حالة في الشهر الثالث للحمل وقائمة الانتظار عنده تزيد عن الف سيدة .

وتشير النسب عامة اذا ما تابعناها في كل المراكز التي تجري العملية الى ان نسبة نجاح اخصاب البويضة خارج الرحم تصل الى ٧٧٪ ، اما اعادة زراعتها فتنجح بنسبة ٢٢٪وان هناك ١٦٪ من الحالات التي تنجح فيها زراعة البويضة .. لا يستمر فيها الحمل لظروف فسيولوجية .

كلنا بالطبع يذكر كم استغرقنا هذا الحدث في حينه . حينما حبس العالم انفاسه ، ووقف مشدوها يتابع دقائق الحدث العلمي الكبير . وقتئذ ظننا ان الحدث الضخم ينتهي بمولد طفل الانبوبة . لكن العلم الذي لا يعرف حدودا ولا قيودا فاجأنا مرة أخرى بالجديد الذي لا نعرف الى اين سيقود العالم .

ما الرأي اذن في تلك الخطوة العلمية بالغة الجرأة والتي يعتزم علماء الاجنة والولادة الاقدام عليها في بريطانيا ؟..

ترى اي امرأة تلك التي تذهب باختيارها « لتودع » في ذلك البنك بويضة من رأسمالها ورصيدها الانثوي ، ليخصبها رجل لا تعرفه ؟ واي امرأة يدفعها الظمأ للامومة لان تذهب « لتسحب » جنينا مجهول الهوية ، تمنحه دفء رحمها ، وتزرعه في احشائها .. وتحمله وهنا على وهن ! من الذي يجني الفائدة ؟.. واي فائدة !

وما رأي علماء الاجتماع ؟

ثم ، وهذا هو الأهم ، ما رأي فقهاء المسلمين ؟ ■■



الأسبوع الثامن : هو اسبوع الملامح والذي تتحدد فيه الملامح الادمية للجنين فتنشأ خطوط كف اليد وتستوي اصابع الكف والقدمين وتبرز الملامح العامة لكافة الأعضاء .
الأسابيع الثمانية والحاسمة في معجزة الخلق ، والذي تتحول فيها النطفة الى علقة .. ثم جنين تدب فيه الروح باذن خالقها . كما امكن أخيرا رؤيته ومتابعة تطوره لحظة بلحظة مع ملاحظة ان الصورة في البرواز تمثل الحجم الحقيقي للجنين في تطوراته المختلفة وحتى ٦٠ يوما من بداية تلقيح البويضة الأنثوية بحيوان منوي ذكر واستقرارها في رحم الأم .

عبد الغني العريسي الشهيد النابغة

بقلم اكرم زعيتر

حين تحتفل سورية ولبنان بذكرى الشهداء في السادس من هذا الشهر (أيار) ، وهم الذين اعدمهم السفاح التركي احمد جمال باشا قبل ست وستين سنة في بيروت ، وقبل خمس وستين سنة في دمشق وبيروت ، وهم من الصفوة الممتازة من شبان الامة العربية ونخبة مفكريها يتمثل امامي في طليعتهم الشهيد النابغة عبد الغني العريسي ، صاحب جريدة « المفيد » وترافق ذكراه اشراقات في سيرته تحملني على الكتابة عنه .

ان عبد الغني من أركان الجمعية السرية « العربية الفتاة » ، وقد قضى هو وزميله محمد المحمصاني ، امين سرها ، من دون ان يبوحا باسرارها . والعريسي اول فتى عربي يذهب الى باريس ليدرس في معهد الصحافة وفي كلية علوم السياسة الدولية ، وكان من الداعين الى المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس سنة ١٩١٣ برئاسة العالم الكبير الشهيد الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، وكان العريسي امين سره وكاتب بياناته ، وابلغ خطبائه ، وقد سمعت المرحوم الاستاذ عوني عبد الهادي ، القطب العربي وزميل العريسي ورفيقه ، يقول : « ان عبد الغني كان مفكر الحركة العربية ، وكاتبها البليغ ولسانها الجريء» وسمعت المرحوم رياض الصلح - ورياض الصلح هو رياض سبرا للاغوار ، ومعرفة بالرجال - يقول : « كان عبد الغني العريسي مثلنا الأعلى » .

وكلما قرأت خطابه في مؤتمر باريس ، رنّحني قوله « فان كنا لم نستطع قبل اليوم ان نحيا فقد استطعنا كل الاستطاعة الا نموت . لقد عقدنا النية بعد اليوم على ان نحيا حياة الشعوب الراقية ، حياة الرجولة ، شركاء في القوة الاجرائية والتشريعية والادارات العامة ، اما في داخلية بلادنا فنحن شركاء انفسنا . حقنا هو حق شعب . حق امة . حق الوجود . حقنا في المحافظة على جنسيتنا ، على مساواتنا ، حقنا في ان تكون لغتنا العربية الشريفة لغة رسمية » .

نعم كان الفتى عبد الغني كاتبا وكان شاعرا وكان

خطيبا . وقد ترجم الى العربية كتاب « اليتين » لبول دوفير ، رئيس مجلس الامة الفرنسي في الاخلاق ، والاجتماع ، وكان وكان . ولكن اهم ما انطبع في ذهني ، وما اثر في نفسي ، وهز مشاعري ما قرأته له في جريدة « المفيد » ، ووقفته ساعة الاعدام !

دفاع عن الصحافة

لقد انشأ عبد الغني والمرحوم فؤاد حنتس في بيروت جريدة المفيد سنة ١٩٠٩ . وكانت جريدة يومية راقية ، واعتقد انها كانت اسبق الصحف العربية الى بث الفكرة العربية النقية المؤمنة ، وبعد وفاة فؤاد حنتس الذي شيعته بيروت كما تشيع رائد نهضة ، اشترك في اصدار المفيد وتحريرها الامير عارف الشهابي وهو من ارقى واذكى من انجبتهم امتنا العربية . وقد انعمت علي الاقدار اخيرا فاطلعت على المجموعة الوحيدة الباقية من تلك الجريدة المدهشة في سنواتها الست ، ووالله انني كنت ارالي ، وانا اتوفر على قراءتها ، في الليل والنهار اتنسم عبير الشهادة واعيش في ملحمة بطولة او اتلو وردا من اوراد الوطنية العربية الخالصة في محراب الاستشهاد ، وانا اقرأ روائع كتابها من الذين استشهدوا مع العريسي . وهيهات ان اصف الشعور الذي كان يتملكني وانا اقرأ نفثات « الشهداء » عبد الحميد الزهراوي وعارف الشهابي ومحمد المحمصاني وشفيق المؤيد وعمر حمد وسيف الدين الخطيب وشكري العسلي وحافظ السعيد .. وبالروعة ما قرأت فيها لاعلام امثال رشيد رضا ورفيق العظم ومصطفى الغلاييني والامير نسيب ارسلان (شقيق شكيب وعادل) وفؤاد الخطيب وداود مجاعص وسليمان التاجي الفاروقي وفيليكس فارس وعزة الجندي واسكندر العازار وعارف الزين وحسن بيهم ومحمد بيهم (وجيه بيروت الذي كان يوقع بتوقيع الصارخ المكتوم) وقبلان الرياشي ورياض الصلح ، وجميل مردم بك وعوني عبد الهادي وجميل بيهم واحمد صلاح الدين الرفاعي . والحديث عن اثر « المفيد » في ايقاظ الروح العربية وفي الدعوة الى الاصلاح وفي مقاومة الاستبداد يطول .. ولكنني احرص على ان اضرب مثالا عن دورها في الدفاع عن حرية الصحافة ونزعتها الاصلاحية .

اقدم شخص على اغتيال مفتي صيدا المرحوم الحاج عثمان الزين سنة ١٩٠٩ ، وحكم على القاتل بالشنق ، وتقتضي الاصول بان يصدر السلطان مرسوما (فرمانا) يصدق فيه الحكم ويأذن بتنفيذه . فوجه السلطان محمد رشاد « الفرمان » الى ادهم بك ، والي بيروت ، وقد خاطبه فيه : « افتخار الاعالي والاعاظم ، المستجمع جميع المعالي والمفاخر ، المختص بمزيد عناية الملك الدائم ، من مميزي رجال دولتي العلية .. والي ولاية بيروت دام علوه » . وشفع هذا المرسوم بمرسوم آخر موجه الى القاضي خلوصي افندي وفيه يلقبه : « افضل قضاة المسلمين ، وولي ولاة الموحدين ، معدن الفضل واليقين ، رافع اعلام الشريعة والدين ، وارث علوم الانبياء والمرسلين ، المختص بمزيد عناية الملك المعين مولانا خلوصي افندي ، نائب بيروت زيد فضله » .

وصدر « المفيد » في ٩ حزيران ١٩٠٩ بمقال افتتاحي انتقادي قوي بقلم عبد الغني العريسي ، عنوانه « عهد التمجد والتعاظم » ومما فيه قوله : « تصور حال افراد الامة وهم يقرأون ان سلطانها يخاطب عاملا من عماله بهذه الالفاظ الضخمة التي لا تتنزل على نبي من الانبياء » . وراح العريسي يسخر من هذا الاسلوب في التخاطب الذي ينافي المساواة ، ويؤكد ان « رجال الحكم ليس لهم ميزة على الامة الا انهم يقبضون مرتباتهم منها » .

وهاج هائج الوالي واوعز الى « المستنطق » في ان يقيم الدعوى على جريدة « المفيد » والعريسي بتهمة اهانة السلطان ، والعياذ بالله !! واقام الوالي الدعوى على العريسي ، فغضبت جميع الصحف البيروتية ، وارسل الرائد العربي الكبير الشيخ مصطفى الغلاييني قصيدة جعلتها « المفيد » افتتاحية وفيها يقول :

مضى زمن التمويه لا رد عهده
ومزق سيف الحق جلبابه البالي
فلم يبق للتمجيد بالقول دولة
وليس العلا الا لاحزم فعال !

وعهد التمجيد !

وكان الاستاذ الغلاييني يصدر في بيروت مجلة اسمها « النبراس » فجعل عنوان افتتاحيتها الرائعة : « الحكومة والمفيد وعهد التمجيد » وقال عن ذلك الفرمان : « ان فيه صفات ونعوتا لا يجوز ان يوصف بها ملائكة الله ورسله ، كقوله عن الوالي : « المختص بمزيد عناية الملك الدائم » مع ان الله لم يختص بمزيد عنايته نبيا من انبيائه لان رحمته وسعت كل شيء » ، ثم سأل الوالي : « هل انت ايها الوالي تتصف بكل ذلك ؟ وان قلت : نعم ، فقد اخطأت ، والله يشهد بذلك ، والناس ، وان قلت : لا ، فالانتقاد في محله » وهب محامو بيروت من جميع الطوائف يوجهون الى العريسي رسالة يقولون فيها : « نطلب اليكم ان توكلونا للمرافعة عن حرية الصحافة ، ولتأييدها اشهارا لروح

الدستور واعلاء لكلمته . وليقف كل من يريد ان يقيد الصحافة عند حده . » ثم تطوع ستة عشر محاميا للدفاع عن العربي واثيرت جرائد بيروت كلها للدفاع عن العربي والتضامن معه . . وكان الأستاذ مصطفى الغلاييني في « نبراسه » يوالي الدفاع عن رصيفه العربي . . . حتى بادر الوالي الى اقامة الدعوى على الأستاذ الغلاييني فانشأ العربي افتتاحية في « المفيد » عنوانها « كنا نواخذ صرنا باثنين » وشفعها في اليوم التالي بافتتاحية اخرى عنوانها : « نزعة من نزعات الاستبداد » ومما خاطب به الوالي فيها : « ايها الوالي . . ان الصحافة امر « مبارك » جليل . . انها تنتقدك وتنتقد الحكومة وتنتقد الوزراء والنواب والأعيان ، وما فوق ذلك . هذه هي الحرية ، فان قيدت باوهن القيود فهي استبداد محض لا نفتأ عن محاربته بالاقلام . وارباب الاقلام اقوى الرجال ! نحن امة يتنازعنا عاملان : عامل الموت وعامل الحياة فان لم نصرف جهدنا لقطع دابر المميتات لهذه الامة تغلب علينا عامل الموت . . اننا نريد ان نحيا حياة وطنية شريفة عظيمة والا الموت الموت ! »

واما الأستاذ الغلاييني فقد جعل عنوان افتتاحية « النبراس » « صرنا باثنين : عهد التمجد وجواسيس اليوم » وقد مهد لمقاله بالبيت التالي :

اسفوا المؤذن من بلادكم
ان كان ينفى كل من صدقا

وأرسل أيوب ثابت في صدر « المفيد » يقول فيه : « فليفاخر صاحب المفيد والشيخ الغلاييني في انها اول من وقف في بيروت ، بل وفي السلطنة ، امام المحاكم للدفاع عن حرية الصحافة وازاء الأمة كممثلين لاعداء الاوهام » .

وتردد صدى هذه المعركة الصحافية في البلاد العثمانية حتى ان والي طرابلس الغرب (ليبيا) عمم بيانا على جميع المأمورين دعاهم فيه الى اهمال الالقاب التمجيدية في المخابرات « لما فيها من المبالغة والتبصبص غير اللائق بالحكومة » . وتلقف العربي تعميم الوالي ، وارسل افتتاحية طالب فيها باحالة والي طرابلس على المحاكمة اسوة بمحاكمته هو ! وبعد اخذ ورد ، حفظت القضية بالنسبة الى العربي وبرأت المحكمة الغلاييني ، فكان ذلك النصر الاول للصحافة العربية في تاريخها .

في ساعة الشنق

وأجيء الى موقف العربي ساعة الشنق : ان المرحوم فائز الخوري السياسي والسفير والوزير السوري وشقيق عميد الكتلة الوطنية الشهير المرحوم فارس الخوري ، كان زميلا للعربي واخوانه في سجن عاليه ، وقد وصف في مذكراته ما كان في ذلك اليوم الرهيب فقال « . . وعاد البوليس مناديا : عبد الغني ، البس ثيابك ، ونظرنا كلنا دفعة واحدة الى عبد الغني فاذا هو عالي الجبين يبتسم . . اني رأيته في تلك الساعة اشجع منه في كل المواقف ، لا تشوبه شائبة الخوف ولا تدل اسارير وجهه على جبانة ، فلبس ثيابه ، وهو يكلمنا ويلعن الظالمين . . بينما راح عمر حمد ينشد من غرفته :

« نحن ابناء الألى
شادوا مجدا وعلى »

ثم روى احد الذين شاهدوا عملية الاعدام ، واسمه احمد ناصر ، وصفها : « طلب البوليس من عبد الغني ان يخرج من الدائرة الى الساحة مع عمر حمد وحدهما ، فقال له عبد الغني : اذهب وقل لرئيسك : ان عبد الغني يطلب ان يموت مع رفيقه الامير عارف الشهابي ، ولا يجب ان يفترق عنه حتى الموت » ، فذهب البوليس ، ثم عاد وقال : حسن ، . . وخرج عمر حمد ثم عبد الغني وعارف ، وشنق عمر حمد الذي كانت انشودته ترن . . واراد البوليس ان يعجل في شنق عبد الغني فقال له عبد الغني : « دعنا نتكلم . . احترم ارادة رجل يموت » ولم يكد يقول : « لاتبنى الممالك على غير الجماجم » حتى عجل البوليس باعدامه . وكان في السادسة والعشرين من عمره » .

وقد حدثني مثل هذا زميل عبد الغني في السجن ، ورصيفه في الحركة ، الصديق المرحوم الشاعر العربي محمد الشريقي اللاذقي ، عضو المؤتمر السوري ثم وزير خارجية الاردن ، وكان محبوسا في غرفة في دائرة البوليس التي تطل على ساحة البرج والتي دعيت فيها بعد ساحة الشهداء ولا ازال اذكر قصيدة له سمعته يتلوها في دمشق وفيها يقول :

من لي بوثبة جبار أخي امل
يستقبل الموت بالترحاب عن كثب
يقول ما قاله عبد الغني على
ارجوحة الموت ثبتا غير مضطرب
على الجماجم تبنى كل مملكة
على الجماجم تبنى دولة العرب
لها نعيش بانفاس مسعرة
وباسمها ان نمت متنا بلا رهب

سلام على عبد الغني واخوانه من ذلك الجيل وروح وريحان لاولئك الشهداء من ذاك الرعيل . ■■

اكرم زعيتر

طلبُ الرّاحة وطلبُ المتعة

بقلم : الدكتور جلال أمين

قيل مرة ان أهم الموضوعات وأجدرها بالاهتمام هي تلك التي تقع على الحدود الفاصلة من العلوم ، وليست تلك التي يمكن القطع بأنها تنتمي الى علم دون آخر . وقد لا يكون هذا القول صحيحا على اطلاقه ، ولكن لا شك عندي في أنه صحيح فيما يتعلق بكثير من الموضوعات التي يتناولها الاقتصادي بالبحث . فهنا نجد أن ما ينتمي منها الى علم الاقتصاد البحت كثيرا ما يكون أقل أهمية وأقل استحقاقا للاهتمام من تلك التي تقع على الحدود الفاصلة بين الاقتصاد وغيره من العلوم ، كعلم النفس ، أو السياسة ، أو علم الاجتماع ، أو الفلسفة .

ولعل هذا هو السبب في أن بعض علماء الاقتصاد المبرزين ، بعد أن ينفق الجزء الأكبر من حياته في بحث موضوعات تنتمي الى علم الاقتصاد البحت ، نجده يتحول الى الكتابة في موضوعات يصعب تصنيفها الى علم دون غيره ، بل تقع على الحدود القائمة بين الاقتصاد والسياسة ، أو بين الاقتصاد والفلسفة أو بين الاقتصاد وعلم النفس ، وهكذا .

وآخر هؤلاء الاقتصاديين المبرزين الذين مروا بهذا التحول هو الاقتصادي الامريكي « تيبور سكيتوفسكي » Tibor Scitovsky الذي نشر في منتصف السبعينات كتابا شيقا للغاية اسمه « اقتصاد بلا بهجة » The Joyless Economy عبر فيه عن سخطه على الحالة التي وصلت اليها النظرية الاقتصادية في الاستهلاك ، وخلوها من أي محتوى ذي بال ، وبعدها عن تصوير الواقع . وقد رد هذا العجز الفشل الى أن الاقتصادي وهو يبحث في الاستهلاك لم يحاول أن يتخطى دائرة اختصاصه الضيقة ، أو الافادة من بعض النتائج الشيقة التي وصل اليها علماء النفس . وحاول هو أن يتصدى لهذه التجربة ، أي أن يمزج بين النتائج التي يصل اليها

الاقتصادي والنتائج التي يصل اليها علم النفس ، فيما يتعلق بتفسير سلوك المستهلك . وقد حاول ذلك وهو يشعر بكثير من الوجل والخوف من رد فعل زملائه من الاقتصاديين الأكاديميين ، شأنه في ذلك شأن كل من حاول قبله أن يقوم بتجربة مماثلة في تخطي حدود اختصاصه . خاصة وانه كان يحظى بمكانة خاصة بين هؤلاء الاقتصاديين لما قدمه من بحوث مبتكرة في الاقتصاد والبحث . وقد قال بصراحة في مقدمة كتابه الأخير أن بعض زملائه الذين قرأوا مخطوطة كتابه قبل نشرها قد شعر بالعطف والاشفاق عليه لما اعتبره بمثابة « تسلل الضعف الى عقله » ، اذ يقدم على مثل هذه المحاولة . ولكنه لم يبال بهذا ، وأقدم على نشر كتابه الذي أجده أبعد ما يكون عن هذا الوصف ، بل أجده على العكس ، مساهمة نادرة في اتجاه صحي ، ربما أدت ، لو اقترنت بمساهمات مماثلة في نفس الاتجاه ، الى تصحيح مسار علم الاقتصاد ، واعادته مرة أخرى ، كما كان في بداية عمره ، علما يهتم بحياة الناس ورفاهيتهم ، أكثر من اهتمامه بالاناقة النظرية والدقة الرياضية ، وهو مرض يعاني منه في الوقت الحاضر ليس علم الاقتصاد فقط بل كثير من العلوم الاجتماعية الأخرى .

مجرد لغة جديدة في التعبير !

يبدأ سكتيوفسكي بلوم الاقتصادي على ما دأب على تقريره من أن هدف المستهلك من شراء سلعة أو خدمة هو الحصول على المنفعة أو الاشباع ، على أساس ان هذا القول لا يقدمنا خطوة الى الامام في فهم سلوك المستهلك . ذلك أن الاقتصادي قد بلغ به الحذر درجة جعلته يجرد معنى المنفعة أو الاشباع على نحو يجعله مرادفا للطلب نفسه أو لعملية الشراء نفسها . فالاقتصادي لا يريد أن يتكلم عما يحدث نتيجة الحصول على السلعة ، أو ما يحدث في نفسه مما يجعله يريد الحصول عليها (اذ يعتبر أن هذا ليس من اختصاص الاقتصادي بل من اختصاص علم النفس) . فكانت النتيجة انك اذا سألت الاقتصادي عن ماهية هذه المنفعة التي يهدف المستهلك الى الحصول عليها لم يقل لك أكثر من أن هذه المنفعة « هي ما يريد المستهلك الحصول عليه » ، واذا سألته عما يحدث للمستهلك اذا حدث وحصل على السلعة لم يقل لك الاقتصادي أكثر من أنه في هذه الحالة « يكون قد حصل على ما أراد الحصول عليه ! » .

لا عجب اذن أن نجد طالب الاقتصاد بعد أن يفرغ من دراسة نظرية الاستهلاك (التي قد تستغرق منه مالا يقل عن ربع أو ثلث ما يسمى بالنظرية الاقتصادية الجزئية) لا زال عند نفس المستوى من المعرفة (أو فلنقل من الجهل) الذي بدأ به ، واذا به غير قادر على الادلاء بأي رأي أو نصيحة لغيره أو لنفسه . كل ما يتعلمه في هذه الفترة هو مجرد « لغة جديدة » في التعبير عما يعرفه الرجل العادي الذي لم يسمع عن علم الاقتصاد قط ، من أمثال « اذا زاد السعر انخفض الطلب » أو « اذا زاد دخل المستهلك زاد طلبه » . . الخ .

يحاول سكتيوفسكي اذن أن يخطو خطوة ولو صغيرة الى الامام ، في شرح سلوك المستهلك على أمل أن تمكنه هذه الخطوة من تفسير تلك الظاهرة الغريبة التي تبدو عسيرة التفسير ، ولا يحاول الاقتصادي التقليدي ، بكل ما لديه من أدوات التحليل ، تقديم تفسير لها وهي : عجز المجتمع الامريكي ، والمجتمعات الثرية بوجه عام ، عن زيادة رفاهية الفرد وسعادته ، رغم كل ما تقدمه له من سلع وخدمات .

فيميز سكتيوفسكي بين الراحة Comfort والمتعة Pleasure ويقول ان هذا التمييز ، الذي يقبله عالم النفس ويعترف به منذ زمن ، يذهب بنا شوطا بعيدا في فهم سلوك المستهلك الأمريكي . ولكن من أجل أن نفهم الفارق بين الراحة والمتعة ، يجب أن نفهم أولا معنى فكرة أساسية هي الاثارة (arousal) ، والمقصود بها تهيج الشعور أو العاطفة ، كالذي تحس به لدى الشعور بالجوع أو التعب ، بالحرارة أو البرودة ، أو بالرغبة الجنسية ، أو بالتشوق الى المعرفة ، أو بالدهشة . . . الخ .

ثم دعنا نتفق على أن الألم انما ينتج من زيادة درجة الاثارة عن حد معين أو من نقصانها عن حد معين . أما أن الألم ينتج عن تجاوز الاثارة حدا معينا ، فهو واضح ، كالذي نشعر به في حالة شدة الجوع أو التعب الجسماني أو الحرمان الجنسي الشديد ، ولكن يمكن أيضا أن نستخدم لفظ « الألم » للتعبير عن انخفاض درجة الاثارة دون حد أدنى ، وهو ما نعنيه عندما نصف حالتنا بالملل والسأم ، اذ لا نجد ما « يستثيرنا » من أي نوع كان .

بين الراحة والمتعة

يمكننا الآن أن نميز بين الراحة والمتعة . فالراحة هي ذلك الشعور الذي ينتابنا لدى القضاء على الألم ، كتناول الطعام بعد جوع ، أو الاسترخاء بعد مجهود عضلي مرهق ، أو الدخول الى مكان معتدل الحرارة بعد قضاء بعض الوقت في مكان شديد الحرارة أو شديد البرودة ، أو لدى تناول مسكن لألم الأسنان أو الصداع . أو كالشعور

الذي ينتابنا لدى القضاء على السأم بوصولنا الى نهاية رحلة قطار طويلة ومملة ، أو انتهاء حديث شخص ثرثار ثقيل الظل .

أما المتعة فهي شيء مختلف تماما . والفارق بينها وبين الراحة كما يقول سكتيوفسكي هو كالفارق بين الصورة الفوتوغرافية والشريط السينمائي فاذا كانت الراحة هي ما يشعر به الانسان لدى وصول « الاثارة » الى مستواها الأمثل (أي مستواها غير المفرط في الارتفاع أو الانخفاض) فان المتعة هي ما يشعر به الانسان أثناء عملية الانتقال من مستوى الاثارة المفرط في ارتفاعه أو انخفاضه الى ذلك المستوى الأمثل . ويشبه سكتيوفسكي الفارق بين الراحة والمتعة بالفارق بين السرعة التي تسير بها السيارة وبين الانتقال من سرعة لأخرى ، سواء كان هذا الانتقال الى سرعة أكبر أو أقل . أو فلنقل ان الشعور بالراحة أو عدمها يتعلق بدرجة تهيج العاطفة (وهي التي يشبهها بسرعة السيارة) أما المتعة فتتعلق بتغير درجة التهيج هذه (وهو ما يشبهه بزيادة السرعة أو تخفيضها) .

ولنضرب مثالا يوضح ما يعنيه . فالاحساس بالجوع مثلا هو حالة تتميز بارتفاع درجة الاثارة الى أكثر من المستوى الأمثل ، فاذا شرع الجائع في تناول الطعام فهو يشعر بالمتعة طوال تناوله للطعام (أي طوال تخفيض مستوى الاثارة في اتجاه المستوى الأمثل) وهو يشعر بالراحة لدى انتهاء حالة الجوع (أي لدى الوصول الى ذلك المستوى الأمثل) ويظل يشعر بها طالما لم يغادر هذا المستوى . ولكن بمجرد وصوله الى المستوى الأمثل تنتهي المتعة ، وان بقيت الراحة . أو فلنضرب مثالا آخر . قد يشعر شخص بالملل ، وهي حالة يمكن وصفها بأن مستوى الاثارة فيها قد انخفض دون حده الأمثل ، فيشرع في قراءة قصة مثيرة فيشعر بالمتعة طوال الفترة التي ترتفع فيها درجة الاثارة في اتجاه المستوى الأمثل ، بل وقد تتجاوزه ، فيشعر أيضا بالمتعة طالما هو مستمر في القراءة بقصد الوصول الى حل للغزها أو معرفة نهاية الصراع فيها ، وتنتهي متعة القراءة بانتهاء القصة والوصول بدرجة الاثارة الى مستواها الأمثل ، وهنا فقط يشعر بالراحة ، نفس هذا التصوير يمكن أن يستخدم لوصف ممارسة الجنس ، أو المتعة المستمدة من أي نشاط فني أو رياضي أو علمي .

التوتر والاثارة

ان ما يسميه الاقتصادي بالمنفعة أو الاشباع ليس اذن شيئا واحدا متجانسا ، بل يمكن تصنيفه الى شيئين متميزين : الراحة والمتعة . ويقول سكتيوفسكي ان هناك العديد من الدلائل التي تشير بأنها بالفعل نوعان متميزان من الشعور . فهناك أولا التأمل الذاتي الذي يدلنا على أننا عندما نصف أنفسنا بأننا نشعر بالراحة أو الارتياح فانما نعني شيئا مختلفا عما نعنيه عندما نصف أنفسنا بأننا نشعر بالسعادة أو البهجة أو المتعة أو الحماس . كما يدلنا التأمل الذاتي أيضا على أننا يمكن أن نشعر بالألم (أو عدم الارتياح) وبالسعادة أو المتعة في نفس الوقت ، كما لو أصابك ألم الأسنان صباح يوم زواجك . بل ان هناك من التجارب التي أجريت على بعض الحيوانات ما يشير الى أن مراكز المخ التي تتأثر بالصدمات الكهربائية المؤلمة ، والتي يحاول الحيوان تجنبها ، هي غير مراكز المخ التي تستجيب للمؤثرات المحببة أو الممتعة . يؤيد ذلك أيضا ما نلاحظه من أن الشعور بالمتعة هو في العادة أقصر عمرا من الشعور بالراحة ، واننا نشعر بالمتعة أثناء محاولتنا الوصول الى هدف معين وليس عندما نحقق هذا الهدف بالفعل ، فاذا وصلنا الى الهدف قد نشعر بالارتياح ولكن تزول عندئذ المتعة ما لم تنهمك في محاولة تحقيق هدف آخر .

من الممكن اذن للمرء أن يحقق مستوى عاليا ومستمرا من الراحة دون أن يشعر بالبهجة ، ولكن من غير الممكن أن يحصل على البهجة أو المتعة دون أن يتعرض لدرجة من التوتر أو اثارة المشاعر . ان المتعة التي يحصل عليها الباحث في معمله ، أو الأديب وهو يكتب روايته ليست الا نتاج التوتر والاثارة ، كما ان الطفل الذي تلقيه بذراعك في الهواء ثم تلتقطه انما يستمد متعته مما عرضته له من توتر وخوف مؤقت . ومدينة الملاهي التي يعشقها الأطفال ليست الا مجموعة من المحاولات لخلق المتعة عن طريق الخلق المتعمد للتوتر والخوف .

فاذا كان الأمر كذلك ، فان المرء أو المجتمع قد يخطىء خطأ فاحشا اذا حاول ، سعيا وراء الراحة ، أن يتجنب كل أنواع التوتر والاثارة . على أن هذا هو بالضبط ما نلاحظه في المجتمعات المسماة بمجتمعات الرخاء ، والتي تقبل على تقليدها شرائح متزايدة من الأفراد المنتمين الى المجتمعات الفقيرة .

فأجهزة تكييف الهواء المنتشرة في كل مكان تمنحك الراحة من تقلبات الجو ولكنها تحرمك في نفس الوقت من المتعة الناتجة عن تخفيض درجة الاثارة الذي يتوفر لك بالانتقال من مكان بارد الى مكان أكثر دفئا أو العكس ، والموسيقى الدائمة التي يوفرها لك مجتمع الرخاء في السيارة والمطاعم والمحلات التجارية تحرمك من التشوق الى الذهاب للاستماع المباشر الى عزف أو غناء لا يحدث الا مرة واحدة ، واباحة حرية ممارسة الجنس في أي وقت ومع

أي شخص أوشك أن يقضي على متعة الحب والشوق والانتظار ، والآلات الموسيقية الحديثة التي تريحك من عناء تعلم العزف تحرمك من متعة التعلم نفسه والتنمية المستمرة لقدراتك ، والطعام الجاهز الذي لا يطالبك بأكثر من فتح علبة أو فض غلاف ، يحرم ربة البيت من متعة التفنن في الطهي والتشوق الى عبارات الاستحسان من الزوج والاولاد .. الخ .

أغرب أنواع اللاعقلانية

وليس هناك نهاية لما يمكن تعداده من أمثلة لما يقدمه مجتمع الرخاء المزعوم ويؤدي الى القضاء على مصادر المتعة والبهجة ، باسم العمل على راحتك . ففي سبيل راحتك يخبرك المذيع يوميا بما سوف يكون عليه الطقس غدا ، فيعفيك من الدهشة أو المفاجأة ، وفي سبيل راحتك تقوم الشركات السياحية بتنظيم رحلتك منذ تركك لمدينتك وحتى عودتك ، وتنظم لك برنامجك اليومي والمدة التي يجب أن تقضيها في تأمل كل أثر من الآثار ، وفي سبيل راحتك توضع لافتات على سفوح الجبال تخبرك بأنه « على بعد مائة متر يمكنك التمتع بمنظر خلاب ! » أو يباع لك جهاز صغير يمكنك به فتح واغلاق التليفزيون دون أن تترك مقعدك . فاذا بالحياة تصبح أكثر راحة حقا ، ولكن يكاد يموت الناس سأما .

ولكن الناس لا تصبر على السأم كما انها لا تصبر على الألم ، فاذا بمجتمعات الرخاء ، اذ تحاول تعويض الناس عما خلقته من سأم ، تقع في أغرب أنواع اللاعقلانية . فهذه المجتمعات ، اذ قدمت للناس السيارة الخاصة التي تضم كافة أسباب الراحة ، حاولت تعويض السأم الناتج عما يصيب سائقها من شلل تام لبعض الحيل الباهظة التكاليف . فمن أجل اسباغ نوع من الجدة والتغيير على السيارة الخاصة ، كتغيير شكل السيارة الخارجي أو ادخال بعض الملامح الجديدة عليها دون اجراء أي تحسين على قدرة السيارة كوسيلة من وسائل الانتقال ، ينفق المجتمع الامريكي ما يزيد على عشرة بلايين دولار كل عام . وفي محاولة للتعويض عن رتابة الحياة الناتجة عن الافراط في استخدام وسائل الراحة يقبل شباب مجتمعات « الرخاء » على مختلف أنواع العنف والمخدرات ويزداد تناول الخمور وترتفع معدلات الطلاق . يذكرنا بذلك مشهد من مشاهد فيلم جيمس دين الشهير ، الذي ظهر في الخمسينات باسم « ثائر بلا قضية » ، اذ يقرر مجموعة من الشباب القيام بلعبة خطيرة ، فيتجه كل منهم بسيارته في سرعة بالغة نحو حافة جبل ، ويكون معيار البراعة هو القدرة على ايقاف السيارة قبل السقوط في الهاوية ، وجزاء الفاشل اما الموت ، اذا سقط من أعلى الجبل بالفعل ، أو أن يطلق عليه زملاؤه وصف « الدجاجة المذعورة » اذا قفز من السيارة قبل الأوان . واذا ارتاع أحد المشاهدين وسأل البطل عن سر قيامه بهذه اللعبة الجنونية كانت اجابة البطل « لا بد أن نفعل شيئا أي شيء .. أليس كذلك ؟ » .

قد يقال وكيف يمكن أن نلوم هذا النمط من الحياة اذا كان الناس قد اختاروه بمطلق الحرية ؟ اذ ما الذي يقدمه الرخاء للناس الا أن يسمح لهم بمزيد من حرية الاختيار ؟ واذا كانت وسائل الراحة لا تزيد بالفعل من استمتاع الناس بالحياة فما الذي يمنعهم من الاستغناء عنها اذا أرادوا ؟ والرد على ذلك يسير . ذلك ان النفع الذي يعود على المرء من استخدام وسائل الراحة حال ومباشر ، ولا يدرك المرء ما أصابه من خسارة من وراء الامعان في استخدام هذه الوسائل الا بعد حين . فلاستخدام أجهزة تكييف الهواء لأول مرة متعة مباشرة يصيبك بعدها نوع من الادمان ، فلا أنت بقادر على الاستغناء عنها ولا أنت تستمد منها بعد ذلك مصدرا مستمرا للامتاع . ومروجو هذا النوع من السلع ، الذي لا يستهدف الا تحقيق الراحة ، يعتمدون اعتمادا أساسيا في تصريف سلعهم على هذا النوع من اللاعقلانية لدى المستهلك . فهم يستغلون في الأساس رغبته الطفولية في الحصول على راحة سريعة أيا كان ما يترتب عليها في المدى الطويل من حرمان من مصادر البهجة . وموقف المستهلك في هذا الصدد شبيه بموقف الصائم في رمضان الذي يتعرض له باستمرار شخص يحاول اغراءه عن صيامه بتقديم الماء المثلج له . فالتنازل عن مصادر البهجة في المدى الطويل في سبيل الراحة الفورية قد تكون في صالح بائعي السلع ولكنها ليست بالضرورة في صالح المستهلك .

ليس هذا بدعوة الى تعذيب النفس أو تمجيد للحرمان ، ولكنه مجرد دعوة لشيء من التعقل في مواجهة هذا السيل الجارف من السلع الذي نواجه به في كل لحظة . ان هناك بالطبع من وسائل الراحة ما يسمح بزيادة درجة الاستمتاع الايجابي بالحياة ، كما ان هناك من صور الحرمان ما يحرم المرء أيضا من مختلف صور النشاط الجسماني والعقلي التي تشكل مصدرا حقيقيا للبهجة . فليست هناك أية درجة من العقلانية في أن نقول للجائع ، فلتصبر على الجوع في سبيل الاستمتاع برغيف الخبز في آخر اليوم . على أن مجتمع الرخاء المزعوم قد تمادى في الترويج لوسائل الراحة ، باسم القضاء على الحرمان الى حد أن قضى على الكثير من مصادر المتعة الحقيقية . ■■

د . جلال أمين

من « بنك مصر » الى « البنك العربي »

عبدالحميد شومان يروى قصته

بقلم : الدكتور توفيق الشاوى



عبد الحميد شومان

كثيرون لا يعرفون شيئا عن العلاقة بين رائد الاقتصاد المصرى محمد طلعت حرب منشىء بنك مصر والسيد عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي ، ولا يعرفون العلاقة بين هذا الاخير وحركة البنوك الاسلامية . .

ان القراء يعرفون دور هذين العملاقين في بناء اقتصادنا على أسس وطنية وعلى اسس عربية ، ولكن بقى أن يعرفوا أن العمل المصرفي الوطنى والعربى هو الأساس الذى قامت عليه حركة البنوك الاسلامية وأن بناء الاقتصاد على اسس اسلامية ليس إلا ثمرة حتمية للتطور والنمو الذى بدأ بجهود هذين العملاقين في ميدان العمل المصرفي والاقتصادى ، ولذلك كان لابد أن نسوق لهم هذه القصة . .

بدأت البنوك كلها في جميع أقطارنا أجنبية مالا ونظاما ولغة وادارة وهدفا ـ بمعنى أنها كانت تعمل لصالح الاجانب والاقتصاد الأجنبي . .

ثم جاء محمد طلعت حرب ، فأنشأ أول بنك وطني هو بنك مصر الذي كان نواة الاقتصاد المصري وكان أول بنك مصري إدارة ومالا ولغة ، وكان بذلك في نفس الوقت أول بنك عربي لغة ، ولم يكن بنك مصر مجرد مصرف عادي ، بل كان نواة لعدة شركات مصرية للنسيج والملاحة والطيران وصيد الاسماك . . الخ . ان تأسيس هذا البنك وشركاته أعاد للمصريين والعرب ثقتهم بقدرتهم على العمل في ميادين الاقتصاد والبنوك ببلادهم ، بعد ان كانت حكرا على الاجانب ، لقد اثبت طلعت حرب للعالم قدرة المصريين على انشاء مشروعات مصرفية واقتصادية تنافس البنوك الأجنبية وتغنيهم عنها ، وهي وان كانت تسير على أنظمتها وأصولها الأوروبية الا أنها كانت تعمل لصالح الاقتصاد الوطني لا لصالح الاجانب والاقتصاد الأجنبي . .


محمد طلعت حرب

لقاء مع شومان

ثم جاء الرجل الثاني ـ عبد الحميد شومان ابن القدس الشريف وابن فلسطين ـ ذلك العصامي العبقري العملاق ، الذي انشأ « البنك العربي » في فلسطين على نمط بنك مصر ونجح ذلك المشروع العربي في فلسطين التي تعاني من الاحتلال البريطاني وتهددها المطامع الصهيونية . . ثم امتد نشاطه واتسع حتى شمل جميع انحاء العالم العربي ، وأصبح يعتبر العالم العربي كله وطنا له بعد ان خسر وطنه الصغير في فلسطين . . . .

لم يكن لي الحظ في لقاء طلعت حرب أو الحديث معه ، ولكني سعدت بلقاء المرحوم عبد الحميد شومان لأول مرة في الرباط عاصمة المغرب الأقصى حيث كنت استاذا بجامعتها ـ وفي أول لقاء معه عام ١٩٦٠ م روى لي قصة كفاحه وحياته ، وعرفت منه حقيقة لا يعلمها كثيرون ، وهي ان فكرة انشاء البنك العربي كانت ثمرة لاتصاله بطلعت حرب واعجابه به . . . . ومن حق القراء أن أقص عليهم حديثه لي :

قال شومان :

خرجت من القدس ، من جوار المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، متوجها الى « نيويورك » وليس معي شيء من المال ، لقد اقرضني بعض أقاربي ثمن تذكرة السفر الى أمريكا بالدرجة الرابعة على ظهر السفينة لأبحث عن عمل في القارة الأمريكية .

سافرت وليس معي من سلاح للكفاح في ميدان الحياة سوى الاعتماد على نفسي ـ فاعتمدت أولا على ذراعي هاتين ـ وأشار بهما الى أعلى . . . لأنني لم أدخل مدرسة في بلادي ولم أحمل شهادة . .

بدأت حياتي الجديدة في نيويورك ، عاملا بيدي ، فمارست جميع الأعمال من أعمال البناء الى العمل في المصانع . . حتى استقربي المطاف في مصنع للنسيج كان يملكه أمريكي من أصل ارلندي . . لقد قربني اليه أنه كان يكره الاستعمار البريطاني بل كان يكره الاستعمار الصهيوني ويعتبره أخطر من الاستعمار البريطاني ـ انه كان يحبنا نحن عرب فلسطين ويحترمنا ، بل قال لي أنه يحسدنا لأننا نرفض الصهيونية ونقاومها ـ انه كان يقول ان هذه ميزة لنا على جميع شعوب العالم التي تشعر بهذا الخطر ، وفي مقدمتها أمريكا التي يقول أنها خرجت من السيطرة البريطانية لتقع فريسة للسيطرة الصهيونية ، انه كان يقول لي « انتم أحسن حظا منا في هذه البلاد العظيمة ـ لأنكم ترفضون السيطرة الصهيونية وتقاومونها ، ولذلك سيكون لديكم أمل في التحرر من أطماعها ـ أما هنا فان شعبنا لا يحس بالقيود التي فرضتها عليه الصهيونية ـ فلا أمل له في التحرر منها طالما أنه يستسلم لها ولا يفكر في مقاومتها . . . .

الرحلة إلى أمريكا

منذ بدأت حياتي في أمريكا لم أنس قط أهلي ووطني ، وخاصة أولئك الذين ساعدوني في السفر وقدموا لي ما يمكنني من دفع ثمن التذكرة في الباخرة وتعهدوا برعاية أهلي حتى أعود لهم .... لقد جعلت أمامي هدفا لا أتحول عنه ، هو ان أعود الى فلسطين لأسدد ديوني وأرد الجميل للذين قدموا لي مساعداتهم . .

كنت أدخر من أجرى كل ما أستطيع ان أوفره ، حتى تجمع لي قدر لا بأس به من المال بدأت أستثمره في مشروعات متواضعة ـ ثم عرضت على صاحب مصنع النسيج الذي كنت أعمل به ان أشاركه فرحب بذلك ـ واتسع المصنع وتضاعفت ارباحه ، ثم عرضت عليه بعد ذلك أن أشتريه كله ، فباع لي نصيبه . .

كنت أعيش على غذاء نباتي ، وقد رفضت تناول اللحم منذ أخبرني من أثق فيه بأن اللحوم لا تذبح هناك بالطريقة الشرعية ، ثم حرمت جميع اللحوم واقتصرت على الغذاء النباتي بعد أن تأكدت أنه أصح لبدني ـ وسأبقى على هذا المبدأ ما حييت ان شاء الله . .

كان بعض زملائي المهاجرين الى أمريكا يأخذون على ذلك التقشف ويعجبون مني وظن بعضهم أنني افعله للاقتصاد في النفقات ـ ولا يفهمون أن من طبعي دائما أنني عندما اقرر أمرا لا أقبل التراجع فيه لأي عذر من الاعذار . وهذا هو شأني بالنسبة للتدخين فأنا لم أدخن قط ، ولن أدخن .... وعندما أنشأت « البنك العربي » التزمت مبدأ الا يعمل معي فيه من يدخن . . وبذلك أعطيت لغير المدخنين فرصة للعمل وميزة لا تتوفر لمن يستسلمون للتدخين . هذا هو مبدئي . .

ـ أذكر أنني توجهت مرة الى طبيب للعيون في نيويورك . . فأصر على انه يلزمني عمل نظارات ـ وعملتها فعلا وذهبت بها الى غرفتي ـ وعندما وضعتها على عيني ونظرت الى وجهي في المرآة وجدتها لا تعجبني وأدركت أنني لن أصبر على حملها كلما اردت السير . . . . فألقيت بها ـ من النافذة ـ ولم أقبل أن أضع نظارة منذ ذلك اليوم . . . وقد مضى على ذلك ما يزيد على أربعين عاما . . وعيناي تكفياني . ولا احتاج لنظارات وسأبقى كذلك طول حياتي . . كما انني لم أشرب الخمر ، ولا أحب رؤية من يتعاطاها أمامي . .

لقد كانت هوايته ورياضته المفضلة هي المشي على الأقدام ـ وكان يمشي وحده ساعات طويلة اذا لم يجد من يرافقه من أصدقائه ، وقد عرفني به صديقنا السيد منصور قداوه سفير ليبيا في المغرب آنذاك ـ واستراح لصحبتي لأنني لا أمل من المشي معه ، اعجبت كثيرا بشخصيته العصامية الفذة . . . وعندما دعاني للخروج معه أول مرة لنتمشى حذرني منصور قداوه بقوله :

« اعمل حسابك على ساعتين . . . مشيا على الأقدام . . . فان « الرئيس » لا يمشي أقل من ذلك » . .

لم يتعلم القراءة أو الكتابة

بعد ان ابتعدنا يوما عن مدينة الرباط تركنا السيارة ومشينا على اقدامنا في طريق « الرمان » ، وقد نسيت تعب المشي ـ وأنا استمع الى حديثه عن حياته وكفاحه من أجل انشاء « البنك العربي » . .

بعد بضع سنوات من العمل والكفاح في أمريكا بدأت أفكر في العودة الى فلسطين الحبيبة ، وهزني الشوق لأهلي وأحبابي بالقدس الشريف وأرضه الغالية . . . وقعدت احسب ما ادخرته من كسب يدي وأرباح تجارتي . . وأفكر في المشروعات التي يمكن أن ابدأها في فلسطين عندما أعود اليها . .

ذهبت لزيارة احد العرب المهاجرين الى أمريكا ، وكان معه عدد من المهاجرين يتحدثون عن اخبار فلسطين والعالم العربي ، وسمعت حوارا بينهم بشأن رجل ظهر في مصر يسمى « طلعت حرب » ـ دعا الى إنشاء « بنك مصر » . . . وفهمت من الحوار ان مشروعه في طريق النجاح والنمو وأنه يلقى اقبالا وتأييدا من جميع طوائف الشعب المصرى وطبقاته . . . وأن العرب يستبشرون بذلك لأنه أنشأ أول بنك في العالم تستعمل فيه اللغة العربية وحدها في كل أعماله ووثائقه وحساباته . . . وأكثر من ذلك فانه لا يعمل فيه أجنبي واحد ، بل كل العاملين به من المصريين والعرب وانه اول بنك وطني يعمل لصالح الاقتصاد المصرى لا للمصالح الاجنبية . . لقد كانت الأحاديث التي سمعتها تعبر عن حماس الجميع لهذا المشروع المصرى العربي . .

« ورغم انني لم اشترك في الحوار الا أنني تأثرت به الى درجة جعلت هذا الموضوع يشغل ذهني طول الليل وخطر لي أنني لابد من أن أرى طلعت حرب بمجرد عودتي لفلسطين وأتحدث معه ، وأشترك معه في هذا البنك بالمال الذي أحمله معي من أمريكا . . . وفكرت في أن أبعث له برسالة . .

« انني لم أتعلم القراءة والكتابة بأي لغة . . وكان ذلك من أشد العقبات التي واجهتني في حياتي . . . . ولو

سردت لك بعضا من هذه الصعوبات لكنت في حاجة لأيام وساعات طويلة .. ولكني والحمد لله استطعت أن أشق طريقي في الحياة ، وأنا امى لا اقرأ ولا أكتب . ورغم إلحاح كثير من أصدقائى فاننى لم اجد لدى الوقت الكافي لأبدأ في تعلم القراءة والكتابة ..

« وقررت أن أعود لمنزل صديقى الذي اجتمعنا به بالامس ليكتب لى الخطاب .. وقد أعجب الرجل بفكرتى واثناء حوارى معه خطر لى خاطر أكثر جرأة ، فطلبت منه أن يكتب انى عازم على العودة الى القدس الشريف لانشاء بنك مماثل لبنك مصر ، واننى ارجو ان يشترك معى بنك مصر في تأسيسه حتى نستفيد من خبرة اخواننا المصريين ومعاونتهم واقترحت ان يكون اسمه بنك « مصر فلسطين » أو « البنك المصرى العربي » ..

« تحمس الكاتب نفسه للفكرة ، وأضاف في الخطاب ان كثيرين من العرب المقيمين في أمريكا مستعدون للمساهمة في هذا المشروع وهم يعقدون آمالا كبيرة على اجابته على هذا الخطاب ليبدأوا في اجراءات التأسيس بالتعاون مع بنك مصر ورجاله .

توقف محدثى عن الكلام فقلت له متلهفا : وهل اجاب طلعت حرب على هذا الخطاب ؟ ..

ـ نعم .. ولكنى قضيت ليالى طويلة أترقب هذا الجواب وأنا بين اليأس والرجاء ، تراودنى الشكوك في وصول خطابي الى مصر واطلاع رئيس بنك مصر عليه واهتمامه به ورده عليه .. ولا استطيع أن اصف لك سرورى عندما تسلمت رده على خطابي ، والذى زادنى سرورا أن الاجابة كانت مشجعة ، وان الرجل رحب بالفكرة وقال انه يتمنى ان ينشأ في كل بلد عربي مثل هذا البنك ، وأن فلسطين هي أقرب بلد لبلادنا وقلوبنا .... فهي جديرة بأن تكون البادئة ... وأنه مسرور أكثر لان المقيمين في امريكا من العرب أو المهاجرين اليها ما زالوا يفكرون في مصالح بلادهم ويتابعون أخبارها ...... الخ » ..

لم أضيع وقتا كثيرا في تصفية جميع أعمالى في أمريكا ، والاستعداد للرحيل عنها عائدا الى القدس سعيدا بأننى وجدت الفكرة التى تجعل عودتى لبلادى بداية الجهاد من أجل شعبنا العربي في ميدان يحتكره للآن اعداؤنا ويتخذون هذا الاحتكار وسيلة لاستغلال بلادنا واستعباد أمتنا والقضاء على مقومات شعوبنا ومجتمعنا .. وحملت معى عناوين جميع اصدقائى من العرب الذين يقيمون في أمريكا بصفة دائمة أو مؤقتة ، الذين وعدونى بالمساهمة في تأسيس البنك المصرى العربي الذى سيكون أول امتداد لبنك مصر الذى انشأه طلعت حرب ، وأول بنك عربي يولد في حجر مؤسس بنك مصر وينشأ في رعايته وحضانته ، وودعنى اصدقائي عند سفرى على أننى ذاهب الى القاهرة لمقابلة طلعت حرب نيابة عنهم وباسمهم ...... وأن القدس الحبيبة ستكون محطة في طريقى الى مصر العزيزة ..

رسالة الى طلعت حرب

كان أول مافعلته في القدس عقب وصولى اليها ولقائى مع أهلى وأصحابي أن أعلنت لهم المشروع الذى عدت من أجله وطلبت منهم أن يستعدوا للمساهمة فيه وأن يدعوا كل من يعرفونه لذلك .. وأضفت من عندى أن طلعت حرب ـ « ابو الاقتصاد المصرى » ومنشىء بنك مصر ... سيكون رئيس هذا البنك وراعيه ... وزدت بأن أعلنت لهم أننا اتفقنا مع طلعت حرب على كل شيء بما في ذلك اسم البنك .. الذى سيربط بين شعب مصر وشعب فلسطين .... الخ .

وفي نفس الوقت بعثت برساله عاجلة الى طلعت حرب بنفس العنوان الذى ارسلنا عليه الخطاب السابق ـ وشرحت له فيه ما يلقاه المشروع من تأييد حماسى لدى جميع من علم به من أهل فلسطين سواء منهم المقيمون في أمريكا أو على أرض فلسطين الحبيبة .. وانتظرت الجواب .. كما انتظرت جواب خطابي السابق ـ ولكنى كنت واثقا من الاجابة ، ولم تساورنى الشكوك التى ساورتنى عندما كنت انتظر جواب الخطاب الأول فضلا عن أن المقابلات والاجتماعات مع معارفى واصدقائى الراغبين في المساهمة في البنك شغلتنى عن كل شيء ـ الا عن التفكير في برنامج أول زيارة يقوم بها طلعت حرب الى بلادنا لاتخاذ الخطوات النهائية للتأسيس ..

جاء الجواب متأخرا أكثر مما كنت أتوقع ... وفوجئت به ، ولا أريد أن أصف لك شعورى عندما سمعت عبارات الأسف التى أبداها طلعت حرب في خطابه لأنه لا يستطيع أن يفي بما وعد به من قبل ، لأن مجلس ادارة بنك مصر يرى أن البنك المصرى مازال وليدا ناشئا وليس لديه من الامكانيات ليساهم في أى مشروع خارج مصر .. وانه لا يريد ان يخاطر بمستقبل بنك مصر من أجل مشروع آخر ، ولكنه مع ذلك يتمنى لنا النجاح في المشروع معتمدين على انفسنا وفي حدود استطاعتنا .... والله المعين ... وهو المستعان ..

وصل تأثر شومان أقصاه عندما وصل الى هذه النقطة ، ووقف كأنه يلهث أو يسترد أنفاسه بعد جهد كبير ليتسى الساعات الأليمة التى مرت به بعد وصول هذا الخطاب

وانتشار الخير . . . . وكان اكثر ماقاساه هو ما لقيه من انصراف الكثيرين ممن تحمسوا للمشروع ووعدوا بالمساهمة فيه . .

ولم يثبت معه الا أقاربه وبعض المخلصين من أصدقائه . . مجاملة له وكأنهم يئسوا من نجاح المشروع . .

كانوا يعملون لعزل مصر

قلت له كأنما أعزيه . . وأنا أشير الى السيارة لنعود بها من حيث جئنا بعد هذا المشوار الطويل . . فوافق مسرعا كأنما يريد أن يفر من ذكرى تلك الايام التي مر بها . . وسرنا اليها صامتين . . وأنا لا أجرؤ على توجيه أي سؤال جديد خشية أن يزيد ألمه . .

وفي طريق العودة وقفنا بالسيارة على شاطىء وادى « الرقراق » قبل دخول الرباط . ووقف الرجل العملاق يتأمل مياه النهر تشق طريقها بين أمواج المحيط تحت جدار « الوداية » . . ثم وضع يده فوق كتفي كأنما يريد أن يتكىء عليها ـ وقال لي وهو ينظر الى مياه النهر الهادئة الجامدة كأنها دموع قد تحجرت .

ان طلعت حرب كان المثل الذي أقتدى به رغم ما حدث معي ـ في السنوات القليلة التي مرت بعد هذا الخطاب كنت غارقا في مشاكل البنك وقضاياه ، ولم يكن لي الاهدف واحد : هو أن ينجح مشروعنا وان أبعث برسالة الى طلعت حرب ليحضر لزيارتنا في القدس . .

وكنت أتتبع أخبار مصر وبنك مصر . . وأخبار طلعت حرب . . . . وعلمت منها ان الرجل لم يخلف وعده الذي بعثه لي باختياره ولكنه لقى معارضة عنيفة في مجلس الادارة ، وان الذين كانوا يقودون المعارضة ويحملون رايتها هم مجموعة من اليهود واعوانهم الذين تسللوا الى البنك حتى وصلوا الى مجلس الادارة بحكم الاسهم التي حصلوا عليها باعتبارهم مصريين . .

وكانت حجتهم أنهم شاركوا في بنك مصر على أساس انه بنك « وطني مصرى » ، وأن الوطنية المصرية هي التي كانت سبب نجاحه ، ولذلك فلا يجوز المغامرة به في نشاط خارج حدود مصر . . والحقيقة انهم كانوا يعملون لعزل مصر عن العرب عامة وفلسطين خاصة . . لصالح الصهيونية .

وقد علمت بعد ذلك أن هذه المجموعة قد تآمرت لاخراج طلعت حرب من البنك الذى انشأه وكان بالنسبة له حياته وأمله . . . . وأن أحد رؤساء الوزارات المصرية هو الذى نفذ هذه المؤامرة وأخرج طلعت حرب من بنك مصر في بداية الحرب العالمية الثانية ومات طلعت حرب ـ رحمه الله ـ دون أن ينال من حكومة مصر ما كان يستحقه من تكريم يتناسب مع ما اكنه له شعب مصر من تقدير واعتراف بالفضل . .

ولكن شعب مصر مازال يعتبره أب الاقتصاد المصري ، وبطلا خالدا من أكبر أبطال تاريخه الحديث . . أما العرب جميعا فانهم سيذكرونه دائما باعتباره أول من أنشأ بنكا مصريا وطنيا عربي اللغة ، وسيبقى طلعت حرب نموذجا خالدا للرجال الذين يستطيعون أن يحولوا أفكارهم الى مشروعات حية تنمو وتفرض نفسها على واقع المجتمع ومصيره . . . . . . وبالنسبة لي خاصة . . . . لقد كان لي قدوة وإماما . . وسوف أذكره بكل خير ما حييت . . لأن البنك العربي الذى أنشأناه في « القدس الشريف » كان امتدادا لبنك مصر الذى أنشأه طلعت حرب في القاهرة . . □□

جده ـ د . توفيق شاوي

غني وملك

● رأى زينون الحكيم رجلا على شاطىء البحر مفكرا حزينا على الدنيا فقال له : يافتى ما تلهفك على الدنيا . لوكنت في غاية الغنى وانت راكب لجة البحر وقد انكسرت بك السفينة واشرفت على الغرق اما كانت غاية مطلوبك النجاة وان يذهب كل ما بيديك ، قال نعم . قال ولو كنت ملكا واحاط بك من يريد قتلك ، اما كان مرادك النجاة من يده ولوذهب جميع ما تملك قال نعم . قال : فأنت ذلك الغنى الان وانت ذلك الملك فتسلى الرجل بكلامه .

أقوال معاصرة



■ الحلقة العربية هي أضعف الحلقات في حماية حقوقنا المشروعة !

بسام الشكعة

رئيس بلدية نابلس المعزول

■ يجب على الحكومة ان تتقاسم القرار مع العسكر حتى تتجنب الانقلابات .

الجنرال حسين ارشاد

قائد الانقلاب في بنجلاديش



■ تستطيع أي سلطة أن تجعل للصحفي مكانا ، لكنها تعجز عن أن تفرض له مكانه لدى جمهور القراء .

الكاتب العربي

محمد حسنين هيكل

■ قوة جهودنا من أجل حل أزمة قبرص ، تنبع من عدم تبني أي موقف كان .

هنري كيسنجر وزير خارجية امريكا الاسبق

■ أول خطوة جادة وعملية في صيانة التراث وفي إحيائه ، هي توطين العلم وذلك لا يتحقق إلا بتدريسه باللغة العربية في كل المستويات .

د. محيي الدين صابر

مدير المنظمة العربية للتربية والعلوم



■ اعلموا أن ما أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ ، وأن الايمان اقوى سلاح ، وأن كأس الحنظل بالعز أقوى من ماء الحياة مع الذل .

من وصية سلطان باشا الاطرش

■ ما يحدث في الضفة الغربية يعيد الى الأذهان الايام الأخيرة للامبراطورية البريطانية ، ونهاية الوجود الفرنسي في شمال افريقيا ، والبلجيكي في الكونغو .

المعلق اليهودي حاييم بيرمانت



■ إن واجبي تجاه الشعب لما ينته بعد !

ديكتاتور السلفادور خوسيه نابليون دوارتي

■ عاد الامريكي القبيح يطل بوجهه من النافذة الخلفية ، وكنا قد نسينا هذا الوجه لفترة من الزمن .

صحيفة بيكيخ ديلي

بعد تصويت امريكا في مجلس الامن لحماية اسرائيل

دار «النيابة السعيدة» بطنجة

واجهة دبلوماسية لمخاطبة قناصل أوروبا

بقلم الدكتور عبد العزيز التمسماني خلوق

في اطار الحد من التسرب الأوربي الى المغرب ، أنشأ المخزن (الحكومة) في القرن الماضي دار النيابة السعيدة بطنجة لتكون واسطة بينه وبين ممثلي الدول الأجنبية . وهذه هي قصتها . .

قبل نهاية القرن الثامن عشر ، أصبحت طنجة مقرا لجميع قناصل الدول الأجنبية الممثلة في المغرب ، بعدما فقدت تطوان مكانتها كمركز دبلوماسي . وبذلك بدأت تتبلور وظيفة طنجة كعاصمة دبلوماسية للبلاد . وكان التواجد القنصلي بها ما يزال متواضعا في هذا التاريخ ، كما انه لم يكن ممثلا في المواني الأخرى الا في حالات استثنائية . مع ذلك ، فان تجمع القناصل في مدينة واحدة كان من شأنه أن يضفي نوعا من الفعالية على مواقفهم وقراراتهم المشتركة . وهذا ما تأكد بالفعل بعد تأسيسهم ، في ٢ مايو ١٧٩٢ ، « خونطة القناصل » ، وهي عبارة عن مجلس عام كانوا يتداولون داخله القضايا ذات المصلحة المشتركة ، وقد تمكنوا بفضله من انتزاع كثير من الامتيازات من المخزن . (الحكومة المغربية) .

بيد أن القناصل كانوا يقيمون في طنجة ، في حين أن السلطان كان يقيم في فاس . لقد كانوا يحجون اليه في عاصمته ، سواء لتقديم أوراق اعتمادهم ، أو لاجراء مباحثات معه حول القضايا الهامة . الا انهم كانوا في حاجة الى الحصول على اذن مسبق منه ، كما أنه هو الذي كان يتولى تحديد المسالك التي سيمرون منها ، وغالبا ما يؤطرهم بحامية مغربية « بدل وجودها على أن الأوربي في المغرب يوجد تحت حماية السلطان » .

أما فيما يخص الرسائل التي كانوا يبعثون بها الى فاس ، فقد كان عليهم أن يقدموها أولا الى عامل طنجة الذي يتولى فضها ، ثم توجيهها بنفسه الى السلطان ، وعن طريقه كانوا يتلقون أجوبتها .

وكانت الغاية من هذه التدابير هي الحيلولة دون قيام اتصالات مباشرة بين السلطة المركزية والممثلين الأجانب ، وهي تدخل بذلك في اطار سياسة الاحتراز التي انتهجها المولى سليمان (١٧٩٢ - ١٨٢٢) في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر .

ومن الرسائل السليمانية التي تحدد لنا موقف السلطان من مسألة علاقاته بالهيئة القنصلية ، الرسالة التي بعث بها اليها ، عن طريق عاملة على تطوان وطنجة ، بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٢٠٧ - فاتح نوفمبر ١٧٩٢ : « كافة القونصوات القاطنين بطنجة وبغيرها من جميع ايالتنا السعيدة ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فاعلموا أن كاتبنا الفقيه السيد محمد بن عثمان تعرفون منزلته عندنا وعند سيدنا الوالد . . . صدقا وأمانة وعرضا ومروءة ولهذه الحالة المعروف بها عندنا بعثناه لتطوان وولِّيناه أمرها وامر من بها مفوضا في ذلك . وقد حملنا على بعثه وتوليته غرضان احدهما ان تطوان اعظم ثغور المسلمين ومقصد لكل واحد من المسلمين ومن أجناسكم . وهذا الفقيه له

سيل باعث على تمشية جميع الأمور على ما يناسب كل واحد . . والغرض الآخر هو جعله واسطة بيننا وبينكم بحيث كل من يعرض له منكم أمر خاص اما من جهتكم أو جهة دولتكم فليعرضه عليه ويتفاوض معه فيه لأنه أعلم بأحوالكم وهو يبعث لنا أغراضكم وعلى يده يأتيكم الجواب من عندنا ليكون كلامكم الذى تذكرون له يصلنا على التمام وكلامنا يصلكم كذلك . . . . » .

فنرى اذن أن المولى سليمان قد جعل عامل تطوان وطنجة واسطة لا غنى عنها بينه وبين القناصل ، واضعا بذلك اللبنة الأولى للمؤسسة المخزنية الجديدة التي سترى النور في عهد خلفه المولى عبد الرحمن (١٨٢٢ ـ ١٨٥٩) ، والتي ستعرف بدار النيابة السعيدة بطنجة .

لقد كان من شأن تعقد علاقات المغرب مع اوربا في عهد هذا السلطان ان ازدادت الحاجة الى التوفر في طنجة على خلية مكملة لوزارة البحر (الخارجية) ، تعالج القضايا الدبلوماسية نيابة عن المخزن . وقد أسندت مهام هذه المؤسسة في ١٨٤٨ الى بوسلهام بن علي أزطوط ، باشا طنجة والعرائش . وعند وفاته في فبراير ١٨٥١ ، تم تعويضه كنائب للسلطان من طرف محمد الخطيب الذي أصبح كذلك مكلفا ، في يونيو ، بوظيفة باشا طنجة . وفي أبريل ١٨٥٤ ، وبناء على طلب هذا الأخير تفصلت الوظيفتان ، فاحتفظ الخطيب بوظيفة النائب السلطاني ، في حين تم تعيين محمد بن عبد المالك الريفي عاملا على طنجة . وفي ١٨٦٢ ، تولى شؤون النيابة محمد بركاش وظل على رأسها الى غاية ١٨٨٦ ، حيث عين المولى الحسن الحاج محمد العربي الطريس نائبا ، فبقي على رأسها حتى سنة ١٩٠٨ . وخلفه محمد الجباص الذي تولى مباشرة شؤونها الى أن تم تعويضه في العهد اليوسفي بمحمد بن عبد الكريم التازي ، الذي أصبح مندوبا للسلطان في طنجة ، بمقتضى القانون الدولي الخاص بالمدينة ، الصادر سنة ١٩٢٣ .

النشاط الدبلوماسي

على عهدي المولى عبد الرحمن وسيدي محمد :

تميز عهد المولى عبد الرحمن بن هشام (١٨٢٢ ـ ١٨٥٩) بأحداث جليلة كان لها تأثير كبير على مسار تطور أوضاع المغرب سواء في الميدان الخارجي أو الميدان الداخلي . ذلك أن احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ قد أخل بموازين القوى في البحر الأبيض المتوسط ، مما جعل المطامع الاستعمارية تتركز على البلاد ، وجعل المخزن بالتالي عرضة لسلسل الضغوط الأجنبية ، خاصة بعد



من مظاهر الحياة في طنجة

هزيمة ايسلي سنة ١٨٤٤ . وفي هذا الدور قامت دار النيابة السعيدة بطنجة بنشاط دبلوماسي مكثف ، فكان عليها ان تخبر السلطان بالاخطار التي كانت محدقة بالبلاد ، كما كان عليها ان تتفاوض مع ممثلي الدول الأجنبية لايجاد الحلول للمشاكل المستجدة والتي كانت تزداد تعقيدا سنة بعد أخرى . وهذه هي المهمة التي اضطلع بها في هذا العهد كل من بو سلهام بن علي ومحمد الخطيب ومحمد بركاش .

فبالنسبة للأعمال الدبلوماسية الجليلة التي قام بها بوسلهام ، نذكر توقيعه على معاهدة الصلح بين المغرب وفرنسا في ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ على إثر هزيمة ايسلي . ثم توقيعه في السنة التالية ، بناء على تفويض من السلطان ، على اتفاقية مع ممثلي كل من السويد والدانمارك . نصت

على الغاء الأتاوة السنوية المفروضة عليها منذ عهد سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠) . وبجانب هذا النشاط الدبلوماسي ، قام بوسلهام بدور آخر ، لا يقل أهمية عن سابقه ، ويتمثل في احاطة السلطان علما بالتحرشات الأجنبية التي تتهدد التراب المغربي . وهذا ما تعكسه المراسلات الطويلة التي دارت بينه وبين السلطان خاصة فيما يتعلق بالتطلعات الاسبانية الى احتلال الجزر الجعفرية .

وعلى الرغم من هذا النشاط المكثف ، فقد كانت دار النيابة في عهد بوسلهام ما تزال متواضعة من حيث التنظيم والتأطير . الا انها ستزداد تعقيدا في العهود التالية بتعقد علاقات المغرب بأوربا ، وستضم بالاضافة الى النائب وخليفته ، عددا من الكتاب والمترجمين والأعوان . وهذا ما كان عليه الأمر عندما تولى شؤونها محمد الخطيب سنة ١٨٥١ .

في هذا العهد ، كانت أوربا تعمل جادة لاضفاء الصبغة القانونية على تسربها التجاري الى المغرب ، فاضطلعت دار النيابة بمهمة تلطيف مطالبها ، ومحاولة الوقوف أمام تحدياتها ، غير أن محاولاتها كانت تبوء بالفشل أمام الأساليب المكيافيلية التي كان يلجأ اليها ممثلوها . وكانت انجلترة أول دولة تتوج جهودها الدبلوماسية في هذا الميدان بانتزاع معاهدة جديدة من المخزن . وكانت المفاوضات التي دارت في دار النيابة ـ قصد التوقيع على هذه المعاهدة ـ جد طويلة . فقد بدأت منذ ١٨٥٣ ، في حين لم يتم التوقيع على النص النهائي الا في ٩ ديسمبر ١٨٥٦ . وهي تعد من أخطر المعاهدات التي وقعها المغرب مع أوربا ، اذ أنها فتحت أبواب البلاد على مصراعيها أمام التسرب الأجنبي . كما أنها أذكت مطامع الدول الأوربية الأخرى .

وهكذا ، فلم تمض سوى بضع سنوات ، حتى نشبت حرب تطوان سنة ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠ ، التي شنتها اسبانيا على المغرب لانتزاع امتيازات جديدة منه . وكان على النائب محمد الخطيب أن يوقع معها على اتفاقية ٢٦ أبريل ١٨٦٠ . التي نصت على توسيع رقعة احتلالها في سبتة ومليلية ، والتنازل لها عن حق الصيد في المياه المغربية الجنوبية . هذا فضلا عن تعويض حربي باهظ ، سيضطر المغرب الى الاستدانة من انجلترة لتسديد نصفه ، في حين أن النصف الآخر سيقتطع من مداخيله الجمركية طيلة ربع قرن .

لقد تمخضت الحرب الاسبانية المغربية ، والاتفاقيات التي أعقبتها ، عن تغيير جذري في طبيعة العلاقات المغربية الأوربية ، وأدت الى انعكاسات سلبية في الحياة الداخلية . وكان استقرار موظفين اسبان في المراسي المغربية ، لاقتطاع نصف المداخيل قصد تسديد تعويض الحرب ، من أبرز المؤشرات على هذا الوضع الجديد . ولمراقبة هؤلاء الموظفين ، أقامت اسبانيا شبكة قنصلية في أهم المراسي . وفي ١٨٦٣ ، أصبح ممثلها في طنجة يحمل لقب وزير مقيم . ولم يقتصر الأمر على اسبانيا وحدها ، فمنذ ١٨٦٠ بدأت الدول الأوربية الأخرى الممثلة في طنجة ترفع من مستوى تمثيلها الدبلوماسي ، وتعزز شبكتها القنصلية . وقد انعكس ذلك على مواقف الممثلين الأجانب الذين أصبحت مطالبهم تقدم بلهجة التهديد . وكنتيجة حتمية لهذا الوضع ، فقد ضعف موقف النائب السلطاني بطنجة ، ولم يعد قادرا على الصمود أمام تحديات الهيئة الدبلوماسية . وهكذا فان دار النيابة السعيدة التي أسست بهدف الحد من التغلغل الأجنبي في المغرب ، أصبحت المقر الذي يأخذ فيه هذا التغلغل الصبغة القانونية .

فبعد التوقيع على معاهدتي ١٨٥٦ و١٨٦٠ ، وقع النائب محمد بركاش ، مع الممثل الفرنسي بكلارد Beclard على اتفاقية ١٨٦٣ . وهي من أخطر المعاهدات التي وقعها المغرب مع أوربا في القرن الماضي ويكفي ان نورد ما قاله الاستاذ ميج في هذا الصدد لنتأكد من خطورتها : « لم يبق للمخزن أن أبرم وفقا ما عواقب خطيرة كهذا ، والسبب في ذلك يرجع الى غلط في تقدير الوفق ووزنه اكثر مما يرجع الى خطورة الوضع السياسي » .

وبجانب الامتيازات الممنوحة للأجانب ، والتي كانت تمر عن طريق دار النيابة ، مثلت هذه المؤسسة خطورة أخرى على السيادة الوطنية ، بطريقة غير مباشرة ، باتاحتها الفرص للممثلين الأجانب بالتدخل جماعيا في الشؤون المغربية ، واضعة بذلك النواة الأولى لتدويل القضية المغربية . لقد بدأت مؤشرات هذا التدويل منذ ١٨٤٠ ، بتأسيس مجلس صحي دولي بطنجة ، وأيضا سنة ١٨٦٥ بالتوقيع على اتفاقية منارة رأس سبارتل ، الا أنه لم يأخذ بعدا مقلقا الا على عهد المولى الحسن .

قبل فرض الحماية

● في عهد المولى الحسن (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) ظلت قضية الحماية القنصلية في العهد الحسني شغلا شاغلا بالنسبة للسلطات المغربية ، لأن السلطان كان يعتبرها وراء جميع المشاكل التي قامت بين المغرب والدول الأجنبية . وحرصا منه على خوض المعركة الدبلوماسية في

ظروف حسنة . أوفد السلطان الحاج الزبدي سنة ١٨٧٦ الى بريطانيا وفرنسا وبلجيكا أملا في كسب تأييدها ، واستمرار لسياسة التدافع التي كان ينهجها . وفي السنة التالية أمر النائب محمد بركاش بفتح المفاوضات في طنجة مع الهيئة الدبلوماسية . وقد وجه هذا الأخير مذكرة الى هذه الهيئة تتضمن ٢٠ فصلا . والذي يهمنا في هذا المجال هو خطورة اجراء مفاوضات جماعية مع النواب الأجانب بدار النيابة بطنجة . . ذلك أن قرار عرض مسألة الحماية أمام الهيئة الدبلوماسية والتخلي عن المفاوضات المنفردة التي كان يجريها المخزن حتى هذا التاريخ ، قد تمخض عن نتائج خطيرة حيث إنه فتح الباب أمام تدويل القضية المغربية كما يقول الأستاذ ميج .

وبعد فشل المفاوضات بطنجة ، أحيلت قضية الحماية القنصلية على مؤتمر دولي انعقد خارج المغرب . ويتعلق الأمر بمؤتمر مدريد (١٨٨٠) الذي شارك فيه محمد بركاش . وقد انتهت أشغال هذا المؤتمر في ٣ يوليو بالتوقيع على اتفاقية تتضمن ١٨ فصلا . غير أن المؤتمر لم يوافق على الاصلاحات التي كان المغرب يعقد آماله عليها ، بل ان حق الحماية تعزز بعد المؤتمر حيث اعترف به رسميا باتفاقية دولية . من جهة أخرى ، فان عقد مؤتمر خارج المغرب ، وادراج عدة قضايا مغربية في جدول أعماله ، كقضية التجنس والضرائب والحرية الدينية ، كان يعني أن المغرب أصبح يعيش تحت نوع من الوصاية الدولية .

مع ذلك فقد نجح المولى الحسن في الاستفادة من تضارب الدول الاستعمارية وتنافسها للمحافظة على استقلال البلاد . وفي هذا الاطار ، لعبت دار النيابة السعيدة بطنجة ، دورا أساسيا فكانت تعتمد تارة على وزير انجلترة هاي لافشال المشاريع الفرنسية التوسعية ، وطورا على وزير ألمانيا طاطنباخ . . الا أن الوضع سينقلب بعد وفاة المولى الحسن سنة ١٨٩٤ ، وخاصة بعد وفاة حاجبه با أحمد سنة ١٩٠٠ ، عندما ستؤول الأمور الى المولى عبد العزيز الذي تولى مباشرة الحكم بدون تهييء سابق .

● في عهدي المولى عبد العزيز (١٨٩٤ ـ ١٩٠٨) ، والمولى عبد الحفيظ (١٩٠٨ ـ ١٩١٢) عندما تولى المولى عبد العزيز الحكم بعد وفاة با أحمد سنة ١٩٠٠ ، كان سنه لا يتجاوز ١٩ سنة ، وكان يمتاز بالذكاء وبالتطلع الى الاصلاحات . الا أنه كان يفتقر الى الخبرة ، كما أن انعزاله عن الشعب تمخض عن نتائج وخيمة ، حيث إن تصرفاته ستغضب العناصر المحافظة . وستزداد شعبيته تقلصا بعد فشل الاصلاحات التي حاول القيام بها تحت إشراف انجلترة .

وكان من شأن هذا الفشل ان فتح المجال أمام الهجمة الدبلوماسية الفرنسية . فتحت قيادة وزير الخارجية دلكسي ، وضعت فرنسا استراتيجية دبلوماسية تستهدف بسط سيادتها على البلاد ، وهكذا ، وبعد الاتفاقيات الثنائية التي عقدتها مع بعض الدول الأوربية المهتمة بالمغرب (انجلترة ، اسبانيا ، ايطاليا) ، وجهت سفيرها بطنجة طايندي الى فاس سنة ١٩٠٥ لفرض برنامج من الاصلاحات على المولى عبد العزيز . غير أن الموقف الحازم الذي اتخذته ألمانيا ضد هذا البرنامج أرغم فرنسا على قبول عقد مؤتمر دولي خارج المغرب للنظر في القضية المغربية ، فكان مؤتمر الجزيرات سنة ١٩٠٦ .

في هذا العهد اذن كان من الطبيعي أن تلعب دار النيابة السعيدة بطنجة الدور الأول على الصعيد الدبلوماسي . فكانت المفاوضات مستديمة بينها وبين ممثلي الدول الأجنبية ، كل على حده ، سواء لتبليغهم احتجاجات المخزن على الانتهاكات الترابية لحدوده ، أو لدراسة مشاكل الحدود ، ثم النظر في المطالب المختلفة التي كان يتقدم بها السفراء الأجانب فيما يخص دولهم أو جالياتهم الأوربية المقيمة بالمغرب . وكان النائب محمد الطريس يحيل هذه القضايا على السلطان ، مبديا رأيه ، ومقترحا الحلول . كما كان يتلقى أجوبته وأوامره لحسم القضايا المطروحة . غير أن أهم حدث شاركت فيه دار النيابة في شخص رئيسها ، هو مؤتمر الجزيرات .

وقد تزايدت المشاكل المطروحة على دار النيابة وتضخمت ملفاتها ، بعد مؤتمر الجزيرات نتيجة للأحداث الخطيرة التي شهدتها الساحة المغربية ١٩٠٧ الى ١٩١٢ . وكان محمد الجباص الذي عينه المولى عبد الحفيظ على رأس دار النيابة الطنجية سنة ١٩٠٨ ، آخر نائب سلطاني يتولى هذه المهمة قبل إعلان الحماية .

الخاتمة

لقد كان الغرض من تأسيس دار النيابة السعيدة بطنجة هو الحد من التسرب الأجنبي بحصر مقر النواب الأجانب في نقطة ساحلية بعيدة عن العاصمتين فاس و مراكش ، وتأخير وصول رسائلهم لربح الوقت . غير أن هذا الاجراء جاء بنتيجة معاكسة ذلك أن الهيئة الدبلوماسية ، التي تحولت الى سلطة مستبدة منذ هزيمتي ايسلي وتطوان ، أصبحت قادرة على فرض ارادتها على النائب السلطاني بالمدينة ، وبالتالي انتزاع الامتيازات المختلفة منه ، دون اشعار المخزن . وثمة نتيجة خطيرة أخرى ، وهي خلق مواقع ارتكاز لتدويل القضية المغربية . ■■

الوليمة

شعر الدكتور

محمد عبده غانم

بوران والمأمون عودا　　لتشاهدا الفتح المجيدا
أسطورة العرس التي　　ماتت بعثناها جديدا
بل قد تجاوزنا بما　　جئنا به الحد العتيدا
لم يرتض الداعون منا　　بالقديم لنا قيودا
لم يكتفوا بموائد　　صفت لنا صفا مديدا
وتوالت الالوان فيها　　جفنة ملئت ثريدا
وغريض لحم يجتلى　　اما شواء أو قديدا
وطرائف السمك الطري　　لنا من الأعماق صيدا
وفطائر الحلوى وفاكهة　　لمن رام المزيدا
وكؤوس وهج يخضب　　الساقي بها كفا وجيدا
وغناء غانية تكاد　　له الموائد أن تميدا
شاءت لها العيدان الا　　أن تعيد وان تعيدا
ووراءها تقف القدود　　موائسا تتلو قدودا
قد أقبلت في المرط حتى　　تجتليها العين غيدا
تهز اعطافا وأردافا　　وتحتضن النهودا

***

لم يكتفوا بسماء دجلة　　وهي قد كفت الرشيدا
بل فضلوا التيمز البعيد　　وما أجل لنا البعيدا
تهوي اليه الطائرات بنا　　وفودا بل حشودا!
حتى استبد بنا الهوى　　واجتاح دنيانا وجودا
واهتزت الحجرات عبر　　فنادق سطعت ورودا
في كل ركن باقة　　تروى حديث العرس عيدا
وتحيله في الضفتين　　على مسامعنا نشيدا
وتحيله في كل كف　　بنكنوتا أو نقودا
وسبيكة صيغت من الابريز　　تذكارا فريدا

***

اين الرقاع من الملايين　　المحطمة الحدودا
ملء الخزائن في المصارف　　مالنا يبني الرصيدا
هلا أفدنا منه حتى ان　　أبى أن نستفيدا
ان لم نعد مجد الجدود　　بقهرنا الخصم اللدودا
وبعودة الوطن السليب الى　　الحمى حرا سعيدا
فلنحي ذكرى عهدهم　　في عهدنا بذخا بليدا
حتى يقول المجد تلو　　المجد ما أذكى الحفيدا



طه حسين "٢"

والتمرد على الطريقة الأزهرية

بقلم الدكتور عبد العزيز المقالح

حاولت في الجزء الاول من هذا المقال الذى قد يرتقي الى مستوى الدراسة *، أن أضع ما يشبه المدخل الى فهم طه حسين ذلك الازهرى المتمرد، ابن التراث العربي، واحد الاعلام المستنيرين في الفكر العربي الحديث. الذين اعادوا فتح الجسور بين هذا الفكر وبقية الافكار في العالم المعاصر.

وبالرغم من ان ما فعلته في هذا المدخل لا يكاد يخرج كثيرا عن تفسير الماء بالماء، لأن ازهرية طه حسين ليست في موضع التشكيك او الجدل، الا ان هذا الجهد المتبع للبديهيات لن يمر دون اعتراض قد يصل الى درجة الرفض، لماذا؟ ربما لان عددا كبيرا من الناس لا يريدون وقد لا يستطيعون ان يغيروا آراءهم في الاشخاص والاشياء حتى وان كانت هذه الاراء قد تكونت عن طريق الروايات والاشاعات وليس عن طريق البحث والمعرفة الموضوعية. وهناك من سوف ينكر على هذه الدراسة - ان كانت كذلك - حسن النية، وهذا الفريق من الناس قد لا يراها دفاعا مخلصا عن طه حسين المفترى عليه، وانما قد يراها تشكيكا في منهجه وفي ثقافته المعاصرة، وقد يكون من مصلحة هذا الفريق ان يراه غربيا لا ازهريا، ومنقولا من باريس او من اية عاصمة غربية اخرى لا عربيا مصريا طالعا من التراث العربي وخارجا من بين صفحات الازهر الشريف، ومستفيدا من ثقافة عصره، شأنه في هذا شأن بقية المفكرين ومشاهير الكتاب العرب في كل العصور، ومنهم - على سبيل المثال - الجاحظ الذى تثبت كتاباته انه افاد من الثقافتين اليونانية والسريانية ومن الثقافتين الفارسية والهندية ومع ذلك فقد كان - وما يزال - كاتبا ومفكرا عربيا اسلاميا لم يتهمه احد في عصره او بعد عصره بانه مستورد او منقول، او ان قوة شيطانية قد صنعته واعدته للقضاء على التراث العربي الاسلامي. وعلى الاسلام نفسه!!

التهمة الباطلة

وكنت في الجزء الاول من هذا المقال - الدراسة، قد توقفت عند المعركة التي اثارها كتاب طه حسين عن (الشعر الجاهلي) وهي معركة تركزت حول تهمة خطيرة حيثياتها ان مؤلف هذا الكتاب يرمي من ورائه الى انكار الشعر الجاهلي ويعبر عن احتقاره للأدب العربي، وهو يدعو من خلاله الى انصراف العرب عن ذلك الشعر والازدراء به لكونه منحولا. ولايمثل البيئة الجاهلية، او يصور همومها واحلامها، وهذه التهمة - بالرغم من الحيثيات المستندة الى بعض افتراضات الكتاب المذكور - تهمة باطلة، لعدة اسباب منها:

اولا - ان الكتاب نفسه يحتوى مجموعة من الافتراضات

---

* نشر الجزء الاول في العربي عدد ابريل الماضي.



لا المسلمات . وقد كان طه حسين فيه باحثا منهجيا يضع كثيرا من الافتراضات التي قد تؤدي علميا الى تدعيم الفكرة التي تسعى الى دحضها . . .

ثانيا - ان طه حسين في هذا الكتاب لم ينكر الشعر الجاهلي ، ولا شكك في كل شعرائه وانه كما اسلفت الاشارة في الجزء السابق من هذا المقال قد ردد نفس الحقائق او المزاعم التي رددها من قبله ابن سلام الجمحي وآخرون منذ ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا ولم يجدوا من يتهمهم بالعدوان على التراث العربي الشعرى او من يشكك في صدق نواياهم ، أو في حرصهم على الآداب العربية والشعر بخاصة .

ثالثا - في اختيار طه حسين القيام بتدريس الادب العربي والشعر العربي وتخصصه في هذا المجال ينفي عنه على اقل تقدير الاحتقار لهذا الادب او لهذا الشعر ، فالذى يحتقر شيئا لا يوقف حياته لتدريسه والبحث فيه .

رابعا - ان ما كتبه طه حسين قبل ذلك وبعد ذلك عن الشعر الجاهلي وما دبجه عنه من تحليلات ومن نثر شعرى بالغ العذوبة لبعض النصوص الشعرية القديمة ، برهان لا يقبل الشك على حبه وافتتانه بذلك الشعر .

خامسا - دعوته الدائمة الى العناية بهذا الشعر وقسوته على الكتاب والشعراء الذين يريدون ان يكونوا كذلك دون ان تتوطد علاقاتهم بالأدب العربي القديم وبالشعر الجاهلي بخاصة .

تلك باختصار بعض الاسباب التي تدعونا الى الجهر ببطلان التهمة الموجهة الى طه حسين ونستطيع - للتدليل على صدق هذه الاسباب - ان نرجع الى بعض كتبه النقدية التي يصل في بعضها الى مقام العاشق المتصوف في معبد التراث الشعرى ، ولعل كتابيه الاول والثاني من (حديث الاربعاء) ، وكتابه من حديث (النثر والشعر) لعلها تشفع له تلك الافتراضات الظالمة في (كتاب الشعر الجاهلي) وتجعله واحدا من القيمين على حماية الثقافة العربية القديمة والساهرين على فهمها وتقريبها الى قلوب الناشئة والمتأدبين . وهو في مقدمة الجزء الأول من (حديث الاربعاء) يتحدث عن الكنوز القيمة في الادب العربي القديم ، ويرمي بالجهل كل اولئك الذين يقللون من شأن هذه الكنوز ، وفيما يقوله في هذه المقدمة (ان الذين يزدرون الادب العربي ، ويغضون منه ، يجهلون هذا الادب جهلا منكرا ، وما كان لمن جهل شيئا ان يحكم عليه -) « حديث الاربعاء : ج ١ - المقدمه ، ص٨ » .

وطه حسين في هذا الجزء من كتابه (حديث الاربعاء) وبعد المقدمة المشار اليها مباشرة ، يقيم محاكمة قاسية لجيل من المستغربين النافرين عن جذورهم وعن اصولهم الثقافية ، والذين افقدهم الاخذ بظواهر الحضارة الحديثة فزاغت عيونهم وعقولهم وصاروا غير قادرين على الانتفاع بالجديد او القديم ، لانهم كالاعشاب المتسلقة . وقد صاحب هذه المحاكمة مرافعة عظيمة لم يكتب مثلها اشهر المتحمسين للشعر القديم جاهليا كان او اسلاميا ، وفيها يؤكد طه حسين ان الادب القديم ضرورة من ضرورات الحياة العقلية في العصر الحديث ، وانه اساس من اسس الثقافة ، وغذاء للعقول والقلوب .

مرافعة عظيمة

واجد نفسي مضطرا الى اقتباس اكبر قدر من هذه المرافعة العظيمة لا للتدليل على بطلان الزعم الذى ذهب اليه خصوم طه حسين ، وانما للتدليل على مدى الحب بل العشق الذى استولى على قلب طه حسين وعلى مشاعره

نحو الشعر العربي القديم ، والأدب العربي القديم . يقول طه حسين : (ونحن لا نحب ان يظل الأدب القديم في هذه الايام كما كان من قبل ، لاننا لانحب القديم من حيث هو قديم ، وتصبو اليه متأثرين بعواطف الشوق والحنين ، بل نحن نحب لادبنا القديم ان يظل قواما للثقافة ، وغذاء للعقول لانه اساس الثقافة العربية ، فهو اذن مقوم لشخصيتنا ، محقق لقوميتنا ، عاصم لنا من الفناء في الأجنبي معين لنا على ان نعرف انفسنا . فكل هذه الخصال امور لاتقبل الشك ، ولا يحسن فيها المراء ، ولكننا مع ذلك نحب ان يظل ادبنا القديم اساسا من اسس الثقافة الحديثة لانه صالح ليكون اساسا من اسس الثقافة الحديثة . ونحب ان يظل ادبنا القديم غذاء لعقول الشباب ، لان فيه كنوزا قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب . والذين يظنون ان الحضارة الحديثة قد حملت الى عقولنا شرا غير قليل ، لم يأت منها هي ، وانما أتى من اننا لم نفهمها على وجهها ، ولم نتعمق اسرارها ودقائقها ، وانما اخذنا منها بالظواهر ، وقنعنا منها بالهين اليسير ، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضا . هذا الشاب ، او هذا الشيخ الذى اقبل من اوروبا يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسن الرطانة باحدى اللغات الاجنبية او بغير لغة من اللغات الاجنبية ، ويجلس إليك والى غيرك مؤمنا بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، او ادبه الحديث ، ثم يتحدث اليك كانه ينطق بوحي ابولون ، فيعلن اليك في حزم وجزم ان امر القديم انقضى ، وان الناس قد اظلهم عصر التجديد ، وان الأدب القديم يجب ان يترك للشيوخ الذين يتشدقون بالالفاظ ، ويملئون افواههم بالقاف والطاء وما يشبهها من الحروف الغلاظ ، وان الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع في الحياة الى الامام هو التطور ، وهو الحياة ، وهو الرقي ، هذا الشاب وامثاله ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة لانه لايفهم هذه الحضارة على وجهها . ولوقد فهمها لعلم انها لاتنكر القديم ولا تنفر منه ، ولا تصرف عنه ، وانما تحييه وترغب فيه ، وتحث عليه لانها تقوم على اساس منه متين ، ولولا القديم ما كان الحديث . وان بين ادباء الاوربيين الآن لقوما غير قليلين يحسنون من آداب القدماء مالم يكن يحسنه القدماء انفسهم ويعكفون على درس الادب القديم اكثر مما كان يعكف كثير من القدماء ، ويؤمنون بان اليوم الذى تنقطع فيه الصلة بين حديث ادبهم وقديمه هو اليوم الذى يقضي فيه الموت على أدبهم ، ويحال فيه بينهم وبين كل انتاج .

هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة ، او من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشره ليس مقصورا عليه ، وانما يتجاوزه الى غيره من الناس فهو يتحدث ، وهو يعلم ، وهو يكتب ، وهو في هذا كله ينفث السم ويفسد العقول ، ويمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد ، فليس التجديد في إماتة القديم وانما التجديد في احياء القديم . واخذ ما يصلح منه للبقاء . واكاد اتخذ الميل الى ما اماتة القديم أو احيائه في الادب مقياسا للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة اولم ينتفعوا بها ، فالذين تلهيهم مظاهر هذه الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن ادبهم القديم ، لم يذوقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها وانما اتخذوا منها صورا واشكالا ، وقلدوا اصحابها تقليد القردة لا اكثر ولا اقل . والذين تلفتهم الحضارة الى انفسهم وتدفعهم الى احياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم ايمانا بان لا حياة لمصر الا اذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الاسلامي . وبالادب العربي قديمه وحديثه ، وعنايتها بما يمس حياتنا اليومية من الوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا ، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على ان ينفعوا في اقامة الحياة الجديدة على اساس متين .)

حديث الأربعاء : ج ١ ـ ص ١٣

لقد أوضح طه حسين في هذه السطور انه محب للادب العربي أشد الحب ، وانه كلف به اشد ما يكون الكلف ، وانه عنيف اشد ما يكون العنف ، وقاس اشد ما تكون القسوة على ذلك النفر الجامع من الشباب العربي المبغض للادب القديم بسبب جهله لذلك الادب ، والمحب للادب الاجنبي بسبب ما يتصوره فيه من سهوله وما يعتقده خطأ من انفصاله عن قديمه ، وطه حسين في هذا كله يعبر عن موقف يخالف ويناقض تماما ما اشاعة عنه خصومة من كراهية للادب العربي ومن احتقار لروائعه القديمة ، انه معجب به ومفتون وهو لم يقصر هذا الاعجاب والافتتان على الحماسة في الدعوة لرعاية هذا الادب والاشادة بما يتضمنه من كنوز ، وانما هو قد وقف نفسه لتدريس هذا الادب ، وهذا الشعر ، وندب نفسه للتعريف به وتحليله بأسلوب عذب بالغ الرقة والجمال . ولا أبالغ اذا ما قلت ان جهد طه حسين في مجال القصيدة الجاهلية والقصيدة في صدر الاسلام وفي العصرين الأموي والعباسي قد ألهم عشرات الباحثين في أوضاع القصيدة العربية ، وكأن الاضاءة التغييرية الأولى التي مهدت الى فهم الشعر الجاهلي واعادة قراءته على ضوء معارف العصر وفي ضوء الثقافة المعاصرة .

وتهمة صغيرة

واذا كان ذلك هو موقف طه حسين من التهمة الخطيرة

التي أوقعه فيها كتاب (الشعر الجاهلي) فان ثمة أخرى صغيرة قد أثارها من حوله ظهور ذلك الكتاب ولعل أهمها رأيه في شعراء اليمن قبل الاسلام وانكاره أن يكون لليمن شعراء يكتبون بلهجة قريش وهي مختلفة عن لهجتهم ، ثم انكاره أن يكون امرؤ القيس شاعرا جنوبيا وهو يكتب بلهجة شمال الجزيرة ، وهي تهمة مرفوعة عنه لأسباب كثيرة منها أن بحثه قد قام على الافتراض وعلى ما توافر له من نصوص النقوش وترفع عنه أيضا لأنه قد تراجع عنها في أحاديثه وربما يشير الى ذلك التراجع بعض كتاباته التي لم تنشر ولم تجمع بعد ، وقد يكون من أسباب تراجعه عن ذلك الرأي ادراكه ان اختلاف اللهجات العربية في العصر الحديث لم تمنع الشعراء المعاصرين في مختلف الأقطار العربية أن تكون لهم لهجة موحدة المستوى يكتبون بها شعرهم في الوقت الذي يتحدثون في حياتهم اليومية باللهجات المحلية التي لا يستطيع أحد أن يقول انها في قواعدها وتراكيبها تشبه اللهجة الشعرية ، يتم هذا رغم امتداد الوطن العربي واتساعه بما لا يقاس جغرافيا عما كان عليه حال الجزيرة العربية قبل الاسلام .

وقد يكون من هذه الأسباب ان طه حسين قرأ شيئا عن النقوش المتأخرة التي لا تكاد تختلف في لهجتها كثيرا عن اللهجة الفصحى التي كتب بها الشعر الجاهلي ، بالرغم من أنها لغة تربة ولغة عبادة لا لغة أدبية واذا جاز لي أن أروي هنا جانباً من حديث استمعت اليه من لسان طه حسين نفسه وربما ردده على عدد من اليمنيين الذين التقى بهم في المؤتمرات الأدبية وفي الجامعة العربية والمجمع اللغوي . لقد سألني رحمه الله ثم أجاب دون أن ينتظر ردا مني : هل ما يزال اليمنيون واجدين علي لأنني حاولت أن أنفي ما نسبه الرواة اليهم من شعر جاهلي ! لقد قلت لمندوب الامام في الجامعة العربية الشيخ الكبسي (الشهيد حسين الكبسي) انني اذا كنت قد أسأت الى اليمنيين في كتاب الشعر الجاهلي فانني قد أنصفتهم في كتاب « على هامش السيرة » وفي كتب أخرى . .

ذلك عن كتاب « الشعر الجاهلي » وهو الكتاب الوحيد الذي أثار به طه حسين موجة عارمة من السخط والنقد ، والذي لعبت الاشاعة والصحافة السياسية والخصومة الشخصية دورا كبيرا في تضليل الجمهور ، وفي تكريس خطورة المنهج الذي اتخذه أو اصطنعه طه حسين لدراسة الشعر الجاهلي وقاده الى ذلك الموقف المتأرجح بين الشك والانكار ، وهذا يجرنا بالضرورة الى اعادة المحاولة في البحث عن أصول المنهج ، وهل هو عربي أزهري كما سبقت الاشارة الى ذلك في الجزء الأول من هذه الدراسة ، أم هو أوربي فرنسي ديكارتي كما ذهب الى ذلك عشرات الباحثين ، وكما ذهب الى شيء من ذلك طه حسين نفسه ؟ !

أزهري أم ديكارتي ؟

وقبل البدء في تخطيط أبعاد هذه المحاولة تجدر الاشارة الى أن هذا المقال أو الدراسة - ان صح انها كذلك - لا يمكن أن يفي أو تفي بالغرض المقصود لأن الموضوع من الأهمية ومن الصعوبة بحيث يتطلب جهدا بحثيا عميقا ومستأنيا يكون قادرا على توضيح مختلف الجوانب ، وتقديم مختلف البراهين ومع كل هذه المحاذير فان الاقتراب من تناول هذا الموضوع في هذا المجال الضيق قد يكون دافعا لتناوله في بحث أوسع وأشمل ، ومن المهم أن نشير الى أن قضية المنهج كانت وما تزال قضية المفكرين والمثقفين والكتاب العرب الأولى وهي جوازهم جميعا للسفر نحو العصر ان أرادوا ذلك ، وقد كانت قضية القضايا بالنسبة لطه حسين في سنواته الأولى في الجامعة وقد حاول أن يكون له منهجه المتماسك المتميز الا أن الظروف الاجتماعية والثقافية في مصر لم تكن قادرة على تقبل مثل هذا المنهج ، وما المعارك التي ظهرت مع ظهور كتاب (في الشعر الجاهلي) الا البرهان الدال على ذلك .

ومهما قيل عن منهج طه حسين في هذا الكتاب أو في غيره من الكتب النقدية والتاريخية ، وهو المنهج الذي يدين له كثير من النقاد والدارسين في الوطن العربي - وفيهم خصومة - هذا المنهج الذي وضع أساسه الأزهر مزيج من أساليب البحث العربية ومناهج البحث الأوروبي الحديث ، وقد كان طه حسين مهتما بهذا المنهج المزيج مباهيا به وداعيا اليه ، وعندما حدث للأزهر ما حدث ، وحدث للجامعة المصرية ما حدث ، مما رآه بعضهم تطويرا ولحاقا بأساليب العصر الحديث قامت قيامة ابن الأزهر وهب مدافعا عن منهج الأزهر والأزهريين وظل كذلك الى أن قضى نحبه ، ظل يتحدث عن الغراب الذي حاول أن يمشي مشي القطا ، وعن القردة التي تحاول التقليد ، وفيما يلي جانب من رسالة مخطوطة يتذكر فيها الأستاذ الدكتور مصطفى ناصف أحد تلاميذ طه حسين المشاهير بعض المواقف التي أثار فيها طه حسين قضية المنهج في مجال التعليم الجامعي وكيف أنه بكى وأطال البكاء على تخريب الأزهر وما لحق به من تحديث أفقده صورته ومستواه وأضاع عليه أهم أساليبه ومناهجه ، وكيف بكى وأطال البكاء أيضا على التشويه الذي لحق بالجامعة وأحال كلياتها المختلفة الى مدارس عدادية وثانوية في أحسن الأحوال ، تذكر الدكتور ناصف قائلا : (لا أزال أذكر محاضرة ألقاها أستاذنا العظيم الدكتور طه حسين في

١٩٤١ عن التعليم الجامعي ، وكان جمع الحاضرين حشدا مؤلفا من خيرة المثقفين وأعلاهم قدرا . وظن هؤلاء جميعا ان الدكتور طه سوف يتحدث عن تجربة الجامعة التي ظفر بها في باريس . ولكنا دهشنا جميعا حين قال الدكتور طه في بدء حديثه انه كان سعيدا اذ اتيح له ان يتعلم في الأزهر ، وقال ان للأزهر دينا كبيرا في عنقه . وقال انني تحدثت عن الأزهر قبل الآن وسوف لا أفرغ من الحديث عن الأزهر ما حييت . . . ان الأزهر الذي تعلمت فيه كان جامعة حقة لا تختلف اختلافا جوهريا عن الجامعة التي ذهبت اليها في فرنسا ، فقد كنا في تلك الأيام نلتف حول الأساتذة الذين نرضى عنهم دون أن نضطر الى حضور درس لا يرضينا . وكان الطلاب أحرارا يحضرون اذا شاءوا ويتخلفون اذا شاءوا لا أحد يحاسبهم على ذلك . وانما يدفعهم الى العلم الشوق وحده . وكنا نعد الدرس قبل الاستماع الى الشيخ كما كنا نعد الدرس له في مناقشة أعددنا لها . وكان الشيوخ يوسعون صدورهم لي على الرغم من الطرائف التي حكيتها في كتاب « الأيام » وكنت أناقش الأساتذة في أكثر المسائل الحرجة التي لا يقدر أحد في هذه الأيام على اثارتها أمام جمهور كبير من الناس . وكنت أجد من هؤلاء الاساتذة قسوة ظاهرية قوامها العطف الدفين ثم قال : ان الجامعة تتألف من طالب حر وأستاذ حر ، ومحبة للمعرفة لا تفترق عن الايمان وكان الشيخ يختم أقواله بتلك العبارة الحلوة المشهورة قائلا « والله أعلم » ايذانا بأن المعرفة متجددة وان العالم مسؤول أمام الله عما يقول ، وان العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء .

وفي مقالات أخرى (استبكى) الدكتور طه القراء على ضياع الأزهر القديم وما أصابه من (تطور) وبكى تلك السعادة الغامرة التي كان يجدها الطالب الأزهري على الرغم من فقره لأنه كان خالص القلب للعلم . وقال ان هذه الظاهرة المحببة لم يعد لها مكان . وقال : ان الأزهر لم يعد قادرا على استيعاب الثقافة الاسلامية والعربية بكل ما تحمل من تفصيلات دقيقة . فقد هجر الأساتذة والطلاب الكتاب القديم الا قليلا ، وعمدوا الى المختصرات وما يشبهها ، ولم يعد العلم قادرا على أن يملأ عليهم حياتهم ، وقال : ان الثقافة الاسلامية في منطقتنا العربية على أقل تقدير مهددة بوجه خاص ، ولن نستطيع أن نقف على أقدامنا في مواجهة العالم الحديث الا بأمرين : أن نتقن الثقافة الاسلامية والعربية التي فقدت علماءها المخلصين المدققين ، وأن نتقن الثقافة الحديثة التي يتحدث بها أهل العصر .

وقد يتصور كثيرون ان الدكتور طه حسين كان يتناول محاضراته بالجامعة فيما يسمى بتاريخ الأدب على النحو الذي شاع من بعده ونسب اليه دون تحرز ، وهذه مسألة طويلة ، ولكن الدكتور طه حسين كان ينفق أكثر الوقت في تحليل قصيدة على نحو من التأني والتفصيل الذي تعلمه في الأزهر . لقد كان مدينا حقا لخبرته اللغوية التي تعلمها في الأزهر ، وكان يقارن بين القصيدة وما يشبهها ، وكان يتأمل مواقع الكلمات ، وكان لا يؤمن بضياع الوقت في الأخبار والسرد والقضايا المملة القائمة على ما يسمونه عمر الشاعر بوجه عام . كان يسخر من مقالات أخيرة له من الذين يذهبون الى أنه باحث لا يتقن علم الأزهر والذين يذهبون الى أنه أزهري لا يتقن بحث العلم الحديث ، مشيرا بذلك الى أنه أزهري قبل كل شيء) .

د . مصطفى ناصف : ذكريات ، مخطوطه

نعم انه أزهري في كل شيء ، ذلك هو طه حسين الذي شغل جيله وأجيالنا ، وسوف يشغل الأجيال من بعدنا ، ربما لأنه استطاع أن يكتشف الحل الأمثل للمعادلة الصعبة بين القديم والحديث ، بين الماضي والحاضر ، ربما لأنه كان المثال الحي على العلاقة الخصبة بين الثقافتين القديمة والمعاصرة ، وهي العلاقة التي لا بد أن تقوم في وعي كل من يريد أن يغير واقعه أو يتطور به ومعه ، وهي علاقة جدلية لا مكان فيها للثنائية أو الازدواج أو الانفصام .

■■

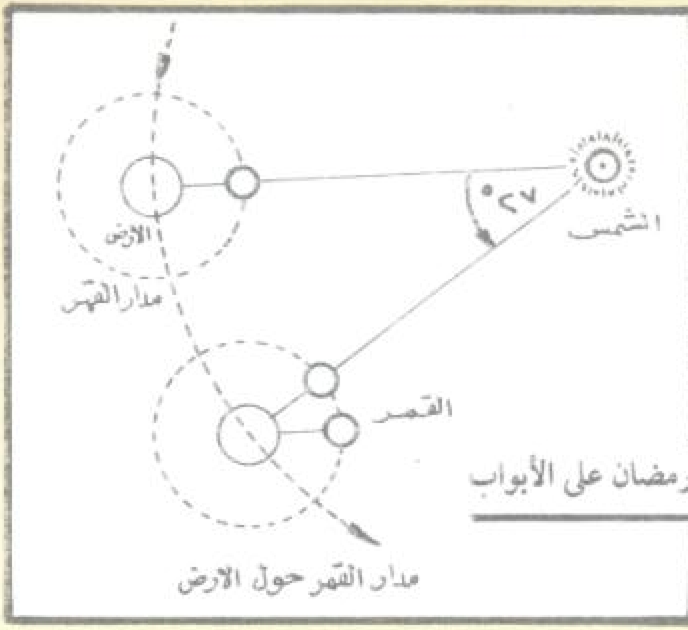
صنعاء ـ د . عبد العزيز المقالح

اختيار الزوجة

● قال رجل لابنه : لا تتزوج فتاة حتى ترى اولادك منها ؟

فقال الابن : وكيف يكون لي اولاد منها ان لم اتزوجها ؟

فقال الاب : اعني ان تنظر الى ابيها وامها ، فانها ستأتي لك بمثلها !



وشهر رمضان على الأبواب

هل يعجز المسلمون عن الإتفاق على أوائل الشهور العربية ؟

بقلم المهندس / سعد شعبان

* كيف يستساغ تفرق الدول الاسلامية على حقائق فلكية في القرن العشرين وبعد أن هبط الانسان على القمر .

* لقد وضع علماء العرب أسس علم الفلك وأغلب نجوم السماء تحمل أسماء عربية ونطقها الأوروبيون باسمائها العربية .

* قصة رؤية الهلال .. وهل يجب أن تكون بالعين المجردة .. وما حكم الدين في أمة اسلامية تلبد سماءها السحب والغيوم ؟

* لا بد من هيئة عربية تتبع الجامعة العربية تحسم هذه القضية التي تفزع رجال الدين وتؤرق العلماء .

لا يكاد يقبل شهر رمضان أو يحل العيد حتى يثور جدل محتدم بين رجال الدين الاسلامي وبعض رجال العلم عن رؤية الهلال وموعد بدء الصيام ، او حلول العيد . وتطلع علينا الانباء عن الصيام في دولة عربية ، وتخلف اخرى عنه يوما واحيانا يومين ، وعن احتفال بعض الدول الاسلامية بأول أيام العيد ، وعدم أخذ بعضها الآخر بذلك . ويبدو موقف التفرق واضحا في الأمة العربية ، عند حلول عيد الأضحى ، اذ تأخذ بعض الدول بالموعد الذي يحدده تقويم أم القرى في السعودية ليوم الوقوف بعرفة ، بينما تختلف اخرى عن هذا الموعد ، رغم ان حجاجا كثيرين من نفس هذه الدولة يكونون ماثلين على جبل عرفات .

والحقيقة ان هذا يظهر الامة العربية على غير كلمة واحدة ، ويجعلها امام المجتمع الدولي ، في مظهر التخلف عن ركب الحضارة . فكيف يعقل ان يتم هذا الاختلاف على امر بسيط كهذا في القرن العشرين . وكيف يستساغ تفرق الآراء من حول رأى فرغ العلم منه منذ قرون وانصرف العلماء منه الى ما هو اجل واعقد ، بعد ان هبط الانسان على القمر وبعد ان اصبحت انجازات الفضاء المذهلة تشد كل العقول .

يعتمد التقويم الهجري على حركة القمر . ويتميز بسمات خاصة اذ تختلف عدد ايام الشهور بين ٣٠ ، او ٢٩ يوما وبعضها يكون احيانا ٢٨ يوما . والتقاويم الأخرى المعروفة في عصرنا وهي التقويم الميلادي والتقويم القبطي والتقويم العبري ، لها مميزاتها الخاصة أيضا . فالتقويم الميلادي يرتبط بحركة الشمس ، ورغما من ذلك فان عدد ايام شهوره يختلف بين ٣٠ ، ٣١ يوما وبعضها يقصر الى ٢٩ يوما او ٢٨ يوما حسب كون السنة كبيسة او بسيطة . وما ذلك الا لتصحيح اخطاء التقويم ، ودقة متابعة حركة الشمس على مدارها .

وكذلك الشأن بالنسبة للتقويم القبطي فان بعض شهوره تقصر حتى تبلغ ستة أيام كمثل شهر « مسري » لكي يصحح اخطاء التقويم خلال عام كامل .

اما التقويم العبري فيعتمد على دورتي الشمس والقمر معا ، والسنة العبرية لها اربعة انواع هي البسيطة والكبيسة والمعتدلة والناقصة .

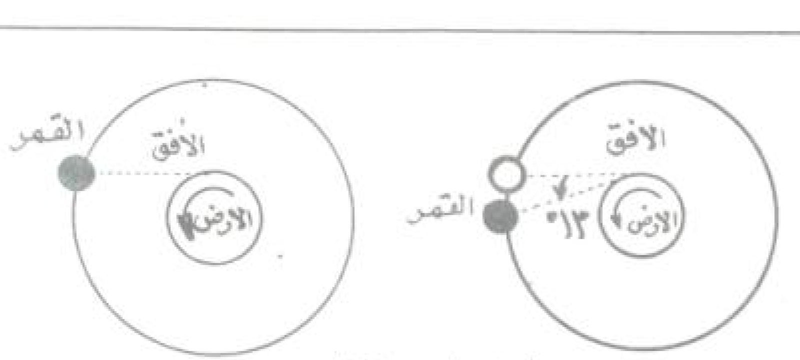
ولا شك التقويم الهجري من اقل هذه التقاويم اخطاء ، ومن اكثرها مميزات ، لانه يرتبط بحركة القمر الذي يعتبر اقرب اجرام السماوات الينا ، ولا يزيد عن كونه تابعا للارض يدين لها بولاء الجاذبية ، ويدور حولها في حركة مستديمة .

تتابع ظهور القمر

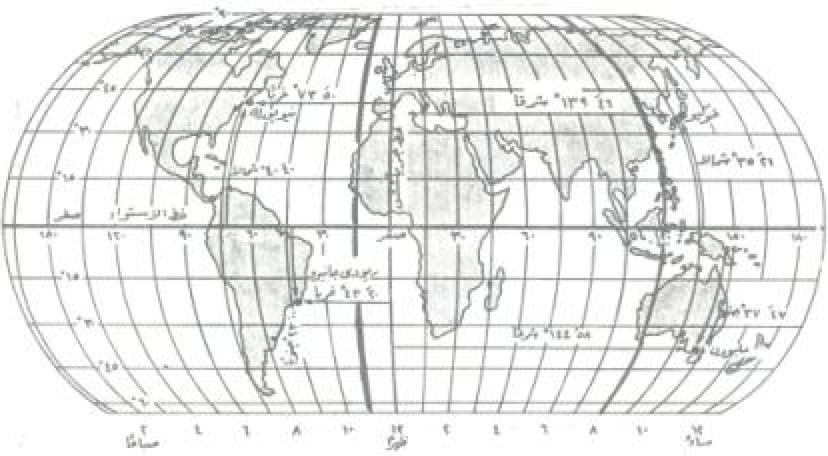
ولا بد لنا من وقفة لمعرفة حركة القمر وتتابع ظهوره لكي ندرك ان نواميس الله في الكون ثابتة ، فمنذ خلق الله هذا الجرم السماوي لم يخرج عن مداره ولم يتعرض لانحراف .

والمتتبع لظهور القمر ليلة بعد اخرى ، يلاحظ ظهوره متأخرا عن موعد ظهوره في الليلة السابقة بمدة ٥٠ دقيقة .

فحقيقة انه يدور حول الأرض ٣٦٠° خلال ٢٧ ١/٢ (يوما) ، تعني انه يدور في اليوم الواحد حول الارض زاوية قدرها ١٣° . ومعنى ظهور القمر ، انه يبدو فوق خط الافق بالنسبة للمشاهد على الارض . فاذا ظهر اليوم فوق خط الافق في وقت ما ، فانه في اليوم التالي ، اي بعد دورة كاملة للارض خلال ٢٤ ساعة ، لا يعود الى نفس موقعه فوق خط الأفق بل يلزمه الدوران بزاوية ١٣° أكثر لكي يصبح من الارض كموقعه في اليوم السابق . ويستغرق دوران هذه الزاوية (١٣°) مدة ٥٠ دقيقة ، ولذلك فانه لو اشرق اليوم في ساعة معينة ، فانه غدا



يتأخر ظهور القمر ٥٠ دقيقة كل يوم



رقعة العالم الاسلامي بين خطي طول ١٢٠ شرقا ، ١٥ غربا

يشرق بعد هذا الوقت بمقدار ٥٠ دقيقة ، وفي كل يوم يتأخر ظهوره ٥٠ دقيقة اخرى . كما انه لا يظهر كل ليلة بنفس القدر ونفس الوجه بل يتدرج وجهه من الهلال الى البدر على النحو الذي تعارف عليه العرب باسم « منازل القمر » .

يتم القمر دورته حول الارض خلال مدة ٢٧ يوما و ٨ ساعات ، في مدار بيضاوي تقع الارض في احدى بؤرتيه ، لكن هذا المدار اقرب الى الاستدارة .

وخلال مدة دورته هذه تكون الارض قد دارت حول الشمس على مدارها بمقدار ٢٧° ولكي يعود القمر الى وضعه الأصلي بالنسبة للأرض بعد دورة كاملة حولها ، لا بد له أن يدور هذا المقدار الذي دارته الارض حول الشمس اي ٢٧° زيادة . ويستغرق ذلك اكثر من يومين .

لذلك فمدة دوران القمر الظاهرية بالنسبة لأهل الأرض ، تظهر لنا مدتها ٢/١ ٢٩ يوما . وبتعبير ادق يتدرج القمر خلال منازله المختلفة من القمر البدر الى الهلال فالمحاق ، حتى يعود ثانية قمرا بدرا خلال شهر قمري مدته ٢/١ ٢٩ يوما .

وللقمر حركة ذاتية اخرى هي دورانه حول نفسه ، فهو يدور حول محور خلال نفس المدة التي يتم فيها دورته حول الأرض اي ٣/١ ٢٧ يوما .

ومعنى ذلك ان نهار القمر الذي يعم فيه الضوء يبلغ حوالي ١٤ يوما تقريبا ، وكذلك ليل القمر - ان صحت التسمية - يسوده الظلام مدة ١٤ يوما اخرى تقريبا .

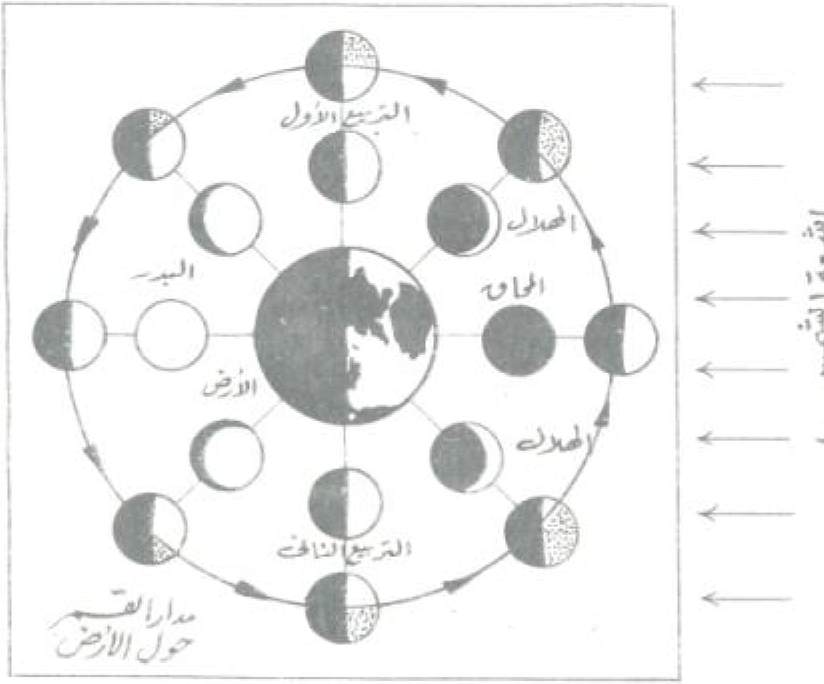
تتساوى مدة دوران القمر حول نفسه مع مدة دورانه حول الارض ، لذلك يبقى وجه واحد منه ظاهرا لأهل الارض باستمرار بينما يبقى الآخر مختفيا .

ويمكن التحقق من ذلك بالنظر خلال التلسكوب عددا من الايام ليتحقق المرء من ظهور نفس المعالم عليه ، لا تتغير ولا تتبدل . ولذلك فللقمر وجه ظاهر واحد ، يعرف اهل الارض تفاصيله ووديانا وجبالا ، ووجه آخر مختف ، لم تره الاعين البشرية الا من خلال الصور التي التقطتها سفن الفضاء بدأ اطلاقها في الستينات من هذا القرن .

ويمكن تشبيه ظهور وجه واحد للقمر لاهل الارض ، بتصور حركة طفل صغير يجري على محيط دائرة يقف في مركزها رجل يتابع حركة الطفل بالنظر اليه .

فان الطفل اذا بدأ في الدوران على محيط الدائرة ، فان الرجل يرى احد جانبي وجهه فقط ، وليكن الصدغ الايسر مثلا . فاذا واصل الطفل الجري وواصل الرجل متابعته بعينيه ، فان الرجل سيظل يرى الصدغ الايسر فقط ، حتى يعود الطفل الى المكان الذي بدأ الحركة منه . وعندئذ يكون الطفل قد اتم دورة كاملة حول مركز الدائرة دون ان يستطيع الرجل رؤية الصدغ الآخر من وجه الطفل .

وكذلك الامر في هذا التشبيه ، بالنسبة للقمر والارض . فالقمر شبهناه بالطفل والارض بالرجل .



منازل القمر | الجزء غير المنقط من سطح القمر المضيء ، هو الذي يمكن رؤيته

وحيث ان مدة دورة الطفل حول الرجل هي نفسها مدة دورة الطفل دورة كاملة فان الرجل لم يستطع ان يرى الا نصف وجهه .

منازل القمر

منازل القمر ، او وجهه هي مراحل ظهوره لأهل الارض .

ولقد ورد في القرآن الكريم « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » .

ويظهر القمر كل يوم بشكل مخالف لشكله في اليوم السابق . وتتدرج اشكاله من شكل الهلال الذي يكاد يضارع خطا دقيقا في اول الشهر حتى يكتمل بدرا تام الاستدارة . والاصل في ظهور القمر ، ان اشعة الشمس تنعكس على سطحه ، ونظرا لوضعه بالنسبة للارض لا يظهر لاهل الارض غير جزء مضيء فقط من هذا السطح .

ولتصور ذلك ، يلزمنا افتراض ان اشعة الشمس تسقط على سطح القمر في خطوط متوازية نظرا لبعده الكبير عنها .

ولذلك يأتي ترتيب المنازل على النحو التالي « القمر المحاق الذي لا يظهر من قرصه اي جزء مضيء - ثم الهلال - ثم التربيع الاول - ثم البدر المكتمل الاستدارة - ثم التربيع الثاني - ثم الهلال مرة اخرى - ثم يعود محاقا من جديد » .

وقبل ان يكتمل القمر بدرا ، تتزايد مساحته المضيئة بين التربيع الاول ، يوما بعد يوم ، حتى يصبح دائرة مضيئة تامة الاستدارة . ثم يتناقص بعد اليوم الرابع عشر من البدر فتقل مساحته المضيئة الى التربيع الثاني ومنها الى الهلال ، حتى يعود مظلما مرة اخرى ويكون حينئذ في

المحاق .

قصة الرؤية

وفي وقفة تجرد يجب ان نتناول اطراف القضية دون ان نشد أحد أطرافها فنغلبه على الآخر . فالاساس الشرعي الذي يستند اليه بعض العلماء هو الرؤية التي وردت في الحديث الشريف « صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته فان غم عليكم هلال رمضان فاكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

ويعتمد علماء الدين على شهود رؤية يرسلونهم الى المناطق العالية في ليلة التاسع والعشرين يستقرئون صفحة السماء عند وجود الهلال .

وهنا لا بد لنا ان نناقش معنى الرؤية ، فاذا كان شهود الرؤية هم الاساس الشرعي في المشاهدة فلم لا يكونون هم العلماء الفلكيون الذين يرصدون الهلال بعدسات المراصد الفلكية حيث يتوقعون ظهوره كما تشير الجداول الفلكية .

ان الشرع لم يحدد الرؤية بالعين ، او بالعدسة او المرصد . واذا كان لابد ألا يحاق رجال الدين رجال العلم ، فلم لا نطور وسيلة الرؤية اعترافا منا بانها واجبة ، وأخذا باحدث الوسائل لتحقيق الغاية باستخدام آخر ما توصل اليه العقل البشري .

ولا بد ان ندخل في اعتبارنا كثيرا من الاعتبارات التي تقف امام كل تعصب امام اصرار البعض على ان الرؤية لا بد ان تكون بالعين المجردة حيث لم يرد في القرآن نص بذلك والمفروض ان تتطور الرؤية حسب تطور وسائل العصر .

ولعل سؤالا يطرح نفسه هنا،هو ماذا يكون الحال في دولة اسلامية يسودها جو ملبد بالغيوم والسحب ، وتتعذر رؤية اي جرم سماوي في لياليها .

واذا كان الله قد خلق الكون منذ ملايين السنين ، وتجري نواميس الفلك منذ بدء الخليقة على وتيرة واحدة دلالة على احكام صنعه جل وعلا ، فما هي احتمالات الخطأ فيما تحويه جداول الفلكيين التي تحدد موعد ظهور كل كوكب وكل نجم بالدقيقة والثانية . وهل عجز العرب الذين يرجع اليهم فضل اكتشافات فلكية عديدة ، والذين سموا اغلب نجوم السماء باسماء عربية ما زالت قائمة الى الآن في كل اللغات ، هل عجزوا عن مسايرة العصر ، الذي نعته « بعصر الفضاء » ؟ .

نظرة على خريطة العالم الاسلامي

ان رحمة الله بالأمة الاسلامية ان كل البلاد التي ينتشر فيها اغلب المسلمين ، تقع بين خطي الطول ١٢٠ شرقا حيث اندونيسيا حتى خط طول ١٥ غربيا في المغرب وموريتانيا . وفارق التوقيت بين اطراف هذه الرقعة تسع ساعات . ولذلك فاي بلد منها تشترك مع البلاد الاخرى في جزء من سواد الليل . ومن هنا تظهر مرونة التعاليم الاسلامية التي يمكن ان تقودنا الى امكان اتحاد كلمتنا على اختيار مكان متوسط في العالم الاسلامي هو (مكة) المكرمة ، واقامة مرصد فلكي فيه ، فاذا ثبتت رؤية الهلال فيها ، فعلى الدول الاسلامية الاخرى ألا تتعصب وان تأخذ بهذه القاعدة الشرعية وتتبع مرصد مكة .

والحقيقة ان الجامعة العربية قد خطت خطوة ايجابية في مضمار توحيد رؤية ورصد اهلة الشهور العربية . وانعقدت لذلك عدة مؤتمرات ، انعقد الرأي فيها على اقامة مرصد فلكي اليكتروني في مكة المكرمة يستطيع ان ينفذ بعدساته الى اغوار السماء ، ليرصد الهلال ويميز الهلال من اجرام السماء .

ولقد خطت المملكة العربية السعودية خطوات ايجابية في اقامة هذا المرصد واعداده للعمل . ويبقى ان تتشكل هيئة من ممثلي الدول العربية تكون مهمتها الاتفاق على اوائل الشهور العربية .

وأحسب ان الاسلام الذي يحثنا على اتحاد الكلمة ، ووحدة الصف ، فيه من المرونة قدر كبير يعبر عنه الحديث « ان الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه » .

والحقيقة البالغة ان العلماء هم اهل الخشية ولذلك قال فيهم سبحانه وتعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » . ■■

القاهرة ـ مهندس سعد شعبان

● عزاء لكم يامن تحبون ! عزاء يصدر من اعظم قلب وينطق به اصدق لسان ، عزاء لكم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من أحب ، فعف ، فكتم ، فمات ـ مات شهيدا » .

أرقام

عالم من المدن

محمود المراغي

تشوه المدن واختفاؤها حدث يسجله التاريخ ، وقد عرف العالم منذ فترة طويلة ظاهرة التحضر وانتقال السكان من الريف الى المدينة .. ولكن يبدو أن السنوات العشرين الأخيرة كانت شيئا مختلفا .

في عام ١٩٦٠ : كان هناك (٢٤٩) مدينة في العالم يزيد تعدادها على نصف مليون نسمة .. وكانت الدول الصناعية تملك وحدها ٤٠٪ من هذا العدد .

في عام ١٩٨٠ : تضاعف العدد تقريبا ، فأصبحت هذه المجموعة من المدن (٤٨٥) مدينة .. وأصبحت الدول الفقيرة (منخفضة الدخل) على قدم المساواة تقريبا مع مجموعة الدول الصناعية والتي قادت حركة الانتقال الى الحضر . أصبحت المجموعة الأولى تملك (١٤٤) مدينة من هذا الطراز .. وأصبح للمجموعة الثانية (١٤٦) مدينة .

بل ان احدى الدول الفقيرة وهي الصين ـ قد امتلكت وحدها (٧٠) مدينة كبيرة .. في مقابل (٦٥) مدينة بالولايات المتحدة الامريكية و (٥٠) مدينة بالاتحاد السوفييتي .

وبالطبع فقد انعكس ذلك على عدد سكان المدن ، حتى أصبح الاتجاه واضحا ان انسان القرن القادم هو انسان المدينة في الأساس .

ووفقا لتقرير التنمية في العالم (١٩٨١) ، وهو مصدر هذه الأرقام ، فان البنك الدولي ـ الذي أعد التقرير ـ يشير الى أن ٧٧٪ من سكان الدول الصناعية ، و ٦٩٪ من سكان دول النفط و ٦٤٪ من سكان الدول الصناعية ذات الاقتصاد المخطط ونصف

سكان ذوي الدخل المتوسط من الدول .. قد أصبحوا سكان مدن !

يتخلف عن ذلك الدول الـ ٣٦ ذات الدخل المنخفض (وهي التي قل فيها متوسط دخل الفرد عن ٣٧٠ دولارا عام ١٩٧٩) .

في هذه الدول ارتفع سكان المدن من ١٥٪ من مجموع السكان عام ١٩٦٠ .. الى ١٧٪ عام ١٩٨٠ .. ولأن هذه المجموعة تضم أكبر قدر من السكان فان ميزان سكان الريف في العالم ما زال راجحا .

وبتحليل الأرقام نجد :

ان الاتجاه الى المدينة « بشدة » لم يقتصر على الدول الصناعية . صحيح أن ٩١٪ من سكان بريطانيا عام ١٩٨٠ ، ٨٩٪ من سكان استراليا ونسب تقترب من ذلك في كل من السويد ونيوزيلاندا والمانيا الاتحادية والدنمرك وكندا .. كل هؤلاء أصبحوا من سكان المدن .. ولكن ، وفي مجموعة الدول ذات الدخل المتوسط ترتفع النسبة بوضوح خاصة في أمريكا اللاتينية ، والتي يسجل سكان المدن فيها ٨٠٪ فأكثر في كل من أوروجواي والأرجنتين وشيلي .

ولا يرتبط عدد سكان الحضر بعدد المدن الكبيرة بالضرورة ، مما يشير لوجود نمط آخر هو المدينة الصغيرة ... و ... يؤكد ذلك أن كلا من سويسرا والدنمرك والنرويج وفنلندا والنمسا لا تمسك كل منها أكثر من مدينة واحدة يزيد عدد سكانها عن ٥٠٠ ألف نسمة .

لكن الارتباط الواضح هو بين عدد سكان المدن والأنشطة الاقتصادية الجارية . لقد انخفض عدد المشتغلين في الزراعة بالدول الصناعية الثمانية عشر في العالم الى ٦٪ من عدد سكان هذه الدول عام ١٩٧٩ .. بينما سجلت النسبة ٧١٪ من الدول ذات الدخل المنخفض .

لكن المفاجأة أن المشتغلين بالصناعة لا يمثلون الكتلة الأساسية للسكان في الدول الصناعية رغم ذلك ... فنسبتهم لم تزد - عام ٧٩ - عن ٣٨٪ من السكان ... بينما بلغت نسبة عمال الخدمات ٥٦٪ .. !

وتبقى حقيقتان :

الأولى - ان ارتفاع الدخل - وهو مقياس تقسيم المجموعات الدولية هنا - يتناسب تناسبا عكسيا مع النشاط الزراعي .. وهو ما يؤكد المعادلة القديمة بين أسعار منخفضة للسلع الزراعية والأولية وأسعار مرتفعة بشكل كبير للسلع الصناعية .

أما الحقيقة الثانية - فهي ان الزراعة عندما تنمو في مجتمع صناعي ، تصبح أيضا صناعة ... ويكفي أن نعلم أن عدد السكان المشتغلين بالزراعة - عام ٧٩ - قد هبط في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية الى ٢٪ فقط من السكان . في نفس الوقت فقد استمر نمو الانتاج الزراعي ... وسجل معدل انتاج المواد الغذائية للفرد صعودا مستمرا طوال السبعينات .

اذن ، فالعبرة ليست بعدد المشتغلين ، ولكن بالتكنولوجيا المستخدمة ... والا ... كيف يطعم ٢٪ من السكان ١٠٠٪ من السكان .. يسدون حاجتهم أو الجزء الأكبر منها ؟

وهذا ما يجعلنا نقول : صحيح أننا أمام عالم يتحول الى عالم من المدن ... لكننا أيضا أمام تحول آخر يزحف من الغرب الى الشرق ومن الشمال الى الجنوب .. انه تحول القرية الى قرية صناعية .. وتحول الزراعة الى صناعة .

العربي ـ العدد ٢٨٢ ـ مايو ١٩٨٢

تجربة يجب أن تعمم في العالم العربي

الثقافة الجماهيرية

بقلم سعد كامل

هذه التجربة الهامة ، جديرة بالدراسة ، وجديرة بالتعليم !

في احدى جلسات مجلس الوزراء المصري ، وفي أواخر الستينات ، وبمناسبة مناقشة ميزانية وزارة الثقافة ، طالب الوزير المختص بزيادة اعتماد وزارته . ورفض وزير الخزانة الطلب ، بدعوى انه من الانفع للعامل والفلاح بناء مصنع او مستشفى او حفر ترعة على انشاء فرقة مسرحية او بناء قصر للثقافة .

واحتدمت المناقشة بين الوزيرين واشترك فيها بعض الوزراء . وانتهت باقرار رأي وزير الخزانة .

ومن الحقائق التي أصبحت شبه مؤكدة في موضوع التنمية انه لا يمكن فصل الجانب المادي منها عن الفكرى ، فهي مرتبطة اشد الارتباط ، وانها تسير متوازية ـ او يجب ان يكون الامر كذلك ـ الواحدة برفقة الاخرى ولا يجوز ان يسبق واحد منها الآخر . فالحياة الانسانية في تطورها ليست ميكانيكية ، فنحن لا نستطيع ان نوفر للانسان طعامه ولباسه ، ثم ننتقل لكي نعلمه ثم بعد ذلك نبدأ في تثقيفه ، فالنمو المادي والثقافي يمثلان وجهين لعملة واحدة ـ او هكذا يجب ان يكون ـ ليكون النمو صحيا والا اختلت الموازين ، كما يحدث في جسم الانسان أحيانا من تشويه نتيجة نمو بعض أجزاء جسده دون تكافؤ مع الأجزاء الاخرى .

التوازن المطلوب

مثل هذه المناقشة التي جرت في مجلس الوزراء المصري ما كان يمكن أن تحدث الا في بلد من بلاد العالم الثالث ، وفي مصر في عهد عبد الناصر بالذات . لان في عهده انشئت اول وزارة مستقلة للثقافة ، في بلاد العالم الثالث ، وكان اول وزير لها الاستاذ فتحي رضوان . وكان عبد الناصر كزعيم ثورة وامة نامية تؤرقه هذه المشكلة ، بناء الانسان ومن اقواله المأثورة (انه من السهل ان نبني المصانع ولكن الاصعب هو بناء الانسان) وفي عهد عبد الناصر كانت تبنى كل يوم مدرسة ، وفي خلال حكمه القصير تم انشاء حوالي ألف مصنع مع تشييد السد العالي الجبار ، ومجمع الالمنيوم بنجع حمادي . ولا شك ان عبد الناصر من موقع مسئوليته كقائد وزعيم كان يلحظ بوضوح بان التقدم المادي الذي تحققه الثورة لا يواكب بناء الانسان الجديد !

وهي مشكلة حقيقية ، صعبة في الاحتفاظ بالتوازن فيها . تداؤها يطغى الجانب المادي على الناحية الثقافية والفكرية . . فنحن لا نعرف مثلا دولة من بلاد العالم الثالث تسير في طريق التنمية الجادة ووجدت وهي تراجع نفسها ان الجانب الثقافي والفكري قد طغى على الجانب

المادي . ولكننا نعرف بالتأكيد ان الصورة العكسية ممكنة ، لانها الاسهل . وهذا ما هو حادث في بلاد الغرب في دول العالم الغربي . حيث يلهث الانسان من الصباح حتى المساء ، ولا يدري لماذا ؟ والى اين ؟ والى متى ؟ . . ليس عنده وقت للتفكير او التأمل او النظر الى الوراء لمراجعة خط سيره لقد جردوه من (البوصلة) التي تحدد له الطريق . وقاموا بالتفكير نيابة عنه !

والسؤال لماذا لا يشق انسان العالم الثالث طريقا جديدا مستقلا في النمو ، بدلا من التطلع الوهمي في ان يسلك ذات الطريق الذي سارت عليه البلاد « المتقدمة » . انه طريق كما نراه مسدودا في وجهنا ، وفي وجه الانسان في العالم المتقدم الذي يعاني من الازمات الفكرية والانهيارات النفسية والروحية ، وفي نفس الوقت تشعر الملايين حتى بالتهديد المستمر في مستوى معيشتها الذي كانت تتيه به البلاد الفقيرة !

ان التقدم المادي وحده لا يكفي لتحقيق التوازن ، لانه لن تكون نتيجة هذا ، أنه تلقائيا و « اتوماتيكيا » تقدم فكري وحضاري . ومن الناحية الاخرى فلا جدال انه لا بد من تنشيط للوضع المادي في بلدها دون تغيير لعلاقات الانتاج بها ، حتى تستطيع القاعدة العريضة وتستجيب للتغييرات الفكرية والثقافية ، والا فانه بانعدام التقدم المادي ستصبح الدعوة الى اخلاقيات جديدة وقيم جديدة مجرد احلام وشعارات فارغة كالاوهام .

وهكذا وصلت الى نتيجة هامة من هذه المقدمة ، وهو وجوب خلق جهاز متخصص لثقافة الجماهير - في بلاد العالم الثالث - بعمل « متعمد ومع سبق الاصرار » وبالتعاون مع الاجهزة الاخرى طبعا ! لتنمية علاقات اكثر حضارية وانماط للحياة والسلوك الاجتماعي اكثر تقدما !

بعد مرور ١٣ عاما

كان لي الشرف بأن أتقدم بانشاء مثل هذا الجهاز في اكتوبر سنة ١٩٦٦ وان يوافق على التقرير الدكتور ثروت عكاشة نائب رئيس الوزراء ، ووزير الثقافة في ذلك الوقت . وان يصدر قرارا باسناد مسئولية انشاء هذا الجهاز الى ، وبالعمل على ادارته .

. . . لقد قمت بهذه المهمة لمدة سنتين ، وها أنا اقرر بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر عاما ان التجربة قد نجحت وتخطت كل العقبات والمعوقات من داخل الوزارة وخارجها . وقد اسعدني ان اعلم في وقت لاحق ، ان هذه التجربة باسمها قد نقلت الى الجماهيرية الليبية والسودان ، والعراق وسوريا ، ولكن باشكال ومهام مختلفة .

كان الفضل الاول في نجاح هذه الفكرة هو تضافر جيش من المثقفين اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر . الفنان المسرحي حمدي غيث ، والكتاب المسرحيون الفريد فرج ، ومحمود دياب وعلى سالم ومن الفنانين التشكيليين هبة عنايت ، وعز الدين نجيب ومن الموسيقيين رتيبة الحفني وعلى فراج . والمرحوم زكريا الحجاوي ، والاساتذة يعقوب الشاروني ، وشكري روفائيل ، ومحمد مراد ، وفارس خليل والسيدة احسان عسكر ، ورعاية النمر . . الخ .

لقد قامت ثورة ٢٣ يولية لتحطم احتكار الاقطاع للارض . وقامت محاولات - تحاول ان تكون موازية - لتحطم الاحتكار والاقطاع الثقافي الذي كان يتمثل في مركزية الثقافة في مدينة القاهرة وفي ارستقراطية المضمون ، والجمهور الذي كان تآمرا على القلة القليلة المتعالية من مثقفي القاهرة .

وفعلا نشأت بعد الثورة اشكال جديدة من الاعمال الثقافية الهامة كمؤسسة المسرح التي قدمت - فضلا عن تقديم مؤلفين شبان جدد ، يعبرون من مضمون جديد لحياتنا واحلامنا في المستقبل - أشكالا جديدة لم تكن تعرفها من قبل ، كمسرح العرائس والفرق القديمة للرقص الشعبي ومسرح الجيب والاوركسترا السيمفوني وفرقة الموسيقى العربية . كما قدمت وزارة الثقافة معاهد الباليه والسينما والكونسرفاتوار .

ومع ان وزارة الثقافة قد غيرت من شكل ومضمون الاعمال الثقافية ، الا ان العروض ظلت حبيسة العاصمة فيما عدا المحاولات الجادة لمؤسسة المسرح برئاسة الدكتور علي الراعي ، فقد كانت المؤسسة تشعر بالقلق من هذا الاحتكار الثقافي المعيب لمدينة القاهرة حتى وان كانت قد غيرت مضمون اعمالها . وقامت المؤسسة بمحاولات جادة لاطلاق المسرح بكافة اشكاله من سجنه في القاهرة وتحركت فرقها المسرحية متجولة في الاقاليم . ولم تقتصر جهودها على ذلك ، بل كانت تشجع الفرق المسرحية بالمحافظات ، بتقديم النص لها مجانا ، وبايفاد واحد من كبار المخرجين للمساعدة على ظهور الفرقة بالمظهر اللائق امام جماهيرها .

وضربت فرقة مسرح العرائس رقما قياسيا ، الذي جاب بها أنحاء الجمهورية شمالا وجنوبا في المصانع والمدن والقرى وصل بها اقصى الاماكن النائية في كافة انحاء الجمهورية .

يومئذ كان إحساس الجماهير وخاصة المثقفين بوجوب ايجاد حل لمشكلة العزلة الثقافة التي يتزايد يوما بعد يوم ، وكان اهمها صدور ميثاق المثقفين ، والذي طالب بالتوزيع العادل لثمار الثقافة وبمشاركة الاقاليم في صنع الثقافة واثرائها .

في خدمة ثقافة الجماهير

ولكن كل هذه الجهود الرائدة التي كانت تقوم بها الحركة الثقافية عموما والمسرحية خصوصا ، كانت مبعثرة ، ومعلقة اما على مزاج محافظ الاقليم ، او القائمين على دار مؤسسة المسرح . ولهذا كان لا بد لكي تقف الحركة الثقافية على اقدامها وان تستمر في السير قدما ، ان ترتكز على قاعدة ثابتة وراسخة في عاصمة كل اقليم وان تكون مصدر اشعاع لكل الفنون ، في انحاء المحافظة ، ابتداء من المراكز وانتهاء بالقرى الصغيرة .

وكانت بدايات هذه القاعدة الثقافية موجودة فعلا .. تبحث لها عن دور .. وهي قصور الثقافة التي كانت تابعة وقتذاك لجامعة الثقافة الحرة .

وكان الحل الذي تقدمت به ان تغير هذه الجامعة من اهدافها وان تكون في خدمة ثقافة الجماهير وذلك بتعيين مدير عام لقصر الثقافة يكون بمثابة (وزير ثقافة محلي) في كل عاصمة اقليم ، وتعيين مساعدين له في مجالات الفنون المختلفة : السينما والمسرح والموسيقى والرقص الشعبي ونوادي السينما والاطفال . اي كل نشاطات وزارة الثقافة .. كلما أمكن ذلك .

وكان ذلك ممكنا . فقد كانت المعاهد الفنية في السينما والرقص ، والمسرح والفنون الجميلة تخرج كل عام أعدادا كبيرة من الفنيين الشباب الذين لا يجدون فرصة عمل في تخصصاتهم . وكان حماسهم كبيرا ان يزاولوا مهنتهم حتى بعيدا عن القاهرة .

كانت الصعوبة في اجتذاب بعض المثقفين الشباب ليقوموا بادارة قصور الثقافة اي بالقيام بمهمة وزير الثقافة المحلي .. واجتزنا هذه الصعوبة بالاتفاق مع مجموعة من المثقفين الموهوبين واللامعين ، الذين تحمسوا لتلك الرسالة ، واختاروا ان يعيشوا بعيدا عن القاهرة في تلك المعاقل الثقافية الجديدة .

كان التوجيه الاهم لمسئولي قصور الثقافة هو محاولة اكتشاف المواهب المحلية في الموسيقى والرقص والغناء ، وانشاء رابطة لكتاب الاقليم ومحاولة جمع انتاجهم في مجلة ادبية (متواضعة) لعرض انتاج الشباب هناك . اي ان تكون الثقافة الجماهيرية في كل اقليم مصدر اشعاع وعطاء لاثراء ثقافتنا القومية لا مجرد ادارة (للتسهيلات) لاستقبال ثقافة القاهرة .

وكان همنا الاكبر - بسبب قصور الميزانية - هو تزويد قصور الثقافة بكافة المعدات الفنية من دور عرض سينمائي ، او تجهيزات للمسرح ، ومحاولة اجراء تعديلات معمارية في مسارح القصور التي ثبت منها وجود خطأ بالغ في بنائها . وكان الهدف ان يتمكن كل قصر للثقافة من الاعتماد على نفسه تماما ، مستقلا عن الادارة ، وان يدير حركته الثقافية ونشاطه معتمدا على نفسه وعلى التسيير الذاتي للقصر .

قامت اعتراضات ضد فكرة الثقافة الجماهيرية أوجزها في الآتي :

فقد رأي البعض ان يقتصر دور هذه المؤسسة على « الخدمات الثقافية » اي استقبال الفرق المسرحية والاعمال الفنية لوزارة الثقافة في القاهرة . وهو مما يخرج تماما عن فكرة استقلال هذه القصور وتمكينها في المستقبل من تقديم انتاج ثقافي وفني قد ينافس فرق القاهرة ، وقد رفض هذا الاقتراح .

أمن القرية تبدأ أم من المدينة ؟

وكان هناك اعتراض آخر شديد التطرف ، وهو انه لا يجوز ان تبدأ من عاصمة الاقليم . انما علينا أن تبدأ من القرية ثم تتدرج لتصل الى المدينة . ولم نأخذ بهذا الاقتراح البراق لما واجهناه من مصاعب عملية في اقناع المثقفين بمغادرة القاهرة الى عاصمة الاقليم حيث واجهنا مشكلات الاسكان ، واستضافة الفرق الزائرة التي كنا نحلها بالتعاون مع المحافظين الذين كانوا يبذلون اقصى جهدهم في حل مشاكلنا .

كان تقديري ان تبدأ بعاصمة الاقليم وتتدرج الى

المراكز والقرى عن طريق قوافل الثقافة وهي عربات مجهزة بآلة عرض سينمائي ومسرح متنقل .. وانه عن طريق التجول في الريف يمكن ان نكتشف انسب القرى واكثرها استعدادا لاستقبالنا .. وعندما ترسخ اقدامنا تنتقل الى انشاء بيوت الثقافة في الريف .

اما الاعتراض الثالث فقد كان على فكرة احتراف الفرق المسرحية في الاقاليم ، وان على الثقافة الجماهيرية ان تركز على فرق الهواة في المصانع والمدارس . اما الاعمال الدرامية الجادة . فانها من اختصاص فرق مؤسسة المسرح بالقاهرة . وكنت اعارض هذا الرأي كما عارضت فكرة أن تكون الثقافة الجماهيرية مجرد (ادارة خدمات) لانها تخرج بالفكرة الرئيسية الجوهرية لهذه المؤسسة المحلية . والفرق المسرحية بالذات كان مقدرا لها ان تكون البداية الرئيسية للحركة الثقافية ولكافة الفنون الاخرى . وهي لن تكلفنا كثيرا فأغلبية الممثلين والممثلات هم من العاملين في أجهزة المحافظة نفسها ويمكن انتدابهم للقصر ، اي ان تتحمل المحافظة رواتبهم مع بعض المكافآت التشجيعية التي يمكن ان تتحملها ادارة القصر .

ثم ان النظرة الى هذه الفرق يجب ان تكون في تطورها باعتبارها جسما قابلا للنمو .. الى الحد الذي كنا نطمح في انه بعد مرور عدة سنوات يمكن ان تكون بعض فرق الاقاليم منافسا قويا لفرق القاهرة .

وقد رفضت تلك الفكرة الثالثة ، وأخذ بوجهه نظري في هذا الموضوع .

وهكذا وضعت الثقافة الجماهيرية اقدامها على اول الطريق السليم . فوجدت نفسها في أرض حقيقية . كانت الارض اخصب مما كان يتوقعه احد وكأن الناس كانوا في انتظار هذا الوليد لتتلقفه وتحتضنه وتوليه عنايتها .. وكان المثقفون جنودا على أهبة الاستعداد للقتال على ارض المعركة ، فقد تطوعوا بلا مقابل للسفر الى الاقاليم والمساهمة في كافة الانشطة كل حسب جهده وقدرته .

كان النجاح يفوق كل ما توقعته عندما قدمت اول تقرير عن الفكرة . ■■

سعد كامل

ايها العربي

أمامك أيها العربي يوم ... تشيب لهوله سود النواصي
وأنت كما عهدتك لا تبالي ... بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الأداني ... وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رحب القصور غدا بباق ... لساكنها ولا ضيق الخصاص

(الشاعر ابراهيم طوقان)

صورة من الماضي :

عندما جاءت السيارات إلى بلادنا

بقلم : الدكتور طلال المجذوب

عرفت اوروبا السيارة لأول مرة في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما صنع « نقولا كونيوت » أول عربة بمحرك بخاري سنة ١٧٦٩ ذات ثلاث عجلات ودرج بها في شوارع باريس . ثم جاء أوروبي آخر ، هو الالماني « كارل بنز » وصنع محركا للاحتراق الداخلي يديره النفط ، وذلك سنة ١٨٨٥ . وفي أمريكا ظهرت محركات الاحتراق الداخلي بواسطة « فورد » و « أولدز » سنة ١٨٩٠ ، وفي مطلع القرن العشرين (١٩٠٣) اصبحت مدينة ديترويت الامريكية مركز صناعة السيارات الرئيسي في الولايات المتحدة ، واختفت تدريجيا المحركات البخارية ، وحلت محلها المحركات ذات الاحتراق الداخلي التي يديرها النفط .

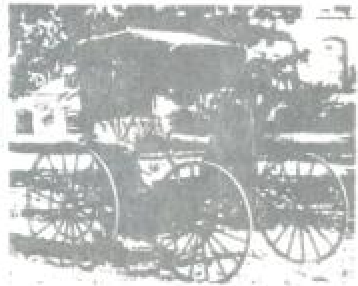
ومثل كل اختراع جديد قوبلت في اوروبا بالخوف والذعر والاستنكار بحجة انها تخرب الطرقات وتقتل الماشية القائمة عن قطعانها ، وتسبب الامراض بما تحدثه من تلوث ، خصوصا في الاجهزة التنفسية والعيون ، وقامت محاولات لمقاطعتها او لمنعها من السير على الطرقات ، حتى اضطرت السلطات الانجليزية الى تشريع قانون يفرض وجود حامل لعلم أحمر يسير امام كل سيارة لتحذير المارة ، وكان هذا القانون احد اسباب تأخر صناعة السيارات في انجلترا وعدم تقدمها .

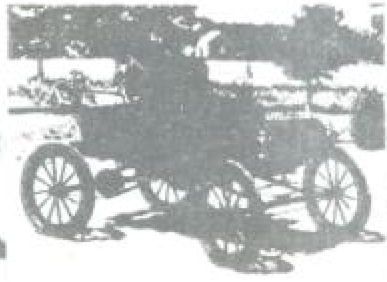
وفي بلادنا ظل الناس يسمعون بالسيارات ، او يشاهدون صورها في الصحف والمجلات ولم يقدر لهم رؤيتها حتى مطلع القرن العشرين (وان كانت مصر قد سبقت بلادنا باستعمال السيارات قبل ذلك ببضع سنوات) .

وعند مجيئها قوبلت بالدهشة والاعجاب ، في عالم كان يهيمن عليه الحكم التركي الجامد ، الذي بدأ يأخذ ، قليلا قليلا ، من الحضارة الغربية بشكل لا يفيد الناس ، كما كان يزعم المسؤولون .

وعرفت الآلة الجديدة القادمة من الغرب بالاوتوموبيل automobile ، ولعل اول من اقترح









تسميتها « بالسيارة » كان أحمد زكي من مصر ، اذ كتب الى المقتطف سنة ١٩٠١ يقترح ... ان تسمى العربة الجديدة التي جاءت الى البلاد المصرية باسم « سيارة » بدلاً من « اتوموبيل » .. وقد استحسنت المقتطف الاصطلاح الجديد ووعدت بتبنيه[1] ، وهكذا اخذ يشيع اسمها واستعمالها بالتدريج !

على طريق صيدا بيروت

ولعل أول سيارة وردت الى بلاد الشام تلك التي جاء بها « فيليب سكاف » ، من سكان دمشق ، حيث أحضرها بالباخرة من الاسكندرية الى بيروت سنة ١٩٠٨ ، وقام بتجربتها على طريق صيدا ـ بيروت ذهابا وايابا ، وقد قطع المسافة بينهما (وتبلغ ٤٥ كيلومترا) بمدة ساعتين وثلث الساعة ، بمعدل ٢٠ كيلومترا بالساعة ، غير انه في رحلة الاياب قطعها في ساعة واربعين دقيقة بعد أن تعرف الى الطريق وقاد سيارته بسرعة اكبر .

وتروي صحافة تلك الايام كيف هرولت الجموع ، صغارا وكبارا ، من القرى الواقعة على طريق صيدا ـ بيروت ، او قريبة منها ، وتزاحمت بالمناكب لرؤية تلك الآلة العجيبة القادمة من بلاد الغرب[2] ورحبت صحف اخرى بتلك الآلة « النقالة السريعة » ووصفتها بأنها بقوة ثلاثين حصانا وانها تتسع لستة ركاب وسابعهم يمكنه الجلوس الى جانب السائق .

واعلن « سكاف » المذكور عن رغبته بتشغيل سيارته الجديدة للنقل العام بين دمشق وتدمر لاختصار الرحلة بينهما الى ثماني ساعات بدلا من خمسة ايام[3] . واخذ المواطنون ، بعد ذلك ، باستيراد السيارات واستخدام بعضها كوسيلة نقل عام مأمونة وسريعة .

ففي سنة ١٩٠٨ تقدم « ماريو فريكه » بطلب رخصة من السلطات لتشغيل سيارات للنقل العام بين بيروت ودمشق ، كما تقدم بطلب مماثل « طاهر الحسيني وشركاه » لتسيير بعضها على طرقات القدس . كما نظم « داود توما » خطا دائما بين بيروت وبرمانا سنة ١٩٠٨ بمعدل سيارة واحدة من بيروت كل يوم مساء لتعود من برمانا صباحا !

كما افتتح « عبد الفتاح تعماني » خطا للسيارات بين بيروت وبلدة بيت مري سنة ١٩٠٩ بمعدل سيارة واحدة يوميا باجرة ريال مجيدي واحد للراكب[4] .

وفي سنة ١٩٠٨ آلف « سيولوار وشركاه » من بيروت شركة نقليات لربطها بكل من صيدا وطرابلس بخط منتظم ، ووعد الجمهور بالعمل حالما تصل

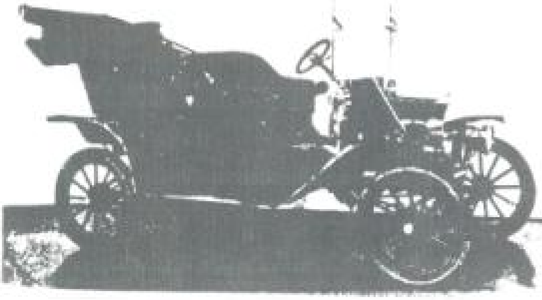
---

(١) المقتطف ، المجلد ٢٦ ، السنة ١٩٠١ ، ص ٧٣٦

(٢) جريدة لسان الحال ، العدد ٧٥٤٦ في ٢٥ حزيران ١٩٠٨ .

(٣) الاقبال ، العدد ٢٥٣ في ٢٩ حزيران ١٩٠٨ .

(٤) لسان الحال ، العدد ٦٠٦٨ في ١٤ تموز ١٩٠٩ .



السيارات من الخارج . وفي مطلع سنة ١٩٠٩ سيّرَ « حسين أغا خريرو » سيارتين على خط بيروت ـ صيدا ـ صور ثلاث مرات يوميا ، وتعهد بنقل الرسائل البريدية مجانا . وفي ربيع ١٩٠٩ انشأ عبد الفتاح نعماني خطا منتظما للسيارات بين صيدا وبيروت ، بمعدل مرتين في النهار الواحد . وكانت سياراته كبيرة تتسع الواحدة منها الى اثنى عشر راكبا ، وتقطع المسافة بين المدينتين بمدة ساعتين ونصف الساعة ، والأجرة ريال مجيدي واحد .

وفي سنة ١٩١٣ سيّرَ « سعدُ الدين النعماني » خطا جديدا للرحلات بين صيدا وبيروت بمعدل سيارة واحدة كل يوم ، تنطلق من بيروت صباحا وتعود من صيدا مساء ، وجعل مركز شركته في محلة السور ، في بيروت ، قرب بوابة يعقوب .

ومن الطريف ان الحاج زكريا فتوح ، الذي كان من أوائل من سيّروا عربات تجرها الخيول للنقل المنظم بين صيدا وبيروت تمسك « بعرباته » ولم يعترف بمنافسة « السيارات » لها ، واستمر يعلن عن رحلاته بانها « السفر السريع بين بيروت وصيدا » علما بان عرباته كانت تقطع المسافة بينهما بمدة اربع ساعات ، وكان يسيّر عربتين يوميا احداهما الساعة السادسة صباحا والاخرى الساعة الثانية بعد الظهر بأجر قدره ريال مجيدي لكل راكب ! وكان يبدل خيوله في محطة على الطريق بين صيدا وبيروت تدعى « السعديات » واعدا ركابه بالتمتع خلال الرحلة « بالمناظر التي تشرح الصدر وتسر الخاطر » !!

فورد .. أبو دعسة :

وخلال فترة وجيزة انتشر استعمال السيارات للنقل العام ، أما اقتناؤها للاستعمال الشخصي فقد اقتصر على كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم . حيث اخذوا يستعملونها في قضاء اعمالهم ونزهاتهم ، وكثيرا ما اتخذوا من طريق صيدا ـ بيروت متنفسا لهم ومنطلقا لنزهاتهم .

وتركزت معظم السيارات في بلاد الشام في مدينة بيروت ، وحتى الحرب العالمية الأولى لم يتجاوز عددها مئة سيارة في كل بلاد الشام ، ومما يجدر ذكره ان معظم السيارات التي كان يملكها الافراد كانت من طراز « فورد » الذي عرف « بأبي دعسه » ، لانه كان له درجة قرب الرفراف « يدعس » عليها للصعود للسيارات او النزول منها ، اما سيارات كبار الموظفين الاتراك والرسميين فكانت المانية من نوع « بنز » او غيره .

وقام وكلاء لبيع السيارات المستوردة من امريكا او اوربا ، وتركز معظمهم في بيروت ، حيث راحوا يعلنون عن « افضل الاوتوميبلات باسعار متهاودة » ومن تلك الاعلانات الطريفة « عربة برسم البيع تأخذ تسعة ركاب منهم واحد بجانب الوقاد وارد بوجو Peugot من سنة ١٩١٠ ، قوتها ١٨ حصانا ودواليبها كاوتشوك على طريقة دوكابل Ducasble ثقلها طن ونصف طن ، ودواليبها زوج بسعر ١٤٠٠ فرنك وزوج ثان بسعر ١٦٠٠ فرنك ، وهذه العربة لم يصر أستعمالها سوى لمسافة ٢٤ ألف كيلومتر فقط ، ومعها اوايل وتوابع عديدة ، وسرعتها ٤٥ كيلومترا بالساعة ....»[٥] ، كما درجت الاعلانات عن وصول كميات من « زيت البنزين » المختص بالاوتوميبل من شركة فاكوم اويل الاميركانية وغيرها من الشركات .

وبتشغيل السيارات على الطرقات وانتشارها التدريجي قامت الدولة العثمانية بسن القوانين التي تضبط حسن سيرها ، ومنعت سير اي سيارة ما لم تتم تجربتها ومعرفة صلاحيتها للعمل . كما جعلت الرسم عليها من ١٠٠ ـ ٢٠٠ قرش سنويا ، وفرضت عليها رسوما جمركية تعادل ١٥ ٪ من قيمتها ، وفي صيدا كان الرسم البلدي على السيارة الكبيرة ١٢ ليرة عثمانية سنويا ، وعلى المتوسطة سبعا وعلى الصغيرة خمس ليرات ، اما في جبل لبنان فكان الرسم على السيارة التي تتسع لخمسة اشخاص ست ليرات عثمانية سنويا .

طلال المجذوب
صيدا / لبنان

(٥) لسان الحال ، العدد ٧٤٧٨ في ٢٤ شباط ١٩١٤ .

● حل مسابقة العدد (٢٧٩) ●

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
ر	ا	ف	ا	ى	ى	ل	●	ا	ب	ن	ع	ر	ب	ى
ا	ب	و	ط	ا	ل	ب	■	ل	ب	■	■	ا	ا	■
ب	ن	■	ا	ل	م	ن	ط	ق	■	م	ت	ق	ل	ب
ى	س	ر	■	ف	س	■	ل	ا	م	ا	ر	ت	ى	ن
ل	ى	و	ن	ه	■	م	ا	د	ى	ر	ا	■	■	م
ى	ن	ا	■	ا	ل	ب	ى	ر	■	ا	ت	ا	ن	ا
ه	ا	د	ى	■	و	ر	ع	■	ا	ك	ى	ن	ا	■
●	■	■	ا	ح	م	د	ب	ن	ط	و	ل	و	ن	■
ا	ل	م	س	ل	ى	■	ن	ى	و	ن	■	ب	س	ط
ن	ا	س	■	ا	■	س	ر	ه	ا	■	م	ى	ن	ا
ا	م	ى	ر	و	ى	ل	ز	■	ر	و	د	س	■	ل
ن	■	س	■	ه	و	ا	ى	ه	■	د	ر	■	ع	ع
ا	ر	ى	ج	■	م	م	ك	ن	ه	■	ع	ق	ل	■
س	ن	ب	ل	ه	■	ى	■	د	ى	ن	ا	س	و	ر
■	ه	ى	■	د	ا	س	■	ى	ن	ص	ت	■	م	ن

أفقياً

أحمد بن طولون

رأسياً

طلائع بن رزيك

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : أحمد بن طولون . مؤسس الدولة الطولونية بمصر . أنشأ القطائع عاصمة جديدة له بالقرب من الفسطاط . مد سلطانه على مصر وسوريا والثغور والموصل . له جامع معروف باسمه في القاهرة .

(٨) رأسيا : طلائع بن رزيك . شاعر ، عمل وزيرا للخليفة الفاطمي الفائز عام ١١٥٤م . استقل بامور الدولة ، ولقب بالملك الصالح . اغتيل في خلافة العاضد ، زوج ابنته . له ديوان شعر .

(الفائزون بالجوائز)

- الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فازبها : ضياء الدين عبد المنعم علي الأمين ـ المهدية/ السودان .
- الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فازبها : اكرو محمد بن علي ـ أغادير/ المغرب .
- الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فازبها : أحمد فوزي ظاهر ـ بيروت/ لبنان .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا فاز بها كل من :

(١) عامر والي ـ المسيلة/ الجزائر

(٢) امل شفيق محفوظ ـ المعلا/ اليمن الديمقراطي

(٣) اسامة هلال مسوتي ـ حلب/ سوريا

(٤) حيدر احمد ابراهيم الصفار ـ الشعب/ الكويت

(٥) سمير فهد زامل الزامل ـ الرياض/ السعودية

(٦) فاضل بن نصر ـ سيدي ابي سعيد/ تونس

(٧) فرج الصايغ ـ عمان/ الأردون

(٨) اجلال جلال سعيد ـ صنعاء/ اليمن الشمالي

قصة قصيرة

التحقيق

بقلم سعيد سالم

ارتفع ضجيج الآلة الرافعة الرابضة كوحش أسطوري أمام باب العنبر بينما راح ذراعها الضخم يرتفع ببطء معلقاً في خطافيه الكبيرين ماكينة اللصق العجوز التي توقفت منذ عامين بعد أن ظلت تدور تسعة أعوام بلا توقف. تجمهر حول الآلة الرافعة جمع كبير من العمال بدوا الى جوارها كالأقزام. طغى ضجيجها على أصواتهم، لكن ضخامتها لم تحجب عن عين الرائي ملامح وجوههم أو حركات أيديهم أو مغزى نظراتهم. على رأس الجمهرة وقفت سيدة تتسم معالم وجهها بالغلظة، وتكشف طبيعة وقفتها في وضوح عن تمتعها بفائض كبير في كل الأشياء. كان واضحاً أنها أكثر الموجودين تمتعاً بالهيبة والاحترام. وقف الى جوارها مدير المصنع ومدير المبيعات ورئيس لجنة المزاد الذي بيعت فيه الماكينة ضمن «خردة» المصنع. حوصرت الماكينة العجوز بين الخطافين كفريسة متهالكة بين فكي نمر ضار مهووم الى اللحم. بدأت الآلة الرافعة في تعديل وضعها أمام باب العنبر بحركة جانبية بطيئة تفرق على أثرها بعض العمال ليفسحوا لها الطريق. مر أمامها عامل تمسك بمقشة مهترئة يكنس بها مخلفات المصنع في تراخ مقصود ورقبته ملتوية في اتجاه الماكينة المعلقة بين الخطافين. نهره مدير المصنع فانصرف في تباطؤ صريح لكنه لم يغير من وضع رقبته. توقف «موتور» الآلة الرافعة. بدت الهمهمات مسموعة.. تبادلت السيدة حديثاً جانبياً مع رئيس اللجنة.

....

من الشرفة العلوية لمكتب مباشر العمال كان المشهد مرئياً بوضوح تام. جلس المباشر الى مكتبه الصغير وأمامه جلس موظف التحقيقات يتفرجان على ما يدور تحتهما في انتظار قدوم العامل «محمد أبو الحديد» الذي أرسلا في استدعائه من المصنع للتحقيق معه بموجب المذكرة الواردة الى المباشر من ادارة الشئون القانونية. قدم المباشر كوباً من الشاي للمحقق وقال له

- خسارة

قال المحقق دون أن يفارق الجمود وجهه

- كل اجراءات البيع قانونية لا تشوبها شائبة
- لكن الماكينة يمكن أن تدور وتنتج
- فلماذا هي متوقفة منذ عامين؟
- يقولون ان قطع غيارها غير متوافرة وكذا عمالتها الفنية كما أنها لم تعد تدر للشركة ربحاً
- لست مقتنعاً بالسبب الأول
- ولست مقتنعاً بالسببين

عاد الجمود الى وجه المحقق بعد أن كاد يتبدد وتساءل بهدوء

- لماذا لم يحضر أبو الحديد؟
- لقد أرسلت في استدعائه أمامك
- ابعث بعامل آخر فليس لدي وقت.

....

ارتفع ضجيج الآلة من جديد. صرخ مدير المصنع في العمال أن يذهبوا الى أماكن عملهم وهددهم بتوقيع الجزاء عليهم. استجاب عدد كبير منهم. دخلوا الى العنبر ورءوسهم يلتفتون الى الوراء. كانوا يلغطون بكلمات يستحيل أن تستبين حروفها تحت ضجيج الآلة. سها على مدير المصنع أن يلحظ بقية العمال الذين لم يستجيبوا لأمره بمغادرة المكان. كان يتبادل حديثاً هامساً مع رئيس اللجنة. في لحظة خاطفة تعلقت كل الأبصار بالخطاف الأيمن للآلة الرافعة، وتدافع أتباع السيدة المهيبة من المختصين في حركة محمومة لانقاذ الموقف. تضافرت الجهود بعودة عمال العنبر من جديد - على مرأى من مدير



المصنع ـ وأعيد تثبيت الجزء الأيمن من الماكينة العجوز في عطالها بعد أن كادت تسقط . قال أحد العمال بصوت غير مسموع

ـ الماكينة لا تريد الخروج من المصنع .

وقال آخرون بأصوات لا تزيد عن صوته وضوحا

ـ ولن ندعها تخرج بالفعل

ـ ليس بمقدورنا أن نفعل ذلك . . فلتكن واقعيين

ـ لقد نفحتنا السيدة الكثير حتى تسهل اخراج الماكينة من موقعها الضيق

ـ لم نحصل الا على الفتات

ـ لا ترفع صوتك فالبهوات ما زالوا واقفين

ـ اللعنة

ثم تبادلت السيدة المهيبة حديثا جانبيا مع مدير المصنع .

قال المحقق دون أن تبدو عليه امارات الغضب

ـ هل انشقت الأرض فابتلعته ؟

أجابه المباشر وقد انتابه قلق شديد

ـ لقد وقع عليه رئيسه الجزاء لتركه مكان عمله بدون اذن

ـ المهم أن يحضر الآن فأمامي العديد من التحقيقات مع عمال آخرين

ـ سأذهب بنفسي للبحث عنه

ـ أسرع فالسماء على وشك أن تمطر

انصرف المباشر وانفرد المحقق بمتابعة المشهد . لم يعبأ أحد الواقفين برذاذ المطر . قدم مدير المبيعات مقعدا للسيدة فجلست تحت ساتر . وقف الى جوارها . شعر المحقق بحركة فالتفت الى الخلف ليجد عاملا يسأل عن المباشر .

ـ ذهب يبحث عن « محمد أبو الحديد »

ـ المصنع كله يبحث عنه ، لكني أريد المباشر في أمر هام

ـ ماهو ؟

ـ خط المجاري مظلم تماما منذ عشرة أيام ونريد مصباحا جديدا

ـ وأين المصباح القديم ؟

ـ كسره أبو الحديد دون قصد حين كان يسلك المجرى بالسيخ الحديدي . بدت علامات دهشة مفاجئة على وجه المحقق . صمت قليلا قبل أن يتساءل

ـ فلماذا انتظرتم عشرة أيام دون تركيب مصباح جديد ؟

ـ قالوا ان المصباح الجديد لن يركب الا بعد التحقيق لأنهم يشكون في سرقته ، والمجرى مسدود الآن والعمال الذين يقومون بتسليكه تائهون في الظلام .

ألقى المحقق بنظرة سريعة ـ وان كانت متفحصة ـ على ملف التحقيق الموضوع أمامه . قلب بعض صفحاته . سرح بفكره قبل أن ينتبه الى أن العامل مازال واقفا أمامه ! ثم قال له

ـ حسنا . . عد الى عملك الآن وسأخبر المباشر بذلك حين عودته .

. . . .

حين بدأت الآلة العملاقة في التحرك ، انفلت الخطاف الأيسر من موضعه القابض على الجانب الأيسر من الماكينة ، وسمعت صيحة مجلجلة اخترقت أزيز الموتور المزعج

ـ الله أكبر

علا صوت السيدة غاضبا بعد أن غادرت مقعدها فأصدرت بعضا من الأوامر والنواهي امتثل لها الجميع على الفور ثم شرعوا في اعادة تثبيت الماكينة بين الخطافين . غادرت السيدة المكان بصحبة المديرين ورئيس اللجنة متجهين الى مبنى الادارة . . وبدأت الآلة الرافعة تتحرك خلفهم .



. . . .

اقتحم المكتب مجموعة من العمال يحملون على أكتافهم زميلا لهم عاري الجسد تماما . رأسه مدلاة بين صدورهم وعلى فمه تناثرت رغوة بيضاء . فاحت في المكان رائحة كريهة أشبه برائحة المجاري العفنة . وضعوه على أرض الحجرة وراحوا يمسحون جسده ويلبسونه ملابسه . اقترح أحدهم أن يجري له تنفسا صناعيا . اقترح آخر أن يقلب على رأسه حتى يخرج من فمه ما استقر في جوفه من ماء المجرى .

ـ كتب له عمر جديد

ـ لم يجرؤ أحد غيره على النزول الى المجرى لازالة أسباب الانسداد

ـ حين سحب بيده العائق هاجمته مياه الصرف كالفيضان

ـ كاد التيار أن يسحبه الى المصرف العمومي لولا ستر الله

ـ يجب أن يمنح مكافأة تشجيعية

ـ المكافأه ربنا

ـ لن يعبأ به أحد

ـ يجب أن ينقل الى المستشفى على الفور

وقف المحقق يرقب الواقعة بكيانه . تاه في معالم وجه أبي الحديد المميزة وخيل اليه أنه لن ينساها طول حياته . وقف أبو الحديد فجأة ثم سقط متهالكا على أحد المقاعد .

اقتربت الآلة الرادعة من بوابة الخروج من المصنع

فتح باب مكتب مدير المصنع . خرجت السيدة المهيبة . صافحها مدير المصنع ورئيس اللجنة ومدير المبيعات ووجوههم تنطق بآيات البشر والامتنان .

قال المحقق للمباشر

ـ أعتقد أنني لن أتمكن الآن من أخذ أقواله . سوف أحضر بعد عودته من المستشفى . .

وكانت الآلة الرافعة العملاقة قد غادرت المصنع حاملة بين خطافيها الكبيرين آلة اللصق العجوز ـ التي توقفت منذ عامين بعد أن ظلت تدور لتسعة أعوام ـ كفريسة متهالكة بين فكي نمر ضار منهوم الى اللحم . ■■

سعيد سالم

بحث عن هيكل سليمان أم طمس للمعالم الإسلامية في القدس ؟

ثمة خطر متزايد يهدد مدينة القدس . نتيجة لاستمرار الحفريات الاسرائيلية فيها . والقدس الآن هي واحدة من اهم المدن ، التي يتابع العالم اخبارها صباح مساء .. بسبب الموضع السيء للمدينة ، الذي تعيشه منذ عام ١٩٦٧ ، وبسبب الانتهاكات اليهودية لتاريخ وهوية هذه المدينة .

ويبدو أن القدس قد تعودت على مثل تلك الانتهاكات . حيث انها تعرضت اكثر من مرة لمثل ذلك في تاريخها الطويل ، حتى أنها اشتهرت باسم « اورشاليم أو يورو شاليم » وهو اسم تعودنا ان نترجمه الى « مدينة السلام » والحقيقة أن لفظة اورشاليم او يورو شاليم تعني مدينة إله الظلمات « عندما تكون منتهكة الحرمات » اما اسم « مدينة السلام » فهو لفظ آخر لنفس المدينة . اسم اطلقه عليها العرب .

واليهود يعلمون حقيقة « شالم او شاليم » ولذلك نجدهم يلحقون اسم « القدس » به فيقولون « اورشاليم القدس » .

الا انهم في نفس الوقت منذ سقوط بكاملها في ايديهم بعد احتلالهم للقسم العربي منها سنة ١٩٦٧ (يونيو - حزيران) ، بدءوا ينشطون في اعمال الحفر والتنقيب بأمل الحصول على دليل اثري واحد ، يثبت سبق تواجد حضارة عبرية في المدينة ، واكثروا من اعمال الحفر هذه في المدينة كلها والمقصود بلفظة المدينة كلها هنا ، القسم العربي باعتباره يمثل القدس القديمة ، صاحبة التاريخ القديم .

بقلم
عبد الغني
محمد عبد الله



القدس
موقع جغرافي

وبدأ هذا الواقع يلقي بظلال ثقيلة على مستقبل العمارة الاثرية الاسلامية والعربية في المدينة . وهو امر يستدعي منا اليقظة الكاملة ، فهم لن يعثروا على شيء اثري له مدلولات حضارية عبرية ، بل هناك حقيقة تقول ان من عاش منهم في فلسطين انما عاش في احضان حضارة كنعانية . . وليس في ظل حضارة عبرية كما يقال . . وانتصر الكثير من العلماء لهذا الرأي مؤخرا .

وهذه الحفريات ترتيبا على هذا الرأي الاخير لم تصل حتى الآن الى اي شيء . . وهم في النهاية لن يجدوا شيئا يختص بهم .

لم تكن عاصمة دينية

وهذا الكلام لا يقال اعتباطا ، ولا هو يقال من فرط انفعال عربي او غيرة دينية . انما يقال من واقع ترجمة الاخبار التاريخية الى حقائق علمية بهدف الوصول الى حقائق تنطق به الاحجار والنقوش والعمائر والتي هي نتاج حضاري عربي قبل الاسلام وبعده في المدينة المقدسة . . نتاج حي وطازج دائما في امدادنا بحقيقة الامر فيما لو احسن القاريء قراءة الآثار .

وأولى هذه الحقائق التي تطرح نفسها علينا . وان كنا لا نعيرها الانتباه . هو ان المدينة لم تستخدم كعاصمة دينية لليهود بل كانت حسب رواياتهم عاصمة سياسية ، وهو امر له دلالته اذ ان العواصم السياسية في التاريخ القديم والحديث ـ على حد سواء ـ كانت بعيدة عن العواصم الدينية . ولنأخذ من وضع مدينة مكة ووضع الفاتيكان مثالا واضحا على صدق هذه الحقيقة . الا ان اليهود ـ من اجل ايجاد مركز ديني تجتمع حوله قلوبهم وأهدافهم ـ اخترعوا قصة العاصمة السياسية والدينية في نفس الوقت . باعتبار ان للانسان ـ اي انسان ـ اهتماماته المادية والروحية . . والدين هو قمة الاهتمامات الروحية في الانسان ثم يأتي الفن بعد ذلك . ولم يدفع اليهود بهذه الفكرة الا مؤخرا ، رغبة في اثبات وهم وجودهم السابق والمؤثر في المدينة . وكان من الضروري تخريج هذه الدعوى من وقائع غير ثابتة . . بل مشكوك فيها . . ومن بين هذه الدعاوى قصة المعبد او الهيكل . ومحاولة اضفاء التعميم والاهمية على هذا المعبد في حين ان الحقيقة تخالف ذلك بدون شك . فهذا المعبد رغم تدميره تدميرا شاملا الا انه ظل عالقا باذهانهم بسبب مالفقوه برواياتهم الكاذبة واحاجيهم الملفقة .

فكل النصوص تشير الى ان سليمان عليه السلام لم يسع او يحاول ان يجعل من هذا المعبد مركزا مقدسا ولا عاما . بل واكثر من ذلك ان كل الشواهد ايضا تشير الى انه كان معبدا خاصا .

فالمذبح كان صغيرا جدا لدرجة انه لم يكن يتسع للمحرقات والتقدمات وشحوم الذبائح . بالاضافة الى ان هذا المعبد لم تكن بوابته مخصصة لدخول العامة ، ولكنها كانت مفتوحة على القصر . وهذا يشير الى انه كان معبدا خاصا .

وحتى لو كان عاما فهو ليس مكانا مشمولا بالألوهية والتقديس لانه من اقوالهم « فقد بناه الملك سليمان » وهذا عمل شخصي حتى لو كان هذا الشخص « نبيا » والدليل في ايدينا جميعا . اذ لم يرد ما يشير بانه عمل ناتج عن وحي الهي . ولو قارنا ذلك بالكعبة المشرفة مثلا لوجدنا ان النصوص القرآنية واضحة وضوحا مطلقا في التوجيه الرباني ببنائها .

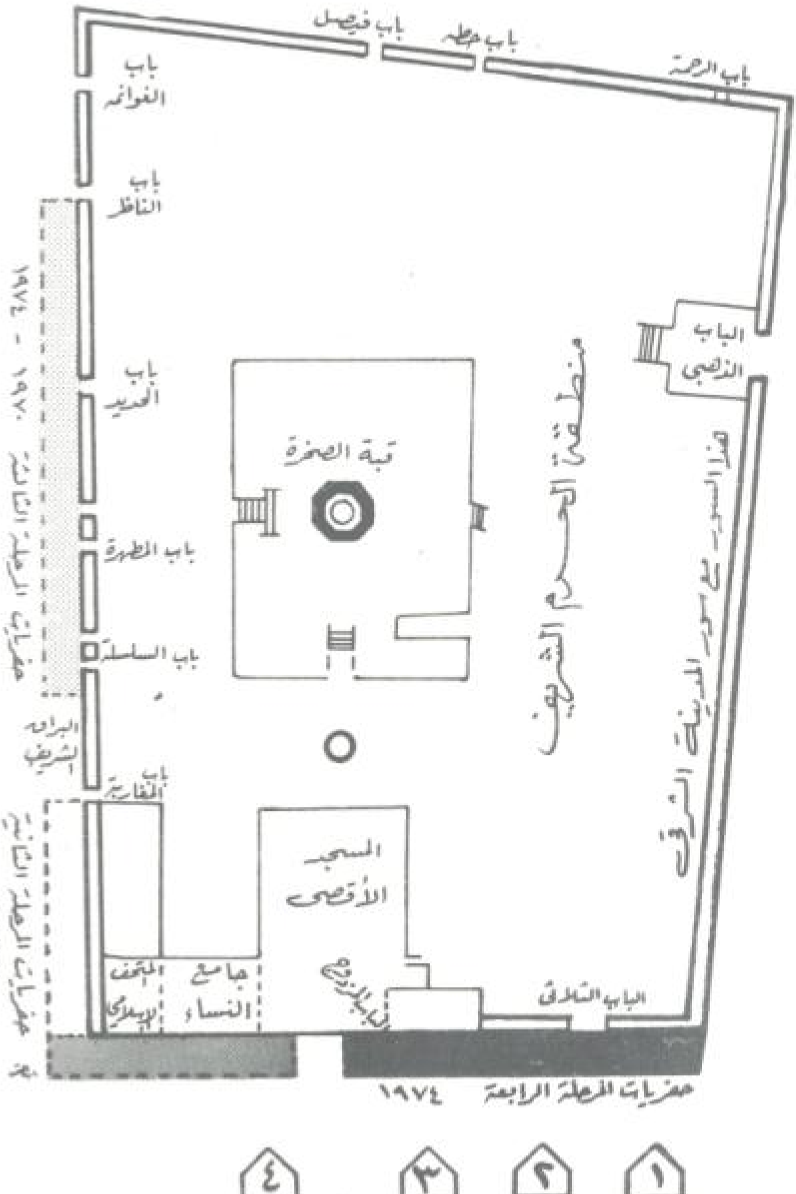
لماذا يستمرون اذن ؟

ان علماء الآثار اليهود يعرفون كل تلك الحقائق قبل الشروع في الحفريات . ولكنهم رغم ذلك يستمرون فيها لعل الزمن يحل المشكلة بالنسيان او بتقادم الاحتلال وطرحه كأمر واقع . ويستمرون ايضا بهدف آخر هو تخريب كل المقدسات الاسلامية والآثار العربية وازالتها من المدينة تفريغا لما فيها من تواجد حضاري ثابت . . وبطء شديد مستهدف .

وفي حفرياتهم بمدينة القدس ومع علمهم بانهم لن يعثروا على شيء له مدلول يختص بهم ، يصيبون بالضرر كل الآثار العربية والاسلامية ، بسبب عدم التزامهم المتعمد بقوانين الحفائر داخل المدن . وتلك نقطة هامة اذ انهم يقيمون انفاقا بعرض ١٤ مترا ، وهو اتساع يخالف ويهدد اساسات العمائر .

ونتيجة لهذه الحفريات فقد تصدع الكثير من جدران البيوت وتهدم بعضها فعلا ، بل واكثر من ذلك ان البلدية « الصهيونية » للمدينة تساعد من جهة اخرى في الوصول الى هذا الهدف ، مثلما حدث لعقار باب الحديد الاثري ، اذ بعد ان قامت دائرة الاوقاف بترميم هذا الاثر في ٣١ / ٨ / ١٩٧٥ بسبب تصدعه نتيجة حفريات قام بها رجال الآثار اليهود ، قامت البلدية الصهيونية باعمال حفر

منطقة الحرم الشريف
مدينة القدس
الحفريات اليهودية بالمنطقة
مسقط أفقي



أربعة أنفاق حفرت أسفل المسجد الأقصى والأروقة المجاورة له (يوليو ١٩٧٤)


القدس القديمة
موقع منطقة الحرم الشريف
مسقط أفقي
أسوار المدينة
باب الساهرة
باب العمود
الباب الذهبي
منطقة الحرم الشريف
قبة الصخرة
طريق الآلام
الباب الجديد
كنيسة القيامة
الأقصى
باب الخليل
باب المغاربة
باب النبي داود

عميقة بجوار العقار وتركتها لفترة طويلة لتمتلىء بمياه الامطار مما تأثرت معه جدران العقار فتصدعت وتهدمت ، والاخطر من ذلك هو تصدع كل عقارات الاوقاف الملاصقة لهذا العقار ، وهذا هو الأمر المستهدف . . في هدوء وبطء شديدين .

وكل الحفريات اليهودية في القدس القديمة تتخذ هذا المنهاج للوصول الى ذلك الهدف . . وحفرياتهم في المدينة كثيرة ومتعددة ويجدر بنا ان نلقي نظرة على موقع واحد لنعرف مدى الخطورة التي تتهدد الآثار العربية والاسلامية في المدينة . وهذا الموقع هو منطقة الحرم الشريف بالمدينة المقدسة .

في خمسة مواقع

وتأخذ تلك الحفريات بمنطقة الحرم خمسة مواقع يمكن في ايجاز توضيح اعمالها الا ان خطورتها ليست الا واقعا مرا على ما تحويه تلك البقعة من نتاج حضاري اسلامي غاية في الاهمية ، فهي على الاقل تحوي درة الفنون الاسلامية واقدم آثارها الباقية للآن « قبة الصخرة » ، والمسجد الاقصى صاحب العمق الديني والتاريخي لدى المسلمين ، هذا بالاضافة الى الكثير من العمائر والأسوار والابواب والعقود . . الخ . والمنطقة في ايجاز تحوي اهم العمائر الاسلامية في العالم الاسلامي بعد الحرمين الشريفين .

وهذه المواقع الخمسة التي جرت بها حفرياتهم بدأت في عام ١٩٦٨ بحفريات المرحلة الاولى اسفل الجزء الغربي من الحائط الجنوبي لمنطقة الحرم الشريف ، وهو يشمل جزءا من الحائط الجنوبي للمسجد الاقصى ، وفي المرحلة الثانية سنة ١٩٦٩ بدأ العمل اسفل جنوب الحائط الغربي من نهايته حتى باب المغاربة .

اما المرحلة الثالثة من الحفريات والتي بدأت من سنة ١٩٧٠ حتى سنة ١٩٧٤ اسفل شمال الحائط الغربي ايضا من قرب باب السلسلة حتى قرب نهاية الحائط شمالا . وفي المرحلة الرابعة قامت اعمال الحفر سنة ١٩٧٤ اسفل الجزء الشرقي من الحائط الجنوبي ليشمل المنطقة اسفل المسجد الاقصى والباب المزدوج والباب الثلاثي .

اما المرحلة الخامسة فقد بدأت في نفس العام سنة ١٩٧٤ واتخذت مسارا آخر . . غاية في الخطورة، باقامة الانفاق العريضة اسفل الجدار الجنوبي . . ولتتخذ مسارات طويلة تمتد لمسافات بعيدة اسفل الحرم القدسي ، مما يهدد عمارته بشكل واضح ، وهم في ذلك اقاموا اربعة انفاق عريضة .

كل تلك الحفريات . . وهي شاقة على القائمين بها . . ومكلفة ايضا . والمردود ـ صفر ـ بالنسبة لمتفاهم . بل على العكس من ذلك فقد عثروا على بعض المدلولات العربية والاسلامية ولكنهم لم يعلنوا ذلك ، وهذه مخالفة علمية اخرى .

وتسرعوا واعلنوا مرة انهم عثروا على احد الحوائط القديمة ثم عادوا وصمتوا بنفس السرعة . ويبدو ان امامهم كانت الضاغطة عليهم بالتسرع . . الا ان الحقائق العلمية المدونة اضطرتهم للصمت . صحيح انهم عثروا على بقايا الحائط . ولكنه حائط المسجد الاقصى القديم الذي قد تهدمت بعض اجزاء منه نتيجة لزلزال عام ١٠٣٣ م . فاعاد الخليفة الفاطمي الظاهر بناء المسجد عام ١٠٣٥ م . على نفس النمط العباسي ونفس المسقط الافقي ولكن مع تصغير مساحة المسجد . ونتج عن ذلك نقل احد الجدران وازيل من فوق سطح الارض وبقيت اساساته مطمورة . . وعثر عليها هؤلاء العلماء الباحثون عن الوهم . . فاعتقدوا انهم عثروا على مفاجأة ولكن المفاجأة جاءت في كل المراجع والمصادر لتوضح ان الحقيقة بخلاف ما اعتقدوه .

ولتزداد الحقيقة في عقولنا ثباتا نسوق عاملا واحدا آخر من عوامل كثيرة ومتعددة . . وهذا العامل يمكن التوصل اليه بالعقل المجرد ، ويثبت ان هناك وهما كبيرا خلف كل تلك الحفريات ويجثم فوق صدر كل القائمين بها . . ويدل على ان الهدف الاول من ورائها هو التخريب ، فمنطقة الحرم الشريف تقع فوق قمة جبل « موريا » . . وهي مرتفعة نوعا ما ، والمنطق يقول ان الامطار ـ وهي كثيرة على القدس ـ تجرف من فوق الجبل الى اسفله ـ اي جبل او اي مرتفع من الارض ـ ولذا فمنطقة الحرم الشريف وفق القاعدة يتكشف فيها عن الآثار القديمة . . وليس العكس .

ومع هذه الحقيقة المتناهية في بساطتها يمكن طرح السؤال التالي . . . « ولم كل تلك الحفريات اسفل منطقة الحرم الشريف بمدينة القدس ؟ » والجواب معروف « التخريب وطمس المعالم . . لكل الآثار الاسلامية والعربية وتفريغ المدينة منها . . حتى لا يكون هناك للمدينة ماض او هوية » .

صحيح ان الهدف صعب التحقيق . . ولكن بصبرهم المتعمد والمصطنع على الفرية حتى تسقط في يدهم كما يتوهمون ، وربما باهمالنا او انفعالنا غير المدروس احيانا . . وربما لاسباب اخرى . . قد يكون هناك موقف آخر . ولكنه موقف خطر . ■■

عبد الغني محمد عبد الله



فرانسواز ماليه جورى
ألمع أديبات فرنسا

بقلم : محمود قاسم

في الحديث الذي أجرته مجلة نوفيل اوبزرفاتور مع الكاتب الأمريكي وليام ستايرون قال : ان الادب الفرنسي يمر الآن بفترة اضمحلال شديدة .. وقد بدا من الحديث أن ستايرون ما زال غارقا حتى أذنيه في كتابات بلزاك وكامي وأنه لم يقرأ شيئا من الأدب الفرنسي الحديث خاصة ان هذا الأدب لم يترجم بعد الى اللغة الانجليزية . . . فالمتتبع للادب الفرنسي في السنوات الأخيرة يتأكد تماما أن فرنسا تشهد ازهي عصورها الأدبية من خلال مجموعة من الاسماء الادبية في مجال الرواية بصفة خاصة . . والطريف أن اسماء الرجال من الادباء في فرنسا قليلة قياسا الى النساء . . فقد تمكنت المرأة الفرنسية ان تقف شامخة امام الرجل وتقدم أدبا رائعا وبرزت مجموعة من الاسماء النسائية مثل جان شامبيون وشانتال شواف وكلير اتشرللي . . الا أن فرانسواز ماليه جورى هى أبرز الاديبات الفرنسيات في السنوات الأخيرة . . فهي تكتب الشعر والرواية والمقالات والدراسات الادبية كما انها تقوم بالترجمة من اللغة الانجليزية الى الفرنسية .

ولدت فرانسواز ماليه جوري في السادس من يوليه عام ١٩٣٠ في انتير ببلجيكا . وهي ابنة رجل بلجيكي كان موظفا كبيرا في الحكومة البلجيكية . كما أنه اديب معروف . . وقد درست في اول الامر في المدرسة الخاصة بأنتير ثم أجرت معادلة للحصول على شهادة البكالوريوس عام ١٩٤٥ . وفي هذا العام نشرت أول اشعارها في ديوان يحمل عنوان « أشعار يوم الاحد » وبذلك تكون أصغر أديبة فرنسية نشرت أول أعمالها حيث أشيع أن فرانسواز ساجان هي أصغر أديبة فرنسية نشرت لاول مرة . . وهذا الديوان الذي نشرته ببروكسل يعتبر محاولتها الوحيدة في نظم الشعر . . فقد رحلت بعد نشره الى الولايات المتحدة الامريكية كي تقضي هناك عامين تعود بعدهما الى باريس في عام ١٩٤٨كي تحصل على الليسانس في الأدب الفرنسي . . وفي عام ١٩٥١ نشرت فرانسواز أول رواية لها « حصن الطريق » . . ثم توالت رواياتها بعد ذلك وهي على التوالي : « الغرفة الحمراء » عام ١٩٥٥ . ثم « الكذبيات » عام ١٩٥٦ ونالت عليها جائزة المكتبات ثم « امبراطورية السماء » عام ١٩٥٨ والتي نالت جائزة فيمينا . . و « الاشخاص » ١٩٦١و « علامات ومعجزات » ١٩٦٩ . و « لعبة المخابىء » عام ١٩٧٣ و « الليجرا » ١٩٧٦ . . و « جان جويون » ١٩٧٨ . . ثم « ديكي روا » ١٩٧٩ . . وأخيرا روايتها الرائعة« الألم والحب واشياء اخرى » عام ١٩٨١ .

وفرانسواز عضو في أكاديمية جونكور الادبية وقد اختيرت نائبة لرئيس الاكاديمية التي يرأسها اديب فرنسا المعروف هيرثيه بازان . . ولها أربعة ابناء رزقت بهم من زيجاتها الثلاث .

علامات ومعجزات

تدور احداث روايتها « علامات ومعجزات » بين باريس والضواحي في عام ١٩٦٢ بعد انتهاء الحرب الجزائرية . . حيث نرى نيقولا الروائي ومارسيل الصحفية يعدان معا « ريبورتاجا » في ضواحي فرنسا من اجل مجلة تهدف بذلك الى اصلاح امور فاسدة . ومن خلال هذا الريبورتاج نرى ان هناك علاقة حب سريعة بين نيقولا ومارسيل . وهذا الريبورتاج يقودهما الى جنوب فرنسا حيث مارسيليا مليئة بالعائدين الى الوطن بعد انتهاء الحرب . ثم يعودان الى باريس كي ينقلا الى ادارة المجلة مدى ما شاهداه من تضادات . . ويعاودان الترحال الى اماكن اخرى . . وفي هذه الرحلة تظهر علامات الحمل على مارسيل ويجد نيقولا في حبيبته نوعا من الارتياح فيقرر أن يتزوجها . وعندما يذهب الى منزل أمه كي يخبرها بنبأ زواجه يجد هذه قد تزوجت من حارس الحقل الذي تملكه الأم . . يصاب نيقولا بصدمة فينتحر . . يا له من ابله فأمه لا تفك ارتباطها بحارسها . . اما مارسيل فانها تتزوج من احد اصدقائها القدامى . .

ومارسيل هي الفتاة التي بلغت الثاني والعشرين من العمر . تعيش سعيدة . تقول لنيقولا في بداية مهمتها : « لا يهم اي رجل . نتعامل معه . لكن علينا ان نهب للطرف الأخر كل الحنان والرقة اللازمتين » . . انها امرأة جربت الكثير من الرجال من خلال عملها . . وهي لم تتعلم الثورة لكنها ترقبها . .

اما نيقولا ذو الخامسة والثلاثين فهو مؤلف كتب خمسة كتب . وقد قضى طفولته في علاقات ضيقة محدودة مع ابيه . . واصيب بصدمة عندما عرف ان امه تعيش حياتها ذاتيا وقد دفعه هذا الى ان يصدم . . مرة في الزواج بمارسيل والاخرى في سلوك امه الشائن التي تتزوج حارس الحقل فقد تربى نيقولا في جو متزمت . . فأخوه قس . . يرفض ان يوافق على الايمان في عالم غير متزن ولذا فان هذا العالم غير المتزن يدفعه الى الانتحار . .

اما روايتها « جان جويون » فهي اشبه بسيرة ذاتية حول المؤلفة . . انها تمحو لوحة واضحة للغاية حول مشاعرها وعاداتها الدينية في اطار عصر لويس الرابع عشر . انها تتكلم وتعيش شخصياتها التي تحركها مثل السيدة دومانتون . . انها تسجل وتدون بأسلوب الباحث النفسي الحاد الرؤية . اطار شاعري انساني . والسيدة جويون تبوح من خلال المؤلفة بالكثير من التفاصيل عن حياتها . امومتها . . احساسها . . وذلك من خلال اطار نسوي . .والمؤلفة تتبع بطلتها خطوة بخطوة . . فنحن نعرف طفولتها . . وحياتها كفتاة وامرأة متزوجة وكأم شابة ثم كأرملة شابة . الى أن تكتب اول كتبها « التيارات » و وسيلة قصيرة » انها تبدو لنا كامرأة فاضلة رائعة تعاني قليلا من الضجيج . . لانها تمتزج بالجانب الروحي ولانها مكلفة ان تشكل نموذجا جديدا في حياتها الشديدة البساطة .

واذا دارت روايتها جان جويون حول امرأة في مراحل مختلفة من حياتها . . فانها في رواية « الليجرا » تتحدث عن طفل في الرابعة من عمرها . . أخرس . هجره ابواه وقد تركاه في عالم غريب ولكن الليجرا تتبنى الطفل وتعطيه كل ما تملك من مشاعر . وقد تطغى هذه المشاعر على كل ما تشعره نحو اسرتها وزوجها . فلزوجها زوجة هي الليجرا . . واسرتها لها اسرة اما هذا الطفل فليس له شيء سوى احضان ووفاء هذه الام الجديدة . .



فرانسواز مالية جوري

ومن المعروف ان فرانسواز قد بدأت في كتابة الاغنية منذ عام ١٩٧١ فقدمت مجموعة من الاغاني الناجحة لكل من ماري بوليل وباتريك جوفيه وسيرج لاما وكلود فرانسوا .. وهذا الارتباط بالمطربين جعلها تكتب روايتها « ديكى روا » حول أحد المطربين المشهورين الذي يتعلق به الجميع ، هو ديكى روا .. واسمه الحقيقي فردريك .. ولد ديكى في مكتب يبيع التبغ . وعاش اول حياته في مكتب يبيع الاسطوانات . ثم أصبح نجما كبيرا . انه اقل خواء واقل غباء من الكثيرين من نجوم آخرين .. انه انسان يختلف .. يعرف كثيرا حول نجاحاته وحاجاته ورغبات الجماهير التي تحبه . وديكى هو نموذج لكل مطربي فرنسا المعاصرين .. هو مزيج من داف وماري بوليل . يتعاطى المخدرات . له طبيبه الخاص الذي يحذره من اضرار المخدرات .. وعندما يعطى اوامره للمطرب فانه يكرهه .. لكن الكراهية مغلفة بلون من الحب الذي لا يمكن البوح به .

هناك العديد من النساء في حياة ديكى .. بولين فتاة السادسة عشرة التي تتعلم الحب لاول مرة على يدى المطرب المشهور . جانين منتجة .. التلفزيون العجوز التي ترأس نادي المعجبين بديكى . وتقول فرانسواز انها ارادت ان تعبر عن المراهقين في عصرنا الذين يتأخرون كثيرا حتى يدخلوا الى عالم البالغين .. انهم خائفون ان يصبحوا اسرى الآلة الاجتماعية التي تستهلكنا جميعا وتجعلنا ندور في رحاها .

وقد صورت فرانسواز الحياة الحقيقية لمطربين عرفتهم عن قرب . فجاء تصويرها دقيقا للغاية . وحول هذه الرواية تقول « اقضى من العام شهرين من أجل أكاديمية جونكور .. شهران من اجل الاغنية . اما في بقية العام فانني امارس الكتابة » وتكمل « مثل كل الكتاب . فانني اعمل بينهم منذ سنوات .. اهرش داخل رأسي كي أتقدم .. لا أحاول ان استهلك نفسي حتى يكون هناك شيء افعله بالغد .. أتخيل نفسي في فترة لا أفعل فيها شيئا .. لذا أعمل .. استيقظ في الخامسة صباحا كي اتمكن من قراءة كتاب كل يوم » ..

وقد استغرقت في كتابة « ديكى روا » عاما بأكمله .. وتتحدث عن هذه المرحلة قائلة « حبست نفسي داخل منزل بالريف كنت اجلس امام مائدتي كل يوم من الساعة السابعة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر وبعد عام من العمل الشاق أحسست انني أخرجت قبلا طويلا للغاية » .

آخر رواية

أما آخر رواية صدرت لها في ابريل من العام الماضي فهي « أحزان وحب وأشياء أخرى » فهي تتناول من جديد مرحلة هامة من حياتها مصاغة داخل اطار روائي حول رجل يدعى جيلبرت يعمل كعمدة لاحدى المدن .. يعيش حياة عامة اكثر منها خاصة يدعوه الآخرون لحضور الحفلات ، عليه ان يوزع الابتسامات .. وان يقوم بافتتاح قصر الثقافة او بعض المشاريع في المدينة .. انه يميل الى هذا اللون من الحياة هربا من



كلودفرانسو .. كتبت رواية حول حياته

زوجته العجوز جانيت التي كثيرا ما تحتسي الخمر كي تنسى انها قد فقدت القدرة على اغراء زوجها وعلى جذبه الى المنزل .

وتدور الرواية في يوم افتتاح قصر ثقافة المدينة .. وتصور فرانسواز الصراع بين امرأتين تمران بمرحلة هامة : الزوجة العجوز التي أحست انها قد وضعت على الرف بحكم السن والادمان .. وماري كرستين العشيقة الشابة التي يمكنها ان تسعد الرجل الذي اعجب بها واختارها .. وبالفعل فان جانيت تشعر أن عليها ان تترك منزلا التي اقامت فيه طويلا . فهو لم يعد مأواها المفضل ..

أشرنا الى أن فرانسواز ماليه جوري لم تكتب الرواية فقط .. فهي تكتب القصة القصيرة .. فقد نشرت مجموعتين قصصيتين . الاولى بعنوان « كورديليان » عام ١٩٥٦ .. والثانية بعنوان « ثلاثة أعمال لليل » عام ١٩٦٨ .. كما نشرت دراسة تاريخية حول ماري مانسيني عشيقة لويس الرابع عشر في عام ١٩٦٤ .. وقامت بترجمة مجموعة من الروايات الى اللغة الفرنسية مثل « نقطة العسل » للكاتب شيلاج ديلاني .. وكتبت مقدمات للعديد من الطبعات الحديثة لروايات مثل « مرتفعات ويزرنج » و « أنا كارنينا » وغيرهما .. كما قامت بجمع مجموعة من المقالات التي نشرتها في العديد من الصحف والمجلات الفرنسية ونشرتها في مجموعة من الكتب مثل « رسالة الى نفسي » عام ١٩٦٣ و « منزل الورق » عام ١٩٧٠ .. ثم « فيما يتعلق بمدام سيفينيه » عام ١٩٧١ ..

لعل كتابها « رسالة الى نفسي » هو ابرز اعمالها على الاطلاق .. حيث تكتب رسالة طويلة توجهها الى فرانسواز ماليه جوري حول مهمة الكاتب في المجتمع .. ودورها كأديبة في تحريك دقة ريشتها لكتابة شيء يجلب لها الذكريات الرائعة وعلاقتها بالعديد من الصداقات والخصومات ثم علاقتها الخاصة بالله .. فعن نفسها ككاتبة تقول « نحن لا نكتب الادب الجيد حول المشاعر الرائعة التي نحسها . ففي الواقع فاننا نكتب الادب حول الادب . الموهبة دائما مفضلة . ولكن بعيدا عن هذه الموهبة التي قد تتوفر لنا أو لا تتوفر .. من أي شيء يتولد كتاب الا بالصبر . وبالانتباه والاحتمال الذي يعتبر أهم هذه المشاعر وأفضلها » .

وتقول « قرأت كل ما قدمته المكتبات الكبيرة من مختلف انواع الكتب التي كان ابي يمتلكها . قرأت اعدادا غفيرة من الروايات والكتب الجديدة . المهم أن اقرأ فقد كنت وحيدة وكانت الكتب ملجئي » .

وتقول ان الفلسفة هي الحقيقة الوحيدة الموجودة في الكون بعد الموت .. وان الفلسفة قد علمتها كيف تؤمن بالله بنفس الدرجة التي فعلتها الكتب السماوية وانها تجعلها تتوه في متاهات مثلما فعل الكثير ممن قرأوا الفلسفة .

وعن السياسة تقول انه يجب على الانسان ان يكون نقيا وان يواجه المعاناة ويمر بها .. فهي افضل في كثير من الاحيان من السعادة .. فنحن نقرأ الصحف ليس لنبحث عن بعض الاخبار والمعلومات المتناثرة هنا أو هناك . ولكن كي يمكننا ان نبحث عن صدى لغضب جاء من مكان ما في العالم .. فحارسو المنازل يمكنهم ان يجدوا اخبارا في الصحف اكثر مما يجده المثقف او حتى الانسان العادي .

وبعد .. فان فرانسواز ماليه جوري كما تتحدث حول نفسها هي الأمل في ان تكون يوما مجموعة من الاعمال المتناثرة هنا وهناك « اسماء ومشاعر نقية تناسب في داخل كل انسان يقرأ أعمالها .. ومن هذا اللون من الاتصال نشعر بالانسان في داخل كل منا » .

محمود قاسم

كلب الشاعر !

● اصيب كلب الشاعر لورد بايرون الشاعر بالسعار فقتله الشاعر ، ثم دفنه في انقاض كنيسة قديمة ، واقام على مدفنه قاعدة من الحجر نقشت عليها الكلمات التالية :

« قرب هذه البقعة ترقد رفات ، من كانت صفاته جمالا بغير غرور ، وقوة بغير صلف ، وشجاعة بغير شراسة ، وجميع فضائل الانسان بدون نقائصه » .

اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي * وناديت قومي فاحتسبت حياتي[١]
رموني بعقم في الشباب وليتني * عقمت فلم أجزع لقول عداتي[٢]
ولدت ولما لم أجد لعرائسي * رجالا وأكفاء، وأدت بناتي[٣]
وسعت كتاب الله لفظا وغاية * وما ضقت عن آي به وعظات[٤]
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة * وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
أنا البحر في أحشائه الدر كامن * فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فياويحكم أبلى وتبلى محاسني * ومنكم ـ وان عز الدواء ـ أساتي[٥]
فلا تكلوني للزمان فانني * أخاف عليكم أن تحين وفاتي[٦]
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة * وكم عز أقوام بعز لغات[٧]
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا * فيا ليتكم تأتون بالكلمات !
أيطربكم من جانب الغرب ناعب * ينادي بوأدي في ربيع حياتي[٨]
ولو تزجرون الطير يوما علمتم * بما تحته من عثرة وشتات[٩]

(١) رجعت لنفسي : أى تأملت . والحصاة : الرأى والعقل . واحتسبت حياتي : عددتها عند الله فيما يدخر . يقول على لسان اللغة العربية : إنى عدت الى نفسي وفكرت فيها آل اليه أمرى فأسأت الظن بمقدرتي ، وكدت أصدق ما رموني به من القصور ، وناديت الناطقين بي أن ينصرون فلم أجد . لهم سميعا ، فادخرت حياتي عند الله .
(٢) العداة : الأعداء يقول : اتهموني بأن لا ألد حين أنى في ريعان شبابي . وليتني كنت كما قالوا فلا يحزنني قولهم . وكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها .
(٣) يريد « بالعرائس » : الألفاظ المجلوة الحسنة . ووأد البنت : دفنها حية .
(٤) الآى : جمع آية .
(٥) الأساة : جمع الأسى ، وهو الطبيب .
(٦) تكلوني : تتركوني . وتحين : تحل .
(٧) يقال : هو في منعة ، أى في قوم يمنعونه ويحمونه .
(٨) الناعب : المصوت بما هو مستكره . وربيع الحياة : أيام الشباب والقوة .
(٩) زجر الطير : هو أن ترمى الطائر بحصاة أو تصيح به ، فان ولاك في طيرانه ميامنه تفاءلت به خيرا ، وان

○ حافظ ابراهيم ○



(نشرت في سنة ١٩٠٣ م)

سقي الله في بطن الجزيرة أعظما * يعز عليها أن تلين قناتي[١٠]
حفظن ودادي في البلى وحفظته * لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب ، والشرق مطرق * حياء بتلك الأعظم النخرات[١١]
أرى كل يوم بالجرائد مزلقا * من القبر يدنيني بغير أناة[١٢]
وأسمع للكتاب في مصر ضجة * فأعلم أن الصائحين نعاتي[١٣]
أيهجرني قومي ـ عفا الله عنهم ـ * الى لغة لم تتصل برواة ؟[١٤]
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى * لعاب الأفاعي في مسيل فرات[١٥]
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة * مشكلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكتاب ، والجمع حافل * بسطت رجائي بعد بسط شكاتي[١٦]
فاما حياة تبعث الميت في البلى * وتنبت في تلك الرموس رفاتي[١٧]
وإمّا مماتٌ لا قيامة بعده * ممات لعمري لم يقس بممات

ولاك مياسره تطيرت منه . والعثرة : السقوط . والشتات : التفرق . يقول : لو استنبأتم الغيب بزجر الطير ، كما كان يفعل العرب ، لعلمتم ما يجر دفني عليكم من السقوط والانحلال .

(١٠) القناة : الرمح . ولينها : كناية عن الضعف . ويريد « بالأعظم » : من دفن في الجزيرة من العرب الأولين .

(١١) النخرات : البالية المتفتة .

(١٢) المزلق : مكان الانزلاق ، أي السقوط والزلل . والأناة : التأني والابطاء . ويريد وصف لغة الجرائد اذ ذاك بالضعف .

(١٣) النعاة : جمع ناع ، وهو المخبر بالموت .

(١٤) لم تتصل برواة : أي لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغيير كما هو الشأن في العربية . ويشير الى تلك اللغة المرقعة التي كانت مستعملة أيام نشر هذه القصيدة .

(١٥) اللوثة (بالضم) : عدم الابانة . ولعاب الأفاعي : سمها . والفرات : الماء العذب .

(١٦) الشكاة : الشكوى .

(١٧) تبعث الميت : تحييه . والرموس : القبور ، الواحد رمس . والرفات : كل ماتكسر وبلي ؛ يريد ما بقي من الجسد بعد الموت .

الحياة تحت الصفر

صورة مثيرة لعالم الكائنات التي تعيش في زمهرير وثلوج القطبين ؟

بقلم الدكتور صلاح بركات



تؤدي كلاب المناطق القطبية والباردة الشبيهة بالذئاب ، خدمتان لسكان تلك البلاد ، سحب وجر مركبات الجليد ، وصيد وحراسة قطعان حيوانات الرنة المؤهلة







يمتاز فيل البحر بوزنه الكبير ، اذ يزن الذكر من ٣ ـ ٤ اطنان (اعلاه)

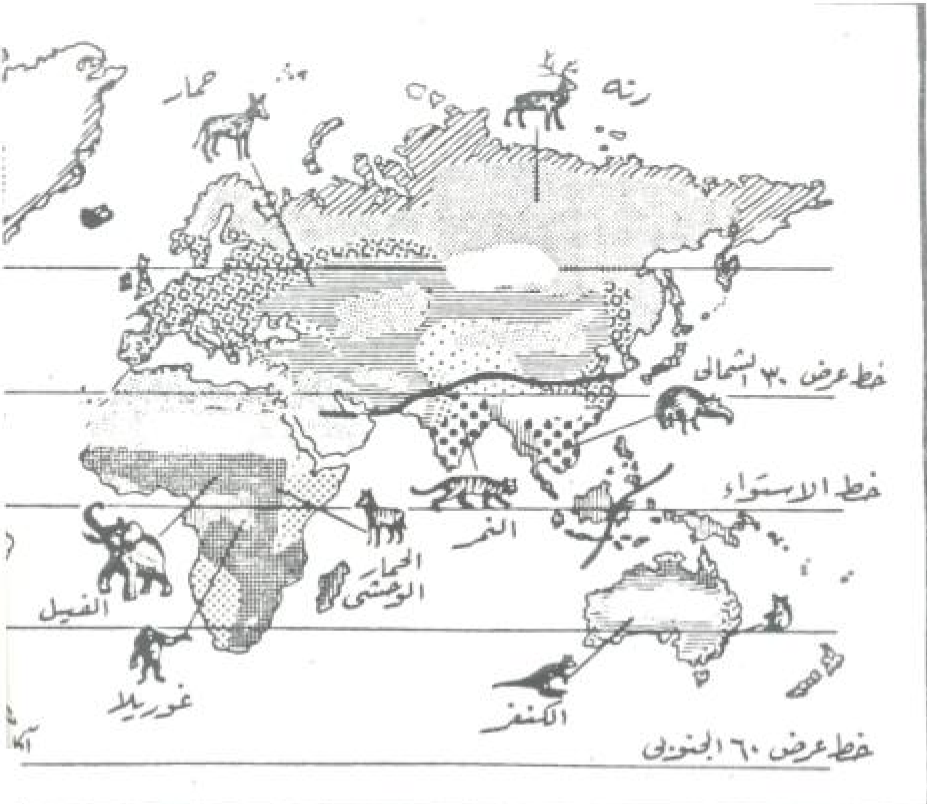
ان ذكر طير الطرسوح الآلي Adelie Manchot يفقد نصف وزنه خلال حضانة بيض أنثاه (الى اليسار أعلى)

يتمم الطرسوح الامبراطوري وقايته الفردية من البرد ، بالوقاية المشتركة مع باقي افراد نوعه وذلك عن طريق تجمعها وتراصها (الى اليسار)

كيف تمضي الحياة تحت الصفر

في تلك الصحاري البيضاء ، التي تصل درجة الحرارة فيها الى ٤٠ تحت الصفر ، كما في القطب الجنوبي ، يتجدد تكوين قسم من غطائها الجليدي مع بداية « كل شتاء ، بعد أن يذوب قسم منها بحرارة الصيف ، فعندما تصل درجة حرارة سطح مياه البحر الى ٢ تحت الصفر ، نجد أن أقراصا من الجليد المهدبة الأطراف تنتشر ببطء على سطح البحر ، هذه القطع الجليدية الصغيرة الشاحبة اللون والشفافة ، تلتحم مع بعضها البعض بواسطة دفع الأمواج لها لتشكل مساحات كبيرة متصلة من الجليد . وذلك ما يسمى بالطوف الجليدي ، وللعواصف القدرة على أن تهدم ما بنته الأمواج وتفكك تلك الأطواف الجليدية من جديد ، وتجعلها ركاما هائلا من الجليد مشكلة بذلك جبالا جليدية يتغمر قسم كبير منها داخل مياه البحر .

هذه أهم حوادث تلك الممالك البيضاء ، والتي يتربع على عرشها الدب الأبيض بدون منازع ، وهناك حيوانات أخرى تتواجد معه في تلك الديار كالطيور البحرية (البطريق والطرسوح ...) وأسد البحر ، والفقمة ... هذه الحيوانات متأقلمة ومعتادة على تحمل درجة حرارة تلك المناطق والمياه الباردة ، والمعروف عن الانسان بأنه لا يتحمل المياه البادرة ، فقد وجد أن أكثر من ٥٠٪ من الأشخاص العارين من الثياب لا يستطيعون البقاء أكثر من (٤) ساعات في مياه حرارتها ١٨ درجة مئوية . وتأثير المياه الباردة على جسم الانسان سريع ، اذ تعمل على خفض حرارته الداخلية بصورة كبيرة ، بحيث لا يستطيع الجسم أن يحافظ على درجة حرارته الداخلية ورفعها الى الدرجة الطبيعية القريبة من ٣٧°م . بالرغم من وجود جهاز لتنظيم الحرارة لديه كباقي

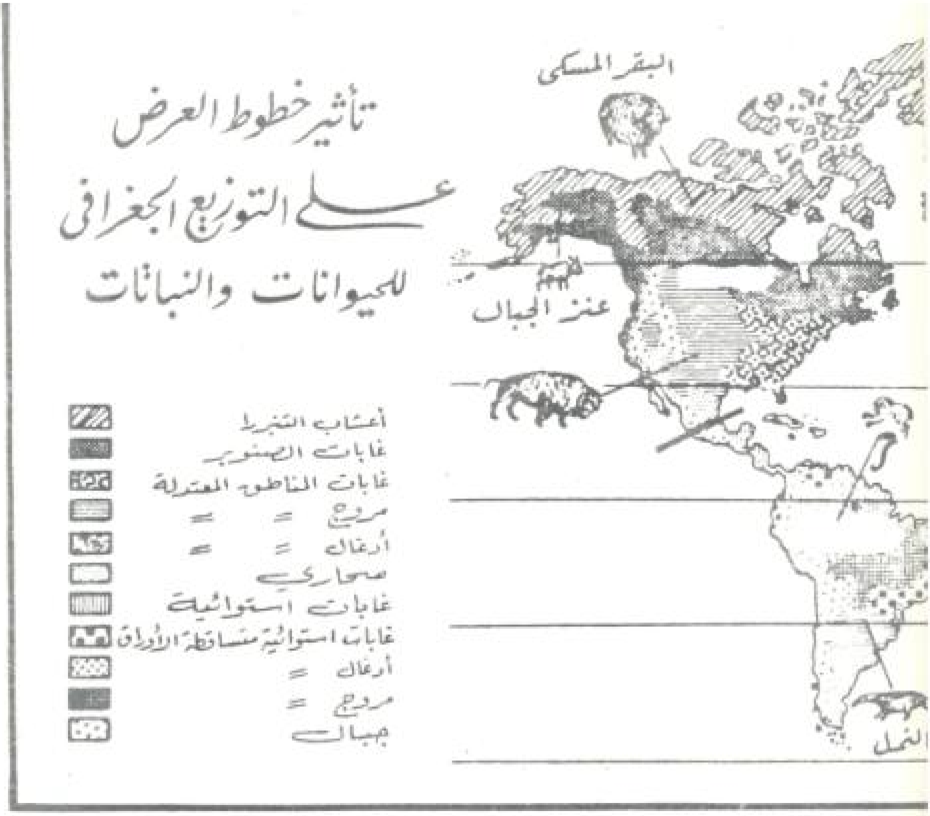


الحيوانات الثديية . هذا التنظيم الحراري يعتمد على آليات انتاج الحرارة وفقدانها من قبل الجسم . فانخفاض درجة حرارة الجسم يؤدي به الى الوفاة ، بعد المرور بحالة الغيبوبة وفقدان الاحساس .

حيوانات المنطقة الباردة

ان الحيوانات القاطنة للمناطق الباردة تملك طرقا تؤهلها لتحمل درجات الحرارة المنخفضة ، وتجعلها قادرة على العيش في هذه الأوساط الصعبة . هذه الحيوانات تمضي شطرا كبيرا من حياتها (الفقمة ، أسد وفيل البحر ...) أو حتى كامل حياتها كما في حالة الحيتان ، في وسط مائي نادرا ما تتعدى حرارته الصفر المئوي . واضافة لذلك فان التوصيل الحراري للماء أعلى بعشرين مرة منه بالهواء . فمثلا طائر الطرسوح الامبراطوري يتحمل خلال وجوده على سطح البر ، داخل مستعمراته التكاثرية والمنتشرة بشكل واسع في القطب الجنوبي انخفاض درجة الحرارة الى ٤٠ تحت الصفر ، والتي تنقص عن ذلك بعض الأحيان ، والأشد من ذلك تلك العواصف الثلجية ذات القدرة الهائلة على التبريد والتجميد ، كما أن الدب الأبيض والبقر المسكي يتحملان درجات مشابهة .

● الدب الأبيض ، يتواجد هذا الحيوان على الأطراف الجليدية بشكل عام وعلى مدار الفصول ، وهو يجيد السباحة ، كما يجيد العدو السريع على اليابسة ، تعمل الاناث خلال فترة حملها مخبأ داخل الجليد ، حيث تضع فيه حملها وهو عبارة عن اثنين من الدببة الصغيرة الذي لا يزيد وزن كل منها عادة عن كيلو جرام واحد . وخلال شهر ابريل نيسان تغادر الأم مع صغيريها المخبأ متنقلين من مكان لآخر على الجليد ، وبعض الأحيان يتمون دورة كاملة حول القطب المتجمد الجنوبي . هذا الدب يأكل كل شيء يصادفه ، من الحيتان الجانحة على الشواطىء ، والثعالب ، والطيور والأسماك وحتى الأشنيات وثمار النباتات وأوراقها ... لكن الوجبة المفضلة لديه تبقى حيوانات (عجل البحر) حيث يراقبها من لحظة خروجها من مياه البحر ، فما أن تطل برأسها إلا ويضربها ضربة قاتلة بمخالب يده القوية . ويستخدم الاسكيمو طريقة مشابهة لصيد تلك الحيوانات حيث ينتظرونها لحين أن تخرج من البحر فينهالوا عليها بخطاطيف بصورة مفاجئة . والدب



الأبيض مطلوب هو الآخر من قبل الاسكيمو لفروه ولحمه .

● عجل البحر (الفقمة) تشكل هذه الحيوانات القسم الأكبر من حيوانات زعنفية الأقدام ، هذه تتواجد عادة على القطع الجليدية وعجل القطب المتجمد الجنوبي أكبر وأثقل من مثيلاته في القطب المتجمد الشمالي ، فقد يتعدى طوله ثلاثة أمتار ووزنه ٤٠٠ كيلو جرام . ونوع الفقمة المسمى بفقمة ودبل (**Weddeii** متأقلم الى حد كبير للعيش داخل الماء ، فقد بينت الدراسات الحديثة على أن هذا الحيوان قادر على البقاء تحت الماء لمدة (١٠) دقائق ، وفي حالات أخرى خاصة تصل الى (١٣) دقيقة بعمق يصل الى ١٢٠ أو ١٤٠ مترا ، قاطعا مسافة ٤ كم يطفو بعدها على السطح لاستنشاق الهواء الجوي ، كما يتميز هذا الحيوان بقدرته على ايقاف تنفسه ، أو قطعه !! وقد فسرت هذه الظاهرة الى وجود جهاز دوران خاص عنده ، وارتفاع في معدل الميوجلوبين بالدم ، وهذا ما يعطيه القدرة على السباحة الطويلة تحت الجليد . في بداية الربيع ، يتم ولادة الصغار ، ومدة الحمل ١١ شهرا على الجليد الصلب والأنثى تضع عادة صغيرا واحدا سمينا ، اذ يبلغ وزنه ١٤٠ كغم وطوله ١٨٠ سم .

● فيل البحر : يعتبر الشكل النموذجي لحيوانات زعنفية الأقدام ، هذا الحيوان مرغوب صيده جدا من قبل الاسكيمو لدهنه ولحمه وحتى أنيابه التي يدافع بها عن نفسه ، طول الذكر ٦,٥ م والأنثى ٣,٥ م ويصل وزن الذكر بعض الأحيان الى ٣ أو ٤ أطنان وتضع الأنثى في نهاية شهر أغسطس (آب) صغيرها الوحيد والذي يبلغ طوله ١٢٠ سم .

● الذئب : يظهر بعض الأحيان ذكاء يفوق ذكاء الثعلب ، ووجوده الآن أصبح قليلا في أوربا ، بينما اعداده ما زالت وافرة في سيبيريا ، وسكاندنافيا ، هذا الحيوان اللاحم يمكن أن يأكل خلال وجبة واحدة حوالي ٦ كيلوجرامات من اللحم ومدة الحمل عند أنثاه تبلغ الشهرين ، تضع بعدها صغارها العديدة . ومدة الارضاع لها تكون ما بين ٤ الى ٦ أسابيع ، ويصل طول الذئب الى ١٤٠ سم بالاضافة الى ٣٠ سم أو ٥٠ سم طول الذنب ، وعلوه يتراوح ما بين ٨٠ و١٥٥ سم أما الوزن فيكون ما بين ٤٠ الى ٨٠ كيلوجراما ، ومدة حياته عادة لا تزيد عن ١٥ سنة .

● الطيور البحرية : هناك عدة أنواع من الطيور البحرية تتواجد في المناطق الباردة ونذكر منها : طائر

البطريق المتواجد في بحار القطب الشمالي ، وطير الطرسوح المتواجد في البحار الباردة وفي القطب المتجمد الجنوبي ويوجد منه ١٧ نوعا .

هذه الطيور غير قادرة على الطيران ، ولكنها تملك عضلات قوية تفيدها في عملية السباحة . أما أجنحتها فقد تحورت لتقوم بوظيفة الزعانف ، هذه الأجنحة عديمة القوادم (جمع قادمة وهي كل ريشة كبيرة في جناح الطير) وأصابع أقدام هذه الطيور متصلة مع بعضها البعض عن طريق غشاء يفيده في عملية السباحة أيضا ، تعيش هذه الطيور بشكل جماعات كبيرة العدد ـ مستعمرات ـ يمكن أن يصل عدد أفراد المستعمرة الواحدة الى عشرات الآلاف ، ويعتبر طير الطرسوح الأدلي أكثر الأنواع انتشارا ويتقاسم زوجا هذا النوع حضانة البيوض . فالأنثى تحضنها الخمسة عشر يوما الأولى ، تعود بعد ذلك الى البحر للبحث عن غذائها ، وتترك عناية هذه البيوض للذكر ، الذي يتمها الى حين التفقيس ، هذه الفترة تطول لمدة ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلا ، وطوال هذه الفترة يبقى الذكر من دون طعام ـ صائما ـ ولذلك فانه يفقد نصف وزنه ، والفرخة لا تسعه حينما يأتي دوره لتناول غذائه المؤلف من الحيوانات البحرية كالقريدس والحيوانات القشرية الأخرى ، طيور الطرسوح هذه تقضي أكثر من ثلثي وقتها في مياه البحار بحثا عن الغذاء ، ولا تقطن اليابسة إلا حين تغيير ريشها وللتزاوج وحضانة البيوض .

أما النباتات الأكثر وجودا في هذه المناطق هي النباتات الأولية أو البدائية من حزازيات وطحالب .. لكونها مقاومة أكثر للبرودة من غيرها ، حيث تنشط خلال فترة الصيف القصير لتنتشر في أماكن جديدة ، وتبدي الأنواع النباتية نوعا من التأقلم مع هذه البيئة ، حيث نراها قد تجمعت في المناطق والأماكن الأقل تعرضا للرياح والبرد القارس واتخذت أشكالا زاحفة لتهرب من تأثير الرياح ، والأشجار المعروفة بارتفاعها قد تقزمت وأصبحت شجيرات صغيرة ، وهذه النباتات تزهر مع بوادر الصيف الدافيء ، وقد وجد أن الحزازيات تستطيع مقاومة البرودة العالية (٧٥ تحت الصفر) لعدة أيام .

خط العرض وتأثيره

ان القرب والابتعاد عن خط الاستواء يعمل على تغيير درجة الحرارة وعلى طول الفترة الضوئية اليومية ، ومعدلاتها الشهرية . فتركيب حيوانات ونباتات منطقة معينة يتغير بشكل أساسي بحسب موقعها من خطوط العرض ، وهذا يرجع الى اختلاف قدرتها على تحمل درجات الحرارة المنخفضة . فهناك أنواع من الحيوانات تتواجد في منطقة معينة ، ومحدودة داخل خطوط عرض قليلة وذلك بسبب قدرتها المحدودة على تحمل درجات الحرارة المنخفضة ، فالزواحف مثلا لا تتواجد في المناطق الباردة (خطوط العرض العليا) وحتى في قسم كبير من المناطق شبه المعتدلة . أما في حالة العصافير والثدييات فلأنها تستطيع المحافظة على درجة حرارتها الداخلية ، نجدها تتواجد وتعيش حتى بالمناطق القطبية ، هذه الأنواع الموجودة في المناطق الباردة تتصف بكبر الحجم ، وبلون كاشف أكثر من الأنواع المماثلة لها ، والموجودة في المناطق المدارية أو القريبة من خط الاستواء ، كما تتصف هذه الحيوانات بقصر أطرافها بالمقارنة مع حيوانات المنطقة الحارة .

هذه العلاقة المباشرة ما بين حجم الجسم وخط العرض (البعد والقرب من خط الاستواء) يشكل بالواقع نوعا من التأقلم مع درجات الحرارة المنخفضة ، فعندما يكبر الحجم فان نسبة حجم الجسم الى سطحه تقل ، وهذا يؤدي الى انخفاض فقدان الحرارة عن طريق الاشعاع من الجسم ، هذه الظاهرة دعيت بقانون السطح . كما وجد ان عمليات التمثيل الغذائي أو الاستقلاب (تحليل الأغذية للاستفادة من الطاقة الناتجة ، لتكوين مواد جديدة ضرورية لجسم الكائن أي عمليات الهدم والتركيب) تكبر مع وحدة الوزن ـ الجرام مثلا ـ كلما كان الحيوان صغيرا وذلك حينما تتناقص درجة حرارة البيئة الموجود فيها ، وعمليات الاستقلاب هذه تزداد مع ازدياد تناقص درجة الحرارة سواء للثدييات أو للطيور ، وبين العالمان روبنر **Ribner** وريشه **Richet** بأن عمليات الاستقلاب تكون أقل تغيرا مع سطح الكائن (الجسم) منه مع الوزن له ، ويلاحظ من الجدول (١) بأن عمليات الاستقلاب متساوية لكلا الفأر الأبيض والارنب والكلب (٨٧٠ حريرة) رغم كون أوزانها متباينة جدا (٢٤ ج و ٢ ـ ٣ كغ و ٥ كغ على الترتيب) ، ونجد بأن عمليات الاستقلاب متساوية تقريبا لكلا طيري السنونو والديك الرومي (١٦٢٢ و ١٦٨٠) رغم أن الطير الثاني ـ الديك الرومي ـ يساوي ٤١٦ مرة ضعف وزن طير السنونو (١٢ ج ـ و ٥٠٠٠ ج) هذا ما يعطيه الجدول (٢) ، ومن مقارنة مثالين من الجدولين السابقين مماثلي الوزن كالكلب والديك الرومي (٥٠٠٠ ج) ، ونجد بأن عمليات الاستقلاب تكون أكبر عند الطيور منها عند الثدييات وتصل الى الضعف في حالة المثال السابق تقريبا .

اسم الحيوان	الوزن	عدد الحريرات (كالوري)	
		كجم/ساعة	م٢/٢٤ ساعة
الفأر العادي	١٩ ـ ٥٧ غ	٤. ـ ٧٥٤	.طد ـ ٥٤٥
الفأر الابيض	٢٤٠ غ	—	٨٧٠
الجرذ ـ الخلد	٢٣٤ غ	٥,٠٣	٦٤٠
خنزير الهند	٤٠٠ ـ ٧٠٠ غ	٣,٩	٨٨٨
القنفذ	٨٨٥ غ	٢,٢٤	٦٩٣
الأرنب	٢ ـ ٣ كغ	٣,٤	٨٦٨
الكلب	٥ كغ	٢,٣٩	٨٦٨
العنز	٣٦ كغ	٥,٨	٧٠٠
الشمبانزي	٤٨ كغ	١,٦٤	٩٨٠
الخنزير	-	-	١٠٣٦
الانسان	٦٥ كغ	١,٠٠	٩٠٠
البقر	٦٠٠ كغ	٠,٥٠	٩٦٤
الفيل	٣٧٠٠ كغ	٠,٥٤	٢٠٦٠

جدول (١) مقارنة لعمليات الاستقلاب لوحدة الوزن (كجم/ساعة) ولوحدة السطح م٢/٢٤ ساعة) ما بين حيوانات ثدية مختلفة

دعي قانون السطح بقانون بركمان ، وعلى أساس قانون بركمان هذا ، يمكن تعليل تعدد وجود أنواع من الطير البحري المسمى بالطرسوح بأماكن مختلفة الحرارة من + ٢٨ الى ـ ٤٠ م . فالطرسوح الملكي يصل طوله ٩٠ سم ووزنه ٢٠ كغ) ، يتواجد فقط أو بالأحرى يستطيع العيش حتى خطوط عرض ٥٥ جنوب الكرة الأرضية ، وطرسوح ماجلان طوله ٦٠ سم ، الذي يتواجد حتى خط العرض ٥٢ جنوب الكرة الارضية أيضا . أما طرسوح أدلي فيكون عادة على شواطىء الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية ، أي بخطوط عرض أقل من السابق . وأما النوع الأخير المسمى بالطرسوح الامبراطوري ـ طوله ١١٠ سم ووزنه ٣٥ كغ ـ فانه يعيش في خطوط عرض عليا (٦٠ مثلا) وعلى جليد القطب الجنوبي أيضا .

وخلاصة القول أنه كلما كان حجم طائر الطرسوح كبيرا ، كلما اقترب وجوده من المناطق الباردة والقطبية وذلك لازدياد قدرته على تحمل البرودة ، ويعود ذلك لانخفاض فقدان الحرارة عن طريق الاشعاع .

لوحظ أمر آخر في عملية تأقلم الحيوانات مع البرودة وهو أن أطراف الحيوانات تكون أقصر من مثيلاتها في المناطق المدارية ، والصور تبين لنا أن أطراف ثعلب القطب الشمالي وخاصة أذنيه قصيرتين جدا بالمقارنة مع نظيره ثعلب المناطق المدارية ، وان قصر الأطراف والآذان لحيوانات المناطق الباردة يجعلها تقتصد في استهلاك الحرارة . ودعيت هذه الظاهرة بقانون آلان والأمر الأخير في عملية التأقلم مع البرودة يتضح من ملاحظة ألوان الأنواع الموجودة في المناطق المدارية أو الاستوائية ، وألوان المناطق الباردة ، فاننا نجد أن حيوانات المناطق الأولى تتميز بلون داكن أكثر من الحيوانات القاطنة في المناطق الباردة (قانون كلوجير) وأرجع بعض العلماء تفسير هذه الظاهرة الى أن اللون القاتم يقوم بدورحماية للجسم ضد الأشعة فوق البنفسجية العالية الشدة في المناطق المدارية أو الاستوائية ، اذ يعمل على امتصاص وتقليل كمية الأشعة الواصلة الى جلد الحيوان . هذه الحماية ليست ضرورية في المناطق الباردة ، بسبب انخفاض شدة هذه الأشعة ، بل على العكس فان أجسام الحيوانات تحتاج اليها لتكوين بعض الفيتامينات وخاصة فيتامين D الضروري لبناء العظام والأسنان .

لكل حيوان وسائله

لا شك بأن حيوانات المنطقة الباردة قد سعت منذ وقت طويل للتأقلم مع هذا المناخ ، وهديت من قبل الرحمن الى طرق وآليات لمقاومة البرودة ، نجد أن تلك الحيوانات تميزت بكثافة فروها وريشها ، وارتفاع مخزونها من الدهون ، وبآليات مختلفة سواء مختصة بالفرد الواحد أو مشتركة ما بين مجموع الأفراد ، هذه الحيوانات

بالاضافة الى صفاتها ، فانها تفتش على أماكن مناسبة لها ، وتهجر الأماكن الكثيرة التعرض للرياح ، والحيوانات الصغيرة الحجم تحفر أنفاقا داخل الأرض ، عميقة بعض الشيء ، تستقر فيها هي وصغارها ، وهذه الجحور تؤمن لها الحماية من الرياح والعواصف ، كما ان درجة الحرارة تكون أكثر انتظاما وأكثر ارتفاعا من تلك التي في الوسط المحيط ـ الهواء ـ هذه الحرارة المرتفعة نسبيا تكون ضرورية لنمو الصغار في أيامها الأولى ، ولا شك بأن هذه الحيوانات تفضل أن تكون في الأماكن القريبة من المياه لتؤمن حاجتها من الغذاء طوال الفصول .

إن حيوانات هذه المناطق تتصف بدرجة حرارة داخلية تتراوح ما بين ٣٥ الى ٤٠م° وتحافظ على هذا المستوى بواسطة آليات معقدة ، وللمحافظة على الحرارة الداخلية ، فان عملية العزل الحراري عن الجو والوسط المحيط ـ الهواء والماء وغيره ـ تتم بصورة مختلفة ، بواسطة تغطية جلد الحيوان بالفرو الكثيف أو بالريش ... هذه التغطية تشكل حاجزا يخفف من تسرب الحرارة من الجسم ، كما يشكل عازلا ما بين الجسم والوسط المحيط وهذا العزل يزداد بعملية نفش الريش أو الشعر لاحتباس كمية أكبر من الهواء داخل الريش أو الفرو .

إن الدهن المتراكم تحت سطح الجلد يشكل عازلا ثانيا تصل سماكته العظمى في بداية الشتاء ، وسماكة طبقة الدهن تبقى كبيرة على مدار الفصول عند حيوانات زعنفية الأقدام (عجل البحر ـ فيل البحر) والحوتيات ولأن هذه الحيوانات تظل بشكل مستمر داخل المياه الباردة والمتجمدة .

والملاحظة الثالثة في عملية العزل ، تتم عن طريق تميز الحيوانات في المناطق الباردة بقصر الأطراف والآذان ... وزيادة الوزن كما مر معنا . وطائر الطرسوح يتقي العواصف حينما يكون على اليابسة بصورة فريدة ، اذ يضع أطراف أجنحته على بطنه ثم يعمل على ادخال رأسه ما بين كتفيه ، ويغطي أقدامه بالقسم السفلي من بطنه ويتمدد على الأرض خلف صخرة أو قطعة من الجليد ، ويترك نفسه يتغطى بالثلج ، هذه الطريقة يجدها أفضل من أن يأوي الى جحر يقيه مثل باقي الحيوانات ... وعند بعض حيوانات المناطق الباردة أجهزة خاصة لدوران الدم متميزة عن غيرها من الحيوانات ، وأجهزة التحكم والسيطرة على الاستهلاك الحراري منتظم ودقيق ، وتتم على مستوى كل عضو من أعضائه ، فقد لوحظ نتيجة التشريح لجسم طير الطرسوح أن شريان ووريد نفس العضو ملتصقين مع بعضيهما البعض ، بحيث أن الدم المار في الشريان (الساخن) والآتي من داخل الجسم يعمل على تسخين دم الوريد البارد ، والعائد من الأطراف الباردة ، ولوحظ أيضا أن الدم يشكل شبكة تتوسط الشريان ، وهذا يؤدي الى كبر حجم جهاز الدوران واتساعه ، مما يعمل على زيادة عمليات الاستقلاب ، وحرق السكريات لرفع الانتاج الحراري للجسم ، وتوفير ما يلزمه من الحرارة ، والمعروف عن حيوانات المناطق الباردة أنها من أكبر الحيوانات المنتجة للحرارة .

اسم الطير	الوزن ـ غ	عدد الحريرات (كاوري)	
		كجم/٢٤ ساعة	م٢/٢٤ ساعة
الحسون	١٢	٤٨٠	١٤٨٥
السنونو	١٨	٤٥٠	١٦٢٢
العصفور الدوري	٣٠	٣٥٣	١٢٧٤
طائر السماني	٩٧	٢٣٤	١١٤٠
سقاوة (طير جارح)	١٣٥	١٢٥	٧٦٤
البط	١٩٢٠	٨٤	١٠٤٧
العقاب	٣٠٠٠	٣٤	٦٣٥
الدجاج	٢٧٠٠	٦٤	١٢٣٠
الوز	٣٣٠٠	٦٦	١١٣٧
الديك الرومي	٥٠٠٠	٥١	١٦٨٠
الحمام	٣٥٣	١٤١	٩٩٥
البوم	١٤٥٠	٧٤	٨٤٣
مالك الحزين	١٩٣٠	٨٤	١٠٤٥

جدول (٢) مقارنة لعمليات الاستقلاب لوحدة الوزن (كجم/٢٤ ساعة) و لوحدة السطح (م٢/٢٤ ساعة) لأنواع مختلفة من الطيور

ومن خلال التجارب والدراسات تبين ان أقدام ثعلب القطب الشمالي وحيوانات الرنة وطيور الطرسوح وزمج الماء (طير طويل الريش يطير فوق سطح مياه البحار) .. درجة حرارتها خلال أشهر الشتاء تكون قريبة من الصفر المئوي ، أما حرارة باقي الجسم فتكون أعلى من ٣٥م° ، ويبدو أن أجهزة تنظيم الحرارة تلعب دورين : ففي خلال الأيام الجيدة الدفء من أيام الصيف ، تجد أن أقدام تلك الحيوانات تكون بدرجة حرارة مماثلة للجسم ، وأما في الأيام الباردة فاننا تجد حرارتها قريبة من الصفر المئوي مختلفة بذلك عن حرارة الجسم ، ويؤمن الحيوان رفع انتاج الحرارة لديه عن اسراع نظام التنفس للحصول على كميات أكبر من الأوكسجين اللازم لرفع عمليات احراق السكريات وعمليات الاستقلاب ، ويكمل طائر الطرسوح الامبراطوري وقايته الخاصة من البرد بالالتصاق والالتحام مع غيره من الأفراد ، محققا بذلك مناخا صغيرا يفيده في الاستفادة من حرارة الأفراد الآخرين ، وعزل قسم كبير من جسمه عن الجو المحيط ، وهذه الحماية المشتركة تسمح له باقتصاد كبير للحرارة والدهون ، وتفيد هذه الطريقة في حماية الأفراد الضعيفة ومساعدتها على البقاء والعيش .

أبحاث جديدة

أجرى فريق فرنسي من الباحثين تجارب على طير الطرسوح الملكي بجزر كروزيت عامي ١٩٧٧ ـ و ١٩٧٨ للوصول الى معرفة كيفية تأقلم صغار طير الطرسوح التي لم تدخل تلك المياه الباردة بعد ، مع حياتها الجديدة في الماء ذات (٥ م) وهل هذا التأقلم ناتج عن صفات وراثية أم أنه مكتسب من خلال مراحل النمو وسط تلك البيئة ؟

للاجابة على هذا السؤال وهذه الاستفسارات ، فقد اصطنع فريق البحاثة هذا حوضا مغلقا لدراسة مراحل تأقلم طير الطرسوح الصغير مع العيش بالماء البارد ، وثبتت درجة حرارة ماء الحوض ما بين ٧ و ٨ م° ، وكانت مدة وضع الطير بالماء هي ٥ ساعات لكل ٤ أيام ، هذا الحوض غطيت فتحته بغطاء وضعت فيه كمامة للتنفس ، لمد الطير بالهواء الجوي اللازم ، قيست عمليات الاستقلاب عن طريق تقدير استهلاك الأوكسجين ، وانتاج غاز الفحم .

بينت تلك التجارب ، بأن فقدان الحرارة كان كبيرا في المراحل الأولى من نزول طير الطرسوح الصغير الى الماء ، وخاصة عندما انخفضت درجة حرارة المياه الى أقل من ١٦ م ، وضعفت قدرته ، بل عجزت عن ايجاد توازن ما بين حرارته الداخلية وحرارة الوسط المليء ، لكن مع استمرار وجوده بالماء فان هذا الانخفاض والخلل في التنظيم الحراري بدأ بالتراجع ، وبدأت حرارة الجسم بالصعود والاقتراب من الدرجة الطبيعية له ، بعد شهرين من الوجود بالماء فان الطرسوح قد تأقلم بصورة كبيرة مع العيش بالماء ، وامتلك السيطرة التامة على تنظيم حرارته الداخلية ، وأوجد القدرة على التوازن ما بينها وبين حرارة الوسط المائي المحيط ، هذا التوازن أدى الى انخفاض درجة حرارة جلده ، وأصبح الفرق بينها وبين درجة حرارة جسمه الداخلية ٦ م وازداد هذا الفرق بشكل تدريجي مع ازدياد تأقلمه مع العيش بالماء البارد الى أن وصل الى ٣٠ م ، هذا الفرق الواسع ما بين الدرجتين ، يؤمن للطرسوح العزل اللازم أثناء وجوده بالماء للحفاظ على حرارته الداخلية وهي ٣٨٫٩ م ، وعلينا أن نشير بأن لون ظهر الطرسوح الداكن يعمل على امتصاص جزء من الطاقة الشمسية والتي تسمح له بخفض عملياته الاستقلابية من ٢٠ الى ٣٠٪ .

ومما تقدم يمكن أن نستنتج بأن الطير يمر بثلاثة مراحل : مرحلة التوازن الأولية ويحققها الطير الصغير ما دامت درجةحرارة الماء لم تنخفض عن ٣٠ م وهذه الدرجة اعتبرت بالدرجة الحيادية ، وحين انخفاض حرارة المياه عنها ، فان الطرسوح يبدأ بمرحلة التوليد الحراري ، ليتمكن من تحقيق التوازن ما بين حرارته الداخلية وحرارة المياه ، تلي هذه المرحلة ، مرحلة اعادة التوازن وامتلاك القدرة على تنظيم حرارته الداخلية .

وهكذا فان المحافظة على الحرارة الداخلية للكائن وسط المياه الباردة مسألة حياة أو موت ، وتتدخل في عملية التأقلم آليات فيزيولوجية ، وهذه تعطي القدرة للكائن على التواجد في البيئات الباردة ، وهذه نفسها ـ الآليات ـ تحدد وجود وتوزع الكائنات على سطح الأرض ، ويلاحظ أن هذه الكائنات لا تستطيع أن تتعدى حدود ما وفرته لها خصائصها الفيزيولوجية ، بمعنى آخر ، أن لكل بيئة حيوانات ونباتات معينة ، لأن لهذه الكائنات القدرة على العيش في تلك الأماكن .

ولا شك بأن هناك زوارا لتلك البيئات بالاضافة لقاطنيها ، فحيوانات القطبين تزداد مع قدوم فصل الصيف ، والدبيب يزداد على ثلوجها وجليدها ... وما أن يبدأ زحف فصل الشتاء بثلجه ورياحه الباردة حتى يبدأ الزوار بالرحيل ، ويبدأ الشفق القطبي بالاستقرار ويخيم صمت مرعب تقطعه بين الآونة والأخرى أصوات العواصف والرياح .

د . صلاح بركات

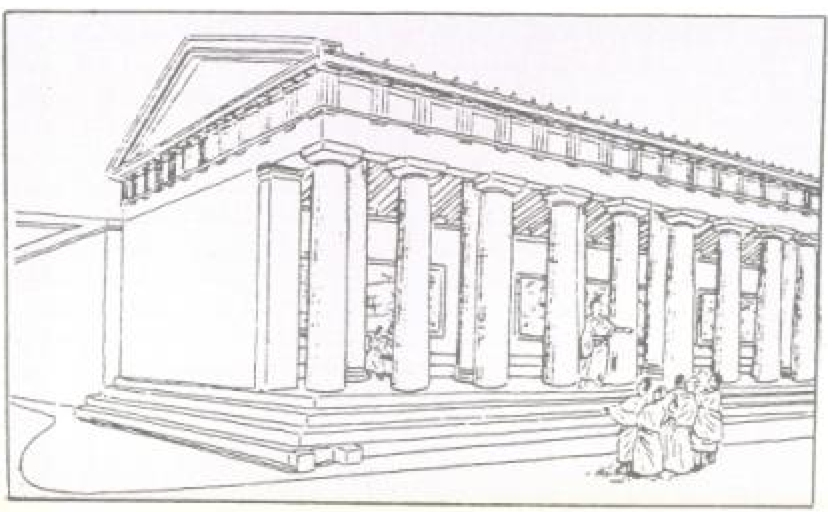
الرواق والرواقية

لعل الآثار اليونانية في أثينا ، والاكربولس المطل عليها ، في طليعة المواقع الأثرية العالمية أهمية ورونقا .. ولعلها من أقل تلك المواقع حاجة لمزيد من اعمال التنقيب .. فقد شهدت من هذه الاعمال في الماضي ما ضمن الكشف عن معالمها التاريخية الهامة ... كلها او معظمها .... وبات الأمل ضعيفا في ان تؤدي اعمال تنقيب جديدة الى اي اكتشاف ذي بال ...

هذا ما كان يعتقده علماء الآثار حتى الامس القريب .. حين بدأت بالظهور نتائج اعمال التنقيب التي بدأها فريق من علماء الآثار اليونان والامريكيين قبل ربع قرن على وجه التقريب اذ تشير الدلائل الى ان تلك الاعمال التي تجري في قلب العاصمة اليونانية نفسها ستكشف عما قريب عن صرح من صروح اثينا هام خطير .. هو القاعة المصبوغة **stoa poikile** **painted stoa** وتعزى اهمية هذه القاعة الى كونها مهد الديمقراطية الاول .. المبنى الذي جمع بين طبقات اثينا كلهم ، بما في ذلك العبيد .. ليناقشوا ما يهمهم من شؤون .. ويتخذوا ما يناسبهم من قرارات .. اضف الى ذلك انها اول الصروح التي بنتها اثينا سنة ٤٦٠ق.م. ، في اعقاب الغزو الفارسي لها ، وفي غضون عشرين سنة من الدمار الذي خلفه ذلك الغزو فيها .

هذا وكانت هذه القاعة المصبوغة واحدة من ست قاعات شبيهة اقيمت كلها في (الأجورا) ، ميدان أثينا الاجتماعي والتجاري .. وقد بناها أهل اثينا بالحجارة الكلسية .. وجعلوا واجهتها فقط مفتوحة ، تتخللها الاعمدة الاغريقية الكلاسيكية ، تاركين جوانب القاعة الثلاثة الاخرى مغلقة .

اما تسميتها بالقاعة المصبوغة فمردها الى ان جدرانها مزينة بلوحات فنية ملونة تبين معارك تاريخية او اسطورية .. وهكذا اصبحت القاعة المصبوغة مع الايام متحفا للفنون الجميلة .. ومتحفا حربيا وآية من آيات الفن المعماري ... فضلا عن كونها منبرا حرا يجتمع فيه الناس على اختلاف طبقاتهم ويتبادلون الآراء بما فيه صالح مدينتهم ...



إعداد : يوسف زعبلاوي

ومن طريف ما يذكر ان زينون (zeno) مؤسس المدرسة الرواقية اتخذ من هذه القاعة مدرسة له جمع فيها طلابه وراح يدرسهم فلسفته وقوامها ان الشيء الوحيد المهم في هذه الحياة انما هو الفضيلة والعقل المتزن .. حتى العواطف تتضاءل اهميتها بالمقارنة ، بحيث ينبغي للعقلاء تجاهلها وانكارها .. وما كانت هذه الفلسفة الخلقية لتسمى بالرواقية لولا ان اتخذ زينون القاعة المصبوغة ، أو ان شئت الرواق المصبوغ ، مدرسة له ومقرا لتدريس فلسفته .

❋❋❋

الماء ، عوضا عن المنتجات البترولية لتزييت السيارات والمصانع وتشحيمها

من المعروف أن الوسائل الهيدروليكية هي عرق الحياة النابض في المصانع على اختلافها ، وفي آلات التعدين ، فضلا عن السيارات وسائر وسائط النقل الاخرى .. ومن المعروف أيضا ان استهلاك هذه السوائل يبلغ عدة مئات من ملايين الجالونات سنويا .. بقي أن نذكر أن البترول هو الخامة التي تصنع منها هذه السوائل كلها ، او على اقل تقدير ٩٠٪ منها ..



من عجائب الدنيا اللالكترونية

أجهزة جمع وتركيب الأنغام الموسيقية ، وهي أجهزة الكترونية كما لا يخفى ، ليست جديدة . فقد ظهرت قبل حوالي ١٨ سنة .. الا انها كانت كبيرة الحجم عملاقة .. بحجم الغرفة ، وبالغة التعقيد ، وباهظة التكاليف ...

على أن تلك الاجهزة كانت موضع تطوير وتعديل جذري في المدة الماضية حتى أمكن اخراجها بصيغة جديدة تختلف اختلافا كليا عن صيغتها الأولى ..

فآلة اليوم صغيرة الحجم .. (٥×٢×١٢ بوصة) كما ترى في الصورة .. وهي تفوق شقيقتها الكبرى قوة وتنسيقا بحيث اصبحت متعددة الاصوات والانغام Polyphonic بمعنى انها تستطيع عزف مجموعات من الألحان المتناغمة في آن معا .

أضف الى ذلك أن الآلة الجديدة تستطيع محاكاة اصوات الآلات الموسيقية جميعا .. بما في ذلك القيثارة والأرغن والبوق النحاسي الكثير الالتواء .. (التوبا ـ tuba) فأصوات هذه الآلات غريبة .. يصعب كثيرا تقليدها ...

وفي استطاعة الآلة ايضا إحداث أصوات أخرى غير موسيقية .. كصوت العواصف الرعدية مثلا وصوت أمواج البحر العاتية .. وغير ذلك مما يحتاج اليه المخرجون العاملون في الاذاعة والتلفاز .

على ان الآلة معدة في المقام الاول وقبل كل شيء لعشاق الموسيقى سماعا او عزفا .. الهواة منهم والمحترفين .

هذا ويمكن وصل هذه الآلة بجهاز ستريو أو ما إلى ذلك .. وهي مزودة بكراس تعليمات للمبتدئين .

لذا كان نبأ استبدال الماء بالبترول ، خاصة هذه السوائل نبأ هاما وخطيرا للغاية ..

ويعود الفضل في هذا الانجاز الى شركات اوروبية تعمل في امريكا .. فقد نجحت هذه في تطوير طائفة من السوائل الهيدروليكية تستطيع القيام بمهمة الزيوت والشحوم التقليدية على أكمل وجه ممكن .. بالرغم من ان قوام هذه السوائل هو الماء ...

على أن الماء ليس خامتها الوحيدة .. فهو يحتوي على بعض المواد الكيماوية العادية بمقادير محدودة .. تكفل للماء الحصول على الخواص الثلاث المطلوبة .. خاصة اللزوجة الفائقة ، وخاصة مقاومة التآكل .. وخاصة التشحيم .. وتضمن له ميزات اخرى تجعله البديل المفضل للزيوت والشحوم العادية ...

اذ تمتاز السوائل الهيدروليكية الجديدة في انها اقدر على احتمال الضغوط الكبيرة ... التي قد تصل الى ١٠٠٠ رطل على البوصة المربعة .. وهي مقاومة للاحتراق نظرا لان الماء هو قوامها .. ولا تسبب التلوث نظرا لقابليتها للتبخر السريع اذا ما اندلعت على الارض .. ثم انها امن وأقل خطرا من المنتجات البترولية .

ولعل أهم مزايا السوائل الجديدة رخص اثمانها . فهي لا تزيد على نصف اثمان السوائل والشحوم التقليدية وقد تهبط الى ١/١٠هذه الاثمان ... اذ يبلغ سعر الجالون الواحد منها ١,٢٠ من الدولار فقط ..

حذار النقود المزيفة



كانت مشكلة الاوراق النقدية المزيفة مشكلة صعبة للغاية .. لا سيما بالنسبة الى اصحاب المحلات التجارية الصغيرة .. واعتمد بعض هؤلاء على اجهزة تكشف ذلك الزيف بواسطة الاشعة فوق البنفسجية ، الباهظة التكاليف . واعتمد اكثرهم على العين المجردة .. وهي معرضة للخطأ ، كما هو معروف .

والظاهر أن حل هذه المشكلة أصبح قاب قوسين او أدنى .. ذلك أن احدى الشركات الصناعية في (هونغ كونغ) نجحت في تطوير الجهاز المناسب للكشف عن الزيف الذي ذكرنا .. زيف النقود الورقية .. وهو صغير الحجم ، كما نرى في الصورة ، ويعمل بواسطة المغناطيس .. مجس مغناطيسي بارز عند القاعدة .. ومن شأن هذا المجس ، المتصل بجهاز الكتروني في الداخل .. والذي جعلوه تحت القاعدة ليلامس الاوراق النقدية المراد فحصها .. من شأنه ان يتسبب باضاءة لمبة صغيرة تظهر في أعلى الجهاز .. هذا اذا كانت النقود أصيلة .. أما اذا كانت مزيفة فلا تضيء اللمبة ، بل تبقى مطفأة .

على ان عمل هذا الجهاز محدود بنقود ورقية معينه .... هي الألمانية والانجليزية والاسترالية .. وكذلك نقود الولايات المتحدة الامريكية .. السبب : وجود قطع معدنية صغيرة في الحبر المستعمل في طباعة هذه النقود .



موئيز كوهين
يهودي عثماني من قادة الطورانية

بقلم الدكتور : محمد حرب

هذا الرجل ـ موئيز كوهين ـ لعب دورا مريبا في تفكير تركيا الكمالية . .

يقول نيازي بركس الاستاذ بجامعة ماكجل بكندا ، في كتابه « المعاصرة في تركيا » : « ان لليهود الاوروبيين واليهود المحليين (في الدولة العثمانية) في القرنين التاسع عشر والعشرين دورا ضخما في ارساء تيار القومية الطورانية . فالعلماء اليهود في الغرب مثل ليومل دافيد وليون كاهون وارمينيوس فامبري ، تصدروا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية . كما ان اليهود المحليين (في الدولة العثمانية) مثل كراسو (قراصو) ، وموئيز كوهين ، وابراهام غالانتي ، كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي . وبمجرد ان نجحت هذه الجمعية (في الاطاحة بحكم عبدالحميد ومن ثم في الاستيلاء على السلطة) تقدم الصهاينة الى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطنا قوميا لليهود . . »

ومن بين الذين اورد نيازي بركس أسماءهم شخصية يهودية هامة هو موئيز كوهين ، ولخطورة دور هذا اليهودي الذي وصفه ريتيه بيتو بقوله :

١ ـ ان موئيز كوهين هو خالق الفكرة القومية الطورانية في الدولة العثمانية .

٢ ـ إن كتاب موئيز كوهين « توران » هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية .

والجدير بالذكر هنا ان سيرونستون تشرشل كتب في مذكراته عن الحرب العالمية الاولى يقول ان مرجعه الوحيد في دراسة موقف الدولة العثمانية ومعرفته هو كتاب موئيز كوهين الذي نشره عام ١٩١٤ بعنوان Turkizmus und Panturkizmus

وصلت جمعية الاتحاد والترقي الى سدة الحكم ، فلفت

السلطان عبدالحميد الى مدينة سلانيك ذات الطابع اليهودي ، وامعانا في اذلاله ـ وهو المانع للهجرة اليهودية الى فلسطين ـ سجنته في قصر يملكه يهودي وهو الاتيني . ويقع المقر العام للجمعية في هذه المدينة ، واليها استقدم الاتحاديون كاتبا وشاعرا تركيا سيصبح فيما بعد مفكرهم ومنظر اتجاهاتهم وهو : محمد ضيا .

وفي سلانيك التقى محمد ضيا بالكاتب والصحافي اليهودي العثماني موئيز كوهين ، واتخذ الاثنان لقبا تركيا مشتركا وهو الب ، فاصبح اسم الأول محمد ضيا كوك الب ، والثاني موئيز كوهين تكين الب ، ولم يفترقا حتى الموت .

شخصية موئيز كوهين

ولد موئيز كوهين في سلانيك عام ١٨٨٣م ، وتخرج في مدرسة الحقوق ، وبعد ان تولى الاتحاديون السلطة وأعلنوا « المشروطية » اخذ موئيز كوهين يكتب في جريدة « روم ايلي » ، وكان يصدرها يونس نادي وهو من يهود الدونمه ، وجريدة « اتحاد وترقي » وكان يصدرها الاتحاديون . وكان موئيز كوهين قد انضم الى جمعية الاتحاد والترقي عضوا اساسيا ومفكرا عام ١٩٠٥ ، وكان رئيسا لجمعية تعميم اللغة التركية وأنتخب عضو شرف في ابرز جمعية تركية وهي « تورك وجاغي » .

اخذ موئيز كوهين على عاتقه التعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الاوربية . فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية ، عدة لغات اوربية ، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان « الاتراك يبحثون عن روح قومي » نشره في « ميركور دي فرانس » عام ١٩١٢ .

وفي الفترة من ١٩١٤ ـ ١٩١٨ عمل موئيز كوهين استاذا بكلية الحقوق بجامعة استانبول وترجم للاساتذة الاجانب الذين استقدمتهم الجامعة من المانيا .

وفي عام ١٩٢٢ انتقل موئيز كوهين الى أنقرة حيث عمل في الصحافة والتبغ ، حتى وصل الى منصب الأمين العام لاتحاد التبغيين الاتراك . كما كتب في جريدة « وطن » وكان يصدرها الصحفي احمد امين يالمان وهو من اليهود الدونمه .

وفي عام ١٩٤٦ اصبح موئيز كوهين في المجلس الاقليمي لحزب الشعب الجمهوري لمدينة استانبول . وفي عام ١٩٥٠ رشح هذا الحزب موئيز كوهين عضوا بمجلس الأمة عن استانبول .

وفي عام ١٩٤٨ اقيم في استانبول عيد فضي تكريما (لهؤلاء الكتاب الذين امضوا خمسين عاما في خدمة الصحافة التركية) وكان هؤلاء عبارة عن ثلاثة كتاب يهود ، موئيز كوهين احدهم .

وحتى لا يثير موئيز كوهين حساسية القراء العثمانيين عامة والاتراك المسلمين خاصة ، لم يستخدم اسمه الحقيقي في الكتابة الا في كتاب واحد فقط من كتبه التي نشرها بالتركية وبضع مقالات قليلة على وفرة مقالاته وتعددها . لكنه استخدم اسمين مستعارين هما : تكين الب ومؤنس الب ، حتى ان الاغلبية العظمى من قرائه كانوا يقرأون له على اعتبار أنه مسلم عربي .

أسهم موئيز كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي وهي السياسة التي اثرت على العلاقات التركية العربية ، خاصة في بلاد الشام ، وهي ايضا السياسة التي تتردد شكوى العرب منها أثناء حكم جمال باشا الاتحادي .

عن السياسة الاتحادية وفكر الاتحاد والترقي كتب موئيز كوهين كتبا ثلاثة هي :

(ماذا يمكن ان يكسب الاتراك من هذه الحرب) و (طوران) و (سياسة التتريك) . كما اسهم هذا الكاتب اليهودي في الكتابة للفكر الكمالي بكتابة (الكمالية) ، وكتابة (الروح التركية) الذي ارخ فيه لتطور العنصر التركي . .

مات موئيز كوهين في ٢٧ سبتمبر عام ١٩٦١ ، وفي ٢٤ مارس ١٩٦٢ ، اقامت جمعية التراث التركي اجتماعا لتأبينه حضرها ابنه اسحاق كوهين .

خمسة كتب

في كتبه الخمسة ، يقول موئيز الكثير . .

(١) ماذا يمكن ان يكسب الاتراك من هذه الحرب : ويقصد هنا الحرب العالمية الاولى ، والكتاب صدر في استانبول عام ١٩١٤ وهو الكتاب الوحيد الذي وضع عليه موئيز كوهين اسمه الحقيقي ، ووضع على غلاف هذا الكتاب كلمة للكاتبة التركية خالدة اديب وهي من اليهود الدونمه هذا نصها : « ان اهم ما اريده هو رؤية كل الاتراك في العالم متحدين ومستقلين سياسيا وذهنيا » .

في هذا الكتاب يتحدث عن الضمير القومي واليقظة القومية السائدة في ايامه وعن المفهوم القومي ـ لدى الامم ـ الحديث وعن اتراك اذربيجان والقوقاز ، كما يتحدث عن أشهر ستة من الكتاب القوميين المتعصبين الاتراك المعاصرين له منهم الشاعر : محمد امين وهو من تلامذة الافغاني ، والكاتب القصصي عمر سيف الدين ، والدكتور عبدالله جودت وهو من القوميين الملحدين ثم محمد ضياكوك الب .

ظهر الكتاب اثناء الحرب العالمية الاولى وقصد موئيز كوهين بنشره ، الى (الايحاء للشباب العثماني بفكرته العنصرية التركية) والى (اتحاد الاتراك في العالم بديلا عن الوحدة الاسلامية المتمثلة في الجامعة الاسلامية) .

ويرجع موئيز كوهين في هذا الكتاب ، السبب في هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان الى (فقد الشعور القومي) .

ومن أقوال موئيز كوهين في صفحات هذا الكتاب : (من الالزم ان يتحد جميع الاتراك في سبيل سمو الجنس التركي . وطالما ان هذا التيار وهذه الفكرة لم تتم ولم تتسع بعد ، فمن الصعب كثيرا على الاتراك العثمانيين خلق الحضارة الجديدة التي يستهدفون اقامتها منذ أمد) و (لان هذه الحضارة المستقبلة لن ينجح في تشييدها اثنا عشر او خمسة عشر مليون تركي ، فلابد من ايقاظ الاتراك خارج تركيا ايضا ويبلغون اربعين او خمسين مليونا ، ودفعهم الى هذه الفكرة) و (ان الحرب الحالية (العالمية الاولى) ستنتهي لا محالة بهزيمة روسيا ، و (بالتالي) فان الاتراك سيطورون وبصورة غير عادية اتحاد اتراك العالم) .

يعقب الكاتب التركي ارطغرل دوزداغ على هذا الكتاب بقوله : (ان موئيز كوهين ـ وهو يشير الى حضارة تركية جديدة ومستقلة يريد ان تكون هذه الحضارة منفصلة عن دين وثقافة العالم الاسلامي ، ومستقلة بمعنى قطع الصلة بين الاتراك وبين الامم الاسلامية الاخرى) .

(٢) « الطورانية » لم يضع موئيز كوهين اسمه الحقيقي على هذا الكتاب الذي نشره في استانبول عام ١٩١٤ وانما وقعه باسم تكين . وفي هذا الكتاب يعرف هذا اليهودي بمفهوم القومية التركية الطورانية وأهدافها . ونشر باللغات الانكليزية والفرنسية والتركية . ومما يقوله فيه : (ان تعبير طوران ليس تعبيراً سياسيا ، انه فقط مثل ايطاليا التي يظن أنها اسم جغرافي وهي بالمثل اسم لاتحاد اتراك العالم الذي سيتحقق ذات يوم) . (سيحدث ذات يوم ، ان تنهار روسيا التي يعيش الاتراك في اسرها اليوم ، ستنهار روسيا كما انهارت من قبلها الامبراطوريات) و (سيرفع الاتراك التاج الذهبي (لجدهم) جنكيز خان فوق صدورهم الملتهبة بالفكر القومي ، سيرتفع هذا التاج لان طوران ليست تعبيرا تاريخيا ، ان طوران حقيقة عرقية لان التركية قومية تعيش حية تتدفق بالحياة) و (ان طوران أكبر من الاناضول بعشر مرات . ان طوران تعيش ، لكنها تعيش تحت مخلب الصين وحذاء الروس . طوران اسيرة وحبيسة ! طوران ذليلة ومظلومة ! ان أكبر اذلال للقومية التركية ليتمثل في ترك طوران هكذا . ان الواجب الاول والاقدس لكل تركي يدرك واجبه القومي ان يسرع لنجدتها ، انقاذ طوران من التنين الصيني واظافر النسر الروسي الدامية ! » .

كان للكتاب تأثير واضح في ضباط الاتحاد والترقي مثل جمال باشا . وانور باشا بالذات اهاجته فكرة الطورانية ، فترك ميادين القتال الرئيسية اثناء الحرب العالمية الاولى ووجه ـ وهو وزير الحربية العثمانية . الجيوش لتحرير منطقة طوران ، وكانت النتيجة ان مات بفعل العوامل الطبيعية في شتاء روسيا ثمانون الف ضابط وجندي عثماني من خيرة القوات العثمانية .

التتريك والكمالية

(٣) سياسة التتريك : صدر هذا الكتاب في استانبول عام ١٩٢٨ ، وهو عبارة عن ١٢ مقالا ، وايضا لم يذكر اسمه الحقيقي في هذا الكتاب وانما وضع عليه اسمه المستعار تكين الب . وعبر فيه موئيز كوهين عن فكره في **مسألة تتريك العناصر غير التركية في الدولة العثمانية ، وهي سياسة الحادية سابقة لتاريخ النشر** . ويبحث الكتاب **في الموضوعات الآتية** : مهمة التتريك ـ قواعد التتريك ـ **غاية التتريك** ـ وفائدته ـ من هو التركي ـ مشكلة الاقليات غير التركية ـ سياسة العناصر المحدودة ـ ما هي الامة يعني الذهنية ـ تتريك الاسماء ـ الضمير المشترك ـ واجب اجهزة الاعلام ـ جاذبية القومية التركية .

ويبدأ موئيز كوهين كتابة هذا بيان خدماته التي قدمها لجمعية الاتحاد والترقي . ومن الطريف انه خصص باب « الضمير المشترك » لمخاطبة بني قومه من اليهود المحليين (في الدولة العثمانية) في نداء اسماه بالأوامر العشرة ينصح فيه اليهود ان يمتثلوا لسياسة التتريك ، وهذه الأوامر العشرة وهي :

اتخذوا الأسماء التركية مثل الاتراك ـ اليهود تحدثوا بالتركية ـ اجعلوا ادعيتكم في معابدكم ـ ولو جزء منها ـ باللغة التركية . عليكم تتريك مدارسكم ـ ألحقوا أولادكم بمدارس الدولة ـ تداخلوا في شئون البلاد وخذوا دوركم فيها ـ اختلطوا بالاتراك ـ انزعوا روح الجماعة من جذورها ـ قوموا بواجبكم الخاص في ساحة الاقتصاد القومي .

(٤) كتاب الكمالية : أصدره موئيز كوهين في استانبول عام ١٩٣٦ ، باسم تكين الب . وصدرت من هذا الكتاب ترجمة فرنسية في باريس عام ١٩٣٧ بتقديم وتقريظ الدكتور هيريو رئيس البرلمان الفرنسي ، وترجمة تشيكية صدرت في براغ بتقديم مدير جامعة براغ .

في هذا الكتاب يقول موئيز كوهين : (ان الامة التركية قد انسلخت من شرقيتها لتأخذ طريقها الى الغرب) و (ان الشيء الذي يمثل الكمالية ليس اسطورة كما حدث في ماضي الفكرة القومية ، بل يمثلها انسان من لحم وعظام يمتلك ديناميكية وحيوية لا نظير لها ، ليس بانسان فقط بل انه فوق الانسان (يقصد اتاتورك) و « ان الكمالية حركة مستقلة ، لا علاقة لها بالحركة القومية التي بدأت من قبل ، ذلك لان اول اجراء اتخذته الكمالية كان : الابتعاد عن الدين » و « كانت حركة ضياكوك الب القومية عبارة عن نوع من التثليث ، فقد كان دستوره هو : أنا أنتمي لثلاث ، الامة التركية والامة الاسلامية والحضارة الاوروبية . اما الكمالية فقد وجهت حملتها الاولى ضد حكم الدين ، وقد انهارت هذه السلطة الدينية الغاشمة بضربة واحدة ، وجهها اليها اتاتورك . ان رب الكمالية الذي عبدته منذ بدايتها هو : القومية » .

(لقد فتح الغاء الخلافة مرحلة جديدة امام الكمالية وفي الحقيقة لا بد قبل البدء في البناء وقبل عملية خلق وطن حديث وامة حديثة ، لا بد من تسوية الساحة التي يملؤها عقبتان رهيبتان هما : السلطنة والخلافة ، لم يعد هناك اذن سر قومي يجبر اتاتورك على اخفائه في صدره . لقد حل اخيرا زمن اصدار الامر بالبدء في تشييد البناء الجديد وخلق الدولة الجديدة والوطن الجديد والتركي الجديد .)

وتحت عنوان (فلتسقط حكومة الشريعة) يقول موئيز كوهين : (كان الشعب التركي مجبرا على العيش تحت تأثير القوانين الدينية والشرعية الموجودة في صحراء بلاد العرب . وهذا شيء يبعد عن الثقافة الغربية ، ولم يستهن كمال اتاتورك في اي وقت قط بقوة خصمه هذا ، حتى اصبحت انقره قلعة تحتمي بها الديموقراطية التركية الجديدة (ديموقراطية اتاتورك) ضد هجوم محتمل من الحكم الديني والشريعة وما يأتي معها من استبداد) .

(والامة التركية ـ مثلها مثل كل الامم الاسلامية الاخرى ـ ترفض كل تجديد يأتيها من ديار غير اسلامية . الحياة على طريقة الكفار (الاوروبيين) وارتداء أزيائهم واتخاذ قواعدهم وعاداتهم لا يعني عند المسلمين الا انكار الشريعة المحمدية . حتى اكثر المثقفين الاتراك . حتى اكثر الاتراك تفكيرا بحرية يرون ان ارتداء القبعة ـ وهي الطربوش الاوروبي ـ ما هو الا الحاد لا يغتفر . ان شابا مسلما كان عائدا من اوربا خرج من السفينة وهو يرتدي قبعة على رأسه وابدى شجاعة حين وطأ الارض الاسلامية وهو على شاكلته هذه . فما كان من الشرطة الا واسرعت بالقبض عليه ، وتحدثت الصحف عن هذا الرجل باشمئزاز بالغ وشدة زائدة . والغريب ان هذه الحادثة قد حدثت والنظام الجمهوري الكمالي معلن .) (ومن نافلة القول ان العمامة اخطر من الطربوش . فالعمامة كانت رمزا . كانت العمامة هي الشريعة نفسها .)

(٥) كتاب الروح التركية : صدر في استانبول عام ١٩٤٤ باسم تكين آلب ، ويقصد موئيز كوهين من هذا الكتاب ـ كما يقول هو ـ توضيح الصفات الاخلاقية والمعنوية لتلك الروح التركية التي تمكنت من خلق العديد من الامبراطوريات العظيمة .

ويقول حلمي ضيا أولكن في كتابه « تاريخ الفكر المعاصر في تركيا » ان موئيز كوهين خصص كتابيه الكمالية والروح التركية لعهد اتاتورك وقسم الكتاب الاخير الى اربعة عهود : الاول عهد الاجداد ، ويرى المؤلف ان هذا العهد هو عهد الابطال الذين انجبهم التاريخ المشترك للمغول في اسيا الوسطى . والعهد الثاني وهو العهد الاسلامي ويقول عنه موئيز كوهين ان الروح الاسلامية سحقت الروح التركية ، والعهد الثالث يقول ان الروح القومية التي استيقظت نتيجة انقلاب الاتحاد والترقي واعلان المشروطية قد بدأت في الظهور في اطار الاسلامية والعثمانية ، والعهد الرابع عهد الروح القومية الاصلية التي ولدت في عهد الجمهورية الكمالية والتي وجدت التعبير عن نفسها في كل من اتاتورك وعصمت اينونو .

كما علل موئيز كوهين في هذا الكتاب بعض الاجراءات الكمالية مثل اتخاذ انقرة عاصمة ، واتخاذ العلمانية مبدأ ، تعليلا قوميا تاريخيا .

يقول في اتخاذ الكماليين انقرة حاضرة لتركيا الحديثة : (لم يفكر جنكيز خان في اي وقت ان ينقل عاصمته الى بكين او سمرقند ، بل كان يفضل البقاء في صحراء قراقوروم الوطن الاصل القديم والبسط والمتواضع في الاستبس ، جنكيز خان (الذي يصوره من اجداد الاتراك) لم يفارق مناطق الاستبس لكنه نشر على العالم روح الاستبس ، منحة منه وفضلا . فهل هناك ضرورة ـ والحالة هذه ـ للبحث عن اسباب اخرى لتوضيح كيفية اتخاذ حكومة تركيا انقرة عاصمة لهم ؟) .

وعن تعليله لاتخاذ الكماليين مبدأ العلمانية يقول موئيز كوهين في كتابه « الروح التركية » ما يلي : (مبدأ العلمانية ، واحد من الاعمدة الرئيسية في تركيا الجديدة ، وهو مبدأ يطابق كل المطابقة النظام السياسي والاجتماعي للاتراك القدماء فيما قبل الاسلام . لم يعط الاتراك القدماء في اي وقت من الاوقات ولا في أي عهد من عهودهم ادنى اهمية للدين في حياتهم العامة . ان الاتراك ـ بالفطرة ـ ليسوا في حاجة ماسة الى الدين ، ولم يكونوا يهتمون ابدا بالعقائد الدينية .) ■■

د . محمد حرب

الولد الشقي في السجن

تأليف : محمود السعدني

تقديم : أبو المعاطي أبو النجا

الكاتب الساخر محمود السعدني ، الذي لا يحتاج الى تعريف هو الذي يعرفنا في اخر كتاب صدر له بهذا العنوان ، بمجموعة من الشخصيات تضم حثالة القاهرة من النشالين ، وتجار المخدرات والقوادين واللصوص ، الذين التقى بهم في سجن القناطر ـ ومع أن الكاتب دخل السجن بسبب السياسة الا انه اثر ألا يحدثنا في هذا الكتاب عن تهمته أو معاناته الشخصية كسجين سياسي ، فقط اشار بطريقة عرضية الى أنه دخل السجن هذه المرة بسبب نكته ، وانه دخل السجن في حياته كلها ثلاث مرات ، مرة بسبب معارضته للحكومة ومرة ثانية بسبب حياده مع الحكومة ، والمرة الثالثة كانت بسبب تأييده للحكومة ، واكتفى بهذا القدر من السخرية من نفسه ومن الحكومة ليقدم لنا هذه المجموعة من الشخصيات التي يقول بشأنها ، « كنت أذهب الى قبري حزينا لو مت دون أن أرى هذا العالم الذي يضم هذه الشخصيات . . . » .

وفي الواقع أن مسلك محمود السعدني هذا يؤكد انه فنان حقيقي ضل طريقه الى غابة العمل السياسي ، وبدلا من أن يكتفي بدور سياسي غير مباشر من خلال فنه فانه كان يختصر الطريق احيانا الى دنيا السياسة ليدخل السجن ، وفي السجن يظهر على حقيقته مجرد فنان يتأمل البشر في هذا القاع الجهنمي للمجتمع ، ويبحث عن الحقيقة التي كانت تناوره في الخارج بألف قناع ، فهي هنا سافرة لا تستر وجهها أو عورتها ، وسوف نختار من بين شخصيات الكتاب ثلاث شخصيات هي بالترتيب « اليانكي » ، « وسيد الحليوه » ، وعبد الحفيظ الاشتراكي ، لأنها في تقديرنا عينات كافية في دلالتها على بقية الأنواع .

« واليانكي » فتى من بورسعيد اسمه حسن اسماعيل جاب بحار العالم وموانيه على سفينة شحن امريكية ترفع علم بنما ، ولهذا استحق لقب « اليانكي » لم ينجح خلال سنوات حله وترحاله في الارتباط الحقيقي بشيء أو أحد . فهو مجرد عاشق نهم للحياة ، يخطف لذته ويجري ، والدنيا الواسعة من حوله ببرها وبحرها تساعده على الجري ، وحين دخل سجن القناطر ـ الى أجل غير مسمى ـ بتهمة احراز مخدرات كان بصحبته فتى ياباني ، لم يتردد لحظة في الانتحار لأنه رأى أن الحياة داخل السجن لا تستحق أن تعاش ، ومع أن « اليانكي » كان مشتركا معه في قرار الانتحار الا انه كدأبه في عدم الارتباط الحقيقي بأحد أو شيء ، ترك صديقه يموت وحده ، واكتفى بقليل من الحزن عليه ، وبوصفه بأنه « عبيط ومش بتاع دنيا » ، وبقي هو في السجن يحفر بأظافره وذكائه ، وخبرة حياته كلها عن الدنيا في سجن القناطر فهل وجدها ؟ يبدو أنه

عثر عليها ، على شيء منها ، فالقليل منها أفضل من الموت ربما لهذا السبب ، لهذا العشق العنيف للحياة ، والتحايل على الاحتفاظ بها رغم كل شيء ، خفق لـه قليلا قلب المؤلف ، مع انه بما رواه عنه أدانه ، أدان انتهازيته وأكاذيبه ، وأوضح أن الانسان حتى في أعماق السجون يبقى في حاجة الى شيء من الصدق وبعض الثقة ودائما في حاجة الى الآخر ، وأنه ليس بالطعام الشهي الذي كان « اليانكي » يسرقه بالاكاذيب وبالشائعات التي يرددها من خلال علاقته وخدماته لكلبة المأمور . . . ليس بهذا الطعام الشهي وحده يمكن للانسان أن يحيا حتى في داخل السجن .

لقد جرب اليانكي أن يخطف لذته ويجري كعادته ، ولكن السجن لم يكن ذلك المكان الذي يسمح له بمواصلة الجري وحبال الاكاذيب القصيرة التي تعلق بها لم يلبث أن تعثر فيها ، فسقط وكان سقوطه أليما ومع أنه لم يكن يحزن على أصدقائه الا قليلا فيبدو أن المسجونين والسجانين والمؤلف شعروا بالكثير من الاسى لموته فقد كان نبضة حياة خاطئة لكن قوية بما يثير الاعجاب بها حتى في سجن القناطر .

سيد الحليوه

أما الشخصية التراجيدية بحق ، والتي أتمنى أن يفرغ المؤلف لكتابتها مسرحية أو رواية ، المهم أن يعطيها حقها من الاهتمام لتعطيه حقه كفنان أولا وأخيرا فهي شخصية « سيد الحليوه » الصبي الوسيم الذي يحمل روح فنان وأخلاقيات فارس والذي دخل السجن محكوما عليه بعامين فقط في أشهر قضية قتل اهتم بها الرأي العام في حينها ، ذلك أن الفتى الصغير الجميل قتل مجرما خطيرا اسمه « عليوه » دوخ الحكومة والاهالي في مثلث الرعب في الصعيد ، وكان عليوه قبل اعوام قد قتل والد الصبي لا لسبب الا لكي يخلو لـه الطريق للوصول الى زوجة القتيل ، ولقد رأى الفتى الصغير بعينيه كيف حاول « عليوه » أن يحتضن أمه وهي بملابس الحداد السمراء ، ولحظتها شعر أنه يكبر فجأة عشرات الاعوام ، وأن أهداف حياته كلها تتلخص في أمر واحد ، راح في هدوء يعد نفسه له ، وحين جاءت اللحظة الموعوده برز في الطريق لعليوة الذي لم يكن يجرؤ أحد على مجرد المرور في طريقه ، لم تهتز يده ، ولم يرتعش جفنه ، وهو يفرغ الرصاص في قلب قاتل أبيه وغاص بقدمه في دمه وهو يتخبط على الارض ، وفي هدوء وبساطة ذهب بنفسه للشرطة وأخبرهم بكل شيء ، كانت تلك مهمة حياته ، وحين أدى المهمة لم يعد يعرف ماذا يفعل بعدها بحياته ، واشتد ضغط الرأي العام المتابع للقضية ورأى الناس والكتاب والمحامون والقضاء ، أن حياة مثل هذا الصبي جديرة بالمحافظة عليها ولا بأس من أن يسجن لمدة عامين فما الذي جرى له في هذين العامين ؟؟

الفتى الذي لم يشعر بالخوف وهو يواجه أعتى المجرمين ، ولم يتردد في الاعتراف بفعلته وهو يواجه شبح المشنقة ، هذا الصبي نفسه يمتلىء بالرعب حين يقضي أيامه الاولى في السجن في « زنزانة الايراد » كما يسمونها وهي الحجرة التي يتجمع فيها المسجونون الجدد من كل مكان الى أن يتم توزيعهم على « زنازينهم » التي تنتظرهم ، لقد حدثت خناقة بين هؤلاء المساجين الذين لا يعرف بعضهم بعضا ، استخدمت فيها الخناجر ، وسالت الدماء في ظلام الزنزانه ، ولم تفلح استغاثاته ولا أنين الجرحى في جذب انتباه أحد في تلك الليلة المشئومة ، وحين جاء المسئولون عن السجن في الصباح كان العقاب للجميع بلا تمييز بين الظالم والمظلوم ، لحظتها امتلأ الصبي بالرعب وهو يواجه هذا العالم الجديد ، ويجلو المؤلف لبصيرتنا هذه الحقيقة المروعة من خلال هذا الموقف ، الانسان لا يخاف الموت ، ويواجه أقسى المواقف من أجل شيء يفهمه ، أو يختاره ، ولكنه لا يحتمل انعدام المنطق والفوضى واختلال المعايير .

وفي هذا العالم المخيف يكتشف الصبي أنه لا يزال صبيا ، لقد أفلت من الموت بمعجزة في تلك الليلة فمن يمنحه الأمن في الليالي القادمة ؟ ولا يجد من يقدم له الوعد بالامن سوى « سيد الابيض » رجل في سن والده ، سجين مثله لكنه يبدو عارفا للكثير وقادرا على الكثير ، أما ما لم يكن يعرفه « سيد الحليوه » فهو أن « سيد الابيض » هذا ليس سوى قواد كان يمارس المهنة في الخارج ، وظل يمارسها في داخل السجن ، وحين رأى الصبي الوسيم أيقن أنه أمام صيد ثمين يمكن أن يبيعه بأغلى ثمن لتاجر المخدرات المعلم خضير ، السجين في الطابق الثاني والذي يخدمه الجميع في السجن بما فيهم « سيد الابيض » وراح « سيد الابيض » يلقي بشباكه حول الصبي مستخدما خبرة السنين ، يقرضه النقود وتدخل لنقله لمكان أكثر أمنا ، وحين تأتي اللحظة التي يكتشف فيها « سيد الحليوة » حقيقة ما يراد به فانه يثور ثورة عارمة ، ولا يأبه بما يحدث له نتيجة ثورته ، ولا لما يمكن أن يحدث له بعدها وليذهب « سيد الابيض » الى الجحيم ، وقريبا سوف تأتي أمه لزيارته فيأخذ منها من النقود ما يكفي لتسديد ديونه لـ « سيد الابيض » ، ربما لحظتها أدرك أن قيد الدين أقسى من قيد السجن الحديدي ، وأن أمه قد تأخرت أكثر مما ينبغي لزيارته ، هل يمكن أن يكون قد ألم بها مكروه ؟؟

لم يفكر لحظة أنها يمكن أن تتأخر عنه لسبب آخر وظل

يتحمل المهانة والتهديد والابتذاء في انتظار زيارتها له ودون أن ينهار أو يرضخ إلى أن عرف بالصدفة من أحد جيرانهم وكان قد التقى به في المحكمة ، أن أمه قد سافرت بعيدا عن بلدتهم بعد أن تزوجت رجلا كان زميلا « لعليوة » قاتل أبيه !!

ويشعر الصبي لأول مرة بشيء أقسى من الرعب . . . شيء اسمه الضياع الحقيقي ، فها هو كل ما عاش من أجله ، وواجه الموت من أجله ، ودخل السجن من أجله يصبح لا شيء ، وهذا أمر آخر أشد فظاعة من الفوضى وانعدام المنطق ، واخيرا يصبح لا شيء ، وهذا أمر آخر أشد فظاعة من الفوضى وانعدام المنطق ، واخيرا يسقط « سيد الحليوة » في براثن سيد الابيض والمعلم خضير ، اللذين لم يفهما سوى ان الولد قد عاد اليه عقله أخيرا !

وعبد الحفيظ الاشتراكي

واذا كانت شخصية « اليانكي » « وسيد الحليوة » تحمل قدرها في تركيبتها النفسية ، وتعكس بدرجة أقل المشكلة الاجتماعية ولا تسمح نتيجة لذلك للمؤلف بأن يمارس قدرته على السخرية من أي منها بالقدر الكافي ، فان شخصيات مثل « المسلكاتي » « وعبد الستار السياسي » وعبد الحفيظ الاشتراكي » التي تجيء بعد ذلك تبدو كلها وكأنها ضحية قدرها الاجتماعي بالدرجة الاولى ، وتعكس المشكلة النفسية بدرجة أقل ، ومن هنا فان فرصة الكاتب للسخرية تصل الى الاوج مع بروز المشكلة الاجتماعية !

وسنختار من بين هذه الشخصيات شخصية « عبد الحفيظ الاشتراكي » التي تكفي كنموذج لما نقول :

فهذه الشخصية تكشف مأساة النظام بأكثر مما تكشف مأساتها هي ، بل لعلها تكشف مأساة كل النظم السياسية التي تبدأ رحلتها من القمة ثم تظل تبحث ـ دون جدوى ـ عن قاعدة جماهيرية ، مأساة الهرب من رحلة النمو الشاقة من البذور الى الثمار لصنع القيادات السياسية عبر العمل اليومي السياسي مع الناس ولهم ، والمؤلف يكشف لنا من خلال تقديمه لشخصية عبد الحفيظ الاشتراكي انه ليس أسوأ من التاجر الذي يريد أن ينتفع من النظام ، سوى ذلك النظام الذي يتصور انه يمكن أن يصنع قاعدته أو قياداته الشعبية بمثل هذه النوعية من التجار التي تبدأ رحلتها لجمع الثروة بالاستيلاء على ثروة الشقيقات !

وتبلغ سخرية المؤلف ذروتها حين يدخل عبد الحفيظ الاشتراكي السجن لمجرد أنه نفذ أوامر رئيسه في التنظيم السياسي ، فهو لم يكن يعرف شيئا عن الصراع الدائر في قمة السلطة ، وحين طلب منهم أن يمنحوه فرصة الاتصال برئيسه في التنظيم فوجيء بهذا الرئيس يلحق به في السجن ، وفوجيء برئيس آخر كان يظنه صديقا لرئيسه يهاجم الاثنين في الصحف ، أحقا كان أعمى الى هذا الحد ؟ على كل حال هو لم يكن طوال عمره سياسيا كان مجرد تاجر محدود ، وعليه بعد اليوم أن يفتح عينيه جيدا ولو كان في السجن ، وحين ، فتح عينيه جيدا أمكنه أن يرى أن السجن اعظم مكان للتجارة ، وأن البضاعة التي تركد في دكانه في الخارج تروج هنا أضعافا مضاعفة !

أيمكن أن يخدعه الناس هنا كما خدعوه في الخارج ؟ لقد حدث له ذلك مرة اخرى داخل السجن قرر بعدها ان يتولى أمور تجارته بنفسه ، وحين راح يتصل بمجموعة من الشبان الجدد الذين دخلوا السجن حديثا ليضمهم لشبكة زبائنه وكانوا لسوء حظه من الهاربين من الجندية لم يتصور المسئولون في السجن أن هذا السجين السياسي يتصل بهؤلاء الشبان لغرض التجارة ، ورجحوا أن يكون وراء الاتصال مؤامرة سياسية ، وهنا يواصل المؤلف سخريته بالشخصية وبالنظام معا . فالحكومة تصدق أوهامها وتعيد محاكمة الرجل الذي لم يكن في كل الاحوال سوى تاجر أخلص لمهنته ولا تصدقه أبدا في المرة الوحيدة التي كان صادقا فيها مع نفسه ومعها !!

* * * * *

حين تنتهي رحلة القاريء مع هذا الكتاب يكون قد عرف الكثير عن هذه الشخصيات ، وعن عالم السجن القاسي ، عما يجري فيه من عنف وأكاذيب وأوهام تحاصر حين يموت كل أمل ، عن قدرة الحياة على الاستمرار والتشكل ، عن بشاعة الكذب بكل صوره وأشدها بؤسا الكذب على النفس ، وقد يرى في ظلام السجن مالم يكن يراه في ضوء النهار خارج الاسوار ـ انها رحلة تطهر وألم ومعاناة ومعرفة تضحك خلالها ضحكات مريرة ، ولكنك بعدها تشعر بذلك الصفاء الذي يأتي بعد كل معاناة حقيقية لأنك كنت مع كاتب صادق حاول ان يصحبك في مغامرة لرؤية لمحة من الحقيقة الصعبة والغالية .

إن السخرية عند الأستاذ محمود السعدني لا تعاقب أو تشفي أو تتعالى أو تنتقم . . . إنها شكل من أشكال المحبة ودرجة من الشجاعة ، ورغبة في اختصار الطريق إلى الآخر وفي تمزيق الأوهام والمطامع عن وجه الحقيقة !! ■ ■

أبو المعاطي ابو النجا

قضايا حيوية

اعداد : مصطفى نبيل

الإنجاز الحق هو معيار الشرعية

الدكتور عبد الغفار رشاد محمد*

تحتل قضية الشرعية أهمية كبرى في مختلف الدراسات والاتجاهات المعاصرة من علم السياسة ، وهو العلم الذي يدور حول ظاهرة السلطة . وما تقوم به السلطة من عمليات توزيع للقيم في المجتمع ، بالمعنى الواسع لهذه القيم ، أي بما تضمه من مناصب ومراكز وقوة ونفوذ وأموال وسلع وخدمات في المجتمع .

لكن هل تستند هذه العمليات التوزيعية ـ التي هي جوهر الحياة السياسية في مفهوم علم السياسة المعاصر ـ الى أسس محددة ، أم تتم بطريقة عشوائية تعكس ارتجالا أو أنانية وبعدا عن العدالة وخروجا أو تجاوزا عن الحد الأدنى اللازم من المساواة وتكافؤ الفرص لكي يتمتع الفرد في مجتمعه بمكانته كانسان له كرامته واحترامه ؟

تعتمد كافة النظم السياسية الراهنة في عالمنا المعاصر في شرعيتها على عاملين رئيسيين هما : القوة أو الاكراه المادي والعنف من ناحية ، والاقناع أو الأدوات الأخلاقية ، ومن خلال القنوات البعيدة عن العنف والضغط من ناحية أخرى . لكن هذه النظم تختلف فيما بينها في نسبة كلا عنصري الاكراه والاقناع ، فالبعض منها يجعل الاكراه اداته الرئيسية ، ولا يستخدم الاقناع الا على سبيل الاستثناء ، وهو ما يكرس ويعمق حالة الاغتراب السائدة في المجتمع ، لكنه في الأمد البعيد يوفر مناخا ملائما لانبثاق وتنشيط عناصر القلق وعدم الاستقرار . والردع أو الخوف الذي تولده المبالغة في استخدام القوة يخلق رهبة في النفوس ، ويدفع بالفرد الى أن يكظم أو يكبت انفعالاته وآراءه ، أو يبوح بها سرا في كلمات هامسة أو خافتة . لكن هناك نظم لا تلجأ الى الاكراه والعنف الا في حالات استثنائية ، وهي الحالات التي ترتبط بعناصر تمثل خطرا على التوازن القائم في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في شكلها العام ، فالاكراه والعنف هنا أداة النظام القائم لحماية مصالح المجتمع وتحقيق الاستمرارية والازدهار للقيم والمبادىء والانجازات التي يمجدها المجتمع .

هنا تتجسد الاشكالية التي تواجه كل نظام ، وهي : كيف يتحقق التوازن الأمثل بين عنصري الاكراه والاقناع بما يحقق الاستقرار والتوازن ، ويبعد النظام عن عوامل الاغتراب ومشاعر الكبت والاحباط ؟

يقودنا هذا التساؤل الى تحليل بعدي قضية الشرعية في وطننا العربي : القانون والرأي العام . .

قد تستند السلطة بممارساتها الى القانون ، وهي عندئذ تتمتع بالشرعية القانونية ، أو ما يسميه بعض الكتاب بالمشروعية ، كما قد تستند الى توقعات الرأي العام أو الى ضمير وعقل الجماعة ـ أو ما أسماه ميكافيلي صوت الشعب واعتبره من صوت الله ، ومونتسكيو الروح العامة ، وجان جاك روسو الارادة العامة ـ والسلطة هنا تتمتع بالشرعية السياسية ، والشرعية القانونية والشرعية السياسية كلتاها وجهان لعملة واحدة ، ذلك أن القانون يعكس عادة توقعات الجماعة وضميرها أو مزاجها العام . ومع ذلك فان القانون قد يكون موضع تجاهل ، أو تلاعب وتزييف ، وقد تقع ممارسات خاطئة باسم القانون ، وتتخذ من هذا القانون ستارا تتبرقع به . هنا تحدث الفجوة بين الشرعية القانونية والشرعية السياسية ، ويبتعد الرأي العام عن تأييد الممارسات الخاطئة ، بل وقد يستنكرها ، ويقف ازاءها موقف التحدي

* مدرس العلوم السياسية ـ كلية الاقتصاد ـ جامعة القاهرة .

والرفض . وقد ينتصر في نهاية المطاف فيفرض ارادته ويعمل على تصحيح تلك الممارسات . واحلال ممارسات جديدة تكون أكثر استجابة لمطالب الجماعة وعقلها ومزاجها العام .

في كل مجتمع توجد مجموعة صغيرة من الأفراد تمارس السلطة ، تعرف عادة بالنخبة السياسية أو الجماعة الحاكمة أو الطبقة المختارة أو الاوليجاركية أو غيرها من مسميات عديدة . أما بقية أفراد المجتمع - أو ما يعرف بالجماهير أو عامة الشعب - فانها لا تمارس السلطة ، وانما تكتفي عادة بممارسة حقوقها السياسية والمدنية ، كما يحدث خلال عمليات الانتخاب أو الاستفتاء ، أو خلال التعبير عن الأراء ووجهات النظر المختلفة والاشتراك في المناقشات والاجتماعات أو الأحزاب أو الجماعات المهنية والنقابية وغيرها .

لكن هل تعكس الجماهير عند ممارستها حقوقها السياسية - مع افتراض صحة وصدق هذه الممارسة وبعدها عن التضليل والتزييف وعن أغراض الدعايةوالمظاهر الشكلية - توقعات الرأي العام وعقل الجماعة وضميرها الحقيقي ، ومن ثم تضفي الشرعية السياسية على النظام ؟

تكشف الاجابة عن هذا السؤال عن افتقار مختلف نظم العالم - بما فيها أكثر الدول ديمقراطية واستقرارا - لدعائم راسخة من الشرعية السياسية . فطبيعة المجتمع المعاصر أصبحت تفرض على الانسان العادي الانهماك في مشاغله والدوران في تيار الحياة اليومية المتدفقة في سرعة هائلة ، ولا يبقى سوى الانسان الذي حبته الظروف ببعض المزايا كالثروة او المنصب او المركز الاجتماعي او الميراث ليكون هو العنصر الغالب والاكثر نشاطا بين اولئك الذين يمارسون الحقوق والحريات السياسية في مجتمع اليوم . هكذا ترغم ان غالبية افراد المجتمع قد تمارس حق الانتخاب على سبيل المثال ، فان قلة فقط هي التي تدقق في الاختيار وتحاول ان تعطي اصواتها على اسس من التأني والموضوعية والحكمة والتعقل ، بينما الاكثرية تحاول ان تمارس هذا الحق باي شكل من الاشكال . وتمنح صوتها اما بطريقة اقل موضوعية وحكمة ، واما بصورة شكلية ومظهرية ! حتى لا توجه اليها اصابع الاتهام باعتبارها سلبية او منطوية على ذاتها . وبالنسبة للقلة التي تتميز بقدر أكبر من الثروة او تركز متميز فانها تمنح اصواتها بما يرضي مطالبها ويحقق مطامعها وتوقعاتها ، ومن ثم فانها في تعبيرها عن آرائها لا تعكس توقعات الراي العام ولا تعبر عن ارادة الجماهير الحقيقية ، واذا ما ادركنا ان هذه القلة هي التي تتاح لها في الغالب الفرص لتولي مناصب القيادة والتوجيه في التنظيمات السياسية والمهنية والنقابية والاجتماعية ، وللوصول الى سلالم النخبة السياسية بدرجاتها المتتالية ، فان صورة الشرعية الحقيقية تصبح اصداء باهتة ، تفقد كثيرا من رونقها ومغزاها الحقيقي .

أمام هذه الحقائق فإن على المثقفين عبئا كبيرا يفرض نفسه بصورة ملحة ومستمرة ، لا مناص من الاضطلاع به على خير وجه ، فلم يعد ثمة وقت يمكن تضييعه أمام اجيالنا التي تتطلع في شغف بالغ الى التخلي عن مظاهر التقاعس والتخاذل او الاستسلام والتراخي واللامبالاة . ان المثقف العربي عنصر نادر في مجتمعه - الذي تعاني غالبيته من الأمية - وهو قادر ليس فقط على استكشاف ارادة الجماهير ، بل وعلى التعبير عنها وبلورتها وتصفيتها من كل شائبة ، وهكذا يمكن للمثقف في العالم العربي ان يوفر الاساس الاول لشرعية السلطة ، ذلك ان هذه السلطة لن تكون في حاجة الى التنقيب والبحث طويلا عن توقعات الراي العام والارادة الحقيقية للجماهير العربية ، بعد ان يكون المثقفون - من خلال نظرتهم المدققة وحيادهم ونزاهتهم وروحهم الانتقادية وما يتمتعون به من عقلانية وموضوعية - قد وصلوا الى تلك التوقعات والارادة ، وعملوا على صياغتها صياغة أمينة ، معبرة ، مبلورة ، زاهية . وامام المثقف العربي مسلمات وبديهيات لن يبحث طويلا عنها عند استكشافه للارادة العربية والعقل العربي ، ومن هذه المسلمات على سبيل المثال :

١ - ان تنمية المجتمع العربي وتطويره شرط لبقائه واستمراريته ، هذه التنمية لا تفرض - فحسب - الاخذ بكل اساليب العصر ومعرفته العلمية وتقنيته ، بل وتستلزم في الوقت ذاته الحفاظ على الذات العربية وعلى مقومات الهوية العربية ، والتي وفقا لها نظل نمتلك تلك الخصوصية التي نوصف من خلالها بأننا « عرب » ، فلغتنا وديننا وتراثنا الاصيل وأسلوب حياتنا لا مجال للتفريط او المساومة حولها .

٢ - لا توجد هوة حقيقية بين الاقطار العربية ،

فهذه الاقطار تملك من مقومات التكامل والتماثل والتقارب ما يفوق بكثير عوامل التمزق والفرقة والتباعد . فهناك الامتداد الجغرافي المتصل ، ومنظومة القيم الواحدة والخبرة التاريخية المشتركة والمطامح والآمال الواحدة ، والظروف الواحدة التي صهرت قلوب ووجدان وعقل كل عربي في بوتقة الانتماء الواحد . لكن هذه المقومات تفرض على الاقطار العربية - كمطلب تؤكده الارادة العربية والعقل العربي كما يجسده المثقف الواعي - حمايتها من عوامل الانهيار والضعف ، والسعي نحو تأصيلها ونقلها للنشء وتوعية الجماهير العريضة بها ، وبالمخاطر التي تجسدها الكيانات والقوى المعادية للمصالح وللذات العربية .

٣ - تفرض المسلمة الأولى تنقية الارادة العربية من عوامل الانحطاط التي تجذبها في حلقة مفرغة من التخلف ، وتستلزم تحرير الذات العربية من نقائصها الداخلية ، وتفرض المسلمة الثانية تخليص هذه الارادة من مظاهر التفكك والانقسام ومن النعرات المحلية أو الطائفية وتحريرها من الأنانية ومن اعطاء الاولوية لمطالب اللحظة على مطامح الأجيال العربية القادمة ، أما المسلمة الثالثة فتفرض تحرير الوطن العربي من مظاهر التبعية والنفوذ والاستعمار بشكليه الجديد والقديم ، وحمايته من كل دخيل هدفه تقويض الاستقلال السياسي والاقتصادي وتحطيم امكانيات التنمية والوحدة العربية .

يتفق علماء السياسة - وفي مقدمتهم العالم الشهير سيمور مارتن ليبست في كتابه « الرجل السياسي » على أن الانجاز هو الاساس الاول لشرعية أي سلطة سياسية ، فالانجازات الاقتصادية التي حققتها اليابان على سبيل المثال بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية كذلك في مختلف دول العالم ، فان انجازات النظام وقيامه بتلبية متطلبات التنمية ، والحاجات الاساسية لقطاعات المجتمع الواسعة بجدارة واقتدار - وليس بصورة شكلية أو مظهرية هدفها الدعاية والتصفيق أو الخداع والتمويه - تصبح هي المحك الأخير لاستقرار هذا النظام ولتمتعه بالشرعية في نظر مواطنيه .

والنظم العربية بدرجة أو بأخرى تسعى الى تحقيق المزيد من الانجازات ، على طريق التنمية ، وأحيانا على طريق التكامل والتضامن - وان لم يصل الى مستوى الوحدة - وكذلك على طريق التحرير ومقاومة محاولات السيطرة الخارجية .

ان مزيدا من الانجازات الاساسية هو الطريق الوحيد أمام مزيد من الشرعية والاستقرار ، بل والرخاء والرفاهية لمجتمعنا العربي ، وهذه الانجازات لا تعني توقف دور المثقف العربي - والمثقف الذي نعنيه هو المعلم والكاتب والصحفي والمحامي والطبيب والمهندس وغير هؤلاء من مهنيين وتكنوقراط لا غنى للمجتمع المعاصر عن جهدهم واسهاماتهم .

ان العقل العربي والارادة العربية في حاجة ماسة الى مزيد من الاهتمام والعناية ، ومن التوضيح والتركيز والتبلور ، وهذه هي الخطوة الأولى نحو تحقيق الشرعية بمعناها الحقيقي والأصيل - وليس بمعناها كواجهة هشة - وهي خطوة تتلوها مباشرة عمليات ومنجزات تترجم تلك الارادة وما تمثله من أماني وتوقعات الى واقع ملموس ، فيتحقق بذلك ليس فقط الرضا العام ، بل والفاعلية السياسية بعد اخراج الجماهير من اغترابها ، ومن سباتها .

هل الفلسفة أدب ؟

يوسف ميخائيل أسعد

يقول أستاذنا الدكتور طه حسين في كتاب « الأدب الجاهلي » إن كل العلوم الفنون تدخل في الأدب ، واذن فالأدب هو كل شيء . وهذا معناه بالتالي ان الفلسفة برمتها تقع في نطاق الأدب حيث ان الأدب وفقا لتعريفه هو مأثور الكلام ، ومأثور الكلام يشمل المعرفة الانسانية أيا كانت ويضمنها الفلسفة .

والواقع أن الفلسفة مباينة للأدب وإن كانت تتلاحم معه في قطاع مشترك . وبتعبير آخر نقول إن بعض الفلسفة أدب ، وان بعض الادب فلسفة ، ولكن من الخطأ ان نقول ان كل الفلسفة يقع في إطار الأدب .

ولعلنا نتصف انا ما نظرنا الى المسألة بنظرة كلية ، فنقول ان المعارف الانسانية وأيضا الفنون الانسانية

متداخلة بعضها مع بعض ، بل ومتوافقة بعضها على بعض ، ولا غناء أو استقلالا تاما لبعضها عن بعض . ومن هنا فلا غناء للفلسفة عن الأدب ولا غناء أيضا للأدب عن الفلسفة . ولكن مع هذا التداخل والتوافق بين الفلسفة والأدب ، فان للفلسفة قوامها وكنهها ، كما أن للأدب قوامه وكنهه .

وهذا يدعونا الى تحديد الخصائص التي تخص الفلسفة دون الأدب ، والى تحديد الخصائص التي تخص الأدب دون الفلسفة .

نقول أولا إن التفكير الفلسفي يستهدف التعميم والاتساع بأفق الفكر الى أوسع دائرة ممكنة . فالفيلسوف عندما يعرض للأخلاق مثلا ، فانه لا يعرض لها والآن ، بل يعرض لما يتعلق بأي مكان وأي زمان بازاء ما يهجه الانسان من علاقات اجتماعية يحكم عليها بالخير أو الشر ، وما يحمله من قيم تنتشر في العلاقات الاجتماعية أيا كانت .

فاهتمام الفيلسوف ينصب على الكليات لا الجزئيات . وحتى عندما يعرض الفيلسوف لجزئية من الجزئيات ، كأن يعرض بالحديث لحالة اجتماعية أو لظاهرة أخلاقية في مجتمع بعينه ، فان ذلك لا يعدو أن يكون بمثابة نقطة انطلاق يخرج من حيزها المحدود الى الحيز العام للانسانية كلها . ففيلسوف الأخلاق أو الاجتماع لا يشرع لمن حوله بل يشرع للانسانية كافة . وقل نفس الشيء بالنسبة لجميع المسائل التي يمكن أن يعرض لها الفيلسوف كالكون والوجود والالهيات .

وعلى العكس من هذا فاننا نجد أن الأديب يعمل على دوائر متباينة الاتساع . فهو قد يضيق دائرة تأمله أشد التضييق فيصف حالة بعينها أو بيئة ضيقة بالذات ، وقد يعرض لجمال امرأة يحبها فيتغزل في جمالها ولا يعرض للجمال أيا كان وفي أي شيء يكون . ولكن الأديب حر في تضييق أو توسيع دوائره . فلقد يقترب أو حتى لقد يدخل في القطاع المشترك بينه وبين الفيلسوف ، وهو القطاع المتسم بالتعميم الشديد . ولكن دخوله في ذلك القطاع المشترك لا يكون الا لماما ولوقت قصير ، وسرعان ما يرتد منه الى مجاله ذي الدوائر المتباينة الاتساع يعمل فيها قلمه أو لسانه .

والفيلسوف لا يعرف التلميح أو المجاز أو الاستعارة أو الكناية بل يعرف التصريح وفضح المستور من المعرفة . وهو لا يخبيء المعاني كلها أو بعضها ، ولا يخفف من وقع الألفاظ أو العبارات ، ولا يترك المتأمل لكلامه استشفاف ما وراء المستور ، ولا يستخدم الكلمات ذات الأطياف من المعاني المتباينة ، ولا يهمه التأنق فيما يقول حتى يخلب لب القارىء أو المستمع بمليح الكلام وروائعه ، بل هو يقصد الى المعنى بأسلوب تلغرافي لا هم له سوى الابانة عن المعنى . ولذا فانك تجد الفيلسوف يقول المضمون في أضيق حيز بغير أو يستميل قارئه أو سامعه للقراءة أو الاستماع . المهم عنده أن يطرح الحقيقة كموضوع متجرد عن ذاتيته . ولكأنه يقول « ان ما أقوله يجب أن يقوله جميع الناس بغير استثناء » .

وبتعبير شامل نقول إن الفيلسوف يهتم بالمضمون أولا ، ولا يكون اهتمامه بالشكل الا لخدمة المضمون . فاللغة عنده لا تعدو أن تكون أداة لا تقصد لذاتها ، ولا يمكن أن ترجح أهمية المضمون . وهذا الموقف الذي يتخذه الفيلسوف ملزما نفسه به ، يخالف في الواقع موقف الأديب الذي يهتم بالشكل والمضمون جميعا ، بل الذي قد يرجح كفة الشكل على كفة المضمون في بعض الأحيان . فالشاعر التقليدي مثلا يرجح كفة أصول التعبير الشعري على ما يمكن أن يعرض له من موضوعات تهز وجدانه وتدفع به الى قرض الشعر .

وأخيرا فان الفيلسوف يقدم دائما الجديد من المضامين ، ولا يعيد تقديم ما سبق أن قدمه غيره . فالفيلسوف الخليق بهذه التسمية ليس السارد لما سبقه غيره اليه من فلسفات . انه اذا فعل ذلك يكون عندئذ مؤرخا للفلسفة وليس بفيلسوف . أما الأديب فليس عليه حرج اذا هو عرض لنفس الموضوعات التي عرض لها غيره . وأكثر من هذا فلا حرج على الأديب اذا هو عرض لنفس الموضوع الذي سبق أن عرضه على الناس طالما يصيغه في صياغة جديدة ويلبسه ثوبا جديدا .

والخلاصة أن الأدب يفيد من الفلسفة ، ولا يستوعبها في نطاقه . وشأن الأديب بازاء الفلسفة كشأنه بازاء أي علم من العلوم أو أي فن من الفنون . فهو يمد ذراعه ليقطف وردة من هنا وزهرة من هناك . على أن المهم بالنسبة للأديب هو استيعاب ما يقطفه بحيث يجعله نسيجا في قوامه الثقافي ، فيأتي أدبه مركبا جديدا وقد تفاعلت الجزئيات المقطوفة من شتى

المعارف والثقافات الانسانية قديمها وحديثها بعضها مع بعض ، أو أن تلك الجزئيات تتفاعل مع شخصية الأديب الثقافية فتوفر له النمو والتفتح من دخيله ، فيأتي انتاجه خصبا عميقا بلا هلهلة ولا تمزيق ، وبلا انتقاء شعوري لعنصر معين من هذا العلم أو ذاك ، أو من هذه الفلسفة أو تلك .

الأكاديميون والدكاترة

الدكتور السيد عمار

طرحت كلمة المحرر بعنوان عزيزي القارىء في عدد مارس ١٩٨٢ من مجلة العربي موضوعا هاما يتعلق بالأكاديمية وبحمل لقب الدكتوراه . ولقد أثارت هذه الكلمة العديد من الأسئلة حول هذه المفاهيم ورأيت أن ألقي بعض الأضواء على هذا الموضوع ...

ونبدأ بمفهوم كلمة أكاديمية (Academy) وهي في الاصل اسم لحدائق عامة خارج أثينا في اليونان القديمة وكان الفيلسوف بلوتو يقابل فيها تلاميذه وأتباعه ويلقنهم مبادئه وتعاليمه . وهكذا اصبحت مدرسته هذه غير الرسمية تعرف باسم أكاديمية . واستعملت كلمة أكاديمية لتعني مدرسة أو معهدا لتلقي العلم والمعرفة ، وأطلقت في ألمانيا لأول مرة عام ١٦٤٨ على مدارس تعليم الفروسية . وفي أواخر القرن السابع عشر بدأ إطلاق اسم أكاديمية على مدارس ثانوية دينية لتعليم الدين لتلاميذ بعض الطوائف الدينية في انجلترا . وفي أمريكا بدأ اسم أكاديمية يفقد طابع المدارس الدينية وأطلق في القرن التاسع عشر على المدارس الثانوية الخاصة ذات النظام الداخلي . وفيما بعد تحولت هذه المدارس المعروفة باسم أكاديميات الى كليات جامعية أو مدارس عالية لاعداد الطلاب للالتحاق بالجامعات . وفي عصرنا هذا أطلق اسم أكاديمية على مدارس تعليم الرقص والمبارزة وركوب الخيل وتعليم الحلاقة والتجميل . ويطلق أيضا اسم أكاديمية على المدارس التي تعد طلبتها لمهنة معينة ففي أمريكا مثلا الأكاديمية العسكرية والأكاديمية البحرية وأكاديمية القوات الجوية .

وتطلق كلمة أكاديمية أيضا على تجمعات المشتغلين بمهنة معينة بغرض الارتقاء بهذه المهنة مثل أكاديمية علوم وفنون الصور المتحركة (السينما) في أمريكا وهي التي تمنح جائزة الأوسكار سنويا لأحسن الأفلام والممثلين والمخرجين والمنتجين والمصورين وكتاب السيناريو والموسيقى التصويرية والملابس والديكورات الى آخره .

وأما عن الأكاديمية التي تعني تجمعات الاشخاص المتعلمين ـ من غير أساتذة الفلسفة ـ فقد بدأ إطلاقها على تجمعات للكتاب والأدباء والعلماء والفنانين من أجل تقديم الأدب والفنون والعلوم .

وفي القرن الخامس عشر نشأت أكاديميات عديدة في إيطاليا تحت رعاية الحكام الايطاليين ، ومن أشهر هذه الأكاديميات أكاديمية نابولي التي أنشئت عام ١٦٠٣م وضمت بين أعضائها العالم المكتشف جاليليو جاليلي . وفي عام ١٦١٦م أنشئت الأكاديمية الملكية في لندن . وأنتشرت الاكاديميات التي تضم صفوة العلماء والمفكرين والأدباء والفنانين في أوروبا ومن الاكاديميات ذات الطابع العريق والمستوى الرفيع أكاديمية العلوم السوفيتية التي تضم صفوة العلماء .

وتهدف الأكاديميات الى نشر العلوم والمعارف وتقدمها وتعقد الأكاديميات المؤتمرات العلمية وتصدر المجلات الدورية والكتب ذات المستوى الأكاديمي البحت التي لا يفهمها سوى كبار العلماء والمتخصصين . وفي نفس الوقت فانه لا يفوت هذه الأكاديميات أن تصدر مجلات هدفها تبسيط العلم والمعرفة في جميع المجالات يستطيع أن يفهمها غير المتخصصين .

وأما لقب أكاديمي الذي يطلق على الأشخاص فانه يعني درجات مختلفة من العلم والمعرفة فهناك كلمة أكاديمي (Academic) بمعنى الطالب أو المدرس في مؤسسة علمية ، وهناك أيضا أكاديمي (Academician) وتعني عضو الأكاديمية .

ومن هنا فإن كل مشتغل بالعلم والفكر والأدب والفنون يعد أكاديميا وربما يؤخذ في الاعتبار لتقييم أكاديميته إنتاجه العلمي وبحوثه ومقالاته وكتبه قبل النظر الى الدرجة العلمية الحاصل عليها . ولا زلت أتذكر واقعة حدثت في وجودي منذ أكثر من خمسة عشر عاما عندما كان أستاذ سوفيتي أكاديمي يتحدث الى تلاميذه من الحاصلين على الدكتوراة والدارسين لها ، وكان يطلب منهم أن يعيدوا كتابة البحث عدة مرات حتى تكون لغته راقية وضرب لهم مثلا بتولستوي الذي كان يعيد كتابة الجملة عشر مرات . وأضاف الاستاذ قائلا في شبه تهكم أرجو ألا تحتجوا بأن تولستوي لم يدرس بالجامعة ولم يحصل على شهادة جامعية مثلكم . وكان هذا أبلغ اعتراف من أكاديمي عريق على أن الدكتوراة ليست غاية المنتهى ودليل بلوغ قمة العلم والمعرفة .

وحامل الدكتوراة

وفيما يتعلق بدرجة الدكتوراة فهي درجة علمية تمنح لمن يستوفي شروط الحصول عليها . فعادة يختار طالب الدكتوراة موضوعا معينا يجرى فيه دراسته وابحاثه تحت اشراف أستاذ يقدم للطالب النصح والمشورة والتوجيه والمساعدة . ويقوم الطالب بكتابة رسالة يجيزها المشرف وتعرض على لجنة الممتحنين التي تناقش الطالب في رسالته فاذا أجازتها منح الطالب درجة الدكتوراة وقد يطلق على درجة الدكتوراة أسماء مختلفة وكلها تعرف عادة باسم درجة دكتوراة الفلسفة (Ph. D.) وعرفت بهذا الاسم لأن الطالب يحاول أن يقدم في رسالته شيئا جديدا مبتكرا في فروع العلم والمعرفة . وهكذا نجد دكتوراه الفلسفة تمنح في التخصصات المختلفة في الكيمياء والعلوم الزراعية والطبية والعلوم الانسانية والبيولوجية وغيرها من التخصصات . وتعتبر درجة الدكتوراه جواز المرور الى الاوساط العلمية حيث بدأ الحاصل على الدكتوراه في العمل لمدة عام أو عامين كباحث بعد الدكتوراه في معمل أحد الأساتذة لكي يجرى البحوث والدراسات التي تكسبه الخبرة حتى يبدأ بعد ذلك في الاعتماد على نفسه ويشق طريقه العلمي الطويل .

وليس ضروريا أن يصل كل حاصل على الدكتوراه الى المكانة الأكاديمية بمعناها الحقيقي فغالبا ما يتجه كثير من الدكاترة في أوروبا وأمريكا الى الأعمال الخاصة والشركات بعيدا عن العلم والبحث وربما لا ينشروا شيئا من رسالة الدكتوراه . وما زلت اتذكر أنني كنت أشاهد التلفاز الأمريكي رجلا يقدم اعلانا عن شركته المتواضعة في المدينة والتي تقوم بالكشف على مواسير المياه بالمنازل لاصلاحها لمنع التسرب وكان هذا الرجل يقدم نفسه في الاعلان بأنه حاصل على الدكتوراه في الفلسفة وان لم يذكر في أي تخصص حصل عليها .

ويمكن القول بأن حامل الدكتوراه قد يكون أكاديميا أو تقف أكاديميته عند حد الشهادة التي حصل عليها كما أن الكثيرين من الأكاديميين غير حاصلين على لقب الدكتوراه . وأن المجلات الأكاديمية البحتة قاصرة على عدد معين من المتخصصين والباحثين . كما أن المجلات الهادفة الجادة التي تبسط العلم والمعرفة بأقلام المتخصصين هي بلا شك مجلات لها طابع أكاديمي يخدم قطاعا كبيرا من القراء . ولا بد أن نأخذ في اعتبارنا أن عملية تبسيط العلم ونقل المعلومات عملية صعبة . فكثيرا ما نرى أن علماء (كبارا) فشلوا كمحاضرين لعجزهم عن توصيل العلم والمعرفة الى تلاميذهم وأن محاضراتهم تكاد تخلو من الطلبة الذين انصرفوا عنهم .

النيجر: الناس

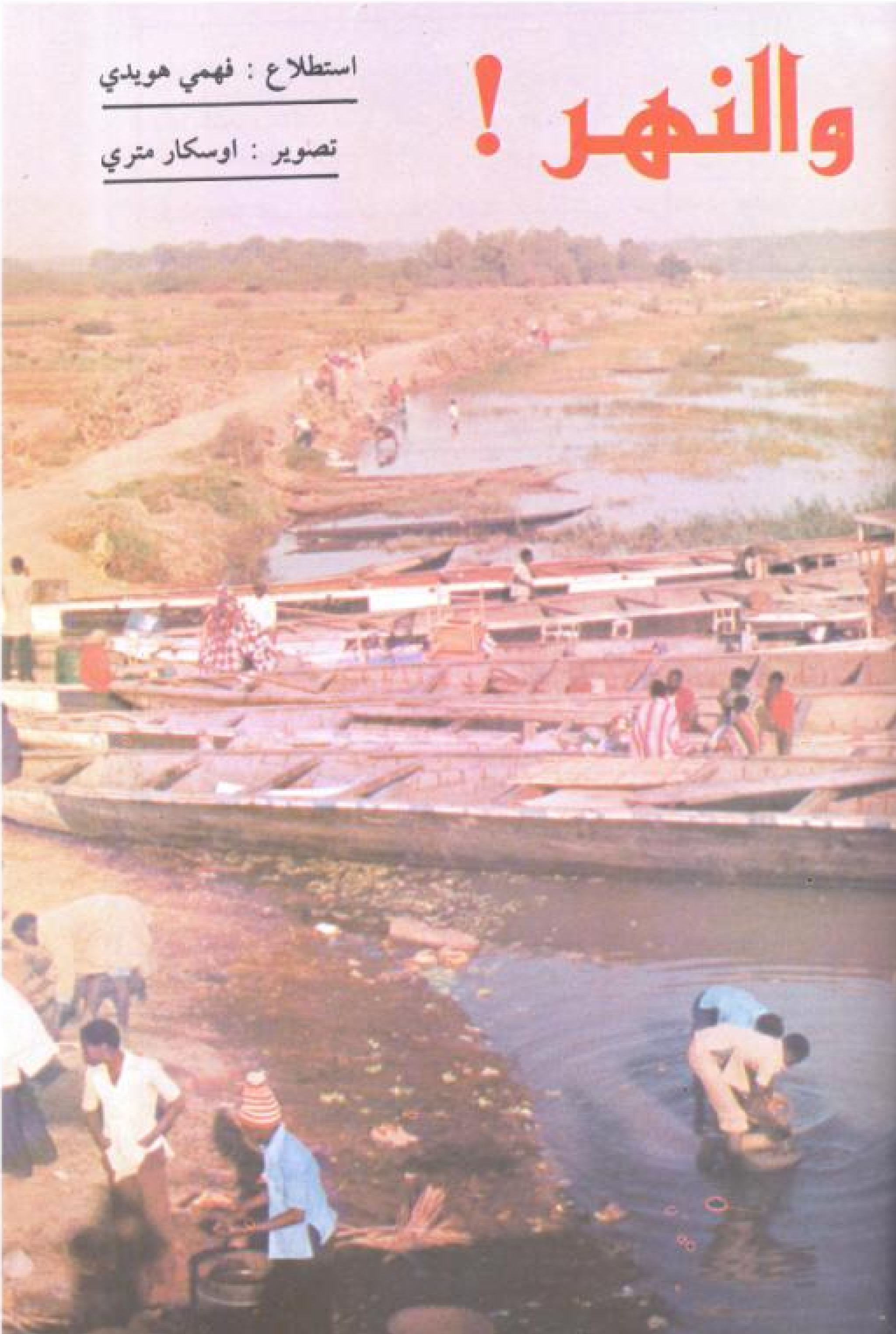


أحد روافد نهر النيجر في جنوب غرب البلاد. لاحظ ضحالة المياه التي باتت تشكل عقبة أمام التنمية في البلاد.

والنهر !

استطلاع : فهمي هويدي

تصوير : اوسكار متري



عند أهل النيجر ، اذا كنت أجنبيا ، فانت « نصراني » حتى يثبت العكس . وعند العرب فان اهل النيجر « نيجيريون » حتى يثبت العكس :

وذلك أن ما من مجلس قعدت فيه هناك ، وهممت بطرح مشكلتي كأجنبي تلاحقه حكاية النصرانية وتقيم حاجزا بينه وبين الناس ، الا وجدت الجالسين من أهل النيجر يبادلونني الشكوى ويسألون معاتبين : اما آن للعرب ان يعرفوا ان هناك بلدين هما النيجر ونيجيريا ؟ واذا كان الخلط مغفورا لعامة الناس ـ وهم معذورون بحكم تشابه الكلمتين ـ فانه لا يغفر بأي حال لكبار القوم من ساسة ووزراء ومثقفين ؟!

وهذا اللبس ، ايا كان حجمه ، انما يعكس بوجهيه حقيقة واحدة ، هي ان ثمة جهلا متبادلا بيننا وبينهم . فقد اعتادوا ان يروا الاوروبيين داخلين من أبوابهم ، ولم يكترثوا بكونهم فرنسيين او انجليزا او طليانا ، لكنهم ـ بحس المؤمن البسيط ـ لم يروا فيهم الا انهم نصارى في قول ، وكفار في قول آخر . ومنذئذ ظنوا ان كل الغرباء الذين يفدون الى بلادهم ليسوا الا نصارى .. وكان حدسهم صادقا الى حد كبير !

ومن ناحيتنا ، فقد كان من ثمرات الانكفاء العربي على الذات ، ان انقطعت خطوط الاتصال فيما بيننا وبينهم ، واختلطت علينا الصور والمعلومات ، حتى كدنا نصنفهم جميعا في سلة واحدة ، ونتعامل معهم كما كان يصنفهم الرحالة العرب الاقدمون ، باعتبارهم أهل سودان وكفى !

كنا قادمين من « باماكو » عاصمة مالي بشعور الخارج لتوه من سرادق كبير للعزاء ، « المصاب » فيه راح ضحية الفقر والجفاف ، والوداع في المطار تخلله كلمات الصبر والثبات والتذكير بان كل شدة الى زوال .

لكن المفاجآت توالت علينا في نيامي . ولم تكن حرارة الاستقبال وترتيباته سوى واحدة منها . المفاجأة الثانية اننا وجدنا حياة تدب في عاصمة النيجر ، افتقدناها طوال اقامتنا في باماكو . كانت هناك بنايات تقام ، ورافعات تشب في سماء المدينة ، وخوازيق تدق وطرق ترصف ، وعمال ينظفون تلك الطرق !

وكانت ثالثة المفاجآت يوم الوصول .

ذلك أننا لم نكد نخرج من المطار ساعة الغروب ، حتى وجدنا العاصمة وكان كل رجالها خرجوا الى الشوارع لصلاة المغرب . عند كل منعطف كانت صفوف المصلين تتناثر خاشعة في زوايا صغيرة فرشت بحصير متواضع ، وليس لها من مقومات البناء سوى احجار مرصوصة ترسم اضلاعا اربعة . لا جدران ولا محاريب ولا قباب أو مآذن ، ولا بسط ولا ثريات . على النواصي يتنادون للصلاة ، فيخرج من بالبيوت ويتوقف المارون بالشوارع ، ويترك أصحاب الاعمال ما بايديهم ، ويذهبون الى تلك الزوايا في هدوء ، بغير امر ولا زجر كما يحدث في بعض بلاد العرب .

رابعة المفاجآت انني وجدت لافتات منتشرة في العاصمة ، كتبت عليها عبارات بالفرنسية تقول : الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن كتابنا ـ والتوقيع سيني كونتشي (رئيس الجمهورية) . وهو نوع من اللافتات يعكس توجها يندر رصده في اي من المستعمرات السابقة ، التي اصطبغت بالصبغة الفرنسية او الانجليزية .

لا تستغرب شيئا من ذلك . فالتدين العميق سمة لعبت دورا بالغ الاهمية في حياة النيجر ، قبل الاستقلال وبعده . هكذا قال لي الحاج اسماعيل عمر ، رئيس الجمعية الاسلامية في نيامي ، وهي المؤسسة الرسمية التي تدير النشاط الاسلامي في البلاد ، ولها فروع في كل المحافظات .

فالنيجر ـ اضاف ـ يتمتع بأغلبية اسلامية ساحقة ، تكاد تصل بها الى الاجماع . فمن بين خمسة ملايين ونصف المليون ـ هم كل سكان البلاد ـ تصل نسبة المسلمين الى ٩٨٪ . نعم . هناك مسيحيون ووثنيون ، لكنك لن تجد مسيحيا في النيجر من اب وام مسيحيين الا في حدود عدد أصابع اليدين . وغاية ما يمكن ان يحدث هو ان يتنصر بعض الوثنيين اساسا ـ لسبب او آخر ـ نتيجة لنشاط بعثات التبشير التي جاءت مع الاستعمار في بداية القرن . واذا كانت هناك كنائس في المدن الكبرى ، وكاتدرائية في العاصمة ، فهي للاجانب بالدرجة الاولى ، ثم لتلك القلة القليلة من الذين تنصروا . هناك ايضا وثنيون في الغرب ، يتركزون في جورمنكه ، وهؤلاء أكثرهم من فولتا العليا وعددهم لا يتجاوز عشرة آلاف شخص ، واقبالهم على الاسلام يتزايد ، حتى ان الجمعية الاسلامية



انشأت مسجدا لهم في العام الماضي (١٩٨١) .

فيما عدا هؤلاء وهؤلاء ، فلا شيء غير الاسلام في النيجر من اقصاها الى اقصاها . وانتشار الدين على هذا النحو رتب مجموعة من النتائج والقيم السلوكية في المجتمع . فقد اصبح احترام الرجل يقاس بمقدار حفظه للقرآن الكريم . وعندما التقيت بوزير التخطيط براء محمد (ابراهيم) الذي يتكلم الفرنسية ولا يعرف العربية ، كان اول ما فعله انه قرأ أمامنا سورة الفاتحة ، وبعضا من آيات سورة يس ، ثم « قل هو الله احد . . » .

كما اصبح الذهاب الى المسجد في مواقيت الصلاة امرا مفروغا منه ، ولا يحتاج الى دعوة . واذا حل موعد الصلاة في اي وزارة فان الجميع يتوجهون الى المصلى بصورة تلقائية . ولم يعد يستطيع فرد ان يمتنع عن الصلاة ، حتى اذا أراد ، كما بات من المتعذر على اي انسان ان يقول بانه غير مسلم ، وان رفض الاسلام في قراره نفسه ، الامر الذي اغلق الباب تماما امام اي تنظيم شيوعي . أما الحج فانه حلم كل مسلم ومسلمة ، حتى ان متوسط عدد حجاج النيجر وصل الى خمسة آلاف كل عام .

بل ان أحد اسباب انتشار الأمية في النيجر ان الناس كانوا يرفضون الالتحاق بمدارس « الكفرة » الفرنسيين ، نعم ان السبب الاول هو ندرة تلك المدارس التي اقامها المستعمرون . لكن مقاطعة ذلك العدد النادر من المدارس تشكل سببا آخر لا ينكر . لقد كان الناس يكتفون بالكتاتيب ، يوفدون اليها ابناءهم ليتعلموا بعضا من القرآن والحديث والفقه - يبرئون به ذمتهم امام الله - ثم يخرجونهم للعمل ، حيث يرتدون الى الأمية بعد سنوات ، ويفضل الاهل هذا المصير عن الحاقهم بمدارس الكفرة ، وتعلم لغتهم !

النهر : المصلحة والمحبة

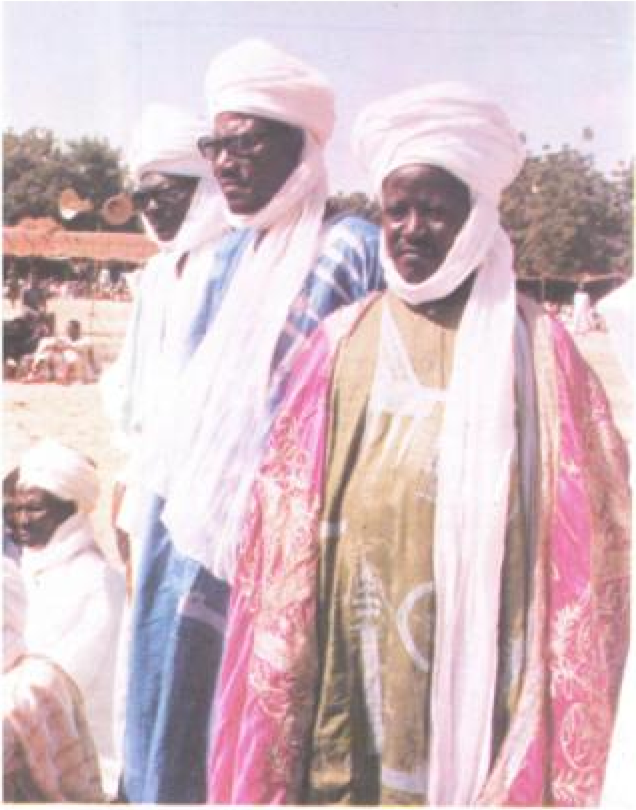
لكن تلك المفاجآت كلها في جانب ، ومفاجأة - أو مفارقة - العلاقة بين النيجر والنهر ، والنيجر والدولة ، في جانب آخر !

ذلك ان ارتباط اسم البلد باسم النهر يوحي على الفور بان ثمة علاقة حميمة بينهما تبرز هذا الالتصاق ، كتلك التي تربط - مثلا - بين دجلة والعراق ، ونهر النيل بمصر ، والتايمز بانجلترا ، والسين بفرنسا . لكن الواقع غير ذلك تماما . فالعلاقة بين البلد والنهر فريدة من نوعها ، فيها من الضرورة أكثر مما فيها من الود ، ومن المصلحة أكثر ما فيها من المحبة .

ذلك ان انتماء النيجر للصحراء والبر ، أكثر من انتمائها للنهر !

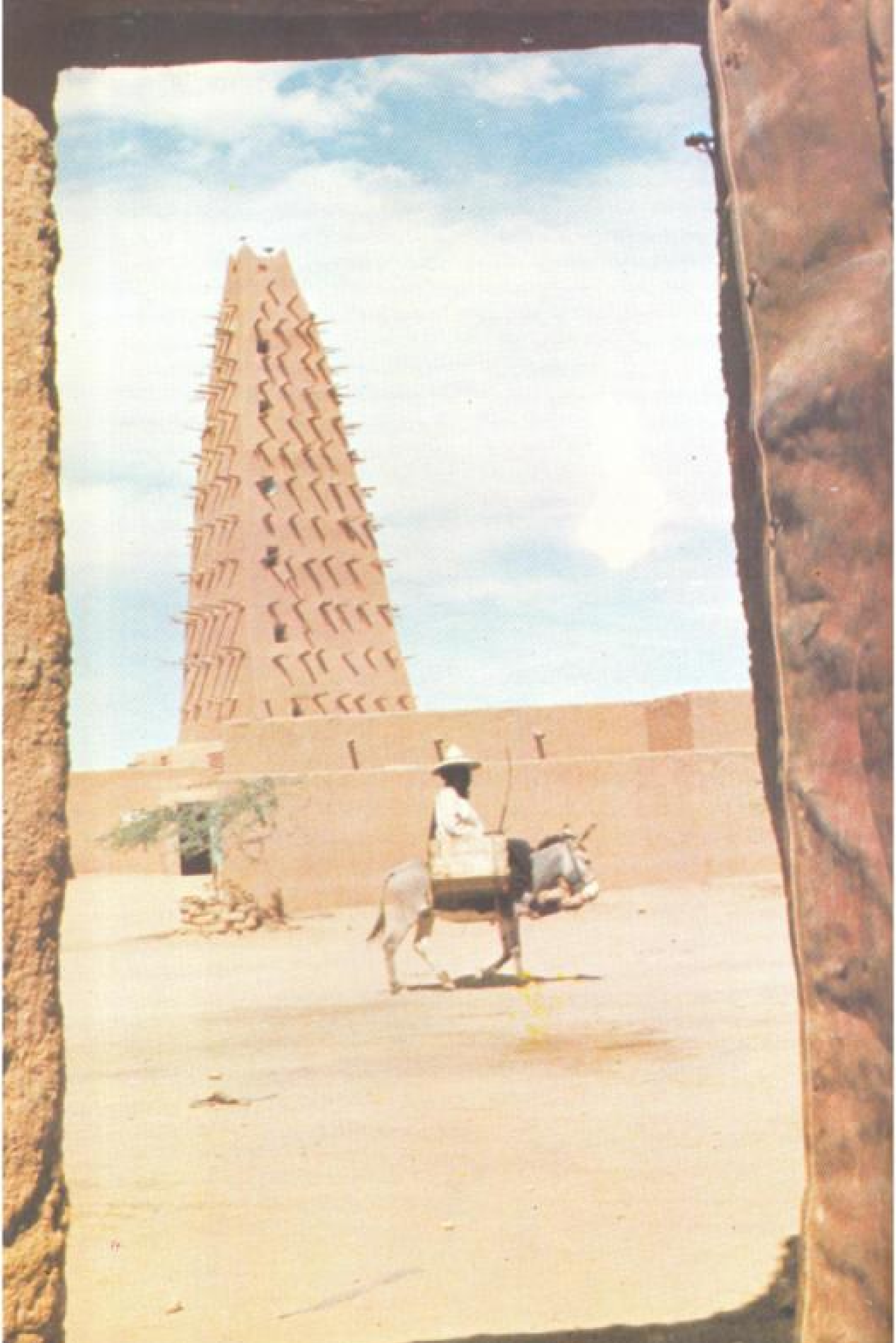
فهذا النهر ، الذي يبلغ طوله ٤٢٠٠ كيلومتر ، لا يمر في جمهورية النيجر منه سوى ٥٥٠ كيلومترا فقط ، لا تؤثر الا في الطرف الجنوبي الغربي من البلاد ، الامر الذي قلب تركيبها رأسا على عقب . اذ أصبح النماء والخصب والحياة ، مقصورا على تلك المنطقة دون غيرها ، وباتت أكثر اراضي النيجر صحراء مملة قاحلة ، تتراوح بين المنخفضات والسهول الرملية ، والحواجز البركانية التي تصل الى ذروة ارتفاعها في قمة الاية - في اقصى الشمال - حيث تبلغ تلك الذروة الفين و ٣١٠ أمتار .

وليت الامر بقي مقصورا على نصيب متواضع من نهر النيجر ، ولكنه - ايضا - نصيب من ذلك الذي يسد الرمق بالكاد ، فلا يغني ولا يسمن من جوع ! فبعد ان يتخذ النهر منبعه من هضبة على الحدود الغينية ، يشق طريقه بقوة الى الشمال متجها الى مالي ، ثم ينثني ليصل الى



وجوه تصادفها في كل مكان ، من مختلف قبائل النيجر ، لاحظ تعدد اغطية الرأس ، وتنوع ألوانها الزاهية . وعلى الصفحة المقابلة .. اغاديس ، بمئذنة مسجدها الشهير الذي يقصده السياح في كل مكان في رحلة مع التاريخ ، وسط بلاد الطوارق ومقر السلطان ، وأهم مراكز التجارة الهامة في قلب الصحراء .





النيجر ، فيصل اليها بعد ان يضعف اندفاعه وتقل جدواه ، حيث يختار الركن الغربي ليمر فيه على استحياء . ويتجه بعد ذلك الى نيجيريا ، محدثا دلتا كبيرة عند مصبه ، قبل ان ينتهي بالمحيط الاطلسي .

اي ان النهر ، الذي تحمل البلاد اسمه ، يوقع على صفحة النيجر فقط ، ليثبت الوجود ، دون ان يمارس حضورا ذا قيمة !

ورغما عن ذلك ، فان أهل النيجر لا يملكون خيارا . فليس امامهم الا ان يحتفوا بمروره ، ويتعلقوا به ، ويتوسلوا بكل الطرق لكي يفيدوا منه ، خصوصا في زمن الجفاف والجدب ، عندما تنقطع الأمطار ويصبح النهر ملاذهم الوحيد . ولأن مياه النهر ضعيفة ، فانه يتعذر على السفن ان تمر به ، الامر الذي بدد أمل النيجر في الوصول الى المحيط ، وحصر منافذ الاتصال بها في الطرق البرية وحدها .

يحدث ذلك في بلد يعتمد على الزراعة و ٩٠٪ من سكانه فلاحون ، وهنا المشكلة الحقيقية !

لهذا السبب فان حكومة النيجر تعتبر ان توفير المياه للبلاد ، وفتح منافذ توصلها الى البحر من أهم القضايا الحيوية التي تشغلها . بل هي قضية « حياة او موت » على حد تعبير وزير التخطيط براه محمد .

بعد ان قرأ الرجل ما تيسر له من القرآن الكريم ، نهض أمام خريطة كبيرة وملونة للنيجر ، لا يطل اللون الاخضر الا من طرفها الغربي الجنوبي فقط ، بينما تكتسي كل مساحتها الشاسعة بألوان تبدأ بالاصفر وتنتهي بالبني القاتم .

بمؤشر في يده مر على حدود النيجر وقال : المشكلة ليست بسيطة . فنحن مطوقون بسبع دول هي : ليبيا ، والجزائر وتشاد ، ومالي ونيجيريا وفولتا العليا وبنين (داهومي) . وأطول حدودنا مع نيجيريا (١٢٠٠كم) ثم الجزائر (١٠٠٠كم) . ولا نستطيع ان نعيش دون ان يكون لنا منفذ الى العالم الخارجي . نعم ان احتياجات البلاد تصل الآن عبر البر من نيجيريا في الجنوب والجزائر في الشمال ، الا انه لا مفر من تأمين طرق دائمة تحمل تجارتنا وتوصلنا اما الى المحيط الاطلسي او البحر الأبيض المتوسط اذا أمكن .

ولحل هذا الاشكال سعينا الى اقامة سد على نهر النيجر (هو سد كانداجي) ، وهو مشروع تشترك في تمويله دولة الكويت ، والبنك الاسلامي مع دول ومؤسسات غربية اخرى . واذا تم تنفيذه كما هو مقدر في سنة ٨٤ ، فسوف يؤدي ذلك الى ارتفاع منسوب المياه في الجزء الذي يمر بالنيجر في النهر ، الأمر الذي يضمن وصول السفن من المحيط الى داخل البلاد والعكس .

والمشروع الثاني الذي تحلم به النيجر ، وتشارك في تمويله الكويت ايضا ، يقضي بتمهيد الطريق البري من مدينة زندر الهامه في الجنوب ، الى اغاديس في الشمال (٤٠٠كم) ، بحيث يتصل بالطريق الممهد بين أغاديس وارليت (مدينة اليورانيوم) ، ليواصل المسيرة الى مدينة الجازام على الحدود الجزائرية (٢٥٠كم) ، ومنها الى تمانراست في الجزائر . . ثم الى البحر المتوسط . كل ذلك بسبب بخل نهر النيجر وسوء ادائه وغياب دوره الفعال .

لكن سوءات النيجر النهر ، حملت بين طياتها ميزات للنيجر الدولة .

فقد كانت كل تلك المآخذ التي تحسب عليه عند مروره في النيجر الدولة ، هي ذاتها التي قللت من قيمته الاقتصادية طوال عهد الاحتلال الفرنسي ، فأهملوا هذه البقعة من الغرب الافريقي ، ولم تشغلهم الا قيمتها الاستراتيجية . والذين عاصروا تلك الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٦٠ ـ لايزالون يذكرون ان ارض النيجر كانت منفى للموظفين الفرنسيين غير المرضى عنهم ، سواء كانوا ضباطا في الجيش او آخرين ممن كانت تستخدمهم السلطة الاستعمارية . وسمعت من احدهم قوله ، لقد كنا ندرك قدر تعيين « جنرال » جديد في بلادنا ، ان الرجل قادم لكي يؤدب هو ، وليس لكي يؤدبنا نحن !

وكان هذا الاهمال الفرنسي « نعمة » افاد منها المسلمون في النيجر . لانه حال دون تغلغل الفرنسيين في نسيج الحياة اليومية ، وسعيهم الى خلخلة البناء الاجتماعي والثقافي ، على النحو الذي حدث مع دولة مثل السنغال ، اعتبرها الفرنسيون قاعدة لهم ، وفعلوا فيها ما فعلوا .

لقد طبق الفرنسيون نظم التعليم والادارة التي فرضوها على كافة « المستعمرات » الافريقية بطبيعة الحال ، لكنهم ظلوا عازفين عن الوصول بعملية التمزيق والتخريب الثقافي الى عمق المجتمع النيجري ، الامر الذي حفظ لمجتمع المسلمين ـ صورته كما هي ـ بغير تشوهات اضافية .

وهذ الاهمال انسحب ايضا على نشاط بعثات التبشير ، التي اعطت جل تركيزها لدول الساحل ، التي كانت ـ بحكم موقعها ـ تفيد المصالح الاستعمارية بصورة افضل من دولة مثل النيجر معزولة في الداخل ، وذات اغلبية اسلامية ساحقة . . وذلك ايضا افاد مجتمع المسلمين هناك ، اذ حفظه بعيدا عن تأثيرات ارساليات التبشير الى حد كبير .

الازمة . . وجرعة الانقاذ

ويظل النيجر النهر يمثل وجها واحدا للحقيقة في النيجر

الدولة ، اذ هو في النهاية جزء من جغرافية الارض ، التي تتنوع قسماتها بين مناطق الزراعة والتجارة في الجنوب ، ومناطق الرعي في الوسط ، والصحراء الجرداء في الشمال . وقد انعكست دلالات هذه الاقاليم الثلاثة على شعار الدولة الذي صمم بحيث يظهر عليه نبات الذرة رمزا للزراعة ، ورأس بقرة يبرز قرناها بقوة تدليلا على اهمية الرعي ، فيما احتضن القرنان شمس الصحراء القاحلة ، اشارة الى ثالث الاقاليم في النيجر .

هذه الرموز الثلاثة تظلل ارض جمهورية النيجر التي تصل مساحتها الى ١٢٦ مليون و ٧٠٠ الف هكتار ، المزروع منها فعلا هو ٣ ملايين و ١٤٩ الف هكتار (والقابل للزراعة ١٥ مليونا) - فيما تغطي الغابات ١٤ مليون هكتار ، اما المراعي فتنتشر على مساحة ٥٦ مليون هكتار .

وازاء ذلك . فقد توزعت النشاطات الاقتصادية بحيث احتلت الزراعة والغابات والمواشي ٤٧٪ من جملة النشاط الاقتصادي ، واحتلت التجارة ٦و١٢٪ ، بينما احتلت المناجم ٩٪ .

ولان الزراعة والرعي يعتمدان اساسا على الامطار . فلنا ان نتصور حجم الكارثة التي اصابت النيجر بسبب الجفاف الذي اجتاح البلاد في اوائل السبعينات . وهي كارثة حلت في اتجاهات ثلاثة : فقد ضرب الانتاج الزراعي من الذرة والارز والفول السوداني والقطن . وبعد ان كان الفول السوداني - مثلا - يمثل ٣٢٪ من الصادرات في سنة ٧١ ، تدنى نصيبه الى ٢٪ فقط في سنة ٧٧ .

وقصم ظهر الثروة الحيوانية ، حتى نفقت ، من الجوع والعطش - ٦٠٪ من الابقار و٣٧٪ من الاغنام و٣٨٪ من الجمال .

ومن ناحية ثالثة ، فان الجفاف اصاب التربة النيجرية - كما تقول دراسة الخطة الخمسية - بطور جديد من التدهور ، الامر الذي بات يهدد اغلب اراضي البلاد بالتحول الى صحاري ، اذا لم يعالج الامر على وجه السرعة !

ولولا ان القدر تدخل في اللحظة المناسبة ، وتم اكتشاف اليورانيوم مع زحف الجفاف في اوائل السبعينات .. لولا ذلك لتحولت النيجر الى خرائب وأراض مهجورة ، فقد بدأ انتاج اليورانيوم في منطقة « ارليت » - في اقصى الشمال - من منجم اكتشف عام ٧١ ، وآخر اكتشف عام ٧٨ . حتى وصلت جملة الانتاج في سنة ٧٩ الى ٣٦٠٠ طن ، فيما يقدر الاحتياطي الثابت من ذلك المعدن الثمين بحوالي ٢٨٠ الف طن .

وكان من نتيجة ذلك ان كان اليورانيوم بمثابة « جرعة الانقاذ » التي انتشلت اقتصاد النيجر من انهيار محقق ، اذ بات يمثل ٧٥٪ من جملة صادرات البلاد في عام ٨٠ .. وبسببه دبت الحياة في اوصال النيجر ، وجرت في عروقه دماء كثيرة ، دافئة وصحية .

ورغم ان اليورانيوم لم يحل دون « القضاء » الذي خيم على البلاد بسبب الجفاف ، الا انه من المؤكد انه خفف الى حد كبير من وقع هذا القضاء وحدته . فلم تؤد كارثة الزراعة الى كارثة مماثلة في الاقتصاد القومي ، لان اليورانيوم تكفل بالحفاظ على الميزان ، نتيجة تلك الصدفة التاريخية ، التي تكاد ، تكون اقرب الى المعجزة !

ومن المفارقات اللافتة للنظر ايضا ان اكتشاف اليورانيوم لم يحقق فقط توازن الاقتصاد القومي في النيجر ، ولكنه ايضا اعاد التوازن الى توزيع الثقل الاقتصادي على انحاء البلاد . فحتى عهد قريب كان كل الثقل الاقتصادي في الجنوب كما قلت ، وكان الشمال بمثابة عبء على البلاد ، لايبرر احتماله سوى قيمته الاثرية فقط ، حيث تقبع هناك مدينة اغاديس التاريخية الشهيرة ، وبعض تجمعات متناثرة صلتها بالماضي اوثق من صلتها بالحاضر او المستقبل .

كانت مدن المستقبل كلها في الجنوب . نيامي عاصمة السياسة والادارة . ومرادي وزندر مدينتي الاقتصاد والتجارة ، وجسرى التعامل مع نيجيريا . وطاوة حلقة الوصل بين المنطقة الزراعية الجنوبية ، والمنطقة الرعوية الوسطية .

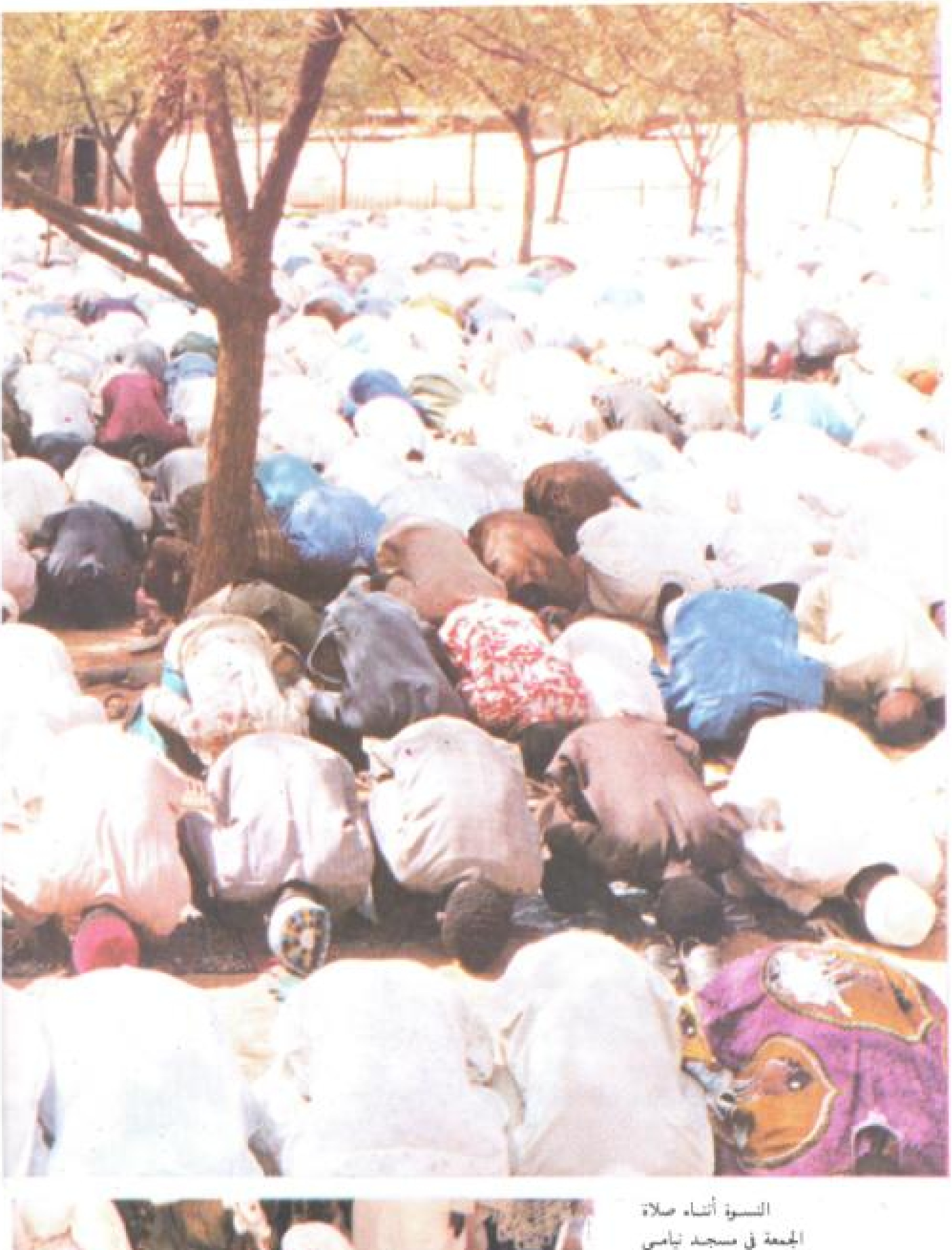
وفي مقابل تلك القلاع الجنوبية ، كانت اغاديس تقف وحدها هزيلة وكسيرة في الشمال ، وقد ادار الجميع لها ظهورهم ، بينما لم يعد يقصدها سوى السياح ، الباحثين عن التاريخ بغرائبه واساطيره .

كانت اغاديس قد بلغت سن الكهولة والشيخوخة ، واحيلت الى التقاعد منذ سنوات طويلة ، فيما كانت مدن الجنوب تختال بشبابها وتجذب كل السواعد والاموال .

هذه الصورة كلها اهتزت من الاساس عندما ظهر اليورانيوم في « ارليت » ، وبدا ان الفحم قادم على الطريق . منذئذ خطف الشمال ابصار الكثيرين ، وتحول من منطقة طرد الى منطقة جذب سكاني .. وتعادلت كفتا الميزان الى حد كبير فيما بين الشمال والجنوب .

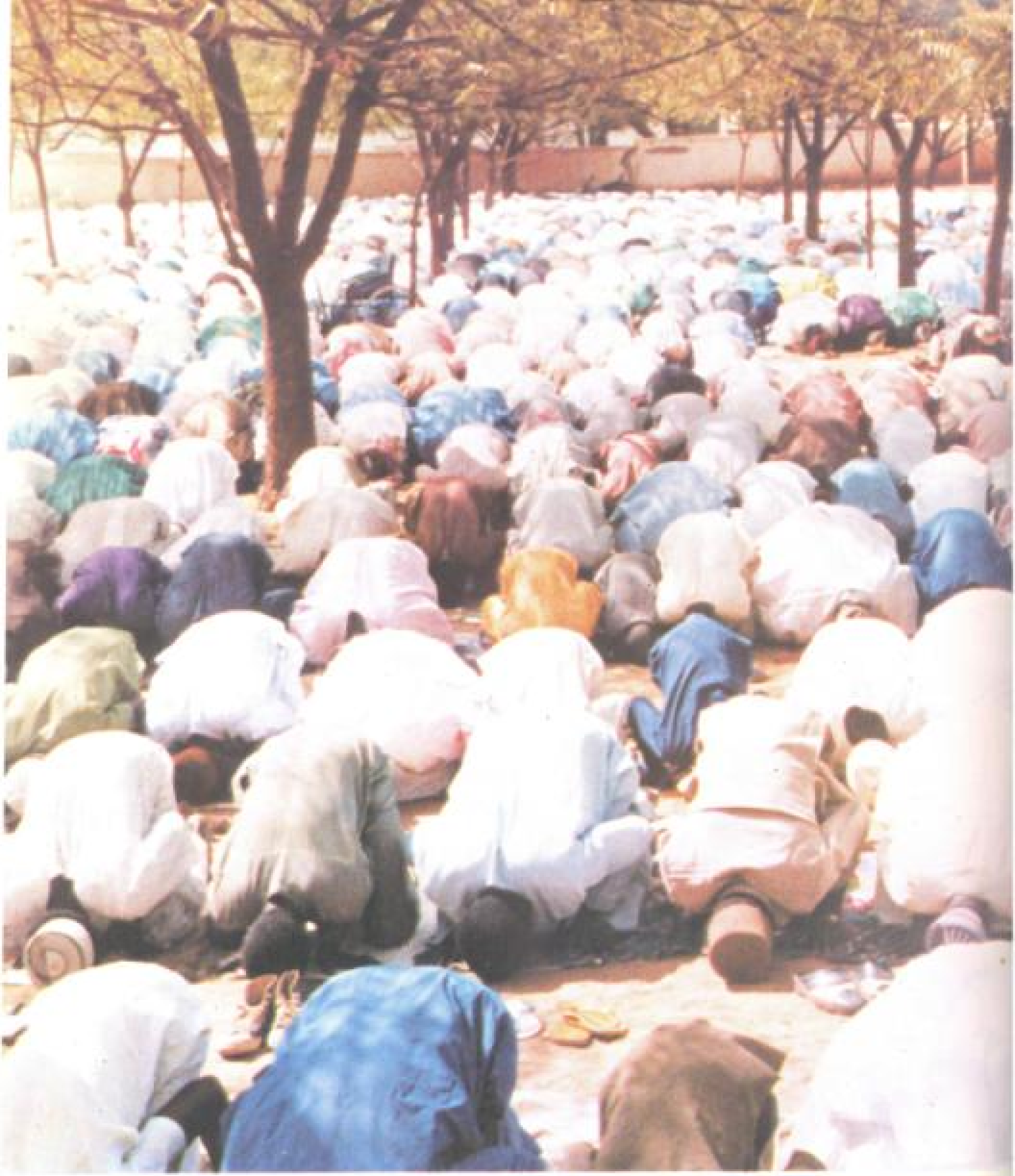
خمس قبائل اساسية

لاتزال بقايا التاريخ ومخلفاته موجودة الى الآن في وجه النيجر . وتتمثل تلك المخلفات اكثر ما تتمثل في امرين :





النسوة أثناء صلاة
الجمعة في مسجد نيامي
الكبير ، تحت مظلة
منفصلة .. جلسن بعيدا
عن الرجال .



(فوق) في فناء مسجد نيامي الكبير ، بحر من البشر يشهد صلاة الجمعة كل اسبوع ، ولا يستطيع ان يتخلف احد .. من رئيس الجمهورية الى أقل الناس شأناً .



خريطة القبائل المتشرة على صفحة البلاد ، ثم نظام السلاطين الذي لم يندثر بعد !

ذلك ان موقع النيجر بين افريقيا العربية البربرية ، وبين افريقيا السودانية الساحلية ، ادى الى ظهور مجموعتين متميزتين من السكان ، قبائل بدوية راحلة في الوسط وهؤلاء هم البربر والفلانيون ، وقد يسمون تجاوزا بالسكان البيض ، فقط لانهم ليسوا من اصول زنجية سوداء ، ثم قبائل زنجية مستوطنة في النصف السفلي من النيجر ، وهي تتوزع على ثلاثة فروع اساسية هي قبائل الصنغاي والزرما ، وقبائل الهاوسا ، ثم قبائل الكانوري .

والحق ! هذا التعدد ليس راجعا فقط الى كون النيجر احد الجسور الموصلة بين الشمال والغرب والافريقيين ، انما تلك سمة كافة المجتمعات الافريقية التي قامت على القبلية ، ولم يمر بها الوقت الكافي في ظل انظمة الدولة الحديثة ، لتذوب بينها الفوارق ، وتنصهر في بوتقة واحدة .

ولكننا نستطيع ان نرصد تأثير الموقع على قبائل النيجر في نوعية التعدد ، من حيث توزعها على قبائل بربرية او زنجية ، وليس في مبدأ هذا التعدد ، وكونها خمس او ست قبائل .

وهنا ايضا تبدو اهمية الدور الذي يقوم به الاسلام ، باعتباره اداة للتوحيد ، والقاسم المشترك الاعظم بين شعوب تلك البلاد ، لانه اذا اختلفت الاعراق والالوان واللغات والعادات والتقاليد ، لا يبقى للتوحيد ركيزة سوى العقيدة والارض .

ولذا فقد اصبح تعدد اللغات امرا مسلما به في النيجر . فالاذاعة تستخدم الفرنسية كقاعدة ، ولكنها تذيع برامج باللغات المحلية . وصحيفة « الساحل » اليومية تنشر موادها بالفرنسية ايضا ، ولكنها تخصص صفحة لكتابة التعليقات باللغات المحلية . حتى خطبة الجمعة ، فانها تلقى في انحاء النيجر باللغة العربية اولا ثم يقدم « الوعظ » بعد ذلك باللغة المحلية للاقليم . وفي العاصمة نيامي حيث يتكلم الناس لغتين هما الهاوسا وزرما ، فان خطبة الجمعة تلقى على الناس باللغات الثلاث (اذا اضفنا العربية اليها) . . وهكذا .

على أن اهم ما يلفت النظر في تلك اللغات المحلية هو انها تكتب بحروف عربية ، وهو الاتجاه الذي ساد الكثير من اطراف العالم الاسلامي غير العربية ، في حين قاومته بشدة بعض الانظمة التي تعاقبت على تلك البلدان وسعت الى انتزاع هويتها الاسلامية . فاستبدلت بالحروف العربية اخرى لاتينية . حدث ذلك في تركيا وفي اوزبكستان على سبيل المثال ، في حين مازال الحرف العربي مستخدما في اللغات الاردية والفارسية وبعض تلك اللغات الافريقية التي تشتهر منها في العالم العربي لغة « الهاوسا » ، في غرب القارة والسواحلية في شرقها .

والقبائل الخمس الاساسية في النيجر والتي تتوزع على المجموعة الزنجية ، وتلك البربرية العربية هي :

ـ قبائل الصنغاي والدرما ، التي تنتمي الى جنس واحد ، من حيث انهم بقايا امبراطورية صنغي ، ولذا يتركزون في غرب النيجر . ويعمل الصنغاي في صيد الاسماك وصناعة القوارب بصفة اساسية . اما الدرما الذين يقال انهم نازحون من كينيا ومصر ، ثم اقاموا في ارض زرما ، تبنوا لغة الصنغاى ، ثم اتجهوا جنوبا وراء الاراضي الخصبة ، حيث اشتغلوا بالزراعة . . وهم يمثلون الاغلبية في محافظات نيامي وبوبوي وبوسو .

ـ أما قبائل الهاوسا الذين يتركزون في الوسط ، فيرجح ان اصلهم صحراوي ، ثم نزحوا الى الجنوب ـ الى زندر ودوكودتشي ـ تاركين ارضهم لقبائل الطوارق . وهم يشكلون نحو نصف سكان البلاد ، ومتشرون فيما بين النيجر ونيجريا ، ويشتهرون بانهم اشطر التجار ، بينما يشتغل كثيرون منهم بالزراعة ، ومختلف الصناعات الحرفية (الجلود والنسيج بالاخص) .

ـ والكانوري الذين يسكنون اقصى شرق النيجر (بين زندر وبحيرة تشاد) ، فانهم يعيشون مع الهاوسا ، الذين يطلقون عليهم اسم « البري بري » ، وكانوا في الماضي اتباعا لمملكة كانم ـ والاسم مشتق منها ـ ثم لامبراطورية البرنو . وقد تخصصوا في استخراج الملح ، وتفوق كثيرون منهم في الصيد وتربية الحيوانات .

ويقف الطوارق على راس القبائل البيضاء ، وهم ابناء الصحراء المنتشرون في شمال النيجر ، ولا تخلو منهم دولة صحراوية في المنطقة . وهم فرع من البربر الذين يشكلون نسبة غير قليلة في شمال افريقيا . وشهرة الطوارق في كونهم محاربين شجعانا وخطرين ، تسيدوا الصحراء وسيطروا على طرق القوافل فيها . وان كان الجفاف قد كسر شوكتهم طوال السبعينات ، الامر الذي اضطر اكثرهم الى هجرة الصحراء ، وحياة الترحل بالتالي ، للاقتراب من الواحات ومن المدن ، والاستيطان حولها .

ـ أما قبائل الفلانية ، فرغم انهم يشكلون مجتمعا له تقاليده المتميزة ، عن الطوارق ، الا انهم مبعثرون في انحاء النيجر ، واكثرهم من الرعاة الذين يطوفون انحاء البلاد طوال العام وراء المراعي حيث وجدت . ويذكر انهم أكثر قدرة على التكيف من غيرهم من الطوارق ، وربما اضطرهم الى ذلك طبيعة الاعمال التي يمارسونها التي

تدفعهم الى الانتقال الدائم من موطن الى موطن ، ومن مجتمع الى آخر . وهؤلاء ايضا اصابهم الجفاف بضربة قاصمة عانوا منها اشد المعاناة .

في عالم السلاطين

وايا كان الامر ، فان تعدد القبائل في بلد مثل النيجر ، ليس وضعا مستغربا ، بل هو القاعدة في اكثر البلدان الافريقية والاسيوية ، انما الذي يمكن استغرابه فعلا هو استمرار السلاطين في النيجر الى الآن . والاشد غرابة ان يعيش هذا النظام ويظل له دور ، حتى بعدما تولى العسكر السلطة في البلاد منذ عام ١٩٧٤ .

وقد لعب التاريخ الدور الاول في خلق تلك السلطنات التي يرجع عمر بعضها الى القرن الثالث عشر والرابع عشر . فكونها لم تدخل بالكامل في اي من الدول والامبراطوريات الاسلامية الكبرى في غرب افريقيا ، اتاح الفرصة لنمو انظمة للحكم صغيرة ومستقلة عن بعضها . وهو الوضع الذي تبدى بوضوح في ممالك الهاوسا التي ظهرت منذ القرن الرابع عشر ، والتي توحدت تحت قيادة عثمان دان فوديو في بداية القرن التاسع عشر .

وهناك سببان قد نستطيع ان نضيفهما لاستمرار نظام السلاطين في النيجر :

ـ الاول يتصل بالطبيعة الجغرافية للمنطقة ، وترامي اطرافها ، بصورة يتعذر معها الاتصال بين تلك الاطراف ، الامر الذي يشكل عنصرا مساعدا على نمو تلك الكيانات شبه المستقلة .

ـ والثانية يتصل برسوخ العقيدة لدى اهل النيجر ، والتدين الشديد في غير ادراك للتعاليم الاسلامية ، وهو مادفع الناس للتعلق بنظام السلاطين الذي يكتسب بعدا دينيا في القيم الاجتماعية السائدة ، اذ هو اشبه بالخليفة في التاريخ الاسلامي ، الذي بدا خليفة الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اتسع اللقب لكل اشتات السلاطين ، من كان جديرا بالخلافة ومن تبرأ منه تلك الخلافة !

وايا كانت الاسباب فالحاصل ان النظام لايزال موجودا ، وان عالم السلاطين لايزال مستمرا باشخاصه وتقاليده ، رغم اندثاره في المناطق الاخرى المجاورة مثل مالي ، وان اختلف نفوذه وتقلصت صلاحياته ، حتى باتت النيجر تعيش مفارقة تعدد التقسيمات . من تقسيم طبيعي للبلاد يوزعها بين ثلاثة اقاليم ، اقليم زراعي وآخر للرعي وثالث صحراوي . الى تقسيم اداري يوزعها على ٧ مقاطعات تضم ٣٥ محافظة ، الى تقسيم ثالث تقليدي يوزع اغلبية رقعة البلاد بين خمسة سلاطين كبار ، تتبعهم شريحة واسعة من السلاطين الصغار ، ثم شيوخ القبائل ، ثم شيوخ القرى والنواحي على قمة هذا الهرم ـ او الاهرامات ـ تتربع الحكومة العسكرية التي يرأسها العقيد سيني (حسين) كونتشي .

والسلطنات الخمس هي : سلطنة آيير وآهير في الشمال (منطقة الطوارق) ومقرها اغاديس ـ والثانية سلطنة داماجرم ومقرها زندر ثم سلطنة مرادي وسلطنة تبرى في الجنوب ، واخيرا سلطنة دوسو شرق العاصمة نيامي .

وليست هناك بالضرورة علاقة بين حدود السلطنات وحدود المقاطعات الادارية ، فقد تتطابق هذه الحدود نسبيا كما في دوسو ـ اذ هي سلطنة واقليم في آن واحد . وقد تتجاوز السلطنة حدود الاقليم ، مثل سلطنة داماجرم التي يشكل اقليم زندر جزءا منها ، وتشكل مدينة زندر عاصمة لها . وقد يضم الاقليم اكثر من سلطنة ، مثل اقليم مرادي الذي يضم سلطنة مرادي وجزءا كبيرا من سلطنة تبرى . وقد يخرج الاقليم عن نطاق السلطنة والسلطان ، كما في اقليم نيامي ، حيث العاصمة ومقر رئيس الجمهورية .

رحلة الزمن

وكما ان لكل سلطنة سلطان ، فلكل اقليم حاكم ، والعلاقة بينهما دقيقة ومعقدة .

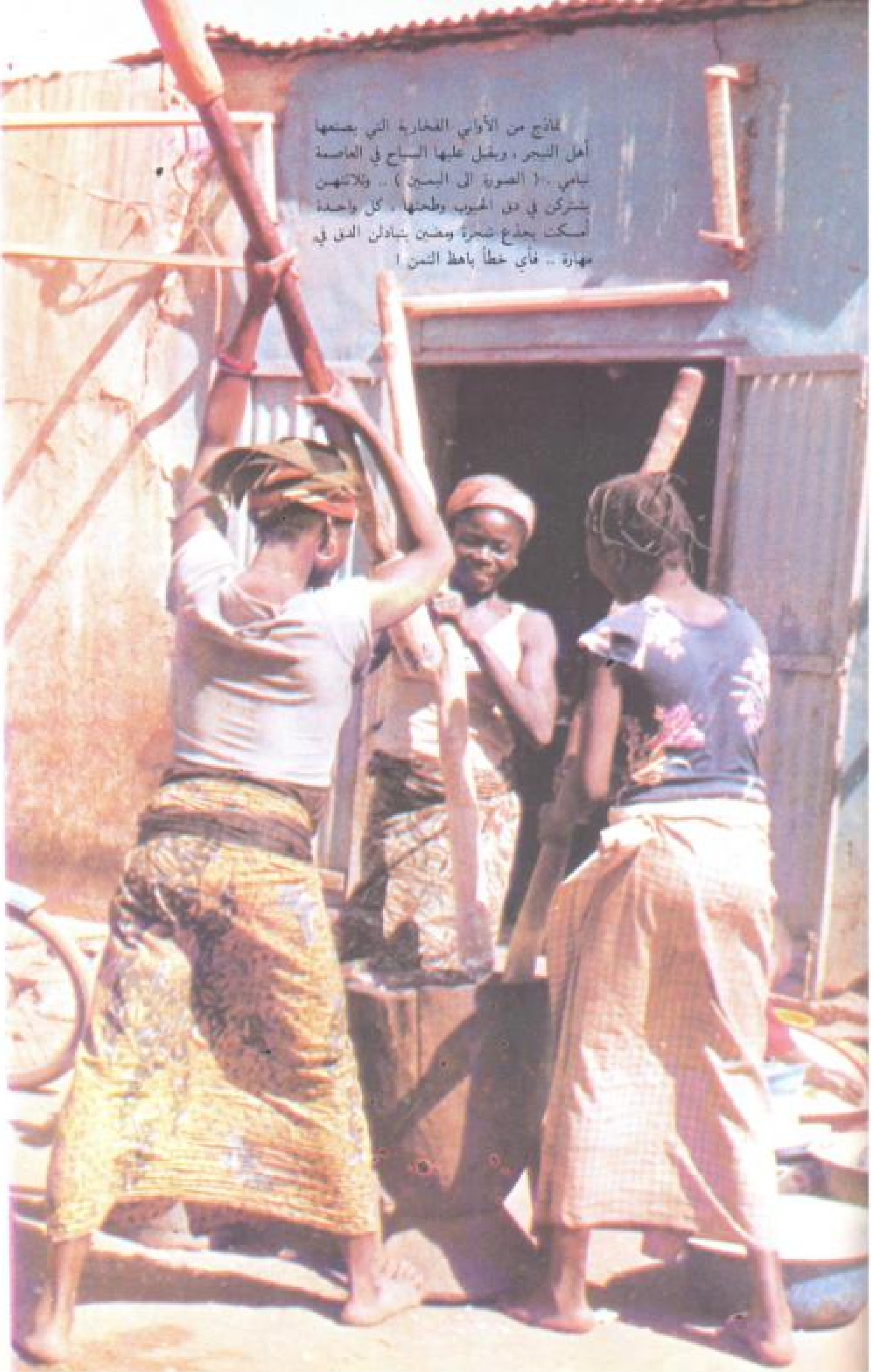
فالسلطان هو رمز للتقاليد الموروثة ، ورمز للشارع الى حد كبير ، والحاكم هو رمز للحكومة . الاول يمثل الناس امام الحكومة ، والثاني يمثل الحكومة امام الناس .

السلطان يتولى حل مشاكل الناس فيما يتعلق بتقاليدهم وعلاقاتهم واحوالهم الشخصية . وينقل الى حاكم الاقليم او الاجهزة الحكومية مايعني السلطة التنفيذية من تلك المشكلات ، ويبلغها بالامور التي تتعلق بالمسائل المدنية والجنائية .

ومن الثابت ان السلاطين كان لهم نفوذهم الكبير قبل الاحتلال الفرنسي في بداية القرن . ولكنهم تحولوا الى جباة للضرائب ـ من وجهة نظر السلطة ـ طوال عهد الاحتلال ، وان ظلوا يؤدون دورهم في الحياة الاجتماعية للناس . وبعد الاستقلال ، وفي ظل حكم حزب النيجر التقدمي ـ وهو الحزب الوحيد الذي كان مسموحا به ـ ظل ـ دور السلاطين هامشيا ، وتقلص دورهم الادبي اذ كان مندوب الحزب في الاقليم له اليد العليا والكلمة الاخيرة .

ومنذ تغير نظام حكم الرئيس هاماني ديوري ، وتولى العسكر السلطة ابتداء من عام ١٩٧٤ تنامى الاتجاه الى





نماذج من الأواني الفخارية التي يصنعها
أهل النيجر، ويقبل عليها السياح في العاصمة
نيامي .. (الصورة الى اليمين) .. وثلاثتهن
يشتركن في دق الحبوب وطحنها . كل واحدة
أمسكت بجذع شجرة ومضين يتبادلن الدق في
مهارة .. فأي خطأ باهظ الثمن !

تنشيط دور السلاطين . وكما قال لي الرجل الثاني في السلطة المسئول عن مشروع «مجتمع التنمية»، وهو مقدم في الجيش يتولى وزارة الصحة اسمه آدم مومونى جارماكوي ، ان النظام الجديد يدرك اهمية السلاطين . ويريد ان يستثمر نفوذهم الادبي في تحقيق التنمية الاقليمية . واضاف الرجل الذي لايزال يرتدي ثيابه العسكرية ، ان السلطان يمكن اختياره رئيسا للمجلس الشعبي في منطقته ، واذا امكن توسيع قاعدة انتخابه ، والتدرج بالمنصب حتى لايظل وراثيا . فان تلك خطوات يمكن ان تقود البلاد الى نوع فريد من الديمقراطية النابعة من واقع النيجر .

كان السلطان يتقاضى ١٠٪ من دخل الضرائب على رءوس البشر طوال عهد الاحتلال ، وهو نظام ابتدعته السلطة الاستعمارية في مستعمراتها . لكن النظام تغير بعد الاستقلال ، واصبح السلطان موظفا عموميا ، بل من كبار موظفي الدولة ، اذ صار السلاطين الخمسة يتقاضون رواتب ثابتة من الحكومة ، تفوق رواتب الوزراء .

اما السلاطين الصغار ، الذين يعد كل منهم شيخا او زعيما لمجموعة القبائل ، فانهم يتقاضون مكافآت من الحكومة ايضا ، وهي من اربع درجات ، تتفاوت حسب حجم القبائل التي يتزعمها ، بحيث انه كلما كبرت الرقعة التي يبسط عليها نفوذه ، علت درجته المالية .

بينما شيوخ القبائل يعيشون على نسبة ١٠٪ من الرسوم التي يوردونها لخزانة الدولة ، ورغم ان الضرائب على الرؤوس الغيت منذ عام ٧٧ ، الا ان هناك رسوما اخرى مفروضة على الانتاج الزراعي والماشية والملكية العقارية والتجارة .

ورغم ان الزمن قد تغير من حولهم ، الا ان السلاطين الكبار ـ الخمسة ـ لايزالون يعيشون مظاهر وطقوس العصر الذي ولى . فلكل سلطان ثيابه الخاصة ـ المطرزة بخيوط الذهب واللامعة ـ وله قصره وحرسه الخاص من حلة السيوف الافريقية الطويلة . غير حاشيته الذين باتوا يسمون مستشارين ومديري مكاتب وسكرتيرين .

ولاتزال في قصر سلطان زندر قبور كافة اجداده السلاطين منذ ٧٠٠ سنة ، خصص لها فناء خلفي ، واحيطت بكافة مظاهر العناية والاجلال اللائقة بالمقام . وهو التقليد المتبع ايضا في قصر سلطان آهير المقام في اغاديس .

وللسلاطين الخمسة مجلس يرأسه سلطان دوسو واسمه اوتا (عثمان) جرماكوي ، وهو شقيق الوزير المسئول عن مشروع «مجتمع التنمية» ويتولى هذا المجلس التنسيق بين السلاطين فيما بينهم البعض ، ثم فيما بينهم وبين الحكومة .

وعندما ذهبت للقائه ، كان الرجل جالسا بجسده المليء في مقعد وثير ، وقد وضع على راسه عمامة كبيرة ، وغطت النقوش المذهبة صدره العريض ، بينما وقف حوله الاتباع في خشوع ، يترقبون اشارة منه . في حين كان يفد عليه بعض رؤساء المناطق التابعة له ، وعددها تسع ، يسرون في اذنه بكلمات ، كان يعقب عليها بهزة من رأسه ، يفهم السائل منها كل شيء!

بعدما ألقيت عليه عدة اسئلة شخصية ، اجابني ونظارة شمسية لامعة تغطي عينيه . فقال ان عمره ٧٢ عاما ، اذ هو من مواليد عام ١٩٠٩ . وانه في منصبه هذا منذ عشرين عاما ، وانه كان ضابط امن في وزارة العدل ، ثم احيل الى التقاعد بطلب منه في بادية الستينات ، ليصبح السلطان رقم ٣٢ في عائلته ، التي تتربع على عرش سلطنة دوسو منذ ٣٠٠ سنة .

وبعد تردد اجابني بان لديه ٢٣ ولدا وبنتا ، من اربع زوجات ، تزوجهن على سنة الله ورسوله . اذ لم يكن بيده حيلة ، ازاء ضغط العائلات عليه . كل اسرة تسعى لتزويجه واحدة من بناتها ، تعلقا بالنسب الرفيع ـ وهو تقليد شائع في دول غرب افريقيا يقتضاه ، تعرض كبار الاسر بناتها على الشخصيات المرموقة دينيا او سياسيا ـ فكان كل مافعله ان توقف عند الرابعة .. وانجب هذا العدد !

وقد انهى السلطان تعليمه الثانوي ، ثم التحق بالوظيفة ، وادى فريضة الحج سنة ١٩٣٨ ـ وذهب الى الاراضي الحجازية مشيا على الاقدام في رحلة استغرقت ثلاثة اشهر في الذهاب ومثلها في الاياب .

قال لي انه يتولى حل مشاكل الناس التي تصل اليه ، وان علاقته مع حاكم الاقليم جيدة للغاية وتقوم على التعاون ، حتى انهما لايختلفان في اي قضية اساسية ، «لان كل منا يعرف حدوده» . وان الجبايات هي كل مايخطر به الحاكم .. وفيما عدا ذلك فلا دخل له بشئون الخلق في السلطة .

واضاف انه ليست لديه ساعات عمل محدودة ، ولكن مكتبه وسكرتيرته تعمل طوال ٢٤ ساعة . ولكل صاحب مشكلة ان يفد الى بابه في اي وقت .

سالته اذا ماكان يظن ان نظام السلاطين لاتزال امامه فرصة لكي يعيش ويؤدي دورا ، قال انه لايعرف ماذا يجيء المستقبل ؟ ، ولكن الذي يستطيع أن يؤكده ان الناس راضون به .

مع سلطان الطوارق

لكني كنت اكثر حرصا على لقاء سلطان آهير ، وهو

سلطان الطوارق الذي يمتد نفوذه الى خارج حدود النيجر ، والذي يفترض فيه ان يكون الرجل الاول في تلك القبائل العريضة من المقاتلين الشجعان . وتخيلته في صورة تعبر عن ذلك الواقع القبلي والتاريخي .

كان السلطان ابراهيم بن السلطان عمر ـ وهذا هو اسمه ـ غائبا عن مقر في اغاديس . وقيل لي انه يحضر مسابقة للمصارعة الافريقية في بلده طاوة ، التي تتوسط المنطقتين الزراعية والرعوية . بالطائرة ذهبنا الى طاوة ، وكان في استقبالنا رئيس بلدية المدينة ، الذي اخبرته انه نظرا لضيق الوقت ، فنحن مضطرون للذهاب الى ساحة المباراة مباشرة لنلتقي بالسلطان . ونصطحبه بعد ذلك الى اي مكان نتحدث فيه معه .

وقد كانت دهشتي بالغة عندما وصلنا الى مقصورة كبار المتفرجين ، لنجد عددا من الرجال الذين ارتدوا ثياب امراء الطوارق ـ اللثام الأسود اللامع ـ ومضى رئيس بلدية طاوه يسأل كل واحد منهم : انت السلطان ؟ انت السلطان ؟ !

كان القدر الذي اعلمه عن السلاطين ، انهم ليسوا مغمورين الى هذا الحد . وان هناك فرقا لابد ان يكون جوهريا بين عملية البحث عن رجل في مثل اهمية وخطورة سلطان الطوارق ، وبين شخص اخر من عوام الناس امثالنا . واذا كان مقبولا ان توجه اسئلة الهوية عند محاولة التعرف على امثالنا ، فمن الطبيعي ان يشار الى سلطان الطوارق بالبنان ـ كما يقال ـ ويتعرف عليه الباحث من اول نظرة . . لكن ذلك لم يحدث . ومضى مرافقنا يسأل كل واحد من الجالسين في الصف انت السلطان ؟

اشار احدهم الى شاب نحيل وقال ، هذا هو السلطان ؟ . تقدم نحوه رئيس بلدية المدينة وابلغه بالأمر ، وكنت قد شددت عليه في الاعتذار له عن هذا الاقتحام الذي ربما بدا غير لائق . اذ تصورت ان اخراج السلطان من لحظات الاستمتاع بمتابعة مباريات المصارعة الافريقية أمر يستوجب الاعتذار . ولكن الصدفة حلت لنا الاشكال ، واطلق حكم المباراة صفارة الانتهاء ، وقام السلطان مع مرافقيه ، الذين تأخروا لحظة حتى شق طريقه المقدمة . . ومضى معنا الى مبنى المحافظة .

كان السلطان ابراهيم تجسيدا حقيقيا لما انتهى اليه حال نظام السلطنة . وما انتهى اليه حال الطوارق !

لقد بات موظفا بدرجة سلطان ، ليس من الضروري ان يكون مرموقا ومعروفا حيث ذهب ، وعندما اكتشفت ان رئيس بلدية طاوة ، وهو مثله في سلك كبار الموظفين ، لم يستطع التعرف عليه ، بل ولم يهتم بان يتعرف عليه وهو في ضيافته لعدة ايام ، منذ بدات المباريات ، في ذلك الحين تغيرت صورة السلطان التي اعرفها . .

ثم ان الرجل لم تكن تبدو عليه مظاهر الثراء ، ولاحتى مظاهر الصحة والعافية ، الامر الذي كان يعبر بصدق عن واقع شعب اصابه الجفاف وهده الفقر . كان هشا بصورة لاتقارن بانطباعاتنا عن رجال الطوارق الاشداء والخطرين . كان يمثل جيل السلاطين الذين تربوا في القصور ، فلم يروا غير عالمها المحدود ، ثم خرجوا ينقصهم الكثير من المعرفة بحقائق الحياة فضلا عن تجاربها .

كان السلطان ابراهيم طوال الجلسة ، حييا خفيض الصوت ، متلعثما احيانا ، صامتا كلما امكن كالماثل امام محقق يستجوبه ، ولايملك منه فكاكا .

جلس السلطان في مقعده وقد غطى اللثام الاسود اللامع اكبر مساحة من بشرته السوداء ، بحيث لم يظهر من وجهه سوى العينين والانف وطرف من شارب قاتم السواد . كان يضع في احد اصابعه خاتما فضيا ، بينما امسك في يده بعلبة فضية صغيرة مليئة بالدخان المصحون الذي كان يستنشقه بين الحين والأخر .

كان الحوار معه مشكلة ، لانه لم يعرف غير لغة الطوارق (تماشق) الامر الذي استوجب استدعاء اثنين من المترجمين ، احدهما كان يترجم اسئلتي من العربية الى لغة الهاوسا . والثاني يترجم من الهاوسا الى لغة تماشق . . مما استغرق وقتا طويلا في النقل والترجمة عبر اللغات الثلاث .

لم يكن شابا كما تصورته في البداية فقد قال لي انه من مواليد عام ١٩٢٨ ، اي انه تجاوز الخمسين بثلاث سنوات على الاقل . وهو في منصبه هذا منذ ٢٠ سنة ، ورث السلطنة عن ابيه ، الذي ورثها ايضا عن اجداده عبر ٧٠٠ سنة ، وان كان لايذكركم عدد السلاطين في اسرته .

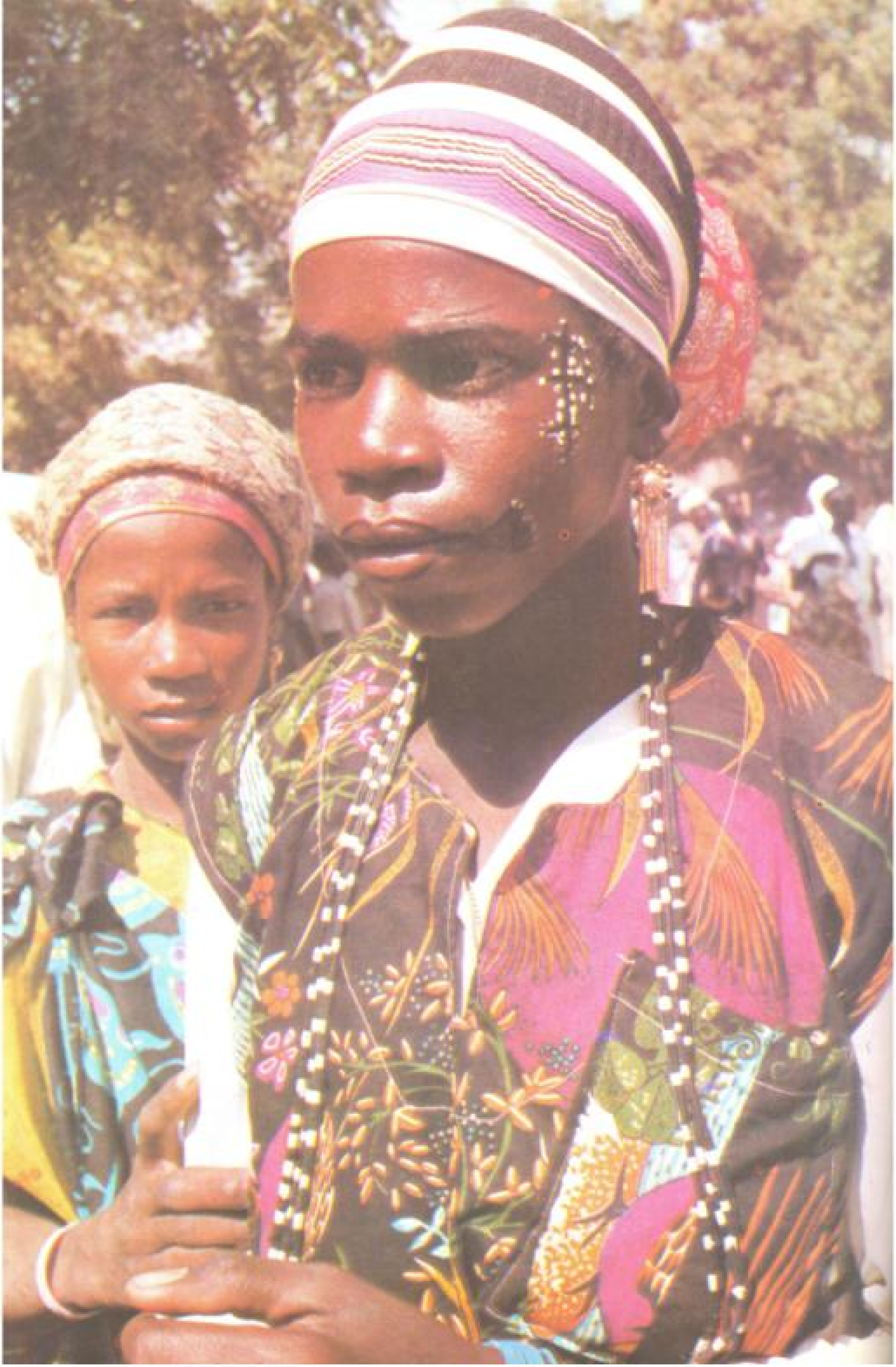
في تقديمه لنفسه ، قال انه تعلم في قصر ابيه ، ولم يذهب الى مدارس ، ولا اختلط باقران ، الا في حدود ابناء الاسرة . وانه لم يذهب ابعد من « تمارست » في جنوب الجزائر (حيث يوجد احد مراكز قبائل الطوارق) والسعودية حيث ادى فريضة الحج . وخلال نصف القرن الذي عاشه لم يترك النيجر الا لاداء هذين الواجبين . اغلب وقته في اغاديس ، ولكنه ينتقل الى العاصمة كلما دعت الضرورة الى ذلك .

زوجاته عددهن ثلاث ـ قالها بعد لحظة تفكر ـ ولديه تسعة من الاولاد وخمس من البنات . يحب مشاهدة التليفزيون ، ويقضي وقت فراغه امامه . ومنذ شبابه وهو يهوى الرياضة ، وكرة القدم بوجه اخص . ولكن



مشاهد من الاحتفال الكبير الذي أقيم في بلدة دوشا بمناسبة تنصيب سلطانها . وقد ظهر السلطان مع أقاربه وسط ميدان البلدة أثناء طقوس التنصيب ، بينما تجمع الخلق في أرجاء الميدان (فوق) ثم بعض الطبالين الذين لم يكفوا طوال الوقت عن الدق والضجيج ، إعرابا عن الفرحة (تحت) والى اليسار شاب ينتمي الى إحدى الفرق التي ظهرت يوم التنصيب تقدم ألعابا تجذب الناس . وقد ظهر هو وفرقته في هيئة جذبت الأنظار .





«السلطان لايمارس الرياضة» ، كما يقول ، اذ ليس من اللائق ان يظهر لاعبا في فريق لكرة القدم او مصارعا في حلبة .. غاية ما تسمح به تقاليد السلطنة ان يركب الخيل في الخلاء ، خارج المدينة .

سألته عما اذا كانت السلطنة عملا شاقا ومرهقا ، فقال ، ليست بالمشقة التي يتصورها الكثيرون ، فاوامره منفذة باستمرار . والحكومة لاتتدخل في عمله ، بل تستشيره في كل ما تزمع القيام به .

سألته عن عدد اتباعه من الطوارق ، فقال ان الحكومة تعرفهم ، وما يذكره ان عدد سكان اغاديس الآن ٣٠ الفا .

وعندما قلت ان بلاد آهير تتجاوز حدود النيجر - من الناحية التاريخية - ثم سألته عما اذا كان سلطانه عند حدود النيجر الراهنة ، رد قائلا ان حدود السلطنة لم تتغير ولم تتأثر بالتطورات التي حدثت خلال القرن الاخير .

وعن مصير نظام السلطنة قال انه واثق من ان ابنه سيرثه في منصبه ، وان النظام اثبت انه اقوى من اى تغيير ، وسلالته تؤدى هذه «الرسالة» منذ سبعة قرون .

وعن حاشيته قال ان له ١٥ مستشارا ونائبا ، و ١٥ حارسا ، والجميع يعملون معه في قصره ، والحراس يعيشون مع اسرهم في افنية القصر بطبيعة الحال .

سألته عما اذا كان يتابع اخبار المنطقة والعالم ، فقال انه احيانا يسمع نشرة الاخبار في التليفزيون او المذياع ، وانه لايقرأ الصحف لانها تنشر موادها بالفرنسية ، ثم انها لا تصل الى اغاديس !

وعندما انتهى حوارنا ، وخرج السلطان ابراهيم ، فيما كان حراسه قد اصطفوا على جانبي سيارة «ميكروباص» متواضعة ، حملته الى حيث يقيم .

فولكور التنصيب

لقد اتيح لي ان اشهد تنصيب احد صغار السلاطين ، وهو سلطان «دوشا» ، وهي منطقة تضم قبائل تتبع سلطان دوسو .

ودوشا بلدة تبعد بحوالي ٢٠٠ كيلو متر عن العاصمة نيامى ، والكلمة معناها في لغة الهاوسا «الجبل العالي» . علمت بالنبأ من بعض الوزراء ، وفي الصباح الباكر كانت السيارة قد حملتنا الى هناك .

منذ اللحظة التي اقتربنا فيها من المدينة ، كان واضحا انها تشهد عرسا هائلا . فالاعلام منتشرة في كل مكان ، وصفوف السيارات الرسمية وغير الرسمية بغير نهاية ، والخلق كلهم في الشوارع ، واصوات الموسيقات والمزامير ، تجلجل في السماء .

شققنا طريقنا بصعوبة بالغة الى ميدان فسيح وقف بعض افراد اسرة السلطان في مدخله يستقبلون القادمين ، بينما تكدس البشر حوله ، وتصدرته مظلة كبيرة جلس تحتها السلاطين الخمسة وكبار الضيوف والى جانبهم جلس موظفو الحكومة واصدقاء السلطان ، فيما تناثر حراس السلاطين في ارجاء المكان وقد ارتدوا ثيابا زاهية استخدمت الوان علم النيجر (البرتقالي والأبيض والاخضر) . وبينما تحولق عامة الناس حول الميدان ، كان المنشدون يقفون جانبا ، وحملة الطبول والمزامير الافريقية البالغة الطول في جانب آخر ، وفرق الفنون الشعبية بازيائهم الغريبة والاصباغ التي تلون وجوههم ، تجمعوا في مكان ثالث .

ذلك كله كان حول الميدان الفسيح ، ولكن الاهم من ذلك كله هو ما كان يجرى في وسط الساحة . كانت الارض مغطاة بالبسط ، بينما كان هناك موكب يتقدمه احد الفقهاء وقد تدلت على صدره الاحجبة والأحراز ، ووقف خلفه السلطان الجديد محاطا بافراد اسرته ، فيما ارتدت ثلاث فتيات زيا واحدا ، ربما كن بناته .

مضى الموكب يدور حول سجادة للصلاة ، نصبت فوقها مظلة دعاية لسجاير «بدسون وهوجز» ، بينما كان الفقيه يتلو الادعية والتراتيل ، والسلطان يتبعه في هدوء وخشوع ، وقد تصبب العرق من وجهه من تأثير الشمس الحارقة .

وفجأة ، توقف الموكب وتقدم السلطان الى سجادة الصلاة ، حيث قام وقعد ثلاث مرات . وجلس امامه الفقيه الذى قرأ الفاتحة وبعض الادعية بصوت مسموع ، بينما تعالت الصيحات في انحاء الميدان مرددة عبارات : لا إله الا الله - الحمد لله . وانفجرت المزامير والطبول مع اصوات المنشدين محدثة دويا كبيرا .

وبينما كان السلطان جالسا تحت المظلة والفقيه امامه . والايدى مرفوعة تردد الادعية والتراتيل ، تحولق حوله افراد الاسرة في نظام ، فيما قدم اليه احدهم ثوبا ابيض مطرزا ، كانت تلمع صفحته تحت الشمس ، ومع الثوب طاقية للراس ونعل جديد ابيض . فهمت من مرافقي ان هذا هو زى السلطنة ، يجب ان يرتديه السلطان على مشهد من الجميع .

وفي الوقت ذاته ، ظهرت ثلاث اوعية كبيرة مع الفتيات ، كل واحدة جلست في جانب وامامها الوعاء النحاسي فارغا .

وعلى مسافة عشرة امتار من السلطان ، اقيمت منصة صغيرة ، فوقها وضع مكبر للصوت ، وتناثر حوله عدد من مصوري التليفزيون الفرنسي ، ورجال الادارة

والصحافة . . وسط أصوات المنشدين والطبول والمزامير . تقدم احد افراد اسرة السلطان ، والقى كلمة نيابة عنه ، دعا شعب دوسّا الى المحبة والتضامن ، وحث الأسرة على التماسك والوقوف صفا واحدا وراء السلطان الذى اتفقت الأسرة على اختياره .

وفيما تعالى ضجيج المكان ، تقدم حاكم اقليم دوسو ، والقى بالفرنسية كلمة تعريف بالسلطان ، كانت تترجم اولا باول الى لغة الهاوسا .

وكان مما قاله حاكم الاقليم ان السلطان الحاج احمد جاوو ، كان موظفا نشيطا في وزارة المالية ، ترقى في سلك الوظيفة حتى وصل الى درجة وكيل الوزارة . وانه شقيق للسلطان المتوفى ، الذى ظل في ذلك المنصب طوال ٤٠ عاما .

بعدما أنهى حاكم الاقليم خطابه ، ووسط صيحات التهليل والتكبير ، تقدم اثنان من اسرة السلطان والبساه ثياب السلطنة ، الجلباب الابيض والعباءه المطرزة وغطاء الرأس الذي تحول الى عمامة والنعل الابيض . ثم توافد المهنئون يحيونه بحرارة ، بعد ان خلع كل منهم حذاءه عند طرف البساط . وبعد التهنئة كان كل منهم يلقى عليه « رزمة » من الاوراق المالية ، توضع اولا باول في احد الاوعية الكبيرة التي احضرتها الفتيات الثلاث خصيصا لهذه اللحظة .

وخلال دقائق ، كانت الأوعية الثلاثة قد تحولت الى تلال صغيرة من الأوراق المالية ، وفهمت من المرافق ان هذه المبالغ توزع في العادة على فقراء البلدة وفقهائها .

استمر الصخب والتهليل مختلطا بالتسبيح واصوات المزامير، طوال ربع ساعة، كانت طوابير المهنئين في اثنائها تتوافد على السلطان الجالس تحت المظلة غارقا في بحر من العرق .

وعندما انتهى زحام المهنئين اخترقت سيارة بيجو بيضاء وسط الميدان ، وتوقفت حيث جلس السلطان وحملته الى بيته ، يتقدمه المغنون والمنشدون .

ذهبنا اليه في البيت ، وفوجئنا بان كل مظاهر الاحتفال التي كانت في الميدان ، قد انتقلت في لحظات الى مدخل البيت ، وفنائه الواسع .

جلس السلطان فوق أريكة متصدرا قاعة واسعة حديثة البناء . كان وجهه ينطق بالبشر والسعادة والاجهاد ، بينما كانت رائحة العطر تفوح منه ، وآثار الحناء بادية في يديه .

وكؤوس المشروبات المثلجة تطوف على الجميع ، وقد حلت البهجة بالمكان وغمرت افراد الأسرة الذين كانوا يرحبون بالقادمين بحرارة بالغة .

جاء السلاطين الكبار واحد واحدا ، هنأوه وباركوا له . ثم انطلق كل منهم في سيارته المرسيدس الى سلطنته . .

وبقي الأقارب وأهل البلد ، وجموع المنشدين والمغنين والطبالين ، الذين يبدأ عملهم الحقيقي بعد طقوس الاحتفال الرسمي . اذ تقضي التقاليد بان تستمر اعياد البلدة اسبوعا كاملا ، احتفالا بتولي السلطان . وطوال ذلك الاسبوع يظل السلطان في بيته لا يبارحه ، حيث يستقبل جموع المهنئين الذين يفدون من كل مكان . وفي اليوم الثامن يخرج من داره ليباشر عمله .

ولهذا السبب اعتذر السلطان عن الحديث معي ، قائلا انه يتسلم العمل رسميا في اليوم الثامن ، وليس من العرف ان يتحدث في امور السلطنة قبل ذلك .

في نيامي . . السلطان والسلطة

ورغم هذا كله ، فينبغي ألا يعطي للسلاطين حجم اكبر مما ينبغي ، اذ يظل دورهم في الحياة السياسية منعدما الى حد كبير ، حتى لا يكاد زائر نيامي يشعر انهم محسوبون ضمن القوى السياسية في البلاد ، وانما يشار اليهم دائما باعتبارهم جزءا من التراث وربما الفولكلور في بعض الاحيان ، وهم في موازين القوى الاجتماعية يصنفون كما لو كانوا شيوخا للقبائل او مخاتير اعطوا القابا كبيرة وثيابا فاخرة ، وأحيطوا بطقوس ليس هناك ضرر من استمرارها ، اذ تعد من الغرائب والطرائف التي يفصح الضيف بالتعرف عليها .

وربما كان لاستمرار هذا النظام واحيائه وظيفة اخرى ، وهي ايجاد رموز يلتف حولها الشارع ، واوعية وصياغات مأمونة يدور الناس في فلكها . ففي غيبة الاحزاب السياسية ، (الغي النظام الحزبي منذ تولي الجيش السلطة في عام ١٩٧٤) وفي غيبة دور فاعل للطرق الصوفية ، كما في السنغال مثلا ، فان نظام السلطنة قد يصلح وعاء بديلا ، وبالاخص عندما يتأنس السلاطين بالصورة التي هم عليها الان ، ويتحولون الى موظفين في الدولة اختلفت القابهم .

يضاف الى ذلك ان السلاطين انفسهم لابد يدركون ان بقاءهم هو شيء ضد التاريخ . . . وان اندثار النظام في بقية الدول الأخرى المجاورة والغاءه من قبل بعض الحكومات . يمثل انذارا دائما لهم بامكانية توجيه التاريخ

في مساره الصحيح واختفاء دورهم بالتالي في اي لحظة .

وهذا الاعتبار يدعوهم الى مزيد من التكيف مع الظروف والرضا بما يوكل اليهم من ادوار ايا كان حجمها ، الامر الذي يعني ان مركز القوة السياسي في البلاد يخرج عن دائرة سلطانهم ، وان السلطان الحقيقي هو رأس الدولة الجالس في نيامي ، هو معنى ترسخ منذ تطبيق نظام الحزب الواحد في اعقاب الاستقلال عام ١٩٦٠ ، وتولى السياسيين الحكم طوال اربعة عشر عاما ، ثم ازداد رسوخا منذ تسلم العسكر السلطة منذ عام ٧٤ والى الآن .

السلطة في نيامي والسلطان هناك . . هذه هي الحقيقة الثابتة .

لكن المشكلة ان نيامي تعد مركزا للسلطة ، باكثر من كونها عاصمة للبلاد . اذ انك في كثير من عواصم الدنيا قد تستطيع ان تتمكن من قراءة المعالم الاساسية للبلد بأسرة ، فدمشق لاتزال يطلق عليها حتى الآن اسم الشام بين الناس ، لشدة تمثيلها وتجسيدها للشام كله ، والقاهرة لاتزال هي « مصر » عند الكثيرين ، وتونس العاصمة صورة طبق الاصل من تونس الدولة ـ دعك من عواصم الدول الكبرى التي تنطق بهذه الحقيقة بصورة اشد ـ اما نيامي ، فتشذ عن تلك القاعدة .

نعم هي بمثابة القلب للنيجر الآن ، لكنه ـ لنتذكر ـ قلب صناعي ومزروع ، بدأ يؤدي وظيفة بعد تلك « الجراحة » التي تمت في عام ١٩٢٦ ، وبموجبها نقل قلب النيجر من زندر في وسط الجنوب الى نيامي في الطرف القصي من الجنوب الغربي ، وكان المبرر الاول لهذا النقل هو موقع نيامي على نهر النيجر ، الذي يفترض انه اهم شريان حيوي في البلاد ، ولم تتم هذه الجراحة بغير آثار جانبية ، ابرزها ان عاصمة النيجر باتت اقرب الى حدود دول مجاورة مثل فولتا العليا وبنين ، منها الى المدن الكبرى في النيجر ذاتها .

لقد كانت زندر مركزا تجاريا وصناعيا ، ومركزا للمواصلات البرية ليس فقط بين الشمال والجنوب ، ولكن بين النيجر كله وجارتها الكبيرة نيجيريا . وكانت فضلا عن ذلك مركزا للسلطان ، والسلطة ايضا ، وعندما تمت تلك الجراحة ، لم ينتقل من زندر غير السلطة ، والسلطان الجديد .

كانت زندر هي ترشيح المصالح الاقتصادية للبلاد ، بينما كانت نيامي هي ترشيح النهر وربما المصالح السياسية قبل غيرها .

هذا كله يتعذر على القادم ان يقرأ قسمات النيجر في نيامي ، وغاية ما يستطيعه في العاصمة ان يقرأ ويسمع عن « تلك القسمات » .

مجتمع التنمية

لكن زائر نيامي لا بد أن يلحظ ان هذا بلد يحكمه العسكر . وانه جزء من المربع الافريقي الذي انتهى فيه حكم المدنيين ، وسلمت مقاليده ، طوعا او كرها ، الى رجال الجيش ، ولأمد لا يعرف مداه .

العسكر في النيجر من ذلك النوع المحافظ ، الذي لا يرى تناقضا بين استمراره في الحكم وبين إبقائه على السلاطين ، وتنشيطه لدورهم . والرئيس ، الحالي ـ العقيد سيني كونتشي ـ الذي يسبق لقبه كرئيس جمهورية ، صفته كرئيس للمجلس العسكري الأعلى ، اعلنها بوضوح ، عندما قال :

اني سأخيب آمال الذين ينتظرون ان القي بالنيجر في متاهات الافكار الثورية التي تجتاح العالم الآن ، والذين يدعوننا الآن لأن نرقص على نفس النغم ، وتردد بصوت عال اراء كبار المفكرين والمنظرين .

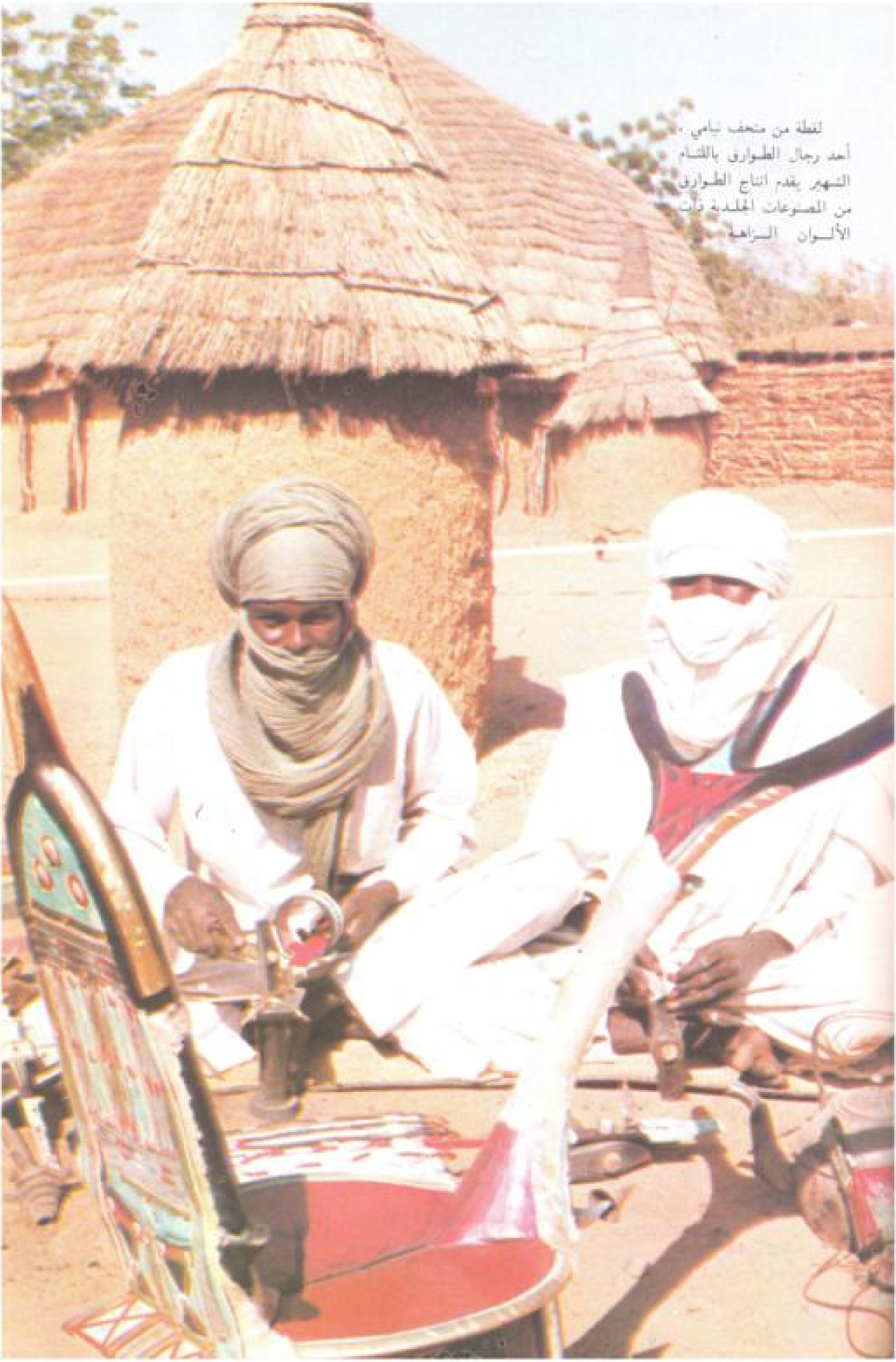
هم يطمحون في وضع صيغة خاصة بالنيجر ونابعة من تربتها ، تحقق معادلة بناء مجتمع عصري يحفظ للنيجر خصوصيتها وهويتها . ويتصورون ان هذه الصيغة تتمثل فيما اطلقوا عليه « مشروع مجتمع التنمية » . وهي المسئولية المنوطة بالمقدم آدم مومونى جارماكوي وزير الصحة .

وقد ظل الرجل لأكثر من ساعتين يشرح لي فكرة المشروع وحلم رجال المجلس العسكري في بناء نيجر لا شرقية ولا غربية ، وهو الحلم الذي يراود الكثيرين في العالم الثالث ، والذي حرك فكرة عدم الانحياز في الستينات .

ورغم وجاهة الفكرة ، وقوة الحجج التي عرضها المقدم آدم ، وصحة الوقائع والشواهد التاريخية التي ذكرها ، الا ان الشيء الذي لا زلت متشككا فيه ـ ربما بحكم التجربة ـ هو مدى اهلية العسكر عموما لتحقيق هذا الحلم !

انهم يبذلون محاولات جادة لتصحيح مسيرة المجتمع وتحقيق الانضباط فيه ، لكن المشكلة ان تحريك مجتمع اصعب بكثير من تحريك فرقة عسكرية او ثكنة كاملة . . ومع ذلك فهم يحاولون .

مثلا ، عندما تولى العسكر ، كانت مقاليد الزواج عبئا ثقيلا ضج منه الكثيرون . فاصدروا قرارا بالا يتجاوز المهر الف فرنك فرنسي (٥٠ الف سيفا بالعملة المحلية) ، بدلا من خمسة آلاف فرنك في المتوسط . وقدروا ان احتفالات الزواج يجب ان تقتصر على ثلاثة ايام بدلا من اسبوع . . كان هذا القرار في عام ٧٤ ،



لقطة من متحف نيامي .
أحد رجال الطوارق باللثام
الشهير يقدم انتاج الطوارق
من المصنوعات الجلدية ذات
الألوان الزاهية

والعسكر واصلون لتوهم الى السلطة ، فخاف الناس ونفذوه .. في القرى كان يقدم المهر عينا .. جمل او بقرة مع عدة عنزات ، كما تقضي التقاليد ، وفي المدن كان يقدم نقدا . واستمر هذا الوضع سنة واثنتين ، ثم عادت الامور الى ما كانت عليه من قبل تدريجيا .. وهكذا !

ورغم وجود العسكر على أبواب الوزارات ، وحول المرافق الحيوية ، الا ان نيامي ـ مع ذلك ـ تشعر بقدر تحسد عليه من الاسترخاء والهدوء . وهذا الاسترخاء يتحول عند الاجنبي الى شحنة غير قليلة من الثقة والاطمئنان .

سألته عما اذا كان ذلك الاسترخاء البادي على الجميع له علاقة بحبات الكولا التي يتعاطونها وهو نبات في حجم الجوزة ولون الشفق شائع في غرب افريقيا ، ولا يكاد يخلو منه جيب جلباب او سترة ، يقضمه العامة بأسنانهم ، ويقطعه البعض بالسكين ، ويتلذذ الكل بمضغه واستحلابه .. كان رد مرافقي :

انه نفى بشدة هذا الاتهام لنبات الجورو ـ وهذا هو اسمه ـ واكد على انه مجرد « كيف » وليس مخدرا . بأي حال . بدليل ان خلاصته تدخل في تركيب بعض انواع المياه الغازية الشهيرة ، الكوكاكولا ، والبيبسي كولا .

واستطرد المرافق قائلا : هل تعلم ان الجورو تلعب دورا هاما في حياة الناس هنا ؟ انهم يسمونها حبة الود والصداقة ، وهي تؤدي هذه الوظيفة فعلا . فاذا اراد شاب ان يخطب فتاة بعد ان يستشعر قبول اهلها له ، فانه يرسل اليها خمس او ست حبات من الكولا ، لتفتح له ابواب البيت ، واذا كان قادرا فانه يرسل ثوبا مع الكولا (الطريف ان ذلك اجراء يتم اذا كانت العروس من خارج الأسرة . اذ يفترض ان يتزوج الشاب ابنة عمه طبقا للتقاليد المعروفة ، ولكنه اذا اختار غيرها ، فذلك يعني انها معيبة في هيئتها او اخلاقها ، ولا يخطر على البال ان يكون العيب في الشاب او ان أيا منهما ليس معيبا ولكنه لا يصلح للآخر . المهم انه اذا اختار الشاب فتاة من خارج الأسرة ، فان ابنة العم ـ المعيبة ـ هي التي تحمل هدايا الخطيب الى خطيبته ، عقابا لها !)

ذلك في الخطبة ، أما عند الانجاب فلا تتم تسمية المولود الا بعد اسبوع ، حيث يجتمع الاهل والاصدقاء في ساعة مبكرة من الصباح ، ويقف إمام المسجد ليقرأ الفاتحة ، ثم يعلن اسم المولود ، ويوزع الجورو على جميع الحاضرين .. ويذبحون بعد ذلك شاة يأكلونها في الغداء .

ولانه يرتبط بالمناسبات السارة ، فانهم لا يقدمون الجورو في العزاء الذي يستمر اسبوعا ، بعد انتهائه يلتقي اهل المتوفي واصدقاؤه ليقرأوا عليه القرآن جميعا ، من تلك المصاحف المنفصلة الاوراق ، التي توزع على الجالسين ، بحيث يتمكنون من قراءة القرآن كله على روحه مرة او اثنتين في وقت قصير .

موقف مسئول من العربية

حيثما تذهب في نيامي ، تشعر انك في بلد لا يزال محتفظا بنكهته الافريقية وطابعه الاسلامي وانه انقذ باعجوبة من التشوه والمسخ اللذين اصابا عواصم افريقية اخرى ، بتأثير حقبة الاحتلال الاجنبي . نعم ، لا يزال الفرنسيون هناك ، ولكنهم يعملون كخبراء في الادارة او الاقتصاد ، ولا علاقة مباشرة لهم بادارة الاجهزة الحساسة في البلد «الامنية» بوجه أخص ، وذلك ضمن المزايا التي حصلت عليها النيجر من جراء اهمال الفرنسيين لها .

لغتهم الفرنسية في الادارة وأجهزة الاعلام ، هذا صحيح ، لكن اغترابهم اقل من غيرهم . بسبب سمة التدين التي تظلل المدينة . ومع ذلك فانك اذا ضربت في الاطراف ، وتجاوزت الشوارع الرئيسية حيث المحال الكبيرة ومقار الشركات ، فانك لا تسمع الا لغتي الهاوسا والزرما ، ولا تكاد تجد أثرا للفرنسية .

وتلك العلاقة الوثيقة بين اهل النيجر وبين العقيدة ، انعكست على موقفهم من اللغة العربية . وقد مر بنا كيف كانت الاغلبية الساحقة من الأهالي تصر طوال العهد الاستعماري على الحاق ابنائهم بالكتاتيب ، وهو موقف لم يتغير كثيرا الآن . انما الجديد والملفت للنظر هو موقف الحكومة من القضية .

ففي حين ناضل المسلمون طويلا في السنغال لكي تصبح اللغة العربية اجبارية في المرحلة الابتدائية دون غيرها ابتداء من الثمانينات ، وفي حين انشئت في مالي مدارس حكومية فرنسية تعلم العربية تعليما هشا وصوريا تعرف باسم مدارس « الفرانكواراب » ، وفي حين لا تزال المدارس الاهلية العربية تابعة لوزارة الداخلية في باماكو ، وليس لوزارة التربية والتعليم .. اذا قارنا ما يجري في النيجر بمثل هذه الاوضاع ، فاننا نجد موقفا مختلفا تماما . اكثر التزاما واكثر مسئولية تجاه لغة القرآن الكريم .

فمن ناحية ، صدر في عام ١٩٦٥ مرسوم بنقل الأشراف على المدارس الأهلية التي تعلم العربية من وزارة الداخلية الى وزارة التربية والتعليم . تصحيحا لذلك الوضع الشاذ الذي فرضه الاستعمار الفرنسي ، واصبحت هذه المدارس ـ وعددها ١٥ الآن ـ تتلقى

مساعدة من الحكومة اذا استوفت شروطا معينة تتعلق بعدد التلاميذ والفصول .

ومن ناحية اخرى أنشئت في وزارة التربية ادارة خاصة للتعليم العربي ، على رأسها احد خريجي جامعة الازهر في القاهرة ، وهو القاسم البيهقي .

من ناحية ثالثة فان نظام مدارس الفرانكو آراب (عددها ٤٥ مدرسة) طبق بقدر كبير من الجدية .

فبينما اللغة العربية تدرس في المدارس المماثلة بجمهورية مالي لمدة ساعة في الاسبوع ، فاننا نجدهم في النيجر يقسمون ساعات الدراسة مناصفة بين العربية والفرنسية في المرحلة الابتدائية ، بحيث يدرس التلميذ ١٥ ساعة في الاسبوع باللغة العربية ، و ١٥ ساعة باللغة الفرنسية . اما في المرحلة الاعدادية فان ساعات تدريس العربية تزيد على ساعات تدريس الفرنسية ، اذ تخصص ٧ ساعات للاولى و ٥ ساعات للثانية . فضلا عن ان تدريس العربية ليس مقصورا على تعلم القواعد ، انما يشمل اللغة والدين (بمعنى القرآن والحديث والفقه) ثم التربية .

ولان تجربة التعليم كلها حديثة في النيجر ، اذ كانت نسبة المتعلمين بعد حوالي ٦٠ سنة من الاحتلال ، لا تتجاوز ٣٪ ، في حين ٩٧٪ من الناس ظلوا ضحايا الامية . فان المدارس العربية والفرنسية تقف الآن عند المرحلة الاعدادية . وهم بصدد انشاء مدرسة ثانوية لاستيعاب الطلاب الذين أنهوا التعليم الاعدادي .

على ان معالم الواقع الاسلامي في النيجر تحتاج الى مزيد من التفصيل . .

في نيامي جلست اسمع في عدد من اللقاءات ، قبل التوجه الى الاقاليم لكي ارى هذا الواقع على الطبيعة .

احد هذه اللقاءات تم في بيت وزير المواصلات عبده مالم موسى ـ خريج جامعة القاهرة ـ وشهده من المسئولين النيجريين وزير التجارة ووكيل وزارة الاعلام ، ومدير التعليم العربي . وهو اللقاء الذي حرص وزير المواصلات على ان يروح عنا فيه ، بعرض تسجيل بالفيديو لمسرحية كوميدية مصرية باسم « العيال كبرت » وكان آخر ما يمكن ان يخطر على بالي ان ارى اعمالا فنية كهذه في اقاصي غرب افريقيا ، وان اجدهم يلتقطون منها الفاظ العامية المصرية .

من هذه اللقاءات ايضا جلستنا حوار مع رئيس الجمعية الاسلامية ، الحاج اسماعيل عمر ، في مقر الجمعية الذي اقيم في ركن جانبي من المسجد الرئيسي في العاصمة .

صورة الواقع الاسلامي

وكانت الصورة التي حصلتها من خلال تلك المناقشات على النحو التالي :

انه من المتعذر تحديد خط واضح لدخول الاسلام الى النيجر ، بسبب موقعها كاحد الجسور بين الشمال والغرب الافريقيين . ومع ذلك فوصول الاسلام الى « جادو » في اقصى الشمال مع قوات عقبة بن نافع في القرن الهجري الاول ، يشكل حقيقة تاريخية لم تنقض بعد . اما الجزء الجنوبي فقد دخله الاسلام بعد القرن السادس الهجري . اي في ظل مرحلة انتشار الدين على ايدي المرابطين وكانت بلدة « ساي » التي تبعد ٤٠ كيلومترا عن نيامي ، هي اول موقع في الجنوب بلغه الرعاة الاسلاميون القادمون من مالي المجاورة واشهرهم الفا (الفاهم) محمد جوب . الذي لا يزال ضريحه مقاما بالبلدة ، ولا يعرف احد بالضبط متى حل بها .

ان البساطة الشديدة سمة يتميز بها مجتمع المسلمين ، فهم لا يهتمون كثيرا بمظاهر العبارة ، او ما يسميه وزير المواصلات عبده مالم « فولكلور الدين » . . واكثر ما يتضح ذلك في المساجد التي تخلو من اية فخامة او ثراء ، بل ان القاعدة في مساجد النيجر هي تلك الاراضي الفضاء ، المحاطة بسور متواضع الذي قد يصبح مجرد احجار متراصة تميز القبلة في احد اضلاعها .

ان مسلمي النيجر جميعا يعتنقون المذهب المالكي ، السائد في شمال افريقيا وغربها ، ولا يعرفون غيره . . وبالتالي ، فلا خلاف بينهم في المسائل الفقهية المقررة في المذهب .

ان الطرق الصوفية موجودة ، ولكنها لا تمثل قوة على مسرح الحياة العامة . ربما لان نظام الحزب الواحد الذي ظل سائدا طوال ١٤ عاما بعد الاستقلال ، الغى نفوذ اية قوى اخرى ، وقد رأينا ان ذلك النظام قلص نفوذ السلاطين ايضا خلال الفترة ذاتها .

في هذا الاطار ، فان الطريقة التيجانية هي السائدة ، واليها ينتمي اغلب اهل النيجر ، وبالاخص في الجنوب والوسط . ولان التيجانية فرق ، فانهم في بلدة « ساي » مثلا من اتباع الحاج عمر الفوتي المناضل والصوفي السنغالي الشهير . بينما في « شونتا » مقر « خليفة التيجانيين » من اتباع الحاج ابراهيم نياس ، وقاعدتهم في شمال السنغال . وقرب نيامي مقر « الحموية » ، اتباع الشيخ حماه الله ، وان كان انتشار الحموية اوضح في محافظة ساي .

وكانت لنا بعد ذلك جولة واسعة في محاولة قراءة هذا الواقع على الطبيعة . ■■

فهمي هويدي



الجمل .. تعويذة الكويت في اسبانيا .

تصدر المنتخب الكويتي تصفيات المجموعة الآسيوية الثالثة ، كانت الخطوة الأولى لوصول الكويت الى تصفيات كأس العالم .

رحلة الفريق الكويتي

إلى كأس العالم في كرة القدم

تحقيق : صادق يلي

المنتخب الكويتي الذي سوف يشارك في نهائيات كأس العالم في اسبانيا هذا العام .





في اوكلاند استطاع المنتخب الكويتي ان
يقتنص اول نقطتين في اللقاءات الذهاب
من بين اقدام لاعبي نيوزلندا!

هو انجاز رياضي كبير ، حققه المنتخب الأهلي الكويتي لكرة القدم ، باعلان وصوله الى اسبانيا .. الى نهائيات قمة المسابقات الكروية في العالم ، فلأول مرة في تاريخ كأس العالم لكرة القدم يصل فريقان عربيان هما الكويت والجزائر الى نهائيات كأس العالم في اسبانيا والتي ستجري تصفياتها النهائية في صيف هذا العام .



العرب وكأس العالم

فمنذ عام ١٩٣٠ حتى الآن لم تصل للادوار النهائية لكأس العالم سوى ثلاثة منتخبات عربية ، هي مصر عام ١٩٣٤ في برلين ، ثم المغرب عام ١٩٧٠ في المكسيك ، وتونس عام ١٩٧٨ في الارجنتين . ولم تفلح المنتخبات العربية منذ عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٦٦ للوصول الى الادوار النهائية لكأس العالم رغم مشاركتها في العديد من التصفيات .

ففي عام ١٩٣٤ وصلت مصر الى الادوار النهائية عن طريق القدس عاصمة فلسطين ، فقد جرت التصفيات بين مصر وفلسطين وكان اللقاء في القاهرة يوم ١٩/ ٣/ ١٩٣٤ حيث فاز المنتخب المصري ٧ـ١ . وفي اللقاء الثاني الذي جرى في العاصمة الفلسطينية (القدس) في العام نفسه فاز المنتخب المصري ٤ ـ ١ وتأهل للادوار النهائية ، وكانت المباريات آنذاك تلعب بطريقة خروج المغلوب .

ومنذ عام ١٩٧٠ بدأت الكرة العربية تثبت اقدامها في المجال الدولي بوصول منتخب المغرب للادوار النهائية الذي قدم احدى اقوى مباريات البطولة في المكسيك امام المانيا الغربية رغم خسارتها ١ ـ ٢ . وفي المباراة الثانية خسر الفريق المغربي مباراته امام بيرو صفر ـ ٣ . وتعادل في المباراة الثالثة والاخيرة بالبطولة ١ ـ ١ مع بلغاريا .

أما في عام ١٩٧٨ وفي الارجنتين شرف المنتخب التونسي الكرة العربية ، وأجمع المراقبون على أن أداء الفريق قارب الاداء والمستويات العالمية اذ فاز منتخب تونس ٣ ـ ١ على المكسيك وتعادل مع المانيا الغربية بدون اهداف ، وخسر امام بولندا صفر ـ ١ ليحتل المركز الثالث في المجموعة الثانية .

والجزائر أيضا وصلت

أيضا صعدت الجزائر وهو الفريق العربي الثاني بعد الكويت هذا العام الى نهائيات كأس العالم للمرة الاولى في تاريخها ، بعد أن وضع القادة الجزائريون قانونا رياضيا سنة ١٩٧٧ بتنفيذ الهياكل الاساسية للرياضة سواء على مستوى اللاعبين او الادوات الرياضية ، فقد تم بناء ملاعب رياضية في جميع انحاء البلاد ، كما كان لسياسة استدعاء لاعبي الجزائر الذين يلعبون لفرق اجنبية في الخارج وخاصة في فرنسا ومن اشهرهم دحلب وكورش وريدان وجعداوي ومنصوري وشبيل وحاسيمي ، كان لسياسة استدعاء هؤلاء اللاعبين الاثر الواضح في تأهيل منتخب الجزائر للوصول الى نهائيات كأس العالم ، اما على صعيد الانجازات التي حققتها الجزائر خلال السنوات الاخيرة فكان ابرزها احراز الميدالية الذهبية في دورة ألعاب البحر الابيض المتوسط لعام ١٩٧٥ ، واحراز الميدالية الذهبية لدورة الالعاب الافريقية لعام ١٩٧٨ والبرونزية في دورة المتوسط عام ١٩٧٩ ثم احراز المركز الثاني في كأس افريقيا لعام ١٩٨٠ بعد نيجيريا الدولة المضيفة ، ثم التأهل الى الدور ربع النهائي في مسابقة كرة القدم في اولمبياد موسكو ١٩٨٠ .

وكانت ذروة هذه الانجازات هو وصول الفريق الوطني الجزائري الى نهائيات كأس العالم في اسبانيا لعام ١٩٨٢ ، لقد تأهل الفريق الجزائري . بعد أن فاز بخمس مباريات وخسر واحدة وتعادل باثنتين واحرز ١٦ هدفا مقابل ٦ اهداف تعرض لها مرماه في المجموعة التي ضمت بالاضافة الى الجزائر كلا من سيراليون والسودان والنيجر ونيجيريا .

وقد بدأ المنتخب الجزائري استعداده لخوض مباريات كأس العالم مبكرا ، حيث يستعد لبطولة كأس امم افريقيا التي اقيمت مبارياتها في شهر مارس الماضي في ليبيا ، واعد



رئيس المنتخب الكويتي سعد الحوطي في صراع على الكرة في أوكلاند في نيوزلندا .

المسؤولون الجزائريون برنامجا خاصا يتضمن عدة مباريات تجريبية مع بعض الفرق الاجنبية من اجل اعداد المنتخب القومي الجزائري بطريقة منهجية وخاصة .

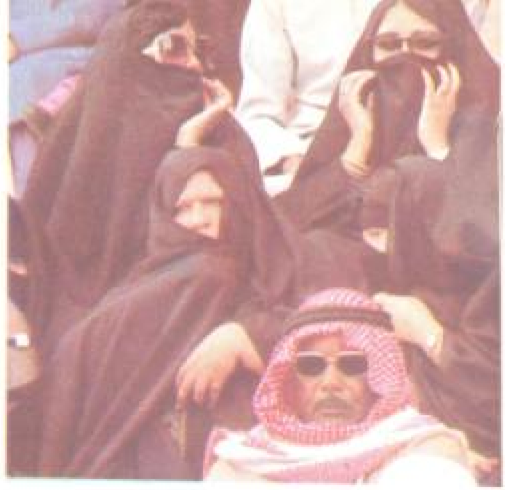
رحلة الكويت الى كأس العالم

لقد حقق الفريق الكويتي خلال فترة وجيزة قفزات بعيده الى الأمام ، وحقق بطولات يحسد عليها فهو بطل كأس الخليج ، وبطل تصفيات أولمباد موسكو ، وبطل العالم العسكري ثم بطل آسيا ، ثم بطل المجموعة الأسيوية التي تمثل آسيا في كأس العالم صيف هذا العام في أسبانيا

من هنا كان من المهم ان نلقي الضوء على رحلة الفريق الكويتي منذ بدأت مشاركته في كأس العالم حتى وصوله اسبانيا عام ١٩٨٢ .

شارك الفريق الوطني الكويتي خلال رحلته في بطولة كأس العالم ثلاث مرات في تصفيات كأس العالم . بدأ الرحلة عام ١٩٧٣ وكان ما ناله فقط فوز وخسارة ومركز متأخر وخروج مبكر ، ولكنه عاد اقوى شكيمة وهو يشارك في تصفيات كأس العالم عام ١٩٧٨ ، فبدأ بفوزه بتصفيات مجموعته ولكنه عاد وخرج في الدور النهائي ، الا ان حاله في المرة الثالثة تبدلت ، (فالثالثة كما يقولون ثابتة) . وبالفعل ثبتت الثالثة ، وأثبت الفريق الكويتي انه جدير بدخول نهائيات اسبانيا . لقد بدأ المشوار بالفوز بمجموعته ثم تصدر الدور قبل النهائي منطلقا الى بلاد الاندلس .

كانت البداية قاسية صعبة فتحت قيادة المدرب اليوغسلافي بروشتيش بدأ الفريق الكويتي انطلاقته في المشاركة ببطولات كأس العالم ، وذلك من خلال لبطولة كأس العالم عام ١٩٧٤ في ميونيخ بالمانيا الغ اقيمت هذه التصفيات في طهران خلال شهر مايو





بالكفاح والعرق وصل منتخب الكويت الى تصفيات كأس العالم



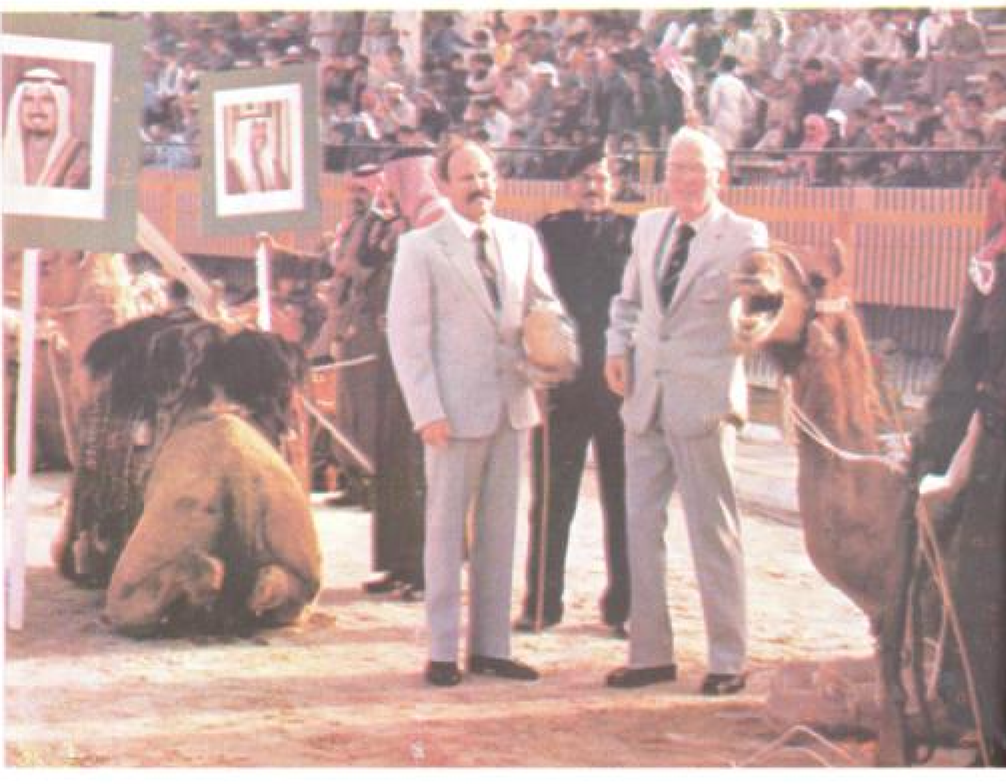


حتى النساء شاركن في تشجيع الفريق الكويتي واوه يا الازرق العب بالساحة .. الاغنية التي رددتها الحناجر مساندة منها لفريقها الوطني (فوق)

الجمل سفينة الصحراء ، شارك الجماهير الغفيرة في المباراة النهائية بين الكويت ونيوزلندا والتي انتهت بالتعادل ٢ - ٢



منتخب الجزائر الشقيق هو الفريق العربي الثاني الذي سوف يشارك في تصفيات كأس العالم.



وشاركت فيها فرق الكويت وايران وكوريا الشمالية وسوريا . الا ان نتائج الفريق جاءت متواضعة نظرا للظروف القاسية التي تعرض لها بسبب انشغال افراده الملحوظ عن الاستعداد لظروفهم الدراسية . وجرت المقابلات بطريقة الدوري من دورين . في الدور الأول خسرت الكويت ٢/١ أمام سوريا ، ثم خسرت ٢/١ أيضا أمام ايران ، وتعادلت صفر ـ صفر مع كوريا . وفي الدور الثاني خسرت الكويت صفر ـ ١ أمام سوريا ، وخسرت ٢/٠ أمام ايران . الا انه حقق انتصاره الوحيد ١/٠ صفر على كوريا وبهذه النتائج خسر الفريق الكويتي المجموعة وتصدرت ايران المجموعة

اما الرحلة الثانية فكانت من خلال مشاركته في تصفيات كأس العالم عام ١٩٧٨ بالأرجنتين . وقد تم وضعه تحت قيادة المدرب البرازيلي ماريو زاجالو ، الذي نجح في تحقيق انتصار كبير للفريق لمجموعته وفي الدور الأول من التصفيات ، مما أدى الى ان ضمن فوز الفريق وقطر والبحرين وسنغافورة . وكان الأمل الذي علق عليه في الفوز بتلك المجموعة وتأهيل الفريق من اجل تحقيق الوصول لنهائيات الأرجنتين واجتياز الدور الثاني. وفي الدور الثاني فاز على كوريا صفر ١/٠ في سوريا وأمام ايران صفر ١/٠ في طهران ، وفاز ٤ ـ صفر على هونج كونج و ٢/١ على استراليا حاصلا على اربع نقاط في مباريات الذهاب . ثم جاءت مباريات الاياب في الكويت ففاز على استراليا ٢ ـ صفر وتعادل ٢/٢ مع كوريا وفاز ٤ ـ صفر على هونج كونج . ولكنه خسر ٢/١ أمام ايران التي تصدرت التصفية الآسيوية وانطلقت الى الأرجنتين تحت قيادة المدرب مهاجراني

كارلوس حقق الهدف

ورغم كل هذا بقي الحلم الكبير يراود عشاق « الأزرق » ، وهو الوصف الذي يطلق على الفريق الذي يرتدي اللون الأزرق ، للوصول الى كأس العالم . في البداية لعبت الكويت مباريات نصف نهائيات تصفيات المجموعة الآسيوية الثالثة والتي ضمت فرق الكويت وكوريا الجنوبية وماليزيا وتايلند . واستطاع الفريق الكويتي ان يتوج الرابعة بحصوله على البطولة . بقيادة المدرب كارلوس البرتو . فقد افتتح البطولة بفوزه الكبير على تايلند ٦ ـ صفر ثم فاز على ماليزيا ٤ ـ صفر . ثم انحصرت البطولة بينه وبين كوريا الا انه اختتم الرحلة بفوزه ٢ ـ صفر على كوريا منتقلا الى جانب فرق السعودية والصين ونيوزلندا الى الدور قبل النهائي

كانت كل الدلائل تشير الى حتمية صعود الكويت لاسبانيا . ولم يكن هذا الأمر مجرد صدفة او ضربة حظ ، ولكن ذلك تم بالتخطيط السليم وبالروح العالية . كان الأساس الذي اعتمد عليه الفريق الكويتي وهو يدخل المباريات النصفية النهائية لأبطال المجموعات الآسيوية ، هو جمع اكبر عدد من النقاط . بدأ المشوار بفوز صعب انتهى من بين اقدام لاعبي نيوزلندا الى ثلاثة . وفاز ٢/١ حاصلا على اول نقطتين في مباريات الذهاب . ولكن الرحلة الى اقليم بالفريق وهو بكامل صورته قبل انهالالاعبين . وذلك نتيجة تعرضه لخسارة كبيرة امام الصين في بكين . اذ انهار اللاعبون الكويتيون وفاز الصينيون . وكانت النتيجة فوز الصين ٣ ـ صفر . وكانت اكبر خسارة يتعرض لها الفريق في مشواره الكروي الأخير الا ان ذلك لم يضعف الآمال المرجوة . وانحصرت المسابقة ست الأكبر وجاءت على حساب فريق السعودية الشقيق الذي خسر في مسابقة الفريق بالفوز صفر ـ ١ ...

الشيخ فهد الأحمد : ان انتصاراتنا لم تأت من فراغ بل جاءت نتيجة لتكاتف وتعاون القادة الرياضيين



الشيخ سعد العبدالله رئيس مجلس الوزراء يشد على أيدي أفراد المنتخب الوطني عقب فوزهم في تصفيات المجموعة الآسيوية الثالثة .

الكويت ، بهدف سجله العنبري . انتعشت الآمال من جديد ، فالفريق له اربع نقاط من اصل ست نقاط مطلوبة لرحلة الذهاب ، ولم يبق الا خطوتان ويصبح الامر واقعا ، وقد حدث . اذ حقق العنبري للمرة الثانية الخطوة الاولى بهدفه الذي سجله في مرمى الصين مع بداية مشوار الاياب في الكويت ، ثم بقيت خطوة واحدة هي التي حققها فيصل الدخيل باغلى هدفين سجلتها الكويت في تاريخها الكروي الطويل فبها فازت على السعودية في رحلة الاياب ، وبها صعدت الى اسبانيا بعد ان ارتفع رصيدها الى ٨ نقاط ، وبقيت لها مباراة واحدة امام نيوزيلند لاتقدم ولا تؤخر بقدر ما تهم نيوزيلند والصين ، وقد تعادل فريق الكويت ونيوزيلند ٢ ـ ٢ في الكويت .

لم تأت من فراغ

وكان لنا لقاء مع الشيخ فهد الأحمد الصباح عضو اللجنة الأولمبية الدولية ورئيس اللجنة الأولمبية الكويتية ورئيس الاتحاد الكويتي لكرة القدم ، بدأ الشيخ فهد حديثه عن الانجازات والانتصارات التي حققتها الكويت في مختلف المستويات فقال : ان هذه الانتصارات لم تأت من فراغ او بفضل مجهود شخصي بل جاءت نتيجة لتكاتف وتعاون القادة الرياضيين خلال مشوارنا الطويل الذي قطعناه بالعمل الجاد المتواصل متحملين كل الصعاب ، مذللين كل المشاكل التي واجهتنا في سبيل الوصول الى ماتصبو اليه فعلى المستوى الدولي استطاعت الكويت ان تحقق انجازات كثيرة اهمها وصول الكويت الى كأس العالم في العاب القوى وتمثيل الكويت بعدد من لاعبيه . وكذلك ان يصل فريق كرة اليد ليمثل الكويت في كأس العالم في كرة اليد فذلك انجاز عظيم ، اما الانجاز الثالث وهو ان يصل فريق كرة القدم بان يكون ممثل آسيا في الاولمبياد وبطل كأس أمم آسيا ، وان يصل الى كأس العالم هذا انجاز عظيم ايضا .

واستطرد الشيخ فهد قائلا : اما اذا رجعنا الى الانجازات الادارية على المستوى الدولي فان حصول الكويت على عضوية اللجنة الاولمبية بشخص رئيس اللجنة الاولمبية الكويتية (فهد الاحمد) يعد من اكبر الانجازات الرياضية . وكذلك وصول نائب رئيس الاتحاد الدولي لالعاب القوى السيد عيسى عبد الله الدشتي واختياره من الكويت ، فذلك ايضا يعد انجازا كبيرا نعتز به ، والحقيقة ان هذه الانجازات تمثل قوة عطاء شبابنا وحماسهم ، ثم الدعم الجماهيري والحكومي المادي والمعنوي لهذه الفئة التي استطاعت ان تحقق مايشبه المعجزة .

وحول خطة ادارة اتحاد كرة القدم للمحافظة على هذه الانجازات التي حققها الفريق الكويتي لسنوات قادمة أجاب الشيخ فهد قائلا : ان الوصول الى كأس العالم لم يكن هو الهدف الاساسي لنا فنحن كاتحاد ، عندما اخذنا على عاتقنا مسؤولية كرة القدم في الكويت اعطينا وعدا للناس بأننا في خلال اربع سنوات سنحقق الهدف وسنصل الى الدورة الاولمبية ، وسنحصل على بطولة آسيا ، وسنصل الى كأس العالم . هذه الوعود ماهي الا مراحل تحققت المرحلة الاولى منها ووفينا بالوعد والحمد لله . اما الهدف الرئيسي هو ان نصارع على بطولة كأس العالم ، وبالطبع فان استمرارية بقائنا يرجع الى استمرارية العطاء الموجود في الوسط الرياضي والتخطيط الموضوع من قبل القادة الرياضيين .

واضاف الشيخ فهد الاحمد قائلا : أنا لا اتخوف على الكرة الكويتية في المستقبل فقد دخلنا المسابقات بدون ان يكون هناك كامل النجوم ، فلم نتأثر . هناك بعض التخوف عند البعض مؤداه انه سوف يحدث انخفاض في المستوى بعد كأس العالم لا بتعاد بعض اللاعبين ، وأؤكد ان هذا التخوف غير موجود لان اتحاد كرة القدم اوجد البديل من الآن ، وباستطاعة الاتحاد الاستمرار بالبديل .

الكويت وطموحات المستقبل

وحول سؤال عن مشكلة كثرة مشاركة الفريق الكويتي في البطولات الاقليمية والأسيوية والعالمية ومحاولة تشكيل فريق للشباب يدعم الفريق الاول . قال الشيخ فهد : لقد وضع الاتحاد خطة متكاملة يعتمد فيها على الشباب والناشئين . ولا ابالغ اذا قلت ان ٥٠٪ من الفريق الذي سيمثل الكويت في كأس العالم هو من الشباب الذي شارك في البطولة الاسيوية للشباب في بنجلادش . لقد وضع الاتحاد هذه الخطة في اعتباره فاوجد منتخب ١٧ سنة ومنتخب ٢٠ سنة ، فمنتخب ١٧ سنة شارك في عدة بطولات في اوربا ، وكذلك منتخب ٢٠ سنة شارك في بطولات ، كما ان الاتحاد وجد انه من الضروري زيادة عدد المدربين فبدلا من ان يكون للاتحاد مدرب ومساعد مدرب اصبح الآن لدينا ٦ مدربين متواجدين واحد منهم متخصص لحراس المرمى،اذن الاتحاد مستمر في المشاركة بالشباب والناشئين مع هيئة تدريب كاملة للاستمرار في العطاء .

أمـا عن التطلعات التي يريد الفريق الكويتي تحقيقها في صيف هذا العام قال الشيخ فهد : اننا لا نقيس الدول في حجم مساحتها او عدد سكانها او تاريخها الرياضي ، بل يجب ان نقيس الدول من خلال عطائها وتنظيمها الرياضي ، نحن في الكويت نعتبر من احدث الدول في العالم تنظيما وهذا يتطابق مع النظم الاولمبية الدولية ، وهذا سبب من اسباب نجاح الحركة الرياضية في الكويت ، نحن لو انطلقنا من هذا المفهوم لما استطاعت قطر أن تصل الى نهائيات كأس العالم للشباب ، لقد اثبت شباب قطر للعالم ان قوة العطاء والتنظيم هما الطريق الموصل الى البطولات . واستطرد الشيخ فهد قائلا : ان الفرق المشاركة في مجموعتنا ـ مع احترامي لها ـ فرق قوية ولها تاريخ حافل ولها ثقلها في هذا المجال ، الا اننا نرى ان الفريق الكويتي يمتاز عن هذه الفرق في عدة نقاط منها خبرة لاعبينا ، فالفريق الكويتي اصبحت له خبرة اطول من خبرة الفرق المشاركة فقد لعب كفريق ٨٠ مباراة والفرق الاخرى لم تلعب اكثر من ١٥ مباراة ، والفريق الكويتي يمتاز بالتفرغ الكامل طوال السنة الماضية فهو متفرغ من دورة آسيا الى دورة كأس العالم ويلعب كفريق واحد ، اما الفرق الاخرى فانها تتغير مع كل بطولة . وشيء آخر هو ان حجم دولة الكويت وصغرها كان له دوره في التقريب بين اللاعبين وتعارفهم الشخصي ، والتعرف على اسلوبهم في اللعب ، كما ان الفترة التي تم فيها تجهيز الفريق لنهائيات كأس العالم تبلغ أربعة شهور في حين ان انجلترا امامها ١٤ يوما فقط لتجهيز فريقها لكأس العالم ، اما الفرق التي سوف يلعب معها فريق الكويت اثناء فترة التجهيز فهي فرق ذات مستوى عال . والحكومة مشكورة وفرت كل الامكانيات المادية والمعنوية لرفع مستوى فريقنا . اما تطلعاتنا التي نريدها لفريقنا فهو التقدم من المجموعة الرابعة التي سوف نلعب معها الى المرحلة الاخرى من كأس العالم ، وبالطبع فلن يقف طموحنا عند هذا الحد بل الانتقال الى المرحلة التالية .

وحول سؤال عن مشاركة الكويت في دورة الخليج السادسة وهل هي افضل السبل لاعداد الفريق الوطني للتصفيات النهائية لبطولة كأس العلم قال الشيخ فهد : ان دورات الخليج كانت الانطلاقة لمنتخب الكويت فمن دورات الخليج انطلق منتخب الكويت وحقق الانتصارات ، فالمشاركة في دورة الخليج مشاركة قومية وهي مشاركة تحمل طابع المسؤولية ، وقد جاءت دورة الخليج السادسة في فترة تجهيز منتخبنا الوطني لخوض مسابقة كأس العالم ، ومن خلال دورة الخليج نستطيع ان نختبر العناصر الجيدة والعناصر الحديثة التي بالامكان ان تساهم وتعزز من قوة الفريق الذي سوف يسافر الى كأس العالم . ■ ■

صادق يلي

■ ان تغلب دون ان تستسلم ، ذلك هو الظفر

« المارشال بلودسكي »

■ تزوج يابني . تزوج . فاذا ظفرت بزوج فاضلة فانت رجل سعيد واذا كانت غير فاضلة صرت فيلسوفا ، وهذا نعمة لكل رجل

(سقراط)

■ كثير من الناس لا يتبين الفرصة السانحة حين تعرض له لانها تمر به متنكرة في ثياب العمل الشاق

■ حب شيء بعينه لا يؤلف بين قلبين وانما يؤلف بينهما بغضه .

« هوارد سبرنغ »

■ انه مجنون حقا من يسعى الى ارضاء جميع الناس والله أيضا .

فونتين

■ ان الحب غالبا ثمرة الزواج .

موليير

■ من لا يقدر أن يقوم بواجب الأب فلا حق له أن يتزوج ليصير أبا .

روسو

■ يجب ان يكون كل رجل باحثا فضوليا مدققا في كل ساعة من ساعات مغامرته الكبرى حتى اليوم الذي يختفي فيه ظله من فوق الارض .

(فرانك مودكولبي)

■ اذا انت اسديت جميلا الى انسان فحذار ان تذكره ، وان أسدى انسان اليك جميلا فحذار ان تنساه .

(حكيم)

■ ينقسم الجنس البشري برمته الى اقسام ثلاثة الذين لا يتحركون والذين يتحركون ، ومن ثم الذين يتحركون .

« بنيامين فرانكلين » .

■ من خفف من اعباء الناس وأثقالهم كان من اكبر النافعين في الحياة .

« تشارلز ديكنز »

■ افضل وسيلة للتخلص من مشاكلك هي وضعها في جيبك المثقوب .

« قول مأثور »

■ « ما من شخص نال شرفا على ما أخذ . فالشرف هو دائما جائزة لمن يعطي » ...

« كولدج »

نبض الحياة .. كيف نسمعه ؟

بقلم : منير نصيف

في تلك الليلة لم ينم . لم يغمض له جفن . لقد أمضى الليل ساهرا مع كتبه يقلب صفحاتها ويتنقل بعينيه بين سطورها دون أن يقرأ منها كلمة واحدة . كان قلقا مهموما حائرا .. لقد مرت ثلاثة أسابيع على حفل تخرجه في الجامعة . كان يقف في صفوف المتفوقين حيث أراد له والده أن يكون منذ حصل على المنحة الدراسية قبل أربع سنوات . وترك الحفل مهرولا الى مكتب البريد ليزف الخبر السعيد في برقية عاجلة الى أسرته . وجاءته التهاني من أمه ومن اخوته ... أما هو ... أما والده ، فقد شاء أن يكافئه بصورة أخرى ، فأرسل له مبلغا من المال !

وفتح درج مكتبه وأخرج الأوراق المالية الكبيرة التي تسلمها من أبيه ثم ما لبث أن ألقى بها جانبا .. مال .. أي مال ؟ ان لديه ما يكفيه ويزيد .. انه لا يريد مالا ، فالجامعة تتولى الانفاق عليه ، لقد كان دائما طالبا متفوقا حتى قبل أن يسافر في هذه الرحلة الطويلة التي حقق فيها بعض آمال والده .

لم يكن هكذا حديثه معه وهو يجلس اليه ويحلم معه بالمستقبل الذي يريده له . كان الأب محاميا ناجحا ، وكان هو أكبر أبنائه ، وكان يعده لأن يخلفه في مكتبه بعد أن يكمل دراساته العليا ..

كان الشاب يريد أن يسمع صوت أبيه . يريد أن يكلمه . كان يتمنى لو أنه استطاع أن يرى وجهه في تلك اللحظة . لقد بحث عنه بين مقاعد الضيوف الذين دعتهم الجامعة لحضور حفل التخرج .. كان يراه في كل أب جاء يشد على يد ابنه مهنئا ويأخذه بين ذراعيه ... لماذا لم يكتب له ؟ لماذا لم يبعث اليه برسالة ينقل اليه فيها مشاعره . لماذا اكتفى بارسال هذا المبلغ الكبير من المال وكأنه يدفع له أجره عن عمل كلفه به الا أنها ليست كذلك على الاطلاق . القصة تختلف تماما !

أعظم لحظات العمر

يقول سمايلي بلانتون : « لا شيء يمكن أن يصنع بالانسان ما تصنعه به الكلمة المكتوبة ..... الرسالة هي وسيلة التعبير عن النفس فهي التي تحررنا من المشاعر التي نختنقها نحن بأيدينا أو تختنق هي من تلقاء نفسها داخلنا لأنها لا تجد متنفسا لها .. انها الرسول الذي ينقلنا معه من الماضي الى الحاضر الذي نعيشه ، فهي التي تكشف أعظم لحظات العمر ، وربما توحي لنا أيضا بما هو أعظم !

والرسالة دواء للروح ... فهي التي تطلق المشاعر المكبوتة ، بعض علماء النفس يطلبون من مرضاهم أحيانا أن يكتبوا مشاكلهم على الورق ، لأنهم يشعرون انه من

« لا أريد أن يحبني الناس فحسب
ولكن أريد أن أسمع منهم إنهم
يحبونني ! »
(جورج اليوت)



خلال التركيز على سرد أسباب هذه المشاكل ، وتسجيل المشاعر على الورق ، فقد يتمكن المريض من ادراك أشياء تاهت عن باله وهو يعيش مشكلته .

توينبي مع رسائله !

عندما كتب « ارنولد توينبي » قصة حياته في « تجاربي » أو تجاربه مع الناس والحياة والسياسة والحرب والتاريخ ، أحس أنه أهمل جانبا هاما في هذه التجارب .. الرسائل التي كان يبعث بها هو الى هؤلاء الذين عرفوه وأحبوه أو حتى الذين لم يحبوه ! يقول : « لقد كنت أسجل مذكراتي .. ولكنني كنت أحس دائما ان ما أكتبه فيها ليس فيه نبض الحياة ، لأنني أكتبها لنفسي .. وربما أيضا للناس اذا شئت أن أطلعهم على جانب من حياتي فيما بعد .. ولكن الرسائل شيء آخر .. إنها صورة حية ناطقة للحياة كما نعيشها .. كنت أحتفظ بكل رسالة تصلني . ولكنني تأخرت كثيرا قبل أن أدرك ما فاتني أن أسجله ... ماذا كنت أكتب لأصحاب هذه الرسائل ردا على ما حوته رسائلهم ؟ ماذا كنت أقول لهم ؟ . وهكذا كانت ملفات الرسائل التي احتفظ بها في اتجاه واحد ..

فلم أفكر مرة واحدة أن أحتفظ بنسخة من احدى رسائلي !

أحداث الحياة

يقول بلانتون أن المذكرات صفحات باردة لا تخرج عن كونها تعليقا على أحداث مرت بنا في حياتنا ، أما الرسائل في الاتجاهين فهي الأحداث ذاتها ! أحداث الحياة كما عشناها ونعيشها !

ويحكي بلانتون في كتابه « إما أن تحب وإما أن تغني ! » وهو يحدثنا فيه عن الحب بمعناه الكبير ... حب الناس والخير والطبيعة .. يحكي قصة الفتاة التي تركتها أمها مع شقيقتيها الصغيرتين في رعاية جدتهن ، ورحلت لتبدأ حياة جديدة مع الرجل الذي اختارته زوجا لها بعد وفاة زوجها الأول ووالد أطفالها ..

لقد جاءت اليه تشكو .. لم تكن تشكو لأن أمهن قد تركتهن .. ولكن لأنها تشعر أن أمها قد نسيت أن لها أطفالا أو هكذا خيل لها ! انها لم تكن تطلب شيئا صعبا بعيدا .. لقد جلست في هدوء مع دموعها تروي قصة الأيام الحلوة المرة التي عاشتها هي وشقيقتاها مع الأم بعد رحيل والدهن .. كانت أياما عصيبة كافحت معها الأم كفاحا بطوليا من أجل توفير حياة كريمة لها ولأطفالها .. ثم ظهر هذا الرجل الطيب الكريم في حياتهن وتغيرت الصورة .. لم تعد الأسرة الصغيرة تعيش في الحرمان .. كان يغدق عليهن ، وأحست الأم وهو يعر[illegible] عليها أن يشاركهن حياة الوحدة التي يعشنها ، ان [illegible] لم تتخل عنهن . من أجل هؤلاء الأطفال قبلت زوج[illegible] معه الى مقر عمله الجديد وتركتهن في رعاية أمها

المال ليس بديلا

وأعطت الجدة حفيداتها كل الحب الذي افتقدنه بعد رحيل الأم . ولكنها لم تستطع أن تعوضهن عنه . كانت الابنة الكبرى تكتب لأمها . . رسائل طويلة تحكي لها فيها كل شيء . . حياتها مع شقيقتيها الصغيرتين . . في البيت وفي المدرسة . . ومع الجدة الطيبة التي امتلأت حياتها بهن كانت رسائل الابنة لأمها لا تنقطع . . . فهي متصلة دائما مليئة دائما بكل الأخبار التي تتوق الأم لسماعها . . . أما هي ، الأم الغائبة ، فقد كانت تكتفي ببضعة أسطر تنقل فيها اليهن كل حبها وبعض ما لديها من مال وفرته لهن مرة في أول كل شهر ولا شيء أكثر من هذا . . . وكانت الابنة تشكو لأبها تحس من خلال هذه الخطابات القصيرة إن حب أمها لهن قد فتر ! هل يمكن أن يحدث هذا ؟ هل يمكن أن تكون أمنا قد بدأت تنسى ان لها أطفالا ؟

انها لم تنس . لقد صور لها خيالها ان أمها قد نسيت أبناءها . . . ونسيت الابنة أن رسائلها الطويلة المليئة المتصلة هي السبب . فقد اطمأن قلب الأم ، فلم تجد في رسائل ابنتها شيئا ناقصا تسأل عنه أو يستحق أن تطلب منها مزيدا من التفاصيل . كل ما يهمها أن تعرفه عن حياة أطفالها هناك في خطابات ابنتها التي تعود الى قراءتها مرات ومرات الى أن يصلها خطاب جديد .

مع قلب مفتوح

ان السر الذي يكمن في الرسالة المؤثرة هو أن تكون قد كتبت بقلب مفتوح . يقول بلانتون : « لا تتردد في الكشف عن مشاعرك وأفكارك . اكتب كل شيء بصدق . كتبت المؤلفة « جورج اليوت » أو « ساري ان إيتانز » الى أحد المعجبين بمؤلفاتها : « لا أريد أن أسمع من الناس انكم تحبونني وحسب ، أريد أن تكتبوا الي معبرين عن هذا الحب !

« ان مملكة الصمت واسعة وراء القبور ، أما عالمنا الذي نعيشه فهو عالم الضوء والكلمة . وسوف أخرج عن المألوف لأقول لك انك انسان عزيز على قلبي وهكذا شعوري نحو كل قارىء يحرص على اقتناء مؤلفاتي ! » .

وأصبحت رسالة « جورج اليوت » نموذجا للعلاقة التي يمكن أن تقوم بين الكاتب وقرائه !

ضل الطريق

ثم يروي بلانتون قصة أخرى عن رجل الأعمال الكبير الذي كان يملي خطاباته بنفس الأسلوب الذي يتحدث به مع عملائه وكأنها برقية قصيرة من بضع كلمات لا تكاد تبدأ بقراءتها حتى تجد نفسك قد انتهيت منها في ثوان معدودة .

كان قليل الكلام قليل الأصدقاء ، لا يؤمن بالعلاقات الانسانية ، الحياة عنده شيء مادي ملموس ، وهي من الممكن أن تصبح لا شيء اذا لم تترجم في النهاية الى أرقام تضيف الى رصيده في البنوك رصيدا جديدا . وكان وحيدا بلا زوجة ولا أولاد ولا قريب ولا صديق ، وكانت السعادة عنده عمل ومال وصفقات جديدة مربحة . فهو لم يجرب طعماً آخر لها لأنه لا يعرف من أين يأتي هذا المذاق ؟ .

وفي عودته الى البيت في مساء أحد الأيام ، صدمت سيارته رجلا كان يعبر الشارع ، ومات الرجل وقضت المحكمة لأرملته بتعويض كبير ، وحكمت عليه بالسجن ستة أشهر ولكن مع ايقاف التنفيذ .

وجلس الرجل يكتب أول « رسالة » لأرملة الرجل الذي مات تحت عجلات سيارته . . وكانت قصيرة كالعادة مثل بقية الرسائل التي تعود على كتابتها أو املائها على سكرتيرته . . فقط كانت هذه المرة مختلفة في الأسلوب والهدف . . كانت تحمل العزاء للزوجة المسكينة ،وتحمل معها شيكا بمبلغ كبير يزيد كثيرا على المبلغ الذي قضت به المحكمة تعويضا لها عن فقد زوجها .

. . وصحا من نومته

وانقضت بضعة أسابيع ثم حدثت المفاجأة . . لقد أعادت الأرملة الحزينة الشيك ومعه رسالة قصيرة « أشكرك وأعيد اليك مالك ، فليس في الدنيا شيء . . أي شيء يمكن أن يعوضني زوجي الذي فقدته ؟» . .

ونزل الى الشارع يحمل الرسالة التي هزت كيانه هزا . . فقد اكتشف لأول مرة ان هناك ما هو أثمن وأغلى بكثير من المال الذي تمتلىء به خزائنه . كانت أقصر رسالة تلقاها في حياته ، ولكنها حملت معها معنى جديدا للحياة التي عرفها هو !

وذهب يبحث عنها ، كان يريد أن يرى هذه الانسانة ، يريد أن يكتشف هذا « المعدن » الجديد من البشر . . . ووجدها .

كانت تقف في ملابس الحداد وراء باب البيت الصغير الذي حطمه . . . لم تكن تنتظره هو على أي حال ، انما كانت تنتظر ساعي البريد الذي لمحته من النافذة ، وفهمت من الرسالة التي كان يحملها في يده ويلوح بها ، انها لها ! لابد أن أمها قد قررت المجيء كما وعدتها . .

وما كادت تسمع طرقا على الباب حتى سارعت تفتحه .. فاذا بها وجها لوجه أمامه .. كانت تعرفه فقد رأته في المحكمة وسمعته وهو يدافع عن نفسه .. أما هو فقد كانت هذه أول مرة تقع فيها عيناه عليها .. امرأة شابة لم تتجاوز العقد الثالث من عمرها ، في عينيها الذابلتين جمال حزين لم يخطئه .. فقد كان يتفرس في وجهها ويتأمله .. أليس هذا هو سبب مجيئه اليها ! ؟

لحظة صدق في رسالة

وردت تحيته ببرود .. ثم تركته ريثما تفض الرسالة التي سلمها لها ساعي البريد الذي كان قد وصل لتوه .. كانت رسالة طويلة ، ولكنها ، استطاعت أن تختلس منها ما كانت تبحث عنه .. ودمعت عيناها .. وأخرجت منديلها تمسح به دموعها . ثم جاء صوته : « هل أستطيع أن أفعل شيئا .. أي شيء » . أشكرك ، فقد فعلت الكثير ، أرجو أن تعذرني فانني متعبة وفي حاجة الى الراحة .

ودخلت وأغلقت الباب ، وألقت بنفسها على أقرب مقعد وراحت تبكي كما لم تبك من قبل . لم يخرجها من أحزانها الا صوت طفلتها وهي عائدة من المدرسة ..

ـ أمي .. قابلت رجلا غريبا عند باب البيت وأعطاني هذه الرسالة لك .

وقرأت الأم : « عرفت اليوم معنى الحياة يا سيدتي . انه شيء مغاير تماما لما كنت أعرفه . أرجوك أن تصفحي عني فأنا لا أملك أمامك الا الرجاء » .

وفي مكتبه جلس يكتب رسالة أخرى الى محاميه : « أرجو أن تخصص نصف ثروتي لملاجيء الأيتام لا بعد رحيلي ، ولكن الآن ، فأنا أريد أن أعيش وأرى البسمة تعود الى هذه الوجوه المحرومة » .

عن طريق بلورة ما كان يحتمل في صدره من مشاعر عميقة وانفعالات لا عهد له بها من قبل ، اكتشف الرجل فلسفة جديدة للحياة ..

ورسالة الى أمي

وفي الرسالة التي بعثت بها فلورانس نايتنجيل ، الفتاة التي حملت الشعلة وأضاءت بها الطريق المظلم العفن الذي كان يقود في نهايته الى حظائر الخنازير ، التي كانوا يسمونها عنابر لعلاج المرضى .. في رسالتها الى أمها وهي تدرس فن التمريض الذي عاشت له ووهبته كل حياتها ، نرى كيف وجدت هذه الفتاة نفسها .. كتبت تقول : « كل شيء من حولي يا أمي يثير اهتمامي ويشدني اليه ، انني أشعر في عملي الجديد بصفاء ذهني وقوة بدني . اليوم عرفت كيف أعيش وكيف أحب الحياة .. لقد توقفت عن حملة البحث عن عالم آخر أعيش فيه ، فلن أرضى بغير هذه الأرض وبغير هذا العالم الجديد الذي اكتشفته وسط هذا الظلام .

وهكذا وهبت فلورانس حياتها من أجل انقاذ حياة الآخرين .

برنارد شو

وفي مسرحية « عزيزي الكذاب » ، لبرنارد شو .. أحس المتفرجون كما أحس القراء قبل أن تتحول القصة الى مسرحية بعالم كبير مليء بالحب .. ولم تكن المسرحية من بدايتها حتى نهايتها تخرج عن قراءة نصوص الخطابات المتبادلة بين كاتب الانجليز الساخر برنارد شو وصديقته مسز باتريك كامبل .. لقد كانت هذه الخطابات هي كل ما كان من علاقة بين شو وصديقته ... ولكنها كانت مليئة بالمشاعر الصادقة .. كانت هذه الرسائل كما وصفها برنارد شو نفسه هي قمة التعبير الكامل عن النفس ، وكان يقول : « بعض الناس لم يعجبهم أن يقرأوا ويسمعوا مجرد كلام على الورق .. ولهؤلاء أقول ان هذا الكلام الذي امتلأ به الورق وحده ، هو الذي حقق للبشرية العلم والمعرفة والفضيلة والتقدم . والجمال والحب الذي لا يذبل أبدا » . ■■

منير نصيف

● تظهر محبة الرجل بالكلام .. أما المرأة فبالدموع والقبلات ..

بيرون

● دموع المرأة .. وسيلة هجومها على الرجل .

بسما

● اخبث وأرزل الاعداء .. المرأة اذا انطوت على شر .

هوميروس

الدم أصبح القاتل الأول

بقلم : الدكتورة صبيحة الدباغ

الدم ذلك السائل الحيوي ، يعد اليوم ـ فيا تعتريه أو تعتري جهازه من امراض ـ القاتل الأول للبشرية حتى لقد فاق السرطان في هذا الشأن .

ومن اهم ما يعتريه (اللوكيميا) أو ما يعرف بسرطان الدم ، وهي تسمية غير دقيقة ولكننا مع ذلك سنستعملها لشيوعها ، وفي هذا المرض تغمر كميات هائلة من كريات الدم البيضاء التي لم يكتمل تكوينها جهاز الدورة الدموية ، ويبدو أن السبب حالة شبيهة بالحالات السرطانية تصاب بها الأنسجة المكونة للدم وأعني بها نخاع العظام وأعضاء ليمفاوية أخرى حيث يجري فيها تكوين الكريات البيض .

وقد يكون المرض حاداً مزعجا وقد يستمر أشهرا أو سنين ؛ ويظهر ان انتشاره آخذ بالازدياد ولكن ، لحسن الحظ ، اننا اليوم وصلنا إلى مرحلة نستطيع معها أن نشخص المرض بصورة أدق من ذي قبل ، فقد أصبح فحص نخاع العظم من الأمور المعتادة .

اليهود والزنوج

وأكثر الأجناس إصابة به هم اليهود والزنوج ، وأقلهم إصابة به بل وأندرهم هم الصينيون واليابانيون .

ومع أن معظم حالات السرطان تنشأ وتنتشر من بؤرة واحدة أو منطقة معينة فان (اللوكيميا) تنشأ من مناطق متعددة ، فهي لذلك أوسع نطاقا في البدن ، ويؤثر عدم نضج الكريات البيضاء على إنتاج الكريات الحمراء والقريصات أيضا فيصبح الجسم تحت رحمة مختلف صنوف الجراثيم ، بغير دفاع ، ويصاب المريض بفقر الدم ، ولا يتخثر دمه بصورة طبيعية .

وقد يغدو المرض مزمنا فيستمر نحواً من عشرين عاما ولكنه أسرع فتكا في الاطفال ، وقد لوحظ أنه اكثر شيوعاً في أطفال الدول المتقدمة منها في النامية .

ومعالجة المرض لا تشفي ولكنها تمد في أجل المريض ، وإحدى طرق العلاج الاشعاع بمقادير صغيرة بحيث تكفي لقتل الكريات المريضة فقط ، والطريقة الأخرى استعمال عقاقير معينة تعيد إلى نخاع العظم قدرته على إنتاج كريات سليمة إلى أن تكتسب الفيروسات مناعة ضد العقار المعين فتستأنف عملها التخريبي من جديد .

وقد لوحظ بعد القاء قنبلة هيروشيا ظهور حالات كثيرة من سرطان الدم مما يدل على وجود علاقة بين الاشعاعات الذرية و (اللوكيميا) ، ومن المؤسف أن العقاقير التي اكتشفت منذ عام ١٩٤٨ وإلى اليوم لا يمكنها أن تصل الى الدماغ والنخاع الشوكي ، مما يجعل من هاتين المنطقتين ملاذا وملجأ للمرض .

ومن الضروري في حالة معالجة المريض الانتباه الى إنقاذه باستمرار من الاصابة بفقر الدم الشديد بعملية نقل الدم ، ومن العدوى الجرثومية بالمضادات الحيوية ، ويمكن حقنه بالقريصات الدموية ؛ وقد أمكن إنقاذ المرضى في حالات كثيرة من غير انتكاسات إلا في حالات نادرة ، وهذا مما يفتح الباب أمام الأطباء لمعالجة حالات سرطانية أخرى لا تزال في صراع مع الطب الحديث .

فقر الدم

وهناك مرض آخر مماثل لسرطان الدم هو فقر الدم الخبيث الناجم عن قلة (الهيموغلوبين) الصبغة الحاملة للأوكسجين في الكريات الحمراء ، فتكون النتيجة قلة الأوكسجين في الجسم ، ومن أعراضها الشحوب والتعب والصداع وشيء من الحمى الخفيفة مع الضعف وعدم

الكفاءة في العمل ، وقد يأتي ذلك في أعقاب نزيف شديد أو قلة عنصر الحديد في الدم أو نقص في الفيتامينات وعوامل أخرى كالاصابة بالأمراض المزمنة كالسل وما اشبه ذلك ، وبعض أنواع السرطان ومرض الكلي المزمن ، وتؤثر بعض أنواع السموم على نخاع العظم فتحول دون إنتاج كريات الدم ، وتعالج بعض الحالات المستعصية بنقل الدم إلى المريض باستمرار ، على أمل أن يعود نخاع العظام إلى استئناف نشاطه مع الزمن .

والملاحظ ان العمل تحت الارض كالمناجم وماأشبه ذلك او العمل الليلي إلى ساعات متأخرة قد تحدث فقر الدم . وقد يكون الشحوب متأتيا من قلة الأوعية الدموية في البشرة ذاتها خلقة .

وأكثر ما يكون فقر الدم نتيجة قلة عنصر الحديد في النساء ولا سيا في فترة الكهولة ، ويمكن تشخيص ذلك بتشققات وفطور في زاويتي الفم واللسان الذلق اللماع ، والاسهال ، وتغدوا الأظفار أحيانا ملعقية الشكل ويعالج ذلك باعطاء المريض أقراصاً خاصة تتلافى النقص ، بالاضافة إلى الفيتامين (ج) لمساعدة الامتصاص ، وينصح المريض بتناول الاطعمة الغنية بمادة الحديد كالساردين والشوكولاتة والكبد والنخالة ومح البيض والتين والمشمش والعدس والسبانخ ، ولا سيا الماء الذي يغلىَ فيه ، وكذلك اللحوم الحمراء .

أما فقر الدم الخبيث فلم يعد في الحقيقة خبيثـا إذ يمكن علاجه في أيامنا هذه ، ويكثر عادة بعد الأربعين ، ولا سيأ في ذوي السمنة ممن وخط الشيب شعرهم قبل الأوان . وترى عليهم أعراض فقر الدم الاعتيادية مضافا إليها في بعض الأحيان عدم التوازن والوخز الخفيف في الأطراف والخدر والكآبة والانقباض وعسر الهضم والالم والالتهاب في اللسان . وعلاجه حقن الفيتامين ب ١٢ أسبوعيا باديء ذي بدء ثم شهريا لفترة طويلة مع تناول الأطعمة التي ذكرناها والاقلال من البطاطس والمعجّنات والحلويات التي تقلل من شهية المريض لتناول المواد الغذائية الأكثر نفعا له .

ويجب أن نلاحظ أن أي نوع من أنواع فقر الدم يتفاقم ويزداد سوءا عند الحامل كما أسلفنا لأن الجنين أو الطفل غير المولود أشد ما يكون تلهفا وشرها للمواد الحديديّة .

وقد يُصاب الدم بأمراض كثيرة أخرى كأنواع الديدان والجراثيم والفيروسات ، ويكون ناقلاً للعديد منها . وقد يتبادر إلى الذهن أن ضغط الدم هو الأخر مرض يعتري هذا السائل الحيوي ، غير ان الحقيقة خلاف ذلك ، فالدم قد يبقى سليا وأوعيته هي التي تصاب بالتصلب والعطب ، وللحفاظ على عمله سليا لا بد من الحفاظ على جهازه . والحقيقة ان آخر ما توصلنا إليه أن ضغط الدم لم يعد ذلك « البعبع » الرهيب الذي يهدد ويخيف الكثيرين فيا إذا عرفوا كيف يتجنبون مسبباته ويضيقون من أفق مطاعمهم ومطامحهم بعض الشيء ، ويعيشون حياة معتدلة هادئة ، بعيدة عن السهرات والصخب والانفعال لأتفه الأمور فأكثر حالات ضغط الدم مأتاها الانفعال العصبي ، وهو مما يؤدي إلى عطب الكليتين ثم تبدأ الحلقة المفرغة : فكلما ازداد ضغط الدم ازداد عطب الكليتين ، وكلما ازداد عطب الكليتين ازداد الضغط وهكذا .

المهم .. نقاء الدم

ولعل أهم مرض من أمراض الدم ، من الناحية التاريخية هو مرض (الهيموفيليا) الذي تحمله الاناث ولا يظهر الا في الذكور ، و (الهيموفيليا) هو عدم قدرة الدم على التخثر عند حدوث جرح أو خدش وقد أصيبت به عدة أسر مالكة ، ولا سيا قياصرة الروس ، وقد كان هذا المرض باعتقاد الاستاذ (كارترايت) ، الاستاذ بجامعة لندن ، سببا من أسباب سقوط الحكم القيصري في روسيا .

وتنجم امراض أخرى في الدم بسبب تغير في تركيبه فمرض (اليوريميا) uremia أو التسمم البوليّ مثلاً عبارة عن زيادة مادة (اليوريا) في الدم مما يؤدي إلى توقف الكليتين عن العمل . و (الهايبر كلايسيميا) أو زيادة السكر في الدم في حالة الاصابة بداء السكر والهايبو بروتينيا Hypoprote Nemia أو مرض نقص الزلاليات في البلازما في حالة الموت جوعا ، وهذه في الحقيقة اضطرابات في الدم وليست أمراضا بالمعنى الدقيق للكلمة ، بل إن هناك من يدخل حتى فقر الدم في قائمة اضطرابات في الدم ، لا أمراضه ، غير أن هذا الرأي عرضة للنقاش دون شك .

وأيا كان الرأي في أمراض الدم واضطراباته فالمهم أن تحافظ على نقاء دمك واعتدال محتوياته من (اليوريا) او جوهر الادرار والسكر والزلال و (الكوليسترول) : فالقصد والاعتدال هما سر الحفاظ على حيوية هذا السائل الخطير الذي نسميه « الدم » .

اكسفورد ـ د . صبحة الدباغ

مم وزين

روميو وجوليت الأدب الكردي

بقلم : رمزي الحاج عقراوي

يعتبر هذا الكتاب احدى روائع الأدب الكردي البارزة . وهو قصة عاطفية مؤثرة وضعها الشاعر أحمد الخاني الذي ولد عام ١٦٤١ م في بلدة (بايزيد) التابعة اليوم للجمهورية التركية والمتوفي سنة ١٦٨٥ م ، وهو يعد من أعظم شعراء الأكراد وأدبائهم ، وأول من ابتدع الشعر القصصي في الأدب الكردي ، وقد قلده بعد ذلك كثير ، ولكن أحدا لم يبلغ مستواه . وكان الشاعر مولعا بالفنون الجميلة المختلفة ، الى جانب ما أوتي من روح فلسفية متصوفة تجلت في معظم أشعاره وآثاره ، علما ان الشاعر أحمد الخاني ترك آثارا أدبية وفلسفية كثيرة ، معظمها باللغة الكردية وبعضها في اللغات الفارسية والتركية والعربية .

ولعل ترجمة قصة (مم وزين) قبل أكثر من عشرين سنة من قبل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، الأستاذ بجامعة دمشق (كلية الآداب والشريعة الاسلامية حاليا) ، هي أول ترجمة تتم لأثر أدبي كردي بارز الى اللغة العربية . ان (مم وزين) هي قصة الحب العفيف ، والوفاء المخلص ، والتضحية بالنفس . هي مجنون ليلى ، أو روميو وجوليت ، مضمخة بجو الشرق وسحره وأحلامه .

فصول القصة

تتكون القصة هذه من ١٨٤ صفحة ومن ٢٥ فصلا وهي على التوالي :

عيد الربيع / سر الجارتين / عجوز القصر / الطبيبة السائحة / انه الحب / البشري / العرس / الفتنة / في محراب الأحزان / الأم مم / رحلة الى الصيد / لقاء الحبيبين / الوفاء / وقفة عابرة / عودة الفتنة / صفاء



الروح / اليأس / الثورة / الخديعة / الندم / الوصية / اللقاء الأخير / النهاية / خاتمة واعتبار / والفصل الأخير بعنوان (مناجاة مع القلم) :

أول ما تلامس أعيننا لدى تصفحنا هذه القصة ، كلمة الاهداء التي كتبها المترجم ووجهها (الى كل قلب كتب عليه أن يتجرع الحب علقما ولا يذوقه رحيقا ، وأن يحترق في ناره ولا يقطف مرة من ثماره ـ أقدم هذه القصة عسى أن يجد فيها بردا من العزاء والسلوى) .

ولعل هذه القصة التي ترجمها الأستاذ البوطي في حينه والتي قدمها الى المكتبة العربية من الأدب الكردي ، هي أول قصة تلامس أعين القراء العرب من تاريخ أدب هذا الشعب ، بل ولعل كثيرا منهم يعجب اذ يرى أن للأكراد نصيبا وافرا كبقية الشعب من تاريخ الأدب والحضارة !

والحق أن لهم أن يعجبوا . . . ولهم أن لا يكون لديهم سبق اطلاع على مثل هذه الصفحات لهذا الشعب الذي يضم ١٨ مليون نسمة ، لا لأن تاريخه غير حافل بالأدب الرفيع الزاخر ، أو غير مزدهر بالحضارة واللغة الخالدة ، فذلك شيء لا يتأتى انكاره لمن يحث عن الحقيقة وارهف سمعه الى حديث التاريخ الحر الصحيح ، ولكن لأنها صفحات قد غشاها الظلام من حولها ، ولم يلتقطها التاريخ ألا وهي مطلية بالغبار المتكاثف .

وقصتنا هذه ـ عينة ـ من تاريخ الأدب الكردي ، انتقاها المترجم ، من بين صفحات مكدسة كثيرة صفت في مكتبة المؤلف الخالدة رغم ما منيت به من الاهمال ، وتقادم عليها من الغبار . هذه المكتبة التي لو أتيح لأربابها أن يسترجعوا ويفرغوا لها لتدفقت منها الى الأدب العربي ثروة زاخرة لا تنضب .

ان قصة ـ مم وزين ـ تعتبر أعظم مأساة عاطفية في تاريخ الأدب الكردي ، واقعية من أول فصل الى آخر فصل ، ليس للخيال فيها من شأن سوى احياء ما أهمله التاريخ أو تساقط منه عند نقلها مما لا يقوى وحده على ضبطه وتصويره ، اتخذت مستقرها في قلب هذه الأمة وفي أجمل بقعة من بقاعها تترجم لك صورة حياتها ، وتكشف عن مقدار ما أفاض الله في نفسها من عزة وشهامة ، ووفاء ومراس وقوة الى جانب ما أودع فيها أيضا من رقة عذبة متناهية ، وعاطفة غربية ملتهبة .

والدكتور البوطي ليس أول من نقلها من الكردية ، فقد ترجمت قبل اليوم الى اللغة الفرنسية كما ترجم اليها غير ذلك أيضا من الأدب الكردي ، ترجمها الأديب الفرنسي ، روجيه لسكو في عام ١٩٤٢ ، واتخذت اذ ذاك مكانا بارزا بين الأدب الفرنسي ، وقد تتلمذ هذا الأديب في تعلمه اللغة الكردية على المرحوم ، جلادت بك ، نجل آخر أمير من أمراء جزيرة بوطان (ابن عمر) ، المرحوم بدرخان باشا .

وقد حاول المترجم جاهدا أن يكون دقيقا في نقل صورة صادقة عن أسلوب الشاعر الكردي خصوصا عند التخيلات والأحاديث التصويرية ، لكي يقف بالقارىء العربي على مقدار ما سما اليه أدب هذه اللغة وبيانها من الروعة والاشراق !

وان كان المترجم قد زاد أو تصرف في الترجمة في شيء ، فليس بعدو ذلك ما يقتضيه بسط النصوص الشعرية الى أسلوب نثري يتراءى فيه سبك القصة وروحها مما لا يتأتى توفره في الشعر بدقة .

ثم ان هذه القصة قد اشتهرت على ألسنة كثير من عوام الأكراد على نحو آخر غير النحو الذي يقصه علينا هذا الشاعر الجليل . وهي على الشكل الذي يتحدث به هؤلاء العوام لا تزيد على أسطورة خيالية ليس لها نصيب من الواقع ، وقد نشر أديب عراقي لمحة خاطفة عن هذه الأسطورة في مجالة ـ الرسالة ـ عدد ٤٨٤ عام ١٩٤٢ وصاغها الأستاذ الشاعر (بدوي الجبل) في مسرحية شعرية جمعها في ورقات معدودة .

الجزيرة الخضراء

حدثت القصة في حوالي عام ١٣٩٣ في جزيرة (بوطان) المعروفة اليوم باسم (جزيرة ابن عمر) تلك الجزيرة التي تقع على شاطىء دجلة وتمتد في اتساع شاسع بين الهضاب والتلال الخضر الواقعة في شمال العراق .

واسم هذه الجزيرة يتألق في مقدمة ربوع كردستان التي يمتاز معظمها بقسط وافر من جمال الطبيعة وبهائها ، اذ تتشعب بين رياض طبيعية بديعة وينعكس اليها من سائر أطرافها بريق دجلة الذي يحف بمعظم جهاتها كما يزيد في روعة جمالها جبالها الشاهقة في جو السماء ، التي تفاخر في علوها العجيب وفتنتها الخضراء ، معظم جبال العالم ، وتنشر من حولها سر الخلود وآيات الجلال .

انبعثت حوادث القصة من قصر أمير هذه الجزيرة (الأمير زين الدين) ، حيث كانت بلاد الأكراد اذ ذاك وما بعد ذلك العصر الى أواسط عهد العثمانيين منقسمة الى عدة امارات يتولى ادارة كل منها أمير يتمتع بالجدارة والقوة .

ولم يكن الأمير زين الدين ذا كفاءة عادية فحسب . . . بل كان يتمتع الى ذلك بغنى واسع وبمظهر كبير من القوة

والسلطان ، والغريب انه لم يكن ذلك ليمنعه من امتلاكه العجيب لقلوب أمته واكتسابه محبة سائر طبقات شعبه ، مما أذاع اسمه مقرونا بالهيبة والاجلال لا في جزيرة بوطان وحدها بل في سائر كردستان وامارابها .

ولم يكن قصره الذي كان يرى من بعيد كأنه برج هائل ، كقصور بقية الأمراء من أمثاله وانما كان آية من آيات الفن والابداع ... كان منتهيا الى أقصى حد في البذخ المبذول لتصميمه وتشييده واقامة ابهته ... !

ولم تكن في داخله ابهاء وقيعان فاخرة فحسب ، وانما كان يزدان أيضا بمتاحف تضم مختلف العجائب والنوادر ، وأنواع المجوهرات الغريبة الفاخرة !

أما رحابه وشرفاته فكانت تعج بمئات من الغلمان ، ومثل ذلك من أجمل الجواري والفتيات ... يجلن في أنحائه ، ويضفين على رحابه جوا سحريا يشع بالفتنة والجمال .

غير أن الآية الكبرى للجمال في ذلك القصر لم تكن منبعثة عن أي واحدة من تلك الجواري والحسان وانما كانت سرا لدرتين شقيقتين غير كل ذلك ، خلقهما الله في ذلك القصر ، بل في تلك الجزيرة كلها مثلا أعلى للجمال ، ونموذجا كاملا للفتنة والسحر الالهي في أسمى مظاهرهما .

ولم تكن هاتان الشقيقتان سوى أختين للأمير زين الدين ، كان اسم كبراهما التي لا يتجاوز عمرها ربيع العشرين (ستي) وكانت بين البياض الناصع والسمرة الفاتنة قد أفرغ الجمال في كل جارحة من جسمها على حدة ، ثم أفرغ بمقدار ذلك كله على مجموع جسمها وشكلها ، فعادت شيئا أبرع من السحر وأبلغ من الفتنة !

وأما الصغرى واسمها « زين » فقد كانت وحدها البرهان الدال على أن اليد الالهية قادرة على خلق الجمال والفتنة في مظهر ابدع من أختها وأسمى ! كانت هيفاء بضة ، ذات قوام رائع ، قد ازدهر في بياضها الناصع حمرة اللهب ذات عينين دعجاوين ، أودعهما الله كل آيات الفتك واللطف التي تسامى على التعبير ..

ولم تكن شقراء ، غير أن شعرها الأسود الفاحم ـ وقد أحاط كسحر الليل بوجهها الذي قسمت ملامحه أبدع تقسيم وامتزج فيه عندم الشفاه وطب الوجنتين ببياضه الناصع كان يشحن الألباب فتكا ويغمر العقل سكرا .

وكان لها الى جانب ذلك كله رقة عجيبة في روحها ، وخفة متناهية في دمها ، فكانت كتلة مجتمعة من أروع أمثلة الجمال والخفة واللطف .

وعلى الرغم من أن هاتين الغادتين كانتا لؤلؤتين محجوزتين في صدفة ذلك القصر عن معظم الأبصار ، فقد كان اسماهما ذائعين منتشرين في سائر أطراف الجزيرة بل وفي كثير من بلاد كردستان .. ، يتخذون من شهرتهما المقياس الأعلى والمثل الكامل للجمال !

وقد كان من الغريب في الواقع أن تخلق تلك الفاتنتان في قصر أمير (بوطان) لتصبحا أجمل زهرتين تحبسان في رحابه عن الأنظار ، لولا أن الشعب الكردي عامة وأولى الزعامة فيهم غرست في طبيعتهم غيرة ملتهبة لا تكاد تفارق جوانحهم ، مما يجعلهم يتحرجون من اختلاط الجنسين الا بمقدار ... هذا الى أن شقيقهما الأمير كان قد أوتي مزيدا من هذه الغيرة بين جنبيه ، وزادها اتقادا ما كانت تتمتع به أختاه من ذلك الجمال النادر الذي أبى الا أن يذيع اسميهما في الجزيرة كلها وفي معظم البلاد الأخرى ... ولذلك فقد كان من الصعب جدا أن يكون لعشاق ذلك القصر الكثيرين نصيب منه غير السماع ... وتسقط الأخبار .. !

ملخص القصة

لا يمكننا التصدي في هذه العجالة بتلخيص القصة ، ولكننا مع هذا نوجزها قدر الامكان ، ونترك للقارىء فرصة مطالعته المتأنية لها مستقبلا ...

كان الوقت أصيلا ، والناس يودعون ٣٠ مارس ـ آذار ـ ليستقبلوا من ورائه ربيع سنة جديدة حيث يقضون بياض نهارهم فوق المهاد الوارفة الخضراء ، وعلى ضفاف دجلة وفي سفوح تلك الجبال ، وذلك جريا وراء تلك العادة السارية في جميع أنحاء كردستان (وهي عادة قديمة جدا لدى جميع الأمم الآرية) من الاحتفال في مثل ذلك اليوم بشروق الربيع وابتسامه الجديد ، حيث أرادت ـ زين ـ العثور على الرجل الذي لن يعجبها الا اذا بلغ جماله في نفسها مبلغ فتنة هذه الطبيعة الحالمة وأثرها لديها ..

وأخذ الناس ينتشرون بين أجواء خمرية تتهادى على ضفاف النهر الفضي وفوق الدوالي الخضر المطرزة بأبدع نقوش الزهور ، وفوق سفوح (الجودي) الذي هو من بعض جبال جزيرة (بوطان) المفروشة بأبهى ديباجة من السندس المتألق .. حيث كانت الشقيقتان ـ ستي وزين ـ متنكرتين في لباس الرجال وهيأتهم ، واندستا في صفوفهم في ظاهر الجزيرة ، ولا شك انهم يحسبونهما من بعض شباب قصر الأمير زين الدين وغلمانه !

وقد نجحنا في الفكرة هذه ، وأتاح لكل منها أن تجد من بين مختلف شباب هذه الجزيرة الواسعة الأطراف من يروقها ويعجبها . .

كانت تعيش في قصر الأمير زين الدين ، مربية عجوز يقال لها ـ هيلانة ـ كانت هرمة ـ غير أنها أقوى من الدهر ومكره ، وقد شاء لها أن تجمع بين الأميرة ستي وأحد رجال ديوان الأمير الذي كان يدعى تاج الدين دون صعاب أو مشاكل تذكر . . . بينها أخفقت هي ومعها الأقدار أن تمتن حبل الوصال بين الأميرة ـ زين ـ وسكرتير ديوان الأمير (مم) . .

ففي الوقت الذي كان تاج الدين والأميرة ستي منشغلين عن الدنيا وما فيها ، ويرقدان في مهد الأحلام ويستيقظان على الأحلام ، غذاؤهما شهد الوصال وشرابهما كوثر الشفاه ، كان « مم » وحبيبة قلبه المضطرم بالهوى والشباب ـ زين ـ يعيشان آلام الفرقة والعذاب ، ويتحملان هموم الكاشحين والعذال ويتجرعان كؤوس الشقاء واليأس والفتور ، وتأبى سنن الكون الا أن تجري في قصتنا هذه ، فتجمع فيها بين عنصري الخير والشر وتمزج فرحة السعادة بدموع البؤس . وعنصر الشر في هذه القصة هو حاجب خاص لديوان الأمير ، أما اسمه فـ (بكر) واما اسم أبيه فلم يكن يعرف من هو حتى يعرف اسمه ، كانت لهذا الحاجب نفس تنطوي على أشد ألوان الخبث والمكر ، وكأنما غذيت روحه بحب الفتنة فهو يتعشق الولوج فيها حيثما لاح له بابها . ولم يكن في مظهره قصيرا أو قميئا فقط بل كان الى ذلك أجرد الشكل باهت السحنة ذا عينين تشعان بمزيج من الحقد والكراهية والحسد ، وقد استطاع (بكر) أن يجعل الأمير زين الدين يتشبث برأيه ويستبد قائلا « تأكدوا جميعا انه قد يمكن ان تظل زين طيلة حياتها عزباء في هذا القصر ، ولكن لا يمكن ابدا ان اجعلها يوما ما من نصيب (م) ، ولا داعي الى أن تعرفوا سببا لذلك أكثر من أني هكذا أردت ، ولا داعي أيضا الى أن تعيدوا بعد اليوم الى سمعي هذا الحديث الا اذا رأيتم داعيا الى اثارة شر أنتم في غنى عنه ، بعد مرور العديد من الأحداث المهمة ، وانقضاء الشهور المتوالية . . كانت تمر حياة زين ، خلوات مع الأشباح والأطياف ، وحديث مع الخيالات والأوهام يطوف كل ذلك بها ، ثم يستقر في ذهنها وقلبها وكل مشاعرها شيء واحد هو اسم (مم) هو حظها المنكوب الذي أبعدها عن اليف روحها وأخرجها من أفراح الدنيا ونعيمها !

أما (مم) فقد كان يبكي حتى تقرحت عيناه ، ولم يزل يتوجع ويتحرق حتى كادت أن تنطفيء جذوة حياته . ولم يزل تنهار منه القوى وتخور فيه العزيمة ويصفر منه الشكل الى أن طرحته الحمى في مكان ما على شاطيء دجلة وحيدا الا من بعض أصدقائه المخلصين الذين كانوا يعودونه ويواسونه بين كل فترة وأخرى .

لقد استطاع مم وزين حينا من الزمن أن يخفيا عن الناس سريرة حبهما وان يحجبا عنهم جبروت هذا السلطان الذي يتحكم في قلب كل منهما من غير رحمة ، ولكن هذه الطاقة لم تدم لهما طويلا فسرعان ما هتك من حول قلبهما الستر وانتشرت مدامعهما بين أبصار الناس ، وراحت الألسن تتحدث عن حبهما وتتخذ من خبرهما لحنا يسري الى كل مكان وينتهي الى سمع الأسياد والعبيد . وراحت التعليقات المتخيلة تسبح حول ذينك المسكينين البريئين اللذين لم يذوقا من الحب الا صابه وعلقمه ، أقاويل كاذبة ، وتسرب الخبر الى بكر الذي جعل ثانية من الأمير زين الدين أن يهوى بـ (مم) الى قاع السجن دون مبرر أو منطق !

وبعد أن نال بكر جزاءه العادل وهو الموت المحقق على يد تاج الدين الذي أدهشته الحالة التي وصل اليها كل من (مم) في قاع سجن الأمير والذي انتهى أمره بأن أصيب بمرض السل ، وكذلك حين علم بقرب نهاية زين المنارس منها بسبب نيران الفتنة والدمار .

حيث هكذا حكم الدهران لا يجتمع ذانك الحبيبان الا في ظلمات تلك الحفرة ، وتوارى أخرا ذانك الكوكبان في برج واحد !

أما بكر فالغريب انه دفن هو الآخر قريبا منهما ، بل عند قدميهما مباشرة ! قالوا والسبب في ذلك ، وفي أن يلازمهما حتى فيما بعد الممات أيضا ، هو أن زين حين سمعت بنبأ قتل تاج الدين له اغتمت لذلك وتألمت ألما شديدا ، وقالت انه لم يكن يستحق شيئا من هذا العقاب ، ولكن الأقدار هي التي سخرته لها ليصفو حبها هذا الصفاء الروحي ولتسمو نفسها الى ما فوق مظاهر المادة وبهر جيها .

ثم أوصت بأن يدفن قريبا منهما قائلة : انه سيكون حاجبا مخلصا لنا في دارنا الأخرى .

وهذان القبران معروفان في جزيرة بوطان الى اليوم يستطيع كل من أراد أن يشاهدهما والعجيب ان قبر مم وزين يظل محاطا بسور من ظلال الأشجار والورود . . . أما قبر بكر فلا تكاد تبارحه الأشواك التي تعلوه في غزارة !

■■

رمزي الحاج عقراوي

عقرة ـ العراق

مشكلة الذكاء بين الوراثة والبيئة

بقلم الدكتور عبد الرحمن العيسوي

هو تلك السمة الانسانية التي يعزي اليها ما أحرزته البشرية من انتصارات ومنجزات علمية وفنية وفكرية وفلسفية . اذا ارتفع نصيب الانسان منه وصل الى حد العباقرة والعظماء وصناع التاريخ ، واذا انخفض نصيبه منه انحط مستوى سلوكه ليقترب من مستوى السلوك الحيواني .

انه السمة المسئولة عن صنع حضارة الانسان ، ولذلك فكلما ارتفع مستوى هذه الحضارة ، وزاد تعقيدها ، احتاج الفرد لمزيد من الذكاء لتحسين التعامل مع ظروف العصر . ونظرا لأهمية هذه السمة الانسانية ، كانت محط اهتمام العلماء والباحثين والفلاسفة والمفكرين ، فتساءلوا ماهي طبيعة الذكاء ؟ وماهي جذوره التي يرجع اليها ؟ وهل يعد سمة . . وراثية ام مكتسبة .

بعبارة أخرى ماهي العوامل التي تؤثر في نموه ؟ وهل هو سمة أم قدرة بسيطة ام معقدة ؟ كما تساءلوا عن نوعية العلاقة التي تربطه بغيره من السمات الانسانية الأخرى ، وبعبارة ثالثة هل الذكاء قدرة مستقلة تمام الاستقلال عن غيره من القدرات والسمات ؟ وعلى اي نحو يتوزع الذكاء بين افراد المجتمع ؟ هل الغالبية اذكياء ام اغبياء ؟ وهل يؤثر ذكاء الفرد في سلوكه ، وعلى اي نحو يتم هذا التأثير ؟ وهل يختلف الذكاء باختلاف سن الفرد ؟ ومن الامور التي اثارت الاهتمام حتى الآن مسألة الفروق الجنسية في الذكاء ، بمعنى أيهما أكثر ذكاء : الذكر أم الأنثى ؟

وكذلك أثير موضوع الفروق السلالية في الذكاء وأدت اثارة هذا الموضوع الى نشأة كثير من الجدل نظرا لارتباط هذه المسألة بالتعصب العنصري ، واتجاه الرجل الابيض نحو وصف غيره من السلالات كالزنوج مثلا بانخفاض الذكاء ، ليتخذ من ذلك ذريعة لأحكام سيطرته على الزنوج أو الافارقة وتساءل الباحثون عن مدى تأثير الذكاء في التحصيل الاكاديمي ، كما تساءلوا عن السن التي يتوقف عندها نمو الذكاء . انه السمة التي يباهي بها من يمتلك حظا وافرا منها ، وهي التي تعتمد عليها اعتمادا كبيرا عملية الاستيعاب والتحصيل ـ والاستذكار الدراسي ، ولذلك كان الاهتمام بها لايعرف الفتور ، وأصبح من المستطاع تعريف الذكاء تعريفا دقيقا من ناحية وقياسه قياسا كميا محددا .

ومن نتائج تلك المعرفة أنه أصبح في المستطاع التنبؤ بمدى نجاح الطالب في التحصيل الدراسي المستقبلي على ضوء معرفتنا بكم ما يمتلك من ذكاء .

ومن التعاريف الشائعة عن الذكاء : ان الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء . ويعرف هذا التعريف بانه التعريف الاجرائي للذكاء ، وهو التعريف العلمي القائم على أساس السمات والقدرات التي تبدو واضحة في سلوك الفرد الذكي . ويختلف مثل هذا التعريف عن التعاريف الفلسفية او العامة او الغامضة او المبهمة ، كأن تقول ان الذكاء هبة او فطرة . ويقودنا هذا التحليل الى التساؤل ـ وما الذي تقيسه اذن مقاييس الذكاء ؟ ويبتعد مثل هذا التعريف الاجرائي عن الصعوبات التي تواجه هذا المفهوم من حيث كونه فطريا او وراثيا ، أو إنه قدرة واحدة أو عدة قدرات متشابكة ، وما هي ماهيته أو كنهه ومادته الاولى .

تتضمن اختبارات الذكاء بعض الأسئلة او المواقف او

الاعمال التي تواجه بها الفرد ونطلب منه حلها ، كحل بعض المشكلات الرياضية ، او ادراك العلاقات واستخدام الرموز وفهم المواقف . يواجه الفرد بسلسلة من هذه المواقف المقننة التي يحتاج حلها الى استخدام ذهن الفرد . وتقارن استجابات الفرد على هذه السلسلة باستجابات اشخاص اخرين سبق لهم اداء هذه الاعمال ، وبالتالي نتعرف على مستواه بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم القيام بنفس الاداء وتحت نفس الظروف ، والذين يشترط فيهم ان يكونوا على درجة كبيرة من الشبه معه من حيث اتفاق السن والجنس والمستوى التعليمي والثقافي والطبقة الاجتماعية والسلالة .

هل الذكاء وراثي ؟

وكثيرا ما تساءل العلماء ، هل الذكاء وراثي ام مكتسب ؟ بعبارة اخرى هل يتحدد كم ما يملك الفرد من ذكاء عن طريق العوامل الوراثية التي تنتقل اليه عن طريق المورثات او ناقلات الوراثة من الأباء والأجداد أم ان التغذية والتربية والمعاملات التي يلقاها الطفل والخبرات التي يمر بها ، والامراض التي تصيبه .. الخ تؤثر في نمو ذكائه ؟ فاذا كان الوضع الوراثي هو المعبر عن الحقيقة في هذا المبحث فاننا نقف مكتوفي الايدي امام ما يملك الطفل من ذكاء ولا نستطيع تنميته . واذا صح الاتجاه البيئوي فان الافاق تفتح امامنا لتحسين حال من حرمتهم الطبيعة من وفرة هذه القدرة الثمينة بل اننا نكون اكثر طموحا ونعمل على زيادة ذكاء مرتفعي الذكاء ايضا تحقيقا لمزيد من سعادة البشرية وانتصاراتها ومنجزاتها ومخترعاتها . واذا كان الامر كذلك ، فأننا نستطيع ان نضمن تحسين ذكاء الاجيال المقبلة بصورة مطردة جيلا بعد جيل . ويتبع ذلك بالضرورة القضاء على الظروف أو العوامل التي من شأنها ان تقلل من ذكاء الاجيال القادمة .

اذا كان الذكاء ناتجا عن العوامل الوراثية ، فاننا نتوقع ان نجد تشابها في ذكاء الأباء والأبناء مثلما نجد من تشابه في عوامل مثل طول القامة ، ولون العينين وشكل الشعر ولونه . في هذا الصدد وجد كل من كونراد وجون معامل ارتباط قدره ٤٩, ٠ بين نسبة ذكاء الاباء وابنائهم ، كما وجدا مثل هذا المعامل بين ذكاء الاخوة الاشقاء . واذا ماقورن هذا المعامل بمثيله بين مجموعة من الكبار ومجموعة اخرى من الاطفال لا توجد صلة دم بينهم ، وجد ان معامل الارتباط في هذه الحالة يساوي صفرا ، معبرا عن عدم وجود علاقة على الاطلاق . وفي دراسة اخرى على التوائم غير الصنوية اي تلك التوائم التي يتكون كل فرد من افرادها من بويضة مخصبة مستقلة ، وجد أن هناك معامل ارتباط قدره ٦٣, . كما تدلنا على ذلك دراسة كل من نيومان ، فريمان وهولزنجر . ومثل هذا المعامل وجد بين اعضاء الاسرة الواحدة .

تشابه التوائم

وبعودتنا هذا الى التساؤل لماذا يزيد التشابه بين التوائم عنه بين الاخوة ؟ ربما يرجع ذلك الى تشابه الظروف البيئية التي ينشأ فيها التوائم من حيث الظروف الاقتصادية والاجتماعية للاسرة ونتيجة لتشابه المعاملة التي يتلقاها كل فرد من التوائم من قبل الآباء والأخوة والأخوات والأقارب والأصدقاء . ويؤكد هذه الملاحظة ان معامل الارتباط ، المعبر عن حجم التشابه يزداد كلما عاش التوأم مع زميله ، ولذلك اسفرت بعض الدراسات ان معامل الارتباط بين اخوة بلغوا سن العاشرة من العمر كان ٦٢و . بينما كان معامل الارتباط بين ذكاء اخوة في الرابعة فقط من عمرهم ٤٠ر . ويرجع ذلك بالطبع الى تشابه الظروف التي يخضع لها الاخوة والى مدى استمرار هذه الظروف . وواضح أن مثل هذه الدراسات تدلنا على وجود تأثير من جانب الوراثة ومن جانب البيئة على نمو الذكاء .

أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية

ولكن هناك دراسات أكثر دلالة ووضوحا في البرهنة على تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية على نمو ذكاء الاطفال . فلقد وجدت علاقة بين وظيفة الأب وبين ذكاء ابنائه . فلقد وجد ان ذكاء ابناء ارباب المهن الراقية كالمهندسين والمدرسين والمحامين اعلى من ذكاء ابناء العمال غير المهرة . وعلى سبيل المثال كان المتوسط الحسابي لنسبة ذكاء مجموعة من اطفال الطبقات المهنية الفنية ٥ر١١٧ بينما كان نظيره لدي ابناء عمال اليومية هو ٦ر٩٧ .

ولكننا هنا ايضا امام تداخل العوامل البيئية مع الوراثية ، ذلك لاننا نستطيع ان نقول ان الاباء الذين يشغلون الوظائف الفنية التخصصية الراقية يوفرون بيئة تعليمية مثيرة ، ومشجعة لابنائهم ، كأن يتوفر للطفل الغذاء الجيد ، والكتاب والمجلة والمذياع ، والتليفزيون ، والاحاديث الراقية ، ونستطيع ان نقول في نفس الوقت ان الاباء الذين يشغلون مثل هذه الوظائف الراقية ما كان لهم ان يشغلوها لولا تمتعهم اصلا بالذكاء المرتفع ، ومن ثم انتقل الى ابنائهم بحكم الوراثة .

وتمدنا الدراسات التي اجريت على التوائم العينية او

الصنوية وهي تلك التي تتكون من انشطار بويضة واحدة مخصبة في الرحم ، والتي يمتاز توائمها باتحاد العامل الوراثي - تمدنا بكثير من المعطيات التي تفيد في معرض الحديث عن تأثير العوامل البيئية والوراثية . ولما كانت الوراثة واحدة في هذه الحالات ، فاننا اذا نقلنا احد التوائم ليعيش في بيئة مغايرة للبيئة التي يعيش فيه شقيقه ، واذا لاحظنا بعد مرور بعض الوقت ، اختلافا في نسبة ذكائهما لكان مرده الوحيد هو التأثير البيئي ، اما اذا لم تلحظ اختلافا لكان مؤدي ذلك ان البيئة لا تؤثر في نمو الذكاء ، وانه يحدد بفعل العوامل الوراثية الصرفة .

ذكاء التوائم

ولقد وجد معامل ارتباط قدره ٨٨ر . بين نسبة ذكاء التوائم ولكن هذا المعامل انخفض الى ٧٧ر . عندما كانت الحالات منعزلة بعضها عن البعض . ومعنى ذلك انه كلما زاد تشابه الوراثة والبيئة زاد معامل الارتباط اي زاد تشابه الذكاء . والفرق الملاحظ بين معاملي الارتباط ٨٨ر ، ٧٧ر . انما يرجع الى الظروف البيئية . وتعطي الدراسات التي اجريت على اطفال التبني ومقارنة مقدار التشابه بين ذكائهم وذكاء ابائهم الطبيعيين ثم ذكاء آبائهم في التبني توضح أن العامل الوراثي قوي في تحديد الذكاء ، ولكن أطفال التبني الذين يتربون في اسرة واحدة تكون النتيجة تشابه ذكائهم .

الذكاء والعوامل البيئية

ومؤدي هذه الدراسات أن هناك تأثيرا للعوامل البيئية على نمو الذكاء . وهنا نتساءل ماهي تلك العوامل بغية العمل على توفير المزيد منها لأبناء امتنا العربية ؟ لقد وجد أن الطفل الذي يذهب الى احدى دور الحضانة يمتلك ذكاء اعلى من زميله الذي لا يذهب اليها ، على اعتبار أن دار الحضانة تمثل بيئة اكثر غنى من الناحية التعليمية عن البيئة المنزلية الصرفة للطفل . ولكن هذه النتيجة ليست على اطلاقها فقد يتحدر هؤلاء الاطفال الذين يذهبون الى دور الحضانة من آباء اكثر ذكاء اصلا ، واكثر تمتعا بالمراكز الاجتماعية والاقتصادية المرتفعة الذي يتحدد اصلا بفعل عوامل وراثية . اننا نحتاج الى معرفة كم ذكاء هؤلاء الاطفال انفسهم قبل الالتحاق بالحضانة ثم نقيسه بعد الالتحاق ، فان زاد كانت الزيادة نتيجة لتأثير دار الحضانة . قد لا يهتم الاباء الاقل ذكاء بايفاد ابنائهم الى دور الحضانة . لقد دلت احدى الدراسات التي تتبعت الاطفال قبل وبعد الالتحاق بدور الحضانة ووجدت ان هناك زيادة سنوية في متوسط نسبة الذكاء قدرها ٦ر٦ . ولكن تفسير هذه الزيادة قد يرجع الى تأثير الحضانة في نمو الذكاء فعلا وقد يرجع فقط الى تدريب الطفل على اتقان الاجابة على الاسئلة وفهمها وفهم التعليات اي التدريب على مواقف الاختبارات .

وهناك دراسات اخرى أوضحت ان البيئة المثبطة عقليا للطفل تؤدي الى انخفاض نسبة ذكائه . فحرمان الطفل من الاتصال الطبيعي بالام الطبيعية او الام البديلة يخفض معدلات الذكاء . ومن الاثار الايجابية على نمو ذكاء الطفل مقدار الساعات التي يقضيها معه الاب يوميا وكذلك فرص اللعب البنائي امام الطفل ، وكذلك وفرة عدد من زملاء اللعب في المنزل ، وعدد الساعات التي يقضيها الاب في القراءة مع ابنه .

وفي ضوء هذا الاستعراض نقول ان العوامل الوراثية تضع الاطار العام او الحدود العامة التي ينمو خلالها الذكاء ، ولا يمكن تخطي هذه الحدود ، ولكن هذا لا يمنع من ان العوامل البيئية تؤثر ولو تأثيرا محدودا على نمو الذكاء . وتؤثر بالقطع في كيفية استخدام الذكاء وتحدد الوجهة التي يتخذها ذكاء الفرد ، فاما ان يتجه نحو الخلق والابداع والابتكار في العلم والفن والتحصيل والاعمال الايجابية النافعة ، واما ان يتجه نحو السرقة والجريمة والانحراف وخاصة تلك الجرائم التي تحتاج الى قدر كبير من الذكاء كالاختلاس والتزوير والتزييف والنصب والاحتيال . ومعنى ذلك ان الوراثة تعطي البذور الخام ، والتربة الصالحة هي التي تحدد اما ان ينمو الذكاء ويزدهر او يطمس ويندثر واما ان يرتقي بصاحبه الى مراتب الخير ، واما ان يتجه الى الشر والجريمة .

ومعنى ذلك ان الانسان ، بحق ، هو ابن البيئة والوراثة معا ، ونتيجة محصلة للتفاعل بين العوامل البيئية والعوامل الوراثية ، ذلك لان البيئة تؤثر في الوراثة وتتأثر بها . ولكننا مهما كان أثر العوامل البيئية صغيرا فاننا لا بد وان نتمسك به ونحرص عليه ونسعى لتحسينه وتطويره ، لانه العامل الوحيد الذي نستطيع ان نعد له ونطوره ، اما الوراثة فان تغييرها امر صعب نسبيا وان كان هناك الان علم تحسين الوراثة .

ترى كم نحن في حاجة الى رعاية اطفال امتنا العربية واحاطة ذكائهم بالعناية والرعاية وحسن التوجيه وتوفير الاغذية والتحصينات الطبية والكتب والمجلات والمدارس والرحلات وغير ذلك من الامور التي تتحدى ذكاءهم وتوسع آفاقهم . ■■

د . عبد الرحمن العيسوي
استاذ علم النفس بجامعة الاسكندرية

أبو العتاهية .. عاشقاً

بقلم : محمد خليفة التونسي

هذه قصة شاعر توهم الحب لعبا ، حتى اذا مسته آلام لذعه صاح يتوجع ويفضح سره بشكواه ، ومن العجيب في هذا الشاعر انه اشتهر بشعر الزهد في أدبنا كما لم يشتهر أحد ، فلو جئنا الى احد ممن ألم بقدر من سير شعرائنا واشعارهم ، وسألناه .. من شاعر الزهد عندنا ؟ لقال من فوره : « هو أبو العتاهية » لا يعدوه ، فقد أطال وأكثر في نظم قصائد الزهد ما لم يطل غيره .

ومن العجيب ايضا ان كل زهديات أبي العتاهية مع كثرتها البالغة لا تجد فيها من الحرارة والاخلاص ما تجده في زهديات شاعر معاصر لـه لم يشتهر بشيء كما اشتهر بالمجون والخلاعة ، وهو شاعرنا أبو نواس ، عليهما رحمة الله ، ولسنا هنا بصدد المقارنة بين زهديات هذا وزهديات هذا ، بل بصدد قصة عشق أبي العتاهية لجارية من جوارى القصر الحاكم في بغداد في مطلع حكم العباسيين .

كان خزافا

ولد أبو العتاهية في الكوفة سنة ١٣٠هـ ، اى قبل ستين من تمكن العباسيين من انتزاع حكم البلاد الاسلامية من أيدى الأمويين ، وعاصر أبو العتاهية سبعة الملوك الاول للدولة العباسية ، وهم السفاح فالمنصور فالمهدى ، فالهادى فالرشيد فالامين فسابعهم المأمون ، ولكن لم يبدأ الاتصال الا بثالثهم المهدى ، ثم اتصل بالآخرين حتى مات في عهد المأمون سنة ٢١٧ اى قبل وفاة المأمون بسنة واحدة .

وكان أبو العتاهية في مبدأ نشأته ـ كسائر أهله ـ خزافا ، يصنع الجرار ويزينها بالخضرة ليحصل على رزقه من بيعها ، وقد أغرم بالشعر منذ كان فتى ثم اشتهر به ، فكان الشبان يأتون مصنعه ، ويستنشدونه شعره ، ويكتبونه على ما تكسر من خزفه ، فلما أنس في نفسه القدرة على قول الشعر الجيد ترك المصنع في الكوفة لأخيه ، ورحل الى بغداد لمزاحمة الشعراء على أبواب الأمراء والرؤساء والولاة والقواد ، حتى وصل الى المهدى ، وكان وصوله اليه عن طريق جارية من جواريه تسمى « عتبة » حاول أبو العتاهية أن يتحرش بها ليجعل منها عروسا لشعره كسائر الشعراء ، كانت عتبة في البداية جارية لزوجة المهدى « ريطة » بنت عمه ابي العباس السفاح ، ثم وهبتها « ريطة » للخيزران جارية المهدى ، وأم ولديه موسى الهادى ، وهارون الرشيد ، وقد رأى أبو العتاهية انه خامل الذكر في بغداد ، فطلب سببا يشتهر به ويوصله الى المهدى ، فاجتازت عتبة به يوما مع عدة من جواريها



وحشمها ، فكلمها واستوقفها فأنفت ان تتكلم او تقف عليه ، وأمرت غلمانها بتنحيته ، فكان مما قال : -

يا عتب ما شأني وما شأنك
ترفعي سني ، بسلطانك
اخذت قلبي هكذا عنوة
ثم شددتيه بأشطانك
الله في قتل فتى مسلم
ما نقض العهد وماخانك
حرمتني منك دنوا ، فيا
ويلي ، مالي ولحرمانك
يا جنة الفردوس ، جودي فقد
طابت ثناياك وأردانك

وكان أبو العتاهية يحتال للقاء عتبة ، حدث يوما أن خرجت بصحبة رئيس حرس القصر وكانت ريطة زوجة المهدى قد أعطته اموالا يشترى بها من سوق الرقيق من يرى من العبيد والاماء ، ويعتقهم لوجه الله ، وامرت عتبة بمصاحبته لتحضر معه الشراء والعتق ، فانتهز ابو العتاهية الفرصة ، وجاء عتبة متنكرا في زى شيخ متنسك فقال لها : جعلني الله فداك شيخ ضعيف كبير ، لا يقوى على الخدمة ، فان رأيت - أعزك الله - شرائي وعتقي فعلت مأجورة .

فأقبلت عتبة على رئيس الحرس الذى تصحبه فقالت له مشيرة الى أبي العتاهية : أرى هيئة جميلة ، وضعفا ظاهرا ، ولسانا فصيحا ، فاشتره وأعتقه ، فاجابها « نعم » فقال أبو العتاهية لعتبة « اتأذنين لي - أصلحك الله - في تقبيل يدك » فأذنت له ، فقبل يدها وانصرف ، فضحك رئيس الحرس ، والتفت الى عتبة يقول لها : « أتدرين من هذا ؟ » قالت : « لا » قال : « هذا أبو العتاهية ، وانما احتال عليك حتى قبل يدك » .

في حب عتبة

مضى أبو العتاهية في نظم الشعر وهو يلهج بحبه لعتبة ، فمن قوله فيها : -

« ألا يا عتيبَ ، يا قمر الرصافه
ويا ذات الملاحة واللطافه
رزقت مودتي ، ورزقت عطفي
ولم أرزق - فديتك - منك رافه
وصرت من الهوى دنفا سقيما
صريعا كالصريع من السلافه
أظل اذا رأيتك مستكينا
كأنك قد بعثتِ عليَّ آفه

وقوله : -

أحمدٌ قال لي - ولم يدر ما بي
« أتحب الغداة عتبة حقا »
فتنفست ثم قلت : نعم حبا
جرى في العروق عرقا فعرقا
لو تجسين - يا عتيبة - جنبي
لوجدت الفؤاد قرحا مفقا
قد - لعمرى - مل الطبيب ، ومل الـ
أهل مني ، مما أقاسي وألقى

ليتني مت ، فاسترحت ، فإني
أبدا ـ ما حييت منك ملقى

وأجل من ذلك ، وادل على استمرار اللوعة قوله : ـ

بالله يا حلوة العينين زوريني
قبل الممات ، وإلا فاستزيديني
هذان امران : فاختاري احبهما
اليك أولا ، فداعي الموت يدعوني
ان شئت موتي فأنت ـ الدهر ـ مالكة
روحي ، وان شئت أن احيا فأحييني
يا عتب ، ما أنت إلا بدعة خلقت
من غير طين ، وخلق الناس من طين

ثم تجرأ أبو العتاهية فنوّه بحبه لعتبة في مقدمات قصائده التي يمدح بها المهدي وينشده اياها في مجلسه وهو بين حاشيته وغيرهم من الشعراء ، ومن ذلك قوله :

الا ما لسيدتي مالها
ادلت فأحمدت ادلالها
وإلا ففيم تجنت ، وما
جنيت ، سقى الله أطلالها
وجارية من جواري الملو
ك قد أسكن الحسن سربالها

وسرعان ما وثب أبو العتاهية الى مدح المهدى ليقول فيما يقول

أتته الخلافة منقادة
اليه تجرجر اذيالها
ولم تك تصلح الا له
ولم يك يصلح الا لها

وهذه المجاهرة بحبه أمام المهدى ، وشهرة لهجه به دليل على صدقه في حبه .

ولكن عتبة ضاقت بذلك حتى كان يوم دخل فيه المهدى الى جاريته الأثيرة الخيزران أمّ ولديه الهادي والرشيد ، فوجد عتبة تشكو اليها ما يلحقها من الشناعة وهي تبكي ، فلما عرف المهدى ذلك استحضر أبا العتاهية فلما حضر ووقف أمامه قال له أنت القائل في عتبة .

الله بيني وبين مولاتي
أبدت لي الصد والملامات

فمتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك ، فاحتال أبو العتاهية ليلهي المهدى بان يوجهه الى ما في هذه القصيدة من مديح ، فقال : يا امير المؤمنين ، فانا الذى اقول : ـ

يا ناق ، سيري بنا ولا تعدي
نفسك فيما رأيت راحات
حتى تجيئي بنا الى ملك
توجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مفرقه
تاج جمال وتاج إخبات

فنكس المهدى رأسه وخط في الارض بصولجانه ، ثم رفع رأسه وذكر بعض اقوال ابي العتاهية في عتبة ، فألحمه ثم أمر بجلده فجلد ، وأخرج متوجعا منكسرا ، فلقيته عتبة ، فقال لها : ـ

بخ ، بخ ، يا عتب ، من مثلكم
قد قتل المهدى فيكم قتيلا ؟

فاغرورقت عيناها ، وفاض دمعها ، ودخلت على الخيزران باكية ، فوجدت المهدى عندها ، فسأل : مالعتبة تبكي ؟ « فقيل له : لأنها رأت أبا العتاهية مجلودا ، وقال لها كيت وكيت ، فامر له المهدى بخمسين ألف درهم ، ففرقها أبوالعتاهية ، على من بالباب ، فلما علم المهدى بذلك وجّه اليه من يسأله ! « ما حملك على ان تقسم ما أكرمتك به من مال ؟ » فأجاب : « ما كنت لآكل ثمن من أحببت » ، فوجّه اليه بخمسين ألف درهم غيرها ، وحلف عليه ألا يفرقها ، فأخذها وانصرف .

مع المهدى والرشيد

ولكن أبا العتاهية استمر في أشعاره يلهج بحبه لعتبة ، وانتهز حلول يوم نيروز وهو يوم رأس السنة وأول السنة الجديدة عند الفرس قبل الاسلام ، وكانوا يتخذونه عيدا ، ويهدون فيه الهدايا الى ملوكهم ورؤسائهم ، ولما جاء العباسيون أحيوا هذا العيد ، فانتهزه أبو العتاهية ، وأهدى الى المهدى برنية صينية ثمينة والبرنية وعاء شبيه بالزهرية أو المزهرية ، وكان في البرنية ثوب مضمخ بالمسك عليه كتابة بالغالية وهي خليط مائع من الطيوب ، وكانت المكتوب على الثوب هذان البيتان : ـ

نفسي بشيء من الدنيا معلقة
الله والقائم المهدى يكفيها
اني لأيأس منها ثم يطمعني
فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهم المهدى ان يدفع له عتبة هبة ، فلما عرض عليها ذلك قالت له .. يا أمير المؤمنين مع حرمتي وخدمتي تدفعني الى بائع جرار يتكسب بالشعر ، فبعث المهدى

يقول له « اما عتبة فلا سبيل لك اليها ، وقد امرنا لك بملء البرنية مالا » ، وخرجت عتبة فوجدته يجادل الكتاب في أمر هذا المال : هو يقول إنما أمر لي بدنانير اى ذهب) وهم يقولون بل بدراهم (اى فضة) ، وكان ابو العتاهية من أبخل الناس واشدهم حرصا على كنز المال حتى أيام زهده فلما رأت عتبة هذا الجدال بينه وبين الكتاب قالت : « أما لو كنت عاشقا لعتبة لما اشتغلت بتمييز ذهب الدنانير من فضة الدراهم . ومات المهدى سنة ١٦٩هـ ، وخلفه على الملك أخوه الهادى سنة وشهورا ، وتلاه هارون الرشيد فعظمت عنده منزلة أبي العتاهية اذ كان يقربه اليه كثيرا حتى كان لا يفارقه في سفر ولا إقامة حيث كان لأن أبا العتاهية ـ كان ـ مع قبح خلقته ـ ظريفا كثير الملح والنوادر ، فكان الرشيد يدخله مجالس أنسه ، ليسمع مدائحه فيه ، ويأنس بأحاديثه ، فبقي ينظم الشعر في عتبة إلى أن بلغ الرشيد يوما شعره فيها منسوبة الى الخليفة ، ومنه قوله :

ألا إن ظبيا للخليفة صادني
ومالي عن ظبي الخليفة من عذر

فغضب الرشيد ، وقال : أسخر منا ، فبعث وامر بحبسه ودفعه الى سجان فظ غليظ يسمى « تنجاب » ، فبالغ في اساءته فقال

تنجاب ، لا تعجل على
فليس ذا من رأيه
ما خلت هذا في محا
بل ضوء برق سمائه

أي أن هذا التعذيب ليس من رأى الرشيد .

وأرسل وهو في الحبس يتين الى الرشيد : ـ

انما انت رحمة وسلامة
زادك الله غبطة وكرامة
قيل لي قد رضيت عني فمن لي
أن ارى لي على رضاك علامة

فقال الرشيد : لله أبوه ، لو رأيته « ماحبسته ، وانما سمحت نفسي بحبسه لانه كان غائبا عني » ثم أمر باطلاقه ، وعاد الى تقريبه اليه .

فلما رأى ذلك ابو العتاهية عاود الرشيد يسأله عتبة ، فوعده بتزويجها بعد ان يسألها ، في ذلك ، فان أجابت جهزها ، واعطاه مالا عظيما .

ثم إن الرشيد سنح له شغل طويل ، فحجب ابو العتاهية عن الوصول اليه ، واراد أن يذكره بوعده ، فلم يجد سبيلا اليه الا ان يرسل اليه هدية بحسب قدرته ، وهي ثلاث مراوح ، كتب على كل منها بيت شعر من نظمه ، وسلمها الى مسرور الكبير وصيف الرشيد وحامل السيف في صحبته ، فدخل بها مسرور على الرشيد مجتمعة في يده ، وهو يبتسم ، وأخبره انها هدية ابي العتاهية اليه ، فقرأ على المروحة الاولى .

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي
فاذا لها من راحتيه شميم

فقال الرشيد : أحسن الخبيث ، وقرأ على المروحة الثانية .

أعلقت نفسي من رجائك ماله
عنق يجث اليك بي ، ورسيم

فقال : قد أجاد ، وقرأ على الثالثة : ـ

ولربما استيأست ، ثم أقول : لا
ان الذى ضمن النجاح كريم

فقال : قاتله الله ، ما أحسن ما قال « ثم دعا به ، وقال : ضمنت لك عتبة ، وفي غد تقضي حاجتك ان شاء الله » وبعث الى عتبة ، إن لي اليك حاجة ، فانتظريني الليلة في منزلك « فأكبرت ذلك منه ، وسارت اليه تستعطفه ، وتطلب ان يذكرها حاجته ، فحلف لها ألا يذكر حاجته الا في منزلها ، فلما كان الليل سار اليها مع جماعة من حاشيته ، وقال لها : لست اذكر حاجتي او تضمنين قضاءها قالت : أنا أمتك ، وأمرك نافذ « في ، ماخلا أمر أبي العتاهية ، فاني حلفت لأبيك رضي الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر ، وبالمشي الي البيت الحرام حافية ، كلما انقضت عني حجة وجبت حجة لا [illegible] على الكفارة ، وكلما افدت شيئا تصدقت به الا ما [illegible] فيه من ثياب ، وما يمسك رمقي من طعام » وبكت [illegible] يديه ، فرق لها ، ورحمها ، وانصرف عنها .

فلما غدا عليه أبو العتاهية قال له الرشيد:ما قصرت في أمرك ، ومسرور ، وحسين ، ورشيد ، من رجال قصرى شهود لي بذلك وشرح له الخبر .

قال أبو العتاهية : فلما أخبرني بذلك مكثت مليا لا أدرى أين أنا ، قائم او قاعد ، وقلت للرشيد : الآن يا أمير المؤمنين ـ يئست منها اذ ردتك ، وعلمت أنها لا تجيب أحدا بعدك .

منذئذ : أحس أبو العتاهية خيبة آماله في عتبة ، فلبس الصوف وتنسك ، وترك نظم الشعر في عتبة او غيرها ، واكثر من قصائد الزهد في الدنيا « ■■

محمد خليفة التونسي

طبيب الأسرة

يجيب على هذه الاسئلة نخبة من الاطباء



البول السكري عند الأطفال

● ولدى البالغ من العمر خمس سنوات .. بدا عليه الهزال رغم اقباله على الطعام .. واخذ يشكو ألماً في ساقيه مع خمول وتبول لا ارادي في الليل وبعد عرضه على الطبيب تبين انه مصاب بالبول السكري .. فما هي حقيقة هذا المرض .. وعلاجه ؟

عبد الستار الالوسي - الاعظمية - بغداد

- نعم .. يصاب الاطفال بمرض السكر وقد تبدأ اعراضه في سن مبكرة عن الخامسة ربما في الثانية من عمر الطفل .. وكلما كان اكتشافه وتشخيصه مبكراً أمكن التحكم في كيفية التعايش معه .. لان حالات السكر التي تكتشف عند الاطفال تستلزم علاجاً مدى الحياة بحقن الانسولين التي سرعان ما يتآلف معها المريض حتى يبدو طبيب نفسه فلا يحتاج لأحد يعطيها له .

ان مرض السكر عامة هو من الامراض التي تلعب الوراثة فيها دورا اساسيا .. ليس من الضرورة ان يكون الاب او الام .. هناك ايضا الجدود .. واصابة توأم بمرض السكر تعني اصابة اخيه بنسبة ٢٠ - ٥٠ ٪ . وهو احد الامراض التي تسفر عن خلل في عمليات الايض الغذائي الخاص بمادة الجلوكوز - السكر - والذي يعد مصدر الطاقة الاول في الجسم .. فدخول جزيء السكر لخلايا الجسم يسهله هرمون الانسولين الذي تفرزه خلايا خاصة في البنكرياس . وحينما يقل او ينعدم افراز الانسولين من البنكرياس فان السكر بالطبع لا يمكنه النفاذ للخلايا فيبقى في الدم مسببا ارتفاعا عن معدله الطبيعي والذي يبلغ ٨٠ - ١٢٠ مجم / ١٠٠ سم دم .. والذي تحاول الكليتين الحفاظ دائما عليه في هذا المستوى .. لكن ارتفاعه الشديد بالطبع يجبرها على افرازه في البول ومعه كمية اكبر من الماء تظهر في الزيادة الكبيرة لادرار البول وربما التبول اللاارادي عند الاطفال وبالتالي الحاجة الشديدة لتعويض الماء المفقود ويعبر عنها بالعطش الدائم .. ولما كان الجسم لا يستفيد من كميات السكر السارية مع الدم والممنوعة من النفاذ للخلايا .. فانه بالطبع يعبر عن ذلك بحاسة الجوع فيأكل مريض السكر كثيرا .. لكنه لا يفيد من الاكل فيزداد هزاله .

تبدو هذه التطورات اكثر وضوحا في حالات الاصابة بالسكر المبكرة في مثل سن ابنك .. لان هناك بعض حالات السكر الخفيفة والتي ترى في سن متأخرة في اكثر الحالات ، وتنشأ عن سمنه مفرطة وتبدأ في التحسن مع نظام غذائي يحدد كمية السكر المطلوبة للجسم فقط .. ومع نقص الوزن يتلاشى السكر . واحيانا تأتي

الاصابة عقب حالات الانفعال والمعاناة النفسية الشديدة . . وقد يظهره الحمل عند السيدات . . وفي مثل تلك الاحوال قد لا يستخدم الانسولين . . لكن تستخدم الادوية التي تحفز افرازه من البنكرياس . . او تحسن طريقة الافادة من السكر في الخلايا .

واذا عدنا للسكر عند الاطفال . . فانه في الواقع المشكلة الحقيقية لان الطفل اكثر حساسية لنقص او زيادة كمية الانسولين المعطاة . . كلا الطرفين يؤدي الى حدوث الغيبوبة . . كما انه اكثر عرضة للاصابة بالمضاعفات التي قد لا تحل مسئولية أي جهاز في الجسم . . العين والكلى والجهاز العصبي والرئة . . بل ايضا الجلد واجهزة المناعة ، لذا فالطفل عرضة دائما لمتاعب النظر وكثيرا ما تعتوره آلام الاطراف الناشئة من التهابات الاعصاب الطرفية وتقلصات عضلات الساق كما انه اكثر عرضة للامراض الصدرية ، بالذات الدرن الرئوي الى جانب متاعب الكلى . اما الجلد فيصاب ببعض الاصابات والتقرحات التي تستلزم علاجا حاسما . . كذلك . فان توافر كميات السكر اللازمة لنمو البكتريا بشراهة ترجىء شفاء الجروح وقد تصل الى حد (الغرغرينا) بمعدل اسرع مع كل هذا فان هناك كثيرا من الأمل ـ ليس في الشفاء الكامل مع الأسف ـ لكن في امكانية التعايش مع ذلك المرض الذي لا ندعي انه قاتل . بقدر ما هو الاكثر ارباكا لاجهزة الجسم . .

بالفعل يمكن التعايش مع مرض السكر ويمكن لمريضه ان ينمو بمعدلات عادية بل ويتزوج وينجب ايضا اذا ما بدأ ما بدأ اليقظة مبكرا ووضع وعائلته في ذهنه بعض النقاط الهامة . .

* اكتشاف السكر عند الاطفال يأتي نتيجة ملاحظة ذكية للام فيجب بمجرد الشك عرضه على طبيب باطني .
* جرعة الأنسولين هي اهم ما يحدد علاقة المريض بمرضه . . لذا يجب الاهتمام بتحليل البول لاربعة مرات يوميا قبل وبعد الفطور ثم بعد الغذاء بساعتين وقبل النوم الى جانب تحليل الدم في فترات منتظمة ومتقاربة .
* المبادرة فورا باجراء كل الفحوصات اللازمة اذا ما بدا اي خلل في وظيفة احد اجهزة الجسم الحيوية بالذات العين والكلى ومعالجة اي الاصابات الميكروبية بحزم وبمضاد حيوي لفترة ملائمة ومحاولة تجنب احداث الجروح ما امكن .
* بعض التمرينات الرياضية الخفيفة والسباحة او المشي ورياضة التنس تبدو مفيدة الى حد بعيد ـ تحت الاشراف ـ في توزيع طاقة الجسم وتصريفها وتنشيط الدورة الدموية . .
* لا يحرم طفل السكر من اي طعام ـ عدا الاقلال من السكريات ـ فغذاء متوازن مليء بالبروتين والخضروات الطازجة وكوب حليب دافىء يساعده كثيرا الى جانب الاهتمام باضافة الفيتامينات والمعادن المختلفة لغذائه ويفضل الفيتامينات غير المركبة فمثلا من الافضل اعطائه فيتامين أ ثم فيتامين ج ب ١٢ ب ٦ ، ب ، ب ٢ كل في مستحضر مستقل نظرا لان خلط هذه الفيتامينات ثبت حديثا انها قد تبطل مفعول بعضها البعض .
* مراعاة قواعد الصحة العامة من اكثر العوامل مساعدة على اتقاء مضاعفات السكر . . فجلد نظيف دائما جاف . . مكان غير مرغوب من البكتريا . . الى جانب اهمية الحفاظ على نظافة العينين والاذن واللثة واستخدام فرشاة اسنان لينة لا تدمي اللثة مع معجون أسنان به مادة الفلور ويحسن تغييره من آن لآخر حتى لا تتعوده البكتريا دائمة التواجد في الفم فتنتهز الفرصة لتحول لبكتريا مرضية فتاكه .
* يجب ان تتذكر الام جيدا أن حياة ابنها في حقنه الانسولين . . لذا يحسن استخدام الحقن التي تستعمل لمرة واحدة ويراعى انها دائما تؤخذ تحت الجلد بعد تطهير المكان جيدا . . ويجب الا تؤخذ في مكان واحد دائما فتغيير المكان يقي من الاصابة (بخراجات الجلد) يمكن اعطائها في اي مكان به العضلات ممتلئة سواء في خلفيه الفخذ . . او عضلات الذراع . .

* حتى الآن . . [illegible] من هذه الطريقة رغم انها تحت التجربة العديد من الأجهزة التي تعمل بالعقل الألكتروني . . منها ما يمكن تركيبه تحت الجلد ـ عند الصدر ـ ويعمل بالبطارية . . ويعمل كمستودع للانسولين يجري بذاته تحليل دم المريض ويقدر نسبة الانسولين اللازمة ويصبها مباشرة في دم المريض . . نأمل ان تنجح تجاربه وان يكون قريبا في الاسواق وفي خدمة مرضى السكر .

آلام الصدر والذبحة

● شعرت بألم في صدري مع ضيق في التنفس .. وخشيت ان يكون هذا مجرد انذار بوجود ذبحة صدرية فعرضت نفسي على الطبيب الذي اكد لي عدم وجود اي بوادر للذبحة صدرية .. وحتى الآن لا ادري سببا لهذا الالم .. ما رأيكم ؟

م . احمد كامل ـ الاسكندرية

ـ حتى الان .. فان الم الصدر هو احد المشاكل التي يواجهه الطبيب المتخصص في طب القلب .. اذ ان القاعدة الخاصة به تؤكد انه ليس كل الم بمنطقة الصدر والقلب له علاقة بامراض شرايين القلب في الوقت الذي يجب اعتبارها اول جرس انذار لامراض شرايين القلب وبداية الفحوصات لاستبعادها او تأكيد وجودها . ذات القاعدة تؤكد ان الموت قد يواتينا حقا من بين الضلوع ونتيجة لملمة بالقلب .. بدون الم ! ..

ويمكننا بايجاز مناقشة الم الصدر من وجهة نظر فيها الكثير من التعميم والخصوصية في آن واحد اذا قسمنا الالم الى ثلاثة انواع ..

١ ـ الم الصدر الذي لا علاقة له بالقلب :

فهناك الكثير من الامراض العضوية التي تشعرنا اعراضها بألم في الصدر ويمكن التفرقة بينها عن طريق تدقيق الطبيب في ما يسمى بتاريخ المرض .. والمزيد من الفحوصات التخصصية التي تنصب على العضو الذي يشك الطبيب في انه مصاب .. في هذا المجال يمكننا على سبيل المثال لا الحصر ذكر بعض الامراض :

● منها ما هو ناشيء عن الجهاز الهضمي مثل الفتق وعدم قدرة الجزء الاخير من المريء على الانقباض الكامل ليمنع تراجع احماض المعدة اليه ثم قرحة المريء وقرحة المعدة والامعاء . وقد يتبين الطبيب هذا حينما يذكر له المريض ان الالم له علاقة بالجوع ويقل بعد الاكل يمكننا ايضا اضافة الم المرارة الناشيء من التهابها او وجود حصوات بها ثم تراكم الغازات في الامعاء واخيرا الالتهاب الحاد للبنكرياس وحدوث جلطة به .

● الم مرده للجهاز التنفسي ، كارتفاع الضغط في الشريان الرئوي والانضمام الرئوي او انفجار احدى الحويصلات الهوائية بالرئه .

● الم الصدر الناشيء عن ألم في العضلات او الاصابة بفيروس او تشوه خلقي للقفص الصدري .

● الم بدون اي سبب عضوي كذلك الذي تشكو منه معظم السيدات فيما يسمى بسن اليأس .. او الالم الناشيء عن اضطرابات نفسية .

● وهكذا فالالم هنا تعددت وتنوعت اسبابه وعلى كثرتها فلا شيء منها يخص القلب .

٢ ـ الم الصدر الناشيء عن سبب خاص بالقلب غير امراض شرايين القلب وهذا بالطبع سهل تشخيصه لانه يعتمد على مرض ظاهر بالقلب ومعروف سلفا للطبيب كامراض الصمامات ثم اختلال دقات القلب وعيوب شريان الاورطى الخلقية ثم هبوط القلب الشديد وتورم الكبد .

٣ ـ الالم الناجم عن مرض بشرايين القلب التاجية :

وهو اما الجلطة والتي فيها ينسد تماما احد الشرايين التاجية او تفرعاته في موضع او ربما اكثر من موضع نتيجة لتكون جلطة لا يتمكن معها الدم من مواصلة سريانه فينشأ عن ذلك موت

الخلايا المجاورة والمحيطة بذلك الوضع . والالم هنا يتراوح ما بين دقائق وايام وقد لا يشعر المريض الا بمضاعفات ما يحدث او حدث بالفعل لكن الاكثرية من الحالات تبدأ فجأة وتتزايد الآلام مع العرق البارد وهبوط الضغط وربما الاغماء من شدة الالم الذي يستمر الى ان ينقل المريض لغرفة الانعاش وقد يظل رغم المسكنات وكم من حالات جلطة قد اسعفت وعوفي منها المريض .. وكف الالم تماما ولم يعاوده .. وببعض الاحتياطات والارشادات امكنه العودة لحياة طبيعية تماما ..

يأتي الالم الذي نخشاه .. وهو الالم الناشيء عن الذبحة الصدرية .. والذي ينشأ كصرخة احتجاج من عضلة القلب على كمية الأكسجين غير العادلة من وجهة نظرها .. اي التي لا تفي باحتياجاتها وتقل عن ما تنفقه في سبيل الحفاظ على ديناميكية القلب في دفع الدم لكل اعضاء الجسم بصورة كافية .. اذ فجأة ينقبض احد الشرايين لفترة وجيزة معلنا احتجاجه .. وتختلف نظريات كثيرة في تفسير حدوث الالم .. لكنها تتفق في ان الالم يعني ضيقا مؤقتا في احد الشرايين سرعان ما يزول لكنه يؤكد ان الخطر آت لا ريب فيه وانه يكمن هنا .. يبدأ عمل اخصائي امراض القلب هنا فعليه اولا ان يتأكد من ان الالم ناجم عن شرايين القلب باستبعاد كل الامراض التي ذكرت سلفا بتحليل وصف المريض للالم وفحص كل الاعضاء التي قد يكون لها علاقة سواء بالفحص الاكلنيكي او المعملي ثم يبدأ اهتمامه بالقلب ذاته :

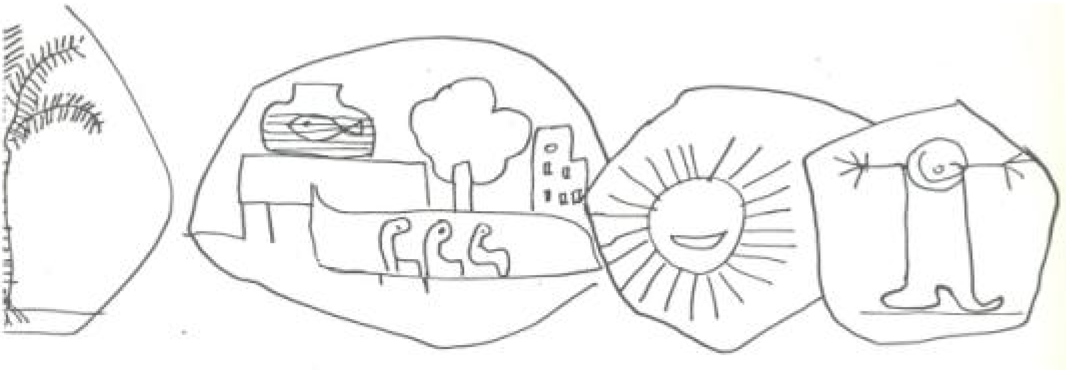
* تاريخ المريض ونوع الالم .. فقد لوحظ ان هناك عوامل كثيرة تمهد للاصابة بامراض شرايين القلب منها القلق والارهاق الذهني وكثرة التدخين وشرب القهوة والكحولات الى جانب العادات الغذائية الضارة والاكلات المليئة بالدهنيات والتي ترفع نسبة الكوليسترول الى جانب مرض السكري وارتفاع ضغط الدم وتعاطي حبوب منع الحمل للسيدات الى جانب عامل الوراثة ويطلق على كل هذه العوامل .. العوامل الخطرة ! ..

وعلى اختلاف اشكال الالم وتباينها الا ان الاغلبية في الحالات تحدده بالم متصل ومستمر في منتصف الصدر تماما قد يستمر خمس دقائق وقد يصحبه ضيق في التنفس وعرق بارد .. وقد يتشعب الالم الى الكتف الايسر والذراع الايسر ويسري حتى الكف وربما الاصبع الاصغر .. وان كان هذا الالم في كل الحالات الا النادر منها مرتبط بمجهود جسماني كصعود السلالم او المشي بخطى مسرعة بل وايضا الانفعال العصبي الشديد .

وتبدأ الفحوصات برسم القلب العادي الذي سرعان ما يكشف عن المرض ولكن في ٣٠ ٪ في الحالات ورغم الاصابة بالذبحة الا ان رسم القلب لا يخرج عن الحدود الطبيعية وغالبا ايضا في غياب الالم تبدو الحالة طبيعية تماما بما في ذلك ضغط الدم ونبضات القلب لذا يجب متابعة رسم القلب العادي بآخر يتم بعد تعريض الشخص لقدر من المجهود بجهاز خاص - من انواعه ما يشبه العجلة الثابته على الارض يديرها الشخص ويتزايد مجهوده الى حدود تتزايد - في ذات الوقت يجري تسجيل دقيق لضغطه ونبضات قلبه ويجري له رسم قلب يبدو في هذه الحالة اكثر دقة من رسم القلب العادي والذي يتم في ظروف عادية ..

وعلى حين يبدو رسم القلب بعد المجهود اكثر دقة من سلفه الا ان الاكثر دقة - ولكن يستخدم في حالات محدده تختار بعناية - هو ما يسمى بقسطرة الشرايين التاجية وفيها يصور فيلم كامل لحقن مادة ملونة في الشرايين التاجية عن طريق انبوبة دقيقة للغاية تأخذ مسارها الى شريان الاورطى ومنه للشرايين التاجية عن طريق شريان طرفي غالبا ما يكون شريان الفخذ .. تلون الصبغة الشرايين فتبدو واضحة تماما كشبكة بالغة الدقة تحيط بالقلب وعن طريق دراستها جيدا يمكن تحديد نقاط الاختناق او الانسداد فيها .

هذا باختصار ما يمكن اجراؤه ولكن ليس في كل الحالات حيث ان الغالبية منها تعلن في وضوح عن نفسها وقد يكفي فحص او اثنان للتأكد منها .. الى جانب بعض الفحوصات التكميلية والضرورية ايضا والتي منها تقدير نسبة الكوليسترول في الدم ونسبته الى الدهنيات (التراى جليسرايد) وتقدير نسبة السكر في الدم وفحص قاع العين الذي يعكس صورة بالغة الحساسية لحالة الشرايين مع مداومة قياس الضغط وتسجيله .



لغة الرسم عند الأطفال

بقلم : الدكتور ماهر الهواري

الرسم وسيلة للتعبير يعرفها الطفل في مراحل نموه الأولى ، فاذا أعطى الطفل ورقة وقلما ، فإنه يقوم في الحال بعمل خطوط بطريقة ما ، هذه الخطوط تعبر عن شيء معين من وجهة نظره .

والرسم عرفه الانسان القديم قبل التاريخ ، وقبل اكتشاف الكتابة ، اذ كان يحاول التعبير عن نفسه وعن آماله وعن حياته خلال الرسم ، كما نشاهد ذلك في الرسوم التي تركها الانسان القديم على جدران الكهوف .

وفي الواقع فان الرسم ، كوسيلة للتعبير عند الطفل ، يسير في خطوط متوازية مع باقي وسائل التعبير عند الطفل وهي اللغة واللعب ، والطفل يحاول باستعمال هذه الوسائل التعبيرية الثلاث : اللغة واللعب والرسم ، أن يصل الى مستوى الكبار وأن يسترعي انتباههم والطفل يعبر عن الصورة كما يتصورها ، وكما ترمز اليه من خلال ذاته ، فقد يرسم خطا فاذا سألناه ما هو يقول أنه بحر ، ومرة أخرى يقول انه شجرة ، ومرة ثالثة يقول انه باب وهكذا .

لقد وجد الباحثون ـ كما ذكرنا ـ ان هناك توازيا بين نمو



وتطوير استخدام اللغة والرسم عند الأطفال ، ووجدوا ان ذلك يمر بسبع مراحل نوجزها فيما يلي :

ـ مرحلة الخطوط : وهي تقابل مرحلة الصراخ ، وهي مرحلة تكاد تكون منعكسة أي فيها يقوم الطفل بحركات غير مقصودة .

ـ مرحلة « الشخبطة » : وهي تقابل مرحلة المناغاة ، وهي تشمل مجموعة غير منظمة من الخطوط ، لا تمثل أي شيء أو تمثل أي شيء من وجهة نظر الطفل .

ـ مرحلة « الشخبطة » بالألوان : وهي تقابل مرحلة المناغاة التي تنطوي على شيء من القصد ، وفيها يحاول الطفل أن يمثل المكان في الرسم ويرى بعض الباحثين ان الطفل يعبر عن حبه للترتيب والنظام في هذه المرحلة خلال الرسم ، وان الايقاع في الألعاب يماثل حركات التعلم في الرسم وبوجه عام اذا لم يتجاوز الطفل هذه المرحلة بعد سن ٦ سنوات يكون متأخرا عقليا . اذ المفروض ان الطفل في هذه السن يستطيع أن يرسم الرجل وبعض تفاصيله كما سيأتي بعد .

ـ مرحلة الرسم الرمزي : وهي تقابل مرحلة الكلمة الواحدة ، التي تقوم مقام الجملة ، فالطفل الى سن ٣ أو ٤ سنوات ، لا يزال خاضعا لمركزية الذات ، فهو لا يرسم ما يرى ، بل ما يعرفه عن الشيء وهو عاجز عن ادراك الحجم أو المنظور ، فالصورة التي يرسمها تتكون من اضافة صفات منفصلة ، بعضها الى بعض بدون رابط منظم فهو يرسم الجزء الذي يسترعي انتباهه ثم يصل بعد ذلك الى مرحلة التأليف وتوحيد العناصر والأجزاء في كل واحد .

ـ مرحلة الرسم الاجتماعي ، وفيها يكون الرسم من الممكن تشخيصه وتسميته وهذه المرحلة توازي مرحلة الجملة المكونة من عدة كلمات ثم الجملة المركبة حسب قواعد النحو .

ـ مرحلة البيت الشفاف : حتى سن ٤ سنوات لا يهتم الطفل بالنموذج الخارجي ، قد يرسم رأسا جانبيا على جسم مواجه ، أو جسما تحت ملابس ، هذا الاتجاه العقلي يسمى بالواقعية المنطقية ويستمر حتى سن ٦ سنوات ووجوده عند الكبار له دلالة مرضية .

ـ في المرحلة السابعة يهتم الطفل بالحياة الواقعية فيهتم بالأشخاص والحيوانات والأشياء المألوفة وفي امكانه أن يرسم من مخيلته القصص التي يسمعها .

الرسم والذكاء

هل هناك علاقة بين الرسم والذكاء ؟ لقد أجريت بحوث كثيرة في هذا الموضوع . من أهمها البحث الذي قامت به الباحثة جودا نف وانتهى بها الى اعداد اختبار ذكاء يعرف باختبار رسم الرجل . وفيه يطلب من الطفل أن يرسم رجلا وتعطى درجات على الأجزاء المختلفة الموجودة في الرسم ، كما تعطى درجات على التناسب والمنظر الجانبي

الى غير ذلك ويلاحظ ان هذا الاختبار لا يهتم بالنواحي الفنية أو الجمالية وانما يهتم بوجود التفاصيل وتناسبها . وقد وجد ارتباط بين هذا الاختبار والاختبارات الأخرى للذكاء وعملت عنه دراسات عديدة كثيرة . وهذا الاختبار يناسب الأطفال نظرا لسهولته وبساطته ولاقبال الأطفال عليه .

وتنبني الفكرة الأساسية في استخدام فكرة رسم الرجل ، كاختبار للذكاء ، على أن الطفل العادي أثناء نموه ، يستطيع أن يدرك نفسه وأن يدرك الآخرين ، بطريقة غير مقصودة في ذاتها ، وانه عن طريق الرسم يسقط هذه المدركات فبعض الباحثين يرى أن الذكاء يشمل ضمن ما يشمل ، القدرة على ادراك الأشياء العادية وموضوعات الخبرة اليومية بطريقة غير مقصودة .

وهذا الاختبار يستخدم كثيرا في العيادات النفسية ويعتمد عليه الى حد ما .

الرسم والشخصية

ان الطفل يحاول خلال الرسم ، التعبير عن نفسه ، عن دوافعه وصراعاته ومشكلاته وآماله ، بعبارة أخرى تتم عملية اسقاط مكبوتات الفرد خلال الرسم تلك المكبوتات التي لا يستطيع التعبير عنها مباشرة لوجودها في العقل الباطن أو اللاشعور . ولكنها تنساب خلال عملية الرسم بطريقة تلقائية . ومن هنا فقد استخدم كثير من الباحثين الرسم كوسيلة لدراسة الشخصية . ومن الاختبارات التي تستخدم في هذا الشأن اختبار رسم شخص لماكهوفر ، وفيه يقدم للمفحوص ورقة بيضاء وقلم وممحاة ، ويطلب منه أن يرسم شخصا ، ويقوم الفاحص بكتابة تعليقاته وكانت ماكهوفر قد لاحظت من استخدامها لاختبار جودانف « رسم الرجل » ان طفلين قد يحصلان على نفس نسبة الذكاء ، ولكن رسم كل منهما يحكي قصة مختلفة . والاختبار يستند أساسا الى مفهوم اسقاط صورة الجسم في رسم الشخص .

ومن الاختبارات النفسية الاخرى التي تعتمد على الرسم في دراسة الشخصية اختبار يسمى اختبار المنزل والشجرة والشخص ، وفيه يطلب من الفرد أن يرسم منزلا ، ثم شجرة ، ثم شخصا ، وتفسر هذه الرسوم بطريقة معينة ، وعلى أساسها يتم تأويل الشخصية .

الرسم كوسيلة للتشخيص والعلاج النفسي :

ذكرنا ان الرسم يستخدم كوسيلة لدراسة الشخصية ، عن طريق اختبارات يعرفها الباحثون النفسيون ، وبذا يتم معرفة البناء النفسي ، وما فيه من ديناميات وصراعات ، والعوامل المؤدية الى الاضطراب النفسي .

كذا يستخدم الرسم على نطاق واسع للعلاج النفسي فكما ذكرنا ان الرسم وسيلة اسقاطية فيها يعبر الفرد عن العوامل المكبوتة في اللاشعور بطريقة مقبولة ، وهذا يتيح تنفيسا وتفريغا للتوترات المختلفة واعادة للتوازن النفسي ، مما يسير بالمرء في طريق الشفاء النفسي .

ويستخدم الرسم والفن عموما على نطاق واسع في مستشفيات الأمراض العقلية وقد أدى هذا الى نشوء فرع جديد في العلاج النفسي يعرف بالعلاج بالفن فبالاضافة الى ما يوفره من تفريغ لصراعات الانسان ، فانه يتيح له الفرصة للانجاز ، لأداء عمل كامل ، يرضى عنه المريض ، وهذا يؤدي الى الاحساس بقيمته وتقديره لذاته ، مما يساعده في طريق الشفاء . .

د . ماهر محمود الهواري

الرياض ـ كلية التربية

ثمن الكراهية !

● اصيب الشاعر « ادوارد توماس » اصابة بليغة في الحرب الماضية اقعدته عن كسب عيشه فكتب الى اثنين من الادباء يستنجد بهما ، ورد عليه الاول برسالة طويلة يمجد فيها شعره ويشيد بادبه . واكتفى بذلك . اما الاخر ، وكان جورج برنارد شو ، فقد ارسل اليه يقول : « عزيزي توماس .. انني اكره قصائدك ولم أستسغه قط في حياتي ... وقد ارفقت بهذا الخطاب حوالة بمائتي جنيه »



الأراجوز في بلاد الإنجليز

بقلم : أمين سلامة

هو نوع من مسارح العرائس مازال يرى في الشوارع وعلى شواطىء البحار في انجلترا .. ويرجع تاريخه في شكله الحالي الى حوالي سنة ١٨٠٠ - والقصة الشائعة عن شخصية بنش وجودى ، هي بالاختصار كما يأتي : بنش رجل غريب الشكل ، ذو صورة مضحكة : احدب الظهر ، وذو انف وذقن معقوفين ، وبطن بارز عادة ...

ذات يوم ، تركته زوجته جودي في البيت ليلاحظ طفلها ، وذهبت الى السوق لتشترى ما يلزم البيت من حاجيات . بدأ الطفل يبكي ، وعبثا حاول بنش تهدئته . ولما ضربه بنش ، زاد بكاء واخذ يصرخ بصوت عال .. واذ ضاق بنش ذرعا بصراخ الطفل ، استبد به الغضب وجن جنونه فقذف بالطفل من النافذة ، فمات من فوره .

رجعت جودي من السوق فابصرت ماحدث فثارت على بنش وأمسكت بعصا لتضربه ، فخطفها من يدها واشبعها بها ضربا حتى لفظت آخر انفاسها من شدة الضرب .

يلي ذلك عدد من المقابلات بين بنش وعدة اشخاص ، فيضرب معظمهم ويقتلهم ـ ومن بين هؤلاء ، عادة ، طبيب وزنجي وخادم ، واخيرا يقبض على بنش ويساق الى المشنقة ، وفي آخر لحظة يخدع بنش جلاده جاك كيتش ويجعله يضع الانشوطة في رقبته ليريه كيفية وضعها الوضع الصحيح . ثم يسرع فيشد الحبل فجأة ، وبذا يشنق الجلاد . . . وبعد انتصاره على جميع خصومه من البشر ، يخيفه شبح جودي ثم يخيفه عفريت يأتي ليخطفه . وبعد صراع عنيف ، يخرج بنش ، كعادته ، ظافرا دائما ، فيرفع جثة العفريت الميت ، فوق هراوته المظفرة . . لبنش رفيق وصديق حميم ، هو المهرج جوى . . وعادة ما يعرض منظرا بكلب حى اسمه توبى . . والمهم في هذه الدراما المفزعة ، انها تثير المتفرجين وتدفعهم الى الاستغراق في الضحك والقهقهة . .

كوميديا الفن

أما نشأة بنش وجودي ، فموضوع غامض ومع ذلك ، فليس من نوع الخيال تماما ان نرى جسمه البدين والمضحك ، في التمثيل الصامت بالأقنعة ، في المسارح الشعبية الاغريقية ، والرومانتيكية ، حيث نجد اشخاصا غريبي الشكل مقنعين ، وذى انوف معقوفة احيانا ، ويضعون وسائد تحت ملابسهم لكى تبدو اجسامهم مضحكة . وتتناول مسرحياتهم قصصا اسطورية شائعة تتخللها مناظر مضحكة ، من الضرب بالهراوات ، وحركات التهريج الأخرى . .

شاعت عروض الاراجوز ، في ذلك الوقت وهي تحاكي غالبا تقاليد التمثيل الصامت . ويبدو طوال العصور المظلمة والعصور الوسطى ، ان هذا التراث ، رغم تحريم الكنيسة له ، لم يختف تماما . . ونجد ، في القرن السادس عشر ، دراما شعبية منتشرة جدًا في ايطاليا ، اشخاصها معروفون ويضع معظمهم أيضا وسائد حول اجسامهم تحت الثياب ليظهروا في صورة مضحكة « كوميديا الفن » .

وليس من المستحيل ان يظل هذا التراث باقيا خلال الف سنة ، في مسرح العرائس .

من بين اشخاص الكوميديا الايطالية شخص اسمه بولشينيلو ، وهو خادم مضحك ماكر ، غارق دائما في المشاكل ، ومن الغريب أنه يهرب من العقاب باستمرار ، بمهارته وذكائه . ويتصف هو الآخر بانف معقوف وظهر احدب . وكان شخصية محبوبة في منطقة نابولى ، ولقى نجاحا كبيرا كاحد اشخاص مسارح العرائس ، اذ يمكن المبالغة في هيئة في جسمه وتشويهه بطرق شتى يستحيل عملها في حالة الاشخاص الاحياء .

انتشرت الكوميديا الايطالية في كافة انحاء اوروبا ، واستقرت تماما في باريس وافدة من مسارح العرائس الايطالية . . وفي فرنسا حرف اسم بولشنيلو الى بوليشينيل وهو من أهل الغال حاضر البديهة سيطر على المسارح الفرنسية مدة مائة وخمسين عاما . . وعندما عاد البلاط الانجليزى الى انجلترا في سنة ١٦٦٠ ، أمر الملك تشارلز الثاني بفتح جميع المسارح لكل نوع من التسلية . .

لم تكن العرائس الايطالية بطيئة في انتهاز فرصة المجالات المثمرة في انجلترا ، في اوائل ذلك القرن . وفي التاسع من مايو ، مر صامويل بيبس بكوفنت جاردن ، فسجل هذه الملاحظة : « مسرحية العرائس الايطالية » السنيور بولونيا البالغة الجمال ، هي احسن مسرحية شاهدتها في حياتي » . وفي سنة ١٩٦٢ ، احتفلت انجلترا بالذكرى الثلثمائة للمستر بنش ، بازاحة الستار عن لوحة تذكارية في مدخل كنيسة القديس بولس بحى كوفنت جاردن ، واقيم قداس حضره حوالي خمسين شخصا من أشباه بنش وجودي ، ويصحب بعضهم معه كلاب توبي .

وفي سنة ١٦٦٦ ، يسجل بيبس ، مرة ثانية ، مشاهدة « بولشينيلو ، الذى سرني كثيرا . »

مجرد مهرج !

رحبت انجلترا ببولشينيلو ، وسرعان ما حرفت بدورها اسمه الى بنشينيلو ثم الى بنش ولكنه لم يترجم بالاسم فقط ، بل احتفظ بجميع الاشكال الغريبة لجسمه . وتبنوه كمهرج انجليزى يوجد في كل مكان من جميع مسارح العرائس لذلك العصر .

في ذلك الحين ، كانت جميع القصص الدينية التي منعت من المسرح الحى ، موجودة دائما فوق منصة مسرح

العرائس . وجاء بنش كشخصية هزلية مبتذلة في « جنينة عدن » ، وفي « سفينة نوح » ، وفي « بلاط سليمان » . .

يظهر بنش ، على غير انتظار ، في مسرحيات « ديك وهو يتنجون » و« الدكتور فاوستوس » . ولم يكن عدم الانسجام الظاهر هنا ، اكثر من احد مظاهر المنصة التقليدية للمهرج الانجليزي . ومع تدهور المسرحيات الاخلاقية ، قرب نهاية القرن السادس عشر ، تضاءل دور الشخص الممثل للرذيلة ، والذى اعتاد الظهور في كل مسرحية كصانع دائم للمشاكل بين الآخرين وتحول الى مجرد مهرج . ولكنه استمر في الازدهار طوال جميع الدراما الاليزابيثية . واختفت حركاته القديمة من المنصة ، ولكنه وجد مكانا في شخص بنش ، في مسرح العرائس .

وهكذا نرى ان شخصية بنش ، قد اشتق بعضها من اوليات المسرحيات الصامتة لدول حوض البحر المتوسط ، عن طريق الكوميديا الايطالية ، واشتق بعضها الآخر من المهرج الانجليزى عن طريق صانع الشرور ، والمهرج تطور الى شخصية مخالفة تماما لكل من بولشينيلا وبوليشينيل واستمر بنش طوال القرن الثامن عشر ، هو الشخص الرئيسي السائد على منصة مسرح العرائس . لم يكن هناك شيء مثل « مسرحية بنش » بل مئات من الاساطير الانجليزية ، او في بعض الاحيان « القصص الادبية » ، يظهر بنش فيها جميعا . ولبضع سنوات (١٧١٠ ـ ١٧١٤) ، كان مسرح بنش في كوفنت جاردن ، محط انظار المدينة كلها . ولكن عندما خبت شهرة بنش ، ظلت مسرحيات « الاراجوز » شائعة في الاسواق الريفية وفي حفلات القرى بين سكان الريف العوام . . . وابان هذه السنين ، تكونت شخصية بنش . . صار مصدرا للمشاكل والمشاجرات بين سائر الممثلين الآخرين ، وكانت له زوجة اسمها جوان تعمل باستمرار على مضايقته . فيضربها . وعادة ما يظهر العفريت ، في النهاية ليخطفه ـ وكان ينجح في هذا احيانا ـ وكان يتكلم بصوت غريب مرتفع ، يصدره بوضع « بالوص زمارة » في فمه ، ويتكلم من خلاله . وكان محبوب عامة الشعب . . .

ثم اختفى بنش

ومع ذلك ، فقد بدأت شهرة تكنية المنصة الاليزابيثية تخبو تدريجيا ، حتى على منصة العرائس فتضاءلت شهرة بنش وجوان حتى وصلت الى حالة مضحكة تمثل في نهاية المسرحيات العادية . ثم اختفت هذه ايضا ، وصار بنش شخصية مخادعة اطلق عليها اسم فانتوتشيني وتحولت مسرحياته القديمة الى مسرحيات مبتذلة وغير اخلاقية . وهذه هي المرحلة التي كان فيها بنش ، في اواخر القرن الثامن عشر ، على وشك الانقراض .

ولكى نفهم ما حدث وقتذاك ، فمن الاهمية بمكان تقدير التمييز بين مختلف انماط مسارح العرائس . ومن المحتمل ان اوائل عروض العرائس الانجليزية ، كانت تتم بالأيدى ، ولذا سميت « عرائس الايدى » او « عرائس القفازات » . ويبدو ان مسرح العرائس في سوق بارثولوميو (سنة ١٦١٤) كان مصمما لهذا النوع من العرائس وربما كانت العرائس الايطالية المجلوبة بعد عهد الاصلاح ، عبارة عن دمى . . ولاشك في ان بنش نما في انجلترا ، كدمية ومسارح العرائس الانجليزية ، للقرن الثامن عشر ، كانت كلها من الدمى . ومع ذلك ، فمن الصعوبة بمكان ، نقل مسرح الدمى ـ فانه يحتاج الى عربة نقل على الأقل ، وفي نهاية القرن الثامن عشر ، سقط بنش ، اذ لم يستحق تكاليف وتعب نقل اجهزة تشغيل الدمى ، على عربة نقل ، من قرية الى أخرى ، او من سوق الى اخرى ، وتقريبا ، يمكن اعتبار ان بنش قد مات واندثر ـ ولكنه صار دمية تحرك بالايدى . . .

وعاد في صندوق !

لم يندثر التراث القديم ، اطلاقا ، ومازالت اكشاك بنش تعرض « المصادمات » بين بنش وجوان ، او بين بنش والعفريت ، خارج مسارح العرائس طيلة عرض مسرحيات العرائس بداخل المسرح . . والآن ، اقتصر عرض بنش على اكشاك الخلاء ، التي تحرك فيها الدمى بالايدى . . وهذه الاكشاك سهلة النقل ، اذ يستطيع رجل ان يحملها فوق ظهره (عبارة عن دربية مثلثة الشكل يمكن طيها) ويقدم عرضا كاملا بمفرده وهو داخلها ، او بمساعدة رجل آخر واحد يجمع البنسات من المتفرجين .

وعلى هذا النحو ، وجد بنش عودة الى الحياة من جديد . . وجدير بالملاحظة ، ان هذه الصورة التي يعرض بها بنش وجودى اقتصادية ، واهم مظاهرها انها كانت تتألف من دميتين ليس غير تظهران معا في كل مرة (الا اذا كان هناك اكثر من رجل يحركها) ، اذ ليست هناك حاجة الى اتقان العرض حتى درجة الكمال . كذلك من الضرورى ان يركز العرض على حوار سريع مضحك ، يضم كثيرا من الضرب بالعصى والمشاجرات وهي العروض التي يقدمها بنش وجودى . . فيظهر بنش على خشبة المسرح طول الوقت فيشغل يد الشخص المحرك اليمنى ، اما يده اليسرى فتعرض بقية الاشخاص ، واحدا بعد الآخر ليتم

عرض الضرب والقتال .. ولا يمر وقت طويل من المرض حتى تقتل جودى وتختفي ، ويظهر شخص آخر غيرها .

جاءت جودى في اوائل القرن التاسع عشر تكريما للمهرج الشهير جريما لدى ثم ظهر بعدها طبيب ، وبعده جاء الجلاد ليشنق بنش ، فيخدع بنش الجلاد ويجعله يشنق نفسه !! كذلك ظهر الشرطي والعفريت ، في المسرحيات الاخيرة الاخلاقية .

ازدهر بنش وجودى طوال القرن التاسع عشر ، وصارت صيحة « بنش » مألوفة في شوارع لندن ، وفي جميع انحاء الريف المجاور لها .. ومن آن الى آخر ، يضيفون شخصيات جديدة او يحولون بعض الشخصيات القديمة ، فهذا « شلب الله » الشرقي الغامض قد صار « جيم كرو المغنى الزنجي . وظهر التاجر المحترم المستر جونز كمالك لتوى . كما قدمت مباراة في الملاكمة ، ولكن الخطوط الرئيسية للقصة بقيت كما هي .. وفي هذه الايام ، لايرى الاراجوز كثيرا ، في الشوارع ، ولكنه لم ينقرض . ولقد قامت « السوق العالمية » بمسح كشف عن وجود الاراجوز في اكثر من ستين مدينة ساحلية في انجلترا وويلز .. وفي كبريات هذه المدن ، كان على صاحب مسرح الاراجوز ان يدفع ايجارا (او ضريبة) لكي يحصل على ترخيص بالعمل اعتمادا على انه سيجمع طوال الموسم ما يكفى لدفع قيمة هذا الايجار ، وكذلك ما يقوم بنفقاته خلال فصل الشتاء حتى يأتي عيد الميلاد ، اذ يقدم عروضه في كثير من الحفلات ...

كلهم بنش وجودى !

ربما كان هناك اكثر من مائة رجل في هذه الدولة يستطيعون تمثيل بنش وجودى ، وينتمى كثير من هؤلاء الى عائلات مارست هذا اللون من التمثيل لعدة اجيال .. ولكن جاء ممثلون جدد ، من قاعات الموسيقي ، ومن الهواة الذين حولوا هوايتهم الى عمل لبعض الوقت ، كمصدر للدخل ..

يستلزم الاراجوز صوتا قويا ممتازا وملائما جدا لهذا الغرض ، كما يحتاج الى مقدرة على السكوت في الوقت المناسب ، واثارة الضحك في اللحظة المناسبة ، تبعا لتقاليد الكوميديا الفنية ويحتاج كذلك الى دقة التوقيت في تشغيل حركات الاصابع ، وصلابة جسدية عظيمة للاستمرار في العمل ، واحتمال رفع الايدى والذراعين فوق الرأس لمدة نصف ساعة ، وبذل الجهد عندما تكون مناظر القتال على أشدها ..

من الغريب أن يستمر وجود الاراجوز في انجلترا الحديثة ، وهو لايزال شهيرا ، كما انه لايزال ، بحق ، مضحكا للغاية . ويبدو انه ليس هناك اى سبب يدعو الى اختفاء الاراجوز ... وقد تتغير تفاصيل تمثيلياته ، في المستقبل ، كما حدث في الماضى ، ولكن يبدو ان النمط مازال باقيا ، ولاينفك التراث قويا فلايمكن ان يموت ..

دونت نصوص بنش وجودى في سنة ١٨٢٧ بقلم ج . باين كولير ونشرها جورج كرويكشانك ، ولا يخلو هذا النص من الشبهة . ويبدو انه اعيدت كتابته وتنميقه بالصور الادبية البلاغية ولكنه لايزال مطبوعا في الكتب حتى اليوم . وتضمنت الطبعات الاولى : تاريخ « بنش وجودى وعرائس الاراجوز » ، من تأليف باين كولير . ومن المؤكد انها كانت طيبة جدا في عصرها . اما الآن ، فتبدو محتوية على بعض العبارات غير الصحيحة وعلى عبارات مبتكرة جديدة . وقد خصص باب في تلك الطبعة عن بنش ، يتضمن النصوص التي كتبها باين كولير عن « التسليات الشعبية خلال العصور » ، بقلم صمويل ماك كتشى ويحتوى مؤلف مايهيو بعنوان « العمل في لندن ، وفقراء لندن » (سنة ١٨٥١) ، على عبارات لالفاظ وعروض الشوارع في منتصف العصر الفيكتوري ، بينما تعرض نسخة حديثة من هذه القصة ، وتمثل في اسكتلندة بواسطة فرقة متجولة في مسرح اراجوز جورج بيكر (سنة ١٩٤٤) . ■■

أمين سلامة .

سيرة عنترة

اختلف المؤرخون في من وضع سيرة عنترة فنسبها بعضهم الى الاصمعي ونسبها بعضهم الى يوسف بن اسماعيل المصري ، ونسبها البعض الآخر الى ابن الصائغ ، والاغلب ان الاصمعي هو اول من وضع مجموعة من اقاصيص عنترة ، وان يوسف بن اسماعيل المصري هو أول من ألف السيرة وان ابن الصائغ هو واضع شكلها الاخير .



اختبر نفسك

هل أنت قوي الشخصية؟

اعداد الدكتور خليل فاضل

معلومات الناس بشكل عام عن الشخصية القوية تختلف وتتباين ـ فالضخامة الجسدية والقوة البدنية لا دخل لها بالامر ، حيث ثبت ان معظم الذين يمتلكون شخصية قوية من الجنسين على حد سواء نحاف الجسد ، ضعاف البنية الى حد ما . واستخدام القوة البدنية والعدوانية تدل في اغلب الاحوال على ضعف الشخصية ، وتعتبر عوضا عن خوف او نقص او احساس بالدونية ، كما ان بعض الشخصيات الميالة الى الاستبداد هي ـ في الواقع ـ تحاول تضخيم احساسها بالذات اكثر من أي شيء آخر .

وما عليك الا ان تجيب على الاسئلة التالية بصراحة تامة ـ لا تخدع نفسك ـ اجب بنعم او بلا . وفي النهاية يمكنك الاطلاع على نتيجة الاختبار النفسي .

الاسئلة :

١ ـ هل تتخذ قراراتك بمفردك ؟

٢ ـ هل تتشبث بقرارك حتى لو لم يحظ بالتأييد ؟

٣ ـ لو كلفت بعمل شاق ، متعب ، مضن ، روتيني . هل ستستمر فيه حتى تنهيه ؟

٤ ـ هل تصبر في حالة اعادة النظر في مشكلة سابقة (مثلا) ؟ وهل تنتظر بالفعل ؟

٥ ـ هل انت قادر على المعارضة ؟

ان تقول لا . (اذا اثقل عليك مضيف بتناول كمية اكبر من الطعام مثلا) . ؟

٦ ـ هل ترى انه بفقدانك اعصابك ، تفقد السيطرة الكاملة على نفسك ؟

٧ ـ هل تستطيع الاستمرار في الحديث رغما عن وجود شخص معارض لك دون ان تنزعج او تتوتر ؟

٨ ـ هل تعترف بالخطأ ؟ وهل تعتذر ؟

٩ ـ هل ترفض استغلال نقط الضعف في الآخرين عندما يكونون في موقف ضعف ؟

١٠ ـ هل تساعد الآخرين عندما يكونون ضعفاء سيئي الحظ . قليلي الخبرة . اذا طلبوا منك ذلك ؟

١١ ـ هل يؤذيك رؤية صديقك في شدة ؟

١٢ ـ هل تكره مجرد التفكير ـ في انك لم تلم بتفكيرك كله في أي موضوع ؟

١٣ ـ هل ترغب دائما في ان تكون مستقلا معتمدا على نفسك . اكثر من الاعتماد على الآخرين ؟

١٤ ـ في نفس الحين . هل يعتمد عليك الآخرون ؟

١٥ ـ هل آراؤك تتسم بالانسانية ـ بشكل عام ؟

١٦ ـ هل تضع في حساباتك رغبات ومشاعر الآخرين ـ قبل رغباتك احيانا ؟ !! (في العلاقات الزوجية مثلا) !

١٧ ـ هل تفضل رؤية الآخرين في اوضاع حياتية متطورة ومستمرة دائما ؟ !

١٨ ـ هل ترضى ان تكون خلف الكواليس ، وان يكون التصفيق والتشجيع ، لشخص آخر غيرك ؟

١٩ ـ هل تقدر على ان تكون نزيها في حكمك على هؤلاء الذين لم يكونوا نزيهين تجاهك يوما ما ؟

٢٠ ـ هل انت من الخاسرين في مواقفهم دائما ؟

* احسب خمس درجات عن كل اجابة (بنعم) .
* الدرجات (٧٠) فما فوق . . (جيد)
* الدرجات من (٦٠) ـ الى (٧٠) (مقبول)
* الدرجات من (٥٠) ـ الى (٦٠) (مقبول الى حد ما)
* الدرجات تحت (٥٠) (ضعيف) .

وهكذا فان الشخصية القوية تعرف كيف تسير امورها وكيف تدبر نفسها . تعرف حقوقها كما تعرف واجباتها ، وكلما امتد بصاحبها الزمن كبر قلبه واحس اكثر فأكثر بأهمية الآخرين . كما احس برغبة في اسعاد مجموع البشر المحيطين به وفي مساعدتهم

حل معادلات الجبر

منظومة في أبيات من الشعر !

بقلم الدكتور عبد اللطيف أبو السعود

اهتم العلماء العرب الأوائل بالرياضيات والفلك اهتماما كبيرا ، وبرزوا فيها . وكان منهم من جمع بين الرياضيات والأدب .

ومن يطلع على كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي ، يجد أن المؤلف قد جمع بين الجبر والأدب . فقد كتب قواعد الجبر في أسلوب أخاذ ، يخلو من التعقيد .

كما تلاحظ تعانق الأدب والرياضيات في كتب البيروني ، وفي مؤلفات البتاني ، والبوزجاني ، وابن حمزة ، وأبناء موسى بن شاكر ، وثابت بن قرة ، وغيرهم .

أما الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، فقد كان شاعرا وأديبا ، كما كان رياضيا وفلكيا .

وبلغ من اهتمام العرب الأوائل بالرياضيات والأدب ، ان ظهر بينهم من كان ينظم قوانين الرياضيات شعرا .

فقد وضع « ابن الهائم » رسالة في الجبر مؤلفة من اثنين وخمسين بيتا من الشعر . كما شرحها في رسالة أخرى . كما نظم في حساب الفرائض « رسالة التحفة القدسية » .

كذلك وضع « ابن الياسمين » ارجوزة في الحساب والجبر : يلمس فيها القارىء سيطرة مؤلفها على فنون الشعر بأوزانه وقوافيه ومعانيه ، وعلى احاطته بدقائق علمي الحساب والجبر واجادته فيهما .

من هو ابن الياسمين ؟

هو أبو محمد عبد الله بن حجاج ، من أهل مدينة فاس . وهو بربري الأصل ، من بني حجاج ، أهل قلعة فندلاوة .

كان ، رحمه الله ، رياضيا ، برع في علوم المنطق والهندسة والتنجيم والهيئة والحساب والعدد . وجاء في « الذخيرة السنية » انه « كان لا يدرك شأوه فيها ، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقها ، وغوامض مسائلها » .

عمل ابن الياسمين في خدمة يعقوب المنصور أحد خلفاء بني عبد المؤمن ؛ ثم ابنه الناصر من بعده . ونتيجة لاتصاله بأولي الأمر ، بلغ ابن الياسمين منزلة عظيمة . الا أنه توفي ذبيحا في مراكش عام ٦٠١ هـ .

كان رحمه الله ، شاعرا . درس الجبر ، وبرع فيه ، وأولع به . ثم أفرغه في تـ[illegible] ارجوزة ؛ قرئت عليه ، وسمعت منه باشبيلية عام ٥٨٧ م ، فكان هو الذي نشر ذلك العلم بها » .

وفي هذه الأرجوزة ، صاغ ابن الياسمين قواعد الجبر وقوانينه شعرا . وهي تدل على ثروة أدبية عظيمة ، وعلى معرفة عميقة بأصول علم الجبر وقواعده .

أرجوزة ابن الياسمين

تبدأ الأرجوزة بمقدمات للعدد الصحيح ، وأبواب في العمليات الحسابية الأربعة ، وحل العدد الى أصوله ، ثم مقدمة في الكسور ، وأبواب في الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ثم باب جبر الكسور ، وباب حطها (وهو عكس جبر الكسور) . وباب الصرف ، وطرق استخراج المجاهيل ، ثم ينتقل الى علم الجبر والمقابلة ، وهو أهم أبواب الأرجوزة .

ومن أبيات هذه الأرجوزة ، الأبيات التالية :

على ثلاثة يدور الجبر ... المال والاعداد ثم الجذر
فالمال كل عدد مربع ... وجذره واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق ما لم ينسب ... للمال أو للجذر فافهم تصب
والجذر والشيء بمعنى واحد ... كالقول في لفظ أب ووالد

من هذه الأبيات ، يتبين لنا أن العرب الأوائل كانوا يطلقون لفظ المال على كل عدد مربع ، وكانوا يستخدمون لفظ الجذر بنفس المعنى الذي نستخدمه اليوم ، وان العدد المطلق ما لم ينسب الى مال ولا الى جذر . وان الجذر والشيء مترادفان .

المعادلات الرياضية في أرجوزة ابن الياسمين

قسم ابن الياسمين معادلات الجبر الى أنواع ستة ، فكتب يقول :

فتلك ست نصفها مركبة
ونصفها بسيطة مرتبة
أولها في الاصطلاح الجاري
ان تعدل الأموال بالأجذار
وان تكن عادلت الأعدادا
فهي تليها فافهم المرادا
وان تعادل الجذور عددا
فتلك تلوها على ما حددا

ويبدو واضحا من هذه الأبيات ان علماء الجبر العرب الأوائل قد قسموا معادلات الجبر الى ستة أقسام .

في القسم الأول ، تعادل الأموال الجذور ، مثال ذلك (أس^{٢} = ب س)

وفي القسم الثاني ، تعادل الأموال العدد ، ومثال ذلك (جـ س^{٢} = د)

وفي القسم الثالث ، تعادل الجذور العدد ومثال ذلك (هـ س = و)

ثم شرع ابن الياسمين في ذكر طرق حل هذه المعادلات .

المعادلات المركبة في أرجوزة ابن الياسمين

كتب ابن الياسمين :

واعلم هداك ربنا ان العدد
في أول المركبات انفرد
ووحدوا أيضا جذور الثانية
وأفردوا أموالهم في الثالية

وهذا يعني أن القسم الرابع من المعادلات يكون في صورة (أس^{٢} + ب س = جـ)

أما القسم الخامس فيكون في صورة (د س^{٢} + هـ = وس)

بينما يكون القسم السادس في صورة (زس^{٢} = جـ س + ط)

وبعد ذلك ، أخذ ابن الياسمين يشرح طريقة حل كل من هذه المعادلات ، مستخدما في ذلك طريقة اكمال المربع التي نعرفها اليوم :

فربع النصف من الأشياء
واحمل على الأعداد باعتناء
وخذ من الذي تناهى جذره
ثم انقص التنصيف تفهم سره
فما بقي فذاك جذر المال
وهذه رابعة الأحوال

وهذا يعني أنه لحل أي معادلة في الصورة التالية : (أس٢ + ب س = جـ) - ومن أمثلتها المعادلةس ٢ + ٨س = ٦٥ ، علينا باتباع الخطوات التالية :

نأخذ النصف من الأشياء (أي $\frac{٨}{٢}$ وهو يساوي ٤) ثم نربعه (٤^{٢} = ١٦) . ثم احمل على الأعداد باعتناء ، أي أضفه الى ٦٥ ليكون المجموع ٨١ . ثم خذ جذر ٨١ وهو تسعة . واطرح بعد ذلك منه التنصيف (٤) . أي اطرح ٤ من ٩ لتحصل على ٥ وهو جذر المال أو جذر المعادلة .

ونجد نفس الحل في كتب الجبر الحديثة ، كما يلي :

س٢ + ٨س + = ٦٥

س٢ + ٨س + ($\frac{٨}{٢}$)^{٢} = ٦٥ + ($\frac{٨}{٢}$)^{٢} .

س٢ + ٨س + ١٦ = ٦٥ + ١٦ = ٨١

(س + ٤)^{٢} = ٨١ = ٩^{٢} .

س + ٤ = ٩

س = ٥ ونهمل القيمة السابقة .

حل معادلات القسم الخامس

وفي هذا يبين ابن الياسمين أن لبعض المعادلات جذرين موجبين . وفي حل معادلات القسم الخامس ، كتب ابن الياسمين :

واطرح من التربيع في الأخرى العدد
وجذر ما يبقى عليه يعتمد
فاطرحه من تصيفك الأجذارا
وإن تشأ أجمعته اختيارا
فذاك جذر المال بالنقصان
وذاك جذر المال بالجملان

وهذا يعني أنه بالنسبة للمعادلة (د س ٢ + هـ = و س)

فان : س = ٢/و ± $\sqrt{\quad}$ و٢ ـ هـ .

هذا ، وقد جاء في كتاب « شرح الياسمينة للماردبني » المعادلة (س^{٢} + ٢١ = ١٠ س) وبين أن قيمة (س) هي (٣ و ٧) .

وأكمل ابن الياسمين طريقة حل هذه المعادلات بقوله :

وان غدا التربيع مثل العدد
فخذه للتنصيف دون فند
وان يكن يربو عليه العدد
أيقنت أن ذاك لا ينفقد

وهذا يعني أنه اذا كانت : هـ = $\frac{و^{٢}}{٢}$ ، فان س = $\frac{و}{٢}$

أما اذا كانت قيمة هـ أكبر من $\frac{و^{٢}}{٢}$ فان حل المعادلة أمر مستحيل .

حل معادلات القسم السادس

قال ابن الياسمين

فاجمع الى أعدادك التربيعا
واستخرجن جذرها جميعا
واحمل على التنصيف ما أخذتنا
فذلك الجذر الذي أردتنا

وهذا يعني أنه بالنسبة للمعادلة : س^{٢} = ح س + ط .

فان س = $\frac{ح}{٢}$ + $\sqrt{(\frac{ح}{٢})^{٢} + ط}$ =

الجبر والمقابلة في أرجوزة ابن الياسمين

وقد شرح ابن الياسمين في أرجوزته بعض القوى والأسس . وطرق ضربها وقسمتها . كما ذكر معنى كلمة « جبر » وكلمة « مقابلة » وذلك في قوله :

وكل ما استثنيت في المسائل
سيره ايجابا مع المعادل
وبعد ما يجبر فليقابل
بطرح ما نظيره يماثل

ذلك أن كلمة « جبر » تعني نقل حد من طرف الى الطرف الآخر . أما المقابلة فتعني جمع الحدود المتماثلة .

انظر الى المعادلة التالية : ٦ س ـ ٢٠ = ٤ س

بالجبر تصبح هذه المعادلة ٦ س ـ ٤ س = ٢٠

وبالمقابلة ، يصبح ٢ س = ٢٠

∴ س = ١٠

وتنتهي الأرجوزة بالصلاة والسلام على سيدنا محمد .

وآخرون من قبل ابن الياسمين

من قبل ابن الياسمين ، وضع ابن الهائم رسالة مؤلفة من اثنين وخمسين بيتا من الشعر في علم الجبر . وقد شرحها في رسالة أخرى . وفي حساب الفرض ، نظم ابن الهائم رسالة « التحفة القدسية » .

ولعلك تذكر زرقاء اليمامة التي اشتهرت بحدة بصرها[1] . لقد كانت زرقاء اليمامة أول من نظم شعرا وضمنه مسألة حسابية . رأت زرقاء اليمامة سربا من الحمام . فوضعت عدده على صورة مسألة حسابية شعرية :

(١) (العربي) : هذه القصة مصنوعة

ليت الحمام ليه
ونصفه قديه
الى حمامتيه
صار الحمام ميه

وهذا يعني أنك اذا أضفت الى الحمام نصفه ، وحمامة واحدة ، صار المجموع مائة ؟ ترى كم كان عدد الحمام ؟ لقد كان ٦٦ حمامة (٢)

وقصائد في علم الفلك

لعلك تذكر قول « ابن المعتز » في وصف الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة
قد أثقلته حمولة من عنبر

أما الشيخ اليازجي ، فانه جمع أسماء بروج السماء في ثلاثة أبيات :

من البروج في السماء الحمل
تنزل فيه الشمس اذ تعتدل
والثور والجوزاء نعم المنزلة
وسرطان واسد وسنبلة
كذلك الميزان ثم العقرب
قوس وجدي دلو حوت يشرب

وجاء في (سقط الزند للمعرى) وصف للسماء والكواكب :

كأن سهاها في مطالع أفقه
مفارق الف لم يجد بعده الفا
كأن بني نعش ونعشا مطافل
بوجرة قد أضللن في مهمه خشفا
كأن سهاها عاشق بين عود
فآونة يبدو وآونة يخفى
كأن قدامى النسر والنسر واقع
قصص فلم تسم الخوافي له ضعفا

كما جاء في سقط الزند

سقتها الذراع الضيغمية جهدها
فما أغفلت من بطنها قيد أصبع
بها ركز الرمح السماك وقطعت
عرى الفرغ في مبكى الثريا بأدمع
ويستنبطا المريخ ، وهو كأنه
الى الغور نار القابس المتسرع
وتبتسم الأشراط فجرا كأنها
ثلاث حمامات سدكن بموضع
وتعرض ذات العرش باسطة لها
الى الغرب في تنويرها يد أقطع

د . عبد اللطيف أبو السعود

---

(٢) (العربي) : تحل المسألة هكذا :

$$س + \frac{١}{٢} س + ١ = ١٠٠$$

$$\therefore ١\frac{١}{٢} س = ١٠٠ - ١$$

$$\therefore \frac{٣}{٢} س = ٩٩$$

$$\therefore س = ٦٦$$

حصاة المسجد

● سأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة من حصى المسجد يجدها الانسان في ثوبه او خفه او عالقة بجبينه فقال له : ارم بها .. فقال الرجل : زعموا انها تصيح حتى ترد الى مكانها في المسجد .. فقال له عمر : دعها تصيح حتى ينشق حلقها . فقال الرجل : سبحان الله ! ولها حلق يا سيدي ؟ فقال له عمر : فمن اين تصيح ؟

العكوف على علوم اللغة يضير المواهب الأدبية

بقلم محمد خليفة التونسي

اذا رجعنا الى كتب العلوم العربية وجدنا ان المتأخر منها يكاد يطابق المتقدم في محصله وترتيبه ، حتى الأمثلة أو الشواهد على القواعد . ووجدنا معظمها قد كتب بعبارات لاهثة متعثرة تدل على جهد ومعاناة في البيان ، وندر أن نجد عباراتها مسترجة سلسلة واضحة ككتابة أصحاب المواهب الأدبية ولو كتبوا في موضوعات علمية .

وأظهر ما يظهر هذا القصور او هذا التقصير خلال الكتب التي ألفت في الفترة المظلمة منذ بداية القرن الرابع حتى بداية القرن الرابع عشر الهجريين ، والسبب الاكبر او الجامع في هذا القصور ان اصحاب هذه الكتب قد تلقوا معرفتها من كتبها السابقة ، سواء في ذلك أصحاب الكتب المطولة او القصيرة ، النابهون منهم والخاملون ، بل ان من يلقبون بينهم بالامامة انما تلقوا معرفتهم بها من تلك الكتب ، لا من الاطلاع الواسع على تراثنا الادبي ، او تلقوا أكداسا فوق أكداس من شعره ونثره ، دون أن يحسنوا تذوقه ونقده واستنباط قواعد جديدة منه ، أو يحسنوا تدريب ألسنتهم وأقلامهم على مثله ، حتى يكون التعبير الفصيح سليقة لهم في كتابة ومحاضرة وخطابة ، وكل هؤلاء ، مهما يستوعبوا منه ـ لا يستحقون ان يوصفوا باكثر من انهم « حملة » لعلوم اللغة اذ ليس شأنهم فيها إلا كشأن « حملة » القرآن الكريم ، و « حملة » الحديث الشريف ، و « حملة » الفقه . فهؤلاء لا يعدون من ذوي البصائر في هذه العلوم الدينية مهما تبلغ حصيلتهم من ذلك وكذلك أولئك اللغويون ، ومن المحاباة الظالمة المضللة أن يلقبوا بغير « الحفظة أو الحملة » اذ ليس لهم من ذلك الا « حفظه » أو « حمله » وهذا حسبهم فضلا .

ومن أبدع الكلمات في ذلك وأقطعها ما روى عن الاستاذ الامام محمد عبده أنه أخبر بأن رجلا حفظ « صحيح البخاري » عن ظهر قلب فأجاب « الحمد لله ، زودنا نسخة » فالقدرة على حفظ الكلام نعمة لا شك ، ولكنها لا تدل على بصيرة به ولا تبيح لصاحبه انه يتعالم بأسراره

واذا رجعنا الى تراجم من يسمون اللغويين او علماء اللغة عندنا بل من يسمون « أئمة » فيها ، لم نجد نصيبا لهم منها غير الحفظ او الحمل ، دون ان يغوصوا فيه او يدركوا حظه من البلاغة . وقد ضربنا مثلا في الصفحة السابقة بأحد هؤلاء وهو « المبرد » وذكرنا اعتداده بانه مرجع اهل زمانه في بيان المشكل في القرآن والحديث والعربية واعترافه بالعجز عن كتابة شيء يرضي عنه ، ليرسله الى بعض اخوانه فيما يعرض له من حاجة اليه .

ونضرب مثلا ثانيا هو أبو علي القالي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ) الذي كان يعد من كبار اللغويين في عصره بالمشرق فلما بلغ صيته الأندلس استدعاه أميرها عبد الرحمن الناصر (أو الثالث) واحتفى باستقباله استقبال الفاتحين ، وأنزله ضيفا مكرما عليه ، ووكل اليه تأديب ولي عهده « الحكم » وجاءت احدى المناسبات العظمى في الاحتفال بقصره بين جنده وحاشيته أمام سفير ملك الروم ، وكان « الحكم » قد طلب من القالي اعداد خطبة لالقائها في الحفل العظيم قبل قصائد الشعراء ، فلما وقف للخطبة لم يزد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ثم انقطع وبهت ، وكادت تقع الفضيحة لولا ان تداركه شاب من خطباء المساجد ، فقام ووصل افتتاح القالي بخطبة مناسبة . وربما لم يحسن القالي اقامة بيت من الشعر كما حدث في « الزقة » التي دخل خلالها الاندلس ، فروجع مرتين ليقيمه فما أقامه .

ونضيف مثلا ثالثا ذكر كالمثل الثاني في « نفح الطيب » وهو امام الاندلس الشلوبين (٦٤٥ هـ) فقد ذكر في نفح الطيب في صدد عنايتهم بالنحو ما يلي « كل عالم في أي علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفي عليه

الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبين أبي علي - المشار اليه بعلم النحو في عصرنا ، الذي غربت تصانيفه وشرقت - وهو يقرىء درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه ، والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب واخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعي في القراءات والمخاطبات والرسائل .

ولسنا نريد أن ننقص من أقدار شيوخنا ، أو نهون من فضلهم علينا ، بل نريد إنصافهم دون محاباة . ونريد ما هو أهم لنا الآن ، ومنه ألا نغتر بشهرتهم ونتبعهم في احكامهم بغير مراجعة وتثبت ، تاركين مسئوليتنا تجاه لغتنا ، بل لا بد لنا من الرجوع الى ما يسره الله لنا اليوم من نصوصها الفصيحة الكثيرة ، وهي مطبوعة ، لاعادة النظر في انظمتها السمحة ولا نقتصر على ما وضعه القدماء لها من قواعد ، ووقفوا عنده من ألفاظ ، ومنعوا سواها ، فذلك حجر على اللغة لا تقبله العقول ولا يستريح اليه مسئول ، والفرص اليوم اوسع مما كان لاسلافنا ، بما أتيح لنا من علم الالسنة ، والمقارنة بين اللغات ، والنقد الادبي ، وفلسفة الجمال ، والنفسانيات .

ومن الأهم لنا الآن أيضا في مجال العمل أو السلوك اللغوي - أن نكثر من قراءة نصوص اللغة العالية وتذوقها وممارستها كتابة ومحاضرة وخطابة ، حتى نحصل شيئا من سليقتها ، ونحسن تذوقها ونقدها ، وإن حفظ النصوص هنا والموازنة بينها عون على كل ذلك ، وعلينا أن ننصرف - الا عند الحاجة - عن الانكباب على كتب القواعد والمعاجم فهي أقل جدوى وقد تعطل ملكاتنا الادبية .

فالتربية اللغوية إنما هي تربية ملكاتنا الأدبية ، والكبار والصغار جميعا في أشد الحاجة الى هذه التربية بكثرة القراءة والحفظ ثم الممارسة معا ، فلا جدوى من الحفظ دون ممارسة ، ولا في الممارسة دون حفظ ، وهذه مهمة كل المؤسسات اللغوية ، وكل المربين اللغويين في شتى المعاهد وغيرها . .

وفي الحفظ لا بد من الامتلاء بأجود النصوص شعرا ونثرا ، والشعر ايسر حفظا ، ولا بد معه من حسن الفهم والتصور ، ثم محاولة احتمال ما حفظ لتبقى قوالبه وطرقه دون نصوصه ، ثم تبقى الممارسة الطويلة الواعية التي هي وسيلة الاتقان ، حتى تتكون الملكة . وكلما زادت الممارسة زاد الاتقان ، حتى تكون كممارسة السباحة والمشي سهولة ، والرغبة القوية والطبع المواتي أساس الفلاح في كل عمل ، ولا بد في الحفظ من ضبط النص صحيحا .

ونضرب لذلك مثلين : احدهما محمود سامي البارودي باعث الشعر العربي حديثا ، اذ يقول فيه استاذه الشيخ حسين المرصفي في كتابه « الوسيلة الادبية » انه « لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية ، غير [illegible] التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع الى بعض من له دراية وهو يقرأ الدواوين ، او يقرأ بحضرته ، حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات ، حسبما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة ، فصار يقول ولا يكاد يلحن ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم ، حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقدا شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطئها ، مدركا ما ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي ، ثم جاء من صنعة الشعر باللائق بالأمراء كأبي فراس والشريف الرضي والطغرائي . »

والمثل الثاني الامام محمد عبده الذي أجاد الفرنسية قراءة وكتابة ومحاضرة ، ولم يتعلمها حتى تجاوز الأربعين ، اذ أحس بعد توليه القضاء حاجته إليها ، ليتوسع في أصول القانون الجنائي عند فلاسفة التشريع الغربيين ، فجاء بمعلم ، فحضر مصطحبا كتابا في مبادىء قواعد الفرنسية ، ليبدأ معه من البداية ، ولكن الامام علم معلمه كيف يعلمه ، اذ أشار عليه بأن يبدأ معه من النهاية وأخذ قصة للأديب اسكندر دوماس ، ليقرأ عباراتها ، ويسمع من معلمه تصحيح نطقه وتفسيره لمعانيها ، وقال له : أما ما عدا ذلك فهو عملي ، والنحو يأتي في أثناء العمل ، فلما أتم الكتاب أتبعه بكتابين آخرين ، وكان من عادته أن يطالع وحده ما قرأه على معلمه ، ويتذكر مواضع أخطائه وتصحيحات معلمه له ، فلم تنقض شهور حتى تعلمها قراءة وكتابة ومحاضرة وترجمة وصار يوصي بهذه الطريقة كل من يريد من الكبار مثله تعلم لغة أجنبية .

وقد ترجم عنها كتاب التربية لصديقه الفيلسوف الانجليزي « هربرت سبنسر » ، وأملى بها في مرض موته وصية سياسية ، وكان يفسر لاصدقائه البارعين في الفرنسية ما غمض عليهم من كتاب في الذهن للفيلسوف الفرنسي تين .

هذه وحدها هي الطريقة العملية السهلة السريعة لتعليم اللغات للصغار والكبار ، الا أن يتلقنوها رضعا او اطفالا وكل طريقة سواها فهي فاشلة ، ولو استوعب المتعلم اوسع كتب القواعد والمعاجم .



كُتب كُتب

إعداد : جهاد فاضل

● الرحلة الى الغرب والرحلة الى الشرق . ناجي نجيب . بيروت : دار الكلمة .

دراسة تقارن بين كتابي « تخليص الابريز في تلخيص باريز » للشيخ رفاعه الطهطاوي و « المصريون المحدثون وعاداتهم » للمستشرق الانكليزي ادوارد لين ، وكلاهما في منتصف القرن التاسع عشر .

● العرب والتكنولوجيا . سمير عبده . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٢٠ ص .

يعالج الكتاب عملية نقل التكنولوجيا الغربية الى المجتمعات التقليدية في أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية .

● موسوعة المورد/ الجزء الخامس . منير بعلبكي . بيروت : دار العلم للملايين ، ٢٤٠ ص .

دائرة معارف انجليزية عربية مصورة ويضم المجلد الخامس المواد التي تبدأ بـ GOB وتنتهي بـ JAN مع فهرست عربي للكلمات وهو مزين برسوم وصور ملونة توضيحية .

● معجم مصطلحات الفنون . عفيف البهنسي . بيروت : دار الرائد العربي ، ٤٩٦ ص .

معجم خاص بالفنون ضمنه مؤلفه مفردات الفنون التشكيلية من رسم ونحت وحفر وتصوير وزخرفة مضيفا اليها المصطلحات الآثارية والمعمارية التي تتصل بها ، وهو مزود بصور موضحة والكتاب مقسم الى قسمين : يتضمن القسم الاول المصطلحات الفرنسية ومقابلها الانجليزية والعربية . والقسم الثاني المصطلحات العربية ومقابلها الانجليزية والفرنسية بالاضافة الى قائمة انجليزية تضم المصطلحات الفنية مرتبة حسب الترتيب الهجائي .

● القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ . بيان نويهض الحوت . بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ٩٨٨ ص .

تهدف الدراسة الى التوصل الى تحديد القيادات السياسية الفلسطينية ومؤسساتها في عهد الانتداب ، ثم تحليلها فكريا وسياسيا واجتماعيا من خلال مسيرتها التاريخية واعمالها السياسية .

● القرآن والدولة . محمد احمد خلف الله . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٦٤ ص .

كتاب يبحث قضية الدولة في الصيغة التي جاءت في القرآن الكريم ، وهي تكشف عن حقيقتين في تكوين الامة وبناء الدولة :

١ ـ ان القرآن الكريم وضع الخطوط الرئيسية التي تعصم الانسان وتوجهه نحو الطريق القويم .

٢ ـ ان القرآن الكريم قد ترك للانسان التفصيلات وكل





ما يتأثر بالزمان والمكان .

● دراسات في الاسلام . حسين مروه واخرون . بيروت : دار الفارابي ، ٢٣٢ ص .

مجموعة دراسات تحاول النظر الى الاسلام في بعض عهوده القديمة والحديثة نظرة علمية تلقي الضوء على الاثر الاجتماعي السياسي للاسلام في عهده الاول وعلى بعض الحركات الفكرية الاسلامية في عهود لاحقة . يشارك حسين مروه في هذه الدراسات محمود أمين العالم ، محمد دكروب وسمير سعد .

● خبر الواحد في السنة وأثره في الفقه الاسلامي . سهير رشاد مهنا . بيروت : دار الشروق ١٢٤ ص .

بحث في الخبر الواحد على انه طريق من طرق نقل السنة عن رسول الله ﷺ . يوضح مدى حجيته وافادته للعلم والعمل وكيفية اخذ ائمة المذاهب الفقهية به وأثر اختلافهم فيه في الفقه الاسلامي .

● عبدالناصر والعرب : منجزاته السياسية والعسكرية والاقتصادية . نجلا ابو عزالدين . ترجمة يوسف الصباغ . بيروت : الوطن العربي ومكتبة مدبولي ، ٦٧٢ ص .

يعرض الكتاب لاعمال الرئيس الراحل جمال عبدالناصر وسعيه نحو تحقيق استقلال وطني حقيقي وتغيير اجتماعي نوعي وكمي .

● الحركات الاجتماعية في الاسلام . اميل توما . بيروت : دار الفارابي ، ١٩٢ ص .

مجموعة دراسات تعالج ظاهرة فكرية سياسية اكتسبت ابعادا خاصة بعد ثورة ايران مع انها وضعت قبل الثورة وتعالج مكانة الدين في التطور الاجتماعي والسياسي والعلاقة بين الدين والقومية .

● العرب والنموذج الاميركي . فؤاد زكريا ـ ط ٢ . بيروت : دار ابن رشد ، ٧٢ ص .

الكتاب محاولة لمناقشة العقول المبهورة بالنموذج الاميركي .

● المسامرة والمنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجري . جمال سرحان . بيروت : دار الوحدة ، ٢١٢ ص .

يجمع الكتاب بين العرض والدراسة لشخصيتي النديم والجليس ويقدم نماذج وصورا لهما ولمجالسهما عبر القرون الاربعة الاولى من الهجرة .

● المثقفون العرب والغرب : عصر النهضة ١٨٧٥ ـ ١٩١٤ . هشام شرابي ـ ط ٣ ـ بيروت : دار النهار للنشر ١٦٤ ص .

يحاول المؤلف في كتابه اظهار التطور الايديولوجي في العالم العربي الحديث في ضوء التطور الاجتماعي والاقتصادي وتبيان العلاقة الاساسية التي تربط كل

كتب ● كتب كتب ● كتب كتب ● كتب كتب ● كتب كتب ● كتب كتب ● كتب كتب ● كتب كتب ● كتب كتب ● كتب

فكر ، سياسيا كان أو فلسفيا أو دينيا ، بالمصالح التي ينبثق منها ويعبر عنها هذا الفكر وذلك ليس بالتجريد النظري بل بالعودة الى التيارات والقوى التاريخية التي رسمت وشكلت تاريخ النهضة .

● الاحزاب السياسية في اسرائيل : عرض وتحليل . هاني عبدالله . بيروت/ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٢٦٠ ص .

الكتاب بمثابة دليل للأحزاب والقوى السياسية الرئيسية في اسرائيل من حيث تاريخ تشكلها واتجاهاتها الفكرية ، قاعدتها الاجتماعية ـ الاقتصادية ، أطرها التنظيمية ، مناهجها السياسية وتحالفاتها المحلية والخارجية .

● سيطرة اسرائيل على الولايات المتحدة الامريكية . نصار غلمية . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ٣٦٨ ص .

تظهر الدراسة حقيقة السيطرة الصهيونية على المؤسسات السياسية الفاعلة في الولايات المتحدة الامريكية .

● أية ديمقراطية .. أية وحدة ؟ عصام نعمان . بيروت : دار الطليعة ، ٨٨ ص .

مجموعة بحوث ومقالات كتبت لمواجهة تحديات عربية ولبنانية . والمؤلف لا يكتفي بتحليل موضوع البحث ، بل يعرض للحلول الكفيلة بتحقيق الهدف .

● كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ . عبدالقادر ياسين . ط ٢ . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ٢١٦ ص .

يلقي الكتاب الضوء على معالم الحركة الوطنية الفلسطينية ، بين ١٩١٨ و ١٩٤٨ وقد بين المؤلف الدور الذي لعبته الحركة الوطنية قبل النكبة عام ١٩٤٨ ، معتمدا على نهج يرى في الشعب صانعا للتاريخ ، وعلى معلومات أظهرت كم عانى الشعب الفلسطيني من الاضطهاد على ايدي الانكليز .

● تاريخ البيمارستانات في الاسلام . احمد عيسى . ط ٢ ـ بيروت : دار الرائد العربي ٢٩٤ ص .

يعرض الكتاب لتاريخ المستشفيات في العهد الاسلامي الى العهد الحاضر . يضم الباب الاول نشأة المستشفيات في الاسلام ، نظامها واطباؤها وارزاقها . كما عدد الباب الثاني بيمارستانات (مستشفيات) البلاد الاسلامية بالتفصيل والاطباء الذين عملوا فيها . والكتاب يعرف بحالة الطب عند العرب ، التقسيم الفني لنظام المستشفى ، وكيفية اعطاء دروس الطب ومستلزماته وطرق العلاج وامتحانات الاطباء والصيادلة ..



● المرأة والحياة العصرية « اتيكيت المرأة » . روحي جميل . بيروت : دار النهار للنشر ٣٠٤ ص .

يطمح المؤلف في كتابه الى تعليم المرأة شتى أساليب اللياقة في الخطوبة والزواج ، والحفلات والولائم ، والسفر والرحلات ، والرياضة واختيار الثياب ، والتزين وكل ما يتعلق بالاسرة والمنزل .

● تحفة العروس . محمود مهدي الاستانبولي . بيروت : المكتب الاسلامي ٤٨٠ ص .

من فصول الكتاب : على عتبة الزواج ، رأي الاسلام في الحب ، حقوق وواجبات الزوجين .

● الطفل المثالي في الاسلام : نشأته ، رعايته ، أحكامه . عبدالغني الخطيب . بيروت : المكتب الاسلامي ١٥٠ ص .

يتحدث الكتاب عن الطفولة واهميتها وفي حكم الاسلام في مسائل شتى تتصل بالطفولة وسواها .

● مجنون السا . لويس اراغون . ترجمة سامي الجندي . بيروت : دار الكلمة للنشر ٤٢٤ ص .

الكتاب ترجمة لديوان مجنون السا لاراغون ويضم استشهادات قرآنية ومآثر وحكم وروايات تتصل بالتاريخ العربي الاسلامي في الاندلس .



● الاعمال العربية الكاملة : نبذة عن الثورة الفرنسية ، النكبات ، شذرات من عهد الصبا . امين الريحاني . مج : ٦ بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

● الدون الهادىء . ميخائيل شولوخوف ، ترجمة علي الشوك ، امجد حسين ، غانم حمدون . بيروت : دار ابن خلدون ، ٣٠٤ ص .

احد أعمال شولوخوف الروائية وهي صورة وثائقية عن حياة القوزاق .

● الفصول الاربعة . عمر فاخوري . بيروت : دار الأفاق الجديدة ، ١٢٤ ص .

يبحث الكتاب في الشعر والادب واصول الانشاء مع مقدمة بقلم فاروق سعد وهو جزء من الاعمال الكاملة التي أصدرتها الدار الناشرة تباعا .

● الاغاني وما بعدها . فيديريكو غارسيا لوركا ، ترجمة سعدي يوسف . بيروت : دار ابن رشد ٩٦ ص .

مجموعة قصائد للوركا مترجمة عن الاسبانية مع مقدمة حول لوركا للكاتب ج . ل . جيلي .

● من يعرف الوردة . سعدي يوسف . بيروت : دار ابن رشد ١٠٠ ص .

مجموعة قصائد وجدانية .

● الاعمال الكاملة : المجموعة الشعرية . صلاح لبكي . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ٣٠٧ ص .

تتضمن هذه المجموعة كافة دواوين الشاعر السابقة : ارجوحة القمر ، مواعيد ، سأم ، غرباء ، حنين . وفيها مقدمات للشاعرين يوسف غصوب وسعيد عقل .

● الوجه الاخر لجبران . رياض حنين . بيروت : دار النهار للنشر . ٨٧ ص .

دراسة أقرب الى التحقيق الصحفي تتضمن معلومات جديدة حول جبران .

● جبران خليل جبران في حياته العاصفة . الدكتور جميل جبر . بيروت/ مؤسسة نوفل ٢٦٨ ص .

احدى الدراسات التي صدرت في سنة جبران العالمية ، تتضمن سيرة مفصلة وتحليلا علميا لصاحب « النبي » .

● الفن التشكيلي المعاصر . التصوير (١٨٧٠ ـ ١٩٧٠) . الدكتور محمود امهز . بيروت : دار المثلث ، ٣١٧ ص .

يبحث هذا الكتاب في الفنون التشكيلية المعاصرة ، في الرسم والتصوير ، موضحا حركة التطور الفني وما رافقها ، خلال مائة عام ، من تحول في الرؤية الفنية وتبدل في مفهوم اللوحة والواقع . ويتضمن بالتالي مختلف التيارات الفنية البارزة الممثلة لهذه الحقبة التاريخية الهامة ، بدءا بالانطباعية والرمزية والوحشية والتعبيرية ، الممهدة لهذا التطور الفني ، وانتهاء بالحركة الفنية المعاصرة (الفن الحركي والفن المفاهيمي) ومرورا بالتكعيبية ، والفن اللاموضوعي (الفن التجريدي) والحركة الدادائية والسريالية ، والواقعية الجديدة (البوب آرت والواقعية المفرطة) .

● اصداء الرمال . احمد ولد عبدالقادر . بيروت : دار الباحث ، ١٦٨ ص .

مجموعة قصائد وطنية .

● مدافع آية الله . محمد حسنين هيكل . بيروت : دار الشروق ٢٧٣ ص .

كتاب يروي سيرة ايران المعاصرة منذ تسلم رضا بهلوي عرش ايران في العشرينات ، بعد اطاحته بالعائلة القاجارية السابقة ، حتى اليوم ، وبخاصة ما جرى في ايران منذ خلع الشاه وتسلم اية الله الخميني للحكم في ايران ، واحتمالات المستقبل .

الكتاب وضع اصلا في الانجليزية ونقله الى العربية د . عبدالوهاب المسيري والشريف خاطر .

● سوسيولوجيا النقد العربي الحديث د . غالي شكري . بيروت : دار الطليعة ٢٧٩ ص .

يقدم المؤلف في دراسته هذه الخلفية السوسيولوجية لقصة النقد العربي الحديث في مجملها وخطها العام . ويتضمن الكتاب مقدمة وثلاثة أقسام : الرحلة ، الجديد ، التقصير .

● العالم الثالث والثورة . نجاح واكيم . بيروت : معهد الانماء العربي ٢٧٣ ص .

محاولة لرسم ملامح صورة البنى الاجتماعية لبلدان العالم الثالث وطبيعة الطبقات والشرائح الاجتماعية فيها ، ومحاولة البحث عن معيار علمي للفرز بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة .

● في السياسة والامن . امين هويدي . بيروت : معهد الانماء العربي ٢٦٨ ص .

يتصدى الكتاب لموضوع يتعلق بحاضر الامة العربية ومستقبلها وهو الأمن القومي العربي . والامن القومي في الكتاب لا يتعلق فقط بالقوة العسكرية وانما يعتمد بنفس القدر على القدرات السياسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية وما تقوم به الدولة او مجموعة الدول التي يضمها نظام جماعي واحد من اجراءات في حدود طاقاتها ، للحفاظ على كيانها ومعالمها في الحاضر والمستقبل مع مراعاة المتغيرات المحلية والدولية .

● مثلث الخطر : مضيق هرمز ، باب المندب ، جبل طارق . مصطفى نبيل . بيروت : دار الكلمة للنشر ١٧٩ ص .

ثلاثة تحقيقات صحفية حية في مضايق وممرات استراتيجية واقعة في قلب الاحداث المعاصرة .

● ام القرى . عبدالرحمن الكواكبي . بيروت : مؤسسة ناصر للثقافة . ٢٦٤ ص .

يتضمن الكتاب محاضر جلسات مؤتمر النهضة العربية الذي انعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ لمعالجة اوضاع العرب .

● دراسات في الوعي بالتاريخ . د . محمد عمارة ، بيروت : دار الوحدة . ٢٥٦ ص .

الكتاب قراءة ووعي للتاريخ الاسلامي والقومي تقف فصوله امام معارك الامة ومراعاتها مع مختلف الاعداء والتحديات في ميادين الفكر والحرب والحضارة والثورة والقومية والعنصرية والتنظيم والدين من أجل تجديد الذات وتحرير العقل وتصويب التصورات كي نتصدى للتحديات .

● متمردون لوجه الله : ابن حزم ، ابن تيمية ، رفاعة الطهطاوي ، جمال الدين الافغاني ، عبدالله النديم ، محمود عوض . بيروت : دار الشروق ، ٢٧٢ ص .

يتناول المؤلف حياة ومواقف شخصيات خمسة ، نذروا حياتهم من البداية لقضية عامة هي نهوض المجتمع ورفض الامر الواقع والتمرد ضد الفساد والنفاق في سبيل نهوض المجتمع الذي ينتمون اليه .

● الاجتهاد في الاسلام ، اصوله ، احكامه ، افاقه ، الدكتورة ناديا شريف العمري ، بيروت : مؤسسة الرسالة . ٢٧٦ ص .

يتضمن الكتاب خمسة فصول : اصول الاجتهاد ، المجتهد ، احكام الاجتهاد ، تجديد الاجتهاد ، اهمية الاجتهاد في العصر الحديث .

● في سبيل موسوعة علمية . الدكتور احمد زكي ، ط ٣ بيروت : دار الشروق ، ٥٩٩ ص .

مجموعة دراسات علمية مبسطة نشرت في مجلة العربي وتجمع بين الاسلوب العلمي وجزالة اللفظ وبلاغة التعبير .

● حي بن يقظان لابن طفيل ، كتابة صلاح عبدالصبور ، رسوم مصطفى حسين ، بيروت : دار الشروق .

آخر ما كتبه الشاعر صلاح عبدالصبور للاطفال .

● في فكرنا المعاصر ، الدكتور حسن حنفي . بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، ٣٣٤ صفحة .

مجموعة دراسات فكرية متنوعة تتصل بالدين والمعاصرة ، والاصالة الاشتراكية ، والثقافة وسواها .

● زمن لكل الازمنة . نظرات وآراء في الفن . بلند الحيدري بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ١٥٦ ص

مجموعة دراسات حول الفن القديم والفن المعاصر .

● الفكر العربي . د . محمد اركون ، ترجمة د . عادل العوا . بيروت : منشورات عويدات ١٨٣ ص .

مجموعة دراسات فكرية من خمسة فصول : الحادث القرآني ، تشكل الفكر العربي ، الفكر المدرسي ، محافظة وانقطاعات ونهضات ، انبثاق الحياة الجديدة .

حوار القراء

زرع الكلى

● ورد بمجلتكم الغراء العدد / ٢٧٨/ لعام ١٩٨٢ البحث الطبي «زرع الكلى» عن الطبيب السيد جورج منصور ابونا. انه ابرز طبيب في زراعة اعضاء الجسم. وقد أجرى عدة عمليات ناجحة لزراعة الكبد.

لذا، نريد استشارتكم: هل من الممكن زراعة الكبد او معالجته في الكويت، راجيا منكم المساعدة واعلامنا كيفية الاتصال بالطبيب المذكور او اي شيء عن عنوانه.

محمد عدنان الخير
دمشق/ سوريا

العربي:
الدكتور جورج ابونا.. هو رئيس وحدة الكلى في مستشفى مبارك الكبير بدولة الكويت.

أثمن إرث

● ان أثمن إرث تركه لي والدي رحمه الله هو مجلة العربي... كان يقضي وقتا طويلا في قراءتها وانا صغيرة اشاركه هذه الهواية.. وظلت محبتي لمجلتي تزداد يوما بعد يوم بعد ان قاربت على العشرين من العمر.

الآنسة نعمات الزهرة
الدار البيضاء/المغرب

استطلاع السنغال

قرأت استطلاعا نشرته مجلة العربي الغراء في العددين ٢٧٨ و ٢٧٩ عن السنغال، وقد تضمن معلومات واشارات تحتاج الى ايضاح. فاذا كانت بعثة العربي قد واجهت صعوبات في مطار داكار فإنني أنبه الى أن الاجراءات الامنية اجراءات معروفة في جميع بلدان العالم وليس في مطار داكار وحده، والظروف الدولية تقتضي المزيد من الدقة والتشديد. ففي الفترة التي سافرت فيها بعثة العربي الى السنغال كانت هناك دول معروفة ترسل مجموعات اغتيال الى جميع بلدان العالم لتصفية خصومها السياسيين.

ذكر في الاستطلاع ان فندق «تيرانجا» عبارة عن مستعمرة فرنسية لأن العاملين فيه ورواده يتكلمون اللغة الفرنسية، وكذلك وسائل الاعلام في السنغال تستعمل اللغة الفرنسية، ولا ندري ما وجه الغرابة في هذا. واعتقد أن احدا لا يجهل ان السنغال كانت مستعمرة فرنسية لفترة طويلة وان اللغة المستعملة إداريا هي الفرنسية وليست اللغة العربية. وشاءت الظروف ان يكون الوضع كذلك مثل أغلب بلدان العالم. وفي الاستطلاع ان العربي في السنغال غريب لانه لا يجد من يتحدث معه باللغة العربية، ولا يجد في البلد ملامح عربية، وهذا على فرض انه صحيح فلا غرابة فيه لان البلد ليس بلدا عربيا وبالتالي ليس غريبا أن يجهل الناس اللغة العربية، وألا يحمل البلد طابعا عربيا. ومع ذلك فان الكلام يجافي الحقيقة والواقع. فالسنغال فيه الكثير ممن يتكلمون اللغة العربية. واذا كان العربي يشعر بالغربة في السنغال بصفته عربيا. فقد لا يشعر بذلك بصفته مسلما لان الطابع الاسلامي واضح جدا في السنغال بمساجده وجوامعه واحتفالاته بالاعياد الدينية.

وتحدث المحرر عن بدء العصر التاريخي لافريقيا السوداء بالاسلام، ونحن نعتز بالاسلام، ومع ذلك فان تاريخ افريقيا أقدم من الاسلام بكثير، والقول بان العرب هم اول من وصف جغرافية افريقيا، اعتقد ان فيه بعض المبالغة.

وقد ذكر في الاستطلاع أن إحدى الشركات الاوروبية تشتري لبن الافريقيات وتصدره الى اوروبا لتغذية اطفال

الاوروبيين لتتفرغ امهاتهم للزينة ولحماية جمالهن . دون ذكر اسم أية شركة لانها غير موجودة من الاساس .

كما أسهب الاستطلاع في الحديث عن الصوفية والطرق الصوفية في السنغال تتحدث عن اسلام اسود في السنغال ، وكأن الاسلام اصبح ذا الوان وأشكال .

فمسألة الطائفية والطرق الصوفية ، واختلاط العادات والتقاليد بالاسلام ، قضية العالم الاسلامي كله ، والمحرر يعلم ان الصوفية والطائفية ليست خاصة بالسنغال .

وأود ان ألفت النظر الى الدور الايجابي الذي لعبته الطرق الصوفية في نشر الاسلام في السنغال ، وتثبيت دعائمه في ارجاء افريقيا ولولا الاستعمار الاوروبي لكان الامر الآن في وضع مختلف .

والمشكلة أبعد من ان تكون مشكلة سنغالية ، فكل ما في الامر هو ان الاسلام لم تعد له سلطة تنفيذية ولا قوة تحميه ، واصبحت السلطة الروحية المتمثلة في الطرق الصوفية تحل محل السلطة التنفيذية والقوة الدفاعية لقيادة المسلمين وتوجيههم الى تعاليم الاسلام .

بمقارنة الوضع الديني الاسلامي في هذه البلدان مع الوضع في السنغال ، فانا اؤكد بان المسلمين في السنغال يطبقون الشريعة الاسلامية مثل غيرهم ، ولذلك فانهم لا يوافقون على كثير مما يرون عند غيرهم من المسلمين . لا في تطبيق التعاليم الاسلامية ولا في التقاليد الانسانية والعادات الاجتماعية المخالفة للاسلام .

ان الشعب السنغالي المسلم شديد التمسك بدينه ، حريص على كرامته ، ويكن مشاعر المودة والمحبة للانسانية جمعاء ، ويعامل كل شخص بما يستحق من الاحترام بغض النظر عن جنسه ولونه ودينه ومذهبه ، وذلك طبقا لتعاليم الاسلام المتمثلة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة صحابته رضوان الله عليهم وكبار أئمة المسلمين المعروفين بالورع والتقوى . ■

محمد شمس الدين اندوي

سفير جمهورية السنغال بالكويت

تصحيح

● اغتنم هذه الفرصة لأشير الى انه وقعت عدة اخطاء مطبعية بالاساس ، وذلك في ثنايا مقالي الاخير (عبدالله بن ياسين) ، المنشور بالعدد ٢٧٧ . واني لفي غنى عن ذكرها ، وسواء تعلق الأمر بأخطاء ما قبل النشر او ما بعده ، فهي على اي حال اخطاء غير متعمدة .. الا ان هناك خطأ تاريخيا تبين لي - وانا اتصفح - المقال - انني سهوت عنه اثناء المراجعة والتصحيح ، ويتعلق الامر بعنوان كتاب محمد عثمان المراكشي الذي ورد هكذا : (الجامعة اليوسفية بمراكش في سبعمائة سنة) .
والصواب : (تسعمائة سنة) ص ١٢٦ .

فالرجاء التفضل بتصحيح الخطأ ونشره .

عبدالوهاب شكري
ورزازات - المغرب

العربي والجزائر

بالله عليكم لماذا نحرم نحن الجزائريين من قراءة مجلتنا « العربي » والتي تفتحت عيوننا عليها منذ سنوات .. أبحث عن العربي في الاسواق الجزائرية فلا أجدها ...

لا أغالي اذا قلت ان مجلة العربي قومت لساني الذي حاول المستعمر إعجامه .

بن الاخضر ثامر
ولاية المسلة - الجزائر

الحق .. اقول لكم

● منذ النكبة حتى اليوم ، لم نسخر مواردنا الطائلة ، للصناعة والتنمية وتوفير الخيرات المادية .. ولم نسخرها لانقاذ الانسان العربي من براثن التشكيلة الثلاثية ، الفقر والمرض والجهل .. ولم نسخرها للاخذ بأسباب القوة والقدرة على المواجهة والرد .

وكل ما هنالك اننا نعود من كل مؤتمر قمة كحنين وايضا بلا خفين !! ومضى الزمن وتدهورت احوالنا من سيء الى أسوأ .

لقد استهلكتنا الالفاظ ، واستهلكناها ، واخذنا نراوح بين تقدمية ورجعية ، ونحارب طواحين الهواء ونشتم هذا ونهجو ذاك ، دون ان نفيد القضية .. ولم نفكر يوما ، ان نفهم التقدمية على انها مواقع متقدمة على خطوط النار ، والرجعية رجوع للحق وشد ازره ومده بأسباب النصر !!

لقد مضى الزمن ونحن نقتات الكلمات ، ونناضل بالمنشتات ونتأسى بزيارة قبور الشهداء ، وتعزية الارامل ، ومواساة الجرحى والمعوقين .

السيد فرج جامع السنوسي
اليمن الديموقراطية

غسان كنفاني

● اطمع في قراءة شيء عن الكاتب المرحوم غسان كنفاني على صفحات مجلة العربي .. عن حياته ومكانته الادبية واغتياله .

امنة عباس
الزرقاء/ الاردن

Nouvelles de caractère strictement personnel et familial — اخبار عائلية فقط — Family news of a strictly personal nature

MESSAGE A TRANSMETTRE – الرسالة – MESSAGE

אושר

بسم الله الرحمن الرحيم و...

حضرة ... المحترم ... مجلة العربي الموقرة

تحية طيبة وبعد .

لقد اطلعنا على اعداد كثيرة من مجلتكم الراشدة هنا في الاراضي المحتلة .

واما وقد شاء رب الاقدار ان ندخل السجن كما هو الحال بالنسبة لكثير من ابنائنا من الاراضي المحتلة ، فقد انقطعنا عن مطالعة مجلتكم النيرة

لذا نرجوا منكم مساعدتكم لنا ... وذلك بارسال اعداد من هذه المجلة باسم السجون في الاراضي المحتلة بواسطة الصليب الاحمر الدولي ولكم منا جزيل الشكر والاحترام ...

وشكراً . والسلام

Date ____________ التاريخ

RÉPONSE – الرد – REPLY

تسلمنا هذه الرسالة عن طريق اللجنة الدولية للصليب الاحمر في عمان ، و سنرسل بعض اعداد العربي بواسطة الصليب الاحمر .

عم الحلاق

للكاتب الامريكي وليام ساروبان

ترجمة : نعوم ابراهيم عبود

قالت لي الآنسة كاما انك بحاجة لتقص شعرك . وقالت امي ، انك بحاجة لتقص شعرك ، وقال اخي كريكور انك بحاجة لتقص شعرك . العالم كله مجمع على « اني بحاجة لاقص شعري » . فرأسي اكبر من ان يتمكن العالم من استيعابه . انه يحوي كمية كبيرة من الشعر الاسود ، هذا ما كان يقوله الناس جميعا ، كل امرىء كان يقول : متى ستقص هذا الشعر ؟؟

وكان يعيش في بلدتنا رجل اعمال كبير ، يدعى (هاتنتكتون) يشتري مني في كل يوم صحيفة مسائية ، كان يزن مائتين واربعين رطلا . ويملك سيارتي « كاديلاك » وسمائة فدان ارض مزروعة بالكرمة ، وله في البنك ما يقرب من مليون دولار . وكان يملك كذلك رأسا صغيرا اصلع من جميع نواحيه ، مركبا فوق جسمه تماما ، بشكل يتمكن جميع الناس من رؤيته .

كان يأتي بجماعة من خارج المدينة ، من موظفي الخط الحديدي ، وكانو يسيرون مسافة طويلة لرؤية رأسي . وكانوا يصرخون في الشارع قائلين : هذه هي كاليفورنيا . . هذا هو الاقليم والصحة وينابيع هاتنتكتون

زئيره قائلا . أيها الرب الاله ! هذا رأس يكسوه الشعر .

كانت الآنسة (كاما) شديدة المرارة لوضع شعري . وقد قالت لي في أحد الأيام : هنا ، في هذا الصف يوجد احد الفتيان ، لن اذكر اسمه ، سنكون مرغمين على ارساله الى اصلاحية الاحداث اذا لم يذهب لزيارة حلاق في يوم من الايام ، ويعمل على قص شعره .

والحق انها لم تذكر اسما واكتفت بان نظرت الي . . .

قال اخي كريكور : ماهي الفكرة العظيمة التي تهدف اليها بعملك هذا . فاجبته اتذكر (شمشون) واللعنة التي حلت عليه يوم قصوا له شعره .

واجاب اخي كريكور : هذا امر يختلف فانت لست شمشون . واجبته انا : اهكذا ؟ لا ، وكيف تعلم اني لست كشمشون ؟ ماهي الاسباب التي تدعوك للتفكير باني لست مثله ؟؟

والحق اني كنت اشعر بالسعادة عندما كنت ارى العالم ناقما علي ، غير انه في احد الايام جرب عصفور الدوري ان يبني له عشا في رأسي ، فاسرعت الى الحلاق !

كنت نائما فوق العشب ، تحت شجرة الجوز الكبيرة في



دارنا ، فنزل الدوري من الشجرة وحط على راسي وبدأ عمله ، كان ذلك في يوم من ايام الصيف الدافئة ، وكان القوم نياما ، والسكون يخيم في كل مكان من العالم ، فلا تنساب سيارة بجوارنا ، ولا تسمع الا سكوت الحقيقة . السكوت البارد والحار الحزين المفرح . العالم .. آه يا الله !! انه لشيء جيد ان يكون المرء حيا في مكان ما . وانه لشيء رائع ان يملك الانسان بيتا صغيرا في هذا العالم ، وامامه رواق كبير لأمسيات الصيف الطويلة .. غرف تحوي طاولات وكراسي ، اسرة وبيانو ومدفأة ، صور من مجلة (الايفنتج بوست) معلقة على الجدران ، انه لشيء عجيب ، وجميل ان يكون الانسان في مكان ما من الارض ، ان يكون حيا . يتمكن من الحركة في الزمان والمكان ، في الصباح والمساء والليل . يتنفس وينمو كالهرة ، يضحك ويتكلم وينام وينمو ويرى ويسمع ويلمس ، يسير الى أمكنة مختلفة في العالم تحت الشمس . يشعر انه جزء من المكان الكبير ، العالم .

كنت اشعر بالسعادة لوجود هذا الكون ، او بوجوده وجدت انا ايضا . . كان يخيم علي الحزن واشعر بالوحدة بسبب جميع الاشياء التي تحيطني ، غير ان ذلك الحزن كان لا يخلو من السعادة ، وعلى كل حال فالامر كان واحدا . كنت سعيدا وحزينا بجميع الاشياء التي رغبت ان احلم بها بالاماكن التي لم ارها قط ، من العواصم السحرية : نيويورك ، لندن ، باريس ، برلين ، فينا ، استنبول ، روما ، القاهرة . . الشوارع ، البيوت ، القوم الاحياء ، الابواب والنوافذ هنا وهناك ، بالقطر التي تسير في ظلام الليل ، بالسفن التي تعوم فوق سطح البحر . .

اللحظات اللامعة في جميع السنين المائة ، المدن التي طواها الزمن ، والامكنة البالية التي بلغت نهايتها ، الانسان الذي كان حيا في يوم ما ، اصبح ميتا الى الابد ، وحيا الى الابد ، لان حياة الارض تعيش الى الابد . آه يا إلهي !! لقد حلمت حلما عام ١٩١٩ . حلمت بالشمس تبقى في كبد السماء الى الابد ، وتبعث الدفء والحرارة الى العالم . .

في هذه اللحظة حط الدوري في راسي ، وجرب ان يبني له عشا في شعري ، عندئذ استيقظت . فتحت عيني الا اني لم اتحرك ، ولم اشعر ان طائرا يقيم هادئا ناعما في راسي حتى بدأ الدوري بالغناء . لم اسمع في حياتي زقزقة الطيور واضحة كما سمعتها اذ ذاك . وما سمعته بدا عجيبا وجديدا ، وبالوقت نفسه طبيعيا وقديما ، كان الطائر يغرد ببساطة الا انني كنت اشعر باني اسمع بكاء . . بكاء وبكاء . . وليس علي ما اعمله سوى التعجب ، ومع ذلك فقد قدم ذلك الطائر ، هذه الرسالة الحزينة المؤلمة بروح جزلة فرحة .

كنت اشعر ـ وأنا نصف نائم ـ بأن العالم خال من أي صوت ، وفجأة سمعت الموسيقا والخطابة ينطق بهما الدوري من شعري . وبدت المسألة لي أولا ، طبيعية تماما . ولكن أخيرا أدركت ان تناقضا في مضمون الرسالة وروحها . فهناك فرح من ناحية وحزن من ناحية ثانية . . . وهذا شيء لا يجوز ان يحدث ابدا . كما لا يجوز لطائر صغير ان يعبث بشعر اي انسان ما .

وهكذا قفزت مسرعا وذهبت الى المدينة ، وطار الدوري مرتبما خائفا ، وابتعد الى اقصى ما يمكنه ان يبتعد ، دون ان يلتقط انفاسه .

لقد كان الناس على حق . والآنسة كاسا كانت على حق ، واخي كريكور كان كذلك على حق . فيجب علي ان اقص شعري ، كي لا يجرب الدوري ان يعمل فيه عشا مرة اخرى .

وكان هناك حلاق أرمني في شارع (ماري بوزا) يدعى (آرام) اما مهنته الحقيقية فقد تكون فلاحا او حدادا وربما فيلسوفا ، وكان يقضي اكثر وقته يقرأ الصحف الارمنية ويلف لفائف التبغ بيده ويدخنها ويراقب المارة . ولم يسبق لي ان رأيته يقوم بقص شعر انسان ما ، او يحلق ذقن ما وربما قد ذهب خطأ ، الى دكانه رجل او رجلان من قبل .

وذهبت الى دكان آرام الحلاق وايقظته وكان غارقا في نوم عميق ، مائلا نحو طاولة صغيرة وامامه كتاب ارمني

وليام سارويان

ولد (وليام ساروبان) عام ١٩٠٨ في « فريسنو » من مقاطعة (كاليفورنيا) لا بوين ارمنيين قدما الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٠٥ . وظل في المدرسة حتى الخامسة عشرة من عمره ، غير انه منذ السابعة لم يكن يتردد عليها بانتظام . كان يبيع الصحف منذ حداثة سنه ، ومارس الكثير من المهن . بدأ الكتابة منذ التاسعة من عمره ، وعندما بلغ الحادية والعشرين استطاع ان يتكسب من قلمه حتى غدا من المع كتاب امريكا المعاصرين . مات مؤخرا عن عمر يناهز الثالثة والسبعين .

يمتاز (سارويان) بتفاؤله وحبه للحياة واقباله عليها ، لا يترك لحظة تمر الا ويملؤها بالمعاني ، ولا يدع حادثة ولو بسيطة تنقضي الا ويجعلها محرضا لذاته ، معرضا للتأمل وموقفا لاعمال الفكر وارهاق الحس والعاطفة .

في أقاصيصه روح حلوة حارة متدفقة انسانية ومشاعر رقيقة هي محور كل ما يكتب . وقصة « عم الحلاق » تعبر بصدق عن هذه الروح وتلك المشاعر .

مفتوح سازئلت له بالارمنية : لدي خمسة وعشرون ستا هل تريد ان تقص لي هذا الشعر ؟؟

قال : آه ! اني سعيد برؤيتك . ما اسمك ؟ تفضل بالجلوس اليّ سأغلي لك القهوة اولا ، آه . . ان هذا الرأس الذي تملكه مليء بالشعر .

فقلت له : ان جميع الناس يودون ان أقص هذا الشعر . فأجاب : « ان هذه هي الطريقة المتبعة بين الناس ، فهم دائما يخبرونك مايجب ان تفعله ، وما الخطأ في ان يكون للمرء بعض الشعر ؟ لماذا يجب علي الآن ان اقوم بقص شعرك ؟ يقولون ان الغاية من ذلك هي ان اكسب بعض المال ، اشتري به مزرعة ، او مزرعة ، او هذا الشيء او ذاك ، ان الناس لايريدون ان يعيش المرء حياة هادئة . .

قاطعته قائلا : ـ هل بامكانك ان تقوم لي بهذا العمل ؟؟ هل بامكانك ان تقصه بأجمعه كي لايعود الناس للكلام عنه الا بعد مدة طويلة ؟؟

قال الحلاق : قهوة ، لنشرب بعض القهوة اولا .

وكان هناك في زاوية من زوايا الدكان الخلفية ، طباخ كاز وبالوعة ، وحنفية ورف ، صف عليه عدد من الفناجين وملاعق ومفتاح للعلب ، واشياء اخرى .

وقدم لي فنجان (القهوة) واني لا ازال اعجب الى الان كيف كان ذلك الفنجان ؟ .

كانت تلك الزيارة ، اول مرة اذهب بها الى ذلك الرجل ، وقد يكون اظرف رجل في البلدة بكاملها . وقد علمت انه رجل له طابع خاص ، علمت ذلك من الطريقة التي نهض بها عندما ايقظته ، ومن الطريقة التي كان يتكلم بها ، ومن مشيته واشارته ادركت انه حلاق لانظير له في العالم . . حلاق له طابعه الخاص . . ذلك الحلاق الذي في شارع (ماري بوزا) كان يقارب الخمسين وانا لم اتجاوز الحادية عشرة بعد . لم يكن اطول مني ، كما ان وزنه لم يكن يزيد عن وزني ، الا ان وجهه كان ينم عن وجه رجل يعرف كثيرا ، رجل حكيم ، غير انه محب ولطيف . وكأن نظراته كانت تقول لي ، عندما فتح عينيه لاول وهلة ـ العالم . . اني اعلم كل شي عن هذا العالم ، شره وحقارته ، بغضه وخوفه ، وقذارته وعفنه ومع ذلك فانني احب الحياة .

رفعت فنجان القهوة الى شفتي ورشفت السائل الاسود الحار ، لقد كانت احسن قهوة شربتها حتى ذلك الحين .

وقال لي بالارمنية : اجلس . . اجلس ، اننا لاننوي الذهاب الى اي مكان آخر ، وليس لدينا عمل نعمله ، اما شعرك فلن يزيد طوله عما هو عليه الان .

جلست ، وضحكت بالارمنية ، واما هو فبدأ يقص علي ما يعرفه عن هذا العالم واخبرني عن عمه (ميساك) الذي ولد في (موش) . وانهى فنجان القهوة وذهبت انا الى كرسي الحلاقة ، وبدأ يقص شعري لقد كان عمله سيئا للغاية . . . .

لااذكر ان شعري قد قص بشكل رديء كذلك اليوم حتى ان طلاب معهد الحلاقة الذين كانوا يتعلمون برأسي ويقومون بالعمل مجانا كانت حلاقتهم افضل من حلاقته . الا انه روى لي قصة عمه (ميساك) ولا اعتقد ان احدا من الطلاب يمكن ان يروي قصة مثلها ، حتى ولو اجتمع كل اولئك الطلاب لايتمكنون من سبك قصة كقصته . وانا لا اعجب ابدا ، ألا يتمكن جميع طلاب الحلاقة وكافة الحلاقين في العالم باجمعه من تحضير قصة تعادل ، من حيث الجودة ، نصف ما تعادل قصة عمه البائس ميساك مع نمر السيرك .

خرجت من دكانه وقد قص لي شعري بشكل مخيف ، الا انني لم آبه لذلك كثيرا . وعلى كل حال فهو ليس بحلاق . انه يتظاهر بذلك كي لاتزعجه زوجته ، فقد كان يقوم بذلك ليرضيها ، وليرضي الناس . كان يرغب ان يقرأ ، وان يتكلم الى قوم ظرفاء . كان له خمسة اولاد ، ثلاثة صبية وابنتان . الا انهم جميعا كانوا كزوجته لايتمكن من التحدث اليهم . وكل مايريدون معرفته هو كمية المال التي يكسبها .

قال لي آرام : ان عمي ميساك البائس كان قد ولد منذ بعيد في قرية (موش) وكان ولدا فظا الا انه لم يكن لصا ، كان قاسيا مع اولئك الذين يعتقدون انهم اشداء ، وكان باستطاعته ان يصارع ولدين معا من اولاد مدينته ولايبالي اذا صارع ابويهما ايضا في الوقت نفسه .

وكان الجميع يقولون لعمي المسكين ياميساك ! انك قوي البنية وبامكانك ان تكون مصارعا وتكسب المال . وهكذا اصبح ميساك مصارعا ، لقد كسر عظام ثمانية عشر رجلا من اشد الرجال قبل ان يبلغ العشرين من العمر . لم يكن يرغب بالمال ابدا ، كان ياكل ويشرب بكل مايكسب من المال ويعطي مايبقي منه للاطفال .

آه . . . . لقد حدث هذا منذ زمن بعيد بعيد جدا ، أما الان فكل الناس يركضون وراء المال . لقد قالوا انه سيأسف يوما ما على تصرفه ، وقد كانوا على حق فيما يقولون ، وقد نصحوه ان يدخر بعض مايكسبه ، اذ سيأتي ذلك اليوم الذي لايكون فيه قويا ، كما هو الان لن يتمكن ان يصارع غيره ويكسب حاجته من المال ، وجاء ذلك اليوم وكان عمي ميساك البائس قد بلغ سن الاربعين ،

وكان قد فقد قوته ، ولم يعد لديه مال يعيش به ، وكانوا يسخرون منه ويضحكون عليه فيبتعد عنهم ، لقد ذهب الى استنبول ، ومنها الى فينا .

ـ الى فينا ؟؟ عمك ميساك ذهب الى فينا ؟ سألته بدهشة .
ـ نعم ، طبعا ، قال الحلاق ـ ان عمي البائس ذهب الى أمكنة اخرى عديدة ولم يتمكن من ايجاد عمل له في فينا وكاد ان يموت جوعا . هل سرق رغيفا واحدا من الخبز ؟ كلا ! انه لم يسرق شيئا . ومن ثم ذهب الى برلين ، آه . . . ان ذلك مكان من العالم ، وهناك ايضا كاد عمي يموت جوعا . . . .

كان (آرام) يقص لي شعري ، ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ، وأنا أرى كتل الشعر الاسود تتساقط على الارض واحس ببرودة تجتاح رأسي وحجمه يتضاءل فيصبح صغيرا ، صغيرا . . . .

وتابع قصته قائلا : برلين . . . . اقسى مدينة في العالم ، شوارع وشوارع ، بيوت وبيوت أناس وأناس ، الا ان عمي (ميساك) الفقير ، لا يملك غرفة واحدة ولا بابا او طاولة حتى ولا صديقا .
وقلت : اه يارب هذه الوحدة التي يشقى بها الانسان في العالم ، آلام الوحدة التي يحسها كل كائن حي .

وقال الحلاق : وتكررت نفس المأساة في باريس ولندن ونيويورك وجنوب امريكا ، فالاشياء نفسها في كل مكان ، شوارع وشوارع بيوت بيوت ابواب وابواب ، الا ان عمي البائس لم يجد له مكانا صغيرا في العالم .
وصليت في قلبي ، راعيا الله ان يرحمه ويحفظه بعنايته .

وتابع ارام الحلاق كلامه قائلا : في الصين التقى عمي ميساك برجل عربي ، يعمل في سيرك فرنسي . وتكلم العربي مع العم ميساك باللغة التركية وقال : اخي ! هل تحب الانسان والحيوان ؟ فأجابه عمي : اني أحب كل مخلوقات الله ياأخي ، الرجال والحيوانات والاسماك والطيور والصخور والنار والماء ، وكل شيء يرى أو لا يرى .
وقال العربي : هل بامكانك ، ان تحب النمر ، نمر الغابة المفترس ؟ فأجاب عمي ميساك : ياأخي ان حبي لحيوانات الغابة المفترسة ليس له حدود ، آه . . كم كان عمي ميساك رجلا تعسا . . .

قلت : يا الله !!
وكان العربي سعيدا جدا عندما سمع بان عمي يحب حيوانات الغابة المفترسة ، اذ انه هو الآخر كان كثير الشجاعة ، وقال لعمي : ياأخي ! هل بامكانك ان تحب نمرا حتى تضع راسك في فمه ؟
وصليت انا قائلا : احمه يارب !

وتابع الحلاق قائلا : اما عمي فاجاب ـ : نعم بامكاني ذلك ، فسأله العربي : هل تريد ان تعمل معنا في السيرك ! البارحة اطبق النمر فكيه على راس (سيمون) المسكين ، ولم يعد لدينا في السيرك من يحب مخلوقات الله تلك ، فيقوم بذلك العمل ، وكان عمي البائس ميساك ، تعبا ، يائسا ، فقال : سأعمل معكم في السيرك ، واضع راسي في فم ذلك النمر المقدس اثنتى عشرة مرة في اليوم ، فاخبره العربي هذا ليس ضروريا ، وان مرتين فقط تكفيان

وبدأ عمي عمله في الصين ، يعمل في ذلك السيرك الفرنسي ، ويضع راسه في فم النمر وهو يتثائب .
وانتقل السيرك من الصين الى الهند ومنها الى افغانستان ومن ثم . الى ايران ، وهناك في ايران تم الحدث الرهيب . كان النمر وعمي ميساك قد اصبحا صديقين حميمين . وفي (طهران) تلك المدينة البالية ، عاد النمر الى وحشيته ، كان يوما شديد الحرارة وقد شعرت جميع المخلوقات بالغيظ ، والنمر احس بغضب كبير يجتاحه ، وكان يركض هنا وهنا وهناك طيلة النهار ، وفي ذلك اليوم ، وفي طهران وضع عمي المسكين راسه بين فكي النمر ، وعندما هم بسحب راسه من بين فكيه ، احس النمر بنفسه ممتلئة بالكراهية التي تخيم على العالم ، فأطبق فكيه .

ونهضت عن الكرسي ونظرت الى المرآة فرأيت رجلا غريبا عني فذعرت اذ وجدت شعري قد ذهب كله ، ودفعت الى آرام الحلاق الخمسة والعشرين سنتا وعدت الى البيت ، وهناك ضحك مني الجميع ، وقال اخي كريكور : انه لم ير في حياته قط رأسا بهذا الشكل الجنوني ، ومع ذلك كان لا بأس به .

وكل ماكنت افكر به في الاسابيع التي تلت ذلك اليوم ، كان (ميساك) الرجل المسكين الذي اكل راسه النمر ، وكنت انتظر اليوم الذي ساحتاج به الى قص شعري لاذهب الى دكان (آرام) الحلاق ، لاصغي الى قصة الانسان على الارض ، الانسان التائه الوحيد المعرض للخطر ، قصة عمه البائس ميساك ، القصة المؤلمة الحزينة ، مأساة كل انسان حي ■■

نعوم ابراهيم عبود / دمشق

سؤال

شعر : وهيب دياب

أيعرف غيرك ما تعلم … بأني أنا الهائم المغرم
أحاول كتمان ما بي ولكن … سنا البرق في الليل لا يكتم
حبيبي ، وإني شديد الحنين … وعطفك أرحم من يرحم
وصفت الجنان ، سحرت الحسان … وغازلت حتى حكى الأبكم
وقيل : يجيد فنون الكلام … وقيل : نعم شاعر ملهم
ولكن عجزت فما اسطعت وصفا … لعشقي وبعض الهوى يلجم
وخفق فؤادي لو كان رقما … بعد لذلت له الانجم
وان هيامي بغير حدود … عديم النهاية لا يختم
وحبي خليل الزمان قديم … ولطفك في مهجتي اقدم
فمهما يكن منك يا مالكي … جميل ويحلو بما تقسم
أريد رضاك فقل لي : « رضيت » … لعلي بعد الجوى أنعم
أعيش على نار وجد وسهد … وشوقي يشج ويستحكم
وجوع اشتياقي[1] ينمو وينمو … كجو السماء الذي يجسم[2]
وان الحجيج لهم موسم … وان طوال المدى محرم
أحبك حبا يفوق البيان … وانك من سحره أعظم
أأنسى أياديك يا مكرمي … ويا من بما شاء لي يحكم
كفاني ان صرت بعد التراب … عروقا ولحما به أعظم
وروحا تدين بشرع الحنان … وترحم حتى الذي يظلم
وجسما وفيه ملايين مما … دعوه الخلايا التي تخدم
وعقلا تساءل : من صاغنا ؟ … فأبصرك الخاطر المسلم
ويوم (ألست[3]) سمعت النداء … وقلت : بلى .. ربنا الأكرم
ومن ذلك الحين أهفو إليك … أيؤلم جرح ، ولا تألم ؟
أمد إليك عيوني الظماء … فيمنعها النور اذ يبسم
ويرتد طرفي كليلا حسيرا … ويخشع قلبي ويبكي الدم
وأرجع للزرع في أرض حقلي … فيضحك لي الماء والبرعم
وتلهج روحي بحمدك سرا … وفأسي تسبح والمعصم[4]
شفيعان عندي : صلاتي وشغلي … تراني أفوز بما أحلم

---

(١) قال ابو علي الفارسي : الشوق يسكن باللقاء ، والاشتياق لا يسكن به بل يزيد ويتضاعف .
(٢) قال تعالى : (والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون) . واليوم يقول العلم بتوسع الكون .
(٣) اشارة الى : (واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى) سورة الأعراف ١٧٢
(٤) المعصم : موضع السوار من الساعد ويطلق على اليد .

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

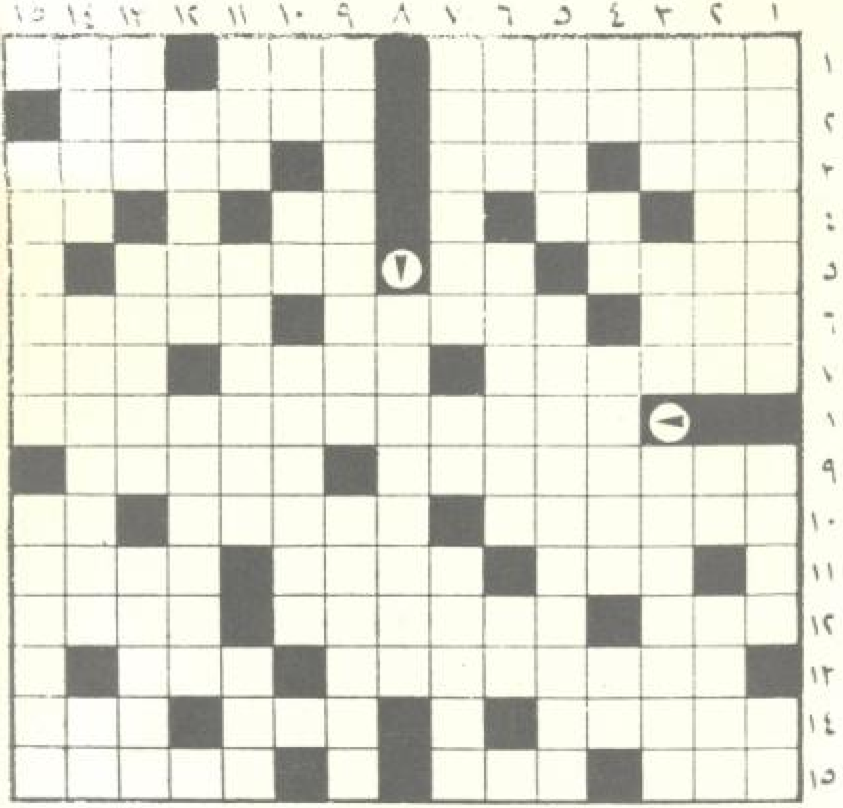
ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت ـ مسابقة العدد ٢٨٢ . وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول يوليو (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم أكبر سلاطين المرابطين . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فيلسوف ورياضي اسلامي .

كلمات أفقيـة :

(١) معركة قديمة بين الفرس والاغريق ـ زوج ـ نهض .
(٢) عالم يوناني قديم منذ ما قبل الميلاد ـ العملاق .
(٣) تبسط ـ قدمت ـ العطش .
(٤) طراز ملابس ـ والد ـ حرف عطف ـ مرتفع من الارض .
(٥) ينكر ـ للتفسير ـ يجيرا .
(٦) ظلم ـ أمصار ـ فرشته .
(٧) من الزهور العطرية ـ عاصمة توجو ـ من الاشجار
(٨) أكبر سلاطين المرابطين
(٩) شاعر السيف والقلم ـ تمهل .
(١٠) على شكل الدائرة ـ من الالعاب الرياضية ـ مقام موسيقى .
(١١) تجدها في كلمة (تهرب) ـ ألزه ـ أرشدتك
(١٢) في النخيل ـ قبول عقلي ـ سوء العاقبة .



(١٣) مدينة ايطالية سياحية شهيرة - من حروف الجر .
(١٤) أوعية - أقل - من الاشجار .
(١٥) عبري - منحة - الجسم .

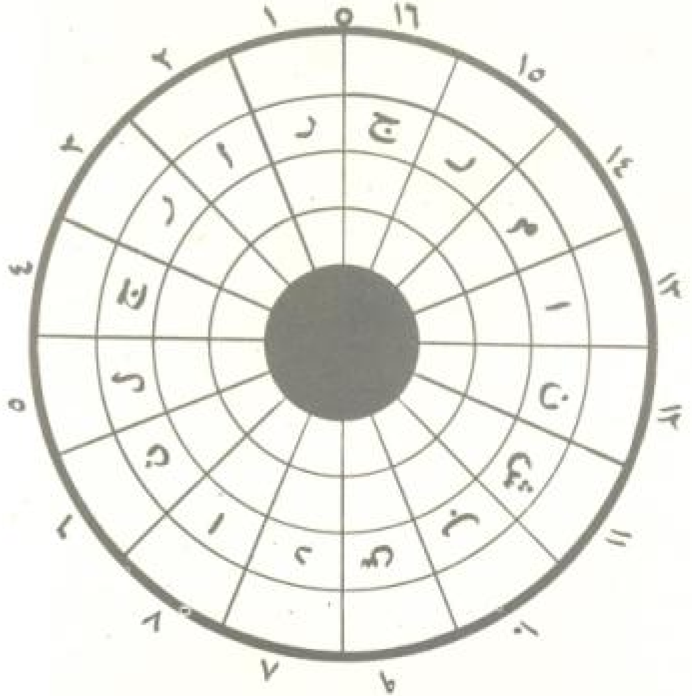
كلمات رأسـيـة :

(١) من دعاة الوحدة الايطالية - ناعم - رمز رياضي .
(٢) جمهورية سوفيتية - نصف كلمة (لسان) - ساعد .
(٣) اهتدى واستقام - حيوان ركوب - من أنواع السباحة .
(٤) من الاقارب - للتفسير - كثيرة التمايل والاهتزاز - من الحبوب .
(٥) ملابس - مذهب مسيحي .
(٦) رغبت - من الجوارح - قوام .
(٧) تسترجع - نصف كلمة (فدان) - أخطأ في شرد .
(٨) فيلسوف ورياضي اسلامي .
(٩) من الآثار الاغريقية - مناظلة
(١٠) عسى - فات - متتالي .
(١١) عندما - أحداق - اقترب .
(١٢) من العاهات - أبصروا .
(١٣) امتدح - من وسائل الانتقال - نبات متسلق .
(١٤) جرحت - ميناء ايطالي - أجاب .
(١٥) من مكونات المواد الغذائية - بتوجون .

كوبون مسابقة العدد ٢٨٢

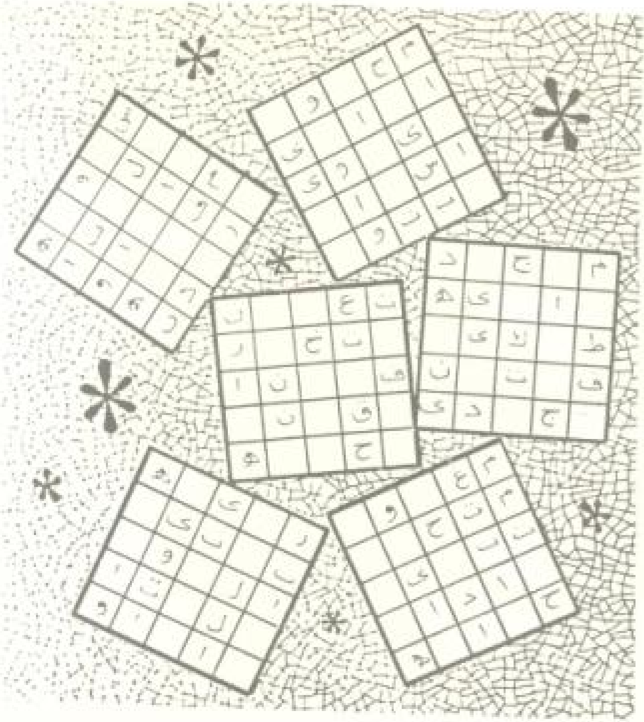
● حول الدائرة السوداء ●

ضع الكلمات ذات الاحرف الاربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :
مخترع وعالم كيميائي وطبيعي فرنسي اخترع التصوير الشمسي



(١) عطر (٢) شهر ميلادي (٣) تنوه (٤) يعدوه (٥) مستأنس (٦) مفقود (٧) مرتفع (٨) يطأ (٩) مبذر (١٠) يظهر (١١) لقب عسكري (١٢) توجع (١٣) فارغ (١٤) يفرض (١٥) طائرة (١٦) تقعد .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية سميكة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



امامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة تعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها
هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يضرب لمن :
عمد الى تنبيه الغير قبل أن يحاسبهم

الحلول

حول الدائرة السوداء : جوزيف نيقور نيبيس

العواصم : كونكري

مثل عربي : أعذر من أنذر

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مايو
١٩٨٢م

البدائية

تحرير : أشلي مونتاغيو

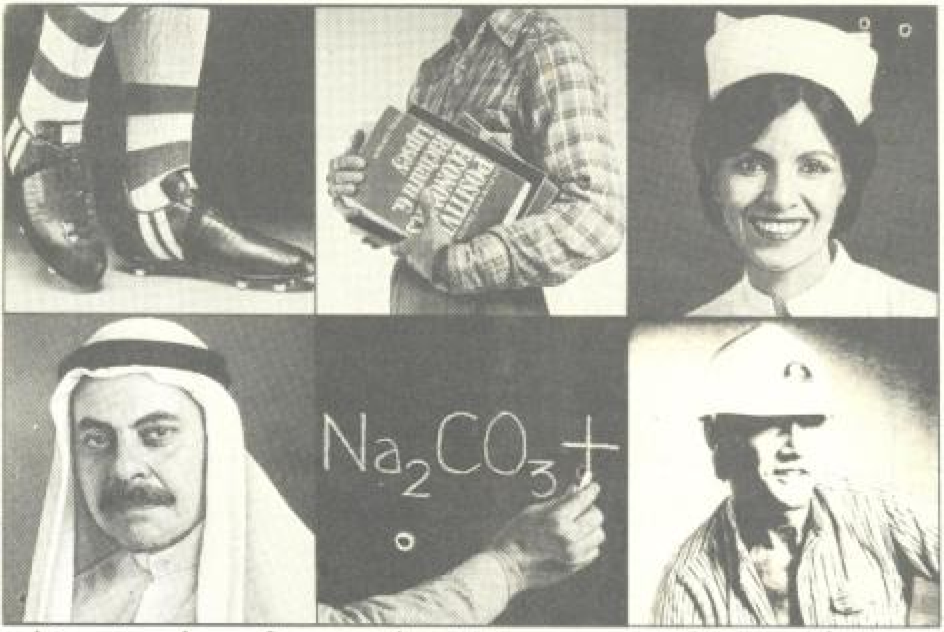
ترجمة : د. محمد عصفور

الكتاب الثالث والخمسون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

ما هوَ الشيءُ المشتركُ بينَ هؤلاءِ الأشخاصِ؟



بنكُ الكويت الوطني طبعاً.

لكل منهم إحتياجات مالية ومصرفية مختلفة، لهذا فهم يتعاملون مع بنك الكويت الوطني.
الجميع، من أطباء ومدراء شركات ورجال أعمال وحتى الأطفال، كلهم يجدون لدى بنك الكويت الوطني خدمات شاملة تناسب كافة المتطلبات والأعمار.
حسابات إدخار، حسابات جارية، حسابات أمانات، قروض شخصية، حسابات إيداع، شيكات سياحية وشهادات إدخار.
جميع فروع بنك الكويت الوطني تقدم شيئاً مشتركاً، الخدمة التي تحتاجها.

لكافة احتياجاتكم المالية، اتصلوا بأي فرع من فروعنا الأربعين المنتشرة في كافة أنحاء الكويت.

بنكُ الكويت الوطني ش.م.ك.

شارع عبدالله السالم ـ ص. ب ٩٥ صفاة، الكويت ـ تلفون: ٤٤٢٢٠١١ (٢٠ خطاً) ـ برقياً: ناشيونال ـ تلكس: ٢٢٤٥١

إربح

١٤٪ في السنة

لومبارد

ودائع ذات المدة المحددة

المدة المحددة للايداع:

سنة	١٤٪ في السنة
سنتين	١٣٪ في السنة
٣ سنوات	١٣٪ في السنة
٤ سنوات	١٣٪ في السنة
٥ سنوات	١٣٪ في السنة

الحد الأدنى للايداع: ١٠٠٠ جنيه استرليني، تدفع الفوائد سنويا
أسعار الفوائد المذكورة سارية إلى حين ارسالها للطباعة

هذه بعض المنافع للودائع ذو المدة المحددة لدى لومبارد:

- سيربح رأس مالكم معدل فائدة محدد لمدة الايداع
- جميع الفوائد تدفع بدون خصم أية ضريبة
- الاحتفاظ على السرية الكاملة في جميع المعاملات
- نظرا إلى عدم وجود رقابة النقد في المملكة المتحدة سوف ترد أموالكم أما بالعملة الاسترلينية أو بأية عملة أخرى حيثما كنتم

هناك أسعار فوائد أخرى تتراوح مدتها بين السنة والخمس سنوات حيث ان الفائدة المستحقة تدفع شهريا أو كل ثلاثة أشهر أو نصف سنويا أو ودائع ذو إخطار للسحب بعد ثلاثة أشهر أو ستة أشهر. للحصول على تفاصيل لبرامج الايداع وأسعار الفوائد نرجو من سيادتكم ان تملأوا الكوبون وارساله إلى مدير حسابات الايداع.



Lombard North Central
Deposit Accounts

LOMBARD NORTH CENTRAL LTD.
DEPT. 182,
17 BRUTON STREET,
LONDON W1A 3DH, ENGLAND.
Telephone: 409 3434

أرجو أن ترسلوا لي تفاصيل برامج حساب الايداع لديكم.

الاسم: ______________________

العنوان: ______________________

____

عضو في مجموعة الناشيونال وستمنستر بنك والتي يفوق رأسمالها واحتياطاتها عن ١٨ بليون جنيه استرليني

العنوان المسجل Lombard House, Curzon Street, London W1A 1EU, England

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ٠٠٠ر١٢٥ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد ‎٠٠‏ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت . ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت . ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها :

١ - كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .**

٢ - كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .**

٣ - كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .**

٤ - كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .**

٥ - **دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .**

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :

الكتاب الأول - **وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .**

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

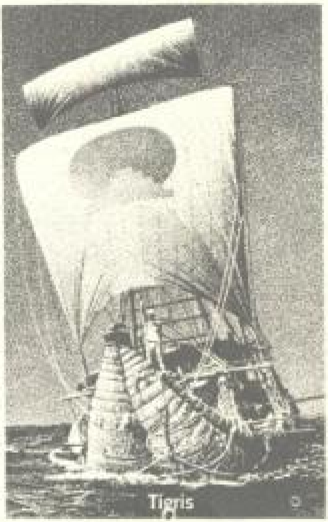
جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

أيّ رحّالة دوليّ حقّ يجد في ساعته رولكس ما لا يقدّر بثمن

في عام ١٩٣٧، راح يراود مخيّلة «ثور هيردال» حلم حول ما إذا كانت الحضارات القديمة لكل من المكسيك والبيرو وجزر الباسفيك ومصر ووادي ما بين النهرين تنبع من مصدر واحد، حلم أراد أن يثبت معه أن عبور المحيطات الثلاثة كان ممكنًا قبل إقدام الأوروبيين على تحقيق ذلك بأمد بعيد.

وبعد عشر سنوات، عام ١٩٤٧، أقلع هيردال من ساحل البيرو بطوف من خشب «البلزا» أطلق عليه إسم «كون - تيكي». مرّ ميتة يوم ويوم رسا الطوف «كون - تيكي» بعدها على جزر الباسفيك.

وفي عام ١٩٧٠، غادرت أفريقيا «رع ٢»، سفينة «ثور هيردال» المصنوعة من قصب البردي، وبعد سبعة وخمسين يومًا، وصلت «رع ٢» الى «بربادوس» في الجانب الآخر من الأطلنطي.



وفي العراق، خلال ١٩٧٧ - ٧٨، قام «هيردال» ببناء السفينة «تايغرس»، أي دجلة، من القصب، وأبحر فيها مارًا بمحاذاة باكستان وسلطنة عمان حتى مدخل البحر الأحمر حيث حالت الحرب المحلية دون مواصلة الابحار. ورغم ذلك، أثبتت «تايغرس» انه كان من الممكن ان تتفاعل الحضارات القديمة لكل من سومر ووادي الأندوس ومصر بطريق البحر.

ويقول هيردال، «المحيطات لم تفصل بين الحضارات القديمة، بل انها ربطت فيما بينها.»

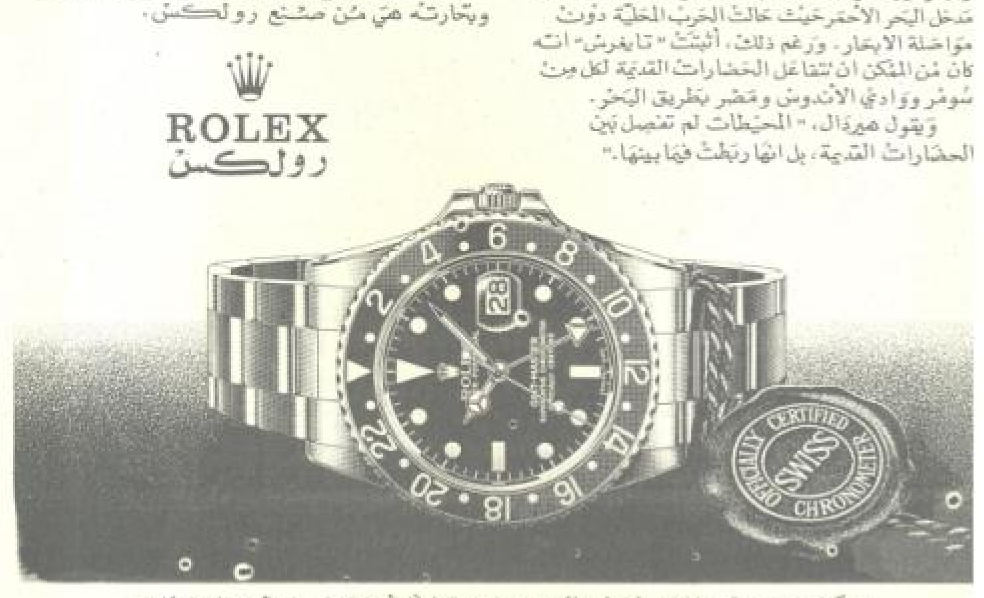
ويستند نجاح حملات «هيردال» الى التخطيط الواضح والدقة التامة في كل شاردة وواردة.

ويضيف هيردال، «لقد أنزلنا الى البحر نماذج مطابقة تمامًا للسفن الأولى التي بناها البحارة القدماء، واستخدمنا طرقهم في شد الحبال والأشرعة والصواري وفي التوجيه، واقتنا بما كانوا يقتاتون، واخترنا أجهزة الملاحة البدائية التي استعملوها. ولكن، من أجل تحديد المسار بطريقة علمية دقيقة وبالاتصال اللاسلكي الاضطراري لدى دخولنا المواقع الحديثة والطرق الملاحية، كنا بحاجة الى ما كان باستطاعة الانسان القديم الاستغناء عنه: ساعة حديثة بالغة الدقة جديرة بالاعتماد.»

إنه الاطراء في توجيه مجاملة كهذه الينا، خاصة وقد جاءت على لسان أشهر رحالة دولي في العالم.

الساعات التي كان يلبسها «ثور هيردال» وبحارته هي من صنع رولكس.

ROLEX
رولكس



رولكس «جي. إم. تي - ماستر» متوفرة بالذهب عيار ١٨ قيراطًا، أو فولاذ لا يصدأ، مع سوار ملائم.

مِنَ المسرح العالمِيّ
سِلسلة ثقافيّة
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول مايو ١٩٨٢

١٥٢

مختارات من المسرح الافريقي - ١

الخادم

تأليف : فرديناند أويونو

الزنزانة

تأليف : هارولد كِمّل

ترجمة : نايف خرما
تقديم : د. جوريس سيلنيكس
مراجعة : د. محمد اسماعيل الموافي

تلفزيون توشيبا جهاز لكل مكان في العالم.

مع تلفزيون توشيبا ذات الأنظمة الأربع للبث الملوّن، باستطاعتك إستقبال البث التلفزيوني الملوّن الجميل من أي نظام رئيسي للبث الملوّن في العالم... بال، سيكام أو إن في اس سي. بالاضافة الى ذلك، فإن تلفزيون توشيبا يحتوي منظمًا أوتوماتيكيًا للفولطية، ممّا يؤمّن ملاءمة جهازك أوتوماتيكيًا لأي تيار كهربائي في أي دولة من العالم.

سارعوا الى مشاهدة تلفزيون توشيبا ذات الأنظمة الأربع للبث الملوّن، وتمتعوا بمشاهدة العالم.





C-1427QB ١٤ بوصة

- استهلاك الكهرباء [illegible]
- الأبعاد (الحجم) [illegible]
- الوزن [illegible]

C-1827QB ١٨ بوصة

- استهلاك الكهرباء [illegible]
- الأبعاد (الحجم) [illegible]
- الوزن [illegible]

C-2027QB ٢٠ بوصة

- استهلاك الكهرباء [illegible]
- الأبعاد (الحجم) [illegible]
- الوزن [illegible]

[illegible]

Toshiba TOSHIBA | توشيبا

TOKYO, JAPAN



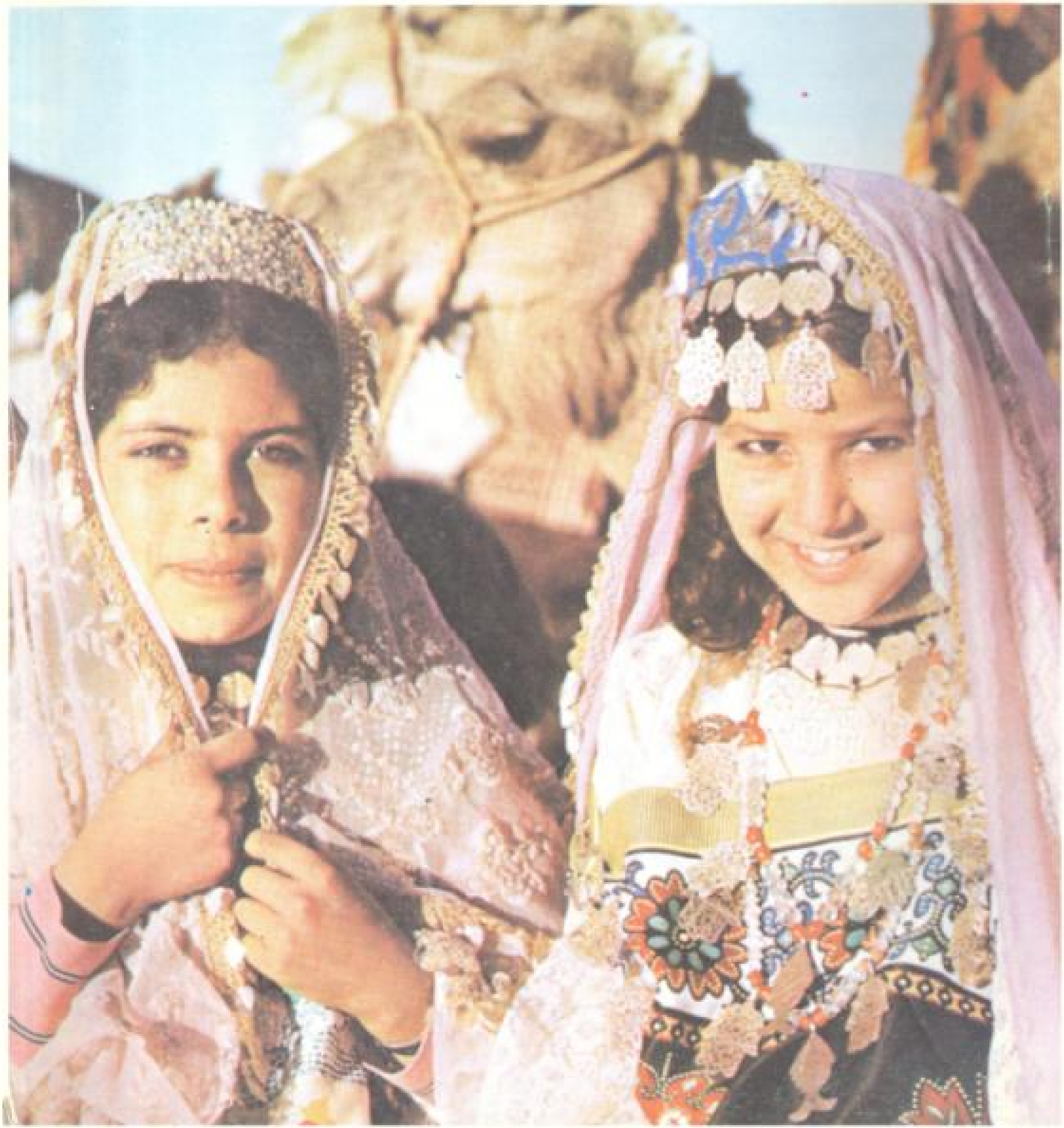
أصغر ستيريو بسمّاعة
في العالم
على الاطلاق ... من
سانيو
هيّا نقفز ابتهاجًا ... بالإنجاز الجديد من
سانيو! إن قياسات الستيريو الجديد
M-G1 بالسمّاعة هي ٨٠×١٠٩×٢٩ ملم ويزن
٢٣٠ غرام فقط فهو أصغر وأخف وزنًا من
سوني ووكمان كما أن سانيو M-G1
يُتيح لك تغيير الكاسيت وهو
معلّق بحمّالته على حزامك ولذا فهو
أسهل استعمالاً من "سوني ووكمان".
إن سانيو M-G1: أصغر ستيريو
بسمّاعة في العالم على الإطلاق ومناسب لك.
SANYO
STEREO
M-G1
SANYO سانيو

احذروا
التلفزيون النيوتروني !

العربي

شعبان ١٤٠٢ هـ - يونيو (حزيران) ١٩٨٢م

رحلة في قلب تونس .. من العاصمة حتى قابس



عزيزي القارئ

لا أحد يكاد يصدق أن خمسة عشر عاما مرت على هزيمة يونيو (حزيران) ٦٧ ولكن هذه هي الحقيقة التي تعلنها بداية هذا الشهر - يونيو ٨٢ - والتي تنبهنا اليها عندما انسحبت اسرائيل من سيناء ، ورأينا وجوه البدو الباسمة ، التي بقيت في الأسر طوال ١٥ عاما !

إن الاحتلال ذاته ، بات خبزا يوميا مرا نتعاطاه كل صباح . وشكرا لشعب الضفة الذي يوخز ضمائرنا كل يوم ، ويفرض نفسه بنضاله الشريف على الذاكرة العربية ،التي تلهت وتشتتت هنا وهناك . ولكننا مع مرور السنين وتوالي الأحداث ، لم تنتبه الى مضي الوقت بتلك السرعة ، حتى بتنا على أبواب العام السادس عشر ..

لعلها قرون في أعماق الذين يعيشون تحت الاحتلال ، والذين شردهم الاغتصاب الصهيوني للارض ، ولكنها في الذاكرة العربية - للاسف - تظل سنوات مرت وكرت في لمح البصر .

على أن ذلك - على أهميته - ليس موضوعنا هنا . إنما الذي نريد أن نلفت إليه الأنظار أن تجربة الهزيمة ذاتها ، لم تدرس بشكل يضع أمام العقل العربي حقيقة ما جرى ، ونتائج ما جرى ، وانعكاسات هذا وذاك على الانسان العربي .

ذلك أن صدمة هزيمة يونيو ٦٧ أحدثت شروخا هائلة في أمتنا ، ما زالت تؤثر حتى الآن في الضمير والعقل العربيين . وربما كان الأثر العسكري هو أخف تلك الشروخ فضلا عن أنه أكثرها قابلية للمعالجة والترميم . أما تلك التصدعات التي أصابت الأعماق ، فهي ما يحتاج بالفعل إلى جهد مكثف ودراسة جادة ، تستخلص المؤشرات وتسهم في تقويم ما أفسدته الهزيمة ، وتسوية الطريق لبناء المستقبل .

إن علاقة الهزيمة بظاهرة التطرف الفكري ، مثلا ، قضية جديرة بالبحث ، وهو الموضوع الذي لم يتوقف الدارسون أمامه على خطره وأهميته . كما أن علاقة الهزيمة بالخريطة السياسية في المنطقة العربية بوجه عام ، بعد آخر يحتاج الى مراجعة وتدقيق .

أما موضوع الهزيمة ذاته ، فقد كتبت فيه اجتهادات شخصية ، وسجلت عدة تجارب وانطباعات ذاتية ، لم تشبع تعطش الضمير العربي لمعرفة حقيقة ما جرى .

كيف يمكن أن نتقدم ، ونحن عاجزون عن تقييم مسيرتنا ، في أخطر منعطفاتها ! ■■

« المحرر »



صورة الغلاف

● زائر تونس يرى الجمال موزعا في كل مكان . على الشواطيء وفي الضواحي وفوق الروابي . وفي حدائق الزيتون ووسط سنابل القمح الذهبية ترى الفتيات التونسيات بلباسهن الوطني وفي زينتهن الكاملة . وخلال رحلة بعثة العربي من تونس العاصمة حتى قابس في الجنوب (انظر الاستطلاع ص ١٠٠) .

قضايا عامة :

عروبة واسلام :

طب وعلوم :

أدب وفنون :

علم نفس واجتماع :

تاريخ وشخصيات :

قضايا حيوية :

استطلاعات مصورة :

ابواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير أحمد بهاء الدين
مدير التحرير فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريالات ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليم ، السودان ١٥٠ مليم ، المغرب ٣ دراهم ، تونس ٣٥٠ مليم ، الجزائر ٣ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريالات ، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم ، اليمن الشمالي ٣ ريالات ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلس ، ليبيا ٢٥٠ درهم

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة - قسم الاعلانات
المراسلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ - تلفون ٤٢٧١٤١
تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :
قسم الاشتراكات
المكتب الفني - وزارة الاعلام
ص . ب ١٩٣ - دولة الكويت
على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام ، طبقا لما يلي :

فلس دينار
- الكويت والبلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)
- بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL— ARABI— No. 283 June, 1982

P. O. .O Box 748— KUWAIT

حصاد رحلة الخريف :

المستقبل ..

الرحلة الاوروبية السنوية ، جاءت هذه المرة ، في الخريف ....

وحصيلتها كالعادة متنوعة ، اقرب الى الخواطر المتداعية ، لان بعض موضوعاتها يحتاج الى ان يكتب عنه بمفرده ، في مناسباته ....

الرحلة بالنسبة للكاتب هي الفترة التي يستنشق فيها الهواء المتجدد ، خارج جدران مكتبه ، وهي عادة ـ طبقا للاهتمامات الاساسية لكل كاتب ـ قد تتركز على التعرف على احدث الكتب . او لمراجعة القديم والجديد من المكتبات والمتاحف ومراكز الفكر ، اوزيارة الجامعات ومعاهد الابحاث او للمقابلة والحوار من الكتاب او الساسة او المفكرين في عواصم اخرى .. لتأمل القضايا ذات الاهتمام الانساني العام .. او للتعرف على كيف نراهم وكيف يروننا ...

ولكن الرحلة ـ فوق اهدافها ذات الاولوية ـ هي بالنسبة للكاتب عمل ذهني مستمر ..

* فاذا احتاج الكاتب الى علاج ، لا يمكنه ان يتجنب سؤالا مثل : هل الافضل ان يسافر ناسنا واهلنا بهذه الاعداد الهائلة للعلاج ، ام الافضل ان نواكب التقدم الطبي في بلادنا ، وان نحضر اكبر الاطباء والعلماء الى بلادنا .. يعالجون ، ويعلمون ، وينمون خبرتهم ، فنصبح بالتدريج شركاء في موجة التقدم العام .. وتضيق المسافة بيننا وبين العالم المتقدم ، ولا تتسع ؟ ..

* واذا جلس الكاتب يوما يشاهد التليفزيون ، فانه مهما استغرق في البرنامج او الدوائر التي يراها لا يملك نفسه من ان يتساءل : لماذا لا تشترى تليفزيوناتنا برامج الثقافة الراقية الجذابة ، الممتعة ، للارتقاء بالذوق العام وبنوع المتعة ومستواها ، الى جانب الاف حلقات « الكابوى » التي لا تنتهي ؟

ولا ينسى الكاتب ان يتساءل كيف تخصص بلد كانجلترا ما يبلغ عشر ساعات يوميا على قنواتها للبرامج التعليمية و« للجامعة المفتوحة » وللتدريب على اكتساب مهارات جديدة ؟ في حين لا يحدث ذلك في بلادنا ، وفيها نسب عالية من الامية ، ونسب عالية من الايدى العاملة غير المدربة ؟

اننا نعيش في عصر تسوده نظرية « التعليم المستمر » فالتطور العلمي ، يتسارع بصورة « انقلابية » كل يوم .. ومن العلوم الانسانية الى الدراسات العلمية والعملية والتكنولوجية .. الى آخره .. الكل يتأثر بهذا التغير العلمي الانقلابي ، لا التطورى فحسب وبالتالي فمن الميكانيكي الى المهندس الى عالم الاجتماع ... الكل محتاج الى ان يتعلم باستمرار ، والتليفزيون

بقلم : أحمد بهاء الدين

وصل !

(بهاء)

يلعب دورا هاما في هذا كله : فمن آلة الحدادة والنجارة البسيطة التي يستخدمها العامل . . الى الكمبيوتر ، . . . . يظهر كل يوم جديد ، وبالتالي فالتليفزيون يشرح هذا للملايين ، بالصوت والصورة في مواعيد خاصة . الامر الذى يجعل المجتمع كله في حالة « تعليم مستمر » . . . .

في بلادنا . . من المحيط الى الخليج . . . مازال اهم برنامج تعليمي . واحيانا الوحيد ـ هو ركن الاسرة ـ تحت اسماء مختلفة ـ الذى يعلم ربة البيت طريقة طهي الملوخية والشركسية ! . . . . . .

* واذا شهد المرء ندوات سياسية مفتوحة للاحزاب ، يجد النقاش على اشده ، وتعدد الآراء يأخذ اقصى مداه ، مهما كانت الظروف القائمة . . .

فانجلترا ـ مثلا ـ تراها ذاهبة الى الحرب . . وان بدت القضية لنا تافهة او تتعلق بجزر فوكلاند . . . . ولكن الحرب اخطر ما تمر به بلد على اى حال . . لانها ارواح ستقضى وأموال طائلة ستنفق وشرف الأمة كلها معلق بالميزان . . ولكن رغم التيار العارم ، يعبر القلة القليلة عن رأيهم دون ان يرجموا بالحجارة . الاسطول يخرج الى البحر . . والناس في غمرة حماس هائل . . والحكومة مهددة بالسقوط . . ولكن اذا اجتمع مائة وساروا في قلب المدينة يحملون اعلاما ورايات ضد الحرب ، فهم يسيرون في حماية البوليس . وهم من جانبهم لم يخرجوا لقلب الحكومة ولا لتحطيم الفوانيس . . . . . .

وفي فرنسا تمر قوانين التأميم بصعوبات برلمانية وشعبية ودستورية شديدة . . . ولكن الحكم في آخر المناقشات والضغوط لسلطات ومؤسسات الدولة الدستورية الشرعية . وقد تفقد الحكومة شعبيتها وتهبط نسبة تأييدها بين الناس طبقا لاستقصاءات الرأى العام ـ ولكن من جهة ـ فان من حقها ان تنفذ ارادتها طيلة مدتها الدستورية ، ومن جهة اخرى فانها تستمع وتتأثر بشدة الى تغيرات ترمومتر الرأى العام هذا الذى تسجله الاستقصاءات .

ويعجب المرء كيف يصل عدد المتعطلين عن العمل من فرنسا وانجلترا الى ثلاثة ملايين عاطل . . دون ان تحدث ثورة ، فالرقم هائل لم يحدث منذ الحرب العالمية . . والناس هناك تعودوا مستوى من المعيشة يصعب النزول عنه . . والثورة لا تحدث لان التعديات التي استوعبها النظام الرأسمالي بعد الحرب العالمية جعلت الضمانات والتأمينات الاجتماعية تخفف وطأة البطالة

وهو ثمن يدفعه المجتمع كله طبعا . . ولان مناقشة ارقام البطالة وحقائقها واسبابها تدور علنا وباستمرار ، ولا مجال فيها للسرية ، ولا محاولة للتزوير . . .

ان الديموقراطية ليست حرية كتابة مقالات . ان الديمقراطية اساسا هي حق معرفة المعلومات : الدولة تنشر الرقم الرسمي لعدد المتعطلين رسميا . وتضيف متوقعة زيادتها وتذيع نسبة ارتفاع التضخم والغلاء ونسبة زيادة الصادرات على الواردات او العكس . وهكذا .

لا يخطر على البال كتم المعلومات الدقيقة عن الناس ، وابعد عن البال والخيال ان تكذب الحكومة في رقم من الارقام . ولو طلبت الحكومة ـ السياسية ـ من اجهزة الدولة ان تغير رقما لما اطاعها احد . لانها مسئولية أجسم واخطر من أن يتحملها الا الراغب في الانتحار الادبي والمعنوى . وهذه الدرجة من النضج السياسي والاجتماعي « والمؤسسي » هي التي تجعل الصراع مهما كان عنيفا يدور في قنوات شرعية ، رغم ان الموضوع يمس اخطر موضوع في حياة مجتمع •

ذلك ان هذا النضج ، والانفتاح على الحقائق والمشاركة ، ذلك كله يجعل المسئولية حقا مشتركة ، وان كل حزب وكل تيار كان شريكا في كل وقت بحيث لا يمكن لوم فريق اكثر من فريق . . . ولكن لا يمكن « تجريم » فريق بالكامل . لان احدا لم يكن غائبا عن الساحة . . انما قال كل كلمته واتخذ الشعب قراره . يخطيء ويصيب . ولكنه خطأ وصواب المجموع العام . وهناك المخطيء طبعا دائما . ولكن ليس هناك المذنب الملعون .

وحين . . وحين . . وحين . .

فالكاتب يأكل ويشرب ويتنفس لحساب سن القلم الصغير الذى يحمله في جيبه او في قلبه اينما ذهب لا يستطيع ان ينسى همومه وشواغله ويسلم نفسه خالصة ، الى ساعة راحة مع رواية ، او متعة امام مسرحية ، او استنشاق هواء طبيعي نما في غابة شاسعة فانقى الهواء يختلط في رئتيه بغبار حياة بلاده وقضاياها وهمومها وطموحاتها . .

فما بالنا بالوقفات الكبيرة ، التي يذهب الكاتب قاصدا اياها ، متعمدا الوقوف عندها ؟

مشكلات ثورة المعلومات

• الرحلة التي لابد منها ، في باريس ، الى « سان ميشيل » ، وما حول السوربون ، في مكتبات . . .

بعد جولة في اول مكتبة استهلكت ما لدى من طاقة ، جلست على اول مقهي ، مع زميلي في الجولة ، الشاعر احمد عبد المعطي حجازى ، وقلت له :

ـ مستحيل ! هذا عصر غير عصرنا ! اى شيء نقرأ واى شيء نترك ؟ . . ان ضخامة المكتبات وغزارة الكتب وتجددها اليومي ، ليس جديدا ولا غريبا . . ورد الفعل السنوى المبهج الشارح للصدر المحرك للعقل ، الشاحن للمهمة . . لم يتغير منذ لقيت هذا المنظر لاول مرة قبل ربع قرن . . صحيح ان الانسان يتقدم في السن ، وتغلبه سنة الايام على امره . . فيقل نهمه ، وتضعف شهيته ، وتقل قوة معدته . . ويصبح كمن اصابته الامراض فصار يقف امام المائدة الشهية الحافلة ، ولكنه لا يقوى على الاكل ، انما ربما على التذوق فقط . .

ولكن المسألة اكثر من ذلك ، فالعالم عندما انكمش حجمه وصار صغيرا بحكم وسائل الاتصال انعكس هذا على الثقافة كما انعكس على كل شيء . . .

قلت مستطردا للشاعر احمد عبد المعطي حجازي ، وقد وضعت خدي على يدي : ـ اساتذتنا الكبار ، عندما جاءوا يدرسون في باريس . . كان اذا اراد احدهم ان يتخصص في الشعر مثلا . . لا يحتاج الى اكثر من معرفة عشرين شاعرا فرنسيا وانجليزيا والمانيا . . الان ، صار العالم كله واقفا على المسرح . . واجهزة الترجمة ذات الكفاءة العالية والسرعة الهائلة في عاصمة النور صارت تضع امامك الف شاعر . من اليابان الى الهندي الى الافريقي الى الامريكي اللاتيني . . . اليس هذا ما رأيناه في قسم الشعر فقط في هذه المكتبة وحدها ؟ كم شاعرا اذن عليك ان تدرسه وتكون على صلة بحركة الشعر وتياراته ؟ . .

ونفس الشيء . . الم نجده في قسم القصة والرواية ؟ وفي قسم العلوم السياسية والاقتصادية وفي قسم الفلسفة ؟ وكل هذا تحت سقف دكان كتب واحد ؟ !

الا ترى ، يا صديقي ان مهمة السابقين كانت أهون بكثير من مهمتنا ؟ والا ترى ان مهمة الذين أتوا وسوف يأتون بعدنا أصعب بكثير ؟ او لعلها تكون شبه مستحيلة ؟ . .

كيف يكون فلان استاذا في فن الشعر ، وانا اختار اقل الفروع انتاجا لخصوصيتها ؟ ستقول لي : التخصص يزداد . فسيكون الواحد مثلا استاذا في شعر امريكا اللاتينية فقط مثلا . . ولكن هذا ليس ردا شافيا . لانه مهما ركز على نقطة فهو لن يكتسب عمق التجربة وقدرة الحكم دون المام بفن الشعر بوجه عام . . فما بالنا بسائر الفروع ؟ . . في الآداب والفنون والعلوم وغيرها ؟

« الثورة المعلوماتية » ـ حتى في جانب الآداب والفنون والفكر ـ جعلت العالم كله واقفا على مسرح واحد . . في متناول يدك ، ايا كان اختصاصك ، لاعذر لك في عدم المعرفة ، والمجهود المطلوب هائل . . . !

امكن هذا ؟ ام اننا على عتبات عالم جديد ، سيجد حلولا جديدة لمشاكله الجديدة ؟ . . واننا نرى نهاية « عالمنا » ؟

هل ـ يا ترى ـ المسئولون فينا مدركون ذلك ؟ . . المسئولون عن اجيالنا الجديدة ، التي قد تخرج وتنشأ في « عالمنا » ، ولكنها تجد نفسها ، بعد قليل في عالم جديد . . . غير مهيأة له ؟ . . .

وقلت لاحمد عبد المعطي حجازي ، ونحن نغادر المقهى : قم بنا ليس امامنا الا ان نستكمل رحلتنا . . وان نبذل جهدنا . . في ان نبقي على سطح الموج الهائل . . بقدر ما تسمح لنا قدرتنا على السباحة .

من أي آبار تخرج الموجات الجديدة ؟

* الزيارات المقصودة مسبقا ايضا ، لبعض مراكز الدراسات في الجامعات ، او معاهد الابحاث . . المهتمة اساسا بشئون العالم العربي بشكل او بآخر : سياسيا ، او اقتصاديا او ثقافيا . . . .

في العالم العربي ، اشعر احيانا اننا في كلامنا وتصرفاتنا نبالغ في اهميتنا في العالم خارج العالم العربي ، وخصوصا في مثل هذه المراكز المتخصصة ، يشعر المرء بالعكس : اننا لانشعر بالدرجة الكافية باهمية وطننا العربي بالنسبة للعالم .

فالعدد الهائل من المطبوعات والدراسات المتخصصة ، والندوات ، وحلقات البحث عن كل شيء عن العالم العربي . . امر لا سابق له بالنسبة لي ، وهو امر لا يدعو الى الفخر ولكنه يدعو الى الاحساس بالمسئولية الثقيلة . .

* البترول : زاد انتاجه او نقص ، ارتفعت اسعاره أو انخفضت ، فاض او شح .. انه قصة محورية للخمسين سنة المقبلة لا مهرب منها ، وبالتالي لا مهرب « منا » ولا مفر من الاهتمام « بنا » .

* الفوائض المالية العربية ، والارصدة المالية المركزة بشكل غير مسبوق في ايدوبلاد محدودة ، بالنسبة للعالم الكبير : وضع بالنسبة لهم اعقد من ذنب الضب. يصالحونه ؟ يحاربونه ؟ يستوعبونه ؟ يشاركونه ؟ ... امكانيات من الكر والفر ، وافكار من الطيب الى الخبيث الى المدمر الخطير .. تدور في العقول ، وتدخل الآلات الحاسبة وتخرج منها ، وتراقب وتتابع كما يراقب الموضوع في غرفة العناية المركزة « لا تغفل عنه العين » ...

* ثم الصحوة الاسلامية ، والمد الجديد بين الشباب .. يلقي بهم في غياهب جديدة ويلقون كل ما تعلموه عنا وفهمونا من خلاله خلال قرون الاستعمار الماضية : من هم هؤلاء العرب اهل واصحاب وسكان هذه المنطقة الحيوية من العالم ؟ اى تفاعلات يمكن التنبؤبها ؟ ما هي ابعادها واعماقها ؟ عرفنا من اى آبار يخرج البترول ، فمن اى آبار تخرج الموجات الجديدة ؟ . وتدور ندوات وحلقات التحليل والتنقيب والتأليف .. هل هي موجة سياسية محلية متدثرة بشعار الدين ؟ ... هل هي مقدمات مواجهة اسلامية غربية تتجدد فيها سيناريوهات الحروب الصليبية ؟ .. هل يحمل هذا العداء والاحتياط الشك كما يقول البعض ؟ .. هل الفرصة في العالم الجديد فرصة « حوار بين الحضارات .. حوار لم يتم مع الاسف ، كما كان ممكنا ايام هارون الرشيد وشارلمان .. والآ - كما يرى امثال » روجيه جارودى و « جاك بيرك » - . لما وقعت الحروب الصليبية .. ولما وقعت اوروبا قبل ذلك في ظلام العصور الوسطى الطويل .. ومحاكم التفتيش .. الامر الذى فوت فرصة انتقال الحضارة « سلميا » من العرب الى اوروبا .. كما استفاد العرب قبل من حضارة الاغريق .. دون العقد التي اخرت هذه الاستفادة قرونا .. ودونتها الحضارة العالمية كلها ...

يفحصوننا تاريخيا واجتماعيا ونفسيا وفلسفيا بالمجهر وبكل وسائل التحليل ، محاولين النفاذ الى اعماق تكويننا النفسي .. واثر لقائنا بالحضارة الحديثة ... وردود الفعل والتقلصات الممكنة ، وأيها آلام المرض القديم ؟ وأيها آلام المخاض الجديد ؟

لا يكفي ان نكلم انفسنا هنا ...

علينا ان نكون هناك : للمعرفة ، للتصحيح ، وللمشاركة ، وللاستفادة .. وعيون الآخرين ترى احيانا ما يراه الانسان في نفسه ..

لقرن مضى ، كان اى باحث لابد ان يرجع الى المراجع الاجنبية ليعرف مكاننا من العالم .. هل لابد ان يتكرر هذا ، لقرن آخر مقبل ؟ .....

* على ان القارىء قد يدهش ، اذا قلت له ان وقفتي الاساسية ، لساعات طوال طيلة ايام الرحلة كانت على موضوع علمي تكنولوجي ، لعلي اشرت اليه من قبل في هذا المكان اكثر من مرة ، وهو : الثورة المعلوماتية .. والصناعات المعلوماتية .. الى اخره .

هل نصبح العالم العاشر ؟ !

لقد اخذت معي قائمة طويلة بالكلمات الجديدة التي اتابعها بالقراءة ، واسأل فيها من اعرفهم من العلميين ، لأحاول دراستها على الطبيعة .. بعد ان فرضت نفسها على اهتماماتي - منذ

سنوات .. كلمات مثل : الميكروكومبيوتر ، الميكروشيب ، البيوتكنولوجي ، الميكروبروسيسور .. الى آخره .

ولعل غيري يستطيع ان يركز على شرح هذه الاشياء في حد ذاتها .. وغيرها كثير ..

ولكن وقفتي طبعا لم تكن عند الناحية العلمية المحضة .. ولكن كانت لتعقب الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية الخطيرة التي بدأت تتركها في العلم المتقدم ، وسوف تنعكس على حياتنا باسرع مما نتصور ، وباخطر مما نتصور ...

العالم الثالث يبساطة مرشح لان يكون .. العالم العاشر ! !

ويكفي ان نرى بلادا كانجلترا وفرنسا تحارب بايديها واسنانها .. حتى تضمن اللحاق باليابان والولايات المتحدة في هذا المجال .. والا فانها سوف تسقط الى درجة اقل من مستوى شعوب ودول العالم الاول .. ويفوتها القطار ..

ان حكومة تاتشر التي تقتطع من الميزانية كل شيء ممكن .. من لبن الاطفال في المدارس الى اغلاق بعض الكليات .. لم تخفض الميزانية مليما واحدا في مجال وحيد هو : البحث العلمي ..

وقد انشأت لاول مرة وزارة للصناعات المعلوماتية ..

واكبر انجاز حدث في انجلترا هو قرار أعلنته الحكومة ، او تعهد اخذته على نفسها : انه في خلال سنة سيكون في كل مدرسة انجليزية « ميكروكومبيوتر » . لان الثورة هنا نوعية لا كمية . ولما لم يشب الشباب من سن الصبا ، على الفة ومعرفة وتعود على التعامل مع اوليات العالم الجديد ، فلن يلحقوا بهذا العالم ابدا .

وقد قدرت استثمارات انجلترا ـ وعائداتها ـ في هذه الصناعات في السنوات الخمس المقبلة بانها ستكون اكبر واهم من نفط بحر الشمال ....

وقد اخذت عنوان هذا الحديث من برنامج يومي في التليفزيون الانجليزى عنوانه « المستقبل وصل The Future is Here » ، يهز اعصاب الانجليز وينبههم الى ان قصص الخيال العلمي صارت متخلفة . وان المستقبل صار موجودا في بعض المدن في امريكا واليابان .

هذه الثورة ببساطة ستغير الانتاج الصناعي . وستلغي وتقلب مشاكل اليد العاملة ، وستجعل الفرد قادرا على معرفة كل ما يهمه في العلم في ثوان . وهو في بيته او وهو في مكتبه وستتغير صورة الصحافة تماما . وستختفي كثير من وسائل الاتصال الاخرى . حتى الزوجة في بيتها لديها تلك الشاشة الصغيرة التي تدير بها شئون بيتها ، وتتصل بالمحلات ، وتختار مشترياتها وتدفع ثمنها ، دون ان تترك مقعدها .....

وهذا مثل تبسيطي ...

ولكن الدراسات التنبئية هائلة .. والابحاث المستقبلية لا آخر لها ....

كمثال آخر اهم قليلا : هناك دراسة اقتصادية تقول : ان كل الصناعات التي هاجرت الى العالم الثالث بحثا عن الايدي الرخيصة ـ البرازيل الى كوريا وهونج كونج والهند .... الخ مهددة بان تعود الى اوروبا وامريكا ، اذا تم تخفيض عدد الايدى العاملة الى واحد على مائة من المطلوب حاليا . فلا تعود للأيدى العاملة الرخيصة ميزة ، وبالتالي يعود العالم الثالث خطوات خطيرة الى الوراء .....

ولكن تلك قضايا كبيرة ، تخرج عن مجال هذا العرض السريع رحلة الخريف . ■■

أحمد بهاء الدين



للدكتور حسان حتحوت

جذور

لا بد للانسان من ضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه
يموت راعي الضأن في جهله ميتة « جالينوس » في طبه

لم يدر أبو الطيب المتنبي انه بهذا الشعر حفظ ذكرى الطبيب « جالينوس » لدى القارىء العربي اكثر من ذكرى عمة عضد الدولة التي ألف في رثائها تلك القصيدة التي حوت هذين البيتين .. والا لبقي جالينوس خبيئا في أضابير تاريخ الطب ، ولما اتيح لي وللملايين غيري ان تنطق السنتهم باسمه منذ بواكير دراستنا الثانوية ..

ونقلب صفحات تاريخ الطب لننظر الى الطبيب جالينوس الذي عاش من سنة ١٣٠ الى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد فنبصر انه كان نابغة عصره في الطب ، وانه كان النجم المتألق في روما وفي غيرها في ذلك العصر .. ولكن لا يفوتنا ان نشهد بعد ذلك ان الظروف لعبت دورها في هيمنة تعاليمه على العالم الطبي من بعد مماته فترة اطول مما كان يحسب ، واطول مما كان ينبغي ، وجعلت منه ـ على غير ذنب له ـ عائقا للتقدم الطبي الف عام من الزمان ..

ذلك بأن مما ارتآه جالينوس أن « الجسم وعاء للروح .. وأن الموت يصيب الجسم فيتحلل ويعود ترابا ، اما الروح فتغادر الجسم وتظل باقية » .. وعلى الرغم من أن جالينوس لم يعتنق النصرانية الا أن رأيه هذا كان وفق المعتقد المسيحي (كما هو وفق المعتقد الاسلامي) فكان ان ارتاح المسيحيون لرأيه هذا وحفظوه له .

ولقدت مرت المسيحية والمسيحيون من بعد رفع المسيح بفترة من القمع والاضطهاد والتنكيل الوحشي على يد قياصرة الرومان ، تحملوها بصبر وايمان .. حتى اذن الله فانفرج الكرب وزالت المحنة حين استولى الأمبراطور قسطنطين على روما واعتنق النصرانية في أوائل القرن الرابع الميلادي ، وتحول المضطهدون الى منتصرين ، والى حكام واولي أمر ، وعلا شأن الكنيسة واشتد ساعدها وقويت شوكتها .. وفي ردة فعل ازاء الكبت القديم ونشوة متعاظمة بالقوة الجديدة استطاع رجال الكنيسة عمليا ان يحتكروا مقدرات الناس ، وماذا يحل لهم ، وماذا يحرم عليهم ، وماذا

يقرأون وماذا يفكرون فيه .. وكان ما هو معروف من حق الكنيسة في إصدار قرارات الحرمان من الجنة وبيع صكوك الغفران لضمان مكان فيها ، وغني عن البيان ان البحث العلمي وحرية الرأي عدت نشاطات خارجة على الدين ، وجرائم يحاكم عليها كما يسجل لنا التاريخ محاكمة جاليليو حين ارتأى ان الأرض ليست مركز المجموعة الشمسية ....

ولا نطيل ، فالذي يخصنا من ذلك التاريخ هو ان الكنيسة قد بسطت حمايتها على تعاليم جالينوس .. فلم يجرؤ أحد في أوربا على إعادة النظر فيها كليا ولا جزئيا ، فبقيت كالمقدسات ، تلقن جيلا لجيل من طلاب الطب لمدة عشرة قرون !! حتى بزغ الاسلام من جزيرة العرب فاذا تعاليمه خالية من أي حكر او قيد على الفكر او وساطة أحد بين الرب والعبد ، وانما امتلأت بالحوافز بل الأوامر التي تحض العقل البشري على طلب العلم ، فتقدم العلم واستبشر العلماء من مسلمين ومسيحيين ويهود .

كان من ثمرات حضارة الاسلام طبيب مسلم آخر هو ابن النفيس (١٢٠٠ ـ ١٢٨٨م) .. ورغم احترامه لجالينوس الا انه اجترأ على مخالفته وتفنيد آرائه .. فقد رأى جالينوس أن الدم ينتقل من الجانب الأيمن للقلب الى الجانب الأيسر خلال ثقوب دقيقة في الحاجز بينهما .. حتى دعا ابن النفيس الى ان الجانب الأيمن يضخ الدم الى الرئتين عبر الشريان الرئوي لينتقى ثم يعود للجانب الأيسر من القلب خلال الأوردة الرئوية ليتم من بعد ضخه من الجانب الأيسر نقيا الى أنسجة الجسم المختلفة ..

هذا هو ما يعرف بالدورة الدموية الرئوية .. وهو الشيء نفسه الذي نشره البريطاني وليم هارفي عام ١٦٢٨ والذي ينسب اليه لدى جل الناس حتى اليوم .

المهم انه فيما بين ابن النفيس ووليم هارفي حدثت قصة وسبطة جديرة بالذكر .. في فترة أفول عقد الشباب العربي خلالها على كتابات ابن النفيس تلك (حتى أعاد تبيانها الدكتور القطاوي عام ١٩٢٤) ونشطت حركة ترجمة التراث الاسلامي من العربية الى اللاتينية . واذا طبيب أسباني اسمه ميشيل سرفيتوس (١٥٠٩ ـ ١٥٥٣م) ينشر كتابا باللاتينية يعرض فيه آراء ابن النفيس ولكن ينسبها لنفسه على انه صاحبها الأصيل .. وكانت اوربا ما تزال في عصورها المظلمة .. فيشاء السميع العليم ان ترى الكنيسة في كلام سرفيتوس معارضة لآراء جالينوس وخروجا على تعاليمه ، فتحاكمه بتهمة الهرطقة والمروق ، وتحكم عليه بالاعدام حرقا مع كتابه ويتم تنفيذ الحكم في مدينة جنيف سنة ١٥٥٣ بعد صدور كتابه بفترة وجيزة .

******

نسوق هذا للذين يعتقدون أن الغرب كان ولا يزال كل شيء .. واننا كنا على الدوام لا شيء ..

أما أن للشجرة أن تتصل بجذورها ؟ فان الشجرة ان انفصلت عن جذورها لم تصلح إلا وقودا وحطبا ، وان اتصلت بجذورها سرت فيها الحياة ، ومدت ظلها لمن حولها ، وانبتت ـ كما كانت ـ أطيب الثمر للقريب والبعيد . ■■

نداء الى كل من يهمه الامر

إحذروا التلفزيون

بقلم : الدكتور عارف دليلة

افترض نفسك انسانا غريبا نزل صدفة على أرض هذا الوطن العربي الكبير دون ان يكون لديه اية افكار مسبقة عن مجتمعاته ومشكلات الحياة فيه ، وبدأت تفهم الواقع الذي يحيط بك ، فهل تستطيع أن تتخيل أي صورة ستكون لديك ؟

لنأخذ مؤشرا واحدا على وعيك الذي بدأ يتشكل عن هذا الواقع ، وليكن الاعلام ولنخصص النظر الآن في أسرع وسائل هذا الاعلام وصولا الى الناس وأكثرها خطرا : التلفزيون .

لقد اصبح المجتمع العربي في السنوات الاخيرة مجتمع مدن مكتظة يتصف بقلة نسبة العاملين المنتجين . وهذا ما يعطي اهمية أكبر للتلفزيون كمستهلك للوقت وكصانع للوعي .

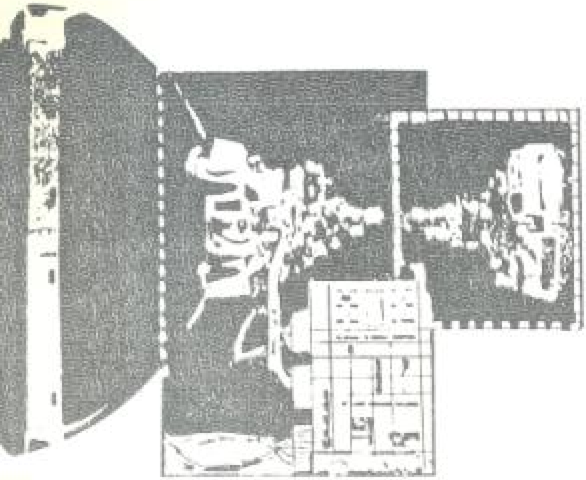
ومع تزايد الاستقلال السياسي - الخطابي والتصويري - لطاقات التلفزيونات العربية فقد طفح كيل الارسال فأحدثت قناة ثانية ، وربما ثالثة في بعضها . أما الخير العميم فيتوقع هطوله هذه المرة من السماء ارسالا تلفزيونيا بدلا من المطر مع البدء بتشغيل القمر الصناعي العربي الذي ستعم بفضله « الوفرة التلفزيونية » على المواطن العربي السعيد حتى يستطيع متابعة ، ليس فقط برامج ٢٢ تلفزيونا عربيا ، بل والتلفزيونات الاجنبية الغربية طبعا (بعد ان اختصت الصحافة العربية بنقل الاخبار والصور الغربية) . ويزول لديه اي احساس بالجوع الى هذا الاعلام الغزير ! وبما أن الغرب يقع في نصف الكرة الآخر ، وبما أن سرعة سير الموجات الضوئية والصوتية تفوق بكثير سرعة دوران الكرة الأرضية ، فان ما يرسله الغرب ليلا ستراه في عز الظهيرة . واذا أخذنا بالاعتبار ان معظم العاملين في الوطن العربي يحشرون في المكاتب ويقل نسبة العاملين على خطوط الانتاج وأحيانا كثيرة يكونون من الاجانب ، « فان السكان الوطنيين » في الاقطار العربية سيكونون أسعد بكثير من سكان الغرب الذين لم يضيعوا وقتهم في مشاهدة ارسالياتنا التلفزيونية اليهم حتى ولو اشترينا بمالنا - لا سمح الله - وسائل لفرضها عليهم اثيريا . أما نحن فسيكون بامكاننا « استهلاك » التلفزيون على مدى ٢٤ ساعة وشغل الوقت النهاري الممل داخل دوائرنا بمشاهدة كيف يسهر الغرب . فنصل الليل بالنهار ونطول السهر..

لنحذف من ذهننا الآن هذا الاستطراد ، على الاقل لأنه ليس واقعا بعد وان كان الفيديو يقوم بهذا الدور منذ زمن . ولنكتف بالتلفزيون العربي ولنحذف من مجال اهتمامنا أيضا « الارسال الرسمي » لانه ليس موضع نقاش لا من حيث الكم ولا من حيث النوع ، ولنركز الاهتمام على « الابداع » الذي يقدمه العاملون لمصلحة التلفزيون من برامج تغذي العقل والقلب والروح مما ينتجون او يختارون لهذه الملايين التي هي امة العرب بخلاف ما يقوله الاستاذ يوسف الخطيب :

أكاد اومن شك ومن نجب
هذي الملايين ليست امة العرب

ان ما تقدمه وسائل الاعلام للجمهور يعكس « الموقف الخاص » للعاملين في هذا القطاع من القضايا

النيوترونى !



الاجتماعية والانسانية . هذا الموقف الذي يتحول ، عندما يخرج الى المجتمع الى حدث اجتماعي وهذا ما يتطلب تعريضه الى تقويمات نقدية مستمرة . فالوعي ، وبالاخص قبل ان يستقر على شكل محدد كما هو لدينا الآن ، يكون « مادة خام » يمكن بتعريضها لعمليات بسيطة او معقدة اعادة صياغة الانسان والمجتمع الذي يحملها . ويجب منع استباحة هذا الوعي من قبل قوى التخلف والاستتباع والانحطاط ، وتوجيه جهود الاعلام والتربية وتكييف البناء الاقتصادي والسياسي ، وجميع الجهود الاخرى من أجل خلق الانسان والمجتمع الحر المستقل الواثق والثابت ، المتنبع لكل قواه ومقومات حياته وارتقائه والمسيطر على حاضره ومستقبله .

غراندايزر والاستلاب العقلي

يكثر الغرب هذه الايام من انتاج الاعمال السينمائية والتلفزيونية التي « تلائم » عصر الفضاء والتي تلعب ادوار البطولة فيها المخلوقات المعدنية - التكنولوجية .

في مسلسل « غراندايزر » مثلات يصل تشويه الوعي الى اقصى درجات التطرف فهو يضخم حيز الخيال والوهم عند الطفل منذ بداية تفتح وعيه على الحياة وهو رغم مظهره العلمي التكنولوجي ليس الا نوعا جديدا من حكايات السحرة والجن والقوى الشريرة والخيرة التي تصطرع فيما وراء هذا العالم والتي تعكس صراعاتها على هذا العالم وتفسر بالتالي ، ما يحدث في حياتنا الخاصة . فالانسان والمجتمع ومشكلاتهما الحياتية تغيب كلها ولا يبقى الا فضاء فسيح تهيم فيه « الأرواح التكنولوجية » المسحورة وهكذا ينسلخ الانسان منذ طفولته عن واقع الحياة وانسانيتها ليبحث عن التفوق والقدرة في عالم آخر .

هناك ، في دول الغرب ، يمثل غراندايزر رمزا لواقع معاش . فلم يعد هناك لمصائر الناس قيمة قياسا الى تطور سلاح جديد أو اثارة حروب تستخدم ميدانا لتجريب مخترعات تكنولوجية جديدة ، أو اختبار فرضيات اجتماعية أو نفسية محددة ، أو ابتداع بدع استهلاكية تفتح مغاليق الانسان وتجتاح أسوار الاوطان .

فأي مكان للانسان في دنيا الاحتكارات الهائلة ؟ لم يعد السؤال عن ارتباط التقدم العلمي - التكنولوجي ايجابيا بحياة ومصائر الناس مثار اهتمام . فالاهتمام كله مركز على تعبئة الامكانيات الجبارة التي خلقها الانسان عبر الزمان في جميع المجتمعات من أجل الهيمنة على « فضاء » هذا الانسان ، حتى تحويله الى ذرة لا حساب لها في هذا الفضاء الذي تحول الى مجال حيوي لاشباع شهوات فئة من الاحتكاريين الذين افرغوا من أي شعور انساني مثلها هي الآلات الاوتوماتيكية الشرهة التي يطورونها .

غراندايزر أصبح واقعهم المعاش الذي يئن تحت وطأته مئات الملايين من البشر الذين افتقدوا الجانب الروحي والانساني ، وتحولوا الى أذرع ميكانيكية أو اتوماتيكية في آلة الاحتكارات الضخمة التي تفتح فمها لابتلاع العالم دون أي احساس بالشبع او الارتواء . فإذا كانوا يريدون أن يزرعوا في وعي أطفالهم تسليم المصير الانساني للوحش التكنولوجي المتفجر خارج أي رقابة أو سيطرة والذي لا يعرف معنى الانسان ، ولا قيمة لتشكلاته الحياتية والمعنوية ، لان هذا الوحش التكنولوجي هو أداة الاحتكارات في الهيمنة وامتصاص الخيرات الهائلة التي تنتجها شعوبهم والبشرية جمعاء ، فما هي مصلحتنا نحن في اغراق تلفزيوناتنا بمختلف المسلسلات الخيالية عن مخلوقات معدنية ـ تكنولوجية تملأ الارض والفضاء ؟ هذا في الوقت الذي يعيش فيه اطفالنا في مجتمع ، ويتربون في أسر ومدارس وجامعات ، لا تعلمهم حتى الآن تكنولوجيا صناعة سكين المطبخ ؟ أمن أجل أن نقنعهم بأن عالم المخلوقات المعدنية ـ التكنولوجية ليس في حاجة بعد الآن الى مطبخ وفرن لحم وطهي وخضار والتهام طعام بالطرق « السخيفة » التي مازالت سائدة في بيوتهم ؟ أم لكي نزرع في وعيهم أنهم في المستقبل القريب سيكونون « مخدومين » من قبل هذه المخلوقات التكنولوجية ، لنوحد بين وعيهم الموروث لـ « خاتم شبيك لبيك ، عبدك بين ايديك » وبين قرب حصولهم على خدمات المخلوقات التكنولوجية التي تتكاثر تلقائيا ولا يعرفون شيئا عن طريقة أو مصدر تكاثرها ؟

ان ترك أطفالنا عرضة للاستلاب الخيالي المفرط المشوه لوعي الانسان لواقعه الانساني الحي هو أخطر بكثير من الاستلاب الاخلاقي ، اذا ما قيس بتأثيره الاجتماعي الحاضر والمستقبلي . واننا لندعو الى وقف هذا الزحف العلمي التكنولوجي المزيف وتبديله بالاهتمام بتطوير المهارات العلمية والمعارف العلمية الحقيقية والوعي القومي والاجتماعي للاجيال الجديدة ..

واننا من خلال الملاحظة العملية ، نرفض القول بأن شيئا من هذا وشيئا من ذاك لا يضر ، ذلك ان لكل مرحلة من العمر استعدادا خاصا لاستجابات معينة . واذا ما أسيء استغلال هذا الاستعداد فسيؤدي ذلك ، وهو ما يحصل الان لدينا الى بروز مطلق للاستجابات السلبية الضارة لدى الاطفال في بيئة محلية شبه مفرغة من المثيرات الايجابية ، لا يجد فيها الانسان من" التكنولوجيا الا منتوجاتها الجاهزة للاستهلاك السهل ، ولا يتعرض في حياته العملية لاي امتحان « علمي ـ تكنولوجي » .

المصارع الوحش ووهم التفوق

اذا كان غرانديزر ، مصارع الفضاء الخيالي الذي يتفوق بالعلم والتكنولوجيا ، يشوه خيال الطفل بفصله عن واقعه الحقيقي الملموس وصرف طاقاته الذهنية نحو عالم آخر غير انساني خارج الواقع ، فان برنامج المصارعة الحرة ليس أقل تشويها للوعي الانساني . فاذا دمجنا البرنامجين لمعرفة تأثيرهما المتفاعل نجد أن برنامج المصارعة الحرة يوجه « الضربة القاضية » للوعي الغراندايزري .

فبعد أن يحلق الطفل كليا بعيدا عن واقعه المحسوس والظروف البيئية التي تحيط به وتحدد شروط حياته يتعرض لمؤثر آخر مناقض كليا ، ليس فقط بعيدا عن مجال عمل الخيال والذهن الذي اختص به الانسان كميزة عن الحيوان ، وانما ينقله مرة واحدة الى الشكل الحيواني لحياة « الانسان » ، الى مخلوقات بشرية مفرغة من العقل ولا تتعامل الا بالقوى الحيوانية التي عاشت على تنميتها وتعيش على تضخمها لديها .

هناك ذهنية خالصة ، وهنا جسدية خالصة ، وهناك انفصال كلي عن الواقع الانساني ، وهنا انحطاط في صورة هذا الواقع لدرجة تجاهل أي مكانة للعقل والقوى الاجتماعية وكل ثروات الابداع الحضاري الذي يفيض عن الانسان ، كخلية اجتماعية حية متفاعلة ، فيظهر الانسان ذو البعد الواحد ، الذي لا تفيض عنه الا القوة البدنية ولا تحكمه الا شريعة الغاب ، ولا صلة تربطه بالتاريخ ، ولا بأية خلايا اجتماعية اخرى .

هنا وهناك الانفصال عن المجتمع والتاريخ ، أما بالاستلاب الخيالي او بالاستلاب البدني فهناك مخلوقات تكنولوجية ـ آلية ، وهنا وحش لا يعرف الا الضرب والقصف والعض ، وشيء آخر ايضا : هنا وهناك الفرد المتفوق ذاتيا ، والذي ينتصر بقواه الخاصة الخارقة التي لا تتحدد بأية شروط خارجية . فأنت كفرد ، يجب أن تؤمن بالتفوق ، ويجب ان تكسب الجولة دائما ، وتتجاهل بصورة مطلقة الثمن أو الوسيلة التي يحتاجها الوصول الى النصر الكاسح على كل من حولك .

مرة أخرى ، هذا واقعهم ، وهكذا يعيشون . القوي يأكل الضعيف ، والكبير يلتهم الصغير ، والعملاق يسحق القزم تحت نعله دون أن يلتفت اليه . في السوق تسحق الاحتكارات صغار التجار والصناع والزراع ،

وفي الدولة كل الناس وقود الالة الضخمة التي تسعى للهيمنة . ولا شرعية لأي قضية يمكن أن لا تخدم نزعة الهيمنة الفراندايزرية . نزعة المصارع الوحش الذي لا يحفظ أي اعتبار لاية قيم من أي نوع كانت تتعلق بالانسان ، كمخلوق اجتماعي عاقل ، واع ، له عواطفه وأحاسيسه ومبادئه .

والاسرة ، اذا بقيت هنالك أسرة ، أصبحت تدار على هذه الطريقة ، وتخضع لمثل هذه العلاقات . والمواطن يتعرض في كل خطوة يخطوها الى اعادة تربية وفق هذه الاسس . فالجمهور يفقد عقله وهو يراقب مباراة المصارعة أو مباراة كرة القدم التي لم تعد مجرد لعبة رياضية ، وانما ميدانا لاثارة وتصريف هوس وجنون التفوق والقهر يمكن أن يتحول الى ساحة حرب حقيقية . أما الصراع بين قوى الأمن وبين العاطلين عن العمل والجياع والمشردين الذين يطالبون بأبسط متطلبات الحياة :العمل والخبز والمسكن ، فانه يظهر يوميا على شاشات التلفزيون كدروس في التربية على الانضباط والخنوع والسكينة . ويضطر هؤلاء في غمرة يأسهم الى تحطيم وحرق كل شيء ، باعتباره لا يمثلهم ولا يعبر عن حاجاتهم وطموحاتهم .

فهل نتشوق نحن الى اعادة صنع عالمنا على طريقتهم ؟ ان في عالمنا الكثير مما هو أسوأ مما لديهم ، وهو تحت اعادة البناء الان ، ولكن ألم يكن بامكاننا البحث عن نموذج مختلف لحياتنا خال من مشكلاتهم ؟

الكاوبوي : عندهم وعندنا :

الكاوبوي ، المغامر الفردي ، المستكشف للافاق والثروات ، والذي ما أن يلتقي بانسان آخر حتى يصرعه بخفة البرق ، اذ أن كل انسان آخر هو ، مسبقا ، عدو له لا يفسر الا التخلص منه والاستيلاء على مكاسبه وموجوداته . هذا الكاوبوي ، الذي خلق تلك المدنية الضخمة وهو يسعى لمصلحته الخاصة ، أصبح ماضيا بالنسبة لهم ، لم يبق منه الا مسدسه الذي تطور حتى أصبح قنبلة ذرية وصواريخ ومتفجرات .

كان مبدأ الكاوبوي : انكم ايها الهنود الحمر غير جديرين بهذه الارض ، وتسيئون استغلالها ، ولا تعرفون ما تحمله من كنوز ، ان وجودكم عليها يمنعني من استغلالها لذلك تجب ابادتكم .

اليوم أصبحوا يقولون : لقد أصبحنا نملك وسائل الدمار الكافية لخراب العالم كله ، وأصبحنا وحدنا نملك فوائض الغذاء التي يحتاجها العالم الجائع ، وهذا وحده يشكل مبررا كافيا لاستعباد هذا العالم .

الكاوبوي المعاصر أصبح دولة عظمى ، أصبح معسكرا من دول الاحتكارات العالمية ، لم يعد يهمه تعمير الارض ، فقد عمرت زيادة عن اللزوم ، برأيه ، لقد أصبح همه استعباد أهل الارض أو تدميرها .

فيا هو المعنى الكامن وراء انسياق التلفزيونات العربية الى الكاوبوي الذي أخذ بدوره يتحول الى تجارة الخيال والخيال التجاري ؟ هل يعبر ذلك عن نوع من الترويج للكاوبوي الدولي ، أم اشتهاء لنشر صورة الكاوبوي المغامر في حياتنا العامة ؟ بعد ان تحولت مجتمعاتنا الى مجتمعات كاوبوية مشوهة ؟

الانتاج التليفزيوني العربي :

هذا عن بعض النتاج المستورد . فماذا عن النتاج العربي ؟

يشارك النتاج العربي النتاج المستورد في صناعة الوعي . وكما ان النتاج المستورد فيه السيء ، أو غير المناسب لأوضاعنا ، وفيه النتاج العلمي والفني والاجتماعي الجيد الذي يساهم في اغناء الانسان فكريا وروحيا ، فكذلك النتاج العربي فيه من هذا وذاك .

لقد قدم التلفزيون العربي أعمالا رائعة بالمقاييس الوطنية والاجتماعية والانسانية والفكرية والجمالية . ولكن مثل هذه الاعمال تبقى نادرة جدا بالنسبة الى ما يملأ به وقت المواطن يوميا من الاعمال الاخرى . وسأركز هنا على المشكلات الحياتية والمعاشية التي يعكسها التلفزيون من خلال الافلام أو المسلسلات العربية والتمثيليات وغيرها ..

ان التلفزيون هو واحد من أعظم اختراعات الانسان ولا يمكن ادانته بحد ذاته . لكنه ابن البيئة الاجتماعية الحضارية القائمة ، وتطوره محكوم بشروط تطور هذه البيئة وبالاخص في اتجاهيها السياسي والاقتصادي . فالنتاج المحلي ، التلفزيوني او السينمائي او المسرحي ، يسعى غالبا في احد اتجاهين : الاول ، وهو الارضاء المباشر للمتطلبات الرسمية التي تفرضها الاحداث الجارية او ظروف السلطة السياسية ، والثاني ، وهو الارضاء السطحي المباشر ايضا للحاجات النفسية او المشاعر البدائية لعامة الناس ، كمعيار على نجاح العمل الفني شعبيا وتسويقه تجاريا ، وذلك في بيئة اقتصادية ـ اجتماعية مستباحة من قبل النشاطات الطفيلية التي

تسعى الى شفط الثروات الخيالية باية وسائل ممكنة .

ان خضوع العمل الفني لهذين المؤثرين يفقده أي قيمة جوهرية . فالمؤثر الاول يفقد العمل جماليته الفنية ومضمونه الانساني الاصيل ويجعله تعبيرا مصطنعا فجاً ، والمؤثر الثاني يفقده الابعاد القيمية الاجتماعية والانسانية العميقة .

واذا كان انخفاض القيمة التعبيرية والتأثيرية للاعمال التي تخدم أهدافا رسمية بصورة مباشرة وبطرق مصطنعة يظهر بوضوح ، فانه ليس كذلك بالنسبة للاعمال التي تنحو باتجاه الشعبية والكسب التجاري.

ما هي أبرز ملامح هذه الفنون التعبيرية « الجماهيرية » ـ التجارية ؟

ان اتحادات المؤلفين ـ المخرجين ـ المنتجين ـ الممثلين تعرف جيدا ان الانسان العربي يعيش مآسي حياتية لا حد لها ، ويعرفون ان كثرة تكرار المأساة الفردية وتغطيتها تعطيها بعدا اجتماعيا . فاذا كان الكسب المادي ، والحب والكراهية ، والزواج والطلاق ، والعلاقة بين الابناء والاباء ...الخ ، هي القضايا النمطية التي تهيمن على حياة الانسان العربي المعاصرة في خصوصيتها ، فذلك يعني ان اخراج عمل فني يحتوي على اربع او خمس مشكلات نمطية يوفر ارضاء شاملا للجمهور ، ذلك أن أي فرد ، صغيرا أو كبيرا ، امرأة أو رجلا ، لابد وأن يجد نفسه في أحد الأدوار أو المواقف المعروضة على الشاشة . وتصبح مشاهدة الشاشة نوعا من الحوار بينه وبينها وبينه وبين نفسه .

وبالتالي فان العمل الفني المعروض يتحول الى حياة أخرى جديدة تعيش في موازاة الحياة الواقعية للناس . لذلك فان هذا النموذج الجديد يحتاج الى دراسة عميقة ، مثلما تحتاج الحياة الواقعية . فقد يمتلك النموذج الموازي مع الزمن قوة النموذج الاصل .

في هذا النموذج ـ الظل الذي ترسمه الاعمال المعروضة على الشاشة العربية للحياة الواقعية ـ يمكن تخليد الاشكال الواقعية للعلاقات أو تعديلها أو استبدالها جذريا ، ويمكن اخضاع هذه الاشكال للتحليل والتفسير من أجل الفرز والغربلة . فبأي اتجاه تجري كل هذه العمليات ؟

ان الطابع التجاري الخاص لهذه الأعمال يحدد مضمونها بشكل كامل ، في معظم الاحيان . فالمجتمع يتألف من الافراد ، ولكل فرد حياته الخاصة المختلفة في تفاصيلها عن حياة الاخرين . فهو يأكل ويلبس وينام ويسكن ويعمل بطريقته الخاصة ، كما تختلف قيمه وأحاسيسه ونظرته الى الاشياء وتعامله مع الناس والبيئة من حوله عما لدى غيره من الناس . فهل تحمل هذه الخصوصية في الشكل في حياة فرد ما من الاهمية ما يجعلها تستحق الجهود التي تبذل من أجل تقديمها للناس ؟ وهل يجب صرف اهتمام المجتمع نحو التفكير في أشكال الحركة الخاصة لهذا الانسان الفرد أو ذاك ؟ أم أن ما يهم كل فرد ، وبالتالي ، المجتمع هو تلك الجوانب المتعلقة بالمضمون والجوهر والتي يمكن عند تجريدها تعميمها بحث تصبح « خاصية » لكل فرد آخر ، أو لفئة واسعة من الناس ؟

ومن جهة أخرى ، عندما نتجرد عن أشكال الحركة التي تميز حياة كل فرد ، ألا نكتشف أن كثيرا من الخصوصيات الظاهرة او السطحية تخفي أسبابا محددة قائمة في البيئة التي يعيشها هذا الفرد والتي تحدد الاشكال الخصوصية لحركته ، وتحدد النواحي الجوهرية في حياته ؟

ان الاشكال الظاهرية في الواقع غنية جدا في تفردها ، ويمكن اعتبار كل منها نموذجا فريدا في ذاته . ولكن هل هناك فائدة في تعداد هذا التفرد الظاهري ؟ وما هي الدروس التي يمكن استنتاجها من أعمال فنية تعرض شكلا ظاهريا غير قابل للتعميم ؟ ذلك أن الحادث الذي حدث لفلان من الناس لا يمكن أن يتكرر تماما في الزمان ولا في المكان ولا في الشكل . ان الاعمال الفنية التي تأخذ أشكالا من الحيوانات الخاصة لانسان فرد منعزل عن بيئته ومجتمعه يتحدد كل شيء لديه ذاته لن تساهم في تطوير وعي الجمهور وجعله أكثر قابلية على مواجهة الحياة بشكل خلاق . ذلك أن الانسان يشاهد مواقف منعزلة غير قابلة للتكرار ، فاذا ما واجه في حياته العملية موقفا يختلف بهذه الدرجة أو تلك عن المواقف التي انطبعت في ذاكرته ، ولابد أن يكون الموقف مختلفا في الشكل ، فانه سيجد نفسه عاجزا عن التصرف كليا ، لانه لا يهتدي بوعي ناضج يستطيع اجراء التحليل المعقد للواقع واتخاذ الموقف المناسب . فالظروف والاسباب الموضوعية العامة غائبة عن وعيه . ولذلك فانه غالبا ما يتصرف بطريقة « غير قياسية » وغير قابلة للتفسير .

ان الاعمال الفنية « الجماهيرية » ـ التجارية العربية ـ انما تعكس فعلا انعدام الموضوعية وسيطرة الذاتية المطلقة كنتيجة للتفرد المطلق في كل موقف وفي اسلوب معالجة كل موقف . فهل يعتبر ذلك نوعا من

« الامانة الواقعية » أم مجرد استجابة « تجارية » للوعي السطحي للشاهدين وارضاء لاحاسيسهم البدائية ؟

ان اكتفاء الفن بهذه المرحلة من التعبير يحرمه الكثير من شروط العمل الفني العميق . ذلك أن العمق يأتي من البعد الاجتماعي ـ التاريخ للحدث ، حتى الحدث الذاتي ـ النفساني ، وبكلمة أصح ، من التفاعل والتأثير المتبادل بين الفردي والاجتماعي ، بين العام والخاص . فلا يوجد خاص مجرد من العام ولا يوجد عام مجرد عن الخاص ، وعند تجريد أيهما من الآخر يفقد التعبير أي عمق ويصبح تصويرا بدائيا وسطحيا لواقع مصطنع .

اذن ، ما العمل بالنسبة للانسان العادي ، بالنسبة للشعب بجماهيره الواسعة ؟ ان الاعمال الفنية العربية ترسخ في الناس رواسب وعيهم المتخلف الذي يؤكد للفرد أنه لا يحمل أي قدرة على حل مشاكله ، وتؤكد له ان الناس ، كمقولة جمعية ، ليسوا أكثر من تراكم حسابي لا يضيف اي قيمة جديدة أو قدرات جمعية للافراد المجتمعين . انهم ككومة الرمل التي لا تتسبك مع بعضها ، مهما تكدست أو انضغطت ، في أي سبيكة متلاحمة ، ويظهر انفراطها عند أقل ضغط من الخارج .

ان احداث تلك الاعمال الفنية تقول للجميع : الواقع هو الواقع ، وانت لا يمكن ان تتغير . وانت وحيد في هذا العالم ، فاقلع عن محاولة التفكير في غير رغباتك ومشكلاتك . أما اذا كان لابد من التغيير فهو ليس مهمتك ، وانما التغيير مهمة قوى خارجية ، مهمة السلطة او الاقدار !

كيف يمكن لامة تواجه مثل التحديات الضخمة التي تواجهها الامة العربية ، من تخلف وجهل واعتاد مطلق على الغير واستنزاف للثروات والمقدرات وتشتيت للبشر وتحطيم لطاقاتهم ، ومن احتلال استعماري في عديد من أخطر بقاع الوطن العربي ، أن تواجه مصيرها الذي تحدده قوى خارجية ، أو الذي ينتظر الصدفة أن تنقذه ؟ أم أنها ، في أحسن الاحوال ، تنتظر المنقذ الملهم الفرد ، ذا القوة الخارقة والصفات غير البشرية ، الذي يستطيع انتشالها من وهدة الانحطاط والتمزق ؟ وأين قدرات مئة وخمسين مليون عربي وثروات لا تحظى بمثلها أمة أخرى ؟

ان أخطر الاسلحة المعروفة اليوم ، القنبلة الذرية ، لها طاقة تدميرية محدودة ، ولا تستطيع تدمير الا ما يقع تحت دائرة تأثيرها ، ذلك لان تدميرها يكون ماديا ـ فزيولوجيا . أما وسائل الاعلام فطاقتها الانتشارية غير محدودة ، وتبدأ آثارها داخل النفس الانسانية لكي تخرج بعد ذلك الى نطاق اجتماعي شامل . وعندما لا يساهم الاعلام في بناء الذات على أسس قوية جديدة ، وعندما يصبح مطية للقوى التدميرية أو الروح التجارية التي تضع الامة في يد المصالح الخاصة ، فتقتل الطاقات الايجابية البناءة لدى الانسان وتسلبه ارادته الجماعية على تجاوز التخلف عند ذلك يصبح المجتمع في حالة استسلام ضمني ، ولا يلزم اعداؤه أن يستخدموا في قهره أي سلاح ، لا قنبلة ذرية ، ولا حتى خنجرا مثلوما .

يقال أن ونستون تشرشل ، رئيس الوزراء البريطاني عندما كانت المانيا النازية تقصف بريطانيا من الجو جمع كبار المسؤولين في دولته لكي يطلع منهم على سير مختلف أمور البلاد . بدأ تشرشل بسؤال المسؤولين عن التربية عن أحوال قطاعهم ، ولما اطمأن بأن العمل يسير على أفضل ما يكون ، قال : لم يعد هناك حاجة للسؤال عن أي شيء آخر !

ويتفاخر الامريكان الان بصنع سلاح جديد يحافظ على المنشآت والاشياء ولا يقتل الا الاحياء يسمونه القنبلة النيترونية ، ويصفه الروس بالسلاح الرأسمالي ، لانه يحرص على سلامة الاشياء مقابل التضحية بالبشر . ان التلفزيون كأحد وسائل التربية الخطيرة ، بشكل خاص ، وجميع وسائل وادوات التربية الاخرى ، بشكل عام ، يمكن عندما يساء استعماله أن يقوم بدور السلاح النيتروني داخل الانسان نفسه ، اذ أنه يحافظ على جسده ولا يحوج الاعداء لابادة البشر وتخفيض تعداد الامة حتى يسيطروا عليها ، وانما يقتل الناس في الداخل ليسلبهم شخصيتهم القومية والانسانية التحررية المتوثبة ويحتفظ بهم كـ « اشياء بشرية » تصلح لجميع الاستخدامات المخططة !

ان نهوض أي أمة بحاجة الى تشكيل وعي آخر . لقد بدأت النهضة العربية في مطلع هذا القرن بتشكيل هذا الوعي الآخر ، من قبل طلائع المفكرين المتنورين العرب . لكن المحاولة اجهضت بقوى الداخل والخارج ، واصبحت حتى اصداء ذلك الوعي الذي بدأ في الظهور قبل أكثر من قرن في وطننا العربي جريمة يحاسب حاملها عليها اليوم . فمن أين سيأتي الوعي الآخر ؟ هل ينشأ بالصدفة أم تنتظر هبوطه من الخارج ؟ أم أننا ننتظر من يقول لنا عند كل مصيبة تلم بنا : هذا حصاد ما زرعتم ■■

د . عارف دليلة
المعهد العربي للتخطيط بالكويت

حوار مع كتاب « الفريضة الغائبة » . .

الاسلام والسيف !

بقلم : الدكتور محمد عمارة



كتاب (الفريضة الغائبة) منسوب الى مهندس الكهرباء محمد عبد السلام فرج ، المتهم الخامس في قضية اغتيال الرئيس السابق انور السادات . . واحد الذين حكم عليهم بالاعدام . . . . .

وبمقاييس « المستوى العلمي » ، او « فن الكتابة والتأليف » فقد لا يرتفع مستوى الكتابة الى الدرجة التي يستحق فيها التقييم والنقاش ! . . لكن . . لابد من الاعتراف بان كتابات من هذا القبيل وذلك المستوى قد غدت ـ في طول بلادنا الاسلامية وعرضها ـ المحرك الاول والمرشد الافعل لشباب مسلم ينطلق بروح الشهادة ، فيصنع احداثا تؤثر في التاريخ اكثر مما يؤثر ، اليوم ، علم العلماء وفقه الفقهاء ؟ ! . . . . . .

ومن هنا وجب الحوار ، بمنطق الاسلام وادبه ، مع الافكار والقضايا والمقولات التي يطرحها هذا الكتاب . . . .)

ان الفكرة المحورية التي تتخلل كل صفحات هذا الكتاب الصغير هي فريضة الجهاد الاسلامي . . فهي الفريضة الغائبة ، والتي لغيابها حل بالمسلمين ما هو حال بهم الآن . والجهاد الواجب هو ضد الاعداء الاقربين من الكفار ، الذين هم « حكام العصر » ، الذين يحكمون بلاد المسلمين ! . . تلك هي الفكرة المحورية في الكتاب . .

وفيما يتعلق بالشق الاول من هذه الفكرة ـ شق « الجهاد » ـ يكاد الكتاب ان يتبنى مفهوما يقصر معنى « الجهاد » على « القتال » ، حتى ليوشك ان يقول ان « الجهاد » هو « القتال » فقط ! . . وفي هذا القصر ، بل والقسر ، تضييق لمعنى « الجهاد » ، كما تحدد في فكرنا الاسلامي على امتداد تاريخه واختلاف تياراته الفكرية . . فلقد اتفق اعلام الفكر الاسلامي على ان « الجهاد » لغة ، يعني : « استفراغ الوسع وبذل الجهد في مدافعة الاعداء » . . على تعدد في الميادين التي يبذل فيها الانسان وسعه وجهده ، وتنوع واختلاف في نوعية هؤلاء الاعداء . . فمن الفكر ، الى الكسب المادى ، الى الميادين المتعددة للقتال . . ومن الاعداء الظاهرين ، الى مجاهدة النفس ، الى مغالبة وسوسة الشياطين . . كلها ميادين لالوان وأنواع من « الجهاد » . . وكذلك معنى « الجهاد » ، شرعا ، ينصرف الى ما هو اعم من الحرب والقتال والصراع المسلح ، ليشمل كل سبل « الدعاء الى الدين الحق »[1] وعندما ينصرف الى القتال فانه يختص

(١) الشريف الجرجاني (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

يقتال « من لاذمة لهم من الكفار » ؟ ! [٢]

هل جاءهم النبى بالذبح ؟

وانطلاقا من حصر معنى « الجهاد » في « القتل والقتال » ينطلق كتاب (الفريضة الغائبة) الى تبنى المقولة القائلة : « ان الاسلام قد انتشر بالسيف » ! . . ويدافع عنها دفاع المستميت . . الامر الذى يستوجب الحوار مع الافكار التي اوردها هذا الكتاب ، او النصوص التى استشهد بها على هذه المقولة . . وذلك مثل :

* في ص ٤ يورد الكتاب حديثا منسوبا الى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقول فيه لقريش ، وهو بمكة - قبل الهجرة - والمسلمون بعد في مرحلة الاستضعاف - : « لقد جئتكم بالذبح » ! . . والكتاب لا يخرج الحديث - الذي لم نجد له وجودا في اهم واوثق مصادر السنة النبوية : (البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائي ، وابوداود ، والدارمي ، وابن ماجة ، والموطأ ، وابن حنبل ، ومسند زيد بن على ، وطبقات ابن سعد) ؟ !

وهنا نسأل : هل حقا كان هناك « ذبح » في المرحلة المكية ؟ . . وألا يدعونا ذلك الى عرض المأثورات المروية ، من مثل هذه النصوص ، على السيرة النبوية والواقع التاريخي للدعوة الاسلامية ؟ . . وايضا عرض مثل هذا « الحديث » - حديث « الذبح » - على ما رواه ابو موسى الأشعرى : « ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمى لنا نفسه اسماء ، منها ما حفظناه ، فقال : انا محمد ، واحمد . ونبى الرحمة ونبى التوبة ، ونبى الملحمة »[٣] وكذلك الحديث الذى رواه سلمان الفارسى : « قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : انى لم ابعث لعانا ، وانما بعثت رحمة للعالمين »[٤] . . وقبل كل ذلك ، ألا يجدر عرض مثل هذه المأثورات على الآية القرآنية المحكمة التي يخاطب بها المولى رسوله فيقول له : (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) - الأنبياء - ١٠٧

× وفي ص ٢٧ ، ٢٨ يتحدث كتاب (الفريضة الغائبة) عن « آية السيف » التي يقول انها نسخت كل آيات « الصبر » و « العفو » و « الصفح » و « الاعراض » لكنه يتجاهل ان اية السيف هذه قد نزلت في « المشركين » فنصها : (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) . « التوبة - ٥ » ومن ثم فانها لا تنطبق على الذين يدعو كتاب (الفريضة الغائبة) الى قتالهم الآن ، من حكام المسلمين ، لان هؤلاء الحكام ، حتى بمنطق هذا الكتاب ليسوا « مشركين » وانما هم من « الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه » . . . فالاستشهاد هنا في غير موضعه . . . .

ثم ان الكتاب عندما يدعو الى جهاد « حكام العصر » يقيسهم على « الخوارج » وعلى « مانعى الزكاة » زمن ابي بكر الصديق . . . . وهؤلاء ليسوا « مشركين » حتى نستشهد على جهادهم وجهاد أمثالهم بآية السيف ؟ ! . . .

ويتصل بهذه الملاحظة ما جاء في ص ٢٨ بالكتاب ، من نقده لقول السيوطي : ان آية السيف لم تنسخ آية : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) . . . فالحق هنا مع السيوطي ، ولا مجال لنقده ، لسبب ما كان يصح ان يخفى على المتأمل . . . . ذلك ان « آية السيف » قد نزلت في المشركين بينما آية (فاعفوا واصفحوا) قد نزلت في « أهل الكتاب » ، وسياقها يقول : (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل ، ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، ان الله على كل شيء قدير) - (البقرة - ١٠٨ - ١٠٩) . . فالمقام مختلف وسبب النزول مختلف ، والمرادون في كل من الآيتين مختلفون اختلافا نوعيا . . . .

المفهوم الحقيقى للجهاد

ثم . . ان علاقة الاسلام والمسلمين الاوائل بالقتال والسيف والجهاد المسلح والصراع العنيف واستخدامهم لهذه الادوات ، أمر يحتاج الى ايضاح . . . .

لقد أمضى المسلمون الاوائل بمكة ثلاث عشرة سنة في ظروف « الاستضعاف » . . وكان طبيعيا ألا يكون « القتال » أمرا واردا في التكليف الالهي لنبيه « عليه الصلاة والسلام » وللمؤمنين في تلك المرحلة التي سبقت الهجرة من مكة الى المدينة . . تشهد بذلك الآيات والسور المكية للقرآن الكريم ففيها نقرأ قول الله للرسول : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون) (المؤمنون - ٩٦) . . (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين . ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) - (فصلت ٣٣ - ٣٥) .

(٢) مجمع اللغة العربية - القاهرة - المعجم الوسيط .

(٣) رواه : مسلم والترمذى ، وابن ماجة ، وابن حنبل .

(٤) رواه ابو داود وابن حنبل .

وحتى بالمدينة المنورة ، بعد الهجرة ، وقيام الدولة الاسلامية ، ولحين من الدهر ، كانت آيات القرآن الكريم تؤكد على « الجهاد » غير القتال في الصراع بين المؤمنين والمشركين . فلقد اصبح للاسلام كيان متميز ، واتخذ هذا الكيان لنفسه من المدينة مجالا حيويا ، غدت لاهله فيه حرية الدعوة الى الدين الجديد .. ففي هذا المناخ ، ورغم انتهاء مرحلة « الاستضعاف » بالنسبة للمسلمين ، نجد الله سبحانه يوحي الى رسوله قوله : (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ـ (المزمل ١٠ ـ ١١) . وحتى عندما كان اليهود يمارسون مع الرسول خلقهم العريق واللصيق ، وهو نقض العهود وخيانة المواثيق ، كان الوحي ينزل من السماء فيقول : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح ، ان الله يحب المحسنين) ـ المائدة ـ ١٣ .

لكن الهجرة ، وقد أنهت دور « الاستضعاف » ، قد صاحبها تطور هام في أدوات الصراع « المأذون » بها ، من الله سبحانه ، للمسلمين ، ضد اعداء الدين الجديد .. فبها ، وبالدولة التي أقاموها بالمدينة قد أصبح بالامكان ان يتجاوزوا تلك المرحلة التي كانوا يواجهون فيها العنت « بالعفو » و « الصفح » و « الهجر الجميل » ! ومن ثم فلقد أحل الله لهم النهوض الى الصراع ضد اعدائهم ، متخذين أدوات أشد وأدخل في باب العنف من تلك الادوات .. وعندما كان الرسول « صلى الله عليه وسلم » مهاجرا من مكة الى المدينة ، نزل الوحي بآيات تتحدث عن دور « الصراع » في انتصار الحق على الباطل ، وحق المظلومين الذين اخرجهم الظالمون من ديارهم ، في الدخول الى هذا الميدان (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز) ـ الحج ٣٨ ـ ٤٠ .

وقال المفسرون لهذه الآيات ، التي صاحب نزولها تمام حدث الهجرة : انها قد اعطت المسلمين (الاذن) في القتال .. وان كان المتأمل في نصها ، والمتفقه لكلماتها لايجد بها اكثر من الاذن والتوجيه الى « الصراع » ضد الاعداء ، أيا كانت ادوات هذا الصراع ، وايا كان مكانها من أدوات « القتال » .

وفيما بين السنة الأولى من الهجرة والسنة السابعة ، التي اعقبت صلح الحديبية والتي تمت فيها « عمرة القضاء » ، في هذه السنوات السبع شهد المسلمون أكثر من عشرين غزوة ، مارسوا القتال في عدد منها . ومع ذلك ، فلقد ظل قتالهم هذا ـ طوال هذه السنوات ـ محكوما « بالاذن » الالهي للمظلومين في أن يستخدموا أدوات « الصراع » الملائمة في ردع الظالمين الذين أخرجوهم من الديار !

فلما كانت السنة السابعة من الهجرة ، وتجهز المسلمون للسفر من المدينة قاصدين مكة لاداء عمرة القضاء ، وفقا لصلح الحديبية الذى أبرموه مع قريش في عامهم المنصرم ، توجس المسلمون خيفة من غدر المشركين بهم عند أدائهم لمناسك العمرة ... فهم سيدخلون مكة معتمرين ، وليس معهم من السلاح سوى سلاح المسافر .. ثم ان الوقت في الاشهر الحرم التي لا يحل فيها للمسلمين القتال ، والمكان هو الحرم الآمن الذى لايجوز فيه قتال .. فما الضمان من غدر المشركين واخذهم المسلمين على غرة ، في هذا التوقيت ، وذلك المكان ، وتلك الملابسات ؟! ..

قتال من نقضوا العهود

وأمام خشية المسلمين هذه من غدر المشركين ونقضهم عهد الحديبية ، نزل وحي الله بآياته التي « تأمر » ـ بل ان شئت الدقة « تأذن » ـ « بالقتال » ، اذا ما نقض المشركون العهد وتطلب الحال من المسلمين قتال اعدائهم المشركين ، حتى ولو كان « رد العدوان » هذا في الشهر الحرام والبيت الحرام (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ، الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين) ـ «البقرة ـ ١٩٠ ـ ١٩٤» .

فأمام عدوان المشركين .. ونقضهم العهد .. واستحلالهم حرمة الشهر الحرام والبيت الحرام .. فان على المؤمنين قتال الذين اخرجوهم من ديارهم ، واجتهدوا في فتنتهم عن دينهم ، دونما تحرج من « الحرمات » .. ذلك ان « الحرمات قصاص » وفي

القصاص حياة لأولى الالباب ! لقد كان ذلك « اذنا » .. وهو لم يوضع في التطبيق ، فلقد تمت العمرة دون غدر ولاقتال ! ..

بل وأكثر من ذلك .. فاننا عندما نتأمل آيات « القتال » في سورة « براءة » - « التوبة » تلك التي يحسب البعض انها تشرع لنشر الاسلام بالسيف ، حتى أنهم ليقولون انها قد خلت - لهذا السبب - من « البسملة » حتى لاتفتتح بذكر « الرحمن الرحيم » ؟ ! حتى آيات القتال في هذه السورة - والمشهورة احداها بآية السيف - نراها تأمر المسلمين بقتال من نقض العهد وغدر بالمواثيق ، دون الذين استقاموا على عهدهم ، رغم انهم مشركون ؟ ! .. فهي تشرع للفتح ، حتى يعود المهاجرون الذين اخرجوا من ديارهم الى تلك الديار ، وحتى ينال الناكثون للعهود ما يستحقون من جزاء وتأديب .. وحتى تأمن الدعوة الاسلامية غدر هؤلاء الناكثين .. لما فيها من عنف مشروع لاعلاقة له « بالعدوان » ولاينشر الدين عن طريق « القتال » .. (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزى الله وان الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم . الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بانهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين) ، (وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم اول مرة ، اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم) التوبة ١ - ٧ ، ١٢ - ١٥ .

آية السيف في المشركين

رغم أن المناسبة كانت محاطة بنضج الظروف السياسية لفتح المسلمين لمكة ، وهو الفتح الذى يمثل « عودة » المهاجرين الى الوطن الذى « اخرجوا » منه قسرا وظلما وعدوانا .. ورغم ما يمثله هذا « الفتح » من شرط ضرورى لتأمين الدعوة الاسلامية وضمان حرية دعاتها في شبه الجزيرة بالقضاء على البؤرة المشركة المحركة للقوى المناوئة للدين الجديد .. رغم كل ذلك فلقد ظل الامر الالهي بالقتال ، في سورة التوبة ، وفي آية السيف ، محكوما بالنهج الاسلامي الاصيل : ان لاعدوان الا على المعتدين الظالمين الناكثين للعهود ! .. ولم يكن ذلك بالامر الغريب على اهل دين رسم لهم دينهم ذلك النهج .. فلم يكن القتال الاسلامي غاية للاسلام ولا للمسلمين ، وانما كان سبيلا لكسر الطوق الظالم عن المستضعفين الذين يئنون تحت وطأة المشركين .. (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها ، (والمراد بها مكة قبل الفتح) ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا « النساء » (٧٥ - ٧٦)

فهو قتال في سبيل الله ، ولتحرير المستضعفين ، يجابه به المسلمون الطاغوت الذى يعني : الطغيان والعدوان والتطاول ومجاوزة الحدود من قبل المشركين .

ذلك أن العلاقة منبتة الصلة مقطوعة بينّ « الايمان » وبين « الاكراه » - والقتال : اكراه عنيف ! - ومن ثم فانها منبتة ومقطوعة بين « القتال » وبين انتشار الاسلام ..

ثم ان « آية السيف » قد نزلت في « المشركين » المشركين الذين نقضوا العهد وفتنوا المسلمين عن دينهم - والفتنة أشد من القتل - وأخرجوهم من ديارهم ، واعتدوا عليهم في دار هجرتهم .. ومن ثم فان عمومها خاص بمن لهم هذه الصفات ...

ذلك هو المنطق ، منطق الفقه والوعي بآيات الله .... وهو منطق يقطع بأن استخدام هذه الآيات في كتاب (الفريضة الغائبة) - لاثبات مقولة ان الاسلام قد انتشر بالسيف ، هو استخدام يجانبه الصواب .. واكثر منه مجانبة للصواب استخدام ايات تتحدث عن قتال « المشركين » للتشريع لقتال « حكام العصر » الذين يحكمون اليوم في عالم الاسلام ...

ولتلك القضية الأخطر ، في هذا الكتاب ، حديث مستقل ، تدير فيه مع هذا الشباب المسلم حوارا موضوعيا يزدان بأدب الحوار في الاسلام ! . ■■

أقوال معاصرة



■ نحن لم نسحب من سيناء ، ولكننا جلونا عنها .

اريل شارون
وزير الدفاع الاسرائيلي

■ عصر الرخاء العظيم قد ولى . وعلينا ان نتعايش مع الكساد . وان نسعى الى توزيع اعباء هذا الكساد بعدالة .

الملكة بياتريس ملكة هولندا



■ العرب يمرون بأسوأ مرحلة في تاريخهم المعاصر .

محمود رياض

الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية

■ الارجنتين ملزمة بانهاء آخر فصول التاريخ الاستعماري للقارة .

الرئيس الارجنتيني جالتيري



■ الأكثرية الصامتة لا تصنع ضجيجا ، ولكنها تصنع التاريخ .

بير ترودو رئيس وزراء كندا .

■ « الفيتو » هو الثمن الذي تدفعه الدول الكبرى الى الدول الصغرى مقابل ما تقدمه لها من « خدمات » .

زهدي الطرزي

مندوب منظمة تحرير فلسطين لدى الامم المتحدة



■ انني أقابل عشرات الملكات في بريطانيا كل يوم . فكل عروس في شهر العسل ملكة .

الامير تشارلز ولي عهد بريطانيا

■ انني راض تماما عن تصرفات جيش اسرائيل في الاراضي المحتلة ، فرجالي يتميزون بالمواظبة الفريدة على تنفيذ الاوامر !

الجنرال رفائيل إيتان
رئيس الأركان الاسرائيلي



العجوز والجامعة

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

(١)

حين أكتب هذه الكلمات ، يكون صاحبنا فوق السبعين .

ولكن حاول ان تختبر نفسك معه في المشي الطويل او صعود جبل . حاول ، وسترى ـ بعد ساعة من نهار ـ ابتسامة الانتصار على وجهه ، وانت تتحسس ركبتيك ، وتلجأ الى صخرة قريبة ، تسترد أنفاسك ، وترجوه ان يكتفي بهذا في يومه ، ثم تجتنب المشي الطويل معه في غدك .

الحياة عنده عمل . والعمل حب وحياة . هو مستقر ماليا . والاولاد مستقرون والحمد لله . وهو جد سعيد بأحفاده . له منزل يطل على النيل بمشهد رائع .. ما أجمله في ليالي القمر .

والاهل يستطيعون صحبته لو اراد . ولكنه سعيد بوحدته . سعيد بالانتقال من قطر الى قطر ، كأنه صوفي سائح قديم ، نذر ان يزور اولياء الله الصالحين . زوايا الاولياء عنده الجامعات العربية . قل انه درويش جامعي . هكذا يبدو . ولكن فيه ـ لو اراد ـ مهارة الصيرفي ، ولباقة الدبلوماسي ، ووداعة الكاهن ، وعنف المحارب .

وصفه احد اصدقائه المقربين فقال :
ـ عنده القدرة التي يستطيع بها ان يقنع الثعبان ليترك جحره . في العاصفة ليشهد المطر !!
وسمعها صاحبنا وضحك .

(٢)

سألته مرة : اود ان اعرف سر حبك العمل . وبكل هذا الابتسام والاطمئنان مع تقدم السن ، وحيدا هكذا ؟
وأطال النظر الي ، من وراء منظاره السميك ، بعينيه الضيقتين ، وقال بصوته العميق ، ونبراته الممتدة ، ليزيد من تأثير الكلام ، كأنما يصبه في اذني .. كلمة .. كلمة :

ـ المهم تغيير العنوان .
قلت في دهشة : اي عنوان ؟
قال : عنوان الاقامة . اقامتي !!
قلت : بالنسبة لمن ؟
قال : عزرائيل .
قلت : عزرائيل ؟
قال : نعم .
(بالمناسبة : اللفظ القرآني ملك الموت)

قالها ، وهو ينحني الى الامام قليلا ، برأسه ذي الشعر القطني ، وقد غطت وجهه التجاعيد كأنها تموجات رقيقة على سطح ماء هادىء ، او خطوط متجاورة منسابة على قطيفة بيضاء . وابتسم ؛ كما ينقل حجرا على لوحة شطرنج نقلة فنية ، وينتظر منك الرد .

الابتسامة معلقة على شفتيه . ونظرة التحدي الهادئة في عينيه .
أطلت النظر اليه . وبيننا الصمت يكاد ان يتجسم .
ثم تابع قوله :
ماذا تنتظر مني ؟ أجلس في القاهرة في شرفة فندق « سميراميس» أو شبرد » أنتظر وصوله وهو يطلع من النيل ؟ أجلس في حديقة فندق « ميناهاوس » انتظره وهو يأتي من وراء الاهرامات ؟ في آخر الامر سينتصر . هو المنتصر دائما ، هذا هو الحوار الدائم بين الحياة والموت . أحيانا ـ وبالنسبة لي ـ أتخيله كما يلي :

يقترب موعد الرحيل . ويسأل « صاحبي » عني : اين هو ؟
يقولون : في الكويت ـ مثلا ـ يحاول التأكد ، فيقولون له : ذهب الى السعودية . فيسأل عني هناك . فيقولون : كان هنا وذهب الى اليمن . ويدرك صنعاء فيقولون له عاد الى السعودية فيسأل . فيقولون : عنده دراسة ميدانية في عمان ، او في الامارات ..

ويتابع حديثه قائلا :
عندي ان ملك الموت يحترم الارواح العاملة ، السعيدة بالانتقال في ارض الله . أما الارواح الخامدة ، الجالسة في شرفات الفنادق ، او على كراسي « قهوة الشمس » و « قهوة المالية » ـ وهي المقاهي المفضلة لارباب المعاشات والمتقاعدين بالقاهرة ـ فلا مجال لها في حياتي ، ولا احترام لها عند ملك الموت .

أصعب من الموت انتظاره . نعم انه حق . ولكنه حق صعب . ارجو ان يأتي ، دون مقدمات ، يأتي وانا أكتب ، او أحاضر او اتأمل خريطة ، فيكون آخر العهد بالحياة عملا .
أنا الخاسر في النهاية . ولكني تعودت ألا أخسر بسهولة ، حتى مع الموت . البس جبلا ان اموت واقفا ؟ تماما كالشجرة العتيقة ، تمنح الظل ، وهو اثبات لوجودها ، حتى بعد موتها ؟ ولكن هل هي حقا خسارة ؟ لا . انني ادفع كل يوم ثمن حياتي عملا وانتاجا ، عن حب ورغبة . الى آخر لحظة في الحياة ، وآخر مدى في الحس . ليست هذه خسارة . هي كسب حقيقي لي وللناس .

ثم يعود الى تأمله مستدركا :
لا حساب للمكان والزمان عند الموت . لن يسأل الموت عني ، ولن ينتقل ورائي . انه يعرف دائما زماني ومكاني . حساب الزمان والمكان والانتقال والبحث من امرنا . نحن الذين يصدق علينا قانون الموت والحياة . أما هو فيستوي عنده القريب والبعيد والامس والغد .

بهذا الفهم يصبح الموت صديقا . مجرد « تذكرة

سفر » من حياةالى حياة . امر تقل من جامعة الدنيا الى جامعة الآخرة جامعة واسعة . لامجال فيها للاحقاد والصراعات ، عرضها السموات والارض .

قلت : أهو درس في فلسفة الموت والحياة

قال مبتسما : بل طبيعة المهنة : التدريس والحوار ، حتى مع الموت والحياة . اتصور احيانا ان قضية الجامعة والمجتمع والموت والحياة واحدة : في العلم انت تكسب دائما مزيدا من الفهم ، وحسن اختيار بين البدائل المتاحة ، وحسن تقبل لما تأتي به الايام ، وصياغة افضل للحياة .. كان حديثي معك عن الموت ، كأنه شخص احاوره . ولكنه من عند الله قدر مقدور . هذه مني محاولة تبسيط ، لا أكثر . تبسيط اللقاء بين العلم والحياة ، وبين الموت والحياة .

والآن .. فلندع حديث فلسفته ونصحبه في احدى رحلاته ، وابتساماته :

(٣)

حملته الاقدار الى عاصمة عربية حوطا الجبال . ونظر الاخوة في الجامعة بعضهم الى بعض :

هل يقدر هذا العجوز على حمل مسؤولية المحاضرات والرحلات والمشاركة في البحوث والادارة ؟ ماذا يأتينا من الجامعات الاخرى ؟ واي طوفان دفع حطام السفين الى شواطئنا وعليه هذا الملاح العجوز ؟

وتمر الايام وهو يعمل معهم في هدوء . لا غياب . لا اعتذار . لا تردد على طبيب . عين ترى ، وعقل يجمع ، ومسئوليات يؤديها .. وتصل اليه اصداء من آرائهم فيه .

وفي يوم يقول لزميل مسئول ، وهو ينظر الى الجبال حول العاصمة :

أحب ان أزور هذه الجبال . هذه ارضك . وأنت بها أدرى . هل تسعدني بصحبتك ؟

ووجدها الشاب فرصة يعرف فيها العجوز حدود قدرته ويعود بعدها الى اهله ، راضيا من الغنيمة بالاياب .

وجاء اليوم ..

معرفة العجوز بالجبال وجه لها قديم . وياطول ما أمضى في صحاري وجبال مصر والنوبة والسودان !! وها هو الآن في جبال الجزيرة العربية .

ارتدى الملابس المناسبة . انتعل حذاء وجوربا خاصا . على رأسه غطاء يصلح للحر والبرد . بيمينه عصا يتوكأ عليها . ومن عنقه يتدلى منظار مكبر . وعلى كتفه كيس صغير به طعام قليل وماء . ومعه شيء لا يفارقه ، ولا يبدو لناظر ، هو الارادة العنيدة الهادئة الواثقة ، والمران الطويل ..

وانطلقا .. يملآن الصدر هواء نقيا ، حديث العهد بالسماء . والجبال حولها موج متجمد في بحر الوجود . يجيلان النظر في جمال واسع المدى ، صامت الصخر ، متحدث الانسام .

ويمضي الوقت . ويبدأ الجسم في الاحتجاج الصامت : انذارات من عضلات الساقين . الركبتين الفخذين . العمود الفقري . سرعة التنفس .. ومالا الى الصخور يستريحان .

وتمضي دقائق ، يتخالسان النظر كأنه أشعة كاشفة عميقة ، يحاول كل منهما ان يسبر بها غور صاحبه ، دون ان يحس . ويرفع العجوز رأسه كالنسر ، يستعد لتحليق جديد ، قائلا لصاحبه الشاب :

فلنتابع الصعود . ما أجمل المنظر . فرصة ان اشهد معك هذه الجبال وانت بها خبير . سعادة ان تكون الجبال قريبة ، نقصدها اذا شئنا الرياضة والتأمل ، وافيد من علمك بها ..

وانطلقا ..

وتوالى السير والوقوف ..

تحمل الشاب اولا ، ثم تحامل ، ثم ضاق صدره حرجا ، ثم اعترض :

ـ يكفي هذا اليوم !!

ويقول العجوز باسما :

ـ يوم جميل . فرصة ان تمضيه في الجبل .

ويسبقه خطوات . ويقف على ربوة ، كأنه على منصة المحاضرات في الجامعة ، ويقول لصاحبه :

ـ هيا تقدم ..

يقولها بابتسامة تجمع بين التحدي والعبث والعتاب وشهوة الانتصار . ويبسط كفيه ، يدعوه بها الى الصعود . تماما كما تشير الى ولدك عندما تشجعه على المسير :

ـ تقدم ، هل أخذ بيدك ؟!

ويتابعان السير .

ثم توقف الشاب ، وقد احتج كيانه كله ، وتتابعت أنفاسه ، واختلجت طاقتا انفه ، وتثاقل جفناه ، واستند الى صخرة ، متطلعا الى طريق العودة .

فارتدا على آثارهما قصصا ..

والشاب يسائل نفسه :
ـ من أي قماقم سليمان فر هذا العجوز ، ومن اي المواد جبله الله ؟ هذا الذي يضم ـ على الاقل ـ العناصر الاربعة : الهواء في انطلاقه ، والماء في انسيابه ، والتراب في استقراره ، والنار في احراقها !!

سارا .. لا سؤال ولا جواب .. فالصمت الآن سيد الاخلاق .. لا حديث عن الافق الرحيب ، ولا الجبال الراسيات كأنها موج الوجود ، ولا النبات يمد أعضاءه بالتحية .. تغيرت الرؤية حتى كأن انحناء الغصون على جانبي الدرب ، يخفي ابتسامة الزهر من دعابة العجوز وحيرة الشاب !!

وفي الغد زاره العجوز في مكتبه بالجامعة .. وبعد ان شربا القهوة ، مال الى الامام قليلا ، وقال للشاب في صوت هادىء :
ـ ما رأيك في رحلة قصيرة يوم الجمعة القادم ؟
قالها ، كأن شيئا لم يكن ، وبراءة الاطفال في عينيه .
قال الشاب : حد الله بيني وبينك .. انت لست عجوزا ، ولكن ثلاثة شبان في سن الخامسة والعشرين ، معجونون في جسم واحد ، والمجموع خمس وسبعون ، هي عمرك .. يفتح الله .. عد الى الجبل وحدك ..
ويرد العجوز :
ـ العفو يا أستاذ .. كان يوما لطيفا في صحبتك .. اذا أردت زيارة الجبل في اي يوم ، فانا في خدمتك .
ثم استأذن منصرفا ..

(٤)

وعادت به أقداره الى الارض المقدسة ومنزل الوحي .. وهناك فكر في مؤتمر متخصص يضم فروع العلم الذي امضى فيه حياته ، وتشهده الاجيال الثلاثة التي عمل معها : زملاؤه وتلاميذه وتلاميذهم .. جاءوا من جامعات العالم العربي والاسلامي ، يؤكدون مبدأ التواصل العلمي بين الاجيال ، والتعاون بين الاقطار ، والمعابر بين فروع المعرفة ، ووضع العلم في خدمة المجتمع .

وعلى قمة العمر كان صاحبنا في رفقة وعزلة .. لم يبق من رفقاء دربه الا عدد يقل عن اصابع اليد الواحدة ، أو أنامل الاصبع .. ومن ورائه جيل طويل ممتد ، كنهر دائم الفيض والعطاء .

وفي رفقته وعزلته بين الناس ذكرت شاعر الاسلام محمد اقبال في قوله :

هو في المجمع خال
ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل في الحفـ
ـل وحيد ورفيق

وأمضينا أياما في الرحاب الطاهرة ..
طفنا بالبيت العتيق .. وأدينا مناسك العمرة .. وزرنا المدينة المنورة .. وصلينا في مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام .
والتقينا في قاعات الحوار ، وشهدنا معرض الكتب ، وسعدنا بأصدقاء طال العهد بهم ، وتلاميذ اشتد عودهم ، وحملوا مسئوليات قيادية في جامعاتهم ..
وكان هذا الملتقى ـ العلمي والروحي ـ خير تكريم لقيه صاحبنا ، وخير إنجاز قام به .
وما أعمق ما تترك الارض الطاهرة في النفوس من أثر .

(٥)

وفي أمسيات الملتقى كان الحديث عن مشيخة علمائنا واساليبهم في كتابة الفصول الختامية من جهادهم العلمي .
وفي لقاء ـ بعد هذا ـ ضم أستاذا أحمل له في نفسي تقديرا عميقا قال :
ـ على كل منا ان يعرف كيف واين ومتى يكتب هذا الفصل ؟ اذا كان من قدر الله ان يمنحه الفرصة للتفكير فيه وكتابته .. عندي بحوث اود أن أكملها ، ومقالات متناثرة في الصحف والمجلات العربية ، وغير العربية ، ومحاضرات القيتها كاستاذ زائر في جامعات صديقة .. وتلاميذ لهم علي حق التوجيه .. وزملاء اود ان افرغ بعض الوقت للحوار معهم .. ومع تقدم العمر ، ترتفع قيمة الوقت ، وتزداد الخبرة ، وتضعف الصحة .

وينبغي أن نصارح أنفسنا بالموعد الذي يحسن فيه ان نبدأ الفصل الختامي : تخففا من مسئوليات يومية رتيبة ، وتفرغا للحركة الاخيرة ، من سيمفونية الحياة ..
وفي مدة تقل عن ثلاث سنوات صدرت له ستة كتب تضم مقالاته الثقافية والفلسفية ، مع ابراز الترابط بينها ، وعنايتها باساليب بناء المستقبل ، وكيف يتعاون فيه العالم والاديب والتقني والفيلسوف والاقتصادي .. بحيث تصب كل هذه الروافد في نهر المستقبل .. وفي ذات

الوقت قرأت له ـ في أوسع جرائدنا ومجلاتنا انتشارا ـ مقالات هي حصيلة خبرته الطويلة ، كأنها خلاصة عطر حياته ، فيها صفاء القمم وجلالها .

واستطاعت إحدى كلياتنا ، ان تستقطب صفوة علمائها بعد سن التقاعد ، للتعاون على الاشراف العلمي . ويكفي وجودهم في الكلية ، بعض الوقت ، والتقاء طلاب الدراسات العليا بهم ، والحوار معهم ، ـ على الطبيعة ـ دون ان يقتصروا على القراءة لهم في قاعات المكتبة .

وكل هذا جميل ..

ولكن هناك فكرة تراودني ، اود ان اجعلها ختام هذا الحديث وهدفه .

والفكرة مسبوقة . ومطبقة الآن في الغرب والشرق . وكانت عندنا من قبل في جامعاتنا الاسلامية العريقة .

في حياتنا العربية المعاصرة ، مازالت جهود علمائنا فردية الطابع ـ في الأعم ـ متنوعة الاساليب ، وان التقت عند اهداف مركزية ، هي رغبة العالم ـ حين تتقدم به السن ـ في تجميع اوراقه ، وتقديم افضل ما عنده ، وتأكيد قدرته على العطاء .

قد يكتب الفصل الأخير من عطائه ، وهو يستدفيء بعواطف الاهل حوله ، من بنين وحفدة .

وقد يكون في البلد النازح ، في جامعة بعيدة ، ويتحمل برودة العزلة ، وقد أمضى حياته بعمل ، ولا يحسن الا ان يعمل . وقد شغلت الدنيا ابناءه عنه ، وعاد ـ كما بدأ ـ فردا . وقد تفاجئه ـ في وحدته ـ ازمة صحية ، فلا يجد من يسعفه وقتها بكوب ماء ..

ومكتبات علمائنا .. ما مصيرها ؟

أعرف عددا من علمائنا تبرعوا بمكتباتهم الى جامعاتهم . ومازال بعضها في صناديقه بعد سنين .

وأعرف أستاذا كانت عنده مكتبة قيمة . وأرسلت إليه إحدى الجامعات العربية مندوبا لشراء نفائسها من الكتب المطبوعة والمخطوطات . وكان المندوب أستاذا جامعيا .

وبعد أن فرغ المندوب من الفحص والاختيار وتقدير الثمن ، والأستاذ في جلال العلم والسن صامت لا يحاول ، قال للمندوب :

ـ هل فرغت يابني مما تريد ؟ وحددت الكتب المطبوعة والمخطوطات والثمن ؟

قال : نعم .

وفي هدوء حزين قال الأستاذ الشيخ :

ـ يابني . خذ بقية الكتب هدية مني لجامعتكم . فلا مكان لها عندي . وأبنائي في حاجة الى المكان . الكتب عندهم ضيف ثقيل . يمنعهم الحياء من مصارحتي برغبتهم في التخلص العاجل منه ، لتحل محله أجهزة التسخين والتبريد والتسجيل والموسيقا ..

الجامعة يابني هي وطن الكتب ، حيث تجد الأمن والتقدير .

لا أريد لها ثمنا . خذها . يكفي ان ابحث لها عن مكان يكرمها ، وقد اكرمتني بما فيها من علم .

الجامعة بيت العائلة الكبير ، الذي تأوي اليه الكتب اذا ضاقت بها بيوتنا ، وزهد فيها ابناؤنا . وفي الخارج هي البيت الذي ياوي اليه كبار العلماء ، حيث يجدون الأمن والقدرة على متابعة العطاء ..

والى الآن ..

لم تطبق جامعاتنا ـ الا قليلا ـ نظام « الاستاذ الفخري » الذي تخصص له جامعته في رحابها سكنا صغيرا هادئا ، قريبا من وسائل البحث العلمي والمكتبة والمعامل ، وتعين له مساعدا ينظم له حياته اليومية ، والى جواره عدد من تلاميذه ـ وكلهم اساتذة نابهون ـ يتعاونون معه ، ويعرفون خطه العلمي ، ونظام أوراقه ومذكراته .. فاذا سقط القلم من يده ، استطاعوا من بعده أن يتابعوا مسيرته العلمية ، ويستمر العطاء ، ويحمل المشعل جيل بعد جيل .

ما أمر كبار العلماء ؟ وما أمر مكتباتهم ؟ ومذكراتهم واوراقهم في عالمنا العربي ، في مرحلة من حياتهم ، نستطيع ان نسميها « كتابة الفصل الختامي » ؟

ألا تحتاج هذه الفكرة الى دراسة تخرج بها من حيز الامل الى أرض الواقع ؟

وكم تختصر بها من جهود ، وتقيم بها من اخلاقيات البحث العلمي ، وتفيد إبداعا من عقول ناضجة ، ترسي بها تقليدا جامعيا كريما !!

أذلك خير أم نتركهم يحاولون اثبات ذواتهم . ولكل منهم اسلوب ، وقد نرضى عن بعضه ، ونعرض عن بعض ؟

وبعد . فقد رجوت أن تحظى هذه الفكرة بعناية اتحاد الجامعات العربية ، واليونسكو العربي ، واقسام التراث بمجالسنا الوطنية المتخصصة ، وقد تستطيع احدى جامعاتنا ، أن تبدأ بمشروع نموذجي لذلك ، يكون مصدر إشعاع للجامعات الاخرى . ■■

الكويت د ـ عبدالعزيز كامل

ضحية المجتمع الحديث
العامل .. أم المستهلك ؟

بقلم : الدكتور جلال أمين

الخرافات الاقتصادية ليست فقط من نصيب العالم الغربي الرأسمالي ، بل للفكر الاشتراكي ايضا فيها نصيب . فمنذ ما يقرب من قرنين من الزمان دأب الفكر الاشتراكي على النظر الى العامل على انه هو الضحية الأولى للاستغلال ، والسؤال الذي نريد اثارته الآن هو : ألم يطرأ على العالم الذي نعيش فيه ، وعلى الأخص على المجتمعات المسماة بمجتمعات الرخاء ، مما يجعل هذا الاعتقاد الشائع محل نظر ؟

ولنبدأ أولا بالتساؤل عن معنى الاستغلال ، ونحاول أن نقدم له تعريفا واسعا لا يقتصر تطبيقه على المراحل الاولى لنشأة ونمو الرأسمالية ، التي ظهر فيها المفهوم الاشتراكي الشائع عن الاستغلال ، بل قد يتسع لمختلف صور الاستغلال عبر التاريخ ، فنقول ان الاستغلال يتمثل في حصول شخص على جزء من القيمة الاقتصادية لسلعة او خدمة استنادا الى قوة او سلطة لا يعتبرها ضمير المجتمع ، في مرحلة تاريخية معينة ، مشروعة من الناحية الاخلاقية . اذا قبلنا هذا التعريف جازلنا ان نقول مثلا ان حصول طبقة الكهان - في الحضارات القديمة - على نصيب من الناتج دون أية مساهمة منهم في العملية الانتاجية ، لم يكن يعتبر انذاك نوعا من انواع الاستغلال ، حينما كان يشيع الاعتقاد بان لهذه الطبقة نوعا من المعرفة والقدرة على السيطرة على القوى الطبيعية لا يحوزها الفرد العادي . ولكنه قد يعتبر كذلك في عصر آخر او في نظر مجموعة اخرى من الناس لا تعترف لهذه الطبقة بهذا الحق او تنكر عليها هذه القدرة . كذلك فاننا نميل الآن الى اعتبار كل من نظام الرق او الاقطاع نظاما قائما على الاستغلال ، وان لم يكن يعتبر كذلك في مرحلة تاريخية معينة ، على أساس أن استئثار مالك الرقيق او السيد الاقطاعي بجزء مما ينتجه العبيد او الاقنان كان يستند الى قوة مادية او سياسية لا تعتبر في نظرنا الآن مبررة او مشروعة من الناحية الاخلاقية .

وقد ركز اشتراكيو القرن التاسع عشر على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج باعتبارها المصدر الاساسي للاستغلال ، وهو موقف يتسع له ايضا التعريف المتقدم ، على أساس أن حصول الرأسمالي على جزء من الناتج يستند الى قوته الاقتصادية المستمدة من نظام قانوني ومؤسس معين اعتبره الاشتراكيون غير مبرر وغير مشروع .



صورة ثانوية للاستغلال

وقد ذهب بعض هؤلاء المفكرين الاشتراكيين في القرن الماضي الى حد القول بأن ظاهرة الاستغلال اذا تعذر تفسيرها بما يحدث خلال عملية الانتاج نفسها ، أي بالنظر الى علاقة العامل بصاحب رأس المال وحدها ، فانه لن يكون بالامكان تفسير هذه الظاهرة على الاطلاق . وذهب الى ان واقعة الاستغلال انما تتمثل في ان العامل ينتج من السلع ما يفوق في قيمته ما يحصل عليه العامل نفسه من اجر ، ويذهب الفارق الى الرأسمالي ، دون وجه حق في صورة ربح او « فائض قيمته » .

ولكننا نعرف جميعا ان الربح ليس الا الفارق بين انتاج السلعة والسعر الذي تباع به . فاذا كنت مالكا لمشروع فليس امامك لزيادة ربحك الا ضغط النفقات (وعلى الاخص اجور العمال) او رفع السعر . فاذا كان الضحية الاولى في الالتجاء الى تخفيض النفقات هو العمل ، فان ضحية رفع السعر هو المستهلك . والذي اريد ان اطرحه في هذا المقال هو انه طوال المائة عام الماضية طرأ من التطورات ما ضيق من فرص الالتجاء الى السبيل الاول وزاد من أهمية السبيل الآخر ، مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن الضحية الأولى للاستغلال في المجتمع الحديث قد أصبح هو المستهلك ، وأن استغلال العامل وان لم يختف بأي حال من الأحوال ، فانه يميل أكثر فأكثر الى أن يصبح مجرد صورة ثانوية من صور الاستغلال .

ذلك انه عندما كان يكتب الاشتراكيون الاوائل ، في النصف الأول من القرن الماضي ، كان الجزء الأكبر من انتاج الدولة ما زال يتكون ، في الأساس ، من سلع الغذاء الضرورية والسلع الصناعية الاساسية ، وهي سلع تتميز بدرجة عالية من التجانس والتشابه بين وحدات السلعة المنتجة . كانت قدرة المجتمع في ذلك الوقت ، على انتاج السلع الكمالية ما زالت محدودة للغاية ، وكان نمط الانتاج الذي يطلق عليه الاقتصاديون اسم « المنافسة الكاملة » ما زال هو النمط الغالب ، بحيث أن المستهلك كان يجد الى جانب كل منتج ، العديد من المنتجين الآخرين الذين يعرضون عليه نفس السلعة وبنفس المواصفات . في ظل هذا النمط من الانتاج كانت قدرة المنتج على استغلال المستهلك محدودة للغاية ، وكادت تنحصر قدرته الاستغلالية على استغلال العامل بتخفيض الأجر الى أدنى مستوى ممكن .

على أنه مع نمو قوة المجتمع الانتاجية ، وازدياد الانتاج من السلع الكمالية المتعددة الألوان والأصناف وامعان المجتمع في انتاج سلع تلبي مطالب ثانوية او حتى مطالب موهومة لدى المستهلك ، ازدادت قدرة المنتج على تحقيق مركز احتكاري لسلعته ، اذ اصبح ينتج سلعة او صنفا لا ينتجه سواه ، وازدادت قدرته على ايهام المستهلك بما تتمتع به سلعه من خصائص فريدة . وساعده على ذلك النمو المتعاظم في وسائل الاعلام وترويج السلع وطرق التأثير على المستهلك ، الأمر الذي سمح له بأن يقتضي من المستهلك ثمنا لا يعكس النفقة الحقيقية للسلعة ، ولا المنفعة الحقيقية التي يحصل عليها من استهلاكها . وهكذا بينما كان كثير من الكتاب الاشتراكيين في القرن الماضي يستخفون محاولة تفسير الاستغلال ببيع السلعة باعلى من قيمتها ، أي بأعلى من قيمة العمل المبذول فيها ، أصبحت هذه هي القاعدة ، وغير ذلك هو الاستثناء .

على أن الأمر لا يقتصر على أن النمو الاقتصادي قد جعل استغلال المستهلك ممكنا بدرجة أكبر من ذي قبل ، بل انه قد جعله أيضا أكثر ضرورة مما كان . فمع الامعان في انتاج الكماليات ، أصبحت مشكلة تصريف المنتجات تواجه المنتجين بدرجة أكثر حدة بكثير مما كان الأمر عندما كان الجزء الأكبر من الانتاج يتكون من ضروريات الحياة . فبائع الضرورات لا يحتاج الى تطويع المستهلك وترويضه لاقناعه بشراء سلع الغذاء والكساء الضروري . اما بائع الكماليات فانه يحتاج الى القيام بعملية خداع يومي وممارسة عملية مستمدة من اخضاع المستهلك وترويضه حتى يقوم بشراء ما ليس هو بحاجة حقيقية اليه . ان مشكلة تصريف الانتاج كانت بالطبع سمة من سمات الرأسمالية في كافة عصورها ، بسبب ما تقترن به الرأسمالية من تفاوت كبير في توزيع الدخل . ولكنها كانت في المراحل الاولى للرأسمالية مشكلة افراط دوري في الانتاج ، يجري حلها بحلول فترات الازمات فيما يسمى بالدورات الاقتصادية . فينخفض مستوى الانتاج والدخول والأسعار ثم يعود النظام الاقتصادي الى استرداد نشاطه ويعود الانتاج والدخل والأسعار الى الارتفاع . أما الآن فان مشكلة تصريف المنتجات قد اصبحت سمة دائمة من سمات الرأسمالية لا يكفي لحلها تخفيض مؤقت لمستوى الانتاج ، بل تفرض على النظام بحثا مستمرا عن مستهلكين جدد ، في الداخل او الخارج ، كما تفرض عليه توسيعا مستمرا لطاقة المستهلكين القدامى على استهلاك المنتجات الجديدة .

أضف الى ذلك ما نعرفه جميعا من النمو الهائل في قوة الحركات العمالية خلال المائة عام الماضية ، وتعاظم قدرتها على المطالبة بأجور اعلى وعلى الحصول عليها بالفعل . وليس المستهلكون ، بسبب تشتتهم وصعوبة اندماجهم في تنظيم واحد ، بهذه القدرة على مواجهة ما يتعرضون له من استغلال . الأمر الذي سمح لأرباب المشروعات بتحويل مدفعيتهم ، أكثر فأكثر ، من العامل الى المستهلك .

واستغلال الدولة المحتكرة

قد يقال ان كل هذا لا يعني حدوث تغيير في واقعة الاستغلال ، بل ولا في ضحيته ، بل مجرد التغيير في شكل الاستغلال وصورته . فالعامل هو منتج ومستهلك في نفس الوقت ، والجزء الاكبر من المستهلكين هم العمال . فاذا صح ما نقول فانه لا يعني الا ان العامل بعد ان كان خاضعا للاستغلال بوصفه عاملا ، قد اصبح فضلا عن ذلك خاضعا له بوصفه مستهلكا ، وان ارباب المشروعات قد عادوا فاستردوا من العمال باليسار ما اعطوه لهم باليمين . ولكن لو كان الامر يقتصر على هذا حقا لما كان الامر يحتاج الى التأمل والاهتمام . فهذا التحول في موضوع الاستغلال ومحله له ابعاد غاية في الأهمية تمس مختلف جوانب حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية جميعا ، وهو ما سنحاول الآن بيانه .

فدعنا نتذكر اولا ان من المستهلكين ضحايا الاستغلال « الجديد » ، من يندرجون تحت القوة العاملة . فهناك من تجاوزوا سن العمل من المسنين ، وهناك من لم يبلغ سن العمل بعد ، أو لم يدخل بعد في القوة العاملة ، وكلا الطائفتين تشكلان نسبة متزايدة من السكان في الدول الصناعية المتقدمة بسبب ارتفاع متوسط العمر من ناحية ، وامتداد سنوات الدراسة او التدريب السابقة على الالتحاق بسوق العمل . هناك ايضا المتعطلون او الذين يحصلون على مختلف صور الاعانات والتأمينات الاجتماعية سواء اشتركوا او لم يشتركوا في سوق العمل . هؤلاء جميعا يحصلون على دخولهم بصرف النظر عن قدرتهم الانتاجية او حجم مساهمتهم في الانتاج ، وهم بهذا الوصف يتعرضون لنوع من الاستغلال لا علاقة له بالعملية الانتاجية نفسها .

على أنه بصرف النظر عن وجود بعض المستهلكين الذين لا يساهمون في العملية الانتاجية ، فان من المهم ان نلاحظ ان استغلال المستهلك له من الاساليب ما يختلف اختلافا جذريا عن استغلال العامل ، وان تركيز النظر على ارتفاع الأهمية النسبية لهذا النوع من الاستغلال ، قد يلقي ضوءا جديدا على بعض الظواهر التي دأب الفكر الاشتراكي التقليدي على تجاهلها .

فمن ناحية ، اذا صح ان نمو الاحتكار هو سبب اساسي في ازدياد الأهمية بالنسبة لاستغلال المستهلك ، فانه يصبح من المهم ان نلاحظ ان الدولة المسماة بالاشتراكية ، لمجرد قيامها بالغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، تتمتع بقوة احتكارية تفوق بكثير قوة اي مشروع رأسمالي . وهي بهذا الوصف لديها من القدرة على اخضاع المستهلك ما يفوق قدرة المحتكر في ظل الرأسمالية ان استخدام كلمة الاستغلال في وصف الدولة المالكة لوسائل الانتاج قد يبدو غريبا ومستهجنا لدى الكثيرين ، ولكن الأمر لا بد ان يدور في النهاية حول ما اذا كنا نعتبر الأهداف التي تتوخاها هذه الدولة في

تحديد اسعار السلع مشروعة ومبررة او غير مشروعة ، فقد ترفض استخدام وصف الاستغلال في حالة الدولة الاشتراكية اذا كان رفع بعض الأسعار يستهدف تمويل مشروعات تقرها وتؤيدها ، ولكننا قد نسمح لانفسنا باستخدام وصف الاستغلال ، حتى في الدولة الاشتراكية ، اذا كان رفع اسعار بعض السلع يذهب لتمويل برنامج للتسلح لا نقره ولا نؤيده ، او في توفير بعض الامتيازات غير المبررة لاعضاء الحزب الحاكم .. الخ .

من أجل تمويل التضخم

كذلك فان تحويل الانتباه من استغلال العامل الى استغلال المستهلك قد يسمح لنا بفهم ظاهرة ما زالت تبدو مستعصية على الفهم ، وهي ظاهرة التضخم . فالتضخم يمكن ان ينظر اليه على انه ليس الا سلاح أصحاب المشروعات في استعادة جزء مما فقدوه باضطرارهم لرفع أجور العمال ، ولكنه يصيب العمال بوصفهم مستهلكين ، كما انه يصيب غير العمال بدرجة أكبر ، كذلك فانه يصيب فئات العمال المختلفة بدرجات متفاوتة لا علاقة لها باختلافها في مستويات الانتاجية . فاذا نظرنا الى التضخم هذه النظرة فان دور الدولة في حماية مصالح ارباب المشروعات سوف يبدو لنا الآن بصورة مختلفة . فبينما كان تدخل الدولة لصالح ارباب المشروعات في القرن الماضي يتمثل اساسا في تسخير قوة الدولة المالية لقمع حركات الاضراب والثورات العمالية ، فانه يتمثل اليوم اساسا في توفير وسائل الدفع الكافية وقنوات الائتمان اللازمة لتمويل عملية التضخم .

بل ان هذا الانتقال من مجال الانتاج الى مجال الاستهلاك ، كمسرح لعملية الاستغلال من شأنه ان يفسر لنا الكثير من مظاهر الحياة الثقافية في الدول الصناعية . فبهذا الانتقال تحولت عملية الاستغلال من المجال المادي البحت الى ميدان النفس ، وخرجت من اسوار المصنع او المزرعة الى عالم المشاعر والعواطف والأفكار . فاذا كان استخلاص فائض القيمة من العامل يتطلب نظاما انتاجيا صارما ، وفرض ساعات طويلة للعمل ، والمراقبة الحازمة لاوقات الحضور والانصراف وأيام التغيب ، فان استخلاص « فائض القيمة » من المستهلك يحتاج الى اساليب مختلفة تماما ، انها تحتاج الى التدخل بتشكيل نفسية المستهلك وتطويعها بحيث يطلب ما ليس بحاجة اليه ويدفع في مقابل السلعة ما قد يورطه في الاستدانة ، ويستغني عن السلعة قبل ان تبلى ، ويطلب غيرها لمجرد ان جاره قد سبق واشتراها .

واذا كان نظام الاستغلال « القديم » يتطلب انتشار ايديولوجية تقوم على قبول انقسام حديدي بين الطبقات يتناسب مع انقسام المجتمع الى عمال وارباب عمل وترسيخ الاعتقاد باستحالة الانتقال من طبقة الى طبقة اعلى ، والرضا بقدر المرء ونصيبه ، فان نظام الاستغلال « الجديد » يتطلب نشر ايديولوجية مختلفة تماما ، تقوم على التطلع المستمر الى تغيير المرء لطبقته الاجتماعية عن طريق الاستهلاك ، وسخط المرء المستمر على وضعه الاقتصادي ، وتشجيع الحسد والغيرة ممن يتمتعون بمستويات استهلاك اعلى .

ان المطلوب الآن هو ايديولوجية تمجد الاستهلاك لا الادخار ، وتشجع الفرد على التعبير عن كل نزوة مهما كان طيشها وحماقتها ، وتعرف النمو بأنه زيادة ما يحوزه الفرد من سلع ، وتعرف الحياة الطيبة بأنها حياة الترف .

التغيير للتغيير

في الماضي كان شعار التغيير هو الشعار الذي يرفعه الاشتراكيون ، بينما كان اليمين يقترن بالمحافظة ويدعو الى استمرار الأشياء على ما هي عليه . وقد كان هذا يتفق مع مصلحة ارباب العمل في قبول العمال لوضعهم الاقتصادي . اما الآن فان التغيير لمجرد التغيير ، أصبح هو شعار ارباب المشروعات انفسهم ، لأنه هو الذي يضمن تصريف المنتجات الجديدة .

كان انتاج الأسلحة في الماضي ، حينما كان محل الاستغلال هو العامل لا المستهلك ، يحقق في الاساس وظيفة القمع ، قمع الحركات الثورية في الداخل او حركات الاستقلال في المستعمرات ، او محاربة دولة منافسة للدولة المستعمرة في الأراضي الخاضعة لنفوذها . اما الآن فيبدو وكأن الأسلحة اصبحت تنتج ، الى جانب ذلك ، لتزويد جيوش لا تحارب ابدا ، وتدخل في معارك لا يمكن ان تنتصر فيها ، او للاستعداد لحرب اختلق سببها اختلاقا ، لا لشيء الا لتبرير بيع السلاح وشرائه . وهكذا بينما كان ضحية الحروب في الماضي هم القتلى والجرحى والمدن المخربة ، اضيف الى ذلك الآن مشترو السلاح أنفسهم ، وشعوب الدول التي تبدد اموالها على شرائه ، وتدعى الى الاشتراك في حروب لا تريدها ، ولم تخطر ببالها .

واذا كان نظام التعليم في ظل الاستغلال القديم يستهدف اساسا تخريج منتجين او مساهمين أكفاء في العملية الانتاجية ، فان نظام التعليم يتحول الآن ، أكثر فأكثر ، الى نظام وظيفته تخريج « المستهلك الكفء » ، يتطلع الى نفس ما يتطلع اليه المجتمع باسره ، قد لا يجيد العمل ولكنه يجيد الاستهلاك والتمتع بالحياة . فاذا بالمدرسة تصبح أقرب الى الملهى ، ويدخلها التلفزيون ، وتشجع أكثر الميول الفردية هوائية باسم « تنمية الشخصية » ، وتقبل ان تقوم بوظيفة الاعلان عن السلع التي تبحث عن مستهلكين جدد ، وتوزع على طلبتها الجوائز التي تتلقاها المدرسة مجانا من المنتجين .

كان ارباب المشروعات في الماضي ، اذا ارادوا زيادة ارباحهم ، يلجأون الى مختلف الاساليب لرفع انتاجية عمالهم ، ولو ادى ذلك الى السماح باستماعهم الى الموسيقى اثناء تأديتهم لعملهم ، او التوسع في الخدمات الاجتماعية المقدمة اليهم كاقامة ناد او حمام للسباحة لهم ولأطفالهم . أما الآن فقد تحول نظر ارباب المشروعات الى فريستهم الجديدة المستهلك ، فتركوا المصانع ، حيث يوجد العمال ، الى الشوارع والمقاهي والنوادي ، بل واقتحموا على المستهلك داره عن طريق الاذاعة والتلفزيون . فاذا بشركات السجائر تمول المباريات الرياضية ، وشركة للسيارات تمول برامج ثقافية او ترفيهية ، وتوزع الأقلام والولاعات والسيارات والشاي المجانية ، وسوف نجدها بعد قليل تبني المدارس وربما المساجد والكنائس بشرط ان يحفر اسمها على الابواب او يذكر اسمها في الخطب !

دخول بلا انتاج

لا عجب ايضا ان نجد اعدادا متعاظمة من الناس قد أصبحوا يحصلون على دخول لا تتناسب على الاطلاق مع ما يساهمون به من انتاج . فلو كان الهدف هو حقا اقتطاع فائض القيمة من العامل المنتج لاستعصت هذه الظاهرة على التفسير . اذ نحن هنا بصدد ظاهرة عكسية تماما .. دخول لا يقابلها انتاج ، بدلا من انتاج لا يقابله الحصول على دخل ، دون ان ينتمي صاحب الدخل الكبير الى طبقة ارباب المشروعات . فالحقيقة هي ان هدف المنتج قد تحول من العامل الى المستهلك . وأنت تقوم بوظيفة « منتجة » للغاية ، ولو لم تنتج شيئا على الاطلاق ، اذا ثبت أنك « مستهلك كفء » ، كما لو ظهر مثلا انك رجل « عصري » تجيد الحديث في الحفلات وتحسن اختيار ملابسك وطعامك وتنطق بالكلمة المناسبة في المجتمع المناسب ، وتعرف أكثر من لغة ، ولا تتساءل باستمرار عن الهدف مما تعمل (فالهدف لا يعدو المزيد من الاستهلاك) ، وترسل أطفالك الى مدارس أجنبية ، اذا كنت تنتمي الى دولة متخلفة تتشبه نفس النشأة .

فاذا كنت ذلك الرجل ، فلن تكون هناك نهاية لعدد ما سوف تدعى اليه من مؤتمرات ، بصرف النظر عما اذا كان لديك شيء ذو بال تقوله ، او لعدد الرحلات مدفوعة التكاليف التي ستهيأ لك ، بل ولن يكون هناك حد أقصى لما يمكن ان يصل اليه مرتبك ، بصرف النظر عما تؤديه من عمل بالفعل . في ضوء ذلك تأمل التوسع الهائل في عدد موظفي الهيئات الدولية ولتقارن مرتباتهم بما يؤدونه بالفعل من عمل ، او فلتتأمل ركاب الدرجة الأولى في الطائرات او نزلاء الفنادق الذين لم يدفعوا شيئا من تكاليف سفرهم او اقامتهم ، وعدد المؤتمرات التي تنعقد في كل عواصم العالم دون ان تنتهي الى شيء او بدلات السفر السخية التي يحصل عليها موظفو الدولة الكبار او ممثلو الشركات في تنقلاتهم اليومية . ان القدرة الحقيقية التي يحوزها هؤلاء جميعا ليست هي القدرة على الانتاج بل هي القدرة على الاستهلاك .

عن الاستهلاك المحافظ

بل ان هذا السخاء البالغ في الانفاق على القادرين على الاستهلاك سوف تزول غرابته ، وتتبين لنا مدى « عقلانيته » متى تأملنا ما يحدث من تمييز بين الدخول التي تذهب للفئات المختلفة من المستهلكين ذلك انه اذا كان صحيحا اننا جميعا مستهلكون بشكل او بآخر ، بدرجة او بأخرى ، فان ارباب المشروعات لا يسوون بيننا من حيث كفاءتنا الاستهلاكية . فالسلع تتفاوت فيما بينها تفاوتا كبيرا من حيث مدى حاجتها الى التصريف وافتقارها الى المستهلكين ، ونحن المستهلكين ، من ناحية اخرى ، نتفاوت تفاوتا كبيرا فيما بيننا من حيث نوع السلع التي نقبل على استهلاكها . فالمسنون مثلا ليس لديهم نفس القدرة على استهلاك السلع الحديثة التي لم يعتادوا استخدامها وليس لديهم الاستعداد النفسي للاقبال عليها ، بعكس الاطفال وصغار السن الذين يستهويهم كل جديد ويقبلون على التغيير لمجرد التغيير . قل مثل ذلك على تلك الفئات المحافظة من المستهلكين بحكم انعزالهم عن تيار الحياة الحديثة ، او بحكم جذورهم الريفية او نوع تعليمهم ، ان هذه الفئات من

المستهلكين لا يفيد ارباب المشروعات فائدة كبيرة من ارتفاع دخولهم اذ الارجح انهم اذا زادت دخولهم سوف ينفقونها على نفس السلع القديمة التي اعتادوا استهلاكها ، او سوف ينفقونها على السلع المحلية التي لا مصلحة للمصدر الأجنبي في ترويجها ..

لا عجب اذن ان تجد هذه الفئات ، ذات الاستهلاك المحافظ ، هي اشد الناس معاناة من التضخم ، اذ لا تزيد دخولهم في العادة بنفس المعدل الذي ترتفع به الأسعار ، كما تجدها أقل الفئات انتفاعا من القروض والمعونات الأجنبية المقدمة للدول الفقيرة ، اذ ينفق الجزء الأكبر من هذه القروض على ما يزيد في النهاية من دخول الاقدر على استهلاك واستيراد السلع المراد ترويجها .

لا عجب أيضا ان ترى شيوع تدليل الأطفال والاستجابة الفورية لطلباتهم ، بل وشيوع الاستقلال الاقتصادي لصغار السن عن عائلاتهم وتشجيعهم على العمل وكسب الدخل وهم لا يزالون في مقتبل العمر . كما تجد ان أعلى مستويات الدخل يحصل عليها ليس فقط المستهلكون الاكفاء بل ومروجو الاستهلاك كالمشتغلين بالدعاية والاعلان ، او المذيع الناجح في التلفزيون او مصمم الأزياء ، وتستطيع ان تضيف الى ذلك اذا اردت ، ابواق الدعاية السياسية في الدول الشمولية والاشتراكية .

فهؤلاء وان كانوا لا يروجون سلعا مادية فانهم يروجون شعارات يسمح قبولها وانتشارها لصانعي القرار باتخاذ ما يرونه من سياسات اقتصادية .

ان هذه النظرة قد تسمح لنا بتفسير بعض الانطباعات الغامضة التي تساورنا جميعا ونحن نتأمل ما آلت اليه الحياة الحديثة . فالصورة القديمة التي دأبنا على حملها وهي صورة العامل الكادح المضطهد الذي يستغله الرأسمالي الجشع لم تعد بالقطع هي الصورة التي تطالعك وأنت تتأمل المجتمع المسمى بمجتمع الرخاء الحديث ، بل انها آخذة في التراجع في القطاعات الحديثة في كثير من البلاد المسماة بالمتخلفة . وانما اكثر ما يسترعي انتباهك لدى تأمل هذه المجتمعات او هذه القطاعات هو صورة قطعان المستهلكين ، المنتمين الى مختلف الطبقات ، تسوقهم يد خفية الى المحلات الزاخرة بالسلع ، ويسيل لعابهم لما يشاهدونه وراء الفاترينات الزجاجية اللامعة ، ويعودون فرحين بما جمعت ايديهم ثم يفيقون في الصباح على آمال لم تتحقق ، ورغبات لم تشبع ، فيهرولون من جديد بحثا عن مصادر جديدة للدخل ، وهكذا في دوامة لا تنتهي .

في الدول الاشتراكية

كذلك فان الصورة القديمة عن مجتمع اشتراكي ، زال فيه الاستغلال لمجرد ان ملكية وسائل الانتاج قد انتقلت من يد الرأسمالي الى يد الدولة ، واستعاد فيه الفرد حريته وسيطرته على مصيره ، لم تعد هي ايضا الصورة التي تطالعك وأنت تتأمل ما يحدث في البلاد المسماة بالاشتراكية . قد لا يكون النهم الاستهلاكي قد وصل في هذه الدول الى ما وصل اليه في الدول الرأسمالية ولكن هناك من الدلائل ما يشير الى انه سائر اليه ، والأهم من ذلك ان ما نسميه بتطويع المستهلك وترويضه في الدول الاشتراكية يحمل بعض السمات المشتركة مع تطويع المستهلك وترويضه في الدول الرأسمالية . كل ما هنالك ان ما يباع للمستهلك في ظل الاشتراكية ما زال يحتوي على جرعة كبيرة من الشعارات السياسية والايديولوجية .

عندما كتب جورج اورويل منذ نحو أربعين عاما روايته الشهيرة « ١٩٨٤ » كان يتصور فيما يبدو مآل الدولة الشمولية في إخضاع المستهلكين وتحويلهم الى قطعان مسلوبة الارادة . وان المرء ليتساءل ، وقد كاد هذا التاريخ ، ١٩٨٤ ، ان يشير الى الحاضر لا الى المستقبل ، عما اذا كان ما تصوره جورج اورويل قد كاد ينطبق على النظامين الرأسمالي والاشتراكي على حد سواء . ذلك ان هناك شبها يستوقف النظر بين ما تراه على شاشات التلفزيون في الغرب ، من رجل وكأنه به لوثة يستحثك على شراء سيارة حديثة . وبين ما تسمعه من رجل ، يبدو وكأن به لوثة ايضا ، يردد شعارات الحزب الاشتراكي الحاكم ويدعوك الى الثقة العمياء بقيادته . وهناك شبه ملفت للنظر ايضا بين الزي الموحد الذي يرتديه الموظفون لدى شركة رأسمالية كبيرة ، والألوان الموحدة التي يستخدمها في الدعاية لمنتجاتها ، وبين الشعارات والرموز الموحدة التي تستخدمها الدولة الاشتراكية . وفي كلا الحالين تجد اشد الناس مقتا لهذه العملية المستمرة من الخداع والتمويه ليسوا هم العمال ، بل المثقفون وأصحاب الرأي . وهؤلاء لا يعبرون عن مصلحة طبقة بعينها ، بل عن جمهور المستهلكين بأكملهم .

على ان من المهم ايضا ان نلاحظ ان الاستغلال لم يكن له ابدا ، في اي عصر من العصور ما للاستغلال الجديد من جاذبية وحلاوة الطعم ؛ فلا أظن أننا بحاجة

الى المقارنة بين ما اقترن به قهر العمال في القرن الماضي من قسوة وبطش وما يقترن به اليوم استغلال المستهلك من نعومة ومحاولات الاسترضاء . فالاستغلال الذي يتعرض له المستهلك اليوم يصور وكأن المستهلك قد اختاره بمطلق حريته ويستعيض عن بنادق الشرطة بوجوه الحسان من مروجات السلع ، ويبيع ما لا تحتاج اليه باسم الرخاء او باسم العصرية والتمدن ، وبعد ان يخضعك لنوع من التنويم المغناطيسي ، تتوهم معه أنك لم ترد ابدا شيئا سوى ما يعرضه عليك . أضف الى ذلك أنه بينما تجد من يقوم باستغلال العمال ، معروف الاسم واضح الهوية ، فان القائم باستغلالك اليوم لا تعرف له اسما ولا هوية ، فهو ليس منتجا فردا بل مجموع المنتجين ، ومعهم الدولة نفسها وكل وسائل الاعلام والترويج ، بل ومنظمات التمويل الدولية ، وكل من يساهم في تحويلك الى مستهلك كفء . والدور الذي يمارسه كل من هؤلاء في عملية الترويض والتطويع ليس واضحا تمام الوضوح . فما هي بالضبط مسئولية الدولة في ارتفاع معدل التضخم ؟ لا يعرف أحد . وما هو بالضبط السعر الذي يجب ان تباع به السلعة ، وما هي نفقة انتاجها الحقيقية ؟ فاذا فرض واستطعت ان تحدد عدوك الحقيقي ، فماذا أنت فاعل ؟ واذا كان عمال العالم لم يستطيعوا ان يلبوا الدعوة الشهيرة « ياعمال العالم اتحدوا » فكيف يتأتى لمستهلكي العالم ان يتحدوا ؟

الا يمكن لهذه النظرة أيضا ، التي تركز على ما يتعرض له المستهلك من قهر ، ان تلقي ببعض الضوء على تلك الظاهرة الجديدة التي تستحوذ على درجة عالية من اهتمام الجميع ، وهي ما يمكن ان نسميه بظاهرة « العودة الى التراث » ؟ ان هذه الظاهرة ليست مقصورة على بلد دون آخر ، بل ولا على بلاد العالم الثالث . ففي الدول الصناعية ظاهرة ، وان اختلفت اختلافا كبيرا عن ظاهرة العودة الى التراث ، فهي تحمل بعض السمات المشتركة معها ، وهي ظاهرة الدعوة الى العودة الى الطبيعة ، والثورة على مادية المجتمع الاستهلاكي وعلى قيم مجتمع الرخاء وتطلعاته . ففي الحالين نجد الثورة والرفض لا يتخذان مظهرا طبقيا ، فليست الدعوة في اي منهما موجهة الى طبقة بعينها ، بل الى نمط الحياة الاجتماعية باسرها ، ولا تقوم بها طبقة معينة بل يقودها المثقفون . وهم لا يثورون على استغلال مادي بل على استعباد نفسي .

بل وقد يكون هناك وجه للشبه بين الدعوة الى العودة الى التراث في دول العالم الثالث ، وما نلاحظه من بعث في الحركات القومية في كثير من الدول الصناعية ، كالثورة الايرلندية ، ونمو الشعور القومي في اسكتلندا وويلز ، وصحوة حركة الزنوج في أمريكا .. الخ ففي الحالين نجد محاولة للحفاظ على مقومات الشخصية التي يهددها المجتمع الصناعي الحديث بالذوبان والضياع ، وثورة على ما يعطي للقيم الاقتصادية من اولوية على القيم الروحية ، وفي جميع الأحوال نجد محاولة لمقاومة ذلك التيار الكاسح الذي يحاول تحويل الجميع الى مجرد مستهلكين . ذلك أنه اذا كان من المفهوم ان يولد الاستغلال المادي صراعا طبقيا ، فان من المفهوم أيضا ان يولد الاستغلال النفسي رد فعل من نفس النوع . ■■

القاهرة ـ د . جلال أمين

وسواس !

● دعي الكاتب الفرنسي « اميل لودفيج » الى العشاء ، فلما جلس الى المائدة لاحظ ان الكوب الموضوع أمامه غير نظيف ، فنظفه بفوطته .. ورآه الخادم حينذاك فرفع ذلك الكوب ووضع بدله كوبا آخر . ولكن الكاتب الكبير لاحظ ان هذا الكوب ايضا ملوث فنظفه بفوطته .. ثم رأى الخادم يهم برفعه ووضع كوب آخر ، فاستوقفه غاضبا وقال له :

ـ ماذا جرى ؟ هل من المحتم علي ان انظف لك جميع اكواب المنزل ؟

بمناسبة فتوى القات :

فقهاء المسلمين
دعوة إلى تعريف جديد

بقلم : فهمي هويدي

من يفتينا في القات : حلال هو أم حرام ؟

ربما كان السؤال متأخرا بعض الشيء ، لان الفتوى اصدرها بالفعل فريق من الفقهاء ، فذهب البعض منهم الى تحريمه ، وذهب الاخرون الى أنه حلال لا حرمة فيه ، وتوقف الامر عند هذا الحد ، حتى اشعار آخر !

ولست في موقف يمكنني من الانحياز لاي من الرأيين ، ليس فقط لأنني خضت تجربة فاشلة لتذوق القات في « مقيل » صنعاني ، ولكن لأن الذين أصدروا الحكم في القضية كانوا من الفقهاء في علوم الدين ، والامر متعلق بعلوم الدنيا ، الامر الذي نستغرب معه ان يفصل فقهاء العلوم الشرعيه في أمر هو من اختصاص اهل الطب والكيمياء !

من هنا ، فان الطعن الذي اقدمه هنا ـ اذا استعملنا التعبير القانوني ـ هو في الشكل بأكثر منه في الموضوع . اي في مبدأ اختصاص الفقهاء بالحكم في قضية القات ، وليس بنوعية هذا الحكم ، وما اذا كان بالحل او بالتحريم .

انني هنا أطعن في المحكمة ، وليس في الحكم !

ذلك انه عندما يخول الفقهاء بالافتاء في اية قضية علمية ، فان الامر يحتاج الى مراجعة ، حتى ولو كان بين هؤلاء ، قاضي القضاة ، وأوسع أهل الفقه علما ومعرفة . وليس في ذلك تقليل من قدر هؤلاء ، فعلمهم يظل محل كل التقدير والاجلال ، وفضلهم لا ينكره أحد ، وكلامهم على العين والراس .. انما غاية الامر ان الفقيه هنا يتكلم في غير اختصاصه .

●

على اني قبل أن أعرض حيثيات الطعن ، استأذن في كلمة حول مسألة تقرير ما هو حلال وما هو حرام . ذلك ان ظاهرة المسارعة بالقاء وصف التحريم تكاد تستفحل الان بصورة لا تظلم المسلمين فقط ، انما تظلم الاحكام الشرعية ايضا . اذ بات أهل الفقه ـ وقد كثر عددهم ولله الحمد ـ يلقون بكلمة الحرام في أمور عديدة ، وقد تكون من قبيل المكروهات ، او العادات المرذولة .

والتدخين ـ دعك من القات ـ مثال على ذلك . فالمؤتمر الاسلامي لمنع المسكرات ، الذي قرر ان القات « من المخدرات المحرمة شرعا » نص في توصية اخرى لاحقة على « تأييد الفتاوي الصادرة من العديد

من كبار فقهاء المسلمين بتحريم التدخين ، بجميع صوره وأشكاله ، نظرا لضرره على الصحة والمال » . هكذا بغير تفرقة بين صحيح او عليل ، وكثير او قليل .. وبغير تفرقة بين السجائر والسيجار والغليون ، واثر كل منها مختلف كما يقول اهل العلم . فضلا عن انني لا أريد ان اتطرق الى ما هو ابعد ، مثل الذين يعلقون لافتة « الحرام » على مختلف أشكال الموسيقا والغناء والتصوير والرسم والعطور ، فتلك مباحث اخرى .

وقد كان منهج السلف الصالح في معالجة أمور المسلمين وهمومهم أكثر تحرزا وتدقيقا ، وأشد احتياطا في اطلاق اوصاف الحلال والحرام . فقد روي الامام الشافعي في كتابه « الام » عن القاضي ابي يوسف صاحب ابي حنيفة قوله : ادركت مشايخنا من أهل العلم يكرهون الفتيا ان يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، إلا ما كان في كتاب الله عز وجل بينا بلا تفسير .

ثم يضيف ابو يوسف قوله : حدثنا ابن السائب عن الربيع بن خيثم ، وكان أفضل التابعين ، انه قال : إياكم ان يقول الرجل ان الله أحل هذا او رضيه ، فيقول الله له ، لم أحل هذا ولم أرضه .. او يقول : ان الله حرم هذا ، فيقول الله : كذبت ، لم احرمه ولم أنه عنه !

.. وحدثنا بعض أصحابنا عن ابراهيم النخعي ـ وهو من كبار فقهاء التابعين بالكوفة انه حدث عن اصحابه انهم كانوا اذا أفتوا بشيء او نهوا عنه قالوا : هذا مكروه ، وهذا لا بأس به ، أما ان نقول : هذا حلال وهذا حرام ، فما أعظم هذا !

هذا ما نقله ابو يوسف عن السلف الصالح . ونقله عنه الشافعي ، وأقره عليه ، كما نقل ابن مفلح عن شيخ الاسلام ابن تيمية : ان السلف لم يطلقوا الحرام الا على ما علم تحريمه قطعا [1] .

وهنا ينبغي أن نتذكر ما روي عن الصحابة من انهم لم يجتنبوا الخمر اجتنابا كليا بعد نزول آية البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ـ ٢١٩) .. اي رغم اشارة القرآن الى ما فيها من « اثم كبير » ، وإنما حدثت مقاطعة الخمر عندما نزل التحريم الصريح والقاطع في سورة المائدة : يأيها الذين آمنوا ، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ـ (٩٠)

تلك « نقطة نظام » اردت أن انبه اليها في البداية ، حتى يترفق اهل الفقه والافتاء بالمسلمين وباحكام الاسلام ، فان الله يحب الرفق في الامر كله ، كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام .

وهنا قد نحتاج ايضا لان نذكر ببديهية اخرى في التفكير الاسلامي ، وهي التي يشير اليها الشيخ محمود شلتوت بقوله : ان الاسلام لا يخص أحدا بحق الاستثناء بتفسير النصوص ، ولا بحق الزام الناس برأيه ، بل يمنح هذا الحق لكل مسلم حائز لاهلية البحث ، أما من ليست له أهلية البحث ، فان واجبه ان يسأل ارباب الاهلية عما يحتاج اليه . ولا يلزم باتباع شخص معين ، اذ لا واجب الا ما أوجبه الله ورسوله . ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يدين بمذهب فقيه معين ، فايجابه تشريع مشرع جديد .. ولم يزل الناس من الصدر الاول يسألون من يرون من الباحثين المعروفين ، من غير تقييد برأي معين منهم ..

وعلى ذلك فان تلك الالقاب التي اصطنعت والمؤسسات التي انشئت للتصدي لامور الدين عند المسلمين ، بالتفسير والتقرير والافتاء ، انما هي من قبيل التنظيمات المستحدثة ، التي قد تنبني على سد حاجات طرأت ، ولا سند لها من أصل شرعي في التعاليم الاسلامية ، فضلا عن ان احدا لا يستطيع القول بأنها ـ دون غيرها ـ المخول في الافتاء . فليس في الاسلام كهنوت ولا اكليروس ، وليس لاحد ان يزعم وصاية على عقيدة احد ، ولا سلامة تلك العقيدة ، كما انه ليس لاحد ان يزعم نطقا باسم السماء ، ولا اطلاعا على اسرارها ، ولا وساطة بين الخلق والخالق .

(١) د . يوسف القرضاوى الحلال والحرام في الاسلام ـ ص ٢٤ .

نعم ، هناك قواعد متفق عليها للافتاء ، اهمها الا يفتي المرء بغير علم ، ولكن السؤال : هو : علم بماذا ؟

تنسب الى الامام احمد بن حنبل قوله ، فيما رواه عنه ابنه صالح ، ينبغي للرجل اذا حمل نفسه على الفتيا ان يكون عالما بوجوه القرآن ، عالما بالاسانيد الصحيحة ، عالما بالسنن .

وقيل لابن المبارك ، متى يفتي الرجل ؟ قال : اذا كان عالما بالاثر ، وبصيرا بالرأي .

ويفصل ابن قيم الجوزية الامر في كتابه اعلام الموقعين ـ (جـ ٤) وتستوقفنا في تفصيله الاشارات التالية :

ـ إن الاجتهاد حالة تقبل التجزؤ والانقسام ، والمجتهد في نوع من العلم له ان يفتي فيه ولا يفتي في غيره ..

ـ من افتى الناس وليس باهل للفتوى ، فهو آثم عاص ، ويلزم ولي الامر منعه ، اذ هو في تلك الحالة بمنزلة من يدل الركب وليس له علم بالطريق .

ـ من فقه المفتي ونصحه ، اذا سأله المستفتي عن شيء فمنعه منه ، وكانت حاجته تدعوه اليه ، ان يدله على ما هو عوض له منه ، فيسد عليه باب المحظور ، ويفتح له باب المباح .

ـ لا يجوز للمفتي ان يشهد على الله ورسوله بانه أحل كذا أو حرمه أو أوجبه أو كرهه ، الا بنص قاطع .

ـ لا يجوز للمفتي أن يأخذ أجرة عن فتياه ، التي هي بمثابة تبليغ عن الله ورسوله ، فلا تجوز المعاوضة عليه . ويجوز له ان يأخذ الرزق من بيت المال اذا كان محتاجا .

ويذكر ابن الجوزيه ما يفهم منه ان شيخ الاسلام ابن تيمية جعل محتسبا على الفتوى ، اي رجلا له ان يتحقق مما اذا كان أهل الافتاء مؤهلين لذلك أم لا .. وينقل عن ابن تيميه قوله : قال لي بعض هؤلاء : اجعلت محتسبا على الفتوى ؟ فقلت له : يكون على الخبازين والطباخين محتسب ، ولا يكون على الفتوى محتسب ؟!

ويروي عن الامام مالك انه سئل عن مسألة فقال : لا أدري . فقيل له ، انها مسألة خفيفة سهلة فغضب وقال : ليس في العلم شيء خفيف ، أما سمعت قول الله عز وجل « انا سنلقي عليك قولا ثقيلا» ، فالعلم كله ثقيل ، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة ..

●

اننا اذا أردنا أن نعالج مسألة الافتاء في هدى تلك الرؤى ، وفي ضوء اعتبارات زماننا ، من حيث تجدد احتياجات الناس وتفجر المعارف والعلوم ، فانه ينبغي علينا ان نعيد النظر في امرين :

الامر الاول : فكرة الفقيه المطلق ، الذي بلغ من العلم مرتبة تؤهله للفتيا في مختلف امور الدين والدنيا ، بحيث ننتقل من فقه الفرد الى فقه الفريق او الجماعة .

والامر الثاني : تعريف الفقيه المسلم : وهل هو فقط العالم بالكتاب والسنة والحافظ لاقوال المتقدمين ، أم انه ايضا من حسن اسلامه وتمكن من اي فرع من علوم الدنيا .

وفيما يتعلق بالامر الاول ، فان وظيفة « المفتي » الشائعة في الكثير من دول العالم الاسلامي ـ تصبح من الخطورة بمكان . اذ يستحيل عمليا على رجل واحد مهما بلغ علمه ان يفتي بنفسه في كافة الامور التي تستشكل على المسلمين . ورغم ان العصر الاسلامي الاول لم يكن بحاجة الى التخفيض او تجزئة الاجتهاد ـ فانهم عرفوا هذا النوع من التجزئة ، فقد عرف عن عبدالله بن مسعود انه اعلم الصحابة بالسنة . وعرف عن ابي موسى الاشعري درايته بالقضاء ، ونقل عن مسروق قوله ان الاحبار من اصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسألون السيدة عائشة عن الفرائض . وقال ابن سيرين عن عثمان بن عفان انه كان أعلم اصحاب الرسول بالمناسك . ومن حديث للنبي ﷺ : خذوا القرآن من أربعة : من

ابن ام عبد (عبدالله بن مسعود) ومن ابي بن كعب ، ومن سالم مولى حذيفه ، ومن معاذ بن جبل ... وهكذا .

بل انهم في ذلك العصر الاسلامي الاول عرفوا تداول الفتيا بين ذوي العلم والرأي . قال الشعبي . ثلاثة يستفتي بعضهم من بعض . كان عمر وعبدالله وزيد بن ثابت يستفتي بعضهم من بعض . وكان علي وأبي بن كعب وابو موسى الاشعري يستفتي بعضهم من بعض (٢) .

وحتى لا يبادر احد الى الاستناد الى حالات اخرى ـ عديدة ـ لم يكن يحدث فيها مثل هذا التداول ، أقول انه حتى اذا كانت فكرة الفقيه المطلق واردة منذ ١٤ قرنا . فاننا نذكر بان العلم في زماننا غير العلم في زمانهم . ولست أظن ان ذلك امر يحتاج الى تدليل او إثبات .

وفيما يتعلق بالامر الثاني ، تعريف الفقيه ، فاحسب انه بحاجة اشد الى اعادة نظر ومراجعة .. فاستنادا الى تعريف علم الفقه في الاصطلاح الشرعي ، من انه العلم بالاحكام الشرعية العملية المكتسب من ادلتها التفصيلية ـ كما يقول استاذنا عبدالوهاب خلاف ـ فان ثمة اتفاقا مستقرا على ان الفقيه هو الذي تمكن من العلوم الشرعية دون غيرها .

وقد يصلح هذا التوصيف لمرحلة أصر فيها المتطرفون من أهل السنة على أن « العلم » هو وحده الموروث عن النبي ﷺ ، وما عدا ذلك فليس من العلم ، او من المعرفة التي لا تنفع ولا تستحق التحصيل .ولكن بعدما استوعب المسلمون موجة العلوم « المستوردة » من اليونان ، وتبددت مخاوف بعضهم من خطر تلك العلوم على عقائد المسلمين ، وهو الخطر الذي لاح في تعاطي الفلسفة والمنطق بوجه أخص فشنوا عليها هذا الهجوم الشديد .. بعد تلك المرحلة ، ذهبت مظنة الاتهام عن العلوم العقلية ، ورفعت أسماؤها من القوائم السوداء ـ بلغة زماننا ـ ومع ذلك بقي الفقه هو الاحكام الشرعية دون غيرها ، وبقي الفقيه هو ـ دون غيره ـ العالم بتلك الاحكام !

اي ان المسيرة اتجهت وجهة صحيحة ، ولكن المسميات المرتبطة بها ظلت اسيرة مرحلة المخاوف والشكوك والاتهام !

ولربما كان الامر مقبولا لو ان تعاليم الاسلام وقفت عند حدود العقائد والاخلاق والروحانيات والعبادات ، بالمعنى الشائع ، مما يصبح مسوغا لاعتبار الفقيه واحدا من « علماء اللاهوت » . ولكنه ليس من قبيل الاكتشاف القول بان الاسلام يتجاوز تلك الحدود ، بحيث تغطي تعاليمه مساحة تستوعب العبادات والمعاملات ، وتظلل حياته الروحية والعقلية ، وهذا الاتساع والشمول ، كان يستتبع بالضرورة توسيع معنى الفقيه ، لا ليصبح فقط كل من احاط بالعلوم الشرعية ، ولكنه ايضا كل من حسن اسلامه وتمكن من العلوم الاخرى .

فليس مفهوما ان يعد المسلم فقيها اذا أحاط بأي من علوم النحو والبيان والقراءات ، بينما لا يعد كذلك اذا تمكن من علوم القانون او الاقتصاد او الطب !

وتعريف الفقيه بانه العالم بالاحكام الشرعية ، هو تعريف اصطلاحي ، ولكن الفقيه في اللغة هو القابض على ناصية العلم ، وكان شديد الفهم والذكاء .

وازعم اننا الآن بتنا في أشد الحاجة للعودة الى اعتداد الفقيه بالمعنى اللغوي ، بعدما اصبح المعنى الاصطلاحي قاصرا عن استيعاب الدائرة التي تغطيها تعاليم الاسلام .

●

لقد تعجب أحد كبار اساتذة القانون الدستوري ، هو الدكتور عبدالحميد متولي ، من « ان يكون استاذ القانون الدستوري المسلم اهلا لان يبحث ولان يبدي رأيا في المسائل الدستورية المتعلقة بالانظمة

---

(٢) ابن قيم الجوزية ـ اعلام الموقعين جـ ١ ص ١٥ .

الغربية وغيرها من أنظمة الحكم للدول الاجنبية ، ثم لا يكون أهلا لذلك بصدد البحث للمسائل الدستورية والشرعية الاسلامية[٣]

ان الكم الهائل من الامور التي استجدت على حياة المسلمين ، والتعدد الذي لا حصر له في جزئية وصيغة كل امر ، يفرض بما لا يدع مجالا للتردد ضرورة ان يتقدم الخبراء المسلمون ليقفوا جنبا الى جنب مع الفقهاء ، بحيث لاتصدر الفتوى الا بعد حوار موسع ومتكافىء بينهما .

وثمة حالات اخرى ، ينبغي ان تكون الكلمة الاخيرة فيها للخبير المسلم ، اذا كان الحكم الشرعي لا يحتمل الالتباس ، او اذا كان حظ العلم فيها أكبر من حظ الفقه . وعلى سبيل المثال ، فان تعدد صور البيع والاجارة والشراء ، ومجالات النشاط الضخمة والمتنوعة التي أصبحت تعمل فيها البنوك وشركات التأمين ومؤسسات الادخار والتوفير والبورصات ، ذلك كله طرح جوانب فنية بالغة الدقة والتعقيد ، تتجاوز قدرة اي عالم بالاحكام الشرعية . الامر الذي يفرض علينا فرضا ان ندعو اهل الاختصاص او الاقتصاد لكي يدلوا بدلوهم اولا ويدلونا على مايمكن أن تسميه اقتصادا إسلاميا ولمالك بن نبي رأي محدد في هذا الامر يقول فيه انه « ليس من اختصاص الفقهاء الاسلاميين ان يدلوا على الحلول الاقتصادية ، سواء كانت مستنبطة من القرآن والسنة او غير ذلك ، وانما اختصاصهم ان يقولوا في شأن الحلول التي يقدمها اهل الاختصاص ، هل هي تطابق الشريعة الاسلامية أم لا »[٤]

وتعالوا ندلل على ذلك بمثال آخر من الطب ..

ذلك أنه استقر بين الفقهاء ، ان الروح تدب في الجنين في مرحلة لاحقة من تكوينه ، وذلك اعتمادا على الآية الكريمة التي تقول : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون ١٢، ١٣، ١٤) .

وكان اجتهاد المفسرين وبينهم الطبري وابن كثير ، ان عبارة « ثم انشأناه خلقا آخر » تعني نفخة الروح فيه . الامر الذي يفترض انه لا يكون لتلك الروح وجود في الجنين خلال المراحل السابقة التي ذكرتها الآية . وبناء على ذلك أفتى البعض بجواز اسقاط الحمل قبل وجود الروح في تلك المرحلة التي قدروها بأربعة أشهر ، على أساس أنه لا توجد عندئذ حياة يعتدى عليها ، فلا جناية ، ومن ثم لا حرمة .

لقد أثبت الطب فيما بعد أن الروح ـ والحياة بالتالي ـ تدب في الجنين منذ اليوم الاول للحمل . الامر الذي يعني أن تفسير عبارة القرآن الكريم « ثم انشأناه خلقا آخر » على النحو الذي ذكره الفقهاء يفتقد الى الدقة العلمية . اذ ليس صحيحا ان المقصود بانشاء الخلق هو نفخ الروح في الجنين . وبالتالي فلا محل لتلك الاجتهادات التي انبنت على ذلك التفسير واجازت اسقاط الحمل خلال الاشهر الأربعة الاولى . ويصبح هذا الاسقاط ـ في غير حالة الضرورة بطبيعة الحال ـ عدوانا على حياة الطفل ، وجناية اذا ما تم في اي وقت بعد ثبوت الحمل ..

●

ان احدا لا يستطيع ان يدعو الى الغاء دور الفقهاء في الاحكام الشرعية ، ولكن ما ندعو اليه ونلح فيه ان يعطي حجم مماثل لفقهاء العلوم الاخرى من المسلمين ، واذا جاز لمجامع اللغة العربية ان تضم الى عضويتها اطباء ومهندسين وجيولوجيين ليدلوا بدلوهم فيما يفقهون ، فأولى بمجامع الرأي في شئون المسلمين ان تفسح مقاعدها ـ وصدورها من قبل ـ لهؤلاء العلماء ، ليقول كل كلمته في اختصاصه .

ورحم الله ابن عباس الذي قال : من أفتى الناس في كل ما يسألون عنه فهو مجنون !!

والله اعلم !

---

(٣) د . عبد الحميد متولي ـ ازمة الفكر السياسي الاسلامي ص ١٧٢ .

(٤) مالك بن نبي ـ المسلم في عالم الاقتصاد ـ ص ١٢ .

أرقــام

نقود سريعة الانتشار !

محمود المراغي

يبدو أن الغرب قد ضبط بعض البلدان النامية متلبسة بزيادة دخلها فصاح متزعجا : « اضبط .. انهم يثرون على حساب العالم » !

حدث ذلك في النصف الأول من السبعينات عند ما زادت أسعار النفط ، وتكرر نفس الشيء مع كل زيادة جديدة !

ولكن ...

ولأن الصياح لا يغير شيئا من الحقيقة فقد جاءت الأرقام تنفي ذلك . المعركة حول برميل النفط ، وحول برميل النفط تجيء الارقام التالية التي أعدتها منظمة الدول المصدرة للبترول .. أوبك » .

في عام ١٩٨٠ كان السعر المعلن لبرميل النفط (في المتوسط) : ٣٠ ـ ٣١ دولارا .. وذلك مقابل (٩ ـ ١١) دولارا ١٩٧٤ .

الزيادة كما تبدو ثلاثة أضعاف .. ولكن الحقيقة أيضا غير ذلك ، فاذا تم القياس على أسعار صادرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية يكون السعر الحقيقي ـ محذوفا من أثر التضخم ـ هو (١٥) دولارا فقط عام ١٩٨٠ .. أما اذا كان القياس على مجموع أسعار واردات الاوبك فان السعر الحقيقي يكون قد انخفض الى خمسة دولارات فقط !

يؤيد ذلك تقرير من البنك الدولي من التنمية في العالم ، صادر عام ١٩٨١ ويقول أن دول النفط قد أخذت عوائد أكبر .. لكن القيمة الحقيقية لهذه العوائد كانت في بعض سنوات السبعينات .. تتجه للنقصان .. وليس العكس !

وتمضي رحلة الأرقام لتجيب على السؤال الهام : وأيا كان السعر فمن المستفيد ؟ تقول أرقام الأوبيك : المستفيد الأكبر ـ وحتى الآن ـ هي الدول المستهلكة لأن الثمن النهائي للبرميل يتم اقتسامه بين أطراف ثلاثة : دول مستهلكة تفرض الضرائب ، وشركات للنفط تأخذ التكلفة والأرباح ، ودول منتجة تأخذ الريع والتكلفة ...

وفقا لأرقام عام ١٩٨٠ .. كان نصيب الدول المستهلكة في غرب أوروبا من برميل المنتجات النفطية : ٣٨ ٪ .. والشركات ـ وهي غربية في الأساس ـ ٣١ ٪ .. و .. يبقى لدول الأوبك ٣٩ ٪ .

الموقف قد تحسن منذ عام ٧٩ ـ حيث كان نصيب الأوبك ٢٨٫٤ ٪ ولكن الحقيقة الأساسية ما زالت باقية : معظم دخل البرميل لغير المنتجين .

وبصرف النظر عن أثر التضخم الذي أشرنا اليه .. وبالمقارنة المجردة لأرقام الناتج القومي وهي المحصلة النهائية ـ فاننا نجد أن نصيب دول الأوبك مجتمعة عام ١٩٧٩ هو (٤١٨) بليون دولارا .. مقابل ١٠١٩ بليونا لدولة واحدة هي اليابان .. و .. لانتحدث عن الولايات المتحدة الأمريكية أو غرب أوروبا .

وفي نفس العام وصل متوسط الفرد في الدول المنتجة للبترول (أوبك) : (١٣٠٠) دولار في السنة .. مقابل (٨٩٠٠) دولار في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية والتي يزيد متوسط دخل الفرد في بعض منها عن ذلك الحد .

و .. باستمرار المقارنة نجد أن المواطن في دول البترول ـ وفي المتوسط العام ـ يحظى بـ (٨٫٣ ٪) من متوسط دخل المواطن في السويد وحوالي (١٢ ٪) من متوسط دخل المواطن الفرنسي أو الأمريكي وأقل من (٢٣ ٪) من دخل المواطن الايطالي ...

دول البترول اذن ليست الأكبر دخلا .. على المستوى القومي أو مستوى دخل الفرد ... الأكثر من ذلك فانها ليست المستفيد الأول من حصيلة بيع النفط .. لأن حصيلة المستهلكين ـ ووفقا لأرقام منظمة الأوبك ـ هي الأكبر !

ما القصة اذن ؟

القصة لا تتعلق بالحجم أو الدخل .. لكنها تتعلق بالطبيعة الخاصة لما نسميه نقود البترول فهي أكبر قيمة لسلعة واحدة .. ومساراتها تختلف عن مسارات أي نقود أخرى ودخل أي سلعة ثانية .

من دراسة لصندوق النقد الدولي يتضح أن صادرات دول النفط بين عامي (٧٣ ـ ٨٠) أي خلال ٨ سنوات ـ قد بلغت قيمتها (١٢٠٣٫٧) بليون دولار .. ولم تستهلك في بند الاستيراد أكثر من نصف القيمة .. فاذا أضيف ما تستورده من خدمات وما تؤديه من التزامات ارتفع الرقم الى الثلثين تقريبا وبقي فائض مقداره (٣٦٩٫٥) بليون دولار خلال هذه الفترة .

القدرة الاستيعابية (في استهلاك واستثمار بالداخل واستيراد من العالم الخارجي) .. هي القضية وعنق الزجاجة ... فنتيجة انخفاض هذه القدرة .. يتولد الفائض ، عابرا للقارات ، مقتحما للأسواق ، ومثيرا للمعارك والحملات ...

وتلك هي القضية . انها نقود من طراز خاص .. نقود سريعة الانتشار ، عالية الصوت .. لكنها ليست الأكثر ، والأضخم ، والأخطر .

وهذه هي الحقيقة !

شخصية مصر في كتاب الدكتور جمال حمدان

بقلم : الدكتوره نعمات أحمد فؤاد

ظهر كتاب (شخصية مصر) للدكتور جمال حمدان ، وأشار اليه أكثر من كاتب وصحيفة ومجلة .. وأنا أعني كلمة « أشار » فالكتاب الذي يربو على ألفي صفحة والذي يستلزم وقتا كبيرا لكتابته ، يستلزم ، أيضا ، وقتا كبيرا لقراءته ، ودراسته ، واستيعابه ...

وكاتب الصحيفة وقارئها متعجل ، متخفف ، مجتزىء ، لا يسعفه طبيعة العصر اللاهث أو دوران عجلة المطبعة لتقدم الصحيفة اليومية ... ولكن مجلة « العربي » تسمح طبيعتها وطابعها بالدراسة المستأنية المثمرة ... فما بالك واني أخذت على عاتقي أن أقدم : الكاتب .. والكتاب .

واذا كان الكتاب بجزئيه ألفي صفحة فان الكاتب ، يعني كتبه الاخرى بالاضافة الى كتابه أو موسوعته « شخصية مصر » يعني : « العالم الاسلامي المعاصر » ـ « المدينة العربية » ـ « الجمهورية العربية الليبية » ـ « جغرافية المدن » ـ « بين أوربا وآسيا » ـ « قناة السويس نبض مصر » .

وتتسع الرؤية وتمتد الى أبعاد بعيدة ، فيكتب :

(٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية) ويكتب (الاستعمار والتحرير في العالم العربي) .

ويترجم عن الهم الكبير في العالم العربي الذي هو واحد من أبنائه ، فيكتب (اليهود انثروبولوجيا) .

وهذه الكتب بدورها تربو على ألفي صفحة أخرى .

وليست المسألة تسويد صفحات فما أهون هذا لو خليت الكتابة من قيمتها العالية ... ولكنها نوعية من الكتابة في كل صفحة منها دراسة مكثفة ، معمقة ، موثقة ، مؤصلة تأصيلا ... وفي عرضها بلاغ .

أبدي بالطبع بالكتاب الذي طلبت مني مجلة « العربي » تقديمه : « شخصية مصر » .

مصر في هذا الكتاب وفي رؤية مؤلفه ورأيه « حجر الزاوية » و « أرض الركن » و « مجمع القارات » و « مفرق البحار » و « ملتقى الشرق والغرب » .

إن مصر « عزلة بلا اعتزال » لا تذهب الى أحد ولكن العالم لا ينفك يأتي الى مصر : التجارة ، البحارة ، الهجرات ، والغزوات .. حتى النيل .. حتى الرياح ..

إن مصر كثافة بلا هجرة .. لا تصدر الرجال بل الحضارة فهي منارة واشعاع ، وهي بمكانها ومكانتها مستقرة وقريرة تتطور ولا تتحور ... تتحرك ولكن في غير اندفاع إنها « عزلة بلا اعتزال » .

ويعرض الدكتور جمال حمدان أقوال « هيرودوت » و « هويتلزي » و « فلير » و « جان درسن » وغيرهم عن تميز موقع مصر وتفرده وعزلته أيضا مع ما في العزلة من ايجابيات وسلبيات في رأيهم ولكن في رأي الدكتور جمال حمدان (مصر تتفرد بأنها تجمع في تناسب نادر بين قدر من عزلة في غير تقوقع ، وبين قدر من احتكاك لا يصل الى حد

التميع .. وبهذه المعادلة الدقيقة تحتفظ بكيان وشخصية متميزة قوية) ص ٣٦٥ .

ويرتفع الدكتور جمال حمدان في حديثه عن الأمة والدولة ثم يناقش « جويليه » في نظريته العكسية نقاشا متمكنا . . .

منذ ٢٠٠ ألف سنة

وفي كتاب (شخصية مصر) يتكلم الدكتور جمال حمدان علميا ويفيض ثم يبتدع اصطلاحا جامعا وكأنه القرار الموسيقي للحن متعدد الطبقات . فالزراعة في مصر حديث طويل عن « الانتشار » و « التركز » ينتهي باصطلاح محيط هو « التداخل والاستقطاب » .

وقد وقف طويلا عند حضارة مصر . وبعد مناقشة النظريات المتباينة في ريادة الحضارة ، انتهى على هذا الرأي :

(ان الحضارة المصرية القديمة لا هي أسيوية المصدر ، ولا هي حتى بالمقابلة افريقية الأصل ، وانما هي ببساطة ولكن بصرامة مصرية الأصل والمصدر والنشأة والمهد جميعا ـ على الأقل الى أن يثبت العكس بصورة علمية قاطعة موضوعية وغير متحيزة) ص ٤١١ .

لقد راعتهم حضارة مصر بقمميتها ، وذرويتها فقالوا جاهزة مستوردة أو صنعها (الهابطون من السماء) كما يروج اليهود . ولم يقولوا بتفسير آخر كان يجب ان يكون واردا وهو أن القمة المنظورة هي ذروة تاريخ تطوري طويل فتكون القمة مؤشر عراقة ، لا دليل استيراد . . . ثم أين المنقول عنها ؟ وهل هي بدورها جاهزة مستوردة من غيرها . . وهكذا الى ما لا نهاية ؟

اذا كان لتلك النظرية (حضارة مصر من أصل خارجها) ـ على سفهها كما يقول الدكتور جمال حمدان ـ . . اذا كان لها من مغزى ، (فهو بلا شك روعة الانجازة المصرية الى حد الظاهرة الخارقة للتاريخ وللتطور) .

هناك كشوف جديدة بمصر خلال السبعينات ترجع الى العصر الحجري القديم ولكنها تتجاوز كل حضاراته السابقة في القدم ، بحيث تنسخ ببساطة كل نظريات أصولها الأجنبية ، وأهم هذه الكشوف ثلاثة :

سيوه ، النوبة ، جنوب الصحراء .

ففي سيوه عثر على بقايا حضارة زراعية تم تحديدها بالكربون المشع ١٤ بنحو ١٢ ألف سنة ق . م .

كما أثبتت الأبحاث الحديثة استمرار وبقاء الزراعة المصرية كاملة في الواحات حتى ٦٠٠٠ سنة ق . م . أما في النوبة فلقد كشفت الحفائر عن أدوات صوانية بوادي الكوبانية شمالي أسوان يرجع تاريخها الى أكثر من ٣٠ ألف سنة . كذلك عثر على رحايات قديمة في منطقة توشكي ترجع الى نحو ١١,٥٠٠ سنة وتدل بذلك على طحن الغلال ومعرفة زراعة الحبوب . وأخيرا فقد عثر في جبل عدي بالنوبة على مقبرة بها آلاف من الجماجم قدر عمرها بنحو ١٠ آلاف سنة . .

وقد دعا هذا كله البعض الى القول بأن الزراعة نشأت أول ما نشأت في النوبة ، وأن أول انسان زرع الارض كان هناك وليس في أي مكان آخر كفلسطين أو العراق . . . الخ .

أما في جنوب الصحراء الغربية ، فالى الغرب من « أبو سمبل » بنحو ١٠٠كم وجدت بمنطقة جبل النبطه أدلة على استئناس الحيوان منذ ٨١٠٠ سنة وعلى هذه الأسس الجديدة لا يستبعد أن يكون الانسان المصري هو أول من عرف الزراعة واستأنس الحيوان . وقد تغني هذه الأسس ايضا عن نظرية الواحات وتعود بالنشأة الى الوادي نفسه مباشرة . (ص ٣٨٠ ـ ٣٨١)

اننا درجنا في هذه الايام على ترديد رقم سبعة آلاف سنة عمرا للحضارة المصرية والحقيقة ان هذا عمر الحضارة المكتوبة أو الثابتة بالكشوف ولكن الدكتور جمال حمدان في كتابه يعود بوجود الانسان المصري الى ٢٠٠ مائتي ألف سنة (لقد مر بمصر عصران مطيران أي عمرانان أو عصر له قمتان) .

وان هذا العصر المطير قد غلف الصحراء المصرية لنحو ١٢٠ ألف سنة . ومن حوالي ١٣٠ ألف سنة الى ١٠ عشرة آلاف سنة مضت ، حين حل الجفاف الحالي .

وبطبيعة الحال فان البيئة الطبيعية في مصر تغيرت في ظل العصر المطير تغيرا جذريا . فقد كانت الصحراء مرصعة ببحيرات عديدة ، بعضها من مقياس عظيم يقارن ببحيرة فيكتوريا أو تشاد حاليا . . ومن أهم هذه البحيرات التي أمكن تحديدها بحيرة بير طرفاوي التي يقدر ان مساحتها بلغة ٥٠ ألف كم . أما زمنيا فالمقدر ان هذه البحيرة ظهرت منذ ٤٠ الف سنة ، وعاشت ١٥ الف سنة ، ثم جفت مرتين ، مرة منذ ٣٥ الف سنة ، واستمر ذلك الجفاف لمدة ١٢ الف سنة ثم عادت الى الوجود بعد انتهاء الجفاف ، وظلت موجودة حتى ١٠ آلاف سنة مضت حين جفت وانتهت نهائيا .

على الجانب البشري ، فان تلك الفترة من العصر المطير يقابلها حضاريا العصر الحجري القديم بمراحله الأربع : الأسفل ، الأوسط ، الأعلى ، والنهائي .

وقد وجدت الأدوات الحجرية القديمة منتشرة في كل جهات الصحراء مما يدل على أن الانسان كان يغطي وجهها جميعا ، حيث كان يجتمع ويتركز بصفة خاصة حول مناطق

البحيرات الكبرى السابقة في قطاع الداخلة والخارجة وبير طرفاوي ، وبير مساحة ، وجبل العوينات .

كذلك تدل تلك الأدوات على شدة تقدم انسان العصر الحجري القديم بمصر خاصة في صحاريها الجنوبية ، ربما منذ ٢٠٠ ـ ١٨٠ الف سنة . (ص ٣٧٠)

عن ريادات مصر

ويتكلم الدكتور جمال حمدان عن ريادات مصر الحضارية فيقول :

* قدمت اللغة المصرية القديمة احدى الخامات القاعدية للأبجدية التي تفاعلت مع الفينيقية حتى تحورت الى الابجدية السينائية التي ستكون عنصرا أساسيا في تطوير الكتابة في أوربا ، ففي سيناء تحولت الهيروغليفية لاول مرة حوالي ١٨٠٠ق . م من أبجدية تصويرية الى أبجدية صوتية . وعموما فلقد كان الشام كله مشبعا بالفكر المصري على أيام التوراة والعهد القديم ص ٤٣٠ .

وبالمثل كان نفوذ مصر الحضاري على يهود العالم القديم ، الذين كانوا تابعين لمصر سياسيا أغلب تاريخهم سواء كانوا داخل أرضها أو في أرض فلسطين . فالحضارة المصرية دمغت كل وجودهم المادي والأدبي بل والديني نفسه المشبع بتأثيرات مصرية عميقة ابتداء من معمار سليمان الى مزامير داود . . . الخ وقد كان تشتت اليهود وانتشارهم فيما بعد عامل نشر وتحديد غير مباشر للمؤثرات المصرية على نطاق العالم الاوروبي بدرجات مخففة أو مختلفة ، ص٤٣٠ ـ ٤٣٥) .

* تخطيط المدن . لما كانت مصر هي الجذر والساق والفروع لشجرة الحضارة وكلمة الحضارة ترتبط بالمدن ارتباطا لا انفصام له ابسط مظاهره الاشتقاق اللغوي سواء في العربية او اللغات الاوروبية حيث تأتي المدينة أو الحضارة والحاضرة من جذر واحد .

فقد كان الفراعنة عموما من مؤسسي المدن . مينا نفسه هو الذي أنشأ منف أي « الحائط الأبيض » أو « المكان الجميل » .

يقول الدكتور جمال حمدان : لقد سجل المصريون القدماء تقدما كبيرا في تخطيط المدن . فمدينة مثل كاهون **Kahun** (اللاهون الحالية) تعد اليوم نموذجا غير مسبوق لتخطيط مدن العمال على الخطة الهندسية المربعة وكذلك فان مدينة اخناتون الملكية أخيتاتون (تل العمارنة) تقوم كلها على الخطة الهندسية المنتظمة .

بل ان « افيدان » يذهب الى ان المدينة المصرية المربعة أو المستطيلة كانت النسخة المبكرة جدا من المدينة الأمريكية المعاصرة . أما لماذا ؟ ، فاستجابة لأغراض الوظيفة الدينية من احتفالات ومواكب ومعابد . . . الخ .

فان صح هذا كله . . فلا مفر من ان يعتبر تخطيط المدن فنا مصريا أصيلا وسبقا حضاريا مبتكرا .

* التقويم الشمسي : انفردت به مصر عن سائر المجتمعات المعاصرة التي اعتمدت التقويم القمري واعتمدت عليه . وبينما جنح التقويم القمري ببعضها الى التنجيم قبل الفلك ، وخاصة في العراق حيث كان الفيضان الجامح خطرا يصل الى حد الذعر ، لم ينحرف الفلك في مصر عن الاتجاه العلمي . وليس غريبا بعد ذلك ان يكون تقويم عالمنا اليوم هو التقويم المصري مباشرة وبلا تعديل . أو كما يقول تشايلد : (فالمصري ـ لابد ان نعترف ، هو أبو كل تقاويم العالم القديم الشمسية ، بما في ذلك تقويمنا نحن أنفسنا) ص ٤١٩ .

لقد أعطى النيل ، التقويم لمصر
وأعطته مصر للعالم .

* الفنون : أصبح من المسلم به أن أكبر قدر من فنون العمارة المسيحية المبكرة أتى من مصر ، وأنه اذا كان لآسيا الصغرى وسوريا والعراق مساهماتها في الفن البيزنطي المسيحي فان الصدارة هي بلا جدال للمدرسة المصرية . فقباب الكنائس البيزنطية وعقودها وأقبيتها مأخوذة من مصر المسيحية حيث كان السقف القبابي ابتكارا فرعونيا أصيلا وقديما وبالمثل في الايقونات والزخارف والنقوش . . . الخ . حتى فن الكتابة عرف بصمة مصر فالأبجدية الروسية استعارت بعض حروف قبطية ديموطيقية الأصل . أنظر ص ٤٣٧ .

* الزراعة : يؤكد سميث أن من الخطأ الجسيم تلك الآراء الحديثة التي تبحث عن أرض خرافية أو أسطورية أخذ عنها المصريون معرفة الزراعة والحبوب ثم أقلموها هم حسب بيئة النهر أقلمة ري بدل المطر . وقد أثبت توماس تشيري **Cherry** أن الري والزراعة عرفت لاول مرة بمصر ، وبالتالي الحساب والهندسة وأوجه القمر والشمس والنجوم . . الخ .

أما لماذا مصر ، مرة أخرى ؟ ، فلأنها هي الوحيدة في العالم كله التي تنفرد بنظام فيضان نهري دوري سنوي يتفق مع دورة المناخ الفصلي السنوية بحيث يلائم الاثنان معا دورة النمو الفصلي للحبوب خاصة القمح والشعير والكتان . . .

مثل هذه الظروف الطبيعية ليس لها مثيل في العالم القديم برمته سواء في الرافدين او الجانج والسند أو أنهار الصين .

ان الظروف الطبيعية والبيئية لا ولم تسمح بقيام زراعة

الا في مصر . ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .
الكيمياء : دفع التحنيط ، والتطور عامة ، بالطب والكيمياء كثيرا .
كلمة الكيمياء : نفسها مشتقة أصلا من كيمي ، اسم موطنها الأصلي والأول مصر . .
أيضا فان التجارة النشطة أعطت دفعة قوية لفنون الملاحة فقد كان النهر شارع مصر الرئيسي ، فظهرت مراكب البردي على النيل لأول مرة في التاريخ . ثم جاء الفينيقيون فأخذوا فن الملاحة عن مصر ، بعد أن ترجموا صناعة السفن من البردي النيلي الى الارز اللبناني وقد أثبت داريل فورد في كتابه « الملاحون القدماء » **Ancient Mariners** ص ٤٠ ، أن (السفن عرفت واخترعت لأول مرة بمصر) .
وصناعة السفن غير ممكنة الا بعد معرفة صناعات التجارة والمعادن جيدا ، والادلة كافية على أنها عرفت لأول مرة بمصر أيضا . بل يضيف سميث ؛ ان المصريين هم اول من عرف الذهب ، وهم الذين أعطوه تلك الأهمية السحرية التي اصبحت صفة عالمية له بعد ذلك . ص ٣٩٥

الغزو والغزاة

كما وقف الدكتور جمال حمدان وقفة طويلة اخرى عند الغزو والغزاة الذين خضعوا كما يقول « لوران » لهيبة التقاليد الألفية العريقة التي لا تقاوم لأرض مصر التي كانوا يفاخرون بانهم أخضعوها .
أما كيف خضعوا للتقاليد الألفية المصرية فذلك ما يفصله الدكتور جمال حمدان تفصيلا لا تغني الاشارة اليه ، عن الاحاطة به .
ومن طرائف الدكتور جمال حمدان في هذا الباب ، تصنيفه للغزو :
فاليوناني « الاستعمار الزيتوني »
والروماني « استعمار الفيالق والزوارق »
والعربي السيولة السياسية . . عصر الدين . . عصر القومية الدينية . كان الاسلام هو : العقيدة والعصبية ، والجنس والجنسية ، والوطن والوطنية جميعا .
كانت المنطقة كلها (دار الاسلام) أو الكومونولث الاسلامي . كان المسلم ينسب الى بلدته أكثر مما ينسب الى بلده فيقال : الدمشقي ـ الطرابلسي ـ السكندري ـ القاهري ـ الفاسي . . الخ . وكان الحكام يتنقلون كالأفراد ويضمون دون حساسية . . ويبدو ان الظاهرة نفسها برمتها كما يقول الدكتور جمال حمدان كانت تسود في أوربا المسيحية حيث كان الجرمان يحكمون في ايطاليا او انجلترا ، وكان الفرنسيون يحكمون في ألمانيا .
لقد حكم الفاطميون مصر (ولم يكن معنى هذا ان مصر تابعة للمغرب بل العكس هو الصحيح على وجه الدقة والغرابة معا ، وظل شمال افريقيا حتى الأطلس تابعا لمصر الى ان انفصل المغرب نفسه عن الدولة الفاطمية في مصر واستقلت به أسرة محلية حاكمة) ! ص ٦٢٠

لقد كانت مصر في الاسلام قاعدة قوة وانطلاق . . أكثر منها موقعا وموضعا يستمد الحاكم قوته فهو بها ، وليست هي به . (المماليك حين حكموا مصر لم يجعلها ذلك تابعة لمصدرهم الاصلي في غرب ووسط آسيا . وهم لم يستقلوا بمصر فحسب ، بل أنشأوا بها أكبر دولة امبراطورية اسلامية معاصرة حققت وزنا في السياسة العالمية فرض نفسه على أوربا تماما ، كما تطلعت الى زعامته واعترفت بها كل دول العالم الاسلامي نفسه ابتداء من المغرب حتى الهند) .

وقبلهم قديما حين المد الروماني او موجة الرومان . . (كان شعب مصر ، وحده بين كل شعوب الامبراطورية ، لا يعد رعايا رومانيين ، وإن كان البعض يذهب الى ان الجنسية الرومانية منحت في مصر لا لسكان المدن فقط كما في سائر أقاليم الدولة ولكن لسكان المدن والريف على السواء . . كذلك فلقد كانت مصر الوحيدة التي تتبع قيصر مباشرة . كما تدخل المصريون بشدة في حياة وحكم روما بالسياسيين والمستشارين وأعضاء مجلس الشيوخ الروماني وبالمصاهرات الملكية والمؤمرات الاسرية حتى كانت الاسكندرية أحيانا تنصب الامبراطور مدعية بذلك مكانة كروما نفسها ، وحتى ظهر أحد القياصرة من أصل مصري ، بل وحتى فكر بعض الاباطرة ، وقتا ما ، في نقل عاصمة الامبراطورية من روما الى الاسكندرية) ص ٦٢٣ .

لقد أقام اليونان ثم الرومان بمصر أعدادا كبيرة ولنحو ٣ أو ٤ قرون ومع ذلك لم تحدث (أغرقه) ولا (رومنة) لغويا أو دمويا .
ففي فترات الاضطراب العام على المستوى العالمي أو المحلي كانت كل دولة تأتي بجيوشها التي تعد بعشرات الآلاف تتجدد وتتعدد من حين الى آخر ، تبدأ كمجرد غزو أجلاب ولكنها لا تلبث ـ لأسباب أو لأخرى ـ أن تدحرها مصر أو تلفظها مصر ، أو تمتصها مصر فتستقر وتتحول الى نوع من الهجرة المتسربة أو التسلل المقيم .
إن أخذ سليم آلاف الصناع المهرة من المصريين وارسالهم الى استامبول ، تعبير حاسم عن مستوى الحضارتين كما كان كلا الطرفين على وعي تام به حيث يذكر

ابن اياس - وهو تركي الأصل - أن المصري العادي كان ينظر الى « عسكرهم كهمج » بينما كان الاتراك يرددون الى القرن الثامن عشر أن (المسموع عندنا في الديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم .)

يقول الدكتور جمال حمدان (كانت العناصر الوافدة تحتوي وتمتص في النهاية ، دمويا كما هو حضاريا ، وبدلا من أن يفرضوا شخصيتهم الجنسية على مصر كانت هي التي تفرض شخصيتها عليهم . وحتى اذا فرضوا عليها سيادتهم كانوا يعجزون عن أن يفرضوا عليها قالبهم ، وكانوا هم الذين تقولبوا بقالبها الانثولوجي كما بقالبها الحضاري) ص ٣١٨ .

ويعزو هذا الى عدة أسباب :

* الفاصل الزمني : ويعني به مصفاة الصحراء .
* البعد التاريخي : وهذا العامل باعد زمنيا بين تلك المؤثرات وخفف بذلك من وقعها ، كما أدى الى هضم وتشرب العناصر الداخلية وكأنه عامل ترشيح جنسي .
* العامل الجغرافي : أي عزلة الموضع النسبية كانت عامل امتصاص وتبلور جنسي في نمط جثماني .
* ضخامة عدد السكان في اغلب مراحل تاريخها .
* التزاوج الداخلي ثبت وكثف فيها صفاتها وملامحها الخاصة .

الصحراء والنيل .....

ممتع حقا حديث الدكتور جمال حمدان عن الصحراء المصرية فعنده ، الصحراء هي « الرحم الجغرافي » الذي ولدت فيه الوطنية الجنينية ، ثم كانت « الصوبة الزجاجية » أو « البيت الدافيء » الذي نمت فيه ، وأخيرا كانت الدرع الكثيف الذي احتمت به وقد شبت وترعرعت أو كما لخص ديودور الصقلي ، الموقف كله قبل الميلاد ، فان مصر (محمية من كل الجوانب بواسطة الطبيعة) .

وقد ساعدت صحراء مصر على التأمل والوصول الى الوحدانية لأن التشابه والصمت والجلال يعين على استشعار الواحد المقدس حين تعمل الغابة بتنوع كائناتها على التعدد فطبيعة الغابة القاتلة كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه (أنماط من البيئات) وصمتها الذي يعج بالوحوش والأفاعي والحشرات القاتلة .. عالم الغابة المعقد المليء بالأخطار والأسرار ، أدى الى تأليه كثير من مظاهر الغابة الطبيعية .

أقول ولأمر ما ولدت في صحراء مصر « الرهبنة » في المسيحية حيث يزرع الراهب نفسه ، كما ولد التصوف في الاسلام اذ عرف عن مؤسسة ذي النون المصري أنه كان يتعبد في بربا أخميم . ولا حاجة هنا بالقول الذاهب الى أن التصوف من « الصفة » . . فالتصوف الذي أقصده هو علم له أصول وقواعد وهنا يقترن برجلنا ذي النون الذي تقول عنه المصادر الاسلامية ومن بينها الرسالة للقشيري ، والطبقات للشعراني ، والكواكب الدرية للمناوي ، وحلية الاولياء لأبي نعيم الأصبهاني واللمع للسراج الطوسي وكشف الحجب للهجويري ، وكذلك الرازي والترمذي ، انه وحيد دهره علما وعبادة وحالا ، ومعرفة ، وأدبا .

والنيل . . . النيل عند الدكتور جمال حمدان هو « اللحن الاساسي في السيمفونية الجغرافية » كما يضعها هوارث .

(انه خط « القوة العظمى » بما في الاستقرار ، مثلما هو « خط المقاومة الدنيا » في الحركة . ومصر بدورها نيلية التركيز والاستقطاب .

فالنيل ليس عصب وشريان مصر أو شارعها الرئيسي فحسب بل هو مرآتها ومغنطيسها وموجهها .

النيل على كل امتداده من الشمال الى الجنوب هو قمة مصر طبيعيا وبشريا وان بدا القاع تضاريسيا .

انه محور مصر وعمودها الفقري الصلب ، على سيولته الرجراجة ، يمثل خط الذروة فيها كسلسلة السمكة أو الجبال أو كالهرم ، منه تنحدر وتدق وتخف شرقا وغربا في كل شيء) ص ٢١٠

ويقارن الدكتور جمال حمدان جغرافيا وحضاريا بين النيل وغيره من الأنهار . . . . مقارنة تطوف . وينتهي من مقارنته في شمول : يجمع النهر وواديه .

النهر (مشتل الملاحة والوادي مشتل الفلاحة .)

لقد بدأت الملكية في مصر بذلك الذي لاحظ الفيضان وضبط النهر ولهذا كانوا يسمون هذا الملك اله النيل وسيد النيل واقترنت هذه التسمية بالملوك .

يقول الدكتور جمال حمدان : (وليس صدفة بالتأكيد أن المصري القديم كان مهندسا أكثر منه فيلسوفا ، ومعمارا أكثر منه تجارا مثلما رأيناه فلكيا أكثر منه منجما .) ص ٤٢٠

أما المصريون فهم صناع الحضارة التي قدم لهم النهر « خامتها » ، فمصر هبة النيل طبيعيا ، وهبة المصريين حضاريا .

والمقولتان متكاملتان لا متعارضتان . ولكن أيا منها على حدة ، نصف حقيقة . أما الحقيقة الكاملة فهي أن ها هنا زواجا موفقا سعيدا بين :

البيئة والانسان .. بين التراب والتراث .) ص ٤٥١

وبالطبع يتصل بالنيل ، موضوع السد العالي الذي استبدل بمجاعة الماء ، مجاعة الطمي وهو في كتاب (شخصية مصر) موضوع متعدد الأبعاد يصعب معه بل لا يليق به الاجتزاء . ص ٩٦٨ - ١٠١٧

.. وظاهرة الطغيان

ومن الموضوعات التي عالجها الدكتور جمال حمدان في كتابه (شخصية مصر) ، (ظاهرة الطغيان) . وعنده أن العوامل التي ساعدت على إحكام الطغيان أن (البلد - المعمور - صغير المساحة صارم الحدود ، عالم متناه ، كالزقاق المغلق ، سهل متواضع ليس فيه من معاقل الالتجاء أو دروب الهرب على نحو ما تعرف البيئات الجبلية أو الصحراوية مثلا) ص٥٦٥

ليس امام الانسان المصري الرافض الا متاهات الصحراء ، أو مفازات النوبة ، فالأولى لجأ اليها آباء الكنيسة ايام الرومان والأخرى لاذ بها المماليك أيام مذبحة القلعة .

حتى الصحراء - لعامل الجفاف والقسوة - لم يكن من السهل أن تكون مهربا بل لعلها كما يقول الدكتور جمال حمدان (كانت اشد ارغاما للفلاح على البقاء من قوة الطغيان المحلي على الطرد أي أن العزلة الجغرافية التي حدت من الهجرات الداخلة ، حددت أيضا امكانيات الهجرة الخارجة) . ص ٥٦٥

ومع هذا يقول الدكتور جمال حمدان : (لأن مصر جسم ثقيل الوزن فهو لا يتحرك باندفاع متهور بل بدفع محسوب . ولذا فان ثوراتها الشاملة قليلة العدد نسبيا ولكنها فاعلة حين تقع ومن ثم تصبح علامات تحول بارزة وأحيانا سباقة تاريخيا .

ان ثورة ايبور في الدولة القديمة في رأي بعض المؤرخين أول ثورة طبقية في التاريخ ....

أضيف الى هذا مقاومة مصر للرومان تحت اسم المسيحية وخوضها معركة الشهداء . وثورات مصر المتصلة على امتداد العصر التركي ...

ليست مصر أرض الطغيان وان عرفته معاناة ومكابدة ثم مجاهدة ورفضا .

ان ما عرفته مصر في أغلب تاريخها من الطغيان والأوتوقراطية الضاربة انما كان للأسف روح العصر وليس لحسن الحظ روح المكان .

وأضيف ثانية أن المصري ، أسرته ، لها نوطة في القلب ، وعلاقة هي ، تعلق ، أصبح مع الزمن تخلقا .

والاستعمار سياسته أن يستند الى طغيان محلي يكمم له الأفواه ويخرب الانسان فتكون مهمته بعد ذلك سهلة في الاجهاز عليه دون مواجهة سافرة قد تدفع الى المقاومة والرفض .

ولا يخرب « الانسان » كالنفاق . واستقباله وقبوله يشجع (العناصر الرخوة الهلامية الهشة الانتهازية الوصولية واللاقفريات أخلاقيا ، ويشيع بذلك مناخ النفاق والتزلف والتملق وينمي روح الانحناء والخنوع والاستكانة وبالتالي تتكاثر وتفرخ الاذناب والزواحف والمتسلقات والهوام والامعات وسائر الكائنات الدنيئة الذيلية القميئة في المجتمع : وعلى العكس تحارب العناصر الصلبة الأبية المستعصية التي تتمسك بالكرامة والعزة ، فتضاد حتى تباد أو تنقرض وتتوارى بالتدرج فشلا وانهزاما .) ص ٥٨٤

وهنا أخالف الدكتور جمال حمدان في الشق الأخير الذي يتفطر من الألم ، فالذي حدث في تاريخنا الى اليوم ، أن الذي انقرض وباد ، هم ، الطغاة وتوارى الأذيال والزواحف والهوام والأدنياء اسما ووصفا ، وعاش الامام « البويطي » و « الانبابي » و « عمر مكرم »و « شهيد الوطنية المصرية محمد فريد وأصحاب الأقلام الشريفة والجباه الشماء .

ان عصرنا لم يكتب تاريخه بعد .. وعندما يكتب تاريخه غدا ، حرفيا بدون تحريف ، وصحيحا بغير تزييف يسقط القناع عن كثير .. وويل للزواحف يوم يكتب التاريخ .

وبعد : فهذا كتاب واحد من كتب الدكتور جمال حمدان - وأرجو أن أعرض في قابل من الأيام وقادم من الأعداد .. كتبه الأخرى لتكتمل خطوط الصورة ■■

د. نعمات أحمد فؤاد

● لم ينطق احد بكلمة وطنية اروع من تلك الكلمة التي كان يقولها بطل انجلترا الخالد ، نيلسون ، كلما اقدم على معركة حربية :

« لست آسفا الا على اني لا املك سوى حياة واحدة اضحى بها في سبيل وطنى »



عقليـة الجماعات

الأستاذ على أدهم ●

كان لما سماه بعض الناس فشل الديمقراطية وافلاسها وتغلب حكومات الطغيان على دول أوربية ، وقع أليم وتأثير بالغ في نفوس عامة المفكرين ، وقد هالهم ذلك وأثار ظنونهم ومخاوفهم وشغل بالهم ، وعدوه نكسة أصابت الأمم وأضلت العقول ، وأخلوا يرودون مكمن الداء ويستقصون أسبابه . وقد خدع الكثيرون بزخرف الدعاية الديكتاتورية ، وغرتهم أباطيلها وفتنتهم عن عقيدتهم الديمقراطية ، وأوهمتهم أن الديكتاتورية أسلوب جديد مبتكر في الحكم ورياضة الأمور ، وفلسفة حديثة من فلسفات السياسة ملائمة لمطالب العصر الحاضر ومستلزمات المدنية الحديثة ، وأنها تختط في الحياة سبلا غير مطروقة ، وتسن سننا صالحة تقوم الأخلاق ، وترم بناء المجتمع ، وتقود الناس الى أرض الميعاد ، وأنها توقظ قوى الأمم الخامدة ، وتبرز مذخور فضائلها ، وتنشر مطوى محاسنها ، وأنها الوسيلة الفذة لعلاج مايهظ الأمم في العصور الحديثة من أعباء وما يستقبلها من مشكلات ، وأنها تنشىء الجيل الجديد نشأة حسنة ، وتربيه تربية نظامية حربية ؛ وقد ألقي دعاتها في روع بعض من غم عليهم أمر الديكتاتورية ، أن الديكتاتوريين مبعوثو قدر ومندوبو عناية ، وأنهم يعرفون من موارد الأمور ومصادرها ما يند علمه على غيرهم ، ولا يطيقه سواهم ، وخلقوا

ولكن برغم مهارة الدعاية الديكتاتورية ظل كبار المفكرين على سوء رأيهم في هذا الأسلوب الرجعي العتيق من أساليب الحكم ، وان بدا في ثوب قشيب ليموه حقيقته ويستر عيوبه ، وأشد ما يغض اليهم النظام الديكتاتورى عمل الديكتاتورية على خنق حرية التفكير ، وتكبيل الخيال ، وارهاق النفوس ، وافساد الجماعات الانسانية واستعبادها ، ليفتات الديكتاتور برأيه ، ويستشرف الى صفات الألوهة ، ويمكن لصحابته وحوارييه ، ويثير في نفوس الجماعات هوج العواطف وبواعث الاجرام ؛
الجرائم والاغتيالات ، وحوك الأشراك والدسائس ، للفتك بمخالفيهم في الرأى .

ومما يسترعي النظر أن أكثر المفكرين الذين كتبوا عن الدكتاتورية ونعوا عليها عيوبها ، وأوضحوا مساوئها وسوء آثارها ، لم يشيروا بوجه خاص الى ما يبذله الديكتاتوريون من جهد لخلق ما يسمى « عقلية الجماعات » أو « تفكير الجمهور » ، وبيان ذلك أن كل نظام صارم سواء أكان سياسيا أم مدنيا أم اجتماعيا يفرض على الناس فرضا ، ويأخذون به أخذا ينزل العقل من عليائه ، ويستتبع ذلك خضوع الفرد خضوعا تاما مزريا ، وتخاذل تفكيره ورقدة ضميره وانحلال شخصيته ؛ واذا طال الحال على ذلك أصبح الميل إلى التفكير رذيلة من الرذائل ونقيصة يحاسب عليها الفرد ، وتنزل به من أجلها العقوبة الرادعة ، ويسوء تفكير الجماعات التي استطارتها العاطفة وأفسد عقولها التعصب وجميع المربين الأحرار يسلمون بأن أول غاية يجب أن يتجه اليها التعليم هي تشجيع استقلال التفكير وحرية الرأى وانماء القدرة على تكوين الأفكار الصحيحة والآراء الصائبة البعيدة عن مؤثرات الدعاية وبواعث الاغراء وهذا نقيض المتبع في الدول الديكتاتورية ، لأن الطفل معتبر هناك عجينة تشكل بحسب ما يتراءى لولاة الأمور وتعمل الدعاية من ناحية وفرط الخضوع للأوامر على سحق كل امتياز فردى والقضاء على كل نزعة للثورة على هذه القيود المضروبة والأصفاد الموهنة ، وتقضى على الملكات الفنية ، وتعرقل الذكاء وإنماء الشخصية ؛ ويمقت هذا الأسلوب علماء

● مجلة الثقافة فبراير سنة ١٩٤١

الاجتماع والتربية ، ويتفرد بترجيحه وتحبيذه المفكرون المتكوبون بالخضوع للديكتاتورية والذين يشك في إخلاصهم لآرائهم وتحريهم الحق فيما يقررون . وقد جربت الأمم التربية القائمة على هذا النمط العسكري فوجدتها تشجع على خلق تفكير الجماعات ، وتؤدي إلى عبودية العقل ، وانحطاط التفكير ، وفقدان القدرة على الابتكار ، وشدة الاحساس بالحزبية والخضوع التام للتقاليد والصيغ ، والاستمساك بالأوامر والنواهي الخالية من المعنى ، وهي في الدين تؤدي الى التعلق بالقشور ، وعبادة الشعائر والخضوع التام للمذهبية والتعصب وتؤدي في السياسة الى تعليق التفكير والابتعاد عن مواجهة المشكلات ، والاكتفاء بالانقياد لأوامر الحاكمين . ولا نزاع في أن الجماعات المختلفة المقاصد ، والأحزاب المتباينة الآراء ، والطوائف المتعددة ، لها مكانها في التفكير الاجتماعي ؛ ولكنها عندما تزعم لنفسها حق احتكار الآراء وفرض المذاهب ، وتلجأ الى الضغط على الحريات في سبيل ذلك ، يبطل نفعها ويعظم ضررها ؛ وبدلا من أن تكون عوامل لحفز الهمم وخلق الأفكار ، وبيان وجوه الآراء المختلفة ، وطريقا للاهتداء إلى الحق والنافع ، تعمل للأغراض الصغيرة والمآرب الوضيعة والاستغلال الذميم ؛ ويستلزم ذلك ظهور محطمي الأصنام والثائرين على الأوثان ؛ ومثل ذلك واضح في التربية ، فان الأب الذي ينشيء ابنه على أن يعتمد عليه في كل شيء ، ويرجع اليه في كل كبيرة وصغيرة ، يقضي على ابنه بأن يظل طفلا عاجزا حتى عندما يبلغ سن الرجولة ، ويستوفي أطوارها ، ويبقى طول عمره خاضعا لارادة غيره ؛ فهل يقال إن مثل هذا الأب قد نجح في تربية ابنه ؟ اذا كان النجاح هو الطاعة العمياء والخضوع المطلق ، وفقدان الشخصية والاستقلال والقدرة على التفكير ، فلا شك أن هذا الوالد البار بأبنائه قد نجح ذلك النجاح الذي يطلب له الجامدون والذين يعبدون التقاليد المزيد منه ، ولكنه في رأي العقلاء والمستنيرين قد جنى على ابنه أكبر جناية ، وخان واجب الأبوة الحقة خيانة يستحق من أجلها العقوق والعقوبة . وأول واجبات الآباء هو تعويد أبنائهم الاستقلال والاعتماد على النفس ؛ وكذلك في النظم السياسية ، فالنظام الذي يعتبر الرجال أطفالا قاصرين تحت الوصاية ، ولا يقيم وزنا لعقولهم وأفكارهم، بل ولا لآدميتهم وكرامتهم الانسانية ، ولا يرضى منهم بأقل من الخضوع التام ، والاستسلام الخالص ، ويهدم بناء شخصيتهم ويسلبهم استقلالهم ، لابد أن يكون نظاما فاسدا ومسرفا في الفساد مهما افتن دعاته في الاشادة به ، بمنطقهم المتهالك ، وحججهم المردودة ، وثرثرتهم الوضيعة المرذولة . وليس الناس في حاجة الى التبحر في العلم والكرع من حياض الفلسفة ليهتدوا الى هذا السر الواضح ، ويعرفوا أن أكبر غاية للتربية والتعليم هي بناء الشخصية وتحرير العقل وتشجيع الاستقلال ؛ وليس معنى ذلك بطبيعة الحال البحث عن العزلة في جزيرة نائية ليكمل الاستقلال وتتم الحرية ، أو الثورة على كل قيد والخروج على كل شيء ، ورفض التأثر بأي عقل من العقول ؛ فقد اعترف أكثر أئمة المفكرين وأعيان الفلاسفة بتأثرهم بآراء غيرهم وسيرهم في السبيل التي عبدها من سبقوهم ؛ ولكنهم كانوا يقبلون من الآراء ما يلائم تفكيرهم الخاص وما يعينهم على حل مشكلاتهم وجلاء غوامض نفوسهم ، ويربأون بأنفسهم عن الاستسلام المهين للآراء والانقياد الأعمى للدعايات ، ولا يخضعون لرأي مهما كانت مكانة قائله الا بعد وزنه بميزانهم ، وعرضه على بصيرتهم لرفضه أو قبوله ؛ وبذلك يستطيع المفكر أن يتقدم بالفكر الانساني خطوات الى الأمام ، ويؤدي ما عليه من الديون للمتقدمين والقدماء ، وينهض بواجباته نحو الفكر الانساني ؛ وقد يرى بعض السطحيين في ذلك ضربا من الأثرة والترفع عن الفناء في غمار الجماعات وامتناعا عن مشاركة الأكثرية تفكيرها ووجهات نظرها ؛ ولكنها أثرة لازمة لحياة المفكرين وحرية والبحث عن الحق من نصيب العقل الباحث الجوال والنفس القلقة المتطلعة العاملة الجاهدة ؛ وصاحب العقل الخاضع والنفس الذليلة لا يتوق الى الحق ولا يحرص على الاستقلال ، ولا يرغب في الحرية . وعمل المربين والكتاب والقادة والزعماء والسياسيين هو أن يشجعوا ظهور « العقل المستقل » ويجنبوا بلادهم خطر « عقلية الجماهير » ، وإيجاد العقل المستقل . وإبعاد خطر عقلية الجماهير واجب من ألزم الواجبات ، وعمل من أقدس الأعمال في هذه الأيام الحالكة التي نشطت فيها الدعايات المختلفة ، وكثر الارجاف بالأباطيل وزائف الآراء . وخلق عقلية الجماعات في الأمم الديكتاتورية هو الذي مكن القادة من التغرير بها وتوريطها في المآزق الضنكة دون أن يستطيع أحد أن يشد طرفه اليهم ويناقشهم الحساب على أخطائهم وجرائمهم .

سلطان الأطرش
الفارس الذي رحل

بقلم : توفيق عبيد

في سوريا ودعت الأمة العربية واحدا من رموز نضالها الطويل : سلطان باشا الأطرش

ولد سلطان باشا في بلدة القريا في جبل الدروز جبل العرب عام ١٨٨٨ من أب مجاهد شنقه الأتراك في ٦ أيار (مايو) ١٩١٦ وما ان بلغ سن الرشد حتى ظهرت عليه بوادر الشجاعة وصفات القيادة وعلائم الفروسية .

فعندما اندلعت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين تولى قيادة مجموعة كبيرة من الفرسان وراح يهاجم جيوش الاحتلال التركي ... وبعقلية القائد العسكري وجد من المناسب أن يفتح الطريق أمام جيوش الثورة فهاجم جنود الاحتلال من الأتراك والألمان الذين كانوا محتشدين في بصرى الشام فانتصر عليهم مع رفاقه الثوار .... واتجه مع جيوش الثورة الى دمشق وكانت معركة (تل المانع) قرب الكسوة .. حيث تغلب مع المجاهدين من رفاقه على جيش كبير مزود بالمدفعية .. وأحدث الأسلحة التي كانت متوفرة آنذاك ... وكان أول من دخل دمشق فرفع العلم العربي أحد أعوانه لأول مرة بعد الاحتلال التركي الذي دام عدة قرون ..... فوق سراي دمشق ...

وما ان تخلصت سوريا من الاحتلال التركي حتى تعرضت من جديد ـ بعد اتفاقية سايكس بيكو ـ لاحتلال أجنبي آخر هو الاحتلال الفرنسي .... وأراد سلطان الأطرش أن يلتحق - مع الثوار من ابناء جبل العرب ـ بوزير الدفاع السوري آنذاك يوسف العظمة الا أن معركة ميسلون ١٩٢٠ كانت قد حسمت قبل وصوله واستشهد البطل يوسف العظمة في تلك المعركة ......

وفي عام ١٩٢٢ لجأ اليه أدهم خنجر الذي أطلق النار على الجنرال غورو وقتل مجموعة من الضباط الفرنسيين ، ولم يكن سلطان باشا في منزله .... فأخذه الفرنسيون خلسة وقبل عودة سلطان .. فلحق بهم سلطان الأطرش مع مجموعة الخيالة واشتبك مع المصفحات فقتل عدد من الضباط والجنود الفرنسيين .... وحكم على سلطان الأطرش بالاعدام فلجأ الى الأردن . بعد أن أحرق منزله في القريا وصودرت أملاكه وممتلكاته (كتاب الكابتن بورون صفحة ١٧١)

الثورة السورية الكبرى

ثم عاد الى سوريا ليقود في عام ١٩٢٥ الثورة السورية الكبرى .. حيث أجمع الشعب السوري المناضل على قيادته الحكيمة والشجاعة .... واذا بها أول



سلطان الأطرش مع الرئيس جمال عبد الناصر

قيادة يقبل بها الأغنياء والفقراء والشيوخ والشبان والرجال والنساء والمسلمون والمسيحيون . في توحيد وطني عجيب وإجماع منقطع النظير .... ويجتمع حول سلطان مجموعة من الرجال الأشاوس الأشداء أمثال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وفوزي القاوقجي وشكري القوتلي والأمير عادل ارسلان . والشيخ علي عبيد ومحمد عز الدين الحلبي . وحسين مرشد رضوان . والشيخ محمد الأشمر . ونسيب البكري . ونزيه مؤيد العظم . وعبد الكريم عامر ورشيد طليع وزيد الأطرش وحسن الخراط وسليمان العقباني . ومعذي المغوش . ويوسف العيسمي وفضل الله هنيدي وفؤاد سليم وقاسم أبو خير .. والدكتور أحمد الخطيب ومتير الريس وعلي الملحم .... وغيرهم من عشرات القادة ....

وتجري أول معارك الثورة في قرية الكفر ... حيث ابيدت الحملة الفرنسية بكاملها عدا اثنين تركهما الثوار لاخبار أسيادهم بما جرى وكان من أوائل الشهداء شهاب غزالي ومصطفى الأطرش شقيق سلطان .. وتغضب فرنسا وتهيء لقمع الثورة جيشا كبيرا مؤلفا من ثلاث فرق بقيادة الجنرال ميشو ومجهزة بأحدث الأسلحة المتوفرة من دبابات ومصفحات ومدفعية وطائرات ...

وتجري معركة المزرعة يومي ٢ و ٣ آب (أغسطس) ١٩٢٥ ويسطر المجاهدون أروع الملاحم البطولية في التاريخ الحديث وينهار الجيش الفرنسي الكبير ... ويسحق . ويلعب السيف العربي في هذه المعركة التي انتهت بالسلاح الأبيض دوره ويستعيد زهوه التاريخي العظيم ... ويستشهد عدة من الثوار مقابل آلاف القتلى من الفرنسيين .... ويهرب ميشو بمصفحة مثخنا بجراحه .

وتجري بعد معركة المزرعة الشهيرة عدة معارك في المسيفرة في حوران . وفي الغوطتين وراشيا ورساس والسويداء . والقلمون ومعارك عديدة في اللجاه .

يستشهد فيها عدة آلاف من أبناء القطر العربي السوري وعلى الخصوص من أبناء جبل العرب حيث لا تخلو أية عائلة أو بيت من عدة شهداء .

ويتناول المؤرخون والأدباء والشعراء وصف هذه المعارك الخالدة في تاريخ العرب المعاصر ويصفون قائد الثورة السورية الكبرى ويحللون شخصيته الفذة . حيث نرى الدكتور ظافر القاسمي يصف سلطان الأطرش بقوله : (لم يكن سلطان واحدا من الضباط الذين تخرجوا من مدرسة عسكرية وإنما كان رمزا للحرب

ضد الانتداب تخرج من مدرسة التمرد على الظلم وإباة الضيم والأنفة التي تثور على جرح الكرامة ... كذلك لم يكن سلطان واحدا من الذين تخرجوا من احدى الجامعات ولكنه كان من أعمق الناس فطنة - وأفهمهم لمطالب البلاد . وأدركهم لحاجاتها وأكثرهم تألما لحرمانها من حقوقها . ولقد علمه الجبل (جبل العرب) وتقاليده معنى الحرية الحقيقية ولقنته طبيعة الحياة ، فيه روح الكرامة الأصيلة وثقفته عاداته واعرافه بما هو أهم من الكتاب والمدرسة) .

ويصف بعض المؤرخين معركة (المزرعة) فيقول المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في مذكراته صفحة ٢٨ (لقد جرت ملحمة بالسلاح الأبيض لم يجر مثلها في البلاد منذ ذكر الواقدي أخبار الفتوحات)

ويضيف المرحوم الدكتور الشهبندر واصفا معركة المزرعة في مذكراته صفحة ٢٦٨ قائلا : (ولقد زرت ساحة هذه الملحمة مرارا وحاولت أن أحصي عدد الجثث الملقاة فيها بالضبط فلم افلح لسعتها وحسبي أن أقول إنني مشيت من يمين المزرعة الى الطريق الممتدة غربا نحو ساعتين بين الجثث والعتاد - الملقى على الأرض فلم أنته منها) .

شهادة فرنسية

حتى أن العدو الفرنسي لم يستطع تجاهل هذه المعركة العسكرية فنرى أن الجنرال أندريا يصف آثار معركة المزرعة بتاريخ ١٩٢٥/١٠/٦ في كتابه ثورة الدروز وتمرد دمشق قائلا :

« هذه المأساة ما تزال مرسومة على أديم الأرض وهي حقا منظر للدمار فظيع . العظام مبعثرة فوق التراب وموميا، الأجساد البشرية التي جففتها شمس المشرق ملقاة في كل مكان . هنا عربات مقلوبة محطمة الدواليب ، وهناك شاحنات محروقة لم يبق منها الا هياكلها ، والى البعيد سيارات مجهزة بالرشاشات ومعطلة ومكسرة وقد تكدست الى جانبها جثث ركابها . انها لمعركة محزنة حقا تجلب الضيق والغم وهي شهادة ظاهرة على المصيبة التي حلت بنا .. ان شرايين القلب لتتقطع بألم شديد وسط هذا الحطام وبين هذه البقايا البشرية » . ونجد وصفا آخر في كتاب (المدفعية في المستعمرات) صفحة ١٢٥٣ : (لقد نشبت بين الجيش الفرنسي والدروز معركة دموية مريرة خاسرة فسحق على أثرها هذا الجيش سحقا) وتمتد الثورة لتشمل سوريا بكاملها .. ولو أن الثوار آنذاك يعرفون استعمال الدبابات والمصفحات والمدفعية التي غنموها لكان تحرير سوريا جاهزا في عام ١٩٢٥ .. الا أن الثوار لعدم معرفتهم باستعمال تلك الأسلحة - لجأوا الى حرقها وتدميرها .

ولم يرض سلطان ورفاقه الثوار العيش في ظل الاحتلال فلجأوا الى الأردن ثم الى المملكة العربية السعودية حيث عاشوا فوق صحرائها ... في وادي السرحان في النبك مدة عشر سنوات وفي ظروف صعبة لولا رعاية المخلصين من ابناء العروبة والاسلام في الوطن والمهجر لتعرضوا للموت المحقق .

ويعود سلطان ورفاقه الى سوريا بعد معاهدة ١٩٣٦ حيث يستقبلون في درعا ودمشق والسويداء استقبال الأبطال .

ويعتز الشعراء العرب بانتصار الثورة فيصف الشاعر الدمشقي المرحوم محمد البزم الثورة وقائدها بقوله :

غادر دمشق ويمم دار سلطانا
على السويداء لا تحفل بمن عانا
حل في حماة ولا تعدل بدارته
أفياء غمدان او من شاد غمدانا
وانزل بعترة معروف واخوتهم
تلق الاباة وتلق الأسد فرسانا
يا آل معروف والأنباء سائرة
والخزي - مذ كان - مذخور لمن خانا
ما ان سمعنا ولا التاريخ حدثنا
بمثل فعلكم ، شيبا وشبانا
يا آل معروف هذي دمشق وبدي
رهينة الود عن ابناء قحطانا
أنتم ملوك الوغى والبيض ناطقة
وذي عمائمكم في الهول تيجانا
أعملتم السيف في الأعناق عن كثب
حتى أقمتم من الأجساد كثبانا
أشبعتم الطير من أشلائهم جزرا
فهل حسبتم وفود الطير ضيفانا

وقال الشاعر القروي رشيد سليم الخوري . الشاعر المهجري

خففت لنجدة العاني سريعا
غضوبا لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جمع
بهم وبدونهم تغنى الجموعا

ويا لك أطرشنا لما رغبتا
لثأر كنت اسمعنا جميعا

ويقول المؤرخ بورتر انه أشجعُ رجل في شعب شجاع !

ويقول مؤرخ آخر هو المجاهد منير الريس : لقد عرف سلطان كيف يوحد هذا الشعب وأين تكمن قوة هذا الشعب انها في الوحدة الوطنية فكان شعار الثورة .

وصيته قبل الرحيل

وقبل رحيل سلطان :

كانت وصيته التاريخية لأبناء هذه الأمة مبادىء قومية عاشها شيخ المجاهدين قولا وفعلا وعرف أنها الطريق الصحيحة لتحقيق أماني شعبنا العربي الواحد . ولقد قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

إخواني وأبنائي العرب

عزمت وأنا في أيامي الأخيرة أنتظر الموت الحق أن أحدثكم مودعا وموصيا :

لقد اولتني هذه الأمة قيادة الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي الغادر فنهضت بأمانة القيادة وطلبت الشهادة وأديت الأمانة .

انطلقت الثورة من الجبل الأشم جبل العرب لتشمل وطن وكان شعارها :

الدين لله والوطن للجميع

واعتقد أنها حققت لكم عزة وفخارا وللاستعمار ذلا وانكسارا .

وصيتي لكم إخوتي وأبنائي العرب هي: أن أمامكم طريقا طويلة ومشقة شديدة تحتاج الى جهاد وجهاد : جهاد مع النفس ، وجهاد مع العدو . فاصبروا وصابروا صبر الأحرار ولتكن وحدتكم الوطنية وقوة ايمانكم وتراص صفوفكم هي سبيلكم لرد كيد الأعداء وطرد الغاصبين وتحرير الأرض .

واعلموا أن الحفاظ على الاستقلال أمانة في أعناقكم بعد أن مات من أجله العديد من الشهداء وسالت للوصول اليه الكثير من الدماء . واعلموا أن وحدة العرب هي المنعة والقوة وانها حلم الأجيال وطريق الخلاص .

واعلموا فان العمل يرفع ، وجاهدوا فان الجهاد شرف واعلموا بأن ما أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ ، وأن الايمان أقوى من كل سلاح وأن كأس الحنظل في العز أشهى من ماء الحياة مع الذل . وان الايمان يشحن بالصبر ويحفظ بالعدل ويعزز باليقين ويقوى بالجهاد .

عودوا الى تاريخكم الحافل بالبطولات ، الزاخر بالأمجاد لأني لم ار أقوى تأثيرا في النفوس من قراءة في التاريخ لتنبيه الشعور وإيقاظ الهمم لاستنهاض الشعوب لتظفر بحريتها وتحقق وحدتها وترفع أعلام النصر ...

واعلموا أن التقوى لله والحب للأرض وأن الحق منتصر ، وأن الشرف بالحفاظ على الخلق ، وأن الاعتزاز بالحرية والفخر بالكرامة .. وان النهوض بالعلم والعمل ، وأن الأمن بالعدل وأن بالتعاون قوة !

الحمد لله رب العالمين ... الحمد لله

لقد أعطاني عمرا قضيته جهادا وأمضيته زهدا لبتني وجداني وأعانني بإخواني .

أسأله المغفرة ربه المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

أما ما خلفته من رزق ومال فهو جهد فلاح متواضع وتحكمه قواعد الشريعة السمحاء .

القريا ـ سلطان الأطرش

لقد مات سلطان الأطرش في ٢٨ آذار ١٩٨٢ عن عمر يناهز التسعين عاما ونيف ، قضاها في النضال من أجل الحرية والاستقلال . والكرامة الوطنية .

فودعته جماهير الشعب العربي في يوم تاريخي مشهود . ضم أكثر من نصف مليون من البشر وفدوا من سائر أنحاء الوطن العربي الى السويداء، عاصمة جبل العرب لوداع شيخ المجاهدين وبطل سوريا القومي ، وتحول الاحتفال التأبيني الكبير الى تظاهرة وطنية كبرى شارك فيها حتى أبناء الجولان المحتل الذين عاهدوا روح القائد الكبير ... على الحفاظ على وصيته بحب الأرض والالتزام بالمبادىء القومية العربية .

لقد رحل الفارس العربي الكبير والحديث عن الثورة وقائدها يطول ويطول .. ■■

المحامي توفيق عبيد
السويداء ـ سوريا

قصة

الحل الأخير

بقلم : الدكتور شكري محمد عياد



كان « ع » مسلوب الارادة تماما .

صحيح انه لم يدخل هذه الحجرة الا بعد ان وصل الى حالة من اختلاط التفكير تشبه الجنون ، ولكنه احس بعد ثوان معدودة ان كل شيء يسحب منه : الرغبات ، المخاوف ، الأوهام ، كل الحسابات المعقدة المرتبكة التي اصبح دماغه يجريها وحده بدون نتيجة . كلها تلاشت وحل محلها خواء مطلق مريح ، وهو ممدد على الكرسي الجلدي الطويل الذي استغرب شكله أول الأمر ، اذ رآه اشبه بكراسي طب الأسنان في العيادات الحديثة جدا ، وكان يتوقع ان يجد اريكة طويلة وثيرة ، ولكنها ثابتة في الارض ، يأمر الطبيب بالاستلقاء عليها ، ثم يأمره بالاسترخاء ، وان يتكلم بكل ما يخطر على باله .. مثل ما قرأه في الكتب ، وهو يحسب نفسه مثقفا . ولكنه لم يكن بحاجة الى أكثر من ان يجلس على الكرسي ، وبعد ثوان معدودة وجد نفسه يتعرى من كل شيء . ما اجمل ان يتعرى الانسان ! وجد نفسه راقدا على ظهره ، على جنبه الايمن ، على جنبه الأيسر . الضوء يخفت رويدا رويدا . لا يبقى الا نور بنفسجي ناعم ، ووجه الطبيب يظهر ويختفي ، ثم يظهر ثانية ، مطلا عليه من فوق ، مبتسما كله . يهمس احيانا بكلمة . لا ينتظر جوابا . يختفي . يعود الى الظهور . ابتسامة أكثر اشراقا .

هل دامت هذه الجلسة ساعة ؟ ساعتين ؟ ربع ساعة ؟ خمس دقائق لا يستطيع « ع » ان يقدر ولكن الساعة تقول : عشرين دقيقة .

شعر « ع » بانتعاش عجيب . في تلك الليلة نام مع زوجته . كانت كأروع ليالي شهر العسل . كأنه في حلم .

عندما ذهب الى الجلسة الثانية في نفس اليوم والساعة من الاسبوع التالي ، كانت السحب قد تجمعت من جديد . تقاذفا بالصحون وتشابكا بالايدي . وكان في صدغه الأيمن جرح ظاهر لأنها خمشته باظافرها الطويلة . قاده المساعد على الفور الى الحجرة المعتمة . طرح نفسه على الكرسي بلهفة المشتاق . تقلب وتنعم . تمنى لو تطول الجلسة أكثر .

اسرع بالعودة الى البيت . اعتذر لها برقة . قبلها بحرارة . تعشيا في مطعم من أفخر مطاعم المدينة . ذهبا إلى السرك . كادت تفسد عليه ليلته بغيرتها الحمقاء عندما رأته لا يشبع من النظر الى الترابيز . ولكنه استطاع ان يعبر الازمة ببعض الفكاهات المناسبة . قضيا ليلة هنيئة .

قبل الموعد بيومين كان قد وصل الى حالة من السوء جعلته يحاول ان يرشو المساعد ليقدم الجلسة ولو يوما واحدا . اخبره ان ذلك مستحيل . الكرسي مشغول طول ساعات العيادة . عليه ان يخبر الطبيب فهو الذي يستطيع ان يقرر ، في بعض الحالات يسمح بجلسة اضافية في غير الموعد المقرر . الاجر مضاعف بالطبع . بعد شيء من التفكير قرر « ع » ان ينتظر .

حين تمدد على الكرسي اخيرا همس للطبيب برغبته . غمغم الطبيب بشيء لم يسمعه ، بدت ابتسامته اقل اشراقا . لكن « ع » خرج من الجلسة أكثر راحة . لم يثر على زوجته مرة واحدة خلال هذا الاسبوع ، لكن عرته حالة من الاكتئاب لم يعهدها من قبل . خاف ان يكون قد قدم للطبيب في الجلسة الاولى وصفا غير دقيق . حاول ان يشرح له المشكلة مرة اخرى . خيل اليه ان الرجل مشغول عنه بالتفكير في امر آخر . كاد يثور . نظر اليه الطبيب باهتمام حقيقي . قال باقتضاب : من الضروري ان تستمر في هذه الجلسات بعض الوقت .

أصبحت الغرفة المعتمة اقل جاذبية ، الأعيب الكرسي لم تعد تستهويه . ابتسامة الطبيب بدت له مصطنعة ، جامدة ، كأنما اجريت له جراحة تجميل حتى يشد وجهه على هذه الابتسامة . حتى الموسيقى الناعمة التي لم يكن يعرف مصدرها اصبحت كالوسادة اللينة التي لا تستطيع ان تمنع عنه الارق . حاول مرة ان يتهرب من الموعد ، مع انه كان في اشد العذاب . ازداد حقدا على زوجته لانها لم تلاحظ التغير الفظيع الذي طرأ عليه . بينه وبين نفسه أصبح يسمي الغرفة المعتمة بالقبر ، وغرفة الغاز ، ويسمي الكرسي بالكرسي الكهربائي . قال لنفسه انه يجب ان يهرب . فكر في الانتحار . تخيل انه يخنق الطبيب بيديه . لكنه لم يتحمس لاي فكرة من هذه الأفكار . ادرك انه أصبح مريضا بذلك المرض الحديث الخطير الذي يسمى « التعطل الكلي في وظيفة الارادة » .

شعر بشيء من الارتياح عندما ادخله المساعد الى مكتب الطبيب بدلا من الحجرة المعتادة نظر الى الطبيب مستفسرا . ولكن الطبيب هو الذي سأل :

ـ اذا كان عندك شخص مريض بالتهاب اللوزتين ، ماذا تصنع له ؟

استغرب السؤال ، ولكنه أجاب :

ـ أخذه الى الاخصائي ليكتب له العقاقير المناسبة .

ـ واذا تكررت الاصابة ؟

ـ أظن ان الطبيب سينصح بالجراحة .

ـ هذا هو ما سنفعله بالضبط

واردف بسرعة :

ـ ليس معنى هذا ان حالتك خطيرة . لقد مرت علي أكثر من مائة حالة كلها أصعب من حالتك . لا اقول

لك ان الشفاء مضمون . فلا اريد ان اخدعك . ولكني اقول ان احتمالات النجاح لا تقل عن ٧٠٪ فقط يجب ان تعلم ان تكاليف العلاج كبيرة نوعا ما .

استفسر بعينيه . الرقم هائل . ولكن يمكن تدبيره من هنا ومن هنا . امسك الطبيب ملفا سمينا بين أصابعه وقال :

ـ لا تظن ان الجلسات التي عملناها كانت بغير فائدة . هذه هي الحصيلة . اتذكر العينات التي اخذناها في الزيارة الاولى ؟ لقد اجريت عليها عشرات التحليلات . والنتائج هنا . وعندما كنت تتمدد مسترخيا على ذلك الكرسي . كان يسجل مئات القياسات وانت لا تشعر .

همس « ع » لنفسه :

ـ الخبيث .

ـ كلها في هذا الملف . هنا كل شيء عنك . ما لا تعرفه انت نفسك . ما لا يمكن وصفه بالكلمات ولكن الارقام تحدده بطريقة لا تقبل خطأ . انتبه جيدا . لقد كنا نعالجك ونعدك للجراحة في الوقت نفسه . بما ان العلاج لم يعط النتيجة المطلوبة فان الفحوص الكاملة التي اجريناها في اوقات منتظمة تجعلك جاهزا للجراحة .

ثم بابتسامة :

ـ هل تخاف الجراحة ؟

قال « ع » بفتور :

ـ أي شيء .

حرك الطبيب يده بالملف مثل حركة البوصلة :

ـ سيتحدد نوع الجراحة بناء على هذه البيانات . آمل ان تكون سهلة .

والآن ساكتب لك عنوان الجراح . يمكنك ان تحمل اليه الملف بنفسك .

امضى « ع » شطرا كبيرا من الليل يقلب صفحات الملف . ادعى لزوجته انه خاص بالعمل حتى لا تلح عليه بالأسئلة . هو في هذا الملف ! ولكن ما هو ؟ صفحة بعد صفحة ، عشرات ، مئات ، ألوف الأرقام . هو هنا ! ما لا يعرفه عن نفسه ،ما لايظهر في المرآة ، ما لاتظهره أشعة اكس ، هاجته الذكرى . صغيره الحبيب . الطبيب يوقفه خلف الجهاز . يطفيء نور الحجرة . « ع » يكلم الصغير حتى لا يخاف . الطبيب يضغط زرا . يرى « ع » القفص الصدري ، القلب ، الأحشاء . يضحك الطبيب ويقول له : « طفل جميل هه ! » .

طفل جميل ! أضاعته الملعونة . قتلته بغبائها . قتلت « ع » نفسه .

لو يعرف فقط انه سيراه ثانية ! يحمله ويجري به وسط الموج ، وهو يضحك باكيا ، خائفا ، يقذف اليه الكرة مجهدا الا تخطئها يداه . وهو العفريت ، يتعمد ان يحذفها بزاوية ، يضحك عليه وهو يحاول عبثا ان يدركها قبل ان تسقط ، يصارعه ويقع على ظهره مدعيا انه هزم ، وهو يركب على صدره ويزوم كأنه سيأكله ، فيحتضنه ويقبله وهو ينظر في عينيه البريئتين الصافيتين .

في هذه الليلة لم يستطع ان يأوي الى فراشهما المشترك . نام في حجرة المكتب .

دهش حين رأى على باب الشقة لافتة تحمل هذا الاسم : « الحاسب الالكتروني للابحاث الخاصة » . عاد ينظر الى العنوان الذي كتبه الطبيب . خرج . رجع . دق الجرس . لم تسأله فتاة الاستقبال الصغيرة عن الغرض من الزيارة . مد اليها يده بالورقة فسألته على الفور .

ـ الملف معك ؟

دون ان يتمكن من نطق كلمة واحدة ، كانت تكتب له ورقة صغيرة بالموعد وتضع الملف في خزانة صغيرة ثم تعود الى مكتبها الصغير . نظرت اليه نظرة فهم معناها، فمد يده برزمة الاوراق المالية . نظمتها بيد مدربة ووضعتها في عداد صغير. وسحبت من أسفل العداد ورقة صغير طبع عليها الرقم والتاريخ فوضعت عليها توقيعها الصغير وناولتها له . لم يبق امامه الا ان ينصرف .

الموعد بعد اسبوعين . لم يعد يطيق عذاب الانتظار . كل شيء الا عذاب الانتظار . طلب اجازة من عمله . زعم لزوجته انه موفد في مهمة وذهب الى الشاطيء . تلذذ بمرارة الذكريات . تمتع بنوع من الجنون الهادي، . عند عودته قصد توا الى « الحاسب الالكتروني » .

قابله طبيب آخر مبتسم ، يلبس نظارة رقيقة ذات اطار معدني رقيق . سأل : هل تجرى له الجراحة الآن ؟ هل يجب عليه ان يقوم باستعدادات خاصة ؟ اجابه الطبيب المبتسم (هذه الجراحة بالغة الدقة ، لان الابتسامة لا تزيد مليمترا ولا تنقص مليمترا) :

ـ يظهر انك لم تتعامل مع مؤسسة كمؤسستنا قبل الآن . الواقع اننا نمارس العلاج النفسي بطريقة حديثة جدا . لكن لا تخش شيئا . نحن نعمل طبقا لمبادي، علمية مائة في المائة . ونوفر لمرضانا الأمان التام . يجب ان اشرح لك طبيعة العلاج لتعرف دورك . الطبيب الذي حولك الينا يعرف هذا جيدا وكان يحسن به ان يخبرك . ان مبادي، العلاج النفسي هي هي لم تتغير منذ مائة سنة : تحليل نفسية المريض ، ثم احداث نوع من التوافق بين دوافعه النفسية وظروفه الخارجية . ولكن الحاسب الألكتروني اوجد ثورة حقيقية في طرق

العلاج . لا بد ان طبيبك أخبرك بشيء عن طبيعة الملف الذي جئتنا به . حسنا . يمكنني ان اقول لك باختصار ان كل التفاعلات الكيميائية التي تجري في جسمك ، في كل الاحوال الممكنة ، مسجلة بالارقام في هذا الملف . هذه الارقام تعطي الصورة الكاملة لتكوينك النفسي . مقابلتك مع طبيبك ايضا - لعلك نسيتها الآن ؟ - سجلت وحللت بواسطة الحاسب الألكتروني ونبرات صوتك نفسها حللت الى أرقام . مهمتنا هي تغذية الحاسب الألكتروني السيكوباتي بهذه الأرقام ليقدم لنا الحل النهائي . الجراحة النفسية كما نسميها الآن .

واردف بنبرة تحذير :

- لا تظن انها عملية سهلة .

- تعني تغذية الحاسب الألكتروني طبعا ؟

- طبعا طبعا . والحل ايضا . الجراحة كما نسميها .

- حسنا . ماذا ينتظر مني أنا ؟

- اسمع . يظهر ان العملية تبدو لك شديدة التعقيد . والواقع أنها بالغة البساطة ككل نظام علمي . فقط يجب ان تعرف الطريقة التي يعمل بها النظام . لا تنس اننا نبدأ بالانسان وننتهي بالانسان . نعم ياسيدي . نحن انسانيون أكثر من كل الذين جاءوا قبلنا .

والحاسب الألكتروني لا يصنع شيئا أكثر من القيام بمهمة معينة ، بالنيابة عنك . فهو يمتاز عن البشر بميزتين ، انه لا ينسى شيئا ، وانه يركز تركيزا تاما على مشكلة واحدة . وهكذا يقدم اليك الحاسب الألكتروني الحلول الممكنة ، واحتمالات النجاح لكل حل منها . وعليك ان تختار .

- وهل وجد الحاسب الألكتروني حلا لمشكلتي ؟ علي به أرجوك .

- لا يمكنك ان تشك في ذلك . فالحاسب الألكتروني لا يفوته شيء . وقد يكون الحل في بعض الحالات شيئا تافها جدا ، بحيث لا يخطر على بالك . مثلا : ان تقدم موعد نومك ، او تؤخر موعد نومك ، ان تركب الحافلة بدلا من القطار ، ان ...

انفجر « ع » صائحا :

- لا تعطني محاضرة عن الحاسب الألكتروني . ما الحل الذي اقترحه في حالتي انا بالذات ؟ هل اقترح مثلا ان أنظف أسناني مرة واحدة في اليوم بدلا من مرتين ؟

فكر انه وقع في ايدي جماعة من النصابين . ولكن الطبيب نظر اليه نظرة طويلة باردة جعلت نبضه ينزل الى أقل من ٥٠ في الثانية .

وقال وهو يقف ببطء :

- يؤسفني ان اقول لك ان مشكلتك أصعب من ذلك .

كان « ع » يتابعه بنظره في ذعر ، وقد فقد القدرة على النطق .

- لعلنا لو استطعنا ان نجري الفحوص نفسها على زوجتك لوجدنا حلا اسهل . ولكنك تقول انها ترفض العلاج النفسي عن مبدأ . فضلا عن ان التكاليف ستكون مضاعفة . وعلى كل حال فقد ادخلنا حقيقة رفضها للعلاج النفسي في حساباتنا .

حتى انهى هذا الشرح ،الذي يبدو انه طال اكثر مما ينبغي ، أخبرك ان امامك حلين ، ويمكنك ان تختار :

الحل الأول : ان تسافر الى الشاطىء الذي وقعت فيه حادثة ابنك ، وتنزل في نفس الفندق ، وتتصل بزوجتك مدعيا الجنون . ستحضر وتصاب في حادثة ، غالبا في نفس المكان الذي وقعت فيه الحادثة الاولى . اما أنت فستكون قد شفيت .

تمتم « ع » في نبرات بائسة :

- اذن فالحل هو ان أقتلها ؟

- من تكلم عن القتل الآن ؟ نحن أطباء ، نعرف اخلاقيات المهنة . وفضلا عن ذلك فاننا نوفر لمرضانا الأمان التام . هل نسيت ؟ وفضلا عن هذا وذاك فان القتل غير وارد في حالتك على الاطلاق ، والا كان الحاسب الألكتروني يضعه كواحد من الحلول الممكنة . فنحن نجري حساباتنا مرتين : مرة بالاعتماد على المعطيات السيكوباتية فقط ، ومرة أخرى بالاعتماد على المعطيات السيكوسوسيولوجية . ولكي تطمئن ، اخبرك ان الحاسب الألكتروني لم يقدم حل القتل في أي من المرتين . بصراحة : انت من الناحية النفسية انسان عاجز عن القتل .

- الا يمكن تصاب بعاهة فقط ؟

- طبعا . ولكن مشكلتك ستكون قد حلت ايضا . سيحل العطف محل الحقد . وسترعاها كطفل .

- وايضا يمكن الا تموت وألا تصاب بعاهة ؟

- طبعا . في الواقع لا يمكن تقدير احتمالات النجاح تقديرا دقيقا ، نظرا لاننا لا نعرف إلا القليل جدا عن شخصية زوجتك . واي رقم بين ٤٠ و ٩٠ في المائة هو رقم صحيح علميا .

- ألا يوجد حل آخر ؟

سكت الطبيب لحظة . ثم استمر قائلا :

- الحل الأخير - وانا شخصيا لا انصح به - هو ان تضع حدا لحياتك . الطريقة التي يقترحها الحاسب الألكتروني هي ان تتناول جرعة كافية من دواء مسموم . احتمالات النجاح في هذه الحالة تقرب من ١٠٠٪ . ■ ■

شكري محمد عياد

دراسة في شعر نازك الملائكة

مرايا الشمس*

بقلم : الدكتور محمد عبد المنعم خاطر

اهدى اليها زوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة في مطلع عام ١٩٧٤ خريطة لفلسطين ، فأثارت كوامن اشجانها ، فكانت مرايا الشمس .

ومرايا الشمس قصيدة ليست كما يبدو من عنوانها مجرد انعكاسات ذاتية لمأساة فلسطين ، وحق فلسطين ، وانما هي انعكاسات واعية لفترة زمنية مشحونة بالقلق وجاثمة على مشاعر الجموع .

والشاعرة لم يقتصر دورها على مجرد الكشف عن قلق العصر ، وبعث الالم فيه ، وانما اسهمت بتقييم الموقف ، وتقدمت بمشروع يهدف الى المجابهة والتغيير ، فدورها ايجابي ملتزم بقضايا امة ، وكفاح شعب ، وتقرير مصير .

ورغم ان القصيدة بدأت غنائية خالصة تدور حول مشاعر أسيانة اثارتها خريطة فلسطين ، وما على الخريطة من مواقع واسماء حبيبة لها ظلال مثيرة ، بيت المقدس - عكا - اللد - جنين ، غزة ، كفرقاسم ، بيسان ، حيفا ، يافا ، نابلس ، طولكرم ، الناصرة ، بئر السبع ، الجليل ، الخليل ، اللطرون ، رام الله - واستمرت غنائية كذلك ورغم الاسلوب النسوي ، والانفعال المباشر المسيطر على بيتي المطلع .

نامي على اهداب عيني يا خريطتها
ورقي في دمائي
اني نذرت لكي اكسر قيدها زمني

لزيف دمي
غنائي

فانها استطاعت ان تستقطب مشاعر الجماهير ، وان تحولها الى خطة عمل من خلال تمثلها لابعاد المأساة .

خطان للقصيدة

وابعاد المأساة رهيبة ، وفلسطين في الواقع غير فلسطين على الخريطة ، ففلسطين في الواقع في ايدي اليهود ، ولكونها كذلك ، ولطول وقوعها في ايدي اليهود ، فان المشاعر ربما تكون في حالة همود .

أما فلسطين على الخريطة فهي وان كانت مواقع مجردة الا ان الشاعرة لا تراها كذلك وانما تراها بدلالاتها الحدسية المثارة بحنين الذكرى ، المشحونة بآلام المحنة ، ومعاناة السنين .

ومن هنا اخذت القصيدة خطين ، وعبرت عن مستويين من مستويات التعبير .

الخط الأول : ثوري عنيف ، تولد من الدلالات الحدسية لمواقع القرى والمدن على الخريطة وانعكاساتها على الوجدان والمشاعر .

الخط الثاني : واقعي ، تولد من الاحباطات العديدة التي تسعى لاجهاض كل بارقة امل .

---

* من ديوان يغير الوانه البحر لنازك الملائكة .

وكلا الخطين لا يتعارض مع الخط الاخر ، لانه ببساطة انعكاس للاخر ، ومؤثر فيه ، فالثورة نتيجة للواقع الجهم ، والواقع الجهم صدمة لمشاعر الثائرين .

وكلا الخطين يتآزر للوصول بمشروع المجابهة والتغيير الى ان تعود فلسطين عربية :

لا يجوب سفوحها غيري انا
غير الاغاني ، والعروبة ، والرياح .

والقصيدة بدأت بالخط الاول انسجاما مع ثورة الشاعر ، وشعشعة الاحاسيس ، واخذت بمجرد رؤية المواقع على الخريطة تستعرض بانفعال خطة الكفاح .

وعلى عادة الانثى بدأت الكفاح بالمشاركة الوجدانية ، كرد فعل مباشر وسريع لما اثارته المواقع على الخريطة من ظلال واحاسيس . واذا كان الطبع يغلب التطبع فان مجرد اللقاء - حتى ولو كان اللقاء على الخريطة - يدفع بطبيعتها النسوية الى ان تقدم الى كل موقع على حدة الورود ، والرياحين .

آفاقها سأخطها بالورد
اغرس عند بيت المقدس الدامي قرنفلة كبيرة
واحيلها في عرض بحر من زهور الماء والدفلى جزيرة
واشك عند حدود عكا زنبقة
حرى الغلالة مغدقة
واللد الفحها برقة وردة جورية
حمراء غذتها دماء شهيدة عربية

وتستمر في غرس الورد ، ونثر الورود ، واهداء الورود الى كل موقع على حدة رغم الالم ، رغم القيد الذي نذرت دمها ، حياتها ، شعرها لتكسيره .

ولكن ايكفي لتحرير فلسطين هذا الانفعال المتحضر ، هذا الجو المعطر ، هذي الاماني الطيبة ؟!!

ان المأساة لأعمق ، وانها لتستوجب الدموع والحسرة ، وهل تملك الانثى تجاه المأساة التي حيرت الناس ، واقلقت العصر غير الدموع والاسى والحسرة ؟!!

انها لتصرخ من اعماقها ثائرة على اسلوبها هذا الحضاري

لا ، لا ، دعي الازهار يا كفي
لتعبر باسلوب نسوي خالص ، صادق ، مليء بالدموع ، بالشهقات ، بالاحزان ، بالالام
. . . . . . خريطتها سأنقطها بدمعي
ساخط بالعبرات كل حدود ناصرتي
وبالشهقات ابني بئر سبعي
سأحيط اسوار الجليل بخضرة ريانة
تنثال من المي ورقصي
وسأمنح اللطرون عصف رياح احزاني ، أسيجها بنبضي
والطفلة السمراء رام الله ارقدها على مهد
يرطب حرة ثلج الدموع
والحزن حول غطائه الوردي اشرعة

مواويل
شموع

وتستمر كذلك ، تمنح الاسى ، وتنزف الدموع ، وتنثر الاحزان ورودا

. . . تعشش في مدائنها
تعطر كل زاوية وضلع
ليس بالدموع وحدها

ولكن مرة اخرى اتفيد الدموع ؟ اتكفي الانفعالات الحارة لتحرير فلسطين ، يبدو انه لا الورود ، ولا الدموع ، لا الاسلوب الحضاري ، ولا مشاعر الضعف يكفي لذلك .

اذن فلتتمرد الانثى ، لتجابه الامور بالقوة ، والاحتلال بالدم ، لتندفع الى غير ما نهاية تزرع الاشواك ، تفجر الصواعق والقذائف والالغام ، تسور بالخناجر ، المدى ، والسكاكين الحداد اللاسعة قرى ومدن فلسطين ، لتندفع ثائرة على اسلوبها الدامع الحزين الذي كان وتقول :

لا ، لا ، برئت من الحدود الدامعة
وجزعت ان ترنو الى خريطتي من هذه المدن الحزانى
اني سأشعل في رباها ثورة

غضبا
دخانا

ولدى القرى السود العيون الضارعة
سأقيم من وهج القنابل مهرجانا
ويضوع عطر الموت يسكر من تموجه عدانا

وتستمر كذلك تبذر الاسلحة ، وتنتظر الحصاد . ولكن اين الحصاد ؟!!

ان الخط الثاني ، خط الواقع الجهم بظلاله الكئيبة يبدو هنا كالصخرة الصماء التي يتحطم عليها الموج كل الموج ، فالارض رغم الازهار ، والدموع ، والصواريخ ما تزال محتلة ، والمدن ما تزال خاوية ، والطرقات ما تزال مخذولة ، والثورة العارمة تستحيل الى انطفاء ، لا نبض ، لا امل ، لا شروق ، لا صباح !!

ان الشاعرة هنا تنتهي من حيث كانت قد بدأت ، لا بل انها تنتهي الى اسوأ مما كانت قد بدأت ، لأن الواقع المر يبتعد كثيرا عن شعشعة الاحاسيس ، وثورة الشاعر ، ولذا نراها تستقطر الالام وهي تحكي في اسى وحسرة :

ووضعت بين يدي خارطتي ، رأيت ربى مدائنها خواء مخذولة الطرقات ، يذرع صمتها اللاشيء ، يسكنها الهواء

ليلاتها ... ، ظهيرتها ذبول .
يتصبي ، بقصي خطاي ، ودون بياراتها الظمأى يحول
وبجبل خارطتي تتارا من طلول
احجارها لا تبض فيها ، لا عروق ولا دماء
حتى غدا يستحيل الى انطفاء
وحرثت صخرا لم اجد في الصخر زنبقة انتصاري
وجبين فجرى ضاع مني ، والضباب دنا واسدل ستره
غطى نهاري

ومضغت اشواك اندحاري

وهكذا يلقي الواقع الكئيب بظلاله الكثيفة !! ولكن مهلا . اليس الواقع المر هو الذي يدفع دائما الى الكفاح ؟ انه لأمر محير . لقد بدأت الكفاح بالفعل ، غرست الورود ، ونثرت الدموع ، واشعلت الثورة ، ووصلت مع ذلك الى طريق مسدود . ترى هل اخطأت الطريق ؟

واين هو الطريق ؟ كيف الوصول ؟
والليل يفصلنا وتجرفنا السيول
تتساقط الاحلام ميتة ، وتتكسر الحلول
وتخونني الايام
تسقط من خلال اصابعي حتى الفصول

اذن هو اليأس .. لا لم يصل الموقف بعد الى حد اليأس ، انها فقط وهي تعد للامر نسيت القوة الحقيقية الكامنة في كل سلاح ، ونسيت الروح ، نسيت السر الاعظم ، نسيت الله .

وعرفت سر البعد ، سر التيه ، اني قد نسيت
ان انقش اسم الله فوق صخورها
وحرمتها من ضوئه ، من دفئه
عذرا لعطر ترابها ، وورودها ، و...

لتصل في النهاية الى ان اسلحة التحرير التي سوف تحرر الارض ، وتكسر القيد ، وتعود بالاهل هي :

وردي
ودمعي
والسكاكين الحداد

وذكر ربي

خريطة فلسطين

تناثرت على الخريطة مواقع قرى ومدن فلسطين ، وظفر كل موقع على حدة بشيء من فيض الشعور ، غير ان بعض المواقع قد ظفر بنصيب اوفى مما ظفر به البعض الاخر ، لما يتمتع به من حيوية ، ومن اهمية استراتيجية ، ومن حيوية . فبيت المقدس ظفر في مرحلة الثورة بقرنفلة كبيرة ، وعكا ظفرت بزنبقة ، وغزة بسوسنة ، وحيفا ، ويافا ، ونابلس ببنفسجات ، كما ظفر كل موقع من هذه المواقع في نفس المرحلة على الترتيب بصواعق تنقض على الاعداء ، وخناجر ، وقذائف ، وحقل الغام باعتبارها ركائز للتحرير وفي هذا التركيز يتمثل معنى الانتخاب الحر الواعي . هذا بالاضافة الى ان المواقع الاخرى ظفرت بدلالات حدسية لها في المشاعر ظلال ، واصداء ، تنم عنها لغة الورود ، ولغة الدموع .

تسيطر القافية على النغم الموسيقي في القصيدة ، تقوم بتنظيم الايقاع **rythme** أولا داخل البيت الواحد ، ثم بين كل بيتين على حدة ، وربما بين الابيات المتجاورة في الفقرة الواحدة ، كما تساهم في الانتقال بين الابيات بما تملك من مزاوجة قوية **melodia** تحيل الالفاظ الى انغام تتجاوب مع الاحاسيس المختلفة للشاعرة ، وهي بذلك تلعب اخطر الادوار في بناء القصيدة وترد على نماذج الشعر السائب الذي لا يجد سدا يقف عنده ، او موجة منعكسة تصد مداه .

واذا جاز للشعر ان يستعير اسلوب السجع في بناء موسيقاه .. فان القافية في مرايا الشمس بما تحمل من دفعات شعورية تسير شبه مسجوعة بما تحمل من توافق في القوافي ، وحروف الروي بين كل بيتين على حدة ، وبين الابيات المتجاورة في فقرات اخرى من القصيدة داخل الفقرة الواحدة ولا يقطع من هذا التوافق الا بعض موجات معاكسة تكون بمثابة قرار تلتقط عنده الانفاس ، او يساعد الى الانتقال الى توافق جديد .

سأطير اغرس خنجرا في باب (عكا)
واقيم حول (القدس) ارصفة الصواعق
ازرع الاسوار شوكا

وأدك تل ابيب دكا
سأحيط (غزة) بالقذائف ، سوف ابذر
حول (يافا) حقل الغام ونار
في الليل اشعله حرائق جلنار
وسأفرش المدن الوديعة بالصواريخ المحبة والمدافع
الله اكبر يا عرائس
يا قناطر
يا شوارع
اني سأبذر فيك اسلحتي وانتظر الحصاد
وسأوقظ الربوات فيك على براكين التحدي والعناد
قسما وارفض ان ابلل اغنياتي بالمدامع

ومن خلال التوافق بين القوافي ، والتعاكس ، والانتقال ، تتحول الثورة العنيفة الهائجة داخل القصيدة الى ثورة نسوية مكبوتة شبه مهموسة تنسجم ومواجيد الشاعرة ، وطبيعة الانوثة . ■■

د . محمد عبد المنعم خاطر

حل مسابقة العدد ٢٨٠

١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ه	ع	ا	ر	ى	■	ا	■	ن	ر	و	ه	س	ا	ر	١
■	م	ن	■	س	م	ل	■	د	ى	ك	م	ى	ل	و	٢
ا	د	ه	■	ى	ل	ن	ا	و	ف	ى	س	■	ح	م	٣
ل	ا	ز	غ	ل	ا	ر	ح	ب	■	ل	■	ل	ج	ا	٤
ع	■	ا	■	■	ه	د	م	■	ا	ه	م	و	ر	ن	٥
ن	ى	م	س	ا	ى	■	د	ر	ب	■	ر	ص	ا	ى	٦
ب	د	■	ا	ل	■	ب	ا	ى	ن	ا	■	ى	ت	ا	٧
■	■	ى	س	ر	ب	ط	ل	ا	د	م	ح	ا	■	■	٨
و	ا	و	■	ق	ر	ا	ط	ل	ا	■	س	ن	ا	ع	٩
ا	د	ه	ا	■	ا	ل	ح	■	ن	د	م	■	ى	ز	١٠
ت	م	ا	ل	■	ز	ه	ا	ن	ى	■	■	م	ن	ى	١١
■	ى	ن	ا	ع	ى	■	و	ى	ا	ه	و	ا	■	ز	١٢
ا	■	ب	ص	■	ل	و	ى	س	ل	ا	■	ى	س	ع	١٣
ه	ن	ا	ى	د	■	د	■	ا	■	ى	ف	س	و	ى	١٤
■	ص	خ	ل	م	ل	ا	■	ن	ا	و	ج	ن	و	د	١٥

أفقياً

أحمد الطبرسي

رأسياً

أحمد الطحاوي

اثنتان في واحدة :

٨ ـ أفقيا : أحمد الطبرسي . فقيه ومؤرخ ومحدث عربي توفي عام ١٢٢٣م . من مؤلفاته « الاحتجاج على أهل اللجاج » ، و« فضائل الزهراء » ، و« الكافي في فقه الشيعة » .

٨ ـ رأسيا : أحمد الطحاوي . فقيه انتهت اليه رئاسة المذهب الحنفي بمصر . برع في أحاديث الحكام ، وتوفي بالقاهرة عام ٩٣٣ . له كتاب « المختصر » في الفقه ، و « شرح معاني الآثار » في الحديث .

الفائزون بالجوائز

- الجائزة الأولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : ليلى محمد أمين سالم صويلح ـ وكالة غوث اللاجئين / الأردن .
- الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : صلاح الدين القاسمي ـ قرمباليه / تونس .
- الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : يوسف عبدالله سعد عبد الله ـ المحرق / البحرين .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا فاز بها كل من :

١ ـ الهام خليل أحمد ـ باب الشعرية ـ القاهرة / مصر

٢ ـ محمد عبد الرازق حسن ـ بنك برقان / الكويت

٣ ـ قتيبة خلف جمعة ـ ديوان جامعة بغداد / العراق

٤ ـ صفية صالح سليمان ـ الدوحة / قطر

٥ ـ السيبي الحسين بن ابراهيم ـ تزنيت / المغرب

٦ ـ بن نعوم أحمد ـ ولاية معسكر / الجزائر .

٧ ـ مبارك سليمان محمد أحمد ـ واد مدني / السودان

٨ ـ عبد الرؤوف الخاتون ـ كانو / نيجيريا .

٤

رحلة مع .. الخط العربي

تقديم : محمد عبدالغني الابوكاتو

« أجل إن هذا الكتاب يعالج فن الخط ، وان الخط في ديار الألف باء العربية ، ثابت القدم ، يقيه و يصونه نسبه العريق او بتعبير اصح ـ ونظرا الى ان العربية كانت تكتب قبل الاسلام ـ تقيه ما يضفي عليه القرآن الكريم من مغزى في سورة العلق : « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » فالخط يجسم بالتالي الكلمة الالهية . ولما يرى الغرب المسيحي ان الكلمة قد تجسدت ، يرى الشرق المسلم ان الكلمة قد « انزلت كتابا .. » من مقدمة كتاب « كي جاليه » .

فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » للخطاط الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعي ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م » .



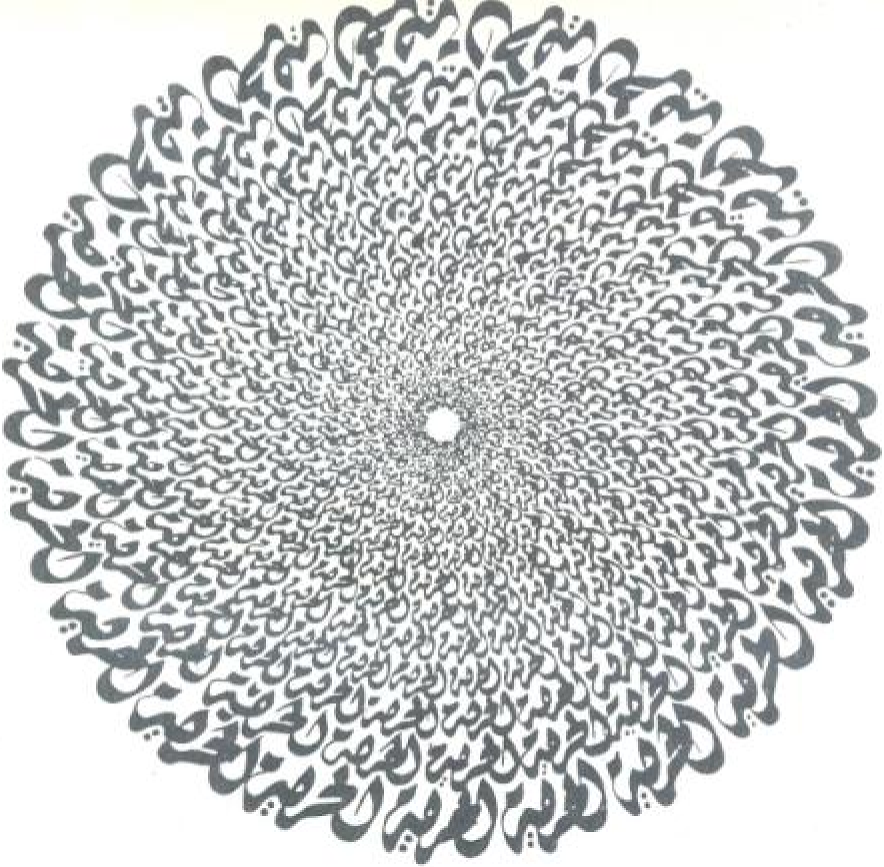


لوحة صوت المهاجرين للمؤلف .

« الخط العربي » كتاب صدر في شهر مارس من عام ١٩٨١ في باريس . قام باعداده وجمع مادته التاريخية ونقده وتحليله وشرح ما فيه من الاعمال الفنية ـ مؤلفه « حسن المسعود » كما قام بنسخه بقلمه أيضا . واسهمت بالترجمة الفرنسية « ايزابيل تنيزو » التي سعت وبجهد موفق ان تلحن بالعربية باسلوبها الشيق . وحاولت قدر استطاعتها ان تعطي القارىء الفرنسي ـ الذي صدر الكتاب من أجله . كما هو محدد في الهدف من اصداره ـ انطباعا جيدا لكل فصل من فصوله .

والمؤلف « حسن المسعود » فنان تشكيلي عربي شاب درس في العراق وأحب الخط العربي منذ صغره وأكمل دراسته العليا في كلية الفنون الجميلة بباريس . ويتضح من اسلوبه الممتع في السرد والعرض انه تأثر بالغ التأثر بفنون الخط العربي في موطنه العراق ، وتاهت عيناه في سحره وروعته وشغف به وسعى الى اجادته . وتقديم بعض الابتكارات والمحاولات الجديدة في الحرف العربي . بتشكيل زخرفي معتمدا على دراسته الفنية للتكوين الجمالي للاعمال الفنية من خط ولون ومساحة وملمس ـ وما يلتزم به الفنان التشكيلي من تذوق لاسس التصميم من توازن وعلاقات بين الشكل والفراغ ، والايقاع والتناغم وغيرها من معايير العمل الفني المتكامل .

وكلمة حق ، فان ما حواه الكتاب من فصول مبوبة ، ترتبط باداة الكتابة وطرق استعمالها والنماذج القيمة التي عرضها وحصل عليها من كثير من المتاحف وبخاصة تركيا ، والعراق ، ومصر وسوريا ، والاندلس وايران الى تعليقاته وتحليلاته الفنية بالصورة والرسم والكتابة ليبعث على الاعتزاز والتقدير . لاسهامه في عصرنا على نشر الكتابة وفنون الخط العربي في بلاد الغرب ، واحياء لهذا الفن الذي شاع وانتشر منذ الفتوحات الاسلامية وليس هنا مجال لذكر الاقاليم التي كتبت وأجادت بالقلم العربي في الشرق والغرب . ولكن



الحرية للمؤلف حسن المسعود .

يكفي ان نذكر توغل الخط العربي في اسبانيا وجنوب فرنسا مع فتوحات العرب اقاليم « اللوار » الجنوبية في اوائل القرن الثاني للهجرة .

تلك النبتة السحرية

يقع الكتاب في ١٩١ صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع طباعة ممتازة على ورق مصقول ويتضمن ثماني صفحات ملونة وفصولا تحتوي على تسلسل تقني مزود بالصور الموضحة لطرق التعليم . وقد استعان المؤلف بمراجع عديدة ذكرها في نهاية الكتاب . ومنها المرجع التاريخي « رسالة في علم الخط والقلم » للوزير العباسي الخطاط الاشهر ابي علي بن مقلة المتوفي في بغداد عام ٩٤٠م ـ الى اختياره لقطع نادرة تحوي ابدع الخطوط العربية وتطبيقاتها على المواد والخامات المنوعة في فنون العمارة والمعادن الزخرفية والزجاج والورق والخشب والجص والمرو والنسيج والخزف ذي البريق المعدني وغيرها ، وكتابات لاشهر واعظم الخطاطين في الدول العربية والاسلامية . وقد وفق في التعليق على المخطوطات باسلوب فني سليم . ساعده على ذلك دراساته في الفن التشكيلي كما سبق ان اوضحت . اذ جاء نقده وتحليله ومقارناته للحروف والتشكيلات العربية بوعي العارف لمقومات ومعايير العمل الفني وتنظيماته التكاملية .

احتوى الكتاب على ثلاث وثلاثين فقرة ، مرتبة ومصنفة في ايجاز . واعطت للقارىء صورة سليمة واضحة عن محتواه وتحقيق غايته منه . فيبدأ المؤلف شرحا في الفقرات الاولى عن القصبة « البوص » الذي يعتبر الاداة الاساسية في كتابة الخطوط العربية . وعرفها « بالنبتة السحرية التي يخرج منها الصوت والخط » الناي والقلم ثم المواد المطلوبة لبري القصبة (المقطه ـ السكين ـ المشحذ) وطرق حفظها وبدائلها وتقل عن

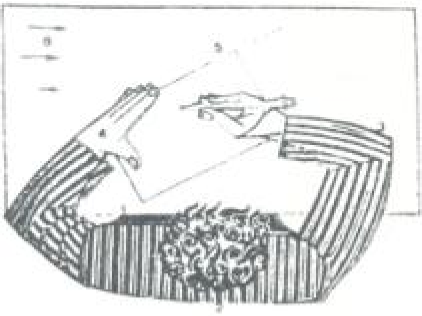


نص للخطاط ابي علي بن مقلة ـ طريقة البري التي اشتملت على اربع مراحل « فتح ، وشق ، ونحت ، وقط » ثم عرض نموذجا للخطاط المصري المعاصر الفنان الاستاذ محمد عبدالقادر ـ طريقة تقريبية لقطع منقار القصبة لعدة أنواع من الخطوط العربية . ومثالا للخط الفارسي والقصبة الخاصة به حيث يكتب بقلمين احدهما اصغر من الاخر بنسبة الثلث . كما لم يترك المؤلف الطرق الحديثة لادوات الكتابة ، بدائل القصب ، وهي الريش المعدنية وكيفية الكتابة بالاحجام الكبيرة . وافضل وضعية لجسم الخطاط ووضعية اليد في امساك القصبة .

كيف تصنع حبرا ؟

لقد استغل الخطاطون أنواعا عديدة من الاحبار . كانوا يقومون باعدادها وتجهيز موادها من تجاربهم . فالحبر له دور كبير في اظهار الحروف وجودة الخط وخلوده . واحتفظ الخطاطون الاقدمون باسرار هذه الاحبار لأنفسهم . لا يبوحون بها لاحد ابدا . واتسمت الاحبار للمدائن التي تكتب بها كالخطوط تماما .. فهناك الحبر البغدادي ، والحبر الكوفي ، والشامي والمصري وغيرها ، الى تنوع في المداد . فالمداد الذهبي ، والحبر بماء التوت والرمان . وطريقة لمحو الحبر .

والى القارىء وصفة لنوع من الحبر القديم ذكرها المؤلف . يوضع في قدر نصف لتر من الماء ، ٥٠ جراما من الملح ، ٢٥٠ جراما صمغ عربي ، ٤٠ جراما من الزاج (سلفات الحديد) ٣٠ جراما من العفص المحمص المطحون ، ٣٠ جراما من العسل . يترك لمدة ساعتين على نار هادئة ويحرك من وقت لاخر . ويصفى من خلال قماش ناعم يعاد للقدر ٢٠ جراما من سناج الدخان .



وضعية جسم الخطاط .

ويحرك على نار هادئة لمدة ساعة اخرى . ويصفى من جديد ثم يحفظ في قنينة كبيرة . ويؤخذ منه القليل عند الحاجة لمحبرة بها ليقة (خيوط حريرية) او اسفنجه ـ تضاف اليه بضع قطرات من الماء كلما كان كثيفا . وان لم يثبت جيدا على الورق يضاف اليه قليل من الصمغ العربي السائل .

لقد جمع الخطاطون منذ فجر الاسلام بين الصناعة والفن الجميل بما يعبر عنه الان بالفنون الزخرفية واحيانا بالفنون التطبيقية ، وادركوا مدى ترابط العلاقة بين الصنعة والمواد المختلفة التي تنفذ بها تطبيقات الخطوط . لقد تعددت هذه المواد فشملت مواد العمارة والخزف والخشب والاقمشة والطنافس والعاج والزجاج والمعادن والجلود والورق . واكتشف الخطاطون ان نوعية الخطوط تختلف باختلاف المواد التي تكتب عليها . لذلك ابتدعوا اساليب خاصة لتطويع الخطوط للخامات بحيث لا تفقد معاييرها الجمالية . وابتكر الخطاط طرقا جديدة في رسمها وترتيبها وتحويرها مستلهما من الطبيعة عناصرها من ازهار واشجار وفروع واغصان واوراق وسيقان وطيور

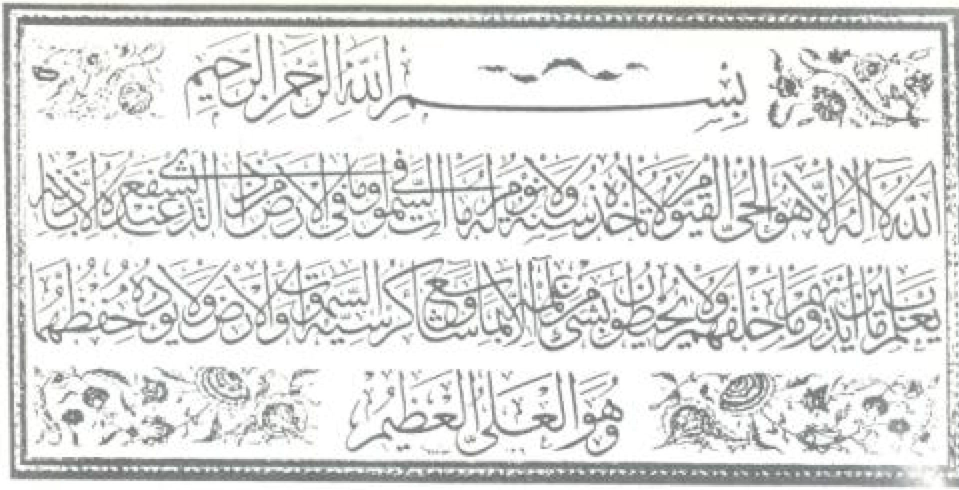
البرى : فتح ، شق ، نحت ، قط .











لوحة آية الكرسي .

وحيوان ، وادخل الخط عاملا اساسيا وقاعدة ركيزة للتجميل والتزيين والزخرفة .

قواعد الخط العربي

عندما يأتي ذكر قواعد الخط العربي ينبغي ان نتعرف مرة اخرى على تاريخ تطورها منذ ان حلت الخطوط اللينة مكان الخطوط الحادة . وقد افرد المؤلف صفحتين كاملتين من « رسالة في علم الخط والقلم » لاول من قرر للخط معايير يضبط بها وقواعد هندسته على اساس رياضي الوزير العباسي « ابن مقلة » الذي راعى في تجويد الخط وتصحيحه ان يجري على نسبة فاضلة ، اذا زاد عنها قبح ، وان قصر دونها سمج ، وكان ذلك في العراق على رأس الثلثمائة (٣٠٠هـ) .

نسب ابن مقلة جميع الحروف الى الالف التي اتخذها مقياسا اساسيا ، واليه ينسب « الخط المنسوب » بمعنى الخط الذي تنتسب حروفه الى بعض بنسبة هندسية ثابتة . فحرف (أ) قطر دائرة تكتمل بمحيط والباء تتكون (هندسيا) من قائم ومنبسط طولها معا كطول الالف . والجيم تتكون من خط مائل ونصف دائرة قطرها بطول الالف .

والدال مثلث متساوي الساقين تتكون من خطين الاول مائل والثاني على مستوى التسطيح ، طولها معا كطول الالف .

والراء قوس هو ربع دائرة قطرها الالف .

وعلى هذا الاساس الرياضي ، وضع ابن مقلة قانونه الذي يضبط اصول الخط . واكمل عمله وضبطه بعد قرن من الزمان ابن عبدالسلام الشهير بابن البواب . والذي اسبغ على الخط كثيرا من مظاهر الجمال . دون ان يخل في كثير او قليل من قواعده وأصوله الهندسية الرياضية . ويعتبر هذا سرا من الاسرار الجمالية لمرونة وطوعية الخطوط العربية لحذق ومهارة وابداع الفنان العالم باسرار كل حرف من حروفها . من حديث للامام علي عليه السلام « الخط مخفي في تعليم الاستاذ . وقوامه كثرة المشق ودوامه » بعد قرن آخر من الزمن اجاد الخطاط الاشهر ياقوت المستعصمي صناعة الخط . وكانت له حظوة لدى الخليفة المستعصم العباسي . واليه ينسب قياس الحروف بالنقاط . وهي القاعدة التي مازالت قائمة للتعليم ولتجويد الخطوط العربية حتى الان والى آخر الزمان . والتي تعتبر مقياسا ذهبيا أكاديميا لاتقان الحرف العربي . ولا يغيب عن البال أن أفضل النسب ما كانت عرض الألف فيه الى طوله بمقدار الثمن . وهذه هي النسبة الجمالية في تركيب جسم الانسان . فعرض الجسم

الفنان حامد الآمدي ـ تركيا ١٨٩١ .



الرشيق الى طوله لا تخرج عنها . وكانت قياسا متبعا عند الاغريق والرومان قبل الفي عام .

استعان المؤلف بنماذج لاشهر الخطاطين (صفحات من الامشق) محمد عبدالقادر ـ الشيخ عبدالعزيز الرفاعي ـ مصر ـ هاشم محمد البغدادي ـ العراق ـ وأوضح باسلوب يسير الاساس التشريحي للحرف العربي واختلاف قياسها في كل نوع من انواع الخطوط . فهي اما مربعة في خط النسخ او مستطيلة في الثلث او ثلاثة ارباع المربع في خط الرقعة . وكيف طوع الخطاط النقطة واستخدمها كعنصر تزييني كما في الخط الجلي الديواني . ومن خلال شرح ممتع بين المؤلف للقارىء ولادة الحرف العربي عند استخدام القصبة في الكتابة واوضح حركات القلم في يد الخطاط ، وكيف تمر بالالاف الفوارق الدقيقة والتي تتراءى للخطاط عند خطه للحروف . ان مرونة يد الخطاط المبدع وتحريكه للقلم في ليونة وتحكم بالغ يعتمد على الرشاقة والاناقة . فكل حركة محسوبة بدقة بالغة . من صدر او سن او عرض او ثلثي عرض القلم الذي يتحرك من خلال ١٨٠ درجة هو السطر الذي يكتبه .

اساليب الخط العربي

افرد المؤلف فصلا كاملا في مائة صفحة . صنفها في فقرات مرحلية . وابتدأ بعرض وشرح لوحات قديمة من الخطوط الحادة (الكوفي) . والخطوط اللينة (النسخ . الثلث . الفارسي والديواني) . والمح الى اعتياد الاقطار التي اعتنقت الاسلام على تكوين شخصية مميزة لكل قطر من أقطارها ، وتفنن الخطاطين في تأليف واشتقاق انواع جديدة في الخطوط العربية والابداع فيها . فظهرت الخطوط ، النسخ والثلث في العراق ، والفارسي في ايران والهند ، والرقعة والديواني في تركيا ، والخط المغربي في شمال افريقيا والاندلس . وكما يسر المؤلف للقارىء العربي باسلوب فني جيد بين فيه ترابط الحروف وفراغاتها وتآليفاتها الهندسية التي اعدها للاعمال التاريخية ، بالرسم الهندسي والتحليل القياسي للشكل العام للوحات الخط وجاءت تعليقاته شيقة للحركة الايقاعية والتناغم الذي افرغه الخطاط المسلم في أعماله بقلمه الساحر .

لقد وجدت عبقرية الفنانين العرب والمسلمين في الكتابة خير بديل عن مزاولة فن التصوير وتحمل أوزاره لما اعتقدوه في التصوير انه تقليد لصنعة الخالق . ورغبة منهم في الالتزام بما نهى عنه الدين الحنيف . ومع ذلك



حسن المسعود .

فقد أجاد البعض منهم في تكوين خطي على هيئة الطيور والحيوانات والنباتات والفواكه عرضها المؤلف . وهي جميعا تؤكد بلا جدال ما تحويه الخطوط العربية من سحر وجمال حروفها في التركيب والافراد وحركة التكوين . وقد اسعفت الفنانين ايديهم المطواعة التي امدتهم بمختلف أساليب الافتنان والابتكار والابداع نظرا لما حوته الحروف العربية من مرونة ومطاوعة وقابلية للتشكيل فتحها جمالا وبهجة . وامكان زخرفتها على وجوه شتى لا تتوفر في خطوط الامم الاخرى ، وقد بلغ الخطاطون في أعمالهم غاية استعصى على القارىء تبيان عنصر الكتابة الاصلي . وسط الزخارف التي ابتدعها ذهنه الخلاق .

لقد كان للخطاطين منزلة رفيعة لدى الخلفاء والسلاطين وذوي المكانة في المجتمعات الاسلامية . فقربوهم واغدقوا عليهم . واصبح منهم الوزراء كما



بسملة على هيئة طائر منقولة عن خط للخطاط راقم ١٨٠٨م .

يعرف عن الوزير العباسي ، ابن مقلة . ايضا ورث سلاطين آل عثمان الميل الى الاشتغال بالخط وتقريب نوابغ الخطاطين اليهم . ومنهم السلطان محمود الثاني الذي اشتهر باتقانه للخطوط وله لوحات رائعة . وفي فقرة من فقرات الكتاب . طريقة التوقيع السلطاني . او ما يسمى « بالطغراء » .

اوضح المؤلف بالرسم التخطيطي حركة القلم في كتابتها . وتعتبر بمثابة توقيع السلطان على الفرمانات والمراسلات الرسمية الخارجية . تعكس جانب الفخامة والعظمة ولا تقلد بسهولة .

ومن اطرف ما يروى عن « الطغراء » وتاريخها ـ انه عندما توترت العلاقات بين تيمورلنك والسلطان بايزيد العثماني ، ارسل تيمورلنك للسلطان انذارا لم يمهره بتوقيعه ـ بل بصمه بكف يده بعد صبغها بالدماء . وذلك لجهله بالكتابة وبعد ان قرأ السلطان التهديد ورأى البصمة عقد مجلسا للخطاطين لنقش توقيع مشابه لهذه البصمة ومتحديا تيمورلنك ومباهيا في الوقت نفسه باجادته للخط العربي وتعلمه . ولا يزال الخطاطون يستعملونها للآن اذ اصبحت شكلا جماليا ذا ايقاع فريد .

ان ما بذله المؤلف من جهد كبير للحصول على مجموعة من بدائع الخطوط العربية ونفائسها وجمعه لاعمال نادرة من مساجد ومتاحف استنبولْ والقاهرة ودلهي وغرناطة وبغداد والمغرب واصفهان ودمشق والقيروان . ومتحف اللوفر بباريس ومتحف طوب كوبي باستنبول والمتحف الاسلامي بالقاهرة يؤكد دور الفن في كل مجتمع اسلامي وهو يشير في تعليقه الى ان للخط دورا مهما داخل المجتمع العربي الاسلامي . عندما اعطى شكلا ماديا للنصوص المقدسة وحفظها من الضياع وذلك بكتابة القرآن الكريم . واعتبر الخطاطون والمصورون الغنيمة الكبرى اثناء الحروب والمعارك لتجسيدهم ماديا لافكار الانظمة الحاكمة . ورغبة من الحكام في تخليد اسمائهم ولبقاء ذكراهم ولتأكيد مواقعهم الاجتماعية . باستخدام الخط على جدران القصور والحمامات والمقابر والجوامع والنافورات والحاجات المستعملة يوميا . وتسجيل اسمائهم عليها . والحلي والملابس والاواني . حيث استخدم الخط كجانب جمالي لتزيينها .

الخط في الزمن المعاصر

بكلمة رقيقة ومشاعر وجدانية تحدث المؤلف في الفصل الأخير من الكتاب عما يعانيه الخطاطون في مجتمعاتهم اليوم من عدم التشجيع لفنونهم . لقد بدأت مشاكلهم بالتطور المذهل الذي ظهر في آلات الطباعة الحديثة وما صاحبتها من اكتشافات تقنية . كما لا تدرك أكثر مدارس الفنون قيمة الخط وتسعى لتطويره بما يواكب عصرنا الحديث . ويواصل المحافظة على تقاليد الخط العربي ـ قلة من الخطاطين الكبار المعاصرين . قدم المؤلف ثلاثة منهم . اتيحت له فرصة لقائهم رغم



خط جلي ديواني على هيئة زورق للخطاط الواقعي المرحوم هاشم محمد البغدادي ١٩١٩ ـ ١٩٧٣م .

المرحوم هاشم محمد البغدادي (توفي قبل اكمال الكتاب) وحامد الآمدي التركي الاصل ومحمود الشحات المصري امد الله في عمرهما .

لقد عرض المؤلف تسع لوحات فنية في نهاية كتابه من اعماله . أكدت أصالة الخط العربي وامكاناته غير المحدودة في التطوير والتحديث والابتكار . وبخاصة من الفنانين التشكيليين في مجتمعنا الاسلامي . لقد جاءت لوحات حسن المسعود مزيجا من الاصول التقليدية للحرف العربي وفن التشكيل المعتمد على الدراسة الاكاديمية للعمل الفني . فظهرت تشكيلاته للحرف العربي جديدة في صياغتها .. مبتكرة في اسلوبها ، تواكب عصرنا وما يتميز به من سرعة وحركة دائبة . ولقد رأينا أعمالا فنية ومحاولات جيدة من الفنانين التشكيليين العرب بعضها اعتمد على تقليد غربي ، مثل الاتجاه التجريدي الهندسي الذي يقترب من فنوننا العربية . والحق يقال ان الفنان العربي كانت أعماله أكثر ثراء وابداعا لما حوته من مضامين واهداف ارتبطت بتراثنا الحضاري . والبعض الأخر اكتشف في الحرف المجرد العربي حركة ديناميكية ومنهم الفنان « المسعود » الذي ارتبطت اعماله الفنية بتطبيق النظريات الرياضية والنظريات الفنية في لوحته « الحرية » ترديد متناغم للكلمة اعتمد على تكوين هندسي دائري يتداخل في عمق ، ومنظور للقيم الفنية للايقاع الخطي وكتلاته المتباينة . والابداع في قوة ومتانة التصميم الذي يعتبر اساسا لبناء العمل الفني في الفنون الحديثة . ان كلمة « الحرية » بذبذباتها المثيرة للوجدان توحي للرائي بحشد جماهيري هائل يدور ويدور ويهتف مناديا بأسمى أهداف الانسانية . وهنا تظهر براعة الفنان في اذابته لعناصر التكوين الفني وتكاملها مع رغبته المؤكدة في الاستحداث والابتكار .

وتعكس لوحة « صوت المهاجرين » انطباعا دراميا أخاذا . يؤكد التباين الشديد بين الضوء والظل صحيح ان هناك تقاربا في التكوين الهندسي الدائري ومنظور الكلمة ومدلولها كما في اللوحة « الحرية » لكن الاختلاف كبير في المعنى المرتبط بالكلمة والرمز . الذي اتخذه الفنان شعارا للمهاجرين . « الطائر » الذي رمز له بالابيض الناصع والضوء المبهر مما يعبر عن رغبة الانسان المغترب في الانطلاق من الظلمة والوجود اللاطبيعي الى الوطن الأم . ولم يغب على ذهن الفنان التعبير عن الانسان باليد التي صورها على هيئة طائر يشغل منتصف الدائرة مع انطلاق الطيور المهاجرة . في تعبير قوي اخاذ .

كلمة اخيرة

يبقى ويخلد الخط العربي العظيم امانة في يد أبناء الامة الاسلامية مشرقها ومغربها ينهلون من معينه الذي لا ينضب ويظل خالدا خلود المعدن النفيس . فهو كسبائك الذهب الابريز ، يشكل فيه الخطاطون والفنانون ما شاء لهم الابداع والتفنن والابتكار . يكتشفون اسراره وسحره على مر السنين وتؤكدها براعتهم وقدراتهم على ابهار الناظرين .

محمد عبدالغني الأيوكاتو
معهد تحسين الخطوط العربية ـ الكويت

إعداد يوسف زعبلاوى

أقلع عن التدخين .. ! تتجنب الاصابة بسرطان الرئة الى حد كبير .. !

● صدر في مطلع شهر مارس الماضي تقرير الحكومة الأمريكية عن التدخين .. انه التقرير الخامس عشر الذي يصدره كبير الجراحين Surgeon General في واشنطن حول التدخين .. وقد بدأت هذه التقارير بالصدور سنة ١٩٦٤ ..

ولعلك تتساءل عن الباعث على إصدار هذه التقارير السنوية والقصد منها ...

أما الباعث فهو الكشف عن أهم الحقائق التي توصلت اليها شتى الابحاث والتجارب التي يجريها العلماء على نطاق واسع في مختلف المدن والولايات .. وأما القصد فهو مكافحة التدخين عن طريق الاعلام والتوعية .

ولا يخفى أن التوعية ، لا الدعاية الساذجة ، هي الاسلوب الصحيح ، إن لم نقل الوحيد لمكافحة التدخين إن كان في الامكان مكافحته .. أصلا .

ولعل تقارير كبير الجراحين أصدق دليل على ذلك .. وحسبك أن عدد الذين أقلعوا عن التدخين من الأمريكيين منذ بدء صدور تلك التقارير حتى الآن ، أي في غضون الـ ١٨ سنة الماضية ، بلغ حوالي ٣٠ مليون مدخن . وتدل الاحصاءات على أن الكثرة الغالبة من اولئك المقلعين (٩٥ ٪ منهم) إنما أقلعوا بدافع الوعي والاقتناع ، ونتيجة للقرار الذي اتخذوه والفعل الارادي الحازم الذي مارسوه .

وهكذا نقصت نسبة المدخنين في الولايات المتحدة الأمريكية نقصانا لا يستهان به . فبعد أن بلغت نسبة المدخنين الذكور ٥٣ ٪ سنة ١٩٥٥ أصبحت ٣٧ ٪ في السنة الماضية (١٩٨١) .. وقل مثل ذلك في نسبة المدخنات التي كانت ٣٣ ٪ سنة ١٩٦٦ ثم هبطت الى ٢٩ ٪ في السنة الماضية . ومع ذلك فان مجموع المدخنين الأمريكيين الذين تبلغ أعمارهم ١٧ سنة أو تزيد لا يقل استجابة للعلاج من غيره ، ويكاد أن يكون مستعصيا .. بقدر ما يسبب الموت العاجل لنحو ٩٠ ٪ من المصابين به والموت الآجل للبقية (١٠ ٪) . اذا غالبا ما تموت هذه البقية في غضون خمس سنوات . لا عجب اذن أن كان سرطان الرئة هذا هو السبب الرئيسي في حجب التقدم الكبير الذي أحرزه الأطباء والعلماء في المدة الأخيرة وفيما يتصل بأمراض السرطان الأخرى .. سواء من حيث تشخيصها أو علاجها .

ويؤكد التقرير الأخير أن التدخين وسرطان الرئة صنوان .. ينفشي الثاني تبعا لانتشار الأول .. وينكمش بقدر ما يقلع المدخنون عن التدخين .

فبينما لم يزد عدد الذين ماتوا من الأمريكيين بسبب سرطان الرئة على ١٨٣١٣ نسمة قبل ربع قرن ، في سنة ١٩٥٠ بالتخصيص ، نرى أنهم تضاعفوا حتى جاوزوا المائة الف في السنة الماضية ، وانهم آخذون في الازدياد بحيث يبلغ عددهم (١١١٠٠٠) نسمة في نهاية السنة الحالية .

والأهم من هذا كله هو أن ٨٥ ٪ من هؤلاء مدخنون ، ومعنى هذا أن ما لا يقل عن ٩٤٠٠٠ نسمة سيلاقون حتفهم في الولايات المتحدة وحدها خلال سنتنا هذه ، وذلك بسبب استمرارهم على التدخين ، ومعاناتهم من سرطان الرئة تبعا لذلك .



ولعل أصدق دليل على ارتباط سرطان الرئة بالتدخين تفشي هذا المرض بين الأمريكيات في أعقاب الحرب العالمية الثانية .. فقد أقبلت النساء على التدخين بعد تلك الحرب .. وازدادت في الوقت نفسه نسبة إصابتهن بسرطان الرئة حتى بات في حكم المؤكد أن يحل سرطان الرئة محل سرطان الثدي .. ويصبح هو السرطان الأكثر انتشارا بين الأمريكيات ..

عن ٥٣ مليون نسمة .. ويذكر تقرير كبير الجراحين بالاضافة الى ذلك أن مجموع ما دخنه هؤلاء، من سجاير في السنة الماضية بلغ ٦٣٠ الف مليون سجارة .. وأن مجمل ما أنفقوه في سبيلها ١٩٫٢ ألف مليون دولار ...

على أن هذه المبالغ لا تمثل الا جزءا من الخسائر .. فهناك الأموال التي دفعها المدخنون الأمريكيون للاطباء والصيادلة في سبيل معالجة الأمراض التي أصيبوا بها بسبب التدخين . وقد بلغت ١٣ الف مليون دولار .. وهناك المبالغ التي افتقدها الاقتصاد الأمريكي بسبب غياب المدخنين عن أعمالهم في اجازات مرضية اضطروا للحصول عليها بسبب التدخين ووعكاته وأمراضه . وقد بلغت هذه بمجموعها ٢٥ الف مليون دولار .

ومهما يكن من أمر فان مضار التدخين ومخاطره هي الأهم والأبعد خطرا وهي التي ركز عليها تقرير كبير الجراحين .

فالتدخين ذو صلة وثيقة بأمراض عديدة مختلفة وليس بأمراض السرطان وحدها .. ولكن صلته بالأمراض الخبيثة وبسرطان الرئة على وجه التحديد . أشد وثوقا وخطورة .. فهو يؤدي الى الاصابة بعدد من أمراض القلب وأمراض الجهاز التنفسي ويؤدي بالتالي وبسبب تلك الأمراض العديدة بحياة نصف مليون أمريكي سنويا .. هذا الى جانب ما يسببه التدخين للحوامل من حالات الاجهاض والوضع المبكر وعاهات خلقية في الأجنة .

وينبه التقرير الى أن الاحصاءات تدل على أن الذين سيموتون من الأمريكيين ، في هذه السنة (١٩٨٢) ، بسبب أمراض السرطان المختلفة سيبلغ عددهم (٤٣٠٫٠٠٠) نسمة . ويعتبر التدخين مسؤولا مباشرا عن موت ثلث هؤلاء ، (١٢٩٫٠٠٠) بالتحديد .. ومعنى هذا ان التدخين بالنسبة الى هؤلاء، هو في آن معا الداء والدواء .. يحكم عليهم بالاعدام (بإرادة الله) اذا استمروا عليه .. ويبقي على حياتهم (بإرادة الله أيضا) اذا هم أقلعوا عنه .

ويتناول التقرير بعد ذلك موضوع سرطان الرئة . أشد أمراض السرطان فتكا . فهو أقل

قضايا مسرحيّة أمريكية تهمّ العرب

بقلم : الدكتور خالد المبارك

■ إصبع اتهام للجامعات العربية

■ توفي أستاذ مارلين مونرو وسيدني بواتييه ومارلون براندو

من أهم الأفكار التي سجلها رفاعة رافع الطهطاوي بعد دراسته في باريس في الثلث الاول من القرن الماضي أن البلاد العربية معزولة . كتب قائلا : لو لم يكن للمرحوم محمد علي من المحاسن الا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الاجنبية ، بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة لكفاه ذلك . فلقد اذهب عنها داء الوحشة والانفراد » وعلى الطريق الذي استكشفه امام اول بعثة عربية الى اوروبا نسير ، ساعين لأن نستخلص من تجارب ومعارف الأمم الأخرى ما يحفزنا على الارتقاء بالحركة المسرحية في الوطن العربي .

والمسرح الأمريكي ، الذي وقف في صدارة المسرح العالمي بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، وتباهى بأقلام تنسي وليامز وآرثر ميللر وغيرهم ، هذا المسرح يحاول الآن ان يسترد موقعه في المقدمة بعد ان طال ارتكازه على استجلاب المسرحيات البريطانية الجاهزة » .

لنتأمل هذه المحاولة خلال إنتاج فردين يلخص كل منهما اتجاها اوسع نطاقا من شخصه ولنحاول ان نصل بين جهودهما وبين ما يمكن انجازه في العالم العربي .

مع لي ستراسبورج

أول الاثنين « لي ستراسبورج » الذي ولد مع مطلع القرن بمنطقة كانت بولندية وضمت ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ للاتحاد السوفيتي (لم يولد بالنمسا كما ذكر محرر التايمز اللندنية في النعي الذي نشر بالعدد ١٨ فبراير ١٩٨٢) . هاجرت اسرته الى الولايات المتحدة الأمريكية وهو طفل ، فشب في نيويورك حيث عمل ممثلا وانضم عام ١٩٣١ الى جماعة المسرح (هارولد كلورمان ـ ايليا كازان ـ كليفورد اوديت) وعملوا معا لتأثيل نظريات المسرحي الروسي النابغة ستانسلافسكي حول تدريب الممثل . عرف اتجاههم باسم الأسلوب أو « المنهج » وحققوا نجاحا عظيما .

بعد الحرب العالمية الثانية اسس ايليا كازان وروبرت لويس « ستديو الممثل » (١٩٤٧) وانضم اليهما لي سترا سبورج بعد عام واحد ، وصار ، تدريجيا ، الطاقة الدافعة في الاستديو الذي بشر بأن غرضه الأساسي : أن يكتشف المواهب الشابة غير المدربة ويقوم بصقلها وتشذيبها . ثم انفرد لي ستراسبورج بقيادة « ستديو الممثل » كحلقة للتدريب المركز الجاد . وممن الذين تلقوا تدريبا في « ستديو الممثل » جيمس دين ومارلين مونرو وبول نيومان وسيدني بواتييه ومارلون براندو وجين فوندا وروبرت دي نيرو ورود ستايجر ودستن هوفمان وشيللي ونترز وال باشينو . وغيرهم ممن اثروا المسرح والسينما والتلفزيون ظل لي ستراسبورج يعمل بلا كلل حتى يوم ١٧ فبراير ١٩٨٢ وهو اليوم الذي توفي فيه .



م . يبنس في دور العالم الفيزيائي وجين كازماريك في دور المثالة في مسرحية « الرجل الذي يرى خلال الزمن » للكاتبة الأمريكية الجديدة تيري واجنر . « تصوير ديرا سبارك »

وقد شاهدت لي ستراسبورج وهو يعمل « باستديو الممثل » بنيويورك في مارس من العام الماضي . كان يومئذ يشرف على تدريب شاب وفتاة على تفهم وتمثيل منظر من مسرحية « الأشباح » لهنريك ابسن . لفت نظري صبره الذي لا حدود له ، فهو على استعداد لأن يقضي نصف ساعة أو أكثر يعالج سطرا واحدا . وهو ديمقراطي لا يلقي للممثلين بأوامر من عل بل يلاينهم ويسألهم أحيانا : ما رأيك او « هل كلامي هذا معقول » ويكسب بهذا ثقتهم وتعاونهم ويتمكن من استخراج افضل كوامنهم . وهو مع هذا لا يقبل منهم إلا السموق ويلح ويلح حتى يقدموا ما يرضيه . لا حظت ايضا أن مبنى « ستديو الممثل » ليس فخما ، بل ليس مسرحا . انه قاعة واسعة على شكل حذوة حصان لا تسع أكثر من مائتي مقعد ، بها مصطبة للتمثيل ، يجلس بعض الطلبة والزوار حول المصطبة او يطلون من الشرفة . الأثاث عتيق والمبنى فقير متساقط تئن وتتأوه اخشابه اذا تحرك شخص من مقعد لآخر . والدرس الذي ينبغي ان نذكره هنا هو ان قلب المسرح الأمريكي ليس في مسارح برودواي حيث العرض سلعة مربحة وحيث المسرح تجارة تسري عليها كل قوانين عالم المال والأعمال . قلب المسرح الحقيقي حيث يبذل العرق ، والجهد الصامت في ظروف ليست افضل كثيرا من الظروف في بعض الأقطار العربية . الممثلون الذين يتدربون مع لي ستراسبورج وامثاله ، واولئك الذين يعملون في المسارح البعيدة عن برودواي (حيث تتوهج المواهب الحقيقية قبل ان تلتقطها السينما او تستدرجها مسارح برودواي) يعملون « جرسونات » بالمطاعم ويقودون عربات التاكسي كي يكسبوا ما يسد رمقهم . هؤلاء الممثلون والممثلات هم الذين قال عنهم تنسي وليامز أنهم « يمثلون من الداخل للخارج ويعبرون عن عواطف يشعرون بها حقا انهم يمنحونك إحساسا بالحياة » . أما لي ستراسبورج نفسه فهو مع صبره صريح ، وهو القائل عن جماعته : انا لا نجلس معا لكي يثني كل منا على الآخرين .

توفي لي ستراسبورج ، غير أن أنفاسه تتردد في عشرات المراكز الشبيهة « باستديو الممثل » حيث يحفظ الجميع ذكرى فنان متميز كرس حياته الطويلة للتعليم ، كمصمم ماهر يبدع سفن الفضاء ويرسلها في الجو فيراها العالم وينبهر بينما يبقى هو في معمله العتيق بعيدا عن الأضواء ومشغولا بتصميم سفينة أخرى

الفن يسبق السياسة

أما الرجل الثاني فهو لويد رتشاردز عميد مدرسة المسرح (للدراسات العليا) بجامعة ييل ، بمدينة نيوهيفن ـ ولاية كونكتيكات . هذا الرجل مخرج وممثل واداري فذ وهو احد السود الذين حققوا نجاحا ملموسا رغم الموازين المثقلة ضدهم منذ صغرهم . شاهدت في السادس من اكتوبر ١٩٨١ اخراجه لمسرحية « الحال

فانيا » لانطون تشيكوف .

أخلص في ذلك الاخراج للنص غير انه ادار دفته بدهاء للتركيز على شخصية د . استروف الطبيب الذي ينادي بحماية البيئة ويحاول انقاذ الغابات ويغضب لتلاشي المناظر الطبيعية وجفاف الأنهار . وهذه قضية اهتم بها تشيكوف في آخر القرن الماضي وصار لها الآن انصار في أوروبا وأمريكا واشتد ساعدهم في السنوات الأخيرة . ولم يهمل الاخراج روح « الانهيار » في النص ، ذلك الانهيار الذي رآه وعبر عنه تشيكوف قبل ان يفعل ذلك الاشتراكيون والفوضويون الروس مما يؤكد ان الفن يسبق السياسة وان الرؤيا تسبق الرؤية .

الفرقة التي عرضت الخال فانيا « تتبع لمدرسة المسرح ، والمسرح الذي قدم المسرحية أحد اربعة مسارح تمكن الأساتذة من تدريس الاخراج والتمثيل والتأليف المسرحي . وبالمدرسة بجانب المسرح العملي او التطبيقي - الدراسة النظرية في تاريخ المسرح والنقد كما تقدم المدرسة فرصة لنيل الماجستير في الادارة المسرحية » وهي فرع يكتسب أهمية متزايدة يوما بعد يوم . وللمدرسة فوق هذا كله مجلة متخصصة .

تخصص المدرسة أهم مسارحها لتشجيع المؤلفين المسرحيين الناشئين ، اذ تنظم سنويا مهرجان الشتاء « حيث تعرض فقط أعمال الكتاب المسرحيين الجدد ، بعيدا عن الضغوط التجارية وعن عيون وأقلام النقاد . يقول لويد رتشاردز الذي أسس مهرجان الشتاء المسرحي منذ عامين : على المسرح ان يلتزم بتقديم المسرحيات الجديدة لان المسرح كفن جميل لن يحتفظ بحيويته إلا اذا اهتم بالمسرحيات الجديدة وبالمسرحيين الجدد . ثم يقول ان الاكتفاء بالاعمال الكلاسيكية او المضمونة وحدها سيجعل المسرح « متحفا للروائع » علينا ان نخرج مسرحيات تجريبية او جنينية وتتيح الفرصة للكاتب الناشيء لكي يشترك مع الفنين في تطوير معرفته الحرفية بالمسرح .

قدم « مهرجان الشتاء » الثاني (يناير - فبراير ١٩٨٢) ثلاث مسرحيات جديدة ابرزها وانضجها مسرحية « الرجل الذي يرى خلال الزمن » للكاتبة الجديدة تيري واجنر » وهذا اسم لا يستبعد ان يكون له شأن في الاعوام القادمة بالمسرحية شخصيتان فقط : عالم وفنانة مثالة استأجرتها اخت العالم لكي تشكل تمثالا نصفيا لأخيها . وموضوع المسرحية ليس فقط التناغم او التنافر بين العلم والفن ، بل ، على المستوى الانساني ، ان المرء يمكن ان يكب على امر واحد ويضيّيه عمى في كل الألوان الاخرى . هذا العالم الذكي الذي يرصد النجوم من نافذته ويعرفها كما يعرف باطن كفه يفوت عليه ادراك اشياء بسيطة في العلائق الانسانية ، ولا ينتبه إلا بعد فوات الأوان لما هو أقرب اليه من حبل الوريد .

ونصيب الجامعات العربية ؟

ما موقف التدريب في البلاد العربية ؟

لا ريب ان للمعاهد العليا اثرا جيدا في الحركة المسرحية في مصر والكويت والسودان والعراق . غير ان الجامعات العربية ، بلا استثناء ، توصد ابوابها حتى الآن في وجه الدراسات التطبيقية في المسرح . المسرح يدرس في معظم الجامعات في باب الأدب،وهذا موقف متحجر تخلت عنه الجامعات الأمريكية اولا ثم الأوروبية قبل عشرات السنين . ان الشكوى الدائمة من ركاكة البرامج الدراسية في التلفزيون والاذاعة لن تعالج الا بأن تدخل الحقل الفني اعداد كبيرة من المسرحيين ، من طينة جديدة وعجينة جديدة . وسيل الأفلام السينمائية وأشرطة الفيديو الأجنبية لن يقف في وجهها إلا نتاج عربي رفيع المستوى . كما ان قضايانا المصيرية لا تكفي البيانات وحدها للدفاع عنها ، فالصراع في هذا الحقل الحيوي يحتاج لبراعة حرفية عالية لا سبيل الى اتقانها الا بأن تفتح الجامعات العربية ابوابها للدراسات المسرحية التطبيقية .

والمسرح ، بأشكاله المختلفة ، سلاح فعال في منطقة تكثر فيها الأمية ، وهو سلاح قوي فعال يساعد على تقريب الشقة بين اللهجات العربية المختلفة ويحول بين اللغة الأم وبين التفتت الى لغات فرعية كما حدث للغة اللاتينية .

ومن زاوية أخرى فان بعض المسرحيين العرب ينتظرون المسارح المكيفة قبل ان يبدعوا،وتجربة « لي ستراسبورج » تدعو للعمل بالامكانات الضئيلة المتاحة والسعي للتحسين .

تبين التجربة الأمريكية للمتأمل ان الارتقاء بالمسرح يأتي كنتيجة لجهود تتفاعل كالسماد في التربة وتدفع بالغصون الى اعلى . التطور لا « يحدث » من تلقاء نفسه . والفاكهة لا تهبط على السوق من الهواء ، بل يسبق ذلك تدبير وحرث وجهد صادق جاد . ■■

د . خالد المبارك
نيو هيفين - الولايات المتحدة الأمريكية

● رسالة من موريتانيا ●

هم العرب في كل مكان

بقلم : المختار بن حمينا

لايزال ما قبل الاسلام من التاريخ والادب والحضارة العربية مجهولاً الى حد كبير : فان اقرب الفترات التاريخية والادبية الى عهد الاسلام هي الفترة الجاهلية ولعل أوثق مرجع نملكه عن هذه الفترة هو الشعر الجاهلي وما هو مدون في أمهات الادب ونكتشف من خلاله نبذاً قليلة عن الحياة الادبية والاجتماعية والثقافية حيث يتسنى للقاريء ان يتطلع على أوجه حياة البدو ونمط الاخلاق والعادات واسلوب الحروب وايامها المشهورة والروح العربية وطموحاتها الى مكاسب الكرامة والحرية والعز والفخر والشجاعة والبذل والكرم والطرب والسعادة .

فاننا لا نعلم شيئاً مثلا عما نسميه « العرب البائدة » الذين طمست اخبارهم وآثارهم الا ما ورد منها في سورة الحاقة ، قال تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة فاما ثمود فاهلكوا بالطاغية وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية » كلا فان اخبارهم لم تخرج من خفايا التاريخ وبقيت أسماء غير عاد وثمود ترد على اقلام المؤرخين والسنة المحاضرين والباحثين مثل طسم وجديس مثلا .

وأما العرب العاربة الذين حددهم المؤرخون بأنهم هم اليمنيون المنتمون الى « يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان » فينسب اليهم اصل اللغة العربية ومنطق البيان . وهذا حسان بن ثابت يذكر الامة بأصل أدبها مشيرا بذلك الى ما للعربية من بلاغة ومشيرا ايضا إلى ان العرب اكتسبوا الفضل بلغتهم وانهم قبلها كانوا كالبهائم فقال :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ... أبينا فكنتم معربين ذوي نفر

وكنتم قديما مالكم غير عجمة ... كلام وكنت كالبهائم في القفر

أين السلالات العربية الموريتانية من هذه الحضارة ومن هذا التاريخ وما هي الصلات التي تمت بها هذه السلالات الى تلك الحضارة وذلك التاريخ ؟

فاننا نلاحظ في محاولة الرد على هذا السؤال ان منطقة بلاد شنقيط ـ موريتانيا الحالية ـ اعتراها ما اعترى المنطقة العربية من طمس المعالم التاريخية القديمة وجهل بعض الحلقات التاريخية الهامة حولها .

وان موريتانيا وان كانت حفرياتها تثبت تقادم عهد الحضارة فيها وخاصة وجود آثار انسان الكهوف والعصور الحجرية وغيرها ، فان تاريخها المدون يهتم أساسا بعهد الاسلام فيها ، علما بأن المنطقة ازدهرت وتميزت قبل دخول الاسلام اليها بفترات ازدهار ونمو وفترات اضطرابات أيضا .

وأشهر السلالات التي ارتفع صيتها وتناولتها عناية التاريخ هي تلك السلالات التي بدأت الزحف في القرن الثالث قبل الاسلام الى الصحراء في حركة هجرة من الشمال الى الجنوب . وتوطنت هذه القبائل منطقتنا واشتهرت باسم قبائل صنهاجة التي ملكت المنطقة من واحة غدامس (جنوب غرب طرابلس) الى ساحل المحيط ومن جنوب المغرب الاقصى الى نهر السنغال والنيجر واشهر قبائل صنهاجة هذه هي لمتونة ومسوفة وكدالة .

واشتهر من رؤسائهم تيلثان الذي احتل مدينة أودغست والمتوفى سنة ٢١١هـ وترسين اللمتوني وخليفته يحيى بن ابراهيم والفقيه عبد الله بن ياسين .

ويقول المؤرخون ان يحيى بن ابراهيم لقي شيخ المذهب المالكي الفقيه أبا عمران الفاسي سنة ٤٤٠هـ ـ ١٠٤٨م بالقيروان وطلب منه ان يرسل معه بعض تلامذته ليرجع اهل بلده اليه في الدين . فكتب له ابو عمران كتابا الى الفقيه وجاج بن زلوال اللمطي بسجلماسة لتلبية هذا الطلب فكلف الفقيه اللمطي الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي بهذه المهمة .

وبعد موت يحيى بن ابراهيم انعزل عبد الله بن ياسين للتنسك والعبادة في جزيرة تيدرة والمشهور انها تقع بين

نواكشوط وانواذيبو . وصحبه في هذه الخلوة اخوه أبو بكر ابن عمر . فكانت هذه بداية حركة المرابطين لما التف حول الرجلين من تابعين وعابدين .

وكان الهدف من حركة المرابطين هو نشر الاسلام واللغة العربية في الصحراء والمناطق المجاورة . وينسب بعض المؤرخين لهذه الحركة هدفا اقتصاديا اضافيا هو تأمين طرق القوافل العابرة للصحراء مما يكفل لسكان المنطقة مصدرا اقتصاديا لا بديل له في تلك الظروف .

ومن شعار هذه القبائل الصحراوية اللثام الذي يغطي الرأس والعنق وما سوى العينين من الوجه . فاطلق اسم الملثمين على صنهاجة . يقول احد الشعراء في يوسف بن تاشفين ، أكبر سلاطنة المرابطين :

قوم لهم شرف العلا من حمير
وان انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا علياء كل فضيلة
غلب الحياء عليهم فتلثموا

في نسخة أخرى

ملك له شرف العلا من حمير
وان انتموا صنهاجة فهم هم .

هكذا كانت صنهاجة الشجاعة الكريمة وهكذا كان أول تاريخهم . لكن اعداء العرب والعروبة يحاولون دائما ان يدخلوا في الصف العربي تفرقة ويدسوا فيه شبهة .

ومن أعداء أمتنا من شهروا هذا المعنى وبه حكم على هؤلاء الاعداء بالعنصرية لانهم اما ان يجعلوا من العرب عنصرا اعلى ويبخلون بالانتماء له على من لا يرضيهم او يجعلون من غير العرب عنصرا اسفل ينسبون اليه من يريدون المساس به وكلا الوجهين نزعة عنصرية لان العرب - وان اعتزوا بعروبتهم - لا يفكرون ساعة واحدة في طبقية تجعلهم يعتبرون اي نوع من انواع البشرية عنصرا اسفل من حيث العرق والانتماء او عنصرا اعلى من حيث المحتد وبشرة الجلد .

فالعرب نبذوا اليهود لانهم شردوا جزءا من الشعب العربي من ارضه وساموه بانواع الضغط والظلم انطلاقا من مبادىء عنصرية صهيونية بحتة فشوهوا معالم هذا الشعب البطل في القدس الشريفة وحرفوا تاريخه واقتطعوا ارضه ومنعوه حق الثقافة وحق الوطن وحق الحرية وحق تعليم يلائم حضارته . قال الشيخ محمد البدالي في الذب عن اعراض المسلمين والعرب في هذه الربوع الموريتانية ويقارب بين فئتين في قصيدة له نقتصر منها على ما يخص العرب واليهود :

يا قريظة تنمى للصالحين الخيار
بني ابي زيد الاعلين الاخيار

لان رب العلا خا
لق الورى خير بار
كسى اليهود جلا
بيب ذلة وصغار
وهؤلاء كساهم
عزا يساوي الدراري

الى ان يقول :

قريظة في عذاب الأ
خرى واسوأ دار
عاشوا وماتوا بعار
وفي شنار ونار
والزموا بزنانير
ذلة واحتقار
باءوا بلعن ومسخ
لما اعتدوا في شبار
وكذبوا من اتاه
ضب الفلا والقفار

فلنحكم القول الفصل : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ولنصغ الى قول ابن الوردي حيث ينشد :

لا تقل أصلي وفصلي أبدا
انما اصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من دون اب
وبحسن السبك قد ينفى الزغل
انما الورد من الشوك وما
ينبت النرجس الا من بصل
قيمة الانسان ما يحسنه
اكثر الانسان منه ام أقل

فقد نبذ الاسلام التفاخر بالنسب . ونحن اليوم في عصر تضيق فيه الأرض عن سكانها . فاصبح الانسان يفتش على سطح القمر عن قطعة ارضية بعيدة عن التضخم العالمي . وبقدرما تضيق الارض عن البشر فانها تضيق أيضا عن نوع من الافكار ما زالت الانسانية تطارده في آخر مخبأ له في اسرائيل وفي جنوب افريقيا . فكيف لاحد اليوم ان يدافع بحجة يريد ان تقنع وهي منحدرة من منطلق العرق او بشرة الجلد .

عهود الآباء في موريتانيا

وان كان هذا النوع موجودا فانه خارج الوطن العربي الذي يكافح العنصرية بنوعيها : الصهيونية والميز العنصري . وفي موريتانيا بالذات توجد قبائل تعاهد احدادها - وهم في طريقهم الى هذه الربوع بعد دخول الاسلام الى هذه المنطقة - تعاهدوا على كتمان نسبهم

واشتهروا باسم الخمسة لانهم كانوا خمسة رجال فقط . تعاهدوا على الهجرة الى الله تاركين وراءهم الممتلكات والاهالي ـ والتفاخر بالنسب . فاشتهروا بالتمسك بالسنة والتآخي ونشر العلم واللغة العربية والكسب الحلال والعمل فكانوا القضاة والاساتذة والقواد والعلماء والحكماء وكانوا الساسة ورجال التجارة واصحاب ركائز التنمية . وكانو المثل الاعلى في القيم والتدبير وكانوا . . . . وكانوا . . . . سوى انهم ارادوا بناء مجد لا يعتمد على العرق ولا على العنصر مع ان ما همس به التاريخ من نسبهم يجعلهم اما منحدرين من اصل شجرة امير المؤمنين علي بن ابي طالب الثابتة في منبع النور والهداية واما من شجرة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصاحب في الغار ابي بكر الصديق ، ثاني اثنين ، واما من قريش ثم من بني مخزوم واما من ذرية جعفر الطيار واما من الانصار .

لكن هؤلاء الاجداد طلقوا كل ذلك واعتصموا بعروة النجاة فاتخذوا من القرآن والسنة دستورا مطبقا . ولعل قربهم من هذه الاصول الشريفة جعلهم يكتمون أنسابهم خوفا من ان يقدروا اكثر من اللازم او ان يصرفوا العناية والعقيدة عن الله تعالى وهم في مناطق قريبة العهد بالوثنية وعبادة غير الله عز وجل .

ومهما يكن من امر فانهم نجحوا والتف حولهم كل اهل المنطقة والمناطق المجاورة فاصبح لافرق بين عربي ولا عجمي الا بمقاييس الحكمة والسفه والرشد والغواية والهداية والضلال .

ولنرجع الى حيث كنا في موضوع صنهاجة ولنستشهد بقول العلامة المؤرخ الشهير الاستاذ المختار بن حامد حيث يقول : « ذهب أغلب المؤرخين والنسابة العرب الى ان صنهاجة عرب قحطانيون حميريون وقالوا انهم نزحوا من اليمن في وقت مبكر . ومن الذين جزموا بعروبة صنهاجة : ابن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ وابن الكلبي المتوفى سنة ٢٥٤هـ والزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦هـ والهمداني المتوفى سنة ٣٣٤هـ والطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ وابن خلكان المتوفى سنة ٦٧١هـ وابن جزي الكلبي المتوفى سنة ٧٥٧هـ والفيروزبادي المتوفى : سنة ٨١٦هـ ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٥هـ والسلطان الاشرف عمر بن يوسف بن رسول المتوفى سنة ٦٦٦هـ واليعقوبي وعبد الغني الاشبيلي وعبد الحق المالكي وصاحب الحلل الموشية » .

والنسابة العرب يرفعون نسب صنهاجة الى « الفرع الحميري من القحطانيين » . ونجد من النسابة والمؤرخين العرب من يرفضون هذا القول ويشهرون ان لصنهاجة اصولا غير هذا ، ومن هؤلاء ابن حزم الاندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ واغلب النسابة البربر ومؤرخيهم (المصدر السابق) .

وعلى هذا الاساس فان قبائل صنهاجة قبائل عربية منحدرة من اليمن . وذلك لكثرة من جزموا بعروبتهم .

ومن جهة أخرى فان البربر فيما يخصهم قد فضلوا الحضارة العربية على غيرها فتمسكوا بها وفضلوا الأرض العربية على غيرها فسكنوا فيها وفضلوا الامة العربية على غيرها فعاشروها وناسبوها ، وكما يقال : « جليس القوم منهم » .

فكيف بامرئ تميز بن قوم وامرىء ينتمي اليهم ، يتكلم كلامهم ويعتز بعزهم ويفخر بفخرهم وينتمي الى حضارتهم ؟ أيمكننا ان ننسب سلمان ، الصحابي الشهير لغير اهله وقد قيل فيه « سلمان منا ، اهل البيت » ، أنسمح بأن امة اخرى تفخر بتراث وعمل البخاري الجليل ام يمكن للحضارة العربية ان تنتزع من ارشيفها وتاريخها اعمال الفارابي ؟ .

واني أفضل ان انسب الى العرب من ليسوا منهم بدلا من ان انتزع منهم جزءا كبيرا ينتمي اليهم ويفخر بفخرهم ويعتز بعزهم وبقيمهم .

وهذه ظاهرة اختص بها العرب والمسلمون دون غيرهم . فانهم جميعا يكافحون العنصرية والصهيونية . فكيف لهم اذا ان يتساووا بها او ان يتعاطوها من وراء ستائر العرق والجنس الشفافة الخائنة في حين يظنون انهم محسنون .

فالعنصرية ـ وما الصهيونية الا من الوانها الوسخة ومن مظاهرها البشعة ـ سياسة يتعاطاها من ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من ربهم . فهم اليهود الظلمة الطغاة في فلسطين وهم البيض في جنوب افريقيا .

ومن جهة اخرى فان شعب بلادي ، شعب موريتانيا ، شعب ملتقى الحضارات وأرض الحوار والتفاهم ـ وهو شعب يضم سلالات غير عربية من شتى الاصول الافريقية الزنجية . لكن الكثير منهم برع في اللغة العربية وعلومها والتعاليم الاسلامية وفروعها ـ فان هذا الشعب يفخر بتفتحه على غيره على اديم ارضه وفي الملتقيات الدولية : فلكم ساهم هذا الشعب في لقاءات دولية في تقارب افكار متضاربة ولكم آخى بين اصحاب مذاهب متطاحنة ، فترى الاسود يهمس في اذنه اليسرى مطمئنا الى رأيه في سره وترى الابيض يهمس في اذنه اليمنى متكلا اليه راضيا باشارته السديدة . والكل يرضاه حكما ويخرج القول الفصل والرأي المقبول على لسانه فينال هذا الشعب العربي الكريم الابي مكانته اللائقة به بين الامم مع اعتزازه وفخره وبانتمائه الى عالمه العربي العزيز والافريقي والى امته العربية ذات الحضارة المعطاءة . ■■

نواكشوط ـ المختار بن حمينا

الحضور القومي في الشعر الجزائري الحديث

بقلم : مصطفى بلمشري

استطاع الشعر الجزائري الحديث أن يستوعب قضايا الانسان العربي وتطلعاته للسلام والسعادة والهناء ، كما انه عكس بصدق الواقع الحياتي اليومي للامة العربية ، وجسد ذلك الواقع الذي تعيشه الجماهير العربية ، وذلك من اجل اشباع واغناء حياتهم الروحية من أجل غرس القيم النضالية والثورية عند نفوس أبناء العرب انطلاقا من واقعهم الحقيقي والموضوعي .

ومن الشعراء الجزائريين الذين ساهموا في بلورة الحركة الشعرية ، محمد الاخضر عبد القادر السائحي ، وصالح باوية وسليمان جوادي وعبد العالي رزاقي وأبو القاسم سعد الله ، وأبو القاسم خمار ، ومصطفى الغماري وغيرهم من الشعراء الذين اكدوا انتماءهم للعروبة وتسخير شعرهم للدفاع عن القضية العربية . ولنستمع الى محمد الاخضر عبد القادر السائحي وهو يتغنى بقضية فلسطين الجريح اذ يقول :

ربـــاه ،
في القدس في وسط اللهيب
تبكي وتوغل في الحنين وفي النحيب
وتذيب في آهاتها شكوى الى الله العظيم
صرخات مسجدك المقدس يا رحيم
تفري القلوب المؤمنة
عبر الزمن . .

أما سليمان جوادي هو الآخر تبلورت في شعره القضية العربية ، فاستطاع ان يعكس من خلال انتمائه الثوري تمرده على الواقع الذي تعيشه الجماهير العربية من تمزق وتفكك بسبب الاستعمار الذي تسلط عليه . فيقول في هذا المجال :

أتذكر اني في الليلات الصيفية
أتوسد عنزا في البيداء أمارس تلك السرية
وأشق طريقا للاحلام . .
أشـــق طريقا للتفكير
وللتدبير
وللتحرير

ان الشاعر جوادي يتميز شعره بثورة على واقع الامة العربية ، لان ما تعلمه في المدرسة يختلف اختلافا كبيرا عما هو ملموس في الواقع ، وفي هذه الابيات يصور لنا تمزقات الواقع العربي ويكشف عن معاناة الانسان العربي . .

فالمجد دوما للعرب
والنفط دوما للعرب
هذا الذي حفظت في المدرسة الصغيرة .
الذل دوما للعرب
والجهل دوما للعرب
والفقر دوما للعرب
والجنس سلطان العرب
تبت يدا بعض العرب
هذا الذي عرفت في المدرسة الكبيرة .

ومصطفى محمد الغماري يتطلع الى مستقبل زاهر للامة العربية التي سجل أبناؤها صفحات مشرقة في تاريخ هذه

الامة المجيدة ، فقد تميز شعره برؤية قومية واضحة ، عكس الشاعر خلالها أشواقه الى وطنه العربي ، الذي يتمنى له أن يتحول الى جنة خضراء وذلك بعدما يتخلص من الاستعمار اذ يقول :

أنا يا دروب الرفض
أزهر في حماك غدا خضيرا
أنا يادروبي في حماك
مسافر ابدا .. مقيم
بجمالك العربي اهتف
بالرؤي النشوى أهيم

انطلاقا من رؤية قومية تقدمية ، راح الشاعر الغماري يجسد الاحداث العربية مختصرا مسافة التطلع الى الحرية وتحقيق الكرامة والسيادة للامة العربية من خلال فعالية الثورة الشاملة اذ يقول في قصيدة (أسرار الغربة) :

شرقي على هام العرو .. بة تشرئب له البنود
لا التيم يا باتعيه ـ بما .. لكيه .. ولا اليهود
شرف العقيدة ثورة .. خضراء تحرسها الزنود
القدس يعشق ، والخيل هواه .. والطير الشريد
شرف العقيدة في الصغار .. بهم ستنطلق الرعود
لي سكرة عربية .. يا قدس منك سأستزيد .. سأتزيد .

ان الشاعر مصطفى الغماري أكد لنا من خلال شعره القومي ارتباطه بأحداث أمته ، مجسدا لنا أبعاد الصراع العربي الصهيوني ، فجاءت ـ نتيجة وعيه القومي ـ أشعاره مشتعلة بنار الفجيعة وخطورة الموقف العربي الراهن ، بحيث عكست قصائده مدى تمكن الشاعر من التعبير عن القضايا القومية العربية الموضوعية وعن تطلعات المواطن العربي الى غد سعيد ومستقبل زاهر . وفي قصيدة تحت عنوان (لبنان الرافض) يقول :

تعانق الرفض في واديك والقدر
ماذا جرى اليوم يا لبنان ما الخبر ؟
ماذا جرى ؟ فحمى الجولان مغتصب
والريح تركض في لبنان ... تنفجر .

ومما لا شك فيه أن الشعر الجزائري الحديث استمد مادته الشعرية من صميم حركة الواقع السياسي والاجتماعي ، فامتلك بذلك قيمه الفكرية وقدرته التعبيرية ، كما انه شكل وعيا قوميا . ولعل السبب في ذلك هو معايشة الشعراء للواقع العربي الزاخر بالصراعات والتناقضات السياسية نتيجة احتلال الاعداء للقدس وتدنيس هذه الارض الطاهرة بأرجلهم . وهذا الشاعر (عبد العالي رزاقي) الذي استوعب قضية أمته فعبر عنها بكلمات تتدفق حرارة ، منطلقا من رؤية واضحة لما يجري في فلسطين المغتصبة اذ يقول :

وأنا البحر في كل اتجاه ثوري
أستعيد الآن ماضيك .. فلا ابصر في عينيك ..
غير الصمت .. والرفض ..
وهذا قدر الجرح الفلسطيني
لا يطلب غير الانتماء العربي ..

ان مأساة فلسطين جرح نازف في قلب الأمة العربية ، وواجب أبناء هذه الامة التي امتازت منذ الازل بالشجاعة والفداء ، أن يدفعوا الاذى عنها ويذودوا عن مقدساتها ، ويصونوا سيادتها ، ولا يتم ذلك الا بالتضحية وبذل النفس والنفيس . ودور الشاعر تجاه فلسطين هو مواصلة النضال عن طريق ايقاظ الوعي الثوري والقومي في نفوس أبناء العرب وشحذ العزائم لتحقيق الاهداف القومية المرتبطة بتحرر كافة التراب العربي . لان المشاعر القومية والروابط الوحدوية مهما كانت قوية وأصيلة فهي تحتاج دوما الى ايقاظ وتنمية ، وهذا الايقاظ مسؤولية على عاتق الشاعر الملتزم بقوميته والمؤمن بعروبته . وهذا الشاعر الجزائري محمد ابو القاسم خمار يطلق صرخة مدوية معلنا بذلك رفضه لأي عار جديد في فلسطين المغتصبة ، كما يرفض أن تداس القدس وتدنس أرض دمشق . اذ يقول :

لن نرتضي عارا جديدا في فلسطين السليبة
لا .. لن يداس المسجد الاقصى ، وارضنا الحبيبة
وثرى دمشق ، معاقل الابطال . جبهتنا المهيبة
كالسيل تقتحم الجحيم ، كتيبة تلو كتيبة
ومن المحيط الى الخليج .. دماؤنا حمم رهيبة
أرواحنا إن لم تعش للنصر ، تدفعها ضريبة .

وهكذا استطاع الشعراء الجزائريون ان يعالجوا قضايا أمتهم متحملين مسؤوليات ومهام النضال القومي ، التي من شأنها تصعيد نضال الشعب العربي الهادف الى تصفية كل الحسابات مع الاعداء المغتصبين ، والقضاء عليهم بتطويق المد الثوري العربي الرامي الى تحرير جميع الاراضي المحتلة . وقد استطاع الشعر الجزائري أن يتجاوز بأصالته حدود الوطن الصغير لينزل على الارض العروبة والجهاد لينقل الينا صورا صادقة عما يجري هناك من احداث وصراعات . فمعظم هذا الشعر لا يخرج عن الخط الغنائي القومي مع تباين في مستوى الرؤية الفنية بين شاعر وآخر وقدرته على استيعاب الواقع العربي المعاش والتفاعل معه بصدق وعكسه في قالب شعري واضح الرؤية .. وقد تمكنت القضية العربية من خلق الرؤية الشعرية التي جسدت الشعور القومي الجياش بالعاطفة العربية المتأججة والصادقة . ■ ■

الجزائر ـ مصطفى بلمشري

○ رسالة من بودابست ○

أوّل جمعيّة إسلاميّة تنشأ في المجر

بقلم الدكتور محمد التونجي

المعروف أن دولة المجر ـ أو كما يسميها الأجانب هنغاريا ـ تقع في وسط أوروبا ، وتحيط بها خمس دول ، أربع منها اشتراكية هي : يوغسلافيا ، وروسية ، وروماانية ، تشيكسلوفاكيا . بينما تتصل بجزء صغير من غربيها . يزيد عدد سكانها عن عشرة ملايين نسمة ، ربعهم يعيشون في العاصمة « بودابست » ـ ويلفظونها بالشين ـ وثلاثة أرباعهم موزعون على أطراف نهر الدانوب ، أو على أطراف جزيرة « البالاتون » ، والتي يبلغ طولها ٧٥ كم وعرضها ١٥ كم . وكم تغنى بها الشعراء ، وأمها العشاق ، ورواد السياحة . والمجر مع ذلك تنقسم الى اثنتين وعشرين مقاطعة .

يقولون : الشعب الذي يحب الموسيقا والشعر والزهور لن يكون سيئا أبدا ، وهؤلاء هم المجريون . شعب يحب العمل ، والهدوء ، بنصاع للأنظمة ، ويعتني كثيرا بمظهره ، حتى كأنك لاتشعر بأنه في ضائقة مالية ، وان كان غارقا فيها .

يؤم المجر سنويا خمسة ملايين نسمة ، حبا بطبيعتها ، وجبالها الخضراء ، وبحيرتها الساحرة ، وجسورها المعلقة ، وقطاراتها التي تتلوى كالثعابين تحت الأرض بعمق قدره مئة وخمسون مترا . ويقصدونها حبا لرخص الأسعار أيضا .

بصمات عربية

وهي على بعدها عن الوطن العربي تعد من الدول الصديقة للعرب ، التي تطمح لها بالاستقرار وبحقوق الشعب الفلسطيني ، ثم هي لم تفكر يوما باستعمار أو احتلال ـ وهي كذلك على صلة وثيقة بالاسلام ولعل هذا ما يرسخ الروابط العربية المجرية .

فهم شعب شرقي يعيش في وسط أوروبة . فقد قدموا الى هذه البلاد قبل الف عام تقريبا ، نزحوا من الحوض الأوسط الشرقي لنهر الفولغا ، ولكنهم لم يعرفوا أين كانوا قبل ذلك . ومنذ أن كانوا في مضاربهم الأولى كان العرب يعرفونهم ويكتبون عنهم ، ثم حين حطوا رحالهم في قلب أوربة استمرت علاقاتهم بالعرب وداخلتهم الديانة الاسلامية قادمة من الشرق .

ولقد حكمتهم الخلافة العثمانية قرنا ونيفا ، ونشرت فيهم ديانتها على مذهبهم . وبنت المساجد ، ومازال بعضها ماثلا حتى الآن للعيان ، ولاسيما في مدينة بيج ـ BECS والتي تقع في أقصى الجنوب بينما لم يبق من هذه المساجد غير المآذن المنتصبة في وسط شوارعها . كما تحولت بعض هذه المساجد الى كنائس أو الى متاحف عقب زوال الحكم العثماني عنها .

كما أن مكتبتها التي تمثل بعض طوابق الأكاديمية العلمية ذات قيمة علمية كبيرة ، فهي تضم قرابة المليون كتاب . تحتجز الكتب العربية والفارسية والتركية ـ مطبوعة ومخطوطة ـ حيزا مرموقا من أروقتها وبالاضافة الى هذه الكتب الشرقية تحتفي بكتب المستشرقين التي صدرت بلغاتهم ، أو بالعربية عن العرب والعربية .

ومازالت اللغة المجرية تحتفظ بكثير من الكلمات العربية والفارسية والتركية ! جاءتها عن طريق احتلال العثمانيين لها ، أو عن طريق التجارة المباشرة مع الشرق . ومع أن آفاقي مختصرة ، ومع أنني لاأعرف غير

الندر من هذه اللغة الخاصة فاني تمكنت من رصد عدد من الألفاظ التي تسترعي الانتباه من حيث نوعيتها وكثرتها .

فمن جملة الألفاظ العربية : الماعز . تكرم . قهوة . خراج . جيب . حرامية . دخان . ومن جملة الألفاظ الفارسية : فنجان . ابريق . بابوج . سكر . هزار (ويلفظ ازار) . سارست (تحية) . تباك . هوش (أصلها كوشت : لحم) . ومن جملة الالفاظ التركية : قابو . يوغورت . بوطة . الما . بلطة . جزمة . ومن الطريف أنهم ما زالوا يحتفظون بتكية تركية فيها قبر « جول بابا : أبو الورد » وهو شيخ من الأتراك يحبه المجريون ، لأنه كان يدافع عنهم من ظلم الباشوات . ويزور هذا القبر عدد من السائحين الأتراك ، فيحدثهم سكان المنطقة عن بركات هذا الشيخ ، وهو في بودابست .

في جامعة بودابست

وفي جامعة بودابست قسم خاص بالدراسات العربية والسامية ، يضم مجموعة من العلماء المستشرقين المجريين . وهم يجيدون العربية اجادة كاملة . ويدرسون طلابهم العربية مع بعض المقارنات بالسريانية والعبرية . ومع أن عدد الطلاب قليل ، بالنسبة الى عدد الأساتذة (أي بمعدل ثلاثة طلاب لكل استاذ) فان القسم يحث خطاه ويتطلع نحو الأفضل .

وهذا هو الدافع الذي دعاني للسفر الى بودابست . فقد انضويت في سلك الهيئة التدريسية استاذا زائرا لمدة أقل من شهرين ، أطلع فيها على مسيرة القسم . وأتعرف الى علمائها ، والقي بعض المحاضرات على الطلاب الذين يدرسون العربية والفارسية ، ولاشك أن هذا القسم بحاجة الى دعم عربي متعدد الوجوه : بالكتب ، بالدوريات ، بالأساتذة . بدعوة بعض أساتذتهم الى بعض الأقطار العربية ، ودعوة المبرزين من الطلاب .

وكان من حسن طالعي أن أكون موجودا في المجر يوم افتتاح مؤتمر « الجمعية العلمية الاسلامية » الذي جرى مساء الخميس ١١ / ٢ / ١٩٨٢ . وقد لبى الدعوة لحضور الافتتاح عدد من السادة الملحقين الثقافيين للدول العربية الاسلامية . ولفيف من العلماء والمستشرقين وطلاب الدراسات الشرقية ويسرني أن أضع بين أيدي قراء مجلة العربي ملخصا مدروسا عن أهداف الجمعية ، وأهم الكلمات التي القيت فيها .

تأسست الجمعية العلمية الاسلامية ، في يناير عام ١٩٨٢ ، داخل اطار جمعية « تشوماكوروشي » التابعة للمجمع العلمي المجري . ويرأسها الأساتذة الدكتور « كارولي سجليدي » **K CZEGLEDY** ويشاركه الرئاسة الدكتور عبد المنعم مختار (استاذ مصري) والدكتور حسان اليجاري (أذربيجاني) .

تعتمد الجمعية الجديدة في عملها على التقاليد والتراث العلمي المجري في حقل الدراسات الاسلامية خاصة وفي حركة الاستشراق عامة . وتهدف الجمعية الى المساعدة والتنسيق بين العناصر المختلفة لحركة البحث العلمي بالمجر ، وهي الحركة المهتمة بالكشف عن النواحي التاريخية للاسلام وأهميته في طوره الحاضر . وترغب الجمعية في تلبية الاهتمامات المتزايدة للرأي العام المجري وبصفة خاصة الشبيبة . وذلك بتعميم نشر المعرفة عن نطاق واسع عن الاسلام ، وعن دوره التاريخي الظاهر في العالم الثالث .

وأعدت الجمعية الاسلامية برامج متعددة الوجوه والأهداف ، لترضي التطلعات الاجتماعية المتشابهة ومتبدأ ، عقب الجلسة التأسيسية سلسلة مكثفة من محاضرات نشر المعارف العلمية مركزة بوجه خاص عملها داخل اطار الشبيبة ، وفي حالة توفر الامكانيات المادية المناسبة ستصدر سلاسل من الموضوعات المهتمة بالحضارة الاسلامية .

وتخطط الجمعية لاقامة معرض يعتمد - لأول مرة - على معروضاته المستعارة من المجموعات الخاصة والتحفية . ويعرض روائع الفنون الاسلامية ، وفي المستقبل ستحتفل بذكرى المناسبات السنوية والتذكارية للشعوب الاسلامية الصديقة ، وكذلك باقامة الاحتفالات التذكارية لأبرز الشخصيات العلمية الاسلامية ، كما ستحاول اقامة علاقات مع الجمعيات الثقافية بالدول الاسلامية ومع جامعاتها بهدف تبادل علمي معها .

ومن ناحية أخرى فالجمعية ستهيء ، داخل أطرها ، من وقت لآخر فرص اقامة حلقات نقاش وجدال علمي لجمهور المشتغلين بالعلوم والآداب حول أهم مسائل تاريخ الثقافة الاسلامية ، وأهم الموضوعات الاجتماعية الاسلامية بهدف الارتقاء بمستوى الابحاث الاسلامية ، والتنسيق بين العاملين بتلك الحركة وجعل جهودهم أكثر فعالية .

الكلمة الأولى

افتتح الدكتور سجليدي الجمعية بكلمة رحب فيها بالضيوف العرب والمسلمين، وحثهم على تقديم العون الممكن في سبيل انجاح أهداف الجمعية، ثم انتقل الى عرض الأسباب الداعية الى افتتاح هذه الجمعية، فقال: ـ

« . . . وبمناسبة تأسيس الجمعية العلمية الاسلامية أود أن أوضح الدوافع التي دعت رئاسة الجمعية الى تأسيس هذه الجمعية الجديدة. فلقد مضى ربع قرن على أحداث السويس العدوانية عندما بدأت تتوطد العلاقات، وتتطور متقدمة بسرعة بين وطننا والعالم العربي. اذ أثمرت تلك العلاقات بالنسبة الينا، وقدمت رطبا جنيا، في الوقت الذي ترسخت فيه أقدام قسم الدراسات العربية والاسلامية. وذلك بعد أن فتح ذلك آفاقا جديدة أمام أساتذة القسم وطلابه، وسنحت لهم فرص لم تكن متوفرة بالنسبة الى العالم الاسلامي، الذي فتح لهم أبوابه على مصاريعها، وبصفة خاصة الدول المتكلمة باللغة العربية للتعرف اليها والى آدابها وعلومها وحضارتها، وسائر نواحي في حياتها المختلفة».

« . . وبعد تحرير بلادنا كان التحاق الاستاذ الدكتور جيولا جرمانوس ـ المعروف في العالم الاسلامي باسم الحاج عبد الكريم جرمانوس ـ بالقسم تطويرا له، وبعثا لحياته من جديد . . . »

ثم انتقل في حديثه عن أثر الحضارة الاسلامية في الغرب، فقال:

« . . . علينا الاهتمام بقيم التراث العظيم الذي خلفته لنا الحضارة الاسلامية، وأوجه الانظار بصفة خاصة الى المعطيات الهامة، التي حدثت في العالم الاسلامي بين القرنين التاسع عشر والحادي عشر الميلاديين، عندما أشعت الحضارة الاسلامية بأنوارها الساطعة، ناشرة معارفها وعلومها في دياجير العالم في العصور الوسطى . . .
ومن بين مكتشفات العرب الجغرافية معارفهم الدقيقة على شرقي أوروبة وشماليها الشرقي، وجنوب غربي سيبيريا، كما كانت معرفتهم دقيقة. وبصفة خاصة عن الشعب المجري قبل توطنه الحالي. لذلك ندين بالعرفان والجميل للجغرافيين المسلمين . »

دور الرحالة المسلمين

الكلمة الثانية كانت للدكتور شاندور فودور وهو من أساتذة القسم اللامعين، ومترجم الدولة الرسمي، وقد جاءت كلمة علمية دسمة. يتضح ذلك من عنوان محاضرته «تاريخ حركة البحوث الاسلامية في المجر». ومما قال:

« . . . . لن ننسى بالطبع تلك العلاقات السلمية الثقافية، والتي لعب فيها الاسلام دور «المعلم لأوروبة». وكان ذلك عندما قامت الدولة الاسلامية بالاندلس بتسريب كنوزها العلمية على أوروبة. حيث أشعت بواكير شمس المعارف الاسلامية في الفلسفة والرياضيات والفلك والطب. فأنارت ظلمات العصور الوسطى . . . »

« وان تاريخ الشعب المجري قبل توطنه الحالي يستمد معلوماته الأساسية، من مصادر كتابات الرحالة المسلمين ومؤرخيهم وجغرافييهم الذين ندين لهم بالشكر والامتنان، ومنهم: ابن فضلان، وابن رستة، والبكري، والمسعودي، وعشرات غيرهم. وكانت مناطق ارتحال المجريين وتجوالهم تتبع دائرة نفوذ الخلافة العباسية ببغداد، وهي وان لم تستطع بسط نفوذها وسيطرتها عليها، الا أنها استطاعت نشر الاسلام في تلك المنطقة . »

« وقد لعب المسلمون دورا كبيرا في الحياة المجرية في عصر اسرة «اباد» ـ زعيمهم القومي ـ وأقدم ذكر لهؤلاء هو «الاسماعيلية»، الذين وصلوا الى المجر، واطلق عليهم اسم «كالز». وقد لعبوا دورا هاما في الحياة الاقتصادية المجرية. وتحدث الخوارزمي عن أصل الكالز الذين اضطروا الى اخفاء دينهم، والتظاهر بأنهم نصارى، لحماية أنفسهم من الاضطهاد والتنكيل. وجاء الذكر الثاني للتجمع الاسلامي في المجر لدى الرحالة الاندلسي «ابن حامد» الذي زار المجر في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. وكان يعتبرهم من الجند المغاربة المأجورين » .

ثم ينتقل الدكتور فودور الى التعريف بأبرز المستشرقين المجريين، ممن لهم ضلع كبيرة في تنشيط حركة الاستشراق. وسأخص أبرز هؤلاء العلماء، لما لحياتهم من أثر في اللغة العربية وأدبها في قلب أوربة .

فيرتنس دومباي (١٧٥٨ ـ ١٨١٠) : تعلم اللغات الشرقية بالأكاديمية الشرقية بفينا ، ثم دخل في خدمة البلاط النمساوي . ثم غدا مترجما لسفير السلطان المغربي سيدي محمد لدى البلاط النمساوي . وبعد ذلك أرسل القيصر يوسف الثاني وفدا الى المغرب كان دومباي أحد أعضائه ، فامتدت اقامته في المغرب ست سنوات ، كتب فيها عددا من الكتب الخاصة بالحكمة العربية والفارسية ، والمسكوكات المراكشية .

بانوش بربنبي (١٨٠٠ ـ ١٨٥٥) : وكانت أعماله حجر الزاوية لنشأة حركة الاستشراق المجري ومن كتبه « مسلمو عصر أرباد » و « الاسماعيلية » .

أرمين فاميري (١٨٣٢ ـ ١٩١٣) : كان المستشار الشرقي للحكومة البريطانية . ومن أهم أعماله : تاريخ بخارى ، والاسلام في القرن التاسع عشر ، حركة تحرر مسلمي آسية ، والثقافة الغربية بالشرق وأخيرا : هل الشرق قادر على النهضة ؟ » .

اغناطيوس غولد زيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) : لايعتبر غولد زيهر من أكبر علماء البحوث الاسلامية في المجر فقط ، بل يعتبر من فحول أعلام تلك الدراسات بالعالم ويعتبر المؤسس الحقيقي للعلوم الاسلامية كفرع بارز في المعرفة . درس في بلاده العربية والتركية والفارسية . ثم اتم تحصيله في المانية . طاف في بعض أقطار الوطن العربي ، فزار سورية ومصر وفلسطين ثم التحق بالأزهر . كتبه كثيرة ، يغلب عليها طابع النقد الأدبي .

عبد الكريم جرمانوس (١٩٨٢) : شخصية لها وزنها في العلاقات العربية الاسلامية المجرية . عمل استاذا في الهند بين (١٩٢٩ ـ ١٩٣٢) ، وفي الهند اهتدى الى الاسلام ، وادى فريضة الحج عام ١٩٣٥ وألف كتابا اسمه « الله أكبر » . وله عدد من المؤلفات كان لها أثر في الأجيال الفتية ، ولاسيما في معرفة الشرق الاسلامي لدى المجريين .

كاروي سجليدي : رئيس قسم اللغة العربية والدراسات السامية الحالي ، ورئيس الجمعية العلمية الاسلامية . اشتغل بدراسة المصادر الجغرافية والتاريخية العربية ، وله دارسة في « سورة الكهف » وخلفياتها التاريخية بالنسبة لذي القرنين و « يوم القيامة » و « ظهور المسيح الدجال » .

وختم بحثه بقوله : « وهكذا فانني اعتقد بأن تعدد الوان البحث وتنوع موضوعاته ودوافعه سوف يعمل على ضمان تطور البحوث الاسلامية في المستقبل في المجر » .

أهمية الدراسات ـ الاسلامية

تحت عنوان « أهمية الدراسات الاسلامية بالمجر » للدكتور حسن بيجاري ، تشابهت أفكار هذا الباحث مع أفكار الباحثين اللذين سبقاه ، ومع هذا فقد تطرق الى نقاط دقيقة ، يحسن أن نقتطف منها مايكمل البحث . ومما قاله بالفرنسية ، لأنه أذربيجاني الأصل : « تعتبر دولة المجر من المراكز النادرة العاملة بنجاح في حقل الدراسات الشرقية بأوروبة . والاستشراق المجري يبتعد بعدا شاسعا عن جميع الدوافع الاستعمارية ، ويقترب بدوافعه المبدئية المنصبة على اظهار تعاطفه وصداقته للشعوب الشرقية » .

« ولابد من الاشارة الى أن الاستشراق ، حتى الآن ، ومنذ بضع مئات من السنين كانت له دوافع سياسية غاشمة ومريبة » ، وكان دوما أداة سياسية تهدف الى الحط من شأن حضارة الشعوب الشرقية وتشويهها ، لاستعبادها فكريا وواقعيا ، وتعتبر الدراسات الشرقية المجرية من بين الحالات النادرة ، لأنها لم تكن أبدا تعمل لأهداف استعمارية . . . ولم يكن هذا الأمر عفويا فالشعب المجري نفسه ، شعب شرقي الأرومة ، انفصل عن موطنه الشرقي ، ولم ينس خلال ماضيه الممتد لألف عام في أوروبة ، أصله الشرقي ، وينظر الى شعوب الشرق نظرة صداقة وقرابة » .

وختم كلمته بقوله :

« ونؤمن معتقدين ومؤكدين بأن الجمعية العلمية الاسلامية المجرية ، وبما توصلت اليه من معارف في حقل الدراسات الاسلامية ، ستكون خادما دؤوبا ، يعمل على نشر المعارف الاسلامية بين الجماهير الغفيرة ، عاملة على تحقيق الأماني والمبادىء الانسانية للاسلام » .

وهكذا نلاحظ أن مدينة والجسور ، تشق طريقا سالكة في صداقتها مع الدول العربية والاسلامية راغبة في نشر الاسلام ومعارفه في أنحاء أوروبة ، والحقيقة أن صديقي صدق حين قال لي : « الشعب الذي يحب الموسيقا والشعر والزهور لن يكون سيئا أبدا » ■■

بودابست ـ محمد التونجي

قصة خليجية :

الأفق والخيمة

بقلم : فهد الدويري

كان الربيع في أواخر أيامه . وعشب البر الذي كان أخضر يانعا بدأ يتحول الى اللون الأصفر وسنابل « الصمعاء » [1] التي يهزها النسيم كانت كحقل حنطة ناضج ولكن أشواكها الآن تنغرز في سيقان السائرين . وفي مكان ما من هذه الصحراء المترامية ذات الافق البعيد كانت تنتصب خيمة كبيرة بيضاء وعلى بعد قليل منها قبر حديث . أقيم على يمين الخيمة . وعلى اليسار منها كوخان صنعا من ألواح الشينكو المضلع الباهت البياض . احدهما مطبخ الخيمة . والآخر حمامها . وبالقرب من المطبخ صهريج من الحديد الاسود للماء .
أما داخل الخيمة الكبيرة فقد فرش ببسط حمراء مقلمة بالأبيض وأخرى بيضاء مقلمة بالأسود . ورصفت وسائد من الصوف الخشن على البسط في غير نظام . . وفي زاوية في هذه الخيمة ذات الأوتاد المحكمة كانت تجلس شلة من الرجال تحلقوا حول رجل سبعيني في كامل مظهره البدوي يمسك لحيته الشمطاء بقبضته ثم يطلقها بين الحين والحين .

كان الوقت بعد صلاة العصر بقليل وكانت تبدو على الرفاق المتحلقين حول الشيخ دهشة بالغة من هذا الشيخ المغرق في البداوة ينشدهم شعرا عربيا فصيحا . صافي اللغة . مضبوط اللفظ . ثم تزداد دهشتهم حين يروي لهم شعرا له هو . . شعرا جزلا فيه لمحات وجدانية وتصوير « جميل » يسجل في بعض منه أحداثا معاصرة . .

وكنت أحد أفراد هذه الشلة المدهوشة الجالسة مع الشيخ . وكان وقتها يشتعل حماسة لما كان يجري في مصر أثناء العدوان الثلاثي وانطلق ينشدنا قصيدة طويلة لا أذكر منها ـ مع الأسف ـ سوى هذا البيت .

لقد علمت أهل القبائل أنه
اهم أهلها في الحرب أم أهلها مصر ؟

وانفلت الشيخ ينشدنا قصائده في الحب والكرم والحرب والحياة . واستولى على العجب مصحوبا بحب اكتشاف هذا البدوي الفصيح . القابع في خيمته متوحدا في هذه الصحراء العريضة .

كان أبو عبدالله هذا بدويا ينتمي الى قبيلة من هذه القبائل التي تسكن صحراءنا المترامية . يعيش مع أولاده وزوجته مترحلا في الصحراء حيث وجد الكلأ والماء كأي بدوي آخر . وحين انفجرت الأرض بالذهب الأسود وبدأ الاستيطان والتحضر . ونشأت المدن وتيسرت سبل العمل . وتدفقت الثروات . حاول أبناء الشيخ أن يسكنوا المدينة ليعملوا ويطلقوا حياة الترحل . ولكن الشيخ وقف في وجوههم وأصر على البقاء في صحرائه . وتشبث بها . وأعاد الأبناء محاولاتهم . ووسطوا من عند أبيهم كي يوافق على سكن المدينة . واستطاعوا بعد جهد أن يقنعوا الشيخ بالموافقة ولكنه اشترط عليهم أن يقضي ربيع كل عام مع زوجته في البر . .

وهكذا استقرت الأسرة البدوية في المدينة . وعمل الابنان فيها أجيرين فترة . ثم استطاعا أن يفتتحا لهما متجرا خاصا . نما وكبر مع الأيام بالسرعة التي نمت وتطورت فيها حياة المدن البترولية الجديدة . حيث انقلبت الحياة في تلك المدن فحولتها من واحات صغيرة فقيرة الى مدن كبيرة عامرة . .

وعاش الشيخ ـ وكان في الخمسين من عمره يوم ذاك ـ حياة غريبة أحس معها بالطول الممل . . صحيح أنه كان يتردد على القرى الصغيرة الفقيرة حين كان يتعلم القرآن وشيئا من الفقه على شيوخ نصف أميين .

---

(١) « الصمعاء » . وتسمى « النهمي » أيضا ـ نوع من البقول تأكله الحيوانات رطبا ويابسا . ينبت كما ينبت الحب . ويبلغ حتى يصير مثله . فاذا يبس الصمعاء صار لها شوك مثل شوك السنبل (العربي)



وصحيح أنه كان يزور مدنا كبيرة ايضا للاشتراء والتبضع . ولكن الى جانب أنه لم يكن يألف تلك الحياة فان تلك القرى والمدن لا تقارن بهذه المدينة التي يعيش فيها الآن . . سيارات فخمة . وطرق طويلة عريضة ملتوية . وحدائق واسعة ليس فيها تلك الرائحة المنشية التي كان يشمها في أرض الصحراء المطورة . . . ثم هذه الآلات الغريبة والأدوات التي لا معنى لها . . مكيفات هواء . . طعام معلب . . تبغ ملفوف جاهز . . الناس في الشوارع يلبسون هذه التي تسمى بنطلونات ونساء مكشوفات الوجه وأكثر من الوجه . . ولوريات محملة بأنواع من الفواكه لم يسمع بها مجرد سماع . . كأنه يعيش في حلم . .

وعاش بالرغم عنه في هذا المحيط بضع سنين يشاهد هذا الذي يسمونه « تلفزيون » ويشاهد أبناءه يغيرون ثيابهم حين يذهبون للنوم . ويجلس هو نفسه أحيانا على كرسي ليتناول الطعام ويدخن لفائف جاهزة لذيذة لا تقارن بتلك اللفائف القديمة التي كان يلفها بيده . ويشرب اللبن الذي تنداح منه قطع الثلج البللورية . كل هذا رآه وفعله وطابت نفسه اليه . ولكن كل هذه الحياة السهلة الميسرة شيء . والحياة التي يخلفها وراءه في نهاية كل ربيع في الصحراء شيء آخر . انه يشعر بشيء غامض لا يستطيع التعبير عنه . شيء في أعماقه يدعوه الى ترك ما هو فيه والعودة الى حيث كان . ولكن ما هو هذا الشيء . . هذا ما لم يعرفه قط . .

زوجته ابنة عمه ترعاه في هذه المدينة كما كانت ترعاه في صحرائه . وانه ليتذكر كيف أعياه هواها في شبابه حتى كاد يقتل أخاه الأكبر حين أراد أن يسبقه اليها فتركها أخوه له خوفا من بأسه . . وابناه باران به حفيان . وزوجتا ابنيه طوع امره وأحفاده يملئون البيت ضجيجا يشرح صدره والمال ميسور له ما أراده . ونفسه بطبعتها وكما خلقها الله فترع قناعة ذلك الجاهلي الذي لم يتبق له من الدنيا إلا شويهات يعيش عليها ويردد :

وتملأ بيتنا أقطا وسمنا

وحسبك من غنى شبع وري

وظل شيخنا في ازدواجيته يعيش حالته في قلق حتى يقبل الربيع فيمتطي سيارته (الوانيت) وزوجته الى جانبه وفي صندوق السيارة خيمته العتيدة ومتاعه وابناه يساعدانه في نصب خيمته في بقعة من الصحراء ينتقونها بعناية ثم يعودان الى أسرتيهما وعملهما . .

وفي الليلة التي صباحها الرحيل الى الصحراء كانت عينا الشيخ لا تعرفان الاغماض . وكان يدرك ليلتها أنه لن ينام حتى الصباح . فكان يشغل حاله في الاستعداد . ويقضيها مسهرا امرأته معه في جمع ما يزمع اخذه معه . .

ـ لا تنسى قلمي ودفتري يا أم عبيد . . القهوة لم تكفنا في الربيع الماضي أكثري منها . .

صفي حجار الدامه في صندوقها . . لا تكثروا السمك المملح . . الطبيب نصحني بالاقلال من الموالح . . ربيع هذه السنة عظيم . . المطر الوسمي جاء في وقته وهو كثير هذا الشتاء . . سيهدي لنا أصحابنا خرافا كثيرة . .

وترد عجوزه الطيبة . ذات البسمة الطفولية

ـ أنا أعرفك . . لن تنام هذه الليلة كالعادة .

ويسألها ـ كم الساعة الآن ؟

فتشمر عن أكمامها الطوال لتجيب ـ الساعة الثانية .

فيقول وكأنه أحس بقرب الفرج ـ لم يبق في الوقت ما يستحق النوم يا « غالية » .

وعلى عادتها . وكأنها تسمع هذا التدليل لأول مرة تتضاحك . فيما هي تضع صرر الزعفران والهيل وقارورة دهن الورد والعود واشياء أخرى في جانب مكين من صندوقها الكبير . ورجلها الشيخ مستلق على فراشه يتابع عملها . .

ويتحرك الموكب في الصباح الربيعي الجميل نحو الصحراء . سيارة « الوانيت » المزينة حوافيها بشبابيك حديدية ملونة . وخلفها سيارة امريكية فارهة يستقلها محمد . ومبارك ابنا الشيخ وهو يتلفت بين أونة

واخري نحو المدينة الهائلة التي خلفها ، ولأمر خفـي لا يعرفه أحس كأنه يغادر هذه الكومة من الأبنية الزرية لآخر مرة ، وقد كان . . اذ لم يرها الشيخ بعـد هذا الصبح قط .

وحين انتصب المخيم وفـرش ، وبـدا مريحـا لاقامة شيخنا وقرينته ودع الشابان ابويهما واستقلا سيارتهما عائدين الى المدينة وصاحت الام فيهم . .

ـ يامبارك . . لقد نسيت نباش « القفـع » [٢] في البيت . . ارسلـه مع سيارة الماء في الاسبـوع القادم . .

ويضحك مبارك ويردد مقولة أبيه .

ـ أمرك يا . . . غالية .

وكان الربيع كما توقع ابو عبدالله دسما مزهرا ، اكتست الأرض بخضرة لا يحدها النظر . . انتشرت ازهار البر ذات العبير المنعش ، وبدت الأكمات والرجم الصغيرة كأنها شجيرات مزهرة ، واهتـز الشيخ كلـه وراح يمضي ربيعا ترقص فيه روحه منتشية بريح معطرة ، يستقبل ضيوفه من البدو ، ويلعب معهم « الدامه » ويذبح لهم الخراف الطرية . . كان في عيد متصل الأيام . .

نسي فيها السنين التي حذت حذوه ، وعـاد اليه مرح الثلاثين ورعونتهـا حتـى بلـغ الأمـر به أن صار (لوري) الماء يأتيهم مرتين في الاسبوع بدل المرة الواحدة فقد كان على الشيخ ان يستحم كثيرا . . بل لقد قاد سيارة الوانيت مرة الى قطين بعيد ليزور بعض أصحابه من البدو .

ودهشت « الغالية » من حال بعلها ، لكأنه لم يبلغ السبعين هذا المنحنى على دفتره يكتب اشعـارا لا تفهمُها . . منذ زمن لم تفك طلسما من هذا الذي يهذر به هذا العجوز . . تسمع منه كلاما عن الحب وهـو الذي لم يعرف امرأة غيرها ، ويتحدث عن الخمر وهو التقي الذي لم ير الخمر ، ويذكر الحروب ، والطائرات ، والدبابات ، وهـو الـذي يعجـز أحيانـا عن نحـر جدي صغير .

وانتصف الربيع ، وحين بلغت نشوة شيخنا في حياتـه الربيعية هذه أقصاها مرضت الغـالية ، وجـاء الابنـان وأخذا امها الى طبيب المدينة ، وبقي الشيخ في خيمته ينتظر وجلا ، وقد داخله الروع .

ـ ماذا لو حم القضـاء . . . كيف يحيا بدون « الغالية » .

ولأول مرة في حياته الفانـية بكى وناح في خيمته ليله كله ، وأحس كأنه بلغ مئة عام في بضعة أيام . . .

وجاءوا « بالغالية » تمضي أيام النقاهة عند رجلها .

ولكن الكارثة المتوقعة حلت وماتت « الغالية » وبكاها الشيخ كما لم يبك رجل على امرأة ، كان يقضي ليلـه نائحا على قبرها ، فاذا طلع الصباح كفكف دمعه وعكف على قبرها يقرأ القرآن جامد الوجـه ، زائـغ النظـرات ، يبتسم لضيوفه كأنه فقد امرأة لا قطعة من قلبه ، كان يكابـد نهـاره منتظـر الليل ليفـرغ به مزيدا من الدموع . .

وانقضت أيام الربيع واصفرت الاعشـاب وعـادت « الصمعاء » تغرز اشواكها في أرجل السائرين ، وأتى الابنان ليعودا بابيهما . . وأخذ ابنه محمد يحل وتد الخيمة الأول حين خرج اليه أبوه وقد عاد الى سبعينه تماما ، لقد تحطم . . النظرة المبتسمة غدت شاحبة « قاسية » والوجه الصبوح البشوش صار كئيبا صخريا متجهما ، ونظر الأب الى ما يصنعه ابنه فصلب يده على عصاه وأمـر ابنـه أن يعيد الوتـد حيث كان وزأر في وهـن بالغ . .

ـ ماذا تفعل ياولدي . . اتحسب اني قادر على العودة بعد ؟

وسألة ابنه في استغراب

ـ وهل تبقى الصيـف يأبي في وقدة الصحراء ؟ . . هذا محال !

فرد الشيخ

ـ المحال ان أعود وأترك أمك هنا وحدهـا . . عجبـا اترضون أن أترك أمكم وحدها في هذه البرية ؟

وحار الشابان . . ماذا يفعلان بهـذا الهـرم الـذي يهذي ؟

في حين استطرد ابوهما يقول . .

ـ كل هذه السنين التي قضيتها في مدينتكم المريحة الجميلة ، كانت من أجل امكما . لم اشأ ان أحرمهـا متعة العيش في المدينة ، كنت أراهـا سعيدة في حياة الحضارة فكانت سعادتها تخفف عني بعض ما أجد من ضيق العيش في مدينتـكم . . أمـا الآن فقـد عدنا . . أنا وهي . . عودا الى أهلكما وعملكما ، بارك الله لكما وفيكما ، ولا تنطقا حرفا .

قال ذلك ثم عاد الى خيمته ، عصاه في يمينه ، وقماش باب الخيمة في يساره يدخلها في هدوء .

كان نصف قرص الشمس وراء الأفق الصحـراوي الرحيب حين ودعنا أنا وزملائي الشيخ الشاعر ، وخلال زجاج السيارة الخلفي بدت حمرة الاصيل تلف الخيمـة الكبيـرة البيضـاء ، وعـن يمينهـا القبـر يغمـرها الصمت .

■■

فهد الدويري

السلطانة الروسية في البلاط العثماني !

بقلم الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفي

تدهور الدولة العثمانية وانهيارها لم يكن مفاجئا ، ولكنه كان نتيجه طبيعيه لسلسلة في الحماقات التي ارتكبت في حق الدوله ، وهدمت بنيانها الشامخ من الاساس .



روكسلانة ـ في الاصل جارية اسرتها الغزوات العثمانية في غاليا

لقد بلغت الامبراطورية العثمانية اوج اتساعها وقوتها في عهد السلطان سليمان القانوني « ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ » . فبتوجيه من هذا السلطان العظيم امكن ضم العالم اليوناني الى العالم العربي ، وامتدت املاك السلطان من قلب المجر وجنوبي روسيا في الشمال الى الخليج العربي والسودان جنوبا ، ومن بحر قزوين وفارس في الشرق الى وهران غربا : هذا في الوقت الذي اضحى فيه البحر المتوسط بحيرة عثمانية ، وكانت هذه الامبراطورية مهيبة الجانب يحسب لها حساب في اوروبا ، في الوقت الذي اتصف فيه عاهلها بالتعقل والكرم والعدل والذكاء ، واجرى كثيرا من الاصلاحات الهامة ، واصدر كثيرا من المجموعات القانونية (قانون ـ نامات) واهتم بتطبيق القانون في شتى ربوع املاكه وانشأ كثيرا من المدارس والكليات وشيد مبان فخمة زين بها الاستانة وبغداد وقونية ودمشق وغيرها من المدن ، وبرز فيه عدد كبير من المؤرخين والشعراء والكتاب ورجال القانون والعلم ، خاصة وان السلطان ذاته كان يرعى العلم والآداب .

على ان عهد سليمان القانوني شهد مقدمات ضعف الدولة العثمانية : فلم يعد السلطان يرأس جلسات الديوان مكتفيا بتتبع مداولاته من وراء ستار . كما استفحلت عادة تقديم الهدايا للسلطان وحاشيته كشرط لابد منه لتولي مناصب الدولة العليا ، مما ادى الى ترسيخ عادة تقديم الرشاوى التي حلت محل الكفاءة باعتبارها المعيار الفعلي لتولي الوظائف . واهم من هذا ـ بل يرتبط بهذا كله ان عهد هذا السلطان العظيم شهد استفحال تدخل نسوة القصر « الحريم » في شئون الدولة مما ادى في عهد خلفه الى بروز ما اطلق عليه اسم « سلطنة الحريم » والشخصية التي ساعدت على هذا التطور هي جارية السلطان (ثم زوجته) خرم سلطان (أي السلطانة الباسمة او الضاحكة)[1] التي اطلق عليها في اوربا اسم روكسلانا ، وهو تحريف لكلمة **RussoLana** بمعنى الروسية .

بداية الصفقة

وكانت خرم ـ او روكسلانا ـ في الأصل جارية اسرتها القوات العثمانية في غاليسيا ، ثم ما لبثت ان انتقلت الى حريم السلطان . ورغم انها لم تكن باهرة الجمال ، فقد تميزت بالمرح والجاذبية مما ادى الى سرعة تعلق سليمان بها . ولم يمض عام على دخولها الى الحريم حتى انجبت له ولدا اطلق عليه ابوه اسم السلطان سليم الأول فاتح الشام ومصر وقاهر دولة الفرس . ونتيجة لهذا الانجاب اصبحت روكسلانا هي الشخصية الثالثة في القصر السلطاني بعد السلطانة الوالدة وجلبهار سلطان (وردة الربيع) والدة ابنه البكر الأمير مصطفى . وسرعان ما سرت الشائعات في القصر بان السلطان لا يقنع بمشاركة روكسلانا الفراش ، بل اولع بقضاء الساعات في محادثتها ومناقشة شئون الدولة معها .

ولما كان ذلك امرا جديدا بالنسبة الى سلطان عظيم من آل عثمان ، فلم تتردد روكسلانا في استغلال ميول السلطان تجاهها في خدمة طموحها ، ولكن ببطء وذكاء ، كان لابد من ازاحة « وردة الربيع » من الطريق . وهكذا استفزتها روكسلانا الى مشاجرة ادت الى اصابة هذه الاخيرة بجروح جعلت منها ذريعة للاحتجاب عن السلطان الذى غضب على جلبهار . وحين بلغ ابنها مصطفى سن الرشد عينه والده حاكما على ولاية مغنيسيا حيث اصطحب امه ، وبذلك خلا الجو لروكسلانا ، التي ما لبثت ان اصبحت السيدة الاولى في الحريم بعد وفاة السلطانة الوالدة واستغلت وضعها الجديد في نقل مصطفى (ومعه امه) الى ولايات اكثر بعدا ، وحينئذ ازداد تاثيرها في السلطان ـ وهو ما سجله مبعوث بندقي الى العاصمة العثمانية بقوله : « انه يكن لها من الحب ويمنحها من الثقة ما يثير دهشة جميع رعاياه ، الذين يعتقدون انها سحرته ويطلقون عليها اسم « الساحرة » . وهكذا اصبحت هي واولادها مثارا لبغض الجيش والبلاط ، وان لم يجرؤ احد على الافصاح للسلطان عن مشاعره ، ولم اسمع احدا يذكرها هي ونسلها بخير ، في الوقت الذي يثنون فيه على الأمير مصطفى ووالدته .

ورغم ان الحقوق التي حصلت عليها روكسلانا باعتبارها سلطانة قد جعلتها تقف ـ من الوجهة الرسمية ـ على قدم المساواة مع جلبهار الغائبة ، ورغم ان عواطف سليمان الجياشة نحوها قد ميزتها على جميع نساء القصر ، فانها طلبت منه ان يعقد قرانه عليها ، وكان ذلك امرا لم تجر به العادة منذ الاهانة التي واجهت السلطان بايزيد الاول في اعقاب هزيمة انقرة (١٤٠٢) امام تيمورلنك ، وذلك في شخص زوجته صربية الأصل ماريادسبينا ، فقد ارغمها تيمور المنتصر على ان تقوم بالخدمة خلال حفل انتصاره وهي عارية تماما ، مما ادى الى وفاة زوجها كمدا ـ ومنذ ذلك الوقت لم يعقد سلاطين ال عثمان زواجا رسميا وذلك حتى لا يتعرضوا لاهانات مماثلة في اشخاص زوجاتهم . الا ان سليمان استسلم لرغبات روكسلانا ،

---

(١) وفي رأي اخر ان معنى هذا اللقب « السلطانة السعيدة »



السلطان سليمان القانوني

فعقد قرانه عليها - وشهدت العاصمة العثمانية بهذه المناسبة احتفالات لم يسبق لها مثيل امتدت اسبوعا كاملا ، تلقت خلاله روكسلانا الهدايا الثمينة من كبار موظفي الدولة وحكام الاقاليم .

وبينما هي تخطط لازاحة منافسيها والتغلب عليهم واجهت مشكلة صغيرة ولكنها مثيرة للاعصاب وهي المسافة التي كانت تفصل السراي عن الحريم . فقد كان مقر هذا الاخير - حتى اواسط القرن السادس عشر - في السراي القديم الذي شيده محمد الفاتح على اثر استيلائه على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ ، ولكن لم يجعل منه خلفاؤه قاعدة للحكومة . لهذا شعرت روكسلانا بان الحياة ستكون اسهل بالنسبة اليها اذا ما عاشت هي وزوجها تحت سقف واحد . وساعدها على نيل مآربها نشوب حريق في العاصمة في عام ١٥٤١ ادى الى تدمير جزء كبير من السراي القديم مما افزع سكان الحريم . وانتهزت روكسلانا الفرصة لكي تنتقل الى السراي الكبير الذي اصبح منذ عهد محمد الفاتح مركزا للحكومة ، وفيه كان ينام سليمان حين لا يشعر بالرغبة في زيارة الحريم . وبعد انتقال روكسلانا الى السراي الكبير امرت ببناء باب بين جناحها الجديد وبين جناح السلطان - وبذلك اصبحا لا يكادان يفترقان ، وبدا انها حققت طموحاتها . ولكن كانت لا تزال تعترضها عقبتان : فالامير مصطفى - الذي لم يشك احد في انه سيخلف والده - كان محبوبا من الشعب بحيث ان ازاحته عن طريق ابنها سليم لم تكن بالمهمة السهلة . وبالاضافة الى هذا فان روكسلانا لم تبد ارتياحا للسلطة التي كان السلطان يخلعها على صدره الاعظم (كبير وزرائه) ابراهيم باشا .

ازاحة الصدر الاعظم

وابراهيم هذا كان عبدا يوناني الاصل . وقد تعرف سليمان عليه قبل ان يتولى الحكم ، ثم ضمه الى بلاطه حين اصبح سلطانا . ولما كان سنهما متقاربا (فابراهيم كان يكبر السلطان بسنة واحدة فقط فانهما كانا لا يكادان يفترقان : فكانا يتناولان طعامهما سويا وينامان في خيمة واحدة حين يتوجه السلطان الى ميدان القتال ، بل احيانا ما كان ينامان على سرير واحد . وكان ابراهيم صديقا مخلصا للسلطان ومستشارا له وزنه .

وبمرور السنين ازدادت صداقتهما عمقا ، بحيث تبوأ ابراهيم منصب الصدارة العظمى بعد تولي سليمان بثلاث سنوات . وبالتدريج طرا تغيير على اسلوب حياته بعد ان اصبح يتطلع الى منافسة السلطان في الابهة والعظمة : فاصبح يعيش في قصر شيد على نمط قصر السلطان ، وكان يتلقى هدايا ضخمة ممن كانوا يسعون الى تولي الوظائف ، وكانت له « ذهبية » خاصة لها ٢٤ مجدافا ، وكان يحيط به حرس شرف يتكون من ثمانية رجال ، وكان السلطان يخلع عليه راتبا بلغ ضعف راتب الصدر الاعظم السابق . واخيرا عرض السلطان على ابراهيم اخته لكي يتزوجها (مايو ١٥٢٤) وشهدت العاصمة احتفالات ضخمة بهذه المناسبة استمرت تسعة ايام . وكان لثقة السلطان في ابراهيم باعتباره قائدا عسكريا وكبيرا للوزراء ما يبررها . فرغم غروره وعدم تردده في قبول الهدايا ، الا انه كان يضطلع بمسئولياته بكفاءة نادرة سواء في ميدان القتال او في مجال الدبلوماسية . ولكن غروره تزايد بمرور الايام بصورة تنذر بالخطر : ففي حفل استقبال اقيم في عام ١٥٣٣ لبعض المبعوثين الاجانب فاه ابراهيم بالعبارات التالية : « انني انا الذي احكم هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . ان اوامري تنفذ ، وفي يدي جميع الصلاحيات : كل الوظائف وكل شئون الحكومة . ان ما أمنحه لا يمكن الرجوع فيه ، وما لا أمنحه لا يمكن لاي شخص ان يبرمه . ان اوامر السلطان لا تنفذ الا اذا كانت تمشي مع رغباتي - ففي يدي كل شيء : السلم - الحرب - المال . انني لا اقول كلامي هذا بدون مبرر ، بل لأ شجعكم على الكلام بحرية » .

ولا بد ان مثل هذه الاقوال قد اثلجت صدور اعداء ابراهيم الكثر ، بما فيهم روكسلانا التي لا شك في انها كانت المسئولة الى حد كبير عن تداول كثير من الشائعات المعادية له . فبمرور السنين كانت لا تزال تسعى دون هوادة الى ضمان العرش لابنها سليم . وكانت تعترض تحقيق هذا الهدف عقبتان : الامير مصطفى محبوب الجيش والشعب وابراهيم ذو التأثير الكبير على السلطان . وقررت روكسلانا التخلص من ابراهيم اولا ، خاصة وان وفاة السلطانة الوالدة حفصة خاتون (مارس ١٥٣٤) قد حرمته من ظهير له مكانته - وحينئذ اخذت روكسلانا تدعم حزبها في البلاط ، فتحالفت مع اسكندر جلبي وهو من اكبر منافسي ابراهيم الذي كان يساند جلبهار وابنها مصطفى . واخيرا بدأ التأثير على السلطان الذي قيل له ان ابراهيم يسلبه سلطته ، وهو ما كان يهمس به الكثيرون ووقع سليمان في حيرة ما بين فاتنته وصديقه الذي لم يخنه قط . واخيرا استسلم لضغوط روكسلانا وبخاصة حين كانت تستشهد بما كان يفوه به الصدر الاعظم في اكثر من مناسبة من انه صاحب الكلمة العليا في الدولة شاء السلطان ام ابى ، مما اقنع سليمان بان ابراهيم يشكل خطرا على سلطته فقرر التخلص منه . وفي ١٥ مارس ١٥٣٦ توجه الصدر الاعظم الى السراى لتناول طعام العشاء مع السلطان الذي طلب منه ان يبيت في الغرفة المجاورة كالعادة بعد ان اصدر امرا بقتله . وقيل بهذه المناسبة ان السلطان لم يغمض له جفن ، في الوقت الذي اعطرته روكسلانا بقبلاتها حتى لا تصل الى مسامعه انات ابراهيم وهو يواجه جلاديه وفي الصباح علق جسده على بوابة السراى .

خطوة اخرى الى الوراء

وبعد تولي ثلاثة من الصدور العظام الذين لم يشهد لهم بالكفاءة نجحت روكسلانا في ان تضمن الصدارة العظمى لرستم باشا زوج ابنتها - وكان توليه هذا المنصب الرفيع بمثابة خطوة اخرى في طريق اضمحلال الدولة العثمانية . ومنذ ان تولى رستم الصدارة العظمى شكل هو وروكسلانا جبهة لها مصلحة في ان يتولى الأمير سليم العرش بعد ابيه بدلا من الامير مصطفى . ولكن كان عليها الانتظار تسع سنوات اخرى - اى حتى عام ١٥٥٣ - قبل ان تتمكن روكسلانا من اغراء زوجها بتكرار ما اقترفه بحق ابراهيم باشا . فقد كان الامير مصطفى محبوبا وعلى درجة كبيرة من الكفاءة ، خاصة بين القوات المسلحة ، ولم يكن احد يشك في انه سيخلف والده الذى بلغ حينئذ سن الستين . وتمهيدا للتخلص من مصطفى اشترك رستم مع روكسلانا في اثارة حملة تشكيك ضده كانت صورة طبق الاصل من تلك التي ادت الى مصرع ابراهيم .

وهكذا اعترض رستم على مشروعات الامير مصطفى ، والذى كان حينئذ واليا على منطقة أماسيا ، الخاصة بالاستعداد لمواجهة الخطر الفارسي في الشرق ، وذلك على اعتبار ان جهود مصطفى من شأنها ان تقضي على امال سليم في تولي العرش . وروج رستم وروكسلانا الشائعات التي كان لها ما يبررها . وهي تتركز في ان مصطفى افلح في الحصول على مساندة خيالة الاناضول وقبائل التركمان وقطاع الطرق ، بهدف القيام بثورة عامة ضد سوءحكم ذوى الأصل المسيحى في العاصمة[٢] ثم الوثوب الى العرش - بل ان رستم زور خطابا استهدف منه اثبات ان مصطفى يسعى للحصول على مساندة صفويي فارس اعداء الدولة التقليديين . لهذا قاد سليمان قواته عبر الاناضول خلال صيف عام ١٥٥٣ ، على زعم انها موجهة ضد الصفويين . وفي آق تبة (بالقرب من قونية) استدعى ابنه للمثول بين يديه في مركز قيادته . ورغم تحذير اصدقاء مصطفى له فانه لم يابه لذلك وشق طريقه الى خيمة والده حيث كان ينتظره خمسة من الجلادين الصم البكم الذين كان يعهد لأمثالهم بشنق ذوى المكانة - وبخاصة ابناء الاسر الحاكمة - بوتر القوس ، وهو « شرف » لا يحظى به الا علية القوم . وراقب سليمان من وراء ستار قتل ابنه المحبوب - وحين انتهى كل شيء برزالى العيان دون ان تبدو عليه اى علامة من علامات الشفقة او الندم وهو لا يدرى انه حكم على دولته بالاضمحلال حين ازاح عن المسرح اكفأ الامراء .

ولما كان مصطفى موضع حب الانكشارية لشجاعته ، وموضع تقدير العلماء والشعراء بسبب حبه للادب والشعر ، فقد دبجت في رثائه قصائد مؤثرة لم يخش مؤلفوها سطوة ابيه ، وتظاهر سليمان بانه لم يقتل ابنه - فما ان عاد الى الاستانة حتى وصله خطاب من الديوان مكتوب بحبر ابيض على ورق اسود يخبره بموت ابنه . وحينئذ القى بعمامته الى الارض وامر باقامة الحداد على ابنه . ورغم ذلك فان الانكشارية وفرسان الاناضول وقطاع الطرق احتجوا على قتل مصطفى . وتحالفت قوى المعارضة التي

(٢) دأبت الدولة منذ اوائل عهدها على « قطف » دورى لابناء المسيحيين واعدادهم لتولي شئون الحكم والجيش وكانت فرقة الانكشارية في البداية تقوم على مسيحي الاصل .



السلطان سليمان وقد بدت عليه علامات الشيخوخة

أعانت الثورة ضد حكم سليمان في الروميلي ، يقودها رجل ادعى انه الامير مصطفى الذي نجا من القتل وانضم الى الامير الدعي الكثيرون الذين كانوا يودون ان تستانف الدولة حروبها في الغرب ضد اوروبا المسيحية ، وسرعان ما احتل الدعي مصطفى تراقيا ومقدونيا ودبروجة . الا ان سليمان قضى على التمرد وقتل الآفا ممن اشتركوا فيه وصادر اقطاعات الفرسان المتورطين في الحركة .

التركة الثقيلة

وتوفيت روكسلانا بعد خمس سنوات من مقتل الامير ، ولكن بعد ان حققت طموحاتها ومهدت لتولي ابنها سليم العرش بعد ابيه . وعلى اثر موتها اغلق الباب الذى كان يصل بين جناحها وجناح السلطان الذى اصبح يتناول وجباته متفردا ، وقد بدت عليه علامات الشيخوخة خاصة بعدما فقد اعز احبائه واحدا اثر اخر : ابراهيم ومصطفى واخيرا روكسلانا . واتضحت حينئذ الآثار الخطائه التي ورثها عنه خلفاؤه . كان قد انقطع عن حضور جلسات الديوان منذ زمن بعيد مما اضعف سلطته بحكم انه لم يعد يطلع على كل شئون الدولة . كانت عادته الخاصة بترقية محاسيه ـ من امثال ابراهيم ورستم مدخلا للفساد : فحين توفي رستم بعد وفاة روكسلانا بوقت قصير خلف وراءه ثروة طائلة بالنسبة الى رجل بدا حياته مملوكا او عبدا ـ ومن ذلك ٨١٥ ضيعة و٤٧٦ ساقية و١٧٠٠ عبد و٢٩٠٠ حلة عسكرية من الزرد و٨٠٠٠ عمامة و٧٦٠ سيفا و٦٠ نسخة من القرآن الكريم وخوذات محلاة بماء الذهب واعداد كبيرة من ركاب الخيل المصنوعة من الذهب ومليونا دوكات (عملة بندقية) وكانت ممارسة سليمان الخاصة بالسماح لمحظيه ومحاسيه بتكوين ثروات طائلة ، بالاضافة الى بيع الوظائف العليا ، بمثابة وباء سريع الانتشار في شتى ربوع الامبراطورية واسوا من هذا كله بدء « سلطنة الحريم » حين اصبح الحريم بؤرة للتآمر ، مما كانت له آثار مدمرة بالنسبة الى الامبراطورية وقد بدات « سلطنة الحريم » هذه منذ اللحظة التي صرحت فيها روكسلانا بشيء من الفخر بقولها : « انني اعيش مع السلطان واجعلة يحقق رغباتي » .

وحين توفي سليمان في ٥ سبتمبر ١٥٦٦ جرى تنصيب سليم ابن روكسلانا سلطانا ـ وكان المعروف عنه أنه متحلل وكسول . وسليم هذا هو فاتحة سلسلة من السلاطين الذين كانت تعوزهم الصفات اللازمة للحكم ، حتى ذهب كثير من المؤرخين إلى احتمال انقطاع سلسلة ابناء عثمان الذين لم يعودوا منذ ذلك الوقت يتحلون بالصلابة التي تميز بها السلاطين العشر الاول ـ اذ أن خلفاء سليمان كانوا متحللين ماديا ومعنويا ، يوجههم حريم القصر وخصيانه وندماؤه ، ولم تمض شهور على تولية سليم حتى انتشرت الى كل ارجاء العاصمة الشائعات التي جرى تداولها في البلاط ومفادها ان سليمان لم يكن والد السلطان الجديد الذى اطلق عليه اسم « السكير » . قيل ان سليم ابن زنى من خادم ارمني ـ ورغم ان من الصعب اثبات ذلك فانه كان بامكان امراة لاخلاق لها ـ مثل روكسلانا ـ ان تهرب عاشقا الى داخل الحريم . كما قيل ان الصدر الاعظم ابراهيم هو ابو سليم بحكم ان روكسلانا بدأت حياتها باعتبارها احدى جواريه وانه هو الذى اهداها للسلطان .

وايا كان الامر فتولي سليم تقلد سيف عثمان للمرة الاول عاهل لا يقود بنفسه جيش الاسلام بل يمضي اوقاته في الملاذ الرخيصة بعد ان كان اسلافه يمضونها في تصريف شئون الدولة . ومن هنا تبدو حقيقة الضرر الذى الحقته السلطانه الروسية بالدولة العثمانية حين تآمرت على امير كفء لكي تمهد السبيل لابنها المتحل . ■■

د . احمد عبد الرحيم مصطفى

اعداد : مصطفى نبيل

العروبة في لبنان

بقلم : حسن عيتاني

لقد خلقت فرنسا في لبنان ، في عهد الانتداب ، ولا أقول خلق التاريخ ، وفرضت الجغرافيا ، فكرة الوطن القومي المسيحي كما خلقت انكلترا في فلسطين فكرة الوطن القومي اليهودي . وعززت تلك الفكرة بالدعوة الى الفينيقية والاشعاع والحرف وأبجدية النور .. الخ .. وبذلت جهودا جبارة لتخلق تاريخا من العدم ، وجغرافية اقليمية مستقلة . تغير وجه الكرة الأرضية ، ولغة ركيكة ، واستبدال العربية الفصحى في الاشعاع والحرف بالفرنسية وحدها . ولكن فرنسا فشلت في دعوتها هذه كما فشلت في سياستها ، الا أنها خلقت لنا مشاكل لا بد أن تحل ، اذا توفرت النية ، وتغيرت العقلية ، واستمر عامل الزمن في تطوره .

واذا أردنا أن نجابه الحقائق في لبنان ، دون لف ودوران ، فاننا نجد اللبنانيين منقسمين ، في وجهة نظرهم الى « العروبة » قسمين .

فالموارنة يرون أن العروبة دعوة تقوم على أساس الدين الاسلامي ، وانها وحدة دينية بين المسلمين أكثر ما هي وحدة قومية بين العرب ، وانها اذا تحققت أصبحوا هم أقلية في هذا الخضم الاسلامي الواسع . والمسلمون يرون أن « العروبة » كما ذكرنا ، ظاهرة تقوم على أركان وروابط مادية وروحية بين العرب ، وأن الاسلام أعز شأنها ، ورفع مكانتها ، ولكنها كانت متوفرة بين العرب قبل الاسلام والنصرانية ، وأن دعائمها الثلاث كلما توطدت ، جمعت صفوف العرب ، وشدت أزرهم ، وأمنتهم على مستقبلهم ومصالحهم . وأن تقدم العقل والحضارة في العصر الحديث ، واتجاه العالم نحو التكتل على أساس وحدات تتسع وتضيق بقدر ما يتوفر فيها من روابط وعناصر مشتركة ، كل ذلك لن يسمح ، بعد اليوم ، للعقليات الضيقة الرجعية في تفكيرها أن تحتل مكانها في هذا الصراع العالمي .

ونحن نعتقد بأن اللبنانيين أقرب الشعوب العربية الى فهم فكرة « العروبة » بعد السوريين . ولا يجب أن ننسى ما قاموا به من تضحيات ، وما بذلوه من جهود مادية ومعنوية في هذا الحقل فالعروبة دعوة قامت على أكتافهم وتضحياتهم . ولا نعتقد أن الشهداء الذين علقوا على أعواد المشانق من اللبنانيين كانوا يحملون للبنان كوطن قومي مسيحي أو اسلامي ولا للبنان كوطن مستقل عن البلاد العربية ، بل كانوا دعاة وحدة عربية شاملة يعيش فيها المسلم الى جانب المسيحي في رغد وأمن وسعادة . واستشهدوا وهم يرددون : « نموت لتحيا العرب » نموت لتحيا الأمة العربية . وقد كان فيهم المسيحي والمسلم . لم يكن تفكيرهم يومذاك فاسدا ملوثا يقوم على العصبيات الدينية كتفكيرنا اليوم .

ان كل دعوة اليوم في لبنان الى قومية تقوم على سلالات منقرضة ، وكل عزلة اقليمية تقوم على طابع الانكماش ، وكل وطنية تبنى على أساس طائفي ، لن تؤدي بلبنان الا الخراب والدمار ، والتفسخ وانصراف اللبنانيين الى النضال لخفض شد بعضهم البعض ، كما تنزع الثقة من نفوسهم ، وتفقدهم روح الاطمئنان ، وتطوح بجهودهم التي

بذلوها في سبيل وحدتهم الوطنية ومكانتهم الدولية .

كما أن الحرب الأخيرة ألقت عليهم درسا أشد وأقسى من الحرب الأولى . فكانت خسارة فلسطين بسبب سياسة التفرقة التي نجحت في ايجادها تلك الدول الأجنبية الكبرى . وكانت العصبيات العائلية في الأسر الحاكمة ، وفي أشكال الحكم ، وكانت الاقليمية الضيقة في كل بلد مما يسر بقاء الاقطار العربية حتى اليوم تحت نير الاستعمار الغربي ظاهرا وباطنا . ظاهرا عن طريق المعاهدات الصريحة والسرية ، وباطنا عن طريق فرض السياسة التي تشارها تلك الدول على الحكومات العربية شبه المستقلة .

وها هي اسرائيل ، بعد أن ابتلعت فلسطين ، تستفرد العرب اليوم دولة دولة ، وبقعة بقعة ، وتنتهز فرصة تخاصمهم وفتور العلاقات بينهم لتتوسع على حسابهم . وها هي سوريا اليوم تقف وحدها لوجه أمام اسرائيل لتجابه عدوانها ، بينما تقف بقية البلاد العربية وقفة المحتار .

والعروبة التي نسعى لتحقيقها تقوم على ثلاثة أركان يجب أن تتوفر في « العربي » لتتم عروبته . وقد حددها احد مفكرينا العرب بقوله :

« انها عروبة اللسان ، وعروبة العقل ، وعروبة القلب . فعروبة اللسان يقصد بها اللغة الفصحى ، لغة التأليف والانتاج ، لا اللهجات العامية المحلية . فكلما رسخت أقدام العربي في ميدان لغته ، رسخت عروبته .

ويقصد بعروبة العقل ذلك الوعي والاحساس العميق بحاجات الأمة الشاملة لحياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية .

ولا يكفي أن يتوفر « للعربي » هذان الركنان حتى تتم « عروبته » ، فهناك الركن الثالث والأهم ، وهو عروبة القلب . ونقصد بها الايمان ايمانا راسخا بحق الأمة العربية في الحياة الحرة . فعروبي القلب هو الذي يؤمن بان أمته ساهمت مساهمة أصيلة فعالة ، في بناء الحضارة العالمية ، وانها مزمعة المساهمة من جديد . وهذا الايمان لا يمكن أن يكون أصيلا في نفسه الا بعد أن يلم بالعناصر الخالدة التي يقوم عليها تراث أمته .

إن « العروبي » ، الذي تتوفر فيه هذه الاركان الثلاثة هو غير « العربي » بمفهومه الجنسي . فقد يكون « العربي » « عربيا » ولا يلزم العكس . فشوقي الكردي ـ التركي الأصل المصري الجنسية أمير من أمراء العروبيين . وأمين الريحاني اللبناني الأصل والجنسية والماروني المذهب عروبي ، بل سيد من سادات العروبة هكذا نفهم العروبة اليوم في المصريين والنجديين والسوريين واللبنانيين والعراقيين وسواهم . وانهم جميعا « عروبيون » وان اختلفت أصولهم ومذاهبهم . وأقربهم الى العروبة الحق ، أصحهم لغة ، وأعمقهم وعيا ، وأدقهم شعورا واحساسا بماضي أمته وحاضرها ومستقبلها . ورب « عربي » جاهل أصيل من صميم الحجاز ، أبعد عن « العروبة » من مهاجر لبناني في أميركا . فالاول ليس فيه اليوم من آثار « العروبة » أثر . فلهجته البدوية البعيدة عن الفصحى ، ووعيه المفقود ، وجهله المطبق ، عناصر باعدت بينه وبين العروبة ، بينما توفرت في الثاني عروبة اللسان وعروبة القلب .

وعقيدة « العروبة » لا يمكن أن تنتهي بنا عند هذه العلاقات المعنوية ، بل لا بد لها أن تتجه اتجاها ماديا تبنى عليه صلاتنا السياسية والاقتصادية .

اني أتساءل وأنا لبناني ، « عربي » ، ماذا يستفيد مواطني اللبنانيون من ابتعادهم عن « العروبة » ؟ ماذا يستفيدون سياسيا واقتصاديا وثقافيا ؟ ليتني أستطيع إدراك تلك الفوائد فلعل أشاطرهم رأيهم كمواطن يتوقف مصيره على مصيرهم ! ! .

العروبة ، كما أفهمها ، ظاهرة شاملة لمجموع الروابط الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية بين الشعوب العربية ، المتفاوتة في درجة أوضاعها الاجتماعية ، وبيئاتها الطبيعية . وهذه الروابط تستند الى أصول ثابتة ، تمد جذورها الى أعماق الأرض والنفس . فهي تقوم على أسس التاريخ المشترك الذي طبع البلاد العربية بطابع متقارب ، فوحد بين لغاتها ، وقرب بين عاداتها وتقاليدها ، ووضع أسس الثقافة والتوجيه فيها .

ولا يمكن للفكرة العربية أن تتطور وتتضح الا اذا انتقلت من عالم المثالية الى عالم الواقع .

فلامست شعورنا وحياتنا ، وجعلت الفرد منا يشعر بشخصية أمته ، بهذا المركب الاجتماعي الاقتصادي الثقافي الذي نسميه أمة ، والذي يفرض على الفرد أن يجمع الى فهمه نفسيته فهمه نفسية أمته ، وربط مصالحه بمصالحها .

والعروبة غنية بالامكانيات الكبيرة التي يمكن أن تستغل لمصلحة العرب . وهي سبيلنا الوحيد نحو التفاهم والاستقرار . وما هذه الانقسامات التي نراها بين العرب اليوم سوى نتيجة منتظرة لضعف الشعور القومي وانعدامه فيهم .

ولا ريب أن موقع البلاد العربية من أهم المواقع الاستراتيجية في العالم بأسره . فهي حلقة اتصال بين القارات الثلاث : آسيا وأوروبا وأفريقيا . وفي مفترق الطرق بين المواصلات العالمية برا وبحرا وجوا .

ولهذا الموقع أثر خطير في تاريخها القديم والحديث . اذ جعلها مطمع الكثير من الأمم والشعوب . كما أن اعتدال مناخها ، والثروة الكامنة في تربتها ، ولا سيما الثروة البترولية ، حولت أنظار العالم اليها ، وجعلتها ميدانا تتنافس على كسبه الدول . وهذا الموقع الطبيعي ، هو الذي جعلها مركزا للطرق التجارية العالمية ، ومحطة لمرور الجيوش الغازية منذ فجر التاريخ ، وهوالذي جعل مصيرها مشتركا في الحوادث التاريخية الكبرى ، شاء سكانها أو أبوا . والتاريخ القديم والحديث يؤيد قولنا هذا .

فالروابط المتوفرة اليوم بين البلاد العربية بارزة بشكل لا يسع ، حتى المتحامل الأعمى في تحامله أو جهله ، إنكاره . فأوضاعها الزراعية والتجارية والصناعية ، أي الاقتصادية متقاربة . وهي أساس الحياة ، وأقوى روابط المصلحة المشتركة بين الناس . والحركات الوطنية التي برزت فيها منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، واستمرت الى يومنا هذا ، وحدت بين مشاعرها ، وقربت بين آمالها وأمانيها ، وجعلت كل فرد منها يؤمن بأن القضية ليست قضية عاطفية فحسب ، وانما هي قضية مصير مشترك . فالحرب الأولى أثبتت للعرب جميعهم سوء نية الحلفاء ومطامعهم يوم جزأوا البلاد العربية بدل أن يوحدوها ، وتقاسموها واستثمروها بدل أن يمنحوها حريتها واستقلالها .

قضايا حيوية

الترجمة والنهضة العلمية

بقلم الدكتور :

محمد مروان السبع - حلب

لعل من الامور الأساسية التي تبنى عليها الحضارة العلمية لأمة من الأمم ،والتي يعلمها كل باحث علمي ولايمكن ان تبدأ النهضة العلمية إلا بها :

- وجود الاجيال المتتابعة من العلماء والباحثين حتى تتكامل المسيرة العلمية وتتابع اشواطها وتتوالى الابحاث والتجارب ليرفد بعضها بعضا .

- وجود المراكز الثقافية والمكتبات التي تحتوي على الرسائل والدوريات والمجلات العلمية التي تتيح للباحث الاطلاع على ماسبقه من تجارب وبحوث في المضمار الذي يعمل فيه ، ويستوعب معطياتها وآفاقها .

- إحداث المختبرات ومراكز البحوث . ورصد المبالغ والامكانيات المادية لتسهيل الدراسة والبحث واقامة التجارب .

- تهيئة الظروف المواتية للباحثين والعلماء لمتابعة بحوثهم ودراساتهم دون الانشغال بامور الحياة اليومية والمعاشية والعائلية .

- تشجيع حركة الترجمة العلمية وتنشيطها بحيث تشمل اهم العلوم واكثرها خطرا في بناء الحضارة العلمية الحديثة .

والذي يهمنا في هذا المقال بحث موضوع الترجمة وما يحيط بها من ظروف وملابسات . وبدون شك فان من أولى دعائم النهضة العلمية الاسراع بخطوات الترجمة من كافة اللغات الحية الى اللغة العربية باعتبارها الركيزة الاساسية في نقل علوم الشعوب المتقدمة والحضارات المتطورة علميا

الى المثقفين والباحثين والمهتمين بامور البحث العلمي بحيث تسهل لهم الدراسة والاطلاع باللغة التي يفهمونها ـ لغة الام . فيستوعبون مفردات تلك العلوم ـ ويهضمون عناصرها ويقتنعون بنتائجها . وبعد ذلك يأتي جيل يبدأ بصنع ابتكارته واكتشاف ذاته علميا ويصوغ تجارب جديدة وبحوثا علمية مبتكرة .

ولاشك ان الحضارة العربية التي تشهد انجازاتها الباهرة واكتشافاتها المذهلة وابداعاتها وبخاصة علوم الحضارة العربية الاسلامية القريبة منها والتي كانت في متناول أيدي علمائها وابنائها .

ولا بأس علينا ونحن في هذا الصدد ان نستعرض ـ وبإيجاز سريع ـ ازدهار حركة الترجمة العلمية في بداية اشراقات الحضارة العربية الاسلامية لان لنا فيها اسوة حسنة ومثلا يحتذى وننقل هذه اللمحة المختصرة من امهات الكتب التي اعترفت بفضل العرب في الابتكار والابداع ودورهم المشرق إبان عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة مثل كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون والحضارة العربية لجاك ريسلر والعلم العربي ودوره في التطور العلمي لالدوميلي وغيرها .

اكتتاب يقوم بالذهب ·

فبعد أن تثبتت دعائم الدولة الاسلامية بدأت عملية الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها على شكل مجهودات فردية كيفما يتيسر . غير انه بدءا من عام ٨٣٠م مجموعة بدأ العرب يمارسون عملية الترجمة الضخمة المنظمة للكتب العلمية من شتى مصادرها وجمع المأمون المخطوطات للترجمة وشكل مجموعة من المترجمين « في بيت الحكمة » ووضعهم تحت قيادة حنين بن اسحق وهو طبيب وعالم متبحر في العلوم . وقد قام حنين بن اسحق بترجمة ١٠٠ كتاب تقريبا لجالينوس ومدرسته و ٣٩ مخطوطا الى اللغة العربية . ومنها مؤلفات لابقراط وديسقوريدس وافلاطون وكذلك المقولات والطبيعة والاخلاق لأرسطو . وكانت هذه المخطوطات نقطة الانطلاق لكشوف فكرية وابداعات ثقافية وابتكارات علمية .

ولقد كان حب العرب لعملية الترجمة العلمية عظيما . وكانوا يسلكون كل السبل لاجتذاب العلماء والمترجمين الى ديار الاسلام . ومن ذلك ان احد الخلفاء العباسيين قد شهر الحرب على قيصر الروم ليأذن لاحد الرياضيين المشهورين بالتدريس في جامعات بغداد والاشراف على عملية الترجمة .

ومما يذكر ان احد اباطرة بيزنطة كان يعجب من رؤية بدوي منتصر غير متحضر يضع ضمن الشروط المفروضة عند النصر حقه في شراء المخطوطات اليونانية . وكان هذا البدوي المنتصر غير المتحضر الذي يتطلع الى المعرفة حاكما عربيا .

ولم يقتصر الامر على الكتب اليونانية فقط . بل امتدت الترجمة لتشمل كافة العلوم التي اكتسبها وكتبها الفرس والهنود والسريان والكلدان وغيرهم . فقد كان الخليفة المنصور يقدم للترجمة مباحثات فلكية هندية الفت سنة ٤٢٥ قبل الميلاد .

ولاجدال في ان المترجمين العرب كانوا امناء في عملية الترجمة والنقل من اللغة الاصلية الى اللغة العربية . واضافة الى ذلك فقد كانوا علماء محررين ومزودين بوثائق غاية في القوة والاهمية . وقد اسهموا في اضافة معرفتهم الخاصة وعلمهم الشامل الى مؤلفاتهم . ولقد بلغوا من نجاحهم حدا جعل المنصور يعرض أموال الخزينة في بيت مال المسلمين الى الخطر عندما كان يدفع هؤلاء العلماء أثمان المؤلفات الجديدة بما يساوي أوزانها ذهبا .

واضافة الى ذلك فقد كان الخلفاء المشهورون امثال المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم قدوة لغيرهم من الامراء والحكام والاثرياء فكانوا في تقليد بعضهم بعضا وتشجيع الترجمة العلمية والاشراف عليها وانفاق الاموال الكثيرة على اجورها ودفع تكاليفها .

غير ان هؤلاء العرب المفطورين على الابداع والابتكار لم يكتفوا بحال الطالب الذي رضيت به غيرهم من الشعوب وخصوصا الأوربية منها في القرون الوسطى . بل انتقلوا بسرعة من حال التلامذة النجباء الى مرحلة العلماء الاصلاء والاساتذة الاجلاء ، وبدأ عصر الابداع والاكتشافات وتأسيس المنهج العلمي الصحيح ورفد العلوم بفيض وافر من الاكتشافات والأبحاث والانجازات العظيمة التي تميزت بها الحضارة العربية الاسلامية إبان عصورها الذهبية الزاهرة .

وبعد فهذه لمحة مشرقة وضاءة من تاريخ أسلافنا العظماء يجدر بنا ان نقلدهم ونسير على هداهم في بناء الحضارة العلمية الشامخة فنسرع في انجاز عملية الترجمة الكاملة للعلوم الهامة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب والفلك والفضاء والعلوم الطبيعية والتي تسهم بلاشك في حركة الابداع والابتكار عند شعوبنا العربية وتجعلنا نشعر فعلا باننا مشاركون في انجازات الحضارة العالمية في عصرها الحاضر والعصور القادمة .

شعرنا المستحدث إلى أين ؟

بقلم : ابراهيم شحادة

ظل الشعر العربي منذ نشأته وحتى بداية العصر الحديث ، كلاسيكيا بموضوعاته المطروقة ، وقوافيه الموحدة المتكررة ، وأوزانه التقليدية المعروفة تلك الأوزان التي استخرجها الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠هـ ـ ١٧٥هـ) من القصائد العربية القديمة التي أمعن النظر في دراستها طويلا .

وما كان ذلك ليحدث له الا بعد درس وحداتها الموسيقية ، وحركاتها وسكناتها ، وتفعيلاتها وأوزانها . وبذا تمكن من أن يدون الأوزان الشعرية ويرتبها في بحور وعلى شكل تفعيلات متوازنة ومتقاربة ، متناسقة ومتناسبة مع بعضها بعضا . وهذه الأوزان هي ما تعارف عليه الناس عامة والمشتغلون بالأدب والشعر خاصة بعلم العروض .

كما تم فيما بعد استدراك بعض البحور الجديدة من قبل الأخفش كبحر المتدارك ، وغيره من البحور الخفيفة الرشيقة التي استحدثت فيما بعد ، وفي العصور التالية لتلائم السرعة في النظم ، وتساير الذوق الشعري المتطور ، وتوائم كمون الحالة النفسية عند الشاعر ، والايحاءات الخاصة به .

واستمرت تلك الأوزان والبحور متناقلة بين الشعراء ينظمون على منوالها ، ويهتدون بها لتقويم ما اعوج من أشعارهم أو ما حصل فيها من كسر وخلل قد تنفر منه الأذن الموسيقية ، وقد يقع عليها وقعا ناشزا ـ الى عصرنا الحديث هذا ، وبالأحرى الى الربع الثاني من هذا القرن ، والى بداية الأربعينات بالضبط ، وان اختلف على العام فيما بين الدارسين ، حيث بدأت مرحلة تجديدية في حركة الشعر العربي وخاصة بالنسبة لأوزانه ، وتوزيع تفعيلاته وقوافيه ، وتغير أنماطه التي تبدلت تبدلا يكاد يكون من حيث الشكل مفارقا للقديم ومخالفا له . وما كان لهذه الحركة التجديدية أن توجد لولا اطلاع شعرائنا المعاصرين على الشعر العربي الحديث وانفتاحهم عليه ، واحتذاء بعض نماذجه وأنماطه من حيث الشكل ، بينما ظل المضمون ملتزما بواقعنا العربي ، مشدا لمراميها الانسانية ، ومعبرا عن تطلعاتنا وطموحاتنا .

وهنا يجب ألا ننسى الينابيع الكثيرة التي رفدت شعرنا الحديث بالجدة وعلى رأسها شعر الموشحات الذي تأثر به شعراؤنا وكنتيجة حتمية لهذا التأثر بالموشحات وبأشكالها الفنية المتنوعة ، وبتأثير مدرسة الديوان ، وأبولو ، والمدرسة المهجرية من جهة ، والاطلاع على الشعر الغربي والالمام به من جهة ثانية . كان لا بد أن تتهيأ لحركة التجديد في الشعر العربي الحديث أسباب التقدم والاستمرار على الرغم من كثرة المعارضين من النقاد والكتاب وبعض الشعراء التقليديين المحافظين . وكانت الحملة النقدية في البداية عنيفة . ولكنها لم تستطع أن تقف عائقا ، أو تضع حواجز في سبيل نشوء ونمو هذه الحركة الشعرية الجديدة في أدبنا العربي الحديث ، واتساع دائرتها يوما بعد يوم ، وخاصة بعدما أخذت في النمو والامتداد والتماسك على يد كل من الشعراء التالية أسماؤهم : المرحوم بدر شاكر السياب (١٩٢٦ ـ ١٩٦٤م) ـ والشاعرة نازك الملائكة ، والشاعر عبد الوهاب البياتي . وكل هؤلاء من القطر العراقي . وذلك في الوقت الذي بدأ يكثر فيه مؤيدو هذه الحركة من النقاد ويقل معارضوها .

وعلى الطرف الآخر الجنوبي من الوطن العربي وفي القطر المصري بالذات ، قام هذه الحركة أقطاب منهم الشاعر عبد الرحمن الشرقاوي ، وصلاح الدين عبد الصبور ، وأحمد عبد المعطي حجازي وغيرهم . وما إن تنامت موجة التجديد وارتفعت حتى بدأت بالانحدار نحو مهاوي الانحلال والميوعة الأدبية والحزلقة التافهة ، وخاصة في بداية السبعينات من هذا القرن ، وكأنها بوجهها الجديد هذا تعيدنا الى

عصور الانحطاط أو عصور انحدار الشعر العربي القديم بعد بلوغه قمة الشعر الرفيعة . وذلك من خلال ما تعرضه علينا هذه الموجة من شعر مرذول بألوانه الغريبة ، وموضوعاته المبتذلة أحيانا .

ومن الانصاف للشعر الحديث أن نقول بأن ثمة شعرا يحلو لنا أن نسميه شعرا أصيلا مليئا بالفائدة والمتعة ، غنيا باللذة والاثارة والتأثير . ويمكن أن نسمي قسما كبيرا منه كلاما مرصوفا رصفا غير محكم ولا متماسك كجدران البيوت الطينية القديمة التي تتوزع وتنتشر في بعض القرى . ونسمي بعضه الآخر ثرثرة فارغة من المعنى تتخللها صور يكاد الذوق الأدبي يمجها ، والاحساس الشعري الرهيف الصادق ينفر منها ويرذلها .

وليس لي في هذا المجال الا ان أشير الى هذه العبارة التي قالها أحد الشويعرين :

« الحب في هذه الأيام ...
كمناديل كلينكس ... »

انظر الى هذه الصورة الشعرية التي تقزز النفس عن الحب .

ولا أنكر أن مثل هذا الانتاج الشعري قد لقي نقدا عنيفا من قبل بعض النقاد والدارسين له والمعلقين عليه ولكنه رغم ذلك استمر بفضل إفساح المجال له .

واليك هذا المقطع الشعري من قصيدة منشورة على صفحات مجلة المعرفة السورية العدد (١٦٩)

« تعودين للبحر
ماذا يقول المغني
وماذا يقول النبي الجديد
وماذا أقول ؟
تعودين للبحر
من قاد خطوك ؟
اني اكتشفت الهياج الذي
شاع في الرمل »

انظر الى هذا الشعر والى ماذا يقول ؟ وماذا أقول ؟ وقل بعد رأيك .

وخذ مقطعا آخر من قصيدة أخرى لشاعر آخر منشورة في العدد الوارد ذكره آنفا من المجلة وفي

الصفحة (١٢٢) :

« فرح فرح فرح
وحبنا فرح
وان ذهبت يا حياة للاحزان
أرجعناك للفرح »

ليس هناك سوى لفظة الفرح تتتابع في المقطع خمس مرات فماذا وراءها ؟ ونتابع قراءة مقطع آخر من القصيدة نفسها لنرى ماذا فيه :

« تشابك وعتمة وضوء
سنجاب ثعالب تمرر
أرانب أيائل أسود
تشابك وعتمة وضوء »

فهل ترى غير الحيوانات البرية تتلاقى في هذا المقطع من القصيدة ؟

ونطالع على صفحات مجلة الدوحة (عدد ديسمبر ١٩٧٧) قصيدة بعنوان رسالة يومية يقول فيها صاحبها :

« أكتب في الصباح والمساء
في الفجر والضحا والليل والظهيرة
على جبين العشب والمروج الخضر والهواء
وفوق وجه الماء
رسالة اليك كل يوم
مدادها دمي المثات لهفتي الضريرة »

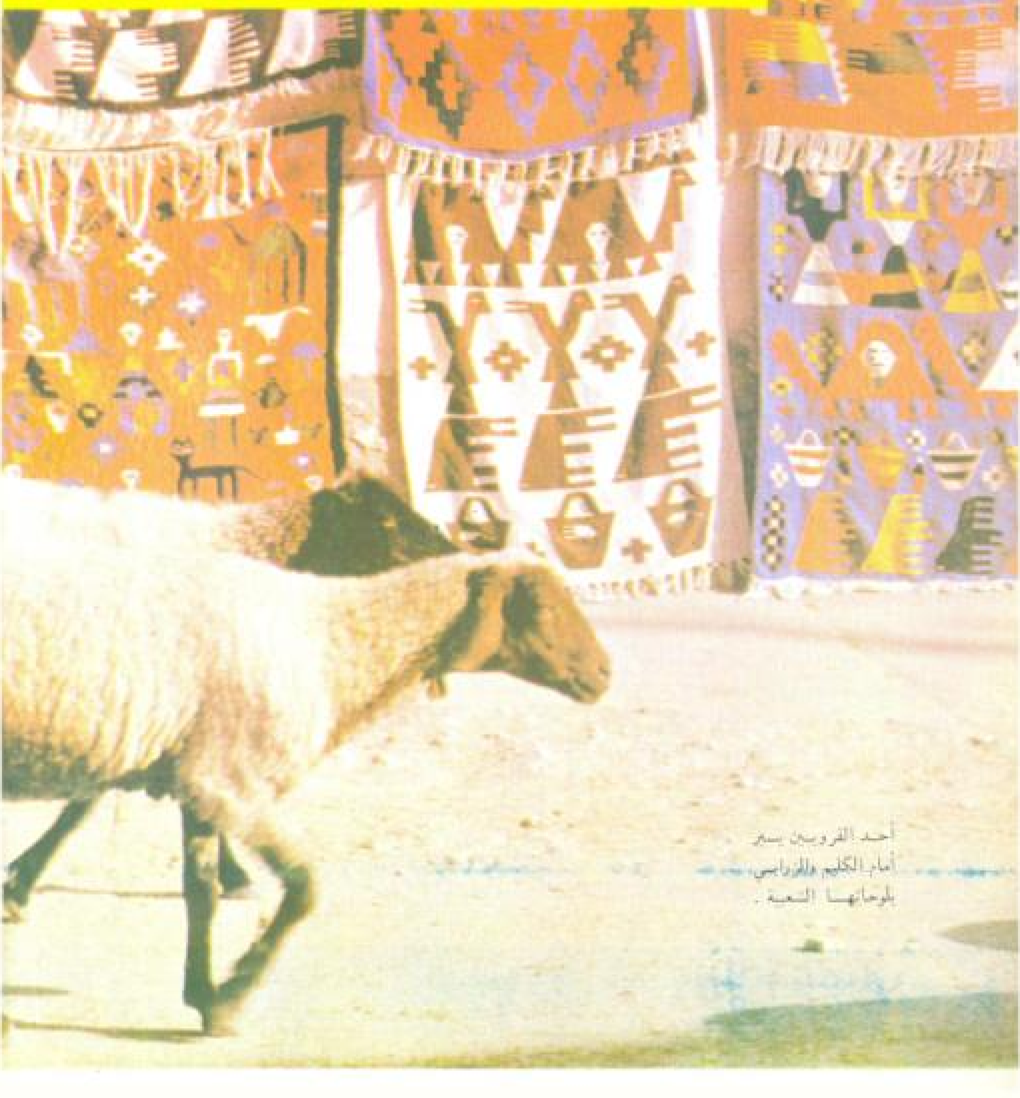
وماذا في هذه الرسالة التي كتبها على جبين العشب وفوق وجه الماء ؟ ليس إلا كلمات رصفت رصفا وختمت بقافية مقتسرة .

وبعد لا أريد أن أطيل وأسهب ولسوف أعود مرة أخرى للتفصيل في ذلك .. ولكن أقول : وهل بعد هذا يريد صاحبنا الشويعر الجليل وأمثاله من قرائه أن يكونوا من أمثاله فاقدي الوعي ضعيفي العقل كليلي المخيلة هزيلي التفكير يرقبون بشعره ويحبون هذره ويشيدون بعبقريته ويقرظون ما دبجته يراعته المسكينة من ترهات وأباطيل ؟

ونعيد تكرار القول : إلى أين يمضي شعرنا المستحدث ؟ وإلى متى سيظل بعض شعرائنا الجدد يمعنون في غيهم ويهيمون في صحراء ضلالهم وليس لهم إلا خيبة آمالهم ؟

تونس : التجربة والمستقبل

استطلاع : مصطفى نبيل   تصوير : اوسكار مترى



أحد القرويين يسير أمام الكليم والزرابي بلوحاتها الشعبية.



بدأت جولتي من تونس العاصمه ، وانتهت عند تمزرط في اقصى الجنوب التونسي ، قطعت خلالها حوالي ٤٧٠ كيلومترا ، متنقلا بين البيئات المختلفة من السهول والروابي حتى ولاية قابس . .

وكان لي اكثر من وقفه في سوسه وصفاقس وقابس ومطماطه ، لأنقل ملامح الحياة التونسيه ونبض الانسان العربي في تونس .

لايكفي للتعرف على ملامح شخصية تونس الاكتفاء بزيارة العاصمة ، فتونس تتميز بتنوع خارق في مناطقها ، وطرق معيشة اهلها ، وواهم من يتصور انه عرفها بمجرد التجول في شوارع العاصمة والاكتفاء بمشاهدة مبانيها الضخمه ومحلاتها الحديثه ، او يكتفي بزيارة تلك المناطق السياحية التي اعدت خصيصا لترضى اذواق السياح .

وكان من الضروري البحث عن مدخل آخر ، وكان ان تنقلت بين الساحل والداخل ، بين السهل والجبل ، بين الريف والحضر أتلمس نسمات تونس ونبض قلبها العربي ، واتعرف على طموحاتها ومشاكلها وتجربتها الفريدة ، والتقيت وجها لوجه مع محاولات التحديث في مواقع الانتاج والتي اهملت طوال أيام الاستعمار الفرنسي ، ووصلت الى المناطق النائيه والمتطرفه . . .

ومن يتجول في شارع تونس الرئيسي ويرى الفنادق الكبيره والمتاجر الرئيسية والميادين الفسيحة ، يلفت انتباهه كرنفال الأزياء : اللباس القومي التونسي الى جانب الملابس الاوربيه ، والعدد الكبير من المقاهي والمطاعم والتي تشبه احد شوارع باريس ، وبائعو الزهور بملابسهم المميزة ، و« الشاشية » الحمراء فوق رؤوسهم يبيعون زهورهم للمارة ، وتلحظ عندما تتجول في احياء تونس العتيقه ومناخها وأسواقها المغطاة حول جامع الزيتونه (العربي عدد ٢٧٦) ، وتتجول بين آثارها الاسلامية ، الملامح المشتركة لفنون تمتد على طول المغرب العربي ، مزيج متناغم للفنون العربية في صدر الاسلام والتطورات التي شهدتها في الاندلس . ومزيج آخر بين القديم والجديد . .

أما ضواحي تونس التي تطل على خليج تونس ، فتكاد تكون من أجمل الضواحي في العالم ، ففي سيدي بوسعيد وقرطاج ، يغلب على طراز العمارة فيها الطابع الأندلسي ، وهي مثل رفيع على سمو الذوق والثراء ، البيوت كلها بيضاء ونوافذها زرقاء ، او قل قصور تظهر عليها جميعا الحداثة ، وكأنها انبعث لتوها .

تمتد على شاطىء بديع برماله البيضاء ، وتمر خلال هذه الاحياء على قصر الرئاسة والسفارتين الامريكية والفرنسية ، ويقطنها اغلب « الحرس القديم » ، فهذا بيت الهادي نويره وذاك بيت الباهي الادغم .

وتلحظ ولع تونس الحديثه بكل ماهو عتيق واصيل في عمارتها ، وتبذل جهودا حثيثة الى وقف زحف كتل الخرسانه المسلحه على احيائها القديمة . وقد حولت عددا من البيوت القديمه الى متاحف مثل بيت الأصرم وديار عبدالله ، لتكون شواهد على ماقي العمارة القديمة من ذوق وجمال ، وكان لهذا الاهتمام مردود سياحي مشجع .

سر التجربة

شغلني منذ وصولي الى مطار قرطاج الدولي ، البحث عن سر التجربة التونسيه ، فتونس دولة صغيرة قليله السكان (٥ ملايين نسمه) ضعيفه الموارد ، ومع ذلك فقد حققت انجازا ملحوظا ، تلمسه منذ وصولك في درجة كفاءة الادارة التونسية ، ودرجه الانضباط في الشارع التونسي ، واحترام رجل الشرطه والمرور ، ودقة المواعيد .

وكنت ابحث عن هذا السر عندما كنت اتجول في احيائها المختلفه ، واتطلع الى فنونها المختلفه ، وعندما التقيت في جلسات امتدت حتى الفجر مع عدد من المفكرين والمثقفين ، اتابع مناقشاتهم وشواغلهم . تلك المناقشات التي تمتعت بقدر كبير من العقلانيه ، والتي كانت تدور بلاصخب .

ويتفق الجميع على ان فضل ما انجزته تونس ، يرجع الى الاستمرارية الفريدة التي تتمتع بها نظامها السياسي ، وتكاد تكون الدولة الوحيدة في العالم الثالث التي استمرت قيادتها حوالي نصف قرن ، فبعد ان عانت ثلاثه ارباع القرن من نير الاستعمار الفرنسي ، حصلت على استقلالها عام ١٩٥٦ بقيادة الحزب الحاكم والذي تحمل مسئوليه النضال ورفع شعار المراحل الذي تركز في فكرة « خذ وطالب » ، واستمر حتى اليوم . .

وهذه الاستمراريه هي التي خلقت تلك الحالة من التوق العارم نحو قيام دولة عصرية ، ومكنت تونس من



مرأة من الجبل

قطع خطوات واسعة في اقامة التجهيزات الاساسية ، وفي القضاء على الامية ، واتاحت فرصة التعليم لكل اطفال تونس ، ووفرت العلاج لكل المواطنين ، واصبحت من اوائل الدول العربية التي تعدل قانون الاحوال الشخصية ، وتلغى تعدد الزوجات وترفع الحجاب .

أمس والغد

ومازال يصادفك بقايا ملصقات قديمه ، تظهر خلالهاامرأة تونسيه مترهله بلباسها التقليدي كتب تحتها « الأمس » الى جانبها فتاة رشيقه بالملابس الأوربية كتب عليها « الغد » ، مما يبين الجهد الاعلامي الذى بذل لتغيير مفاهيم المواطنين وعاداتهم . .

وقد صاحب هذه الاستمراريه تراث حزبي ونقابي نشيط وعريق . .

وكانت الحركة النقابيه من اقدم الحركات في الوطن العربي ، واحد الروافد الهامه للحركة الوطنيه ، ومن صفحات التاريخ البيضاء الدور الذي لعبه محمد على القابسى الذى توفى في ريعان الشباب عام ١٩٢٧ ، وقد بدأ القابسى حياته عاملا ، ثم اشترك في الحرب الليبية ضد ايطاليا عام ١٩١١ ، ثم ذهب الى اسطنبول ومنها الى المانيا حيث تلقى العلم ونال شهادتـه العليا في الاقتصاد السياسي ، وعاد الى تونس عام ١٩٢٤ ، ولمس ان النضال السياسي ضدالمستعمر ينقصه المؤسسات القويه التي يمكن لها ان تتجاوز المواقف القصيره والاشخاص ، ورأى انه مادامت الحياة الاقتصادية بدائية وغير منظمة ، فان حماسة الشباب واخلاصه لا يكفيان ، وان الكتابة في الصحف وعقد الاجتماعات لا يكفيان ، واتجه بكل جهوده الى قيام مؤسسة تتولى تعبئة وتوجيه القوى كلها لمعالجة الشرور الاجتماعيه ، واستئصال الشقاء والشظف الذى يعيشه اهالى تونس ، وبقي على اتصال وثيق بابناء شعبه وشاركهم الحرمان الذى يعيشونه ، وكان زاهدا يكتفي بالخبز والزيتون يأكلها في طريقه الى الاجتماع بالعمال ، وقطع مراحل في تنظيم عمال تونس وأسس نقابات للعمال التونسيين وانجز للنضال ضد المستعمر الفرنسي سندا في تنظيم اجتماعي اقتصادى قوى .

الشخصية . . والتقدم

أما المعوقات التي تقف امام التجربه التونسيه ، ومازالت محل جدل بين مثقفي تونس ، فتدور حول ما يصاحب التطور من آثار اجتماعيه ، والمتمثلة في سؤال سمعته يتردد كثيرا ، كيف يتحقق التقدم مع المحافظه على تراث البلد وشخصيتها . . ؟

فالبعض يرجع انجازات تونس الى نجاحها في المزج بين الشرق والغرب ، ولانها الاكثر انفتاحا على حضارات البحر المتوسط ، والبعض الاخر يرى ان قلبها اصبح مع الشرق وعقلها مع الغرب !

وتعكس هذه التصورات المختلفه التشتت بين العقل والقلب ، وهو من آثار المشروع الاستعمارى عندما سعى الفرنسيون الى ترسيخ فكرة ان اللغة العربية تقتصر على غير المتعلمين والفقراء ، وان اللغة الفرنسية للمتعلمين والفقراء ، وما تزال آثار هذه المرحلة باقيه والمتمثله في أن

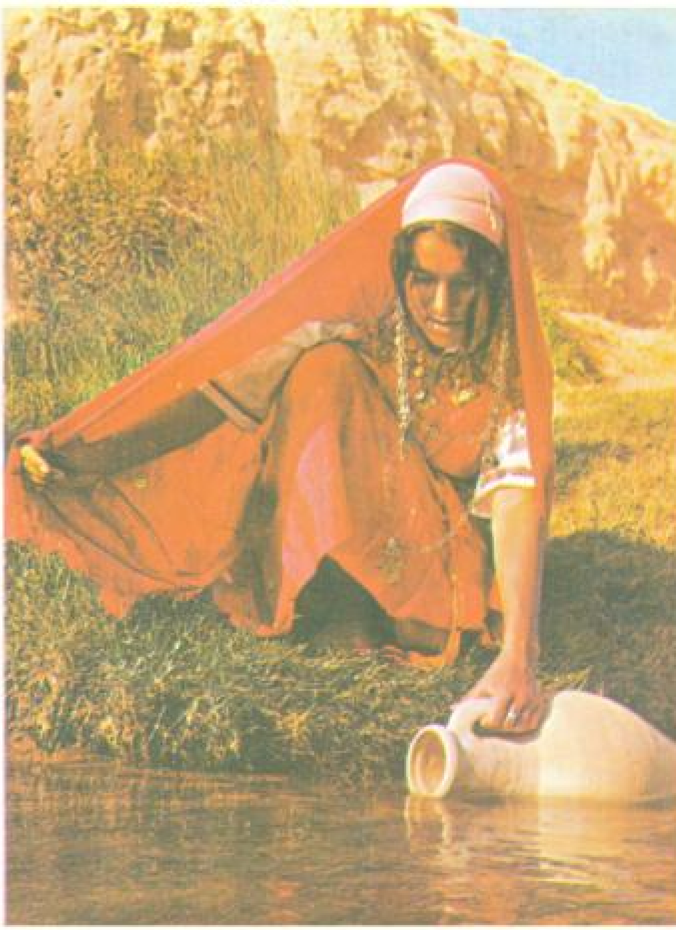


صيد سمك التونة في قابس



السوق التقليدي في قابس

أحد عيون قابس ومصدر الحياة فيها







منظر عام لميناء قابس



بائعو الزهور الذين يصادفونك في كل مكان



بعض الصفوف مازالت تدرس فيها قواعد اللغة العربية باللغة الفرنسية ، واستمرار تدريس المقررات في العلوم المختلفة باللغة الفرنسيه ، مما خلف انفصاما ملحوظا في التعبير . فالفرنسية لدى الكثيرين هي لغة العمل ، واداة التأقلم مع الواقع الجديد ، واللغة العربية لغة احتياطيه وبقي جزء من الشخصيه يكاد يمتنع عن التغير !

هذا رغم ان تونس مازالت من اكثر اقطار المغرب العربي معرفة للعربيه واستخداما لها ، ولكن بقي امامها شوط طويل عليها ان تقطعه للوصول الى تعريب التعليم ، ويعلق احد المثقفين بقوله : « تونس يظنها دائما من لا يحس بوجيب قلبها ، لامباليه فاذا هي فجأة عواطف وسخاء ، وكأنها قصبة مشرعه لكل الاصداء العربية ، لاتجد مثلها فرحا اذا فرحت العروبه ، ولاحزنا حين تحزن ، فالعيون التونسيه لماعه » .. ويضيف آخر .. « في تونس امران اساسيان ماعداهما مجرد اقوال ادبيه ، هما الاسلام والعروبه . »

ويسارع البعض ويلتقط الملامح المشتركة بين التجربة التونسيه وتجربة اتاتورك في تركيا ، ويدللون على هذه الملامح بذلك القانون الصادر مؤخرا والذى يغير بعض اسماء العائلات القديمه ـ التي تحمل اسماء غير مناسبه ـ والذى سبق وصدر مثله في تركيا ، عندما عاشت حيرة قاتله بين الشرق والغرب والتي حسمها اتاتورك لصالح النمط الغربي .

وللبعض رأى آخر .. يؤكد ان التجربه التونسيه متأثره بتجربة علمانية حزب الوفد في مصر ، والبعض ينقب في تجربة ليبولد سنغور في السنغال والذى يرى ان بينها وبين التجربة التونسيه ملامح مشتركة !

وكل هذه المناقشات تؤكد ان قضية الهويه محل جدل واسع في اوساط المثقفين وبين التيارات المتباينه في تونس ، التي تقترب جغرافيا من اوروبا ، وسياسيا لها علاقات وطيدة مع كل من فرنسا والولايات المتحدة ، ونظام التعليم مازال اغلبه يستوحي ويقتبس طرقه واساليبه وبرامجه من النظام الفرنسي الموروث !

ووجدت بعض هذه التيارات في خصوصية التجربه التونسيه حجة تقوم على تراكم الأزمنه وتعايشها داخل زمن واحد ، فتونس العاصمة تحمل طبقات جيولوجيه من تراكم التاريخ ، فهي قرطاجنه الفنيقية التي اسست عام ٤٨٠ ق . م ، وهي أوتيكا الرومانيه منذ خربت قرطاجنه عام ١٦٩٨ ، ثم اخيرا تونس العربية التي اقيم جزء منها من بقايا قرطاجنه ، والتي اصبحت من كبريات مدن الاسلام وهذه التيارات تتحدث تارة عن حضارة متميزه لحوض البحر الابيض المتوسط ، وتارة تتحدث عن تميز خاص للشخصية التونسيه .

ويرد على هذه التيارات البشير بن سلامه وزير الثقافة التونسي بقوله : « ظاهرة فريدة هي تبديل الوجهة الحضارية خمس مرات على الاقل ، قرطاج الفينيقية ثم الرومان وبعدهم الوندال ، الذين لم يلبث ان ازاحهم البيزنطيون ثم العرب .

ولم يفلح احد منهم في اشاعة حضارتهم الامرة واحدة عندما قدم المسلمون .. »

واصبح التيار الغالب هو ذلك التيار التاريخي الذى بدأ منذ ايام خير الدين ، وجاء بعده الثعالبي ، والذى يدعو للتحرر والاصلاح ، ويسعى هذا التيار للمواءمه بين ماضٍ موروث وحاجة البلاد الملحة للتحديث،وكانت تملأ جوانحهم ارادة عمل شاملة تنظر الى المجتمع العربي باكمله .

وتقود تونس جدليه الواقع وتطوراته لترسم في النهاية مسار تجربتها ، مع التأكيد والتسليم ان كل محاولة تهدف الى نسخ التجارب الاخرى مآلها الفشل والبطلان .

وجاء انتقال جامعة الدول العربية الى تونس بشكل حدثا بارزا في ذلك الجدل الدائر ، فقد اصبحت فنادقها مزدحمة بالمؤتمرات العربية ، الثقافيه والسياسية والاقتصادية ، واصبحت القضايا العربيه لها مكان بارز ومحل اهتمام كبير في كل الصحف التونسيه ، مما قدم دعما كبيرا للذين يتعجلون تعريب التعليم ، ويقاومون المشروع الاستعماري الفرنسي .

تضخم الرأس

ونترك مناقشات المثقفين ، ونكمل جولتنا في شوارع العاصمه ، والتي تعاني من زيادة مطردة في السكان ، حتى وصل آخر تقديرات السكان فيها الى حوالي مليون ونصف مليون نسمه اى ما يزيد عن ربع سكان تونس ، رغم المحاولات الدؤوبة لوقف الهجرة اليها ، الا انها ما زالت تعاني من مشكلة تضخم الرأس مع بعض المدن الساحلية الاخرى ، وتقلص دور الداخل ..

تعداد سكان تونس العاصمة يعادل عشرة امثال المدينه التاليه لها وهي صفاقس ، ولعل موقعها يقدم تفسيرا لمشكلتها ، فهي عنق زجاجة وخاصرة البحر المتوسط ، وهي ركن الزاويه وملتقى اقاليم تونس الحيوية الثلاثة : التل او حديقة الكروم الاوربيه من الغرب ، والوادى الخصيب الذى كان زمن الرومان « صومعة غلال الامبراطوريه الرومانيه كلها ، والساحل الذى يعد اخصب حقول الزيتون ....



ديار الاندلس .. المشروع الكويتي التونسي المشترك

ويتركز في العاصمة عصب الحياة الاقتصادية ومعظم صناعاتها الحديثة واجهزتها الادارية ..

وتستمر مع رياح التغيير التي تعصف بالقديم في تونس ملامح تعايش الأضداد ، فرغم كل مظاهر العصرية مازال البيت التونسي يحافظ على طراز العمارة القديمه ، ومازال يحافظ على العادات بين جدرانه ، ورغم العصرية الكاسحة مازالت الزوايا تحتل مركزا هاما في الحياة الاجتماعية ، ومازالت تجذب اهتمام المريدين ، وقد لعبت دورا تاريخيا في حياة تونس ، يوم كانت مكانا للصلاة ومدارس وخانات يأوى اليها عابر السبيل ، ويقيم فيها كبير الطريقة ، وكان ينطلق من هذه الزوايا نواب الشيخ الحاملون لتعاليمه ، وبقي من هؤلاء في العاصمه الشيخ محرز ، ومازالت بقايا ١٩ طريقه تمثلها في تونس ٥٠٠ زاوية تمتد في طول البلاد وعرضها . وهي رمز للبركة والايمان ..

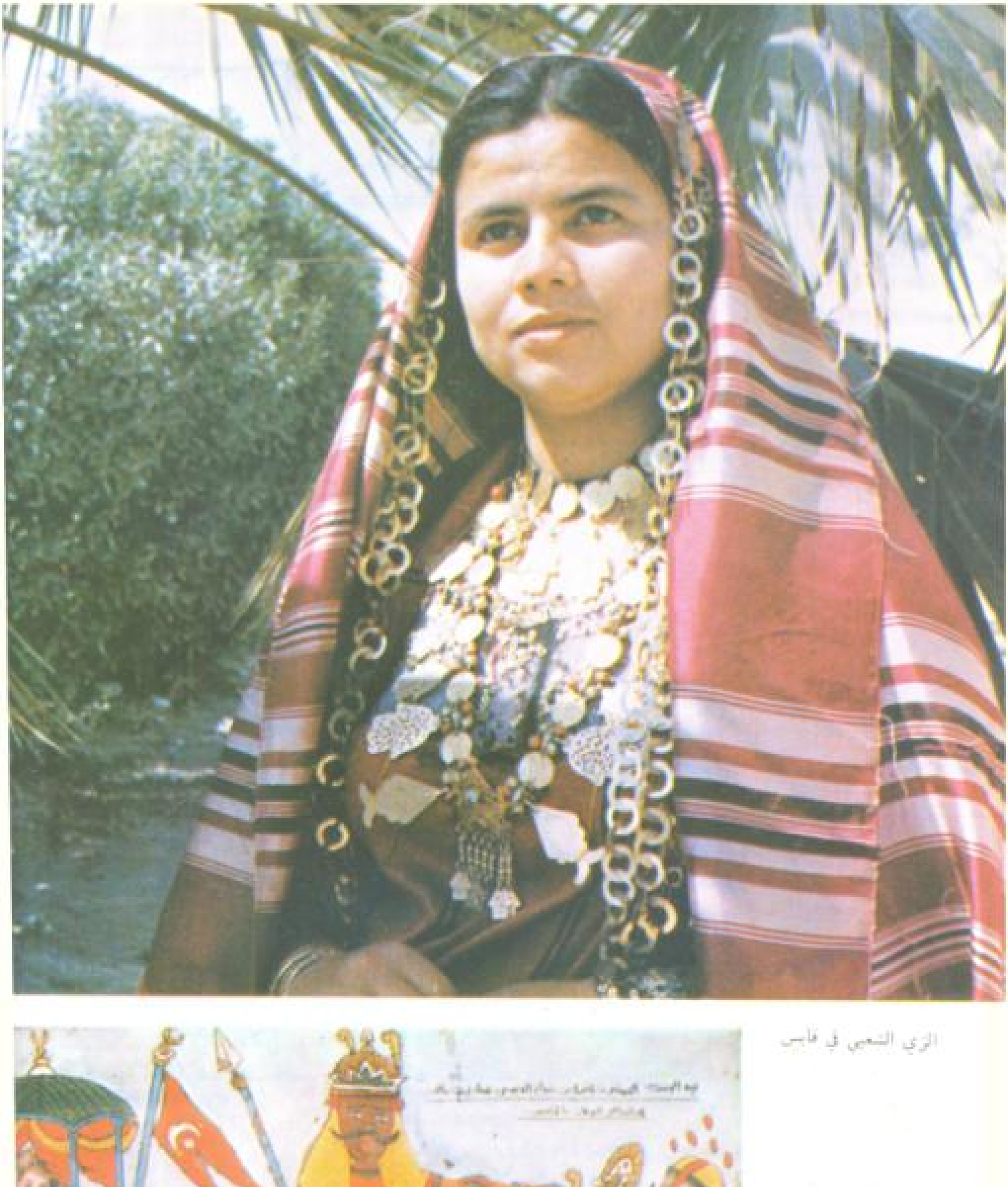
وما اكثر ما تشاهد اليد المصنوعة من الفضة والمزينه بالاحجار الزرقاء الجميلة والتي تسمى « الخمسة » او « يد فاطمه » الحافظة من الشيطان والمانعه للحسد ، على ابواب العديد من البيوت وعلى صدور الكثير من الفتيات .

ونكتفي بهذا القدر ونترك العاصمة بحركتها السريعه المتناميه ومناقشاتها ونتجه جنوبا .. على الطريق تلمس التنوع في مناحي شخصيتها ، اقطع تلك السهول المترامية والروابي الممتدة ، أتبين لماذا اطلق عليها تونس الخضراء ، فقد كانت على الدوام بلاد القمح والزيتون واللوز والكروم والنخيل . ان كل شيء حولك ينطق بانه بلد جميل ومشوق .

سوسه

وكانت محطتنا الاولى في سوسة ثالث مدن تونس وعاصمه الساحل ومتنفله ، ورغم انها كانت وقفه قصيره الا انها تركت اثارا عميقه في الذاكرة ، وخاصة زيارة « مرسى القنطاوى » احد احياء سوسه السياحيه الجديدة ..

وتتابعت على سوسه ايام العز وايام العسر ، وكان آخرها خلال الحرب العالمية الثانية عندما دمرت قنابل المتحاربين بيوت سوسه واسواقها ، الا أنها إعادت من جديد جوهرة الساحل التونسي واشهر مناطقه السياحيه ..





الزي الشعبي في قابس

عنتر وعبلة في لوحة صفاقسية



نساء الجنوب في حقولهن

شواطىء تونس



تصلها عبر المزارع الخضراء وتبعد عن العاصمه حوالي ١٤٥ كيلو مترا ، ويصلها الكثير من السياح عن طريق مطار المستير القريب .

وتكشف سوسه وجهها للقادم على استحياء ، فاول ما تصادفه منازل بيضاء متراصه هي قصبة المدينه يحيطها السور والاسواق التقليديه ، وهي غنيه بالاثار الاسلاميه ، فالسور الذى يحيط القصبه من اقدم الاسوار في العالم الاسلامي ، ومازالت منارة المدينه هي نفس منارتها القديمة الاثرية ، التي اقيمت في القرن الثالث الهجرى والتي ترتفع من وسط قصر الرباط .

ولا يفوتك ان تلاحظ ان رباط سوسه هو نفس طراز الرباط في المدن الساحلية الممتدة من مصر حتى المغرب ، ويستخدم نفس طريقة البناء ، أما قلعتها الأثرية فقد بناها زيادة الله الاغلبي حوالي عام ٢٠٠هـ .

هذا عن سوسة التاريخ ، اما سوسة الحاضر ، فقد اقيم على ساحلها الرملي الطويل العديد من الفنادق الفخمه ، والمنشآت السياحيه الحديثه ، وشاطئها يجمع في منظر واحد رمال الشاطىء البيضاء مع خضرة النخيل والاشجار والزهور .

واجمل مناطقها السياحيه هو مجمع مرسى القنطاوى ، الذى ينتزعك من المكان والزمان معا ، فقد اقيم حي باكمله على طراز بيوت الاندلس القديمه ، طرقه مرصوفه بالبلاط المربع وكأنه من القرون الوسطى ، وله اسواقه المميزه وساحاته ومطاعمه ، واتخذت بيوته من الأقواس والقباب والمشربيات والسيراميك ادوات لها ، مما اعطاه طابعا عربيا خالصا ، وفي نفس الوقت جهز بكل الوسائل الحديثه ، وتوفرت على شاطئه جميع انواع رياضه البحر من القوارب والزوارق والانزلاق وغيرها .

والمدهش ان الذى صمم هذا الحى احد المكاتب الهندسيه الفرنسيه ، وان الفنان المعمارى الاجنبي اثبت تفهما كبيرا وقدرة فذه على استلهام العمارة العربيه في اعمال معمارية حديثه .

وكما يجذب هذا المكان السياح الاجانب يغرى ايضا السياح العرب ، مما جعل العديد منهم يقبلون على شراء فيلات مرسى القنطاوى ، وتشهد تونس اقبالا سياحيا كبيرا من كل من ليبيا والجزائر .

وتكاد تونس ترث نشاط ومهارة لبنان في السياحه والخدمات .

واصبح مرسى القنطاوى المكان المفضل للمهرجانات الفنية المختلفه ، ومتنفسا للحركة الفنيه التي تشهدها تونس . .

كما يستهوى هذا المكان الكتاب والشعراء والفنانين . .

ليس بالجمال وحده

وتجربه سوسه السياحيه تثبت انه ليس بجمال المكان وحلاوة الجو ولا بقيمة الاثار تزداد قيمة المكان السياحيه ، بل بالجهد والتخطيط وعقل الانسان الخلاق تتحول العديد من المناطق العربيه الى مناطق سياحيه جميله .

وقد جذبت تونس ايضا رؤوس الاموال العربية التي تساهم في مجال السياحه ، بعد ان اصبحت من اكثر البلاد العربيه جذبا لهذه الاموال . .

وتشهد سوسة مشروعين سياحيين هما ديار الاندلس وفندق ابو نواس اقامتهما المجموعة التونسيه الكويتيه للتنمية ، وفي لقاء مع مديرها السيد احمد الابراهيم قال « ان المشروعات التي يتم تنفيذها في تونس تقوم على اساس راس مال مشترك كويتي تونسي ، فرأس مال المجموعة يبلغ قيمته ٢٠ مليون دينار تونسي ، تساهم وزارة المالية الكويتية بنسبة ٤٥٪ ، والمجموعة الاستثمارية العقارية الكويتية بنسبة ١٠٪ ، ويساهم الجانب التونسى بنسبة ٤٥٪ ، وتقوم المجموعه بانشاء شركات تعمل في الانشطة المختلفه ومن بينها المنشآت السياحيه . . . »

وغادرنا سوسة لنكمل رحلتنا .

حقل الزيتون

وكانت وقفتنا التاليه في مدينة صفاقس التي تبعد ٢٧٠ كيلو مترا جنوب العاصمة وهي عاصمة الجنوب وميناؤه .

ومدينة الزيتون زراعة وصناعة وتجارة وتصديرا ، فهي تتوسط اكبر حقول الزيتون ، وصفاقس مثل غيرها من المدن التاريخية ، تنقسم الى القصبة المدينة العتيقه وعلى امتدادها تقوم مدينة اخرى حديثه . .

وحرصنا خلال زيارتنا القصيره للمدينه ان نتجول في قصبتها واسواقها وأن نزور متحف دار جلولي لمشاهدة ما يتميز به من لوحات تاريخيه رسمت على البلور . .

اسوار القصبة العاليةتم ترميمها فاظهرت المجد التاريخي للمدينه ، عبرنا ازقة ضيقة مزدحمه ، واسواقاتقليدية مسقوفه ، وبيوتاعتيقه متلاصقه ، وقد تحولت القصبة الى منطقة اثرية يحظر هدم أى جزء منها بدون موافقه مصلحة الاثار ، ويقوم المتحف في احد هذه البيوت القديمة ، ويضم لوحات تعكس المفاهيم والقيم السائدة والتي رسمها الفنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي حديث مع الدكتور على الزويرى مدير المتحف قال : « ان الزيوت التي استخدمت زيوت اصليه ، ويلاحظ تأثير الطباعه التي اقيمت في مصر في هذا

الوقت ، كما يلاحظ التشابه القائم مع فنون دول اوروبا الشرقيه التي كانت مثل تونس جزءا من الدولة العثمانيه . . »

ويعكف الدكتور الزويري على دراسة التأثيرات المتبادلة بين كل من صفاقس والاسكندرية والتي تظهر في الفنون المختلفة وفي رباط كل منها ، والناتجة من انتقال البضائع والافكار بينها . .

وصفاقس مثل سوسة مرفأ هام ، وهي ثانية مدن تونس في تعداد السكان ، وهي ميناء تصدير الفوسفات الذي يصلها عبر خطوط السكك الحديدية من مراكز انتاجه في قفصه

وغادرناها متجهين الى قابس . . وتلاحظ كلما اتجهت جنوبا تغير الازياء ، وتغير انواع المشروعات ، وكلما اتجهت جنوبا غلب اللون الاصفر وقل اللون الاخضر . وظهرت معالم الفاقه في نوع المباني وطرازها .

وبعد ان قطعنا رحلة طويلة وسط صحراء قاسيه عذراء بصخورها والوانها واشكالها ، وصلنا الى قابس واحة الصحراء ، وهي تكثيف لمعالم الجنوب والتي كان لنا فيها وقفة طويلة . .

بين روميل وايزنهاور

وقد بدا واضحا انه كلما توغلنا جنوبا ظهر وجه تونس العربي اكثر نضارة ، بعد ان احتفظ سكان الداخل بالعديد من اساليب الحياة القديمة ، فقليل من سكان الصحراء يتكلمون الفرنسية ، وظلت مناطق الجنوب بعيدة نسبيا عن تأثيرات المستعمر الفرنسي ، او لنقل استعصت عليه اكثر من مدن الساحل شمال تونس .

تقع قابس على أحد الخلجان ، وتتكون من سبع واحات تحيط بالمدينة وتسبغ عليها هالة شعرية عندما تصلها عبر الصحراء الطويلة ، وتعيش على مياه العيون الطبيعية والآبار العميقه .

وقابس هي بوابة الصحراء وهي بوابة البحر ، اي هي احد موانىء البحر واحد موانىء الصحراء في نفس الوقت ، وهذا جعلها احد المحاور الهامه خلال الحرب العالمية الثانية وتبادلها كل من روميل القائد الالماني وايزنهاور القائد الامريكي ، وهي تشكل مكانا جيدا لرصد العديد من جوانب التجربة التونسية . ففي الجنوب التونسي يعيش ١٥٪ من السكان في مساحة تصل الى نصف مساحة تونس ، وفيها يظهر الى أي مدى تمكنت رياح التغيير من المجتمع .

قابس مدينة وادعة ، تلمح عليها من النظرة الاولى



مازالت مظاهر القسوة من بقايا معالم الماضي في الجنوب

شبها كبيرا بمدينة مرسى مطروح المصريه ، ولعل هذا الشبه بسبب لباس اهلها وملامحهم ، او لعله يظهر من خلال « الكروسه » ـ الحنطور ـ التي تجرها الخيول والتي تستخدم في الانتقال في كل من مرسى مطروح وقابس ، او لعله ناتج من التشابه في طراز المباني وانتشار اشجار النخيل . .

والفندق الذي اخترناه اطلق عليه نزل الشمس ، ويقع خارج المدينة ومنه تظهر قابس مستندة ظهرها الى الرمال وفاتحة ذراعيها في اتجاه البحر ، ومنه ايضا تظهر بيوت المدينة البيضاء وواحاتها الخضراء ، كما يلامس الفندق احد موانىء الصيد الحديثة .

الفندق يزدحم بالسياح الاجانب ، وخاصة الأوربيين الهاربين من برد الشمال وتلوحه بخترنون شمس قابس



بائع في شوارع قابس



رباط سوسة وأسوارها

أوجدت الصناعات اليدوية عملاً لفتيات تونس



الدافئة زادا للشتاء المقبل . وقد نجحت تونس نجاحا ملحوظا في جذب نوع خاص من السياح اغلبهم من سويسرا والمانيا وبلجيكا وهولندا . ونجحت في جذب موجات السياحة الجديدة ، التي لم تعد مقصورة على كبار الاغنياء بل انضم الى هذه الموجات اعداد كبيرة من الطبقات العاملة الاوربية ، وكما حكى لي احد السياح السويسريين في سعادة ، كيف انه قدم مع اسرته لقضاء اسبوعين في تونس بتكاليف تقل عن قضائها في بلده ذاتها ، فتكاليف قضاء اجازته ضمن مجموعة متضمنة ثمن تذكرة الطائرة تقل عن ثمن تذكرة الطائرة وحدها اذا قام بهذه الرحلة متفردا وليس ضمن مجموعة سياحية .

ووضعت خطط السياحة ضمن اطار تنمية البلاد ، فلم تكتف هذه الخطط باقامة الفنادق ، بل اقامت ايضا المصانع التي تنتج ما يستهلكه نزلاء هذه الفنادق ، الى جانب احياء الصناعات اليدوية والشعبية التي يولع بها السياح والتي كادت ان تندثر ، واصبحت السياحة عامل تنشيط نسق خاص من تصنيع البلاد .

ولدى تونس تجارب كثيرة رائدة في هذا المجال ، وخاصة انها بدأت تجربتها ولديها مشكلة تعاني منها العديد من دول العالم الثالث ، الا وهي النقص الكبير في رؤوس الأموال التي يمكن توفيرها للسياحة ، ومن هذه التجارب ما شهدته من اجل بناء التجهيزات الاساسية التي تسبق اى خطة لدعم السياحة ، واقيمت تجمعات للعمال فيما يشبه معسكرات العمل ، كان العمال يتقاضون خلالها نصف اجورهم نقودا اما النصف الاخر فيتلقونه بصورة عينية .

ومن الاساليب الاخرى التي اتبعت لمواجهة نقص رؤوس الأموال ما تم في اقامة احد الفنادق في بنزرت ، والذى أقيم بدون رأس مال نقدى كبير ، عن طريق انشاء شركة يساهم فيها كل المنتجين في المدينة والقادرين على سد احد احتياجات اقامة الفندق ، من نجارين وحدادين ومقاولى بناء وكهربـاء وموردى اسمنت ومن صناع وحرفيين . . الخ على ان تشكل قيمة هذا الانتاج نصيب كل منهم في المساهمة في رأس مال المشروع ، والذى يدر عليه الربح الوفير بعد اتمام المشروع ، وبذلك نجح المشروع في تخفيض راس المال النقدى الى اقل حد ممكن . .

وقد شهدت تونس مناقشة واسعة حول اثر السياحه على البلاد ، وما يمكن ان ينتج عنها من ان يتحول المجتمع التونسى الى مجتمع خدمات ، واثر ذلك على التقاليد وعلى ثقافة البلاد . ويسلمون بان هناك اخطارا ، ولكنه لا يمكن الادعاء ان تونس تخاطر بنفسها بسبب السياحة وحدها ، فالمخاطر قائمة لقربها من اوروبا ، والخطر قائم بسبب الجغرافيا ووسائل النقل السريعة ، وما يحدث في تطور الدخول ، ولكن على تونس ان تخوض هذه المخاطر ، والمهم هو ان تتحصن ضدها ، وان ترتبط السياحة بالنشاطات الثقافية ، واحياء التراث الثقافي والشعبي في كل ارجاء البلاد .

وفي هذا المجال تبرز الحاجة الى احياء الصناعات التقليدية التي كانت قائمة ، عندما كان الصناع التونسيون يصدرون العديد من الصناعات اليدوية . قبل المزاحمة الفرنسية ، وكان العاملون في صناعة الحرير وحده ٨ آلاف عامل ، بالاضافة الى صناعة السروج ، والتوشيح بالذهب والفضه والنحاس المحفور ، وفي تجارة الأبنوس والصاغة وصناعة السيراميك التي تتميز بها تونس والتي تحتاج الى دقة خاصة واذواق رفيعة ، فهي من جواهر الحضارة العربية ، وكذلك دباغة الجلود وصناعة الاحذية .

وقد انتعشت هذه الصناعات من جديد واقيمت مراكز التدريب المهني ، وقد زرت مركزها في قابس ، والذى يضم مركز التدريب الى جانب صالة عرض وبيع هذه المنتجات ، ويكاد يوجد هذا المركز في معظم المدن التونسية ، ويزخر بالصناعات اليدوية المختلفة ، والذى ينتج سجادا من الحرير الخالص ينافس السجاد العجمي ، وتشاهد في هذا المركز الفتيات القابسيات يعملن امام الانوال اليدوية ويصنعن المنسوجات الصوفية باصابع خبيرة ، وترى الاقمشة الرقيقة والاغطية الصوفيه والفرش والزرابي ، والكليم القابسي الذى لايكاد يخلو منه بيت في قابس . .

ويجذب السياح السوق التقليدى الذي يمتلىء بالحركة والنشاط ، ويتميز بانواع الحناء المختلفة واعمال الجريد ، وتشتهر قابس بانتاج نباتات الصباغة ، وحنة قابس مشهورة مرغوبة ، لايخلو بيت من مسحوقها الأخضر . كما تعرض القبعات والحصر والاكياس المتنوعة التى تصنع من الحلفاء وسعف النخيل ، الى جانب الصناعات الجلدية التي اشتهر بها المغرب كله ، وقد فتحت هذه الصناعات مجالا واسعا لعمل المرأة التونسيه .

وكل قطعه من هذه المنتجات هي صياغة فنية جميلة تمزج بين الفن والبيئه بتقاليدها ورموزها المختلفه .

صيد التونة

واذا كانت السياحة احد مراكز الاهتمام فهي لاتستحوذ وحدها على النشاط ، فالى جوارها الزراعة والمصانع الحديثة . .



ما تبقى من التماسيح في قابس

وعندما تجلس مع خيوط الصباح الاولى ، تنظر الى البحر وتعطى ظهرك للفندق ، ولا يقطع عليك وحدتك سوى طيور النورس وهي تنقض على إحدى الاسماك ، سرعان ما تدب الحياة في ميناء الصيد الحديث الذى اقيم عام ١٩٦٩ والواقع الى جوار الفندق ، وهو مؤشر يدل على عودة قوارب الصيد التي ابحرت قبل الفجر ، تعود محملة بسمك التونة ، الذى يطلق عليه هنا « التن » هذا السمك المهاجر الذى تقوده رحلته الطويلة بحثا عن الدفء الى شباك الصياد ، والقادم من المحيط الاطلسي الى البحر المتوسط ، في تجمعات كبيرة يجذبها مياه خليج قابس الدافئة مع حلول الربيع وبداية شهر مارس ، ويتلقفها الصياد بعد ان تكمل رحلتها ، وقد عرفت قابس منذ ايام البيزنطيين صيد سمك التونة حتى ان هذا النوع من السمك منقوش على النقود البيزنطية . .

والى جانب ميناء الصيد الحديث يوجد مصنع لتعليب سمك التونة لتوزيعه في جميع انحاء البلاد . وتستمد تونس نصف ثروتها السمكية من هذا الخليج .

وعندما تتجول بين واحات قابس السبع وبين حقولها التي تنتج التمر والمشمش والعنب والليمون والبرتقال والرمان والزيتون والموز الذى يندر وجوده في اى مكان آخر من تونس ، ترى صراع الفلاح التونسى منذ الايام الاولى من التاريخ ويتغير كل شيء حوله ويستمر بالقيام بدوره كمنتج على الدوام . وعندما دخلت مزرعة احد الفلاحين ، كان اول خاطر ان ترى هنا وحدة حقيقية بين المحيط والخليج فلا فرق بين الفلاح في تونس والفلاح في العراق والفلاح مصر ، ذات القيم وذات المفاهيم وذات الادوات المستخدمة ، فهنا تتوحد الرؤية نحو الحياة والانسان والكون ، سارع فلاح وقدم الينا شراب « اللاقيمي » الطازج ، والبارد من قدرة انزلها من رأس النخلة ، وهو شراب يستخرج من قلبها .

واخذ يتحدث عن حقله وزراعته حديث العاشق ، ومما قاله : ان الصيف هنا شديد القيظ وهو المناخ المثالي الذى يتطلبه النخيل ، وهنا ازرع الصنف الوحيد الرابع من التمور في اسواق اوروبا والذى يسمى « دقلة النور » اى اصابع النور .

ومازال الفلاح التونسى يرتدى « الشاشيه » غطاء الرأس الاحمر الذى كان يرتديه منذ ايام العثمانيين .

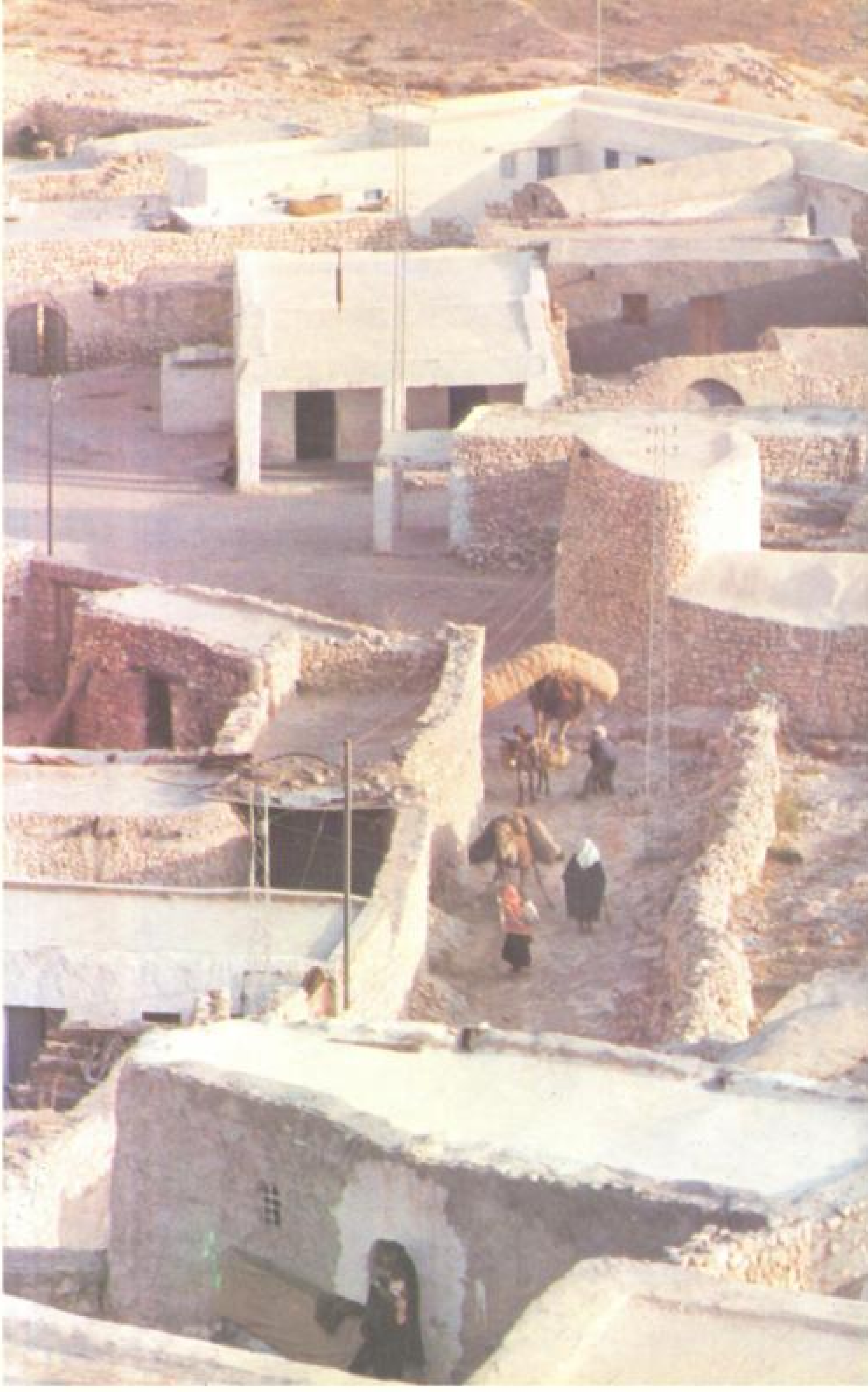
في مقهى تمزرط

منظر عام من منارة المسجد في تمزرط

سيدة من تمزرط







خريطة نباتية

وتتجمع هنا الحياة النباتية والبشرية حول ينابيع المياه، ومازالت بعض بقايا الحياة العذرية لقابس قائمة، وتستطيع ان ترى ما تبقى من تماسيح قابس وثعالب صحرائها وغزلانها في إحدى الحدائق المعدة لذلك.

وقال مسئول الزراعة في ولاية قابس: «لقد وضعت للبلاد خريطة نباتية وبيئية لكل منطقة في تونس، ولأصغر اداري في ولاياتها الثلاث عشرة، تكشف عن امكانيات الارض والمناخ وكمية الامطار، وامكانيات الري والمزروعات التي ينبغي تبديلها او زراعتها او الغاؤها، ويمكن لكل مسؤول ان يحتفظ بها حتى في جيبه».

وبقي في مجالات التغيير والتحديث في قابس، الميناء الكبير الذي يعتبر اكبر ميناء تجاري في تونس، كما اقيمت صناعة الفوسفور المكرر ومصنع ضخم للاسمنت، مما خلق فرص عمل للعديد من شباب تونس.

ورغم كل ماتم فهناك شوط عليها ان تقطعه لتصبح الحياة في قابس، مثل الحياة في تونس العاصمة، وهوالهدف الذي تسعى اليه تونس، ورحلة اخرى اشق واطول لتتحول الهجرة الى هجرة معاكسة من العاصمة الى الاقاليم التونسية البعيدة والنائية.

مطماطة وتمزرط

ويتأكد ذلك القول في الرحلة التي قمت بها خارج مدينة قابس بعيدا عن المدينة وبعيدا عن الساحل، وعندما اتجهنا الى الجبال والفضاء الفسيح متجهين الى بلدة مطماطة

نمط بيوت قمم الجبال في تونس



الشهيرة ببيوتها في باطن الارض ، وتمزرط القرية القائمة فوق قمة الجبل .

ومطماطة تجذب السياح بطابعها الخاص (العربي مايو ١٩٧٠) ، فيسكن أهلها بيوتا نحتوها في اعماق الجبل ، ويطلقون عليها « غيرانا » جمع غار . ويطلقون عليها في ليبيا في المنطقة التي تمتد داخل الحدود الليبية « الاحواش » ، الطريق اليها ليس كله جدبا ، وتمتاز مناظره بالتباين الشديد ، فتارة النخل الباسق والحدائق وتارة السهول الترابية الموحشه الرتيبة ، ويزداد الهواء جفافا ونقاء ، وتتعاقب المنخفضات والسلاسل الجبلية ، حتى تصل بعد ٤٥ كيلو مترا من الطريق المعبد الى مطماطه القديمة والجديدة ، وتتكون مطماطه القديمة من مجموعه متراصة من الروابي المستديرة الشكل . .

ويطلق على سكان هذه المناطق « الجبالية » اي سكان الجبل ، وهم من اصول بربرية ، ومدينة مطماطه القديمة تعيش بأهلها ومتاجرها تحت الارض ، يأتي اليها السياح من قابس ومن جزيرة جربه ، يقضون يوما مختلفا تحت الارض ، يشاهدون خلاله نمطا جديدا للحياة ، وفنونا مختلفه ، والبلدة ترتفع ٤٥٠ مترا فوق سطح البحر ، وابتكر اهلها هذا النمط نتيجة الصراع الحاد مع الجبل والبيئة القاسية ، فكلما توغل ابناء مطماطه في اعماق الجبل تمكنوا من مواجهة حر الصيف وبرد الشتاء القارس ، واصبحوا اكثر امنا وحصانة في مواجهة المهاجمين .

ونترك مطماطه ونتابع مسيرتنا في الجبل . الطريق يصعد الى اعلى قمة في الجبل ، وبعد اثني عشر كيلو مترا نصل اخيرا الى القمة ، الى بلدة تمزرط التي لا يظهر اسمها في اغلب الخرائط ، واقيمت على عكس مطماطه ، فبينما يحفر اهل مطماطه بيوتهم في باطن الارض ، يقيم اهالى تمزرط بيوتهم من الحجر في اعلى قمة الجبل ! ، وقد التجئوا الى اعالى الجبال لكي يأمنوا بطش اعدائهم . وحدد موقعها الحاجة الى الامن عندما اضطر الاهالي الى التخلي عن السهل المنبسط امام الهجمات . ويظهر هنا ما عرفه تاريخ تونس ، من مظاهر الخوف والغارات الدائمة وتجدد الاحداث وتقلب الاوضاع .

يزرع أهالى تمزرط وسط هذه الطبيعة الجميلة والقاسية حواف الجبال ، كما يرعون ماشيتهم في هذه المناطق الوعرة ، تظهر على البلدة ملامح مجد سابق ، ووجه مكتئب عابس من هموم الحاضر ، فقد بقيت على ما هي عليه منذ القدم او كادت ، الدور الحجرية البناء ملتفة حول مركز يسمى « الغرفة » وهو عبارة عن مستودع محصن للحبوب ، ويقارب نمط القلعة في جبال الاوراس ، وتحتفظ الاسرة داخله بمدخراتها من الحبوب في تلك البناية الصغيرة المحنية السقف ، تحيطها « مغاور » متراكبة يطلق عليها اسم « القصور » لدقة صنعتها واشرافها على السهل ، وتظهر على البلدة علامات التدهور والاهمال ، فشبابها يهاجر الى تونس العاصمة او عبر الحدود الليبية القريبة ، فاهل الجبل الذين عرفوا بوفرة النشاط ، كان لا بد لهم ان يبحثوا عن العمل في مناطق اخرى بعد ان ضاقت بهم موارد بلدتهم ، فاخذوا ينزحون بصفة منتظمة ، فبعضهم يعمل في العاصمة بالخبازة ، او كحمالين ، او صانعي فطائر ، او بائعي صحف ، وتلحظ في العاصمة ان كل قرية من هذه القرى تسيطر على حرفه بعينها ، بدأها القادم الاول ثم ساعد ابناء قريته في مشاركته نفس الصنعة ، ويعودون الى قريتهم كل عدة سنوات !

وعند قمة الجبل يوجد الجامع او الزاوية الى جانب المدرسة الحكومية ، والمقهى الذي يجتمع فيه اهلها ، وفي مقهى تمزرط التلفزيون الوحيد في القرية ، والذى تصل اليها عبر ازقة ضيقة متعرجة ، البيوت او « القصور » تقوم فوق بعضها لترسم لوحة تشكيلية من القرون الوسطى .

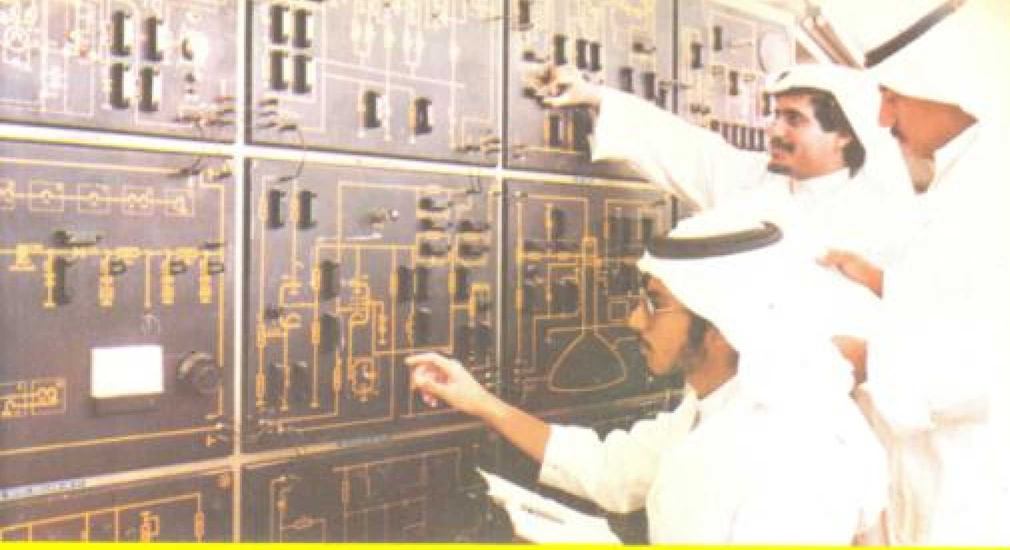
وجمعتنا جلسة مع بعض اهالي القرية على اكواب الشاي الاخضر بالنعناع ، ودار الحديث الذي غلبت عليه رنة الاسى ، حول مدينتهم التي تكاد تحتضر ، ففتيات القرية ينتظرن طويلا فارس الاحلام ، واحيانا بلا جدوى ، فالشباب الذين يرحلون غالبا ما يتزوجون في الغربة ، حتى وصل سن زواج المرأة في تمزرط الى خمسة وثلاثين عاما ، اما سعيدة الحظ التي تتزوج فسرعان ما يتركها زوجها مع الابناء ويسافر بعيدا ، وتبقى وحدها تعتني بالماشية والحقول ، وتنسج الزرابي والبرانس وتنتظر عودته ، ويشترك في الحديث مدرس المدرسة الابتدائية الوحيدة في القرية ويقول : « حتى طلبة المدرسة يتناقص عددهم ، فبعد ان كان ٦٠٠ تلميذ اصبح عددهم ٢٠٠ تلميذ ، والعدد الباقي آخذ في التناقص . . . . »

ويجمل احد الشيوخ مشاكل بلدته بقوله : « ان وعورة الطريق ، جعل البلدة في عزلة عن غيرها من البلاد ، ولا يصلها سوى حافلة واحدة يوميا من قابس ، كما ان ندرة المياه ، جعلت فرص العمل في القرية قليلة او معدومة ، ويلح في ضرورة الاهتمام بالبلدة ، حتى تعود اليها الطيور المهاجرة او بعض مجدها السابق »

ويرد المدرس ورنة السخرية في صوته . . لقد وصلت المدنية الى قابس ، ومعنى هذا انها في الطريق الينا ، في الطريق الى المناطق النائية والبعيدة . . »

ويعلق الشيخ . . « اخشى ان يأتي ذلك بعد فوات الاوان . . »

مصطفى نبيل



قسم الالكترونيات في معهد التكنولوجيا

الكويت تدخل عصر التكنولوجيا التطبيقية

استطلاع : يوسف زعبلاوي

● نحن في شعبة السيارات ، إحدى شعب قسم الميكانيكا .. وفي معمل الاحتراق فيها بالذات .. أما موضوع الشرح العلمي الدقيق الذي استحوذ على اهتمام الطلاب فهو : اداء التوربينات الغازية .





دخلت الكويت التكنولوجيا التطبيقية وانشأت لهذا الهدف معهدا خاصا يعمل في صمت منذ خمس سنوات وهذه هي قصته ...

كانت البداية في الصيف الماضي .. وفي مدينة نيو اورليانز ، ثانية مدن الولايات المتحدة جمالا .. فقد جمعتني الصدفة بفتاة كانت قد تخرجت من المدارس الثانوية قبل شهرين .. وكانت معروفة بتفوقها في الدراسة وبحسن خلقها وخلقتها .. وسألت الفتاة بدافع المجاملة عن الجامعة التي قررت دخولها .. فردت على الفور :

ـ أنا لا أنوي دخول الجامعة .. في الوقت الحاضر على الأقل .. وسألتحق باحدى كليات المجتمع .. فالدراسة في الكلية قصيرة الأجل ، وتمكنني من التخرج في غضون سنتين .. وحينئذ أعيد النظر في الأمر واقرر إما مواصلة الدراسة في الجامعة .. او التوقف عنها ومباشرة حياتي العملية .. ثم إن تكاليف الدراسة أقل بكثير في الكليات منها في الجامعات وهذا أمر يهمني كثيرا ، لأن هذه التكاليف تخرج من جيبي أنا .. لا من جيب والدي ..

وبعثت كلمات الفتاة على حيرتي وحب استطلاعي .. وشاءت الظروف أن تجمعني ببعض العاملين في كليات المجتمع ، المطلعين على شؤونها ... وقد اتسع صدرهم لأسئلتي وأفاضوا في الرد عليها ، حتى عرفت ما لم أكن أعرف عن كليات المجتمع .. وفهمت ما لم أكن أفهم ..

فهمت أن كليات المجتمع في أمريكا ، وهي نظيرة المعاهد الفنية والمهنية عندنا ، ليست مجرد صرعة من الصرعات الأمريكية التي لا تلبث أن تزول بزوال النزوات العرضية التي بعثت عليها ..

وفهمت أن كليات المجتمع إنما تمثل حركة جادة رصينة ان لم نقل ثورة عارمة .. في مجال التعليم العالي ... وأن تلك الحركة أمريكية قلبا وقالبا ، انطلقت استجابة لمثل عليا وتلبية لحاجات في المجتمع واقعية ، وتطبيقا لمبادىء في التربية والتعليم قويمة .. فكليات المجتمع إنما ظهرت لتبقى ... وراحت تنمو وتتقدم حتى أصبحت ذات رسالة مميزة ...

لا عجب إذن أن حرص « العربي » على استطلاع هذه الظاهرة الهامة .. ظاهرة كليات المجتمع .. كما تتمثل في نظيراتها المعاهد الفنية والمهنية عامة ، وفي معهد الكويت للتكنولوجيا التطبيقية بخاصة .

ولا غرابة أن استرسل في الحديث عن التعليم الفني والمهني بصورة عامة ودون حصر بمعهد التكنولوجيا .. على الأقل في القسم الأول من الاستطلاع ..

بدأت القصة في الأمس القريب ..

لعل أول ما يلفت النظر في معهد الكويت للتكنولوجيا التطبيقية حداثة عهده .. فهو فتي ولم يظهر في صيغته الحالية الا قبل خمس سنوات أو ست ، سنة ٧٧/١٩٧٦ .. فهو أصغر سنا من أشقائه ، يليه المعهد التجاري بفرعيه (٧٦/١٩٧٥) فالمعهد الصحي للبنات (٧٥/١٩٧٤) ، فمعهدا التربية للمعلمين والمعلمات (٧٣/١٩٧٢) .

وتجدر الاشارة الى أن قيام هذه المعاهد في النصف الثاني من السبعينات انما جاء وفقا لاستراتيجية جديدة اتضحت وتبلورت في المؤتمر التربوي الكبير الذي عقد سنة ١٩٧٥ واستغرق شهرا كاملا أو يقل قليلا (٢٠ يناير ـ ١٨ فبراير) . وشارك خبراء من اليونسكو ومن رواد التعليم الفني والمهني في العالم العربي ... فضلا عن كبار المسؤولين في وزارة التربية وادارة التعليم الفني والمهني في الوزارة ... وهكذا كان التقرير الوافي « مستقبل التعليم الفني والمهني بدولة الكويت » .. وهو بمثابة حجر الزاوية في الاستراتيجية الجديدة ..

وما أسرع ما توارت المدارس القديمة التي حملت لواء التعليم الفني والمهني بصيغته القديمة .. وما أسرع ما ظهرت معاهد هذا التعليم بصيغتها الحالية .. وقد تخلت نهائيا عن مهمة اعداد العمال المهرة وتركت مسؤولية هذا العمل الى المراكز الخاصة به : مراكز التدريب المهني التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل .

وهكذا نمت البنية الطلابية في معهد التكنولوجيا وفي سائر المعاهد الفنية والمهنية بحيث يبلغ تعدادها سنة (٨١/٨٠) ٩٧٣ طالبا و ٤٢٤٢ طالبا على التوالي ، ولم يجاوز في سنة ٧٧/٧٦ ١٣٤ طالبا و ٢٣١٦ طالبا على التوالي ايضا .

ومعنى هذا أن حصة معهد التكنولوجيا من مجموع طلاب المعاهد الفنية والمهنية يبلغ حاليا الربع (٢٥ ٪) أو يقل قليلا .

أما نسبة ما تستوعبه معاهد الكويت الفنية والمهنية من مجموع خريجي الثانوية العامة فقد بلغ ٣٣٪ في السنة الماضية ، ولم يجاوز ٢٦,٥٪ سنة ٧٩/١٩٧٨ .



شعبة الانتاج ، الشعبة الاساسية في قسم الميكانيكا .. وهي الشعبة التي يلزم طلاب معهد التكنولوجيا جميعا بقضاء الفصل الأول من دراستهم فيها والتدرب على آلاتها ..

ورافق ذلك نمو في الهيئة التدريسية .. وقد شملت سنة ٧٧/٧٦ (٣٩٣) عضوا وزادت حتى بلغت سنة ٨١/٨٠ (٥٤٣) عضوا .. منهم ٢١٫٧ ٪ من حملة الدكتوراه و ٣٢٫١ ٪ من حملة الماجستير . أضف الى ذلك أن نسبة المدرسين الى الطلاب أصبحت في الوقت الحاضر ٨ : ١

وقل مثل ذلك في الهيئة الادارية .. وقد بلغ أعضاؤها ١٥٨ عضوا سنة ٧٧/٧٦ ثم تضاعفوا حتى بلغوا ٣٦٤ عضوا في سنة ٨١/٨٠ .

خير الأمور أوسطها

يستهدف معهد التكنولوجيا تأهيل طلابه لمباشرة أعمال العمالة الوسطى .. فهو يخرج الفنيين والتقنيين لحمل أعباء تلك العمالة في مجالاتها التكنولوجية ـ ولا ريب ـ شأنه في ذلك شأن المعاهد الأخرى غير التكنولوجية التي تعد الطلاب للعمالة الوسطى في مجالاتها غير التكنولوجية ..

وتقابل العمالة الوسطى كما تدل التسمية ـ عمالتان اخريان .. العمالة المتخصصة من جهة والعمالة الماهرة من جهة أخرى .. والأولى هي التي تهتم بها الجامعات ، وتؤهل خريجيها الاخصائيين من أجلها .. والعمالة الثانية هي التي تعمل من أجلها مراكز التدريب المهني ، فتعد العمال المهرة لممارستها .. ولا يخفى أن هذه المراكز تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل .

ولكن ، ما المقصود بالعمالة على وجه الدقة ... ؟

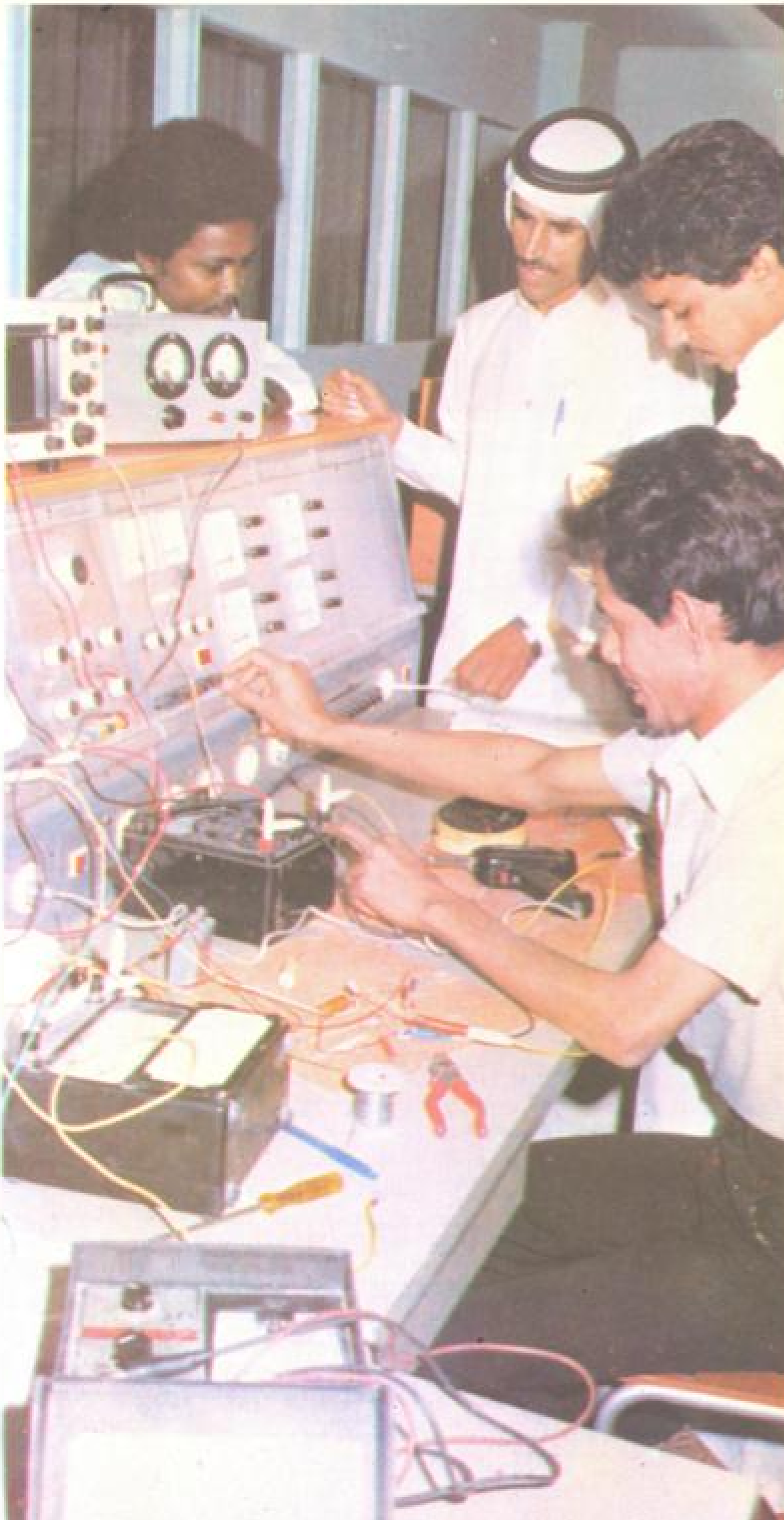
العمالة لغة هي حرفة العامل او عمله .. ويقصد بها اصطلاحا مجموعة الاعمال التي تمارسها فئة من العمال تجمع بين أفرادها خصائص أو مواصفات أو روابط مشتركة .. وهي بكسر العين في كلتا الحالتين .. والا احتملت معنى الكسب او الأجر الذي يجنيه العامل ، كما تاول المعاجم .

على أن ما يهمنا هنا ليس طبيعة الأعمال التي تشملها العمالة الوسطى .. وهو ما سنعود اليه في فصول لاحقة .. بقدر ما هو الدور الذي تلعبه هذه العمالة الوسطى في حياتنا ... فالمجتمعات الانسانية كلها بحاجة الى العمالات الثلاث كلها .. الا أن حاجتها الى العمالة الوسطى تفوق حاجتها الى العمالتين الأخريين حجما والحاحا . ويعزي ذلك الى التكنولوجيا التي أخذت تتقدم بسرعة مذهلة وتمتد الى جوانب حياتنا كلها .. وتنتشر في مشارق الأرض ومغاربها .. وحاجة هذه التكنولوجيا الى العمالة الوسطى كبيرة ، وتفوق حاجتها الى العمالة المتخصصة حجما والحاحا أيضا على الأقل في البلاد النامية التي تستورد التكنولوجيا دون ان تصنعها أو تبتكرها ...

.. ففرص العمل في الكويت هي التي تسعى الى خريجي المعاهد الفنية والمهنية ، وليس العكس .. والبطالة التي قد توجد كثيرا أو قليلا بالنسبة الى العمالة الماهرة والعمالة المتخصصة تكاد أن تكون على طرفي نقيض من العمالة الوسطى .. والأغرب من ذلك أن الدخل الذي يجنيه الفنيون والتقنيون من أعمال العمالة الوسطى يكاد أن يضاهي الدخل الذي يتقاضاه الجامعيون لقاء عمالتهم المتخصصة .. وليس في الأمر غرابة .. فقد لا تحتاج الأسواق الى أكثر من اخصائي جامعي واحد مقابل كل عشرة أو عشرين من الفنيين التقنيين الذين تخرجهم المعاهد الفنية والمهنية .. ومعهد الكويت للتكنولوجيا بخاصة !









● ما أكثر الأجهزة الحديثة في قسم الكهرباء .... أجهزة الاداء والقياس والاختبار .. الى آخر ما هناك .. (الى اليمين) طلاب قسم الانشاءات يتدربون على استعمال جهاز (التاكيومتر) وهو جهاز جديد خاص بقياس المسافات تاكيومتريا . دون حاجة الى أجهزة القياس العادية . ويظهر في الصورة أيضا جهازان آخران : جهاز مقدر المسافات وجهاز التيودولايت .. (فوق) طلاب من سلاح البحرية في الجيش الكويتي يتلقون العلم والتدريب في معهد التكنولوجيا ضمن برامج التعليم المستمر .. وقد التقطت هذه الصورة لهم في مختبر تعليم اللغات .. (أسفل) .



ويعجب المرء بعد هذا للنظرة المتدنية التي تلقاها العمالة الوسطى ويلقاها معها التعليم الفني والمهني في مجتمعنا العربي .. ولعلها أقرب الى المشاعر والنعرات منها الى الأفكار والنظرات .. فهي تجمع بين شعور بالاستعلاء على العمالة الوسطى ، وشعور بالنفور من التعليم الوسيط الذي يستهدفها .. وهو شعور مرضي في كلتا الحالتين ، وتكاد لا تجد أثرا له في نفسية الشعوب المتقدمة .. ترى ما الباعث على هذه النعرات التي غلبتنا على أمرنا وأعاقت تنميتنا وتقدمنا .. ؟ هل هو الغرور الدفين في النفس الذي يحمل الآباء على ارضائه ولو على حساب صالح الأبناء .. أم أن الباعث هو عقدة الوظيفة التي ورثناها عن العهد العثماني والتي اقترنت بعقدة الشهادة الجامعية ؟ وقد عانت منها الشعوب المتقدمة في القرون الوسطى وحتى ظهور الثورة الصناعية التي اذابت تلك العقد ومحت آثارها .. ومن يدري ! فقد يكون الباعث هو الجهل ...وتكون التوعية هي السبيل للقضاء على تلك العقد ...

قصر الأجل حسنة .. بل ميزة

تستغرق الدراسة في معهد التكنولوجيا سنتين ونصف السنة (٥ فصول دراسية × ١٥ أسبوعا) وسنتين فقط في سائر المعاهد الفنية والمهنية (٤ فصول فحسب) . وهي تمتد أربع سنوات في الجامعات .. وقصر الأجل هذا سمة تلازم التعليم الفني والمهني حيثما كان ، وهي ، وان لم تكن أهم سماته ، فهي ـ بلا ريب ـ اشهرها ،، وقد أصبحت معاهدة تعرف باسم « الكليات القصيرة الأجل » وذلك لتمييزها عن « الكليات الطويلة الأجل » ، أي الجامعات ..

على أن خريجي المعاهد الفنية والمهنية .. ومعهد التكنولوجيا بالذات ليسوا ملزمين بالتوقف عن الدراسة ومباشرة حياتهم العملية .. فهم مخيرون بين ذلك وبين مواصلة الدراسة التخصصية في الجامعات . وفي حالة التحاقهم بالجامعة تحتسب لهم المقررات التي درسوها في المعاهد وكأنهم درسوها في الجامعة .. فلا يقضون في الأخيرة سوى سنتين أو تزيد قليلا للحصول على شهادتها ، شهادة البكالوريوس ..

ولعل هذه الميزة المزدوجة هي التي تحبب كليات المجتمع الى قلوب الطلاب الامريكيين كما تبين من حديث الفتاة الذي سقناه في مستهل هذا الاستطلاع . فهم يشعرون بانهم لا يخسرون شيئا بعزوفهم عن الجامعات ويكسبون الكثير بالتحاقهم في المعاهد .. يكسبون ـ على الأقل ـ حق مواصلة الدراسة في الجامعة اذا شاءوا .. وحق دخول معترك الحياة اذا أرادوا ..

ولكن الكثيرين من الطلاب عاجزون بسبب ظروفهم العائلية او المالية عن المضي في الدراسة الجامعية طوال اربع سنوات .. ومضطرون للالتحاق بالكليات القصيرة الأجل بسبب تلك الظروف .. ويصدق هذا على طلابنا أكثر مما يصدق على الطلاب الأمريكيين .. أضف الى ذلك أن الكثيرين منهم ميالون بحكم فطرتهم الى أعمال العمالة الوسطى والى التعليم الفني والمهني الذي يؤهل لها ويؤكد بالتالي الجوانب العملية والتطبيقية في الدراسة فضلا عن الجوانب النظرية .. لا عجب اذن أن وجد هؤلاء الطلاب واولئك ضالتهم المنشودة في المعاهد الفنية والمهنية .

والغريب أن البعض ما زال يرى في قصر أجل المعاهد الفنية والمهنية ما ينتقص من قيمتها الأكاديمية .. ولو كان الأمر كذلك لما أقرت الجامعات التعادل بين التعليم الفني والمهني وبين المرحلة الأولى من الدراسة فيها .. ولما سمحت بالتبادل بين طلاب المعاهد وطلابها .. ورحبت بطلاب المعاهد في رحابها سواء بعد التخرج او قبله .

وتجدر الاشارة هنا الى الاحصاء اللطيف الذي أجرته بعض الأوساط الأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية ، وقارنت فيه بين النتائج التي احرزتها فئتان من طلاب المرحلة الثانية في الجامعات .. فئة الطلاب الاصلاء الذين التحقوا بالجامعة منذ البدء وفئة الطلاب الدخلاء الذين انتقلوا الى الجامعة بعد تخرجهم من كليات المجتمع . فقد اثبتت المقارنة أن نتائج الفئة الثانية كانت خيرا من نتائج الأولى .

التعليم المستمر والأبواب المفتوحة

تأتي الآن الى سمتين أخريين ومميزتين من سمات التعليم الفني والمهني .. سمة التعليم المستمر وسمة الأبواب المفتوحة ..

فالمعاهد الفنية والمهنية تؤمن بان التعليم عملية مستمرة سواء قبل التخرج أو بعده .. فالمعرفة والعلوم ثروة هائلة يتعذر حصرها ويستحيل استنفادها لا على الطلاب فحسب ولكن على النوابغ والعباقرة أيضا . ولو ذكرنا أن تلك الثروة التي كانت تنمو باستمرار واطراد حتى الامس القريب أصبحت تنمو بسرعة خارقة وتتراكم على نطاق مذهل ، لتبين لنا ان التعليم المستمر بعد التخرج ليس أمرا مستساغا فقط ولكنه ضرورة حيوية لا غنى للافراد والمجتمعات عنها .

من هنا كان حرص معهد التكنولوجيا وأشقائه المعاهد الأخرى على تنظيم برامج خاصة بالتعليم المستمر ، غير برامج التعليم النظامية المعدة لطلاب المعهد النظاميين . ولعل البرنامج الذي أحدثه المعهد لصالح سلاح البحرية في الجيش الكويتي خير مثل نضربه على التعليم المستمر .

بقي أن نتحدث ـ ولو بايجاز ـ عن سياسة الأبواب المفتوحة .. فقد عرف عن المعاهد ـ الفنية والمهنية في أمريكا بخاصة انها ترحب بكل من يطرق أبوابها .. وليس معنى هذا أنها بلا شروط دخول .. فشروط الالتحاق فيها قائمة .. ولكن المقصود بسياسة الأبواب المفتوحة أن معاهد التعليم الفني والمهني لا تغلق أبوابها في وجه الراغبين في دخولها .. لاسباب عرقية او دينية او جنسية ..

اما الشروط التي يجب توفرها للالتحاق بمعهد الكويت للتكنولوجيا وسائر المعاهد الشقيقة فاهمها شهادة الثانوية العامة أو ما يعادلها .. وتجدر الاشارة الى شرط آخر ، هو شرط الجنسية الكويتية .. يعزي ذلك الى الاوضاع السكانية والجغرافية القائمة في الكويت .. وهي أوضاع غير عادية ، والى قلة المعاهد الفنية والمهنية فيها .. ومع ذلك فان وزارة التربية درجت على قبول ابناء الخليج وابناء المقيمين بنسبة ١٠ ٪ لكل منها .

شعبة الانتاج

جذع الشجرة وأغصانها

رحنا نطوف بمختلف أقسام المعهد وشعبه ونتجول في شتى مختبراته وورشه .. ونتحدث الى مدرسيه وطلابه .. فهذه اللقاءات الحية هي التي تساعد على موافاة القاريء بصورة حية .

وكان قسم الميكانيكا هو القسم الأول الذي استأثر بزياراتنا الأولى .. ولا عجب .. فهو أكبر أقسام المعهد بلا نزاع (انظر الجدول) .. وهو اكثرها اتساعا ومقررات وشعبا .. فهو يضم خمس شعب ولا يزيد ما يضمه غيره من الأقسام على شعبتين ، باستثناء قسم الانشاءات الذي يضم ثلاثا .

نذكر من شعبه الخمس شعبة القوى المحركة الميكانيكية وشعبة السيارات ونذكر شعبة التبريد والتكييف وشعبة اللحام ونذكر أخيرا شعبة الانتاج .. خامسة شعبه .. بل أولاها .. ان لم نقل أهمها ..

ـ ولكن ما المقصود بذلك .. ؟ وما المقصود بالانتاج أصلا .. ؟

ورد أحد المسؤولين قائلا :



لاغنى للعاملين في ميادين الهندسة المعمارية والمدنية عن تحديد قوة ضغط الخرسانة .. لذلك كان هذا الجهاز في قسم الانشاءات .. فهو يقيس الضغط أو قوة احتمال الخرسانة وذلك بعد صبها بثلاثة أيام وسبعة أيام وثمانية وعشرين يوما ..

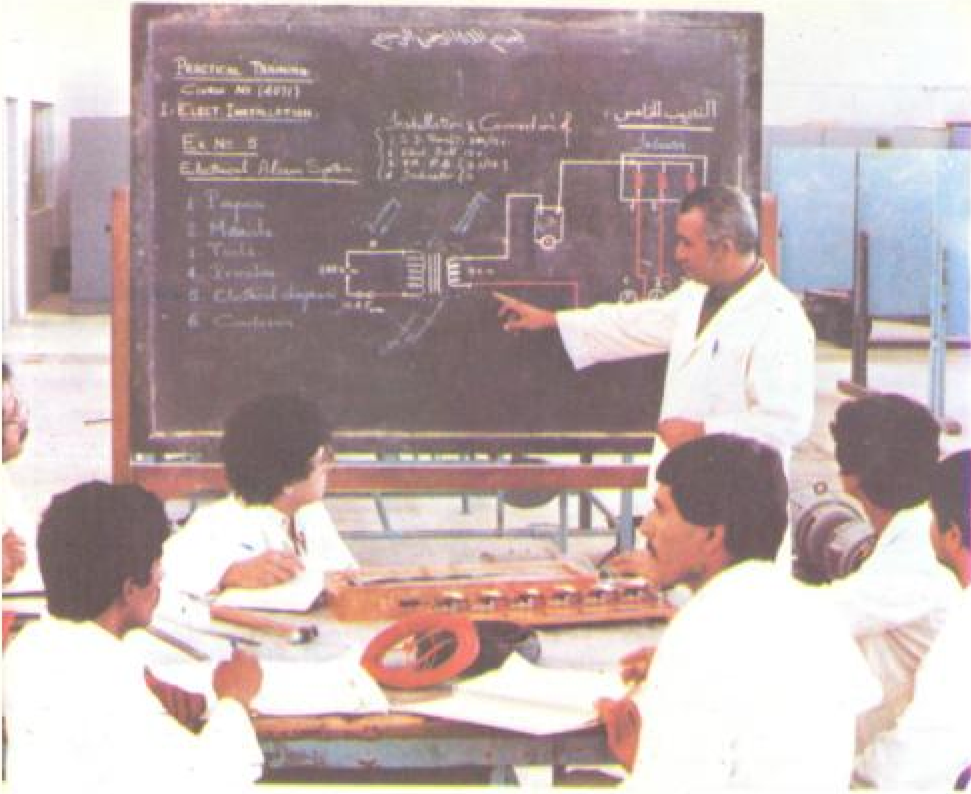
ـ التشكيل وتحويل المادة من حالة الى حالة هو المقصود بالانتاج .. انه أشتات الأعمال التي تقوم بها المخارط والمسابك والمصاهر والمكابس والمقصات .. وغيرها .. والتي لا تستغني عنها المصانع ولا السيارات ولا القطارات ولا السفن ولا الطائرات .. انها الأعمال التي تقوم عليها صناعة الأثاث المعدني وصناعة الصفيح وغيرها ولا تقوم هذه الصناعات قائمة من دونها ...

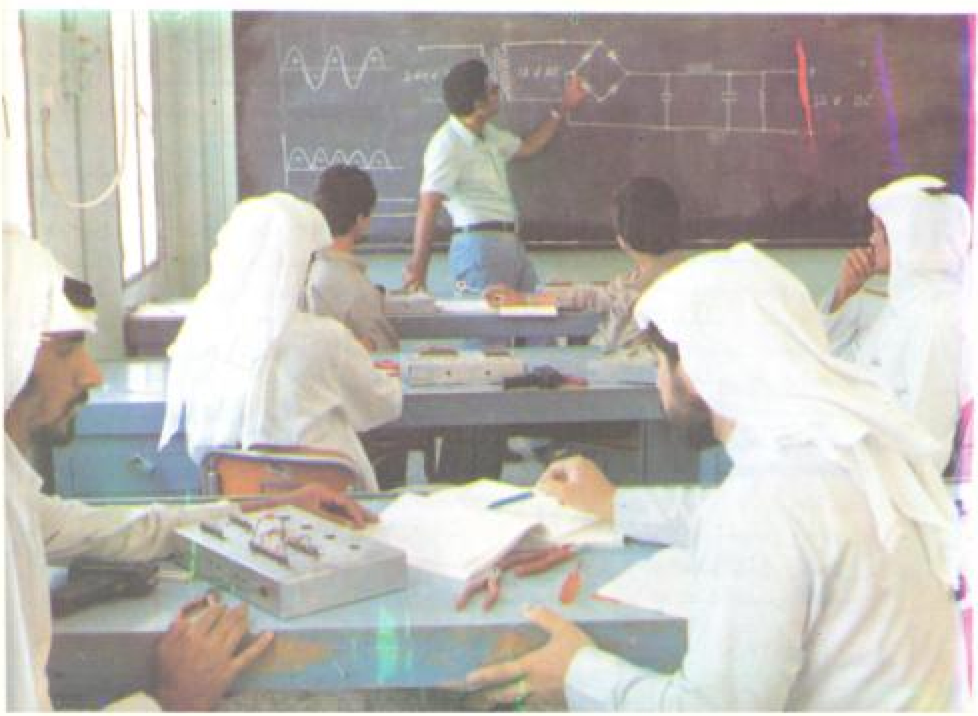
ولنضرب مثلا بالسيارة التي توقفت لتلف اصاب احدى قطعها .. ولعدم توفر تلك القطعة في محلات قطع الغيار المستوردة . عندئذ يمكن اللجوء الى احدى المخارط .. والحصول على قطعة بديلة تحل محل القطعة التالفة .. وتعيد الحياة الى السيارة ..

وقد تكون القطعة التالفة قطعة من مصنع اسمنت او مصنع ثلج .. وقد تكون خامتها من الحديد الزهر لا الحديد المطاوع او الصلب ، كقطعة السيارة .. فهي في هذه الحال مصبوبة صبا ولا بد من الرجوع الى أحد المسابك للحصول على قطعة بديلة .. وفق ما تقتضيه خامتها ...

وواصل المسؤول حديثه فقال :

ـ هذه الأعمال هي بمثابة القاسم المشترك في شتى دور الصناعة .. سواء منها الصناعات الثقيلة او الخفيفة


PRACTICAL TRAINING
1. ELECT INSTALLATION
Ex No 5
Electrical Alarm System





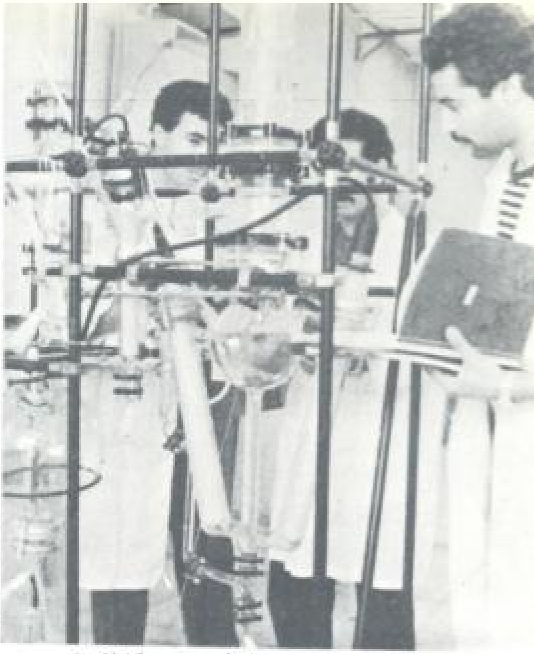
● قسم الكهرباء .. وطلاب الفصل الدراسي الثاني فيه .. وهم يستمعون الى شرح أحد الأساتذة لأنموذج من التمديدات الكهربية التي تقوم الطلبة بادائها في القسم (الى اليمين) .

● في قسم الكهرباء أيضا .. وشرح نظري لدائرة التغذية بالتيار المستمر .. والشرح مقترن بالتطبيق كما تبين الأجهزة الظاهرة أمام الطلبة (الى اليمين أسفل) .

● التجارب المخبرية التي يجريها طلاب قسم الكهرباء على أجهزة بالمجسم الصناعي .. وذلك تحت اشراف المدربين (الى اليسار) .

● تدريب عملي على استعمال الأجهزة الالكترونية ، وفق الشروح النظرية ، وذلك في قسم الالكترونيات الصناعية .. أما الطلاب فهم من الجيش الكويتي ومن سلاح البحرية فيه .. يتلقون العلم في معهد التكنولوجيا ضمن برامج التعليم المستمر فيه (الى اليسار أسفل) .





جهاز فصل السوائل بالتقطير .. وهو، كما لا يخفى، من أجهزة قسم الصناعات الكيميائية والجهاز عبارة عن غلاية يدخل فيها خليط السوائل المراد فصلها .. ويتم تجزئة الخليط ورده الى مكوناته في برج التقطير وذلك على خمس مراحل ..

او التحويلية او تلك التي تنتج السلع الاستهلاكية او الخامات والمواد الأولية، ناهيك بوسائط النقل البري والبحري والجوي .. فأعمال شعبة الانتاج هي قاسمها المشترك الأعظم ..

من هنا كان طلاب المعهد جميعا ملزمين بقضاء الفصل الدراسي الأول في شعبة الانتاج .. وبالنجاح في مقرراتها النظرية والعملية اذا أرادوا متابعة الدراسة في المعهد.

هذا بالطبع اذا لم يكن الانتاج هو الاختصاص الذي يريد .. ففي تلك الحال يواصل الطالب دراسته في شعبة الانتاج هذه طوال الفصول الدراسية الخمسة ..

هل من عجب بعد هذا أن وقعت شعبة الانتاج من معهد التكنولوجيا موقع الجذع من الشجرة، وان حظيت باهتمام دور الصناعة جميعا .. وحظي خريجوها بفرص عمل تفوق غيرها كثرة واغراء!

شعبة السيارات: تفضح حاجتنا الى التقنيين

وانتقلنا بعد ذلك الى شعبة السيارات .. وهي شعبة اخرى ثانية من شعب قسم الميكانيكا .. ولا أدري لم انتابني شعور بالكآبة ونحن نطوف بارجاء هذه الشعبة .. فهي حسنة التجهيز ومقبلة على مزيد من تجهيز .. وما أسرع ما اتضح لي السبب .. اوليست السيارة هي أكثر ما يفضح قصورنا بالنسبة الى العمالة الوسطى .. فعلى كثرة السيارات في بلادنا العربية .. وعلى كثرة كراجاتها .. فان ميكانيكييها التقنيين الاكفياء قلة نادرة .. ولا أدري الى متى نمضي في لامبالاتنا بأعداد فنيي السيارات التقنيين القادرين على اصلاحها وصيانتها .. وفي تجاهلنا الخسائر المادية الكبيرة التي مازلنا نتكبدها في هذا الميدان: فالميكانيكيون الحاليون في الغالب عمال مهرة .. اكتسبوا خبرتهم العملية عن طريق العمل في خدمة «المعلمين» .. بحيث أصبحوا معلمين مثلهم بعد حين .. فمهارة هؤلاء تقوم على المحاولة والخطأ والتقليد .. وكثيرا ما تلعب الصدفة دورا هاما في اعمالهم ...

وسألنا محدثنا عما يدرسه الطلاب في شعبة السيارات .. فقال:

- يدرسون علوما بحتة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء، فضلا عن الميكانيكا .. ويدرسون علوما تطبيقية كتحويل الطاقة والرسوم الهندسية وشؤون الوقود والزيوت ونظرية الماكينات والكهرباء .. هذا الى جانب العلوم التخصصية التي تشمل فيما تشمل علم محركات الاحتراق الداخلي وتكنولوجيا السيارات.

وشعبة السيارات هذه تضم ثلاث وحدات او أربعا، وحدة الديزل ووحدة المحركات .. وكذلك وحدة البطاريات ووحدة المحور الخلفي وصناديق التروس القائمة على قواعد .. فضلا عن الشاسيه والتعليق الامامي.

شعبة التبريد والتكييف: الأجهزة مستوردة وكذلك الفنيون ..!

وكانت محطتنا الثالثة هي شعبة التبريد والتكييف .. إحدى شعب قسم الميكانيكا الخمس .. فقد انتشرت المكيفات المركزية وغير المركزية في المنازل والمحلات التجارية، فضلا عن المستشفيات والمصانع .. وبلغ من استمتاعنا بنعمة التكييف هذه ان كثرت في منطقتنا سيارات الركاب المكيفة .. وأقبل الناس على انشاء مخازن التبريد والتجميد في المدن والثغور .. وظهرت سيارات التبريد الضخمة التي تنقل الخضار والفاكهة عبر الصحراء، وتقطع بها المسافات دون ان تفقد شيئا من نضارتها. وانتشر التكييف والتبريد لا

في الكويت فحسب ولكن في عدة بلاد عربية أخرى ، خليجية وغير خليجية ..

وهكذا نشأت سوق هائلة رائجة للمكيفات والثلاجات ولوازمها .. وظهرت مع هذه السوق العمالة الوسطى .. فالحاجة الى أعمال صيانة أجهزة التكييف والتبريد حيوية بقدر ما تقوم هذه الأجهزة بوظيفة حيوية .

ولكن الفنيين الذين حملوا أعباء العمالة الوسطى في مجال التكييف والتبريد كانوا في الغالب مستوردين .. وقد استوردتهم الوكالات والشركات من الهند وغيرها لملء الفراغ .. ولا ريب أنهم أفادوا واستفادوا بالرغم من أنهم كانوا أقرب الى العمال المهرة منهم الى الفنيين التقنيين .

من هنا كان الاهتمام الكبير بشعبة التبريد والتكييف . فلعل خريجي هذه الشعبة هم الذين سيملئون الفراغ في مستقبل قريب .. ولعلهم سيملئونه عن جدارة واستحقاق .

ذلك انهم ليسوا مؤهلين لاعمال الخدمة والصيانة والاصلاح فحسب وانما لاعمال التصميم أيضا .. تصميم مشاريع التكييف المركزي .. بكل ما تتطلبه أعمال التصميم هذه من ضبط ودقة وما تستوجبه من عناية في وضع الرسوم وتحديد المواصفات .. هذا الى جانب تأهيلهم لاعمال التنفيذ .. وفق الرسوم والمواصفات .. وعجبنا لشمول مقررات شعبة التكييف والتبريد هذه وتساءلنا عما اذا كانت قد تركت شيئا للجامعات .. !

وزرنا فيما زرنا مختبر تكييف الهواء في الشعبة .. وهو يضم وحدة تكييف مركزي بكاملها وكامل ملحقاتها .. ويضم أيضا وحدة توليد بخار ووحدة أخرى خاصة بازالة الرطوبة .. هذا الى جانب وسائل الايضاح وأجهزته .. ومنها ما يبين عمل تكييف الهواء المركزي ومنها ما يوضح عمل مكيفات النافذة .

وزرنا كذلك مختبر التبريد .. حيث مصنع الثلج وجهاز آخر مستقل لصنع مكعبات الثلج .. حيث غرفة التبريد او التجميد .. ويضم مختبر التبريد أيضا وحدات العرض وورشة أعمال الاصلاح والصيانة ووسائل الايضاح .. ومما لفت نظرنا في هذا المختبر وجود ثلاجة تعمل وفق نظرية الامتصاص ..

قسم الانشاءات : المهندسون والمساعدون : اي الفئتين أوفر حظا ؟

ولا ندري لم توجهنا الى قسم الانشاءات بعد قسم الميكانيكا مباشرة .. او لعلنا ندري .. فلطالما عرف هذا القسم بجاذبيته الخاصة للطلاب .. وحظي بمزيد من اقبالهم ويذكران عدد الطلاب المقيدين في شعبه الثلاث بلغ في السنة الماضية (١٩٨٠/١٩٨١) ٨٣ طالبا .

وتعزى جاذبية قسم الانشاءات الى فرص العمل المغرية المتاحة لخريجيه في ميادين الهندسة المدنية والمعمارية ، فالظاهر ان هذه الميادين متعطشة للعمالة الوسطى أكثر منها للعمالة المتخصصة ... ولعل حاجتها الى التقنيين يبلغ في تقدير البعض ، عشرة أضعاف حاجتها الى المهندسين الاكاديميين ... وشاءت الظروف ان تنعكس هذه النسبة بين المتقدمين للعمل في هذه الميادين ، فيكون المهندسون الاكاديميون منهم هم الكثرة .. والفنيون التقنيون هم القلة ..

من هنا كانت هذه القلة موضع ترحيب المصالح والشركات العاملة في تلك الميادين وكانت فرص العمل المتاحة لافرادها مغرية . والأجوراللتي تعرض عليهم مجزية .. وقد فاقت في بعض الحالات المرتبات التي يحصل عليها المهندسون الاكاديميون أنفسهم .. فهل من

في قسم الكيمياء أيضا .. نموذج مصغر لمصفاة نفط كاملة .. يتدرب عليه الطلاب فيؤهلهم للعمل في مصافي النفط بكفاءة .



عجب بعد هذا ان شدت شعبة الانشاءات هذه الطلاب اليها شدا ..

وقد فهمنا ان مقرراتها تشمل فيما تشمل خواص المواد الانشائية وكذلك الرسومات الانشائية والمساحية وتشمل ايضا تكنولوجيا الخرسانة فضلا عن الخرسانة المسلحة .. اضف الى ذلك حساب الكميات والرسوم التنفيذية ومقررات الاعمال الترابية وميكانيك التربة والاساسات .. وتشمل كذلك مقررات الانشاءات المعدنية واصول التنفيذ والرقابة .

قسم الكهرباء : في قرن من الزمان تصبح كالدم في عروق الانسان

وتوجهنا بعد ذلك الى قسم الكهرباء .. ذلك الشيء الغامض الذي يسمونه التيار الكهربائي والذي لما يعرف كنهه احد بعد ... ذلك الشيء الذي كان لا شيئا في الامس القريب ثم ما لبث ان أصبح كل شيء في حياة الانسان .. وذلك في غضون مائة عام فقط ...

ففي الثمانينات من القرن الماضي عرض فرادي مولده الكهربائي الاول .. وكان جهازا بدائيا قوامه قرص من نحاس يلف ويدور بين قطبي مغناطيس .. وابتسم أحد الزوار الذين شاهدوا التجربة ابتسامة المجاملة التي لم تخل من رثاء لسذاجة فرادي وغيره من العلماء .. ثم قال معلقا : ـ تجربة لطيفة جدا .. كل شيء رائع ، ولكن ما الفائدة ؟ ما المنفعة العملية التي يمكن للمجتمع الانساني ان يجنيها من مولدك الكهربائي هذا .. ؟

رحنا نطوف بورش قسم الكهرباء الرحبة ونتحدث الى مدرسيه وطلابه التسعه والخمسين .. الموزعين على شعبتيه .. شعبة الآلات الكهربية وشعبة نقل الطاقة الكهربائية وتوزيعها ....

قسم الصناعات الكيماوية : البترول العربي : هل يؤدي الرسالة قبل النفاد

وانتقلنا من قسم الكهرباء الى قسم الصناعات الكيماوية .. حيث يدرس البترول والبتروكيماويات .. ولعلنا لم نشعر بفارق كبير .. فكلا القسمين يعنى بالطاقة وكلاهما عماد أساسي تقوم عليه حياةة الانسان المعاصر .. مع الفارق أن البترول أوثق صلة بوجودنا ومصيرنا نحن العرب .

وسألنا عن مقررات القسم وطبيعة الدراسة فيه .. فكان الرد :

ـ لا يبدأ التخصص والتشعيب الا في الفصل الدراسي الثالث .. فالفصل الأول تمهيدي والزامي يقضيه طلاب القسم وسائر طلاب المعهد جميعا في شعبة الانتاج .. والفصل الثاني يقضونه في دراسة مواد علمية بحتة كالكيمياء العضوية وغير العضوية والفيزياء التحليلية .. والرياضيات واللغة الانجليزية ، وحين يبدءون الفصل الثالث ينقسمون الى فئتين تلتحق احداهما بشعبة الصناعات البترولية وتلتحق الأخرى بشعبة الصناعات الكيماوية .. ويستمر الطلاب على تشعيبهم هذا في الفصل الدراسي الرابع .. ونذكر من مقررات شعبة الصناعات البترولية في الفصل الثالث النفط ومنتجاته وتكنولوجيا الوقود والتآكل .. ونذكر من مقرراتها في الفصل الرابع تكنولوجيا البتروكيماويات وتكرير البترول وكذلك اختبارات نواتج البترول .

وغني عن البيان ان الفصل الخامس فصل تدريب ميداني أي ان الطلاب ملزمون بقضاء ١٥ اسبوعا في مختلف شركات البترول .. وذلك من أجل التدريب الفعلي .. ويمتد دوامهم فيها أربعة أيام في الأسبوع ويقضون اليومين الباقيين في المعهد وذلك لدراسة البتروكيماويات والقياس والتحكم .

ولعل السؤال الذي يمر بخاطر كل عربي هذه الأيام هو : هل سيكتب للبترول العربي اداء رسالته قبل نفاد مخزونه .. ؟

في ظل الثورة الصناعية الثانية

وانتقلنا بعد ذلك الى قسم الالكترونيات .. محطتنا الأخيرة في معهد الكويت للتكنولوجيا التطبيقية ... ولا أدري لم شعرت بالارتياح ونحن نزور ورش هذا القسم وشعبه ..

لعل الباعث على ذلك الشعور ما يقيمه قسم الالكترونيات هذا من دليل على أن الثورة الصناعية الثانية ، القائمة حاليا في الغرب ، لم تقم في غفلة منا ، ولم تأخذنا على حين غرة ، كما فعلت الثورة الأولى .. فقد بلغنا من الوعي ما مكننا من اكتشاف تلك الثورة في الوقت المناسب ...

ولا يقصد هنا الا الثورة الألكترونية التي بدأت تجتاح دول الغرب قبل سنوات قليلة ، والتي أخذت تقترب من ذروتها وتعد ببلوغها في غضون سنوات قليلة ... فقد باتت قاب قوسين من ثورة المعرفة أو أدنى .. وقد لا يبدأ القرن الواحد والعشرون حتى تمكنا



الدكتور علي شعيب ، مدير معهد الكويت للتكنولوجيا التطبيقية ، والاستاذ غلوم العطار ، مدير المعهد المساعد لشؤون التسجيل ، الى يساره ، والاستاذ عيسى العيسى وكيل المعهد للشؤون الادارية ، الى يمينه . التقطت الصورة أثناء انعقاد المؤتمر الثاني لاعضاء هيئة التدريس في المعهد . أما الشارة فشارة المعهد وهي من تصميم قسم الوسائل السمعية والبصرية في المعهد .

الأجهزة الألكترونية من الاستغناء عن المكتبات العامة والموسوعات والجامعات ، وتضمن لنا جني الثمار الطيبة التي نتوخاها من هذه وتلك ونحن جالسون في بيوتنا . ولا ندري مدى التغير الذي سيطرأ على حياة الانسان ، ولربما على طبيعته البشرية أيضا ، نتيجة للثورة المعرفية هذه وللثورة الألكترونية التي تسببت بها .

ورحنا نتجول في قسم الألكترونيات ونطلع على ما يقدمه الى طلابه في شعبه الثلاث ... شعبة تكنولوجيا الاتصالات وشعبة التحكم والالكترونيات الصناعية والشعبة الجديدة التي تحصر اهتمامها بمجال واحد فقط من مجالات التطبيق العديدة .. اعني مجال الأجهزة الحيوية الطبية . فشعبة هذه الأجهزة غنية اذن عن التعريف .

اما شعبة الاتصالات فتشمل فيما تشمل شتى الأجهزة المستعملة في الاتصالات الهاتفية والسنترالات ، فضلا عن أجهزة الاذاعة والتلفزيون سواء منها أجهزة الارسال أو الاستقبال أو أجهزة الاستوديوهات .

وأما شعبة تكنولوجيا التحكم والالكترونيات الصناعية فتشمل الحاسبات الألكترونية (الكومبيوتر) وأجهزة التحكم الألكتروني في شتى تطبيقاتها الصناعية .. بما فيها الرجل الآلي « الروبوت » ... من هنا كان اقتران أجهزة هذه الشعبة بمفهوم الألكترونيات في اذهان الكثيرين .. وكان اقترانها أيضا بالثورة الألكترونية أو الثورة الصناعية الثانية التي سبقت الاشارة اليها .

بقي أن نشير الى قسمين آخرين من أقسام المعهد : قسم العلوم الانسانية والاساسية وقسم رعاية الطلبة .. ولا يخفى انهما قائمان أو موجودان في سائر أقسام المعهد الأخرى .. الأول بمقرراته والثاني بانشطته ..

خريجو معهد التكنولوجيا : من هم وأين هم ؟

انهم الفنيون التقنيون الذين يؤهلهم معهد التكنولوجيا لحمل أعباء العمالة الوسطى .. وهم يتمتعون بمؤهلات مختلفة ... نذكر منها تشغيل الأجهزة وضبط اداتها ، وتعييرها ، واكتشاف أي خلل قد يطرأ عليها ، وتشخيص أعطالها واصلاح بعض هذه الأعطال ، وفق ما تقتضيه العمالة الوسطى .. على أن قوام مؤهلات التقني هو الجمع بين التأسيس العلمي النظري من جهة وبين المران العملي والتدريب الميداني من جهة أخرى ..

أما الفرص المتاحة لخريجي معهد التكنولوجيا فكثيرة ومغرية .. فهم يستطيعون استكمال دراستهم المتخصصة في احدى الجامعات الانجليزية أو الأمريكية التي ترحب بهم وفق الاتفاقات الأكاديمية الرسمية المعقودة معها .

ولكنهم يستطيعون ، لو شاءوا ، مباشرة حياتهم العملية ، والالتحاق باحدى وزارات الدولة ، حيث يعينون في الدرجة الخامسة ، منذ بدء خدمتهم ، أو دخول القطاع الخاص ، حيث يحصلون على مرتبات شهرية تتراوح بين ٣٠٠ ـ ٥٠٠ دينار أو تزيد ..

يوسف زعبلاوي

دفتر "النسوان" الشامي

بقلم : عبد الغني العطري

لا احسب ان بلدا على وجه الارض ، يخلو من التقاليد والمعتقدات القديمة .. بعضها ينسجم مع روح العصر ، ومعظمها مما لا يتلاءم او ترضى عنه الاجيال الصاعدة . ونحب ان نحصر كلامنا في هذه السطور بالمعتقدات الشعبية ، التي يتفاءل الناس ببعضها ، ويتشاءمون من بعضها الآخر .

في احدى المدن الاميركية ـ على سبيل المثال ـ بئر تلقي فيها النسوة بقطع النقود ، لتحقيق الآمال : كعودة الغائب ، او رد الحبيب ، او الشفاء من المرض ...

وفي بعض المدن الاوروبية يتوجهون الى قبور الابطال والفنانين والموسيقيين ، يلتمسون النجاح في عمل ، او تحقيق امل بعيد المنال ! ..

ومن منا لا يعرف ان الغرب كله ـ بما فيه الولايات المتحدة الاميركية ـ يتشاءم من الرقم ثلاثة عشر ، الى حد مضحك : معظم الفنادق تحذف من ارقام غرفها هذا الرقم .. بعض اصدارات اليانصيب تتجاوز الرقم الذي ينتهي بثلاثة عشر .. انهم يتشاءمون من هذا الرقم المسكين ويتجاوزونه ويرونه رمزا للخيبة والفشل .

ويطول بنا الحديث ، اذا ما رحنا نعدد معتقدات الشعوب الاجنبية ، وايمانها بالخرافات ، التي لا تستند الى حقيقة او واقع .

وفي وطننا العربي الكبير ، كثير من امثال هذه المعتقدات ، التي ينطبق عليها اسم « الفولكلور » الشعبي ... ولعله من المفيد والطريف ان تسجل هذه المعتقدات وتنشر ، لتبقى في دفتر الذكريات ... الذكريات الحلوة الشيقة ، بعد ان اخذت هذه المعتقدات وهذا « الفولكلور » الشعبي طريقها الى الزوال والنسيان .

وحبذا لو تفضل بعض كتاب « العربي » ، في الوطن العربي الكبير ، باحصاء وتسجيل هذه المعتقدات ، كل في البلد الذي ينتمي اليه ، ويعيش تحت سمائه ، ويشرب ماءه ، ويتفيأ ظلاله .

وسأحاول من جهتي ، ان اتحدث اليوم عن هذه المعتقدات الشعبية في سورية عامة ، ودمشق خاصة ، حيث كانت الخرافة تكثر وتنتشر ، وما تزال آثارها ماثلة للعيان .. بل ما زال الالوف يؤمنون بها ، ويخضعون لناموسها ، ولا سيما في الاحياء الشعبية والقرى والارياف .

ان هذه المعتقدات ما تزال مسيطرة على العقول ، لدى الاوساط والاحياء التي ذكرت .. ولسعة انتشارها وقوة نفوذها ، يطلقون عليها لقب : دفتر « النسوان » ، اشارة الى انها خرافة ، وليست واقعا ولا حقيقة .

وبعد ـ عزيزي القاريء ـ هل تريد ان تعرف شيئا عن دفتر « النسوان » الشامي ، هذا ؟ اذن هاك هذه القائمة ، التي استطعت احصاءها ، بعد ان استعنت بعدد من سيداتنا المسنات :

ـ حاذر ان تقص اظافرك ليلا .. كيلا ترى مناصات وحشه !

ـ اياك ان تعود مريضا في يوم الاربعاء .. لانه ـ في هذه الحال ـ لن يشفى !

ـ يوم الاربعاء فيه ساعة نحس .. وفيه ساعة حظ ايضا !

ـ لا يغسلون الثياب في ايام الاثنين ، لان السيدة فاطمة دعت ـ في زعمهم ـ ان غسيل الاثنين لا يبقى ، وصاحبه لا يبقى !

ـ لا يلقون الماء الساخن على الارض ، كيلا يصيب الجن ، فتنتقم من الفاعل !

ـ لا يقصون ثوبا في ايام الثلاثاء ، لان هذا الثوب يذهب حريقا او ارثا !

ـ يخافون القطة السوداء ، ويتحاشون ايذاءها .. لانها قد تكون جنيا متخفيا !

ـ يقولون ان الفراشة التي تطير في البيت ، ما هي الا روح من الاقرباء تحوم فيه ، فيجب العطف عليها وعدم ايذائها ..

ـ لا يقطعون شجرة في منزل ، لان قطعها يسبب وفاة صاحب المنزل !

ـ لا يرشون احدا بالماء .. لان رش الماء يسبب الفراق !

ـ لا يخرجون الاواني النحاسية من البيت بعد المغرب .. والسبب مجهول !

ـ لا يدخلون قطع الصابون الى المنازل في ايام السبت ، ولا يخرجونها ، لانها قد تسبب وفاة احد افراد المنزل وغسله بها !

ـ اذا طنت اذنك اليمين ، فهذا يعني ان صديقا او محبا يذكرك .. اما اذا طنت الاذن اليسرى ، فعدوك هو الذي يذكرك !

ـ اذا شعرت بحكة في باطن كفك الايمن ، فان قبضة من المال في طريقها اليك .. اما اذا كانت الحكة في الكف الايسر ، فهذا يعني انك ستدفع !

ـ لا يقيمون اعراسا ليلة الجمعة ، لان عروس الجمعة ، قريبة الرجعة !

ـ يعطون العروس ، ساعة دخولها بيت الزوجية ، قطعة من العجين ، لتلصقها خلف الباب .. وتلصق العروس معها في بيت الزوجية الى الابد !

ـ اذا حدثت وفاة في احد المنازل ، فانهم يصرون على اخراج المغتسل قبل المتوفى ... لئلا تتكرر الوفاة ثانية وثالثة !

ـ اذا وقف الغراب على احد المنازل وصاح ، فان غائبا سيعود ، في ذلك اليوم او الاسبوع .

ـ اذا شعرت بحكة في الحاجبين ، فانك ستذهب للسلام على غائب !

ـ اما اذا مسحت قطة البيت وجهها بيدها ، فان ضيوفا ولا بد في طريقهم الى البيت !

هـذا غيض من فيض من « دفتر النسوان الشامي » .. ولله ما اطول هذا الدفتر ، وما اكبره ، واوسعه . وكما سبق ان قلت ، فان هذا الدفتر في طريقه الى الانقراض والزوال .. ولم يعد لدي معظم الناس اكثر من ذكرى للتفكه والتسلية .

ان هذه العادات والمعتقدات ، لا تعدو ان تكون محض ظرافة توارثناها من الامهات والجدات .. ووصلت الينا من عصور الجهل والظلم والظلام ...

لقد اوشك امثال هذه الخرافات والمعتقدات ان يزول وينقرض لدى الامم الحية .. ودفتر « النسوان » الشامي ، دفتر خرافاتنا الشعبية ، وعاداتنا البالية ، يجب ان يزول ويمحى ايضا . ولكني ارى ان على الكتاب والادباء في الوطن العربي ، ألا ينسوا تأريخ هذه العادات لتظل ذكرى للاجيال القادمة . ■ ■

■ سأل سقراط أحد تلاميذه مرة : أيها خير للمرء : أن يتزوج أم ألا يتزوج ؟ فقال سقراط : « أيها فعلت ، فانك على الحالين نادم » .

غداً.. يوم جديد!

بقلم : منير نصيف

من هي المرأة التي يبحث عنها الرجل في الزواج ؟

يقول هربرت زيروف في كتابه « البحث عن الألفة » : « الرجل تسحره المرأة الجميلة وتشده المرأة الذكية .. ولكنه يتزوج المرأة التي يرى في عينيها صورة أمه » .

فهو يريد امرأة تحبه وترعاه وتعني به ، تماما كما كانت تصنع به امه عندما كان طفلا ! ثم يروي لنا قصة صديقه الذي عاش بينهم كأشهر عزب في التاريخ .. كان الذي بينه وبين الزواج ابعد كثيرا من المسافة التي تفصل بين الأرض والشمس ، وحتى لو استطاع ان يصل اليها ، فسوف يقفل راجعا لانه لا يريد ان يموت محترقا ! الى هذا الحد كان يخاف الزواج ويهرب منه !

ثم رأوه يوما في الاصيل والشمس توشك على الغروب ، ولم يكن وحده .. كانت معه فتاة صغيرة جميلة .. وكانا يسيران كما يفعل العشاق على شاطيء البحر يرقبان مياهه وهي تعانق الشاطيء الهادىء .. وقد تعانقت يداهما .. واقتربوا منه .. وأسرع يقدمها لهم « هذه زوجتي .. منذ ايام قليلة احتفلنا بزواجنا .. انها اعظم امرأة في العالم ! » .

.. ولم يحترق !

لقد اقتحم صاحبهم العالم « البعيد الغريب » الذي ظل يهرب منه ثم وجد نفسه يوما يركب اول باخرة تقله عبر هذا الكون الواسع من حوله الى كوكب الشمس .. ووصل اليها ومشى فيها بقدميه ولم يحترق !

وسألوه : « كيف حدث هذا ؟ اين وجدتها ؟ » .

وجلس ، وكان وحده في هذه المرة وراح يحكي :

« كنت مدعواً الى حفل عيد ميلاد شقيقتي .. لم اكن قد زرتها في بيتها الجديد بعد ان تزوجت واصبحت اما .. لم تكن مجرد دعوة لحضور حفل .. فقد قرأت في رسالتها اشياء اخرى .. انها تريدني ان ازورها .. ان ارى بيتها واحمل طفلها الصغير .. وذهبت ، كانت رحلة طويلة فهي تعيش في الريف الذي يعمل فيه زوجها مهندسا .. ولكي أصل اليه ، لابد لي من ان استقل القطار ثم بعد ذلك سيارة .. ربما امضيت خمس او ست ساعات لا اذكر .. المهم انني تأخرت كثيرا عن الموعد الذي كانت شقيقتي قد حددته لي . فقد كانت تريد مني ان اصل قبل ان يحين موعد نوم طفلها ..

كان في البيت الناس كثيرون .. انهم الاصدقاء الجدد الذين عرفوهم في هذا المكان الهادىء الجميل الذي ينام اهله مع الطيور والغروب .. ولكنهم في تلك الليلة خرجوا على المألوف وسهروا من اجل شقيقتي التي اعدت لهم الفطائر واقداح الشاي .. ومن اجل شقيقها الزائر القادم من بعيد وقد حدثتهم عنه طويلا قبل ان يلقوه !



لم اعرف بكل هذا الا عندما قررت ان ابيت ليلتي عندما حدث ما حدث !

ـ وما الذي حدث ؟

واحترقت ساقاه !

ـ جلست بين الناس ساهما شاردا ، عندما سمعت صوتا يدعوني الى تناول الشاي . ثم يسألني اذا كنت اريد المساعدة . وكان صوتا حانيا رقيقا . لم اهتم كثيرا بالنظر الى صاحبة الصوت . ولكن وجدتني اهز رأسي موافقا . فقد كنت متعبا من الرحلة . وبدأت اشعر بالراحة في جلستي فلم اشأ ان اعود الى الوقوف !

ونظرت اليها وهي تقف امامي ممسكة بقدح الشاي . ولا اعرف ماذا حدث في اللحظات التالية . ولكن الذي اعرفه انني احسست بساقي تحترقان ! لقد اهتزت اليد التي كانت تمسك بقدح الشاي وانسكب كله على بدلتي الجديدة واحترق جسمي تحتها !

« لم يكن شيئا خطيرا يستحق كل الاهتمام الذي اظهره الحاضرون بما حدث . تألمت حقيقة ولكنه كان ألما محتملا . المهم انهم بحثوا عنها . عن الفتاة التي تطوعت « لمساعدتي » ، فلم يجدوها . لقد خرجت مسرعة من البيت لتعود بعد نصف ساعة ومعها رجل يحمل حقيبة صغيرة ويبحث عني من وراء زجاج نظارته الغليظة . انه طبيب القرية . لقد ذهبت اليه في بيته ورجته ان يأتي معها فورا ، ولم يكن امامه الا ان يفعل ، لانها ابنته الوحيدة ، ولانها كانت تبكي !

« وانتهت القصة بدهان الساقين المحترقتين . وانتهى الحفل ، وجاءت تودعني . مدت اناملها الرقيقة تصافحني ، وقالت : « لا احد كلاما اقوله ، فقط ارجوك ان تقبل اعتذاري » !

ونظرت الى صاحبة هذا الوجه ، ربما لأول مرة منذ وصولي ، وشدتني عيناها . كان فيهما نظرة تحمل كل معاني الأسف ، وربما اشياء اخرى كثيرة لم افهمها الا عندما جاءت في صباح اليوم التالي تسأل شقيقتي عن الحروق التي اصابت ساقي !

وتهلل وجهها عندما رأتني قادما امشي اليها : « هل انت بخير هذا الصباح ؟ » .

ـ نعم . انها حروق سطحية ، وقد شفاها الدواء الذي احضره والدك .

رأيت امي !

وهمت بالانصراف . ولكنني سارعت الى اللحاق بها ، واستوقفتها ، وقلت : « لقد كنت اخشى النار ، لانني لا اريد ان احترق بلهيبها . وبالأمس فقط احترقت بنارك ووجدتني اشعر بدفء غريب كانني اسبح في ماء لسعته الشمس . هل تقبلين ان اتقدم الى ابيك طالبا يدك ؟ ! » .

« ولم تجب . لقد اذهلتها المفاجأة ، ووجدتها تتركني وتذهب مسرعة عائدة الى البيت ولم تنظر وراءها مرة واحدة ! » .

« في مساء ذلك اليوم كنا قد اصبحنا خطيبين ، وبعد اسبوع واحد عدت الى بيت شقيقتي لنحتفل بزواجنا واحملها معي الى عشنا الجديد في المدينة . قلت لها وانا اضع خاتم الزواج في أصبعها : هل تعرفين لماذا اخترتك انت انني رأيت فيك أمي عندما جرحت اصبع يدي لما

كنت طفلا في العاشرة . . كانت عيناك وانت تعتذرين لي تقولان نفس المشاعر التي قرأتها في عيني أمي وهي تضمد لي جرحي ! »

محاولة يائسه !

يقول زيروف في كتابه : « الهرب من الزواج » محاولة يائسه لا يقوى على الاستمرار فيها الا من تزوج عمله . . ايا كان هذا العمل ، ولكن حتى هذا تجده قد ضاق بالحياة والعمل والنجاح الذي ربما يكون قد حققه عندما يشعر انه يقف وحده ويدور في فراغ . . كلنا يشعر لسبب او لآخر انه يستطيع ان يعيش حياة بلا حياة . . فالزواج هو الحياة لأنها لا تستمر الا به . . وعندما يكتشف هذه الحقيقه تبدأ تتغير نظرته لها . . ومع هذا التغير يبدأ البحث عن الشريك الذي سيمضي معه هذه الرحلة . . وعندما يجده يتملكه الشعور بانه سوف يعطيه أخيرا كل شيء افتقده في حياته وحده .

اما هو فيقول في خاتمة رحلته : « لقد وجدتها ، فقد اكتشفت انني احبها . . انها المرة الاولى التي اشعر فيها بهذه العاطفة تملأ قلبي وحياتي ! »

واما هي فتراها قد جلست فوق قمة العالم ، لقد اختارها دون كل النساء . . وضع فوق راسها تاجا ، فاعطته قلبها . . احبها واحبته وتزوجا .

الحب في الزواج !

ولكن ماهو الحب في الزواج ؟

يقول هربرت زيروف في كتابه : « الحب غير واقعي » . فمنظر رجل وامرأة يسيران على شاطيء البحر عند الغروب ، يترجم المعنى المثالي للرومانسية . . ولكن الزوجين لا يعيشان هكذا في حياتها الخاصة ، ربما في العطلات بعيداً عن دوامة العمل اليومي ومسئوليات الحياة والاطفال . . أما في حياة كل يوم فهما يعيشان قريبا من بعضهما البعض حيث يرى كل منهما في الآخر بثوره وتجاعيده ونقاط الضعف فيه . . ونتيجة لهذا فاننا نجد الرجل والمرأة في الزواج قد تخليا عن الجري وراء السراب وبدأ الاثنان محاولة اخرى جادة للتعرف على حقيقة شخصية شريكه الجديد .

والعثور على هذا « الحب الحقيقي » لا يتحقق الا اذا بدأ الزوجان يتعرفان على بعضهما البعض وكأنهما يلتقيان لاول مرة بعيدا عن القناع الذي كان يضعه كل منهما على وجهه خلال فترة الخطوبة او حتى بعد الزواج الى ان تسقط الاقنعة من تلقاء نفسها ، او تسقطها تجربة الحياة الجديدة . . عندئذ تبحث الزوجة عن الصفات التي تعجبها في زوجها ، ويبحث الرجل بدوره عن المزايا التي يراها في امرأته . . وفي هذه المرآة الجديدة يرى الزوجان بعضهما ويتحول الحب بينهما الى شعور واقعي وتصبح الحياة مودة ورعاية ومشاركة في كل شيء .

وقود السفينة !

ويمضي زيروف : « الشريكان في الزواج لابد لهما من ترك مسافة بينهما حتى تستطيع علاقتها ببعضهما الاستمرار في التنفس . . فالرعاية تساهل وتنازل وليست استبدادا . فهناك توازن لا يمكن لاحد ان ينكر وجوده في الزواج . . انه شيء اشبه بالارجوحة التي ترتفع وتهبط مع الثقلين الموجودين عند طرفيها . مع ثقل واحد لن تعمل ، فسوف تظل هابطة ولن ترتفع ابدا . . إن حركة الاخذ والعطاء هي وقود محرك سفينة الزواج . ان الشعور الذي يتملك المرء رجلا كان ام امرأة بانه شخصية لها اهميتها الخاصة عند شريكه في الزواج . . هذا الشعور هو رغبة ملحة عند كل البشر . ولكنه شعور لن يتحقق ابدا بحب التملك او الامتلاك . . او فرض سيطرة احدهما على الآخر .

« احد اهم علامات النضوج في الزواج هي ادراك وقبول الحقيقة القائلة بان ما يريده احد الزوجين لا يتحتم ان يكون واضحا تماما في كل الظروف . . فكلنا يشعر انه سوف يجد شريكا يفهمه ويعطيه كل ما افتقده في الحياة . . ولكن الواقع يقول غير هذا . . ان « الحب الجديد » في الزواج يدفعنا دفعا الى محاولة قراءة افكار بعضنا البعض . .

الفارس الذي ذهب !

« لقد تغيرت صورة الحياة بعد خروج المرأة من البيت . . فقد تعلمت وعملت ووقفت تزاحم الرجل في هذا العالم الذي كان له وحده بلا منافس منذ وقت ليس ببعيد .

« وفي قصة الزوجة الشابه التي ذهبت إلى أمها تشكو

لأنها لم تجد في الرجل الذي تزوجته « الفارس » الذي كانت تراه في احلامها . . . لم تكن فتاة عادية تنتمي الى جيل امها . . فقد كانت فتاة متعلمة حصلت على قدر كبير من التعليم الجامعي وتفوقت في دراستها حتى اذا ما جاء لحظة الاختيار ، كانت هي في مقدمة المرشحين للعمل في الجامعة والدراسة في نفس الوقت من اجل الحصول على درجة علمية اكبر . .

« وفي الحرم الجامعي . . وبين قاعات المحاضرات كان لقاؤها بالشاب الذي اختارها شريكة له في حياته . . وتزوجا . . ولكنها ، ولا أحد يدري كيف ، كانت مازال تعيش الماضي الذي نشأت فيه ورأت امها تعيشه . . فهي لم تتوقف للحظة واحدة لتقارن بين ما كانت عليه امها ، وما آلت اليه هي . . كانت ما تزال ترى في هذا الماضي نموذجا لما يجب ان تكون عليه الحياة بين الزوجين . . أي زوجين . . حتى عملها الناجح لم تتوان في اظهار استعدادها لتركه اذا احست انها قد عثرت على الصورة التي رسمتها لفتى احلامها في الرجل الذي تزوجته !

« واذهلته المفاجأة . . ان زوجته امرأة ذكية ناجحه . . ثم لماذا الآن ؟ كيف تترك عملها وتضحي بدراستها بعد اشهر قليلة من زواجها . . لوانها اصبحت أما ، ربما ، ولكن الآن ، هذا هو الشيء الذي لم يفهمه ، وعبثا حاول ان يقرأ ما يدور في راسها حوله !

« ماذا حدث لهذه الفتاة ؟ انها تحب زوجها . والحب يولد الخضوع . . وهي تنظر الى رجلها نفس النظرة التقليدية القديمة التي كانت تراها في عين امها . . وتصورها لها الحكايات في الكتب ، لقد خلق الرجل ليحمي المرأة ، انه الفارس الذي يمتطي صهوة جواده الأبيض ويقفز به فوق الحواجز ، بينما تقف هي من وراء نافذة حجرة نومها ترقبه في اعجاب قبل ان يترجل عن جواده ويطرق باب البيت طالبا « اميرته الحسناء » !!

الحياة تتطور !

« ولكن اين هو « الفارس » اليوم ؟ اين الرجل القوي الذي يفتح فم التمساح ويخنق الثعبان ويركب ظهر النمر ؟ واين هي المرأة الضعيفة التي تقف في رعب ترقب كل هذه المعارك التي تدور من اجلها ثم تلقي بنفسها بين ذراعي البطل ؟ انها هنا . . ولكنها يسكنان شقة صغيرة في عمارة كبيرة . . ويعمل الزوج ، وتعمل الزوجة من اجل توفير حياة كريمة لهما ولا طفالها . . قد لا يكونان في نفس مستوى الذكاء . . او في مستوى التعليم . . او المستوى الوظيفي . . ولكنهما متساويان في الحقوق وفي الواجبات وفي احتياجاتها اليومية . واذا ادرك الزوجان هذه الحقيقة فسوف ينعم الاثنان بهذا الشعور الذي يوفر لها السعادة ، وهو انها قد اصبحا وحدة واحدة لا تتجزأ !

الأيام الحلوة !

ثم يقول زيروف : « واسوأ ما يمكن ان يحدث للزوجين هو العيش في الماضي . . الماضي الذي عاشه الزوجان منذ عامين او ثلاثة اعوام مضت على سبيل المثال . فتقول الزوجة او يقول زوجها : لماذا لا تسير الأمور ، كما كانت تسير من قبل ؟ » .

« ولن يجدي الطرق على ابواب الزمن في اعادة لحظة واحدة من لحظات الماضي الذي يتمنون لو انه عاد ! ففي الزواج بين الشباب تتطور الامور بسرعة . . وتتغير الحال بسرعة اكبر ، لان كلا منهما مشغول ببناء مستقبله والبحث عن نفسه ومواجهة التحديات الجديدة في عمله . . واذا ادرك الزوجان هذه الحقائق ، فسوف يمران خلال اول تجربة تواجههما بنجاح . . اما اذا تصورا ان علاقتهما ببعضهما قد تغيرت دون ان يفكر احدهما او الاثنان معا في التعرف على اسباب هذا التغير المفاجيء ، ومحاولة اعادة البريق الى حياتها التي تسلل اليها الشعور بالملل . . اذا حدث هذا ووجد الزوجان نفسيهما في حسرة على الأيام الحلوة التي ولت ولن تعود ، فقد يؤدي هذا الشعور في النهاية الى فشل زواجهما قبل ان يبدأ !

الايام الحلوة !

« المستقبل وتحديات الحياة بدلة يلبسها الزوجان عندما يذهبان الى عملهما في الصباح ، فاذا عادا الى البيت خلعها كل منهما ونسيا معها كل ما حملته وتحمله . . وجلسا يتحدثان في اي شيء عن اي شيء لا يتصل بالعمل . . او ربما وضع كل منهما نفسه في ملابس جديدة ، وتركا البيت الى اي مكان تقودهما اليه اقدامهم ويجدان فيه متعة للروح وراحة للرأس المتعب القلق . .

« لا بد ان ننسى متاعب الامس ، فغداً دائما يوم جديد . . وما يحدث اليوم قد يكون انتقالا ولكنه ليس نهاية . . اذا نسينا الأمس ،فسوف تنعم بالغد ، وبكل تجربة يحملها الينا . . وسوف نتعلم كيف تمر بنا ولكن لن ندعها ابدا تعيش معنا ! ■■

منير نصيف

طرائف عربية

دفن في الرياحين

● اصطبح المأمون وعنده عبدالله طاهر، ويحيى بن اكثم، فغمز المأمون الساقي على اسكار يحيى فسقاه حتى تلف، وكان بين ايديهم رده فيه ورد، فشقوا فيه شبه اللحد ودفنوه في الورد، ثم نظم المأمون فيه هذين البيتين، وامر بعض جواريه، فغنت بهما عند رأس يحيى

« ناديته وهو ميت لاحراك به
مكفن في ثياب من رياحين
فقلت : « قم » قال : « رجل لا تطاوعني »
فقلت : « خذ » قال : « كفي لا تواتيني »

وجعلت المغنية تردد الصوت، فأفاق يحيى وهو تحت الورد، فأنشأ يقول مجيبا

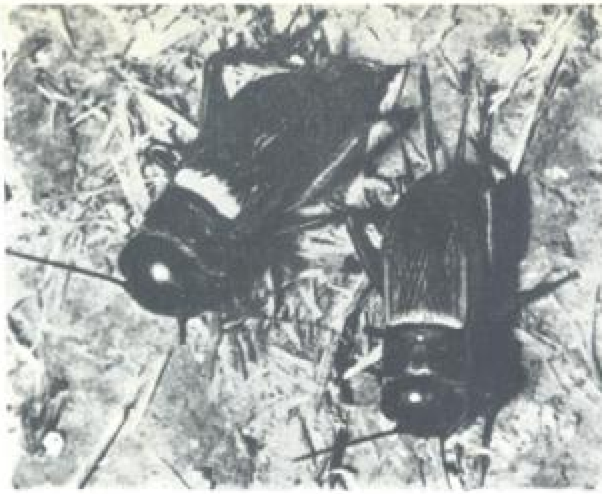
يا سيدي وأمير الناس كلهم
قد جار في حكمه من كان يسقيني
اني غفلت عن الساقي فصيرني
كما تراني سليب العقل والدين
لااستطيع نهوضا، قد وهى بدني
ولا اجيب المنادي حين يدعوني
فاختر لنفسك، « قاضي » انني رجل
الراح تقتلني والعود يحييني

صفات الخادم الممدوحة

● خير الخدام من كان كاتم السر، عادم الشر، قليل المؤونة، كثير المعونة، صموت اللسان، شكور الاحسان، حلو العبارة، دراك الاشارة، عفيف الاطراف، عديم الاتراف.

دليل النبوة !

● جيء الى الخليفة المأمون برجل ادعى النبوة فسأله : « ما الدليل على نبوتك ؟ » فاجاب الرجل قائلا : « الدليل على ذلك اني اعلم ما في نفسك ». قال : « فماذا في نفسي الان ؟ » قال : « في نفسك انني كذاب ! » فضحك المأمون وامر بحبسه اياما، ثم دعاه وسأله : « هل اوحي اليك بشيء ؟ » قال : « لا لان الملائكة لا تدخل السجن ! » فضحك المأمون وقبل توبته واخلى سبيله ».



صرار الليل وغناؤه لجذب الاناث اليه

لغة التفاهم عند الحشرات

بقلم الدكتور صلاح بركات

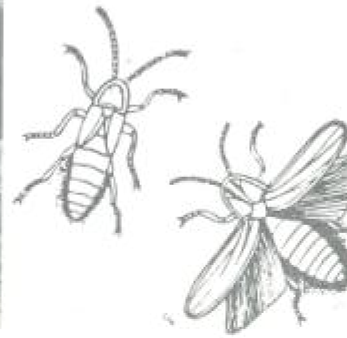
تلعب الحشرات دورا هاما في حياة الانسان ، لانها تعتبر العامل الرئيسي في القاح الازهار ، وبالتالي تكوين الثمار والبذور اللازمه لغذاء الحيوان والانسان ، وحتى تؤمن هذا لابد من استمرار تكاثرها ، ولذا نجد ان الحشرات تسعى للاتصال بافراد نوعها ، فهي لا تعيش بصمت كما يبدو لنا ، بل إنها اكثر منا سعيا وراء مطلبها و تستعمل لذلك عدة لغات ، فمنها من لا يجيد الا لغة واحدة ، ومن يجيد اثنتين ، وهناك المبدع في ذلك وهذا لاعجب فيه ، فهذا خلق الله وهداه .

الحشرات نوعان منها ، ما هو اجتماعي ، يعيش ويعمل مشاركا غيره ، كالنحل والنمل ، ومنها ، ما يحب العيش منفردا ، قانعا بنفسه ، تلك وهذه ، متنوعة العيش البيئي ، فهي على الاشجار ، او داخلها ، او بين جذور الاعشاب وأوراقها ، ومنها ، ما هو غواص في التربة او الماء ومنها ما هو متطفل على الحيوان وبني الانسان . . ولغة العيون او النظر ، لا تكفي للحشرات لايجاد افراد جنسها ، لاتمام عملية الاقتران ، لان هناك من العوائق الكثير مما يحول دون رؤية بعضها البعض ، ولذا نجد ان الحشرات قد زودت بوسائل اخرى للاتصال والتفاهم ، ويمكننا ان نصنف هذه الوسائل الى أربع :

- وسائل بصرية فبين انواع الحشرات من يستعمل



يتم اصدار الصوت عند الجراد عن طريق احتكاك غمد الجناح بالارجل .



ذبابة النار حشرة تستعمل الضوء كلغة للتفاهم فيما بينها

الاشارات الضوئية ، او غيرها ، لجذب أفراد نوعه وتدعى هذه بالحشرات الضولية .

ـ وسائل صوتية ، وهذه الانواع تبث اشارات صوتية ، لها معنى من دون شك ، عند افراد نوعها وهي تحافظ على الايقاع والوزن بشكل دقيق ، وتعتبر هذه الاشارات نوعا من الموسيقى وهناك ايضا من الحشرات من يغني ، ويسامر في الليل دون ملل ليجذب قرينته وصاحبته .

ـ وسائل كيميائية ، تستعمل بعض الانواع مواد كيميائية ، بصورة روائح خاصة فبعضها ينشر روائح عطرية والآخر روائح نتنة ولكن كلها تاتي بالمطلوب .

وسائل لمسية : وفيها نجد أن الحشرات تستعمل الاتصال المباشر ، للتعبير عما يجول في خاطرها .

الحشرات المضيئة

هناك بعض الانواع الحشرية تبث اشارات ضوئية ، تشاهد خاصة في ليالي الصيف ، حيث يسعى الناس لالتقاط يرقاتها المضيئه من بين الاعشاب ، او حشراتها الكاملة ، ومن هذه الحشرات ، النطاطات فصيلة من غمديات الاجنحة ـ واليراعات وهي عبارة عن خنافس من غمديات الاجنحة ايضا ـ تشع الاناث منها وتدعى يرقاتها المضيئة بالديدان المشعة ، ويلاحظ ان الذكر هو الذي يملك الاجنحة ، بينما الاناث تكون خالية منها ، وتكون اطول من الذكر ، كما في حالة النوع « لامبير س نوكتيلوكا » . تعمل هذه الاشارات المنبعثة من الاناث ، على جذب وتوجيه الذكور نحوها ، وتفضل هذه الحشرات العيش في الغابات الرطبة ، وتتغذى على الانواع الصغيرة من الحلزون ، وذلك عن طريق حقن كمية مناسبة من السم فيه ، ومن ثم تعمل على امتصاص سوائله وهناك نوع اخر من الحشرات المضيئة والتي تدعى بالحباحب .

ان الاجهزة المبثة للضوء في هذه الحشرات ، غالبا ما تكون غير ظاهرة للعيان ، الا في بعض الانواع ، كالنطاطات مثلا ، فاجهزتها تظهر على قاعدة الحلقه الاولى من الصدر ، وتكون ذات حجم كبير ظاهر .

هذه الأجهزة او الأعضاء الضوئية ، تبث ضوءا متغير اللون كالأخضر او الأحمر مثلا ولون الضوء المرسل ، يميز الانواع عن بعضها البعض كما ان هذا الضوء ، يمكن أن يكون مستمرا ـ كما في حالة بيوض بعض الخنافس التابعة لليراعات . او بصورة متقطعة ، وفي هذه الحالة فان نظام ارسال الضوء ، يكون ايضا متميزا عند كل نوع ، فللذبابة النار أربعة انواع مختلفة ، في كيفية ارسال الضوء ، بل



يتم اصدار الصوت عند الحشرات الدينا ستيديه عن طريق احتكاك غمد الجناح بمؤخرة البطن

نلاحظ ان نظام ارسال الضوء عند الذكر والأنثى من نفس النوع يختلف ايضا ، كما ان فترة الأضاءة عند الذكور اطول مما هي عليه عند الاناث وهذه الاناث لا تجاوب الا ذكور أنواعها .

واذا كانت هذه الاشارات قد تطورت أساسا لتسهيل عملية الالتقاء والتزاوج ، ما بين افراد النوع الواحد ، فاننا نجد ان بعض الانواع ، قد استخدمتها في امر آخر ، فاناثها خاصة ، تجاوب ذكور نوعها ، وذكور الانواع الاخرى وفي كلتا الحالتين ، فان الذكور تقترب من الاناث ، وهنا يتحدد رد الانثى ، فان كان هذا الذكر من نفس نوع الأنثى فانها تتزاوج ، معه وان ظهر انه من نوع آخر ، فيقضت عليه وافترسته .

هذا الضوء المرسل ما هو الا عبارة عن اشارات مصطلحة ، ما بين الانواع الحشرية ، اناثها وذكورها ، تستطيع بفضله الاتصال والتفاهم ، هذه الاشارات تبث عادة من بدء غياب الشمس ، بوقت تكون فيه كثافة ضوء النهار ذات قيمة معينة ، اما الجهاز المكون لهذه الاشارات الضوئية . فيتركب من طبقة داخلية محتوية على بلورات من اليورات (املاح لحمض البول) ، وبلورات من الكزانتين (مركب ازوتي وثيق الصلة بحمض البول)، هذه البلورات تعمل عمل المرآة العاكسة ، ومن كتلة علوية خلاياها محتوية على العديد من الحبيبات الدقيقة ومزودة بكمية كبيرة من الاعصاب ، وبشبكة كثيفة من انابيب التنفس ، هذه الكتلة تشكل العضو المولد للضوء ، يتحكم في بث الضوء عصب مزاجي ، ويتدخل في عملية التحكم هذه ، هرمون الادرينالين ، وهو هرمون تفرزه الغدة الكظرية ، وعقار ابيض اللون متبلور يعمل على تنبيه القلب .

اما انتاج الضوء ، فيتم نتيجة تفاعل كيميائي انزيمي ، ويدخل في هذا التفاعل الزيم اللوسيفراز الحساس للحرارة ، والذي يؤكسد مادة اللوسيفرين الى مادة اوكسي لوسيفرين مع اشعاع ضوئي .

هذا التفاعل مثل باقي التفاعلات الانزيمية ، تفاعل متوازن ، ولون الضوء ، وسرعة الاكسدة يتوقفان على نوعية انزيم اللوسيفراز ، وهناك بعض الانواع الحشرية ، تنتج الضوء بطريقة اخرى ، فهي تشارك بكتريا مضيئة خاصة ، وتتفاعل معها لاعطاء الضوء ، هذه المشاركة المؤقتة غالبا ما تؤدي في نهاية الامر إلى موت الحشرة .

الحشرات ذوات الرائحة

ان انتشار الروائح من الحشرات معروف من قبل الانسان ، منذ امد بعيد ، وقل منا من لا يعرف الرائحة الصادرة عن الحشرة المسكية والتي تشبه الى حد بعيد رائحة المسك هذه الحشرة الصغيرة ، من غمديات الأجنحة تتواجد على سوق واشجار الصفصاف .

ان استعمال المواد الكيميائية من قبل الحشرات بصورة روائح يكسبها عدة ميزات منها ، انها تعتبر :

ـ وسيلة للدفاع : ان كثيرا من الانواع الحشرية تبث روائح كريهة اذا ما شعرت بالخطر ، فحشرة الاوسمودرما ارميكولا تبث رائحة الجلد ، اما الحشرات السيتونيه الكبيرة ، التي تعيش في الأشجار المنخورة ، فانها تنشر رائحة البق ، واذا ما وضعت هذه الحشرات ما بين الاصابع ، فان هذه الرائحة المنتة تبقى ملتصقة باليد لمدة طويلة ، وهناك انواع اخرى تابعة لغمديات

الاجنحة . بامكانها ملء غرفة واسعة برائحتها الكريهة . هذه الروائح تكون مصحوبة . بمواد اخرى مؤذية . وترشح عن طريق فتحات غدية خاصة . فمثلا عند الحشرات التابعة لغمديات الاجنحة . كخنافس الدقيق . والدعسوقيات (حشرات السبع نقط) تطرح مع هذه الروائح . بعض قطرات من الدم ويعرف هذا بالنزف الارادي . وبسبب هذه الروائح النتنة . فان الحيوانات المتطفلة عليها كالزواحف والطيور . وبعض الثدييات تعافها . بل ان بعضها يتحاشى مهاجمتها . واذا ما اخطأت بعض الضفادع واصطادت احداها . فانها سرعان ما تلفظها وكأنها تتخلص من شيء مقرف .

ـ وسيلة لتحقيق التزاوج والالقاح : ان بث هذه الروائح من قبل الاناث . يعمل على توجيه وجذب الذكور نحوها . فنجد مثلا ان ذكور النمل الابيض Termite تتبع اناثها عن طريق الرائحة . وعن طريق الرائحة ايضا . تؤمن اناث الحشرات القزية (مثلا دودة الحرير) والطاووسية . والتي تتصف بالوزن الثقيل نسبيا . وببطء الحركة . تؤمن جذب ذكورها من على بعد عدة كيلومترات . وهناك اناث بعض انواع الحشرات النحلية . لاتغادر ابدا جحورها . ولذا فان هذه الطريقة تعتبر الوحيدة لها لتأمين جذب الذكور .

ـ وسيلة للتعريف . تلعب الرائحة دورا في التجاذب ما بين الانواع المختلفة . وتكون هذه الوسيلة عاملا اساسيا في تحديد العلاقة ما بين الحشرات . والحيوانات المتآلفة معها . وكذلك فان الرائحة . تلعب دورا هاما في عملية تحديد الفرائس المرغوبة من مفترسات الحشرات .

ان افراز هذه المواد الكيميائية . غالبا ما يتم عن طريق غدد متواجدة بشكل عام في نهاية البطن . كما في الحشرات القزية والحولية . هذه الغدد ذات حجم صغير . ولكنها ذات مفعول كبير . فهي تستطيع جذب الذكور من مسافة ١١ كم . لكن المهتمين بهذه المسألة اوضحوا بأن الرائحة هذه لاتكفي لجذب وتوجيه الذكور نحو اناثها فلو حسبنا مثلا كمية جزيئات الرائحة خلال متر مكعب من الهواء في المثال السابق من دائرة قطرها (١١) كم . لوجدنا انه لايحتوي الا عدة جزيئات من هذه المواد المسببة للرائحة . أضف لذلك حركة الهواء وانتقاله . من مكان لآخر . واختلاف درجة الحرارة . ففي هذه الظروف . لاتكفي حاسة الشم ان وجدت بهذا المعنى لتوجيه الحشرات نحو بعضها البعض . ولهذا نرى . ان عدة باحثين قدموا تفسيرا لذلك . بنظرية غريبة بعض الشيء . الا انها لاقت رواجا في الاوساط العلمية . وهذه النظرية تبين مثلا ان ذكور الفراشات لا تكون حساسة للرائحة . وانما لاهتزاز هذه المواد في طيف الأشعة تحت الحمراء . فالذكور لاتملك انوفا !! ؟ لتمييز الروائح . ولكن تملك مطيافاللأشعة تحت الحمراء . وعلى كل فان عملية الجذب تتطلب بث مواد خاصة . فلو عزلنا انثى احدى الحشرات المفرزة للرائحة . داخل ناقوس زجاجي كتيم . لوجدنا انها لاتستطيع جذب الذكور اليها . ولو فصلنا الغدد المفرزة عن جسم الحشرة . لوجدناها لم تعد قادرة على جذب الذكور ايضا . اما اذا وضعنا هذه الغدد بجانب جسم الحشرة المفصولة منها . لرأينا بأن الذكور تتجه نحو الغدد ولاتعير الاناث أية اهتمام . بل تحاول ان تتزاوج مع هذه الغدد !! الصغيرة جدا ! هذا ما بينته تجارب وابحاث العالم « بالبياني » BALBIANI.

وهناك بعض الحالات نجد فيها . ان الذكور تعمل على بث الروائح . ولا تتحرك من مكانها . فحشرة بنت وردان ـ وهي حشرة من مستقيمات الاجنحة ـ ذات قرون طويلة . ذكورها ترفع اغمدة اجنحتها لاظهار الغدد الموجودة في قاعدة الغمد فتقترب منها الاناث وتحاول ارتشاف هذه الروائح . بينما نجد الذكور قد تعلقت بها لاعطائها الحيوانات المنوية .

الحشرات الصوتية او الموسيقية

ان كثيرا من الحشرات تصدر اشارات صوتية . قد تكون مسموعة من قبل الانسان . وقد لا تكون مسموعة . فهذه تكون ذات موجات عالية التردد . وتدعى بالاصوات الفوق صوتية . ويكفي الحصول على ترددات هذه الاصوات . لتنجذب اليها الحشرات . فلقد لوحظ ان ذكور البعوض . تتجمع حول مصدر الاهتزازات الصوتية والمعطية ٤٨٠ هرتز/ دقيقه . محاكية بذلك طنين الانثى عندما تكون في قمة طيرانها . هذه الاصوات او بالاحرى هذه الاشارات الصوتية تكون مفهومة بل متفقا عليها من قبل افراد النوع الواحد . وغير مفسرة بشكل عام من قبل الانواع الاخرى . فلو ادرنا تسجيلا لصرصرة ذكور الجراد . لوجدنا ان اناثها قد تجمعت حوله . وراحت تقفز باحثة عن ذكورها داخله والتفاهم بالاشارات الصوتية يتطلب في آن واحد وجود جهازين متكاملين في الحشرة . أولهما : جهاز بث الاشارة . وثانيهما : الجهاز المستقبل هذه الاشارات . كما يتطلب وجود القدرة اللازمة في الجهاز العصبي للحشرة . على تحليل وتفسير هذه الاشارات . ان هذا التكامل

مطلوب حتى تستطيع الحشرة الاستفادة من هذا ، ولذلك لايعقل غياب احد هذه الاجهزة عند الحشرات المستعملة هذه الوسيلة ، كما لايعقل لنوع لايدرك او يميز الالوان ان ينمي او يطور اشاراته البصرية المعتمدة على الالوان المختلفة .

بواسطة هذه الاشارات تستطيع الحشرة تأمين الجنس الآخر ، وان تحدد منطقتها ، وان تعطي تحذيرا لمن يتخطى حدودها

أما الاجهزة المستعملة لاحداث هذه الاصوات ، فمختلفة بشكل عجيب ، ابسطها استعمال حالة الاصطدام ما بين جسمين ، او اكثر ، بصورة متكررة ، وبشكل منتظم تقريبا ، كاستعمال جزء صلب من الجسم او كالرأس ، او البطن ، او الحلقة الاولى من الصدر ، مقابل جسم معين من التربة ، او من الخشب . وبهذا تحصل الحشرة على صوت يشبه الطقطقه ، او التكتكة كما في حالة الحشرة البالغة لسوسة الخشب وهذا الصوت الذي تحدثه يكون متوافقا مع وقت الزفاف ما بين الحشرات ، والذي يتم عادة حالما تخرج الحشرة من الخشب للهواء الطلق . اما عند الحشرات القاسية فالصوت ينتج من احتكاك الاجنحة بالمنطقة الظهرية من مؤخرة غمد الجناح ، او احتكاك الجزء ما قبل الاخير من الناحية الظهرية للبطن ، بمؤخرة غمد الجناح كما عند حشرات الدينا ستيديه ، اما اصدار الصوت عند الجراد ، فينتج عن احتكاك صف من الاسنان الصغيرة والموجودة على السطح الداخلي لعظم الفخذ ، بعصب من غمد الجناح ، ان شكل ترتيب هذه الاسنان ، يعطي لافراد الجراد اصواتها الخاصة ، اضافة لذلك فان الجراد يستطيع تغيير نظام الايقاع للاصوات . وهناك انواع حشرية اخرى تستعمل احتكاك الارجل بمؤخرة الاجنحة .

بعض انواع الحشرات لاتكتفي بجهاز صوتي واحد بل تراها تملك عدة اجهزة مختلفة ، كما في حشرات ذبابة المنائع ، ونلاحظ ان جهاز التصويت لا يتواجد عند الحشرات الكاملة فقط ، بل يتعداها الى اليرقات ، كما في بعض الانواع الغمدية الاجنحة ، ويحمل الجهاز هذا على الفك السفلي لليرقة .

لكن طريقة ووسائل احداث الصوت عند الحشرات الحولية مختلفة ، اذ يحدث بواسطة القذف المفاجيء للهواء داخل انبوب الهضم ، والذي يعمل على تحريك اجزاء صلبة فيه .

وهناك بعض الحشرات تعتمد على ضرب الاجنحة وفق نظام معين ، من هذه حشرات ثنائية الاجنحة وغشائية الاجنحة اما عند نصفية الاجنحة ، فيتم ارسال هذه الاشارات الصوتية عن طريق الاهتزاز السريع للاجنحة .

ويبدو ان الغناء من اختصاص الذكور ، فالاناث تنجذب لغناء الذكور وتقترب منها من اجل الاقتران والتزاوج ، ونظام الغناء هذا يتغير باختلاف المسافة ما بين العاشقين . فلو سجلنا غناء صرار الليل على شريط ثم ادرناه من جديد لوجدنا ان اناثه قد انجذبت نحو الالة ، واخذت تبحث بشكل مضطرب عن الذكور ، هذا الغناء يلتقط من قبل وسائل سمعية موجودة على احد ازواج الارجل ، وهناك وسائل اخرى مختصة بالاصوات الخفيفة كوجود شعيرتين مغطاتين بالاهداب وظيفتهما التقاط اهتزازات التربة . ولو تساءلنا كيف يغني صرار الليل هذا ويطرب اناثه ، للاحظنا ان غناءه ناتج عن احتكاك اغماد اجنحته ، فعلى السطح الداخلي لغمده اليميني يوجد عصب مسنن باسنان دقيقة ، هذه الاسنان تحتك بالمؤخرة العلوية لغمده اليساري ، ويتغير هذا الغناء من فرد لآخر عن طريق تغيير نظام الايقاع ، وترددات الاصوات ، واذا حدث ان تنافس ذكران على جذب انثى واحدة ، فان هذا التنافس يمتد الى قتال حقيقي ضار ، وقديما استغل الصينيون هذه الظاهرة لتنظيم حفلات مصارعة !! والافراد المتصارعة من صرار الليل تربى تربية خاصة .

وكثير من الحشرات يستعمل اكثر من طريقة للتفاهم مع اقرانه ، فبالاضافة الى ان ذكور النمل الابيض تتبع اناثها عن طريق الرائحة ، نجد ان الطقطقة المنبعثة من الجنود ما هي الا عبارة عن اشارات للتحذير

لقد فكر الانسان باستخدام نفس الطرق التي تستعملها الحشرات للاتصال فيما بينها للتخلص من بعضها ، ولاسيما الضار منها ، فقد اقترح استعمال الصوت المرسل من اناث البعوض لجذب الذكور ومن ثم التخلص منها ، وبذلك لا يتم تلقيح الاناث لاعطاء اجيال جديدة ، ان دراسة الاشارات الصوتية لذكور الجراد وتحقيق الظروف الجيدة لاستخدامها ، يمكن بواسطتها تنظيم تكاثر الجراد والتقليل من حدوث اسرابها الهائلة . ان مثل تلك الدراسات يمكن ان تؤدي الى تطبيقات مفيدة وهامة للانسان ، وربما يأتي يوم والله اعلم يستخدم فيه الانسان احدى لغات الحشرات للتفاهم معها او مع غيرها من الكائنات فلو تمعنا فيما اخترعه الانسان لوجدناه ما هو الا عبارة عن محاكاة لخصائص وطبائع الكائنات ، وتفهم اكثر لظواهر وقوانين موجودة منذ امد بعيد . ■■

الرباط ـ د . صلاح بركات

مقالات في كلمات

■ ان المرأة خلقت لتشاهد . . وليس لتسمع

(سوفوكليس)

■ خلق الله المرأة . . ليروض الرجل فقط . .

(فولتير)

■ خلقت المرأة لتثير فينا الرغبة في تحقيق الروائع . . . وان كانت هي نفسها التي تحول دائما بيننا وبين ذلك . . .

(اوسكار وايلد)

■ لا ينزع الحب من قلب المرأة . . الا حب جديد . . .

(بلزاك)

■ أول الحب عند الفتى الحياء . . وأوله عند الفتاة الجرأة . . . .

(فيكتور هوجو)

■ ليس اصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . . .

(جبران خليل جبران)

■ ما أقدس الرجال . . . لو كان حبهم لله يعادل حبهم للمرأة . . .

(كونفوشيوس)

■ المرأة بلا محبة . . ميتة . .

(افلاطون)

■ الحب يستأذن المرأة في أن يدخل قلبها . . وأما مع الرجل : فانه يقتحم قلبه دون استئذان . . وهذه مصيبتنا . .

(جورج برناردشو)

■ اننا دائما بانتظار المرأة التي تحمل لنا الحب والسعادة . . .

(شكسبير)

■ الحب بالنسبة الى الرجل طبق ثانوي . . والى المرأة مأدبة كاملة . .

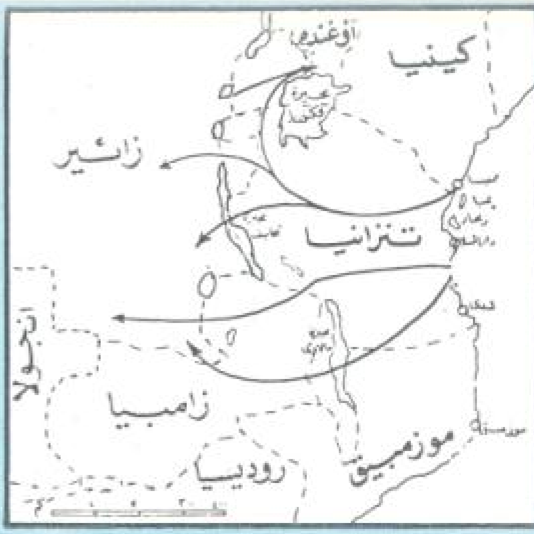
(رولان)

■ الحب قناع تنزعه المرأة نفسها عن الرجل . . وهذا هو السر في عذاب العاشقين

(ستندال)

■ الحب والمرأة . . سبب استمرار الكون .

(انون)



الثقافة وراء التجارة في شرق أفريقية

السواحيلية
لغة افريقية عربية

بقلم : الدكتور محمد عبد الغني سعودي

رغم أنها أصبحت تكتب بالحروف اللاتينية ، إلا ان السواحيلية تظل لغة وثيقة الصلة بالعربية وبالاسلام .

Tumwe Ukifika Zinji
  Zinji La Mawana Aziza
Wambile waje kwa unji
  Unji tutwapunguza
Hawatatupiga msinji
  Jeugo Wakolitimiza
Meneno ni ufuoni.

ما هذا الذي تقرأه ؟ الا تلاحظ أن له جرسا خاصا ، وأنه مقفى ؟

نعم ، إنه شعر ما هو بنثر ، ولكن بأية لغة ؟ إنه باللغة السواحيلية ، ومعناه « أيها الرسول ، حين تبلغ زنجبار ، جزيرة الملكة عزيزة ، أخبرهم ليأتوا بأعداد كبيرة ، حتى نفنيهم ، فلن يقضوا علينا ، واذا وطأت أقدامهم أرضنا فنحسم الأمر على الشواطىء » .

هذا شعر سياسي حماسي ، من نظم موبا بن مويني الحاج الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر (١٧٧٦ - ١٨٤٠م) يندد فيه بمحاولة زنجبار السيطرة على ممبسة ، فقد كانت ممبسة المدينة الدولة دائما في حرب مع المدن والجزر الأخرى على سواحل كينيا .

مصاهرة عربية

وقد تتساءل لماذا الحديث عن السواحلية ، مع أن هناك لغات عالمية أكثر انتشارا ، لعل هذا يرجع الى أنها في معظم الاحوال مجهولة لك ايها القارىء العربي ، مع أنها تمت الى لغتك باكثر من صلة ، فهي في حقيقة الأمر توليفة من لغة افريقية وهندية ، وفارسية ، والعربية ، ولكن العربية لها القدح المعلى ، يكفي أن اذكر لك بعض الألفاظ السواحلية على سبيل المثال لا الحصر ، لتكتشف أنها الفاظ عربية أيضا مثل :

عافية	Afya	فرس	Farasi
اربعين	Arbioni	حدوته	Hadithi
دواء	Dawa	جاء	Ja
عسكري	Askari	كتاب	Kitabu
بطة	Bata	لازم	Lazima
شاي	Chai	الفجر	Alfagiri

والسواحلية لغة مليونية ، أي يتكلمها أكثر من مليون نسمة في سواحل شرق افريقية من جنوب الصومال الى موزمبيق ، وتوغلت نحو الداخل كلغة تجارة ، واذا كان من الصعب تحديد عدد من يتكلمونها ويفهمونها ، فان أقرب التقديرات تعطيهم ما بين ١٥ ، ٤٠ مليون نسمة .

ويمكن تمييز مجموعات ثلاث تستخدمها :

• فهناك الذين يتكلمون السواحلية كلغة أم ، ويعيش معظم هؤلاء على سواحل كينيا وتنزانيا وفي الجزر المقابلة مثل زنجبار ، وممبسه ، ومافيا ، وجزر القمر .

• وهناك من يتكلمون السواحلية بطلاقة منذ طفولتهم ، رغم أنها ليست لغتهم الأم ، وينتمي الى هذه المجموعة معظم الذين يتكلمون السواحلية بطلاقة وخاصة في تنزانيا وأجزاء من كينيا .

• والمجموعة الثالثة التي تستخدمها بقدر محدود ، وبين الحين والحين في أوغندا ، وكينيا ، بل وزائير ، ويمكن أن تضم اليهم سكان جنوب الصومال ، ورواندا وبوروندي ، بل وتفهم على طول سواحل شبه جزيرة العرب وعمان .

ومن ثم تعددت لهجات الواسوحيلي (الذين يتكلمون السواحلية) حتى بلغت خمس عشرة لهجة ، وكانت هناك منافسة شديدة بين لهجتي ممبسة وزنجبار ، انتهت لصالح الأخيرة في العشرينات ، لتكون نمطا تستخدمه الادارة في تنجانيقا (تنزانيا الآن) .

من ابن بطوطة الى دافيدسن

ويرجع الانتشار الواسع لهذه اللغة الافريقية العربية الى الاتصالات العربية بافريقية منذ عصور موغلة في القدم ، فالعرب كانوا دائمي الزيارة لساحل شرق افريقية ، وكثيرا ما استقروا فيه ، فاذا كانت معرفتهم لهذا الساحل قد ترجع الى عشرين قرنا ، فالمرجح أن أول استقرار عربي لجماعات كبيرة كان في القرن السابع الميلادي ٦٨٩م ، ثم ازداد الاستقرار في القرون التالية ، وأسسوا مدنا جديدة مثل لامو ، وماليندي وممبسة ، وكيلوا التي بلغت شأوا عاليا قبل وصول البرتغاليين في القرن السادس عشر ، ولكن العرب عادوا وطردوا البرتغاليين ، ونقل آل البوسعيدي مقر سلطتهم من عمان الى زنجبار عام ١٨٤٠م .

وفي ذلك العصر الوسيط تجول في ساحل شرق افريقية رحالة مغربي من فاس (١٣٣١م) ، وكتب ابن بطوطة أنه وجد السلام والثروة في كل المدن التجارية للساحل الشرقي ، واستقبله حكام تلك المدن وتجارها بحفاوة بالغة ، وأكرموا وفادته ، وما زال الكتاب الأجانب المتصفون في القرن العشرين من أمثال James Allen B- Davidson, ، يذكرون بان كل آثار الحضارة المادية الخاصة بالاجيال الماضية ، من مدن بادت ، وعمارة اندثرت ، وحفر على الخشب ، ونقش على المعدن ، كلها ترجع الى العرب ، من موجاديشو الى موزمبيق .

كانت رحلات العرب الى شرق افريقية رحلات زيارة وتجارة ، وسواء دفعهم الجفاف في الجنوب العربي ، فأجبر الحضارمة على ركوب البحر والعمل بالتجارة ، أو كساد تجارة اللؤلؤ لانخفاض القوة الشرائية للرومان ، ومنافسة لؤلؤ جزيرة سيلان مما اضطر معه تحرك سكان عمان والبحرين أيضا للعمل بالتجارة البحرية ، فقد تقابل هؤلاء وأولئك على أرض شرق افريقية ، تحمل سفنهم التمور والأسماك المجففة وبعض المنسوجات الهندية من عمان ، والفواكه والعطور والسجاجيد من ايران ، والتمر والفخار من العراق ، كما حملت سفنهم ثمار نخيل الزيت ، وأخشاب المانجروف أو كما يطلقون عليها بالسواحيلي « البوريتي » التي استخدمت على نطاق واسع في شبه جزيرة العرب وايران ، لعمل أسقف المساكن وصواري السفن ، ويشتد الطلب عليها لمقاومتها للقوارض والاحوال الجوية ، وأخيرا وليس باخر العاج وريش النعام وجلد الفهد والتمساح . ولم يتوقف العرب على الساحل ، بل توغلوا في الداخل ، وحمل العرب ضمن ما حملوا لغتهم وطوروا على الساحل ثقافة مميزة

العالم ، أخذت من كل من الشعبين بنصيب ، وصهرت العنصرين ، وكانت الثقافة السواحيلية ناضجة حين وصل الأوربيون ، استوت فيها اللغة السواحيلية ، وسميت باسم الساحل وتفرعت وتشعبت في الداخل الى بوروندي وزائير .

السواحيلية والعربية والاسلام

ارتبطت السواحيلية منذ نشأتها باللغة العربية والاسلام ، لأن أول تدوين لها كلغة مكتوبة كان بالاحرف العربية ، ويرجع أقدم مخطوط سواحلي مكتوب بالحروف العربية الى عام ١٧٢٤م ، ولكن من المعروف أن الاعمال الموجودة في هذا المخطوط ليس من اللازم أن تكون قد ألفت في ذلك التاريخ ، وهناك مخطوطات سواحيلية مكتوبة بالعربية لم يتم نشرها بعد . ولارتباط السواحيلية بالعرب والمسلمين فقد خشيت البعثات التبشيرية التي بدأت تقوم بمهمتها بعد الاستعمار الاوربي ، أن يكون في استخدام الحروف العربية عامل مضاد لنشاطها ، فاتفقت مع الادارة الاستعمارية على استخدام الحروف اللاتينية ، وظهرت أول ترجمة بالسواحيلية للانجيل مكتوبة بالحروف اللاتينية عام ١٨٩١م ولعل أبلغ من عبر عما جال بخاطر الاوربيين ، هو علي الامين مزروعي استاذ علم السياسة الأوغندي حين قال « السواحيلية كثقافة هي اسلامية بقدر ما إن الفرنسية كثقافة هي مسيحية » .

ولكن السواحيلية استطاعت تحصين نفسها ، واحتفظت بمسحتها العربية والاسلامية ، رغم استخدام الحروف اللاتينية في كتابتها .

الشعر سيد الادب

ويقسم الباحثون الادب السواحيلي الى أدب شفهي ، وأدب مكتوب ، ويبرز الشعر متوجا في ميدان الادب ، وهو شعر موزون مقفى ، كما هو ملاحظ من الابيات التي صدرنا بها المقال ، وهذه ظاهرة نادرة في الآداب الافريقية جنوب الصحراء . فالسواحيلية تعرف الشعر والملاحم ، والأخيرة من اكثر ضروب الشعر انتشارا ودراسة ، نشرت فيه دراسات عديدة ، ويتضح فيه الأثر العربي والاسلامي ، ويحمل بحران من بحوره الاربعة اسماء عربية ، وهي المشارى والرباعي ، أما البحران الآخران فاسماؤهما سواحيلية ، وهما نيمبو ، أي الأغاني ، والنترى ، ويعتبر النيمبو أو شعر الأغاني ، حقلا جيدا لدارسي الادب الشفهي السواحيلي ، وكذلك للانثربولوجيين ، ويضم هذا القصص والملاحم التي تعرض قصص البطولات ، وفيه قال شعبان روبرت أحد مبرزي شعراء السواحيلية « إن القصائد والملاحم السواحيلية خلقت لتغنى » .

أما شعر النترى فهو شعر القصائد والتواشيح الدينية ، وقد تبلغ القصيدة أحيانا مائة بيت ، وتتضمن عادة المواعظ والعبر . انظر الى ما نظمه الشاعر مورياكابن الحاج والذي يقال انه أول من أخرج الشعر من المسجد الى السوق ، حين يقول :

صديقك صديقك
اذا كنت لا تعرفه
اذهب معه في رحلة ، في قافلة
أو اتركه في بيتك
واذهب بعيدا وتأخر
فاذا ثبت أنه لم يكن وغدا
فهو صديقك

ومجال الشعر السياسي او المشاري المناقشات والمجادلات السياسية وعادة ما يظهر في الصحف اليومية .

ويختلف الأدب المنثور عن الشعر في قوة انتشاره ، وقد يرجع هذا الى ان الشاعر يمكنه ان يكتب قصيدته على رقعة من الورق ، ويسلمها لاحدى دور الصحف ، وتنشر في بحر أيام ، ولكن كاتب القصة قد لا ترى قصته النور الا بعد سنوات ، إن قدر لها ، فالناشر يبحث عن الرواج ، ومن ثم يبحث عن الكتب المدرسية والجامعية في المقام الاول ، وقد يرجع هذا ايضا الى ان الشعر عفوي ، ابن السليقة والموهبة ، بينما تحتاج القصة او الرواية الى خيال وتجارب وخبرة وفن .

ويمكن تمييز ثلاثة انماط من القصص السواحيلي ، وان كانت الحدود بينها ليست واضحة . وتنتمي المجموعة الاولى لأصل افريقي ، وغالبا ما تركز على الحيوان مثل قصة « القرد والسلحفاة » ، « والسنجورا والضبع والاسد » ، وتظهر في المجموعة الثانية الحبكة القصصية العربية ، ولكنها مليئة بتفاصيل يمكن ارجاعها الى التراث الافريقي مثل قصص « اللصوص الاذكياء ، والسلطان المجنون » و « الصياد والروح الشريرة » اما المجموعة الثالثة فهي معروفة في الاوساط العربية مثل القصص الديني الذي يدور حول سيرة الأنبياء ونشأة الخلق ، والقصص المرتبط بسكان الحضر مثل قصة « السلطان والصياد » و « محمد والسبعة لصوص » وهذه المجموعة الثالثة صارت جذورها عميقة في الادب الروائي السواحيلي ، بل ان الادب الحديث اصبح يستقي مادته من هذه الموضوعات القديمة ، فالأديب السواحيلي المعاصر

شعبان روبرت ، كتب قصة « عديلي واخوته » معتمدا على قصة عبد الله بن فضل « احدى قصص الف ليلة وليلة » .

ومن كتاب القصة ، شعبان روبرت ، الذي اشتهر بقصص الأطفال والسير الذاتية ، وابراهيم حسين اشهر الروائيين بالسواحيلية الذي قام بتأليف اول رواية طويلة بالسواحيلية بعنوان Kinjektile التي تجسم ثورة الماجي ماجي ضد الألمان في جنوب تنجانيقا في ١٩٠٥ / ١٩٠٦ ، والتي صورت اتحاد القبائل امام المستعمر في سبيل الحصول على الحرية ، ونجحت الرواية نجاحا باهرا ، حينما عرضت على المسرح في دار السلام ، ويرجعون نجاحها الساحق الى انها كانت توليفة سياسية اجتماعية ، فالمغزى السياسي واضح في تبذ القبلية والتضامن في سبيل مصلحة الجماعة اي الصالح العام ، وهذا ما تنادي به اشتراكية الرئيس نيريري والتي اختار لها لفظ الجماعة Ujamaa

فكرة الجماعة

عندما عزم الرئيس نيريري على المناداة بالاشتراكية في تنزانيا ، اشتد الحوار حول ما اذا كانت الاشتراكية تكون اكثر قبولا وانتشارا بين الجماهير ، اذا ما استخدمت اللغة السواحيلية ، أم اذا استخدمت اللغة الانجليزية ، وفي الحق ان مفهوم الاشتراكية ومضمونها لا يمكن ان يبلغ الافريقي البسيط من خلال اللغات الدولية ، فلما كان نقل الافكار الى الآخرين يتم عبر اللغة ، فكلمة الاشتراكية بالانجليزية Socialism تتضمن تعاريف مختلفة ، ومفاهيم متعددة مما يحول دون استيعاب الافريقي لها ، ومن ثم استخدم نيريري لفظا سواحيليا وهو الجماعة ، التي تدل على الترابط بجميع أنواعه ، الاسرى ، العشائرى ، القبلي ، والوطني ، ومما يتطلبه هذا من التزامات للفرد نحو الجماعة ، والجماعة نحو الفرد ، ولا يمكن للغة الانجليزية ان تصل الى هذه النتيجة في مجتمع افريقي .

وخشية ان يفهم من الاشتراكية او الجماعة ، الاتكال والتطفل على الآخرين وهي ظاهرة تنتشر احيانا بين الذين يهاجرون من الريف الى المدن ، ولا يجدون لهم عملا ، فيقيمون لدى اقاربهم في المدينة ، سكنا وغذاء ، عالة عليهم ، مما يخلق بطالة في المدن ، وما يتبعها من مثالب اجتماعية واقتصادية ، من ثم اضاف نيريري بعدا جديدا « للجماعة » باستخدامه قولا سواحيليا مأثورا يحض فيه على العمل وهو

Mgeni Siku Mbili, Siku ya tatumpe Jembeembe

ومعناه « عامل ضيفك كضيف لمدة يومين ، وفي اليوم الثالث اعطه فأسا » .

لقد ارتضت تنزانيا وكينيا بالسواحيلية لغة وطنية رسمية بدلا من الانجليزية كما زاد اهتمام اوغندا بدراسة السواحيلية في معاهدها وجامعاتها ، ولماذااختيرت دون غيرها من لغات شرق افريقية ؟ لانها اكثرها انتشارا كما رأينا ، ولأنها ايضا لا ترتبط بقبيلة معينة ، في أقاليم تشتد فيها حاسة القبلية ، فالذين يتكلمونها ويفهمونها لا ينضمون تحت لواء قبيلة معينة ، بل لسانهم واحد ، وقبائلهم شتى ، أو بمعنى آخر هي لغة محايدة ! ان صح التعبير ، ومن ثم رغم تقابل دول شرق افريقية حينا ، وتنافرها حينا آخر ، فما تجتمع عليه الدول الثلاث ولا ينفض ، هو اللغة السواحيلية ، فتقام كثير من الحلقات البحثية بين جامعات هذه الدول مستخدمة السواحيلية ، وصدر كتاب « زماني » بالسواحيلية ، فيه مسح لتاريخ شرق افريقية ، وتصدر نحو ستين مجلة وصحيفة في شرق افريقية بالسواحيلية .

ويظهر ايضا مركز السواحيلية الممتاز كأكثر اللغات فهما وانتشارا في شرق القارة في انها اللغة الاولى التي ترجمت بها الأعمال الكلاسيكية العالمية لتنشر في الوسط الأفريقي ، وكانت الأعمال الأولى التي ترجمت هي الدينية ، فالانجيل ترجم الى عدة لغات افريقية ، ولكن الترجمة الاولى للقرآن الكريم بلغة افريقية كانت بالسواحيلية ، وكانت أول ترجمة لأعمال شكسبير هي ترجمة نيريري الى السواحيلية ، وأول روائع الفلسفة السياسية الأوروبية وهي « الأمير » لميكافيلي كانت ترجمتها الأفريقية سواحيلية ، وهكذا لم تقتصر السواحيلية على التراث ، بل بدأت تأخذ من غيرها لتعطي ، وفي اللغات كما في البشر ، دليل الحياة والبقاء ، الأخذ والعطاء . ■ ■

د . محمد عبد الغني سعودي
قسم الجغرافيا - جامعة الكويت

● الرجل المتفائل هو الذي يترك محرك سيارته دائرا ، وهو ينتظر زوجته عند دخولها متجرا لشراء احدى الحاجيات .



طبيب الأسرة

يجيب على هذه الأسئلة نخبة من الأطباء

الذبحة الصدرية

> أبلغ خمسين عاما .. وكنت الى وقت قريب كثير التدخين ولا أعاني الا من ارتفاع في ضغط الدم أعالج منه بانتظام .. لكن هذا لم يمنع من اصابتي بالذبحة الصدرية .. ورغم أن نوبات الألم؛ قد تباعدت بعد العلاج بالأدوية الا أن هذا يسبب لي قلقا دائما ومستمرا .. فهل يفيد في مثل حالتي ومثلي التدخل الجراحي ؟ .

من المتعارف عليه ان الذبحة الصدرية هي تلك الآلام التي يحدثها القصور في دورة شرايين القلب التاجية على فترات تتباعد أو تقل حسب درجة القصور .. فالآلام شديدة وفي فترات متعاقبة اذا ما كان القصور شديدا وعضلة القلب تعاني نقصا كبيرا في كمية الدم التي تحملها الشرايين التاجية التي تغذيها وقد تقل هذه الفترات وتختلف شدة الأزمة مما يطلق عليها (unstable angina) ذبحة غير مستقرة أو أخرى (Stable angina) (مستقرة) يتوافر فيها أيضا عنصر الألم ولكن لفترات أقل على مرات متباعدة؛ لا تعوق الانسان عن عمله في فترات غياب الألم وان اشتركت الاثنتان في ضرورة المجهود العضلي لاحداثها الى جانب ان الألم يزول تماما بمجرد أن يتعاطى المريض الدواء الذي يعرفه جيدا كل مرضى الذبحة وهو النيتروجليسرين القرص السحري الذي يذيب الألم معه حينما يضعه المريض تحت لسانه .

لكن هناك أيضا نوع ثالث من الذبحة يختلف .. ويشترك معها أيضا في بعض الخصائص ويطلق عليه (الذبحة المختلفة (Prinzmetal Varient angina) يشترك معها في الألم .. ويختلف أيضا .. فالألم هنا لفترة أطول .. غير مرتبط بمجهود عضلي .. قد يأتي في نوبات متعاقبة شبه منتظمة غالبا في الصباح بمجرد القيام من النوم .. كثيرا ما يصحبه اضطراب في دقات القلب .. وقد لا يستجيب جيدا للنيتروجليسرين اذا ما أجرى للمريض رسم قلب وهو في هذه الحالة فقد يعكس صورة لجلطة حقيقية .. لكن هذه الصورة تختفي بمجرد زوال الألم .

وعلى هذا فعلاج الذبحة الصدرية الناجح يتوقف على عوامل كثيرة تبدأ بالوقاية منها وتنتهي بما يطلق عليه عمليات (CORONARY ARTERY BYPASS Grafting) مرورا بدقة تشخيصها وتوصيفها .

الوقاية من الذبحة الصدرية :

اذا كنا لا نملك رد خطر ضيق الشرايين التاجية فاننا على الأقل نملك الا نوفر لها

العوامل المسؤولة عن التعجيل بضيقها أو مواصلته .. وقد حدد الأطباء تلك العوامل بما يسمونه عوامل الخطورة (Risk Factors) فيما يلي وبهذا الترتيب .

١ ـ ارتفاع نسبة الكوليسترول في الدم وحددوا لها ٢٥٠ مجم / ١٠٠ سم دم .. لا تتجاوزها . فاذا زادت يجب التقصي لمعرفة هل الزيادة ناشئة عن عادة غذائية ضارة كتناول كميات كبيرة من الدهون وتلك الحالات يجدي معها النظام الغذائي الذي يبتعد بالمريض عن المواد الدسمة مع المشي ساعة يوميا ومراعاة الهدوء النفسي النسبي ، أو أن هذه الزيادة ناشئة عن مرض وراثي يجب التدخل لعلاجه بالأدوية ! ..

٢ ـ ارتفاع ضغط الدم والمعروف أيضا ان حوالي ٩٠٪ من ارتفاع ضغط الدم لا سبب معروف له . أما النسبة الباقية فلأمراض مختلفة أهمها الكلى وحبوب منع الحمل وربما الحمل ذاته .. لذا فعلاج ضغط الدم أمر حيوي وضرورة بقائه عند الحدود المعقولة والمتعارف عليها طبيا .

٣ ـ التدخين حيث أصبح مما لا شك فيه ان النيكوتين يساعد على تضييق الشرايين ويقلل من كفاءة هيموجلوبين الدم على الاتحاد بالأكسوجين بل وأعلى نسبة كوليسترول في دم المدخنين المدمنين .

٤ ـ مرض السكر .

وعلى هذا فان وجبة غذائية محدودة الدسم لشخص وزنه يلائم طوله منضبط الضغط ولا يعاني من مرض السكر أو على الأقل تحت العلاج لا يدخن .. يمشي ساعة يوميا على قدميه .. ولا يرهق نفسه بالتفكير فيما لا ينفع .. هي معادلة في طرفها الآخر محاولة جادة للوقاية من الذبحة الصدرية .

علاج الذبحة الصدرية الطبي : تشترك أنواع الذبحة الثلاثة في أنه يجب البدء بوصف النيتروجليسرين للمريض كحل وقتي للأزمة التي تنتابه حتى ان الرفقة بينهما تبدو دائمة فلا يخرج أو حتى يقدم على الانفصال الا بعد التأكد من أنه معه . وفي حالات الذبحة المستقرة الخفيفة غير المصحوبة بأية مضاعفات قد يكتفي تماما بالنيتروجليسرين كموسع للشرايين وقت الأزمة مع مراعاة النصائح سابقة الذكر ومع اشتداد الألم أو تقارب النوبات قد يضاف (الاندرال) والذي تبدأ جرعته من ١٠ مجم ـ ٤٠ مجم كل ست ساعات ربما أكثر وفقا لما يرى الطبيب ، وهو يزيد من كفاءة عضلة القلب عن طريق تقليل حاجتها للأكسجين وتثبيط بعض خواصها .

وتتابع حالة المريض بدقة شديدة وعلى فترات متقاربة حتى يمكن تحديد خطورة حالته وهل من الأوفق أن يستمر على علاج طبي أم تجنح الى العلاج الجراحي والذي هو محل مناقشة واسعة للآن ! هذا بينما من الضروري اعطاء مريض الذبحة المختلفة دواء الاندرال الى جانب علاج أي مضاعفات قد تنشأ كاختلال النبض أو هبوط القلب .. وقد تعددت أخيرا أدوية الذبحة الصدرية فمن بينها موسعات الشرايين من مركبات النيترو المختلفة الى التي تزيد كفاءة عضلة القلب عن طريق تقليل احتياجها للمواد المختلفة وأهمها الأكسوجين الى التي تمد عضلة القلب بطاقة أكبر .. أو تساعد دخول بعض الأيونات الهامة أو خروجها من خلاياها الى جانب الادوية التي تقلل نسبة الدهون وتعالج ضغط الدم وتقلل العبء على القلب والدورة الدموية بادرار المزيد من البول .. لكن يظل علاج الذبحة الثابتة والذي لا يختلف عليه طبيبان محاولة الوقاية وتقليل عوامل الخطورة تضامنا مع النيتروجليسرين .

الرياضة البدنية والجلطة

○ ما اثر التمرينات الرياضية في وسائل العلاج الحديث على بعض الامراض ؟

تعتمد فكرة العلاج بالرياضة البدنية على ثلاث حقائق : الأولى هي ان العضو الذي لا يتحرك بالدرجة الكافية يصيبه الضمور والضعف . ولعل ذلك يوضح حكمة الخالق حين جعل حركة الاعضاء المهمة كالقلب والمعدة والامعاء والرئتين مثلا حركات ثابتة لا تخضع لارادة الانسان ، على الأقل في الحد الأدنى الضروري من حركتها ، حتى لا يصيبها الضمور والضعف . اذا خضعت لارادة

الانسان الذي قد يصيبه الكسل كالحال في حركة الذراعين والساقين ..

والحقيقة الثانية التي عززت فكرة العلاج بالرياضة البدنية هي ان المرض اي مرض لا يأتي كلية على قدرة الجسم او أي عضو فيه على الحركة بل ان بعضا من هذه القدرة على الحركة يبقى موجودا لان انعدام هذه القدرة التام يعني الموت ، والمريض انسان حي يمارس الحياة ولكن بعجز ما .

والحقيقة الثالثة هي ان الانسان او العضو المريض يحتاج للراحة لنجاح العلاج ولكنها راحة محدودة ويجب ان تكون مقننة . فالجسم المنهك يجب ان يستلقي او ينام ولكن لوقت معقول ومحدود . والمعدة المتعبة يجب الا تستقبل الأطعمة الصعبة الهضم بل يمكن ان يوقف الطبيب التغذية عن طريق المعدة ويستخدم طريق الاوردة . ولكن الى حين . والساق المكسورة توضع في الجبس لتمنع حركتها حتى تلتئم ولكن لفترة محددة وهكذا .

وتقنين الحركة أو تحديدها يعني أنه في حالة المرض مازال مسموحا بقدر من الحركة ، هذا القدر يجب ان يكون مدروسا في كل حالة من حيث نوع الحركة ، ومن حيث مدتها ، ومن حيث الجهد الذي سيبذل فيها ، في حدود القدرة التي أبقى عليها المرض او التي استنفذها الجسم من هذا المرض .

اذن فكمية الحركة التي يطلب من مريض ما ان يقوم بها او ان يساعده الاخصائي على القيام بها هي جرعة محددة من الحركة كجرعة اي دواء او عقار تحكمه مقاييس منضبطة . والغرض من هذه الجرعة يكون استثمار القدرة المتبقية من المرض والعمل على زيادتها حتى يتم الشفاء .

وأقرب مثال على ذلك ان الساق التي قطع عنها العصب في حادث تصبح ساقا مشلولة عديمة القدرة على الحركة لان الجهاز العصبي لا يستطيع ان ينبه عضلات الساق لتؤدي الحركات المطلوبة وذلك رغم وصول كميات الدم لتقديم الغذاء والهواء ، وكل التفاعلات الحيوية لأنسجة هذه الساق والمعروف ان نمو العصب ـ حتى يلتئم القطع الذي أصابه ـ بطيء يستغرق شهورا ، هذا اذا امكن توصيله بالجراحة وربما استغرق سنوات احيانا . فاذا تركت العضلات في الساق المشلولة بدون حركة فستضمر وحتى اذا التأم جرح العصب فستكون العضلات قد فقدت كل قدرتها على الحركة . من هنا كان لابد من تحريك هذه العضلات بجرعات محسوبة ربما يستطيع ان يقوم بها المريض او يقوم بها الاخصائي حتى اذا عاد العصب الى حالته الطبيعية وجد عضلات الساق على كفاءتها الاولى فتمارس الحركة الطبيعية التي كانت تمارسها قبل الحادث .

غير ان فكرة العلاج بالرياضة تطورت بحيث لوحظ ضرورة القيام بهذه الرياضة بعد العمليات الجراحية الكبيرة فان ذلك يساعد على النقاهة السريعة والشفاء العاجل ، بحيث اصبح من العلاج الروتيني ان يأمر الجراح بهذا النوع من العلاج بعد كل عملية وبدون استثناء . ولذلك فانه في كل مستشفى حديث يجب ان يتواجد الاخصائيون في العلاج بالتمرينات الرياضية كما هو الحال في مستشفيات الكويت مثلا .

غير ان اخر ما وصل اليه العلماء في هذا المجال هو علاج الجلطة في شريان القلب التاجي بالتمرينات الرياضية .

لقد كان ـ الى عهد قريب ـ علاج هذا النوع من الجلطة بالراحة التامة او المطلقة التي يفرضها الطبيب ليس بالامر او النصيحة فقط ولكن باعطاء المنومات التي تفرض النوم الكامل على المريض ثم تطورت الجراحة في علاج هذا المرض فقد اصبح ممكنا تحديد الشريان او فرعه المصاب بهذه الجلطة . ثم العمل على ازالة الجزء المصاب واستبداله بجزء من اوردة الساق التي يمكن الاستغناء عنها . ولقد كانت النتائج مرضية . . . ولكن عندما اضيف الى الجراحة جرعات التمرينات البدنية المناسبة ، اصبحت النتائج مذهلة بحيث اصبح العلاج لمرض الجلطة في شريان القلب هو اولا الرياضة المدروسة واصبحت نتائج الشفاء بالرياضة فقط اكثر من ٩٥٪ .

والعلاج بالرياضة البدنية له طرق عديدة غير انه يجب ان يلاحظ انها علم وخبرة ولا يمكن ان يسمح لمن لا يعرف هذا العلم ويكتسب هذه الخبرة ان يقوم بها ثم ان الاخصائيين يقدرون بمقاييس محددة الجرعة اللازمة لكل مريض حسب حالته

ت.س.اليوت ينقد نفسه

بقلم : محمود محمود

الفنا في الأدب أن نجد الناقد شخصا آخر غير الأديب المبدع ، وقل في جميع الآداب أن يقدم الأديب بنقد نفسه نقدا ذاتيا ، وقد يرد ذلك عرضا عندما يكتب سيرته الذاتية أو يدون اعترافاته ببعض مواقف حياته . أما أن يفرد بحثا يستعرض فيه عملا من أعماله الأدبية ويذكر دواعيه وخصائصه وصفاته فذلك ما يندر أن يعثر عليه القارىء .

لذلك استوقف نظري بكثير من الاهتمام ما كتبه ت . س . اليوت عن نفسه وانتاجه الأدبي في فترة من فترات حياته .

وت . س . اليوت شاعر انجليزي معاصر معروف لقراء العربية ، وقد تمت ترجمة الكثير من أعماله الى لغتنا العربية . هو من أصل أمريكي ولكنه رحل الى انجلترا واصبح من الرعايا البريطانيين .

وقد مارس أعمالا كثيرة في شبابه ، فكان معلما ، وكاتبا في أحد البنوك ، ومديرا لشركة من شركات النشر ، وصحافيا كتب في العديد من الصحف . وهو شاعر مجيد وناقد نافذ البصيرة ، مولع بالماضي متشائم يائس من عالمنا الحديث الذي طغت عليه المادة وفسدت فيه العقائد والأخلاق ، وقد عبر عن ذلك شعرا في قصيدته الطويلة التي كتبها تحت عنوان « الأرض الخراب » ونقلت الى اللغة العربية وعرفها كثير من القراء المتأدبين ، وهو كما قال عن نفسه « تقليدي في الأدب ، ملكي في السياسة ، انجلو كاثوليكي في العقيدة » أي أنه محافظ في جميع نواحي حياته . وقد شغلته « الثقافة » ووجد لها معاني مختلفة عند المعنيين بها من كتاب وباحثين ، فأخرج كتابا حاول فيه أن يحدد معناها من وجهة نظره تحت عنوان « ملاحظات على تعريف الثقافة » وفرق فيه بين ثقافة الفرد وثقافة الأمة ، والثقافة الخاصة والثقافة العامة ، وقسم المثقفين فئات وطوائف ، وقد نقل هذا الكتاب أيضا الى اللغة العربية ، وله عدة مسرحيات شعرية عرضت في أشهر مسارح لندن ، ونال جائزة نوبل في الأدب في عام ١٩٤٨ .

وأعود الى ماقاله اليوت في النقد الأدبي عندما حاول أن ينقد نفسه نقدا ذاتيا . يستهل اليوت نقده لذاته بتساؤله عن فوائد النقد بعامة ، وهل هو سؤال يستحق أن يثار بين الحين حتى اذا لم نعثر له على اجابه مقنعة ؟ أن براد لي يقول عن الميتافيزيقا « انها البحث عن أسباب سخيفة لما تدركه بالغريزة » . غير أن البحث عن هذه الأسباب هو أيضا غريزة ليست أقل رسوخا . وما ذكره برادلي عن الميتافيزيقا ينطبق على النقد . ومن ثم فهو أمر غريزي في الانسان ولايجوز له أن يتساءل فيه الا كما يجوز له أن يسأل لماذا يعيش ولماذا يموت !



نقاد وكتاب

ويرى اليوت أن هذا الدفاع عن النقد لايكفي مبررا لقيامه بنقد نفسه بنفسه ، فهذا عمل بحاجة الى مبررات أخرى . وهو اذ يستعرض جهده الأدبي لأربعين عاما سبقت يأمل أن يصل الى نتائج معينة أو الى أحكام عامة مقبولة في مجال النقد تصلح لتطبيق أوسع مجالا يمتد ليشمل غيره من الأدباء ولعله ـ كذلك ـ بنقده لذاته يدفع غيره الى أن يحذو حذوه ، ويحفز نقادا آخرين ليدلوا باعترافاتهم كما فعل . والناقد لذاته يعلم عن نفسه بطبيعة الحال أكثر مما يعلم عن غيره من الكتاب الذين سبقوه أو عاصروه . يعلم الدوافع والظروف التي أحاطت به فأوحت اليه أن يكتب ماكتب ويدرك الأسباب التي أدت الى تحولاته وتطوراته في نظرته الى الأمور وتذوقه واهتماماته وعقائده . ولايمكن أن يتوافر له مثل هذه المعرفة الدقيقة حتى عن أساتذة النقد الذين سبقوه والذين يكن لهم كل تقدير واجلال من أمثال صمويل جونسون وكلولردج ودردين وآرنولد .

والنقاد أنماط مختلفة ، فهناك الناقد المحترف ، وهو الكاتب الذي يكتسب شهرته عن طريق النقد الأدبي وحده دون سواه من الأشكال الأخرى للأدب . وهؤلاء عادة هم النقاد الذين تستخدمهم الصحف والمجلات لعرض وتحليل كل كتاب يظهر في المجال الأدبي ، وخير مثال لهؤلاء الناقد الفرنسي سنتبيق . وكثيرون من هذا الطراز قد حاولوا من قبل أن يكونوا كتابا مبدعين ، فلما فشلوا انقلبوا نقادا لاذعين ، وللحق أقول أن منهم أيضا من يستطيع الابداع الأدبي في شعر أو قصة أو مسرحية ولكنه لايمارسه أو يقل منه اقلالا لايعطيه صفة الكاتب المبتكر الخلاق .

وهناك الناقد المتحيز ، وهذا الناقد لايؤخذ بحكمه ، فهو قد يرفع من شأن أديب الى مكانة لايستحقها ، ويحاول أن يلفت اليه النظر . ويشير الى مواطن في أدبه يزعم أن فيها من الجمال مالم نره ، ومواطن فيها من التشويق مالم نحسه ، ومن هؤلاء كان سانتسبري ـ رجلا واسع الاطلاع ، يهيم بكتاب الدرجة الثانية ، مغرما باظهار مالديهم من مزايا خفية . كتب عن الرواية الفرنسية فاعطى من التقدير لبول دي كوك مالم يعطه لفلوبير ! ومن هؤلاء أيضا كويلر كوتش الذي حبب طلابه في كمبردج في الأدباء المغمورين في الأدب الانجليزي .

وهناك أيضا الناقد النظري الأكاديمي ، الذي يغرم بالمقارنة ، فيوازن بين كاتب في عصر وكاتب في عصر آخر ، أو أديب في لغة ونظيره في لغة أخرى . ومن هؤلاء أ . أ . رتشاردز وتلميذه المغلف وليام أمبسون . وكلاهما شاعر . وكثير ممن ينتمون الى هذه الطائفة أساتذة في الجامعات أومن أصحاب المناصب العلمية الذين يميلون الى الكتابة عن عصر معين أو أديب خاص .

ولاأحب أن أطلق على هؤلاء صفة المتخصصين ، فهم لايحصرون أنفسهم في فترة واحدة أو أديب واحد للتعمق والتخصص ولكنهم يفعلون ذلك حذلقة أو لضيق في الأفق .

وهناك أخيرا الناقد الذي يأتي نقده نتيجة لاشتغاله بالأدب واتجاهه المبتكر فيه ، فهو أديب خلاق أولا ، ثم ناقد أدبي تبعا لذلك ، ومن أمثال هؤلاء صموئيل جونسون وكولردج وكذلك دردين وراسين فيما كتبا من مقدمات ، وماثيو أرنولد على درجة أدنى . وصاحب البحث (ت . س . اليوت) يحشر نفسه في هذه الزمرة في خجل شديد وتواضع جم . فهو لم يراجع ماكتبه من أدب أصيل ثم يتعرض له بالنقد عن تقاعس عن انشاء جديد او غرور بما اخرجت له المطابع ، بل لقد عاد الى اتجاه السابق يساوره القلق في قدره وقيمته ، وانما فعل ذلك انطلاقا من الدافع التي اشرت اليها في صدر هذا المقال .

مراجعة للنفس

وقد تبين له وهو يراجع ما كتب من قبل انه قد عدل عن الكثير مما جاء فيها من احكام ، وان هناك غموضا في بعض المواضع ، ومجالات اتسعت فيها معارفه بعد ذلك ، واخرى تبخرت فيها المعارف وضحلت بعد عمق . ولقد ادهشه مثلا وفرة ما كان لديه من علم عن باسكال عندما كتب عنه وكم من موضوع فقد اهتمامه به الى درجة قصوى . حتى ان سأله سائل : هل لازلت تعتقد في كذا وكذا قال « لا اعرف » او « لم يعد يهمني الامر » . كما تبين له انه كثيرا ما اخطأ في حكمه ، وكثيرا ما كان يصدر عن استكبار ، او عن حماسة زائدة ، او غلو في اليقين ، او التجني على غيره ، او الغرور الذي يتصف به كثير من الادباء الذين يكتبون من بروج عاجية بعيدة عن اعين الجماهير . ولكنه ـ على الرغم من ذلك ـ لم يتنكر لأليوت الشاب الذي انقضى عهده وتولى . ومافتىء يرى صورة نفسه فيما صدر عنه من زمن بعيد .

ومع ذلك فهو لايرتاح لان تروى عنه اقوال واحكام صدرت عنه منذ عشرات السنين وكأنه باح بها لامسه فقط . تروى وكأنها نظريات عامة آمن بها في قواعد النقد ، وليس كل ما كتبه بعد ذلك الا تفصيلات لهذه النظريات . لذلك تراه عندما يسمح لناشر ان يجمع بعض مقالاته في كتاب يصر على ذكر تاريخ كل مقال في صدره او في ذيله ، لكي يذكر القارىء ببعد الزمن الذي يفصل بين الكاتب عندما كتب والكاتب عند صدور الكتاب . غير انه قلما التقى بالراوي الذي يروى عنه ويقول « هكذا كان يرى اليوت في عام كذا » . وكل اديب يعلم ان كلماته كثيرا ما تروى عنه خارج سياقها وتبنى عليها تبعا لذلك أحكام لم تدر بخلده ، وانما يفعل ذلك المكابرون الذين يحبون الجدل ، أو الحاقدون الذين تأكل الضغينة نفوسهم . ويذكر اليوت في هذا الصدد عبارة نطق بها في وقت ما وعدل عن كثير من مضمونها فيما بعد ولكنها أخذت تلاحقه مدى حياته كما تطارد الكلاب المسعورة فريستها كما يقول الشاعر شيلي . وتلك العبارة التي وردت في مقدمة لمجموعة من مقالاته هي : « أنا تقليدي في الأدب ، ملكي في السياسة ، انجلو كاثوليكي في عقيدتي الدينية » ويقول هنا اليوت لعله من قصر النظر أنه لم يتوقع أن هذه العبارة سوف تلاحقه مدى الحياة نظرا لما فيها من ايجاز وقوة في الحبك مما يجعلها شاهدا عليه كلما كتب عنه كاتب أو ناقد ، وذلك على الرغم من أنه قد تغير في عقيدته الدينية ولم تعد تشغله التفرقة بين الأدب التقليدي القديم (الكلاسيكي) والأدب العاطفي (الرومانسي) .

ويقول اليوت أنه عندما استعرض ما كتب النقاد عنه تبين له ان مقالاته التي كتبها في صدر حياته الأدبية هي التي تركت في القراء أثرا أعمق ، وهو يرجع ذلك لسببين : أولها تشبث الشباب بالرأي ، فالشاب يرى القضايا محددة تحديدا قاطعا . وكلما تقدمت به السن أخذ في التحفظ وخفف من نغمة الثقة التامة فيما يقول ، وسمح بكثير من الاستثناءات ، وأدرك الوجه الاخر للرأي ، وتهاون مع خصمه ، بل كثيرا ماتراه متعاطفا معه . والشاب دائما على يقين من أنه يملك الحق كله ، وهو إما محبذ الى أبعد الحدود وأما ساخط أشد السخط . والقراء ـ حتى الناضجون منهم ـ ينجذبون عادة الى الكاتب الواثق من نفسه . أما السبب الثاني لرواج ما كتب من نقد في أوائل حياته الأدبية فهو ليس بمثل هذا الوضوح ، ويتلخص في أن ما أذاعه من نظريات عامة في نقد الشعر وما كتبه عن الأدباء الذين كان لهم أثر في اتجاهاته الأدبية انما كان في لبه دفاعا عن الشعر الذي نظمه في تلك الحقبة من حياته . وقد أكسبه ذلك حرارة دفاع المحامي ، وهو مالم يتوافر فيما كتب مؤخرا عندما حد من تعصبه واشتهر في عدله .

٣ مراحل

وفي محاضرة القاها اليوت عن كتاب « حياة الشعراء » لجونسون قال إن المرء اذا حاول أن يقيم أحكام أي ناقد من عصر سلف وجب عليه أن يراها في جو عصرها وأن ينظر اليها نظرة المعاصرين لها . ولايخفى مافي هذا من جهد شاق على التخيل قلما يفلح فيه الكاتب ، اذ أنه من العسير عليه أن يسقط من حسابه تأثير ما كتب من فنون الأدب والنقد في الفترة التي تقع بين الكاتب القديم والناقد الحديث على تكون هذا النقد . كما لايستطيع أن يسقط من حسابه ما طرأ على الذوق الأدبي من تطور لامفر منه ، أو زيادة علمه وفهمه للأدب الذي سبق الجيل الذي يتعرض له بالنقد والتقييم . غير أن مجرد بذل هذا الجهد في الخيال ، وتمثل هذه الصعاب في العقل يستحق ماينفق فيه من وقت .

وهنا يقول اليوت انه عندما يعيد النظر فيما كتب من نقد أدبي في باكورة شبابه يذهل لمدى استيعابه للتيارات الفكرية والأدبية التي سادت إبان العصر الذي ظهر فيه الأثر الأدبي الذي تعرض له بالتقدير ، كما يذهله مدى النضج الذي بلغه عندما كتب ، وادراكه للعوامل التي أثرت فيه والظروف التي أحاطت به آنذاك . ويقول إنه بعدما تقدمت به السن واخذ يراجع نقد القديم استعصى عليه أن يستعيد كل الظروف التي أحاطت به في ذلك الحين ، وأن يعيد بناء المناخ الذي كان يتنفس فيه . فاذا كانت هذه هي حاله مع نفسه فكيف تكون حال الناقد الذي يتعرض اليوم لتقييم ماكتب اليوت في ماضيه ، ؟ كيف يلم بها ؟ كيف يفهمها ؟ وان الم بها وفهمها فكيف يجدفيها من التسويغ عندما صدرت . ان الكتابات النقدية القديمة لاتهم في الأجيال المقبلة الا الباحثين المدققين الدارسين ، بل أن هؤلاء أنفسهم لايهمهم منها الا مالايزال ذا منفعة ، أو ماله قيمة في حد ذاته بغض النظر عن الظروف التاريخية التي أحاطت به . وهذا القدر النافع الذي له قيمته الدائمة على مر العصور تتضاعف قيمته اذا استطاع القارىء الحديث أن ينظر بعيني الكاتب القديم وقرائه الذين عاصروه . وعلى الرغم من تقدير اليوت البالغ لما خلف لنا جونسون وكولردج من تراث نقدي ، فانه لايجد له قيمة الااذا كانت دراسته على هذه الصورة .

ويقسم اليوت كتاباته في النقد الى ثلاث مراحل . أولاها عندما كان يكتب لمجلة (أجويست) The Egoist ، التي كانت تصدر كل اسبوعين ، وقد قدمه الى هذه المجلة الشاعر المعروف عزرا باوند ، ومن أهم ما كتبه فيها مقال بعنوان (التقاليد والمواهب الفردية) ، ولازال هذا المقال يلقي رواجا شديدا عند دارسي الادب في جامعات أمريكا ، وكان اليوت يقيم وزنا كبيرا للتفرقة بين الأدب الكلاسيكي والأدب الرومانسي .

وتبدأ المرحلة الثانية من حياته النقدية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وفيها كتب للملحق الأدبي بصحيفة التايمز ، ولعل هذه الفترة كانت أكثر أيام حياته خصبا .

وفي المرحله الثالثة والأخيرة عمد اليوت الى القاء الخطب والمحاضرات يلقي فيها الأضواء على الاتجاهات الجديدة في الأدب .

شكسبير . . ودانتي

وكتابات اليوت في النقد إما أحكام عامة وقواعد للنقد الأدبي كتلك الذي جاء في مقاله عن (التقاليد ومواهب الأفراد) الذي حاول فيه أن يوجه الكتاب الموهوبين الى ضرورة دراسة الماضي والا يقفوا عند حد مواهبهم الذاتية ، وأما نقد للكتاب فرادى . وهو يؤثر هذا الضرب الأخير الذي يخص به كاتبا بعينه على النوع الأول الذي يحاول أن يصوغ فيه نظريات عامة في النقد ويرى أن النوع الثاني هو الذي له قيمة كبرى تؤهله للبقاء ، ولكنه يذكر ذلك في حذر شديد ، لأن هذا الرأي في حد ذاته حكم من الأحكام العامة التي لاتخلو من الزلل .

وقد يعجب القارىء حين يعلم أن اليوت كان بمعاصري شكسبير أكثر حفاوة منه بشكسبير في حد ذاته ، فهؤلاء المعاصرون لشكسبير هم الذين الهبوا خياله ودربوا حسه على جمال الايقاع وأشبعوا عواطفه . ذلك لأنه قرأهم وهو ما يزال حدثا فكانوا أكثر ملاءمة لمزاجه ومقدار ما بلغ من تطور ، ثم ان كاتبا مسرحيا عملاقا مثل شكسبير لايؤثر في الأديب الناشىء بمقدار مايوحي اليه بالمحاكاة . وفرق بين التأثر والمحاكاة الاول يخصب والمحاكاة تعقم ، وان كان اليوت يرى أن محاكاته لدانتي لم تكن سببا في عقمه لانه فعل ذلك بعدما جاوز الخمسين من عمره وتكونت له شخصيته الأدبية ، ولأن دانتي كتب بلغة أجنبية عنه بحيث تصبح المحاكاة التامة أمرا بعيدالمنال .

وشبيه بموقف اليوت ازاء شكسبير موقفه من الكتاب

الفرنسيين المعاصرين له . كان بودلير عملاقا فكان لذلك يوحي بالمحاكاة أكثر مما يلهم للابداع ومن ثم كان كتاب المرتبة الثانية لعهده أكبر تأثيرا في اليوت ومن هؤلا جول لافورج .

هذا ما كان من أمر موقف اليوت من الادباء الأفذاذ الذين تعرض لنقدهم ، أما عن أحكامه العامة ونظرياته في النقد فلعل أكثر ما حظي منها بالشيوع نظريته عن « الارتباط الموضوعي » أي أن يكون موضوع الكاتب مقابلا وموازيا لامر واقع في الحياة ولكنه من بنات خياله . وعلى الرغم من الغموض الذي أحاط بهذا التعبير فان اليوت يعتقد أنه كان شديد التأثير في الناقدين المعاصرين له . ويكفيه أنه أحيا به فكرة التقيد بما سبق أو استيحاء الماضي وهو اتجاه كلاسيكي كان يؤمن به ايمانا شديدا .

وثمة أمر آخر شغل اليوت به نفسه كثيرا ، وذلك هو تأثر النقد بنظرياته ، والمشكلة الجدلية هي : هل يمارس الناقد نقده للآثار الأدبية حتى يستطيع أن يصوغ نظرياته ، أم على عكس ذلك يعتنق نظريات معينة وفي ضوئها يقوم بنقد الاعمال الأدبية التي يتعرض لها ؟ وهو بطبيعة الحال يعتقد أن نقد الأعمال الأدبية يسبق صياغة النظريات ، وعلى هذا النهج سار .

وفي هذا الصدد يقول ان ذوق الأديب المبتكر والناقد على حد سواء لابد أن يتأثر بالأعمال الأدبية وفنون التصوير والموسيقى التي يعشقها هذا أو ذاك . ولو عرفت هذه الميول عند كاتب من الكتاب أمكنك أن تفهمه فهما صحيحا وأن تحلل أعماله تحليلا علميا دقيقا . ولذلك يرى اليوت أن افضل ما كتب من نقد كان عن الادباء الذين قرأهم وتأثر بهم وبخاصة الشعراء منهم .

وبعدما يفرغ اليوت من شرح رايه في نظريات النقد ينتقل الى الحديث عن مقالاته النقدية التي كتبها عن كتاب أو شعراء أفذاذ . وهنا يطرح هذا السؤال : الى أي حد يستطيع الناقد أن يغير من تذوق الجماهير ، وتقديرها لشاعر معين ، أو لعصر سلف من عصور الأدب ؟ هل استطاع هو (اليوت) أن يثير الاهتمام بكتاب المسرحية المعاصرين لشكسبير أو بالشعراء الميتافيزيقيين بما كتب مشيدا بهم ومعددا مناقبهم ؟ يقول عن نفسه أنه لم يستطع . وهو اذ يتحدث عن التذوق الأدبي ، يفرق بين أمرين : التذوق الفني الرفيع الذي يمتد على مدى العصور ، والتذوق المؤقت الذي يرجع الى حب التغيير ، من أجل التغيير والأخذ بالجديد مهما تكن درجة الجمال فيه ، وهذا اللون سريع الزوال . وفي لغة كتب بها شعر عظيم لعدة أجيال - كاللغة الانجليزية - من الطبيعي أن يختلف أصحابها - جيلا بعد جيل - فيمن يؤثر من القدامى ، ومن يضرب على وتر يستشيفه أبناء الجيل الجديد . والقارىء الساذج أو الناقد الفج يعتقد أن الكتاب القدامى الذين لهم في جيله الحظوة والتقدير أفضل من غيرهم في تاريخ الأدب . أما الناقد الواعي الحصيف فلايتأثر بذوق العامة في عصره ، ويجد من القدامى كل من يرتفع بفنه الى المستوى الرفيع بغض النظر عن شيوعه بين أبناء جيله المعاصرين . ومن ثم كان من وظيفة الناقد أن يضع كل أديب موضعه الصحيح ، وان كان في الواقع يخلق ذوقا جديدا .

عندما يؤثر في ذوق عصره

وهذا ما فعله اليوت حين بعث الاهتمام بكتاب المسرحية الأوائل وبشعراء القرن السابع عشر الميتافيزيقيين . أنه في الواقع لم يكشف عنهم كشفا جديدا . فقد فعل ذلك من قبله نقاد آخرون . وانما كانت اشادته بهؤلاء ترجع الى تأثيرهم في شعره . فلما حفل القراء بشعره اتجهوا نحو من سبقوه ممن أوحوا اليه اتجاهاته الفنية . وان كان قد كتب عن شعراء أو أدباء لم يكن لهم أثر في انتاجه ، فانما كان لكسب المال الذي كان بحاجة اليه . كما فعل عندما عرض بودلير على الرغم من أنه لايدين له باي فكرا أو اسلوب .

وبهذا التحليل يكون اليوت قد أجاب عن السؤال المطروح ، وهو مدى تأثير الناقد في ذوق عصره ، أجاب على الأقل بالنسبة لشخصه ، فهو يعترف بأنه لم يخلق ذوقا جديدا أو تقديرا خاصا لأحد الأدباء القدامى الا بمقدار ما ينم شعره (شعر اليوت) عن أثر هذا الأديب القديم فيه

وبعد هذا يطرح اليوت سؤالا آخر : وهو الى أي حد وباي السبل يتغير ذوق الناقد نفسه خلال حياته ؟ والى أي حد يدل التغير - حين يحدث - على زيادة في النضج أو تدهور في القدرات ؟ ومتى يكون التغير مجرد استبدال اسلوب باسلوب ، لاالى الافضل ولا الى الأسوأ ؟ وعن هذه التساؤلات يجيب بالنسبة لنفسه كناقد بقوله أن رأيه في الشعراء الذين كان لهم أثر في تكوينه لم يتغير قط ، بل ربما شد اعجابه بهم مع مرور الأيام حتى بعد أن انتهى دورهم في الايحاء اليه وتوسيع أفقه بكشفه عن المزايا الأدبية التي اتصفوا بها ، لأن هذا الكشف عنهم كان أيضا كشفا له عن

نفسه ، وحتى بعد أن طوى آثارهم وأخذ يقلب صفحات غيرهم من الكتاب مثل مالارمي وجورج هربرت ، ومثل شكسبير الذي عاد بكثير من الاهتمام بعد أن كان يؤثر عليه معاصريه . وربما كان مرد ذلك الى أن الغذاء الروحي الذي أمسى بحاجة إليه في منتصف العمر أو في أخرياته يختلف عن الغذاء الذي كان يتناسب مع سن الشباب ، لأن شاعرا كشكسبير مثلا لاينال حقه من التقدير عند الناقد الأدبي الا بعد أن يقضي عمره كله في دراسة بل وأكثر من عمره ان جاز أن يحدث ذلك . وهناك شاعر كان له في شبابه تأثير عميق على الرغم من قصور معرفته بلغته . وقد لبث هذا الشاعر محط اعجاب اليوت طوال حياته ، يعشق الايجاز في اسلوبه ويولع بتعبيره المباشر الذي حد من ميله الى الاطناب الذي ورثه عن القدامى من الكتاب الانجليز الذين كانوا أيضا محط اعجابه الشديد . ذلك الشاعر هو دانتي .

يقول اليوت ان نقده يبلغ الذروة عندما يكتب عن الادباء الذين أعجب بهم من كل قلبه ، وهو يكاد يصم اذنيه عما يرد به عليه غيره من النقاد . أما حينما يكتب عن ادباء ليس لهم عنده كل هذا التقدير مثل تنيسون أو بيرون فانه يكون شديد الشغف بمعرفة راي الآخرين فيه . ولايكاد يهمه في قليل أو كثير راي غيره فيما كتب عن أدباء من الدرجة الثالثة . لأن هؤلاء بطبيعة الحال لايثيرون اهتمام لقراء الا لفترة قصيرة يتردون بعدها في هوة النسيان .

كما أن نقد الكاتب العظيم الذي ثبت على الزمن شهرته مثل ملتن فهو قمين بأن يتأثر بعوامل أخرى ليست أدبية في طبيعتها : لايستطيع الناقد أن يتجاهل شخصية ملتن أو آراءه السياسية أو عقيدته الدينية مما لايجعل النقد أدبيا محضا . أما اذا كان الكاتب ثقيلا على نفس الناقد كما كان توماس هاردي على نفس اليوت فالأفضل أن يتحاشى الكتابة عنه كلية .

واليوت لايكون قاطعا جازما في حكمه على معاصريه من الكتاب كما هو عندما يتصدى للكتاب الغابرين ، وكثيرا مايتذبذب في حكمه على أحدهم فمرة يذكره بالاعجاب ومرة اخرى يراه محلا بغيضا الى نفسه كما كان موقفه من د. هـ. لورنس اذ لم يكن من اليسير على اليوت أن يجعل نقده للورنس أدبيا بحتا بغض النظر عن المثل الخلقية التي وردت في قصة مثل قصة (عشيق الليدي تشاترلي) والتي لايرضى عنها اليوت بحكم ميوله الدينية وعقائده . وذلك على الرغم من أن اليوت يشير دائما بأن النقد الأدبي يجب أن يكون أدبيا فحسب والا يتأثر الناقد بمضمون الأثر الادبي .

وأخيرا أحب أن أذكر هنا أنني اقدمت على هذا العرض للنقد الذاتي الذي تولاه اليوت عن نفسه ، وهو من جهابذة النقد الانجليزي ، لأن كثيرا مما جاء به يصدق على النقد بعامة كناحية هامة من نواحي الدراسة الأدبية في جميع اللغات .

ولعل أهم ما نادى به اليوت فيما يتعلق بالنقد الأدبي أنه أفضل ما يكون عندما يكتب الناقد عمن كان لهم أثر في انتاجه الأدبي ، عندئذ يكون الناقد على ثقة من نفسه ، وطبيعي اذن الا يتعرض لنقد الشعر الا شاعر ولنقد القصة الا قصاص وهكذا . ويشترط في الناقد ان يكون من المبدعين في فن من فنون الأدب أولا وأن يكون النقد صفة ثانوية فيه ، على أن يتحاشى ما استطاع الاحكام العامة التي يطلقها لكي تنطبق على كل كاتب في أية لغة من اللغات وفي أية ناحية من النواحي ، لأن ذلك مدعاة للشطط في مجال الأدب الذي لابدأن يتميز فيه كاتب عن كاتب بخصائص ذاتية قد لاتتوافر الا في شخصه . ويؤكد اليوت أن النقد الأدبي يجب أن يكون أدبيا فحسب ، ليتعرض للشكل والاسلوب ، ولايتعرض للمضمون السياسي أو الخلقي أو الاجتماعي ، فهذه نواح أخرى الأجدر أن يقوم بها مؤرخ أو فيلسوف ، أو عالم لغوي ، أو رجل من رجال الدين والاخلاق ، كل في ناحية تخصصه

وكذلك من الأفضل للناقد الا يتعرض لكاتب يشعر ازاءه بالنفور والبغضاء ، حتى لا يتحيز أو يكون للهوى أثر فيما يقول عنه

ويرى اليوت أن النقد الذي يصدر عن الناقد وهو في شباب العمر عادة ما يكون متحيزا جريئا مشحونا بالحماسة ، فاذا تقدمت به السن كان أوسع اطلاعا وأرحب واعمق حكمة وأشد تواضعا ■■

محمود محمود

« لأن تضيء شمعة صغيرة خير لك من ان تسب الظلام »

« كونفو شيوس »

الطفل والمرضعات في الطب العربي

بقلم : الدكتور سامي خلف حمارنة

لم يغفل الأطباء العرب في العصور الوسطى توجيه العناية الفائقة بالأطفال والأمهات لحفظ صحتهم وتدبيرهم في حالة المرض . ولكن مع الأسف لا نعرف الا القليل عن ذلك بسبب اهمال هذا الموضوع في كتب تاريخ الطب والعلاج في الشرق والغرب . فلأجل ملء هذه الثغور في أدبنا العلمي الطبي رأينا أن نخصص هذه المقالة كمقدمة أولية عن طب الأطفال للفت الأنظار الى هذا الموضوع الهام وإعطائه حقه من التقدير ولو بعبارات وجيزة وعرض سريع للحقائق التاريخية لمساهمة العرب الى حد كبير في تطوير هذا الفرع من العلوم الصحية .

لقد اعتمد الطب العربي في بداءته على ما اقتبسه من علوم الحضارات السابقة في الصناعة وفي مقدمتها حضارة الاغريق وما نقله المترجمون من كتب الهنود والسريان والأقباط والفرس وغيرهم .

ولا يسعنا الا أن نؤكد بأن الحضارة الأغريقية هي التي في الدرجة الأولى تركت طابعها الخاص على البحث العلمي العربي النظري والتجريبي وأثرت على صياغته واتجاهاته ومعالمه القريبة والبعيدة ولكن سرعان ما نشأ من امتزاج كل هذه الثقافات حضارة عربية جديدة لها طابعها المنفرد وأسلوبها المعروف .

لقد قام العرب والسريان بترجمة العديد من كتب الاغريق وكان اختيارهم للكتب التي ترجمت للعربية يدل على الحكمة والمرونة والعقل السديد اذ نقلوا أفضل ما كان باقيا من تراث اليونان واكثره نفعا . وما هي إلا فترة من الزمن حتى توفرت لطلبة الطب والصيدلة في العاصمة العباسية وسواها من المدن العربية والاسلامية الأفضل والأعم نفعا من كل ما كتبه وخلفه علماء الاغريق وسواهم . فقد تم نقل العديد من كتب أبقراط ابو الطب وارسطوطاليس المعلم الاول وديسقوريدس عالم النباتات الطبية والحشائش في القرن الاول المسيحي ومعاصر بولس الرسول وجالينوس في القرن الثاني . والذي تركزت في كتاباته خلاصة هامة من آثار الأغريق في الطب والفلسفة . كما وقد ترجمت بعض كتب من جاءوا بعدهم نظير أوريباسيوس وبولس الاجانيطي في اليونانية وأهرن القس بالسريانية . اما جمهرة الأساتذة المترجمون فتشمل أسماء لامعة في الحضارة العربية . واغلبهم من المسيحيين العرب الذين نقلوا حضارة القدماء النفيسة الى لغة الضاد أمثال يوحنا بن البطريق والترجمان الطبيب حنين بن اسحق العبادي من قبيلة العباد بعاصمة اللخميين وابنه اسحق وابن اخته حبيش الأعسم الدمشقي واصطفن بن بسيل وابن ناعمة وسلام الأبرش وايوب الرهاوي وقسطا بن لوقا البعلبكي وغيرهم . واننا لنجد ذكرا حسنا لهؤلاء العلماء في كتب السير والتراجم أمثال كتاب الفهرست لابن النديم وطبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل في القرن العاشر (الرابع بعد الهجرة) وتاريخ الحكماء لابن القفطي في القرن الثاني عشر واخيرا أعظم هذه الكتب بالنسبة لتاريخ العلوم الطبية كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الخزرجي العربي السوري في القرن الثالث عشر (السابع للهجرة) .



أول من كتب في طب الأطفال

اشتهر في زمن الخليفة الرشيد الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي الذي عالج الحبالى والمرضعات والاطفال وكانت له نظريات شيقة في الغذاء والدواء .

وقد تطرق للموضوع أبو زيد حنين العبادي زمن الخليفة المعتصم في كتابه المشهور بالمسائل في الطب للمتعلمين ، الذي وضع على سبيل المسألة والجواب ، وقد كان دستورا للأطباء المبتدئين والممارسين يتخذونه دليلا لهم وله ايضا مقالات في تدبير الناقهين وحديث في المولودين لثمانية أشهر .

وعالج الموضوع بشيء من التعمق والاسهاب أبو الحسن الطبري في كتابه فردوس الحكمة والذي أتمه للخليفة المتوكل سنة ٨٥٠م ويعتبر اول مرجع من نوعه في شموله وسعة المواضيع التي يطرقها ، كتبه باللغتين العربية والسريانية وفي هذا الصدد يبحث في تكوين الجنين وشبهه للوالدين كما « تشبه الدواب والطير اباها في الوانها وصورها وأصواتها وسائر أفعالها .... وإنا لنجد هذا في كل مزروع ومولود » . بعدها يتكلم في تطور الجنين في الرحم وطريقة تغذيته من الأم باسلوب علمي ثم ظهور أعضائه ونموها واستكمالها في الرحم الى زمن الولادة وقد أيده في هذا البحث ما ذكره الطبيب والجراح الشهير أبو الفرج بن القف المتوفي سنة ١٢٨٦م . وتكلم الطبري عن سبل تسهيل الولادة والعناية بالطفل وحفظ صحته بافضل السبل وفيه يوصي باستعمال لبن الأم الذي هو أفضل الألبان لوليدها . ويشير الى ان الطفل لا يكثر البكاء الا لوجع تجب معالجته « وتتوقى عليه من شدة الرباط (الاقمطة) ومن زيادة الحر والبرد والاصوات المزعجة Noise Pollution والمناظر المرعبة ويحذر من كثرة الارضاع « فالامتلاء يورث الكسل » فيفقد الطفل حيويته ونشاطه ودعابيته . ويوصي متى بلغ المولود وقت الفطام باعطائه المفيد والمناسب من الأغذية مع عدم اهمال النظافة الجسمية ويضيف « وتنبت الأسنان في الشهر السابع أو بعده ، وكلما كان نباتها أبطأ كان أقوى لها وأشد وجعا » . ويوصي بالدعة وادخال السرور للنفس فاذا شب يدرب على الهدوء بدل الخوف والارهاق الذي ينهك بدنه . وبعد بلوغ الثانية عشرة من العمر وقد تعلم القراءة والخط والنحو يبدأ بعدها بتعلم الحساب والهندسة وعلم النجوم ثم دراسة الفلسفة والعلوم الصحية .

ويختصر الطبري أمر حفظ الصحة بكلمتين مفادهما إدخال ما يوافق البدن واخراج ما يتولد فيه من الاثقال . أما عن الأكل فيوصي بالاقلال والاحتراس من التخمة .

في القرن العاشر

كان هذا العصر الذهبي في الحضارة العربية العلمية والثقافية ، وبلغت فيه العلوم الصحية أعلى مراتب التقدم وزاد فيه على أية حضارة سبقت او لحقت حتى عهد البعث الاوروبي ، فكان يتوفر للطبيب والصيدلي كل وسائل التعليم والدرس الى أعلى الدرجات في المدارس والكليات ودور الشفاء والمكاتب وما يلزمه من التمرين نظريا وعلميا وازدادت فيه المستشفيات ودكاكين الصيادلة العارفين بالعقاقير وأصنافها وطرق جمعها وحفظها وتركيبها .

ومن ألمع الشخصيات الطبية في هذا القرن هو الطبيب الرازي والفيلسوف الكيماوي أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.

وقد تميز هذا الحكيم بأصالته وقوة ملاحظته ودأبه على ادراك اسرار المهنة واتقان اصولها ورفع شأنها وحفظ قوانينها العلمية والادبية حتى أصبح نديم الامراء وطبيب الملوك والشرفاء ، وكان مثال الطبيب المدقق النزيه الذي أوقف حياته على نفع مرضاه ، ومراعاة صحتهم وافادة تلامذته وزملائه في الصناعة وقد خلف ما ينيف على مائة كتاب طبي صيدلاني ـ بعضها لا يزال في مخطوطات تنتظر النشر والتحقيق . فمنها كتابه المنصوري في الطب الذي يخصص فيه قسما لبحث الصحة العامة وحفظ صحة الاصحاء . » وله كتاب

الجدري والحصبة يصف فيه هذين المرضين بمنتهى الدقة ذاكرا الفارق بينهما والعلائم والاعراض وطرق الدراسة والعلاج باسلوب متشابه لما توصف به في العصر الحديث .

وظهر في القرن نفسه الطبيب المدقق علي بن العباس المجوسي الذي اشتهر كتابه الموسوعي « كامل الصناعة الطبية » ليس في الشرق فحسب بل في الغرب ايضا بعد ان ترجم الى اللغة اللاتينية . وقد خدم المجوسي الملك عضد الدولة البويهي الذي قال فيه « انه كان محبا للعلم والحكمة واهلها » وفيه يصف تدبير الصحة حسب حالات الهواء وفصول السنة والرياضة « وهي أفضل ما يستعمله الانسان في حفظ الصحة . وأعظمها نفعا اذا كانت قبل الغذاء لانها تقوي الاعضاء وتصلبها وتحلل الفضول وتقوي الحرارة الغريزية وتعينها على جودة الهضم » ويشير الى رياضة آلات التنفس ليجتذب بذلك الهواء كثيرا إلى الرئة والصدر فيوسع الصدر ومنافذ الجسم » وفي حديثه في الأمراض النفسية يوصي بالا يكثر المرء من الهم والغم والحسد فانها تغير مزاج البدن وتنهكه » الامر الذي يوافق علم النفس الحديث .

ويخصص المجوسي فصولا كثيرة في تدبير الاطفال والظئر والصبيان الذين جاوزوا حد الرضاع ويوصي بالتحرز من الأمراض الوبائية .

سياسة الصبيان

أما أوسع وأروع ما كتب في هذا الموضوع في القرن العاشر فقد جاء في كتابين نشرا في المغرب العربي وهما : ـ

الأول ـ كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لأحمد بن إبراهيم بن الجزار القيرواني المتوفي حوالي سنة ٩٨٤م ، وقد حققه ونشره الدكتور محمد الحبيب الهيلة في الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨م . قال ابن الجزار « هذا البحث أهمله المؤلفون ولم أر لأحد من الأوائل كتابا كاملا جامعا فيه بل معلومات متفرقة في شتى الكتب يصعب جمعها فرأيت أن أجمع المتفرق منها في كتاب واحد . وأضمنه ما حصلته في ٢٢ بابا » ويتحدث ابن الجزار حول ضرورة العناية بالمرضعة ليصلح اللبن ويجود هضمه من قبل طفلها وكيفية العناية به عند الولادة وبعدها من حيث المضجع ونظافة الأبدان وأوقات الرضاعة وطعام المرضعة ومناسبته ثم ظهور أسنان الطفل وتدبير أوجاعها ان حدثت . ثم يعرض لاخلاق الصبي وطباعه وحسن تربيته وتفقده وتوجيهه في الكلام والجلوس والقيام والسلوك والنوم واليقظة والطعام والشراب على طريقة توازي ما تصادفه في يومنا هذا .

أما الثاني فهو كتاب ، « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين » لعريب بن سعيد الكاتب القرطبي وهو برأيي أجمل وأوفى كتاب من نوعه في أية لغة صدر في نهاية العصور الوسطى وقد تم نشره وترجمته للفرنسية في كلية الطب والصيدلة بالجزائر سنة ١٩٥٦م . أما المؤلف فقد عاصر الخليفة الاندلسي الحكم المستنصر وابنه هشاما اللذين ازدهرت في ايامهما العلوم والمعارف وبلغت النهضة العلمية ذروتها . والكتاب مهدى الى الخليفة وفيه يذكر تدبير الأجنة وأسباب الولادة والجنس وأحكام القبول وسياسة التربية وتدبير الحبالى وحفظ قواهن ومداواة ما يعرض لهن من أول الحمل الى وقت الوضع والقول في الاسقاط واسبابه وتلافي أعراضه والاحتراس مما يحدثه وتدبير النفساء واستخراج المشيمة وعمل القابلة . ويبحث في سر تكوين اللبن وارضاع المولود وزمن انبات أسنانه، ونموه الجسماني وفي العقل والذاكرة وتدرجه في التغذية من اللبن الى ما يلائمه من الطعام والشراب حتى يبدأ حياته المدرسية .

وليس لدينا اتساع في المجال لنذكر كتابات الطبيب الجراح أبي القاسم خلف الزهراوي في العاصمة الأندلسية او الطبيب الفيلسوف ابن سينا في ايران وكلاهما أفاضا في مثل هذه الابحاث . وتبعهم آخرون أيضا بحثوا في مهنة القبالة وأهميتها ومراحل الطفولة والدرس في حياة المولودين والصبيان حتى زمن التخصص في الدراسات اللاهوتية والشرعية أو الفلسفية أو الطبية مع التشديد على الناحية الاخلاقية . وآداب الجلوس ومعاشرة الاصدقاء واخلاق المهن الصحية . ويكفينا هنا ان نختم بالقول ان علم التوليد قد بلغ في العصر العربي الذهبي أعلى الدرجات وتبوأ مكانا رفيعا لم يبلغه في أي حضارة سابقة حتى العصور الحديثة . وقد غبن مؤرخو الطب ما قدمه العرب في هذا المضمار ومساهمتهم في هذا الحقل الصحي الهام اذ بالعناية بالاطفال دليل على الاهتمام الحقيقي بالجيل الصاعد ليكون قويا صحيحا في جسمه ونفسه وخلاقا ومثمرا . وما هذا الا أحد الحقول التي ساهم العرب فيها بالنصيب الوفير لاعلاء شأن الحضارة الانسانية والعناية بالصحة الخاصة والعامة لرفاه الانسانية وسعادتها . ■■

سامي خلف حمارنة
معهد التراث العلمي العربي
جامعة حلب ـ سورية



حتى تضيف ٢٠ سنه إلى عمرك !

بقلم : الدكتور عثمان مهملات

ان النشاط الرياضي ضرورة ملحة وواجب يجب ممارسته وحق للجسم يجب أداؤه لكي يظل البدن متنعشا نشيطا ، ولكي تحافظ الاجهزة الحيوية في الجسم على فعاليتها . وتتخصص لوظائفها على اتم وجه ، وبذلك وحده يمكن اطالة فترة نشاط الفرد وسنواته المنتجة ! وتنخفض فترات قعوده وعجزه ومرضه وهرمه .

ولذلك لان الهدف من النشاط الرياضي هو تنشيط الاجهزة الاكثر حيوية كالدوران والتنفس ، للمحافظة على حيويتها ونشاطها لاطول فترة ممكنة ، ولوقاية الجسم من كل ما ينجم عن الحياة الراكدة الخاملة من اضطرابات استقلابية وقصور في التروية الخلوية ، وما ينشأ عنه من عجز في التغذية ، والتخلص من الفضلات ، وما يؤدي اليه من عطالة مباشرة في الجهاز الناقل لغشاء الخلية ، وتصلب في جدار الاوعية ، وهرم مبكر ، وخلل وظيفي يصيب البدن قبل اوانه .

ضرورة للجميع

وهذه الاسباب ـ وغيرها العديد ـ دفعت اطباء الطب الوقائي للتشديد على ضرورة تطبيق الرياضة على اكبر نسبة ممكنة من الناس ، بغض النظر عن الجنس او العمر او العمل .

والنزعة الحديثة التي تجتاح الولايات المتحدة وبعض الدول الاوربية الآن ، نحو الرياضة البدنية في

جميع الاعمار لم تأت تلقائيا ، وانما ظهرت بعد جهد وعمل دؤوب قدمه العديد من الاخصائيين والاطباء والصحفيين على مدى السنوات العشر الماضية ، في سبيل شرح الفوائد التي يجنيها البدن من الرياضة وحث الشعب على القيام بها . وترك الخجل والكسل جانبا ، للحفاظ على مستقبل اكثر اشراقا وبهجة للفرد .

وقد ساعدت الصحف والمجلات هذه الجهود بتأثيرها الكبير نسبيا على المواطن في تلك الاقطار ، بالاضافة طبعا لتبعية وسائل الاعلام المتوافرة من كتب وراديو وتلفزيون . الخ ...

ونحن نتمنى هنا ان نستفيد من تجارب هؤلاء الخبراء والبحاثة ، وندفع شعبنا على ممارسة التمارين الرياضية ، لخلق جيل صحيح البنية قادر على العطاء والبناء نحو مجتمعه ووطنه بشكل سليم وجيد .

والحقيقة ان مشكلة الحياء والخجل من القيام بالتمارين الرياضية عند من تجاوز سن الشباب ، لا زالت تشكل عقبة في طريق انتشار الرياضة بين افراد مجتمعنا ، فلا زال العديد او معظم أفراد الجيل القديم يعتبر الرياضة نوعا من الهزل وانقاصا لقيمة الفرد الاجتماعية ، ويعتبرون الظهور بالثياب الرياضية شيئا اقرب منه للاستهزاء منه للفهم والتقدير .

ولهذا ينبغي توجه حملة اعلامية مركزة عن طريق وسائل الاعلام لتوعية الشعب وتوجيهه ، وايضاح الفوائد التي يمكن ان يحصل عليها من الرياضة .

يساعد على ذلك كله قيام الحكومات المحلية بزيادة عدد المنشآت الرياضية الشعبية ، وتوزيعها على اكبر عدد ممكن من الاحياء لكي تكون قريبة من منزل اكبر عدد من المواطنين . وتعيين المدربين او المشرفين الفنيين لكي يقدموا النصائح العلمية لكل من يود ممارسة نشاط رياضي بحيث لا يكون عمله عشوائيا ولكي يستفيد منه البدن بأكثر قدر من الافادة .

نصائح قبل الممارسة

ولكي لا يكون البدء بأي برنامج تدريبي رياضي عشوائيا ، فان هناك ست نصائح يجب اخذها بعين الاعتبار دوما ومحاولة تطبيقها للحصول على افضل النتائج واسرعها .

١ ـ الفحص الطبي : يجب انجاز فحص فيزيائي كامل قبل بدء البرنامج التدريبي . على ألا تكون الفترة بينهما



اطول من ستة ، او ٣ اشهر عند الكهول فوق سن الـ ٤٠ عاما .

واعتمادا على المعلومات التي يحصل عليها الطبيب الفاحص من الجسم يمكن له ان يبين امكانية القيام بالتمارين المجهدة او الاكتفاء بتمارين معتدلة الشدة خاصة عندما تشاهد سمنة شديدة او ارتفاع توتر شرياني ـ او اصابة قلبية حديثة او علامة منذرة اخرى . وينبغي دوما البدء التدريجي في شدة التمرين ومدته وتجنب البدء المرهق والطويل .

٢ ـ مراقبة الطعام اليومي : يجب ان يكون الطعام متنوعا وان نأخذ بعين الاعتبار معطيات جسمية مختلفة قبل ان تشير اليه وتتضمن هذه المعطيات : وزن الجسم (وجود سمنة او نحافة) ، مستوى الكولسترول والليبيدات في الدم ـ مستوى السكر في الدم ـ مستوى حمض البول في الدم .

وهناك نقطة مهمة يجب عدم تناسيها وهي ان ننتظر ساعتين على الاقل بعد وجبة ثقيلة لكي نبدأ بالتمرين . لان الدم يتجمع بتركيز عال في الجهاز الهضمي لمدة ٩٠ دقيقة تقريبا بعد الوجبة .

٣ ـ تمارين الاحماء : من المهم ان يسبق اي تمرين شديد ، تمارين خفيفة للاحماء ، كتحريك الذراعين بشكل دائري

والانثناء عدة مرات للامام والخلف الخ .. وذلك لان زيادة الضغط بشكل فجائي على القلب المستريح قد يسبب نقصا في التروية الدموية للعضلة القلبية .

٤ ـ تجنب الاجهاد : من علامات الاجهاد الالم في الصدر ـ الزلة الشديدة ـ الدوار ـ الغثيان ويجب التوقف عن التمرين في حال المعاناة من اي من الأعراض السابقة فورا وتخفيض مدة التمرين .

٥ ـ الاستراحة والاستحمام : إن حماما باردا او فاترا بعد التمرين لمدة خمس دقائق يقي من حصول الغثيان ، والتقلصات العضلية المؤلمة ، وكثيرا من المشاكل المزعجة بعد التمرين بالاضافة لدورها في اعادة النشاط والحيوية للجسم بعد التعب والجهد . سواء من الجانب النفسي او الجسمي .

كما أن قضاء فترة من الزمن في حالة استرخاء بعد انتهاء التمارين يساعد في اعادة توازن العمليات الفيزيولجية في الجسم ، لوضعية الراحة . ويساعد الجسم على استقبال الاعمال او الواجبات التي عليه انجازها بعد الانتهاء من الرياضة بوضع افضل .

٦ ـ تجنب الانقطاع عن التمرين .

يفضل دوما اتباع وقت محدود من اليوم يناسب جدول الاعمال اليومي بغض النظر عن نوع التمرين المجرى ، ويجب اعتبار هذا العمل جزءا من الروتين اليومي . بحيث لا تتوقف عن التمرين اسبوعا ثم تعود اليه فالفائدة تتم بالاستمرار ومواصلة التمرين يوميا . وان تكرار التوقف عن التمرين والانقطاع عنه يؤدي في النهاية الى فشل البرنامج .

وتعتبر الفترة الصباحية هي افضل وقت لاجراء التمارين وخاصة قبل تناول الافطار . ويجب قدر الامكان تجنب التمرين والمعدة ممتلئة بالطعام والمشروبات الكحولية .

ان اصعب فترة في التدريب هي الاسابيع العشرة الاولى حيث يصاب فيها الممارس بتقرحات في يديه او قدميه مع آلام عضلية ومفصلية ، وانخفاض الحماس ، ولكن سرعان ما يعود الاندفاع والرغبة كالسابق عند تجاوز هذه الفترة الحرجة . فالارادة والتصميم مطلوبة في هذه المرحلة للقضاء على اي شعور بالكسل او تثبيط الهمة والعزم . ولهذا يلعب التشجيع من قبل المشرفين والمدربين في هذه الفترة دورا مهما وبارزا .

واخيرا نشير الى كيفية تأثير اللياقة البدنية في مستقبل الانسان من حيث ازدياد العمر لديه .

فاذا تمرن الانسان بانتظام منذ الشباب فانه سيضيف لعمره ٤ سنوات كربح اضافي عن مثيله الذي لا يمارس الرياضة . واذا لم يدخن التبغ فانه سيربح بين ٣ الى ٨ سنوات من العمر .

أما اذا سيطرنا على الوزن وتجنبنا السمنة فاننا نكسب من سنتين الى ٨ سنوات . وبهذا نفهم اننا نستطيع اضافة ٩ الى ٢٠ سنة الى حياتنا خلال اتباعنا قواعد الطب الوقائي في ثلاثة من العوامل الخطيرة .

■■

حلب ـ د. عثمان مهملات

الارملة الطروب

ظهرت اوبريت الارملة الطروب لأول مرة على مسارح فينا عام ١٩٠٥ . وهي اول اوبريت وضع الحانها فرانز ليهار كتب بعدها الحان عدة اوبريتات الا ان الارملة الطروب ظلت اشهرها جميعا . وضع نصها « ليون » و « شتاين » تدور حوادثها حول مكيدة غرامية تصنعها اصابع دبلوماسية ثم ينتصر الحب في النهاية . وفرانز ليهار موسيقار مجري ولد بمدينة كومارنو عام ١٨٧٠ . ثم رحل الى فينا وهو في التاسعة عشرة من عمره . عمل في فترة من حياته عازف كمان وقائد الفرقة موسيقية عسكرية . كتب كونرتو للكمان . ومن الاوبريتات « كونت لوكسمبورج » و « فريد ريكا » . توفي عام ١٩٤٨ .

اللغات تكتسب بالممارسة لا بدراسة علومها ..

بقلم : محمد خليفه التونسي

في مساء ليلة شتوية قبل ستين سنة كان بعض الاطفال وأمهم في احدى قرى الريف يتحلقون حول موقد ليتعسوا بدفء اللهب ودفء الأمومة ، ودفء السمر . فاقترح أحدهم عليها أن تزودهم بحكاية وما أسرع أن اجابتهم لسرهم ، وتساعدهم على الاخلاد الى النوم في راحة وغبطة . وما ان تهيأت لذلك حتى تفتحت كل مداركهم للاستماع ، ساكتين كالتماثيل ، ولو استطاعوا كتمان أنفاسهم لفعلوا .

حكت لهم ما خلاصته انه في قديم الزمان كانت الحيوانات على اختلاف انواعها تتألف وتتكلم لغة واحدة ،وحدث يوما ان تقابل صديقان .. حمار وجمل ، وبعد تبادل التحية قال الحمار لصديقه : « سؤال يحيرني ، وعندك جوابه ، فهلا أجبتني عنه مشكورا . لماذا تكثر عثرات فصيلتنا في أثناء السير مع أننا ندقق النظر في كل خطوة من الطريق وانتم معشر الابل لا تتعثرون مع أنكم تظهرون وكأنكم تنظرون الى الأفق ، غافلين عن خطوات الطريق ؟ »

فأجاب الجمل « في سؤالك الجواب عنه ، فكل منكم يقنع بالنظر الى موضع أقدامه ، فيفوته ما بعد ذلك ، فاذا صادفته عقبة اصطدم بها فكبا ، ونحن ننظر الى الأفق فندرك الغاية مع خطوات الطريق اليها ، فنتفادى العقبات وننجو من الكبوات . »

هذه الحكاية تلخص لنا الفرق بين النظرتين الجزئية والكلية الى الأشياء ، أو فلسفة الوسائل والغايات ، فمن وقف نظره على جزء في شيء لم يعرفه اذ تفوته علاقة هذا الجزء بسائر الأجزاء في الشيء كله فلم يدرك صورته العامة او نظامه الشامل ، وما من شيء مركب من اجزاء مختلفة إلا له صورة أو نظام يؤدي معه مهمته من خلال تعاون الأجزاء لأدائها ، فلا بد من نظر الشيء كله لمعرفة أجزائه . وهكذا من حصر نفسه في وسيلة استعبدته ، فتقيد بها وأهمل سواها ، واما من نظر الى الغاية فان الوسائل المؤدية اليها تتفتح امامه فيقلبها ويفاضل بينها ، فاذا جرب وسيلة فلم تفلح انتقل الى وسيلة غيرها ، حتى يدرك الغاية او ينقطع دونها ، لعجزه او عجز وسائله المتاحة ، ويبقى في كل ذلك مالكا لحرية الاختيار بين الوسائل .

والنظر في أجزاء الأشياء جزءا جزءا قد يفوت على المرء الاحاطة بكلها ، ولكن النظر الشامل الى الكل يمكنه من النظر اليها في نظامها ، وعلاقة بعضها ببعض في تكاملها لأداء مهمتها ، وكل الأشياء مادية ومعنوية إنما هي أنظمة ، ومن خلال نظامها الضيق او الواسع تؤدي مهمتها ، فنحن أقرب الى فهم الأشياء المركبة وتصورها حين ندرك نظامها على أوسع دوائره .

واللغة ـ أي لغة ـ نظام يتركب من أنظمة كأنه البنية العضوية التي تشمل اجهزتها المختلفة ، ونحن نتعلم اللغة للكلام بها فنستتم إنسانيتنا من خلال الكلام للتفاهم والتآلف والتعايش مع الآخرين ، وبغير الكلام لا نستطيع استتمام إنسانيتنا ، والاستفادة التامة بما لدينا من مواهب . فالغاية القريبة من اللغة هي التكلم بها ، ووسيلتها التلقن من المتكلمين بها ، وقد يستعان على ذلك بدراسة علومها اللغوية .

ولا يمكن تعلم لغة من دراسة علومها جزءا جزءا مهما يتبحر المرء في دراستها ، فان اللغة ـ وان تكن مجموع كلمات او ألفاظ ـ ذات نظام عام يميزها من سائر اللغات ، وهذا النظام العام يشمل أنظمة ، منها النظام

الصوتي والنظام النحوي ، والنظام الصرفي والنظام العروضي الخاص بالشعر ، ونحن نعلم ان كل طفل يتعلم لغته بممارسة الكلام بها كما يسمعها ويتلقنها من أمه ومحيطه فيتكلم بها سليقة اذا نضج دون أن يخطيء وان كان لا يعرف شيئا من قواعدها . وهكذا تعلمنا نحن لغاتنا او لهجاتنا الدارجة وهكذا أيضا تعلم أسلافنا عربيتهم الفصيحة من بيئاتهم يوم كانت الفصيحة فيها هي السائدة ، وكان هذا قبل ان يتأمل الباحثون أنظمتها لمعرفة قواعدها ، وفرز بعضها من بعض ،ثم تقسيمها علوما على وفق أنظمتها وموضوعاتها المختلفة .

وليس من الميسور الآن ان نتعلم لغتنا الفصيحة في حجور أمهاتنا وآبائنا ، ولا في اي بيئة نتعلم عربية لا تسود فيها الفصيحة ، بعد أن انحرفت الألسنة عنها في المخاطبات ، فلا بد لنا من تعلمها بعد الطفولة ، بأيسر الطرق المستطاعة ، وأيسر الطرق هو تعلمها على الطريقة الكلية التي يتعلم بها الصغار وقد نحتاج معها ـ عند التوسع ـ الى معرفة بعض علومها ، ولكن لا يمكن ان نتعلمها من دراسة علومها فحسب مهما نتبحر فيها .

وقد أشرنا في بعض صفحاتنا اللغوية السابقة الى أمثلة على عجز التعبير بها كتابة او خطابة او حديثا عند بعض من يعدون من أئمتنا النحويين كما أننا أشرنا الى طريقة تعلم شاعرنا البارودي اياها بالتلقن والممارسة دون ان يقرأ كتابا في علم من علومها .

وكذلك أشرنا إلى تعلم الامام محمد عبده اللغة الفرنسية بممارسة الكلام بها مباشرة منذ البداية حين كان في نحو الأربعين ، حتى نبغ فيها كتابة ومحاضرة وترجمة .

وليس أمامنا اليوم ـ لكي نتعلم لغتنا الفصيحة ـ الا ان نتشدد في ممارستها سماعا وكلاما وكتابة كما نتعلم السباحة وسائر الالعاب الرياضية ، عملية وذهنية ، فان قراءةكتب السباحة لا تكسب المرء قدرة عليها ولو في قناة ، ولكن ممارستها تجربة وخطأ وتصحيحا هي التي تمكنه منها .

وقد أحسن علماؤنا في تسميتهم علوم اللغة« وسائل » ، ولكن من المؤسف انهم مع هذا الرأي ظلوا قرونا يتوسعون ما استطاعوا في دراسة هذه العلوم ، وأهملوا الغاية ، أو صرفوا اليها أقل جهد ، وكانت النتيجة هذا الركام الضخم طوال قرون الفترة المظلمة ، وحتى الآن ، ما بين متون وشروح وحواش وتقارير ، ومعظمها اشبه بالغثاء ، لرداءة لغتها وخلطها بما ليس من موضوعها وكله فضول ، مما يشتت ذهن القاريء ويبلبله وهذا الفضول هو ما يسميه بعضهم خطأ « فلسفة اللغة » وليس هو من الفلسفة ، ولا من اللغة في شيء ، بل هو دجل وخبط في الاوهام (كما سنبين في صفحة قادمة) .

ومن المؤسف أن معظم معاهدنا التعليمية العليا حتى الآن تتمسك بكتب لغوية من هذا الغثاء ، كأن الأساتذة فيها قد عجزوا عن تأليف كتب بديلة تكون أيسر وأبعد من الفضول❋ ، وهذه المعاهد هي التي تخرج مدرسي العربية (والدين) العاملين في معاهد التعليم العام ، وتخرج آخرين ممن تعهد اليهم مهام لغوية ودينية .

كما ان من المؤسف ايضا ان معاهد التعليم العام اليوم تتوسع في دروس القواعد لانضباطها ولا تتوسع في دروس القراءة والمحفوظات ، ليطالع الطلاب اكبر قدر من النصوص السهلة البليغة ، شعرا ونثرا ، ويتقنوا تذوقها ثم حفظ أكبر قدر ممكن منها، ليستطيعوا في دروس التعبير اجادة الكتابة والحديث ، وكيف لهم بالاجادة وحوافظهم خاوية ، أو شبه خاوية مما يمكنهم محاكاته أو الاقتباس منه ولو بتصرف ، وكيف للناشيء ان يتاجر وليس له رأس مال ، ولكنا إذا ملأنا خزانته او حافظته منذ البداية بنصوص أدبية مختارة ودربناه على تذوقها ومحاكاتها ، ثم طلبنا منه الكلام في موضوع او الكتابة فيه ـ استطاع ان يستمد مما في خزانته ما ييسر له التعبير ، بل ان معظم هؤلاء المدرسين لا يلتزمون في دروسهم الكلام بالفصيحة ولايتشددون في أخذ طلابهم بما يستطيعون منها . ■■

❋من ايسر ما اطلعنا عليه من المؤلفات المعاصرة الواسعة في النحو والصرف كتابان: « الكامل » للاستاذ أحمد زكي صفوت ، و« النحو الوافي » للاستاذ عباس حسن ، وكلاهما في اربعة أجزاء ، والكتابان الفا لطلبة دار العلوم ، والثاني أوفى وأيسر . واما كتب التعليم العام في النحو والصرف فأيسرها « النحو الواضح » للاستاذين على الجارم ومصطفى امين على من مات منهم رحمة الله.

رمبرانت فنان فريد في تكوينه وريشته ومعالجاته . .

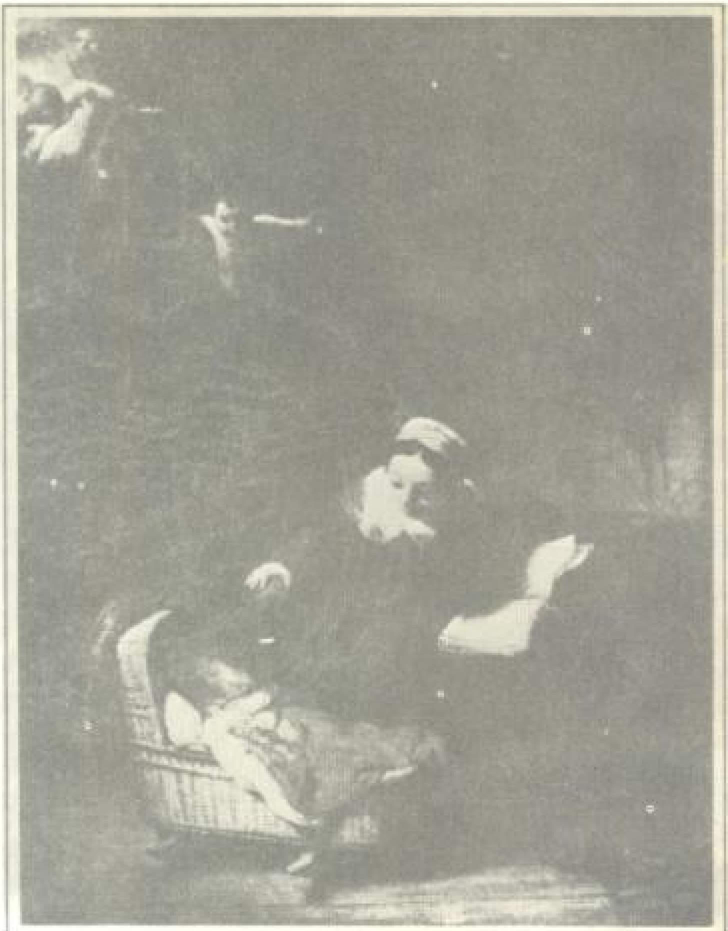
رمبرانت يلقي بقفاز التحدي

بقلم : هاشم حمادي

شاب انيق اللباس ، يرتدي صدرة ذات لون أحمر فاقع ، تنتهي أكمامها الفضفاضة بالدانتيلا البيضاء ، ومن نطاقه الجلدي يتدلى سيف ذو قبضة ذهبية وهاجة ، وعلى رأسه قبعة مخملية سوداء ، مزدانة بريشة نعام بيضاء ، يرفع باحدى يديه كأسا كبيرة من النبيذ الشهي ، ويحيط بالأخرى خصر زوجته الجالسة على ركبتيه ، ويبدوان في



(١٦٣٤)



العائلة المقدسة

التفاتتها ، بوجهيها ، اللذين يطفحان بشرا ، وكأنها يدعواننا الى أن ننهل معهما من ينبوع السعادة والحب والحياة .

ذلكم هو الفنان الهولندي رمبرانتهارمنز فان راين ، الذي طبقت شهرته الآفاق ، والذي لم يختلف طريق حياته عن طريق العديد من أمثاله العباقرة فقد كان طريقا قاسيا شائكا محفوفا بالمصاعب والأرزاء ، ولكنه كان غنيا بالعطاء والابداع ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان مبدأ رمبراند في هذه الحياة « اعط اكثر مما تأخذ » .

الطائر الصغير

ولد رمبرانتفي صيف ١٦٠٦ في مدينة ليدن الهولندية الساحرة ، في أسرة متوسطة الحال ، لم يبخل ربها الطحان ، على الرغم من ضيق ذات يده ، في بذل كل ما في وسعه من أجل تعليم ابنه ، فلم يكد يبلغ الثالثة عشرة من العمر حتى أرسله الى الجامعة ، حيث انتسب الى كلية الآداب .

بيد أن روح رمبرانتكانت تهفو منذ نعومة اظافره الى الفن ، والفن وحده . ولم يكد الرسام سفانيتبورغ يطلع على رسومه الاولى حتى أدرك بنظرته الثاقبة أن « هذا الطائر الصغير سيحلق عاليا جدا » فراح يكشف له شتى جوانب « أسرار المهنة » . ثم نصحه بالسفر الى العاصمة امستردام .

لم تكن أوجه الشبه بين البندقية وأمستردام تقتصر على أنها ، كلتيهما ، تسبحان أبدا في اليم ، كسفينتين عملاقتين ، بل وتشمل طبيعة الحياة فيهما ، بما فيها الحياة الفنية بشكل خاص . فقد كانتا ، كلتاهما ، ملتقى الادباء والفنانين ، وينبوعا لا ينضب من الابداع والتجديد .

وفي أمستردام تتلمذ رمبرانتعلى يد الرسام المشهور ، بيتر لاستمان ، فنان اللوحات التاريخية ، المعروف بحبه



للفن الايطالي . وقد أمضى أربع سنوات في مرسم استاذه ، كان لها بالغ الأثر في تكوين شخصية رمبرانت الانسان والفنان . حيث عاد بعدها الى مسقط رأسه بجعبة غنية من المعارف والخبرات وبعبقرية متفتحة تزخر بالعطاء والابداع . ولكنه لم يلبث أن أدرك ان مدينته الصغيرة أضيق من أن تستوعب عبقريته المحلقة ومواهبه الفذة . فيقرر العودة الى العاصمة .

فنان من نوع جديد

في بداية القرن السابع عشر كانت امستردام من اكبر الموانيء التجارية في أوربا ، وهذا ما در على تجارها وصناعها ثروات طائلة ، كانت تنفق بسخاء على بناء البيوت والقصور واقتناء اللوحات الفنية ، لتزيينها بها ، وراحت الاتحادات والروابط المهنية توصي على اللوحات الجماعية ، التي تضم أعضاءها .

لم يكد رمبرانت يستقر في العاصمة حتى انكب على رسم واحدة من هذه اللوحات الجماعية لاعضاء رابطة الاطباء في أمستردام وأبدعت ريشة الفنان المبتديء لوحته الخالدة « درس في التشريح للدكتور تولب » ، التي جاءت صورة حية وصادقة للعالم الروحي الداخلي للانسان والتي كشفت عن أن رمبراندت ، بالاختلاف عن أقرانه ، لايهتم بالعظمة البراقة ولا بالمشاهد ذات اللمعان السطحي ، بل ينصرف بكل جوارحه للكشف عن الجوهر الحقيقي لمواضيع لوحاته . ففي لوحته هذه يصور رمبراند أعضاء الرابطة وهم في لحظة تأمل واستغراق - فيأتي العالم الداخلي الروحي للانسان في المرتبة الاولى .

وفي هذه اللوحة تتجلى بأروع مظاهرها ما أصبح يعرف فيا بعد باسم اضاءة رمبراند ، القائمة على معارضة الضوء بالظل . فجميع لوحات رمبرانت خالية من مصادر الضوء المرئية : الابواب والنوافذ والمصابيح والشموع وغيرها ، ان لوحاته نفسها مصدر للضوء ، وعلى ايقاع

هذا الضوء ، الذي يبدو وكأنه نابع من اللوحة ذاتها ، تنبض الحياة فيها ، الحياة الحقة المعاشة يوميا ، لا الحياة المزوقة والمختلفة ، حياة الصراع الابدي بين النور والظلام ، بين الخير والشر ، بين الافراح والاتراح ، لا الحياة الراكدة الهادئة الميتة .

ولكن مجتمع رامبرانت لم يكن بحاجة الى نزع ورقة التين عن وجه الحياة الحقيقي ، كما لم يكن مجتمع ضيق الافق مثل هذا . . . مجتمع اصحاب الرتب الطنانة الذين اغتنوا بسرعة . واللذين لايهتمون الا بالقشور ، لانهم لايعرفون ماهية الجوهر ، بقادر على فهم فن رمبرانت واكتشاف روعته .

ومع مرور الاعوام يزداد اغتراب الفنان عن مجتمع « الصفوة » ، وتتسع وتتعمق الهوة الفاصلة بينهما ، الى ان يأتي عام ١٦٤٢ ، ويطفح الكيل بما فيه . ويتم انفصال رمبراند بشكل كلي عن هذا المجتمع .

● رمبرانت يلقي بقفاز التحدي !

فمع بداية هذا العام ينكب رمبرانت على رسم لوحة جماعية لاعضاء الرابطة العسكرية ، التي تضم الفئات المتخمة في العاصمة . وقد دفع كل من أعضاء الرابطة - وعددهم سبعة عشر - مئة غولدين لقاء ظهور صورته مع زملائه في اللوحة ، بشكل بارز وواضح .

ولكن رامبرانت ضمن لوحته ثمانية وعشرين رجلا بدلا من اعضاء الرابطة السبعة عشر . وقد جاءت صورتهم على شكل كتلة سوداء زاحفة من الرجال المسلحين ، تتوسطها فتاة ذات ثوب حريري أبيض . تزيد من حدة الصراع بين الضوء والظل ، وتضفي على اللوحة الحيوية والبهاء .

كل ذلك أثار حتى أعضاء الرابطة ورئيسهم النقيب كوك ، وجعلهم يطالبون برد المبالغ المدفوعة . وقد رفض رمبرانت اجراء أي تعديل في اللوحة ، فألقى بذلك قفاز التحدي في وجه مجتمع القشور والمظاهر .



انزال المسيح عن الصليب



بورتريه العجوز ذو الرداء الأحمر

المصائب لاتأتي فرادى

وفي نفس العام - ١٦٤٢ - رزىء رمبرانت بفقد زوجته المحبوبة ساسكيا ، ولم يبق لديه في هذا العالم سوى ولده تيتوس ، الذي لم يكن قد بلغ الشهر السادس من عمره . كانت الصدمة هائلة ، فساسكيا كانت معبودة رمبرانت، وسنده في احلك ساعات حياته .

ولكن من يدري فقد يكون لموتها بعض الفضل في تفتح ونضج براعم جديدة في مواهب الفنان ، الذي انصرف بكليته الى الفن وتربية ابنه الصغير في أحضان الطبيعة الخلابة ، الى حيث دعاه أحد اصدقائه الشعراء للاقامة لديه في القرية .

وهنا أيضا يحدث رمبرانت ثورة - ان صح التعبير - في فن البيزاج ، فاذا كان معاصروه الفنانون يسخرون ريشتهم ومواهبهم لرسم المناظر الخيالية ، التي لاتمت للواقع بصلة ، فان رمبرانت يكرس ابداعه للكشف عن جمال الوطن وروعته - بقراه الوادعة على ضفاف الانهار ، وطواحينه الهوائية ، ومراعيه المليئة بالقطعان . ولكن رمبرانت لم يولد للحياة الهادئة الوادعة ، بل كان بطبيعته مجبولا على الخوض في لجة الحياة العاصفة ، فيعود الى امستردام وتبدأ مرحلة جديدة في حياته وفنه ، ينصرف فيها الى تصوير حياة البائسين والكادحين ، التي أصبحت تطغي حتى على لوحاته ذات المواضيع الدينية . وهذا ما يتجلى بشكل رائع في لوحته « انزال المسيح عن الصليب » (١٦٣٤) حيث تجلت بأروع مظاهرها عبقرية الفنان وقدرته على تركيز الاهتمام ، لا على المظاهر (الحاضرين ، الظلمة المخيمة ، الضوء المصطنع ، العذراء وقد فقدت وعيها) ، بل على الدرامية الداخلية للحدث . وفي هذه اللوحة ، كما في العديد من لوحاته ، يطرح الفنان موضوعا هاما وغير عادي بالنسبة لعصره - موضوع العذاب والمعاناة ، موضوع الأرزاء التي يرزح

الشعب ـ عامة الشعب ـ تحت ثقلها .

وفي لوحته المشهورة « داناية » أبدع رمبرانت في تصوير المشاعر الانسانية . فاذا كان تيتسيان في لوحته التي تحمل نفس الاسم ، والتي رسمها في عام ١٥٥٤ ، قد صور اللقاء بين داناية وزيفس ، فان رمبرانت قد اختار لحظة انتظار هذا اللقاء ، المفعمة بالمشاعر الجياشة .

ان داناية تهفو بكل روحها نحو لقاء زيفس ، ولكن هذه الرغبة العارمة مشوبة بالارتباك والقلق ، وهذا ما ينعكس بشكل جلي على وجهها ، وفي وضعيتها ، وحركة يدها الممدودة . صحيح ان جسم داناية يفتقر الى الانسجام والتناسق ، ولكن الشعور بالروعة والجمال يستحوذ على كل من يتمعن في هذه اللوحة ، لانها غاية في الصدق والواقعية .

والغريب انه كلما ازداد تحليق رمبرانت، وإبداعه في عطائه ازداد انصراف مجتمعه عنه ، واتسع طوق العزلة من حوله ، ولم تلبث أن حلت الطامة الكبرى ، حينما تراكمت الديون عليه لدرجة أن المحكمة حرمته من الوصاية على ابنه العاجز ، وبيع بالمزاد العلني منزله وكل املاكه ، بما فيها كنزه الفني الثمين ، الذي جمعه طوال حياته ـ عشرات اللوحات لأبرز الفنانين ، امثال روفائيل وجورجونه وتيتسيان ، بالاضافة الى العديد من التماثيل النصفية وغيرها .

فنان التحليل النفسي

يحتل فن البورتريه مرتبة الصدارة في أعمال رمبرانت الخالدة . ففي هذا الفن بالذات تجلت عبقرية رمبرانت وموهبته في التحليل النفسي ، والكشف بلمسات رمبرانتية خفيفة من ريشته ، عن خفايا النفس البشرية ، والطبيعة البشرية المعقدة ، ومصير الانسان وجماله الروحي .

ومن أشهر روائعه البورتريه « العجوز ذو الرداء الاحمر » (١٦٥٢ ـ ١٦٥٤) ، « المحارب العجوز » (صورة والد الفنان) و « فلورا » (زوجة الفنان ساسكيا في صورة فلورا آلهة الازهار والنبات عند الاغريق) و « عجوز تحمل منظارا بيدها » وغيرها .

ويلاحظ أن رمبرانت كان ميالا بشكل خاص الى تصوير الشيوخ ، فعلى وجوههم يمكن أن تقرأ صفحات العمر كله ، وغالبا ما تكون هذه الصفحات غاية في البؤس والمعاناة والحرمان .

ففي لوحته « العجوز ذو الرداء الاحمر » يطالعنا شيخ غارق في تأملاته العميقة ، وفي وضعية توحي بالتركيز والاستغراق التام . ثم ان الخلفية غير المحددة ، لا هي بالغرفة ولا بالجدار ، تزيد من الشعور بعمق هذا التركيز وتضفي على البورتريه جوا بالغ التأثير .

ولا تتضمن البورتريه سوى بقعتين مشرقتين ـ وجه العجوز ويديه ، وتعكس بقعتا الضوء هاتان ، الحياة الانسانية بكل عمق وصدق وواقعية .

وفي نهاية حياته يبدع رمبرانت واحدة من أفضل لوحاته ـ « عودة الابن الضال » . والواقع ان هذا الموضوع قد أثار اهتمام الفنان وهو في مرحلة الشباب . ففي عام ١٦٣٦ كان قد صور في احد رسومه التكوينية مشهد لقاء أب مع ابنه الضال ، العائد الى منزله ، مريضا فقيرا محطما . أما في لوحة « عودة الابن الضال » (١٦٦٨ ـ ١٦٦٩) فينتزع رمبرانت من الظلمة المخيمة : وجه العجوز الذي أصيب بالعمى بعد أن امضى السنوات الطويلة بانتظار عودة ابنه ، ويديه اللتين يتلمس بهما كتفيه ، وأخيرا الابن الضال نفسه وهو يلوذ بكتف والده . ان رأسه الحليق ، وسكين الرعي ، التي تتدلى من نطاقه ، وثيابه الممزقة كل ذلك يدل على مدى قسوة التجربة ، التي اجتازها ، وثمة أربعة أشخاص يراقبون هذا المشهد بصمت وتركيز . ويشعر المشاهد وكأنه يشاركهم رؤية هذه التراجيديا البشرية : شيخ عجوز طاعن في السن ، على حافة قبره ، والابن الذي فقد الثقة بالسعادة وبالمستقبل ، وهو لما يزل في ربيع حياته .

في أواخر حياته يبزغ نجم جديد ساطع في حياة رمبرانت المظلمة ـ خادمته هندريكا ، ذات القلب الطيب والروح الساحرة ، التي شاطرته الفاقة والحرمان في أحد الاحياء البائسة .

وقد خلد رمبرانت هندريكا الوفية في عدد من لوحاته . تماما كما خلد زوجته من قبل ، مع فارق واحد هو أن ساسكيا كانت ترفل بالملابس الثمينة ، وتزدان بالحلى والجواهر ، أما هندريكا فلا ترتدي إلا الملابس العادية ولا تزدان الا بابتسامتها وبانسانيتها .

ويجمع النقاد على أن لوحته المعروفة باسم « تعذيب المسيح » ليست سوى صورة حية لمسيرة العذاب والمحن ، التي مر بها الفنان نفسه ، والتي استمرت حتى آخر حياته ، ففي عام ١٦٦٢ تموت هندريكا ، وفي عام ١٦٦٨ يموت ابنه تيتوس . ولم يبق للفنان من أحد في هذا العالم ليعيش من أجله ، فمات هو الآخر في نهاية ١٦٦٩ ولكن ، وعلى الرغم من مرور مئات السنين فان لوحاته لا تزال تمور بالحياة وتشع بالأمل والثقة وتنبض بالانسانية الزاخرة .

■ ■

موسكو ـ هاشم حمادي



أيّ نمط من الناس أنت ؟

اعداد : الدكتور خليل فاضل

أي نمط من الناس انت ؟

وأي طراز من البشر ؟

ما هي سماتك الرئيسية ؟

انها مسألة هامة جدا يجب معرفتها وادراكها . ولكن . ليس من السهل تحديدها بدقة .

وهناك طريقة جديدة وسهلة ـ لم تطرق من قبل في علوم النفس ـ تمكنك من تحديد الامر بنفسك ودون مساعدة أحد .

عليك باختيار ما يناسبك من الصفات والأفعال المدرجة بالقوائم الأربع ويمكنك أن تختار لنفسك ١٥ صفة من كل عمود .

النتيجة تتبع .

حاد الملاحظة	ذكي	لطيف	يدين بالولاء
متقلب الاهواء	حيوي	منظم	مغامر
متواضع	ثقيل الدم	حالم	جماهيري
مؤرق	سريع البديهة	عاشق للجمال	عفيف
متحمل	قوي العزيمة	صبور	قلب الجماعة النابض
حساس	أمين	مسالم	مغوار
هادىء	مندفع	كسول	غير قلق
غير طموح	عملي	متفهم	انبساطي
مستقل	وسطي	قلق	سخي

متحمس	منظم	غير نظيف	لا مبال
كتوم	حبوب	متبدل	متوائم
رقيق	غير صبور	حنون	مغرور
شارد الذهن	حاد الطبع	كادح	متكيف
مطمئن البال	طموح	متراخ	متبجح
ساخر	شجاع	ميال الى الحب	مبدع
شهم	واثق من نفسك	ساذج	محب للتجمعات
مبهم	مسيطر	مغيظ للاخرين	مقامر
منعزل	عاصف	تأملي	مسرف
متمرد	مخاطر	شهواني	ثائر
مجيد التخمين	واضح الرؤية	مرح	مرح
		اجتماعي	

بالطبع فان كل الصفات لم تكن في صالحك . او علها لم تكن نوعا من المديح . ولكن اذا كنت قد اخترت مجموعة جيدة متنوعة فلسوف تصل الى طابعك الحقيقي بالتحديد او المصطلح عليه (بمرآة النفس) في علم النفس . والذي سوف يطلعك على الحقيقة الفعلية لشخصك .

الآن راجع اختياراتك على هذه النتائج ..

من واقع تحديد أكثر الأعمدة جمعا للصفات التي اخترتها : مثلا ١٢ صفة من العمود الاول ، و ٨ صفات من الثاني و ١٠ من الثالث و ١٤ من الرابع . فيكون تحديد شخصيتك في الاجابة تحت العمود الرابع .

العمود الأول : ـ أنت ذو طابع خلاق ، لك ميول فنية ، ودائما بمفردك ما تبدع ، متمرد على تقاليد المجتمع المتزمتة ، ثابت تجاه القواعد العامة ، وتؤدي كل واجباتك تجاه الآخرين وتجاه عملك . صديق ممتاز لا تكون سعيدا الا بانشغالك في عمل ما ، وحقيقة فانك تعيش حياتك بالطريقة التي تعجبك .

العمود الثاني : ـ أنت شخصية قوية ومسيطرة ، يحتاجها المجتمع بشكل حقيقي ،ولن تكون مبادئك دافعا لشهرتك في ميدان البشرية بشكل عام ، انت رائد ومنظم وذو طبيعة قيادية ، ولا تقنع بالأشياء كما هي فدائما ما ترغب في البحث والتنقيب ، من الصعب معايشتك . دائما تبحث عن الخطأ في عالمنا وتحاول الاصلاح على طريقتك الخاصة وقدر إمكانك .

العمود الثالث : ـ أنت صادق وأمين ، تصير في النهاية وحيدا بعد مجهودات شاقة لقهر الصعوبات التي تواجهك ، العالم يدور من حولك وأنت تناضل من خلاله وتحاول أن تناضل من فوقه ، ولكن قليلا مما تصبو اليه يتحقق . انت لا تيأس ولا تعير من حولك اهتماما حتى لو تفوقوا عليك ، وتواصل المحاولة لجعل العالم أكثر سعادة .

العمود الرابع : ـ شخصية مرحة لطيفة ، منبسطة دائما ، ولكنك بتقدم عمرك سوف تهدأ قليلا . دعنا نأمل هذا على أية حال ، لا شيء يقلقك البتة . لا شيء يعترضك او يتصدى لك في طريقك للحياة بشكل عام . وما يميزك هو حرصك على أسعاد الآخرين دائما . وأنت من هؤلاء الذين يتمنى الآخرون مصاحبتهم دائما . مشكلتك أنك لا تعتقد في كبر السن اذا تقدم بك . ومعاملتك لمشاكل الحياة بسطحية قد تضر في بعض الأحايين إلا اذا كنت حذرا .

حوار القراء

دنشواي

○ فقد قرأت بصفحة ٢٤ من العدد ٢٨٠ (مارس ١٩٨٢) من مجلتنا (العربي) تحت عنوان (عنف الهجاء عند شوقي) ما قاله في هجاء احمد فتحي زغلول ولا حظت وجود خطأين في البيت الرابع هما : « شبر » و« دنشواه » والمعروف ان المقصود فندق (شبرد) المشهور بالقاهرة في ذلك الوقت وقرية (دنشواى) بالمنوفية بمصر والتي سجن الانجليز اهلها وجلدوهم وشنقوهم ظلما وعدوانا وعلى ذلك ارجو تصحيح البيت الرابع من شعر شوقي كالآتي :

لا تقرءوه في (شبرد) بل اقرأوا
على ملأ في (دنشواى) حزين

عوض عبد العزيز طه
طنطا/مصر

***

اقتراح

○ إنني من المغرمين بمجلة العربي التي لها مكانة مرموقة في الوطن العربي كله منذ نشأتها وذلك نظرا للاقبال المتزايد عليها من طرف كل فرد من كل قطر من المحيط الى الخليج ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على نوعية المواضيع الثقافية التي تحملها في طياتها ، وعلى هذا فانني اقترح اعادة النظر في المسابقات التي يحملها كل عدد ، اذ اري ويرى اغلبية المثقفين المعجبين بهذه المجلة ان مسابقات « نزهة العقل الذكي » هذه تعطى من الفائدة اقل بكثير من تلك التي تعطيها المسابقات السابقة التي هي عبارة عن اسئلة عن الادب والتاريخ والعلوم .. الخ .

الحسن مبارك
تزنيت/المغرب

الرسول ابا وجدا

○ تحت عنوان « الرسول أبا وجدا » ، وفي رد (العربي) في العدد ٢٨٠ على استفسار القارىء جرجي حكيم ، وقع التباس وهو تحوير « صلاتي العشاء » خطأ مطبعي مع العلم ان صيغة الحديث كما وردت صحيحة ، والمقصود بصلاتي العشاء : المغرب والعشاء من

واقع المغرب في القرن ١٦

○ قرأت بمجلة العربي في العدد ٢٧٩ فبراير/٨٢ عن مخطوط الفقيه المغربي الذى ورد الى حضرموت في القرن السادس عشر الميلادى وأحب ان اضيف الى ما كتبه الدكتور امين الطيبي انه توجد من مخطوطة هذه الرحلة نسختان بمكتبة الاحقاف للمخطوطات بمدينة تريم كتبت احداهما في عصر المؤلف او بعده بقليل ، وقد صورتها بعثة معهد الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي قدمت الى جمهورية اليمن الديمقراطية عام ٧٦م لتصوير المخطوطات . واضيف بأن كاتب الرحلة المذكورة السيد/ يوسف بن عابد الادريسي قدم الى حضرموت للاخذ عن احد علمائها في ذلك العهد وهو الشيخ ابو بكر بن سالم العلوى - وبقي بحضرموت الى ان توفي بقرية مريمة سنة ١٠٤٤هـ .

والكلمات الواردة في الرحلة هي من اللهجة الحضرمية الدارجة مثل « الماره » بمعني الوباء و« الغدرا » بمعني الظلمة وغيرها مما لازالت تستعمل بهذا المعني الى اليوم ؟ .

علي سالم سعيد بكير
أمين مكتبة الاحقاف للمخطوطات
بتريم حضرموت

باب التغليب في اللغة كما نقول : (القمرين) او (الشمسين) عن الشمس والقمر (والعمرين) عن أبي بكر وعمر .

عبد الناصر عمر سعيد
الكويت

***

العربي « والعربي »

○ كلمات وأمنية لـ « العربي » كمجلة فكرية .. ثقافية ، وكل شيء مفيد وجيل .. فهي جامعة قائمة بذاتها .. كبيرة عظيمة مذ رأت النور لاول مرة : حلت وتحملت عناء ومشاق كثيرة .. تغذي وتنمي وتسمو لتعلو بالعربي كانسان .. كفكر .. كعلم .. كثقافة .. فكانت ولا زالت ، انموذجا حيا ومرآة صادقة للاصالة العربية في عطاءاتها غير المحدودة ، لمن قامت من اجله .. وقدمت .

و لقد اعتبر كل قارىء لمجلة « العربي » انه فرد من افراد اسرتها وواحد من ابناء عشيرتها .. اعتبرها تعبيرا عن مكنوناته .. يستقي منها وتستوحي منه .. بعيدة كل البعد عن الانانية كل ذلك يظهر من اهتماماتها بشكلها .. ومضمونها واستطلاعاتها .

امنية واحدة الى المجلة الاصلية « العربي » اتمناها ويشاركني فيها كل من تضييء عينيه هذه المجلة الجامعة « العربي » بمواضيعها ، واصالة ثقافتها وبما يطالع فيها ويكتسب منها . هذه الأمنية ان تكون « العربي » دولية الانتشار والعطاء للقارىء الاوروبي وغير الاوروبي ، تغزو افكاره ، تبدل الصور المشوهة للانسان العربي تبرز حضارته ، بنفس القدر والجهد الذى تعطي لمواطنها لأن في ذلك إحياء لثقافة عربية كانت ونامت وهي الآن في سبيلها الى اليقظة من جديد .

المحامي / مأمون الجبرودي
دمشق

هدية عدد يناير / ٨٢

ان الخارطة التاريخية للوطن العربي والتي صحبت هدية عدد يناير/٨٢ . عمل يستحق الذين خططوه ونفذوه التهنئة فقد استطاعوا تلخيص كل تاريخ الوطن العربي في تلك المساحة الصغيرة وقدموا لجمهور القراء الذين لم تتح لهم فرصة الاطلاع على التاريخ او دراسته معلومات قيمة ما كانت لتصلهم الا بعد كبير عناء ومشقة ولكن لم يكن الامر كذلك بالنسبة لقراء المجلة من السودانيين .

ان المعلومات التي وردت عن السودان ناقصة ولا اقول خاطئة ، فالفترة الزمنية التي اشير اليها بأنها فترة حكم القبائل المتفرقة هي في الواقع ازهى عصور الحضارة السودانية والانسانية . فالحضارة النوبية التي تأثرت وأثرت في الحضارة الفرعونية القديمة هي من اقدم الحضارات الانسانية ويرجع تاريخ اقدم الممالك النوبية الى حوالي اربعة آلاف سنة قبل الميلاد واستطاع النوبيون ان يغزوا مصر ويحكموها لفترات طويلة امتدت لعشرات السنين وامتد نفوذهم الى فلسطين . وهذه الحضارة تعرف بحضارة نبتة نسبة الى عاصمتهم في شمال السودان واعقبتها حضارة مروى وهي امتداد لتلك الحضارة بعد انتقال العائلة المالكة من نبتة الى مروى في شمال الخرطوم ، وحضارة مروى تفوقت على الحضارة المصرية القديمة وعلى كل الحضارات الافريقية والشرقية لانها كانت اول حضارة تتوصل الى اكتشاف طريقة صهر الحديد واستخدامه في صناعة الاواني والآلات ، ولا تزال افران الصهر موجودة حتى اليوم ، يأتي اليها الباحثون من كل انحاء العالم ، والحديث عن هذه المملكة يطول ولا تزال آثارها تتحدث عنها ويمكن لكل باحث عن الحقيقة ان يزور مناطق الآثار ليعرف ان حضارة وادى النيل لم تكن في مصر وحدها .

عبد الرحمن احمدون حسين
الرياض ـ السعودية

استطلعوا بصرى

○ ان سوريا كما تعلم مليئة بالآثار العربية القديمة شأنها شأن باقي الدول العربية ، وفي منطقة جنوب سوريا بالذات هناك مدينة تدعى « بصرى » ولعلكم سمعتم بها .

وبصرى ـ كما تعلمون ـ مليئة بالآثار الاسلامية والصليبية . واخص القلعة والمدرج وهذا المدرج يتسع لـ ١٥ الف متفرج ، ويقام على مسرحها كل عام مهرجانات عالمية تشارك فيها فرق من معظم دول العالم .

وعليه ، اطلب وارجو الاخيوا اسلي ورجائي ـ بان تقوموا باستطلاع هذه المدينة لما لها من كبير الاثر في حياة الشعوب

طلال غازي سويداني
درعا ـ سوريا

•••

من ينقذ اللغة العربية ؟

○ قرأت كلمات فهمي هويدي .. وتراكمت على كل هموم الدنيا .. فاللغة العربية في محنة لا يعلم مداها الا الله ، ليس فقط في دول غرب افريقيا التي كانت يوما ما عربية اسلامية بل في عقر دارها ....

هناك من يعمل في صمت ... ولكن لابد من تضافر الجهود .. فبدلا من ان ينفق ثرى عربي كذا مليونا في مواخير لندن .. وبدلا من ان ينفق احد الاثرياء في مصر على زفاف ابنه آلاف الجنيهات .. بدلا من كل هذا الاسراف الذى لا طائل وراءه .. نشترى بهذه الملايين والآلاف كتبا ونبني مدارس لمن يدرسون في الكتاتيب يفترشون الثرى لتعلم لغة القرآن الكريم .

نحن بحاجة الى وقفة مع انفسنا لنسألها هل نحن مخلصون لقضايانا حقا ؟ .

عادل صديق
الاسكندرية

بين ازمة الغذاء وازمة التغذية

○ هل هناك حقا ازمة غذاء في العالم الثالث ؟
بكل بساطة لا . ومن حقك ان تتساءل كيف ؟ فاجيبك بلغة الارقام .

ان الانتاج الزراعي في العالم قادر على اطعام (١٣) مليار نسمة لكن (٤) مليارات فقط يحتكرونها في اوربا وامريكا . والانتاج العالمي من الحبوب يمكن ان يؤمن لكل فرد في العالم يوميا (٦٥) غراما من البروتين اى ما يعادل (٣٠٠٠) وحدة حرارية باستطاعتها تأمين البقاء لكل سكان الارض . الا ان العالم الثالث يحصل على الفضلات بينما يأخذ الغرب نصيب الاسد فيأكل حتى التخمة ويطعم الكلاب والقطط التي ينفق عليها في الولايات المتحدة وحدها (٣٣٠٠) مليون دولار ثمنا لافخر الاطعمة .

ان (٣٠٪) من ميزانية التسلح تكفي لانقاذ العالم من الجوع و(½٪) من جملة النفقات العسكرية في العالم تكفي لاداء ثمن كافة الاجهزة والآلات الزراعية اللازمة لزيادة انتاج الغذاء والاقتراب من حد الاكتفاء الذاتي في العام (١٩٩٠ م) في البلدان التي تعاني من سوء التغذية .

ووطننا العربي يعاني هو الآخر ـ كبقية دول العالم الثالث ـ من سوء التغذية رغم امواله ونفطه ، والسبب هو توجيه هذه الاموال لتموين النزاعات الاقليمية والحروب على طول خريطته وكان الاجدر بنا ان نعمل على استصلاح اراضينا الزراعية كتلك التي في السودان والتي يمكنها تحقيق الاكتفاء الذاتي العربي واطعام كل مواطن من الخليج الى المحيط .

انور عبد العزيز الحمدوني
القصر الكبير/المغرب

من الأدب المجري

الجرح الخفي

تأليف كارولي كسفا لودي

ترجمة الدكتور سليم الأسيوطي



في الصباح الباكر ذات يوم ، وقبل ان يغادر الجراح المشهور فراشه ، استقبل زائرا متعجلا اصر على ان حالته لاتحتمل التأجيل ولو لدقيقة واحدة ، وطلب اهتماما فوريا . ارتدى الطبيب الجراح ملابسه مسرعا ودق الجرس في طلب خادمه الخاص ثم قال : «دع المريض يدخل» .

بدا على الرجل الذى دخل أنه ينتسب الى أرفع طبقة في المجتمع . ونمت قسمات وجهه الشاحب وسلوكه العصبي عن آلام جسمانية مبرحة . كانت يده اليمنى مربوطة الى عصابة تحمل ذراعه ، ومدلاة من عنقه وعلى الرغم من أنه استطاع ان يسيطر على ملامح وجهه فقد كانت تنطلق من بين شفتيه أنة موجعة بين آن وآخر .

«تفضل بالجلوس . ماذا عساني استطيع ان افعل من اجلك ؟»

«لم استطع النوم منذ اسبوع . ان علة ما المت بيدي اليمنى ، ولا استطيع أن ادرك ماذا عساها ان تكون . ربما يكون السرطان . أو أي مرض رهيب آخر . لم اقلق لها كثيرا في بداية الامر . ولكنها بدأت تحترق اخيرا . فلم انعم بلحظة واحدة من الراحة حتى الآن . انها تؤلمني ألما فظيعا . والالم يتزايد بمرور الساعات ، وهو يعذبني عذابا لااحتمله . ولقد جئت الى المدينة لاستشارتك ـ واذا ما قدر لي ان احتمل هذا الألم ساعة اخرى فسوف يجن جنوني . اريد منك ان تحرق يدي ، او تبترها ، أو تصنع بها ما شئت .

هدأ الطبيب من روع المريض ، وطمأنه بأن اكد له انه من المحتمل الا تكون هناك ضرورة للجراحة .

ولكن الرجل اصر قائلا : «لا ، لا ، يجب ان تجري لي عملية . لقد جئت الى هنا بقصد بتر هذا الجزء المصاب ، ولن يجدي أي شيء آخر .»

ثم رفع يده من العصابة المدلاة من عنقه ، والتي تحمل ذراعه ، بجهد بالغ ، وواصل حديثه : «اني أرجو ألا تدهش اذا كنت لاترى اي جرح ظاهر في يدي . فان الحالة فريدة تماما .»

هدأ الطبيب من روعه وطمأنه ثانية بأنه ليس من عادته الدهشة من الاشياء النادرة الفذة . ومع ذلك ، فانه بعد ان امسك يد المريض ونظر اليها تركها تسقط من يده وقد اخذ منه الذهول كل مأخذ ، فقد بدا له ان ليس بها من أذى اطلاقا ، فهي تشبه اية يد اخرى ، وحتى لونها لم يتغير ، ومع ذلك فقد كان واضحا ان الرجل يعاني آلاما مروعة . لأن الصورة التي كانت عليها يده اليسرى وهي تمسك باليد اليمنى حينما تركها الطبيب تسقط اظهرت تلك الحقيقة بصورة حاسمة .

يعتبر كارولي كيسفالودي ، واخوه الكسندر من ابرز الرواد الاوائل واعظمهم في الأدب المجري الحديث . وعلى الرغم من ان «كارولي» قد حاز شهرته ـ اساسا ـ بوصفه مؤلفا مسرحيا الا انه قد نجح خلال حياته القصيرة الحافلة بالمغامرات المحفوفة بالمخاطر ، في كتابة القصص القصيرة غير المألوفة . فقد كان ، كما وصفه ناقد مجري ، «بوهيمي حق ، ذو فطرة حالمة ، خفيف الروح . » وهو كاتب كلاسيكي ، ومع ذلك فقد اوتي من القدرة النادرة ما استطاع به ان يحيط قصصه بجو من «الفعلية» او الحقيقة والواقع ، مما جعلها تبدو وكأنها قد كتبت للجيل الحاضر . وقصة «الجرح الخفي» تتضمن معظم العناصر التي يتطلبها اشد النقاد تزمتا لتأليف القصة القصيرة ، وفي الوقت نفسه تحمل سمة الحيوية التي تفوق الوصف ، والتي تبدو دائما في كل فن اذا غضضنا الطرف عن القواعد والنظريات .

«في اي موضع منها تؤلمك ؟»

أشار الى بقعة مستديرة بين الشريانين الكبيرين ، ولكنه انتزع يده من الطبيب حينما لمسها هذا في حذر بطرف اصبعه .

«أمن هنا تؤلمك ؟»

«نعم . ألما مروعا .»

«وهل تشعر بضغط يدي عليها اذا ما لمستها ؟»

لم يستطع الرجل الاجابة ، ولكن الدموع التي تحدرت من عينيه افصحت عن قصته .

«انها حالة خارقة ، فاني لا استطيع ان أرى شيئا .»

«وانا كذلك . ولكن الالم ما زال بها ، واني افضل الموت على الحياة بهذه الآلام .

أعاد الجراح فحص اليد كلها مرة ثانية بالمجهر ، وقاس درجة حرارة المريض ـ وفي النهاية هز رأسه .

«ان الجلد سليم ، والشرايين طبيعية ليس بها ادنى التهاب او تضخم . انها طبيعية مثل اية يد أخرى .

«اعتقد انها اكثر احمرارا في هذه البقعة.

«اين ؟»

ورسم الغريب دائرة صغيرة في ظاهر يده ، وأشار قائلا : « هنا » .

ثم نظر الطبيب الى الرجل ، وبدأ يظن به الظنون وبدأ يشك في سلامته العقلية .

قال : « يجب ان تمكث في المدينة وسوف أحاول مساعدتك في غضون الايام القليلة القادمة . »

« لا استطيع الانتظار دقيقة واحدة ، فلا تظن ياسيدي الطبيب ، أني مخبول ، او واهم . فان هذا الجرح الخفي يؤلمني الما رهيبا ، واني اريدك ان تبتر هذا الجزء المستدير فحسب حتى العظيم . »

« لن افعل هذا ياسيدي . »

« ولم لا ؟ »

« لأنه ليس في يدك ما يستدعي ذلك . فانها سليمة كيدي » .

قال المريض وقد اخرج ورقة كبيرة القيمة من حافظة نقوده ووضعها على الطاولة ، « يبدو انك تظنني مجنونا أو أني أخدعك ، ولكنك ترى الآن أني جاد فيا أقول ـ ان الأمر من الأهمية لدي بحيث ادفع ألفا من أجله . فأرجوك ان تجري لي جراحة البتر فورا . »

لن امس عضوا سليما بمشرطي ، ولو قدمت لي كل مال الدنيا . »

« ولم لا ؟ »

« لأن ذلك يتنافى وآداب المهنة . ولسوف يرى العالم أجمع فيك معتوها ، ويتهمني باستغلال ضعفك ، أو يعلن على الملأ اني لم استطع تشخيص جرح غير موجود » .

« حسن جدا ياسيدي ، اذا فأرجوك صنيعا آخر . سأتولى انا اجراء العملية بنفسي ، على الرغم من ان يدي اليسرى تنقصها البراعة قليلا في مثل هذه الامور . وكل ما



أرجوه منك ، ان تعني بالجرح بعد اجراء العملية . »

أدرك الطبيب الجراح في دهشة ان الرجل جاد تماما في ما يقول ، وراقبه وهو يخلع معطفه ويشمر كم قميصه . بل اكثر من هذا ، اخرج الرجل مدية من جيبه لعدم وجود اية آلة اخرى . وقبل ان يتمكن الطبيب من التدخل في الامر كان الغريب قد شق جرحا عميقا في يده .

صاح الطبيب خشية ان يقطع المريض شريانا : « قف . مادمت تعتقد انه لا مفر من إجراء العملية ، فسأتولى انا الأمر بنفسي . »

وحينئذ اعد العدة للعملية . وحينما وصل الأمر الى البتر الحقيقي ، نصح الطبيب مريضه ان يحول نظره جانبا ، لأن الناس غالبا ما ينزعجون اذا ما رأوا دماءهم تسيل . »

قال الآخر : ليس هذا بالامر الضروري ابدا ، اذ يجب علي ان ارشد يدك حتى تعرف مدى ما تقطع » .

وتحمل الغريب العملية برباطة جأش ، وكانت ارشاداته معوانا للجراح في عمله . واما يده فلم ترتعش ولم تهتز قط . وبعد ازالة البقعة المستديرة من يده تنهد بارتياح وهو سعيد وكأنه قد تخلص من عبء ثقيل يثقل كاهله .

وسأل الجراح : « ألم تعد تشعر بأي الم الآن ؟ »

فأجاب مبتسما : « أبدا . وكأن الألم قد اجتث من جذوره . وان الالتهاب الذي يجب ان يخلصه البتر يبدو كنسمة هواء عليل بعد موجة حارة ، فدع الدم يجرى ، ففي هذا راحة وهدوء لي .

وبعد ان ضمد الطبيب الجرح ، بدت السعادة على الغريب واشرق وجهه بالرضا . لقد اصبح رجلا غير الرجل . وضغط على يد الطبيب بيسراه شاكرا معترفا بالجميل .

« اني شاكر مقر لك بالجميل حقا » .

بعد ذلك زار الطبيب الجراح مريضه في الفندق الذي يقيم فيه لعدة ايام متوالية بعد العملية ، وتعلم احترام الرجل الذي كان يشغل مكانة عالية في المقاطعة . فقد كان علامة مثقفا ، وسليل اسرة من اعرق الاسر فيها .

وبعد ان التأم الجرح تماما عاد الغريب الى موطنه .

وبعد مرور ثلاثة اسابيع ، عاد المريض الى مصح الجراح . وكانت يده معلقة مرة ثانية الى ضمادة تتدلى من عنقه ، وهو يشكو الالم المبرح ذاته الذي برح به من قبل ، في البقعة نفسها التي كانت تؤلمه قبل جراحة البتر .

كان وجهه بلون الشمع ، والعرق البارد يتحدر كحبات البلور فوق جبينه . وغاص في كرسي ذي ذراعين ، ومد يده اليمنى الى الطبيب ليراها وهو صامت لايبس ببنت شفة .

« يا الهي الرحيم ماذا حدث ؟ »

فتأوه المريض قائلا : « ان مبضعك لم يصل حتى يجتث الداء من جذوره . وهو ذا قد عاودني اشد وانكى من ذي قبل . اني ملاحق حتفي لا محالة ، اني لا اود ان ازعجك مرة اخرى ، ولقد تحاملت على نفسي اغالبه فغلبني على امري . والآن وقد عدت لا أقوى عليه ولا احتمله فيتعين ان تجري الجراحة مرة ثانية . »

فحص الجراح البقعة . وكان موضع الجراحة قد التأم واكتسى بشرة حديثة العهد ، واختفت كل معالم الجراحة وآثارها وبدت الشرايين في اكمل تكوين واحسن حال . ونبض القلب طبيعي ولا أثر للحمى بجسم الرجل ومع ذلك فقد كان يرتعش من هامته الى اخمصه في كل عضو من أعضائه .

«اني لم امر بتجربة كهذه ، ولم اسمع بمثلها من قبل »

لم يكن امام الطبيب سوى ان يعيد الكرة ، ويجري جراحة جديدة كالسابقة ، وكان للمريض ما اراد وتوقف الالم . مر كل شيء كما مر اولا . وعلى الرغم من شعور المريض بالارتياح البالغ ومحاولة الابتسام تعبيرا عن الرضا واعترافا بالجميل الا أن الابتسامة استعصت عليه وغاضت بين شفتيه فلاذ بعبارة يشكر بها الطبيب على حسن صنيعه فجاءت عبارته حزينة كئيبة .

قال ، وقد أستأذن في الانصراف : لا حاجة بك الى الدهشة اذا كنت قد عدت اليك في غضون شهر . »

« يحسن بك الاتفكر في ذلك » .

فأجاب بحسم : « ولكن ما اقوله لك حقيقة ثابتة الوجود كوجود الله في السماء . الى اللقاء . »

تدارس الجراح وجمهرة من زملائه الحالة ، واختلفت الأراء فيما بينهم ، اذ لم يستطع اي منهم ان يعطي تشخيصا قاطعا لماهية المرض .

ومضى الشهر وانصرمت اسابيع من بعده ، ولم يعد المريض الى الجراح كما اكد . ولكن تسلم منه رسالة هذا نصها :

عزيزي السيد الطبيب : يطيب لي الاتبقى في شك من مصدر متاعبي التي لااحرص على الحفاظ عليها كسر يذهب معي الى قبري ، او الى اي مكان آخر على وجه البسيطة ، وانا ارغب ان اكشف لك عن تاريخ هذا المرض الرهيب ، لقد دهمني ثلاث مرات الى الآن ولا انوي ان اظل في صراع معه اكثر مما فعلت . وقد الفلحت في كتابة خطابي هذا بان وضعت جمرة متقدة من الفحم على بيت الداء لتكون له ترياقا من لظى النيران التي تستعر فيه وتتأكله .

منذ ستة شهور مضت . كنت انسانا سعيدا كل السعادة . كنت غنيا وراضيا ، ووجدت المتعة في كل ما يروق رجل الخامسة والثلاثين من العمر . وتزوجت منذ عام مضى . وكان زواج حب . وكانت زوجتي شابة رائعة الحسن والجمال ، رقيقة حنونة وذات ثقافة . لقد كانت رفيقة لكويتية تقطن قريبا من ضيعتي . احبتني ، وكان قلبها يفيض بالاعتراف بالفضل والعرفان بالجميل . ومضت الايام في سعادة وحبور ستة شهور ، وكان كل يوم يجيء يحمل معه سعادة اعظم من سابقه . وكانت زوجتي تقطع الاميال في الطريق العام لتلقاني حينما كنت اضطر للذهاب الى البلدة ولو لم امكث بعيدا اكثر من ساعات قليلة ، وحتى لو كنت في بيت سيدتها السابقة التي غالبا ما كانت تقوم بزيارتها . وكان تعلقها بي وشوقها الى قد اوغر صدور لداتها وحرمهن طعم الراحة . ولم تكن لترافص رجلا اخر . وكانت تعترف بانها تراه جرما عظيما لا يغتفر اذا ما رأت رجلا آخر غيري في حلم بليل . فقد كانت طفلة جيلة بريئة ، ساذجة .

« وليس بمقدوري القول ما الذي دفعني الى الاعتقاد بأن ذلك كله لم يكن الا محض تمويه وخداع . ان الانسان مخلوق في غباء ، فهو يبطر النعمة ، فيكفر السعادة وهو في ذروتها حتى يتردى شقوة الحياة .

كان في حوزتها طاولة حياكة . وقد حرصت على ان يكون درجها دائما مقفلا . وبدأ هذا السلوك من جانبها يعذبني ، فغالبا ما كنت الحظ انها لم تكن تترك المفتاح في الدرج قط ، كما انها لم تكن لتتركه مفتوحا قط . فماذا عسى ان يكون هذا الذي حرصت على ان تخفيه بكل ما اوتيت من فطنة وذكاء ؟ أفقدتني الغيرة عقلي . فلم اصدق عينيها البريئتين ، ولا قبلاتها ، ولاعناقها وبث حبها ، فربما لم يكن ذلك كله الا خدعة ماكرة .

وذات يوم حضرت الكويتية لتعود بها الى قلعتها ، ونجحت في ان تغريها على قضاء اليوم معها هناك . ووعدت بان الحق بها فيما بعد عند الأصيل .

وما كادت العربة تنطلق خارجة من الفناء حتى بدأت محاولة فتح درج طاولة الحياكة . ونجح واحد من المفاتيح الكثيرة التي جربتها في فتح الدرج وفيما كنت افتش بدقة بين حاجياتها الشخصية النسائية تحت لفة من الحرير اكتشفت حزمة من الخطابات لم يكن باستطاعة المرء ان يتعرف عليها للوهلة الاولى . لقد كانت خطابات غرامية طبعا ، مربوطة بشريط احمر قان .

ولم اتوقف حتى اتبصر وارى انه مما ينافي الشرف ان ارتكب مثل هذه الحماقة : البحث عن أسرار زوجتي . ايام ان كانت صبية عذراء ! ولكن شيئا ما دفعني بقوة الى المضي في عملي ، فربما كانت هذه الخطابات تتعلق بفترة متأخرة فيما بعد الزواج ـ منذ ان حملت اسمي ؟ فحللت الشريط ورحت اقرأ الخطابات الواحد تلو الأخر .

لقد كانت اشد ساعات حياتي رهبة .

كشفت الخطابات عن اشنع خيانة لاتغتفر ترتكبها امرأة في حق رجلها . لقد كانت صادرة عن واحد من اعز اصدقائي ، وكانت لهجتها .... لقد كشفت هذه الرسائل عن ارق صلات الالفة واعمق صور العاطفة . كيف دفعها الى هذا التكتم ! ماذا قال لها عن الأزواج الاغبياء ! وكيف اسدى اليها النصح بما تعمل حتى يبقى زوجها جاهلا بما يحدث ! كان كل خطاب من هذه الخطابات قد كتب بعد زواجنا . كنت سعيدا مؤتلفا بسعادتي ، الى ان تكشف لي السر الغامض . ولراني الآن لست في حاجة الى وصف مشاعري بعد هذه الصدمة التي أفقدتني نفسي ، فتجرعت غصتي ، وطويت جوانحي على جرح قلبي وطويت الخطابات واعدت ربطها كما وجدتها واعدتها الى مخبئها واغلقت الدرج ثانية .

أدركت انني اذا لم اذهب الى قلعة الكويتية فسوف تعود زوجتي في المساء . وعادت كما توقعت فعلا في المساء . وحين وقفت العربة امام البيت قفزت منها وهي مجبورة مسرورة ، واندفعت نحوي لتلقاني في ابتهاج على الشرفة وراحت تعانقني وتقبلني في حنان بالغ وعطف سابغ ، وبدت في براءة الاطفال وكأن لم يكن بالامر شيء .

وتحادثنا في الفة وغير كلفة ، وتناولنا عشاءنا معا وآوينا الى الفراش كالعادة ، كل في حجرته . وكنت قد عقدت العزم في ذلك الوقت على خطة عمل انفذها بعناد المجنون واصراره . وقلت لنفسي حينما دخلت حجرتها في منتصف الليل ونظرت اليها وقد تبدت براءة وجهها الجميل الطاهر وهي ترقد نائمة : يالها من خدعة مخزية من الطبيعة تبعث على الرثاء وتدعو الى الشفقة حينما تلهب الخطيئة مثل هذا الوجه الكريم . وكان مفعول السم قد جرى في روحي واتلف كل شريان في جسدي فاطبقت يدي اليمنى في صمت على رقبتها وضغطت عليها بكل ما اوتيت من قوة . فتحت عينيها ونظرت الى لحظة قصيرة وهي مذهولة ذاهلة ثم اغمضتها ثانية واسلمت الروح . لم تبذل اية محاولة بغية الدفاع عن نفسها ، ولكنها فارقت الحياة هادئة وكأنها في حلم . لم تحمل لي ضغنا قط حتى لقتلي اياها . وانبثقت قطرة من الدم من بين شفتيها وسقطت على يدي ـ انك تعرف البقعة . ولم ألحظها الا في الصباح فقط بعد ان كانت قد جفت . واودعناها تحت اطباق الثرى بدون ضجة

كبيرة . كنت اعيش في الريف في ضيعة خاصة ، لم تكن بها سلطة أمن للضبط والربط ، لتتولى التحقيق ، وزيادة على ذلك فانه لم يكن هناك من يخامره ادنى شك في موتها . فقد كانت المرأة زوجتي ، وكانت محرومة من الاهل والاصدقاء . كما لم يكن هناك مدعاة للشك او الشبهة ، ونشرت بلاغات بموتها بعد تشييع الجنازة حتى اتحاشى الحاح الناس وفضولهم .

« لم اشعر بوخزات الضمير .. لقد كنت وحشا قاسيا ، ولكنها كانت تستحق ما لقيت على يدي . لم احمل لها بغضا بعد ذلك وسرعان ما نسيتها . لم يوجد قاتل ارتكبت جريمته دون ان يكترث ، أكثر مني .

وحينما وصلت الى المنزل . كانت الكونتسة قد توقفت بعربتها لتوها . كانت قد تأخرت طويلا عن موعد تشييع الجنازة . لأني تعمدت هذا التأخير لها . كانت تنوء تحت وطأة اجهاد مروع ، فقد أذهلتها الاحداث ، وكادت المفاجأة تطيش بصوابها . وراحت تهذي وهي تتحدث في هستيرية غريبة ، فلم استطع ادراك مغزى حديثها وهي تحاول تعزيتي . فاني لم أصغ اليها بأي اهتمام ، انه الحق ، فاني لم اكن في حاجة الى التعزية ، وقبضت على يدي بصورة توحي بالألفة والصلة الحميمة ، وقالت انها ستقضي الى بسر ، راجية مني الا أفيد منه بصورة أو بأخرى .

وحينئذ قالت انها قد عهدت الى زوجتي الراحلة بحزمة من الخطابات ، لم تكن تستطيع الاحتفاظ بها في منزلها الخاص ، نظرا لما يحيط بهذه الخطابات من ظروف شاذة . ورجت ان اكون من الصلاح بحيث اعيدها اليها . وشعرت برعشة تغشاني من هامتي الى اخمصي ، وانا اصغي اليها . وبهدوء مصطنع سألتها عن محتوى هذه الخطابات ؟ فعرتها رجفة لدى سؤالي واجابت :

لقد كانت زوجك اشد من لقيت من النساء اخلاصا واعظمهن وفاء . فلم تسألني عما حوت هذه الخطابات . بل لقد ذهبت الى ابعد من هذا بأن اقسمت غير حانثة بألا تطلع عليها احدا .

واين كانت تحتفظ بخطاباتك ؟

قالت انها تحتفظ بها في درج مغلق بقفل ومفتاح في طاولة الحياكة عندها . وكانت مربوطة بشريط أحمر قان . وسوف تتعرف على هذه الخطابات بسهولة وعددها جميعا ثلاثون خطابا .

صحبتها الى الحجرة حيث توجد طاولة الحياكة وفتحت الدرج واخرجت الحزمة وناولتها إياها .

« هل هذه خطاباتك ؟

مدت يدها الى الخطابات في لهفة وشوق . ولم اجرؤ على ان ارفع عيني الى وجهها خشية ان تقرأ شيئا ما فيهما . وغادرت المكان لفورها بعد ذلك .

وبعد انقضاء اسبوع بالضبط من تشييع الجنازة شعرت بالم حار في يدي في ذات البقعة التي سقطت عليها نقطة الدم في تلك الليلة المروعة . وانت تعرف بقية القصة . اني ادرك انها ليست شيئا سوى الايحاء الذاتي ، ولكني لا استطيع منها خلاصا . انها العقاب الذي حل بي لقاء طيشي ووحشيتي اذ قتلت فتاتي البريئة الجميلة . وعدت لا استطيع مقاومة ما يحل بي من العقاب . لقد ازمعت اللحاق بها ، وتبل صفحها وغفرانها ، وسوف تغفر لي بكل تأكيد ، وسوف تحبني كما اعتادت ان تحبني في حياتها . شكرا لك يا سيدي الطبيب ، لقاء كل ما صنعت من اجلي . ■■

بسرعة ... وببطء

الف أونوريه دي بلزاك تسعين كتابا في مدى عشرين عاما . والف والتر سكوت خمسا وعشرين رواية وبعض الاعمال الاخرى في تسعة عشر عاما . ووضع الشاعر الانجليزي رديارد كبلينج ثلاثة وثلاثين كتابا في فترة ثلاثة وثلاثين عاما . والفت مونيكا ديكنز رواية « زوجان من الايدي » في ثلاثة اسابيع !.

اما صموئيل بتلر فقد استغرق ثلاثين عاما ليكتب روايته « طريق كل البشر » . وقضى جوز رسكن سبعة عشر عاما لينتهي من كتابه « الرسامون العصريون » . وكتب توماس جراي « انشودة حزينة في كنيسة قروية في سبعة ا » في سبعة اعوام . واستغرقت كتابة « جادت الامطار » للويس برومفيلد خمسة اعوام .

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الأولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٨٣ » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول اغسطس (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم أديب وصحفي مصري راحل . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم رياضي وفلكي اسلامي .

كلمات أفقية :

(١) أهم كتب اسحق نيوتن ـ دولة أوروبية .

(٢) قائد عسكري معروف في التاريخ ـ سلالة تعيش في المنطقة المتجمدة الشمالية .

(٣) في الذراع ـ في الصحراء ـ من حروف الهجاء .

(٤) لقب شاعر غنائي عربي راحل ـ مؤلف كوميدي فرنسي من القرن الثامن عشر ـ أرشدت .

(٥) حرفان متشابهان ـ سكن ـ حيوان ـ نصف كلمة (وريد) .

(٦) بلا زوج ـ حرف عطف ـ يحميه .

(٧) من الزواحف ـ لم تنبت لحيته ـ زمن قديم جدا .

(٨) أديب وصحفي مصري راحل .

(٩) ناهضا ـ غلب ـ دولة آسيوية .

(١٠) جسم ـ تصلح ـ فسحة من الزمن ـ نصف كلمة (نائي) .

(١١) حيوان قطبي ـ الهة الحكمة عند الرومان ـ لقب تونسي قديم .

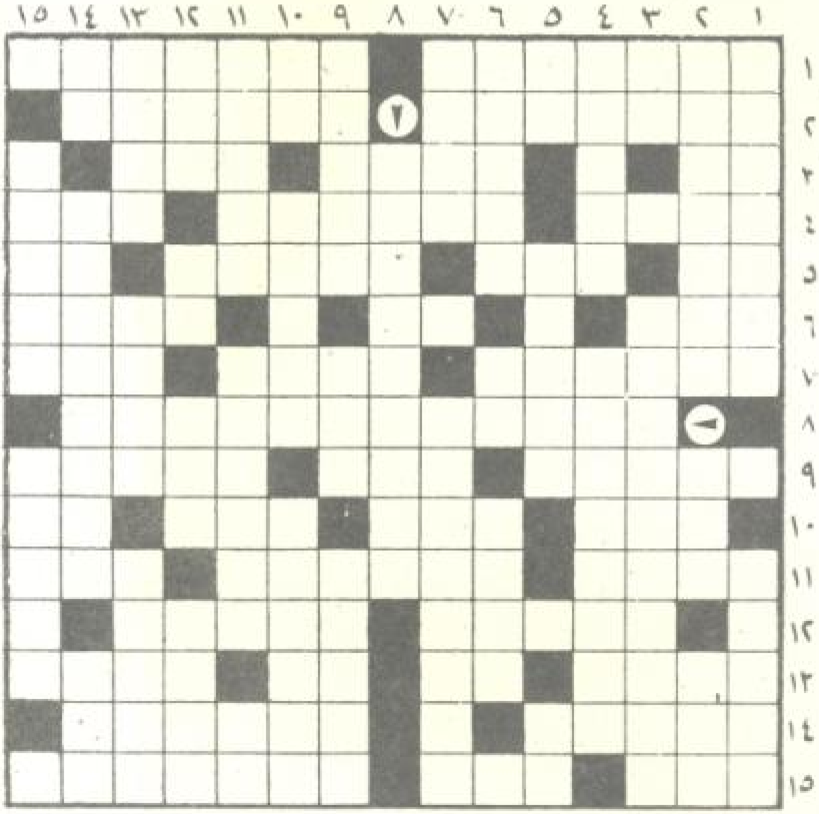
(١٢) عمودية ـ أسافر .

(١٣) عالجت ـ مقام موسيقى ـ نصف كلمة (عادي) ـ برمت .

(١٤) تشغيل ـ رائد الهندسة التقليدية .

(١٥) حيوان ـ دار ـ من العلوم .

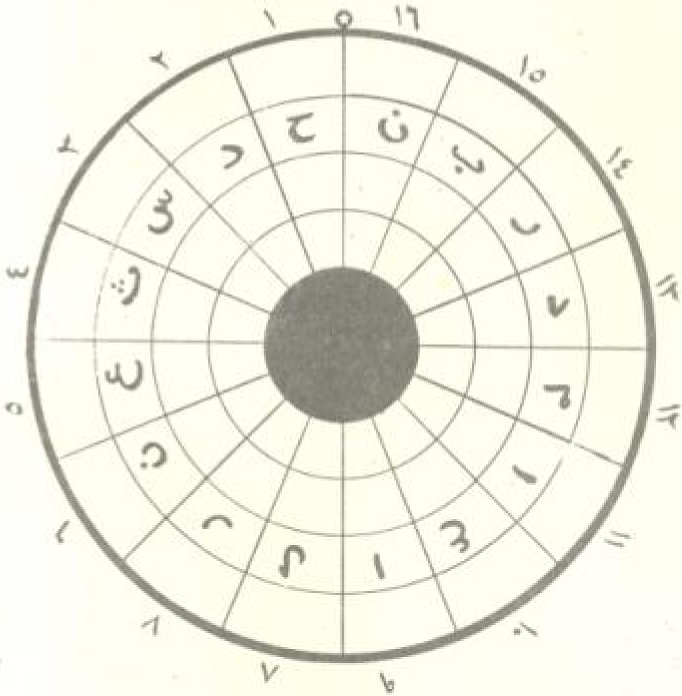
كوبون مسابقة العدد ٢٨٣



كلمات رأسية :

(١) غدة صماء في الجسم ـ زودتك .
(٢) مصور مشهور من عصر النهضة الايطالي ـ حيوانات ـ أشتم .
(٣) نصف كلمة (نيل) ـ شاعر فلسطيني معاصر .
(٤) لغة قديمة حلت اللاتينية محلها ـ وقود .
(٥) حرفان متشابهان ـ من الفنون المسرحية ـ صاحب .
(٦) عاصمتها رانجون ـ دك ـ تثني .
(٧) أشب ـ عالم طبيعي أدخل استخدام الزئبق على الترمومتر .
(٨) رياضي وفلكي اسلامي .
(٩) الرفق ـ من حروف الهجاء ـ من العتاد الحربي الحديث .
(١٠) مقام موسيقي ـ يبلع ـ ينتسب الى احدى القارات .
(١١) ينافس ـ تنشأ في البحر العاصف ـ حرف نفي .
(١٢) لفظ تهديد ـ مقام موسيقي ـ عنق ـ قاع .
(١٣) نرسل شخصا ـ من الأسماء الحسنى ـ نشيد معروف لسيد درويش .
(١٤) حرف نصب ـ ولاية أمريكية ـ عنف .
(١٥) متهدل ـ آلات نفخ موسيقية .

● حول الدائرة السوداء ●



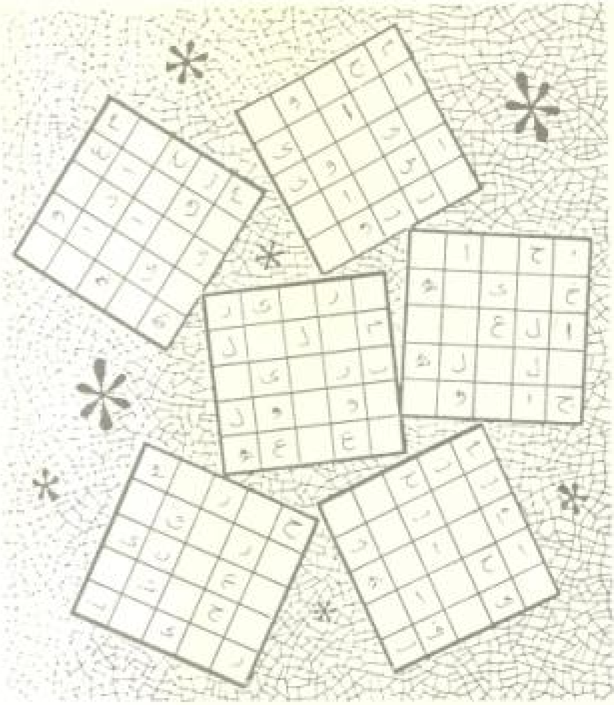
ضع الكلمات ذات الاحرف الاربعة ، والتي نعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

مخترع و عالم طبيعي انجليزي ، اخترع الاكورديون وتجسيم الصوت والبرق الكهربائي

---

(١) من المعادن (٢) يعلم (٣) فلك (٤) يبرهن (٥) أحيا (٦) قناة شهيرة (٧) نسيج رقيق (٨) بض (٩) ناتىء (١٠) يجري (١١) مرتفع (١٢) يقضي (١٣) أطأ (١٤) يمد (١٥) أختبر (١٦) توجع .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية سميكة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يحض على :

تفضيل السلامة

الحلول ١

حول الدائرة السوداء :

سير تشارلز ويتستون .

العواصم :

سرنجار .

مثل عربي :

غنم من سلم .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يونيو ١٩٨٢م

الحشرات الناقلة للأمراض

تأليف
د. جليل أبو الحب

الكتاب الرابع والخمسون

٢٥٠ فلساً

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

نصائح من أكبر مؤسسة لتصدير اللحوم والمواشي في العالم

تعتبر استراليا في طليعة البلدان المصدرة للحوم والمواشي ، وهي تتعامل في هذا المجال مع مايزيد عن مائة دولة في مختلف أنحاء العالم .. وقد بلغت الصادرات الاسترالية من لحوم الابقار والاغنام والماعز المبردة والمثلجة في العام الماضي نحو مليون طن .



وتتولى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تصدير مثل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم والمواشي . وللشركة عدد من المكاتب في الشرق الاوسط ، والاسواق العالمية الكبرى .

وتهتم هذه المكاتب بترويج اللحوم وتقديم الاستشارات والمساعدات المباشرة للمستوردة .

كيف تساعد الشركة المستورد

يعمل لدى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي خبراء متخصصون بالتسويق والاقتصاد والتنمية وفن الاعلان بهدف تنشيط التجارة مع استراليا .



فاذا كنت بحاجة الى بعض المعلومات عن توفر اللحوم والمواشي ونوعياتها واجراءات الشحن والشروط الصحية وسواها من المعاملات والاعلان ، فما عليك الا أن تتصل بالمدير الاقليمي للشرق الاوسط : السيد فيليب روسال أو المدير الاقليمي للمكتب الاوروبي السيد رالف هود .

الشحن

تقوم الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بدراسة وتحديد كميات وأسعار اللحوم والمواشي المراد شحنها وكذلك وسائل الشحن الممكنة عبر الطرق الدولية .

التأكيد على النوعية

ان الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تستخدم جهازا من الفنيين داخل استراليا وخارجها لمساعدتك في تقديم طلباتك والتأكد من أن المنتجات التي أرسلت لك تطابق المواصفات المطلوبة بما في ذلك ذبح المواشي على الطريقة الاسلامية

وهناك كتيبات تتضمن معلومات عن كافة اعمال الشركة والاصناف التي تتعامل بها يمكن الحصول عليها من المكاتب الاقليمية للشركة .

أذون التصدير

تطبق الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بعض الشروط المالية والانتاجية في تعاملها مع المصدرين حتى تجنب العملاء أي اشكالات أو مضايقات هم في غنى عنها .

أين تجد النصيحة

في امكانك الحصول على أي نصيحة او استشارة في هذا المجال عن طريق :



السيد / فيليب روسال
ممثل
« يانين سنتر »
الشركة الاسترالية للحوم والمواشي
ص . ب (٥٦٢٢)
هاتف ٢٤٤٠٠٩
تلكس ٩٩٣٦٠٩١ AMLC BN
المنامة / دولة البحرين

أو

MR. RALPH HOOD 9 KINGSWAY LONDON, WC. 2 ENGLAND

AUSTRALIAN MEAT & LIVE-STOCK CORPORATION

مِنَ المسرح العالمِى
سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام فى الكويت

اول يونيو ١٩٨٢

١٥٣

شهر في القرية

تأليف : ايفان تورجينيف - ٢
ترجمة وتقديم : د. سمية عفيفى
مراجعة : د. فوزى عطية محمد

مجلة

دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ٠٠٠ر١٢٥ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي)

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .**
٢- كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .**
٣- كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .**
٤- كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .**
٥- **دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .**

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

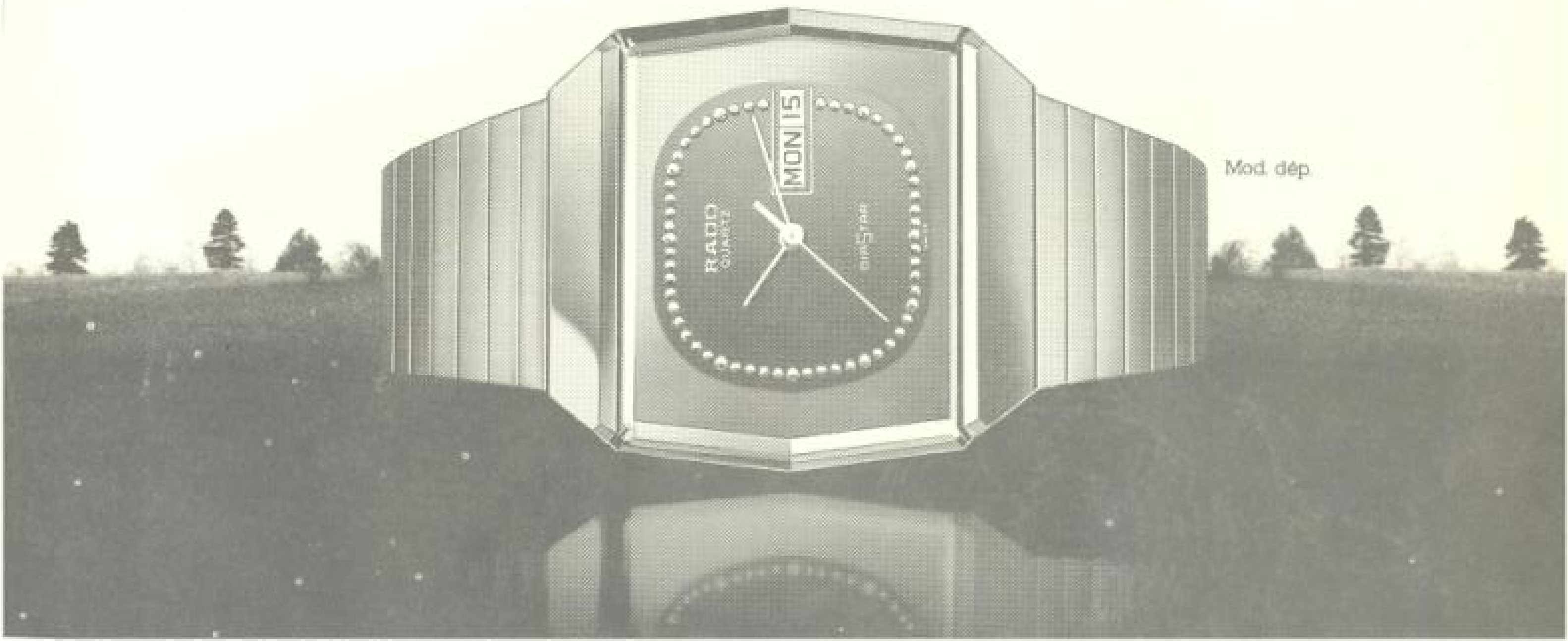
جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

مقياسُ الأناقة

الجَمال يَعني الثقة في مفهوم محدّد للصُور المرئيّة. الأمر الذي لا يتحقّق بين ليلة وضحَاها لأن الجمّال وَالأناقة هُما تعبيرعَن حاجَة يتطلّبها الرقي الفكري، المتطوّر عَبر الأجيَال، وَليد الشجَاعة والذكاء والشعور المُرهف. لـذا كانت رَادو دَائمًا فئة متميّزة في حدّ ذاتها. سَاعة متفوّقة تتحدّى التقليد على الإطلاق لأنها جَاءت نتيجَة للتقدّم التكنولوجي الرائد في مجَال التصميم وقياس الزمن.

RADO رادو

مقياس الأناقة. مقياس المتانة. مقياس الزمن

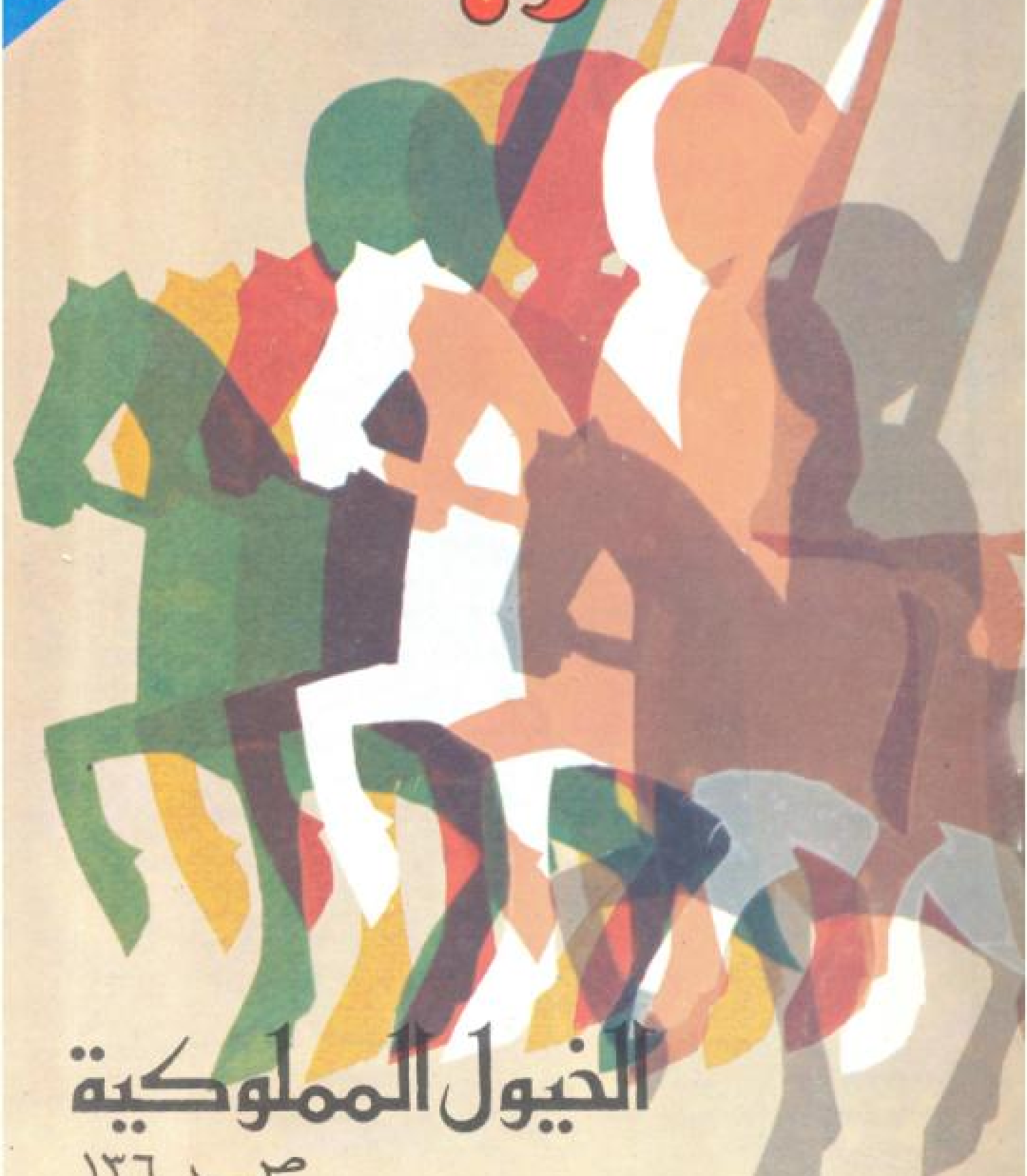


Mod. dép.


AUTO REVERSE
RT-200S
BOMBEAT
DR-01
● 4-band (FM/MW/SW_1/SW_2) radio reception ● Powerful 14W output (7W × 2) ● 2-way 4-speaker system
TOSHIBA | توشيبا
TOKYO, JAPAN

العربي

رمضان ١٤٠٢هـ - يوليو (تموز) ١٩٨٢م



خبرة الماضي



١٩٥٢
أول بنك كويتي تأسس في الكويت هو بنك الكويت الوطني وكان موقعه في شارع عبد الله السالم مقابل المكتب الرئيسي الحالي.

١٩٨١
أحدث غرفة لتداول العملات (Treasury Dealing Room) في الشرق الأوسط متصلة بالأقمار الصناعية وهي موجودة في المكتب الرئيسي.



وأحدث الخدمات العصرية

بنك الكويت الوطني كان ولايزال الرائد في مجال التطور على مدى ٢٩ عاماً. هذا التطور الذي وضع التكنولوجيا الحديثة في خدمة الزبائن الكرام، والذي أدى الى توسع البنك فأصبح يملك ٤٠ فرعاً متصلة جميعها بالكمبيوتر المركزي وذلك لتأمين خدمات فورية للعملاء الكرام.

ان هذا التطور أدخل مقاييساً جديداً على الخدمات المصرفية في الكويت دون ان يمس بتقاليد اللياقة وروح الخدمة التي كانت موجودة يوم أنشئنا أول فرع لنا عام ١٩٥٢.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك

المركز الرئيسي، شارع عبدالله السالم، ص.ب ٩٥ الصفاة، الكويت

.. مع أطيب تمنياتي!

بهذا العدد من مجلة « العربي » أكون قد توليت رئاسة تحريرها ، وتحدثت اليك شهريا على صفحاتها .. على مدى ثمانين عددا من أعدادها بالتمام والكمال .. أي ما يقل قليلا عن سبع سنوات .

أما مناسبة ذكر هذه الأرقام ، فهي أن رئاستي لتحرير مجلة « العربي » تنتهي بذهاب هذا العدد الذي بين يديك الآن ، الى المطبعة .

وقد تسلم مسؤولية رئاسة التحرير من أول يونيو ١٩٨٢ زميل وصديق ، هو الدكتور محمد غانم الرميحي ..

والدكتور محمد الرميحي ليس في حاجة الى التعريف ، فقد كان رئيس قسم الاجتماع في جامعة الكويت ، ومؤسس مجلس دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ورئيس تحريرها لمدة أربع سنوات وهو ليس في حاجة الى تقديم إلى قراء « العربي » ، فهو أحد الذين ساهموا بالكتابة فيها منذ سنوات . فوق أنه محاضر في جامعات أوروبية وعربية شتى . ومساهم نشيط في ندوات فكرية كثيرة تعقد في مختلف أنحاء العالم العربي . وهو الى ذلك كله ، أحد رموز ذلك الجيل من شباب الكويت ، الذين يتحملون اليوم شتى المسؤوليات في شتى المواقع ، استمرارا لتطور هذا البلد العربي الأصيل وعطائه لأمته في شتى المجالات .. من المال إلى الرجال إلى الثقافة .

وقد يبدو غريبا أن يحتضن هذا البلد العربي الصغير، الجديد ، بذور الثقافة ، وأن يعطي منها ثمارا خصبة للعالم العربي الواسع . .

ولكن الكويت منذ الاستقلال بذلت جهودا غير عادية في مجال الثقافة ونشرها في العالم العربي وتيسيرها لكل قارىء عربي ، على أي مستوى ثقافي أو اقتصادي .

فقد احتضنت الكويت في جامعتها ومعاهدها ومؤسساتها الثقافية والاعلامية أبرز الأسماء في العالم العربي . وكما أعطاها هؤلاء علمهم وتجربتهم ، أعطتهم الأمن والحرية ، وهو أثمن ما يطلبون ، كما أخرجت من هذا الجو المتميز خامات كويتية ممتازة بأي مستوى .

ويكفي أن نذكر نشاطها في نشر التراث المنتقى بأرفع الأساليب . ونذكر اصدارها ـ وقبل غيرها من الدول الأقدم ـ مطبوعات في مستوى مجلة « عالم الفكر » الفصلية ومجلة « العربي » الشهرية وسلسلة « المسرح العالمي » الشهرية وكتاب « عالم المعرفة » الشهرى ومجلة « المجلات العالمية » الشهرية . وكلها مطبوعات ـ بحكم الكثافة السكانية ـ يذهب تسعون في المائة منها الى العالم العربي الواسع .

وقد كان « مفتاح » نجاح كل هذه المطبوعات الثقافية شيئا أساسيا : أنها كلها خالية تماما من أي رائحة دعاية ما أو توجيه ما . انما هي ثقافة للثقافة . ولولا ذلك السطر النحيل الذي يقول انها « صدرت عن كذا بالكويت » في مكان غير بارز . . لما عرف القارىء الجديد في أى بلد صدرت ! . .

وفي تجربتي الخاصة بمجلة العربي ـ وهي بحكم نوعيتها ولونها ـ الأوسع انتشارا بين فئات شتى من القراء . . فلم يحدث قط أن كان لدولة الكويت مطلب ، أو اقتراح ، أو احتجاج . .

وقد تسلمت مجلة العربي بعد أن كونت لنفسها قاعدة راسخة لدى القراء ، وكان توزيعها يدور حول ١٤٠,٠٠٠ ألف نسخة شهريا ، وكان ذلك الرقم الأكبر في العالم العربي لأي مجلة شهرية رقما مرتفعا بمستوى ذلك الوقت .

ومن تجربتي الطويلة في الاشراف على مؤسسات صحفية شتى : أعرف أن أكبر غلطة هي أن يأتي رئيس تحرير جديد ـ أو قديم ـ ويقلب جريدة أو مجلة رأسا على عقب ، مهما كان التجديد رائعا . وكأنه بذلك يقدم للقارىء مجلة جديدة ، ويضعها في اختبار جديد . . ثم ان رئيس التحرير لا بد له أن يعرف انه لا يصدر مجلة ترضيه أساسا لكي يقرأها هو ، ولكن هناك طرف آخر هو القارىء : وقراء كل مجلة أو جريدة لهم مزاج عام وتكوين ذهني عام . فلا بد أن يجد صيغة ترضي آراءه ومبادئه في الصحافة وفي التوجه ، وترضي مجموع القراء . ليس بمعنى التطابق طبعا ، ولكن بمعنى « السباحة معا » في نهر واحد ، فيه خلاف واتفاق ، ولكن في اطار المجرى النهري الواحد » .

هكذا ـ كما تعودت دائما ـ كانت محاولتي في مجلة « العربي » هي : التجديد من خلال الاستمرار . . أن نضيف الى القراء قراء جددا ، لا أن نستبدل قارئا بقارىء ، وتوسيع مجرى النهر لكي يتسع لمزيد من الثقافة ، دون أن يتحول النهر الى بحر متلاطم فوضوي لا يحده شاطئان . .

من هذه المنطلقات حافظنا على الاهتمام بالتراث : مع محاولة الانتقال من مجرد نقله الى مناقشته وتأمله وتبادل الرأي فيه . . . حتى يعود النبض الحي إلى كل ما هو صالح وأساسي فيه . .

وحاولنا أن نطور الاستطلاعات المصورة من مجرد التسجيل الجغرافي ، المعلوماتي ، الى التحليل والتعميق . . والى اختيار

موضوعات لها فكرة مثل سلسلة « المضايق العربية » و « البحار العربية » . . وهي عناوين تستدعي بطبيعتها المزج في الاستطلاع بين « التقرير الجغرافي والسكاني » الى الآفاق الاستراتيجية والسياسية والتكاملية في العالم العربي . كما ذهبنا خارج العالم العربي الى آفاق أخرى بعدت عنا قرونا لايقاظ روابطنا بها : فبحثنا ـ وأحيانا ـ بعناء كبير وراء التراث العربي والاسلامي من الصين شرقا . . . الى الجمهوريات السوفيتية . . الى أعماق أفريقيا . . الى جزر البحر الأبيض المتوسط كمالطة وقبرص وصقلية . . ثم الأندلس . .

وكان من أكبر اهتماماتنا أن نضيف الى ذلك « المعاصرة » . . فأضفنا موضوعات في السياسة القومية ، والاقتصاد ، والعلوم الحديثة . . . ثم الاهتمام بالفنون الحديثة كالمسرح والسينما والتليفزيون . . والتركيز في فن الرسم على الرسامين العرب المعاصرين في كل قطر عربي . وكل قضايا وعلوم « المستقبلية » .

وقد كانت لدينا مخاوف من هذه التغييرات والاضافات ، رغم إدخالها بتدرج غير مفاجيء وغير محسوس . ولكن ظهر أن العكس صحيح . وأن القاريء العربي لم يعد ـ كما يتصور البعض ـ قارئا تقليديا . . ولكنه قاريء استيقظت فيه روح المعرفة وحب الاستطلاع والحاجة الى فهم هذا العالم الجديد . . وانه يقرأ الأعمق والأرفع اذا قدم له في شكل جذاب ، يحترم عقله ، كسبيل وحيد للقدرة على مواجهته . . .

والقول الكريم « من تعلم لغة قوم أمن شرهم » لا يقتصر مدلوله على « اللغة » بمعناها الحرفي . . انما يشمل كل شيء : الثقافة والحضارة والعلم والعوامل البشرية والمادية والروحية جميعا . .

وهكذا . . يطبع ويباع من هذا العدد الذي بين يديك ٢٦٥,٠٠٠ ألف نسخة ! . . والطلبات الموجودة ، التي لا نقدر على تلبيتها بسرعة ، تزيد هذا الرقم الى ثلاثمائة ألف .

وليس معنى ذلك أنني حققت وزملائي ، وكتابنا الكبار من أنحاء العالم العربي - كل ما نريده . .

فقد كنت أتمنى لو خرجت « العربي الصغير » مثلا . . في ثوب مجلة شهرية مستقلة رائدة .

وكنت أتمنى لو خرج « كتاب العربي » شهريا . . جامعا أهم ما شارك به كل كاتب في « العربي » على صفحات المجلة . . كطريقة سهلة للاقتناء . .
الى آخره . .

ولكن لا أظن أن أي إنسان مخلص مع ضميره ، يترك عملا تولاه فترة ، وهو راض كل الرضا عما حققه .

وقد كان « لا بد من صنعاء وان طال السفر » . وكان لا بد من عودتي الى مكاني في « الاهرام » في القاهرة . . . وان كان هذا - بكرم من المشرفين على العربي - لن يقطع صلتي بها . . . بالكتابة الى القراء الأعزاء على صفحاتها . .

تلك الصلة التي هي بالنسبة للكاتب أغلى ما لديه ، وأهم ما يحرص عليه ، مهما كان المكان ، أو الزمان . .

أحمد بهاء الدين



صورة الغلاف

○ الخيول المملوكية لم تكن مثل كل الخيول ، بل انعكس عليها كل ما اتسم به ذلك العصر - في اوج مجده - من فروسية وتأنق وترف . اذ كانت الخيل سلاحا اثبت به المماليك وجودهم ، وتفوقوا فيه . وحاولوا من خلاله ان يعوضوا كل ما خفقهم من مذمة او انتقاص في القدر .

(انظر الدراسة ص ١٣٦)

قضايا عامة

عروبة وإسلام

أدب وفنون

طب وعلوم

تربية وعلم نفس و اجتماع

قضايا حيوية

شخصيات وتاريخ

استطلاعات مصورة

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : الدكتور محمد غانم الرميحي

مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارئ للعربية في العالم
الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريالات ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليم ، السودان ١٥٠ مليم ، المغرب ٣ دراهم ، تونس ٣٥٠ مليم ، الجزائر ٣ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريالات ، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم ، اليمن الشمالي ٣ ريالات ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلس ، ليبيا ٢٥٠ درهم .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات
المراسلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١
تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :
قسم الاشتراكات
المكتب الفني ـ وزارة الاعلام
ص . ب (١٩٣) ـ دولة الكويت
على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام ، طبقا لما يلي :

فلس دينار
ـ الكويت والبلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)
ـ بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL-ARABI .NO.284
July , 1982 . P. O. Box 748 , KUWAIT .



للدكتور حسان حتحوت

الإستقلال الأخضر

ما أكثر ما خرجت مع زملائي في المظاهرات ايام كنت طالبا في المرحلة الثانوية . . وما اكثر ما هتفت مع غيري فاذا عدت الى اسرتي في ختام يوم الجهاد ، كان من اسباب رضائي وراحة ضميري، ان يكون صوتي مبحوحا من فرط صياحي بمن يحيا ومن يسقط وانه الاستقلال التام او الموت الزؤام .. وما اكثر ما حطمت المظاهرات او احرقت . . . يستوي في ذلك وسائل المواصلات وواجهات المحلات واطارات السيارات . .

وكبرت وزاد الشوط الذي قطعته من رحلة الحياة ، وأنظر فاذا المظاهرات والاضرابات ومراسم الجهاد كما هي وان اختلفت القضايا واختلفت الهتافات باختلاف الظروف . . واريد هنا ان استبعد المظاهرات الملفقة أو واضحة التدبير كتلك التي خرجت مرة في احدى البلاد في ظرف معين تهتف بسقوط العلم وسقوط القانون . . وانما أعني الصيحات الصادقة المخلصة للشباب العربي في كافة اقطار العروبة . . والتي بدأ معها صباي بالهتاف بان مصر للمصريين وتنادي بجلاء الانجليز عنها ، وتطالعنا الآن بان فلسطين عربية وتنادي بان يعيش الفلسطينيون احرارا في بلادهم الحرة . . وتشجب ـ على غرار ما درج عليه ساستنا وسادتنا ـ للمرة الالف بعد الألف آلافا مؤلفة ، ما يكيل لنا الصهيونيون من لكمات وركلات في ارضنا وعرضنا وكرامتنا وعبادتنا وارواحنا ومنشآتنا وحدودنا ومسجدنا !

ولقد استحوذت قضية فلسطين على اهتمامي منذ طفولتي وحتى الآن . . فانا كمسلم شهدت فيها عدوانا على الاسلام ، وكعربي شهدت فيها عدوانا على العروبة ، وكانسان شهدت فيها عدوانا على الانسانية . . ثم لم احاول ان اقيم المناقشة أو المنافسة بين المسلم والعربي والانسان ، أيهم أولى بالتصدي لاحقاق الحق وازهاق الباطل ، لأن هذا النقاش يفضي الى خلاف يفضي الى اضاعة الجهد في السفسطة وليس في انقاذ فلسطين ، وان كنت اعلم ان النصر من بعد العمل والجهاد يأتي من الله ، وانه لايتنزل على من انكر الله او عاداه . . وما إن تخرجت حتى تطوعت طبيبا في صفوف المناضلين فكنت في مدينة الرملة قبل

ان تتدخل الدول العربية تدخلها المشئوم ، ورأيت صورا من البطولة كما رأيت طعنة الخيانة التي اضاعت القضية . . وامام ذاكرتي تطور القضية في اسمائها المتلاحقة : من الوطن القومي لليهود ، الى الهجرة اليهودية ، الى قضية التقسيم ، الى قضية اللاجئين ، الى قضية الشرق الاوسط ولا ادري ما يحمل الغيب في طياته .

وقد تبلورت قضية فلسطين الآن في نظري ونظر الغالبية من المفكرين في مفتاح واحد من كلمة واحدة هي « امريكا » . . . . فالجميع يعلمون أنه لولا أمريكا لما صمدت اسرائيل بضعة ايام . . وأن بين امريكا واسرائيل عقد التزام لا بمسمي ولكن بنتيجة : هي الا تنهزم اسرائيل في اي حرب تتعرض لها .

المفتاح اذن في الضغط على امريكا . . ولقد ارتفعت بذلك أصوات محاولات أكبرها حظر النفط العربي في ١٩٧٣ . . الذي أنهاه العرب في ايام واعلنوا بعدها ان البترول دخل حوزة الاقتصاد وخرج من حوزة السياسة . .

ان الصق شيء بالانسان بعد الهواء الذي يتنفسه لقمة الخبز التي تملأ معدته وتسد جوعه . . فان اصيب فيها فقد انصرف تفكيره عن كل ما سواها . وقمحنا من امريكا . . وفي أحلك لحظات العلاقة بين العرب وامريكا ، وعندما كان رئيسنا يخطب فيقول ان على الأمريكان ان يشربوا من البحر ، وعندما كان اعتمادنا على المعسكر الشرقي في كل شيء ، ظل قمحنا يأتي من امريكا .

واذا كانت امريكا تمسك بتلابيب الرغيف : فهل نطمع حقا ان نضغط عليها او حتى أن نستقل عنها ؟

كل شيء يهون او يعوض او يصبر عنه : الا القمح . . .

وعندنا الارض في مكان ، والسواعد في مكان ، والاموال في مكان . . ألم يئن الأوان لتلتقي جميعا لكي ينتج العالم العربي لقمة خبز ؟

وهل نحتاج لعبقرية خاصة لنقرر ـ ان هذا التعاون على القمح ينبغي ان يكون بمأمن وبمعزل عن خلافاتنا السياسية ، فلا يتعطل لاي سبب حتى لو اعلنت حكوماتنا الحرب على بعضها البعض ، وتنص على ذلك المعاهدة القمحية بين الدول العربية ؟ فان الخلافات بيننا آنية وشخصية ولكن مصيرنا جميعا هو الأبقى وهو الأدوم ؟

انني ادعو لمفاوضات عربية قمحية عاجلة ، تحدد حصة صاحب الارض وحصة صاحب راس المال وحصة الفلاح . . يتلوها التنفيذ الفوري ، وفي أمخاخ الحكام جميعا انه مهما طالت الالسنة والاقلام بالسباب ومهما اشتبكت الجيوش فيما بينها بالقتال فان معاهدة القمح لا تهتز ولا تتوقف ولا تنتهك . .

أساس الاستقلال ياسادتي هو استقلال القمح . . ولن تبنوا أيا من انواع الاستقلال الا على اساس من الاستقلال القمحي . . الاستقلال الاخضر .

قناة البحرين الميت والمتوسط خطر اسرائيلي يهدد العرب

بقلم : سمير صارم

المشروع الاسرائيلي لربط البحرين : الميت والمتوسط ، خطر يهدد العرب جميعا .

لقد سبق واشارت « العربي » بايجاز لمؤامرة اسرائيل او لاحدى مؤامراتها ، التي تمرر وسط صمت عربي مطبق ، وهي حفر تلك القناة فيما بين البحرين . ولكن نظرا لخطورة هذه المؤامرة ، ووضوح ابعادها العدوانية على الاصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية ، سنحاول توضيح بعض هذه الابعاد ، مستندين الى ما نشر عنها من دراسات وتحليلات ، ليكون القارىء العربي على دراية بما ترمي اليه اسرائيل في هذا المجال ، وليعلم مدى خطورة الصمت العربي ، فالخطر لن يكون على الاردن وحده ، ولا على الاردن وسوريا ولبنان ، وحسب ، بل على الوطن العربي بأجمعه ، وستشمل الآثار المصير والمستقبل العربي ، وذلك من خلال النظرة التوسعية الاستيطانية الصهيونية من جهة ، ونظرتها الى مكانتها « الحضارية !! » في المنطقة العربية بمجملها من جهة ثانية .

منذ القرن الماضي

فمنذ اواسط القرن التاسع عشر ، راودت الاستعمار الغربي فكرة ربط البحرين المتوسط بالميت ، ثم بالبحر الاحمر ، حتى المحيط الهندي والهند ، وذلك من اجل تأمين اقصر الطرق الاستعمارية الى الهند وشرق آسيا ، وكانت بريطانيا اول من فكر بذلك ، فأرسلت موفدا الى فلسطين عام ١٨٥٠ لدراسة هذه الفكرة ، وقد نشر هذا الموفد كتابا ضمنه تقريره الذي رفعه الى حكومته وحمل الكتاب عنوان « البحر الميت طريق جديد الى الهند » . . . غير ان المشروع لم يتحقق بسبب تحول انظار بريطانيا الى مشروع قناة السويس ، لكن ذلك لم يمنعها من العودة للتفكير في الموضوع ، من منطلق انها قد تخرج من مصر في اي وقت ، فاوفدت بعثة من الخبراء الى فلسطين خلال عامي ١٨٧٣ ـ ١٨٧٥ ، وقامت البعثة بمهمتها .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ، رأى مهندس سويسري ، امكان الاستفادة من تفاوت الارتفاع بين سطحي البحرين الميت والمتوسط ، وعندما اطلع مؤسس الصهيونية « تيودور هرتزل »على هذه الفكرة تبناها ، لانها تتلاءم ومطامع الصهيونية العالمية في الشرق ، وتحدث في كتابه « اولد نيولاند »عام ١٩٠٢ عن قناة عرضها عشرة امتار تربط البحرين المتوسط والميت ، وعن عنفات ـ مائية توضع قرب البحر الميت تعمل على المياه الساقطة ، وهذا يزيد من كمية الكهرباء المتولدة لتغذية المنطقة الصناعية الجديدة ، التي ستقام على شاطىء البحر الميت .

ويمكن اعتبار عام ١٩٣٧ بداية التخطيط الصهيوني الفعلي لمشروع القناة ، عندما قام بعض الزعماء



خريطة توضح المشروع الاسرائيلي للقناة المزمع شقها بين البحرين المتوسط والميت .

الصهاينة ، ومنهم « بن غوريون » بجولة ميدانية في مناطق الاغوار الجنوبية ، وكان من نتائجها بدء التفكير الجدي بانشاء القناة ، لكن التطورات السياسية في فلسطين وغيرها يومذاك حال دون ذلك . .

وفي عام ١٩٤٤ اصدر البروفسور الاميركي « والتركالاس لاودرملك » خبير الاراضي والري كتابا بعنوان « فلسطين . . ارض الميعاد » تحدث فيه عن امكان شق قناة بين البحرين المتوسط والميت ، ورأى ان للمشروع فوائد اقتصادية ، زراعية وصناعية ، وسيوفر امكانية العيش لأربعة ملايين يهودي من لاجئي اوروبا . .

وبعبارة موجزة ، لقد ظل هذا المشروع هاجس الصهاينة منذ ان فكر فيه زعيمهم « هرتزل » في مطلع هذا القرن ، لكنه تأخر تنفيذه ، لعدة أسباب منها :

أ ـ الحروب التي كانت قائمة بين العرب والكيان الصهيوني .

ب ـ وجود قطاع غزة والضفة الغربية خارج اطار الاحتلال الصهيوني حتى عام ١٩٦٧ .

جـ ـ عوائق فنية تتعلق بكلفة المشروع المالية ، وطريقة تمويله .

د ـ التأثيرات المتوقعة للمياه المالحة في المياه الجوفية العذبة ، وعلى نسبة الاملاح في البحر الميت .

لكن بعد عدوان حزيران (يونيو) قامت مجموعة من الخبراء الاسرائيليين او رجال الحكم ، بجولة ميدانية في منطقة الاغوار ، وبدأت بالدراسات الجادة لاقرار المشروع وتنفيذه . وفي عام ١٩٧٤ تشكلت لجنة برلمانية لدراسة المشروع وجدواه . وفي عام ١٩٧٨ تشكلت لجنة اخرى علمية برئاسة احد مؤسسي حزب « هتحيا » اي « النهضة » المتطرف ، وهو البروفسور « يوفال نئمان » العالم الفيزيائي والنووي ، واحد « صقور » اسرائيل السياسيين ، واستعرضت اللجنة تسعة ممرات للقناة

واخيرا قامت بتحليل ثلاثة ممرات رئيسية منها ، وهي :

١ ـ الخط الجنوبي : ويبدأ على شاطىء المتوسط قرب تل القطيفة في قطاع غزة ، ثم يمتد جنوبا نحو بئر السبع ، فعين بقيق على البحر الميت .

٢ ـ الخط الاوسط : ويمتد من اسدود مرورا بجنوب القدس ، منتهيا قرب مغارة قمران ، على شكل نفق يحفر على عمق ٢٠٠ متر .

٣ ـ الخط الشمالي : ويمتد من حيفا الى وادي الاردن عبر سهل مرج ابن عامر ، ثم وادي بيسان . .

وبعد دراسة استمرت ستة ونصفا،قدمت ما توصلت اليه حكومة الليكود ، مع توصية باعتماد الخط الجنوبي ، لما يتمتع به من مزايا سياسية وجيولوجية ، وقد اقرت تلك الحكومة برئاسة مناحيم بيغن الخط الجنوبي بجلستها المنعقدة بتاريخ ٢٤ آب (اغسطس) ١٩٨٠ .

الخط ودواصفاته :

كما اشرنا،يبدأ هذا الخط على شاطىء البحر المتوسط ، قرب تل القطيفة في قطاع غزة « بين خان يونس ودير البلح » وينتهي في عين بقيق على البحر الميت بالقرب من مسادا على طريق عين جدي ، مرورا بئر السبع ، وعلى البحر الميت ستنزل المياه من مسقط كبير ، ارتفاعه حوالي ٤٠٠ متر ، تعمل فيه مولدات محطة للطاقة الكهربائية التي ستقام هناك ، وطول القناة ١١٠ كيلومترات ، منها ٨٠ كيلومترا داخل نفق في الهضاب المشرفة على البحر الميت ، وفرق الارتفاع بين موقعي طرفي القناة يبلغ ٤٠٠ متر بسبب انخفاض مستوى سطح البحر الميت ، عن مستوى سطح البحر المتوسط .

وتقول الحكومة الاسرائيلية ان مياه المشروع ستستغل في انشاء بحيرات للسياحة وتربية الاسماك البحرية ، ومن اجل اقامة منشآت تبريد في قلب النقب لمحطات الطاقة الكهربائية والنووية . بالاضافة الى اقامة مشروعات صناعية واغائية وكهربائية . . الخ .

وباختصار ، فان المصادر الصهيونية تشير الى ان المشروع سيؤدي الى نهضة صناعية حقيقية في اسرائيل ، وسيكون ـ ايضا حسب وجهة النظر الصهيونية ـ مرتكزا لسلسلة من المشروعات التي ستجتلب الطاقة البشرية رفيعة المستوى ، وسيساهم في حل مشكلات المنطقة ، وفي تغيير وجه النقب .

لكن للمشروع بالاضافة الى ذلك اهداف سياسية وعسكرية واجتماعية ستتعرض لها لاحقا .

ومن المقرر ان يستغرق تنفيذ المشروع عشرة اعوام بتكلفة تقدر بـ ٨٠٠ مليون دولار باسعار عام ١٩٨٠ ، بالاضافة الى ٢٦٠ مليون شيكل اسرائيلي لعمليات الدراسة والبحث وغيرها .

النتائج الاقتصادية ـ الاجتماعية :

● على الجانب العربي الاردني :

١ ـ تقليل مردود البوتاس بنسبة ١٥٪ ، مشكلا خسارة اجمالية مقدارها بالاسعار الحالية حوالي ١٠٠ مليون دولار سنويا . .

والبوتاس كما هو معروف يأتي من حيث الاهمية الاقتصادية بالمرتبة الثانية للقطر الاردني بعد الفوسفات ، وسيضطر الاردن لانفاق حوالي ثلاثة ملايين دولار لزيادة ارتفاع مواقع استخراج البوتاس حتى ٣٩٣ مترا .

٢ ـ سيدمر منشآت البوتاس العربية ومرافقها ، وسيغمر مواقع الضخ .

٣ ـ اغراق اجزاء كبيرة من وادي الاردن ، وعدد من القرى والمزارع والسدود الاردنية ، وعدد من الاماكن الاثرية والتاريخية .

٤ ـ تدمير المنتجعات السياحية والمشروعات الصناعية التي تشارف على الاكتمال .

٥ ـ سيهدد تربة وادي الاردن بزيادة ملوحتها ، مع ما يسببه ذلك من انعكاسات سلبية على الحياة النباتية والحيوانية ، وهنا تكمن خطورة المشروع على القطر الاردني بالقضاء على الاراضي الزراعية فيه .

٦ ـ سيؤثر على خزانات المياه الجوفية وبالتالي على مياه الشرب ومجمل الحياة الانسانية في الاردن .

● على الجانب الاسرائيلي :

١ ـ سيكون المشروع مفتاحا للطاقة على مدى الخمسين سنة القادمة ، فهو سيحسن من محطات الكهرباء في النقب ، وسيسمح بانتاج ١٥٠٠ ميغا واط من الكهرباء سنويا بعد تحويل البحر الميت الى حوض شمسي مساحته حوالي ١٠٠ كيلو متر مربع ، كما ان الفارق بين مستوى المياه في البحرين المتوسط والميت ، سيعمل على تشكيل شلالات صناعية تسمح بتوليد طاقة كهربائية مقدارها ٦٠٠ ميغاواط سنويا ، وهذا بدوره سيوفر على اسرائيل حوالي مليار دولار سنويا نتيجة استغنائه عن شراء كميات من النفط ، وثلاثمائة مليون دولار بالاستغناء عن اقامة محطة كهربائية تعمل بالوقود ، وثمانمائة مليون دولار ، هي قيمة الوقود المستخدم في هذه المحطة ، ذلك ان المحطة

الهيدروليكية التي ستقام على القناة لن تكون بحاجة الى وقود .

٢ ـ المشروع سيساعد على انشاء قناة فرعية لجر المياه الى المنطقة الجبلية المطلة على البحر الميت ، حيث توجد كميات كبيرة من الصخور الزيتية التي يمكن استخدامها كبديل للنفط .

٣ ـ يمكن اقامة محطة نووية في النقب ، الى جانب مفاعل « ديمونا » النووي الحالي ، وكذلك اقامة محطات كهربائية تستخدم في حالات الطوارىء .

٤ ـ ستدر المحطة الكهربائية ارباحا مالية تصل الى مليار دولار سنويا على الاقل .

٥ ـ سيؤدي المشروع الى تطور زراعي كبير نتيجة استصلاح اراض واسعة في النقب وتوفير المياه اللازمة لها .

٦ ـ يمكن اقامة منشآت سياحية تساهم في زيادة الدخل العام للكيان الصهيوني .

٧ ـ سيساعد في توفير الكهرباء الرخيصة .

٨ ـ سيؤثر كل هذا على زيادة المستوطنات اليهودية لاحتواء الشباب اليهودي المهاجر الى فلسطين المحتلة ويزيد عددها .

النتائج العسكرية

الخبراء الاسرائيليون يرون ان تنفيذ هذا المشروع يحقق لاسرائيل اهدافا عسكرية كبيرة تشير الى مطامعهم التوسعية ، اهمها :

١ ـ اقامة موانع طبيعية يصعب عبورها من الناحية العسكرية « لان منسوب المياه في نهر الاردن سيرتفع » .. كما ستتشكل بحيرات تزيد العبور صعوبة .

٢ ـ حتى في حال نجاح العبور ، ستكون القوات المقتحمة مضطرة الى ان تسلك الطرق التي يريدها العدو لها .

٣ ـ ايضا وفي حال حصول ذلك فان عمليات العبور ستحتاج الى امكانات « تجسير » عبور ، ومعدات ، وآليات ثقيلة ، وهذه بدورها تحتاج لكي تنجح الى سيطرة جوية متفوقة بنسبة كبيرة .

٤ ـ سيتحول المشروع الى سلاح خطر في حالة الحرب باغراق الاردن بالمزيد من مياه البحر المتوسط التي يسهل تدفقها حيثما تشاء اجهزة الكيان الصهيوني .

٥ ـ المحطات النووية التي سيتيحها المشروع ستكون مصدر قوة جديدة لاسرائيل .

٦ ـ ليس مستحيلا كما تؤكد الدراسات والتحليلات العسكرية والسياسية ان تعمد اسرائيل مستقبلا الى تطوير هذه القناة الى ممر مائي دولي يضاهي في اهميته قناة السويس ، ويكون في الوقت نفسه مانعا مائيا جيدا في مستوى مناعة قناة السويس ، وفي هذه الحالة فان قناة السويس ستفقد أهميتها الدولية سياسيا واقتصاديا وعسكريا وجغرافيا « علما ان هذا الممر كما اشرنا كان مشروعا استعماريا بريطانيا عام ١٨٥٠ ليكون طريقا الى الهند » .. وستصبح اسرائيل على المدى البعيد محاطة بالمياه من الغرب والشرق والجنوب ، ومن الشمال حيث تمتد اطماعها للوصول الى نهر الليطاني في الجنوب اللبناني .

النتائج السياسية :

لا شك ان مجمل النتائج التي سبق واشرنا اليها ذات اثر سياسي بالاضافة الى آثارها الأخرى ، لكن هناك نتائج سياسية مباشرة ستؤثر بشكل سلبي على وطننا العربي ، مستهدفة وجودنا كأمة ، واهم هذه النتائج :

١ ـ يعتبر المشروع تحديا جديدا للعرب ، وسيضيف المشروع اسبابا اخرى لتدعيم الوجود الاسرائيلي ، الى الحد الذي يصبح معه الاعتراف بهذا الوجود امرا ضروريا لا مناص منه .

٢ ـ المشروع يرتبط بسياسة الاستيطان ، وسيساعد على زيادة المستعمرات في الجزأين الاوسط والجنوبي من فلسطين المحتلة ، وبالتالي فان معدلات الهجرة اليهودية ستزيد ، وسيكون المجال رحبا لاستقبال المهاجرين اليهود الجدد .

٣ ـ بالاضافة الى ان المشروع يعتبر خرقا فاضحا للقانون الدولي ، نتيجة المساس بالبحار الدولية ، وبعمل وحيد الجانب ، وضمن اراضي الغير ، فان هذا المشروع يهدف الى تثبيت الوجود الاسرائيلي في فلسطين المحتلة ، عن طريق الوجود العسكري الأمني ، والصناعي ، في قطاع غزة ، بهدف ضم هذا القطاع نهائيا الى الكيان الصهيوني .

٤ ـ للمشروع آثار مدمرة للمناطق المحتلة « الضفة الغربية وقطاع غزة » ، ويتضح ذلك من محاولة اسرائيل التغلغل في المنطقة ، والهيمنة عليها اقتصاديا من خلال ما يسمى بالتعاون الاقليمي الذي تسعى اسرائيل لاقامته على شكل خطوة اولى في منطقة البحر الميت ووادي عربة ، وخليج العقبة .

٥ - المشروع سيوفر لاسرائيل ذرائع جديدة للاحتفاظ بقطاع غزة ، والضفة الغربية . من خلال خلق واقع جديد ، فالقناة ستمر في قطاع غزة ، ومحطة الضخ الرئيسية ستكون في القطاع ذاته .

٦ - سيحقق التطور الصناعي امبريالية الكيان الصهيوني ، وبالتالي ستصبح اسرائيل الدولة الامبريالية الجديدة مستقلة نسبيا ضمن دول المعسكر الامبريالي .

ذلك كله يشكل جزءا يسيرا من النتائج المتوقعة لذلك المشروع ذي المرامي الاقتصادية ، والاستيطانية ، والعسكرية ، والأمنية ، والمرامي السياسية الصهيونية . . .

انه بإيجاز مشروع عدواني آخر على امتنا العربية يستهدف ضربها باغتصاب الارض ، وتشريد الشعب ، والسيطرة على مصادر المياه العربية المحيطة بفلسطين المحتلة . .

ومن المؤلم - حقا - الا يتحسس بعض المسئولين العرب ، أو بالاحرى غالبيتهم اخطار هذا المشروع وابعاده ، ولم يترفعوا فوق التناقضات الثانوية لدرء الخطر الاكبر الذي يشكله الوجود الاستيطاني الصهيوني الذي يهدد في الصميم المستقبل العربي من المحيط الى الخليج ، ان لم يكن بالاحتلال المباشر وتشريد الشعب ، فباستلاب الارادة العربية ، وتحقير الكرامة العربية ، والسيطرة الاقتصادية وغيرها . .

ان الخطر - وكما اشرنا في البداية - يتهدد الأمة العربية ، والمطلوب اثارة الموضوع على اعلى المستويات والمحافل الدولية ، على ان يرافق هذا حملة اعلامية واسعة ، لفضح المشروع .

ان املهم في استثمار مياه نهر النيل لا حدود له . وهاهم وصلوا الى نهر الاردن ويعملون لوصل البحر المتوسط بالميت ، ولا تخفى اطماعهم في الوصول الى الليطاني في جنوب لبنان ، كل ذلك لتحقيق المشروع الصهيوني المتعلق « بتوفير المياه » الذي عملت الحكومات الصهيونية المتعاقبة على تنفيذه ، من اجل تثبيت دعائم الهيمنة الاسرائيلية ـ الصهيونية ، بتوفير مقومات الحياة والقوة لها ، وهذه السياسة الاقتصادية المائية لا تقل خطرا عدوانيا مباشرا في حال تنفيذها عن السياسة العسكرية العدوانية التوسعية نفسها . ■■

دمشق - سمير صارم

أقوال

- ■ مفتاح البطن لقمة ومفتاح الشر كلمة .
- ■ كلام الملوك ملوك الكلام .
- ■ كل سر جاوز الاثنين شاع .
- ■ لكل مقام مقال ولكل دولة رجال .
- ■ من يرصد الريح لا يزرع ومن يراقب السحب لا يحصد .
- ■ ما أضيق العيش لولا فسحة الامل .
- ■ من الصغائر تعرف الكبائر . .
- ■ لا تكن رطبا فتعصر ولا يابسا فتكسر .

أقوال معاصره



■ لم يبلغنا أحد أن لفرنسا دورا في لبنان ، واذا كان لها هذا الدور فيجب أن يوافق عليه العرب .

« الرئيس السوري حافظ الأسد »

■ في أوروبا الغنية المتقدمة ثلاثون مليون فقير لايجدون قوت يومهم ، وأكبر نسبة للبطالة والفقر في بريطانيا !

« احصاء رسمي »



■ أصحاب الشعارات هم أسياد الشارع العربي .

« الدكتور عزيز صدقي »
رئيس وزراء مصر الأسبق



■ الموقف الذي استحق عليه « كليف جيمس » جائزة أحسن ناقد هو كشف الحساب المليء بالأخطاء عن المرأة التي حولت بريطانيا الى دولة من الدرجة الثالثة .

« سيمون هوجارت »

■ أنا أعرف تماما طريقي . ان هيبة « الامبراطورية » في الميزان !

« مارجريت تاتشر »



■ بدأت فرعونيا ثم تأكد لي أن التراث الفرعوني لا يعيش في ناس مصر .

« الشاعر أمل دنقل »

■ العقل العربي في اجازة ، وليس هناك من طريقة لمخاطبته الا بالانقضاض عليه وتفجيره .

« الشاعر نزار قباني »



■ أنا لاأنتظر الموت . أنا أنتظر معجزة تعيدني الى الحياة !

« انجريد بيرجمان »

■ انني استعد لنشر مذكراتي ، وعندما أنتهي منها سترتفع أصوات كثيرة : كفى عن النشر ، فكفي مالقينا من زوجك !

« كلير بوث لوس »
أرملة رئيس تحرير تايم السابق

نشرت العربي في عدد ابريل الماضي حول طه حسين للدكتور عبد العزيز المقالح الاديب والشاعر ومدير مركز الدراسات اليمنية في صنعاء ، ذكر فيه الاستاذ محمود شاكر ، منتقدا موقفه ، الامر الذى دفع الاستاذ «شاكر» الى كتابة هذا التعقيب ، بقلمه ـ وربما بسرطه ـ الذى لا يستغربه قراء باحثنا الجليل ـ ونحن ننشر نص التعقيب ، عملا بحرية الحوار والرد . والجدل حول طه حسين ـ ككل الذين يتركون آثارا عميقة في حياة مواطنيهم ـ لن ينتهي .

فساد حياتنا الأدبية بين السخف والخطأ والتضليل

بقلم : محمود محمد شاكر

شيء مخجل ، شيء مخجل جدا ، ان يكون اول ما اكتبه لمجلة « العربي » ، متعلقا بكلام نشر بها ، وان يكون هذا الكلام مما لا يحسن السكوت عنه ، لا لأنه يتعلق بي ، بل لأنه يعطى قارىء هذه المجلة المتزنة الواسعة الانتشار ، معلومات اقل ما يقال في شأنها انها خطأ وانها مضللة . وقارىء مجلة العربي كما اعلم ـ يثق ثقة مطلقة بما تمده به من معارف ومعلومات لانه كان قد تعود ذلك منها منذ سنين . فانا اخشى ان يكون كلامى هذا ، مما يزعزع ثقة قارئها بها ، فلذلك احب ان اقدم بين يدى كلامى ، عذر المجلة في نشر مثل هذه الأخطاء .

فهذه المجلة ، كما تحترم قراءها ، تحترم ايضا كتابها ، وتحسن الظن بهم ، وان هؤلاء الكتاب لايقدمون اليها الا خلاصة صحيحة لعلمهم . وانا على ثقة من ان جهازها لا ينشر كل ما يكتبه اليها الكاتبون من هب ودب ، بل تتحرى ان تنشر ما يكتبه المعروفون المشهود لهم بالامانة والتمحيص ، وعلى رأس هؤلاء ـ بطبيعة الحال ـ حملة شهادة الدكتوراه ، الذين قطعوا مرحلة طويلة في ممارسة علومهم ، وتمرسوا بالدقة والاناة والامانة فيما يبحثون ، وفيما يكتبون . وكاتب هذه المقالة التي نشرتها مجلة العربي ، حامل هذه الدرجة العلمية الرفيعة ، فجهاز المجلة لايستطيع ان يفترض الشك فيما يكتب ، بل ان التجربة ، تدلهم على ان حملة هذه الدرجة العلمية امناء فيما كتبوا قديما ، وفيما يكتبون لها اليوم ، فأجازوا المقالة وهم

على ثقة من ان كاتبها لم يخط حرفا مما كتب ، الا بعد ان مر ما كتبه بمرحلة التمحيص والأمانة والاعداد السليم ، كما عودهم بقية الاساتذة الكتاب الذين ينشرون فيها ما يكتبون . . ولكن لكل جواد كبوة . فهذا عذر مقبول ان شاء الله .

كلام منقول بنصه

كتب الدكتور عبد العزيز المقالح ، مقالا في عدد شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ (ابريل سنة ١٩٨٢) ، بعنوان « دفاع عن العقل والضمير العربيين . طه حسين ، والشك على الطريقة الازهرية » ، وهو يفتتح هذه المقالة ، بانها تحية للدكتور طه في ذكراه الثامنة ، وانها ليست دفاعا عنه ضد الاتهامات الباطلة الكثيرة ، ولادفاعا عن صمت تلاميذه المنتشرين على طول الساحة العربية ازاء هذا الهجوم ، ولكنها محاولة متواضعة للدفاع عن العقل العربي والضمير العربي ، وعن بوادر النهضة الفكرية والثقافية ، وعن ذلك الرجاء الذى كاد يقترب ثم ابتعد ، ويوشك الآن على الانطفاء ! هذا نص مقدمته . وهذا كلام حسن ، ونية أحسن من الكلام . (ص ٥٤ من مجلة العربي) .

ولكنه لم يكد يتجاوز هذه المقدمات حتى قال (ص : ٥٥ من المجلة) ما يأتي :

« ومن بين الاتهامات المبالغ فيها ، والمسئول عنها طه حسين التهمة الثقيلة التالية : (اذا كان هناك تخريب في الثقافة المصرية ، فان المسئول عن هذا التخريب هو طه حسين ، لأن تشككه في الثقافة العربية ، قد احدث نوعا من التفريغ في العقل العربي) » ، فوضع الدكتور المقالح هذا الاتهام بين قوسين ، ومعنى ذلك عند كل قارىء انه كلام منقول بنصه ، او على الاقل تلخيص امين لكلام مكتوب منشور ، قرأه الاستاذ الدكتور ولخصه بأمانة . هذا واضح فيما أظن ، ولا يختلف عليه احد . ثم قال بعقب هذا الكلام المحفوف بالقوسين :

« الذى اطلق دخان هذه التهمة ، استاذ جليل ، وباحث يحترم قراءه ، ويحترمه قراؤه ، وهو الاستاذ محمود محمد شاكر . وهي تهمة تعطى لطه حسين من التأثير السلبي والخطورة السلبية ، اكثر مما تعطيه للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة . وهى تمنح ذلك الشيخ الضرير قدرة خارقة . لم تكن عفاريت الاساطير في القصص القديمة تمتلك بعضا منها ، وفي تقديري ان مثل هذه المبالغات في القاء التهم ،وفي هدم الحسنات والسيئات معا ،هي التي تشكل بحق نوعا من التفريغ في العقل العربي المعاصر ،وتجعل القارىء العربي الذي لم يعد يكتفي بتكوين معارفه الثقافية ،من كتابة ما يكتبه الاستاذ شاكر وأمثاله ، تجعله حائرا متشككا غير قادر على المقارنة بين فكر رافض لايقوم على اساس من البحث والتمحيص ، وبين فكر لايتوقف عن الجدل حول اغلب الافكار المطروحة من قبل العصر ،بين الدعوة الى الغربة الروحية والعقلية ، وبين الاكتفاء بالخواء العقلى والروحي ».

وانا قد نقلت هذا الكلام بنصه ، لأنه كلام لايحتمل التجزئة ، لتناسقه أولا ، ثم لانها عادتي في وضع النصوص بين يدى من يقرأ كلامي ، بلا عبث ، بلا تحريف . عادة يعرفها عنى كل من قرأ ما أكتب.

في الطبعة الجديدة « للمتنبي »

وقبل كل شيء ، فليس من عادتي ايضا ان ارفع الناس فوق منازلهم ، ولا ان اضعهم دون منازلهم ، لا نصا بكلام اكتبه ، ولا استنباطا يمكن ان يستنبطه قارىء لما اكتب ، الا ان يتوهم متوهم اشياء ، فانا بالطبع غير مسئول عن هذا التوهم ، ولا املك اداة تحول بين العقول وبين التوهم . كل ما املك هو قلم اعبر به عن رأى اكتبه ، اكتبه بالفاظ محددة صريحة ، بلا رموز ولا اشارات

ولا مخاتلة . هذا كل ما املك . وهذا كل ما سأفعله هنا الآن ، لأنه غاية قدرتي .

فاذا جاء كاتب ، كالدكتور المقالح هذا يقول اني اتهم الدكتور طه بتهمة تعطيه من التأثير اكثر مما تعطي للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة ، وتمنحه قدرة خارقة لم تكن عفاريت الاساطير تملك بعضا منها فهذا الجاني ، بلا شك عندي ، لم يقرأ لي شيئا قط ، او قرأ ولم يفهم ، او فهم شيئا عن طريق التوهم ، لا عن طريق الاستنباط من لفظي وكلامي . فانا قد عرفت الدكتور طه وقرأت له منذ كنت صغيرا في الرابعة عشرة من عمري سنة ١٩٢٣ م ، الى ان توفي سنة ١٩٧٣ م ، عرفته قارئا وتلميذا له في الجامعة ، ثم رجلا بيني وبينه من المودة ، مع بعد الشقة بيننا والاختلاف ، زمنا اطول من مدة القراءة والتلمذة . فليس اذن بمستساغ ولا معقول ان اخالف عادتي فارفعه فوق منزلته عندي ، ولا ان أضعه دون منزلته في نفسه ، وانسب اليه هذه الخوارق التي ذكرها الدكتور المقالح . لا ادرى كيف توهم الاستاذ الدكتور هذا التوهم ! هذا شيء ! !

اما « التهمة » التي ذكرها ووضعها بين الاقواس ، فهي اشارة الى ما كتبته في مقدمة كتابي « المتنبي » ، الذى كتبته قديما سنة ١٩٣٦ ، فلما اعدت طبعه سنة ١٩٧٧ ، كتبت هذه المقدمة وسميتها « قصة هذا الكتاب ـ لمحة من فساد حياتنا الادبية » ، وتعرضت فيها لما سميته « التفريغ » وهو اللفظ الموجود في التهمة التي بين الاقواس .

وانا مضطر هنا ان اتعرض لبيان ما في هذه المقدمة ، لانها هي التي جلبت علي هذا السيل من الالفاظ التي استعملها الدكتور المقالح ، واعطت قراء مجلة العربي ، معلومات لا أصل لها عندي ، اى فيما كتبت مطبوعا منشورا في كتاب ! !

بدأت هذه المقدمة من ص ٩ ، الى ص ٢٦ ، وفيها قصتي مع الدكتور طه ، وكتاب الشعر الجاهلي ، وانا طالب في الجامعة وتلميذ للدكتور طه ، حتى تركت الجامعة في سنة ١٩٢٨ ووصفت الدكتور طه بالفاظ صريحة بلا عبث ولا مخاتلة ، وليس في هذا القسم ذكر لما سميته « التفريغ » .

ثم قطعت هذا الجزء من المقدمة ، وابتدأت في حديث آخر من ص ٢٧ الى اواخر ص ٣٩ وبدأت هذا الفصل هكذا :

« ومرت الايام والليالي والسنون ، ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، وهي السنة التي كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبي » ، وهمي مصروف اكثره الى قضية الشعر الجاهلي ، والى طلب اليقين فيها لنفسي ، لا معارضة لاحد من الناس (واعني الدكتور طه بالطبع) . ومشت بي هذه القضية في رحلة طويلة شاقة ، ودخلت بي في دروب وعرة شائكة ، وكلما أوغلت ، انكشفت عني غشاوة من العمى ، واحسست اني انا والجيل الذى انا منه ، وهو جيل المدارس المصرية ، قد تم تفريغنا تفريغا يكاد يكون كاملا من ماضينا كله ، من علومه وآدابه وفنونه . وتم ايضا هتك العلائق بيننا وبينه ، وصار ما كان في الماضي متكاملا متماسكا ، مزقا متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولانه غير ممكن ان يظل الفارغ فارغا ابدا ، فقد تم ملء الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون ، لاتمت الى الماضي بسبب ، وانا لنستقبله استقبال الظامىء المحترق قطرات من الماء النمير المثلج . »

وفي خلال هذه الاعوام تبين لي امر كان في غاية الوضوح عندي ، وهو قصة طويلة قد تعرضت لأطراف منها في بعض ما كتبت ، ولكني اذكرها هنا على وجه الاختصار (مقدمة المتنبي ص : ٢٧)

« الجيل المفرغ »

ثم انطلقت بعد ذلك أقص القصة منذ عهد محمد علي ، وحفيده اسمعيل ، حتى جاء الاحتلال الانجليزى في سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الانجليز سيطرة مباشرة على كل شيء ، وعلى التعليم خاصة الى ان جاء دنلوب (في ١٧ مارس ١٨٩٧) ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذى لا نزال نسير عليه مع الاسف الى يومنا هذا (المقدمة ص ٢٨) ، ثم بينت وسائل التدمير التي ارتكبها الاستعمار في حياتنا ، وما ادى اليه من التدهور المستمر المتتابع ، حتى قلت : « وكذلك كان مقدرا لجيلنا ـ نحن جيل المدارس المفرغ ـ ان يتلقى صدمة التدهور الاولى ، لانه نشأ في دوامة دائرة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي (المقدمة ص ٢٦) . ثم ختمت هذا الفصل بقولي :

« وفي ظل هذا كله ـ كما قلت ـ انتعشت الحياة الأدبية انتعاشا غير واضح المعالم . . . واقول غير واضح المعالم ، لان الاساتذة الكبار الذين انتعشت على ايديهم هذه الحركة (ومنهم بالطبع الدكتور طه وغيره) ، كانت علائقهم بثقافة أمتهم غير ممزقة كل التمزق ، اما نحن ـ جيل

المدارس المفرغ - فقد تمزقت علاقتنا بها كل التمزيق ، فصار ما يكتبه الاساتذة - فيما له علاقة بهذه الثقافة - باطلا او كالباطل . فهو لا يقع منا ومن انفسنا بالموقع الذى ينبغي له من الفهم ومن الاثارة ، ومن الترغيب في متابعته ، ومن اعادة النظر في ارتباطنا بهذه الثقافة . بل كان عند كثير من اهل جيلنا غير مفهوم البتة ، فهو يمر عليه مرورا سريعا لا اثر له ، اما الذى اخذه جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض الى المعنى المبهم الذى تضمنته كلمة « التجديد » ، والى هذا الرفض الخفي للثقافة التى كان ينبغي ان ننتمي اليها ، والى الانحياز الكامل الى قضايا الفكر والفلسفة والادب والتاريخ التي أولع الاساتذة بتلخيصها لنا ، لكي نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه في التفكير ، كما صوروا لنا ذلك في خلال ما يكتبونه !! وغاب عن الاساتذة الكبار ان الزمن الدوار الذى يشيب الصغير ويفني الكبير ، هو الذى سيتولى الفصل بينهم وبين ابنائهم الصغار الذين كانوا يتعلمون اليوم على ايديهم . والقصة تطول ، ومع ذلك فليس هذا مكان قصها على وجهها ، اذا انا اردت ان اقيد ما كان ، كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٦ ، بل الى ما بعد ذلك الى يومنا هذا » . (مقدمة المتنبي ص ٣٧ ، ٣٨)

فهذا - كما ترى - هو الفصل الذى جاء فيه ذكر « التفريغ » ، وهو شهادتي انا على جيلي الذى انا منه ، وهو جيل المدارس الذى فرغ من ثقافة أمته ، وتقطعت علائقه بينه وبين حضارتها على وجه بشع لاتزال آثاره هي الغالبة الى يومنا هذا ، وكما ترى وكما تستطيع ان تتحقق ليس فيها ذكر للدكتور طه على الوجه الذى ذكره المقالح ، ومن أحب من القراء ان يرجع اليه ، فليرجع اليه ، اقول ذلك مخافة ان يفقد الثقة بما اقول ، كما سيفقد الثقة باقوال الدكتور المقالح .

وبعد ان فرغت قلت مباشرة : « ومع ذلك ، فانا احب ان اقرر هنا حقيقة اخرى ، تعين على توضيح هذه الصورة التي صورتها ، وكنت انا احد شهودها سنة ١٩٢٨ - ١٩٣٦ ، فصورتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين - وهو احد الاساتذة الكبار - سوف يشهد في سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، اى من موقع الاستاذية ، من وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو الى الادلاء بهذه الشهادة » (المقدمة ص : ٣٩) .

كتاب الشعر الجاهلي

ثم في (صفحة ٤٠ من المقدمة) عدت فتعرضت لكتاب الشعر الجاهلي ، واثره على جيلنا نحن ، جيل المفرغين ، وما القاه علينا وقاله الدكتور طه ، وزعم انه « منهج الشك » فقال فيما قال عن هذا المذهب بلفظه من كتاب الشعر الجاهلي « ان هذا المذهب سوف يقلب العلم القديم رأسا على عقب ، وأخشى - ان لم يمح اكثره - ان يمحو منه شيئا كثيرا » وبينت ما قاله بعد ذلك مما يدل على الاستخفاف بكل شيء ، وقيدته بنصه من كتاب الشعر الجاهلي . ثم شهدت بعد ذلك شهادتي على الجيل الذى انا منه فقلت :

« والاستخفاف الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروف ، اما الذى كان يقوله في احاديثه بين طلبته ، فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حده حتى يبلغ بنا الى الاستهزاء المحض باقوال السلف ، واما الذى كان يدور بين طلبته الصغار « المفرغين » من ثقافتهم - كما قلت - فكان شيئا لا يكاد يوصف ، لانه كان استخفاف جاهل واستهزاء خاو ، يردد ما يقوله الدكتور ، لا يعصمه ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مر الايام ، كانت العاقبة وخيمة جدا » (المقدمة ص : ٤٠) . ثم ذكرت كيف كانت العاقبة ، حين كبر هؤلاء الصغار ، وحاولوا ان يزاحموا الاساتذة الكبار (كالدكتور طه) في موقع الاستاذية فقلت : « ولكنهم لم يسيروا سيرة الاساتذة في معالجة القديم . بل كان الغالب على اكثرهم هو رفض القديم والاعراض عنه ، والانتقاص له والاستخفاف به . وعندئذ أحس الدكتور طه بالخطر ، وهو الذى اضاء لهم الطريق بالضجة التي احدثها كتابه ، في الشعر الجاهلي » (المقدمة : ٤١) . ثم قلت بعد ذلك مباشرة .

« كان احساس الدكتور طه بهذا الخطر الذى تولى هو كبر احداثه ، ظاهرا جدا ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ بعد تسع سنوات من صدور كتابه في الشعر الجاهلي - بدأ ينشر في جريدة الجهاد مقالات ، . . كان محصلها رجوعا صريحا عن ادعائه الاول في سنة ١٩٢٦ ، الذى اعلنه في كتابه ، وهو قوله : ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ، ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الاسلام ، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم واصداءهم ، اكثر مما تمثل حياة الجاهليين . واكاد لا اشك في ان ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا ، لايمثل شيئا ولايدل على شيء » .

ثم عقبت على هذا الذى قلته بما يأتي : « قد بينت في بعض مقالاتي ان الدكتور طه قد رجع عن اقواله التي قالها في الشعر الجاهلي ، بهذا الذى كتبه في سنة ١٩٣٥ ، وببعض ما صارحني به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الاقوال ، ولكنه لم يكتب شيئا صريحا

يتبرأ به مما قال او كتب ، وهكذا كانت عادة الاساتذة الكبار ! يخطئون في العلن ويتبرءون من خطئهم في السر !! »

ثم ذكرت ما قاله الدكتور طه في مفتتح مقالاته التي كتبها ونشرها بعد ذلك في حديث الاربعاء ، في الجزء الاول منه ، عن شعر الجاهلية ، وذكر السبب الذي دعاه الى كتابة ما كتب ، وهو ما صاغه في محاورة بينه وبين صاحب له من جيلنا نحن ، يرفض الشعر القديم كله ، وصور احساس هذا الجيل تصويرا كاملا ، ثم قال : « وقد تحدث الي المتحدثون بان امثال صاحبي هذا ، قد اخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الايام » ، فقلت انا تعقيبا على ذلك : « وصدق ظن الدكتور طه ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه » (مقدمة المتنبي ص ٤١ ، ٤٢) .

ثم سقت شهادة الدكتور طه على جيلنا المفرغ ، وما كان من امره وامرهم ، منقولة من مقالاته في سنة ١٩٣٥ ، والمنشورة في حديث الاربعاء (في ص ٤٣ ـ ٤٤) ثم قلت : « وليس من همي ان افسر هذه الشهادة ، ولا ان اوضح مدى صدقها حيث صدق توقع الدكتور طه في تكاثر عدد من وصفهم من « المثقفين » في شهادته .. ولكن الذي يجب على ان اقوله ان شهادة الدكتور على اختصارها ، انما هي وجه آخر لشهادتي التي كتبتها هنا ، قالها هو من موقع الاستاذية وقلتها انا من موقعي بين افراد جيل الذي انتمى اليه ، وهو جيل المدارس المفرغ من كل اصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذي تلقى صدمة التدهور الاولى ، حيث نشأ في دوامة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي ، الذي اشرت اليه آنفا (مقدمة المتنبي ص : ٤٥ ، ٤٦) .

هل يبقى الاتهام ؟

يستطيع الآن قارىء مجلة العربي ان يطمئن ، لاني وضعت بين يديه قضيتي انا صغيرا ، وقضية جيل الذي سميته « الجيل المفرغ » ، وان امر « تفريغ » هذا الجيل الذي انا منه من ثقافة أمته ومن اسس حضارته التي ينتمي اليها ، منسوب كله الى الاستعمار وقوى التخريب المختلفة التي سيطرت عليه ، وعلى مجتمعه ، وعلى مدارسه ، ونشأته مفرغا غير قادر على مجرد الفهم لثقافة أمته العظيمة التي صار هو خلفا ، لايذيق الصبر على ما تركه له السلف من آبائه ، لابل لعله يرفضه بتظاهر وتعالم وسخف ايضا . اليس هذا واضحا جدا فيما اختصرته لك بالفاظه من مقدمتي لكتابي عن « المتنبي » ، والتي جعلتها اساسا لقصة هذا الكتاب الذي نشرته في يناير سنة ١٩٣٦ ، وجعلتها ايضا صورة لفساد حياتنا الادبية ؟ اليس واضحا ؟

وهذا الجيل « المفرغ » ، هو الجيل الذي تلقاه الدكتور طه في الجامعة منذ سنة ١٩٢٥ وانا واحد منه ، فشهدت شهادتي عليه ثم قلت ان الدكتور ـ حين تلقى هذا الجيل المفرغ والاجيال التي تليه من المفرغين ـ أخطأ خطأ شنيعا ، حين قال له ما قال في قضية الشعر الجاهلي ، وبالصورة التي قالها مثبتة في كتابه الشعر الجاهلي ، وفي كتابه المعدل الادب الجاهلي ، ثم تهوره (وأنا آسف لهذا التعبير ، ولكني لااجد غيره مناسبا) ، ثم تهوره حين طالبهم باتباع ما زعمه مذهبا وأنه هو الذي سوف يقلب العلم القديم رأسا على عقب ، « وأخشى ـ ان لم يمح اكثره ـ ان يمحو منه شيئا كثيرا » ، كما قال في كتابه في الشعر الجاهلي ص : ٣ .

ثم قلت بوضوح ان الدكتور طه قد تبين هذا الخطر الذي تولى كبره ، بعد تسع سنوات لا اكثر ، فكتب او املى ، شهادة على هذا « الجيل المفرغ » ، بعد ان فارق الجامعة ، وبدأ يسامى الاساتذة الكبار ، وفيهم الدكتور نفسه ، ويجابه برفض كل شيء . كتب الدكتور طه هذه الشهادة في سنة ١٩٣٥ على هذه الاجيال المفرغة ، فكانت شهادة من استاذ كبير ، شهدها من موقع الاستاذية ، وكانت فحواها مطابقة لشهادة واحد من هذه الاجيال التي تلقت « التفريغ » في نظام دنلوب ومدارسه ، شهدها من موقعه في هذا الجيل « المفرغ » .

فهل في شيء من هذا ما يدل على ان وصفت الدكتور طه واتهمته ، بانه هو الذي فعل ذلك « التفريغ » ؟ واذا كان الامر الآن واضحا لقارىء مجلة العربي ، فماذا يقول هذا الكاتب الذي يحمل شهادة الدكتوراه ، فيقول عني اني اول من اطلق اتهام الدكتور طه بتهمة وضعها بين قوسين ، هي : (اذا كان هناك تخريب في الثقافة المصرية ، فان المسئول عن هذا التخريب هو طه حسين ، لانه بتشككه في الثقافة العربية قد احدث نوعا من التفريغ في العقل العربي) ؟

وهذا الكاتب ـ كما قلت ـ بين ثلاثة امور : اما انه لم يقرأ لي شيئا قط ، واما انه قرأ ولم يفهم ، واما أنه توهم شيئا عن طريق التوهم ، لا عن طريق الاستنباط من لفظى وكلامى . ولا احب ان ادع قارىء مجلة العربي مترددا في اختيار خصلة من هذه الخصال الثلاث ، فلذلك سوف آتيه بالدليل القاطع على انه لم يقرأ ما كتبت عن الدكتور طه ، وانما هي الفاظ تلقاها من مخاليط جالس على مقهى من مقاهي الثرثرة . وذلك انه قال بعد ما نسبه الي مباشرة ما يأتي :

« قد كان طه حسين زميلا أزهريا للاستاذ شاكر ، سبقه الى ذلك المعهد العتيد ، وتعلم على مشايخه الأجلاء اساليب الحوار ، وطرائق الرفض والقبول ، وكانت ظروفه الاجتماعية ، وتكوينه النفسي ، يهيئانه لغير ما تهيأ له الاستاذ شاكر »

فالذى يقول مثل هذا الخلط ، لا يمكن ان يكون قرأ ما كتبت ولم يفهمه ، ولا ان يكون فهم شيئا عن طريق التوهم ولا عن طريق الاستنباط ، لاني قصصت في خلال كلامى عن « التفريغ » جزءا من تاريخ حياتي ، منذ كنت طالبا صغيرا في مدارس دنلوب ، ثم في القسم العلمي حتى نلت شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) ، ثم دخلت الجامعة ، ثم فارقتها ، وفارقت أرض مصر مدة سنتين ، ثم عدت لأسير سيرتي التي انا فيها من يومئذ الى الآن . فهل هذا هو « الأزهر » ؟ ولا استطيع ان اتوهم ان حاملا للدكتوراه لايستطيع ان يفرق بين « مدارس دنلوب » التي فرغتني وفرغت جيلي ، وبين لفظ « الأزهر » .

هل يليق بعد هذا ان يدلى هذا الحامل للدكتوراه ، بمعلومات عن حي من الاحياء ، تحمل هذا القدر من العبث وقلة الاحتفال بالقراء . هل يمكن ان يكون هذا الحامل للدكتوراه قد قرأ شيئا وفهمه ؟ بلا ريب ، لا ، فالذى في كتابي الذى يوهم القارىء انه قرأه ، وفي غيره من كتبي ، قصصت ما أصابني من « المدارس » التي سيطر عليها الاستعمار وشيطان « دنلوب » فكيف يأتي هذا الآتي ، فيجعلني زميلا لاستاذى الدكتور طه في « الأزهر » .

وانا اختم هذا التصحيح ، بكلام ليس من كلامي ، بل من كلام هذا الاستاذ ، قدمه بين يدى الفقرة التي نقلها عند اول المقالة (العربي ص . ٥٥) يقول : « كما انه ليس من حق احد بل لا يليق بأحد ـ ان يختلق على مخالفيه الرأى من الاقوال والافعال ، ما لم يقولوا ، ولم يفعلوا ، كما يحدث وحدث في الكتابات التي تناولت آثار طه حسين وجهوده الفكرية والثقافية ، فقد وصل الزيف والتضليل في بعض تلك الكتابات الى درجة لاتسيء الى طه حسين وحده فحسب ، وانما تسيء كذلك الى الفكر العربي والضمير » ، هكذا قال ثم عقب بذكرى وذكر التهمة الثقيلة التي بينت لقارىء مجلة العربي حقيقتها فيما سلف ، واني لم اختلق شيئا على الدكتور طه ، ولا نسبت اليه ما نسبه الي هذا الحامل للقلم وللدكتوراه .

تهمة أكبر

ومع ذلك ، فانا لا أنفي عن نفسي اني اتهمت الدكتور طه حسين لا بتلك التهمة السخيفة بل بتهمة أشنع وأبشع من التهمة التي اختلقها هذا الكاتب ، فان مقدمة كتابي « المتنبي » (من ص ٣ ، الى ص ١٦٤) مبنية على شيئين : على قصة الكتاب كيف كتبته ، وعلى ظواهر فساد حياتنا الادبية ، وأكبر ظاهرة تعرضت لذكرها ، هي قصة « السطو » على افكار الناس واقوالهم ، وقلت انها سنة سنها الاساتذة الكبار ، وان هذا « السطو » أتى على ايديهم في صورتين .

الاولى : سنة « تلخيص » افكار عالم آخر « أعنى العالم الادبي » ويقضي الاستاذ منهم عمره كله في هذا « التلخيص » ، دون ان يشعر انه محفوف بالاخطار ، ودون ان يستنكف ان ينسبه الى نفسه نسبة تجعله عند الناس (اى عند العرب) كاتبا ومؤلفا وصاحب فكر ، وهذا ضرب من التدليس كريه (مقدمة المتنبي ص : ١٦٣) ، وهذه خصلة شنيعة .

والاخرى : سنة « السطو » المجرد ، حين يعمد الساطي الى ما سطا عليه فيأخذه ويمزقه ، ثم يغرقه ويغرقه في ثرثرة طاغية ، ليخفي معالم ما سطا عليه ، وليصبح عند الناس صاحب فكر ومذهب يعرف به ، وينسب اليه كل فضله (مقدمة المتنبي ص : ١٦٣) وهذه خصلة اشنع من الاولى .

ثم قلت : « انتهت اليوم (سنة ١٩٧٧) الى ما اشفقت منه قديما من فعل الاساتذة الكبار ، لقد ذهبوا بعد ان تركوا ، من حيث ارادوا او لم يريدوا ، حياة ادبية ثقافية قد فسدت فسادا وبيلا على مدى نصف قرن ، وتجددت الاساليب وتنوعت ، وصار « السطو » على اعمال الناس أمرا مألوفا غير مستنكر ، يمشي في الناس طليقا عليه طيلسان « البحث العلمي » و« عالمية الثقافة » ، « والثقافة الانسانية » ، وان لم يكن محصوله الا ترديداء لقضايا غربية ، صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم في كل قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، قل ذلك في الادب والفلسفة والتاريخ والفن او ما شئت ، فانه صادق صدقا لا يتخلف ، فالاديب « عندنا » مصور بغير قلمه والفيلسوف « عندنا » مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ « عندنا » ، ناقد للاحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان « عندنا » نابض قلبه بنبض اجنبي عن تراث فنه (مقدمة المتنبي ص ١٦٤) .

وهذه الخلاصة التي ختمت بها مقدمتي ومنذ أولها ـ نتيجة لاشياء ذكرتها ، وأطلت في ذكرها واسبابها ونتائجها ، وعلى رأسها قصتي انا مع الدكتور طه حسين في الجامعة ، حين سمعت باذني من فم الدكتور طه ، كلاما كنت قد قرأته بالانجليزية في احدى المجلات ، كتبه مستشرق غريب الشكل والعقل والاطوار يقال له « مرجليوث » فاذا الذى اسمعه ، هو نفس ما قرأته قبل ان

ان اسمع ما سمعت ، ولكني سمعته بلفظ عربي مستجاد ، وبالقاء استاذ بارع تصغي اليه فيأسرك لفظه والقاؤه ، وهو الدكتور طه حسين استاذ الادب العربي عند اول دخولي الجامعة ، ولكن فتنة هذا الاستاذ الكبير ، لم تمنعني يومئذ (سنة ١٩٢٦) - وانا طالب صغير - ان اقول لزملائي واساتذتي وللناس : ان هذا « سطو » غير لائق على مقالة المستشرق الاعجمي ، وان الجامعة مكان للبحث والمناقشة ، لا مكان للسطو على اعمال الناس ، واشتد الأمر علي وعلى من يحيط بي ، حتى تدخل في ذلك ، وفي مناقشتي بعض الأساتذة الأجانب كالاستاذ نلينو ، والأستاذ جويدي من المستشرقين ، وكنت أصارحهما بالسطو ، وكانا يعرفان ذلك ، ولكنهما يداوران ، وطال الصراع غير المتكافيء بيني وبين الدكتور طه زمانا ، الى ان جاء اليوم الذى عزمت فيه على ان افارق مصر كلها ، لا الجامعة وحدها ، غير مبال باتمام دراستي الجامعية ، طالبا للعزلة ، حتى أستبين لنفسي وجه الحق في قضية الشعر الجاهلي بعد ان صارت عندي قضية متشعبة كل التشعب « مقدمة المتنبي ص ٢٣ ، ٢٤ » .

ليس شكا ازهريا

وقد قصصت القصة كلها واضحة في مقالاتي في مجلة الثقافة المصرية حين تفضل الدكتور عبد العزيز الدسوقي فكتب عن كتابي « المتنبي » في طبعته الثانية سنة ١٩٧٧ ، وقلت فيها ما قلت ، من اتهامي للدكتور طه بالسطو على عمل من الاعمال ، واستنكرت ان يكون ذلك في « جامعة » ، وان الجامعة ، اذا قبلت هذا السطو ، وسكتت عنه ، فانها تفقد هيبتها ، وطالبت اساتذتي الذين ارادوا ان يحولوا بيني وبين ترك الجامعة ، في قصة طويلة ان ينصحوا الدكتور طه ان يصرح بنسبة هذا الذى قاله الى صاحبه مرجليوث ، فاذا فعل عدت الى الجامعة ونقضت عزمي على السفر ، هذه واحدة .

وبهذه الواحدة يتبين ان الذى قاله المقالح ، من ان الدكتور طه شك شكا ازهريا !! كلام لا اصل له ، فهو ليس شكا ازهريا ولا ديكارتيا ، ولا اسطوريا (!!) بل الذى في كتاب (في الشعر الجاهلي) انما هو « سطو » لا غير ، وكان الله يحب المحسنين ، ومن الدليل على ذلك ايضا ان الدكتور طه نفسه ، لم يؤلف بعد ذلك كتابا واحدا يحمل ذرة من هذا « الشك » الذى زعم انه منهج ، ويزعمه له امثال الدكتور المقالح ، وهذه بالطبع غريبة من الغرائب .

اما « الثانية » ، فاني نشرت كتابي عن « المتنبي » اول مرة ، في المقتطف (يناير سنة ١٩٣٦) ، وبعد سنة او اكثر (سنة ١٩٣٧) فأجاني الدكتور طه بكتابه « مع المتنبي » قرأيت وانا أقرؤه ، انه لم يفارق عادته التي اعتادها ، وانه وضعني تحت ابطه وهو يملي كتابه ، فيسألني عن منهجي في كل قضية تخص المتنبي ، فاذا فرغت سار على الدرب ، فرحا ومتفكها ومعاكسا ومستخرجا لغيظي ، الى اخر ما قصصت من القصة ، قصة السطو على كتابي ، وايضا لم يؤلف بعد ذلك كتابا عن شاعر من الشعراء ، غير كتابه « مع المتنبي » يحمل ذرة واحدة من هذا المنهج « الذى يزعم للناس انه هو منهجه في دراسة الشعراء . وهذه بالطبع ايضا غريبة من اغرب الغرائب ؟!

ولكن يومئذ (سنة ١٩٣٧) ، لم اصبر عليه صبري عليه في قضية سطوه على مرجليوث ، بل نشرت مقالات متتابعة في جريدة البلاغ ، مرة في الاسبوع من ٣ فبراير سنة ١٩٣٧ الى مايو سنة ١٩٣٧ واتهمته بالدليل والبرهان على ان عادته في « السطو » لم تزل قائمة في نفسه لا يستطيع ان يفارقها ، وزدت الامر وضوحا في مقدمة كتابي التي كتبتها سنة ١٩٧٧ ، قلت ذلك في حياته ، كما ترى مع وجود تهمة « السطو » بلفظها وبلا كناية ، وسكت الدكتور طه حسين لانه لم يستطع ان ينفي عن نفسه التهمة ، ولا استطاع ذلك يومئذ « تلامذته المنتشرون على طول الساحة العربية ازاء هذا الهجوم الذى يكال لأستاذهم العميد ، كما يقول المقالح (مقالات البلاغ ، منشورة في الجزء الثاني من كتابي المتنبي) .

وقلت في جميع ذلك ان الدكتور طه وسائر الاساتذة الكبار الذين تعودوا « السطو » هم الذين نشروا هذه السنة ، فصارت سنة سيئة متبعة الى يومنا هذا - بلا حياء - في جميع حياتنا الثقافية والادبية والفنية وشرح هذه القضية يطول ، وهي قضية اخرى غير القضية التي يذكرها المقالح ، فلم اتعرض لها بتفصيل ، لانه لم يذكرها في دفاعه عن « الدكتور طه » كما لم اتعرض لما حشيت به مقالته من الإخطاء التي لا تخصني

والآن ، ادع لقاريء مجلة العربي حرية الحكم والتعبير ، فهو حر في اختيار اللفظ الذى يناسبه ، في وصف ما كتبه الأستاذ الفاضل حامل الدكتوراه واشباهه . اما انا فاكتفي بان اقول انه كلام خطأ كله ، وانه كلام مضلل ، واسأل الله العافية من البلاء ، وأستعفي قاريء مجلة العربي ، ليعفو عما جلبته عليه بالاكثار والاملال ، ولكن عذري اني لا أحب العبث بعقول القراء ، فاكثرت واملك لكي أوضح وأصحح ، لا لكي أتباهى وأتبجح . ■■

محمود محمد شاكر

حكام العصر .. تتار أم مماليك ؟

بقلم الدكتور محمد عمارة

ان الفكرة المحورية والدليل الاعظم الذى استند اليه كتاب (الفريضة الغائبة) في الحكم « بكفر » حكام البلاد الاسلامية المعاصرين ، وبوجوب قتالهم ، واستباحة أموالهم ، كغنائم ، هو فتوى شيخ الاسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م)في حكم قتال « التتار » ، الذين كانوا يحكمون مدينة « ماردين » (١) . ولقد قاس الكتاب حكام العصر على هؤلاء « التتار » ، فسوى بينهم ، بل وجعل « حكام العصر » شرا من التتار ، فحكم بكفرهم ، وأوجب قتالهم ! . . .

وفي اعتقادنا اننا هنا بازاء خطأ جوهري في الاستدلال بفتوى ابن تيمية ، ينم عن نهج يحتاج الى المراجعة حتى يستقيم مع النهج العلمي الامين في الاستدلال بالتراث ووقائع التاريخ على احوالنا المعاصرة ومشكلاتنا الراهنة . . وهنا نسأل : هل ، حقا ، حكامنا المعاصرون هم مثل « التتار » الذين كانوا يحكمون « ماردين » ، والذين افتى ابن تيمية بكفرهم ووجوب قتالهم ؟؟ . .

اننا ، ومنذ البدء ، نجيب على هذا السؤال بالنفي . . . وسنستشهد بابن تيمية ذاته ، من خلال ذات فتواه . التي يستند اليها كتاب (الفريضة) - على صدق ما نقول ؟ ! . . . .

لقد عرض ابن تيمية في هذه الفتوى صورة العالم الاسلامي في عصره . . فقال لنا ان :

● المغرب الاقصى قد استولى الافرنج على اكثره . . . والمسلمون فيه لا يجاهدون . . بل ان حكامه يسندون سلطانهم بجنود من الافرنج يعلقون على صدورهم الصلبان ؟ ! . . .

● واليمن مسلموه ضعاف ، عاجزون عن الجهاد ، او مضيعون له ، خاضعون لمن ملك بلادهم واستبد بالسلطان من دونهم . . مرتجفون من تهديد التتار ، حتى لقد ارسلوا لهم بالسمع والطاعة ؟ !

(١) احدى مدن اقليم الجزيرة ، بشمالي العراق . . بتركيا الآن . . .

● وافريقية (تونس) يغلب عليها الأعراب ، الذين هم « شر الخلق » ؟ !

● والحجاز : اكثر اهله خارجون على الشريعة .. قد فشت فيهم البدع والضلالات والوان الفجور . والمؤمنون منهم مستضعفون عاجزون ؟ ! (٢) ..

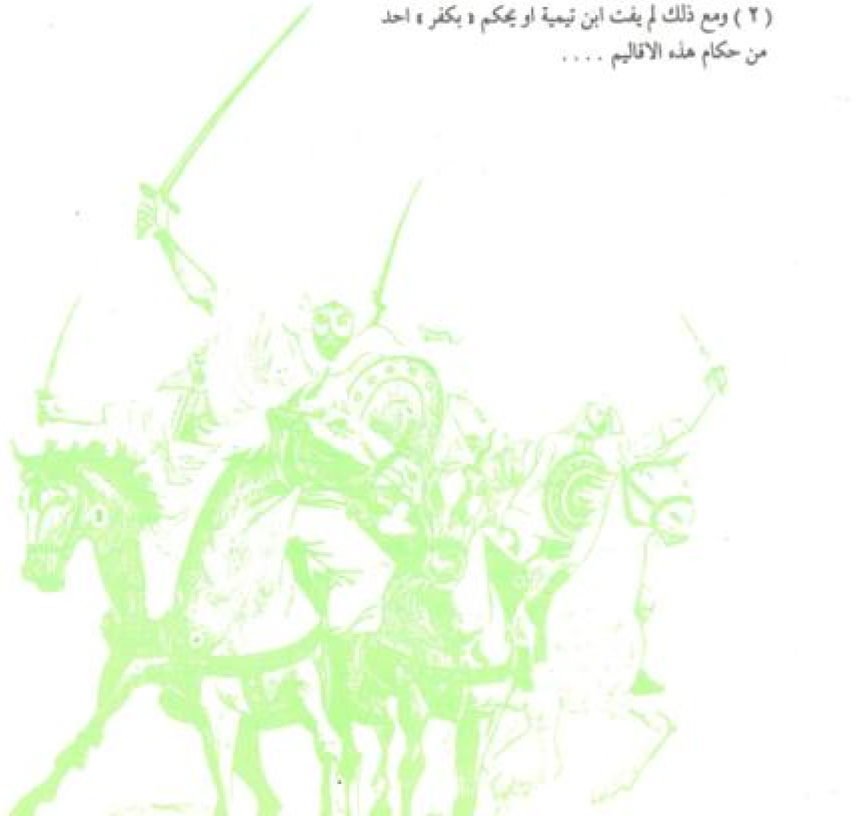
● ومصر والشام : يحكمها المماليك ، وهم يدافعون عن بلادهم ، وعن المجتمع الاكثر علما بالاسلام ، والاكثر قربا من تعاليمه ـ بالقياس الى غيره من مجتمعات المسلمين ...

● والتتار بالمشرق ـ وهم قد نطقوا بالشهادتين ، واعلنوا اسلامهم ، وانتسبوا الى الاسلام ، بعد ان كانوا وثنيين .. وفي رعيتهم كثيرون من المسلمين ، ولكنهم من مذاهب اسلامية يعاديها ابن تيمية من مثل الشيعة . (الرافضة) ـ والجهمية ـ (الجبرية اتباع الجهم بن صفوان (١٢٨ هـ ٧٤٥ م) ـ والاتحاديين ـ (القائلين بالحلول والاتحاد بين الله والمخلوقات) .. الخ .. الخ ..

محاربون للمسلمين

فدولة المماليك ، من بين الدول التي تحكم أقاليم عالم الاسلام يومئذ ، كما يقول ابن تيمية : « اقوم من التتار بدين الاسلام ، علما وعملا ، واعلم بالاسلام منهم ، واتبع له منهم .... » .. ومع ذلك ، فالتتار رغم انتسابهم للاسلام ـ يغزون بلاد الاسلام بالقتال ، ويتحالفون مع اعداء الاسلام ضد البلاد الاسلامية ، ويحترفون الغزو والتدمير ضد المجتمعات الاسلامية .. وهم في غاراتهم التي شنوها ويشنونها على البلاد الاسلامية ، ينقضون عهود الامان .. ويقتلون مئات الالوف .. ويسبون النساء والاطفال والرجال .. ويفجرون بالنساء الحرائر .. وينتهكون حرمة المقدسات .. وينهبون الاموال .. ويدمرون معالم الحضارة . وجمهور عسكرهم لا يصلون ، وليس في معسكراتهم مؤذن ولا امام للصلاة ... ولا يحج منهم احد ، مع تمكنهم واستطاعتهم .. ولا علاقة لغزوهم

(٢) ومع ذلك لم يفت ابن تيمية او يحكم « بكفر » احد من حكام هذه الاقاليم ....



وقتالهم بالاسلام ، بل هما في سبيل الملك ، الذى اختلطت شريعته الوثنية بالنصرانية ... باليهودية ... بالزندقة ... بالاسلام ... فهم يعظمون جنكزخان (٥٦٢ - ٦٢٤ هـ ١١٦٧ - ١٢٢٧ م) اكثر من تعظيمهم للرسول ، عليه الصلاة والسلام ، بل ويعتبرونه ابنا لله ... ويسوون بين الاسلام وغيره من الديانات ، كاليهودية والنصرانية ، ويجعلونها جميعا بمثابة المذاهب داخل الدين الواحد ؟ ..

ومع ذلك كله ... فليتهم قبعوا في بلادهم ... بل يجردون الحملات الحربية على بلاد الاسلام .. ويمارسون في اهلها القتل والسبي والنهب والفجور والدمار .. فهم وان ادعوا الاسلام وانتسبوا اليه - محاربون للمسلمين .. وغزاة لأوطان اسلامية .. يقتلون المسلمين ، وينصرون الاعداء .. ومع ذلك فابن تيمية لا يعتبر دارهم « دار حرب » ، تسرى عليها احكام الكفر ، باطلاق .. وكذلك فهي ليست « دار سلم » تجرى عليها احكام الاسلام ، باطلاق .. وانما هي مختلطة الحكم .. ففيها مسلمون ، تجرى عليهم احكام السلم والاسلام .. وفيها « دولة » ، تعلوها احكام يتجاور فيها الكفر والاسلام ، وهي لذلك وفي هذا النطاق ، دار حرب تسرى عليها احكام الكفار .. فقتالهم وصدهم عن بلاد الاسلام واجب بالكتاب والسنة واتفاق ائمة المسلمين .. فهم - مع ..لهم هذه - غزاة ، محاربون للمسلمين .. وليسوا « برد » بغاة ، او مخطئين متأولين ...

لقد كان التتار - وهم « مغل » - يحكمون بقانون « الياسة » - اى يحكمون بغير ما انزل الله - وكان المماليك ، في مصر والشام - وهم « مثل » كذلك - يحكمون فيما بينهم وفي الدواوين السلطانية - اى في الجيش والدولة - بقانون « الياسة » ايضا ... ولكن التتار كانوا غزاة يحترفون الدمار .. بينما كان المماليك مدافعين عن الحضارة ، ضد الدمار ، وعن الاوطان ضد الغزاة .. فالاولون مثلهم مثل الخوارج المارقة . وعلى المسلمين النهوض خلف المماليك - رغم ظلمهم وحكمهم فيما بينهم بغير الشريعة - لقتال التتار ، كما قاتل المسلمون الاولون الخوارج خلف امراء الجور والظلم والبغي كالحجاج بن يوسف ، ونوابه ، وامثالهم - على عهد بني امية وبني العباس ...

هذا هو جماع رأى ابن تيمية في احوال عصره ، وفي حكم الفرقاء المتنازعين فيه (٣) ..

لقد حكم ابن تيمية على « المغل - التتار » بالكفر ، واوجب قتالهم ... وفي ذات الوقت قال عن « المغل - المماليك » : انهم « احق الناس دخولا في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله في الاحاديث المستفيضة عنه : « لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » (٤) ؟ .. وادخلهم في « اهل الغرب » ، الذين عناهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عندما قال : « لا يزال اهل الغرب ظاهرين » (٥) .. فالشام ومصر تقع الى الغرب من « المدينة المنورة » ؟ .. وقال عنهم ابن تيمية ايضا : « انهم كتيبة الاسلام ، وعزهم عز الاسلام وذلهم ذل الاسلام ، فلو استولى عليهم التتار لم يبق للاسلام عز ولا كلمة عالية ولا طائفة ظاهرة عالية يخافها اهل الأرض تقاتل عنه » (٦) ؟ !

ولم تكن هذه التفرقة ، في حكم ابن تيمية والمماليك ، راجعة الى ان التتار يحكمون « بالياسة » المخالفة للشريعة ، بينما المماليك يحكمون بالشريعة .. فلقد كان المماليك ، ايضا يحكمون فيما بينهم بنفس « ياسة » جنكزخان ؟ ! .. ولنقرأ ما يقوله مؤرخ ذلك العصر المقريزى (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ - ١٤٤١ م) في هذا الموضوع :

« اعلم ان الناس في زماننا ، بل ومنذ عهد الدولة التركية - (المملوكية) - بديار مصر والشام يرون ان الاحكام على قسمين : حكم الشرع ، وحكم السياسة .. فالشريعة هي ماشرع الله تعالى من الدين وامر به كالصلاة والحج وسائر اعمال البر .. والسياسة هي القانون الموضوع لرعاية الاداب والمصالح ، وانتظام الأحوال ... والسياسة نوعان : سياسة عادلة ، تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهي من الاحكام الشرعية .. وسياسة ظالمة ، فالشريعة تحرمها ... وليس ما يقوله اهل زماننا في شيء من هذا ، وانما هي كلمة « مغلية » اصلها « ياسة » ، فحرفها اهل مصر ، وزادوا بأولها سينا فقالوا « سياسة » ، وأدخلوا عليها الالف واللام ، فظن من لا علم عنده انها كلمة عربية ، وما الامر فيها الا ما قلت لك .. واسمع الان كيف نشأت هذه الكلمة حق

---

(٣) (الفتاوى الكبرى) جـ ٣ ص ٣٤٥ - ٣٤٧ ، ٣٥٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ - ٢٥٢ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م

(٤) رواه : البخاري ومسلم وابو داود والترمذي وابن ماجة والدارمي وابن حنبل .

(٥) رواه : مسلم

(٦) الفتاوى الكبرى جـ ٤ ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

انتشرت بمصر والشام .. ان جنكزخان قرر قواعد وعقوبات اثبتها في كتاب سماه « ياسة » ، ومن الناس من يسميه « يسق » (٧) ، والاصل في اسمه « ياسة » .. جعله شريعة لقومه فالتزموه كالتزام اول المسلمين حكم القرآن .. فلما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق ، واسروا كثيرا منهم وباعوهم ، تنقلوا في الاقطار ، واشترى الملك الصالح نجم الدين ايوب جماعة منهم سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر ، واولهم المعز ايبك .. وكانوا انما ربوا بدار الاسلام ، ولقنوا القرآن ، وعرفوا احكام الملة المحمدية .. فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد الى الرديء ، وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالامور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به امر الاوقاف والايتام وجعلوا اليه النظر في الاقضية الشرعية ... واحتاجوا في ذات انفسهم الى الرجوع لعادة جنكزخان والاقتداء بحكم الياسة فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم .. مع مقتضى الياسة ، وجعلوا اليه ، مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية .. » (٨)

فالمماليك ـ بشهادة اوثق مؤرخي عصرهم ـ المقريزي ـ لم يكونوا يحكمون فيا بينهم وفي الدواوين السلطانية ـ اى في « دولة » ـ بالشريعة ، بل بـ « ياسة » جنكزخان .. ومع ذلك قال عنهم ابن تيمية : انهم كتيبة الاسلام ، وطائفته المنصورة ـ بنص حديث الرسول ـ لانهم فرسان الدفاع عن الحضارة والفكر والوطن ولانهم حكموا الشريعة في شئون الرعية ، مع استبعادهم عدلها ، فلقد مارسوا من الظلم ما جعل عصرهم مضرب المثل في هذا المقام ...

على حين حكم ابن تيمية على التتار بالكفر ، واوجب قتالهم ، لا بسبب « الياسة » ، اساسا وانما لتحديهم وغاراتهم وغزواتهم التي اهلكوا فيها الحرث والنسل وهددوا الحضارة الاسلامية بالدمار ..

ذلك هو معيار حكم ابن تيمية ، وبه ووفقا له يصبح الشبه قائما بين « حكام العصر » وبين المماليك ، وليس بينهم وبين التتار ؟ .. وتصبح معايير الحكم على ممارساتهم ونظمهم هي معايير :

« الخطأ » و« الصواب » و « الظلم » و« العدل » لا « الكفر » و« الايمان » و« الردة » و« الاسلام » ...

الخلاف في الفروع

ثم .. ان كل ما يتعلق بالدولة وشئونها ، يندرج في فكر الاسلام تحت مبحث « الخلافة والامامة » ، وهو « مبحث اسلامي » لكنه ليس « ركنا ولا اصلا » من أصول دين الاسلام وأركانه » ، اجمع على ذلك عدا الشيعة من مذاهب الاسلاميين . ومن ثم فان مصطلحات « الكفر » « والتكفير » للحكام المعلنين اسلامهم هو استمرار في الجريان على ذات السنة السيئة التي سنها الخوارج في تراثنا وتاريخنا ، عندما انتقلوا بالخلافات السياسية من اطار السياسة الاسلامية الى نطاق الدين ... لقد حكموا بالكفر على امير المؤمنين علي بن أبي طالب ، بسبب خلافهم معه في قضية سياسية هي « التحكيم » .. اما هو فلقد اذن لاصحابه ان يصلوا خلف الخوارج ، لان خلافهم السياسي معه ، وقتالهم له لم يخرجاهم ، في رأيه عن الاسلام والايمان .. وقال لاصحابه : « لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فأدركه »(٩) .. ولقد تحدث عن قتلى خصومه في معركة « صفين » فلم يصفهم « بالكفر » وانما قال : ان قبلتنا واحدة ، وديننا واحد ، وقرآننا واحد ، ونبينا واحد .. لم تختلف في شيء من ذلك ، وانما اختلفنا في « دم عثمان » .. ثم دعا الله ان يدخل قتلى الفريقين جنته .. بل ونهى اصحابه عن « سب » معاوية وجنوده وهم يقاتلون ؟(١٠) ....

ذلك هو النهج الأولى بالاتباع اذا كان الصراع « في نطاق الفروع » ـ والسياسة منها ـ وطالما كان الاسلام الدين يظلل الفرقاء المختلفين باصوله واركانه ...

لقد بريء فكر اصحاب كتاب (الفريضة الغائبة) من غلو الذين « كفروا » جمهور الامة وعامة المسلمين . لكن النهج الخاطيء في الاستشهاد بفتاوى ابن تيمية « في التتار » قد جعلهم يرون في « حكام العصر » نظراء للتتار بل اسوأ منهم ، فاطلقوا عليهم حكم « الكفر » ، وجردوهم من « الايمان » .. وتلك سلبية تصم هذا الفكر بالغلو في هذه القضية .. وهو غلو ان افاد في شحن الشباب بالعداء لنظم الحكم الجائرة المستبدة فانه يفعل ذلك على حساب « الثوابت » الاسلامية ، المتعلقة بمعنى « الكفر » ومعنى « الايمان »وهي « ثوابت » لا يجوز العبث فيها مهما حسنت النوايا وشرفت الغايات ...

---

(٧) في كتاب (الفريضة الغائبة) يسميها « ياسق » .

(٨) (خطط المقريزي) جـ ٣ ص ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ . طبعة دار التحرير القاهرة .

(٩) نهج البلاغة ص ٧٤ طبعة دار الشعب ـ القاهرة .

(١٠) المصدر السابق ص ٢٥٦ .

لقد حكم كتاب (الفريضة الغائبة) ـ ص ٩ ـ على « حكام العصر » « المسلمين » « بالردة » ، ومن ثم باستحقاقهم عقوبة اشد من عقوبة الكافر الاصلي . . واستدل الكتاب على ذلك بقول ابن تيمية : « . . وقد استقرت السنة بان عقوبة المرتد اعظم من عقوبة الكافر الاصلي من وجوه متعددة . . »

الردة والخيانة العظمى

وهنا نلاحظ ان نص ابن تيمية وحكمه قد انتزع من اطاره ، ووظف في مقام اخر لا علاقة له بالموضوع الاصلي . . فابن تيمية يتحدث عن « الردة » بالمعنى المرادف لما نسميه اليوم « الخيانة الوطنية » والهرب من الجندية والالتحاق بجيش الاعداء الغزاة لديار الاسلام والمقاتلين لاهله ؟ . . . . يتحدث عن طائفة من عسكر المماليك ، هربت والتحقت بجيش التتار الغزاة لديار الاسلام والمدمرين لحضارة المسلمين . . ولقد جاء حديثه عن هؤلاء « المرتدين ـ الخونة » بعد حديثه عن المماليك ، بالشام ومصر ، الذين وصفهم بانهم « هم كتيبة الاسلام ، وعزهم عز الاسلام ، وذلهم ذل الاسلام » ؟ . . . ثم قال متحدثا عن العسكر الذين خرجوا عليهم ، والتحقوا باعدائهم التتار : « فمن قفز عنهم الى التتار كان احق بالقتال من كثير من التتار ، فان التتار فيهم المكره وغير المكره . وقد استقرت السنة بان عقوبة المرتد اعظم من عقوبة الكافر الاصلي . . (١١)

« فالردة » هنا هي « الخيانة الوطنية » والالتحاق بجيش الاعداء الغزاة لديار الاسلام . . ومن ثم فان الاستدلال بهذا النص على « ردة حكام العصر » من المسلمين هو خطأ بين وكبير في الاستدلال ؟ . .

ان الخلاف الدائر بين المسلمين اليوم ، بل ومنذ عصر الخلافة الراشدة ، متركز ومتمحور في قضايا سياسة المجتمع ونظم الحكم ، وحول « الخلافة والامامة » . . وجميع اهل السنة ، ومنهم ابن تيمية ـ الذى يستشهد كتاب « الفريضة الغائبة » بفكره في اغلب صفحاته ـ يتفقون على ان هذه القضايا جميعها من « الفروع » ، وليست من « اركان الدين واصوله » . . وهذا يعني ان مصطلحات مباحثها والجدل فيها والاختلاف حولها يجب ان تقف عند « الصواب » و« الخطأ » و« النفع » و« الضرر » ، و« العدل » و« الظلم » ومن ثم يجب ان تبرأ من « غلو » استخدام مصطلحات : « الايمان » و« الكفر » في وصف الفرقاء المتصارعين فيها . . . .

والذين قالوا ان « الامامة » من اركان الدين واصوله هم « الشيعة » وحدهم . . . وعليهم يرد ابن تيمية فيقول لهم : كلا . . انها ليست من اركان « الاسلام » ولا من اركان « الايمان » ، ولا من اركان « الاحسان » . . لان الحديث النبوى الشريف يحدد ان « الاسلام : ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . وتقيم الصلاة . وتؤتى الزكاة . وتصوم رمضان . . وتحج البيت . والايمان : ان تؤمن بالله . وملائكته . وكتبه . ورسله . واليوم الاخر . وتؤمن بالقدر خيره وشره . والاحسان : ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

يورد ابن تيمية هذا الحديث النبوى ـ الذى يقول : « انه متفق على صحته ، متلقى بالقبول ، اجمع اهل العلم بالنقل على صحته » . . ليرد به على « الشيعة » الذين قالوا ان « الامامة » من اركان الدين والذين « كفروا » الصحابة لخلافهم مع علي بن أبي طالب في « الخلافة والامامة »(١٢) ؟ . . .

ورحم الله الامام الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) فلقد قال : « ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الانسان الى ذلك سبيلا ، فان استباحة الدماء والاموال من المصلين الى القبلة ، المصرحين بقول : لا اله الا الله محمد رسول الله ، خطأ . والخطأ في ترك الف كافر في الحياة اهون من الخطأ في سفك محجمة(١٣) من دم مسلم « واحد » (١٤) ؟ . . .

هذا هو نهج الاسلام . . وهكذا تحرز ائمته واعلامه عن الخلط بين أصوله وفروعه ومن ثم عن « تكفير » الفرقاء المختلفين في قضايا الفروع . . فسنوا ، بذلك لنا السنة الحسنة التي يسرت من غلو التكفير وتكفير الغلاة ! . . ■■

القاهرة ـ د . محمد عمارة

---

(١١) الفتاوى الكبرى جـ ٤ ص ٣٤٧ .

(١٢) ابن تيمية (منهاج السنة النبوية)جـ ١ ص ٧٠ ـ ٧٢ تحقيق : د محمد رشاد سالم . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م .

(١٣) المحجمة : كوب صغير يجمع فيه « الحجام » بالفصد الدم الفاسد .

(١٤) الغزالي (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٤٣ طبعة القاهرة ـ صبيح ـ بدون تاريخ .

عودة الابن المنشق

بقلم : أحمد عبد المعطي حجازي

من الظواهر الادبية التي اصبحت تلفت النظر في الايام الاخيرة اتجاه عدد من دور النشر العربية الى اصدار ترجمات لاعمال الادباء العرب الذين يكتبون باللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية .
اسمي ذلك ظاهرة لان هذه الترجمات ليست نتيجةلدوافع خارجية مؤقتة

كالتي ادت الى ترجمة بعض اعمال الكتاب الجزائريين في وقت الثورة ، وليست مبادرات فردية متناثرة يقوم بها المترجم وحده ، بل هي تبدو الآن وكأنها مشروع ادبي منظم يشارك فيه الناشر والمترجم والمؤلف . وفي الشهور الأخيرة ظهرت الترجمة العربية لمختارات من قصائد الشاعر اللبناني صلاح ستيتية الذي اطلعني ايضا على ترجمة مخطوطة لثلاثة اعمال اخرى من مؤلفاته في سبيلها الى الصدور . كما علمت ان الكاتب المغربي عبد الكبير الخطيبي يتعاون مع بعض المترجمين والناشرين على اصدار مجموعة مؤلفاته باللغة العربية ، وربما يكون بعضها قد صدر بالفعل ، وهناك الآن مشروعات مختلفة لترجمة اعمال الشاعر المصري جورج حنين ، وكانت بعض اعمال الشاعر اللبناني جورج شحادة قد ظهرت قبل سنوات ، وبين حين وآخر تطالعنا المجلات العربية بقصائد ومقالات مترجمة لشعراء وكتاب آخرين مثل جمال الدين بن الشيخ وخالد بن جلون ،وبامكاننا ان نشير كذلك للترجمة المنظمة لمؤلفات بعض الباحثين العرب في المجتمع والسياسة والاقتصاد كالمصريين انور عبد الملك وسمير امين ، والمغربي عبد الله العروي . وان كانت دلالة ترجمة الابحاث والدراسات تختلف عن دلالة ترجمة الاعمال الادبية بقدر ما تختلف وظيفة اللغة في الابداع الادبي عن وظيفتها في البحث العلمي . فاذا كانت اللغة هي المادة الاساسية في العمل الادبي ، فانتماؤه لثقافة أمته بالذات مسألة مطروحة ، بينما لاتهمنا هذه المسألة بذات القدر في البحث العلمي الذي ينظر اليه غالبا كنشاط عالمي غير قومي ، تلعب فيه اللغة دور الوسيط المحايد او الناقل الامين ، وان كانت هذه الفكرة محتاجة الى مناقشة اخرى .

قلت ان اللغة هي المادة الاساسية في الادب لانها ليست مجرد وسيط معجمي لنقل افكار ذهنية محددة ومسبقة ، وانما هي التي تؤلف ما تنطوي عليه من افكار ودلالات عن طريق تجاوزها لمعانيها المعجمية المحدودة واحتشادها بكل طاقتها الابداعية وميراثها الذي كونته خلال تجربتها في التعبير عن روح الامة التي تتكلمها . ولهذا تصبح الامة شريكة للكاتب او الشاعر في الابداع . لان إبداعها الجماعي لابد ان يتسرب الى ابداعه الفردي بوعي او بدون وعي .

من هنا تأتي مشكلة انتماء العمل الادبي حين يكون صاحبه اجنبيا بالنسبة للغة التي يكتب بها . ان هذه اللغة ليست ملكا خالصا له ، ففيها الكثير من روح الامة التي تتكلمها وهذا الكاتب الاجنبي يتوجه بعمله الى قراء هذه اللغة ، وعمله يصب في تراثها . لكن هذا الكاتب يحمل

من ناحية اخرى ميراث امته الاصلية ويرى الاشياء والعالم بحساسية خاصة ورثها من بيئته الاولى ، فالى أي من هذين المصدرين ينتمي العمل الأدبي ، الى لغته وهي في هذه الحالة لغة اجنبية ، ام الى الوجدان القومي المتميز لصاحبه ؟

والاقرب الى المنطق ان العمل الادبي ينتمي الى اللغة اولا وذلك للاسباب التي ذكرناها ، لكن المسألة لاتطرح بهذه الحدة ، فصمويل بيكيت الأيرلندى ، أو أوجين يونسكو الروماني الاصل ، او ارابال الاسباني ، او غيرهم من الكتاب الاوربيين لايشعرون بالاغتراب في اللغة الفرنسية كما يشعر بذلك كاتب عربي مثل مالك حداد ، فاللغة الفرنسية من اهم لغات الحضارة الاوروبية التي ينتمي اليها هؤلاء الكتاب ، وتنتمي اليها ثقافاتهم ولغاتهم الاصلية . وهؤلاء الكتاب الاوربيون لم يكتبوا بـاللغة الفرنسية اضطرارا بل رغبة واختيارا . وقد ظل صمويل بيكيت يكتب بالانجليزية حتى اشرف على الاربعين ثم هجرها الى الفرنسية التي حقق بها شهرته العريضة .

وليس الامر كذلك بالنسبة للكاتب العربي الذي ينتمي لحضارة مختلفة ، ويشعر غالبا انه مجبر على الكتابة بالفرنسية التي فرضها عليه اعداؤه المستعمرون فرضا وحالوا بينه وبين لغته القومية . ولهذا كان الشاعر الجزائري مالك حداد يقول انه منفي في اللغة الفرنسية ، وكانت معظم اعمال الكتاب المغاربة عامة والجزائريين خاصة صرخات احتجاج ضد هذه اللغة وضد اصحابها ، من هنا تأتي حدة المسألة بالنسبة الكاتب العربي الذى يظل يشعر بالاغتراب والحنين الى لغته الام ، ومن هنا أفسر هذا المشروع الشامل لترجمة اعمال هؤلاء الكتاب العرب الى اللغة العربية وكأنها عودة الى النبع او الى احضان الام ، وذلك نتيجة لتخلخل الوضع الثقافي والاجتماعي الذي خلفته السيطرة الاستعمارية في بلاد المغرب العربي . لقد نمت قوة الجماهير الشعبية التي لم يكن يحسب حسابها من قبل ، هذه الجماهير التي تظل الحصن الحصين للثقافة القومية . ومع ان الجهود المبذولة في تعريب التعليم والادارة لاتزال دون المستوى المطلوب ، فقد ادت الى ترجيح كفة الثقافة العربية وازالة الحواجز التي كانت تفصل بين المثقفين بالعربية والمثقفين بالفرنسية في هذه البلاد . ثم ان المثقفين العرب في اقطار المشرق اصبحوا الآن اكثر ادراكا للفائدة الكبيرة التي يمكن ان تجنى من المؤلفات المغربية المكتوبة باللغة الفرنسية باعتبارها نافذة تطل مباشرة على الحضارة الاوربية المتقدمة .

واخيرا ما كان للقاءات التي تكررت في السنوات الاخيرة بين المثقفين المغاربة والمشارقة من نتائج ايجابية ملموسة .

لقد خلقت هذه الاسباب مجتمعة وضعا جديدا أصبح معه الكتاب العرب ـ باللغات الاجنبية ـ يشعرون بالعزلة ، ويسعون الى ردم الهوة بينهم وبين المجتمع ، حتى ان البعض منهم اصبح يفكر في التخلي عن اللغة الاجنبية والكتابة باللغة العربية التي لايحسنها تماما كما هو الحال بالنسبة للشاعر كاتب ياسين الذي كتب بعض اعماله المسرحية الاخيرة باللهجة الجزائرية ، داعيا الى اتخاذ هذه اللهجة لغة للجزائريين دون الفرنسية والعربية الفصحى .

انها اذن عودة الابن المنفي . لكن يبقى ان نسأل انفسنا بعد قراءة هذه الاعمال ، هل نجدنا أدبا عربيا أم نجدها ادبا أجنبيا مترجما الى العربية ؟

أحمد عبد المعطي حجازي

الانعاش الصناعي والشريعة

بقلم : الدكتور احمد شرف الدين

ما هو موقف الشرع والقانون والاخلاق ، في قضية الانعاش الصناعي ؟

ان العصر الحديث يشهد حلقة من حلقات صراع العلماء والاطباء مع الامراض المزمنة والمستعصية ، ولقد استعمل الاطباء في تحفزهم للقضاء على آثار الامراض وارجاء لحظة النهاية المحتومة الى حين ، وسائل جديدة متعددة . ولقد استخدمت بعض هذه الوسائل لتحقيق هدف يعتبر في الشرع والقانون ، وهو العلاج ، اما لانه لا ضرر فيها اصلا ، او لان ضررها يسير ، فيتحمل من اجل منافعها الكبيرة . وعلى العكس من ذلك ، فان من بين مكتسبات العلم الحديث طرقا طبية مشكوكا في فائدتها وفي اتساقها مع اهداف الشريعة العامة ، لما قد يرى فيها من تحد للطبيعة التي جبل الله تعالى الانسان عليها . كذلك يتعين وضع قيود على ممارسة بعض الاكتشافات الحديثة للعلوم الطبية والبيولوجية حتى لا يخرج العمل الطبي والجراحي الذي يستند عليها عن هدفه ، وهو المحافظة على الحياة وصيانة الصحة ، الذي من اجله اتيح هذا العمل .

والشريعة الاسلامية هي من بين المصادر التي قد تستمد منها هذه القيود . اما تلك الاعمال المستحدثة في مجال الطب والجراحة فيما لم يرد به نص شرعي صريح فيتقرر حكمها في ضوء الاهداف العامة للشرع ، وبصفة خاصة حفظ النفس والنسل والعقل وقواعده العامة ، وبصفة خاصة قاعدة تحصيل أعلى المصلحتين ودرء اعظم المفسدين .

ونحن نقدم هنا الانعاش الصناعي سواء في تركيب اجهزته على مريض معين او ايقاف عملها ، كنموذج للاعمال الطبية التي يمكن ان يتأرجح حكمها بين الاباحة والتحريم . وذلك بحسب ما اذا كان الهدف منها حفظ حياة قائمة او اطالة موت ثابت . ولقد اثار الانعاش الصناعي مشكلة دينية تتعلق بالقدرة على اعادة الحياة للموتى ، فلقد قيل بان هناك اشخاصا ماتوا واعيدت لهم الحياة بوسائل طبية ، وهو الامر الذي يتعارض مع الحقيقة العقائدية التي تقضي بانه ليس في مقدور البشر اعادة الحياة . وحتى يتبين لنا وجه الحقيقة فيما يشاع هكذا عن الانعاش الصناعي فانه يلزم تجريد حالة الانسان الذي يستخدم عنه من حيث الحياة او الموت ، وهو الامر الذي يترتب علي معرفة ما اذا كان الانعاش الصناعي يعمل لاطالة الحياة او اطالة الموت .

اولا : الانعاش الصناعي اطالة للحياة :

يتنوع الموت الى ثلاثة انواع يمثل كل نوع منها مرحلة من مراحل الموت . ففي الاحوال العادية يحدث الموت الاكلينيكي ، في مرحلة اولى ، بتوقف القلب والرئتان عن العمل ، وفي مرحلة ثانية تموت خلايا المخ بعد بضع دقائق من توقف دخول الدم المحمل بالاكسجين للمخ ، وبعد حدوث هاتين المرحلتين تظل خلايا الجسم حية لمدة تختلف من عضو لآخر ، وفي نهايتها تموت هذه الخلايا ، فيحدث ما يسمى بالموت الخلوي ، وهذه هي المرحلة الثالثة للموت .

ويستنتج من هذا انه من الممكن ان يتوقف قلب انسان عن العمل ، ولكن خلاياه . . . اعني خلايا القلب ، تظل حية . ولذلك فان موت هذا الانسان ليس الا موتا ظاهريا لا يمنع من اعادة القلب الى عمله الطبيعي عن طريق استخدام اجهزة الانعاش الصناعي . اما اذا مات المخ ، بعد بضع دقائق من توقف القلب والرئتين عن العمل ، فلا امل ـ بحسب قدرة بني آدم وعلمهم ـ في اعادة الحياة الى المخ وبالتالي الى الانسان في مجموعه . لذلك استقر الطب الحديث على ان موت خلايا المخ ، الذي يؤدي الى توقف المراكز العصبية العليا عن عملها ، وهو معيار موت الانسان موتا حقيقيا .

وكما هو واضح فان المدة بين توقف القلب والرئتين عن العمل وبين موت المخ ، لا تستغرق اكثر من بضع دقائق قليلة ، وفي هذه المدة القصيرة يعد الانسان من الاحياء (يطلق على هذه الحالة اسم الاحتضار) . ويتعين من ثم انقاذه حتى لا تموت خلايا مخه ، ولذلك فان الغرض من استخدام اجهزة الانعاش في هذه الحالة ، هو اطالة حياة المريض . ولا يعد ذلك من قبيل اعادة الحياة اليه ، لانه مازال حيا في حكم الشرع والقانون ، حتى ولو كانت بعض مقومات حياته قد توقفت عن العمل التلقائي ، فمن قربت نفسه من الزهوق له من الحرمة ما للاحياء منها ، بحيث يستحق من يتسبب في ازالة ما تبقى له من الحياة العقاب . ويؤدي الى ذلك انه اذا نفذ الطبيب التزامه القانوني او التعاقدي بتركيب اجهزة الانعاش الصناعي على مريض فلا يجوز له قبل موت مخه أن يفصل هذه الاجهزة والا تسبب في موت المريض موتا حقيقيا لا رجعة فيه . ولا يشفع للطبيب في فعلته هذه وجود اناس آخرين في نفس حالة المريض في حاجة الى اجهزة الانعاش الصناعي لان مبدأ التساوي بين الناس معصومي الدم يمنع التضحية بحياة انسان لانقاذ حياة اخرى ، كما ان الضرر لا يزال بمثله ، والدليل على تساوي الناس في نظر الشرع ـ لا فرق بين حياة احدهم وحياة آخر ـ انه اوجب جزاء لا يختلف في نوعه او مقداره (القصاص او الدية) باختلاف المعتدي عليه ، لان هذا الجزاء يقوم على ما لكل انسان من حق في سلامة حياته وبدنه وهو حق يستوي فيه الناس جميعا كما في الحديث النبوي الشريف « المسلمون تتكافأ دماؤهم » .

على ان مبدأ المساواة هذا بين حقوق الناس في الحياة وان كان يمنع الطبيب من حرمان انسان من الاجهزة التي ركبت فعلا على جسمه ليضعها على جسم انسان اخر في نفس حالة الانسان الاول ، فان الطبيب قد يجد نفسه في موقف لا يحسد عليه بالاخص اذا وجد امامه اكثر من انسان في النزع الاخير وهو لا يملك الا جهازا واحدا او اجهزة بعدد قليل لا تكفيهم ، فهنا اذا تساوت المصالح فان الطبيب مخول ، طبقا للقواعد الكلية ، بالتخيير في التقديم والتأخير ، بشرط ان يقوم اختياره على معايير موضوعية واعتبارات اجتماعية تتصل بمدى نفع الشخص للمجتمع وبمدى امكان انقاذ حياته ، وليس على اعتبارات شخصية تعتمد على المال او النسب او السلطة . ومن المناسب الا يوكل ذلك الاختيار الى فرد واحد بل ينبغي ان يتخذ القرار فيه فريق طبي .

ثانيا : الانعاش الصناعي اطالة للموت

في مراكز الرعاية المركزة ، حيث لاتكفي الاعداد المتوفرة من هذه الاجهزة احتياجات المرضى ، يقف الاطباء في حيرة بين حالتين : حالة تحتكر الجهاز مع موت صاحبها موتا حقيقيا ، وحالة في حاجة الى الجهاز لانقاذ حياتها ولا تجده ، وهنا يثور التساؤل عن فائدة الاصرار على تركيب الجهاز على الحالة الاولى وحرمان الحالة الثانية منه .

١ ـ هل الانعاش الصناعي احياء للموتى ؟

اذا ماتت خلايا المخ فان صاحبه يفقد كل الصفات التي تتميز بها الحياة الانسانية الطبيعية ويعد في حكم الموتى طبا وشرعا . وليس في مقدور بشر ، بعد ذلك ، ان يعيد الحياة الطبيعية اليه . واذا كانت اجهزة الانعاش الصناعي لا تكفل ـ في هذه الحالة الاخيرة ـ الا الحياة الصناعية لبعض خلايا الجسم ، فلا يصح القول بانها تعيد الحياة الى الموتى .

ونظرا لأن مثل هذا القول يتعارض مع الاسس التي تقوم عليها الاحكام العقائدية في الشرع ، فلقد ذهب البعض الى ان الموت الحقيقي الذي لارجعة الى الحياة من بعده لا يتحقق بتوقف اجهزة الجسم عن عملها ، ولكن بموتها وتحللها الى عناصرها الاولية . وفي اعتقادي ان الموت الحقيقي للانسان يتحقق في وقت يسبق تحلل جسمه الى التراب كما انه ليس في مقدور بني آدم ، حتى في هذه الحالة اعادة الحياة للموتى ـ بيان ذلك ان الموت الحقيقي ، ـ بحسب ما استقر عليه الطب الحديث ـ يتحقق بموت المخ والتوقف التلقائي لاجهزة الجسم التي تقوم بالوظائف

الاساسية للحياة (المراكز العصبية العليا والقلب والرئتان) . وهو امر يسبق بمدة ليست قصيرة تحلل الجسم الى عناصره الاولى ، والقول بان الموت الحقيقي للانسان يتحقق بتحلل خلاياه الى عناصرها الاولى هو قول يخالف الواقع . لانه امكن حفظ الجثث من التحلل - على مدى الوف السنين - عن طريق التحنيط مع ان صاحب الجثة قد مات موتا حقيقيا .

ويمكن ان يستفاد حدوث الموت الحقيقي للانسان قبل تحلل جسمه الى عناصره الاولى من قوله تعالى « أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون (٣٥ - المؤمنون) » فالعطف الوارد في الآية الكريمة يفيد المغايرة او على الاقل يفيد ان تحلل الجسم الى التراب ما هو الا نتيجة للموت الذي حدث من قبل .

فاذا مات الانسان موتا حقيقيا ، بموت خلايا مخه ، فان القول باعادة الحياة اليه عن طريق الانعاش الصناعي ، فضلا عن انه يخالف الواقع لانه لا يعيد خلايا المخ الى الحياة ، يخالف الحقيقة العقائدية التي تقضي بان الاحياء والاماتة انما هي من الافعال التي لايشارك احد فيها الله تعالى . فحقيقة منح الحياة وسلبها واعادتها هي سنة كونية خفية لا يملك الانسان منها شيئا « ولايملكون موتا ولا حياة ولا نشورا (٣ - الفرقان) الا ما أذن به الله تعالى .

واذا كان من المستحيل بالنسبة لبني آدم اعادة الحياة لمن ماتت خلايا مخه « ان اجل الله اذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون (٤ - نوح) » فهنا يحق لنا ان نتساءل عن فائدة تركيب اجهزة الانعاش الصناعي على جثته ، وبالتالي عن مدى شرعية ايقاف عمل هذه الاجهزة .

٢ - هل ايقاف اجهزة الانعاش الصناعي جائز شرعا وقانونا ؟

اذا كان الشارع قد اباح العمل الطبي الجراحي لانه يحفظ مصالح راجحة اجتماعيا تتمثل في المحافظة على الحياة وصيانة الصحة ، فان علة الاباحة تزول متى زالت الحياة التي تتوفر لها صفات الانسانية ، ويتعين من ثم التوقف في العمل ، وهذا الامر يصدق على العمل الطبي المتمثل في الانعاش الصناعي لانسان ثبت موت مخه رغم تمتعه بحياة صناعية . وبينما يعتبر علم الطب ان مثل هذا الانسان قد مات ، فان الفقه والقانون لا يعتبران انسانا ما قد مات طالما قلبه ينبض ، ويلزم لاعتباره ميتا اتخاذ اجراءات معينة كتحرير شهادة الوفاة بعد توقف قلبه عن النبض تلقائيا . واذا كان الفقه والقانون يبدوان هكذا متخلفين عن ركب الامكانيات الحديثة للطب فان ذلك يرجع الى تمسكهما بحماية حقوق الانسان الى ابعد مدى في مواجهة هذه الامكانيات التي لاتخلو على الرغم من مزاياها التي لاتنكر ، من مضار .

واذا استحالت عودة الوظائف الاساسية للحياة تلقائيا بسبب توقف عمل المراكز العصبية العليا بعد موت المخ ، فهل يتمتع من وصلت حالته الى هذا المستوى بحياة انسانية جديرة بالحماية ؟ وما هو حكم الاخلاق والشرع والقانون في ايقاف الحياة الصناعية . ؟

أ - حكم الاخلاق : -

حكم الحياة الانسانية ، اي مقوماتها التي تميزها عن غيرها ، هو الادراك والشعور والقدرة على الاتصال بالعلم الخارجي والتعامل معه . ولا شك ان من مات مخه - وبصفة خاصة - من توقف لديه عمل المراكز العصبية العليا التي تتحكم في وظائف الجسم ، لا يستطيع ان يتحكم في تعامله مع العالم الخارجي ، وتزول من ثم حياته الانسانية ويصبح في حكم الاموات . ولما كان الانعاش الصناعي لا يعيد للحياة الانسانية مقوماتها ، الادراك والشعور والقدرة على الاتصال بالعالم الخارجي ، بعد ان ماتت خلايا المخ للانسان ، فلا يعد ايقاف عملها حرمانا له من حياة انسانية بعد ان فقدها من قبل ، صحيح ان ايقاف عمل هذه الاجهزة قد يبدو في الظاهر ، بالنسبة للطبيب ، عملا معارضا لغاية مهنية في المحافظة على الحياة وقد يتعارض بالتالي مع ضميره ، ولكن الصحيح ايضا ان الطبيب - كي يكون حكيما - مطالب بالا ينسى الحدود الانسانية للطب . لذلك فان الطبيب الذي اقتنع انه يتعامل مع جثة ، مطالب بالا ينسى في كفاحه ضد الموت الاحترام الواجب للموت . ان احترام الموت واحترام حياة الاقارب وحرمة الطب ذاته هي امور تقضي بالانحناء امام ما هو قائم فعلا : « ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . (الحديد ٢٢ - ٢٣)

ليس في ايقاف عمل اجهزة الانعاش الصناعي اذن - بالنسبة لمن مات مخه - ما يعتبر جريمة في حق الانسانية ، اذ ان موت المخ يعني انتهاء الحياة الانسانية . وانفصال هذه الحياة عن الحياة العضوية التي تحفظها هذه الاجهزة التي اذا اوقفت عن عملها ، فان ما يحدث هو مجرد موت

عضوي . فاذا ترك الطبيب اجهزة الانعاش تعمل على جثة المريض ، بعد ذلك ، فانه لا يفعل اكثر من اطالة الحياة العضوية بطريقة صناعية واطالة احتضاره وهذا ضرب من العبث ، طالما انه لا فائدة منه لأحد ، يجب ان يتنزه عنه الطب ويتعين من ثم فصل هذه الاجهزة عن الجثة لاستخدامها لصالح الاحياء ، فهذا هو ما يقضي به القانون الانساني الذي يعطي الاولوية لمصالح الاحياء .

ومن المفترض ان المريض ، الذي فقد حياته الانسانية ما كان ليريد ان يكون طريقه الى الموت مضطربا مليئا بالعقبات ، لذلك فمن حق الاسرة - من وجهة النظر الانسانية - ان تطلب الى الطبيب ايقاف اجهزة الانعاش الصناعي ، كما ان من حق الطبيب ان يوقف عملها ، فهذا ما يمليه عليه واجبه الانساني .

ب - حكم الشرع والقانون :

واذا كان لا صعوبة في القول بان ايقاف اجهزة الانعاش الصناعي يعد قتلا اذا تم قبل موت مخ المريض ، وانه على العكس لا يعد قتلا اذا كان تركيب هذه الاجهزة قد تم بعد موت مخ المريض ، فحياته هنا كانت غير متحققة . فان الصعوبة الحقيقية توجد في حالة ما اذا كانت هذه الاجهزة علقت على المريض قبل موت مخه ، فحياته هنا كانت متحققة واوقفت عن العمل بعد ثبوت موت مخه . فالمريض في هذه الحالة وان كان قد فقد الحياة في رأي الطب الا انه ما زال يتمتع بها في نظر القانون طالما لم تتخذ الاجراءات الرسمية لاعلان وفاته .

ان واجب الطب ، في مفهوم الفقه والقانون ، يكمن في المحافظة على الحياة او ما تبقى منها وليس في اطفاء شعلة الحياة التي تظل جذوتها قائمة في نظرهما ، لحين اعلان الوفاة رسميا ، واذا كان لموقف الفقه والقانون هذا آثاره الحميدة في حماية الحياة الانسانية ، حتى في الاحوال التي يشك في وجودها ، فانه يرتب آثارا انسانية وهي الآلام النفسية لدى الاقارب ، واخرى اقتصادية وهي تعطيل الاجهزة القليلة العدد فيما لا طائل منه ، يجب وضع حد لها تنتهي عنده بنهاية الحياة الانسانية . لذلك فان التوفيق بين حماية حق الانسان في الحياة وبين حقوق الآخرين بمن فيهم اسرة المريض والمجتمع ، يقتضي وضع نظام تراعي في اركانه تغليب مصلحة الاحياء .

(ج) الضمانات الواجب توافرها في قرار ايقاف الحياة الصناعية :

هناك مصالح متعددة يمكن ان تتأثر بايقاف اجهزة الانعاش الصناعي القليلة العدد ، على ان حماية مصالح الاحياء الذين يحتاجون الى هذه الاجهزة يجب الا ينسينا حياة من هو معلقة على جسمه ، وهي حياة يجب ان تحظى بالرعاية لحين ثبوت انتهائها بوجه رسمي . ونحن نعلم انه اذا تعذر تحصيل المصالح ودرء المفاسد جميعا فانه يجب - طبقا للقواعد الكلية - تقديم المصلحة اذا كانت اعظم من المفسدة . ولا شك ان مصلحة انقاذ الأحياء اعظم من مفسدة حرمان مريض من مجرد حياته العضوية الصناعية ، كما ان مصلحة الاحياء في المحافظة على حياتهم الطبيعية اولى بالرعاية من مصلحة مريض في المحافظة على حياته الصناعية .

ونظرا لخطورة مركز القائم على ترجيح كفتي ميزان المقارنة بين المصالح فاننا نقترح هنا نظاما لا يخالف الشرع والقانون ويبعد كل شبهة عن قرار ايقاف اجهزة الانعاش الصناعي عن مريض ثبت طبيا موته موتا طبيعيا وحقيقيا بموت خلايا مخه . ويتلخص هذا النظام في ان الطبيب لا يجوز له ان يقتنع برأيه الفردي بعدم امكان عودة المريض للحياة الطبيعية ، بل يجب عرض مثل هذا الامر على فريق طبي متخصص ، فاذا ثبت لدى هذا الفريق انه لا امل في عودة الحياة الطبيعية للمريض، ، فانه يستأذن جهة رسمية مختصة (النيابة مثلا) في ايقاف اجهزة الانعاش الصناعي . وهذه الجهة الرسمية لن توافق على تنفيذ قرار ايقاف هذه الأجهزة الا بشرطين : الاول اتخاذ اجراء لاعلان الوفاة كتحرير محضر او شهادة الوفاة ، والثاني الحصول على موافقة الاسرة على تنفيذ القرار ، فاذا اوقف الطبيب اجهزة الانعاش تنفيذا للقرار المصدق عليه المستوفي لشروطه ، فان هذا الاجراء يكون سليما من الناحية الشرعية والقانونية ولا يؤاخذ عليه الطبيب .

كان هذا مجرد اقتراح قد يكون صائبا وقد لايكون ، استهدفت به التوفيق بين المصالح المتزاحمة في هذا المجال ، ورعاية منا لمصالح الاحياء دون اهدار للمصالح التي تتعلق بالمريض المركبة عليه اجهزة الانعاش الصناعي .

ان صراع الانسان ضد الموت يجب الا ينسيه الحقيقة الاولية وهي ان هذه الحياة الدنيا انما هي دار عبور وهي لابد الى فناء ، ولا يبقى الا وجه ربك ذي الجلال والاكرام « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وابقى » . ولو ادرك الانسان عن عمق واستنارة هذه الحقيقة لاقتنع بان للعلم - وبالتالي الطب - حدودا يجب الا يتعداها . ان الاولى ، عند اليأس من الحياة ان يكون نافعا للناس حتى في مماته ، وان هذه وسيلة لخلوده في الآخرة . ■■

د . احمد شرف الدين
استاذ مساعد القانون المدني بجامعة الكويت

الدّمعة الرّمادية

شعر : الدكتور عبده بدوي

رأيتك قادما بالأمس في حلمي .. وكنت عفوت
فماجت حولي الدنيا ـ على حذر ـ ومات الموت
وصاح القلب في فرح : تراك عفوت !
فمن زمن تفرقنا
وفي التيه العظيم خطوت !
.. ولكني أراك اليوم بالخيلاء والشاره
وبين النور .. بين الظل .. طلعتك الضبابيه
وألقاني اليك عدوت
وأبصرني اليك سموت
بأفراح طفوليه
وأجنحة حريريه !

•••

قبيل اليوم قلت : أودع الدنيا فمن سيجيء
ومن سيرد أغطيتي بكل الحزن .. كل الحزن ؟
ومن سيرد أهدابي على العينين ؟
ومن سيقرب الفكين ؟ من سيقرب الفكين ؟
ـ ترى هل تسمع الدنيا صريرا بقلب الكفين ؟ ـ
ومن سيقول : خبزناه
« فيسقي ربه خمراء »
واما تأكل الأطيار من رأسه ؟
.. ومن سيقول : كان حكاية خضراء مرويه
وكان جناح أغنيه
وأياما سديميه ؟ !

•••

ومر الوقت .. لم يحضر هنا انسان

ولكني رأيت حديقة تسعى بأثواب خريفيه
وأطراف ـ مكان أصابع قطعت ـ صناعيه !
وسبع سنابل ماتت ! وسبع سنابل حيه !
.. رأيت النهر من حولي ، وبعض مساء
ومركبة موليه
وخوذات بدائيه
ووجها نصفه في الظل ، والثاني مع الأنوار
فقلت وفرحتي تتحسس الحركه :
أخيرا تقبل الملكه
أخيرا تصدح البركه
وألحان سماويه !

●●●

جميل أنت في عيني ،فخذ كفي لآفاقك
لهذا السحر . هذا الخوف . هذي الفرحة العذبه
.. ودقت في الزمان الرخو أقدام حديديه .
فقلت وفي فمي ناحت بكائيه :
لماذا نصفك المحجوب في الستر المسائيه ؟
فهات النور . هات الشدو في إشراقه الباهر
تعال الى حدود الصحو . والشمس الربيعيه
ـ وماج الكون حول المحور الدائر ـ
ولكن نصف هذا الوجه مقبرة بغير قرار
جحيم موحش الاسرار
متاهات خرافيه
.. ترى من أنت يا من جاء في حلمي
وأيقظ دمعة الحزن الرماديه ؟ !



وحدة الخلق مفتاح الحياة

بقلم : الدكتور محمد مروان السبع

ترتبط الكائنات الحية جميعها مع بعضها البعض بروابط وثيقة تجعل من الحياة سلسلة تربط حلقاتها فيما بينها ، وكل حلقة تكمل عمل الأخرى بحيث تبرز وحدة الخلق وكأنها المهيمن الاكبر على مفاتيح الحياة في الخلائق . هنا نستعرض الحلقات الكبرى المؤلفة لسلسلة الحياة ومفاتيحها .

● الجهاز الصبغي « الكروموزومات » : فكل كائن حي مهما تدنى موقعه في سلم الاحياء او عظم خطره وارتقت اهميته يمتلك جهازا صبغيا كاملا متميزا خاصا به دون غيره من الاحياء . والمبدأ في عمل الصبغيات واحد في كافة الانواع الحية . فهو مؤلف من ازواج قرينة من الصبغيات او الكروموزومات ، وكل قرين مماثل لقرينه في حمل نفس الصفة او مضادها . وكل من هذه الصبغيات العديدة يحمل المورثات (الجينات) عليه على هيئة سلسلة متتالية بفواصل معينة بين كل مورث وآخر . ويختلف العدد الصبغي وكذا عدد المورثات على الصبغيات من كائن حي الى آخر . الا ان المهم في الموضوع هو ان كل كائن حي ينقل الى انساله نفس العدد الصبغي المقرر له في بدء خليقته دون خلل او اضطراب . ولو تغير هذا العدد نحو الزيادة او النقصان فسيؤدي الى خروج الفرد من نوعه او اصابته باختلالات وتشوهات تحرفه عن جنسه ، وبالتالي يستحيل على هذا الفرد ان ينقل عدده الصبغي وميراث آبائه واجداده الى انساله التالية .

وهذا الوضع في الجهاز الصبغي والوراثي واحد بدون شك في الجراثيم الدنيئة والديدان على اختلاف انواعها واللافقاريات على تباين اجناسها وفصائلها والفقاريات بما فيها الانسان . ونفس القوانين والسلوك والانحراف في المورثات تجدها كلها منطبقة على جميع الاحياء بدون جدال .

ومن البديهي ان هنالك شذوذاً واستثناء لهذه القواعد البيولوجية في بعض الاحياء كوجود الجهاز الصبغي الآحادي او المضاعف او زيادة او نقصان في عدد الصبغيات والمورثات وما الى ذلك ، غير ان هذه الاستثناءات لا تلغي القاعدة الاساسية اطلاقا .

● الاستقلاب (Metabolism) : من المعروف ان الكائنات الحية تتميز عن الجمادات بخاصية هامة الا وهي حادثة الاستقلاب ، اي ميكانيكية الهضم والتغذية . فدخول المواد الغذائية عن طريق الجهاز الهضمي والتغيرات الطارئة عليها وما تتعرض له من هضم وتفتيت وتفاعلات كيميائية وانزيمية وحرارية وما تصب عليها من عصارات تحولها الى مركبات اخرى جديدة تبعدها عن التشابه مع اصلها ومصدرها ، ثم ما يصيبها من امتصاص وسريان الى كل خلية من خلايا الجسم ، واستقلابها هناك الى مواد اخرى نافعة للجسم ككل او لعضو او جهاز بعينه ، مثل تركيب البروتين او تخزين



الدهون والشحوم وتوليد مصادر الطاقة وتأمين النمو ، وزيادة عدد الخلايا وضخامة في احجامها ، وترميم الخلايا التالفة المستهلكة وتجديدها . . كل هذه العمليات الفيزيولوجية وغيرها كثير جدا تدخل ضمن مفهوم الاستقلاب . فهذه العمليات الاستقلابية المعقدة وما ينتج عنها من افعال غريزية وحركة حيوية وتكاثر وانتاج وافراز لمركبات ومواد جديدة تجري في كل كائن حي بدءا من احقر الكائنات وادناها مرتبة ، كما في الجراثيم والبراميسيوم والاسفنج والديدان ، الى ارقاها درجة واعظمها خطرا كما في الانسان ، فكثير من الانزيمات والمركبات الكيماوية التي تشارك في هضم الغذاء وامتصاصه واحدة في كل الخلائق الحيوانية وكذلك الانزيمات الداخلة في تركيب مصادر الطاقة وتحرير نواتجها وفضلات الهدم .

غير اننا نستدرك فنقول انه على الرغم من التماثل النسبي في الانزيمات والمركبات الكيميائية الا ان التميز والتفرد الخاص بكل نوع من الانواع الحية يسمح بامتلاك انزيمات ومركبات كيميائية من نمط معين لازم لمسيرة هذا الكائن في الحياة . فالحبار مثلا يتفرد عن غيره من الكائنات بامتلاكه لمركبات كيماوية تسمح له بافراز سائل معتم كالحبر لتمويه الوسط المحيط به فيمكن للحبار الهرب عندما يواجه عدوا مثلا . وكذلك تتفرد الثدييات عن غيرها من الفقاريات بمقدرتها على افراز الحليب وانتاجه بكميات وافرة بسبب امتلاكها لأنزيمات ومركبات كيميائية معينة واهليتها الوراثية لهذا النمط من الافراز .

وقس نفس الكلام على الطيور والزواحف المفرزة للبيض ذي الخصائص المتميزة كوجود الصفار والزلال والقشرة الكلسية . وكذا ينطبق نفس المعنى على حيتان العنبر المفرزة للزيت والعنبر الذكي الرائحة .

فاذن على الرغم من معجزة الوحدة الكائنة بين الخلائق المتنوعة نجد اختلافا وتفردا لكل نوع حي بحيث يبرز بوضوح وجلاء تأمين استقلالية الكائن الحي وامتيازه عن غيره دون اي اخلال بالمبدأ السامي العام الا وهو وحدة الخلق .

فسريان الحياة في الانواع المتلاطمة ومسيرة كل كائن

حي بغرائزه وتناسله ومعيشته وتكيفه واطراحه يجري في وقت واحد متماشيا مع وحدة الخلائق بتناسق رائع بديع ومباديء مدهشة محيرة تجعلنا مأخوذين مبهورين من شدة الاعجاز لهذا التنظيم المبدع في سر الكون وهندسة الخلائق .

● **التنفس والاطراح (الشهيق والزفير) :** تتضافر عوامل الحياة مع قاعدة التنفس والاطراح بتلازم عجيب أخاذ . فصفة الحياة في الكائن الحي مرتبطة بوجود التنفس . ولا حياة لكائن حيواني ما لم يتنفس . وليس حيا من لم يقم بالاطراح . والتنفس والاطراح عمليتان متلازمتان في الكائن الحي متباينتان في الوظيفة غير ان المهم في الموضوع هو ان عملية التنفس تعني الحصول على الاوكسجين اللازم لتشغيل عناصر العضوية وتسيير العمليات الاستقلابية المختلفة فهو يحق اكسير الحياة . ولا يتخلف اي كائن مهما كان موقعه في سلم الحياة عن اقرانه في الحصول على هذا العنصر الحيوي الهام . وسواء أكان الحصول على الاوكسجين واستلامه عن طريق مباشر اي الهواء الجوي كما يتم ذلك في كل الكائنات الارضية والهوائية ، أم عن طريق غير مباشر كأن يكون الاوكسجين متحللا في الماء كما هو الحال لدى الكائنات المائية او البحرية ، فالهدف واحد هو : الحصول على الاوكسجين بأي ثمن من اجل القيام بالعمليات التنفسية والاستقلابية والفيزيولوجية المختلفة .

اما عملية الاطراح فهي ايضا واحدة في الاسلوب والمبدأ والغاية لدى كل الكائنات الحيوانية . وان اختلفت في بعض التفصيلات الجزئية التي لا بد لها لتبيان استقلالية النوع وتميزه . فكل حي يجب ان يتخلص بعملية الاطراح من غاز ثاني اوكسيد الفحم ، الناتج النهائي لعمليات التأكسد والتنفس وحرق الطاقة في الخلايا والانسجة . ولا يغيبن عن البال في مجال الاطراح التخلص من حمض البولة والبوريا وبعض المركبات السامة والغازات الضارة كنواتج نهائية لهدم البروتينات والدهون والسكريات وغيرها .

● **الهرمونات :** وهي المركبات الكيماوية التي توجد في جسم العضوية الحية بكميات زهيدة للغاية ، غير ان آثارها خطيرة وبطيئة الفعالية لكنها تدوم طوال حياة الكائن الحي . فهذه الهرمونات تجمع بين الكائنات الحية في وحدة منسجمة متناسقة . فوجود الهرمونات سواء كلها او بعضها من دلائل وحدة الخلق في الكائنات الحية ، فهذا هرمون التستسترون المسبب لصفات الذكورة والفحولة واعطاء المظهر الرجولي والذكرى والقدرة على التزواج ، موجود في كل كائن ذكري بكميات متفاوتة طبقا للنوع الحي ومدى الحاجة الملحة والضرورة القصوى الى وضوح الصفات وتمايزها بجلاء في الذكر .

وكذلك نجد الهرمونات الانثوية كالاستروجين والبروجسترون موجودة في كل كائن انثوي تمده بالمظهر اللطيف والقد الرهيف ، وتسبغ على هذه الانثى ملامح الرقة واللين والنعومة ، وتهيء لها الاسباب والكفاءة والمقدرة على افراز الحليب كما في الثدييات . او تكوين البيض كما في الطيور والزواحف وغيرها او افراز الحرير او بناء خيوط العنكبوت وغير ذلك من الافعال المتخصصة التي تقوم بها الاناث لوحدها او مع الذكور . فهذه الهرمونات الانثوية تقوم بنفس التأثيرات والأفعال في كل اناث الكائنات الحية .

واما هرمون النمو فهو يعطي للكائن الحي المقدرة على النمو الطبيعي وزيادة عدد الخلايا في جسمه ضمن الحدود المرسومة من قبل المورثات . وهذا الهرمون تتفاوت كميته في الكائنات الحية حسب الحاجة الى النمو الضئيل او العملقة المفرطة . ولكن المهم في الموضوع هو وجود هذا الهرمون في كل كائن حي ينمو ويتطور من مرحلة الى اخرى كانتقال الحشرة من مرحلة اليسروع الى الشرنقة فالفراشة ، او تدرج الطفل من طور الرضاع الى الفطام الى الطفولة فالصبا فالمراهقة والشباب والكهولة والهرم والشيخوخة . فمراحل الحياة المختلفة وتطوراتها اللازمة لكل كائن حي سواء في المرحلة الجنينية او ما بعد الفقس والولادة كلها تحتاج الى هرمون النمو ليتوائم النمو والتطور الفردي Ontogeny ويتناغم في مسيرة واحدة توصل الكائن الحي الى هدفه في الحياة .

وليس من شك في ان هنالك هرمونات متخصصة لا توجد الا في بعض الكائنات الحية دون سواها . وهذا بالطبع لا يلغي القاعدة الاساسية في وحدة الخلق . فمن الطبيعي انه كلما ارتقى الكائن الحي درجة في السلم الحيواني ازداد تعقيد انسجته وتعمق تخصص خلاياه . ولذا يتساوق الامر بشكل مطرد في زيادة الهرمونات وتخصصها . فنحن نجد ان الانسان يمتلك اكبر تجمع واعظم تخصص في عدد الهرمونات ووظائفها وأنواعها . وهذا عائد الى كمال انسجته وخلاياه وايغالها في التخصص والتعقيد .

● **الانزيمات والخمائر :** وكذلك تشترك الكائنات الحية في امتلاكها الانزيمات متماثلة في وظائفها كدليل اخر على وحدة الخلق . فهناك مثلا انزيم التربسين المسؤول

عن تفكيك وهضم الببتيدات والبروتينات الى احماض امينية في القناة الهضمية للكائنات الحية . فهذا الانزيم نجده في النقاعي المهدب (البراميسيوم) وهو من الاوليات ذات الخجيرة الواحدة وكذلك في الانسان قمة الاحياء كمالاً . وبالاضافة الى التربسين نلاحظ الانزيمات المختلفة المسؤولة عن استقلاب البروتينات والدهون والسكريات والانزيمات الوسيطة في عمليات التنفس والاطراح والافراز وفي افعال الخلايا وتأثيراتها على الجهاز العصبي والخصائص الغريزية ـ وهي تربط بين مختلف مراتب الكائنات الحية وانواعها المتباينة .

● **التشريح وعلم الهيئة** : قد لا تبدو لاول مرة ـ لدى غير المتخصص ـ وحدة الخلق جلية واضحة في تشريح الاعضاء المختلفة للانواع الحية . غير ان المدقق والمتعمق في هذا الموضوع يلاحظ انه على الرغم من التفاوت الكبير بين هيئات الانواع الحية فهنالك حالة التناظر في جسم العضوية الحية . فبدءا من عويلمات عديدات الخلايا نلاحظ التناظر في البنية التشريحية للكائن الحي بحيث يتماثل الشق الايمن منه مع الشق الايسر بصورة عامة بغض النظر عن بعض التفاصيل الجزئية المتباينة والتي لا بد منها من اجل تمايز الكائن الحي واستقلاليته الخاصة . ففي الديدان الحلقية كالعلق الطبي مثلا نجد التناظر الجيد في كل حلقة من حلقات الجسم . وعند تشريح العلقة نلاحظ الكليات (الكلى) التي تقوم بوظيفة اطراح البول ونواتج الهدم متواجدة على الجانب الايمن والايسر من كل حلقة من حلقات الجسم . وبالقرب من هذه الكليات تتوضع الخصى على الجانب الايمن والايسر من الحلقة في تناظر واضح جلي . واما في الحشرات فالتناظر موجود ايضا سواء في الاجنحة أو العيون أو في ازواج الارجل والفكوك وقرون الاستشعار . ولو ارتقينا درجة اعلى في سلم الاحياء الحيوانية لوجدنا التناظر رائعا في تناسق الاعضاء جليا في وضوحه لدى الفقاريات عموما والثدييات بشكل اخص .

فالرأس المركب على جذع الجسم يحمل اعضاء تتصف بخاصية التناظر التشريحية . فهناك الوجنتان والحاجبان والعينان والفكان وفتحتا الانف (او المنخران) وزوجا الرموش والاذنان والقرنان (كما في ذوات القرون كالابقار والاغنام والغزلان والماعز والجاموس وغيرها) . ويستمر التناظر التشريحي متناسقا متناغما في الجذع ايضا . فهناك الكتفان وعظما اللوح ونصفا القلب والرئتان وما يتفرع عن كل منهما من شرايين واوردة تحقق معجزة التناظر بشكل اخاذ فمنها يسرى ومنها يمنى . ونجد الجنبين او الخاصرتين والكليتين والحالبين والثديين كما في الانسان والقرود او صفا الاثداء المتناظرة كما في الكلاب والقطط والخنازير وغيرها . او الضرع الذي ينقسم الى نصفين متناظرين ايضا ايمن وأيسر كما في الجاموس والاغنام والابقار والابل . ونجد المبيضين في اناث الفقاريات عموما والثدييات خصوصا . والخصيان في ذكورها . وهكذا .

● **علم الاجنة** : يتماشى علم الاجنة كدليل جديد على وحدة الخلق مع ما سبقه من ادلة اخرى مقنعة . فكل الكائنات الحية عندما تتناسل بالطريقة الجنسية ينشأ عن تلاقحها بيضة مخصبة تتوالى فيها الانقسامات الخلوية بسرعة مدهشة كي تحث الخطا نحو انشاء الجنين وتمايز اعضائه وخلاياه . وتكون هذه الانقسامات متشابهة في تعقيدها ، متدرجة في تخصصها مع رقي الكائن وتطوره . فأجنة اللافقاريات عموما كالديدان ومفصليات الارجل وشوكيات الجلد وغيرها تتماثل في طريقة انقساماتها ونوع الخلايا والوريقات التي تنشأ منها الاجهزة والاعضاء والانسجة المختلفة . اما في الفقاريات كالاسماك والبرمائيات والزواحف وغيرها فالتماثل في طريقة تشكل الاجنة واضحة جلية للعيان والتخصص ارقى واعلى . اذ يكون الجنين في بداية علوقه وتشكله عاما لا يمكن تمييزه ولا معرفة انتسابه الى اي من الفقاريات ، هل هو من الاسماك ام من الثدييات ام من الطيور ام من الزواحف ؟ ثم يسير هذا الجنين قدما في تطوره وتمايزه ليصبح معروف النوع يمكن انتسابه الى طائفته . فهو جنين انسان او جنين طير او جنين عظاية أو جنين ضفدع وهكذا . ثم يزداد وضوحه وتطوره فيعرف انتسابه الى سلالته وعائلته . وفي النهاية يكتمل للجنين خصائصه ومزاياه ويتفرد عن غيره من الاجنة بفضائل تبعده عنها باختلافات بينة للغاية .

وغني عن التعريف ان هنالك اجهزة واعضاء قد تشكل في بداية المرحلة الجنينية ولكنها قد ترتشف وتضمر اذا انعدمت الحاجة اليها وكانت متناقضة مع متطلبات النوع ، كنشوء الغلاصم (منطقة الحنجرة) في اجنة الزواحف والطيور والثدييات في مرحلة مبكرة من الحياة الجنينية ثم ارتشافها في وقت لاحق .

● **التكاثر والتناسل** : عندما نستطلع العمليات الجنسية الجارية في مختلف الكائنات الحية وما يرافقها من انقسامات وتشكيل اعراس وافراز هرمونات تبهرنا وحدة الخلق المتجلية بين الانواع وفيما بين الجنسين الذكري والانثوي . فنشوء الاعضاء الجنسية الانثوية والذكرية

يحصل من خلايا جنينية واحدة ولكنه يطرأ على الخلايا الجنسية في الذكر طاريء معين (هو امر وراثي من الصبغيات الجنسية التي يمتلكها الكائن وهيمنة هرمونية من الحاثات الذكرية) تسبب اتجاه تلك الخلايا نحو الوجهة الذكرية . وفي نفس والوقت يصيب الخلايا الجنسية في الانثى حافز معين (وهو امر وراثي من الصبغيات الجنسية أيضاً وسيطرة هرمونية من الحاثات الانثوية) يسوق تلك الخلايا صوب الوجهة الانثوية . ومع ذلك نجد التشابه النسبي في بنية الاعضاء المكونة للاجهزة التناسلية . ففي الذكور تتشكل الخصيان (وقد يكون عددها اكثر من ذلك) يقابلها في الانثى المبيضان . ثم تتشكل القناة المنوية الدافقة وما يرافقها من غدد ملحقة وفروعات بسيطة في الذكر يواجهها في الانثى تكون القناة البيضية وما يطرأ عليها من تحولات بسيطة لتشكل البوق والرحم والمهبل وبعض التخصصات اللازمة لكل كائن حي له استقلاليته وتفرده النوعي .

وتتناغم وحدة الخلق الواحدة فيما بين الانثى والذكر في كل الكائنات الحية في موضوع تشكيل الاعراس التناسلية ايضا . فالمبيض يقوم بتكوين البويضات الناضجة الجاهزة للاخصاب بعد ان تمر باطوار النمو والانقسام والنضج . وتنتقل فيها الخلايا الجنسية من مرحلة الخلايا البيضية الامية الى الخلايا البيضية الاولية ، التي يطرأ عليها انقسام منصف يختزل عدد الصبغيات في الاعراس الى النصف من اجل ان تمتلك البويضة نصف العدد الصبغي المقرر للكائن الحي حتى اذا قدر لهذه البويضة ان تلتقي مع عريسها (النطفة الذكرية) المحتوية على نصف العدد الصبغي ايضا يعود هذا العدد الى وضعه الاصلي الذي قرر له منذ بدء خليقته . والانقسام المنصف رائع في اسلوبه ، معجز في اسبابه ودوافعه ، مدهش في غاياته واهدافه . فهو يقع في لحظة معينة ولا يتكرر اكثر من مرة لانه لو حصل التكرار سيقع الاختلال في العدد الصبغي فسبحان مقدر الخلائق ، منظم الاحياء . وبعد ذلك تنتقل هذه الخلايا الى مرحلة الخلايا البيضية الثانوية ثم تتشكل الطليعة البيضية التي تتحول الى بويضة واحدة ناضجة قادرة على تغذية الجنين وتأمين مسيرته في الحياة واستمرارية النسل .

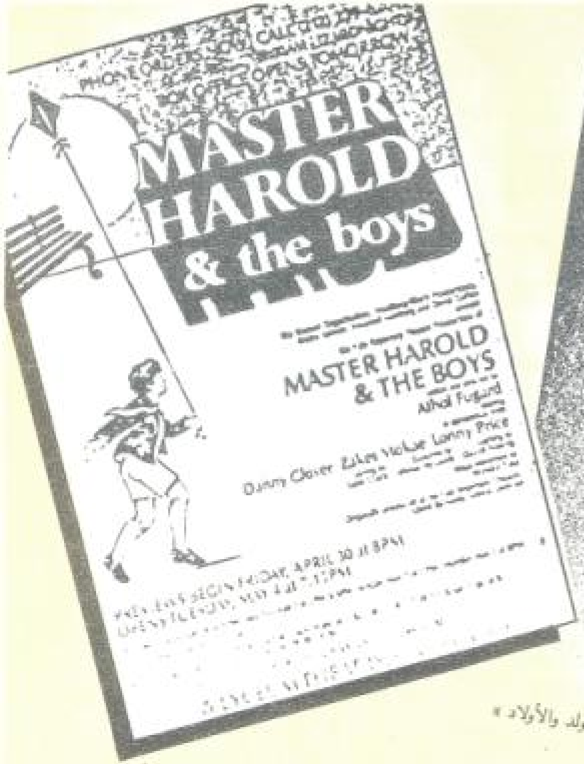
اما في الذكر فنشاهد نفس المراحل ذاتها بالضبط ، ونفس موقع الانقسام المنصف ذاته ايضا ، حتى تنتهي الى الاعراس الذكرية . اذ تقوم الخصية بتشكيل النطاف الجاهزة للاخصاب بعد مرورها بمراحل النمو والانقسام والنضج ايضا ، وتنتقل فيها الخلايا الجنسية من مرحلة الخلايا المنوية الامية الى الخلايا المنوية الاولية التي يقع فيها الانقسام المنصف بحيث يختزل عدد الصبغيات الى النصف ، ثم تتشكل الخلايا المنوية الثانوية ، فالطلائع المنوية التي يطرأ عليها تحولات فيزيولجية وشكلية يعطيها شكل النطفة المعروف كالرأس والرقبة والذيل المتحرك والسباحة في السائل المنوي .

أليس هذا التماثل المبدع اعجازا يدل على الروعة والتناسق والنظام وانتفاء الخلل والفوضى على الاطلاق ويشير اشارة لا لبس فيها ولا غموض على وحدة الخلق في الكائنات الحية . ■■

حلب ـ د . محمد مروان السبع

من حدائق أمثالنا الشرقية

- بحب الأوطان عمرت البلدان
- التائب من الذنب كمن لا ذنب له .
- بين الأب والابن كلمة الرحمة .
- تمام التحية الأخذ باليد والمصافحة باليمين .
- حرية الانسان أفضل من حياته .
- حسن النية خير من خبث الطوية .





آثول فوجارد مؤلف ومخرج « السيد هارولد والأولاد »

السيد هارولد والأولاد

مسرحية جديدة لاثول فوجارد

بقلم الدكتور : خالد المبارك

هذا الكاتب «الأبيض» في حاجة إلى اهتمام أكبر في العالم العربي ، لأن التشابه بين قضية أصحاب الأرض في جنوب أفريقيا وأصحابها في فلسطين لا تحتاج إلى تأكيد .

كتبت عام ١٩٧٥ مقدما أثول فوجارد ، الكاتب الأبيض من اتحاد جنوب أفريقيا ، وأشرت (في جريدة « الصحافة » السودانية) الى أنه حورب في وطنه لمعارضته للتفرقة العنصرية ، إذ سحب جواز سفره ثم أعيد ، ومنع من تقديم مسرحيات يشاهدها جمهور مختلط من البيض والسود وأوقفت السلطات عرض عدد من مسرحياته . وواصل أثول فوجارد العمل رغم قوله آنذاك : « الموقف يتسم بالشذوذ ويصير أكثر خطورة ، وأتوقع أن يتدهور الموقف أكثر مستقبلا . إنني متشائم في هذا الصدد . » ولخصت يومها اسلوب فوجارد في التأليف المسرحي ، وهو : « البداية بالارتجال حول فكرة معينة ثم التوصل الى النص النهائي قبل تقديم العرض الأول . »

اتيحت لي الآن الفرصة لحضور خطوة مهمة في تطور هذا الكاتب المسرحي الفذ ، اذ قدم من جنوب أفريقيا لكي يخرج بنفسه العرض الأول لمسرحيته الجديدة : « السيد هارولد ، والاولاد » وهي أول مسرحية له يتم عرضها الأول خارج وطنه . كان يصر في الماضي على أن ترى مسرحياته النور في جنوب أفريقيا أولا قبل أن ينقلها للخارج وينشرها في الخارج . سئل أثول فوجارد عن سبب عرض المسرحية بالخارج فقال لمندوب « الصحيفة الجديدة » الدكتور هاينرش فون ستاون : « هذه أول مسرحية لي منذ أربعة وعشرين - هي عمري المسرحي - يتم عرضها الأول خارج جنوب أفريقيا . ومن الأسباب التي دعت الى ذلك وجود عناصر في « السيد هارولد والأولاد » لا يمكن أن تسمح بها الرقابة في جنوب أفريقيا » .

الموضوع : تتناول المسرحية الصداقة بين تلميذ مراهق أبيض هو هارولد وبين اثنين من السود هما سام ويلي ، وكلاهما يعمل نادلا (جرسونا) في مقهى « سانت جورجز بارك » الذي تملكه وتديره والدة هارولد . تجري حوادث المسرحية عام ١٩٥٠ ببورت اليزابيث في دولة جنوب أفريقيا العنصرية . الفتى هارولد في السابعة عشرة من عمره ، وهو متوتر فوالده مقعد وسكير يصطدم على الدوام بوالدته ويجد الفتى نفسه مسحوقا بين شقي الرحى . كان هذا حاله منذ طفولته الأمر الذي جعله يبحث عن الود والحنان وعن « صورة الأب » فلا يجد بغيته الا عند « سام » البسيط المضطهد . لاحظ سام حالة الطفل وصمم أن ينقذه أو يساعده ما استطاع . أخذ التلميذ يعلم النادل نفس الدروس التي يتلقاها في المدرسة يوما بيوم وشرع سام في حمل الوالد السكير الى البيت وفي عمل طائرات الورق للطفل واصطحابه للنزهة ، ولكن الأم حاولت أن تضع حدا لصداقة ابنها الأبيض مع النادل الأسود الذي تعتبره أقل من البيض عنصريا ، والذي يسكن في جناح الخدم بالمنزل فلم تفلح . ويسخر هارولد في المسرحية من والده الكسيح ويطلب من والدته - بالتلفون - أن تتركه بالمستشفى وترشو المسؤولين لكي يؤخروا خروجه ، والسبب أنه قد أصبح يصاب بالقرف من « حمل » القصرية « المليئة بالبصاق والبول والبراز . . وعندما يعلم من والدته ان الأب سيعود للدار من المستشفى يصرخ في التليفون : « انني احذرك ، سأترك لكما الدار عندما تعودان إلى الشجار » . . ويقول ان الخلاف المستمر بين ابويه قد : « أحال حياتي جحيما » .

السيد هارولد !

يغضب سام عندما يسمع الولد يتحدث بسخرية وتقزز عن والده فيزجره قائلا : « اخرس ! انك تتحدث عن أبيك ! » يفاجأ هارولد ويشعر بخزي شديد ولكنه لا يعترف بذلك فيصب غضبه على سام قائلا : « لاتتدخل فيما لا يعنيك » ثم يذكر أن والدته طالما حذرته من « رفع الحواجز » معهما ، وهي صادقة في ذلك وعلى حق ! ثم يأمر سام بأن يعرف مكانه ويلزم حدوده وأن « ينظف المقهى ويخدم الرواد » لأن هذه هي مهمته التي ينال اجرا لها دائما . ثم يطلب إلى سام بأن يخاطبه بقوله : « السيد هارولد » وليس « هالي » اسم المودة الاسرية . ثم يواصل إغاظته فيحكي نكته عنصرية رواها والده عن مؤخرات السود ، فيتصدى له سام ذاكرا أن الأمر ليس مسليا ويفحمه بأن يستدير فجأة ويجذب البنطلون الى أسفل فتبدو - للحظة خاطفة - مؤخرته عارية ويسأل ان كان منظرها مضحكا ؟ ! ويحرج هارولد ولكنه بدلا من الاعتذار يتمادى في غيه فيبصق في وجه سام الذي يهم بان يضربه لولا تدخل « ويلي » الذي يقول انه « مجرد ولد أبيض صغير » .

يهدأ سام ولكنه يقول لهارولد : « انك جبان يا سيد هارولد ، فالوجه الذي ترغب ان تبصق عليه هو وجه والدك . غير انك وجهت البصقة إلى وجهي أنا لأنك تحسب ان لونك الأبيض يضمن لك الحماية » .

ويرقص على النغم !

وقبل أن تنتهي المسرحية يواجه سام هارولد مرة



السيد هارولد وويلي

أخرى ويقول له : « انك تشعر بالخجل من اشياء كثيرة ، وبدءا باليوم فسوف تشعر بالخجل من نفسك أيضا » ثم يخبره بأنه كان قد عاهد نفسه أن يساعده على ان يشب سليما غير ملوث بالعنصرية ولا العقد . ويعبر عن أمله أن تعود العلاقات بينهما لسابق عهدها قائلا : « لا حق لي في أن ارشدك لكي تتصرف كرجل ، فانا نفسي لم أضرب المثل الحسن لذلك » ، يشير الى انه قبل وتحمل البصقة دون رد فعل خوفا مما كان سيحيق به لو ثار لكرامته .

يخرج هارولد وهو متشكك في امكانية استرداد الثقة بينه وبين سام . وتنتهي المسرحية بأغنية للينا هورن تقول :

« كف عن البكاء ايها الولد الصغير
لقد سرق أحدهم عربتك اللعبة
كف عن التحيب أيها الولد الصغير
فقد كان يومك عصيبا »
ويرقص ويلي وسام على الانغام .

تعليق على النص :

لم ينشر النص بعد ، غير أني اطلعت على نسخة المسرح المحفوظة بمكتبة جامعة ييل بمدينة نيوهيفن (على بعد تسعين دقيقة شمالي نيويورك) . والجامعة هي التي استقدمت أثول فوجارد واستضافته ليخرج المسرحية على مسرح فرقتها وهو المسرح الرئيسي في المدينة كلها . وأستطيع ـ بعد مطالعة النص مرة واحدة ـ ان أقول أنه خطوة الى الأمام بالنسبة للكاتب في أكثر من ناحية :

أ ـ لا ينحصر مغزى النص في جنوب أفريقيا وحدها ولا في الصراع بين السود والبيض بها ، بل يتحول هذا الصراع الى صورة مكبرة للخلافات الأسرية من ناحية والى صورة مصغرة للصدامات الدولية من ناحية أخرى . فالفتى يوجه سخطه الأسري نحو الأجير الأسود العاجز عن الرد بسبب القهر العنصري المسلح . والحديث عن الصدام على حلبة الرقص يقود سام لأن يقول لهارولد ان الرقص المتقن بديع « لاننا نريد وتتمنى أن تكون الحياة مثله » ثم يخبره أن الدنيا كلها صدامات أمه تصطدم بوالده وأمريكا تصطدم بروسيا ، وتصطدم انجلترا بالارجنتين ، لا يذكر صدام الأبيض والأسود ، فالمشاهد يراه على الخشبة .

وهكذا فان المسرحية تشمل نطاقا أوسع من التفرقة العنصرية ، وتتحول الى تأمل في التناسق والتنافر في المجتمعات الانسانية .

ب ـ من سمات مسرحيات أثول فوجارد الاستناد إلى الحوار السلس والمواقف المتصاعدة الحدة والبناء الدقيق للشخوص . وهو يحتفظ في هذا النص بكل هذه الخصائص التي جعلت منه كاتبا مسرحيا مرموقا في وطنه وفي العالم اجمع ، غير انه يزيد عليها افادته من « الصور المسرحية » أو « الاستعارة المسرحية » .

الطائرة الورق

فالمسرحية تبدأ باستعداد « ويلي » لمنافسات الرقص السنوية ، وشكواه لسام من « هيلدا »

زميلته في الرقص الثنائي ، فهي لا تحضر للتمرين وتخص غيره بحبها ، يستمر الحديث عن الرقص بالمستوى الواقعي غير انه يكتسب بالتدريج بعدا آخر هو التعبير عن الوئام والصدام .

هناك أيضا حديث سام عن طائرة الورق التي صنعها لهارولد عندما كان طفلا ، يتسع معناها بالتدريج حتى تصير من روافد « النص الثاني » التحتاني ، اذ يشرح سام لهارولد أنه لم يجلس معه بعد أن حلقت طائرة الورق لأن المقاعد كانت مخصصة « للبيض فقط » . وفي ختام المسرحية يعبر عن رغبته في استرداد الثقة بقوله : « نحاول مرة أخرى أن نصنع طائرة ورق ، ونرسلها في الفضاء . » وهكذا يتحدثان أيضا عن طائرة الورق ويقصدان التفرقة العنصرية ونتائجها . يقول هارولد : « لقد قلت لي ان طائرة الورق لا يمكن أن تحلق في اليوم الممطر ، واليوم ممطر .

سام : ماذا تفعل اذن . تنتظر الجو الأفضل ، غدا ؟

هارولد : لا ادري . . »

والشك في امكانية استمرار الصداقة بين الأبيض والأسود في ظروف يسود فيها القهر العنصري له ما يبرره . اذ أن الدلائل تشير الى أن السود ـ في واقع الحال ـ لا يقبلون بصفقة المجتمع في وجوههم وان الصداقة الحقيقية لا يمكن أن تكتمل الا مع التكافؤ . ولعل هذا هو ما جعل أثول فوجارد يشك في السماح له بتقديم المسرحية في جنوب أفريقيا .

جـ ـ كان فوجارد يفضل في الماضي أن يستند على الارتجال ، ثم يسجل النص في النهاية وهو في هذه المرة يبدأ بنص مكتوب سلفا . أي أنه يجرب ولا يتمسك باسلوب مسرحي واحد أو طريق واحد .

لنكولن ونابليون

النص عالمي المضمون . . وهو يشك في كيان علاقات « السيد والمسود » ، اذ يبين النادل الأسود المضطهد كرجل حكيم يستحق التقدير لخلو قلبه من الحقد على البيض . وهو ـ وان يكن بعيدا عن التمرد والثورة ـ لا يقبل أساس التفرقة العنصرية ويردد ما يجده في كتب هارولد عن ابراهام لنكولن وعن أن نابليون « اعتبر كل البشر سواسية أمام القانون واراد لهم أن يتمتعوا جميعا بفرص متساوية » . سام مغلول اليدين ولكنه طليق الجنان ، وهو أكثر مساعدة لهارولد من والديه ، بل هو والده فيا يتصل بالتربية والاكتواء بصورة المراهقة .

❊❊❊

إخراج مسرحية كهذه بصورة محكمة ليس أمرا يسيرا ، فيها ثلاثة أشخاص فقط سام وويلي ثم هارولد ويبقى ثلاثتهم على الخشبة تسعين دقيقة هي طول العرض . يأتي صوت الأم أكثر من مرة عبر التليفون ولا يغير في صعوبة شد الممثلين الثلاثة انتباه النظارة الى الخشبة التي لا يتغير فيها المنظر فيتيح فرصة للتنويع البصري أو لتشكيلات جديدة . اختار المخرج ـ المؤلف أن يقدم العرض دون استراحة فحدد بذلك اسلوبه وهو التركيز المتصل في نفس واحد ممتد .

نفذ فوجارد الاخراج بدراية وخيال غير انه آثر أن يبتعد عن المؤثرات المسرحية المشروعة فحرم العرض من فرصة التجسيد الأعمق والأكثر فعالية للمواقف . ففي العرض الذي شاهدته يوم السبت ٣ ١ مارس ١٩٨٢ نجده قد فصل ـ مثلا ـ ألا يبين أي أثر خلال الحائط



سام وويلي

الزجاجي للجو الممطر ، مع أن الجو الصحو والممطر من مقومات الاشارات المبثوثة في النص للحديث المجازي عن المستقبل وعن التفرقة العنصرية كما اختار أن يترك الصور المسرحية مخبوءة تحت السنة الأشخاص تظهر عندما ينطقون فقط ، أي أنه احتفظ بها « لغوية » ولم يدعمها من زاوية نظر الاخراج بلوحات على الجدار أو أصوات من المذياع أو غير ذلك . ويخيل الي انه استنفد شحنته الابداعية في تأليف النص ثم جاء الاخراج بعد الكتابة مباشرة فلم تستفزه المهمة الى معالجة جديدة خلاقة . كان النصف الأول من العرض بطيء الايقاع والبطء لا مفر منه أحيانا عند ارساء دعائم العرض ، غير أنه اذا فات حده يقود الى قطع الصلة بين الصالة والخشبة ، والى كسر تركيز النظارة . هذا لا يعني أن الاخراج كان رديئا ، ولكنه يعني أنه لم يستخلص كل الامكانات المستكنة في النص ، ربما لأنه لم يقدم نظرة بعينين جديدتين .

أستاذ في التمثيل

زاكس موكا ـ الذي مثل دور سام في المسرحية ممثل ناضج الموهبة واسع الخبرة ، ولد ونشأ في جوهانسبرج ثم هجرها وأحرز نجاحا ملموسا في المسرح والسينما في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا . بدأ التعاون مع أثول فوجارد قبل أن يغادر بلاده إذ شاركه في تأسيس « غرفة التدريبات » المسرحية ، ومثل في أول مسرحياته . وقد درس التمثيل بالاكاديمية الملكية بلندن ، وعمل استاذا للتمثيل في الولايات المتحدة بجانب مساهمته العملية فيه .

أفلح زاكس موكا في تصوير سعي سام الداخلي لأن يعتز بانسانيته وكرامته رغم القهر الذي يكفي لتشويه انقى النفوس . كما أفلح في تصوير ادراكه لوجه شبه بين حاله وحال الطفل الأبيض البريء الذي تقهره الأسرة ويكتم انفاسه هواؤها الفاسد . نجح الممثل في تنويع الاداء فانتقل في يسر ممتع من التسلية بتعليم « ويلي » الرقص الى الحزم مع الفتى الأبيض ، الى الغضب عندما بصق الفتى على وجهه ـ شمل التوتر ساعتها كل جسده وليس وجهه فقط . كما تسق الحركة مع المعنى فأسرع في خطواته حينا وابطأ حينا حتى بدا وكأنه يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا عندما بدأ يخاطب الفتى بـ « السيد هارولد » لأول مرة ، اذ فقد عندها أثره على « ابنه » وصارت حركته جنائزية . ولولا براعة المستر زاكس في التمثيل لصار الجزء الأول من المسرحية ثقيلا على النفس .

أما دور « ويلي » فقد قام به الممثل الأمريكي الأسود داني جلوفر وجاهد كي يرتقي الى مستوى زاكس موكا وأفلح بالذات في مشهد تعلم الرقص والمشهد التالي للبصقة .

مثل دور السيد هارولد جلجكو ايفانك الذي ولد بيوغوسلافيا وتخرج في مدرسة لندن للموسيقى والفنون المسرحية وفي جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية ـ وهو ممثل صاعد النجم ساعده حجمه الدقيق على اتقان دوره العسير الذي يستلزم فهما وعرضا لتناقضات وتعقيدات الشخصية المراهقة . فهارولد في فترة تكوينية شاقة والمؤثرات التي تتجاذبه قوية تكاد تمزقه في أكثر من اتجاه . عبر الممثل بطبقات صوته المختلفة وقفزاته المفاجئة وتقلص قسمات وجهه عن التيارات التي تفور في صدره المراهق ، عن الحيرة وعن التطلع الحقيقي لتفسير مشاكل الأسرة وفهم العالم الخارجي . وهو يخرج في نهاية المسرحية محتارا ، لا ندري ان كان سيتراجع عن الجلوس على المقاعد المخصصة « للبيض فقط » عندما يكبر أم سيتحول الى أحد مواطني النظام العنصري المؤيدين .

. . والخلاصة

كان العرض ناجحا ، برهن مرة أخرى على أن اختيار المخرج للممثل المناسب من أهم واجباته اذ سد هؤلاء الممثلون الثلاثة أية فجوات في الاخراج ولم يقدموا عروضا منفردة جيدة بل عرضا مشتركا متسق التفاعل . والتمثيل المتقن ـ كالرقص المتقن ـ بديع الأثر لأنه كناية عن التناغم الذي نحلم به للانسانية .

لا ريب أن هذه المسرحية ستجد طريقها الى عدد كبير من المسارح العالمية . وقد تلفت الانظار في الولايات المتحدة لأن آثار التفرقة العنصرية غير الرسمية لا تزال ملموسة في هذه البلاد ، رغم التقدم الذي احرزه السود ، ومناسبة اخراج المسرحية تجعلنا ننادي مرة أخرى بالتعاون بين الجامعات العربية والمسرحيين العرب والأجانب لتطوير المسرح في الأقطار العربية ، وأثول فوجارد ككاتب يحتاج لعناية أكثر في الوطن العربي فالتشابه بين أصحاب الأرض في جنوب أفريقيا وأصحابها في القضية الفلسطينية لا يحتاج لشرح أو تأكيد .

نلخص من كل هذا الى أن أثول فوجارد أكد مكانته العالمية بهذه المسرحية الجديدة . ●

خالد المبارك

نيوهافن ـ الولايات المتحدة الأمريكية

أرقــام

ديون الفقراء ومشورة الأغنياء !

بقلم : محمود المراغي

تمثل الارقام في بعض الاحيان : مفترق طرق . يبرز هنا او هناك رقم يلخص الكثير ، ويتحكم في الكثير .

من هذه الارقام ما بدأ يتردد طوال السنوات الاخيرة حول موازين المدفوعات .. او ميزان الحسابات الجارية للدول النامية ، والتي تحدد الموقف المالي لكل منها مع العالم الخارجي .

في الماضي ، كان الاقتصاديون يقرءون هذه الارقام دون انزعاج شديد .. فهنا عجز ، وهناك فائض ، عام تتوازن فيه حسابات مجموعة دولية .. وعام لاتحقق فيه هذا التوازن .. وفي كل مرة يجري تحليل الاسباب التي كثيرا ما تكون محلية او عارضة .

في السبعينات : اختلف الامر .

اصبح العجز ظاهرة تضم معظم البلدان النامية .. واصبح للظاهرة جذور مشتركة معروفة .. بل واصبح للعلاجات الموصوفة سمات تكاد تتفق .

استيقظ العالم والنفط يرتفع سعره اربع مرات في نهاية ١٩٧٣ وبداية ١٩٧٤ . ارتفعت بعده اسعار السلع الصناعية .. فاستوعبت بذلك دول الشمال الصدمة وتجاوزتها خلال عام واحد .. وبقيت الدول النامية تدفع للاثنين :

زيادة ـ بقدر ما تستهلك ـ لفاتورة النفط

وزيادة غير محددة لسلع صناعية وزراعية .

في نفس الوقت ، لم تكن هذه الدول بقادرة على ان تزيد مواردها بنفس السرعة او النسبة .. فاتسعت ثغرة الموارد ، وزاد ما نسميه العجز الجاري .

وتشير ارقام البنك الدولي الى ان عجز الحساب الجاري للدول النامية المستوردة للنفط قد ارتفع من (٨٫٦) ثمانية مليارات وستة أعشار من المليار من الدولارات عام ١٩٧٠ .. الى (٦٩٫٦) تسعة وستين مليارا وستة أعشار من المليار عام ١٩٨٠ .

ارتفع العجز نحو ثماني مرات في عشر سنوات .. والاخطر انه قد اصبح عجزا مزمنا : يتكرر ويتزايد ويتفاقم . والاكثر خطورة ان ذلك سوف يستمر ، وتذهب توقعات البنك الدولي الى ان رقم العجز سوف يتراوح بين (١٣٠ ـ ١٧٣) مليارا عام ١٩٩٠ .. اى ان عجز عام واحد في نهاية الحقبة الحالية قد يساوى عجز عشرين عام بمقياس عام ١٩٧٠ .

قد يظن البعض انها زيادة زائفة ، فمع التضخم تقل قيمة النقود .. وتصبح الارقام الضخمة ذات دلالة محدودة ، ويصبح القياس المجرد .. خاطئا بالضرورة .

ولاشك ان للتضخم اثره . . ولكن الصحيح ايضا ، وهو ما تثبته الارقام انه بحذف عنصر التضخم تظل الظاهرة قائمة ، والتزايد واضحا .

وقد اجرى البنك الدولي محاولة لقياس تزايد العجز بعيدا عن اثر الاسعار ، فاتخذ من عام ١٩٧٨ اساسا ، ووحد الاسعار على هذا العام فكان رقم العجز عام ١٩٧٠ (بعد التعديل السعرى) : (١٨٫٥) ثمانية عشر مليارا ونصف مليار . . وكان رقم ١٩٨٠ : (٥٣) مليارا .

كذلك جرت محاولة اخرى للقياس ، وهو تحديد الاهمية النسبية قياسا على الناتج القومي . . وكانت النتيجة ان العجز يساوي ٢٫٤٪ من الناتج القومي للدول النامية (في عمومها) عام ١٩٧٠ . . ويساوي ٤٫٤٪ من هذا الناتج عام ١٩٨٠

الظاهرة اذن حقيقية ومخيفة

وقد استجبنا لها ـ كعالم ثالث ـ بالمزيد من الاعتماد على الخارج : معونات ـ قروض ـ استثمارات .

وعندما بدأت الظاهرة علت صيحات عدد من المنظمات الدولية التي يتحكم فيها الاغنياء : المطلوب تغيير في السياسات الاقتصادية ، بحيث يمكن جذب رؤوس الاموال لهذا العالم الفقير . ان تدفقات خارجية اكثر قد اصبحت طوق النجاة

واستجاب الكثير من دول العالم الثالث لهذه الشورة : فتحت الابواب . حررت التجارة والاقتصاد . سنت القوانين لتسمح بتدفقات اكثر . .

ولكن . . في نهاية الحقبة بدت الحقيقة واضحة ، فالا ستثمارات لم تأت الا بقدر محدود للغاية . . والقروض قد احتلت نصيب الاسد .

اصبح العالم الثالث اكبر مدين في التاريخ ، بالقياس لحجم اقتصاده ، وبلغ مقدار الدين غير المسدد للدول النامية المستوردة للنفط : (٣٠١٫٣) مليار دولار في نهاية ١٩٨٠ . . مقابل ٤٨ مليارا فقط عام ١٩٧٠

كذلك ، أصبح للقروض ميكانيكيتها الخاصة . . فهي تأتي لسد عجز طاريء . . ثم تأتي لسد عجز شبه دائم يتزايد مقداره بتزايد عبء الديون . . وفي كثير من الاحيان لايكاد الاقتراض الجديد يغطي التزامات الاقتراض القديم ؟

في نفس الوقت : تغيرت طبيعة الديون ، فاصبحت بشروط أسوأ . . وتجارية اكثر . . مما يسمح بتضاعف الحجم وانكماش الاثر على النمو .

والأخطر : احتمالات الثمانينات ، والتي تثير قلق المنظمات الدولية بما تراه من عجز متوقع في التمويل . . (بالقدر المطلوب ، والشروط المرجوة) .

انها ازمة القروض والتي بدأت بازمة العجز في حسابات جارية .

والآن العجز أصبح مزمنا ، ولأن محاولات التكيف والاعتماد على الغير لم تحل إشكالاولم تزد نسبة نمو ، أو تترك اقتصاديات أكثر صحة .

لأن الامر كذلك أصبح السؤال عند الكثير من الاقتصاديين : هل تشهد الثمانينات سياسات اقتصادية اخرى في العالم الثالث . . أم تتسع دائرة العجز . . من عجز تجاري وحسابي . . الى عجز عن مواجهة المستقبل ، واختيار السياسات الملائمة .

وسوف يظل السؤال ملحا طوال الثمانينات . ■■

التعريب

هل يؤدي حقاً إلى تدهور المستوى العلمي ؟

بقلم : الدكتور فخري الدباغ

أصبح مبدأ تعريب التعليم الجامعي أمراً « مرغوباً » فيه بعد أن أشبع مناقشة وتحليلا . فمن باب الاسهاب والتكرار اعادة ذكر ما تم الاتفاق عليه و القناعة به . . ، وبعد أن برأناه من النزعة أو الاندفاع الانفعالي البحت . . ، وبعد أن ثبتت أسسه الموضوعية والعلمية أيضا .

إلا أن ما يقلق الكثير من المسؤولين وقادة الفكر ورجال التربية والتعليم والبحث العلمي هو ألا يكون تطبيق التعريب « منزلقاً أو ورطة تؤدي بالنهاية الى انخفاض المستوى العلمي للجامعات ، وبذلك نكون قد حصلنا على شيء وخسرنا شيئا أو اشياء أخرى من خلال التسرع أو عدم استكمال النهج والخطة . من أجل ذلك يبرز أمامنا السؤال الخطير الآتي « كيف نحافظ على المستوى العلمي ونحقق عملية التعريب في آن واحد ؟ » . ويعبر هذا التساؤل عن خوف وقلق مشروعين لأن نقاد ومعارضي التعريب (في الكليات العلمية ـ والطبية منها في الأخص) مافتئوا يذكرون انخفاض المستوى العلمي كمبرر لعدم البدء أو حتى التفكير في تعريب التعليم الجامعي ، علما بأن المستوى العلمي تعرض للنقد مسبقا وأشير الى أنه في حالة تهدد بالانخفاض او التذبذب ، وهي حالة ان صحت فعلا فقد حدثت وبدأت قبل عملية التعريب . وانني لا أريد أن اطرح سؤالا تعجيزيا الآن ، لكنني سأطرقه في آخر مقالي هذا . . ، انما أود ان أقول أن أمامنا الآن « فرضية » تقول ان التعريب يؤدي على الأغلب الى انخفاض المستوى العلمي . فاذا اتبعنا المنهج العلمي في النقاش والتحليل لاثبات او دحض هذه الفرضية ، فان أول خطوة يمكن اتباعها في هذا المنهج العلمي في النقاش والتحليل لاثبات أو دحض هذه الفرضية ، فان أول خطوة يمكن اتباعها في هذا المنهج هو أن نفترض كذلك ـ مع المفترضين ! بأن التعريب يحتمل ويمكن أن يؤدي الى انخفاض المستوى العلمي للأسباب التالية :

١ ـ تقيد الطالب الجامعي بالكتاب المقرر العربي وانغلاق فكره أمام المصادر الأجنبية الأخرى .

٢ ـ ويؤدي ذلك به الى إهمال اللغات الأجنبية لعدم حاجته الماسة إليها « مرحليا » . .

٣ ـ عدم مواكبة عملية التعريب لسرعة التطور العلمي والاكتشافات الحديثة . . .

٤ ـ عدم امكانية ترجمة المجلات العلمية والمصادر الكبرى التي تحتاج الى جهود هيئات واساتذة وكادر طباعي في الطبع والترجمة والنشر .

٥ ـ عرقلة الطالب الجامعي ووضع العقبات اللغوية أمامه اذا ما رغب في اكمال دراسته العليا . .

٦ ـ عدم توفر المصطلح العلمي العربي المرادف للمصطلح الأجنبي .

٧ - وكذلك سرعة ظهور مصطلحات جديدة في حالة مستمرة .

٨ ـ توجس ، وربما شعور بالاحباط والعجز من قبل بعض الاساتذة عند تدريسهم باللغة العربية التي لا يحسنونها

كفصحي او علمية دقيقة ، فيعكسون بذلك خلل التعبير وينقلونه الى طلبتهم مرتبكا . .

وكل هذه العوامل بمجموعها ستؤدي بالنتيجة الى انخفاض المستوى العلمي .

علم نفس اللغة

هذه الأسباب الوجيهة التي تخيف وتقلق الحذرين المتأنين تستدعي منا ـ ومن الذين يؤمنون أن لا علاقة وظيفية للتعريب بالمستوى العلمي ـ أن نأتي بالادلة المقنعة التي تنقض وتبدد هذه الافتراضات المنطقية ظاهراً . واني ابدأ خطوة فخطوة لأطرح الأجوبة مع النقاش لأصل الى نتيجة مؤداها ان التعريب شيء والمستوى العلمي شيء آخر ، وأن الرابطة بينهما ليست سببية . . . وأن بالامكان تعريب التعليم الجامعي دون المساس بالمستوى العلمي حسب خطة أو مشروع خطة مطروحة للنقاش :

أولا ـ اذا فهمنا أن تعريب التعليم الجامعي هو استخدام اللغة القومية (أي اللغة الأم) في نقل المعلومات لضمان الفهم السريع والادراك العميق للمقررات الدراسية من قبل الطالب ، استطعنا أن نسقط ونزيل كثيرا من الالتباسات والمغالطات حول عملية التعريب .

فعلم نفس اللغة psycholinguestics يؤيد ان التخاطب والتبادل الفكري التعليمي باللغة الأم أيسر ذهنيا من استخدام لغة أجنبية لأن المصطلح الاجنبي يمر بعملية سريعة من ترجمة عقلية للمفهوم الأجنبي الى المفهوم اللغوي الأصيل (الأم) ، وتتخلل هذه العملية احتمالات الخطأ والسهو والخلل في الفهم الدقيق للمدلول . . . فالأفضل والأسرع في الفهم هو التعليم باللغة الأم .

ثانيا ـ ان الكتاب المنهجي المعرب (مترجماً كان أو مؤلفاً) هو دليل ومؤشر للطالب يقدم له الخطوط العريضة والاطار العام والمعلومات الأساسية عن الموضوع الذي يدرسه ، والمبدأ العام هو ألا يكون الكتاب المقرر المصدر الوحيد للمعلومات حتى لو أبقينا على التدريس باللغة الأجنبية وكان لدينا كتاب منهجي أجنبي . .

ثالثا ـ لذلك فان اول ما يجب أن يعرفه ويؤمن به الطالب والاستاذ على السواء هو عدم اعتبار الكتاب المنهجي المعرب الكتاب الأمثل والأوحد للمادة ، وأن عليهما الاستناد الى المحاضرات والى المصادر والكتب المساعدة الاخرى . ونحن نعرف أن الكتاب العلمي المنهجي في أي تخصص وموضوع يتأخر فعليا عن المعلومات الحديثة بمعدل خمس سنوات حسب التقدير المتعارف عليه في جامعات العالم . .

رابعا ـ ولابد لنا ههنا أن نأتي الى بيت القصيد في العملية التعليمية ـ وهو دور الاستاذ . فالأستاذ الكفء الذي هو في مستوى المسؤولية الجامعية المطلوبة ـ يجب ان يحتل المركز الأساسي وان يكون المحرك الأول في نقل وايضاح المعلومات الحديثة من خلال المحاضرة بحيث يشعر الطالب ان المحاضرة أهم من الكتاب المنهجي ، وان الكتاب متأخر عن المحاضرة في بعض النقاط والمواضع . . . وإلا يصبح من الممكن للطالب ان يجلس في غرفة داره ليقرأ الكتاب المنهجي بدل أن يتعب نفسه بالاستيقاظ المبكر والتزاحم على وسائط النقل ليصل الى قاعة المحاضرات ويصغي الى المحاضرة لولا وجود بعض الدروس العملية التطبيقية والميدانية التي تضطره الى حضور الكلية . .

مواصفات ضرورية في الاستاذ

خامسا ـ وهذا يعني ان الاستاذ الكفء الذي يتقدم على الكتاب المنهجي بمراحل يجب ان يكون ذا مواصفات أساسية تعتبر جواز مروره ورخصة دخوله الى الوسط الجامعي التدريسي . ومن أهم هذه المواصفات : اتقانه للغة أجنبية أو أكثر ، واجادته واستيعابه للغته العربية ،

سادسا ـ وإتقان الاستاذ للغة أجنبية أمر بديهي وموجود في جامعاتنا العربية ، لأن معظم الاساتذة قد أتموا دراساتهم العليا في بلدان أجنبية ، وباستطاعتهم بل من واجبهم أيضا تتبع كل ما يستجد من معلومات في حقل اختصاصهم ونقله الى طلبتهم من خلال المحاضرة . وعليّ ان اذكر حقيقة يؤيدني فيها كثيرون من زملائي الأساتذة الذين حضروا مؤتمرات وحلقات دراسية ودورات علمية داخل وخارج القطر ، كيف ان معظم الاساتذة الأجانب الباحثين يتقنون أكثر من لغة أجنبية ، وكيف يشعر الأستاذ العربي بشيء من الحرج والخجل لأنه يتقن لغة أجنبية واحدة ويرى الأخرين وهم يعرفون ثلاث لغات أو أكثر وقد تصل احيانا الى اثنتي عشرة لغة أجنبية .

سابعا ـ ان تتبع الأستاذ للمعلومات الحديثة يتم أولا « وبصورة أساسية عن طريق الدوريات أو الكتب الحديثة جدا » المقتصرة على اختصاصات دقيقة . . . ولن نتوقع من طالب الدراسة الجامعية الأولية أن يطالع مجلة دورية علمية ـ ليس لأنه عاجز أو مهمل ـ ، بل لأن وجود المجلة بين يديه واستطاعته قراءتها قد يضر به أو يربكه في تلك المرحلة الدراسية . ان الأستاذ مثلا « قد يقرأ مقالة أو بحثا

طويلا ، في المجلة يتناول موضوعا ، أو بحثا ، أو مناقشة . . . ، لكنه يرى ـ بحكم التجربة والممارسة ـ أن يلخص تلك المقالة الطويلة للطالب الجامعي بجملتين فقط أو يرى عدم جدوى ذكرها في المحاضرة .

ثامنا ـ وعليه ، فان الذين يتصورون عملية التعريب يجب أن تشمل تعريب الدوريات وتلخيصها لتكون في متناول الطالب يضعون حجة غير عملية وغير واقعية - على الاقل مرحليا ، لأن من واجب الأستاذ قراءتها أولا وانتقاء المهم والحيوي منها وإهمال أو تأجيل بعض المواضيع الأخرى غير الثابتة أو موضع الشك والتزعزع أو لأنها أعلى بكثير من مستوى الدراسة الجامعية الأولية ، أو لأنها بحث في طريقه الى التكامل .

تاسعا ـ ثم ان تعريب التعليم الجامعي يجب ألا يكون حاجزا » ومانعا » من تعلم لغة أجنبية اذ ان طموح الطالب الجامعي النابه هو الذي يرفعه الى تعلم لغة أجنبية أو اكثر ، وهي مفروضة عليه كجزء من المقررات المنهجية الجامعية .

عاشرا ـ ويجب ان نعترف ـ وبتجربة واقعية ـ أن تدريسنا الطب لحد الآن باللغة الانكليزية ليس بالمستوى المطلوب والمجزي الذي نريد ان نحرص عليه ونعتز ونفتخر به (وكذا هي الحال في الكليات العلمية الاخرى حسب اطلاعي سابقا ـ وقبل التعريب) ، لأن بعض الاساتذة لا يتقن التعبير السلس المبسط باللغة الاجنبية وبالدقة المطلوبة . ولأن الطلبة لا يزالون يرتكبون أغلاطا لغوية تدهشكم اذا قلت اننا كنا نحاسب عليها سابقا عندما كنا نحن في مرحلة الدراسة الاعدادية . وأحد أدلتي على ضعف اللغة الاجنبية في تدريس الطب أن نتائج امتحانات القبول في انكلترة للدراسات الطبية العليا التي تسمى ال plab وال TRAB لا تتجاوز نسبة النجاح فيها ال ٣٥٪ لأنها محملة باسئلة لغوية اكثر من الأسئلة العلمية . وانني أرمي من كل ما تقدم الى القول بأن حرصنا على التدريس باللغة الأجنبية لم يؤد لحد الآن الى اتقان مجزٍ ومناسب للغة الأجنبية من ناحية . . . ، وأن التعريب مع تدريس اللغة الأجنبية مكافىء لنفس الوضع ، هذا الى أنني اتوقع تقدما اكثر في اللغة الأجنبية لمن يرغب في الدراسات العليا اذا اتبعنا سياسة تدريس لغة اجنبية في الكليات مع اعادة النظر في كيفية واصول تدريس الأنكليزية في المدارس الثانوية . .

حادي عشر ـ ثم ان الاحصائيات من دوائر البعثات ومن الجامعات العربية توضح النسبة القليلة من الطلبة الذين يكملون دراستهم العليا مقارنة بالآلاف من الخريجين في الدراسة الجامعية الاولية . فهل المقصود لدى معارضي التعريب أنه من اجل نسبة قليلة من طلبة الدراسات العليا أن نستمر على التعليم باللغة الأجنبية ، أم ان من الأنسب والأوفق الهام وتعليم الجمهور الكبير من طلبة الجامعات بلغة قومية واضحة ، وهم الذين سيخدمون في كافة مرافق الدولة والمجتمع ويتعاملون باللغة الأم . . . ، علماً بأن الاهتمام بالأغلبية من خريجي الكليات لا يعني سد الطريق أمام الأقلية التي ترغب في دراسة عليا متقدمة وبلغة أجنبية .

ثاني عشر ـ والتعريب لا يعني الانعزال عن العالم أو الانغلاق والتقوقع . فالانفتاح اللغوي والثقافي يمكن أن يتم اذا ما أدركنا أن بالامكان التدريس باللغة الأم وبالامكان ايضا » الاطلاع على الخبرات الأجنبية والتدريب عليها ودراسة العلم الحديث في الوقت نفسه كما تفعل دول متقدمة حضاريا ، مثل السويد والدانمرك وهولندة واليابان التي تدرس طلبتها باللغة القومية ، ولكن أساتذتها وطلابها الجامعيين يقرأون ويكتبون الأنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو جميعها رغم دراستهم باللغة الأم .

ولعل كل ما ذكرته يبدو وكأنه دفاع عن التعريب وليس « نهجا » أو « استراتيجية » لضمان الحفاظ على المستوى العلمي مع التعريب . والحقيقة أن كل ماذكرته يمكن ترجمته الى استراتيجية ومشروع خطة أتقدم بها لضمان الحفاظ على جودة المستوى العلمي مع التعريب ، وذلك باتباع الخطوات الآتية :

١ ـ أن يقتصر تعريب التعليم الجامعي ـ مرحليا في الأقل ـ على مرحلة الدراسة الجامعية الأولية ، وهي الفترة المهمة والحساسة لتخريج وإعداد كادر علمي ـ اجتماعي . . . أي الطالب الجامعي الذي يخدم المجتمع وخطط التنمية ويتلقى معلوماته بلغة قومية مهضومة ميسورة . وبذلك نكون قد طورنا لغتنا العلمية وأعددنا الطالب والخريج بالمستوى والمواصفات المطلوبة وهو الذي يمثل أغلبية الخريجين .

٢ ـ أما الأقلية من الطلبة الخريجين المتميزين والمؤهلين لان يكونوا اساتذة المستقبل أو المتخصصين بفروع دقيقة ونادرة ذات حقول واتجاهات معينة ، والذين يريدون أو يريدهم مخططو التعليم العالي ، إكمال دراساتهم العليا فان بامكانهم تحقيق ذلك بتعلم اللغة الأجنبية واجادتها داخل وخارج القطر . . ويمكن ان يتم ذلك بعدة طرق ، بينها تعليم اللغة الأنجليزية العلمية في اثناء الدراسة الجامعية ، ولبضع سنوات دراسية . . ، مما يتيح لجميع

● هل يؤدي التعريب حقا الى تدهور المستوى العلمي ؟

الطلبة معرفة لغة أجنبية .

ومن هذه الطرق ايضا تنشيط حركة البحث العلمي بين الطلبة عندما يطلب الأستاذ القائم بابحاث معينة مع مجموعة من الطلبة النابهين المتحمسين بأن تكون مصادر مراجعتهم لموضوع البحث باللغة الأجنبية .

٣ ـ وأن تسعى الجامعات دائما « وأبدا » الى تشجيع واختيار الأساتذة الذين يتقنون لغة أجنبية واحدة في الأقل . أما الأساتذة الذين يدرسون في الكليات الانسانية باللغة العربية أصلا فهم غير معذورين ـ في نظري ـ لعدم معرفتهم لغة أجنبية أخرى ، لأن التقدم العلمي والحضاري يحتم على من يخدم في الجامعة ومراكز البحوث ان يكون ملما بلغة أجنبية . أما كيفية تحقيق ذلك فيحتاج الى تفاصيل وحلول لا ضرورة ملحة لذكرها الآن .

٤ - ان ما ذكرته كخطة مرحلية قد تمتد عشر سنوات أو عشرين سنة لا يمنع أبدا ـ في يوم ما يحين نضجه وموعده ـ أن تتسع حركة الترجمة والتأليف الى المصادر الكبرى أو الى بعض الدوريات « الجامعة » ـ أي التي تجمع مقتطفات من المجلات العلمية الأخرى وتلخص أبحاثها (أو ما تدعى بـال excerptsأو abstracts)لتكون في متناول جميع المتبعين .

ولكنني أتساءل ، لماذا التسرع والتعجل في جعل عملية التعريب كبيرة شاملة بحيث تشترط عليها أن تشتمل على كل شيء وعلى جميع المراحل الجامعية الأولية والعليا وما بعد العليا ؟ . . أو ليس من الأسلم البدء بخطوة واثقة وأمينة وسليمة وهي : تعريب التعليم الجامعي الأولي الذي يقتصر على استخدام اللغة الأم في التخاطب والتوصيل والتعليم . . وما يتعلق بذلك من كتب أساسية (منهجية أو مساعدة) ؟

وقد قيل : « أن ما لا يدرك كله . . لا يترك جله . . وهذا ما ينطبق على ما تقدمت به من اقتراح التعريب في نطاق محدد يمكن السيطرة عليه ـ وهو مرحلة التعليم الجامعي الأولي . .

ان البلدان المتقدمة حضاريا تتيح لطالب الدراسات العليا أحيانا اختيارين :

أ ـ الدراسة وكتابة الأطروحة باللغة الأم ، أو الدراسة وكتابة الأطروحة بلغة أجنبية وقد وجدت ذلك ساريا في دول صغيرة مختلفة مثل السويد وهولنده وحتى بولنده .

وفي تصوري أن بأمكاننا الوصول الى هذه المرحلة في المستقبل ، لكن ما عرضته يؤيد كون التعريب اكثر ما يقتصر على الدراسة الجامعية الأولية كأساس . . . ثم يتبع ذلك انفراج ومرونة في لغة التدريس . .

ثم ، هل سيمنع التعريب حقا اولئك اللامعين الحريصين الطموحين من الخريجين من تتبع ومواكبة التقدم العلمي في موضوع ممارسته ؟ وانني ـ للاجابة عن هذا التساؤل ـ أقول : كم من خريجي الكليات العلمية يتابعون كتبا أو دوريات أجنبية بعد التخرج ؟ . . وكم منهم يحتفظ بكتاب منهجي أو يقتني « مرجعا » أو « مصدرا » في موضوعه ؟ . . .

فأن اردتم أرقاما تقريبية عن الأطباء العموميين الذين يتتبعون الدوريات والكتب الجديدة فانني أجازف بالقول أنهم لا يتجاوزون الـ ٥٪ ، وهم الذين يحرصون على اكمال دراستهم العليا . . أما البقية فيتابعون قصاصات الدعاية ونشرات الشركات التجارية الأجنبية . فكيف بالكيمياويين والفيزياويين والمعماريين والبيولوجيين ؟ .

فاذا سأل سائل ، أحقا أن المستوى العلمي الجيد سيبقى على ما هو عليه أو يرتفع بهذا الأسلوب من التعريب ؟ . . . ، عندئذ لا أتمالك الأجابة بطرح سؤالي التعجيزي الذي أشرت اليه في بداية المقال وهو :

بما أن المستوى العلمي للجامعات قد اتهم بالانخفاض التدريجي من قبل بعض المربين الأفاضل المهتمين في مسيرة وتطوير التعليم العالي والبحث العلمي ، وقدموا جزءا من التفاسير والأسباب لذلك . . . ، أفلا يعني ذلك بأن المستوى العلمي قد بدأ ينخفض قبل تعريب التعليم الجامعي ؟ إضافة الى ان التعريب لم يذكر كسبب لانخفاض المستوى العلمي ، وعلما بأن التعريب لم يطبق لحد الآن في كليات الطب العربية (عدا السورية) ، ألا يعني ذلك انه اذا اردنا الحفاظ على المستوى العلمي فيجب ان نداوي ونعالج اسباب انخفاضه الحقيقية ، وان نعرف مفهوم المستوى العلمي ومعاييره قبل التشبث بحجة جديدة في ان التعريب يخفض المستوى العلمي ؟ .

وأحسب أن بعض زملائي من الأساتذة قد تطرق الى ذلك على صفحات العربي والمجلات التربوية والعلمية الرصينة . . . ، ولكنني أقولها صريحة اننا اذا أردنا البحث في اسباب انخفاض المستوى العلمي فان التعريب لن يكون أحدها بل اننا سنجدها في عوامل كثيرة أخرى . .

ويتضح مما تقدم ، أنني بتأكيدي على امكانية التعريب في المرحلة الجامعية الأولية . . . أرى من الضروري والواجب أيضا التأكيد على أهمية معرفة اللغات الأجنبية كأداة اتصال بالعالم الخارجي وللحاق بمصادر الاشعاع العلمي والتقني وتتبع كل ما يستجد . . ، وأن الازدواجية الظاهرة في هذه الخطة ما هي في الحقيقة الا مرونة في التطبيق وجمع بين حاجتين قومية وعلمية نجحت في أقطار متعددة هي في مقدمة البلدان الصناعية والعلمية والحضارية كما ذكرت ■ ■

دكتور فخري الدباغ

حملة الأقلام في سوريا

بقلم : عجاج نويهض

نشرنا في الجزء السابق (العربي ٢٧٣) رأي المنفلوطي في كتاب مصر (منقولا عن كتاب النظرات) ، وطلبنا من مجلة « المنقذ » آيار (مايو) سنة ١٩١٠ ، واقترحنا يومئذ ان تكتب مقالة مثلها عن كبار الكتاب في سورية (متصرفية لبنان والاردن وفلسطين وبيروت) ، وجاءنا الرد التالي لكتاب لم يفصح عن اسمه .

اذا قلت انه لم ينشأ في الشرق كاتب يستحق ان يطلق عليه لقب كاتب شرقي فلا شك اني اعد مبالغا .

اريد بالكاتب من تكون كتابته نتيجة بحثه وتنقيبه او تجربته واستقصائه ، لامن تكون كتابته او بحثة اشبه بصدى الحاكي (الفوتوغراف) لبحث غيره ، ولا تكون كتابته رص المفردات ، وتنسيق الاساليب ، فان الاول في عرفي مقلد ، والثاني منضد .

لا الوم الشرقي ، ولا اقرظ الغربي ، فهذا دفع للارتقاء بدافع طبيعي وذاك دفع عن الارتقاء بدافع طبيعي ، لكن الاول يسير مع الدافع ، والثاني يقاوم الدافع ، وشتان بين السائر المطرد ، والسائر المطارد .

طلب مني طالب ان ابين طبقة حملة الاقلام في سوريا او اصف درجتهم ، فوجمت واحجمت ، لاني اعتقد بهم مالا يتفق مع رأي الاكثرين ، « ولكل اعتقاده ورأيه » واني لا اكره احدا على ان يعتقد ما اعتقد ولا ان يرتئي ما ارتأي ، ثم لم اجد بدا من اجابة الطلب فكتبت النبذة الآتية المرتبة على حروف الهجاء ووصفت بها الكتاب كمنشئين منمقين ، لا باحثين مدققين ، وان اغفلت ذكر احد منهم فذلك اما عن ذهول واما عن عدم قراءتي له شيئا من الانشاء ، وربما اذكر ما ذهلت عن ذكره في مقالة الشعراء .

(أ)

ابراهيم الحوراني : جمع في كتابته بين الفضيلتين : فضيلة المنقولات وفضيلة المعقولات ، فهما فيه ككفتي ميزان ، كلما انحطت احداهما شالت الاخرى .

احمد طبارة : صحافي قادر وهو في ادارة جريدته اقدر منه في كتابته .

احمد عباس الازهري : محفوظاته اكثر من معلوماته ، ونثره المسجع ارقى من نثره المرسل .

احمد رضا : يجيد تنسيق الآثار ، والبحث في الاسفار .

احمد صلاح الدين : اول الغيث قطر ثم ينهمر .

احمد الصابوني : يعد عالما آليا اكثر منه كاتبا اخلاقيا .

احمد عارف الزين : بينه وبين محمد علي حشيشو صلة ادب اشتبكت وشائجها فلا تقدر أن تميز مقدرة هذا من ذاك .

اسكندر العازار : هو رستم الكتاب وان غضب رستم الشعراء ، ولولا « الخواضر »[1] ، لكان له اول وليس له آخر .

اسكندر عيسى المعلوف : هو الذي يكاد يكون كاتبا باحثا ، وليته يطلق عروس الشعر طلاقا بأتنا لان بينهما بينونه طبيعية .

---

(١) « الخواضر » مختصر من حواضر الاطعمة في البيت كالزيتون « والجبنة » واللبن والبيض فما هو جاهز ابدا حل بالبيت ضيف يحتاج الى الاكل ليس هناك طبيخ ساخن ، وكان العازار ينشر حواضره في جريدة « البرق » لبشارة الخوري (الاخطل الصغير) اسبوعيا .

اسعاف النشاشيبي : (القدس - فلسطين) الذكاء وحب الشهرة مجسمان فيه .
امين الريحاني : نسجت الطبيعة من دماغه ثوبا ملونا بجميع الوانها . فكتابته اشبه بذنب الطاووس فيها من كل لون رقعة .
اميل الخوري : تنم عليه كتابته بانه رقيق الشعور حتى كاد يشنق مع المشنوق في بيروت .
امين الغريب : صحافي ذو عنجهية (بعد الاستئذان من الأستاذ الخياط (محيى الدين الخياط - بيروت) .
امين ناصر الدين : نسخة من « الصفاء »[٢] والصفاء نسخة منه .
امين صباغ : يحاول ان يصبغ نفسه بصبغة الكتاب .

(ب)
بشارة الخوري : حسن اختياره دليل على حسن ذوقه ، وذوقه الشعري خير من ذوقه النثري .

(ج)
جبر ضومط : الأبجدية في العلوم العربية .
جبران مسوح : منشيء فطري مطلق ، يكره التصنيع والتقيد حتى انه يكره صناعة العلوم العربية وقيودها .
جرجي بني : نسخة من التاريخ العام .
جرجي باز : يجلي في الاجتماعيات والاخلاقيات ويكبو في غيرها حتى في « النسائيات » .
جرجي عطية : شاعر ناثر ولوكان جل شعره « كبائيه » لرقي الى رتبة الشعراء المجلين (بائيته اسم قصيدة عامرة) .

(ح)
حسين الحبال : مداعباته في « المضحكات المبكيات » ، خير من تكلفه للجديات .
حليم دموس : شاعر في نظمه ونثره ، واحسن ما قرأته له تعريب وجديات الشاعر البرازيلي كازيمير دي باريه .

(خ)
خليل زينيه : صحافي ثابت على مبدئه واعجب ما فيه ثباته على ما يلقب به نفسه (اسم مستعار) في ذيول كتابته (مع ان هذا اللقب يدل على المراوغة .)
خليل سعد : كاتب يطرق كل موضوع ويجيد في بعض موضوعاته .
داود مجاعص : مداركه اوسع من معارفه ، وجرأته ابلغ من كتابته .

(ر)
رشيد عطية : « نسخة من الاعراب ، في لغة الاعراب » (اسم كتابه)

(س)
سعيد الشرتوني : نسخة من « الجاسوس على القاموس » (لاحمد فارس الشدياق)
سليم عقاد : من اراد أن يعرف ما هو فليقرأ « الاحوال »[٣] فهي هو او هو اياها (وان غضب سيبويه) .

(ش)
شبلي ملاط : شاعر مطبوع وكاتب مصنوع .
شكيب ارسلان : كاتب محقق ، وشاعر مفلق ، فهو من القليل الذين اشار اليهم ابن خلدون .
شكري العسلي : كاتب مقل لكنه مجيد .

---

(٢) (الصفاء) لعلي ناصر الدين ، اول الامر كانت مجلة في لبنان ثم تحولت الى جريدة مع بقاء الاسم نفسه وجعل يحررها امين ناصر الدين ، وعلي والده .

(٣) هذه الجريدة في بيروت وهي الوحيدة في صحف العالم العربي ، التي في سنة ١٩١٤ جعلت تصدر مرتين

(ط)

طاهر الجزائري[٤] : فهرس كتب خطية ، او ذيل « لكشف الظنون » .

طه المدور : مثال للشيبة الكريمة البادي« .

(ع)

عارف النكري : والبدر اول ما يكون هلالا .

عبد الحميد الزهراوي : هو الكاتب المشرف من ذروة فكره النير على سهول الحقائق .

عبد الغني العريسي : لو ارتقى قلمه المتدفق حمية الى اعلى من الجنسيات لخدم وحده امته العثمانية خدمة كبيرة .

عبد الباسط فتح الله : كاتب مقل نير الفكر .

(ف)

فيلكس فارس : خطيب يغوص في بحر من النور والهواء ، فهو كالسمكة في الماء ، اذا فارقه ادركه العياء .

فؤاد حتيس : هو والعريسي كالشاخص والظل .

(ك)

كامل حمية : واذا رأيت من الهلال نموه ـ ايقنت أنه سيصير بدرا كاملا

(ل)

لويس شيخو : لو خلت كتابته في التعصر لكان الباحث الشرقي الفذ .

(م)

محي الدين الخياط : اقدر الكتبة على الباس كتابته الثوب الذي يريده ، ولولا الغريب في شعره وبعض نثره لكان اقدر من كتب ونظم .

محمد كرد علي : لو مزج المعقولات بالمنقولات ، وخفف من المملولات لكان « المقتبس » و « الهلال » كفتي ميزان[٦] .

محمد الباقر : ذكاؤه اكثر من علمه ، وعقله اكبر من جسمه .

محمد علي حشيشو : نسخة من مجلة « العرفان » لصاحبها احمد عارف الزين .

مصطفى الغلاييني : لو انصرف للخطابة وحدها وكان في الشرق جمعيات اشادية تبشيرية لما اختارت غيره خطيبا ، يستندي الأصم في خطابته .

(ن)

نعوم لبكي : اقدر من يخدم الاحزاب المتضاربة في كتابته . ■■

(٤) الشيخ طاهر الجزائري كان صديق مدحت باشا والي سوريا المصلح المشهور أو آخر المصلحين الكبار في الدولة العثمانية في الثلث الأخير من القرن الماضي فاستفاد الشيخ طاهر من صحبته معه كثيرا والشيخ طاهر هو منشيء « المكتبة الظاهرية » المشهورة في دمشق ، والظاهرية نسبة الى الملك الظاهر .

(٥) شنق في دمشق وقت الحرب العامة الاولى كما شنق عبدالغني العريسي في بيروت . شنقهما السفاح أحمد جمال باشا التركي قائد الجيش الرابع .

(٦) « الهلال » لجرجي زيدان « والمقتبس » اسم مجلة انشأها محمد كرد علي في مصر اولا وبعد اعلان الدستور العثماني نقلها الى دمشق .

البلانكتون .. طعام المستقبل

بقلم : رجب سعد السيد

منذ سنوات ، بدأ العلماء في دراسة امكانيات استغلال الهائمات البحرية التي تتمثل في الاعداد الهائلة من الكائنات الميكروسكوبية ، والماكروسكوبية (أكبر قليلا) ، نباتية وحيوانية ، التي تعيش هائمة مع التيارات والامواج في الطبقة السطحية من البحار .

وهذه الكائنات الهائمة النباتية (الفيتوبلانكتون) هي المصدر الأول للحياة في البحر ، أو الأساس العريض للهرم الغذائي في البحار والمحيطات .. فهي تقوم بعمليات التمثيل الضوئي ، فتحيل الاملاح المعدنية الموجودة في مياه البحار (فوسفات ونترات وغيرها) الى مواد سكرية ، خلال عملية التمثيل الضوئي ، وتأتي الكائنات الهائمة الحيوانية فتتغذى على هذه الكائنات .. وهكذا .

ولا بد أن يتوفر للفيتوبلانكتون أن ينمو في الطبقة السطحية التي تغمرها أشعة الشمس ، مصدر الطاقة في عملية التخليق . وهذه الطبقة من المياه تختلف في عمقها من مكان لآخر تبعا لخط العرض ، ومدى شفافية الماء ، ولكنها في الغالب لا تتعدى المائة متر عمقا .

دور لحركة المياه

ومن العوامل الأساسية التي تسبب زيادة تركيز الهائمات البحرية ، وبالتبعية الاسماك ، الحركة الأفقية والرأسية للماء ، والتي تأتي بالاملاح الغذائية من الاعماق .. فهذه الأملاح هي نواتج تحلل المواد العضوية الميتة المترسبة عند القاع . ويؤدي التغير الموسمي في المياه على الافاريز القارية ، في المناطق المعتدلة ، الى ازدهار البلانكتون في فصلي الربيع والخريف .

وفي أماكن أخرى ، خاصة في احزمة الرياح التجارية " Trade Wind Belts " ، تكون حركة المياه عنيفة ، وتتحرك لتحل محلها المياه العميقة الغنية بالمواد الغذائية ، وتعطي بذلك فرصة عظيمة لعمليات الصيد ، كما في بيرو وجنوب أفريقيا .. فزيادة الهائمات البحرية تعتمد على حركة المياه .. ووجود هذه الهائمات معناه غنى المنطقة بالاسماك .

وبالرغم من أن البلانكتون النباتي يعتبر المنتج الاساسي في البحار ، فانه مستبعد من تفكير المهتمين باستغلال الهائمات البحرية كمادة مناسبة للرعي المباشر على مستوى اقتصادي كبير ، وذلك لصغر حجم وحداتها ، ولصعوبة الاحتفاظ بها ، على الأقل في هذه

المرحلة من التقدم التكنولوجي . لذلك ، كان من الضروري التحرك على مدى السلسلة الغذائية وانتقاء الهائمات الحيوانية (زوبلانكتون) ، وهي المرحلة التالية للبلانكتون النباتي .

وتتكون الهائمات الحيوانية من تشكيلة كبيرة من الكائنات الحية ، منها مكونات دائمة ، ومكونات موسمية . فاذا كان الهدف هو أن نحصل على نوع معين منها ، فلا بد من خروج كميات بسيطة من أنواع أخرى معها . وللتحكم في هذه الكميات ، وجعلها في حدود معقولة ، تكون الشباك مناسبة ، أساسا ، لصيد الكائنات الكبرى .. فهي تعطي نتائج أفضل .

ويقترح بعض العلماء الاعتماد على مجموعة من أهم المجموعات المكونة للبلانكتون الحيواني ، وهي : **Euphausiid Group** . وهي مجموعة تحتوي على بعض القشريات التي لا تحتاج الى مجاهر قوية للتعرف عليها ، اذ يتراوح الطول في معظم أنواعها بين ١٥ و ٢٥ ملليمترا . وهذه المجموعة تصنف كبلانكتون لأنها ـ بالرغم من كونها سابحات نشطة ـ فهي ليس لديها القدرة الكافية على الحركة المستقلة وسط الحركة العامة للتيارات البحرية .



٢٨ مليون طن

ويختلف موسم التغذية لهذه القشريات البلانكتونية تبعا للنوع والمنطقة . وهو ، في المنطقة الشمالية الشرقية من المحيط الاطلنطي ، يأتي في شهري فبراير ومارس ، حيث تعتبر هذه الفترة أكثر انتاجية في الصيد . ولكنها ، على كل حال ، ليست الفترة الوحيدة .

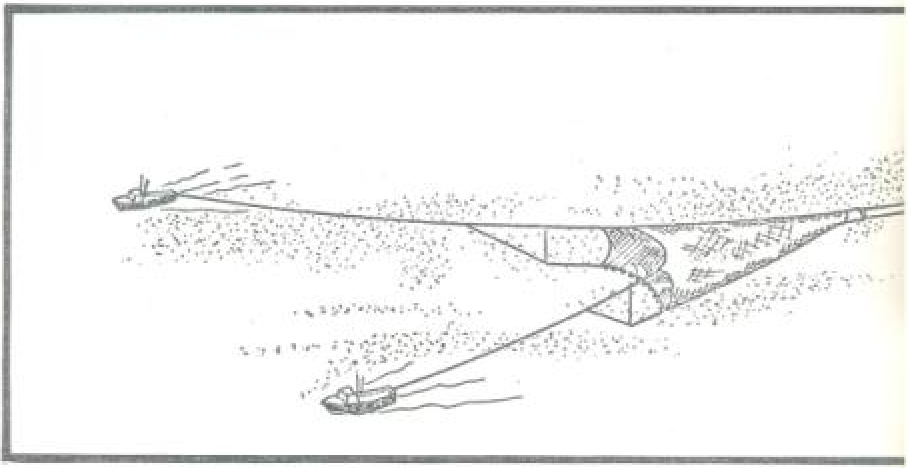
وقد وضعت عدة تقديرات لكمية أفراد هذه المجموعة في بحار العالم ، منها تقدير **I. a. Ponomareva** ، الذي يشير الى أن وزن هذه الكائنات في بحار العالم يصل الى ٢٨ مليون طن ، أي بمعدل ٠٫٠٨ جم / متر مربع من سطح البحار .

وفي القطب الجنوبي ، حيث تشتد حركة المياه ، تكون كثافة هذه الكائنات ـ التي تسمى بصفة عامة كريل **Krill** — ١٠٠٠متر مكعب من الماء على طول سطح طبقة قدرها ١٠٠ متر ، كما أن هناك مناطق أخرى بها تركيزات كبيرة من « الكريل » تمتد بين كوريا واليابان ، وفي جنوب كاليفورنيا ، وكذلك على طول السواحل الشمالية الشرقية بين الولايات المتحدة الأمريكية وجرينلاند ، وفي البحار الشمالية ، والشمالية الغربية الاوربية . وتجري ، في الوقت الحالي ، دراسات لمعرفة مدى تواجد هذه الكائنات في سواحل كل من روسيا واليابان والنرويج ، وذلك لادراك العلماء في هذه الدول لمدى الأهمية المستقبلية لهذه المجموعة من القشريات الماكروسكوبية البلانكتونية .

وجدير بالذكر أن الكريل يمثل الغذاء المفضل لأنواع عديدة من الحيتان كانت تستهلكه بكميات كبيرة وربما لحسن الحظ ، فان المخزون العالمي من الحيتان قد وصل الى حافة الهاوية ، أو الاندثار .. لذلك فان الكميات الضخمة التي كانت تستهلكها الحيتان باتت متوفرة ليستغلها الانسان .

وثمة طريقتان لجمع أو حصاد مراعي الكريل : الشباك ، والمضخات . وتشير التجارب الى أن اتحاد الوسيلتين أفضل من استخدام أيهما على حدة . كذلك يصبح الأمر أفضل كثيرا اذا استخدم الضوء الصناعي مع اتحاد الطريقتين .

ويتم جر الشباك ، في المياه السطحية ، بسرعة صغيرة ، لاعطاء الفرصة للكائنات الكبرى ، مثل الأسماك ، لتهرب . ويتطلب الأمر بعض الوقت للبحث عن هذه القشريات . ولكن ، عند رؤية تجمعاتها يصبح الأمر سهلا ، ويعوض الوقت الذي انفق في البحث عنها .



طريقة حصاد البلانكتون ، قاربان صغيران يجران الشبكة و« سفينة أم » تسحب المحصول خلال خرطوم ، ان عملية « الحصاد » تتم في المناطق الغنية بالبلانكتون والمحددة من قبل .

ويوضح الشكل المصاحب للمقال كيف أن الشبكة التي يجرها قاربان صغيران تقوم بجمع المحصول ، بينما تقوم مضخة في السفينة الكبيرة في الخلف (تسمى السفينة الأم) بسحب المحصول خلال خرطوم مرن . ولتوفير كافة ضمانات النجاح الاقتصادي للعملية ، فان قوارب الجر تظل مشغولة بعملها طول الوقت ، بينما ينقل المحصول بواسطة سفن نقل أخرى الى مراكز التعبئة والتصنيع ، أو يتم ذلك فوق السفينة الأم ذاتها ، فلا تتعطل عملية الحصاد .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الهائمات تقوم برحلة يومية عموديا في البحر ، فتصل الى أعماق كبيرة خلال ساعات من النهار ، ثم تصعد الى السطح في الليل . لذلك يلزم ، خلال النهار ، استخدام أجهزة تساعد في الكشف عن تجمعاتها وتقدر كثافتها وبعدها عن مجال الشباك . ويمكن ، في مجال استكشاف تجمعات الكريل عامة ، استخدام الرؤية البشرية للتعرف على وجوده من خلال لون المياه ، اعتمادا على الخبرة الطويلة ، ويمكن ، أيضا ، استخدام وسائل أخرى تعد من الدلائل على وجود الكريل مثل تواجدالحيتان في نفس المنطقة .. وأيضا يتتبع الاضاءة الحيوية الذاتية التي تصدرها بعض كائنات الكريل .

ويبقى أن نشير الى بعض محاولات تطويع هذا الكريل للاستهلاك البشري . وتؤكد بعض هذه المحاولات أن بعض أنواع الكريل يمكن أن يعد في المطابخ فور خروجها من البحر ، فتعطي أطباقا ذات نكهة محببة ، ورائحة تفتح الشهية .. وهي تقدم مضافة الى الارز .

وأمكن ، أيضا ، انتاج عصير مركز من البروتين عديم الطعم ، له قابلية كبيرة للحفظ ، ويمكن استخدامه كما يستخدم مرق الدجاج المجفف ، فيضاف الى الأرز وأصناف الطعام الأخرى الفقيرة لكي يزيد من قيمتها الغذائية .

ان ثمة آمالا كبيرة تعلق على الكريل كنوع جديد يضاف الى قائمة الأغذية البشرية . ■■

رجب سعد السيد
باحث بمعهد علوم البحار والمصايد ـ الاسكندرية

× قال بعض السلف : « الايادي ثلاثة : يد بيضاء ، وهي الابتداء ويد خضراء وهي المكافأة ، ويد سوداء وهي المن » .

مرثية حب

شعر جمال حماد

ردي خصامك قد كفاك ملامي ... ليس الهوى بارادتي ومرامي
يا من ترومين العتاب ترفقي ... ان الهوى قدر من العلاّم
ان كان سهمك قد أصاب جوانحي ... فلم العتاب وقسوة اللوام
أيدانٌ من أرداه طرفٌ فاتك ... ويلام من أمسى شبيه حطام
والصب لو يحظى بحب واصل ... بلغ الذرا ومواطن الأجرام
والقلب لو يشقيه حب ظالم ... فعلى شهيد الحب ألف سلام

•••

ومولّهٌ بين الضلوع معذب ... من برح أشجاني ومن أسقامي
مضنى تمزقه الدموع فلا يرى ... الا ظلاما في خضم ظلام
هيمان في بحر الشجون يذيبه ... وجدي ويستهويه فرط هيامي
يقتات من شوك الهموم غذاؤه ... نار سرت في أضلعي وعظامي
ظمآن يغلبه الحنين شرابه ... من نبع أوجاعي ومن آلامي
لو غاب عن دنياك في بطن الثرى ... سيظل حبك في التراب ذمامي

•••

وأردتِ لي الحب الكتوم كأنني ... قيثارة محبوسة الأنغام
وغدت أغاني النّوح لحنا باكيا ... وغدت خمائلنا بغير حمام
وغدت مراتعنا وأيكة حبنا ... منزوعة الأزهار والأكمام
وكأن أنغام القريض وبحره ... معزوفة أنعي بها أحلامي
وكأن أبياتي نواح قصيدة ... أرثي بها أشلاء قلبي الدامي
وكأن آهاتي عويل جنازة ... شيعت فيها مهجتي وغرامي
وكأن واحتنا ببيداء الهوى ... لمع السراب وجنة الأوهام



وألوم نفسي لو نسيتك لحظة　　ويظل طيفك ماثلا بمنامي
وعشقت روحك عشق عبد خاشع　　هل أنت الا كعبتي وإمامي ؟
وأبيع كل عوالمي ورغائبي　　في ومضة من ثغرك البسام
ما أنت الا الروح يحييني بها　　حبي وأستبقي بها أيامي
لولاك ما كانت لنفسي غاية　　ولذقت كأس منيتي وحمامي
ما أنت الا النور يهدي وهجه　　عيني فانزاحت ستور ظلامي
ما أنت الا الوحي من اشراقه　　شعري ومن ابداعه الهامي

●●●

وجمالك الخلاب سحر غامض　　واللحظ في عينيك شبه سهام
والرقة السمحاء سحر معجز　　والقامة الهيفاء مثل حسام
من أنت يا رمز الجمال وتاجه　　حيرت كل مدارك الأفهام
هل أنت من بين الملائك آية　　أم نفحة من صنعة العلام
عاتبت فاهتاجت شجون خواطري　　هل يشكو من فتك السهام الرامي ؟
فرطت في صب يجود بروحه　　ليرد عنك غوائل الأيام
أفديك ان مست جناح بعوضة　　خديك أم من هبة الأنسام
فاليوم أهديك القصيد يصوغه　　قلبي وليس صناعتي وكلامي

حالة طوارئ في قرية «ك»

قصة بقلم : الدكتور شكري محمد عياد

لمحة تاريخية عن قرية « ك »

قرية « ك » قرية حدودية . لا أعني انها واقعة على حدود بلادنا المحروسة ، بل أنها تجاوزت المفهوم العادي لكلمة « قرية » وان لم تبلغ ان تسمى مدينة . فسكانها يتكاثرون بسرعة رهيبة ، رغم الجهود اليائسة التي تبذلها الحكومة ، والمؤسسات الأهلية ، وبعثة الخدمة الاجتماعية التي تنفق عليها الدولة العظمى ، والتي اتخذت لها مقرا دائما في وسط البلدة . فاليمين واليسار في قرية « ك » لم يتفقا على شيء الا محاربة هذه المؤسسات ، ولذلك تضاعف عدد سكان قرية « ك » خلال السنوات العشر الأخيرة ، وهو مستمر في الزيادة بمتوالية هندسية لا يمكن وقفها .

لقد ازدهر العمران في قرية « ك » بصورة تدعو الى الفخر . فيها الآن مدرسة اعدادية للبنين وأخرى للبنات ، وعدة مدارس ابتدائية ، وأهلها يطالبون منذ سنوات بمدرسة ثانوية ، وقد راجت اشاعة في العام الماضي بأن مشروع المدرسة الثانوية مدرج فعلا في الخطة الخمسية الحالية ، فذهب وفد من الأعيان الى مقر المنطقة التعليمية في عاصمة الاقليم ليستعجلوا التنفيذ ، وهناك فوجئوا بأن ناسا في الوزارة والمنطقة يزعمون أن المشروع المقرر هو انشاء معهد فني (زراعي صناعي) بعد الاعدادية ، وهنا ثاروا ثورة عارمة ، لأنهم شعروا أن الوزارة (وربما المنطقة أيضا) . ما زالت تنظر اليهم على انهم مجرد قرية على شمال السماء ، في حين أن سكان « ك » بلغوا في التعداد الأخير ثلاثين ألفا ، ولا شك انهم تجاوزوا الآن خمسين ألفا ، ولعلهم ـ وقت كتابة هذه السطور ـ يقتربون بسرعة الصاروخ من رقم الستين ألفا ، وهو رقم يقارب أو يعادل أو يفوق تعداد سكان بعض الدول التي تتمتع بكراسي في منظمة الأمم المتحدة .

وقد امتد العمران في قرية مدينة « ك » الى درجة تثير اعجاب جميع ركاب الأوتوبيس الذي يربط بين عاصمة الأقليم وعاصمة البلاد . فاينما التفتوا على مشارف القرية المدينة من جهة الجنوب أو الشمال رأوا بنايات أنيقة لا تختلف في شيء عن تلك التي تزدان بها ضواحي عاصمة الاقليم أو العاصمة الكبرى نفسها . ومن المؤكد أن قلة قليلة منهم فقط هي التي تتمتع بالسكنى في منازل تشابهها من حيث النظافة والراحة ، وان كان من المستحيل ـ بداهة ـ أن تشابهها في نقاء



هوائها الذي يأتي من الحقول ، اذ أن قرية مدينة « ك » لا تزال تحيط بها الحقول من كل ناحية ، فهي لم تلتحم بعد بالمدينتين المجاورتين ، اذا استثنينا المناطق القريبة من الطريق الزراعي ، ولا تزال هناك مساحات واسعة تفصل بينها وبين القرى المجاورة التي تحاول عبثا أن تدخل معها في منافسة للظفر بلقب مدينة ، مع ما يصاحب هذا اللقب من انشاء « مركز » اداري ومحكمة جزئية ورواج تجاري وارتفاع في اثمان الأراضي وايجارات المساكن .

وقد حلت محل التسمية القديمة الساذجة للطريق الزراعي باسم المدينة التي يتجه اليها ـ عاصمة الاقليم ان اردت الاتجاه شمالا ، وعاصمة البلاد الكبرى ان اردت الاتجاه جنوبا ـ أسماء أخرى تليق بالتطور الحضاري الذي حققته البلدة ، وتسجل بعض الأحداث التاريخية المهمة التي أثرت في حياتها : فالقسم الجنوبي من الطريق الزراعي اسمه شارع الثوار ، لأن معظم البنايات التي بنيت على جانبيه ـ وهي بنايات متواضعة في الحقيقة ـ ملك لمجندين حاربوا في البلد البعيد وعادوا منه بمعظم أعضائهم ـ واحيانا بأعضائهم كلها ـ سليمة تقريبا . والقسم الأوسط اسمه شارع الأحرار ، وهو أحدث وأوجه من سابقه ، ومعظم ملاكه من الفلاحين الذين تحولوا الى عمال بناء ، وسافروا الى البلاد التي بارك الله حولها وعادوا بعد بضع سنين وقد امتلكوا أراضي زراعية لا يزرعونها بأنفسهم . والقسم الشمالي ـ وهو أحدث الأقسام الثلاثة وأشبهها بضواحي المدن الكبرى ـ اسمه شارع التجار ، ومعظم ملاكه ـ كما يمكنك أن تتوقع اذا كنت ملما بالتاريخ المعاصر ـ من المدرسين المعارين الذين عادوا من تلك البلاد السعيدة برؤوس أموال طيبة استغلوها في التجارة دون ان يتخلوا عن وظائفهم التعليمية في البلدة وما حولها .

وعندما كانت « ك » قرية فقط ، لا قرية مدينة ولا قرية حدودية ، لم تكن أيام العطلات الرسمية تختلف عن غيرها من الأيام في أي شيء ، بل كانت كلمة « عطلة رسمية » تعني دائما مفاجأة غير سارة ، عندما يذهب أحد الأهالي الى عاصمة الاقليم لقضاء مصلحة في جهة حكومية ، فيفاجأ بهذه الكلمة التي تساوي عنده مشوارا خائبا ويوما ضائعا . أما في هذا العصر ـ عصر الوحدة المجمعة والجمعية التعاونية والمدارس الكثيرة اعدادية وابتدائية بنين وبنات ـ فقد أصبحت العطلة الرسمية تعني يوما من التراخي والكسل . فيما عدا القلة

القليلة الذين يذهبون بمواشيهم الى الحقول مع النجمة ، تظل قرية مدينة « ك » نائمة او هاجعة أو مسترخية أو مستمتعة : رجالها ونساؤها يتقلبون في المضاجع حتى وقت متأخر من النهار . وأطفالها اما يشاهدون التلفزيون (اذا كانوا من سكان شارع الفللات) واما يلعبون الكرة في ساحة الجرن أو في حي السكة الحديد أو على الطريق الزراعي نفسه .

الساعات الأولى

في ذلك اليوم (لم يعد الناس يذكرون متى أصبح عطلة رسمية أو لماذا) انتبهوا على صياح ينبعث من مكبر للصوت قوي . ظنوا أول الأمر انه اعلان عن محل تجاري جديد ، ثم رجحوا انه احتفال من احتفالات النشاط المدرسي في المدرسة الاعدادية للبنين ، فقد كان الصوت يأتي من هناك ، وكانت تتخلل الكلام بعض الأناشيد الحماسية . ولكن الرجال ما لبثوا أن اعتدلوا مضطجعين على مرافقهم ، بينما أسرعت نساؤهم الى الشبابيك ، وكل واحدة تسأل جارتها . أما الاولاد فقد تركوا الكرة تجري وحدها ؛ وأرهفوا اسماعهم ثم انطلقوا عدوا الى المدرسة الاعدادية .

لقد خرقت آذانهم - بعد الضجة الأولى التي تلقوها بدون اهتمامهم - كلمات مثيرة . كلمات مرعبة .

ولاحظ الأولاد وهم يعدون أن جدران بعض المنازل على الطريق الزراعي مغطاة باعلانات ذات خط نسخي كبير جميل ، يمكن أن يقرأه ركاب الأوتوبيس . أما على المدرسة نفسها ، فقد كان هناك ما هو أفظع .

كانت هناك لافتة من القماش بطول عشرة أمتار تقريبا ، تتوسط واجهة الطابق الثاني ، وقد كتب عليها بنفس الخط ، ولكن بحروف كبيرة جدا ، يمكن أن يقرأها الواقف على بعد مائتي متر : « المقر المؤقت لجبهة التحرير الوطني » .

وعلى يسار اللافتة ، يبرز من الشرفة المتصلة بحجرة مدير المدرسة علم كبير مكون من شقتين مخيطتين من القماش الأحمر والأسود .

أخذ الأولاد في الصياح ، ولكن صوتا مزعجا انطلق من الميكرفون المثبت على سطح المدرسة :

- أيها المواطنون . أيها المواطنون . انتبهوا جيدا . لا تقتربوا من السور . السور مكهرب . السور مكهرب . السور مكهرب . نحن واثقون من تأييدكم . واثقون من مشاعركم الوطنية . فحركتنا نابعة منكم . من أعماق ضمائركم . وإن ساعة الزحف المقدس لم تحن بعد . ابقوا في مواقعكم ابشروا بساعة الخلاص . سيناديكم النفير قريبا . قريبا جدا . لتؤدوا دوركم وسط جموع شعبنا الزاحفة .

اشتد الصياح واختلط بجلبة الأناشيد الحماسية . وفي دقائق قليلة أصبح الحشد أمام المدرسة الاعدادية يقدر بالمئات ، ان لم يتجاوز الألف : رجال ، نساء ، أطفال ... وعند الطرف الأقصى لهذه البركة البشرية وقف العمدة وضابط النقطة وقد بدا على وجهيهما الرعب والذهول . وبين لحظة وأخرى يلتفت أحدهما الى صاحبه محاولا النطق ببعض كلمات ، ولكن شفتيه تتحركان بصعوبة : الصوت لا يخرج ، الريق جاف ، الوجه قطعة من الهباب .

لطم العمدة خديه واحس ضابط النقطة بألم كاو في أسفل جذعه حين سمعا النداء التالي :

- نداء الى سلطات البلدة . نداء الى سلطات البلدة . نحذركم من ابداء أي مقاومة . ان الثورة ستضرب بيد من حديد على العملاء والخونة . يسقط الظلم . يسقط الاستبداد . تسقط الرشوة . تسقط المحسوبية . لقد حانت ساعة القصاص .

ردود الفعل في قرية « ك »

لم يشعر أهل بلدة بالحقارة والعظمة مجتمعتين كما شعر أهل قرية مدينة « ك » في ذلك اليوم . تهامس الشباب المتعلمون ، من كان يظن أن شرارة الثورة تنطلق من هنا ، من كان يظن أن قريتنا المتواضعة (نسبيا) بهذه الصورة . فغر الفلاحون أفواههم : ما الحكاية ؟ ما الخبر ؟ لماذا لا يتركون في حالهم ؟ لا بد أن تأتي الحكومة الآن ، وبأكل رجال الحكومة كل ما بقي عندهم من أوز وبط ودجاج ، هذا غير البيض والفطير. هز الجدود رؤوسهم وشخصت عيونهم من تحت حواجبهم الشعثاء التي اختلط سوادها بالبياض : ما كانت هكذا « الهيجة » الكبيرة التي شاركوا فيها وهم في عمر هؤلاء الصبية . بعد بسمة مسترية ينادي الجد أحد أحفاده ليلعب معه « السيجة » الى أن تنجلي الأمور . اما اشد أهل البلدة فزعا فكانوا هم سكان البنايات الوجيهة الذين تجلت لهم الحقيقة المرعبة فجأة : حقيقة أن م شادوه باراقة دمائهم مرة وماء وجوههم مرة أخرى ، سنين وسنين ، يمكن أن يهدم في لحظة ، حين تأتي جيوش الحكومة فلا تبقى المدافع والدبابات والبلدوزرات شيئا يدل على ما كان يوما شارع الثوار أو شارع الأحرار أو شارع التجار .

خطوات حازمة لتصفية الحركة

على الرغم من الرعب الذي استولى على قلب العمدة وقلب ضابط النقطة ، فيجب أن يقال ـ للحقيقة والتاريخ ـ انهما أبديا شجاعة منقطعة النظير ، حين تسحبا من موقفهما على حاشية الجمهور الحاشد وأسرعا الى الدوار ، حيث وجدا أحد الخفراء مغمى عليه وآخرين اصيبا باسهال شديد مفاجىء . وكان أخشى ما يخشاه العمدة ـ هكذا ظل يردد طول الطريق ـ ان يكون الاتصال التلفوني قد قطع ، لذلك تمتم بالشهادتين لما سمع صوت المأمور نفسه على الطرف الآخر ، واذ سأله رجل الحكومة عما يكر به هتف بصوت ملتاع :

ـ الحقنا يا سعادة البيه . البلد مقلوبة . عند المدرسة الاعدادية . الحقنا بالعسكر اللي عندك كلهم .. كلهم ..

وعندما استطاع المأمور ان يستخلص منه حقائق الموقف ، لم يستغرق اصدار قراره الحاسم أكثر من دقيقة واحدة . فقد اتصل بمدير الأمن . الذي أبلغ المحافظ . الذي ابلغ وزير الداخلية . الذي أعلن حالة الطوارىء القصوى في طول البلاد وعرضها ، وعقد مجلسا من كبار أعوانه .

ويجب أن يقال ـ للحقيقة والتاريخ أيضا ـ ان هؤلاء الرجال لم ينظروا الى المسألة باستخفاف . حقا ان خبرتهم الطويلة بمثل هذه الحركات الطائشة تبقى أعصابهم في ثلاجة مهما تأزمت الأمور ، ولكنهم لم ينظروا الى المسألة باستخفاف . وقد أجريت الاتصالات اللازمة بوزارة الدفاع وتقرر ما يأتي :

أولا : اعلان حالة الطوارىء القصوى في الجيش اضافة الى قوى الأمن .

ثانيا : تتوجه سريتان من قوى الأمن الداخلي بالاقليم الى الموقع باسلحتها الخفيفة .

ثالثا : نظرا لأن الدبابات تتمتع بسمعة طيبة في قمع الاضطرابات واظهار قوة الحكومة ، ترسل القيادة العسكرية الاقليمية دبابتين من طراز (يحسن أن نتجاوز عن تحديد الطراز ، لئلا نتهم بافشاء اسرار عسكرية ، ويكفي القول أن هذا الطراز اختفى من معظم جيوش العالم منذ الحرب العالمية الثانية) لتنضما الى قوى الأمن .

رابعا : ترسل القيادة العسكرية فصيلة من المظليين تتدخل في الوقت المناسب طبقا لأوامر قائد قوى الأمن .

وكانت بعض الآراء في المجلس تميل الى مضاعفة اعداد القوات لضمان اخماد الحركة في اسرع وقت ، ولكن الوزير ، بحصافته المعروفة ، قدر احتمال كون الحركة التي ظهرت في هذا الأقليم المشهور بهدوئه واستقراره مجرد خدعة لتحويل الانظار عن بؤرة الاضطرابات الحقيقية . وهذا هو في الواقع مغزى القرار رقم (أولا) .

والحقيقة التي لم يصرح بها الوزير لأحد هي أنه كان يشك دائما في سلامة التقارير التي يرفعها اليه مدير الأمن . فقد كان رأيه في هذا المدير أنه يجمع الى صفة الغباء صفة الكسل ، ولذلك فان مزاعمه عن هدوء الأحوال وخلو اقليمه من كافة أنواع النشاط المتطرف أو الهدم لم تكن تعني أكثر من عدم استعداده لبذل أي جهد لكشف المؤامرات التي يديرها العملاء والخونة لقلب النظام . وكان قرار الوزير ـ الذي أرجأ اعلانه الى أن يتم اخماد الحركة وينسى الناس امرها ـ هو احالة هذا المدير الى الاستيداع في الحركة المقبلة التي ستكون في الواقع حركة تطهير .

في الوقت نفسه كان مدير الأمن في الموقع يطل من نافذة سيارته الأمريكية السوداء ، وبصحبته اثنان من ضباط المخابرات ، وخلفه فصيلتان من قوى الأمن في سيارتي نقل . وكانت خطته هي جمع أكثر ما يمكن من المعلومات لتقدير حجم العملية والأخطار المحتملة قبل القيام بأي عملية يمكن أن تثبت رعونتها اذا وقع المحظور ، الذي كان يتمثل في شيئين :

الأول ـ احتمال وجود رهائن داخل المدرسة .

الثاني ـ احتمال اصابة أحد من سكان المنازل المجاورة . ولذلك قامت القوة الصغيرة التي رافقت مدير الأمن باخلاء السكان (من بقي منهم) وكانوا قد وصلوا الى حالة من الرعب تثير الاشفاق .

أما الجمهور الحاشد الذي تجمع أمام المدرسة فلم يحتج الى جهد في تفريقه ، فما ان رأوا رجال البوليس بملابسهم السوداء والخوذات على رءوسهم والبنادق معلقة بأكتافهم ، حتى انسحبوا الى مسافة بعيدة ناحية البلدة ، بحيث تمكنهم ملاحظة ما يدور وهم بمأمن من الخطر . وقام الخفراء ـ وقد ارتفعت معنوياتهم منذ قدوم مدير الأمن ـ بتفريق البقية الباقية ، وكان معظمهم من التلاميذ الكبار في المدرسة اوتلاميذ المدرسة الثانوية في عاصمة الاقليم .

(الأوامر التي أصدرها مدير الأمن في هذا الخصوص كانت مشددة وعاجلة وحاسمة . فالى جانب اخلاء ساحة المعركة حتى يمكن تحريك قواته بالمرونة المطلوبة ، كان من الضروري ابعاد الشبان الطائشين من تلاميذ المدارس ضمانا لعدم وصول معاونة خارجية من أي نوع الى المعتصمين داخل المدرسة) .

كان أخشى ما يخشاه مدير الأمن في هذه المرحلة أن يقدم العصاة على احتلال بعض البيوت المقابلة للمدرسة والتحصن فيها ، وبذلك يكونون شبه كماشة على قوات الحكومة ، ويمكن أن تتطور الحركة الى أبعاد لا يعلمها الا الله . فمدير الأمن نفسه لا يعلم الا القليل عما يجري في اقليمه ، ولكنه يملك الشجاعة الكافية للاعتراف بذلك على عكس نظرائه في الأقاليم الأخرى الذين يحرصون على أن يمدوا الوزارة مرة أو مرتين كل سنة ببيانات ملفقة عن تحركات مريبة أو منظمات قائمة فعلا تخطط لقلب نظام الحكم . في حين أن كل من عمل في الريف يعلم أن العلاقات العائلية لا تزال تحكم كل شيء فيه ، بما في ذلك السياسة ، وليس ببعيد أن يتستر العمدة نفسه على ارهابي خطر أو حتى مجرم فار مدعيا الجهل بكل شيء ، اذا حتمت عليه اعتبارات عائلية عليا هذا التصرف المشين .

والحقيقة أن مدير الأمن كان محبوبا من عمد الاقاليم على الخصوص - لأنه يفهم جيدا كيف تسير الأمور في الريف ، وكان فوق ذلك انسانا بسيطا وأكثر تواضعا من أي مأمور مركز عرفوه .

في ساحة المعركة

اتخذ مدير الأمن من احدى البنايات المواجهة للمدرسة مقرا لقيادته ، واختار غرفة بالطابق العلوي (يبدو انها كانت مخصصة لاستقبال الضيوف ، فهي ضيقة نوعا ، وكراسيها مغطاة بيباضات من قماش الكريتون) وأحضرت له منضدة كبيرة من منزل مدير المدرسة فبدت الحجرة مقر قيادة لا بأس به .

عن يمينه جلس العمدة ، وعن يساره مدير المدرسة ، وهو يمت الى العمدة بصلة قرابة .

أكد الرجلان كلاهما أن قضية الرهائن يمكن اهمالها ، وأردف العمدة : -

- سعادتك عارف . لو كان هناك رهينة واحدة لسمعت سعادتك «صوات» النساء وأنت في مكتبك بالمدينة .

بقيت المشكلة الخطيرة . الداهية العظمى . كيف يا حضرة العمدة ؟ كيف يا حضرة مدير المدرسة ؟ كيف حدث هذا كله وانتما نائمان ؟ ارهابيون ! في هذه القرية الصغيرة الهادئة ! (امتعض العمدة ومدير المدرسة قليلا عند سماع هذه الجملة الأخيرة) ماذا سيقال عنا في الوزارة ؟ ماذا سيقال عني أنا ؟ أين كنت يا حضرة العمدة ؟ وأنت يا حضرة مدير المدرسة ؟ هل تستطيع أن تفسر لي السبب في اختيار مدرستك بالذات لتكون مركزا لعصيان مسلح (الى هذا الوقت لم تكن قد اطلقت رصاصة واحدة ، ولكن ظواهر الأمور كلها كانت تؤكد أنه عصيان مسلح ، وربما كان خطيرا أيضا) .

تنحنح مدير المدرسة وقال بصوت هامس مرتجف انه يشك في شخص معين ، مدرس جديد منقول من إحدى مدارس العاصمة .

انتهر العمدة قريبه لأنه لم يخبره بأمر هذا المدرس قبل ، واضطر مدير الأمن الى التدخل لتهدئة الموقف ، على الأقل حتى يحصل على كل المعلومات المهمة من مدير المدرسة ؟

- انتظر أنت . هل هذا المدرس يعقد اجتماعات في بيته ؟

تشجع مدير المدرسة ، واستطاع أن يقول بعبارات متقطعة انه لم يهمل الأمر قط ، انه حريص دائما مع هؤلاء الجدد ، وخصوصا القادمين من العاصمة ، انه كلف أحد السعاة بمراقبته دون أن يشعر ليس من هذه الناحية ، لا ، فلم يكن شيء من ذلك يخطر بباله قبل اليوم ، ولكن سعادتك تعرف .. النواحي الأخلاقية .. هذه النواحي مهمة جدا بالنسبة لمدرس في الريف - وهو يستطيع أن يقرر بناء على مراقبة دقيقة لم تنقطع طوال الأشهر الثلاثة التي قضاها هذا المدرس في البلدة انه عزب ملازم بيته طول الأسبوع . لم تدخل امرأة واحدة بحجة تنظيف المنزل أو تزويده باللبن والزبدة . لا يعطي أي دروس خصوصية . يذهب يومي الخميس والجمعة وأيام العطلات الى العاصمة . وفوق ذلك فهو محافظ على مواعيده ، لم يرسل مرة واحدة طالبا اجازة مرضية ، لم يستعمل يوما واحدة من اجازته العرضية .

نظر مدير الأمن الى مدير المدرسة بازدراء وقال من بين اسنانه :

- لماذا تشك فيه اذن ؟ هل تريد حضرتك ان تضللنا ؟

كان هذا أكثر مما يطيقه مدير المدرسة . هو يعلم أنه في موقف صعب فعلا . ان يوم العطلة الرسمية هذا يوم منحوس من أوله . ولكنه رجل مجرب ، أزرق الناب ، ومهما ارتعد أمام السلطة فانه يعرف دائما كيف يجيب وكيف يتفادى الطامات .

حلف بالله ودعا على عينيه الاثنتين بالعمى ان كان قد أخفى شيئا ، أو كان ما يقوله سوى الحق الخالص الصريح ، ومع ذلك فان لديه اسبابه الخاصة للشك في هذا المدرس بالذات :

أولا - هو متكبر ، لم يره أحد مبتسما ، ولم يدخل حجرته « حجرة المدير » الا مرتين طوال هذه المدة : مرة حين جاء لتسلم العمل ، ومرة ليطلع على تقرير مفتش المادة ويوقع عليه بالعلم .

ثانيا ـ متحفظ ، منطو ، لا يختلط بأحد من زملائه أو من أهل القرية (كان للمدير أخت عانس لا تكف عن الشجار مع زوجته) . ومدير المدرسة (همس بادب انه درس التربية وعلم النفس وفضلا عن ذلك فهو دائم القراءة في علم النفس ، أي أن علم النفس هو هوايته المحببة ، وليس مجرد مادة درسها في معهد المعلمين) يجزم بأن هؤلاء الانطوائيين ، أو هذا الصنف من الانطوائيين بوجه خاص ، هم أخطر فئات الجنس البشري على الاطلاق .

ثالثا ـ وأخيرا : ـ هناك هذه الرحلات الدائمة الى العاصمة . ومن الواضح أن حضرة المدير لا تمكنه مراقبتها ، فضلا عن أن هذه المراقبة ليست من اختصاصه .

ثم فضلا عن كل ذلك ، فالشيء المؤسف حقا هو أن ملف المدرس المذكور لا يحتوي على أي تقرير سري يتعلق بنشاطه السياسي . والذي يرجحه المدير هو أن السبب الحقيقي لايفاد هذا المدرس الى الريف هو انه عضو في خلية ارهابية ، وانه دبر العملية بليل مع رفاقه واتباعه ، الذين يمكن أن يحضر عشرات بل مئات منهم بالحافلات الى القرية ويتسللوا الى المدرسة من مختلف الاتجاهات دون أن يلحظ حركاتهم أحد ، وكيفما كان الحال فلا شك أن المسئول الوحيد هو الفراش المناوب ، الذي كان يجب عليه أن يبقى في المدرسة لحراستها كما تقضي اللوائح ، ولكنه فضل بكل تأكيد أن يذهب الى الغرزة بمجرد انتهاء الدراسة ، ومنها رأسا الى حضن زوجته ، وهو من أجل ذلك يستحق الضرب بالرصاص لا مجرد الفصل .

كان مدير الأمن في تلك الأثناء ينصت الى المكروفون الذي يجلجل من فوق سطح المدرسة وقد وصل الى البيان رقم ٧ ، وأعاده مرتين . لم يكن في البيان رقم ٧ شيء يلفت النظر سوى سب الحكومة ، أما الوعود بالرفاهية والعدالة ومحاربة الفساد وعدم الانحياز فلا تختلف عما تعلنه بيانات الحكومة نفسها . لذلك شعر مدير الأمن بشيء من الملل . وفي هذه الأثناء وردت اشارة بقرارات الوزارة ، فلم يكن في وسعه أن يأمر باستدعاء سريتين من قوى الأمن ، مع بقاء فصيلة المظليين في الثكنات انتظارا لتعليمات أخرى .

الهجـــوم

ربما بدافع الملل وحده قرر مدير الأمن أن يبدأ الهجوم . سمع من العمدة ومدير المدرسة قصة السور المكهرب فانفجر ضاحكا حتى شعر الرجلان بالخجل والحيرة . قال لهما انه يستطيع أن يستدعي فصيلة كاملة من المظليين فتكون هنا بعد خمس دقائق على الأكثر ، ولكنه يستطيع في دقيقة واحدة أن يقطع التيار الكهربائي وكفى الله المؤمنين شر القتال . وأبدى دهشة لان الفزع بلغ بهما الى حد نسيان هذه الفكرة التافهة . بعد لحظات كان ستار من قنابل الدخان يحجب بناء المدرسة ، وثلاثون من قوى الأمن باسلحتهم الخفيفة يقفزون فوق السور ، بينما كان مدير الأمن يتابع سير المعركة من مقر قيادته .

●

لحظات من الصمت الرهيب ، عندما انجلى الدخان كان الجنود الثلاثون قد انتشروا في فناء المدرسة في مجموعات ، اثنين أو ثلاثة أو أربعة متحصنين وراء جدران الأبنية الخارجية : حجرة الأشغال ، دورة المياه ، حظائر الدواجن .

تلا ذلك اطلاق رصاصات قليلة على النوافذ والشرفات المغلقة . كان الهدف لا يعدو اجبار العدو على الظهور لاصطياده . بعد ذلك لاحظ مدير الأمن أن شبحا يتحرك بحذاء سور السطح مقعيا مثل الكلب ، وبيديه مدفع كلاشينكوف ، ركزه على زاوية السور الجنوبية الغربية .

قنبلة يدوية واحدة ، جيدة التصويب كان يمكن أن تنسفه بمدفعه . ولكن مدير الأمن اكتفى بمتابعته بالنظر . لا ، هذا انسان لم يمسك مدفعا في حياته . لعله حصل عليه منذ أيام فقط ، فليس بينهما ذلك الارتباط الحميم الذي يكون بين الجندي وسلاحه . هو يتحرك كمن يمشي في نومه ، ملامح وجهه خالية من أي تعبير ، ربما يكون قد اختار هذا الموقع بذكاء ، ولكنه غير قادر على الاستفادة منه . رفع رأسه قليلا فوق السور ، ونظر حوله . لمح أحد القناصة فوهة المدفع ، ورأسه يطل فوقها . صوب الى الرأس باحكام . سقط قبل أن يطلق رصاصة واحدة .

●

ـ فتشتم المكان جيدا ؟

ـ كل بوصة .

تأمل مدير الأمن الوجه الساكن على جبينه دائرة حمراء ، كأن أمه أرادت أن تعايثه وهو نائم :

سأل مدير المدرسة :

ـ هو ؟

ـ نعم هو .

أمر مدير الأمن بانزال اللافتة والعلم الأحمر والأسود ، ووضعها في حرز ، ونقل الجثة الى المشرحة .

شكري محمد عياد

هل مات داروين حقاً؟

بقلم : الدكتور أحمد أبو زيد

انقضى قرن كامل على وفاة تشارلز داروين . فقد توفي في التاسع عشر من ابريل عام ١٨٨٢ عن ثلاثة وسبعين عاما . وخلال السنوات المائة التي مرت منذ وفاته ظهرت عشرات الآلاف من الكتب والمقالات التي تتناول بالدراسة والتحليل حياته ونظريته في التطور والتي تعتبر تلك النظرية احدى المنجزات الرئيسية الهامة في تاريخ العلم ، كما ظهرت في الوقت ذاته آلاف أخرى من الكتب والمقالات التي تهاجم النظرية وصاحبها وتوجه اليها الكثير من الانتقادات او التي تحاول ادخال بعض التعديلات الهامة على تلك النظرية ..

ولقد بدأ الانقسام في الرأي حول النظرية واضحا بمجرد صدور كتاب داروين عن « أصل الأنواع » عام ١٨٥٩ ، اذ تحمس له عدد كبير من علماء البيولوجيا بالذات ، ولعل أهمهم توماس هكسلي الذي كان يصف نفسه بانه (كلب داروين الحارس) بينما تصدى للهجوم على الكتاب ونقده وتسفيهه رجال الدين ..

بين داروين وماركس

وقصة الصدام بين هكسلي والأسقف ويلبرفورس ، أسقف أكسفورد أثناء اجتماع « الرابطة البريطانية » في اكسفورد عام ١٨٦٠ قصة مشهورة ، وتكشف عن مدى اختلاف الرأي والنظرة الى داروين ونظريته .. فقد نهض ويلبرفورس يهاجم النظرية وينقدها في أسلوب خطابي لاذع ، والتفت في نهاية خطابه الى الاستاذ هكسلي قائلا في سخرية : « أود ان اسأل الاستاذ اذا كان ينتمي الى القردة من ناحية أبيه أو ناحية أمه ؟» فيرد هكسلي ـ حسب احدى الروايات ـ بقوله : « ليس للانسان ان يخجل من ان يكون قردا . واذا كان لي جد اخجل من ان اذكره فلابد ان يكون هذا الجد انسانا له عقل قلق متقلب ، وتفكير غير مستقر ولا يقنع بالنجاح في مجال نشاطه الخاص ، وانما يلقي بنفسه في المشاكل العلمية التي ليس له بها دراية او معرفة حقيقية ، وكل ما يفلح في ان يفعله هو ان يضفي عليها ستارا من الغموض عن طريق الخطابة الجوفاء ، وان يصرف انتباه السامعين عن النقطة موضوع الخلاف . وذلك عن طريق اللجوء الى الاستطرادات البليغة والاعتماد في حذق ومهارة على اثارة المشاعر الدينية » ..

ومن الطريف ان كارل ماركس كان يريد تصدير الترجمة الانجليزية لكتابه « رأس المال » بعبارة إهداء



عن التايمز اللندنية   بريشة : بيتر بروكس (١٩/٤/١٩٨٢)

الى داروين مما يكشف عن مدى اعجابه وتقديره له ، ولكن داروين اعتذر في أدب عن قبول ذلك العرض . ومع ذلك فقد كتب ماركس بخطه على النسخة التي أرسلها اليه عبارة : « من المعجب المخلص » . والظاهر ان داروين وضع الكتاب في مكتبته دون أن يقرأه ابدا .. بل الاكثر من ذلك هو أن داروين كتب الى ولاس **Wallace** ، فيما بعد يقول : « انه من الغباء ان تسود في المانيا فكرة وجود علاقة بين الاشتراكية والتطور عن طريق الانتخاب الطبيعي » .. ولقد ظل ماركس متحمسا لكتاب « أصل الأنواع » ولنظرية التطور لدرجة انه كتب الى انجلز **Engels** ، يقول : « على الرغم من ان هذا الكتاب يعالج نظرية التطور بأسلوب انجليزي فج فانه يحتوي اسس التاريخ الطبيعي لنظريتنا » ..

وكان يبدو غريبا ، على الاقل في القرن التاسع عشر ، ان ينادي داروين بهذه النظرية التطورية التي تنبع في رأي الكثيرين من موقف المادي وتنكر فكرة الخلق او على الاقل تتعارض معها ، مع أن داروين كان قد درس اللاهوت لمدة ثلاث سنوات في جامعة كمبردج بعد أن أخفق في دراسة الطب في جامعة ادنبره . ولكن داروين يقول عن تلك السنوات الثلاث التي أمضاها في كمبردج : « انها كانت فترة ضائعة تماما من عمره ومن حياته » . وعلى الرغم من موقف رجال الدين منه ومن نظريته ، فقد دفن داروين في كنيسة وستمنستر ولم يكن هو نفسه يطمع في مثل ذلك التشريف والتكريم على الاطلاق ، وأقصى ما كان يصبو اليه من مظاهر التكريم حين يموت هو ان يدفن في فناء الكنيسة المحلية في بلدته ، ولكن المكانة العالية التي كان يحظى بها ابن

عـنـه العالم الشهير فرانسيس جالتـون **Francis Galton** وما قام به من اتصالات في ذلك الشأن أدت الى السماح بدفن داروين في تلك الكنيسة الشهيرة ..

وارث وليس خالقا

ويرتبط اسم داروين ـ على الاقل في اذهان عامة المثقفين في العالم ـ بأنه الرجل الذي نادى بنظرية التطور متحديا فكرة الخلق . وذهب في ذلك الى حد القول بانحدار البشر من القردة العليا . ولكن « الحقيقة أكثر تعقيدا من ذلك» حسب تعبير الاستاذ كريستوفر بوكر . فلم يكن داروين هو مؤسس تلك النظرية ، اذ سبقه اليها عدد كبير من العلماء الطبيعيين الذين كانوا يرون ان صور الحياة المختلفة تطورت كلها عن شكل واحد بسيط ، اي ان هذه الاشكال لم تخلق خلقا مستقلا ومتميزا كل منهـا عن الاخـرى . كذلك كان علماء الجيولوجيا يؤكدون ان عمر الصخور وعمر الحفريات أكبر وأقدم بكثير جدا من الفكرة العامة التي كانت سائدة لدى معظم الناس في القرن التاسع عشر والتي كانت ترد عمر الارض الى ما لا يزيد على ستة آلاف سنة . وقد انتشرت هذه الافكار قبل ظهور كتاب داروين عن « اصل الانواع » بسبعين سنة على الاقل . وكل ما فعله داروين هو أنه قام بتجميع تلك الأفكار والآراء المبعثرة المتناثرة وتحليلها بطريقة منهجية فيها قدر كبير من محاولة الفهم والتعمق ..وقد ساعد كتاب « اصل الانواع » على توطيد فكرة التطور وترسيخها ..

ولكن الأهم من ذلك هو أن الكتاب يقدم نظرية متماسكة عن الطريقة التي حدث بها التطور ووضع في ذلك مبدأه الشهير عن « الانتخاب الطبيعي » الذي فسر به استمرار بعض الانواع في الحياة واختفاء البعض الآخر في معركتها الكبرى وصراعها من أجل الحياة .. ولقد دعم داروين نظريته بالمعلومات الدقيقة التي جمعها سواء من ملاحظاته اليومية لمظاهر الطبيعة المختلفة او تلك التي حصل عليها من جزر جالا باجوس اثناء رحلته الشهيرة فوق ظهر السفينة بيجل **Beagle** . وليس من شك في ان مبدأ الانتخاب الطبيعي ، وهو مبدأ بيولوجي في الاصل ، كان له تأثير هائل في تفكير القرن التاسع عشر بحيث يعتبره الكثيرون بمثابة ثورة حقيقية على الاوضاع التي كانت سائدة في مختلف العلوم والتخصصات . وفي ذلك يقول الاستاذ الفريد كروبر وهو من أكبر علماء الانثربولوجيا المعاصرين : ان هناك « نوعا من عدم التناسب بين الاسهام المحدود الذي اسهم



تشارلز داروين

(١٢ فبراير ١٨٠٩ ـ ١٩ ابريل ١٨٨٢)

به داروين في العلم والذي ينحصر في وضع وتجسيد مبدأ الانتخاب الطبيعي وبين كل ذلك التأثير الهائل الذي تركه تأسيس هذا المبدأ البيولوجي على العلم الكلي . فقد دفع هذا المبدأ علماء القرن التاسع عشر الى البحث عن اصـول الاشياء ، وظهرت بذلك كتابات كثيرة تتناول أصل اللغة واصل الحضارة واصل المجتمع واصل العائلة واصل الدين وما الى ذلك بنفس الطريقة التي تناول بها داروين مشكلة اصل الانواع . ومع ذلك فان داروين يعتبر في نظر الكثيرين من العلماء « وارثا » وليس « خالقا » لمشكلة الاهتمام العام بالتطور ، نظرا لان هذا الاهتمام كان أقدم بكثير من ظهور كتاب « أصل الانواع » على ماذكرنا .. ولكن لابد من الاعتراف طوال الوقت بانه على الرغم من ان داروين لم يكن هو اول من ذهب الى القول بتطور الانسان من حالة حيوانية دنيا متواضعة ، فان فكرة التطور كانت قبله مجرد « فكرة نظرية بحتة » ، فاصبحت على يديه ، وبعد ظهور كتاب « اصل الانواع » ، مبدأ علميا معترفا به ، رغم كل الشكوك والانتقادات والمآخذ التي وجهت ، والتي لا تزال توجه ، الى هذه النظرية ..

ومـن الطبيعـي ان تأتـي اول حركة للانتقاد والاعتراض وأشدها عنفا من رجال الدين . أي أن معظم النقد لم يصدر في الاصل نتيجة لرفض فكرة امكان وجود علاقة بين الانسان والقردة العليا ، بقدر ما كان

ناشئا عن موقف داروين من فكرة الخلق . ومن الانصاف ان نقول ان داروين في كتاب « أصل الانواع » كان حريصا الى حد كبير على ان يتجنب الكلام عن أصل الانسان ولم يعرض لذلك إلا في مرحلة تالية . ومع ذلك فقد وجهت اليه منذ البداية تهمة محاولة التدليل في ذلك الكتاب على انحدار الانسان من القرود ..

وقد أثارت هذه التهمة كثيرا من الدهشة والارتياع والشعور بالضآلة .. وقصة زوجة اسقف كنيسة وورستر في ذلك قصة شهيرة وطريفة . ففي ابان احتدام المعركة بين هكسلي وويلبر فورس سألت زوجها في ارتياع : « هل صحيح اننا انحدرنا من سلالة القردة ؟» انني ارجو ياعزيزي ان يكون ذلك غير صحيح .. ولكن لو صح ذلك فانني ارجو ان يبقى الامر سرا غير معروف ..

التطور خطوة خطوة

الى جانب هذين المبدأين الرئيسيين ، أعني مبدأ نشأة كل صور وأشكال الحياة من أصل واحد ، ومبدأ الانتخاب الطبيعي الذي يعرف لدى معظم الناس بمبدأ « البقاء للاصلح » وهو تعبير صدر عن هربرت سبنسر وليس عن داروين ، هناك مبدأ ثالث هام لم ينل الكثير من عناية العلماء التطوريين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي ، واعني بذلك حدوث التطور في خطوات بطيئة وتدريجية ولكنها ثابتة ومطردة ، وان عملية التطور تمت على شكل سلسلة طويلة من التغيرات الصغيرة التي كانت تستغرق حقب طويلة جدا من الزمن ..

ولقد لقيت هذه المبادىء او العناصر الثلاثة درجات متفاوتة من القبول او الرفض من علماء البيولوجيا والانثربولوجيا الفيزيقية . وربما كان العنصر الاول ، أي تطور كل اشكال الحياة من نفس المبدأ ، هو العنصر الوحيد في نظرية التطور الذي لا يزال يجد كثيرا من القبول من اغلب علماء البيولوجيا في الوقت الحالي وبخاصة بعد أن بينت البحوث التي اجريت في مجال الوراثة ان كل الكائنات العضوية تخضع لنفس الشفرة الوراثية **Genetic Code** مما يقوي - في نظر هؤلاء العلماء - احتمال وجود أصل واحد مشترك لكل هذه الاشكال من الحياة . وان كان بعض العلماء يرون أن الحياة بدأت اول ما بدأت على كوكب آخر غير الارض . ويدخل في زمرة هؤلاء العلماء فرانسيس كريك الحائز على جائزة نوبل في البيولوجيا ، وفريد هويل العالم الفلكي البريطاني الشهير ، وليزلي اورجل عالم الكيمياء العضوية وغيرهم من كبار العلماء في مختلف التخصصات التي لها علاقة بعلوم الحياة ..

أما المبدأ أو العنصر الثاني ، وهو مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي يعتبره داروين القوة الدافعة والموجهة الرئيسية في عملية التطور ، فقد لقي كثيرا من الاعتراض منذ أيام داروين نفسه . ولا يزال الكثيرون من علماء البيولوجيا في الوقت الحالي يرفضون اعتباره أساسا للتغيرات والتطورات التي تحدث في الكائنات العضوية ، ويردون استمرار وثبات الجينات أو المورثات الى عامل الصدفة وليس الى الانتخاب الطبيعي ، كما يردون ظهور الأنواع الجديدة الى التغيرات الهائلة التي تطرأ على كروموسومات الكائنات العضوية الموجودة بالفعل ، دون أن يكون لذلك أي علاقة بقدرة تلك الكائنات على الاستمرار في الحياة أو صلاحيتها للبقاء ..

حلقات كثيرة مفقودة

كذلك يلقى تصور داروين للتطور على انه عملية متصلة ومستمرة - وان كانت تتم بشكل بطيء وتدريجي - اعتراضات كثيرة من جانب عدد من علماء الانثربولوجيا الفيزيقية المعاصرين ، ممن اتيحت لهم الفرصة للبحث الميداني والتنقيب والعثور على بعض الحفريات القديمة التي قلبت كل النظريات السابقة رأسا على عقب ..

ويكاد هؤلاء العلماء يجمعون الآن على أن الأنواع « الجديدة » لم تكن تظهر نتيجة لتراكم « التغيرات الصغيرة » خلال فترات طويلة جدا من الزمن كما قال داروين ، ولكنها كانت تظهر فجأة ، ثم تستمر في الوجود دون ان يطرأ عليها اية تغيرات كبيرة حتى تندثر وتختفي تماما ، لكي يظهر من بعدها - وبطريقة فجائية ايضا - أنواع أخرى تختلف عنها اختلافا كبيرا ، ودون أن يكون هناك مقدمات او شواهد في الأنواع القديمة تبشر بظهور هذه الأنواع الجديدة الأكثر تطورا - وتمهد لها ..

وقد استند اصحاب هذه النظرية الجديدة ، الى جانب الحفريات التي عثروا عليها الى وجود فجوات وثغرات واسعة جدا في « السجل الحفري » يمتنع معها امكان تصور التطور على انه عملية واحدة متصلة ومستمرة . فالسجل الحفري يكشف عن وجود كائنات عضوية تنتمي الى أنواع مستقرة ومتكاملة التكوين ومتمايزة ، ويمكن تحديد رتبتها بكل دقة ، ولكنه لا يضم حفريات تشير الى وجود اي أنواع هامشية او وسيطة تمثل مرحلة الانتقال من نوع متكامل معين الى النوع الذي تطور منه ونشأ عنه ..

وإذا كان داروين تكلم عما يسميه بالحلقة المفقودة بين القردة العليا والانسان بوجه عام ، فالواقع ان هناك (حلقات مفقودة) كثيرة تتمثل في تلك الأنواع او الأشكال الهامشية والوسيطة التي يخلو منها سجل الحفريات .. وقد انتبه داروين نفسه الى ذلك النقص الخطير واعترف بان السجل على ايامه كان « ناقصا للغاية » حسب تعبيره . ولكن هذا الاعتراف يحمل بين طياته ضمنيا رأي داروين في ان العثور على مزيد من الحفريات كفيل بسد تلك الثغرات ، وبالتالي اثبات صحة نظريته . وهذا أمر لم يتحقق حتى الآن على اية حال ..

كل هذه الانتقادات صدرت في الحقيقة عن علماء تطوريين ، ولذا فانها لا ترفض مبدأ التطور بوجه عام ، وان كانت تعارض بعض الآراء والاستنتاجات التي جاء بها داروين ، وتحاول ان تعدل نظريته أو أن تستكمل ما بها من نقص ، وتصحح ما يعيبها من اخطاء كشفت عنها البحوث البيولوجية الحديثة . والشيء الواضح من هذا كله هو أنه على الرغم من كل ما قاله داروين وكل ما كتبه العلماء التطوريون طوال المائة والعشرين عاما التي انقضت على ظهور كتاب اصل الأنواع ، فليس ثمة اتفاق بين هؤلاء العلماء على اصل الحياة وكيف بدأت ؟ وكيف تطورت ؟ فلا تزال النظريات العلمية تتضارب وتتعارض الى أبعد حدود التضارب والتعارض ..

المشكلة أمام القضاء

كل هذه المآخذ والانتقادات التي تتعرض لها نظرية التطور التي تمنع من انها تعتبر واحدة من اهم الانجازات العلمية في ميدان البيولوجيا الحديثة . ومع ذلك فان تدريس النظرية يلقى شيئا من المقاومة في عدد قليل من البلاد لاسباب دينية تتعلق بتعارضها مع قصة الخلق . والطريف في الأمر هو أن عددا من الولايات الامريكية ترفض تدريس نظرية التطور في المدارس الثانوية الا اذا درست الى جانبها قصة خلق العالم كما وردت في الكتاب المقدس ..

والظاهر أن فكرة الخلق تكسب الآن مزيدا من الأنصار والمؤيدين في امريكا حتى بين صفوف العلماء . وقد بدأت هذه الحركة في امريكا عام ١٩٢٥ حين طالبت بعض العائلات المحافظة والمتدينة في ولاية تينسي بضرورة منع تدريس نظرية التطور في المدارس لانها تفسد عقول النشء وتتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس ، ورفعت الأمر الى القضاء الذي حكم بعدم جواز الاكتفاء بتدريس نظرية واحدة عن اصل الكون ونشأة الكائنات ..

ولكن انصار فكرة الخلق لم يقتنعوا بذلك وانما أخذوا ينظمون صفوفهم ويعملون على اختفاء الطابع العلمي على القصة الدينية بل وانشأوا عددا من مراكز البحث والكليات والمعاهد العليا التي تقوم باجراء دراسات وبحوث في مجالات البيولوجيا والانثربولوجيا الفيزيقية والحفريات لكي تستخلص منها شواهد يعتمدون عليها في التدليل على صدق ما جاء في الكتاب المقدس ، وظهر بذلك « علم » جديد هو « علم الخلق » **Creation Science** . ثم أثيرت المشكلة امام القضاء مرة اخرى في العام الماضي وأدلى سبعة من كبار العلماء ـ كان احدهم عالم رياضيات مشهور ـ بشهاداتهم وحاولوا تقديم البراهين والحجج العلمية على بطلان نظرية التطور وصدق نظرية الخلق ..

وقد يكون العلماء أخفقوا في اقناع القضاة بصدق دعاواهم بحيث اصدروا حكمهم بانه ليس ثمة ما يمنع من تدريس قصة الخلق في المدارس كجزء من التربية الدينية ، او ضمن مقررات التاريخ او العلوم الاجتماعية دون اعتبارها نظرية علمية نظرا لصعوبة البرهنة عليها بأساليب ومناهج موضوعية تعتمد على الاحصائيات وعلى القياس كما هو الشأن في العلوم الحديثة . ولكن هذا لا يعني ابدا انحسار الموجة . فكل الظواهر تدل على العكس من ذلك تماما . والتغيرات التي حدثت في الكتب الدراسية خير دليل على ذلك . فكتاب البيولوجيا المقرر على المدارس الثانوية في بعض الولايات الامريكية كان يعرض لحياة داروين في ١٣٧٣ كلمة ولكنه في آخر الطبعات عرض الموضوع ذاته في خمس وأربعين كلمة فقط .. وانخفض عدد الكلمات التي تتناول بها موضوع أصل الحياة من ٢٠٢٣ كلمة الى ٣٢٢ كلمة ، كما أن عدد الكلمات التي كان الكتاب يعالج بها رأي داروين في التطور من ٢٧٥٠ كلمة الى ٢٩٦ كلمة فقط . بينما حذفت تماما الاجزاء الخاصة بتكوين الحفريات والحقب الجيولوجية . وهذا يصدق على كثير من الكتب المدرسية التي تمس موضوع التطور بشكل أو بآخر ..

بل ان الامر وصل الى حد اغفال هذه الكتب وضع اي صور او أشكال توضيحية عن الحفريات كوسيلة لارضاء انصار فكرة الخلق ، بينما تحرص بعض المدارس على الكلام عن « التغير » بدلا من « التطور » بقدر الامكان . وبذلك فان التلاميذ يتلقون دروسا عن

الطيور مثلا واخرى عن البرمائيات ولكنهم لا يعرفون شيئا عن العلاقة بين الفئتين .. وكل هذا معناه في آخر الامر ان أنصار فكرة الخلق أفلحوا بالفصل في تغيير الكتب والمعلومات التي يتلقاها النشء على الرغم من فشلهم في الحصول على حكم رسمي من القضاء باعتبار القصة الدينية نظرية علمية جديرة بان تؤلف جزءا من مقرر البيولوجيا في المدارس الثانوية ..

وواضح من هذا كله أنه بعد مرور مائة سنة على (وفاة) داروين فان نظريته لا تزال عرضة للهجوم والنقد ومحاولات التعديل من جهة والتسفيه من جهة اخرى ، مما يدفع الى التساؤل عما اذا كانت كل هذه الحركات والاتجاهات المناوئة هي مؤشر على قرب نهاية نظرية التطور وموتها ، وبالتالي (موت) داروين نفسه بعد ان شغل اذهان العلماء أكثر من قرن كامل . قد يكون من الصعب الاجابة على هذا التساؤل . ولكن ليس من شك في ان البحوث البيولوجية التي تجري الآن وكذلك الاكتشافات الانثربولوجية والحفريات القديمة التي يتم العثور عليها بكميات متزايدة وفي مناطق مختلفة من العالم هي وحدها التي سوف تحدد مصير هذه النظرية كما سوف تقرر المكانة الحقيقية التي يجب ان يحتلها داروين في تاريخ العلم ..

وبعد ،

فمنذ شهور قليلة ، وفي أواخر عام ١٨٨١ ظهر في انجلترا كتاب يحمل عنوانا طريفا هو « التطور من الفضاء **Evolution From Space** » ، قام بتأليفه عالم الفلك الشهير سير فريد هويل **Sir Fred Hoyle** ، الذي سبقت الاشارة اليه ، وعاونه في ذلك استاذ هندي يدرس الرياضيات في جامعة كارديف . ويعترف الاستاذان بصراحة في ذلك الكتاب بأنهما ملحدان ولا ينتميان لأي دين او عقيدة ، وانهما يعالجان أمور الفضاء وحركات الكواكب باسلوب علمي بحت ومن زاوية عقلانية خالصة لا تخضع ولا تتأثر بأي موقف ديني . ويدور الكتاب حول مسألة احتمال وجود حياة على الكواكب الاخرى ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عن ظهور الحياة تلقائيا من الوحل الاولى **Primeval Soup** ، نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية .. ومع أن هناك نظريات معارضة لهذا الاتجاه ، وهي نظريات ترى ان احتمال ظهور الحياة من هذا الوحل او الطين الاولى لا تزيد عن ١ : ١٠ فان هويل يرى ـ بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة ـ ان هذا الاحتمال لا يزيد بحال عن ١ : ١٠ ٤٠,٠٠٠ اي واحد الى عشرة أمامها اربعون الف صفر . مما يعني انه لا تكاد توجد فرصة لظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي من هذا الطين ، وبالتالي فان الحياة لا يمكن ان تكون نشأت عن طريق الصدفة البحتة ، وانه لابد من وجود عقل مدبر يفكر ويبدع لهدف معين ..

وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح ـ كما قلنا ـ بالحادهما فانهما لا يجدان امامهما مفرا من ان يكتبا الفصل الاخير من الكتاب تحت عنوان « **GOD** - الله »

أحمد أبو زيد

السياسي النزيه !

● وقف الكاتب « اناتول فرانس » مع احد اصدقائه امام تمثال لرجل مقطوع الرأس والذراعين ، من صنع المثال الكبير « رودان » فسأله الصديق :

ـ ماذا يمثل هذا التمثال ؟

فاجاب اناتول فرانس على الفور :

ـ انه كما ترى يمثل شخصا لا يقدر على عمل شيء مفيد ، اى انه يمثل السياسي النزيه !

عندما يحسم المختبر
قضايا المواريث

بقلم الدكتور سينوت حليم دوس

رغم ان المواريث محددة طبقا لنصوص القرآن الكريم بتفصيل شديد ، الا ان ثمة حالات لا يمكن الفصل فيها دون الرجوع الى العلم . فالميراث وانصبة الورثة تتحدد في الآيتين التاليتين من سورة النساء :

ـ « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين » .

ـ « ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها او دين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها او دين . وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها او دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » .

ونستخلص من هاتين الآيتين الاحكام التالية :

اولا : للذكر نصيب الأنثيين في الميراث .

ثانيا : الابن يحجب باقي الورثة من العصبات .

ثالثا : للزوجة التي لم تنجب ربع التركة ، فان أنجبت فلها الثمن . اما الزوج فيكون له النصف , فان انجب فله ربع التركة .

رابعا : الدين مقدم على الميراث قطبقا للمبدأ الشرعي ، أن لا تركة الا بعد سداد الديون ، فدفع المضار بالنسبة للدائنين خير من جلب المنافع بالنسبة الى الورثة .

خامسا : تخالف الشريعة الاسلامية غيرها من الشرائع في حرية الايصاء والهبة . فقد جعلت هذه الحرية بالنسبة للمورث مقصورة على ثلث التركة , فخير للمورث ان يترك ورثته اغنياء من ان يتركهم فقراء يتضورون جوعا .

سادسا : ترث البنات بالفرض فان بقي شيء من التركة فانه يعود اليهن تعصيبا .

وهذه هي الاحكام العامة التي تحكم نظام المواريث في العالم الاسلامي ، ولكن قد يدق الامر فيصبح متعذرا على رجل القانون وضع حل قاطع بعيدا عن الشك لمشكلة يدق يدق الامر فيصبح متعذرا على رجل القانون وضع حل قاطع بعيدا عن الشك لمشكلة يدق الامر فيصبح متعذرا على رجل القانون وضع حل قاطع بعيدا عن الشك لمشكلة معروضة عليه . وهذه المشاكل الحدية هي التي يرجح فيها حق المدعي كما يرجح حق المدعى عليه ، وفي نفس الوقت لا يجد قاضي الدعوى مناصا من اللجوء الى اهل الخبرة من رجال العلم والطب الذين يستطيعون داخل مختبراتهم ترجيح حق كل طرف ، فيزول الشك ويصدر الحكم اقرب ما يكون الى وجه الصواب باعتبار ان الأحكام هي عنوان للحقيقة .

من قضايا امام المحاكم

وفي الدعاوي الثلاث التالية نماذج من بين دعاوي عديدة في هذا الفرع ، استطاع رجل العلم عن طريق انابيبه وبواتقه وداخل مختبره ان يضع الحل القاطع بتقريره الذي يصدره الى قاضي الموضوع الذي لا يسعه سوى التصديق عليه واصدار حكمه مستندا اليه .

القضية الاولى : توفي أحد الاثرياء وأنجبت زوجته بعد وفاته طفلا توفي بعد ساعات من ولادته كما ادعت الزوجة في دعواها واكدتها بشهادة وفاة الطفل والطبيب الذي تم الوضع على يديه .

وأنكر ورثة الزوج عليها هذه الأدلة بقولهم انها لم تلد منذ زواجها منه ولمدة عشر سنوات .

والفرق بين نصيبها في حالة صدق دعواها وحالة خسارتها لها كبير ، فميراثها في الحالة الاولى سيكون الثمن مضافا اليه ميراثها في الابن - كما انها ستحجب الارث الذي يصل اخوة الاب واخواته متيحة بذلك ارث اولادها من زوج آخر ، طبقا للمسألة الحجرية المعروفة في الفقه . اما في حالة ثبوت موت الابن او ولادته ميتا فانها سترث الربع فقط .

عرض الأمر على أهل الخبرة ، فاستطاعوا اثبات ان الابن قد ولد حيا وبقي على قيد الحياة لبضع ساعات ، عن طريق تحليل بعض أغشيته التنفسية والرئتين حيث ثبت وجود نسبة من اكسجين الهواء الجوي بها .

وهنا قال رجل الخبرة رأيه بأن الحياة دبت في هذا الوليد ساعات ، فصدق على ذلك التقرير قاضي الموضوع ، مقررا ان الزوجة ولدت الابن حيا فهو اذن يرث الأب في كل التركة تعصيبا ، ثم توفي الابن فاصبحت الام ترثه من بعده بالاضافة الى ما تكون قد ورثته اولا مع الابن من التركة - كما يرث إخوة هذا الطفل غير الأشقاء وبهذا حجب بعض العصبات من ابناء عمومة الزوج المتوفي .

القضية الثانية :

توفي الزوج ولم ينجب أولادا فشرع الورثة في تقسيم تركته - الا ان الزوجة بادرت برفع دعوى مستعجلة طالبة وقف تقسيم التركة وتعيين حارس عليها حتى يتم وضعها لمولودها الذي هو ولد للمتوفي (وكلمة ولد هنا تطلق على الذكر والانثى سواء) - وقدمت شهادة من احد الاطباء بانها حامل في الشهر الرابع مصحوبة بشهادة من أحد المعامل التي اثبتت ان نسبة البروجسترون في بولها ودمها تؤكد وجود حمل لديها .

ورغم طعن الورثة في هذه الأدلة بقولهم انه حمل كاذب ، الا ان المحكمة استجابت لدعواها وأوقفت توزيع التركة وعينت حارسا عليها حتى يتم الوضع ومعرفة نوع المولود .

ولا شك في أن نوعية المولود ستلعب دورا كبيرا في نسبة ارث اقارب الاب ، فإن كان ذكرا فإن سيحجبهم ويمنعهم من الارث ، وإن كان انثى فسيكون لاقارب الاب نصيب معها .

وجاء في حيثيات حكم هذه الدعوى :

« ان في توزيع التركة وحصول كل وارث على نصيبه فيها رغم قيام حالة الاستعجال ووجود ضرر محقق قد يلحق بابن المتوفي او ابنته وهو لاشك اجدر بالرعاية في نظر المحكمة - فان في وقف التوزيع والانتظار حتى يتضح الامر ما يوجب تعيين حارس للقيام على شأن هذا المال حتى ينتهي امر النزاع المعروض اما بالولادة او التأكد من عدم صدق حملها كما يدعي المدعي عليهم - وان كانت المحكمة ترى ان شهادة المريض مل ق. وقد قدمت دليلا ماديا لزيادة نسبة الهرمون في بولها ودمها - فانها تقدر هذا الدليل الموضوعي وتضعه في الصدارة عن غيره من أدلة وشهادة للشهود .

القضية الثالثة :

عقب انتهاء مزاد بيع مخلفات وتحف الملك السابق فاروق في منتصف الخمسينات ، فاز احد الاطباء باكثر من ربع هذه التحف واصطحبها معه واقام وزوجته بأحد فنادق القاهرة .

وفي صباح اليوم التالي توفي الزوجان معا وعللت الوفاة بان عامل التبخير قد نسي مدخنة التبخير الخاصة بقتل الحشرات فتسرب الغاز اليهما فنجم عن ذلك وفاتهما .

ولم يكن الطبيب وزوجته قد أنجبا اطفالا فنشب بين ورثة الزوج وورثة الزوجة منازعات عديدة حول أحقية كل منهم في الحصول على نصيب في ميراث الزوج وميراث الزوجة .

وادعى ورثة الزوج بأنها توفيت قبله وبذلك فلا تحصل على ميراث منه وان كان هو الذي يرثها في هذه الحالة - وادعى ورثة الزوجة بأنها ماتت بعده بدليل انها صغيرة في السن ، ووجدت جثتها قريبة من النافذة ، وهذا دليل على انها قامت بمحاولات يائسة راغبة في فتح النافذة لانقاذ حياتها ولكن القدر لم يمهلها من تحقيق رغبتها في حين أن الزوج قد توفي أسرع منها فكانت جثته مسجاة على سريره .

وقاضي الموضوع هنا لايستطيع ان يضع رأيا أو حكما

صائبا بدون الاعتماد على رأي اهل الخبرة في تحديد من توفي قبل الآخر من الزوجين .

فاذا ثبت ان الزوجة توفيت قبل زوجها فان اهل الزوج سيرثون كل التركة ونصف تركة الزوجة ، في حين لوكان العكس فان اخوة الزوجة واخواتها سيرثون ربع تركة الزوج وكل تركة الزوجة ، ولا يبقى لورثة الزوج الا ثلاثة ارباع التركة .

وكانت المفاجأة عندما جاء في تقرير الطبيب الشرعي بعد تشريحه للجثتين أن وفاة الزوج والزوجة لم تكن من اثر تبخير الحجرة وانما وجد في امعائهما السم مختلطا بالطعام ـ وبهذا ثبت ان الوفاة كانت عمدية وعن طريق السم .

وأمام هذه الواقعة افترضت المحكمة ان الطعام دس السم فيه وان الوفاة قد لحقتهما في وقت واحد فيرث الزوج اخوته فقط ويرث الزوجة اخوتها فقط .

وهكذا وبناء على واقعة السم افترضت المحكمة ان الوفاة قد تمت في وقت واحد طالما قد تشابهت ظروفهما في تناول هذا الطعام .

وبناء على تقرير الطبيب الشرعي السالف رفضت دعوى التعويض التي اقامها ورثة الزوج والزوجة على صاحب الفندق باعتبار ان الوفاة لاعلاقة لها بتبخير الغرفة ، وترجع الى السبب الاجنبي الذي يعتبر صاحبه مجهولا .

وهكذا يؤدي المختبر خدمات جليلة الى العدالة ليستطيع القضاء الجالس والقضاء الواقف التعاون معا لايصال الحق الى اصحابه في سهولة ويسر ودون أدنى شك فيما يخط من احكام تتفق مع الحق والواقع والتأسيس السليم .

د . سينوت حليم دوس

كلية الطب ـ جامعة السليمانية ـ العراق

« المظ » في سطور

هي مطربة مصرية من اصل سوري تربعت على عرش الغناء والطرب لفترة طويلة . بدأت بترتيل آيات القرآن فكان صوتها عذبا وحلوا ، ثم تعلمت الموسيقى والغناء على يد استاذها محمد نوار السنتودي وكانت تتلقى دروسها وهي محجبة .

تمتعت المظ بشخصية جذابة كثيرة الميل الى المداعبات وقد ساعد هذا مع علوية صوتها ورخامته على نجاحها الفني فنافست عبده الحامولي منافسة قوية ولكن الحامولي استطاع ان يحد من منافستها ويحافظ على مستواه الفني بالزواج منها ثم منعها عن الغناء .

مع أمير الشعراء أحمد شوقي

هو اشهر شعراء العرب في العصر الحديث . ولد بالقاهرة سنة ١٨٦٨ ، وهب حياته كلها للشعر فكتب قصائد رائعة في أكثر فنون الشعر . تناول الاحداث السياسية والاجتماعية فكان مرآة لعصره احدث تجديدا في الادب العربي بمسرحياته الشعرية مثل « مصرع كليو باترا » و « مجنون ليلى » سافر الى فرنسا سنة ١٨٨٧ درس الحقوق بجامعة مونبلييه ونهل من الادب الفرنسي . مثل مصر في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٦ . اصبح عضوا في مجلس الشيوخ سنة ١٩١٩ توفي في اكتوبر سنة ١٩٣٢ من اثاره ديوان الشوقيات » .



قونيا في رمضان

اعداد ـ أحمد سعيد رزق

شهر رمضان في قونيا له طابع مختلف ، ومذاق اشد اختلاف !

تقع قونيا وسط هضبة الاناضول في تركيا ، ويبلغ عدد سكانها اكثر من سبعمائة الف نسمة اغلبهم من الاتراك وقليل منهم من الاكراد ، اما العرب فهم قليلون هناك ، اذ ان العرب المتركين يقطنون في جنوب البلاد التركية بوجه عام .

ولعل هذه المدينة هي المدينة التركية الوحيدة التي لا تحوي اقليات غير مسلمة ، وهذا ما يبرر لنا تمسك اهلها الشديد بدينهم الحنيف اكثر من اهالي اية مدينة تركية اخرى .

واذا استعرضنا حجاج احدى القوافل التركية فاننا سوف نجد نسبة كبيرة من هؤلاء الحجاج ينتمون الى المدينة التي نتكلم عنها (قونيا) .

ولـ : قونيا تاريخ حافل ومجد عريق فهي عاصمة البلاد في ايام السلاجقة ، وفيها قبر الشاعر المعروف ابن الرومي المشهور هناك بـ : مولانا جلال الدين . بالاضافة الى ذلك فهي (قونيا) مركز اثري وحضاري وسياحي كبير يؤمها السياح بأعداد كبيرة لوفرة آثارها الاسلامية القيمة .

ومدينتنا هذه هي المدينة الرابعة من مدن تركيا اذ انها تأتي بعد انقرة واستامبول وازمير .

وفيها معهد اسلامي كبير يشبه كليات الأزهر في مصر مدة الدراسة فيه اربع سنوات وفيها ايضا عدد كبير من المساجد ربما يزيد عن خمسمائة مسجد اشهرها مسجد علاء الدين كيكبات ، وقد اشرف على بنائه رجل دمشقي عمل في زخرفته على طراز الجامع الاموي بدمشق فجاء آية

في الفن والروعة والابداع .

واقرب المدن الى قونيا انقرة العاصمة وتبعد عنها مائتين وخمسين كيلو مترا .

اما عن التقسيمات الادارية في قونيا فهناك ستة عشر قضاء يتبع لها اهمها قضاء سيدي شهير ويبعد عنها حوالي ستين كيلو مترا وعدد سكانه حوالي مائة الف نسمة وفيه أشهر معمل للالمنيوم في الشرق الاوسط وهو شركة روسية تركية .

كذلك من اهم اقضية قونيا قضاء قره لي ويبعد عنها ستين كيلو متراً ايضا وعدد سكانه سبعون الف نسمة تقريبا اما بالنسبة للحالة الاقتصادية للبلاد فنستطيع ان نقول : ان قونيا مدينة زراعية عريقة اشهر مزروعاتها على الاطلاق : الحنطة ، وما تنتجه قونيا من الحنطة يكفي لاستهلاك تركيا بأكملها ، تساعد على ذلك كثرة الامطار والاراضي الخصبة والمناخ الملائم للزراعة .

كذلك تشتهر قونيا بزراعة القمح والشعير والحمضيات وكثير من انواع الفواكه والخضار .

التحضير لرمضان :

ان شعب قونيا شعب يعرف مذاق طعامه ويجتهد لافي تنوع الطعام فحسب ، وانما في كيفية طبخه واعداده ايضا . واذا علمنا ذلك فاننا ندرك مدى اعتنائهم بجودة الطعام وإعداده وتهيئته ، يساعدهم في هذاخصوبة اراضيهم وامدادها لهم كما قلنا بما يتنوع من اصناف الخضار والفواكه وغيرها من المحاصيل . فشعب قونيا اذن لا ينسى انتقاء بعض اصناف الطعام لتخزينها لشهر رمضان وكذلك بعض المواد التي تصلح لصناعة الحلوى بشكل خاص والتي تدخل في غذائهم بشكل عام والتي اهمها السكر والأرز والبرغل والطحين والمكرونة والعدس واصناف اخرى كثيرة يضيق المجال عن حصرها .

ولعل زحمة الاسواق التي تبدو قبل رمضان هي دليل من الادلة الكثيرة التي تظهر لنا مدى اشتياق اهل مقدونيا لهذا الضيف العزيز .

اما بالنسبة للعمل فكما هو معلوم فاننا نستطيع ان نقسم العاملين عامة الى موظفين وعاملين في المجال الحر . اما الموظفون الرسميون فان دوامهم لا يختلف في رمضان عن غيره ويكونون على رأس عملهم من الثامنة صباحا حتى الثانية عشرة ظهرا ، ومن الثانية حتى الرابعة بعد الظهر .

اما العمال الذين يعملون في المجال الحر او لدى القطاع الخاص ، فانهم يتكيفون في ساعات العمل تحت اشراف ارباب حرفهم ومعلميهم ، وربما تجد من يترك العمل في رمضان مكرسا وقته للعبادة ومفرغا نفسه لطاعة الله .

هذا ويتمتع الشعب كما اشرنا بصفة تميزه عن غيره وهي شدة الحماس ، فالعرف عندهم ان لا يفتح صاحب مطعم مطعمه ولا بائع طعام دكانه في نهار رمضان احتراما لهذا الشهر وتقديسا له .

وفي غمرة انشغال شعب قونيا في التحضير المادي فانهم لا ينسون التحضير الروحي لشهر رمضان .

فقبيل رمضان تعم الفرحة والبهجة والسرور ارجاء البلاد . ويعبر المسلمون هناك عن فرحتهم بوضع لافتات قماشية في الاسواق يكتبون عليها عبارات الترحيب برمضان وكأنه زائر عزيز او ضيف كريم ، وهو عندهم اكثر من هذا .

اما في جامع جلال الدين الرومي فهم يكتبون عبارات الترحيب هذه بالاضواء اضافة الى اللافتات . وتزين المساجد كلها بهذه المناسبة بعد تنظيفها وتلبس المدينة حلة جميلة من الاضواء والزينة واللافتات احتفالا بشهر رمضان ذلك الضيف الحولي الكريم .

ويكفي لمن لا يعلم ما هو رمضان ان يمر قبيل حلوله بأحد احياء المدينة لكي يشاهد مافي الحي من مظاهر الاحتفال والحماس لدى الناس والازدحام الطارىء في الاسواق ويعلم قيمة هذا الشهر الكريم عند ذلك الشعب المؤمن .

كما وتجري قبل رمضان حملة توعية دينية يقوم بها الخطباء والوعاظ والمدرسون الدينيون في المساجد لكي يعلموا الناس قيمة زائرهم وليقوموا بواجبات الضيافة التي تكون على قدر الضيف .

وكذلك يطهر المسلمون قلوبهم قبل رمضان لكي يجدوا صفاء خاصا مع اداء فريضة الصيام . فترى كثيرا منهم

يصومون الايام المأثورة قبل رمضان كيوم ٢٧ رجب و ١٥ شعبان وغيرهما . وربما صام بعضهم شهري رجب وشعبان او بعضا منها .

والخلاصة ان شهر رمضان يأخذ ابعاده وينال حقوقه في تلك المدينة اكثر من كثير غيرها من المدن والبلاد الاسلامية الاخرى .

التماس الهلال

شعب قونيا كما قلنا عظيم الاندفاع فهو لا ينتظر المصادر الرسمية التي تعلن بدء رمضان او انتهاءه أو الاعلان عن اية مناسبة اخرى . ونذهب الى ابعد من ذلك فنقول انهم لا يعتمدون على الجهات الرسمية في هذا حتى انهم يتكفلون بطباعة تقاويمهم الهجرية حيث ان الحكومة لا تهتم بمثل هذه الامور دائما .

وهكذا يكون بدء صيامهم بناء على جهود فردية تتجلى في ذهاب بعض الرجال الى مكان مرتفع لمراقبة الهلال ، وبعدها يجري الاعلان عن بدء رمضان بشكل شعبي عن طريق المآذن والتبليغ الفردي باشراف شيخ المسجد وبأمره ، ويكون ذلك الاعلان عبارة عن صيغة خاصة ونغمة مميزة لصلوات على النبي (ص) ثم يتبعها المؤذن بالاعلام عن بدء شهر رمضان .

وكان بعض المسلمين هناك يصومون مع الدول العربية والاسلامية المجاورة ، فترى قوما صائمين وقوما مفطرين فبعضهم يقلدون وبعضهم يجتهدون . وربما تغلب عادة التقليد شيئا فشيئا لتعم الناس هناك ويصبحون تابعين لجيرانهم المسلمين في صيامهم وافطارهم واعيادهم وهذا ما يحاولون تحقيقه مستقبلا .

بعد التأكد من ظهور هلال رمضان يخرج الناس لصلاة التراويح ، وعندما نقول الناس فلا نستثني منهم احدا ، الرجال والنساء والشباب والكهول والصبيان . . . كلهم يخرجون في الليلة الاولى لأداء التراويح فتغص بهم المساجد على رحبها وكثرتها ولا يتسع فيها لموطىء قدم احيانا فيصلي المتأخرون في الطرقات المتصلة بهذه المساجد .

وبذلك تحيا المساجد من جديد وتستيقظ بعد رقاد طويل وكأن رمضان عندما يحيي قلوب المسلمين فانه يمتد تأثيره ليشمل احياء المساجد بالطاعة والعبادة والابتهال .

ومن نافلة القول ان نذكر ان المذهب السائد في قونيا (من المذاهب الاربعة) هو المذهب الحنفي وهذا ما يفسر لنا اداءهم لصلاة التراويح كل اربع ركعات بسلام واحد وهكذا . اما المذهب الشافعي فهو يسود في شرق تركيا عامة وفي مناطق الاكراد ومدنهم بشكل خاص .
وهناك في قونيا يتبرع من كل حي رجل ليقوم بمهمة ايقاظ المسلمين النائمين لتناول سحورهم ويستعملون الطبل وسيلة لذلك ، ولهم في هذا نغمات خاصة جميلة وعبارات مأثورة لطيفة . ويقدر الاهالي هذا العمل المضني فيمنحون المسحر طعاما يوميا له ولعائلته ، اضافة لما يجمعون له من مبالغ في اليوم الاول من ايام العيد .
وكذلك فان بعضا من المؤذنين يعلنون ابتداء السحور وانتهاءه بواسطة مكبرات الصوت بعد قصيدة مخصوصة شائعة . هذا من طرف اهلي . اما من طرف رسمي فان الحكومة تهتم احيانا باطلاق المدافع ايذانا بالسحور والامساك فجرا وبالافطار مساء .

اشهر المأكولات والاشربة

كما قدمنا فان اخواننا القونيين يهتمون بتنوع طعامهم وجودته ايضا ومن اشهر مأكولاتهم في وجبة السحور : الاجبان والمربيات والالبان ومشتقاتها كل ذلك متوفر عندهم بشكل مؤونة مسبقا اضافة الى بعض الاطعمة الاخرى .

اما طعام الافطار فلهم فيه عادات متبعة وتقاليد موروثة فهم عادة يبدءون طعامهم بالحساء (شوربا) يصنعونها من العدس او الارز او البرغل او غيرها ، ثم يتناولون الخضار المطبوخة واشهرها الفاصولياء الحب والخضراء المطبوخة باللحم ، والباذنجان المحشي والفليفلة المحشوة والبندورة المحشوة ارزا ايضا . اما الكوسا المحشي فهي نادرة عندهم .

بالاضافة الى هذا فمن بين مأكولاتهم اكلة تشابه ما نسميه (صفيحة او لحم بعجين) وهي عبارة عن قطعة دائريه كبيرة من العجين يصل قطرها الى اكثر من نصف متر يكسونها باللحم ثم يضعونها في الفرن ، وبعد نضجها يقطعونها قطعا قطعا ويأكلونها . وكذلك يشتهر عندهم ما يسمى (كباب اسكندر) .

اما المعكرونة فهي من الاطعمة التي ربما لا تغادر مائدة

عائلة من العائلات التركية اضافة للشوربا وهم يسمون المكرونة (مقرنا) .

ومن الخضروات التي لا نعرفها والمتوفرة عندهم نوع يشبه الفاصولياء الحب اسمه (ترمبا) لونه اصفر ويكون في اول الشتاء ، ولا يتوفر هذا النوع من الخضار الا في قونيا خاصة .

بعد ان ينتهوا من تناول طعامهم يأكلون الفاكهة التي تتوافر عندهم بكثرة والتي اشهرها الحمضيات بشكل عام والتفاح والاجاص (الكمثري) وله انواع والتين وله انواع ايضا والقثاء والخيار والعنب والكرز والبطيخ ذو الحجم الكبير جدا . وحدثني احدهم (من سكان قونيا) انه ربما زاد وزن البطيخة الواحدة عن المائة كيلو غراما احيانا . وكذلك السفرجل فيتميز بحجمه الكبير اذ كثيرا ما يصل وزن الحبة منه كيلو غراما او اكثر . اما الخوخ فهو متوفر بشكل كبير وثمنه بخس رخيص .

ويندر في فواكههم الموز والنارجيل (جوز الهند) والتمور .

اما الشراب فهم يصنعونه من الليمون او الكرز او البرتقال او غيره . وتتميز قونيا بوفرة الكازوز (الشراب الغازي) بشكل ملفت للنظر . وهم لا يعرفون التمر هندي ولا يتذوقونه الا خارج تركيا وكذلك العرقسوس .

وهم يهتمون بتصنيع المحاصيل الزراعية والفواكه بشكل خاص فتراها تملأ الاسواق بشكل علب كونسروة ومجففة ومن جميع الانواع .

اما الحلويات فهي شائعة عندهم بكثرة ومشابهة لما عندنا من معمول وكول واشكور وشعيبيات وكنافة . . . الى غير ما هنالك من حلويات ويصنعون كما نوهنا نوعا خاصا منها يسمونها حلويات رمضان وهي عبارة عن عجين يضعون فوقه السمسم والحليب والسكر ثم يقطعونه الى قطع صغيرة .

وكذلك يصنعون حلاوة اسمها حلاوة الشام وهي ما نسميها نحن بـ . (الهريسة) وتتكون من السميد مع السكر وتشوى بالفرن وبعدها يوضع فوقها السمن والقطر (محلول السكر المذاب) وبعض القلويات من صنوبر وجوز ولوز وغير ذلك .

وكذلك يصنعون الـ : (رز بحليب) ويبتكرون له ما يجعله لذيذا طيب المذاق .

بعد ان يتناول مسلمو قونيا طعام سحورهم يؤذن المؤذن اذان الامساك فيمسك من كان يأكل عن الطعام ويتمضمضون استعدادا لبدء نهار جديد من نهارات رمضان ، وبعدها يؤذن المؤذن لصلاة الفجر فيتوجهون الى المساجد لأداء فريضة الصلاة ، وهم يقرءون بعد صلاة الصبح الذكر الوارد والدعاء المأثور ويضيفون عليه الآيات : لو انزلنا هذا القرآن . . .

وبعد الانتهاء من الصلاة والاوراد يلقي شيخ المسجد درسا دينيا في الوعظ والارشاد . فيه يعلم المسلمين احكام الصيام وآدابه وما يتعلق به من امور . ويستمر درس الفجر الى ما بعد طلوع الشمس حيث يصلي المسلمون بعد ذلك ركعتي الضحى ثم يتوجهون الى اعمالهم ان كانوا موظفين او مستخدمين وذوي اعمال رسمية ، اما اصحاب الاعمال الخاصة فقد يعطلون كما اسلفنا أو يذهبون الى اعمالهم متأخرين عن عادتهم في غير رمضان وليست الدروس الدينية مقتصرة على ما بعد الفجر فحسب وانما هناك دروس بعد صلاة العصر وبعد المغرب اي قبل العشاء ايضا ويحضر بتلك الدروس الرجال والصبيان واحيانا تحضرها النساء .

وهذه الدروس تقام خاصة في شهر رمضان وهناك دروس اخرى تقام في جميع ايام السنة ويكون وقتها قبل صلاة الجمعة بساعة تقريبا لكي يتهيأ المسلمون لسماع الخطبة ومن ثم لصلاة الجمعة .

والمسلمون في قونيا محبون لقراءة القرآن فهم غالبا ما يختمونه بأكمله في رمضان ، بالاضافة الى أنهم مواظبون على الصلوات الخمس في المساجد وتتجلى مواظبتهم كما هو معروف في رمضان اكثر من غيره من الشهور .

ولعله مما يميز رمضان في قونيا عن غيرها من البلاد هو كثرة الموالد المقامة في هذا الشهر ففي كل بيت مولد وفي كل مسجد مولد وفي كل حي مولد ، واحيانا يقام في الحي الواحد عشرات وعشرات من الموالد . وليس للمولد عندهم وقت محدد وان كانت اغلب الموالد تقام في النصف الثاني من الشهر وبعد صلاة العشاء .

اما عن الاعتكاف فهناك زوايا صوفية منتشرة بكثرة يعتكف فيها المسلمون وخاصة المتصوفة وكبار السن منهم ويكون هذا الاعتكاف لوقت لا يتجاوز ساعات ، اما

الاعتكاف ليلا فهذا مالا يتبناه اخواننا القونيون وإذا كان النوم في مساجدنا عادة شائعة في بلادنا فان مسلمي قونيا يقدسون المسجد ويحترمونه احتراما منقطع النظير فهم يمنعون الناس من النوم فيه بل حتى من الاتكاء او الجلوس فيه على هيئة تدل على سوء ادب او تعالي او لا مبالاة .

في النصف الثاني من الشهر

في النصف الثاني من رمضان يرددون اناشيد الوداع في المساجد بعد صلاة التراويح وهم يجتهدون في تلك الايام بالعبادة والذكر وتلاوة القران الكريم والتهجد وربما احيوا ليالي العشر الاخيرة المفردة التماسا لليلة القدر . وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان لا تجد نائما او غافيا وانما تجدهم جميعا في تهجد وصلاة وذكر وتلاوة عسى ان تكون هذه الليلة ليلة القدر التي وردت أحاديث كثيرة بفضلها العظيم وهم يصلون صلاة التسابيح في تلك الليلة كما تكثر فيها الموائد والولائم بشكل ملفت للنظر .

ومنذ بداية هذا النصف الثاني يؤدي مسلمو قونيا زكاة فطرهم وهم يؤدونها جميعا وبدون استثناء وتحت اشراف الشيخ ، كما توزع بمراقبته على الفقراء وربما ارسلوا منها شيئا الى مسلمي القرى المجاورة او الاحياء القريبة .

ويكون للشيخ دور كبير في حثهم عليها ومساعدة المسلمين الفقراء منها .

وما قلناه عن زكاة الفطر ينطبق نوعا ما على زكاة المال فهم يؤدونها غالبا في رمضان لتكون لهم عبادة مضاعفة وثوابا جزيلا .

وقبل العيد بأيام قليلة تغص اسواق المدن والقرى بالقونيين لشراء ما يحتاجونه في عيدهم من لباس جديد واطعمة متنوعة وحلويات لذيذة فترى زحمة هائلة في اسواق اللباس واسواق اللحوم والحلويات والاطعمة . وما فرحتهم بالعيد بأقل من فرحتهم برمضان ولا غرابة فالعيد عندهم بل عند جميع المسلمين هو جائزة الصيام وانعم به من جائزة .

كذلك فهم يزينون مساجدهم وبيوتهم بعد ان ينظفوها وربما اعادوا ترتيبها . كما يضعون في الطرقات لافتات الترحيب بهذا العيد العظيم .

ويتم الاعلان عن العيد بواسطة الاذاعة والصحف ، هذا على صعيد رسمي . اما على الصعيد الاهلي والشعبي فيتم الاعلان عنه بالكيفية نفسها التي تم بها الاعلان عن بدء شهر رمضان .

وهم يحيون ليلة العيد وفي الصباح يخرجون لأداء الصلاة بعد ان يكونوا قد تناولوا الطعام صباحا .

وبعد الخطبة يتحلقون حول الشيخ ويسلمون عليه وبعدها يخرجون لزيارة الاقرباء والاصحاب والاصدقاء .

ان عادات اخواننا القونيين في الصيام وما اليه لا تختلف جوهرا عما هي عليه في بقية البلدان الاسلامية ولو انهم ربما كانوا اشد حماسا واكثر اندفاعا من غيرهم .

وفقنا الله لما يرضاه وكل عام وانتم بخير . ■■

دمشق ـ أحمد سعيد رزق

عقول العباقرة

● اليك ما حدث للعالم الطبيعي الكبير سير اوليفرلودج . فقد حاول حل مسألة رياضية معقدة اياما واسابيع دون ان يهتدي الى الحل الصحيح . ومكث ذات ليلة الى هزيعها الاخير وهو يجهد فكره في الامر دون جدوى ، حتى اذا نال منه التعب غفا قليلا ، فاذا به يرى اعرابيا واقفا الى جانبه يشرح له المسألة ويوضح حلها الصحيح ..

اتشك بعد ذلك في أن عقول العباقرة لا تغفو ولا تنام ؟



الدموع : لماذا ؟

بقلم : الدكتورة سرى فايز

هذه القطرات المتلألئة التي تترقرق في العين عندما تجيش النفس بشتى الانفعالات ، هل خلقت عبثا ! .

لقد قيل ان الدموع سلاح المرأة . عندما تضعف الكلمة عن البيان وتقصر الحجة عن الايضاح ، يرى بها البعض ضعفا مهينا ، ويراها آخرون تنفيسا وترويحا . ويحسبها البعض في عيون المسنين انكسارا وتسليا ، هذه الدموع لعل بها أسرارا كثيرة اكتشفها العلماء ، واسرارا اخرى ما زالت طي الخباء تنتظر ان يطلقها المستقبل ، فهل لك عزيزي القارىء أن تستزيد معرفة عنها ، انها ما خلقت عبثا . . . الدمع اكثر الدلالات وضوحا وكشفا لتعابير انسانية شتى . وهو ميزة للطبيعة البشرية عندما يعتريها الحزن والفرح والالم وهو أكثر ما يقترن بالبكاء ، فالانسان يبكي عندما يفيض الانفعال عن سعة رباط جأشه فيطفح الدموع عن عينيه ، هذه الظاهرة يتفرد بها الانسان اذ ان الحيوان لا يبكي وان كان دمعه يسيل اذا هيجت النهايات العصبية الحسية في عينيه ، وهنالك حيوانات لا يستدر دمعها أبدا كالتماسيح التي امتنعت استثارة الدمع فيها على العلماء الباحثين مع ان التشريح اثبت وجود غدد دمعية متكاملة لديها ، لذلك كان مثل (دموع التماسيح) مجانبا للدقة .

يتألف الدمع الذي يطلي ويرطب سطح العين الامامي من ثلاث طبقات منضدة فوق بعضها البعض ، ذات سماكة تبلغ ٧ ميكرونات . الطبقة السطحية دهنية يدخل في تركيبها الكوليسترول والدهون الفسفورية والدهنيات الثلاثية . والطبقة الوسطى مائية تحوي املاحا معدنية وبروتينات وخمائر حالة لجدر الجراثيم . اما الطبقة العميقة فتتألف من مادة مخاطية وهذه تلامس مباشرة السطح الابتليالي للقرنية . ان الماء يؤلف ٩٨ ـ ٩٩٪ من السائل الدمعي وأما التوتر السطحي فيبلغ ٠,٦ ـ ٠,٧ من توتر الماء السطحي ، والمشعر الانكساري ١,٣٣٧ ، وتوتر الدمع يماثل توتر البلازما الدموية ، والضغط الحلولي فيها ٠,٩٪ من كلور الصوديوم عندما تكون العين مغلقة و ١٪ عندما تكون العين مفتوحة ، لذلك تتألم العين اذا وضعت فيها محاليل تزيد أو تنقص في الضغط الحلولي ، عن الدمع ، ولذلك تعمل مصانع الادوية على دقة الضغط الحلولي في القطرات والمراهم العينية ، أما البوتاسيوم فيزيد في الدمع اضعافا عما في مصل الدم ، وأما الكلور فيزيد في الدمع قليلا جدا عن نسبته في مصل

الدم . ان تفاعل الدمع يميل قليلا نحو القلوية ولكن أثناء الرضوض العينية يصبح تفاعل الدموع شديد القلوية . ويحتوي الدمع على كمية قليلة جدا من السكر بالمقارنة مع الدم . أما البروتينات فتتراوح نسبتها من ٠,٢ ـ ٠,٦ ملغ ٪ أي اقل بكثير من نسبة البروتين في الدم ولذلك يكون الدمع صافيا . ان اغلب البروتينات هنا الالبومين والغلوبيولين والليزوزيم .

وقد وجد ان الدموع التي تفرز نتيجة البكاء والاثارات العاطفية والتي تسيطر عليها المراكز العصبية العليا هي ذات تركيز بروتيني اكثر مما في الدموع التي تنطلق من تخريش انعكاسي في القرنية ذاتها . وقد وجد ايضا ان بعض لابسي العدسات اللاصقة يكون دمعهم غنيا بالبروتين ، وهذا يجعل الدموع اكثر ترطيبا ، فاذا قلت كمية البروتين في الدمع يتشكل فيه الزبد الرغوي . ويحتوي الدمع أيضا كمية من الهستامين ، فاذا زادت عن حدها اصبحت سببا في عدم تحمل العدسات اللاصقة . ان الليزوزيم أو الخمائر الحالة تؤلف ٣٠٪ من مجموع البروتينات الدمعية . فهذه الخمائر المضادة للجراثيم قادرة على هتك الجدار الخلوي الجرثومي ، أما عندما تسيل الدموع بافراط أو عندما تصب المحاليل في العين تقل كمية الليزوزيم وتتعرض العين للالتهابات الجرثومية .

بين الشح والافراط

تختلف وتتفاوت نسبة الدمع المفرزة كمية ونوعا حسب اختلاف الظروف الداخلية والخارجية . ولكن يبلغ ذلك معدلا يتراوح بين ٠,٧ ـ ١٠٠ ميكروليتر في الدقيقة ، ويبدو أن النساء اكثر ذرفا للدمع من الرجال ، وهذا قد يفسر كونهن اكثر نجاحا في لبس العدسات اللاصقة . عند الولادة يكون افراز الدمع في حده الاصغر ، وقد لا يلاحظ الدمع قبل الاسابيع الاربعة الاولى من العمر . وقد لايبدأ افراز الدمع المائي قبل الشهور الستة الاولى . وكذلك تقل كمية الدمع عند كبار السنين ، ويقل افراز الدمع في حالات الارهاق العصبي ، والجسمي ، ومن الملاحظ قلة افراز الدمع وحدوث جفاف العين والفم في نهاية النهار بعد يوم حافل بالتعب المتواصل . بعض الادوية تنقص افراز الدمع كالاتروبين والحبوب المانعة للحمل ، والادوية المدرة للبول ، أما القطرات الخافضة لضغط العين ، كالبلوكاربين فتزيد في افراز الدمع .

قد يشح الدمع في امراض كثيرة لا حصر لها فتحدث جفاف العين منها نقص فيتامين أ من الغذاء أو عدم امتصاصه بسبب أمراض الجهاز الهضمي ، والتهابات العين السطحية المتخرة وخاصة مرض التراخوما ، والحماة الراشحة الاخرى والدفتيريا . وامراض المناعة الذاتية ، وخاصة تلك التي يرافقها التهابات مفصلية ، فقد يحدث فيها تليفات في الغدد الدمعية وشح في افراز الدمع . والرضوض التي تحدث تشوهات في الاجفان وقصورا في الرمش وعيبا في اغلاق العين . والحروق الشديدة سواء كانت كيماوية أو حرارية أو شعاعية ، اذ انها تعري العين من الدمع الواقي وتخرب الغدد المفرزة للدمع ، وهذا يحدث آلاما شديدة وتقرحات قرنية مستمرة وتغيبا في الرؤية يجعل المريض رهن التعاسة ويصبح في مأساة من الجفاف الذي يؤدي ، لموت الخلايا السطحية الظهارية ، وتوسفها وانقلاعها .

وقد يفرط افراز الدمع ، في معظم الحميات التي يرافقها التهابات في الملتحمة أو القرنية ، وفي التهابات العين الحادة ، ولدى انغلاق الطرق المفرغة للدمع ، اذ ان الدمع عندما يفيض عن حاجة ترطيب العين ينصرف من خلال قنوات صغيرة الى كيس الدمع الموجود في الناحية الانسية من الجوف الحجاجي ، حيث يفرغ في الانف عبر القناة الانفية الدمعية ، فاذا طرأ انسداد على مسار الانابيب المفرغة ، يركد الدمع في العين فيطفح وينهمر ، وكذلك اذا زاد افراز الدمع عن طاقة استيعاب ضخه عبر كيس الدمع يحدث الدماع ، اذن لا بد من اعاضة العين بالبدائل الدمعية اذا شح الدمع ، ويجب معالجة اسباب نقصه حتى لا تذوي العين وتجف وتتكدر وتعمى وكذلك لابد من معالجة فرط الدماع وفتح مجاري الدمع المغلقة اذا طفح الدمع لئلا يضطرب البصر وتتقرح الاجفان ويصبح وضع الشخص في مجتمعه محرجا مؤرقا . حتى تبقى دورة الدمع متزنة مقدرة حسب حاجة العين والتي تختلف حسب الشخص والمكان والزمان .

الغدة الدمعية . . والوظائف

يفرز الدمع من الغدة الدمعية ومكانها في الزاوية الوحشية العلوية من سقف الحجاج ، ومن غدد دمعية ملحقة منتشرة على سطح الملتحمة ، ومن غدد دهنية وخلايا مخاطية كثيرة موجودة في بطانة الاجفان . ان اهم مصدر للدمع هو الغدد الدمعية حيث يفرز الجزء المصلي من السائل الدمعي ، أما الغدد الدهنية فتضيف للدمع الدهون ، وأما العنصر المخاطي فيأتي من خلايا خاصة في الملتحمة . تتعصب الغدة الدمعية بألياف عصبية ذات مصدرين مختلفين ، الأول أعصاب حسية من العصب المثلث التوائم . والثاني الياف عصبية من الجهازين العصبيين الودي ونظير الودي . الالياف الودية ، تنظم الافراز اليومي الطبيعي الضروري لابقاء العين رطبة

صحية والالياف نظيرة الودية تسيطر على الافراز الانعكاسي والدمع الغزير .

فأي تخريش لنهايات الاعصاب الحسية المنتشرة على سطح القرنية والملتحمة تثير دمعا غزيرا سائلا وكذلك هو الحال عند تخريش الانف وآلام الاسنان ، والتهابات الجيوب ، والحرارة والبرودة والجفاف . أما المثيرات الضوئية ، والروائح المخرشة والحركات الارتجاجية كالعطاس والتقيؤ والسعال والتثاؤب والضحك الشديد ، فتثير الدموع نتيجة انعكاس عن طريق العصب المبهم (نظير الودي) . وعند قلة من الناس تكفي حركات المضغ لاثارة الدموع ، وهذه الحالة يطلق عليها اسم دموع التماسيح ، وترى عادة لدى المرضى الذين كان لديهم شلل أو لقوة في العصب الوجهي ، اما المركز المسيطر على البكاء نتيجة اثارة العواطف الجائحة فينبعث من المنطقة العصبية المسماة تحت السرير او من التلفيف الثاني من الفص الجبهي في الدماغ . والدموع الناتجة هنا مختلفة جدا في الافراد وعند البعض تكون عملية البكاء تحت سيطرة ارادية . وعلى كل فافراز الدموع ينقص عند حدوث آفة في العصب الوجهي أو العصب المثلث التوائم حيث ان الغدة الدمعية تشتق اعصابها من الياف تمر عبر هذين العصبين .

وللدمع وظائف عديدة ، من أهمها :

● الوظيفة البصرية : تكاد تكون اهم وظائف الدمع اذ يحافظ الدمع على ألق القرنية ، ويسد الثغر الموجودة بين خلايا السطح القرني الظهاري ، فيسوي ويمهد بطلائه سطح القرنية لتقوم بوظيفتها البصرية خير قيام .

● ويقوم الدمع بوظيفة دفاعية وقائية ، فبواسطة المواد التي يحتويها وخاصة الليزوزيم أو الخمائر الحالة يستطيع اذابة وتخريب جدر الكثير من الجراثيم فلا تعود قادرة على الغزو والاستفحال والتكاثر . فتبقى العين سليمة صحيحة رغم تعرضها للجراثيم والعضويات الضارة الموجودة بكثرة في الهواء ، لذلك فالعين منيعة على الغزو الجرثومي ، بمقدار كفاءة المواد الدمعية الحالة للخمائر ، فاذا قصر الدمع واضطرب تركيبه لامر ما سهل على العضويات المؤذية غزو العين واحداث الالتهابات والتخريب بها . وقد اخذ العلماء يجرون التجارب الخصبة على مادة الليزوزيم الدمعي قبل البدء بتطبيق اي عقار عيني جديد .

● ووظيفة مرطبة ، فهو سقاء للعين وطلاء ضروري لأن الجفاف أذى وبلاء فطالما بقيت العين رطبة ، كانت خلاياها السطحية سليمة صحيحة ، فاذا ما جفت ، توسفت الخلايا وربما تقرنت فيذوي القها وينعدم البريق منها ، فتنكمش الخلايا وتتليف ، وتغزوها العروق الدموية ويتجلد سطحها . ولتنظيم توزيع الدمع على سطح العين كلما جفت طبقة الدمع التي تطليه خلقت عملية الرمش ، التي تحدث طوعيا ولا اراديا بمعدل ١٢,٥ مرة في الدقيقة ويدوم اغلاق العين فيها ٠,٣ من الثانية في كل رمشة عين ، فلو فتح جفنا العين قسريا وامتنع الرمش مدة ، شعرت العين بالجفاف وبألم حارق وواخز ، وربما يحدث بعد ذلك دماع انعكاسي فينهمر الدمع . ولو فحص سطح العين اثناء ذلك لوجد ان فتح العين القسرى مدة نصف دقيقة كاف لاحداث بقع جافة على سطح القرنية خالية من طبقة الدمع التي سبق الحديث عنها . وقد لوحظ ان بقع الجفاف تتشكل بسرعة اكثر اذا كانت العين قد عانت سابقا عملا جراحيا كما في استئصال الساد أو مكافحة داء الزرق .

● ووظيفة طارحة للفضلات ، فما ينتج عن مخلفات استقلاب سطح ولحمة القرنية من الماء وثاني اوكسيد الكربون وتوسف الخلايا الميتة وما يفيض عن المواد المخاطية والمفرزات الدهنية يجرفها الدمع وينقلها الى زاوية العين الانسية حيث تضخ في مجاري الدمع الى الانف .

وهذا ما يحدث بالنسبة للفقاعات الهوائية والغازات وجزئيات الغبار التي لا تحس بها القرنية كأجسام غريبة فتجرف بواسطة الدمع على سطح العين الامامي .

● ووظيفة غذائية ، بالرغم من عدم كبر أهميته كطريق غذائي فإنه يحمل بعض المواد المغذية للغشاء الظهاري في العين ، والاهم من ذلك هو أن الجزء الاكبر من مادة الاوكسجين تأتي للقرنية من أوكسجين الجو الذي ينحل في الدمع ، لذلك تتأثر العين اذا بقي الجفن مغلقا زمنا طويلا كما في النوم العميق لساعات أو أيام .

● ووظيفة تزليج وطلاء ، فلولا الدموع لما امكن تثبيت العدسات اللاصقة اذ تتبع درجة تحمل العدسات اللاصقة ونجاح استعمالها درجة القوة المزلجة في الدمع .

اذن فالدموع تهب الرطوبة الكافية والطلاء الواقي والملوسة الضرورية للقرنية ، وتنقل للقرنية اوكسجين الجو الضروري لغذائها وتطرح فضلات النسج السطحية في العين . وهي خط الدفاع الاول في العين ضد غزو الجراثيم والعضويات المؤذية ، تغسل العين مما يعتريها من الشوائب وتنهمر بشدة لتجرف كل جسم غريب متطفل ، كل ذلك حفاظا على ألق العين ودعما لوظيفة البصر . ■■

عمان ـ د . سري فايز سبع العيش



غلاف كتاب محفوظ مصيص أساطير المسيح الأسود

الشاعر التشيلي محفوظ مصيص

عبير فلسطين في أمريكا اللاتينية

بقلم : الدكتور محمد عبد الله الجعيدي

الشاعر محفوظ مصيص ، التشيلي الجنسية والمولد ، العربي الأصل ، الانساني المقاوم لكل ظلم وجبروت في مواقفه وشعره ، ولد سنة ١٩١٦ ، وبدأ الكتابة في فترة مبكرة من حياته ، وكان عضوا نشطا بين الكتاب التشيليين ،فشغل خلال الستينات منصب رئيس جمعية الكتاب في بلاده ، ومدير مجلة « بوليميكا » وقد نشر حتى الآن حوالي سبعة دواوين شعرية ومجموعة قصص وكتاب نثري . ودراسة نقدية .

وقد تميز شعر محفوظ باسلوبه الفريد ، وباستخدامه للموضوعات غير المألوفة ، الامر الذي جعل الجدل النقدي يدور شديدا وعنيفا حول كل كتاب يصدر له ، فقد كان القراء والنقاد ينقسمون بين مؤيد ورافض لطريقته في الكتابة ، الا أن كلا الفريقين كانا يتفقان في النهاية على انها ظاهرة أدبية مدهشة تستحق التحليل والدراسة .

لقد أجمع نقاد شعره على انه يعيش الواقع الانساني المعذب بكل جوارحه ، الأمر الذي جعل روح التمزق الانساني والعذاب البشري المر يظهران بوضوح في شعره ، وهو بهذا - الى جانب بابلو نيرودا - يمثل أقوى تيارات الخلق الشعري تحريضا في تشيلي ، هذا الى جانب العمق والاصالة « والطريقة » الخاصة والكثافة التي يتميز بها شعره ، وهو - كما يقول بدور بابلو باريديس - كشاعر يزداد كل يوم اصالة في أسلوبه ونغمته ، الأمر الذي جعله « مفخرة تشيلي » .

ولادة موت جديد

والحقيقة أن ازدواجية الانتماء والأصل عند محفوظ قد أثرت تأثيرا قويا في شعره . فقد جمع بين حضارات

الشرق الغابرة بعلومها ومعتقداتها ، وثقافات الانديز القديمة باساطيرها وخيالها ، وعن هذا الجمع تمخضت فلسفته الشعرية في نظرتها للمفاهيم الحياتية والفلسفية كالموت والحياة والحب ... الخ ، فجاء شعره عذبا ، صادقا وحيويا كأساطير الانديز القديمة ، تهب عليه رياح جنائزية من مصر القديمة فتضع الحد الذي يفصل بين الانهيار والامل في شعره . وقد ظهر أثر هذه الازدواجية قويا في ديوانه « مرثية تحت الأرض » ، حيث ان الكلب الذي هو أكثر ظهورا في شعر محفوظ مصيص ، يظهر في هذا الديوان في صورة الاله انوبيس ذي الرأس الكلبية يزن ارواح الموتى ، وفي شعر محفوظ نجد أيضا الملائكة حاضرة يستخدمها استخداما خاصا ، وان كان بليك قد قال : « ان كل ملاك مرعب » فان محفوظ مصيص ـ كما تقول خوسيفينه بلا ـ يحمل حدود الرعب الملائكي الى أبعد مما يستطيع أي شاعر « ملائكي » متطرف في استخدام هذا العنصر كدانتي أو بودلير أو بوي مثلا ان يحملها . وترى الناقدة ذاتها ان الموت في شعر محفوظ مصيص هو تجربة حية ، مرعبة وغريبة في ظاهرها ، تسبق وقتها ، حيث يصر الشاعر على الفصل بين الموت والحياة ، فينتهي به الأمر الى تجشم الاثنين معا دون أن يخلط بينهما حيث تتلخص هذه التجربة في قول الشاعر نفسه « بان كل ما نراه وما نحبه يعيش ويموت ونحن ننظر اليه » ، وباختصار فاننا نجد في شعر محفوظ « ولادة موت جديد » .

وشعر محفوظ ـ على جودته ـ يغطيه ضباب لزج تتلألأ من تحته الاستعارات الساحرة .

أما لغته فقد وصفها النقاد ، لكثافتها وصلابتها وقتامتها ، « بلغة البترول » أو « لغة السبج » التي قلما يتمكن القارىء العادي من الكشف عن إبداعيتها .

وحسب صحيفة « اونيبرسال » الكراكاسية (فنزويلا) فان محفوظاشاعر ذو قيمة كبيرة ورفيعة ، ويمثل أكثر عمليات الخلق الشعري ثورية في تشيلي ، حيث ان أحدا في هذا البلد ـ حسب بيرناردو كروث ـ لا يكتب بالصورة المركزة ، المميزة ، الرائعة التي يستخدمها محفوظ مصيص . و بالرغم من هذه الغشاوة التي تظهر في عناوين كتبه مثل : « الحان الديك الأسود » ، و « أساطير المسيح الأسود » ، و « كتاب النجوم المطفأة » ، و « وحوش الالم » فان شمسا تبدو من وراء تلك الغشاوة ساطعة ما تلبث ـ اذا ما امعنا النظر في حقيقتها ـ ان تمزق تلك الغشاوة الجنائزية كاشفة عن روح ثورية متمردة تنظر الى الأمور نظرة واقعية تأملية تسمح برؤية المستقبل رؤية حقيقية :

« في هذه الأرض التي تسحقها الآلام والمجاعة
محترمة تظهر في السماء
علامة الثورة فوق السم والشرور
فهي عبور من خلال الموت
وصيحة عبر جدار الصوت » .

ومن هذا الموقف الذي لخصته الابيات السابقة لأحد عمالقة شعرنا العربي المعاصر ، انطلق محفوظ مصيص يكتب شعره المقاوم ، وهو في منفاه في كاراكاس بعد أن شردته السلطات الدكتاتورية من وطنه ، ومن منفاه راح ينشد مؤيدا كل قضايا الحرية العادلة في العالم داعيا أصحابها الى تضييق الخناق على الظالمين والمعتدين ، وهنا لم ينس أكثر قضايا الانسانية المعاصرة عدالة فتبوأت عنده . « فلسطين في القلب » مكانها .

فلسطين في القلب

الى فدائي الثورة الفلسطينية

عند قدم هذه السلسلة الجبلية القاسية البيضاء
أقف عاريا أنا
محفوظ مصيص
عبير فلسطين في القارة الأمريكية
مواطن من العالم الثالث
من العين الثالثة
من هذا القمر الفارغ
كمهرة أرفع صوتي في وجه السماء المكفهرة
لن أبكيك أرض أبي العتيقة
لن ابكي شهداءك أو
نساءك المهتوك عرضهن ، الملقيات
الى الجمة السوداء ،
أو اطفالك المشرئبة الى الشمس وجوههم ،
أطفالك الذين يعبدهم قلبي ،
لن أبكي دورك ذات الحجارة الأزلية
المسكونة من كل الأمم ،
غربان عيونها زرقاء ،
أو خضراء
أو صفراء
أو حمراء كشقائق نعمان دموية ،
لن أبكي مسنيك الذين يغفون تحت الاخباش ،
سماء هجرتها العصافير
ولا صلواتك لاله مات في
الحجز منذ زمن طويل
الدمع وحده

يلعق الحجر ! يتزلق
كالموت
ويسقط سقوط الماء على السيف المجرد
أغنية العين الناحبة . العين لا التي لا رطوبة فيها ،
واشرب
ابريق دموعي في وحدتي ، عندما
لايستطيع ، حتى الموت رؤيتي ، وأنت ، وأنت ،
زوجتي تظنين
اني نائم .
قبضة يد ، عرق وحمم بركانية ! ذلك ما أريد .
اخرجوا ،
ابطال الشبوط والحفر الباردة !
في أيديكم المفاتيح ،
اخرجوا النمر من صوانكم !
عودوا الى المهد الذي فيه تحاب آباؤكم
وفيه مات الجد ، في آخر أمسية ، مستمعا جلبة الحظائر
وثغاءها الزبرجدي .
هم أصحاب غيتو اوروبا !
الذين لم يتعلموا الدرس ،
من تويتي العجوز ، وارسلوا
كلابهم المسعورة الى فلسطين ،
واسراب ضراتهم في ثياب أحبار
أو اسماك قرش حزينة
أو ارسلوا الجنرال الذي ، بعين واحدة ، صلدة كالماء
المتجمد ،
كعواء مجنون في الوهاد ، حرق
الأرض الطيبة ،
أشجار الليمون ترتجف
كثدي أرملة بها الذكريات قد عصفت
أشجار رمانك
التي لا تنتهي ، وصناعتك التقليدية
البسيطة ، عندما كنت تشغلين الصدف
أو تنقشين على خشب الزيتون الخالد .
بقروا بطن دير ياسين واستعرضوا
فتياتك عاريات
وشربوا بين افخاذهن الندية ،
كالشمعدان ، حرقوا
رموزك ، قذفوك بالنابالم والزيت الأسود ،
وفرقوا أبناءك ، يحملون على أكتافهم
آخر ثقب مسمار في الذاكرة
ولكن هناك بعيدا
في المخيات
في كل مخضل وترابي وأحشائي ، وأعمى

في محاريب الرعب ، أو بهزال الأجساد
التي في كل يوم تموت ،
بين القطران والحثالة
بين أشياء
كثيرة نستها الأرض ،
انفجرت فجأة ، قنبلة دم : مائة
الف رأس كبرد قرمزي ،
لكلمة عدل محفورة في
كل عين ، وكل قلب يائس ،
من كل
شبوط الى قلب الليل فدائي قفز ،
قلب الليل الرهيب السابق لكل تاريخ .
فالطفل أصبح الآن فدائيا هائجا ،
واللسان الجاف كحريق في حلقاء ،
اليكم ابناء الظل الساطعين ،
هذه الوردة الباردة ،
هذه الدماء التي لا تزال تحرقين ، ومن
الوهاد الساحلية ، ومن هذه الصخرة الكوكبية ،
للأهوال والعظام
أحيل لغتي الى بارود ،
أشعل اساطيري الخاصة
وعلى صهوة جواد جامح أصحبكم
في رحلتكم
وأقول :
المجد لكم في الذرا !
وهنا في السهوب لكم المجد !
المجد للصناديد عند شروق
الحجر ! فلتسعد الصدور
التي منها رضعتم ، لبن الكواكب السيارة المر .
فلتسعد امرأة
وضعت على جباهكم أول قبلة ،
امرأة تغطي وجوهكم في الساعة السوداء الأخيرة الخالدة .
عندها ، أثني على رجولتكم ،
وسواعدكم القوية ،
وباسمكم
أرفع صوتي
كمن يشهر سيفا
في أمريكا اللاتينية
وأبخر الآلهة
احتفاء بمولدكم !

■ ■

مدريد ـ د . محمد عبد الله الجعيدي

اعداد : مصطفى نبيل

اعتبارات غائبة في تقييم الحركات الإسلامية

بقلم : حسين أحمد أمين

ثمة اعتبارات أربعة تغيب عن الكثيرين في العالم العربي وخارجه ، في تقييمهم للحركات الاسلامية التي ظهرت على المسرح خلال السنوات الأخيرة .

○ الاعتبار الأول : وهو من أبرز سمات التاريخ الاسلامي من عهد النبي (ص) الى يومنا هذا ، هو أن الحركات الثورية التي أثارتها في دار الاسلام دواع اجتماعية واقتصادية ، واتخذت بالتالي طابعا سياسيا ، قد ارتبط كل منها منذ بدايته ارتباطا وثيقا بفكر ديني ، دون أن يدور بخلد أتباعها أن احتجاجهم على السلطة نابع عن غير العقيدة الدينية ، ولا أن لهم من الأهداف غير تخليص الأمة من حكم لا يرضاه الله ، والعودة بها إلى طريق الدين القويم .

لذلك فقد كان تعبير المسلمين - في العادة - عن مناهضتهم أو مناصرتهم لهذا النظام القائم أو ذاك ، تعبيرا دينيا بصورة أساسية . فالحكومة التي فقدت - في ظلها - هذه الفئة الاجتماعية أو تلك امتيازاتها ، أو هددت مصالحها ومقوماتها ، أو خلخلت من دعائم كيانها ، حكومة كافرة ، والجنة لمن استشهد في سبيل اسقاطها . والنزاع الذي قد يبدو في ظاهره نزاعا حول فكرة دينية محضة ، كذلك الذي دار في العصور الوسطى حول ما اذا كان القرآن مخلوقا (كلمة الله المستحدثة) أو قديما قدم الله ، يهولنا أن نلمح وراءه صراعا سياسيا أو اجتماعيا محتدما ، قد يكون قادته واعين له .

○ الاعتبار الثاني : أنه تظهر في بعض المجتمعات التي تمر بهزات عنيفة ، أو تطورات ضخمة متلاحقة ، جماعات دينية انعزالية تميل الى أن تغلق الأبواب على نفسها في عالم خاص بها ، وتقلل الى أقصى حد ممكن من صلاتها وعلاقاتها بالمجتمع الذي تعيش فيه . وقد ظهرت مثل هذه الجماعات بين كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين ، وربما بين غيرهم من أتباع الديانات الأخرى . فمن أبرز الأمثلة التاريخية على رفض التكيف وفق الأحوال الجديدة ، موقف الفريسيين اليهود من غير اليهود . اذ وضعوا القواعد المفصلة الصارمة التي تكفل تجنب كل صلة بمن هو ليس يهوديا . وقد كان هذا الموقف محمودا في القرن الثاني قبل الميلاد حين كانت الهلينية تهدد بابتلاع الديانة اليهودية واستئصالها من الوجود . أما وقد تغير الوضع خلال القرن الثاني حين شاع في الامبراطورية الرومانية الاستخفاف بالعقائد الوثنية ، وظهر ميل واضح لدى الآلاف في مدن الامبراطورية الى البحث عن عقيدة قوية متماسكة كالعقيدة اليهودية ، فلم يعد لمثل ذلك التعصب من قبل الفريسيين مبرر ، وجاءت الديانة المسيحية تيسر قبول الأمة للأوضاع الجديدة ومسايرتها ، وكانت أخلاقياتها خير سبيل الى ضمان التعايش السلمي بين أهل فلسطين وحكامها الرومان ، في حين كانت أخلاقيات الفريسيين تعرقل هذا الانسجام .

كذلك ظهرت في بقاع كثيرة من العالم المسيحي ـ خاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر ـ جماعات (أشهرها جماعة شهود يهوه) أفرادها من المسيحيين الأتقياء الذين وجدوا من الصعب أن يوفقوا بين الاكتشافات الحديثة في علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والنظريات* المتعلقة بتاريخ الأرض وظهور الحياة فيها ، وبين مفهومهم التقليدي عن الكتاب المقدس . وكان أن وجهوا همهم الأكبر الى تجنب الاتصال بالتيارات العلمية والفكرية التي سادت مجتمعهم ، ورأوا أنه لابد من أجل حماية عقيدتهم من عزلة صارمة وسط مجتمع لابد أن تؤدى به ثقافته وعلومه وأنماط عيشه الى الكفر . وكانت النتيجة أن قبلت هذه الجماعات وضع الأقليات في مجتمع أفراده على نفس دينها في الظاهر على الأقل .

وقد تكرر حدوث مثل هذه الظاهرة في الاسلام ، وكان أحدث مثال لها الجماعة المسماة بالتكفير والهجرة في مصر .

يعنينا هنا أمران :

الأول : أنه ليس كل من مال الى مثل هذه الجماعات قد دخلها لحماية دين هو غيور عليه . فالواضح لنا أن الكثيرين قد اتخذوا الدين ستارا لما أحسوا به في أنفسهم من عجز عن المدافعة والمزاحمة في معترك الحياة ، أو انخرطوا في سلك هذه الجماعات لاشباع رغبة طبيعية في الانتماء ، أو رغبة في الاحساس بالتفوق على محيط لفظهم .

الثاني : أن هذه الجماعات تتميز باتخاذ مواقف صلبة من العقيدة في وجه الظروف المتغيرة التي قد تتطلب مرونة في التفسير والتطبيق . ولا بد من القول بأن لمثل هذا الموقف المحافظ حسناته الأكيدة ، اذ يضمن عنصر الاستمرار في شؤون الدين ، كما أن أى اتجاه محافظ في أى الميادين له الفضل في حماية كل مالا يزال من القديم يصلح للمجتمع القائم . غير أنه لا بد كذلك من القول بأنه قد يحدث في بعض الأزمنة من التغيرات الجوهرية ما يكتسح المجتمع بأسره . ولا يمكن للجهد البشرى العادى أن يقف في سبيله ، فيرى الأفراد لزاما عليهم ـ من أجل صحتهم النفسية بل والبقاء ـ أن يوفقوا بين أنفسهم وبين هذه التطورات ، وأن يبدوا من المرونة ما يمكنهم من معايشة ما لا سبيل إلى مقاومته أو وقفه ، مع التمسك في نفس الوقت بعنصر الاستمرار في الرؤية الأصلية للدين .

غير أننا لا نرى مثل هذه الجماعات ، للأسف ، تبذل مثل هذا الجهد .

○ الاعتبار الثالث : أن القرنين الماضيين . كانا شديدى القسوة على الاسلام والمسلمين . فقد تعرض العالم الاسلامى فيها للعديد من هجمات الأوروبيين ، وأسفرت تلك الهجمات عن وقوع جل أقطاره في براثن الاستعمار الغربي . وقد أزعج المسلمين مامنوا به من هزائم على يد مخالفيهم في الدين ، وهم الذين كانت انتصارات جيوش الاسلام السابقة في أعينهم من أقوى الأدلة على صدق الرسالة المحمدية . وكان أن بدأت ثقتهم بأنفسهم تهتز ، وأن بدأ الشك يتطرق الى قلوب الكثيرين من المسلمين في عقيدتهم اذ يرون قوة شوكة الغرب المسيحى وتفوق حضارته المادية . وقد حدث منذ أن اتخذت الحضارة الغربية لنفسها اطارا دنيويا بحتا ، أن أزيل الحاجز الذى ظل في العصور السابقة يحول دون استقبال الحضارات الأخرى غير الغربية لها ، ألا وهو الدين . فلما بلغنا منتصف القرن العشرين حتى كان العالم غير الغربي بأسره قد تبنى الصورة الدنيوية لحضارة الغرب .

وقد أحدث اتصال المسلمين الوثيق بالمدنية الغربية وغزو هذه المدنية لبلادهم أثرا عميقا في طبقة المسلمين المستنيرين وفي علاقة أفرادها بما توارثته من نظريات وتقاليد دينية ، إذ شعروا بحاجة شديدة ملحة الى التقريب والملاءمة بين هذه النظريات والتقاليد وبين الأحوال الجديدة التي وجدوا أنفسهم فجأة في ظلها . وقد كان من المؤسف أن تجيء جهود هؤلاء الساعية الى التوفيق بين الحياة والفكر الاسلاميين وبين مطالب الحضارة الغربية في الوقت الذى تزعزعت فيه ثقتهم بتراثهم بل وبدينهم ، ونظروا إلى المستعمرين نظرتهم الى أنصاف الآلهة . فلم يكن من الغريب اذن أن تغلب على محاولاتهم نزعة عقلية هى نزعة أوربية محضة ، وأن تتأثر أفكارهم بالتيارات الفكرية السائدة في المدنية الغربية ، وأن يتبنوا قيما كلها أو جلها من قيم الغربيين المستعمرين .

غير أن الذى لا حظه الجميع ـ في الداخل والخارج ـ أن شعوب الأقطار الاسلامية لم تأخذ ـ كما أخذ اليابانيون مثلا ـ عن الغربيين همتهم وفاعليتهم وكدهم في التحصيل والبناء ، وانما أخذوا عنهم عاداتهم الاستهلاكية وأزياءهم ووسائل قضائهم لأوقات فراغهم . ثم كانت المأساة المضحكة هى أن في اللحظة التاريخية التى تم فيها تبنى الشعوب الاسلامية لقيم الحضارة الغربية الدنيوية بعد التخلى عن تراثها الثقافي وعن تقاليدها ودينها ، وجدت

هذه الشعوب نفسها قد وقعت في شباك أزمة الغرب الروحية الخطيرة التي انتابته على نحو مفاجيء خلال القرن العشرين . فمنذ نشوب الحرب العالمية الأولى بدأ الغربيون أنفسهم يدركون أن حضارتهم الدنيوية الحديثة ليست بالحضارة الكاملة الدائمة كما خالوها في البداية ، وأنها أبعد ما تكون عن الحصانة ضد الانهيار وضد عنف الأزمات في حين كانوا يظنون صورتها الدنيوية بعد تحررها من ربقة الدين هي الصورة النهائية الناضجة للحضارة بوجه عام ، والتي لا يمكن أن يعتورها تدهور أو فساد .

وقد أضحت هذه الأزمة الروحية بالغة الخطورة نتيجة لانتشار الحضارة الغربية في العالم بأسره ، مما جعل الأزمة من شأن الدول غير الغربية هي الأخرى . وبذا يكون الغرب ـ دون قصد منه ـ قد غش الحضارات الأخرى ـ ومن بينها الاسلام ـ بأن باعها حضارة اتضح أنها ليست بالصفات التي ظنها فيها البائع والمشترى وقت البيع ، وخدعها بأن صور لها حضارته على أنها دنيوية محضة لا سبيل للأزمة الروحية اليها ، وهي الأزمة التي باتت اليوم تنهش في حيويته نهشا . والأمر في الواقع أمر مؤسف بالنسبة للشعوب الأخرى مثل الشعوب الاسلامية أكثر منه بالنسبة لشعوب الغرب . فقد وجدت الأولى نفسها معلقة بين تراث دين وتقاليد قد هجرتها وفقدت ثقتها فيها ، وحضارة غربية لم تملك بعد ناصيتها ، ولم تكد تبلغ يدها الثمرة حتى بدت تلك الثمرة معيبة فاسدة .

وكان أن نتج عن هذا في العالم الاسلامي شعور حاد من المرارة تجاه الغرب ، وحدوث انفصام في المجتمع وفي نفوس الأفراد يصعب علاجه . صاروا كالنعامة التي يتحدث المثل العربي القديم عن أنها ذهبت تبحث عن قرنين فعادت بلا أذنين ، أو كالغراب الذي مضى يتعلم مشية الطاووس ، فلم يتعلمها ، ونسي مشيته .

وعلى هذا الأساس من المرارة والاحباط ، والتمزق والعداء للغرب ، والأمل في أن يكون سبيل النجاة هو العودة الى قيم ماض ارتبط في أذهان المسلمين بالتفوق والغلبة والنصر ، يرتفع صرح الدعوة الدينية في العالم الاسلامي .

○ الاعتبار الرابع : أن حياة الغالبية من أفراد المجتمعات الاسلامية هي من القسوة والشظف والافتقار الى كل أوجل دواعي البهجة ، بحيث يمكن أن ينطبق عليهم وصف ميلتون **Milton** للشعب الروسي في القرن السابع عشر : « شعب لا يهاب الموت لأن حياته ليست أفضل كثيرا . . » فاذا أضفنا اذن الى اعتقاد جمهور المؤمنين بأن الجنة هي مأوى المجاهدين في سبيل اقامة مجتمع اسلامي ، ذلك الاستخفاف بالموت الناجم عن شظف العيش ، أمكننا أن نتصور عبث الاعتماد على القسوة والعنف في سبيل استئصال التيارات الدينية المتطرفة . ذلك أنه ما لم تسع السلطات جاهدة الى علاج الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي تقف خلف هذه التيارات ، فسنجد أنفسنا أمام وضع مشابه لما كان يحدث أيام محاربة الأباطرة الرومان للمسيحية ، حين كان يخرج من بين النظارة في السيرك ، مسيحيان جديدان مقابل كل مسيحي يلقى به الى السباع !

كتابنا وتعليم الجهل

بقلم : عبد الوهاب أحمد الأفندي

الفتى الذي لقيني في ذلك اليوم كان من قبل مبشرا بمستقبل طيب . . لولا انه يقرأ الصحف المحلية .

قال لي في تبجح :

انني سأسقط في امتحان اللغة العربية . . وليس الذنب ذنبي .

قلت :

- ذنب من اذن ؟ لافض فوك !

قال :

ذنب واضعي المناهج والمعلمين . انهم يعلموننا مالا ينفع ولا يثير اهتماما . ماذا استفيد انا من قصائد قيلت في الزمن الجاهلي ، ونصوص تحكي تجارب مرت على قوم آخرين في عهود سحيقة ؟ يجب ان يعلموننا ماله صلة بواقعنا وحاضرنا .

قلت :

- أعطني مثالا على ما يعلمونك مما لا ينفع :

أجاب :

هذه المعلقة التي تدرس مثلا . انها من عالم مختلف لغة وروحا ، ألم تقرأ ما كتبه ذلك الاستاذ الكبير عنها في الصحف وغيره من انها لا تلائم قط عقولنا ولا مرحلتنا التعليمية ؟

قلت في نفسي :

- هذا هو بيت القصيد اذن .

كنت قد اطلعت على ما كتبه البعض في الصحف السيارة عن المعلقة التي تدرس في نهاية مرحلة تعليمية معينة ، وما نسخته بعض الاقلام التي يحمل اصحابها القابا علمية رنانة .

كانت الحجة التي أوردت ان تدريس هذا المستوى من الشعر اضاعة لوقت الشباب وعبء على عقولهم لا طائل من وراء تحمله .

وشكا هؤلاء الكتاب من انهم انفسهم يجدون عسرا ومشقة في فهمه فضلا عن تذوق هذا الشعر واضرابه .

كان تعليقي على ما قرأته جملة واحدة :

- يا سبحان الله ! يعلمون الناس الجهل ويمدحونه ؟ ! .

قلت لمحدثي الفتى :

- هل سمعت بـ « الياذة هوميروس » ؟

أجاب بالايجاب .

قلت :

- هذه الملحمة عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ومازال الناس يجدون فيها حتى اليوم ما يبهر ويشد . ولو كان عمرها مليون سنة لما تغير الامر . وهناك روائع أقدم مثل ملحمة جلجامش البابلية ما زالت حتى عصرنا تتربع على قمة العطاء الانساني .

ذلك ان الابداع هو في حقيقته تحدي البعد الزماني والتطلع الى الخلود ، وهو من الخصائص البشرية الاساسية . ومنذ وجد انسان العصر الحجري ، وهذا الانسان يتطلع بشوق الى تحطيم اغلاله ، ويتعالى على آلامه ومآسيه وحصار الطبيعة ليصوغ من الجميع الملحمة الخالدة وحتى التمثال البسيط .

الابداع لا يتآكل بالعمر ، فهو تحدي العمر . ولكن الروائع الانسانية لا يزيدها تقادم العمر الا مزيد بريق وتوهج . وما زالت هنالك قمم بلغت أوجها في الماضي ينظر اليها جميع اللاحقين شاخصة ابصارهم .

وتقدم الزمن لا يعني تطور الابداع ، بل احيانا العكس . فاذا كان الابداع هو التوصل الى اروع ما يمكن صنعه مما في يديك ، فان زيادة ما في يديك لا يعني زيادة الابداع ، بل ان التحدي يظل هو نفسه . والمقياس واحد في كل الازمان ، والابهار الذي ينتج عن الابداع يظل بنفس القوة ، سواء امام تمثال طيني للانسان البدائي ، او رسومات طفولية على جدران كهف ، او لوحة لبيكاسو .

صمت الفتى هنيهة قبل ان يعترض :

قد يكون ما قلت صحيحا . ولكن لكل عصر أدواته وموادة التي يبدع منها . فيما يخص عصرنا ويخصني ، اعتقد ان من الاكثر ملاءمة ان اطلع على قصائد الشابي ونزار قباني كمدخل لنظم شعري الخاص . اما معلقة لبيد ، وديوان امرىء القيس ، فلا أرى لها نفعا في هذا المضمار .

قلت :

بالعكس . ان الابداع وخاصة في مجال الشعر هو عملية اختيار . القرآن ، وكل الروائع الادبية من نثر وشعر تتكون من نفس الكلمات التي يستعملها الناس العاديون في مخاطباتهم العادية ، ولكنها في داخل النص الابداعي لها وقع خاص لانها تخضع لعملية اختيار ثلاثية هي روح الابداع .

فالفنان الذي يرسم بالكلمات يختار اولا الشكل العام للوحته ، والروح التي يريد ان تسري فيها وتتخللها . ثم هو يختار من الكلمات أدقها اداء للمعاني بحيث يحجب كل معنى لايريده ، ويظهر كل معنى يريده . ثم هو اخيرا يراعي في اصوات هذه الكلمات وترتيبها تقاربا وتباعدا وتشابها وتنافرا ان تعمق الاثر الذي يريد اعطاءه ، وتقوي بناءه الادبي وتعطيه الحياة .

ولكن الشخص الذي لا يملك خيارا لا يملك ابداعا . فالذي يعرف كلمة واحدة او تعبيرا واحدا لكل حالة هو فاقد الخيار ، وبالتالي فاقد للابداع ، حتى وان ملك موهبة الابداع . فهو كالنحات الفاقد للازميل ، والمضطر للاكتفاء بما شكلته الطبيعة . وهذا متفرج وليس مبدعا .

ولهذا حين توجه الشاعر المبدع ابو نواس في صباه الى من يعلمه الشعر اوصاه معلمه بان يحفظ خمسين الف بيت من عيون الشعر ، ولما فعل امره بان ينساها ، ولم يسمح له بقول الشعر الا بعد ان فعل .

وفي هذا حكمة اي حكمة . فحفظ روائع الاقدمين يساعد المبدع على شحذ ادواته ويرفع ذوقه الفني ، ويمده

عن اخطاء السابقين ، كما يعصمه من تكرار ابداعاتهم والزعم بانها روائع جديدة . وقد قال احد فلاسفة الغرب ان مأساة الهواة انهم يشقون انفسهم فيما فرغ منه المحترفون منذ دهور ، فيكررون كل اخطاء السابقين دون ان يضيفوا شيئا .

وما تريد ان تفعله انت هو كمن يريد ان يسقي قريةً فلا يضع في خزان الماء الا ما يكفي كل افرادها حسب ظنه ولا يزيد . وهو لا يضع في ذلك حساب التبخر ، ولا ما يبقى في الخزان والانابيب ، ولا مايصل الى الناس وتكون النتيجة ان يعطش الجميع .

والله كان اكرم منك ومن امثالك حين سقى الناس بالانهار ، فهي تأتي بالماء حين يطلب وحين لا يطلب . وعلى مثالها فاقتد لو كنت تريد ان تكون من زمرة المبدعين . فالمبدعون من كان عطاؤهم كالانهار ، دائما ، وغنيا ، وشافيا .

قال صاحبي :

على كل فان الشعر سينتهي كوسيلة تعبير ، واللغة العربية نفسها ستندثر . الا ترى الى ان كل التكنولوجيا الحديثة تتآمر على ذلك . هذه هي الانجليزية قد اصبحت لغة كل العلوم ، وهاهي العقول الالكترونية خازنة المعلومات الكبرى في العصر تستخدم الانجليزية فقط ، حتى عند العرب . وبعد قليل لن يصبح للغة العربية اثر الا في المتاحف .

اما الشعر فهو قد غرق سلفا في فيضان الافلام السينمائية والفيديو والاذاعة والتلفزيون والصحافة ، وبعد قليل لن يبقى منه شيء الا في اغاني « البوب ميوزيك »

قلت له :

– لا أوافقك الرأي . ولكن هب ان ما تقول صحيح ، وان الشعر ولغتنا العربية الى اندثار ، فان هذا لن يحدث خلال عمرك المديد ان شاء الله ، فلا تعلق نفسك بالاوهام ، واقبل على هذه المعلقات وعيون الشعر ومتع نفسك بها ، فان لغتها ستبقى وسيلة التعبير ، ومادة الابداع ما عشت

وحتى ان كانت هذه الروائع في طريق الزوال ، فان هذا سيكون سببا اضافيا للاقبال عليها ، فعسى الا نجدها غدا .

وقد ظلت حالات الفراق الابدي عماد التحدي في التراجيديا الانسانية ، ومنبعا ثريا وزاخرا للابداع .

فافعل كما قال سابقك المبدع :

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

ولا تكن كالآخر النادم القائل :

لو كنت اعلم ان آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت مالم افعل !

أحقًا لم يكن هناك أي مثال لفن عربي يقتدى به ؟

بقلم : حلمي التوني

قرأت في عدد شهر ابريل ١٩٨٢ من « العربي » في باب « قضايا حيوية » تحت عنوان « هل هناك أزمة فن تشكيلي عربية ؟ » مقالا للأستاذ فريد منصور يتعرض فيه لمشكلة الفن التشكيلي العربي يقول فيه ما نصه :

منذ حوالي قرن تقريبا وباحتكاك الدول العربية بالفن التشكيلي الغربي بدأت قلة من الموهوبين العرب في هذا البلد او ذاك تمارس فن الرسم والنحت . وبالطبع ، لم يكن ، هنا ، يومذاك اي مثال لفن عربي محلي يقتدى به ، وبالتأكيد لم يكن ثمة أية تقنية فنية عربية يستقى منها . . . ذلك ان الحضارة الاسلامية في البلدان العربية خاصة ، لسبب أو لآخر ، لم تنتج اي شيء يذكر في ميدان النحت والتصوير ، بل ان تيارها الفني كان قد انصب كله في

مصب الهندسة المعمارية وما رافقها في فنون الكتابة والزخرفة . . . » .

. . . . ثم يستمر كاتب المقال في عرض حال الفن في بلادنا في تلك الفترة وهجرة الفنانين العرب الى اوروبا ، او سفرهم اليها ، وعودتهم بتقنية الغرب وبافكاره الفلسفية أسلوبا وشكلا . يعبرون بها ويعالجون موضوعاتهم الفنية المحلية العربية ، ويسوق الكاتب - وهو فنان لبناني صديق - امثلة من القطر اللبناني : مصطفى فروخ وعمر الانسي وغيرهما .

ينتقل المقال بعد ذلك الى استعراض التقدم البطيء في مجال الفن التشكيلي المعاصر في الاقطار العربية ويستثني من ذلك مصر التي يذكر انه قد قامت فيها شبه نهضة فنية كان من ابرز ملامحها وأهم روادها النحات محمود مختار الذي استطاع ان يجد هويته ويستعيد شخصيته الفنية . .

. . لقد ورد في هذا المقال بعض الاحكام والاقوال التي توجب التعقيب والرد .

أولا : ما يذكره الكاتب من أنه لم يوجد أي مثال لفن عربي يقتدى به ، ولم تكن ثمة تقنية فنية عربية يستقى منها . . . وان الحضارة الاسلامية في البلدان العربية لم تنتج أي شيء يذكر في ميدان النحت والتصوير (!!) .

وفي رأيي المتواضع - وحسب معلوماتي القليلة - ان هذا حكم ظالم ، او على الاقل غير دقيق ، فأين ذهبت روائع المخطوطات الاسلامية العربية وتصاويرها الفائقة الجمال ذات الشخصية الفريدة والاسلوب المتميز والتقنية الخاصة جدا ؟

وأين المدرسة البغدادية الموصلية الواسطية العباسية ؟ ثم المدرسة المملوكية المصرية بعد انتقال مركز الحضارة الفنية الاسلامية العربية الى القاهرة عقب تدمير بغداد عام ١٢٥٨م . . ؟ ثم أين مدارس الفن الشعبي العربي الاسلامي المستمرة (الرسم على الزجاج) في الشام وتونس ؟ . . ثم اذا لم يوجد فن نحت اسلامي عربي بارز (عدا تماثيل قصور المشاتي في بادية الشام) لأسباب تحفظية تقليدية خوفا من عقدة الوثنية البائدة . . الم توجد فنون أخرى تمثلت في فنون النحاس والزجاج والخشب والخزف والتكفيت والتذهيب والساعات المتحركة والآلات الى آخره مما يصنفونه ويسمونه في حضارة الغرب بالفنون الصغرى ونعتبره نحن من صميم فنوننا الاسلامية العربية الكبرى ، (وبالمناسبة هل كتب علينا تقليد الغرب في فنونه . . واذا نجونا من ذلك وقعنا ولم نستطع ان ننجو من استعارة مقاييسه وتصنيفاته في الحكم على فنوننا وحضارتنا ؟)

دعك من فن الخط العربي الذي تجاوز أشكال التحسين والزخرفة التي تسمى اليها اشكال خطوط اللغات الاخرى مثل القوطي وغيره ليصبح فنا قائما بذاته وليس ملحقا وتابعا لفن العمارة كما يذكر الصديق كاتب المقال ، ثم هل تذكر - ام لا داعي لذلك - الفن الذي يسمونه في الغرب فن « الارابيك » ، واللذي تؤلف الكتب (في الغرب ايضا) لتحليله وادراك قيم ومواطن الجمال والسمو فيه ؟ الا يعتبر نقاد الغرب ودارسوه هذا الفن من فنون البشرية الاكثر تقدما ورقيا بمقاييسهم : مقاييس التجريد « والاستاطيقا » المجردة ؟

الا يوجد في كل هذا :
« فن عربي يقتدى به » أو « ثمة تقنية فنية عربية يستقى منها »؟!!

نقطة اخرى . . .
هو ما يسوقه الأخ كاتب المقال في مجال المثال على ايجاد الحل وتجاوز الازمة الفنية التشكيلية العربية أزمة الهوية

واستعادة الشخصية ، فالمثال في رأي الكاتب هو الفنان النحات المصري محمود مختار الذي عاد الى الفن المصري الفرعوني ليجد فيه القدوة .

. . . وطبعا هذا حل لا اعتراض عليه . . . ولكنه يبقى احد الحلول ، وتبقى الثروة الفنية القومية في كل قطر عربي واسلامي - على حدة - منبعا ومنهلا لمن يريد ولكن . . .
اذا جاز لنا واستطعنا ان ننظر الى الخلف « لمسافة » الاف السنين ، فلا شك اننا نستطيع ان نمد ابصارنا وايدينا عبر « مسافة » لا تتجاوز مئات السنين الى كنوز حضارتنا القريبة .

أليس غريبا أن ننسى او نقفز من فوق ، ولا اريد ان اقول ان ننكر ونجحد ونتغافل عن الثروة الفنية الهائلة ، ثروة الحضارة الفنية الاسلامية العربية المنتشرة في اراضي هذه البلاد ووجدان أهلها ، وايضا في قاعات عديدة ممتدة في كافة متاحف ومكتبات عالم اليوم غربه وشرقه .

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
١	م	ا	ل	ب	ى	ج	ى	■	ا	ب	و	ت	م	ا	م
٢	ا	ل	ت	م	س	ا	ح	○	ر	د	ا	ل	ف	ع	ل
٣	ز	ف	ر	■	ا	■	ت	ا	ن	ا	■	ف	ت	■	■
٤	ا	ا	■	ا	ل	ت	ق	ل	ب	■	ا	ظ	ا	ف	ر
٥	ر	ت	ى	ب	■	ا	ر	ز	■	ا	ل	■	ح	ر	ب
٦	ا	ى	■	ن	ه	م	■	ه	ا	ل	ن	ا	■	ن	ى
٧	ن	ك	س	■	د	■	ا	ر	س	د	ه	■	ر	ك	ع
٨	○	ا	ل	ح	ا	س	ب	ا	ل	ك	ر	خ	ى	■	■
٩	ا	ن	ا	ل	■	ق	ن	و	ا	ت	■	ل	ا	ه	ى
١٠	ل	■	م	ز	ج	■	ا	ى	ل	و	ل	■	ل	ا	ح
١١	ا	ل	ى	و	ب	ى	ل	■	ا	ر	ق	ا	م	■	ى
١٢	ى	ح	س	ن	■	ت	ه	■	ن	ا	ب	■	د	ب	ى
١٣	ا	ل	■	ى	ع	ن	ى	■	و	ه	■	ى	ر	و	ح
١٤	د	ا	ن	ه	■	ك	ك	■	ا	■	ت	ر	ى	ا	ق
١٥	ى	ح	ل	■	ك	ر	م	■	ع	ل	م	■	د	ر	ى

أفقياً

الحاسب الكرخى

رأسياً

الزهراوى

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : الحاسب الكرخى . عالم رياضى اسلامى ، عاش في القرن الحادى عشر ، واعتمد على أعمال الخوارزمى في كتبه التى من بينها « الكافى » في الحساب ، و « الفخرى » و « البديع » في الجبر والمقابلة . وكان يكتب الاعداد بالطريقة اليونانية .

(٨) رأسيا : الزهراوى . طبيب وجراح أندلسى ، ولد في قرطبه في القرن الحادى عشر ، ويعتبر من أشهر الجراحين المسلمين . وضع كتابا في ثلاثين جزءا يسمى « التعريف لمن عجز عن التأليف » ، كتب فيه عن التعقيم والتوليد ومداواة الجسد .

الفائزون بالمسابقة

■ الجائزة الأولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : محمد على مبارك ـ دمشق / سوريا .
■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : أمين عبد الله أحمد العلي ـ الاحساء / السعودية .
■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : سلوى أحمد ابراهيم الصفار ـ الشعب / الكويت .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

(١) السباعي محماد بن علي ـ وجدة / المغرب .
(٢) صالح مبارك صالح ـ المكلا / اليمن الديمقراطي
(٣) فرج بشارة الصايغ ـ عمان / الأردن .
(٤) عبد المنعم علي الأمين ـ المهدية / السودان .
(٥) أحمد محمد سليم غضبان ـ بيروت / لبنان .
(٦) موسى مروان الموسى ـ الشارقة ـ الامارات العربية
(٧) جمال محمود شحاته ـ المنوفية / مصر
(٨) علي عبد الكريم رمضان ـ البحرين .

حكايات الأطفال العرب

بقلم : الدكتور على الحديدي

تعود « بداية أدب الاطفال » في الزمان الى أول الزمان ، وذلك منذ أن تكاملت قدرة الانسان على التعبير ، وأخذت الأمومة والطفولة البشرية تسلك طريقها المرسوم نحو تكوين أسرة وجماعات . ثم انحدر في مسيرته مع الأيام على الدرب الطويل من عمر الانسان ، تحكيه الأمهات والجدات ميراثا يتلقفه وجدان الصغار ، وتهفو إليه آذانهم استمتاعا وترويحا وتسلية ، واستوعبه ضمير الجماعة ، ليحقق به كثيرا من مواقفه ، ويرسب جانبا كبيرا من عواطفه ومعارفه . واحتفظت به ذاكرة الزمن ليسهم بنصيب كبير في نقل تراث البشرية وخبراتها من جيل إلى جيل . وخلال التطور الانساني المبكر ، كانت القصص ـ وهي مادة الحياة ـ سواء رويت للكبار أو حكيت للصغار ، وسيلة لتقاسم الخبرة والتعليم ، ولونا رفيعا من ألوان الامتاع والمؤانسة .





والمجتمعات الانسانية القديمة لم تكن تهتم بالطفل الا بالقدر الذي يؤهله كي يكون قادرا على تحمل مسئولياته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه ، ولم تكن مرحلة الطفولة عندهم مرحلة مهمة في ذاتها أو مستقلة بذاتها ، بل مرحلة انتقال تعبر بالكائن الصغير إلى مراحل الشباب والنضج والرجولة . ومن ثم لم تكن هذه المجتمعات القديمة تعامل الطفل فيها أو تنظر إليه خلالها إلا على أنه راشد مصغر ، وكانت تتصور أن ما ينطبق على الراشد ينطبق على الطفل سواء بسواء . ومن هنا لم تفرد الأطفال بأدب خاص بهم ينشئه لهم فنانون يبدعون خلقه ، بل بسطت لهم حكايات الكبار من خرافات ، وأساطير ، وحكايات الحيوان ، والجن ، وقصص التاريخ أو الحرب والبطولات .. إلى غير ذلك من القصص التي ابتكرها الانسان الكبير في تاريخه الطويل .

وعاش أدب الأطفال عالة على التراث الأدبي للكبار ، يتخذ منه مصادر يغترف منها المادة والصورة والخيال . وكلما تطور التفكير الانساني وتطورت فنه الأدبي ، تطورت معه حكايات الصغار لتصبح هي الاخرى جزءا من مادة الحياة ، ووسيلة اتصال أساسية للبشرية ، وسبيل الأجيال المتعاقبة لنقل الأفكار والقيم الروحية والمثل ومستويات السلوك والتقاليد . وصارت حكايات الأطفال كالجدول ينساب في موازاة النهر العظيم من قصص الكبار ليستمد منه الحياة .

عندما تغير وجه الصورة

وعلى الرغم من أن الأطفال العرب ظلوا طوال العهود المزدهرة من الدولة العربية محرومين من الأدب الرفيع المؤلف لهم خاصة إلا أنهم عاشوا في فيض مبسط من قصص الكبار التي زخر بها المجتمع العربي ، شعبية رائعة ومؤلفة مبتكرة ، نتاجا للعقلية العربية التي منحت حظا موفورا من الخيال ، وأعطيت القدرة على صياغة المادة المحيطة بها قصصا جميلا ، وامتازت بالموهبة المبدعة التي تعيد تأليف القصص القديمة المتوارثة وتخرجها في فن يكاد يكون جديدا ، والتي تستقبل الحكاية المنقولة إليها بحفاوة وتقدير ، وتصوغها من جديد بمهارة ودربة فائقتين ، وتضيف إليها روحها العربية ، وتضفي عليها الكثير من موهبة الخيال والفن التي تتملك ناصيتها ، فلا يملك التاريخ إلا أن ينسبها إلى العرب وينسى مصدرها الأول .

وتغير وجه الصورة المزدهر منذ توالت النكبات والكوارث على بلادنا العربية ، فقد اجتاحها « هولاكو » بجيشه المغولي - ١٢٥٨م - ١٢٦٠م - وأهلك الحرث والنسل وحرق بغداد ودمشق ، ولم يوقف تدميره للبلاد العربية إلا هزيمته وإبادة جيشه على يد المصريين في موقعة « عين جالوت » . وبعد نحو مائة وخمسين عاما جاءنا إعصار « تيمور لنك » المدمر ، فخرب عواصم الثقافة العربية : بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وهدم البلاد وأهلك العباد . ثم كانت المرحلة العثمانية ، التي بدأت في عام ١٥١٦م ، واستمرت حتى اوائل القرن العشرين ، وفي ظلها عاش العالم العربي عزلة سياسية منعت العربي من الاتصال بالدول الخارجية ، وعزلة ثقافية وفكرية أخرجت العرب من تيار الثقافة العالمي فلم يعد هناك تفاعل بينهم وبين الثقافات الأخرى بالتبادل الفكري ، وعزلة تاريخية ، قطعت صلتهم بماضيهم وثقافات أجدادهم التي غذت العالم فكريا نحو تسعة قرون ثم جاءت الطامة الكبرى على البلاد العربية بالاحتلال الأوروبي .... أحفاد الصليبيين الذين تقاسموا العالم العربي فيما بينهم . وكانوا جميعا يصدرون عن هوى واحد ، هو التحكم في العالم العربي بأنواع القهر والاستغلال ، ونهب ثرواته وإشاعة الاضطراب والشك في مفاهيمه الدينية والقومية ، وإعلان الحرب على معنوياته حتى يفقد شخصيته ويفقد بذلك كيانه إلى الأبد .

لم يعد العربي يشعر بذاته بعد هذه النكبات المتوالية ، وابتعد عن الحياة العامة فتجمد وتخلف ، وأصبح يعيش في ظلمة الجهل وظلمة الاستبداد ، ظلمات بعضها فوق بعض . ومن الطبيعي أن تنحدر الحياة الأدبية الرسمية في عصور التخلف وظلمات الجهالة وفقدان الذات ويتولى الأدب الشعبي مهمة التعبير عن هذه الحياة فيخرج صدى لما تعانيه الأمة العربية ، ممسوخ الخيال مريض التصور بعد أن شوهته عهود الظلم والتدهور ، ويكون صورة صادقة لما في نفوس الكبار المقهورة ، وقلوبهم المكلومة ، ونفوسهم المضطربة الخائفة ، وحريتهم السليبة ، في قصص وأغان مليئة بالرعب والخوف ، وحكايات ممزوجة بالألم والتعذيب تنفيسا وإسقاطا رمزيا . ونفذ ذلك كله وتسرب من نهر الأدب الشعبي للكبار إلى الجدول الصغير من « أدب الأطفال » . وعاش الأجيال من الأطفال العرب الذين عاصروا عهود الاضمحلال ونكبات الاستعمار يعانون من فقر التجربة وجدب العاطفة وتشويه الخيال ، ويقاسون من حكايات الرعب والخوف والفزع التي تسربت اليهم من قصص الكبار فعاشوا تطاردهم أشباح شخصياتها المخيفة في الصحو والمنام .

في عصر التنوير

وبدأت النهضة العربية الحديثة . وأخذت الحياة في البلاد العربية تتغير صورتها رويدا ليعود إليها شيء من صفائها . وبعث التراث الأدبي ، ودخلت البلاد عصر التنوير ، ودبت الحياة فيما دون من التراث الأدبي الشعبي لعهود الازدهار ، وانتشر التعليم ، ورحل المستعمر . واجتاحت البلاد حركة ثقافية نشطة تعوض سني التخلف والجهل . وكان التركيز كله منصبا على أدب الكبار وثقافتهم ولم يهتم أحد بثقافة الطفل وأدبه ، بل ظل سوء الطالع ملازما للأطفال العرب ، فأدبهم المبسط من أدب الكبار في عصور الازدهار لم يكن مدونا ، ولم يلتفت إليه أحد من رواد حركة إحياء التراث الأدبي الشعبي في بلادنا العربية . فاختفى في رمال التاريخ وسقط من ذاكرة الزمن ، ولم يبق منه إلا النادر القليل الذي قاوم عوادي الدهر . وتوارثت كل منطقة عربية منه ما يعبر عن جانب من الحياة فيها ، أو يرسب من معارفها ، أو يحقق جزءا من مواقفها وعواطفها .

وشبت أجيال العصور الحديثة من أطفالنا العرب ورصيدهم من الحكايات نوعان : القليل النادر من مخلفات تراث الماضي المجيد والمبسط من قصصه الشعبي في عصور الازدهار فيبعث فيهم روح المرح والمتعة ، ويخلب لبهم بألوان الخيالات المبهرة ، ويفتنهم بشخصياته الأسرة التي تشد إليها الصغار فيتعلمون منها خبرات الحياة وهي تعرض الحق في بهائه ، والعدل في قضائه ، والصدق في صفائه ، والجمال في روائه . لكن أكثر ما يحكي لهم قصص تعبر عن عصور التخلف والتدهور والاحتلال ، في صور من التراث الشعبي ترمز إلى الظلم والاستبداد وقهر الرجال ، فتبعث في قلوب الأطفال الخوف والاضطراب وعدم الأمان ، ويحسون ما فيها من ألم وعذاب ، وتقلقهم أشباحها المفزعة بعدائها وعدوانها ، وتروعهم شخصياتها المخيفة بظلمها وجبروتها ، من مردة تخلب الأطفال ، أو غيلان تخطفهم وتسجنهم في الظلام ، أو سحرة أشرار يمسخونهم حجارة وحيوانات ، أو آدميين مجرمين يعذبونهم ويحرقونهم بالنار ويطبخونهم طعاما للآكلين !! .

والعلماء متفقون على أن الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة ـ قبل السادسة ـ يجب أن يجنب حكايات الرعب والفزع والتعذيب والخوف ، وكذلك القصص التي تحوي مضامين تنتهك التقاليد الاجتماعية أو العواطف الدينية ، أو تقلل من شأن القيم الوطنية والأخلاقية ، فلا تحكي لهم قصص الشياطين والغيلان والمردة والسحرة الأشرار ، أو الآدميين المجرمين ، أو القصص التي تضم ما يخالف تعاليم الدين أو التقاليد في المجتمع ، لأن أطفال هذه السن ليست لديهم خبرة بالحياة في هذا العالم ، وتغلب عليهم السذاجة فيصدقون كل ما يقال لهم ولا يفرقون بين الرمز والحقيقة . وحين تحكي لهم مثل هذه القصص يعيشون حياة ملؤها الألم والعذاب ، أو تهتز في نفوسهم القيم السائدة في مجتمعهم .

الأطفال بعد السادسة

أما أطفال السادسة وما بعدها ، فقد اختلف العلماء في أن تحكي لهم قصص تضم الرعب والخوف والفزع . وهناك من يرى أن مثل هذه القصص يجب أن تمحى من أدب الأطفال ، ذلك لأن الطفل ـ وهو أمل المستقبل وعلى عاتقه تقع مهمة التغيير إلى الأفضل وإلى ما فيه خير المجتمع والانسان ـ يجب أن يتهيأ له المعين الذي يغترف منه الصدق والحق والخير والعدل والأمن والمثل الأعلى الذي يحتذيه . ومن الظلم أن نطالبه بالانطلاق إلى الحياة نموذجا لانسان المستقبل ونحن نقطر له في طفولته ـ عن طريق القصص ـ ما يبعث في نفسه الاضطراب وعدم الأمان والاحساس بالظلم والمعاناة من الخوف والرعب والذعر من الحياة . وانضم علماء النفس إلى هذا الفريق ، واحتجوا على حكاية مثل هذه القصص للأطفال ، وكان من تأثير هذا الاحتجاج أن أعيدت في أوروبا كتابة حكايات الجنيات والخرافات المفزعة لتخفيف ما تحويه في أصولها المتوارثة من تفصيلات البشاعة والتعذيب . ففي قصة « الغربان السبعة » من مجموعة « الأخوين جريم » مثلا ، وفيها الأخت الصغيرة التي يتحتم عليها أن تقطع إصبعها لكي تتمكن من دخول القصر الفضي وتنقذ إخوتها السبعة ، عدلت القصة بحيث لا تشير إلى الألم أو الدم الذي سال من بتر ذلك الاصبع .



والذين لا يجدون ضيرا من حكاية مثل هذه القصص لطفل السادسة وما بعدها كما هي دون تعديل ، يزعمون بأن القصص الشعبية تصور قدر الانسان ومصيره ، وهي رمز للخير والشر معا كما يوجدان في الحياة ، ويرون أن الطفل في سن السادسة لديه معلومات أكثر عن العالم تؤكد له عن طريق الحقائق أن هذه القصص وهم وخيال . وفي نفس الوقت يقولون إن الرعب في هذه الحكايات قد يكون عاملا للتنفيس عن مشاعر الخوف والقلق الكامنة في نفس الطفل ، وذلك كما يحدث في قصة « الغربان السبعة » السابقة فمن سياقها يمثل بتر إصبع الأخت التضحية بها جزاء مسؤليتها عن اللعنة التي أصابت إخوتها السبعة .

قصص الخوف والفزع

والعلماء الذين يبادرون بنقد القصص التي تقدم للأطفال عامة لأنها تحوي الخوف والفزع لا بد لهم من أن يدركوا أن الأطفال لديهم مخاوفهم الخاصة بهم ، وبعد أن يقرأ أو يسمع طفل السادسة أحداث الفزع يجد الحنان والحب والأمن بين أهله فترتد إليه نفسه الهلعة الخائفة ، ويعرف أن ما سمعه أو قرأه إنما هو خيال كاتب أو قصاص لن يمسه منه سوء أو يصيبه من جرائه مكروه . وقد تكون الكتب التي تقرأ والقصص التي تحكي هي الوسائل الأولى التي عن طريقها يتعلم الأطفال كيف يواجهون مصاعب الحياة ومشاقها ، ومن ثم لا بد أن يواجهوا هذه المصاعب في قصصهم لكي يعرفوا شيئا عن آلام الحياة وصعوباتها ، وعن الرعب والقسوة والقدر في الحياة ، وعن الحرب وما تخلفه من قتل وبؤس وتدمير وشقاء ، وعن الخيانة والحقد والخداع بوجوهها السوداء . وليس هناك من سبب لحماية عقول الأطفال أو تدليلها أكثر مما ينبغي .

ومن ناحية أخرى ليس هناك من سبب يدعو لأن نصدم الأطفال الصغار - ما قبل السادسة - بهذه المفزعات متعمدين تخويفهم بها في هذه السن المبكرة . ومن ثم إذا كنا سنقدمها لهؤلاء الأطفال ، يجب أن نعدل فيها حتى نخفف منها حدة الفزع والخوف والألم والتعذيب ، أو ننتظر حتى يأتي الوقت الذي يتطور فيه الطفل ويصل المرحلة التي تتكون فيه القوة الداخلية ليواجه مصاعب الحياة ويتعرف مآسيها . وتلك مسألة نسبية تتوقف على السن الادراكي للطفل ، وعلى تجاربه ، والبيئة المحيطة به . كما أنها تشير إلى أهمية معرفة الأمهات والمربيات والمدرسات وأمناء المكتبات ورواة القصص لهؤلاء الصغار معرفة وثيقة يصلون فيها إلى قلوبهم وعواطفهم . والمرحلة التي تتكون فيها تلك القوة الداخلية عند الأطفال الأسوياء هي سن السادسة وما بعدها .

وقصص الأطفال الشعبية التي تضم الخوف والفزع والتعذيب ليست هي وحدها ما يجب أن نجنبها الأطفال في المرحلة المبكرة ، بل هناك نوع آخر أكثر خطرا على وجدان الطفل وتكوين عواطفه تجاه دينه ومجتمعه ووطنه ، تلك هي القصص التي تحوي مفاهيم تنتهك تعاليم الدين ، أو تستهين بالتقاليد الاجتماعية الأصلية أو تحبط النزعة الوطنية في نفسه ، وتتمثل في سلوك شخصيات القصة ، فترسب في ذهن الطفل وتستقر في وجدانه وعواطفه . والطفل وهو مستغرق في سماع الحكاية لا يكون مدركا قوة التأثيرات التي يستجيب لها لأنها تحدث دون شعور منه ، وذلك بواسطة عقله الباطن الذي يعي السلوك والتجربة من أحداث القصة أو من سلوك شخصياتها . ويقوم الطفل بعملية توحد مع الصور والنماذج المعروضة في القصة ، ويميل إلى المحاكاة والتقليد لها ، ويتأثر بما يسمع فينمو لديه الخيال المريض ويكتسب المعاني السيئة ويثير في نفسه القلق والشك والاضطراب ونزعة الاجرام حين يقوم بعملية موازنة ومقارنة بين ما يسمع من القصص وما يرى في واقع المجتمع الذي يعيش فيه . وإذا كان الطفل سريع التأثير بما يحيط به من مؤثرات مختلفة وتتكون اتجاهاته ومثله وأهداف الحياة عنده في مرحلة طفولته ، فتجاربه الذاتية مما يسمع ويقرأ لها أهمية كبرى في مستقبل حياته .

في الخليج العربي

وإذا استعرضنا ما يحكي اليوم للأطفال في منطقة الخليج العربي من التراث الأدبي الشعبي نجده يضم بين ما حمله الأيام من أعماق التاريخ حكايات الجنيات والسحرة ، والقصص الشعبية ، وحكايات الحيوان ، والأغاني ، والأحاجي ، وحكايات البحر ، والحكايات الدوارة ، وقصص الأذكياء والحمقى وغيرها من صنوف الحكايات الشعبية المختلفة . هذه الحكايات التي ما زال الكبار يروونها للصغار حتى هذه الأيام جديرة بالدراسة لبيان ما يصلح منها للأطفال وما لا تصلح حكايته لهم . وعسير أن يتناول بحث واحد أجناس الحكاية الشعبية كلها في منطقة الخليج ومن أجل ذلك سنبدأ بأمثلة من حكايات الجنيات والسحرة .

وجمهور العلماء والباحثين في التراث الأدبي الشعبي يطلقون مصطلح « حكايات الجنيات والسحرة fairy tales على القصص التي تدور حول الجنيات أو المخلوقات التي فوق مستوى البشر ، ومع ذلك فالمجموعات المختلفة من هذه القصص لا توجد الجنيات إلا في عدد قليل منها . ومن ثم أطلق جوزيف جاكوبس هذا المصطلح في مقدمته لكتابه english fairy tales على القصص التي تحدث فيها الخوارق أو الأمور الغريبة ، كأن يكون فيها جنيات أو عمالقة أو أقزام ، أو حيوانات تتكلم ، أو يكون فيها عمل غير طبيعي كالحمق والغباء . وأطلقت روث تسوز هذا المصطلح في كتابها story telling على القصة التي كتبها مؤلف واحد ، وتدور حول قوى سحرية أو خارقة تحقق الأمال والأحلام ، وهي في رأيها غير القصة الشعبية لأن القصة الشعبية مجهولة المؤلف ، أو يتعدد مؤلفوها .

وفي عصرنا الحديث لا يمكن لأحد أن يفكر في طفل وحكاية دون أن يفكر في قصص الجنيات والحكايات الخرافية . ترى أهي عادة سيئة خلفتها لنا - فيما خلفت - البدائية الأولى ؟ أو أنها رواسب من تفكير العصور القديمة ومعتقداتها ؟ أم أن هذه الحكاية تستطيع أن تبرر علميا شهرتها وذيوعها بين الأطفال ، وأن تثبت أن حب الأطفال وشغفهم بها له نتائج تربوية مؤكدة ؟ وهل يمكن أن نزعم ونحن في عصر الأقمار الصناعية وعصر التقدم في بحوث علم نفس الطفل وطرق تربيته أنها بوجه عام قصص تلائم الأطفال في هذا الجيل وتصلح أن نقدمها لهم ؟ .

نعم ، إن حكايات الجنيات الخالية من الفزع والخوف وقتل الأطفال وتعذيبهم والتي استطاعت عبر هذه القرون الطويلة أن تحتفظ بحب الأطفال لها ، وأن يشتد ولعهم بها في عصور مختلفة التطور والحضارة ، لا بد من أنها تحوي في جوهرها من عناصر الحياة ما يجعلها قادرة على تلبية كثير من حاجات الطفولة . فالعجوز المسكينة التي تستند بيدها المرتجفة على عصاها السحرية تستطيع بحركة من هذه العصا أو بكلمة مرتعشة من فمها الخالي من الأسنان أن تبعث في الأطفال روح المرح والمتعة ، تلك التي نبذل نحن الكبار قصارى جهدنا لنحركها فيهم ونوجه مشاعرهم نحوها . ! ويمكنها كذلك أن تقرع بعصاها السحرية الأبواب المغلقة فتنفتح على كل ألوان الخيالات العجيبة المبهرة والمغامرات الآسرة التي تخلب لب الطفل وتفتنه ، وتشد اليها خياله فيحلق في عالم جديد تتفتح له تصوراته ومدركاته ، ويشارك في الأحداث ، وينفعل بالعواطف ، ويستمتع بالمغامرة .

وحكايات الجنيات تلائم أطفال عصرنا - عصر الأقمار الصناعية - وتلبي كثيرا من احتياجاتهم الخيالية والعاطفية وسط عالم طغت عليه المادية وتقيدهم من طرق شتى ، ومن ذلك قدرتها العليا على عرض الحق والعدل والصدق والجمال والخير في ثوب من الخيال والتصور ، وذلك هو الطريق الذي اتخذه جنس الأطفال تجاه الحكمة ، والذي تسلكه الفطرة والغريزة لكل طفل ميراثا من براءة الطفولة واستجابتها الفطرية للحق والصدق والعدل .

كذلك تعرض كثير من حكايات الجنيات الحقائق الأولية لقانون الحق والخير والعدل في صورة متخيلة من تجارب الانسان . ومع أن الطفل حين سماعه القصة لا يدرك إلا الخيالات لكن الحق والتجربة يمتزجان بوجدانه ويصبحان جزءا من تجربته الشخصية يميزهما في المراحل التالية من حياته حين يتعرض فيها لمواقف مماثلة ، كما تضيف عنصرا جديدا لمخزونه من الاستنتاجات ولرصيده من الأخلاقيات يستخدمها ويتعامل بها في حياته المستقبلة . وفوق ما تحويه من صور الحق والعدل والتجربة ، فإن شخصياتها الرئيسية تتميز بالخصال الحميدة من شجاعة وشهامة وأمانة ووفاء . . . ، كما أن فيها من الآثار والذخائر والتراث ما يصل الطفل بألوان الفنون الشعبية لأمته ، وهذه عناصر ضرورية تدخل في تكوين الذوق الفني لكل إنسان . ومع ذلك فهذه الأسباب وغيرها تأتي تبعا للغاية الكبرى من حكاية قصص الجنيات للأطفال وهي تسليتهم وإمتاعهم وإدخال السرور عليهم . وقد لازمتها هذه الغاية من أول الزمان إلى عصرنا الحديث ، لم تتخل عنها إلا في فترة الاضمحلال والتدهور والاحتلال والاستبداد وظلمة الفقر والجهل ، فترة فقدان الذات التي خرج الخيال فيها ممسوخا والتصور مريضا مشوها في قصص وأغان مليئة بالرعب والهلع والخوف ، وحكايات ممزوجة بالألم والتعذيب تنفيسا وإسقاطا رمزيا . وحكايات هذه الفترة المظلمة هي ما يتحتم أن تجنب الأطفال الصغار سماعها ، كما يتحتم ألا تقصر الحكايات التي نحكيها لأطفالنا على قصص الجنيات وحدها ، بل نقدمها لهم لونا من ألوان التسلية مع غيرها من القصص الشعبية الأخرى كحكايات الحيوان والقصص التاريخية والعلمية والبطولية وغيرها من قصص الأطفال . وسوف يدرك الطفل أن قصص الجنيات إنما هي وهم من خيال وتصور . ■ ■

(الجزء الثاني في العدد القادم)

د . على الحديدي

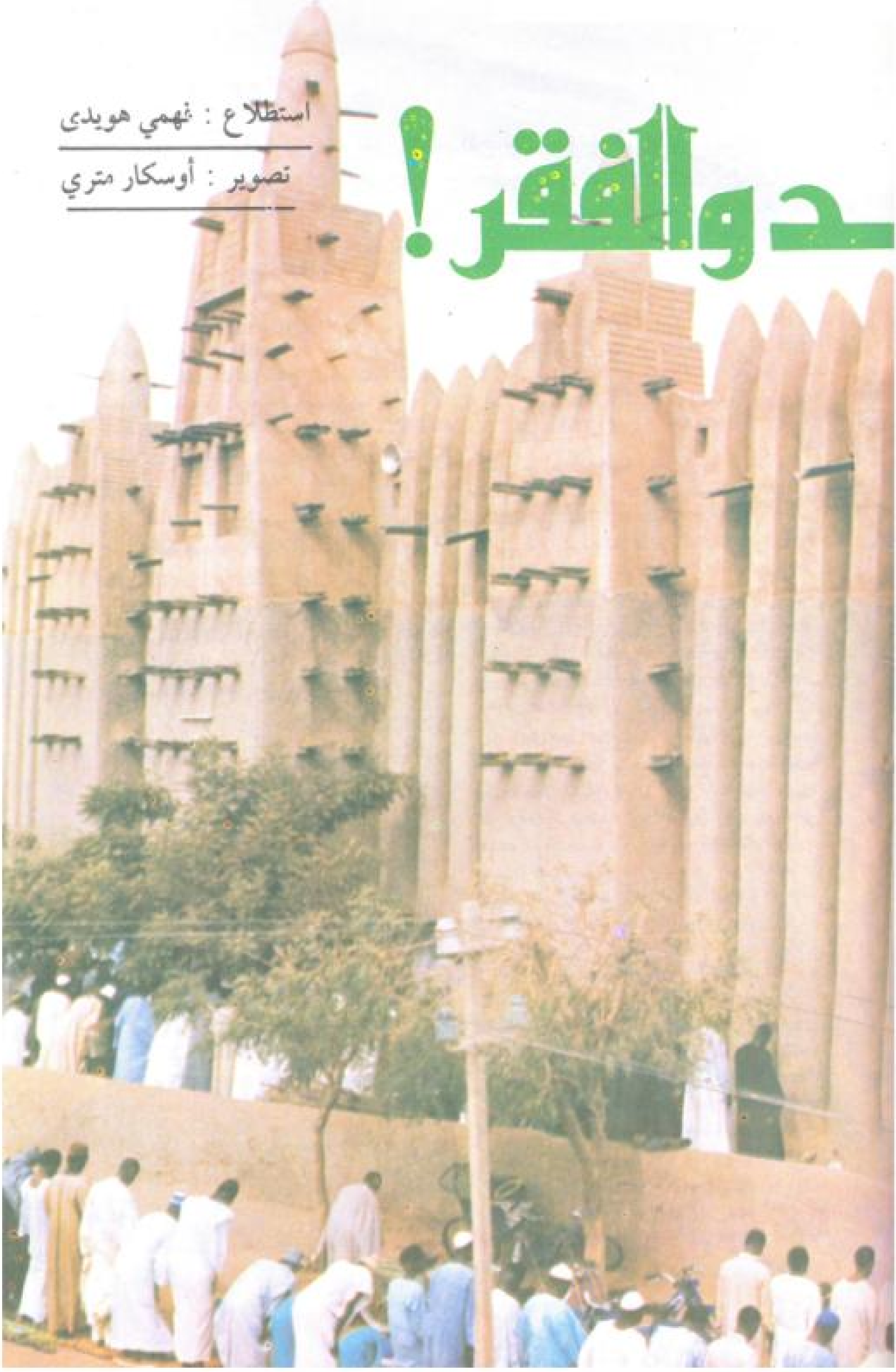
مالي : عناق المج



ـدو الفقر!

استطلاع : فهمي هويدي

تصوير : أوسكار متري



في مالي انهزم التاريخ امام الجغرافيا ، وانكسر المجد تحت وطأة الجفاف والفقر ، وقسا الزمان على ابناء « الماندنجو » ، حتى صاروا نموذجا لهذا الذي نرثي له دائما : عزيز القوم الذي عرف الهوان والذل !

ذلك هو النصف الفارغ من الكوب !

في النصف الملآن يفاجأ المرء في مالي بشعب عجوز ، طاعن في السن والتجربة ، منحته عصور المد والجزر ، والصعود والهبوط ، جلدا وصبرا عظيمين ، مكناه من الثبات في مواجهة عوادي الزمن بشجاعة نادرة ، فظل قابضا ، بأسنانه وأظافره ، على دينه وهويته وكرامته ، متحصنا في ذلك باصوله الحضارية ، التي تقف شواهدها وسط البلاد في شموخ ، تعلن عمق الجذور واستحالة الاقتلاع .

في النصف الملآن من الكوب ، يكتشف المرء انهم فقراء حقا ، لكنهم صامدون وشرفاء !

مشكلة زائر مالي انه يقع فريسة « الرثاء من اول نظرة » ، فمنذ تطأ قدماه باماكو - العاصمة - يخيل اليه انه اجتاز ابواب سرادق عزاء كبير ، وان مستودع التاريخ انقلب مستودعا للحزن ، وانه ربما اخطأ الطريق ، وهبط في كوكب آخر ، انفصل عن العالم والعصر !

ذلك ان القادم الى مالي لا تقع عيناه - عند النظرة الاولى - الا على النصف الفارغ من الكوب . وباماكو - لسوء الحظ - تحتل بجدارة موقعا متقدما في هذا النصف !

كان الوقت ليلا عندما حلقت بنا الطائرة فوق المدينة ناعسة بدت ، ومتدثرة بملاءة سوداء كبيرة ، تناثرت في بقع متباعدة منها نيران اشبه بالحرائق منها الى اضواء المصابيح . قيل لي فيما بعد انها حرائق تعمد الناس اشعالها لابادة الزراعات الجافة ، التي ماتت من جراء شح المطر وانقطاع الري . وان هذه الابادة ضرورية قبل ان تظهر الافاعي في شقوق الارض وتحتمي بتلك الزراعات ، فيتضاعف الكرب والهم . فاذا كان الناس قد فرض عليهم الجوع ، فليس هناك ما يبرر أن يتهددهم الموت ايضا ، يكفيهم شر الجوع ومحنته .

مسجد موبتي ، لاحظ التصميم الفريد ، والعمارة الافريقية العربية الشاهقة . . المسجد يمتلىء بالمصلين كل يوم جمعة ، الذين يسدون الطريق المؤدي اليه الى مسافة نصف كيلو متر . (انظر خلفه)

باماكو في الذاكرة القريبة مدينة غير عادية . فهي عاصمة لبلد كان يعد احد رموز عدم الانحياز والكبرياء الافريقي ، ودعامة للقوى الرافضة للسيطرة الفرنسية ، ثم هي بمثابة القلب في بلد على مفترق الطرق بين شمال القارة ووسطها وغربها . فضلا عن انها عاصمة اهم دولة زراعية في غرب افريقيا ، بل كانت تعد حتى عهد قريب « مخزن حبوب » القارة .

لكن باماكو في الحقيقة لم تكن سوى قرية كبيرة . فباستثناء عدد محدود من الطرق المرصوفة في وسطها ، وباستثناء حي السفارات الاجنبية ، وحي كولبا الذي اقامه الفرنسيون فوق ربوة تشرف على العاصمة ، وخصصوه للوزارات ومقر الحاكم الفرنسي ، فان باماكو لا يمكن ان توصف الا بانها قرية كبيرة ، لا تعرف - خارج تلك الدائرة - لا الانارة ولا شبكات المياه ، ولا تعرف المواصلات ولا الطرق المرصوفة ، ينتشر فيها الشحاذون ومرضى الجذام في النهار ، وتحتل مواقعهم جيوش البعوض طوال الليل !

في الشكل ايضا تعاني باماكو من مأساة كثير من عواصم العالم الثالث ، واعني بها عملية مسخ الشخصية الذي تفضحه عمارة المدينة وبناياتها . وهي مأساة تبدى بصورة اكبر عندما يكون للبلد طراز معماري مميز ، يتم التخلي عنه لصالح الشخصية الاوروبية بحجة الحداثة والتطور . فباستثناء السوق الكبير الذي يقع في الجزء القديم من المدينة ، فليس فيها شيء من العمارة الافريقية التي تزهو بها مدن اخرى في مالي ، مثل تمبكتو وجني وموبتي .

تجسد باماكو حقا ذلك البلد الذي هده الجفاف ، وانهكه الغلاء والتضخم ، وافترسه المستغلون من التجار والسماسرة ، وحاصرته المصالح الاستعمارية الفرنسية ، عقابا له وتأديبا .

فما هو سلبي في المدينة لا يطل فقط من هيئتها وصورتها العامة ، ولكنه ينعكس بصورة أكبر من حجم الهموم الجاثمة فوق صدرها . فحيث يذهب المرء يسمع قصصا لا تنتهي في مسلسل الحزن المخيم منذ حل الجفاف في عام ٧٣ .

يحدثونك عن الكساد الذي عم ، وعن السلع التي نقصت ، وعن الصدفة التعسة التي جمعت بين حلول

الجفاف وارتفاع اسعار النفط في وقت واحد . وقد وضع امامي وكيل وزارة التخطيط ـ كايا كامارا ـ صورة بالارقام لمعالم تلك المأساة ، تشير الى انه منذ ذلك العام المشئوم ، نقصت الامطار بنسبة ٧٠٪ ، فهلك ٤٧٪ من مختلف انواع الماشية ، في حين ان ابقار المناطق الشمالية نقصت بنسبة ٧٠٪ ، بينما وصلت النسبة في منطقة جاو الى ٨٥٪ . وفي العام الماضي (١٩٨١) شهد « مخزن الحبوب » التقليدي ، عجزا في الحبوب قدره نصف مليون طن . وفوق هذا كله ـ يقول مسئول التخطيط ـ فان اسعار النفط تضاعفت عشر مرات في الفترة من عام ٧٣ الى الآن . . ومع ذلك يظل مطلوبا من البلد ان يقف على قدميه ، ولا ينهار أو يسقط في أي لحظة !

يحدثونك عن ألوف العاطلين الذين يفدون الى العاصمة ، من المزارعين الذين هجروا الارض بسبب الجفاف ، وعما حمله هؤلاء القادمون من هموم جديدة اضيفت الى احزان المدينة وامراضها .

يحدثونك عما فعلته فرنسا بهم . عندما عاقبت مالي لتمسكها بسياسة عدم الانحياز ، واصرارها على الاستقلال عن فرنسا في عام ١٩٦٠ ، وخروجها من منطقة الفرنك رفضا للهيمنة الفرنسية ، وكيف ان باريس قطعت عنها كل معونة ، وسحبت خبراءها الفنيين ، وحاصرت مالي سياسيا واقتصاديا حتى عجزت اشهرا عديدة عن دفع رواتب الموظفين ، وحتى تدهورت قيمة الفرنك المالي بصورة مفزعة . فبعد ان كان يعادل الفرنك الفرنسي في عام ١٩٦٠ ، اصبح الفرنك الفرنسي الآن يعادل مائة فرنك مالي ! . .

بين التاريخ والجغرافيا

تكاد الهموم تستغرق القادم الى باماكو ، وتصرف انتباهه عن النصف الملآن من الكوب ، وعن المسرح العريض الذي لا يستطيع الكوب ان يستوعبه ويحتويه ، وذلك شوط ليس سهلا على الاطلاق ، فقد تبين لي ان الرحلة « الى » مالي ، اهون بكثير من الرحلة « في » تلك البلاد .

ذلك ان مالي ليست فقط ذلك البلد الذي يتوزع على سبعة اقاليم ومساحته مليون وربع مليون كيلومتر مربع ، ويبلغ طول حدوده سبعة آلاف كيلومتر ، بينها ٤ آلاف مع دولتين عربيتين هما موريتانيا والجزائر ، والباقي موزع على اربع دول افريقية اخرى . لو ان هذا هو الاطار الذي يمكن ان تتعرف من خلاله على وجه مالي لهان الامر وتم بغير عناء . ولكن الصعوبة في ان بلدا مثل مالي ، وان كان شديد الفقر في موارده الراهنة ، الا انه شديد الغنى والثراء في مكوناته وعناصره ، واشد غنى وثراء في تاريخه وتراثه . وان كانت تلك مفارقة محزنة ، لكنها الحقيقة على اي حال .

المشكلة في مالي انك لا تسبح في بلد مترامي الشطآن فقط ، ولكنه ايضا يشكل وعاء بشريا كبيرا يضم خليطا من القبائل ذات الاصول والأعراق المختلفة ، الزنجية والحامية ، ومجتمعا زراعيا ورعويا بالدرجة الاولى ، ومجتمعا نهريا بالدرجة الثانية ، فضلا عن انه يشكل وعاء تاريخيا لامبراطوريات افريقية عريقة تمتد جذورها الى القرن الثالث الميلادي على الاقل ، وهو التاريخ المرصود لمولد امبراطورية غانه ، اقدم امبراطوريات غرب افريقيا ، والتي تتابعت في اعقابها امبراطوريات وممالك اخرى عديدة .

ومع ذلك ، فثمة لبس ينبغي ان يحسم في البداية ، بين مالي في التاريخ ، ومالي في الجغرافيا . اعنى بين مالي التي عرفها العالم في القرون الخوالي ، ومالي التي استقرت في خريطة هذا الزمان . اذ ان هناك تطابقا في الاسم ، واختلافا في المحتوى .

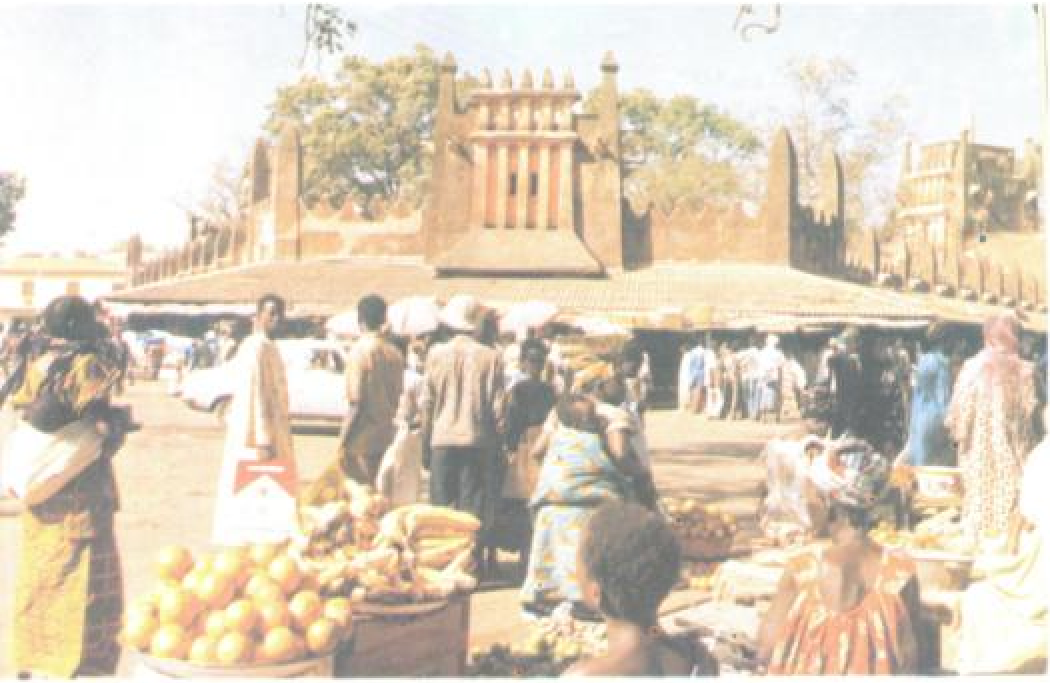
مالي في التاريخ الافريقي اسم رنان وضخم ، ارتبط بقوة السلطان وبريق الذهب .

وربما يكون ابو عبيد الله البكري اول مؤلفي العرب الذين ذكروا مالي في القرن الحادي عشر ، وان اشار اليه بانه « بلد اسمه ملل ، وملكهم يعرف بالمسلماني » .

وفي القرن السادس عشر كتب القاضي السوداني محمود كعت يقول : وكنا نسمع من اعوام عصرنا يقولون : سلاطين الدنيا اربعة ، خلا السلطان الاعظم (يقصد الخليفه العثماني في استنبول) ، سلطان بغداد ، وسلطان مصر ، وسلطان برن (يقصد مملكة برنو حول بحيرة تشاد) وسلطان مل .

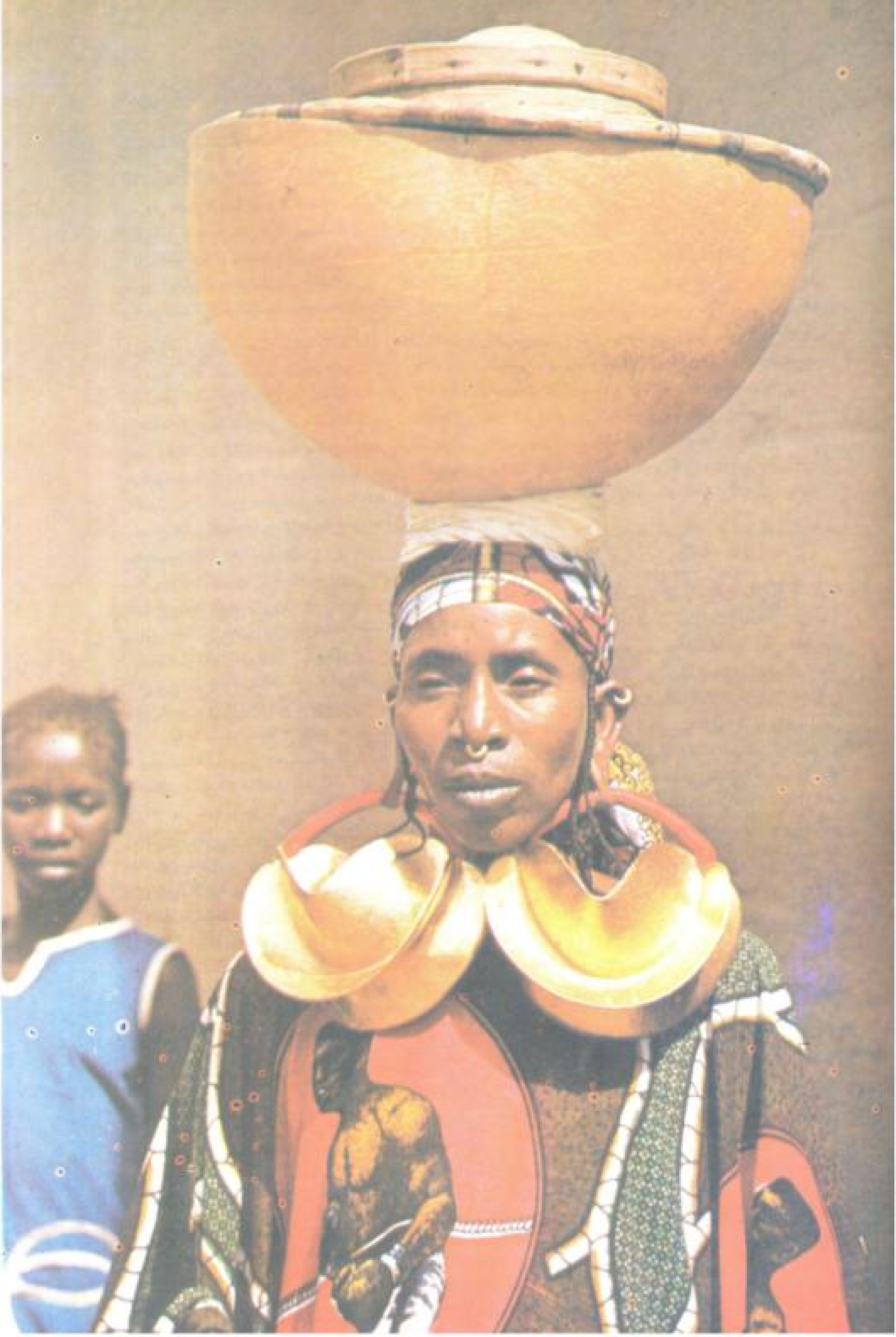
وليس معروفا على وجه الدقة متى ظهرت مالي الى الوجود . وان كان السعدي يذكر انها كانت قائمة في عصر دولة غانه ، وذلك قبل البعثة النبوية . وانه خلال تلك الفترة ، التي يقدر مداها بسنوات حكم ٢٢ ملكا في غانه ، كانت دولة مالي تنمو وتتسع تدريجيا في اقليم كانجابا على نهر النيجر . لكن تاريخ دولة مالي بدا يعرف منذ القرن السابع الميلادي ، وبلغت ذروة مجدها خلال القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم تلاشى نفوذها واختفى دورها المؤثر من المسرح الافريقي في اواخر القرن السادس عشر .

على اكتاف قبائل الماندنجو قامت . وهي القبائل



السوق في باماكو ، البناء الرئيسي على طراز قريب من خطوط مسجد موبتي ، والبضائع تملأ ساحته الواسعة . خليط من السلع يغطي كل احتياجات الناس . . الى اليسار ، واحدة من نسوة البمبارا وقد ارتدت قرطا ضخما من الذهب ، يذكر بثراء العصور الخوالي .





الزنجية التي تسيدت لبضعة قرون المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الاطلسي ».

وفي عصر ازدهارها ، امتد سلطان امبراطورية مالي ، حتى نقل العمري عن ابي سعيد الدكالي ، الذي عاش في مالي خمسة وثلاثين عاما ، ان « طول هذه المملكة اربعة شهور وازيد ، وعرضها مثل ذلك ».

في تلك الرقعة الواسعة ، اجتمعت لدولة مالي في عصر ازدهارها ثروات جعلت صيتها يتردد عاليا في عالم العصر الوسيط ، اذ كانت تضم مناجم الذهب في « ونقاره » ، ومناجم الملح في « تغازه » ، ومناجم النحاس في تكده وعندما خرج منسا موسى ، اعظم ملوك مالي ، للحج في عام ١٣٢٤ م ـ ٧٢٤ هـ ، واصطحب معه موكبا ضخما ، وكميات هائلة من الذهب تناقل اخباره التجار الاوروبيون الذين يعملون في تبادل السلع مع افريقية ، وذهل عالم ذلك الزمان ، واعتبرته الخرائط الأوروبية التي صدرت وقتذ « ملك الذهب ».

يروى المقريزي ان السلطان موسى كان يركب جوادا ومعه ستون الف جندي ، وبصحبته خمسمائة عبد بيد كل عبد عصا من ذهب ، في كل عصا خمسمائة مثقال ذهب (يقدر المثقال بثمن اوقية) . وذكر ابن خلدون ان منسا موسى كان قد اعد لنفقته من بلاده ، فيما يقال ، مائة حمل من التبر ، في كل حمل ثلاثة قناطير .

وايا ما كانت المبالغة في تقدير حجم الذهب الذي حمله معه السلطان موسى وهو مسافر الى الحج ، فان الصورة تعكس مدى الثراء الذي توفر له .

تقدر مساحة مالي في عصر ازدهارها بما يعادل مساحة كل دول غربي اوروبا مجتمعه . ورقعتها تلك تضم الآن : جمهورية مالي في الوسط ـ وموريتانيا الجنوبية في الشمال ـ والسنغال وغينيا في الغرب ـ واراضي ساحل العاج الشمالية والفولتا في الجنوب ـ وجمهورية النيجر في الشرق .

واذا كانت امبراطورية مالي قد احتلت هذه المكانه في التاريخ الافريقي ، فمن الانصاف ان نقرر ان تلك البقعة من الأرض كانت تعيش ـ قبل مالي ـ في ظل امبراطورية غانه التي وصفها ابن خلدون بأنها « أعظم أمة واضخم ملك » . حتى باتت تعتبر بحق اولى حلقات التاريخ القومي لغرب افريقيا . وأول تجربة ، أو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد ».

ومن الانصاف ايضا ان نذكر انه في اعقاب دولة مالي ـ وفوق الرقعة ذاتها ـ قامت امبراطورية صنغي من منتصف القرن الخامس عشر الى اواخر القرن السادس عشر ، وعرفها المؤرخون العرب باسم كوكو وكان اشهر ملوكها واعظمهم شأنا ، اسكيا محمد (١٤٩٣ ـ ١٥٢٨) ، الذي قام برحلة الى الحج لا تقل فخامة ولا اهمية عن رحلة منسا موسى سلطان مالي .

ومنذ بدايات القرن السادس عشر ، كانت اساطيل الغرب قد بدت تدق ابواب غرب افريقيا ممثلة في البواخر البرتغالية في البداية ، ثم الاحتلال الفرنسي في النهاية الذي ثبت اقدامه في مالي في بداية القرن الحالي ، واطلق عليها اسم السودان الفرنسي . وعندما حانت ساعة رحيل الفرنسيين ، حاولوا ربط مالي مع السنغال في اتحاد بين البلدين أقيم عام ١٩٥٩ ، ولكن الفكرة لم تنجح ، فحدث الانفصال ، واستقلت مالي بقيادتها في عام ١٩٦١ ، تحت رئاسة موديبو كيتا الذي استمر في الحكم سبع سنوات ، ثم نحي في عام ٦٨ ، ليتسلم العسكر الحكم بقيادة الملازم موسى تراورى ، رئيس اللجنة العسكرية للتحرير الوطني ، ورئيس دولة مالي ».

في زمن الجزر !

لقد انتهت عصور المجد والمد ، وباتت مالي الآن تشهد عصرا جديدا ، ربما لم تعرفه ولم تتوقعه في تاريخها الطويل . اصبحت دولة متواضعة ، لا تعاني فقط من مشكلة الجفاف ، لكن موقعها ذاته بكل قيمته التاريخية بات يشكل عبئا عليها ، وعقبة أمام نموها . فوجودها في وسط الصحراء ، محاطة بست دول اخرى وبعيدا عن المحيط ، قطع خطوط اتصالها المباشر مع العالم الخارجي . وبالاخص العالم الغربي ، الذي اصبح مصدر الانتاج الصناعي والخبرة ، الذي تعتمد عليه كافة دول العالم الثالث . وهي الجسور التي باتت ضرورية وحيوية ليس فقط منذ سنوات الاحتلال الفرنسي ، ولكن ايضا منذ انتقلت مراكز التجارة والصناعة والمعرفة من الشرق الى الغرب .

وهي مفارقه تلفت النظر ، عندما كانت دولة مالي ممتدة الى المحيط ، لم يكن للمحيط هذه الاهمية ، وانما كان يشكل حدودا جغرافية لا اكثر . وكانت صلات مالي والدول التي قامت بعدها ، متجهة كلها الى دول المغرب ومصر . وهي الصلات التي توثقت عبر طرق القوافل العديدة التي كانت تشق الصحراء ، منذ القرن الهجري الاول (السابع الميلادي) . عندما حفر العرب عدة آبار على طريق القوافل بين جنوبي المغرب الاقصى ، واودغشت على حافة الصحراء الجنوبية . الامر الذي اضفى اهمية كبرى على مدن الصحراء التي كانت مراكز لهذه القوافل ، مثل اغاديس في النيجر ، وتمبكتو في مالي . وقد بلغ من اهمية تلك الجسور الصحراوية ان قافلة

خرجت من مالي الى مصر في القرن ١٤ كان قوامها اثني عشر الف جمل .

لكن مالي عندما انحسر سلطانها ، وقامت دول اخرى بينها وبين المحيط ، كان ذلك مقترنا بانتقال دفة الحضارة من الشرق الى الغرب ، الامر الذي اصبحت معه حاجة مالي الى المحيط اشد اهمية واكثر الحاحا .

نعم لا تزال طرق القوافل قائمة الى الآن ، ولكن اهميتها باتت ثانوية الى حد كبير . واخطر ما تنقله هو الملح ، من مناجمه الشهيرة في « تاوديني » باقصى شمال مالي ، فضلا عن بعض التمور وانتاج الحرفيين من الجزائر وموريتانيا . لكن النقل كله ، والاحتياجات الحقيقية للبلاد باتت تجيء اما بالبحر الى السنغال ، وتنقل عبر خط السكه الحديد الوحيد ، الذي اقامه الفرنسيون من داكار الى باماكو ، او تصب تلك السلع في ابيدجان بساحل العاج ، ثم تنقل برا الى حدود مالي .

المفارقة الثانية ، اللافته للنظر ايضا ، ليست فقط في ان جمهورية غانه الحالية تحمل اسم دولة قامت على ارض مالي في الاصل ، ولكن ايضا في ان نهر النيجر يلعب في مالي دورا اشد خطورة من دوره في جمهورية النيجر ، التي تحمل اسمه .

فمن بين ٤٢٠٠ كيلومتر هي طول نهر النيجر ، ـ الذي يبدأ في غينيا وينتهي الى الاطلسي في نيجيريا ـ فانه يخترق ١٨٠٠ كيلومتر في اراضي مالي وحدها ، مشكلا عصب الحياة وشريانها الاساسي في البلاد ، وقائما بدور الجسر الذي يربط فيما بين السافانا والصحراء ، وبين قلب افريقيا السوداء وحدود الشمال الافريقي ، او بين القبائل الزنجية والقبائل ذات الاصول العربية والبربرية .

المفارقة الثالثة ، والاكثر غرابة في مالي ، انها رغم توفر هذا المصدر المائي الكبير لديها ، فان زراعتها لا تزال تعتمد على الامطار ، الامر الذي ضاعف من حجم الكارثة التي اصابت البلاد عندما حل الجفاف . المشكلة ان استثمار مياه نهري النيجر والسنغال يجب ان تتم من خلال شبكة سدود تقام على كل منها ، ولكن هذه السدود تحتاج الى تكاليف تقدر بملايين الدولارات او الفرنكات ، وهي مبالغ لا تتوفر للدول المحبطة بالنهرين . وبمساعدة بعض الدول العربية والمؤسسات الدولية بديء باقامة سد سلنجي ، مما ساهم في توفير الطاقة الكهربائية للبلاد ، وهم يحلمون باقامة سد كبير آخر على نهر السنغال في منطقة كاي ـ جنوبي مالي ـ هو سد مانتنالي ، الذي تشير الدراسات الاولية الى انه سوف يساعد على ري ٤٠٠ ألف هكتار في مالي والسنغال وموريتانيا .

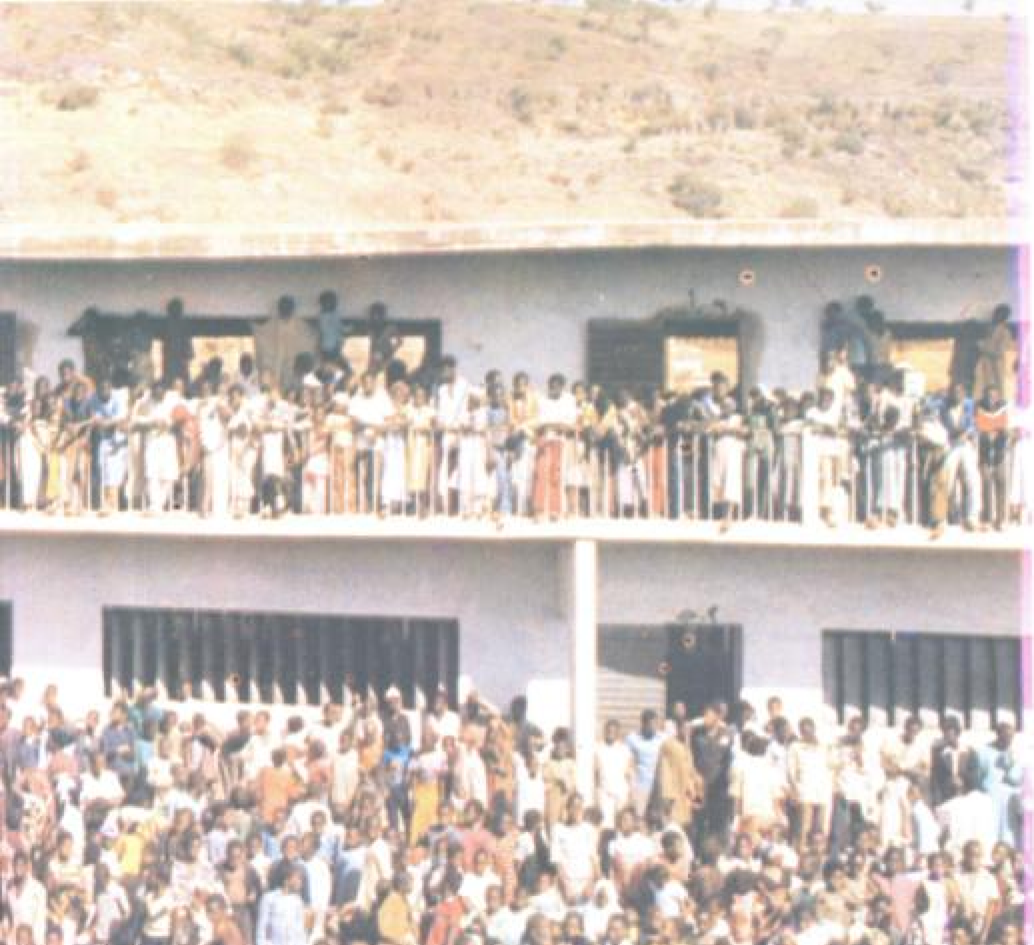
ان مشكلة الزراعة والري في مالي لا تكمن في ندرة المياه ، بقدر ما تتعلق بالعجز عن استثمار الموارد المائية المتوفرة . وهو المازق الذي دفعت مالي ـ ولا زالت ـ ثمنا باهظا نتيجة له .

لقد لعبت « المياه » دورها في تقسيم مالي الى ثلاث مناطق جغرافية ، السودان في الجنوب ، وهو الاوفر حظا من المياه ، وفيه المزارع والغابات ، والساحل في الوسط ، وهو الاقل نصيبا من المياه ، والاكثر استيعابا للمراعي ، في الشمال ، حيث الجدب والقحط ، اذا استثنينا الجزء الذي يمر فيه نهر النيجر ، الذي قلنا ان دوره في النقل اساسا ، ودوره في الرى آت عندما تقام السدود المرتقبة .

وفي ضوء هذا التقسيم ، فان الانتاج الزراعي تركز في الجنوب . وهو المتمثل اساسا في القطن والذرة والقمح والارز والفول السوداني ، غير الغابات . وكان طبيعيا ان تقوم في الجنوب ايضا ، الى جانب خاماتها ، صناعات النسيج والسكر (اقامها الصينيون) ، والزيوت مع مضارب الارز ومحالج القطن ، وقد اجتمعت اهم تلك النشاطات الصناعية في مقاطعة « سيجو » الجنوبية ، من ناحية اخرى ، تركزت قطعان الماشية في الوسط . وتمركز صيد الاسماك ايضا في هاتين المنطقتين . وهو يشكل حجما لا يستهان به ، جعل مالي ثاني دولة في غرب افريقية في ثروتها السمكية بعد السنغال ـ اذ تصدر منها ما يعادل ٢٠٪ من الانتاج السنوي .

أما الصحراء ، فان نصيبها من المعادن قد حفظ لها اسهامها في الاقتصاد القومي ، فبالاضافة الى مناجم الفحم في تاوديني الشمالية ، يحتل الحديد المقام الاول ـ من حيث الكمية ـ في معادن البلاد . ويقدر الاحتياطي منه بحوالي بليون طن . يليه البوكسيت (خام الالومنيوم) ويقدر احتياطيه بـ ٨٠٠ مليون طن ، ذلك غير المنجنيز والفوسفات والفضة ، واحلام النفط واليورانيوم في الشمال .

أما الذهب ، فيظل رصيده في التاريخ اضعاف رصيده في الواقع الراهن . وان كان الامر لا يمنع من تعلق الجميع بحلم العثور على ذلك المعدن النفيس . ولا تزال احدى الشركات السوفيتية تنقب في مقاطعة سيكاسو على بعد ٢٠٠ كيلو متر جنوب باماكو عن منجم للذهب ، والشائعات ، او التمنيات ، تروج ان المنجم قائم فعلا ، وانه بسبيل الانتاج قبل منتصف الثمانينات ، ومع ذلك فان الامر لا يمنع من ان يعثر البعض هنا وهناك على كسرات من الذهب الخام .



في داخل مدرستين لتعليم اللغة العربية ، الاقبال ضخم من جانب كل شرائح المجتمع ، رغم ان مستقبل الدارسين





محفوف بالمخاطر ، اذ لامجال لاستمرار بقية مراحل التعليم بعد الابتدائي والاعدادي .



ضريبة الرؤوس !

تعدادهم ستة ملايين من البشر ، هكذا يقول الاحصاء الرسمي . ولكنك تجد من الخبراء في اجهزة الدولة من يحذر من الاعتماد على هذا الرقم ، ويشكك في دقته .

وأيا كان الرقم الحقيقي لعدد السكان ـ وهو بين ٦ و ٧ ملايين على احسن الفروض ـ فان الوعاء البشري في مالي يضم خليطا من القبائل والاجناس ، بتعدد قسماته العرقية والاجتماعية ، بصورة مثيرة ومدهشة .

وبشكل عام ، فان سكان مالي يتوزعون على اصول ثلاثة : زنجية ، وبربرية ، وعربية . ورغم ان هذه الاصول لا تعيش في عزلة عن بعضها ، وانما تداخلت تجمعاتها السكانية بقدر تشابك مصالحها الاقتصادية ، الا انه يمكن القول ان الزنوج يتركزون في الجنوب ويعملون بالزراعة والصيد . والبربر والعرب يتركزون في الوسط والشمال ويعملون بالرعي والتجارة . اي انهم منتشرون في القطاع القريب والمتفتح على الجزائر من ناحية ، وموريتانيا من ناحية اخرى ، مشكلا مثلثا يفصل بين البلدين بتغرس راسه في عمق الصحراء الفاصلة بينهما .

واذا اقتربنا اكثر من الصورة ، فسوف نجد ان هذه الاصول الثلاثة افرزت عشر مجموعات من القبائل على الأقل . تتعايش جنبا الى جنب فوق ارض مالي ، وهذه القبائل هي :

١ ـ البمبارا ، ويعيشون في وسط وغرب وجنوب البلاد ، اغلبهم مسلمون ، ويعملون بالزراعةوالتجارة ،

٢ ـ الفولانيون ، وهم موزعون في انحاء مالي ، بحسب اشتغالهم بالرعي والتجارة اولا ، ثم بالزراعة بعد ذلك وهم جميعا مسلمون .

٣ ـ الصنغاي ، في الشمال والشرق ، كلهم مسلمون ويعملون بالزراعة والتجارة .

٤ ـ الطوارق ، وهم في الشمال ، ويشتغلون بالرعي ، وهم جميعا مسلمون .

٥ ـ المركا او السراكولي ، في الغرب ، كلهم مسلمون ، ويعتبرون اشطر التجار ، حتى ان البعض يعتبرهم « يهود مالي » .

٦ ـ البوزو ، في الوسط والشرق ، اغلبهم مسلمون ، والاقلية وثنية ، ويعملون بصيد الاسماك وتجفيفها .

٧ ـ الدوجون ، في الشرق ، يشتغلون بالزراعة وهم خليط بين الوثنيين والمسلمين .

٨ ـ بوبو ، في الجنوب ، ويعملون بالزراعة ، واغلبهم وثنيون .

٩ ـ العرب ، في الشمال ، وهم رعاة وتجار ، وكلهم مسلمون .

١٠ ـ المالنيكا ، في الغرب ، ويعملون بالزراعة ايضا ، وهم مسلمون ووثنيون .

ومن هذه القبائل سبع مجموعات ذات اصول زنجية هي : البمبارا ، والسراكولي ، وبوزو ، والمنيكا ـ وهؤلاء من فروع الماندنجو ـ والصنغاي والروجون وبوبو ، من اصول زنجية اخرى .

والعرب من اصول عربية بطبيعة الحال ، ولكن الفلاتيين يختلط فيهم العنصر السوداني بالعربي ، والطوارق من اصول بربرية كما هو معروف .

والبمبارا هم اكبر قبائل مالي ، وهم يمثلون ٣٥٪ من مجموع السكان ، الا ان اللغة البميراوية منتشرة بقدر يفوق حجم قبائل البمبارا ، اذ يتحدث بها حوالى ٦٠٪ من السكان . وفضلا عن انها لغة الشارع في العاصمة ، الا انها باتت لغة التجارة ايضا رغم ان اكبر التجار من السراكول .

سبعون بالمائة من السكان على الاقل مسلمون ، وخمسة وعشرون بالمائة وثنيون ، وخمسة بالمائة مسيحيون . تلك ايضا نسب متداولة ومستقرة في دوائر الحكومة .

بين الشمال والجنوب

قسمات مجتمع المسلمين متعددة ومختلفة ، يلعب دورا فيها ان الاسلام في الشمال اسبق منه في الجنوب . فاذا كان الاسلام قد وصل الى المناطق الشمالية منذ الفتح الاسلامي لشمال افريقيا في القرن السابع الميلادي ، فانه قد انتشر في المناطق الجنوبية في عهد المرابطين ، في القرن الثاني عشر الميلادي ، ذلك ادى الى ان اصبح الاسلام في الشمال اكثر رسوخا منه في الجنوب ، ليس فقط بفعل الفارق الزمني ، وانما ايضا لان مصدر « التبليغ » اختلف . فقد تلقى الاولون تعاليم الاسلام من مصادره العربية الصحيحة ، رغم ان ذلك لا يمنع من تأثر هذه التعاليم واختلاطها بالعادات فيما بعد ، بينما تلقى الآخرون الاسلام على ايدي شيوخ الطرق الصوفية ، بما اضفوه على التعاليم من اجتهاداتهم الشخصية ، التي تأثرت بنمط الحياة والاعراف في تلك المناطق النائية .

فاذا كان السفور والاختلاط شائعين في الجنوب ، فان الاوضاع على عكس ذلك تماما في الشمال . في الجنوب تستقبل المرأة ضيوف زوجها مثلا وتحادثهم ، في حضوره او غيبته ـ وهو مالاحظه واستنكره ابن بطوطة ـ بينما المرأة في الشمال لا تتحدث الا من وراء حجاب ولا تجالس ضيوف زوجها .

واذا كان تعدد الزوجات قائما ومرحبا به في مجتمع المسلمين ككل ، الا ان الطوارق يتفردون بالحرص على الزواج بواحدة فقط ، نظرا للمكانة المتميزة التي تحظى بها نساؤهن . ولكن هنا فارق آخر يثير الانتباه فيما بين الجنوبيين والشماليين ، هو انهم في الجنوب يعرفون تقليد المعاشرة والانجاب ، ثم عقد القران بعد ذلك ، وهو ما يدينه الشماليون ويعتبرونه زنا مرفوضا من الاساس .

الطرق والقبض والارسال

واذا كان الجميع على المذهب المالكي ـ شأن أهل الشمال والمغرب الافريقيين ـ الا انه في اطار المقابلة بين الجنوب والشمال في مالي ، نلاحظ ان الطريقة التيجانية منتشرة في الجنوب ، والطريقة القادرية منتشرة في الشمال . ويفسر ذلك بان المنطقة الجنوبية تقع بين معاقل التيجانية في السنغال والنيجر وفولتا العليا ونيجيريا فضلا عن ان تلك المنطقة كانت خاضعة لسلطان الحاج عمر الفوتي الذي انطلق من السنغال لنشر تعاليم التيجانية في الربع الثاني من القرن التاسع عشر حتى وصل في عام ١٨٤١ الى جبال فوتا جالون في الجنوب الغربي لمالي ، ومنذئذ سلم اتباعه وخاض سلسلة من المعارك لنشر دعوته ، الى ان لقى حتفه على ايدى القادريين في عام ١٨٦٥ .

وفي شأن الطرق الصوفية في مالي نسجل ثلاث ملاحظات :

ـ الملاحظة الاولى ، أن سجل هذه الطرق حافل بالذكريات المرة ، التي تدور حول المصادمات المستمرة بين القادرية والتيجانية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد ظل الفريقان يتبادلان الاتهامات ، التي بلغت حد التشكيك في سلامة الاعتقاد .

وشهد القرن التاسع عشر مواجهات دامية بين التيجانية والقادرية ، في ظل زحف الحاج عمر الفوتي ، الذي هاجم مملكة ماسينا التي اقامها الفلانيون ، وقتل زعيمها واسرته ، وهدم عاصمتها « حمدالله »وخربها ، مع قرى اخرى حولها ، الامر الذي ادى الى هدم حوالي ٦٠٠ مدرسة لحفظ القرآن في هذه الحملة .

ـ الملاحظة الثانية ، ان هذه الصفحة من الصراع طويت وصارت تاريخا وقصصا تروي عن الماضي ، وان القادريين والتيجانيين وان ظل وجودهما مستمرا في مالي ، ولكن لا تأثير لهما او فاعلية في مسرح الحياة العامة ، بعكس بلد كالسنغال . وربما كان الفارق الاساسي بين البلدين ان النظام الحاكم في مالي كان رافضا لنفوذ الصوفية على طول الخط ، في حين ان الدولة في السنغال ظلت تشجع تلك الطرق ، وتستخدمها في فرض سلطانها وتسكين الجماهير ، خاصة في عصر الاحتلال .

طوال عهد الرئيس موديبو كيتا (٦٠ ـ ٦٨) كان الباب مغلقا امام نشاطات الطرق الصوفية ، سواء كان ذلك لعدم ايمان بهذه الطرق ، او نتيجة وجود تيارات يسارية في نظام الحكم السائد ، الامر الذي دعا بعد الاسر المالية ذات التاريخ المرتبط بالنشاط الديني او الطرقي ، الى الهجرة الى الدول العربية والاسلامية الاخرى ، مثل ليبيا والجزائر ومصر والسعودية . وقد كان بعض رجال الطرق الصوفية الذين يجيئون للتبشير وبث التعاليم يلاحقون من قبل السلطات ، والاهالى احيانا ، اينما ذهبوا .

وعندما تغير النظام ، وزالت عنه شبهة الانتماء لليسار ، ظل الموقف كما هو من الطرق الصوفية ، لها وجود ، غير متزايد ، وغير مؤثر او فعال .

ـ الملاحظة الثالثة ، ان هناك تيارا متناميا في انحاء متفرقة من البلاد ، يناهض الطرق الصوفية ، ويكيل لها مختلف الاتهامات . واصحاب هذا التيار يسمون اهل السنة او السلفيين او الوهابيين . وهم دعاتهم النشطون ، ومساجدهم المعروفة التي لا تكف عن اعلان الحرب على كل « بدع »المتصوفة .

وأشهرها في باماكو العاصمة مسجد « كانزا ميجو » ، الذي يخطب فيه امام أهل السنة ـ هكذا يلقبونه ـ الشيخ احمد حماه الله .

ويبدو ان موسم « الحج » كان ولا يزال ، هو القناة التي تنقل الى مالي كل افكار مناهضة الصوفية ، وقد تبلور الخلاف بين السلفيين والطرقيين في مسألة « القبض والارسال » . السلفيون يقبضون الايدي على الخصر عند الصلاة ، والطرقيون يرسلون الايدى . الاولون يتمسكون بالقبض ، والآخرون يعتبرونه ضلالا يبطل الصلاة ، وسبيل الى الكفر عند البعض !

وقد قال لي احد شيوخ القادرية في تمبكتو ، ماذا نفعل ؟، بعض الناس يذهبون الى الحج مرسلين ، ويعودون منه قابضين ؟

وبسبب هذه القضية نشأت مشكلات كثيرة ، بينها قصص بلا حصر عن طرد مصلين من المساجد ، لانهم يقبضون ايديهم اثناء الصلاة ، بل وطرد امام مسجد في احدى القرى ، عاد « قابضا » من السعودية ، فصدم فيه اهل قريته ومنعوه من دخول المسجد ، الا اذا « صحح دينه »وعاد الى الارسال .



مسجد جنى ، الخطوط المعمارية ذاتها ، الفريدة والشاهقة ، والمساحة الكبيرة . ● صورتان المقابلتان ، احداهما





لجلسة حوار مع فقهاء جني ، والثانية من تنبكتو ، في « كتاب » مدرسة بيتيه تعلم القرآن والفقه .



قرشيون وانصار

ومن القسمات التي تثير الانتباه من مسلمي شمال مالي ، انقسام القبائل الى قرشيين وانصار !

وهذه القبائل من سلالة اولى موجات الجند المسلمين الذين قدموا الى المنطقة عند فتح الشمال الافريقي في القرن الهجري الاول . قبائل الانصار هم سلالة مسلمي المدينة ، وتنتشر قبائلهم في مالي وليبيا فقط ، اما القرشيون فانهم يعرفون بالأمويين ، نسبة الى بني امية ، او الكنتيين نسبة الى قبيلة من السلالة حملت اسم « كنت » . وهؤلاء منتشرون في مالي وموريتانيا . وجذورهم قديمة بطبيعة الحال ، حتى ان ابي عبيدة البكري عندما زار المنطقة في القرن الخامس الهجري ، ذكر انه مر وهو في طريقة الى « بلاد السودان » على بشر « يزعم قوم ان بني امية صنعتها » .

ومع ذلك فان الامر كله يعد صفحة مطوية من التاريخ ، لم يبق منها الا الذكريات التي يتبناها الابناء عن الاجداد ، ويحتفظ البعض بمخلفاتها (الثقافية) ، من نثر وشعر . انما لا تزال قبائل الانصار والكنتيين قائمة الى الآن ، ومتركزة - في مالي - منطقة تمبكتو الشمالية وما حولها .

ورغم تعدد السمات واختلافها في مجتمع المسلمين ، فان ثمة قدرا مشتركا - وواضحا - من الحرص على التمسك بشكل التعاليم . في العبادات بوجه اخص . وتحتل الصلاة مقدمة تلك التعاليم التي لا يستطيع احد ان يتراخى في تنفيذها .

فعندما يدعو المؤذن الى الصلاة ، فان الجميع يلبون النداء ، وكثيرون يصلون في اماكنهم ولأهمية هذا الالتزام ، فان المتكاسلين لا يستطيعون ان يتخلفوا . وان انخرطوا في المصلين بغير وضوء ، كما حكى لي بعضهم . لأن هذا التخلي يعد شيئا معيبا في منظور القيم السائدة .

بل انه عندما يموت انسان ما ، ويدعى امام المسجد للصلاة عليه ، فانه لا يلبي الدعوة الا اذا كان مقتنعا بان المتوفي من المصلين . وكثيرا ما يحدث ان يرفض الامام الدعوة اذا كان يعلم انه لم يكن حريصا على الصلاة .

ويلعب رجال الدين او الفقهاء - والمعنى هنا نسبي - دورا هاما في حياة الناس ، يكفي ان كل واحد ينبغي ان يكون له « شيخ » ، يتلقى عنه ويستفتيه ، بصورة تكاد تماثل علاقة المسلمين من اتباع الشيعة الجعفرية بمشايخهم ، اذ ان الفرد العادي ينبغي ان يكون « مقلدا » لواحد من هؤلاء الفقهاء .

محنة اللغة العربية

وقد كانت اللغة العربية هي لغة الخطاب الرسمي في مجتمعات المسلمين حتى بداية عهد الاحتلال الفرنسي ، الذي جثم على قلب المنطقة منذ بداية القرن الحالي . فمن الثابت ان جميع الوثائق الهامة في الممالك الاسلامية غرب الافريقية كانت تكتب بلغة القران ، فضلا عن انها كانت لغة الحكومة والمراسلات الدولية والتجارة ، حتى يقول توماس ارنولد ان العربية غدت لغة تخاطب بين قبائل نصف القارة الافريقية . واشار القلقشندي الى ان كتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة ، وقد ورد الى السلطان الناصر (محمد بن قلاوون) كتاب من موسى (سلطان مالي) بالخط المغربي ، وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي .

ومن الثابت ايضا ان اللغات الافريقية المحلية ظلت حية طوال تلك العهود ، ولكن اللغات المنتشرة منها في غرب افريقيا كانت تكتب بالحروف العربية ، مثل الهاوسا والبمبارا ، والولوف في حين كانت بقية اللغات منطوقة وليست مكتوبة .

وقد كان القضاء على اللغة العربية هدفا للاستعمار الفرنسي منذ البداية ، وهو ما تحقق الى حد كبير في الدول التي خضعت لسلطانه ، وان قوبلت هذه السياسة بمقاومة عنيفة من جانب مجتمعات المسلمين الافارقة .

وحينما الح المسلمون في فتح مدارس اهلية على نفقتهم الخاصة تعلم اللغة العربية ، فان السلطات الفرنسية لم تملك الا ان تستجيب لذلك الضغط الشعبي الملح ، ولكنها وضعت نظاما بموجبه الحقت هذه المدارس بوزارة الداخلية ، وليس بوزارة التربية والتعليم ! ولم تكن تلك المدارس وحدها هي المعتبرة « قضية امنية » ، وانما الحقت بها المساجد ايضا ، حتى اصبحت رموز الاسلام ولغته من اختصاص اجهزة الأمن طوال سنوات الاحتلال !

وقد كان ذلك موقفا غريبا لا يخلو من سوء نية ، ولكن الاغرب منه ان يستمر ذلك الوضع في ظل الاستقلال ، وهو ما فوجئت به في مالي ، عندما زرتها في بداية ثمانينات القرن العشرين ، اي بعد اكثر من ٢٠ عاما على الاستقلال !

حاولت ان اجد تفسيرا لهذا الموقف ، فذهبت الى مقر وزارة الداخلية في باماكو ، حيث لقيت المستشار الفني للوزير ، وهو شاب في الثلاثينات اسمه باياسيلا لا يتكلم الا الفرنسية ، ودار بيننا الحوار التالي :

سألته : لماذا تتبع المدارس العربية دون غيرها من

المدارس وزارة الداخلية ؟

قال : كل بلد له ظروفه ونظامه .

- لماذا لا تلحق تلك المدارس بوزارة التربية والتعليم ؟

- المدارس الفرنسية ، والفرانكو اراب (الفرنسية العربية) هي التي تتبع التربية والتعليم . ولما كان الائمة والمساجد تحت اشراف الداخلية ، فقد كان من المناسب ان تشرف وزارتنا على تلك المدارس ، على اعتبار انها تخرج ائمة وخطباء ايضا .

- هذا خطأ اضفتم اليه خطأ آخر . وما يبنى على الباطل يظل باطلا .

- لا تعليق .. !

- وزارة التربية لديها شواغل عديدة ومسئوليات كثيرة ، وفي ظل حكومة واحدة ، فان الامر لا يمنع من أن تتحمل اي وزارة بعضا من اعباء وزارة اخرى ، خدمة للصالح العام !

وانتهى الحوار عند هذا الحد .

مناضلون من اجل اللغة

واذا كان موضوع التعليم العربي ومدارسه محاطا بظروف غريبة منذ بدايته ، الا ان المدهش حقا هو حجم هذه المدارس الآن ، الذي بلغ حدا تجاوز توقعات الكثيرين ، وتطور بصورة مفاجئة ، سببت ازعاجا شديدا لكافة ابناء المدرسة الفرنسية .

وطبقا لارقام الداخلية فان في مدن مالي الآن ٢٠٠ مدرسة اهلية تدرس اللغة العربية والثقافة الاسلامية ، ينتظم فيها ٥٠ الف تلميذ وتلميذة .

وقد علمت في باماكو ان موضوع مستقبل المدارس الاهلية العربية ، اثير اكثر من مرة في المكتب السياسي للحزب الحاكم (الاتحاد الديمقراطي للشعب المالي) ، وفي جلسات مجلس الوزراء ، وقد اثير الموضوع باعتباره ينذر بمشكلة في المستقبل ، عندما تستمر تلك المدارس في تخريج الالوف ممن يجيدون اللغة العربية ، وتاثير ذلك على الخريطة الثقافية في البلاد ، التي تقوم اساسا على التمسك بالثقافة الفرنسية .

وهم يجمعون من بينهم الاموال ، ويقيمون فصلا او اثنين ، ثم يفتحون الباب لاسهام من يستطيع من الاهالي ، واحيانا يكملون مشروعاتهم بدعم من بعض الدول العربية ، من خلال مؤسساتها المختصة بالدعوة الاسلامية ، التي تقدم بعض المساعدات المالية واعدادا من المدرسين .. لكن المهم ان اللبنة الاولى يضعونها هم ، ثم يستعينون بغيرهم ليساعدهم في اكمال البناء .

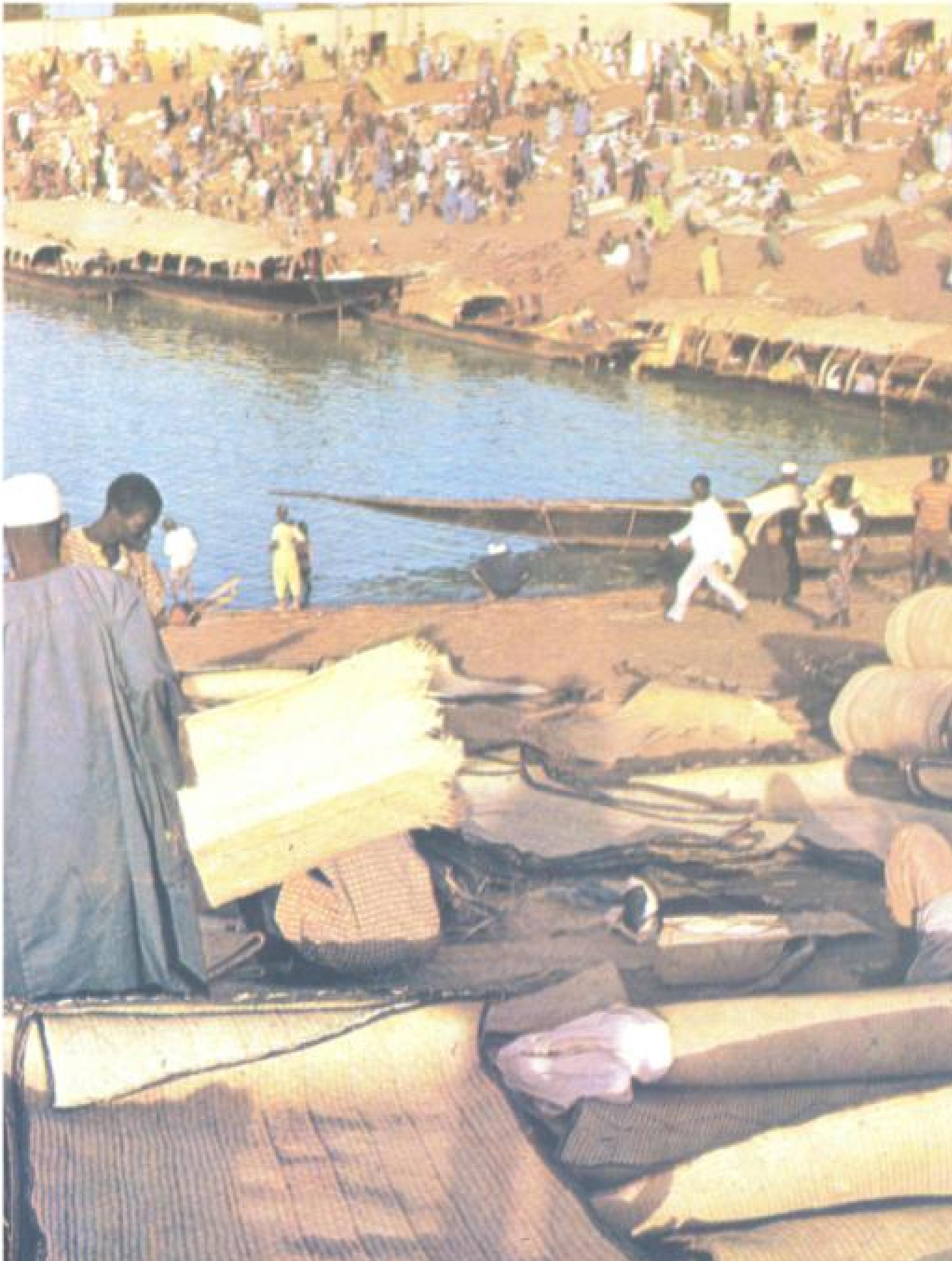
لقيت واحدا من هؤلاء ، وهو الشيخ احمد حماه الله الذي يلقبونه بامام اهل السنة في مالي ، ومن خريجي دار العلوم الشرعية بالمدينة المنورة عام ٥٢ . وبسبب تضييق السلطة الاستعمارية لم ينجح في البداية في تحقيق حلمه بانشاء مدرسة عربية في باماكو ، فاتجه الى فولتا العليا المجاورة ، وانشأ مدرسة هناك ، ثم عاد الى باماكو مرة اخرى عام ٥٧ ، واستطاع وضع الاساس لانشاء « المعهد الاسلامي » الذي يعد الآن أقدم معهد لدراسة العربية بالبلاد .

ببعض ما يملك ، وبقدر من المساعدات المحلية واسهامات التجار ، ثم ببعض العون العربي ، كبر المعهد عاما بعد عام ، حتى اصبح يغطي المرحلتين الابتدائية والاعدادية ، ويستوعب ١٢٤٨ تلميذا وتلميذة (الطالبات عددهن ٦٠٠) . واساتذة المعهد ١٢٥ ، بينهم ٣ مصريين وسعودي وليبي ، والباقون من ابناء مالي . ومن خلال الصلات مع الدول العربية ، استطاع الرجل ان يرتب منحا دراسية ل ١١٥ طالبا من خريجي المعهد .

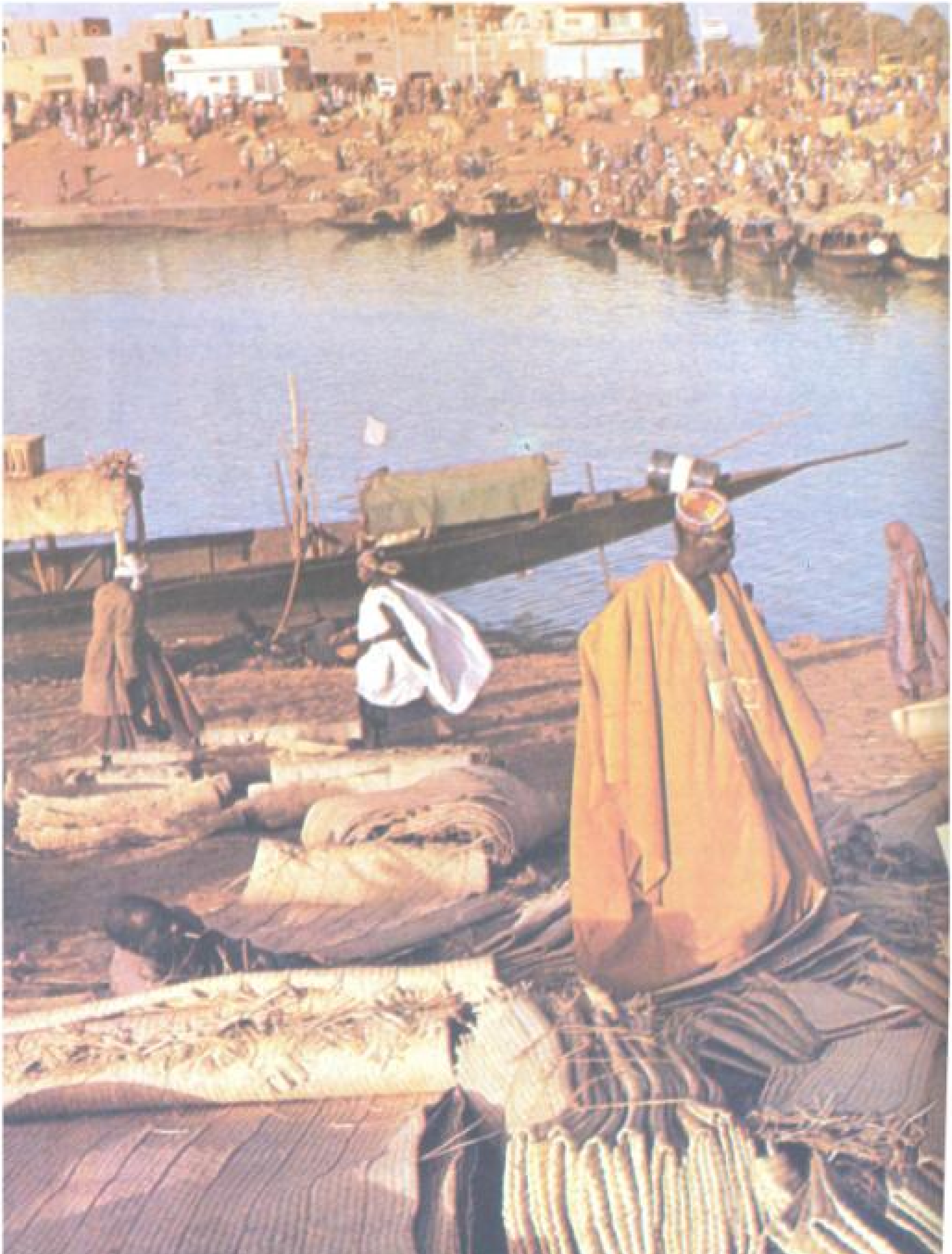
زرت مدرسة ثانية في العاصمة تحمل اسم « مدرسة الهلال الاسلامية » ، ومديرها سفيان سالم الدرامي ، الذي قال لي ان للمدرسة سبعة فروع في باماكو وبعض الاقاليم تضم ٢٤٥٢ تلميذا وتلميذة . في حين تضم المدرسة الأم - التي طفنا بها - ١٧٥٠ تلميذا وتلميذة ، في المرحلتين الابتدائية والاعدادية . يدفع الواحد منهم في الشهر مصروفات بين دولارين وثلاثة دولارات ، ومنهم من يعجز عن دفع المصروفات تماما . ويدرسون - ايضا - منهج مدارس الأزهر مضافا اليه اللغة الفرنسية .

المشكلة التي تعاني منها مثل هذه المدارس هو الفقر الشديد في الامكانيات ، وبالاخص في الموارد المالية وفي الاساتذة وفي مقاعد التلاميذ وطاولاتهم وكتبهم ، هذا اذا تجاوزنا الابنية ، معتبرين ان اي جدران اربعة تصلح فصلا .

ورغم الجهد الذي تبذله تلك المدارس ، الا انه مهدد بالاجهاض نتيجة لانها جميعا تغطي المرحلتين الابتدائية والاعدادية ، وفي غيبة فصول المرحلة الثانوية ، فان حامل الشهادة الاعدادية اما ان يواصل تعليمه في المدارس الثانوية الفرنسية ، حيث يمحى تدريجيا ما حصله في تعليم العربي ، او ينخرط في الحياة العامة ليبتعد عن سلك التعليم ، وتتحقق ذات النتيجة المؤسفة ، ويمحى تعليمه العربي ، او ان يحصل على منحة للدراسة في اي بلد عربي بالخارج . والحل هو ان تنشأ مدرسة ثانوية ، تسد تلك الثغرة الخطيرة ، وتنقذ مستقبل اللغة التي تعلمها تلاميذ المدارس الحالية .. لكن تلك قضية اخرى تحتاج الى جهد



موبتي ، السوق الضخم الذى منه تنطلق كافة السلع ـ الغذائية خاصة ـ الى أنحاء مالى . فموقعها عند لقاء نهرى النيجر مع فرع



الكبير ، نهر باني ، يعطيها ميزة كبيرة في الاتصال النهرى بمختلف الاقاليم ، عبر القوارب الافريقية المستطيلة التى تغطى صفحة النهر باستمرار .

لا يستطيعه القائمون على التعليم العربي الآن .

وهذه النقطة الأخيرة ، تثير مسألة التنسيق الغائب بين اصحاب المدارس العربية ، ذلك ان وجود هذا التنسيق يسمح باقامة صيغة لتوزيع الجهد واستثمار الامكانيات في كافة مراحل التعليم . ولكن الامر المؤسف ان اصحاب تلك المدارس لا يجمع بينهم سوى الحماس الشديد لتعليم اللغة العربية والدفاع عنها . وفيما عدا ذلك ، فالتنافس قائم بين الجميع ، والموارد تصل كل طرف حسب صلاته الشخصية ، والجسور التي استطاع ان يقيمها مع مصادر التمويل في الداخل او الخارج .

على ابواب جنى

واي ذكر للاسلام والمسلمين في مالي ، لا بد ان يشار في خلاله الى مدينة « جنى »التي كانت اسما لامعا وكبيرا في المنطقة حتى القرن السادس عشر على الاقل .

في البدء كانت « ديا الصغيرة » ، بلدة ظهرت في قلب دلتا نهر النيجر ، على انقاض احدى مدن مملكة غانا ، في اوائل القرن التاسع الميلادي ، لكنها دخلت الاسلام في بداية القرن الثالث عشر ، بعد انتشار المرابطين في غرب افريقيا ، ودخلت التاريخ في القرن الرابع عشر ، في ظل العصر الذهبي لامبراطورية مالي الاسلامية .

ولن تجد وصفا لها ، أدق وأوفى مما كتبه في منتصف القرن السابع عشر المؤرخ الافريقي الشهير عبد الرحمن السعدي ، في مؤلفه الهام « تاريخ السودان » .

قال عنها انها « مدينة عظيمة ، ميمونة مباركة ، ذات سعة وبركة ورحمة . جعل الله ذلك في ارضها خلقا وجبلة . وطبيعة اهلها التراحم والتعاطف والمواساة ، .

» . . وهي سوق عظيم من اسواق المسلمين ، وفيها يلتقي ارباب الملح وأرباب الذهب وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلها في الدنيا كلها ، فوجد الناس بركتها في التجارة اليها كثيرا ، وجمعوا فيها من الاموال مالا يحصيه الا الله سبحانه . .

وفي اشارته الى حجم مملكة جنى ، يذكر « قيل ان في ذلك الارض سبعة آلاف وسبعا وسبعين قرية متقاربة بعضها الى بعض .

وعن فقهائها يقول السعدي انه « قد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين من غير اهله ، من قبائل شتى » ، منهم مورمغ كنكي الذي « كان فقيها صالحا عابدا جليل القدر » . ثم يروي كيف كان هذا الفقيه يعلم طلابه فقال انه « في نصف الليل يخرج من داره الى الجامع لنشر العلم ، فيجلس الطلبة حوله يأخذون العلم ، الى الاقامة ومن بعد الصلاة الى الزوال . ثم يرجع لداره ، ثم بعد صلاة الظهر كذلك الى صلاة العصر . هكذا عادته مع الطلبة » .

تقفز هذه الصورة المتابعة الى الوعي ، في الطريق الى جنى .

من سويتي خرجنا في وقت مبكر من الصباح لنتجه بالسيارة الى جنى . لم تكن الرحلة طويلة بالمعدلات الافريقية . كانت ١٥٠ كيلو مترا فقط ، مخترقة حقول الارز والذرة والقطن المتناثرة على ضفاف نهر باني .

الآن تروح القوارب وتجيء طوال الوقت عبر فرع النهر الى جنى . وللسيارات عبارة خاصة وفرتها الدولة خدمة للسائحين ولكبار موظفيها . لم تستغرق العملية سوى ١٥ دقيقة ، حملتنا خلالها العبارة عبر فرع النهر .

اكتشفت عندما اقتربنا اكثر انه لايزال امامنا شوط آخر لبلوغ المدينة ، التي بدت مطلة على شاطىء فرع ثان للنهر ، ويصلها بالمكان الذي كنا فيه جسر طويل بني في عهد الاحتلال . بدت المدينة حصنا حقيقيا ، حمته الاقدار « بحاجز نهري » يحيط به من كل جانب ، هو الذي ساعدها على ان تظل مملكة مستقلة لعدة قرون ، وهو الذي افشل محاولات اقتحامها من جانب ملوك مالي ، وهو الذي جعلها عصية على ملوك صنغاي ، حتى طال حصارها لسبع سنوات ، وتحول المحاصرون لها الى مستوطنين حولها ، اضطروا للاشتغال بالزراعة ليؤمنوا مواردهم عبر تلك السنوات .

يروي قاضيها محمود كعت ، صاحب تاريخ الفتاش ، ان اشهر ملوك صنغي ، اسكيا محمد ، التقي وهو في طريق عودته من الحج بفقيه مصر عبد الرحمن السيوطي ، واخبره بما سيكون في بلاده ، وكانت « بلد جن » مما سأل عن مصيره اسكيا محمد ، فكان رد السيوطي « بخرابه وهلاك اهله الغرق يفجأهم الماء ويغرقهم اجمعين » !

لكن نبوءة السيوطي ، ان صحت قصتها ، لم تتحقق . وظلت جنى محاطة بالماء ولم تغرق . بل انها تظل معزولة ومحاصرة طوال فترة الفيضانات التي تستمر في العادة ثلاثة اشهر ، في غير ذلك . فان عزلتها تخف ، اذ تجف بعض الفروع فيتيسر على البعض الوصول اليها سيرا على الاقدام او بالدواب .

شرح لي مرافقي خريطة . قال اننا على مشارف المدينة ولسنا في المدينة ذاتها وان المكان الذي بلغناه هو مقر اجهزة الحكومة الذي انشىء في عهد الاحتلال الفرنسي اذ كان الفرنسيون يحرصون على ان يقيموا مقار الادارة في اطراف المدن ، بعيدا عن الاهالي ، ويقيموا الى جوارها مقر الحاكم .

فهمت منه ايضا ان المدينة مازالت تنمو على ذات الرقعة

التي كانت عليها قبل قرون . وان الناس يرفضون السكنى على الجانب الآخر الذي كنا فيه ، وان هذه الخرائب القائمة ليست الا مساكن بنيت تحت ضغط الحاجة الى الامتداد . لكن الناس هجروها وعادوا الى حيث كانوا .

مرة اخرى ، والسبب هو ذلك الاعتقاد الشائع بان تلك منطقة يسكنها الجن . وربما لهذا السبب اطلق عليها منذ القدم - كما عند صاحب الفتاش - « بلدة جن » . ورغم ان حكاية الجن في المدينة قديمة الا انها التصقت بها الآن .

مقر الحاكم يشغله الآن شاب من ابناء مالي عمره ٣٢ سنة ، كان معلما رياضيا ، ثم جذبته الوظيفة الحكومية ، فصار حاكما على جنى يرتدي ثيابا عسكرية في مكتبه ، ولم يبق له من تاريخه سوى قامة طويلة وعضلات مفتولة ، وذكريات ضاحكة ومرحة .

فهمت من حاكم المنطقة ، واسمه سيك (شيخ) مادي ديابيت ، ان جنى الآن محافظة ضمن احد اقاليم الوسط تضم ١٦٧ قرية ، ويسكنها حوالى ١١٨ الف نسمة ، وان حكاية السبعة آلاف قرية التابعة لها ، والتي ذكرها السعدي ، صارت تاريخا مرتبطا بعصر ولى ولن يعود . وان جنى المدينة هي مركز المحافظة ، وتتبعها ٣٠ قرية ، بل لم تعد اكبر المراكز اذ ان مركز « سونارا » في المحافظة ذاتها يتبعه ٣٩ قرية .

قال شيخ مادي أيضا ان المدينة تعيش الآن على الصيد والزراعة والثروة الحيوانية ، وان هناك بقية من علم وفقه لدى الشيوخ وكبار السن ، ولكنه من الصعب القول بأنها ما زالت منارة المعرفة ، كما كانت في الماضي .

ذهبنا لنعبر الجسر الى المدينة ، الى جواره مررنا ببناية صغيرة من حجرتين ، قيل لي انها مدرسة لدراسة اللغة العربية . مررنا بشوارع جنى الضيقة قبل ان نصل الى مسجدها الكبير .

رائحة التاريخ تفوح من كل مكان مررنا به . الشوارع المتربة . البيوت الواطئة المبنية من الطين ، الطراز الافريقي للعمارة الذي يطل من مختلف واجهاتها ، كأن الدنيا لم تتغير عبر القرون ، وكأن الملك سني علي غادرها امس فقط !

لأنها حكومة علمانية

كان مسجدها الكبير علامة لاتخطئها العين ، فحيثما ذهب المرء يلمح جانبا من عمارته الشاهقة والمميزة . دخلنا ساحة واسعة ، ذات استطالة ملحوظة ، تصدرها المسجد ، بواجهاته المهيبة ، والباحة الواسعة التي احاطت به من كل جانب ، مرتفعة عن الارض بأكثر من متر ونصف متر .

كانت اولى المفاجآت ان امام المسجد لا يتكلم اللغة العربية . يكتب ويخطب بالعربية ولكنه لا يتكلم . هكذا قال لنا الذين جلسوا حوله . عندما تطوع احدهم بايضاح الموقف . وعندما سألتهم كيف يمكن ان يكتب المرء ويخطب بالعربية ، ولا يعرف كيف يتحدث بها الى الآخرين ، متغاضيا عن فكرة ان يكون الخطيب حافظا لبعض العبارات والخطب العربية ، يرددها في كل مناسبة ، ولا يجد نفسه مضطرا الى تعلم غيرها ، عندئذ رد احد الجالسين قائلا انه يمكن ان يكون المرء بليغا وليس فصيحا . ولا غرابة في ذلك لان البلاغة في الجنان ، والفصاحة في اللسان » !

وسمعت منهم قصة المسجد . . .

قالوا انه كان في الأصل مقرا لقصر الملك كنبرو ، الذي اسلم في القرن الثالث عشر ، فهدم القصر واقام مكانه مسجدا ، وظل المسجد يؤدي وظيفته الى ان خضعت جنى لسلطان ملك ماسنا شيخو احمد ، ابن الحاج عمر الفوتي ، في القرن التاسع عشر . وكان شيخو احمد متصوفا تيجانيا ، ومتبنيا لفكرة محاربة البدع في زمانه ، فاعتبر ان تصميم المسجد - ارتفاعه بالأخص - يخل بالبساطة الواجبة في بيوت الله ، فقرر نقله الى مقر مدرسة اسلامية يدرس بها . كما قرر نقل نشاطات التجار واسواقهم من جنى ، وانشأ لهم مدينة موبتي المجاورة ، التي صارت اهم مركز تجاري بالبلاد .

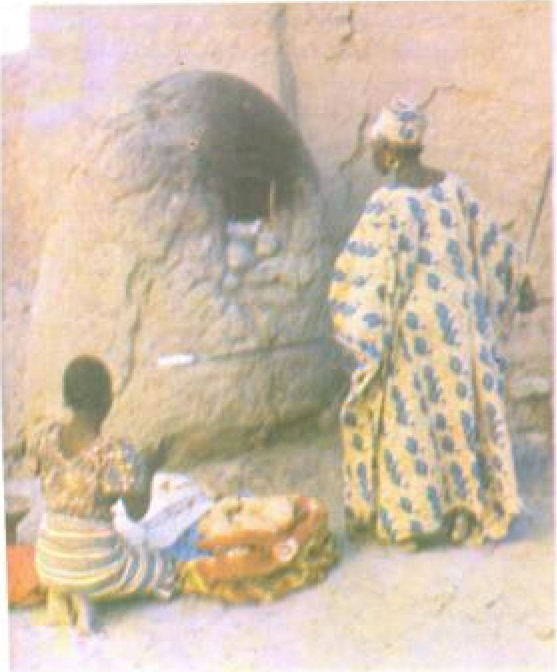
وبعد الاحتلال ، وصل العسكر الفرنسيون الى جنى في ١٩٠٦ ، واراد الحاكم الجديد ان ينشيء مدرسة فرنسية في المدينة . وعندما استشار بعض رجالها . فاقترح احدهم ان يسلم المسجد ، الذي كان مدرسة سابقة ، الى الحاكم الفرنسي لينفذ عليها مشروعه ، وان يعود المسجد الى حيث كان في السابق . وهو ما تم بالفعل . وعاد المسجد الذي اقيم مكان مقر الملك كنبرو الى سابق وظيفته ابتداء من عام ١٩٠٨ .

لكنهم رغم نقل المسجد ، وحلت مكانه المدرسة كما كانت ، فانهم لم يستطيعوا ان يتخلوا عن تقليد لا يزال ساريا الى الآن ، وهو اعلان اذان الظهر يوم الجمعة ، من فوق المدرسة الفرنسية ، اولا ، ثم ترديد الاذان من فوق المسجد الكبير بعد ذلك !

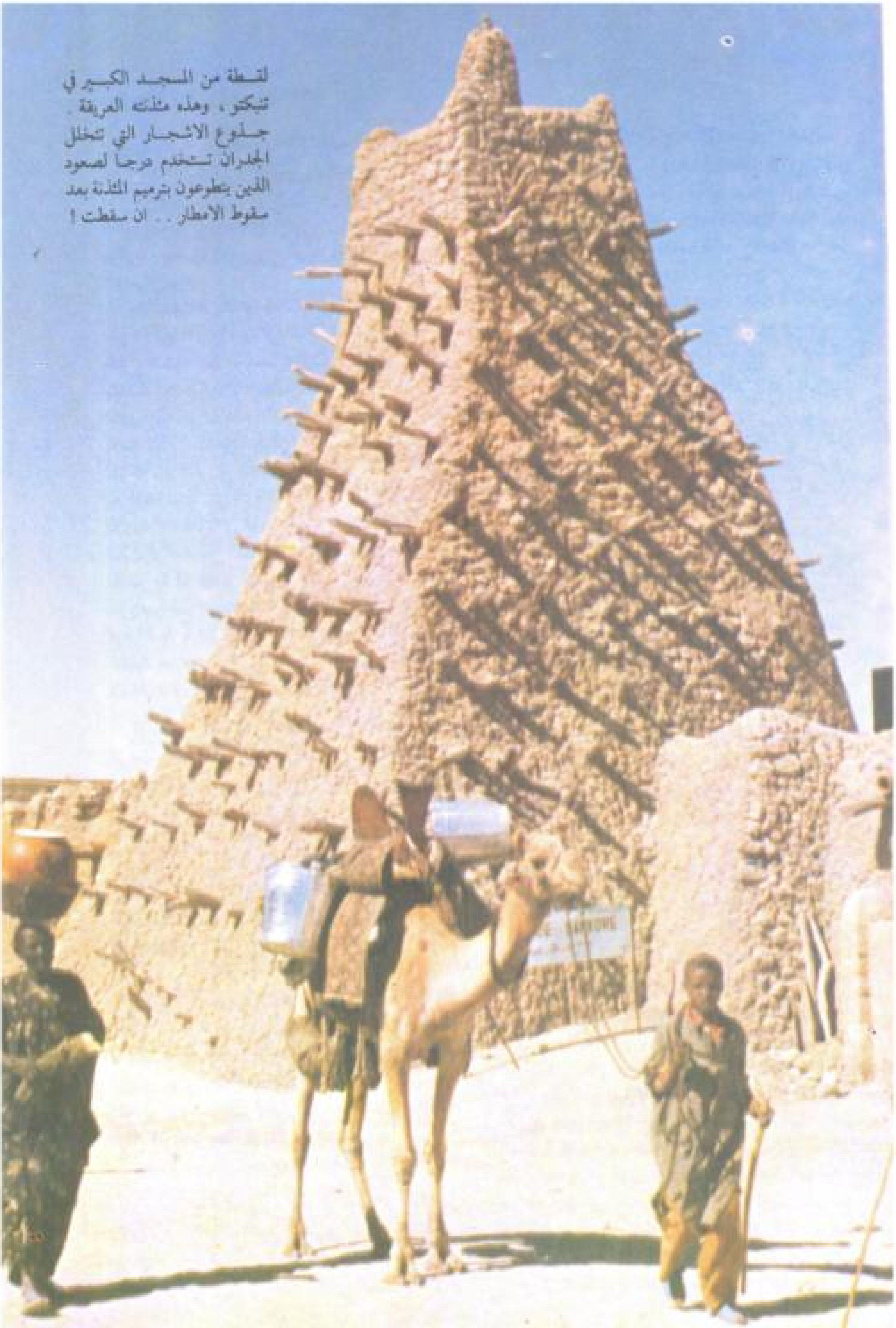
سألتهم عما بقي من جنى معقل الثقافة الاسلامية ومدينة علماء السودان والبيضان كما قال السعدي . تبادلوا النظرات ، وقالوا ان الامر اختلف . فقد صار في المدينة ثلاث مدارس فرنسية ، ومدرسة فرنسية عربية (فرانكو



الصورة العلوية من سوق باماكو ، بينما الصورتان السفليتان من تنبكتو . فهذا مخبز مقام على جانب الشارع . ومثله مخابز كثيرة منتشرة في تنبكتو ، ثم احد رجال الطوارق من أبناء مرحلة الجفاف . .







لقطة من المسجد الكبير في تنبكتو، وهذه مئذنته العريقة. جذوع الأشجار التي تتخلل الجدران تستخدم درجا لصعود الذين يتطوعون بترميم المئذنة بعد سقوط الأمطار .. ان سقطت!

آراب) ، ومدرسة اهلية واحدة لتعليم اللغة العربية . غير ان مجالس العلم والكتاتيب مازالت قائمة ، وتؤدي دورها بالقدر الممكن . في المدينة ٥٠ كتابا ، كانت معطلة وقتئذ بسبب موسم حصاد الارز . و « فقهاء » المدينة لا يزالون يعلمون الناس في حلقات يعقدونها بعد صلاة العصر في بيوتهم .

كان للمسجد باب واحد كبير ، هو الباب الرئيسي ، غير ١٢ بابا آخرين تعود الى الباحة الواسعة المحيطة به . خارج المسجد اضرحة لبعض الاولياء . ثم قول يشيع بان بالمدينة ٣٠٠ ولي ، لا احد يعرف اين هم ، ولكن القدر المتفق عليه هو ان هذه الاضرحة المقامة خارج المسجد تضم الامام اسماعيل - يقولون انه من سلالة الحسين عليه السلام - والضريح المجاور له مخصص لامته ، التي لا يعرفون اسمها - في حين ان زوجته ، وهي ايضا تعد من الاولياء ، مدفونة في مكان آخر ، بالمدينة ، ثمة ضريح ثالث لواحد من الصالحين اسمه الشيخ حمد . ليس للاضرحة اية علامة معمارية مميزة ، باستثناء « السورة سور متواضع اقيم حولها » . الى جوارها دفنت في الارض اوعية فخارية كبيرة مملوءة بالماء ، لوضوء المصلين . اذ ان التقليد هنا ايضا - كما في المساجد التاريخية الاخرى ، ان لامكان لدورة المياه في المسجد او ملحقاته .

الامر المثير للدهشة ان الحكومة لا علاقة لها من قريب او بعيد بالمسجد ، وان امر خدمته وصيانته وترميمه متروك للناس الذين يتطوعون لاداء تلك المهام كل بحسب قدرته المالية والجسدية .

شرح لي احدهم الموقف بلهجة لا تخلو من الالم والسخرية ، فقال ان الحكومة في بلادنا علمانية مثل فرنسا بالضبط ، ولا علاقة لها بالشئون الدينية . لهذا السبب فقد رفعت يدها عن المسجد بكل قيمته التاريخية الفريدة ، وتركت امره للناس .

المدرسة العربية الوحيدة

طلبت زيارة المدرسة العربية ، تبادلوا النظرات وسكتوا . ثم انبرى واحد منهم ، تبين انه احد مؤسسي المدرسة ، وقال ان الامر يحتاج الى شرح وايضاح .

وروى ابو بكر يرو - وهذا هو اسمه . قصة المدرسة العربية الوحيدة ، التي تحاول ان تقف على اقدامها في جنى ، في ثمانينات القرن العشرين . قال انه اشترك مع زميل له - امام كوريرا - في استئجار مبنى حولوه الى مدرسة لتعليم اللغة العربية في المدينة ، ولقي المشروع اقبالا حتى التحق بالمدرسة ٣٠٠ طفل خلال سنتين . كانت مصروفات الدراسة في حدود ما يعادل دولارين في الشهر ، وكان يتولى التدريس بها ثلاثة ، وهم كل فريق العمل بالمدرسة ، هم المعلمون والاداريون والسعاة والفراشون . ولكن لان قدرات الناس محدودة ، فقد عجز كثيرون عن دفع المصروفات ، واصبح من المتعذر استمرارها في اداء رسالتها ، فعرضوا على السلطات الحكومية تسلمها ، على ان تكون مدرسة عربية فرنسية . وتم ذلك بالفعل ، لكنهم اكتشفوا انها غدت مدرسة فرنسية ، وان اللغة العربية تدرس بشكل اسمي ، بل هي مجرد لافتة لارضاء مشاعر الناس لا اكثر .

عندئذ عزم الاثنان على تكرار المحاولة ، وصمما على انشاء مدرسة عربية اخرى ، اختاروا لها منطقة خارج المدينة ، على الضفة الثانية من فرع النهر . وبعد الاتصال باطراف عديدة محلية وعربية ، قدمت لهم السفارة السعودية مبلغا من المال مكنهم من بناء حجرتين ، بغير ابواب او نوافذ . كما ان المبلغ لم يغط اي شكل من اشكال التأثيث ، ولو حتى البساط من الحصير . وكانت المشكلة هي كيف يتم التدريس في هاتين الحجرتين بدون اية امكانيات ، بما في ذلك السبورة .

ولحل الاشكال لجأوا الى السلطات المحلية ، لعلها تعيرهم سبورة او بعض الطاولات ، ولكن هذه السلطات اعتذرت عن المساعدة . وكان الحل الذي انتهيا اليه هو عرض اتفاق على السلطة المحلية ، يقضي بان تعطى احدى المدارس الحكومية حق استخدام واحدة من الحجرتين كفصل تابع لها يدرس الفرنسية في الصباح ، على ان تزود الحجرة بطاولات وسبورة ، وبشرط ان تستخدم في المساء للدراسة العربية . وتمت الصفقة .

تنبكتو .. الى اين ؟

وتنبكتو هي الوجه الآخر لجنى ، فلا تذكر احداهما الا وذكرت الاخرى . ورغم ان الاولى من مواليد القرن الثاني عشر الميلادي - اسسها الطوارق - والثانية من مواليد القرن التاسع الا انهما تلازما في سنوات المجد والمد ، التي اطلت منذ القرن الرابع عشر . في العصر الذهبي لدولة مالي ثم صنغي ، عندما كانت تنبكتو هي مركز القوافل التجارية القادمة من شمال افريقيا ومصر - بل ثبت انها كانت تتعامل مع الثغور الايطالية ، وبخاصة فلورنسه ، عن طريق تونس وطرابلس ، في القرن الخامس عشر . في حين كانت جنى هي مملكة التجارة ومركزها الكبير في قلب دلتا نهر النيجر .

واذا كان لكل من المدينتين باعه في التجارة ، فدورها

في الثقافة لا يقل اهمية ، فكما كانت جني مركزا للعلم والعلماء ، كذلك كانت تنبكتو ، التي وصفها ابنها البار عبد الرحمن السعدي بقوله انها : ما دنستها عبادة الاوثان ، ولا سجد على اديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين ، وملتقى الفلك السيار . فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم الى ان صارت مسلكا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم .

وتظل « غرائب تنبكتو وعجائبها يومئذ لا تدخل تحت حصر ، ولا يحيط بها حفظ حافظ »كما يقول محمود كعت . .

الا ان العصر الذهبي للمدينة ، الذي بلغ ذروته في عصر سلاطين صنغى العظام ، امثال اسكيا محمد واسكيا داود ، هذا العصر انتهى بغزو سلطان مراكش لها في اواخر القرن السادس عشر ، الامر الذي حولها الى « جسم بلا روح ، وانعكست امورها ، وتبدلت عوائدها ، ورجع اسفلها اعلاها ، واعلاها اسفلها » كما يقول صاحب الفتاش .

ودارت دورة الزمن ، حيث ضمت الى املاك سلطان مراكش ، حتى استولى عليها الطوارق في عام ٧٩٢ ، ثم الفلانيون عام ١٨٢٧ ، ودخلها الفرنسيون محتلين في عام ١٨٩٤ .

وطوال عصورها تلك كان اسم تنبكتو يلهب خيال الكثيرين ، الذين عدوها مدينة مليئة بالثروة ، لاتجارها في الذهب وريش النعام والعاج والعبيد . مما اغرى كثيرين من الرحالة بالالحاح في المغامرة للوصول اليها . فقتل في سبيل ذلك المجور لينج ، واستطاع رينيه كاييه ان يرفع عنها الحجاب في عام ١٨٢٨ ، حيث اتضح له انه كان واهما في تقدير ثروتها ، وزارها الرحالة بارت في عام ١٨٥٣ ، وكتب عنها الكثير بعدما وضع يديه على كثير من مخطوطاتها العربية

هذا التاريخ العريض ، لم يبق منه لتنبكتو سوى بعض المنشآت التي تشهد للتاريخ وترمز الى عصور المجد ، على راسها جنجبير ومعناها المسجد الكبير بلغة الصنغاي ، وهو اقدم مساجد المدينة ، ولا يعرف على وجه التحقيق متى انشىء . وان كان المتداول انه كان هناك مسجد في موضعه في القرن الثالث عشر الميلادي . وهناك قول بان السلطان مانسا نوسى هو الذي امر ببنائه بعد عودته امن الحج ، وان المهندس « ابو اسحاق الساحلي » هو الذي تولى هذه المهمة . واذا اختلفت الاقوال في العمر الحقيقي للمسجد القائم حاليا ، فان الاتفاق يكون تاما على ان هذا البناء الحالي يمتد عمره الى القرن السادس عشر على اقل تقدير

بعد مسجد « جنجبير »يأتي مسجد سنكورى ، الذي شيدته سيدة مجهولة في رحلة تتراوح بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وقد استمد قيمته التاريخيةمن انه كان بمثابة جامعة حقيقية ، يؤمها طلاب العلم والفقهاء من كل مكان ، حتى قيل ان طلابها كانوا بالمئات .

وثالث تلك الابنية التاريخية ، مسجد سيدى يحيى ، وهو احد الصالحين في القرن الخامس عشر ، ورغم ان الذي بنى المسجد هو حاكم تنبكتو ، محمد نادي ، الا ان اسمه ارتبط باسم امامه سيدى يحيى ، الذي اشتهر بورعه وتقواه .

ومن المعالم الهامة القائمة الآن في تنبكتو ، مركز احمد بابا للمخطوطات ، الذي يتولى عملية جمع وصيانة ثروة المخطوطات الموجودة لدى القبائل في تلك المنطقة ، ورغم فقر امكانياته وجسامة المشقة والمسئولية الملقاة على باحثيه ، فان جهده كمركز للجمع والتوثيق يسهم اسهاما جليلا في الحفاظ على تراث تلك المنطقة الغنية بالتاريخ .

وتنبكتو الآن غير درة الصحراء التي لمعت فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر . لقد كان عدد سكانها في القرن الخامس عشر ١٠٠ الف نسمة ، وهم الآن ٢٥ الفا فقط . في الثمانينات غلبت عليها الهموم ، وباتت تعاني من الجفاف وزحف الصحراء ، اللذين يشكلان شبحا مخيفا يهدد المدينة ويضيق عليها الخناق يوما بعد يوم .

وعندما التقيت بالمسئولين عن المدينة لم يكن لهم حديث الا عن تلك الهموم التي يعجزون بقدراتهم المحدودة عن مواجهتها . وخجلت عندما قالوا لي ان مؤسسة بلجيكية استصلحت ٧٠٠ هكتار بالقرب من نهر النيجر ـ ليس بعيدا عن المدينة ـ وان الناس تهافتوا عليها لزراعتها .

وان الالمان اقاموا مركزا لزراعة ٥٠٠ نوع من الاشجار ، واختيار ايها اكثر صلاحية للتربة ، وانهم احيوا قناة حفرت منذ الاربعينات ، وسوف يطوقونها بحزام من الاشجار لمنع زحف الرمال .

ان اساطير المدينة تقول انها مصانة ببركة ٣٣٣ من الاولياء ، وان فارسا ابيض ملثما اسمه الفاروق يطوف بارجائها الاربعة طوال الليل وحتى بزوغ الفجر ، حاميا لها وحارسا .

ولكنهم ـ مع ذلك ـ يخشون من غدر الزمان . .

يخشون من ان تتحقق فيها نبوءة السيوطي لملك صنغى اسكيا محمد ، عندما سأله عن « بلد تنبكتو » ، فكان رد الفقيه المصري : اخوف ما اخاف عليه ان يكون خرابه واتلافه بالجوع ! ■■

فهمي هويدي

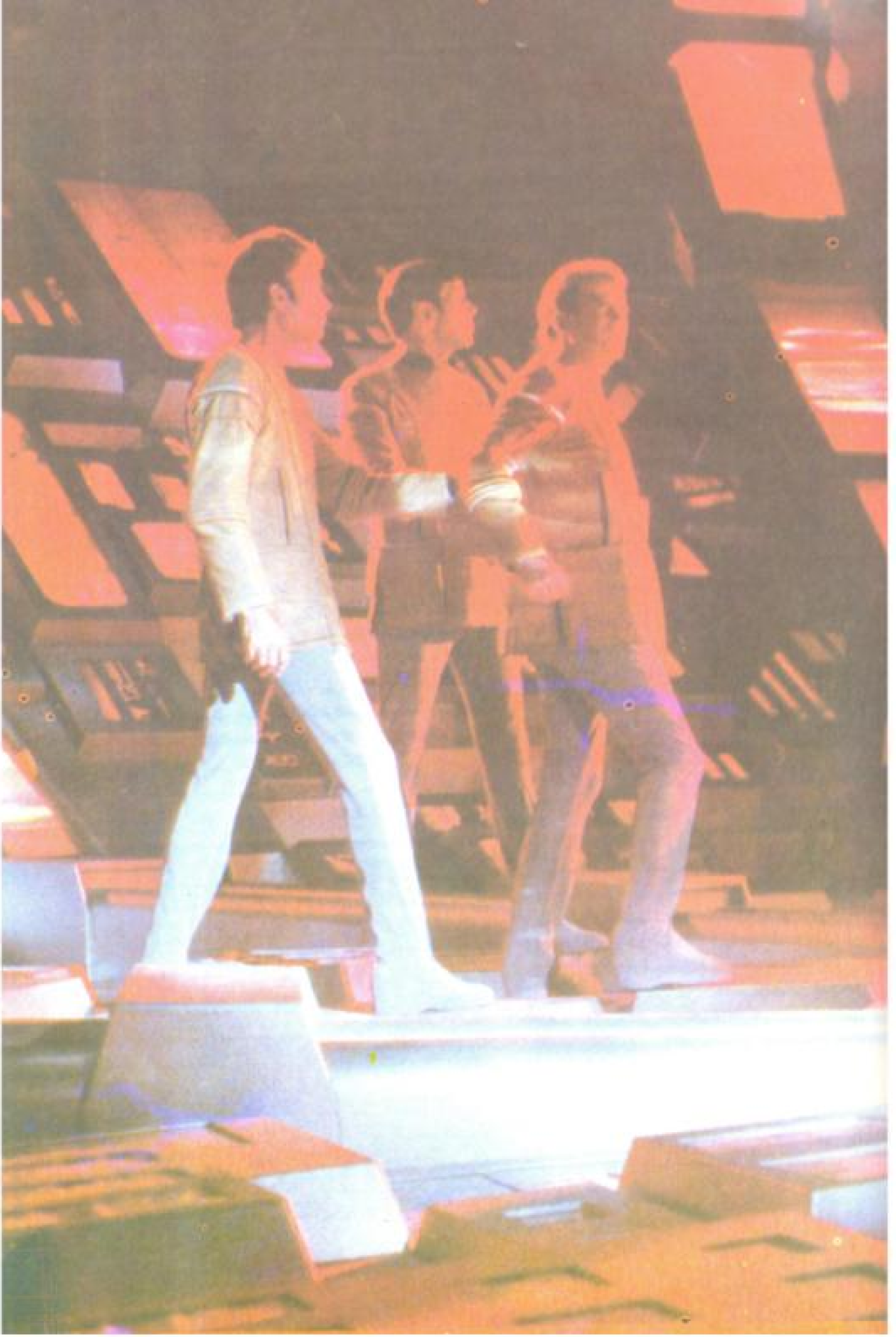
بقلم : فاروق عبد العزيز

من "ماكينة السجق" إلى "حرب النجوم" نوع يبحث عن شكل !

ماذا الذي تريده منا ، وتقدمه لنا ، سينما الخيال العلمي ؟



خلا الفيلم السوفيتي « سولاريس » (١٩٧٢) من اية ابهارات تقنية ولكنه حفل بتصور دقيق لفكر انساني محتمل في المستقبل . إلى أعلى من « ستارترك » (١٩٨٠) : ضمن موجة افلام الخيال العلمي التي ارادت ان تستغل نجاح « حرب النجوم » بالاعتماد على الحبكة البوليسية في قالب من الابهار التقني .



« ماكينة السجق » هو عنوان أول « فيلم » خيالي علمي حق في التاريخ ! هذه كلها أوصاف مجازية خالصة . « فماكينة السجق » شريط لا يزيد طوله على دقيقة واحدة . ألفه واخرجه وصنعه وعرضه الأخوان لوميير في عام ١٨٩٥ في باريس قبل أن يعرضا شرائطهما عن السكة الحديد وعمال مصانع ليون ... فهو مجازا فيلم وهو مجازا خيال علمي لانه شريط كوميدي ترى فيه حيوانات تتحول الى « سجق » اذا ما ادخلت الى الماكينة . وهو خيال علمي « حق » لانه كان « أول فيلم » أمين للوسيط الوليد ـ السينما . فلم يلجأ الاخوان لوميير الى أي وسيط آخر ـ كالادب مثلا لكي يستلهما موضوعا لفيلمهما . لقد خلقا « الحقيقة » الخاصة بفيلمهما كما ارادها .. تماما ..

أما « حرب النجوم » فكثيرون يعرفونه جيدا . هو فيلم « خارق » في كل شيء . في مؤثراته البصرية وفي ارباحه التي فاقت أي فيلم آخر في تاريخ السينما . لقد تكلف أكثر قليلا من عشرين مليون دولار وعاد بما يزيد قليلا عن ثلاثمائة مليون دولار خلال عامين من انتاجه في عام ١٩٧٧ .

بقي من العنوان النوع الذي يبحث عن شكل . النوع في السينما يشير الى الموضوع . فهذا نوع استعراضي وذاك كوميدي وثالث حربي وهكذا . والشكل هو القالب ذي السمات المعينة التي تحددها اساليب الفنانين المختلفة لهذا النوع أو ذاك .

الآن صار عنوان المقال واضحا !

حيث لا يوجد ظلام

بعد عامين من الآن سيحل موعدنا مع عام « ١٩٨٤ » ـ عنوان رواية الكاتب الانجليزي جورج اورويل التنبئية . ولا أظن ان كل من قرأ الرواية مشوق ليرى ماذا سيحل بنا في عام ١٩٨٤ ، فمعظم ما ذهب اليه اورويل متحقق منذ أكثر من نصف قرن في عالم مزقته حربان عالميتان فعليتان ، ومئات الآلاف من لحظات التهديد بحروب جديدة تحت مظلة راعبة دائمة اسمها الخطر النووي . في رواية اورويل يلتقي بطله ونستون ـ الذي يعيش في ظل نظام شمولي مرعب ـ مع أحد ممثلي هذا النظام ظن فيه ونستون تعاطفا معه . ولأن ونستون خرق النظام بمحاولته الكتابة والتفكير فقد دفعه خياله الذي ايقظته الكتابة الى تصديق « اوبريان » (أحد ممثلي النظام) . وعندما يلتقيان يقول له اوبريان : سنلتقي في المكان الذي لا يوجد فيه ظلام ..

ومع اطراد موجة الخيال عند ونستون يظن انهما سيلتقيان في « نور الحقيقة » .. ويلتقيان في مكان لا يوجد فيه ظلام فعلا : في غرفة تعذيب مستقبلية لا يغيب « نورها » أبدا .

كيف يمكن للوسيط السينمائي ان يعبر عن عبارة كهذه : سنلتقي في المكان الذي لا يوجد فيه ظلام .

هذه هي مشكلة الوسيط السينمائي مع ادب الخيال العلمي .. أو النوع الذي يبحث عن شكل .. وهي مشكلة الاقتباس السينمائي عموما على أية حال .

وعندما عرض فيلم « ١٩٨٤ » في عام ١٩٥٦ (من اخراج مايكل اندرسون) جاء الفيلم مخيبا للآمال وبرزت باوضح صورة محنة الأدب العلمي الجاد مع وسيط آخر هو السينما .

بيد أن هناك أدبا كان طوال الوقت طيعا ولينا في يد الوسيط السينمائي . ربما لانه مبني على تخيلات وتنبؤات علمية بحتة ذات مغزى أخلاقي واضح . وهذا هو بالتأكيد ما جعل من قصص جول فيرن الذي عاش منذ نحو مائة عام أكثر قصص الخيال العلمي شيوعا . فهو نوع من الخيال العلمي يناسب الشباب صغار السن اذ يسعى الى اطلاق ملكاتهم الخيالية على نحو معقول وفي نفس الوقت تزويدهم بدرس اخلاقي بسيط مفاده ان « العلم يجب ان يكون في خدمة الانسان » . وان « العلم ينبغي ان يكون سلاحا في خدمة السلام وليس الحرب » ..

في « ٢٠٫٠٠٠ فرسخ تحت الماء » والكابتن نيمو « ومغامرة عند حافة العالم » شاهدنا اعمالا سينمائية بسيطة تحاكي القصص الأصلية ولا تحفل بتفسيرات مركبة أو استنتاجات معقدة . فهذا هو الأدب وتلك هي السينما . وكلاهما هنا يتلاقيان في يسر وبساطة بصرية واضحة . اللقطات تحل محل الكلمات والمشاهد تحل محل الفقرات والمراحل تحل محل الفصول في الكتب . وتحقق الأفلام نجاحا جماهيريا يكون بمثابة القاعدة الشعبية لقبول « نوع » الخيال العلمي .

خيال ممكن وأسئلة مستحيلة

في وقت مبكر من هذا القرن نشر هـ . ج . ويلز

كتابيه « آلة الزمن » و « حرب العوالم » . في « آلة الزمن » مضى ويلز بخياله و (آلته الخيالية) يحلق ويعايش ويتصارع مع الماضي ومع المستقبل . غير أنها لم تكن مجرد رحلة خيالية تثير وتمتع الأطفال . كانت الرحلة في جوهرها تساؤلا عن امكانية اعادة التجربة الانسانية « الماضية » وعن امكانية اتاحة الفرصة للانسان لكي « يرى » عوالم المستقبل الكامنة في رحم الغيب .

مثل هذه الايقاعات غابت عن فيلم « آلة الزمن » الأميركي ، ومرة أخرى اختفت السينما ـ الهوليوودية ـ في معالجة مثل هذه التساؤلات . وتساءل النقاد عن قابلية الوسيط السينمائي لتناول نتائج اخلاقية عميقة للتقدم العلمي . في « حرب العوالم » تحولت حرب الغزاة وسكان الأرض الى معركة « كاوبوي » بين عصابة وسكان مدينة أميركية صغيرة . وكان هذا مثالا « لاستغلال » السينما لنوع أدبي .

ثورة الخيال العلمي

يوم أن عرضت أفلام مثل « يوم توقفت الأرض » و « غزاة ناهشي الجسد » وكل أفلام ما قبل عام ١٩٦٨ ، كان النقاد الجادون يتساءلون عن جوهر العلاقة بين التقدم التقني السينمائي وبين تقديم أفضل لأدب الخيال العلمي . وكانت الاجابات تحصيل حاصل : فالمؤكد أن أفلاما تقدم خيالا علميا لا بد وان تكون تقنيتها على مستوى هذا الخيال ـ أو « الايهام » بمصداقيته حتى الايهام .

ولكن كان على الشكل السينمائي ونوع الخيال العلمي أن ينتظرا ستة وستين عاما (منذ ظهور فيلم جورج ميليس الخيالي « رحلة الى القمر » عام ١٩٠٢ عن قصة جون فيرن) . فقد شهد عام ١٩٦٨ انطلاقة ثورة في التقنية السينمائية وخاصة في مجال المؤثرات الخاصة البصرية والصوتية . ولم يطلق هذه الثورة « عالم » سينمائي . أطلقها فنان ذو خيال مبدع كميليس تماما ، هو ستانلي كيوبريك الذي قدم أهم اسهامات الشكل السينمائي في مجال الخيال العلمي بفيلمه « ٢٠٠١ : اوديسا الفضاء » الذي جب ما قبله من أفلام الخيال العلمي وجعلها تبدو ألعاب أطفال ، ودفع بالنقاد الى اعادة جدولة تساؤلاتهم حول الشكل السينمائي ونوع الخيال العلمي .

هنا تلتقي بقطعة من الفن الخالص خلق فيها الفنان مادته و « حقيقته » بنفسه على غرار ما فعل الاخوان لوميير في الجوهر . ولكن الأهم من هذا هو الثورة التقنية التي فجرها الفيلم وافتتح بها عصرا جديدا من أفلام الخيال العلمي .

هنا رحلة اوديسية الى المشتري وما وراءه . ولكنها مسبوقة برحلة اوديسية كبرى للانسان منذ كان بدائيا الى أن بلغ في العام ٢٠٠١ ذروة اللقاء مع الكائنات الذكية الأخرى في الكون . ولكن هذا اللقاء مأساوي . فجهل الانسان افحش من أن يدع له مجالا للسيطرة على الكون .

ويزخر الفيلم ـ شأنه شأن أي عمل فني عظيم ـ باستنتاجات أخلاقية كبرى حول الوجود الانساني في الماضي وفي المستقبل كما تظهر فيه قدرة الشكل السينمائي على أن يسبق الشكل الادبي باستقلاليته كشكل وعدم لجوئه الى اية تعبيرات أدبية . فما تشاهده على الشاشة هو سينما خالصة . وهنا يجد « نوع » الخيال العلمي شكلا سينمائيا ملائما قدر له أن يفتح آفاق عصر جديد في العلاقة بين نوع الخيال العلمي وبين السينما .

ولكن مهلا ! فليس بالتقنية وحدها يصنع فن عظيم . « فالورطة » الانسانية في عصر الثورة العلمية يمكن تناولها ببساطة تقنية كبيرة شريطة توافر الفنان المبدع . وقد تحقق هذا في الفيلم السوفيتي « سولاريس » (عام ١٩٧٢) الذي ابدعه فنان السينما السوفييتي الخلاق اندريه تاركوفسكي . ففي محيط السولاريس يمكن للمخيلة ان تستدعي أشخاصا من الماضي . ولكنهم مجرد صورة ملموسة وحية فقط الى حدود اللحظة التي ماتت فيها فوق الأرض . وهذا ما حاوله اعضاء بعثة علمية للسولاريس . وتكون النتيجة اختلالا عقليا يصيبهم . فهم بشر وهم يعيدون ـ أو هكذا للسولاريس . وتكون النتيجة اختلالا عقليا يصيبهم . فهم بشر وهم يعيدون ـ أو هكذا يبدو ـ التجربة الانسانية « التي ماتت » .. ويوفد عالم النفس كريس لاستطلاع أمر العلماء الذين لا يردون على رسائل الأرض . وهناك يلتقي عقل كريس « المنطقي » والرياضي بعالم فوق المنطق وفوق الرياضة وفوق الواقع وفوق أي حساب . وعندما يستدعي زوجته المنتحرة مع الاخفاق الكامل في بعث الماضي وتصحيح التجربة يصل مريس والانسان ـ الى قمة ازمته .





إلى اليسار بعد « اوديسا الفضاء » راحت الابتكارات التقنية التي واكبت دخول سينما الخيال مرحلة جديدة من الفن ومن الاستغلال التجاري ايضا .

حقق « حرب النجوم » (١٩٧٧) والجزء الثاني منه « الامبراطورية ترد الهجوم » نجاحا « خرافيا » ، اذ حقق الفيلمان ثورة في التقنية لم يحدث لها مثيل من قبل . كما حققا نجاحا جماهيريا ساحقا ، بالتأكيد لانهما كانا تعبيرا عن الوفاء لمدرسة التسلية كغاية لفن السينما .





ديف في رائعة ستانكي كيوبريك « اوديسا الفضاء » (١٩٦٨) ، وجه الملاح الكوني لحظة دخوله الى مجال ما بعد المشتري . على هذا الوجه ترتسم قرون من الخبرة والعلم الانساني لحظة اصطدامها بجهل الانسان المطلق ورعبه من الكون المحيط به .



كائن يسبح في الفضاء في فيلم « الفجوة السوداء » (١٩٨٠) . ولكن الفيلم فشل في الارتفاع الى مستوى افلام الفن في سينما الخيال العلمي .

النوع خيال علمي والشكل سينمائي خالص ولكن الفيلم لا يحفل بالابهار والايهام التقني . ان تركيزه يتوجه صوب الجوهر : محنة الانسان أمام التساؤلات المجردة المستحيلة . ويكتسب « شكل الفيلم » هنا شرعيته وحيويته وكينونته الخاصة من قوة « أسلوب الرجل » الذي صنعه : المخرج تاركوفسكي .

التليفزيون يطارد اهل الكتاب

« اذا كانت الحكومة عاجزة ، كثيرة التكاليف ، ترهق الناس بالضرائب الفادحة ، فمن الأفضل للجميع أن يتحملوا ذلك بدلا من أن يعيشوا في قلق دائم . والحل ؟ أشغل الناس في هذه الحالة بمسابقات عن

الأغاني المشهورة باسقاط أو تغيير بعض الكلمات ليتذكروها أو عن اسماء عواصم الولايات أو الاحصائيات الزراعية ، أحشد أذهانهم بمعلومات لا يعارض بعضها البعض الآخر ، وبالحقائق حتى يشعروا بأنهم بارعون ، راضون عن أنفسهم ، وعندئذ يشعرون أنهم يفكرون ويحسون في الوقت الذي لا يفكرون فيه في الحقيقة . لا تعطهم اشياء فيها مزالق كالفلسفة أو علوم الاجتماع مما يعقد الأمور ويجلب الحزن والأسى ...

نحن فتيان السعادة ، ونحن نقف ضد تلك الموجة الضئيلة التي تريد للجميع الشقاء والتصارع حول النظريات والافكار ، ويجب علينا الثبات في موقفنا » .

هكذا تحدث نبي العصر الجديد .. حارق الكتب الكابتن بيتي . فقد توصل مجتمع المستقبل كما رسمه الكاتب الاميركي راي برادبيري (في أوج الحملة المكارثية في مطلع الخمسينات ، وهي الحملة التي استهدفت العقول للتفتيش فيها عما اسمته الأفكار التقدمية) الى سبب الاسباب في العلل البشرية : الكتب . الكتب بالافكار والنظريات والمذاهب هي التي أدت الى اشتعال الحروب والفتن . دعونا نحرق الكتب ونضع على كل جدار في كل بيت شاشة تليفزيون عملاقة تبث البرامج التافهة لكيلا يتعب أحد ويفكر . ولكن مونتاج الذراع اليمنى لحارق الكتب في قصة وفيلم « فهرنهيت ٤٥١ » يكتشف الكتب ويكتشف معها عالما لامتناهيا من المتعة والحقيقة . فيهجر كل شيء لينضم الى أهل الكتب الذين ضغط كل واحد منهم كتابا وتسمى باسمه . فهؤلاء هم مشاعل النور المتحركة في عالم كله ظلام .

هذا خيال علمي له اصداء راسخة في الماضي والحاضر ، ولهذا لم يكن مهما ـ ولا مطلوبا ـ ان يلجأ فنانه المبدع الى مؤثرات خاصة وتقنيات مركبة . فما فعله المخرج فرانسوا تروفو هو من نتاج « اسلوبه » هو . شكل سينمائي يبدو ككتاب غير قابل للاحتراق مستوعب لكل الطاقة الخيالية التي يشعها كتاب برادبيري ولكنه في نفس الوقت حافل ، بالدلالات واللغويات السينمائية الخالصة .

ماذا ستفعل الانسانية بعد أن تصل الى ذروة الرفاهية غير ذلك ؟ تنمي نوازع العنف الطبيعي التي لا بد لها من افراغ ؟

في العنف المجاني مثلا .. العنف لذات العنف ؟

ليكن كذلك في فيلم « البرتقالة الآلية » (١٩٧١) لستانلي كيوبريك (مأخوذ عن رواية قصيرة لانتوني بيرجس) . فهذه رؤية عدمية مغرقة في التشاؤم للمستقبل .

نلتقي هنا باليكس الشاب الذي ارتكب جريمة وحشية ، وتقرر تحويله عبر برنامج معين إلى إنسان مسالم . ولكنه يتحول بدلا من ذلك الى زعيم عصابة تغتصب وتسرق وتقتل في عنف مجاني لا مبرر له .

أو ليتم تحقيق افراغ العنف في .. رياضة عنيفة مثلا ؟

رياضة الرولربول (وهي مزيج جهنمي من الرولرديربي وسباق الدراجات والبيسبول) في فيلم « رولربول » (١٩٧٥) من اخراج نورمان جويسون هي الرياضة التي حددها مجتمع الشركات (المحكوم بست شركات دولية عظمى تحكم العالم) لكي تكون متنفس الرفاهية بعد أن وصل المجتمع الى ذروتها . وفي هذا النوع من الرياضة هناك فرق ـ كما في عالمنا اليوم ـ ولكن من غير المسموح لكابتن الفريق أن يتفوق أكثر من اللازم . فدور الفرد محدد . وبمجرد أن ينتهي تصدر الشركات قرارا باحالته الى التقاعد . ويناوىء « جوناثان اي » .. البطل الفرد ويدخل في صراع تتعرف فيه على سمات مجتمع الرفاهية الذي تجهد البشرية في الوصول اليه ، مجتمع الخواء الروحي والمتعة الآلية والعواطف « الموضوعية » الميتة .

في كلا الفيلمين يبرع الشكل السينمائي في تقديم نوع الخيال العلمي على نحو يفوق المصدرين الادبيين للفيلمين . وبراعته تعود الى امانته مع مواصفاته باكثر من ترجمته لموضوع أدبي .

حرب النجوم والتسلية الخالصة

اذا كان « اوديسا الفضاء » قد افتتح عقدا ذهبيا من عقود سينما الخيال العلمي . فقد وصل النوع (الخيال العلمي) الى قمة استغلاله التجاري في واحد من انجح الأفلام عبر التاريخ : « دب النجوم » (١٩٧٧) لجورج لوكاس الذي تبعه في العام التالي بالجزء الثاني منه « الامبراطورية ترد الهجوم » ويفكر حاليا في انتاج جزء ثالث .

لا مجال للمقارنة بين الفيلمين . فهما متشابهان تماما ومختلفان تماما . بمعنى أن كليهما قد دفع باللقاء بين نوع الخيال العلمي وبين الشكل السينمائي الى غايات قصوى . والاختلاف الكامل بينهما ليس في الموضوع ولكن في شكل التناول وغاية الفن السينمائي في كلا العملين . « فاوديسا الفضاء » يرسم بطله ديف كبطل تراجيدي في مستقبل تسوده الكائنات الذكية وعقول الكترونية قوية كالعقل هال ٩٠٠٠ الذي يتمرد على ديف ورفيقه في رحلتهما الى المشتري . انه يشبه

السيمفونية التاسعة لبيتهوفن (مع استبدال نشيد الفرح باغنية حنين الى أمنا الأرض وايامها القديمة الطيبة) .

أما « حرب النجوم » بجزئيه فهو حكاية شعبية تثير خيال الصبيان وتمتع الشباب وتوفر تسلية خالصة من اية استنتاجات أخلاقية مركبة . هنا اشرار بقيادة دارث فادار في كوكب الموت ، وهناك اخيار بقيادة بن كينوبي العجوز الحكيم ولبوك سكاي ووكر الشاب الذكي الجريء ، وهان سولو الكابتن الشجاع والأميرة الجميلة ليا ورجلين آليين مضحكين . صراع بين اخيار واشرار ينتهي بنهاية أخلاقية بسيطة من نوع اخلاقيات جول فيرن : انتصار الخير في النهاية .

هنا فقط يتغير مكان الصراع الانساني من مغامرات طرزان مثلا ـ الى مكان وزمان ما في المستقبل . ويصبح المثير هو تحقيق الخيال على الشاشة من خلال ثورة التقنية السينمائية الكبرى المؤثرات الصوتية والبصرية . ولا أظن أن فيلما يمكنه أن يخرج اليوم ليدعي انتسابه الى نوع الخيال العلمي دون أن يكون لثورة المؤثرات تأثير عليه .

● من « ماكينة السجق »

واذا كان « حرب النجوم » قد استغل النوع من خلال المؤثرات الباهرة استغلالا تجاريا هائلا ، فان فيلم ستيفن سبيلبرج « لقاءات قريبة من النوع الثالث » (١٩٧٩) لم ينجح كثيرا في ذلك ، فقد حاول أن يعالج سينمائيا الافكار الشائعة عن الأجسام الفضائية المجهولة التي زعم بعض الناس أنهم شاهدوها . ومعروف علميا أن العلماء يستطيعون الاتصال مع سكان وكائنات مجهولة فيما يعرف بلقاءات النوع الأول . غير أن لقاءات النوع الثالث التي يلتقي فيها سكان الأرض وجها لوجه بكائنات أخرى غير أرضية ما تزال « خيالا علميا » . ويحاول المخرج سبيلبرج أن يطوع محاولة خيالية لتحقيق الاتصال لتلتقي مع الشكل السينمائي . وتنجح المحاولة نجاحا محدودا لانه وقف في طريق وسط بين الاستغلال التجاري للوسيط السينمائي وبين الاخلاص لهذا الوسيط على نحو يجعل فيلمه أكثر فنا وليس فنية .

بيد أن الفيلم يضاف الى الرصيد الايجابي لسينما الخيال العلمي .

● ● ●

والآن .. ما الذي تريده منا سينما الخيال العلمي ؟ ما الذي تقدمه لنا ؟ وما الذي يطمح اليه كتابها ؟

اكاد اقول ان سينما الخيال العلمي « الحقة » (أي عندما يستوعب الشكل السينمائي النوع الخيالي استيعابا فنيا خالصا) تهدف الى إثارة شعور أساسي فينا . شعور تاريخي فطري غلاب : الخوف من المستقبل .. الخوف من المجهول .. تحذير من الرفاهية .. تحذير من الحرب .. تحذير من الدمار الوشيك .. من الخراب القادم .. الخوف الانساني من الذات الانسانية نفسها .. والخوف من الآلة .. انه أدب وسينما الرؤية التحذيرية التشاؤمية والتي تلتقي مع أكثر المشاعر قلقا في تاريخ الانسان الفكري والعلمي . انها سينما الحلم بعالم أفضل خال من المجاعات والحروب والنزاعات الدولية الحلم باليوتوبيا (المدينة الفاضلة) وسينما انتصار الخير وسينما الانسان . فكتاب وفنانو سينما الخيال العلمي لا يستطيعون الا ان يكونوا انسانيين حتى وهم يتخيلون أكثر الجوانب ظلاما في المستقبل الانساني ..

واتصور أن هذا هو « الخوف » الذي تريده .

هل نحن بحاجة الى خيال لكي نتخيل كيف سيتطور شكل سينما الخيال العلمي في المستقبل . وهل ستستوعب السنون أحد أقدم أنواعها استيعابا خالصا وخلاقا في المستقبل ؟

أتصور أننا بحاجة الى « فيلم » يجيب على هذه التساؤلات . ●

فاروق عبد العزيز

كنت اسعد رجل في الدنيا . كانت اجمل لحظات حياتي هي التي اقضيها بين ابنائي واحفادي الى أن جاءوا بي الى هذا السجن لأعيش فيه حتى نهاية العمر !

العصافير .. وشجرة الليمون !

بقلم : منير نصيف

في هذا اليوم صحا مبكرا كما تعود ان يفعل كلما جاءت عطلة نهاية الاسبوع منذ أن حملوه الى هذا المكان الجديد الذي أصبح مقرا له وبيتا .. فهو اليوم على موعد مع الذين يحبهم .. وقفز من فراشه الذي لايتركه عادة قبل ان ينتصف النهار في بقية ايام الاسبوع الطويل ، فهو يتناول افطاره في الفراش ، فاذا انتهى منه عاد يغمض عينيه من جديد ويذهب في رحلة بعيدة مع الذكريات .. كان يجد في وسادته التي يريح عليها رأسه المتعب صديقا يحكي له متاعبه وآلامه !

كان هذا « البيت » الجديد الذي انتقل ليعيش فيه منذ بضعة اشهر ويقضي ما تبقى له من عمر هو نهاية المطاف بعد حياة طويلة مليئة بالعمل والحب .. فقد تقدمت به السن وذهبت زوجته ورفيقة عمره ، وتركته يواجه الحياة وحيدا عجوزا بعد أن جاوز السادسة والسبعين .. كانت له الصدر الحنون الذي يستند برأسه اليه ، وكان هو العصا التي تتكىء عليها .. ثم رحلت وتركته وحده يواجه الوحدة في هذه الغرفة الصغير في « بيت العجائز » وبقيت صورتها معه وذكراها تملأ قلبه المتعب .. لقد كانت دائما تشفق عليه من هذه الوحدة التي يعيش فيها اليوم . وكانت تداعبه وهي تحدثه عن « الميثاق » الذي عقداه بان يرحلا معا في نفس اليوم .. في نفس الساعة .. ولكنها لم تستطع ان تفي بهذا الوعد !

العصافير وشجرة الليمون !

كان يجلس في شرفة غرفته المطلة على الحديقة التي امتلأت بالزهور .. وكان له فيها اصدقاء كثيرون يحدثهم من بعيد ويخيل اليه احيانا انهم يسمعونه .. انها العصافير الصغيرة التي تغنى له فوق اغصان الشجر .. وشجرة الليمون باغصانها الوارفة المليئة بالثمار ، فقد كان يجد شبها كبيرا بينه وبينها ! كما كان يرى في العصافير أولاده وأحفاده الصغار !

كان يشعر انه حرم من ثمار حياته .. من ابنائه واحفاده ، وكان يحس انه يختنق بين جدران الحجرة ، فيتركها وينزل مهرولا باحثا عن اصدقائه العجائز الذين يشاركونه العيش في « البيت » الكبير .. كلهم مثله ، حملهم ابناؤهم الى هذا المكان الغريب البعيد عن الأهل والجيران والأصدقاء الذين قضوا بينهم سنوات شبابهم الذي ولى ولن يعود !

ونظر الى الساعة التي رافقته في رحلته الطويلة مع الحياة .. انها الشيء الوحيد الذي بقي كما هو .. فهي مازالت تدق بقوة ، كما كانت تفعل منذ اكثر من اربعين عاما مضت .. انها لم تتوقف مرة واحدة .. لاتتقدم ولاتؤخر .. العمر وحده هو الذي تقدم بها ، ولكنه لم يستطع أن يصنع معها ما صنعه صاحبها !



سوء الموعد !

لم يبق من الوقت إلا بضع دقائق .. في العاشرة تماما سوف يجيئون .. ابنته وزوجها واحفاده الثلاثة منها ، وابنه الصغير وزوجته وطفلهما الرضيع .. كلهم سيكونون معه ، سيقضي معهم لحظات سعيدة أمضى الاسبوع كله ينتظرها .. سيضمهم الى صدره ويقبلهم ويلعب معهم فوق الحشائش الخضراء التي تكسو أرض الحديقة تحت شجرة الليمون ، ويستمعون معا الى العصافير الصغيرة وهي تغني وتقفز فوق اغصان الشجرة التي احبها ، وتمنى لو أنهم كانوا مثلها قريبين منه !

لقد اعد لهم كل شيء يحبونه . بالامس بعث برسول ليشتري له الحلوى والشيكولاته .. انها هنا في انتظارهم . وخرج الى الشرفة .. لقد اقتربت الساعة من العاشرة .. وراح يرقب الطريق امام « البيت » .. ومرت الدقائق ولم يصلوا .. وبدأ يشعر بالقلق .. ماذا حدث ؟ هل نسوا .. هل اصاب احدهم مكروه .. لماذا تأخروا ؟ ربما كانت الطرق مزدحمة بالسيارات في العطلة ! من يدري ! وانقضى نصف ساعة ثم ساعة كاملة ولم يظهر احد ! وكان بوسعهم ان يتصلوا بي تليفونيا !! أو أن يأتي احدهم .. اي احد منهم ليقول لي انهم لن يتمكنوا من زيارتي هذا الاسبوع ! » ولكن شيئا من هذا لم يحدث !

ونزل الى الحديقة ، وجلس يستظل تحت شجرة الليمون ، ويسمع العصافير وهي تغرد .. وبدا له وكأنها تشاركه قلقه ، ترى ما الذي حدث ؟ أين هم الآن ؟ هذه هي المرة الاولى التي يتخلفون فيها عن زيارته في « بيته » الجديد منذ أن انتقل اليه قبل أكثر من خمسة أشهر !

ومر الوقت ثقيلا متباطئا ، وكان النهار قد انتصف أو كاد ، ولم يذهب لتناول طعام الغداء ، لم يشعر بالجوع . أحس برغبة في أن يعود الى غرفته ويلقي بجسمه المتعب فوق الفراش ويضع رأسه فوق وسادته ويستغرق في التفكير وفي الغوص في بحر الذكريات !

صورة من الماضي !

وانقضى اليوم ، وهو في فراشه لم يبرحه ، حتى اذا ما جاء الليل ، كان الألم قد بلغ به حدا لم يعد قادرا معه على ان يحبس دموعه التي ظل يقاومها طوال ساعات النهار ! وبكى الجد العجوز في وحدته . ووجد نفسه يسأل نفسه دون أن يشعر : لماذا ؟ لماذا جاءوا بي الى هذا المكان ؟ لم أكن ابدأ عبئا على احد .. عندي من المال ما يكفيني ويزيد .. كنت اعيش في بيتي الذي امضيت فيه أجمل سنى عمري مع زوجتي وأولادي .. لماذا لم يتركوني أكمل فيه رحلة العمر مع الذكريات التي كنت أجدها في كل شيء يحتويه . ان حالتي الصحية لا بأس بها لرجل في مثل سني ،

وقد كنت قادرا على ان اخدم نفسي بنفسي . لم اطلب يوما مساعدة من احد . كنت فقط حرا . اذا افتقدت ابنائي واحفادي ذهبت اليهم لأقضي وسطهم بضع ساعات اعود بعدها الى بيتي وفراشي .. والى الحياة التي اعتدتها . كنت اذهب اليهم دائما محملا بالهدايا .. وكنت اشعر انني اسعد رجل في الدنيا وانا اجلس وسط احفادي على الارض العب معهم واحكي لهم القصص التي يحبونها وكنت اقرأ في عيونهم اشياء كثيرة . كنت ارى فيها طفولة ابنائي .. وكنت انعم بضحكاتهم وبسماتهم وهم يجرون وراء الدب الصغير الذي ينطلق أمامهم على عجلات !

سجن بلا قضبان !

« لماذا حرموني من قضاء اسعد ايام عمري بجوار احفادي .. هل هو خوفهم الي من العيش في الوحدة التي كنت فيها ؟ ! ولكنني هنا اشعر بوحدة اشد وانسى .. انني اعيش في سجن بلا قضبان .. احس كما لو كنت قد اقتربت من رحلة لا بد وان امضي الى نهايتها وحدي بعيدا عن الناس وعن كل الذين احبهم .. لا ليست هذه هي النهاية .. لابد ان اترك هذا المكان .. لابد ان اعود الى بيتي والى ابنائي واحفادي ! اريد ان اعيش باقي ايام عمري وسط هؤلاء الذين احببتهم وعشت لهم ومن اجلهم ! »

لايهم ان نعرف كيف انتهت قصة هذا الجد العجوز الذي اختاروا له حياة الوحدة في بيت العجائز خوفا عليه ورحمة به .. ولكن المهم ان هذه القصة حدثت بكل تفاصيلها . هل اخطأ الابناء ام كانوا على صواب عندما حملوا والدهم الى هذا البيت بعد رحيل امهم ، ثم نسوا انهم تركوه فيه !

عندما يخطىء الابناء

من رأي علماء النفس ان الابناء يرتكبون خطأ كبيرا عندما يفرضون نوع واسلوب الحياة التي يرونها على آبائهم بعد ان تتقدم بهم السن .. حقيقة ان الحياة تغيرت ، واليوم غير الأمس ، والحاضر يختلف عن الماضي في كل صورة ولكن تبقى بعد هذا كله الرغبة عند هؤلاء الذين احرقوا شمعة حياتهم من اجل ابنائهم ، في ان يختاروا هم اسلوب الحياة الذي يروقهم في المكان الذي يختارونه هم ، طالما انهم يشعرون بان وجودهم لايشكل عبئا على احد ، وانهم قريبون من هؤلاء الذين احبوهم وما زالوا يعيشون من اجلهم . بالامس كانت الشيخوخة وساما يحمله الكبار ، ويستحقون المكافأة على هذا الانجاز الذي قضوا حياتهم كلها يعملون من اجل تحقيقه .. وكان الابناء والاحفاد يتسابقون على اسعادهم والترفيه عنهم ، فقد كانت الحياة اسهل مما هي عليه اليوم ، وكانت الروابط بين الاسرة اقوى واعظم ، فقد كانت المجتمعات بسيطة والحياة فيها غير معقدة . وكان البيت الواحد الكبير يجمع الاب والام والابناء والاحفاد .. كلهم تحت سقف واحد .. وكان الصغار دائما في خدمة الكبار .

المستقبل والماضي

اما حياتنا المعاصرة ، فقد اختلفت الصورة فيها تماما ، اصبح الاستقلال طابعها ، لايكاد الشاب يتخرج في الجامعة ويتزوج حتى يستقل بحياته الجديدة في بيت جديد .. واصبح المجتمع نفسه مسخرا لخدمة الشباب ، فهؤلاء هم المستقبل ، والابناء الصغار من بعدهم .. واصبحت الشيخوخة مرحلة تثير الخوف في نفوس الناس الذين بدأ العمر يتقدم بهم ، فتراهم يستعدون لها عندما يشعرون بها تزحف اليهم .. فهي تعني عندهم ان « الاستقلال » الذي ظلوا ينعمون به طول حياتهم قد بدأ يتداعى ، ويحل محله الاعتماد على الغير .. وهنا يأتي دور الأبناء ..

ولكن كيف ؟ ان دعوة الأب او الأم او الاثنين معا الى الاقامة في بيت ابنائهم حيث يكون من السهل تقديم الرعاية التي هم في حاجة اليها ، قد يكون حلا مناسبا ولكنه قطعا ليس الحل الامثل ، ففي اغلب الاحيان يرفض الآباء هذه الدعوة فتراهم يتشبثون ببيتهم القديم الذي قضوا فيه الجانب الاكبر من عمرهم .. ففي هذا البيت وحده يشعرون بالحرية والاستقرار اللذين لايجدانهما في اي مكان آخر مهما ازدادت ظروف الحياة صعوبة .. وحول هذا البيت الاصدقاء والجيران الذين قضوا معهم سنوات عمرهم في شبابهم وشيخوختهم ، وهم لايحتملون الافتراق عنهم ! كل شيء في البيت وفي الشارع وفي هذا الحي القديم الذي تريد ان تقطع صلتهم به يقول لنا إنهم مازالوا احياء .. وانهم هم لم يتغيروا .. كل ما في الامر ان خطاهم قد اصبحت اكثر بطئا ، وتحركاتهم اضعف مما كانت عليه ، وهي تزداد بطئا وضعفا كل يوم .

الا الشعور بالعطف

اذن ماذا ؟ تتركهم في بيتهم مع ذكرياتهم واسلوب حياتهم اللذي اعتادوا عليه ، ولكن لاتدع يوما يمر دون ان تتصل بهم وتعرف اخبارهم بوسيلة او باخرى ، والا تترك مناسبة تمر دون ان يكون لنا معهم لقاء طويل .. نزورهم

في بيتهم حاملين ابناءنا ، الذين هم احفادهم الصغار او الكبار حتى يمتلىء البيت بالذين يحبونهم ، ولا تنسى بعد هذا ان نحمل معنا ايضا كل ما هم في حاجة اليه . . ولا بأس من ان نقبل ثمن الغذاء والدواء الذي اشتريناه ، اذا كان المال لايعوزهم ، فليس هناك اسوأ من ان يشعر الكبار انهم قد اصبحوا معدمين حتى لو لم يكونوا كذلك ، وان ابناءهم انما يفعلون ما يفعلون شفقة بهم وعطفا عليهم . كل ما في الامر أن الابناء مروا بالسوق في طريقهم اليهم فاشتروا لهم ما هم في حاجة اليه ، لانهم اعرف بها من غيرهم !

رحلة مع الأمس

تروي جين اوستن قصة الام العجوز التي كانت تعيش وحدها في بيتها الذي لم تبرحه ابدا ، وكان ابناؤها يترددون عليها ، فلا يمر يوم دون ان يسأل عنها احد ابنائها ويطمئن عليها ويلبي لها طلباتها ، حتى اذا جاءت عطلة نهاية الاسبوع ، ذهب الابناء والاحفاد الى بيت الجدة العجوز لقضاء اليوم معها . . وكانت تسعد بهم ، وتصر على ان تعد لهم هي طعام الغذاء كما كانت تفعل رغم انها كانت قد جاوزت الثمانين . . وقد بدأ بصرها يضعف ولم تعد قادرة على ان تميز بين الاشياء . . وكانوا يتركونها تفعل ما تشاء . . فقط كانوا دائما قريبين منها ، حتى اذا اخطأت كان من السهل عليهم ان يتدخلوا بسرعة لاصلاح الخطأ . .

وكان لها صديقة تسكن في البيت المجاور لها تماما . . وكانت اصغر منها سنا بقليل ، وكانت لا تفترق عنها الا عندما يحين موعد النوم او يأتي ابناؤها لزيارتها . . كانتا تخرجان معا وتأكلان معا وتذهبان الى السوق القريبة معا . .

وكانت الام والجدة العجوز تجد في تلك الساعات القليلة التي يقضيها معها ابناؤها واحفادها رحلة جميلة يحملونها فيها الى الماضي ، وربما ايضا الى المستقبل الذي كانت تراه في وجوه احفادها ، وتتمنى ان تعيش معهم فيه !

مازالوا في حاجة الي

ولكن اجمل اللحظات كانت تقضيها الام هي تلك التي كانت تجلس فيها بعد الغذاء تستمع الى القصص التي كانت ترويها لها بناتها عن الاهل والاصدقاء الذين تعرفهم وما تزال تذكر كل شيء عنهم ، ولكنها لم تعد تعرف عنهم أي جديد الا من خلال ما كان ابناؤها يروونه لها . . بعضهن كن زميلاتهن في الدراسة ، وبعضهن بنات صديقاتها هي اللواتي رحلن مع ازواجهن وتركن الشارع والحي القديم الذي نشأن فيه منذ سنوات طويلة ولكن لم تنقطع صلة الابناء ببعضهن البعض . . ثم يلتقط الابناء الحديث ويروون لامهم كل شيء عن مشاكلهم في العمل ، ومشاكلهم مع زوجاتهم وابنائهم وماذا صنع أصغر احفادها مع زميله في المدرسة ! وكانت الام تجلس في مقعدها الكبير وتتابع قصص ابنائها وبناتها باهتمام شديدوكأنها لاتريد لها ان تنتهي ! وكانت تعيدها كلها على مسامع صديقتها !

سألتها صديقتها يوما : « الا تشعرين بالضيق وانت تستمعين الى كل هذه الحكايات التي لاتنتهي ! ؟ »

وقالت الام : « بالعكس . فهم يحاولون ان ينقلوا لي بعض ما في العالم الذي حولي ، بعد ان عجزت أنا عن ان انتقل اليه ! »

وتعود الصديقة تسأل : « ولكن كل هذه القصص عن مشاكل حياتهم ومشاكلهم مع اولادهم ، الا تشعرين بالانزعاج وأنت تستمعين اليها ! »

وتقول الام : « بل اشعر بان ابنائي مازالوا في حاجة الي ، وانني استطيع ان اساعدهم بما تبقى عندي من اقتراحات وحلول ! انني احس بان الحياة قد عادت بي عشرين عاما الى الوراء كلما جلست استمع الى حكاية من الماضي عن هؤلاء الذين اعطيتهم عمري ! » ■■

منير نصيف

● ابتسامة المرأة الجميلة . . شعاع من أشعة الشمس

فولتير

● تضحك المرأة متى تمكنت . . . ولكنها تبكي متى أرادت .

جورج صاند

في عالم
الخيول المملوكية

بقلم : جمال الغيطاني



اذا كان للخيل عند العرب مقامها المميز ، فانها عند المماليك كانت لها مكانتها الرفيعة ، وعالمها الملىء بمختلف عناصر الاثارة والتشويق ،

القاهرة المملوكية . .

تتجه الى ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلا طبيعيا الى عالم رحب ، وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطى ، لم يتغير موقع السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، انواع عديدة من الخيول ، لكنها موزعة على ثلاثة اقسام رئيسية ، الخيول العربية انفسها ، واعلاها قيمة ، مطلوبة للسباق ، وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ، ونجد ، واليمن ، والشام ، والعراق ومصر وبرقة ، النوع الثاني : تركي أو عجمي وكانت تسمى الهماليج ، او الاكاديش . مرغوبة لصبرها على السير الحثيث ، وسرعة المشي ، والنوع الثالث : مولد بين العربية والاعجمية ، اذا كان الاب أعجميا والام عربية قيل له هجين . وان كان العكس قيل له مقرف ، وهو وسط بين النوعين السابقين ، اما الخيول الافرنجية فهي اقل الانواع ، وارخصها ثمنا هنا ، ولا يقبل عليها احد .

الخيول العربية ذاتها تنقسم الى عدة انساب ، الحجازي اشرفها ، والنجدي ايمنها ، والمصري افرهها ، والمغربي انسلها ، وعندما ترد الى السوق خيول مؤصلة فانها تعرض على السلطان . كان السلاطين مهتمين جدا باقتناء انفس الانواع ، وانقى الانساب ، كان الناصر بن قلاوون شغوفا بجلب الخيول العربية ، وبسببها بالغ في اكرام العرب من آل مهنا وآل فضل المتخصصين في احضارها له ، ولم يكن يبخل بأي ثمن ، حتى اتته العرب بأجود الانواع . ولم تبق طائفة الا قادت اليه عتاق خيلها . وافرد لها دفاتر تسجل انساب الخيل ، كما تسجل انساب الادميين . وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية الاف فرس في اصطبلاته . اما السلطان برقوق ـ الذي هدد تيمور لنك بخيوله البرقية العربية ـ فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس . كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة ، والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكي على دعامتين ، الفارس ، والفرس ، ربما كان هذا سببا قويا في اهمية سوق الخيل ، وقربه من قلعة الجبل ، مركز الحكم ، ورمز السلطة في مصر وقتئذ ، في السوق نرى الوانا عديدة ، غير ان الالوان الاساسية اربعة ، وما عدا ذلك متفرع عنها ، الاول : اللون الابيض ، وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها الفرس البوز ، ويذكر ابن اياس في بدائع الدهور ان السلطان الغوري عندما خلع على قرقد بيك العثماني اهداه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش . ولا يذكر خروج السلطان الغوري في الموكب الا ممتطيا فرس بوز ابيض .

اللون الثاني : هو الاسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليه « ادهم » ، والثالث هو اللون الاحمر ، ويسمى الكميت ، واللون الرابع هو الاصفر .

ومعرفة ألوان الخيل امر ضروري بالنسبة للفرسان وقادة الوحدات العسكرية ، واحيانا كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم ، وجرى العرف ان يكون ركوب الادهم اي الاسود يوم السبت ، ويوم الاحد للابيض ، والاثنين للاخضر ، والثلاثاء للكميت ، والاربعاء للابلق وهو ما كان بياضه بين بين ، ويوم الخميس للأشقر ، ويوم الجمعة للمحجل .

ولهذا الالوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم على اللون العام للفرس ، وانما يتعلق الامر ببعض العلامات في جسده ، فالغرة اى البياض الذي يكون في وجه الفرس ، اذا استدارت او كانت تشبه حرف الحاء فانها تدل على اليمن والبركة . واذا اصاب البياض صدغا دون الآخر ، فان الفرس يكون مكروها ، ويتشاءم منه . كذلك ان غطت عينا دون الاخرى ، فيصبح من المتوقع ان تقتل مع صاحبها ، اما اذا غطت العينين فانها تقهر مع فارسها ، وان مالت الى اليمين تدل على الشؤم ، والى اليسار فانها تدل على المكاسب ، وان وصلت الى الانف فانها تدل على البركة والخير ، واذا كان هناك لون يخالف لون الفرس في رجلين مختلفتين فانه مكروه ، وفي سنة ٨٠٢هـ ـ ١٣٩٩م ، كسر الامير تنم وسقط اسيرا ، واستفسر المؤرخ ابن تغري بردى عن

سبب وقوع الامير عن فرسه ، ثم اسره ، فقالوا ، كان في فرسه شؤم ، واشاروا الى هذه العلامة ، وقالوا ان اصحابه نهوه عن ركوبه فأبى .

الفرس السباق

في سوق الخيل تلاحظ ان المشترين والفاحصين يطيلون التحديق لاختبارها وفحصها ، والفروسية له قواعد ، فلابد ان تنظر الى الفرس في جميع حالاته ، خاصة اثناء الجري ، والفرس الجيد ، الفرس السابق يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغره كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين الثفانه ، واذا نظر الانسان الى آثار قوائمه وقت جريه ، وقاس مابينها ، فإذا كانت ست اذرع ، يكون فرسا سباقا ، واذا كانت المسافة اربع اذرع او ثلاثا فهو بطيء ، اما من اربع اذرع الى خمس فيكون متوسط الجرى ، كما يجب ان يكون صافيا عند الصهيل ، فهذا دليل صحة الرئتين ، وعلامات اخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها ، وسجلتها كتب الفروسية ،

اذا ما فرغنا من التجول في سوق الخيل ، فاننا نصعد قليلا الى القلعة ، الى باب السلسلة ، هنا اكبر الاصطبلات في البلاد ، اصطبل السلطان بما يحتويه . .

الاصطبل السلطاني

. . البناء مسقوف داخل القلعة ، جيد التهوية ، يضم عدة منشآت ، اولها المكان المخصص لايواء الخيول ، الارض مفروشة برمل ناعم ، اوباعواد من خشب ، وذلك حتى اذا راث الفرس او بال ، فيروم الرمل ، ويأتي برمل يابس غيره ، او اعواد اخرى نظيفة ، والتراب غير مستحب لان البول اذا اختلط به يحدث رائحة قذرة ، لأن الرطوبة تلين الحوافر بخلاف الارض الصلبة ، سواس الاصطبل يمسحون ابدانها صباح كل يوم وينظفونها ، كما انهم مسئولون عن تمريغ الفرس بعد المجهود الذي تبذله في الجري لتليين اعضائها ، من المباني الملحقة بالاصطبل ، (الركاب خاناه) ، اي المكان الذي تحفظ فيه معدات الركوب ، من السروج ، واللجم ، والكنابيش ، والمراكيب ، واردية الخيول ، والمخالي ، كثير من هذه المعدات محلي بالذهب ، او الفضة ، ويقول المقريزي انه رأى بعض الركاب مصنوعة من الذهب الخالص ، المسئول عن هذا الجزء هو المهتار (كبير الغلمان) ومعه عدد من الرجال لمعاونته ، وكان الاصطبل يحتوي على ما يلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل كامل .

يسمى الاصطبل وملحقاته بالاصطبلات الشريفة ، اما ما يخص الامراء فيطلق عليه الاصطبلات السعيدة ، وينقسم الاصطبل السلطاني الى عدة اقسام ،

الاصطبل الخاص الشريف وبه الخيول الخاصة بالسلطان

اصطبل الحجوره ، وبه الخيول الخاصة بلعبة الكرة ، او الرياضة ،

اصطبل الجوق ، وبه خيول المماليك التابعين للسلطان

اصطبل البيمارستان ، وبه الخيول الضعيفة

اصطبل الجشار ، وبه الخيول الهرمة التي حان اجلها

اصطبل البريد ، وبه خيل البريد

ونلاحظ ان الخيول الهرمة او الضعيفة لم تكن تقتل ، كما يحدث في عصرنا ، بل يخصص لها مكان تقيم به حتى تلفظ انفاسها ، وترحل مكرمة ،

ومن المباني الملحقة ، الجامع السلطاني بالاصطبل ، ولأن المكان يؤي الخيول رمز القوة ، فقد كان السلاطين ينزلون اليه ، ويجلسون فوق المقعد المطل عليه ، ويديرون امور الحكم ، ويسبق نزولهم موكب الاصطبل الذي يتكرر مرتين في الاسبوع ، السبت والثلاثاء ، وبدأت هذه العادة منذ ايام السلطان برقوق ، وفي زمن السلطان تمربغا الظاهري ،

سار المنادي معلنا بأن كل مظلوم أو من له شكوى عليه الوقوف بالاصطبل يوم السبت والثلاثاء للنظر في شكواه ، وكثيرا ما كانت تنفذ العقوبات الفورية في الاصطبل ، يقول ابن اياس انه في جمادي الآخرة سنة ٨٧٢هـ ، تغير خاطر السلطان الظاهر ابي سعيد تمربغا على القاضي خروف فضربه بين يديه بالاصطبل ضربا مبرحا ، كما كانت مبايعة السلطان تتم في الاصطبل احيانا ،

في سنة ٧٨٤هـ حضر الخليفة المتوكل على الله ، وقضاة الاسلام الاربعة وعلماء العصر الى الاصطبل السلطاني ، وقلدوا - برقوق - امور العباد والبلاد .

وفي سنة ٨٠١هـ تكرر نفس المشهد بالاصطبل عندما بويع فرج بن السلطان برقوق بالسلطنة ، وتقلد امور المسلمين ، كذلك بويع قايتباي العظيم في الاصطبل ، وكثيرا ما تم عرض المماليك في الاصطبل ، كما جرت فيه مشاورات عديدة لتوزيع الثروات ، أو لحسم المنازعات ، وكانت اصطبلات الأمراء تعكس مدى اهمية الامير وقوة مركزه ، ونفوذه ، بعدد ما تحتويه من خيول ، ومسجد السلطان حسن هذه التحفة المعمارية القائمة في مواجهة القلعة ، بني مكان اصطبلين كانا يملكها الامير يلبغا اليحياوي ، والامير الطنبغا المارواني ، وكان نواب السلاطين بالشام يمتلكون اصطبلات ضخمة ، وكثيرا ما كان السلطان ينفق عليها ، كما حدث في زمن السلطان بيبرس ، ومن تلاه من ملوك .

وظائف الاصطبل

المسئول الأول هنا هو امير آخور كبير ، وآخور كلمة فارسية تعني العلف أو العليق ، اي انه امير العلف ، ولايتولى الوظيفة الا امير مقدم الف ، اعلى رتبة بين المماليك ، ولا يتولاها الا اهل الثقة ، بل ان هذه الثقة وصلت الى حد ائتمانهم على حريم السلطان ، كما حدث في عصر الناصر محمد بن قلاوون عندما ائتمن امير اخور على حريمه ، وأمره بالخروج معهم الى الحجاز ، كما انه زوج الأمير يشبك امير آخور ابنته ، كما كان السلاطين يسيرون في جنازات امراء اخوريتهم . وفي ايام الفتن كان الاصطبل اول ما يتعرض للنهب ، وذلك لكسر شوكة صاحبه ، وتجريده من قوته ،

حدث في زمن السلطان المنصور ابي بكر بن الناصر محمد أن تكتل الأمراء ضده ، وما ان علم بذلك حتى اسرع الى الاصطبل وامر ايدغمش امير آخور بشد الخيل للحرب ، لكن الامير اخبره انه لم يبق في الاصطبل غلام أو سائس ، عندئذ علم السلطان ان امير اخوره قد خذله ، وانه هزم ، كذلك عهد السلاطين الى امراء اخوريتهم بكثير من المهام السياسية والعسكرية ، وذلك لحنكتهم وقدرتهم . ففي سنة ٨٠١هـ توجه سودون الطيار أمير آخور الى الشام لكشف اخبار ابن عثمان ، وفي سنة ٩٢٠ هـ عين السلطان الغوري الامير قاني باي امير اخور قائدا للتجريدة التي توجهت الى حلب ، ومن قبل في سنة ٨٠٣ هـ توجه امير اخور الى تيمور لنك بكتاب السلطان .

وكانت الوظيفة ترشح صاحبها ليتولى مناصب اعلى ، حتى السلطنة نفسها ، فالسلطان برقوق كان امير اخور ، والسلطان يلباي ايضا ، ولكن احيانا كان امير آخور يرقي الى منصب اكبر ، ولكنه من الناحية العملية اقل نفوذا ، حدث ذلك للامير جقمق العلائي في سنة٨٣٧هـ عندما رقي الى امير مجلس ، واشار عليه أصحابه بأن امير آخور كانت افضل له من ناحية المنفعة والنفوذ ، واذا كان لابد من التغيير فليختر امير سلاح لتعوضه هذه الوظيفة عما فاته ، وظل يسعى حتى تحقق ذلك .

يعاون امير آخور في ادارة الاصطبل السلطاني موظفون آخرون لهم درجات ومراتب ، منهم السراخور ، وهذه الكلمة مركبة من لفظين فارسيين معناهما ، كبير العلف ، وهم كبار المسئولين عن علف الدواب ، اما الغلمان وسواس الخيل والاسطوات فهم الذين يتولون خدمة الخيول مباشرة ، يقومون بتنقية العليق ، ويطعمونها بأمانه .. لأنه لا لسان لها يشكو الا الى الله تعالى ، ولاتسجل كتب التاريخ حوادث اختلاس من العلف ، والله اعلم ! .

وكان السواس يعلقون احرازا في رقاب الخيول تشتمل على آيات من القرآن الكريم . وقد عاب أحد مؤلفي كتب الفروسية عليهم ذلك ، لأنها تتمرغ في القذارة ، ولاتخرج الخيول من الاصطبل مرتدية مايتفق ، فلكل لون زي من العبي والكتابيش ، الفرس الاسود له العباءة البيضاء ، والدوال الابيض ، والاشهب له العباءة السوداء والدوال الاسود ، والاحمر له العباءة الحمراء ، والاشقر له اللون العسلي ، والاصفر له العباءة التي من نفس لونه ، أما اذا كان الفرس بوزا أي ابيض ، فان لون العباءه يكون بنفسجيا ، واللون الاخير يطل علينا به جواد السلطان الغوري في مواكبه وخرجاته التي وصفها ابن اياس ، ايضا فان الوزن المحدد لكل فرس محدود .. وقد فضل العارفون بالجياد المائه والعشرين رطلا ، تشمل وزن الفارس والسلاح ، والعدة ، حتى لاترهق الفرس ، وهذه الخيول مدربة عبر عناء طويل وصبر ، فالخيول ذات نفوس عزيزه ابيه ، وليست كغيرها من البغال أو الحمير ، ان فرس السلطان دربت على ان تحمل البزاة بالجلاجل ، وتعليق الاجراس وحمل الصولجان ، والخوض في الماء ، وتخطي السواقي ، والقعود في رفق ، وبقية الخيول مدربة على دخول الأزقة ، والأسواق ، والمرور بين الجماعات ، والنظر الى الاعلام ، والأشياء الضخمة العجيبة ، كالافيال ، والاسود ، والزراف ، واذا خاف لايضرب حتى لاينفر ويجزع ، انما يؤخذ برفق ، كما انها مدربه على الدوران برفق ، والقعود ، والانعطاف يمنة ويسرة ،

وهناك قواعد دقيقة تنظم عملية اللجم ، وتتعدد أنواعها ، كذلك السروج .

وأحيانا كانت الامور المالية تنعكس على الناس ، لقد كان المماليك يبالغون في كسوة خيولهم ، ومن هنا فرض بعض السلاطين ضريبة خاصة بالعبي ، لكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الغاها سنة ٧١٠هـ ، كما كانت بعض الاضطرابات سببها اكل الخيول من تبن وشعير ، كان يصرف للمملوك جراية من الخبز لطعامه ، وجراية من الشعير لاطعام خيوله ، وفي سنة ٨٥٩هـ ، ثار المماليك الجلبان واشاعوا الفوضى وتوجهوا الى بولاق ونهبوا شون الامراء ليحصلوا على الشعير لخيولهم ، وفي سنة ٨٦١هـ كان احد مطالب المماليك من السلطان ان يكون الشعير والتبن مغربلا ، وفي سنة ٩٢٠هـ ، انتقد المماليك السلطان الغوري لان العليق الخاص بالخيول مسوس لاتقبل عليه الجياد ، ونزل السلطان عند رغباتهم وأمر بصرف العليق المغربل لهم وفي الربيع كانت الخيول تخرج الى المراعي لتأكل البرسيم ، وكان هذا يسبب بعض الخطورة احيانا ، ففي سنة ٧٥٥هـ عندما هزم السلطان حسن من مملوكه يلبغا ، البس مماليكه في القلعة ، لكنه لم يجد لهم خيلا ، لان الخيول كانت ترعى في مراعي الربيع ، ولكن في حالة المخاطر الخارجية كانوا يقصرون الفترة الزمنية ، أو يستدعون الخيول من مراعيها ، وفي فصل الصيف اعتمدت الخيول على الدريس ، ونظرا لأهميته عمد المماليك الى تخزينه ، وفي سنة ٩١١ ه ، عندما بدأ الشاه اسماعيل الصفوي يستعد لمهاجمة البلاد ، أكثر المماليك من تخزين الدريس ، وصاروا يمسكون الناس غصبا لنقله ، وسرى الارتباك بسبب ذلك ، وقال العامة : اهرب ياتعيس ، والايمسكوك الدريس ،

وفي سنة ٩٢٢هـ عندما اشيع اقتراب ابن عثمان من بلبيس صدر امر باحراق الشون المحتوية على التبن والدريس والقمح والشعير ، حتى لاينهبها عسكر ابن عثمان ، فتزداد خيولهم قوة ، وكان المصروف على عليق الخيول مبالغ ضخمة .

السلطان بيبرس كان ينفق على دوابه ودواب من يلوذ به في كل سنة ثمانمائة الف درهم ، وكانت خيوله تستهلك خمسةعشر ألف عليقة في اليوم الواحد ، أي ستمائة اردب ، والسطان برقوق ، بلغ عليق خيوله في الشهر أحد عشر الف اردب شعير وفول ، وكان الذي يشرف على كل هذه الشئون هو امير اخور كبير . . .

استعراض القوة

نتجه الآن الى احدى ساحات السباق ، ان الفروسية ترتبط ارتباطا وثيقا بالرياضة ، وسباق الخيل اهم الوان الرياضة ، واكثرها استعراضا للقوة ، كان السلطان بيبرس يأمر عساكره بالركوب الى الميدان الاسود تحت القلعة ويتراكضون فيه ، وجرت على ذلك عادة السلاطين من بعده الذين خصصوا ساحات متعددة للسباق ، واعتاد العرب ان يسموا ساحة السباق بالحلبة ، اما موضع المسابقة فيسمى بالمقمار ، والمدى يسمى غايته ، وتكون الغاية طبقا لما يتفق عليه ، وكانوا يجعلونها مائة غلوة ، والغلوة رمية السهم العربي ، وهي خمسمائة ذراع ، وقد تجعل من مواضع معلومة الى مواضع معلومة ، وهذا ما طبقه المماليك .

ويذكر المقريزي انه رأى بميدان القبق عواميد من رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عامودين مسافة بعيدة ، وانه كان بين قبة الامام الشافعي وباب القرافة ميدان تسابق فيه الامراء والاجناد ، واسلوب السباق الذي نراه في الساحة يتلخص في وقوف الخيل في الميدان ، ثم تصف على المقوس ، اي الحبل الذي يمد في صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كالمشط المنظوم ، ثم ترفع المقوس كاسرع ما يكون ، فتنطلق عشرة ، عشرة ، دفعة واحدة ، والسباق يحتاج الى فارس ذكي عارف باحوال الخيل ، خفيف الجسم ، قليل اللحم ، في عصر السطان الناصر اهداه الامير العربي مهنا فرسا شهباء للسباق ، وطلب الا يركبها عند السباق الا بدوي ، وجاءت هذه الفرس في مشهد طريف تحفظه لنا كتب المقريزي وابن تغري بردي ، اذ كان يركبها بدوي بدون سرج ، وقادها عبر السباق وهو يرتدي قميصا وطاقية فقط ، وسبقت كل الخيول ،

وهناك ساحات اخرى كان المماليك يلعبون فيها الكرة أو الجوكان ، وهي اللعبة المعروفة الآن باسم« بولو » ، اهتم السلاطين بها وخصصوا لها الخيول ، والموظفين ، كان الواحد منهم يسمى الجوكندار ، أي الذي يحمل الجوكان ، وهي عصا مدهونة طولها نحو من اربع أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطة محدودبة تنيف على نصف ذراع ، ويقسم ميدان اللعب بخطوط بيضاء ، ويقف فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة ، ويحاول كل منهم جذب الكرة التي توضع في وسط الميدان ، وكان المهزوم يقيم وليمة كبيرة ، واحيانا كان السطان يتحمل نفقاتها تخفيفا عن المغلوب ، وقد حدث ان توفي الملك السعيد

محمد بن الظاهر بيبرس عقب تعثره بفرسه اثناء لعبه بالكرة عام ٦٧٨هـ .

وكان تدريب الفارس يبدأ منذ أيام الصغر ، في البداية يعلمون القراءة والكتابة ويلقنون آيات القرآن الكريم وتعاليم الدين ، ويلقنون الاخلاق المثالية ، وفي المرحلة التالية يؤخذ المملوك بالشده فيتعلم السباحة ، واللعب بالسيف ، والضرب بالرمح والقذف بالاطواق ، وركوب الخيل ، ويبدأ تعليمه الخيل بتعوده على الوثوب والنزول على تمثال للفرس من الطين أو الخشب ، فان أتقنه جعل على التمثال سرج ، فان اتقنه ، ارتدى السلاح ووثب به ، ثم يبدأ الوثوب على فرس عارية من السرج ثابتة ، فاذا حذق ذلك تدرب على ركوب فرس مسرجة ، وطرق اخذ الاعنة ، وامساك الرمح ، فإذا اكتسب الخفة ، تمرن على السوق شيئا فشيئا ، حتى يصل الى الركض بالفرس ، ثم يتمرن على ركوب الفرس والنزول عنه أثناء ركضه ، أو القفز خلف فارس راكب ، ثم يتدرب على القتال بالاسلحة ، والتقاطها من الأرض وهو راكب ، ثم يتدرب على الالتفات والدوران ودخول البرجاس ، وعند بروز مواهب المملوك ، فانه يشترك في مبارزة أو سباق ، وعند ثبوت شجاعته تكون مكافأته ان يعتق ، وترد اليه حريته ، ويوكل اليه امر احدى الوظائف ويكتب له اقطاعها ، « جزء من الأرض يستغله كما يشاء » ، ويمنح خيلا وقماشا ، ويترقى في سلوك الوظائف حتى يصل الى ماشاء له حظه ، كثيرا ما جنح بعضهم الى مطالعة العلم ، ودراسة الادب ، أو كتابة الشعر .

وشجاعة الفرسان المماليك ليست في حاجة للبرهنة عليها ، واماما حروبهم خلال فترة دولة المماليك البحرية وابقاعهم بالفرنجه وهم خلاصة جنود اوروبا ، وهزيمتهم للتتار الذين اشاعوا الرعب في العالم ، ومن ازهى مشاهد التاريخ واكثرها اثارة للحنين ، والخيال ، وصف ابن اياس والمقريزي ، وابن تغري بردي ، وغيرهم ، لركوب فرسان المماليك ، ونزولهم من القلعة تمتطين خيولهم بينما تسمع قعقعات اسلحتهم ، وتبهر العيون الوان جيادهم ، وارديتهم ، والكنابيش المطعمة بالذهب ، وتلك المباهاة بالقوة والفروسية .

في الحرب والسلم

يعد الفارس سنوات من اجل لحظات أو ايام قليلة عندما تنشب الحرب ، كذلك الخيول ، وكما يتوزع المحاربون على اقسام الجيش المختلفة ، فان الجياد كذلك ، هناك خيول النوبه ، وتخص السلطان ، والقواد ، وهي مسرجة دائما ، في الليل والنهار ، تقف في اقرب مكان من السلطان احتياطا لكل مفاجأة ،

وخيول الطلائع ، مخصصة للاستكشاف ، ولابد ان تكون من اجود الانواع سليمة الحوافر ، لاتجمح ، وخيول السرايا ، تضم انواعا ممتازة ترسل للاغارات السريعة على العدو ، وسميت بالسرايا لانها تسرى بالليل ، اما الكيمة ، فيجب ان تكون قليلة الشغب ، لاصهيل لها ، ولاحمحمة ، صابرة ، لاتضجر ، حسنة الاخلاق ، لاسعال بها ، ولاخراط ، ولابد ان تكون كلها ذكورا أو اناثا ، اذ ان اجتماع ذكر الخيل واناثه ربما اثار الجلبة ،

أما الخيل الطواسن ، فهي صعبة الانقياد ، لاتنفع منها ، وتلك لها وظيفة في الحرب اذ تضرب بالسياط ، وتدفع بالضجيج صوب خيم العدو لاشاعة الرعب فيه تمهيدا لهجوم الفرسان عليهم ، ويتردد تعبير جرائد الخيل كثيرا في كتاب ابن اياس « بدائع الزهور » ، وتلك تستخدم لاتباع المهزمين ، ومطاردتهم ،

وفي ايام السلم ، يتم الركوب وفقا لتقاليد ونظم ، فأول المواكب ، هو موكب تقليد السلطان ، تقدم اليه فرس النوبة بسرج مذهب ، وكنبوش مزركش ، واذا هم بالركوب يقرأ الفاتحة ، وعند وضع رجله في الركاب يقول : بسم الله ، سبحان الذي سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون ، ويخرج راكبا والأمراء مشاة بين يديه الى ظاهر القاهرة ، حيث يلبس خلعة السلطنة ، ثم يدخل من باب الفتوح ، أو باب النصر ، والوزير بين يديه راكبا فرسه حاملا عهد السلطان الذي كتبه له الخليفة بسلطنة مصر فوق رأسه ،

وكان هناك موكب الركوب في العيدين ، ومن شعاراته ان يكون في عنق فرس السلطان رقبة من حرير اصفر ، وكانت الغاشية تحمل بين يدي السلطان ، وهي غاشية سرج محلاة بالذهب ، يحملها الركبدار رافعا لها على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا ، وامام السلطان ايضا يركب الجفتاوات ، وهما اثنان من موظفي الاصطبل متقاربان في السن ، عليهما قباءان اصفران ، وعلى رأسيهما قبعتان مزركشتان ، وتحتهما فرسان اشهبان يشبهان فرس السلطان ، كأنهما معدان لركوبه ،

ومن المواكب الاخرى التي يركب فيها السلطان موكب

الاصطبل ، ومواكب الكرة ، وموكب كسر الخليج ووفاء النيل ، وموكب دوران المحمل ، وموكب الصيد والأسفار .

وكان كبار الامراء يركبون الخيول النفيسة ، اما اتباعهم فيركبون البغال ، كذلك كان اصحاب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء يركبون البغال ، وان كان يسمح للمتعممين بركوب الخيل واقتنائها كمظهر من مظاهر احترامهم ، اما عامة الناس ، فيركبون البغال .

نعود الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ولازال دلائل عديدة تكشف اهميتها ، فالسلاطين أوصوا مماليكهم بألايقفوا في اسواق العطارين ، والقماش ، والصاغة ، ولكن يجب ان يقفوا بسوق الخيل ، أو سوق السلاح ، أو سوق الكتب .

ولأن سوق الخيل يتضمن العديد من معاني الجهاد ، ولان السلاطين يؤمنون ببركة الخيل ، فقد جرت عادتهم على الاحتفال بشفائهم هنا ، واذا مرض عزيز لديهم يأمرون ببيع احد الخيول الثمينة بالسوق ، والتصدق بثمنه على الفقراء ، هكذا فعل السلطان برقوق ، والاشرف برسباي ، والسلطان خشقدم ، والمؤيد شيخ ، والسلطان الكامل شعبان .

ولأن السوق قريبة من القلعة ، فكثيرا ما وقع فيها العديد من ، الاضطرابات السياسية ، والاقتصادية ، ففي سنة ٧٤٢هـ ، تجمع افراد من الشعب بسوق الخيل ، وطالبوا بذهابهم إلى الملك الناصر والعودة به ، وفي سنة ٨٤١ هـ ، عندما مرض السلطان برسباي واصبح احتمال موته قريبا ، تجمع المماليك بسوق الخيل تحت القلعة ، وتوجد اسواق اخرى تكمل سوق الخيل ، منها سوق المهمازيين لبيع المهاميز والتي صنع بعضها من الذهب أو الفضة ، وكان هذا نادرا ثم بطل مع مرور السنوات ، أما سوق اللجميين فتباع فيه آلات اللجم مما يتخذ من الجلد ،وكان بعضها يصنع من الجلد البلغاري الاسود ، أما سوق الجوخيين فمخصص لبيع الجوخ المستورد من بلاد الفرنجة ، وكان يصنع منه ثياب السروج . .

وتفارق عالم الخيول ، وسوق الخيل ، وكل ما يتعلق بها ، بعد ان طواها الزمن ، وهان امرها ، واصبحت في عموم أحوالها تجر العربات الكارو المحملة بالأثقال ، وتسام العذاب ، وفي احوال الحظ ، تستخدم كحيلة راكدة في المواكب ، وبعض الاستقبالات الرسمية . ●●

القاهرة : جمال الغيطاني

القانون

● اضطر بياس الفيلسوف يوما ان يحكم بالقتل على اعز اصدقائه عملا باقتضاء القانون . فما كاد ينطق بصيغة الحكم حتى شرع في البكاء وسط المحكمة . فقيل له ما يبكيك وانت الحاكم المطلق تغير الحكم كيف شئت . فقال انما بكيت اسفا وحنانا على من اصيب بنكبات الدهر ولكن القانون فرض على ان لا اعتبر هذه الطبيعة ولا اجرى على اميالها .

الشاعر والامبراطور !

● كان فردريك الاكبر يحب الشعر . فينظم قصائد ركيكة ، ثم يعطيها لفولتير لاصلاحها له .. فلما تشاجرا طرد فردريك فولتير قائلا : « اننا نلقى قشر البرتقالة بعد ان اعتصرناها » .

فلما سمع فولتير ذلك ، قال مشيرا الى تنقيحه لشعر الامبراطور : « لقد كنت اغسل للامبراطور ثيابه القذرة » .

القريب .. البعيد !



■ أبدا أنت هنا ، فوق متاهات حياتي
فوق إصراري على البعد ، وفوق الذكريات
في دمي ، في عمق أعماقي ، بأطياف سباتي
يقظة في كل حين ، رهج ملء جهاتي
أرج من مطر الأحلام ، عذب النفحات
سهر للفكر ، والروح ، حياة لمواتي
أبدا أنت خيالي البكر ، نار اللهفات
من سنا حسنك يندي الحسن شفاف السمات
أنت ذاتي ، ياسماء أسكرت بالعطر ذاتي
موجت حبا وضيئا ، من سنيّ الغانيات
فاذا بالقلب روض ، عبقري الزهرات
مرحبا يافرح الغابات ، شمس الكلمات
لست أخشى الموت إن عشت أيا خلد رفاتي !

***

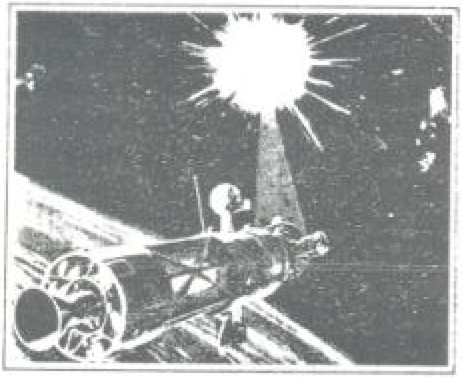
يا ارتواء المتعب اللهفان عبر الفلوات
وغنى المعسر في ضنك السنين المحلات
وحصاد الشوق ، من أحلام كل الغانيات
عدت ؟ ما أحلى معادا يتصبى رغباتي
عدت ؟ ماأشهى ربيعا هلّ كالصبح المواتي
عدت ؟ ماأسمى انتصارا قد سرى في عزماتي
أشرق الكون بمرآك ، وجنّت نبضاتي
واستجدّ الروح حلما ، صيغ من ماضيّ وآت
سوف أشدو بك ماعشت أياكيد عداتي
وسيبقى حبّنا الخالد أنغام حداة !

جدة ـ حسن عبدالله القرشي

أسلحة ليزر السوفياتية في عام ١٩٩٠

● يمضي العمل على قدم وساق في تطوير أشعة ليزر وتنويع الأغراض التي يمكن استعمال تلك الأشعة من أجلها .. وتشمل تلك الأغراض فيما تشمل صحة الانسان وعلاج بعض الأمراض التي ما زال يعاني منها .. ولكنها تشمل أيضا الفتك بحياته .. أفرادا وجماعات .. ونشر الدمار في الحروب ..

ولعل النجاح الذي أصابوه في تطوير أسلحة ليزر الفتاكة يفوق كل ما أحرزوه في تطوير أجهزة ليزر للأغراض الطبية .. ولعل الاتحاد السوفياتي هو المتقدم في السباق الذي كان وما زال قائما بينها وبين الولايات المتحدة في هذا الصدد ، هذا على الأقل ، هو ما يؤكده خبير قسم الأبحاث الفنية الهندسية في وزارة الدفاع الأمريكية ـ البنتاجون ـ واسمه ريتشارد دي لاور **R Delaouer** . فقد ذهب الخبير الى أن الاتحاد السوفياتي سيتمكن من اطلاق أقماره الصناعية الخاصة بأشعة ليزر في غضون السنة المقبلة (١٩٨٣) . وسيكون في وسع الأقمار السوفياتية تدمير الأقمار



الأمريكية الخاصة بالتجسس والمواصلات في برهة وجيزة وكأن شيئا لم يكن . وقد لا تأتي سنة ١٩٩٠ حتى يصبح للاتحاد السوفياتي ـ كما يقول الخبير الأمريكي ـ مجمع هائل ودائم في الفضاء الخارجي .. ويصبح في مقدوره بالتالي القضاء على مختلف الأسلحة الأمريكية ، الدفاعية منها والهجومية وسواء منها الأرضية أو البحرية أو الجوية أو حتى الفضائية .

ومما يذكر أن تنبؤات الخبير الأمريكي هذه لم تكن بلا أساس .

وتجدر الاشارة الى أن الدولتين العظميين اتفقتا منذ سنة ١٩٦٧ على حظر أسلحة الفتك والدمار الجماعي التي تعمل من الفضاء الخارجي ... ولكنهما فشلا في الوصول الى اتفاق يشمل الأقمار الصناعية المضادة للأقمار ويشمل أيضا أسلحة ليزر الفضائية ...

الجزر : يقي من سرطان الرئة

● هل تريد تجنب الاصابة بسرطان الرئة .. ؟ عليك اذن بتناول الجزر بكمية كافية يوميا ..

هذه ليست وصفة شعبية ، لا تضر اذا لم تعد بفائدة .. بل انها نتيجة لدراسة علمية ميدانية مطولة نشرت خلاصتها المجلة الطبية البريطانية « لانست » في شهر ديسمبر الماضي (١٩٨١) وقد قام بهذه الدراسة نفر من العلماء

اعداد : يوسف زعبلاوي

الباحثين بأشراف الدكتور ريتشارد شكل Dr. R. Shekelle ..أحد كبار الاطباء العاملين في مركز شيكاجو الطبي المعروف بـ Rwsh Presbyterian Stlukes' والغريب أنهم باشروا هذه الدراسة سنة ١٩٥٧ ولم يستوفوا جمع المعلومات فيها وينصرفوا الى تصنيفها واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها الا مؤخرا ، بعد مضي ١٥ سنة على بدء تلك الدراسة .

وقد شملت الدراسة الميدانية ألفين (٢٠٠٠) من الرجال العاملين في شركة وسترن الكتريك Western Electric كانوا كلهم من متوسطي الاعمار .. وراح العلماء يسجلون تاريخ هؤلاء الرجال ، بالمفهوم الطبي ، ويرصدون مايقبلون على أكله من الوان الطعام وما لايقبلون ... قصدهم من ذلك تحديد العلاقة بين المواد الغذائية والأمراض .. وخاصة مرض السرطان ..

ذلك أن دراسات أخرى كانت قد اجريت في الخمسينات ، وشملت الحيوان فضلا عن الانسان ، واشارت الى أن في فيتامين (أ) بعض الوقاية من السرطان ـ سرطان الرئة بالذات ... وبدا هذا الكلام وجيها في نظر الدكتور شكل نظرا لان مهمة الفتامين (أ) أصلا هي الاسهام في نمو الأنسجة التي تبطن ممرات الهواء في الرئة .. الأنسجة الظهارية epithelial tissue وبدت تلك الدراسات السابقة بحاجة الى مزيد من بحث وتمحيص فكانت بمثابة نقطة بدء للدراسات الواسعة النطاق التي قام بها الدكتور شكل وصحبه .

وميزت الدراسات الجديدة بين نوعين من الفيتامين (أ) ، النوع المستهلك او الممارس Performed ويوجد في



سيارة تكسي المستقبل

، السيارة التي ترى في الصورة هي سيارة التاكسي التي ابتكروها مؤخرا في مونتريال في كندا .

وتمتاز هذه السيارة بمقاومتها للصدمات والخدوش .. فهيكلها مصنوع من مادة البوريثين ، من اسفله ولارتفاع يقارب المتر .. كما يدل على ذلك اللون الاسود الذي يغطي نصف السيارة الاسفل .. فمن خصائص البوريثين ان ألواحه تمتص الصدمات وتعود الى حالتها الاصلية بسرعة .. وهو غير قابل للخدش وكأنه الزجاج ويقاوم التآكل .. وقد ركبت هذه الالواح بحيث يسهل على السائق استبدال التالف منها ، اذا تلف ، في غضون دقائق معدودة .

وتمتاز السيارة بمزايا اخرى عديدة نذكر منها ابوابها العريضة التي تسمح بدخولها والخروج منها بسهولة فائقة .

الحليب والجبن والزبدة والبيض ويسمى **Retinol** والنوع الآخر من فتامين (أ) هو الذي يصنعه الجسم من الكاروتين **Carotene** . ويوجد هذا الكاروتين بكثرة ، كما هو معروف ، في الجزر والسبانخ والكوسى والطماطم والبطاطس الحلوة والتفاح ويوجد أيضا في اللفت والقرنبيط .

ولم تجد الدراسات الجديدة أية علاقة بين السرطان وبين ما يتناوله عمال شركة وسترن الكتريك من الرتنول ، أو البيض ومستخرجات الألبان التي تحتوي على الفيامين (أ) المذكور . ولكنها وجدت مثل تلك العلاقة بين سرطان الرئة وبين ما يتناوله العمال من فواكه وخضار تحتوي على مادة الكاروتين .

وتفصيل ذلك أن العلماء حصروا اهتمامهم بمجموعتين من العمال .. قوام كل منهما ٥٠٠ رجل بل ٤٨٨ رجلا بالتحديد . وكان رجال إحدى المجموعتين ممن يقبلون على تناول الاطعمة التي تحتوي على كاروتين .. بينما رجال المجموعة الاخرى لا يقبلون .. وأثبتت الفحوص أن عدد المصابين بسرطان الرئة بين هؤلاء الذين لا يكثرون من تناول الكاروتين بلغ (١٤) ولم يزد على (٢) بين رجال المجموعة الاولى الذين يقبلون على أكل الجزر أو السبانخ أو التفاح أو الخضار والفواكه الأخرى التي تحتوي على الكاروتين .

ويعقب الدكتور شكل على بحوثه هذه بأنها ليست نهائية وأن العلاقة بين سرطان الرئة والكاروتين ما زالت بحاجة الى بحوث أخرى عديدة تحدد تلك العلاقة بدقة وتفصيل .

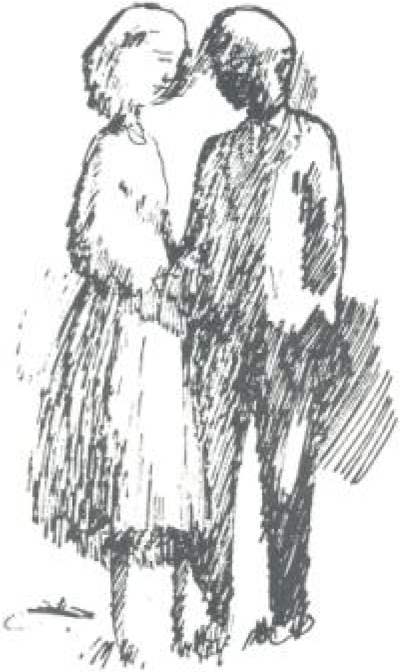
إلا أنه حذر بشدة من الافراط في تناول حبوب الفتامين (أ) التي يمكن الحصول عليها من الصيدليات .. فهذه تحتوي على مادة كيماوية يمكن أن تصبح سامة اذا تناولها المرء بجرعات كبيرة .. والأمر ليس كذلك فيما يتصل بالفواكه والخضار الغنية بالكاروتين .. فالافراط في تناول هذه لا يضر أبدا .. ومع ذلك فنصف كوب من عصير الجزر يوميا كاف ، في رأي الدكتور شكل ، لتجنب سرطان الرئة حتى في الذين يعتبرون عرضة للاصابة بهذا المرض .

بصمات العيون ..

نعم .. حتى العيون لها بصمات .. فشبكية العين في اي فرد تتميز عما هي عليه في اي فرد اخر . وبصمتها لا تقل دقة في تحديد هوية المرء عن بصمات اصابع اليد .

هذا ما اكتشفه احد العلماء الامريكيين في مطلع هذه السنة .. وقد دفعه اكتشافه هذا الى ابتكار جهاز الكتروني يستطيع تصوير بصمة عين الانسان .. تصويرا الكترونيا فوريا .. والجهاز يعمل تلقائيا ولا يحتاج الى عامل يديره .. فهو لا يحتاج الى اكثر من الضغط على زر ليقوم بوظيفته .. ويقوم بهذا الضغط الشخص المراد تحقيق شخصيته .. فهو ينظر عبر عدسة الجهاز ثم يركز بصره على نقطة معينة .. وعندها يضغط على الزر .. فلا يلبث الجهاز ان يوافيه بصورة لبصمة عينه .. ويقرر في الوقت نفسه ما إذا كان من الاشخاص المسموح لهم باجتياز الحاجز او الدخول او المحظور عليهم هذا وذلك .. فالجهاز يحتفظ ببصمات عيون الكثيرين ممن يهمه امرهم ويقارن بين هذه البصمات والبصمة التي صورها لتوه ويتخذ قراره بالسلب او الايجاب ..

وغني عن البيان ان قوام هذا الجهاز كمبيوتر صغير جدا وآلة تصوير هي الأخرى صغيرة للغاية .. من هنا كانت السرعة الخارقة والدقة الفائقة التي يؤدي بها وظيفته والتي تفوق الأسلوب التقليدي في تحقيق الهوية الشخصية باعتماد بصمات اصابع اليد .



رعاية الآخر

بقلم الدكتور :

عبد الله محمود سليمان

ان رعايتك للآخرين وحبك لهم هو أعظم استثمار لانسانيتك !

« هل تهتم بي وترعاني ؟ سؤال يبدو أن قائله ضعيف يائس قد رحل عنه أهله ، ولم يعد له أحد يستند اليه حين تفزعه الحياة !

ولكنني محتاج اليك مثلما تحتاج انت الي ـ هل نسيت انك كنت يوما طفلا صغير الحجم ، محدود الحركة والادراك ، لاتستطيع ان تفعل لنفسك شيئا ؟! لو لم تمتد اليك تلك اليد الحانية ـ يد أمك ـ بالماء حين كنت ظمآن ، وبالطعام حين كنت جائعا . . لو لم تربت هذه اليد على جسمك تخفف عنك الالم ، وتوصل اليك الحنان ، لما كنت اليوم على قيد الحياة ! والآن ، تحس في نفسك بعض القوة ، وتظن واهما أنك قد ملكت زمام الحياة من حولك . لا أريد ان اتهمك بقصر النظر ولا بالغباء الاجتماعي ، لأني اهتم بك . . بل أنا أشفق عليك ، ان يأتي ذلك اليوم الذي تستجدي فيه الاهتمام حين يهن جسمك ، وتشيخ ذاكرتك ، وتحتاج الى من يأخذ بيدك عبر الطريق .

ولكني اهتم بك برغم انك لاتهتم بي ، ولذلك اكتب اليك ، وأنا لا اهتم بك أنت فقط ، بل اهتم بكل من اعرف . لاتعجب فأنا افكر دائما في الانسان ، وأتأمل في طبيعته ، وكلما فكرت فيه ، تأكدت من أن رعاية الآخر جزء أصيل من طبيعته . فالانسان يولد عاجزا ، ولولا رعاية الآخر له ، لما استمرت حياته ثانية واحدة . فلولا رعاية الأم والاب والاخوة ، ولولا رعاية الطبيب والمعلم والمهندس . . لولا رعاية الآخرين لنا ، لما استمر احدنا على قيد الحياة .

سأهتم بك وارعاك ، برغم انك لاتهتم الا بنفسك ، ولاترعى الا ذاتك . عفوا ! فاني لا أزعم أني قد بلغت من القوة قدرا يجعلني أتخطى ضعفك ، وأتجاوز أنانيتك . ان لي ضعفي ، ولذلك فاني احتاج الى من يرعاني ويهتم بي ، وأنا أجد في اهتمام صديقنا « عمر » بي ما يعينني على هذا الضعف . لكن هل سيستمر لي اهتمام عمر أم أني سأنظر حولي يوما فلا أجد من يهتم بي ؟. لو حدث ذلك فاني سأعجز حتى عن أن أهتم بك وأرعاك . أترى أن اهتمام صديقنا عمر بي هو الذي يمدني بالقوة ويمنحني القدرة على الاهتمام بك ؟ حقيقة اني اهتم به اكثر مما اهتم بك . . لاتعجب ، فهو يسقيني رحيق زهوره لترتد اليه عسلا ، وتنال انت بعضا منه . »

◄

كنت استمع اليه وكياني كله معه . وفرغ من قراءة الخطاب ، ونظر الى فارتسمت على وجهه دهشة كبيرة ، وقال : ـ انك معي تماما !

ابتسمت ، فقال : ـ لم يعطني أحد مثل هذا الاهتمام !

قلت ـ ألم تقل أن كلا منا يحتاج الى الآخر .

وشرع يمزق الخطاب ، فأمسكت يده برفق ، فتوقف ، فسألته : ـ لم تفعل ذلك ؟

قال : ـ حسبي منك هذا الاهتمام .. لن أرسل اليه هذا الخطاب ، اني لا احتاج اليه .

قلت ـ هذا يناقض فلسفتك .. لايوجد انسان لاتحتاج اليه .

قال : هو لن يفهم هذا الكلام .

قلت : ـ من يدري ؟

قال : ـ كلا ! لن يفهمه ، فهو غارق في انانيته .

قلت مؤكدا : ـ ربما كان فيه بقية من انسانية .

فكر لحظة ثم قال : ـ سأحتفظ بهذا الخطاب مع اوراقي ، شاهدا على ان في مجتمعنا أنانيين .

ـ في كل مجتمع أنانيون .

ـ ولكنهم في مجتمعنا الكثرة الغالبة .. بل النادر أن تجد انسانا مخلصا .

حاولت ان يوصل صوتي اليه فهمي لموقفه ، فقلت : ـ انت متشائم جدا

قال في نبرات يائسة : ـ انها رحلة الحياة الكئيبة مع الآخرين .

حاولت ان اطمئنه ، فقلت : ـ لاتقنطوا من رحمة الله .ـ ليرحمنا الله .. ما اشد حاجتنا الى رحمته .

اردفت قائلا : ـ ان الله رحيم .. هل سترسل الخطاب ؟ . . .

أرى أن ترسله

لن تجف الانسانية ما دام في الانسان قلب ينبض .. ربما حرك خطابك مافي صديقك من الخير المدفون في اعماق نفسه .

بدأ توتره يقل ، وانبسطت اسارير وجهه قليلا ، وقال :

سافعل ، فقط لانك اعطيتني من الاهتمام ما لم يعطه احد لي . . . لابد ان عندك حكمة

قلت مشجعا : ـ انها حكمتك انت . . . التي تجعل قلبك يصفو للآخر .

وحياني بوجه مطمئن .

وبعد أيام لقيته يقبل علي بوجه يفيض بالبشر ، وبادلته سعادة بلقائه ، ولا ادري فيما كنا نتحدث ، فقد طغت حلاوة الحديث على مضمونه ولكني سألته فجأة :

ـ هل جاءك رد ؟

ـ كلا . . . لم يجيء رد ، ومضى وقت طويل .

ـ لاتستعجل

ـ كلا . . . . لن أستعجل . . . وحسبي اني حاولت ان أصل الى انسان فلم استطع

ـ وان جاءك رد

سأهتم به

لقد بهرني هذا الصديق . لم أكن قد التقيت به إلا منذ أيام قليلة ، كنت في نادي الجامعة اتناول قدحا من الشاي . لمحته ينظر الى وقبل ان يبتعد بوجهه ابتسمت له ، فرد تحيتي وقال في تردد :

ـ حضرتك استاذ علم نفس .

ـ نعم

ـ هل أستطيع ان أسالك سؤالا ؟

ـ بكل سرور .

بادرني بالسؤال مباشرة . ـ هل يدرس علم النفس « الصداقة » ؟

ـ علم النفس يدرس الانسان ، والصداقة من اهم خصائص الانسان .

ـ والحيوان . . . أليس قادرا على الصداقة ؟

ـ بالتأكيد ، الحيوان قادر على الصداقة .

قال بشيء من الأسى :

ـ صداقة الحيوان عندي أفضل من صداقة الانسان . ان لي صديقة ، قطتي الصغيرة ، أحبها جدا ، وأجد مشاعرها نحوي أكثر ايجابية من مشاعر كثير من البشر .

قلت : ـ لابد أنها تخلص لك .

قال : تخلص لي وتسعدني .. لو رأيتها ساعة ان أدخل المنزل ، وهي تقفز ، وترقص .. تموء كأنها تناديني ، وتشكو مضايقة الصغار . أشعر أنها تحدثني .. ليتني أفهم لغتها .

ثم أضاف ـ وحين أجلس لاستريح أو لأطالع كتابا ، تجلس بجواري على نفس المقعد ، أو تحت قدمي ، تلصق جسمها بي في اطمئنان جميل ، وأحس أنها تستمتع بصحبتي .

ـ الحيوانات وفية .

صاح مؤكدا : الحيوانات أوفى من الانسان !

قلت : يبدو أنك لا تثق في بعض الناس .

قال : لقد أخذت من وقتك الكثير ، لكن هل استطيع أن آخذ عشر دقائق أخرى ؟ ابتسمت وقلت بكل سرور . ليس عندي ارتباط عاجل .

ـ سأقرأ لك خطابا

وقرأ خطابه .

أثار حديث ذلك الفتى في نفسي خواطر كثيرة .

الرعاية والاهتمام ، هما هو جوهر الحياة الانسانية .. هما ركن أساسي في طبيعة الانسان وهما أيضا مشكلة حياته .

حين أراد جوزيف شوبن ، استاذ علم النفس بجامعة كولومبيا ، ان يحدد صفات الانسان السوي ، اعتبر رعاية الآخرين والاهتمام بهم صفة هامة من هذه الصفات . وهي صفة لا تضاف الى الانسان ، بل هي تنبع من صميم طبيعته ، فالطفل الانساني - كما يرى شوبن يتميز بالعجز وعدم التكامل البيولوجي ، ويصاحبه العجز فترة طويلة من حياته ، وطوال هذه الفترة ، لا يستطيع الطفل اشباع حاجاته الأساسية بمفرده ، بل لا بد من أن يتم اشباع حاجاته بواسطة شخص آخر ، واذا لم يوجد هذا الشخص الآخر ، فان حياة الطفل لا تستمر . ومن هنا يعتبر شوبن ما اسماه « المسئولية الاجتماعية » صفة هامة من صفات الانسان السوي . والمسئولية الاجتماعية تعني أن الراشدين مسئولون عن الصغار . وان الأقوياء مسئولون عن الضعفاء ، وأن الذين يقدرون مسئولون عن الذين لا يقدرون ، وأن الأخ مسئول عن أخيه ، وأن كلا منا مسئول عن الآخر .

ان السلطة والقوة في رأي شوبن ترتبطان بالمسئولية والغيرية ، بأن يعتبر الانسان القوي ذو المركز نفسه مسئولا عن اشباع حاجات الآخرين .

أين ذلك مما يحدث في مجتمعنا ! بل أين ذلك من قول الرسول الكريم : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ، وقوله « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ... »

الاتري معي أن الانسان منا يتلهف على السلطة حتى يمتلكها ، ليثبت للناس انه قادر على المنع قبل العطاء ، وانه قادر على ارهاب الناس قبل تطمينهم ؟ قلة قليلة هم أولئك الذين يمتطون السلطة فيطوعونها لخدمة الآخرين ... الغالبية العظمى من الناس تركبهم السلطة كانها عفريت يسخرهم لأذى الآخرين ولا يدرى هؤلاء اى تخريب يحدثون في مجتمعهم ، فهم يدمرون حماس الناس للعمل ، ويملئون ايامهم بالشقاء ، ويفجرون فيهم قوى التدمير .

ان رعاية الآخر شرط اساسي لاستمرار الحياة الانسانية - لكن ما هو المقصود بالرعاية ؟ كان س . جلبرت رن استاذ علم النفس الارشادي بجامعة ولاية اريزونا يرأس حلقة بحث لمجموعة من طلاب الدراسات العليا بجامعة نيفادا في لاس فيجاس ، وقد سأل الاستاذ رن افراد هذه المجموعة ان يحددوا له معنى رعاية الآخر ، فقدموا له اربعين ورقة صغيرة ، استخلص منها الاستاذ رن ، ومن مناقشات الجماعة التعريفات الاتية :

الرعاية هي : ان تعرف القدر الكافي عن البيئة وعن عملية التعلم لكي تفهم مشكلات تعلم الانسان وعموما ، فالمعرفة هي صورة من صور الرعاية .

ان توصل للاخر انك تهتم به ، بان تقول له ذلك ، وان تنصت اليه جيدا ، وان تعطيه من وقتك الكثير (ولقد عرفت احدى المرشدات اهتمامها بالآخر ، بان وصفت ما عملته في ست ساعات امضتها مع مدمن مخدرات ، وثلاث ساعات امضتها مع اب مكتئب لخمسة اطفال ، وقد تطوعت بتخصيص ذلك الوقت لانها كانت تهتم بهذين الانسانين) .

ان تدعم ايجابيا تصور الانسان عن نفسه كشخص ذى قيمة .

ان تكون تحت تصرف الاخر تماما حينما تقول ذلك ، وان تهتم به بدرجة تفي فيها بوعودك .

ان تقول لا بحزم أحيانا مع استعدادك لتوضيح اسباب ذلك . واذا لم يحدث ذلك ، يمكن ان يفسر التلميذ « او الطفل في علاقته مع والديه » السماحة على انها تعني عدم الاهتمام وتعني عدم تكبد العناء لمناقشة الامور ، وعدم مشاركتك فيما يهتم به الاخر .

ان تعطي بدون توقع المقابل (وهذه صفة للرعاية والاهتمام وافق عليها اعضاء حلقة البحث بشدة) .

ان تؤيد دون ان توجه ، وان توضح للاخر انك تحب ان يبقي مستقلا وموجها لذاته .

ان تبتهج مع الآخر حينما يكون سعيدا ، وان تكون معه حينما يكون مضطربا .

ان تفهم الآخر فهما وجدانيا ، وان تضع نفسك مكانه بقدر ما تستطيع ، بينما تكون واعيا بذاتك . ان تكون ذاتيا وموضوعيا ، وان تكون مع الآخر ، ومع ذلك تظل مستقلا .

●●

رعاية الآخر والاهتمام به اذن تعني فهم الآخر ، وتشجيعه ، وتأييده . تعني ان تكون تحت تصرفه ، ان تسعد معه ، وان تشاركه اضطرابه ، وان تضع نفسك مكانه ، وتعني ان يكون اتجاهك هو رعاية الجميع وبذل ذاتك من اجلهم .

لكن واحدة من خصائص الرعاية والاهتمام تسترعي انتباه الاستاذ رن هي : ان تعطي بدون توقع المقابل .

هل يوجد انسان يستطيع ان يعطي دون ان يتوقع مقابلا ؟؟ هل يستطيع انسان ان يحب دون ان يعطي

الحب ؟ ربما استطاع ذلك قديس ، ولكن بالنسبة للانسان العادي ، بالنسبة لي ولك ، فان هناك مبدأ هاما يفسر سلوكنا هو « التدعيم » . فسلوكنا يستمر حين يكافيء ، وانا استطيع ان ارعي الآخرين وان اهتم بهم حين اجد شيئا من التقدير عند بعض الناس . عندئذ ، وعندئذ ، فقط استطيع ان ارعى الآخرين وان اهتم حتى بأولئك الذين لايهتمون بي .

وهنا اتذكر من خطاب ذلك الفتى الثاقب قوله لصديقه الجاحد : « اترى ان اهتمام صديقنا عمر بي هو الذي يمدني بالقوة ويمنحني القدرة على الاهتمام بك ؟! واذا فان رعاية الاخر لي ترد اليه رعاية مني وحبا ، بل ان اثر هذه الرعاية ليمتد مني الى الذين نضبت قلوبهم من حب الناس ، فينالون بعضا من هذه الرعاية .

(لكن حذار ان تتصور انك تستطيع ان تتجاهل الآخرين ، وتغفل رعايتهم ، بل وتعاملهم كأدوات وتستغلهم لتحقيق مآربك ، وتتوقع مع ذلك أنهم سيظلون يهتمون بك ويرعونك . . فنحن قد نرعي الآخر الذي يتجاهلنا ونهتم به اعتقادا منا انه يحتاج الى رعايتنا ، او انه ضعيف او عاجز عن الحب . . لكن ما ان نكتشف انه يستغلنا حتى نعزف عنه ونسقطه من حسابنا .

كان أحد رؤساء الأعمال ذا سلطان وشهرة ، وكان يعامل زملاءه على أساس ما يحققون له من منافع مادية ومعنوية . ولكي يحتفظ بفائدتهم له ، وتحقيقهم لمصالحه ، كان يلجأ الى التسلط احيانا ، والى اللين احيانا اخرى ، لكن هدفه كان استغلالهم . قيل لهذا الرئيس يوما : « لايجوز ان تعامل زملاءك بهذا الاسلوب . أتنسي ان السلطان سيزول عنك يوما حين تحال الى التقاعد وانك حينذاك ستحتاج الى زملائك حين تنفض الحياة من حولك ؟ قال منكرا : « لن احتاج اليهم ، ولن يحتاجوا الى . نحن نعيش في عالم الذي يكسب فيه هو الذي يستطيع ان يستغل . . واذا لم استغلهم فسيستغلونني هم . . كلا ! لن احتاج اليهم غدا . .

ورأيته حين أقبل الغد وأحيل الى التقاعد ولكنه ظل يؤدي بعض الاعمال في موقعه . كان في أشد الحاجة الى كلمة رقيقة ، ونظرة حانية ، واهتمام انساني ، بل رأيته بالامس حين كان يمارس سلطانه ، يداهمه اليؤس وتغلفه الوحدة ، ويصرخ قائلا : « انهم يعاملونني بالقانون . . لاتمسني قلوبهم ، ولايصلني حبهم . »

وكيف يحبونك ، وانت تسلبهم الحب ، وكيف يعاملونك كانسان وانت تسلبهم انسانيتهم ! اترى ياصديقي ان رعايتك للآخرين وحبك لهم هو أعظم استثمار لانسانيتك ! ■■

د . عبد الله محمود سليمان

قسم علم النفس ـ كلية الأداب ـ جامعة الكويت

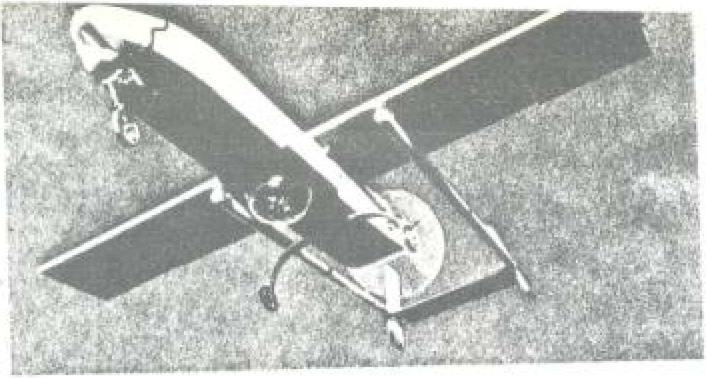
اعتذار !

● لاحظ عازف البيانو ارثور شنابل في بداية احدى الحفلات الموسيقية ان سيدة تجلس في الصفوف الامامية قد اخذتها سنة من النوم . وقد ظلت نائمة طوال الحفلة كلها .

وعندما انتهت الحفلة دوي التصفيق الحاد ـ وبينا كان الموسيقي ينحني ردا على تحية الجمهور استيقظت السيدة فجأة .. فانحنى شنابل للامام وقال لها معتذرا .. ـ ان التصفيق هو المسئول ياسيدتي .. فانني كنت اعزف بهدوءقدر الاستطاعة .

اين الخلل ؟

● قالت ربة البيت وهي تستقبل عامل اصلاح التليفزيون عند الباب : ـ ان الصورة واضحة الآن .. فقد تبادلت انا وزوجي نظارتينا بطريق الخطأ .



(سكاوت) الطائرة الاسرائيلية الصنع

الطائرات الموجهة ذلك السلاح الجديد الخطر

بقلم الدكتور سامي على شاكر

هذه الطائرات الصغيرة الحجم والموجهة لاسلكيا بدون الحاجة الى طيار لقيادتها ، تستطيع ان تقوم بكثير من المهام التي كانت حكرا على الطائرات التقليدية التي تفوقها حجما وكلفة .

في الثاني عشر من أيار مايو ١٩٨١ بلغ التوتر اوجه في منطقة الشرق الأوسط عندما تناقلت وكالات الانباء نبأ مفاده ان بطاريات صواريخ سام ـ ٦ (SA 6) السوريه المتمركزه في وادي البقاع في جنوب لبنان قد اسقطت طائرة اسرائيليه من على ارتفاع ١٥٠٠ متر بعد ان اطلقت البطاريات ثلاثة صواريخ اصابت اثنان منها الهدف . ولكن بعد الاعتداء الاسرائيلي على المفاعل النووي العراقي كشفت بعض المصادر العسكرية الغربية ان الطائرة التي اسقطت في جنوب لبنان لم تكن اكثر من طائرة صغيرة جدا نسبيا وبدون طيار وهي ما تسمى بالطائرات الموجهه . وبينما كانت بطاريات الصواريخ السورية مشغولة باسقاط هذه الطائرة كانت هنالك طائرة اسرائيلية اخرى من نفس النوع تطير على ارتفاع شاهق وتعمل بهدوء على جمع المعلومات فيما يخص خواص الرادار المستخدم في بطاريات سام ـ ٦ . وبما ان شبكة الصواريخ الدفاعية للجيش العراقي هي من نفس النوع فان هذه المعلومات كانت في غاية الاهمية في عمليتهم العدوانية ضد العراق اذ استخدموا هذه المعلومات الغاية في السرية من اجل التشويش على أجهزة الرادار العراقية ببث الترددات اللاسلكية المناسبة

هذه الحادثة تمثل احدث برهان يقدمه الخبراء العسكريون المتحمسون للطائرات الموجهه كمضاف الى سلسلة الادلة على فعالية هذا النوع من الطائرات . فما هي الطائرات الموجهه وما هي قصتها ؟

فوق فيتنام وكوريا

الطائرات الموجهة هي طائرات صغيرة بدون طيار توجه عادة من قواعد ارضية باستخدام اللاسلكي . ويتم اطلاق هذه الطائرات اما من قواعد ارضية متحركة مثل الناقلات العسكرية او من طائرات عسكرية تقليدية . وبعد ان تؤدي مهمتها يمكن استرجاعها بتوجيهها لكي تعود الى قواعدها . ويتراوح وزن هذه الطائرات بين (٢٠) كيلو غراما للانواع الصغيرة الى حوالي ١٠٠ كيلو غراما للانواع الكبيرة الحجم نسبيا . وقد يصل مدى هذه الطائرات الى دائرة نصف قطرها ٢٠٠ كيلو متر ويمكن ان تكتسب سرعه تصل الى ١٦٠ كيلو مترا في الساعة . وهذه الطائرات تزود عادة بمحرك كباس او بمحركين كما في الطائرات الاسرائيلية من نوع (سكاوت) التي تزن حوالي ١١٨ كيلو غراما ويمكن ان تحلق على ارتفاعات تبلغ ٣٠٠٠ متر بسرعة قد تبلغ (١٥٧) كيلو مترا في الساعة . وبعد ان تطلق من منجنيق محمول على شاحنة عسكرية فانها تطير تحت توجيه الطيار الآلي الموجود على متن

الطائرة . اما دور محطة التحكم الارضية فهو يقتصر على التحكم في وجهة الطائرة وارتفاع تحليقها . والطائرة مجهزة بآلة تصوير تلفزيونية تتدلى من بطن الطائرة وتقوم ببث الصور لا سلكيا الى المحطة الارضية . وقد ادخلت الطائرة بصورة رسمية في الجهاز العسكري الاسرائيلي . والطائرة سابقة الذكر تعمل برفاس (مروحه) ولكن هنالك نماذج اقل انتشارا تحلق بصورة عامودية وبواسطة رفاس افقي شبيه برفاس طائرة الهليكوبتر ، وبالنسبة للمهام الميدانية البسيطة فهنالك تصميم بسيط بدون محرك في هذا التصميم .

الطائرة تكون مربوطة بسيارة عسكرية بواسطة سلك يؤدي غرضا مزدوجا ، فهذا السلك يربط بين الطائرة والسيارة وفي نفس الوقت ينقل المعلومات التي تجمعها لاقطات الطائرة سلكيا الى اجهزة السيارة وتطير هذه الطيارة على ارتفاعات منخفضة تبلغ ١٠٠ متر ولفترة بضع دقائق . وتكفي لجمع بعض المعلومات عن ميدان القتال وهي تحلق عن طريق سحبها من قبل السيارة حتى تكتسب السرعة الكافية لتحليقها بسبب دفع الهواء لها ، بنفس الطريقة التي يستخدمها الاطفال بالنسبة للطيارات الورقية .

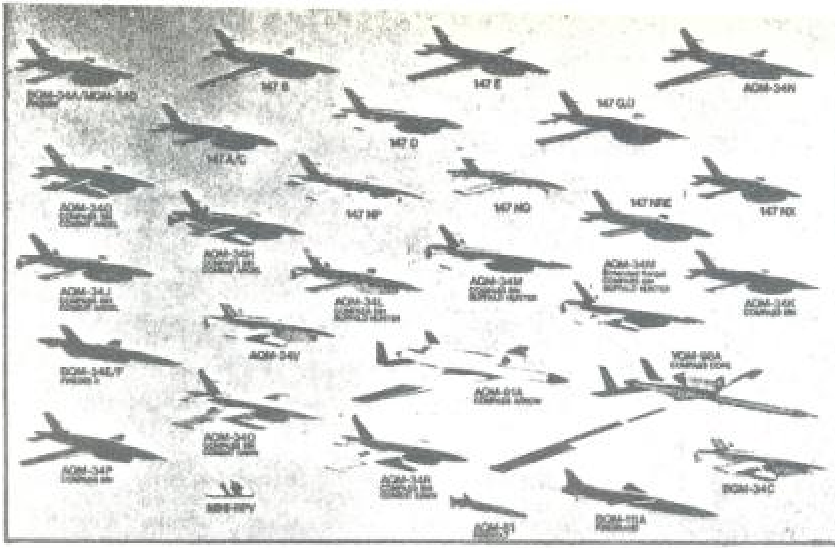
أما بالنسبة لتاريخ هذا النوع من الطائرات فالظاهر ان المانيا هي اول بلد استخدم هذه الطائرات . اذ من الثابت انهم في سنة ١٩٣٩ قاموا بتجارب ميدانية على عدة طائرات موجهة بدون طيار كما جهزوها بآلات تصوير خاصة للأغراض الاستطلاعية ، الا ان الفكرة لم تخترق النطاق التجريبي وظلت في طي النسيان بعد الحرب حتى قامت شركة طيران امريكية اسمها (ريان) بعد عقدين من الزمن باحياء الفكرة من جديد بتطوير نماذج محسنة من هذه الطائرات . الا ان الفكرة لم تلاق التشجيع من الدوائر العسكرية الا خلال التورط الامركي في فيتنام في منتصف الستينات ، اذ برهنت على فعاليتها وفائدتها كبديل للطائرات التقليدية في العمليات الاستطلاعية فوق فيتنام ، ولا سيما ان عدد الطائرات الامريكية التي كانت تسقط في هذه العمليات اخذت بالتزايد الى حد مقلق للمسؤولين الامريكان . وقد قامت هذه الطائرات الموجهة بأكثر من ٣٠٠٠ عملية تصوير تجسسية ناجحة خلال الحرب الفيتنامية . ولاقت الفكرة رواجا لا سيما ان نسبة الاصابات كانت اربعة في المائة أي ان لكل مائة عملية طيران من قبل هذه الطائرات الموجهة فان اربعة منها كانت تسقط في المعدل وهذه نسبة جيدة جدا اذ اخذنا بنظر الاعتبار خطورة العمليات التي كانت تؤديها . ومن المعروف ايضا ان هذه الطائرات استخدمت بصورة منتظمة في جولات تجسسية فوق كوبا وخاصة بعد حادثة اسقاط طائرة تجسس تقليدية ووقوع الطيار في الاسر مما سبب حرجا دبلوماسيا لأمريكا وقتها .

مهام الطائرة

والطائرات الموجهة تجد لها استخدامات في عدة مهام مختلفة فهي وسيلة مثالية في عمليات الاستطلاع . اذ يمكن تزويدها بآلات تصوير خاصة لتصوير المواقع الحساسة للعدو وكذلك يمكن تزويدها بآلات قياس راديوية لقياس خواص الموجات المستخدمة في رادارات العدو . ومن ثم تستخدم هذه المعلومات للتشويش على رادارات العدو . كذلك يمكن استخدامها في الاستطلاع للاغراض السلمية مثل المساحة ورصد الانواء الجوية . الاستخدام العسكري الثاني يتم بتزويدها بأسلحة خاصة لضرب اهداف معينة وعند تزويدها بأجهزة الكترونية خاصة فانه يمكن استخدامها لتوجيه اسلحة موجهة اخرى مثل الصواريخ الموجهة لاسلكيا . كذلك يمكن استخدامها للتشويش على اجهزة الرادار عند العدو بصورة فعالة اكثر من اجهزة التشويش الارضية لانها ستكون اكثر قربا من الرادار وفي موقع اكثر ملائمة لهذا الغرض كونها موجودة على ارتفاعات شاهقة . وبسبب رخص تكاليف هذا النوع من الطائرات فان الخبراء يقترحون ارسال سرب من هذه الطائرات الموجهة والمزودة بمتفجرات لكي تحوم فوق ارض المعركة وعند محاولة اي من اجهزة رادار العدو في ارسال اشاراتها فانها تنقض عليها لتدمرها فهي كالذباب الحائم الذي ينقض على إناء العسل حين كشف الغطاء عن

(ميراش ٣٠٠) طائرة موجهه متعددة المهام ، ايطالية الصنع مع قاعدة الاطلاق المتنقلة .





تشكيلة متنوعة من الطائرات الموجهة من انتاج الشركة الامريكية (تيليدايس ريان)

هذا العسل . وبعض الشركات المختصة في انتاج هذا النوع من الطائرات طرحت بعض النماذج المتعددة المهام التي تستطيع ان تؤدي اكثر من غرض في نفس الوقت .

احتمالات المستقبل

وفي حرب الاستنزاف (١٩٦٧) بين العرب واسرائيل استطاع زورق حربي صغير تابع للبحرية المصرية اغراق باخرة حربية كبيرة هي ايلات تابعة للبحرية الاسرائيلية . وسر نجاح هذه العملية كان استخدام سلاح لم يكن معروفا كثيرا ، هذا السلاح كان الصواريخ الموجهة وكانت هذه الحادثة سببا في تطوير الصواريخ الموجهة بصورة محمومة وادخالها بصفة رسمية في الجيوش العصرية اذا انها برهنت على فعالية هذا السلاح في الفتك حتى بالآليات الضخمة مما ادى الى ان اسرائيل اعادت النظر في جهازها الحربي البحري وبدلت البواخر الحربية الضخمة بأخرى صغيرة وجهزتها بالصواريخ الموجهة ، كما انها استخدمت الصواريخ الموجهة بصورة فعالة في حرب ١٩٧٣ والحادثة التي حصلت فوق الجنوب اللبناني والتي ذكرناها في بداية المقال لعبت دورا مشابها اذ انها فتحت اعين العسكريين على الامكانيات الضخمة لهذه الطائرات الرخيصة الثمن نسبيا . والواقع ، بالرغم من الانجازات التي حققتها هذه الطائرات في الحرب الفيتنامية فان الكثير من القادة العسكريين لم يقتنعوا بفعالية هذه الطائرات وكان هذا الشعور هو السبب في تردد الكثير من الجيوش الغربية في ادخالها في السلاح الجوي التابع لها .

ويعزي الخبراء في هذه الصناعة هذا التحفظ الى عقلية اكثر القادة العسكريين اذ يتهمونهم بالخوف من امكانية سلب هذه الطائرات الاهمية التي يتمتع بها الطيارون العسكريون في الجهاز العسكري ، ومن ثم التأثير سلبيا على عدد المتطوعين الذين تستهويهم روح المغامرة وبريق الانجازات البطولية . والحقيقة ان امام هذه الطائرات بعض النواقص التي يجب ان تتغلب عليها لكي تكون في مستوى يمكن الاعتماد عليها كليا في الحروب العصرية ، فمثلا كونها تعتمد على وسائل اطلاق واسترجاع خاصة تزيد من كلفة وتعقيد استخدام هذه الطائرات . كما ان كون التحكم بهذه الطائرات يتم عن طريق الاشارات الراديوية فانه نظريا يمكن التشويش عليها وتضليلها بحيث تصبح عديمة الفائدة الا انه من الانصاف الاشارة الى ان هذا السلاح ما زال في دور التجربة عموما وهنالك الكثير مما يمكن عمله لتحسين اداء هذه الطائرات ولا شك انها ستكون اضافة ممتازة للاسلحة العسكرية لا سيما بالنسبة للجيوش العربية التي تعاني عموما من نقص في عدد الطيارين المدربين تدريبا عاليا كما ان طبيعة المخاطر التي تواجه اكثر البلدان العربية هي من كيان مجاور يقع ضمن مدى هذه الطائرات . والمعروف ان اسرائيل تنتج هذه الطائرات وادخلتها في جيوشها واستخدمتها بنجاح في عدوانها ضد العرب فأحرى بالعرب ان يتعظوا والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين . ■■

د . سامي علي شاكر
استاذ مساعد الفيزياء ـ جامعة اليرموك ـ الاردن

غانم ابن أيوب المتيم المسلوب

بقلم : عباس خضر

يلحظ قاريء الف ليلة وليلة اتجاها غالبا الى تصوير نماذج للخير والانسانية تصارع قوى الشروط والاحباط ، حتى تنتصر في النهاية . حقا ان ذلك ملحوظ في معظم القصص بانواعها وازمانها واماكنها المختلفة ، من قديم وحديث ، سواء اكانت من كتابة كاتب معروف أم ترددها اجيال الشعب شفاها ثم تطبع . صراع بين الخير والشر يتخذ الوانا واشكالا . ولكن حكايات الف ليلة وليلة تقف استاذا للجميع ، وموحيا يوحي الى كتاب العالم ، غربيه وشرقيه ، وان كان الاولون « الغربيون » يأخذون بالنصيب الاكبر . يفوح منها عطر عرفناه في مجتمعنا العربي العريق ، اذ تجري الكلمة الشريفة مجرى العقد المكتوب ، ويشعر الانسان بانه انسان !

في هذه الحكاية (حكاية التاجر ايوب وابنه غانم وبنته فتنة) تحكي شهرزاد للملك شهريار ما وقع لغانم بن ايوب مع جارية هارون الرشيد ، يحبها ويتيم بها ، ولكنه عندما يعلم انها جارية الخليفة ابن عم رسول الله يناجي نفسه : لا ، ليس لي حق فيها !.

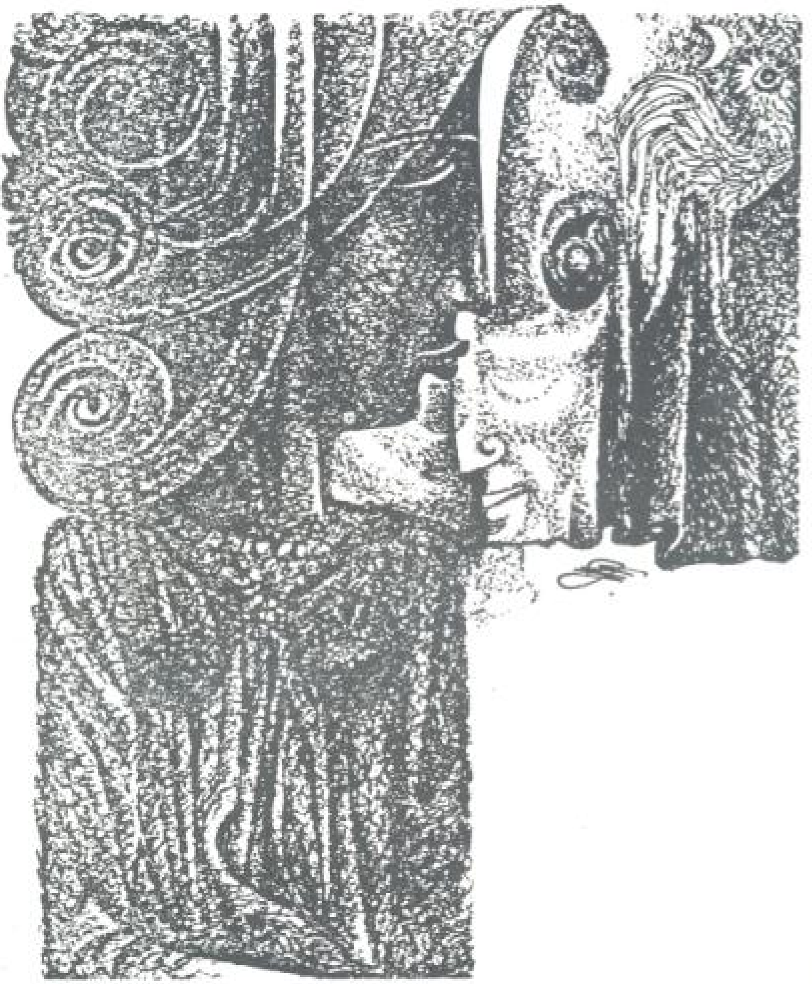
مثال رائع للأمانة وطاعة ولي الأمر الحاكم ، طاعة يحرسها الضمير في غياب السلطة !

وهارون الرشيد في حكاياتنا هذه مشجب تعلق عليه الحوادث بما فيها من لهو ومجون وترف زائد ، وما يكون من معاناة القلق في بعض الأحيان مما يدعو الى التسلي بالتخفي والتجول ليلا . وبطبيعة الحال ليس الامر تاريخا صحيح الوقائع منطقي السرد ، انما هو فن لا يتقيد بالصحة التاريخية وان كان يمسك بالزمام .. فهارون الرشيد هنا يلهو ويزاول الوان الترف الى درجة المبالغة المسرفة ، ولكن - بما انه خليفة المسلمين وابن عم رسول الله - لايقرب « المنكر » ويعف عن الظلم ويعطف على المنكوبين ويزيل كربة المكروبين .

الحكاية تقول

الحكاية تقول انه كان في قديم الزمان تاجر له مال وله ولد كأنه البدر ليلة تمامه ، فصيح اللسان ، يسمى غانم بن ايوب اليتيم المسلوب ، وله ابنة اسمها فتنة من فرط حسنها وجمالها .

توفي التاجر وترك لولديه مالا جزيلا .. من جملته مائة حمل بعير من القز والديباج ونوافج المسك والعطور ، كان



قد اعدها كي يقصد بها بغداد ويبيعها في اسواقها . فلما توفاه الله ومضت مدة ، أخذ ولده هذه الاحمال وسافر بها الى بغداد ، وكان ذلك في زمن هارون الرشيد . وقبل سيره ودع امه واخته واقاربه وخرج متوكلا على الله تعالى ، وكتب الله له السلامة ، حتى وصل الى بغداد ، فأستأجر دارا حسنة وفرشها بالبسط والوسائد وانزل فيها الاحمال والبغال والجمال ، ووفد عليه تجار بغداد واكابرها وسلموا عليه .

في صباح اليوم التالي اخذ اثوابا من القماش النفيس ونزل بها الى السوق ، فرحب به التجار وأنزلوه في دكان شيخ السوق . وباع القماش فربح في كل دينار دينارين .

لم يزل كذلك سنة كاملة ، وفي أول السنة الثانية جاء الى السوق كعادته . فرأى بابه مغلقا فسأل عن السبب ، فقيل له : توفي أحد التجار وذهب الجميع يمشون في جنازته .

سأل عن محل الجنازة كي يذهب اليه ويمشي معهم ، فدله الناس عليه ، وصل على المتوفي مع المشيعين ، وساروا مع الجنازة حتى وصلوا الى المقابر ، فوجدوا أهل الميت قد ضربوا خيمة واحضروا الشموع والقناديل ، ثم

دفنوا الميت وجلس القراء يقرءون القرآن . وجلس التجار ومعهم غانم بن أيوب وقد غلب عليه الحياء فقال في نفسه : لا يصح ان أفارقهم حتى أنصرف معهم .

فلما اقبل الليل قلق غانم وخاف على بضاعته من اللصوص ، وقال في نفسه ، انا رجل غريب ومتهم بالمال ، فان بت الليلة بعيدا عن منزلي سرق اللصوص ما فيه . فقام وخرج من بين الجماعة مستأذنا كي يقضي حاجة. سار غانم نحو المدينة حتى وصل الى بابها فوجده مغلقا ، اذ كان الوقت يشرف على نصف الليل ، لم ير احدا ولم يسمع سوى نباح الكلاب ، فقال : لا حول ولا قوة الا بالله ، كنت خائفا على مالي فصرت الآن خائفا على روحي . . .

رجع يبحث عن مكان ينام فيه الى الصباح ، فوجد قبرا محاطا بأربعة جدران ، وفيه نخلة ، وله باب مفتوح ، فدخل وأراد ان ينام ، فلم يجئه نوم ، واخذته رجفة ووحشة وهو بين القبور ، فقام ونظر فرأى نورا يلوح على بعد من ناحية المدينة ويتجه الى القبر الذي هو فيه ، فأسرع بالصعود على النخلة ليتوارى فيها ، ثم تأمل فرأى ثلاثةعبيد : اثنان يحملان صندوقا والثالث في يده مصباح وفأس ، ويدور حوار بين الثلاثة يعبرون فيه عن هواجسهم ، ويحكي كل منهم ما وقع له حتى صار و طواشيا ، وهم جالسون يستريحون وغانم بن أيوب فوق النخلة يسمع ما يقولون .

ثم قاموا وحفروا حفرة وضعوا فيها الصندوق وهالوا عليه التراب ، وانصرفوا .

حيلة العجوز

أما ما كان من أمر زبيدة فانها تحيرت ماذا تقول للخليفة عندما يعود من سفره ويسأل عن قوت القلوب ؟ فدعت بامرأة عجوز كانت عندها ، واطلعتها على الامر ، فاشارت عليها العجوز بان تعهد الى نجار في عمل صورة ميت من خشب ، وتحفر حفرة كالقبر في فناء القصر وتوضع فيها ، وتوقد حولها الشموع . . فاذا أتى الخليفة وسأل،يقولون له ان قوت القلوب قد ماتت ودفناها في القصر لمعزتها عندك . . .

عاد الخليفة من سفره ، وأخبر بموت قوت القلوب ، فحزن عليها ، وجلس بجانب القبر يبكي .

وذات يوم دخل الحريم بعد انفضاض مجلسه ، ونام ساعة وجارية عند رأسه واخرى عند قدميه ثم انتبه على حديث هامس بين الجاريتين :

قالت احداهما للأخرى : ـ ان سيدنا ليس عنده علم بما جرى حتى انه يسهر على قبر لا شيء فيه الا خشبة صنعها النجار . . .

وحكت الجارية لصاحبتها جميع ما جرى ، الى ان قالت انها سمعت ان قوت القلوب عند شاب تاجر اسمه غانم ابن أيوب .

قام الخليفة مسرعا واستدعى الوزير جعفر البرمكي وأمره ان يذهب مع جماعة من العسكر ويسأل عن بيت غانم بن ايوب ويأتي بقوت القلوب ، فأجابه جعفر بالسمع والطاعة

عرف جعفر بيت غانم ، وذهب اليه بمن معه من العسكر ، وأحاطوا بالمنزل ، لاحت من قوت القلوب التفاتة فوجدت البلاء احاط بالدار ، فعرفت ان خبرها وصل الى الخليفة ، فاصفر لونها ، ونظرت الى غانم فأهابت به ان يهرب ويتركها تتصرف فقال :

ـ كيف اخرج وقد احاطوا بالدار ؟

ألبسته ثوبا باليا ، ووضعت فوق رأسه قدرا فيها بعض الطعام ، وخرج بهذه الحيلة كأنه خادم ، ودخل الوزير ونظر الى قوت القلوب فقامت وقبلت الأرض بين يديه وقالت :

ـ يا سيدي ، جرى القلم بما حكم الله .

ـ لا بأس عليك ، فان أمير المؤمنين ما اوصاني الا باحضارك وبالقبض على غانم بن ايوب ، فاين هو ؟

ـ ذهب الى دمشق ، ولا علم لي بغير ذلك .

اتجهوا الى قصر الخلافة وهي معهم مكرمة ، أمر الخليفة ان يذهبوا بها الى مكان منعزل في القصر وان تلازمها عجوز لقضاء حاجاتها ، وقد ظن السوء بها وبغانم ، وأمر بالبحث عن غانم ، فلم يعثروا عليه .

هائم على وجهه

أما ما كان من أمر غانم بن أيوب المتيم المسلوب فانه سار هائما على وجهه حتى تعب وازداد به الجوع فقصد الى مسجد في البلد الذي وصل اليه ، دخل وجلس مسندا ظهره الى حائط المسجد وهو في شدة الجوع والاعياء ، وظل كذلك حتى الصباح ، رآه المصلون فقالوا له :

ـ من أين انت أيها الغريب وما سبب ضعفك وحزنك ؟ فتح عينيه ونظر اليهم وبكى . . . .

ذهب احدهم ، وجاء له بطعام ، فأكل واعتدل في جلسته ، ولما رأوا ما هو عليه من ضعف واعتلال ، اتفقوا على ان يرسلوه الى المارستان (المستشفى) ببغداد ، واحضروا رجلا معه جمل وقالوا له : احمل هذا الضعيف الى بغداد وانزله عند باب المارستان فسار به الجمال حتى انزله عند باب المارستان . رقد غانم بجوار الباب خائر القوى ، والتف حوله الناس ، وكان من جملتهم شيخ

السوق ، فرق لحاله ، وقال في نفسه : انا اكسب الثواب بهذا المسكين لأنهم ان ادخلوه المارستان عذبوه . . ثم امر صبيانه فحملوه الى بيته ، وأعد له فراشا في احدى الحجرات ، وقال لزوجته :

ـ اعتني بهذا المسكين واخدميه ، كي تنالي ثواب الله .

أجابت بالسمع والطاعة ثم شمرت وسخنت ماء ليغتسل به ، واحضرت له ثوبا من ثياب زوجها وقدمت له الطعام والشراب ، وبذلت في خدمته ما أعاد عليه صحته ، ولم يعد ينغص عليه الا بعده عن حبيبته قوت القلوب .

ولم تنس هي ايضا حبيبها غانم . وذات يوم مر الخليفة قريبا من مكانها ، فسمعها تنشد ثم تقول :

ـ يا حبيبي يا غانم ، ما احسنك واعف نفسك . . احسنت الى من اساء اليك ، وحفظت حرمة من انتهك حرمتك . .

فلما سمع الخليفة كلامها ذهب الى مجلسه وامر باحضارها ، فلما مثلت بين يديه أطرقت حزينة بالية فقال لها :

ـ يا قوت القلوب ، من هو الذي حفظ حرمتي وانتهكت حرمته ؟

ـ غانم بن أيوب ، وحق نعمتك يا أمير المؤمنين انه لم يقربني بفاحشة . .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، تمني علي وأنا أبلغك مرادك .

ـ أتمنى عليك محبوبي غانم بن ايوب . . .

ـ أحضره ان شاء الله مكرما ، واهبه لك .

ـ أشكر لك هذا العطف يا أمير المؤمنين ، وأرجو ان تأذن لي في البحث عنه .

صبيّة في صندوق

لما خلا المكان لغانم اشتغل باله بما في الصندوق ، فنزل من فوق النخلة ، وأزال التراب حتى كشف الصندوق وأخرجه ، من الحفرة ، ثم عالجه فانكشف الغطاء عن صبيّة نائمة فيه ، غائبة عن الوعي ، ذات حسن وجمال عليها من الذهب والقلائد مالا يقدر بمال .

أخرج الصبية من الصندوق وأرقدها على ظهرها ، فلما استنشقت الهواء عطست وسعلت فوقع من حلقها قرص مخدر ، ففتحت عينيها وتكلمت :

ـ من جاء بي من بين الستور والخدور ووضعني في هذه القبور ؟ فقال لها غانم وقد بهره جمالها :

ـ يا سيدتي ، لاخدور ولا قصور ولا قبور ، ما هذا إلا عبدك غانم بن أيوب .

ـ أيها الشاب المبارك ، من جاء بي الى هذا المكان ؟

حكى لها ما رأى وما جرى ، ثم سألها عن خبرها ، فقالت له : ـ أيها الشاب ، الحمد لله الذي رماني عند مثلك ، عند مثلك ، فقم الآن وضعني في الصندوق ، واخرج بي الى الطريق ، فاذا وجدت مكاريا فاكتر منه بغلا أو حمارا لحمل الصندوق ، وخذني الى بيتك ، وهناك أحكي لك حكايتي .

ففرح وخرج الى الطريق وقد أشرقت الشمس ، فاكترى بغلا وصاحبه لحمل الصندوق ، وساروا الى داره ، ثم اخرجها من الصندوق ، فنظرت فرأت المنزل مليحا مفروشا بالبسط ذات الألوان الجميلة ورأت قماشا واحمالا علمت منها انه تاجر ذو مال ، ونظرت اليه وتأملته فاذا هو شاب مليح ، فوقع حبه في قلبها ، كما وقع حبها في قلبه ، قالت له :

ـ هل عندك شيء نأكله ؟

ـ حبا وكرامة .

نزل الى السوق واشترى شواء وحلوى وغيرها ، وعاد الى البيت ، وأكلا وشربا وهما في غاية السرور .

لما أقبل الليل قام المتيم المسلوب غانم بن أيوب وأوقد الشموع والقناديل ، وجلسا يلعبان ويضحكان ويتناشدان الاشعار وقال لها :

ـ يا سيدتي ، ائذني لي بقبلة لعلها تبرد نار قلبي . .

ـ يا غانم ، اصبر واعلم أنه لا يصح لك ذلك لأمر ستعلمه . . .

انكسر خاطره ، وزاد عنده الغرام ، ولم يزالا على هذه الحال مدة شهر كامل ، وفي ليلة قال لها :

ـ يا سيدتي ، ارحمي أسير هواك ومن قتلت عيناك ، كنت سليم القلب قبل ان أراك .

ـ والله يا سيدي ونور عيني انا لك عاشقة وبك واثقة والآن أوضح لك أمري حتى تعرف قدري وتقف على سري .

أنا لك وأنت لي

ثم أمسكت بذيل قميصها ومدت له يدها وهي تشير الى كلمات مكتوبة على ناحية من القميص ومنسوجة بخيوط من الذهب :

« أنا لك وأنت لي يا بن عم النبي »

قال لها وقد ذهل :

ـ اذن فأنت . . . . .

ـ عطية أمير المؤمنين واسمي « قوت القلوب » ، وقد رباني أمير المؤمنين في قصره ، ولما كبرت نظر الى صفاتي ومحاسني فأحبني وأسكنني مقصورة خاصة ، وامر لي بعشر

جوار يخدمنني ، واعطاني هذه الحلي والجواهر التي تراها .

هنا تنتقل قوت القلوب - وهي تروي حكايتها لغانم - الى ما لا يمكن ان تعلمه وهي غائبة عن الوعي . . ولا بأس ان نغض النظر عن ذلك لنسمعها تقول :

ثم سافر الخليفة الى بعض البلاد ، فاستدعت السيدة زبيدة زوجة الخليفة جارية من الجواري اللاتي في خدمتي ، وكانت في الاصل جاريتها ، وقالت لها :

- اذا نامت سيدتك قوت القلوب فضعي هذه القطعة من البنج في أنفها او في شرابها ، ولك على من المال ما تريدين .

- حبا وكرامة ياسيدتي .

ونفذت الجارية ما أمرتها به زبيدة ، ولما تمت حيلتها وضعتني في ذلك الصندوق ، واحضرت العبيد سرا وانعمت عليهم ، وارسلتني معهم في تلك الليلة التي كنت فيها فوق النخلة بالمقبرة ، وفعلوا ما رأيت ، ثم كانت نجاتي على يديك ، هذه قصتي ، وما أعرف الذي جرى للخليفة في غيبتي .

لما سمع غانم هذا الكلام تأخر الى الوراء من هيبة الخليفة ، واخذ جانبا بعيدا عن جارية امير المؤمنين وصار حائرا بين وجده وغرامه وبين حق الخليفة فيمن عشق وليس له اليها وصول .

لما رأته قوت القلوب مهموما ، أقبلت عليه تلاطفه وتداعبه ، فارتد عنها وهو يقول :

- أعوذ بالله ، ان هذا شيء لا يكون ، ان الذي لمولاي يحرم على ان أقربه . . .

ثم بكى ، وبكت لبكائه . . .

رجل فقير

ذهبت الى سوق التجار ، وأعطت شيخ السوق الف دينار ، وقالت له : تصدق بها على الفقراء ، فقال لها :

- عندي رجل فقير لا أهل له ولا مال ، فهل لك ان تذهبي الى داري وتنظري اليه ؟

- أرسل معي من يدلني على الدار .

استقبلتها زوجة الشيخ بالتحية والاكرام ، نظرت الى غانم فلم تعرفه . . . لأنه قد تغير حاله وزاد نحوله ، فانبهم عليها امره ، واخذتها الشفقة عليه . وكان هو ذاهلا فلم يلتفت اليها . وكررت الزيارة وفي كل مرة تعطي زوجة الشيخ مالا وتوصيها به ، وذات مرة تأملته وتأملها . قال :

- قربي مني . . يا . . قوت القلوب !

فاقتربت منه مندهشة :

- من أنت ؟ غانم بن ايوب ؟

- أنا هو المتيم المسلوب . . .

- وافرحتاه !

حكت له ما جرى بينها وبين الخليفة ثم ذهبت الى الخليفة وقبلت الأرض بين يديه ، وانبأته بأنها وجدت غانم بن أيوب . .

أمر الخليفة باحضاره فحضر وحكى حكايته كلها ، ثم قال له الخليفة :

- أتحب قوت القلوب ؟

- يا أمير المؤمنين ، ان العبد وما ملكت يداه لسيده .

- هي لك ياغانم ، ولك الف دينار .

وأقيمت الأفراح والليالي الملاح .

كثيرا ما تتضمن حكايات الف ليلة وليلة مواقف انسانية رائعة ، وهنا نرى شيخ التجار وزوجته يرعيان غانم بن ايوب ، وقد تشرد وساءت حاله دون ان يعرفا من امره الا انه شاب مسكين ، وكذلك يفعل شيخ التجار عندما يجد أم غانم وأخته وهما في أسوأ حال ، ويأتي بهما الى داره حيث تشملهما الزوجة بالرعاية والاكرام ، امرأتان مسكينتان يؤويهما كما آوى غانما من تشرد ، ويطعمهما من جوع ، ويؤمنهما من خوف ، ويكسوهما بما يليق من ثياب نظيفة بدلا من الخرق البالية ، ثم تتعرف الام على ابنها في مفاجأة مذهلة . ■■

عباس خضر

الحي الميت

قال رجل حكيم : « كيف حال أخيك ؟ » .

فأجاب : « ان أخي قد مات » .

فقال له الرجل : « ما سبب مماته ؟ » .

فأجاب « حياته » .



طبيب الأسرة

يجيب على هذه الأسئلة نخبة من الأطباء

حصاة المرارة

● أعالج منذ سنوات من حصاة في المرارة .. ولكن الطبيب أشار علي بضرورة إجراء جراحة .. فما الذي يحتم اجراء الجراحة ومتى لا يجدي العلاج الباطني ؟

الحويصلة المرارية هي غدة صغيرة نسبيا ـ طولها حوالى ١٠ سم وعرضها ٢ سم وتتسع لـ ٤٥ ملليمترا من السائل ، وتكمن على السطح الداخلي للكبد ، وتأتي اهميتها في كونها تختزن للكبد عصاراته ، بل وتعمل ايضا على تركيزها ثم تعيد افرازها عبر القناة المرارية الى الأمعاء ، حيث تعاون وتسهل عملية تكسير المواد الدهنية وهضمها وامتصاصها في دورة الأيض الغذائى العامة للجسم كله .

واصابة الحويصلة المرارية بالالتهاب سواء الناشىء عن مرض ميكروبي كالتيفود أو السل . أو اختناق القناة المرارية الناجم غالبا عن انسدادها بما يسمى « حصاة مرارية » ينتج ما يزعج المريض من آلام شديدة وحادة أحيانا الى درجة تستلزم ضرورة استئصال الحويصلة بما فيها .

لكن يمكن علاج نوبات الألم المتكررة بمسكنات الألم اذا لم يكن السبب قويا كوجود حصيات صغيرة او كون الالتهاب مؤقتا . وحاليا يستخدم العلاج الطبي لتفتيت الحصاة المتكونة على المدى الطويل اذا كانت من النوع القابل للتفتيت .

ولكن أحيانا ورغم الوجبات الخالية من الدسم الى جانب العلاج الطبي يظل المريض عرضة لنوبات الالم المتكررة مع تزايد حدتها الى جانب خطورة تعرضه للمضاعفات ، والتي تبدأ بتحول الالتهاب الى حالة مزمنة ، وقد يمتد الالتهاب لأعضاء مجاورة وتنثقب الحويصلة المرارية فينشأ عنها التهاب الغشاء البريتوني المغلف للأمعاء كله وقد يكون إزمان الالتهاب مقدمة لمرض خبيث يستشرى من مستصغر الشرر .

لذا يلجأ الطبيب الى تحديد أهمية ونوع تلك الحصاة عن طريق الاشعة العادية اولا ثم الملونة التي تحدد طبيعة هذه الحصاة وهل هي من الكوليسترول أم من الصبغيات أو من كليهما معا ؟ كما تحدد أيضا حجمها ، وهل تتزايد بسرعة تهدد بانسداد القناة في اى لحظة أم ان هناك أملا في أن تمر مع العصارة الى الأمعاء بسهولة ، وقد يلجأ الطبيب لاستخدام المنظار الضوئي ثم أخيرا تحليل البراز ، لاستجلاء الموقف .

واذا حل الفحص أيا من تلك الاخطار ، وجب اجراء جراحة لاستئصال الحويصلة المرارية ، وهي عملية مضمونة الى حد كبير ، يعافي المريض بعدها تماما خلال خمسة عشر يوما . ويوصى بعد ذلك بالاقلال من المواد الدهنية وليس تحريمها .. ومحاولة تقليل وزنه مع ممارسة رياضة غير عنيفة .. كالمشي ساعة يوميا ـ تبدأ بالتدريج ـ ويتخلص نهائيا من نوبات الألم الحادة بل والقلق والخوف من الاحتمالات التي هي كفيلة وحدها باحداث أزمة مرارية حادة ...

الذبحة الصدرية والتدخل الجراحي

● دارت وتدور مناقشات طبية موسعة منذ بدأت عمليات ترقيع الشرايين التاجية بقطع مماثلة من أوردة الساق أو الصدر تحل محل الشريان الذي يبلغ به العطب حد العجز سواء كان بانسداده بجلطة أو أكثر وفي البداية لم توضع الكثير من الشروط لاجراء العملية فكانت تجري لكل من يرغب من مرضى

الشرايين التاجية بعد أن يجري له فيلم ملون يفصح عن مكان الانسداد في الشريان بما يسمى قسطرة الشرايين .

ولكن بمرور الوقت واتضاح جدوى أو عدم جدوى العملية .. وبعد ما تكشفت تقريبا كل فوائدها ومضارها على المد الطويل .. تراجع عدد من المراكز العلمية العالمية ومنها مايعمل به الطبيب المصري الشهير مجدي يعقوب والذي كان احد اوائل روادها عن اجراء العملية لكل مرضى الشرايين حيث ثبت بالفعل انه يجب التدقيق جيدا في الشروط الواجب توافرها في المريض والصورة التي عليها شرايينه .. فقد وجد أنه من الأفضل الاستقرار على نظام طبي لمرضى الشريان الواحد ـ أي الذي عنده اصابة في واحد فقط من شرايينه الهامة وعددها ثلاثة ـ أما المصابون بالشرايين الثلاثة فتجري لهم العملية اذا كان القلب بالفعل يسير الى هبوط وكفاءته تقل باستمرار .. أما ما بينهما فيجب تقييم حالتهم تقييما دقيقا قبل التفكير في اجراء أي تدخل جراحي .. قد لا يقيهم من انسداد آخر بعد العملية ! ..

وعلى هذا .. فان التدخل الجراحي لا يلزمه سن معين ولا علاقة له بالألم أو فتراته .. لكن الذي يحدده صورة الشرايين الكاملة والتي لا تتضح الا بقسطرة الشرايين ثم قياس كفاءة عضلة القلب ذاتها وهل هناك مضاعفات فعلية أو متوقعة وشيكا ... الى جانب حالة المريض الصحية العامة ... وهذا في الواقع قرار الطبيب الباطني والجراح معا فليس لأحدهما وحده حق القرار .

من شخص لآخر كما تختلف من دواء لآخر ، فهي في الغالب تختلف من اعراض جلدية كالبقع الحمراء او الرغبة في حك الجلد او ظهور بثور صغيرة الى التورم ، وربما للجسم كله ، كألم المفاصل ، وتورم الغدد الليمفاوية ، والتهاب الكبد او الحمى او التهابات الشرايين .

كما تختلف ايضا حدة الأعراض من دواء ضعيف الى صدمة عصبية كما يحدث مع البنسلين وربما الموت المفاجيء قبل ان تدرك المريض يد الاسعاف .

وتنشأ الحساسية للدواء من وجود اجسام مضادة (antibody)في دم المصاب عادة ضد العنصر الفعال في العقار او نتيجة تفاعل جانبي ينشأ من تفاعل مجموعة كيمائية من الدواء مع جزيء بروتيني من الدم أو الأنسجة .

ومن أهم العقاقير التي يعرف عنها احداث الحساسية : البنسلين ، السلفا ، الاسبرين الاستربتومايسين ومركبات الباربتيوريت والتراسيكلين الى جانب مركبات اليود .

وللوقاية من حساسية الدواء تتم بعض الاختبارات التي تعتمد على اعطاء المريض جرعات صغيرة متزايدة من العقار ومراقبة ما يحدث بالتحديد ، فبالنسبة للبنسلين يحقن بكميات ضئيلة تحت الجلد ، ولكن يجب ان يتم ذلك في المستشفى وفي وجود غرفة للانعاش .

اما العلاج فيختلف طبقا

الحساسية من الأدوية

● ماذا تعني الحساسية لدواء معين ؟ ما هي أعراضها وكيف يمكن تجنب حدوثها وعلاجها اذا حدثت بالفعل ؟

حساسية الدواء هو التعبير الذي يطلق على مجموعة من الظواهر المرضية التي قد تنشأ نتيجة لتعاطي دواء معين ، بالطبع دون ان تكون في الحسبان ولا تعكس رد فعل طبيعي لتعاطي الدواء ، لذا فهي تنشأ من تعاطي دواء عند شخص بالتحديد ولا تظهر اطلاقا عند استعماله مع البقية من المرضى .

وتختلف الاعراض والنتائج

للحالة .. ففي الحالات البسيطة يكتفي بايقاف العقار والبحث عن آخر بديل ثم علاجات موضعية للالتهابات الجلدية ، وقد تستخدم مضادات الهستامين لتثبيط التفاعلات ، والادرينالين والكورتيزون بنسب تتفاوت حسب حجم الاعراض وخطورتها .

وتجرى حديثا تجارب لاستحداث مواد تمنع حدوث حساسية الدواء خاصة حينما لا يتوافر البديل ، ولا يحقق ذات النجاح لتقلل من ردود فعل الجسم ضد العقار وبالذات البنسلين ، نظرا لاهميته الشديدة وخصوصيته العلاجية لعديد من الميكروبات كالتهابات القلب البكتيرى التي لا تجدى معها نفعا العقاقير الاخرى .

مرض السكر وقاع العين

● أعالج من مرض السكر ، وقد اوصاني الطبيب باجراء فحص لقاع العين مرة كل ستة أشهر ... فاى علاقة تربط بين مرض السكر والعين ؟ ...

يعد قاع العين مرآة عاكسة لحقيقة شرايين جسم الانسان ككل .. وهو - بلا جدال - احدى الوسائل الدقيقة والمرهفة في تحديد درجة تصلب الشرايين ونسبة ارتفاع ضغط الدم ومدى تأثر الجسم به .. كما انه أيضا يساعد على اكتشاف بعض انواع فقر الدم الغير مألوف ، الى جانب انه يكشف عن مدى تأثر الشرايين بمرض السكر ، حتى أن مريض السكر قد يصاب تدريجيا بانخفاض حدة الأبصار نظرا لتمدد شرايين العين الدقيقة - يعد هذا علامة مبكرة لتأثر العين بمرض السكر - ثم انفجار بعضها محدثا نزيفا بشبكية العين ، واذا ما التأم فانه يلتئم بالتليف مما يفقد الشبكية جزءا من نسيجها البصرى المتميز .

فالعين يغذيها شريان رئيس (الشريان السباتي) يتفرع فيها الى تفريعات عديدة لانهائية تغذي العين بالدم حاملا الاكسجين ، ونظرا للاهمية القصوى لحاسة النظر فقد تميز نسيج عمق العين الى الشبكية - النسيج العصبي الذى تقع عليه الصورة المرئية - ثم تلك الشبكة الغنية بالشرايين الدقيقة الى جانب العصب البصرى الذى يأخذ شكلا واضحا ومنه ايضا يمكن التنبؤ بوجود اورام المخ .

على هذا تبدو أهمية فحص العين دوريا فقط لمريض السكر ، ولكن لكل من بلغ سن الاربعين فالفحص في غاية البساطة عند طبيب العيون .

كما يحمل قاع العين ايضا صورة واضحة حقيقية لكفاءة جهاز الانسان الدورى .. فدورة دموية نشطة وشرايين مفتوحة ذات قطر مناسب تعني دائما شبكة من التفريعات الشريانية عالية الكفاءة بلا متاعب ابصار او تعرض لنزيف الشبكية او الانفصال الشبكي الذى حتى لو عرف طريقه للعين لسبب او لآخر ، فان اشعة الليزر تعطي معه نتائج باهرة .

ومن جهة اخرى فان البعض من التفاعلات الجانبية للادوية قد تعلن عن نفسها في قاع العين قبل ان تنسحب على الجسم كله ، فمدرات البول مثلا ، اذا استخدمت عشوائيا فانها تحدث انتفاخا (او ديما) في الشبكية كما ان مدمني التدخين يعانون من تقلصات شرايين العين نتيجة للنيكوتين .

وللمحافظه على سلامة شرايين العين وجعلها دائما في حالة جيدة تصح بتناول فيتامين (C) & (E)الى جانب عناصر الكالسيوم والزنك والمنجنيز والحديد والنحاس لأنها تدخل في تركيب المادة اللاصقة للخلايا المبطنة للشرايين .

من هنا جاءت أهمية فحص قاع العين الدورى سواء لمريض السكر او الضغط او الكلى . كما ان لها أهميتها في تشخيص أمراض الشرايين مبكرا والدم وأورام المخ .. بل وأيضا تكمن أهميتها في تأمين سلامة السنوات القادمة من عمر الانسان .

علوم اللغة ..
ينبغي تقليمها وتخليصها من الطفيليات

بقلم : محمد خليفة التونسي

بعد تخرج أديبنا العبقري الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني في مدرسة المعلمين (العالية) ـ ١٩٠٩ ـ اختارته وزارة المعارف (المصرية) لتدريس اللغة الانجليزية بمدرسة دار العلوم (العالية) ، وكان طلبتها يختارون من الشبان الطموحين ممن أتموا علوم المرحلة الثانوية في الأزهر ، حتى اذا تخرجوا في دار العلوم اختيروا لتدريس الدين واللغة العربية ـ وغيرهما عند الحاجة ـ في مدارس التعليم العام حكومية وأهلية ، وكانوا يتمسكون غالبا بزيهم الأزهري كما نشئوا ، حتى بعد تخرجهم فكانوا يلقبون « المشايخ » .

في الدروس الأولى في أحد الفصول بدأ الأستاذ المازني يلقنهم بدايات الانجليزية اذ لم يكن لهم بها عهد في الأزهر ، فشرع يعلمهم أسماء الأشياء المحيطة بهم كالباب والشباك والكرسي وبعض الجمل البسيطة للاعمال التي يزاولونها يوميا كالقيام والجلوس مع تمثيلها أمامهم بنفسه ومحاكاتهم له في النطق والعمل ، فكان منها فعل الأمر **Sit down** (اجلس) والفعل الماضي **Sat down** (جلس) ، وفطن طالب متحذلق الى ما بين هذين الفعلين **Sit** و **Sat** ، من تشابه في النطق والكتابة ـ وكان بحكم تعلمه في الأزهر مطلعا على باب « الاعلال » في الصرف ـ فسأل الأستاذ : هل (سات) أصلها (سَيَتَ) ، وفطن الأستاذ الى الفكرة التي تحوك في ذهن الطالب المتحذلق ، ولم يكن أقل منه علما ولا جرأة ، فأجابه مداعبا : نعم ، (سات) أصلها (سَيَتَ) تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا ، كما تقول في « باع » أصلها (بَيَعَ) وكذلك فعل الأمر (سِتْ) أصلها (سِيتْ) أيضا التقت الياء والتاء الساكنتان فحذفت الياء لضعفها لأنها حرف علة ـ منعا لالتقاء ساكنين .

ثم قال الأستاذ : « افهمت ، أفهمتم يا مشايخ ؟ » وما كاد الطالب يطمئن الى ذكائه وحسن فراسته وسلامة قياسه للكلمات الانجليزية على العربية ، وما كاد الطلاب يفرغون من غبطتهم لزميلهم حتى فوجئوا بالاستاذ يقول لهم محتدا « يا مشايخ ، يا أولاد .. أفسدتم أجرومية[1] اللغة العربية بهذا الهراء ، افتريدون أن تفسدوا أجرومية الانجليزية بمثله ، إياكم وهذا العبث ، فنحن ننطق الانجليزية كما ينطقها أهلها ، وندرسها كما يدرسونها .

هذا أو ما في معناه هو خلاصة القصة كما سمعناها نحن وغيرنا من استاذنا الكبير عباس محمود العقاد وكان صديق العمر للأستاذ المازني عليهما رحمة الله .

أما ما دعاه أديبنا المازني فسادا في قواعد لغتنا فأمر واقع لا شك فيه ، فقد ادخل على هذه القواعد مئات ومئات من التعقيدات والتزيدات الوهمية العقيمة مما جعل الفساد يتسرب اليها ، ويصيبها بالورم والترهل ، ويضخمها ، حتى ان كميتها تبلغ أحيانا مئات ومئات من الصفحات ، وهي مع كثرتها متضاربة مما جعلها عسيرة على الاستيعاب أو الاهتداء الدقيق بها عند

---

(١) الاجرومية : تعني هنا قواعد النحو (والصرف) وكانت هذه الكلمة شائعة بهذا المعنى في مدارس مصر حتى منتصف هذا القرن ، وهي ـ أصلا ـ اسم كتاب صغير في النحو « الكوفي » كان يدرس للمبتدئين نسب الى كتبة صاحبه ابن أجروم ، واسمه محمد بن محمد بن داود الصنهاجي (ت ٧٢٣ هـ) .

الحاجة الى القول الفصل . ولا نعرف مثل هذا ولا سمعنا به في أي لغة . وأما ان الأزهر هو المسئول عن هذه الفئاتات فلا . بغير تردد . بل هي أقدم منه بأكثر من قرنين . اذ نشأت في عهد الرواد الأول الذين وضعوا قواعد اللغة في أواخر القرن الهجري الأول إلى ما بعد منتصف القرن الثاني . وشاهدنا على ذلك « الكتاب » لسيبويه في القواعد . وهو أول كتبها أو أقدم ما جاءنا منها . وفيه أنواع شتى من هذه العيوب كما سنبين في صفحة لاحقة .

ونعود الآن الى القضية التي أثارت المازني . ومثل بها لما في قواعد لغتنا من فساد فنقول : لم يزعم أحد من علماء لغتنا انه سمع من عربي ـ تؤخذ عنه اللغة ـ لفظ (بَيَع) أو (قَوَل) فعلاً ماضيا . ولا (يَبْيِعُ) و (يَقْوُل) ونحو ذلك مما يفترضه علماؤنا في تصريف الألفاظ المعتلة . فان فروضهم وهمية . وهي في خير أحوالها حيل تعليمية . أداهم اليها اجتهادهم الخاطيء حين قاسوا الكلمات المعتلة على الصحيحة . ولا بأس عندنا من الحيل التعليمية اذا كانت تحل مشكلة أو تسهل صعبا ولو قامت على وهم . كما هو الحال في حيلة خطوط الطول وخطوط العرض الأرضية التي اصطلحنا عليها . فهي تسهل على الناس معرفة مواقعهم حيث كانوا من الأرض . وان كانت هذه الخطوط وهمية .

وخير من قياس الكلمات المعتلة على الصحيحة أن نجعل للمعتلة شواهد . كما جعلنا للصحيحة شواهد . للقياس عليها . فنحن في الافعال الثلاثية الصحيحة نقول : باب (نصر) أو (ضرب) أو (علم) ... وصفة الفاعل على وزن (فاعل) وصفة المفعول على وزن (مفعول) فلنقل هكذا في الأفعال المعتلة على اختلاف موضع العلة منها : فنقول مثلا . باب (وقف) و (باع) و (قال) و (مشي) و (سما) و (سعى) ... ونصرف هذه الأفعال المجردة والمزيد منها بحسب أزمنتها في حال اسنادها الى المتكلم . والمخاطب . والغائب . مفردا . ومثنى وجمعا . كما نصرف منها صيغ الصفات للفاعل والمفعول .. واسماء الزمان والمكان والآلة . ونحو ذلك من المشتقات .

والأمر في لغتنا أسهل فمجال الاشتقاق فيها ـ وان كان أوسع مما هو في غيرها ـ ينحصر في صيغ موزونة معدودة . يسهل الالمام بها . ويساعد على معرفتها ان معظمها يجري على ألسنتنا حتى اليوم في لهجاتنا الدارجة . لأن لهجاتنا تقوم على جذور وأوزان عربية فصيحة (أكثر مما يظن) وان كان بعضها ينحرف عن هذه الصيغ قليلا .

اذ ليس الاعلال ولا الابدال ولا الادغام ظواهر لغوية خاصة بلغتنا بل هي شائعة بين اللغات ومع ذلك لا يحاول علماؤها فرض حيل كحيل علمائنا مما أثقل الصرف وسائر قواعد لغتنا باعياء باهظة . حتى لدى المختصين . ونحن نريد أن يفرغ أولادنا من قواعدها الضرورية العملية وهم في مطالع الشباب .

ليس لشيء في قواعد لغتنا أي سند الا « هكذا تكلمت العرب » .

ولا يعني طالب اللغة .. أي لغة .. الا ناحيتها العملية .

نحن لا نتعلم علوم اللغة للتعبد بها . بل لنتمكن من التعبير الصحيح شفاها أو كتابة عما يخالج نفوسنا ولا سبيل الى هذا بهذه العلوم . بل بالتوسع في الاطلاع على أبلغ النصوص الأدبية السهلة . وحفظ أكبر قدر منها . بعد اتقان تذوقها ونقدها . مع ممارسة الكلام بها شفويا وكتابيا حيث احتجنا الى التعبير الفصيح ولا سيما داخل المدارس . وأوجب ما يكون ذلك خلال الدروس اللغوية والدينية . ولو أمكن الالتزام بها في كل الدروس لكان هذا أسرع في اتقانها . ولا بد من السماع في أي حال فهو العون الذي لا غنى عنه في كل لغة حية .

ولا مفر لنا من ثورة في مجال تعليم اللغة . ولا بد أن تشمل هذه الثورة مناهج اللغة وكتبها وطرق تعليمها في كل المعاهد العامة والعالية لتحببها الى الناشئة وغيرهم . فان مناهجها وكتبها وطرق تعليمها الحالية قد أدت الى عكس الغاية من تعليمها . فبغضت الى الناشئة دروس اللغة . وجعلتهم ضعافا أو عجزة فيها . بل جعلت الكبار كذلك . ومن هنا تكثر العثرات .

ووسائل الاعلام المنتشرة اليوم . المكتوبة والمسموعة . خير عون لنا في هذه المهمة القومية الملحة على ما في هذه الوسائل الاعلامية من قصور أو تعثر . فهي نعمة كبيرة في مجال التعليم حتى اللغوي لو احسنا الانتفاع بها . ■■

شاكر حسن آل سعيد

ورحلة رائد تجربة البعد الواحد

بقلم : اياد الموسوي

المغامرة التي خاضها الفنان التشكيلي العربي ، عندما فلسف الخط العربي الى اتجاه تشكيلي واطلق عليه اسم « البعد الواحد » هذه المغامرة وضعته امام عالم جديد ، ليس بعيدا عنه ، ولكنه مكتنز في وجدانه ولسانه ومعرفته الجنينية .. كيف اكتشف الفنان هذه النافذة ، نحو هذا العالم ؟. يحدثنا الفنان التشكيلي العراقي شاكر حسن السعيد .. احد أهم رواد الحركة التشكيلية في العراق مفكر متصوف له العديد من البحوث النظرية التي تبحث جدليات الوجود .. وطبقاته وحضورها في العمل الفني ...

يحدثنا عن الحركة التشكيلية في القطر العراقي باعتباره من الرواد المؤسسين لجماعة بغداد للفن الحديث ، التي ترأسها الفنان العراقي الراحل جواد سليم ، وكان شاكر حسن ال سعيد من منظريها .. واعضائها النشطين ..

« ان الرواد الاوائل للفن العراقي هم اولئك الذين وضعوا الاسس التي تطور من عندها هذا الفن ، تطورا وطيدا ، وانا لا استطيع ان اعتبر نفسي من هذا الرعيل .

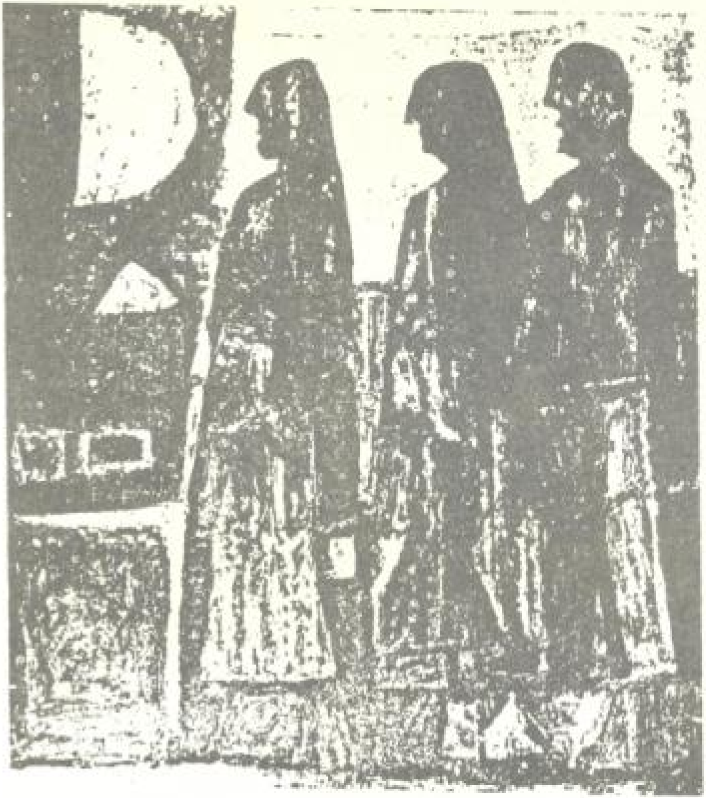


ومع ذلك فان دوري في الفن العراقي يتحدد في مساهمتي بتأسيس جماعة بغداد للفن الحديث عام ١٩٥١ مع جواد سليم - وفي تحديد أهمية الطرح الفني الحضاري من خلال كتاباتي النقدية الاولى في الصحف والمجلات المحلية والعربية فضلا عن أعمالي الفنية نفسها » .

هكذا يحدد شاكر حسن ال سعيد دوره في نمو الحركة التشكيلية المعاصرة في العراق .. ويشير الى تأثر الفنانين العراقيين بالفن الاوروبي عندما يقول :

- رسمت في البداية متأثرا بالفن الاوروبي ، سيزان وفان جوخ ، والوحشيين . ثم اكتسبت تأثيرات عربية واسلامية وشعبية في منتصف الخمسينات ، وهكذا استطيع أن أقول اني كنت من اوائل الفنانين العراقيين الذين عمقوا مفهوم التراث في الفن العراقي الحديث قبل ثلاثين عاما مضت ..

حينما حسم شاكر حسن ال سعيد موقفه في البدء بالعمل الفني كانعكاس لشخصيته .. انطلق منذ أكثر من ثلاثين سنة من التعبير الانطباعي ، ولم يكن يعرف تماما لماذا كان سيزان يستهويه عن سواه ، وحينما سأله مرة أستاذه في مرحلة دراسته الجامعية .. ماذا يعجبك من بيكاسو ..؟ قال اني لا أفهم بيكاسو ولكني استطيع ان أفهمه في المستقبل وسأعجب به .. حينئذ ، أما الان فأنا احترمه فحسب ...



العودة الى الطفولة

كانت شمس تشرين تطل عليه من بعيد متعكسة على واجهات الابنية في مدينة الكويت ، عندما انهمك في البحث عن مدخل في موضوع ابداعه الفني ... ومن أين يبدأ في ابداعه ؟

يقول : لم أكن لاجد إلا عند العودة الى طفولتي ، ولقد عثرت عليها مدونة في مقال لي حول الطفل وحضور الانسان .. وطفقت اقرأ في كل مرة هذه العبارة : ألا تكمن قطرة الطل في هذا المستنقع ؟

كانت ألوان شاكر تنبع من أحزانه .. ولم تكن لتنبع من أحقاده ، فهي اذن ألوان هادئة وحينا تصبح الألوان هادئة تنتقل نقطة البحث عند الرسام الى مستوى الابعاد في الشكل او الحجم ، او الخط .

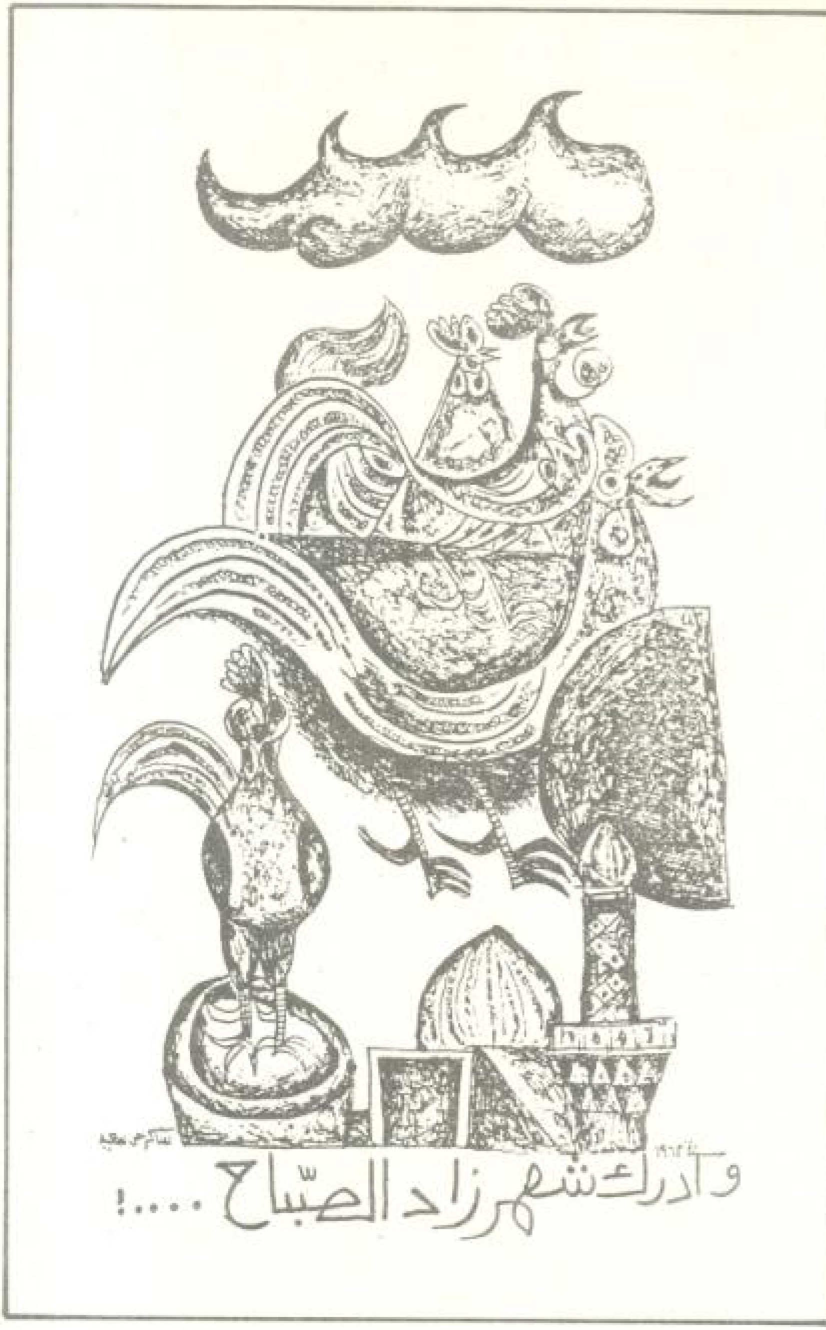
لذلك فانه اختار سيزان .. لكنه تحول بعد الخمسينات الى الفنان العراقي القديم .. ثم الى المزخرف الاسلامي ، والخطاط العربي .. وتختلط في بحر ثلاثة اعقاد مهمة الرسام التشكيلي بمهمة الفنان الحضاري ثم الكوني ، وهذه هي محاور المراحل الفنية التي مر بها شاكر حسن ال سعيد

فمنذ عشر سنوات أسس تجمع البعد الواحد ، وأخذ يفلسف كل أبحاثه بمفهوم البعد الواحد . هذا من الناحية التقنية .. أما من ناحية الرؤية .. فانه يرى العالم كوحدة وجود صوفية ...

« اني افني في فني وفي عالمي .. كما يفني الخط فيما بين السطوح .. وكعبد القادر الجيلاني سأقول لجمهوري : « موتوا في وقد حييتم : اي احيوا حيواتكم في وعي العمل الفني وليس في حياتي انا .. اذن فلسوف تحيون حياة حقيقية ..

وهكذا يواصل شاكر حسن ال سعيد بحثه الفني بروحه وفكره الصوفي على خطا الحلاج .. انه يجب ان يتخلص الانسان من همومه الدنيوية ، وان يحيل ملذاته الى حقائق روحيه ، وان (يحيا) ايمانه لا ان يكتسي به فحسب .. ولكن مثل هذا الأمر لا يطيقه بشر ، فكيف يتسنى لقطرة الطل ان تحافظ على نقاوتها بعد ان اصبحت قطرة في مستنقع آسن ؟

وهكذا كان على استاذي قبل أكثر من سبعمائة عام ان (يقطر) ذاته مختبريا فاستنتج ما يلي : « اذا كانت المعرفة كاملة في القرآن : كلام الله . فان فهمنا لكلام الله يقتضي التشرب به .. اي تحويله من معرفة لغوية الى معرفة وجودية » .


وأدرك شهرزاد الصّباح ....!



● شاكر حسن آل سعيد

هنا كان على تصوره الابعادي لحضور المعرفة ان يستحيل الى تصور زماني ، اي ان يفكر بان المحور المكاني لكلام الله لابد ان يصل به في حجمه (ككتاب) الى حجمه كمجرد (نقطة) . أما كيف كان عليه ان يتصور كلام الله زمانيا فقد قال هو في ذلك : « وعلم النقطة في الازل وعلم الازل في المشيئة وعلم المشيئة في غيب (هو) . وعلم غيب هو (ليس كمثله شيء) ولا يعلمه الا (هو) »..

كانت اذن رحلته في المعرفة تبدأ في العالم اللغوي لتنتهي الى العالم الامي .. أما رحلتي انا في المعرفة الابعادية فتقتضي اختزال الكثافة في السطح .. اي التخلي عن رؤية سيزان برؤية الفنان الحضاري في الشرق الاوسط ، ثم اختزال السطح في الخط اي البعد الواحد ، ثم اكتشاف معنى الخط ..

وهكذا عرفت اولا كيف ارسم الخط عن طريق الظل والضوء ككثافة متدرجة في مجال « الدرجة الكونية » ثم اكتشفته ثانيا كفراغ عن طريق رسم « الشقوق » العقلية في اللوحة ولا زلت أجهل الكثير عنه ..

ولكن اللوحة ظلت عندي ماثلة كعالم في بعدين .. اني اذن لا ازال اتشوق الى مزيد من المعرفة .. واين انا منها ؟

بين الشكل والمحتوى

يواصل شاكر حسن ال سعيد حديثه عن تجربته الفنية .. كان ذلك في صيف ١٩٧٩ عندما التقينا في معرضه الخاص الذي اقامه بالكويت ، وكانت تلك المرحلة تؤثر تلك الآراء التي يطرحها ال سعيد .. والتي ترى مصداقا لها في لوحاته التي اضاءت جانبا من بحثه بين الشكل والمضمون ، وماهية المضمون الانساني التي تتحرك نواياه ودوافعه منذ أول لحظة جنينية يبدأ بها المخلوق رحلة وجوده البشري .. واستعان في تلك الشقوق والكتابات والاشارات التي يؤشرها الاطفال على الجدران ، دون وعي .. ولا أقصد ...

ومع ذلك كله ... فهو يقف بتواضع ويقول : لكي ابدأ بالرسم فلابد لي ان أقف على أرض لا تفور .. وكان هذا اول ما حاولت ان اتعلمه . ان عالم اللوحة هو السطح التصويري ، عالم البعدين . وان ابداعي يتحقق لو تمكنت منه في التعبير عن البعد الواحد .. وذلك يتطلب مني ايضا ان احقق بنية عملي الفني وهذه البنية افهمها كنظام من العلاقات الشكلية . انها اللون والدرجة والمسافة وكل مفردات لغتي الحسية التشكيلية ، اي ما أحسه بصريا اولا .. لكيا اتحسسه ببصيرتي من بعد ثانيا ، ثم وجدتني اخر الامر اكتب العبارة المقروءة في رسومي ولكي اقاسم فيها جمهوري .. جعلتها جملا مجزوءة او كلمات مجزوءة ..

وهكذا أدركت اخر الامر انني اعامل الشكل في رسومي كمحتوى ، في الوقت الذي اعامل فيه المحتوى كشكل ..

واختلطت القيم الحسية بالقيم العقلية الى حد الهوس .. فلماذا يتحتم علي ان اخضع الحرف لعالم السطح التصويري المحسوس ؟ ولماذا يتحتم علي ان لا أوجد بين العالمين « كمركب » وليس (كخليط) ؟





ورسمت . ولا زالت رسوما يمكن قراءتها ولكنها قراءة جديدة تطلب حسا كونيا . وقارئا أكثر انسانية من ان يكتفي باختزال المعرفة القرآنية الى نقطة حرف الف ...

انها القراءة التي يستطيع من خلالها ان يتجاوز معرفته التشكيلية واللغوية جمعاء الى امية في المعرفة .. لان في ذلك وحده سيستحيل الى قارىء كوني .. الى قلامة اظفر او ذرة في هباء او طيف في ضوء شجي في ليل مظلم . وفي هذا المجال جربت الرسم (بالحزوز) والاكتفاء أحيانا ببعض الخطوط الافقية او العمودية والنقاط .. ولكن الامر على انه لم يتحقق بعد ..

ولقد كانت مهمتي الثانية هذه تتطلب شيئا من المغامرة . فلكي تتحول مياه المستنقع الى قطرة طل نقية لابد لنا من تقطيرها .. اين اذن هو الانبيق الهائل الذي سيسخن كل مياه البحور الآسنة ياترى ؟ ولكيا تتساقط من جديد كقطرات من المطر الربيعي المنعش ؟

وفكرت في بنية عملي الفني كعالم من القيم التشكيلية واللغوية ؟

كان ذلك مبهما على اول الامر . فلقد اخترت اعتباطا معنى ان اقتبس الحرف في رسومي ثم استنتجت بعد لأي من الزمان ان دراسة وجود الحرف في اللوحة يقتضي تطويعه لحساب اللوحة . واصبحت الحروف المستعارة ضروبا من الحلزونيات والاشكال العمودية والافقية المستقيمة او المنحنية . انها تطمس ماهية الحروف اللغوية حتى (باصواتها) حتى اصبحت اللوحة هشيا من الحروف ارسمها معبرا فيها عن (ذاتي) وعيا آلت اليه في محيطها .. جدران المدن واعمدتها ..

الفنان ـ اللوحة ـ الجمهور

ان ما يميز شاكر حسن آل سعيد عن أقرانه انه لا يلتزم بنموذج شكلي (او ادبي) لعمله الفني .. ولا يضع حيثيات مسبقة لما يجب ان يكون عليه الشكل او اللون او الخط حتى في اقصى حالات التصرف ازاء العمل الفني .. وان القياس لديه هو قياس تأملي ، يرصد نمو الفكرة وتفاعلها .. وعوالمها الجديدة التي تفتحها بطاقتها الذاتية ، وباشعاعها الخاص .. لذلك فهو في بحث مستمر عن عناصر العمل الفني ، وابعاد كل عنصر ، وسبل تحديد تلك العلاقات المتشابكة بين هذه العناصر لبلوغ مشارف الوعي الانساني عند سطح قماش اللوحة .. وتحقيق استقلالية العمل الفني خارج المكان والزمان بالرغم من انه يغذيها بالقيم التي تنجح في ارشفتها تاريخيا ..

عندما التقيت ، بشاكر حسن ال سعيد مؤخرا ، وجدته يتحدث عن اخر محطات فلسفته الفنية ، ورأيته متحمسا أكثر من ذي قبل لعمله الفني الذي قدمه في معرض خاص بالكويت في مطلع شهر مايو والذي استوحى أغلب أعماله من زيارة قام بها الى منطقة القنيطرة السورية ..

يحدد شاكر عناصر العمل الفني كالتالي : الفنان ، اللوحة ، الجمهور ...

يتحقق حضور العمل الفني بمعناه التام من خلال كل من (الفنان ، واللوحة ، والجمهور) على ان هذا التلاحم يختلف باختلاف موقع كل من هذه العناصر الواحد بالنسبة للآخر . فالعمل الفني الذي يبدو « كفن تعبيري » هو الذي يتحقق فيه ذلك بان يصبح فيه موقع الفنان في الاول ثم تليه اللوحة فالجمهور ، اي ان (ذات) الفنان هي التي تطالعنا عند رؤيتنا للعمل الفني والذي تكمن قيمته ما بعد (ذاتية) الفنان ، ثم يلي ذلك ما يستطيع الجمهور ان يكتشفه عبر حضور اللوحة ومشاعر الفنان التي انعكست عليها .

أما العمل الفني الذي يكرس فيه الفنان ما يكرسه من أجل الجمهور ، فهو الذي يعكس لنا في البداية ما يمثل ذوق الجمهور بل الجمهور العريض ، اي ان تكون اللوحة مرسومة باسلوب طبيعي ، ثم يلي ذلك ماضمنه الفنان فيها من مشاعر وأحاسيس . وأخيرا يأتي دور اللوحة لذاتها حيث تبدو ولا قيمة لها بذاتها الا كمجرد اداة لتوصيل فكرة الفنان وأحاسيسه ومشاعره للجمهور . في حين نستطيع ان نحقق العمل الفني بمعناه الواقعي والتوثيقي معا ، حينا نضع نصب اعيننا اننا ننجز لوحة ما أولا بأول . وفي مثل هذه الحال فان اللوحة ستكون هي الطبقة الاولى للعمل الفني . فهي اذن مرسومة بصورة موضوعية . انها مستقلة ذاتها بذاتها . او ان الرسام فيها حقق بصورة موضوعية وجودها ، فهو لم يعبر فيها أولا بأول عن مشاعره الذاتية ولا عبر عن ذوق الجمهور ، بل عن موضوعية سطح تصويري فحسب . وهكذا فان الطبقة التالية ستكون ذات الفنان او اختياره التقني والاسلوبي وأخيرا يأتي دور الجمهور .

والواقع ان هذا النظام الطبقي للوحة الفنية وبهذا الشكل الأخير يضمن موضوعية كل من الفنان والجمهور ازاء اللوحة ، فوجودها بهذا المعنى هو وجود (بنيوي) فهي بمجرد بنية تشكيلية انعكست عليها بصورة تلقائية معالم الوجود ، كما ان اسلوب الفنان في رسمها هو الذي يحدد هذا المعنى ، اي حينا يحاول الفنان ان لا يصبح عند رسمه اياها تعبيريا او اجتماعيا ، ولكنه يصبح موضوعيا وتوثيقيا ليجعل منها مجرد (لقية) من (اللقى) المحيطية ..

اني في الفترة الاخيرة ارسم بهذا المفهوم مطورا رؤيتي السابقة من كونها حوارا ما بين الفنان والمحيط (ويضمنه الجمهور) الى كونها وجودا مستقلا للوجود الفني . كلوحة مقتطعة من المحيط نفسه . وفي هذا الحال يتضح لي ان تجسيد العمل الفني (كينية) مادية وثقافية معا يعتمد على مدى امكانيتي في حجب (ذاتي الفاعلة) عن اللوحة وكذلك في تجنب اشكالات حضور الجمهور وذوقه على حساب ثقافة الفنان ..

وهكذا فانني في اسلوبي التأملي كتجريد بنيوي **Structural Abstraction** احاول ان احقق موضوعية انجازي الفني أكثر من السابق ..

بالاضافة الى نشاط شاكر حسن ال سعيد الفني فقد تفرغ منذ سنة من التدريس في معهد الفنون الجميلة في بغداد للكتابة عن جوانب في سيرة الحركة التشكيلية في العراق من خلال روادها ، اذ انه عرف بنشاطه في الكتابة النقدية والتحليلية ، التي تزامنت مع تجربته الفنية العريضة . ■■

اياد الموسوي

عرس !

● في عام ١٩٣٦ اقيم باحد المعابد الاندونيسية عرس شهده الاف الناس واحتشد الاف غيرهم خارج المعبد في انتظار اتمام مراسيم العرس ، وخرج العروسان بعد ساعات فاذا بهما زوجان من القردة . زينت الانثى منهما بماسات ولآلئ لا تقدر بثمن ، وكان احد المهراجات يقتني هذين القردين ، ولم يكن له اولاد فاراد ان « يفرح » بهما وامر باعداد ذلك العرس الكبير !

مقالات في كلمات

بكاء المرأة

■ تضحك المرأة متى تمكنت .. ولكنها تبكي متى أرادت . . .

(جورج صاند)

■ عندما تبكي المرأة .. تتحطم مقاومة الرجل . . . .

(شكسبير)

■ كل امرأة تظل على خطأ حتى تبكي .. وعندئذ تصبح على صواب فورا . . .

(هاليرتون)

■ انا لا استطيع احتمال بكاء امرأة الا بين ذراعي امرأة اخرى .. وفيما عدا ذلك فانا لا احس باي شجن . . . .

(غاستون كافيه)

■ اي جمال في الطبيعة يستطيع ان ينافس جمال المرأة التي تحب

(لامارتين)

■ على قدر حب المرأة يكون انتقامها . .

(ابراهيم المصري)

■ المرأة تحب من يحبها .. واما الرجل فيحب المرأة . . . . . .

(هيدار)

■ الحب شعلة لا تدخل نفس المرأة حتى تطهرها . . . . . .

(جول دي كاستين)

■ المرأة تحيا لتسعد بالحب .. والرجل يحب ليسعد بالحياة . . .

(جان جاك روسو)

■ الجمال للمرأة .. كالمال للرجل .. قوة وسلطان .

(دوروتي ماي)

■ المرأة الجميلة تطرب لشروق الشمس .. وتنسى ان لها أفولا . . .

(تشارلز ديكنز)

■ الجمال للمرأة ضرورة .. وللرجل ترف . . . . . .

(شيشيرون)

Polymyalgia arteritica

SIR,—There are two factual errors in your leading article on polymyalgia arteritica (23 April, p 1046) which require correction if future generations are not to be confused. The first is that Jonathan Hutchinson (1890)[1] has many years' precedence over Horton (1932)[2] in describing temporal/cranial/giant-cell arteritis, although it is not unlikely that Ali Ibn Isa,[3] born in Baghdad in AD 940, deserves precedence over both. He noted a relationship between inflamed arteries and visual symptoms not only in migraine but also in "affections showing heat in, and inflammation of temporal muscles. These conditions may terminate in loss of sight."

فقرة مأخوذة من المجلة الطبية البريطانية (العدد ٦٠٧٢ ـ ٢١ مايو ١٩٧٧)

Hutchinson's case report may have been antedated, however, by an observation in the Tadhkirat of Ali Ibn Isa of Bagdad (940-1010 A.D.) who noted a relationship between the inflamed arteries and visual symptoms (3). In speaking of removal and cauterization of arteries, he stated, "By these means one treats not only migraine and headache in those patients that are subject to chronic eye disease, but also sharp catarrhal affections, including those showing heat in and inflammation of the temporal muscles. These diseased conditions may terminate in loss of eye sight . . ."

وفقرة من مجلة الطب الامريكية (العدد الاول ـ يناير ١٩٧١ ـ المجلد ٥٠)

خبر عمره تسعة قرون !

في تذكرة الكحالين

أول وصف لمرض التهاب الشريان الصدغي

TEMPORAL ARTERITIS

بقلم الدكتور : محمود الحاج قاسم محمد

للانصاف ، لابد أن نذكر أن شرف الدين علي بن عيسى البغدادي الكحال ، هو أول من وصف هذا المرض : التهاب الشريان الصدغي .. وكان ذلك منذ حوالي تسعة قرون !

للموضوع جوانب ثلاث :

الاول ـ تعريف المرض ، حيث من المهم إعطاء فكرة مبسطة عن هذا المرض . مرض التهاب الشريان الصدغي **Temporal Arteritis** ، مرض غير نادر ، سببه غير معروف ، يصيب كبار السن ويصيب النساء بصورة خاصة . وهو التهاب يحدث على الأغلب في شرايين الصدغين إلا أنه يصيب بقية الشرايين كشرايين القحف وشبكية العين ، والدماغ ، وجسم القلب ، وأحيانا ينتشر في شرايين الجسم كله .

أما التغيرات المجهرية التي تحدث في الشرايين ، فهي عبارة عن تجمع خلايا وحيدة النواة وخلايا بلازمية مع خلايا عملاقة ، ويصاحب ذلك تنخر في قناة الشريان ، وعقب تكون النسيج الحبيبي يظهر تندب ، وأحيانا يحدث تخثر في القناة .

أعراض المرض تتلخص بما يلي : صداع شديد ، رهاب الضوء ، اضطراب في الرؤية وأحيانا يؤدي الى فقدان البصر . أما الأعراض العامة فهي : ارتفاع في درجة الحرارة ، تحول ، آلام روماتيزمية في العضلات والمفاصل ، فقدان في الشهية ، انحطاط في القوة .

أحيانا تكون الأعراض بسيطة يتشافى المصاب بعد أشهر ، وأحيانا تكون شديدة تؤدي الى الوفاة خاصة عندما تكون الاصابة في شرايين الدماغ أو القلب .

علاج المرض سابقا كان مبنيا على سل الشريان الصدغي أو كيه ، أما في الوقت الحاضر فان العلاج المفضل هو حبوب البريدنيزولون .

الثاني ـ ذكر المرض لاول مرة :

وهو الجزء التاريخي والاساسي من الموضوع ..

في العدد (٦٠٧٢) ٢١ ـ مارس ـ ١٩٧٧ من المجلة الطبية البريطانية (بي . ام . جي) .B.M.J ، كتب (جي.دبل يو.بولي) J.W.PAULLEY ، في رسالة لرئيس التحرير ، نقتطف منها الفقرة التالية : « سيدي ـ هناك خطآن بيّنان في بحثك عن التهاب العضلات العام الشرياني Polymyalgia Arteritica ، المنشور في العدد ٢٨ ـ نيسان ـ ١٩٧٧ من المجلة ، يقتضيان التصحيح لأجل ان لا يختلط ذلك بالنسبة للأجيال المقبلة ـ اولها ـ ان جونثان هجنسن Jonathan Hutchinson ، سنة ١٨٩٠ ، قد سبق بسنوات عديدة هورتون Hortion ، سنة ١٩٣٢ ، في وصف مرض التهاب الشريان الصدغي والقحفي في الجبيرات العملاقة cranial temporal giant cell arteritis ، علما بأنه ليس من المستبعد أن يكون علي بن عيسى المولود في بغداد سنة (٩٤٠م) هو الذي يستحق ان يعتبر أسبق من الاثنين . فقد لاحظ بأن هناك علاقة بين الشرايين الملتهبة وأعراض الرؤية ليس في داء الشقيقة فحسب وانما في اصابات الحرارة والتهاب العضلة الصدغية ، والتي قد تؤدي الى فقدان البصر » ، ويشير بأن مصدره في ذلك مقال منشور في مجلة الطب الامريكية Medicine عدد ١ مجلد ٥٠ كانون الثاني ١٩٧١ . المقال بعنوان (التهاب الشريان في الخلايا العملاقة مع التهاب الشريان الصدغي GIANT CELL ARTERITIS INCLUDING TEMPORAL ARTERITIS بقلم جارلوس ار . هاملتون وزملائه ، وعند رجوعي للمقال المذكور وجدت فيه هذه الفقرة ..

ان الحالة التي سجلها هاجنسون **Hutchinson** ، قد سبق أن لوحظت في تذكرة علي بن عيسى من بغداد (٩٤٠ ـ ١٠١٠م) الذي بين العلاقة بين الشرايين الملتهبة وأعراض الرؤية . ذكر ذلك عندما تحدث عن سل الشرايين وكيها قال علي بن عيسى (*)

ولدى رجوعنا الى كتاب تذكرة الكحالين لعلي بن عيسى الكحال ـ الاصل العربي ـ ، وجدنا بأن الفقرة التي ذكرها هاملتون موجودة فعلا ونصها حسب ما جاءت في الاصل العربي كما يلي : « الباب الخامس والعشرون ـ في سل شريان الصدغين وكيها ـ قد تعالج أوجاع الشقيقة والصداع والذين تعرض لهم نزلات مزمنة في الأعين او نزلات الاصداغ حتى ربما خيف على البصر التلف » .

ثم بعد ذلك يصف كيفية اجراء عملية سل الشريان وكيه فيقول : « فينبغي حينئذ أن تأمره بحلق الرأس وتفتش عن الشريانات بالاصابع بعد تسخين الموضع

(*) الكحال ـ علي بن عيسى/ تذكرة الكحالين ، الطبعة الاولى ١٩٦٤ ص ٣٤ .

بالدلك وبالكماد بالماء الحار . ويكون ذلك بعد شد الرقبة والخنق الرقيق حتى اذا ظهر الشريان علمت عليه بالمداد ثم تجذب الجلد اليك بالاصبعين من اليد اليسرى ثم تشقه بالمقراض شقا معتدلا ويكون الشق في الجلد وحده ـ ثم تمد العرق اليك بصنارة حتى يخلص من جميع جهاته وتكويه ، فان كان الشريان دقيقا فأدخل تحته مبضعا وابتره » (*) فتحية إكبار اوجهها لهذا الطبيب العربي المسلم الذي استطاع بعقله النير وتجربته الرائدة ، ان يدخل اسمه في سجل التاريخ الطبي كأول واصف لهذا المرض ، وباعتراف كل الباحثين عن تاريخ هذا المرض ..

الثالث ـ رحلة علي بن عيسى

هو شرف الدين علي بن عيسى الكحال ، على الأرجح كانت ولادته ووفاته بين (٩٤٠ ـ ١٠١٠م) طبيب كحال عربي مسلم من بغداد ، عاش زمن المتوكل ، من أشهر أطباء العيون العرب . له كتابان : الاول : كتاب (مخطوط) اسمه المنافع التي تستفاد من اعضاء الحيوان .
الثاني : هو كتاب تذكرة الكحالين الذي اشتهر به .

يعتبر كتاب تذكرة الكحالين بالنسبة لمؤرخي الطب اول كتاب جامع لنظريات المتقدمين وتجربات المحدثين في أمراض العيون وعلاجها . وهو مع ما فيه من الخصوصية قد احتوى على جميع ما لابد منه في موضوع واحد في الطب .. وبقي هذا الكتاب نصا وحيدا لطلبة الطب ومرجعا عاما لاطباء القرون الوسطى في الأزمنة التي لم يبق فيها اثر لطب اليونان والاغريق إلا ما كان محفوظا في التراجم العربية . ولم يكتف الكحال بجمع نظريات اليونان فحسب بل نقدها وزادها وأضاف اليها تجرباته الشخصية كطبيب ماهر وحكيم حاذق . ولأجل ذلك قد تفرد هذا الكتاب في فنه لكونه مجملا ومفصلا وجامعا ومانعا وخاليا من عيوب القدماء ، ومحتويا على تجارب لم تكن معروفة حتى عند الاطباء اليونانيين ـ كما قال الطبيب الألماني هرش برج في مقدمته الألمانية (لكتاب التذكرة) وقال ايضا ان علي بن عيسى أول كحال اقترح التنويم والتخدير بالعقاقير في العمل الجراحي ولم يكن معروفا عند اليونانيين . وذكر هرش برج هذا الكتاب في الصفحة السادسة من كتابه المعروف Die Artbischen Leuhrbucher der Augenhil Kunde Berlin - 1905 الذي طبع في برلين سنة ١٩٠٥م وقال فيه : هذا أصح الكتب من الكتب القيمة في هذا الفن ، وقد وصل الينا على ما كان في اللسان العربي » (*).

الكتاب مقسم على ثلاث مقالات : الاولى في تشريح أعضاء العيون والبحث عن وظائفها والثانية : في الأمراض الظاهرة والثالثة : في الأمراض الباطنة ، وفي آخرها ذكرت الادوية المفردة التي تفيد في علاج العيون على وفق حروف الهجاء ، وبين أيضا مائة وثلاثين مرضا مما يتعلق بالعين خاصة ودل على علاجها بمائة وثلاثة واربعين دواء .

طبع الكتاب سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م في الهند عني بتصحيحه والتعليق عليه الحكيم السيد غوث محيى الدين القادري الشرفي ..

وكلمة أخيرة

لابد من ذكرها ، بأن ما ذكرناه دليل بسيط يضاف للأدلة الكثيرة التي تبين بان في تراثنا الطبي ـ كغيره من أنواع التراث ـ كنوزا نجهل الكثير منها ، واذا كتب عن بعضها مقالات ودراسات نشرت هنا وهناك فانها مازالت في حاجة الى من يسبر اغوارها ويكشف عن الصفحات المشرقة المطوية فيها . وان ذلك الدين يقع في المقام الاول على عاتقنا نحن العرب قبل الغرباء ، أما عندما يقوم به أناس غير العرب (من أمثال من ذكرنا في هذا المقال) انصافا واحقاقا للحق عندها يستحق مثل هؤلاء منا التحية والاكبار ألف مرة . ■■

(*) مقدمة محقق كتاب تذكرة الكحالين (المصدر نفسه) بقلم الحكيم السيد غوث محيى الدين القادري الشرفي ..

قصة قصيرة

من عجائب الصدف

بقلم : حسني فريز

لماذا لا يستطيع النوم ؟ ما سبب الارق ؟ انه أبدا يعمل طول النهار فلا تأتي الساعة العاشرة الا وقد دب النعاس الى جفنيه ، وانساب في اعضائه ومضى الى الفراش ، ولا يستيقظ الا في الساعة الخامسة في الصباح او بعيدها .

ليس له ولع بالليل ، ويستغرب كيف يتغنى به الناس. وكيف لا يطيب الغناء الا بمناداة الليل . حقا ان الكلمة ذاتها لينة خفيفة وترجيعها في مقدمة الغناء له حلاوته . وقد سمع الناس يقولون الليل نقل الاديب ، والنقل ما يتنقل به مع الشراب كالفستق ، فكأن الليل يعين على انتاج الادب ، مثلما يعين النقل على الشراب .

انه الليلة لا يحس بالتعب ولا بالنعاس . تناول سيجارة وراح يدخنها في غرفة النوم . ماذا صنع بنفسه ؟ لقد ترك زوجته ليلى او عروسه ولم يمض على العروس الا اسابيع وجاء الى لندن . انه مضطر ما في ذلك ريب . لا بد ان يرى عملاءه التجار الذين يتسلم بضائعهم ويتلقى على بيعها عمولة مجزية . لا ينبغي ان يلوم نفسه على هذا الفراق المؤقت . بل لعله استجمام للفريقين .

هو نيف على الاربعين منذ زمن . وعروسه عانس نصبت له شراك الحب فوقع فيها . كانت تبادره من حيث يدري ولا يدري ، وتقف له بكل طريق مبتسمة مرة وأسيفه مرة اخرى . وفي كلتا الحالتين تنصب له الشرك ، ويعرف انه شرك ولكنه يستحبه . تدعوه الى نزهة ، تمضي به الى بيتها ، وتولم له وتنظر الى كل ما يحبه فتقربه له او تفعله من اجله . والحق ان لها صوتا ساحرا ، فاصبح لا يطيق عنها ابتعادا . في اول الامر كان يحس انه يفتقد شيئا ، فيحاول ان يعرف ما الذي يبتغيه فلا يدري ويظل حائرا حتى يرن الهاتف : صباح الخير . ذكرتك امس باللفظ ولو انك لا تغيب عن خاطري ، كنا جماعة من الاقرباء والصديقات ، كانت كل الضحكات والحديث بلا لون ، بلا معنى . اتدري لماذا ؟ لانك لم تكن بيننا .... اسمع لا تقاطعني .. هذا شعوري ....

بعد سماع كلامها يغمره السرور ، وينقله الى آفاق من النشوة . ان صوتها موسيقى اكثر سحرا من اي موسيقى عرفتها اسماعه .

كان جليل لا يبالي بمصيره في سبيل ان يستمع الى صوتها منخفضا ومرتفعا او ممزوجا بالضحكة التي يصدح فيها كل ما يشيع في الروح الطرب ..... انه يستعيد على ذهنه بعض الامور لا ليثبت رأيه في صواب الزواج ، بل هي ذكريات قريبة حلوة ، انه لا يشكو هذا الزواج ، الا انه يجد في نفسه ذكرى تواكبه ايضا ولا



يستطيع منها فكاكا . لكن لماذا ؟ انه الآن قد تجاوز الاربعين من زمان وكان ينبغي ان يتزوج . اليس من حقه ان يكون أبا ؟ وماذا يقول الناس لو ظل معاشرا لتلك العانس سلمى من غير رباط شرعي ومن غير امل في الانجاب ؟ ماذا يقولون ؟ لقد قالوا بالحق بالباطل فيه وفيها . ولم يؤثر القيل والقال في حياته اليومية فتجارته رائجة والناس لم ينقطعوا عن التعامل معه ، وبيته عامر ولم يمتنع احد من معارفه او اصدقائه عن زيارته هم وزوجاتهم . كل ذلك حصل ايام كان حديث الناس على أشده . كان الناس يتكلمون وأثر في كلامهم زمنا ثم نسيته . وتعب الناس فسكتوا . حقا ان ايامي مع سلمى كانت بهيجة . ولم يكن بيننا ما يدعو الى اي شكوى من كلينا . واخيرا هي التي الحت على ودفعتني الى الزواج ... نعم هي لكنها لما ان رأتنا عروسين كادت عيناها تنفجران حنقا وغيرة ..... مسكينة ذلك قدرها ان تذوق مرارة الفراق وقدري ان اجد المرارة في فمي وفي نفسي لاني لم اكن وفيا .

مسكينة انها الان في المكان الذي لا تجد فيه زوجا يذهب عنها غول الوحدة . نعم انها وحدها الآن من غير انيس ولا جليس . لكنها تحب القراءة والكتابة وتتسلى ، الا ان القراءة ممكنة ايام النشاط والفتوة . حين يقرأ الانسان ساعات وهو مستغرق لا يحس بتعب . اما بعد ذلك فان القوة تتضاءل . لماذا ألوم نفسي على هجرها ؟ كلانا كان يخشى الفراق ولكنني كنت مضطرا امام الضغط الاجتماعي . أو من المجتمع ومن اعتباراته . نقد الناس الآن اشد ضراوة واكثر وضوحا منه قبل الزواج .



قبل ان اتزوج قالوا ينبغي ان لا ابقى بغير خلف وقالوا (ابن الشارب للحية وابن الشيبة للخيبة) ومع الايام خفت من الخيبة التي قرعوا بها سمعي ، وخرقوا بها جلدي ، ماذا فعلت ؟ نسيت تلك التي منحتني مودتها ، وصفاء حبها ، نسيت انقطاعها لخدمتي وتفقدها لمواقع مسرتي ، اني ناكر الجميل ، لكن الم يكن ذلك متوقعا ؟ الم يكن سيفا مسلولا فوق رأسينا ، وقد ضاقت هي بالخوف من الفراق ، وطوقتها الفكرة ، وازعجها الترقب واقلقتها محنته فمررت عيشها ، واخيرا رأت ان لا بد لها من مواجهة المصيبة فألمحت واشارت ثم صرخت باستعجال الواقعة . ولا ريب انها هي ، والناس ونفسي قد اشتركنا في اتخاذ القرار .

كلانا كان غرضا لكلام الناس ، وعشنا في جو مشحون بالوان الهذر والغيبة . لست ادري ما شأن الناس ونحن لم نؤذ احدا منهم بل لقد كنا ابدا نعين على نوائب الايام ، وقل بين الناس من ينفق من وقته ويسخو بجاهه وبماله اكثر منا ، ومع ذلك انعقدت فوق رأسينا سحب سود من القيل والقال : وضباب كثيف من الحسد والضغينة ، واحيانا يبدو بالاعتذار والشعور بالمواساة ، ما هو بالنكاية والتشفي اجدر ومن هذا وذاك واشباهها صرنا لا نطيق الحياة الى ان تزوجنا وافترقنا .

غير ان الناس لم يسكتوا ، بل انفتح باب جديد لالوان النقد ، كيف تركت صديقتي التي ضحت من اجلي ، لقد طرحتها حين لا تستطيع ان تتخذ لنفسها رفيقا ، لم افعل ذلك من سنوات ، ايام كان البديل ممكنا ، ان في هذا الفراق انتقاما او كأنه انتقام . وهكذا بقينا في نفس الدوامة التي كنا فيها هدفا للسباب والشتائم والنقمة والحسد ، ضاق صدري وعيل صبري ، الافضل ان لا اعير الناس سمعي فاستريح .

وهنا رن جرس الهاتف فتناولت السماعة مرحبا .. من اين ؟ من هنا من لندن ؟ في اي فندق ؟ .... في نفس الفندق الذي انا فيه ... ما احلى هذه الصدفة . احلى من الف موعد . كيف عرفت انني هنا .. في غرفة الاستقبال ؟ جارة لي في نفس الطابق .. في الغرفة المجاورة رقم ٩ سألبس ثيابي وآتي ..

انت لابسة وستأتين ؟ أهلا والف اهلا ومرحبا . ■

عمان ـ حسني فريز

قطر الندى بنت خمارويه

كانت قطر الندى مع جمالها موصوفة بفضل العقل خلا بها المعتضد يوما للانس في مجلس افرده لم يحضر غيرها ، فلما نام ، خرجت فجلست على باب المجلس ، فاستيقظ فلم يجدها فاستشاط غضبا » . ونادى بها فاجابته على قرب .

فقال : ما هذا ؟ استخليتك اكراما لك ، ودفعت اليك مهجتي « دون سائر خطاياى ، ثم تتركينني وتخرجين ؟.

ـ فقالت : ياامير المؤمنين ، ما جهلت قدرما نعمت به علي واحسنت فيه الي ، ولكن فيما ادبني به ابي ان قال لي : لا تنامي بين الجلوس ، ولا تجلسي بين النيام ، فاستحسن المعتضد اعتذارها .

السنغال في مصيدة التغريب

● نشرت مجلة العربي في عدديناير/٨٢ استطلاعا تحت عنوان « السنغال في مصيدة التغريب » . والحقيقة ان هذا الاستطلاع قد اتاح لكافة القراء العرب معرفة الكثير عن احوال هذا البلد الافريقي الذي مازال يعاني من وطأة الاستعمار الثقافي .

وباعتقادي ان واجبنا ـ نحن العرب ـ نحو هذا البلد الافريقي مساعدته للتغلب على هذا الوضع ان نفعل الآتي :

١ ـ ان نمد شعوب غرب افريقيا بالبعثات التعليمية القادرة على تصحيح المسار وانقاذ هذه الشعوب من المصائد التي تنصب لها .

٢ ـ امداد هذه الشعوب بالمعونات المالية لبناء المدارس العربية .. وشراء الكتب اللازمة لعملية التعليم .. وقد يستغرب القارىء اذا قلت له ان الجامعة الاسلامية في النيجر قد توقف بناؤها بسبب قلة الاموال .. اذ ان هذا البناء يتكلف ٦٠ مليون دولار ، لايوجد منها لدى صندوق التضامن الاسلامي سوى ١٨ مليونا فقط .

٣ ـ مساعدة هذه الشعوب عن طريق ارسال الكتب الاسلامية والعلمية والادبية المكتوبة باللغة العربية .

محيي الدين سيد سليمان

الاسكندرية ـ مصر .

نسبة الشرعية

○ تعقيبا على ما كتبه رئيس تحرير مجلة العربي عن « الشرعية » في عدد مارس ٨٢ اقول ان الجميع يتحدثون عن الشرعية ، والجميع يرونها دائما بجانبهم ، ولا يرونها في غيرهم ، فهم الشرعية والشرعية هم ، ودوما هناك اصوات هامسة في هذا العالم او صامتة ، لا زالت ترى ان ذلك المفهوم تزييف قهري وامر واقع لا مفر منه في سياق التطور الانساني للقوى الحاكمة .

وللعدل انه كما كان لكل زمن رجاله ، فقد كان لكل زمن شرعه وشرعيته . ومنذ ان تطورت المجتمعات لحاكم ومحكوم ، كان الحكام يرون ان كل ما يتهدد بقاءهم خارج عن الشرعية ، وجريمة اجتماعية خطيرة عاقبوا عليها بأشد العقوبات المتنوعة عبر العصور . ومع ذلك تطورت المجتمعات وعرفت شرعيات مختلفة ، وزالت امم وامم وظهرت شرعيات ولايزال الحديث عن شرعية مثالية مثارا للجدل .

وباستعراض عادل لتاريخ الشرعيات يلمع المرء ومضات مشرقة ومشرقة لشرعيات رائعة العدل والعدالة . كأيام الاسلام المشرقة الاولى قبل ان تتحول تلك الشريعة السمحاء مطية للحكام المنافقين الذين تظاهروا بالحكم بها .

ومن هذا نخلص لنتيجتين : الاولى بأن الشرعية تخضع لمفهوم النسبية فما كان شرعيا بالامس ليس بالضرورة شرعيا اليوم ، واضرب مثالا على ذلك شرعية الاكاسرة ، والاباطرة ، والقياصرة ، والسلاطين ، وهتلر وغيرهم

والنتيجة الثانية ان المجتمعات بتطورها تطور شرعيتها وتقترب شيئا فشيئا من المثالية . وان القوانين والتشريعات لأي مجتمع تمثل القوى الحاكمة لهذا المجتمع فقد تكون الشرعية شرعية فردية او شرعية جماعة او شرعية مجتمع . مع التذكير بان السوء قد لايكون في نص القانون وانما يأتي من خلال تطبيقه ورجاله ومحدوديته

ونعود للتساؤل عن اطار الشرعيات المثالية للمجتمعات ومن المقدمة ندرك ان الامر الاول فيها هو تطور تلك المجتمعات حضاريا ومدنيا وأخلاقيا وادراكها الصحيح للعدالة والحرية والديمقراطية وحقوقها وحقوق غيرها .

فتلك المجتمعات المتطورة عندها ستبسط قوانينها وتوضحها وتحتفظ لنفسها بحرية تطوير قوانينها ومناقشتها وان يصبح القانون في خدمة تطورها لا عبئا ثقيلا او قيدا مكروها لها .

الدكتور عبد الاله الحمدان

طرطوس ـ سوريا

جلجامش .. خلافات هامة .

● نشرت مجلتكم الموقرة بعددها المرقم ٢٧٨ الصادر في شهر كانون الثاني ١٩٨٢ ملخصا لملحمة جلجامش بقلم السيد جمال الكتاني . وقد لفت نظري ان الكاتب ذكر وقائع الملحمة دون الاستناد الى المراجع الاصلية واود فيما يلي بيان بعض الخلافات الهامة :

١ ـ ان جلجامش لم يكن عازما على الزواج عندما التقى بانكيدو عند مدخل « بيت العرس » بل انه كان على عادته يسبق كل عريس ليلة زواجه فيواقع العروس قبل دخول العريس عليها .

٢ ـ ان جلجامش كان على سابق علم بوجود العفريت همبابا ولم يتوصل الى معرفته عن طريق الحلم .

٣ ـ اهمل الكاتب ذكر حادث مهم من احداث الملحمة وهو محاولة الآلهة عشتار اغراء جلجامش وغضبها منه لصدها وتوبيخها مما دفعها الى انزال الثور السماوي لكي ينتقم لها منه ، الا ان جلجامش تغلب على الثور وقضى عليه بمساعدة صديقه انكيدو . وهذا الحادث يمثل نقطة تحول مهمة في مجرى الملحمة اذ انه يؤدي الى موت انكيدو بقرار من الآلهة ترضية لعشتار .

٤ ـ ان النوتي الذي ارشدت صاحبة الحانة جلجامش اليه لم يكن هو صاحب سر الخلود بل انه مجرد نوتي تابع لاوتونابشتيم بطل الطوفان ، وهو الذي اخذ جلجامش في سفينته وعبر به مياه الموت فاوصله الى اوتونابشتيم الخالد .

٥ ـ ان كاتب الملخص جعل من جلجامش بطل الطوفان في حين ان بطل الطوفان الحقيقي هو اوتونابشتيم الذي هو نوح نفسه . اما جلجامش فكان خامس ملك من ملوك اور في زمن ما بعد الطوفان .

٦ ـ ان الكاتب قد اعتبر الطوفان الذي ورد في ملحمة جلجامش مستقلا عن الذي ورد ذكره في التوراة في حين ان هناك طوفانا واحدا في التاريخ . وقد نقل اليهود قصته عن البابليين عند وجودهم اسراء في ارض الرافدين وقد حرفوا الاسماء والوقائع ونسبوها الى انفسهم بحيث صح فيهم قول فولتير :

« ان اليهود قد فعلوا اذن بالتاريخ وبالأسطورة القديمة ما يفعله تجارهم بألبستهم العتيقة اذ يقلبونها ويبيعونها كسلعة جديدة بأعلى ثمن ممكن . »

بغداد ـ يوسف بيو

فاسكودي جاما

● قرأت في ملحق العربي عدد ٢٦٦ حديثا عن فاسكودي جاما جاء فيه قوله : . . . لاقوا حتفهم في ميناء قليقوت (كلكتا) الهندية . . . ثم جاء بعد سطور قوله . . وصل فاسكو الى كوا على ساحل الهند الجنوبي الشرقي . .

ولما كان الكاتب قد أخطأ في موضع البلدين جئت بهذه الكلمة للتصويب آملا نشرها .

فالبلدة التي جاءت باسم قليقوت وظنها الكاتب كلكتا هي في الواقع ميناء كاليكوت الواقع في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ، ومدينة كوا هي ايضا تقع على الساحل الغربي من شبه الجزيرة الهندية الباكستانية الى الجنوب من مدينة بمبي (بين بمبي وكاليكوت) وقد كانت مستعمرة برتغالية فحررتها الهند سنة ١٩٦١ .

قارىء

العربي : نأسف ، وما تقوله هو الصحيح .

العربي والجزائر

● ان كان في السطور سحرا ، فاننا سحرنا بما تضمنته صفحات مجلة العربي . وان كانت الكلمات تروي الظمأ ، فاننا لم نرتو إلا لما نرشف من معين مجلتكم .. التي - وللاسف - تصلنا باعداد قليلة ومتقطعة ، تتخاطفها الايدي فور وصولها الاكشاك .. وهذا يدل على اتساع شهرتها وانبساط صيتها ، وفرض وجودها على كل ناطق بلغة الضاد على مستوى العالم العربي والاجنبي وهذا لا يتأتى الا بفضل رجالها ، وسهرهم الليالي من أجل ان تخرج هذه المجلة في الحلة الجذابة وبالشكل الأخاذ ، وبالمضمون الذي لا يستغني عنه كل طالب علم .

بادي نوار

ولاية سكيكدة - الجزائر

الاشتراك في مجلة العربي

● نلفت نظر قراء العربي الى أنه قد تم فتح باب الاشتراك في المجلة منذ أكثر من شهرين . ولمزيد من التفاصيل نحيل القراء الى الصفحة الخامسة من العدد . التي تضمنت إشارة الى الراغبين في الاشتراك بالمجلة للاتصال بالمكتب الفني بوزارة الاعلام بدولة الكويت - ص . ب ١٩٣ .

عمر المختار

● قرأت في العدد الأخير من مجلة العربي لشهر ربيع الثاني سنة ١٤٠٢هـ فبراير (شباط) ١٩٨٢ م مقالا للأستاذ محمد المنصف عن سيرة المجاهد الشهيد عمر المختار روح الله روحه وقد تناول قصة محاكمته واعدامه فرجعت بالذاكرة الى قصيدة المرحوم احمد شوقي في رثائه التي مطلعها :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء
يستنهض الوادي صباح مساء

ولقد كنا سمعنا ان الشهيد طلب شربة ماء قبل اعدامه فأبى جلاده عليه ذلك . وهكذا قضى ظمآن مظلوما . واذا كانت هذه الرواية صحيحة كما ورد في قصيدة امير الشعراء فلماذا لم يذكرها الاستاذ المنصف في مقاله لأهميتها ؟ واذ قرأت مقاله الممتع والفقرة التي تبين عن انقطاع الحبل بالشهيد والكلمة العذبة التي نطق بها ، كتبت الايات التالية مستوحاة من قصيدة أمير الشعراء

هات الحديث وعطر الارجاء
واشف الصدور فان فيه شفاء
واذكر لنا عمر الكرامة والندى
من ساد في العليا سنى وسناء
واستوح من ذكر الفخار كرامة
كانت تنير جبينه الوضاء
كيف البطولة جمعت في واحد
يقفو بها الاسلاف والأبناء
وأبى الخنوع وقال قولته التي
سارت منارا للورى لألاء
بادت حبالهمو وبادوا وارتمى
يزري بهم عمر كما هو شاء
راع العدو ببأسه وهو الذي
بعديده وعتاده قد جاء
ان الغرور سقى العدو بكأسه
وجنى عليه مذلة وشقاء
وتنادت الأساد في ساح الوغى
متسابقين ليطردوا الدخلاء
وقضى من الابطال فرسان سموا
شرفا فكانوا سادة كرماء

الشيخ محمد احمد البسطامي
نابلس : دائرة الاوقاف

كتاب الشهر من روسيا

اكتشاف الجزيرة العربية

تقديم الدكتور هاشم حمادى

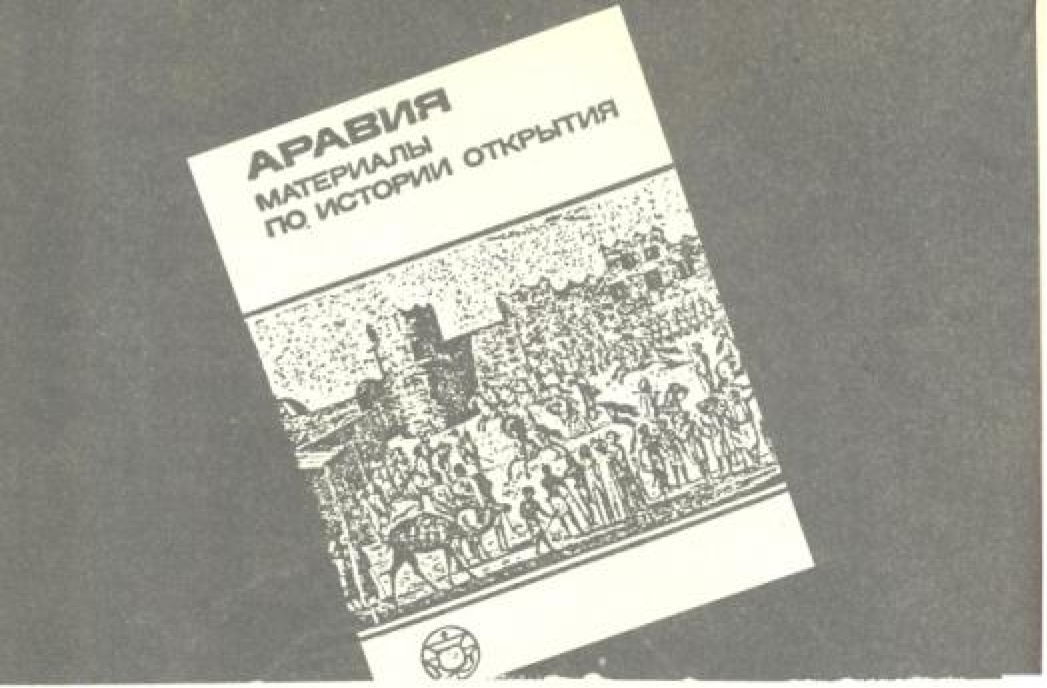
هذا الكتاب الهام صدر بالروسية مترجما عن الالمانية وقد استعرض في صفحاته ال ٣٧٠ تاريخ اكتشاف الجزيرة العربية ، منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، وحتى عصرنا الحاضر . .

وقد صدر الكتاب في موسكو مع نهاية عام ١٩٨١ عن معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية ، مترجما عن الكتاب الالماني ـ **Otto Baumhauar. Dokumente Zur Entdeckungsge Schichte, Bd. 1 G. Von Wissmann. Arabien.**

وأهمية الكتاب لا ترجع فقط الى المساحة الزمنية التي تغطيها ، ولكن أيضا لأنه يتضمن شرائح حية من الوثائق الأصلية ، التي خلفها الرحالة والبعثات العلمية بدءا من أول بعثة معروفة الى هذه المنطقة وانتهاء بآخرها .

وقد نسقت هذه الشرائح بشكل يعطى لوحة بانورامية بما فيه الكفاية للحياة في الجزيرة العربية على مر العصور ظروفها الطبيعية والمناخية واخلاق سكانها وعاداتهم واحتكاكهم بالشعوب الاخرى المجاورة . وكما يشير لوندين في تقديم هذا الكتاب ● فإن الجزيرة العربية ، ذات الموقع الجغرافي البالغ الاهمية ، كانت منذ أقدم العصور على ارتباط وثيق بأقدم الحضارات البشرية ، التي قامت في وادى النيل وبلاد الرافدين ، كما كانت تشكل همزة وصل بين مناطق حوض البحر المتوسط وشمال افريقيا والهند والصين ، وبالتالي فان جذور اكتشاف الجزيرة العربية تعود الى العصور الغابرة ـ وبالتحديد الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . ففى عهد الملكة المصرية حتشبسوت نظمت الرحلات التجارية الى بلاد « بنط » (الاسم الذى اطلقه قدماء المصريين على المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب ، على الشاطئين الافريقى والاسيوى) وعلى ذلك تدل الرسومات والنقوش ، التى عثر عليها في الدير البحرى . والواقع أنه لا يجوز اعتبار

● نظرا لطبيعة الكتاب الوصفية فقد اقتصرت في عرضه على تعريف القارىء بأهم مراحل تاريخ اكتشاف الجزيرة العربية معتمدا على مقدمتى الكتاب الالمانية والروسية .



هذه الرحلات الاولى من نوعها الى بلاد « بنط » اذ يرجح أن بداية الاحتكاك المصرى بالجزيرة العربية تعود الى الالف الرابع ق . م . وعلى ذلك تدل الوثائق القديمة ، التي يعود تاريخها الى الأسرة الخامسة ، ففي حوالى الالف الثاني ق . م . غادرت ميناء القصير على البحر الاحمر فرقة قوامها ثلاثة الاف محارب على سفينة بيلوسية التصميم ميممة وجهها شطر بلاد المطور .

وفي العصر الهلنستي ازداد احتكاك الجزيرة العربية بالبلدان المجاورة ، بعد أن تحولت الى مركز تجاري دولي كبير . وكان من البديهي أن تكون العوامل الاقتصادية حافزا للدراسة العلمية ، فوضعت في هذه الفترة أول خارطة للجزيرة العربية وذلك على يد بطليموس في حوالى عام ١٥٠ ق . م . كما تم وضع دليل تجاري وملاحي للبحر الاحمر والمحيط الهندى .

وفي بداية القرن السابع الميلادى حدث انعطاف حاسم في تاريخ الجزيرة العربية : فمع ظهور الاسلام وقيام الدولة الاسلامية تحولت البلاد الى مركز سياسي وايديولوجي للدولة العظمى ، الممتدة من المحيط الاطلسي غربا حتى حدود الصين شرقا ، وعلى الرغم من انتقال مركز الخلافة الى دمشق ، ومن ثم الى بغداد ، فقد ظلت الجزيز العربية محافظة على اهميتها كمركز ثقا[في] وفكرى لعالم الاسلامى .

همزة الوصل

وكان من الطبيعي أن تساهم النهضة العلمية ز الخلافة الاسلامية في كشف صفحات جديدة من تار الجزيرة العربية . ففى هذه الفترة وضع ابو محمد الحـ بن احمد الهمدانى (توفي في النصف الاول من الق العاشر الميلادى) وصفا جغرافيا مفصلا لشبه جـ العرب والف كتابا خاصا مكرسا للمعالم الاثرية والمعـ فيها ـ « صفة جزيرة العرب » ، ومن المرجح أ الكتاب يعتبر الاول من نوعه في العالم في مجال ا الاثرية ، وأحد الاعمال الجغرافية البارزة في الـ الوسطى . فنحن مدينون للهمدانى بالوصف البالـ لوضع جنوب الجزيرة العربية في القرن العاشر المـ ومظاهرها الطبيعية واجناسها وقبائلها وثرواتها و ومواطن الاستقرار البشرى فيها . كما ان كتابه ها همزة وصل قيمة بين المصادر الرومانية والاغريقـ نتائج الابحاث والدراسات المعاصرة .

أما الرحالة العربي المشهور ابن بطوطة فقد زار جزيرة العرب أربع مرات ، وكانت رحلاته مكرسة لدراسة الوضع الجغرافي والتاريخي والسياسي والديني والاقتصادي في هذه المنطقة ، ويعتبر فاتحها الاول بحق .

بيد أن الكثير من انجازات العلوم العربية وما يجرى في شبه جزيرة العرب ظل مجهولا بالنسبة لاوربا التي كانت غارقة في ظلام العصور الوسطى ، ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل ان اوربا فقدت حتى تلك المعلومات ، التي كانت متوفرة لدى الاغريق والرومان ، وهكذا فبعد الكشوف الجغرافية العظمى اضطرت اوربا الى البدء باكتشاف الجزيرة العربية من الصفر ، وبالتالي فان اصطلاح « اكتشاف » جزيرة العرب ينطبق على العلوم الاوربية فقط .

الكشوف البرتغالية والايطالية

منذ بداية الكشوف الجغرافية العظمى احتلت الجزيرة العربية مكانة متميزة في الابحاث والبعثات الجغرافية الاوربية . فلم يكد فاسكو دى جاما يكشف الطريق البحري الى الهند حتى بدأت السفن البرتغالية تحط الرحال على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، وقد رأى البرتغاليون في الجزيرة العربية منافسا خطيرا لهم في التجارة مع الهند ، فعمدوا الى وضع حد لهذه المنافسة بأبشع اساليب القرصنة ، مستغلين قوتهم العسكرية . ولم تلبث أن ظهرت نقاط الاستناد البرتغالية على ساحل الجزيرة العربية ، ولما كان هدف البرتغاليين هو القضاء على التجارة بين الهند والجزيرة العربية ، فانهم لم يهتموا باكتشاف المنطقة ، ولم يصلوا الى أعماقها الا كأسرى ، ومما لا شك فيه أن وجودهم - وان كان محدودا - قد زودهم بالمعلومات الهامة عن هذه المنطقة ، ولكن رغبتهم في الاحتكار جعلتهم يحتفظون بهذه المعلومات طي الكتمان ، وبالتالي فان نشاطهم لم يتمخض عن أية نتائج علمية .

وكان نشاط منافسيهم الايطاليين اكثر جدوى ، فقد كان هذا النشاط أحد الاسباب الكامنة وراء رحلة لودفيكو دى فاريتيم في بداية القرن السادس عشر ١٥٠٣ - ١٥٠٥ ، الذى كان أول أوربي يزور مكة والمدينة وعدن وصنعاء ، وعلى مدى طويل ظلت نتائج رحلته المصدر الوحيد للتعرف على الجزيرة العربية في اوربا .

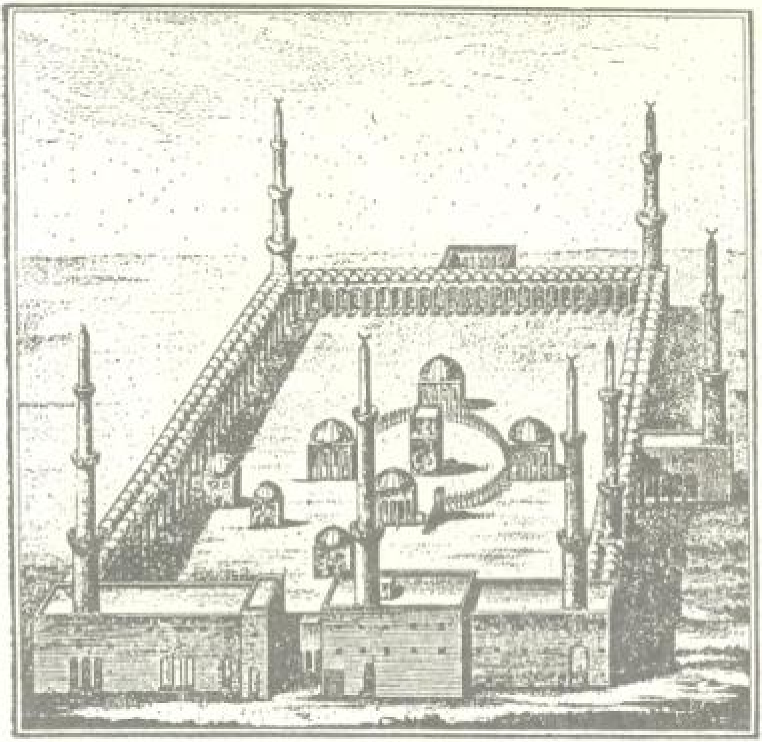
وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر لم تكن المعلومات عن جزيرة العرب تصل اوربا الا عن طريق الاسرى ، الذين كانوا يرافقون اسيادهم الحجاج ، أو عن طريق التجار ، الذين كانوا يترددون على اليمن وحضرموت والمناطق الداخلية . وفي هذه الأونة يكتسب جنوب جزيرة العرب شهرة عالمية ويطلق عليه اسم « بلاد البن » ، حيث كان البلد الوحيد في العالم الذى كانت تنمو فيه شجرة البن آنذاك .

ومن بين الرحالة المشهورين في هذه الفترة برز الرحالة الالماني فيلدين ، الذى زار مكة في عام ١٦٠٧ والهولندى فان دين بروك ، الذى زار مرافىء جنوب جزيرة العرب اكثر من مرة ، وقام في عام ١٦١٦ برحلة من مخا الى صنعاء .

« كولومبوس جزيرة العرب »

في عام ١٧٦١ وصلت أول بعثة علمية غربيه الى الجزيرة العربية وقد ضمت هذه البعثة المستشرق خريستيان ، وعالم النبات فورسكول والطبيب وعالم الحيوان كرامر والفنان باوريتفايند والجغرافي نيبور . وقد قامت هذه البعثة بدراسة اليمن بشكل خاص . ووضعت أولى خرائط البلاد ووصفا رائعا لثروتها النباتية ورسمت لوحة مفصلة للحياة السياسية في كتاب نيبور « وصف الرحلة الى جزيرة العرب والبلدان المجاورة » ، وهذا الكتاب الذى صدر في ثلاثة مجلدات منذ أكثر من قرنين من الزمن . (طبع آخرها في عام ١٨٣٧) والذى لا يزال ، على الرغم من قدمه ، أحد المراجع الاساسية للتعرف على المنطقة اضف الى ذلك أن هذه البعثة ونتائجها كانت أكبر حافز لتنظيم بعثات ورحلات أخرى الى الشرق الاوسط ، فلاغرابة اذن أن يعتبر كارستين نيبور كولومبس جزيرة العرب في العصر الجديد .

وفي القرن التاسع عشر استمرت الدراسات الجغرافية للجزيرة العربية بوتيرات أكثر سرعة ، وقد برز من بين الرحالة في هذا القرن زيتسين ، الذى تجول في شمال ووسط وجنوب الجزيرة العربية ، والذى ضاعت آثاره في رحلته الاخيرة في عام ١٨١٥ . واذا كان نيبور هو أول من تحدث عن الآثار القديمة في مأرب دون أن يراها فان الفضل في اكتشاف النقوش القديمة في مأرب يعود الى زيتسين ، حيث قام اثناء رحلته الاخيرة بارسال خمسة نصوص عثر عليها في اطلال ظفار ، العاصمة الحميرية القديمة ، ولكن هذه النصوص كانت عبارة عن نتف صغيرة سيئة النسخ ، ولذا فان رموزها لم تحل حتى الآن .



المسجد الكبير في مكة المكرمة
من رسوم كتاب كارستين نيبورى وصف جزيرة العرب ١٧٧٢ .

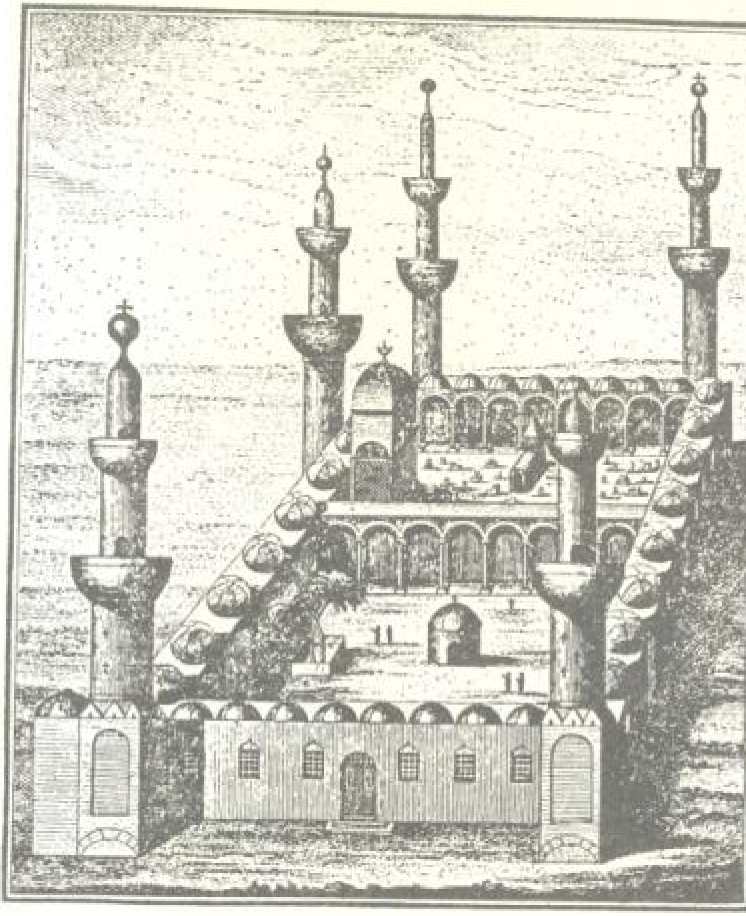
« النقوش .. النقوش »

وفي عام ١٨٣٤ اكتشف ضباط البعثة الجغرافية البريطانية او يلستيد وكروتيندين وخالتون اطلال حصن قديم وعدة نقوش محفورة على الصخر ، بما فيها نصا كبيرا ، لعب فيها بعد دورا بالغ الاهمية في دراسة تاريخ اليمن القديم .

وقد أثار اكتشاف هذه النقوش القديمة اهتمام القنصل الفرنسي في جدة فرينيل ، الذى سبق له أن نشر عدة أعمال حول تاريخ جزيرة العرب في القديم ، فأقنع الصيدلي الفرنسي ارنو العامل في الفوج المصرى المتمركز في جدة بالقيام برحلة الى مأرب بحثا عن النقوش القديمة ، وعلى الرغم من أن رحلة ارنو كانت محفوفة بالمصاعب والمخاطر فقد تكللت بالنجاح الباهر ، حيث زار مأرب ودرس سدها العظيم واكتشف اطلال صرواح ـ العاصمة السبأية القديمة ، قبل مأرب . وقد جلب أرنو نسخ عشرات النقوش ، التي لعبت دورا اساسيا في تطور العلم السبأى ، الذى يدرس لغة وتاريخ وثقافة الجزيرة العربية في القديم .

وفي عام ١٨٦٩ أرسلت الاكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون الجميلة أحد علمائها ـ هاليفى ـ الى اليمن لجمع ودراسة النقوش القديمة . وقد عاد هاليفى وفي جعبته حوالى ٧٠٠ نسخة من النقوش القديمة والاهم من ذلك أنه اكتشف دولة معين القديمة .

أما غلازر ، الذى كرس كل حياته لجمع الاثار اليمنية القديمة ، فقد قام بثلاث رحلات طويلة الى الجزيرة العربية في الفترة ما بين ١٨٨٢ و١٨٩٤ حيث جمع عددا كبيرا من النقوش القديمة يربو على ١٨٠٠ . وبفضل



المسجد الكبير في المدينة المنورة

الاعتماد على السكان المحليين ، وتعليمهم أصول النسخ ، تمكن من الحصول على النقوش المعنية المشهورة ونقوش تمنع عاصمة قطبان والنقوش السبأية وغير ذلك من النصوص ، والواقع أن معظم المراجع تتجاهل قسط العرب هذا في دراسة تراثهم .

وفي القرن العشرين استمر تدفق النقوش الجديدة من الجزيرة العربية . ولا بد من الاشارة هنا الى أن القرن العشرين بدأ يضع شروطا اكثر تشددا ازاء هذه النقوش وغيرها ، حيث لم يعد كافيا العثور على هذا الأثر اوذاك . بل أصبح من الضروري تحديد نوع الكتابة ومكان العثور على هذا الاثر وما يحيط به الخ ، اذ أن هذه المعلومات الثانوية غالبا ما تكون أهم من النصوص نفسها ، وهكذا فقد بدأت في تاريخ اكتشاف الجزيرة العربية مرحلة نوعية جديدة هي مرحلة الحفريات الاثرية .

اول بعثة اثرية

والواقع أن تاريخ اول بعثة اثرية الى الجزيرة العربية يعود الى نهاية القرن التاسع عشر ، ففي عام ١٨٩٨ ارسلت اكاديمية العلوم في فينا بعثة لهذا الغرض ، ولكن هذه البعثة لم تتمكن من الوصول الى عمق البلاد ، ومع ذلك فقد حققت نجاحا كبيرا في دراسة لهجات الساحل الجنوبي للجزيرة العربية وسوقطرة ، حيث تبين ان هذه أقرب الى لغة النقوش القديمة منها الى اللغة العربية « الكلاسيكية » . ومع مطلع القرن الجاري ظهر الخبراء التقنيون الاوربيون في الجزيرة العربية ، وتم تمديد الخط الحديدي الحجازي ، الذي يصل دمشق بالمدينة المنورة ، مما سهل أعمال البحث . كما ان وضع مشروع لتمديد

خط حديدي في اليمن قد تطلب وضع الخرائط لمساحة واسعة من الاراضي .

وتتابعت البعثات الجماعية والرحلات الفردية الى الجزيرة العربية . وكان ابرزها الرحلة التي قام بها راتين وفون ويسمان ١٩٢٧ - ١٩٢٨ الى الجزيرة العربية لاجراء الدراسات والابحاث الجغرافية والجيولوجية والتاريخية والثقافية ، وقد تركز عمل هذه البعثة في شمال صنعاء ، حيث تم العثور على الكثير من الاثار الهامة . وبعد عشر سنوات (في عام ١٩٣٨) قامت ثلاث باحثات بريطانيات هن طومسون وغادرتر وستارك بالاشراف على الحفريات الاثرية في حريد وحضرموت . ولا تزال نتائج ابحاثهن مرجعا اساسيا في تاريخ الجزيرة العربية . وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة توجهت عدة بعثات عربية الى الجزيرة العربية . وكان من ابرزها بعثة العالمين المصريين توفيق وفخري الى اطلال مأرب ومعين .

وفي عام ١٩٥٠ بدأت البعثة الامريكية (- صندوق دراسة الانسان Foundation for the Study of an) نشاطها في جنوب الجزيرة العربية في ومأرب بشكل خاص حيث عثرت على كمية كبيرة من النقوش الجديدة والاثار الفنية ، بما فيها نماذج رائعة من النحت البرونزي . ولكن من الواضح أن علماء الاثار الامريكيين قد تناسوا أصول الحفريات العلمية وتحولوا الى باحثين عن الكنوز ، والا كيف يمكن تفسير التستر التام على النتائج ، التي توصلت اليها هذه البعثة ، سواء في تمنع ومأرب ، أو في ظفار والسلال ووادي حضرموت ؟

آفاق واعدة

وهكذا فان الدراسة الاثرية للجزيرة العربية لا تزال في طور المخاض . وبالتالي فان دراسة جنوب الجزيرة العربية لا تزال في نفس المستوى ، الذي كانت عليه في مرحلة الحفريات الاولى ، اي منذ قرن مضى ، في الوقت الذي تبشر فيه الحفريات في اليمن بمادة بالغة الاهمية سواء في مجال الاثار الفنية والنحت البرونزي بشكل خاص ، او في مجال الاثار الكتابية ، ليس على الحجر والبرونز فقط ، بل وعلى الجلد والرق وعلى الخشب وسعف النخيل .

ففي الوقت الحاضر أصبحت نقوش الجزيرة العربية مصدرا بالغ الاهمية لتأريخ اثيوبيا ووسط الجزيرة العربية ، ويرجح أن تساهم هذه النقوش في رفد تاريخ شعوب شرق افريقيا والهند واندونيسيا ، وحتى بلدان الشرق الاوسط بالكثير من المواد الهامة ، وهذا ما يجعل تنظيم التنقيبات المنتظمة والمبرمجة في الجزيرة العربية امرا بالغ الاهمية .

بقى أن نشير الى الجانب الاخر في تاريخ اكتشاف الجزيرة العربية - ان القارىء المتمعن لابد أن يلاحظ ضيق أفق الرحالة الاوروبيين في القرون الاولى من عصر النهضة السادس عشر - الثامن عشر ، ففي الوقت الذي كان هؤلاء الرحالة يتحدثون باسهاب عن « تعصب » سكان الجزيرة العربية ويهزأون من « الشكليات السخيفة » للعادات الاسلامية ، كانوا ، هم انفسهم ، مكبلين بقيود التعصب الديني.وفيما بعد ، في القرنين التاسع عشر والعشرين لم تختف المحدودية الدينية الا لتحل محلها محدودية أخرى - المحدودية الاستعمارية والهزء من فقر وتخلف سكان الجزيرة العربية ، على الرغم من أن النير الاستعماري بالذات هو أحد أهم الاسباب الكامنة وراء هذا التخلف والفقر . وتجدر الاشارة الى ان هذه المحدودية بنوعيها وهذا التهكم كانا يختفيان لدى الرحالة ذوي الاهتمامات العلمية لتحل محلهما مشاعر الود والتعاطف المتبادلة ، وهذا ما يطالعنا في أعمال غلازر وفيلبي وفون ويسمان وغيرهم من الرحالة ، كما يبرز ذلك بشكل خاص بالنسبة للرحالة تريزيغر ، الذي قام مع حفنة من البدو باجتياز الربع الخالي . وقد ألفت المصاعب والمحن المشتركة بينه وبين زملائه فجاء وصف رحلته مفعما بمشاعر الحب والامتنان .

ونفس الشيء يمكن ان يقال عن تشارلز دوتي الذي تجول داخل الجزيرة العربية زهاء عشرين شهرا (بين ١٨٧٦ و١٨٧٨) ، فقد وصف لورانس كتاب دوتي بقوله : « في هذا الكتاب تعيش الصحراء كلها ، بهضابها وسهولها . بكثبانها وقراها بناسها وحيواناتها . . انه الجزيرة العربية حقيقة بكل قذارتها وروائحها ، وبكل طيبتها وحريتها ، وهذا الكتاب خال من أي شيء زائف ومن كل تزويق مختلق ، بالاختلاف عن جميع كتب الرحالة الى الشرق . . ان كتاب دوتي كل متكامل لا يجوز أن يضاف اليه شيء او يقتطع منه أي جزء . وهو يشمل الجزيرة العربية بأسرها . ولا يبقى لمن يأتي من بعد دوتي الا أن يدخل بعض اللمسات التشذيبية الضئيلة . » وهذا الكتاب الذي تقدمه يشكل احد هذه اللمسات ، الجديرة بالترجمة الى العربية ■■

هاشم حمادي

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير ..

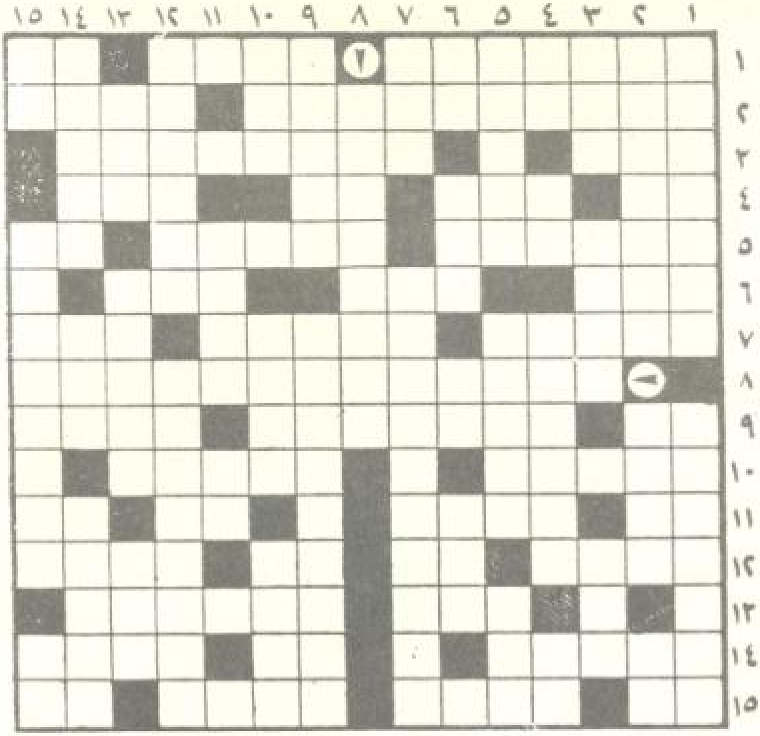
ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٨٤ » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول سبتمبر (١٩٨٢) ..

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم مهندس ورجل صناعة عربي قديم . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فلكي ومخترع أندلسي ...

كلمات أفقية :

(١) من الأشجار ـ أردى ـ من الأقارب .
(٢) لقب الظاهر بيبرس ـ يحكى .
(٣) عقله ـ رائد العرب في مجال العلم الطبيعي في العصر الحديث .
(٤) للتفسير ـ أجيب ـ رمي ـ ضمير .
(٥) دولة أفريقية ـ في الدير ـ مقام موسيقي .
(٦) تجدها في كلمة (عادت) ـ أعجب ـ آلة موسيقية .
(٧) من أنواع النسيج ـ فسيحة ـ من المحاصيل الزراعية .
(٨) مهندس ورجل صناعة عربي قديم .
(٩) رمز هندسي ـ مصور معروف من عصر النهضة الايطالي ـ قرت .
(١٠) من الفنون التشكيلية ـ من الحوامض .
(١١) صاحب ـ عودة ـ جواهر ـ حرف استفهام .
(١٢) منحت ـ حرف استفهام ـ وعاء ـ أرض مرتفعة .



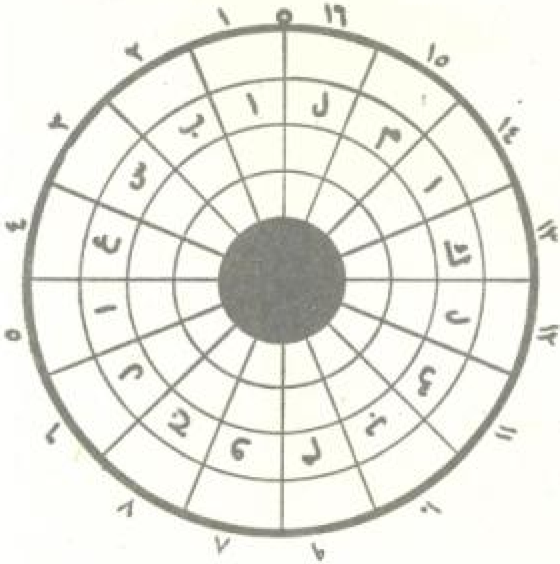
(١٣) عنفت ـ خطابه .
(١٤) يتمهل ـ نصف كلمة (يهلك) ـ أثام .
(١٥) كشف ـ صعب ـ للنوم ـ حرفان متشابهان .

كلمات رأسية :

(١) دولة أفريقية ـ من الغازات .
(٢) لقب شاعر عربي معاصر ـ من المقاييس الطولية ـ اكتمل .
(٣) منحة ـ من الاسلحة الحربية ـ من أوجه القمر .
(٤) نصف كلمة (مجون) ـ من الاقارب ـ من رتب المملكة الحيوانية ـ نصف كلمة (وعيد) .
(٥) من الأمراض ـ نستر ـ عاشق عربي شهير .
(٦) نصف كلمة (نقيل) ـ بيت ـ لفظة ضيق ـ قبل اليوم .
(٧) يترك ـ عاصمة منغوليا .
(٨) فلكي ومخترع اندلسي .
(٩) عطره !! ـ أديب عربي معاصر .
(١٠) من حروف الهجاء ـ مرتفع ـ تقوم الليل .
(١١) أشرب ـ بسط .
(١٢) عاصمة البانيا ـ من أعمال بودلير .
(١٣) وسائل انتقال ـ يضاهي ـ من المكاييل .
(١٤) رقة في الحواس ـ ضوضاء ـ تزق .
(١٥) بسط ـ من الفاكهة ـ حرفان متشابهان .

كوبون مسابقة
العدد ٢٨٤

حول الدائرة السوداء

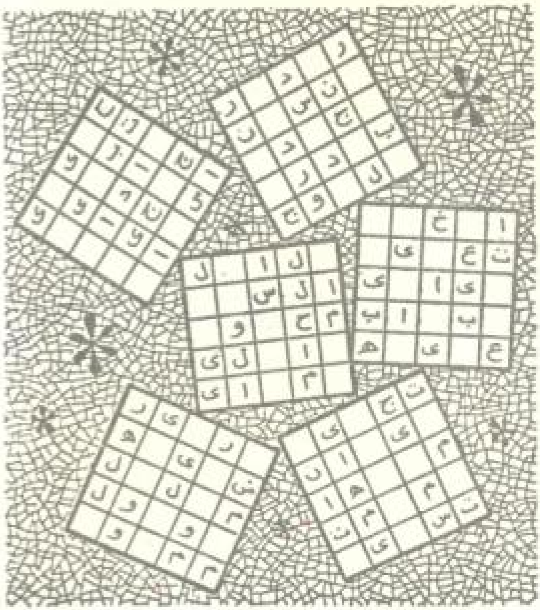


ضع الكلمات ذات الأحرف الأربعة ، والتي نعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للأرقام .. يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

مهندس بريطاني صمم خزان أسوان في مصر وأشرف على بنائه

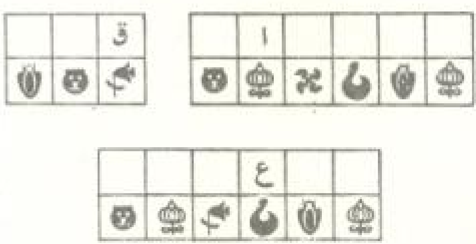
(١) شهر ميلادي (٢) يظهر (٣) فلك (٤) يرتفع (٥) فارغ (٦) من أوجه القمر (٧) يعدو (٨) عاصمة أوربية (٩) من الطيور (١٠) أختبر (١١) من الدهون (١٢) مريض (١٣) ريب (١٤) شهر ميلادي (١٥) يحوز (١٦) قعود ..

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات أطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية ..

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت انه يحض على :

البدء بالتفاهم قبل توقيع العقوبة

حلول ١

حول الدائرة السوداء : سير ويليام ويلكوكس .

العواصم : بلجراد .

مثل عربي : العتاب قبل العقاب .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يوليو
١٩٨٢م

العالم بعد مائتي عام

الثورة العلمية والتكنولوجية خلال القرنين القادمين

تأليف : هيرمان كان وآخرين
ترجمة : شوقي جلال

الكتاب الخامس والخمسون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدر عن جامعة الكويت

فصلية أكاديمية علمية مختصة بالشؤون النظرية والتطبيقية
في مختلف حقول العلوم الاجتماعية

رئيس التحرير **د. أسعد عبد الرحمن**

سكرتير التحرير **عبد الرحمن فايز**

يحوي العدد حوالي ٣٠٠ صفحة تشتمل على :

- أبحاث بالعربية تعالج مختلف حقول العلوم الاجتماعية.
- مراجعات لكتب حديثة تبحث الموضوعات التي تعالجها المجلة.
- ملخصات .
- أبواب ثابتة : تقارير علمية ، دليل الجامعات والمؤسسات التعليمية العليا .
- ندوة العدد .

الاشتراكات :

للمؤسسات والدوائر الحكومية : في الكويت ١٢ دينارا ، في الخارج ١٥ دولارا أو ما يعادلها.

للأفراد : في الكويت ديناران كويتيان ، دينار للطلاب .

في الوطن العربي : ديناران ونصف كويتيان أو ما يعادلها ، ديناران للطلاب،

في الدول الأخرى : 15 دولارا أمريكيا أو ما يعادلها.

توجه جميع المراسلات والأبحاث باسم رئيس التحرير على العنوان التالي :
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت - ص.ب : ٥٤٨٦ - الكويت
هاتف : ٥١٠١٨٨ / ٣٧٢ / ٢٥٠ .



من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية

تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام في الكويت

أول يوليو ١٩٨٢

١٥٤

الجدة الأولى

تأليف : فرانس جريلبارتسر

ترجمة وتقديم : د. باهر الجوهري

مراجعة : د. كمال صفوت الألفي

مقياسُ الزمَـنْ

الجودة تنبع من المعرفة والمعرفة تقوم على أساس من الخبرة ولـذا فـإن سـاعات رَادو متفوّقـة الجـودة من الناحية التكنولوجيّة وَالتصْميم وَالصنع . إن الـدقـة العالية في حَركتها الكوارتز تعكس الخبرة السويسريّة في صناعة السّاعات بأروَع صُورها . فضلاً عن أناقـة رادو المعترف بهـا عالميّـاً مـن حَيث الإبتكـار وَالأصالـة وَالشخصيّة المُـتميّزة . وَهـكـذ فإن سَاعات رادو جَميعَها تمثّل فلسفـة فـريـدة في نـوعهـا : الشجَاعـة في الإقـدام عـبر مسَالك جَديدة إضافة إلى الشعُور العميق بالإلـتزام نحوَ الزمـن وَالإنسان .

RADO رادو

مقياس الأناقة . مقياس المتانة . مقياس الزمن

Mod. dép.



مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : –

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير – وثائق – يوميات – بيبليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٥٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت . ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت . ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ – كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .
٢ – كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .
٣ – كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .
٤ – كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥ – دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : –

الكتاب الأول – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

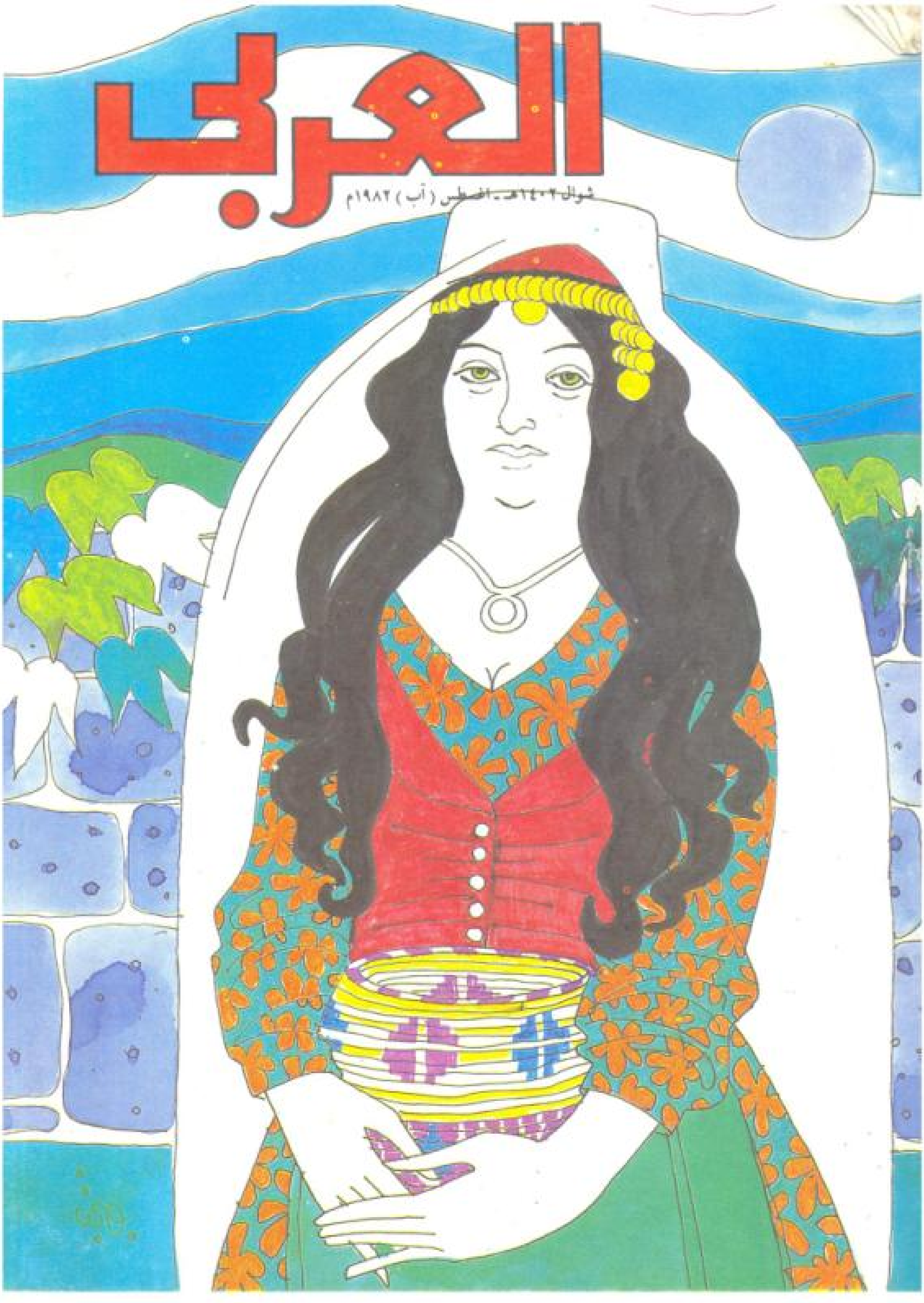
العنوان : جامعة الكويت – كلية الآداب والتربية – الشويخ – دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ – الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ – ٨١٦٧٩٩ – ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .


AUTO REVERSE
RT-200S
BOMBEAT
DR-01
● 4-band (FM/MW/SW1/SW2) radio reception ● Powerful 14W output (7W × 2) ● 2-way 4-speaker system
Toshiba
TOSHIBA
توشيبا
TOKYO, JAPAN

العربي

شوال ١٤٠٢هـ - أغسطس (آب) ١٩٨٢م





• واجهة أمامية سهلة التشغيل.
• ثلاثة أنظمة للمشاهدة والتسجيل
في أي مكان من العالم (بال / سيكام / إن. تي. إس. سي ٤٫٤٣).
• مؤقت بشكل ساعة رقمية يتيح تسجيل ٨ برامج في مدى اسبوعين أوتوماتيكيا.
• آلية للتحكم عن بعد.
• سرعات مختلفة للبحث عن الصورة ومضاعفة السرعة.
• سرعات مختلفة لابطاء الصورة وتجميد الصورة.
• منظم آلي للشاشة.

Toshiba TOSHIBA | توشيبا

TOKYO, JAPAN

عزيزي القارئ

يفترض ان نوجه في هذه الرسالة بطاقة تهنئة بمناسبة عيد الفطر ، مشفوعة بدعاء الى الله ـ ورجاء ـ ان يعيد هذه الايام على الامة الاسلامية ، وهي في حال افضل ، تسترد فيه مزيدا من الثقة في الحاضر والمستقبل . لكننا لانستطيع ان نبعث بالبطاقة دون ان نصب فيها بعضا من همومنا التي يتعذر التحلل منها ، وهي بين العام والخاص .

اذ تظل كلماتنا في تلك المناسبة مكسوة بغلالات كثيفة من الاحزان ، اسقطها المناخ العام الذي يعيشه وطننا العربي ، فيما سمي بحق « عام الهوان العربي » . ولكننا لا نريد ان نستسلم لليأس ، فتلك هوة يراد لنا ان نسقط فيها ، وانما ـ ونحن نطلق بعضا من الزفرات الحبيسة ـ نظل على يقين من انه لن يصح الا الصحيح ، وان البشر وان استطاعوا ان يقتلوا البشر ويدمروا المدن ويقطعوا خطوط الكهرباء والماء وامدادات التموين ، لكنهم لن يستطيعوا ان يغيروا من نواميس الكون ولا عدالة السماء .

تعزز ثقتنا في المستقبل تلك الوقفة الباسلة والمشرفة ، التي تقفها جماهيرنا الفلسطينية واللبنانية ، وهي تصد بشجاعة نادرة زحف قوى الظلام في صيدا وصور وبيروت وغيرها من القرى اللبنانية . ذلك يزرع فينا نبت أمل أخضر ، ويحول بيننا وبين القنوط ، ويشعل وسط السواد الحالك ذبالة ضوء تتحدى الاعاصير .

***

في اطار الهم الخاص ، فان هناك الكثير مما نود ان نقوله لقراء المجلة وكتابها ، بدءا برجاء ان يتوخى كل من يكاتب « العربي » ان يسجل اسمه كاملا وعنوانه ، لان الرسائل المجهولة التوقيع ، او الموقعة برموز لا دلالة لها ، تستبعد تماما من اي فحص او دراسة ، ولصاحب الرسالة ـ ان شاء ـ ان ينبه المجلة الى ان رسالته ليست للنشر ، او ان تحتفظ المجلة باسمه لديها . . لكن يظل من حق المجلة دائما ان تعرف من الذي يخاطبها ومن اين . . ؟

ثم لنا رجاء لدى كتاب « العربي » ، ان يسجل كل منهم ايضا اسمه كاملا وعنوانه وتخصصه ، او مراجعه فيما يكتب كلما أمكن ، حتى نستطيع ان نقدم خدمتنا الى القارىء على افضل صورة . ونرجو ان يعذرنا كتابنا اذا تأخرنا في نشر مقالاتهم التي تصل غير مستوفية تلك العناصر .

رجاؤنا الثاني ان يلتزم كتاب المقالات بالحيز الذي استقر عليه العرف والعمل في المجلة ، وهو ـ للتذكرة ـ لا يتسع لاكثر من ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى ، علما باننا في عصر تطلب فيه بالحاح تلك المقالات التي ينطبق عليها وصف « ماقل ودل » .

رجاؤنا الاخير ألا نضطر بين الحين والآخر الى تذكير الجميع بهذا الذي قلناه هنا . . وقلناه مرة من قبل !

وكل عيد وانتم طيبون .

(المحرر)

صورة الغلاف



● رحلة العربي في هذا العدد الى جبل العرب في محافظة السويداء بالقطر السوري حيث موطن الدروز في سوريا ومسقط رأس زعيم الجبل الراحل : سلطان الاطرش . ولوحة الغلاف لواحدة من بنات الجبل ، بزيها التقليدي ، وقد رسمها للعربي الفنان بهجت عثمان (انظر استطلاع ص ١٠٠) .

القسم العام

عروبة واسلام

طب وعلوم

ادب وفنون

قضايا حيوية

تاريخ واشخاص

تربية وعلم نفس واجتماع

استطلاعات مصورة

ابواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : الدكتور محمد الرميحي

مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من أراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريالات ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليما ، السودان ١٥٠ مليما ، المغرب ٣ دراهم ، تونس ٣٥٠ مليما ، الجزائر ٣ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريالات ، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم ، اليمن الشمالي ٣ ريالات ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسا ، ليبيا ٢٥٠ درهما .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١

تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى

قسم الاشتراكات

المكتب الفني ـ وزارة الاعلام

ص . ب (١٩٣) ـ دولة الكويت

على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام ، طبقا لما يلي :

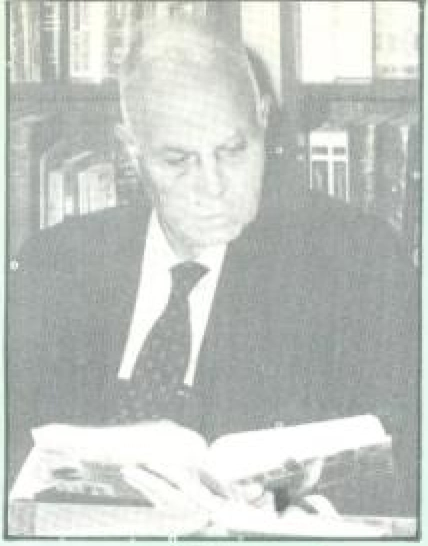
فلس دينار

ـ الكويت والبلاد العربية ١٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)

ـ بلاد غير عربية ١٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL — ARABI, NO. 285

AUGUST, 1982, P.O. Box 748, KUWAIT



د . احمد زكي

العربي ..

عندما صدرت « العربي » في الكويت في أواخر ١٩٥٨ كمجلة ثقافية شهرية مصورة ، كان الوطن العربي في حال . . . وبعد ثلاث وعشرين سنة من صدورها أصبح الوطن العربي في حال آخر .

عندما صدرت « العربي » ، كانت ثورة ١٩٥٢ المصرية عمرها سبع سنوات فقط - تلك الثورة التي أثرت تأثيرا عميقا في البنى السياسية والاجتماعية في مصر والوطن العربي وكانت شعاراتها تلقى الترحاب في أرجاء الوطن العربي قاطبة . .

ومنذ أسابيع قليلة ، مرت على هذه الثورة ثلاثون سنة تغيرت فيها أمور كثيرة في شئون السياسة والمجتمع والاقتصاد ، وتراجعت شعارات كي تحل محلها شعارات أخرى .

●

عندما صدرت مجلة « العربي » كان الاحتلال الاسرائيلي للأرض العربية بالكاد قد مضى عليه عقد واحد من السنين ، وها هي ثلاثة عقود تنصرم



د . محمد الرميحي



احمد بهاء الدين

في عالم متغير

بقلم : الدكتور محمد الرميحي

وتصبح الرقعة الصغيرة رقعة أكبر تحيطها بالقوة فراغات أمنية . . . وتصل الدبابات الاسرائيلية منها لتدق أبواب بيروت بعد أن دقت أبواب القدس الشريف .

عندما صدرت « العربي » كان عدد من الأقطار العربية تحت النير الاستعماري المباشر ، واليوم أصبحت كل الأقطار العربية مستقلة لكل منها علم ونشيد ومقعد في الأمم المتحدة .

عندما صدرت « العربي » كان عدد المتعلمين العرب محدودا بعشرات الألوف ، وأصبح اليوم بالملايين تخرجهم الجامعات والمعاهد العليا التي

انتشرت في شرق الوطن العربي وغربه . .

عندما صدرت « العربي » ، كانت المجلات الثقافية في الوطن العربي تعد على أصابع اليد الواحدة فأصبحت اليوم تعد بالعشرات .

عندماصدرت« العربي» كان برميل النفط يباع بدولار واحد ثم أصبح اليوم يباع بأكثر من خمسة وثلاثين دولارا للبرميل الواحد .

التغيرات التي حدثت في الوطن العربي خلال العقود الثلاثة الأخيرة اذن هي تغيرات عميقة وجذرية سواء الاقتصادية منها أو الاجتماعية أو السياسية .

تغيرت أنظمة وسقطت أحزاب وتبدلت شعارات ، وتركت فئات اجتماعية كاملة مكانها لفئات اجتماعية جديدة ، قامت وحدات واستمرت ، وسقطت وتفتتتْ أخرى ، قبلت أيديولوجيات وانتشرت ثم تقلصت وظهرت أيديولوجيات أخرى بدلا منها . . . كل ذلك في تفاعل حيوي لم تشهده منطقة في العالم كما شهده الوطن العربي .

***

لقد كتب المرحوم الدكتور أحمد زكي في أول عدد صدر من « العربي » (ديسمبر ١٩٥٨) مقالا مطولا يشرح أهدافها لخصه بقوله :

(ان « العربي » للفكرة العربية الخالصة ، وهي كل ما يتمخض عن الفكرة العربية من معان . . . فهي ضد الجهل ومع المعرفة في هذا الوطن العربي كله . . . وهي ضد المرض ومع الصحة . . ومن الصحة صحة العقول . . . وهي ضد الفقر ومع الغنى تطلبه للفقير فيستغني . .) .

ولا نجدنا بعد طول هذه المسيرة مختلفين مع تلك الأهداف ، لكن طرق تحقيقها هي التي تسمح بايجاد مجال للاجتهاد والتطوير كي يتناسب مع التغيرات البنيوية الهائلة في شتى المجالات والتي ألمت بأجزاء الوطن العربي فتأثر بها .

في هذا العالم المتغير تصر « العربي » من جديد على الأهداف العامة والأساسية التي صدرت لها ومن أجلها - تصر على ان «العربي» هي هدية الكويت العربي الثقافية للوطن العربي من أجل تعميق الثقافة الجادة وتعريف المواطن العربي بوطنه وبالتطور الذي يطرأ على العلم والثقافة والأدب في وطنه الكبير وفي العالم . ملتزمة بمبادىء الأصالة والتجديد - التراث والمعاصرة .

سبيلنا الى ذلك اتباع الطرق العلمية في التطوير والمتابعة . . . فلقد صدرت في الوطن العربي فيما قبل من الزمن مجلات ثقافية وانتشرت ولكنها بعد حين خبت واضمحلت ، وبعضها فارق عالم الحياة - ولم يكن ذلك لعدم وضوح الهدف انما كان لقصور في التجديد والمتابعة .

وخطوات التجديد في « العربي » - والتي سوف تؤخذ على مهل وروية - هدفها تحقيق أهداف « العربي » بتقديم وجبات ثقافية وعلمية وأدبية تتناسب مع التغيرات الثقافية القائمة في وطننا العربي اليوم - من أجل تحقيق الأهداف الواضحة في تعميق الثقافة العربية وتأصيلها والعناية بتعريف الوطن العربي وإحياء تراثه الخالد والالمام بمظاهر الحضارة الانسانية .

***

كل ذلك في اطار اتباع طرق علمية متطورة لتحقيق أهداف « العربي » الوطنية والقومية والانسانية ، وتحدونا في ذلك حكمة تقول (لو دامت لغيرك ما وصلت إليك) تلك الحكمة التي يعتز بها تراثنا الحديث تؤيدها من العلم الحقائق وتؤيدها من التاريخ الوقائع . . . وتضعف بعض النفوس أمامها غير مصدقة عمق هذه الحكمة لضعف فيها أو قصور ذاتي جبلت عليه النفس البشرية .

تلك الحكمة تعني في اطار عملنا ان الانسان الفرد مهما طال بقاؤه في الحياة - فهو شبح عابر - والبقاء للأعمال - للأصلح من الأعمال - لذلك فان « العربي » في حاضرها ومستقبلها سوف تتوجه لبناء المؤسسة العربية الثقافية التي لا يربطها بهذا أو ذاك من الناس رابط لافكاك منه . . . صحيح ان الفرد مؤثر في عالمنا الثالث - الا أنه لا يجوز في مؤسساتنا الثقافية والعلمية وحتى السياسية ان نظل مرتبطين بالأفراد حسن عملهم أو كان غير ذلك ، ولكن لابد من التوجه لبناء المؤسسات التي تفرض علينا مواكبة التقدم وتقدم لنا اطار

الاستمرار والديمومة ، والمؤسسة تعني ان « العربي » لقرائها وكتابها ، وتعني أيضا ان ما ينشر فيها لابد من أن يخضع لفحص علمي محايد ـ ما أمكن للنفس البشرية ذلك ـ حتى يحقق الهدف منه . . . وتعني فوق ذلك كله وقبله ان « العربي » تفسح صدرها لكل نقد بناء واقتراح تطوير ومتابعة .

***

في هذا العالم المتغير وفي اطار فلسفة المؤسسة وأمام العبء الثقيل الذي تحمله مجلة العربي لجمهرة قرائها ، بعد مسيرة طويلة ربت فيها « العربي » جيلا من المثقفين العرب ، تتضح صورة المعاناة والمسئولية التي تثقل كاهل من يتصدى لمتابعة المسيرة . . . مسئولية . عشقت الكويت العربية ان تقوم بها لخدمة الثقافة العربية ، وأصبح قدرنا ان نحمل جزءا منها في الطريق الطويل تكاتفا مع اسرة «العربي » وقرائها لتقديم خدمة ثقافية ضمن حدود العلم والعقل والمنطق والاشتغال بالكليات لا الجزئيات ، الاساسيات لا التوافه ، في اطار وعي كامل وواضح بأهمية الدور الهائل الذي تمارسه وسائل الاعلام ـ خاصة المكتوبة ـ في عالم اليوم الشديد التعقيد والسريع التغير .

لقد كتب الاستاذ أحمد بهاء الدين في أول استهلال لحديث الشهر (يناير ١٩٧٦) حول هذا الموضوع يقول :

« قيمة الشعوب في هذا العصر تقاس بقوة الرأي العام فيها ، وقدرته على التأثير في أمورها ، ولكننا ـ ككثير من الدول النامية ـ ما زال الرأي العام دون هذا . ويؤخر قوة الرأي العام ممارستنا السياسية أحيانا وانتشار الضحالة في وسائل التثقيف العام أحيانا أخرى . . » .

فالتأثير في الرأي العام مسئولية ضخمة تعتمد على حسن استخدامها وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي تهدف الى مصالح الوطن العربي والمواطن بعد فهم حقيقي لواقع هذا الوطن وذاك المواطن . . . تعتزم السير ، ومن خلال غلبة لا جلبة .

ونسأل الله السداد .

د . محمد الرميحي

أقوال معاصرة



■ ابراهيم ، نحن مازلنا احياء ، ونقيم تحت اشجار الليمون في الرشيدية مع والدتك واخوتك

من رسالة اذاعية وجهها الاب الفلسطيني خالد ابراهيم سالم الى ابنه المفقود بعد غزو لبنان

■ بعض الانظمة استخدمت القضية الفلسطينية وسيلة لتسوية مشاكلها الداخلية .

الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد



■ الضحية الاولى في اي حرب هي الحقيقة !

الصحفي الانجليزي فيليب نايتلي

■ لن اغادر بيروت إلا الى فلسطين

ياسر عرفات .

■ أنا ابنة وطن يموت فيه القمر وتزدهر تجارة الجثث .

الفنانة اللبنانية فيروز



■ لسنا بناية تهدم فتنتهي القضية .

الدكتور جورج حبش : زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

■ لسنا قطيعا من الاغنام يمكن نقله بالسفن والسيارات الى هذا المكان او ذاك .

صلاح خلف (ابو اياد)

عضو اللجنة المركزية لحركة تحرير فلسطين .



■ خروج اسرائيل من الاراضي اللبنانية ، ربما يكون اكثر صعوبة من دخولها .

صحيفة نيويورك تايمز الامريكية .

■ لايوجد في الاسلام اغتيال ، انما فيه النصيحة وكلمة الحق .

فضيلة الشيخ سيد سابق .

خواطر



للدكتور حسان حتحوت

في منع الحمل والسياسة

في عملي الطبي كثيرا ما اصف الحبوب وغيرها من وسائل منع الحمل ، وأومن بالمخاطر الصحية التي تزيد النسبة المئوية لحدوثها في السيدات اللاتي يتجاوز انجابهن عددا معينا من الذرية ، كما اعترف بحق اسرة بذاتها ان تؤجل او تباعد ما بين حمل واخر وفق ظروف خاصة بها ولا ارى ان منع الحمل في ذاته حرام كالاجهاض ، فالاجهاض ، كما قال الامام الغزالي جناية على موجود حاصل هو الجنين في رحم امه ، اما في منع الحمل فلا يوجد مجني عليه أصلا فليست هناك جريمة .

على ان قضية منع الحمل وتقليص زيادة البشر مسألة طبية في اقلها سياسية في معظمها . . . سياسية على النطاق العالمي وعلى النطاقات الاقليمية . . . فأما المسألة العالمية فلن نطيل الوقوف عندها ، اذ تنادي بأن سكان العالم سيتجاوزون عما قريب ما يمكن ان تتيحه الأرض من غذاء ولباس وسكن وطاقة ، وهي نظرية موضع نظر اذ تحداها اخيرا « براون ومارتل » في كتابهما « السنوات المائتان المقبلة » ، وتحدثا عن الخط طويل الامد للتكاثر البشري وعن التعاون بين القادرين والمحرومين وعن الكوامن الهائلة من الرزق والطاقة في الفضاء الخارجي وباطن الارض وعلى ظهرها وفي اعماق المحيطات ، وهو كتاب جيد وجدير بالقراءة .

واما على صعيد القطر أو الاقليم فقد بات جليا ان للموضوع ابعادا سياسية ملحة ولنضرب على ذلك مثلا بدولة اسرائيل . . فان معدل الانجاب للسكان العرب فيها يفوق كثيرا معدل انجاب اليهود ، ومعنى ذلك أن تمضي اجيال معدودة فاذا اليهود فيها اقلية ضئيلة والعرب اكثرية كاثرة وفي هذا ما فيه من تهديد لليهود لهذا اصبحت القضية سياسية

بالمقام الاول واصبحت شغلا شاغلا يستدعي من الاجراءات الديموجرافية الوقائية ما يحول دون وقوع المحظور . من هذه الاجراءات مثلا مصادرة الارض الزراعية حول قرية من القرى والقرية ان حرمت زمامها الزراعي اصبحت لسكانها قفصا وسجنا ومجاعة ، فلا يكون امامهم الا الالتحاق بالعمل في الهيكل الصناعي الاسرائيلي وينقلبون من منتجين مستغنين الى عالة رقابهم رهن الراتب الذي يتقاضونه كل شهر ويبرر اليهود اخذ الارض بمبرر الظروف الامنية .

ومن ذلك ايضا رفع الضرائب على اصحاب المتاجر ، فاذا افلسوا فقدوا اعتمادهم على انفسهم في تحصيل الرزق وصاروا عالة على الحكومة . ومنه ايضا ان يكون نسف المنازل من بين عقوبات ينزلها القانون جزاء طائفة من التهم (وقد تكون كاذبة) مثل ايواء فدائي او التعاطف مع المنظمة ، مع التضييق الشديد في منح رخص جديدة للبناء ولو على ارض يملكها العربي طالب الرخصة ، ومنه تعسير تسجيل عقود الزواج او شهادات الميلاد الا للعرب الذين يحملون الهوية الاسرائيلية ومن يثبت سلوكه انه مسالم معهم ، وما ازال اذكر الرواية المشهورة « جذور » والجهد الذي بذل لاقناع الافريقي المخطوف بان يدع اسمه الحقيقي « كونتا كنتي » ويقتنع بالاسم الجديد « توبي » .

كل هذا ـ مع تيسير تصفية الممتلكات بالبيع المربح والهجرة ـ يفضي الى سلسلة سببية تؤدي على مرور الزمن الى تغيير الواقع السكاني الى نمط جديد يحقق سياستهم ولو بعد حين .

وليس هذا كل ما في جعبتهم .. فهناك وسائل اخرى لو كنت مكانهم لاستعملتها ولكنني بطبيعة الحال لا اود ان اكشف عنها .. وهناك وسائل لمقاومتها والتغلب عليها ولهذا لا نود ايضا ان نفضي بها على صفحات الجرائد فتحرقها وتهدرها .

وليست اسرائيل المثال الوحيد ... فكم من مجتمعات في عالمنا الواسع تحاول الاقلية فيها ان تصبح اغلبية بالترويج للاستعمال من جانب واحد فقط لوسائل منع الحمل والتعقيم والاجهاض ، وتسخير الاعلام الحكومي والطبي والعلمي والاقتصادي لنشرها في عملية غسل مخ لفريق مع التنبيه على فريق آخر سرا بعدم اللجوء اليها او الاخذ بها . ولقد كنت مرة في زيارة علمية لاحدى البلاد الافريقية المبتلاة بداء العصبيات المتنافسة ، وعند اطلاعي على سجل عمليات تعقيم النساء وجدت بجلاء ان كل النساء المعقمات كن من جانب بينما خلا السجل تماما من نساء الجانب الآخر .

لقد آن الاوان الذي ينبغي ان يصحو الاطباء الى ان الممارسة الطبية لا تنحصر آثارها في المحيط الطبي وحده ، واذا كانت سعة الافق دائما وشمول النظرة من مميزات الطبيب الماهر منذ اقدم العصور ، فلعلها في هذا العالم المعقد المتشابك اولى وألزم . ■■

رحلة التوسع الصهيوني :

من مشروع "وطن يهودي" الى إقامة "امبراطورية اسرائيلية"

بقلم الدكتور : أسعد عبد الرحمن

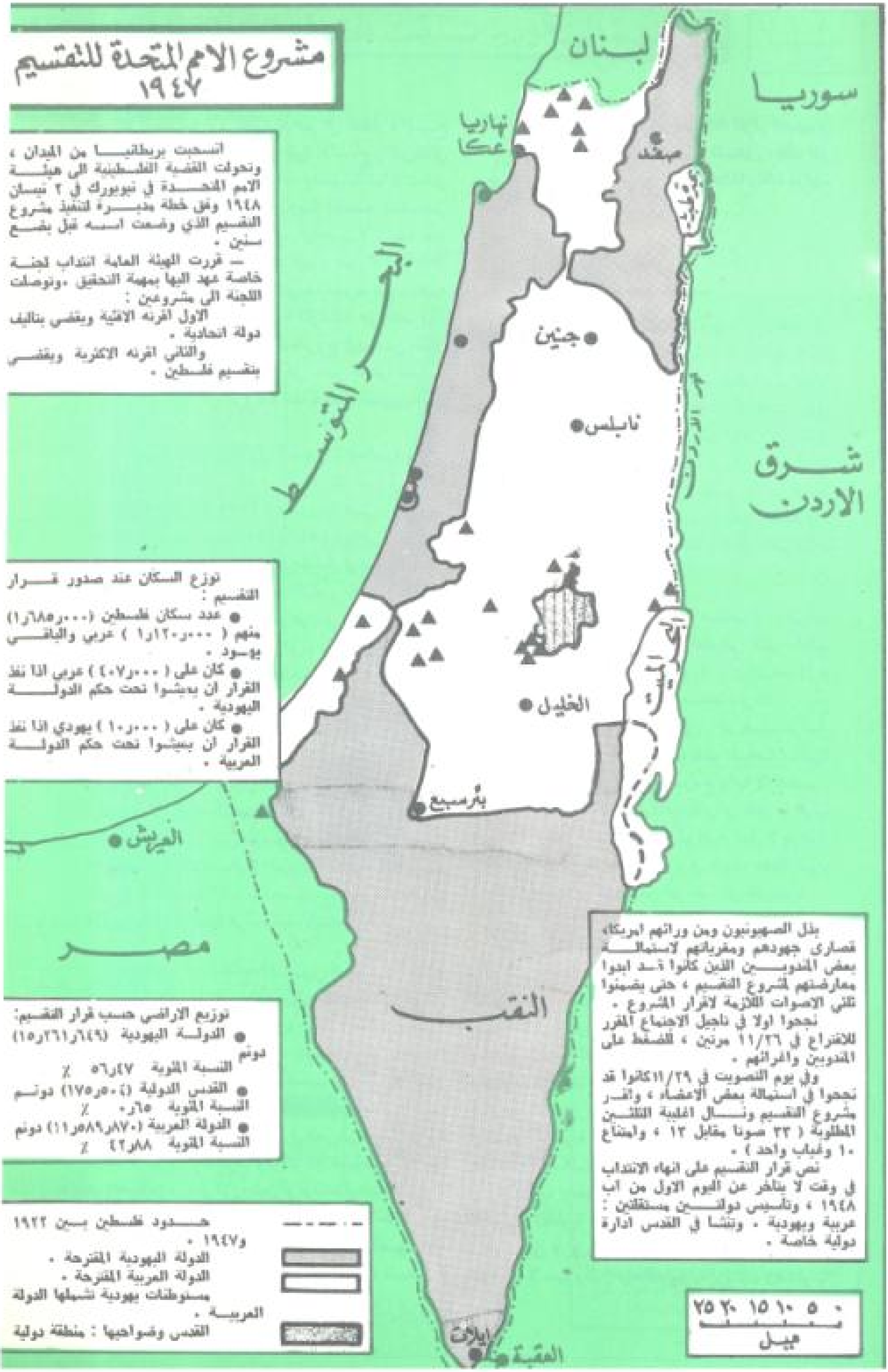
كان الحديث عن المطامع الصهيونية التوسعية في مطلع الخمسينات حديثا نظريا لدى العديد من القطاعات العربية والاجنبية . ومع نهاية الستينات ، أصبحت الغالبية الساحقة من تلك القطاعات تدرك ، بالشواهد العملية ، الطبيعة الاستعمارية التوسعية للحركة الصهيونية . وما كادت حقبة السبعينات تنتهي وتبدأ معها مرحلة الثمانينات حتى وصلت جميع قطاعات الرأى العام العربي والعالمي ، وربما باستثناءات نادرة ، الى درجة أصبح معها اقتناعها بالجوهر التوسعي للفكرة والحركة الصهيونيتين ، المدعوم بالقرائن والوقائع المادية الملموسة ، اقتناعا كاملا وشاملا .

ومما لاشك فيه أن هذا التحول الكبير في نظرة الرأى العام كان نتيجة مباشرة لازدياد الوعي العربي والعالمي بحقيقة الاهداف والمخططات الصهيونية ، تماما مثلما كان نتيجة مباشرة لمسار الحركة الصهيونية التي حرصت ـ طوال المراحل السابقة ـ على وضع تلك المخططات موضع التنفيذ . وفي هذا النطاق ، ما كان يستطاع كافة جهود التوعية والاعلام المنبعثة من مراكز البحث ودور النشر ومكاتب الاعلام الفلسطينية أو العربية أو الاجنبية أن تحقق ذلك القدر من الوعي بالاهداف والمخططات والتطبيقات التوسعية الصهيونية ، لولا أن تلك الجهود تواكبت مع سعي الحركة الصهيونية الحثيث والدؤوب لتجسيد غاياتها على أرض الواقع سواء في فلسطين أو في الاراضي العربية المجاورة . وفي ضوء التطورات الأخيرة في الساحة اللبنانية وغيرها ، لعله من المناسب بذل محاولة اضافية وموجزة للتذكير بالاهداف الصهيونية وبالكيفية التي عبرت فيها الحركة الصهيونية عن نفسها فكرا ومسارا سواء في الماضي أو في الحاضر مع اطلالة ـ ولو سريعة ـ على المستقبل .

الفكرة التوسعية الصهيونية :

تأثر نشوء الفكرة الصهيونية ، بصيغتها المعاصرة ، بمجمل الظروف التاريخية التي أحاطت بالجاليات اليهودية في روسية القيصرية وسائر بلدان أوروبة الغربية أساسا . وقد توزع الفكر السياسي اليهودى ، في سعيه للخلاص من حياة ومعاناة وعقلية « الجيتو » ، بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، على مدارس فكرية متعددة كان

مشروع الامم المتحدة للتقسيم ١٩٤٧



انسحبت بريطانيا من الميدان ، وتحولت القضية الفلسطينية الى هيئة الامم المتحدة في نيويورك في ٢ نيسان ١٩٤٨ وفق خطة مدبرة لتنفيذ مشروع التقسيم الذي وضعت اسسه قبل بضع سنين .

— قررت الهيئة العامة انتداب لجنة خاصة عهد اليها بمهمة التحقيق ،وتوصلت اللجنة الى مشروعين :

الاول اقرته الاقلية ويقضي بتاليف دولة اتحادية .

والثاني اقرته الاكثرية ويقضي بتقسيم فلسطين .

توزع السكان عند صدور قرار التقسيم :

- عدد سكان فلسطين (١،٨٦٥،٠٠٠) منهم (١،١٢٠،٠٠٠) عربي والباقي يهود .
- كان على (٤٠٧،٠٠٠) عربي اذا نفذ القرار ان يعيشوا تحت حكم الدولة اليهودية .
- كان على (١٠،٠٠٠) يهودي اذا نفذ القرار ان يعيشوا تحت حكم الدولة العربية .

توزيع الاراضي حسب قرار التقسيم:

- الدولة اليهودية (١٥،٢٦١،٦٤٩) دونم
  النسبة المئوية ٥٦،٤٧ ٪
- القدس الدولية (١٧٥،٥٠٤) دونم
  النسبة المئوية ٠،٦٥ ٪
- الدولة العربية (١١،٥٨٩،٨٧٠) دونم
  النسبة المئوية ٤٢،٨٨ ٪

بذل الصهيونيون ومن ورائهم اميركا، قصارى جهودهم ومغرياتهم لاستمالة بعض المندوبين الذين كانوا قد ابدوا معارضتهم لمشروع التقسيم ، حتى يضمنوا تلك الاصوات اللازمة لاقرار المشروع .

نجحوا اولا في تاجيل الاجتماع المقرر للاقتراع في ١١/٢٦ مرتين ، للضغط على المندوبين واغرائهم .

وفي يوم التصويت في ١١/٢٩كانوا قد نجحوا في استمالة بعض الاعضاء ، واقر مشروع التقسيم ونال اغلبية الثلثين المطلوبة (٣٣ صوتا مقابل ١٣ ، وامتناع ١٠ وغياب واحد) .

نص قرار التقسيم على انهاء الانتداب في وقت لا يتاخر عن اليوم الاول من آب ١٩٤٨ ، وتأسيس دولتين مستقلتين : عربية ويهودية . وتنشا في القدس ادارة دولية خاصة .

حدود فلسطين بين ١٩٢٢ و١٩٤٧ .

الدولة اليهودية المقترحة .

الدولة العربية المقترحة .

مستوطنات يهودية تشملها الدولة العربية .

القدس وضواحيها : منطقة دولية

أبرزها : مدرسة أولى دينية تدعو الى انتظار « المسيح المنتظر » ، ومدرسة ثانية تتبنى مقولة الاندماج والذوبان في المجتمعات الاوروبية القائمة ، ومدرسة ثالثة تنادي بالهجرة من المجتمعات الاوروبية المفعمة بالمشاعر اللاسامية الى المجتمعات الليبراليةحيث لا تسود تلك المشاعر ، ومدرسة رابعة تحث اليهود على الانخراط في الحركات الثورية باعتبار أن الثورة الجذرية هي « خشبة الخلاص » للجاليات اليهودية الموشكة على الغرق ، ومدرسة خامسة أخيرة تعتبر أن خروج اليهود من المأزق لن يكون الأمن خلال العبور على جسر الدعوة القومية اليهودية بصيغتها التي عرفت لاحقا باسم « الصهيونية » .

ورغم أن النويات الاولى للصهيونية المعاصرة بدأت بالتشكل نتيجة تحالف وتصارع أفكار كل من زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ - ١٨٧٤) وموزس هيس (١٨١٢ - ١٨٧٥) وليوبنسكر (١٨٢١- ١٨٩١) واشر غينتزبرغ (١٨٥٦ - ١٩٢٧) علاوة على أفكار وجهود نشيطي جميات « أحباء صهيون » ، فان التبلور الحاسم في الفكرة الصهيونية كان على يدي تيودور هرتسل الذى تحول ، مع العام ١٨٩٦ ، عن دعوته الى « ذوبان اليهود » في المجتمعات المختلفة ليصبح منذئذ أبرز الداعين لقيام « دولة يهودية » . ولم يمض عام واحد على ذلك حتى نجح هرتسل في الدعوة الى عقد « المؤتمر الصهيوني الأول » في بازل - سويسرة وفي تشكيل « المنظمة الصهيونية » التي تبنت « البرنامج الصهيوني » المعروف باسم برنامج بازل (أو بال) . وقد جاءت « المنظمة » و« البرنامج » الصهيونيان على نسق المؤسسات والبرامج القومية الاستعمارية الرأسمالية المعروفة عندئذ في أوروبة الغربية ، تماما مثلما كانا منسجمين مع الحركة القومية الاوروبية في مرحلتها الرأسمالية الاستعمارية .

ومع أن « البرنامج الصهيوني » حدد « غاية » الصهيونية بالدعوة الى « خلق وطن للشعب اليهودى في فلسطين » ، فان أمر « موقع » و« حدود » ذلك « الوطن » بقي بين أخذ وعطاء في الأوساط الصهيونية حتى بعيد وفاة هرتسل في العام ١٩٠٤ . فقد استمر هرتسل وغيره من القادة الصهيونيين يتعاطون مع أفكار تدعو اما الى تأسيس ذلك « الوطن » في فلسطين ، أو في العريش او شبه جزيرة سيناء او قبرص باعتبارها « مراكز للانقضاض » اللاحق على فلسطين ، أو في الارجنتين أو أوغندة أو غيرهما لتكون بمثابة « معسكر ليلي » يتم منه الانتقال ، لاحقا ، الى فلسطين . إلا أن ذلك التردد في الأوساط الصهيونية سرعان ماحسم ، مرة واحدة ، لصالح تحديد « فلسطين » مكانا للدولة اليهودية المنتظرة وذلك أثناء المؤتمر الصهيوني السابع في العام ١٩٠٥ . ولكن أي « فلسطين » ، تلك التي سعى الصهيونيون ، مبكرين ، الى احتلالها واقامة دولتهم عليها ؟

البعد التوسعي في الفكرة

ان في الاجابة على هذا السؤال الأخير دلائل قاطعة على البعد التوسعي في الفكرة الصهيونية . ذلك البعد الذى طالما شكل واحدا من الأبعاد الأساسية المبكرة والواضحة التي انطوت عليها الفكرة الصهيونية منذ أن كانت . وفي هذا المجال ، لعل في أفكار كل من تيودور هرتسل (مؤسس المنظمة الصهيونية) ودافيد تريتش (أحد قادتها الأوائل) ما يغني عن الاستعراض التفصيلي لأفكار العديد من القادة الصهيونيين « التاريخيين » الذين جاهروا - بثبات مستمر - بنواياهم التوسعية (انظر التصريحات المرفقة) .

يؤكد هرتسل ، في واحدة من صفحات مذكراته اليومية الطويلة المنشورة بأكثر من لغة والتي تظهر الجانب التوسعي الأصلي في الفكرة الصهيونية ، أن المساحة المراد قيام « الدولة اليهودية » عليها هي مساحة « تزداد ... مع ازدياد أعداد المهاجرين » الصهيونيين . ثم يضيف هرتسل في صفحة أخرى ، محددا ، أن تلك المساحة ستكون بحدود (٧٠) ألف كيلومتر مربع وأنها لا تقتصر - بالتالي - على مساحة فلسطين المعروفة والتي تقدر بما يقرب من (٢٦) ألف كيلومتر مربع . ثم ان هرتسل لا يتردد ، في صفحة أخرى من مذكراته ، في تثبيت حقيقة كون المساحة المطلوبة ستكون « من نهر مصر الى الفرات » .

أما المقولات التوسعية التي نادى بها دافيد تريتش ، والتي نالت اعجاب وتأييد وحماس هرتسل وغيره من القادة الصهيونيين ، فكانت - بالمعيار الزمني - سباقة وأكثر جرأة . فهو أول من تحدث وعمل - وبوضوح استعماري - من أجل تعديل « برنامج بال » الصهيوني بحيث تشمل لفظة « فلسطين » المذكورة في ذلك البرنامج كلا من العريش وشبه جزيرة سيناء (التي أسماها « فلسطين المصرية ») علاوة على قبرص . ذلك أن جميع هذه المناطق شكلت في منظور تريتش ورفاقه ومؤيديهم ، جزءا طبيعيا وعضويا وضروريا من أرض « فلسطين الكبرى » المطلوبة صهيونيا . وهذا ما دفع تريتش ورفاقه - بقوة - على طريق الدعوة الى « استعمار فلسطين والبلاد المجاورة لا سيما وأن زعماء الصهيونية يريدون وطنا قوميا

الدولة اليهودية تثبت أقدام احتلالها ١٩٤٨-١٩٤٩

عملت الدولة الصهيونية من ايار ١٩٤٨ على تثبيت اقدامها في المنطقة العربية .

ففي ٢٩ ايار ١٩٤٨ دعا مجلس الامن الى هدنة اربعة اسابيع (من ١١ حزيران — ٧ تموز) ، فاستغل الصهيونيون الهدنة للحصول على الطائرات الحربية والمدفعية والسيارات المصفحة الثقيلة .

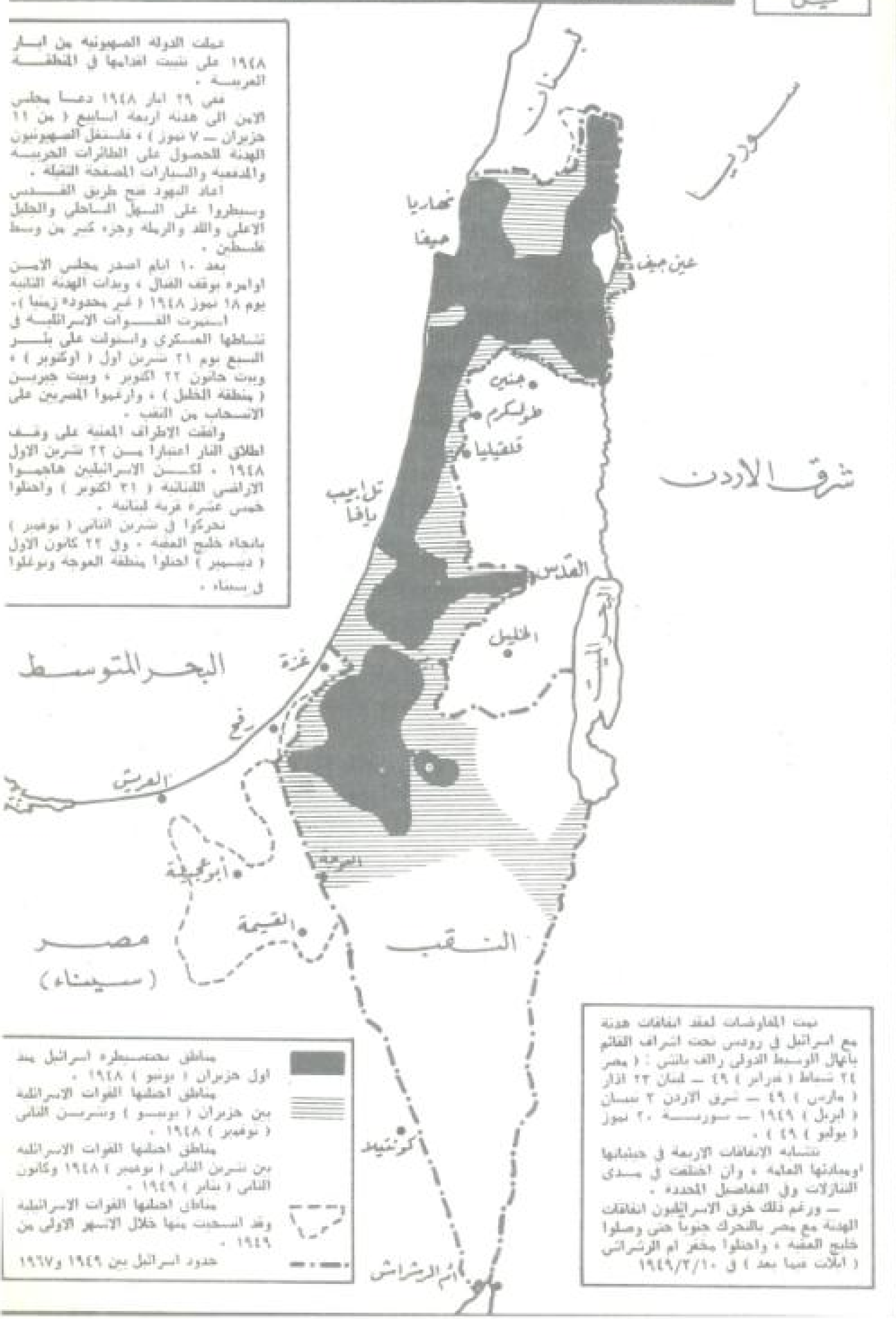
اعاد اليهود فتح طريق القدس وسيطروا على السهل الساحلي والجليل الاعلى واللد والرملة وجزء كبير من وسط فلسطين .

بعد ١٠ ايام اصدر مجلس الامن اوامره بوقف القتال ، وبدات الهدنة الثانية يوم ١٨ تموز ١٩٤٨ (غير محدودة زمنيا) .

استمرت القوات الاسرائيلية في نشاطها العسكري واستولت على بئر السبع يوم ٢١ تشرين اول (اوكتوبر) ، وبيت حانون ٢٢ اكتوبر ، وبيت جبرين (منطقة الخليل) ، وارغموا المصريين على الانسحاب من النقب .

وافقت الاطراف المعنية على وقف اطلاق النار اعتبارا من ٢٢ تشرين الاول ١٩٤٨ . لكن الاسرائيليين هاجموا الاراضي اللبنانية (٣١ اكتوبر) واحتلوا خمس عشرة قرية لبنانية .

تحركوا في تشرين الثاني (نوفمبر) باتجاه خليج العقبة . وفي ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) احتلوا منطقة العوجة وتوغلوا في سيناء .



▬	مناطق تحت سيطرة اسرائيل بعد اول حزيران (يونيو) ١٩٤٨ .
☰	مناطق احتلتها القوات الاسرائيلية بين حزيران (يونيو) وتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ .
	مناطق احتلتها القوات الاسرائيلية بين تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ وكانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ .
- - -	مناطق احتلتها القوات الاسرائيلية وقد انسحبت منها خلال الاشهر الاولى من ١٩٤٩ .
—·—	حدود اسرائيل بين ١٩٤٩ و١٩٦٧

تمت المفاوضات لعقد اتفاقات هدنة مع اسرائيل في رودس تحت اشراف القائم باعمال الوسيط الدولي رالف بانش : (مصر ٢٤ شباط (فبراير) ٤٩ — لبنان ٢٣ اذار (مارس) ٤٩ — شرق الاردن ٣ نيسان (ابريل) ١٩٤٩ — سورية ٢٠ تموز (يوليو) ٤٩) .

تتشابه الاتفاقات الاربعة في خطوطها ومبادئها العامة ، وان اختلفت في مدى التنازلات وفي التفاصيل المحددة .

— ورغم ذلك خرق الاسرائيليون اتفاقات الهدنة مع مصر بالتحرك جنوبا حتى وصلوا خليج العقبة ، واحتلوا مخفر ام الرشراش (ايلات فيما بعد) في ١٠/٣/١٩٤٩

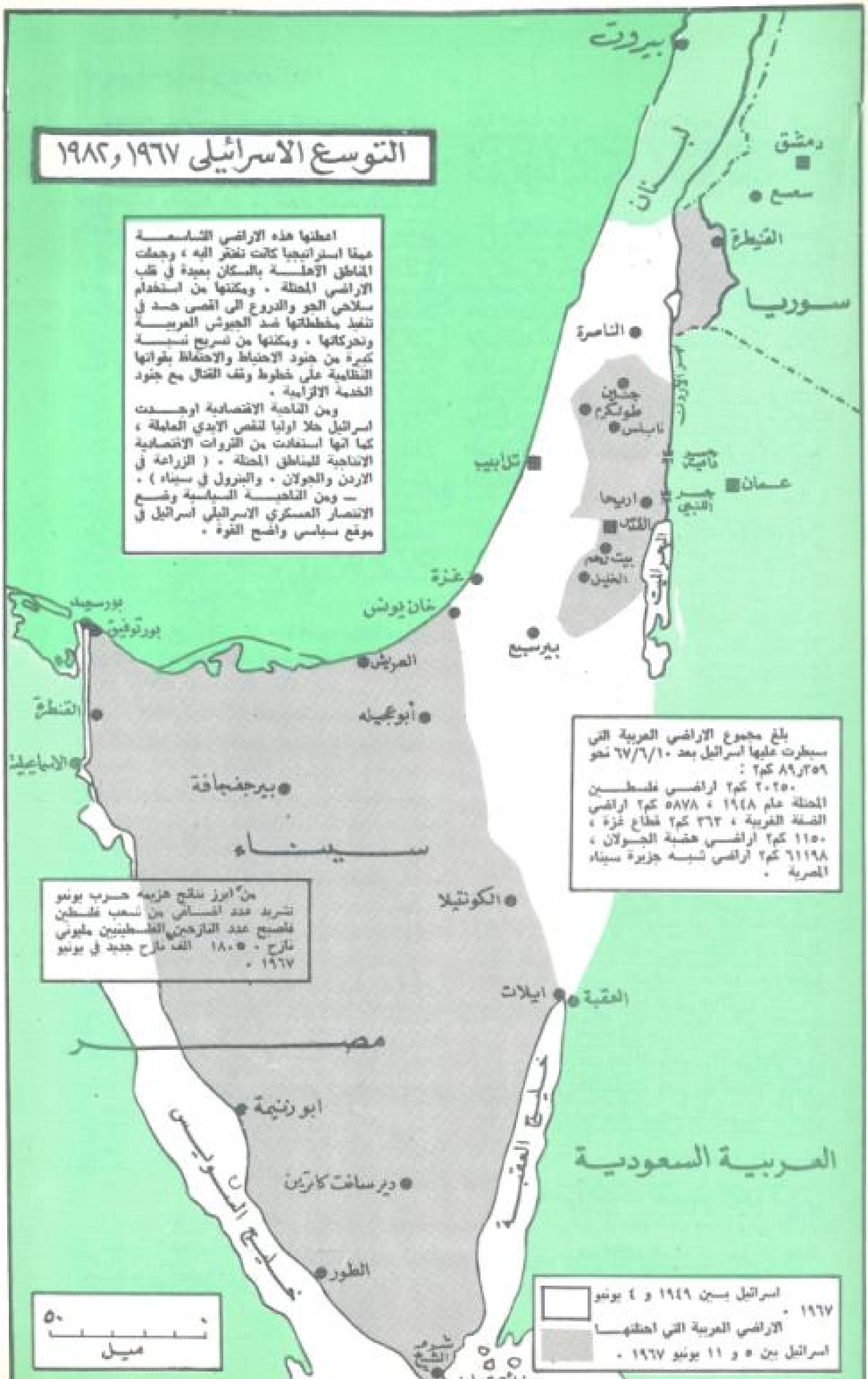
لمجموع الشعب اليهودي » .

ولم يقتصر البعد التوسعي الأصلي في الفكرة الصهيونية على ما نادى به وعمل من أجله كل من هرتسل وتريتش . فهذا هو البروفسور أوتو واربورغ ، الرئيس الأسبق للمنظمة الصهيونية ، يشترك هو وغيره من القادة الصهيونيين مع تريتش في « لجنة برلين » التي سعت الى تنفيذ فكرة « اسرائيل الكبرى » . وكذلك الحال مع القائد الصهيوني البارز ماكس نوردو . كما أن الدكتور حاييم وايزمن ، آخر رؤساء المنظمة الصهيونية قبل قيام اسرائيل وأول رئيس لدولة الكيان الصهيوني ، كان قد أصر ـ رغم صورته الشهيرة كزعيم صهيوني « معتدل » ـ على أن تشمل فلسطين « شرق الاردن » أيضا . وفي هذا النطاق ، لم يختلف وايزمن عندئذ ـ الا تكتيكيا ـ عن جابوتنسكي ، « رائد » الدعوة الصهيونية المنادية باشتمال فلسطين على « شرق الاردن » . بل ان اصرار جابوتنسكي هذا على التمسك بشرق الاردن كجزء من « الوطن القومي اليهودي » سرعان ما قاده الى الانشقاق عن المنظمة الصهيونية والى بلورة مجموعة سياسية اصطلح على تسميتها بمجموعة « الصهيونيين التصحيحيين » . وقد شكل هؤلاء ـ لاحقا ـ « المنظمة الصهيونية الجديدة » وأسروا وقادوا منظمتي « الأرغون تسفاي لئومي » و« شتيرن » الارهابيتين اللتين عادتا فاندمجتا ـ بكوادرهما الأساسية ـ في « حزب حيروت » الذي يشكل الآن العمود الفقري للتكتل الصهيوني الحاكم في اسرائيل (الليكود) بقيادة مناحيم بيغن منذ العام ١٩٧٧ .

وتؤكد الوثائق الصهيونية الرسمية ، وبالذات تلك الخاصة بفترة شباط/ فبراير ١٩١٧ ـ شباط/ فبراير ١٩١٩ ، على « النضج » المبكر للفكر التوسعي الصهيوني ، وعلى أنه فكر لا يقتصر على تيار من التيارات الثانوية للحركة الصهيونية . فقد أطنبت « نشرة فلسطين » ، الصادرة عن « لجنة فلسطين البريطانية » الصهيونية ، في عرض تفاصيل حدود « فلسطين » المطلوبة صهيونيا في عدة مقالات نشرتها على امتداد أشهر تلك الفترة . بل ان خلاصة تلك المقالات أصبحت ، مع انعقاد « مؤتمر السلام » في العام ١٩١٩ ، موقفا صهيونيا شاملا من مسألة رسم حدود « فلسطين الكبرى » التي طالبت بها « المنظمة الصهيونية » في مذكرتها الرسمية الشهيرة المقدمة لذلك المؤتمر . وتكشف هذه المذكرة ـ بوضوح قاطع لا لبس ولا غموض فيه ـ عن أن الحركة الصهيونية تطالب بأن يكون الحد الغربي لدولتها هو البحر الابيض المتوسط . أما حدها الشرقي فهو غربي الخط الحديدي الحجازي ، في حين يكون حدها الجنوبي عند نقاط قريبة من كل من العقبة والعريش . وأخيرا ، تتضمن الحدود الشمالية للدولة اليهودية المطلوبة « نهر الليطاني ، الى بانياس ، على مقربة من منابع نهر الاردن ثم في اتجاه جنوبي شرقي الى نقطة جنوبية قريبة من دمشق والخط الحديدي الحجازي » . وبذلك ، اتسعت حدود « فلسطين الكبرى » المطالب بها رسميا في الأوساط الصهيونية بحيث أصبحت تهدف الى ضم شرق الاردن برمته ، وسهل حوران الكبير ، وجبل الشيخ ومنطقة دمشق (وربما مدينة دمشق ذاتها) ، والمنطقة الفاصلة ما بين هذه الأخيرة والحدود اللبنانية ـ السورية الراهنة ، ومنطقة صيدا وصولا الى منابع المياه في جبال لبنان « حتى جسر القرعون ثم الى البير ، وتتبع الخط الفاصل بين حوض وادي القرن ووادي التيم ثم الى اتجاه جنوبي يتبع الخط الفاصل بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ » . أما فيما يتعلق بمنطق « فلسطين المصرية » (أي العريش وسيناء) فان الحركة الصهيونية أبدت كثيرا من « الكرم » عندما لم تصر على ضمها الى أطماعها الثابتة غير القابلة للتصرف (كما هو حال المناطق الأخرى) وتركت مسألة البت النهائي فيها لمفاوضات اقترحت إجراءها مع السلطات المعنية ! .

البعد التوسعي في الممارسة

يتلخص أبرز ما يميز الحركة الصهيونية في كونها حركة لا ترفع الشعارات لتلحسها لاحقا ، ولا تضع المشاريع لتتخلى عنها مستقبلا . ذلك أنها حركة تعني ما تقول ، وتصر دوما ـ بجشع مثابر ـ على تجسيد أفكارها وطروحاتها وأهدافها مغتنمة في ذلك الفرصة المناسبة . ولهذا كانت « المنظمة الصهيونية » دائما حركة نظرها مشدود باستمرار الى غاياتها البعيدة مع استعداد كلي لصياغة حركتها المرحلية دون « مزايدة » من جهة ، ودون « تفريط » من جهة ثانية . ولذلك ، وفي الوقت الذي تمسكت فيه الحركة الصهيونية تمسكا لا هوادة فيه بأهدافها النهائية ، فانها اعتنت ـ في الوقت ذاته ـ بخلق الظروف المؤاتية (عبر تعبئة أيديولوجية وسياسية وتنظيمية واعلامية واقتصادية وعسكرية مستمرة) للوصول الى غاياتها الاستراتيجية البعيدة من خلال تكتيك مستند الى سياسة « القضم والهضم » التدريجي . وعلى طريق تنفيذ ذلك ، لم تغفل الحركة الصهيونية تغطية أطماعها تلك بغطاء قوامه مجموعة من الذرائع والاسباب والعوامل المرتبطة بالدعاوى الدينية ، أو التاريخية ، أو العسكرية ، أو الاقتصادية . . . الخ .


التوسع الاسرائيلى ١٩٦٧ و ١٩٨٢
اعطتها هذه الاراضي الشاسعة عمقا استراتيجيا كانت تفتقر اليه ، وجعلت المناطق الآهلة بالسكان بعيدة في قلب الاراضي المحتلة . ومكنتها من استخدام سلاحي الجو والدروع الى اقصى حد في تنفيذ مخططاتها ضد الجيوش العربية وتحركاتها . ومكنتها من تسريح نسبة كبيرة من جنود الاحتياط والاحتفاظ بقواتها النظامية على خطوط وقف القتال مع جنود الخدمة الالزامية .
ومن الناحية الاقتصادية اوجدت اسرائيل حلا اوليا لنقص الايدي العاملة ، كما انها استفادت من الثروات الاقتصادية الانتاجية للمناطق المحتلة . (الزراعة في الاردن والجولان . والبترول في سيناء) .
— ومن الناحية السياسية وضع الانتصار العسكري الاسرائيلي اسرائيل في موقع سياسي واضح القوة .
بلغ مجموع الاراضي العربية التي سيطرت عليها اسرائيل بعد ٦٧/٦/١٠ نحو ٨٩٫٣٥٩ كم٢ :
٢٠٢٥٠ كم٢ اراضي فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، ٥٨٧٨ كم٢ اراضي الضفة الغربية ، ٣٦٣ كم٢ قطاع غزة ، ١١٥٠ كم٢ اراضي هضبة الجولان ، ٦١١٩٨ كم٢ اراضي شبه جزيرة سيناء المصرية .
من ابرز نتائج هزيمة حرب يونيو تشريد عدد اضافي من شعب فلسطين فاصبح عدد النازحين الفلسطينيين مليوني نازح . ١٨٠ الف نازح جديد في يونيو ١٩٦٧ .
بيروت
لبنان
دمشق
سعسع
القنيطرة
سوريا
الناصرة
جنين
طولكرم
نابلس
تل ابيب
جسر دامية
عمان
جسر اللنبي
اريحا
القدس
بيت لحم
الخليل
غزة
خان يونس
بورسعيد
بورتوفيق
العريش
بيرسبع
القنطرة
ابوعجيله
الاسماعيلية
بيرجفجافة
سيناء
الكونتيلا
ايلات
العقبة
مصر
ابو زنيمة
ديرسانت كاترين
الطور
شرم الشيخ
مضائق تيران
العربية السعودية
خليج العقبة
خليج السويس
اسرائيل بين ١٩٤٩ و ٤ يونيو ١٩٦٧ .
الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل بين ٥ و ١١ يونيو ١٩٦٧ .
٥٠
ميل

وتتضح جميع أبعاد العملية الصهيونية الاسرائيلية الخاصة بخلق « الظروف المؤاتية » - على مختلف الأصعدة الايديولوجية والسياسية والتنظيمية والاعلامية والاقتصادية والعسكرية - من خلال التعبئة والممارسات الصهيونية/ الاسرائيلية المعبر عنها في عدم وضع دستور (حتى الآن) يرسم حدود الدولة الصهيونية ، وفي وضع وتبني البرامج التوسعية من قبل جميع الاحزاب الصهيونية الحاكمة والمعارضة منذ العام ١٩٤٨ وحتى اللحظة الراهنة . كما أن العملية ذاتها تتضح من الجهد الدائم الذي تبذله المنظمة الصهيونية سواء في مجال تجميع يهود العالم من حول اسرائيل والحركة الصهيونية ، أو على صعيد احكام الطوق على مراكز صناعة القرارات وأجهزة الاعلام وبالذات في دول العالم الغربي . وأخيرا ، تكتمل حلقات عملية خلق « الظروف المؤاتية » من خلال بث وتعميق جذور الفرقة في معسكر « الاعداء العرب » وأنصارهم ، وعبر تعبئة الطاقات البشرية والموارد الاقتصادية المختلفة لخدمة أهداف المؤسسة العسكرية الاسرائيلية التي أولتها الحركة الصهيونية واسرائيل عناية فائقة .

وكما هو متوقع ، كانت كل هذه الجهود موظفة من أجل صب الماء في الطاحونة الاسرائيلية ، المقبلة بشهية منقطعة النظير ، على تنفيذ مخطط « القضم والهضم » الصهيوني/ الاسرائيلي . ويتضح المسار العملي لعملية تنفيذ ذلك المخطط من الحقائق الصلبة الملموسة التالية :

١ - قيام القوات الصهيونية ، حتى قبل انسحاب جيش الانتداب البريطاني من فلسطين ، بمهاجمة واحتلال عدد من القرى والمدن الداخلة في « الدولة العربية » التي رسم حدودها مشروع التقسيم للعام ١٩٤٧ والذي أوصت به الجمعيةالعامة لهيئة الامم المتحدة . ومن الامثلة الواضحة على ذلك ، التوسع الصهيوني في مدن يافا ، وعكا ، وطبريا ، وصفد .

٢ - وعشية انسحاب بريطانية من فلسطين في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ ، لم تتوان الدولة الصهيونية عن توسيع رقعتها باحتلال أراض اضافية مخصصة للدولة العربية مستغلة في ذلك الصدامات مع الجيوش العربية وما أعقبها من اتفاقات وقف اطلاق النار والهدنة في العامين ٤٨/ ١٩٤٩ . ومن الامثلة الواضحة على ذلك ، التوسع الاسرائيلي في النقب .

٣ - وبعد قيام اسرائيل ، اغتنمت الدولة الصهيونية كل سانحة لاحتلال أراض عربية جديدة طوال الفترة الفاصلة ما بين العام ١٩٤٩ والعدوان الثلاثي على مصر في نهاية العام ١٩٥٦ . ومن الامثلة الواضحة على ذلك ، توسع اسرائيل في العديد من المناطق الحرام المنزوعة السلاح الواقعة بينها وبين « دول الطوق » العربية .

٤ - وأثناء عدوان ١٩٥٦ على مصر وبعده ، نجحت اسرائيل أخيرا في سلب بعض حقوق السيادة المصرية بعد أن أصرت أصلا على الاحتفاظ بجزء من الاراضي الفلسطينية والمصرية باعتبارها جزءا من « الاراضي الاسرائيلية المحررة » . ذلك أنه عندما اضطرت اسرائيل للانسحاب من قطاع غزة والعريش وصحراء سيناء في مطلع العام ١٩٥٧ ، حرصت على أن يترافق ذلك الانسحاب مع وضع قوات طوارىء دولية في الجانب المصري علاوة على « تثبيت » حقها في « المرور الحر » من والى ميناء ايلات .

٥ - وفي الحقبة الفاصلة ما بين ١٩٥٧ - ١٩٦٧ ، عاودت اسرائيل ممارسة سياستها التوسعية في المناطق المجردة من السلاح على « الحدود » بينها وبين كل من الاردن وسورية . ومن الامثلة الواضحة على ذلك ، توسع اسرائيل في أراضي قرى يالو وعمواس واللطرون في الضفة الغربية ، اضافة الى بعض الاراضي الواقعة عند سفح الهضبة السورية .

٦ - ومنذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى نهاية الحقبة التالية في العام ١٩٧٧ ، توسعت اسرائيل في المرحلة الحزيرانية بحيث اشتملت حدودها الجديدة - التي تتحدد باستمرار بالمدى الذي يصل اليه الجندي الاسرائيلي - على كامل الضفة الغربية ، وقطاع غزة ، وشبه جزيرة سيناء ، والهضبة السورية ، علاوة على جزيرتي تريم وصنافير السعوديتين . ومن الامثلة الأوضح على الممارسة التوسعية الاسرائيلية في المرحلة الثانية من هذه الحقبة ، قيام الدولة الصهيونية بضم القدس الشرقية (بعد توسيع رقعتها بحيث ضمت أراضي عربية مجاورة) اليها رسميا ، وباحتلال أجزاء جديدة من سورية ومصر أثناء حرب ١٩٧٣ ، وباقامة عشرات المستوطنات الاسرائيلية على امتداد الاراضي الفلسطينية والعربية المحتلة سواء في الضفة الغربية وغزة ، أو في الهضبة السورية ، أو في سيناء .

٧ - وفي الفترة اللاحقة الممتدة من زيارة الرئيس السادات الى اسرائيل في نهاية العام ١٩٧٧ وحتى الآن ، سعت اسرائيل - رغم اتفاقية الصلح مع مصر الى محاولة سلب بعض حقوق السيادة المصرية على سيناء (بتجريد

وبتقييد متدرجين للمناطق الحدودية المصرية على صعيدي السلاح والقوات وبالاصرار على إدخال تعديلات ـ ولوطفيفة ـ على الحدود الدولية وباللذات في منطقة طابا . هذا ، علاوة على احتلال اسرائيل للشريط الحدودي من لبنان ، وما سبقه وواكبه وتبعه من نشر للمستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة والهضبة السورية ، واعلان القدس « عاصمة أبدية » لاسرائيل ، وتطبيق القانون الاسرائيلي رسميا على المرتفعات السورية ، وتسمية « الضفة الغربية » باسم « يهودا والسامرة » ، والاعلان الرسمي المتكرر عن أن الاراضي الفلسطينية المحتلة في العام ١٩٦٧ ستبقى (حسب وجهة نظر اسرائيل في اتفاقات كامب ديفيد ووفقا لمشروع « الادارة المدنية » الاسرائيلي) تحت السيادة الاسرائيلية الى الأبد ! . هذا كله ، فيما عدا ما سينجم نهائيا من سلب لحقوق السيادة اللبنانية وأراضي لبنان في أعقاب الغزو الاسرائيلي الراهن والذي بدأ مع مطلع حزيران/ يونيو ١٩٨٢ . وفي هذا النطاق ، ثمة دلائل كثيرة على نية اسرائيل في تحويل عملية غزوها شبه الشامل للبنان الى عملية تبدأ فيها مرحلة جديدة من الصراع العربي ـ الصهيوني : مرحلة الهيمنة الاسرائيلية العلنية على مقدرات السياسة الداخلية والخارجية لعدد من الدول العربية وفي طليعتها لبنان . انها مرحلة « الامبراطورية الصهيونية » أو مرحلة « الدولة العظمى » الاسرائيلية في دائرة الاقليم شرق الأوسطي .

الضعف العربي ؟

لقد كان نجاح الحركة الصهيونية في الحصول على جزء من الارض الفلسطينية وفقا لقرار التقسيم في العام ١٩٤٧ ، وما أعقب ذلك من توسع (استعماري ـ عسكري) صهيوني قبل قيام « اسرائيل » في العام ١٩٤٨ وبعدها ، أحد أبرز مفاعيل الجوهر الاستعماري الاجلائي التوسعي للايديولوجية الصهيونية . غير أن هذه الأخيرة ما كان لها أن تخرج من حيز الامكان الى حيز الفعل لولا أنها تجسدت في قوة سياسية ـ عسكرية ـ اقتصادية ـ اعلامية منظمة تمثلت في المنظمة الصهيونية وأجهزتها قبل العام ١٩٤٨ ، وفي الدولة الصهيونية وأجهزتها أساسا بعد ذلك العام . غير أن هذه الحقيقة الرئيسية ، على أهميتها الفائقة ، ليست الا أحد وجهي العملة الصهيونية .

ولقد راجت هذه العملة الصهيونية وانتشرت لأنها استطاعت ـ بقوة تنظيمها الشامل ـ طرد العملة العربية الرديئة والعاجزة نتيجة افتقادها الى التنظيم الشامل القادر على تعبئة طاقات وموارد الامة العربية . ولهذا ، فان الوجه الآخر للعملة الصهيونية/ الاسرائيلية المتفوقة هو الضعف العربي . وعليه ، فانه بالقدر الذي كان فيه قيام وتوسع اسرائيل أحد أبرز مفاعيل الايديولوجية الصهيونية المجسدة في قوة مادية منظمة ، فانه كان أيضا أحد مفاعيل الوهن العربي الذي لولاه لبقيت الدولة الصهيونية (بصيغتها الضيقة الأولية وبصيغتها التوسعية الراهنة) أسطورة خيالية . بل انه لولا الوهن العربي لبقيت الايديولوجية الصهيونية (باعتبارها جذر الدولة الصهيونية الاستعمارية الاجلائية التوسعية والجاهزة دوما لمزيد من التوسع) مجرد خرافة وأحلام يقظة مريضة ليس الا . وفي هذا السياق ، ليس من قبيل المبالغة القول بأنه اذا كان لقيام وتوسع الدولة الصهيونية مليون سبب وسبب ، فان السبب الأخير عائد الى قوة تنظيم الصهيونية الذي مكنها من تعبئة صهيونيي العالم ونسج التحالفات مع الاستعمار والامبريالية ، في حين أن المليون سبب المتبقية انما هي مرتبطة ، بشكل أو بآخر ، بالضعف العربي .

لقد حصلت الصهيونية على مشروع « الدولة اليهودية » في العام ١٩٤٧ نتيجة التبعثر وفقدان القوة العربية . وتوسعت الصهيونية في العامين ١٩٤٧/ ١٩٤٨ بفضل غياب الوحدة والتضامن العربيين وما أفرزاه من ضعف مادي عربي . وما كانت اسرائيل لتقوم وتتوسع ـ في ظل دعم العالم الاستعماري الغربي لها ـ طوال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٨٢ لولا أنها جسدت قوة لم يكن أمامها سوى الفراغ العربي . بل ان اسرائيل مرشحة للبقاء ، ولقضم وهضم المزيد من الاراضي العربية ، ولتوطيد ونشر هيمنتها على النظم السياسية العربية خارج دائرة احتلالها المتوسع أبدا ، طالما بقي الفراغ الفعلي العربي قائما . ويوم يمتلىء ذلك الفراغ بالطاقات المادية والبشرية العربية المنظمة والمعبئة ، ستبدأ عندئذ رحلة تبخر وتلاشي الايديولوجية الصهيونية وما نجم عنها من كيان صهيوني استعماري اجلائي توسعي يكاد أن يغدو ـ ان لم يكن قد أصبح فعلا ـ « امبراطورية صهيونية » أو « دولة عظمى » اسرائيلية مرشحة لأن تبسط مظلتها الشيطانية على الوطن العربي بكل ما فيه من ملوك ورؤساء ، وحكومات وأحزاب وقوى وبشر ، ناهيك عن كل ما فيه من مصادر وموارد وثروات . □□

د . اسعد عبد الرحمن
استاذ مساعد بقسم العلوم السياسية ورئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية بجامعة الكويت

فقه العمل
باب لازدهار الفكر الإسلامي

بقلم : الدكتور محمد فاروق النبهان

تلعب « الأعراف » دورا أساسيا في حياة المجتمعات البشرية ، وتسهم في تنظيم مسيرتها اليومية ، وتعبر عن طبيعة تلك المجتمعات وحاجاتها ، وتكشف عن مدى تطورها الحضاري والأخلاقي والقانوني ، وتقوم مقام القانون عند فقدانه ، وتكمل دوره في التنظيم عند وجوده ، وتعتبر احدى أهم مصادره الأساسية ، ولايمكن للقانون ان يتجاهل دور الاعراف في تنظيم حياة المجتمعات ، كما لايمكن لقواعده ان تتصادم كلية مع الأعراف القائمة ، ما لم تكن تلك الأعراف منافية كل المنافاة لقيم الأمة واخلاقها ومصالحها .

وتطلق كلمة العرف على الشيء المعروف الذي تستحسنه الأمة ، من العادات التي تتكرر مع الزمن ، سواء كانت في الاقوال أو الافعال ، وهو في اللغة ضد النكر ، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف » ـ الأعراف (١٩٩) . والعرف الذي أمر القرآن به ، هو العادات التي استقرت في الأمة واطمأنت اليها النفوس ، سواء كان مصدرها العقل او الأديان السماوية ، او الاخلاق الفاضلة ، وذلك مالم تصطدم بنص شرعي يبطل دورها ، ويلغي اعتبارها . .

أقرت الشريعة الاسلامية الأعراف ، سواء كانت عامة او خاصة ، اذا توفرت فيها الشروط التي تكفل احترامها ، واعتمدت الشريعة في اقرارها لمبدأ العرف ، على ما ورد في القرآن الكريم من احترام الاعراف ، وقد أوضح المفسرون معنى العرف الوارد في الآية السابقة بأنه يشمل كل خصلة ترتضيها العقول وتطمئن اليها النفوس[١] .

وورد في الآثار المنقولة عن ابن مسعود ان ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، وهذا الحديث وان لم تثبت نسبته الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فان علماء الاصول يعتمدون عليه في الاستدلال على اعتبار العرف مصدرا تشريعيا معتمدا . .

وأعتقد أن قوة العرف تكمن في حاجة الناس اليه ، وهي دليل على استحسان الناس لعادة من العادات التي

(١) انظر تفسير القرطبي جـ ٧ ، ص : ٣٤٦ .

يرتضيه المجتمع وان المجتمع لايمكن ان يجمع على قبول عرف او عادة ما لم يكن ذلك العرف ملبيا لحاجة اجتماعية ملحة ، وما لم يكن منسجما مع أخلاق ذلك المجتمع . .

ومع هذا فان الشريعة الاسلامية قد طوقت العرف بشروط تكفل قبوله ، واحاطته بقيود لايمكن ان يقبل بدون توفرها ، والغاية من ذلك هي التفريق بين العرف الحسن الذي تقبله الشريعة وتحترمه ، والعرف الفاسد الذي تنكره الشريعة وترفض اعتماده كمصدر للأحكام الشرعية . .

شروط ضرورية للأعراف

اشترطت الشريعة الاسلامية لقبول الأعراف ما يلي : [٢] .

اولا : عدم مخالفة الأعراف للنصوص الشرعية : ويعتبر هذا الشرط من اهم الشروط المرتبطة بقبول العرف ، وذلك لان المبدأ المقرر في الشريعة ان النصوص مقدمة على المصالح والأعراف ، ولايمكن للمصالح او الاعراف ان تلغي الاحكام الشرعية القطعية ، لان ذلك يؤدي الى ابطال تلك النصوص ، ومن القواعد المقررة في الفقه الاسلامي ان النصوص القطعية لايمكن ابطالها او تعطيل احكامها . . وكل عرف يترتب عليه ابطال نص فلا يمكن اعتماده او اقراره ، اذ من شروط قبول الاعراف الا يصطدم باي نص شرعي ، والا يترتب على الأخذ بها تعطيل اي نص قاطع . . وبناء على هذا الشرط فقد ابطل الاسلام كثيرا من الاعراف الجاهلية التي كانت قائمة ، كالتبني ، ونكاح الشغار ، وعادات كثيرة في التعامل ، والمبايعات ، كشرب الخمر ، والتعامل بالربا والاحتكار . وذلك لأن النصوص قد الغت تلك الاعراف ، وابطلت اعتبارها ، ويمكننا ان نطبق هذه القاعدة اليوم على جميع الاعراف القائمة في مجتمعنا ، فكل عرف يصطدم بنص شرعي قاطع لايمكن قبوله ، ولو اشتدت حاجة الناس اليه . .

ثانيا : ان يكون العرف مطردا او غالبا ، والمراد باطراد العرف او غلبته ان يكون مما يجري العمل به باستمرار ، وفي جميع الاحوال ، ويختلف العرف هنا عن العادة الفردية التي يلتزم بها فرد دون غيره ، فان مثل هذه العادة لايمكن اعتبارها عرفا ، وبالتالي لايمكن اعتبارها ملزمة ، اعتمادا على العرف ، وذلك لانتفاء العرف في هذه الحالة . .

ثالثا : عدم الاتفاق على مايخالف العرف ، وذلك لان العرف ينشيء التزاما معينا معتمدا على قبول العرف القائم ، فاذا اتفق الطرفان في العقد على ما يخالف العرف ، فان الاتفاق يعبر بطريقة مؤكدة وصريحة على ارادة الطرفين الحقيقية ، وهذا الاتفاق واجب الاحترام ، ولايمكن اللجوء الى العرف الذي يفيد الدلالة الظنية في مواجهة الارادة الصحيحة الممثلة في الاتفاق المبرم . .

ومن الصعب علينا ان ننكر دور الاعراف في اثراء الشريعة الاسلامية بالاحكام الفرعية المتجددة التي كانت تمثل الحاجات الاجتماعية في عصر من العصور . . .

ولم يغلق الفقهاء المسلمون ابواب الشريعة امام الاعراف الاجتماعية ، سواء منها ما كان قائما في العصر الاسلامي الأول ، او ما استجد في الاقطار الاسلامية خلال فترات التاريخ الاسلامي ، ولم يكتف التشريع الاسلامي بقبول الاعراف وانما اعتبر العرف مصدرا تبعيا من مصادر التشريع الاسلامي .

ومن اليسير علينا اليوم ان نلاحظ اثر الاعراف في الفقه الاسلامي من خلال ما نتتبعه في كتب الفتاوي والنوازل التي ازدهرت بعد القرن السابع الهجري ، وكانت تمثل التطبيقات لاحكام الشريعة الاسلامية في عصر من العصور ، ولذلك فقد اختلفت كتب الفتاوي باختلاف العصر كما اختلفت باختلاف الأقطار الاسلامية ، وهذا الاختلاف لايعبر عن اختلاف في اصل الحكم الشرعي ، وانما يعبر عن الاعراف السائدة في المجتمعات الاسلامية ، وبخاصة مايتعلق منها باحكام الاسرة : كالزواج والخطبة والطلاق والمهر والنفقات وحقوق الاولاد ، او مايتعلق باحكام المعاملات المختلفة ، وكثيرا ما كان الافتاء او القضاء يرجع الى ما جرى عليه العمل في ذلك . .

عمل أهل المدينة عند المالكية

أخذ الامام مالك بعمل اهل المدينة ، واعتبره مصدرا شرعيا ، وذلك لان ما كان يجري في المدينة يعتبر من جملة السنة التي اطلع عليها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقرهم عليها ، او تأثر فيها اهل المدينة بما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ومن صحابته ، وبناء عليه فان عمل اهل المدينة يعتبر المصدر الرابع من مصادر الشريعة الاسلامية ، وهو مقدم على القياس وعلى خبر الآحاد ، وذلك لأن « العمل » الذي جرى عليه العرف لدى جمهور اهل المدينة ، لابد ان يكون معتمدا على سنة فعلية ،

(٢) انظر « كتابي نظام الحكم في الاسلام » ص ٣٩٦ .

والسنة المنقولة عن طريق التواتر اقوى من خبر الآحاد الذي يصطدم بعمل اهل المدينة . . .

اما المعارضون لرأي الامام مالك في الأخذ بعمل اهل المدينة ، فانهم يسلمون بان عمل اهل المدينة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان حجة ، لوجود النبي صلى الله عليه وسلم الذي لايمكن ان يقرهم على خطأ ، ولأن معظم الصحابة في ذلك الحين كانوا في المدينة ، واجماعهم على عمل او عرف يعتبر حجة ، اما « العمل » الذي كان في عهد الامام مالك فلا يمكن اعتباره حجة ، وذلك لأن سكان المدينة قد ادخلوا كثيرا من العادات على حياتهم خلال الفترة الممتدة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى عصر الامام مالك ، وبناء عليه فان عمل اهل المدينة لم يعد يصلح حجة ، تترك لاجله اخبار الاحاد .

واعتقد ان الخلاف بين المؤيدين والمعارضين لاينصب على اعتماد عمل اهل المدينة او عدم اعتماده ، وانما ينصب على ان المؤيدين لاعتماده والاخذ به يرون فيه امتدادا لما كان عليه العمل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرينة على وجود السنة المتوارثة جيلا عن جيل ، اما الذين يعارضون في ذلك ، فانهم لايرون ذلك الرأي على وجه العموم ، فان ثبت لهم ان العمل موافق للسنة اخذوا به بلا خلاف . .

العمل لدى علماء المغرب

لقد اسهمت الاعراف اسهاما كبيرا في امداد الفقه الاسلامي بالاحكام الجزئية ، واذا كان الامام مالك قد اعتبر ان عمل اهل المدينة يعتبر حجة في مجال التشريع ، فان فقهاء المالكية في بلاد المغرب والاندلس قد توسعوا في هذا المجال ، انطلاقا من فكرة « العمل » ، واصبح « العمل » من الكلمات المألوفة في كتب الفقه المالكي ، وبخاصة كتب النوازل التي اعتمدت على ماجرى عليه العمل ، واشتهرت في المغرب كلمة العمل الفاسي والعمل السوسي والعمل الفرناطي ، اي ما جرى عليه العمل في هذه البلاد من احكام واعراف . .

ويبدو أن كلمة « العمل » او اصطلاح « ماجرى عليه العمل الذي نجده كثيرا في كتب المتأخرين من فقهاء المغرب ، قد نشأت في الاندلس ، وكان يراد « بالعمل » العدول عن القول الراجح او المشهور في بعض المسائل الفقهية المعتمدة في المذهب الى القول الضعيف فيها مراعاة لمصلحة عامة تستدعيها حاجة الامة ، ثم يجري العمل بعد ذلك في مجال القضاء والافتاء بهذا الحكم ، واعتمادا على ما جرى عليه العمل . .

وظهرت مؤلفات فقهية خاصة « بفقه العمل » ، ويراد بها الاحكام التي جرى عليها العمل في الاندلس او المغرب ، او في بلد ما من بلاد المغرب ، مما يخالف القول المعتمد او المشهور في المذهب المالكي ، لحاجة اجتماعية ، او لدرء مفسدة ، او سد لذريعة ، ومن اهم الكتب التي تعرضت لفقه العمل كتاب « نيل الامل فيما به بين الأئمة جرى العمل » لابي العباس احمد بن القاضي ، ووضع عبد الرحمن الفاسي منظومة ذكر فيها ثلاثمائة مسألة مما جرى به العمل بمدينة فاس ، كما الف ابو القاسم السجلماسي في العمل المطلق . .

ولم يقتصر دور « العمل » على الاحكام الفقهية ، انما تجاوز ذلك الى الدراسات المتعلقة بالقرآن والقراءات ، وقد جرى العمل خلافا للمشهور على ضبط فواتح السور ونقطها ، كما جرى العمل في بلاد المغرب على تحديد الوقف في القرآن ، على يد المقرىء ابي عبد الله الهبطي في كتابه « وقف القرآن » .[٣]

لم يترك علماء المغرب فكرة « العمل » مطلقة بحيث تؤدي الى الانحراف ، وذلك لان اقرار مبدأ « العمل » في البداية ، انطلق من فكرة الحاجة الاجتماعية ، جلبا لمصلحة ، او درءا لمفسدة او سدا لذريعة ، أو تحقيقا لحاجة ، ومع هذا فان فقهاء المغرب والاندلس الذين اقروا مبدأ العمل ، قيدوه بقيود كثيرة ، لئلا يكون اداة للعبث او وسيلة للانحراف . .

واهم هذه القيود ان يكون « ماجرى عليه العمل » منسجما مع قواعد الشرع واحكامه ، ولو كانت تلك الرواية مخالفة للرواية الراجحة والمشهورة ، وان يصدر « فقه العمل » عمن يوثق بدينه وعلمه وخلقه ، وان يثبت ذلك عنه بادلة قاطعة . .

وسبب هذا الاشتراط هو التأكيد على ان مخالفة الرواية المشهورة لايجوز ان تصدر الا ممن توافرت فيه صفة الاجتهاد من العلماء ، ممن يمكن لهم فهم الاحكام بدقة ، وتقدير حجم المصلحة في مخالفة الرواية الراجحة ، وجريان العمل ـ بعد ذلك ـ بها . .[٤]

واعتقد ان « فقه العمل » يمثل الفقه الذي قرر الفقهاء المجتهدون في عصر من العصور او في بلد من البلدان اهمية

(٣) انظر تفصيل ذلك في : العرف وماجرى عليه العمل في المغرب للدكتور عمر الجيدي ، وايضا نظرية الاخذ بما جرى عليه العمل للسيد عبد السلام العسري ، رسائل علمية جامعية غير منشورة

(٤) انظر العرف وما جرى عليه العمل في المغرب ص : ٣٣٨ .

مراعاته في الاحكام ، جلبا لمصلحة او درءا لمفسدة ، او لظروف تفرضها الضرورة ، وهو مؤشر على مرونة اصول المذهب المالكي فيما يتعلق باهمية المصالح وبضرورة مراعاة الاعراف التي تفرضها التطورات الزمانية والمكانية ، والتي تحقق مصلحة مؤكدة للامة ، ويستمر الاخذ بما جرى عليه العمل مما اقره الفقهاء المجتهدون من احكام مخالفة للروايات المشهورة ما استمرت الحاجة والمصلحة الى ذلك الحكم ، فاذا انتفت المصلحة فعندئذ يجوز لاهل الاختصاص من الفقهاء الاخذ بالرواية الاصلية الراجحة .

اهمية فقه العمل وضوابطه

ويجدر بنا ان نشير الى ان ما جرى عليه العمل يعتبر مصدرا اجتهاديا هاما من مصادر الفقه الاسلامي ، ويمثل هذا المصدر الشريان المتجدد الذي يصل الفقه الاسلامي بحياة الناس واعرافهم ومصالحهم ، بحيث تكون مسيرة الحركة الفقهية متوازية مع مسيرة المجتمع الاسلامي في تطوراته وحاجاته المتجددة . . .

غير ان هذا يوجب علينا ان نحدد الاطار الذي يمكن لفقه العمل ان يتحرك في فلكه ، لكيلا يكون هذا الباب مدخلا لتقديم العادات والاعراف والمصالح على النصوص القطعية ، وهذا مدخل خطير ، لايمكن اقراره كليا او جزئيا ، كما يجب اغلاق كل الممرات التي تؤدي اليه . .

ولا اجد ما يمنع من الاستفادة من فقه العمل في المسائل التي لم ترد فيها النصوص اصلا ، او في مسائل الخلاف المذهبي ، او فيما لايخالف نصا شرعيا ثابتا ، وعندئذ يعتبر فقه العمل هو الاجتهاد الذي يجد مبرره في المصلحة المقررة شرعا ، وفي اطار القواعد الاصلية .

اما اذا ثبت ان حكما من احكام فقه العمل يخالف نصا من النصوص فلا يجوز الاخذ به ، ولا اقراره ، لان النصوص مقدمة على المصالح والاعراف . .

وبناء عليه فاننا لو تتبعنا احكام فقه العمل في المذهب المالكي سواء في الاندلس او في المغرب ، فسوف نجد ان معظم ماجرى به العمل لايخرج عن هذا الاطار .

ومن اهم المسائل التي جرى بها العمل مايلي :

ـ جرى العمل بان المرأة اذا كانت من ذوات الاقراء لاتصدق في انتهاء عدتها باقل من ثلاثة اشهر ، مع ان الحكم الشرعي يحدد ذلك بثلاثة اقراء ، وذلك لئلا تتخذ النساء من مبدأ الاقراء وسيلة لاختصار فترة العدة ، وبخاصة في عصر ضعف فيه الوازع الديني . .

ـ جرى العمل في « فاس » بان الاب الغني يشارك في تجهيز ابنته في زواجها بما يعادل صداقها ، فان وقع الخلاف بين الزوجين بعد الزواج ، يحكم القاضي بما جرى عليه العمل ، مع ان الاصل لايوجب ذلك على الاب ، ولايمكن للزوج ان يطالب بذلك عن طريق القضاء ، لانه تبرع ، وهذا الحكم قضى به علماء فاس ، ولم يأخذ به غيرهم . .

ـ جرى العمل على أن يضمن الرعاة ما تلف من المواشي ، وذلك لئلا يؤدي عدم الضمان الى اهمالهم في رعاية الماشية ، مع ان الحكم المشهور في المذهب ان لاضمان على الرعاة الا فيما تعدوا فيه . .

ـ جرى العمل على جواز العقوبة بالمال ، ردعا للمجرم ، مع ان العقوبة في الاساس تكون في الابدان دون الاموال . .

ـ جرى العمل على جواز شهادة اللفيف ، وهي شهادة عدد كبير من الناس ممن لاتتوفر فيهم شروط العدالة ، وذلك لان اشتراط العدالة يمكن ان يؤدي الى ضياع الحقوق وبطلان الشهادات ، وبخاصة في عصر ضعف فيه الدين ، وتعذر فيه توافر العدالة . .

واذا كان « فقه العمل » قد نشأ في بلاد الاندلس ثم انتقل الى المغرب ، وحفلت به كتب المذهب المالكي ، وتناثرت احكامه في كتب النوازل « الفتاوي » فانني اعتقد انه قد اعطى للفقه المالكي قدرة على النمو والتفريع ، واستطاع هذا الفقه في فترة ازدهار فقه العمل ان يوجد مدارس فقهية عديدة ، متحدة في اصولها ، ومختلفة في احكامها وفروعها ، بما يلبي حاجة العصر ، وما يعبر عن المصلحة التي هي من اهم المقاصد الشرعية . . .

وبالرغم من سيطرة الروح المذهبية خلال القرون الهجرية التي اعقبت القرن الخامس الهجري ، وبزوغ فجر التعصب المذهبي ، فان ازدهار فقه العمل كان يمثل المنهج المعبر عن رفض التعصب المذهبي ، والاستفادة من آراء الفقهاء الآخرين ، سواء في اطار المذهب أو خارجه ، وهذا منهج جدير بالاهتمام والتشجيع ، ودليل حي على قدرة تشريعنا على ان ينمو بثبات ، في ظل فهم اصيل ، لمقاصد الشريعة واهدافها . .

وفي ظل « فقه العمل » يمكن لتشريعنا اليوم ، ان ينمو ويزدهر ، دون ان يكون ذلك الازدهار ، منافيا لنص شرعي او متعارضا مع قاعدة اصولية ، فالازدهار والنمو لايعني ابدا الانحراف والفساد ، وانما يعني في الدرجة الاولى ان مستوى الوعي بالقيم والمفاهيم الاسلامية قد ازدهر في المجتمع ، واصبح المجتمع بفضله قادرا على تمثل قيم الاسلام الحقيقية . ■■

الرباط ـ د . محمد فاروق النبهان

وراء السلسلة المفجعة من مظاهر القصور والفشل ، يقف شبح استمرار الوطن العربي في الاعتماد الكامل في التنمية على مصادر المعارف الاجنبية

محنة العلم
ومسيرته المتعثرة في الوطن العربي

بقلم الدكتور أسامة أمين الخولي

قصة العرب مع العلم في العصر الحديث مليئة بالشواهد تعكس كل معالم الواقع المحزن الذي تعيشه الامة العربية . وهذه محاولة لتتبع مسار القصة وتقييم فصولها .

من أين يا ترى نبدأ ؟ ربما كانت المواجهة مع نابليون بجيوشه وعلمائه هي اللحظة المناسبة في التاريخ الحديث . فلقد فتحت هذه الغزوة ثغرة كبيرة في ستار العزلة الذي عاشت وراءه الشعوب العربية أيام العثمانيين . ولقد ازدادت هذه الثغرة اتساعا وتدفقت عبرها جحافل الاستعمار والاستغلال منتشرة في مشرق الوطن العربي ومغربه . وتكشف لنا الكتابات العربية المعاصرة عن موقف أهل البلاد آنئذ من نخبة العلماء الفرنسيين الذين جاءوا مع نابليون وانصرفوا بجد ومثابرة الى اجراء مسح شامل لمصر كما كانت عليه في ذلك الوقت . لقد كان موقفهم هو موقف الاندهاش والانبهار مما جاؤوا به من أعاجيب الأدوات والآلات والحيل وامتزج هذا الموقف بالحيرة التي قاربت السخرية من بعض مظاهر هذا العمل مثل تسجيل الآثار وتقييم الموارد الطبيعية . ولكن ما زلنا حتى اليوم نتحدث عن كتاب وصف مصر ونعيد طبعه ونشره ، ونرى فيه مرجعا أساسيا يفوق قيمته كوثيقة تاريخية .

فماذا كان رد الفعل في مصر لهذه الغزوة ؟ لقد حاولت أن تتسلح بنفس السلاح الذي هزم به المماليك . ففي خلال سنوات معدودات من حكم محمد علي كان المجتمع المصري قد نفذ ، أو على الأصح قد نفذ فيه تغيير جذري بحق في نظام التعليم . وصاحب هذا جهد لم يتحقق مثله حتى اليوم في نقل أمهات المراجع العلمية المعاصرة الى اللغة العربية . وطورت نظم الري والزراعة وأقيمت الصناعات الحديثة وتشكل في مصر جيش قوي قبل أن كل احتياجاته في البر والبحر من المهمات والعتاد والسلاح تقريبا كانت تصنع في مصر . وكثير من هذا معروف والحديث فيه يتردد متواترا في مناسبات متلاحقة مصحوبا بمشاعر الاعجاب والتقدير . لكن الأمر الهام في نظري هو ان القوة الدافعة وراء هذا كله جاءت من شخص غير عربي ، غريب عن المنطقة ، وانه فرض هذه التحولات فرضا على شعب لم يتح انتشار الأمية فيه حدا أدنى من فهم هذا الذي كان يجري على أرضه بل ان ما دفعه الشعب المصري ، في مشروعات التنمية داخل مصر والمغامرات العسكرية خارجها ، من ثمن تمثل في الأرواح التي أزهقت والثروات التي استنزفت والنسيج الاجتماعي الذي تهتك كان ثمنا باهظا حقا ، ثم فرض استيعاب المنطقة في السوق الدولية التي كانت أوروبا الآخذة في التصنيع تشكلها في

ذلك الوقت القضاء على محمد علي وانهيار نظامه مع ترسيخ ارتباط مصر بتلك السوق . ولم يتبق لمصر من هذه الومضة القصيرة العمر سوى حفنة من الرجال من أمثال رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ممن تعرفوا على هذه الحضارة الغازية وان لم يتبوأوا مواقع المسؤولية إلا في أزمنة لاحقة . ولنلاحظ هنا أننا لا نعرف أو نتحدث اليوم عن أحد من قادة النهضة ، العلمية ـ التكنولوجية المصريين في تلك الفترة ولا نجد لهم بعد ذلك أثرا في الحياة العامة . فهل يعني هذا ان الاهتمام بعلم الآخرين وانجازاتهم والذي كنا قد بدأنا في الأخذ بشيء منه لم يكن يومئذ اهتماما أصيلا ؟ ألا يعني هذا ان ذلك المجتمع العربي الذي قدر له أن يكون أول من واجه الغزوة الحضارية الأوروبية لم يكن يرى بعد في العلم أنه مصدر قوة لا مجرد فضيلة تزين الفرد وان لم تدعم المجتمع ؟ ألا ترى بين هذا الموقف وبين انتشار الأمية في ذلك المجتمع وفي غياب أي مظهر ، ولو شكلي من مظاهر المشاركة في هذه النهضة سببا رئيسيا في النكسة الحادة التي قضت عليها في المهد ؟

اليابان .. ومحمد علي

ولنستطرد هنا قليلا فانه يحلو للكثيرين منا اليوم أن يقارنوا بين هذه البداية وبين بدايات النهضة في اليابان بعد اصلاح ميجي في منتصف القرن وأن يتحسروا على ما آلت اليه محاولتنا من بوار وجدب ، بينما ازدهر الغرس في أقصى الشرق وأينع وهم ينسون بهذا فروقا جوهرية بين التجربتين . فاليابان ـ وأنا أطرح جانبا منا الملابسات التاريخية والجغرافية الخاصة بها والتي تختلف تماما في معطياتها عن مصر ، وأصرف النظر عن غيبيات الحديث عن الشخصية اليابانية وعن القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع الياباني وهو ما لا أومن كثيرا بأن له القدح المعلى في تحديد مصير محاولات الأمم للنهضة والتقدم ـ اليابان أوصدت أبوابها في وجه كل ما هو أجنبي ودخيل ، وانكفأت على نفسها تحاول محاكاة ماحققه الآخرون ، لا نقله ، بينما محمد علي جعل من مصر في عهده مرتعا لألوف الخبراء الأجانب من فرنسا وايطاليا والنمسا وانجلترا وأمريكا وعهد اليهم بإدارة أجهزة الدولة المدنية والعسكرية وتركهم يسيطرون تماما على نظام التعليم ومؤسسات الانتاج وكانت سيطرتهم على هذه المرافق هي سيطرة المرتزق الذي يمارس عمله من منطلق مهني محض ، على أحسن الفروض فلا عجب اذن ، عندما نقرأ ان كلوت بك الفرنسي مؤسس مدرسة الطب في مصر عندما لجأ اليه حاكم مصر طالبا المشورة لمواجهة النقص الخطير في عمال السخرة الكادحين تحت أسوأ وأقسى الظروف في شق الترع والقنوات التي طورت الزراعة المصرية وحولت مصر السفلى الى الري الدائم لتزيد بهذا ولا شك من عائد القطاع الزراعي الذي هو عماد الاقتصاد المصري ، نتيجة لتفشي الطاعون بينهم ، لا نعجب اذ نرى رائد مهنة الطب الانسانية في مصر الحديثة يوصي محمد علي باستجلاب الرقيق من السودان والحبشة ولا ينصرف فكره الى تطبيق أبسط مبادىء السيطرة على الأوبئة والتي كانت معروفة في الممارسات الطبية في ذلك الوقت ان هذه هي حقا النتيجة المنطقية للقيمة المتدنية للانسان العربي في ذلك الزمان .

ثم شهدت المنطقة بعد هذا بوادر أخرى للتنوير العلمي جاءت من لبنان وحمل نبراسها الآباء المبشرون وكورنيليوس فان دايك بالذات ، الذي كانت لكتاباته ومحاضراته آثار لا تنكر في تنشيط الاهتمام بالعلم وتعزيز مكانته داخل نظام التعليم في هذا المجتمع الصغير غير المتجانس . ولقد جاء كثيرون من أبناء هذه المدرسة الى مصر حيث وجدوا فيها مجالا أفسح لنشر دعوتهم الى التنوير العلمي ، وان بقيت محصورة في أوساط القلة المتعلمة . وسمعت في ذلك الوقت صيحات متناثرة حول دور العلم في بناء الأمم ، وان لم تكن قد أبرزت مفهوم ان العلم قوة تدعم استقلال الأمم ونماءها ، وجاء بعد هذا ، أو معه تقريبا ، احتلال الانجليز لمصر وبدء تنفيذ حملتهم لحسر النفوذ الفرنسي وترسيخ أقدامهم في المستعمرة الجديدة ، وهو ما لم يتحقق الا على يدي لورد كرومر ممثل الاستعمار البريطاني بمصر في مطلع القرن الحالي . وشهدت هذه الفترة تسخير أحدث الانجازات التكنولوجية المعاصرة في استغلال ثروات مصر ، فكانت تجهيزات سلسلة مصانع السكر في صعيد مصر ومحالج الأقطان في طول البلاد وعرضها وغيرها من المنشئات الصناعية من أحدث مستوى معاصر للتكنولوجيا الصناعية ولقد جرى هذا كله بمعزل شبه تام عن أية مشاركة وطنية ،

ولم تصاحبه أية محاولات للنهوض بمستوى البلاد العلمي أو التكنولوجي ، اللهم باستثناء ما جرى من احياء المدرسة المتخصصة لتوفير الاعداد اللازمة من مشرفي الري اللازمين لتشغيل شبكة الترع والقنوات التي توسعت كثيرا تحت اشراف مهندسي الري الانجليزيين الذين جاء معظمهم من الهند .

ويحلول القرن العشرين لم تكن في أية دولة عربية مدرسة واحدة لتدريس العلوم الحديثة . واقتصرت المدارس التكنولوجية على هندسة الري والمعمار وشيء من العلوم الزراعية اللازمة للحفاظ على مستوى الانتاج الزراعي المصري المتميز من القطن طويل التيلة ومن قصب السكر . ومع اشتداد عود حركة مقاومة الاستعمار وعودة حفنة من أبناء الطبقة الموسرة التي تلقت تعليمها في الخارج ، ومع زيادة احتكاك تلك الطبقة التي قادت حركة الاستقلال في ذلك الوقت مع العالم الخارجي وكثرة أسفارها الى أوروبا ، بدأ الاهتمام بانشاء جامعة أهلية ، لم يكن للعلوم الطبيعية فيها مكان الا بعد استقلال مصر بأربع سنوات عندما تحولت الى الجامعة المصرية وضمت كلية العلوم . وبهذا كان في الوطن العربي الذي نشطت فيه الحركات الوطنية في أعقاب الحرب العالمية الاولى مدارس علمية في مصر (جامعة فؤاد الأول) ولبنان (الجامعة الأمريكية) والسودان (كلية جامعية تدار من لندن) وجامعة وليدة في العراق . الا أن هذه العشيرة العلمية الصغيرة ضمت في ذلك الوقت علماء أفذاذا مشهودا لهم دوليا بمكانة مرموقة في العلوم الرياضية والطبيعية ، بل ان مستوى الدراسة فيها كان يضارع مستواه آنئذ في البلاد المتقدمة . ولكن هذا النشاط العلمي بقي متعزلا عن مسائل تنمية المجتمع ومشاكل الممارسات التكنولوجية فيه وكان هذا العلم فضيلة وحلية ، لا قوة فعالة في تغيير المجتمع .

كيانات علمية وهياكل جوفاء

أما على الصعيد التكنولوجي ، والذي اتفقنا في مناسبة سابقة* على أهمية التمييز بينه وبين العلم ، فلقد نشطت الحركات الوطنية الى الدعوة الى تأكيد سيطرة العناصر الوطنية على الاقتصاد القومي ، وأنشأ طلعت حرب « بنك مصر » وشركاته في أعقاب الحرب العالمية الثانية وظهرت حركة « المصري للمصري » بزعامة سلامة موسى وأنشئت شركة بيع المصنوعات المصرية على أنقاض واحد من أعرق البيوت التجارية المصرية التي لم تصمد أمام زخم شركات أجنبية . واندفع أحمد حسين ـ أحد الشخصيات السياسية في تلك المرحلة ـ في حملة جمع التبرعات « لمشروع القرش » لانتاج الطربوش في مصر . وتعاظم تيار قيام الصناعات الوطنية لاحلال الانتاج المحلي محل السلع الاجنبية المستوردة وأصبح المواطن المصري يتباهى بأنه يشتري انتاج بلاده .

ولكن أسلوب بناء هذا الصرح الصناعي الوطني كان هو ذاته أسلوب محمد علي أساسا فلقد استوردنا الآلات والمعدات وأتينا معها بالخبراء وبقيت منابع المعرفة التكنولوجية في أيدي أصحابها يمدوننا منها بقدر وبثمن ربما لا يتعارض بالطبع مع مصالحهم . ومع ذلك انعكس هذا التوجه على التعليم التكنولوجي فاتسع مجاله كما وكيفا وتحقق قدر أكبر من اكتساب العناصر الوطنية لبعض المعارف التكنولوجية في تشغيل هذه المصانع وصيانتها . وتجاوزت التخصصات في التعليم الهندسي مجالات هندسة الري والمعمار التقليدية الى الهندسة الميكانيكية والكهربية والكيميائية ولم يكن هناك حتى ذلك الحين بشكل عام حوار بين « العلميين » و « التكنولوجيين » ، اذ نظر الأولون الى الآخرين بترفع وتحفظ ، فما كانوا ليرضوا لأنفسهم أن يهبط علمهم الى أرضية « المصنع » أو « الورشة » أو « موقع التشييد » ، أو أن يفقد نقاءه في خضم الاعتبارات الاقتصادية والادارية والتنظيمية . ولكن عام اندلاع الحرب العالمية الثانية شهد مع ذلك حدثا جديدا في تاريخ العلم العربي المعاصر . ففي عام ١٩٣٩ صدر مرسوم ملكي بانشاء « مجلس فؤاد الأول الاهلي للبحوث » وحددت أهدافه بأنها اجراء البحوث اللازمة لتدعيم الصناعة المصرية . وكانت هذه أول مبادرة خارج قطاع الزراعة الذي انشغل بتطوير فصائل القطن طويل

---

*انظر عدد مجلة العربي الصادر في شهر فبراير سنة ٨٢

الثيلة وتعصب العسكر الجيد لانشاء جهاز للبحث التطبيقي يربط بين العلم والانتاج . ولكن مساره انحرف عن هذا الهدف عندما هيء له أن يرى النور بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولعل أكبر فشل لهذه الحركة الوطنية في المجال العلمي التكنولوجي هو عجزها عن ادراك الأهمية الحاسمة لبناء القدرة الذاتية العلمية - التكنولوجية لمساندة مشروعاتها الطموحة في التنمية ، والتي جاءت مرة أخرى وفي تكرار مؤسف على نفس نمط مبادرات محمد علي قبلها بأكثر من مائة عام .

ثم حلت الحرب العالمية الثانية وجاءت بعدها تحولات اجتماعية وسياسية شملت العالم بأسره . وشهد الوطن العربي بالذات في أعقابها تغيرات كثيرة ومتلاحقة . وتحقق الاستقلال السياسي تدريجيا للاقطار العربية في المشرق ، ثم في المغرب وحل محل حركات الاستقلال والتحرير الاهتمام بتنمية المجتمعات العربية الجديدة . وأصبح هذا هو التحدي القائم أمام القوى الوطنية الحاكمة . وصاحبت هذا طفرة في مجالات العلم والتكنولوجيا ، فشهدنا تكاثرا سريعا ونماء في الجامعات والمعاهد العلمية ، وزيادة مطردة في اعداد الشباب الموفد للخارج لمزيد من المعرفة . وظهرت مراكز ومجالس ووزارات ومؤسسات وأكاديميات للبحث العلمي . وأغرقتنا منظمة اليونسكو في غياهب تصورات نظرية لا تمت لواقعنا أو احتياجاتنا بصلة ، وطرحت علينا تنظيمات وهمية لهذه التشكيلات وما يجب أن تكون عليها علاقاتها بأعلى سلطة في البلاد . وظلت هذه الكيانات في كل ربوع الوطن العربي وربما بلا استثناء وحتى يومنا هذا هياكل جوفاء بلا مضمون عمل ولا فاعلية أو جدوى تذكر . وعاد العلم مرة أخرى حلية ومظهرا من مظاهر التقدم والمعاصرة ولم يتبلور له دور واضح أو مفهوم محدد لدى صانع القرار

مسلسل الاحباط

ولست أعرف زعيما أو قائدا أو مسؤولا أو صانع قرار واحدا في الوطن العربي لم يمتدح في أكثر من مناسبة دور العلم في تقدم المجتمع ولم يعلن ايمانه بهذا الدور ولم يؤكد تدعيمه للعلم والعلماء . ولكنني لا أعرف بنفس القدر كثيرين منهم كان لديهم حد أدنى من وضوح الرؤية حول حقيقة هذا الدور ، أو من الدراية بالطبيعة الخاصة للعمل العلمي أو باستراتيجيات تسخيره لخدمة أهداف التنمية ، وممن ثابروا ودأبوا في مساندة النشاطات العلمية الوليدة وحمايتها من طغيان موجات الجهالة التي كانت تسرع عطاءها ولا تدرك حقيقة الثمن الذي يجب أن تدفعه

وبلادنا اليوم حافلة باشلاء مراكز ومعاهد علمية بلغ عددها زهاء الخمسمائة ، نشأت وسط ضجيج الدعاية السياسية قصيرة النظر . وهي تعيش اليوم في « اعراف » العجز والقصور ، فلا هي تمت لتحقق شيئا من الآمال التي كانت معقودة عليها ، ولا هي قضت نحبها ووريت التراب لتصبح عبرة لمن يعتبر .

أما الدعوات التي صدرت لبدء نشاط علمي قومي في مؤسسات عربية اقليمية تتوفر لها موارد من مستويات تفوق بكثير مستويات أي انفاق قطري فلم تجد - ولا يبدو أنها ستجد - استجابة قريبة . فالدعوة الصادرة عن مؤتمر القمة العربي السابع عام ١٩٧٤ لانشاء مؤسسة عربية للبحث العلمي طواها النسيان ، ومشروع انشاء الصندوق العربي للتنمية العلمية - التكنولوجية الذي أقر بعدها بعامين واستكمل عام ١٩٧٨ ما زال يتراوح في مكانه . ومجلس التعاون الخليجي لم يبلور بعد فكره في أمر اقامة تعاون علمي - تكنولوجي خليجي . أما المشروعات القطرية الطموحة مثل المشروع الليبي لانشاء مدينة علم عربية فقد طواه النسيان ، والمشروع السعودي العالمي التوجه ما زال في علم الغيب . والعالم العربي الذي تحمل الكادحون من أبناء الامة العربية تدبير نفقات تعليمه وتأهيله حتى تبوأ مكانا لائقا في العشيرة العلمية ، لا يجد اليوم على أرضه المناخ العلمي ولا الحرية الشخصية التي يتوق اليها .

ووراء كل هذه السلسلة المفجعة من مظاهر القصور والفشل يقف شبح استمرار الوطن العربي في الاعتماد الكامل في التنمية على مصادر المعارف الاجنبية ، وعلى الرغم من الفرص الذهبية التي أتاحتها الاستثمارات الخيالية في مشروعاتها والتي لم يتهيأ مثلها لكثير من بلاد العالم الثالث . وحري بكل عربي اليوم أن يتصفح كتاب انطوان زحلان المعنون « البعد التكنولوجي للوحدة العربية » كي يتعرف على حجم هذه الاستثمارات وعلى

مظاهر غيبة أية محاولة جادة لتخصيص قدر ضئيل من هذا الانفاق لبناء قدرتنا الذاتية كما فعل غيرنا ، في كوريا وسنغافورة ، أو اليونان وبلغاريا ، أو بعض دول أمريكا اللاتينية .

قبض الريح في أيدينا !

ولقد أدخلت الغزوة الصهيونية في قلب المشرق العربي عام ١٩٤٨ عاملا جديدا في الموقف ، برز معه مفهوم الأمن القومي من خلال الهزائم العربية المتعاقبة ، والتي كان للعلم والتكنولوجيا فيها دور واضح في تفوق اسرائيل العسكري . ولقد بادرت مصر في أعقاب المواجهة الاولى مباشرة الى انشاء الصناعات الحربية . وكان ذلك قبل أن تستكمل الدولة الصهيونية الوليدة مقومات وجودها وتنصرف الى نفس النشاط . والمشاهد ان التصنيع العسكري في مصر سبق جهود التصنيع المدني بعقد كامل تقريبا وانه تميز عن هذا الاخير بانصرافه في مرحلة مبكرة الى ارساء دعائم الصناعات الأساسية . وانه كان أكثر حساسية وتقديرا لأهمية تنمية الموارد البشرية وتدريبها . بل انه حاول أكثر من مرة أن يبدأ في تصميم وتطوير وانتاج سلاح عربي . ولم تتوفر لأي من المشروعات الكبرى في هذا المجال ، وهي مشروعات اتسع نطاقها مع تكرار المحاولة حتى جاءت آخرها جهدا قوميا اشتركت فيه أربع دول ، فترة زمنية كافية بلا مساندة فعالة تتيح له فرصة بلوغ الهدف مما استثمر فيه من مال وجهد . وكان العدو الاسرائيلي متنبها تماما لخطورة هذه المحاولات . فلعبت أجهزة مخابراته وعلاقاته مع الدول الاستعمارية أدوارا لم يكشف النقاب بعد عنها بالكامل لتخريب هذه الجهود وعرقلتها من الداخل ومحاصرتها من الخارج . وانصرفت اسرائيل في نفس الوقت بدأب الى بناء قاعدة صناعاتها الحربيّة وأنشأت مشروعات مشتركة بدأت بانتاج تصميمات أجنبية واكتسبت من خلال ذلك دراية بأساليب التصميم والانتاج والتشغيل . وانتقلت بعد ذلك خطوة خطوة عبر أقلمة التصميمات المستوردة الى تطوير تصميمات جديدة وحتى أصبحت أكبر دول العالم الثالث المصدرة للسلاح .

ولكن الجهد العلمي الاسرائيلي لم يقتصر على الصناعات الحربية وحدها ، اذ انصرف في نفس الوقت الى مجالات أخرى ذات أولوية في واقع المجتمع .

مع تراكم كل هذه المتناقضات ، ومع توالي ضياع الفرص ، بدأنا ندرك ـ أو يدرك بعضنا على الأقل ـ أن ما اشتريناه بأموالنا الوفيرة لم يكن هو العلم والتكنولوجيا اللذين سعينا منذ قرن ونصف مضيا للحصول عليهما . وعرفنا اليوم أنهما في حقيقة الأمر نشاط انساني ابداعي في اطار علاقات وأوضاع اقتصادية وقيم اجتماعية معينة . وان قبض الريح في أيدينا ليس الا النتاج السريع المتقادم لهذا النشاط من السلع ونظم العمل ، وان السبيل الذي سلكناه قد ترك معنا مشكلة الاقتصاد المزدوج . يزداد الفقراء فقرا وعزلة ، والاغنياء غنى وارتباطا تابعا بالمجتمعات صاحبة العلم والتكنولوجيا ، يشكل فكرهم وهويتهم ويستنزف أموالهم في تنشيط اقتصادياتها ويربط مصالحهم المادية وتوجهاتهم السياسية بمصالح وتوجهات هذه المجتمعات . وهكذا اتسعت الهوة بين الريف والبادية وبين الحضر ، وبين قطر عربي وقطر عربي آخر ملاصق له .

ولكن هذا الادراك لم يسفر بعد بأي حال من الاحوال عن برنامج عمل قومي صالح للتطبيق . وهنا لا مفر من أن يتحمل رجال العلم والتكنولوجيا العرب حكم الاجيال القادمة عليهم بقصورهم في بلورة مثل هذا البرنامج ومسؤوليتهم عن شيء مما نحن فيه اليوم من الضياع . ويوم يخرجون علينا بمثل هذا المخطط المتكامل المتناسق ويوم يطرحونه في حلبة الكفاح السياسي لتتبناه القوى صاحبة المصلحة في الأخذ به وتطالب حكامنا بتنفيذه وتصارعهم من أجل تحقيقه ، يومئذ ستسقط الاقنعة الزائفة وتنكشف حقيقة الفئات المتسلطة صاحبة المصلحة في الركوع أمام أصحاب التكنولوجيا واستجداء رضاهم ، ومن ثم في الوقوف في وجه كل جهد حقيقي لبناء قدراتنا العلمية ـ التكنولوجية . يومئذ يصبح الكفاح الوطني من أجل البناء الداخلي سبيلنا لبناء مجتمع الغد الذي يحترم كرامة المواطن العربي ويطلق العنان الى آخر المدى لطاقاته الابداعية المقهورة حتى يسترد ما سلب في الداخل وفي الخارج . ■■

د . أسامة أمين الخولي

الاقتصاد : هل هو علم أخلاقي ؟

بقلم الدكتور عارف دايلة

هل هناك حد على نشاط العقل غير العقل نفسه ؟ وهل هناك حكم على أي علم غير العلم نفسه ؟ وبماذا يتمثل ، وما هو مصدر هذا الحد أو الحكم ، اذا وجد ؟

كان نوبل عالما فذا من علماء الطبيعة ، قضى حياته بحثا عن أسرار المادة ، ولم يكن خلال بحثه ينظر الى أية أبعاد يمكن أن تنجم عن مكتشفاته غير الأهمية البالغة لهذه المكتشفات بحد ذاتها . وقاده هذا التوغل في العلم المجرد الى اكتشاف الديناميت . وبعد أن تحقق من خطورة هذا الاكتشاف على حياة الجنس البشري وهب كل ما يملك لتأسيس جائزة تمنح بعد موته سنويا للمبدعين في مختلف أبواب المعرفة التي تخدم حياة الانسان والسلام ، وذلك تكفيرا عن المخاطر التي يمكن أن تلحق بالبشرية بدون قصد وهو يتعبد في محراب العلم ، متجاهلا الانسان وقضاياه .

أما أبو القنبلة الأمريكية النيترونية فهو يروج اليوم لبضاعته بدرجة عالية من الغبطة والرضا النفسي والتفاخر لا تضاهيها في ذلك الغبطة التي ستعلن بها مؤسسة أو دولة ما عن اكتشاف دواء قاهر للسرطان ينقذ أرواح عشرات ملايين البشر . انه يطلق على القنبلة النيترونية « السلاح النظيف » ، لأنها تفتك بالأحياء وتحافظ على الأشياء . فهي نظيفة بقدر ما هي بريئة من دم الأشياء فقط ! ولعل المخترع الكبير يفكر الآن في كيفية تحويل هذا السلاح النظيف الى « عرائس » يفرح لها الأطفال ويتغزل بها الشعراء الرومانسيون . وهذا هو بالفعل ما نقرأه في تصريحاته وتفسيراته التي يتغنى فيها باختراعه الذي يقدمه للعالم على أنه من أنبل الخدمات التي قدمها العلم للبشرية !

الاقتصادى يعالج أمة ، أو يدمرها !

انني اقتصادى متعصب للعلم الذي أنتمي اليه ، حتى أزعم أنه اذا كان الطبيب الناجح يستطيع أن يعالج انسانا من مرضه فان عالم الاقتصاد الحق يستطيع أن يعالج أمة بكاملها من أمراض فتاكة مستعصية تدمر حاضرها وتفتك بمستقبلها ، كالفقر والجهل والمرض والتبعية . ولكنه ، يستطيع أيضا ، اذا ما سخر نفسه وعلمه لخدمة عكس هذا الهدف ، أن يقود الأمة الى الخراب والدمار ، كذلك الطبيب الذي يرتعش شفقة على مريضه فيعطيه جرعة تريحه كليا ، ليس من المرض وحسب ، بل ومن الحياة كلها !

ولكن تجربتي المتواضعة في ميدان علم الاقتصاد ينبت لي أن الكثير من « البديهيات » التي تنتشر في معظم الكتب الاقتصادية التي يتربى عليها طلبة الجامعات الغربية ومنسوخاتها في الجامعات العربية تقوم بدور الطعم الطيب الذي يمتزج مع أدوية الأطفال لكي يجعلها مستساغة

الملذاق ، دون أن يكون له علاقة بفعالية أو وظيفة الدواء . وهكذا تظهر الكثير من الصياغات الفكرية في مظهر لغوى أو رياضى أو بيان أخاذ فاقد الصلة بأية وقائع فعلية يزعم التعبير عنها . لكنها تمنح الحرفي ثقة كاذبة بالنفس وقدرة ظاهرية لا جدال فيها على خدمة أهداف أصحاب القرار الذين يهتمون ، قبل كل شيء ، بالاخراجات الشكلية التى تزين صورة الواقع القائم ، على حساب أى منطق أو معقولية اجتماعية أو غائية تاريخية ميررة .

سنستعرض في هذا المقال الخلاف في النظرة الى علم الاقتصاد ووظيفته وغاياته ووسائله من خلال استعراض ثلاثة نماذج بارزة من الفكر الاقتصادي المعاصر : النموذج الأول وهو لعالم اقتصادى من بلد متقدم يعد من أبرز علماء الاقتصاد في القرن العشرين ، حاز على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية ، تجاوز المدارس الاقتصادية التقليدية الغربية ليقف في النهاية موقفا مضادا لها ، كما يتميز بأنه واحد من أبرز من استطاع الغوص في أعماق مشكلة التخلف التى يغرق فيها العالم الثالث اليوم . انه العالم السويدي غونار ميردال ، وأذكر من بين مؤلفاته الشهيرة : « دراما آسيا » . وأختار له الآن كتاب « عملية النمو » .

أما النموذج الثاني الذي اعتمد عليه فهو لعالم من العالم الثالث كان له دور كبير في قيادة التطور الاقتصادي وتخطيط التنمية في بلده على مدى الستينات ثم اكتشف ، بالنتيجة ، فشل الفكر الذي يحمله والتجربة التى قادها مهتديا بهذا الفكر وانتقل في السبعينات الى التبشير بفكر آخر والدعوة الى خوض تجربة مضادة . انه محبوب الحق ، وزير التخطيط السابق في الباكستان وأحد مدراء البنك الدولى حاليا ، واختار له كتاب : « ستار الفقر : خيارات أمام العالم الثالث » .

واذا كان النموذجان السابقان يشتركان في معظم منطلقاتهما ومبادئهما ، فان النموذج الثالث يقف في الموقع المضاد . ولكثرة المؤلفين والمؤلفات التى تمثل هذا النموذج وهيمنته على علم الاقتصاد الأكاديمى في الجامعات الغربية ، ومنسوخاته المنقولة الى الجامعات العربية ، فانى سأختار كتابات ومواقف تمثل هذا النموذج الذي يوصف بالنموذج « التقليدي » .

ان الجبهة الأساسية التى يقف هذان الاتجاهان في معارضة بعضهما البعض على طرفيها هي : بماذا يهتم علم الاقتصاد ؟ بحركة الأشياء أم بحركة الناس ، بحياة الأشياء أم بحياة الناس ، بالأشياء من أجل الأشياء أم بالأشياء من أجل الناس ؟

يقول غونار ميردال : « ان من الضرورى في كل بحث اقتصادى أن تعمل من البداية وحتى النهاية بمبادىء قيمية واضحة .. فتعيد الى علم الاقتصاد طابعه كعلم أخلاقى » . أما الموقف التقليدي المضاد فيقول : « في صدد البحث في حقيقة العلاقة بين علم الاقتصاد والعلوم الأخرى لا مناص من تجريد العالم الاقتصادى من كل صفة أخرى سوى أنه عالم اقتصادى لا يعنى الا بمجال دراسته » .

لنر كيف يترجم هذان الموقفان المتضادان في النظرة الى علم الاقتصاد وفي استخدامات هذا العلم في التطبيق الواقعى .

عبادة الأشياء

يقول الاتجاه التقليدى : « هنا لا يعنى الاقتصادى الا مشكلة الندرة والاختيار بين الاستعمالات البديلة لوسائل اشباع الرغبات المتعددة المتنافسة . فلا يعنى ، مثلا ، بما اذا كانت هذه الوسائل النادرة سلعا نافعة أو ضارة من الوجهة الصحية (المشروبات الروحية) ، أو ما اذا كانت سلعا محرمة أو غير محرمة بمقتضى القانون (المواد المخدرة) ، أو ما اذا كانت دوافع السلوك الاقتصادى للفرد والجماعة تتفق أو تتنافى مع المبادىء الأخلاقية القويمة (كالجشع أو المخادعة أو الانتهازية في عمليات المبادلة أو الربا الفاحش في عمليات الاقراض أو الاقتراض) . فهذا التمييز بين ما هو أخلاقي وبين ما هو غير أخلاقي في أى سلوك اقتصادى لا يدخل في دائرة اختصاص العالم الاقتصادى (!) . فالاقتصادى لا يعنى الا بالسلعة بوصفها سلعة تشبع رغبة انسانية معينة ، ومع ذلك فكل هذه النواحي الأخلاقية لاتهم الاقتصادى في كثير أو قليل .. فهو اخصائى في وسائل تحقيق الأهداف لا في اختيار هذه الأهداف » .

فالاقتصادى بالنسبة للاتجاه التقليدي لا تثير اهتمامه الا حركة الأشياء وكيفية تطويرها وبغض النظر كليا عما يمكن أن تقود اليه هذه الحركة من انعكاسات على حياة الانسان والمجتمع . فالاقتصادى ، اذن ، مثل نوبل تماما عندما كان غارقا في اكتشاف خواص المادة . لكن نوبل اكتشف بعد ذلك ، عندما استيقظ ، ان خدمة الانسان أهم بكثير

من خدمة المادة . أما الاقتصادي في الاتجاه التقليدي فلا أمل في يقظته . لكن الأمل يأتي من خارجه ومن الاتجاهات المضادة له ، أو من الاتجاهات التي هضمته فأصيبت بارباكات كثيرة حتى تحولت عنه واكتشفت نفسها من موقع جديد ، على مثال الاقتصاديين البارزين غونار ميردال ومحبوب الحق .

يقول محبوب الحق : « ان المخططين يحرصون على أن يقدموا خطة متسقة . وهم يغفلون في بهجة عما اذا كانت خطة جوفاء أم لا . وكم اكتظت صناديق اقتصادية جوفاء بقليل من المحتوى السياسي » .

« كان هناك انشغال لا حدود له بتحسين حساباتنا القومية على حين لم يكن هناك عمل كاف في مجال المشكلات الحقيقية لفقر الجماهير » .

« نحن نعرف أن بعض البلدان النامية قد حققت معدلا عاليا حقا للنمو بعد فترة طويلة . ولكن هل أحدث هذا المعدل أثرا عميقا في مشكلات الفقر الجماهيري ؟ هل أسفر عن انخفاض في أكثر أشكال الفقر سوءا ـ سوء التغذية ، المرض ، الأمية ، السكان الذين لا مأوى لهم ، التصور ، يكتسب شرعيته من الملأ الأعلى ، وآراؤه غير قابلة للنقاش !

لكن الصورة الجديدة للاقتصادي مغايرة تماما . فالاقتصاد يتحكم بالقاعدة المادية لأي حياة اجتماعية أو فردية ، وطريقة بناء هذه القاعدة تحدد شكل ومضمون التقدم الاجتماعي أو ترسخ التخلف والبؤس .

لذلك فان غونار ميردال بعد أن يؤكد على ضرورة الانطلاق في علم الاقتصاد من مبادىء قيمية واضحة يقول « ويمكن عقلانيا استخلاص السياسة الاقتصادية من هذه المبادىء القيمية ، وملاحظة الأحداث من وجهة نظر هذه المبادىء نفسها » فاستخلاص السياسة هو مهمة الاقتصادي أيضا .

ويقول ميردال : ويؤخذ على المؤلفات الاقتصادية المخصصة لمشاكل التنمية في البلدان المتخلفة انها تخفي انحرافات انتهازية على نطاق واسع . . . وما من بحث يمكن أن يكون حياديا وأن يكون بهذا المعنى « واقعيا » و « موضوعيا » . ولكننا ما دمنا لا نختار بصورة عقلانية ولا توضح المبادىء القيمية التي تقود بحثنا فاننا نخلق حيزا من الغموض الذي تستطيع به الانحرافات أن تدخل في التحليل » .

بين الاقتصادي والسياسي

في الواقع القائم يتولى السياسي ادارة الاقتصادي . ويجد هذا الواقع تبريره في الفكر الاقتصادي التقليدي الذي جعل من الاقتصادي مأمورا لأداء خدمة محددة وليس له أي رأي . يقول الاقتصاديون التقليديون : « لنفترض أن جماعة ما قررت أن تعلن الحرب على جماعة أخرى ، فهذا الاعلان في حقيقته قرار سياسي ، وليس قرارا اقتصاديا . . فليس من مهام الاقتصادي أن يصدر مثل هذا القرار السياسي . ولكن حالما يصدر هذا القرار فيلبي الاقتصادي نداء السياسي ليسدي اليه النصح في كيفية تحقيق الهدف من الناحية الاقتصادية . ولا خيار هنا في أن يأخذ الاقتصادي هذه الأهداف على علاتها (!) ويسلط عليها أدواته التحليلية المعروفة ليستخلص من ذلك الطريقة التي يمكن اتباعها في سبيل تحقيق هذه الأهداف » .

فالاقتصادي ، حسب التصور التقليدي ، ليس بشرا ، ولا عضوا في مجتمع ، ويجب أن يكون مجردا من أية التزامات اجتماعية أخلاقية سوى التزام واحد وهو تنفيذ مآرب السياسي دون مناقشة ، والسياسي وفق هذا

تفسير الأشياء بالأشياء

فلكي يقف الاقتصادي الى جانب السياسي ، على الأقل ، أو يتحد معه ، ولكي يلعب دوره التاريخي بصورة ايجابية ، يجب أن يكون متحررا من الانحرافات الانتهازية ، اذن . فما هي هذه الانحرافات من وجهة نظر غونار ميردال ومحبوب الحق ؟ لنقرأ في الاقتصاد التقليدي أولا :

الاقتصادي التقليدي يفسر الأشياء دون أي موقف قيمي أو تدخلي ، فيقول : « اذ يأخذ الاقتصادي السلوك الخارجي للأفراد كما هو وعلى علاته فهو لا يبحث فيما يكمن وراء هذا السلوك من دوافع داخلية ، فاذا ارتفع سعر الشاي مثلا ، فكل ما يمكن أن يستخلصه الاقتصادي من نتائج هو أن استهلاك الشاي سيهبط الى حد معين مع كل ارتفاع معين في سعره » . فالمهم بالنسبة للاقتصادي هنا هو الشاي ، كشاي ، وأسعار الشاي كمؤشر على ربحية هذه المادة ، وليس الشاي كمادة يستهلكها الانسان ، والأسعار كمؤشر على مستوى تكاليف المعيشة ومستوى الحياة !

والحق يقال ان اقتصادياً من هذا النوع يفعل السياسي خيرا إذا قام بابعاده كليا عن مركز اتخاذ القرار لأن حججه لا تحمل شيئا يهم المجتمع لا من قريب ولا من بعيد. وكثيرا ما يفرح السياسيون في الدول المتخلفة لأمثال هؤلاء الاقتصاديين ويضعونهم في قمة المراتب الوظيفية لكي يبرروا لهم أعمالهم. وقديما « هنا » الشاعر العربي مثل هؤلاء الناس بقوله: « واقعد فانك انت الطاعم الكاسي ».

فاذا ما تساءل هذا الاتجاه في علم الاقتصاد عن « سبب الفقر والمجاعات التي يعاني منها السواد الأعظم من الناس في كثير من المجتمعات، وبالأخص في عالمنا الشرقي، أو بعبارة أخرى، لماذا لا يتوافر في المجتمع القدر الكافي من مختلف السلع الاستهلاكية التي ترد غائلة الفقر عن أفراده وتحفظ عليهم الحد الأدنى لمستوى المعيشة ؟» فلا يستطيع البحث عن الجواب والتفسير في طبيعة النظام الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية القائمة وانما في عالم الأشياء ونظام علاقاتها نفسها: « والاجابة عن هذا السؤال أو ذاك تتلخص في أن حجم الانتاج ليس هو الحجم الملائم » ! ولماذا ؟ هل الأشياء هي التي تنتج نفسها بنفسها ؟ وهل سيزول الفقر والجوع بمجرد أن يصبح الانتاج في « الحجم الملائم » ؟

يفسر لنا محبوب الحق هذا الالتزام بالأشياء وإنكار الانسان عند الاقتصاديين التقليديين بقوله: « ان كثيرين منا من أبناء البلدان المتخلفة يعتبرون في الأساس نتاجا لليبرالية الغربية. وقد عادوا الى بلادهم لانقاذ التنمية لكنهم انتهوا في أكثر الأحيان بتوزيع المزيد من التوتر

ويفسر ميردال الموقف الاقتصادي السلبي للاقتصادي التقليدي من عملية الاصلاح والتغيير الاجتماعي بانحياز الاقتصادي لمصلحته الخاصة وانسياقه وراء مراكز العمل الأكثر اغراء من ناحية الامتيازات المادية والوظيفية. يقول ميردال: « ان ما يمنح المرء مكانة في العالم الأكاديمي ويشق الطريق أمامه الى مراكز في مؤسسات البحث والتعليم في مهنتنا كما ييسر له امكان استدعائه مستشارا لدى الحكومات والمنظمات ودنيا الأعمال هو أن يعمل في الخط المقرر من قبل وأن يظهر دهاء وخيالا في تعقيده. والى هذه الدوافع العامة على الصعيد المادي نفسه يجب أن نضيف قوة التقاليد ».

غير أن أهم القوى هي بطبيعة الحال القوى التي تمارس في المجتمع كله ضغطا على علماء الاقتصاد كي يوجهوا أعمالهم نحو نتائج تتفق مع المصالح والأوهام السائدة ».

الاتجاه الحديث في علم الاقتصاد يذهب، اذن، في اتجاه مضاد للمصالح والأوهام السائدة. وهذا ما يتطلب قبل كل شيء تحرر الاقتصادي من تبعيته حتى يستطيع دعوة المجتمع للتحرر من التبعية، وتحرره من ضغط القوى المهيمنة التي تعيش على المصالح والأوهام السائدة حتى يستطيع أن يقدم أي بديل.

البحث عن البديل

يقول ميردال: « أما فيما يتعلق بدراسة مشاكل البلدان المتخلفة، هذه الدراسة التي تحظى بقسط متعاظم من وسائلنا في البحث، فانني أعتقد أننا قد أسأنا معالجة هذه القضايا. وقد تجنبنا بوجه خاص الاهتمام بحاجة البلدان المتخلفة الى اصلاحات جذرية تدعو الى المساواة، اصلاحات كشفت لي دراساتي عن أنها ضرورية من أجل تطوير سريع منتظم تصحبه زيادة في الانتاجية ».

وهكذا، بينما يؤكد الاقتصادي التقليدي على « أن المجتمعات، بأشكالها المختلفة (!) لا تعول كثيرا على طريقة اعادة التوزيع لأنها لا ترفع مستوى المعيشة الا قليلا، ذلك أن مستوى المعيشة يتحدد أساسا بعاملين: هما حجم الانتاج وكثافة السكان (!) » (أي بغض النظر عن شكل التوزيع القائم)، نجد أن غونار ميردال يرى بأن « علماء الاقتصاد أغفلوا عادة، سواء أكانوا من أبناء البلاد (المتخلفة) أم غربيين، التفاوت في الدخل، وحتى عهد قريب جدا على الأقل، حتى لقد برروه بتأكيدهم أن هذه البلدان الشديدة الفقر لا يمكنها أن تجيز لنفسها أن تفكر بلغة العدالة الاجتماعية وأن تدفع ثمنا لاصلاحات ترمي الى المساواة قد تعرقل، برأيهم، التنمية الاقتصادية »، ويؤكد ميردال: « لقد أثبت التاريخ بشكل جيد أن الاصلاحات الاجتماعية كانت بوجه الاجمال تدعيما للتقدم الاقتصادي وليست عائقا له على الصعيد القومي». فمن المهم جدا النظر الى البعد الاجتماعي للتغيرات الاقتصادية، أكثر من إحداث هذه التغيرات نفسها، فعلينا أن نحافظ على شجاعتنا لنبقى رؤية أوسع، بل لتزداد اطلاعا في الوقت نفسه على اللوحة

المعقدة للعلاقات الاجتماعية التي لا يمكن أن تقتصر على دائرة عواملنا « الاقتصادية المجردة » .

« فاذا لم يتوقف وينعكس الاتجاه الحالي السائر الى توسيع التفاوت في الدخل فان التنمية ستعاق وتجهض » .

أما « الحجة المألوفة القائلة بأن التفاوت الاقتصادي يجلب الغنى لطبقة عليا قادرة على أن تحقق من دخلها مزيدا من الادخار فهي حجة أقل ملاءمة أيضا في معظم البلدان المتخلفة حيث الملاك العقاريون والأشخاص الأغنياء الآخرون معروفون بتبذير دخلهم في استهلاكات من اجل الوجاهة وفي استثمارات من أجل النفوذ وأحيانا (وليس في أمريكا اللاتينية وحدها) بتهريب رؤوس الأموال . وبسبب العجز الشديد في تحديد مطرح الضرائب وفرضها فان التفاوت في الدخل والثروة لا يمكن لذلك أن يساعد على الادخار العام » .

« فالاصلاحات الرامية الى المساواة ، الحسنة التخطيط والتنسيق ، تؤلف حتما في هذه البلدان من الناحية الوطنية أنفع استثمار ممكن . . وهكذا فان النظام التقليدي بجملته يتخذ اتجاها معاكسا للتنمية » .

الاستراتيجية الجديدة للتنمية

فلم يعد الاقتصادي ، ولا المجتمع ، يهتم كثيرا بتزايد الدخل القومي ، ولا بارتفاع معدلات نموه ، ولا بزيادة الانتاج بحد ذاتها ، وانما بما يصيب المواطن من هذه المؤشرات الاقتصادية بصورة وسطية حسابية . يقول محبوب الحق : وليس صحيحا أن معدلات النمو العالية تكون بالضرورة ، بسبب ما يترتب عليها من توسيع الخيارات أمام المجتمع ، مفضلة على معدلات النمو المنخفضة . وانما يتوقف ذلك كله على بنيان معدلات النمو هذه . فاذا تحقق معدل نمو عال من خلال الانفاق العسكري المتصاعد أو من خلال انتاج السلع الكمالية التي يستهلكها الأغنياء والمتميزون فان هذا المعدل لا يكون بالضرورة أفضل من معدل نمو أدنى يتم توزيعه بقدر أكبر من المساواة . . ان المسألة ليست مجرد مقدار السلع التي يتم انتاجها وانما هي نوع هذه السلع وكيفية توزيعها . ومن سوء الطالع أن قياسات الناتج القومي الاجمالي لا تتضمن بيانات عما يتحقق من الرضا الاجتماعي » .

« ان الاستراتيجية الجديدة . للتنمية يجب أن ترفض الفكرة القائلة بأن الفقر يمكن مهاجمته بطريق غير مباشر من خلال معدلات النمو التي تتساقط رذاذا على الجماهير . انما يجب أن تقوم على المقدمة المنطقية القائلة بأن الفقر يجب مهاجمته بطريق مباشر » .

« ان نمط وتنظيم الانتاج نفسه يمليان نمطا للاستهلاك والتوزيع يكون من العسير للغاية من الناحية السياسية تغييره . فما دمتم قد زدتم ناتجكم القومي الاجمالي في صورة انتاج المزيد من السيارات والمساكن الفاخرة ، فانه لا يكون من السهل على الاطلاق تحويلها الى مساكن قليلة التكلفة ، أو حافلات للنقل العام . ويترتب على ذلك بالضرورة نمط معين للاستهلاك والتوزيع . ان الفصل بين سياسات للانتاج والتوزيع زائف وخطير . فسياسات التوزيع تصاغ في نمط تنظيم الانتاج » .

« لقد آن الأوان لأن توقف النظرية الاقتصادية على رأسها » .

« ان هدف التنمية يجب أن تنظر اليه على أنه هجوم انتقائي على أكثر أشكال الفقر سوءا ، كما أن أغراض التنمية يجب تعريفها من زاوية الخفض المتصاعد والالغاء الفعلي لسوء التغذية ، والمرض ، والأمية ، والفقر المدقع ، والبطالة ، ومظاهر عدم المساواة . لقد تعلمنا أن نعتني بناتجنا القومي الاجمالي باعتبار أن ذلك سيؤدي الى العناية بالفقر . فدعونا الآن نعتني بالفقر باعتبار أن ذلك سيؤدي الى العناية بالناتج القومي الاجمالي . وبعبارة أخرى دعونا نهتم بمضمون الناتج القومي أكثر من اهتمامنا بمعدل زيادته » .

ويؤكد غونار ميردال على هذه الاستراتيجية الجديدة للتنمية بقوله : « ان ادخال مساواة أكبر بفضل اصلاحات ترمي الى المساواة ، مخططة تخطيطا معقولا ، . . سيوسع امكانيات النمو والتنمية . والواقع أن الاصلاحات المحلية في هذا الاتجاه تؤلف بالنسبة الى التنمية السريعة الثابتة شرطا أوليا أعظم شأنا بكثير من أي نعمة تأتي من الخارج » .

هل كان غونار ميردال ومحبوب الحق طوباويين مثاليين ؟ ام أنهما لم يغفلا أن استراتيجيتهما التنموية المعاكسة للاستراتيجيات التقليدية ستواجه ليس فقط بالمضادات الداخلية المعروفة ، وانما أيضا بالمواجهة الخارجية التي تحبط كل مجهود بناء في هذا السبيل ؟

تحاول البلدان المهيمنة اقتصاديا اعاقة ومنع أي اصلاح يدفع عملية التنمية في اتجاه تحقيق انجازات حقيقية في البلدان المتخلفة . انها قبل كل شيء ، تحاول اشاعة وتشجيع الفساد والاتجاهات المضادة للاصلاح الاقتصادي في هذه البلدان . يقول غونار ميردال الذي اشتهر بالكشف عن أخطار الرشوة والفساد وآثاره المدمرة على

عملية التنمية : « ولرسوخ الفساد في البلدان المتخلفة سبب هام هو عادة تقديم الرشوة الى السياسيين والموظفين التي تلجأ اليها الشركات الغربية من أجل الحصول على أسواق لها وتمرير أعمالها بدون أن تلاقي عقبات كبيرة » . . « ان البلدان الغربية . . دعمت الرجعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من النوع الأشد شؤما في البلدان المتخلفة . وعندما تحاشى الاقتصاديون تحليل أهمية الاصلاحات المحلية الجذرية الأساسية لتنمية البلدان المتخلفة كان هذا الانحراف مرضيا ليس للأقليات الحاكمة في هذه البلدان وحسب بل كان مؤاتيا أيضا للسياسات التي تنتهجها بالفعل البلدان المتطورة » .

أين المخرج اذن ؟

يقول محبوب الحق :

« لقد علمنا التاريخ درسا واحدا على الأقل هو أن الفقراء والضعفاء يتعرضون للاستغلال ما لم يكونوا منظمين . ولا يستثنى من ذلك نظامنا العالمي الراهن . فكثيرا ما رأينا فقرنا وضعفنا يستغلان باسم مبادىء عظيمة طنانة . .

بيد أنه لا جدوى من التحيب ، فليس هناك استغلال يمكن أن يستمر طويلا دون التعاون الضمني من جانب من يقع عليهم الاستغلال . وأخشى أن تكون قد سمحنا لأقلية في العالم المتطور بأن تشكل الرأي العام العالمي لفترة زمنية طويلة للغاية . فاذا كان هناك أي خطأ فهو بوضوح خطأنا نحن .

في هذه الاستراتيجية البديلة ، الاقتصادي لا ينتظر اشارة من السياسي لأداء مهمته ، وانما مهمته هي اظهار الطريق السليم لتنمية اقتصادية - اجتماعية مستقلة . ذلك ، كما يقول محبوب الحق : « ان استقلالنا الوطني لن يكون كاملا أو ذا مغزى ما لم يعقب التحرر السياسي تحرر اقتصادي وثقافي » .

فهل ننتظر أن يأتينا التحرر « معونة » أيضا من الغرب ؟ وهل نستمر في القاء مسؤولية ما نحن فيه على الغرب في الوقت الذي تزداد فيه ابتهالا له ؟

يقول محبوب الحق : « اننا لا ندعو مجتمعاتنا الى أن تتخذ من النظام الدولي مبررا مريحا لكل الافتقار الى التقدم على الجبهة الداخلية . كما أننا لا نتوقع أن يحمل العالم الخارجي أعباءنا نيابة عنا . بل نحن نؤمن بأن على العالم الثالث أن ينتهج سياسة للاعتماد على النفس تمتد الى مختلف مجالات النشاط الاقتصادي ولا تقتصر على التجارة وحدها . والواقع أن الاصلاحات التي تدخل على النظام الدولي ستكون بلا معنى ، بل كثيرا ما سيكون من المستحيل تحقيقها ما لم تتم اصلاحات مقابلة في النظم القومية » .

وهذا يعني أن اصلاح العلاقات الخارجية لدولة نامية يبدأ باصلاح أوضاعها الداخلية . ويتوقف اصلاح النظام الاقتصادي العالمي فعليا على مدى اصلاح النظم الاقتصادية الاجتماعية الداخلية باتجاه التخلص من الأزمات والتحرر من التخلف والتبعية والغاء مرتكزاتها المحلية .

ولكن هل يمكن تحقيق ذلك ما دمنا نؤكد على تحرر علم الاقتصاد من أية التزامات اجتماعية - اخلاقية مسبقة ؟

لقد كان ابن خلدون أول عالم يبحث في الاقتصاد من منظور اجتماعي - اخلاقي . فقد كان ابن خلدون أول من طرح نظرية القيمة في العمل ، أي نظرية الانتاج والتوزيع العلمية التي تقول ان جميع القيم هي من انتاج العمل الانساني حصرا . ولذلك فقد رفع ابن خلدون من شأن المنتجين الذين يقدمون بعملهم كل وسائل الحياة للمجتمع ، وخفض وأذل شأن الطفيليين الذين يقتصر دورهم على شفط المداخيل واستهلاك ما ينتجه الآخرون .

وما أحوج أي نظرية في التنمية الى علم العمران الخلدوني ، الذي يتزين بهذا الموقف الأخلاقي العلمي السامي .

واذا كان الخروج من دائرة التخلف لا يمكن أن يتم بصورة عفوية ، ولا يمكن أن يتم بمعونة من الخارج ، وانما بجهود ذاتية ارادية واعية ، من خلال تطوير القدرات الاجتماعية على الانتاج والانجاز والابداع ، أفلا يدعو ذلك الى التفكير في الأسس والمبادىء التي تنطلق منها وتهتدي بها عملية التنمية الحقيقية ؟

فالتنمية ليست تنمية ماذا ؟ فقط . انها تنمية ماذا ومن ولمن ومن أجل من وكيف ؟ وعلى الاقتصادي أن يجيب على كل هذه التساؤلات دون انتظار سؤال من أحد ! ■■

د . عارف دليلة
الكويت - المعهد العربي للتخطيط

الدكتور جمال حمدان في أعماله الكاملة

بقلم الدكتورة نعمات أحمد فؤاد

رحلة الدكتور جمال حمدان في عالم التأليف ، تعكس تجربة فريدة لواحد من العلماء العرب البارزين ، الذين نذروا حياتهم للبحث المعمق والاصيل ، دفاعا عن وطنه الصغير والكبير . في عدد يونيو الماضي من العربي ، قدمنا أحدث موسوعة له حول شخصية مصر . والآن نأتي الى بقية كتبه تباعا .

٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية

تكلم فيه عن ماضي الصراع العتيد ومستقبله ... تكلم عن العالم والمعركة معركة التحرير الكبرى ولكني وقفت طويلا في هذه المواضع :

(سيناء ليست مجرد « صندوق من الرمال » كما قد يتوهم البعض . انما هي « صندوق من الذهب » مجازا كما هي حقيقة ، استراتيجيا كما هي اقتصاديا ، فأما من الناحية الاقتصادية فنحن نعلم أنها كانت منذ الفراعنة منجم مصر للذهب والمعادن النفيسة . وهي الآن بئر بترولها الأكبر والثمين ، أي صندوق من الذهب الأسود بالفعل . وأما استراتيجيا فان من المهم جدا أن ندرك أن سيناء ليست مجرد فراغ ، أو حتى عازل انها عمق جغرافي وانذار مبكر يمكن أن تشتري فيه الزمان بالمكان . انها ككل خط الدفاع الأخير عن مصر الدلتا والوادي ، اذا كانت فلسطين هي الخط الثاني وطوروس الأول) . ص ٣٦ .

ولما كانت سيناء تعني نظرية الأمن المصري فانها (من هنا كانت سيناء ودائما محصنة تحصينا أساسيا . ولا يكاد تاريخ أي فرعون أو سلطان مصري ، ابتداء من بيبي الأول الى سليم الأول ، يخلو من ذكر انشاءاته وتحصيناته العسكرية في سيناء ، ابتداء من رفح والعريش الى بيلوزيوم والسويس ومن العقبة الى نخل ... الخ ومن هنا أيضا كانت مصر تسارع الى ملاقاة أعدائها خارج سيناء وتنقل المعركة الى « بر » الشام . ولم يكن من قبيل الصدفة قط أن معظم معارك مصر الحربية الفاصلة ، سواء منها المنتصر أو المنهزم ، انما دارت على أرض الشام وفي ربوعه حسمت ، ومعها حسم مصير مصر . يصدق هذا ابتداء من شاروهن الهكسوس وقادش رمسيس ، ومجد وتحتمس الى قرقميش البابليين ، ومن حطين صلاح الدين وعين جالوت قطز حتى مرج دابق الغوري وحمص ونصيبين محمد علي .)

سيناء تحمل بصمات مصر حضارة وثقافة وطابعا وسكانا بالقوة نفسها التي يحملها بها أي اقليم مصري آخر . ومنذ بدأ تاريخ مصر المكتوب ، والنقوش الهيروغليفية تثبت الوجود المصري على كل حجر ، والانتماء المصري لكل حجر ، في سيناء ، محجرا كانت أو معبرا ، ممرا كانت أو مقرا . بل ان تراب سيناء وقد امتزج بالدم المصري المدافع ربما أكثر من أي رقعة أخرى مماثلة من التراب الوطني . فحيث كان ماء النيل هو الذي يروي الوادي ، كان الدم المصري هو الذي يروي رمال سيناء .) ص ٤٠

والرد العملي عنده أي عند الانسان المصري هو : التعمير .... التعمير البشري أو « التبشير » العمراني .... ان التعمير هو التمصير .

○ كتاب (قناة السويس نبض مصر)

يعرف الدكتور جمال حمدان ، قناة السويس بقوله : (هي بالدرجة الأولى سلاح سياسي واستراتيجية حرب تصل انعكاساتها واشعاعاتها الى كل المحيطات والبحار السبعة وتمثل موقعا حاكما في استراتيجية الصراع البحري العالمي مثلما تشكل عقدة نووية في الملاحة والتجارة الدولية .

فأما الأخطار الأولى فتتمثل في المحل الأول في الوجود الاسرائيلي واعتداءاته المتكررة القائمة أو الكامنة والمسلطة أبدا ثم كل ما يتصل بالصراع العربي الاسرائيلي عموما من ضوابط وتداخلات معقدة وانعكاسات وظلال مستمدة من لعبة السياسة الدولية واستراتيجية القوة العالمية .

أما الثانية فنقصد بها صراع النقل البحري عموما كما يتمثل في منافسة الطرق البديلة ، برية كانت أو بحرية ، أنابيب أو ناقلات . في هذه الحالة أنابيب المشرق وناقلات الغرب ، ولكن بالأخص والتحديد الناقلات العملاقة وطريق الرأس .

اسرائيل ليست فقط العدو الأول والأساسي لمصر ، ولا كذلك للعرب وبترولهم ولكنها أيضا العدو الأول والأخطر للقناة .

واذا كانت فلسطين من بين العرب هي كبرى ضحايا اسرائيل بداهة ، فان مصر بعدها هي أكبر من عانى من وجودها ، ليست فقط بما بذلت من دم ومال ولكن أيضا بما تتعرض له من أزمات ومشاكل في الداخل والخارج . وليس هناك أدنى شك في أن اسرائيل هي أكبر عامل منفرد في تأزيم ، ولا نقول « سرطنة » اقتصادها وتعثر تخطيطها وخلخلة واضطراب تنميتها . انها باختصار النواة الدفينة الكامنة والبؤرة « الصديدية » المزمنة خلف كل المتاعب والأخطار السياسية - الاستراتيجية وكذلك الاقتصادية والمادية التي تحدق بقناة مصر وبمصر القناة .) ص ٢٣ - ٢٤ .

ويرى الدكتور جمال حمدان ، البترول ، توأم القناة وعميلها الأساسي الذي نشأ وشب ونما تحت وصايتها ، وفي رعايتها حتى ليقول (لقد نشأ « زواج اقتصادي » وثيق بين بترول العرب ، وقناة العرب .) ص ٢٩ .

أما عن القناة والاستعمار فهو يرى أن القناة اذا كانت على الرغم من ارادتها (قد سهلت للاستعمار القديم مهمته في الشرق ، فانها هي بالذات والتحديد التي ردت اليه حريته واعتباره فيما بعد . فعلى ضفاف القناة ومن أجل استردادها دارت معركة السويس المجيدة سنة ١٩٥٦ ، تلك التي دفنت الاستعمار وعصر الاستعمار والامبراطورية الى الأبد ودشنت بلا جدال عصر التحرير في العالم وافتتحت موجة الاستقلال في العالم الثالث بأسره . وبذلك جاءت القناة آخر وأخطر نهايات الاستعمار القديم مثلما كانت من أبرز بداياته ، بدأت بوابة للاستعمار ومدخلا ، فصارت مقبرته وجبانته ، لقد انتقمت القناة لنفسها ولضحاياها . ردت الدين واستردت الرهينة .

○ كتاب (العالم الاسلامي المعاصر)

الدكتور جمال حمدان العالم الجغرافي بغطاءات سطح الأرض ، يرى الأديان : تشكل غلافا شفافا غير مادي - الغلاف الروحي كما يسمى Noosphere هذا الغلاف (يمكن أن يضاف الى طبقات الغطاءات المادية المتعددة التي تغلف سطح الكرة الأرضية .) ص ٦ .

وحين يمن الاستعمار على الاسلام بتيسير مهمته في الانتشار ، على طريقة ألفاظ الأضداد ، يراه عالمنا الجغرافي قد (أثقل خطوته وان لم يستطع حقا أن يشل حركته) لقوة ذاتية كامنة فيه .

ويضرب الأمثلة لتعويق الاستعمار ، تعميق الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند . . . وما يفعله التبشير في أفريقيا .

ويظل الاسلام بعد هذا دينا عالميا أو كوكبيا بلا مراء على الرغم (عما يدعيه البعض من أنه دين جزئي أو اقليمي أحيانا ، أو من أنه دين « أفريقاسي » أحيانا أخرى .)

حين تقف اليهودية بحجمها (١٥ - ١٦ مليونا) وباحجامها عن التبشير « كوقعة حضرية » بلا تحفظ أو تحيز .

واذا كان الاسلام قد تراجع أو تضاءل في أوربا ، فهو على العكس من ذلك في أفريقيا . . جبهة مدية زاحفة بقوة وايقاع لا يعرفها في أي قارة أخرى كما لا يعرفها أي دين آخر سواه ، في الوقت الحالي في أي مكان .

وهكذا اذا كان الاسلام قد فقد البحر المتوسط « كبحيرة اسلامية » ، فانه قد كسب أفريقيا « كقارة اسلامية » .) ص ١٧ .

ويختلف زحف الاسلام في العصر الحديث عنه في العصر الوسيط فبينما كان (في الماضي اكتساحة سريعة أخاذة وخاطفة كالطوفان ، اذ هو الآن أقرب الى الانتشار الشاني « الأسموزي » الهادىء ، وئيد ولكنه أكيد .) ص ١٧ .

ومع أن الاسلام في أفريقيا من حيث القوة العددية ، لا يزيد عنه في باكستان أو أندونيسيا (الا أن أفريقيا ، أكثر من أي قارة أخرى ، تعد جبهة ريادة وزحف الاسلام

واحتياطي توسعه في المستقبل فكل شيء باجماع - وقلق - كل الكتاب والمبشرين الغربيين قبل سواهم يشير الى أن دين المستقبل في قارة المستقبل انما هو الاسلام .) ص ١٨ .

العالم الاسلامي بأبعاده وأعماقه سياسيا وحيويا وحضاريا وجغرافيا ، موضوع كامل متكامل في هذا الكتاب .

○ كتاب (المدينة العربية)

يتحدث عن المدن العربية القديمة والجديدة وحضارة المدن .

يتحدث عن المغرب وليبيا والسودان والشام والعراق والجزيرة العربية وساحل الخليج الذي يسميه : ساحل الزيت .

يتحدث عن عواصم العرب .

فمدينة (الرملة) التي أسسها سليمان بن عبد الملك عاصمة فلسطين العربية ورثت بذلك (العاصمية) من قيسارية الرومان) . ص ١٩٣

أما مدينة « الرياض » فهي فرساي السعودية أو بوتسدام الجزيرة .

ومن الطريف ، (أن الرياض ليست العاصمة السياسية بل الدينية ، بينما مكة مهد الاسلام هي العاصمة السياسية !) ص ٢٥٤ .

○ كتاب « جغرافية المدن »

يقول هذا الكتاب ان الدين عامل أساسي في نشأة كثير من المدن فالمدينة نطاق مقدس . كذلك فللمدن صبغة دينية عند الأشوريين والمصريين ففي مصر كانت تسمى بأسماء الآلهة : مثلا بوصير ، بويسطه ، برمانتو Per-mantou (بيت أوزيس - بيت بسط - بيت منتو على الترتيب) .

وتوت آمون أي مدينة آمون .

وحتى الآن لا يزال الأساس الديني هو أساس التفرقة في انجلترا بين Town, City فالأولى ، كانت مركز الأسقفية وبها كاتدرائية ، والثانية ، ليست هذا وقد كان لكل مدينة قديسها المحامي . وفي فترات الاضطرابات والاضطهادات الدينية ظهرت مدن للحماية والالتجاء الديني كمجموعة مدن Salvetats Sauvete-s مثلا انظر ص ١٧٥ .

أما الاسلام فهو على وجه اليقين خالق للمدن بدرجة أكبر من المسيحية كما يقول ديفونتين ، وكان بناء للمدن أيضا كما يقول بيير جورج .

وقد تحول اسم يثرب بعد الاسلام الى المدينة ، وهو اسم علم واسم نوع معا . وقد كان المسجد أول أساس يقام في المدينة الاسلامية الجديدة .

هكذا في كل العصور كانت فترات النشاط المدني هي فترات الانقضاض الديني .

من كل هذا نجد كما يقول الدكتور جمال حمدان ، (ان المدينة مدينة للدين بأصولها في كثير من الأحيان ، وان الشيوخ والأنبياء ، وليس فقط الملوك والحكام كانوا من زرعة المدن) ص ١٧٦ .

○ كتاب (الجمهورية العربية الليبية)

من هذا الكتاب نعرف أن (أحدث اسم لليبيا هو أقدم أسمائها ، فلقد أطلقه الاغريق القدماء على كل الجزء الشمالي من أفريقيا حيث تسود البشرة البيضاء Libyae تمييزا لهم عن أثيوبيا ، وهي منطقة العناصر السوداء أو السمراء من القارة Ethiopige . وبالتدريج تقلص مجال التسمية وتخصص ، حتى اختص بشمال أفريقيا غرب مصر ، أي المغرب الآن ، ثم انحصر في النهاية في ليبيا الحالية . وتطور مدلول الاسم بهذا . . . اتجه من الاتساع الى الضيق ، عكس اسم أفريقيا مثلا الذي اتسع من (أفريقية) تونس الى القارة بعامة . ص ٧٢

ثم تحدث عن دور « البترول » في ليبيا وكيف (صحح أخطاء الكيان الجغرافي بقوة الكيان الجيولوجي) ص ٧١ . وكيف تتحول ليبيا بسرعة - بترولية - الى مدينة كبرى واحدة . ص ١٤٥ .

ثم تكلم عن « البترول » كقوة سياسية ومادة استراتيجية بل المادة الاستراتيجية الأولى في العالم . انه (الاستعمار السائل) ولهذا حرص النظام مع الاستعمار على الفصل بين السياسة والاقتصاد في مجال البترول ، مما عمقه سياسيا بل كان البترول بالفعل أداة للاستعمار السياسي والنفوذ الأجنبي . كان مادة للاستعمار البترولي . وعلى العكس من ذلك تماما ، جاءت الثورة الليبية وجوهرها يكمن في « تسييس » البترول ، وهنا تحققت معادلة القوة الكامنة الجديدة فأصبح البترول أداة تحرير وسلاح قوة سياسية حاسما . ص ١٧٨ .

○ كتاب (بين أوروبا وآسيا)

يتساءل الدكتور جمال حمدان وكأنه يردد سؤالا عاما يلوح لنا جميعا :

لماذا - أولا - أوربا وآسيا ؟ ولا يلبث أن يجيب :

(الاختيار ليس صدفة ، فالقرابة بين القارتين ليست مجرد قرب جغرافي أو اتصال أرضي ، وانما هي أعمق من ذلك تركيبا ووظيفيا . تركيبيا ستجد أن النسيج الطبيعي

في كل منها يتشابه الى حد ما في خيوط منه أو في رقع . أما وظيفيا ، فقد تداخل والتحم تاريخ القارتين في تفاعل عميق بحيث يتعذر أن تفهم أحدهما دون الآخر . ومنذ فجر التاريخ ، كان الانسان على وعي كاف بهذه الحقيقة ، حتى لقد عكسها في تسميته للقارتين ، وهي التسمية التي ظهرت غالبا في منطقة العالم الأيجي القديم . فكان مشرق الشمس آسو Asu في آسيا الصغرى ... ومن خلفها « آسيا » بينما كان مغرب الشمس « ارب Ereb في اليونان ومن ورائها أوروبا » ، ثم جاء جغرافي العصر الحديث فأكد هذه العلاقة الحميمة وصكها في تركيب مزجي يختزلها الى « أوراسيا » . ص ٢٠ ـ ٢١ .

وآسيا هي القارة الأم بالمعنى البشري أيضا ، فاذا لم تكن البشرية قد خرجت من رحمها أو من معطفها ، فان قدرا كبيرا على الأقل من أجناس وعناصر أوروبا تأصلت أصلا في آسيا في عصور ماقبل التاريخ ص ٢١ .

أما من حيث التاريخ الحضاري والسياسي فان أوروبا لم تفلت قط من نفوذ وتأثير آسيا ٢١ .

ومضى الدكتور جمال حمدان يحلل أوروبا وآسيا بدءا من الاسم ـ كما رأينا ـ الى السكان ، والتاريخ السياسي ، والأرض ، والعمران وغيرها من النظائر والتقائض الجغرافية . وانتهى بعد مقارنات متوسعة الى أن آسيا هي القارة الأم وأن كل سكان أوروبا الحاليين جاءوا أصلا من آسيا اذ كانت روسيا بحكم موقعها هي الممر الطبيعي لكل الموجات البشرية والغزوات التاريخية من آسيا الى أوروبا (كذلك فان قرنين من حكم المغول والتتار ، بالاضافة الى توسع الروس في سيبيريا فيما بعد ، أدخلوا عنصرا آسيويا محققا في تركيب السكان . وتوضح سجلات انساب القرن الـ ١٦ مثلا أن ١٧٪ من عائلات النبلاء كانوا من أصل تتري وشرقي ، ولو أن هذا لا يعني صحة المثل الشائع : (اخدش روسيا تجد تحت جلده تتريا .) ص ٣٢٠ .

وأخيرا نأتي الى أصغر كتبه ولكنه موضوع الساعة أو أرق وقلق الساعة .

○ كتاب (اليهود انثروبولوجيا)

اذا ذكر اليهود ، ذكر « الجيتو » فمن اللازمات اليهودية « الجيتو Ghetto » حي اليهود أو معزلهم في المدينة ! (فطوال عصور التاريخ ، وفي كل البلاد والأقاليم ، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية في حي خاص من المدينة : الجيتو كما يقال له في كثير من بلاد أوروبا وأمريكا ، أو حارة اليهود في ألمانيا Judengasse وكما نقول نحن في مصر ، وهو اليوديريا في اسبانيا الوسيطة Guderiq أو هو الملاح meelah كما يقال في مدن المغرب العربي أو القاع ... قاع اليهود كما في مدن اليمن .

وكثيرا ما كانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة ، وأحيانا كان الحي برمته يقام خارج أسوار المدينة الأم ذاتها امعانا في العزل . وفي الغالب الأعم يؤلف حي اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة ، ويكفي في هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حي ستيبنى وهو ايتشابل Stepeny Whitechapel في الايست اند نطاق الفقر الشهير في شرق لندن ... ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا في الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما ان تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .) ص ٥٠ .

ومن أهم ما في هذا الكتاب عرض الدكتور جمال حمدان للأفكار الخاطئة وأهمها :

● تسمية اضطهاد اليهود « بضد السامية » فنحن في الحقيقة ازاء « ضد اليهودية » ببساطة وبلا تعقيد .

● الاضطهاد النازي لليهود في ألمانيا لم يكن في جوهره الا اضطهاد ألمان لألمان ، لا يقل معظمهم عنهم في الآرية والنوردية ، وانما يختلفون فقط في الديانة وطريقة الحياة .

● يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أي دعوى قرابة بين العرب واليهود : قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ـ وانما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا التي تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من الصحيح ، بل انه لصحيح بالفعل ، أن اسماعيل أبا العرب واسحق أبا اليهود أخوة غير أشقاء وكلا ابنا ابراهيم ـ ولكن في البداية فقط تصدق هذه الأخوة على تسليمها ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما في دماء غريبة ووصل الذوبان الى حد الاحلال حتى أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة باسحق فضلا عن اسماعيل .

ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوروبا والعالم الجديد أقارب العرب جنسيا أكثر من قرابة الأوروبيين والأمريكيين للعرب !

وبعد ... فهذه اطلالة على عالم الدكتور جمال حمدان الرجل والكتاب ... العقل والقلم ... الفكر والاسلوب ... وقد تكتفي هذه الاطلالة في بعض الكتب بالاشارة في غير اطالة . وقد تتوسع في مواضع أخرى لا يفي فيها أصبع يشير عن ذراع يحبط ... وحسبي أن تكون هذه الدراسة في وقفاتها مجتمعة ومتفرقة ، دليلا اليه : راهب فكر ونموذج حياة عقلية ... ودليلا عليه انسانا وكاتبا . شخصا وشخصية . ■■

د . نعمات أحمد فؤاد



بيروت نجمتنا الأخيرة

للشاعر محمود درويش

هذه الابيات : للشاعر محمود درويش التي أسماها قصيدة بيروت . . نظمها والقاها في العاصمة اللبنانية في أوائل العام الماضي . . ونحن هنا ننشر مقاطع منها بلا تعليق . . ففي كلماتها كل الكفاية

تفاحة للبحر . نرجسة الرخام . فراشة حجرية . بيروت . شكل الروح
في المرآة .
وصف المرأة الأولى ، ورائحة الغمام .
بيروت من تعب ومن ذهب ، وأندلس وشام .
فضة . زبد . وصايا الأرض في ريش الحمام .
وفاة سنبلة . تشرد نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت . لم أسمع دمي من
قبل ينطق باسم عاشقة تنام على دمي . . . وتنام . .
من مطر على البحر اكتشفنا الاسم من طعم الخريف وبرتقال
القادمين من الجنوب كأننا اسلافنا نأتي الى بيروت كي نأتي الى بيروت . . .
من مطر بنينا كوخنا ، والريح لا تجري فلا نجري كأن الريح مسمار
على الصلصال تحفر قبرنا فنتام مثل النمل في القبو الصغير
كأننا كنا نغني خلسة :

بيروت خيمتنا
بيروت نجمتنا

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو
أسلمنا الغزاة الى أهالينا
فما كدنا نعض الأرض حتى انقض حامينا على الأعراس والذكرى فوزّعنا
أغانينا على الحراس .
من ملك على عرش
الى ملك على نعش
سبايا نحن في هذا الزمان الرخو
لم نعثر على شبه نهائي سوى دمنا
ولم نعثر على ما يجعل السلطان شعبيا
ولم نعثر على ما يجعل السجان وديا
ولم نعثر على شيء يدل على هويتنا
سوى دمنا الذي يتسلق الجدران . .
ننشد خلسة :

بيروت خيمتنا
بيروت نجمتنا

ونافذة تطل على رصاص البحر
يسرقنا جميعا شارع وموشح .
بيروت شكل الظل .
أجمل من قصيدتها وأسهل من كلام الناس تغرينا بألف مدينة مفتوحة

وبأبجديات جديده ،

بيروت خيمتنا الوحيدة
بيروت نجمتنا الوحيدة

افق رصاصي تناثر في الافق
طرق من الصدف استدارت في الطرق
ومن المحيط الى الجحيم
من الجحيم الى الخليج
ومن اليمين الى اليمين الى الوسط
شاهدت مشنقة فقط
شاهدت مشنقة بحبل
واحد

من أجل مليوني عنق !
« وداعا للذي سنراه
للفجر الذي سيشقنا عما قليل
لمدينة ستعيدنا لمدينة
لتطول رحلتنا وحكمتنا

وداعا للسيوف وللنخيل
لحمامة ستطير من قلبين محروقين بالماضي
الى سقف من القرميد . .
هل مر المحارب من هنا
كقذيفة في الحرب ؟
هل كسرت شظاياها كؤوس الشاي في المقهى ؟
أرى مدنا من الورق المسلح بالملوك وبدلة الكاكي ؛ أرى مدنا تتوج فاتحيها
والشرق عكس الغرب أحيانا
وشرق الغرب أحيانا
وصورته وسلعته . .
أرى مدنا تتوج فاتحيها
وتصدر الشهداء كي تستورد الويسكي
وأحدث منجزات الجنس والتعذيب . .
هل مر المحارب من هنا
كقذيفة في الحرب ؟
هل كسرت شظاياه كؤوس الشاي في المقهى ؟
أرى مدنا تعلق عاشقيها
فوق أغصان الحديد
وتشرد الأسماء عند الفجر . .
. . عند الفجر يأتي سادن الصنم الوحيد
ماذا نودع غير هذا السجن ؟
ماذا يخسر السجناء ؟
نمشي نحو أغنية بعيدة
نمشي الى الحرية الأولى
فنلمس فتنة الدنيا لأول مرة في العمر . .
هذا الفجر أزرق
والهواء يرى ويؤكل مثل حب التين
نصعد
واحداً
وثلاثة
مائة
وألفا
باسم شعب نائم في هذه الساعات
عند الفجر عند الفجر ، نختتم القصيدة
ونرتب الفوضى على درجات هذا الفجر
بوركت الحياة
وبورك الاحياء

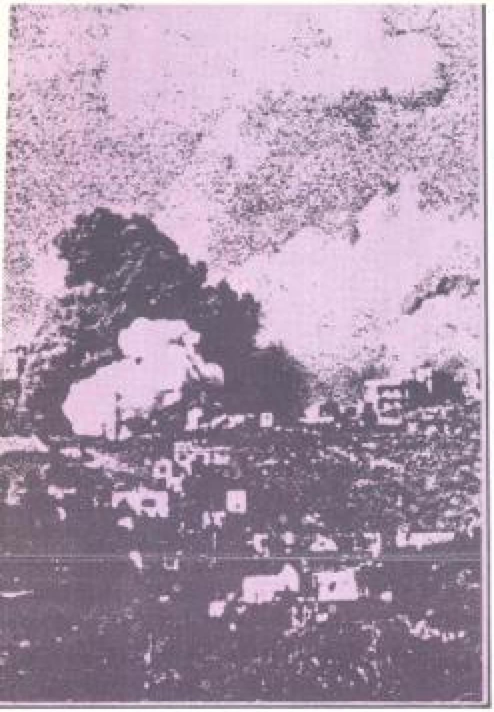


فوق الأرض
لا تحت الطغاة
تحيا الحياة !
تحيا الحياة !

قمر على بعلبك
ودم على بيروت
يا حلو ، من صبك
فرسا من الياقوت !
قل لي ، ومن كبك
نهرين في تابوت !
ياليت لي قلبك
لأموت حين أموت



.. وتمر قنبلة ؟ فتدخل حانة في فندق الكومودور
- يعجبني كثيراً صمت رامبو
أو رسائله التي نطقت بها إفريقيا
- وخسرت كافافي
- لماذا ؟
- قال لي : لا تترك الاسكندرية باحثا عن غيرها
- ووجدت كافكا تحت جلدي نائما
وملاثيا لعباءة الكابوس ، والبوليس فينا
- ارفعوا عني يدي
- ماذا ترى في الأفق ؟
- أفقا آخرا
- هل تعرف القتلى جميعا ؟
- والذين سيولدون ..
سيولدون
تحت الشجر
وسيولدون
تحت المطر
وسيولدون
من الحجر
وسيولدون
من الشظايا
يولدون
من المرايا



يولدون
من الزوايا
وسيولدون
من الهزائم
يولدون
من الخواتم
يولدون
من البراعم
وسيولدون
من البداية
يولدون
من الحكاية
يولدون
بلا نهاية
وسيولدون ، ويكبرون ، ويقتلون
ويولدون ، ويولدون ، ويولدون

. . احرقنا مراكبنا . وعلقنا كواكبنا على الاسوار .
نحن الواقفين على خطوط النار نعلن ما يلي :

بيروت تفاحه
والقلب لا يضحك
وحصارنا واحه
في عالم يهلك
سنرقص الساحه
ونزوج الليلك

أحرقنا مراكبنا . وعلقنا كواكبنا على الاسوار
لم نبحث عن الاجداد في شجر الخرائط
لم نسافر خارج الخبز النقي وثوبنا الطيني
لم نرسل الى صدف البحيرات القديمة صورة الأباء
لم نولد لنسأل : كيف تم الانتقال الفذ مما ليس عضويا
الى العضوي ؟
لم نولد لنسأل . .

قد ولدنا كيفما اتفق
انتشرنا كالنمال على الحصيرة
ثم أصبحنا خيولا تسحب العربات
نحن الواقفين على خطوط النار
أحرقنا زوارقنا ، وعانقنا بنادقنا
سنوقظ هذه الارض التي استندت الى دمنا
سنوقظها ، ونخرج من خلاياها ضحايانا
سنغسل شعرهم بدموعنا البيضاء
نسكب فوق ايديهم حليب الروح كي يستيقظوا
ونرش فوق جفونهم اصواتنا :
قوموا ارجعوا للبيت ياأحبابنا
عودوا الى الريح التي اقتلعت جنوب الارض من أضلاعنا
عودوا إلى البحر الذي لا يذكر الموتى ولا الأحياء
عودوا مرة أخرى
فلم نذهب وراء خطاكم عبثا
مراكبنا هنا احترقت
وليس سواكم ارض تدافع عن تعرجها وحنطتها
سندفع عنكم النسيان ، نحميكم
بأسلحة صككناها لكم من عظم أيديكم
نسيجكم بجمجمةلكم
وبركبة زلقت
فليس سواكم أرض نسمر فوقها أقدامنا . .



عودوا لنحميكم . .
ولو أنا على حجر ذبحنا
لن نغادر ساحة الصمت التي سوت أياديكم
سنفديها ونفديكم
مراكبنا هنا احترقت
وخيمنا على الريح التي اختنقت هنا فيكم
ولو صعدت جيوش الأرض هذا الحائط البشري
لن نرتد عن جغرافيا دمكم
مراكبنا هنا احترقت
ومنكم . . من ذراع لن تعانقنا
ستبقى جسرنا فيكم
شوتنا الشمس
أدمتنا عظام صدوركم
حفت مفاصلنا منافيكم



ولو أنا على حجر ذبحنا
لن نقول « نعم »
فمن دمنا الى دمنا حدود الارض
من دمنا الى دمنا
سماء عيونكم وحقول ايديكم
تناديكم
فيرتد الصدى بلداً
تناديكم
فيرتد الصدى جسداً
من الاسمنت
نحن الواقفين على خطوط النار نعلن ما يلي :
لن نترك الخندق
حتى يمر الليل
بيروت للمطلق
وعيوننا للرمل
في البدء لم نخلق
في البدء كان القول
والآن في الخندق
ظهرت سمات الحمل

تفاحة في البحر . امرأة الدم المعجون بالاقواس .
شطرنج الكلام .
بقية الروح . استغاثات الندى .
قمر تحطم فوق مصطبة الظلام
بيروت . والياقوت حين يصيح من وهج على ظهر الحمام
حلم سنحمله . ونحلمه متى شئنا . نعلقه على أعناقنا
وقبلة اولى . مديح الزنزلخت . معاطف للبحر والقتلى
سطوح للكواكب والخيام
قصيدة الحجر . ارتطام بين قبرتين تختبئان في صدر .
سماء ثاكل جلست على حجر تفكر .
وردة مسموعة بيروت . صوت فاصل بين الضحية والحسام
ولد أطاح بكل ألواح الوصايا
والمرايا
ثم . . نام .

ليست الحياة وحدها ذات معنى

معنى الموت!

بقلم الدكتور عبد المحسن صالح

ترددت كثيرا فى كتابة سلسلة من الموضوعات عن « معنى الموت » ، وسبب التردد يرجع الى عوامل عدة ، اهمها على الاطلاق هو ما وقر في عقول الناس ، لأن الناس عادة تقيس الأمور بما يتمشى مع الأفكار المتوارثة ، وما يتوافق مع المزاج الخاص لكل منهم ، اذ مما لاشك فيه ان الأفراد تنظر أولا الى ذاتها ، وتحاول أن تجعل كل شيء مناسبا لاستمرار هذه الذات ، لكن هيهات ، لأن نواميس الكون والحياة التي أرسى الله قواعدها في كل مانري ، ومالا نرى ، قد جاءت من أجل أهداف أسمى ، وغايات أعلى ، ليدور كل شيء دوراته الصغرى أو الكبرى ، وبحيث يؤدي ذلك الى ديناميكية متجددة دوما .

ولكي يكون الحكم صحيحا ، فلابد أن نؤسس ذلك على الحالات العامة دون الخاصة ، أو ننظر الى ظاهرة الموت والحياة نظرة شاملة جامعة ، اذ كلما كانت النظرة أعمق وأوسع وأكبر ، كانت الرؤية أوضح ، والأحكام أصح .

ونحن نعترف مقدما ـ وبناء على استقراءات من أحداث سابقة ـ نعترف أن الناس دائما تقاوم كل فكرة جديدة تصطدم بأفكارهم القديمة ، ولهم في ذلك عذرهم ، لأن « الناس أعداء ماجهلوا » ، ولهذا فقد وقفوا ضد الأنبياء ، وحاربوا الحكماء ، وعذبوا العلماء ، وأحداث التاريخ خير شاهد على مانقول ، ورغم كل هذا ، فقد انتشرت رسالات الأنبياء ، وخلد الزمن أفكار الحكماء ، وسادت تطبيقات العلماء ، فنحن نرى الآن الانجازات الضخمة التي حققوها في مجالات لانكاد نحصيها عدا ، لأنهم ناصروا الله في قوانينه الكونية ، فنصرهم الله ، ويسر أمورهم ، وتيسرت حياة الناس تبعا لذلك ، ولاينكر كل هذا الا جاحد لعقله أولا ، وللعلم ثانيا ، ولن يزيده الأمر الا تخلفا ، والعياذ بالله من التخلف ، لأنه قاتل لكل تجدد ، ومانع لكل تطور !

نظرة أشمل وأوسع

بعد هذه المقدمة القصيرة ، نستعين بالله على التعرض لأساسيات هذا الموضوع الحساس والمثير ، وهو ـ على أية حال ـ اجتهاد منا ، فان أصبنا ، فذلك فضل من الله ، وان أخطأنا ، فلا أحد بمعصوم من الخطأ ، ثم ان الله غفور رحيم .

ان أحدا لايستطيع أن ينكر أن كل شيء في الكون والحياة قد جاء بنظام مذهل ، وتكوين مقدر ، ليسري حسب شرائع ونواميس لاتبديل فيها ولاتغيير ، ربما مصداقا لقوله تعالى « إنا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر/ ٤٩) . . « ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا » (الطلاق/ ٣) . . « فقدرنا فنعم القادرون » (المرسلات/ ٢٣) . . الى آخر هذه الآيات التي تبدو أكثر اشراقا في عقول من يعلمون الكثير ، عن أسرار الخلق على مستواه الصغير والكبير .

فمعنى الموت والحياة عند الناس ، غير معنى الموت والحياة عند العلماء ، فللناس الظاهر ، وللعلماء الباطن ، وعندما نتعمق في نظام أي شيء ، فقد تدرك معنى الموت ، كما تدرك أيضا معنى الحياة ، لأنها - في الحقيقة - ظاهرتان متلازمتان ، وبحيث تؤدي احداهما الى الأخرى . . أو هما كالهدم والبناء ، فلابناء بغير هدم ولاهدم بغير بناء ، بمعنى ، أنك لو أردت أن تقيم شيئا أو تبنيه ، فلابد أن تهدم في شيء آخر ، لتحيل المهدوم الى بناء . « ومن نعمره ننكسه في الخلق ، أفلا يعقلون » (يس/ ٦٨) .

فما الحياة اذن ، حتى نستطيع تعريف الموت ؟

الحياة بمعناها الشامل هي نظام قائم . . ونقيضه نظام زائل ، لأنه فقد عناصر نظامه ووجوده ، ولهذا فان « فاقد الشيء لايعطيه » - على حد مايقول المثل الشائع .

ونحن لن نتحدث في هذه الدراسة عن حياة الانسان وموته وبعثه ، بل سنرجيء ذلك لمقال قادم ، وعلينا أن نتعرض هنا لمعنى الموت او فقد الكينونة على أدق مستوى كشفت عنه العلوم الحديثة ، وما أكثر ما كشفت النقاب عن موت وبعث تتجلى أسوره في الكون وما حوى ، والفضاء وماطوى . . اذ أن كل نظام لاشك زائل ، والانسان نظام من هذه النظم التي تحيا وتموت وتبعث كأي شيء آخر في الكون العظيم ، لكن البعث هنا يختلف عن البعث الذي وضع أسسه قدماء المصريين مثلا ، ثم نادت به الأديان بعد ذلك ، فمع تقديرنا لبعث السماء ، وحياة الخلود (مع أن الخلود لله وحده ، ولايدرك معناه سواه) ، الا أن الحياة والموت صفتان متلازمتان في طبيعة الأشياء ، ولن يتضح لنا معنى ذلك الا اذا تعمقنا في أي نظام من ملايين وبلايين النظم التي تنتشر حولنا في كل مكان . . فينا وفي الأرض والسماء . فأي هذه النظم نختار ، حتى يصبح هناك معنى لما يقال ؟

الواقع أن الكون المجسد كله ، من بدايته حتى نهايته ، ومن أصغر شيء فيه ، الى أكبر شيء يطويه ، انما يتأسس ويقوم على الذرات ، لأن الذرة هي أصغر وأدق شيء مجسد يتعامل معه العلماء ، ولهذا فعلينا أن نبدأ بها ، لنعرف منها معنى الموت ، واذا أردت أيضا ، فلنقل معنى الحياة !

لحظة من فضلك ! . . أو ليس هذا خلطا لايجوز الا على ضعاف العقول ؟ . . هكذا قد يتسرع البعض ويقول ، ثم قد يستطرد معقبا فيذكر ان الذرة ليست كائنا حيا حتى نضفي عليها صفة الموت والحياة ، فهذا - على حد ظنه - افك وبهتان وخلط مبين !

والذي يتسرع ويقفز الى الاستنتاجات قفزا ، ودون أن يتدبر مافي خلق الاشياء من نظم ، تعطيه بعض الحق فيما فكر فيه ، وبنى حكمه عليه ، فهو على قدر ماعرف ، قد أفتى واعترض ومع ذلك فان باطن الخلق يشير الى أن الذرة نظام مادي تتوه فيه العقول ، وقد يهدم هذا النظام ، والى زوال يصير ، لكن لاشيء - في الحقيقة - الى فناء أو زوال ، حتى ولو بدت لنا ظواهر الامور كذلك ، ولهذا كان لزاما علينا أن نوضح ماغم على بعض العقول .

ان الانسان ، او أي كائن حي آخر ، هو - في الحقيقة - نظام قائم ، فاذا حدث خلل في هذا النظام ، كان المرض والموت والتحلل والاختفاء ككيان كان بيننا قائما ومجسدا ، لكنه لم يختف ولم يزل من الوجود حقا فيما زالت مادته التي كانت تبنيه لتعطيه كيانه ونظامه موجودة برمتها على هذا الكوكب ، ولكن بصورة مشتتة بين حبيبات الثرى ، أو هائمة كجزيئات بسيطة في الهواء . . ولقد كان الانسان جسدا . . الجسد من أعضاء . . الأعضاء من أنسجة . . الأنسجة من خلايا . . الخلايا من جزيئات . . الجزيئات من ذرات . . الذرات من جسيمات ، وهنا نكون قد وصلنا الى نهاية المطاف في التكوين المادي . . وهي كما ترى نظم من داخل نظم من داخل نظم . . لكن أي نظام منها ليس بخالد . . بداية من الانسان الذي يجادل ، ونهاية بالذرة التي ليست خالدة كذلك ، اذ قد يختل نظامها أيضا ، وتفقد كينونتها التي جاءت بها لتمثل وحدة أو شيئا في بدايات الخلق !

ولكن تطمئن القلوب ، وترتاح النفوس ، فلا أقل من أن نشير الى الاية الكريمة « وإن من شيء الا يسبح بحمده » (الاسراء/ ٤٤) . . « يسبح لله مافي السماوات ومافي الأرض » (التغابن/ ١) . . وطبيعي أن الأشياء لاتمسك بمسبحة ، وعلى حباتها تعد ، وبالسنتها تردد « سبحان الله . . سبحان الله » - كمايفعل البشر ، فهذا ليس واردا

على اي تفكير سليم ، لكن الأشياءتسبح بنظام ربها الذي وضعه فيها ، فاذا توقف النظام ، توقف التسبيح ، حيث يختفي - على الأقل - من عقولنا معنى النظام .. فكل الأشياء والأحياء والحجارة والصخور والأرض والكواكب والشموس والمجرات ستقبر ، طال الزمان أو قصر ، ولقد اكتشف العلماء هذه القبور في السماء ، وهي ليست كقبور الأرض ، بل أعتى وأغرب قبور لو كنتم تعلمون !

لكن يبدو أننا قد خرجنا من موضوع الى موضوع ، الا أن الكلام يجر بعضه - كما يقولون ، ذلك أن معنى الموت على مستواه الذري والكوني ، أو ما بينهما من جزيئات وخلايا مخلوقات ، هو - وكما سبق أن ألمحنا - موضوع عام يجب أن نتناوله على مستواه الشامل الجامع ، وحتى لايتشعب بنا الحديث ، كان لابد ان نقصر حديثنا هنا على معنى الموت في ذرة ، ثم نعود لتوضيح المعنى ذاته في كل ما تأسس على الذرات من خلق في دراسات أخرى قادمة .

وبالنظام نبدأ

لكي تدرك معنى الموت على اساس ، فان ذلك يستلزم أن نتعرف على معنى النظام في أي شيء .. فلنبدأ - اذن - بأصغر كيان قائم ، نعني الكيان أو النظام الذري ، فالتي تعطي الذرة وجودها ، هي مكونات بسيطة غاية البساطة ، ومع ذلك كان لابد ان نستدرك ونشير الى أن هذه البساطة قد حيرت العقول - أعظم عقول لو كنتم تعلمون ، فرغم البحوث الذرية التي استمرت طوال قرن من الزمان ، الا انها لم توضح لنا حتى الآن كل ماتطويه الذرة من نظم وأسرار ، ويبدو أن احدا لن يصل فيها الى قرار ، لأنك كلما تعمقت في الأصول ، تريد بذلك ان تصل الى جوهرها ، أشاحت الحقيقة بوجهها ، فلا تكاد نعرف لها بداية من نهاية ، ولا ان كانت من عالم مادي متجسد ، أو من عالم موجي منطلق .. عالم لايقاس بحدود الزمان ولا المكان !

ان الذرة ببساطة تتكون من أنواع ثلاثة من الجسيمات .. اثنان منها موجودان في مركزها او نواتها ، والنوع الثالث يطوف حولها ، فأما الذي في النواة فهو البروتون الذي يحمل شحنة كهربية موجبة ، ومعه النيوترون الذي لاشحنة له ، أي انه جاء متعادلا .. وأما الذي يطوف حول النواة فهو الاليكترون الذي يحمل شحنة كهربية سالبة .

خذ على سبيل المثال ذرة الكربون ، وهي من الذرات الأساسية التي تدخل في تكوين أجسام كل الأحياء ، والدليل على ذلك أن أي كائن حي اذا احترق تفحم ، لأن الفحم ذاته صورة من صور الكربون ، لكن لاعلينا من ذلك ، فالذي يهمنا هنا هي ذرة الكربون التي يسكن في نواتها بروتونات ستة ومعها نيوترونات ستة كذلك ، ولكي تصبح الذرة بناء متعادلا ، فلابد ان يدور حولها اليكترونات ستة كذلك - والحكمة في ذلك لاتخفى على لبيب ، لأن البروتونات الستة في النواة تحمل شحنات كهربية ستة موجبة ، ولابد ان تقابلها شحنات كهربية ستة سالبة ، هذه تساوي تلك تماما ، والا لما كان التعادل - تعادل النظام .

وهذه واحدة من اصغر النظم التي قامت « حياتها » على النقيضين .. أي ستة موجبة مع ستة سالبة في نفس البناء .. لكن الأمورلاتسري بمثل هذه البساطة الظاهرية ، لأن الاليكترونات قد سبحت بدورها في مدارات ، وأبسط تشبيه لذلك هو المجموعة الشمسية ، فالشمس تحتل مركز المجموعة ، او هي بمثابة نواتها ، وحولها تدور كواكبها في «مدارات» قدرت«به تقديرا مذهلا كذلك .. قدرت في كتلها وسرعتها ودورانها حول نفسها تارة ، وحول شمسها تارة اخرى ، لتتوازن امور الجاذبية في تلك الأجرام السماوية ، كما تتوازن ايضا في هذه الجسيمات الذرية ، فيصبح لكل شيء كيانه ، اذ لو اختل هذا النظام او ذاك ، فقل على كل شيء فيهما السلام !

ومما لاشك فيه ان أية شحنة كهربية تجذب بنهم ضخم كل شحنة اخرى نقيضة ، ولهذا تجذب النواة اليها اليكتروناتها التي تطوف حولها في مداراتها ، والجذب لاشك كائن ، والتعادل قائم ، لكن هناك قوة اخرى هائلة تعادل قوة الجذب النهمة .. هذه القوة تتمثل في دوران الاليكترونات حول أنويتها بسرعة فائقة ، فلكي لاينجذب الاليكترون ويسقط في نواته ، فعليه أن يدور في كل ثانية سبعة آلآف مليون مليون دورة ، وطبيعي أن أحدا لايستطيع ان يتصور ذلك ، لكننا ذكرناه هنا لنتبين لنا معنى القوى الرهيبة التي سارت بها هذه « الأجرام » الذرية الدقيقة ، وبحيث تتساوى وتتعادل فيها قوى نقيضة وهائلة ، تتمثل لنا في شحنات سالبة وموجبة ، وفي قوى جذب مع قوى طرد ، ولكل شيء هنا حساب ومقدار ، وكأنما ينطبق عليها قول القرآن الكريم : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » (الحجر/ ١٩) .

عود على بدء

لكن ماذا يعني هذا أو غيره بالنسبة للموت ؟

الواقع أنه يعني الكثير اذ لو اختل هذا النظام الدقيق الكائن في عالم الذرات ، لفقد كل شيء - سار به ، وتأسس عليه - كيانه ، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فالناس يشهدون هذا الخلل الذي يؤدي الى مرض وموت في المخلوقات المنظورة ، لكن الأمور تتعداها الى ماهو أصغر من ذلك وأكبر ، ويراها العلماء في مفاعلاتهم الذرية ، ويشهدها الفلكيون في السماوات .

ونحن لانريد هنا ان نستبق الحوادث ، بل علينا أن نأخذ الأمور اخذا يسيرا ، ذلك أن موت الانسان يعني خللا في نظامه ، وقد يأتيه هذا الخلل من داخله ، او يتسلط عليه من خارجه .. الاشعاع الذرى القوي قد يخترق جسم الانسان دون عاهات واضحة ، ومع ذلك فهو قاتل ومميت ، لأنه أخل بنوى ذراته ، وتلاعب باليكتروناته ، وأطاح بمداراته .. وبالاختصار فلقد حل تدمير غير منظور باساسيات تكوينه ، والأساس هنا ذرات ترابطت في جزيئات في خلايا .. الخ ، وما دام الأساس ذاته قد اختل ، فلا تنتظر خيرا في هذا البناء الحي !

أو قد يموت الانسان برصاصة أو شظية تصيبه اصابة مباشرة في مخه أو قلبه ، فتهدم نظاما تعتمد عليه النظم الأخرى في جسمه ، وما دام الخلل قد حدث في أي مركز حساس ، فالموت قادم لامحالة .

كذلك تموت الذرات كأدق كيان منظم عرفة العلماء ، وموتها لايتأتى أيضا الا عن طريق اصابة مباشرة في قلبها - نعني نواتها ، فتنفلق او تتفتت ، وينطلق تكوينها كأشلاء متناثرة .. وطبيعي ان الاصابة تحدث أيضا عن طريق « رصاصات » تناسب عالمها ، أي لابد من ضربها بشيء من نفس تكوينها ، فكما لايفل الحديد الا الحديد ، كذلك لايفل الجسيمات الذرية في بنائها الا جسيمات مثلها .

ان هذا المبدأ هو الذي اتخذه العلماء كوسيلة فعالة لمعرفة النظام الذرى ، ثم ماتأسس عليه بعد ذلك من تحرير الطاقة النووية في السلم والحرب ، فلا تطبيق بغير علم ، ونحن نشهد التطبيق ، دون أن ندرك السر الذي قام عليه .. فمعرفة ما يجري في جسم الانسان ، يستلزم حتما تشريح هذا الجسم .. وكذلك الحال مع الذرات خاصة ، أو المادة عامة ، فلابد أيضا من « تشريحها » للنظر في مكوناتها ، وهو تشريح يناسب عالمها ، وهو يمزقها اربا اربا ، وعلى الألواح الحساسة تظهر مسارات الجسيمات التي تفككت من نظامها الذري الذي كان يجمع شملها في تكوين قائم في الزمان والمكان ، لانظام .. اذن لاكيان !

ثم ان الذرة هي الأساس في بناء المادة التي نعرفها في حجر وصخر وماء وغاز وحديد وفحم وما شابه ذلك ، ونعرفها أيضا في بناء المادة الحية التي تقوم على أساسها المخلوقات ، لكن موت المادة الحية يختلف عن موت الجماد ، ولقد تعددت الأسباب ، واختلفت الظواهر .. لكن الموت واحد .. والموت بمعناه الشامل الجامع هو هدم نظام قائم ، ليتحول الى شتات !

لكن .. ماذا يعني موت الجماد حقا ؟ .. والى أي شيء يصير ؟

بعث وموت على أدق مستوى

لكي نجيب على ذلك ، فلابد ان نتعرض لمبدأ علمي هام يتمشى مع نواميس الكون ، وشرائع الوجود .. هذا المبدأ يشير الى أن « المادة لاتفنى ولاتستحدث » .. بل تتحول من صورة الى أخرى ، قد نحسبهما لاختلافهما في ظواهرهما منفصلين ، لكن أحدهما ينبع من الآخر ، أو يؤدى اليه ، وينطوى عليه !

وليس هناك دليل أعظم اقناعا الا القنبلة الذرية ، ففيها يفنى أو يموت جزء ضئيل من المادة ، أو بمعنى اخر يتخلى عن نظامه المادي ، ويتحول الى صورة اخرى تعرف باسم الطاقة النووية التي أصبحت في زماننا هذا ملء السمع والبصر والفؤاد ، وهي - بلاشك - طاقة رهيبة يحسب لها العالم ألف حساب وحساب ، وكأنما هي تعيد الى أذهاننا قصة الجنى او العفريت التي وردت في الأساطير القديمة ، فكأنما المادة ذاتها بمثابة « تمائم » تنطوى على طاقات وقوى رهيبة ، فاذا انطلقت عربدت وخربت ودمرت وقتلت ، ولهذا فان من يستطيع ترويضها والسيطرة عليها ، تعطيه خيرات كثيرة ، وكأنما لسان حالها يقول« لبيك .. لبيك .. أنا خادمة مطيعة بين يديك » .. ليس بالشعوذة والسحر والدجل ، لكن بالعلم والمعرفة والتطبيق !

والواقع أن هذه الظاهرة المثيرة - ظاهرة موت المادة وبعث الطاقة - هي لعبة العلماء في مفاعلاتهم الذرية ليل

نهار ، اذ يسجلون على الألواح الحساسة احداثا مثيرة للموت والحياة على مستوى الذرات والجسيمات ، ونحن لانستطيع أن نتعرض هنا للتفاصيل ، لأنها تنطوي على غابة كثيفة ومتشابكة من الأحداث الذرية ، والتفاعلات النووية ، والصراعات الجسيمية ، ومايتمخض عنها من ظواهر محيرة وغريبة على عقولنا وزماننا ، يتوه العلماء فيها اعظم تيه ، اذ كلما تعمقوا في تفاصيلها ، يريدون الوصول الى جوهر الحقيقة فيها ، أشاحت الحقيقة بوجهها ، لتبدو بوجه اخر مختلف ، وبحيث لانستطيع ان تضع حدودا فاصلة بين موت وحياة ، او ولادة ، وبعث ، او بداية ونهاية ، أو مادة وطاقة .. الخ .

كأنما نحن هنا نزيد الأمر غموضا ، بدلا من أن نزيده وضوحا ، لكن ذلك يرجع الى ما ينطوي عليه هذا العالم من ظواهر محيرة ربما تكون اكبر من عقولنا ومداركنا - الآن على الاقل ، ولكي نبسط هذا الأمر ، فعلينا أن نقارنه بصورة ملموسة من واقع حياة الناس ، فالذي يقول ان الانسان روح وجسد ، كان على حق فيما يقول ، والذي يشير الى أن الانسان طاقة ومادة ، لم يجانبه الصواب ، لأن اشارته هذه تتمشى مع أساس المبدأ العام الذي يسرى في الكون .

فلو أنك تعمقت في أصول الخلق ، وتأملت في طبائع الأشياء ، مستعينا على ذلك بتجارب علمية تكشف لك مايخفى على الناس لوجدت أن الكون كله أصله واحد ، ومن هذا الأصل تميزت ظواهر ، وهي التي نراها باحاسيسنا ، ونحاول ان نضع لها حدودا زائفة ، لكن الحدود هنا وقتية ، اذ من الممكن ان نشهد المادة وهي تتموج ، والموجات وهي تتجسد ، والمادة - كما نعرفها - مدركة بزمان ومكان ، لكن الموجه طليقة ، اي انها لاترتبط بحدود زمانية او مكانية ، وعندما تتجسد ، فانها تتخذ شكلا ونظاما .. بدايتها جسيمات .. تنتظم في ذرات .. تتآلف في جزيئات تدخل في تكوين المادة الحية والجامدة ، ومع ذلك فالجمود هنا نسبى ، لأنه قد يتحرر وينطلق بصورة اخرى - هي الطاقة !

انها ظواهر مثيرة حقا .. فأحيانا يكون الكون تجسيدا ، وأحيانا اخرى يكون تجريدا : بمعنى ان الطاقة مادة ، او ان المادة طاقة ، اذا ظهرت هذه بوجه ، اختفت الأخرى ظاهريا فقط ، وهي أقرب الى مفهومنا بظاهرة الموت والحياة ، لكن لاشيء الى فناء أو زوال ، بل الكل موجود دون زيادة او نقصان ، ربما مصداقا للآية الكريمة « ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين » (يونس/ ٦١) .

أعمار بين مولد وموت

وفي تعامل العلماء مع بدايات الخلق على مستوياته الدقيقة ، يشهدون في مفاعلاتهم الذرية الجبارة مولد جسيمات بهيئتها المادية ، وهي تتنشأ من الطاقة او الموجات الكهرومغناطيسية البالغة العنف والضراوة ، وفي الوقت ذاته تموت اخرى ، او بمعنى ادق تتخلى عن تجسيدها الى تمويج .. وفي هذه المفاعلات يحطمون نوى الذرات بجسيمات مندفعة بطاقة رهيبة ، فتتفتت الى أشلاء ، أو جسيمات أصغر ، مع انبعاث موجات مصاحبة ، ولقد كان حصادهم في ذلك وفيرا ومحيرا ، وبحيث لم تصبح المادة الذرية - كما كان معروفا في الماضي - من بروتونات ونيوترونات والكترونات ، بل وصلت أعدادها الى العشرات ، ولهذا قسموها الى مجموعات وعائلات ، بعضها ثقيل او متوسط أو خفيف ، ولكل دورانه وكتلته وشحنته وعمره .. الخ .

وطبيعى اننا لانستطيع ان نقدم هذا الحصاد الكبير هنا لضيق المجال ، لكن يكفى ان نذكر ان الجسيمات التى تسكن النواة (أي البروتون والنيوترون) ليست جسيمات بسيطة أو صلبة - كما ظنها الأوائل ، لكن يبدو ان كل جسيم منها ينطوي على جسيمات ادق وأدق ، تنتظم في نظم أصغر وأصغر ، فاذا تفتت ، انطلقت ، في عالمنا لتجرى بسرعات هائلة ، وطاقات جبارة ، لكنها لاتعمر طويلا .

ان أقصر فترة سجلها العلماء بين ولادة جسيم وموته تكمن في واحد يسمى « روميزون » اذ لايعمر في عالمنا الا لـ ١,٦ جزء من مليون مليون مليون مليون جزء من الثانية (المليون مكررة أربعا) ، وهناك ايضا ما يعيش اطول عمرا منه بمائة مليون مرة ، ويسمى « البيون » المتعادل لكنه يولد كجسيم مادي ، ويودع حياته الجسيمية بعد جزء واحد من عشرة آلاف مليون مليون جزء من الثانية ، وينطلق بسرعة الضوء على هيئة ومضتين من اشعاع مدمر (اشعة جاما) .. وثالث يعيش اطول من « البيون » المتعادل بمائة مليون مرة ، ويعرف باسم الميزون ك ، ومنه نوعان ، احدهما يحمل شحنة كهربية موجبة والآخر شحنة

كهربية سالبة ، وكل منها ليموت بعد جزء واحد من مائة مليون جزء من الثانية ويوجد ايضا « الميزون ك » المتعادل ، لكن عمره أقصر من عمر « اخويه » بمائة مرة ، لأنه يولد ويموت بعد جزء من عشرة الاف مليون جزء من الثانية . . الخ .

ونحن لانستطيع بعد ذلك ان نذكر المزيد ، لأن الحصاد ـ كما ذكرنا ـ وفير ، اذ ان انواع هذه الجسيمات التي تظهر وتموت قد وصل عددها الى حوالى ٢٢٠ نوعا ، ويقابلها ايضا حوالى ٢٢٠ نوعا من جسيمات مضادة ، أي أن كل جسيم يتجسد من طاقة منطلقة لابد ان يتخلق معه نقيضه ، فكأنما بداية التجسيد المادي قد نشأت ايضا على النقيضين ، لكن النقائض تميت بعضها ، وهنا نكون قد وصلنا الى مرحلة اخرى في معنى الموت ، وكأنما هذه النقائض او الاضداد قد جاءت ليكون بعضها لبعض عدوا مبينا . . انها عداوة متوارثة في طبائع الجسيمات ، ومع ذلك فعليها ينشأ التناسق الذي نراه في عالمنا الكبير ، حتى ولو كان هذا التناسق يحمل معنى الموت والحياة ، ذلك ان معنى الحياة لن يتضح في عقولنا الا اذا عرفنا معنى الموت ، فالوجه الواحد من الحقيقة ليس له معنى ، وربما كان ذلك اشارة لما المحت اليه الآية الكريمة « ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها » ـ اذ بدون هذا لن تدرك ذاك . . لكن ذلك موضوع اخر قد نتعرض له في دراسة قادمة .

امام عوالم غريبة

الموضوع لم يكتمل بعد لضيق المجال ، خاصة وأننا أمام عوالم دقيقة وغريبة لها وجود ، ولها فناء ، ولها أعمار ولها أجيال ، فقد ترى جسيما يركل جسيما اخر فيغيره من حال الى حال ، وبحيث يعطيه صفة او « شخصية » غير التي جاء بها الى الحياة ، أو قد تشهد جسيما يتحلل ، ومن تحلله يخرج من صلبه أجيال وأجيال ، فتعيش لحظاتها الخاطفة ، ثم تتحلل بدورها الى أجيال تالية من جسيمات اصغر وأصغر ، ثم قد تتخلى هذه عن تجسيدها المادي ، لتتجلى لنا بصفتها الموجية التي تظهر كومضات حارقة ، في غابة من احداث متشابكة ، فيها الموت وفيها الحياة وفيها البعث والنشوء والارتقاء درجات درجات ، وبحيث قد ترى بينها ما يعيش حياة أقرب الى الخلود !

فكما تظهر جسيمات وتموت في لحظة خاطفة ، توجد اخرى تعيش لفترة طويلة ، فالنيوترون ـ احد الجسيمات الثلاثة الاساسية في تكوين الذرة ـ اذا خرج من نواته ، وعاش شريدا ، فانه قد يعمر الف ثانية ، في حين ان البروتون او الجسيم الأول في النواة لايتحلل ويفنى الا بعد مرور الف او عشرة الاف بليون بليون بليون سنة ، اي ان عمره هنا اطول من عمر الكون بحوالي مائة بليون بليون مرة ، ومع أن احدا لم يشهد حتى الآن موت بروتون واحد وتحلله ، الا ان الاحتمال قائم ، والمعادلات تشير الى اي شيء سيصير امره ، ومن اجل هذا يوجد الآن حوالى ٣٠ معهدا وجامعة قد شيدت مفاعلات ذرية جبارة في اعماق الأرض (بعيدا عن الاشعة الكونية) ، وتحت الجبال والهضاب ، وتكلفت الاف الملايين من الدولارات ، لعل احدا من هذه المفاعلات يكون له السبق في تسجيل موت بروتون واحد وتحلله الى أجيال تشير اليها المعادلات مقدما .

ولماذا كل هذا ؟

لأن العلماء يرون الحقيقة تتجلى باوجه مختلفة ، وتترائى بقوى متباينة ، والبحوث العميقة في اسرار المادة والطاقة ، وما ينبع منها من مجالات الجاذبية والكهربية والمغناطيسية ، وما يصاحبها من تفاعلات نووية ضعيفة وقوية . . كل هذا وغيره يشير الى ان الأصل واحد ، وان اختلفت ظواهره ، وهم مقتنعون تماما أنهم يقتربون أكثر فأكثر الى صياغة نظرية توحيد بين هذه القوى والمجالات المختلفة في معادلة واحدة تربطها في نسيج واحد ، ومن هذا النسيج الواحد او الموحد قد يصلون الى فهم أعمق لأسرار الكون ، وبدايات الخلق على مستواه الدقيق ، فهذا ـ بلاشك ـ سينير لهم الطريق ، وكأنما هم ـ في الحقيقة يطبقون المبدأ الذي اشارت اليه الآية الكريمة « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبوت/ ٢٠) . . والذين ساروا ونظروا بحثوا وتعمقوا ، وصلوا وتقدموا وسادوا ، والذين عاشوا على الكلام والجدل والسفسطة تخلفوا ، وعلى افكارهم القديمة تجمدوا . ولم يتطوروا . . « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » !

هذه ـ اذن ـ لمحات قصيرة عن موضوع متشعب وعويص ومثير وفيه اوردنا ما يسمح به المجال عن تلك العوالم الدقيقة التي تولد وتموت وتبعث في صور شتى ، وكأنما هي تجمع نقائض عالمنا الكبير بما فيه من موت يؤدي الى حياة ، وحياة تؤدي الى موت . . ليس فقط على مستوى الجسيمات والذرات ، بل ايضا على مستوى المخلوقات والسماوات ، وهو ما سنتعرض له في دراسات قادمة ، لنتعلم منه مالم نكن نعلم ، وما أكثر مالا نعلم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ! ●●

الاسكندرية : د. عبد المحسن صالح



غلاف كتاب « مختارات من الأدب والفكر المعاصرين في المغرب العربي » . . الصادر في مدريد في مارس ١٩٨٢ .

قراءة في كتابات الأدباء المغاربة

بقلم : الدكتور محمد عبد الله الجعيدي

الصورة التي يقدمها كتاب « مختارات من الأدب والفكر المعاصرين في المغرب العربي » ، تعطي القارىء انطباعا شديد الايجابية عن واقع الأدب المغربي ، الذي تظهر عليه بوضوح سمة « الأدب المقاوم » .

وهذه الصورة ليست مستغربة في حقيقة الأمر ، انما هي نبت طبيعي للظروف التي عاشتها المغرب في العصر الحديث .

ففي سنة ١٩١٢ وقعت المغرب فريسة للاستعمار الذي فرض هيمنته حتى سنة ١٩٥٦ عندما انتزع الشعب المغربي استقلاله بعد نضال طويل ضد الاستعمار والفتنة ، استمر حوالي نصف قرن في الريف والاطلس .

ولكن الوضع قبيل الستينات ـ كما يقول الأديب المغربي الدكتور احمد المديني ـ قد بلغ حدا من الفوضى والاختلاط ادى الى تضارب في المفاهيم وتداخل في السلطات والمسؤوليات . وتبين ان حلم الاستقلال قد تبخر ، وان المطامح والاماني التي كان المواطنون يعلقونها على عودة الملك وانتزاع حرية البلاد ، قد غدت سرابا او ما يشبه السراب ، وان الامور قد آلت الى غير ما كان في الحسبان .

هكذا يفتح الشعب العربي في المغرب عيونه ليرى ضوء الاستقلال فيصدمه الواقع بمشاكله الاقتصادية والاجتماعية والثقافية حتى العقلية ـ كما يقول القاص المغربي عبد الرحمن تشيرقي الذي كتب مقدمة المختارات ـ بين منطقة النفوذ الفرنسي في الجنوب ومنطقة النفوذ الاسباني في الشمال لمدة نصف قرن من الزمان ، ويزداد الوضع غليانا حتى ينفجر في أحداث الريف والاطلس الشهيرة سنة ١٩٥٨ ، ومنذ تلك الفترة اخذت الحركة الوطنية تتبلور فظهر « حزب الاستقلال » ، وبالمقابل ظهرت البرجوازية الصغيرة متمثلة في « الاتحادالوطني للقوى الشعبية » ذي الافكار والاتجاهات المضادة . وتبعت ذلك احداث السنوات ١٩٦٣ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧١ التي تركت بصماتها واضحة على جبين الادب العربي في المغرب .

وهكذا كتب على الانسان في هذا الجزء من الوطن العربي أن يعيش تلك الازدواجية التي لا تسمح بوجود طرف ثالث ، حيث انها ازدواجية فرضها الغني المسيطر المتحكم في الامور على الفقير المغلوب على امره الذي لا حول له ولا قوة . حتى في لسانه يعيش الانسان هذه الازدواجية . فهناك لغة ادارية تتحدثها الخاصة هي الفرنسية ، ولغة رسمية تتحدثها العامة بلهجتها المحلية

دون ان تستطيع كتابتها او قراءتها ـ نتيجة لتفشي الامية ـ هي اللغة العربية . هذا بالاضافة الى ازدواجية هامشية متمثلة في سيادة الاسبانية في الشمال (محافظتي سبته ومليله) وسيادة البربرية في الجنوب .

وهكذا تشتت العطاء الادبي بين طرفي الازدواجية اللغوية . فهناك ادب مكتوب بالعربية وكتابه قليلون . بعضهم أجاد وبعضهم اقترب من درجة الجودة في اعماله ، وهناك من كتبوا بالفرنسية فجاء نتاجهم ـ على جودة ونضج الكثير منه ـ مزيجا غريبا للفكر العربي باللغة الفرنسية التي فرضت نفسها على بعض الكتاب ، مثل العروي والحبابي واللعبي ، كنتيجة لدراستهم في مدارس فرنسية او حتى اعدادهم لدرجاتهم العلمية في فرنسا .

وتمتد هذه الازدواجية اللغوية الى وسائل الاعلام والتعليم الجامعي ، حتى يصل الامر الى انه لايستطيع مغربيان التفاهم فيما بينهما بلغة واحدة ، كما يؤكد على ذلك وعن تجربة شخصية الاستاذ تشيرقي في مقدمته لكتاب المختارات الذي نحن بصدده .

وفي الستينات تحتدم الظروف وتتأزم الحالة الفكرية والنفسية للكتاب فيجدون في الكتابة ملجأ ومسكنا يخفف من وطأة الاحساس بالقهر ، فتكون القصة القصيرة هي الاقدر على تكوين الملجأ وتقديم المسكن .

دور جيل الوسط

اذا كانت الظروف السابقة قد شكلت الاطار الذي تحرك داخله الكاتب العربي في المغرب فانها ايضا قد وثقت علاقته بالواقع المعاش ، وان كانت هناك بعض العوائق التي كانت بين الحين والحين تعمل على تمييع هذه العلاقة كالأمية المتفشية وارتفاع الكتاب احيانا بمستوى تعبيرهم ورموزهم الى حد تنقطع عنده صلة القارئ باعمالهم ، وكذلك النظرة غير المتكاملة للامور عند الكتاب ، الأمر الذي يجعل من اعمالهم تعبيرا عن شريحة ضيقة من المجتمع . وبهذا يفقد العمل الادبي خصوصيته في ان يكون مقبولا لدى قرائه .

ومن طوابع الادب المغربي المعاصر بالاضافة الى التمسك بالواقع مانجده من غموض في المعاني وجنوح في الرمز الى درجة يصعب فيها فهم النص ـ وخاصة الشعر ـ ، والتعامل مع الظواهر الاجتماعية باسلوب ينقصه النضج والوضوح ، الامر الذي يجعل عملية تحديد معالم هذا الادب ـ في بعض الاحيان ـ صعبة وعسيرة . هذا اذا استثنينا بعض الاصوات الشعرية الجديدة بان ترد لهذا الادب الاعتبار والمنزلة التي يستحقها كما هو الحال في الطبال والقرقاني والمجاتي وبنيس والمعداوي ، الذين صبغت شعرهم مسحة من الالم والتهكم فرضتها الظروف المعاشة .

كما انه من الاهمية بمكان ذكر ان هذا الادب لايتجاوز عمره العشرين عاما ، اي انه لايزال يواصل نموه والتخلص من الشوائب التي تشوبه او تقطع تواصله . كما حصل بالمسرح الذي لم تمكنه الظروف من الوقوف على رجليه فاندثر قبل نضوجه ، بالرغم من الدور الذي لعبه في الحياة السياسية . حيث كان من بين كتابه من هم سياسيون محترفون مثل عبد الخالق الطريسي في « انتصار الحق بالباطل » اما اليوم فالمسرح المغربي يعتمد في غالبيته على النص المترجم وعلى وجه الخصوص من اللغة الفرنسية ـ هذا بالاضافة الى محاولات تخطو خطواتها الاولى ويقوم بها عبد السلام الحبيبي وعبد القادر السميحي وبوعلو وعبد الكريم برشيد .

ويتسم الادب المغربي ايضا بطابع نضالي يتجه نحو التجديد وتحقيق العدل والمساواة بصفته ادبا انضجته ظروف الصراع الاجتماعي والايديولوجي ، وخاصة في الستينات من هذا القرن .

كما ان الادب في المغرب يتأرجح في اشكاله وتراكيبه وموضوعاته بين الشرق والغرب . وكما يقول العروي فانه يعاني تخلفا مزدوجا بين الشرق والغرب ، الامر الذي خلق فيه عنصر التحدي والتصدي للواقع الاجتماعي القاهر .

وبهذا نرى ان الادب المغربي في مجمله يكاد يقتصر على القصة القصيرة ومن ثم الرواية ، اما الشعر فحاله يكاد يشبه حال المقال الذي يعد من الكماليات او حال النقد الادبي الذي يعتبر ـ باستثناء علال ومحمد الفاسي وغنون من القدماء والناقوري حديثا ـ ثانوي الاهمية ، ولانجد فيه مادة تكفي للدرس ، حيث ان ما يكتب في هذا المجال لايعدو مستوى التعليقات الصحفية .

اما مراحل الادب المغربي فتتضح من خلال المختارات حيث نجد ثلاثة اجيال او ثلاث مراحل . اولها السلفية ومن ادبائها علال الفاسي وعبد الخالق الطريسي وابن

العربي والعلوي وابوبكر زنيبر ، وقد خاض هذا الجيل صراعا مستميتا لاسترداد هويته العربية ، فناضل تارة سرا واضطر تارة اخرى لرفع صوته مع ماقي ذلك من تعرضه لعواقب وخيمة ، ولكنه جيل واصل نضاله محتميا براية الدين ، وفي مجال الفن القصصي ـ باعتباره الفن الرئيسي في المغرب ـ ظهر من هذا الجيل عبد العزيز بن عبد الله ومحمد بن تاويت ، وقد كانت اعمالهم متأثرة ـ كما هو متوقع ـ تأثرا كبيرا بفن المقامة .

وبجثوم الاستعمار على ارض المغرب وفرض ثقافته ولغته عليها ، التقى كتاب هذا القطر بثقافات كالفرنسية والاسبانية ، وفي هذا الجو نشأ جيل جديد وهو مايمكن ان نسميه بجيل الوسط . وهو الجيل الذي يمثل حلقة الوصل بين السلفيين والمجددين . وفي عهد هذا الجيل اخذ الادب في النضوج وخطا اولى خطواته نحو التجديد والتحديث . ومن اهم مميزات هذا الجيل ان معظم ادبائه من الباحثين والاساتذة ، وفي اعمالهم تنعكس ظروف الازدواجية القومية الاجنبية ، الامر الذي دفع بهم للغوص في باطن التاريخ بحثا عن ملجأ يخلصهم من قسوة هذه الازدواجية ، فكانت الاندلس هي ذلك الملجأ .

نماذج وملاحظات

اما الحديث عن ادب مغربي ـ وخاصة في مجال القصة ـ فيه قدر من النضوج فسوف يتيسر لنا في الاربعينات من هذا القرن بظهور اعمال مثل « في الطفولة » لعبد المجيد ابن جلون و « عادة اصيلة » لعبد العزيز بن عبد الله . وتتواصل مسيرة هذا الفن القصصي الذي يحمل بوادر علامات النضوج فتظهر « قصص من المغرب » لاحمد البقالي و « بوتقة الحياة » لاحمد البكري .. الخ .

ويأخذ الحديث عن النضوج في هذه الاعمال صورته الجدية مصحوبا بتحفظات وقيود بظهور مجموعة عبد الكريم غلاب القصصية : « دفنا الماضي » وذلك سنة ١٩٦٦ . وقد خصت مقدمة المختارات ملاحظاتها على هذه المجموعة من الناحية الفنية بانها لا توازن بين توزيع الاحداث ، الامر الذي يجعل الشخصيات احيانا تبدو ضئيلة بالمقارنة بما يتراكم فوقها من احداث . ومن الناحية التاريخية فالكاتب يقحم آراءه الشخصية على الدوام في تطور الاحداث التاريخية وهو امر يتكرر في روايته « المعلم علي » ١٩٧١ ، حتى يظن القارىء انه « غلاب » ليس على دراية كافية بتاريخ بلاده ، وهو امر يرفضه كل من اطلع على كتابه « تاريخ الحركة الوطنية في المغرب من نهاية حرب الريف حتى اعلان الاستقلال » الصادر سنة ١٩٧٦

والحقيقة ان هذه المرحلة قد تميزت بطغيان الطابع التاريخي عليها ، الذي قد يكون بمثابة ردة فعل على الاوضاع وهروبا منها . وقد نجد لذلك تفسيرا في ظهور كبرى الشخصيات العلمية التي كرست حياتها لدراسة تاريخ الاندلس مثل عبد الرحمن الفاسي ومحمد بن تاويت ومحمد بن شريفه .

ويمكننا ان نلحق بجيل الوسط اعمال محمد عزيز الحبابي الذي كان يتجه بادبه القصصي وجهة فلسفية خالصة كما يبدو ذلك في « جيل الظمأ » ١٩٦٧ ، ومن ثم في « اكسير الحياة » ١٩٧٤ حيث يصر على التجريد الفلسفي بصورة متسقة ويحاول معالجة القضايا المحيطة به بمفهوم فلسفي شخصي .

وتأخذ المقدمة على الروايتين فقدانها للحبكة الروائية الضرورية التي تسم العمل الادبي الروائي بطوابعه المميزة . كما يؤخذ على « اكسير الحياة » جمود بعض شخصياتها التي تولد وتموت في نفس اللحظة والمكان ، وفي هذه الرواية ايضا خلل تركيبي من الناحية الايديولوجية ، حيث انه لا مجال لاتخاذ موقف اجتماعي محايد في اقطار العالم الثالث ، ولهذا فمحمد عزيز الحبابي متهم ـ على الدوام ـ بانه كاتب برجوازي ، وذلك لانه لا يمكن الحكم على الاوضاع في المغرب وقياسها بالمقاييس والمفاهيم الغربية ، لان المغرب يحتاج الى طرح خاص لقضاياه . ومن طوابع ادب الحبابي القصصي السهولة المفرطة في الاسلوب الى درجة تصل به الى السطحية .

بين الحربين العالميتين

وهكذا نجد ان فن القصة الذي ظهر بين الحربين العالميتين قد تطور بعد الحرب العالمية الثانية كما هو واضح في مجموعتي قصص « عمي بوشتاق » لعبد الرحمن الفاسي و « فاس في سبع قصص » لاحمد البناني ، وبعد الاستقلال تتطور القصة وتتخذ اتجاهات متنوعة منها التاريخي والمجتمعي والاستلابي والتأملي والفلسفي . وتهتم على وجه الخصوص بتصوير الواقع المعاش كما يبدو ذلك في اعمال كتاب مثل مبارك ربيع وعبد الله العروى واحمد البقالي وعبد القادر السحيمي ومحمد الصباغ وادريس

الخوري ومبارك الدريبي وزينب فهمي وخناثة بنونة وعبد الكريم غلاب ومحمد زفزاف ومحمد برادة .

فهذا الجيل الثالث الذي نشأ في ظل الاستقلال غلب عليه الاتجاه التقدمي واهتم بالقضايا القومية ، وشعر بمأساة انفصاله عن الوطن الام نتيجة للظروف التاريخية المفروضة حيث ان الاتراك سيطروا على الوطن العربي كله ما عدا المغرب ومن ثم جاء الاستعمار الاوروبي ليواصل هذا الفصل . كل هذا خلق في نفوس كتاب هذا الجيل حماسا عارما لقوميتهم ووطنهم العربيين ، ويظهر هذا في شكواهم الدائمة من عدم وصول الكتب والمجلات العربية المشرقية اليهم . ويمكننا ان نطلق على هذا الجيل الاخير اسم « جيل السبعينات » ، حيث يبرز منه كما اسلفنا مبارك ربيع الذي تطير شهرته على المستويين المغربي والعربي ، فيقدم للقارىء سنة ١٩٧١ روايته « الطيبون » ثم سنة ١٩٧٦ روايته « رفقة السلاح والقمر » التي اتخذت من النضال الفلسطيني موضوعا لها .

ويأخذ النقاد على روايات مبارك التناقض في طبيعة شخصياتها التي تتسم بالحيرة والجدلية والسلبية . وتبحث عن خلاصها في الجنس والشراب والسحر ومن ثم في السياسة كمهنة . ويكون هذا الهروب نتيجة لخيبة امل شعرت بها هذه الشخصيات بعد ان عايشت الواقع وتجرعت مرارته .

ويمكن ان نشير ايضا في هذه الفترة الى « الغربة » التي نشرها عبد الله العروى سنة ١٩٧١ بعد ان كتبها في منتصف الستينات ، وهي تجربة تتقولب في القوالب التقليدية ، وتغوص في اعماق النفس الانسانية وتعيش الاحداث في اطار مشبع بالرموز والاساطير المحلية ، الامر الذي يجعل من قراءتها في بعض الاحيان امرا عسيرا .

ويمثل هذا العمل جيل خيبة الامل السائدة اثر الاستقلال . ونفس الاحكام يمكن اطلاقها على رواية عبدالله العروى الثانية الصادرة في ١٩٧٨ بعنوان « اليتيم » من حيث تفشي الرموز السحرية وقلة العناية بلغة النص .

ومن كتاب القصة الذين يبشرون بمستقبل زاهر محمد زفزاف الذي يلاحظ الاستاذ عبد الرحمن تشيرقي على قصصه عدم اعطاء الحبكة حقها من الوضوح والاثبات ، وان بناءها القصصي تشوبه بعض الشوائب كما هو الحال في مجموعته « ارصفة وجدران » الصادرة في بغداد سنة ١٩٧٤ ، ولكنه يلاحظ نضجا وتطورا في روايته التالية « المرأة والوردة » الصادرة في بيروت في نفس العام ، كما يلاحظ على روايات زفزاف اضطراب التركيب ومحاولة تطويع اللغة العربية للصيغ الفرنسية مما يؤدى الى تدهور البناء اللغوي .

عمل جماعي

وقبل ان نتطرق الى المواضيع التى تتناولها مادة المختارات لن يفوتنا ذكر ان هذا الكتاب هو عمل جماعي ساهم في ترجمته واختيار نصوصه عدد من الاساتذة والباحثين باشراف الاستاذ فرناندو دى اغريدا الذي ساعدت خبرته وعلاقاته الوطيدة بهذا الجزء من الوطن العربي على انجاز هذا العمل ، والحقيقة ان علاقة فرناندو بالادب المغربي تعود الى سنة ١٩٦٩ عندما اعد اطروحته في موضوع « فن القصة العربية في المغرب » ، ومنذ تلك الايام واصل توثيق علاقته بالموضوع ، فاصدر سنة ١٩٧٠ كتابا بعنوان « استفتاء في الادب المغربي » .

ويبدو ان الحديث عن اعداد كتاب من هذا النوع جمع في خمسمائة وتسعين صفحة من الحجم الكبير اعمالا لثمانية وثمانين اديبا تراوحت بين المقالة والقصة والشعر والمسرح أمر سهل يخفى وراءه حقيقة الجهود التي بذلت في جمع هذه المادة واختيارها ويخفي حقيقة الجرى وراء هذه المادة في المجلات العربية والاجنبية المختلفة ، حيث ان هذا الادب لا يزال في دور التطور ، ومواده مشتتة والقليل منها مجموع في كتاب واحد ، هذا بالاضافة الى ان رواد هذا الادب من الدارسين لا يزال عددهم لا يتجاوز اصابع اليد ، نذكر منهم السيد حامد النساج في كتابه « الادب العربي المعاصر في المغرب » الصادر في القاهرة سنة ١٩٧٥ ، واحمد المديني الذي نشر اطروحته للدكتوراه في بيروت سنة ١٩٨١ بعنوان « القصة القصيرة في المغرب ، نشأتها وتطورها واتجاهاتها » ، ومحمد الصادق عفيفي في كتبه : « القصة المغربية الحديثة » الصادر في بيروت سنة ١٩٦١ و « الفن القصصي والمسرحي في المغرب » الصادر في بيروت سنة ١٩٧١ ، و « النقد الادبي الحديث في المغرب » الصادر في بيروت سنة ١٩٧١ .

من المهاجرين الى فلسطين

اما مضمون الكتاب فقد دار في مجال الالتزام بقضايا الانسان على الصعيد المحلي المغربي والقومي العربي

والانساني العالمي ، حيث ان اغلب الكتاب الذين ترجمت لهم اعمال في هذه المختارات في الثلاثينات من العمر وخاصة كتاب القصة والشعر والمسرح ، اما المقال فهو اعرق تاريخا . والمختارات تؤكد خروج هذا الادب الى الحياة العامة ومعالجة الواقع وعدم التوقف عند الموضوعات التقليدية والتركيبات الجامدة .

وفي هذا الاطار احتلت الموضوعات المتعلقة بالاواصر العربية الاسبانية ، قديمها وحديثها ، وبقضايا العرب المصيرية ، وهموم الانسان على الصعيد العالمي مكان الصدارة . حيث ظلت الاندلس وفتوحاتها العظيمة مهيمنة على جزء كبير من الكتاب ، ضمن المقالات نجد « معركة وادى المخازن » التي انتصر فيها المسلمون العرب على الملك دون سيبستيان ملك البرتغال واسبانيا سنة ١٥٧٤ ، والمقال كتبه عبد المجيد بن جلون المتوفى سنة ١٩٨١ م . ومن المقالات ايضا نجد « الفردوس المفقود » لمحمد الخطابي . اما في مجال القصة فقد حظيت الاندلس بعدد من القصص نذكر منها على سبيل المثال : « غادة سبتة » لعبد الرحمن الفاسي وهي من مجموعته « عمي بوشتاق » وتدور احداثها اثناء فتح طارق بن زياد للاندلس . وايضا قصة « طارق الذي لم يفتح الاندلس » لمحمد المستاوى وهي من مجموعته التي تحمل نفس العنوان ، وهي من انضج القصص رمزا ومن اوضح الدلائل على ان الكاتب المغربي كان يلجأ للاندلس هروبا من واقعه المؤلم ، وفي مجال المسرح نجد لحسن الطريق مسرحية شعرية بعنوان « وادى المخازن » .

وقد حصلت اسبانيا المعاصرة على نصيبها في هذه المختارات ، فمما خصص لها قصيدة احمد بن ميمون : « خروج قلب بيكر من اشبيلية » التي يتحدث فيها عن الشاعر الاسباني ادولفو غوستابو بيكر (١٨٣٦ ـ ١٨٧٠) وقصيدة « موت لوركا » لمحمد الصباغ وقصة عبد القادر السميحي « بيكاسو الصغير » التي تتخذ من الطفولة الخلاقة موضوعا لها .

واتخذ النضال التحررى الوطني مكانه ، فخص عبدالكريم الخطابي باعمال نذكر منها قصيدة عبد الكريم الطبال بعنوان « عبد الكريم » وفيها يعقد مقارنة بينه وبين عبد الكريم ليخرج من ذلك الى مقارنة عصره باعتباره عصر عجز وظلم وذل وخضوع ، بعكس عصر الثورة والانطلاق والكرامة والاباء الذي يمثله عبد الكريم رغم وجود الاحتلال . وقصيدة الحسين القمرى « عبد الكريم الخطابي » . كما خلدت هذه المختارات معركة انوال التحريرية التي خاضها الثوار المغاربة سنة ١٩٢١ ضد الاحتلال الاسباني بقصيدة « انوال » لمحمد الحبيب الفرقاني .

اما معاناة المواطن المغربي في المهجر فتصورها قصيدة الطاهر بن جلون بعنوان « المواطن » وهي من ديوانه « دون ان تعلم الذاكرة » الصادر بالفرنسية في باريس سنة ١٩٨٠ ، حيث العامل المغربي المسحوق المشرد في العواصم الاوروبية يلتقي بفتاة طالبة من بلده فيدعوها للتحدث معه وعندما تقبل دعوته يهم بان يدفع لها ثمن موافقتها تماما كما يفعل في المواخير ، حيث كل شيء حول هذا العامل قد فقد انسانيته وضميره ، فاصبح يتصرف حياله بصورة آلية .

ومن الموضوعات التي تضمنتها المختارات موضوع القضية القومية التي لم ينسها الكاتب المغربي ولو للحظة واحدة ، وظلت هذه القضية حاضرة في ذهنه يعيشها بكل جوارحه ومشاعره ، فكلما داسه الزمن بمنسمه او صفعه القدر بجبروته وغطرسته ، رجع مباشرة الى اصول مأساته مشيرا الى ان الحل والخلاص لا يأتي الا بالقضاء على مسببات هذه المأساة . ومن هنا خص الكاتب المغربي هذه الاصول متمثلة في فلسطين الارض والانسان بعيون اعماله الابداعية ، ومن هذه العيون جمعت المختارات نماذج نذكر منها على سبيل المثال مقال محمد التازى « دور الادب المغربي في مواجهة الاستعمار والصهيونية » وهو جدير بالقراءة لانه يعطي خلاصة لهذا الدور ويؤكد على عمق احساس ادبائنا في المغرب بالخطر الذي يهدد قوميتهم وعقيدتهم ، وكذلك من الموضوع الفلسطيني في الادب المغربي نود ان نذكر بقصيدة عبد السلام الزيتوني « رسالة الى فدوى طوقان » حيث يؤكد الشاعر على انه رغم كل العقبات المفروضة ، وانه مهما ازداد ظلام الواقع حلكة فان يوم الخلاص قريب ، وان الانسان العربي سينطلق من اعالي الاطلس الى ضفاف الفرات ليغسل ترابه من عار الهزيمة والخنوع والتبعية ، ويطالب الشاعر شعبنا في ظل الاحتلال الصهيوني ـ ممثلا في شخص الشاعرة فدوى طوقان ـ بألا يفقد ايمانه بأنه . ■■

د . محمد عبد الله الجعيدي

استاذ بقسم الدراسات العربية والاسلامية ـ كلية الآداب ـ جامعة مدريد

صلاح ستيتيه والخيام

بقلم : أحمد عبد المعطى حجازى

سألني صلاح ستيتية بعدما أطلعني على ترجمات مخطوطة لبعض قصائده : هل تجدها شعرا عربيا ؟

لكن القارىء لن يفهم السؤال ولن يتابع الاجابة الا اذا تعرف أولا على الشاعر .

صلاح ستيتية شاعر لبناني ذو أصول عربية اسلامية قوية . لكنه تلقي ثقافته المنظمة باللغة الفرنسية التي صار الآن واحدا من شعرائها المعدودين ، مثله مثل مواطنه جورج شحادة وان اختلف عنه في نواح اساسية . فجورج شحادة يبدو في شعره ، وحتى في حياته ، طبيعيا ومنسجما داخل اطار الحضارة الاوربية مع مذاق شرقي خاص ، فهو شاعر فرنسي يحتفظ بجنسيته اللبنانية . بينما يبدو لي صلاح ستيتية اقل انسجاما او اكثر قلقا ، فهو شاعر يعبر باللغة الفرنسية عن وجدان عربي اسلامي مع مذاق اوربي خاص . وجورج شحادة يكبر صلاح ستيتية بما يقرب من عشرين عاما ، فهو ينتمي الى جيل الشعراء الذين ظهورا في اواخر الثلاثينات واوائل الاربعينيات مثل جان فولان ، وجيفيك ، وماتديارج وغيرهم ممن ظلوا محافظين بدرجات متفاوتة على القيمة الغنائية وعلى التركيبات النحوية المألوفة للجملة الشعرية ، رغم عصريتهم وتنوع اتجاهاتهم الفنية والمذهبية . اما صلاح ستيتية فينتمي للجيل الذى بدأ ظهوره في الخمسينيات مثله مثل ايف بونفوا ، وميشيل دوجى وغيرهما ممن اتجهوا الى تحطيم التركيبات المألوفة وخلق لغة جديدة يمتزج فيها التحرر بالزخرفة ، والشعر بالفلسفة ، وهذا هو التيار الذى حاول صلاح ستيتية ان يحقق فيه شخصيته الخاصة كشاعر عربي مسلم يكتب بلغة اجنبية .

انه في اطار هذا التيار يستطيع ان يكتب بالفرنسية ، لكنه يكتب بفرنسية شخصية تحاول التحرر من ميراثها الاوربي الخاص ، وتسمح له بان يحملها شيئا من ميراثه القومي المتميز . من هنا يأتي شعر صلاح ستيتية كثيفا غامضا على الرغم من نداوته ، وهو لايخلو من بعض العناصر الزخرفية رغم خياله البدائي او الاسطورى .

هذه الصيغة اللغوية الخاصة تستند الى صيغة فكرية تماثلها . فصلاح ستيتية يتبنى الفكرة التي تقول بوحدة الحضارات وبأصولها الدينية الشرقية التي يعتقد انها مازالت حية الى اليوم ، وهو يجد في تاريخ البحر المتوسط التجسيد الأمثل لهذه الفكرة التي تمنحه حق المواطنة في الشعر الفرنسي وان يكن عربيا مسلما . ومن هنا

وصف الشاعر والناقد الفرنسي الان بوسكيه لشعره اذ يقول انه « في نقطة اللقاء بين شعر اوربا المسيحية وشعر العرب ، هو فن البيت حيث الكل يسطع ، باحتجاب وغموض » .

تلك هي باختصار الملامح الأساسية لهذا الشاعر الذي صدرت اخيرا عن دار الآداب ببيروت ترجمة لمختارات من قصائده ، قام بالجانب الاكبر منها شاعر عراقي شاب هو كاظم جهاد ، وقام الشاعر ادونيس بالباقي ، وسوف أعرض نماذج من هذه الترجمة مع بعض ملحوظاتي ، تمهيدا للاجابة عن السؤال الذي سألني اياه الشاعر والذي افتتحت به هذا المقال .

○

لا يستطيع أحد ان يقلل من قيمة المجهود الذي بذل في هذه الترجمة التي تصدت لشعر صعب يستمد قيمته قبل كل شيء من لغته التي كتب بها في الاصل ، وهذا ما دفع كاظم جهاد الى ان يضيف للقصائد التي ترجمها مجموعة من المقالات التي تعالج شعر صلاح ستيتية لتكون للقارىء العربي عونا على تذوقه .

لكن الترجمة رغم المجهود المبذول تبدو مفتقرة الى خطة واحدة ، وربما كان السبب انها من عمل مترجمين اثنين ، يجتهد احدهما ـ وهو كاظم جهاد ـ في ان يكون أمينا مع لغة الشاعر الأصلية لدرجة النقل الحرفي ، ويجتهد ادونيس في ان يعالج عيوب نقل الشعر من لغته الأصلية باضافة شاعريته الى النص المترجم ، فيبتعد عن الاصل قليلا او كثيرا . بل ان المترجم الواحد منهما يسير على اكثر من خطة .

فكاظم جهاد ينقل السطور أحيانابهيئتها التي كانت عليها في الاصل ، فاذا كان الشاعر يفصل في النص الاصلي بين الكلمة وأداة تعريفها فعل مثله في الترجمة :

اللبل هابط على قنديل ، والـ
لغة لها جلد في هذا القنديل

والمترجم يشير الى ذلك قائلا (القطع الممارس هنا على بعض الكلمات يعكس بالطبع اجراء مماثلا يمارسه الشاعر في الفرنسية) . لكن المترجم لايراعي هذه القاعدة دائما ، واذا كان يلتزم غالبا بنقل لغة الشاعر الى العربية بدلا من تعريبها كما يفعل ادونيس ، فهو يلجأ احيانا اخرى الى التصرف كترجمته كلمة **le manque** (ندورة) ، مبتعدا عن المقابل الدقيق للكلمة الفرنسية وهو النقص او الانعدام ، ومحرفا كذلك الكلمة العربية (ندرة) . ولولا مخافة التطويل لقدمت أمثلة أخرى .

أما ادونيس فقد لجأ الى التعريب فحافظ بقدر امكانه على شاعرية بعض النصوص ، لكنه التفت الى الصور والعبارات في انفرادها واستقلالها اكثر من التفاته اليها في علاقاتها ووحدتها ، وربما كان السبب افتراضه استحالة المعنى في هذا الشعر الطليعي الصعب او عدم اهميته . ومن هنا جاءت بعض النماذج في ترجته مرتبكة ، وهذا واحد منها اقدمه متبوعا بالنص الفرنسي :

إنها الأب والأم
تهتف لها النار
واشكالها حين تعانق النار النار
هنا ، الوداع قاحل : أية ثمار
وستأتي وتمتزج بثمار أخرى
تطلق الاب وتطمئن الرمل
أيتها الأم بسيفها
الذي يناهض الرحم القاسية ، خام هو الطفل
قبل الروح ، كانت النار تصرخ داخل النار

Sont le pere et la mere
Acclames par le feu
Et ses figures
quand le feu etreint le feu.
Ici adieu aride : quels fruits
Viendront se melanger a d'autres fruits
Calmer le sable et delier le pere ?
O mere avec l'epee
Contre le beau sein dur l'enfant cru :
Le feu avant l'esprit criant dans le feu

انئا بشيء من التروي نكتشف ان هذا النص الذي يبدو لأول وهلة عديم المعنى أو شديد الغموض ، انما يتحدث بلغة خاصة عن الشهوة ، والخلق ، والعذاب . وفي هذا الضوء يمكن ان نقرأه كما يمكن أن نترجمه ترجمة أقرب الى الدقة .

ان كل كلمة في هذا النص يمكن ان تترجم بواحدة من عدة كلمات عربية ، والمعنى الشامل هو وحده الذي يعين الكلمة الاوفق . كلمة **aride** ، مثلا تعني جاف ، وقاحل ، وعقيم ، وبارد .. وقد اختار منها ادونيس كلمة (قاحل) ربما بسبب مجاورتها للكلمة التي ترجمها بكلمة (ثمار) . لكن كلمة (عقيم) تتفق اكثر مع معنى النص . وعبارة **le beau sein** ، ترجمها بكلمة (الرحم) مع ان المقابل الصحيح والبسيط هو النهد او الثدي . وعبارة (الطفل الخام) اغمض من ان تعبر عن الجنين الذي لم يتكون . وهكذا انساق ادونيس في غيبة المعنى الى المقابل البعيد ايثارا للاغراب والادهاش . واذا كان لي ان اقترح بعض التعديلات على هذه الترجمة فها هي :

الأب والأم
تهلل لهما النار
وصورها حين تعانق النار النار

هذا الوداع عقيم ! اية فاكهة

ستأتي وتمتزج بفاكهة اخرى

تهدىء الرمل وتحرر الأب

أيتها الأم بالسيف

تجالد ثديها القاسي وطفلها الجنين

والنار ، قبل الروح ، صارخة في النار

●

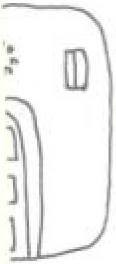
قلت لصلاح ستيتية ردا على سؤاله : اما ان هذا شعر فهو كذلك ، واما انه شعر عربي ففي النفس منها شيء !

قال لي : الا ترى ان الترجمة العربية لرباعيات الخيام قد دخلت التراث العربي ؟

قلت : ولكن الخيام كان يكتب بالفارسية وهي لغة من لغات الحضارة الاسلامية . وهو يتناول الموضوعات التي كان يتناولها الشعراء العرب والمسلمون عامة ، فيتحدث عن الخمر واللذة والطبيعة والخوف من عقاب الآخرة والرجاء في عفو الرحمن . وقد اتيحت لشعره ترجمات مختلفة منظومة ومنثورة ألحت على القارىء وتأدت اليه حتى فتح لها باب تراثه . فعسى ان يتاح لشعرك في العربية ما أتيح لشعر الخيام . □□

باريس ـ أحمد عبد المعطي حجازي

قصة قصيرة



الدوامة

بقلم : فاروق خورشيد



هل تصدق . . ؟ أو لا تصدق . .

لم أستطع أن أكتب حرفا واحدا ، الورق أمامي وحولي ، أكثر من عمل ينتظر كلمات ليمضي في طريقه . وأنا عاجز عن كتابة هذه الكلمات التي يمكن أن تنهي واحدا من الأعمال الناقصة ، المتراكمة حولي ، الليلة ملأني احساس مر بأنني متعزل عن الحياة والناس ، وبهذا فلن أستطيع أن أكمل أي عمل يتحدث عن الحياة والناس . .

خرجت من بيتي في وقت متأخر ، وغريب طبعا أن النقود التي معي كانت تكفي سهرة ضخمة ، أو عدة سهرات متواضعة . . وكنت محتاجا الى هذه النقود ، ولكن احتياجي الى أن أجد نفسي كان أكبر . . فمتى أحتاج الى النقود ؟ . . ان الأولاد يريدون ، وان الأسرة تريد ، وان البيت يريد . . فأنا نفسي لا احتياجات لي . . ربما كنت أبالغ بعض الشيء ، ولكن البنت تريد لي أن أحجز لها شقة في عمارة جديدة تبنيها جمعية تعاونية ، والولد ، يريد أن أجمع له ألفين من الجنيهات ليشتري (شبكة) خطيبته ، فهكذا قررت أم الخطيبة ، بل هكذا قرر أبوها أيضا ، وهو ثري متمكن ، من أثرياء عصر التمكن والقدرة . . ولكنه يريد لابنته أن تحصل على أعلى شبكة يمكن أن يقدمها شاب في سنها ، مهندس حديث التخرج - والمصيبة - مجند في الجيش أيضا ، وكان هذا يعني أن أتولى أنا عنه دفع هذه الكفالة ، التي تؤهله للحياة الزوجية التي يريدها صهره ، وبيت خطيبته معا . .

أما الولد الأصغر فهو شغوف بالفروسية ، ولهذا فهو عضو في أكثر من ناد ، ويخصص جزءا من نشاطه الرياضي للخيل ، وهو يركب الخيل ، ثم يشتري أدوات ركوب الخيل ، وملابس ركوب الخيل ، ومستلزمات الدخول في فرق المنافسة على بطولات الخيل ، ثم . . هو يقبع في حجرته ، يدور حول نفسه ، ويسمع آخر ما أخرجته أشرطة الكاسيت من أغان ويسهر ، فينسى موعد المدرب ، وموعد الخيل ، وموعد النادي ، أي ناد ، المهم انه ينسى وينام والسلام . .

وأمهم . . ماتت أمها منذ فترة صغيرة ، فهي مشغولة تماما ، يوم الخميس وصباح الجمعة كل أسبوع - ولم أكن أعرف من قبل أن أيام الخميس ، وان صباح الجمعة له كل هذه الأهمية المقدسة ، التي تكاد تدخل حيز الطقس الديني المهيب ، الا بعد وفاة حماتي ، والا بعد اهتمام زوجتي المستمر كل خميس بالذهاب الى بيت أختها حيث يجتمع النساء والرجال من أبناء الأسرة ، والأقارب المقربين ، والأقارب الأكثر بعدا ، وحيث تصبح المسألة تضاربا بين أهواء بعض الرجال ، وذكاء بعض الاناث اللابسات السواد ، والقرآن يقرأ ، والطعام يقدم ، والحديث يدور ، مرة صريحا واضحا ، ومرة مهيبا تكتمه العيون والتلميحات ، والوعود الغامضة . . ويمضي الشيخ



الشاب في حجرة منعزلة يقرأ بعض السور ، وأمامه من حين الى حين ماء ساخن أذيب فيه السكر ، وفي حين آخر كوب شاي .. وبين كل هذا تتسلل اليه أقداح القهوة ، وهو ماض يجيل ببصره في الموجودين ، ويبسمل ويحوقل ، ويسمع كل ما يدور من حديث ، ثم يستأنف قراءته المنغمة ، وعيناه تدوران في كل ما حوله ، وجوه الرجال المشدودة ، وأحليتهم اللامعة ، ووجوه النساء المنكسة ، وأرديتهن السوداء ، ورموشهن المريضة .. ويرقب في صمت ، الأحاديث والكلمات ، والضحكات ، ثم يخرج عن صمته بآيات أخرى ، تعيد الى الكل وقاره وهدوءه الى حين ... وحين يسكت الشيخ تتحدث العيون فترة ، ثم الكلمات ثم تنقلب الكلمات الى شيء صريح ، ربما كان ثمة لمسات عابرة ، وربما كانت فيه حكايات محسوبة .. ولكن الكل يمور في حياة كاملة لا علاقة لها بما يقرأ ، ولا بما يرتل ، ولا بما يشرب من سكر أو شاي ... وبعد حين يعود الى القراءة ، وقد انجلى صوته ، وأصبح بصره حديدا يرى ويرصد ، ويسكت ، ولا يتكلم .. فبعد حين قليل تحمل له الحاجة ، أطباق الطعام متتالية ، ثريد ولحم ، وخضار ولحم ، وأرز ولحم .. المهم ان اللحم كثير ، وأنه مطهو بأكثر من طريقة ، وله أكثر من طعم ، ويأكل ويصمت ، ويحوقل ويبسمل ويسكت ، واللحم أمامه يكسوه سواد ، وبراق لامع .. وحوله كلمات رجال ، وأحداث اذ تتحرك أقدام رجال ، ثم تتلون وجنات رجال ، وتدور كلمات غريبة بعضها يفهمها ، وبعضها لا يعنيه أن يفهم منها شيئا ... فقط يده تتحسس قطع اللحم على الثريد ، أو وسط صحن الخضار ، أو فوق الأرز .. لحم يا سيدي ، يا مدبولي ، ويأكل ويملأ فمه ، ويقول وسط الميرات ..

ـ ما شاء الله .. سبحان الله .. أعزكم الله .. رحم الله موتانا وموتى المسلمين ..

ثم ينسى نفسه ، ومن حوله في غمرة الدسم والمرق ، ونسل اللحم ، وأشباه الطعام ... وينتهي ذات خميس ، ليبدأ ذات خميس . والعلاقات تزداد تشابكا ، وشيخنا يزداد شحما ، والقرآن يخرج من فمه أكثر تثاقلا ، ويدور الليل ، ويدور ... واللحم يزداد أمامه ، أكثر دسما ، أكثر لمعانا ..

هل تصدق .. صدق أو لا تصدق ..

فأنت حر فيما تأخذ وتدع ... في القطار ، قطار الضواحي اللي أركبه من منزلي لأصل الى وسط البلد ، قال صعيدي ملتحف بملاءة قديمة ممزقة ، مليئة بالبقع ، لصديق له جالس القرفصاء على أرض العربة في القطار .

ـ لماذا أشتغل في العريش في سيناء ، أخرج من أسوان ، الى آخر العالم ، مقابل جنيهات لا معنى لها ، هناك شيء اسمه التأمين الاجتماعي يا أخ ، منذ أسبوع مرض عبد الموجود ، أو هكذا ادعى في المصنع ، عشرة أيام ، أخذ عنها عشرين جنيها كاملة ، أي اليوم جنيهين ، فلماذا الفلسفة والسفر وغيره ، اذا تعبنا مرضنا ، وأخذنا التأمين .. ثم صمت وضحك ضحكة جلجلت في العربة كلها ، وهو يرفع طرف جلبابه بيده ، وقال :

ـ لقد انتهت أيام « التكلة » يا عبد العال ، وما لازمته ؟ .. القرش هو كل شيء ، أتعرف أمجد بن الحاج مندور ، تخرج وكيل نيابة ، يذهب في الصباح ، نصف ساعة ويمضي ، ثم يخرج ، ويعمل في العصر والمساء محاميا لشركة ، خط في الشركة ، لماذا تريد محاميا بالله عليك .. ولكنه يقبض من الشركة مائة وعشرين جنيها ، وهو في الصباح يقبض من وكالة النيابة ، ستين جنيها ، حظ .. بمجرد يوقع على الحضور ، ثم يوقع على المحاضر ، ويسرع الى الشركة ... وهناك لا يفعل سوى ما فعله في الصباح ، ولكنه يقبض مائة عشرين جنيها ويعد ساعات ينتهي اليوم . وأقعي مستمعه على قدميه وهو يلف ملاءة صعيدية قذرة وقبعته فوق كتفيه ويقول في لهجة الواثق العارف المتأكد :

ـ وماذا يأخذ ؟ .. لا شيء ، الآن لا عبرة بهذه المبالغ يا أخ ... الواحد يكسب في اليوم ستة جنيهات لمجرد أنه مقيد اسمه في مقاولة ، اشتغل أو لم يشتغل المبلغ تمام ..

قال الأخ الأول وهو ينظر حوله في تحد واضح :

ـ كان معي في الغيط ، ولكنه ضيع نفسه في المدارس ... ننزل في محطة السيدة زينب . ورفعت عيني فرأيت ، (الكمساري) يتقدم نحونا وهو يضرب على خشبة مليئة بالتذاكر ويصيح في رتابة :

ـ تذاكر ..

وعرفت لماذا انقطع سيل الحديث المتدفق فجأة ، وتحول عن مساره .

ومددت يدي الى الكمساري بالتذكرة ، ومزقها في صمت ، ثم التفت الى الراكبين من الصعيد وقال :

ـ تذاكر يا بلديات :

وقال الأول :

ـ التذاكر معنا ، صبرك

ـ وقال الثاني :

ـ كم ثمن التذكرة من دار السلام .. ؟

وهز الكمساري رأسه في صبر وقال :

ـ معكم أم ليست معكم ـ التذاكر ..

قال الأول :

ـ يا بلديات ، الله كريم .

قال الكمساري في صبر :

ـ ثمن التذكرة ، وزيادة غرامة الأولى يا بلديات .

صاح الثاني في فهلوة :

ـ يا بلديات نحن لا نجلس على الكراسي ..

وبدأ صوت الكمساري يحمل غضبا خفيا ..

ـ هنا درجة أولى يا محترم ، ادفع أو اذهب الى الدرجة الثانية .

صاح الأول في ضراعة :

ـ كلها محطة .

وقال الكمساري :

ـ تدفع أو تذهب الى الدرجة الثانية ..

قال الثاني في شهامة :

ـ بل يدفع يا عم ... هو المبلغ كم .. ؟

وانصرفت عنهما الى النافذة ، تأكل في جريها السريع الخضرة والمساكن والناس أكلا .. وتمضي .. نعم أنت حر فيما تأخذ ، حر فيما تدع .

كانت الكأس الأولى حريفة ، وأكلت الثانية معها في صمت والبارمان يقول :

ـ لم تزرنا يا بك من زمن طويل ..

وعرفت أنه لم يغش الكأس ... وشربت جرعة ماء مثلجة وابتسمت وأنا أقول :

ـ لم أكن هنا ، كنت في الخارج ..

قال جابر وهو يمسح البار في دأب واصرار رغم أن سطح البار نظيف تماما ..

ـ حمدا لله على السلامة ، العالم نظيف بره ..

قلت :

ـ العالم أنظف هنا ؟

ولم يفهم ، فقط التفت الى زبون يطلب كأسا فملأه له ، ونظر الي نظرة تائهة ، وابتسم ابتسامة لزجة وهو يقول :

ـ كأسك تمام يا بك ..

قلت :

ـ تمام يا جابر

وأخذت أتابع ما حولي في صمت وأنا أنهي كأسي في بطء واصرار ، لم يعد في البار أحد أعرفه ، ولكن هناك بيك اشتري زجاجة أخرى كاملة وفتحها وسط صديقتين ، والبارمان سعيد ، يكدس الثلج ، والنابت والخس ، وهو يملأ لصديقتيه ويشرب ، ويتكلم ، وهما

يسمعان :

ومن ورائي تماما جاء صوت أجش يقول :

ـ اشرب كأسا يا جابر . . ؟

وزوى جابر ما بين حاجبين وقال :

ـ نعم . .

ثم مضى عنه الى آخر البار يملأ كئوسا ويضع فيها ثلجا ، ويكتب حسابا ، ويرفع صوت الراديو . . . ويمسح بقعا غير موجودة على سطح البار ، والرجل بجلبابه البلدي وكرشه العريض ، ووجهه الأصم ما زال واقفا ، وكلمات تعود هادئة لا طعم لها . .

ـ اشرب كأسا يا جابر . .

ويهز جابر البارمان كتفيه في استسلام وهو يقول :

ـ طبعا .

ويمد يده الى زجاجة الروم يملأ منها الكاس ، ثم يمد يده الى صاحب الكرش العريض وهو يقول :

ـ كأسك يا معلم . .

ويأخذ (المعلم) الكأس وينسحب الى ناحية من جدار يسند اليها ظهره . . وأشرب رشفة من كاس ، ثم أغسل الخس وآكل ذرعا منه ، بينما يقول اليك الى جانبي :

ـ تصوروا « محسن » اللذي ربيته وأوصلته الى مدير عام ، يرفض طلبا لي اليوم ، شيء مخيف ، ويرفع كأسه ، فيرفع معه الصديقان الى جواره كأسيهما ويشربان . . ويهزان رأسيهما في أسى وحزن . . بينما يرتفع صوت فيه لكنة عند ناصية البار الأخرى صائحا :

ـ هات له كأسا ، هات للمعلم كأسا أخرى . .

والتفت ، كان صاحب الكرش العريض والجلباب البلدي قد أنهى كأسه ، ورفعها في يده ضارعا في احتجاج صامت ، وعاد صاحب اللكنة المخمورة يقول في صياح :

ـ هو البواب يا أخي ، حارس البيت ، لا بد أن يشرب ، هات له كاسا . .

وانفعل جابر وصاح من مكانه خلف البار :

ـ هذا عيب يا سيد . .

وصاح صاحب الصوت اللذي أصبحت كلماته لا تشوبها أي لكنة :

ـ عيب لماذا ؟ هو الحارس ، وهو صديقنا يا أخ . .

وقلت لجابر :

ـ حسابكم كم . .

ونظر الي في تعاسة ، ووضعت النقود في يده وانصرفت . .

وكان هواء الليل نقيا ، وكنت أنا كذلك . . . هل تصدق ؟ . .

ويقول ضابط المخابرات السابق وفي عينيه لمعة صاخبة :

ـ لم أرك منذ زمن يا حلوة .

تقول في استكانة ، وشعرها يتموج فوق البلوزة السوداء ، وفي كلماتها موسيقا ونغم :

ـ أنت لم تسأل يا انكل . . .

ويتف كذكر البط ، ويتجاهل (انكل) وما تعني



تماما . . . ويمد يده الى شاربه يعبث به في اعتزاز :

ـ الغلطة غلطتنا . . . لا بد أن نتزاور . .

وتصيح زوجته من ورائه :

ـ يا حميد ، انتهى العزاء ، وهيا بنا .

ويتراجع ، وتتردد كلماته ، ولكن لمعة عينيه لا تنطفىء ، والفتاة أمامه ، هزة جسدها خلف البلوزة لا تتوقف ، ويقول :

ـ هذا واجب ذكرنا العزاء به . . ولا بد أن تزورينا فنحن أهل . .

وتصرخ الزوجة :

ـ هيا بنا وكفى ، فقد أدينا الواجب .

وتخفض المرأة الصغيرة رأسها ، وشعرها المتماوج تغطيه غلالة سوداء رقيقة يهتز ، وهي تقول في خفوت :

ـ نحن تحت الأمر رقم هاتفنا معك . .

لعلك صدقت ، وان لم تصدق فأنت حر . .

في البار الثاني قال سعيد . . وهو سمين عند الوسط ، وبليد عند الحركة ، وذكي عند لمحة العين وحركة اليد :

ـ أول مرة نراك هنا يابك . .

ويصيح من ورائي صوت مشروخ أجش . . :

ـ لا البيك رأيناه من قبل ، ولكن لنا زمان لم نره . .

وصاح شاب من آخر البار :

ـ يا حسن يا كفتة ألا تنسى وجها رأيته . .

وقلت :

ـ وأنا أمد يدي الى كأسي الجديدة في البار الجديد

ـ أنا أعرفه وهو يعرفني ، من زمن كنا نشرب معا هنا وهناك . .

صاح بصوته الخشن السكران :

ـ تمام يابك من زمن ، يا زمان على الرجال ، أنت لا بد سافرت وذهبت الى هنا وهناك ورأيت الدنيا والناس ، ولكن نحن هنا كما تركتنا نشرب البراندي ونسكر ونبحث عن الكلمة الحلوة :

ثم سكت واقترب مني مهتزا ، ووضع يده على كتفي وهو يقول :

ـ حمد الله على سلامتك . .

ولم يكن الوجه غريبا عني أبدا ، فلا شك أنني رأيته في عشرات البارات التي كنت ارتادها من زمن ، ولم أكن سافرت ، الا ان كانت العزلة لغزا ، ولكني كنت أحس أنني غريب بالفعل . . . وقال صاحب الصوت الأجش :

ـ لا خوف منه يا سعيد فهو على ضمانتي .

وابتسم في كرم ، وعاد الى مقعده ، وامتدت يدي الى كأسي ، وامتدت يدي الأخرى الى صحن الترمس . . وغصت في داخلي . . وداخلي يمور بالضيق . . هل أصبح من الضروري أن أخوض اختبارا بنجاح حتى يسمح لي بدخول مثل هذا المكان . . . ألم تصدق . . لو أحببت أن تصدق . . . وقمت ، وتثبت ، فالولد يخطب والبنت تريد الشقة ، الثالث يركب الفرس ، والنقود لن تزيل همي الليلة وهم أولى بها . .

قالت المرأة في القطار :

ـ أنا متعبة يا عالم . . أليس في الرجال شهامة . .

وقام ولد من مقعده ، معروقا مصفرا هزيلا وقال لها :

ـ تفضلي . .

وتقدمت كالمحمل ، مليئة شحيمة مفتاجة وجلست ، ووقف الولد المعروق . . وقال الصعيدي :

ـ استغفلته يا بلديات . .

وقال صاحبه يغلق الحديث :

ـ هل يظن نفسه شهما ، فمالك أنت . .

قال الأول :

ـ أبدا ، وأنا مالي يا بوي . . كل حمار يحمل مكلته ، ويرضى به . .

ولم أفهم . . ولكن حركة القطار . . الرؤية صرفتني عنها . .

في الغد . . . تجتمع الأخوات في المدافن ، كل واحدة تحمل قرصا وملحا وبرتقالا ، وتوزع الرحمة ، وتبكي وتنوح . .

امرأتي وحدها تجلس في صمت ، في سوادها الكئيب تتلو القرآن تبكي ، برزت عروقها وتحطمت حيويتها ، وهدها الحزن . .

الطبيب قال :

ـ ابعد الكلاب ، الكلاب تحمل مرضا داخليا تنقله الى من يباشرونها من الناس فتهزلهم ، وتحطم حيويتهم . . ولكني جبان . . . لم أقل لها شيئا . . . وهي تعطف على الكلاب ، أي كلاب . . . كلابها ، والكلاب الضالة ، من ذوي القربى . .

وهل أجرؤ . . الصمت خير منجاة من لسان لم يكف حتى أخرج من جلدي . .

هل تصدق . . . صدق أو لا تصدق . .

منذ عدت بعد جولتي التعسة ، وأنا عاجز أمام الورقة والقلم ، أنظر في صمت الى أعمالي الناقصة ، مجرد كلمات تدفع عملي فينتهي ، ويريحني لألتفت الى غيره . .

ولكني عاجز عن الكتابة ، ويملؤني الاحساس بأنني عاجز ومنعزل عن الحياة والناس . .

ومهما خرجت عن دائرة وجودي ، فأنا محصور في هذه الدائرة ، ولا فكاك منها ، ولا كلمات عنها . ولا أنا قادر على الانفصال والعودة الى التقاط حروق جديدة ، لكلمات جديدة □□

فاروق خورشيد



حين اتجهت الثقافة الى امتداح الماضي ، اصبحت ثقافة أثرية »

مالك بن نبي

والدعوة للإنتقال من التكديس إلى البناء

بقلم : عمر كامل مسقاوي

التعرف على فكر مالك بن نبي ، لم يتيسر لي فقط من خلال كتاباته الفنية واللامعة ، وانما تحقق وبالدرجة الاولى من تجربة ومعايشة شخصيته ، اتاحت لي ان اقف على عمق رؤية هذا المفكر الاسلامي الفذ . *

ففي الفترة ما بين عام ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٠ وكنت اذاك طالبا في القاهرة ، عرفت « مالك بن نبي » وافدا الى مصر يحمل كتابه بالفرنسية « الفكرة الافريقية الآسيوية » وقد صدر في سلسلة « اخترنا لك » .

وكان ان تحدثت عنه مجلة « روز اليوسف » في لقاء مع احد محرريها الدكتور مصطفى محمود ، فلفت انتباه صديق لي من المغرب هو الدكتور عبد السلام الهراس (استاذ الادب الاندلسي حاليا في جامعة فاس) ، وكنا اذ ذاك صحبة دراسة نتقاسم السكنى ونسر النجوى في موغل الآمال ثم نتلقف الجديد استشراف فضول .

هكذا وصلنا الصديق المغربي بالمفكر الجزائري مالك بن نبي يحمل قضيته ومنهجيته في الحديث فاستقمنا لها سمعا واستقامت لنا خطة ادراك .

واذ يبلغ بعضنا بعضا حديث مالك بن نبي في ندوات نعقدها كيفما اتفق ، فقد كثر الوافدون من طلاب البلاد العربية والاسلامية ، وبدت الحاجة الى كتاب في العربية نقرؤه وترتسم في مفاهيمنا قواعده اعمق واقوى ، وبدا لمالك ان يطور في وسائل لايضاح وهو يشرح لنا كتابه « شروط النهضة » بلهجته الجزائرية نقلا عن النص الفرنسي الصادر عام ١٩٤٧ فاضاف اليه من الفصول الجديدة . .

هكذا غامرت في مهمة لم تكن بعد اهلتني اليها معارفي الذاتية فعكفت باشراف الأستاذ مالك على اخراج كتابه الاول بالعربية « شروط النهضة » عام ١٩٥٧ اخراجا في الاسلوب فقط فيما تولى هو نقل النص عن الفرنسية . . .

ولقد توثقت بيني وبينه اواصر الصلة الفكرية والروحية معا ، ووجدتني على غير تأهب منغمرا في مجالس مالك بن نبي بعدها تناقل الناس « شروط النهضة » بالعربية وعليه اسم ذلك الطالب والمترجم معا . . .

● النص القاه الكاتب في محاضره بجامعة المقاصد الاسلامية في بيروت

مشكلة حضارة

ولد مالك بن نبي عام ١٩٠٥ في مدينة قسنطينة في الجزائر . وكانت مراحل دراسته الابتدائية والثانوية بين تبسه وقسنطينة كما يروي في كتابه « يوميات شاهد القرن » ثم انتقل الى باريس حيث تخرج عام ١٩٣٥ مهندسا .

لقد حمل معه الى باريس ـ وهو بعد ما يزال في سن الدراسة ـ احساسه العميق بمشكلة ابن المستعمرات ، وبدلا من ان يأخذه الانبهار والشعور العميق بالاحباط ، اخذ يتتبع بمنهجية تاريخ الحضارة الاوروبية : ذلك التاريخ الذي اورث ما سماه « الحالة الاوروبية » وقد اناخت بثقلها على مسيرة الانسان في العالم الاسلامي ، حينما استقالت الحضارة الاسلامية من التاريخ ، بعد زوال دولة الموحدين في المغرب .

هكذا غرق المجتمع الاسلامي بعد تلك الفترة في العدم ، واسلم نفسه لنوم عميق نسي فيه تراثه وفكره ، فيما كانت الحضارة المسيحية تنطلق اثر انتهاء الحروب الصليبية ، حاملة في تضاعيفهاالمرة ما افضت اليها الحضارة الاسلاميةمن فكر وما أمدت من ثقافة ، آخذة في اندفاعتها حصيلة الروح المسيحية التي استفاقت في العصر الكارولنجي تجمع الجهود بروح من التعاون بثتها الاديرة لانطلاقة جديدة ، تستلم فيها مقود التاريخ .

لقد استلهمت الحضارة المسيحية مزيج الثقافة الهلينية الرومانية . وبدا ذلك نمطها او كما قال ديورانت في قصة الحضارة : « فقد كانت المسيحية اروع ما انتجت الثقافة الرومانية » . وبالتالي فقد امتدت خارج حدودها النفسية تحت شعار « السلام الروماني » ثقافة سيطرة وقهر ، لا ثقافة احتواء ووعي ، كما لاحظ هانز شتيفر المفكر الالماني .

وهكذا بدا العصر الصناعي حلقة من مسيرة الحضارات التاريخية تطرح العلاقات الانسانية في اطار كمي اقتصادي ، لا مكان فيه للقيم الانسانية في مقياسها المطلق .

ولقد انعكس هذا الواقع النفسي والاقتصادي والاجتماعي على مسيرة الانسانية منذ بداية عصر النهضة ، وكانت ظاهرة الاستعمار مظهرا من مظاهر امتداده نحو الآخرين ، ليس فحسب في الاطار السياسي والعسكري ، بل في الاطار الفكري والتربوي ايضا .

كانت هذه هي رؤية مالك بن نبي المهندس الذي تخرج ليخط طريقه في عالم الاشياء . اي في الاطار الذي يدلف الى التنمية عبر التكنولوجيا التي ابتدعها العصر الصناعي . وفيما هو في طريقه هذه يرسل الى احدى البلاد الاسلامية طلبا يسهم في مسيرتها التكنولوجية ، لفت انتباهه ذلك العالم الاسلامي الذي تقطعت شبكة علاقاته على كل صعيد ، فاذا كتابه لا يحظى باي جواب .

هكذا جذبته القضية الى حلبتها فاذا مالك بن نبي المنهجي يخط طريقه في عالم الافكار بدلا من عالم الاشياء كما يطرح لمسيرة النهضة الاسلامية طريقا حديثا يسبر المشكلات في اعماقها .

المشكلات ؟

ما هي المشكلات ؟ انها تبدو هنا الجهل ، وهنالك الفقر ، او ـ في اطار سياسي ـ الاستعمار والاحتلال الاجنبي ، وفي مجال آخر النقص في الامكانيات والثروات الطبيعية .

لقد طرح مالك بن نبي الاعراض هذه كلها في مختلف كتبه وعالجها معالجات متعددة لكنها تصب كلها في اطار واحد : انها مشكلة حضارة نحن خارجها ومشكلة ثقافة لم يتكامل اطارها في متقلب حياتنا اليومية . ونحن لذلك شتى النوازع والقلوب والوسائل ، تتعارض الامكانيات في مختلف الأصعدة ثم تسقط هذه في هوة الفراغ والضياع وعدم الفعالية .

وكانت هذه مسيرة النهضة الاسلامية الحديثة على اختلاف عناوينها تقدمية او رجعية او اسلامية ، لان الانسان الذي هو خارج اطار الحضارة والثقافة معا لا يجديه تكديس المعلومات عن النماذج المستقاة من عالم الحضارة المعاصرة .

ومنذ الاربعينات من هذا القرن تساءل مالك بن نبي ، ما هي الثقافة ؟ وبدا له من ذلك ان اي تعريف اكاديمي وفق مصطلحات العالم الغربي الاوروبي لا يضيف لعالمنا المتخلف حقيقة قابلة للتطبيق . ذلك ان اكثر ما شغل المفكرين في العصر الحديث هو الاتفاق على تعريف محدد لمفهوم الثقافة التي بدت مصطلحا مستحدثا في ادبنا اللغوي .

ذلك ان مضمون الثقافة كاطار تاريخي - سواء كان اطارا لحضارتنا الاسلامية التي سلفت ، او اطارا للحضارة المعاصرة - قد اغرق رجاله في معطياتها . ولذا نحينما يتحدث مفكر اوروبي عن الثقافة فانما يتحدث عن تجربة معاشة فعلا ، يتلمس مظاهرها المختلفة ، وقد يحيط بها متعا وقد لا يحيط . ولذلك اختلف الشراح في تعريفها وكل فيما عرف وحدد تناول صورة وصفية لا تمنح اولئك الذين يعيشون خارج تجربتها من متعلمي العالم المتخلف - حقيقة قابلة للتطبيق في اطارهم الاجتماعي . ويرى مالك بن نبي ان هوريو « Hauriou » قد فوجيء هو نفسه حينما سأله سائل عن تعريف للثقافة فقال « الثقافة ، انها ذلك الذي نحتفظ به حينما ننسى ما تعلمناه » .

من هنا يرى مالك بن نبي انه لا يجوز ان نتلهى بتعريف محدد للثقافة بل علينا ان نبحث عن وظيفتها الاجتماعية في خطة تحليلية تضعها في اطار برنامج قابل للتطبيق .

فمالك بن نبي يرى « انه ينبغي ان ننقي مفهوم الثقافة من خبيط متراكم النصوص الادبية ، ومن كل اكاديمية ومن كل اقحام فولكلوري .

واذا كان لا ريب في ان الفولكلور جزء من الثقافة ، فالثقافة ليست فولكلورا يتأنق في قليل او كثير بما يناسب ذوق العصر ، وبالخصوص ذوق السائح الذي تستهويه المشاهد الغريبة عن وسطه .

فالثقافة هي اسلوب للحياة ، الاسلوب المشترك الذي ينظم المجتمع على سواه . اما الفولكلور فهو اقليمي اي ان عالم الاجناس يجد في حدود الاقليم كل ما يريده عن تاريخ ومغزى ومعنى الفولكلور .

لكننا لا نستطيع دراسة فكر واعمال ابن خلدون ونحن نغلق عليها وعلى انفسنا حدود هذه الرقعة الجغرافية . .

فمجال ثقافة ما انما هو جو حضارة . ومؤلف المقدمة شعر به بحدة كبيرة ، وبكل مأساوية ، في عصر الانحطاط الذي انتهت به الحضارة ، اذ حينما تأمل بثاقب نظره الافول الثقافي في المغرب شد عصا الترحال الى الشرق الاسلامي وفي قلبه الحسرة والحنين » .

لقد بدأ مالك بن نبي اذن بطرح مشكلة الثقافة كبرنامج تربوي صالح لبناء القيمة الاجتماعية للعالم الاسلامي ، كيما يمارس رسالته في العالم . وهو يقول بحق ان طرحه في الاربعينات لمشكلة الثقافة من جانبها التحليلي هذا قد جاء بعيدا عن التصورات والافكار الجارية ليس في العالم الاسلامي فحسب ، بل حتى في العالم الاوروبي ايضا .

وكلما تفاقمت ازمة الحضارة الاوروبية الحديثة ، سواء في عالمها الداخلي ، او في علاقاتها الانسانية ، بدا للكثير من المفكرين الخطر الذي يتهدد الحضارة الغربية او يتهدد الانسانية بالفناء .

اننا نراه يقول : « وحين صارت الثقافة تحصيل المعلومات لم تعد وعيا بل عملية تجميع ، والخوض في التفاصيل بل الخوض في التطبيق العملي ايضا - وبمعنى اخر نرى ان الثقافة الفلسفية ان صح لي ان استخدم هذه الكلمة - اي الثقافة التي تدور في فلك فلسفة معينة دون ان تخوض فيها كممارسة - كان في القرن الماضي وحتى عقدين من الزمان اي حتى اواسط الستينات ، مجرد ثقافة تقريرية وليست تحليلية تهتم بالجامد والثابت بدل ان تهتم بالمتغيرات على كل صعيد »

وان كان الامر يتطلب بناء ثقافة او تركيبها بعد ان نقوم بتحليلها فلنتدلف اذن الى معالجة مالك بن نبي في هذا الاطار ولندخل الى فكرته عبر نقده اللاذع لفوضى حركتنا العلمية ، منذ اتصالنا بالعالم الاستعماري .

عندما استيقظ المسلمون

واذا كان لنا ان نؤرخ لنهضتنا عبر الاتصال الاول بالحضارة الغربية ، فلننطلق من منتصف القرن التاسع عشر ، او بالاحرى منذ عام ١٨٥٨ ذلك التاريخ الذي ارخ لامتدادات الاستعمار في الهند والجزائر ورفع صيحة جمال الدين الافغاني ودق ابواب اليابان بقيادة الكومودور الامريكي بيري في العصر الميجي .

كان سوط الاستعمار كما يرى مالك بن نبي قد ايقظ الجفون السادرة في اوهام الزوايا والحروز المتكفئة على نفسها بعيدا عن مسيرة الحضارة . حيث كان العصر الصناعي يطرح امتداده خارج حدود رقعته الجغرافية ، مدفوعا بانتاج الوفرة ، ومعدلات التكاثر ، مأخوذا بسيطرة العلم التي جعلت من الانسان الاوروبي مالكا لناصية المجهول من حوله ، باسطا عصا السلطة التي جمعت خريطة العالم في قبضته اثر الاكتشافات الجغرافية .

كانت هذه نقطة اتصال هامة اتاحت للعالم الاسلامي ان

يستشعر الخطر من حوله ، فانطلق يدفع عن نفسه ويدافع عن عقيدته مأخوذا بما احاط به من سحر العلم ، وقوة الآلة ودفع الحضارة المسيطرة .

لقد استيقظ العالم الاسلامي وقد افلت من يده مقود الفكرة التي انتظمت حياته قرونا بجيل من الثقافة تنشر شباكها بين المغرب والمشرق وتجمع في ردائها قيم الفكر والتقاليد والعادات . فاذا مناقشات الغزالي حول الفلسفة في المشرق يتلقفها ابن رشد في الاندلس بالرد والتمحيص . لقد اختصرت الثقافة الاسلامية المسافات الجغرافية وبدا الذي يجتاز مشرقا ومغربا بين طرفي رقعة الحضارة الاسلامية يمر ومن حوله ذلك الاطار الذي نسجته القيم الاسلامية نمطا في الحياة ، المأكل والملبس والأمن الذي ينتظر ابن السبيل .

كانت هذه حضارة استقالت من مهمتها حينما استيقظ العالم الاسلامي وفي يده مجموعة الافكار القاتلة واخرى مقتولة لانها فقدت فعاليتها .

وفي مرحلة كان المجتمع الاسلامي فيها خارج اطار الحضارة ، بدت المشكلة في آفاق الرواد الذين اتصلوا بالحضارة الغربية هي في الدخول مجددا في اطار الحضارة ولكن من اي باب ندخل مجددا حلبة النهضة .

يقول مالك بن نبي : لقد واجهت اليابان هذه المشكلة بطريقة منهجية عن قصد بحيث اختارت النموذج الغربي وهي تعلم ما هو جوهري رئيسي في اختيارها بينما واجه العالم الاسلامي المشكلة كيما تحل من تلقاء نفسها بقوة الاشياء لا بحكم الفكر .

ومن هنا يتضح لنا كيف يتصور المجتمع الاسلامي كما يرى مالك بن نبي في « وجهة العالم الاسلامي » دور الطالب الذي يسافر الى اوروبا فالهدف الوحيد ان يدرس لغة او يتعلم حرفة لا ان يكتشف ثقافة .

ولقد ساهمت المدرسة الاستعمارية بوسائلها التربوية في خلق هذا الوضع . اذ لم تكن تهتم بنشر عناصر الثقافة الاوروبية بقدر ما تحرص على توزيع نفاياتها التي تحيل « المستعمر » عبدا للاقتصاد الاوروبي فهي لا تسعى الى اكتشاف ذكاء تلاميذها او دفع مواهبهم وانما تسعى الى خلق آلات ذات كفاءة محدودة .

ولقد نشأ عن هذا الانحراف في زاوية الاتصال بالحضارة الحديثة ان المسلم اصبح في اتصاله باوروبا لا يكترث بمعرفة كيف تم ابداع الاشياء بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها ، وهكذا كانت المرحلة الاولى من مراحل تجديد العالم الاسلامي ، مرحلة تقتني اشكالا دون ان تلم بروحها ، فأدى هذا الوضع الى تطور في الكم زاد في كمية الحاجات دون ان يعمل على زيادة وسائل اشباعها فانتشر الغرام بكل ما هو مستحدث في جميع طبقات المجتمع .

فالطالب الذي يعيش في باريس لا يرى المرأة التي تجمع قبضات العشب لارانبها ، وانما يرى التي تصبغ اظافرها وشعرها ، وتدخن في المقاهي والندوات . وهو لا يرى الصانع والفنان مكبين على عملهما ليحققا فكرة على صفحة المادة ، لانه وقد خضع لتأثير معنى المنفعة لم يعد يلاحظ الطاقات الخفية ، الطاقات التي تخلق القيم الاخلاقية والاجتماعية ، والتي تجعل الانسان المتحضر في وضع يمتاز فيه عن الانسان البدائي « فان الثقافة تبدأ متى تجاوز الجهد العقلي الذي يبذله الانسان حدود الحاجة الفردية » .

لقد اكتفى الطالب المسلم بقراءة الحضارة فتعلمها دون ان يتذوقها . وقد ادت هذه الى انعكاسات تكف كل تفاعل بيننا وبين اوروبا يلحق بنا في ركب التقدم .

ولكي ندرك حصيلة هذا الاتصال في اطار النهضة العلمية لمجتمعاتنا نرى اننا غرقنا في اطار من المفاهيم الكمية . وهكذا اصبح المثل الاعلى كما يقول مالك بن نبي ان يصبح المرء « بحر علم » يزدرد العلم ويفتقد معنى دوره الاجتماعي . واي درس عن التفسير يتيح لنا ملاحظات لثقافتنا التي استعبدتها الصيغ والعبارات .

ويضيف الاستاذ مالك

« حين اتجهت الثقافة الى امتداح الماضي اصبحت ثقافة اثرية . لا يتجه العمل الفكري فيها الى امام بل يتنكس الى وراء . وكان هذا الاتجاه المعاكس المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع ميت لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل وبذلك اصيبت الافكار بظاهرة التشبث بالماضي ، كأنما قد اصبحت متنفسا له .

ولكي نختتم تلك اللوحة التي بسطنا عليها مساوىء ثقافة ما بعد الموحدين ، يجب ان نضيف نقيضين هما :

التعلق الواهم « بالكم » ونلحظه حتى عند الذين احتكوا بالثقافة الغربية - والنزوع الى الشعر ، ونلحظه

عند المتأثر بالثقافة الازهرية والزيتونية . ومن شأن النزعة الكمية ان تعود المرء النظر الى فاعلية الشيء والى قيمته من خلال الكمية او العدد فتجده يقوم كتابا ما بعدد صفحاته المكتوبة » .

فالحركة الحديثة ليس لها في الواقع نظرية محددة ، لا في اهدافها ولا في وسائلها ، والامر بعد هذا لا يعدو ان يكون غراما بالمستحدثات . فسبيلها الوحيد هو ان تجعل المسلم « زبونا » مقلدا دون اصالة لحضارة غربية تفتح ابواب متاجرها اكثر من ان تفتح ابواب مدارسها .

عودة الى الاصول

على انه اذا كان اتصالنا بالعالم الحديث قد انحرف نحو زاوية الاشياء دونما رابط يربطها بفكرتها فان طريق الحضارة لا يمكن خطه تبعا للصدفة باقامة مدرسة هنا ومصنع هناك وسد هنالك ، او بوضع سلة معدنية في جانب هذا الشارع حيث لا احد يفكر في القاء المهملات التي يريد التخلص منها .

ان علينا ان ننتقل من تكديس الاشياء الى بنائها وفق اطار من النموذج المستلهم لروح الثقافة ، وهذا هو الشرط الاساسي لفعالية الاقتباس وقيمته في بناء الفكرة والاطار .

فالذوق العربي الاسلامي لا يدرك تماما « استغرابه » اعني الاطار الاساسي لقيمة الاشياء المقتبسة من العالم الغربي . لانه لم يفكر يوما في ربط الاشياء بالفكرة التي ابدعتها والذوق الذي اضفى عليه طابعه انه لم يفكر في مشكلة النموذج الخاص به كيما يدرك الفواصل التي تفصله عن النموذج الذي اقتبس منه اشياءه ووسائله وهو العالم الاوروبي ، بينما على العكس من ذلك نرى الذوق الغربي يدرك تماما « استشراقه » اعني معرفته بالشرق عندما يستوحيه .

واذا كان من العبث ان نضع ستارا حديديا بين الحضارة التي نريد تحقيقها والحضارة الحديثة ، فليس من الواجب لكي ننشيء حضارة ان نشترى كل منتجات الاخرى لان ذلك مستحيل كيفا وكما . وبالتالي فان الطريق الأمثل ان نسلك في اطرنا التربوية ادراكا تحليليا للمشكلات نبني عبره حضارتنا من خلال ثقافة تتمثل فيها قيمتنا الاجتماعية في اقصى فعاليتها .

ان اي مجتمع يتأهب لدخول التاريخ لا بد له ان يوظف طاقاته الروحية والفكرية والمادية معا وهذا التوظيف يستمد فعاليته من الارادة الحضارية والامكان الحضاري .

اما الارادة الحضارية فهي التي تتصل بلحظة الاقلاع في كل مجتمع حينما تتدفع الروح نحو مثلها الاعلى لتغير واقعها وتغير معه التاريخ . فالدين هو الذي يلعب هذا الدور دائما حينما تتهيأ مرحلة الاقلاع النفسي المتصل بالارادة ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والارادة الحضارية هي التي تحقق الامكان الحضاري عبر ما توظف معطياتها المادية والفكرية كيما تحقق اهدافها من خلال وسائلها .

فهناك شرطان موضوعيان لا بد من تحقيقهما : ان نتبع سياسة تتفق ووسائلنا ـ ان نوجد بأنفسنا وسائل سياستنا .

واذا نحن سرنا في التحليل الى ابعد مداه منطلقين من هذين المبدأين الاساسيين فان مجتمعا لا يزال خارج اطار الحضارة لا يجد لديه من عدة يعتد بها غير العدة الاولى التي انطلق بها التاريخ .

الانسان ـ التراب ـ الزمن

فتفاعل الانسان مع الامكانات المحيطة به في اطار الزمن الضروري هو الذي دفع التاريخ في مسيرته .

والتاريخ حينما يتحدث قائما يتحدث عن الانسان المتحرك في اطاره والمتفاعل مع وسائله والمسيطر على مصيره وانها هي الحضارة تتعاقب عبر العصور .

على انه لكي يكون الانسان متأهبا غير متخلف بدفع مسيرة الحياة وفق سنتها في التطور لا بد من ان تترابط بينه وبين اخيه اواصر التعاون . والتعاون لا بد فيه من رابط يشد الناس بعضهم الى بعض والروابط هذه تكبح الغريزة من ان تسترسل في انانيتها وهي لا تكبحها الا اذا ارتفع الانسان مقاما محمودا في مثله وتلك هي القيم التي يورثها الدين روح الانسان .

على ان الروح اذا ما اندفعت بالانسان فانما تندفع به لتوظف طاقاته وفكره طبقا لمثل اعلى ينشر لونه وذوقه ونمطه واسلوبه على رقعته الجغرافية والبشرية معا . فاذا ما ارتسمت معالم هذه الرقعة فذلك هو المجتمع في صورته المتحركة يترك بصماته على صفحة التاريخ فنا وقيما وتراثا وانجازا وتلك هي الثقافة في صورتها التاريخية .

فالثقافة كما يقول بن نبي : « تتحدد بصفة عامة عندما تصبح تاريخا . فتتمثل لاعين الاجيال في صورة معجزة اغريقية او امبراطورية رومانية » .

فالثقافة حينما تصبح انجازا تصبح في سجل الماضي . ومن العبث ان نقتبس منها نموذجا جاهزا ليصبح المقياس الذي نسير به مشكلاتنا المستقبلية ومن خلال هذا المفهوم . يرى مالك بن نبي مثلا انه لا بد في اطار علم الاجتماع وعلم النفس ان ينشأ علم خاص هو علم اجتماع الشعوب التي لا تزال خارج إطار الحضارة المعاصرة .

فعلم الاجتماع الحديث حتى في نظرته الى العالم الثالث انما يستمد مصطلحاته من تجربته الخاصة التي تحكمها ثقافة السيطرة والتي تتعاطى عن ادراك التجربة الانسانية خارج حدودها واطارها .

ومن هنا فان الطريق الى المشاركة في مصير الانسانية مرهون بقدرتنا على بناء ثقافتنا وفق النموذج المستمد من قيمنا الحضارية التي احتوت الانسانية جميعها . فالاسلام ليس دينا فحسب بل انه اطار حضارة امدت عالمنا الاسلامي ذا العقائد المختلفة بالنمط والاسلوب والنظرة الى الانسان نظرة تتفق والحقيقة العلوية المطلقة وبالتالي فان نظرتنا مبرأة من حدود الوثنية التي اغرقت العالم الحديث في حدود الكم واعطت للعلاقات الانسانية مفهوما تبادليا يرتكز على المنفعة المتبادلة وحجزت بينها وبين سائر الشعوب كيما تظل معزولة عن استخدام رسائلها مقهورة بسوط قدرة الكبار مأسورة لوسائلهم ومصالحهم في تقرير مصير الحضارة والانسانية .

الافكار القاتلة

وحينما نتطلع بروح جديدة الى النماذج الثقافية المعاصرة فسوف ننظر اليها كمنجزات دخلت سجل الماضي ، وحينئذ سيكون اقتباسنا منها اقتباسا تحليليا غير استهلاكي . انما سنسبر تجربتها بمبضع المدرك لمسيرة هذه الثقافة ودوافع تكوينها ومراحل تطورها وعوامل تآكلها وما اذا كانت في قمة الازدهار او مراحل السقوط والانحدار من خلال ازماتها الناشئة عن اختلال العلاقة الروحية الآخذة بمجامع الادارة نحو التعاون والتآلف .

ففي كل ثقافة افكار قاتلة تنبعث عبر مسيرة الحضارة حينما تبدأ مسيرة العقل تمحص ما قد اندفعت فيه الروح نحو المثل الاعلى . حينئذ تبدأ الحضارة منعطفا جديدا يوشك بها اذا هي استمرت عبرة غير ممسكة بقيمها الروحية ولان فيها افكارا قاتلة فسوف تصبح فيها افكارا مقتولة .

لكن مجتمعنا الاسلامي بدلا من ان يرقب مسيرة الحضارة المعاصرة بروح المنهج التي تدرك الاسباب والمسببات ، اذا به وهو في عالم ثقافي مشحون بالافكار الميتة التي فقدت فعاليتها ، يستعين بافكار بدأت تقتل مجتمعها الذي ولدت فيه وتهدد بسقوطه كما تنبأ شبنجلر . لان الرأسمالية والماركسية والفكر التقدمي انما هو تعبير عن اختلال في وحدة العلاقة الاجتماعية بين سائر افراد المجتمع . تلك الوحدة التي تكفلت بها بواكير الحضارة المسيحية منذ العصر الكارولينجي فاورثت روح التعاون وكانت مسؤولة عن انبثاق عصر النهضة والعصر الصناعي وما تبعهما من اطراد رأسمالي وتطور شيوعي .

فالازمة الرأسمالية المبنية على استغلال الطبقة العاملة والحلول الماركسية القائمة على الصراع الطبقي . كلاهما اطراد خاص بمسيرة الحضارة المسيحية التي اختارت مثلها من خلال المنفعة الكمية ، وهذا الانقسام في وحدة المجتمع انما هو المؤشر المبكر لانهيار قد لا ندرك ـ نحن الذين بهرتنا قوة العصر الصناعي ـ مفهومه ومداه .

وهكذا يرى مالك بن نبي ان هذه الافكار القاتلة في موطنها ستصبح اشد قدرة على القتل في مجتمعنا حينما نستوردها دون الجذور التي لا نستطيع حلها . والتي احتوت على مضادات السميات التي كانت تخفف من شدة ضررها في موطنها الاصلي وفقا لتعبير مالك .

وعلى هذا النحو يقتبس المجتمع الاسلامي المعاصر لافكار الحديثة والتقدمية من الحضارة الحديثة .

ومن هنا فان الخروج من ازمتنا الراهنة انما هو ببناء ثقافتنا وفق النموذج الذي يأتلف مع تاريخنا واصالتنا .

واذا كنا نرفض اقتباس الثقافة نموذجا وانجازا افرزته الحضارة المعاصرة فاننا مضطرون لموقف تحليلي يسمح لنا ببناء ثقافة من خلال عناصرها الاساسية .

فكل ثقافة تشهدها انجاز تاريخ . وهي في اصولها سلوك متحرك له لونه ورائحته وتناسقه وتماوجه . ومجموعة هذه المظاهر هي التي تحدد معالم الثقافة وهويتها معا ، فنقول هذه ثقافة رومانية وتلك اغريقية واخرى يابانية او هندية .

واذا ما نحن حللنا العناصر المشتركة لسائر هذه الثقافات نرى انها ترتكز على مبادىء اساسية اربعة : المبدأ الاخلاقي ـ الذوق الجمالي ـ المنطق العملي ـ التقنية

فالثقافة كما يراها مالك بن نبي تربية . وهي لذلك

علاقة اجتماعية سليمة . وهي مثل اعلى يشد الانسان الى بلوغه ، فهي اذن عقيدة في اطار المجتمع . وهي صلة مستمرة بين عالم الاشخاص والافكار والاشياء ، فهي اذن تعطي اسلوبها الفاعل المنسق المنظم فتأخذ العوالم هذه صورتها المتقدمة المتطورة وتمنح جوها وذوقها وجمالها على رقعتها .

وترتبط الثقافة بالحضارة ارتباطا عضويا في جانبها التربوي . انها من الكيان الحضاري القائم بمثابة الدم من الجسد يمنحه الحياة . فلكي نضع منهاجا لثقافة لا بد ان تتفاعل اذن مع العوالم الثلاثة في المجتمع . عالم الاشخاص وعالم الافكار وعالم الاشياء ، وحينما تتضافر هذه العوالم الثلاثة في مسيرة واحدة متناغمة وفي عملية تربوية مدركة لخطواتها وابعادها ، فهذه هي الثقافة لانها حصيلة التعاون الخلاق المبدع في اطار المجتمع وهي حصيلة الذوق الجمالي الذي ينتظم ذلك المجتمع من خلال تعاونه الفاعل ، وهي حصيلة الفكر المتصل بالاشياء من خلال المنطق العملي الذي يمنح النشاط فعالية وهي حصيلة الخبرة التقنية التي تعطي الثقافة صورتها المتكاملة على صفحة الاشياء .

فاذا ما استوت الثقافة على سوقها كانت الامكانيات طوع اليد ، والطاقات طوع الفكر ، والمصير طوع الارادة . وكان التخطيط طريق المجتمع في بناء حضارته ، فالحضارة هي الاطار الأعم الذي في داخله تتحرك الثقافة ويتحرك بها المجتمع نشيطا منظما فاعلا متفاعلا متعاونا .

ولا يمكن لمجتمع ان يبني ثقافة من غير مثل اعلى يكون هو المسوغ لكل تحرك . وحينما يفقد المجتمع مسوغاته فانه سيقع في وهدة العبث والضياع والهيبية والمخدرات مما يعانيه المجتمع الصناعي اليوم ، والاسلام في هذا الاطار يشكل قاعدة من القواعد النفسية والتاريخية التي تؤهل مجتمعنا كيما يدخل التاريخ . وبالتالي فالفكر الاسلامي ملزم باجراء تصفية تحدد مسار خطته ووسائله في دفع المجتمع حتى يستعيد مصيره .

وحينئذ ستنسحب من قاموسنا السياسي كلمة استعمار وكلمات الطعن بوسائل الاستعمار وطرق الامبريالية ومكائدها مما هو دارج في لغتنا السياسية .

فالاستعمار نتيجة لمرض اساسي اصابنا انه القابلية للاستعمار . والصراع الفكري الذي خططت له المصادر الاستعمارية قد احسنت كما يقول مالك بن نبي في كتابه « الصراع الفكري » احكام خطتها اذ سلطت على مسرح الاحداث العالمية اضواء على المشكلات الهامشية بينما تركت في الظلام ووراء الكواليس كل رؤية منهجية سليمة تفتح الطريق امام خطط التنمية الفاعلة والمتفاعلة مع حركة التاريخ .

فاذا تحدثنا في الاطار السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي نرى ان الفكر المنهجي قد استطاع ان يستقطب بوسائله المختلفة خيوط تحركنا لاننا تخلينا عن كل نظرة تحليلية تسبر المشكلات بعقل المؤمن الكيس الفطن .

يقول بن نبي « ان هناك حركة تاريخية ينبغي الا تغيب عن نواظرنا والا غابت جواهر الاشياء فلم تر فيها غير الظواهر ، هذه الحركة لا تبدأ بالاستعمار بل بالقابلية له لانها هي التي تدعوه »

ومالك بن نبي يرى ان دورنا في الثلث الاخير من هذا القرن ان تدرك ادراكا بعيدا ازمة عصرنا الحديث هذا الذي اصبحت الانسانية رهينة آلته واصبح الفكر والثقافة انعكاسا لازمته القاتلة . واضحى المسلم في عالم اقتصاده طاقة استهلاكية وغدت ثروته نهبا لتقلبات النقد العالمي . وان دورنا من هذا الجانب لا يتعلق باللحاق به في اطار التكنولوجيا ، فان تسارع خطاها قد جعل سبقه فيها من المحال ، فالانسانية تتطلب اطارا ثقافيا يتجاوز حدود الرقعة الحضارية الغربية الى الانسانية جمعاء ، وان هذه مهمة الاسلام الذي نظر الى الانسان والحياة نظرة فيها القداسة والتكريم . ذلك التكريم الذي يستمد اساسه من الاتقان المطلق لكل ما خلق الله وصنع « صنع الله الذي اتقن كل شيء » والاتقان الذي لا يبخس الناس اشياءهم (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) .

فالعالم الاوروبي بدأ اليوم يشعر بأزمته وأزمة ثقافته في عالم يجنح نحو الانفتاح والتقارب الانساني .

والمسلم لا يستطيع ان يمارس دوره في تبليغ الاسلام الا اذا مارس دوره الاساسي في الارتفاع الى مستوى الحضارة .

فالاسلام كحقيقة صادقة وصحيحة لا يمكن تبليغها عبر كتاب نكتبه بل عبر نموذج حي يبصره اولئك الذي نخاطبهم بلغة الاسلام . فالعالم اليوم يتفاعل بالحدث اكثر مما يستجيب لمنطق الافكار .

ومن هنا نرى اهمية فكر ابن نبي الذي تناول جوانب عديدة من حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عبر كتبه المتعددة وهو في كل ما يحلل انما يرد الامور الى الاصول الاساسية لبناء ثقافة تحرك مسيرة الحضارة وتتفاعل من خلالها الامكانيات جميعا . . . امكانياتنا المادية والروحية التي في جوهرها خلاص الانسانية جمعاء . ■ ■

طرابلس ـ لبنان ـ عمر كامل مسقاوي

العالم التاجر

بقلم محمود المراغي

كان الانسان الاول ينتج ما يحتاج ، يقدم لنفسه الطعام والشراب والملبس والمأوى ووسيلة الانتقال من الطبيعة المحيطة به ، ولكن مع تطور البشرية ، وظهور ما يعرف بالتخصص وابتكار فنون انتاجية مختلفة .. أصبح التبادل ضرورة ، واصبحت التجارة مهنة ، واصبحت النقود ـ في مرحلة متقدمة ـ بديلا للمقايضة لتحديد القيمة .

حدث ذلك على مر التاريخ .. وخلال رحلة طويلة قطعتها البشرية لم تفقد التجارة معناها : كوسيلة لسد حاجة ما .. او تعبير عن فائض في الانتاج او الاثنين معا ، وهي القاعدة السائدة .

يصدق ذلك على الافراد ، والجماعات ، والدول . فالتبادل يعكس في النهاية موقف الانتاج وموقف الاستهلاك .. والتعامل مع الغير يسبقه تعامل مع الذات يحدد الموقف الاقتصادي لهذه الدولة او تلك ، او هذه الجماعة او تلك .

واذا راجعنا أرقام التجارة العالمية ، فسوف نجد الترجمة الدقيقة لذلك .

كانت صادرات العالم عام ١٩٨١ ، ووفقا لأرقام « الجات » : (١٩٧٠) مليار دولار .... احتلت الدول الصناعية منها نصيب الاسد (١٢١٥ مليارا) .. واحتلت المجموعات الدولية الاخرى من عالم ثالث وكتلة شرقية النصيب الأقل .

و .. نفس الشيء على مستوى الواردات ، التي بلغت في ذلك العام (٢٠٣٠) مليار دولار .. من بينها (١٣١٥) مليارا للدول الصناعية وحدها .

معنى الارقام ، ان الدول الصناعية التي شكل سكانها في نهاية السبعينات (٦ر١٥٪) من السكان ، تستأثر وحدها بـ ٧ر٦١٪ من الصادرات و٨ر٦٤٪ من الواردات .

وبصيغة اخرى فان أقل من خمس سكان العالم يستأثرون بثلثي تجارته على وجه التقريب .

و .. استطرادا للمعنى فانه يمكن القول ـ والتجارة تعبير عن الانتاج ـ ان ذلك الجزء من العالم يقدم الجزء الاعظم من الانتاج .. بينما يقدم الجزء الاعظم من السكان ـ وهم بقية العالم ـ الجزء الاقل .

وتأكيدا لذلك فان سكان العالم الذين بلغ تعدادهم ـ طبقا لارقام البنك الدولي ٤٢٧٠ مليون نسمة عام ١٩٧٩ .. كان ٨ر٧٦٪ ، منهم من ينتمون لما نسميه العالم الثالث ، وكان نصيب هؤلاء ـ اي ثلاثة ارباع العالم تقريبا ـ ربع التجارة العالمية فقط عام ١٩٨١ ..

اللاتوازن اذن هو القاعدة السائدة في العالم .. والتفسير اذن ان انتاجية الفرد في العالم الصناعي

تزيد عدة اضعاف عن انتاجية الفرد في العالم النامي . قد تدخل بعض العوامل التي تجعل المقارنة غير دقيقة ، فالعالم المتقدم يفرض شروطه واسعاره ، والعالم النامي يخضع .. ويدفع . ويتبع . السلع الصناعية مرتفعة دائما ، والسلع الاولية منخفضة السعر في اغلب الاحيان .. والفرق بين الاثنتين يمثل ثمن العمل ، او الجهد البشرى الذى يحيل الخامات الى سلع مصنوعة . ولكن ، وهنا ايضا ، يختلف سعر العمل في الدول الصناعية عن غيرها ، واذا كانت التكنولوجيا الحديثة ووفرة الموارد قد حابت انسان العالم المتقدم ، فان النظام الاقتصادى العالمي ، وسيطرة الاقوياء ، وسطوة النظام ، الرأسمالي جعلت لوحدة العمل في الشمال .. ثمنا آخر غير الذى يتقاضاه ابناء الجنوب ربما لنفس الانتاج او الانتاجية .

واذا كانت هذه هي الصورة العامة التي تعكسها أرقام بسيطة واجمالية في التجارة ، فان التفاصيل تقدم جديدا آخر .

لقد سادت ظاهرة اللاتوازن في كل العالم .. عدا كتلة واحدة حددتها ارقام « الجات » بالكتلة الشرقية .. فالتوازن يكاد يكون تاما بين صادرات الدول الشرقية ووارداتها . يصدق ذلك على عام ١٩٨١ ، عام ١٩٨٠ .. على السواء .

الاكثر من ذلك ان التوازن يكاد يكون تاما ايضا بين عدد سكان هذه المجموعة الدولية ، وبين نصيبهم في التجارة الدولية . ووفقا لارقام البنك الدولي كان سكان اوروبا الشرقية عام (٧٩) : ١٧ر٨٪ من سكان العالم ، و .. في ذات الوقت ووفقا لأرقام التجارة عام ١٩٨١ ، كان نصيب هذه الكتلة السكانية : ٩٪ من صادرات العالم .. و(٧٦ر٨٪) من وارداته .

هو اذن العالم الوحيد المتوازن .. وما عداه فقد توازنه .. بالتفوق .. او بالتخلف .

واذا استرسلنا في دراسة « اللاتوازن » سوف نقف على حقيقتين :

الاولى ـ استمرار وجود فائض كبير في موارد دول الاوبك التي صدرت بما قيمته (٢٧٠) مليار دولار عام ١٩٨١ .. واستوردت بما قيمته (١٥٥) مليار ، وبما يعني وجود فائض تجارى قيمته (١١٥) مليارا (وبالطبع فان ذلك لا يعني بالضرورة ان الفائض المالي بنفس القدر ، فمن هذا الفائض تدفع دول الاوبك ثمن تجارة اخرى في مجال الخدمات .. كما تدفع التزامات دولية مختلفة ابرزها : المعونات الاقتصادية) .

الحقيقة الثانية ـ استمرار عجز الدول النامية الأخرى ، والذى بلغ في العام الماضي (٦٥) مليار دولار .. وهو ما يزيد مديونية هذه الدول عاما بعد عام .

ويعتقد الغرب ـ وتتبنى المنظمات الدولية هذا المدخل ـ ان علاج الخلل في التجارة .. أى بحرية التجارة ، فعندما يزيد التدفق السلعي ، تنشط مراكز الانتاج وتزيد نسب النمو .

ولكن ...

بالتجربة : لم يستطع الغرب ان يرفع كل الحواجز ، وان يحرر كل التجارة .

وبالتجربة : لم يستطع العالم النامي ان يزيد من نسب نموه عن طريق انفتاح تجارى ، فقد قلت نسب النمو ، وزاد الاعتماد على الخارج خلال تجربته في تحرير التجارة .

على اى حال ـ ومن خلال دعوة الحرية ، وغيرها من عوامل ـ حقق العالم الصناعي هذا التفوق الذى تعكسه ارقام التجارة .. واصبحت المشكلة في سلة العالم الثالث : ماذا يختار ليصلح الميزان ؟

قضايا حيوية

اعداد : مصطفى نبيل

الحرية الأكاديمية

بقلم : الدكتور السيد عمار

في مجال الحديث عن الحرية تذكر ألوان مختلفة منها : حرية الفكر والتعبير وحرية العقيدة والعبادة والحرية السياسية وحرية المرأة وغيرها من الحريات المتعارف عليها . الا أن هناك شكلا من أشكال الحرية لم ينل القدر الوافي من التعريف به في مجتمعاتنا ويعرف باسم الحرية الأكاديمية . و تعتبر الحرية الأكاديمية نوعا من الحصانة التي تمنح لأساتذة الجامعات والعلماء والمدرسين بحكم دورهم الهام والفعال في المجتمع .

والحرية الأكاديمية تعني حق الاساتذة والباحثين خصوصا في الجامعات والكليات في الدراسة والبحث والتدريس في مجال تخصصاتهم دون خوف من السلطة ، ودون أي قيد من الادارة ، أو تهديد بفصلهم أو عزلهم من عملهم . ويستند هذا الحق الى أن البحث والتنقيب الحر والمفتوح في شتى المجالات هو أساس التقدم العلمي ، والاكتشاف والابتكار ، وتنمية العلم والمعرفة . كما أن هذا الحق أساس ضروري للعملية التعليمية وحسن الاداء بالجامعات والمعاهد والبحوث .

والحرية الاكاديمية معترف بها في البلاد المتقدمة وهي التي تعتبر التعليم وسيلة لزيادة التوسع في حجم المعرفة وليس مجرد وسيلة لتكرار وزيادة المعلومات والحقائق المعروفة دونما اي تجديد . كما ان الحرية الاكاديمية تضمن ان يكون بقاء الاستاذ الجامعي في وظيفته وترقيته مرتبطة بكفاءته العلمية وبسلوكه الذي يتفق مع تقاليد الجامعة ومعايير الشرف والاخلاق المهنية نابذة بذلك اي معايير اخرى مثل الانتماءات السياسية او التعصبات الدينية او الانتماء العرقي .

ولقد تبلور المفهوم الحالي للحرية الاكاديمية في القرن السابع عشر وان كانت قد عرفت درجة معينة من الحرية الاكاديمية في العصور الوسطى ، وهي مجرد بعض الحقوق القانونية مثل حق الاستقلال في الادارة والحماية المدنية للنقابات الجامعية . وحتى في اوائل القرن السابع عشر كانت الاكتشافات العلمية خاضعة لاعتبارات فقهية ودينية ، وكانت الآراء المتعارضة مع المعتقدات الدينية السائدة في ذلك الوقت تعتبر ضربا من البدع والضلال . وليس ادل على ذلك من غضب البابا بول الخامس على جاليليو ومحاكمته وادانته ومصادرة ابحاثه التي اثبت فيها ان الارض تدور حول الشمس بعكس ما كان معتقدا في ذلك الوقت من ان الارض ثابتة وان الكون يدور حولها . ولكن جاليليو عندما هم واقفا بعد ان كان جاثيا على ركبتيه همس بقوله الشهير : « ولكنها تدور فعلا » .

وتعتبر الجامعات الالمانية من اوائل الجامعات الاوروبية التي طبقت الحرية الاكاديمية بمعناها الحالي ، فجامعة هالة التي انشئت في عام ١٦٩٤ وجامعة جوتنجن التي تأسست في عام ١٧٣٧ حظيتا بقدر عظيم من الحرية الاكاديمية بعد وقت قصير من انشائها ، واما جامعة برلين التي بدأت في عام ١٦١٠ فقد اكدت حرية التدريس والتعليم والبحث العلمي واكدت زيادة المانيا للحرية الاكاديمية في القرن التاسع عشر ، ومع تقدم العلوم التجريبية وانتشارها ونتيجة لتقلص قبضة رجال الدين على الجامعات فقد تمتعت الجامعات الاوروبية والامريكية بقدر كبير من الحرية الاكاديمية ، وبالرغم من ذلك فقد بقيت الامتحانات الدينية في انجلترا شرطا للحصول على الدرجة العلمية والمنح الدراسية ووظائف التدريس الى ان تلاشى ذلك في نهاية القرن التاسع عشر .

واحب ان اشير الى ان جامعة الازهر الاسلامية اقدم جامعة معاصرة في العالم عرفت الحرية الاكاديمية بمعناها الحديث .

ورغم ازدهار الحرية الاكاديمية في الدول الاوروبية

وامريكا في النصف الاول من القرن العشرين الا انها تعرضت لهزات شديدة عصفت بها وكبلتها بالاغلال والقيود وكنتيجة لظهور الانظمة الشمولية والديكتاتورية في ايطاليا والمانيا وروسيا . ففي ايطاليا فرض على الاساتذة والمعلمين ان يتعهدوا ويقسموا بتأييد الفاشية وكذلك مورست الضغوط في المانيا على المعلمين لتدريس النظريات التي تتسم بالعنصرية وعلى ان يكون ولاؤهم للنازية الهتلرية .

أما في الاتحاد السوفيتي فان الحرية الأكاديمية بمعناها الغربي غير معروفة اذ أن أنظمة التعليم والبحث العلمي يجب أن تكون في خدمة المذهب الشيوعي وأن تكون تابعة من تعاليم الماركسية اللينينية .

والتضييق على الحرية الاكاديمية حدث أيضا في أمريكا في القرن العشرين وتمثل في محاكمة المدرس الامريكي توماس سكوبس في مدينة دايتون بولاية تنيسي في عام ١٩٢٥ . فقد حوكم هذا المدرس وأدين لأنه درس نظرية التطور (نظرية دارون) مخالفا بذلك قانون الولاية الذي يمنع تدريس النظريات المخالفة للكتاب المقدس في المدارس العامة . ورغم ادانة المدرس الا أن محاميه استطاع أن يحاصر ممثل الادعاء وهو وزير خارجية أمريكي سابق ومرشح سابق لرئاسة أمريكا ، وأثبت أن ممثل الادعاء يجهل النظريات العلمية الحديثة مما سبب حرجا شديدا لطائفته الدينية التي كان يتزعمها . ومازال هذا القانون موجودا للآن ولكنه لا يطبق .

وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية كان هناك خوف شديد في أمريكا من تغلغل الحزب الشيوعي في حقل التعليم كما اتهم بعض المعلمين بعضويتهم في الحزب الشيوعي أو بولائهم له . وفصل بعض المعلمين على أساس أن انتماءهم للحزب الشيوعي أو ولاءهم له يستتبع استغلال وظائفهم في ترويج مبادئه بين طلبة المدارس مما يتنافى مع تقاليد وآداب مهنة التدريس .

وعندما ظهرت المكارثية في أوائل الخمسينات وبدأت تحقيقات الكونجرس في تهمة الشيوعية المنسوبة الى الكثيرين ، ومع هذا فقد قضت المحكمة العليا بحق الكونجرس في استجواب الأساتذة والمعلمين عن عضويتهم بالحزب الشيوعي .

وفي العالم العربي انتشرت شعارات العلم من أجل المجتمع في بعض الدول محاربة بذلك العلم من أجل العلم وداعية الى تكون الابحاث تطبيقية وليست أكاديمية . والواقع أن تدخل السياسة في الأمور العلمية يعد من معوقات التقدم العلمي ولا يمكن أن تكون هناك أبحاث تطبيقية بدون أبحاث أكاديمية .

كما تعرضت الحرية الاكاديمية في بعض الدول العربية الى اعتداءات صارخة مثل الاستغناء عن بعض أساتذة الجامعات وتقلهم من وظائفهم لمجرد الشك في ولائهم للسلطة . ومازلت أتذكر منشورا طلب فيه من الاساتذة عدم الادلاء بأية معلومات علمية أو غير علمية للصحف أو كتابة مقالات للصحف أو المجلات دون الرجوع الى العميد شخصيا ، واعتبر البعض ذلك قيدا على الحرية الاكاديمية مما سبب لهم المتاعب . وحتى أوائل الستينات من هذا القرن ، كانت الحرية الاكاديمية حقا للأساتذة فقط ، مما دعا الطلبة الى اتخاذ مواقف عنيفة ومظاهرات سادت امريكا واوروبا في الستينات واوائل السبعينات .

وطالب الطلبة بحقهم في الحرية الأكاديمية الذي يتمثل في مطالبتهم بأن يكون لهم دور فعال في وضع المناهج الدراسية وتقييم الأساتذة وتنظيم الامتحانات وفي الحياة الطلابية وتمثيلهم في اختيار رؤساء الجامعات والعمداء والاشتراك في ادارة الجامعة . وربما كان لتورط القوات الأمريكية في فيتنام في ذلك الوقت أثر كبير في اندلاع مظاهرات الطلاب واشتباكاتهم مع قوات الأمن واحتلالهم للجامعات . ولقد حقق الطلبة الكثير من مطالبهم ومازلت أذكر نداء في احدى الصحف الجامعية في أمريكا موجها من حكومة الطلبة بالجامعة الى الطلاب لابداء رأيهم في أساتذتهم من أجل المصروفات التي يدفعونها للجامعة .

وكان الاتجاه السائد في كل دول العالم هو منح الطلبة الكثير من التنازلات لتهدئتهم وامتصاص ثورتهم والحد من أعمال العنف . ولقد وصف أحد الأكاديميين الأمريكيين هذه الفترة بأنها عصر قوة الطلبة وعصر ضعف وتدهور قوة الأساتذة .

وبانسحاب القوات الأمريكية من فيتنام في عام ١٩٧٣ وانهاء التجنيد الاجباري أخذت مواقف الطلبة تتسم بالهدوء النسبي واختفت المظاهرات . بينما اشتدت حركة العنف بين الطلاب في أوروبا الغربية وأدت الى تكوين تنظيمات عنف وارهاب في ألمانيا الغربية وايطاليا ودول أخرى .

ومن أجل تأكيد الحرية الأكاديمية لأساتذة الجامعات والمعلمين في أمريكا وجدت عدة هيئات مثل الجمعية الأمريكية لأساتذة الجامعات وجمعية التعليم القومي تتولى الدفاع عن مصالح الأساتذة والمعلمين .

وتقوم هذه النقابات بالدفاع عن الأساتذة في حالة

لصلهم أو انهاء خدمتهم دون سند قوي أو تأخير ترقياتهم . كما أن هذه التجمعات المهنية تعارض قسم الولاء الذي تطلبه بعض الجامعات ، وتعتبر ذلك تحديا على الحرية الأكاديمية .

وهناك اجماع على ان هيئات التدريس في الجامعات والتعليم العالي هم خير أناس مؤهلين لتطبيق المقاييس العليا من الأخلاقيات والتقاليد الجامعية والمهنية دون اجبارهم على أداء القسم .

المعاهد الأجنبية

بقلم : حسن عيتاني

سألتني احدى الآنسات في باريس :

ـ هل عندكم شعر وشعراء ؟

عجبت كثيرا من هذا السؤال ، تلقيه على آنسة جامعية . . . وأجبت : ألم تدرسي شيئا عن العرب وآدابهم في العصور القديمة والحديثة يا آنسة ؟

ـ أبدا . . لا شيء . . .

ـ ولكنك لو سألت آنسة من أوانسنا ، أو شابا من شبابنا الذين تثقفوا ثقافة ثانوية ، ولا أقول جامعية ، عن أي شاعر أو أديب فرنسي ، لاجابك بتوسع ، ولأنشد لك شيئا من شعره ، وذكر لك مؤلفاته ، وناقشك في خصائص أدبه ، ولما اختلفت معلوماتك عن معلوماته في شيء . . .

ـ غريب . . اذا أنتم شعب مثقف . .

ـ نعم يا آنسة . . مثقف ثقافة أجنبية . . قلت ذلك بابتسامة ساخرة شاركتني فيها تلك الآنسة التي تجهل عن العرب وبلادهم وآدابهم كل شيء .

ودخل أحد أساتذة الأدب الفرنسي المنتدبين للتدريس في معهد ثانوي من معاهد لبنان الوطنية ، على طلاب صف البكالوريا بعد الحرب العالمية الأولى فابتسم عند أول مقابلة . . وأخذ يتفرس في وجوههم وملابسهم ويزداد ابتساما . . وهو صامت لا ينطق ولا يبين . . فقال أحدهم : يبدو أنك مسرور برؤيتنا ، والاجتماع بنا ، والتعرف الينا يا أستاذ ، فنحن نشكرك على هذه العاطفة . . فأجاب ، وهو يهز برأسه : « أقول لكم بصراحة ، انني . . أضحك من نفسي . . هذه أول مرة أخرج فيها من فرنسا بعد أن نلت شهادة الليسانس في الآداب ، وحين انتدبت للتدريس في لبنان كنت أحمل في نفسي صورة خيالية شعرية عن هذه البلاد التي عرفت أنها جزء من البلاد العربية . حسبت نفسي سأحضر الى صحراء رملية جميلة يظلل النخيل واحاتها . . وانني سأجد الطلاب جالسين على الحصر بعباءاتهم التقليدية . . لقد أوصتني والدتي كثيرا بأن أحترس وأكون على حذر حتى لا أذهب ضحية العلم . . فأنا ذاهب لتمدين شعب بدوي متأخر . . لا أدري متى يحلو له أن ينقلب علي فيجعلني شهيدا من شهداء التعليم . .

لقد حملتني والدتي صندوقا من الشوكولاته وهي تودعني وتذرف الدمع سخيا . . وقالت : « احرص ياعزيزي على هذا الصندوق ، فستمكث سنة أو سنتين ، من يدري ، لا تعرف طعما للشوكولاته وأنت الذي تعود منذ صغره أن يأكل لوحا أو لوحين منها كل يوم . .

قال ذلك وقهقه ضاحكا وقهقهنا نحن معه . .

ان الأوروبيين ، والأجانب بصورة عامة ، لا يعرفون شيئا عنا . . أما نحن فنعرف عنهم كل شيء بينما نجهل أنفسنا وبلادنا وتاريخنا .

سل أي طالب تخرج من معهد أجنبي فرنسي في لبنان عن أصغر نهر في فرنسا ، وعن موقع أي بلد شئت ، وعن الصادرات والواردات وعن القادة والشعراء والأدباء وعن تاريخ تلك البلاد وجغرافيتها فانه يجيبك بالتفصيل . وسله عن أقرب بلد عربي اليه . . سله عن سوريا وعن

العراق وعن مصر . بل سله عن لبنان نفسه تجده جاهلا كل الجهل بهذا العالم الذي يعيش فيه . .

وهكذا قل في الطالب الذي ينشأ في المدارس التبشيرية الانكليزية والأميركية والايطالية .

ان سيطرة أوروبا الثقافية لا تزال تحتل المركز الاول في حياتنا العقلية وثقافتنا الوطنية ، ومناهج تفكيرنا . فكيف تريدون أن تخلق تلك المدارس مواطنين صادقين يتحلون بالنزعة الوطنية الصادقة والاحساس القومي العميق . .

ان الوطنية الصادقة والايمان القومي لا ينبثقان الا من اللغة وآدابها ، والتاريخ والجغرافية والتربية الوطنية . فكلما درس الناشيء لغته أحبها وآمن بقدرتها على الحياة والخلود . وكلما عرف تاريخ بلاده ازداد تعلقا بها وايمانا بكرامتها . . لقد دخلت البعثات الأجنبية بلادنا منذ قرن ، وهي تحمل رسالة تبشيرية استعمارية ، فاتخذت العلم ستارا لها . . وكانت لدينا مدارس وبعثات ايطالية وفرنسية وانكليزية وألمانية وروسية وأمريكية خلقت هذا التبلبل الفكري والقومي الذي نراه بيننا ، واتخذت تلك العصبيات الطائفية وحنطتها حتى جعلت تفكيرنا ومصالحنا المشتركة ووحدتنا الاجتماعية رهينة الدين والنزعات المليّة ، وحتى اضطرت المخلصين من أهل البلاد الى انشاء معاهد تقاوم هذا التيار الأجنبي الجارف ، وتقف في وجهه لتحفظ لقسم كبير من أهل البلاد دينهم وعروبتهم وتاريخهم . فكانت هذه المؤسسات نفسها تبشيرية وطنية ، وظلت في نزاع عقائدي وثقافي ، مع المعاهد الأجنبية حتى يومنا هذا . ان المعاهد الأجنبية في لبنان هي اليوم مراكز دعاية استعمارية لدولها ، ومبعث تفرقة وتباغض لسكان البلاد . . ولقد أدركت خطورتها بعض البلاد العربية منذ أمد قريب فقاومتها بالأساليب الوطنية الفعالة حتى قضت أو كادت تقضي عليها . . لقد بدأ ظل تلك المعاهد يتقلص عن كل بلد عربي ليتمركز ويتسع ويقوى في لبنان ، حتى يظل هذا البلد ـ كما يريده الأجانب لا كما نريده نحن ـ أمينا على علاقاته التقليدية مع دول تلك المعاهد التي تسيطر عليه ثقافيا ، وتخلق منه مركز اشعاع للشرق والغرب . . اشعاع موبوء . . اشعاع قد يضيء في كل مكان الا في نفوس أبنائه وقلوبهم ورؤوسهم . .

ان المعاهد الأجنبية تفرض نفوذها بشكل مباشر وغير مباشر على الدولة نفسها . . والبرهان على ذلك أن احدى تلك المؤسسات الكبرى قد فرضت ارادتها في تعيين وزير مفوض للبنان في الخارج ، وحين تم لها ذلك اضطرت احدى المؤسسات المناهضة لها الى فرض وزير مفوض آخر في الخارج عملا بسياسة التوازن والمساواة . . وكانت الحكومة متسامحة في قبول الفرضين . وان سياسة المعارف في لبنان ، ومناهج التعليم لا تزال تحت سيطرة هذه المعاهد بشكل مفضوح ، ولا تزال اللغة العربية مساوية للأجنبية لا ميزة لها ولا أفضلية .

ان في استطاعة لبنان اليوم ، وهو في عهد استقلالي حديث ، أن يفرض سلطته على تلك المعاهد ، فيضمن توجيهها وفق سياسة الدولة على الأقل ، ويعمل على صهرها في بوتقة التوجه الوطني الحديث فيفرض عليها معلمين يختارهم للغة العربية وللتاريخ والجغرافيا والتربية المدنية ليضمن الروح الوطنية في ناشئتها . . ولكنه لم يفعل . . وفي ظننا أنه لن يفعل . . وفي يقيننا أن هذه المعاهد ستنمو وتتسع وتزداد في هذا العهد ، أكثر مما كانت عليه في عهد الانتداب . فقد كان ذلك الانتداب يشجع لونا واحدا منها ، أما اليوم فتشجع الانتدابات ـ وما أكثرها ـ جميع الألوان والمذاهب واللغات ، وتفتح الحكومات أبواب البلاد على مصراعيها لكل من يدعي ـ خدعة ـ أنه يحمل لنا رسالة العلم والفكر والاشعاع . .

ان الواجب القومي يحتم علينا باتشاء جامعات لبنانية كثيرة ، وأن تلغي كل معهد أجنبي لا يحترم اللغة العربية كل الاحترام ، ولا يجعلها المحل الاول في مناهجه ، ولا يدرس آدابها بتوسع ولا يعنى بتاريخ العرب وجغرافية بلادهم ، ولا يرفع اسم محمد وعيسى عاليا كأصحاب رسالة وجدت لخير البشر لا لتفرقتهم . نحن لسنا بحاجة الى تبشير ، فالاديان تسري في دمائنا . ونحن على استعداد لتصدير أكبر عدد من المبشرين ورجال الدين الى الخارج ليحملوا الى الوثنيين والمتأخرين من البشر رسالة الأديان السماوية . . ان في لبنان من رجال الدين ما يكفي لغزو أفريقيا كلها وجعل قبائلها الوثنية وشعوبها البدائية متدينة مؤمنة برسالة عيسى ومحمد .

واذا لم يكن لنا بد من التعليم الديني ، فلتكن لنا مدارس وطنية أهلية وحكومية تعلم مبادىء الدينين الاسلامي والمسيحي معا . فيفهم الناشيء اللبناني تلك الحقائق التي جاء بها عيسى ومحمد ، ويؤمن بخيرها ونفعها ، وينفتح قلبه لتقبل رسالتها الروحية السامية التي تبعده عن كل تعصب ذميم .

لا يجب أن نفرح بجلاء الجيوش الأجنبية عن بلادنا ، بل يجب أن نبتهج ونفرح بجلاء المعاهد الأجنبية عن تفكيرنا وأرواحنا . فالجلاء عن الفكر والروح هو الجلاء الحقيقي . ■■

قضايا حيوية

العامية انفصالية

بقلم: حامد السويداء

تحتل اللغة العربية لدى العربي منزلة سامية تبلغ مبلغ القداسة والتقديس فهي أم اللغات واعرقها وأصلها واعظمها واشرفها قاطبة وقد كرمها الله تعالى فجعلها لغة قرآنه الحق . فهذه اللغة تتمتع بكمال أمثل وجمال نموذجي يتمثلان بفصاحتها وبلاغتها الفريدتين ، ويدعم ذلك ما تتسم به من قوة ومتانة وجزالة من دقة ورهافة وسلاسة من لين وطراوة ومرونة ، من رقة وحلاوة وعذوبة ، من رونق وجاذبية ، من خصب وامتلاء وثراء ، من حيوية وفاعلية وخلق ، من ترتيب وتنظيم واتساق ، من تناغم وانسجام وتناسق مما يمنحها القدرة على استيعاب مختلف نشاطات الروح والعقل والقلب والضمير والمخيلة والحس . وغدت اللغة في حاضرها كما في ماضيها تهيمن هيمنة ايجابية شاملة على العالم الاسلامي الجديد ، وغدت اللغة الفريدة للادب والدين والعلم والفن والفلسفة والسياسة ، وأصبحت الوعاء الكلي الأوحد للثقافة العربية السائدة .

وقد ادرك أعداء العروبة والعربية قيمة وأصالة التكوين الحضاري للأمة العربية فسعوا جاهدين للنيل منها بشتى الوسائل وانتحوا طريقين اثنين في هجومهم عليها ـ الطريق الاول : العبث بها مرة من الداخل عن طريق دعوات مغرضة لاستبدالها باللهجات المحلية بها لتكريس واقع انفصالي . والطريق الثاني : التهجم عليها من الخارج والتشكيك بقدرتها على استيعاب تفاعلات النشاط الانساني ، وقصورها عن التعبير عن هذا التفاعل وافتعال الثغرات الوهمية في كينونتها البنيوية ـ ولكن هذه العدوانية على اللغة العربية كانت الخاسرة كل مرة وتحطمت كل محاولات العبث والافساد وكل الدعوات الانفصالية ، وكما اثبتت اللغة العربية اصالتها في الماضي فكانت وعاء تراثيا في الدولة الاسلامية الممتدة من الصين شرقا حتى البروفانس جنوبا وفرنسة غربا ، يؤكد ذلك إستخدام العربية لكتابة الفارسية والأوردية والتركية والملاوية دون أي تعديلات في شكلها وولادة الشعراء التروبادور من عمق العربية الأندلسية .

تاريخ الدعوات العامية :

إن النزاع القائم ما بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العامية المحلية نزاع قديم من حيث نشأته وتطوره حيث كان يأخذ أبعادا مختلفة في كل دور وزمن فمرة كانت عن طريق الدعوة الى ابدال اللهجة العامية المحلية باللغة العربية الفصحى وخاصة في ميدان كتابة القصة والمسرحية ، ومرة اخرى عن طريق الدعوة الى إبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ومرة عن طريق الدعوة الى استعمال العامية في الأعمال التمثيلية في وسائل الاعلام المختلفة وفي الشعرية الغنائية ايضا ، وان هذا النزاع بعيد الأمد بين الفصحى والعامية كان الدافع الرئيسي له تلك الأطماع السياسية والمحلية والاجنبية والتي بدأت في الربع الاول والثاني من القرن العشرين عندما عمد بعض الادباء الى تبني الفكرة والى دعم التيار القائل بضرورة استعمال اللهجة المحلية وكان من بين الاوائل الذين نادوا بهذه الفكرة في مصر الدكتور محمود عزمي والكاتب توفيق الحكيم وفي العراق الأديب فائز جادر وظهرت هذه الدعوة المبكرة في فترة كان للاستعمار مصلحة خاصة في تبنيها وترويجها غير انها لا تستند الى أية مرتكزات علمية . ووجد المتحمسون لها أنه ليس في وسع اللهجات العامية مجاراة الفكر العربي المتطور . غير أن الفكرة عادت فظهرت لتتخذ من أدباء امثال يوسف العاني وشاكر خصباك وسعيد حورانيه ويوسف الخال وغيرهم أقنية للتمدد والانطلاق . غير ان الواقع الذي يمكن ان يسجل تسجيلا تاريخيا موضوعيا

قد اثبت ان ما قام به هؤلاء لم يكن بأكثر من انتفاضة غريزية سرعان ما تلاشت ودفنت في طيات أكفانها .

ولا بد من الاشارة الى ان الدعوة الى استخدام اللهجة العامية كانت قد لقيت في البلاد العربية خلال الحكم الاجنبي دعما وتشجيعا من قبل المستعمر ، فمن شأنها أن تقوي التفرقة وبالتالي أن تجعله أقدر على التحكم في البلاد العربية التي لهم فيها مصالح واستثمار غير محدود .

ثم عادت العامية الى الظهور في منتصف الربع الثالث للقرن العشرين على يد أحد كبار الشعراء العرب وهو الشاعر اللبناني سعيد عقل الذي لا يعرف الوقوف عند حدود منطقية علمية أو تاريخية حيث دعا الى اصطناع اللغة العامية كوسيلة للتعبير في الكتابة ، ويتجاوز ذلك بدافع من أفكاره الذاتية غير المتكاملة ليقول أنه علينا ان نستبدل الابجدية اللاتينية بابجديتنا على نحو ما قام به كمال أتاتورك في تركيا عام ١٩٢٤ ، وان هذه الدعوة ليست من مبتكرات الأديب سعيد عقل وانما كانت تأثرا واستمرارا بنرجسية متقدة بالاسقاطات التاريخية التي ابتليت بها اللغة العربية .

وكان الرد الحاسم على دعوات سعيد عقل ما قاله العقاد « إن في حروف العربية وخطها من كمال ومرونة ما يصعدان بها درجات فوق اللاتينية في احكام كتابة الالفاظ والاصوات » وكما تأكد بشأن دعوة سعيد عقل العامية انه لدى جمع مفردات وكلمات العامية وجدت لا تتجاوز الخمسمائة كلمة بينما تتطلب الحياة العلمية المتطورة عشرات آلاف الكلمات لا بل مئات الآلاف لتستطيع التعبير عن المدركات الجديدة التي جاءت محصلة لتطور الفكر الانساني . صحيح أن في لغتنا الفصحى كلمات نسيت أصولها غير ان هذه الكلمات ظلت حية في طاقاتها التوليدية . كما ظلت ايضا تراثنا يمدنا بما نحتاج اليه من مضامين ومعان جديدة لكل مشكلة فكرية تعترض تطورنا الذي لا يعرف للتوقف أو التردد معنى . ولا ننسى في هذا المجال ان نذكر اقطاب الحركة العربية التي كانت تشكل قطاعا عريضا على امتداد وطننا العربي والتي تصدت لحركة الردة الفكرية التي تمثلها الداعون الى العامية . وكان على رأس الحركة العربية المناهضة عبد الرحمن عزام وعباس محمود العقاد وخاصة الاخير الذي تصدى بفكره وكتاباته لكل الدعوات الانفصالية والعامية وبرهن على انحطاطها وارتباطها بمخططات اعداء الامة والعروبة .

ان البلاد العربية ليست كلها على مستوى واحد من حيث الثقافة والتطور الاجتماعي غير ان هناك عوامل مشتركة تجمع كثيرا من تياراتها المتعددة . كما في نفوس ابنائها النزوع الى وحدة شاملة ذات سيادة وتحرر مطلقين . ولعل من اقوى هذه العوامل المشتركة عامل اللغة الفصحى التي تجمع جمعا ذهنيا قويا بين السوري والمصري والعراقي والتونسي والاردني والكويتي والجزائري واللبناني والمراكشي والفلسطيني تلك الاقليميات المزعومة التي صنعها الاستعمار .

ان الانصراف عن الفصحى التي هي اللغة المشتركة بين الاقطار العربية والتي تحفظ التراث العربي الفني وتصونه عبر احداث التاريخ - أقول - ان الانصراف عنها الى اللهجات المحلية العامية شأنه ان يجعل بالتالي لكل بلد عربي لغته الخاصة تنبثق من لهجته المحلية ثم تتطور وفق الحاجات التي تعترض سبيل ابنائه في حياتهم اليومية تتبلور بالتالي فتصبح اداة انفصال وانعزال ومن شأن مثل هذه النتيجة في سيكولوجية الافراد والجماهير ان يضعف من صلة الرحم ، وأن يجعل التراث العربي الفني مادة متحفية تفتقر الى مقومات الخلق والابداع والتوجيه . لقد كانت اللغة اللاتينية في اوروبا خلال الفترة التي تلت القرن الخامس عشر لغة الكتابة والتأليف كما كانت اللغة التي يعمد اليها رجال الفكر في شحن المضامين الاكاديمية على مختلف انواعها ثم اصبحت اللغة اللاتينية لغة قديمة بعد ان اخذت اللهجات المحلية لكل بلد اوروبي تتبلور في لغات خاصة لها مبتعدة في ذلك عن الأصول والجذور التي نشأت فيها . وكانت في يوم ما أداة ربط وصلة ويعرف رجال التاريخ كيف ان زوال اللغة اللاتينية كان له تأثير مباشر في عزل الشعوب الاوروبية بعضها عن البعض الآخر . وفي المساهمة في تكوين كيانات مستقلة مختلفة . واذا تم عندنا ما تم عند الأوروبيين فاننا لا شك سنصل في الوطن العربي الى حدود نضطر عندها أن نستخدم تراجمة للتفاهم مع ابناء بلد عربي آخر . ولا شك أن هذا أقصى ما يصبو اليه الاستعمار وخاصة بعد معرفته أن من شأن اللهجات المحلية أن تقف عقبة كأداء في سبيل وحدة الأمة العربية والتي لم يستطع أي تيار أجنبي أن يخفف من شدة نزوعها ومن قوة أصالتها .

رسالة من كوسوفا

الطريقة القادرية في يوغوسلافيا

بقلم الدكتور محمد موفاكو

تعتبر المناطق الواقعة حاليا داخل الاطار اليوغسلافي ، والتي كانت سابقا داخل الاطار العثماني ، من أغنى المناطق في أوربا بالطرق الصوفية . وبشكل عام ، يمكن أن نقول ان كافة الطرق الصوفية المعروفة في الاسلام قد وجدت امتدادا لها في هذه المناطق ، وبالاضافة الى المناطق الأخرى في البلقان .

وفي هذه المناطق يمكن أن نجد استثناءات أيضا ، بمعنى أنه لدينا فروع جديدة انتشت في هذه المناطق وسميت باسم اولئك الذين تبحروا في تلك الطرق المعروفة . . وقد يبدو أن غنى هذه المناطق بالطرق الصوفية يحتاج الى تفسير ما . ان هذا الغنى يكاد يرتبط ، فيما ، يرتبط بالظروف التي صاحبت دخول الاسلام ومن ثم انتشاره في هذه المناطق ، ففيما لو سلمنا بدخول الاسلام الى هذه المناطق ، قبل دخول الاتراك اليها ، نجد أن هذا يرتبط بشخصية غريبة هي ساري سلطاك **Sari Saltak**، الذي يبدو انه وصل البلقان خلال القرن الثالث عشر ، أي قبل وصول الأتراك اليها .

ومع انه يقال أنه وصل رومانيا ، الا أن نفوذه الروحي انتشر أساسا في المناطق الالبانية . ويدلنا على هذا كثرة الأضرحة المقامة له من ناحية ، وكثرة الروايات التي لا تزال حية حول كراماته ومعجزاته . . . . والشيء الذي يثير ان الايمان بكراماته ما زال سائدا حتى الآن . ومن هذا نذكر اننا كنا في زيارة ، في أواخر صيف ١٩٨١ ، لبيت قريب لنا ، في مدينة بيجا **Peja**، في جنوب يوغسلافيا ، حيث يوجد ضريح لهذا الولي . وقد ذكرت لنا بالصدفة زوجة هذا القريب ، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها وحاصلة على الشهادة الثانوية ، انها تستعد للذهاب لزيارة ذلك الضريح ، لتضع شيئا من النقود فيه . ولما سألناها عن السبب ، روت بأنها شاهدت الضريح في حلمها ، والعادة تقضي على من يشاهد هذا الضريح في حلمه بأن يذهب اليه في صباح اليوم الثاني ، حيث يترك فيه بعض النقود .

والشيء الذي يهمنا هنا ، أن شخصية هذا الولي قد ارتبطت ، على ما يشاع عليها باحدى الطرق الصوفية ، الا وهي الطريقة البكتاشية . وفي الحقيقة ، ان دخول الاسلام وانتشاره هنا قد يتصاحب مع ظاهرة خاصة ، الا وهي نشاط اتباع بعض الطرق الصوفية . الذين كانوا يأتون أحيانا من البلاد العربية ، قاطعين آلاف الكيلومترات وخائضين المصاعب ، والمشقات ، للتبشير بالدين الاسلامي في هذه المناطق ، بالروح التي يرونها طبعا من خلال طرقهم .

هذه الطرق ازدهرت بشكل خاص ، مع ما كانت



لوحة نـادرة للحاج محمد شيخو ، من مشايخ الطريقة القادرية في النصف الثاني للقرن ١٩ من مدينة جاكوفا .

تواجهه من مقاومة خلال العهد العثماني ، وقد تراجعت كثيرا ، خلال تواجد هذه المناطق في الاطار اليوغسلافي القديم ١٩١٨ - ١٩٤١ / مع تراجع حجم ودورها للمسلمين بسبب محاولات التهجير ، اذ أنه كان يكفي أن يهاجر شيخ الطريقة الى تركيا حتى يلحق به الكثيرون من اتباعه ، وقد استمر هذا التراجع في وجود هذه الطرق الدينية خلال الفترة الاولى من يوغسلافيا الحديثة ، الخمسينيات والستينيات ، مما خلق انطباعا ، بان هذه الطرق في طريقها الى الاندثار ولكن في السبعينيات نجد أن الروح قد عادت الى بعض هذه الطرق ولا شك في أن هذا يعود في جملة ما يعود ، الى تشكيل هيئة اسلامية في يوغسلافيا (١٩٧٤) تعني فقط بهذه الطرق الدينية .

ان دراسة هذه الطرق تشكل أهمية خاصة ، اذ أن لدينا حول هذه الطرق تراثا واسعا من الكرامات والمعجزات والأدب الديني ، الذي يرتبط بشيوخ واولياء هذه الطرق ، ولهذا التراث أهميته الكبيرة في اطار دراسة واعادة تركيب العلاقات التي كانت تربط بين العرب وبين سكان هذه المنطقة ، وبشكل خاص للعلاقات العربية الالبانية ، بسبب أن هذه الطرق انتشرت خاصة لدى الألبانيين .

لماذا القادرية

وقد اخترنا في هذه المناسبة الطريقة القادرية لسبب جوهري ، الا وهو أن هذه الطريقة قد انتقلت مباشر أيضا من الجانب العربي الى الجانب ، ولكن هذا لا ينفي كما سنرى انتقالها غير المباشر في بعض الحالات ، ونحن نأمل في مناسبة أخرى أن نتعرض لبقية الطرق ، التي انتقلت أيضا بشكل مباشر فقط من الجانب العربي الى الجانب الألباني .

بشكل عام ، يمكن أن نعيد انتشار هذه الطريقة في المناطق الواقعة في يوغسلافيا الى مركزين أساسين ، والى وقت واحد تقريبا . وهذان المركزان هما مدينة بريزرن وسرايفو ، ففي المدينة الأولى ، بريزرن PRIZREN ، ما يجعلنا نعتقد أنها من أقدم التكايا القادرية الموجودة حتى الآن ، اذ انها تعود الى بداية القرن السابع عشر . ويرتبط وجود هذه الطريقة ، التي تتبع في الحقيقة فرع الزنجيلة بشخصية آتية من خارج هذه المنطقة ، الا وهي الشيخ حسن الخراساني الذي يوحي لقبه بانه من خراسان ، وحول هذه الشخصية نجد أن المصدر شبه الوحيد يقوم على ما بقي حيا في ذاكرة اتباع هذه الطريقة . فمما يروى عن هذا الشيخ أنه قدم سائحا في بلاد الله للتبشير بالدين ، حتى وصل مدينة سكوبية ، عاصمة مكدونيا حاليا ، ويبدو أن مدينة سكوبية كانت ، حسب هذه الروايات ، مركزا لتكية أقدم أو على الأقل لشيخ بدون تكية . فهذه الروايات تفيد أن هذه الشخصية اجتمعت بشيخ في هذه المدينة ، وقد نصح هذا الشيخ حسن الخراساني بأن يبني تكية خاصة له في منطقة ما . ومن المثير ان نذكر هنا ما ترويه الروايات عن كيفية اختيار مكان تلك التكية : -

تفيد هذه الروايات بأن ذلك الشيخ اشار على الشيخ حسن بأن يمسك حجرا ويرميه على قدر استطاعته ، ومن ثم يقوم ببناء تكية في المكان الذي يسقط فيه الحجر ، وعلى هذا فقد أمسك الشيخ حسن حجرا ورماه بقوة ، واذ بهذا

الحجر يسقط في مدينة بريزرن ، التي تقع فقط على بعد أكثر من مئة كيلومتر من المدينة الأولى ، ويمكن أن نضيف هنا ، أن الحجر ، كما يقول اتباع هذه الطريقة ، ما زال موجودا حتى الآن ، ويمكن رؤيته في هذه التكية في مدينة بريزرن ، وقد تعاقب على هذه التكية عدة شيوخ ، وحاليا يوجد على رأسها الشيخ عبد القادر ، وهو الشيخ الثاني عشر منذ تأسيسها .

ومع التأكيد على أهمية هذه التكية ، يهمنا هنا أن نتوقف عند مدينة ثانية ، مدينة جاكوفا **GJAKOVA** التي تقع حاليا في اقليم كوسوفا ، لما لهذه المدينة من أهمية بالنسبة لانتشار الطريقة القادرية في جنوب يوغسلافيا الحالية ، وبشكل خاص لاهميتها من حيث كونها تشكل انتقالا مباشرا من الجانب العربي الى الجانب الالباني .

ومن هذه المدينة ، يرتبط وجود وانتشار الطريقة القادرية في هذه المناطق بشخصية البانية ، الحاج الشيخ اسلام ، الذي عاش في النصف الأول للقرن التاسع عشر . وحول هذه الشخصية تفيد روايات احفاده بأنه كان صاحب حرفة في المدينة وبأنه جمع ثروة من هذه الحرفة استثمرها في شراء الاراضي . وقد رغب مرة بتأدية فريضة الحج ، وذهب بالفعل الى مكة المكرمة . ومن هناك تملكته رغبة بزيارة بغداد الا أنه ضل طريقه في الصحراء . وفي الجزء الثاني من الروايات نجد تدخل عنصر الكرامات والمعجزات . فقد عانى هذا الشيخ ما عانى في تلك الصحراء التي ليست له خبرة بها ، حتى بقي على رمقه الأخير ، ولكن شيخ الطريقة القادرية في بغداد أحس بوجوده ، وهذه طبعا من كراماته ، في تلك الصحراء الشاسعة فارسل عربيين من اتباعه لانقاذه وحمله الى بغداد . وفعلا انقذ الرجل وحمل الى المدينة ، وفي بغداد بقي ستة شهور ، تبحر خلالها في الطريقة القادرية ، وأخذ الخلافة من هناك وعاد الى مدينة جاكوفا ليرفع فيها راية القادرية .

من كرامات الشيخ اسلام

وكما قلنا ، فالروايات تذكر انه كان غنيا وقد استثمر ثروته في شراء الأراضي ، حيث كانت له ساحات من الأراضي في عدة قرى محيطة بمدينة جاكوفا كدميان **Da-mian** وبوستوسيل **Postosel** ورادوست **Radost** .

وتضيف هذه الروايات انه ، حين عاد من بغداد حاملا الخلافة للطريقة القادرية ، تخلى عن ثروته ووهبها للفقراء ، وهنا تعجب أقاربه من هذا السلوك وسألوه :

ـ كيف تفعل هكذا ؟ لديك ولدان ويجب أن تترك لهما شيئا ليعيشا منه !

فرد عليهم الشيخ اسلام قائلا :

ـ يكفي أن أترك لهما طريق الحق . اذا تركت لهما هذه الثروة سيصابان بالغرور وسيشان الى سمعتي من بعدي .

وحول هذا الشيخ يمكن للمرء أن يسمع في هذه الأيام ما بقي حيا في ذاكرة الناس حول كراماته المختلفة ، ومن هذه نكتفي هنا بتسجيل واحدة فقط ، لما تتضمن من دلالات يمكن ربطها بالمحيط السائد حينذاك :

دعي الشيخ اسلام مرة للافطار في احدى القرى ، قبل ٥ دقائق فقط من الموعد ، فقال له الدرويش المصاحب له : لا يوجد وقت لدينا . فأجاب الشيخ : سنذهب وسنصل . ووصل الشيخ في نفس اللحظة الى مكان الدعوة ، أي قبل ٥ دقائق من الافطار . واحتفل أصحاب الدعوة بالشيخ ودعوه للطعام ، الا أنه رفض وقال للدرويش : لنذهب عند ذلك الفقير لنأكل الخبز والحليب . فتعجب الدرويش وسأله : لماذا نترك هذا الطعام الفاخر ونذهب عند ذلك الفقير ؟ فأجابه الشيخ : طعام هؤلاء فيه حرمة ، لأنهم تعدوا على أموال الغير وطعام ذلك الفقير حلال كله

وليس هناك من شك في أن الشيخ اسلام يعتبر من اهم الشخصيات في تاريخ الطريقة القادرية في هذه المناطق . ويؤكد هذا طبعا الكرامات المختلفة التي ما تزال تروى عنه بشكل خاص ، والتي ما تزال حية حتى الآن . وتنبع اهمية الدور الذي قام به هذا الشيخ بأنه أرسى تقاليد هذه الطريقة في عائلته ، التي تخرج منها على امتداد قرنين تقريبا عدد كبير من شيوخ هذه الطريقة في جنوب يوغسلافيا .

نلاحظ في البيان المرفق (أنظر مخطط سلالة الشيخ اسلام) ، فنجد في الفرع الثاني من زوجة الشيخ اسلام الأولى ان الحفيد الأخير هو الشيخ ابراهيم ، الذي حافظ على تقاليد الفرع ، ويمكن اعتباره من أحدث شيوخ هذه الطريقة سنا .

أما من الفرع الآخر ، فيبدو معنا ان تقاليد هذا الفرع

سلامة الشيخ اسلام في قيادة القادرية

(١) الشيخ اسلام

(من زوجته الاولى)

الحاج الشيخ صادق — الحاج الشيخ محمد

الحاج الشيخ حقي — الدرويش زين العابدين

(توفي في عام ١٩٧٨ وبوفاته توقفت تقاليد الطريقة في هذا الفرع من العائلة)

(٢) الشيخ اسلام « من زوجته الثانية »

الشيخ ابراهيم — الحاج الشيخ عبدالرحيم — الدرويش يونس

الشيخ عزيز — الشيخ اسلام

(عمره ٣١ سنة وهو حاليا شيخ تكية في جاكوفا)

قد توقفت أخيرا لدى الشيخ الأخير ، الشيخ حقي ، الذي توفي في ١٧ مايو ١٩٧٨ ولما كان ابنه البكر أستاذا جامعيا ، والثاني يعمل في ادارة أحد المصانع ، لم يتبق من هذه العائلة من يرث هذه التقاليد وبالتالي بقي مكان هذا الشيخ شاغرا حتى الآن . وقد انتهى الأمر عند هذا الحال ، مع ان هذا الشيخ يعتبر من أهم شخصيات الطريقة القادرية في هذه المناطق ، حتى انه يمكن أن يقارن فقط مع جده الأكبر ، الشيخ اسلام ، وذلك لما كان لكل منهما من دور في نشر هذه الطريقة ، واذا أردنا التحديد ، فقد كان للأول الفضل في نشر هذه الطريقة ، على حين كان للثاني الفضل في احيائها ونشرها ثانية .

رحلة السلالة

ولد هذا الشيخ في مدينة جاكوفا ، في ١٣ يناير ١٩١٣ . وقد تحول منذ حداثته الى طلب العلم والتبحر في الطريق ، الا أن وفاة والديه اضطرته الى قطع دراسته ، وذلك لاعالة أسرته ، ولهذا أصبح اماما لأحد المساجد في قرية قريبة من جاكوفا ، وبقي في هذا العمل لأكثر من ثلاثين سنة ، وخلال هذه الفترة ، تابع تقاليد عائلته

وتسلم أخيرا التكية القادرية ، التي تتبع فرع الرزاقية ، في مدينة جاكوفا ، وكما قلنا فان فضل هذا الشيخ يكمن في احياء الطريقة القادرية في هذه المناطق ، التي كانت قد بدأت في الاضمحلال خلال الخمسينات والستينات .

فبواسطة هذا الشيخ أعيد فتح عدة تكايا تابعة للطريقة القادرية في اقليم كوسوفا . فقد فتحت بعد سنوات طويلة من اغلاقها تكية للطريقة القادرية في مدينة بريزرن ، حيث نصب عليها الشيخ خضر ، كما أحيا تكية أخرى في مدينة متروفيتسا Mitrovica وأعطى الخلافة فيها للشيخ رضا بيرامي ، ومن ثم أنشأ تكية أخرى في مدينة بيجا peja وترك عليها الشيخ عابدين ، وفي الحقيقة ، لم تقتصر جهود هذا الشيخ على احياء الطريقة في اقليم كوسوفا ، بل وفي البوسنة أيضا ، التي كانت غنية جدا بالطرق المختلفة . فبفضل هذا الشيخ تم أخيرا افتتاح مقر الطريقة القادرية في مدينة سراييفو ، التي تعتبر من أقدم التكايا القادرية في يوغسلافيا ، والتي بقيت مغلقة لأكثر من عشرين سنة ، وتتمتع هذه التكية بأهمية تاريخية وأثرية ، مما دفع الدولة أن تدخلها تحت حمايتها .

ولهذه التكية في الحقيقة ، تراث عريق ، فقد نبغ فيها بعض المشايخ ، الذين اشتهروا لا بنشاطهم الديني وحسب بل وبنشاطهم الأدبي . وربما يكفي أن نذكر من

هؤلاء ، الدرويش محمد غوراني Dervish Muhamed Gurani الذي كان من أفضل شعراء عصره . وقد ولد هذا القادري في سرايفو سنة ١٧١٣ من عائلة مشهورة جاءت من تركيا . وفي شبابه احتك بتكية القادرية في سرايفو وانخرط فيها ، على زمن الشيخ محمد أفندي ، الذي منحه الانابة فيما بعد .

وبعد وفاة هذا الشيخ ، أصبح محمد غوراني شيخ هذه التكية ، ولكن شهرته في الحقيقة عمت البوسنة على كونه شاعرا مجيدا ، حتى ان المؤرخ ملا مصطفى وصفه بأنه لا يوجد له مثيل في البوسنة ، ومع هذا ، يبدو ان تكيته في ذلك الحين كانت تعاني من بعض المصاعب ، حتى انه انتهز زيارة الوزير البوسنوي عبد الله باشا دفترزاده الى مدينة ترافنيك البوسنية خلال ١٧٨٠ ـ ١٧٨١ ليزوره وليرجوه المساعدة في اصلاح التكية . الا أنه مرض وتوفي خلال هذه الزيارة في تلك المدينة ، وقد خلف لنا بعد موته الكثير من الأشعار التي تتجاوز دائرة الطريقة حيث نجد فيها الكثير من الغزليات بروح ذلك الزمان .

الآن ، ومع رحيل الشيخ حقي الذي تحدثنا عنه سابقا ، أصبح السؤال يطرح نفسه : ما مدى حيوية هذه الطريقة الآن في يوغسلافيا ، وما مدى اتجاهها نحو الاضمحلال والتلاشي ؟

بشكل عام ، يمكن للمرء أن يلاحظ ان هذه الطريقة بقيت متمركزة في جنوب يوغسلافيا ، في اقليم كوسوفا وفي جمهورية مكدونيا ، حيث يعيش الالبانيون أساسا ، على حين أنه في البوسنة ما زالت في نطاق ضيق ، حيث ان اعادة فتح تكية سرايفو قد لا يشكل شيئا بالمقارنة مع تقاليد هذه الطريقة في البوسنة ، وحتى في الجنوب ، في اقليم كوسوفا ، وجمهورية مكدونيا ، فان وضع هذه الطريقة ليس في حالة مرضية ، بل نجده يسير ببطء نحو التقلص ، الذي قد يؤدي مستقبلا الى التلاشي .

٤ تكايا باقية

وحول هذا ، قد يكفي كمثال مدينة جاكوفا بالذات ، التي تعتبر من أغنى المدن في يوغسلافيا بالطرق الدينية ، ففي هذه المدينة نجد الآن أربع تكايا فقط للطريقة القادرية ، وهي على الوضع التالي :

١ ـ تكية الشيخ حقي ، الذي تحدثنا عنه فيما سبق . وقد بقيت هذه التكية شاغرة بدون شيخ منذ وفاته (١٩٧٨) ، حيث ان ظروف ولديه لا تتيح لهما التفرغ لخدمة التكية والطريقة ، ومع هذا ، بقيت التكية تفتح فقط يوم الجمعة ، حيث يأتي مريدو الشيخ حقي بعد صلاة الجمعة ويقومون بالذكر حوالى نصف ساعة ، ومن ثم ينصرفون .

٢ ـ تكية الشيخ شعبان ، وقد توفي هذا الشيخ في جاكوفا ، وجاء من بعده الشيخ محمود . الا أن هذا هاجر ، مع من هاجر من الألبانيين الى تركيا في الخمسينيات ، وبالتالي بقيت التكية شاغرة ومغلقة حتى الآن .

٣ ـ تكية الشيخ اسماعيل ، وقد أسس هذا الشيخ التكية بنفسه ، الا أنه لم يخلف ولدا .

وبعد موته بقيت التكية شاغرة ومغلقة .

٤ ـ تكية الشيخ ابراهيم ، التي كانت نشيطة تحت عهدة والده ، الشيخ عزيز ، ومع وفاته آلت اليه وأصبح شيخا ، مع أنه ما زال شابا في الثلاثين من عمره . ومع هذا فهي التكية الوحيدة التي تعتبر متكاملة ، بوجود شيخ على رأسها .

ومع أننا لا نملك صورة تقريبية عن عدد اتباع هذه الطريقة في يوغسلافيا ، الا أن هذا الوضع الميداني للطريقة في احدى أهم المدن يشير الى تضاؤل أتباعها بشكل تدريجي ، ومع هذا ، ان ما يعنينا من هذه الطريقة هو التراث الذي نشأ بين أتباع هذه الطريقة ، والذي يشكل مادة غنية للدراسات المختلفة ، فهذه المادة تشمل الأدب الشعبي والأدب الديني وهي تعنينا أساسا لوجود المؤثرات العربية الاسلامية فيها .

وبالاضافة الى هذا ، لدينا في هذه الطريقة ، كما في غيرها من الطرق ، جانب جديد يدفع للاهتمام ، ألا وهو مدى الاضافات التي لحقت بهذه الطريقة في هذه المناطق ، والشيء الأساسي الذي يمكن التوقف عنده هو تلك المسحة الشيعية التي تبدو بارزة في هذه الطريقة ، مع ان وجودها في بقية الطرق أوضح بكثير . ونأمل أن نعود الى هذا في مناسبة لاحقة . ■■

برشتنا ـ كوسوفا ـ د . محمد موفاكو



دلالة صمت يوسف إدريس عن الإبداع القصصي

بقلم : عبد الرحمن أبو عوف

لنبدأ بالاعتراف أن موهبة الابداع المراوغة والفذة والأصيلة عند يوسف ادريس ، والتي تمر الان بمحنة البحث عن شكل ولغة وبنية اتصال وتجسيد وحوار مع الاخرين («القارىء» ، تضع النقد امام مسئولية مرهقة محيرة من التعبير والتلمس لتقصي وفهم جوهر أزمتها ، أزمة ذات ابداعية موهوبة متفردة مع الموضوع ، مع مادة العمل الادبي والفني ، والذي هو في النهاية تقطير واعادة خلق وتجاوز للواقع الاجتماعي والانساني الذي يعيشه الكاتب في مرحلة تاريخية وحضارية محددة .

لأن ما استحدثه وأبدعه . يوسف ادريس ـ من عشرات بل مئات القصص القصيرة وبعض من الروايات القصيرة ، وما عمقه وفجره وأضافه لمفهوم الدراما المصرية والعربية ، جعل من اسهاماته ، مرحلة متألقة تجاوزت فيها القصة القصيرة ـ شكلا وموضوعا ـ نفسها ، واصبح لها أصالتها ، بعد طول تسكع في التأثر باتجاهاتها العالمية في المبنى والمعنى .

انه كاتب مطبوع يكتب في التهاب وبهم وتوقد وحدة ذكاء ساطع وشهوة عارمة عصابية ، تتقصي جوانب الواقع الانساني وما بعد أو وراء البعد الانساني والنفسي ، وتلتقط في نفاذ ديمومته وتحولاته في تجاوز لآنية اللحظة .

وأنا أغامر ، ومنذ البداية يصدق (يوسف ادريس) في كثير من أقواله وتصريحاته وأحاديثه عن اكتشاف الكاتب فيه وكاتب القصة القصيرة بالذات ، فلا جدال انه وبرغم هذا الاسهام المبدع المتكامل الذي قدمه لأدبنا المعاصر من عديد القصص القصيرة الفذة والروايات القصيرة والمسرحية ـ مازال قلقا مهموما هاويا بعيدا عن الاحتراف ، وربما هذا هو سر روعته وأزمته في التوقف عن الابداع فترات ، وأخيرا قمة هذا التوقف في السنوات الأخيرة والذي تبدأ دراستنا بفهمه وتحليله ورصد دوافعه واسبابه الكامنة والظاهرة .

وان بقينا بتأكد أن الكشف النقدي التحليلي والدقيق عن مكونات شخصيته بأوسع مدى ، ومكونات شخصيته الادبية والفنية بالذات من قدرة على الملاحظة ، ومن ثقافة مهيمنة منظمة وثقافة مكتسبة ، ومن عديد علاقاته بالواقع الاجتماعي من حدود الأسرة حتى شبكة علاقات المجتمع والموقف من القيم ، والطبقة والسلطة ، وسواء قبل ان يكتب او بعد ان كتب هذا الفيض الكبير من الابداع ، ان كل ذلك ضرورة ، ولكن الاهم هو تحليل المرحلة الاجتماعية وظروفها السياسية والحضارية والادبية والثقافية التي تكون ربما دون ان يدري أو يدرس (يوسف ادريس) خلالها .

ثم ـ هو الاهم ـ فحص موقف المستوى الابداعي سواء في الفكرة او البناء الجمالي للقصة القصيرة والمسرح في وقت اقتحامه ومشاركته الابداع في خجل وصمت ، وبتشجيع من قلة موهوبة من أصدقائه وزملائه الاطباء ـ وبالذات ـ الذين كانوا يكتبون بين الحين والحين القصة القصيرة .

المصرية في بناء القصة القصيرة

ولعل ابرزهم باعترافه هو نفسه اكثر من مرة ، دكتور يسرى أحمد ـ الذي قرأت له ثلاث أو أربع قصص ذات مستوى رفيع ، غير ان الملفت لنظر الناقد هو الحاح (يوسف ادريس) في هذه المرحلة على ضرورة البحث عما أسماه المصرية في بناء وكتابة القصة القصيرة ، بمعنى أنه يتشوف ويظمأ ويبحث عن جديد ، وعملية البحث عن جديد لديه لاتقوم فيما قرأنا له من أحاديث او مقالات حول هذا الموضوع ، حول نقد وتقييم لمستوى القصة القصيرة وقتها فنيا وفكريا ، الأهم ملاحظات عامة صادقة في اتجاهاتها النافذة من طوال تكامل وتأثر القصة القصيرة بالاتجاهات العالمية وخاصة أثر كل من (جي دي موبسان) و (انطون تشيخوف) و (همينجواي) و (مكسيم جوركي) .

وهذا ـ كما سبق أن قلنا ـ يقتضينا التوقف فترة عند صحة هذه الملاحظات ، فالواقع ان اللحظة التي بدأت تنشر فيها قصص (يوسف ادريس) بغزارة وتألق ملفت للنظر ـ هي أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، والغريب اننا سوف نجد في أولى مجموعاته (ارخص ليالي) قمة نضج مرحلة البداية ، ولقد عثرنا قبل هذه المجموعة على بعض قصص أخرى لم يضمها في مجموعة نشرت في مجلات متفرقة : منها كتب للجميع وغيرها من المجلات القصصية او السياسية التي كانت تزخر بها مرحلة أواخر الخمسينات وأوائل الستينات .

لقد كانت خريطة القصة القصيرة المصرية تتحدد في سيل متراكم من الكتابات ، انجد في تراكمها بعضا نادرا من القصص ذات النسق والفنية والتوحد مع اتجاه ورؤية اعتقادية ذات ملمح مذهبي من مذاهب القصة .

كان الانتاج في معظمه يغلب عليه التورم الرومانسي او الميلودرامي او الواقعي يلي ، او الوصف للاجواء والشخصيات ، والغرام بالحكاية والنادرة والغرابة والمصادفة .

وبرغم أن فترات معينة كانت القصة القصيرة المصرية قد حققت لها تواجدا جماليا وموضوعيا يخلو من التأثر المباشر من القصة العالمية بكل اتجاهاتها .

ومضات الثلاثينات

وذلك في أبرز المحاولات الريادية التي قدمها في اوائل الثلاثينات محمد تيمور وعيسى عبيد ، خاصة مجموعة عيسى عبيد الهامة (احسان هانم) ، ثم في أواسط الثلاثينات واوائل الاربعينات الكاتب الموهوب (طاهر لاشين) في مجموعتي (يحكي أن) و (سخرية الناي) .

برغم ذلك فهذه ومضات ، يمكن ان تضاف اليها مهارات أعمال (يحيى حقي) رغم قلتها وتذبذبها بين الواقعية والصوفية ، بين اللقطة الحساسة المرهفة وبين اختزال الواقع وصدقه ، اما الغالب والمريب فهو اندفاع القصة القصيرة في طريق التمصير والحكاية وقصص الاثارة والوصف ، ولقد حيرنا اسهام كاتب مثل (سعد مكاوي) كان يبشر في بداياته بقدرات القصاص المدرب الفاهم شروط وجوهر وطبيعة جمالية القصة القصيرة ، ولقد قدم

أكثر من مجموعة ، غير أنك كنت تجد فيها قصة او قصتين ، على مستوى باهر من الاقتداء والشفافية ، ولكن بقية المجموعة تخضع لنوع من القصص المطوطة المملة والمسطحة الموضوع والبناء .

يبقى كاتب واحد لم يأخذ حقه من التقييم النقدي رغم ريادته وهو أحد اساتذة رواد القصة القصيرة المصرية وهو (محمود البدوي) الذي يعتبر ابداعه القصصي خاصة في مراحله الاولى ارتقاء ذات حساسية واعية باصول فنية شكل القصة القصيرة ، ان عددا ضخما من قصصه في عدة مجموعات متتابعة له ـ لعل أبرزها ، غرفة فوق السطوح ، والجمال الحزين ، والعربة الأخيرة ، وذئاب جائعة ـ

تقدم حساسية وخبرة حرفية ، بادراك أن القصة القصيرة نقطة على منحنى الطريق من خلال التركيز عليها ، تطل على الجهات الاربع في المكان والزمان ، ومن خلال تعمقها كحدث درامي في علاقته بالأشخاص او الشخصيات تطل على أوسع مدى للزمن الماضي والحاضر والمستقبل . والأهم الزمن النفسي لصراع الشخصية مع الواقع ، ولا جدال أن روح وظلال ورؤى أمير القصة القصيرة (انطون تشيخوف) قد ظلت تطل برأسها عبر قصص عديدة قدمها (محمود البدوي) • غير أن مأساة (البدوي) هي غياب المفهوم الاجتماعي ، أو لامبالاته أو عدم وعيه بجدلية اللحظة التاريخية في مصر والعالم . وما يحدث في قلب العملية الاجتماعية في المجتمع . هو مصور وصحيح لايمكن ان تتهمه بغياب مفهوم ما عن الانسان وعلاقاته مع الاخرين ، ولكنه يتوقف في الغالب بعدسته عند هوامش تجربة الحياة ، هو مبهور ومتشوق دائما لتصوير (المأساة والملهاة) في حياة البسطاء العاديين في البارات والمقاهي ومكاتب العمل والاسواق وقرى الصعيد . والغرف المفروشة . ولعله أبدع من صور حياة الغربة ومعايشة الاجانب في البانسيونات ، أو حتى محاولاته وصف علاقات المصري بالأجنبي الغريب في بعض قصص تقترب من ادب الرحلة ، خلال ما أتيح له من سفريات عديدة في الغرب والشرق . ثم اقترابه من معنى وجوهر الجنس . كان ـ وبلا جدال ـ محاولة متفردة اعطت كثيرا من القصص التي محورها علاقة الرجل بالمرأة بحيث يمكن ان تقدم دراسة وجدانية واجتماعية عن مشاعر الرجل والمرأة في مجتمع شرقي متخلف يعاني من الكبت والحرمان وبقايا النظر للمرأة في صورة الجسد فقط دون احترام آدميتها ونفسيتها .

يبقى كل من (يوسف الشاروني) و (ادوارد الخراط) وكلاهما وبالذات في الأعمال الأخيرة (ليوسف الشاروني) حتى اثناء (ظهور يوسف ادريس) وبتطبيق نفس المعنى على (ادوارد الخراط) ظل كلاهما يسبحان في تيار القصة التجريبية المطعمة بتأثرات (كامو) و (كافكا) واصداء أشعار (اليوت) ومسرح (ستردنبرج) • ويبدو انها لم تكن قادرة على التعبير عن اللوحة العريضة التي كان يجتازها الوجدان المصري ، اما ورثة أو مقلدو (تشيخوف) و (جي دي موبسان) فقد استهلكتهم برودة التفاعل مع طبيعة الواقع وما يطرحه من مهمات وقدموا ركاما كميا من أعمال قصصية

الواقعية الاشتراكية والواقعية الجدلية

لاتمتلك قدرة مخاطبة دخيلة أعصاب القارىء المصري وقت ذاك ، وربما كانت الرواية في وضع اكثر اكتمالا ونضجا ، وربما عبرت ايضا على أيدي و نجيب محفوظ ، مرحلة عالية من النضج والوعي والمعاصرة .

ويبقى من خريطة اتجاهات القصة القصيرة المصرية والعربية نوع من قصص الاتجاه الواقعي ورصد ما صدر في هذه الفترة من أواخر الخمسينات حتى اوائل الستينات ، فقد كان خليطا من الواقعية التسجيلية والواقعية التقدمية والواقعية الاشتراكية التي لم تكن بالذات وكمذهب أدبي قد تحققت لها اصول نظرية وجمالية في منابعها ، تبين ماهي طبيعة وجوهر وشكل القصة الواقعية الاشتراكية .

وانا من النقاد الذين قتلوا هذا الموضوع بحثا ـ فلسفيا وجماليا وادبيا ـ فوجدت ان مسمى (واقعية اشتراكية) مصطلح خاطىء ، والأصح والاقرب للحقيقة العلمية ان تسمى (واقعية جدلية) . اي ان الرؤية الفلسفية الجمالية وراء الابداع تؤمن بالمفهوم الشمولي عن الكون والحياة والمجتمع وعلى أسس المادية الجدلية ، وقبل وخلال ظهور قصص (يوسف ادريس) حدث التباس وبلبلة في هذا المفهوم سواء عند اوائل النقاد الذين نشئوا له في ثقافتنا وادبنا ونذكر منهم (محمود امين العالم) و(عبد العظيم انيس) و (حسين مروة) و(محمد ابراهيم دكروب) وآخرين .

ولقد كانت حصيلة هؤلاء النقاد التبشير والتنظير والتعريف بمذهب (الواقعية الاشتراكية)ولكن شاب هذا التعريف والتفسير والتطبيق ـ ونتيجة ظروف سياسية واجتماعية متناقضة ـ قصور كثير ، فقد وقفوا عند أوليات مفاهيم علم الجمال الجدلي ، وبسطوا في سذاجة علاقة الفن بالحياة . ولقد اندفع كتاب كثيرون الى ابداع قصة واقعية منهم عبدالرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي ، وحنا مينا ، ومحمد صدقي ، وصلاح حافظ ، وابراهيم عبد الحليم ، وغالب طعمة فرمان وآخرون ،

ولكن كان في البداية والنهاية أبرزهم (يوسف ادريس) .

الابن الشاطر

لقد جسدت كتابات (يوسف ادريس) من زمن بعيد مجد المدرسة الواقعية الجدلية المجهضة في ادبنا الحديث ، كان الابن الشاطر من حيث تفكيره ومواهبه والتزامه البحث الجاد عن الخلاص ، ويمكن اعتبار آثاره في تلك الفترة آثارا انتقادية مفعمة فيها ، تحمل عبء وجدان متنبه وصارم ، وتبدو وكأنها تنحني وهنا تحته ، لقد اراد ان يكون قاص الامل والتمرد والعنف الجماعي ، ويبدو انه فهم قبل غيره أن الادب لم يعد يمكنه ان يكون لعبة ولا وثيقة كذلك كانت آثاره الأولى ، آثار طاقة ونشاط والتزام وحرية ووجدان ، كانت قانون عمل انفاذ الى مفتاح حياة ، فمهدت لنا الطرق التي تواصل شقها ، وربما ساعدتنا على توسيعها ، بيد أن هذه الاعوام الاخيرة أتاحت له فرصة مصالحة عامة .

لقد نبعت كتابات (يوسف ادريس) الاولى في اطار المد الثوري لاستكمال مهام الثورة الوطنية ، وساهمت مع كتيبة كتاب الواقعية بمختلف مستوياتهم ومواهبهم وامكانياتهم في صياغة فجر الثورة الاشتراكية التي كان ولا يزال مجتمعنا يحملها في احشائه .

انعكاسات الواقع على الفنان

ولقد انعكست كل تناقضات الواقع المصري في تحولاته على وجدان هذا الفنان ، فعكست في اعماله الاولى رؤية واعية تدرك الصراع المستمر في حياتنا بين الجمود والحركة بين الآلية والوعي ، فالعمل ونظم المجتمع وكافة ما ينتج عنها من روتينية يميت فينا الوعي بالحياة ، لكن طبيعتنا كأحياء لاتتلاءم أبدا مع هذا الجمود ، ومن هنا تريد ان تنقض عليه وتريد ان تستعيد وجدانها الحقيقي بالواقع ، لذلك حاول الكاتب ان يقدم لنا رؤية جديدة لواقعنا عن طريق عمل فني ما او تعيش تجربته حتى تتفتح جوانب الواقع التي كانت أشبه بتراكم آلي في المكان ونحن تحت سطوة العمل والروتين .

ونشير هنا لمجموعة القصص التي تضمنتها (أرخص ليالي ، وجمهورية فرحات ، وقاع المدينة ، وحادثة شرف والبطل ، واخر الدنيا ، والعسكري الاسود) ، ويمكن ان تضم اليها روايات (الحرام) و (العيب) ، ومسرحيات (ملك القطن) و (جمهورية فرحات) ، و (اللحظة الحرجة) .

ويسيطر على بناء هذا العالم المتخيل رؤية جدلية ، تؤمن بالترابط بين جزيئاته المبعثرة وتكشف قوانين التغير الذي يحكمه ، لذلك اصبحت عملية الخلق الفني لديه تدور حول تشكيل خامة الواقع المصري بالربط بين عناصره المبعثرة والاحتفاء بالحركة واشاعة ايقاعها المستمر ، وكل ذلك حول الواقع العادي الى واقع محلل واع ومصقول ، واقع اكثر رحابة وغنى من الواقع نفسه .

ويصعب هنا الالمام بعديد اللحظات الانسانية الدافقة التي اختارتها عدسته الحادة وتغلغلت في أعماقها ، وتشعر بالحيرة وسط عديد من نماذجه المقطرة من حيوات بسيطة حالمة ومسحوقة في دوامة الصراع اليومي ، لقد عالجت هذه الموهبة المتهوسة بالحياة قضايا الجنس والموت ، والتمرد والانسحاق والامل ، وأحالت على مستوى الصورة المجازية كل تمزقات الوجدان المصري في صراعه الاخلاقي والاجتماعي ، ووقفت امام معاني كلمات لها وقع السحر والرعب (كالعيب والحرام والشرف) وتسللت لعوالم شفافة كلها بكارة ونقاء في مجموعة قصص عن حياة الاطفال وعالمهم (كآخر الدنيا ، وهي دي لعبة ، والمثلث الرمادي ولأن القيامة لاتقوم وصح) ومع ذلك فهذه الملحمة من الاحساس لها تناقضاتها ، فرغم قدرة هذا الكاتب على الاستيلاء على ذهن القارىء واجباره على الانغماس في قلب الموقف الذي تعيشه نماذجه ومعرفة أين الوتر الذي يعزف عليه المقدمة التي تستولي على الانتباه ؟

المرحلة الاولى لاعمال ادريس

رغم كل ذلك فالمحير والمثير هو فقدانه أحيانا لهذا الوتر ، فكثيرا ما يتوه منه الموضوع وبالتالي تختلط الادوات التعبيرية بعضها ببعض ، يصبح مباشرا وساخرا من ضعف الانسان رغم مشاركته آلامه ، وبين السمو المتألق النادر وبين الانهيار المعتم الغث في كثرته وبين البناء المتماسك المتقن والاضطراب واللهوجة كثيرا ما تضفي الشحوب على سحر عالمه ، فثمة كلمات ولغة منحوتة بموسيقية عذبة مشحونة بالظلال والمعاني المتعددة ، وثمة ايضا ـ وفي نفس الوقت ـ كلمات رخيصة مفرطة في عاميتها ، تتراكم بلا اداء درامي ، ان المزعج هنا اننا أمام خيال متسلط يغامر باحتوائه كل ماليس تحت سيطرته من واقع غير محدود ، ومن زمن لاينتهي .

وقد يهزنا العالم القصصي الرحب المقدم هنا عن تقصي عدة عوامل متصارعة كانت تلعب دورا رئيسيا وراءما نجده فيه من سمات متماسكة واخرى ممزقة في المستوى الفكري والجمالي رغم دورانه ايضا وبحساسية حول عموم الحياة المصرية في سيولة وزخم الريف المصري وايضا المدينة

تلك سمات اجمالية فكرية وجمالية عن مرحلة (يوسف ادريس) الاولى التي يمكن ان نجد فيها انجازا في فهم الواقعية التقدمية اصبح رصيدا له أهميته في قصتنا ، غير انه كان اكثر أبناء جيله معرفة بالمتطلبات الاساسية التي يطرحها الواقع الاجتماعي والحضاري في تغيير مفاهيم القصة في بنيتها ومعناها وامكانياتها تحقيق الحساسية بتحولات الواقع بكليته الانسانية .

والمرحلة الثانية

ولنحدد في البداية ما يقصده بالمرحلة الثانية وما كتبه يوسف ادريس خلالها حتى توقف بعد صدور مجموعته (بيت من لحم) ومسرحية (المخططين) بجانب ما هو أساسي في اعتقادنا بالنسبة للفنان ، وهو الوقوف وجها لوجه امام وجدان مهمل ، وعاجز ، وامام واقع تاريخي في مرحلة الصنع تمسه رياح التغيرات العتيقة ، واقع يبدو صامتا ومرهقا ، ولاشك ان كل ابداعه القصصي والمسرحي بعد مرحلته الاولى يريد ان يتجاوز التشوش الاولى وان يجد معنى مقبولا للحياة ، غير انها محاولات اختارت الذهاب الى اخر هذا التشوش ، محاولات غريزية بعيدة النظر الى الدرجة القصوى المفرطة ، تتكيل ثم تتوقف بازواجها ، قوية وضعيفة على الرغم من دقتها ، ينعشها نفس عميق خلاق تبدي في معظمها كأنها لا أعضاء لها كالماء المتأهب لاتخاذ جميع الاشكال ، انها في النهاية آثار خاصة عصابية تعاني من طبيعة حواشي الحياة المصرية ، غير أنها مثقلة بالشمول وبالجوهري اكثر من آثار اخرى في قصتنا المعاصرة .

وقد تلمس صدق هذا الانطباع الاولى مبلورا لحد ما في مجموعات (النداهة) و (لغة الآي آي) ومسرحيات (الفرافير) و (المهزلة الارضية) . إن بعضا هاما من هذه المحاولات الاخيرة يلتزم ذات البحث عن أسلوب جديد ، ان نوعا من الانتقال يتهيأ مع اتصاله المستمر بالانتقالات السابقة . ويمكن ان نسجل هنا قوله في أحد أحاديثه الادبية (بمجلة حوار) بعد أن حدد مسئوليته كمبدع بضرورة تخطي مرحلة التأثر بتشيخوف وجوركي والتمرد على المواصفات الجاهزة لقصص عبرت عن عصر انقضى ، يقول (يوسف ادريس) : انني أبحث عن رؤية جديدة ، غير أنها في الحقيقة امتداد لرؤياي السابقة الى مدى ربما أبعد ، ربما أعمق ، ربما أشمل ، ذلك الامتداد الذي ربما جعل من الظواهر المتفرقة ظاهرة واحدة مترابطة ذات قانون ، وربما جعل من الظاهرة التي كنت أراها محدودة ظاهرة أشمل وأعم ، حتى لتأخذ شكل القانون العام . معنى ذلك هي مرحلة يلتقي عندها الواقع الخارجي كما أحسه بالفلسفة الداخلية كما تبلورت من خلال تجاربي بالرغبة في الخروج للناس بحلول جديدة لمشاكل قديمة ، تمتزج هذه العناصر الثلاثة لتكون ما أسميه بالعالم الفني الوازي الموضوعي ولكنه لا يخضع لقوانين لأنه يملك قوانينه الخاصة وقيمه الخاصة) .

من القصة الى المقال

وعلى ضوء هذه الرؤية نتابع انتاج (يوسف ادريس) القصصي مما يحتاج لدراسة تفصيلية غير انه وفجأة استسلم للندوب والتآكل والسقوط الذي حاصر الحياة الثقافية والفنية منذ السبعينات وبدأ يتحول من كتابة القصة الى المقال الاسبوعي واستغرقته المشكلات السياسية المتناقضة التي مرت بالمرحلة وظواهر الازمة التي أحاطت بكل شيء ، فاندفع مستغرقا في كتابة سلسلة مقالات استغل فيها قدراته على الملاحظة الفذة والاسلوب المتوهج غير أنه تخبط في كثير من أحكامه وتفسيراته وتبريراته للأحداث التاريخية التي شكلت منحنيات على طريق مرحلة النضال الوطني والاجتماعي .

وبدأ يقنع نفسه بأن كتابة الفن والقصة في هذه المرحلة القلقة ترف وابتعاد عن صميم مايفكر فيه الشعب من مشكلات آنية .

وكل ذلك لايقنع الناقد فربما ينطبق الامر نفسه على (يوسف ادريس) فهو قد ظهر وكتب أهم أعماله في ظروف انتقالية وازمات سياسية ربما اخطر مما يتعرض له الان ، فأزمة توقفه اذا بجانب ظروفها الموضوعية تتوقف في البداية والنهاية على مسئوليته هو نفسه .

ولعل ذلك يحتاج لدراسات تفصيلية اخرى ، فكم هي مثيرة ومغرية القضايا النقدية التي يوحي بها عالم يوسف ادريس القصصي . ■■

عبد الرحمن ابو عوف

سوالف كويتية

من سميمبج الى غصون واخيها الغزال !

بقلم : الدكتور علي الحديدي

حكايات الجنيات والسحرة التي تحكى للاطفال في الكويت يمكن أن تتخذ نموذجا لما يحكى في منطقة الخليج كله ، ذلك أن التراث الشعبي القصصي الذي يحكى لأطفال قطر خليجي يتماثل أكثره ويتشابه مع الحكايات الشعبية في الأقطار الخليجية الأخرى ، وقد يتشابه مع حكايات عربية في أكثر من قطر عربي خارج محيط الخليج ، وفي أحيان أخرى قد تتشابه بعض حكاياته أو تتماثل مع حكايات شائعة في مجتمعات غير عربية .

واذا أمعنا النظر في حكايات الجنيات والسحرة والخوارق التي تحكى للأطفال في الكويت نجدها أقساما ثلاثة :

القسم الأول :

ماتصلح حكايته للأطفال جميعاً لأنه خال من الخوف والفزع ، ويضم مايبعث المتعة وروح المرح والتسلية في نفوس الأطفال ، ويبث فيهم الأخلاقيات الحميدة بما يحمل في سياقه وسلوك شخصياته من قيم الحق والعدل والجمال ، وبما يتضمنه من ألوان الخيالات المبهرة والمغامرات المثيرة ، وبما تتمتع به شخصياته من خصال حميدة تعرض الحقائق الأولية للقانون الأخلاقي في ثوب من تجارب البشر وخوارق فوق مستوى الانسان . وحين تحكي مثل هذه القصص للأطفال يمتزج ذلك كله بخيالاتهم ويصبح جزءا من تجاربهم الشخصية ، تأخذهم عند سماعها وتحلق بخيالاتهم الى عوالم جديدة تأسر لبهم ، وتتفتح لها مدركاتهم فيشاركون في الأحداث وينفعلون بالعواطف ، ويستمتعون بالمغامرات .

القسم الثاني : قصص لاتصلح حكايتها للأطفال ، وخاصة ما قبل السادسة ، وهي ما تحوي في ثناياها الخوف الشديد والفزع المرعب ، أو تتضمن ما يخالف المعتقدات الدينية أو القيم الأخلاقية ، أو انتصار الظلم والجريمة ، أو تشويه العلاقة بين الطفل وأهله ، أو ما تأتي في سياقها ألفاظ واشارات جنسية فاضحة ، مثل هذه الحكايات تبعث في قلوب الأطفال الخوف والاضطراب وعدم الأمان ، ويعانون مما فيها من ألم وعذاب ويخافون من أشباحها المفزعة بعدائها وعداوتها ، ويرتاعون من شخصياتها المرعبة بظلمها وجبروتها ، وفوق ذلك فان الطفل بواسطة عقله الباطن يعي - دون شعور منه - السلوك والتجربة من أحداث القصة أو من سلوك شخصياتها ، ويقوم بعملية توحد مع الصور والنماذج المعروضة في القصة ، ويتأثر بما يسمع فينمو لديه الخيال المريض ويكسبه المعاني السيئة ، ويثير في نفسه القلق



والشك ونزعة الاجرام . وتتشوه العلاقات الأسرية والمعتقدات الدينية في ذهنه .

القسم الثالث : حكايات يمكن تعديلها حتى يخفف ما بها من فزع ورعب ، ولكن تتلاءم مع تقاليد المجتمع ، وتتواءم مع القيم الدينية ، وتتفق مع الحقائق الأولية للقانون الأخلاقي ، وتساير قانون الحق والخير والعدل . كل ذلك شريطة ألاتخل بنسق الحكاية أو بعناصرها الرئيسية .

وحكايات الجنيات the fairy tales التي تصلح حكايتها للأطفال من تراثهم الشعبي القصصي في الكويت والخليج كثيرة ومنوعة تشد اليها آذان الصغار وتهفو اليها قلوبهم منذ سماع بدايتها التقليدية : السوالف تروح وتيجي ، وما ينفعنا الا الصلاة على النبي . واذا جانا وجاكم خير لفانا ولفاكم ، وشر تعدانا وتعداكم زور بن الزرزور الى عمره ما حلف ولا كذب زور ، ذبح بقة وترس سبعة قدور ، وترك اللحوم والشحوم كلها على الصواني تدور » . وهي مقدمة توحي بما في القصص من مبالغات وخيال بعيد عن الواقع ، ثم تتوالى القصص فيسعد الأطفال بها ، ويبهرون بما فيها من جمال يبعث في نفوسهم حب الخير وقيم الحق والعدل ، ويبث فيهم روح المرح والمتعة . ومن هذه القصص [1]

(١) ملخص القصص هنا لايكتب بالأسلوب الذي يجب أن يكتب أو يحكى به للأطفال .

قصة سميميج (٢) :

وهي حكاية البنت الطيبة اليتيمة الأم « نورة » التي تعيش مع زوجة أبيها القاسية الحاقدة وأختها المدللة غير الشقيقة ، وأبيها المشغول عنها بكسب القوت من صيد السمك ، وقد أتى أبوها يوما بسمكة كبيرة لتكون طعاما للأسرة ، وأمرت زوجة الأب « نورة » أن تنظفها في البحر ، وعلى السيف (الشاطىء) همت نورة بشق بطن السمكة ، فنادتها من بين يديها « هديني وأغنيك « فأولادي الصغار في حاجة الي . ورق قلب « نورة » للسمكة الأم لكنها أبدت تخوفها من زوجة أبيها القاسية ، فوعدتها السمكة بأن تحضر لها سمكة أخرى مثلها . وأطلقتها « نورة » ، وبرت السمكة بوعدها ، وقبل أن تغوص ثانية في الماء قالت لنورة اذا احتجت شيئا تعالى الى السيف ونـاديني : « يايمه يا سميميج » . فكانت كلما جاعت تذهب الى البحر وتنادي أمها السمكة فتأتي لها بالطعام اللذيذ فتأكل وتسمن وتزداد حلاوة وجمالا .

وأقام السلطان حفلا كبيرا دعا اليه الأسر وبناتها . وذهبت زوجة الصياد وبنتها المدللة ، ورفضت أن تصحبها « نورة » ، وخلطت لها العدس والماش والأرز وأمرتها أن تفصلها من بعضها ، وأن تغسل الماعون في البحر ، وعلى الشاطىء بكت « نورة » من القهر وتذكرت أمها السمكة فنادتها ، وجاءتها على عجل ، وعرفت رغبتها في الذهاب الى الحفل فغسلتها وزينتها وكستها الحرير وقلدتها الذهب من « راسها لساسها » ، حتى النعال كانت ذهبية . وأعطتها ماء ورد وزعفران وطلبت منها أن ترشها على الضيوف وعلى ابن السلطان ، وأعطتها كيس ملح وكيس تراب وطلبت منها أن تقذف بها في وجه زوجة أبيها وأختها ، وجاءت بسمكة ولمستها فانقلبت فرسا مزينا ركبته « نورة » الى قصر السلطان .

ودخلت « نورة » الحفل فبهرت الناس بجمالها ودلالها وزينتها ، ورقصت ونثرت ماء الورد والزعفران على الناس جميعا وعلى ابن السلطان الذي أعجب بها وحين قابلت أختها وزوجة أبيها لم تعرفاها فقذفتهما بالتراب والملح ، وخرجت من الحفل مسرعة ، وركبت الفرس لتعود الى البيت قبل عودتها . وفي الطريق عطش الفرس ومال على عين ماء ليشرب فسقط من نورة معضدها الذهبي (٣) في الماء .

وخرج ابن السلطان ثاني يوم إلى الصيد ، وعطش فرسه وحين أراد أن يشرب من نفس العين فزع ولم يشرب ، ونظر العبيد والحراس ليروا ما أفزع الفرس فوجدوا المعضد الذهبي يتلألأ في العين الصافية فأخرجوه من الماء ، وعرفه ابن السلطان ، وطلب من أبيه أن يزوجه صاحبة المعضد الذهبي . ودار العبيد والحراس على الدور يقيسونه على بناتها ، وكانت دار الصياد آخر الدور ، وخبأت زوجة الأب « نورة » في التنور وغطته برحى مكسورة ، ونفت للحراس أن تكون هناك بنات غير بنتها ، فصاح الديك « كوكو عمق نورة طاحت في التنورة عليها حبة الرحى والحبة مكسورة » ، وأخذ الديك يكرر صياحه بذلك القول حتى تنبه الحراس وأخرجوا « نورة » من التنور . وكانت المفاجأة أن طابق المعضد عضدها ، وقرر ابن السلطان الزواج من « نورة » . وأصيبت زوجة الأب بالقهر والغم ، ونكاية فيها طلبت لها مهرا كيسا من التمر وسلة « متوت » يابس ، وأمرتها أن تأكل مهرها كله ليلة عرسها ، فانتفخت بطن « نورة » وخبثت رائحتها . وذهبت الى البحر تشكو لأمها السمكة ما فعلته بها زوجة أبيها . فأعادتها الى حالتها الطبيعية وغسلتها وزينتها وعطرتها ، وأركبتها فرسا ذهب بها إلى قصر ابن السلطان ففرح بها وأقام لها الأفراح سبع ليال .

وكان للسلطان ولد آخر أراد أن يتزوج من بنت الصياد الأخرى ظنا منه أنها جميلة كأختها وستأتي في مثل زينتها وبهائها ، وقدم لها مهرا مماثلا لمهر أختها ولما أكلته انتفخت بطنها وخبث ريحها ، وحين زفت الى ابن السلطان الآخر وجدها قبيحة المنظر ، ونفر من رائحتها ، فطلقها وأعادها الى أمها ليأكل قلبها الغيظ والغم ويعيشا في حزن ونكد . وتعيش نورة مع ابن السلطان في فرح وسرور .

والقصة تصور العدل في أنصاف اليتيم المظلوم الطيب القلب الكريم الخلق وعقاب الحاسد الظالم الحقود . و قصة سميميج « تكاد تتطابق في أكثر عناصرها مع قصة سندريلا المشهورة . ولاندعي أن قصة « سميميج » قد هاجرت الى أوروبا وتطورت الى

(٢) للقصة أسماء مختلفة منها : سميجة ، بنت السماك ، ياسميهيجى ، نورة طاحت في التنورة .... وأسماء أخرى كثيرة .

(٣) وفي روايات أخرى : سقط « حيولها » خلخالها ، أو دملجها ، أو نعلها الذهبي ، أو قبقابها الذهبي ، والمعضد حلية تلبسها النساء حول المعضد ، و تنطق مضعد في القصة ، وهي السوار .

« سندريلا » أو العكس فذلك يحتاج بحثا ودراسة من المتخصصين في علم الفولكلور ، ولكنا نقرر أن كل شعب لديه موهبة الخيال يبتكر من القصص ما يشابه قصص الشعوب الموهوبة الأخرى اذا ما مر بنفس ظروفها .

قصة لعيبة الصبر :

وتحكى قصة « بيبي » بنت التاجر الكبير التي تقرأ القرآن عند المطوعة وفي كل صباح تعطيها « نيرة » (عملة ذهبيه) وتحييها تحية الصباح فترد عليها المطوعة « لاصبحك ولا ربحك ياخادمة اليت سبع ستين ومالك بخت » . وضاقت البنت بما تقوله المطوعة ففرت الى « البر » ، وأثناء سيرها في الصحراء وجدت قصرا فدخلته ولم تجد فيه أحدا لكنه كان مليئا بالخيرات ، وكلما فتحت غرفة من غرف القصر وجدتها خيرا من سابقتها ، وفي آخر غرفة وجدت شابا جميلا ممدوحا على السرير دون حراك وجسمه مغطي بالابر المغروسة فيه ، فعرفت أنه مسحور ، وظلت تسل الابر وتدهن مكانها أياما وليالي وسنين ، واشترت من قافلة مرت جوار القصر عبدة لتخدمها وتتولى أعمال المنزل بينما هي تسل الابر من جسم الشاب المسحور ، واستطاعت بعد سبع سنين أن تسل جميع الأبر وبقيت واحدة كانت في رأسه ، وطلبت من العبدة أن تنظف الحجرة وخرجت « بيبي » لتتزين ، فأسرعت العبدة وسلت آخر ابرة من رأس الشاب فذهب عنه السحر وقام سليما معافى . وسأل العبدة من سل منه الأبر فادعت بأنها قامت بذلك طوال سبع سنوات فتزوجها وصارت سيدة القصر « وبيبي » خادمة لها .

واعتزم الشاب السفر فسأل « بيبي » عما تريده هدية لها فطلبت « لعيبة الصبر » وبعد أن أنهى مهمة السفر وركب مركب العودة نادى النوخذة على الركاب بآخر نداء لمن نسى وصاياه ، فتذكر الشاب « لعيبة الصبر » وأسرع يبحث عنها حتى وجدها عند شيخ كبير السن ، فباعها له ، ثم أوصاه بأن يرقب من طلبها لأنه مظلوم وسيموت مغبونا ويتحمل وزره .

وبعد عودة الشاب أعطى « بيبي » هديتها . وفي يوم أخذتها وذهبت الى البحر ، وتبعها الشاب واختفى خلف بقايا مركب على الشاطيء ، وسمعها تحكي « للعيبة الصبر » قصتها طوال السنوات السبع منذ هربها من المطوعة الى اخر ابرة سلتها العبدة . وبعد كل جملة كانت اللعيبة ترد عليها « الحكم حكم الله يا بيبي ، يا ام الخدم والعبيدي » ، واسع يا « قرنفل »[٤] ما تقول « البيبي » . وظلت اللعيبة تنتفخ حتى طفت على الماء ، ودخلت الى البحر ، وحاولت « بيبي » الامساك بها فكادت تغرق . وادركها « قرنفل » وانقذها ، وطلب منها ان تسامحه ، فما كان يعرف انها التي صبرت سبع ستين تسل من جسمه الابر حتى انقذته من السحر ، وسألها عما يفعله بالعبدة جزاء ما اقترفت من كذب فطلبت ان يقتلها ويجعل قبرها عند الباب ليكون موطئا لها كلما خرجت او دخلت القصر ، وتزوج « قرنفل » من « بيبي » الصابرة وعاشا في سعادة وهناء .

والقصة تدل على ان من يفعل الخير لا يعدم جوازيه فلا يذهب العرف بين الله والناس مهما طال الزمن ، وتعلم الانسان اخذ الامور ومعالجتها اذا خرجت من يده بالصبر ، فمن صبر ظفر .

قصة يا خال خلخلة

وهى حكاية البنت التى توفى والداها وتعيش مع أخيها الذى يحبها ويعزها ويكرس حياته لها ، ولا يريد الزواج حتى لاتؤذيها زوجته . وكانت لها جارة خبيثة تحيت الى البنت وتظاهرت بالطيبة والعطف عليها ، وظلت بالبنت حتى أقنعت أخاها بأن يتزوج من جارتها الطيبة . وما ان تم الزواج حتى ظهرت الزوجة على حقيقتها وانقلبت على البنت تسومها العذاب .

وسافر الزوج في تجارة فذهبت الزوجة الى السوق واشترت من بائعة عجوز ساحرة « بيض السمي وبيض المخَمْرة »[٥] وأكلت الزوجة بيض السمي لتسمن وتتجمل وقدمت للبنت بيض المحمرة لتأكله ، فانتفخ بطنها وظهر عليها الحمل . وحين عاد الأخ أخذت زوجته توغر قلبه على أخته وتوهمه أنها حملت سفاحا ، ولأن الأخ يحب أخته كثيرا لم يقتلها على عادة العرب بل أخذها الى الصحراء ، وحين جاء الليل ألقيا الرحال تحت شجرة جوار عين ماء ، ثم تركها نائمة وعاد .

---

(٤) اسم الشاب المسحور .

(٥) في القصص الشعبي الخليجي بيض السمي من يأكله سمن وتجمل ، وبيض المحمرة بيض مسحور من يأكله ينقلب في بطن آكله جنينا لثعبان أو طير .

وذعرت البنت حين استيقظت ولم تجد أخاها وهي لاتعرف طريق العودة ، لكنها أسلمت أمرها الى الله ، وصارت تأكل من ثمار الشجرة وتشرب من عين الماء . وحين جاءها المخاض خرجت من حلقها ثلاث حمامات بيض . وكبرت سريعا وطارت بعيدا الى دار خالها ، ووقفت على مسمع منه تقول : « يا خال ياخلخلة ، يا طابع شرور المرة ، ترى أختك ما زنت الا من بيض المحمرة » . وفي اليوم التالي جاءت الحمامات وقالت : « يا خال يا الدلدرة ، يا بايع أختك من مرة ، ترى الحريمة ما حملت الا من بيض المحمرة » وتنبه الرجل لصوت الحمامات ، وتابعها حتى عثر على أخته وعرف الحقيقة فطلق زوجته ، وعاش مع أخته وحماماتها الثلاث ، وأقسم ألا يتزوج أبدا حتى لاتأتي زوجة فتؤذي أخته الحبيبة .

والقصة توضح علاقة الحب والاعزاز بين الأخ وأخته ، وتكشف عن النفوس الشريرة التي تكيد للأبرياء دون ذنب لكن الحق ينتصر وينال الشرير جزاءه .

قصة غصون وأخيها الغزال

وهي قصة « غصون » البنت الطيبة التي تعيش هي وأخوها الصغير بعد أن توفيت أمها مع زوجة أبيهما الشريرة القاسية . وقد تركت لها أمها بقرة ميراثا منها . وكانت البقرة حبيبة الى قلب الطفلين لأنها ترعاهما وتعطف عليهما فتخفف عنهما قسوة زوجة أبيهما ، وكانا كلما حرمتهما زوجة أبيهما من الطعام ذهبا الى البقرة فتحضر لهما التمر وتسقيهما من لبنها فيأكلان ويشبعان وتظهر عليهما علامات الصحة ، وعرفت زوجة الأب سر البقرة ، فادعت أنها مريضة ، واتفقت مع العجوز التي تعالج المرضى أن تصف لها كبد البقرة دواء . ولم يشفع بكاء « غصون » وأخيها عند أبيهما فذبح البقرة ، وفي الليل أخذت غصون وأخوها جلد البقر وفرا الى الصحراء ، وكانا يفترشان الجلد وينامان عليه ليلا ، وفي الصباح يجدان عليه بجوارهما التمر واللبن .

ومرا في سيرهما على قليبين [٦] ، وكان العطش قد نال منهما فأسرع كل الى قليب يشرب منه ، وكان قليب الغلام مسحورا فتحول بعدما شرب من مائه غزالا ، وأخذت غصون تبكي أخاها ، لكنه كان يمسح دموعها بلسانه ويواسيها وكان يتكلم معها وحدها بكلام الآدميين . وفي الطريق قابلهما فارس يصطاد الغزلان فخافت غصون على أخيها وتعلقت به وأخذت تبكي ، وجاءها الفارس فُتن بجمالها وطمأنها على غزالها ، وأبدى لها اعجابه وطلب منها الزواج ، فاشترطت عليه أن تصطحب الغزال وجلد البقرة . وحملها الى قصره ، وعرفت أنه الأمير ابن السلطان وتزوجا وحملت منه .

وكان للأمير بنت عم حاقدة تأمل في الزواج منه ، فزاد حقدها وصارت غيرتها من غصون كالنار تأكل قلبها . وتغيب ابن السلطان في سفر بعيد ، فصادقت بنت عمه زوجته « غصون » وظلت تتظاهر بمحبتها حتى أمنت لها ، وأخذتها يوما الى الحديقة وجلستا على حافة عين ، وعلى حين غرة دزتها [٧] في العين . لكن جلد البقرة كان أسرع فأصبح فراشا معلقا « لغصون » ، وتلقفتها الملائكة ووضعتها بسلام على الفراش المعلق . وادعت بنت العم لمن في القصر أن « غصون » عادت الى الصحراء هاربة .

وولدت « غصون » ولدا جميلا ، وكان الغزال يأتي كل مساء فيتحدث مع أخته ليسليها . وحين عاد الأمير صدق دعوى بنت عمه ، وظن أن « غصون » حنت الى الصحراء فعادت اليها ، لكنه غضب حين رأى غزالها فأمر بذبحه حتى لايذكره بصاحبته وسمع الغزال بذبحه فذهب الى العين وأخذ يبكي لأخته ويقول : « غصون . غصون .. أخوك المسكين ، سنوا له السكين ، غصون .. غصون من رقبته سيذبحون » فردت عليه أخته قائلة « : ابن السلطان في حضني ، وجلد البقر عملني ، وملايكة ربي تحرسني . وكل من يمد عليك السكين تكسر يداه » . وفي الصباح أمسكوا بالغزال ، وكلما هم أحد بذبحه انقلبت السكين عليه وقطعت يديه . فتعجب ابن السلطان ، وأمر باخلاء سبيل الغزال وصار يرقبه حتى وجده يذهب الى العين ليلا وينادي أخته فتتحدث اليه ، ولما نظر ابن السلطان في العين وجد فيها زوجته « غصون » وابنه منها ، فنادى الرجال وطلب الشباك وأخرجوا « غصون » وابنها بسلام ، وعرف منها الحقيقة . فأخذ بنت عمه « ودزها » في العين . وعاش مع غصون وابنها وأخيها الغزال في سعادة وهناء .

(البقية في العدد القادم) ■■

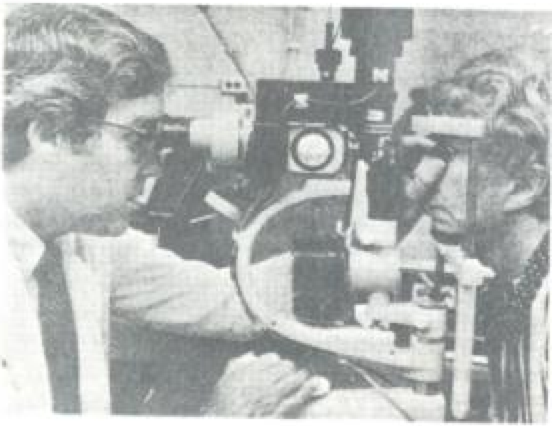
د . علي الحديدي

---

(٦) القليب : البئر العادية القديمة التي لايعلم لها رب ولاحافر ، وتكون بالبراري .

(٧) لعلها محرفة من درزتها ، بمعنى دفعتها .

اعداد : يوسف زعبلاوي



أشعة ليزر تنقذ المسنين من عمى الشيخوخة

● لعل الابحاث الخاصة بتطوير اشعة ليزر هي في طليعة الابحاث العلمية تقدما وخطورة .. ويصدق ذلك على الاشعة التي تستهدف الدمار والفتك بحياة الانسان والتي ستكون السلاح الرئيسي في الحرب العالمية المقبلة او التي تليها ، بقدر ما يصدق على اشعة ليزر الأخرى التي تستهدف خدمة الطب والجراحة وانقاذ حياة الانسان مما يتهددها من امراض .. وقد تكاثرت انباء استعمالات هذه الاشعة الخيرة في المدة الأخيرة .. واحتل نبأ انقاذ المسنين من عمي الشيخوخة بواسطتها مكان الصدارة بين تلك الأنباء جميعا ...

وتجدر الاشارة اولا الى ان لفظ ليزر انما هو اختصار لاسم اشعة ليزر الطويل **light Amplification by Stimulated Emission of Radiation** ومعناه : « الضوء المقوي بواسطة اشعاع مولد » .. فاشعة ليزر اذن اشعة ضوء عادية .. ولكنها مقواة كثيرا .. بحوالى الف مرة .. وذلك بواسطة اجهزة الليزر التي تلتقط من جهة اشعة الكهرباء العادية ثم تطلقها من جهة اخرى اشعة ليزر القوية ، التي تكاد تصنع المعجزات ..! ..

وليس هنا مجال الحديث عن تلك الاجهزة .. وحسبنا الاشارة الى قوام اجهزة الليزر ان لم نقل سرها .. انه حجر الكريستال الياقوتي ، او الاسطوانة الزجاجية المعبأة بغاز الارجون او ما الى ذلك مما يدخل في صميم تركيب تلك الأجهزة فيكفل لها اداء مهمتها الخارقة ...

وتجدر الاشارة ايضا الى ان اشعة ليزر المولدة بواسطة الاجهزة التي تعتمد غاز الارجون التي ذكرنا هي الأشعة التي كانت تستعمل منذ زمن لاغراض طبية وجراحية مختلفة والتي تستعمل حاليا في عمليات انقاذ المعرضين لعمى الشيخوخة .

بدأت قصة هذه العمليات ، قبل نحو خمس سنوات .. بالتجارب التي بدأت تحت اشراف معهد العيون الوطني **National Eye Institute** في الولايات المتحدة . ووصلت تلك التجارب مرحلتها الأخيرة .. مرحلة التطبيق النهائي .. قبل نحو سنة ونصف السنة .. وكان المفروض ان تستمر شهورا عديدة أخرى .. سنتين او اكثر .. الا ان النتائج الباهرة التي أحرزتها جعلت المضي في اجراء تلك التجارب عملا عقيما .. واصبح التأخر في مباشرة المعالجة الفعلية باشعة ليزر (الارجون) ، وقد ثبتت جدواها وفاعليتها بما لا يقبل الشك بحكم القصور والخذلان.

ولكن ما هو عمى الشيخوخة هذا .. ؟ وكيف يتسنى لأشعة ليزر ان تنقذ المسنين منه .. ؟ يسمونه في الانكليزية **SMD** او ان شئت التسمية بكاملها : **Senile Macular Degeneration** .. فهو اذن اضمحلال وتلف كالذي يعتري اعضاء أخرى من جسم الانسان نتيجة لكبر السن .... وهو يصيب الماكيولا بالذات .. ذلك

الجزء الصغير الهام في شبكية العين .. صغير اذ لايزيد حجمه على حجم حبة الحمص ($\frac{1}{5}$ بوصة بالتقريب) وهام نظرا لأن الماكيولا تتحكم بالبصر المركزي **Central Vision** وهو اهم ـ كما لايخفى ـ من البصر الجانبي . وتتحكم ايضا باعصاب حاسة البصر نفسها

ويمر مرض **smd** هذا بمرحلتين .. يكون في اولاها « جافا » .. وهو المرض الاكثر شيوعا .. ولكن المرض في هذه المرحلة لايبلغ حد العمى .. انه مجرد الاضمحلال والضعف الذي يصيب البصر تبعا لكبر السن .. فالمصابون بالمرض في مرحلته الاولى هذه ليسوا مكفوفين ، بل يحتفظون بالقدرة على القراءة ، اكثرهم ان لم نقل كلهم .

لكن المرض يتفاقم ليتسبب بعمى الشيخوخة في مرحلته الثانية التي يعرف فيها باسم : **Neorascular SMD** . والذي يحدث هنا هو ان الغشاء بين شبكية العين وما تحتها من اوعية دموية لايلبث ان يتلف ويضمحل وتتولد فروع جديدة لتلك الاوعية . وسرعان ماتندفع هذه الفروع في اتجاه الماكيولا .. وكثيرا ما تنزف دما او سائلا من شأنه ان يتلف خلايا البصر .. ويتسبب باذى للفوفيا **Fovea** ، احد جوانب الماكيولا المسؤول عن حدة البصر .. فاذا حدث هذا لكلتا العينين فقد المصاب القدرة على الرؤية واصبح في عداد المكفوفين .

على ان عمى الشيخوخة لايأتي فجأة وانما بالتدريج .. وكأنه يتيح الفرصة للمصاب للعمل من اجل إنقاذ بصره قبل فوات الأوان ... فاعراضه تنبيء عنه بوضوح ، وتستمر مدة من الزمن ، وكأنها الانذار المبكر . وأهم هذه الاعراض الخطوط المستقيمة التي يراها المصاب وكأنها منحنية او مشوهة .. وكذلك البقع او الدوائر التي تبدو له ماثلة امام عينيه !

وتعزي أهمية هذه الاعراض وضرورة اجراء الفحوص لاكتشافها دون تأخير ، الى ان معالجة عمى الشيخوخة بأشعة ليزر لاتحقق الفائدة المرجوة منها مالم يتم العمل بها مبكرا .. في غضون اسبوعين من بدء ظهور الاعراض .. وحتى في تلك الحال لاتضمن اشعة ليزر الشفاء في اكثر من ٨٣٪ من الحالات ..

ويهبط هذه النسبة الى ١٠٪ اذا مضى على ظهور الاعراض التي ذكرنا ستة شهور او يزيد ، دون العلاج بتلك الأشعة ..

ويجري العلاج بأشعة ليزر بواسطة الجهاز الذي ترى في الصورة ، وهو اقرب مايكون الى عملية جراحية بسيطة ، اوعملية تلحم فيها اشعة ليزر الأوعية النازفة .. ولاتستغرق العملية اكثر من ١٠ دقائق ولاتكلف اكثر من ٩٥٠ دولارا للعين الواحدة ..

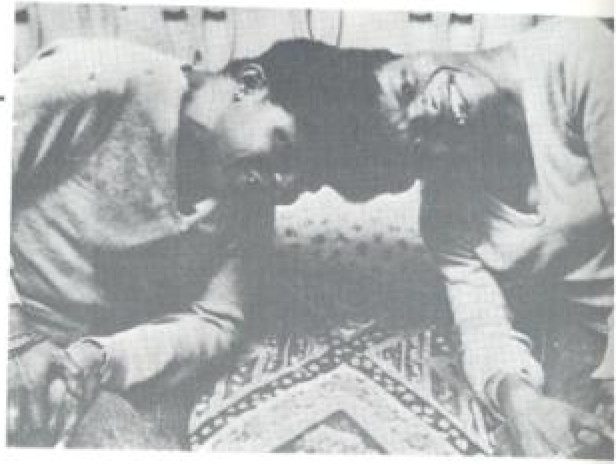
بقي ان نتذكر ان الذين يفقدون بصرهم لشتى الاسباب يبلغ عددهم ٥٠٠,٠٠٠ نسمة سنويا ، وفي الولايات المتحدة وحدها .. خمس هؤلاء (بالضبط ١٠٤,٠٠٠ نسمة) يفقدون بصرهم بسبب عمى الشيخوخة ، فهؤلاء او ٩٠٪ منهم على الأقل ، يمكن انقاذهم من هذا العمى بواسطة اشعة ليزر .

رأسان ملتصقان .. او رأس واحد بوجهين

● صورة لطيفة لتوأم سيامي .. فتاتين ملتصقتين عند الرأس ، ايفون وايفت جونز .. والفتاتان من سكان بلدة كومبتون في ولاية كاليفورنيا .. وقد بلغتا من العمر ٣٢ سنة ... اكثر مما بلغه اي توأم سيامي معروف في العالم .

والتوائم السيامية نادرة الوجود .. فهي توائم ملتصقة .. يلتصق فيها التوأمان ويربط بينهما جسر من الأنسجة .. وتتصل عبر هذا الجسر دورتاهما الدموية .. وقد يكون التوأمان سويين فيسمى التوأم عندئذ (**Symmetrical**) .. وقد يكون احدهما غير سوى فيعرف التوأم السيامي في تلك الحال **Asymmetrical** .

والتوائم السيامية صنوف والوان عديدة .. وتختلف



باختلاف موضع الالتصاق فيها .. فقد يكون هذا مقتصرا على جزء من الرأس ، كما هي الحال في توأم الصورة .. وقد يكون الالتصاق شاملا للرأس كله .. بحيث يصبح اندماجا ، ويصبح التوأمان ذوي رأس واحد .. وفي تلك الحال يكون الرأس اما بوجه واحد او بوجهين . وقد يكون موضع الاتصال في الظهر او الصدر او غير ذلك .

ولعل أعجب مايذكر في هذا الصدد التوأم السيامي الذي كان للفتاتين التوأمين فيه ظهر واحد وشرج واحد وفرج واحد ايضا .. ثم كان الحمل .. ولكنه لم يكن مشتركا بينهما .. فقد حملت احداهما دون ان تحمل الاخرى .. ثم كان الوضع .. وكان لابد ان يكون مشتركا بين الفتاتين كما هو متوقع .. ثم كان الرضاع .. واذا باللبن يتدفق في أثداء كلتا الفتاتين ..

ولاتعرف الأسباب المؤدية الى تكون التوائم السيامية على وجه الدقة .. فكل مايعرف هو ان تلك التوائم تتكون من بويضة ملقحة واحدة .. تنقسم فيتكون التوأم .. ولكن انقسامها لايكتمل فيبقي شطراها متصلين ، ويتكون التوأمان بالتالي ملتصقين ، على نحو ما اسلفنا .. على ان المصطلح العلمي الذي تعرف به هذه التوائم هو
Parabiotic Twins

اما تسميتها بالتوائم السيامية ، وهي التسمية الاكثر شيوعا ، فتعود الى سنة ١٨١١ ، حين شهدت مدينة بانكوك مولد أحد تلك التوائم الملتصقة ..

كان التوأمان ذكرين ، وسموهما بلغة اهل تايلاند (مج وشانج) .. اي شمال ويمين .. وكانا ملتصقين عند اسفل عظمة الصدر .. والأخطر من ذلك انهما كانا بكبد واحدة مشتركة ..

وتوجه التوأمان الى الولايات المتحدة لدى بلوغ الثامنة عشرة ، وعملا في سرك شهير آنذاك (سيرك بارنوم) وتضاعف رواد السرك اضعافا ، بسبب ذلك التوأم العجيب .. او التوأم السيامي ، كما سموه ، نسبة الى البلد التي ولد فيها وقدم منها .. غير ان اهل سيام (تايلاند) يسمونه التوأم الصيني .. وذلك نسبة الى أبوي التوأم وكانا من اهل الصين ..

ومن طريف مايذكر ان مج وشانج تزوجا من شقيقتين .. وقد انجبتا لهما عددا كبيرا من الاولاد .. بلغ ٢٢ ولدا .. كان ذلك في ولاية كارولينا حيث عملا في الزراعة .. بعد اعتزال اعمال السيرك .. وقد عمرا٦٢ عاما اكثر من اي توأم سيامي آخر .. وتوفيا سنة ١٨٧٤ وفي نفس اليوم « ١٧ يناير » ولكن بفارق ٣ ساعات .. فموت احد التوأمين السياميين يقضي بموت التوأم الآخر دون تأخير ، مالم تجر عملية الفصل بين التوأمين .

نعود الآن إلى توأم الصورة .. والى الخبر الغريب الذي تناقلته الصحف والوكالات عن الفتاتين : ايفون وايفت .. فقد رفضتا اجراء العملية الجراحية الكفيلة بالفصل بينهما .. واكدتا انهما مرتاحتان ، بل مسرورتان بحالتهما الراهنة ..

والظاهر انهما بلغتا من التكيف حدا كبير .. فهما لاتتناقشان ولاتختلفان فيما قد تشعر بالحاجة اليه احداهما .. فقد تشعر ايفون بالحاجة الى الجلوس او الوقوف او المشي او حتى دخول الحمام ، فلا تلبث ايفت ان تشعر بمثل شعور شقيقتها .. سواء بدافع الحاجة الغريزية او الحرص على المجاراة .

«السويداء».. قلعة سلطان الأطرش

استطلاع : صادق يلي

تصوير : فهد الكوح

بوابة شهباء الجنوبية ، مدينة الامبراطور فيليب العربي التي يرجع تاريخها الى عصر الرومان وفتاتان بالملابس الوطنية المحتشمة .





السويداء مدينة وادعة تقع على ارتفاع ١٨٥٠ مترا عن سطح البحر ، انطلقت منها الشرارة الاولى للثورة العربية السورية الكبرى .



السويداء . . مدينة شماء في جبل أشم . . انطلقت من سهوله ووديانه وتلاله وقراه الصغيرة أول شرارة لاشهر ثورة عرفتها سوريا في تاريخها الحديث ، ثورة ١٩٢٥ ، قادهـا رجال امنوا بوطنهم كل الايمان ، واحبوا هذا الوطن كل الحب ، فكانوا مضرب المثل بالبسالة والاخلاص والشجاعة ، قارعوا الاستعمار الفرنسي بجحافله وفيالقه فقهروه ، وانتصروا مسجلين اروع ملحمة بطولية شهدتها البلاد في تاريخها الحديث .

السويداء مدينة وادعة ، تقع في القسم الجنوبي الشرقي من الجمهورية العربية السورية ، تبعد عن دمشق العاصمة بنحو ١٢٠ كيلومترا ، وتقوم في ربوع هي من حيث تكوينها الطبيعي مجموعة كثيفة من التلال البركانية يصل ارتفاعها احيانا الى ١٨٥٠ مترا عن سطح البحر ، عرفت سابقا باسم جبل حوران ، كما دعيت منذ زمن ليس بالبعيد بجبل الدروز نسبة الى سكانها الذين هاجروا اليها منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادى ، وكانت تعرف في القدم باسم جبل الريان ، اما اليوم فهي جبل العرب .

يقول الاستاذ غالب عامر مدير الآثار في السويداء : تعرف السويداء في كتب التاريخ القديم بجبل باشان اى حوران المشهورة بأشجار السنديان والتي كانت تغطي معظم اراضيه فتكسبها رونقا وتعطيها منظرا طبيعيا اخاذا . وتعد محافظة السويداء كغيرها من بقاع سوريا من المناطق التي تزخر بالآثار ، ومن أقدم مواطن المدنيات العريقة ، سكنها العرب القدامى كالاموريين والآراميين ، وغزاها اليونان والرومان ، فثمة من عهودهم الكثير من الاثار . ثم عرفها الانباط والغساسنة الذين خلفوا الآثار الشهيرة التي مازالت قائمة تشهد عظمة ومجد العرب منذ اقدم العصور ، ثم كانت الفتوحات الاسلامية سنة ٦٣٥ م ، لذا نلاحظ ان في هذه البقعة مزيجا من شتى الحضارات الوثنية والمسيحية والاسلامية ، ويستطرد الاستاذ غالب عامر قائلا : لذا أولى المسؤولون اهتماما ملحوظا لهذا الجانب باحياء الاوابد التاريخيةواظهار ميزتها الفنية ، فلوحات الفسيفساء تعد أجمل ما وجد من الفسيفساء في العالم ، وشهباء مدينة الامبراطور فيليب العربي تزدهي بآثارها المتنوعة كالحمامات والمعابد ومتحف الفسيفساء ، ومنطقتا سليم وعقيل تشتهران بمعابدهما التي تعود الى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادى ، وقنوات هي من المدن التاريخية العشر ، ثم صلخد وقلعتها التاريخية التي تعود الى العصر النبطي والتي جددت ورممت في العصر الايوبي فكانت من اهم معاقل العرب في الحروب الصليبية .

كما ان السويداء تتمتع بمركز جغرافي هام ، اذ كانت أحد مراكز التجارة في العصر النبطى ، كما انها اكبر مدينة في جبل حوران لانها تقع في نقطة تصل بين الجبل والسهل مما يعطيها موقعا هاما من الناحية التجارية والحربية .

شهد الجبل عدة ثورات وطنية واجتماعية شاركت بها الجماهير خلال القرن الماضي والربع الاول من القرن الحالي ، فمن هذه الثورات ثورة ١٨٣٧ و١٨٩٩ و١٩٠٩ ، خاض فلاحو جبل العرب غمار أشرس المعارك ضد التسلط والطغيان واستشهد منهم ما يزيد عن ٦ الاف مقاتل .

ومنذ مطلع ١٩١٤ وحتى عام ١٩٢٠ شاركت الجماهير في جبل العرب في احداث الثورة العربية الكبرى والتحق فريق منها بالقوات العربية المرابطة في معان ، ووقف الآف الفلاحين وراء المجاهد سلطان الاطرش ، فوثقوا به وتعاونوا معه الى ابعد الحدود . لقد قال يوما عنهم « ان الذين سطروا أروع الصفحات في سفر كفاحنا الوطنى هم « مرقعو العبي » اى الطبقات الشعبية الفقيرة التي تصدت بحزم للمطامع الاستعمارية .

الثورة الكبرى

بدأت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ واستمرت عامين كاملين ، تولى قيادتها الزعيم سلطان باشا الاطرش ، وتعد من اهم الثورات ضد الاحتلال الفرنسي ، فقد عمت عدة مناطق من سوريا هي جبل العرب ، وغوطة دمشق وحمص وحماة ، كما وصلت الى قسم من لبنان ، امتازت بمعارك حربية بين قوات الثوار وجنود الاحتلال ـ منى الفرنسيون خلالها بخسائر فادحة في الارواح والعتاد .

الدكتور فارس بوز احد ابناء جبل العرب الذى درس الثورة السورية دراسة مفصلة ، ويعد لدراسة مستفيضة



بعض المجاهدين الذين شاركوا في ثورة ١٩٢٥ يرفعون راية قرية رساس .

عن طائفة (الدروز) او الموحدين او بني معروف يقول : كان السبب في اختيار سلطان الاطرش لقيادة الثورة السورية أن الاحزاب الوطنية كانت تريد ان يتحمل قيادة الثورة رجل تتوفر فيه القاعدة الشعبية الثورية ، وفي منطقة تمرس اهلها بالقتال واكتسبوا افضل الخبرات النضالية ، وكان قرارهم في محله فقد كان سلطان الاطرش حازما في التوجه الى الجماهير ، ومخاطبتها بشكل جماعي ثم طرح القضايا الوطنية الكبرى والآمال والطموحات امامها . كما انه كان يرفض تجزئة النضال الوطني وتحقيق مكاسب اقلية على حساب بقية اجزاء الوطن ، تجلى ذلك في المحاولات العديدة التي بذلتها فرنسا لاقناع ثوار الجبل للاخلاد الى السكينة مقابل الاستجابة لمطالبهم ، فكشف الاطرش عن اهداف تلك المحاولة

وقام بتعبيء الجماهير ويحرضها على القتال ويحثها على التسلح بالوعي والايمان ومتابعة مسيرتها النضالية . فقد كان سلطان الاطرش منذ صباه الباكر يحس إحساسا عميقا بالمسئولية ، فولع بالصيد والقنص والعاب الفروسية ، وأخذ يتمرس بفنون القتال ويهتم بأعمال الحقل التي توفر للبيت موارد العيش . وكأنه كان يستشف ببصيرته الغيب فيرى الدور الكبير الذى سيقوم به ، ويقدر الرسالة العظيمة التي سيتحمل اعباءها ، فمضي يشق الطريق بسيف مسلول ونفس أبية لا ترضى الهوان ، وهمة عالية لم تعرف الكلل .

ولحسن حظه راحت تتهيأ له الاسباب فاغتنمها بجرأة نادرة ، واقدام فريد ، وتضافرت معه القوى الوطنية العاملة فتسلم زمام القيادة بحكمة عاقلة ورؤية واعية ، والتف حوله رفاق كانوا مضرب المثل بالبسالة والاخلاص ، فوثق بهم وتعاونوا معه الى ابعد الحدود مما مكنه ان يلعب دورا تاريخيا كان وسيظل نبراسا لكفاح الامة العربية من اجل الحرية والسيادة والاستقلال .

ومن السمات البارزة لقيادة المجاهد سلطان الاطرش هو حزمه في التوجه الى الجماهير وفي مخاطبتها بشكل جماعي ، وطرح القضايا الوطنية الكبرى والآمال والطموحات امامها والاستفادة من قوتها المادية والمعنوية لتأكيد جماهيرية التدابير وفعاليتها التي يتخذها القائد في المواقف التي تتطلبها المواجهة مع المحتل واعوانه . . فقد اشترك سلطان الاطرش منذ صغره في الانتفاضات التي قامت بها الجماهير ضد الطغيان التركي ، كما كان على رأس مجاهدى جبل العرب الذين شاركوا في الثورة العربية الكبرى وفي طليعة الثوار الذين دخلوا دمشق وحرروها من الاتراك . كما رفض سلطان الاطرش العروض الغربية في مفاوضات الصلح التي اعقبت الثورة ودعا الى اجتماع موسع في شهباء ، اجمع فيه الثوار على ان لا صلح مع فرنسا دون تحقيق الوحدة السورية ومنح الاستقلال







أمام مضافة الزعيم الاطرش ، وقف نجله منصور واخوه زيد الاطرش يستقبلون الجماهير التي توافدت على بلدة القريا مهد طفولة الزعيم .

في متحف مدينة السويداء مجموعة من الآثار التاريخية المتنوعة التي جمعت من مناطق شتى من الجبل ، ولوحات الفسيفساء التي تعد من اندر واجمل انواع الفسيفساء في العالم .



تعاقبت على جبل العرب عدة حضارات ومدنيات قديمة ، فقد سكنها الاموريون والآراميون ، وغزاها اليونان والرومان فتركوا بها آثارهم وأوابدهم ، وهنا مجموعة من رجال الجبل بزيهم الوطني بين هذه الآثار .



الكامل . فلم تكن هذه الثورة سوى حركة تحرير من ذل الانتداب تعبر عن رفض الشعب للتجزئة والتحكم الاجنبي لنقرأ جانبا من وصية هذا الرجل والتي تمثل مدى ايمانه بقوميته ووطنه . تقول الوصية :

انطلقت الثورة من الجبل الأشم جبل العرب لتشمل وتعم ، وكان شعارها الدين لله والوطن للجميع ، واعتقد انها حققت لكم عزة وفخارا وللاستعمار ذلا وانكسارا ، وصيتي لكم اخوتي وابنائي العرب هي ان أمامكم طريقا طويلة ومشقة شديدة ، فاصبروا صبر الاحرار . ولتكن وحدتكم الوطنية وقوة ايمانكم وتراص صفوفكم هي سبيلكم لرد كيد الاعداء وطرد الغاصبين وتحرير الارض .

وفي جانب آخر من هذه الوصية يقول : اعلموا ان وحدة العرب هي المنعة والقوة وانها حلم الاجيال وطريق الخلاص ، واعلموا بأن ما أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ ، وان الايمان اقوى من كل سلاح ، وان كأس الحنظل بالعز اشهى من ماء الحياة في الذل .

عودوا الى تاريخكم الحافل بالبطولات الزاخر بالامجاد ، لاني لم ار اقوى تأثيرا في النفوس من قراءة التاريخ لتنبيه الشعور ، وايقاظ الهمم لاستنهاض الشعوب لتظفر بحريتها وتحقق وحدتها وترفع اعلام النصر .

الحمد فثم الحمد لله ، لقد اعطاني عمرا فقضيته جهادا ، وامضيته زهدا ، ثبتني وهداني واعادني لاخواني ، أسأله المغفرة وبه المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

وفي قرية رساس وفي مضافة احد المجاهدين الذين شاركوا في الثورة اخذ الرجال يشرحون لنا المواقف البطولية التي وقفها ابناء الجبل والمعارك الضارية التي نشبت بين الثوار وجنود فرنسا ، انها قصص بطولة وفداء سجل فيها ابناء الجبل بدمائهم تاريخ هذه الثورة .

خنساء القرن العشرين

يروي السيد حسين حمزة قصة استشهاد اسرة بكاملها من ابناء الجبل يقول : صمم ثوار الجبل بعد معارك عدة في الكفر والمزرعة على القضاء على القوات الفرنسية التي تحاول فك الحصار عن قواتها المتواجدة في قلعة السويداء ، فتجمعت قوات الثوار في قرية المسيفرة ، وتنادى الثوار لمهاجمة هذه القوة الغازية ، فتجمعوا عند قرية رساس ، وكان لكل قرية راية تدل عليها تدعى (البيرق) يتجمع حولها مقاتلو القرية يضحون بنفوسهم في سبيل رفعتها وحمايتها ، وكان الذين يحملون الراية في قرية رساس هم آل حمزة سليمان واولاده . واتخذ الثوار قرارهم بمهاجمة المعتدين في قرية المسيفرة رغم علمهم انها ارض مكشوفة ولا حماية طبيعية للثوار فيها .

ويضيف السيد حسين حمزة قائلا : وتقدمت راية رساس مع المتقدمين ، وأخذت المعركة تشتد ساعة بعد ساعة والثوار يرددون اهازيجهم فاصابت رصاصة غادرة صدر المجاهد يوسف سلمان حمزة فسقط على ارض المعركة شهيدا فتسلم اخوه سليمان الراية دون ان ينظر لمصير اخيه ، وأخذ يستحث الجموع للقضاء على المعتدين الفرنسيين ، ولكن سليمان لم يكن اوفر حظا من اخيه فاستشهد هو الاخر ، فحمل الراية اخوهم الثالث سليم دون ان يفكر باخويه ، واخذ يتقدم الجموع فاصابه ما اصاب اخويه فخر صريعا يتضرج بدمه ، وقبل ان تهوي الراية أمسك بها اخوهم الرابع مهنا وأخذ يتغنى ويصيح صيحات النصر ولكن رصاص الغدر لم يرحمه فلحق باخوته ، فاصبح عدد الاخوة الشهداء اربعة . ولم يبق الا الاخ الخامس نصر الدين فاسرع برفع الراية قبل ان تسقط ولكنه هو الآخر لم يكن اوفر حظا من اخوته الاربعة فخر صريعا ، فحمل الراية ابناء عمومتهم وهم يتقدمون الصفوف وقد بلغ عدد الشهداء ثمانية من آل حمزة .

ويضيف السيد حسين حمزة قائلا : وكان والد الاخوة الشهداء سلمان مصطفى حمزة ينقل الماء والطعام الى المجاهدين على جمله ، فاصابته شظية قنبلة فنقل جريحا الى قريته رساس ، فاخذت زوجته تضمد جراحه ، وعندما عاد المجاهدون في المساء خرجت الام تسأل عن ابنائها ، فكان العائدون يستقبلونها بالغصات والدموع فعلمت المصير المحتوم الذي لحق بأبنائها ، فعادت الى بيتها والغصة تخنقها والأسى يعتصر قلبها المكلوم ، وما ان وصلت الى زوجها الجريح حتى وجدته قد فارق الحياة ولحق بابنائه فوضعت رأسها على صدره واسلمت الروح .

وكان الثائر الكبير ومؤرخ الثورة السورية الكبرى الدكتور عبدالرحمن الشهبندر موجودا في قرية رساس ، فاسرع ليلقي نظرة على الشهيد وزوجته ، فخرج من عندهم والدموع تملأ مآقيه وقال : لقد ماتت الزوجة ميتة طبيعية ، وقد ذكر هذا الحادث في مذكراته الشخصية ، الا يحق ان نسمي هذه الأسرة اسرة الشهداء وان تدعى أمهم بخنساء القرن العشرين .

وقفة أبناء الجولان

وما وقفة أبناء الجولان اليوم ضد الهوية الاسرائيلية الا امتداد لتلك الروح الوطنية الوثابة ضد المعتدين التي وقفها

آباؤهم من قبل امام المستعمر الفرنسي . يقول المحامي الاستاذ توفيق عيد : اذا عرفنا ان من بين قرى الجولان العديدة أربع قرى يقطنها ابناء معروف (الدروز) وهي قرى مجدل شمس وبقعاثا وسعد وعين قنية ، لعرفنا ان السبب الرئيسي لصمود ابناء الجولان الذين رفضوا الهوية الاسرائيلية يعود الى أن الدروز ـ تاريخيا ـ يحافظون على امرين : هما العرض والارض ، فهم لا يتزوجون من الطوائف والمذاهب الأخرى لايمانهم بالحفاظ على العرق ، كما انهم وتحت اقسى الظروف ـ لايتركون ارضهم التي ضحى الاباء والاجداد من اجلها ، فالأرض العربية غالية عليهم ولا يفرطون بها لمستعمر او دخيل .

ومن ابرز شخصيات الجولان العربية (الدرزية) المجاهد اسعد كنج ابو صالح وهو من اتباع سلطان الاطرش ، وله دور كبير في الثورة السورية الكبرى ، ومن ابرز انجاله الشيخ كمال ابو صالح وهو معتقل الآن بسبب قيادته المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي ، لقد قاوم مع اخوانه (الدروز) فكرة ـ عمل من اجلها الاستعمار الصهيوني ـ تنادي بقيام دولة درزية ، رغم المغريات الكبيرة التي عرضت عليهم ، والسبب ان (الدروز) يرفضون قيام الطائفية ، فلقد قاوموا الاحتلال الفرنسي عندما أقام الفرنسيون دولة جبل الدروز سنة ١٩٢١ ، واستطاع ابناء الجبل الأشم اسقاط هذه الدولة واطلقوا على جبلهم اسم جبل العرب .

ويستطرد الاستاذ توفيق عيد قائلا : لقد اصدر مشايخ قرى الجولان (الدروز) قرارا هاما وخطيرا اطلق عليه اسم (الحرم) ، وبموجب هذا الحرم قرروا مقاطعة كل من يأخذ الهوية الاسرائيلية مقاطعة كاملة لا يشتركون معه في مال او رزق ولا في فرح او مأتم ، ولا يلقون عليه السلام ولا يردون له تحية ولا يأكلون من طعامه ولا يشربون من شرابه ، ولا يجلسون معه في مقعد او مضافة ولا يعقد له زواج ، وبالتالي يقاطعونه مقاطعة مدنية اجتماعية دينية كاملة . ولذلك ـ ونظرا لان اربعة فقط اخذوا الهوية الاسرائيلية ـ فلقد عاد هؤلاء الاربعة الى جادة الصواب والى رأي الجماعة واعادوا الى سلطات الاحتلال الهوية الاسرائيلية .

وبذلك اعلنوا اضرابا عاما شاملا ، فطوقت هذه القرى الاربع ، وكانت من نتيجة ذلك ان حرم العمال من العمل خارج هذه القرى ، فاصدر ابناء الجولان قرارا جديدا اعلنوا فيه جماعية الانتاج والغلال حيث يوزع انتاجهم وما لديهم من مال وغلال على مجموع السكان ، وبذلك اصبح ما لدى الاغنياء منهم ملكا حلالا للفقراء العاطلين الآن عن العمل .

القيادة الدينية والسياسية

ولكن ماذا عن القيادة السياسية والدينية للدروز ؟ يقول الاستاذ توفيق عيد : « من المعروف ان الدروز قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية وسكنت في ارض الفرات . وكان منهم ملوك المناذرة اصحاب الحيرة ثم هاجرت بعض هذه القبائل الى حلب في سوريا . وسكن اكثرهم في منطقة المعرة والبعض الآخر سكن الشام ، وقد استقرت الاكثرية منهم في وادي التيم في لبنان ، ومن امرائهم التنوخيون والارسلانيون والمعنيون .

وعند قيام مذهب التوحيد بعد تولي الحاكم بامر الله الخلافة بمصر الفاطمية ، انتشر هذا المذهب في سوريا ولبنان وفلسطين ، فسمي اصحابه باسم الدروز نسبة الى نشتكين الدرزي أحد دعاة هذا المذهب ، وشاع عليهم هذا الاسم مع العلم بأن الدروز انفسهم هم الذين قتلوه بعد فساده ، ويعد مذهب التوحيد (الدرزية) من المذاهب الاسلامية ، الا ان مذهب الدروز يختلف عنها من ناحية الاحوال الشخصية في النقاط التالية :

ا ـ لا يوجد لديهم تعدد الزوجات نهائيا مستلهمين الآية الكريمة « فإن خفتم الا تعدلوا فواحدة » .

ب ـ لا يمكن اعادة المطلقة بعد اعلان الطلاق .

جـ ـ الوصية معمول بها للوارث ولغير الوارث .

د ـ لا تسري احكام اللعان والرضاع لديهم .

هـ ـ اذا حكم على الزوجة بالزنا فللزوج تطليقها واسترجاع المهر ، وكذلك اذا حكم على الزوج بالزنا فللزوجة اخذ كامل مهرها المؤجل .

كما يصرون على انهم طائفة إسلامية عربية لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين من واجبات وحقوق ، الا ان لديهم كتبهم الخاصة المعروفة (بالحكمة الشريفة) وهي عبارة عن مخطوطات ورسائل ابرزها السجل المعلق المكتوب عام ٤١١ هجرية والميثاق .

ويضيف الاستاذ توفيق عيد فيقول : يتولى القيادة الدينية لديهم في جبل العرب ثلاثة يسمون مشايخ العقل وشيخ العقل اي شيخ العقال ، وهم حاليا الشيخ سلمان الهجري في قرية قنوات ، والشيخ حسين جربوع في السويداء ، والشيخ يحيى الحناوي في السهوة . والى جانب هؤلاء عدد من المشايخ الذين يضعون فوق رؤوسهم عمامة بيضاء ، ويلبسون ثيابا سوداء فوقها عباءة سوداء .

اما عن قيادة الدروز السياسية فقد كانت في جبل العرب لآل الحمدان ثم انتقلت بعد ذلك الى آل الاطرش والى اسماعيل الاطرش ، الا ان زعامة سلطان الاطرش

في اي مكان تطؤه قدماك تقابلك الآثار القديمة ، انها تمثل عراقة هـذا الجبـل والأدوار التاريخية التي مرت على هذه المنطقة .





تلعب المضافة في جبل العرب دورا اجتماعيا بارزا في حياة الناس هناك ، ففيها يتذاكرون قضاياهم الحياتية او يعالجون مشكلاتهم ، وقد تكون مجالا لسرد القصص التاريخية .



منصور الاطرش نجل الزعيم سلطان باشا الاطرش يشير الى مجموعة من الاسلحة والسيوف التي حارب بها الزعيم سلطان الاطرش او التي اهديت له من الملوك والرؤساء .



القائد العام للثورة السورية الكبرى لا تعود الى انتسابه للاسرة فقط ولكن الى شخصيته وبطولته . وبعد ان اضمحلت الزعامات التقليدية ، ظلت شخصية سلطان مسيطرة على قيادة الدروز . وظل الاجماع المنقطع النظير حول قيادته ، نظرا لانه كان يملك مواصفات القيادة ، كما كان شديد الايمان بالوحدة الوطنية والوحدة العربية ، فلم يسع الرجل الى اى منصب او مكسب شخصي ، وظل فلاحا بسيطا متواضعا رغم ما وصل اليه من مجد وطني بعد الثورة السورية عام ١٩٢٥

المضافة في جبل العرب

ومن العادات العربية الاصيلة التي يحافظ عليها ابناء جبل العرب المضافة ، وهي تشبه الى حد كبير الديوانية في مجتمعات الخليج والجزيرة العربية ، يقول الاستاذ الشاعر صلاح مزهر : المضافة هي ابرز غرفة في المنزل ، وفي الغالب تكون ذات باب مستقل يؤدي الى خارج المنزل . وهي من الداخل اريكة او مقعد متصل من ثلاث جهات بعكس المدخل تسمى (الطواطي) ، وتفرش عادة بالسجاد والحشايا المصنوعة من الصوف ، وفي المضافات القديمة كانت هناك حفرة للقهوة العربية المرة تسمى (النقرة) مليئة بالفحم توضع حولها دلال القهوة ، لعبت المضافة دورا اجتماعيا بارزا في حياة اهل الجبل ، فهي اولا بمثابة فندق مجاني ينام فيه الضيف ويتناول فيه الطعام دون ان يسأل عن موطنه او اسمه او حتى عن غرضه طبقا للعادات العربية القديمة ، كما يلتقي في هذه المضافات ابناء القرية او المدينة فيتذاكرون قضاياهم الحياتية او يعالجون مشكلاتهم او يقومون بحل اي خلاف قد يحدث بينهم ، وقد تكون مجالا لسرد القصص التاريخية ، وفي بعض الاحيان تنشد بعض القصائد على انغام الربابة ، فهي بالتالي مدرسة وطنية يتعلم فيها الاهالي ماضي رجالهم وامجادهم .

وقد روى لنا الاستاذ توفيق حيد عن بعض العادات والتقاليد التي يشتهر بها ابناء جبل العرب ، منها عادة عقد الراية او عقد الصلح والتي تستلهم الآية الكريمة : « فمن عفا واصلح فأجره على الله » ، يقول الاستاذ توفيق : عندما تحصل اية حادثة قتل غير عمد ، يتدخل رجال الدين والوجهاء واصحاب الرأي لحل المشكل الذي حصل واحلال الصلح بين الفريقين المتنازعين وفق الصيغة التالية « يكلف اهل القاتل الوجهاء واهل الخير بالسعي للصلح فيذهب هؤلاء المكلفون ويعدون هذا شرفا كبيرا ، فيراجعون أهل المغدور به عارضين عليهم الصلح . (ويشومون) من الشهامة اهل المغدور به ، وقد لايأخذون اي مبلغ من المال مقابل هذا الصلح او يشترطون دفع مبلغ يتفقون عليه وهو في العادة لايتجاوز عشرين الف ليرة سورية .

المشاتل الزراعية احد الجوانب الهامة التي يوليها المسئولون الكثير من اهتمامهم .



وفي يوم معين يحضر اهل المغدور به الى ساحة عامة مع الجمهور المدعو لعقد راية الصلح ، ويحضر اهل القاتل مع وساطة الخير لاحلال الصلح وهم يحملون قصبة مربوطا بها شاشة بيضاء فيقدمون ويعزون اهل الفقيد ، ثم تحمل الراية وتقدم إلى أهل المغدور به فيتقدم والى المغدور به او وليه ويعقد هذه الراية ، ويكون ذلك اعلانا عن موافقته على الصلح وانهاء الخلاف ، ثم يعقد الراية اقرب المقربين الى المغدور به ثم يعقدها المشايخ الذين سعوا بالصلح ككفلاء على هذا الصلح ، والجميل في هذا الامر ان السلطة تجيز هذا الصلح وتوافق عليه قانونا ، ثم يتقدم شخص ذو صوت جهوري معلنا الصلح بالعبارات التالية : فمن عفا واصلح فاجره على الله ، ثم يقول : اشهدوا يأهل الحمية ضيوف وعلية الراية البيضة المبنية لفلان كرم الله وجهه .) ويكررها مرات ويشكر الفريقين ، وهذا الصلح يجري في الغالب في حوادث القتل الخطأ او حوادث السير خلال يومين او اسبوع على الاكثر ، اما في حوادث القتل العمد فيتم الصلح بعد مشاورات من قبل اهل الخير والدين .

المهر طربوش مذهب

ويحدثنا الشاعر نجيب البحري عن عادات وتقاليد الزواج عند اهالي جبل العرب يقول : عندما يرغب شاب في خطبة فتاة ، يتقدم اهله لطلب هذه الفتاة من والدها ، وفي الغالب يجرى اخذ الموافقة بشكل سري عن طريق بعض النساء او المقربين ، فاذا نال الموافقة يذهب وفد يسمى (الكدة) او (الجاهة) ويتألف من الوجهاء في القرية او الحي او المدينة حيث يقولون لوالدة الفتاة « ان الخاطب فلان يود القرب منكم ، ووجد في تربيتكم لابنتكم ما ينال اعجابه ، فاذا تكرمتم نرجو الموافقة على اجراء مراسم الخطبة) . ويتفق على المهر بشكل جانبي وليس بشكل معلن ، نظرا لان بعض الناس لايأخذون مهرا والبعض يغالي في المهر . وهو في العادة عبارة عن نقود وذهب . والاغلبية من بنات الجبل يطلبون طربوشا مذهبا وهو طربوش احمر يزين في مقدمته بمالة ربعية من الذهب الخالص وعلى الجوانب توجد الجهاديات والقراتص الذهبية ، سطح الطربوش قرص من الفضة تتدلى منه الليرات الذهبية ، وهذا الطربوش يكلف في احسن الاحوال ٥٠ الف ليرة ذهبية .

وبعد ذلك تجري الخطبة من قبل الشيخ حسب الطريقة المعروفة لدى كافة الطوائف الاسلامية ، ولكن للتأكد من موافقة البنت يذهب ـ بتكليف من الشيخ ـ شخصان لمقابلة الفتاة مباشرة وبمعزل عن الآخرين يأخذون منها اسورتها الخاصة دليلا على موافقتها ، وعند اجراء الخطبة يجلس الشيخ باتجاه القبلة ويتصافح وكيل الزوج ووكيل الزوجة وفوق إبهاميهما المجتمعتين توضع الاسورة نفسها التي جلبت من الفتاة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة ، وفي العادة لاتحضر النساء مراسيم عقد القران في حين يمكن حضورهن حفلة الزواج .

نهضة زراعية

كيف تبدو محافظة السويداء اليوم ؟ في السويداء اليوم حركة بناء وتعمير ومشاريع زراعية وصناعية متميزة يلمسها كل قادم اليها ، فالمحافظة تعتمد اساسا في تطورها على القطاع الزراعي ، اذ ان اغلبية السكان يزاولون مهنة الزراعة ، يقول المهندس الزراعي حمد جربوع مدير الزراعة والاصلاح الزراعي : اننا نعتمد في تطورنا للزراعة في المحافظة على شقين هما الشق النباتي والشق الحيواني ، فالشق النباتي يعتمد على تطوير وزيادة مساحات الاشجار المثمرة والحراجية والاشجار الرعوية ، فأهم الاشجار المثمرة في المحافظة : هي العنب اذ يبلغ عددها حوالى ٩ ملايين غرسة ، ويبلغ انتاج العنب في بعض السنوات الجيدة نحو ١٠٠ الف طن ، يأخذ منها معمل التقطير في السويداء ٥ آلاف طن والباقي يسوق محليا او في باقي المحافظات السورية ، ثم تأتي بعد ذلك اشجار التفاحيات ـ وتشمل التفاح والكمثرى والسفرجل ، والتفاح بالذات هو اهم صنف من هذه الاصناف حيث يبلغ عددها اكثر من نصف مليون غرسة ، ثم تلي هذه الاصناف اللوزيات وهي الكرز والدراق . ويضيف المهندس حمد جربوع قائلا : اننا نعمل على التوسع في زراعة اشجار الزيتون في المناطق التي لايصل ارتفاعها الى ٩٠٠ متر عن سطح البحر ، اما التشجير الحرجي فنحن نعمل على تغطية كامل المساحات التي لاتزرع بالاشجار المثمرة لتكون غابات جبلية او مصدات رياح للبساتين المثمرة في اكثر من موقع من المحافظة .

اما بالنسبة للشق الحيواني فنحن نعمل على الاهتمام بهذا القطاع ، فقد أقمنا المداجن ومستودعات العلف والابار الارتوازية وتوزيع الابقار المحسنة على المزارعين، ففي مجال الدواجن مثلا اقيمت مدجنة تكلفتها قاربت ٤٠ مليون ليرة سورية تنتج سنويا ما يقرب من ٤٠ مليون بيضة ، كما اقيمت خمسة مستودعات للاعلاف في اكثر من مكان من المحافظة وذلك باستيراد الآلات الثقيلة لاستصلاح الاراضي .



اوبريت قطار المستقبل مسرحية غنائية شعرية شاركت فيها منظمة الطلائع في السويداء في مناسبات وطنية تمثل طموحات الجماهير العربية في الوحدة والتحرر .



مصنع الاحذية في محافظة السويداء يمثل جانبا اقتصاديا مشرقا من جوانب نهضة هذه المحافظة ، هذا المصنع يستطيع انتاج ألفي زوج من الاحذية يوميا .



في ثانوية الفتاة العربية مجموعة من الطالبات ودرس في التربية الرياضية .





وهناك مركزان للبحوث الزراعية احدهما للاشجار المثمرة والآخر لتحسين الماعز الجبلي ، وهدف هذين المركزين هو دراسة اهم اصناف الاشجار التي يمكن ان تنجح في المحافظة ومن ثم توزيعها على المزارعين ، اما المركز الاخر وهو تحسين الماعز الجبلي فهدفه عمل تهجين بين الماعز الجبلي والشامي لتحسين النسل وللحصول على سلالات جديدة تتلاءم مع المنطقة الجبلية وتتميز بزيادة انتاج الحليب .

سدود مياه

ولما كانت السويداء تتسع من سنة الى اخرى في مشاريعها الصناعية والعمرانية ، فقد دعت الحاجة الى اقامة بعض السدود لتلافي النقص في موارد المياه ، يحدثنا السيد المهندس علي فاعوط مدير مؤسسة مياه السويداء عن المياه والسدود يقول : ان مشروع مياه المزيريب هو من اهم المشاريع لسد حاجة مدينة السويداء من المياه ، وهذا المشروع يروي نصف مدينة السويداء حاليا كما يروي مجموعة اخرى من قرى المحافظة بالاضافة الى الفائدة التي تحصل عليها بعض قرى محافظة درعا ، وقد بدأ العمل به في عام ١٩٧٢ وانتهى عام١٩٧٥ ، وبلغت تكاليف مشروع مياه المزيريب حوالي ٢٥ مليون ليرة سورية .

ويضيف المهندس فاعوط قائلا : وهناك عدة سدود اهمها سد الروم ويقع في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة السويداء ، وهو سد ترابي سعته التخزينية اربعة ملايين متر مكعب من المياه يسقى نصف مدينة السويداء بخط طوله تسعة كيلومترات ، وقد اقيمت عليه محطة تصفية ستكون جاهزة للاستعمال في القريب العاجل . بلغت تكاليف انشاء هذا السد بحدود ستة ملايين ليرة سورية ، اما سد جبل العرب ويقع في الجهة الجنوبية الشرقية من السويداء سعته التخزينية تبلغ ١٩,٥ مليون متر مكعب من المياه ، سوف يستخدم لتأمين مياه الشرب لمنطقة صلخد وقراها ، كما اقيم عليه محطة تصفية من اجل تنقية مياه السد قبل توزيعها على المواطنين ، ويتوقع ان يتم هذا السد خلال هذا العام .

وهناك عدة سدود اخرى صغيرة هي سدود ترابية او مبنية بالاسمنت المسلح مثل سد العين وسد المشقف وسد سهوة البلاط وسد رساس ثم سد شهبا ، تتفاوت سعتها التخزينية للمياه بين مليون متر مكعب الى ستة ملايين متر مكعب تروي المناطق والقرى التي تحيط بمحافظة السويداء .

صناعات جلدية وصوفية

في السويداء مصنعان كبيران : احدهما لصناعة الاحذية والآخر مصنع السجاد الالي . يقول المهندس عدنان المصفي مدير مصنع السويداء للاحذية : ان هذا المصنع هو أحد القطاعات الانتاجية الكبيرة في السويداء ، وهو واحد من اربعة معامل مماثلة للشركة العامة لصناعة الاحذية وهي احدى شركات القطاع العام ، يعمل بهذا المصنع ٣٨٦ عاملا وعاملة ، يقوم بانتاج عدة موديلات من الاحذية الرجالية والولادية والنسائية حسب نوع الطلبيات الواردة الى المعمل من القطاع العام ، وقد بدأ المصنع انتاجه الفعلي سنة ١٩٧٩ بعد فترة تجارب للعمال الذين صقلوا تجربتهم في فرنسا ، ينتج المصنع عدة انواع من الاحذية : اهمها الحذاء العسكري والمدني وحذاء رجال الاطفاء وحذاء الفتوة ثم الحذاء الشعبي الرجالي والصنادل ثم الاحذية الولادية والبناتية بمختلف انواعها .

ويستطرد المهندس عدنان المصفي قائلا : لقد باشر المصنع بانتاج الاحذية الايطالية موديل (الموكاسان) عالية الجودة والتي تضاهي الاحذية العالمية بعد ان تم تدعيم خطوط الانتاج بآلات متطورة تقوم على صناعة هذه الانواع ، ومن الجدير بالذكر ان طاقة المعمل الانتاجية قد تصل الى ٢٠٠٠ زوج من الاحذية في حالة تكامل عدد العمال وتوفر المواد الاولية . وقد بلغت مبيعات هذا المصنع عام ١٩٨١ نحو ١٣,٥ مليون ليرة سورية في حين كانت المبيعات في السنة الاولى لافتتاح المصنع نحو مليون ونصف مليون ليرة سورية لاغير .

اما المشروع الصناعي الآخر فهو معمل السجاد الآلي وهو من المشاريع الهامة التي اقيمت لبناء قاعدة اقتصادية سليمة في البلاد وتأمين السلع للمستهلك واستغلال المواد الخام المتوفرة في البلاد ، بالاضافة الى تشغيل اليد العاملة وامتصاص البطالة . بدأ التفكير في هذا المصنع سنة ١٩٧٦ ، وبدأ انتاجه سنة ١٩٧٩ ، يقول السيد كمال عزام مدير المصنع : ان معمل السجاد الآلي ينتج السجاد الصوف الصافي بطاقة انتاجية تقدرب ١٨٠ الف متر مربع سنويا على ثلاث ورديات . اما نوعية السجاد الذي ينتجه هذا المصنع فهو نوع تبريز ممتاز واصفهان وكاشان ، وهو يضاهي السجاد العالمي رغم ان عمر المصنع لايتعدى ثلاث سنوات ، وقد بدأ تصديرنا لهذه المادة في يونيو ١٩٧٩ الى القطر العراقي الشقيق والاتحاد السوفيتي ، ومن المؤمل ان تصدر هذا العام نحو ٥٠ الف متر مربع من



في الوحدة الانتاجية لصناعة السجاد اليدوي في قرية عمرة .

هذا السجاد الى دول اخرى بسعر اعلى من السعر الداخلي ، وهذه سياسة القطر السوري في تقديم سلعة للمستهلك العربي السوري بسعر خاص اقل من سعر التصدير ، وقد حصل المصنع على بطولة الانتاج على مستوى القطر السوري في صناعة الغزل والنسيج،أما المواد المستخدمة في الانتاج فهي ثلاث مواد رئيسية هي الصوف السوري الصافي بالاضافة الى الصوف المستورد والقطن السوري المحلي والجوت ، يعمل بهذا المصنع ١٥٥ عاملا ، من بينهم ٣٢ فتاة وهناك حوافز انتاجية تطبق على اساس تحقيق الحد الادنى للانتاج المطلوب ، وبعد هذا الحد يوجد نظام خاص يعطي ٥ ليرات على كل متر زيادة عن الحد الادنى الذي حققه العامل ، بالاضافة الى مكافآت تشجيعية وعلاوات انتاج وتحفيز تقدمهاادارة المصنع ، ومما يجدر ذكره ان جميع العاملين من فنيين وعمال وخبرات هم من ابناء محافظة السويداء يتم تدريبهم على الاعمال الفنية المختلفة داخل قطرنا العزيز ، او يوفدون في بعثات الى الخارج .

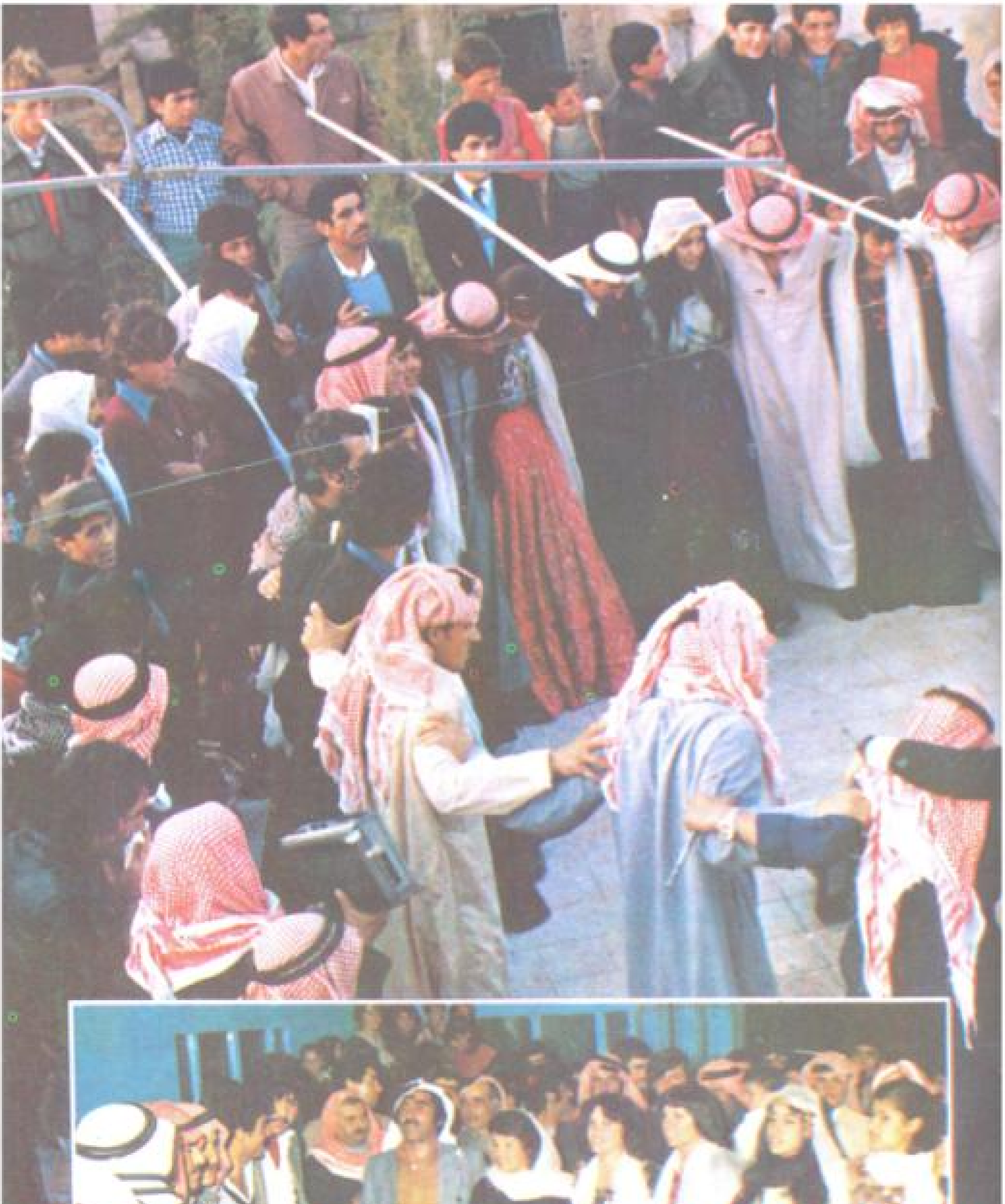
تنتج هذه الوحدات السجاد اليدوي الذي يضاهي في جودته السجاد العجمي والذي يقبل عليه الكثير من الموسرين وهواة هذا النوع من السجاد ، وفي زيارتنا لاحدى هذه الوحدات في قرية عمرة قال لنا مسؤول الوحدة : ان هذه الوحدة تنتج ١١٥٠ مترا مربعا من السجاد اليدوي وفق الاصناف ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ـ ٥٠٠ ـ ٦٠٠ ، اما اجود الانواع فهو النوع الاخير الذي يتكون من ٣٦٠ الف عقدة في المتر المربع الواحد . اما اسعار هذا النوع من السجاد فيتراوح ما بين ٤٨٦ ليرة الى ١٦٢٢ ليرة للمتر المربع ، يعمل بهذه الوحدة ٦٠ عاملة من بنات الريف يأخذن اجورهن حسب انتاج كل واحدة منهن وتتراوح الاجور بين ٢٧٧ ليرة سورية الى ١١٠٨ ليرات للمتر الواحد حسب نوع كل صنف من هذا السجاد ، وباستطاعة العاملة ان تنتج مترين ونصف متر مربع في الشهر الواحد من هذه الاصناف ،لقد حقق هذا المشروع نجاحا كبيرا ، واصبحت الفتاة في الريف تكسب رزقها من عرق جبينها بل وتساعد اسرتها اذا دعت الحاجة الى المساعدة ، ومن المعروف ان معرض دمشق الدولي يضم قسما باسم معرض الصناعات الريفية للسجاد اليدوي يعرض انواعا مختلفة من هذا السجاد الفاخر الذي يقبل عليه هواة اقتناء هذا النوع من السجاد .

هذه بعض معالم السويداء أم الابطال التي وقفت صامدة امام الطغاة والطامعين . ◻◻

صادق يلي



لمراسم الزواج والافراح في قرى ومدن محافظة السويداء تقاليد وعادات جميلة ، فمهر العروسة مثلا هو طربوش نسائي احمر مرصع بقطع من الليرات الذهبية ، وهنا اهالي قرية ثعلة يرقصون الدبكة ابتهاجا بزواج احد ابناء القرية .




حديث النحل
هل استمعت إليه ؟

بقلم الدكتور عبد اللطيف أبو السعود

لنحل العسل لغة مثيرة ، تتكون من أصوات مميزة ، وحركات ، وتمثيل صامت . وكما هو الحال بالنسبة لبعض الناس ، فان بعض النحل يتحدث بالحركات أكثر مما يتحدث بالأصوات . وقد وجد بعض العلماء تسلية كبيرة في ملاحقة بعض الناس وهم مستغرقون في مناقشات جادة ، لقد كانوا يلاحظون أيديهم وهي تتحرك وأجسامهم وهي تتمايل .

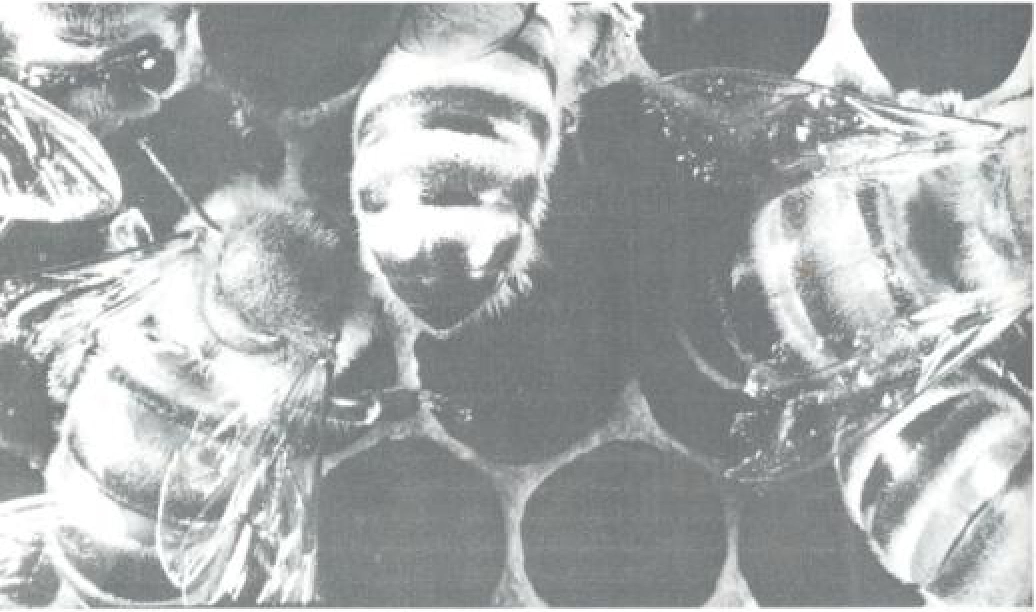
وكذلك الحال بالنسبة للنحل . حيث يجد بعض العلماء انه يمكننا بملاحظة النحل عند مدخل الخلية أو بالقرب منه ، أن نتعرف على أشياء كثيرة تتعلق بما يفعله النحل داخل الخلية ، بدون رفع غطائها على الاطلاق .

وفي كل مرة نفتح خلية للنحل ، فاننا نتدخل في عمل النحل الروتيني المنتظم بعناية كبيرة ، وفي كل مرة نفعل ذلك ، ينتج عن ذلك نقص في انتاج العسل .

ويعمل النحل بهمة كبيرة أثناء موسم جمع العسل ، ولكنه يتمتع بكل دقيقة منه . ويمكن للانسان أن يحصل على متعة مضاعفة بملاحظة النحل وهو يغدو ويروح هنا وهناك ، أو وهو يهبط سعيدا على لوح الهبوط أمام مدخل الخلية ، وخاصة بعد أن يكون ذلك الانسان قد تعلم لغة النحل الى الدرجة التي يمكنه أن يفهم بها نوع الخدمة أو المعونة التي قد ينتظرها النحل منه .

تجربة فريدة

وفي صباح يوم من أيام الربيع ، لاحظ أحد الزوار ما بدا له كنحلة صغيرة ميتة على اللوح الذي يغطي الأرض تحت لوح الهبوط الممتد أمام باب الخلية . وبينما كان ينظر ويراقب طارت نحلة أخرى من لوح الهبوط ، وهبطت على اللوح السفلي ، وأخذت تسير في دائرة حول النحلة الساكنة ، وبدت كأنها تتحدث اليها . وبعد لحظات قليلة ، اذا بالنحلة التي كانت تبدو ميتة تبدأ في الحركة ، وتعود الى الحياة ، وعند ذلك ، وقفت النحلة الأخرى أمام النحلة الضعيفة بحيث كان فمها في مواجهة فم الأخرى . وبعد دقيقة أو دقيقتين ، أصبحت النحلة الضعيفة أقوى بدرجة ملحوظة ، وأكثر نشاطا ، وسرعان ما بدأت تزحف حول المكان وهي فرحة مسرورة .



وفسر أحد الواقفين ما حدث بقوله : « ان النحلة التي كانت تبدو ميتة كانت في الواقع جائعة وغير قادرة على الطيران الى مدخل الخلية ، ثم قامت نحلة الخلية باطعامها . ولعل نحلة الحقل الضعيفة تأخرت خارج الخلية في الليلة الماضية ، ولم تتمكن من العودة ، ولذلك كان عليها أن تبقى في الخارج طوال الليل . والآن وقد أطعمتها نحلة الخلية ، فانه بعد حوالي ربع ساعة ، سوف تصبح النحلة الضعيفة قوية بحيث يمكنها الطيران ، الى مدخل الخلية ، واللحاق ثانية بالقوة العاملة » .

وكان هذا هو ما حدث بالضبط .

المثير للانتباه ان النحل يقوم باطعام أخواته الجائعات ، ولكنه لا يطعم أو يهتم بالنحل المريض أو العاجز ، أو الطاعن في السن ، الذي لا يرجى منه أي نفع للخلية ككل .

وفي فصل الربيع ، يمكننا أن نشاهد « رقصة النحل » التي تحدث عنها كتاب كثيرون . وعندما تقوم النحلات العائدات من الحقل بهذه الرقصة ، فانها تفيد النحلات الأخريات في معرفة الاتجاه الذي يوجد فيه مصدر جديد من مصادر الرحيق ، ومدى بعده ، وفي بعض الأحيان تستغرق هذه الرقصة ١٥ ثانية اذا كان مصدر الرحيق قريبا جدا ، وقد تمتد الرقصة الى دقيقتين اذا كان بعيدا ، لذلك فاننا في معظم الحالات نرى هذه الرقصة بطريق المصادفة ، وليس نتيجة للملاحظة الطويلة .

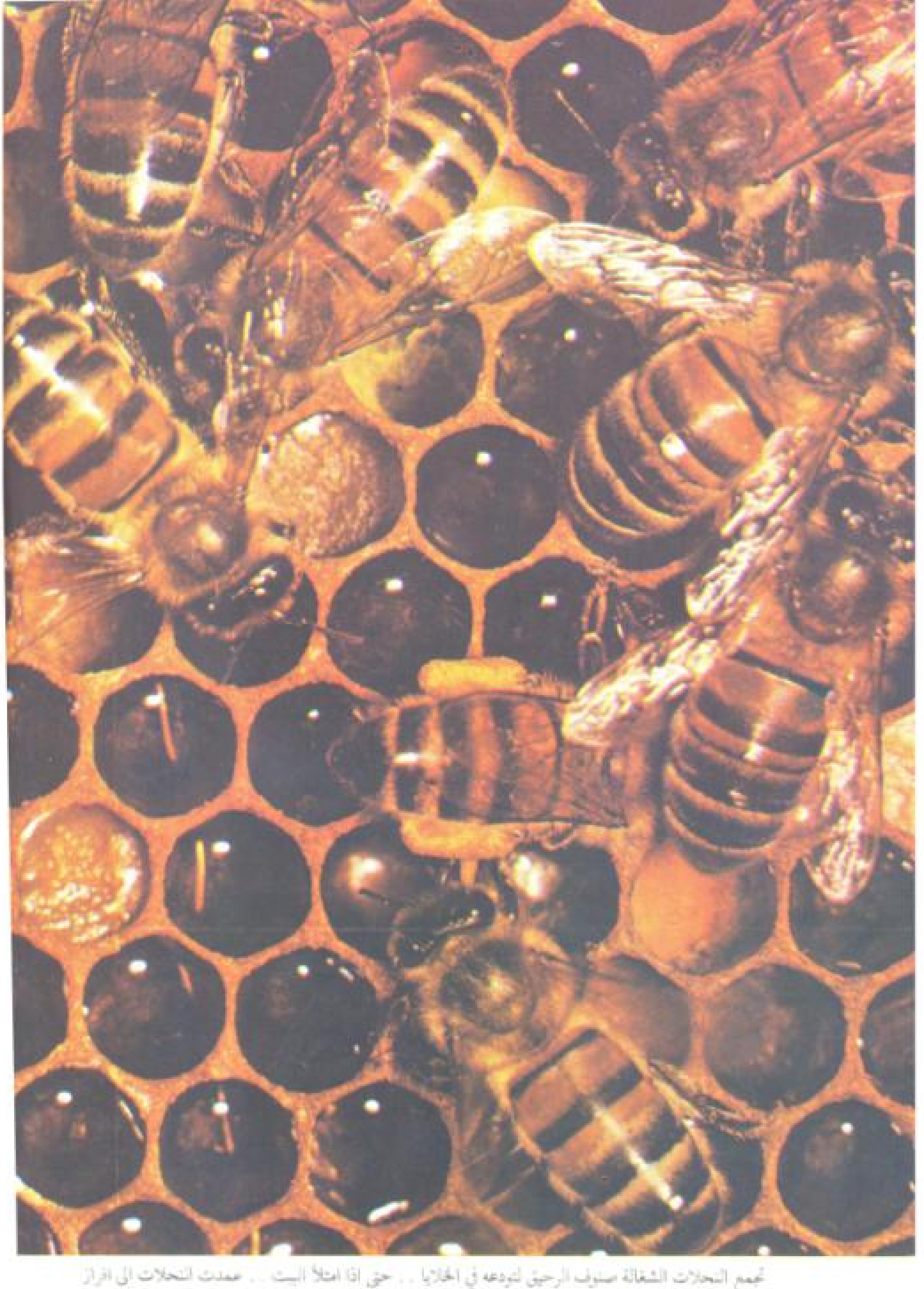
صرخة لطلب المعونة

ان دخول النمل الى الخلية فيه تهديد لسلامة النحل ، وفي احدى الأمسيات ، وبعد أن أسدل الظلام ستاره ، ذهب اثنان من مربي النحل لتفقد الخلايا ، كانا يستندان الى السور الواقي من الرياح ، يستمعان الى طنين النحل وهو يعمل ، وقد أخذ بعضه يطير أمام باب الخلية ويضرب الهواء بأجنحته ليسحب الهواء الدافىء الرطب من داخل الخلية .

وفجأة سمع أحد الرجلين نحلة يصدر عنها صوت مميز ، ذلك الصوت الذي يسميه المربون « نداء الاستغاثة » ، ذلك لأن هذا الصوت لا يسمع الا عندما تغزو جحافل النمل ، ويحتاج النحل الى معونة فورية من مربيه ، انه صوت يتراوح بين الهمس والأنين ، ولا يصدر عادة الا عن نحلة واحدة الا انه في بعض الاحيان يمكن سماعه من عدد من النحل في آن واحد . ويعتقد البعض انه مزيج من الأصوات التي تنتج عن الفم ، وتلك التي تأتي من ضرب الهواء بالأجنحة ، واذا سمعت ثلاث نحلات أو أكثر يصدرن هذا الصوت الحزين ، فاعلم أن خلية النحل تواجه مشكلة .

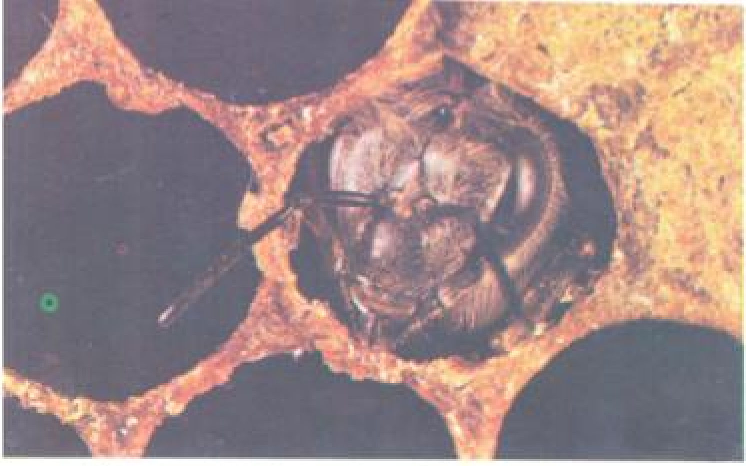
وعندما سمع المربي نداء الاستغاثة ، ذهب على الفور الى الخلية التي يصدر عنها النداء ، وركع بجوارها يستمع . لقد كان النداء يتكرر على فترات ـ طول كل منها دقيقة . احضر الرجل مصباحا ومعجونا للنمل ، فوجد أن النمل يغزو الخلية عن طريق أحد الأركان المجاورة لمدخلها . واقتفى أثر صف النمل الى أسفل القاعدة . حيث وضع نقطا قليلة من السم . بعد لحظات قليلة ، بدأ النمل بأخذ المعجون .

ولحماية النحل ، غطى الرجل السم بقطعة من

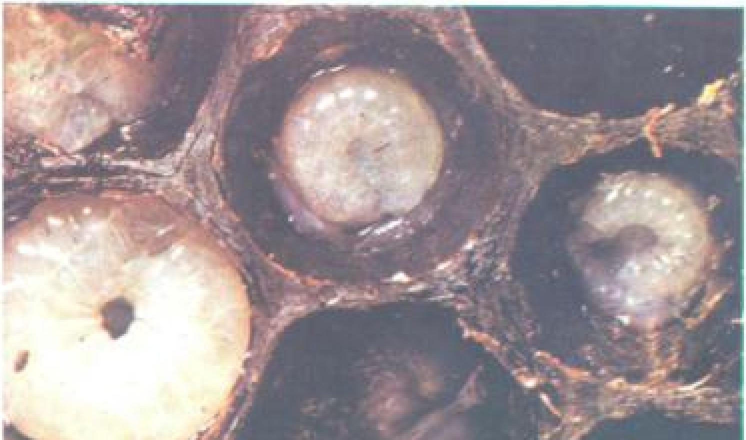


تجمع النحلات الشغالة صنوف الرحيق لتودعه في الخلايا . . حتى اذا امتلأ البيت . . عمدت النحلات الى افراز الشمع لبناء المزيد من الخلايا (الى أعلى) . . تسمى اليرقة خادرة وهي تتحول الى نحلة كاملة . . . وتمزق الخادرة حجرتها حين تستكمل نموها لتبدأ حياتها لنحلة شغالة . . (الى اليسار أعلى)





يرقة النحل قد تنمو وتتحول الى ملكة بشرط ان يتوفر لها ما يكفي من الغذاء والمكان .



مراحل مختلفة تمر بها اليرقة الخادرة اثناء نموها .. وتحولها الى نحلة تامة .



الخشب ، تاركا تحتها فراغا صغيرا يسمح للنمل بالوصول الى السم ، ولكنه لا يسمح لنحلة طائرة بالوصول اليه .

وليخفف عن النحل الذي يئن ، وليدخل الطمأنينة الى نفسه ، أخذ الرجل فرشاة ليخرج بها النمل الذي بدأ يجري حول لوح الهبوط ، أو بالقرب من مدخل الخلية ، ان النحل يقدر هذه المساعدة ، وقد يزحف حول أصبع المربي في فرح وسرور .

وفي الصباح ، لم يكن من الممكن رؤية نمل في أي مكان حول الخلية . ولكن أتربة السم ورذاذه يمكن أن تقتل النمل والنحل معا .

حديث الملكات

لقد كتب الكثير عن الملكات الصغيرات وهن يتحدثن الى بعضهن البعض أثناء وجودهن في الخلايا قبل خروجهن منها . وقام بعض المراقبين بتسجيل هذه الأصوات بأسماء مختلفة مثل « تشيب » أو « بيب » . ان هذه الأصوات تسمع غالبا عند غروب الشمس أو بعد ذلك ، وفي أحيان كثيرة ، يحدث اختلاف واضح في شدة هذه الأصوات ، بحيث يمكن للبعض أن يعينوا بيعض التأكيد عدد أسراب النحل التي يتنظر أن تغادر الخلية بعد السرب الأصلي .

وهناك اعتقاد سائد بأن الملكة الأولى التي تخرج ، تلدغ الملكات الصغيرة الأخرى وتقتلها ـ تلك الملكات التي لم تخرج بعد من خلاياها ، وهكذا تصبح هي الملكة الوحيدة في الخلية .

ولكن بعض المربين يرون أن ذلك أمر نادر الحدوث في الحياة العملية ، فالمشاهد ان الملكة العجوز تطير بعيدا ومعها السرب الأصلي . وبعد فترات تتراوح بين يومين وخمسة أيام ، تترك الملكات الأخريات الخلية مع اعداد متناقصة من النحل على هيئة سرب ثان وثالث ورابع وخامس في بعض الأحوال . لقد شاهد بعض المربين خلايا كبيرة تخلو تقريبا من سكانها من النحل بعد خروج عدد من الأسراب منها .

ان النحل يعطينا تحذيرا كافيا عندما يشعر بالحرارة الزائدة والازدحام الزائد ويحتاج الى مساعدتنا لتخفيف هذا الوضع ، وقبل أن يبدأ النحل في بناء خلايا السرب بثلاثة أيام ، يعطي اشارة بالتمثيل الصامت ، يطلق عليها مربو النحل اسم « نظام حذاء الفرس » وبمجرد أن تشرق الشمس في الصباح . وتبعث الدفء في مقدمة الخلية ، تجد أن معظم النحل الذي يخرج من الخلية يطير الى الحقول .

ولكن عندما تفكر الخلية في الهجرة بصورة قاطعة ، تجد نحلة أو نحلتين أو ثلاث نحلات تزحف الى أعلى مقدمة الخلية المسطحة الرأسية ، ثم تتجه الى اليمين ، ثم تزحف نزولا الى مدخل الخلية ثانية ، وفي العادة ، تجد أنه في نفس الوقت تقريبا ، يزحف عدد صغير من النحل الى أعلى مقدمة الخلية ، ثم يتجه الى اليسار ، ثم يزحف الى مدخل الخلية ثانية ، ان النحل سوف يفعل ذلك طوال اليوم طالما كانت الشمس ساطعة ، واذا خيم الضباب أو اذا حل المساء ، توقف النحل على الفور .

ان المسار الذي يسلكه النحل يشابه في شكله وحجمه حذاء الفرس . وهو مسار مميز يسهل تمييزه . وعندما نشاهد ذلك لأول مرة يكون النحل لم يبدأ بعد في بناء خلايا السرب ، ولكنه يعطينا إنذارا بأنه يخطط لذلك في المستقبل القريب .

هاو يتحدث

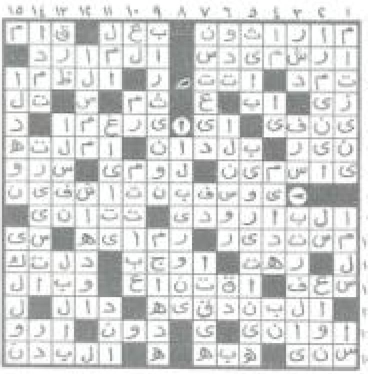
في أثناء فصل الربيع ، تصدر عن خلايا النحل أصوات تشبه جذبا رقيقا لأوتار الجيتار ، وبمرور الوقت يصبح هذا الصوت أقل وضوحا ، حتى بداية أغسطس عندما يتوقف تماما حتى فصل الربيع التالي . ان هذا الصوت الغريب قد أثار اهتمامي .

لقد استمع آخرون الى هذا الصوت وتساءلوا عن معناه . لقد فكرت في أنه قد يكون نتيجة لاحتفال النحل في طريقه الى الأجزاء العليا أو السفلى من الخلية ، أو بسبب أطراف أجنحتها المتذبذبة ، عندما يحرك النحل الهواء بأجنحته لادارته في أنحاء الخلية .

وفي معظم الأوقات ، يجب علي أن ألصق أذني على جانب الخلية لأستمع الى هذا الصوت ، وهو دائما أكثر وضوحا في منطقة معينة . لقد وصلت الى استنتاج مفاده ان هذا الصوت انما يصدر بالقرب من الملكة حيثما تكون .

وقد سألني البعض عن السبب في عدم استخدامي لسماعة طبية عندما أنصت الى صوت النحل في خلاياه . حقا توجد عندي سماعة طبية ولكن لسبب لم أعرفه بعد ، فانه يمكنني فهم لغة النحل بصورة أفضل عندما ألصق أذني اليسرى بقوة على جانب الخلية ، لأستمع من أماكن مختلفة ، وهو مالا أستطيعه عندما أستخدم سماعة طبية □□

د . عبد اللطيف أبو السعود



أفقيـاً

يوسف بن تاشفين

رأسيـاً

البيروني

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : يوسف بن تاشفين . أكبر سلاطين المرابطين . أسس مدينة مراكش ، وانتصر على ملوك الأندلس . كما هزم جيش ألفونس السادس ملك قشتالة وليون في الزلاقة عام ١٠٨٦ م .

(٨) رأسيا : البيروني . فيلسوف ورياضي اسلامي ، ولد في بيرون عاصمة خوارزم في نهاية القرن العاشر . ويعد من أعظم علماء الدولة الاسلامية في الفلسفة والرياضة والفلك والجغرافيا. تكلم عن كروية الارض ودورانها حول محورها .

الفائزون بالجوائز

- ■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فازبها : حسين صالح حيدر / صنعاء / اليمن الشمالي
- ■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : علاء أحمد يوسف بركات / النقرة / الكويت
- ■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : محمد لعصيبي / مراكش / المغرب .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا فاز بها كل من :

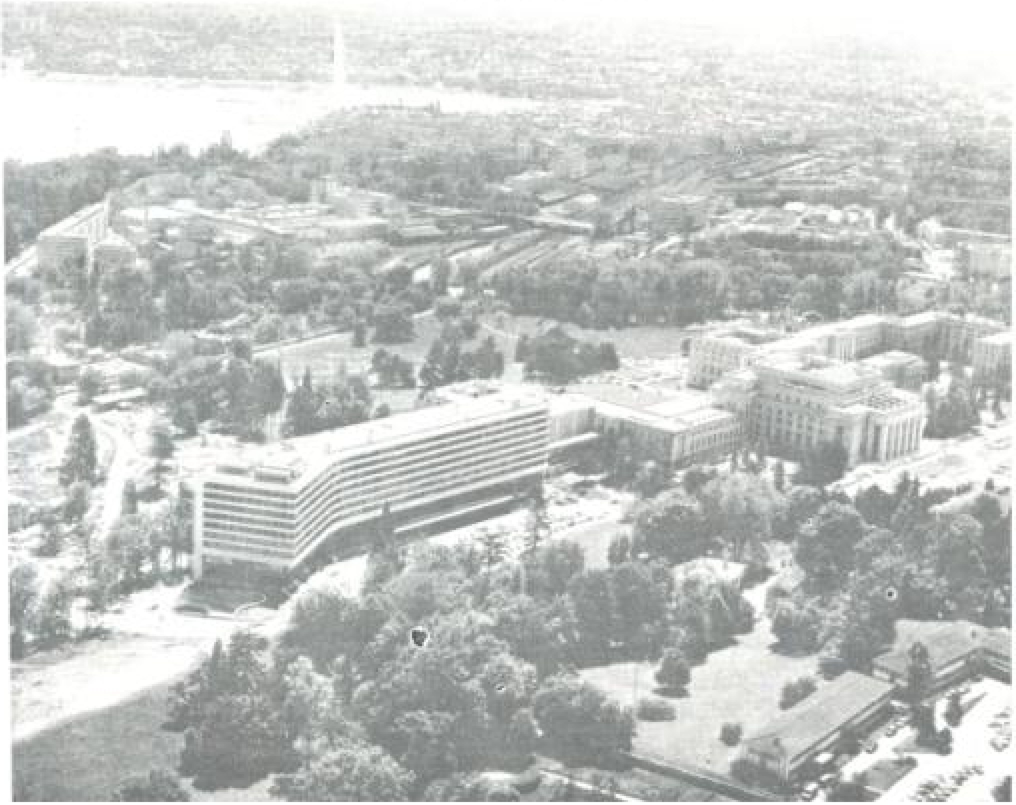
١ ـ جمال زكي عطا الله الجبار/ / سوهاج/مصر .
٢ ـ إبراهيم الصديق محمد / الخرطوم/السودان .
٣ ـ محمد العبدالله العداد / حلب /سوريا .
٤ ـ لما عبد الله الشرع / عمان / الاردن .
٥ ـ نوره عبد العزيز الزامل / القصيم/السعودية .
٦ ـ منصور سعيد عبده / المعلا / اليمن الديمقراطي .
٧ ـ حسين حسن التميمي / بغداد /العراق .
٨ ـ أحمد عارف الغاني / بيروت /لبنان .

رسالة جنيف :

بلد في القمة.. ماذا يريد ؟

استطلاع : منير نصيف

« قصر الأمم » أو مقر الأمم المتحدة في جنيف ، صورة من الجو





السويسريون يعشقون الرحلات البحرية وهم يصنعون أجمل القوارب واليخوت لهم ولضيوفهم من الزوار والسائحين .



قصر شيون التاريخي وسط مياه البحيرة قريبا من مدينة مونترو .

ماذا تريد سويسرا ؟

والسؤال للكاتب الفرنسي شاتوبريان ، وقد طرحه منذ أكثر من مائة وخمسين عاما ! ولم تكن سويسرا بعد قد تقدمت . . كانت لاتزال بلدا ناميا صغيرا ، ولكنها كانت تنمو بسرعة وتتقدم بسرعة . .

ثم اجاب شاتوبريان على تساؤله بقوله : « هل هي الحرية ؟ انها استمتعت بها منذ قرون . هل هي المساواة ؟ لقد حققتها . هل هي الجمهورية ؟ انها دستورها .

ماذا تريد سويسرا اذن ؟ « انها تريد التغيير . . فهذا هو قانون الكائنات الحية . »

في ذلك الوقت كانت سويسرا تمر بالثورة التي استمرت خمسين عاما ، واسفرت عن قيام الدولة الفيدرالية الجديدة . فقد كان نظام الحكم القديم مزيجا من حكم الاقليات والجمهوريات وكان يعتمد على المرتزقة ، فكان النبلاء يؤجرون فرقا سويسرية للملوك الاجانب ، وكان جان جاك روسو ابن جنيف في مقدمة الذين نادوا بالاصلاح وبالتغيير الهائل الذي جاء مع الثورة الفرنسية العظيمة ، ولو أنه لم يعش ليرى ثمار فكره .

اصطحبني مسيو « جريجوار » في جولة قصيرة في مدينة جنيف ، وظننت ان صديقي هذا ـ وهو فرنسي ـ يريدني أن امشي معه في حاضر هذا البلد الذي يقع في قلب القارة الاوروبية وتبعته صاغرا ، حتى وصلنا الى الجسر الرئيسي الذي أقامه السويسريون فوق بحيرة ليمان ، او بحيرة جنيف ، فهناك جسور اخرى كثيرة صغيرة ! ثم توقف ، وقال : « هل رأيتها ؟ » قلت في دهشة : ماذا ؟

قال : « الحرية ! »

ـ هل يرى الناس الحرية عندكم ؟

ـ انهم يرونها ويشمونها ويستمتعون بها . انها ماء وهواء وغذاء .

وكنا قد وصلنا ، بعد أن عبرنا الجسر ، الى شارع صغير . . وقال صديقي جريجوار : « هذا أشهر شارع في المدينة . . انه شارع روسو ، هنا ولد الكاتب الكبير جان جاك روسو ، وهنا عاش طفولته وشبابه قبل ان يرحل الى باريس لينثر بذور ثورته ، ولكنه كان يعود دائما الى جنيف ، ثم لايلبث ان يحزم أمره من جديد ويذهب الى فرنسا .

وغضب السويسريون وهم يرون جزءا من التاريخ يزال من مكانه . . ولكنه قطار التحديث ، لكي يستمر في سيره ، فلابد ان يجد خطوطا جديدة تمتد أمامه كل يوم . وهدموا البيت القديم الذي أنجب المفكر الثوري ، وقام مكانه متجره بلاسيت » ومعناها المكان الصغير . . وهو أحد المتاجر الكبيرة في جنيف ، المدينة التي تقع عند سفح جبال الألب التي تغطي الثلوج قممها طوال اشهر السنة ، ولكنها تذوب في المناطق الأقل ارتفاعا عندما تشرق شمس الربيع والصيف ، وتتسلل المياه عبر القنوات الصغيرة في الجبل لتملأ البحيرة التي لاتجف !

تحت هذه القمم العالية يعيش شعب يتجاوز تعداده قليلا ستة ملايين نسمة ، او اثنين في الألف من سكان الارض ، وهو عالم صغير كثير التنوع ، يعكس اتجاهات المجتمع العصري وظروفه ، وبين سكان سويسرا مليون اجنبي ، وهي نسبة عالية في راى العديد من السويسريين على الاقل ، ومعظم هؤلاء من ابناء ايطاليا ويوغسلافيا واسبانيا وتركيا واليونان ، وقد كانوا جميعا من الدعائم اللازمة لبناء البلاد بعد الحرب الثانية .

والفكر . . ايضا

ولكن الاجانب الذين يقيمون في سويسرا ليسوا كلهم عمالا ، بل هناك ايضا العديد من المثقفين والطلبة من كل قارات العالم ، ومن بينهم اللاجئون السياسيون . فقد عرضت سويسرا في القرن التاسع عشر على كثيرين ممن لجأوا اليها ، المأوى ، وطابت لهم الاقامة ومن هنا راحوا يحركون العالم من حولهم ويؤثرون فيه . ومن بين هؤلاء الفيلسوف الروسي الكسندر هرتزن ، ومؤسس الفوضوية « باكونين » ، ورائدا الحرية الايطاليان « غريبالدي وماتزيني » ، والموسيقار الثوري السياسي « ريتشارد فاجنر » ، كما عاش « لينين » في زيورخ قبل أن يعود الى روسيا قبل ثورة اكتوبر .

وفي مدينة برن ، شارع صغير ، يقال ان نظرية « النسبية » ، التي تفتق عنها ذهن « اينشتاين » قد ولدت فيه ، حيث كان هذا الشاب العالم يعيش هناك ، وكان يعمل في ذلك الوقت في مكتب « البراءات والاختراع السويسري » .

هل يختلف السويسري ، ؟

انه واقعي ، بعيد عن الخيال . ينظر الى الامور حوله بنفس الطريقة التي يضبط بها ساعته ! . .

لقد انتقل السويسريون من الزراعة الى الصناعة ، بنفس السرعة التي انتقل بها الانسان من الأرض الى الفضاء . . كانوابدركون ـ ربما أكثر من غيرهم ، انهم لكي يعيشوا في رخاء فلابد لهم من أن يتجهوا الى الارض ، لان ضعف المحاصيل الزراعية يعني الجوع . . ولم يكن هذا اكتشافا،فالعالم كله كان يزرع قبل الثورة الصناعية ، ومعها وبعدها . . ومازالت الشعوب تزرع اليوم أكثر من اي وقت مضى . . ولكن مع الزراعة في سويسرا ، كان هناك دائما اهتمام خاص بالتطوير . . وكان هذاكله وسويسرا مازالت بلدا ناميا منذ اكثر من قرن ونصف .

ثم اصبح المزارعون يعتمدون الى حد ما على دعم الدولة لهم ولجهودهم ومحاصيلهم . وبفضل هذا الدعم تحولت المزرعة القديمة التقليدية التي يمتلكها الفلاح ، الى مؤسسة للانتاج الزراعي . . كل شيء فيها يعمل وفق احدث الطرق العلمية . . ومن هنا لم تعد الارض في حاجة الى اكثر من سبعةرجال من بين كل مائة رجل عامل ، لادارة هذه المزارع والعمل فيها ، ولولا رقعةالارض المحدودة التي تصلح للزراعة في هذه المنطقة الجبلية الباردة ، لحققت سويسرا معجزات تفوق بكثير ما استطاعت ان تصل اليه في مجال الزراعة والمنتجات الزراعية .

ولم يقتصر نشاط المزارعين على الزراعة وحدها ، فقد تحولوا الى مهندسين للطبيعة الغنية من حولهم . . من أجل السويسريين انفسهم . . ومن اجل الذين يجيئون الى بلادهم زائرين . . فبفضل هؤلاء وهؤلاء اكتشف ابناء سويسرا انفسهم ، واكتشفوا جمال الطبيعة في بلدهم ، ومضوا يستغلونه حتى اصبحت جبالهم ووديانهم وزهورهم لوحة فنية رائعة تتوسط اكبر نافذة في مجال اوربا التجارية والسياحية اليوم . ان هناك مناطق باسرها في البلاد تعيش على السياحة صيفا وشتاء ، واصبحت هذه الصناعة تشكل مصدرا رئيسيا من مصادر الدخل القومي واصبح السويسريون أساتذة في فن معاملة السائح وخدمته والسهر على راحته !

طاحونة بولر !

وسار التطور الزراعي بجانب التطور الصناعي ، فقد كانتا ثورتين . . ومع الثورة الثانية ، لم يفتهم ان يجمعوا قصص النجاح ويسجلوها في دفاتر حساباتهم مع التاريخ . وكان هناك الكثير من هذه القصص . مثلا هناك قصة الحداد « بولر » الذي اكتشف ان الحبوب يمكن ان تطحن برحى حديدية بدلا من الرحى الحجرية المألوفة حتى الآن في بعض القرى التي مازالت تعيش حياتها التقليدية القديمة حتى اليوم . . وقام « بولر » بالفعل بصب اول نموذج للرحى الحديدية . . وكانت النتيجة ان ربع انتاج العالم كله من الحبوب يطحن الآن في طواحين من انتاج « بولر » السويسرية .

ثم قصة « جايجي » الذي جاء من « تورجاو » ، وكان يتاجر في مواد الصباغة في مدينة « بال » السويسرية ، ويشتري المواد الاولية التي يستخدمها في تجارته من الصين وجزر جامايكا ونمت التجارة الصغيرة حتى اصبحت اليوم من اكبر الشركات الكيميائية للصباغة في العالم .

لقد بدأ التطور الصناعي في سويسرا بتجارة النسيج ، وكانت الاقمشة تغزل وتنسج وتصبغ وتطبع ، وتتهافت الاسواق العالمية على شرائها . وكانت كل هذه العمليات تتم يدويا قبل ان تلحقها الثورة وتقدم لها نظام النسيج الآلي . . واصبح الانتاج وادوات الانتاج تتمتع اليوم بسمعة عالمية . . واشهر الات النسيج ماكينة« سولزر » المعروفة ، فالنول فيها يعمل بدون مكوك ، والمساك يعمل بدون بكره !

هذه الصناعة الاولى ـ صناعة النسيج ـ التي توصلت الى كيمياء مواد الصباغة الثابتة ، كان لها الفضل الاكبر في تقدم الصناعات الكيمائية والصيدلية . .

مصانع الاسمدة الكيمائية في سويسرا اليوم تصدر انتاجها الى العديد من البلدان الأفريقية والاسيوية .

ومصانع الادوية السويسرية في القمة ، جودة ودقة وثقة . . وكذلك مصانع المواد الغذائية . فقد كان « هنري نستله » nestle ، الصيدلي والكيمائي يرى ان الدسم الموجود في اللبن ، هو مادة غذائية كافية ، فقام بتحويله الى لبن جاف ، وكان يستخدمه في بادىء الأمر في صناعة غذاء الاطفال في المصنع الصغير الذي اقامه في بلدة « فيفي » على شاطىء بحيرة جنيف . . واليوم تقوم في مكان هذا المصنع ، اكبر الشركات الصناعية السويسرية لمنتجات الالبان ، ولكن اصبحت القهوة « النيس كافيه » اشهر منتجاتها مع اللبن النستله !

وفي شوارع سويسرا سيارات كثيرة ، بمعدل سيارة لكل خمسة او ستة مواطنين . . الفلاح عنده سيارة ، والعامل يركب السيارة . . ولكن معظمها ، ان لم يكن كلها ، تسير بالبنزين ، لان « بعبع » التلوث ، جعلهم يخافون من كل آلة تدار بالديزل ، لأن مايتج عن احتراق

الديزل في ماكينة واحدة ، يكفي لتلويث الماء والهواء في مساحة لاتقل عن عشرة الاف متر مربع لمدة نصف ساعة على الأقل ، اذا تحدد الهواء ولم تمر بنفس المنطقة مركبة اخرى تدار بالديزل . والغريب ان سويسرا نفسها هي صاحبة اختراع محركات الديزل ، التي تستخدم في السيارات والبواخر ، وصاحبه هو « رودلف ديزل » وهو الماني ، ثم طوره بعده « سولزر » السويسري .. لقد اخترعوه وصدروه ثم اغلقوا ابوابهم امامه !

سلعة نادرة .. ماهي ؟

قال لي مسئول في مؤتمر التجارة والتنمية في الدول النامية ، او دول العالم الثالث ، احدى المنظمات المنبثقة عن الامم المتحدة : « دعك من السلع الاستهلاكية ! او السلع الانتاجية .. ان السلعة النادرة حقيقة التي بدأت سويسرا في تصديرها على اوسع نطاق ، هي خبرتها ومعرفتها الفنية technical know how وقد اصبحت هذه السلعة في مقدمة ما تحتاج اليه الدول النامية في مسيرتها نحو التقدم في مجالات الحياة المتعددة .

ويقوم المهندسون والخبراء السويسريون الآن بأعمال التصميم والتشييد في كافة انحاء العالم ، وخاصة في مجال انشاء محطات القوى التي تدار بالماء ، وكذلك منشآت الموانى ..

« ومن اجل تنظيم تصدير هذه السلعة ، وهي اساس كل ما صارت إليه اليوم فقد اسسوا عدة شركات تبيع البحوث الأساسية والتخطيط والادارة والتكنولوجيا .. »

ولقد كانت سويسرا ومازالت بلدا فقيرا بموارده الطبيعية . فليس فيها بترول ، ولا فحم ولا ذهب ، ولا أي معدن آخر من المعادن الرخيصة او الغنية . فثروتها الحقيقية في ارادة ابنائها وفي تصميمهم وفي عقولهم التي تعمل وتفكر ، وتخلق وتبتكر .. انها بلاد فقيرة أشبه باليابان .. ولعل هذا التشابه بين السويسري والياباني هو الذي خلق تلك المنافسة القوية بينهما ، مع فارق واحد واضح ، وهو ان اليابانيين بحكم طبيعة ارضهم التي تسبح في البحر ، برعوا في صناعات اخرى .. فقد صنعوا السفن والناقلات وصنعوا السيارات ، وهي مجالات في الصناعة لم يطرقها السويسريون .. وليس معنى هذا انه ليس عند اهل هذا البلد الذي يعيش بلا نافذة تطل على البحر خبرة بحياة البحر .. فهم يملكون اسطولا تجاريا ، واسطولا آخر من ناقلات البترول ، وقوارب تجارية من كل الاحجام ، يستخدمونها في نزهاتهم ورحلاتهم في النهر الوحيد الذي يستخدم في الملاحة بين الاراضي السويسرية والبلاد المحيطة بها ، وهو نهر الراين .. هناك انهار اخرى .. الرون والين والدانوب ، وهي تصل بين سويسرا وبحر الشمال

[illegible]

[illegible]





الساعة الشهيرة المصنوعة بالزهور في جنيف انهم يغطونها في الشتاء ليحموا زهورها من الصقيع .

والبحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ، ولكنها لاتستخدم في الملاحة .

وهناك بعد هذا الاسطول الجوي الكبير ، الذي يضم مئات الطائرات التي يستخدمونها في نقل الركاب والبضائع . وهذه الأخيرة تمثل مركز الثقل في ميزانهم التجاري . ولكن صادراتهم دائما تفوق وارداتهم رغم افتقارهم للمواد الخام التي يستوردونها من كل انحاء الدنيا .

الملكة التي يملكها ابناء سويسرا ويضحكون لها : وأكدوا ذلك من فرص ... العسكرية ، حتى لاتصطدم ... ! .

فحدود الدولة ... تستطيع ان تقطع المسافة من اقصى نقطة من الحدود السويسرية الى اقصى نقطة مقابلة في اقل من خمس ساعات . ... لانكاد ترتفع حتى تعود الى ... فمساحة البلاد كلها لاتزيد على ٤١ الف كيلو متر مربع .. واحدة من اصغر الدويلات في العالم ومع هذا فهي تتمتع بقوة اقتصادية ونفوذ مؤثر يساوي اضعاف حجمها الصغير عشرات المرات .. انها ثاني اغنى دولة في العالم حيث يبلغ متوسط دخل الفرد فيها ١٤ الفا و٥٤٦ دولارا في العام . فما زالت الكويت تحتل المركز الاول بينما تقف بريطانيا العظمى في المرتبة العشرين ! (نقلا عن مصادر الامم المتحدة) ، وتأتي اليابان في المرتبة التاسعة .

ولم يترك اليابانيون مجالا للسويسريين ، لم ينافسوهم فيه .. وآخر هذه المجالات ، الصناعات الدقيقة .. الساعات وآلات التصوير والعدسات والمعدات الطبية .. ولكن هذه المنافسة الطليقة لاتقلقهم .. انهم يتحدثون في هدوء وهم يشيرون الى عقارب الساعة التي تزينها الزهور في كل انحاء ميادينهم : « نحن رواد هذه الصناعة وستبقى عندنا ! » وقبل ان يكملوا حكايتهم مع الساعة ومع التقدم الذي حققوه في صناعة الساعات ، يذكرونك بأنهم كانوا اول من اكتشف القوة المائية بفضل جهود رجلين جاءا الى سويسرا واقاما فيها ، احدهما من السافوا واسمه « جيرمان بوفيري » والثاني انجليزي ويدعى « براون » واصبحت الشركة التي تحمل اسميهما اليوم تنتج توربينات تزيد قوتها عن ١٣٥ الف كيلو وات .. وكان الرجلان اول من فتح أعين العالم - والسويسريين بصفة خاصة - على هذه المادة الأولية الوحيدة التي تنتج الطاقة ومازالت دول عديدة تستعين بخبرة هذه الشركة لتوليد الكهرباء بالقوة المائية ! » .

« ان سبع ساعات من كل عشر في العالم ، مصنوعة في سويسرا ! » هكذا يتحدثون في فخر ، وهم يكملون قصتهم مع الساعة ، فقياس الوقت من خصائص التراث ... المشتغلين في هذه الصناعة (يستطيعوا مقاومة الوصول بدقة التوقيت الى درجة وصلت الى واحد على المليون من الثانية ! فالساعات الذرية التي صنعت في مختبر بحوث الساعات في « نوشاتيل » قد حققت هذه الدرجة من الدقة ، وقد حلت محل الاشارات الزمنية التي كان الحصول عليها يتم في الماضي عن طريق النجوم . وقد كانت الساعة ايضا مثل القوة المائية .. انها لم تنبع من سويسرا ذاتها ، لقد جاءت اليها مع « الهوجنوت » الهاربون من الاضطهاد الديني في فرنسا عندما لجأوا الى الاراضي السويسرية .

ان الساعة اليابانية لاتخيفهم ، رغم جودتها ودقتها ، ورخص ثمنها ، اذا قورن باسعار الساعة السويسرية الجيدة !

يعيشون المستقبل !

وفي جنيف رأيت صور الكاتب الامريكي « الفين توفلر » صاحب كتاب صدمة المستقبل ، ثم « الموجة الثالثة » وهو اخر ما كتب وقد حقق الكتابان ارقاما قياسية في التوزيع ، وتحت الصورة وجدت كتابه الثاني مترجما الى الفرنسية .. لقد اقبل السويسريون على قراءته فقد احسوا من خلال صفحاته انهم يعيشون فعلا هذه الموجة او الثورة الثالثة التي يتحدث عنها توفلر في كتابه !

كيف ؟

لعل الصورة تكتمل ، إذا تحدثنا اولا عن اطارها . فسويسرا بلد محايد يقف اليوم على سور الاحداث متفرجا ، ورغم انها مقعد اساسي للعديد من المنظمات والوكالات التابعة للامم المتحدة في « قصر الامم » في جنيف ، الا أن سويسرا ليست عضوا في المنظمة الدولية .

فهي البلد الوحيد في العالم الذي يتوقف دخوله الامم المتحدة ، على الاقتراع الشعبي والشعب السويسري حذر في كل مايتصل بالمسائل السياسية الكبرى ..

لقد مارست سويسرا الديمقراطية ، منذ قرون ، ويظهر من تاريخها انها استطاعت ان تجمع بين الاتحاد والتعدد .. بين تماسك الكل واستقلال الأجزاء المكونة لهذا الكل داخل حدود ضيقة ! هكذا وصفها هربرت لوثي » .

ولم يكن الدستور الفيدرالي الذي وضع في عام ١٨٤٨ ، والذي يقوم على الديمقراطية البرلمانية ، مرضيا للشعب وعلى اثر ذلك ، تقرر منح الشعب السويسري ، الى جانب حقه في انتخاب نوابه ، حق اتخاذ القرارات المتصلة بتغيير الدستور ذاته ، وحق اللجوء الى الاستفتاءات والمبادرات . ومعنى هذا أنه في استطاعة عدد معين من الناخبين المطالبة باجراء تعديلات دستورية او استفتاءات شعبية حول القوانين الجديدة ، ولقد دأب السويسريون بالفعل ، على تغيير دستورهم بحيث يصبح ملائما للظروف المتغيرة . من هنا جاء الجواب على تساؤل شاتوبريان الذي طرحه في بداية هذا الكلام ، واجاب عليه من عنده ثم الفين توفلر من بعده ! وسويسرا اليوم ، هي رابطة للديمقراطيات التي تعرف باسم « الكانتونات » . فالحكومة الفيدرالية والكانتونات ، والكميونات ، وهذه الاخيرة هي اصغر الوحدات الادارية ، تشكل المستويات الثلاثة للدولة .. والكوميون او الوحدة الادارية مستقل استقلالا ذاتيا عن الدولة وله دستوره الخاص به ، او مايسمى بقانون تنظيم الوحدة الادارية ، وهذه « الوحدة » تخضع لاشراف الكانتون ، والكانتون بدوره مستقل وله صوت في بعض القرارات التي تتخذها الحكومة والحكومة الفيدراليه في النهاية هي اعلى مستوى للحكم السياسي ..

والبرلمان من مجلسين ، المجلس الوطني ، ويضم مائتي ممثل للشعب ، ومجلس الولايات ويضم ٤٤ مندوبا عن الكانتونات او الولايات .. ولكن ممثلي الشعب ليسوا وحدهم المشرعين .. لان الشعب هو المشرع الأول .

أقوى رجل في سويسرا

فالديمقراطية السويسرية تمنح المواطن العادي حق الاشتراك في اتخاذ القرارات المتصلة بالمسائل العملية ، فلا تشيد مدرسة مثلا او مستشفى او مسرح دون موافقة الشعب ، ويتساوى بعد ذلك جميع السويسريين أمام القانون ، فليس هناك امتيازات ، ولا احد فوق القانون ، واقوى رجل في سويسرا ، هو رجل الشرطة ، ولكنه اقل العاملين عملا ، بل انه لايظهر في الشارع الا فيما ندر ، لان الشارع السويسري ليس في حاجة الى شرطي لحماية الامن والنظام ، والمكان الوحيد الذي يمكن ان تراه فيه اذا كنت حريصا على لقائه ، ولو بدافع الفضول ، تقاطع الشوارع الصغيرة التي لاتوجد فيها اشارات مرور ضوئية .

وهو رجل في بعض الاحيان وامرأة في اغلب الاحيان . فقد حصلت المرأة السويسرية على حقوقها كاملة .. واصبحت تجدها في موقع الرجال في كل مكان ، طبعا وهي ناخبة ثم هي تتمتع بحق ترشيح نفسها لأية انتخابات .

وهي في عملها دائما انيقة ، دائما هادئة .. تعرف كيف تختار ملابسها وتعنى بمظهرها مهما كان نوع العمل الذي تؤديه . ثم هي زوجة وست بيت .. تحب الاطفال ، فالطفل في سويسرا هو « الملك الوحيد » الذي يمشي فوق بساط من الزهور ! وكأنهم زرعوها من اجله ، ونسقوها له وحده . لانها - الزهرة والطفل - شيء واحد ، وكما تنمو الزهرة وتتفتح اوراقها في الحدائق العامة والخاصة ، بفضل رعاية مئات العمال والمهندسين الزراعيين ، يكبر الطفل في البيت وفي المدرسة التي اعدوا كل شيء فيها من اجل راحته وتربيته وتعليمه .

ولكنها - اي المرأة السويسرية - لها بعد الطفل طبعا

هواية اخرى . . هي تربية الكلاب . . انها تحب هذا الحيوان وتدلله وتتفنن في تجميله وقص شعره . . وهو صديقها الذي يصطحبها في كل مكان . . وتسأل السؤال التقليدي الذي يمكن ان توجهه ايضا الى المرأة في فرنسا او في انجلترا : « ماسر هذا الحب للكلاب ؟ » فيقولون لك على الفور : « لانه أمين على حبنا له ، ولانه يحب اطفالنا ! »

فهم لايربون الكلاب لكي تحرسهم ، فهم ليسوا في حاجة الى حراسة احد . . فانت في سويسرا آمن على نفسك وعلى مالك . تستطيع مثلا ان تترك سيارتك مفتوحة حتى لو كانت مليئة بالمشتريات ، ثم تعود اليها في اليوم التالي ، فتجدها كما تركتها . . « انت في سويسرا ياسيدتي ! » هكذا قال مدير الفندق لسيدة ايطالية ، كانت تقوم برحلة حول اوربا بسيارتها ، عندما اوقفتها امام باب الفندق ، واعربت له عن مخاوفها من سرقة المشتروات التي جمعتها خلال رحلتها ، او سرقتها كلها !

حرية الرأي

هنا يتحرر الفكر . . ويتحرر الرأي ، وهناك ثلاثة مبادىء تميز الدستور ، وهي السلطة في يد الشعب ، والدولة كونفدرالية ، والفرد له الحريات التي تسمح له بتطوير امكانياته . . ولاتوجد رقابة رسمية ، فالضمير هو الرقيب ، والصحافة حرة ، ولو انها لاتخلو ، كما قال لي احد اعضاء الوفد السويسري في الامم المتحدة ، من « الرأي المتسلط ، كما يحدث في اي بلد اخر ، فلك ان حرية الفكر وحرية الحديث هي انواع خاصة من الحرية لايمنحها المرء بسهولة للآخرين . . وهي مسألة نسبية على اية حال ! »

حتى قبل دستور الاتحاد الجديد ، كانت سويسرا منبعا للفكر فالبعد الثقافي الذي خرج منها يمثل نسبة اعلى منه في اي بلد اخر ، وقد بدأ اول مابدأ بعلم اللاهوت عندما اسس زفنجلي وكالفان مع مارتن لوثر ، منذ اكثر من خمسمائة عام ، المذهب البروتستانتي ، او مذهب المحتجين ، وراحوا يبشرون بمذهبهم الجديد في زيورخ وجنيف . . وقد ترك كالفان بصماته على الفكر المدني والديموقراطي ، كما اثر زفنجلي على الاخلاقيات القائمة على التسامح . .

وفي الطب ، توصل الكيمائي الطبيب « باراسلس » الى نظرية جديدة للعناصر الفعالة في القرن السادس عشر عندما قال بأن الشفاء من المرض انما هو نتيجة لاعمال القوى الحيوية . كما قدم باراسلوس ، افكارا جديدة لتطوير علوم النفس والاحياء والكيمياء ، اخذ بها العلماء بعد رحيله بقرون طويلة ، وكانت هذه الافكار هي الاساس الذي اعتمد عليه « كارل يانج » في عمله وهو يضع نظرية الطاقة الشمسية ، كما اسهم « جان بياجيه » ببحوثه في تطوير علم نفس الطفل وفلسفة العلوم الانسانية .

وفي البحث الكيمائي ، يبرز عالمان كبيران حصلا على جائزة نوبل للعلوم وهما « موللر » مخترع مادة أل د . د . ت « وبول كاريه » الذي نجح في عزل فيتامين « أ » وفيتامين « ك » .

« استقطاب العقول وتشجيعها ودفعها وحمايتها كانت ومازال سياسة الاتحاد ، حتى قبل رسم حدود سويسرا الحالية في اوائل القرن التاسع عشر ، حتى قبل أن يصبح لها دستور يحمي الفكر الحر والمفكرين » هكذا قال لي احد العرب المقيمين في سويسرا منذ حوالى عشرين عاما أو اكثر !!

الفرنك الصعب !

اقرأ الساعة السويسرية ، فقد اصبحت اليوم قراءة . . انها لاتعطيك الوقت وحده . . وانما التاريخ واليوم وعمليات الضرب والطرح والقسمة ولا ادري ماذا ايضا ، وفي قراءتك لها ، سوف تجد الاجابة على تساؤلات كثيرة تدور في رأسك وانت تقف وتشاهد وتتأمل مايدور حولك . هنا بلد يتعامل باصعب عمله في العالم . . الفرنك الذي اوشكت قيمته ان تعادل قيمة « الدولار » الذي كان في يوم ما يتربع على عرش عملات الارض ! كل شيء في سويسرا يعمل مثلما تعمل الساعة ، ابتداء من عملتها !

والبنوك السويسرية تحتل مركزا قويا داخل البلاد وفي المراكز المالية العالمية . وبالرغم من الفائدة الزهيدة التي لاتتجاوز اثنين في المائة على المدخرات ، بعد استقطاع الضرائب منها ، تجد اصحاب رءوس الاموال من الاجانب غير الطامعين المغامرين ، يتسابقون على ايداع اموالهم في هذه البنوك التي يزيد عددها على عدد الجمعيات التعاونية الاستهلاكية حتى بلغت بنكا لكل الف او اكثر قليلا من السويسريين ! فالمواطن في هذا البلد حريص على الاقتصاد ، انه يكسب المال من وظيفته او تجارته اولا ، ثم يقتصد من هذا المال ، ثم يستثمر مايقتصد . . واخيرا يبدأ في الشراء ! لقد بلغت حسابات التوفير في البنوك حوالى تسعة ملايين حساب مستقل . للزوج حساب ، وللزوجة حساب ، ولكل طفل حساب باسمه ! فاذا اعتبرنا ان لكل

مواطن سويسري حساب توفير في البنك ، فمعنى هذا ان هناك حوالي ثلاثة ملايين حساب توفير لغير السويسريين من خارج البلاد .

والبنوك في سويسرا تحتفظ بسرية حسابات العملاء ، ولكن الاهم انها غير ملزمة بفتح دفاترها امام اي سلطة ، حتى لو كانت تابعة للحكومة نفسها ! من هنا ، ومن اجل هذا « الملك » الجديد ، الذي ازاح الملك السابق « الدولار » من مكانه ، وجو الثقة الذي يعيش فيه ، يقبل اصحاب رءوس الاموال على ايداعها في بنوك سويسرا التي لها حق رفض او قبول « فتح الحساب » دون ذكر الأسباب ، ولو انها بدأت تتخلى عن الكثير من القيود التي كانت تضعها في الماضي وترحب اليوم اكثر برؤوس الاموال والاستثمارات الاجنبية . والبنك الوطني او المركزي ، هو المسؤول عن سياسة النقد والعملة ، ويبلغ احتياطي الذهب في خزائنه عشرة آلاف مليون فرنك ويغطي نسبة كبيرة من اوراق البنكنوت التي تصدرها وتقوم شركات التأمين واعادة التأمين بدور هام في موازنة الحساب الجاري في سويسرا ، وقد قامت هذه الشركات بأعمال التأمين في جميع انحاء العالم منذ اكثر من قرن كامل من الزمان .

وفي السوق المحلية وحدها يستخدم اكثر من ١٨٪ من الانتاج القومي كله في اغراض التأمين .

الحرب والسلام

والحروب التي خاضتها سويسرا ، والغزوات التي تعرضت لها من جانب البورجنديين والالمان والايطاليين والفرنسيين ، كلها اصبحت صفحات من التاريخ لاتمت للحاضر بصلة . الحاضر الآن ومنذ قيام الاتحاد قبل اكثر من قرن ، وبينما كانت الدول الاخرى ومازالت مشغولة بالحروب والنزاعات والخلافات كان السويسريون يعملون في بناء بلدهم ، ويتعلمون من دروس الماضي ، ويحولون امتهم الى واحدة من اكثر دول العالم تقدما ورفاهية .

ولكن مع حيادها ومسالمتها للعالم كله من حولها ، لم تنس انها لكي تحمي هذا الحياد ، فلابد ان يكون لها جيش . وكل مواطن في سويسرا جندي في هذا الجيش الدفاعي ، من الشباب الذي يبلغ العشرين حتى الخمسين عاما . . كل واحد منهم يحتفظ في بيته ببدلته العسكرية ، وبندقية و٢٤ طلقة !

انه يستعد دائما للقتال دفاعا عن بلده وسيادتها وحيادها . وتنفق الدولة على جيشها الدفاعي مايقرب من البليون دولار سنويا . ويضم الجيش العامل حوالي ستمائة الف جندي و٤٠٠ طائرة حربية .

أمة من الالمان ، وهم يشكلون اكثر من ٧٥٪ والفرنسيين والايطاليين ، تعيش في انسجام وسلام حتى عندما يتعذر التفاهم بالحديث بينهم . . المهم ان عليا واحدا يجمع هؤلاء وغيرهم من اقليات اخرى على اساس جذري هو الصداقة الشخصية التي كانت دائما اساسا لهذا التماسك كما وصفها الكاتب والشاعر « جوتفريد كيلر » على لسان احد حملة العلم في مباراة للرماية ، عندما قال الجندي : « ليس لدينا نمط واحد رتيب من السويسريين . فهناك اناس من زيوريخ واخرون من برن وهناك من ينتمون الى نوشاتيل وانتر فالدن ، وبازل والجريزون . . ولكل منطقة من هذه المناطق تاريخها ، ولكن تجمعنا في النهاية « الوحدة » رغم هذا التنوع ، وهي مدرسة الصداقة الصحيحة ، ولا تتحقق الاهداف السامية الا عندما يصبح التماسك السياسي صداقة شخصية بين افراد شعب باكمله ! .

كل سويسرا تحمل اليوم علم « الصليب الاحمر » ، فهو الذي يعبر عن فكرة تقديم المساعي الطيبة ، التي نادى بها « هنري دونانت » رجل الاعمال السويسري من مدينة جنيف ، وهي التي قامت عليها جمعية الصليب الاحمر الدولية ، وايضا سياسة الدولة القائمة على التضامن مع الحياد ، والوجود تحت تصرف الجميع ، تحمله فرقة شكلتها الدولة من المتطوعين لتقديم خدماتها عند وقوع اية كارثة !

قصر الامم

ونعود الى الحديث عن قصة سويسرا مع الامم المتحدة . . ومتى وكيف اصبحت جنيف مقعدا للمنظمة الدولية ؟ وتبدأ القصة في عام ١٩١٩ ، عندما وقع الاختيار على هذه المدينة المحايدة لتكون مقرا لعصبة أو رابطة الأمم ، رغم المحاولات التي بذلت من جانب بعض دول الغرب لعقد اول مؤتمر لهذه الرابطة الجديدة في مدينة بروكسل التي كانت من المدن المرشحة في ذلك الوقت لتصبح مقرا للرابطة واجتماعاتها .

وبدأ العمل في بناء مقر سكرتارية الرابطة ، في قصر ويلسون الذي يطل على بحيرة جنيف ، وانقضت بضع سنوات حتى قامت الحرب الثانية ، وكان اخر اجتماع عقدته في صيف عام ١٩٣٩ ، ومع انتهاء الحرب كانت الرابطة قد ماتت ثم نسي العالم كل شيء عنها طوال سني الدمار والحرب والخراب حتى كان عام ١٩٤٦ عندما اعلن رسميا حل رابطة الامم مع نهاية القتال الذي خرجت منه



الشعب هو المشرع وليس ممثليه في المجالس النيابية وحدهم . اجتماع لاعضاء « المجلس الكبير » في الهواء الطلق .

سويسرا سالمة بفضل حيادها المعلن بين الحلفاء والمحور ، وقامت الامم المتحدة في مقرها الجديد « قصر الامم » الذي بقي حتى وقت قريب ، اكبر وأضخم مبنى يضم ممثلي الدول المستقلة التي تضاعف عددها خلال الربع الماضي من هذا القرن .

وقد كان من الممكن ان تبقى جنيف مقرا رئيسيا للأمم المتحدة غير ان شبح رابطة الامم التي شهدت المدينة موتها ، كان يخيم على تفكير العديد من الدول التي خشيت للمنظمة الجديدة ان تلقى نفس المصير . . وهكذا حالت العوامل النفسية دون بقاء المقر الدائم للأمم المتحدة في هذه المدينة .

وكان ان اتفق الحلفاء على اختيار مدينة نيويورك ، وقبلت روسيا « الحليفة » في ذلك الوقت الاقتراح على مضض . . فقد كان السؤال : « ولماذا نيويورك ؟ ان الولايات المتحدة الامريكية ليست دولة محايدة ! » ولكن اعتراض روسيا « الحليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع ان يقف في وجه القرار الجماعي . . فقد كانت مازالت حليفة رغم الخلافات التي بدأت تظهر بين دول الغرب من ناحية وحليفتها الشرقية الكبرى !

وقام المقر الدائم للامم المتحدة في نيويورك ، وبقي هناك ، ومازالت الجمعية العامة تعقد فيه ، ومازال مجلس الامن يجتمع في نيويورك . . ولكن غالبية الوكالات المتفرعة عنها بقيت تجتمع في جنيف وبعضها في فيينا عاصمة النمسا .

ماذا تريد سويسرا ! »

التغيير . ثم التغيير حتى انتقال قصر الامم ، الى فيينا ، يدخل في هذا الاتجاه الى التغيير . . لم لا ؟ ولكن التغيير الحقيقي الذي يستطيع المرء ان يلمسه بوضوح يكمن في دستورهم الذي لايكفون عن الاضافة اليه والحذف منه . . وفي رغبتهم الحقيقية في رؤية وجه جديد وبرامج جديدة كل سنة من اجل هذا تنتخب الجمعية الفيدرالية المكونة من مجلسي الشيوخ والنواب ، مجلسا فيدراليا يضم سبعة اعضاء يرأسهم رئيس الاتحاد السويسري . . ولكن هذا الرئيس ليس دائما ، فالمجلس يجتمع كل عام ، وينتخب رئيسا جديدا للاتحاد من بين أعضائه السبعة . . حتى اذا انتهى العام ، اجتمع المجلس من جديد لاختيار رئيس جديد . .

ربما الشيء الوحيد الذي لايميل السويسريون كثيرا الى تغييره هو تلك الاشياء الصغيرة التي الفوها في حياتهم اليومية راحبوها . . فهم مثلا يأكلون الشيكولاته باللبن ، ويملأون ساعات « الكوكو » التي لكي تستمر في دقاتها ، فلابد ان تملأ مرة كل إثنى عشرة ساعة ، ثم يضعون الثقوب في انواع الجبن الذي يصنعونه ويبحثون عن زهور جديدة يزينون بها واجهات بيوتهم ويزرعونها في حدائقهم ويشمون رائحتها التي تملأ جو بلادهم ، فهي عندهم رائحة الحرية التي ينعمون بها . ◻◻

منير نصيف .

فتح طشقند

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب

طشقند هي الآن عاصمة جمهورية اوزبكستان السوفيتية ، لكن طشقند التاريخ كان لها شأن اخر . . .

تقع طشقند في اقليم الشاش الذي يقع غربي اقليم فرغانة على ضفة نهر سيحون اليمنى ، اي الضفة الشمالية الشرقية .

والخرائب المعروفة اليوم بطشقند القديمة ، هي موضع المدينة التي سماها العرب المسلمون : الشاش ، وسماها الفرس : (جاج) ، وكان لكثير من اسماء المدن في بلاد ما وراء النهر تسميتان ـ فارسية وتورانية .

وكان يقال لمدينة الشاش ، بنكث او بيكث ، وهي قصبة اقليم الشاش .

ومقدار عرض اقليم الشاش مسيرة يومين في ثلاثة ايام سيرا على الاقدام ، وليس بخراسان وبلاد ما وراء النهر اقليم على مقدار مساحة اقليم الشاش ولا أكثر منابر منه ولا اوفر قرى وعمارة .

واقليم الشاش عموما في ارض سهلة منبسطة ليس في هذه العمارة المتصلة جبل ولا ارض مرتفعة ، وابنيتهم واسعة من طين ، وعامة دورهم يجرى فيها الماء ، وهي كلها مستترة بالخضرة ومن انزه بلاد ما وراء النهر .

وكان على طشقند « الشاش » اسوار كثيرة ، فقد كان لها مدينة داخلة ، لها قلعة تلاصقها ، عليها سور .

وفي خارج المدينة الداخلة الربض (الضاحية) الداخل ، وعلى هذا الربض سور ، ويليه ايضا الربض الخارج ، وفيه بساتين وحقول كثيرة ، وحول هذا الربض الخارج سور ثالث .

واخيرا السور الكبير ، على غرار ما كان لبخارى ، يحمي الناحية كلها ، فيكون حول طشقند من ناحية الشمال بهيئة نصف دائرة يصل ما بين ضفة نهر الترك في الشرق ونهر سيحون في الغرب .

وفي القلعة دار الامارة والحبس ، وللقلعة ، بابان : احدهما يفضي الى المدينة الداخلة ، والآخر الى الربض الداخل .

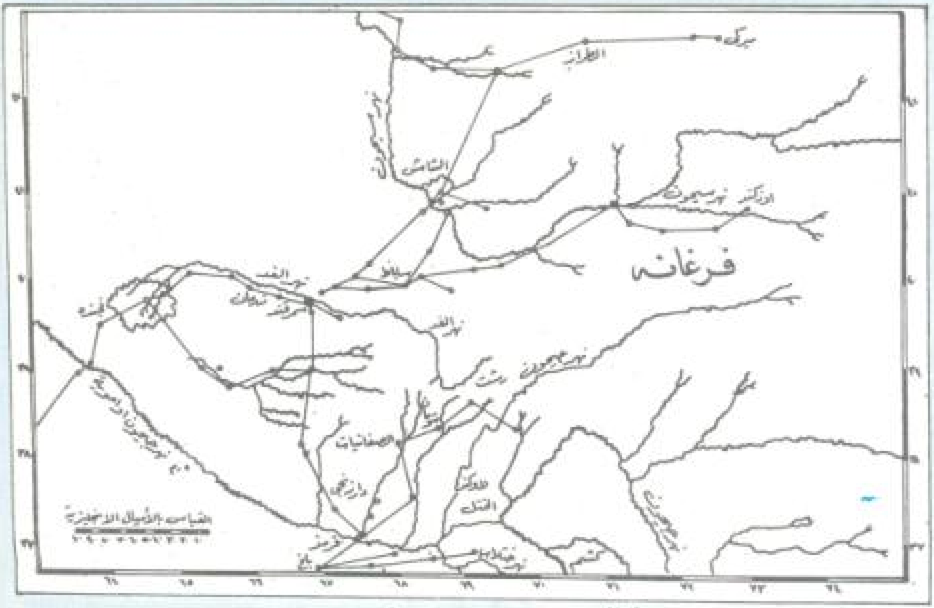
وكان المسجد الجامع على سور القلعة .

والمدينة الداخلة فرسخ في مثله ، وفيها بعض الاسواق ولها ثلاثة ابواب : باب ابي العباس وباب مدينة ركش يفضي الى الجنوب حيث يصل الطريق القادم من سمرقند وباب الجنيد .

وكان للسور الذي يحيط بالربض الداخل عشرة ابواب ، وللسور الذي يحيط بالربض الخارج سبعة ابواب ، وكانت اسواق المدينة في الربض الداخل .

ويشق البلد انهار وقنوات كثيرة ، تسقى البساتين والحدائق في داخل الاسوار ، والمدينة نزهة تكسوها الخضرة والاشجار الباسقة وتغطى ابنيتها ، فكأنها الجنة في خضرتها وكثرة مياهها .

وقد نبغ في طشقند علماء كثيرون ، منهم ابو بكر محمد



اقاليم نهري سيحون وجيحون

بن علي بن اسماعيل القفال الشاشي (٢٩١ هـ - ٣٦٦ هـ) ، رحل عن الشاش طلبا للعلم ، فتفقه وعاد اليها ، وكان اوحد اهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة ، سمع ابا عروبة وابا بكر بن خزيمة ، ومحمد بن جرير الطبري ، وابا بكر الباغندي وابا بكر بن دريد ، روى عنه الحاكم ابو عبد الله وابو عبد الرحمن السلمي .

وينسب الى الشاش ابو الحسن بن الحاجب بن جنيد الشاشي ، احد الرحالين في طلب العلم الى خراسان والعراق والحجاز والجزيرة والشام ، وتوفي بالشاش سنة ٣١٤ هـ . قال ابو الربيع البلخي يصف مناخ الشاش : -

الشاش بالصيف جنة ومن اذى الحرجنة
لكنني يعتريني بها لدى البرد جنة

لقد كانت طشقند حصنا منيعا من حصون الاسلام دينا والعربية لغة ، ولا تزال ، على الرغم من تحملها في سبيل دينها ولغته الاهوال .

التمهيد للفتح

في سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) سار قتيبة بن مسلم الباهلي الى سمرقند ، بعد ان صالح اهل خوارزم وقبض صلحهم .

وكان المجشر بن مزاحم السلمي قد قام الى قتيبة وقال له سرا : « ان اردت الصغد يوما من الدهر ، فالآن . . . فانهم آمنون من ان تأتيهم من عامك هذا ، وانما بينك وبينهم عشرة أيام » .

وكان المسلمون يغزون كل سنة اقليما لفتحه فغزوا تلك السنة خوارزم ، فكان عليهم ان يعودوا الى مرو عاصمتهم في خراسان ، قبل حلول موسم البرد القارس في تلك الاصقاع ذات البرد الشديد .

والصغد او السغد ، هو الاقليم الذي يضم سمرقند وبخارى ، كما يطلق على القوم الذين يعيشون فيه : الصغد او السغد ايضا ، وهذا الاقليم هو تركستان الغربية الذي اصبح بحوزة الاتحاد السوفياتي .

وقال قتيبة للمجشر : « اشار بهذا عليك احد ؟ » قال « لا » قال : « فاعلمته احدا ؟» قال « لا » ، فقال قتيبة : « والله لئن تكلم به احد ، لاضربن عنقك » .

ومن الواضح ان قتيبة قصد ان يلتزم الكتمان الشديد في عمليته ، ليباغت اهل الصغد بها مباغتة كاملة بالزمان ، ليشل حركتهم ، ويضمن النصر لعمليته .

ولما اصبح الغد ، دعا قتيبة اخاه عبد الرحمن بن مسلم ، وامره ان يتحرك بالفرسان والرماة باتجاه مرو ، ويستصحب معه اثقال الجيش ، فمضى عبد الرحمن ، وقدم الاثقال ، وسار يوما كاملا ، فلما امسى ، كتب اليه قتيبة : « اذا اصبحت ترجه الاثقال الى مرو ، وسر بالفرسان والرماة نحو الصغد ، واكتم الأخبار ، فاني بالاثر » .

وبلغ قتيبة الصغد بعد عبد الرحمن بثلاثة ايام أواربعة ، وقدم معه اهل خوارزم وبخارى ، فحصرهم شهرا ، وقاتلهم في حصارهم من وجه واحد في سمرقند .

وكتب اهل الصغد الى ملك اقليم الشاش (اقليم طشقند) واقليم فرغانة : « ان العرب ان ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما اتونا به ، فانظروا لانفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة ، فابذلوها » .

واستقر رأى ملكي الشاش وفرغانة على امداد اهل الصغد ، فأرسلا اليهم : « ابعثوا من يشغلهم ، حتى نبيت عسكرهم » .

وانتخب ملكا الشاش وفرغانة من اولاد الملوك واهل النجدة من ابناء المرازبة والأساورة والأبطال ، وامروهم ان يأتوا عسكر قتيبة ويبيتوه ، لانه مشغول عنهم بحصار سمرقند .

وبلغ قتيبة الخبر ، فاختار من عسكره اربعمائة مجاهد ، وقيل : ستمائة مجاهد ، من اهل النجدة والشجاعة والايام ، واعلمهم الخبر ، وامرهم بالمسير الى عدوهم ، وسارت هذه المفرزة المؤلفة من المغاوير المسلمين ، عليهم صالح بن مسلم اخو قتيبة ، ونزلوا على فرسخين من العسكر على طريق اهل الشاش وفرغانة ، الذين قدموا خفافا لنجدة اهل سمرقند والصغد .

وارسل صالح عيونه وارصاده ، فاخبروه ان العدو سيصل اليه ليلا ، ففرق خيله ثلاث فرق ، كل فرقة منها جعلها كمينا ، فجعل كميناً في موضعين ، بالقرب من الطريق واقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق .

وطرقهم العدو ليلا ، وهم لا يعلمون بمكان صالح ورجاله وكانوا آمنين في انفسهم من ان يلقاهم احد دون معسكر قتيبة حول سمرقند ، فلم يعلموا بصالح ومن معه من مغاوير المسلمين في كمائنهم حتى غشوهم ، فشدوا على كمين صالح ، حتى اذا اختلفت الرماح بينهم ، خرج الكمينان الآخران ، فقاتلوا العدو وطوقوه ، قال احد رجال صالح : « انا لنقاتلهم اذ رأيت تحت الليل قتيبة ، وقد جاء سرا ، فضربت ضربة اعجبتني ، فقلت ، كيف ترى بامي وابي ؟ فقال : اسكت فض الله فاك » .

واستطاع فرسان صالح التغلب على عدوهم ، فلم يفلت منهم الا الشريد ، واسروا بعض الاسرى ، وغنموا خيلهم وسلاحهم .

وعلم الصغد في سمرقند باندحار اهل الشاش وفرغانة الذين جاءوا لنجدتهم ، فاثر ذلك في معنوياتهم اسوأ الاثر ، وانهارت معنويات الصغد .

وبعد قتال عنيف ، صالح قتيبة اهل سمرقند ، وفتحها صلحا .

لم يكن فتح اقليم الصغد وتطهيره من المقاومة المعادية ، وهو اقوى اقاليم بلاد ما وراء النهر واحصنها واغناها واخصبها واكثرها سكانا ، الا تمهيدا لفتح بقية اقاليم بلاد ما وراء النهر ، ومنها اقليم الشاش .

وليس قتيبة من اولئك القادة الذين يسكتون على تكرار مهاجمة اهل الشاش لجيشه مددا لاهل الصغد ولغيرهم ، فكان لا بد من فتح بلادهم واسكات مقاومتهم المتجددة في كل فرصة سانحة ، وضم بلادهم الى الدولة الاسلامية .

ومضى شتاء سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، وجاء ربيع سنة اربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) فقضى الشتاء واوائل الربيع في الاستعداد لغزو فرغانة والشاش .

وفي اواخر ربيع سنة اربع وتسعين الهجرية واوائل صيفها ، قطع قتيبة نهر جيحون ، وفرض على اهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين الف مقاتل فقطع قتيبة النهر (نهر جيحون) وسار الى الفتح .

ووجه اهل بخارى وكش ونسف الى اقليم الشاش وتوجه هو الى اقليم فرغانة في وقت واحد ليحول دون تعاون اهل الاقليمين في صد الفاتحين .

واصطدم قتيبة بالعدو في خجندة حيث جمع له اهلها ، فلقوه واقتتلوا مرارا ، وفي كل مرة يكون الظفر فيها للمسلمين .

وفتح الجند الذين ساروا الى اقليم الشاش هذا الاقليم ، كما فتحوا مدينة الشاش واحرقوها ، لانها قاومت بعناد ، ثم رجعوا الى قتيبة بالفتح والغنائم .

وعاد قتيبة بالناس الى مرو ، ليقضي فيها الشتاء ، وليعد رجاله لفتح جديد .

وبعث الحجاج بن يوسف الثقفي امير العراقين سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) جيشا من العراق ، فغزا بهم قتيبة الشاش من جديد : فلما كان بالشاش اتاه موت الحجاج فغمه ذلك كثيرا ، لان الحجاج هو الذي ولاه خراسان ، وكانت الثقة بينهما متبادلة الى ابعد الحدود ، فقفل قتيبة راجعا بجيشه الى مرو .

وتفرق الناس ، فخلف في بخارى قوما ، ووجه آخرين الى كش ونسف ، وفي مرو اتاه كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك : (قد عرف امير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد اعداء المسلمين ، وامير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك ، فاتم مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغب عن امير المؤمنين كتبك ، حتى كأني انظر الى بلادك والثغر الذي انت فيه) .

وحينذاك اطمأن قتيبة الى ان الوليد لن يعزله عن خراسان فاستأنف مغازيه الرائعة ، واستعاد انتصاراته المجيدة ، فما كانت فتوح قتيبة في كثافتها وتلاحقها كسائر الفتوح بل كانت في سرعتها ، وكثرتها كالطوفان الجارف والتيار الهادر .

دروس الفتح

اهم فوائد التاريخ ، استخلاص الدروس والعبر من دراسته ، التي تفيد الامة في حاضرها ومستقبلها ، ومعرفة الماضي هي وحدها تطوع لنا تصور المستقبل وتوجيه الجهود الى الغاية الجديرة بتراثنا العربي الاسلامي العريق .

ان الماضي والحاضر والمستقبل ، وحدة لا سبيل الى انفصامها ، ومعرفة الماضي هي الوسيلة لتشخيص الحاضر ولمعرفة المستقبل .

وأول هذه الدروس هو « الكتمان » ، فقد كان في نية قتيبة ان يغزو اقليم الصغد هذه السنة ، والتوجه اليه في وقت لا يتوقعه اهله ، فلما اقترح عليه المجشر ان يتوجه الى الصغد هذه السنة ولا يؤجل التوجه اليه الى السنة القادمة ، استجوبه قتيبة ليطمئن الى انه لم يطلع احدا على اقتراحه ، وهدده بالموت ان هو افشى الى غيره هذا السر الخطير .

ولم يكتف قتيبة بذلك ، بل وجه اخاه عبد الرحمن بالفرسان والرماة والاثقال باتجاه مرو ، وهو الاتجاه المعاكس للصغد ، ليظهر للعدو والصديق انه يريد العودة الى عاصمته ولا يريد فتح الصغد هذه السنة ، فلما اطمأن الى انه شوش الاخبار على العدو بخاصة ، امر اخاه بالاتجاه الى الصغد ، بالفرسان والرماة ، وتوجيه الاثقال الى مرو ، وهي التي لا لزوم لها في ميدان القتال ، لتبقى القوة الاسلامية الضاربة خفيفة الحركة سريعة التقدم نحو هدفها .

والكتمان من المصطلحات العسكرية معناه : اخفاء المعلومات العسكرية عن العدو والصديق ، وعدم افشاء الاسرار العسكرية ، مهمة كانت ام تافهة ، لان افشاءها الى الصديق ، قد يؤدي الى تسربها الى العدو بشكل او بآخر .

وما اروع الدرس الذي ينبغي ان نتعلمه من الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام فقد كان اذا اراد غزوة ورى بغيرها وفي غزوة فتح مكة ، كتم نيته عن كل احد ، فدخل ابو بكر الصديق رضي الله عنه الى ابنته عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تهيىء جهاز النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : « اي بنية ، امركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تجهزوه ؟ » ، قالت « نعم ، فتجهز » قال : « فاين ترينه يريد ؟ » قالت : « والله لا ادري » .

وليس من المعقول ، ولا من المنطق ، ان النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يثق باقرب المقربين اليه : زوجه عائشة وابيها ابي بكر رضي الله عنها ، ولكنه اراد ان يعلم امته درسا في الكتمان .

والدرس الثاني الذي ينبغي ان نتعلمه ، هو المباغتة التي هي اهم مبدأ من مبادىء الحرب على الاطلاق كما هو معروف .

فقد باغت قتيبة اهل الصغد بالزمان ، اذ لم يكونوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم خلال تلك السنة ، ولكن قتيبة سار اليهم في زمان لا يتوقعونه ، فما كان امامهم الا الاستسلام .

وباغت قتيبة اهل الشاش وفرغانه الذين جاءوا مددا للصغد ، بارسال قوة مختارة من فرسانه ، كمنت لهم في الطريق وحوله ، فضربهم ضربة قاضية في وقت لا يتوقعونه وفي مكان لا يتوقعونه ، وباسلوب قتالي لا يتوقعونه ، فشل ارادة عدوه على القتال شللا كاملا وألحق بهم خسارة فادحة بالارواح ، فلم ينج من المدد الذي قدم لمساندة الصغد الا الشريد لان قتيبة باغتهم بالزمان والمكان والاسلوب .

ولم تكن هذه المباغتة الكاملة لتتم كما ينبغي ، لو لم يحرص قتيبة على الاطلاع على نيات اهل الشاش وفرغانه في التقدم نحوه مددا للصغد ، ويعرف الطريق الذي سلكوه وتعداد القوات المعادية المتقدمة ، وموعد وصول تلك القوات الى معسكر المسلمين ، فتمم قتيبة الخطة المناسبة لاحباط الخطة المعادية ، وصد قواتهم عن تحقيق هدفهم في مساندة الصغد .

والدرس الثالث الذي ينبغي ان نتعلمه ، هو حضور قتيبة بنفسه الى مسرح القتال ، مستفيدا من ظلام الليل البهيم ، ليطلع بنفسه على سير القتال ، ويتخذ التدابير المناسبة الفورية لاحراز النصر في تلك المعركة الجانبية التي تؤثر في سير القتال كله ، دون انتظار وصول الموقف اليه في مقره الرئيس في الخلف ، ليصدر القرار اللازم ، بعد ذهاب وقت الانتظار سدى ، مما يؤدي الى ضياع الوقت الثمين دون مسوغ .

لقد كان قتيبة من اولئك القادة الذين يقودون رجالهم من الامام ، يقول لهم : « اتبعوني » ولا يقودهم من الخلف ، يقول لهم « تقدموا » وهو قابع في موضع امين .

وكان قتيبة يستأثر بالخطر ، يؤثر رجاله بالامان ، لذلك نال ثقتهم الكاملة ، ورفع معنويات قواته ، وقادهم من نصر الى نصر .

تلك هي الدروس الثلاثة التي ينبغي ان نتعلمها من قيادة قتيبة النادرة وما اعظمها من دروس ، وما احرانا عربا ومسلمين ان نتعلمها ونضعها دوما نصب اعيننا ، فقد كثرت هزائمنا ونكساتنا ، باهمالنا وبما جنت ايدينا ، وما اصدق المثل العربي القديم : « اذا كان عدوك نملة ، فلا تنم له » . ■■

بغداد ـ محمود شيت خطاب

أحببتها وتزوجتها ، ومازلت احبها .. لماذا هي ؟ لا ادري ! ولكن الذي اعرفه ولن يغيب عن ذاكرتي هو انها استطاعت ان تخلق مني رجلا آخر غير الذي كنته ! كيف ؟ أيضا لا ادري .

« روبرت لويس ستيفنسون »

هذه هي المرأة التي أبحث عنها

بقلم : منير نصيف

من هي المرأة التي عناها ستيفنسون بهذا الكلام ؟ ماذا عندها مما ليس عند باقي النساء أي ؟ امرأة تلك التي يلقاها الرجل مرة فلا ينساها أبدا ، وما الذي يشده إليها ؟ هل هو حديثها ، هل هي ابتسامتها . هل هي لفتة القدمت عليها فحملتها إلى قلبه وحفرت صورتها في مخيلته ؟

لاأحد يدري ، ولا حتى الرجل نفسه ! كل ما يمكن أن يقوله لك .. « هذه هي .. إنها المرأة التي كنت ابحث عنها . هذه ضالتي ! » .

ويمضي مع هذا « اللغز » كما اسماه « سمايلي بلانتون » في كتابه « المرأة التي أحببتها » انه يروي قصة امرأة احبت الحياة والناس وأحبها رجل لايعرفها ولاتعرفه ، وحمل صورتها في قلبه وبقيت هناك .. كانت معه في صحوه وفي نومه .. في كل لحظة يخلو فيها إلى نفسه ... كانت كل شيء في حياته التي عاشها مع الوحدة إلى أن كان اليوم الذي لقيها فيه فاحس ان الدنيا كلها تبتسم له ، وتمنى لو انها قبلت ان تشاركه حياته في هذا العالم الجديد !

في الاوتوبيس

في صباح يوم ممطر من ايام الخريف كان لقاؤه بها وسط الزحام . كان يجلس في المقعد المواجه لباب الصعود في سيارة الاوتوبيس في طريقه إلى مكتبه عندما احس بالسيارة تزحف بهم والسائق يحاول ان يقف امام المحطة .. ربما كانت المياه التي اغرقت الطريق هي السبب وربما كان السائق قد تردد قليلا في التوقف ، فقد كانت السيارة مزدحمة بالركاب .. كل المقاعد مشغولة ولفتت نظره ، كانت قطرات الماء تكسو وجهها وشعرها الأسود الطويل الجميل .. كانت كلما همت بأن تضع قدمها على السلم تسبقها سيدة أخرى إلى الصعود ! كانت غالبية المنتظرين على المحطة من النساء .. وأخيرا صعدت وأخذت تجول بعينيها بين الجلوس ، لعلها تجد بينهم مكانا تجلس فيه هي الاخرى ، فقد كان يبدو عليها التعب .. واخرجت منديلا من حقيبة يدها راحت تجفف به قطرات الماء العالقة بها ثم مرت به فوق رأسها محاولة ان تجفف بعض الماء الذي كان ما يزال يتساقط من رأسها !

وتاهت وسط الزحام

وتعلقت عيناه بها .. راح يرقب كل ما تفعله وهي ممسكة بالحزام الجلدي المتدلي من سقف السيارة باحدى يديها ، بينما تحاول ان تفتح بيدها الأخرى حقيبتها لتدفع



ثمن التذكرة .. وكاد يختل توازنها وتسقط لولا ان امتدت يد السيدة التي كانت تقف ملاصقة لها تماما وتساعدها في فتح حقيبة يدها .. كانت حقيبة كبيرة بعض الشيء منتفخة بما تحويه أكثر مما تستوعب .. وفجأة سقطت الحقيبة على الأرض وتناثرت محتوياتها .. كتب وكراريس واكياس صغيرة مليئة بالحلوى .. وتطوعت جارتها وراحت تساعدها في جمع « ثروتها » واعادتها الى الحقيبة مرة اخرى .. وأخيرا عثرت على كيس نقودها تحت هذا الزحام ، واخرجت قطعة فضية وضعتها في الثقب المخصص لها ، واخذت تذكرتها . وهمست في اذن منقذتها بكلمات لم يسمعها احد غيرها ، وضحكت هي .. وكانت السيارة قد اقتربت من المحطة ونزلت صديقة « الاوتوبيس » وبقيت هي ، واخيرا جاء دورها فنزلت هي الاخرى . وبقي يلاحقها بعينيه حتى عبرت الطريق .. ولكنه لم يستطع ان يمضي في رحلته معها لأكثر من هذا فقد كانت السيارة قد ابتعدت عن المكان وتاهت هي من جديد وسط الزحام .

ماذا دهاه !

ولم يشعر بشيء مما كان يدور حوله ، كان مشغولا بها .. حتى عندما وقف ليستعد للنزول لم يسمع صيحة السيدة الجالسة بجوار الباب وهي تدعوه في لهجة يشوبها الاستنكار ان يرفع قدمه الثقيلة عن حذائها ، لأنها هي ايضا تريد ان تقف وتنزل في المحطة القادمة .

ومشى في طريقه إلى مكتبه وصورة المرأة الرقيقة الباسمة لاتفارق مخيلته لحظة واحدة .. وفجأة وجد نفسه يقف حيث هو ولايتحرك وكأنه تذكر شيئا خطيرا استأثر بكل اهتمامه .. كيف .. كيف فاته ان يقدم لها مقعده .. ماذا دهاه .. الم يكن في وسعه ان يقول لها : « اجلسي انت ياسيدتي فقد تعبت أنا من الجلوس » ... كان يستطيع على الاقل ان يحمل عنها الحقيبة الثقيلة المتخمة وهو جالس . لو فعل لكان من السهل عليها ان تفتحها ولما سقطت منها وحدث ماحدث .

وبقي في مكانه لايتحرك ، والمطر يتساقط فوق رأسه فلا يحس به وبدا وكأنه يريد ان يعاقب نفسه على جريمة ارتكبها ، الى ان افاق اخيرا على صوت احد زملائه : « ماذا دهاك يارجل ؟ » .

ثم كان اللقاء !

لم يغمض له جفن في تلك الليلة عندما عاد الى بيته والقى بجسده المتعب على الفراش وحاول ان ينام . لقد كانت صورتها هناك أمامه لم تغب عنه لحظة واحدة ..

من تكون هذه المرأة ومن اين جاءت .. وإلى اين كانت ذاهبة ؟ ... وذهب إلى عمله في الصباح ولكنه كان متعبا .. وانقضى اليوم .. وخطر له خاطر .. لماذا لايبحث عنها ؟ إنه يذكر المحطة التي نزلت فيها وعبرت عندها الشارع . وذهب .. وماكاد يصل حتى فوجيء بها قادمة من بعيد وكأنهما كانا على موعد . واحس بضربات قلبه تتلاحق ... إنها هي هل يمكن ان يستجيب الله لدعائه بمثل هذه السرعة . ؟ . ولم يتردد في هذه المرة . اقترب منها وحياها . وردت التحية بابتسامة حلوة صامتة .. ولكنها ما لبثت ان استدركت بينها وبين نفسها : « ابتسم لرجل لا اعرفه : ماذا دهاني ؟ » .

وقالت : « ولكنني لا اذكر انني أعرفك أو أنني التقيت بك قبل اليوم . من انت ؟ » .

ـ ولكنني اعرفك .. ثم راح يحدثها عن رحلة الاوتوبيس في ذلك اليوم الممطر وما حدث لها مع حقيبتها التي امتلأت باكياس الحلوى وهي تحاول الوصول الى

كيس نقودها وضحكت . . واحس ان الدنيا كلها تضحك معها . !

ـ انا ياسيدتي اعمل مهندسا صغيرا في مصنع لايبعد كثيرا عن هذا المكان . وانت ؟ اني اعمل بالتدريس . . هل ترى هذه المدرسة ؟ هناك التقي باطفالي كل صباح واعلمهم واعطيهم حتى مع الحلوى التي اوزعها عليهم وينتظرونها بعد تناول طعام الافطار . لابد ان اذهب الآن . امي تنتظر عودتي ، وهي تقلق كثيرا عندما اتأخر عن موعد عودتي الى البيت . . إنها الانسانة الوحيدة التي بقيت لي في هذه الدنيا وانا اعيش معها وأرعاها . واشرق وجهها بابتسامة وهي تودعه وتسرع للحاق بسيارة الاوتوبيس .

انسانة جديدة

وانقضت بضع دقائق وهو واقف في مكانه وقد سرح بفكره في هذه الانسانة الرقيقة التي وهبت حياتها لأطفالها الصغار في المدرسة ولأمها التي تسهر على رعايتها .

رأى فيها انسانة جديدة تختلف عن كل النساء اللواتي صادفهن في حياته . . فقد كان كل شيء فيها يقول إنها تعيش وتعمل من اجل إسعاد الآخرين . . .

وكانت هي ايضا سعيدة . . كل تصرفاتها توحي بذلك . وكأنها كانت تجد السعادة التي هي فيها عندما تشعر انها استطاعت ان تسعد هؤلاء الذين عرفوها وتعلقوا بها فاعطتهم كل حبها .

وتكررت لقاءاتهما ، فقد حفظ موعد انتهائها من عملها ، فكان يقوم بهذه الرحلة القصيرة بعد ظهر كل يوم ويلقاها في نفس المكان ، في نفس الموعد ، وكان قانعا دائما بتأمل هذا الوجه وتعبيراته ، ثم الحديث مع صاحبته وهما يعبران الشارع ثم وهي تقف في انتظار الاوتوبيس الذي سيقلها عائدة إلى بيتها ثم لايلبث ان يمضي كل منهما في طريقه . لم يحاول مرة واحدة ان يصحبها في رحلة العودة . ولكنه قرر أخيرا ان يفعل . « غدا ، نعم ربما يكون الغد مناسبا لكي اطلب اليها ان تسمح لي بمرافقتها الى البيت فقد كنت اتوق للقاء الام التي انجبت هذه الانسانة الرقيقة ثم ماذا . . هو نفسه لم يكن يعلم ماذا يريد مع هذا اللقاءوبعده .

. . . وتزوجا

وجاء الغد . . ولأول مرة وجد نفسه قريبا منها . .

وراح يحدثها عن نفسه . . عن طفولته . . وعن عمله وحياته . . انه يعيش وحده بعد رحيل ابويه وقد كان وحيدهما . . . مثلها تماما . . ولكنها أسعد حالا منه ، فهي تعيش مع أمها ، ومازالت تجد أحب واغلى انسانة في انتظارها دائما لتلقي برأسها الصغير المتعب فوق صدرها الحنون .

وقدمته إليها . . وانحنى يقبل اليد التي امتدت لتصافحه . . كانت سيدة عجوزا جاوزت السبعين ، وخط الشيب شعر رأسها ، وكانت تجلس على مقعد وثير ، ومن وراء نظارتها كانت تبدو منهمكة في تطريز مفرش صغير جميل ، ما لبثت ان وضعته جانبا ثم راحت تتفرس في هذا الوجه وتنصت الى حديثه وهو يحكي لها قصته مع ابنتها وكيف تعارفا الى ان كانت المفاجأة ، وقد جاءت سريعة وهو يمسك بقدح الشاي في يده ويرشف منه ببطء وخجل ويسأل : « هل تقبلينني ابنا لك ياسيدتي ؟ سوف اكون اسعد انسان في الدنيا اذا قبلت ان تزوجيني ابنتك .

وكأنها كانت تنتظر هذا الطلب ، ولكنها لم تتصور أن يجيء بمثل هذه السرعة . . فقد رأت في عينيه اشياء كثيرة منذ الوهلة الاولى وهي ترحب به وتدعوه الى الجلوس . وخلعت النظارة عن عينيها ، حتى تستطيع أن ترى تأثير هذه المفاجأة على ابنتها ، فوجدتها تبتسم في هدوء كما تعودت أن تراها دائما في كل احوالها حتى اذا غضبت ، وبدت وكأن هذا الكلام الذي سمعته لتوها لايعنيها من قريب او من بعيد ، ومع هذا فقد فهمت الأم مالم تقله الابنة . وتزوجا . . .

قصة كل يوم . . ولكن !

والى هنا وليس في القصة جديد . . شاب يلتقي بفتاة يحبها حتى قبل أن يعرفها ، ويتزوجها . وهي قصة كل يوم وان اختلفت ظروف اللقاء . . فقط اطال الكاتب كثيرا في وصفه اهتمام الشاب بالفتاة التي يراها لاول مرة .

والمؤلف يسوقها لنا في كتابه « المرأة التي أحببتها » مع عشرات القصص الأخرى للقاءات أخرى في ظروف أخرى ، ثم يجيب في النهاية على التساؤل الذي طرحناه في بداية هذا الكلام « اي امرأة تلك التي يلقاها الرجل مرة فلا ينساها ابدا ؟ مالذي يشده اليها ؟ »

يقول سمايلي بلانتون ان اكثر من ثمانين في المائة من الرجال الذين اشتركوا في الاستفتاء الذي اجراه ، وكانوا

● هذه هي المرأة التي ابحث عنها !!

يتمون الى فئات مختلفة من الناس وفي بلاد تباعدت وتباينت ، قد اجمعوا على ان ابتسامة المرأة هي مفتاح شخصيتها اذا كنت محظوظا ورأيتها تبتسم ، فلن تخطئ ابدا في تقديرك لصاحبة هذه الابتسامة . طبعا انها لاتبتسم لك فهي لاتعرفك . . . هذا شرط اساسي .

فهي تبتسم لحديث طريف مع احدى صديقاتها مثلا ، او لمنظر رأته . . او شيء اغضبها فكثيرا ما تكون الابتسامة مع الغضب وسيلة المرأة للتعبير عن سخريتها مما اثار غضبها بهذه الابتسامة دخلت « موناليزا » لليوناردو دافنشي التاريخ ! ففي هذه اللوحة الرائعة خلط الفنان الكبير بين الغموض والواقعية ، ولكن المرء لايملك بعد ان بعد يتأملها الا ان يشعر انه كان يقرأ ملحمة !

ابتسامة المرأة

في ابتسامة المرأة يرى الرجل مدى ما تتمتع به من ذكاء . . كيف ؟ والاجابة على هذا السؤال تتوقف على ذكاء الرجل نفسه ، فهو قد يجد معها معاني كثيرة تبقى حبيسة الى ان تنطلق مع ابتسامتها او مع النقيض في ثورة غضبها .

واكثر من اربعين في المائة من الذين شملهم الاستفتاء يبحثون عن المرأة الذكية . . المرأة العاطفية التي تنفعل للأحداث ، وتهتم بكل ما يجري حولها ، فلا تهز كتفيها غير مبالية او لاتقيم وزنا لما يراه الناس عندما يختلفون معها فيما ترى . وهم يفضلون الذكاء على الجمال .

ولكن هذه كلها صفات لن يستطيع الرجل ان يكتشفها الا بعد ان يعرف المرأة التي اختارها ، واذن فقد خرج بنا بلاتون عن الموضوع .

ولكنه لايلبث ان يعود اليه . . . انها ابتسامة المرأة اولا فهي التي تضع فيها كل اسرار نفسها فاذا خرجت عفوية كانت مرآة يراها فيها الرجل قبل ان ترى هي فيها ما بداخلها !

. . وصوتها

ثم ماذا ؟

صوتها عندما تتحدث بلا تكلف ، عندما تكون على طبيعتها ، ولكن متى كانت المرأة على سجيتها ؟ انها لاتكون الا اذا كانت في صحبة ليس فيها مكان للمنافسة لانها تحرص دائما على أن تبدو الافضل ، او عندما تكون على درجة من الثقافة توفر لها الثقة بنفسها ، فتنطلق في حديثها ببساطة تقوم على اساس من المنطق وقوة الاقناع . ثم يصف سمايلي بلاتون صوت المرأة بالسمفونية التي تعزفها ، وتطرب لها أذن الرجل ولكن عندما احب روبرت براونتج شاعر الانجليز ، الفتاة التي اختارها لتشاركه حياته لم يكن قد سمع صوتها ، ولا رآها تبتسم . . لقد كانت شاعرة مثله وكان اسمهااليزابيث باريت . . وكان يقرأ شعرها . . وكان يتخيلها جميلة مثل قصائدها رقيقة مثل المعاني التي تحملها اشعارها التي كانت تكتبها . . واحبها ، وكتب اليها يعرض عليها الزواج ولم يكن حتى هذه اللحظة قد التقى بها أوعرفها . . . رسالتها الوحيدة اليه كانت قصائد رائعة قرأها معه كل الناس .

ولكنه كان شاعرا مثلها . . وكانت اجمل قصة حب في الأدب الانجليزي . . . .

لاادري

ثم يصل بلاتون الى خاتمة رحلته مع المرأة التي « احبها » ، فيقول : « لقد بقي السؤال الذي طرحناه في البداية عن هذا « اللغز » . . لماذا هي ؟ . . . لماذا هذه المرأة دون غيرها من النساء . ؟ . بقي السؤال كما هو بغير جواب مقنع . . . فقد تكون ابتسامتها كما قال البعض وقد يكون صوتها . . وقد يكون شيء اخر لا يعرفه الرجل حتى الآن . . فهو نفسه يعترف بانه لايدري لماذا هي ؟

وهل نجحت هذه الزيجات ؟ نعم نجحت واستمرت واثمرت ، لانها لم تكن ابدا قائمة على مصلحة . ■■

منير نصيف

الهجاء عن بعد

● قالوا لسقراط يوما « ان بعض الناس يهجونك هجوا فاحشا » فاجاب « وماذا يعنيني هذا . دعوهم يهجونني بل دعوهم يضربونني مادمت بعيدا عنهم » .

باترشيا هايسميث والرواية البوليسية النفسية

بقلم : محمود قاسم

انضم أخيرا السيد ريبلي الى الشخصيات البوليسية الادبية الشهيرة بعد شارلوك هولمز وأرسين لوبين والمفتش بوارووور كامبول . لكن توم ريبلي هو أكثر هذه الشخصيات انسانيةوأكثرهم ارتباطا بالسلوك البشري العادي . والجريمة لديه ليست متعمدة ، وليست عبارة عن تحقيقات ومطاردات بوليسية بين بعض المغامرين أو القتلة . لكنها حدث بشري يحدث في ظروف حتمية لا مفر من حدوثها . ومثل هذه الشخصيات لا يجيد صناعتها سوى الكاتبة الأمريكية باتريشيا هايسميث التي جسدتها في عدة روايات ، سنلقي حول بعضها الأضواء من خلال أدب الكاتبة .

ولدت باتريشيا في نورث ورث بولاية تكساس في التاسع عشر من يناير عام ١٩٢١ .. وقد انفصل والداها وهي في الثالثة من عمرها ... تزوجت أمها من رجل لم ينجب قط . يدعى ستانلي هايسميث الذي تبنى الفتاة فأصبحت ابنته الشرعية . وكان بالنسبة لها ـ كما سنرى ـ أكثر حنانا وأبوة من أبيها الذي هجرها تماما . اكتشفت الصغيرة « بات » أثناء دراستها الابتدائية حقيقة السيد ستانلي لها مما سبب لها صدمة شديدة .. وجعل أمها تسجلها تحت لقب هايسميث .

وقد اعتبرت هذه الحادثة أولى مواجهات الصغيرة مع العديد من أحداث عاشتها بعد ذلك ، فزوج أمها كان أكثر حنانا وعطفا من أبيها .. وتقول بات عن أبويها :

« لا أحب أمي كثيرا . لماذا ؟ . أولا : لأنها صنعت من طفولتي جحيما صغيرا . ثم لأنها لم تكن تحب أحدا من أقاربها .. لا أبي ولا زوجها . ولا أنا . ففي آخر مرة سافرت فيها الى تكساس ـ في فندق صغير وجدت أمي تعيش في مأوى للعجائز ذوي الصحة الطيبة . أضاءت جهاز التلفزيون الخاص بها . لم تتكلم منذ أن تكلمنا منذ أربع سنوات .

و أعرف أبها ـ وابن عم لي ـ هما آخر أفراد أسرتي . لقد مات الباقون . لكن من بقي لي ؟ .. أصدقاء من نيويورك ولندن وألمانيا . وأنا أحبهم كثيرا .. وبالرغم من أنني لست عاطفية جدا . الا أن هذا شيء رائع » .
وعن هذه الأم تقول أيضا :



« اعرفها أقل مما أعرف أي انسان آخر . أتصدق انني موضوعية . أزن الأشياء بعقلي أكثر . وهكذا أمي . وأنا معجبة جدا بشجاعتها . فقد طلقت . وكانت هي التي قررت ذلك . ورفضت النفقة التي اقترح أبي دفعها لها . . اليوم أقدر تلك الجهود الأمية التي فعلتها بالنسبة لي ومن أجل دراستي . فالدراسة تتكلف كثيرا في الولايات المتحدة بالجامعة . رحلت الى كولومبيا . وعندما تخرجت في جامعتها في سن الحادية والعشرين ، كنت قد تعلمت اللغة اللاتينية . والاغريقية . مما ساعدني أن أصبح مؤلفة رسوم متحركة . وقد أتاحت لي هذه اللعبة أن أصبح مشهورة « الغرفة » الثرية مثل فرجينا وولف . أما شهرتي أنا فمتواضعة وهي أشبه بغرفة دون صالة استحمام » .

وعن جدتها تقول : كنت أحبها . وكم رغبت أن أعيش معها . أما أمي فهي على العكس . لقد شعرت بالضياع بعد أن هجرت أمي . وقد انغلقت على نفسي بعد ذلك بالرغم من أن زوج أمي كان يمثل بالنسبة لي عاطفة رقيقة . وأعتقد أنني كنت أحبه .

أما أبوها فهو انسان رقيق عاطفي ، لا أملك شيئا أقوله عنه . ولا هو » .

وفي السابعة والعشرين تمت خطوبتها لفترة قصيرة ثم فسخت قبل الزواج . « كنت أخاف أن أغدو أما . فليس عندي الصبر أن أربي طفلا . انها مهنة صعبة جدا بالنسبة لي أن أكون مربية وشابة . أليس كذلك ؟ فلو كان لدي أبناء فسوف أنشغل بتربيتهم دون أدنى مساعدة وسوف أغدو أقل تكيفا . وسأعمل بجدية » .

غريبان في القطار

وباتريشيا لم تكف عن الكتابة منذ أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها . قرضت الشعر وكتبت المقالات والقصص القصيرة . ثم قررت أن تتجه الى كتابة الرواية « لا تسلني لماذا اخترت قصة الجريمة . . ؟ فقد خطرت الفكرة بذهني دون مقدمات . لم أكن قد قرأت أية قصة بوليسية . وما زلت حتى اليوم أجهل وقائع هذا الأمر . فلا أعرف أجاثا كريستي » أو « كونان دويل » ولكني أفضل اعادة قراءة تولستوي ودوستويفسكي . وهنري جيمس » .

كتبت بات في أول الأمر روايتين . وعندما عرضت ما كتبت على الناشرين لم توفق . الا أنها عندما كتبت « غريبان في قطار » لم تلق في أول الأمر نفس الاقبال « ليست الأمور في الولايات المتحدة مثلها في فرنسا . فيجب الحصول على مقدمة مناسبة حول الخمسين صفحة الأولى من المسودة . وقد عرضت نصف الرواية لأنني في حاجة الى نقود أدفعها الى صاحب المنزل . لكنهم لم يؤمنوا بعملية تبادل الجريمة بين بطلي الرواية » .

وهذه الرواية تدور حول مجهول يركب قطارا . ويقترح على رفيق له - قابله في القطار - أن يتولى قتل امرأة . على أن يقوم هذا المجهول بقتل أبي الرفيق . ويذهب كل من الاثنين لتنفيذ الخطة . ينجح أحدهما . أما الآخر فيفشل . وتكون نهايته القتل .

وقد اشترى المخرج « الفريد هيتشكوك » حقوق تحويل هذه الرواية الى فيلم خلال أسبوع من نشرها . وقال عنها « أولا يدور المكان داخل قطار . وقد أكد بعض المارة،بسرعة،مشاعري البديهية قال أحدهم : أتعرف ان النسبة المئوية لجرائم القتل التي تتكلم عنها الصحف هي ١٢٪ ؟ ماذا تتصور في النسبة المئوية الباقية ؟ انها أشياء عادية غير قابلة للتصديق . . . وهؤلاء القتلة هم اللذين لا تطاردهم الشرطة أبدا . أعجبني ثانيا في هذه الفكرة الرائعة انك لو افترضت ان كلا منا قد ارتكب جريمة قتل لحساب الآخر . واننا تلاقينا في قطار . . . ولا أحد يعرف اننا نعرف بعضنا البعض ، وقدم كل منا للآخر عذرا مقبولا » .

وقد لقي الفيلم نجاحا مماثلا للكتاب . غمرت شهرة باتريشيا هايسميث العالم كله وليس في الولايات المتحدة وحدها . أصبحت معروفة داخل أوروبا واليابان . وعرفت بأنها أول روائية تمزج بين الانفعالات النفسية

والأدب البوليسي . ولست مؤلفة روايات بوليسية . لأنني لا أهتم بأن أضع فيها التوتر أو الغموض ، وكذلك رجال الشرطة . لكن سلوك أحد المجرمين قد يسحرني فجأة ، وهذا الأمر يمكن أن يسري علينا جميعا . وذلك من حيث ظاهرة ردود فعله التي سلكها . فإن الحوار العادي يصبح بالنسبة لي أكثر سحرا بمجرد أن ألمسه في غرائزي . وهذا هو دينامو رواياتي . .

القاتل البريء

ومن أشهر رواياتها « القاتل » و « مياه عميقة » و « وجهان ليناير (كانون ثان) » و « هؤلاء الذين يسيرون بعيدا » و « صرخة اليوم » وأبطال بات ذوو مشاعر متوترة دون أن يكون لهم أية نيات نحو الجريمة . وقد اتضح هذا الخط في روايتها « الزنزانة الزجاجية » . . .

يخرج فيليب براون من السجن . قضى هناك خمسة أعوام ينتظر حكم البراءة . لقد أدين في قضية مالية وهو بريء منها . وديفيد محاميه وصديقه كان يحاول أن يثبت براءته لكنه لم يستطع . . في أول ليلة مع زوجته يحتضنها وهو يبكي قائلا :

- لقد عدت أخيرا . ويقضي فيليب أيامه في قلق . لكنه من النوع الشديد الصبر الذي لا يجزع بسهولة . . . زوجته تعمل في مكتبة وهو لا يجد عملا . .

أما ديفيد فهو صديق للأسرة . يعرف فيليب من خلال ابنه تيمي ، ان ديفيد كان يزورهم كثيرا . . ينادي أباه باسمه المجرد بينما ينادي ديفيد بلقب « عمي » . ويسعى ديفيد الى الحاق صديقه بعمل في أحد المكاتب . محام ناجح وشهير . وتربطه بزوجته علاقة سرية . يصرح له لاسكي ان ديفيد كان رفيقا لزوجته أثناء غيابه . في حفل عيد الميلاد الذي أقامه المحامي للزوجة . . تضحك وتتصرف بطريقة تجعل الزوج يفسد الحفل ويذهب كي يبحث ليلا عن امرأة ثم يشرب . لاسكي هذا هو الشريك الثاني الذي من أجله دخل فيليب السجن . انه مجرم اختلس وزور وسرق . وكان فيليب هو كبش الفداء فسجن . بعد أن خرج من السجن حاول لاسكي أن يجند من جديد صديقه القديم من أجل القيام بعملية جديدة . لكن فيليب يود ممارسة حياة أكثر أمنا . ديفيد يملك مستندات يمكن أن تكون شاهدا على ادانة لاسكي الذي يسعى الى الوقيعة بين فيليب ومحاميه . يصرح له بالعلاقة التي كانت بين زوجته وبين المحامي ابان سجنه . تقول الزوجة انها فعلا ارتبطت به لفترة . أسبوعين مثلا قبل صدور الحكم . ثم يعرف أنها ارتبطت به لفترة طويلة . وأنها لا تزال تذهب اليه حتى الآن . تقول : أنا معك . لكن لو كنت مت في الزنزانة لاخترت ديفيد .

ويزداد الضغط فوق الزوج من طرفين . . امرأة تخون ببساطة وكأن هذا حق من حقوقها . . . ومجرم يضغط عليه بأسرار فاضحة . . يعرف من خلال أحد التسجيلات ان زوجته وعشيقها قد عملا على ادانته بالرغم من ان الرجل يعرف تماما براءته وذلك كي يخلو لهما الجو تماما .

يذهب يوما الى بيت صديقه اللدود بعد انتهاء عمله فيفاجأ ان لاسكي يغادر منزله مسرعا . في سيارة لاسكي وضع جهاز اتصالات من خلاله يعرف كل ما يدور في شقة المحامي . وفي الشقة يعترف ديفيد لصديقه أنه أنقذه من موت محقق بعد أن حاول لاسكي قتله . ووسط حوار مكثف وجو خانق يسقط المحامي فجأة فوق الأرض متعثرا ويجد الزوج نفسه ممسكا بتمثال زوجته النصفي الذي نحته لها عشيقها يوما وينهال عليه تحطيما .

قالت الزوجة ان زوجها عاد الى المنزل في السادسة والربع ، بينما تمت الجريمة قبل خمس دقائق . عرفت أن زوجها قتل عشيقها . قاطعته قليلا لكنها شعرت بالراحة . أما الابن تيمي الذي كان أكثر ارتباطا بالعم ديفيد فقد قاطع أباه طويلا . المحقق لم يثبت شيئا نحو ادانة فيليب . لكن لاسكي طارد فيليب بالتسجيل الذي فيه كل الحوار الذي دار ابان قتل المحامي . ويطلب منه فدية كبيرة ولأنه لا يملك . ولأن لاسكي هو شاهده الوحيد يدبر خطة متقنة ويقتله . وللمرة الثانية لا يستطيع المحقق ادانته . لقد دخل السجن خمس سنوات كاملة لجريمة لم يرتكبها وكان ضحية لقوم ، فاذا به عندما يتحول الى شرير ويقتل بعد أن تعرض لضغوط رهيبة يخرج بريئا ولا يوجد أدنى دليل على ادانته .

الشخصيات الأدبية التي تصنعها باتريشيا هايسميث ذات مشاعر متوترة وليست لديها أية نية لارتكاب أية جرائم وتطحن من ظروف خارجة عنها . تتجسد في روايتها « الرجل الذي يحكي قصصا » فيتخيل لنفسه أنه قد قام بقتل زوجته . وتزداد حدة التخيل لدرجة أنه يبدأ في التصرف كأنه قتل فعلا رغم أنه لم يرتكب شيئا . الشك والارتياب . . والخوف من أن يكتشفه الناس . . وفي « يوميات اديث » نرى البطل امرأة على غير عادة بات . وتكرر هذا الأمر في رواية أخرى هي « القتل للقتل » التي تتحدث عنها قائلة « أنا لا أخترع أحداثا . . ولكنني أقرأ الصحف من أول سطر الى آخر سطر . وهذه الصحف هي التي تلهمني . ففيها يمكنك أن تجد قمة الرعب اليومي . فالصحيفة هي مختارات من الحكايات المجردة لكنني انتهيت بأن آمنت أن القراء يترفعون عن تصديق الخيال أكثر من القصص الواقعية . مما جعلني أومن أن الانسان كائن عبثي .

في الزنزانة الزجاجية

واديث ليست امرأة مخيفة ولكنها على العكس . امرأة رقيقة . متزوجة . وأم لطفل . وهي تنتمي الى البرجوازية الليبرالية التي تسعى الى تحقيق حلم قديم لديها بأن تسعى الى السكن في احدى ضواحي نيويورك الفخمة . ويمكن اعتبار هذه الرواية انها عشرون عاما من حياة زوجة عصرية . أو أنها آلام وعذاب امرأة تعيش داخل منزل . فاذا كانت الزوجة في « الزنزانة الزجاجية » تصرح أنها لا يمكنها التقاعد في المنزل لأنها اعتادت على العمل والخروج . فان أديث امرأة أكثر سكونا وأقل حركة . تعيش داخل نفسها . وتفكر في ارتكاب أشياء غريبة . أي أن الوحدة تعتبر واقعا آخر لدى باتريشيا لممارسة الجريمة . ويمكن القول ان هذه الرواية قد كتبت بأسلوب رجل . ففيها نرى كم من العداء تكنه باتريشيا لنساء مثلها . فبعد أن أدانت الزوجة في الزنزانة . فانها من جديد تدين أديث . وحول هذا الأمر صرحت يوما : « أنا ببساطة امرأة واقعية . فالمؤمنون بالمذهب النسائي لايمارسونه . وأنا لأؤكد على ذلك وأنا أعلن مساواة أجرهن في العمل . لكنهن في أغلب الأحيان يجففن في صحراء » وهذه الأديث هي امرأة قريبة في صفاتها الأنثوية الى باتريشيا « ليست برجوازية صغيرة . » من هؤلاء اللاتي نسمع عنهن بأسلوب متواضع . فهي تكتب وترسم . وتقوم بالبحث كما أنها تهتم بالكثير من المشاكل السياسية . ذكية . رقيقة وربما مجنونة . نوعا ما . مناهضة لحرب فيتنام . وهي تعيش حياتها الخاصة . فبعد أن كان يعيش زوجها في المنزل أشبه بشبح يتحرك هنا وهناك دون أدنى تأثير أو تأثر لما يحدث . يتركها ويتزوج من سكرتيرته . أما خالها العجوز فقد عانى من مرض لمدة عشرة أعوام يحتضر خلالها . وابنها الصغير يعيش مع أمه . . . لا يحس بها . . ولا يشاركها عالمها . . ولأديث عالمها الخاص في المنزل . كما أن لها أصدقاءها . وهي تعيش حياة وردية . وقد دونت أديث يومياتها طوال عشرين عاما بصدق غريب . لكنها تضطر يوما أن تكذب وتكتب في هذه اليوميات أشياء لم تحدث قط .

فالنساء يؤدين أدوارا ثانية في أعمالها . والعالم كله يخص الرجل . الرجل هو أساس الحياة ، أضع نفسي في شخصياتي . أرقبهم كأنني أعيش داخل حلزون . الرجال أكثر بحثا من المرأة عندما يتعرض أحدهم لاختبار ما . ومن جهة أخرى فان لهم النية نحو الحركة . يرحلون كي يفتشوا عن المثالية « المطلقة » بأي ثمن . تخيل المرأة مكان الكابتن آشاب في « موبي ديك » محال أليس كذلك ؟ . أما النساء فيعدن دائما الى المنزل » .

واذا كانت باتريشيا تسيء الظن ببنات جنسها من النساء . فانها تعشق الحيوانات الى حد بعيد ، ففي روايتها « فأر فينيسيا » نرى أن لهذا الحيوان عيونا مضروبة . فقد خرقها ذات يوم شابان صغيران . ويعيش الفأر حياته الطبيعية بأسلوب فريد . يتنزه وحده في شوارع فينيسيا ومياهها وقد ملأته الكبرياء . يرقب عجوزين من السائحين . وشجاعة هذا الفأر تجلب له نوعا من الراحة النفسية . ذات يوم يقع بين أيدي طفلين صغيرين . وهذان الطفلان يشكلان جهنم . لكنه يتمكن من الهرب من منزلهما ويعيش في مكان آخر .

والفأر يشهد العديد من الحكايات التي ترويها المؤلفة من خلال عين الفأر الذكي . والرواية شكل من أشكال روائية عديدة اشتهرت بها شتاينبك . يرى الفأر يوما رجلا يقتل امرأة كان يهددها فيما قبل . ويرى حصانا يود قتل سيدة . والقتلة في هذه الرواية لا يعاقبون . لكن تقتصهم الغضبات المعظمة .

وتقول بات لأن الحيوانات ليست مدنية . فانها تلد مخلوقات طيبة . وهكذا البشر الذين يتحولون فجأة الى أشرار . وعلى كل حال . فانهم موجودون - ويجب أن نحترم حياتهم . . وبالرغم من هذا فانها تبدو غير مجدية . مثل حياة الفئران » .

وشخصيات هذه الرواية نماذج انسانية فريدة . لكنهم حيوانات شجاعة يمثل مصيرها نفس مصير ومآسي البشر الذين يعيشون مواقف شائنة وتقول بات . انهم في الولايات المتحدة يعبدون قصص الجرائم والحيوانات » .

مع الدجاج والكلاب

وتعتبر قصة « يوم الغفران » أروع أقاصيص هذه المجموعة « مزارع يربي فيها الدجاج بأسلوب الكتروني منذ فترة طويلة داخل « أقفاص ضيقة للغاية » وهذا النوع من التربية الآلية تجعل المربي يصاب بسلوك غير آدمي . تحن زوجة الفلاح الى حياتها القديمة عندما كانت الدواجن تهرول في الفناء بحريتها . وقد أثار فيها موت ابنتها بعد حادث مفجع . فقد كانت الصغيرة تجري وراء قطها مما جعلها تصاب من جهاز آلي أصابها في عنبر الدواجن . وتصاب الأم باليأس والخجل . فتنتهز حلول الليل كي تقوم بتحرير كل الدواجن التي أصابها مس من الجنون . فالانسان عند بات هو الذي يصنع الدم ويستبيح لنفسه دماء الآخرين .

وعن حبها للحيوان أيضا تكتب « فدية كلب » عام ١٩٧٢ حول كلب يعيش مع عائلة ثرية في احدى ضواحي نيويورك . والكلب شغوف بالأعمال التي يمارسها أحد

رجال الشرطة الشباب المثاليين وهو يكتشف شابا مسكينا مصابا بداء الانفصام النفسي . يدخل في علاقة غريبة مع أناس يثون الرعب في قلبه . وبداية هذه الرواية تتسم بالسرعة والحركة ثم تمتلىء برتابة الحياة وروتينها .

وتعود باتريشيا كعادتها دائما الى التعاطف مع الطبقة البرجوازية في « هذا الغريب السيء » عام ١٩٦٧ . وفيها تتعرض لحياة ديفيد آخر . يشتغل عاملا في أحد مصانع ضاحية نيويورك . يعيش حياته العادية كأنها حياة خاصة . عزب يقيم في مسكن متواضع . ولا أحد يعرف عنه ان كان قد ارتبط بعلاقات عاطفية أو بأصدقاء سوى فرنسوا زميله في العمل الذي يقضي معه أغلب أوقاته . وفي البناية التي يسكن فيها يعيش أيضا السيد شوين صاحب العمارة الذي يعول والديه المريضين . وفي الشقة التي أسفله تسكن فتاة جميلة تدعى جوليت . خجولة . لا تتوقف عن مراقبة هذا المؤدب الذي لا يحادثها قط . . ويرحل ديفيد يوما الى الريف ليقوم برعاية أبويه . لكنه لم يذهب الى هناك . إن أبويه قد ماتا منذ زمن طويل . وعندما تسعى جوليت إلى معرفة سره ، تعرف أنه يقضي أيام الآحاد في مسكن صغير تخفيه الغابات . أجره ديفيد تحت اسم آخر . وفيه يلتقي بفتاة تدعى ليز التي ترتبط به منذ طفولتها . وهي متزوجة من رجل آخر وتعيش في مدينة أخرى ، ولم تأت يوما الى منزل ديفيد الذي اختارته بنفسها . وتخبره يوما أنها قد رزقت بابن منه . وعندما يجد ديفيد نفسه في مأزق يقرر أن يتخلص من ليز وابنتها .

أما أشهر شخصية صنعتها باتريشيا فهي توم ريبلي التي جسدتها في أربع روايات هي « السيد ريبلي » و « ريبلي في الظلام » و « ريبلي يتسلى » التي أخرجتها السينما الالمانية بعنوان « الصديق الأمريكي » و « في خطى ريبلي » . وريبلي هو شخص يسرق ويقتل من أجل أن يعيش فهو الذي يحرض جوناثان على ارتكاب جريمة قتل من أجل مصلحته . وجوناثان أيضا شخص من طبقة متوسطة مثل بقية أشخاص بات . أصيب بمرض سيودي به قريبا . ويرغب جوناثان أن يقدم لزوجته وابنته ثروة طيبة تجعلهما يتمكنان من العيش الرغد بعد وفاته . ويلتقي يوما بشخص غريب يقص عليه قصته فيطلب منه أن يقوم بقتل شخص لا يعرفه يسكن في باريس على أن يعطيه ريبلي هذا كل ما يطلب من نقود كي تتمكن أسرته من الحياة الرغدة .

وتقوم بين جوناثان وبين توم ريبلي علاقة غريبة . فكل منهما يود أن ينفذ اتفاق الآخر . . . لكن جوناثان يصاب بعدة انهيارات عصبية في مترو باريس . لقد تأكد أن الشخص الذي سيقتله هو أيضا مثله . انسان مريض فيقرر ألا يفعل شيئا لا يجيده سوى رجال محترفين . فهو لا يقبل أن يصبح سلاحا أصم وأعمى . آلة لا تستخدم إلا في القتل واسالة الدماء .

والجدير بالذكر أن باتريشيا تعشق المدن الأوربية . باريس . برلين . هامبورج فقد تركت نيويورك عام ١٩٦٨ لتستقر بصفة نهائية في باريس . واذا كانت مرجريت يورسنا قد هاجرت من فرنسا كي تقيم في الولايات المتحدة داخل جزيرة معزولة قريبة من الصحراء . فان باتريشيا فعلت العكس « الفرنسيون أقل مللا من الانجليز وأكثر جدية من الايطاليين » .

أما ألمانيا فقد عاشت فيها كثيرا ، ولها هناك أصدقاء كثيرون . وأنتجت السينما الالمانية فيلمين مأخوذين من أعمالها . ميونخ مدينة رقيقة تختلف عن باريس ولندن . وفيها يوجد كل الجيل الذي يمثل السينما الألمانية .

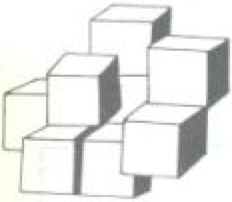
واذا كان جورج سيمنون أشهر روائي الشكل البوليسي في فرنسا قد كتب أكثر من أربعمائة وخمسين رواية فضلا عن مذكراته التي نشرها في عشرة أجزاء طويلة . فان باتريشيا تختلف عنه كثيرا . أنا بطيئة . أقل احترافا . أحاول أن أكتب ثماني صفحات . وعندما أكتب رواية . . فانني أكتبها مرتين أو ثلاثا .

وقد ارتبطت بات بالكثير من أبناء جيلها من الأدباء في الولايات المتحدة وأوروبا . قابلت في الولايات المتحدة الكثير من الأدباء . ترومان كابوت . كارسون ماكلورز وماري ماكارثي . وفي فرنسا قابلت جورج بيريه . وفي انجلترا قابلت جرهام جرين .

وقد يكون من الغريب ألا تدافع باتريشيا في كتابتها عن النساء . أو أن تناصر حركة النساء المعروفة الآن بين نساء أوربا مثلما تفعل أديبات مثل كلير التشرلي وجان شاميون . . . الا أنها في نفس الوقت لا تميل الى معاشرة الرجال . فقد صرحت يوما أنها لا ترغب أن تتحول الى رجل . كما لم ترغب أن ترتبط في حياتها برجل يتزوجها ويجعلها أما . وقد أعلنت أكثر من مرة أنها قد تزوجت رجالا عديدين صنعتهم في رواياتها مثل توم ريبلي وفيليب براون . وعن الجنس تقول :

أعتقد أن من واجبي ككاتبة أن أفضل طريقة لادانة البشر أن يميل جنس الى جنس آخر . . . وهذا الأمر ليس سهلا . . . فالجنس في كل مكان . لكنه لا يصبح حساسا الا عندما يتغلب على اللذة وتسوق الانسان بعيد جدا . راسكولنيكوف مثلا . لقد قرأت أخيرا رواية الجريمة والعقاب . ضمن مرات عديدة . وفي كل مرة أكتشف أنه عالم رائع » .

الاسكندرية ـ محمود قاسم



حتى تعرف مرض السكر

بقلم : الدكتور ابراهيم فهيم

اذا كنت تعيش العصر ، فلا بد لك ان تعرف الكثير عن مرض السكر !

في عام ١٧٨٩ لاحظ دوبسون أن هناك مرضا من أهم أعراضه افراز كميات هائلة من البول المحتوى على مقادير مختلفة من السكر .. ولذلك أطلق عليه اسم البول السكرى . واقترح لعلاجه الحد من تناول السوائل والامتناع عن استعمال السكر والأطعمة السكرية .

وظلت الحال على هذه المعلومات البدائية مائة عام كاملة ، حتى بدأ العالم الروسى أوسكارمينكو سكى / سنة ١٨٨٩ يجرى تجاربه على الحيوانات فأستأصل البنكرياس من أحدها ووجد أنه سرعان ما أصيب بمرض البول السكرى ومات متأثرا به بعد أسابيع قليلة .

وتمت الخطوة التالية عام ١٩٠٠ عندما أتيح ليوجين أوبي معيد الباثولوجيا في مدرسة كورونيل الطبية تشريح جثة فتاة توفيت بمرض البول السكرى فلاحظ اضمحلال جزر « لانجرهان » الموجودة في البنكرياس . وهذه الجزر كان قد عثر عليها بدون أن يدرك وظيفتها بول لانجرهان / عام ١٨٦٩ كوفىء لذلك باجازة الدكتوراة من جامعة برلين . »

وفي عام ١٩١٦ وضع شيفر نظريته التي أساسها أن جزر لانجرهان تفرز هورمونا يهيمن على تمثيل السكر .

ومنذ ذلك الحين قامت البحوث على قدم وساق في مختلف أنحاء العالم لمحاولة استحضار خلاصات من البنكرياس تشفى مرض السكر ... ولكن ذهبت جهود العلماء والفسيولوجيين هباء ، مما اضعف نظرية شيفر واحاطها بهالة من الشكوك .

اكبر انتصار

وفي عام ١٩٢١ ، أتيح لفردريك جرانت بانتنج الذي كان جراحا في الجيش الكندى ، أن يحرز اكبر نصر في عالم الطب الحديث دون أن يكون له أية خبرة سابقة في الأبحاث الأكاديمية .

ولد بانتنج في مدينة اليستون بمقاطعة او نتاريو بكندا عام ١٨٩١ والتحق بمدرسة الطب بجامعة تورنتو عام ١٩١٢ ودفعه شعوره الوطنى المتقد لأن يقطع دراسته ويتطوع في الجيش . ولكن سرعان ماصدر الأمر بأن يكمل دراسته وما ان تخرج عام ١٩١٦ حتى التحق بالقسم الطبى بالجيش الكندى وسافر في الحال الى صفوف القتال الأمامية في فرنسا حيث جرح عام ١٩١٨ وانعم عليه بميدالية الصليب الحديدى لأعمال البطولة التي قام بها في الميدان .

وعقب عودته لبلاده التحق بوظيفة معيد بقسم التشريح والفسيولوجيا بمدرسة غرب أونتاريو الطبية بعد أن منى بالفشل الذريع في ميدان العمل الحر .

وذات مساء كان عليه أن يستعد لالقاء محاضرة عن علاقة البنكرياس بمرض السكر ، وبينما كان يقلب صفحات بعض المراجع العلمية لهذا الغرض ، استرعى نظره مقال غيّر مجرى حياة الملايين من مرضى السكر في العالم اجمع .

وكان هذا المقال يتضمن وصفا تشريحيا لجثة عثر

فيها على حصوة نادرة في قناة البنكرياس ، نشأ عنها انحلال جميع خلاياه التي تفرز العصارة الهاضمة ماعدا جزر لانجرهان . ولم يكن في تاريخ حياة المتوفاة مايفيد بأنها كانت مصابة بمرض السكر او انها اصيبت به في وقت من الأوقات وقد كانت الوفاة لسبب آخر . وأيد بارون Baron صاحب المقال هذه المشاهدة بالتجارب العملية في جامعة مينوسوتا . فعندما ربط قناة البنكرياس في الكلاب حدث نفس الانحلال في ظرف شهرين .

ففكر بانتنج في انه باستخدام هذه الظاهرة ، يمكن الحصول على خلاصة نقية من جزر لانجرهان قد يكون لها تأثير على مرض السكر . وقد استحوذت هذه الفكرة على كل كيانه ، فقام في منتصف الليل ، ليدوّن في مذكرته ثلاث جمل قدر لها أن تغيرمصير مرض السكر ، وهذه هي الجمل الثلاث : -

١ - اربط قناة البنكرياس في الكلاب

٢ - انتظر حوالي ثمانية اسابيع ليتم انحلال جميع خلاياه الهاضمة ماعدا جزر لانجرهان .

٣ - استأصل البنكرياس وجرب خلاصته .

وعندما توجه الى تورينتو في صباح اليوم التالي ، عرض الفكرة على استاذه ماكلويد الذي لم يتحمس للمشروع أو يؤمن بامكان نجاحه ، غير أن تواضع طلبات بانتنج لم تدع له مجالا للرفض ، فقد انحصرت في عشرة كلاب ومساعد لمدة شهرين ، وتسهيلات لتحليل السكر في البول والدم ، فلم يسع الاستاذ الكبير الا الموافقة على مضض .

أول آدمي عولج

ولقد كان من حسن الحظ اختيار المساعد بست ، وكان طالبا بالسنة الثانية من دراسته الطبية وكيمائيا متمرنا .

ولقد أجريت أولى التجارب في ١٦ يونيه عام ١٩٢١ . فربط قناة البنكرياس في أحد الكلاب . واستأصل البنكرياس كلية من كلب آخر محدثا به مرض السكر وبعد ثمانية اسابيع استأصل البنكرياس من الكلب الاول وحقن خلاصته المائية في الكلب الثاني الذي كان يعاني وقتئذ غيبوبة السكر الشديدة ، وسرعان ماتمت المعجزة . وردت حقنته الجديدة الحياة الى الحيوان الذي كان وشيكا أن ينفق .

ولقد كان أول آدمي عالجه بانتنج بهرمونه الجديد هو صديقه وزميل دراسته الدكتور جلشرست ... وكم كان سرور بانتنج عظيما عندما وجد أن عقاره أنقذ في الواقع حياة صديقه العزيز . ولقد انتشر استعمال الأيليتين isletin الذي عرف فيما بعد باسم الانسولين بسرعة عجيبة ... فقد اكتشف انه يعالج مرض السكر في حيوانات التجارب في يناير عام ١٩٢٢ ، وما ان وافى يناير عام ١٩٢٣ حتى كان استعماله والافادة منه قد عمت كافة أنحاء العالم .

ولقد رفض بانتنج أن يحتكر هذا الكشف العظيم ، فقد كان مشبعا بالروح النبيلة والانسانية العالية التي هي في الواقع رسالة الطبيب . وعندما فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢٣ اقتسم قيمتها مع مساعده بست .

وما ان شبت الحرب العالمية الاخيرة ، حتى ترك أبحاثه ومعامله وانخرط في سلك الجندية من جديد ليستشهد في ميدان الشرف عام ١٩٤١ ، اذ تحطمت به طائرة حربية في نيوفوندلاند ، وهكذا هلك الرجل الذي انقذ بكشفه الخالد الملايين من البشر الذين لايعرفهم ولايعرفونه ، ولكن يربطهم به رباط الأخوة الانسانية المتين الذي لايعرف فوارق الجنس أو اللغة او الدين .

ولقد دلت الاحصائيات الاخيرة على انه في الولايات المتحدة الامريكية وحدها يبلغ عدد ضحايا مرض السكر الذين فاتهم التشخيص المبكر حوالي مليون نسمة على الرغم من سهولة طريقة التشخيص المعملي وبساطته ، وصعوبة وخطورة المضاعفات التي تنشأ عند استفحال هذا الداء الذي ثبت أن ترتيبه الثامن بين الأمراض الشائعة التي تؤثر على حياة الانسان تأثيرا مباشرا .

ويتميز مرض السكر بعجز الجسم عن الانتفاع بمادة الجلوكوز فتتركز في الدم وتفرزها الكلى في البول .

ولقد ثبت عمليا ، أنه يمكن احداث مرض السكر في حيوانات التجارب بمداومة حقن كميات كبيرة من الجلوكوز في دمائها لفترة طويلة .

السن عامل هام

وهذه التجارب تتفق وكثيرا من المشاهدات . فقد لوحظ أن الغذاء الغني بالمواد الكربوهيدراتية ، قد يعرض لمرض البول السكري عند من لديهم الاستعداد لذلك . والمعروف أن ذوى البدانة أكثر عرضة لهذا المرض من نحاف الأجسام .

والسن عامل هام ، فقد لوحظ أن المتقدمين في السن أكثر تعرضا للمرض من غيرهم ، فقبل سن الرابعة عشرة ، لاتزيد نسبة المرض عن شخص واحد بين كل ٢٥٠٠ شخص ، وبين سن ٤٤ ـ ٦٦ يوجد مريض واحد بين كل ١٠٠ شخص ، ومريضة واحدة بين كل ٥٠ امرأة متزوجة .

ولعله من الطريف أن نذكر أن غير المتزوجات لسن اكثر تعرضا للمرض من الرجال ،كما هو الحال بين المتزوجات ، ويرجع بعض الباحثين هذه الظاهرة الى زيادة الوزن التي تنشأ عن تعدد الحمل ، في حين يعتقد آخرون أن الحالة المادية والنفسية للمتزوجات هي التي تساعد على الترهل ، وبالتالي يتعرضن لهذا المرض أكثر من غيرهن .

ومن دراسة مقارنة لخمسة آلاف حالة بول سكرى ، اتضح أن ٧٨٪ من الذكور و ٨٣٪ من الاناث كانوا من ذوى البدانة قبل المرض ، وقد تبين أن الذين يبذلون مجهودا بدنيا هم اقل تعرضا للمرض من أولئك الذين لايتطلب عملهم الا حركة يسيرة . وهذا يفسر كثرة انتشار المرض بين رجال الفنادق وتجار الأغذية وغيرهم من ذوى العلاقة الوثيقة بالطعام والشراب .

اما دور الوراثة في هذا المرض فثابت منذ القدم . وفي احصائية حديثة ظهر أن ٥٠٪ على الاقل من المرضى الذين تقل اعمارهم عن عشرين عاما ، من عائلات ينتشر فيها البول السكرى . وعندما يتزوج مصابان بهذا المرض فمن المحقق أن يصاب به نصف ابنائهما على الأقل وهم صغار السن عادة .

ولعل أجل خدمة يمكن أن يؤديها الطب لمرضى السكر هى التشخيص المبكر حتى يمكن ايقاف مضاعفاته الخطيرة مثل تصلب الشرايين ، وتلف الكلى وشبكية العين . وقد تألفت جمعيات رسمية في كثير من الدول ، قوامها اخصائيون في التحاليل الكيمائية مهمتهم الكشف عن حالات السكر الكامنة ليتسنى العلاج المبكر الناجع .

وتخصص بعض الدول اسبوعا في كل عام لمرضى السكر يستطيع خلاله كل مواطن أن يحصل على تحليل مجانى للبول ، وتحليل الدم كذلك . ان لزم الأمر . ومن مهام هذه الهيئات تدريب المرضى من العامة ، على كيفية الكشف عن السكر في البول بأنفسهم .

وتحول جميع الحالات التي يثبت التحليل وجود سكر في البول بها الى معامل خاصة لاجراء تحليل الدم ، واختبار سرعة تمثيل الجلوكوز . اذ أن وجود سكر في البول وان كان يرجح وجود مرض السكر ، الا انه وحده لايصلح دليلا كافيا على ذلك .

دور أساسي للأنسولين

ومن مهام الهيئات الحكومية سالفة الذكور ، علاوة على الفحص الجماعى لكافة الشعب ، مساعدة المرضى على أن يحيوا حياة عادية وتحسين طرق العلاج المستعملة حاليا ، ونشر احدث مايتوصلون اليه من اساليب علاجية وتثقيف الشعب ، ورفع مستواه العلمى ... فيما يختص بدقائق مرض السكر وتشجيع البحث العلمى في هذا الموضوع .

وعندما يزمن البول السكرى تظهر اعراضه المعروفة بوضوح التي أهمها الظمأ البالغ ، كثرة التبول والحكة الشديدة ، والضعف ونقص الوزن ، واصابات الجلد وبطء التئام الجروح عامة .

وعندما يستفحل المرض تظهر مضاعفاته الخطيرة ، فيتضخم الكبد ويتدهن وتتصلب اوعية القلب والكلى والشبكية والأطراف السفلى .

ويتلو ذلك حموضة الدم حيث يعجز الجسم عن تمثيل المواد الدهنية ويصاب المريض بخمول عام ، وضعف شديد في القوى الحيوية والعقلية ، ويفقد الشهوة للطعام ، ويمكن تمييز رائحة الأسيتون في زفيره وهى تشبه رائحة التفاح والغيبوبة هى المرحلة النهائية لهذا المرض ...

ويتركز العلاج على نقط رئيسية ثلاث مرتبطة ببعضها البعض كل الارتباط ، هى الغذاء والمجهود اليومى والأنسولين أو أقراص مشتقات السلفا .

وهناك حالات كثيرة يمكن علاجها بتنظيم الغذاء وحده ، ومن هنا كانت أهمية التشخيص المبكر للمرض .

وتنظيم الغذاء يتوقف على عمر المريض ووزنه بالنسبة لطوله ، وما يقوم به من مجهود يومى .

اما الانسولين فهو عقار لايمكن الاستغناء عنه في بعض الأحوال ، والكمية اللازمة منه تتوقف على مدى تقدم الحالة واستعمال النوع الملائم من الانسولين ، وكمية ونوع الغذاء اللازم . ■■

د . ابراهيم فهيم
استاذ الادوية والعلاج
بكلية الطب جامعة حلب ـ سوريا

مواساة

للشاعر أحمد بن محمد الشامي

قرأ صاحب الديوان قصيدة للعلامة اليمني الشاعر القاضي محمد بن يحيى الارياني يرثي بها زوجته التي توفيت بنوبة قلبية عن عمر ناهز السبعين عاما فاهتزت عواطفه بالحادث المؤلم والشعر الرائع فقال مجاريا ومواسيا ومعزيا :

قـرأتـه ، فـتـوالى الـدمـع ينهمـر
تـرثي الحنان الـذي كـانت بشـاشته
اذا تـكّلم . . لا لـغـو ، ولا هـذر
شـعـر دوافـعـه مـوّراة بـلظى
في كـل قـافـيـة عـين مـسـهـدة
كـأن ألفاظـه بـالـدمـع قـد غمست
شـعـر اذا رتلت اوزانـه انتحبت
شـعـر من القلب في ألـفـاظـه أثـر ،
يـرثي شـريكـة عـيش في خمـائله
خمـسـون عـامـا ونيف سـافـرا ، وهما
ورحلة العيش ان كـان الـرفيق بهـا
يـا آل « يحيى » ، وعـز الـدين مفخرة
وأنـتـم في سـبـيـل الله مـن ثبـتـوا
مجـاهـدون اذا مـا مـسـهـم ضـرر
مـن كـل ذي مـرة لـو ان فـطنتـه
ان «جوملوا» شكروا ، او صورعوا صبروا
وهم مـع الحق قـد سيطت دماؤهم
من ذا أعـرب ؟ ومـاذا قـد يقـال لهم
والصبر شيمة من عفـوا ، ومن كرمـوا

شعرا ، قوافيه تبكي ، وهي تنتحر !
« هي الحياة ، هي الدنيا ، هي العمُر »
وان تـبـسّـم زال الهم والـكـدر
من المـرارة فيهـا الـروح ينصهـر !
او مهجـة بـالأسى والحـزن تنفـطر
فكـل أحـرفـه بـالـدمـع تنهمـر !
تـنـوح ، تـنـدب ، لا تبقى ولا تـذر
وفي معـانيـه من أوجـاعـه شـرر ،
كـانت هي العيش والآمـال والـوطـر
بنعمـة الحب لا يضنيهـا ضـجـر !
مثل الفقيدة . . طـاب العيش والسفر !
لكم ، به نحن « حزب الله » نفتخـر
لم يثنهم عنـه لا خـوف ولا خـطـر ،
تـذكـروا سيـرة الأبـاء . فـادكـروا ،
على الـورى وزعت لم يـرتبـك بشـر
ويصفـحـون عن الجـاني اذا قـدروا
بحبـه ، وتفـانـوا فيـه ، وانصهـروا
شعرا ؟ وهم خير من قالوا ، ومن شعروا
وجنـة الخلد مـأوى لـلالى صـبـروا

احمد بن محمد الشامي
بروملي ـ انجلترا



محنة الطفل والاسرة في عالم اليوم

بقلم : الدكتور هـ . ستيرلن * ترجمة : الدكتور نبيه غيره

هذه المقالة المترجمة ترجمة حرفية تقريبا ، تعطينا فكرة جيدة عن رؤ ية العالم الغربي بكل كفاءته وتقدمه للعائلة والمشكلات الناجمة عن العلاقات المتشابكة فيها بين أفرادها وتطورها ومستقبلها .

سيدرك القارىء للوهلة الأولى ان أوضاع المجتمع الغربي مختلفة عن أوضاع مجتمعنا وان ما ينطبق عليهم قد لا ينطبق علينا ، كما انه قد لا يتفق مع المؤلف في بعض آرائه .

ولكن مما لا شك فيه ان تحليلات الكاتب العميقة والصادقة والواقعية تعطينا فكرة جيدة عن الجذور العميقة لكثير من المشكلات التي تواجهنا وأبناءنا ، ولعل هذا مما يبصر الآباء ويساعدهم في اتخاذ المواقف الحكيمة تجاه أبنائهم . فيعرفون حقوقهم ويدركون احتياجاتهم ولا يحملونهم ما هو فوق طاقاتهم . بل يأخذون بأيديهم برفق حتى تقوى شخصيتهم ويزداد اعتمادهم على أنفسهم ويستطيعوا شيئا فشيئا الاستقلال بذواتهم .

وسيدرك القارىء أيضا افتقار المجتمع الغربي الى قيم ثابتة يؤمن بها ويقدسها ، مما يجعل آراء علمائه ومفكريه نتيجة زمانهم واتجاهه كما يقول الكاتب . فقيم مجتمعهم تبع لتطوره وهدى نفسه . وهذا بخلاف مجتمعنا ذي القيم الدينية الثابتة مما يعطيه أو يساعده بالأحرى على تحقيق الأمن والأمان والاستقرار والطمأنينة . وهذه هي المقالة .

* رئيس قسم التحليل النفسي في جامعة هيدلبرج بألمانيا الاتحادية

دفعني أمران للتفكير وللكتابة في موضوع مكانة الطفل في اطار العائلة المتشابك الأطراف . الأول هو ازدياد المشكلات التي تواجه أطفالنا ، والثاني ازدياد المشكلات التي تواجه الآباء .

وتبدأ بالمشكلات الأولى فبالرغم من المستوى المعيشي العالي واستقرار الأوضاع العامة - بالمقارنة مع معظم البلاد الأخرى - فان التقارير تشير الى تضاعف عدد المشكلات التي تواجه الأطفال واليافعين في جمهورية المانيا الاتحادية وتتضمن قائمة المشكلات هذه : جنوح الأحداث والتعود على الأدوية والمسكرات والميل للانتحار والاضطرابات السلوكية المختلفة . وكل هذه المشكلات آخذة في الازدياد ، ان كان علينا أن نصدق الاحصائيات المتوفرة بين أيدينا .

أما المشكلات التي تواجه الآباء : فبالرغم من أنه بامكاننا - بل انه يجب علينا - أن نفترض ان كل الآباء تقريبا يتمنون الخير كل الخير لأبنائهم وأنهم يبذلون جهودهم في سبيل ذلك ، فانهم يجدون أنفسهم عرضة لمزيد من النقد والتجريح ، بشكل صريح أو بشكل مستتر . فهم يتهمون مثلا بمعاملة أطفالهم بمزيد من الشدة أو على النقيض بمزيد من اللين .

ويتهمون بالمبالغة في دفع أطفالهم وحثهم أو على العكس بالاقلال والاهمال . وبكلمة مختصرة هم دوما موضع الاتهام والتجريح في تربية أطفالهم . ويقع الأهل نتيجة ذلك فريسة الشعور بالذنب وضعف الثقة وضعف قوة التحمل . وذلك لأنهم يرون أن المثل والمبادىء التقليدية في تنشئة الأولاد وتربيتهم ذات الأهمية البالغة في حماية أطفالهم ، أصبحت عرضة للنقد المتزايد .

وان ضعف الثقة بالنفس وعدم وضوح الرؤية ليس بالأمر الجديد . فلقد عناه الفيلسوف هيجل عندما توجه بكلمة الى الطلاب المستجدين عام ١٨١٣ وقال : « اذا كانت القوانين والفلسفات التي علينا أن تقدم لنا القاعدة الصلبة للتوجيه هي نفسها غير ثابتة فأين يكون المرجع ومن أين يكون التوجيه ؟ » وما قصده هيجل بالقوانين والفلسفات هو المبادىء والأعراف والعادات التي تتبناها المؤسسات الرسمية ذات الأهمية البالغة في بناء المجتمع ، كما تعني الآراء المتعلقة بالتربية الحسنة والتوجيه الاجتماعي .

وان هذا التغير ليحدث في عصرنا بصورة أسرع بكثير ، مما جعل آباء اليوم يصدمون عند مواجهتهم لأبنائهم المراهقين ،

فمن الصعب على آباء اليوم - وأكثرهم كانوا أطفالا أثناء الحرب العالمية الثانية - أن يألفوا أو يتقبلوا العالم الذي يعيشه أبناؤهم . . . فمن المحتمل إذن أن يكون على الأهل أن يعارضوا بدافع من الحسد ، الذي يحسونه عند رؤيتهم أبناءهم يطالبون بحياة جنسية نشيطة وبالسيارات الخاصة وبالرحلات خارج البلد لقضاء العطل . كل ذلك كحق طبيعي بينما كان الآباء في أيامهم لا يحلمون بشيء من هذه البتة . وقد كان عليهم أن يحرموا أنفسهم من هذه المتع اما بسبب الحرب ، أو ما أعقبها من سنين عجاف أو بسبب القيود التي كان يفرضها عليهم آباؤهم ومجتمعهم .

قد يساء فهم الشباب

ومهما يكن من أمر فان لكثير من شباب اليوم الحق بأن يروا أنفسهم قد أسيء فهمهم من قبل الكبار ، وأن يشعروا بشيء من الغيرة والخوف تجاههم . فمع أن لمعظم هؤلاء الشباب مكانة في مجتمعنا المترف ، لكن هذا المجتمع قد قدم اليهم في ضوء خافت . فحيثما اتجهوا وجدوا المستقبل مظلما ، ووجدوا الظلم الاجتماعي ، ووجدوا اهدار الثروات العامة وتدمير البيئة ، وكل ذلك واقع في عالم سيعيشون هم فيه في المستقبل وليس آباؤهم . ولهم كل الحق في أن يلتقوا مع آبائهم في فهم بعض القضايا العامة وتعقلها كازدياد السكان السريع في العالم - بنسبة ٣٠٠,٠٠٠ نسمة كل يوم - ، وانتشار أسلحة الدمار الذرية والتقنية العالية مما يهدد بوقوع كارثة عالمية مريعة .

ان ازدياد مشكلات الطفولة والشباب ، والتغيرات الاجتماعية المتسارعة باستمرار وفقدان المحبة والصداقة بين الأجيال المتعاقبة حتى صراعاتهم ، قد شاركت الى حد كبير في ازدياد عدد الأطفال والآباء الذين يبغون مساعدة أمثالي المنظور اليهم على أنهم خبراء في مثل هذه المواضيع .

فمنذ ٢٠ سنة فقط ، قال واحد من أكثر المربين الألمان احتراما وشهرة : ان المبدأ الأساسي في تربية الاطفال هو كسر ارادتهم بضربة واحدة والى الابد . وقد أوصى لتحقيق هذا الهدف بنظام صارم لا يرحم ، وصمم أجهزة خاصة لتحسين وضعية جلوس التلاميذ على طاولة الدراسة كجهاز شد الكتفين وجهاز رفع الذقن ، من الأجهزة التي يمكن اعتبارها اليوم أقرب ما تكون الى أجهزة التعذيب ، ان اسم هذا المربي والمؤلف المتميز الذي طبعت مؤلفاته الأصيلة والمترجمات كثيرة هو الدكتور دانيال غوتلوب موريس شربر * . وهو من الشخصيات الفعالة والمؤسسة لحركة شربر التي كان من أعمالها انشاء حدائق شربر واتحادات شربر ، ولقد طبق هذا المربي نظرياته على أبنائه أيضا ولا سيما ولديه . وقد أصبح أحدهما وهو دانيال شربر مجنونا وقد كان محاميا معروفا في ذاك الوقت

*Dr . Daniel Cottlob Moritz Scherbar

وموضوع دراسة مشهورة لفرويد . وأما الثاني فقد انتحر .

ومنذ ذلك الوقت فان عددا غير قليل من المربين والمعلمين يرون أن هناك صلة مباشرة ، بين نظريات شربر التربوية والعقلية التي أدت الى قيام الرايخ الثالث الذي أهلك البشرية ودمرها تدميرا .

واليوم ، بعد مضي ١٢٠ عاما على نظريات شربر التي تركز على قمع ارادة الطفل وطلب الطاعة العمياء كمبدأ أساسي في التربية . نقرأ كتاب هاستنتين حول التعليم والذي يقول فيه ان أكبر خطيئة تربوية ترتكب في التعليم هي قمع ارادة الطفل ، ولقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة وأعيد طبعه مرات عديدة أيضا . وبالطبع فان أحدا في أيامنا لا يستطيع أن يعرف مع الأسف ، ماذا كان الناس سيقولون عن هذا الكتاب لو قدم اليهم في ذلك العصر قبل ١٢٠ سنة .

وسنذكر مثلين آخرين عن تغير آراء الخبراء في حقل تربية الأطفال . الأول حول موقف الكبار ـ وخبراء التعليم منهم بصورة خاصة ـ حول لعب الأطفال . فدراسة كتب التربية لخمسين سنة خلت تبين لنا أن معظم المربين كانوا ينظرون للعب الأطفال على أنه عمل شيطاني Evil وربما شيطان لا بد منه ، ولكن على المرء أن يراقبه ويضعه تحت سيطرته ، وذلك أنهم كانوا ينظرون الى اللعب على أنه السبب الأساسي لكثير من العلل التي تحدث فيما بعد كنقص القدرة على التركيزوالانتباه ، وعدم الشعور بالمسؤولية ، وعدم الرغبة في العمل ، أو المثابرة عليه وغير ذلك .

اللعب وسيلة للتعلم

بينما يرى المربون اليوم في اللعب وميل الطفل للانخراط فيه الوسيلة الطبيعية للتعلم وأصبح يدمج في اطار الأعمال التربوية المتناسقة لتفتح قدرات الطفل ، فعلى الأطفال أن يتعلموا عن طريق اللعب ان أمكن وعلى المعلمين أن يعلموا عن طريق اللعب أيضا ان أمكن . وان كان موضوع الامتحانات عند مغادرة المدرسة وما يتطلبه من اجراءات ـ يجعل هذا المطمح صعب الانجاز .

والمثال الثاني هو حول الاتجاه الحديث تقريبا في تخطئة التعليم الرسمي التقليدي وما يقابله من تمجيد للتعليم العفوي غير الرسمي . والذي كان من حصيلته أن يكون الكتاب المضاد للتعليم الرسمي التقليدي هو من أكثر الكتب غير القصصية رواجا في الأسواق ، في المانيا الاتحادية وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . ولقد اتخذ المربون وعلماء النفس في هذه الاثناء مواقف مختلفة بل متضاربة الى حد ما أحيانا . ولقد أظهرت التحريات الاخيرة في الولايات المتحدة الامريكية ان الاطفال العصاة المفسدين ينتمون الى العائلات التي تدين بالافراط في التسلط ، كما ينتمون ، الى العائلات المفرطة في التساهل على حد سواء . ولذلك فاننا غالبا ما نرى أن الامريكيين يفرقون ما بين التعليم الرسمي التسلطي الذي يقمع بشدة ، والتعليم الرسمي التوجيهي المتوسط الذي يضع الحدود المناسبة للسن مع تشجيع تحمل المسؤولية والاستقلال بالنفس عند الطفل . *

وهناك أمثلة مماثلة لا حصر لها تظهر التغيرات في المواقف والطرق التعليمية ، وقد تجعلنا هذه التغيرات نتساءل : كيف ستحكم علينا الأجيال المقبلة ؟ وما سيكون حكمها على مواقفنا تجاه الأطفال وعلى خبراتنا . وبالاضافة الى ذلك فان هذا التغير في المواقف يجعلنا نعي المدى الذي يكون فيه الخبراء أنفسهم هم حصيلة زمانهم .

ومهما يكن الأمر فاني كأخصائي في معالجة المشكلات العائلية ، مدرك تماما انني انتاج زماني أحب أن أسجل بعض الأفكار المتعلقة بمواقفنا تجاه الاطفال وعلاقاتنا معهم . وأحب أن أقوم بذلك بصورة أساسية في ضوء مواضيع ثلاثة ، مما قد يظهر لنا مدى انسجام الطفل في الاطار المتشابك للعائلة وما ينتج من مشكلات له أو لوالديه أو للعائلة .

ولقد أصبحت هذه الفكر الثلاث بالنسبة لي جد أساسية وهي التفهم Empaty والتمثيل Delejation والحوار Dialojua وهذه الفكر مترابطة وتتعلق بصفات العلاقات العائلية الهامة كما أنها قد تساعدنا على ادراك كيفية تكييف وجهات نظرنا مع مرور الزمن .

ونحن نقصد بالتفهم عادة القدرة على سبر شخصيات الآخرين . وأما بالنسبة لموضوع علاقتنا مع الطفل فنحن نقصد بها قبل كل شيء الاعتراف به كشخص مستقل محترم له طريقته الخاصة في التعامل وله حاجاته الواجب توفيرها وله حقوق تجب مراعاتها . أي يجب أن نتفهمه بروح من العطف والمحبة الصادقة .

إن الدراسات العديدة التي تفوق الحصر تجعلنا نتأكد بشكل لا يتطرق اليه الشك ان معظم جنوح الأحداث وما فيه من انحرافات خلقية وادمانات للمسكرات والأدوية وغير ذلك من السلوك المدمر للنفس هو نتيجة رفض

● اقرأ بالمناسبة مقالة : مدرسة بغير منهاج في العدد ٢٧٧ من العربي .

الطفولة الباكر وتعبير عنها ، أي نقص التفهم الباكر .

ولقد قرأت من وقت بعيد في مجلة التايم ان في البرازيل وحدها خمسة عشر مليون طفل مشرد منبوذ تقريبا ، يعيشون في العشش التي تزدحم بها المدن الكبيرة ، مهملين كليا ، ومحرومين من أي ارتباط عائلي أو اهتمام والدي ولا يشعرون بالولاء لأي مجتمع . وهذا يعني بالنسبة للبرازيل ـ كما يعني بالنسبة لنا نحن أيضا نظرا لشدة ارتباط عالمنا اليوم ـ قنبلة موقوتة ذات قوة تخريبية رهيبة .

واذا ما أعدنا النظر في التاريخ وجدنا أن الأبناء كانوا يعدون دائما لتحمل واجبات مفيدة اذا كانوا على علاقة دائمة بآبائهم فقد كان البدهي في المناطق الريفية وفي كثير من المجتمعات الصناعية في المدن أن يذهب الأطفال لمساعدة آبائهم في أشغالهم وهم في سن مبكرة ، وذلك ليتحملوا أعباءها كاملة وليحسنوها فيما بعد . وهذا الوضع لا يزال ساريا في كثير من البلاد النامية أو المحافظة . ولقد تغيرت المهام الموكولة للأبناء في البقاع المتمدنة ، التي تقدمت فيها التقنية ، والتي أصبحت فيها أوضاع الآباء المادية أكثر أمانا واستقرارا ، وأصبح ما يطلب من الأبناء في الوقت الحاضر هو تأمين الاستقرار العاطفي بدل المادي فلم يعد الأطفال اليوم في العالم الغربي مادة قابلة للتحويل أو مصدرا تمويليا كما كان الحال في السابق . بل أصبح الأبناء يهددون ـ أكثر فأكثر ـ الأمن الاقتصادي لآبائهم وأصبحوا عاملا في تدهور مكانتهم الاجتماعية ، وذلك ان العصر الحاضر الذي يزداد تعقده باستمرار ويتطلب مزيدا من التدريبات المهنية يجعل تكاليف الانفاق على الأبناء باهظة صعبة التحمل . ولقد عبر لي عن ذلك أحد الآباء ، الذين أعجزتهم نفقات عائلتهم الكبيرة بقوله : ان كثرة الاولاد في هذا الزمن لهي أشبه ما تكون بالسرطان ، فهم يتكالبون عليك دون رحمة حتى لا يبقوا منك شيئا .

الانتداب أو التمثيل

ويمكننا القول بأن الانتداب أو التمثيل قد يتجه في الاتجاه الخاطيء عندما يطالب الابن بمهمات متضاربة بعضها مع بعض مما يؤدي به الى الصراع النفسي ، فقد يشجع الابن على أن يحيا حياة بوهيمية كان يتمنى أن يعيشها أحد والديه ولكنه لم يستطع ذلك . ولكن يطلب اليه بشكل ظاهر أو مستتر وبنفس الوقت أن يعيش حياة عفيفة طاهرة يجسد فيها تعصب الأهل الشديد للمثالية والأخلاقية كما يطلب اليه أن يدرس اللاهوت ويحسن المناقشة في مواضيع ونجد شبه هذا الصراع وبشكل نموذجي عند كثير من شابات اليوم ، اللواتي يتندبن للقيام بأعمال وظيفية ومهنية لم تتح لأمهاتهن بسبب الأوضاع الاجتماعية التي كانت مفروضة عليهن في أزمانهن ، ولكنهن مطالبات بنفس الوقت أن يقمن بالدور التقليدي للزوجة ولربة المنزل . وقد يحدث انحراف مأساوي لعملية التمثيل والانتداب بشكل خاص ، عند توظيف الابن من أحد والديه في سبيل انتقاد الوالد الآخر أو اهانته حتى محاربته .

وهكذا فان فكرة الانتداب والتمثيل تجعلنا نستطيع النظر في المشكلة من خلال الأجيال المتعاقبة بل أصبحت هذه النظرة الدقيقة للأشياء ضرورية جدا لعملنا في معالجة المشكلات العائلية . فهي تعني أن علينا أن ننظر للوالدين كأطفال لوالديهم ، وبتعبير آخر كأناس حاولوا أن ينقلوا لأبنائهم ـ سواء نجحوا في ذلك أم فشلوا ـ ما تلقوه من آبائهم وما لم يستطيعوا أن يتلقوه ، يحاولون على الأغلب محاسبة أو معاقبة أبنائهم على ما عانوه على يد والديهم من قلة حظ وسوء طالع .

ان كثيرا من حوادث الاساءة الى الابناء تعطينا مثالا حيا لهذه المسألة فتجربتنا السريرية تؤكد لنا المرة تلو المرة ان الوالد الذي يسيء معاملة ابنه ويضربه هو نفسه كان يضرب في صغره من قبل أبيه . وهو الآن يطالب ابنه أو يجبره بالقوة على منحه الحب الذي حرمه منه والداه . واني لأذكر في هذا المجال أما كانت تضرب ابنتها البالغة من العمر تسعة أشهر فقط حينما كانت لا تبتسم لها عند عودتها للمنزل من عملها مرهقة مضطربة ، لقد كان رد فعل الأم العفوي لعدم تبسم ابنتها هو أن ترى فيه دلالة على الرفض وعدم المحبة ، مما يجعلها تضربها بشدة ، وبالطبع ان أول ما نلحظه في هذه القصة هو عدم تفهم الأم لابنتها . فالطفلة التي لم تتجاوز تسعة أشهر بعد عوملت على أنها انسان بالغ ناضج عارف بالأصول الاجتماعية ، ولم تراع قط احتياجاتها وحقوقها وقدراتها المناسبة لسنها ، كما انها كانت في نفس الوقت منتدبة من قبل أمها لتمثيل دور الأم والقيام بمهام الرعاية الوالدية ، فأمها تريد منها أن تقدم لها ما حرمت منه في صغرها من عطف وتفهم وثقة ودعم وباختصار نستطيع القول ان هذه الطفلة انتدبت لمهمة اعطاء الحب المغتصب الذي حرمت منه الأم وربما أنها لم تفعل ذلك ـ وهي في واقع الحال لا تستطيع ولو أرادت ـ ولم تهب الحب المطلوب كانت تضرب بقسوة .

ان هذه النظرة عبر الأجيال نتائج علاجية هامة . فهي تجعلنا نشعر بالتعاطف مع الأهل الذين يسيئون معاملة أولادهم كما أسيء اليهم . وتجعلنا مجبرين على القيام بالحوار والاصلاح الذي يجب أن يتجاوز بضعة أجيال ان أمكن .

أهمية الحوار

ان الموضوع الثالث الذي أريد الخوض فيه هو الحوار الذي يمكن اعتباره كحصيلة لدرجة عالية من التفهم . وهو يتطلب منا مشاركة الشخص أو الأشخاص الآخرين في الملاحظة الدقيقة المركزة .

وما نهتم به هنا بشكل رئيسي هو الحوار ضمن اطار العائلة وخاصة ما كان بين أجيال مختلفة ومن الشروط المسبقة لهذا الحوار تعيين المواضيع المراد دراستها واعادة ترتيبها إن كان ذلك ضروريا ولا يهدف مثل هذا الحوار الى إعادة شمل أفراد العائلة المتباعدين فقط بل الى ايجاد الرغبة في العيش بوئام مستمر أيضا .

ان هذا التسلسل يعطينا فكرة عن موضوع المعالجة الذي أستطيع أن أذكر لمحة عنه هنا . وفي جميع الأحوال اني لأرى ان المعالجة العائلية هي في الأساس واسطة ايجاد أو تأسيس حوار كان قد انقطع أو توجه وجهة خاطئة . ومن متطلبات الحوار تبصر القوى الفاعلة في العائلة وخاصة بالنسبة لمصادر العائلة الايجابية التي غالبا ما تكون مستترة خلف مواقف سلبية أو أشكال معينة من السلوك ، فغالبا ما يكون الطفل ذو المشكلات السلوكية مثلا هو الفرد الأكثر حساسية في العائلة والأكثر رغبة وارادة في التأثير . وذلك أن هذا الطفل يتحمل عبء الصراعات الموجودة في العائلة والتي لا يستطيع الغير أن يتقبلها . وهذا الطفل هو الذي سيكون حجر الزاوية في المعالجة التي سيستفيد منها أفراد العائلة الآخرون دون أن يدركوا أنهم هم المرضى الحقيقيون المعنيون في المعالجة أصلا .

واني لأود أخيرا أن أجيب عن السؤال الثاني : ما الذي يجعل العائلة سليمة صحية ؟ ـ ان كان هناك ثمة شيء من هذا القبيل ـ ، وذلك في ضوء ملاحظاتي على الحوار والمعالجة العائلية ، ولكن يجب أن يسبق هذا السؤال سؤال آخر وهو ـ كما يصرح بذلك كثير من المؤلفين المعاصرين هل انتهى وضع العائلة لتصبح معهدا تربويا ؟ وبالتالي ألا يمكن ايجاد معهد بديل للعائلة يأخذ مكانها ويقوم بوظائفها بشكل أجود وأكثر كفاءة ؟ ومن ثم ما هو نوع العائلة التي يحتاجها الطفل والى أي مدى هو بحاجة اليها ؟

ان النظرة السريعة للتاريخ تظهر بأن طبيعة وظيفة العائلة أو تركيبها قد تغيرت بشكل ملحوظ حسب الحقب التاريخية وحسب المفاهيم التربوية . ففي عصرنا الحاضر مثلا نجد اختلافا كبيرا بين عائلات الريف كثيرة العدد وعائلات المدن الصغيرة ، وبين العائلات شديدة التماسك والعائلات المتفككة التي يصعب تسميتها بالعائلة في كثير من الأحيان .

كما نجد أيضا ان كثيرا من الوظائف والمهمات وخاصة منها ما كان متعلقا بالتربية والتعليم التي كانت سابقا من اختصاص العائلة أصبحت اليوم منوطة بالمدارس أو المؤسسات الحكومية أو العامة الاخرى . ونجد أن عددا متزايدا من العائلات في العصر الحاضر أخذ في التفكك ، والتخلي عن الوظائف الاساسية التقليدية من تأمين جو الحب والأمان والاستقرار والتأهيل الاجتماعي ، والصحي ، الى المساعدة في تلبية الحاجة الجنسية في التزاوج . واني لأشعر اننا لم نستطع ايجاد البديل الحقيقي للعائلة وطالما الوضع كذلك فمن الواجب أن نسأل أنفسنا ما هي صفات هذه العائلة الصحية التي تؤمن الصحة والسلام لكلا الطرفين للأبناء وللآباء ـ باعتبارهم أبناء لآبائهم .

واني لأجد نفسي مترددا في اعطاء الجواب في هذا المجال وخاصة اني أقوم بعمل أخصائي في معالجة المشكلات العائلية . Family Therapist واني أشعر دائما بالدهشة لكثرة الأشكال والتراكيب العائلية ممكنة التحقيق وان ما كان يبدو لي من الوهلة الأولى سببا للفشل والمشكلات العائلية كان هو في الحقيقة تعبيرا عن قوة العائلة وصحتها وايجابياتها .

وعلى كل حال ـ وبناء أيضا على الابحاث المسماة « غير السريرية » ـ أستطيع أن أعطي التعميمات التالية :

ـ للعائلة الصحية مجموعة من القيم المشتركة .

وهذا يكون مبنيا على المشاعر الدينية التقليدية ولكن ليس بالضرورة أن تبنى على ذلك .

ـ ويبدي أفراد العائلة الصحية اهتماما خاصا متميزا بعضهم ببعض ويشاركون في حياة بعضهم بعضا ويتعاونون ويتساعدون ولكنهم يكونون في نفس الوقت قادرين على الانفراد أو الاستقلال واثبات الشخصية الذاتية .

ـ ويظهر في العائلة الصحية عدد كبير من المشاعر والانفعالات كالحنان والفرح والحزن والعدوانية وكثير غيرها . أي أن هناك مجالا كبيرا للمنازعة والمجابهة والمناقشة في العائلة الصحية ولا عجب ولكن على أن يؤدي ذلك الى ايجاد الحلول المناسبة وتصفية الجو واعادة الأمور الى مجاريها الطبيعية لا أن تبقى معلقة أو مستترة تحت السطح .

ـ ويكون كل فرد في العائلة الصحية على أتم الاستعداد لمنح ثقته للآخرين والايمان بأنهم عون قوي لا أنهم مخيبون للظن أو معادون .

وأخيرا فللحوار في العائلة الصحية مكانته المحترمة . ونعني به الحوار الذي يجعلنا نتوام مع الآخرين وأن نبين فيه بوضوح مواقفنا الخاصة ولكن شريطة أن يكون العدل والانصاف والتفاهم هو الرائد والهدف . ■■

« لير صورة لانهيار المجتمع الاقطاعي حيث تصور حياة رجل يعيش في عالم مختلف ، لا يلبث ان يحطمه »
« بريخت »

الملك لير
في إخـراج نمسـاوى

بقلم : احمد سخسوخ

« مسرحية الملك لير لشكسبير تعرض حاليا على أحد مسارح فيينا « شاوشبيل هاوس » من اخراج هانز جراتسر » .

ان التراجيديا سواء اليونانية او الشكسبيرية انما ترخي فينا النزعة الاخلاقية ، ذلك ان الكارثة التي تحيق بالبطل انما هي رد فعل ناتج عن الخطأ التراجيدي الذي ارتكبه البطل ، ولكن نتائج هذا الخطأ لا ترتد على البطل وحده ، وانما تمتد الى محيط كامل او مجتمع بأكمله . على اعتبار أن البطل يرمز او يمثل هذا المحيط او هذا المجتمع . وان كان هناك اختلاف بين التراجيديا اليونانية والتراجيديا الشكسبيرية في ان القدر في التراجيديا الاولى انما هو الذي يخطط للاحداث بشكل مسبق ، ولكن رسم الاحداث في النهاية انما يتمنطق مع تركيبة البطل التي تقوده وبشكل منطقي الى نفس النتيجة التي خطط لها القدر .

بينما تكوين البطل الداخلي او النفسي في التراجيديا الشكسبيرية - وان كان هذا التكوين لا ينفصل عن المكونات المحيطة - هو الذي يقوده الى هذا المصير المفزع عن طريق عيب او خطأ في تركيبه يترتب عليه كل هذه الكوارث وان كان خطؤه لا يعادل المصير الذي يلقاه في النهاية .

نهاية مروعة

ولقد كانت نهاية الملك لير نهاية مروعة ، حيث مات لير ومات او قتل كل من حوله من كانوا معه ومن كانوا ضده ، وتحطمت كل العلاقات حتى الثلاثة الذين عاشوا غير قادرين على حمل تيجان المملكة ، فهم حطام كالملك لير نفسه .

لقد أراد الملك لير في البداية - بدافع من أنانيته - ان ينعم بالراحة والهدوء ويعبر حياته الاولى - المليئة بالمجون - الى شيخوخته ولكن بعيدا عن مسئوليه الحكم لذا يقرر ان يقسم الدولة على بناته الثلاث .

ولأنه حاد المزاج ، جاهل بالتركيبة البشرية ، فلقد تعود أن يخاطب الآخرين بنرجسيته كوضع طبيعي اعتاده ، لذا خدعته كلمات ابنتيه (جونريل وريجان) عن الحب والاخلاص . وقد صدمته اصغرهن واكثرهن حبا له وأحبهن اليه (كورديليا) الصادقة ، فهي لا تستطيع ان تزيف الكلمات وتضعها في اطار براق كما انها لا تستطيع ان تكذب لانها ليست في حاجة الى ذلك ، فهي تحب



● جوستوس نيومان ـ الملك ـ في احد مشاهد المسرحية

والدها بشكل حقيقي .

لقد كانت ردود كورديليا ـ التي يعتبرها بعض النقاد ردودا جافة ـ مفاجأة للملك لير جعلته يتصرف بعصبية وغباء رجل تعدى الثمانين من عمره واخذ عقله في الضعف ولكنه لم يشخ بعد فمازال يتمتع بصحة لا بأس بها .

ويرفض الملك لير ان يعطي نصيب الابنة الصغرى من المملكة بل يوزعه على اختيها . ويضطر ان يقضي ايامه بين جونريل وريجان بالتناوب وربما كما يقول « كولردج » كان الملك ينوي ان يقضي اخريات ايامه لدى كورديليا وليس بالتناوب بين جونريل وريجان حيث اضطر اليه بعد موقف كورديليا منه .

لقد اسلم لير نفسه لابنتيه وهو يعتقد انه يسلم نفسه للراحة ولكنه في الواقع يسلم نفسه للعذاب ، لقد عاملته ابنتاه بطريقة وحشية وفي اقل من اسبوعين أغلقتا الابواب في وجهه في ليال قاسية البرودة . ولم يتبق للملك سوى ان يرتمي بجسده في حضن الطبيعة القاسية يلعن الارحام ويخاطب الرعد ويصرخ في السماء ، وحينما تتسلط عليه فكرة ابنتيه يقوده ذلك الى حزن عميق ثم الى الجنون حيث يطلق العنان لكل طاقاته الداخلية دون رابط منطقي فيعبر عن مكنوناته بشكل صادق وغير مزيف ، يعبر عن الامه بشكل يعجز عنه اي عقل في قدرته الواعية او غير الواعية ، ويطلق العنان لآلامه فيعبر عنها برؤى شعرية ورؤى خيالية حيث يمزج الطبيعة بالانسان ويرى الانسان في الحيوان وتكشف آلامه ومصائبه نبل معدنه وطيبة قلبه ، وتجعله يعرف ما كان يجهله عن الطبيعة البشرية ، فحينما كان لير ملكا وبكامل قواه العقلية لم يكن حينئذ يرى الحقيقة ، ولكن بعد ان فقد سلطته كملك وبعد ان جن وفقد عقله حينئذ وصل الى الحقيقة والى الحكمة ، وفي النهاية تأتي اليه كورديليا ـ التي اساء اليها ـ لتنقذه ولكنها تموت ويموت بعدها على صدرها .

ان لير هو البطل الذي عانى وتألم وجن ولكنه في الواقع لا يدفع الاحداث الا في بداية المسرحية حينما قسم المملكة بشكل غير عادل ولكن المحرك الاساسي للاحداث جونريل وريجان ومعهما ادموند الابن غير الشرعي لجلوستر . وينعكس هذا في اعماق لير ، كما كان يحرك ياجو الاحداث في عطيل ويظهر هذا في ردود افعال عطيل حتى قاده وقاد نفسه الى الدمار ، وان كان هذا لا ينفصل اصلا عن تركيب البطل التي تجد صدى للحركة المقابلة .

ولقد تكررت مأساة الملك لير في حدث مواز في المسرحية يمثله جلوستر واولاده . فجلوستر انما هو صورة اخرى من الملك وان كانت صورة باهتة ، انه رجل حسن اساء الى ابنه ادجار كما اساء لير الى ابنته كورديليا . وكان ضحية مؤامرة دبرها ابنه ادموند ، كما كان لير ضحية مؤامرة دبرتها ابنتاه ، ويرجع مصير جلوستر المأساوي الى غبائه وانانيته حيث تفقأ عينيه ، ولكنه يصل في النهاية الى التطهير عبر معاناته وآلامه التي تقوده الى الحكمة . ويموت بعد ان يلتقي بابنه ادجار كما يموت لير بعد ان يلتقي بكورديليا .

الخريطة الدرامية

وإذا كان لير وجلوستر يقفان على ارضية واحدة ومصير واحد قد سببه لهما ابنتا الاول وابن الثاني الا اننا نجد ان الشخصيات الأخرى تتخذ اتجاهين . اتجاه يمثله كل من كورديليا وكنت وادجار والابله ، واتجاه اخر يمثله كل من جونريل وريجان وادموند وكورنوال واوزوالد . وان كنا نضع الباني زوج جونريل على نفس الارضية التي يقف عليها لير وجلوستر . فهو رجل حسن النية ويبدو كما لو

كان ضعيف الشخصية ، يمقت جونريل وريجان لموقفهما من ابيهما وفي النهاية يعجز عن حمل تيجان المملكة ويعرض السلطان على ادجاروكنت .

وتذكرنا كورديليا بجمال وشفافية اوفيليا كما تذكرنا بصدق ديزدمونه ، وتعجز كورديليا عن الدفاع عن نفسها امام والدها كما تعجز كل من اوفيليا امام هاملت وديزدمونه امام عطيل : وتعاني كورديليا في حبها للملك لير كما تعاني كل من اوفيليا في حبها لهاملت وديزدمونه في حبها لعطيل حيث تموت الاولى وهي تضحي من أجل والدها وتنتحر الثانية بعد ان تجن بسبب حبيبها وتختنق الثالثة بيد رجل احبته واخلصت له .

اما كنت فان حبه للملك لير يأتي قبل حبه لكورديليا ويجعله هذا يتنكر طوال المسرحية في زي خادم يسهر على راحة لير ويرفض في النهاية دعوة البائي للاشتراك في الحكم بحجة أن سيد المحتضر يدعوه ولذا عليه ان يذهب اليه .

أما ادجار فانه الابن الشرعي لجلوستر ، يؤمن بالفكر الميتافيزيقي وقد وقع ضحية مؤامرة دبرها ادموند . ولكنه في النهاية بعد ان يهرب ويتعرى ويضطر الى لعب دور المجنون ويقضي على ادموند ويكشف الابله ستار الغيب عن الحقيقة وعن مأساة لير بكل وجوهها الضاحكة والمرة ، انه يظهر ما تخفيه الحياة من جانب مأساوي وضحكاتنا له وعليه انما ترسب في اعماقنا هذا النوع من المرارة التي تظل عالقة في حلوقنا .

وفي المقابل الدرامي من هذه الشخصيات تقف جونريل وريجان وادموند وكورنوال واوزفالد . جونريل وريجان شخصيتان شريرتان استطاعا ان ينتزعا المملكة بعد ان مثلا على لير العجوز ثم اغلقا الباب في وجهه ودمراه ، وكانت تخدع كل منها الأخرى ، ثم تنازعتا على حب ادموند الذي خدعهما ، ويذكرنا ادموند بياجو في مسرحية عطيل وان كان ادموند لا يتمتع بنفس القدر من الثقافة التي كان يتمتع بها ياجو ، ولكنه يشبهه في الدناءة والخسة . وربما كانت عدم شرعية بنوته هي التي دفعته الى هذه السلوكيات ، لقد احبته جونريل وريجان ولكن حبه كان اكبر من الاختين ، كان حبه للسلطة ، ولم يختر ادموند ريجان لانه يحبها وانما لانها ستحقق اغراضه وستضع التاج فوق رأسه بقوتها ودهائها وشرها .

ولقد كان كورنيل غاضبا كالملك لير وكان اوزفالد خادما مخلصا حتى الموت كما كان كنت ـ على الجانب الدرامي المقابل ـ خادما للملك لير حتى الموت .

صعوبات في التنفيذ

ان مسرحية الملك لير تعتبر افضل عمل تأليفي لشكسبير وان كانت تعتبر ـ من حيث البناء الدرامي ـ اقل اهمية من عطيل . ويرجع ذلك كما يقول برادلي إلى« انها لا تخاطب الادراك الدرامي بقدر ما تخاطب نوعا من الخيال الشعري الاكثر ندرة وادق شاعرية » .

وتلاقي مسرحية لير على المسرح صعوبات هائلة في التنفيذ ويرجع ذلك الى ـ رغم قيمة العمل ككل ـ غموض في بعض الاجزاء وكثرة الأحداث الفرعية وكثرة الشخصيات الرئيسية وضعف في بعض التبريرات التي تتخلل الجولة الدرامية ، فمثلا لا يجد المرء مبررا كافيا لسلوكيات ادموند تجاه ابيه خاصة بعد ان اعتبره ابنا شرعيا ، فهو يشي به حينا يذهب لمساعدة لير وبذلك يكسب ثقة جونريل وريجان ويحقق لنفسه ـ كما يقول ـ ما يعادل فقده لابيه الذي فقد عينيه بسبب وشايته . وان كان قد كسب ادموند ثقتهم من قبل بسبب مؤامرته ضد اخيه الشرعي ادجار . ولقد كانت خطته هذه ضعيفة . فكيف يمكن لرجل مثل جلوستر قضى عمره في سراديب السياسة ان يصدق هذه المؤامرة الساذجة ؟ ثم لماذا لم يواجه ادجار جلوستر لمعرفة اسباب ثورته عليه ؟ ولماذا لم يكشف ادجار النقاب عن نفسه حينما التقى بابيه فاقد البصر ؟ .

ثم ما هو المبرر الدرامي لتنكر كنت في زي خادم تابع للملك طوال المسرحية بل ويفضل الملك على حبه لكورديليا . وفي النهاية يرفض التاج ويذهب زاعما ان لير الذي مات يدعوه ويخرج ، وربما خرج ليبحث عن طريقة ينتحر بها ليكون بجوار سيده . . . الخ .

ويرجع برادلي كثرة العيوب والتناقضات في المسرحية الى اهمال شكسبير ، الذي اغفل كتابة بعض التفاصيل نظرا لطول مادته المسرحية او انه قد اختصرها بعد كتابتها عن طريق البتر . وربما اغفل شكسبير ايضا كتابة بعض الاشياء التي كان ينوي كتابتها وبذا وقع النص في بعض العيوب والغموض بل والتناقضات . ومن هنا يلاقي النص ـ رغم قيمته الادبية ـ كثيرا من الصعوبات في حالة تنفيذه على المسرح ، وللتغلب على هذه المشكلة عادة ما يتم تقديم مسرحية الملك لير من خلال وجهة نظر تتفق مع ثقافة المجتمع او تتفق مع وجهة النظر للمخرج فيرى « بريشت »ق لير صورة لانهيار المجتمع الاقطاعي حيث يصور حياة رجل يعيش في عالم مختلف يحطمه .

وقبل ان يخرج « بيتربول » مسرحية الملك لير قام باعداد دراسة سيكولوجية عن لير ، وقدمه على اعتبار انه رجل مفرط في ذاتيته وانانيته بوسيلة الطرق على رؤوس الجماهير وصولا الى عملية التطهير .

ويرى مخرج احدث عرض لمسرحية الملك لير وهو

(هانز جراتسر) مع مترجم النص من الانجليزية الى الالمانية (انجريد رينشر) بان النص بعد قراءته الاولى كان غريبا وقديما ويكاد يكون « اثري » . انه جبار ولكن لا سبيل اليه ، جاذبيته ضعيفة ومظلم فكيف يمكن للمرء ان يمثل هذا كله ؟

ان مسرحية الملك لير تبدأ كأي دراما ملكية ، تبدأ بتقسيم المملكة واعضاء الحاكم وتنتهي كأي دراما ملكية بذكريات الملك الجديد وبين المقدمة والنهاية يجد المرء حربا أهلية دولية ويدعو الملك الى احتفال .

بينما في الملك لير لا يوجد هذا الاحتفال ، فلا احد يبقى ، الجميع ماتوا اوهم غير قادرين على حمل التيجان .

وقد عالجوا المسرحية على اعتبار انها « حدوتة » خرافية هائلة تمت في احد العصور الغابرة ففي البداية كان يوجد ملك وقصر ووزير وفي النهاية لا يوجد سوى اربعة متسولين تحت المطر . في البداية احتفظ لير بمائة رجل ثم بخمسين ، وفي النهاية بواحد فقط ، فقد لير كل شيء . اصبح كنت مقيدا ، أصيب جلوستر بالعمى ، صنع ادجار من نفسه شحاذا وكأنهم يكررون صيحة فلا ديمير واستراجون في مسرحية « في انتظار جودو » لبيكت حينما يقولون « هل يمكن ان يحدث لنا أكثر من هذا » .

انه عالم بلا معنى ، عبث ، لا امل غير قابل للتغيير .

ويرى المخرج والمترجم بان ليرغبي بلا احساس ، انه يعتقد في قوته ورفاهيته الابدية ولكن سرعان ما ينتقل الحكم . ان الفعل الحقيقي في المسرحية هو الفوضى ، لا احد ممن اللذين ماتوا يستطيع : يعيد توازن العالم ، ان من يحكم يحتاج الى مؤهلات لذلك . وكورديليا تحاول اعادة الحياة القديمة على ما يرام مع جيش اجنبي لتغيير علاقات الحكم في انجلترا ، وكورديليا ـ من وجهة نظرهم ـ غير معقولة ، باردة ومتغطرسة ، لماذا كانت عاجزة عن ان تعبر عن احبيها ؟ هل ما فعلته هو الواجب ؟ هل الحقيقة اهم من الاشياء الاخرى ؟ هل عادت من فرنسا لتنقذ اباها ام لاسترجاع ما يخصها ؟ ان موتها كان اسطوريا وفلسفيا وضروريا .

ليست تراثا مسرحيا

لقد ذكر الناقد (فيكتور ريمان) بجريدة الكورونا النمساوية بأن (المخرج جراتسر قدم عرضا حديثا ، احدث من كل المخرجين الالمان) وهو محق الى حد كبير . حيث استخدم المخرج اساليب متناقضة من اساليب الاخراج والاداء المسرحي ، من بناء ديكور طبيعي على المسرح (الحائط المبني في الخلفية) يذكرنا بطريقة اندريه انطوان على المسرح في محاولته لتحقيق الطبيعية ، واستخدم المخرج أساليب التغريب المسرحي من اضواء كاشفة وتقديم الشخصيات اثناء دخولها وخروجها ، وطريقة تغير الاكسوار ، استخدامه للملابس والالوان الزاهية ، استخدامه لحركات اليابانيين وتدريب الممثلين على المصارعة اليابانية مما يذكرنا بطريقة التغريب المسرحي ، ومع كل هذا استخدم المخرج الطريقة الذاتية في الاداء وهي طريقة ستانسلافسكي في التمثيل . ثم استخدام الل وهي طريقة ستانسلافسكي في التمثيل . ثم استخدام المخرج الجمالي للاضاءة والحركة مما يذكرنا بمدرسة شعراء المسرح في الاخراج المسرحي ، الا ان المخرج في الواقع استطاع ان يضع كل هذه التناقضات في اطار متناغم وان يصنع حالة مسرحية بعيدة عن مسرح الصالون . وربما يتفق جراتسر هنا مع المخرج البولندي (شانيا) حينما يقول عن المسرح (بانه يجب ان يكون انفجارا وان يباغت العرض المتفرج بتفرده وليس بمعايشته الطبيعية) وان كان من جانب اخر وبتركيزه على الجنس والتأكيد على عبثية العالم قد فرغ النص كثيرا من قيمته الاصلية .

ان معظم مخرجي شكسبير يقدمون اعماله كما لو كانت اعمالا تاريخية مرتبطة فقط بالعصر التي خرجت منه ؟ وبذا يقدمون شكسبير على اعتبار انه تراث مسرحي ، ويتناسون في نفس الوقت العلاقة الجدلية بين الفن والعصر اللذي يتعامل معه وكما يقول (بيترهول) المخرج المسرحي الانجليزي (بأن على المخرج ان يوظف النص لخدمة عصره ومجتمعه وان يوظف العصر والمجتمع في النص المسرحي) .

ولكن ان لم يكن المخرج على اتصال حقيقي بالثقافة الانسانية عبر عصور التاريخ فلن يستطيع توظيف النص لخدمة العصر او توظيف العصر في النص المسرحي ، فالثقافة الانسانية تؤثر في رؤية المخرج على المسرح ، واللذي يحدد صحة هذه الرؤيا انما هو قربها او بعدها عن العلم ، وهذه الثقافة التي تؤثر في المخرج انما هي التي تميز مخرجا عن آخر ـ بجانب الفهم الحقيقي « لتكنيك » العناصر المستخدمة فوق الخشبة ـ وهي التي تجعل مخرجا كبرتولت بريخت ينظر الى الملك لير من خلال فهمه لقوانين تطور التاريخ ـ على اعتبار ان المسرحية صورة لانهيار المجتمع الاقطاعي حيث عاش لير في عالم غير عالمه يحطمه ـ وبين مخرج كهانزجراتسر يصور عبثية العالم من خلال الجنس ، وان كان هذا لا ينفي تفرد جراتسر في استخدامه لعناصر الخشبة المسرحية وتوظيفها في صنع حالة مسرحية بعيدة عن مسرح الصالونات . ■■

فيينا ـ احمد سخسوخ



طبيب الأسرة

يجيب على هذه الاسئلة نخبة من الاطباء

التهاب الكبد المعدى

○ اصيب طفل البالغ من العمر ثمانية اعوام بالالتهاب الكبدي فهل هذا المرض ينتقل بالعدوى .. فان كان ذلك كذلك .. فما هي الطريقة الصحيحة لابعاد العدوى عند باقي أطفالي ؟

ـ الالتهاب الكبدي ينشأ عن الاصابة بنوعين من الفيروسات : الاول يدخل الى الدم مباشرة عن طريق حقنة ملوثة والثاني قد يشق طريقه الى الكبد ، اما عن طريق حقنة ملوثة ايضا اوالاكثر حدوثا عن طريق تناول طعام ملوث بالفيروس او الاختلاط بمريض يحمل الميكروب عن طريق استعمال الاشياء المشتركة كالفوط او الفيارات بل وربما ايضا المخالطة العادية والسلام باليد . . .

في الحالة الاولى ـ وهي دائما الاخطر والاقل شيوعا ـ يجب عزل المريض تماما في مستشفى للحميات خاص . . اما بالنسبة للاصابة بالفيروس الاقل خطورة فيمكن تمريضه في المنزل مع مراعاة كافة الشروط الصحية في البيئة المحيطة حوله وتمثيل ذلك في محاولة عزل المريض في حجرة خاصة به . . . . يدخلها هواء متجدد .. وتنظف يوميا وتغسل ارضها بالمياه ومادة مطهرة الى جانب ضرورة تخصيص كل الادوات الشخصية للمريض كأدوات المائدة والفوط والملايات ، مع مراعاة ان يوجه اهتمامه لتطهير دورة المياه بعد كل استعمال بمحلول مطهر وغسل يديه باستمرار وقص اظافره .

ويراعى بالطبع الا يختلط به افراد العائلة خاصة الاطفال في كل الاوقات ، وقد يصعب هذا ، خاصة وان العلاج يتطلب البقاء في الفراش لفترة طويلة تبدأ مع المرض وتنتهي بعد اسبوعين من اختفاء مظاهر الاصفرار في العين والجلد .. لذا يراعى محاولة التخفيف على المريض خاصة اذا كان طفلا .. بمحاولة شغله ببعض هواياته كالقراءة والرسم والموسيقا وربما مشاهدة التليفزيون في حجرته .

وعلاج الالتهاب الكبدى لا يعتمد على الادوية قدر اعتماده على الراحة الكاملة وحسن التمريض الى جانب وجبة غذائية خفيفة تكثر فيها المواد السكرية مثل العسل والمربات والفواكه . وعصائرها المختلفة الى جانب فيتامين (ب) المركب والكالسيوم وتقليل المواد الدهنية تماما فلا يسمح بتناول اللبن والبيض والجبن او الطهي بالزبد ، وتمنع عنه المواد البروتينية خاصة انواع اللحوم والاسماك والبقول ، ولكن يعاد التعامل مع تلك الاطعمة بعد فترةوبالتدريج وبكميات صغيرة تتزايد مع الشفاء .

وقد يحتاج الطبيب لبعض الادوية المساعدة اذا تطلب الامر علاجا بالكرتيزون في الحالة الحادة او المضادات الحيوية اذا ما تسلل ميكروب آخر ليصيب جهازا غير الكبد خاصة وأن مقاومة الجسم تكون ضعيفة في مواجهة غزو الميكروبات الأخرى الى جانب بعض الفيتامينات كما يتراءى له .

ويحظر تماما الاستعانة بالادوية التي تحث الكبد على العمل ، وبالذات ، في الفترة الاولى والحادة من المرض،لأن في هذا إجبارا لكبد المصاب على العمل مما قد يتسبب في تدهور الحالة .

الأطفـال والحمى الروماتيزمية

O هـل تنحصر الاصـابـة بالحمي الروماتيزمية في فترة الطفولة ؟ وما هي وسائل الوقاية منها وعلاجها ؟ .. وهـل يتم الشفاء منها تماما ام انها تترك اثرا ؟ ..

ـ يندر ان يصاب شخص بعد الخامسة والعشرين بالحمى الروماتيزمية ، بينما يمكن اصابته فيما بين الخامسة والخامسة عشرة في حوالي ٩٦٪ من الحالات ، ورغم ان الحمى الروماتيزمية تعد من تلك الامراض التي قد يقال بانها قد قتلت بحثا ، الا ان سبب الاصابة بها حتى الان يعد لغزا ، لكن اقرب النظريات الى الصحة قد تكون تلك التي تقول انها تفاعل ينشأ في الدم بعد الاصابة بميكروب Haemolytic Streptococci الذى يصيب الجزء الاعلى من الجهاز التنفسي محدثا التهابات اللوز والحلق ويرتبط بمستوى معيشي منخفض نوعا ، وتكثر الاصابة به بين الفتيات وقد يبدو اكثر حدوثا في الشتاء عنه في الصيف .

وتتغير مظاهر المرض بين مجرد اعراض الاعياء البسيطة وفقدان الشهية الى آلام المفاصل الشديدة التي تصيب المفاصل الكبيرة غالبا بالتتابع الى الحمى بل وهبوط القلب في الاصابات الشديدة .

لذا يحسن سرعة اجراء التحاليل اللازمة منذ البداية والتي تتمثل في :

ـ صورة دم كاملة تشمل عدد كرات الدم الحمراء والبيضاء بل وعددها النوعي حيث يتزايد عدد كرات الدم البيضاء ، وقد تقل الحمراء الى جانب الارتفاع الملحوظ في سرعة الترسيب .

ـ بعض التحاليل المتخصصة للدم مثل **Antistreptolysin O titre & C — reactive protein**

ـ رسم القلب والذى يوضح بعض التغيرات في حالة تأثر القلب ذاته بالنشاط الروماتيزمي ويعتمد علاج الحمى الروماتيزمية على البنسلين والاسبرين والكورتيزون دائما وفقا لحالة المريض ، الى جانب الراحة الكاملة في الفراش لمدة اسبوعين بعد الانتهاء من كل اعراضها وان كانت الوقاية من الحمى الروماتيزمية لا تعني سوى الاهتمام دائما بصحة الجهاز التنفسي والقضاء على اى اصابة ميكروبية باستخدام المضاد الحيوى الملائم والذى يتألف غالبا من البنسلين او احد مشتقاته ، فان علاجها في الواقع قد يطول اذ ان هناك فرصة دائمة للنكسة خاصة عند الاصابة بها بين الخامسة والخامسة عشرة ، كما انها كثيرا ما تصيب صمامات القلب بالتشوة التي تنشأ عند ضيق الصمام .

لذا كان دائما من الواجب توفير الحماية الكافية للقلب من الاصابة الثانية اذا ما راعينا الآتي : ـ

* دقة تشخيص الحمى الروماتيزمية ، اعتمادا على الكشف الاكلينكي والفحوصات المعملية .

* سرعة علاجها بكميات كافية من الاسبرين والبنسلين والكورتيزون حسب الحالة .

* الراحة الكاملة في الفراش طوال فترة العلاج .

* الالتفات الى كل مواطن الضعف في الجسد البشري خلال فترة الاصابة بالحمى الروماتيزمية مثل الصدر والكلى والاذن والحلق وضرورة اعطاء المضاد الحيوى الملائم والذى ينتمي غالبا لمجموعة البنسلين .

* بعد الشفاء منها نهائيا تعطى حقن من البنسلين طويل المفعول (مليون ومائتي الف وحدة) شهريا وبانتظام حتى سن الخامسة والعشرين او تستبدل باقراص السلفا يوميا (١ جرام) يوميا او

احد المضادات الحيوية البنسلينية (٢٥٠ مجم) يوميا .

● في حالة الاصابة بأى التهابات في الزور او الحلق او خلع احدى الاسنان ، تستخدم المضادات الحيوية لخمسة ايام على الاقل في جرعة كاملة .

● اذا ما تكررت التهابات الحلق واللوز يحسن ازالتها جراحيا خاصة اذا ارتبطت بالآم المفاصل . هذا ويبقى دائما المثل القائل « الوقاية خير من العلاج » افضل ما ينطبق على الحمى الروماتيزمية .

تضخم الغدد الليمفاوية

○اصيبت ابنتى منذ فترة بتضخم في بعض الغدد الليمفاوية في رقبتها .. وبعد اجراء الفحوص ثبت انها مصابة بالدرن ... فهل يصيب الدرن اماكن اخرى غير الرئة ؟ وهل حالتها معدية ؟ ..

ـ رغم ان الرئة هي المكان الاول الذى يسعى اليه ميكروب السل حتى لقد سمى بالرئوى الا ان ميكروب السل يمكن ان يصيب اى انسجة في الجسم بدءا من الجهاز العصبي الى الهيكل العظمي مرورا بالامعاء والكبد والبنكرياس والكلى وحتى القلب والمخ لا يسلمان منه ، فقد يصيب الغشاء المغلف لهما فيحدث التهابا درنيا ، وفى بعض الاحيان تلتقط إحدى الغدد الليمفاوية او سلسلة منها ـ كتلك التى في العنق او تحت الابط او اعلى الفخذ ـ الميكروب ، وتحصره تماما داخلها فتبدو كعملية فدائية تخوضها بشجاعة حيث تتم داخلها فقط المعركة كاملة بين الميكروب وبين أنسجة الغدة التى تقدمها مختارة كجزء من عملها الهام كخط دفاع طبيعى للجسد الانسانى .

وعلى هذا ينحصر خطر الميكروب في الغدة الليمفاوية فلا يصبح الشخص معديا على الاطلاق . ويمكن التعامل معه بحرية كاملة بعد التأكد من ان الميكروب فقط في الغدد ، ولم ينتقل من الرئة اذ ان العكس ليس صحيحا .. فاصابة الرئة بالدرن قد تنتشر فتصيب اى مكان ، لكنها اذا ما تمركزت في الغدد الليمفاوية فانها تظل محاصرة .

وتشخيص المرض في تلك الحالة يتأكد بفحص عينة مجهرية من الغدة الليمفاوية ، وعلاجها مضمون بذات الادوية التى تستخدم في علاج الدرن الرئوي وهى :

× حقن الاستربتومايسين

× عقار البارامينوسالسيلك آسد

× عقار الايزد نيكوتنيك آسد

وقد يتطلب الامر استخدام المضادات الحيوية الحديثة مثل السيكلوسيرين او الريفادين مع بعض الفيتامينات والمقويات العامة .

وعلاج مثل هذه الحالة مضمون تماما ، ولكن يجب ان يستمر ثمانية عشر شهرا كاملة ، ولا تتعقد الامور الا في حالات نادرة جدا حيث قد تحدث قرحة نتيجة لانفجار احدى الغدد الليمفاوية والتى غالبا ما تكون عنقية فتفتح لخارج الجلد وفى هذه الحالة يحسن التدخل الجراحى لازالة الغدة وربما السلسلة التى تنتمي اليها مع استمرار العلاج كاملا لنفس الفترة .

وتتم متابعة الحالة دائما عن طريق صور الاشعة المتكررة للصدر وصورة الدم والحالة العامة للمريض حتى يتسنى للطبيب الحكم على نجاح الادوية المستخدمة الى جانب الاطمئنان الى ان الميكروب بالفعل لم ينقل المعركة الى ميدان آخر خلسة .

عندما تجني المبالغة على الشعراء

بقلم : عبد الوهاب شكري

ليست المبالغة شيئا غريبا على الذين يقرضون الشعر ، لكن منها ما أصاب هؤلاء الشعراء بعكس ما توقعوه ، عندما زاد الأمر عن حده ، فانقلب الى نقيضه وضده ، كما يقول المثل .

التوسل بالاطفال اجراء دفاعي ووقائي بحت ، يهدف الى وضع المخاطب مكان المتهم او الجاني لملابسة احواله ومعاناة التجربة النفسية عن طريق نفثات من العواطف الوجدانية ، وبضروب من الايحاء المؤدية الى الصفح والغفران ، كرد فعل ، اعتبارا لسن اولئك الأطفال المهددين بفقدان آبائهم ومراعاة لمشاعرهم . وحادثة تميم ابن جميل الدوسي الخارجي مع المعتصم - مثلا - وقبلها مؤاخذة عمر بن الخطاب للحطيئة ، حين هجا الزبرقان ابن بدر ، او سلع عليه على حد تعبير حسان في بيته المشهور :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

وما كان من عفو الخليفتين عن الرجلين .. كل ذلك شاهد اثبات على نزوع النفس الى التسامح وقبول الاعتذار ، مهما عظمت الاساءة أو الذنب ، فمما قاله الأول يستعطف المعتصم حين وقع في قبضته وقدم للاستنطاق :

وما جزعي من ان أموت وانني
لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكنّ خلفي صبية قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى اليهم
وقد لطموا تلك الخدود وصوّتوا

لئن عشت عاشوا سالمين بغبطة
أذود الردى عنهم ، وان مت موّتوا

بينما أرسل الثاني من سجنه الى عمر في نفس الغرض :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فالتوسل بالأطفال صراحة او ضمنا يدرأ الكثير من الأخطار والمحن ، وقد دأب الناس منذ أقدم العصور سواء في السلم أو الحرب على الرأفة بهم ، وهي سنة الحية يكاد يكون في حكم المستحيل إبطالها لأسباب انسانية وقانونية واخلاقية ، فقد جاء في حديث قدسي ان الله تعالى قال : (لولا أطفال رضع وشيوخ ركّع وبهائم رتع لصبّ عليكم العذاب الأوجع) .

فلا غرابة أن يلجأ بعض الشعراء الى الاحتماء بأطفالهم في الساعات الحرجة ، واتخاذهم شفيعا لدرء المخاطر عنهم ، ويعتبر التوسل بهم اخر وسيلة وقائية في المظنون . على أن المثير للمشاعر الانسانية حقا . هو افتقار الأطفال الى العائل ، وحاجتهم الفطرية الملحة الى الابوة التي ليس شيء في الدنيا يعدلها . وبهذا الأسلوب الاستعطافي الموحي بالرأفة ، المثير للشفقة ؛ يدخل الشاعر المتهم أو المحكوم عليه ، في حوار جادّ ولاهث مع الطرف الآخر ،

لاستدرار عفوه وانتزاع لفتة كريمة منه ، يحيا بها من جديد ، حسب ما يملكه من طاقات انفعالية أو ايحاءات سحرية ، وغيرها من وسائل الاقناع والتأثير .

من العزّ الى النكبة

ونصل الآن الى طرح السؤال التالي : الى أي حدّ يمكن الاستفادة من هذا الاسلوب في حماية الأنفس المهددة ؟ الجواب يقودنا الى الحديث عن الشاعر المغربي أبي جعفر بن عطية القضاعي المراكشي (٥١٧ ـ ٥٣٣ هـ) الذي نكب على يد الخليفة عبد المؤمن الموحدي (٤٨٧ ـ ٥٥٨ هـ) . ولكي تتضح لنا فداحة النكبة ومدى جنايتها على الأدب يجدر بنا أن نشير باقتضاب ، الى مكانة الرجل ككاتب ووزير وشاعر معا ، معدود في الطبقة الأولى على ضوء شهادات المؤرخين وأقوال بعض معاصريه ، ومنهم الخليفة عبد المؤمن نفسه . حقا لقد كانت نكبة ابن عطية خسارة أدبية كبرى عبّر عنها هذا الخليفة في شيء من المرارة والتدم حين لملم الشعراء ، واوعز اليهم بهجائه بكل ضروب التشنيع والعورات ليجد تبريرا لخطه الجسيم ترتاح له نفسه ويطمئن قلبه . فلما أسمعوه ما قالوا ، اشاح عنهم بوجهه في أسف ظاهر ثم قال : (ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه) . ولا شك أن هذه شهادة منصفة وتتطابق مع واقع الرجل ومكانته التي بلغت شأوا بعيدا بين ادباء العصر الموحدي ، وهي ان لم تنصفه حيا فقد أنصفته ميتا ولكن شتان ما بين الحالين .

أما صاحب النفح فقد قال عنه ، في سياق الاشادة به هذه العبارة الجامعة : (كانت وزارته زينا للوقت وكمالا للدولة) وقال عنه كاتبه الخاص أبو بكر بن نصر الاوسي يمدحه ، وابن عطيه لا يزال بعد على كرسي الوزارة بيده القلم :

أبا جعفر لنا الفضل الذي نال جعفر
ولا زلت بالعليا تسر وتُخبَّر
عليك لنا فضل وبرّ وأنعم
ونحن علينا كل مدح يحبَّر

كما مدحه ابن حبوس الفاسي شاعر الدولة الموحدية الرسمي ، بقصيدة قبل أن ينقلب الى هجائه ومنها :

وزير العلا عندي من القول فضلة
رويّتها في مدحكم وارتجالها
وما كنت أخشى مدة الدهر أن أرى
تميد بي الارض وانتم جبالها

أما لسان الدين بن الخطيب فقد وصفه في الاحاطة بقوله : (كان كاتبا بليغا سهل المآخذ منقاد القريحة سيال الطبع) . وجماع القول ، فان ابن عطية كان من شيوخ الأدب في العصر الموحدي ، له القدح المعلى في هذا المضمار ، ويمثل وحده قمة شامخة لا تدانى .

أما أسباب نكبته ففيها شيء من الاختلاف والتداخل حيث تتضارب الروايات في شأنها ، فهو مرة متهم بالتواطؤ ضد الموحدين ، استنادا الى ابيات شعرية هي لا محالة من اصطناع اعدائه الذين احتالوا ليوغروا بها صدر الخليفة عبد المؤمن عليه ، مستغلين غيابه موفدا من قبله في مهمة رسمية الى أشبيلية سنة ٥٥١ هـ ، وقد طرحت الأبيات بمجلس الخليفة كشاهد إثبات ، ومنها :

قل للأمير أطال الله دولته
قولا تبين لذي لب حقائقه
ان الزراجين (*) قوم قد وترتهم
وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير الى آرائهم ميل
لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في اطفاء نارهم
فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهُمُ كهمُ
فاحذر عدوّك واحذر من يصادقه
الله يعلم أني ناصح لكم
والحق أبلج لا تخفى طرائقه

ولكن بلاغة الأبيات وروعة بيانها وخطورة مضمونها السياسي في أبعاده ومراميه ، كل ذلك جعل نسبتها اليه في نظر عبد المؤمن أمرا ممكنا . حتى ولو لم تكن هناك سوابق تبرر سوء الظن به ، الى حد اتهامه بالخيانة ، ومن ثم تعريضه الى هذا الامتحان العسير . ومرة يقال انه (أفضى اليه بسر أفشاه) في سياق النصح للخليفة ، وانقاذ صهره القائد يحيى المعروف بابن الصحراوية المرابطي الذي (نقلت عنه الى عبد المؤمن اشياء كان يفعلها ، واقوال كان يقولها ، أحنقته عليه) . بينما هو عند ابن حبوس الفاسي المذكور ، متهم بمحاولة (اختلاس الملك لنفسه وذلك ما يكون عبد المؤمن قد روجه بين الناس لتبرير قتله) . حيث يقول من قصيدة يهجوه فيها بعد النكبة :

(*) الزراجين = البربر

أندلسي ليس من بربر
يختلس الملك من البربر
لا تسلم البربر ما شيدت
بالملك القيسي من مفخر

ونسبة ابن عطية الى الاندلس هو انكار لأصله الحقيقي وهو في الوقت ذاته خطأ واضح ولعله مقصود من ابن حبوس بغرض الذمّ .

وأيا ما كان فان اعداء الشاعر هم الذين (كادوا له واوقعوا به) ، إضافة الى أن اعتذاره في رسالته الأخيرة التي وجهها من سجنه الى عبد المؤمن اثر فيض من الرسائل الاستعطافية الأخرى ، زاد الأمر تعقيدا وادىّ الى التعجيل بقتله ، وما كان له أن يفعل لولا اعتقاده أن ذلك هو المنقذ الوحيد للخلاص ، بعد أن ضجّ من غياهب السجن وحياة الاعتقال وما لاقاه من معاناة ، تتجاذبه عوامل اليأس والرجاء ، وعن هذا يقول :

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا
فقد آن أن تنسى الذنوب وان تمحى
فها أنا في ليل من السخط حائر
ولا اهتدي حتى أرى للرضا صبحا

نموذجان في الاستعطاف

ورغم أن هذه الرسالة ـ وغيرها كثير ـ امتازت بنصاعة ألفاظها وجزالة أسلوبها كما سنرى ، قمينة ببلوغ الهدف وتأدية الغرض المقصود ، فقد اعتبرت في نظر بعض المؤرخين المغاربة السبب في مصرع الرجل ، اذ اورد فيها طائفة من التحديات والخطايا من قبيل المبالغة ، على فرض ارتكابها تنبيء عن درجة وعيه والمامه بكبار الحوادث وعن رصيده في الميتافيزقيا ، مع ثراء في الذهن وخصب في الخيال . ومما قال فيها مخاطبا الخليفة عبد المؤمن : « تالله لو احاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخير بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود فانفت لآدم من السجود وقلت ان الله لم يوح بالفلك لنوح ، وأبرمت لحطب الخليل حبلا ، وبريت لقدار ثمود[1] نبلا وحططت عن يونس شجرة اليقطين وقبضت من أثر الرسول قبضة فنبذتها[2] واقترفت على العذراء البتول فقذفتها وكتبت صحيفة القطيعة[3] بدار الندوة وظاهرت الاحزاب بالقصوى من العدوة وذممت كل قرشي ، وأكرمت لأجل وحشي[4] كل حبشي ، وقلت ان بيعة السقيفة لا توجب امامة الخليفة ، وشحذت شفرة غلام[5] المغيرة بن شعبة ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها[6] بشعبة ، وقلت تقاتلوا[7] رغبة في الأبيض والأصفر[8] واسفكوا ، الدماء على الشريد الاعفر وغادرت الوجه من الهامة خضيبا[9] وناولت من قرع سن الحسين قضيبا[10] ثم أتيت حضرة المعلوم لائذا وبقبر الامام المهدي عائذا ، لقد آن لمقالتي أن تسمع ، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع مع أني مقترف بالذنب ، معترف .

عفوا أمير المؤمنين فمن لنا
بـرد قـلـوب هـدهـا الخفقان

ولم يشأ ابن عطية ، وهو الكاتب البليغ ، أن يكتفي في استعطافه للخليفة بلغة نثرية مسجوعة تتناغم ايقاعاتها خلال جمل قصيرة ، يركض فيها لاهثا متقطع الانفاس ، يقتنص الشوارد من كبار الحوادث ، مجشما نفسه ركوب الأهوال ، والضرب في الآفاق عبر مفازات الزمان وفيافيه ليكون منها نسيجا عضويا واحدا في المضمون مع تنوع تلك الشوارد ، بل لجأ أخيرا الى الوساطة الشعرية ضمانا لتأدية الغرض المطلوب باعتبار لغة الشعر اقدر من غيرها على الايحاء والتأثير مما يقصر عن بلوغه النثر الذي يعجز في الغالب عن التفاعل مع وجدان المخاطب وتحريك مشاعره وعواطفه ، فكتب القصيدة التالية يستعطف الخليفة عبد المؤمن ، وهي آخر ما كتبه في السجن من درره الأدبية ، واختار أن يكون رسوله وشفيعه ابنا له صغيرا

---

١) قدار ثمود : عاقر ناقة صالح .
٢) نبذتها : اشارة الى فعل السامري بعجل بني اسرائيل .
٣) صحيفة القطيعة التي كتبتها قريش وعلقتها في الكعبة لمقاطعة بني هاشم رهط الرسول .
٤) حبشي : هو قاتل حمزة عم النبي وكان مولى حبشيا .
٥) غلام المغيرة : قاتل عمر بن الخطاب .
٦) أشمطها : يعني به عثمان بن عفان .
٧) تقاتلوا : يعني الصحابة .
٨) الأصفر : يريد ما كان بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .
٩ : خضيبا : اشارة الى اغتيال علي كرم الله وجهه .
١٠) قضيبا : يروى عن يزيد بن معاوية أنه لما وضع أمامه رأس الحسين أخذ ينكت أسنانه بقضيب كان في يده .

يحدوه الأمل في الصفح وزوال ليل الحيرة عنه ، وكعادة شعراء العصر الموحدي ، عمد ابن عطية الى المبالغة في الاستعطاف ، الى حد الاسراف ، حيث يقول :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد
بان العزاء لفرط البثّ والحزن
قد أغرقتنا . ذنوب كلها لجج
ورحمة منكمُ أنجى من السفن
وصادفتنا سهام البين عن عرض
ورحمة منكمُ أوقى من الجُنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه
بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة
بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر بعد الغسل من درن
والطرف يرهض بعد الركض في سنن
انتم بذلتم حياة الخلق كلهم
من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من احيت مكارمكم
كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر
لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سالفة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

غير أن عبد المؤمن تلقى خطاب الشاعر بامتعاض شديد ورفض قاطع ، حيث وقّع عليه بهذه اللهجة الحادة المؤنبة : (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) .

أكان عبد المؤمن حقا قاسي القلب حين لم تشمله بلاغة الابيات ولم تأخذه الرأفة بالشفيع الصغير الذي هرع الى الخليفة يحمل بين كفيه خطاب الاستعطاف من والده الذي هده الحزن وبقي تحت رحمة الأقدار ينتظر المفاجأة ماذا عساها أن تكون ؟

بين ابن عطية وابن زهير

وما من شك في أن ابن عطية عندما استعطف الخليفة كان ينتظر رد فعل باطلاق سراحه ، اذ لم يكن يتوقع في يوم من الأيام هذه الكبوة نظرا للصلة الوثيقة بين الرجلين وعلو مكانة أحدهما عند الآخر . وجنوح الشاعر الى المبالغة في الاستعطاف شطحة صوفية أطمعته نوعا ما في الفوز بالرهان وتدارك الموقف او انقاذ ما يمكن انقاذه . ولم يكن يتصور أنه كان يحفر قبره بكلتا يديه استجابة لحكم القدر ، واذا كان الاستعطاف صنوا للمدح في الاشادة بمناقب الممدوح ومفاخره وهو ما يتفق مع ميول عبد المؤمن ، فلماذا اذن لم يقبل توسله ويقل عثرته مع اقراره بجريرته لو لم يكن الأمر كذلك ؟ . ان اقصى ما كان يطمح اليه ابن عطية هو ايماءة بالقبول والاستحسان قانعا من الغنيمة بالاياب أو على نحو ما حصل لكعب بن زهير حين مدح الرسول ﷺ في معرض الاستعطاف بقوله :

ان الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف الله مسلول

غير ان كعبا لم يشأ أن يجشم نفسه ركوب المبالغة بل سلك طريقا وسطا اذ كانت البلاغة عنده مطابقة الكلام لمقتضى الحال أو الصفة للموصوف . ولكن أليس في تمجيد ابن عطية للخليفة (بما ليس فيه أصلا) مبالغة أضفت عليه بعض الخصوصيات الالهية ؟ كقوله :

ونحن من بعض من احيت مكارمكم
كلتا الحياتين من روح ومن بدن

أو كقوله :

قد أوجدتهم أياد منك سالفة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ألم تكن المبالغة شؤما على عليّ بن جبلة في المدح كما هي في الاستعطاف ؟ حين قال في أبي دلف :

أنت الذي تنزل الأيام منزلها
وتنقل الدهر من حال الى حال
وما مددت مَدى طرف الى أحد
الا قضيت بأرزاق وآجال

كلا ، ولكن ليس على يد الممدوح هذه المرة بل على يد الخليفة المأمون العباسي الذي استدعاه وهو عليه حانق وقد اتهمه بالكفر والاشراك أو على نحو ما قال له : (كذبت ياماص بظر أمه . ما يقدر على ذلك أحد الا الله عز وجل المالك الواحد القهار) ثم أمر به فسل لسانه من قفاه . وان كانت الغيرة الحافز النفسي والباعث على الانتقام من جهة أخرى .

وتلك هي سنة الله في كل شطط أو مبالغة حيث تنقلب الاشياء الى اضدادها ، ولا عجب ، فقد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . ■■

عبد الوهاب شكري
ورزازات ـ المغرب

بذكر الله تطمئن القلوب

● لاحظت في العدد ٢٨١ من العربي الصادر في ابريل ١٩٨٢ صفحة ١٢٦ وفي زاوية (طبيب الاسرة) ردكم للاخ بسام محمد اسعد فيما يختص بالامور المهدئة للاعصاب ان كل ما ذكرتموه كان جميلا . لكن اسمحوا لي ان اضيف الى ما ذكرتموه كوسائل مهدئة للاعصاب بعض الامور الهامة المتعلقة بنفس الموضوع وهي ان من خير ما يهدىء الاعصاب :

١) طاعة الله وتقواه (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) ، (ومن يتق الله يجعل له من امره يسرا) .

٢) ذكر الله (الا بذكر الله تطمئن القلوب) وخاصة قراءة القرآن (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) .

٣) تنظيم الأمور المالية وكما يقال التدبير نصف المعيشة/ وكثير من التقارير اثبتت ان الامور المالية لها التركيز في تسبيب القلق وكل انسان يجب عليه ان (يمد رجله على قدر فراشه) كما يقول المثل الشعبي . بذلك ارجو من مجلتنا المحبوبة (العربي) مجلة كل عربي نشر هذا استكمالا للفائدة .

عبد الكريم عبد الله حامد
اليمن الشمالي

جائزة كتّاب ثقافة الطفل

● أعلنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن جائزة ثقافة الطفل العربي لدورة ٨٠/ ١٩٨١ بتاريخ ٢٩ مارس/ آذار ١٩٨٠ ، وقد استجاب للمشاركة في المسابقة للجائزة واحد وثلاثون كاتبا من جميع أنحاء الوطن العربي ، تقدموا بسبعة وخمسين (٥٧) كتابا في ثقافة الطفل .

وقد عقدت لجنة التحكيم للجائزة ـ والمشكلة بقرار صادر عن المدير العام للمنظمة ـ اجتماعاتها في اليومين الثاني والثالث من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٢ وانتهت الى النتيجة الآتية :

١) تسند الجائزة الأولى ، ومقدارها ألفان وخمسمائة (٢,٥٠٠) دولار للسيد محمد شمسي (من الجمهورية العراقية) عن قصته « لصوص البحر » .

٢) تسند الجائزة الثانية ، ومقدارها ألف وخمسمائة (١,٥٠٠) دولار للسيد صنع الله ابراهيم (من جمهورية مصر العربية) عن مؤلفه « يوم عادت الملكة القديمة » .

٣) تسند الجائزة الثالثة ، ومقدارها ألف (١,٠٠٠) دولار مناصفة بين السيدة روضة الفرخ الهدهد (من المملكة الأردنية الهاشمية) عن قصتها « قافلة الفداء » والسيد محمد الحبيب بن سالم (من الجمهورية التونسية) عن قصته « الوسام » .

الدكتور صالح خرفي
مدير ادارة الثقافة/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

الأدب التركي

● في مستهل سطوري احييكم واشكركم على هذا المجهود الوافر الذي تبذلونه في سبيل اخراج مجلة العربي الغراء .

فانني انتظرها بفارغ الصبر وانزوها من البداية للنهاية بامعان ، وخلال قراءتي لها احس بنشوة ثقافية وأرجو ان تنشروا المزيد من قصص عميد الأدب التركي (نجيب فاضل) الذي نشرتم له قصة « حسنة باجي » في العدد « ٢٨١ » .

محمد عبد الفتاح محمد عفيفي
الاسكندرية/ مصر

من التراث القديم

● اقترح عليكم كصديق للمجلة أن تضيفوا الى كل عدد بابا خاصا تحت عنوان «من التراث القديم»، فتنقلوا لنا في كل عدد صفحة او صفحتين لا اكثر من الكتب الادبية القديمة. مثل: «الأغاني والمقامات والبخلاء وقصص العرب و . . . الخ». وبهذا تجعلون القارىء يطل من نافذة معقولة على تراثنا واجدادنا القدماء، لأن هذه الكتب - كما تعلمون - ليست في متناول كل قارىء . . .

احمد ناصيف
حلب / سوريا

ايامنا في الاندلس

● لقد قرأت بالعربي عدد ٢٨١ عن صريع الدهر المعتمد ابن عباد بقلم الدكتور رجاء عبد، وقد اعجبت بالنص لما تضمنه من حقائق تاريخية وأدبية، الا انني اريد ان الفت نظر الدكتور انه لا داعي لذرف الدموع على قوم كانوا سبب البلاء، وساهموا في ضياع الاندلس واقاموا حروبا اهلية كان المسلمون في غنى عنها، وعلى العكس من ذلك، علينا ان نفخر ونشيد بأولئك الذين قضوا على ملوك الطوائف ولم يبخلوا بجهد لاعادة وحدة وعزة البلاد ومجدها.

ولولا عودة الفرقة واشتداد النزاع على السلطة بالاندلس بعد زوال ملك المرابطين وغيرهم من الملوك الاقوياء الذين تعاقبوا على حكم المغرب، لما فقدنا الاندلس حتى يومنا هذا. ومعذرة، ،

رغيب عبد اللطيف
ضابط بحري - البيضاء

خريطة كوكب الزهرة

جاء في المقال المنشور في مجلتكم الغراء (العربي) لشهر شباط ١٩٨٢. حول (اول خريطة للزهرة) - بان الزهرة تقترب من الارض حتى تصل الى مسافة (٨٣) مليون كيلومتر وذلك في الصفحة (٤٨) منها. بينما جاء في الصفحة المقابلة لها (احصائيات الزهرة) - البعد عن الارض = ٣٨ مليون كيلومتر على الاقل. فأيهما اصح؟ يرجى التفضل بتنويرنا ولكم الشكر.

العربي: نأسف لهذا الخطأ المطبعي والصحيح هو ٣٨ مليون كيلومتر.

سليم مختار - العراق

مجلة العربي في الجزائر

● الكمية التي تصل الجزائر من اعداد مجلة العربي لا تكفي القراء الذين يتهافتون للحصول على نسخها . . . فبالله عليكم، زيدوا هذه الكمية ليتمكن القارىء الجزائري من التزود بهذا الزاد الفكري الثر بعد ان حال المستعمر الفرنسي بيننا وبين ثقافتنا العربية الاصيلة.

لعوني جلول
ولاية تيارت - الجزائر

بيوت للطلبة العرب

●جالت في خاطري فكرة أحببت ان اطرحها للمناقشة على صفحات مجلة «العربي» علها تعطي البناء العربي بعض القوة التي يحتاجها خصوصا في هذه الايام. وهذه الفكرة تتلخص في دعوة الحكومات والاثرياء العرب للقيام ببناء بيت للطلبة في كل مدينة امريكية او اوروبية تحوي تجمعا لمثل هؤلاء الطلاب.

ان بيتا كهذا في كل مدينة يكثر فيها الطلاب العرب سيسهم في ازالة الرواسب التي خلفها الاستعمار في بلادنا. فعندما يلتقي الطالب السعودي بالكويتي والمصري والفلسطيني والمغربي والسوري والتونسي الخ في بيت واحد. فيه يتناسون يأكلون ويتناقشون في شئون امتهم العربية.

عبد الحميد عربي
حلب / سوريا

حملة الالقاب

● أنا من قراء مجلتكم منذ زمن بعيد ، لأني اراها مدرسة سيارة تسعى الى قرائها ولا تكلفهم السعي اليها لاقتطاف ثمارها . وقد اطلعت على الكلمة القيمة التي صدر بها المحرر عدد مارس ، ردا على من سموا أنفسهم بالاكاديميين ، وهي كلمة تنطوي على واقع علمي سليم ، وانا وان لم اكن من حملة الالقاب الا إنى اقول : ليس كل من حمل لقبا جامعيا هو اهل له . بل اننا نرى كثيرا من اصحاب الالقاب لا يشرفون القابهم ، ولا القابهم تشرفهم ، بينما نرى من غير اصحاب الالقاب اناسا هم ثروة علمية وادبية .

وأغتنم هذه الفرصة لأقول انه قد ظهر على صفحات مجلتكم ، فترة من الزمن ، اسماء اشخاص عالجوا مواضيع من صميم حياتنا وواقعنا ، واخص بالذكر منهم الدكتور احسان حقي الذى عالج في مقالاته كما في جميع كتبه التي لا تقل عن عشرين كتابا ، مواضيع لم يسبق اليها ، فكتبه عن الهند وباكستان وكشمير والدولة العثمانية والجزائر قد اغنت المكتبة العربية وسدت فراغها ، ومقالاته عن الامبريالية والهند وغيرها كانت لها ضجة في جميع الاوساط الادبية والقيمة ويؤسفني ان اقول اننا لم نعد نرى لهذا الاديب كلمة في مجلتكم منذ مدة .

محمد الشعلان

جدة ـ السعودية

لغتنا العربية

● في العدد (٢٨٠) . . وتحت عنوان (من ينقذ اللغة العربية من مؤامرة اغتيالها ؟) قرأت مقالة الأستاذ فهمي هويدى . . . اقول : انه في عام ١٩٧٧ م طرحت مجلة العربي موضوعا عن استقلال جمهورية جيبوتي . . واذكر حينذاك ان اعدادا كبيرة من الرسائل انهالت على المجلة من شباب الدول العربية يعرضون قبول تطوعهم لتدريس اللغة العربية في جيبوتي . . ونشرت المجلة بعض هذه الرسائل ـ وكنت انا من بينهم ـ ثم ارسلت رسالة شخصية خاصة للسيد الرئيس حسن جوليد رئيس الجمهورية ـ الذى تكرم مشكورا بالرد على برسالة شخصية ـ مازلت محتفظا بها ـ

والآن هذه قضية العرب كلهم وان استهنا بها ستتفاقم وتمثل خطرا علينا كلنا ، فاللغة العربية في نظر الاستعمار سلاح قوى ، وإنه يعمل جاهدا على نزعه من يد العرب . . والدول العربية هي مطمح الاستعمار . . فهو يعمل على الحد من انتشار لغتنا في بعض الدول كخطوة اولى ثم يقضي عليها نهائيا . . والا فما معنى ان تكون مدارس اللغة العربية في بعض دول غرب افريقيا تحت اشراف وزارة الداخلية ؟ !!

مطلوب الآن من كل الدول العربية من المحيط الى الخليج وقفة صامدة فعلية ليست بالمجاملة او الكلام لتأمين مستقبل تلاميذ جمهورية مالي الذين سينهون دراستهم الابتدائية والاعدادية . واعتقد اننا قادرون على انشاء مدرسة ثانوية لهم ، وأنا متأكد ان اكثر من شاب واكثر من معلم سيبدى استعداده للتطوع للتدريس في هذه المدرسة ـ .

واعتبروني اول متطوع . . .

سالم محمد شعوير

تكريت/العراق

يتبرع باحدى كليتيه

● قرأت الاستطلاع الذى نشرتموه في عدد يناير/ ٨٢ من العربي عن زرع الكلى ، وقد سررت سرورا عظيما وأنا ارى دولة الكويت تسير قدما في ركب العلم . . وها انا اعلن من على صفحات العربي استعدادى للتبرع بكليتي لأى مريض يحتاجها ، ولدى تحليل كامل عن فصيلة دمي وغير ذلك مما هو ضرورى في مثل هذه الحالة .

ثروت مرقص

الاسكندرية/مصر

من الأدب التركى المعاصر :

معتوه على السطح

تأليف : عزيز نسين

ترجمة : نايف عبد الله السنتلى

كان جميع المحيطين بالمبنى في حالة دهشة واثارة .. «يوجد معتوه على السطح» .

كان الشارع من كلا طرفيه مليئا بالناس الفضوليين لرؤية المعتوه . توافدوا من كل اتجاه ، بما في ذلك سيارات الشرطة والاطفاء .

كانت أم المعتوه تتوسل الى ولدها «انزل ياولدي .. أرجوك أن تنزل» .

كان المعتوه يقول : اذا لم ينصب عمدة للبلدة فسوف يلقي بنفسه من فوق البناية بشكل انتحاري .

فتح رجال الاطفاء شبكاتهم لتفادي حدوث الانتحار .. تسعة من رجال الاطفاء غرقوا في عرقهم المتصبب منهم من جراء التعب حينما كانوا يركضون حول المبنى حاملين شبكة الانقاذ .

كان «العريف» من قسم الشرطة يخاطب المعتوه بنبرات نصف متوسلة ونصف خائفة محاولا إغراءه بالنزول لأسفل المبنى .

- «اجعلوني عمدة للبلده وسوف أنزل .. ما عدا ذلك سوف أرمي نفسي» .

جميع التوسلات والتهديدات ذهبت أدراج الرياح .

- «هيا يا صديقي .. لماذا لا تنزل ؟» .

- «مرحى .... بدلا من محاولاتكم لاغرائي بالنزول .. لماذا لا تصعدون الي أنتم ؟» .

شخص ما من الجمع المحتشد اقترح «دعونا نوهمه باننا عيناه عمدة علينا» .

شخص آخر عارضه «كيف يكون هذا ممكنا ؟ انعين معتوها عمدة علينا ؟» .

- «يا الهي ! نحن في الحقيقة لا ننوي تعيينه عمدة علينا» .

قال عجوز متكيء على عصاه «ذلك مستحيل .. سواء أكان ذلك هزلا أم خلافه ؟ .. ذلك مستحيل» .

- «لكن من الممكن أن يلقي نفسه من عل» .

- «لا : لن يفعلها . انني أعرف هذا الصنف من الناس .. حينما يصعدون الى الأعلى لا ينزلون أبدا الى الأسفل» .

- «اذا نزل فقط .. فالبقية تكون سهلة» .

- «لن ينزل» .

شخص ما من الأسفل صرخ قائلا للمعتوه «هيا .. لقد عيناك عمدة علينا .. انزل للأسفل» بدأ المعتوه بالرقص والصراخ «لن أنزل الا اذا عينتموني عضوا في مجلس المدينة» .

قال العجوز «ألا ترون .. ألم أخبركم بذلك» .

- دعونا نفعل ما يأمرنا به» .

- «لن ينزل مهما فعلت أي شيء من أجله .. حينما يكون



الشخص معتوها بما فيه الكفاية ليتسلق على السطح فلن ينزل الى الأبد » .

صرخ « العريف » حسنا . لقد عيناك عضوا في مجلس المدينة . لا تجعلنا ننتظرك على اعصابنا . . هيا انزل » .

استمر المعتوه بالرقص وقال « لن أنزل . . اجعلوني رئيسا للبلدية حتى أنزل » ؟

قال العجوز « ألا ترون لقد تأخرنا كثيرا . . الآن لن ينزل والى الأبد » .

قال رئيس الشرطة الأول وهو طافح بغزارة في عرقه « ماذا لو قلنا اننا عيناه مديرا للبلدية » ثم جمع يديه حول فمه وصاح بأعلى صوته « حسنا يابني انزل . لقد عيناك مديرا للبلدية . . انزل وتسلم مهام منصبك » .

تراقص المعتوه في القمة بحركات جنونية وصرخ في مدير الشرطة مجيبا له :

« لن أنزل . . ماذا أفعل بين أناس ينتخبون معتوها كرئيس للبلدية . . لا لن أنزل » .

ـ « حسنا . . اذن ماذا تريد ؟ »

ـ « سوف أنزل اذا عينتموني عضوا في مجلس الوزارة فقط »

بعد مناقشة قصيرة صرخ أحد الموجودين في الأسفل « حسنا . . لقد عيناك عضوا في مجلس الوزراء . . هيا انزل الآن . . ألاترى أنك جعلتنا نعيش على أعصابنا ؟ »

وضع المعتوه ابهامه على أنفه وبسط سائر أصابعه ، بشكل احتقاري للحشد المتجمع في الأسفل وقال « لن انزل بين اناس يعينون معتوها كعضو في مجلس الوزراء » .

ـ « هيا يا أخي . . لا تكن معقدا الى هذه الدرجة . . ألا ترى لقد عيناك عضوا في مجلس الوزراء . . وجميع اعضاء مجلس الوزراء الآخرين ينتظرونك على أحر من الجمر . . هيا انزل » .

« أتسخر مني ؟ عندما أنزل سوف تضعونني في مستشفى المعتوهين لن أنزل » .

ـ قال العجوز « اذا استمررت بالالحاح عليه هكذا فسوف يبح صوتك ولا فائدة ترجى منه . . انني اعرف هذا الصنف من المعتوهين بشكل جيد . . كذلك انت لو عينت عضوا في مجلس الوزراء فلن تنزل أيضا » .

عند هذه اللحظة صرخ المعتوه باهتياج « اذا لم تعينوني رئيسا للوزراء فسوف اقذف بنفسي الى أسفل »

ـ « حسنا . . اجابه أحد المحتشدين . . لقد عيناك رئيسا للوزراء »

قال العجوز « لن ينزل »

بدأ المعتوه بالرقص مرة أخرى وبعد لحظة صرخ قائلا



« اجعلوني ملكا عليكم والا سوف أرمي نفسي من الأعلى » .

ما تنبأ به العجوز أصبح حقيقة .. اجتمع بعض المحتشدين ليتشاوروا معه :

ـ « ماذا ترى ؟ هل نجعله ملكا علينا ؟ »

قال العجوز « لقد تأخرنا كثيرا .. الآن يجب أن تنفذوا ما آمركم به ....

لقد عينتموه رئيسا للوزراء من قبل » .

ـ « حسنا .. اجابه أحد المتجمهرين صارخا .. لقد جعلناك ملكا علينا .. انزل الآن » صرخ المعتوه مجيبا وهو يرقص « لن انزل » .

ـ « حسنا .. أتريد شيئا آخر ؟ لقد جعلناك ملكا علينا أيضا »

ـ « لن انزل .. اجعلوني الامبراطور .. غدا ذلك سوف أقفز الى الأسفل » سألوا العجوز « هل حقا سوف يقفز ؟ »

اخبرهم العجوز بانه سوف يفعل ذلك .

ـ « حسنا .. قال أحد المحتشدين .. لقد جعلناك الامبراطور .. الآن انزل » أجابه المعتوه بسرعة « ماذا يجب على امبراطور مثلي أن يفعل بين أناس حمقى وأغبياء مثلكم ؟ » .

ـ « حسنا .. ما الذي تريده على وجه الدقة ؟ أخبرنا .. سوف نؤديه لك .. لم لا تنزل الى الأسفل ؟ » .

قال المعتوه متسائلا : « الست انا الامبراطور ؟ »

اجابه أحد المتجمهرين القابعين في أسفل المبنى صارخا « بلى ـ انت الامبراطور »

ـ « اذا كنت أنا الامبراطور فسوف انزل عندما يحلو لي ذلك .. الآن لن أنزل » عند هذه اللحظة جن جنون « العريف » وقال « دعه يقفز » .. سوف ينقص من هذه الدنيا شخص معتوه .. كان « العريف » يقول ذلك سرا بينه وبين نفسه بأنه لن يضيره موت معتوه .. وهذا صحيح .. لكن سوف يسبب له بعض المشاكل فيما بعد ....

اتجه رئيس قسم الأطباء الى العجوز متسائلا « ماذا ينبغي علينا أن نعمله الآن ؟ ألن ينزل هذا المعتوه ؟ »

ـ « سوف ينزل » .

ـ « كيف ؟ » .

ـ « دعني أستدرجه ... » .

كان كل واحد من الجمهور الموجود مليئا بالفضول لكيفية استدراج المعتوه من قبل العجوز وجعله ينزل للأسفل ..

توجه العجوز مخاطبا المعتوه الذي كان في الدور السابع من المبنى :

« يا صاحب الجلالة الامبراطور .. ألا تود ان تصعد إلى الطابق السادس ؟ »

اجابه المعتوه بجدية تامة « حسنا » عند ذلك توجه الى فتحة السقف .. نزل الدرج الى الطابق السادس .. ثم أطل على الحشد المتجمهر في الأسفل وذلك من خلال نافذة في الطابق .

سأله العجوز مرة أخرى « أتود يا صاحب الجلالة أن تصعد الى الطابق الخامس ؟ » .

اجابه المعتوه بأنه سوف يفعل ذلك ..

كان كل واحد من الجمهور مشدوها لما رآه ..

توجه العجوز سائلا المعتوه الذي كان في هذه المرة يطل على الحشد من إحدى نوافذ الطابق الرابع « اتود يا امبراطوري الموقر أن تصعد للطابق الثالث ؟ »

أجابه المعتوه « بالتأكيد »

هو الآن يطل على الحشد من إحدى نوافذ الطابق الثالث .. لقد كان هادئا ووديعا .. فيما اقلع عن الرقصات الجنونية التي كان يؤديها حينما كان على السطح .. ولقد استمر بتنفيذ التعليمات بجدية وكأنه ملك حقيقي .

ـ « أتود يا صاحب السعادة أن تصعد للطابق الثاني ؟ »

ـ « سوف أفعل ذلك » .

الآن هو في الطابق الثاني ..

ـ « أترغب يا صاحب السعادة بالصعود للطابق الأول ؟ »

نزل المعتوه الآن الى الشارع .. اندس بين الجمهور المحتشد .. توجه مباشرة الى العجوز ووضع يده على كتف العجوز وقال :

ـ « يا إلهي ! .. انه من الواضح جدا انك معتوه أيضا .. وذلك لأن المعتوه يفهم جيدا المعتوه فقط » ثم اتجه الى « عريف » الشرطة قائلا :

« حسنا .. الآن يكون في استطاعتك أن تأخذني الى مصحة المعتوهين .. لكن هل تعلمت شيئا ما عن كيفية معاملة المعتوهين ؟

حينما ركب المعتوه سيارة الشرطة تجمهر الناس حول العجوز متسائلين :

ـ « مرحى أيها القديس .. كيف فعلت ذلك ؟ »

أهز العجوز رأسه واجابهم :

« ليس من السهولة بمكان أن يكون الشخص منشغلا بالامور السياسية أكثر من أربعين سنة » ثم أضاف بصوت يشوبه بعض الحنين :

« وددت لو كانت ساقاي بهما بعض القوة فقط لكنت أيضا تسلقت على أعلى سطح في المدينة لأجعل شخص ما يستدرجني للنزول الى أسفل » !

نايف عبد الله السنتلي

المملكة العربية السعودية

مقالات في كلمات

■ ثوب الرجل الشريف المليء بالرقع يشع بكل ديونه التي سددها .

(فورنوريه)

■ العذر هو كذبة متزخرفة .

(جونا ثان سويفت)

■ غالبا ما يعاقبنا اولئك الذين اخطأوا .

(كلير لارديتوي)

■ الكون مسرح ، لكن توزيع ادوار المسرحية سيء !

(اوسكار وايلد)

■ يشعر الرجل بقوته فيغدق رحمته على المرأة . . وتشعر المرأة بضعفها فتقسو على الرجل .

(برنارد شو)

■ تجنب حب المرأة . . ولا تخف من كراهية الرجل .

(سقراط)

■ من الرجل كل شيء ممكن ، ومن المرأة كل شيء محتمل .

(هنري دي رينييه)

(بول برولا)

■ احب النساء اللواتي لا يتكلمن ، ولا يكلفن غاليا .

(بروسبير)

■ القلب والعقل ليس لهما الا صوت استشاري . الجسد له الصوت المسيطر .

(بول جيرالدي)

■ الرجل المصاب بداء الحب يتحول من صياد الى طريدة .

(اوسكار فوربل)

■ الشاب المتزوج يفقد انفه .

(بول ايلوار)

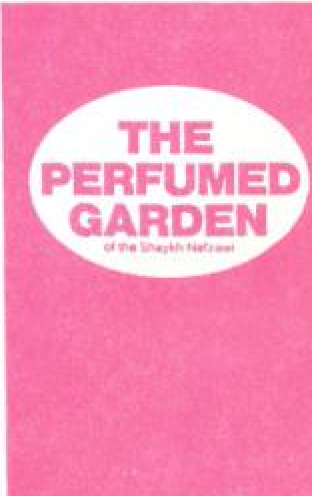
● من مكتبة العربي :

الروض العاطر ونزهة الخاطر

موسوعة عربية فريدة في الثقافة الجنسية

للشيخ الامام أبي عبدالله محمد بن عمر النفزاوي

تقديم : أحمد عمر شاهين

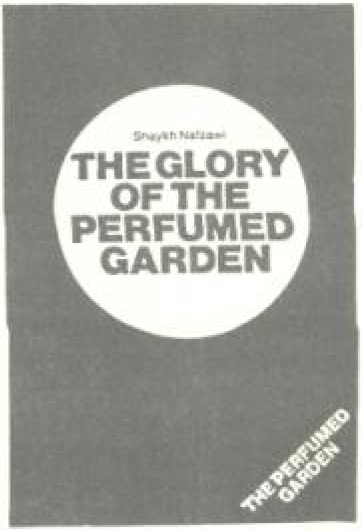


نعود بالتاريخ الى الوراء ، الى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، ونجول في المكان لنصل الى تونس ، فترة حكم السلطان « ابو فارس عبدالعزيز » من بني حفص ، حيث اتسعت المملكة في عهده ، وامتدت الى المغرب الاقصى والاوسط ، وازدهرت البلاد ايامه وازدانت بالعلماء ، وفي طليعتهم المؤرخ والفيلسوف عبدالرحمن بن خلدون ، الذي أهدى نسخة من مقدمته الى السلطان لتحفظ بجامع القرويين بجانب الكتب والمصادر الموسعة التي أعانته في اكمال وتنقيح مؤلفه ، حيث كانت مكتبات تونس في تلك الفترة غنية بالكتب والمراجع ، مزدحمة بمحبي الدرس وطالبي المعرفة .

في هذا الجو كتب العالم الشيخ الامام ابو عبدالله محمد بن عمر النفزاوي كتابه « الروض العاطر ونزهة الخاطر » وهو كتاب لو أردنا تصنيفه الآن بمنطق العلوم الحديثة لقلنا انه كتاب في علم الجنس او في علم النفس الجنسي .

ورغم ان الكتاب وضع باللغة العربية الا أنه من الكتب النادرة ، فهو لم يطبع بالعربية على الاطلاق ، والنسخ الموجودة منه هي مخطوطات عند بعض اصحاب المكتبات الخاصة او في بعض المكتبات العامة . وربما يرجع سبب عدم تحقيقه ونشره باللغة العربية الى الحالات التاريخية والنوادر الجنسية التي طعم بها المؤلف كتابه بحيث يبدو للوهلة الاولى انه من الادب الجنسي المكشوف .

وأول ما لفت نظري الى الكتاب هامش في كتاب عالم النفس الامريكي « اريك بيرن » **Eric Berne** ، « الجنس في الحب الانساني » **Sex in Human Loving** ومن قبيل حب الاستطلاع بدأت أبحث عن الكتاب في مكتبات الازهر القديمة واسأل من لهم اهتمامات بجمع كتب التراث والمخطوطات حتى نصحني أحدهم بألا اضيع



وقتي ، فمن المستحيل الآن العثور على نسخة او بالاحرى مخطوطة من الكتاب بالعربية .

ولذلك فحديثي عن الكتاب هنا يعتمد على النسخة الانجليزية وقد صدرت في جزأين **the perfumed garden** ، الروض العاطر وروعة الروض العاطر **The Glorry of The Perfumed Garden** ورغم أن العرب كتبوا في موضوع الجنس العديد من الكتب ، يذكر منها ريتشارد بيرتون **richard burton**(الذي كان على معرفة وثيقة وعميقة بالادب العربي والفارسي والهندي ، وتعتبر ترجمته الانجليزية لالف ليلة وليلة من أكثر الترجمات دقة ، وقد صدرت في ستة عشر مجلدا تحوي من الدراسات الاجتماعية والتحليلية حول الليالي ما يعادل ضعفي حجمها الاصلي) ، في مقدمته للروض العاطر حوالي عشرة كتب لا يوجد بينها من هو في مثل شمول كتاب الشيخ النفزاوي . ويقول بيرتون « ولا يجب ان نفترض ان كتبا كهذه قصد منها اثارة الشهوة الجنسية . . فالنفزاوي مثلا كان بعيدا كل البعد عن مثل هذا الهدف ، وهناك حقيقة واضحة جدا ، وان كانت غير واضحة تماما في الغرب ، وهي ان الناس في الشرق اقل كبحا لانفسهم جنسيا من الغرب ، لكنهم في نفس الوقت أكثر تدينا واحساسا بالقيم الدينية والخلقية . . وهم ينظرون الى الحب والنشاط الجنسي ليس فقط كعامل طبيعي وصحي وضروري للحياة ولكن كفن يهدف الى ارساء قواعد اساسية للزواج الناجح والحياة الزوجية السعيدة . . وان الكاتب الذي استطاع ان يلمس شيئا من روح الشرق هذه ، هو بلزاك **Balzac**، خاصة في كتابه « فسيولوجيا الزواج » .

والكتاب كما يروي النفزاوي في مقدمته ، كتبه في بادىء الامر بشكل مختصر سماه (مصباح الكون **the Torch of Univers**) ثم وسعه واضاف اليه بناء على اقتراح وزير الدولة آنذاك .

لماذا صدر الكتاب ؟

ولتأليف الكتاب قصة طريفة يرويها ريتشارد بيرتون فيقول ان حاكم تونس عرض على الشيخ النفزاوي منصب القضاء لما عرف من علمه بالدين والقانون والادب والطب ، ولم يرغب الشيخ في هذا المنصب ، ولكي لا يرفض للحاكم امرا فقد طلب تأجيل توليه مهام القضاء حتى يتمكن من الانتهاء من كتاب يعمل به ، فاجيب الى طلبه ، واستطاع انهاء كتابه واهدى منه نسخة الى وزير الدولة آنذاك محمد بن عوانه الزناوي . ولفت الكتاب الانتباه ، ولطبيعة موضوعه اصبح من المستحيل ان يسند الى مؤلفه منصب كمنصب القاضي .

وان كان يصعب تصديق هذه الحكاية ، فكتاب كهذا لا يمكن ان يضعه مؤلفه تهربا من تولي منصب ، دون أن تكون لديه نية حقيقية او استعداد شامل لتأليف هذه « الموسوعة للسلوك الجنسي » كما وصفه الان والتون **Alan Walton**، فمادة الكتاب ، وان لم يذكر النفزاوي مراجعه ،إلا انها اعتمدت على العديد من الكتابات الكلاسيكية العربية لشعراء وكتاب نثر ومختارات ادبية واطباء وفلاسفة وعلماء لغة بالاضافة الى الكتابات الدينية .

بعد انتهاء النفزاوي من كتابه ، زاره وزير الدولة في بيته ، وحينما تطرق الحديث الى موضوع الكتاب ، يقول النفزاوي ، « احمر وجهي خجلا . . » فقال الوزير لاتخجل فكل ما قلته في هذا الكتاب حقيقي ، ولا يجب ان يصدم احدا ، وانك لست اول من عالج هذه المسائل ، ومن الضروري ان يعرف كل واحد ما جاء في هذا الكتاب ، وانه من الجهل وقلة الدراية ان يتجاهله المرء ويسخر منه ، لكني كنت اود ان تتناول مسائل اخرى تتعلق بالموضوع حتى يأتي كتابك كاملا .

واقترح عليه الوزير اضافة ملحق للكتاب ، يصف فيه علاجا لبعض الحالات التي ذكرها ، وسردا لدوافع العمل الجنسي وكل الحقائق المتعلقة به ، له او عليه دون حذف شيء ، ويكون الحديث بتفصيل أكثر عن العمل والعوامل

المسببة للعقم وعلاجها ، وطرق ابطال مفعول السحر والرقى التي تستخدم للحد من القدرات الجنسية (وقد كانت منتشرة آنذاك) بل وطريقة زيادة هذه القدرات ، ثم وصف ادوية لازالة الروائح الكريهة تحت الابط ومناطق الاعضاء التناسلية .. وما شابه ذلك .

وقد عمل الشيخ بالنصيحة وضاعف حجم كتابه ، وهذا لا ينفي ان النساخ اضافوا الى الكتاب بعض ما عندهم من معلومات عن الموضوع ـ كما هي العادة ـ خاصة وان مادة الكتاب تلمس وترا حساسا عند معظم الناس .

ويرجع بيرتون الاختلاف في بعض النسخ المخطوطة الى ان الكتاب كما كتبه مؤلفه في المرة الأولى خصص للاطلاع العام وان الكتاب الموسع لم تحظ به الا القلة .

موسوعة في الثقافة الجنسية

والكتاب مقسم الى ٢١ فصلا ، يتناول كل فصل موضوعا مستقلا وتشمل مختلف الموضوعات التي تتعلق بحياة الانسان الجنسية ، من عملية الجماع بأنواعها المتعددة وطرقها الصحيحة ، وما هو ضار بها والمؤثرات الخاصة لبعض الأطعمة عليها ، وعن الاعضاء التناسلية والعجز الجنسي عند الرجال اسبابه وعلاجه ، والعقم عند النساء اسبابه وعلاجه ، والحمل وامكانية معرفة نوع الجنين هل هو ذكر أم انثى ، والحقوق الجنسية لكل من الزوج والزوجة وحدود حرية الرجل في الاستمتاع الجنسي ، وعن مستحضرات التجميل والعطور وما يزيل الروائح الكريهة من الجسم ، ويتحدث ايضا عن الجنس الشاذ ... اسبابه وانواعه من السحاق الى اللواط الى القوادين والنساء الشهوانيات ، وعن أنواع النساء وصفات كل منهن وعن الجمال والجاذبية وعن الغيرة ما لها وما عليها ، وعن الطرق المختلفة لخيانة المرأة ، وحيل الرجال للايقاع بالنساء ، بالاضافة الى ذلك ، يسرد المؤلف حالات تاريخية ونوادر توضح ما يريد قوله مما يضفي على الكتاب نوعا من المرح كعادة الكتب العربية آنذاك .

وقعت مخطوطة من هذا الكتاب بمحض الصدفة بين يدي ضابط فرنسي في الجزائر سنة ١٨٥٠ ، فقام مع مجموعة من زملائه من المهتمين بالادب العربي وتراثه بترجمتها الى الفرنسية ، واحتفظ كل منهم بنسخة خاصة من هذه الترجمة . ولم يطبع الكتاب الا في سنة ١٨٧٦ ربما لصعوبة ايجاد ناشر في الجزائر او لاعتبارات خاصة بمن قاموا بالترجمة ، حتى قام واحد من المجموعة بالاستعانة سرا بماكينات الطباعة الخاصة بالحكومة الفرنسية لاصدار اول طبعة محدودة من الكتاب في حوالي ٣٥ نسخة ، وقد زورت هذه الطبعة في باريس سنة ١٨٨٥ بصورة يصعب تمييزها عن الاصل . وقبل سنة من هذا التاريخ وقعت نسخة من الكتاب بين يدي الكاتب الفرنسي « جي دي موباسان » الذي اعجب بها وارسل رسالة الى ناشر باريسي يطلب منه اعادة طبع الكتاب ، فقام ايزودور ليسيو **Isidore Liseeux** ـ وهو ناشر مهتم بالكتب النادرة ـ بطبع الكتاب طباعة فاخرة في طبعة محدودة ٢٢٠ نسخة سنة ١٨٨٦ .

وقام ريتشارد بيرتون في العام ذاته بترجمة النص الفرنسي الى الانجليزية دون ان يضع اسمه عليها ، لا لسبب الا لانه اراد الحصول على نسخة عربية كاملة وترجمتها الى الانجليزية مباشرة عن الاصل العربي ، وقامت جمعية كاما شاسترا **Kama Shastra** بنشرها في لندن سنة ١٨٨٦ . ولكن هذا لم يمنع بيرتون من مراجعة النص الفرنسي على النسخ العربية الثلاث من المخطوط والتي وفرتها له الجمعية نفسها في انتظار الحصول على نسخة أكمل ، وفي هذا يقول « عنيت تماماً بمراجعة النسخة الفرنسية وكل نقطة شك كانت تأخذ وقتا في البحث والتوضيح وقمت بالترجمة مع بعض التعديلات الطفيفة التي لا تؤثر على صلب الكتاب نفسه ، مع تعديل في بعض الهوامش وملاحظات المترجم الفرنسي واضافة ملاحظات جديدة » .

كذلك يقول بيرتون انه قام بحذف بعض الفقرات التي بدت له انها تصطدم مع العلوم الحديثة وان احتفظ ببعض المواد التي تبدو مضحكة في نظر القارىء الاوروبي . ووجهة نظره في ذلك انها تعطي فكرة عن عقلية الانسان العربي ليس فقط في العصر الذي كتب فيه الكتاب ، ولكن في العصر الحاضر ايضا ، فلا يزال ـ على حد رأيه ـ كثير من العرب يؤمنون بالوصفات الطبية القديمة والعرافة والتنبؤ ، ويحترمون الاشياء التي يلعب فيها السحر والاحجبة دورا كبيرا ، ولا ننسى أن رأي بيرتون هذا كان في اواخر القرن الماضي . كذلك احتفظ المترجم بالملح والنوادر التي تظهر ان العربي محب للطرفة ، مغرم بالتورية التي تلعب دورا كبيرا في حديثه عن الجنس ، وان انتقد بيرتون الشيخ النفزاوي انه يضحي احيانا بالواقع في سبيل الخيال ويقول ان هذه الصفة من العلامات المميزة للادب العربي في تلك العصور .

وقد بدأ بيرتون سنة ١٨٨٨ ترجمة جديدة للكتاب عن

اصل عربي كامل ، انتهى منها سنة ١٨٩٠ قبل وفاته مباشرة ، زودها بهوامش وتعليقات كثيرة مع مقدمة جديدة وافية كما يقول صديقه د . جرينفيل بيكر **Dr. Grenfell Baker** الذي دارت بينه وبين بيرتون مناقشات يومية حول كثير من التفصيلات والتعليقات اثناء ترجمته للكتاب .

بعد وفاة بيرتون مباشرة قامت زوجته باحراق الاصل العربي والترجمة الانجليزية جالبة على نفسها سخط الكثيرين من الدارسين والمهتمين بهذا الموضوع .

رحلة الكتاب

قرب نهاية القرن التاسع عشر اقام شخص انجليزي يدعى شارلز كارنجتون **Charles Carrington** في باريس عاقدا العزم على طبع الاعمال النادرة التي يمكن أن تمنع في انجلترا الفيكتورية ، وطبيعي انه سمع بما فعلته زوجة بيرتون ، فبدأ العمل ليعوض هذه الخسارة ، وجد في البحث عن مخطوطة عربية للنص حتى عثر على واحدة اصلية تتكون من أربعة أجزاء بواسطة أحد علماء الازهر يدعى عبدالفتاح ومنسوخة بيد خطاط سوري ، وقام بقراءة المخطوطة ومراجعتها المستشرق الروسي سيليسون **Seligsohn** الذي أبدى رأيه بان هذه أكثر النسخ العربية التي عرفت من هذا الكتاب اكتمالا .

وأعلن كارنجتون ان ترجمة كاملة للكتاب ستصدر في ثلاثة مجلدات ، ولم يظهر سوى الجزء الأول من هذه الأجزاء الثلاثة رغم ان العمل ترجم ككل ، والسبب ظل يكتنفه الغموض ، وقد نشر كارنجتون قبل مرضه اعلانا يبدي رغبته في بيع النسخة العربية من الكتاب . . وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر احد مساعدي كارنجتون في المكسيك يعلن عن امتلاكه للنسخة العربية وترجمتها الانجليزية وانه يعرضهما للبيع بمبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني .

واعيد طبع الكتاب باللغة الفرنسية سنة ١٩٠٤ دون ذكر اسم الناشر ثم تكررت طباعته سنة ١٩١١ ، ١٩٢٢ بطبعات غير محدودة ، ثم طبع مرة ثانية في انجلترا ، وتوالت بعد ذلك طبعات الكتاب حتى صدرت اخيرا طبعات شعبية منه في سلسلة **Panther** . وقد قام اخيرا سنة ١٩٧٨ الكاتب السوري ريثه خوام المقيم في باريس بترجمة جديدة للكتاب عن الاصل العربي اكثر اكتمالا واتقانا .

ويقارن الان ويلتون بين كتاب النفزاوي والكتب المشابهة له في الغرب والتي كتبت في عصور سابقة . . فمثلا كتاب اوفيد **Ovid** « فن الهوى » **art of love** ، ترجم الى العربية كاملا د . ثروت عكاشة كمثل من روما القديمة ، نجد ان الفعل الجنسي يطري فيه من أجل اللذة الجنسية فقط دون اي اعتبار ديني او اخلاقي ولا حتى اي تضمين بين ان الجنس نوع من السر المقدس كما يعتبره من كتب حول هذا الموضوع من كتاب العربية . . وفي الحقيقة فان كتاب اوفيد ليس كتابا في فن الهوى بقدر ما هو كتاب في طرق الاغراء والحصول على اللذة فهو ينادي بالحب المحرم .

وهذا الموقف انعكس في معظم الاعمال الجنسية التي صدرت في عصر النهضة ككتاب كورير **Chorier**، حواريات لويزا سيجيا **Dialogues of luisa sigea** ، او كتاب فريد ريك فورپرج **Friedrich forperg**، خناثي بيكاديلي **Hermaphroditus of beccade** او كتب الماركيز دي ساد **the marquis de sade** الذي داس الدين في محاولاته لمد حدود التحرر الجنسي .

كما ان الكتاب الاكثر معقولية من هؤلاء ، لا احد منهم يقارن بالشيخ ، فالكاتب الايطالي ارلين **Arelin** كتب في القرن السادس عشر كتابه في موضوع مشابه للروض العاطر وهو كتاب « الحب الزوجي » نسبة الى الازواج **Conjugal Love**، وكذلك كتاب رابليه **Rupelais Garguntua et pantaryruel** حيث يشبه كتابه كتاب النفزاوي من نواح كثيرة .

وما يجعل كتاب النفزاوي فريدا بين هذه الكتب جميعا هو الجدية التي قدم بها موضوعاته الجنسية رغم فحاشتها ، ومن الواضح ان المؤلف مقتنع باهمية موضوعه وان الرغبة في ان يكون نافعا لبني جنسه هي الدافع الوحيد لجهده ، لذلك نجده قد احاط نفسه باضواء من سبقه من العلماء العرب والهنود حول هذا الموضوع ، فاستفاد من خبرتهم . . وهي ميزة تحسب له . وحتى يعطي لآرائه وزنا فانه لم يتردد في استخدام معلوماته الدينية بل وفي حالات كثيرة استشهد بآيات قرآنية .

ليس أدبا فاحشا

والروض العاطر مطعم بالحكايات الشعبية الفكاهية المتعلقة بالجنس مما يضفي على الكتاب متعة ، وهي تشبه في

كتب علم النفس الجنسي الحديث الحالات التي تسرد لتوضيح حالة ما . . كما انه يقدم معرفة نادرة لدراسة المجتمعات البشرية وعلم الاجناس وعلم النفس . .

وهو يقدم واقعا جنسيا وليس أدبا فاحشا . . ومعرفة هذا الواقع الجنسي تعتبر اساسا صحيا للحياة السليمة وتأثير هذه المعرفة على الشخص العادي لا تنكر فائدته ، وان لاحت بوادر للاثارة الجنسية هنا او هناك فهي ليست مقصودة لذاتها ، وتختلف درجة تأثيرها من قارىء الى آخر تبعا للمزاج والبيئة .

واذا كانت المادة أحيانا فظة وجارحة او منافية للذوق السليم ، الا انها في اماكن اخرى كثيرة تكشف عن فهم حساس للعواطف البشرية ووعي حقيقي لاهمية التوافق الروحي والجسمي بين الازواج المبني على التعاطف المتبادل والمحبة والولاء .

ومناقشة النفزاوي لبعض الموضوعات تبدو معقولة في كل الظروف . . منها مثلا مناقشته للاخطار التي تنتج عن ارتكاب الفواحش ، او الوسائل التي تتبعها لتجنب الاضرار التي قد تنشأ عن كثرة الجماع ، فالاكل ببطء والمضغ الجيد وتجنب شرب كميات من السوائل بعد الوجبات ، ثم حديثه عن مضار المشروبات الروحية على العملية الجنسية وكذلك تناول العقاقير بكميات زائدة . بل ان بعض استنتاجات النفزاوي تبدو مثيرة في ضوء المعرفة الحديثة حيث انها تتفق بطريقة مدهشة مع علم النفس الفرويدي خاصة في تفسيره للاحلام .

والهدف من هذا بالدرجة الاولى هو التطبيق الجنسي الصحي لارساء قواعد أساسية للزواج الناجح والحياة الزوجية السعيدة

ولقد توصل هافلوك الس **Havelock Ellis** بحكمة شرقية الى خلاصة ما اراده النفزاوي من ان وظيفة الجنس في جانبها النفسي ذات اثر بعيد وكبير على حياة المرء أكثر من اي فعل للتناسل .

وهؤلاء المطلعون على كتب الشرق العلمية والدينية يستطيعون ان يكتشفوا بسهولة ـ والكلام لالان ويلتون ـ انا نحن الغربيين ندين لمعظم فكرنا الديني وطقوس الحب الى الشرق ، والشرق على العكس لا يدين بشيء من هذه الناحية الى الغرب .

لم تبدأ الكتب العلمية الجادة في الظهور في الغرب حول موضوعات كهذه الا في مطلع القرن العشرين ، كتبها علماء من منطلق توضيح مشاكل الجنس للقارىء العادي ، من هذه الكتب كتاب عالم امراض النساء الشهير فان دي فيلد **Van de Velde** « الزواج المثالي » **Ideal Marriage** والذي صدر سنة ١٩٢٩ ، ويعتبر احد الكتب الاساسية في موضوعها والمتداولة على نطاق واسع ، وقد ترجم الكتاب الى العربية ، ويعتبر البعض ان الشيخ النفزاوي كان سابقا لفان دي فيلد بل ان كتابه اشمل وأوسع في موضوعاته ، وقد استفاد دي فيلد من كتاب النفزاوي كما استفاد من كتب شرقية اخرى كالكاما سوترا **Kama Sutra** والاناتجا رانجا **Ananga Ranga**، ومنها ايضا كتاب ايوستاس تشيسر **Eustace Checcer**، حب بلا خوف **Love Without Fear**، وقد ترجم ايضا الى اللغة العربية ويشبه في هدفه العام كتاب النفزاوي .

ومما لا شك فيه ان كثيرا من الكتاب ـ ممن كتبوا مؤلفات عامة في الجنس وارشاداته ـ يدينون الى الكتابات الشرقية عامة ولكتاب النفزاوي خاصة . . « فهافلوك الس » يرجع إليه ويستشهد بالنفزاوي في كتابه الاساسي : « دراسات في علم نفس الجنس» **Studies in the psychology of seX** كذلك كينزي **Kinsey** فعل مثل ذلك في دراسته « السلوك الجنسي عند الانثى » **Sexual behaviour in the human female** ونورمان هيمز **Norman Himes**، الذي كان كتاب النفزاوي احد مراجعه الاساسية في كتابه الفريد « التاريخ الطبي لمنع الحمل » **medical history of contracepttion**

وأخيرا ، فالحقيقة ان كتاب « الروض العاطر ونزهة الخاطر » للشيخ النفزاوي كتاب جاد ذو هدف جاد ، وان كان قد مزج الفكاهة والمتعة بهذه الجدية ، فهي طريقة كان يتبعها الكثيرون قبله ، ومن نكران الجميل ألا نعترف بالفائدة التي يحققها مثل هذا الكتاب للناس في فهم السلوك الجنسي وفن الحب على اسس صحية وسليمة . ■■

احمد عمر شاهين



كتب صدرت في بغداد

تقديم : محمد رجب السامرائي

مقالات في تاريخ النقد العربي ، د . داود سلوم . دار الرشيد للنشر ـ سلسلة دراسات (٢٧٧) ـ ١٩٨١ . وزارة الثقافة والاعلام ، ٤٨٣ صفحة .

هذا الكتاب مجموعة مقالات متسلسلة تسلط الضوء حول مراحل وتاريخ نقدنا العربي . اذ نجد دكتور داود قد عقد كتابه الى مقدمة عن النقد ثم تناول النقد عند العرب قبل الاسلام ، أشار فيه الى القدرة التعبيرية باستخدام الأسلوب الكامل والنظر في قدرة الألفاظ على نقل المعنى الأكمل ومطالبة الشاعر بالمنطقية ورفض ما يسمى بالمحال أو غير الواقع الادبي والمبالغة والاغراق ثم تناول المؤلف العيوب الفنية !

أما القسم الثاني فحدثنا فيه عن النقد في صدر الاسلام والعصر الأموي عرض أولا للنقد في بيئة الحجاز في صدر الاسلام والعصر الأموي ، وأشار حول النقد ورسم الصورة والغزل والاغراق والمبالغة وصور من النقد الفقهي والأخلاقي . وأشار ثانيا حول النقد في البيئة العراقية : النقد النحوي واللغوي ، والبحث في السرقات وكذلك النقد حول الصورة والمحال العقلي أو التاريخي أما النقد في بيئة الشام فتناول النقد الرسمي ونقد الصورة .

وقسم النقد في العصر العباسي الى قسمين : الأول جعله في خمسة فصول : الأول عن الرواة وأثرهم في النقد ، والثاني حول محمد بن سلام الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء ، والثالث عن الجاحظ ومنهجه في النقد الأدبي ، والرابع عن صاحب الشعر والشعراء ابن قتيبة والأخير عن ابن المعتز وكتابه البديع والآراء المتفرقة الأخرى .

أما النقد في العصر العباسي ـ القسم الثاني ، فتضمن سبعة فصول عن : قدامة بن جعفر وكتابه نقد الشعر ، وعن « أبو القاسم الآمدي » وكتابه الموازنة بين الطائيين ، وعن القاضي الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، والآخر عن ابن رشيق القيرواني وكتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، وعن ابن سنان الخفاجي وكتابه سر الفصاحة ، وعن الجرجاني ودلائل اعجازه والفصل السابع عن ابن الأثير ومنهجه في النقد والبلاغة .

وختم د . داود سلوم كتابه بخاتمة عن قضايا واتجاهات النقد العربي القديم ، وبملحق : مقارنة المتشابه بين الفكر النقدي عند الأوربيين والعرب !



● الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، د . حسام سعيد النعيمي . دار الرشيد للنشر سلسلة دراسات (٢٣٤) - ١٩٨٠ - منشورات وزارة الثقافة والاعلام - ٣٩٧ صفحة .

قسم المؤلف الكتاب الى ثلاثة أبواب مقسمة الى عدة فصول . الباب الأول : ابن جني وأصول دراسته وجهود سابقيه . الفصل الأول : ابن جني - حياته ، ثقافته ، آثاره . الفصل الثاني : أصول دراسته ، والثالث : جهود سابقيه في الدراسات الصوتية واللهجية . أما الباب الثاني : دراساته اللهجية فمقسم الى خمسة فصول : الأول اختلاف اللهجات ، والاختلاف في الصوامت ، والاختلاف في الصوائت ، والاختلاف في المعنى والاعراب ، والأخير ، شذوذ اللهجات والمقايسة بينها .

أما الباب الثالث : دراساته الصوتية في ضوء علم اللغة الحديث ، فتناول د . حسام سعيد فيه النظرية الصوتية في نشأة اللغة ، والفصل الثاني : الصوت والمعنى ، وفي الثالث : أصول الحروف ، وفي الرابع : الحرف والحركة ، والفصل الخامس « والأخير » : « التعليل الصوتي » .

● دليل السماء والنجوم ، د . عبد الرحيم بدر - دار الرشيد للنشر - السلسلة العلمية (٩) ١٩٨١ - منشورات وزارة الثقافة والاعلام - ٢٥٤ صفحة .

يقع هذا الكتاب في اثني عشر فصلا . الأول حول : دوران القبة الفلكية . والثاني : باب الدخول الى القبة الفلكية أهلا وسهلا . والثالث : مجموعات الفصول ، والرابع : اياك أن تنظر اليها . والخامس : القمر . والفصل السادس : الكواكب . والسابع : فضلات النظام الشمسي ، والثامن : النجوم . والتاسع : السدم والمجرات وعناقيد النجوم . والفصل العاشر : بماذا ترى السماء ؟ والحادي عشر : قياس الأبعاد . والفصل الأخير جعله المؤلف عن : المواقف الفلكية . اضافة الى الملاحق - الأول : قاموس ودليل للأسماء الواردة في الكتاب . والملحق الثاني عن مواقع الكواكب السيارة في السماء في السنوات الخمس المقبلة . والثالث عن ألمع نجوم السماء ، والرابع : جدول كسوفات الشمس الكلية حتى سنة ٢٠٠٠ ميلادية ، والخامس : جدول الكسوفات الحلقية للشمس حتى سنة ١٩٩٠ ميلادية . والملحق الأخير : جدول خصائص الكواكب .

● أخطاء لغوية - عبد الحق فاضل - دار الرشيد للنشر - سلسلة كتب الجماهير (٣٥) ١٩٧٩ - وزارة الثقافة والاعلام ٨٤ صفحة .

ابتدأ المؤلف كتابه بملاحظات عامة حول الأخطاء اللغوية التي استفحلت اليوم .. وهنا جعل الكتاب مقسما الى جملة أخطاء كل واحدة منها أفرد لها بابا . فدون لنا أولا : الأخطاء الاذاعية ثم صيغ المجهول ، وضم أول الكلمة ، والمقصور والمنقوص .. الأفعال والأسماء . ثم تحدث عن الأخطاء الصحفية ، وعن العاميات العراقية والعاميات المصرية والاستعمالات المغربية وأخيرا عن تخطئة الصواب .

● الشام لمحات آثارية وفنية ، د . عفيف



بهنسي . دار الرشيد للنشر ـ سلسلة الكتب الفنية (٢٢) ١٩٨٠ ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ ٢٣٤ صفحة .

يقع الكتاب في أربعة فصول . تناول في الفصل الأول : الشام ، والحضارة ومنها ، الشام ثقافيا والكشف عن آثار الشام ، وبيت آدم في الشام .. والفصل الثاني : المدينة والعمران ، تحدث فيه عن أشهر مدن الشام ، دمشق القديمة ـ وحلب الشهباء وعن العوامل في تكوين دمشق الشام .. وأما الفصل الثالث : البيت الشامي ، فتناول العمارة الشامية ـ وبداية العمارة الاسلامية ، والمساجد والمساكن . والفصل الأخير عن الفنون الشامية . ففيه حديث عن بداية الفن الاسلامي في بلاد الشام ، وأشهر الرسوم الجدارية الاسلامية في بلاد الشام .. وحديث آخر عن السيف والسجاد الدمشقي .

● التزويق والحلي عند المرأة في العصر العباسي ، زكية عمر العلي . سلسلة الكتب الحديثة (٩٩) ١٩٧٦ ـ منشورات وزارة الاعلام ـ ٢٣٧ صفحة .

يتناول الكتاب في بابه الأول عن التزويق والثاني عن الحلي . فيقسم الباب الأول الى سبعة فصول . الأول عن : المرأة العربية والتزويق ـ والوشم ـ وتصفيفات الشعر ـ والخضاب ـ والتكحل ـ والتزجيج والتمص والفلج ـ والطيب ـ وتزين الجواري .

والباب الثاني ـ الحلي ـ فيقع في ستة فصول . الأول : الحلي عند المرأة العربية ـ ومم صنعت الحلي ـ والنظم والتيجان والعصائب والزنانير والأمشاط ـ والأقراط والشنوف ـ والقلائد والوشاح والبريم والمناطق الذهبية والفصل الأخير ـ الخواتيم والاسورة والدماليج والخلاخيل . ثم ان الكتاب مزود برسوم وأشكال توضيحية للقارىء !

● الكفاية في الطب المنسوب لعلي بن رضوان . تحقيق د . سلمان قطاية . دار الرشيد للنشر سلسلة كتب التراث (١٠٩) ـ ١٩٨١ ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ ١٨٥ صفحة .

تناول المحقق مؤلفات علي بن رضوان وسيرته ، ثم تحدث عن كفاية الطبيب ، وعن أساليبه في المعالجة والحبوب والمربيات والأشربة والأقراص واللعوقات والكمادات والذروات المستعملة في الجراحات والقروح .

أما في النبض . فتحدث عن الأشياء المغيرة ، وأجناس النبض .. وعن النفس . وكتاب التفسرة وفيه تسعة فصول ثم التمييز من الاسنان ، وفي دلائل النفث وألوانه ... وعدة جداول بأسماء الأدوية المفردة الواردة في الكتاب وعن الأوزان والمكاييل .. وأسماء الأدوية ذات الأصل الحيواني ... وجدول بالمصطلحات الطبية الواردة في الكتاب .

● المعجم العربي ، د . حسين نصار ـ الموسوعة الصغيرة (٨٠) تشرين أول/١٩٨٠ منشورات دار الجاحظ للنشر ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ـ ٩٧ صفحة .

تناول د . حسين نصار فيه معاجم الألفاظ أولا ثم معاجم المعاني . أما المدرسة الأولى : فهي كتاب العين ، والثانية : جمهرة اللغة لابن دريد ومقاييس اللغة والمجمل

لابن فارس . والمدرسة الثالثة تناول فيها د . نصار : صحاح الجوهري والعباب للصغاني ، ولسان العرب لابن منظور ، والقاموس المحيط للفيروزابادي ، وتاج العروس للزبيدي . أما المدرسة الرابعة (الأخيرة) فاشتملت على : الأمثلة القديمة ، والأمثلة الحديثة : المنجد في اللغة والأدب والعلوم للأب لويس معلوف . والمعجم الوسيط .

● صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي . ميخائيل عواد ـ دار الرشيد للنشر سلسلة دراسات (٧٩) ١٩٨١ ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية ١٣٠ صفحة .

بغداد التي قيل عنها بأنها : « أم الدنيا وسيدة البلاد ، وجنة الأرض ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف » بغداد دار السلام ، المدينة المدورة والعاصمة الماجدة ذاقت ـ ومرت عبر أيامها ـ ألوانا من الصور وشواهد حفظتها لنا ذاكرة التاريخ ، والباحث والمحقق ميخائيل عواد ـ ينقل لنا في كتابه هذا (٣٤) صورة ملونة أشبه بالكرنفالات ذات الشرائط الباهرة التي تبهر العيون وتخلب الألباب . فمن الصور المشرقة من حضارة بغداد ابان العصر العباسي تتعرف أولا على صورة هندسة البناء آنذاك ، وكيفية التبريد الصناعي للبيوت ، والنحت على الحجر والآجر والجص ، وملابس البغداديين وأزيائهم ، وصورة عن ميزانية بغداد قبل ألف ومئة سنة ، وفي بغداد : استنبطت الكتابة البارزة للعميان ، وصور من العيد ، وحدائق الحيوان ، والمستشفيات ، وقياس نهر دجلة ، ومتولي الجواز ببغداد والصورة الأخيرة (خاتمة الكتاب) ليلة الخلافة !

● علوم البابليين . تأليف : مرغريت روثن . تعريب وايضاحات : د . يوسف حبي ـ دار الرشيد للنشر ـ سلسلة الكتب المترجمة (٩١) ١٩٨٠ ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ ١٣٩ صفحة .

يتألف الكتاب من قسمين . الأول : فكر البابليين القدامى . وله ستة فصول . الفصل الأول الأسلاف : ـ شهرة الكلدانيين ، والكلدانيون أرباب العلم ، والاكتشافات العلمية ، وسكان بلاد ما بين النهرين وشيء من التاريخ . والفصل الثاني : التعبير عن الفكر . اللغة والكتابة ـ لغات بابل القديمة ، والكتابة التصويرية والمقاطع ، وحل الخط المسماري والسومرية .. والثالث : تنشئة النخبة .. والفصل الرابع :



المعتقدات ، المذاهب والأساليب ومعضلات المصير البشري الكبرى ، ومسؤولية الانسان الأدبية . والفصل الخامس : تنظيم الصراع ضد القدر . والفصل الاخير : الأساليب ، نشوء الطب ، والطب والأطباء ـ الصيدلة .

والقسم الثاني : المعرفة أو نشوء العلوم ، التقويم البابلي ، والفلك ، والمراصد ، والرياضيات .

● النقد اللغوي عند العرب ، حتى نهاية القرن السابع الهجري ، د . نعمة رحيم العزاوي سلسلة دراسات (١٣٤) ١٩٧٨ ـ منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ ٤٥٩ صفحة .

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أبواب . الأول : العوامل المؤثرة في النقد اللغوي . عقد الفصل الأول للحديث عن الرواية والفصل الثاني عن التطور اللغوي والثالث عن التعصب للقديم ، والرابع عن الخصومة والفصل الخامس عن الاعجاز .

والباب الثاني موضوعات النقد اللغوي ومقاييسه جعل الفصل الأول للكلام عن مقاييس الخطأ والصواب . والثاني حول مقاييس الجودة والرداءة . أما الباب الأخير للكتاب فهو : فوائد النقد اللغوي وعيوبه . الفصل الأول : فوائد النقد اللغوي ، والثاني عيوب النقد اللغوي . اضافة الى خاتمة الكتاب .

● الزخارف الجدارية في آثار بغداد . خالد خليل حمودي الأعظمي ـ دار الرشيد للنشر ـ سلسلة الكتب الفنية (٤٢) ١٩٨٠ ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ٤٠٥ صفحات .

احتوى كتاب الزخارف الجدارية في آثار بغداد على ستة فصول . الأول منه : الزخارف الجدارية في العراق منذ الفتح الاسلامي حتى تأسيس بغداد . والفصل الثاني : الزخارف الجدارية في آثار بغداد منذ تأسيسها حتى العصر

السلجوقي .. والفصل الثالث : الزخارف الجدارية في العصر السلجوقي ، سور بغداد : باب السلطان ، باب البصلية ، باب الظفرية ، ومشهد سلجوقي خاتون : مئذنة جامع الخفافين ، مئذنة جامع قمرية ، القصر العباسي ، المدرسة المستنصرية .

والفصل الرابع : الزخارف الجدارية في العصر المغولي . فمن هذه الزخارف ، مئذنة سوق الغزل ، ومشهد الشيخ عمر السهروردي . أما الفصل الخامس فهو عن : الزخارف الجدارية في العصر الجلائري ، المدرسة المرجانية ، وخان مرجان . والفصل السادس (الأخير) عن : تطور الزخارف الجدارية في بغداد ، الاسلام والزخرفة ، العناصر الزخرفية ... وللكتاب خاتمة وقائمة اللوائح ، ثم انه مزدان بـ (١٢٨) شكل زخرفي وصورة ولوحة عن تلك الزخارف الجدارية في آثار مدينة بغداد .

● الموشحات العراقية منذ نشأتها الى نهاية القرن التاسع عشر ، د . رضا محسن القريشي دار الرشيد للنشر ـ سلسلة دراسات (٢٩٠) ١٩٨١ ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام . ـ ٤٥٥ صفحة .

يعرض الكتاب للموشحات العراقية منذ نشأتها الى نهاية القرن التاسع عشر . فتناول المؤلف في الباب الأول ـ الفصل الأول : الموشح لغة ، وتعريف الموشح ، وبناء الموشح . والفصل الثاني : أين نشأت الموشحات . والثالث : عن أغراض الموشح ودوره في المجتمع . والباب الثاني حول : انتقال الموشح من الأندلس الى الأقطار العربية (الاسلامية) . الفصل الأول : الموشح والوشاحون في مصر والشام ، والثاني : الموشح والوشاحون في العراق . أما الباب الثالث : الموشحات العراقية . فتناول في فصله الأول : أغراض الموشحات العراقية ، والثاني : الخصائص الموضوعية والأسلوبية للموشحات العراقية . والفصل الثالث : دراسة موازنة بين الموشحات العراقية والموشحات الاندلسية . أما خاتمة الكتاب فتناول فيها نماذج من الموشحات لوشاحين عراقيين بلغوا ، ستة وعشرين ، وشاحا .

● كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها لابن الجزار القيرواني . تحقيق سلمان قطاية ـ دار الرشيد للنشر ـ سلسلة كتب التراث (٩٨) ١٩٨٠ ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ ٢٦٩ صفحة .

الكتاب حوى مقدمة واهداء ثم حديثا عن عصر ابن الجزار القيرواني وسيرته ومؤلفاته وعن القيروان ومدرستها الطبية . أما الكتاب : في المعدة وأمراضها ومداواتها . ففيه : تشريح وفيزيولوجيا المعدة في الطب العربي . ثم أقوال عديدة : أولها في ماهية المعدة وكيفيتها والقول في طبائع القوى الأربع وفي القوة الجاذبة وفي معالجة فم المعدة وفي التدبير الحافظ لصحة المعدة ، والقروح المتولدة في المعدة ، وفي بطلان الشهوة للطعام ، وآخرها القول في الأغذية التي تصلح المعدة والأغذية الضارة في طبيعتها للمعدة .

● قراءة في كتب لم تصدر حديثا . يوسف نمر ذياب . دار الرشيد للنشر ـ سلسلة دراسات ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ ٢٠٧ صفحات .

هذا الكتاب عبارة عن أحاديث عن كتب صدرت في منتصف هذا القرن ... فهو أشبه بالعرض والتحليل والنقد لمؤلفه الناقد العراقي يوسف نمر ذياب .. ابتدأ كتابه بكتاب د . طه حسين من حديث الشعر والنثر وبغربال ميخائيل نعيمة ، وفي الميزان الجديد للدكتور محمد مندور ، وعصر القرآن للدكتور محمد مهدي البصير ، والشعراء الفرسان لبطرس البستاني ، وجلال خالد لمحمود أحمد السيد وقنديل أم هاشم ليحيى حقي ، والوارث لخليل بيدس ، والضرائر لمحمود شكري الألوسي وأفاعي الفردوس لالياس أبو شبكة وأخيرا عواطف وعواطف لعلي الشرقي . وبلغت عدد الكتب التي لم تصدر حديثا والمتناولة في كتاب الناقد يوسف ذياب (٣٢) كتابا مقروءة بلغة نقدية من وجهة نظر واحدة !

● العربية تواجه العصر ، د . ابراهيم السامرائي . الموسوعة الصغيرة ١٠٥ ـ ١٩٨٢ ـ منشورات دار الجاحظ للنشر ـ ٢٢١ صفحة .

يجيء هذا الكتاب لمؤلفه د . السامرائي مع كتبه الصادرة عن لغتنا العربية كاسهامه في رفد القارىء والمكتبة العربية بما عرف عن المؤلف من اهتمام كبير ودراية عن أسرار لغتنا ..

ابتدأ د . ابراهيم كتابه بمقدمة في علم اللغة الحديث والعربية . ثم يتساءل : أين العربية من هذا العلم الجديد ؟ يعقبه بحث : التعريب في اللغة العربية ، وفي التعريب بين ماضيه وحاضره ثم كيف توحد المصطلحات ؟ بعدها يتناول المؤلف نظرة أخيرة في التوحيد ، وفي الجديد اللغوي ، والجديد والمعجم العربي الحديث ، عارضا لاحدى وخمسين لفظة .. ■■

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) . . والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا . . ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي :

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت ؛ مسابقة العدد ٢٨٥ ؛ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو اول اكتوبر (١٩٨٢)

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم امام لمذهب من أهم المذاهب الاسلامية . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم سلطان من المماليك البحريين .

كلمات أفقية :

(١) قرشي من أعلام الغناء في القرن الثاني الهجري ـ مؤتمر وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

(٢) في الخلية النباتية ـ روائي عالمي من أصل تشيكي .

(٣) حرف نداء وندبة ـ كلمة تهديد ـ من عناصر الغذاء .

(٤) تمضي ـ من الأسماء الحسنى ـ نصف كلمة (مبيت) .

(٥) تجدها في كلمة (أوهام) ـ وكل ـ تمنحك .

(٦) بكت ـ للتمني ـ من تقسيمات الجند ـ نصف كلمة (مدار) .

(٧) ملاذه ـ تلا ـ أعجبته .

(٨) امام مذهب من أهم المذاهب الاسلامية .

(٩) أتجرأ ـ حيوان ـ نجل .

(١٠) احسان ـ أطلق اليمين ـ يمشون .

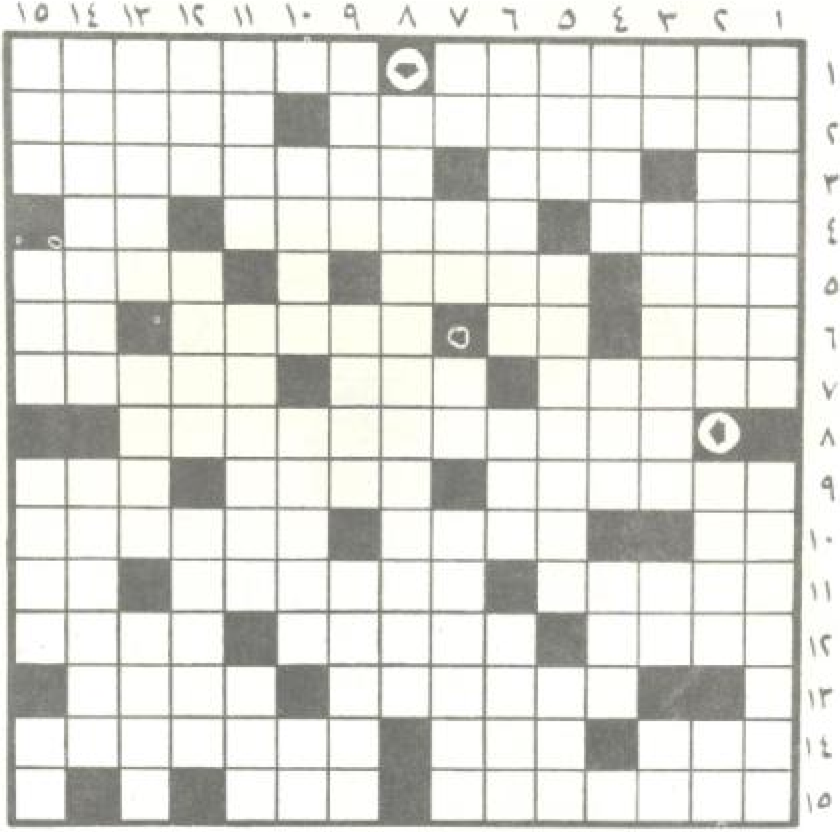
(١١) في اللحن ـ يمعنان ـ للتمني .

(١٢) من الطيور ـ تامة ـ أكثر ثراء .

(١٣) ورق خاص استخدمه الفراعنة ـ حيوانات ركوب وجر .

(١٤) قل ـ قرأ ـ منافسات رياضية .

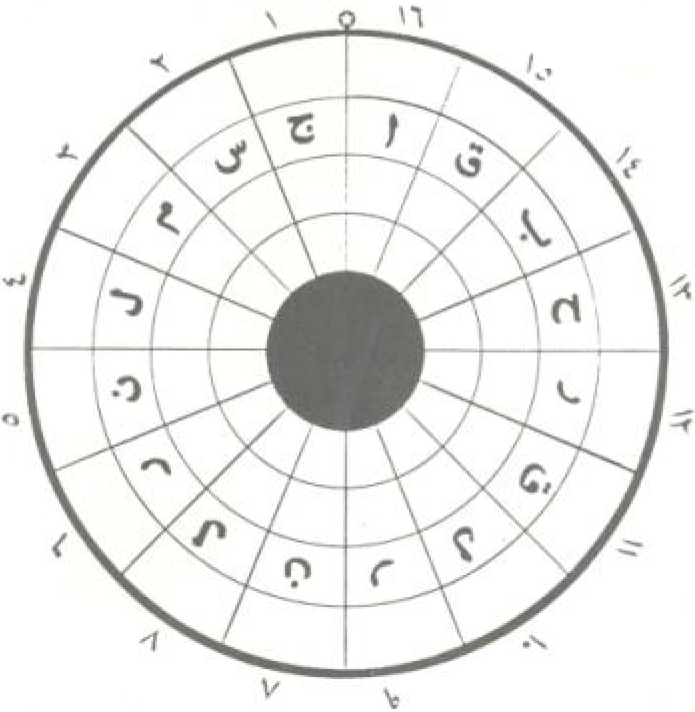
(١٥) من العناصر الكيميائية ـ فر .



كلمات رأسية :

(١) شاعر عباسي ـ من فلاسفة العصر العباسي الثاني .
(٢) نبات سام ـ تحير ـ نقص .
(٣) نصف كلمة (نائح) ـ عشب طبي ـ حرف استفهام ـ مستند رسمي .
(٤) فوق النهر ـ تجدها في كلمة (أعوام) ـ ضمير .
(٥) قدم ـ الكلمات الخفيفة ـ من المكاييل .
(٦) مدينة ايطالية صناعية ـ سهاد ـ فيدي .
(٧) أحصى ـ مقام موسيقى ـ عبد ـ من وسائل الانتقال .
(٨) سلطان من المماليك البحريين .
(٩) من الملابس ـ بحيرة أفريقية ـ دعوة طعام .
(١٠) حول مجرى النهر ـ كبيرة الوزن ـ احسان .
(١١) تدون ـ اله الخليقة في العقيدة الهندوكية ـ طاف .
(١٢) أبصر ـ تخاف ـ شهر ميلادي .
(١٣) يبيده ـ عراك ـ هدف .
(١٤) مراسلات ـ دولة أوربية .
(١٥) وحدة قياس كهرباء ـ شكل هندسي منتظم ـ تحترم ـ حرفان متشابهان .

كوبون مسابقة العدد ٢٨٥



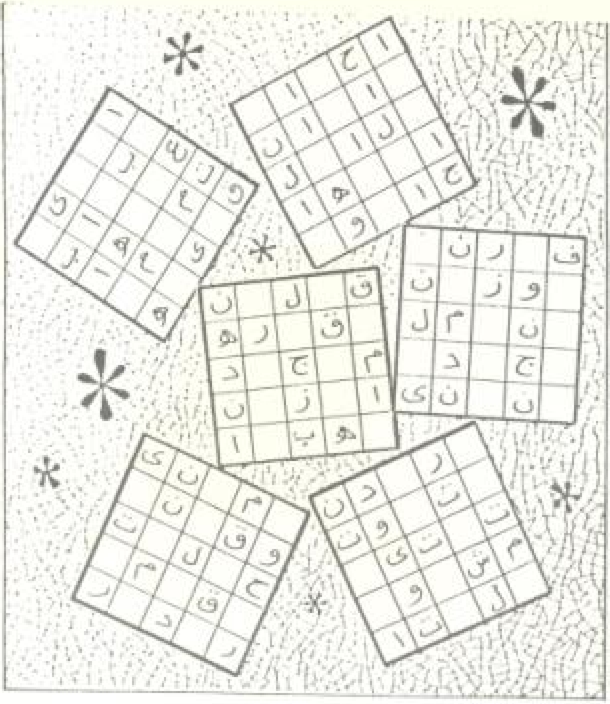
● حول الدائرة السوداء ●

ضع الكلمات ذات الحروف الاربعة ، والتي نعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للأرقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة ـ ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

طبيب وعالم طبيعي ألماني من القرن التاسع عشر

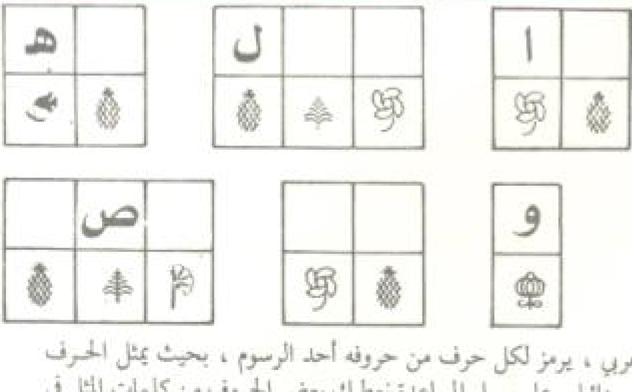
(١) من الدوريات (٢) فلك (٣) في القلب (٤) يلوذ (٥) أعوام (٦) من الماشية (٧) ألعب (٨) موت (٩) تلاء (١٠) مريض (١١) ينهض (١٢) من أطوار الحشرة (١٣) يطيب (١٤) طريق (١٥) مكروه (١٦) قارب .

● العواصم ●



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية سميكة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

● مثل عربي ●



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك أن تصل الى المثل المطلوب اذا عرفت أنه يضرب :

لمن لا حسب له ، ولا قدرة على الحديث

الحلول ١

حول الدائرة السوداء : هرمان فون هلمهولتز .

العواصم : لوساكا .

مثل عربي : لا أصل له ولا فصل .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

اغسطس
١٩٨٢م

الإدمان..

مظاهره وعلاجه

دكتور عادل الدمرداش

الكتاب السادس والخمسون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مِنَ المسرح العالمي
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول أغسطس ١٩٨٢

١٥٥

المرحوم

تأليف : برانيسلاف نوشيتس - ٤
ترجمة وتقديم : د. فوزي عطية
مراجعة : د. سمية عفيفي

مجلة

دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير

الدكتور عبدالله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ٠٠٠ر١٢٥ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٥٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .

٢- كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .

٣- كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .

٤- كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .

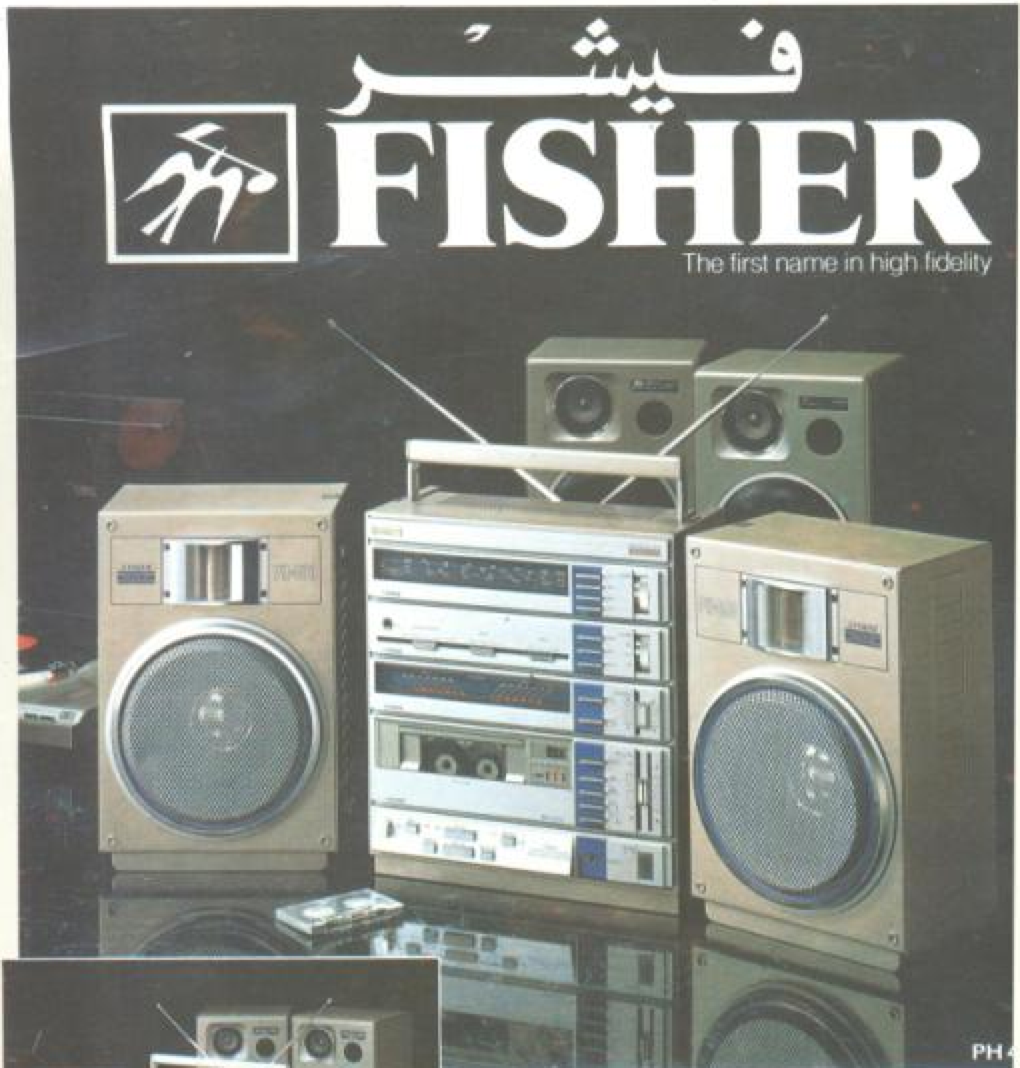
٥- دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .





ع أجهـزة السّـمعيّات المحـترفـة ن مُنتـجة أولـ سـتريـو .

ريوهات فيشر بمُختلف أحجامها تعني الفخامة .
بأناقتها مع أحدث مفاتيح التحكم وصوت طبيعي يشعرك
، تعيش في عالم ماتسْمَعه .
وهات فيشر ذات مزايا لاتضاهى فهيَ مقدّمة مَن
: تملك رصيداً مَن الخبرة في عالم الستريو والهاي فاي
مَن أي شركة أخرى في العالم ، فلقد اخترعت فيشر
يو ومازالت تطوّره مُنذ أكثر من ٤٥ سَنة .

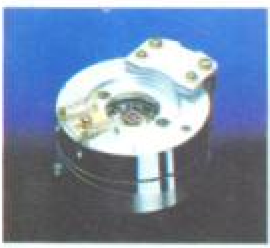
PH 460K
هاي فاي نقال - راديو ٤ موجات ستريو MW/SW1/SW2/FM
ومسجل كاسيت - طاقة قصوى بقوة ٩ واط للقناة الواحدة

PH 480K
هاي فاي نقال - راديو ٤ موجات ستريو MW/SW1/SW2/FM
ومسجل كاسيت - طاقة قصوى بقوة ١١ واط للقناة الواحدة

مجموعة سانيو الذهبية



سلسلة ذهبية من أجهزة التلفزيون ومسجلات الفيديو .

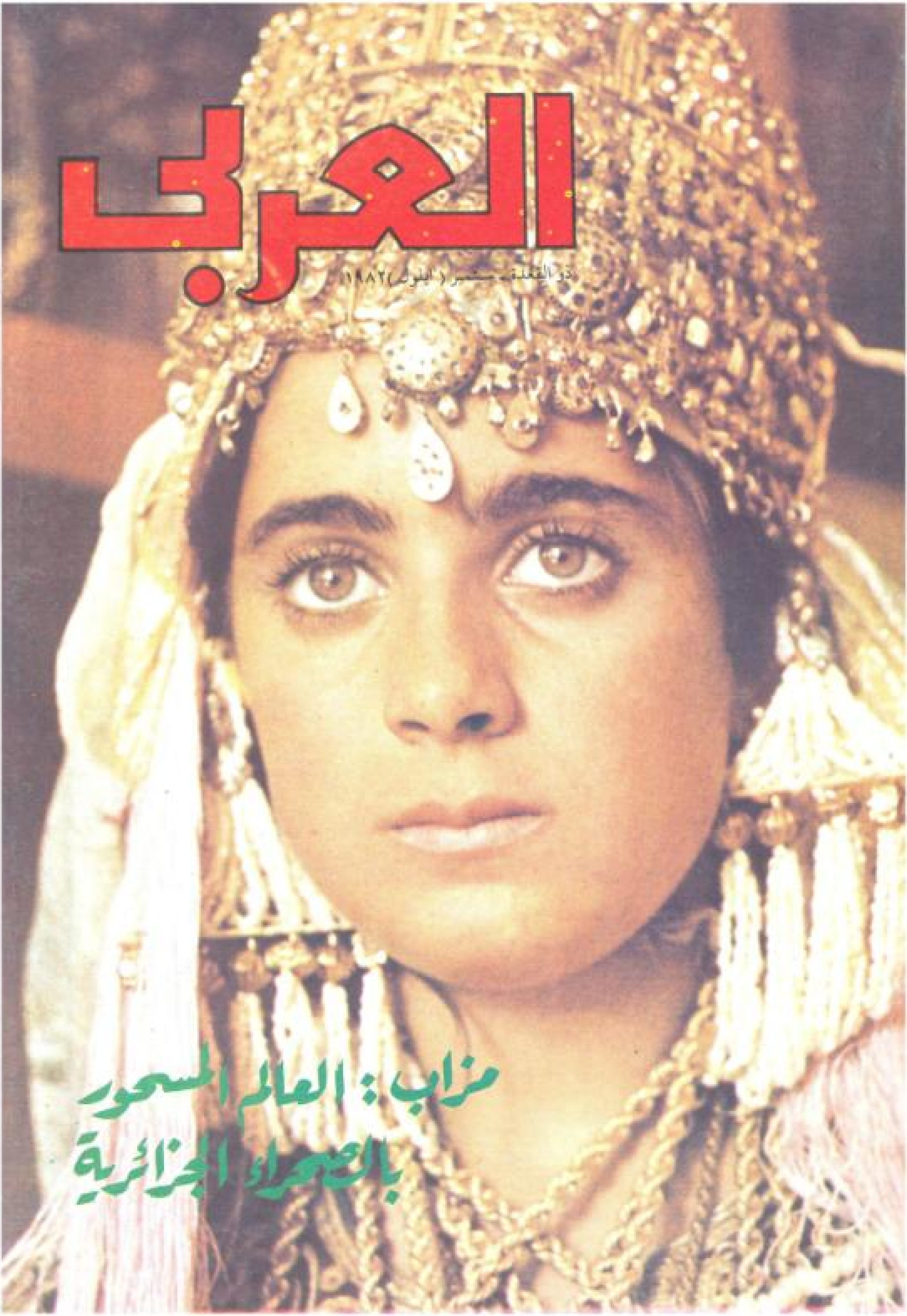


لقد حثنا الرواج المتزايد لأجهزة التلفزيون الملون من المجموعة الذهبية لإنتاج مجموعة ذهبية مماثلة من مسجلات الفيديو كاسيت . وهذه المجموعة الجديدة لمسجلات الفيديو تجمع الكثير من المزايا المتقدمة . فهي مثلاً تعمل على جميع الأنظمة وتتميز بإسطوانة فائقة الإتقان وبنظام مطوّر للتلقيم ، مع التصميم الأنيق الذهبي المترف لأجهزة المجموعة الذهبية للتلفزيون الملون . معاً ، هذه الأجهزة للتلفزيون الملون والفيديو كاسيت تعطي حقاً تجربة ذهبية للمشاهدة الممتعة .

VTC 9455 مسجل فيديو كاسيت "بيتاكورد" لجميع الأنظمة مع آلية تبحث عن الصورة وضابط للتحكم عن بعد ذو ٧ وظائف .

CTP 8470G تلفزيون ملون كونسولت ٢٦ إنش رباعي النظام مع ضابط للتحكم عن بعد ذو ١٧ وظيفة .

SANYO سانيو


العربي
سبتمبر (أيلول) ١٩٨٢
مزاب: العالم المسحور
بالصحراء الجزائرية

خبرة الماضي



١٩٥٢
أول بنك كويتي تأسس في الكويت هو بنك الكويت الوطني وكان موقعه في شارع عبدالله السالم مقابل المكتب الرئيسي الحالي.

١٩٨١
أحدث غرفة لتداول العملات (Treasury Dealing Room) في الشرق الأوسط متصلة بالأقمار الصناعية وهي موجودة في المكتب الرئيسي.



وأحدث الخدمات العصرية

بنك الكويت الوطني كان ولا يزال الرائد في مجال التطور على مدى ٢٩ عاماً. هذا التطور الذي وضع التكنولوجيا الحديثة في خدمة الزبائن الكرام، والذي أدى الى توسع البنك فأصبح يملك ٤٠ فرعاً متصلة جميعها بالكمبيوتر المركزي وذلك لتأمين خدمات فورية للعملاء الكرام.

إن هذا التطور أدخل مقياساً جديداً على الخدمات المصرفية في الكويت دون أن يمس بتقاليد اللباقة وروح الخدمة التي كانت موجودة يوم افتتحنا أول فرع لنا عام ١٩٥٢.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك

المركز الرئيسي: شارع عبدالله السالم ص.ب ٩٥ الصفاة - الكويت

عزيزي القارئ

الثقافة والمعرفة ليس مكانها الجامعات والمعاهد والمدارس فحسب ، بل ينبغي أن تمتد إلى كافة نشاطات المجتمع .

ففي العالم المتقدم تتوزع العملية التعليمية والتربوية على المتاحف والمعارض ووسائط الاتصال المختلفة من اذاعة وتلفزيون ، وتجد في أي أثر تاريخي أو بيت زعيم أو مفكر أو شاعر فرصة مناسبة لنشر المعرفة ، ويساهم في ذلك حتى نظام الأنفاق واللوحات والملصقات التي كثيرا ما تنتشر داخل قاعات الانتظار . !

ومن يتجول للسياحة في أحد البلاد الأوربية ، تفرض الثقافة نفسها عليه في تنقلاته وخلال جولاته في متحف أو مصنع أو أي منشأة تشاركه كل حواسه « فالعين ترى . . . والأذن تسمع » . . .

وتسعى مجلة العربي لسد هذا النقص ، وتطمح في أن تكون جامعة مفتوحة ، منطلقها الرئيسي الرسالة والمسؤولية التي سعت عبر عمرها من أجل تحقيقها ، تباشر دورها الفكري على جبهة ثقافية عريضة ، وتغطي مختلف فروع المعرفة ، وتمتد على طول رقعة الوطن العربي .

وتتوقف مجلة العربي - التي بين يديك - عند أبرز معالم الوطن العربي ، وأهم أحداثه الثقافية ، وآخر منجزاته العلمية ، وتقدم كل جديد في مجال الثقافة سواء كان مخطوطا أو كشفا أو فكرة في مجالات الفكر والفن والعلم .

وهي تواكب العصر الذي نعيشه ، بأحداثه وهمومه وقضاياه ، وتستجيب لتطلعات القارئ الى غد أفضل ، في محاولة متصلة للتجديد والتغيير والارتقاء بالمستوى في خدمة العقل العربي . .

واستطاعت مع الأيام أن تتحول الى منارة ثقافية ، يتخرج منها أجيال وراء أجيال ، تصل قارئها بتراثه وحضارته ، ويعيش في نفس الوقت عالم الغد المتسارع الخطا . .

والتغيير والتجديد هما الوقود المتصل للعمل الثقافي ، وهو التجديف الدائم ضد التيار من أجل استمرار التقدم الى الأمام .

« المحرر »



صورة الغلاف

● فتاة من الجزائر بملابسها التقليدية المميزة ، فالجزائر مجتمع يتغير ، وفي الوقت الذي يقتصر فيه دور المرأة في مزاب على تربية الأطفال والعمل في اطار الأسرة . تقتحم الفتاة الجزائرية كل الميادين ، في معادلة متوازنة بين الماضي والحاضر،فإلى أي مدى يستطيع سكان وادي مزاب مقاومة التغيير ؟ هذا ما يحاول أن يجيب عليه استطلاع « التاريخ الحي . . . وعالم مزاب المسحور . ص ١٠٠ » .

قضايا عامة

عروبة واسلام

طب وعلوم

أدب وفنون

قضايا حيوية

استطلاعات مصورة

تاريخ وشخصيات

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير الدكتور محمد الرميحي

مدير التحرير فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم. الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء. والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر.

ثمن العدد : بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريالات ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ٤٥٠ مليما ، السودان ١٥٠ مليما ، المغرب ٣ دراهم ، تونس ٣٥٠ مليما ، الجزائر ٣ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريالات ، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم ، اليمن الشمالي ٣ ريالات ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسا ، ليبيا ٢٥٠ درهما .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٣٧١٤١

تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :

قسم الاشتراكات

المكتب الفني ـ وزارة الاعلام .

ص .ب (١٩٣) ـ دولة الكويت

على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام ، طبقا لما يلي :

فلس دينار

ـ الكويت والبلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)

ـ بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL-ARABI, No.286 SEPTEMBER, 1982.
P.O.Box 748 — KUWAIT

نبوءة توينبي

تلقى جيلنا ونحن على مقاعد الدراسة بلهفة شديدة ـ خلال الثلث الأول من الستينات ـ كتاب المؤرخ البريطاني الذائع الصيت « ارنولد توينبي » الذي أطلق عليه « بين النيجر والنيل » ، وترجم الكتاب الى اللغة العربية ، بعنوان : « الوحدة العربية .. آتية » ولعل موضوع الكتاب يكشف للقارىء سبب هذا الشغف في تلك الأيام ..

الكتاب مجموعة من المقالات تتناول مستقبل الوحدة العربية نشرها توينبي بعد عدة جولات قام بها في بعض الأقطار العربية ، يتنبأ خلال دراسته العميقة لأوضاع العالم العربي ، ومن خلال معرفته بحركة التاريخ ، بأن الوحدة العربية في الطريق ، وبعد أن عقد مقارنة بين الاحداث التاريخية التي أدت الى الوحدات الاوربية المختلفة خلال القرن التاسع عشر ، وبين ما يتوقعه لتحقيق الوحدة العربية ، توصل الى نتيجة تقول : « انه اذا انجز العرب وحدتهم بنفس معدل الوحدات الاوروبية ، فستتحقق الوحدة العربية في عام ١٩٧٤ ، ولا يمكن حتى لألد اعداء العرب ان يضمن ان وحدتهم لن تكون قد انجزت في ذلك التاريخ .. »

وجاء تحديد هذا التاريخ قياسا على الوحدتين الايطالية والالمانية ، اللتين



بقلم : الدكتور محمد الرميحي

التي لم تتحقق

حديث عن الماضي من أجل الحاضر والمستقبل

تحققتا خلال ستة وخمسين عاما ، واعتبر ان نقطة البدء في العمل العربي من أجل الوحدة قد بدأت عقب الحرب العالمية الاولى . .

وتمضي الأيام ويمر عام ١٩٧٤ مثل غيره من الأيام ، ونتجاوزه بسنوات عديدة ، ويبقى موقف ووضع العرب من الوحدة أبعد مما كان عليه عند صدور هذا الكتاب . .

ويكشف الواقع العربي ان العقبات التي واجهتها الوحدة العربية تفوق العقبات التي واجهت الوحدتين الالمانية والايطالية خلال القرن الماضي ، والتي ذكرها توينبي في كتابه بالتفصيل . .



توينبي

ولم تعد الأوضاع العربية اليوم بعيدة عن الوحدة فحسب ، بل بعيدة عن الحد الأدنى من التنسيق بين اقطاره ، وتكاد تقضم اطرافه او بعضا منها قضمة وراء قضمة ، وبقية الجسم العربي يتململ ، ولكنه لا ينتفض ويدفع الخطر بعيدا عنه !

ترى . . ما هي الاسباب التي تجعل من الوطن العربي طمعا « مستساغا » لكل طامع . . ؟! ولماذا أصبح الحد الأدنى من العمل العربي هو أغلى الامنيات . . ؟!

لقد اختلف العرب خلال العشرة أعوام الأخيرة ، في اجتهاداتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية كما لم يختلفوا من قبل ، وحتى جدول الاولويات الذي يحدد اعداءهم واصدقاءهم على المستويين الاقليمي والدولي لم يصلوا فيه بعد الى معيار ثابت !

ونسي الكثيرون منهم ، في خضم هذا الاختلاف ، الهدف الرئيسي والثابت لاعدائهم ، ألا وهو تفتيت وتقسيم الوطن العربي ، ليس فقط من خلال الحدود والحواجز ، بل من خلال اختلاف عميق في الاجتهادات السياسية والاجتماعية ، تمهيدا لاغراق الوطن العربي في تقسيمات أخرى عديدة !

وضمن اعداء العرب ـ بعكس ما توقعه العلامة الكبير توينبي ـ ان الوحدة



عبدالناصر



الشريف حسين



غاريبالدي



بسمارك

العربية لم تنجز ، لا في عام ١٩٧٤ ، ولا في الأعوام التي تليها ، بل وضمن اعداء العرب عدم انجاز الحد الادنى من وحدة العمل العربي !

فإلى أين المصير . . ؟

ان المطلوب اليوم عمل سريع حاسم في اطار الاتفاق على الحد الأدنى ، بعد ان ينحي العرب اجتهاداتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية جانبا ، ولو بصورة مؤقته ويتأملوا واقعهم الراهن ، الذي لا يحتاج متأمله الى كبير عناء ، والذي يكشف انه كلما اتجهوا الى التضامن والتنسيق ، تمكنوا من المحافظة على ترابهم الوطني وعلى كرامتهم العربية . .

ان أهم مشاكل العرب اليوم هو سقوط الحد الأدنى من التضامن العربي ، بعد ان وقع ذلك الخلط الغريب في مطالب التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، بصرف النظر عن مدى نضوج بعض المجتمعات واستعدادها لهذا النوع من التغيير ، وقد أدى هذا الخلط الى التفريط في القضايا القومية الاساسية ، قضايا الارض العربية وقضايا الانسان العربي .

ومن هنا تأتي أهمية المطلب المتواضع الجديد ، وهو ليس الوحدة العربية - ذلك الامل العزيز الغالي على قلوب العرب - وانما الاتفاق فقط على قدر من التضامن العربي يمنع استمرار التدهور العربي أكثر مما هو عليه الآن . .

وبالله نستعين . ■■

الدكتور محمد الرميحي

خواطر



للدكتور حسان حتحوت

بين صديقين

قال لصديقه الأمريكي وهو يحاوره : أرأيت الى قصر نظر سياستكم وساستكم ؟ . . . مصالحكم الكبرى في البلاد العربية ، وفيها أغنى مخزون البترول عصب حياتكم ، والبلايين والمليارات من دولاراتهم تنعش اقتصادكم ، ثم بعد هذا كله تنحازون الى اسرائيل كل هذا الانحياز ضد العرب ؟؟

فتبسم صديقه الأمريكي ضاحكا من قوله وقال له : لست من أهل السياسة ولا من صناعها ، ولكن دعني أسألك أنت سؤالا لم أهتد الى اجابته بعد طول تفكير : هل ترى مصالحنا في بلادكم قد تأثرت بشيء من جراء هذا الموقف الذي دأبنا عليه ؟ إننا بلا شك نعطي مصالح بلادنا الاعتبار الاول . . . ولو اقتنعنا أن مصالحنا تضار نتيجة موقف من المواقف لغيّرنا هذا الموقف بلا ريب . . . فعلنا ذلك مرارا وما أمر الإعتراف بالصين أو الانسحاب من فيتنام ببعيد . . . فعلناه عندما وضعنا موقفنا على ميزان المصلحة فتبين لنا ان المصلحة أرجح ميزانا من الموقف . أما في حالتكم أنتم فماذا فعلتم لاقناعنا اننا نخسر بالانحياز لاسرائيل والتخلي عنكم ؟ بصراحة لا شيء . . . لقد أعلناً أكثر من ألف مرة اننا نؤيد اسرائيل . . . وفي المرات التي كنا نعطيكم فيها حفنة من الكلمات الطيبة كنا نعطيهم الدبابات والطائرات والغواصات . . . فقد عرفنا بطول الألف والخبرة ان قصاراكم هو أن تشجبوا وأن تحتجوا وأن تملئوا الجمعية العامة للأمم المتحدة بخطب نارية ولكنها لا تحرق . أما مصالحنا عندكم فما زالت بخير والحمد لله . . . فما الذي يدعونا للتغيير ؟؟

قال الصاحب العربي أليس لديك حس للحق وللعدالة ولنصرة المظلوم على الظالم ورد المغتصبات الى أهلها ؟ . .

قال عندي من ذلك الكثير وعند الكثيرين من أفراد الشعب الأمريكي . . ولكن هيهات أن يكون لذلك اعتباره في الواقع السياسي . ألا تذكر جونسون أثناء رئاسته لأمريكا وقبل

حرب السبعة والستين بأيام معدودات ، عندما قال بالحرف الواحد « ان اسرائيل تذكر أمريكا بطفولتها » وهل كانت طفولة أمريكا الا ابادة الهنود الحمر والاستيلاء على أرضهم واجلاؤهم عنها بقوة السلاح الوقح ؟ ولقد نقلت صحافتكم ذلك في حينه ، ومع ذلك لم نجد ان تصرفاتكم كانت على مستوى هذا المصير الرهيب . ان قطاعات كبيرة في بلادنا مارست على الحكومة قوة الرأي العام الضاغطة لوضع حد لحرب فيتنام ولم تكن تلك الجماهير شيوعية ولكن سلوك الفيتناميين حركهم . . . ولو كان سلوكهم يشبه سلوككم لما حرك أحد ساكنا . ان العدوان الاسرائيلي بالسلاح الامريكي عليكم يبدو في نظرنا ضئيلا كلما ذكرونا اننا لو أحصينا كمية الدم العربي المسفوح على مدى الثلاثين عاما الاخيرة لوجدنا أكثر من تسعين بالمائة منه قد سفكته أيد عربية لا أيد اسرائيلية .

ما دام بأسكم محصورا بينكم بهذه الدرجة لا يمتد لا الى اسرائيل ولا الى أمريكا ، وما دامت قواتكم لا تظهر ضراوتها الا على شعوبها أو على بعضها البعض ، وما دام فقيركم شغله الشاغل لقمة الخبز وغنيكم شغله الشاغل أن يزداد غنى . فكيف تتوقع أن نتوجس منكم خيفة أو أن نحس من الضغط بما يجعلنا نجابه الاخطبوط الصهيوني المتغلغل في مرافقنا واقتصادنا واعلامنا ومؤسساتنا السياسية ؟ حتى محاولاتكم لايجاد « لوبي » أو مجموعة ضغط في بلادنا يعادل اللوبي اليهودي كانت في جملتها محاولات بدائية . . فهي اما كفاءات أمريكية تستأدي أجرا باهظا ولكنها مستأجرة وليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلى ، وأما أجهزة مؤسساتكم وأسلوبها هو ما تتبعون عندكم من خطابة متشنجة وهي عملة لا رواج لها عندنا .

ان مصالحنا ومصالحكم متشابكة . . . ولكن أسلوبكم في الحياة يجعل مصالحنا بمأمن . . . وقد كنا نتعاطف معكم أكثر لو كانت طريقتكم مثل طريقتنا . . فنحن لا نرى أنفسنا فيكم وبرغم العلائق الوثيقة بيننا وبين بعض دولكم الا أننا نرى انها خامة مختلفة عنا . نحن نؤمن نظريا وعمليا بقيمة الفرد وحقوقه وحريته ، ونعيش الديمقراطية بما فيها من معارضة ونقد واختلاف في الرأي ، ومن تولى عندنا الرئاسة يقبل سلفا انه عرضة لترك المنصب ان هزم في الانتخاب فاذا نجح فلفترة واحدة أخرى ، ولا يجرؤ أحد على تجاوز حقه الدستوري بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وليس أحد كائنا من كان أعلى من قانون البلاد يتحداه أو يتخطاه أو يغيره حسب هواه وان زيف المظهر الشرعي الذي يعينه على ما يريد . لا غرو اذن اننا ونحن نتعامل مع منطقتكم لا نتبين حياتنا فيكم بل ربما كانت حياة أعدائكم فيما بينهم أكثر اقناعا لنا بأنهم من طينتنا ومن عجينتنا !!

ولم أتتبع الحوار لأكثر من ذلك . . . انه لا يخلو من مغالطات ولكنني أعتقد كذلك انه لا يخلو مما هو جدير بالتأمل والتفكير !

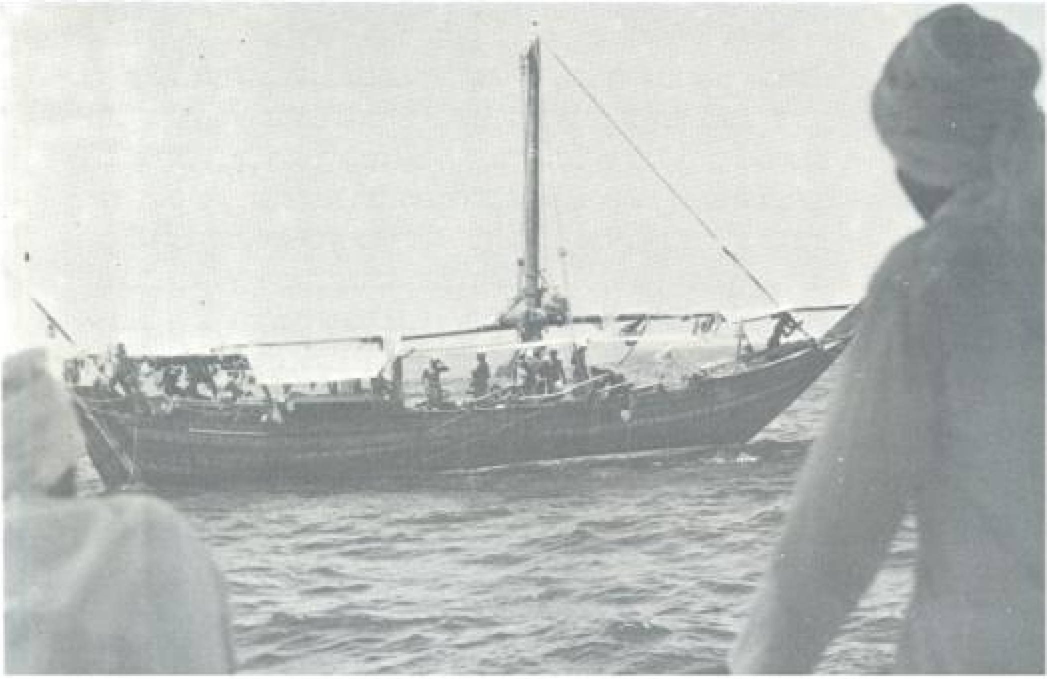
ان النظام السياسي الاداري ليس «أبو» التربية وحدها . انه أبو التنمية

هموم خليجية : الانسان والتربية

بقلم : الدكتور علي فخرو

وزير التربية والتعليم في دولة البحرين

اذا اعتبرنا الانسان هو المدخل الحقيقي ، بل المعيار والهدف ، لأي سعي في اتجاه التنمية ، فان تجربة الدول الخليجية في هذا الميدان تظل بحاجة الى المناقشة واعادة النظر*



كلها ، وعلى الأخص تنمية الانسـان .. بالأخص في دول الخليج العربي

التدقيق في التعريف له اهميته . فالانسـان الذي اعنيه هو المواطن في دول التعاون الخليجية الست . واما التنمية فيقصد بها التطوير الشامل ، الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والبيئي والسياسي . وهي في الاسـاس الارتفاع بنوعية الحياة للانسـان والتغيير المستمر الى الافضل والانبل في نمط تلك الحياة . وهذا التعريف بالطبع يخالف جذريا معنى التنمية في الخليج الذي اصبح مرادفا للمشاريع ولاستيراد المعدات الاجنبية وشرائهما من قبل سماسرة محليين ، بوساطة شركات اجنبية ، تعمل غالبا في صورة تكريم .

وكذا ايضا بالنسبة لموازيننا واحكامنا وتقييمنا في السياق الذي نحن بصدده انها سترتبط بذلك التعريف للتنمية . فالنشاطات التي نعتبرها مؤدية الى تحرير الانسان وتطوير قواه الذاتية واغناء حياته الروحية والذهنية والمادية والاسرية ، ومؤدية الى مجتمع قائم على قيم الحق والعدالة والمساواة والتراحم قادر على الاستمرارية الحضارية ... مثل تلك النشاطات سنعتبرها ايجابية . اما النشاطات التي نعتبرها مؤدية الى عبودية الانسان للغير او للطبيعة او لأحط ما فيه من غرائز ورغبات جامحة والى مسخ الانسان ليكون كائنا استهلاكيا تهما انانيا وجودبا ضائعا مقلدا . والى مجتمع تتسلط فيه الاقلية وتنعدم فيه المؤسسات المشاركة في اتخاذ القرار وتسوده قيم لا يرضى عنها رب الكون ولا تقرها شريعته ... مثل تلك النشاطات سنعتبرها سلبية مهما صبغت وجوهها القبيحة وزينت مخالبها المتوحشة ودقت الطبول الاعلامية من حولها .

التبعية الاقتصادية

لنتجه اولا الى ما هو عزيز على الكثيرين وهو العنصر الاقتصادي لتنمية الانسان . ان اول ما يبرز هو التبعية الاقتصادية . عملاتنا المحلية معتمدة على صحة او مرض العملات الاجنبية وعلى رأسها الدولار الامريكي. انظمتنا

* المقال كان في الاصل محاضرة القاها الدكتور علي فخرو في جامعة قطر ، ضمن مشروع دراسات التنمية لاقطار الخليج العربي .



التجارية مبنية على مبدئي الحرية المطلقة للسوق دون ضوابط تحمي المواطن من تقلبات الاسواق العالمية ومن اتجاهها الاستهلاكي البشع ومن تركيزها على منطق الاعلان الكاذب او المخادع الذي ادى الى تبعية ثقافية تجارية لانماط غير مواءمة من كل انواع السلع . كما هو حاصل مثلا بالنسبة للسكن او مواد البناء او اللباس او المأكولات . ولعل الغريب في الامر ان الكثير من محطات التلفزيون والاذاعة في المنطقة تساهم مساهمة كبيرة في ترسيخ هذه التبعية عن طريق عرض الاعلان التجاري بصورة مكثفة ، وذلك بالرغم من انها محطات حكومية لدول غنية لا تعرف ماذا تفعل بفوائضها المالية . اضف الى ذلك عدم وجود قواعد للسلوك للشركات المتعددة الجنسيات والاعتماد الكبير على اسلوب التلزيم (**TURN-KAY**) ، الامر الذي يؤدي في النهاية الى جعلنا مجتمعات تكتفي بشراء التكنولوجيا بدلا من استيعابها وامتلاكها . وقد اظهرت هذا المنحى العديد من الدراسات التي قدمتها بلدان الخليج لاجتماع اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا سنة ١٩٧٧ حينما بحث موضوع تسخير العلم والتكنولوجيا لاغراض التنمية .

ومع الاسف فان سياسة التصنيع تصب الى حد في نفس الاتجاه . فالاقتصار حتى الآن على اقامة الصناعات المرتبطة كليا بالبترول والغاز ، والتوجه الى اقامة الصناعات الكثيفة في حاجاتها المباشرة للطاقة (أي المبذرة للطاقة) والتي ترغب الدول الصناعية الكبيرة في تصديرها الى البلدان النامية لتتفرغ هي لمجالات صناعية جديدة . كالتخصص في قطاع المعلومات والاتصالات والقبول بتكنولوجيا صناعية تحتاج الى اياد عاملة فنية كبيرة في بلدان مشكلتها الرئيسية الديموغرافية نقص الايادي العاملة الوطنية المدربة ، والاعتماد شبه الكلي للتصدير على استيعاب اسواق الدول الصناعية وعلى الاخص الغربية ، وعدم التنسيق الاقليمي الا نادرا وعلى استحياء ، والنظر بشك وحذر نحو اية مبادرة للارتباط بالسوق العربية بل واعتبارها مضيعة للوقت مع « اخواننا عرب الشمال المتأخرين » وعدم الربط بين سياسة بيع البترول والحصول على اسرار المعرفة الصناعية وعدم الربط بين اقامة الصناعة والامكانيات الذاتية للتشغيل والصيانة والتطوير ، الخ . . . من القائمة الطويلة من التوجهات الخاطئة . . . كل ذلك لا يمكن الا ان يرسخ التبعية الصناعية .

ومن المؤسف حقا ان تبعيتنا الاقتصادية قد ادت ايضا حتى الى اندثار الحرف القديمة لانها بسلعها وخدماتها لم تعد تتلاءم مع متطلبات اسواقنا المفتوحة . وهكذا ، وبدلا من تطوير صناعة السفن التي كانت نتاجا ممتازا لعبقرية اهل المنطقة تتجه كلية لاقامة صناعة اصلاح السفن العملاقة المتجة في الخارج وبصورة تنافسية يحسدنا عليها الاعداء وبدلا من تطوير رعاية الخيول والابل كتكنولوجيا تفجرت بها عقول اجدادنا نتيجة الى ترف سباق الخيول والابل نجدنا نستورد مدربين اجانب لها . حتى ما عندنا من معرفة محدودة نخنقها بنمط معرفة الآخرين بدل ان نخصبها وننميها .

الالتحاق بالحضارة الغربية

ومالم نستعمله من فوائضنا المالية البترولية في التجارة والصناعة استثمرناه في الدول الخارجية غير العربية وغير الاسلامية ، معتقدين ان ذلك سيضمن لنا ريعا دائما حتى في مستقبل ايام ما بعد النفط . وهذا ايضا تحيط به التساؤلات والشكوك . « فهناك اولا قضية مدى قدرة الاقتصاديات الغربية المتقدمة على تحمل تزايد عبء خدمة الاستثمارات المالية النفطية لديها . . . والمخاطر التضخمية (التي) تعمل بصفة منتظمة على انقاص قيمة الاصول المالية . . . ومخاطر تقلبات الصرف للعملات الرئيسية المقومة بها هذه بالاستثمارات »(١) .

واما توزيع الثروة فالشواهد تشير الى سوئه . فالفروق بين من يلغون في مليارات الدولارات ويبعثرونها على كل ملذات الحياة الطيبة منها والخبيثة وبين من يعيشون بالكاد ويمتلئون حقدا وغضبا تراها العين كل يوم . وتتحدث مجتمعاتنا عن الثراء السريع غير المرتبط بأي جهد خاص او عمل خارق في حين تشقى الغالبية لتبقى على توازنها امام التضخم في مجتمع يحث على الاستهلاك وعلى العيش في كنف الرفاهية المظهرية .

واذا كانت التبعية الاقتصادية امرا غير مرغوب فيه فان التبعية لنمط الحضارة الغربية سيضعف مقاومة المواطن للخروج من براثنها . ومع الاسف فان اسوأ انواع النمط الحضاري الغربي هو الذي يركز عليه ، متمثلا في الاستهلاك غير المتوازن للثروات الطبيعية كالبترول والماء او المصنعة كالكهرباء ومتمثلا في الاستهلاك النهم للمأكل والملبس والكماليات ومتمثلا في التوجه الى تنمية الجوانب الحسية في الفرد . يقول ستيفن مولر : « خلقت التكنولوجيا الحديثة مصدرا للقلق الدائم ، ثم حولت التسلية الى صناعة حتى تحررنا من هذا القلق ، واعطتنا ادوات للسيطرة على الطبيعة ، ثم الى جانبها الادوات التي تلحق الضرر ببعضنا البعض . والحقيقة ان الاداء الايجابي للتكنولوجيا مقصور على البلدان التي تنتجها ، ولكن آثارها الجانبية منتشرة على مستوى العالم كله » . وهذا ما يحدث في منطقتنا . ان اخر الصيحات في عالم موديلات

اللباس ، والسيارات ، والتلفزيونات والمسجلات وآلات الفيديو ، والالعاب الالكترونية تشهد على ذلك . ان الطائرات واليخوت الخاصة ، والفيلا الثانية والثالثة والرابعة في شتى بقاع العالم الفسيح ، والتجوال الدائم عبر القارات مع الاسرة وبدونها ، ومعارض الازياء والمجوهرات والالماس في عواصم المنطقة تؤكد اننا نتجه بسرعة نحو تلك الآثار الحالية .

يرى الدكتور انطوان زحلان ان كلمة تكنولوجيا في الوطن العربي ترتبط عادة . . . بالسلع الانتاجية والمنتجات الاستهلاكية التي تؤثر في حياة طبقة متوسطة صغيرة وقطاع مساو في الصغر من القوى العاملة[2] لكني اعتقد انها في الخليج تكتسح كل طبقة وتؤثر في مسار حياة كل القوى العاملة ناشرة آثارها السلبية علينا جميعا .

اما الحديث عن البيئة الطبيعية التي يعيش فيها انسان الخليج وعما حل بها من تلوث فهو طويل ومعقدويحتاج بذاته الى حديث مستقل . لقد سمحت التبعية السياسية في ظل فترة الاستعمار للغرب باستنزاف ثرواتنا البترولية بدون مقابل ودونما حياء او وازع من ضمير ، وفرضت علينا حاجة اشباع نهم الآلة الصناعية الغربية واليابانية استخراج ثرواتنا النفطية والغازية بصورة جنونية فادى كلا الأمرين الى بداية تدمير البيئة عندنا .

لكن الخليج يواجه مشكلتين آخريين كبيرتين : اولاهما تتعلق بتلوث البيئة البحرية والبرية والهوائية التي حذرت الدراسات العديدة من تزايد آثارها بحيث انها ستوصل مياه الخليج في نهاية هذا القرن الى مرحلة اللاعودة من التلوث والملوحة . وثانيهما تتعلق بقرار شركات الدول الصناعية شبه المعلن بتصدير الصناعات الملوثة الى البلدان النامية والاحتفاظ في بلدانها بالصناعات ، النظيفة ، والتي لا تحتاج الى طاقة كبيرة ولا حاجة للتذكير بألوف المشاكل التي سيواجهها المواطنون اذا اختل توازن بيئتهم خصوصا بعد نضوب ثروة البترول ، فتصحيح آثار التلوث تحتاج الى رأسمال كبير للغاية قد لا يكون متوفرا آنذاك .

واذا كان الانسان هنا يواجه مشاكل حقيقية بالنسبة للتنمية الاقتصادية والبيئية فانه يواجه مشاكل مماثلة بالنسبة للتنمية الاجتماعية الثقافية . ولن ادخل في الحديث عن مشاكل الصحة والعمالة وجيوب الفقر فهي معقدة وتحتاج الى ذكر تفاصيل كثيرة لاظهار الجوانب الحسنة والسيئة في سيرها . وقضايا مثيرة كالمخاطر العظيمة للعمالة الاجنبية وكالانحياز للعمالة غير العربية في بعض الدول وكمشكلة خدم المنازل وتحطيمها لمكانة ربة البيت وتشويهها للعروبة والاسلام في حياة اطفال الغد ، ولكارثة الساحة الصحية عبر القارات الخمس . . . هي قضايا ذات شجون ولكن الحيز لن يسمح بتحليلها .

التعليم : مفتاح التنمية

ولكني سأركز على ما اعتقده مفتاح قضية التنمية الشاملة واعني به العملية التعليمية . وسأقتصر في البداية على ذكر بعض الحقائق :

- تنتشر الامية الابجدية - الحسابية بين مواطني الدول الست بنسبة تتراوح بين ٣٠ - ٦٠ في المائة . وتصل نسبة السقوط والتساقط قبل الانتهاء من المرحلة الابتدائية الى حدود ثلث الطلاب الذين يدخلون المدارس .
- تتميز العملية التربوية والتعليمية في جميع المراحل الدراسية بانها تلقينية ضبابية هدفها تمرير المعلومات من رأس الاستاذ او كتابة الى رأس التلميذ او كراسته .
- تتميز المناهج الدراسية بان قسما كبيرا منها غير مرتبط بالبيئة ولا يصب في مجرى التنمية ولا يتفاعل مع متطلبات وقضايا العصر الذي نعيش . ولا يفكر في التهيئة لما سيأتي به الغد .
- يحظى التعليم الابتدائي بشرف الاهمية الثانوية في خطط وزارات التربية وموازناتها فالاساتذة غير المؤهلين تأهيلا تربويا عاليا يرسلون للمدارس الابتدائية كعقاب لهم . ورواتب مدرسي الابتدائية هي الادنى بينما عدد الحصص الاسبوعية التي يدرسون هي الاعلى . ولا يزال الطالب الذي لا يتجاوز عمره السنة السادسة يعامل وكأنه فرد في جيش نظامي بروتينيته ومظهريته وتلقينه واوامره ونواهيه .
- تعتبر المدرسة الثانوية ممرا للتعليم الجامعي الاكاديمي او التوظيف الحكومي الكتابي ولا تزال الغالبية الساحقة من الطلبة يدخلون فرعي الآداب والعلوم في حين يتعلق اليوم في الفروع التقنية والمهنية الاخرى وعلى الاخص الصناعية منها . ومع الاسف تتردد الحكومات في اتخاذ القرارات السياسية المطلوبة بوضع حد اعلى للطلبة المقبولين في التعليم الاكاديمي الصرف قبل ان تصل الى ما وصلت اليه الحال في العالم الثالث من تخريج جيوش جرارة من العاطلين عن العمل من خريجي الثانويات العامة

---

(١) د . محمود عبد الفضيل - دراسة في « مجلة المستقبل العربي » بعنوان « عالم ما بعد النفط » العدد ٣ لسنة ١٩٧٩ .

(٢) د . انطوان زحلان - العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي - من مطبوعات مركز دراسات الوحدة العربية - ١٩٧٩ .

والجامعات .
ـ مازالت الغالبية من جامعاتنا لا تزيد عن ان تكون امتدادا لمدارسنا الثانوية عقلية واسلوب تعليم ، ومناهج تلقينية ، وعبودية اكاديمية ، وابتعادا (قد يكون مفروضا) عن مشاكل المجتمع وطموحاته بالنسبة للتخصصات احيانا وبالنسبة للبحث العلمي احيانا أخرى .

فهل تستطيع هذه المؤسسات التعليمية او تلك المناهج او طرق التدريس التي وصفنا ان تنمي الانسان الذي نريد ؟ هل تستطيع بناء انسان له استقلاله الذاتي ، قادر على تكوين الاحكام واصدار القرارات ؟ هل تستطيع إيجاد التفكير التكاملي الذي يربط بين الاشياء وبين المشكلات الشخصية والعامة ؟ هل تنمي فيه القدرة على التعليم المستمر وملاحقة المعرفة المتجددة ؟ هل تنتج إنسانا قادرا على رسم الخطط والقدرةعلى اجراء التقويم ؟ هل تصقل عقلا يشم رائحة التغيرات قبل ان تصبح اعصارا ، فيستشرف المستقبل ويعد له قبل ان تصدمه المفاجآت ؟

أين نحن من العالم الجديد ؟

من المتوقع ان يكون ٧٠٪ من انواع العمل جديدا تماما قبل سنة ٢٠٠٠ ، فهل ستستطيع مؤسساتنا التعليمية تهيئة القوى البشرية لتلك الحقبة ؟ ام اننا سنواجه هذه الحقيقة كما واجهنا ظهور الحاسب الالكتروني في عام ١٩٥٠ عندما انتظرنا اكثر من ربع قرن قبل ان نفكر في ادخال هذا المجال الجديد في جامعاتنا ؟

ان عالما جديدا يلوح في الافق ويشغل بال الكثيرين من المفكرين والباحثين ، كتب « دانيال بل » في عام ١٩٦٧ عن مجتمعه الاميركي : « لو نحن الواحد عما سيكون عليه مجتمعنا بعد اربعين او خمسين سنة لقلنا بان النظام الصناعي القديم سيزول ليحل محله المجتمع الجديد الذي يتكون الآن . فاذا كان رجال الاعمال التنفيذيون الصناعيون هم رجال المئة سنة الماضية ، فان رجال المجتمع الجديد سيكونون من رجال العلوم والرياضيات وإخصائيي علم الاقتصاد ومهندسي تكنولوجيا الكمبيوتر وستكون مؤسسات المجتمع الجديد هي المؤسسات الفكرية الذهنية » .

أما « الفن توفلر » فان تحليله الاجتماعي في كتابه « صدمة المستقبل » قد نقله في كتابه الجديد « الموجة الثالثة » الى وضع تصورات تفصيلية ، بالغة الجاذبية ممكنة التحقق ، عن المستقبل القريب الذي وصفه بانه سيكون عبارة عن موجة ثالثة حضارية ، تختلف اختلافا جذريا عن الموجة الاولى الزراعية وتخرج عن اطر الموجة الثانية الصناعية ، انها موجة ترتفع كجبار ملامحه مصادر جديدة للطاقة ، وقاعدة تكنولوجية متشعبة نابعة من علوم الأحياء والوراثة والالكترونيات والمعادن الجديدة وعمليات الفضاء والمحيطات ومادة اولية اساسية غير قابلة للنضوب تعرف بالمعلومات . وسينتج عن التزايد في حجم هذه المادة تغييرات كبيرة في نظام التعليم وتوجهات الابحاث العلمية وانماط وتنظيمات المواصلات وستظهر علاقات اجتماعية جديدة .

ايضا كتب « كجيل ايدي » في عام ١٩٧٩ الامي في الغد القريب لن يكون ذلك الرجل الذي لا يقرأ ولا يكتب وانما سيكون ذلك الرجل الذي لم يستوعب الجديد ، ولم يتعلم كيف يصنف ثم يعيد تصنيف المعلومات ، وكيف يقوم صحتها ، وكيف يغير من المقولات اذا لزم الامر وكيف ينتقل من الواقع الى المجرد وبالعكس » .

هذا العالم الجديد هل تتجه التنمية الاقتصادية نحوه ؟ هذا الانسان الجديد المطلوب لذلك العالم المتميز هل تتجه التنمية الاجتماعية والثقافية لبنائه ؟

انني شخصيا لا اعتقد اننا نفعل ذلك بالرغم من النشاط المحموم الذي نراه من حولنا ، ان التاريخ يمكن ان يوضح ما نقول . ألم تقم مدن كاملة في الغرب الاميركي حول مصادر الذهب ، وكانت تزخر بالنشاط التجاري والمالي والترفيهي عبر سنين ؟ ومع ذلك فانها قد اصبحت بعد حين اشباح مدن . لقد هجرها اهلوها بعد انتهاء امكانيات وجودها . ذلك ان الذهب آنذاك استعمل للعيش في الحاضر وصرف الرأسمال على نمط من الحياة غير منتج .

ألم يحدث الامر نفسه مع اسبانيا القرن السادس عشر ؟ لقد جمعت الذهب واستعملته للعيش الاستهلاكي وللمغامرات العسكرية غير المجدية ، في حين ان انجلترا القرن نفسه استعملت ذهبها في تنمية حضارية حملتها الى مشارف الثورة الصناعية . فلما استنفدت اسبانيا ذهبها اضمحلت قوتها ودخلت مرحلة الضمور الحضاري . اما انجلترا فقد استمرت في النمو الذاتي وعوضت بالانتاج البشري ما خسرته من الذهب .
هل نريد نحن نفس المصير ؟

حتى نتجنب مصيرا سيئا

اني اعتقد اننا مازلنا قادرين على تجنب ذلك المصير ولكن هناك شروط واضحة تتلخص في توجه عملية التنمية نحو اعداد الانسان لمواجهة القمة الجديدة من الثورة العلمية التكنولوجية التي ستجتاح العالم في العقدين القادمين . والمدخل الرئيسي لذلك الاعداد يكمن في نوعية التعليم ، سواء اكان ذلك داخل المدارس

والجامعات ام كان خارج اسوارها من خلال الوسائل التعليمية والتثقيفية الكثيرة كالمكتبات ومحطات الاذاعة والتلفزيون .

ان « آفاق التطوير التكنولوجي المتوقع عالميا سوف تكون له بعض الآثار على هيكل التعليم المطلوب في العشرين سنة المقبلة ، وبالتالي كان لابد من تحضير هذه التغييرات في التعليم وهيكله من الآن اذا ما كان بعض ما لدى الغرب هو المستهدف ، وليس ماضي الغرب ، ومرحلة لنموه مضى أوانها »[٣] صاحب هذه الكلمات يتحدث عن التعليم الذي يؤدي الى التخطيط الواعي لحاجات المستقبل . عن التعليم الذي وصفه تقرير نادي روما بالتعليم المجدد « الذي هو وسيلة ضرورية لتهيئة الافراد والجماعات ليعملوا متكاتفين في المواقف الجديدة » ، وبالتعليم التوقعي الذي يهيء الانسان لما يحتمل حدوثه من طواريء ، وان يأخذ في اعتباره بدائل للمستقبل البعيد ، وبالتعليم التشاركي الذي يرفض ارسال القرارات الفوقية او تقديم الحلول الجاهزة من جهات عليا .

ولا يمكن لوزارات التربية والتعليم ان تقوم بهذا العبء لوحدها ، ما لم تشاركها جهات عديدة اخرى ، من اهمها وابرزها وزارات الاعلام . اننا حتى الآن لم نستعمل في هذه المنطقة الامكانيات الرهيبة للوسائل الاعلامية الا لاغراض الدعايات والتسلية والمطلوب هو النظر بتعمق الى الامكانيات التعليمية والتثقيفية لهذه الوسائل واستخدامها ـ وعلى الاخص التلفزيون ـ لتنشيط عمليات التعليم المجدد للمجتمع ككل وعلى مدى الحياة ، ولكن الذي يحدث هو العكس ، اننا نستخدم التلفزيون لعرض نماذج عجيبة من الافلام والروايات التي لا تمت الى الواقع بصلة أو أنها تتميز بالعنف والعدوانية او التخدير ، والغريب ان بعضا من هذه البرامج التي تعرض عندنا قد حظر عرضها في بعض البلدان المتقدمة ومع ذلك فاننا نستمر في عرضها .

واذا كانت قوة المال هي التي تقرر نوع البرامج التلفزيونية في المجتمعات الغربية وذلك لتمرير الاعلانات الدعائية من خلالها ومعها ، فما المبرر لتفعل الشيء ذاته في بلدان لا تحتاج لريع الاعلان ؟ واذا كانت بلدان العالم الثالث الفقيرة تستورد برامج التلفزيون القديمة ، الدونية المستوى ، بسبب رخص اثمانها ، فما الذي يدفع بلداننا الغنية لتفعل الامر ذاته ؟ لقد تعللت الجهات المسؤولة يوما ما بعدم وجود الوقت الكافي لوضع برامج جدية تثقيفية علمية بصورة مكثفة . ولكن فهمها الحقيقي لاهداف التلفزيون للاغراض الدعائية وللتسلية وضح عندما بدأت كل دول الخليج تبث على قنوات جديدة برامج مسلية باللغة الانجليزية لقد تغلبت الرغبة في تسلية الاجانب على اشباع الحاجات الحضارية الضرورية على الاقل لجزء من المواطنين .

وهكذا اضعنا فرصة تاريخية لتكون برامجنا التلفزيونية اداة عظيمة لمكافحة الامية الابجدية والحضارية ، وحل بعض المشاكل الاجتماعية وشرح الاسس الخفية للحضارة التكنولوجية التي تكتسح حياة انساننا والتشارك مع الناس في نقاش منهجي توقعي مستقبلي ، واعدادهم نفسيا وعقليا لما يحمله المستقبل من مشاكل جديدة وتحديات خطيرة .

وهنا ينبغي ان احيي قرار وزراء الاعلام في دول الخليج بالبدء بالبرنامج التلفزيوني التعليمي المفتوح قريبا ان شاء الله ، راجيا ان لا ينقلب هذا البرنامج الى نشاط هامشي يعرض في اسوأ الاوقات ويحاط بالبرامج ذات التأثير السلبي بحيث تؤدي الى تحييد التأثير الايجابي للبرامج التعليمية الجديدة .

بناء حضاري لا قدرة مالية

ان النقد الذي وجهته الى كل الجهات تقريبا لا ينفي حدوث تقدم انمائي مادي كبير ، ان المدن والطرق والمستشفيات والمدارس والجامعات ومحطات الكهرباء وتحلية المياه وشركات الطيران الوطنية والبنوك والبورصة وحتى الاسهم تشهد على ذلك . لكن المسألة التي تحتاج الى جواب هي مقدار نسبة الانتاج الذاتي بالنسبة لما ذكرنا وامكانية الاستمرارية عبر المستقبل لما بنينا حتى الآن . اننا نريد ان نتأكد ان قضيتنا لم تتقلص الى ان تكون فقط مسألة توفر مال نستطيع ان نشتري به تلك الاشياء .

وانما نتكلم عن بناء حضاري شامخ ، جذوره في الماضي العظيم وفرعه في المستقبل المشرق المزدهر النابض بالنشاط الانساني الذاتي المتجدد المتفاعل مع الموجات الحضارية العالمية .

ان قيام مجلس التعاون الخليجي هو تأكيد على ان الاطار السياسي المعقول للعملية التنموية قد وضحت معالمه في اذهان قادة دول الخليج الست ، ويستطيع هذا المجلس لو سار في الطريق الصحيح ان يعبر عن ارادة سياسية تشاركية لحكومات وشعوب هذه الدول بحيث يلبي ايضا

(٣) علي نصار ـ الامكانات العربية . مركز دراسات الوحدة العربية ـ ١٩٨٢ .

ما اشار اليه وزير التخطيط في المملكة العربية السعودية الأخ هشام ناظر في محاضرة له امام الندوة الفكرية لرؤساء الجامعات حين اكد ان التخطيط التنموي لا يعدو ان يكون قرارا سياسيا . لكن التنمية التي نتحدث عنها هي تنمية الانسان قبل كل شيء آخر بل لعل المصاعب التي واجهها وزراء التنمية والاقتصاد والتجارة لمواجهة الثغرات التي اشرت اليها سببها الرئيسي عدم وجود ذلك الانسان .

وعندما توجد ذلك الانسان النامي ويقف على قدميه فلن تكون هناك مشكلة . يذكر الدكتور حسن صعب في كتابه (الانسان العربي وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية) اننا لو اعتبرنا الثورة الصناعية الاول المتحول الاغنائي المحسوس للتقدم ، لوجدنا ان فترة التحول التي سبقتها استغرقت في انجلترا ١٣٠ عاما وفي فرنسا ٧٠ عاما وفي المانيا ٤٤ عاما وفي اليابان وروسيا ٢٦ عاما وفي الصين ٣٤ عاما .

واذن فنحن لا نتكلم عن قرون طويلة لأن التجارب الجديدة تؤكد ان العملية التنموية للمجتمع وللانسان ممكنة في فترة قصيرة ، بشرط اتخاذ القرار السياسي ومتابعة تنفيذه .

ثم انه لماذا نعتمد على تجارب الغير ولنا اسوة حسنة فيما فعله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . الم يزرع ويحصد ثمار اعظم ثورة سياسية اجتماعية عقائدية اخلاقية عرفها تاريخ البشرية في اقل من ربع قرن .

لكن محمد بن عبد الله عليه افضل الصلاة والسلام واصحابه ـ بعد اعتمادهم على العلي القدير ـ توجهوا الى الانسان فاحدثوا في جنباته الثورة وحرروه . لقد رفضوا ان يلقنوه . لقد علموه التعليم المجدد، فأنموا ذاتيته وجعلوه منتجا ، فكان ان بنى ما بنى وحقق ما حقق دونما حاجة الى وزارات تخطيط او وزارات تنمية .

يشير الدكتور محمد احمد الغنام في مقال له (حول نظرية عربية جديدة للتربية) : « ان التجربة التربوية ـ للصغار والكبار على السواء ـ في الاقطار العربية خلال الثلاثين سنة الماضية ـ اقل او يزيد ـ تؤكد ان النظام السياسي الاداري ، بمدخلاته وعملياته ومخرجاته ، اهم او اخطر عامل في تقرير مصير التنمية التربوية . وعلى اساس هذه الفرضية . . . (فان) النظام السياسي الاداري هو ابو التربية في الاقطار العربية » .

"والحق اقول ان النظام السياسي الاداري ليس أبا التربية وحدها ، انه أبو التنمية كلها ، وعلى الاخص تنمية الانسان ، وعلى الاخص في دول الخليج العربي . ■■

البحرين ـ د . علي فخرو

نظرات المرأة الى التعليم :

■ لا يوجد أرق من حديث المرأة المتعلمة .

(مدام دوستايل)

■ يخيل الى الرجل انه يعلم .. أما المرأة فعلمها أوطد .

(مثل روسي)

■ اذا علمت رجلا .. فانك تعلم فردا ، واذا علمت امرأة .. فانك تعلم أسرة .

(فان هرست)

■ المرأة الذكية كنز .. والذكية الجميلة قوة قاهرة .

(مرديث)

الأمانة

شعر:
محمد عبده غانم
- ابوظبي



يقولون: غال العدو الألوفا
ودك على الآمنين السقوفا
وأوردهم في حماها الحتوفا
ولم يعف طفلا وشيخا كفيفا
ولا حاملا قد تنزت نزيفا
بحمل أحيل دماء صنوفا
يخضب منها الشقي الكفوفا
ويغمس في ضفتيها الرغيفا
ففي الدم يلقى الإدام النظيفا
فتى مثله قاد جيشا كثيفا
يدور به الغزو غدرا صروفا
ليجعل من كل وحش أليفا
ومن كل نغل دعيّ شريفا
ومن كل نذل دنيء عفيفا
ومن كل فدم غبيّ حصيفا
ومن كل شهم ذكيّ سخيفا
ومن كل قرم أبي ضعيفا
فيختلط الوضع خلطا عنيفا
وتغدو الأمانة حملا خفيفا
فليس الأمانة الا حروفا
وإلا «ريالا» رشيقا ظريفا
فبالحرف كم قد هزمنا الصفوفا
نندّد بالظلم مدنا وريفا
ونشجب حتى نهدّ الجروفا
وأنّ لنا أن نسل السيوفا
وسيف الفدائي أمضى رهيفا
وفي كل قبر شهيد أضيفا
لنا ألف حرف يجرّ الحروفا
ويركض في الطرس يدوي صريفاً
فلا تسمع الرعد الا رفيفا
ولا القصف والخسف الا حفيفا
وان أشفق الحرف من أن يطوفا
فانّ له في «الريال» الحليفا
فحلفهما قام سدا منيفا
نسدّ به حين نخشى الكنيفا
فلا يزكم العرف منه الأنوفا
وتبقى الأمانة حملا خفيفا

رأي جيولوجي جديد

اختفى الديناصور
إثر هجوم صاعق للنيازك والشهب

بقلم عدنان عضيمة





البرونتوسور Brontosaure احد الزواحف الضخمة المنقرضة يبلغ طوله ١٨ مترا ووزنه ٢٠ طنا .

أحدث نظريات الجيولوجيين تقول ان الديناصورات وحيوانات اخرى كثيرة اختفت من الارض منذ ٦٣ مليون سنة نتيجة لهجوم عنيف شنته النيازك والشهب .



احد الديناصورات التي عاشت في اواخر العصر الطباشيري يبلغ طوله ثلاثة امتار وهو واحد من الاحياء الكثيرة التي ذهبت ضحية الانقراض

لعل من اهم الاحداث في تاريخ الحياة على سطح كوكبنا هي ظاهرة الانقراض الفاجيء لأنواع عديدة من الزواحف واللافقاريات البحرية والنباتات الاولية في اواخر الحقبة الوسطى او ما يدعى بحقبة الميزوزوي منذ ٦٣ مليون سنة ، وبالتحديد في العصر الطباشيري .

وبالرغم من تعدد النظريات التي وضعت لتفسير هذه الظاهرة ، الا ان الدراسات الحديثة التي قام بها الجيولوجيون في السنين الاخيرتين اثبت عدم مطابقة تلك النظريات للحقيقة . ووضعت نظرية حديثة تفترض ان اختفاء هذه الاحياء يعود الى الكوارث التي حدثت على سطح الارض خلال ذلك العصر . والاعتقاد بحدوث الكوارث خلال التاريخ الجيولوجي للارض ليس حديثا الا انه كان يفتقر الى الاثباتات والشواهد المؤيدة . ففي بداية القرن التاسع عشر الميلادي-عندما كان علم

الجيولوجيا في بداية عهده وضع عالم التشريح الفرنسي جورج كوفير نظرية مفادها ان تاريخ الأرض تميز بحدوث سلسلة في الثورات البيئية او (الكوارث) وكان من نتائج هذه الثورات اختفاء الماموث في نهاية العصر الجليدي ، وكذلك اختفاء الكثير من الحيوانات الثدية الاولية التي حفظت الصخور هياكلها على هيئة احافير . كما ادت تلك الثورات الى اختفاء الزواحف الضخمة كالديناصورات التي حفظت اثارها في طبقات الطباشير .

سلسلة الانقراض

ويبدو ان كارثة الانقراض قد اصابت الزواحف بدرجة اساسية ، اذ في نهاية العصر الطباشيري كانت تعيش ١٥ عائلة من الديناصورات تتوزع في حوالي سبعين صفا منفصلا استوطنت شمال امريكا . ولكن وجد ان الصخور التي ترسبت بعد العصر الطباشيري لم تكن تحتوي على اي اثر لهياكل الديناصورات . ولم تذهب الديناصورات وحدها ضحية الانقراض ، بل شمل انواعا اخرى من الاحياء . فمن بين ٣٣ عائلة من الزواحف التي استوطنت شمال امريكا انقرضت اربع عائلات كاملة من السلاحف البحرية بالرغم من ان ثلاثا من هذه العائلات المنقرضة تابعت حياتها في اماكن اخرى على سطح الأرض . وسجل انقراض عائلة واحدة من اصل العائلات الثلاث المعروفة في التمساحيات وهي عائلة تونيوفوليداي وكذلك انقرضت عائلتان من عائلات بيتر وسور او الزواحف الطائرة . كما انقرضت عائلتان من اصل ثماني عائلات من السحالي .

وبقي السؤال الذي حير الجيولوجيين : ما هو سبب الانقراض ؟ وهل كان تدريجيا ، ام حدث بشكل مفاجيء . . ؟ تعددت نظريات الجيولوجيين في محاولة تفسير هذه الظاهرة فمنهم من افترض ان السبب يعود الى انقطاع السلسلة الغذائية في البر والبحر ، وكذلك الى التغييرات البيئية الهامة التي حدثت في نهاية حقبة الميزوزي كانحسار البحار ، والارتفاع الكبير في درجة الحرارة الذي اعقبه انخفاض كبير بها بسبب امتلاء جو الأرض بالغبار البركاني ولم تكن اي من هذه النظريات كافية لتفسير ظاهرة الانقراض المفاجيء للاحياء .

طبقة الطين التي حيرت الجميع

في سنة ١٩٧٩ جذبت ظاهرة هامة انتباه الجيولوجيين وادت الى صياغة نظرية مختلفة تماما في النظريات السابقة لتفسير سبب الانقراض .

فقد تم اكتشاف طبقة من الطين تحتوي على نسبة كبيرة من معدن الايريديوم الثقيل في منطقة غوبيو في جبال الابينين بايطاليا ولا يتجاوز سمك هذه الطبقة سنتيمترين وهي تفصل بين طبقتين من الحجر الكلس البحري ـ الطبقة السفلى من الحجر الكلس ترسبت في العصر الطباشيري ووجدت فيها احافير الاحياء التي عاشت في ذلك العصر ولم توجد اية احافير مماثلة في طبقة الطين التي تعلوها . اما الطبقة الكلسية العليا فلوحظ فيها غياب احافير احياء العصر الطباشيري بل وجد مكانها احافير لاحياء مختلفة ميزت الحياة في عصر الباليوسين الاحدث . اذن تعتبر فترة ترسب الطين انقطاعا مفاجئا لسلسلة الحياة التي كانت سائدة في العصر الطباشيري .

والظاهرة التي اثارت حيرة الجيولوجيين هي وجود معدن الايريديوم بنسبة كبيرة في طبقة الطين . لانه من المعروف ان هذا المعدن نادرا ما يتواجد في صخور القشرة الارضية ، ولكنه معدن سائد في النيازك والشهب التي تنفصل عن النجوم اثناء ثورانها . وبينت التحاليل التي قام بها الجيولوجيون ان نسبة الايريديوم في هذه الطبقة اكبر بثلاثين مرة من نسبة وجوده في طبقات الطين المماثلة والموجودة في مناطق متباعدة من سطح الارض .

وتساءل العلماء : هل يعني ذلك ان الارض تعرضت لهجوم واسع النطاق قامت به النيازك والشهب نتيجة لانفجارات نجمية غير عادية حدثت في ذلك العصر ؟

في سبيل الاجابة عن السؤال ركز الجيولوجيون جهودهم على دراسة طبقة (غوبيو) وتأكدوا من أن نسبة وجود الايريديوم فيها تماثل نسبة وجوده في النيازك والشهب .

وفي سنة ١٩٨٠ تم اكتشاف طبقات اخرى من الطين شبيهة بطبقة (غوبيو) ويرجع زمن ترسيبها الى اواخر العصر الطباشيري في الدانيمارك واسبانيا ونيوزيلندة وفي العينات الصخرية المستخرجة من قاعي المحيطين الأطلسي والهادي ، وتضمن تقرير لمجموعة الجيولوجيين التي قامت بهذه الاكتشافات نظرية تفترض انه من خلال الفترة الزمنية التي تم اثناءها انقراض الاحياء البحرية الصغيرة والذي رافقه انقراض الكثير من الزواحف والاحياء الاخرى حدث على الارض ترسب لكميات هائلة من الرواسب غير الارضية وبشكل مفاجيء . وتساءل العلماء

طبقة الطين .. التي اكتشفت في منطقة غوبيو في ايطاليا . غيرت من الفرضيات السابقة حول سبب الانقراض في العصر الطباشيري بلغ سمكها ٢سم وهي غنية بمعدن الايريديوم ذي المصدر الفضائي .



عن مصدر هذه المواد الترسبية . هل أتت من داخل النظام الشمسي ؟؟ ام من خارجه . . ؟ وما هي الآلية التي نقلتها الى سطح الارض . . ؟

واستلزمت الاجابة عن هذه الاسئلة مزيدا من تفكير وتأمل العلماء الذين فسروا طريقة وصول الرواسب الى الارض بعد انفصالها عن النجوم اثر الانفجارات النجمية العنيفة التي حدثت على سطحها في نهاية العصر الطباشيري ، وتسببت هذه الانفجارات في اندفاع دفعات هائلة من اشعة جاما التي استطاعت ان تجرف معها الدقائق النيزكية من الفضاء لترسبها على سطح الارض . واستنتج بعض الجيولوجيين ان هذه الانفجارات حدثت على بعد ١٠٠٠ سنة ضوئية عن المجموعة الشمسية وان المذنبات الضخمة التي انفصلت نتيجة الانفجار تأثرت عند اقترابها من سطح الارض بفعل القوى الجاذبة وامطرت الارض بحطامها دون ان تترك على سطحها ندوبا او فوهات .

ويقول الجيولوجيون ان اصطدام مذنب كبير واحد في مثل تلك التي اندفعت نحو الارض في اواخر العصر الطباشيري يمكن ان ينشر على سطحها موجات بامكانها ان تقضي على كل الحيوانات والنباتات الضخمة التي تستوطن الارض . واذا ما سقط مثل هذا المذنب في المحيط فبامكانه ان يسبب مدّا يرفع من مستوى سطح البحار بحوالي ثمانية كيلومترات ،وهذا الاصطدام لم يتسبب فقط في انقراض الاحياء الكبيرة بل تسبب ايضا في امتلاء جو الارض بدقائق الغبار مما ادى إلى نقص كبير من شفافية الغلاف الجوي الأرضي ومنع اشعة الشمس من الوصول الى سطح الارض بالشكل الذي تحتاجه النباتات في عملية التمثيل الضوئي مما ادى الى انقراض الكثير منها .

ولم تنج من الانقراض حتى الحيوانات البحرية الدقيقة كالرخويات وخاصة منها الرأسقدميات وعائلات الحيوانات البحرية التي كتب لها ان تنجو من الانقراض فقدت الكثير من انواعها .

وبشكل عام بينت دراسة الاحافير ان ٧٥٪ من الحيوانات والنباتات التي كانت تستوطن الارض في نهاية العصر الطباشيري قد انقرضت بفعل ذلك الهجوم العنيف الذي شنه النيازك والشهب . والذي جعل الجيولوجيين يكثرون من ذكر الديناصورات-كأشهر من انقرض من الاحياء-فلأنه من اكبرها وهو المميز للحياة في ذلك العصر .

وقد خطر ببالنا ان نتساءل . هل يمكن ان يتكرر في عصرنا الحديث ما حدث في العصر الطباشيري . . ؟؟

الله أعلم ! ■■

العمر بملايين السنين	الأحقاب	العصور
١	الرباعي	البليوستوسين والحديث
١٠	حقبة	الباليوسين
٢٠	الحياة	الميوسين
١٠	الحديثة	الاوليجوسين
٢٠		الايوسين
٥٥	حقبة	الطباشيري
	الحياة	
٤٥	الوسطى	الجوراسي
٣٥	« الميزوزوي »	الترياسي
٣٠	حقبة	البرمي
٦٠	الحياة	الكربوني
٤٠	القديمة	الديفوني
٣٠		السيلوري
٦٠		الاردوفيشي
٨٠		الكمبري
٢٥٠٠	ما قبل الكمبري	عصور ما قبل الكمبري

التقسيم العام للزمن الجيولوجي . الفترة التي حدث فيها الانقراض خلال العصر الطباشيري ملونة بالأحمر .

الجزائر - عدنان عضيمة

■ انها الحياة عندما تغضب ، والبحر عندما يثور ، والنار عندما تضطرم ، والنحلة المسكينة عندما تعمل . انها تعمل ولا تجني عسلا . . . هذه هي المرأة . . . سلسلة من الانفعالات النفسية . . .

(ادجار الن بو)

أقوال معاصرة



■ أصبحت صيحات القوة العسكرية شائعة ، وغدت الأبحاث العسكرية تشغل اهتمام نحو نصف العلماء ، أي ٦٠٠ ألف من عقول الصفوة من البشر تكرس فكرها وجهدها للدمار . . .

محمد مزالي

في مؤتمر اليونسكو بالمكسيك



■ كيف يطلب الركوب في قطار لمن لا يعرف محطته الأخيرة ؟

الأمير سعود الفيصل

■ السيطرة الامريكية على وسائل الاعلام العالمية لم يعد لها هدف سوى المكاسب والمنافع ، وهو نوع من الامبريالية الثقافية والمالية ، وعلى الشعوب ـ لكي ينطلق خيالها وتتفجر طاقاتها ـ ان تتخلص من استعمار شبكات الاذاعة والتلفزيون . . .



جاك لانج وزير الثقافة الفرنسي

في مؤتمر اليونسكو

■ ليس هناك أي احساس بالمسئولية لدى المجتمع الدولي . . .

دي كويلار الامين العام للامم المتحدة



■ الرأي العام العالمي يتصور أن ما يحدث في العلاقات الدولية هو ما يشاهده على شاشة التليفزيون . .

دافيد جارت

■ ان العقل العربي لن يمارس دوره الا بتحريره من القيود التي تشل فعاليته ، والتي ترهبه فيتردد وتخيفه فيتقوقع . .

نجيب محفوظ

■ سنقلب كل حجر في لبنان اذا اقتضى الأمر لنكشف الارهابيين ومخازن اسلحتهم . .

رفائيل ايتان

الأغلبية
مبدأ إسلامي أصيل

بقلم : الدكتور عبد الحميد اسماعيل الأنصاري

هل يقر الاسلام مبدأ الأغلبية ، وهل تتهم النصوص الاسلامية حقا موقف الأكثرية وترفض الأخذ به ؟

مبدأ الأغلبية مبدأ اسلامي أصيل

تقوم الديمقراطية المعاصرة على مبدأ حكم الأغلبية ، الذي يعتبر أفضل صيغة نظامية توصلت اليها البشرية عبر تجاربها الطويلة في أنماط الحكم .

وقد وجد هذا المبدأ مبرراته في أمور منها : ـ

١ ـ انه أمر ضرورة يحتمها الواقع ، حيث ان عدم التسليم به يؤدي الى أحد أمرين مرفوضين ، الفوضى أو حكم الفرد .

٢ ـ مبادىء العدالة التي تقرر مساواة الأفراد في حقوقهم السياسية بالرغم من اختلافهم في الصفات الموروثة والمكتسبة .

٣ ـ ضمان الانتقال السلمي للسلطة ، حيث تتناوبها الأكثرية والأقلية من حيث ان أقلية اليوم قد تصبح أغلبية الغد .

واذا تعمقنا في أصول النظام السياسي الاسلامي لوجدنا هذا المبدأ أصلا من هذه الأصول ، خاصة في عصري الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، فيما بعد . بل هو الاساس الأول لكل القرارات العامة والسياسات الكبرى المتعلقة بالمصالح الحيوية للأمة في هذا العهد المبكر . ومن هنا نقرر أن الاسلام سبق الديمقراطية المعاصرة الى مبدأ حكم الأغلبية.غير أن فقهاءنا الاجلاء ـ رحمهم الله ـ لم يتعرضوا لتأصيل هذا المبدأ وابرازه كما ينبغي لأسباب قد يكون منها ذلك الالتباس الذي كان وما زال حاصلا من عدم التفرقة بين تصرفات واجتهادات الامام الخاصة والمتعلقة بأمور استنباطية جزئية ، وبين السياسات العامة والتي لا يصح تركها معلقة بيد فرد قد يتخذ فيها قرارا متفردا قد يودى بمصير أمة .

رد على المعارضين

واذا كان لفقهائنا ـ رحمهم الله ـ عذرهم ، فما عذر طائفة من اساتذتنا في رفضهم لهذا المبدأ مع أن البديل حينئذ هو حكم الفرد المرفوض منا ومنهم . يقولون بل نظام الشورى ، وهل نظام الشورى شيء آخر غير حكم الأغلبية . ان نظام الشورى عندنا أساسه مبدأ الأغلبية ، لكنها الأغلبية المقيدة بالنصوص الشرعية الثابتة .

وقد يكون من المناسب هنا أن نعرض حجج المعارضين

ونحاول مناقشتها لنصل الى وجه الصواب فيها :

أولا : يقولون لو كان مبدأ الأغلبية مبدأ اسلاميا لوضع الرسول ﷺ له نظاما معينا ، ولأخذ به ؟ . . . . . .

ويتناسى هؤلاء أن الرسول ﷺ أخذ بهذا المبدأ في معظم استشاراته خاصة في الغزوات وهي ما يصدق عليها حينئذ المسائل العامة .

بل يقول الشيخ حسنين مخلوف [1] « ولم يرد في السنة ما يدل على أنه ﷺ شاور أهل الشورى ثم أعرض عما أشاروا عليه به » .

وأما أن الرسول ﷺ لم يضع نظاما معينا له فهذا لا يضير ، فالمعروف أن الاطر التنظيمية سريعة التغير عبر الزمان والمكان ، فكان من الأوفق عدم وضع نظام جامد . ويكفي أنه ﷺ وصحابته الكرام أرسوا أساس هذا المبدأ قولا وعملا .

ثانيا : لو كان الحكم برأي الأغلبية شيئا مقررا لكان أحد بحوث الفقهاء ولوضعوا قوانينه ونظمه ؟

والجواب هنا كالجواب هناك ، فهذه تدخل في الكيفيات المرتبطة بدرجة الوعي السياسي والاجتماعي والمتناسبة مع التطور الحضاري للأمم . واذ لم يخصص الفقهاء بحوثا مستقلة فقد يكون مرد ذلك عدم الحاجة أو عدم الملاءمة السياسية ، والفقيه السياسي أدرى بظروف عصره وما يناسبها . ومع هذا ، فقد عرف الفقهاء هذا المبدأ وبحثوه الى حد ما . وهذا يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس [2] :

(ان مبدأ الترجيح بالأغلبية مبدأ معروف في التفكير السياسي الاسلامي منذ قرون بعيدة ، ويستشهد بأقوال للغزالي - في مسألة اذا بويع لامامين - قوله « انهم لو اختلفوا في مبدأ الأمور وجب الترجيح بالكثرة لأن الكثرة أقوى مسلك من مسالك الترجيح » .

ويعلق قائلا : فهل هناك نص على مبدأ الأغلبية أوضح من هذا ؟ . . . . ويتقل عن الامام ابن تيمية قوله في مبايعة أبي بكر رضي الله عنه « وانما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة » . وعن الماوردي قوله « اذا اختلف أهل المسجد في اختيار إمام ، عمل على قول الأكثرية » ، ويستطرد قائلا : ويقرر علماء الأصول عند بحث مبدأ الاجماع « والكثرة حجة » أي فهي تلي الاجماع . وأوصى رسول الله ﷺ المسلمين أن يلزموا عند الفتنة - أي الاختلاف - الجماعة ، أي الأغلبية ، لذا اختار علماء السنة أن يسموا أنفسهم « أهل السنة والجماعة » أي الكثرة ، تأييدا لمذهبهم) .

ويذكر الشيخ عبد الحميد السائح أقوالا للفقهاء [3] منها « الأكثرية مدار الحكم عند فقدان دليل آخر » . و « اذا اختلط موتى المسلمين بموتى الكفار ، واريد الدفن والصلاة اعتبر الأكثر » ويدل أيضا على أن الأغلبية مبدأ

---

[1]) الأهرام القاهرية ٣/٩/١٩٧٧ .

[2]) النظريات السياسية الاسلامية . ص ٣٩٨ .

[3]) مجلة « الوعي الاسلامي » الكويت ، ابريل ١٩٦٧ .

معمول به حتى في السياسات الكبرى . غزوات الرسول ﷺ واستشاراته في بدر وأحد وغيرهما ونزول الرسول ﷺ فيهما على حكم الأكثرية . كذلك الحوادث الكثيرة المعروفة في عهد عمر رضي الله عنه والتي أخذ فيها برأي الأكثرية وأهمها ، عندما حصر الخلافة في ستة ـ بناء على التفويض ـ وأخبر أنه اذا اجتمع أربعة على واحد وخالف الثاني فلا يعتد برأيها واذا انقسم الستة الى ثلاثة وثلاثة ، فعبد الله بن عمر مرجح لأحدهما .

الكثرة وصواب الرأي

ثالثا : وأخيرا يقولون ، ان الكثرة ليست مناط الصواب أو حق دليلا راجحا عليه ، اذ أن صواب الرأي أو خطأه لا يستمدان من كثرة أو قلة [٤] والاسلام لا يجعل كثرة العدد ميزانا ، فان من الممكن ان يكون الرجل الفرد أصوب رأيا [٥] ويستشهدون بآيات كريمة مؤداها أن الكثرة جاهلة أو ضالة أو مذمومة منها قوله تعالى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « ولكن أكثرهم يجهلون » . « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله » .

وهذا الاستدلال مردود بهذه المناقشة :

١ ـ الآيات لا شأن لها بموضوعنا ، فبعضها في شأن الكفار وبعضها في شئون العقيدة والآخرة ولا علاقة لها بمرافق الناس ومصالحهم الدنيوية ومثل ذلك الآية « أكثر الناس لا يفقهون » أي أمور دينهم ، فهم لا يفهمون أمور دينهم أو يفهمون وينقادون وراء شهواتهم فلا علاقة للآيات التي ورد فيها ذم الأكثرية بمسألة الانتخابات أو شئون السياسة والحكم . ويعقب الشيخ محمد الغزالي على ذلك بقوله : ان الكثرة المذمومة هنا هي كثرة الكفر والضلال ، لا مجموع الأمة وجمهور خيارها . فالامة بمجموعها معصومة عن الخطأ ، وجمهور الأمة أقرب الى الصواب من القلة في الأمور التي لا نص فيها .

٢ ـ وأما ان الاسلام لا يجعل الكثرة أو القلة ميزانا للحق فهذا حيث النصوص البينة اما في الأمور السياسية أو المتعلقة بالمصالح العامة حيث لا سبيل لمعرفة الصواب من الخطأ فالكثرة ميزان للحق .

٣ ـ والقول بأن الكثرة قد تخطيء وقد يكون الصواب مع الفرد ، فانه مع التسليم بذلك الا أنه يبقى احتمال وقوع الجماعة في الخطأ أقل ، لأن الفرد مهما كان تقيا وذكيا فاحتمال تأثره بميوله الخاصة كبير بعكس الجماعة التي يقل احتمال هذا التأثير فيها لذلك كان احتمال وقوعها في الخطأ أقل ، ومن أجل هذا حض الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة يقوي بعضها بعضا على اتباع السواد الأعظم .

٤ ـ وأما أن العامة جاهلة فكيف تستشار ؟ فالجواب ان العامة تستطيع أن تشارك بمقدار ما تؤهلت له ، وهي تتعلم عن طريق الممارسة والمشاركة ، خاصة وان العامة عندها العلم الضروري بأمور معيشتها وبما يصلح لها ، وكما يقولون الديمقراطية تلد التعليم .... فهي تشترك في شئون الحكم وتمارس الانتخاب وقد تخطيء الاختيار في أول الأمر ولكنها تصحح خطأها في المرات التالية فاشتراكه في أمور الحكم وتجاربه في الصواب والخطأ هو خير وسيلة لتعليم أي شعب وزيادة وعيه .... والله أعلم . ■■

د . عبد الحميد اسماعيل الأنصاري
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ـ جامعة قطر

---

٤) الاستاذ عباس العقاد « الديمقراطية في الاسلام » . . . دار المعارف . ص ٧٨ .

٥) الدكتور عبد الكريم زيدان ـ مجلة المجتمع الكويتية ـ فبراير ١٩٧١ العدد ٤٧ والاستاذ أبو الأعلى المودودي ـ نظرية الاسلام وهديه ـ دار الفكر ، بيروت ص ٥٨



الدكتور خليل حاوي
بشّر في شعره بالحياة والتجدد
.. ثم انتحر !

بقلم محمود الريماوي

في السادس من يونيو حزيران الماضي اعلنت سلطات الأمن اللبنانية انها عثرت على الدكتور خليل حاوي استاذ الادب العربي في الجامعة الأميركية في بيروت مقتولا في منزله . بعد أيام تبين أن الشاعر اللبناني الكبير لم يتعرض لجريمة قتل ، ولكنه انتحر بمسدس اطلق منه الرصاص على قلبه .

أركان الحياة ، الثقافية ونقاد الأدب ومتذوقو شعر الدكتور حاوي اكتشفوا مأساة خسارتهم في اليوم الأول للاجتياح الاسرائيلي للبنان لأبرز شاعر لبناني معاصر ، واحد رواد حركة الشعر العربي الجديد الذي قضى عن ٦٠ عاما واربع مجموعات شعرية هي : نهر الرماد ، الناي والريح ، بيادر الجوع ، من جحيم الكوميديا . وقد عرف عن الشاعر عزوفه في السنوات الأخيرة الست (هي سنوات الحرب الأهلية) عن نشر القصائد الشعرية فضلا عن عدم احتكاكه بالاوساط الثقافية ، ورد البعض هذا العزوف الى قلق شديد يعانيه الشاعر الكبير سواء على صعيد الابداع او الرؤية الفكرية ، أو الموقف من محنة الوطن . حتى جاء انتحاره كذروة مأساوية لهذا القلق الكياني الحاد أو تصعيد له بلغ به الحد الأقصى .

عندما كتب عن الموت

ان من يقرأ شعر الدكتور حاوي سيتبين دون عناء ، ان ظاهرة الموت تحتل حيزا كبيرا من اهتماماته الشعرية والفكرية وقد تبدى هذا الاهتمام في معايشة حميمة وتأمل عميق للموت واكتناه لحالاته ودلالاته . ولا نقصد بذلك ، مجرد صورة الموت الفردي الفيزيقي الذي يعني انطفاء الجسد وخسارة الحياة ، ولكننا نعني الموت بما هو ابعد من ذلك : كتعبير عن الجفاف الروحي وفقدان ينابيع الرؤيا والتجدد . والموت كدلالة على جمود حضاري وانكفاء سلبي على الماضي والخشية من الخوض في التحدي المستقبلي . وكذلك يتوسل التعبير عن الموت لدى الشاعر ، الاساطير والرموز وتجلياتها الشعرية مازجا الرؤى الدينية بالتأمل العقلي والمعاينة الواقعية ، في جهد حثيث لبناء رؤية شمولية للموت يتحد فيها الخاص والعام ، الديني والعلمي ، الميتافيزيقي والسياسي والاسطوري والواقعي ، اتحادا عضويا لا افتعال فيه .

اما من الناحية الفنية (المحض) فان قارىء خليل حاوي يستطيع أن يلمس احتفاظ الشاعر بغنائية عالية وحارة ، وسلاسة الايقاع وتوظيفه من حيث الخفوت أو الامتداد أو التكرار ، لخدمة الرؤية التي تحملها كل قصيدة . بحيث يكون النبض الموسيقي الخارجي متآلفا مع تسلسل الرؤي ، ومضامينها وهو ما يعرف بوحدة الشكل والمضمون ، والوحدة الموضوعية والعضوية وهما ابرز ما يمتاز به الشعر : الجديد في نماذجه المتفوقة لدى رواد هذا الشعر امثال بدر شاكر السياب ، صلاح عبد الصبور ، ادونيس (علي احمد سعيد) عبد الوهاب البياتي ، احمد عبد المعطي حجازي ومحمود درويش وغيرهم . فضلا عن تحرر هذا الشعر من اللغة القاموسية ومن ابتغاء اللفظة والصورة كحلية شكلية والابتعاد عن شعر المناسبات الآنية ، ومغادرة المخاطبة والتقريرية العاطفية ، وتجاوز الهموم الرومانسية الفردية الضيقة . ومن الطبيعي أن تصبح هذه السمات ـ بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود على حركة الشعر الجديد ـ بعضا من التراث والانجازات المتحققة لهذا الشعر ، الذي وان لم يلق حتى الآن ذيوعا جماهيريا واسعا نتيجة سطوة وسائل الاتصال على حياة الجمهور اليومية ، ونتيجة ايضا لمناهج التدريس بما في ذلك المناهج الجامعية التي تضرب صفحا عن قضية التذوق لحساب الحفظ والتلقين . .

نقول من الطبيعي ان تصبح تلك السمات هي احدى المميزات الفنية والبنائية للشعر الجديد . وان كان هذا الشعر يتميز قبل او بعد ذلك ـ لا نرقى ـ بميزة اساسية أهم ، وهي امتلاك هذا الشعر لدى رواده لما اتفق على تسميته بالرؤيا . وهي ليست رؤيا حلمية أو فلسفية بالمعنى الدقيق للكلمة ولكنها تتسع في دلالتها لهذين العنصرين اذ لم يعد ما يميز شاعرا عن الآخر مجرد جزالة الالفاظ وغنى الصور والقدرة على توليدها او غناء النوازع الذاتية ومواكبة المناسبات والأحداث ، او اطلاق الحكم في صياغة وجدانية . لم يعد ذلك هو الفيصل أو المحك وان كان بعضه ما زال يدخل في قوام الشعر الجديد ! بل ان ما يميز شاعرا عن آخر او حتى الشعر الجيد عن غيره ، هو مدى امتلاك الشعر في اتساق نماذجه وتكامله من عناصر الرؤيا الفكرية والجمالية التي تحسن تشخيص الواقع واستشراف المستقبل وتقبض على ما هو حي واصيل ومتحرك سواء في النفس الانسانية او في تحولات الواقع الاجتماعي والحضاري ، او في هموم الجماعات البشرية منعكسة ومنبثقة في ذات الشاعر ووجدانه او من « عالمه الداخلي » حسب المسمى الذي يتفق عليه نقاد هذا الشعر .

ولعل هذا الايضاح (المنهجي) لم يبتعد بنا عن موضوع هذا المقال : الدكتور خليل حاوي وشعره ، بل لعلها كانت توطئة ضرورية تهيىء لنا تعرفا افضل على هذا الشاعر الكبير الذي خسرناه على نحو مأ ساوي ! . .

في جوف الحوت

ولكن كم كان موته كبيرا . اذ اتحدت مأساته بمأساة وطنه في لحظة مفارقة غنية ودقيقة فقد تلاقت ذروة مأساته الكيانية العميقة ببلوغ الخطر على الكيان اللبناني اقصاه مع

الاجتياح الصهيوني للبنان . كأنما أبى الشاعر الا ان يكون لموته معنى ومغزى كبيران ، مثل حياته لقد مثل موته حالة احتجاج « سلبية » شديدة العنف ، وهكذا هو شعره الذي يتضمن اغنى الدلالات واعمق المفارقات فمن اطلالة عابرة على عناوين مجموعاته الشعرية تتضح لنا حالة الصراع ، والثنائية ، التي وقف شعره عليهما : نهر الرماد . التعبير عن السكون والانطفاء والموت . الذي يمثله الرماد ، بالحياة والنبض والحركة التي يوحي بها النهر .

الناي والريح : اتحاد عنصري الفعل والعطاء فالناي لا تنبعث منه الموسيقى الا بدفعات الهواء . فكيف يكون الأمر عندما تهب الريح ؟ بيادر الجوع . مرة اخرى عودة الى المفارقة وانتصار الحياة على عناصر الموت . من جحيم الكوميديا : الاتجاه يتكرر وبوضوح أكبر . هذه الاطلالة على عناوين مجموعاته . تبين في وهلتها الأولى الحاح الشاعر على اكتناه عناصر الصراع والتناقض في الحياة وفي النفس . عاكسا بذلك قلقا حيا مضطرما ، ومغادرة كاملة لمظاهر دعة الحياة وسلاستها الخادعة او انتظامها الزائف .

ولعله من اليسر بمكان الوقوع على عشرات المقاطع في قصائده التي يذكر فيها الموت ، يحاوره ويتأمله ويغذيه دون أن يقع في حومة الرثاء والندب الذاتي . وحقيقة الأمر أن ما يرثيه الشاعر وينعيه هو الموت ذاته ! موت النموذج السلبي ، او موت المرحلة المحنطة ، او موت الخيارات البائسة ولكن موت هذه العناصر والحالات لا يجري الا عبر مخاض عنيف واحتدام شديد القسوة « ومتى يمهلنا الجلاد والسوط المدمي ـ فنموت بين ايد حانيات ـ في سكوت ، في سكوت ـ ومتى نخجل مصباح الخفير من مخازي العار ـ والدمع المدوي من سرير لسرير ـ ومتى يحتضر الصوت المقيت ويموت ـ عن بقايا خرق شوهاء عنا وعن تفايات المقاهي والبيوت ؟ » .

هكذا يستهل الشاعر قصيدته « في جوف الحوت » من ديوان نهر الرماد . ورغم الحس المأساوي المفعم الا ان انسياب الصور وتتابعها يكشف اننا في حضرة دعوة لموت مخازي العار وتفايات المقاهي والبيوت ، وليس غير ذلك .

على ان القصيدة تنتهي بتصوير أكثر قربا ومباشرة من حالة الموت « وانا في الكهف محموم ضرير ـ يتمطى الموت في اعضائه عضوا فعضوا ويموت ـ كل ما اعرفه أني اموت مضغة تافهة في جوف حوت » ـ ورغم هول هذه الصورة ومباشرتها الا انها لا تتعلق حقيقة برجل في الكهف . وليس بتشخيص الشاعر لحالته .

في قصائد تالية تتكشف ابعاد الصراع ففي قصيدة « سدوم » من المجموعة ذاتها يقول الشاعر عبرنا محنة النار عبرنا هولها قبرا فقبرا ـ وتلفتنا الى مطرح ما كان لنا ـ بيت وسياج وذكرى ـ فاذا اضلعنا صمت صخور ـ وفراغ ميت الافاق . . صحـرا ـ واذا نحن عواميد من الملح ـ ممسوخات من بلاهات السنين ـ ان تذكر عابر الدرب بحال الميتين فهي لاتذكر جوفاء ـ بلا أمس بلا يوم وذكرى .

نحن هنا ازاء محنة بل امام لعنة . . . سدوم القرية التي ابتلعها البحر بساكنيها ، فاذا هم عواميد من الملح . الشاعر هنا شاهد يعاين السقوط لكنه لا يحيي الموت والاستسلام ولا يلبث القاريء بعد ان يغادر القصيدة ان يدخل في امتحان جديد للموت .

وفي مواجهة أخرى معه في القصيدة التالية « بعد الجليد » التي يصفها الشاعر بأنها تعبر عن معاناة الموت والبعث من حيث هي أزمة ذات وحضارة وظاهرة كونية . ويفيد الشاعر كما يقول من اسطورة (تموز) وما ترمز اليه من غلبة الحياة على الموت والجفاف . كما يفيد من اسطورة العنقاء التي تموت ثم يلتهب رمادها فتحيا ثانية ، وينقل الشاعر قارئه من عصر الجليد : عندما ماتت عروق الأرض في عصر الجليد ـ مات فينا كل عرق ـ يبست اعضاؤنا لحما قديد عبثا كنا نصد الريح ـ والليل الحزينا ـ وتداري رعشة مقطوعة الأنفاس فينا ـ رعشة الموت الأكيد .

ينتقل الشاعر من هذا العصر الى ما بعد الجليد حيث يرفع لواء المعاناة الخلاقة الحية . فلنعان من جحيم النار ما يمنحنا البعث اليقينا ـ انما تنفض عنها عفن التاريخ واللعنة والغيب الحزينا ـ ثم تحيا حرة خضراء تزهر وتصلي لندى الصبح المطل تصلي وتعيد : يا إله الخصب ، يا تموز يا شمس الحصيد ـ بارك الأرض التي تعطي رجالا ـ اقوياء الصلب نسلا لا يبيد ـ يرثون الأرض للدهر الأبيد ـ بارك النسل العتيد . . . . .

انها اذن دعوة بعث وتجدد لا تتحقق بمعجزة أو طفرة فجائية او بضربة حظ ، ولكنها تستوي بجحيم النار بالدخول بالتجربة . بمواجهة العصر والعالم والحقيقة وجها لوجه .

شاعر الانبعاث والتجدد

أحد نقاد خليل حاوي البارزين الدكتور احسان عباس يشير الى هذا الجانب الهام في شعر الشاعر ، قائلا في كتابه « اتجاهات الشعر العربي المعاصر » - منشورات عالم المعرفة ، ص ١٧٠ : تحتل قضية الانبعاث والتجدد في شعر خليل حاوي المنزلة الأولى . ذلك انه كان من قدر الشاعر الحديث أن يكون - رغم النكسات الكثيرة التي الت بأمته - متفائلا وان يستشرق من خلال الواقع المظلم مستقبلا النضر ، اما العامل المنقذ في شعر حاوي فيشير اليه الدكتور عباس في نفس الصفحة بقوله ، رغم استجلاء الواحد في قصائد حاوي الأولى على محمل من التركيب الثلاثي ، فان هذا الواحد من بعد هو الشاعر هو المنقذ هو الشعب الذي ينبعث قويا ، ليغير وجه التاريخ وبذلك تتطابق الفردية والجماعية بحيث لا يمكن الفصل بينهما .

ومن أشهر قصائد استلهام روح الانبعاث لدى الشاعر قصيدته المعروفة « لعازر ١٩٦٢ » من ديوانه بيادر الجوع « ولعازر » بفتح اللام أخ مريم ومارتا في الانجيل بعثه عيسى بعد الموت على سؤال أخته مريم (كما في انجيل يوحنا) . يلاحظ الدكتور محمد غنيمي هلال من عنوان القصيدة ان ذكر العام ١٩٦٢ دليل على أن الشاعر يقصد بعث لعازر آخر (النقد الأدبي الحديث ص ٤٣١) وهي ملاحظة لا يمكن ردها فيما لاحظ جملة من النقاد ان المقصود بذكر ذلك العام مرحلة ما بعد انفصال الوحدة الضائعة وهي إحدى الآمال الكبيرة لأمتنا .

« جارتي يا جارتي - لا تسأليني : كيف عاد - عاد لي من غربة الموت الحبيب - حجر الدار يغني - وتغني عتبات الدار - والخمر تغني في الجرار - وستار الحزن يخضر - ويخضر الجدار . الا أن الدكتور حسين مروة في دراسته التي اعيد نشرها في ديوان خليل حاوي الطبعة الثانية (١٩٧٩) يتساءل بعد عرضه للقصيدة : اننا نرتضي من شاعرنا ان يغني جراح المأساة وان يكشف عناصر الفجيعة في المأساة فهذا هو الوجه الوحيد الايجابي في فكرة القصيدة . . . ولكن كيف نرتضي أن ينفث في أعصاب جيلنا « سحر » اليأس وخدر الحياة وان يقيم في دربه هذا الجدار الأصم المعتم الممتنع حتى على المعجزة ؟ والحق ان القصيدة يتجاذبها اليأس والرجاء وتشيع فيها احتمالات الموت والحياة معا . وبالرغم مما يؤول اليه النمو الدرامي في القصيدة التي تتخذ طابعا حواريا بين مريم ولعازر حيث ينهض لعازر من الموت ميتا ، بالرغم من ذلك فانه يتعين على قارىء القصيدة أن لا يقف منها موقف قارىء قصة ، حيث الخاتمة تنتهي بالموت ! .

فالقصيدة تبشر بالحياة وتهتف لها في ذات الوقت الذي تعاين فيه الموت وتجسده أي أنه حتى لو نهض لعازر ميتا فان الدعوة لبعثه (لبعث القرائه) تظل حية قائمة وتجدر الاشارة في هذا الصدد أن الشاعر « حاوي » قد أكثر من استخدام رموز الصلب والقيامة والناصري الخ . الا ان هذا الاستخدام لم يكن لوظيفة (دينية محضة) فهو لا يحمل رؤيا مسيحية ، كالشاعر اللبناني يوسف الخال مثلا . لكنه يوظف هذه الرموز من أجل رؤية عربية وكونية وحضارية معا . ومن المعلوم أن رمز الصلب مثلا ينتشر الى حد كبير بين الشعراء العرب المحدثين باعتباره رمزا انسانيا .

ورموز من التراث

الا ان الدكتور « حاوي » لم يتوقف عند استخدام هذه الرموز الدينية فقد لجأ الى بعض رموز التراث العربي مثل « السندباد » في قصيدته الشهيرة « رحلة السندباد الثامنة » بالاضافة لقصيدة « وجوه السندباد » ويعتبر الدكتور علي عشري زايد في كتابة القيم استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر (الشركة العامة للنشر والتوزيع - طرابلس) يعتبر نموذج السندباد لدى الدكتور حاوي انجح النماذج على الاطلاق وأكثرها اكتمالا من الناحية الفنية . حيث وجد حاوي في السندباد نموذجا رمزيا صالحا للتعبير عن مرحلة من أهم وأثرى مراحل تطوره الشعري والفكري حيث يعبر السندباد بعد رحلاته السابقة الرحلة الثامنة وهو يبشر : ضيعت رأس المال والتجارة عدت اليكم شاعرا في فمه البشارة - يقول ما يقول - بفطرة تحس ما في رحم الفصل - تراه قبل أن يولد في الفصول » . وحول استخدام رمز السندباد في الشعر الحديث . يذكر الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي ان صلاح عبد الصبور أول من اكتشف هذا الرمز ثم تبناه بعد ذلك عدة شعراء ، ولكن خليل حاوي من بين هؤلاء جميعا هو الذي الح عليه حتى استخرج منه امكانيات باهرة كما في رحلته الثامنة .

والآن هل ترى خليل حاوي في غيابه الدامي اللاذع قد عبر - مستلهما السندباد - رحلة تاسعة ؟ أم أنه اراد أن يتحرر مرة واحدة والى الأبد من قيود الزمن الأرضي المميتة بعد أن عرف كيف تمط أرجلها الدقائق ، كيف تجمد ، تستحيل الى عصور ؟ . ■ ■

محمود الريماوي



اليهودى التقليدى بين الخرافة والتاريخ

تغيرات جذرية طرأت على العقل اليهودى بعد قيام اسرائيل

بقلم احمد محمد رمضان

نحن أولى من غيرنا بمحاولة التعرف على الزيف والحقيقة في الشخصية اليهودية ، والى دور الخرافة والتاريخ في الفكر الصهيوني .

في عام ١٩٣٥ كتب بيير جومار البلجيكي في كتابه « اسرائيل يعود الى دياره » : « انك لتجد اليهود مبعثرين شذرا على مئة دولة . لكن قوتهم تسيطر على كل هذه الدول متفرقة او مجتمعة . انك لتجدهم ظاهرين او مختفين على كل صعيد عالمي وكل طبقة اجتماعية وكل جوانب النشاط البشري . انهم دائما مستعبدون ، لكنهم يظلون اسيادنا في الوقت نفسه » .

وفي عام ١٩٣٠ القى الدكتور حاييم وايزمان محاضرة في القدس بعنوان « النهضة اليهودية » قال فيها : « لقد قلنا لسلطات لندن اننا سنكون في فلسطين سواء أردتم أو لا . وقد تعجلون بذهابنا اليها او تؤخرونه . ولكن خير لكم ان تساعدونا والا انقلبت قوتنا البناءة هدامة تنزل الدمار والفساد بالعالم كله » .

وفي العشرينات كتب الفرنسي هنري دو مونفريد عن

مغامراته في تهريب الحشيش الى مصر . وكان له وسيط يهودي يطوف به حارة اليهود بالاسكندرية فيظن الجميع انه يهودي مثله . وهكذا تكن ـ على حد قوله ـ من رؤية التجار اليهود على حقيقتهم فقال :

« ان الواحد منهم مستعد لأن ينتزع المجوهرات من جثث الموتى لاسترداد دينه منها . انه مستعد لأن يسرق مال اليتامى اذا استطاع ذلك شرعا . ومع ذلك فان نفس هذا اليهودي قد يقتل نفسه كدا كي يعلم اولاده ، كما انه قد يعمل في احقر المهن ليعول ابويه العجوزين بل وحتى الاباعد من اقربائه . . . ان فيهم سرا عريقا مثل جنسهم ، ثابتا لا يتغير كالزمان . واذا حدث واتحرفت غريزتهم التجارية الشرسة عن مجراها المعهود لوجدت هذا السر يطفو على السطح ليفعل العجائب » .

هذه الأقوال الثلاثة تجعلنا نتساءل هل اليهود من طينة مختلفة ؟ واذا كان الأمر كذلك فهل هم فوق مستوى البشر كما يقول احباؤهم ؟ ام دون مستواهم كما يقول اعداؤهم ؟

مطاردة العامل المجهول

لقد حذرتني طبيبة نفسية امريكية من شدة صعوبة فهم العقل اليهودي ، صحيح ان علماء النفس يتفقون على ان هناك ثلاثة عوامل رئيسية (هي التوراة ، والشتات ، والاضطهاد) قد جبلت شخصية اليهودي التقليدي حتى اصبحت تتسم بست سمات نفسية رئيسية هي : القلق ، والشك ، والخوف ، والشعور بالدونية ، والحرص على التمايز ، وعدم الثقة في غير اليهودي . ولكن هناك عاملا مجهولا كان حاسما في تطور الشخصية اليهودية الحديثة واشار اليه الأديب الأمريكي اليهودي سول بيلو الحائز على جائزة نوبل في كتابه « الى القدس ومنها » حين قال : « ان اليهود كما هو معروف جيدا يغالون فيما يطلبون من انفسهم ومن بعضهم بعضا ، ومن العالم ايضا . واحيانا اتساءل عما اذا كان هذا هو الذي يجعل العالم يضيق ذرعا بهم الى هذا الحد » .

المغالاة اذن نزعة متأصلة في العقل اليهودي ، ولكنها كامنة او لنقل انها لا تبلغ حد الخطر الا اذا استخدمت في اغراض جماعية خصوصا لوضع حد فاصل بين اليهودي وغير اليهودي (الأممي) . فاذا اكتفى اليهودي بالمغالاة فيما يطلبه من نفسه فقط لسعى الى التفوق الفردي وحده . اما اذا غالى فيما يطلبه من بني جلدته او غالى ابناء جلدته فيما يطلبونه منه كاتهامه بالخيانة اذا ايد اسرائيل مائة في المائة فقط وليس ٣٠٠ في المائة ، او كأن يعتبر هو الفلسطينيين شعبا من المجرمين وليس من اللاجئين ويرضى لنفسه ما لا يرضى للآخرين وفق قاعدة ازدواج المعيار القائلة بانه يجوز لليهودي ما لا يجوز لغيره ، فانما يدخل بذلك في دائرة التفوق القومي العنصري وليس الفردي ، وبذلك يدخل دائرة الخطر ويصبح في عداد الصهيونيين الذين يتباهون بمرضهم العقلي المفضل (البارانويا) الى حد العجز عن التمييز في المعاملة بين اصدقائهم واعدائهم . مثال ذلك ان الولايات المتحدة بكل جبروتها لم تقتل اسرائيليا واحدا بينما قتلت اسرائيل عمدا ٣٤ ضابطا وجنديا امريكيا عندما دكت بالقنابل والرصاص والطوربيد سفينة التجسس الامريكية الشهيرة « ليبرتي » في حرب ١٩٦٧ . واغرب من هذا ما حدث من تستر ومصادرة لكل ما كتب عن هذه الفضيحة الى حد ان بعض الناجين من السفينة يصدرون حتى الآن نشرة دورية تتحدث عن تلك المهزلة ، ومقابل ذلك كله لم تدفع اسرائيل التعويض عن خسائر السفينة (وهي ٧ ملايين دولار فقط) الا بعد مساومة بشعة دامت ١٣ عاما وانتهت بنهاية عام ١٩٨٠ بحجة ان الامريكيين بالغوا في تقدير قيمة السفينة !

وسوف نلاحظ مدى التغيير الذي احدثته سمة المغالاة في كل نمط من الانماط الاربعة الرئيسية التي اصبحت عليها الشخصية اليهودية خارج اسرائيل وداخلها . وهذه الانماط هي :

١ ـ الشخصية اليهودية التقليدية خارج اسرائيل .
٢ ـ شخصية الاسرائيلي غير المولود في فلسطين .
٣ ـ شخصية المولودين في فلسطين (الصابرا) خصوصا من اليهود الغربيين (الاشكناز) .
٤ ـ شخصية الصابرا المولودين في الكيبوتسات .

● النمط الأول : ضربني واشتكي : لقد ذكرنا ان هذا النمط يتسم بالشك والقلق والخوف والشعور بالدونية والحرص على التمايز وعدم الثقة بغير اليهود . والسمات الاربع الاولى على الاقل موجودة في مرض البرانويا المأثور عن الشخصية الصهيونية بالذات . ويقول الاستاذ ايمانويل رايس بجامعة نيويورك في كتابه « محاضرات في الامراض النفسية » ان المصابين بالبارانويا عدوانيون ، شكاكون ، يتهمون الآخرين بالتجني عليهم والتصميم على خداعهم ، وهم غارقون دائما في قضايا قانونية ، واصحاب ذمة ومكدون في عملهم ، ويستمتعون بالفكاهة او يرتاحون اليها ، ويتحسون كل المظالم والاخطاء حتى قبل وقوعها (ضربني وبكى ، سبقني واشتكى) . يشعرون بالدونية والتفاهة وكثيرا ما يحاولون اثبات قدرهم بانتقادهم للاخرين وجعل من يحرصون على ودهم ينفرون منهم » .

وعدوانية العبرانيين غنية عن الذكر ، فقد كان لتاريخهم « طابع البداوة الدموية العنيفة » في رأي الدكتور جمال حمدان . يشهد على ذلك ان ١١ من مجموع ٢٠ ملكا

جاء ذكرهم في سفر الملوك الاول قد ماتوا قتلا على يدي بني جلدتهم . ويبدو ان تشتت اليهود لم يكن بسبب الاضطهاد والاحتلال بقدر ما كان هربا من تناحرهم داخل فلسطين ، بدليل ان الجالية اليهودية في مدينة الاسكندرية قبل ظهور المسيحية كانت اكثر عددا من كل سكان مملكة يهودا . وبعد تشتت اليهود في عام ٧٠ ميلادية دخلت هذه العدوانية مرحلة الكمون . ومع ذلك كانت ملامح صورة اليهودي التقليدي في العصور الوسطى هو انه « كافر حليف الشيطان ، يستخدم السحر والسم ، يدنس الصور ، يستخدم الدم في اعياده ، جشع يستنزف قوت الآخرين » . اما في العصور الحديثة فصار « عشائريا ، ميالا للسيطرة ، انتهازيا مرتزقا لا يتورع عن شيء » . ثم استطاع جهاز الدعاية الصهيوني الجبار ان يجعل ملامح اليهودي في الستينات كما يلي : ذكي ، داهية ، مثابر ، متدين ، رب اسرة ممتاز .

● النمط الثاني : نهاية التاريخ : اما النمط الثاني فهو الشخصية الاسرائيلية التي لم تولد في فلسطين . وعالم النفس اليهودي هيرمان روبنشتاين يرى ان اعراض البرانويا تلازم هذا النمط ايضا ، بالاضافة الى اشتداد مشاعر الشك في العرب والاجهزة الدولية . لكن الشعور بالدونية هنا قد حل محله - او صاحبه - شعور متزايد بالتفوق على غير اليهود (الاممين) . ومعروف ان مركب العظمة ومركب النقص وجهان لعملة واحدة ، تماما مثل العلاقة العضوية بين السادية (التلذذ بتعذيب الغير) والماسوكية (التلذذ بتعذيب الذات) . ويلاحظ هنا اشتداد نزعة المغالاة لدى هؤلاء « الحرس القديم » الذين يحكمون اسرائيل منذ قيامها ومع ان عليهم ان يختاروا بين امرين لا ثالث لهما هما اما الارض او الامن ، فان الطمع والتسلط يجعلانهم يصرون على الجمع بين الاثنين . وهنا بالذات تتخذ سمة المغالاة طابعا قوميا شوفينيا يسميه الدكتور عبد الوهاب المسيري بظاهرة « نهاية التاريخ » . فهم يرون ان تاريخ الارض المقدسة بدأ وانتهى ببني اسرائيل ، وان عرب فلسطين مجرد ضيوف عليها حتى لو اقاموا آلاف السنين فيها ، وحتى لو كانت اقامة العبرانيين لم تستمر فيها اكثر من ٥٠٠ عام لم يتركوا خلالها أثرا يذكر اذا قورن بما تركه الكنعانيون والفلسطينيون القدامى والعرب اللاحقون لهم .

● النمط الثالث : نحن اسرائيليون لا يهود : هذا النمط هو جيل الصابرا المولود في اسرائيل ، واهم سماته :

١ - الميل الى العنف .

٢ - التمركز حول اسرائيل زمانيا ومكانيا (الغيتو الجديد) .

٣ - طموحهم منصب على الامان المادي والحياة المريحة .



٤ ـ الانتماء القوي الى اسرائيل ومجتمعها .
٥ ـ عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودي الحديث والضيق بالحديث عن الرواد الاوائل (الحالوتزيم) .
٦ ـ احتقار المهاجرين القدامى والجدد (والعرب طبعا) .

في هذا النمط سمات جديدة هي عودة النزعة العدوانية القديمة وتحول الشعور بالدونية الى شعور بالتفوق الى حد احتقار المهاجرين اليهود . ويجب الا تستهين بنسبة الصابرا بين السكان وتزايد اهمية دورهم . فقد جاء منهم موشي دايان ، وايغال يادين ،وآرييل شارون . عندما قامت اسرائيل كانت نسبتهم نحو ٣٥ في المائة من مجموع السكان ، اما الآن فانهم يتجاوزون نصف السكان بقليل .

● النمط الرابع : مفخرة ام مسخرة ؟ : هذا هو شخصية جيل الصابرا المولودين في الكيبوتسات والذي اظهرت دراسات ميلفورد سبيرو وبرونو بتلهايم ان سماته الرئيسية الخمس هي : العدوان ـ الانطوائية ـ البرود الانفعالي (الفتور العاطفي) ـ الحقد ـ الشعور بالدونية . وتقترن عودة العدوان هنا بظهور سمتين جديدتين هما الحقد والبرود الانفعالي مع اختفاء سمة الاحتقار وعودة الشعور القديم بالدونية ومغزى هذا النمط هو ان الكيبوتسات كانت فخر الفكر الصهيوني وتجربته الثورية الرائدة في اعادة خلق الانسان والمجتمع اليهودي . لكن التجربة اخفقت اخفاقا اليما بدليل التضاؤل المستمر في عدد سكان الكيبوتسات وانتاجيتهم . ومع ان الكيبوتسات صورة مصغرة من المزارع الجماعية في البلدان الاشتراكية فانها كانت اقل نجاحا . ومع ذلك يساق السائح الاجنبي لقضاء ليلتين فيها ليرى هذه « المفخرة » التي اصبحت بؤرة لمدمني المخدرات ، والشبان المتبلدين عاطفيا ، والاطفال الذين يبللون فراشهم حتى سن متأخرة كما لاحظ سبيرو .

موجز القول ان التجربة الاسرائيلية ابرزت اسوأ ما في العقل اليهودي بغض النظر عن انتصاراتها المادية والمعنوية الكثيرة .

فاذا كانت السمات التقليدية فيه هي القلق ، والشك ، والخوف ، والشعور بالدونية ، والحرص على التمايز ، وعدم الثقة بغير اليهود ، فان احياء العقيدة الصهيونية لعامل المغالاة (او « العامل المضاعف » بلغة علم الاحصاء) قد ضاعف من شدة هذه السمات الى حد افساد الشخصية اليهودية . مثال ذلك :

١ ـ ظهرت العدوانية التي كانت كامنة في الشتات ثم تفاقمت فصارت الجريمة المنظمة (المافيا) اسلوبا مألوفا في الحياة اليومية الاسرائيلية .
٢ ـ انقلب الخنوع التقليدي والشعور بالدونية فأصبح غطرسة حتى مع الاصدقاء واحتقارا صريحا حتى للمهاجرين اليهود (القدامى منهم والجدد) وهؤلاء بدورهم يحتقرون غير اليهود .

٣ ـ استفحل الشك بالعالم الخارجي والمنظمات الدولية خاصة الى حد العجز عن التمييز بين الانصار والخصوم (ضرب السفينة الامريكية ليبرتي) .
٤ ـ اشتد القلق الى حد انعدام الثقة بالمستقبل (اصبح المهاجرون الى اسرائيل اقل من النازحين منها) .
٥ ـ تزايدت نزعة الخوف الى حد التقديس المرضي للأمن حتى ظهرت امراض نفسية لا يعرفها الطب النفسي (اضراب الاطفال عن الطعام خشية مصرعهم عندما يكبرون ويساقون الى جبهة القتال) .
٦ ـ الامعان في الاحساس بالتمايز والتفوق ازاء الاغيين الى حد الولع بالتسلط حتى على الدول الصديقة (السيطرة على مراكز القوى في الغرب وخاصة الولايات المتحدة) .

وعن النقطة الاخيرة يجدر الذكر ان البحوث التي اجرتها كل من العالمة الامريكية الراحلة مارغريت ميد ، والعالم الامريكي اليهودي هيرمان تتفق على « ان تقسيم العالم الى يهود وغير يهود من المكونات الاساسية في الهوية اليهودية . . . وان وضع حدود بين اليهود وعالم الاغيين مازال له تأثير غلاب حتى في اسرائيل نفسها . « وباستطاعتنا ان نسوق عشرات الامثلة على ما ترتب على هذا التقسيم من ازدواج المعيار وعدم معاملة الغير بالمثل . فالحديث عن الخلل في العقل الصهيوني يطول الى حد الملل ، ولكن تلك قصة اخرى . ■■

احمد محمد رمضان
نيويورك ـ الامم المتحدة

■ بالحب والايمان نجد طريق التسامح ـ بالحب والايمان نثبت في مسيرة الكفاح .. بالحب والايمان نجد صفاء نفوسنا . بالحب والايمان نبني أوطاننا (مهيبة المالكي) .

الصّحوة الإسلاميّة ملاحظات وتحفظات !

فهمي هويدي

اذا حاول المرء ان يسجل بعض الملاحظات والتحفظات على تلك الموجات السائدة الآن ، والتي باتت تسمى على جملتها بالصحوة الاسلامية ، فانه قد يبدو لأول وهلة كمن يسعى لاطفاء الأنوار في فرح أو عرس !

ذلك أن مشاعر الرضا والغبطة التي تنتاب الكثيرين في أرجاء عالمنا العربي والاسلامي ممن يحسبون أن « الصحوة » قد حلت بعد طول انتظار ، لن ترحب في الأغلب باي مناقشة للموضوع ، بعدما أصبح الكل يتعامل مع وصف « الصحوة » باعتباره إحدى مسلمات المرحلة . حتى وان دعت المناقشة الى أن نتأمل جيدا - وبوعي - ما يجري . والا ننجرف وراء أحلامنا وعواطفنا ، متسلحين بحد ادنى من الضوابط ، يمكننا من أن نمارس قدرا من التدقيق والفرز . لكي لا يختلط الحابل بالنابل ، ولكي لا يضيع الأمل من جراء الانسياق وراء الادعاء والوهم .

وفي سبيل هدف كهذا ، لابأس من اطفاء بعض انوار العرس ، على اعتبار أن صيانة مصباح واحد خير من التباهي ، بعشرة مصابيح فاسدة ، فضلا عن أن ثمة مصابيح يظل اطفاؤها في كل الحالات - أفضل من انفجارها .

ان الصحوة ، لغة ، هي قرين الافاقة أو زيادة الوعي ، فيقال صحا السكران أي ذهب سكره . وصحا الرجل أي ترك جهل الصبا أو طريق الباطل . وعند عامة الناس فان الصحوة قرين اليقظة . فاذا قيل صحا الرجل ، فذلك يعني أنه استيقظ من سباته . وفي المعنى الاصطلاحي - الذي يهمنا هنا - فان الصحوة هي حالة انتباه من الغفلة أو الغفوة . أي أنها انتقال من السلب الى الايجاب ، بحيث تشكل في مسيرة الفرد أو الأمة خطوة تقدم الى الأمام ، تمهد في النهاية لبلوغ مرحلة النهضة .

ذلك يعني أن للصحوة عناصر ثلاثة ، شكل ومضمون ووظيفة . فينبغي أن يفيق المرء أولا ، ثم يتصرف بوعي ثانيا ، ثم يتحرك على نحو ايجابي ثالثا . وقد يتعذر أن نصف ظاهرة ما ، مهما كان حجمها أو لافتاتها وأعلامها ، بانها صحوة ، ما لم تجتمع فيها تلك العناصر الثلاثة على الأقل .

وحتى ترتب العناصر حسب أهميتها ، فيجب أن تعطي المضمون والوظيفة أو الاداء أولوية مطلقة على الشكل والمظهر . وأحسب أن هذا هو المنهج الاسلامي الصحيح ، الذي يعتمد الموقف معيارا للحسم والتقدير . وفي الحديث الشريف « ان الله لا ينظر الى صوركم واشكالكم ولكنه ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » بل ان كلمة الاسلام بحد ذاتها موقف ، اذ هي مشتقة من تسليم الوجه لله سبحانه وتعالى . وتلك لغة القرآن في التعبير عن الرسالات السماوية فالنصرانية من النصره ، واليهودية من اللذين هادوا الى الطريق أو هادوا عنه . . وهكذا ولا نريد ان نستطرد ، انما ننبه فقط الى ترتيب المعايير في التصور الاسلامي ، الذي لا يلغي الشكل والمظهر ، ولكنه يعطي الأولوية للموقف والاداء لقد كبر الجسم الاسلامي حقا في السنوات الأخيرة ، لكننا في أمر له تلك الأهمية المصيرية ، لا ينبغي أن نعتمد على الكم والحجم وحدهما في تقييم الظاهرة والحكم على سلامتها بصورة مطلقة . فليس كل نمو في حجم الجسم علامة صحة وعافية ، بل يظل ذلك واحدا من احتمالات ثلاثة على الأقل تفسر هذا النمو . والاحتمالان الأخران هما ان يكون ذلك مجرد « سمنه » ، أي زيادة في كمية الشحم والدهون ، وقد يكون « تورما » ليس فيه من الصحة شيء ، علما بأن في الاورام ما هو حميد وخبيث والعياذ بالله !

من هنا كانت أهمية المسارعة الى تشخيص الحالة بموضوعية تامة ، لمعرفة ما اذا كان هذا النمو في الجسم الاسلامي عافية ، ام سمنة ، أم تورما ؟ كي نستثمر ما هو ايجابي من اسباب النمو وعلاماته ، ونعالج كل ما هو سلبي منها ، كلما كان ذلك ممكنا .

ومن هنا أيضا كانت أهمية الاتفاق على معيار لفرز الفصائل المختلفة ، التي تصنف في اطار الصحوة ، والتي قد تتوفر في بعضها الشروط الثلاثة ، فتستريح ضمائرنا وتطمئن قلوبنا ، في حين قد يتوفر في البعض الآخر شرط أو اثنان ، أولا تتوفر فيه أي من الشروط الثلاثة ، فتختلف أمور كثيرة .

وعلى سبيل المثال ، فان امتلاء المساجد بالمصلين ، وتضاعف اعداد الملتحين أو المحجبات ـ أو حتى المنقبات ـ لا ينبغي أن يعد بذاته معيارا يكتفي به . بل قد نقول أن فيه من الصحوة شكلها وظاهرها ، وتبقى اسئلة كثيرة مثارة حول الموقف بشقيه ، الفكر والاداء . أي أنه ثبت في حق الظاهرة عنصر واحد فقط ، وبقي من عناصر الصحوة عنصران اثنان ، ينبغي أن ندقق في ثبوتهما قبل أن نصنف هذا السلوك ـ ونحن مطمئنون ـ بأنه تعبير عن صحوة اسلامية .

أيضا فان انتشار التنظيمات الاسلامية ، قد يكون علامة على اليقظة ، وعلامة على التحرك بوعي ، ولكن ايجابية هذا الوعي او سلبيته تحتاج منا أيضا الى تدقيق . فضلا عن اننا قد لا نستطيع أن نصنف صور التطرف ، أو الشذوذ الفكري ، باعتبارها خطوة الى الأمام ، الأمر الذي يدعونا الى تصنيفها على انها قد تكون ظواهر للرفض والتمرد والاحتجاج ، بأكثر منها صحوة اسلامية حقيقية .

ويكاد الانتشار الكاسح للطرق الصوفية في السنوات الأخيرة أن يكون مؤشرا عكسيا تماما ، لا يتوفر له أي من عناصر الصحوة الثلاثة ، ابتداء من « الافاقة » ، وانتهاء بالايجابية والانطلاق الى الأمام . اذ يظل الشكل الحالي للطرق الصوفية استمرارا لحالة الغفوة التي تعد تعبيرا عن مرحلة ما قبل الصحوة . . وهكذا .

ومن أسف أن تلك الفصائل المختلفة هي التي تحتل المساحة الأكبر في الشارع الاسلامي ، فضلا عن أنها صاحبة الصوت الأعلى ، وذات النصيب الأوفر من الاهتمامات والأضواء . الأمر الذي يكاد يحجب

قطاعات أخرى ، قد تكون مبعثرة وغير منظمة ، يتجسد فيها قدر من الفهم الواعي للاسلام ، موقفا واداء . لكنها في غيبة المعايير الموضوعية ، بل في ظل الفوغائية السائدة ، لا يكاد يسمع لها صوت ولا يرى لها أثر . اذ أنها تصنف ضمن غيرها أحيانا وتؤخذ بجريرة غيرها في كل حين !

ولا أريد أن اسارع الى اتهام تلك الأغلبية التي لا يتوفر فيها هذا الشرط أو ذاك ، فقد يظلم من جراء ذلك بعض المخلصين والخيرين ، ولكن فقدانهم لمقومات الصحوة بقدر او آخر لا يعني بالضرورة أنهم صاروا خوارج أو اشرارا ، وانما هم ـ فقط ـ شيء آخر بعيد ويختلف عن الصحوة الاسلامية ، وليسمه من يشاء بما يشاء !

ثمة وجهة نظر لا تستبعد أن تكون هناك « مؤامرة » تحرك بعضا من تلك الفصائل التي تميزت بالشذوذ الفكري ، يدبر لها الذين يكيدون للاسلام والمسلمين . ومن مؤيدي هذا الرأي الشيخ محمد الغزالي الذي اشار الى هذا الاحتمال في مقال كتبه* ، ودلل على ذلك بتجربة شخصية له . اذ كان يلقي محاضرة في مدينة المنيا بصعيد مصر ، والح عليه شاب أن ينتظر ليجيب على سؤال اثار بعض « البلبلة » ، كما قاله ، وتبين أن السؤال الشاغل لصاحبنا حول حكم « الخل » ، وهل هو حلال أم حرام !

وفيما ابدى دهشته من السؤال ، قال الشيخ الغزالي ان الخل حلال . وعندما سأله أحد المتقعرين عن الدليل ، رد بأن الأصل في الأشياء هو الحل ، ومن زعم الحرمة فهو المطالب بالدليل . ثم ترك المكان متعجبا . . وبعد ذلك قدر له أن يسافر الى « ابو ظبي » ليخطب الجمعة ثم يجيب على اسئلة الناس بعدها ، واذا به يجد بين الأوراق المقدمة اليه سؤالا عن « الخل » أيضا . فكان تعليقه أن « السؤال موضوع في عاصمة أجنبية . . أشرف على وضعه بعض المبشرين والمستشرقين الذين يعملون لحساب الاستعمار الثقافي ، ويريدون شغل العوام بما يصرفهم عن لب الاسلام » .

شيء قريب من هذا حدث معي ، يصلح للتدليل أيضا على وجود « المؤامرة » . فبينما كنت أحدث صديقا قادما من رحلة آسيوية عن جماعة تسمى « القرمانية » في مصر ، ترفض كل صنوف العلم والمعرفة ، ويكتفي اعضاؤها بدراسة القرآن الكريم وحده ، اعتمادا على ان الله سبحانه يقرر أنه « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، كما ترفض التداوي بحجة أن الله هو الشافي والمعافي . . وفيما كنت أشرح ما ينقل عن أفكارهم ، اذا به يقاطعني قائلا بدهشة بالغة أنه لقي في ماليزيا جماعة تردد الكلام ذاته ، وتحمل اسم جماعة « دار الأرقم » ، التي ارتبطت باسم الصحابي الأرقم بن أبي الأرقم ، الذي كان المسلمون يجتمعون بيته في بداية الدعوة .

ومع ذلك فلست من الذين يرون في الأمر مكيدة أو مؤامرة . وانما المشكلة الحقيقية هي انه برغم الضجيج واللغط ، فثمة فراغ كبير في الساحة الاسلامية ، وتعطيل متراكم للعقل الاسلامي ، افسحا المجال لمثل تلك الأفكار ، فتناثرت كالهشيم في ارجاء الساحة الخالية ، ولم تجد أية حواجز تعترضها ، أوحتى « مصافي » تنقي غثاءها بل وأصبح هناك من يصنف فكر هؤلاء باعتباره من « الصحوة » .

نعم هناك من يسعى الى اشاعة الجراثيم واطلاقها بين المسلمين . ولكن المشكلة الأهم والأخطر أن الجسد الاسلامي ذاته عليل وبلا مناعة ، حتى بات فريسة سهلة لتلك الجراثيم ، سرعان ما يلتقط منها المرض ، وسرعان ما يسقط صريعا من جرائه . المشكلة فينا وليست في غيرنا . وهذا هو بيت القصيد !

---

* مجلة الأمة القطرية ـ عدد رجب ١٤٠٢ هـ ـ مايو ٨٢ ـ مقال بعنوان « شعاع على مسار الدعوة » .

من الذي اعتبرها صحوة ؟ وكيف ؟ ولماذا ثبتت الكلمة في قاموس المرحلة ؟

قد يقتضينا الأمر أن نعود الى خلفية الظاهرة ، التي ما زلت اعتقد انها مرت بتاريخين فاصلين ، أولها هزيمة ٦٧ ، وثانيها انتصار الثورة الايرانية في سنة ٧٩ . واذا كانت هناك عناصر اخرى اسهمت في تشكيل الظاهرة ، مثل مقاومة التغريب والتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي اتصلت به ، وردود الفعل الناشئة عن التصفيات التي تعرض لها التيار الاسلامي خلال ربع قرن . الا أن تلك العناصر جميعها تظل تالية في الأهمية للهزيمة ونجاح الثورة الايرانية .

ذلك أن حجم الصدمة التي احدثتها هزيمة يونيو ٦٧ أكبر مما يتصور الكثيرون . ودون الدخول في التفاصيل ، فان الهزيمة كانت بمثابة اعلان عن عجز وافلاس ما كان مطروحا في الساحة من شعارات ومثل ، ودعوة صريحة الى البحث عن بديل لها ، وكان الاسلام هو هذا البديل الجاهز ، والاقرب الى العقول والقلوب .

واذا أضفنا الى ذلك عنصرا آخر له أهميته ، يتمثل في الميل الفطري للانسان الى تذكر الله سبحانه والتوجه اليه في ساعات المحنة والانكسار ، فاننا ندرك الى أي مدى أصبح المسرح مهيأ بعد الهزيمة للتحرك في الاتجاه الاسلامي . ولان الساحة كانت خالية من الأوعية السليمة التي يمكن أن يصب فيها ذلك التوجه ليستثمر بشكل ايجابي، فقد أصبح الناس في حيرة من أمرهم . وكانت النتيجة أن تم التحرك الاسلامي بطريقة عشوائية . فتحول فريق من الناس الى « دراويش » بصورة أو أخرى ، وتحول آخرون الى تلك التنظيمات التي ظلت تعمل في الظلام . اذ عندما يكون المسرح خاليا ، فليس هناك ما يمنع أي هاو أو مدع من أن يعتليه ليؤدي عليه دور البطولة !

روى لي أحد الوزراء الجزائريين أن الطرق الصوفية كانت قد اختفت في الجزائر تماما خلال سنوات حرب التحرير ، والى ما بعد الاستقلال ، ولكن الجميع فوجئوا بعودة هذه الطرق الى الظهور مرة أخرى بعد هزيمة ٦٧ ، وكان ذلك رمزا لتغير طرأ على الجماهير كرد فعل للهزيمة . والشيء ذاته حدث في بلاد عربية واسلامية أخرى باشكال مختلفة ، كان أكثرها حدة ظهور تنظيمات العنف والتطرف بصورة غير عادية . حتى يمكن القول بغير مبالغة أن الأثر الذي أحدثته الهزيمة في الأعماق العربية والاسلامية يعادل ان لم يتجاوز ما أحدثته حرب فيتنام في المجتمع الأمريكي . وكما ان هناك أمريكا ما بعد فيتنام ، هناك أيضا عرب ما بعد هزيمة يونيو . كلاهما عانى من الشروخ والشقوق في اعماقه ، وكلاهما صار انسانا مختلفا .

وخلال السنوات التي اعقبت الهزيمة بدأت الموجة الاسلامية تنتشر وتجد لها مزيدا من الانصار ، واذا بمخاض الثورة الايرانية يعلن عن نفسه رافعا راية الاسلام ومتدثرا بعباءته . مما اجج مشاعر الجماهير ، وانعش أحلامها حتى أصبحت الفكرة الاسلامية محور جذب لكافة التيارات ، يمينها ويسارها في آن واحد .

وكان انتصار الثورة الايرانية ، ونجاحها في التصدي للشاه واجهزته العاتية ، والقوى الكبرى التي ساندته ذروة في ذلك كله ، في تفجير المشاعر وتقريب حلم الاحياء الديني ، والجذب الذي بات مفعوله ساحرا للجميع .

واذا كان التأثير على هذا النحو داخل العالم الاسلامي ، فانه في خارج هذه الدائرة كان للحدث صداه الضخم والفاعل . ولا مجال هنا لرصد تلك الاصداء بدءا بالتعليمات التي أصدرها الرئيس الأمريكي كارتر ـ وقتئذ ـ لاجراء دراسة حول السنة والشيعة والمذاهب الاسلامية ، ومرورا بذلك الكم الكبير من الدراسات والابحاث والندوات التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة الا وتصدت لها بالتحليل والتأصيل . لكننا يجب ان ننتبه الى أن الامر لم يكن ليحظى بنفس القدر من الاهتمام الغربي لو أن مسرح الحدث كان بعيدا عما

بتصوره الغرب « مصالح حيوية » له بالدقة لو انه كان بعيدا عن منابع النفط ، الذي يشكل مصدرا هاما للطاقة التي يعتمد عليها العالم الغربي ، دعك من الأهمية الاستراتيجية للمنطقة في صراعات القوى الكبرى ، وبالأخص السوفيت والأمريكان .

استخدم الغرب ادواته في دراسة الظاهرة ، وكانت الخطوة الأولى هي تشخيصها وتعريفها . كان هناك شيء جديد يتحرك ، وكان منطقيا في منهج التحليل العلمي أن يكون لهذا الشيء تعريف وتوصيف . وفي ظل عدم المعرفة الكافية بتعاليم الاسلام ولا توجهاته وجوهره ، بل في ظل الانطباع السلبي لدى الغرب عن الاسلام والمسلمين بصفة عامة ، لم يجد الغرب ما يسمي به تلك التيارات والتفاعلات التي تموج بها المنطقة سوى أنها **revival of islam** والترجمة الصحيحة للعبارة هي « الصحوة الاسلامية » . ورغم أن الوصف المستخدم في اللغة العربية لمثل هذا السياق يفترض أن يكون « الاحياء » أو « البعث » الاسلامي ، الا اننا انسقنا وراء الصيغة المترجمة من الانجليزية الى العربية ، حتى شاع وصف « الصحوة » على كل الألسنة وفي كل الكتابات ، واستقر في قاموس المرحلة ، ليصبح واحدا من مسلماتها .

لقد التقت أماني المسلمين وتعلقهم بحلم الاحياء الديني مع التشخيص الغربي لما استجد من تفاعلات في الساحة الاسلامية ، فرفعت رايات الصحوة على ارجاء عالم الاسلام . ولم يكن ذلك في واقع الأمر تعبيرا عن تأصيل واع للموقف ، ولكنه كان حلما عند طرف وتشخيصا غير دقيق عند طرف آخر ، وفي الحالتين لم تكن للصحوة جذور حقيقية ضاربة في عمق التربة الاسلامية .

●●●

واذا كانت ادوات الغرب قد وضعت كافة الفصائل والتيارات الاسلامية القائمة في مربع واحد بلا تمييز ، جهلا بتعاليم الاسلام ، وعجزا عن رصد المسافة بين ما تقوله أو تمارسه أغلبية تلك الفصائل وبين المنهج الاسلامي الصحيح ، فان ثمة مؤسسات وأجهزة عربية فعلت الشيء ذاته ، ليس عن جهل أو عجز ، ولكن عن عمد وترصد !

ذلك ان تلك الأجهزة والمؤسسات وجدت أن من صالحها أن تضع الجميع في سلة واحدة أيضا ، الصالحين والطالحين ، والأسوياء والشواذ ، وتحت مظلة مواجهة الانحراف والتطرف عملت على ملاحقة الجميع ، ضاربة بذلك عصفورين بحجر واحد . فهي من ناحية تحاصر الفصائل المتطرفة وتقوم بتصفيتها ، ثم أنها ـ من ناحية أخرى ـ تتخلص من مختلف فصائل التيار الاسلامي ، متصورة أنها بهذا الاسلوب تتصدى لخطر ماثل وآخر محتمل ، وتحقق الأمن والأمان لليوم والغد .

والأمر كذلك ، فان الفرز يخلق وضعا يتعارض مع الأهداف المرسومة ، ويصبح من المناسب ـ والمطلوب ـ أن تظل الأوراق مختلطة والحدود ضائعة والمعايير غائبة .

واذا كان لكل طرف اسبابه ودوافعه في التشخيص الخاطيء أو الخلط الظالم ، فالمؤكد أن الطرف الثالث ـ الجماهير ـ ليس له مصلحة في هذا أو ذاك .. انما مصلحتها أن تفهم الحقيقة كما هي ، بغير ادعاء أو كذب .

لذا لزم التنويه ! ■■

فهمي هويدي

عربي نعم ..
لكنه شاعر فرنسي !

بقلم أحمد عبد المعطي حجازي

قال لي جاك بيرك عن هذا الشاعر الذي أقدمه في هذه المقالة انه اليوم أكبر شاعر مغربي باللغة الفرنسية .

وهذه شهادة أحتاج اليها في الكتابة عن شعر جمال الدين بن الشيخ ، الذي تربطني به صداقة وثيقة تحول بيني وبين المقارنة والتفضيل على فرض أن ثقافتي الفرنسية تسمح لي بذلك ، وهو مالا أدعيه ، وإن كان لي أن أتحدث عما أشعر به من قرابة تربط بين شعري وبين شعره الذي كنت أول من قدم للقارىء العربي مختارات منه نشرت قبل عامين في مجلة « الآداب » . ثم عدت فترجمت مختارات جديدة لتنشر ، ولعلها نشرت فعلا ، في مجلة « الكرمل » . وكان الشاعر أدونيس قد ترجم كذلك عدة قصائد من شعر ابن الشيخ نشرت في مجلة « مواقف » . وها أنا أعود للحديث عنه في اطار الموضوع الذي أعالجه في هذه المقالات ، وهو ترجمة أعمال الشعراء العرب المكتوبة باللغة الفرنسية الى اللغة العربية ، ، وموقفنا من نسبة هذه الأعمال للأدب العربي . واذا كان الأستاذ بيرك قد كفاني مؤونة الحديث عن مكانة ابن الشيخ كشاعر باللغة الفرنسية ، فثقافة ابن الشيخ العربية لا تحتاج الى شهادة ، فالرجل واحد من أهم أساتذة الادب العربي الآن في فرنسا ، ومقالاته ودراساته تشهد بعمق ثقافته العربية واتساعها وخاصة في مجال الشعر .

واذن فنحن هنا أمام رجل عربي يعتز بأصوله اعتزازا كبيرا ، ويعرف لغته القومية معرفة الأستاذ المتخصص في الأدب العربي ، لكنه مع ذلك يكتب شعره باللغة الفرنسية . فهل نعده شاعرا عربيا ، أم نعده شاعرا فرنسيا ؟ وهل نحس حين نقرأ شعره المترجم الى العربية انه شعر عربي ، وكيف يرى هو نفسه ؟

تلك هي الأسئلة نطرحها من جديد على شعر جمال الدين بن الشيخ بعد أن طرحناها على شعر صلاح ستيتية الذي يعتبر نفسه شاعرا عربيا ، ويتمنى لقصائده المترجمة الى اللغة العربية أن تصبح جزءا من تراث الشعر العربي كما هي جزء من تراث الشعر الفرنسي .

في الديوان الذي صدر له أخيرا بعنوان « الصمت كان قد عاد الى الصمت » يعبر عن احساس فادح بالغربة والانقطاع ، وهو في تعبيره عن هذا الاحساس صريح جاد . انه يتحدث عن نفسه كعربي منفي في عالم ميت تلتمع فيه بين وقت وآخر بعض الصرخات . صرخة الذكرى ، أو صرخة الجسد أو صرخة الدم ، أو صرخة الشعر ، هذا الشعر هو كلام الصمت يمليه على الشاعر ثم يعود الى اطراقته الأولى ، هذا الموت الذي يلف العالم هو الاستلاب ، والفقدان ، والرقابة ، والانقطاع ، والفراغ ، والنسيان .

في رائعة النهار الموزعة
بين أقاصي النسيان وأقاصي الرغبة
تبقى حرارة الملقى
ثابتة
كمكان وجهك على ذراعي

والشاعر الذي يحمل الجنسية الفرنسية يسمي باريس « مدينة الآخرين » ، ويشعر بالغربة عن اللغة الفرنسية متحدثا عن « الكلمات المتفتحة في فمي من لغة غريبة » ، هذا الشعور العنيف بالوجود في غير المكان أو في المكان الخطأ ، يقابله شعور أعنف بالحنين الى الأصول . « فالموتى مدفونون في جدراننا » ، واللغة العربية ليست لغة العرب فحسب وانما هي لغة الطبيعة كذلك ، فالكتابة العربية تتبع مسار الشمس من اليمين الى اليسار . انها « تبوح بشكل الكلمة فحسب ، بجسدها ، وتكتم سر موسيقاها وحركتها » . هذا ما يقوله الشاعر في قصيدته « عازف الناي » التي يلتقي فيها بمغن مغربي شعبي يلومه على هجر لغته الى لغة تمتلىء كتابتها بالصلبان :

بالايم لا تلمني جلي محروج *
كنت أنشده أمام الليل القادم
قصائد أندلسية تتحدث عن عذاب الحب ،

---

* النص العربي لهذه الأغنية الشعبية المغربية موجود في القصيدة دون ترجمة ، وإن كانت الأصوات العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية .

ولها لازمة تثير البكاء في أهل تلمسان
راح وخلاني
وراني وحداني
مرضو داخلاني
وفي الهواء الصافي كان نايه منذ حين
يرسم المنفى

••

لكن الشاعر الذي يحن الى لغته الأم هذا الحنين الأليم ويشعر أن علاقته بالفرنسية علاقة مصطنعة ، يعد - بشهادة رجل مثل جاك بيرك - من أفضل كتاب هذه اللغة . واذا كان التيار المطالب في فرنسا بتحطيم الهياكل اللغوية المستقرة بحثا عن لغة جديدة ، له أنصار بين الكتاب والشعراء العرب الذين يكتبون بالفرنسية .

فابن الشيخ يتهم هذا التيار بالعبث وقلة الحيلة ، لأن التجديد الذي يلبي حاجة المبدع وتقبله اللغة في الوقت نفسه هو الذي يتحقق ضمن القوانين الأساسية للغة ، أما القول بتحطيم هذه القوانين فتعبير عن الفشل في محاولة امتلاكها . واذا كان بعض الكتاب العرب باللغة الفرنسية يحاولون تحقيق شخصيتهم المستقلة بالخروج على أساليب الكتابة المتعارف عليها ، فابن الشيخ يحقق شخصيته بأن يمتلك في اللغة الفرنسية ما لا يمتلكه بعض الكتاب الفرنسيين أنفسهم . من هنا لا يخلو شعر ابن الشيخ من استعمالات قديمة لا تتنافى مع طزاجة التركيب الشعري الحديث كما تبلور في شعر الرمزيين والسورياليين . كما أن الديوان لا يخلو كذلك من قصائد موزونة مقفاة .

شعر ابن الشيخ اذن هو نتاج للشعر الفرنسي واستمرار لتقاليده ، ليس لأن ابن الشيخ يجب أن يحافظ على هذه التقاليد بارادته وحده ، ولكن لأنه - أراد أو لم يرد - مضطر الى ذلك طالما هو يكتب باللغة الفرنسية ، وان عبر في شعره عن عواطف وأفكار عربية .

انه شاعر فرنسي كما أن أبا نواس شاعر عربي رغم فخره بأصوله الفارسية وسخريته من العرب ، لأن الشعر هو اللغة قبل كل شيء آخر ، والشاعر صانع كلمات قبل أن يكون صانع عواطف وأفكار ■■

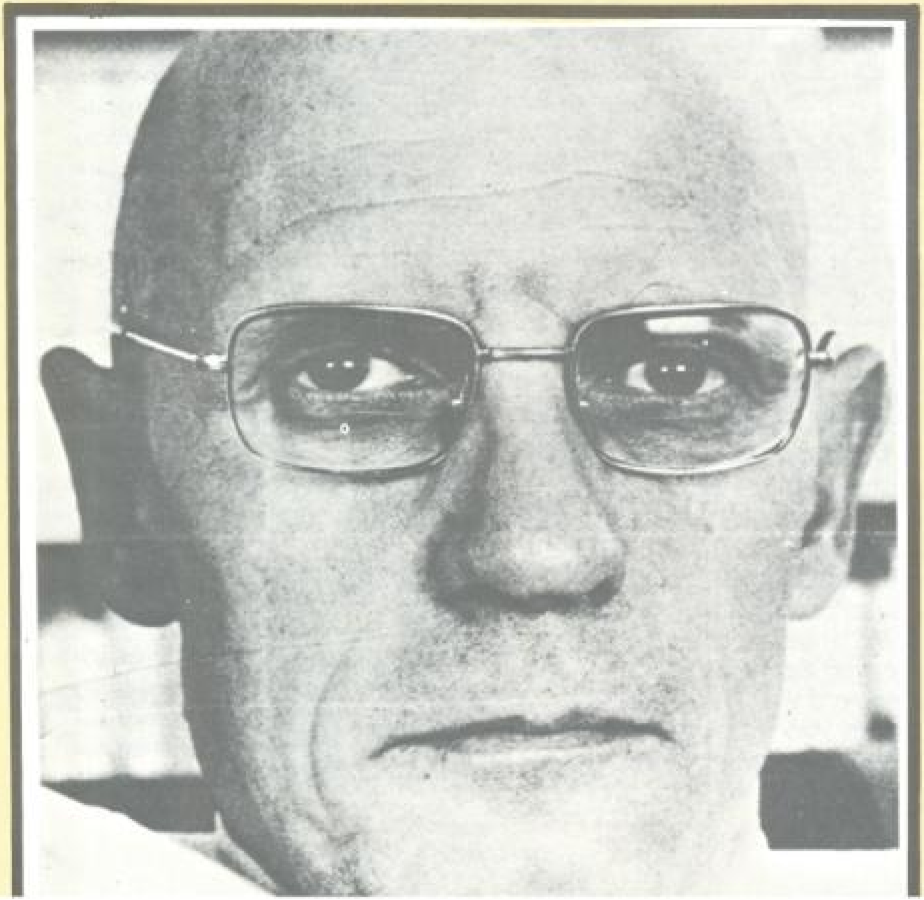
باريس - أحمد عبد المعطي حجازي

السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيد الناس بسلاسل أقوى من الحديد ، عن طريق افكارهم هم انفسهم .

ميشيل فوكو

فلسفة القوة والقهر الاجتماعي

بقلم : الدكتور احمد ابوزيد



يمثل العالم الفرنسي ميشيل فوكو ظاهرة فكرية مثيرة للجدل في اوروبا والولايات المتحدة الامريكية ، كيف ؟ ولماذا ؟ .. افكاره ورحلته تجيب على التساؤلين .

كان الاستاذ انتوني ستور يقول « لا يمكن لاي بلد غير فرنسا ان ينجب مفكرا من طراز ميشيل فوكو » . فمع أن ميشيل فوكو Michel Foucault لايزال في الخمسينات من عمره ، فانه افلح - ومنذ سنوات - في ان يفرض نفسه على الحياة الاكاديمية والثقافية العامة في فرنسا ، وان يحتل مكانة مرموقة بين مجموعة المفكرين البنائيين الفرنسيين البارزين من أمثال ليفي ستروس وجاك لاكان ورولان بارت وغيرهم ، وان يحقق لنفسه شهرة واسعة عريضة تعدت حدود فرنسا واوروبا الى بقية انحاء العالم بحيث اصبح يعتبر أحد « صناع » الفكر العالمي الحديث .

وليس أدل على ذلك من أن احدى الجامعات الامريكية اقامت منذ عامين ندوة استغرقت ثلاثة أيام خصصتها كلها لمناقشة اعماله وآرائه وافكاره ودعته لحضور بعض جلساتها التي شارك فيها عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والاساتذة ، كما أنه يتردد بكثرة على امريكا لالقاء محاضراته في عدد من جامعاتها حيث يستمع اليه اعداد وفيرة من الطلاب وعامة المثقفين ، وذلك على الرغم من كل ما يتصف به تفكيره من صعوبة وتعقيد كما هو حال جميع البنائيين الفرنسيين باستثناء ليفي ستروس .

نموذج حير الجميع

ومع ان ميشيل فوكو يعتبر بوجه عام أحد أعمدة الفكر البنائي في فرنسا في الوقت الحالي فإنه هو نفسه يرفض ان يرتبط اسمه بأي مدرسة فكرية محددة ، لأن ذلك من شأنه - كما يقول - ان يفرض قيودا منهجية على فكره وكتاباته ويحد من انطلاق تفكيره . وقد كان من الطبيعي ان تختلف الآراء وبخاصة في انجلترا وامريكا حول مكانته وأصالة أفكاره وأهمية اسهاماته والدور الذي يلعبه في تشكيل العقل الحديث . ومعظم الاساتذة الامريكيين يقفون منه بطبيعة الحال موقف المعارضة والنقد وأن كان منهم من يرتفع به الى مستوى كبار الفلاسفة من أمثال فيتجنشتاين ونيتشه . فبينما نجد الاستاذ ليو برزاني استاذ اللغة الفرنسية في جامعة بركلي بكاليفورنيا يصفه بأنه « ألمع الفلاسفة المعاصرين الذين تكلموا عن القوة » نجد ان بيتر جاي استاذ التاريخ بجامعة ييل يتهمه بانه لم يقم بأي بحث علمي بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما هو يرتاد مختلف الموضوعات فينتقل من موضوع لآخر منقادا وراء غريزته البحتة بينما يقول كليفورد جيرتز استاذ الانثربولوجيا بجامعة برنستون « لقد اصبح ميشيل فوكو نوعا غريبا من البشر ومشكلة يستحيل فهمها أو حتى الاقتراب منها . فهو مؤرخ يتنكر للتاريخ ، وهو مفكر انساني ذو نزعات غير انسانية ... انه مثال لما ينبغي أن يكون عليه المفكر الفرنسي في هذه الايام ، وأعني بذلك أن يكون غامضا ومراوغا » . ويعزز الاستاذ هايدن هوايت هذا الحكم في مقال حديث نسبيا يصف فيه اسلوب فوكو بانه مليء بالجمل الطويلة والاعتراضية ، زاخر بالاقتباسات والتكرار والمفارقات ، وان كتاباته تتراوح بين الاسلوب التحليلي والاسلوب الشعري كما تقترن فيها المصطلحات العلمية بالعبارات والأوصاف الخيالية الاسطورية . ويصل الأمر بالاستاذ هوايت الى حد اتهام فوكو بانه يتعمد استخدام هذا الاسلوب كنوع من الثورة والتمرد على فكرة « الوضوح » التي ورثها الفكر الفرنسي عن ديكارت من ناحية ، وكنوع من الدفاع عن الذات من الناحية الأخرى ، لأن غموض الاسلوب وتعقده يجعلان من الصعب تلخيص آرائه ونقدها والكشف عما بها من ثغرات وتناقضات . إلا أن كل هذه الانتقادات التي توجه الى فوكو لم تمنع من ان تجد كتاباته ومحاضراته وندواته صدى عميقا لها في أوساط المثقفين وبخاصة من الشباب في فرنسا وامريكا ، والى حد أقل في بريطانيا .

ونفس الموضوعات التي يعالجها ميشيل فوكو في كتبه ومقالاته خليقة بان تجتذب اليها اهتمام القراء رغم غرابتها ، أو ربما بسبب غرابتها وتنوعها واسلوب معالجتها . وتتراوح هذه الموضوعات من كتاب عن « الامراض العقلية وعلم النفس » الذي صدر لأول مرة عام ١٩٥٤ تحت عنوان « الامراض العقلية والشخصية » الى كتابه عن « تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي » الذي ترجم الى الانجليزية بعنوان « الجنون والحضارة » الى كتابه عن « مولد العيادة » الذي يضع له عنوانا فرعيا هو « اركيولوجيا النظرة الطبية » ، الى كتاب بعنوان « الكلمات والاشياء » ويضع له عنوانا فرعيا ايضا هو « اركيولوجيا العلوم الانسانية » الى كتاب بعنوان « اركيولوجيا المعرفة » الى كتيب آخر بعنوان « نظام



المقال » ، الى كتاب عن « التهذيب والعقاب » يضع له عنوانا فرعيا هو « مولد السجن » ، الى مشروع لمؤلف ضخم عن « تاريخ الحياة الجنسية » ظهر منه الكتاب الاول الذي يعتبر بمثابة مقدمة ومدخل عام ١٩٧٦ ، ثم صدر الكتاب الثاني في العام الماضي ، ولاتزال هناك أربعة مجلدات أخرى حتى يكتمل المشروع كله ، الى كتاب عن الاديب الفرنسي ريمون روسل الذي مات عام ١٩٣٣ .

وعلى الرغم من كل ما قد يبدو في هذه العناوين من تفاوت وتباين فانها كلها تدور حول نقطة واحدة مركزية هي « مشكلة القوة » ففي كل هذه الكتب يعرض فوكو بشكل أو بآخر للحرية الفردية والقهر الاجتماعي . ويظهر هذا واضحا في المقالات والمحاضرات العديدة التي كتبها أو القاها في مناسبات مختلفة ثم جمع بعضها في كتاب بعنوان « القوة ـ المعرفة » ، وهو عنوان يكشف عن وجهة نظره في ان المعرفة تمنح صاحبها قوة هائلة تتيح له الفرصة للسيطرة على غيره من الناس . وخليق بالباحث أن يجد في حياة فوكو ذاتها بذور هذا الاتجاه الفلسفي ، أي الاهتمام بمشكلة القوة وعنايته بدراسة الحرية الفردية والدفاع عنها ضد القهر الاجتماعي ، سواء أكان ذلك القهر صادرا عن جماعة معينة بالذات أم من المجتمع ككل أم من الدولة التي تتمثل سلطتها بوجه خاص في القوة الحربية من ناحية وقوة الشرطة من الناحية الاخرى .

معالم الرحلة

ولد ميشيل فوكو في عام ١٩٢٦ في مدينة بواتييه **Poitiers** حيث كان أبوه يعمل طبيبا وكان المفروض ان يدرس فوكو الطب ولكنه انصرف الى علم النفس والتحق لذلك بمدرسة المعلمين العليا « الايكول نورمال سوبيريور **Ecole Normale Superieure** » التي تخرج منها عدد كبير من كبار الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين ، وتتلمذ فيها على الفيلسوف الماركسي الشهير لوي التوسير الذي سبق لنا الكتابة عنه في هذه المجلة ، كما انه تلقى تدريبه العملي في مستشفى سانت آن للامراض العصبية والعقلية . ولكن الظاهر ان ميشيل فوكو لم يحب علم النفس ايضا كما أنه كره فترة الاقامة في ذلك المستشفى الضخم الشهير ، وهو نفسه يقول في ذلك « لقد شعرت بأنني أقرب الى المرضى العقليين ولا أكاد اختلف عنهم تماما ، كما انني كنت أشعر بشيء من عدم الارتياح لمهنة الطب . وهناك في تلك المستشفى بزغت في ذهني مشكلة ماهية القوة الطبية ونوع السلطة التي تضفيها هذه القوة على من يمارس الطب » . وقد اشتغل فوكو بعد تخرجه بتدريس الطب النفسي في باريس قبل ان يتولى عدة مناصب تعليمية اخرى في جامعة تونس وفي جامعة أبسالا في السويد حيث تولى تدريس اللغة الفرنسية ، كما انه شغل بعض المناصب الاخرى في وارسو وهامبورج . ويبدو أن خبرته في السويد وبولنده فتحت امامه افاقا جديدة لمعرفة مقومات القوة في مختلف مظاهرها واشكالها . وهو نفسه يقول في ذلك : « لقد عشت في السويد بلد الحرية ، ثم عشت في بولنده وهي بلد يختلف كل الاختلاف عن السويد في هذا المجال ، وقد بينت لي هذه التجارب انه أيا ما يكون النظام القانوني فان اساليب واجهزة القوة تقهر الفرد وتتحكم في سلوكه وتوجهه توجيها معينا يستهدف تطبيع ذلك الفرد وتطويعه » .

وأخيرا شغل ميشيل فوكو كرسي « تاريخ انساق الفكر » في الكوليج دي فرانس حيث يعمل الآن . وكما هو الحال بالنسبة للكثير من المثقفين الفرنسيين من ابناء جيله انضم فوكو الى الحزب الشيوعي الفرنسي بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنه لم يستمر طويلا وترك الحزب بعد عامين اثنين فقط وكان يقول ان الماركسية اثارت في نفسه الكثير من الاهتمامات ولكنها اخفقت في اشباع هذه الاهتمامات اخفاقا شنيعا . بل انه ذهب الى حد القول « ان الماركسية كانت تجتذب اليها الشباب ولكنهم كانوا يدركون بسرعة انها مجرد نوع من أحلام المراهقة التي تدور حول امكانية وجود عالم آخر أفضل من هذا العالم الذي نعيش فيه » .

معالجة جديدة للتاريخ

حين ابتكر ميشيل فوكو لنفسه ذلك التخصص الجديد الذي أضفى عليه اسم « تاريخ انساق الفكر » وشغل الكرسي الذي يحمل اسم هذا التخصص في الكوليج دي فرانس عكف على معالجة « التاريخ » بأسلوب يختلف اختلافا كبيرا عن الاسلوب الذي يتبعه اغلب المؤرخين المحدثين والمعاصرين الذين ينظرون الى التاريخ على أنه عملية متصلة ، وأنه « يتدفق » باستمرار وينساب بغير توقف في مجرى معين بالذات ، ويرون ان وظيفة المؤرخ الاساسية تنحصر في تحديد ذلك التدفق وتتبع اتجاهه للتعرف على ما اذا كان يتجه نحو الحرية مثلا او نحو الرأسمالية او نحو تكوين الدولة القومية وما الى ذلك .

هذا الموقف يعارضه فوكو الذي يرى ان هذا التدفق تعترضه بعض « الانقطاعات » الحادة الواضحة التي تفصل المراحل التاريخية الكبرى الواحدة عن الاخرى والتي يمثل كل منها قيام عصر جديد يتولى بنفسه خلق وابتكار الاطار العقلي الخاص به والذي يعبر عن نظرته الى العالم ، وتتم هذه العملية بطريقة لاشعورية .

ويطلق فوكو على ذلك الاطار كلمة « ابستيمه **Episteme** » وهو مصطلح مستمد من الكلمة اليونانية التي تشير الى العلم والمعرفة ، ولذا يمكن ترجمتها بعبارة « اطار المعرفة » . ويحدد فوكو ثلاثة (انقطاعات) اساسية بالذات يتميز كل منها باطار معرفي متميز : الأول حدث في أواسط القرن السابع عشر وأدى الى القضاء على الاتجاه الذي كان سائدا من قبل نحو ابراز وتوكيد أوجه الشبه بين مختلف الاشياء او بين « كل مخلوقات الله » حسب ما يقول أوتو فريدريش **Otto Friedrich** وظهور الميل الذي ساد « عصر العقل » نحو ابراز وتوكيد اوجه التفاوت والاختلاف والتفاضل بين الاشياء ، وهو ميل سيطر على تفكير القرن الثامن عشر بوجه خاص . ثم حدث (القطع) الثاني العام بعد الثورة الفرنسية بقليل ، وهو يتمثل في ظهور فكرة التقدم التطوري في المجالين الاجتماعي والعلمي على السواء . وتعتبر هذه الفكرة بمثابة الاطار المعرفي الذي يميز العصر الحديث ويسيطر عليه سيطرة تكاد تكون تامة . ويمر العالم الآن في رأي ميشيل فوكو ، بما قد يتبلور عن ظهور (قطع) ثالث في مجرى التاريخ .

ورغم كل ما كتبه حول هذه النقطة فانه لم يقدم لنا أي تحديد دقيق واضح المعالم لذلك (القطع) كما انه لم يقدم أي تفسير مقنع عن الطريقة التي تتم بها هذه التوقفات والانكسارات او الانقطاعات واسباب حدوثها . وهذه أمور معقدة على اي حال يصعب الاحاطة بها في مقال واحد ونرجو ان نعود اليها بالتفصيل في مقال قادم .

ولكن اذا كانت « المعرفة قوة » كما يقول ميشيل فوكو ، فانه انتهى من ذلك الى الاعتقاد بان القوة والمعرفة تتضمن احداهما الاخرى بالضرورة ، وان كلا منهما تتطلب الاخرى وتؤدي اليها . وعلى هذا الاساس ، فاذا كان كل عصر من العصور التي تكلم عنها قد افلح في تكوين وتطوير وابراز صور واشكال معرفية جديدة تعبر عن ذلك العصر ومقومات الحياة فيه ويمكن عن طريقها التعرف عليه ، فان هذا معناه في آخر الامر ان كل عصر من هذه العصور انما كان يمارس في حقيقة الامر أشكالا جديدة من القوة .

وليست القوة الحربية وقوة الشرطة هما الشكلان الوحيدان للقوة في المجتمع الانساني وان كانا - بغير شك - أوضح أشكالها ، وانما هناك أشكال أخرى عديدة يمكن الاستدلال عليها عن طريق النظر في المجتمع والحياة . فكل تراكم للمعرفة الاجتماعية ، وكل نوع من أنواع البحث والدراسة والتنميط والتصنيف والحكم هو في حقيقة الامر صورة من صور ممارسة القوة . بل ان فوكو يذهب الى أبعد من ذلك فيقول بأن مختلف فئات الناس الذين يؤدون ادوارا معينة بالذات في الحياة مثل الاطباء والمدرسين ورجال الدين ومن اليهم يشاركون مشاركة فعالة في ممارسة القوة . ولكن الاهم من ذلك كله والأشد خطورة هو ان المواطن في المجتمع الحديث يتم تدريبه واعداده لكي يمارس قوة الدولة على غيره من المواطنين مثلما يمارسها على نفسه هو ايضا . وكما يقول في كتابه (التهذيب والطاعة) فان الطاغية الغبي قد يضطهد العبيد ويقهرهم مستخدما في ذلك السلاسل الحديدية ، ولكن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع ان يقيدهم بسلاسل أقوى من سلاسل الحديد عن طريق افكارهم هم انفسهم ، وهو قيد يستمد قوته من اننا لا نعرف المادة التي صنع منها » . ويعلق اوتو فريدريش على ذلك بقوله : « ان هذا القيد المؤلف من الافكار ومن ذلك التراكم الضخم من الاختبارات والفحوص والتعاريف والقواعد والقوانين . . . ذلك السجن العقلي او الفكري ، ليس في آخر الامر سوى الانسان نفسه . » وليس من شك في ان هذه الافكار السوداء المظلمة التي تتردد في كتابات ميشيل فوكو عن قوة القهر الاجتماعي وضياع الحرية الفردية تبعث الى حد ما على الاقل في ذهنه نتيجة للمعاناة الطويلة التي مر بها في شبابه اثناء خضوع فرنسا للحكم النازي .

وعلى اية حال فان شغل ميشيل فوكو لكرسي تاريخ انساق الفكر في الكوليج دي فرانس كان يملي عليه ان تكون نظرته للتاريخ نظرة أعم وأشمل من نظرة المؤرخ العادي الذي يهتم بتسجيل وتتبع الاحداث الفردية في فترة زمنية معينة أو في مجتمع معين بالذات ، ولذا جاءت كتابات فوكو على درجة عالية من التجريد والشمول في الوقت ذاته . ولكن هذا لا يعني أبدا انه لم يكن يهتم بالاحداث والوقائع الجزئية . بل الامر على العكس من ذلك تماما كما يتضح من كتبه الرئيسية مثل كتاب (اركيولوجيا المعرفة) وان كان هذا لا يظهر بنفس الدرجة في مقالاته وأحاديثه ومقابلاته الصحفية . الا ان فوكو يتناول هذه الاحداث والوقائع بطريقة متميزة تكشف عن أصالة تفكيره وعن نوعية عقليته التحليلية التي يستطيع بها ان يعيد ترتيب الوقائع الماضية بطريقة تساعد على القاء كثير من الاضواء

على الحاضر .

ولقد نجح فوكو بهذه الطريقة في أن يثير الاهتمام بأمور كانت تبدو عادية جدا ومقبولة من الجميع ولا تحتاج الى دراسة او فحص او تساؤل او تفسير وتأويل . ففي احدى المقابلات التلفزيونية انهى فوكو حديثه بملاحظة فريدة قلما تصدر - حسب قول الاستاذ ايان هاكنج الذي يروي القصة - من غير فوكو من الكتاب والمفكرين ، وذلك حينما سئل فجأة وعلى غير توقع منه اذا ما كان يعرف متى بدأ الناس يستخدمون (الزجاجة) في ارضاع اطفالهم ، او على الاقل متى دخلت هذه الطريقة الى فرنسا ؟ واعترف فوكو بعدم المعرفة ، ولكنه ابدى سروره واغتباطه لاثارة هذا التساؤل وانه سيكون سعيدا اذا وجد من يقدم له الجواب ، ثم أنحى على نفسه باللوم الشديد لأنه لم يخطر على باله ان يسأل نفسه مثل هذا السؤال ، وهذا المثال كفيل بان يبين لنا جانبا من الامور والمسائل التي كثيرا ما تجذب اليها انتباه فوكو وتثير اهتمامه ، وهي أمور لا يشغل المؤرخ التقليدي بها نفسه في العادة .

وثائق فريدة

والواقع ان ابحاث فوكو التاريخية ادت به الى اكتشاف عدد هائل من الوثائق التي ينشرها من حين لآخر في مجلدات منفصلة ، لكي تعزز من آرائه النظرية وتؤكدها ، اي ان هذه الوثائق تعتبر بمثابة أدلة وبيانات وشهادات حية على الآراء النظرية . من ذلك مثلا انه في اثناء بحوثه في الجريمة عثر على احدى الوثائق التي كتبها شخص يدعى بيير ريفيير يعترف فيها بانه قتل امه واخته واخاه . ووجد فوكو ان الطريقة التي تم بها تسجيل الاعتراف تحتاج الى تحليل للتعرف على الدوافع الخفية التي دفعت المجرم الى ارتكاب جريمته . ونشر الوثيقة في كتاب يحمل « كعنوان له » نفس الجملة التي افتتح بها المجرم اعترافه وهي (أنا بيير ريفيير : أقر واعترف بأنني قتلت امي واختي وأخي) ، ثم تولى مجموعة من زملائه تحليل النص والتعليق عليه . كذلك أدت دراساته عن الحياة الجنسية الى العثور على وثيقة اخرى ظهرت بعنوان « ايركولين باربان وهي عبارة عن مذكرات اكتشفت حديثا بقلم خنثى فرنسية في القرن التاسع عشر » ، وكتب لها مقدمة بدأها بعبارة تكشف عن نوع اسلوبه حيث يقول : « هل نحن في حاجة حقيقية لحياة جنسية حقيقية ؟ » . أما آخر اكتشافاته في هذا المجال والتي ظهرت منذ فترة قصيرة في شكل كتاب فهي عبارة عن مجموعة من « الحالات » التي ترجع الى القرن الثامن عشر والتي تدور كلها حول عدد من الأشخاص يناشدون السلطات البارسية ان تعتقل زوجاتهم واولادهم وتودعهم السجن لاسباب عديدة وردت في طلباتهم وعرائضهم . ويقول فوكو في ذلك « ان هذه المجموعة من الحالات تمثل احد مظاهر الصراع في العائلة وتكشف عن علاقة العائلة بالقوة او السلطة » .

وهذا كله يوضح لنا لماذا كان المؤرخون الفرنسيون المعاصرون يوجهون اللوم لميشيل فوكو ويتهمونه بان دراساته وافكاره هي افكار شخصية ومجرد انطباعات لا ترقى الى مستوى العلم بالمعنى الدقيق للكلمة . ولكن فوكو لا يهتم بمثل هذه الاعتراضات ويرد عليها بأنه ليس من الصعب أبدا أن يكون الانسان مورّخا بالمعنى السائد لهذه الكلمة ، كما يعترف بأن نوع التساؤلات التي يثيرها والمشاكل التي يهتم بها تتطلب نوعا معينا من العقلية التي يصفها هو نفسه بانها (عقلية ملتوية) مثل عقليته ، حتى تستطيع ان تتنبه الى مثل هذه الامور والمشكلات (الملتوية) ، وان علماء التاريخ لا يدخلون في الاغلب ضمن هذه الزمرة من الرجال . وليس معنى هذا ان فوكو كان يصل دائما الى حلول نهائية للمشكلات التي يعرض لها ، فالذي كان يعنيه في المحل الاول هو تحليل هذه الوقائع والاحداث وابرازها للقارىء وتبيين الدوافع الخفية التي تكمن وراءها واثارة الجدل والنقاش حولها .

واذا كانت آراء فوكو تبدو في كثير من الاحيان متناقضة وناقصة فان ذلك يرجع الى حد كبير الى أنها لا تزال حتى الآن تدور في ذهنه باستمرار . والمهم هو أنه يعالج بكل شجاعة كثيرا من المسائل والمشكلات التي لم تطرأ على بال غيره أو التي يتجنب غيره الحديث فيها . وهذا هو السبب في اختلاف الآراء حوله وفي صعوبة اصدار حكم نهائي حول اسهاماته الفكرية ، خاصة وأنه لا يزال في الخمسينات من عمره كما انه خصب الانتاج ولا يزال يكتب بشكل مطرد ومستمر . ومن الطريف أن نذكر أن أنتوني ستور الذي قال عنه عبارته المشهورة : « لا يمكن لأي بلد غير فرنسا أن تنجب مفكرا من طراز ميشيل فوكو » يعتقد انه سوف ينتهي في آخر الأمر الى ما انتهى اليه زميل له من قبل من أتباع المدرسة البنائية الفرنسية وهو جاك لاكان الذي بدأ الاهتمام بكتاباته ينحسر بسرعة بعد مماته . ولكننا من الناحية الاخرى نجد كاتبا ناقدا مثل الان شريدان يقول في كتاب له ظهر منذ عام تقريبا عن ميشيل فوكو : « قد يكون من الصعب العثور على مفكر له من التأثير على الربع الاخير من هذا القرن مثل ما كان لنيتشه على الربع الاول منه ، ولكن انجازات فوكو حتى الآن تؤهله أكثر من غيره من المفكرين لشغل هذه المكانة » .

وأعتقد أن حكم الان شريدان لا يخلو من الصواب ! ■■

د . أحمد أبو زيد

النفط ينزل عن عرشه

بقلم محمود المراغي

شهد النفط فترة ذهبية تراجعت فيها مصادر الطاقة الاخرى ، وتربع النفط على عرش المواد المولدة للطاقة في العالم . في الوقت ذاته شهد الشرق الاوسط اعتمادا متزايدا عليه في ذات المجال حيث احتفظ لفترة طويلة بثلثي احتياجات العالم من هذه المادة النادرة ، ويبدو أن الأمرين في تراجع . سينزل النفط من على عرشه . . . وستتراجع الاهمية النسبية لبلدان الشرق الاوسط .

يقول رقم من السوق الاوربية المشتركة - وهي من أكبر المستهلكين وأكبر المستوردين - ان استهلاك دول السوق من النفط سيصل الى (٤٨٣) مليون طن عام ١٩٩٠ . . في مقابل (٥٢٠) مليونا عام ١٩٨٠ . وتقول الارقام التي اذيعت عقب اجتماع لوزراء الطاقة في السوق خلال يوليو الماضي ان نصيب النفط من مجموع ما تستهلكه دول السوق سوف يتراجع حينئذ الى ٤٢٪ فقط من الطاقة المستخدمة .

وتفسير الرقم ليس عسيرا . فمع ارتفاع الاسعار واتخاذ اجراءات لترشيد الاستهلاك وتباطؤ معدلات النمو في اوروبا الغربية ، وتشجيع انتاج وتنمية مصادر اخرى للطاقة سواء كانت مصادر تقليدية كالفحم أو غير تقليدية كالطاقة النووية . . كل ذلك كان من شأنه أن يقلل الاعتماد على النفط .

وليس ذلك في اوروبا الغربية وحدها . . ولكن في العالم بشكل عام . لقد شهدت الحقبة الماضية تزايدا في الطلب على النفط في بعض السنوات ولكن ما ان حلت نهاية العقد حتى توازن المعروض مع المطلوب . . ثم تحول الامر في بداية الثمانينات الى فائض تحاول دول الاوبيك التقليل منه . ووفقا لارقام البنك الدولي فقد كانت هناك زيادة مستمرة في الطاقة بالعالم . . . وكان هناك نصيب دائم للنفط . لكن ذلك النصيب كان يتراجع باستمرار ، حتى قبل زيادة الاسعار عام ١٩٧٣ .

لقد كانت نسبة مساهمة النفط في الزيادة السنوية للطاقة (٦١,٧٪) من اجمالي الزيادة في الستينات . . . فهبط الرقم الى (٤١,٤٪) في السبعينات . . ثم هبط الى (٢٤,٨٪) في الثمانينات . الاهم من ذلك ان التوقعات تتفق على أن هذه المساهمة ستصبح ضئيلة للغاية في التسعينات . . بحيث انها لن تتجاوز (٢,٥٪) من الزيادة العامة في مجال الطاقة في مقابل (٣٨,٧٪) للفحم و (٢٣,٢٪) للغاز الطبيعي . . و (٢٠,٦٪) للكهرباء . . . نووية وغير نووية .

وتؤكد دراسات السوق المشتركة التوقعات ذاتها . ففي مجال واحد هو الكهرباء المتولدة من الطاقة النووية .

● سوف تنتج فرنسا عام ١٩٩٠ بما يعادل (٧٢) مليون طن من النفط .



- وسوف تنتج المانيا الغربية ما يعادل (٣٧) مليون طن .
- وسوف تنتج بريطانيا ما يساوي (١١) مليون طن .

وهكذا سقطت المحاذير التي حالت فترة من الزمان دون الاعتماد على الطاقة النووية بل ـ وهذا ما تشير اليه الارقام ـ عاد الاعتماد متزايدا على مصدر تقليدي كالفحم . . . واستمرت الدول النامية في الاعتماد على مصادر غير تجارية للطاقة ، وترتبط بالبيئة في الاساس مثل الاخشاب التي تستخدم مباشرة كمادة للوقود . وقد كان ذلك بمقدار كبير يمثل ربع ما استخدمته من طاقة عام ١٩٨٠ . ووفقا لتقديرات البنك الدولي فان اتجاه الدول النامية للتصنيع والتقدم لن يقلب في الامد المنظور موازين السوق العالمية في الطاقة . فبينما كان مجموع استخدامات هذه المنطقة من العالم ١٤٪ من الطاقة التجارية عام ١٩٨٠ . . فان النسبة لن تتجاوز (١٨٪) عام ١٩٩٠ .

المستقبل اذن للترشيد في مجال الطاقة . وعندما نتحدث عن استخدام المصادر المختلفة فالمستقبل الاوسع لمصادر اخرى غير النفط . . والاعتماد الاكبر بالتالي لن يكون على دول الشرق الاوسط . . كأكبر منتج ، وأكبر مصدر .

سوف تراجع الصورة الراهنة .

وسوف يتحقق بدرجات متفاوتة لدى الدول الصناعية ما يسمى الاستقلال في مجال الطاقة .

لقد رفعت الولايات المتحدة الامريكية وهي من أكبر المتجين الشعار في السبعينات ، وكانت تقصد عدم اعتمادها على استيراد النفط .

ورفعت اوروبا الغربية نفس الشعار من خلال اجراءات عملية مثل ترشيد الاستخدامات وتوزيع مصادر الطاقة ، ومصادر الشراء .

وفي المجال الأخير : تأتي صفقة العصر . . . المتمثلة في غاز سيبريا ومشروع الانابيب الضخم اللذي سيغذي اوروبا الغربية .

وبصرف النظر عن تحذير امريكي من خطر سوفيتي يلتهم مناطق النفط . . وخطوة سوفيتية مقابلة لتزويد الغرب بالطاقة بعقود طويلة حتى نهاية القرن . . بصرف النظر عن ذلك فان الاكثر دلالة هو الصراع الاميركي ـ الاوروبي في مجال الطاقة .

الاوروبيون يطلبون الاستقلال والخروج من دائرة الهيمنة الامريكية التي تفرضها اوضاع النفط ، والامريكيون يريدون الاستمرار في ذات السياسة : مظلة امريكية فوق اوروبا وتحالف تتزعمه ، وقوات انتشار وسياسات متعددة تجر لها الحلفاء تحت اسم التزويد بمادة الحياة . . النفط . الصراع قائم وسلاح الاوروبيين ـ كما قلنا ـ هو تنويع في مصادر الطاقة ، ومصادر شرائها أما سلاح الامريكيين فهو الحصار . . حتى على الحلفاء ، يؤكد ذلك قرار معاقبة الشركات التي تمول أو تساهم في خط الانابيب السوفيتي ـ الاوروبي !!

الفروض التي طرحناها اذن صحيحة : النفط . . الى تراجع . . والشرق الاوسط تتغيا الى اهمية أقل . . . والصراع يدور حول سؤال يقول : وما البديل في الحالين ؟ ■■

الزيدية ظلت كالآثار اليمنية
مطمورة تحت تراب النسيان

قراءة في فكر الزيدية

بقلم الدكتور : عبد العزيز المقالح

هذا مذهب يستحق أن نقرأ تعاليمه جيدا ، فهو يظل واحدا من أهم التيارات العلمية في الفكر الاسلامي ، وان ظل مجهولا لدى الكثيرين في المشرق والمغرب .

كان القرن الأول من الهجرة أخطر وأهم القرون في تاريخ العرب والمسلمين . . . في النصف الأول منه توطدت العقيدة وتكون الانسان العربي فكريا وخرج من جزيرته الصحراوية القاحلة ليهز العالم القديم وليتسلم قيادة البشرية لعدة قرون . بعد أن هزه وشكله التغيير الجديد . وفي النصف الثاني من القرن نفسه تبلورت صيغ مختلفة لفهم العقيدة الاسلامية .

كان النصف الأول من القرن قد خلخل بالاسلام كثيرا من قيم العصر الجاهلي وقضى أوكاد على كثير من العادات والتقاليد التي كانت تتحكم في مشاعر الفرد والجماعة . وتمكن - في وقت قصير - من أن يحول ولاء الفرد من القبيلة الى العقيدة ، ومن الولاء للذات الخاصة نحو الذات الكل - اذا جاز التعبير . وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يبدأ انسان الولاء الجديد في الاتجاه نحو تكوين الدولة على أسس اقتصادية واجتماعية جديدة وأن يدخل في جدل عميق مع الأديان الأخرى . ومع الأفكار والنظم والثقافات الهندية والفارسية وغيرها .

وجاء النصف الثاني ليفيد من هذا التحول ، ولكي يضع المقدمات الأولى في كتب المذاهب الدينية والفكرية والكلامية ، وفي النصف الثاني من القرن الأول تكونت الفرق الاسلامية ومنها الزيدية وقد خرجت هي والشيعة من بيت واحد واتخذ كل منها طريقا خاصا ، وكان لكل منها تلاميذ وأتباع .

الملامح الأولى

كان الشقيقان محمد الباقر وزيد ابنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قد نشأ كلاهما في بيت مسكون بهموم العلم والثورة والخروج على الظالمين . كان العلم في هذا البيت طريقا الى الثورة ، وكانت الثورة طريقا الى مقاومة الظلم والفساد ومحاربة المستبدين والطغاة من الحكام . وقد

وضـع الشقيقـان الأسـس الأولى لفـرقتين من أهم الفرق الاسلامية هما : الزيدية والامامية .

وكان زيد أصغر سنا من أخيه محمد الباقر ، وكان الأخ الأكبر قد صاغ لنفسه ولمريديه مذهبا جعل التشيع فيه لجده الامام علي بن أبي طالب (ع) ضربا من القداسة وجزءا من العقيدة الاسلامية .

وقد أخذ زيد عن أخيه جانبا من أصول الدين وقدرا من أفكاره الشيعية ، ثم اتصل بزميله وأستاذه واصل بن عطاء وأخذ عنه علم الكلام بالصورة التي صارت فيما بعد اعتزالا ، كما التقى بعد ذلك بزميل آخر هو أبو حنيفة النعمان ، وأخذ عنه اودرس معه الفقه الاسلامي ، ومن اللقاء بهؤلاء الثلاثة الأفذاذ في تاريخ الفكر الاسلامي تكونت الملامح الاولى للزيدية : الملمح الشيعي : عن طريق محمد الباقر ـ والملمح الاعتزالي : عن طريق واصل بن عطاء ـ والملمح السني : عن طريق أبي حنيفة .

ولعل هذه النشأة المشتركة تفسر العلاقة القائمة بين الزيدية والشيعة ، والعلاقة الوثيقة بين الزيدية والمعتزلة ، وتفسر كذلك المقولة التي ترى أن الزيدية معتزلة في الأصول وأحناف في الفقه أو الفروع .

وقد لعبت السياسة دورا غير عادي في ابراز هذه الملامح المشتركة أو في اخفائها كما تحولت هذه الملامح داخل الفكر الزيدي الى تيارات تتصارع حينا وتتعايش حينا وربما جاء ذلك الانتصار الشيعي ردا على انتصار آخر حققه التيار المعتزلي في القرنين السابع والثامن الهجري والذي تمثل في كتابات الامام يحيى بن حمزة المفكر الجليل ، والحاكم المعتزلي الذي رأى ان حرب الباطنية (الاسماعيلية) وغيرهم من المنافقين لا يتم عن طريق الحرب والقتل وانما بالفكر وبالمنطق وبالانتصار للعقل وبالحوار المفتوح ، وهو الذي وصفه الشوكاني بأنه (من أكابر الزيدية في الديار اليمنية ، وله ميل الى الانصاف مع طهارة لسانه وسلامة صدره ، وعدم اقدامه على التكفير والتفسيق بالتأويل ، ومبالغة في حمل الناس على السلامة وعلى وجه حسن ، كثير الذب عن الصحابة . وكان من الأئمة العادلين الزاهدين عن الظواهر في الدنيا المتقللين منها ●) .

تراث مطمور

ولعل مشكلة من يحاول الكتابة عن الزيدية ليست في قلة المعلومات أو في غموض هذه المعلومات وتشتتها كما هو الأمر مع بقية الفرق والمذاهب الاسلامية الأخرى . ولكن المشكلة تأتي من تعدد هذه المصادر ـ ومن اتساع مجال الفكر الزيدي اتساعا يصعب معه رصد معالم محددة ، وهذه الصعوبة تضع الدارس في حيرة من أين يبدأ ؟ وكيف ؟ وما الذي يهم القارىء المتخصص أن يعرفه ، أو الذي يهم القارىء العادي أن يعرفه ، وكل شيء في الزيدية يهم كل قارىء . ومن هنا فان الحديث عن الزيدية وعن تطور الفكر الزيدي لا سيما في دراسة قصيرة مشكل صعب الحل فتعدد المصادر واتساع مجال الفكر لا يساعد الكاتب لكنه يضعه أمام امتحان عسير في القدرة على حسن الاختيار وتوخي الدقة ، وتمحيص الحقائق لكي يقدم خلاصة وافية أو قريبة من الوفاء .

والزيدية ليست كما يزعم بعض الدارسين المعاصرين مذهبا لأقلية اسلامية انعزلت في جبال اليمن وأحاطت نفسها بالأسوار والألغاز ، وقد يكون هذا الانطباع غير الصحيح تكون من خلال الأوضاع الأخيرة لليمن في فترة حكم آل حميد الدين ، الذين عزلوا اليمن عن العالم ، وعزلوا الزيدية عن الناس . وعزلوا أنفسهم عن الزيدية ، وصاروا ملوكا يقطعون الرقاب دفاعا عن كيانهم لا عن كيان الاسلام ويملأون السجون حفاظا على حكمهم لا حفاظا على الفكر الاسلامي ، وقد يكون ذلك الانطباع غير الصحيح أيضا ناشئا عن المقارنة الخاطئة بين الزيدية وبين الفرق الاسلامية الصغيرة تلك التي انعزلت في بعض المدن أو في بعض الأقاليم الاسلامية محتفظة بأسرار مذاهبها قاصرة تعاليمها على معتنقيها كما هو الأمر مثلا مع بقايا الطائفة الاسماعيلية في اليمن أو بقايا الخوارج في عمان .

● راجع : البدر الطالع ـ ص ٣٣٢

ان نظرة سريعة الى فكر الزيدية الممتد من القرن الأول الى القرن الثاني عشر الهجري ، وما طرأ عليه من اضافات وحذف ، ومن اقتصار ومراجعة ، يجعل منه ـ شئنا ذلك أم أبينا ـ واحدا من أهم التيارات العلمية والعملية في الفكر الاسلامي ، ولا يمكن ـ وفقا لذلك ـ فهم السياق الفكري العام للاسلام ما لم توضع الزيدية في مكانها الصحيح من مناهج البحث الاسلامي الحديث .

لقد لقيت معظم المذاهب والفرق الاسلامية اهتماما معاصرا بدأ مع ظهور العصر الحديث ، ونال المعتزلة والشيعة والخوارج قدرا كبيرا من هذا الاهتمام ، وشارك بعض الأجانب في التعريف بها ، الا أن الزيدية ظلت كالآثار اليمنية مطمورة تحت تراب النسيان ، وعلينا ونحن نوجه أبصارنا نحو هذا الفكر أن نشعر أن زمن الخصام والتقاطع بين المذاهب والفرق قد انتهى أو كاد ، وأن تراث كل فرقة اسلامية لم يعد ملكا لأفرادها لأنه قد أصبح تراثنا الفكري المشترك ، تراث الاسلام الذي نسج خيوطه بنور العقل والوجدان ، وتراث اللغة التي صاغته بحبر الاعجاب والعاطفة .

ولأن الفكر الزيدي قد تكون ـ كما سلفت الاشارة ـ من انفتاحه الجاد على الأفكار التي واكبت تطوره ـ فقد أصبح ملتقى للتصارع فيما بين هذه الافكار عقائديا وسياسيا ، فقد ترك كل فكر منها أثره في محتوى هذا الفكر ، فاللقاء الذي تم بينه وبين المعتزلة قد جمله في فترة من الفترات بأخذ كل أصولهم ، ومنها في عصر زيد الأصول التالية : ١ ـ التوحيد والتنزيه . ٢ ـ الارادة ، قدرة الانسان على أفعاله وخلقها . ٣ ـ المنزلة بين المنزلتين .

وفي عصر القاسم بن محمد الرسي (أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري) زاد التشابه بين الزيدية والمعتزلة واقتربت الأصول وتساوت في العدد فقد أكمل أبو الهذيل العلاف أصول المعتزلة إلى خمسة باضافة فصلين آخرين حيث أصبحت الأصول خمسة هي : ١ ـ العدل . ٢ ـ التوحيد . ٣ـ الوعد والوعيد . ٤ ـ المنزلة بين المنزلتين . ٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي الوقت ذاته أكمل القاسم الرسي أصول الزيدية الى خمسة ، مضيفا الى الأصول الثلاثة التي تركها زيد أصلين آخرين أحدهما يتعلق بالقرآن الكريم والآخر بالأحكام وقد صاغهما على النحو التالي : ـ

١ ـ أن القرآن المجيد فصل محكم وصراط مستقيم لا خلاف فيه ولا اختلاف ، وان سنة رسول الله ما كان لها ذكر في القرآن ومعنى .

٢ ـ ان التقلب بالأموال والتجارات والمكاسب في وقت ما تعطل فيه الأحكام وينتهب ما جعل الله للأرامل والأيتام والمكافين والزمني وسائر الضعفاء ، ليس من الحل والاطلاق كمثله في وقت ولاة العدل والاحسان والقائمين بحدود الرحمن .

وتجيء الخطوة الثالثة وليست الأخيرة في تثبيت أواصر العلاقة بين الزيدية والاعتزال على يد الامام الهادي يحيى بن الحسين الذي يقترب من المعتزلة بمقدار اقترابه من الشيعة فهو يجعل الأصول خمسة كالمعتزلة تماما مع الغاء أحد أصولهم وهو « المنزلة بين المنزلتين » وابداله بأصل آخر يقول : باثبات الامامة في آل البيت ، وبذلك تصبح الأصول الخمسة عند الزيدية هي كما يلي : ١ ـ التوحيد . ٢ ـ العدل . ٣ ـ الوعد والوعيد . ٤ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ٥ ـ اثبات الامامة في آل البيت .

ينكرون التقية والعصمة

واذا كان الاقتراب أو بالأصح اللقاء بين الزيدية والمعتزلة قد وصل الى هذا الحد فينبغي أن لا نتصور أن الاقتراب من الشيعة بالرغم من النص الخامس في أصول الزيدية قد وصل بالعلاقة بينهما الى درجة العلاقة القائمة مع المعتزلة ، صحيح ان الزيدية تكاد تكون فرقة من فرق الشيعة لكنها مع ذلك تبقى أبعد فرق الشيعة عن التشيع فقد وقفت الزيدية موقفا وسطا ، ولم تقل بكفر الصحابة الذين خالفوا عليا أو قدموا عليه الثلاثة . والفكر الزيدي يرى أن

(النصوص على امامته استدلالية ، وقد يخفى المراد على كثير من الناس ، ويلتبس الحال فيه ، والواجب في مثل ذلك هو التنبيه على مواضع الاستدلال بها دون اظهار التكير ، والمقدم على خلافها غير مرتكب لكبيرة ، ولا مواقع لما علمه منكرا ، بل يجوز أن يلبس عليه الأمر فيظن أنه مصيب فيا أقدم عليه ، فالحال فيه كالحالين فيمن خالف في آيات الوعيد ، أو من أنكر كون القياس حجة شرعية ، وما جرى مجرى ذلك مما تتطرف اليه الأشياء*) .

واذا كان ذلك تقريبا هو موقف الزيدية من خلافة الامام علي ، فان موقفهم من خلافة ذريته بالرغم من النص الثابت في الأصول الخمسة كما يراها الهادي قد تفاوتت واختلفت اختلافا بينا ، فالنص المذكور لم يكن ملزما لأن زيدا وهو مؤسس الزيدية لم ينص عليه ولأن حفيده القاسم الرسي لم ينص هو الآخر على شيء من ذلك ، لهذا فقد تراوحت المواقف من أمر خلافة آل البيت بين الأمر والانكار وبين اللاقرار واللاانكار ، ولعل موقف الغالبية العظمى من الزيدية يشابه الى حد كبير موقف المعتزلة القائم على انكار الحق الالهي لأحد من البشر مهما كان نسبه أو حسبه وانكار العصمة والحلولية ، والى هذا الموقف يرجع الخلاف بين الشقيقين محمد الباقر وزيد بن علي ، لا الى ما يذهب اليه بعض الرواة من أن الخلاف بين الشقيقين يرجع الى قبول زيد بأخذ العلم عن واصل بن عطاء الذي يخطىء جده .

وقد قام فكر زيد علي مجموعة من النظريات تعارض وتناقض فكر شقيقه الأكبر فهو ينكر التقية ،وهو ينكر العصمة والعلم اللدنى ، وهما من أسس المذهب الشيعي ، وهو ينكر المهدية والرجعة ويرى ء ان كل فاطمي عالم عدل سخي شجاع خرج داعيا الى نفسه فهو امام وهو مهدي ، ومن ثم لا تقتصر المهدية على شخص معين . وقد تحولت الزيدية الحاكمة في العصور الأخيرة الى زيدية معارضة ومناقضة تماما لزيدية زيد بل ولزيدية كل الزيديين في مختلف عصور التاريخ الاسلامي .

الزيدية والأحناف

كانت تلك باختصار نبذة عن الزيدية وعن العلاقة بين فكرها وفكر المعتزلة والشيعة لكن ماذا عن علاقة فكر الزيدية بالأحناف ؟ لقد أشرنا فيا سبق الى أن هناك مقولة تاريخية معروفة تلخص بموضوعية العلاقة بين الفكرين وهي التي تقول (ان الزيدية معتزلة في الاصول واحناف في الفروع) ونحن هنا لن نزيد الى ذلك التلخيص الدقيق شيئا كثيرا أو قليلا لأن الفروع أو الأحكام الفقهية معروفة واشتراك الفكرين أو المذهبين في الأخذ بها كتشريعات يومية ومع ذلك فلا بد من الاشارة هنا الى أن فقهاء الزيدية والمستيرين منهم على وجه الخصوص لم يقفوا في الفروع والأحكام العامة عند الأحناف وحدهم بل لقد انفتحوا على بقية المذاهب الاسلامية دون تعصب أو تحرج ، وقد عالجوا كثيرا من المسائل اقتداء بما ذهب اليه صاحب هذا المذهب أو ذاك من أئمة المسلمين . ومن يقرأ أمهات الكتب الزيدية كشرح الأزهار والبحر الزخار وضوء النهار يدرك أنها تورد مختلف الآراء في سماحة وموضوعية

وليس التفتح الفكري واحترام العقل والبراءة من التعصب هي المميزات الأساسية في فكر الزيدية غير الحاكمة وحسب وانما هناك مميزات أخرى لعل في مقدمتها رفض التقليد وانتقاص المقلدين والازراء بكل عالم لا يضيف جديدا أو يجتهد في الفكر ، ومنها الحض الدائم على ضرورة الخروج على الظالمين ، ولعل الخروج وهو الأساس أو المحور الأساسي في هذا الفكر كما وضعه مؤسسه الأول زيد بن علي موضع التنفيذ ، لعله المسؤول عن النهاية التي وصل اليها زيد فقد ذهب ضحية ايمانه بذلك المبدأ واصراره على الخروج ضد هشام بن عبد الملك لما ارتكبه الأخير في حق الرعية وفي حق الاسلام . وقد نقل الحاكم الجشمي في كتابه (تنبيه الغافلين) ان الشقيق الأكبر لزيد رغم خلافه معهم حزن حزنا كبيرا على قرار زيد الخروج على هشام وعلى رفضه لمبدأ (التقيه)

---

* النقض على صاحب مجموع المحيط : نقلا عن (المعتزلة وأصول الحكم) د . محمد عمارة : ص ٨٣

وقال : ان أخي زيدا خارج وانه مقتول وهو على الحق ، وويل لمن خذله وويل لمن حاربه والويل لمن قتله . وقال جعفر الجعفي : فلما سمعت ذلك قلت لزيد سمعت أخاك يقول كذا وكذا ، فقال زيد : أيسعني أن أسكت وقد تحولوا عن كتاب الله الى الجبروت والطاغوت ، اني شهدت في مجلس هشام بن عبد الملك ، رجلا يسب رسول الله ، فقلت للساب : ويحك يا كافر أما إني لو تمكنت منك لأزهقت روحك ، فقال هشام : مه عن جليسنا يا زيد . فوالله لو لم يكن الا أنا وابني يحيى لخرجت عليه وجاهدته حتى أفنى . ولقد قال زيد أيضا : والله اني لأستحي أن ألقي رسول الله ، ولم آمر بالمعروف ولم أنه عن منكر .)

وفي هذا القول ثم في خروج زيد واستشهاده جوهر القضية السياسية في الفكر الزيدي ، وهو الجوهر الذي اختفى عن هذا الفكر بعد أن تحول الى مذهب سلطوي يلغي حق الخروج حماية للحكام الظالمين ، وفي الأدبيات القديمة للفكر الزيدي ان الامام اذا تميز عن المحكومين بأثواب فخمة وجب الخروج عليه وأصبحت الثورة لابعاده عن حكم الناس واجبة حتى لا يتمادى في أطماعه ، ويقود الناس الى الهلاك . وقد لعب مبدأ الخروج في اليمن أهم الأدوار في قيادة الثورات ضد الأئمة وان كان في فترات الانحطاط قد استخدم بحثا عن السلطة واستئثارا بها لا دفاعا عن المظلومين ووقوفا في وجه الطاغوت .

ولم يقف مبدأ الخروج عند مقاومة السلطة الجائرة وانما انتقل الى مجال الفكر الزيدي نفسه ، فقد خرج عليه وتمرد على أحكامه الثابتة عدد غير قليل من المفكرين سواء كان تمردهم الى اليسار أو نحو اليمين ، وكان هذا التمرد مقبولا في عصور ومرفوضا في عصور أخرى وقد شكل فكر هؤلاء الخارجين صور الملمح أو التيار السني في الفكر الزيدي ، وبرزت أهميتهم من خلال مواقفهم العظيمة من مقاومة بذور التعصب ، ومن فضح أساليب استغلال العامة باسم الدين ، تلك السنة السمحة التي تحترم الحقيقة سواء جاءت من قريب أو بعيد من صديق أو بغيض .

وهي كما نرى عودة الى الينابيع الأولى لفكر الزيدية الذي واكب نشوء الفكر المعتزلي ، وكون الفكران معا ظاهرة جديدة تتحدى مقولات الفرق الاسلامية الاخرى القائمة على التكفير والتفسيق واتهام المخالفين في الرأي بالالحاد أو الزندقة أو ما شابه ذلك . وقبل أن يصل هذا البحث الى نهايته تجدر الاشارة الى العلاقة الوطيدة القائمة بين الفكر الزيدي والواقع ولعلها من أهم الملامح في هذا الفكر وأكثرها وضوحا فقد ارتبطت الزيدية منذ مؤسسها الأول بالواقع الموضوعي وبالظروف المادية للحياة

واذا كانت الزيدية ـ في بداية التكوين ـ قد أفادت من المعتزلة فقد ظلت كذلك الى وقت متأخر من القرون الوسيطة ، وكما تضاءل دور المعتزلة في عصور الانحطاط ولجأت بعض معارفهم الى جبال اليمن فقد تضاءل دور الزيدية وخبا بريقها العلمي ووصلت الى درجة من الثبوت والتجمد ثم الانطفاء وحين بدأ العصر الحديث كانت قد أصبحت ركاما من الكتب المخطوطة ، ومجموعة من الأحكام والمعارف العملية التي تصنع حكام الشريعة وبعض موظفي الدولة ، والغريب انه منذ القرن الثاني عشر الهجري لم تقدم الزيدية كتابا واحدا يضاف الى تراثها الجليل ولا عالما واحدا يضاف الى قائمة العلماء العظام .

وبعد لقد حاولت في هذا البحث ودون أن أدخل في تفاصيل عديدة أن أقدم خطوطا عريضة وربما خطا عريضا واحدا لتطور فكر الزيدية وعلاقته بالأفكار والمذاهب الأخرى . ولم أعرض سواء بالايجاز أو التفصيل لأية وجهة نظر من وجهات النظر المخالفة للفكر الزيدي أو المناوئة له ، لأن الغرض من البحث هو التعريف في حدود الامكان بالزيدية كمذهب ديني وكتيار من تيارات الفكر الاسلامي ذات المنحى الاضافي والابداعي الجاد . ■■

د . عبد العزيز المقالح

جامعة صنعاء ـ كلية الآداب



النجوم أيضاً تموت وتُسحق

بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

هب أنك أمسكت بجمل ، وسلطت عليه ضغطا جبارا يساوي ثقل جبل ، تريد بذلك ان تسحقه ليصير في حجم حبة خردل ، عندئذ لن تستطيع ذلك ، حتى ولو استعنت بثقل جبال الأرض كلها ، لأن أثقالها وضغوطها غير كافية لدك مادة الجمل وجعلها في حجم حبة الخردل !

قد يبدو هذا الكلام بغير ذي معنى ولاطعم ، أو هو خيال غريب لم تسمع به حتى في أساطير الأولين ، لكن الأسطورة قد تحققت ، ليس على الأرض ، بل في السماء .

وهل في السماء جمال ، حتى يكون هناك معنى لما يقال ؟

ليس حتما أن تكون هناك جمال ، بل هناك نجوم ماتت وتجمدت وودعت حياتها من زمن ، ولو تصورنا وأسقطنا عليها الجمل ، لدكت عظمه في شحمه ولحمه ليصبح في حجم حبة من خردل ، أو ربما أضأل !

علينا الآن أن نحول هذه الألغاز الأسطورية ، الى صور حقيقية ، توضح مايتطوي عليه الكون من أحداث غريبة غابت عن عقول كل الأجيال السابقة ، ثم تجلت عندما بدأ الانسان يتأمل ويدرس ويبحث في طبائع الموجودات كيف قامت ، وبالشرائع المتقنة كيف سارت ، فجمع حصيلة علمية هائلة ، كان مجالها الأرض ثم السماء .

بين نجم وجمل

والواقع أن هذه الدراسة تتناول أساسا ظاهرة كونية قد تعرضنا لبعض أصولها في دراسة سابقة على صفحات هذه المجلة بعنوان « معنى الموت » ،

وأوضحنا فيها بدايات بعث جسيمات ذرية ، وموت أخرى ، وبحيث لاتستطيع ان تضع فيها حدودا فاصلة بين الموت والحياة لأن اية ظاهرة منها تقود الى الأخرى ، فكأنما نحن ندور في حلقة مفرغة لانعرف لها بداية من نهاية .

نعود الآن الى الجمل أولا ، ثم الى النجوم بعد ذلك ، رغم انه لا وجه للمقارنة بين نجم وجمل .. لكنها مع ذلك يشتركان في الاساس ، والأساس ذرات ، اذ لو ماتت الذرات في النجم والجمل ، لتجمد هذا وذاك ، ولتضاءل الجمل الى حبة خردل ، والنجم الى جسم أصغر من حجمه الحقيقي بملايين المرات !

ولكي تدرك معنى ذلك ، كان لابد أن نذكر ان المادة التي نراها حية وجامدة ومتضاءلة ليست في الحقيقة الا فراغا هائلا ، ولاتحتل المادة الحقيقية من تكوينها الا نذرا يسيرا !

خذ على سبيل المثال ذرة من أي عنصر من عناصر الأرض ، تجدها تتكون من نواة في المركز ، وعلى مسافات فراغية هائلة (والوصف هنا نسبي) تطوف حولها الاليكترونات في مدارات واسعة نسبيا ، ولو حدث وتعرضت هذه الاليكترونات الدوارة الى ضغوط جبارة ، فانها تنهار وتسقط في النواة ، وعندئذ يتضاءل حجم الذرة الى حوالى مليون بليون مرة ، أو بمعنى اخر نقول ان مادة الذرة لاتشغل الا جزءا واحدا من مليون بليون جزء من حجم الذرة ، والباقي فراغ .

ان اقرب صورة لتوضيح ذلك تأتينا من نظام المجموعة الشمسية ، فهي بدورها تتكون من شمس في المركز ، وعلى مسافات هائلة جدا تطوف حولها كواكبها في مدارات ، وبين المدارات فراغ جبار .. ان المسافة بين الشمس والأرض تقع في حدود ٩٣ مليونا من الأميال وبين الشمس وزحل ٨٩٢ مليونا ، وآخر كواكب المجموعة الشمسية يقع من مركزها على مسافة ٣٧٠٠ مليون ميل . وهذا فان تلك المسافات الجبارة لايشغلها الا فراغ رهيب ، وبحيث تحتل فيه مادة الشمس والكواكب جزءا جد يسير ، ولو انهارت النظم التي تمسكها ، لتهاوى كل شيء في اتون الشمس ، ولضمنا نحن وضاع كل شيء في المجموعة ذاتها ، لكن كل شيء قائم في الذرة والأرض والكواكب والشمس ، ولكل حسابه ومقداره ، وهو يختلف باختلاف النظام الذي أعطاه كيانه .

والانسان والجمل والجبل أو أية مادة أرضية أخرى ليست - في الواقع - الا ذرات ، ولو حدث وتهاوت نظمها بحيث تدك اليكتروناتها في أنويتها ، وبضيع الفراغ الذي يتخللها ، فان الانسان هنا سيتضاءل في حجمه الى مليون بليون مرة ، عندئذ لن تراه ، اللهم الا اذا استعنت على ذلك بميكروسكوب قوي ليوضحه لك وكانما هو ميكروب ضئيل !

لكن أين ذهبت مادة الانسان ؟

الواقع أنها لم تختف حقا ، فما زالت برمتها موجودة في هذه النقطة الصغيرة ، لأن الذي ضاع فقط هو الفراغات الذرية الهائلة التي تباعد بين الاليكترونات وأنويتها ، وليس للفراغ وزن على أية حال ، ومن أجل هذا فان النقطة الدقيقة - التي كانت من قبل انسانا - هي مادة مكدسة ذات كثافة هائلة ، وبحيث لو تصورنا أننا صنعنا منها « بلية » صغيرة ، فان هذه « البلية » تزن عشرات الألوف من الأطنان !

وطبيعي أنه من الصعب على العقل البشري أن يتقبل هذه الحقيقة ، وقد يعتبرها بمثابة تصورات غريبة ليس لها من أساس ، لكن الأساس موجود حقا في السماء ، ولقد اكتشفه العلماء على هيئة نجوم ودعت حياتها من زمن ، أو بمعنى آخر نقول : انها ماتت ميتة تختلف عن موت نجوم اخرى سجل العلماء احداثها ، وعرفوا سبب موتها ، والموت في نجوم السماء يتخذ صورا شتى ، والذي يحدد ذلك حجم مادة النجم ذاته ، فمنها ما ينفجر ويتبعثر ، ومنها ماينهار ويتكور على نفسه .. الى آخر هذه الأحداث التي سوف نتعرض لها في هذه الدراسة . ومنها سيتضح أن لكل شيء في الارض والسماء عمرا ، ولكل بداية نهاية ، ولكل حياته المناسبة ، ولكل مراحله التي يمر فيها من مولد فشباب فشيخوخة فموت .. فكأنما حياة النجوم في

سمائها ، كحياة المخلوقات على أرضها ، وكل مايموت منها يعوض بولادة جديدة ، ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

النجم بين مولد وحياة وموت

وطبيعي أن يتبادر الآن على الأذهان تساؤل حائر : وكيف يولد النجم ويعيش ، ثم يهرم ويموت ؟ . . ثم مايدرينا أن هذا صحيح ؟

الواقع أن كل خلق له نظام محدد ، لكن يبدو أن أي نظام من هذه النظم ليس بخالد لأي ذرة ولا جزيء ولامخلوق ولاكوكب ولانجم ولامجرة . . الخ .

ثم ان حياة أي شيء تعتمد ـ في المقام الأول ـ على توازن نظام أو نظم كامنة فيه ، وتستوى في ذلك الذرات والجزيئات والخلايا والأنسجة والمخلوقات ، حتى تصل الى نجوم السموات ، وما فيها أيضا من مجرات ، فاذا اختلت في أي منها المكونات ، حدث الخلل في موازينها ، ولايزال هذا الخلل يتفاقم ويتعاظم ، الى أن يفقد التكوين نظامه الذي اعطاه وجوده وحياته ، ونحن لانستطيع أن نتعرض للخلل الذي يحل بكل هذه النظم هنا ، بل علينا أن نختار منها واحدا ، وليكن ذلك في نجم من نجوم السموات .

ان حياة أي نجم تعتمد على توليد طاقة نووية جبارة ، لتؤدي الى انتاج كميات هائلة من الاشعاعات والحرارة ، وفي الوقت ذاته لابد أن يقاوم النجم الضغوط الجبارة التي تسلط على قلبه من أكداس مادته الضخمة غاية الضخامة ، ولكي لا تنهار تلك المادة وتتكوم على مركزه ، أو تتكور في قلبه ، فعليه أن يولد مزيدا من الحرارة لكي يقلبها ويدفعها في تيارات عاتية نحو السطح ، وهناك تتخلص من حرارتها واشعاعاتها ، فتبرد قليلا ، ثم تتهاوى الى جوف النجم ، وهكذا تسير الأمور ـ ببساطة شديدة ـ في هذه « الأفران » النووية الجبارة ، ومع ذلك فلكل نجم منها نهاية . . أي لابد أن يموت كما ولد ، لكن موت النجم يختلف باختلاف وزنه وحجمه ، ومدى استهلاكه « التي يعيش عليها ، ومن أجل هذا تختلف أعمار النجوم ، تماما كما تختلف أعمار البشر أو أي كائن حي آخر . . فمنها مايعمر قليلا ، ومنها مايعيش طويلا ، أو مابين ذلك تكون أقدار النجوم !

وكما يقسم علماء الحياة أعمار المخلوقات الى مراحل ، كذلك كان حال علماء الفلك والطبيعة الكونية مع النجوم ، أي أنهم بدورهم يقسمون حياتها الى مراحل ، فمن المشاهدات والحسابات قد أدركوا أن لكل منها مرحلة ولادة ثم شباب ونضوج وشيخوخة وموت ، ومع أن النشأة فيها جميعا واحدة ، الا أن أعراض الشيخوخة والموت مختلفة ، ومسرح السموات هو المرجع الأول والأخير في استقراء الأحداث التي تتم هناك ، وطبيعي أن الانسان لايستطيع أن يرى بعث الحياة ونهاياتها [illegible] النجوم بعينيه المجردتين ، بل يستعين [illegible] « بعيون » المراصد الفلكية الجبارة التي تستقبل أنباء السموات ، وتقوم « بغربلتها » وتحليلها وتصويرها وامدادنا بالأخبار المثيرة ، ومنها نعرف مايجري حولنا من أحداث في هذا الكون المفعم بالألغاز والأسرار !

ولقد رأى العلماء الكثير حقا ، سواء في مجرتنا التي تحتوي على مابين ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف مليون نجم أو شمس ، أو ملايين المجرات الأخرى التي تحتوي على اعداد أكبر أو اصغر مما يوجد في مجرتنا ، وهذا يعني أن السموات تحتوي على بلايين البلايين من النجوم من كل حجم ووزن وعمر ، وبينها أيضا لاحظوا أمواتها ، والغريب ان الحسابات والمعادلات الرياضية قد سبقت الرؤية بزمن طويل ، ولقد تحقق هذا وذاك في حصيلة علمية لها شأنها ووزنها

تاريخ حياة

ولكي ندرك معنى الموت على مستوى النجم ، فلا أقل من أن نعرف فيه معنى الحياة ، وطبيعي أن حياته ليست بالمعنى التقليدي الذي وقر في العقول ، أي انه ليس كائنا حيا كما كان يعتقد الاقدمون في اساطيرهم ، بل هو جسم سماوي يبدأ حياته

بكميات هائلة جدا من الأيدروجين ، وعلى هذا الأيدروجين يعيش من خلال تفاعلات نووية جبارة ، فشمسنا مثلا ليست الا نجما من نجوم السماء ، ونحن نراها واضحة ساطعة كبيرة ، لأنها أقرب النجوم الينا ، ولاشك أن حياتنا وحياة كل كائن حي تعتمد عليها ، ولو ماتت شمسنا ، لمتنا وماتت كل صور الحياة على أرضنا تبعا لذلك .

والواقع أن شمسنا من أواسط النجوم حجما ووزنا واشعاعا وضياء ، فهناك ما هو أكبر منها أو أصغر ، وعندما ولدت الشمس منذ حوالى خمسة آلاف مليون عام ، بدأت تعيش على مخزونها من الأيدروجين ، وهي تستهلكه بشراهة بالغة ، ففي كل ثانية تمر من عمرها ، تستهلك من هذا « الطعام » الايدروجيني ما يقدر بحوالى ٦٥٠ مليون طن ، او أن وجبتها في يوم واحد تصل الى حوالى ٥٠ مليون مليون طن ، وقد يبدو ـ من هذه الأرقام الكونية ـ ان الشمس لابد وان تستهلك مخزونها في زمن قصير نسبيا ، لكن العكس هو الصحيح ، اذ قدر علماء الفلك أن لديها مخزونا يكفيها لخمسين ألف مليون سنة قادمة ! .. لكن ذلك لايعني أنها ستعيش بفتوتها وشبابها كل هذا العمر الطويل ، اذ ستدخل في مرحلة الشيخوخة بعد بضعة بلايين من السنين تعد على أصابع اليد الواحدة ، أو ربما اليدين ، فرغم أنها مازالت تمتلك مخزونا هائلا (حوالى ٧٤٪ من كتلتها من الايدروجين) ، الا أن النفايات العنصرية الناتجة من « هضم » الأيدروجين سوف تنال منها ، مثلها في ذلك كمثل النفايات السامة التي تتجمع في دماء انسان ، فتصيبه بالضعف والهزال ، وربما تؤدي الى الموت .. هذه صورة ، وتلك أخرى !

ان حياة الشمس أو أي نجم آخر ، تعتمد على مبدأ علمي معروف .. هذا المبدأ يشير الى أن كتلة الشيء كلما تضخمت وتعاظمت ، زادت فيه قوى الجاذبية ، وهي قوى ضاغطة على الجوف ، لان الجوف يحمل كل ما فوقه من مادة ، ونتيجة لهذا الضغط الجبار ترتفع درجة الحرارة في الجوف الى حدود تكفي لبدء تفاعل نووي هائل ، ولم يحدث ذلك مثلا لأرضنا أو أي كوكب آخر من كواكب المجموعة الشمسية ، لأن كتل هذه الكواكب لم تصل الى الحدود المناسبة التي يمكن أن تبدأ بها التفاعلات النووية ، لكن من المعروف مثلا أن جوف أرضنا ليس مادة صلبة بل هو ـ في الحقيقة ـ يتكون من مصهورات الحجارة والحديد والنيكل والصخور .. الخ ، لأن الضغط الكائن على الجوف (بما يعلوه من كتل جبارة) يؤدي الى توليد حرارة تكفي لصهر أي شيء آخر ، ونحن نشهد ذلك في ظاهرة البراكين ، اذ « تتقيأ » الأرض من جوفها بعض حممها علها ترتاح من ضنكها ، وتوازن أمورها بما يكفل لها استمرار حياتها .. وحياتنا !

بداية النهاية

ان الخطوط العريضة لحياة أي نجم معروفة من خلال عمليات الرصد والتحليل التي يستقبلها علماء الفلك على أجهزتهم كسيل جارف من الموجات والمعلومات ليل نهار ، وكأنما هي بمثابة أنباء ، تحمل فى طياتها احداث السماء ، فلكل عنصر ومركب ينتشر فى الفضاء أطياف خاصة تدل عليه ، وتشير اليه ، وكأنما هى بمثابة البصمات التى تدل على صاحبها ، ومن هنا ادركوا ان للنجوم مولدا وحياة وموتا ، وهى فى مولدها غير حياتها وموتها ، لان طبيعة الموجات تختلف باختلاف الحالة ، مثلها فى ذلك كمثل الجنين الذى يتكون فى رحم أمه ، فهو يبدأ من كتلة بروتوبلازمية ميكروسكوبية ، وهذه تبدأ بدورها في سحب عناصر الغذاء لتنقسم وتتكاثر وتتشكل حتى يولد الجنين بعد أشهر تسعة ، وكذلك تبدأ النجوم في « جيوب » سماوية خاصة بسحب غاز الأيدروجين (ومعه شوائب عنصرية أخرى بنسب ضئيلة) ، وتحت تأثير قوى الجاذبية يتجمع ويتجمع ، ويتكدس ويتكدس بلايين البلايين من الأطنان ، وكلما تجمع وتكدس ، ضغط على الجوف بثقله ، حتى ترتفع درجة الحرارة الى الحدود التي تطلق فيه التفاعل النووي ، وبه يبدأ النجم حياته ـ كما سبق أن ذكرنا .

ومما لاشك فيه أن لكل مرحلة من هذه المراحل ظواهر ، وفيها قد يتشعب الحديث ويطول ، لكن يكفي ان نذكر ان مايجري في أتون النجم من تفاعلات وتغيرات يعتمد أساسا على حجمه ودرجات حرارته - بداية من الجوف حتى سطحه ، وسرعة استهلاكه لمادته ، ومعدل تجمع هذه النفايات العنصرية المعقدة فيه ، وهي بالتأكيد تزيد بمرور الزمن ، لكن النتيجة الحتمية لكل هذا هو عدم قدرة النجم على مواصلة اطلاق القدر المعقول من الطاقة التي يقاوم بها انهيار المادة الهائلة التي تجثم على قلبه ، أي أن التوازن هنا يفقد عناصره ، فيختل النظام بمرور الزمن ، ولاحياة مع خلل أو فوضى ، وهنا تكون بداية النهاية .

والواقع أن للنجوم في السموات كأقدار الناس ، اذ ليس موت العظيم كموت الانسان العادي ، بمعنى أن الأثر الذي يتركه موت هذا أو ذاك على من حوله قد يكون ملموسا ومحسوسا ، أو قد يكون عابرا ، وكذلك الحال مع النجوم ، فمنها مايودع حياته على هيئة انفجار هائل تنتشر أخباره في طول السموات وعرضها ، ولاشك ان الاحداث التي تصاحب ذلك عظيمة ، والآثار التي يتركها النجم المنفجر تبقى بعده بآلاف او ملايين السنين ، وكأنما هي تشير الى ان الذي مات أو انفجر ، كان نجما كبيرا !

وكما نقول عادة ان الضغط الشديد يولد الانفجار الشديد ، كذلك الحال في امثال تلك النجوم ، لكن انفجارها يشكل كارثة رهيبة بمستواها الكوني ، ثم انه ليصعب على العقل البشري المحدود تصور أبعاد مايحدث ، لأن انفجار النجم الواحد منها يؤدي الى اطلاق اشعاعات أكبر بيليون مرة من معدلها أثناء حياته ، أو أنه يشع قدر ما تشعه عدة بلايين شمس مثل شمسنا مجتمعة في مكان واحد ، او لنضعها بصورة تقريبية مما نعرفه في حياتنا فنقول : ان طاقة انفجار هذا النجم أكبر من الطاقة المتحررة من انفجار مليون بليون بليون قنبلة ايدروجينية ضخمة (واحد مسبوقا بـ ٢٤ صفرا) ، وأرقام أخرى من هذا القبيل تقع فيما وراء تصوراتنا .

ونظرا لهذه الأضواء ...شعاعات والطاقات الجبارة التي تنطلق من النجوم المتفجرة ، فانه يمكن رؤيتها في وضح النهار لامعة ، رغم انها تبعدنا بآلاف او عشرات الالآف من السنوات الضوئية ، ولهذا نطلق عليها اسم النجوم الثاقبة - اي الشديدة الضياء (سوبرنوفا او النجوم المتفوقة في اشعاعها **Supernova** ، ولقد شوهدت امثال هذه النجوم على فترات زمنية متباعدة وهي تلمع بشدة لعدة اسابيع ، ثم يخبو اشعاعها شيئا فشيئا ، ولهذا اطلقوا عليها اسم النجم الجديد او الزائر ، رغم انه نجم زائل أو آفل .

عود على بدء

ذكرنا ان الحسابات والمعادلات ... المشاهدات ، ولقد تحقق بالفعل ما اسفرت ... تقديرات بعض العلماء ، اذ قالوا - منذ حوالى خمسين عاما - بامكان موت النجوم العملاقة بحيث يؤدي ذلك الى تكدس جزء هائل من مادتها في جوفها ، وتحولها الى نجوم نيوترونية ، بل انهم ذهبوا الى أبعد من ذلك وقدروا كثافة مادتها ، وهي كثافة يصعب ايضا تصورها ، لأن البوصة المكعبة الواحدة من مادة النجم النيوتروني تزن اكثر من ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طن (عشرة بلايين طن) ، ونظرا لأن هذا الرقم يبدو خياليا الى أبعد الحدود ، فقد اعتبره بعض العلماء « نكتة » رياضية ، او « مزاحا » علميا غير مقبول ، ومن أجل هذا لم يعره أحد اهتماما .

وفي عام ١٩٦٨ رصدت عالمة الفلك جوكيلين بيل ومساعدوها جسما في السماء ينبض نبضات ذات ايقاعية منتظمة ، اذ تتردد هذه الايقاعية مرة كل ٠,٠٣٣٠٩ من الثانية (هكذا بالضبط) او حوالى ٣٠ نبضة كل ثانية ، ولغرابة هذا الاكتشاف الذي يسجل لأول مرة في مجال العلوم الفلكية ، فقد ظنه البعض صادرا من حضارات متقدمة في السماء ، وأنهم يريدون الاتصال بمن في الكون من عقلاء ، لأن الايقاعية المنتظمة والمنضبطة غاية الانضباط ، لا

يمكن ان تصدر الا من مخلوقات عاقلة ، ولقد اتخذت الصحافة هذا الاكتشاف المثير ، وصاغت منه مادة دسمة ، ولايزال بعض الكتاب والمفكرين العرب يرددون ذلك في كتاباتهم حتى الآن ، ويتخذونه دليلا على وجود حضارات تتصل بنا ، ولقد ثبت ان ذلك اعتقاد خاطيء .

ففي كل مرة يرصد علماء الفلك جسما نابضا متنقلا ، ويحددون موقعه بدقة بالغة ، يجدون ان الموقع بالضبط في قلب نجم تفجر ومات من زمن ، وهم لايرونه بذاته ، بل بما يصدر منه أثناء دورانه حول نفسه بسرعة فائقة ، وبدون الدخول في كثير من التفاصيل العلمية والتكنولوجية ، فقد ثبت ان هذه النابضات **Pulsars** هي التي اشارت اليها من قبل الحسابات والمعادلات ، فرغم أن « رفات » النجم الميت قد تكون اكبر من كتلة شمس مثل شمسنا ، الا أن هذه الكتلة قد دكت وتكورت في جسم نابض لايزيد قطره عن عشرين ميلا لاغير (لاحظ ان قطر شمسنا يبلغ ٨٦٤ الف ميل ، وكتلتها ٢ بليون بليون بليون طن ـ البليون مكرر ثلاثا) ، ولنتصور بعد ذلك ان هذه الكتلة قد ضغطت في هذا الحيز الضئيل ، لتصبح كثافتها عشرة آلاف بليون طن لكل بوصة مكعبة واحدة ، ولنتصور بعد ذلك ان الاربعة آلاف مليون نسمة التي تسكن كوكبنا قد ضغطت مادة اجسامها بنفس المقدار ، عندئذ لن تشغل اجسامهم جميعا الا خمس بوصة مكعبة بالكاد (٠,٢ بوصة مكعبة) .. هذا بفرض ان متوسط وزن الفرد ٥٠ كيلو جراما ، وان كتلتهم جميعا في حدود ٢٠٠ مليون طن ، ومن هنا فالمغزي الذي قدمناه في بداية هذه الدراسة لاتخفي اصوله الآن على لبيب ، لأن الجمل لو تحول الى مادة على نفس نمط مادة النجوم النيوترونية ، فانه لن يصير في حجم حبة خردل ، بل سيصبح أضأل .. ربما ليشغل حيز نقطة لاتراها العين ، لكن مادته مازالت برمتها موجودة ، وطبيعي ان ذلك غير ممكن على ارضنا ، بل مجاله الضغوط العاتية الكائنة في النجوم النيوترونية .

هل من نهاية ؟

الموضوع بعد ذلك مثير ومتشعب وطويل ، ومع ذلك فقد يطرأ على الذهن تساؤل : وشمسنا .. هل ستنتهي حياتها نفس النهاية ؟ .. وما مصير أرضنا إذا حلت الكارثة يوما ؟

ان التقديرات تشير الى ان حجمها ووزنها ليسا كافيين لتحولها الى نجم نيوتروني ، بل ستمر بمراحل كثيرة ، لايمكن التعرض لها هنا لضيق المجال ، ومع ذلك ، فيكفي ان نذكر انها ستتحول في النهاية الى قزم ابيض ، ومايتبقى من مادتها المضغوطة في جوفها سيجعلها نجما ميتا بارد السطح ، كالح الوجه (والوصف هنا نسبي) ، ـ ويتبع ذلك ـ بطبيعة الحال ـ ابادة الحياة من ارضنا حتى قبل ان تتحول الشمس الى قزم ابيض تصل كثافة المادة فيه الى حوالى الف طن للبوصة المكعبة الواحدة ، لأن التريليونات فوق التريليونات من الأطنان الضاغطة على الجوف لاتؤدي الى انهيار تام للمادة ، كما حدث مثلا في موت النجوم العملاقة .

لكن هناك محصلة نهائية لكل هذا ، ذلك ان البناء والهدم عمليتان متلازمتان ، أو هما هنا أيضا كالموت والحياة ، فاذا ساد البناء على الهدم ، استمرت الحياة ، واذا زادت محصلة الهدم عن البناء ، دبت الشيخوخة والموت في أي نظام من النظم ، وفي هذا تستوي نجوم السماء والأفراد والخلايا والجزيئات !

لكن .. هذا يعني كل ذلك حقا ، خاصة مع نجوم السماء ؟ .. وهل لها أيضا قبورها التي تحلل مادتها لتعيدها سيرتها الأولى ؟ .. وما هي طبيعة هذه القبور ؟

الواقع ان هناك دلائل كثيرة تشير الى وجود « قبور سوداء » تنتشر في ارجاء السماء ، ومنها قد يخرج بعث جديد على مستواه الكوني العظيم ، ولهذه « القبور » الغريبة دراسة أخرى قادمة ، نوضح بها ماغاب عن مداركنا ، وما أكثر مايغيب عن الحس والسمع والبصر والفؤاد . ■■

الاسكندرية ـ د . عبد المحسن صالح

قصة قصيرة

زورق على الشاطئ

بقلم : فوزي عبد القادر الميلادي



أخذت سميرة تتأمل المظروف الأنيق الذي حمله اليها ساعي البريد وتقلبه بين يديها وتسأل نفسها ترى هل ستكون سعيدة بما يحويه المظروف ؟ انها تعلم يقينا أن المظروف .. يحوي قرار تعيينها معيدة بكلية البنات وربما أيضا اخطارا بالحضور لاستلام العمل بالكلية .. لكن هل هذا يعني بداية طريق السعادة ؟

أخذت تمعن النظر في يدها التي تمسك بالمظروف وتتأمل بشرتها الشديدة السمرة » ابدا لقد كتب على الشقاء .. انني أعيش غريبة في هذا العالم . وسأظل هكذا غريبة ووحيدة حتى نهاية أيامي . وعادت بها الذاكرة الى أيام طفولتها وصباها وقت أن كانت تلاقي الأمرين من سخرية زميلاتها بل وأقاربها وسكان الحي جميعا وهم يتندرون بسمرة بشرتها . وعندما التحقت بالكلية استطاعت بتفوقها أن تفرض احترامها على الجميع . ولكنها ومع ذلك كانت ترى في نظرات الناس سخرية ما بعدها سخرية . ولم تكن تملك الا أن تتجاهل تلك النظرات وتمضي في طريقها .. لكنها لم تسمع في حياتهاقط كلمة اعجاب أو اطراء من أحد .



وفي الطريق الى المدرسة استوقفتها « ليلى » احدى تلميذات الثانوية العامة . كانت تبدو جد باسمة الثغر تشيع في وجهها الفرحة وهي تخبر « أبلـه سميره » كما كانت تدعوها بأن خطبتها ستتم في ذلك اليوم.« ليلى » هذه رسبت في الثانوية العامة سنتين واذا لم تنجح هذا العام فستفصلها المدرسة لاشك . ومع ذلك فقد وجدت في أقاربها من يختلس اليها النظرات ثم يعجب بها . ثم يتقدم لخطبتها .. في المساء ستضاء أنوار في منزل ليلى . ستجلس بجوار خطيبها وقد ارتدت فستانا من الحرير الناصع البياض .. ستدور أكواب الشراب ثم تمد الموائد ويقف العاشق الولهان أمام الأهل والأصدقاء يمسك بيده يد ليلى اليمنى ليضع في اصبعها خاتم الخطبة ثم يضع في يدها سوارا من الذهب المرصع بالماس ..

وتعزف الموسيقى . ويضحك الجميع ويمرحون . وتتلقى ليلى التهاني . والدنيا لا تتسع لها من الفرحة انها ليلة من ليالي العمر .. عاشتها زميلات سميرة من قبل وها هي ليلى تلميذتها ستعيشها هذا المساء وسيعيشها الناس جميعا في المستقبل . ولكنها . هي وحدها ـ دون سائر الناس ـ لن ترى تلك الاضواء . لن تعزف لها الموسيقى . ولن يضع رجل في اصبع يدها خاتم في يوم من الايام . .

واستمرت سميرة في سيرها . ووصلت الى الكورنيش . وهي منقبضة النفس . حزينة الفؤاد . .

اخذت تتأمل الأمواج وهي تقترب من الشاطيء في اندفاع ثم ما تلبث أن تنحسر وتعود أدراجها كانت تحدث أصواتا أشبه ما تكون بالبكاء . أوالعويل . هكذا بدت لها في ذلك اليوم .وأعادت الخطاب الى حقيبة يدهـا .. وأخذت تحملق في الافق بنظرات شاردة . ثم نظرت الى الزوارق التي كانت تقترب من الشاطيء وقد غصت بالركاب الذين بدت عليهم البهجة وقد عادوا لتوهم من نزهة بحرية ممتعة .

وأخذت تتمتم : هذه الزوارق يركبها السعداء في الحياة . أما التعساء فيظلون واقفين مثلي هكذا على الشاطيء . توجهت سميرة الى حجرة الناظرة للحصول على اخلاءالطرف فلم تجدهـا فاتجهت الى مكتب سكرتير المدرسة . الاستاذ صلاح وما ان رآها صلاح حتى هب واقفا ومد اليها يده مصافحا ثم قدم لها كرسيا قائلا : تفضلي يا سميرة هانم . أهلا وسهلا . لقد وصلنا اليوم كتاب من الوزارة يفيد بتعيينك معيدة في كلية البنات . اني أهنئك وأهنيء الجامعة . لكنتني اعزي نفسي . اقصد أنها ستكون خسارة للمدرسة . وطلب صلاح من الساعي أن يحضر لسميرة هانم ـ كما كان يدعوها ـ كوبا من عصير الليمون المثلج ..وأخذت سميرة ترتشف عصير الليمون وتتأمل « صلاح » وهو منهمك في عمله . يؤشر على الأوراق . يرد على التليفون . يتصل بالمنطقة التعليمية . انه بحق القلب النابض للمدرسة . كان أنيقا في ملبسه . رقيق المعشر . حلو الحديث . دائم الابتسام .

وفي غفلة منه أخذت تختلس النظر الى أصابع يديه اليمنى ثم اليسرى . انه لايحمل في أي منها خاتم خطبة أو زواج . عجبا . كيف يبدو سعيدا .هكذا وهو يعيش مثلها وحيدا في دروب الحياة .وأقبلت عليها آنسة فارعة الطول . ترتدي ثوبا من الحرير الأزرق وتضع على عينيها نظارة سوداء وتمشي على استحياء . ما ان رآها صلاح حتى صافحها في حرارة ودعاها للجلوس بجوار سميرة . واستأذن منهما في مغادرة المكتب لينجز اجراءات اخلاءالطرف . وما ان غادر صلاح المكتب حتى شعرت بنظرات الآنسة المجهولة تنفذ الى اعماقها . واطرقت سميرة برأسها الى الارض وخيم على الحجرة صمت عميق . وقدمت الآنسة نفسها الى سميرة . اسمى هدى معيدة بمعهد التمريض العالي وأخذت هدى تتحدث عن صلاح باعجاب . واحترام شديدين . روت لسميرة كيف أن والده توفي وهو طالب في المدرسة الثانوية . واضطر على أثر ذلك أن يعمل موظفا فور حصوله على الثانوية العامة ثم التحق بعد ذلك بكلية الحقوق . وها هو الآن في السنة النهائية . وامتد حبل الحديث قرابة ربع ساعة وهدى تلك لاتفتأ تشيد بمناقب صلاح وخصاله

ورغم أن سميرة ارتاحت لهذا الكلام عن صلاح . ذلك أنها تشعر نحوه بكثير من التقدير مذ تسلمت العمل في المدرسة الا أنها ضاقت ذرعا بكلام هدي . ذلك أن حديثها عن صلاح كان أشبه بحديث العاشقة المتيمة

التي تصف فارس الاحلام . وهو لايعني الا شيئا واحدا . أن هدى هي ربما تكون خطيبة صلاح . وقد أرادت فقط أن تشيد بمناقب خطيبها أمام الناس .

وأطرقت سميرة برأسها الى الأرض . كانت تشعر لأول مرة في حياتها بالغيرة تأكل قلبها . خطر على بالها أن تغادر الحجرة وتترك هدي بمفردها أو تنهرها وتطلب منها أن تكف عن الكلام .. لكن هذا كله لايليق . فان هدى لم تقل الا صدقا . وصلاح كان في تلك اللحظة معنيا بإنجاز أمورها حتى تحصل على اخلاء الطرف . هل جزاؤه أن تتخذ منه مثل هذا الموقف ـ في غيبته ؟ورفعت سميرة رأسها وابتسمت وقالت : تشرفنا يا آنسة هدى . أهلا وسهلا .وكفت هدى عن الحديث ، وفي تلك اللحظة عاد صلاح ومعه بعض الأوراق وقال :هذه هي الأوراق ياسميرة هانم . تم انجازها . ولم يبق الا اعتماد حضرة الناظرة . وهي في اجتماع في المنطقة التعليمية . وستحضر بعد ساعتين .ونظرت سميرة اليه وقالت : أشكرك . لكنني لا أستطيع الانتظار ساعتين . وتدخلت هدى في الحديث وقالت . موجهة الحديث الى صلاح : يمكنك أن ترسل الأوراق الى الآنسة سميرة في المنزل مع أحد السعاة .وصمت صلاح مليا وقال : بالطبع . بالطبع . واذا لم أجد ساعيا يمكنني أن أذهب بها بنفسي . وصمت قليلا قبل أن يستطرد : اذا اذنت لي الآنسة سميرة بذلك .وتصاعدت الدماء غزيرة الى وجه سميرة . ولم تدر بماذا ترد على الكلام . ولفرط دهشتها أخذت هدى تؤيد ذلك الاقتراح وهي جزلة مسرورة . وازدادت دهشتها عندما قال صلاح :شقيقتي هدى كانت تود زيارتكم منذ زمن . وأظن هذه فرصة مناسبة .وساد المكان صمت محير .. لقد توقعت أي شيء الا أن تكون هدى شقيقته ! وقطعت هدى حبل الحديث وقالت : والدتي أيضا كانت تود زيارتكم والتعرف الى والدتك . لكنها اليوم متوعكة بعض الشيء . والدتي معجبة بك من فرط امتداح صلاح لك .ثم التفتت الى سميرة وقالت : ما رأيك يا آنسة سميرة ؟ أحست سميرة في تلك اللحظة بدوار شديد . لم تدر ماذا تقول وماذا تفعل . هل تضحك أم تبكي ..هل تقف أم تظل جالسة . هل هدى صادقة في حديثها . هل صلاح صادق في عواطفه . أم انها أوهام ماتلبث ان تتبدد . هل تعرف والدة صلاح أن بشرتها شديدة السمرة . أنها لم ترها من قبل ورأت سميرة أن تقطع الشك باليقين وقالت : أهلا وسهلا . تفضلوا وشرفونا بزيارتكم الليلة . سأكون سعيدة لو حضرت السيدة والدتك .وانحنت هدى على سميرة وقبلت وجنتيها وقالت : كما تحبين . سنحضر جميعا . أظن الساعة السادسة موعدا مناسبا .

ومدت سميرة يدها الى هدى وصلاح لتصافحهما وهي تقول : نعم مناسب . أهلا وسهلا .وفي طريق عودتها وقفت سميرة تتأمل الأمواج على الشاطىء فخيل اليها أن أمواج الصباح القاتمة قد اختفت وحلت محلها أمواج جديدة تضحك وترقص وهي ترتطم بالشاطىء محدثة أصواتا موسيقية عذبة . تفوح منها رائحة تشبه رائحة العطر .

ونظرت الى زورق خال يقف على مقربة من الشاطىء فأخذت تلوح له بيدها وتقول :انتظرني أيها الزورق لا تبتعد . سأعود اليك قريبا لتحملني أنا وحبيبي على صفحة الماء ■■

المستشار / فوزي عبد القادر الميلادي

■ الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ويخيل له الموجود معدوما والمعدوم موجودا .

« الشيخ محمد عبده »

■ قل كم مرة رأيت ساهرا يسرق ماله او عارفا بالسباحة يغرق ، وأنا اقول لك كم مرة رأيت مجتهدا يفشل أو مستقيما يخذل .

« جون روكفلر »

لماذا يختلف التوقيت من بلد إلى آخر ؟

فوارق التوقيت المحلى تفسرها خطوط العرض لا خطوط الطول

بقلم الدكتور : محمد على الفرا

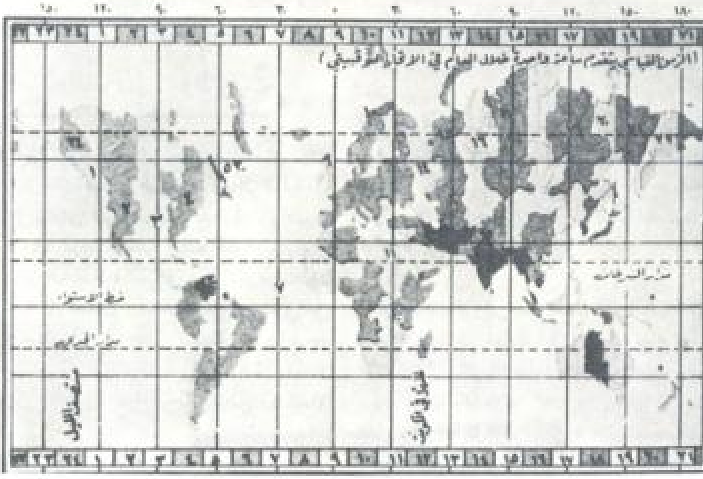
يتساءل الكثيرون عن سر اختلاف التوقيت في مناطق العالم واقاليمه ، وقد يستفسر المرء عن الأسس التي يتم بموجبها هذا التفاوت ، والعوامل التي لها صلة به ، وكيفية حساب التوقيت المحلي في مختلف البلدان . المقال يجيب على تلك التساؤلات .

أود أن أنوه باديء ذي بدء بأن الزمن والتوقيت من المسائل العلمية الدقيقة والتى تتميز بالتعقيد لعلاقتها بالكثير من العوامل والمتغيرات مثل قوانين الحركة والجاذبية لاسحق نيوتن والتي نشرها في عام ١٦٨٧ . وبناء عليه هناك انواع مختلفة من التوقيت منها الذري Atomic Time والزيجي Ephemeristime والذي ينسب الى الزيج ، وهو عبارة عن جداول تبين فيها أوضاع الكواكب وتوابعها وعلاقاتها الوظيفية بالزمن . وهناك التوقيت الديناميكي ، الى غير ذلك من أنواع لا نرى ضرورة في شرحها . فهي خارجة عن نطاق هذا المقال الذي يهدف الى شرح التوقيت بطريقة سهلة ومبسطة لتكون في متناول فهم الجميع .

للزمن علاقة مباشرة بحركات بعض النجوم والكواكب وما يتبعها من اقمار ونخص بالذكر الحركات التالية :- حركة الارض حول نفسها - حركة الارض المحورية حول الشمس - حركات القمر .

فيما يتعلق بالنقطة الاولى فان من المعروف علميا بان الارض تدور حول نفسها من الغرب الى الشرق . وتستغرق هذه الدورة ٢٤ ساعة تقريبا بحيث تعود الى نفس المكان الذي بدأت منه دورانها . وبما ان الشمس ثابتة بالنسبة الى الارض فان كل مكان على سطح الارض لابد وان يقابل اشعة الشمس ويتسامت معها عند الظهيرة كل ٢٤ ساعة تقريبا . وينتج عن دورة الارض حول نفسها اليوم الشمسي . وسمي بذلك لانه يبدأ من اللحظة التي يبدأ فيها مكان ما على سطح الارض الابتعاد عن التسامت مع اشعة الشمس الى الوقت الذي يعود فيه الى ذلك التسامت ، والوصول الى نقطة السمت اي الوقت الذي تكون فيه الشمس فوق الرأس مباشرة ، وهذا يكون عادة

على حاله ثابتا ، ويلتقي الشرق والغرب خلافا لمزاعم الشعراء



المناطق الزمنية في العالم

وقت الظهيرة بالضبط . وكلنا يعلم بأن دورة الارض حول نفسها ينتج عنها الليل والنهار .

حركة الارض والقمر

والى جانب دورة الارض حول نفسها فهي ايضا تدور حول الشمس في مدار محوري او بيضاوي الشكل ، وفي اتجاه عكس عقارب الساعة . وتستغرق دورة الارض هذه ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٦ ثانية . وهذه المدة تعبر عن الزمن الذي تستغرق الارض في مدارها البيضاوي حول الشمس ويبدأ من اللحظة التي تتخذ فيه الارض وضعا يسمح لاشعة الشمس بان تكون عمودية على خط الاستواء وينتهي حينما تعود الارض مرة اخرى لتتخذ ذلك الوضع نفسه . . الوضع الذي تتعامد فيه الشمس ثانية على خط الاستواء . ومن المعلوم ان اشعة الشمس تتعامد على خط الاستواء مرتين في كل دورة كاملة للارض حول الشمس احداهما في ٢١ مارس من كل عام ويطلق على ذلك بالاعتدال الربيعي **Vernal Equinox** لانه يكون ايذانا ببدء فصل الربيع في النصف الشمالي من الكرة الارضية . أما التعامد الثاني فيكون في ٢٣ سبتمبر من كل عام ويسمى بالاعتدال الخريفي **Autumnal Equinox** لانه يكون بداية لفصل الخريف في نصف الكرة الشمالي .

وينتج عن حركة الارض حول الشمس السنة الشمسية والفصول الاربعة . وبطبيعة الحال هناك ارتباط وثيق بين حركة الارض حول نفسها والتي ينتج عنها الأيام بما تشتمل عليه من نهار وليل وبين حركة الأرض وما ينجم عنها من سنين وفصول وشهور .

أما القمر فهو تابع لكوكب الارض ، ويدور حول نفسه وحول الارض ، وفي نفس الوقت يدور مع الارض حول الشمس . ودورة القمر حول نفسه تستغرق ٢٧ يوما و ٧ ساعات و ٤١ دقيقة. أما دورته حول الارض فتستغرق ٢٩ يوما و ٢٢ ساعة و ٤٤ دقيقة و ٢٨ ثانية . وينتج عن هذه الدورة الشهر القمري ، أو ان شئت ، الفترة الزمنية الممتدة بين قمرين جديدين (هلالين) . فنحن نرى القمر الجديد - اي الهلال - بعد أن يدور القمر دورة كاملة حول الارض وتستغرق - كما قلنا - ٢٩ يوما و ٢٢ ساعة و ٤٤ دقيقة و ٢٨ ثانية .

ومن المعروف ان دورة القمر وحركاته هي الاساس الذي تقوم عليه حسابات التقويم او التوقيت الهجري

المعمول به في شتى البلاد الاسلامية والمعتمد بخاصة في المناسبات الدينية ، كبدء الصيام ونهايته والاعياد والحج وخلافه . ولا مجال في مقالنا هذا للحديث عن هذا التوقيت ذلك أن التوقيت ، العالمي هو هدفنا .

العرض والطول . . والتوقيت :

الارض كما نعلم كروية الشكل مقسمة الى دوائر عرضية ، يطلق عليها خطوط العرض ، ودوائر طولية على شكل أقواس يطلق عليها خطوط الطول . وتحتوي الارض على ١٨٠ درجة عرضية ويقع خط الاستواء في منتصفها ويرمز اليه بدائرة العرض صفر . وهو ينصف الكرة الارضية الى نصفين : نصف شمالي ويحتوي على ٩٠ درجة عرضية ، ونصف جنوبي يشتمل على ٩٠ درجة عرضية ، بالمقابل لدرجات العرض الشمالية . فمثلا درجة العرض ١٠ جنوبا تقابل درجة العرض ١٠ شمالا وهكذا .

وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء شمالا او جنوبا واقتربنا من القطب الشمالي اي درجة العرض ٩٠ شمالا او القطب الجنوبي اي درجة العرض ٩٠ جنوبا تصبح اشعة الشمس الساقطة على سطح الارض مائلة مما يضعف من مفعولها الحراري ويؤدي الى انخفاض الحرارة وشدة البرودة في الاصقاع الشمالية والجنوبية البعيدة عن الاستواء . ونظرا لكروية الارض ودورانها حول نفسها وحول الشمس فان الليل والنهار يختلف طولها كلما ابتعدنا عن خط الاستواء بحسب فصول السنة .

وفيما عدا المدلول المناخي فان درجات العرض لا تفيدنا كثيرا فيما نحن بصدده من تقدير التوقيت العالمي . ذلك أن خطوط الطول هي التي نعتمد عليها في تحديد اختلافات هذا التوقيت . وحتى نفهم كيفية حساب فروق التوقيت المحلي بحسب مناطق العالم وأقاليمه علينا ان نعرف شيئا عن خطوط الطول هذه .

تحتوي الدائرة ـ كما نعلم ـ على ٣٦٠ درجة . وبما ان الارض كروية الشكل فانها هي الأخرى تشتمل على ٣٦٠ درجة ويمكن رسمها على شكل ٣٦٠ قوسا أو أنصاف دوائر نسميها كما قلنا خطوط الطول . وقد اتفق عالميا على جعل الخط المار ببلدة جرينتش ، الواقعة الى الجنوب الشرقي من مدينة لندن ، خط الصفر ، وعلى تسميته خط طول جرينتش الاساسي **Greenwich Prime Meridiem** وهو يتوسط خطوط الطول : فالى الشرق منه يوجد ١٨٠ خطا طوليا يقابلها ١٨٠ خطا طوليا تقع الى الغرب منه . وبما ان الارض كروية فان خط طول ١٨٠ شرق جرينتش ينطبق على خط طول ١٨٠ غرب جرينتش ، ولذلك فهما يظهران على انهما خط واحد . ولكن لا مفر من تسميته شرقا او غربا وذلك تبعا لموقعه من خط جرينتش . فعلى سبيل المثال نقول ١٨٠ شرقا اذا نظرنا اليه من على يمين جرينتش (اي شرقيه) ونسميه ١٨٠ غربا اذا نظرنا اليه من على يسار جرينتش (اي من غربيه) ومن قبيل الاختصار حين ذكر خطوط الطول نحذف كلمة جرينتش ونكتفي بذكر الاتجاه فقط اي شرقا او غربا .

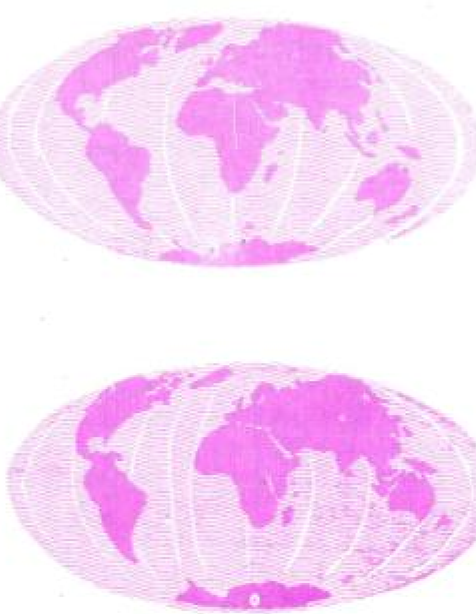
ولما كانت الارض تدور حول نفسها ـ كما سبق القول ـ فان كل خط من خطوط الطول لابد وان يواجه الشمس مرة واحدة في كل ٢٤ ساعة . وبما ان اتجاه دوران الارض حول نفسها يكون من الغرب الى الشرق فان خطوط الطول الواقعة الى الشرق من جرينتش تواجه الشمس قبل الخطوط التي تقع الى الغرب . وهذا هو ما يفسر لنا سبب شروق الشمس المبكر كلما اتجهنا شرقا وبالعكس كلما سرنا غربا . وبناء عليه فان الاقطار الواقعة الى الشرق من جرينتش تشرق عليها الشمس قبل الاقطار الواقعة الى الغرب . فالشمس مثلا تشرق على اليابان قبل الهند ، وعلى الهند قبل الكويت وعلى الكويت قبل القاهرة . . وهكذا .

كيف نحسب التوقيت المحلي ؟

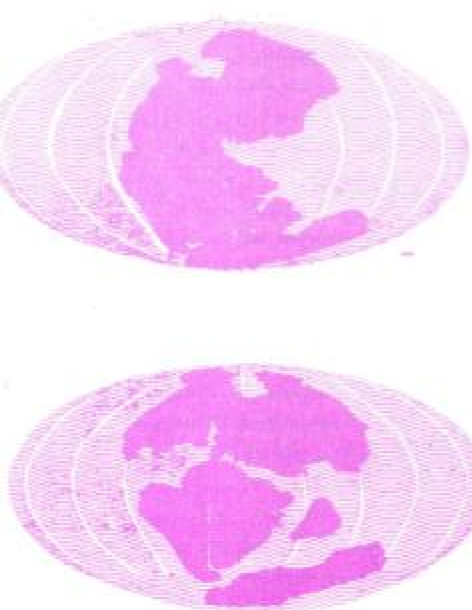
قلنا ان الارض تدور حول نفسها امام الشمس ـ التي تبدو بالنسبة لها ثابتة ـ كل اربع وعشرين ساعة . وبما ان الساعة مكونة من ٦٠ دقيقة ، والدقيقة مؤلفة من ٦٠ ثانية ، اذن تستغرق هذه الدورة نحو ٨٦٤٠٠ ثانية او حوالي ١٤٤٠ دقيقة . ونظرا لان الارض مؤلفة من ٣٦٠ خطا طوليا ، وكل خط يمثل درجة مئوية واحدة ـ كما ذكرنا سابقا ـ فان الفرق الزمني بين كل خط طولي والذي يليه مباشرة يمكن استخراجه بتقسيم المدة الزمنية بالدقائق التي تستغرقها الارض في دورانها حول نفسها على عدد خطوط الطول وذلك على النحو التالي :

١٤٤٠ دقيقة ÷ ٣٦٠ خطا طوليا = ٤ دقائق

ومعنى هذا ان خطوط الطول تتتابع في مرورها امام الشمس بمعدل خط في كل اربع دقائق . . . وبناء عليه يمكننا حساب فروق التوقيت المحلي بين كل بلد في العالم اذا



دوائر العرض



خطوط الطول

حددنا مواقع هذه البلدان بالنسبة الى خطوط الطول المارة بها .

وحتى نزداد فهما وتوضيحا فاننا نسوق الامثلة التالية التي تبين كيف نحسب فروق التوقيت المحلي بين عدد المدن ومدينة الكويت علما بأن مدينة الكويت تقع على خط طول ٤٨ درجة شرقا . وهذه المدن هي :

١ ـ مدينة يوكوهاما في اليابان وتقع على خط طول ١٤٠ درجة شرقا .
٢ ـ مدينة الاسكندرية بمصر وتقع على خط طول ٣٠ درجة شرقا .

بالنسبة لمدينة يوكوهاما نجد ان الفرق بينها وبين مدينة الكويت هو ١٤٠-٤٨=٩٢ خطا طوليا . . . وبما ان كل خط يساوي اربع دقائق فان الفرق الزمني بين التوقيت المحلي في الكويت وتوقيت يوكوهاما يكون ٩٢×٤=٣٦٨ دقيقة اي ست ساعات وثماني دقائق . وبما ان يوكوهاما تقع الى الشرق من الكويت فان شروق الشمس فيها يسبق شروقها في الكويت بنحو ست ساعات وثماني دقائق ، بحيث تكون الساعة السادسة صباحا في الكويت حين تبلغ الساعة في يوكوهاما الثانية عشرة وثماني دقائق بعد الظهر . واذا كنا متجهين اليها بالطائرة فان المضيف سيطلب منا ـ لدى اقترابنا من مدينة يوكوهاما ـ تقديم الساعة بالقدر المذكور .

أما بالنسبة لمدينة الاسكندرية فان الفرق بينها وبين الكويت هو ١٨ خطا طوليا . ويضرب هذا الرقم بـ ٤ دقائق ليصبح الفرق الزمني ٧٢ دقيقة ، اي ساعة واثنتي عشرة دقيقة . وبما ان الاسكندرية تقع الى الغرب من الكويت فان شروق الشمس فيها يتأخر عن شروقها في الكويت بهذا المقدار ولذلك فحينما نسافر الى الاسكندرية يطلب منا تأخير الساعة بما يعادل ساعة واحدة بالتحديد ، وباسقاط الدقائق التي ذكرنا . . . أما لماذا لا تحتسب هذه الـ ١٢ دقيقة ؟ فرجاؤنا الانتظار قليلا لتتسنى لنا الاجابة

على هذا السؤال في الوقت المناسب .

أما بالنسبة الى مدينة تورنتو الكندية فان فروق خطوط الطول بينها وبين الكويت تحتسب على النحو التالي نظرا لوقوع تورنتو غرب جرينتش :

ان الفرق بين مدينة الكويت وخط جرينتش (الصفر) يساوي ٤٨ خطا شرقا ، يضاف اليها ٨٠ خطا غربا وهو مقدار الفرق بين جرينتش وتورنتو فيكون المجموع ١٢٨ خطا طوليا وهو مقدار الفرق بين الكويت وتورنتو . واذا ضربنا هذا الرقم في ٤ دقائق يكون الفرق بين التوقيت المحلي في كل من الكويت وتورنتو هو ٥١٢ دقيقة اي ثماني ساعات و ٣٢ دقيقة . فحينما تكون الساعة الرابعة صباحا في الكويت تكون في تورنتو الثانية عشرة والنصف بعد الظهر . وبناء عليه يطلب منا مضيف الطائرة ونحن متجهون الى تورنتو تأخير عقارب الساعة الى الوراء كلما اقتربنا منها طالما ان شروق الشمس يتأخر كلما اتجهنا غربا .



خط الزمن الدولي

التوقيت العالمي :

قلنا بأنه اتفق على جعل خط طول جرينتش الاساسي الذي تحتسب بموجبه فروق التوقيت المحلي لكل مكان على سطح هذا الكوكب . ولذلك يطلق على التوقيت الحالي المعمول به عالميا بتوقيت جرينتش **Greenwich Mean Time** ويرمز اليه من قبيل الاختصار بالحروف **G.M.T.** واحيانا يطلق عليه بالتوقيت العالمي **Universal Time** ويرمز اليه بالحرفين **U.T.** ويستخدم المصطلح الاول وهو **G.M.T.** في الملاحة الجوية والبحرية بينما مصطلح **U.T.** يستعمل في الشؤون الفلكية والامور العلمية ، ويستخدم الرمز **(Z)** في المواصلات للدلالة على هذا التوقيت العالمي .

وحين القيام بعملية حساب الوقت مقدرا بالايام والساعات والدقائق والثواني (والتي تعتبر اصغر وحدة زمنية) فان اليوم يبدأ عادة من منتصف الليل ويستمر لاربع وعشرين ساعة ولذلك يسمى نظام الاربع والعشرين ساعة وهو نظام يستخدم في كثير من أقطار العالم وبخاصة في اوروبا وفي المؤسسات الحربية الامريكية .

ويعبرون عن نظام العد الساعاتي الاربع والعشرين بأرقام اربعة . ونظرا لان معظم الساعات تستخدم الارقام التي نسميها خطأ بالافرنجية على الرغم من كونها عربية الاصل فاننا سنستخدمها وبموجب نظام العد الساعاتي

الاربع والعشرين فان الارقام الاربعة التالية 0015 تدل على ان الوقت يشير الى الدقيقة الخامسة عشرة بعد منتصف الليل ، وان الارقام 2400 تعني نهاية يوم وبداية يوم جديد ، وهي تساوي في نفس الوقت 0000 أي صفرا . فلو فرضنا ان اليوم الذي انقضى هو الرابع والعشرون من يناير مثلا فان الارقام 2400 تشير الى نهايته وهي مساوية للأرقام 0000 والتي تدل على ولادة يوم جديد وهو ٢٥ يناير .

أما نظام الساعة والمتبع عندنا وفي كثير من أقطار العالم فهو نظام العد النصفي أو الاثنى عشري . لأنه يقسم اليوم الواحد - أي الاربع والعشرين ساعة - الى نصفين متساويين ، يبدأ النصف الأول من منتصف الليل ، أي من الساعة ١٢ ليلا ، او ساعة الصفر ، الى الساعة ١٢ ظهرا . ومن أجل التمييز بين النصفين نضيف كلمة صباحا أو قبل الظهر وتقابلها بالاجنبية Ante Meridiem ومن قبيل الاختصار نكتفي بذكر الحرفين A.M.

أما النصف الثاني من اليوم فيبدأ من الساعة الثانية عشرة ظهرا وحتى الساعة الثانية عشرة ليلا . وللتمييز أيضا نضيف كلمة مساء او بعد الظهر بعد ذكر الوقت كأن نقول الوقت هو الساعة الواحدة بعد الظهر وتقابلها بالاجنبية Past Meridiem ويرمز اليها من قبيل الاختصار بالحرفين P.M.

ويختلف التوقيت المحلي لكل مكان على سطح الارض بحسب قربه او بعده عن خط جرينتش وحسب اتجاهه شرقا أو غربا كما ذكرنا . وحينما نحسب هذه الفروق تظهر معنا مشكلة الثواني والدقائق والتي ربما تعقد الأمر . ومن أجل تجنب ذكر الثواني والدقائق في مثل هذه الأحوال وتسهيلا للمعاملات بين مناطق العالم وأقاليمه والتي أصبحت مصالحها متشابكة وعلاقاتها مترابطة ، فقد اتفق في عام ١٨٨٤ على اتباع نظام عالمي موحد وهو تقسيم العالم الى ٢٤ منطقة زمنية (كما ترى في الخريطة المقسمة) بحيث تشمل كل منطقة خمسة عشر خطا طوليا أي ما يساوي ساعة واحدة (١٥ خطا × ٤ دقائق = ٦٠ دقيقة) .

وبطبيعة الحال فان جميع الاماكن أو البلدان الواقعة في المنطقة الزمنية الواحدة تتساوى زمنيا على الرغم من عدم وقوعها على خط طولي واحد . فالكويت - على سبيل المثال - تقع على خط طول ٤٨ درجة شرقا الا أنها من حيث المناطق الزمنية العالمية تتبع خط طول ٤٥ درجة شرقا وبذلك تتجنب كسور الساعة حين نحسب فروق الزمن بينها وبين الاسكندرية مثلا . ففي هذه الحالة يكون الفرق ١٥ درجة طولية أي ساعة فقط بدلا من ساعة واثنتي عشرة دقيقة . وهكذا نستطيع معرفة التوقيت المحلي لكل منطقة من مناطق العالم . بالنظر الى الخريطة المرفقة . فمثلا حينما تكون الساعة التاسعة صباحا في لندن تكون الساعة في الكويت الثانية عشرة ظهرا .

خط الزمن الدولي :

وكما اتفق على اتخاذ خط طول جرينتش خط الصفر المنتصف للكرة الارضية والذي بموجبه تقول نصف الكرة الشرقي ونصف الكرة الغربي فانه اتفق ايضا على جعل خط الطول ١٨٠ الاساسي الذي يبنى عليه خط الزمن الدولي . وهو الخط الذي اصطلحوا عليه واعتبروا عبوره بمثابة اجتياز ليوم كامل .. اوجبوا تقديم الساعة او تأخيرها ٢٤ ساعة لدى تخطيه .. وخط ١٨٠ كما قلنا هو الخط الناتج عن انطباق خط طول ١٨٠ شرقا على خط طول ١٨٠ غربا ، اي الخط الذي يلتقي فيه الشرق بالغرب على الرغم مما قاله الشعراء « الشرق والغرب لا يلتقيان » .

ويمر خط طول ١٨٠ بالمحيط الهادي وينصفه تقريبا ، ولكن خط الزمن الدولي لا ينطبق تماما على خط الطول ١٨٠ هذا بالرغم من انه يبنى عليه .. فقد جعلوا الثاني مستقيا لا متعرجا كالأول ، وذلك من أجل تفادي المرور بالمناطق الجزرية الآهلة بالسكان في المحيط الهادي ، وحتى لا يختلف الزمن في المكان الواحد الذي يمر منه هذا الخط كأن يشهد قسم من ذلك المكان على سبيل المثال نهاية يوم مضى في حين يشهد القسم الآخر بداية يوم جديد .

وبطبيعة الحال يترتب على عبور خط الزمن الدولي من الناحية النظرية كسب يوم او فقدانه . فاذا عبرنا هذا الخط متجهين شرقا ، خسرنا ذلك اليوم ، أما اذا عبرناه الى الغرب فاننا نكسبه . فلو تصورنا ان شخصا ظل يعبر الخط يوميا في الاتجاهين فان سنه او عمره من الناحية النظرية سيظل ثابتا لا يزيد . فالى هواة الصبا والشباب الذين لا يريدون ان يكبر سنهم ، وبخاصة النساء ، نتوجه بالنصيحة بالعيش على خط الزمن الدولي حتى يظل سنهن ثابتا لا يزيد وفي هذه الحالة يصبح العمر الذي يصرحن به حقيقة مسلما بها ، سواء شئنا أو أبينا .. ! ■■

الكويت - د . محمد علي الفرا





ذكرى الشاعرين :

شوقي وحافظ

عبد الحميد بن باديس *

اذا كانت الأمم اللاتينية ـ على ما بينها من تزاحم وتخاصم وتقاتل وتناحر ـ ترتبط برابطة اللاتينية وتتفاخر بثقافتها ، وتعقد المجتمعات العظيمة لتقوية روحها وتمتين حبل التمسك بها ، فنحن ـ أبناء العربية ـ وليس بيننا شيء من تلك المفرقات بل ما بيننا الا ما يقرب بعضنا من بعض من المؤلفات والمحزنات ، أحق بأن نفعل مثلهم وأكثر منهم في لغتنا العربية .

وفوق هذا فان اللغة اللاتينية ليست لغة العلم والادب المشتركة ما بينهم مثل العربية التي هي لغة العلم والأدب ما بين سبعين مليونا من ابناء الضاد . وليست اللاتينية قريبة من عامياتهم مثل قرب العربية الفصحى من عاميتنا . حتى انه لو قام خطيب يخطب باللاتينية لما وجد من يفهمه الا قليلا من أهل القلم منهم ، ونحن نلقي دروسنا ومحاضراتنا واكثر خطبنا بالعربية الفصحى فلا يخفى على بعض السامعين الا قليل من القول .

فاذا كانت العناية باللاتينية من واجب خاصتهم ، فان العناية بالعربية من واجبنا عامة وخاصة اذ هي لغتنا اجمعين واذا كان تمسكهم برابطتهم اللاتينية لم يخرج أي واحد منهم عن وضعيته الاجتماعية الخاصة، فان تمسكنا بهذه الرابطة العربية لا يخرجنا عن وضعيتنا الخاصة وما لنا من ارتباطات اخرى يرتبط بها المجتمع الجزائري !

ان من حقنا ومن الواجب علينا ـ نحن معاشر المسلمين الجزائريين ـ الذين تشربت عروقنا هذه اللغة الكريمة من معين قوميتنا الشريفة وتغذت أرواحنا من بيانها العذب المصفى ، من ديننا العظيم ، واستنارت عقولنا من شمسها المضيئة بالانوار الساطعة من تاريخنا الجليل ، من حقنا الواجب علينا أن نكرم العربية . ومن يكرم العربية وخصوصا من خدم العربية بعقله وروحه وحياته مثل شاعرينا الكريمين ؟ ومن حقنا ، أيضا ـ أن نرتبط بأبناء العربية ارتباط القلب واللسان ، ارتباط العقل والتفكير ، ارتباط الشعور والتقدير .

اننا باحتفالنا هذا بذكرى شاعري العربية العظيمين شوقيّ وحافظ ، نكرم سبعين مليونا من أبناء العربية الذين يعدون العربية لغتهم القومية . ونكرم خمسمائة مليون من أبناء الاسلام الذين يعدونها لغتهم الدينية ونكرم الامم المتمدنة جمعاء التي يعترف اكابر علمائها المتصفين بمزية اللغة العربية التاريخية على العلم والمدنية .

ليس الشاعران الخالدان بالمحتاجين للتعريف بهما . ولست بالباحث الاديب الذي يستطيع ان يعرض عليكم في بلاغة وايجاز صورا فتانة من أدبهما . غير انني ربما استطيع ان اقول شيئا من وجوه العبرة والقدوة في حياتهما ، ووجوه من النعمة العظيمة من الله تعالى على العربية بهما :

لقد اتحد الشاعران في الوطن وتقاربا في المولد والوفاة ولكنهما تباينا في البيئة والنشأة والمعيشة . فنشأ شوقي في بيت الأمارة ، وفي بيئته الخاصة ، وعاش عيشة الترف والنعمة ، ونشأ حافظ في بيت أبيه ، وفي بيئة

* في مجلة الشهاب الجزائرية عام ١٩٣٤

عامة ، وعاش عيشة البؤس والشدة . فكان من نعمة الله أن قسمت الحياة بينهما هذا التقسيم ليؤدي كل منهما للعربية رسالته من ناحيته ومؤثراتها الخاصة به .

فلقد اخرجت بيت الامارة المرتبطة بالخلافة من شوقي ، شاعر الاسلام والعرب والاحداث الاسلامية الكبرى والتاريخ الاسلامي العام وتاريخ العرب . واخرجت البيئة العامة الرازحة تحت نير الظلم والمتجرعة لالوان الشقاء ، والمتقلبة في دركات الانحطاط من حافظ شاعر الاخلاق والاجتماع والوطنية ولاغناء لواحد من العرب عما جاء به كل واحد من الشاعرين في ناحيته . ولو لم يخلق الله الا احدهما لما تمت النعمة من الناحيتين .

كانت العربية القرآنية قد تنوسيت اساليبها وانقطع سند الأمة العربية عنها فجدد الشاعران من شبابها ، وأعادا من بيانها ، ما حسب الناس انه مات مع الأيام الزاهرة للعرب بالمشرق والمغرب .

حسب قوم ان العربية لا تتسع لما جدّ من المعاني الا اذا خلعت عنها ثوب القرآن ، ولبست ـ مثلهم ـ منسوجات « لانكشير » وأخوات « لانكشير » ، فجاء الشاعران ـ خصوصا شوقي في العقد الاخير من عمره ، من قصائدهما العصرية المعاني القرآنية اللغة والاسلوب والتراكيب ـ باوضح الرد وابلغ التكذيب .

عاش الشاعران كل على ما قسم له من الحياة حتى جاءت الحرب العالمية الكبرى ووضعت او زارها فاذا بشوقي يخرج الى العالم من قفص دار الامارة ، واذا بحافظ يدخله بؤسه الى قفص الوظيفة في دار الكتب المصرية .

فماذا كان من الشاعرين العظيمين بعد ؟

كان منهما ما يجب ان تكون فيه ابلغ العبرة ، فان شوقي اتسعت شاعريته العالمية ، وقويت نزعته الوطنية ، واما حافظ فقد سكت ، سكت الا عن قليل كان أكثره رثاء ! ولعمر الحق ما اسكته الا الوظيف الذي يتسمى به الشرقي ـ حتى مثل حافظ ويا للأسف ـ نفسه ، وأمته ، وملته ، الا ما شاء الله .

ان مما نفع شوقي اطلاعه على آداب أمم أخرى في لغة اوروبية هي الفرنسية وأن مما نفع حافظا ما مسه من الالم مع قومه . وقد كان يطالع « الاغاني » و « العقد الفريد » ويعيد مطالعتها المرة بعد المرة ، فعلى أدباء الجزائر وشعرائها أن يدرسوا آدابهم العربية ، وان يطالعوا الآداب الغربية في اللغة الفرنسية وان يمازجوا قومهم ليألموا وينعموا ـ ان كان نعيم ـ معهم ، لتكون لهم منزلة أدبية عالمية ، وآثار بارزة في الحياة الجزائرية .

ان حياة الشاعرين العظيمين قد اخذت نوابغ وامانت قرائح وان موتهما بما نشاهد من تكريم العالم العربي لهما ستحيي ملكات ، وتبعث هما ، فكونوا ـ وانتم انتم ـ في أول الرعيل .

ليس للجزائر من حافظ الا ما للاوطان العربية الاخرى من شعره وأدبه وفنون قوله ، أما شوقي فقد قدر له أن يزور هذه الجزائر في شبابه وينزل بعاصمتها أربعين يوما للاستشفاء ، ويقول عنها ، « ولا عيب فيها سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف النطق بالعربية ، واذا خاطبته بها لايجيبك الا بالفرنسوية » . فاعجبوا للاستدلال على حالة امة بمساح الاحذية منها ! ولا يحمل بي أن أزيد في موقفي هنا على هذا ، الا ان فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له في الجزائر رأي آخر ، ولعلم ان الامة التي صبغها الاسلام ، وهو صبغة الله ، وأنجبتها العرب ، وهي أمة التاريخ ، وأنبتتها (1) الجزائر ، وهي العاتية على الرومان والفاندال ، لا تستطيع ولن تستطيع أن تمسخها الايام ، ونوائب الايام .

أيها الاخوان :

باسمي الضئيل ، وباسم الجزائر الكبير ، وباسم جمعكم الكريم ، أرفع التحيات الزكية للفقيدين الخالدين في مرقدهما ولجميع العاملين لاحياء العربية وأدبها من بعدهما .

فليعش العرب ، ولتعش العربية ، وليعش المحبون لها من الناس أجمعين .

---

(1) في الاصل : وأنبتها .



الصلاة خارج الأوقات الخمسة وقصص الطوارق الليبية

بقلم : احمد محمد عطيه

ابراهيم الكوني صوت فريد مميز من الأصوات الجديدة التي تشكل وجه الثقافة العربية الحديثة في ليبيا ، وتتقدم بالادب الليبي صوب الأصالة والحداثة ، وتثري القصة الليبية بتجارب جديدة واشكال جديدة ومضامين جديدة .

اذ تنفرد قصص الكوني بالحداثة في المعمار الفني والتصوير الجديد لمجتمع عربي لم تطرقه القصة العربية من قبل ، هو مجتمع الطوارق ، بتراثه وتقاليده وأعرافه واساطيره واهله وطبيعته الصحراوية . وتمتزج الاصالة بالحداثة في احياء القاص الليبي للتراث الشعبي والاسطوري لمجتمع الطوارق العربي وشحنه بمضامين ورؤي عصرية . فتقدم قصصه اضافة جديدة في الشكل والموضوع ، وتفتح بذلك آفاقا جديدة للقصة العربية ، التي تكررت موضوعاتها ، في القرية والمدينة وعالم الطبقة الوسطى ، بينما تترامى اطراف الوطن العربي من المحيط الى الخليج ، لتضم الصحارى والسواحل والجبال والنفط والمناجم ، حيث تتنوع حياة الانسان العربي وتجاربه وطموحاته .

ويأتي الاديب الليبي ابراهيم الكوني في طليعة جيل جديد من الادباء الليبيين هو جيل السبعينيات ، الذي بلورته الثورة الليبية والثقافة الحديثة ، جيل يجمع بين الثقافة والموهبة والخبرة بالمجتمع والناس والحياة في ليبيا المعاصرة ، ويتسلح برؤى فكرية تقدمية عربية . فابراهيم الكوني قادم من اعماق الصحراء الليبية كأحد ابناء قبائل الطوارق ، تمرس بحياتهم وثقافتهم وتراثهم ، واكمل ثقافته بدراسة الادب والثقافة الانسانية بمعهد جوركي بموسكو في منتصف السبعينيات . فهو نوعية جديدة وأنموذج متقدم للاديب الليبي المثقف والمبدع . كما انه يجمع بين الصحافة والأدب ، وبين النقد والابداع ، يكتب الدراسة النقدية والمقال الفكري ، جنبا الى جنب مع ابداعاته المتميزة في القصة الليبية القصيرة .



والقصة القصيرة هي الفن الأدبي المزدهر في الادب الليبي الحديث ، مع انتشار الصحافة واجهزة الاعلام والمدارس والجامعات واتساع دائرة القراء والمتلقين . غير انه بالرغم من الاعمال الابداعية الوفيرة التي قدمتها القصة الليبية عبر عدة اجيال ، فقد ظلت القصة الليبية بعيدة عن متناول القارىء العربي والناقد العربي ، وقبعت في المناطق المجهولة في ادبنا العربي الحديث التي تتطلب الاكتشاف والتعريف والنقد ، وتلك هي مهمة النقد العربي وواجبه القومي .

منعطفات في الميلاد

ترتبط البدايات الأولى للقصة الليبية بحدثين هامين في التاريخ الليبي الحديث ، الاول ظهور الصحافة في اواخر القرن التاسع عشر ، والثاني اعلان الاستقلال في اول الخمسينيات . وفيما بين هذين التاريخين تدرجت القصة الليبية على سلم التطور الفني والموضوعي ، وتفاوتت مستوياتها ، من الحكاية الشعبية و « الحدوتة » وقصص التراث الشعبي الى القصص الفنية المعبرة بشاعرية وكثافة والتزام عن قضايا الانسان والمجتمع والوطن والأمة ، مرورا بالقصص المنقولة والمقتبسة والمصوغة بتصرف عن قصص عربية واجنبية ، والمقالات القصصية .. وغيرها من تجارب البدايات المضطربة فنيا وموضوعيا .

فيذكر الناقد والقاص الليبي حسن كامل المقهور ، في دراسته « حول القصة الليبية » ان بروز القصة الليبية يرجع الى رصيدها من الحكايات والقصص الشعبية التي لعبت دور البديل عن الادب الفصيح في مواجهة الكبت الاستعماري ومحاربة الثقافة العربية ، وان فترات الكفاح الوطني ضد المستعمر ساعدت على انتشار تلك الحكايات الشفوية القصيرة التي تغذي النضال وتمجده من خلال تكثيفه في لحظات قصصية سريعة ، « مما جعل من عنصر اللحظة طابعا يميز الآداب والفنون في تلك الفترة ويطبعها بالسرعة والقصر والاختصار ، فلم تكن الحكايات تحكى عن المجاهدين من يوم مولدهم حتى مماتهم .. بل كانت الحكاية تحكى عن يوم معين من حياته او موقف وقفه .. او لحظة استشهاده ، مما طبعها دون شك وبشيء من التجاوز بطابع القصة القصيرة . »

وقد عثر الناقد المصري الدكتور عبد القادر القط ، خلال عمله استاذا بجامعة بنغازي ، على مجموعة من القصص الليبية نشرت بمجلة « ليبيا المصورة » في اعداد متتالية عام ١٩٣٥ بتوقيع مستعار « و . ب » ونسبها للقاص الليبي وهبي البوري . وتحدث الدكتور القط في دراسته « بدايات القصة الليبية » عن امكانية وجود قصص اخرى قبل الثلاثينيات ، كما وجد مثيلاتها منشورة في الصحف الليبية حتى اول الخمسينيات . غير انها كقصص

البدايات غير ناضجة وغير مكتملة البناء الفني ، اقرب الى المقالة القصصية منها الى القصة القصيرة بمفهومها الحديث . »

يقول الناقد الليبي نجم الدين الكيب ، في كتابه « دراسات في الادب والفن » ان انتهاء الحرب العالمية الثانية بهزيمة المحور وزوال الاستعمار الفاشستي ، كان ايذانا بمرحلة نهضة ادبية وسياسية ، رغم وجود الانتداب البريطاني ، لانه كان اقل عنفا من الفاشست الايطاليين في محاولتهم لمحو الثقافة العربية ومحاربتهم للروح القومية واللغة العربية ، فكان ظهور الادب مع السياسة في صحف تلك الحقبة السابقة على الاستقلال بمثابة العلامة الاولى لقدوم مرحلة جديدة ياخذ فيها الادب بدوره الكبير في رسم الخطوط العريضة للحياة الفكرية .

أما « البيلوغرافية الوطنية » لوزارة الاعلام الليبية فترجع بتاريخ صدور اول مجموعة قصصية ليبية ، في كتاب « نفوس حائرة » لعبد القادر ابو هروس ، الى عام ١٩٥٧ ، غير انها قائمة افتقدت الدقة في التصنيف والتأريخ ، اذ جمعت بين القصص والخواطر والمقالات في تصنيفها للقصص الليبية ، كما انها لم ترجع الى القصص المنشورة في الصحف الليبية طوال العقود السابقة على الخمسينيات .

ويجمع نقاد القصة الليبية على أن تلك البدايات القصصية افتقرت الى الشكل الفني الحديث للقصة القصيرة ، فكانت تمتلىء بالحكاية والسرد التقريري المطول واسلوب المقالات ، وسيطر عليها طغيان القدر واسلوب المفارقات ، وحشيت بالشخصيات الشاذة والاحداث المفاجئة غير المبررة فنيا .

جيل الستينيات

اما البدايات الفنية والموضوعية للقصة الليبية فيمكن الرجوع بها الى أواخر الخمسينيات واوائل الستينيات . فقد انتشرت القصة القصيرة وازدهرت حتى صارت الفن الادبي الاول في ليبيا ، كما أكد النقاد الليبيون : حسن كامل المقهور ويوسف القويري وخليفة حسين مصطفى في دراساتهم ، مع انتشار الصحافة الوطنية والمجلات الثقافية وقيام المجلس الاعلى للآداب والفنون . . وتجلى ذلك الازدهار القصصي في الصحف والكتب واجهزة الاعلام والثقافة في انتاج جيل الستينيات القصصي الكبير الذي زود الصحافة الليبية والادب الليبي الحديث بسيل من القصص والمجموعات القصية ، ابتداء من اواخر الخمسينيات وحتى الستينيات واوائل السبعينيات ، مثل المجموعات القصصية الثلاث لعلي مصطفى المصراتي : « مرسال » ، « الشراع الممزق » ، و « حفنة من الرماد » . والمجموعات القصصية الست لعبد الله القويرى : « حياتهم » ، « قطعة من خبز » ، « الفرصة والقناص » ، « العيد في الارض » ، « الزيت والتمر » ، و « خيط لم ينسجه العنكبوت » . ومجموعتي حسن كامل المقهور : « ١٤ قصة من مدينتي » ، « والامس المشنوق » . ومجموعات احمد ابراهيم الفقيه الثلاث : « البحر لاماء فيه » ، « اربطوا احزمة المقاعد » ، « اختفت النجوم » ، ومجموعات بشير الهاشمي الثلاث :

« الناس والدنيا » ، « احزان عم الدوكالي » ، و « الاصابع الصغيرة » . . ومجموعات قصصية اخرى كثيرة لايتسع المجال لحصرها للكتاب : خليفة التكبالي ويوسف الدلنسي ويوسف الشريف ومحمد علي الشويهدي وابو بكر الهوني وغيرهم من كتاب جيل الستينيات ، الذي كفل لهذا الفن الجديد الاحترام والانتشار ، وطور نفسه فنيا وتقدم باتجاه صوب الالتزام السياسي والاجتماعي .

اما جيل السبعينيات في القصة الليبية فيمثل ذروة التطور والتقدم في هذا الفن الادبي ، لانه جيل مثقف استوعب تجارب جيل الستينيات الذي مهد له الطريق وأرسى اسس هذا الفن القصصي ، كما اتيحت له فرص الدراسة والتعليم والاطلاع على الثقافة الانسانية . ويمثل ابراهيم الكوني وخليفة

حسين مصطفى ورجب الشلطامي وسواهم جيل السبعينيات في القصة الليبية القصيرة اصدق تمثيل ، فنيا وموضوعيا وثقافيا وفكريا .

الصلاة خارج الاوقات الخمسة

فتميز قصص ابراهيم الكوني بالحداثة الفنية وبتصويره لمجتمع الطوارق وحياتهم وثقافتهم وعاداتهم التي خبرها كواحد منهم . والطوارق شعب قبلي عربي يعيش في جنوب الصحراء الكبرى بولاية فزان ، ويشكل نمطا فريدا في الحياة الاجتماعية والثقافة العربية ، فلهم نظمهم الاجتماعية الخاصة التي تعطي للأم واقاربها مكانا بارزا في الوراثة والسلطة . كما تتمتع المرأة بحرية الاختلاط بالرجال وكشف الوجه ، بينما يغطي الرجل وحده وجهه باللثام ، لذا سمى الطوارق بالملثمين ، ويمثل اللثام والابل والسلاح علامات بارزة في حياة قبائل الطوارق لأنها رموز للمكانة الاجتماعية والاقتصادية تتيح للرجل اعتراف القبيلة به . فالطوارق مجتمع رعوى يقوم على رعي الابل والانتقال مسافات كبيرة تبعا للمراعي والمياه . وهو مجتمع تجاري ومحارب ايضا يقوم أبناؤه بالتبادل التجاري مع الشعوب المتاخمة للصحراء وبالسيطرة على الطرق الصحراوية والقوافل التجارية ، لأن الطوارق خبراء بمسالك الصحراء ودروبها .

ومع ان ظهور البترول ، وما تبعه من هجرة ابناء الطوارق الى المدن والعمل بشركات البترول ، وتقدم وسائل النقل والاتصال الحضارية ، غير الكثير من خصائص مجتمع الطوارق الا انهم « لايزالون يحتفظون للآن بالكثير من ملامح ثقافتهم التقليدية وتنظيمهم الاجتماعي الذي يختلف اختلافا شديدا عن النظم السائدة في المجتمع العربي والقبائل العربية التي تسكن في الصحراء » ، كما يقول الدكتور احمد ابو زيد في كتابه « دراسات انثربولوجية في المجتمع الليبي » .

وعن مجتمع الطوارق ، هذا المجتمع الصحراوي العربي الفريد ، يكتب ابراهيم الكوني قصصه الليبية القصيرة والحديثة برؤية مستقبلية تقدمية ترفض التخلف والاتكالية المفرطة وتومىء الى قدرة الانسان العربي على المقاومة والتقدم نحو مستقبل افضل . وتجسد شخصياته الشابة النموذج الشخصية الايجابية في مجتمع الطوارق . وتقدم مجموعته القصصية « الصلاة خارج نطاق الاوقات الخمسة » تنويعات على الحياة الانسانية والطبيعة الصحراوية والتراث الشعبي والاسطوري في مجتمع الطوارق .

وتقدم القصة الرئيسية ـ التي منحت المجموعة عنوانها ـ انموذجا متكاملا للنهج القصصي الجديد في قصص ابراهيم الكوني ، بحداثتها في البناء الفني وتصويرها الامين لمجتمع الطوارق . فهي قصة قصيرة طويلة تقع في ٢٧ صفحة ، ويعتمد معمارها الفني على تقديم مشاهد متتابعة تجمع بين التصوير الواقعي والتراث الشعبي والاسطوري لمجتمع الطوارق ، الانسان والحيوان والطبيعة في ذلك المجتمع الصحراوي العربي الفريد .

وقد اجاد ابراهيم الكوني استخدامه لتداخل الازمنة في تنوير القصة وتطويرها معا ، كما تنقل بمهارة بين الشخصيات والامكنة دون ان يفلت منه زمام الحدث الرئيسي وتكثيف الازمة في لحظات ومواقف محددة . فتصور مشاهد القصة اثر المطر والسيل في مجتمع الطوارق . ويتنقل القصاص بالمشاهد كالمخرج السينمائي ، فلا يظهر مباشرة او يعلق ، بل يتنقل بين الامكنة والازمنة المختلفة ليصور الحدث من كل الزوايا . ويلقي اضواء جديدة على التراث الاسطوري والاجتماعي المصاحب للحياة الانسانية في مجتمع الطوارق الرعوي ، الذي يلعب المطر والابل والنساء ادوارا اساسية فيه .

عندما يزحف السيل

ففي القسم الاول من القصة « البداية » ، نتابع حدث المطر في الزمن الحاضر الذي جسده القاص في حدث درامي رئيس وشخصيات انسانية تمثل مجتمع الطوارق ، وتتراوح الشخصيات بين التقليدية السلبية والايجابية . اما الحدث الرئيسي فيتمثل في

مهاجمة السيل الهائل لخيمة الشابة « تميا » واستسلام الرجال للسيل كقدر علوي لاراد له . بينما تتقدم الشخصية الايجابية للشاب « الدامومي » ، الذي يتحدى الاستسلام للقدر وقوى الطبيعة ويتحرك لانقاذ « تميا » حبيبته التي رفضت امها تزويجها له . وخلال ذلك يصور القصاص خيام الطوارق وحياتهم . وينتزع « الدامومي » الشاب عمود الخيمة وعصا الشيخ « مهمدو » ليخوض في التيار العنيف ، بينما يتهمه الرجال المستسلمون بالجنون ، فيصفهم الشيخ بالفساد لسلبيتهم واتكاليتهم .

وفي القسم الثاني من القصة ، يرتد القاص الى الزمن الماضي ليصور اثر المطر في حياة مجتمع الطوارق الرعوي وتراثهم ، من اغنيات الاطفال التراثية للمطر الى اقامة الولائم وذبح القرابين وتلاوة القرآن واطلاق الادعية ليل نهار . « فبعد ان اعياهم ذبح القرابين ، واقامة ولائم ختم القرآن استجداء لرحمته تعالى ، لم يعد امامهم سوى تشجيع الاطفال على التعري . والاندفاع الى الخلاء وترديد ذلك النداء التقليدي : امطري ... امطري ، فلم يبق من التمر سوى حبات الندى ملقاة في الخريج وماؤك يا الله كامن في السماء . . » وعندما يتأخر المطر ولاتجدي الادعية والقرابين ، يتجدد الخوف من هلاك قطعان الابل ، اهم شيء في حياة الطوارق ، غير ان المطر يهجم في شكل سيل هادر . ويمضي القصاص ليصور اثر السيل المدمر في مجتمع الطوارق ، بدءا من الماشية الى الرجال والنساء والخيام . . وتجسد القصة ذلك الاثر في شخصية الفتاة « تميا » التي فاجأها السيل داخل خيمتها وجرفتها مياهه حتى لجأت الى ربوة تحاصرها مياه السيل وتتصاعد لاغراقها ، بينما فر الرجال والنساء بعيدا عن « قمر الوادي » حاملين معهم مايمكن حمله وانقاذه من « العفش والخيام والمؤن » .

ويتابع القاص تجسيد اثر المطر في حياة الطوارق . في مشهد تال بعنوان « الدخان والنار » ليغترف من ماضي البطل « الدامومي » اليتيم ، حدث موت عمه عطشا بينما كان يتفقد ابله في يوم صيف قائظ . فصار « الدامومي » وحيدا بلا اهل حتى نعته القوم بالنحس بسبب موت امه وابيه وعمه . وجاء ذلك كمبرر فني وموضوعي لتحديه المطر والسيل وقوة الطبيعة . « فعمل راعيا عند احد الاثرياء مقابل معزة واحدة الى جانب المأكل والملبس . »

هكذا يقدم الكوني مجتمع الطوارق الطبقي المقسم بين الاثرياء الذين يملكون الابل ، المصدر الرئيسي للثروة لدى الطوارق ، في حين لايعملون ، والرعاة الاتباع الذين يقومون بالعمل اليدوي ورعي الابل مقابل طعامهم وكسائهم ، ولايملكون شيئا .

ويصور القاص شخصية « الدامومي » تصويرا اخاذا ، كشخص وحيد منفرد ، يحفظ اشعار التراث الشعبي والاسطوري للطوارق ويغنيها للفتيات بصوت جميل حزين ، ويقدم خدماته وخبراته في ترويض الابل والناقات الشاردة لاهل النجع . كما يصور حفلات الاختلاط الليلية بين الفتيات والشبان في مجتمع الطوارق ، التي جمعته بحبيبته الشابة « تميا » . هكذا يصعد القاص الحدث ويزيد من توتره الدرامي ، ويقدم المبرر الفني والموضوعي لتضحية الشاب « الدامومي » واقدامه على الخوض في تيار السيل الهادر لانقاذ حبيبته « تميا » . ويجسد المشهد المعنون « بالتيار » مقاومة « الدامومي » واصراره على مواصلة المقاومة والتقدم صوب الربوة المحاصرة بمياه السيل لانقاذ حبيبته « تميا » ، حتى وجدها تعلو آخر صخرة لم يغمرها التيار بعد .

نهاية مأساوية

وفي مشهد شاعري جميل عنوانه « الحب » يرسم ابراهيم الكوني لقاء الحبيبين تحت مياه المطر وبين حصار السيل ، عندما ترفع « تميا » لثام حبيبها « الدامومي » المبلل ، ويمتزجان معا في لقاء الحب رغم طوفان المياه . ثم ينتقل المشهد التالي « المأتم » الى الجانب الآخر ليصور اهل الطوارق ومتابعتهم

اليائسة لعملية الانقاذ وتصورهم لموت الحبيبين وطقوس الطوارق وفلسفتهم في الموت : « بدأت (زهرة) تنتحب بصوت متقطع وخافت لكنه عميق . على عادة النساء عندما يموت انسان عزيز . البكاء في صمت اكثر مدعاة للحزن من تمزيق الثياب ولطم الخدود ، هذه فلسفة الطوارق ازاء الموت . ادرك الشيخ (مهمدو) ان المأتم قد بدأ ضمنا فانخرط يسبح بحمد الله ، ويقرأ القرآن » .

اما في مشهد الصلاة فيصور القاص قضاء الرجال الليلة الحزينة في الصلاة ، بعد فراغهم من اداء كل الصلوات الخمس بناء على دعوة الشيخ « مهمدو » قائلا : « فلتكن الركعتان صلاة على الجنازة والاخريان قربى لله من كل مكروه ! » ، ولكن « الدامومي » يفاجيء الجميع بعودته حاملا حبيبته « تميا » على ظهره باذلا كل قواه في مقاومة التيار والنجاة من الغرق ، وما ان اوصل حبيبته حتى اخذ يتقيأ دما اسود ولفظ آخر انفاسه . ولم تلبث حبيبته ان انجبت فتاتين توءمين بعد تسعة اشهر من وفاته اسمتهما « تانس » و« وانس » رددت اسميهما اساطير الطوارق . ومعروف ان الاساطير ترجع باصل مجتمع الطوارق وتقسيمه الطبقي الى امرأتين ، كما ذكر « كارلتون كون » في كتابه « القافلة .. قصة الشرق الاوسط»ترجمة برهان دجاني ، ان نبلاء الطوارق ينتسبون في الاصل الى امرأة تدعى « تن هنان » . بينما ينتسب الاتباع الى خادمة « تن هنان » ذاتها وهي امرأة تدعي « تكمات » جاءت معها ودفنت الى جانبها ، كما يقول د . احمد ابو زيد ايضا في كتابه « دراسات انثربولوجية في المجتمع الليبي » .

اما نهاية القصة فمأساوية حقا ، لان القبيلة اثمت ولادة « تميا » كثمرة لعلاقة غير شرعية مع « الدامومي » . وعبثا حاول الشيخ « مهمدو » تبرير تلك العلاقة بالحب و برفض ام « تميا » تزويجها له ،غير انهم اضطروها للرحيل الى المجهول ، فهامت في الصحراء ، بينما عكف الشيخ « مهمدو » على الصلاة لها ركعتين خارج نطاق الاوقات الخمسة فتومىء القصة بذلك الى قيم الحب والمقاومة والشجاعة كقيم انسانية ايجابية لاتتعارض مع القيم الدينية والقبلية التقليدية لمجتمع الطوارق .

وتنتقي قصص ابراهيم الكوني الاخرى نماذج الشخصيات الرئيسية في مجتمع الطوارق ، لترسم لوحة بانورامية تتجسد فيها ملامح البناء الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية في مجتمع الطوارق فتكشف قصة « الغول » وضع الزنوج العبيد في مجتمع الطوارق الطبقي القائم على طبقتي الاثرياء النبلاء والاتباع الرعاة ثم الزنوج العبيد الذين يقعون في الاسر عند الاغارة على القوافل والحروب مع الجماعات الافريقية المتاخمة لجنوب الصحراء ، وذلك في شخصية بطل القصة الزنجي « الغول » ، الذي تمرد على سيده وعلى نظام الطوارق الطبقي وعلى المستعمرين الايطاليين الفاشيين ، المستغلين لخيرات الوطن وقوة عمل ابنائه . ويمزج الكوني بين اساطير الطوارق والمقاومة الوطنية للاستعمار الايطالي مزجا عصريا ماهرا ليكشف النهب الاستعماري للوطن والبشر . فيدين الاستغلال الاقتصادي للزنوج في مجتمع الطوارق والنهب الاسعماري الايطالي لليبيا ، في زمن القصة .

وتبرز في قصص الكوني العوامل الرئيسية في حياة مجتمع الطوارق الصحراوي ، مثل المطر وأثره الحاسم في الرعي والابل وارتباط التكوين الطبقي للمجتمع بامتلاك الابل والاتباع والعبيد ، والاساطير والعادات النابعة من هذه الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع الطوارق . فتتمحور اغلب قصص الكوني المصورة لمجتمع الطوارق حول ترقب السحب والماء والمطر والقحط والسيل ، وآثار ذلك كله في الانسان والمجتمع والحياة والفلسفة والتراث الشعبي والاسطوري لمجتمع الطوارق . ■■

احمد محمد عطيه

الإمام محمد عبده

مطلوب إعادة إكتشاف هذا الرجل

بقلم : الدكتور محمد جابر الأنصاري



هناك جانب لم يلتفت اليه أحد من الذين أرخوا للامام محمد عبده ، وهو معالجته المتقدمة للعلاقة بين العروبة والاسلام ، والتي كانت كتاباته تمهيدا لظهور فكرة الوحدة العربية . .

فلماذا لم يوفها الباحثون الأهمية التي تستحق في عروبة مصر التي بدأت مع بشائر فكر النهضة المصرية . . ؟

من الجوانب الهامة التي تم اغفالها ولم تقدر تقديرا وافيا في تفكير شيخ النهضة المصرية الاستاذ الامام محمد عبده تفسيره المتميز للتاريخ الاسلامي في ازدهاره وانحطاطه من منطلق « عروبي » يتجاوز المثالية الدينية العامة في جمعها بين الأقوام المسلمة أيا كانت ، وأيا كانت طبيعتها القومية وخلفيتها التاريخية .

وفي تخطيه لهذه المثالية الأممية ، نزع محمد عبده ، بوضوح ، نزعة واقعية تاريخية تحليلية تبعده عن خط الفقهاء التقليديين ، بقدر ما تقارب بينه وبين نهج ابن خلدون ، التاريخي التحليلي ، وهو النهج الذي أعاد اكتشافه محمد عبده ، من خلال مقدمة ابن خلدون والدراسات الحديثة حولها ، فيما يمكن أن نعتبره أبرز تحول فكري في حياته منذ إعادة اكتشافه لفكر المعتزلة قبل ذلك .

يقول في مجال تحديده للمنعطف الذي تحول عنده الاسلام من الصعود الى الانحدار في مجراه التاريخي الحضاري : « كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة في السياسة (يقصد الخليفة العباسي المعتصم) ، فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له (أي لشخصه) ، ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي ، فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهما من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، فلا تساعد الخارج عليه .. وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنالك استعجم الاسلام وانقلب أعجميا ، خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه ، عندما أكثر من الجند الأجنبي فلم تكن إلا عشية وضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام ، والقلب الذي هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه ، ويعبده في خلوته ، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته . (راجع محمد عبده ، الاسلام بين العلم والمدنية ص ١٦٦ - ١٦٧) .

من الواضح هنا أن محمد عبده ، على استيعابه العميق للروح الدينية الاسلامية يخالف النظرة الدينية الأممية الشمولية ، التي لا ترى فضلا لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، ولا تميز بين جند عربي وتركي وديلمي في ظل العقيدة وتحت راية « الجهاد » ، ليعيد تفسير التاريخ الاسلامي تفسيرا عربيا صريحا ذا طابع قومي قد لا يشاركه فيه مفكرون اسلاميون من قوميات أخرى .

ولعل موقفه يغدو أكثر وضوحا وتميزا - من الوجهة القومية العربية - اذا نحن وضعناه بموازاة موقف مغاير لمفكر معاصر مسلم ، غير عربي ، من مسألة الصلة ذاتها بين العروبة والاسلام . يقول د . سيد حسين نصر في كتابه « دراسات اسلامية » : « ولد الاسلام في الجزيرة العربية ، فمات به لذلك خطر الانقلاب الى دين عربي ، بدلا من أن يبقى عقيدة عالمية » (المرجع المذكور ص ١٥) .

ان ما يراه هذا المفكر المسلم ، غير العربي ، خطرا يهدد الاسلام ، وجده شيخ النهضة المصرية محمد عبده الحقيقة الجوهرية لدين الاسلام وثقافته عندما قال : « كان الاسلام دينا عربيا ثم لحقه العلم فصار علما عربيا » ولم يدخل الاسلام في دور الانحطاط ، الا عندما فقد هذه الصفة العربية ، كما اتضح من النص الكامل للاستاذ الامام ، الذي أوردناه مفصلا في بداية المقال .

وإذا كان الاسلام في حقيقته الكلية ، يتجاوز عقائديا التفسيرين العربي وغير العربي كما أوضح مثلا المستشرق هاملتون جب ، عندما قال من وجهة تاريخية محايدة بين القوميات ، بأن الاسلام : « رفض تسلط تقاليد العرب الاجتماعية ، كما رفض أيضا فيما بعد طغيان التقاليد الاجتماعية للفرس » . (راجع : **H.A.R Gibb An Inferpretation of Islamic History im Muslim World Vol xLV, no.1, Jan. 1955,p. 12)**

نقول اذا كان الاسلام في منظوره الشامل ، يتجاوز النظرتين معا ، فان هذه المقارنة مع ذلك تبين وتوضح لنا ، بجلاء عمق العنصر (العروبي) في تفكير شيخ النهضة المصرية ـ التي ما زال الباحثون الغربيون يحاولون التعتيم بشتى السبل على روحها العربية ـ كما وتؤكد بما لا يقبل الجدل مدى تغلغل الحس القومي العربي في نزعته الرامية الى (تجديد) الاسلام وتحدد لنا تفكيره الديني الذي يمثل عمق الاسلام ، من شتى التفسيرات الأخرى في النظرة الى الصلة بين العروبة والاسلام .

ولا يقتصر محمد عبده على هذا الحكم التاريخي العام ، بل تراه يجد تفصيلا التأثيرات المتشعبة لفقدان الاسلام « هويته العربية » وخضوعه للعناصر الاجنبية ، معتبرا ذلك « الغياب العربي » العلامة الفارقة الكبرى بين اضمحلال الاسلام المتحضر المزدهر وسيادة النسخة المتخلفة من إسلام عصر الانحطاط .

فقد نجم عن هذا « الغياب العربي » في نظره عدة نتائج خطيرة ومشوهة لحقيقة الاسلام نتجت من تأثير العناصر غير العربية وقيادتها للدولة الاسلامية : ـ

١ ـ انحطاط في جوهر الفكر الديني حيث توهم أولئك الأغراب : « الدين ناقصا ليكملوه . . . وتنظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو منه براء . . . » .

٢ ـ ان هؤلاء الأغراب من غير العرب مسؤولون عن وقف النزعة التقدمية في الاسلام ، حيث توهموا حسب تعبيره : « ان المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . . . ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم وبيانها على خط مستقيم » .

٣ ـ نتيجة لذلك أيضا حدث انحطاط في النتاج الثقافي العام ، فقد « كانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف ثمارها ما تشاء» . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين وقف العلم وسكنت ريحه » .

٤ ـ تبع ذلك انحطاط سياسي حيث نشرت العناصر الدخيلة كما يرى فكرة الانفصال بين الحاكم والرعية ، وضرورة ابتعاد الرعية عن : « كل ما هو من أمور الجماعة والدولة » ورد الفساد الى القضاء والقدر وصروف الزمان ، لا الى انحراف الحكام ، مما قطع الطريق على أي اصلاح أو تقدم . ((راجع الاسلام بين العلم والمدنية ص : ١٦٨ ـ ١٦٩) .

ويجب ألا نمر بهذا الموقف الفكري ـ التاريخي لمحمد عبده قبل أن نستخلص مدلولاته القومية كاملة : ـ

أولا : ان محمد عبده يرى ، وبصورة قاطعة ، أن انحطاط الحضارة الاسلامية ـ على مختلف الأصعدة قد بدأ عندما : « استعجم الاسلام وانقلب أعجميا » ، وان ازدهاره كان مرتبطا عضويا باخلاصه لجوهره العربي . ومصطلح « أعجمي » هنا لا يشير الى قومية بعينها وانما يشير ، كما اصطلح على معناه العربي ، الى كل ما هو غير عربي أيا كان أصله .

ثانيا : ان محمد عبده يتحدث في نطاق الاسلام ذاته عن « جند عربي » و « جند أجنبي » ، والنظر الى هذه العناصر المسلمة باعتبارها أجنبية ـ والدولة العثمانية التركية ما زالت قائمة ـ يتطابق تماما مع موقف الرواد القوميين العرب الأوائل في نظرتهم الى الوجود العثماني في البلاد العربية ، بقدر ما يتناقض مع موقف الفقهاء التقليديين . وهذا يعني ان اصلاحه الديني المرتبط بالعودة الى جوهر الاسلام العربي هو في حقيقته تمهيد تاريخي لظهور حركة القومية العربية والوحدة العربية، مثلما كان الاصلاح الديني البروتستانتي الذي قام به مارتن لوثر ارهاصا باستيقاظ الروح القومية الالمانية وان لم يكن التعبير السياسي المباشر عنها .

ثالثا : ان محمد عبده عندما يظهر تشككه في صحة اسلام العناصر « الأجنبية » التي لم يهذبها الدين والتي دخلت الاسلام بوثنيتها وأطماعها الدفينة ، فيما يطرح موقفا متصلا بصميم الفكرة العربية قديما وحديثا : قديما في نطاق صراع العرب ضد الشعوبية وحديثا في نضالهم ضد الحكم العثماني وأي حكم غير عربي يريد اخضاعهم باسم وحدة الدين وهذا الموقف له نتائج متميزة اذا أوصلناه الى نهايته المنطقية . فهو يعني أن العرب على بداوتهم وفطرتهم كانوا وحدهم المؤهلين لاستيعاب روح الاسلام والارتقاء به ومعه ، وان العناصر الاجنبية تبقى أجنبية وان اشهرت إسلامها ، بل وتصبح مبعث خطر يتهدده من داخله .

ولقد كان محمد عبده شديد الوضوح والحسم بهذا الصدد ، فهو لم يقصر حكمه هذا على الاضطراب السياسي الذي جلبه غير العرب الى الاسلام ، وانما يتجاوز ذلك الى تشخيص الانحراف العقائدي في تاريخ الاسلام على أنه من عمل هذه العناصر أيضا . ففي « رسالة التوحيد » يشير الى دور تلك العناصر غير العربية في الانحراف بمفهومات العقيدة قائلا : « فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء ، وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له ... فأخذوا ينفثون من أفكارهم ... فظهر الالحاد وتطلعت رؤوس الزندقة (راجع رسالة التوحيد ، تحقيق أبورية ، ص ٢٦) .

وهذا يعني في نظره أن الالحاد والزندقة في تاريخ الاسلام كانا من فعل العناصر الشعوبية المعادية لعقيدة الاسلام عداءها للعرب .

فهو يطلق على قبائل العرب في الجاهلية المصطلح القومي الحديث : « الأمة العربية » التي يراها موجودة كحقيقة تاريخية قائمة منذ ذلك الوقت ، قبل ظهور الاسلام . ويتحدث عن قواهم المعنوية في جاهليتهم بقوله : « في قوى أمة عظيمة كالأمة العربية » . ويشير الى أول انجاز للاسلام بأنه خلق للعرب « وحدة لم يعرفها تاريخهم » . (راجع رسالة التوحيد ص ١٢٦ ، ١٣٨ ، ١٦٦) .

وهكذا فان الشيخ محمد عبده بهذا الموقف العربي الواضح والحاسم كان يوفر الشرعية الدينية في زمنه لحركة التحرر القومي من الترك لتحقيق استقلال الكيان العربي عن الامبراطورية العثمانية ، وقد انفصل عن أستاذه القديم ، جمال الدين الافغاني ، واختلف معه حتى وفاته لأن هذا الأخير جند نفسه لخدمة الجامعة العثمانية بقيادة السلطان عبد الحميد ، ومن الملفت أيضا ان محمد عبده كان يقف ضد العائلة التركية ا الالبانية (الخديوية) التي حكمت مصر ونظر الى عميدها محمد علي على أنه « استطاع أن يميت ولم يستطع أن يحيي » . كما لم يؤيد ربط مصر بتركيا العثمانية كما فعل غيره من الكتاب الاسلاميين بمصر .

واذا أضفنا الى هذا الموقف السياسي والفكري جهوده محمد عبده لبعث اللغة العربية واحيائها كلغة قومية وتراث قومي ، رأينا مدى الرسوخ والترابط الوثيق بين فكره وحركة الاحياء القومي العربي على مختلف الاصعدة ، بما يضعه في مرتبة « الاب الروحي » لهذه الحركة .

وبعد ، « فلقد رسمنا هذه الوقفة العربية للاستاذ الامام من النصوص الحرفية لكتاباته الموثقة المحققة ، وهي نصوص لا لبس فيها وتنطق بنفسها ، ونستغرب كيف لم يولها الباحثون من قبل الأهمية البالغة التي تستحق في مجال البحث في عروبة مصر وفي مجال البحث في القضايا الكبرى التي دار حولها فكر الاستاذ الامام ، كما يدعونا الى التساؤل حول أسباب هذا « التعتيم » على العروبة الصريحة في فكر النهضة المصرية منذ عهدها الباكر ، بل منذ بداياتها الاولى ، كما تمثل في مواقف امامها وشيخها الأكبر وأستاذ أجيالها المتعاقبة من بعد هذا على الرغم من صدور مئات الأبحاث عنه وعن آثاره ومواقفه الاخرى ، ولكن دون الاهتمام بهذه المسألة بل وباغفالها بصورة تدعو الى التساؤل والارتياب وترتبط دون شك بأغراض أولئك الذين حاولوا ويحاولون الى اليوم طمس عروبة مصر ومحو روحها الحقيقية ابتداء من اللورد كرومر .. وانتهاء بمناحيم بيغن .

وبعد هذا الايضاح لرسوخ النزعة العربية ، القومية الخالصة والصافية في تفكير إمام النهضة المصرية ، هل يبقى محلا للتساؤل والاستغراب كيف اكتشف جمال عبد الناصر عروبة مصر ؟ ولماذا تحن مصر الى عروبتها وتصر عليها في كل الظروف وفي أحلك الظروف ؟ ■■

د . محمد جابر الانصاري

جيمس بالدوين

من حي هارلم إلى الصّدارة في الدوارية والجاز

بقلم : محمود قاسم

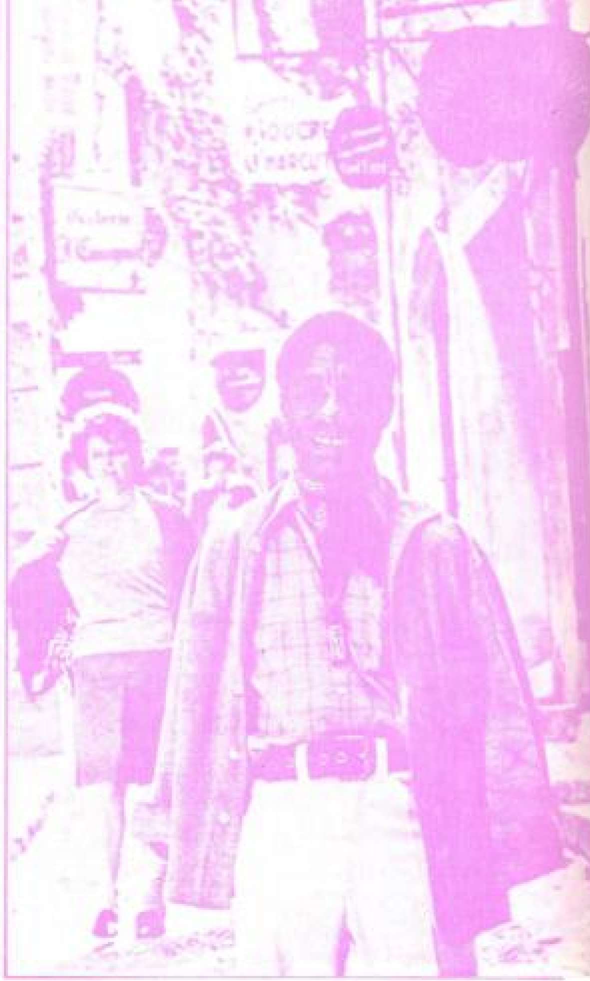
قليلون هم الزنوج الذين قدموا ابداعاتهم في مجال الأدب داخل الولايات المتحدة الامريكية . ويبرز من بين هذه الاسماء اسم هام هو جيمس بالدوين الذي لا يعتبر واجهة الادب الزنجي الامريكي فحسب بل واجهة الادب الامريكي في السبعينات .

وبالدوين يكتب الرواية والمسرحية والمقال ويعزف موسيقى الجاز ، كتب بعض المقالات الادبية والنقدية في بعض الصحف والمجلات الامريكية . كما يقوم بكتابة الاعمال الدرامية لكل من الاذاعة والتليفزيون والمسرح . ونشر بعض الدراسات الجادة حول الموسيقى الجاز وتاريخها . كما نشر كتابا حول جوستاف فلوبير عبر فيه عن اعجابه برائد الواقعية الفرنسية .

ولد في عام ١٩٢٤ في فترة كانت التفرقة العنصرية داخل الولايات المتحدة على أشدها . وعندما بلغ السابعة من عمره مرت بلاده بأكبر ازمة اقتصادية عانتها في تاريخها وعن هذه المعاناة يقول « كنت طفلا حينما عوملت لاول مرة كزنجي قذر . طفل صغير بين الخامسة والسابعة من العمر . لم نكن نفهم ماذا يعني الامر . . ولكننا كنا نشعر أننا مهانون . ومما يزيد الطين بلة ان يلاحظ المرء فيمن حوله ان أمه وأباه وأخواته وأشقاءه أيضا من الزنوج القذرين . . وتشعر فجأة أنه من المحتم عليك أن تعيش بين بشر يحتقرونك أنت وأسرتك . وسوف تكتشف السبب انك لست أبيض . . فبمجرد أن يولد طفل في أسرة سوداء فان أبويه يعرفان أنه سيعود يوما الى المنزل متسائلا : « ماما . من هو الزنجي . . ؟ » وعن وعي أو بدونه سيحاول الابوان أن يعدا أنفسهما لهذا اليوم كي يجيبوا على هذا السؤال » .

في هارلم !

عاش الطفل أثناء سنوات العشرينات في حي هارلم داخل منعزل « جيتو » Ghetto يضم الزنوج ، وداخل هذا الحي يعيش البيض النازحون



ـ جيمس بالدوين



ـ فتاة صغيرة سوداء في جنوب الولايات المتحدة"

الى الولايات المتحدة من ايطاليا وفنلندا ودول أخرى . ومنذ تلك السنوات والحى آخذ في تغيير شكله الحضاري نحو الأفضل . وكان جيمس أكبر أخواته التسع .. وكان أبوه عاملا بسيطا . في الصباح يضع قبعته المستديرة فوق رأسه ويرتدى قميصه الابيض ويأخذ حالته الى المصنع كي يؤدى أعمالا شاقة ويكسب سبعة وعشرين دولارا أسبوعيا . عليه أن يقوم باطعام أشباله التسعة وزوجته . وقد أدت هذه الضغوط بالأب إلى الجنون . فحملت الأم عبء الأسرة وحدها . فبدأت تعلم أبناءها كيف يتعاملون كزنوج مع البيض من حولهم . وكيف يمكنهم أن يعيشوا دون أي نوع من القلق .. لكن كيف .. ؟

وعندما بلغ بالدوين العشرين من عمره فكر أن يهاجر كي يعيش في بعض دول أوربا أو افريقيا أو أمريكا اللاتينية ويقول جيمس : « ان على الزنوج أن يظلوا فقراء مهما كانت الأسباب فمن الصعب على الزنجي ان يكسب رزقه بسهولة . فدور النقابات والمؤسسات لم يتغير كثيرا حتى الآن . بالفعل رحل جيمس الى فرنسا عام ١٩٤٨ .. وهناك بدأ حياته

الأدبية بروايتين هما « اذهب واخبر الجميع من فوق الجبل » و « حجرة جيوفاني » ثم عاد بعد أربع سنوات الى بلاده .. فلم يجد الحياة في فرنسا بأفضل منها في الولايات المتحدة . ففي أوربا يعاني أيضا من الاحتقار والمهانة مثلما يعاني العرب وخاصة أبناء شمال أفريقيا هناك .. ولكنه لم يحتمل من جديد لون الحياة في الولايات المتحدة فعاد الى فرنسا مرة أخرى ثم ما لبث أن تركها مرة ثانية كي يعود الى بلاده عام ١٩٥٦ عندما بدأت حركة الحقوق المدنية في ليتل روك .

ذلك البلد الآخر !

ومنذ ذلك الحين ظل يتنقل بين البلدين وسافر الى بعض الدول الافريقية .. وفي تلك السنوات كان قد بدأ في تقديم أعماله الادبية التي حازت نجاحا محدودا في أول الامر ثم ما لبث أن ذاعت شهرته مع رواية « ذلك البلد الآخر » و « النيران في الزمن القديم » عام ١٩٦٣ .. ثم « أحرق يا طفل أحرق » عام ١٩٦٥ .. وحول ذلك يقول « كنت أعرف ان الكتابة شيء يجب ان تمارسه يوما .. لكني استسلمت تماما لما أفعله » .

ويقول بالدوين أن أمل الاطفال السود في الولايات المتحدة أن يكون لهم آباء بيض . كتب مرة : « لست سوى شبح . فاللعنة عليك يا أمي ! » .. « وعلى الانسان في مثل هذا المجتمع الذي يحتقره أن يعبر عن نفسه .. وأن يتفوق .. » واذا كان الكثيرون من الزنوج في الولايات المتحدة قد تفوقوا في مجال الرياضة والالعاب العنيفة فان الكثيرين منهم أيضا نجحوا في ميادين عديدة أخرى .. لكن الأدب لم يشهد غير قلة من المبدعين .. واذا كانت الشهرة قد جاءت لاليكس هيلي بعد « جذور » فان بالدوين لم يذع صيته بنفس الدرجة ولم يصبح نجما في الصحافة .. ولو أن النقاد يعتبرونه الآن من أفضل الكتاب الأمريكيين ان لم يكن أفضلهم على الاطلاق .. « ليس من الممكن أن تكون انسانا أو فنانا دون أن تكون لك قواك المعنوية فالحياة الانسانية هي أكثر الاشياء تقديسا .. ونحن حراسها »

وقد قرر بالدوين أن يعيش في فرنسا منذ عام ١٩٦٨ بعد قتل الزعيم مارتن لوثر كنج « شعرت أنني يجب أن أبتعد كي أتمكن من البدء من جديد ككاتب ومناضل سياسي وكانسان ، فموت لوثر كان نهاية عصر للسياسة الامريكية شاركت فيه وكان موته أيضا نهاية أمل »

أحزان السود !

ويتمتع أسلوب بالدوين بالتوغل داخل النفس البشرية فهو يميل الى التحليل النفسي مثل الكثيرين من الأدباء المعاصرين .. وهو يرى ان الرواية عمل يمكن ان نطرح فيه قضايانا الداخلية والخارجية دون أي لون من الخجل .. « فاذا لم نعبر في الرواية عن متاعبنا ونقاط ضعفنا ومعاناتنا .. فلمن نفعل ؟ » الرواية تسجيل حي لكل حياة ولكل نبض .. ولذا لقد يهتم بالدوين في بعض الاحيان بالاغراق الشديد في الكتابات الجنسية أو ما يسمى بالادب المكشوف جدا مثلما يفعل الكثيرون من الادباء الامريكيين المعاصرين مثل هنري ميللر وهارولد روبنز وفلاديمير نابوكوف .

وبالدوين يخلط بين الجنس والعنف فهما فردتا مقص يعبران عن القلق الذي يجتاح الانسان الغربي المعاصر .. « إن العنف والجنس هما وسيلتا التعبير الواضحتان للتخلص من كل الآلام والمشاعر التي تجتاح الانسان الذي يعيش وحده ولا أحد يحس بمعاناته ولا حتى بسعادته .. لقد أصبحنا نفرح وحدنا ونتألم داخل جلدنا .. ولذا فان الجنس هو المشاركة الوحيدة .. والعنف ينبه الناس الى ما يحدث لكنه يزيد من حدة التوتر والخوف ومن السلبية والكراهية . » هكذا فلسف بالدوين معنى الحياة عند أهل الغرب المتحضر !!

ففي رواية « ذلك البلد الآخر » يخرج بالدوين بين هذين الطرفين .. العنف والجنس فنحن أمام خمسة أشخاص منهم زنجيان : راقوس سكوت

عازف موسيقى الجاز الذي كثيرا ما جلجل القاعات بموسيقاه وجعل الراقصين يزيدون من ايقاعاتهم الرائعة . وكانت أخته ليدا تغنى على هذه الانغام فتزيد الحماس حماسا . . وواقوس يقع في حب لينا الفتاة البيضاء القادمة من الجنوب . . ويعطي كل من العاشقين للآخر حبا لا حدود له . . وتنتهي هذه العلاقة بأن ينتحر الشاب بعد أن خسر وظيفته ومكانته كعازف مبدع . . وتصيب هذه الحادثة لينا بالذهول . . فتنتقل الى احدى المصحات النفسية .

حياة عفنة !

أما « ليدا » فانها تحب « فيفالدو » الرجل الابيض الذي كثيرا ما يعبر عن نفسه ومعاناته وتجاربه في رواياته التي يرفض الناشرون نشرها . . وهما يعيشان معا حياة خشنة أشبه بتلك التي عاشتها لينا مع راقوس ، واذا كانت لينا قد أحبت بكل مالديها من مشاعر وأحاسيس واصيبت بالجنون نتيجة لانتحار حبيبها . فان ليدا تخون حبيبها الروائي وتحب رجلا يعمل في التلفزيون سبق أن وعدها بأن يقدمها كعازفة ثم كنجمة على الشاشة الصغيرة . . وتصيب التجربة فيفالدو باحباط جديد . . « فلا شيء يستحق ان نعيش من أجله وعلينا ان ننتقم من الآخرين حتى لو في أنفسنا . » ولكن بدلا من ان ينتحر مثلما فعل عازف الجاز فانه يمارس الشذوذ كلون من الوان التعذيب السادى مع شاب قادم من الجنوب الذي جاءت منه لينا . . ويعمل ممثلا في مسارح المدينة العفنة . . ثم يظهر « اريك » وهو إنسان غريب يمارس ايضا نفس العلاقة مع عازف الجاز . لكن جيمس بالدوين لم يوضح لماذا هذا النوع من العلاقات . . وهذه السلوكات الدنيئة . . وكأنما اراد المؤلف ان يظهر ان هذا الانسان العفن يمكنه ان يتغير ويصبح مثاليا فيرتبط مع امرأة في علاقة عاطفية . . هذه المرأة تدعى كاس سليشكى التي لها فكرها الخاص وعالمها النقي النظيف . . فهي امرأة قوية الشخصية تكن الاحتقار لزوجها الروائي الذي لا يكتب سوى الروايات التافهة التي يتهافت عليها الجمهور . . وهذا النجاح الزائف أصاب الزوج بالغرور واصاب الزوجة بالشعور بالاحتقار لزوجها فترتبط بهذا الشاذ .

بلا خجل

وقد اثارت مثل هذه العلاقات الكثير من اشمئزاز النقاد ، فمن الواضح ان بالدوين يميل الى الكشف عنها . . ولو أنه لم يناقش الوضع الاجتماعي أو الثقافي الذي صنع مثل هذه النماذج من البشر . . وبالتالى فاننا سنرى الكثير من التضارب بين الحديث الطويل الذي اجرته معه مجلة اكسبريس الفرنسية في شهر اغسطس من عام ١٩٧٢ وبين ما جاء في رواياته . . فبالدوين يرى ان الرواية الجادة تعبر عن واقع الانسان وصراعاته مع المجتمع دون خجل . . فالبشر لا يختلفون في احاسيسهم سواء كانوا من الزنوج او البيض أو الجنس الاصفر . كلهم لهم نفس المشاعر والافكار المتقاربة . . الحب والامل والخوف والرجاء . . والعنف أيضا بالرغم من أن البشر يختلفون فيما بينهم اختلافات بينة . الا أن كلهم لهم نفس المشاعر بصورة أو بأخرى ولذا فهو ينادى باتحاد كل الاجناس في جنس واحد . . وهذه الفكرة تبدو غريبة فلا مانع من تزاوج ابناء الجنس البشري . . الاسود يتزوج من البيضاء . . فالبيض يعتمون أنفسهم وللزنوج « جيتو » خاص بهم . عليهم أن يفهموا عالم الزنجى . . وأن ينسوا انهم كانوا اجراء عندهم . . او هم الذين أتوا بهم من ادغال افريقيا . .

وبالدوين لا يلجأ في اعماله الى الاسلوب المباشر او الخطابي . . وهو يمكن أن يوضع في قائمة الكتاب السود الذين يدافعون عن قضايا ابناء جنسهم . . فاذا كان سيدنى بواتيه الممثل الامريكي الاسود اللامع قد حول البيض في الافلام التى أخرجها الى شخصيات هامشية تعمل أعمالا متواضعة قياسا الى الاعمال التى يمارسها الزنوج فان بالدوين يضع الزنوج في نفس المصاف التى يحتل فيها البيض . ●●

الاسكندرية ـ محمود قاسم

اعداد : مصطفى نبيل

الأدب اللبناني

حسن عيتاني - بيروت

أسطورة « الاشعاع الفكري » في لبنان لا يجهلها أحد .. انها أسطورة نسجها الفرنسيون وتلاميذهم من أبناء الجزويت يوم حاولوا خلق تراث لبناني مستقل عن الشرق والغرب بالاضافة الى مقومات الوطن التي حاولوا خلقها جغرافيا وتاريخيا وقوميا ففشلوا .

هذه الاسطورة ، بنينا عليها غرورنا الفكري ومغالاتنا في تقدير تراثنا الادبي . اذ أننا ، والحمد لله ، خالون من أي تراث علمي يعتد به . أقمنا على أساسها أدبا حاول البعض أن يطبعه بطابع الاقليمية الضيقة ، وهو في الواقع أدب انساني طليق .

لقد توفر « الاشعاع الأدبي » الى حد كبير ، في أدباء المهجر اللذين لم يتسنم لكرهم في لبنان في عهد الانتداب ، فكان أدبهم عربيا انسانيا يستمد أصوله من صميم الحياة ، ومن التراث العربي الخالد . فأي ادب لبناني اقليمي ضيق ، تلمس في مؤلفات جبران ونعيمه والريحاني ؟ وأي نفس شعري لبناني اقليمي نحس بدواوين فوزي شفيق المعلوف وايليا ابو ماضي والشاعر القروي وأديب فرحات وغيرهم ممن نعتز بهم من أدباء المهجر ؟

ان أدبنا العربي في لبنان لا يزال على عتبة الآداب العالمية ، ومن الخير لنا ألا تسيطر علينا نشوة الغرور فتعتبره مصدر اشعاع للشرق والغرب .

ان الاقليمية في الادب اللبناني هي كالاقليمية في الادب المصري والعراقي والسوري ، لا تتعدى بعض المواقف الشعرية التي تصور روائع الطبيعة ، وبعض القصص التي تصور طابع الحياة الاجتماعية الخاص الذي يتميز به كل بلد من البلاد العربية . ولكن هذه الاقليمية في الأدب محدودة النطاق لا تطغى على العنصر البارز في الاتجاه الأدبي ، والدراسات الفكرية المنبثقة عنه .

لا مجال للمقارنة اليوم بين صحافتنا والصحافة المصرية الحديثة التي تكتسح العالم العربي من أقصاه الى أقصاه ، بل لا مجال للموازنة بين انتاجنا الفكري المحدود وبين انتاج مصر الذي يفرض نفسه علينا فرضا ، سواء أكنا متعصبين للبنانيتنا واشعاعنا ، أم متساهلين في نزعتنا ومتخلين عن غرورنا . فأحمد أمين وطه حسين والعقاد ومئات غيرهم من الأدباء والصحفيين المصريين يفرضون انتاجهم على كل عربي مهما كان دينه ولونه وعصبيته ، لأن الأدب الصحيح والفكر النير والدراسة العميقة والاسلوب البليغ واللغة الحية عناصر تفرض نفسها على الفكر ، وتحمله على احترامها واجلالها .

ومع ذلك .. لا نجد في مصر من يتبجح « بالاشعاع » ويتحدث عنه ، ويفاخر به ، ويدعي أنه مركز الثقل ، ونقطة الارتكاز في الشرق والغرب .

نحن لا ننكر فضل اللبنانيين الاول ، منذ مائة عام ، في خلق النهضة العربية الحديثة ، ومساهمتهم الفعالة في ميادين الصحافة العربية والفنون الجميلة والطباعة والتأليف والتعريب .. فهذا مجهود نفتخر به ونعتز .. ولعل المصريين يعترفون اليوم بأنهم يؤدون للبنان بعض ما عليهم نحوه من دين ، وفاء بجميله ، واعترافا بفضله الاول على نهضتهم .. على أن اولئك اللبنانيين الذين نعتز بهم أمثال اليازجيين والبستانيين والشدياق وزيدان والاسير والحداد وغيرهم من رجال النهضة الفكرية العربية ، لم يفكروا يوما ما بهذا التفكير الاقليمي الضيق الذي يفكر به اليوم بعض أحفادهم في النسب والحسب والادب ، بل كانوا يعتزون بخدمتهم للتراث العربي وللغة الضاد الخالدة .

ان الادب اللبناني الحديث لن يتاح له الانتشار والخلود الا اذا تجرد من هذه النزعات الضيقة التي ولدتها له الدعاوى الاجنبية ، والا اذا تحرر من هذا الغرور الذي يكاد يقضي عليه ، وأصبح انتاجا عربيا يستمد عناصره الاولى من التراث العربي الخالد ، ويتلقح بالآداب العالمية الحديثة .

ان أدبنا اللبناني لن يقوى على مسايرة ركب الآداب العالمية الحديثة في الشرق والغرب الا اذا عمل اللبنانيون من جديد بإخلاص ، لتعزيز اللغة العربية في معاهدهم وبيوتهم ، ونشرها في البلاد العربية والاسلامية ، والا اذا هم اعترفوا بأن في التراث العربي الخالد معينا لا ينضب ، عليهم أن يردوه ويستقوا منه ، وأن في الآداب الاجنبية الحديثة كنوزا نفيسة حقيقة بأن تكون غذاء فكريا لنهضتنا الحديثة .

ان المفكرين اللبنانيين الذين يعتقدون بأنهم يخدمون وطنهم ، ويخلدون تراثهم حين يكتبون وينشرون بالفرنسية مخطئون ، لأنهم لن يجدوا في الغرب ولا في الشرق من يقرأهم ، فتذهب جهودهم الفكرية مع الريح ، وهم لو درسوا العربية وتعمقوا بها وكتبوا فيها لكان انتاجهم جديرا بالدرس والتقدير من كل عربي ، ولرفعوا بذلك اسم لبنان في ميدان الأدب ، ولاصبحت اسطورة الاشعاع حقيقة راهنة يعتز بها كل لبناني ».

بوسع لبنان أن يجاري الاقطار العربية التي سبقته في فن القصة والسينما والتمثيل والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة التي تدخل تحت نطاق الادب ، وأن تزاحم بيروت القاهرة في الطباعة والنشر والصحافة ، اذا نحن آمنا من جديد بلغتنا العربية التي كنا منذ مائة عام في طليعة من يعمل على تهذيبها واضعافها في المدارس والمؤسسات والمعاهد الرسمية .

ان أدبنا سينكمش على نفسه اذا ظلت تسوده هذه الأفكار الهدامة : من دعوة الى العامية ، وتعزيز للغات الاجنبية ومساواتها بالعربية . وسيتناسى العالم العربي « اسطورة الاشعاع » التي آمن بها منذ قرن لأنها كانت حقيقة ، وأنكرها اليوم بعد قرن لأنها أصبحت خرافة . . .

كيف نجعل العمر ربيعاً دائماً ؟

خضر منصور : عمان

في السويد ، واليابان ، وبعض البلدان المتقدمة .. يتصل ربيع العمر بخريفه .. ففي اليابان - مثلا - جامعة خاصة توفر للمتقدمين في السن الذين تتراوح أعمارهم بين ٧٠ و ٨٠ عاما كل أسباب الراحة والسعادة !! وتتمثل فلسفة هذه الجامعة في نظرتها الرحيمة الحانية لقطاع عريض من الشعب الياباني الذين أعطوا وطنهم في شبابهم الجهد والعرق ، وأسهموا في حركة البناء والعمران في مختلف الميادين .. كما تتمثل في قناعتها بأن الصراع والقلق والكفاح في هذه السن لابد ان ينتهي ! ويصبح من

حق المواطن المتقدم في السن أن ينعم بالاستقرار والهدوء والراحة اذ توفر الجامعة المذكورة للمواطن الياباني ابن الستين عاما حتى سن المائة عام ويزيد .. السكن المريح ، الذي يشيع منه يسر الحياة ، ورخاؤها - فمطالبه مستجابة - فاذا مرض ، فهناك الطبيب ، والممرضة ، واذا رغب في استقبال الضيوف فالخدمة متوفرة .. واذا سمحت له صحته بالسفر .. فالرحلات السياحية ميسورة .. وان المرء ليشعر وهو يدخل مساكن الشيوخ اليابانيين بدرجة الرقي التي وصل اليها الشعب الياباني .

وللطاعن في السن ، في اليابان ، أن ينقل معه اثاثه الخاص .. الذي يحمل معه ذكريات الشباب الى غرفته الجميلة المنسقة التي تحتوي على مجموعة أزرار كهربائية .. يستطيع بواسطتها أن يلبي جميع مطالبه ، وهكذا اصبح سكن « الشيخ الياباني » يجمع بين دفء البيت ورعاية المستشفى ، ورفاهية الفندق ! وهكذا هي - المدنية الحقة - عندما يتسنى للمواطن المتقدم في السن ، ان ينعم بالرعاية الى آخر يوم في حياته بعيدا عن الالم والمعاناة !!

وعندما كنت في اليابان ، لمست عن قرب مظاهر الثراء - الخرافية - وأرقام الانتاج الخيالية تسعبت برغبة ملحة لمعرفة ماذا تقدم الدولة .. والمجتمع الياباني .. لهذا القطاع المريض من مواطنيها ؟ فهي تقدم لهم كل اسباب الراحة والرخاء بحيث اصبحت حياتهم « ربيعا دائما » .

ولعله من الضروري هنا ان اسجل عدد القطاع المتنامي .. الذي بلغ حتى ست سنوات خلت .. حوالي العشرة ملايين معظمهم من النساء ! فمتوسط العمر للرجل الياباني هو (٧١) عاما و (٧٦) للمرأة .

لقد انضمت اليابان الى مجموعة الدول « المعمرة » كالسويد ، والنرويج ، وتخطت بريطانيا والمانيا وفرنسا وحتى الولايات المتحدة ، وقد كفلت الدولة نظام التأمين الصحي .. والعلاج المجاني .. لكل من يبلغ الستين عاما .

ومما يثير الاعجاب والتقدير أن الدولة قد اعتبرت « اليوم الخامس عشر » من شهر سبتمبر من كل عام عيدا وطنيا يطلق عليه ، يوم تقديم فروض الوفاء والاحترام للوالدين .. والاشقاء .. والشقيقات .. أما المسنون الذين تجاوزت أعمارهم المائة عام فان الدولة تقدم لهم الجوائز الخاصة .. وقد بلغ عدد الذين تجاوزوا سن المائة عام حوالي (١٢٠٠) كهل حتى العام ١٩٧٦ .

وعودة الى جامعة المسنين ، فهي تقع في مدينة « كاكوجاد » وقد انشئت في العام ١٩٦٩ وأول شروط الانتساب اليها ان يكون المنتسب قد بلغ او تجاوز سن الستين عاما .. ومدة الدراسة في هذه الجامعة اربع سنوات ويتضمن منهاجها الثقافة العامة .. والدراسات العلمية .. ومحاضرات في علم النفس .. واتجاهات الاقتصاد الياباني .. والفارق بين الفكر الغربي والفلسفة اليابانية القديمة والحديثة !!

أما البرنامج العملي ، فيتضمن فلاحة البساتين .. وطرق تربية الاسماك .. والطيور وصناعة الأواني الفخارية .. والكثير من الحرف اليدوية الاخرى .. كما يتضمن منهاج الدراسة في هذه الجامعة ، زيارة كافة المواقع والمعالم الاثرية والهامة في اليابان .

هذا ويمكن الالتحاق بهذه الجامعة « عن طريق المراسلة » والدراسة الكاملة (مجانية) ويدرس في هذه الجامعة صفوة من كبار اساتذة الجامعات اليابانية .. وقد يستغرب القارىء ان العجوز الياباني في هذه السن قد قدم مؤلفات نفيسة في التاريخ والادب والسياسة .

ان اهم معنى تنطوي عليه هذه الرعاية هو أن المشاكل النفسية لهذه المرحلة من العمر لا يمكن مواجهتها والتغلب عليها بمجرد تحسين الاحوال والظروف المعيشية !! والرعاية الطبية فحسب بل بتوفير مناهل للعقل والروح والنفس وبتوفير جو الايناس والحيوية والقدرة على العطاء في الابعاد شبه المستحيلة !

اللغة العربية والوافدون !

ممدوح محمد خسارة : نجران

لقد اكبرت وغيري الفكرة الجديدة الطيبة والتي تدعو من خلالها مجلة العربي الى فتح حضاري جديد بعيدا عن السياسة اليومية وحساسياتها وتعقيداتها . ذلك الفتح الحضاري هو نشر اللغة العربية في الأقطار الاسلامية غير العربية . وهذه الدعوة الجريئة تستحق من الدراسة العميقة والاهتمام ما يتناسب وحجم النتائج المرجوة منها .

واني أرى على هامش تلك الدعوة انه يمكن التمهيد لها بخطوة ايسر وربما أكثر الحاحا وهي : « تعليم الوافدين الى البلاد العربية ـ على اختلاف معتقداتهم ـ اللغة العربية » .

فمن المعروف أن بلدان الجزيرة العربية والخليج العربي تستضيف عددا هائلا من الوافدين غير العرب اللذين يسهمون في النهضة العمرانية والاقتصادية السريعة التي تشهدها المنطقة وأن نسبة هؤلاء الوافدين من غير العرب عالية لا يستهان بها حتى ان الزائر العربي لبعض بلدان الخليج قد يجد صعوبة في تأمين لوازمه من خدمات معينة لأن جل العاملين في بعضها ممن لا يعرفون العربية .

واني ارى ان هؤلاء الوافدين قد يكونون وسيلة موفقة من وسائل نشر اللغة العربية وثقافتها في اصقاع عديدة من كوكبنا هذا . وانه لمما يؤسف له أن يعيش هؤلاء الوافدون من غير العرب فيما بيننا سنوات عديدة ثم ينقلبوا الى بلادهم وذويهم يحملون معهم اشياء كثيرة من غربة عمرهم الا لغة هذه البلاد . بل اكاد اجزم ان الكثيرين منهم يعودون حتى دون ان يتعلموا ما يمكنهم من اداء عباداتهم بطريقة سليمة ، ناهيك عن الثقافة العربية الاسلامية ومفاهيمها .

ومن غير المنطقي والحالة هذه أن نعفي أنفسنا من مسؤولية نشر لغتنا بين هؤلاء الذين يعطوننا ـ بتواجدهم فيما بيننا ـ فرصة رائعة لا يجوز اهمالها .

واعتقد ان عوامل كثيرة تعطي الضوء الأخضر على طريق هذا التوجه :

فمعظم هؤلاء الوافدين من غير العرب يقيمون في بلدان الخليج العربية وهي بلاد قادرة ماديا على القيام بهذه المهمة القومية والدينية .

ثم ان الحكومات العربية في هذه البلدان لها الحق بان تطلب حدا ادنى من تعلم اللغة العربية للعاملين فيها من غير العرب اسوة بكثير من البلدان ذات العمالة الاجنبية والتي تشترط حدا معينا من اتقان لغة بلادها لممارسة العمل فيها .

ومما يعطي لهذه الخطوة أهمية بعيدة المدى ان غالبية الوافدين يقيمون سنوات عديدة في البلاد العربية مما

سيرسخ في انفسهم وألسنتهم هذه اللغة على طول الاستعمال والممارسة ثم ان هؤلاء هم ـ على الغالب ـ في مرحلة الشباب ، وذوو اسر في بلادهم مما سيؤثر بشكل او بآخر على تعليم ابنائهم اللغة العربية في مراحل تالية ويهيء المناخ المطلوب لنشر اللغة العربية والمدرسة العربية فيما بعد . لا سيما من كان منهم مسلما وهم الغالبية بين الوافدين .

ومما لا شك فيه ان معرفة اللغة او الالمام بها سوف ينعكس على الطاقة الانتاجية والمردود الاقتصادي للوافد ، والذي قد يقل مردوده الانتاجي ليس لتقصير منه بل لانه يجهل ما هو مطلوب منه بالضبط .

ومما يسهل هذه المهمة ان الكثيرين من بلدان الخليج العربية تنفق بسخاء محمودة عليه لمحو الامية من صفوف ابنائها ، وتفتتح الفصول الليلية بكثرة . ولكن يلاحظ ـ وبالاسف ـ ان هذه الفصول تعمل باقل من الحد الأدنى لعدد الطلاب بل اكاد أقول ان هناك فصولا وهمية في بعض المدارس ليس فيها طالب واحد يداوم بانتظام على دراسته الليلية .

واظن ان تلك الفصول لو الحق بها الوافدون لاعطت النتائج المرجوة منها وبدون جهد اضافي كبير .

لقد عملت بعض البلدان العربية ـ مشكورة ـ على انشاء معاهد لتعليم العربية في بلاد اسلامية او اجنبية . ولكن أليس من الايسر والاولى تعليم هؤلاء المقيمين بين ظهرانينا في وسط عربي يسهل مهمتنا ومهمتهم التعليمية على السواء ربما تكون هذه العوامل وغيرها أوفق لنا لأنها الخطوة الاولى على الدرب الطويل والتي تعتبر تمهيدا مقبولا ومنطلقا لخطوات اوسع واشمل .

ولابد لنا ان نضع في الحسبان الصعوبات الفنية التي قد تقوم امام تعليم غير الناطقين بالعربية كعدم توفر الكتاب المعد خصيصا لهذه الغاية او عدم توفر الطرق التربوية السليمة لهذا النوع من التعليم عندنا . ولكن هذه الصعوبات لا يجوز ان تجهض نوايانا . فبالتجربة والمعاناة والدرس يمكن تذليل كل تلك الصعوبات . وهل نظن ان أجدادنا نشروا لغتهم بين غير العرب من المسلمين وهم متكئون على ارائك من السندس والديباج ؟

وقد لا نعدم من يقول : قبل ان نعلم هؤلاء الوافدين ونزيل اميتهم بالعربية علينا ان نزيل امية مواطنينا اولا .

فنقول بدورنا : ما المانع ان نسير في الخطوتين معا اذا ما اردنا للغتنا الانتشار واذا ما فهمنا ان انتشار اللغة انما هو امتداد حضارة وقيم قبل ان يكون ذيوع الفاظ وتعابير .

وغني عن البيان ان هذا الطرح ليس بديلا عن الدعوة الى نشر اللغة العربية والثقافة العربية في البلاد الاسلامية ذاتها بل هو تمهيد لها وتهيئة للمناخ الذي يسهم في انجاحها .

شهادات للتصدير

د . كاظم ولي أغا ـ فاس

قابلته بالصدفة ، أذكره جيدا ، فقد كان طالبا لي في الدراسات العليا في علم النفس . ولم يستطع لسنوات عديدة ، أن يجتاز امتحان الدبلوم بنجاح . كانت ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه ، والفرح باد على محياه .

سألته عن دراسته ، قال لي : لقد جئت توا من باريس ، وقد سجلت رسالة دبلوم السلك الثالث واخرج رزمة من الاوراق من جيبه تثبت تسجيله .

واستفسرت منه عن الدبلوم المعتمدةالتي تسبق ذلك ، فأظهر لي وثيقة تثبت نجاحه فيها ، وقال لي انه حاز عليها في الصيف الماضي من نفس الكلية هناك ، ولم يحتج لذلك

أكثر من اجراء بحث صغير ومع الأسف كان هذا البحث قد أجراه زميل لنا مع طلابه يدربهم به على العمل الميداني . وهكذا لم يتطلب قبول شهادة صاحبنا سوى نقل هذا البحث التدريبي الى لغتهم هناك .

قلت : وما موضوع بحث الماجستير (دبلوم السلك الثالث) الذي سجله فذكر لي الموضوع . سألته هل قرأت ما كتب عن الموضوع بالعربية وما أجري عليه من بحوث ، قال : لا انما قرأت بعض الكتب الفرنسية قلت وما هي الاجراءات التي اقتضاها التسجيل قال لم يتطلب الامر أكثر من سؤال . هل كتب عن البحث بالفرنسية ولما أجبت بالنفي ، قبل الموضوع .

قلت : وما رأيك ان هذا الموضوع بالذات قد نوقشت به اطروحة دبلوم السلك الثالث في الرباط منذ سنوات . واغنت جانبا منه باحثه اخرى ، نالت به نفس الدبلوم في فاس . فما الجديد الذي ستأتي به وأنت تبحث ذات الموضوع وعلى نفس البيئة ؟ قال : انكم هنا تعقدون الأمور بينما تجري هناك بيسر ، ولقد رأيت عشرات الطلاب جاءوا من أقطار عربية عديدة ، وكانوا قد عانوا من الفشل في جامعاتهم لتصبح امورهم ها هنا على خير مايرام ، لم أستطع السكوت ، حاولت ان أثير فيه همة الباحث وموضوعيته وان افهمه ان الامر ليس بشهادة ينالها ، بقدر ما هي امانة عليه ان يؤديها ، ورسالة علمية عليه ان يعطيها حق قدرها ونصحته ان يقرأ ما كتب عن الموضوع علّه يجد منحى جديدا جديرا بالدراسة يمكنه أن يتابع به بحثه . وودعته وانا مقتنع بأنه سيطرح ما قلته له جانبا ، ليكمل الحصول على شهادته بأيسر السبل ذكرني هذا المشهد بالعديد من الحوادث المماثلة والتي اتهم اصحابها بالسرقات العلمية ، وبالكثير من الوسائل الجامعية العالية التي بقيت باللغات الاجنبية ، ولم تر النور بالعربية ، لان اصحابها آثروا الستر والسلامة ، بل ذكرني بباحثين نالوا شهاداتهم العليا ، من بلاد أجنبية ، لم يعرفوا قط لغة ابنائها .

وبعد :

أردت من ايراد هذه الحادثة أن اثير موضوعا اصبحت له خطورته في عالمنا العربي ، لما له من آثار سلبية ، مادية ومعنوية على ثقافتنا وناشئتنا ، الا وهو الحصول على الشهادات العالية كالماجستير والدكتوراه من دول عديدة ، فيها معاهد وجامعات ، لا تتسم بالجدارة والموضوعية ، تمنح الشهادات بسهولة ويسر . مما يجعلها موضع الشبهة ، ويجعل خريجيها موضع النقد والتشكيك .

أسباب ذلك تحتاج الى بحث وتمحيص ، فقد يكون مدعاة ذلك ضعف الكوادر العلمية المؤهلة لديها وقد يكون الهدف المادي هو المسيطر فيعنى بالكم بدل الكيف ، وقد يكون الهدف الدعائي والتبشيري ، وقد يكون بهدف التخريب ، وذلك باحلال كوادر عاطلة معطلة في ارجاء عالمنا العربي ، يحتلون بسرعة المراكز الادارية والعلمية ، ليعملون على تدني مستواها ، وتدهور اوضاعها لان (فاقد الشيء لا يعطيه) . وبالطبع ثمة جامعات ذات تراث وعراقة ، ولها أنظمة وقوانين صارمة تفرضها على طلابها وخريجيها ، وهذه مستثناة لكن ثمة الكثير ايضا من الكليات والجامعات التي تجهز الشهادات للتصدير ويذهب الصالح بالطالح ، وتتسلق النباتات الطفيلية لتعلو الغرس الجيد ، ولا تلبث أن تأخذ أماكنها ، بعد ان ينسى الناس سيرتها وطريقة تسلقها وسلوكها وتبقى لها درجاتها العلمية تتاجر بها .

لقد طبعنا ودرجنا على الصرامة في التعامل مع طلبة البحث ، لنتعرف على مبلغ جديتهم ، وقدر امكاناتهم ومدى اتباعهم المنهج العلمي في البحث النائي عن الهوى . فطالب البحث ينبغي ان تكون له ارادة البحث والقدرة عليه وأن يكون ذا خلفية عريضة بمجال البحث ، محيطا بما كتب عنه ، عارفا كيفية الحصول على المعلومات من مظانها ومصادرها ، قادرا على تصميم ادواته وتطبيقها ، وفهم نتائجه وتعليلها .

بهذه الصفات يمكن للباحث ان ينجح ، وللبحث ان يستقيم ، فيخلص الى فوائد ، ويحقق أهدافا صالحة للفرد والمجتمع ، وتكون بذلك للشهادة التى حصل عليها مكانتها ، وللحائز عليها نفعه واهميته ، وبخاصة في بلاد نامية تحتاج الى ركائز قوية تدعم بها كيانها ، لا لبنات ضعيفة مفككة توهن عزائمها ، وتهدم أركانها .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »
صدق الله العظيم ■ ■

مواجهة التخلف في الوطن العربي

بقلم الدكتور عبد المالك التميمي

قبل أن نتحدث عن المخرج لأوضاعنا وعلاج مشاكلنا الراهنة ، علينا أن نشخص أسباب الأمراض التي قادت الأمة الى هذا الوضع . واذا استخدمنا منهج التفكير العلمي فاننا نستطيع أن نرصد أسباب التخلف في مجموعة من الأسباب في مقدمتها :

أولا ـ النظرة الى التراث والمعاصرة :

من القضايا المؤثرة في تخلف أمتنا العقلية التقليدية التي تسعى للحفاظ على التراث بخيره وشره ، انطلاقا من الفهم القائل انه لا صلة بين التراث العربي فكريا وحضاريا وبين الوضع المعاصر . ومن وجهة نظرهم ان تطور الأمة يكون ببعث التراث والحفاظ عليه . لا يختلف أحد على أن أولى خطوات التطور تبدأ بدراسة التاريخ بكل ما يحمله من تجارب وفكر ، ولكن العبرة والحكمة والهدف من دراسة ذلك التاريخ ليس للتغني بالأمجاد فحسب ، أو لاجترار أحداث الماضي وفكره ، ولكن الغرض الأساسي للاستفادة من تجارب الماضي بعد تحليلها ومعرفة مسبباتها والنتائج التي انتهت اليها . وعلى مستوى الفكر المطلوب في نظرتنا الى التراث هو غربلته وأخذ الصالح منه ، وملاءمته ومواءمته مع الحياة المعاصرة ، ثم التخطيط للمستقبل والنظر اليه على أنه لا يمكن فصله عن الحاضر والماضي . ان سعي هؤلاء للحفاظ على التراث وعدم المساس به لأنه في نظرهم شيء مقدس يضع العراقيل أمام نقطة الانطلاق للتحرر والتقدم . لم يطلب أحد الغاء التراث لأن ذلك تفكير غير علمي وغير منطقي ، ولكن المطلوب الاستفادة من التراث الجيد واعتماد التفسير العلمي الاجتماعي له بحيث تبرز الى جانب الجوانب الايجابية في التراث الجوانب السلبية كذلك .

ان أصحاب النظرة التقليدية من العاملين في التراث أو الذين أقحموا أنفسهم في دراسته ينتسبون اليه ، فهم ليسوا سوى باعثين للتراث بخيره وشره ونشره اخباريا لا بل تلطيف بعض سلبياته أو المرور عليها مر الكرام أو حتى اغفالها دون إعطائها حقها من التأمل والدراسة والنقد حتى نستفيد منها في حاضرنا ومستقبلنا . كما ان البعض من المهتمين بالتراث يكتبون وينشرون دون هدف واضح حيث يصرفون اهتماما عظيما لجزئيات وقضايا عادية دون ربطها بالقضية الاجتماعية وبالسياق العام للحياة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا في وقتها السابق ولا يربطونها بواقعنا الحاضر للاستفادة منها . ان التاريخ علم المتغيرات وهو علم وثقافة وليس نشرة اخبارية تعرف الناس بما كان يجري في الماضي ، لذا فالتراث هو من صلب هذا التاريخ الذي لا يجب أن ينظر اليه بقداسة تعزله عن مجريات الأحداث التاريخية ، والتأثيرات الانسانية . ان هذه النظرة الى التراث يتشربها الناشئة اليوم في المدارس على مختلف مراحلها دون معالجة علمية تحليلية تستفيد من ايجابياته ولا تضفي عليه القداسة المطلقة .

ثانيا ـ التعليم في الوطن العربي :

دخل التعليم الحديث الى الوطن العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر وكان تعليما غربيا ، لأن التعليم الحديث أساسا غربي ولأن الوطن العربي كان يخضع للسيطرة

العربية . وبدأ التعليم في الاقطار العربية ينتشر في الفترة الاستعمارية وسط ما يسمى بأبناء النخبة من أبناء العائلات الميسورة أو أولئك الذين كانوا قريبين من السلطات أو المستفيدين من تلك الأوضاع ، ثم بدأ ينتشر ببطء شديد بين عامة الناس ولكنه على أي حال كان محدودا جدا حيث بقي أغلب الناس ـ خاصة في الريف والبادية ـ بعيدين عن التعليم تسود الأمية حياتهم ولم يكن ليخلو ذلك التعليم من التأثير الثقافي الغربي الامبريالي الذي كان يتسلل بطريق مباشر أو غير مباشر الى فكر الناشئة في أقطارنا العربية . وكانت مرحلة استعمارية لها ظروفها ومبرراتها ، وبعد أن انتهت تلك المرحلة استبشر الناس خيرا بعهد الاستقلال الوطني في الأقطار العربية حيث ان شعبنا العربي أصبح يملك ارادته في بناء التعليم وتوجيهه وطنيا وبما يخدم الأمة في حاضرها ومستقبلها . ولكن هذا الطموح اصطدم بمعوقات قد تكون أخطر وأصعب من تلك التي كانت سائدة في الفترة الاستعمارية . فالوجود الاستعماري لم يكن وجودا عسكريا فحسب ،رحل عن هذه الأرض وانتهت علاقته بها ، فأصبح الأمر بيد أبنائها ليقرروا مصيرها ، بل ان الوجود الاستعماري كان وجودا عسكريا واقتصاديا وثقافيا .

وعندما رحل الاستعمار عسكريا استمر وجوده الاقتصادي والثقافي لأنه لم يكن ليرحل لو لم يزرع بذور تأثيره والحفاظ على مصالحه الحيوية في وطننا العربي . وفي عهد الاستقلال السياسي استمرت التبعية بأشكالها المختلفة الاقتصادية والثقافية والسياسية ونتج عن ذلك استمرار التأثير في المجال التعليمي والتربوي وهو أخطر المجالات .

ان البعض قد لا يرى ذلك التأثير مباشرا وواضحا ولكننا نراه في المناهج التعليمية وفي ثقافتنا العامة وفي ادارتنا التربوية وفي عقول بعض القائمين على التربية والتعليم في بعض بلداننا العربية ، لذا فقد أفرغ التعليم من محتواه أو بذلت جهود كبيرة لئلا يكون له محتوى يحقق التنمية الحقيقية والوحدة لهذا المجتمع العربي من محيطه الى خليجه . من هنا تحول التعليم من الاهتمام بالنوع والعلم والتدريب وتوفير الكفاءات الجيدة لقطاعات الحياة المختلفة في مجتمعاتنا ... تحول الى كم يوفر أعدادا من الموظفين حملة الشهادات لتكون مصدرا للرزق والعيش عن طريق الوظيفة وليس طريقا للتنمية يستهدف عقل الناشئة علما وثقافة .

ثالثا ـ القضية الفكرية اجتماعيا واقتصاديا :

ان القضية التي يجب أن تكون محور العمل الوطني العربي هي القضية الاجتماعية والاقتصادية والتي يجب أن تحوز اهتمامات المجتمع والمثقفين خاصة . ان عدم الوضوح الفكري لدى بعض المثقفين العرب والضبابية في الكثير من اطروحاتهم ، جعلت الوعي السياسي متأرجحا وغير ناضج ، ان أية قضية لأي مجتمع يجب أن تقودها فكرة واضحة تتكتل وتتكاتف كل الجهود الجادة لبلورتها ووضوحها وتعبئة الناس معها وخلفها لتأخذ طريقها الى التطبيق العملي .

ان الذين يطرحون بعض المقولات التي تحاول تأجيل القضية الاجتماعية والاقتصادية مثلا بحجة ان الظرف غير مناسب وان الوقت ليس وقت تلك القضية ، هؤلاء ينفعلون بأحداث اليوم والتي هي نتاج عدم الوضوح الفكري . ان أزمتنا التي قادت الى هزيمتنا الحضارية هي أننا لا نعرف بالتحديد ماذا نريد ؟ وانناتخلط بين التكتيك والاستراتيجية وبين المرحلية والهدف النهائي ، ان أية أمة ناهضة يجب أن تتوفر لنهوضها ، متطلبات أساسية : القوة البشرية المنظمة في مؤسسات ديمقراطية ، الموقع الاستراتيجي ، الامكانيات المادية والوضوح الفكري لقواها الوطنية ، ان حالة التراخي والاسترخاء التي نعيشها ، ليست حالة اختيارية بحتة ولا هي من صنع غيرنا كلية ، اننا لم نكن لنصل الى هذه الحالة لولا أن الظروف كانت مهيأة لذلك .

ان هزيمة ١٩٦٧ ليست هي أولى هزائمنا ولا هي آخرها ، ولكنها تمتاز بأنها نقطة تحول هامة استطاعت الامبريالية العالمية ترويض العقل العربي لقبول سياساته أو على الأقل قتل الروح الوطنية واطفاء شعلة الحماس في نفسه .

ان البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لأقطارنا العربية هشة ، وان مجتمعاتنا مجتمعات تسودها الفردية والدكتاتورية وليست مجتمعات تسود فيها المؤسسات والمناخ الديمقراطي ، وقد يرجع البعض هذه الحالة الى

دور الأنظمة في ذلك ، فان الانظمة لم تكن تستطيع أن تلعب ذلك الدور اذا لم تكن الأوضاع المؤسسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية تسمح بذلك . لا بد لأي عمل من دليل نظري يقوده ويوجهه ومأساتنا في الوطن العربي أن بعض الأحزاب العربية التي تصدرت العمل الوطني تخبطت في فكرها وممارستها دون أن تتمكن من قيادة شعوبها الى التحرر السياسي والاجتماعي فهي إما ناقلة لأيديولوجيات الغير دون ملاءمتها للواقع الموضوعي في الوطن العربي ، وإما محلقة في طموحاتها لتحقيق جمهورية افلاطون دون فهم للواقع وكيفية التعامل معه .

التبعية الكاملة للامبريالية العالمية :

لقد كان الوطن العربي يخضع عسكريا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا للاستعمار ، وقد حصلت أقطاره على استقلالها السياسي منذ عدة عقود ، ولكنها لم تحقق الانعتاق من الامبريالية ولم تتمكن من فك الارتباط معها ، وقد حققت تلك السيطرة هدفها بفرض التبعية على وطننا العربي ، فأصبحت أقطارنا سوقا لمنتجاته المصنعة ، ومصدرا أساسيا للمواد الخام لصناعاته ومرتعا ، لفكره وثقافته .

يقول الدكتور مصطفى حجازي في كتابه « التخلف الاجتماعي » يؤدي طغيان انتاج المواد الأولية للتصدير واستيراد المواد الاستهلاكية وما ينتج عنه من تضخم لقطاع الخدمات والتجارة الى تشوه تبعية للاقتصاد الخارجي ينتج عن هذه التبعية إفقار تدريجي للبلد من خلال استنزاف المواد الاولية ، ورخص أسعارها من ناحية ، والاحتفاظ بأثمانها كتوظيفات مالية في البلد الخارجي أو استرداد هذه الأموال كثمن للمواد المصنعة الاستهلاكية ، التي يصدرها البلد المتقدم بأسعار عالية . ثم هناك ظاهرة استنزاف رؤوس أموال البلدان النامية من خلال بيع الأسلحة لها والتي أصبحت أكبر سوق لنهب ثروات العالم الثالث بعد أن تفجرت فيه الصراعات الداخلية والاقليمية .

ان التخلف أحد المظاهر الأساسية التي سعت القوى الاستعمارية للحفاظ عليه وتنميته في بلدان العالم الثالث لأنه في النهاية يخدم مصالح تلك القوى

لأننا نستورد كل حاجاتنا مصنعة من الدول الغربية دون تصنيعها في بلادنا ، اننا نشتري السلاح ونكدسه ولا نستخدمه لقضايانا الوطنية والقومية المصيرية ، فقط لنقدم الأموال ثمنا له للدول الصناعية ولنجعل مصانعها تعمل وتصدر باستمرار فاما أن نكدسها واما أن نفتعل الحروب الاقليمية لاحراقها واستهلاكها ، وهي على أية حال أسلحة قديمة وليست متطورة لا بد من التخلص منها .

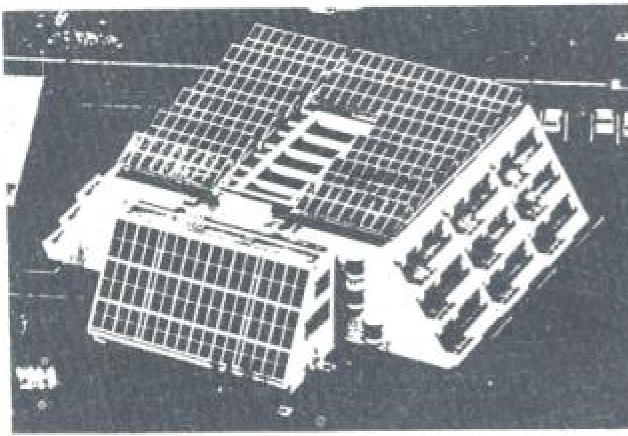
ان قوى التخلف تحاول الابقاء على الوضع الراهن في الوطن العربي لا بل تسعى كما أسلفنا الى تنمية التخلف فيه لأن في ذلك بقاء لها وحفاظا على مصالحها .

وهذا الوضع الراهن دون شك يتيح للاستعمار فرصة الاستنزاف الحقيقي لثروتنا وطاقتنا ، تمهيدا لذلك اعلامه وثقافته . ان وطننا يتعرض لغزو ثقافي مركز ومخطط ، فاعلامنا غربي مائة بالمائة تقريبا لا نملك حتى الآن ثقافة مستقلة نابعة من واقعنا وتستهدف تطور أمتنا وتتبنى القضية الاجتماعية لشعبنا ، لذلك كله يعيش انساننا العربي اغترابا واستلابا ، أديا الى هدم الأسس الفكرية والقيمية لديه بحيث أصبح لا يشعر بقوة الانتماء وغير قادر على الفعل والعطاء ايجابيا في أوضاع أمته . ان الاغتراب والاستلاب اللذين نعيشهما هما نتاج جهود بذلتها قوى التخلف بكل امكانياتها لتنميته لأنها لا تستطيع أن تعيش وتتسلط وتستفيد دون الحفاظ على الوضع المتخلف وتنميته بأساليب وصيغ مختلفة مباشرة وغير مباشرة مرئية أو غير مرئية . ان هدم قوى التخلف وقيام النهضة الحقيقية لهذه الأمة يتطلب معرفة مصادر القوة لتلك القوى وليس مصادر ضعفها فقط واعتماد التفكير العلمي في مواجهتها ، وهذا لا يتأتى الا ببناء القوى الاجتماعية في وطننا العربي متسلحة بوعي سياسي ووعي اجتماعي .

ان التخلف في الوطن العربي يخطط له وينمو باستمرار فهل حان الوقت المناسب لقوى التقدم لتخطط وتحدث التنمية والتطور الحقيقي في واقع هذه الأمة ؟ ان الأمر مرهون بوعي سياسي يعي أهمية القضية الاجتماعية من جهة ومدى الجدية والجذرية فيما يطرحه ويطبقه لتحقيق أهداف الأمة في التغيير الاجتماعي والبناء الحقيقي ■■

د . عبد المالك التميمي
قسم التاريخ - جامعة الكويت

اعـداد : يـوسف زعبلاوي



الطاقة الشمسية وقرب استغلالها على نطاق واسع

منذ زمن والعقبة الرئيسية التي تعترض سبيل استغلال الطاقة الشمسية على نطاق واسع هي عقبة تكاليف .. فالخلايا او البطاريات الشمسيه Solar Cells ، وهي التي تستطيع تحويل ضوء الشمس الى طاقة كهربائية ، تلقائيا وعلى نحو مباشر ، والتي بدت للكثيرين الطريقة المثلى لاستغلال الطاقة البديل .. كانت دائما باهظة التكاليف .. والظاهر ان العلم بدأ يتغلب على هذه العقبة كما يقول مهندسو جامعةدلاوير في نيويورك على الاقل .. اذ يؤكد هؤلاء المهندسون العاملون في قسم او معهد تحويل الطاقة التابع للجامعة المذكورة ان الاداة او الطريقة التي نجحوا في تطويرها على مر السنوات الثلاث الماضية كفيلة بالحد كثيرا من تكاليف صنع الخلايا او البطاريات الشمسية التي ذكرنا .. ولاسر في الامر ولا اعجاز .. فكل مافعله اولئك المهندسون لايعدو التطبيق .. تطبيق اداة او طريقة مألوفة ومستعملة في صناعات مختلفة على صنع الخلية او البطارية الشمسية .. وليست تلك الاداة الا مرشا او بخاخا ، دقيق المسامات ، ويستطيع بخ المادة التي في داخله بمقادير ضئيلة للغاية ، او ان شئت ، ذرهـا ذرات كالغاز او البخار ..

وغني عن البيان ان الخلايا والبطاريات الشمسية انما تعتمد اعتمادا كبيرا ، ان لم نقل كليا ، على المادة التي تحول ضوء الشمس الى طاقة كهربائية بحكم طبيعتها .. وهي احدى المواد ، شبه الموصلة Semicoductor مثل Cadium sulfide

وهي ايضا سر الغلاء الفاحش .. وقد درجوا في السابق على صنع الخلايا الشمسية من هذه المادة او من السليكون بنسبة ١٠٠٪ ، ثم عمدوا الى

على مادة اخرى رخيصة بهذه المادة الغالية .. فحدوا بذلك من تكاليف صنع الخلية الشمسية كثيرا ..
ومع ذلك فالتكاليف المذكورة بقيت مرتفعة جدا ..

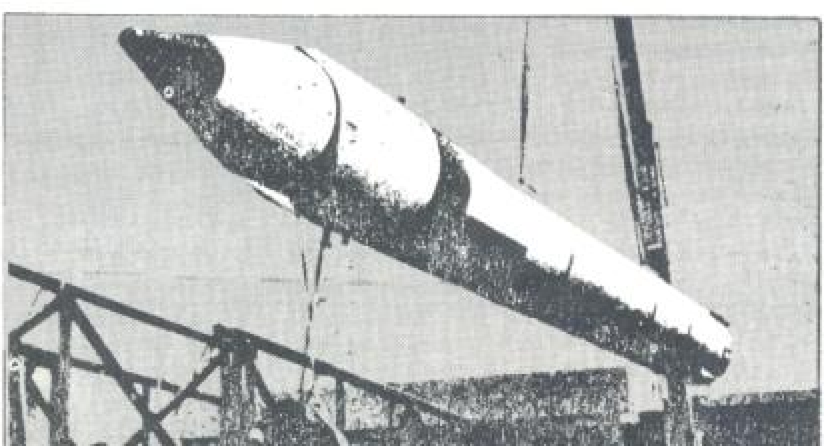
اما الطريقة الجديدة فيسخن بموجبها الكادميوم سلفايد الى ١١٠٠ درجة مئوية .. حتى يتبخر .. ثم يبخ بواسطة البخاخ السالف الذكر ، على سطح مادة اخرى رخيصة الثمن ورقيقة ولدنة سواء من الصفيح او البلاستيك او غير ذلك .. ولما كان نصيب هذا السطح من المادة الغالية الثمن غشاء رقيقا للغاية .. كان من الطبيعي ان تنخفض تكاليف صنع الخلية الشمسية انخفاضا كبيرا .. بحيث تصبح $\frac{1}{5}$ او حتى $\frac{1}{10}$ تكاليف الخلايا الشمسية التي كانوا ـ ومازالوا ـ يصنعونها من السليكون ..

صناعة الصواريخ واطلاقها لم تعد وقفا على الحكومات

● ترى ، هل في استطاعة الافراد او الشركات صنع الصواريخ واطلاقها الى الفضاء .... ساد الاعتقاد حتى الآن بأن ذلك غير ممكن لغير الحكومات ، وذلك نظرا للتكاليف الباهظة التي تتطلبها صناعة الصواريخ .. ناهيك بعملية اطلاقها .. اذ لا تقل تلك التكاليف عن بضع مئات من ملايين الدولارات .

وحسبك ان وكالة الفضاء الامريكية (نازا ـ Nasa) تتقاضى ٢٨ مليون دولار مقابل عملية الاطلاق فقط .. اطلاق قمر صناعي لصالح دولة اخرى او شركة من الشركات لتتخذ له مدارا ثابتا في الفضاء .

الا ان جاري هدسون (Gary Hudson) يحاول اثبات العكس .. فقد اقنع احد اصحاب الملايين دافيد حنا (David Hanna) من ابناء تكساس بقدرته على صنع صواريخ رخيصة بخامات ومواد اولية توجد في كل منزل وكل مطبخ . وكذلك على اطلاق تلك الصواريخ وغيرها بتكاليف زهيدة . وهكذا انشئت شركة باسم (خدمات الفضاء Space Services Lnc



ويجري العمل في صنع الصاروخ الاول في بلدة سا نفيل في كليفورنيا . . وقد بلغ عدد المهندسين الذين يشاركون في اعمال تطوير هذا الصاروخ ١٧ مهندسا ، كان بعضهم يعمل في وكالة (ناسا) سابقا . اما تكاليف اعمال التطوير هذه فستبلغ ٢٠ مليون او ٣٠ مليون دولار . . . .

ولا يخفى ان هذه تكاليف تأسيسية وستنقص بنسبة كبيرة فيما يتصل بالصواريخ التي ستعمد الى صنعها الشركة بعد الصاروخ الاول . . وقد اختارت الشركة لصاروخها اسم (برشرون) Percheron وهو اسم حصان فرنسي معروف .

اما قاعدة الاطلاق فستكون في جزيرة ماتاجوردا (Motagorda) الواقعة على بعد ٥٠ ميلا من كوربس كريستي في تكساس . . وكانت هذه الجزيرة من المواقع الاولى التي فكرت وكالة الفضاء في استعمالها لاطلاق الصواريخ . . ثم عدلت عنها .

ولن تتقاضى شركة خدمات الفضاء سوى ١٥ مليون دولار وذلك ايجار مقابل اطلاق قمر صناعي واحد الى ارتفاع ٢٢,٣٠٠ ميل حيث يتخذ القمر لنفسه مدارا ثابتا حول الارض . . ولن يزيد الايجار على ٥ ملايين دولار اذا كان الارتفاع المطلوب دون ذلك وكان القصد من القمر الصناعي التنقيب في باطن الارض عن البترول او الغاز او غير ذلك .

الفيديو

وعلاقته بمرض التهاب المفاصل

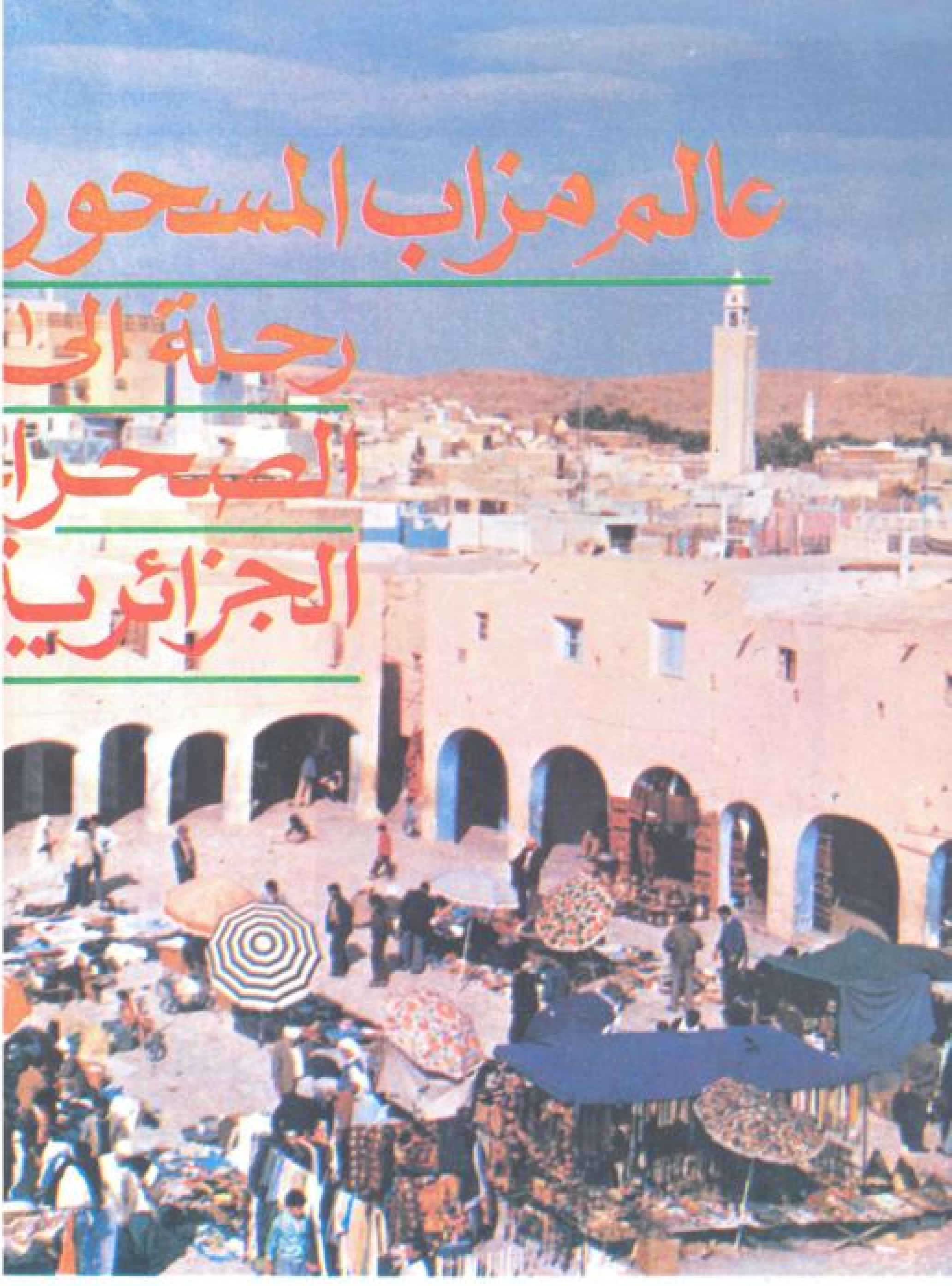
● نشر في واشنطن ، في حوالي منتصف شهر يونية الماضي ، بحث طبي بالغ الخطورة . . . . ولا يخلو من طرافه . . . وشهدت العاصمة الامريكية ايضا ـ وفي الوقت نفسه ـ اجتماعا عقده عدد من الاطباء العلماء ليتلى عليهم ذلك البحث . . . ويناقشوا النتائج التي توصل اليها ، تبعا للتجارب والدارسات العديدة التي اجريت في سبيله والتي اجراها نفر من الاطباء الباحثين ، بقيادة الدكتور جاري مايرسون Gary E. Myerson ، احد كبار الاساتذة في كلية الطب في جامعة اموري Emory في مدينة اطلانطا بولاية جورجيا .

أما موضوع البحث والتجارب فهو لعبة الفيديو ، Video — Game والاضرار الخطيرة التي تسببها للاعبيها المدمنين عليها . . وبخاصة مرض التهاب المفاصل Arthritis . ويقول كبير الباحثين في ذلك : « لعل من المؤكد ان هواة لعبة الفيديو باتوا معرضين للالتهابات المزمنة . . . لا في مفاصل أيديهم فحسب وانما في اكتافهم ايضا . . . . »

أما التجارب فقد شملت ١٤٢ لاعبا . . . وأثبتت ان ٦٥منهم أصيبوا بمرض التهاب المفاصل وبآفات صحية اخرى ، ويعزى ذلك ، كما قال الدكتور مايرسون في مؤتمره الصحفي ، الى الرتابة والتكرار في اداء الحركات التي تتطلبها اللعبة . . . لاسيما الضغط على الازرار . . . . وذلك على مدى الساعات التي يقضيها الشباب في الاستمتاع بتلك اللعبة . . . » ويشعر الدكتور مايرسون ورفاقه الباحثون بالحاجة الى اجراء المزيد من التجارب والأبحاث في هذا الاتجاه . . . نظرا لخطورة الموضوع .

عالم مزاب المسحور

رحلة الى الصحرا الجزائري

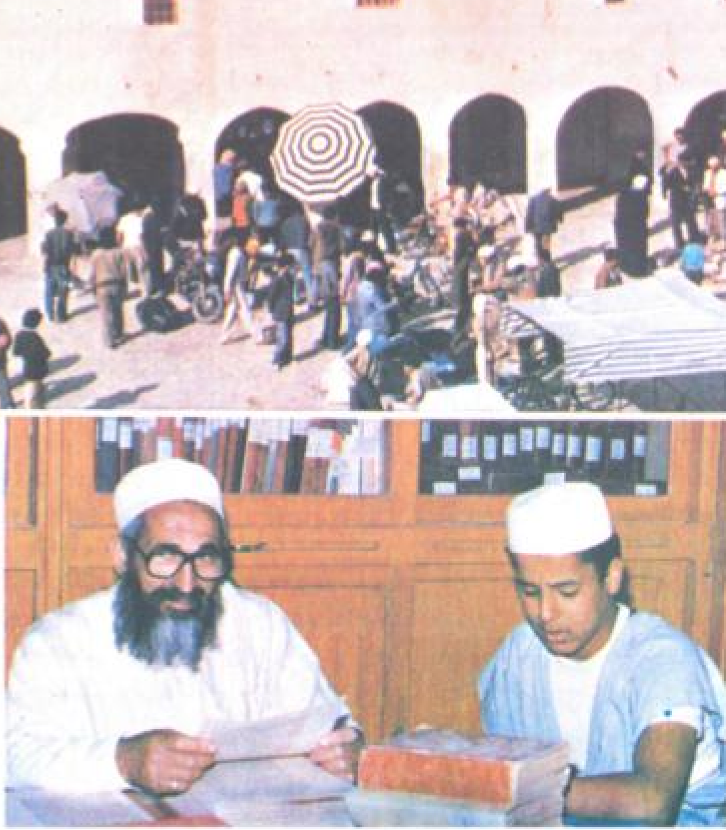


سوق غاردايه ، وتظهر خلفه مدينة غاردايه . والقراءة في مكتبة الطفيش ، بعد ان اصبحت مزاب الوحيدة التي لا تجد فيها أمّيا لايقرأ ولا يكتب .



استطلاع : مصطفى نبيل

تصوير : أوسكار متري



عندما تعثر فجأة على قطعة من التاريخ الحي ، لا تملك سوى أن تحتفي بها وتتأملها ، وخاصة اذا كانت مثل مدن وادي مزاب في قلب الصحراء الجزائرية ، عندما ترى نظاما اجتماعيا دقيقا ، وتشاهد الأهالي بلحاهم الطويلة ، وتقاليدهم وعاداتهم السائدة ، وترى طراز عمارتهم وتخطيط مدنهم ، فكأنك تطل على القرن الخامس الهجري . . وما أشد ما تغري على التجوال والبحث والتقصي . . . .

قادني الى هذه الجولة كلمات قرأتها للكاتب الفرنسي شارل جوليان في كتابه حول تاريخ شمال أفريقيا . . تقول . . « اعترض الحكم العربي في المغرب تحد من خلال الاسلام ، عندما انحاز البربر في القرنين الثامن والتاسع الى شقاق يهدف الى المساواة ، ويدعو الى اختيار الخليفة من جموع المسلمين بصرف النظر عن أي ميزة عرقية ، ودامت الثورة ما يزيد عن قرنين ، ولم يتم التغلب عليها سوى بعد عام ٣٧٥ هـ ، عندما تشتت البقية الباقية منهم في صحراء الجزائر وتونس بعد انهيار مملكة تاهرت سنة ٩٠٩ م .

وبقي اليوم أحفادهم يعيشون جماعة منكمشة مغلقة في جزيرة جربه وفي ورقله وخاصة في مزاب التي تقوم فيها مدن غاردايه ومليكة وبني يزقن الطاهرة ذات الصوامع العارية من كل زخرف » .

وكانت هذه الكلمات بداية رحلة ذهنية بين الكتب قادت الى جولة وادي مزاب ، تبينت خلالها مدى اقتراب كلمات الكاتب الفرنسي من الحقيقة ، وقمت برحلة شيقة مليئة بالفن والسحر والتاريخ ، شاهدت خلالها عالما بأكمله من التاريخ الحي .

لم يكن الوصول الى وادي مزاب سهلا ، بل يشبه سباق تخطي الحواجز ، وانتهت متاعبنا لدى وصولنا الى مطار غاردايه الذي يبعد عن العاصمة بنحو ٦٠٠ كيلو متر في قلب الصحراء ، وفي الطريق من المطار الى البلد ومنذ الخطوات الأولى من رحلتنا ، أخذنا تماما بالمكان وما يحمله من ايحاءات جمالية وتاريخية .

يمتد أمامك وادي مزاب ، ، وترى صورة بانورامية للوادي ومدنه القائمة فوق التلال يحيط بها اللون الاخضر لأشجار النخيل في خلفية المكان على امتداد الوادي ، تظهر بوضوح ثلاث مدن فوق ثلاثة تلال ، أقيمت بنظام دقيق ، في أعلى قمة التل يقوم الجامع بصومعته المربعة ذات الطراز الخاص - أي المنارة كما يطلق عليها في المغرب العربي - ، وهي على نفس طراز أقدم المساجد التي بقيت على حالها في الجزيرة العربية ، وهو مسجد سيدنا عمر في منطقة الجوف ، تتحلق حول الجامع بيوت الأهالي ، كل حلقة بارتفاع واحد وطراز معماري خاص ، والعمارة هنا أكثر ما تكون شبها بعمارة شبام وسيئون في حضرموت باليمن الديمقراطية ، ويغلب على المدينة المزابية اللونان الأزرق والأبيض ، وعندما تصل المدينة الى نهاية التل يحيطها سور من حوله الأبراج على مسافات متساوية .

وأمام هذا المشهد أتذكر فجأة آلة الزمن تلك الحيلة التي ابتكرها خيال السينمائيين ، والتي تعود بالمشاهد الى أي مرحلة من مراحل التاريخ تنقل أحداثه ومشاهده ، لا يفوتها طراز المباني ولا نوع الأزياء ومظاهر الحياة وطعمها الخاص ، فهنا يمكن الاستغناء عنها جميعا عندما تشاهد التاريخ مجسدا أمامك بكل تفاصيله .

وقد ساهم في اقامة هذا الوادي ومدنه كل من العقيدة والبيئة والتاريخ . . . ففي هذا المكان البعيد عن العمران ، والذي يقع بين جبال جرداء صخرية ، تكونت على مر الايام هذه المدن في بطء وصبر ، وهي تبدو من بعيد وكأنها خلية نحل في التنسيق والنظام والدقة .

ويبعد هذا الوادي عن المعمور حوالي ٣٠٠ كيلو متر - أي عن الأغواط أقرب المدن اليه - ، ويقطنه ١٠٠٠٠٠ ألف نسمة ، وساهمت عزلته هذه في تكوين طابعه الخاص ، فالوديان في الصحراء مثل الجزر في البحار كثيرا ما تضم وتحافظ على بقايا التاريخ الحي ، وساهمت حالة التوجس والخوف التي عاشها هذا المجتمع في الايغال بالتمسك بالماضي ، مما أمده بهذه الطاقة التاريخية على الدوام والاستمرار ، وشحذ الذاكرة التاريخية لأهل مزاب وجعلها حادة واضحة . . . .



خريطة للجزائر تبين
وضع مزاب .

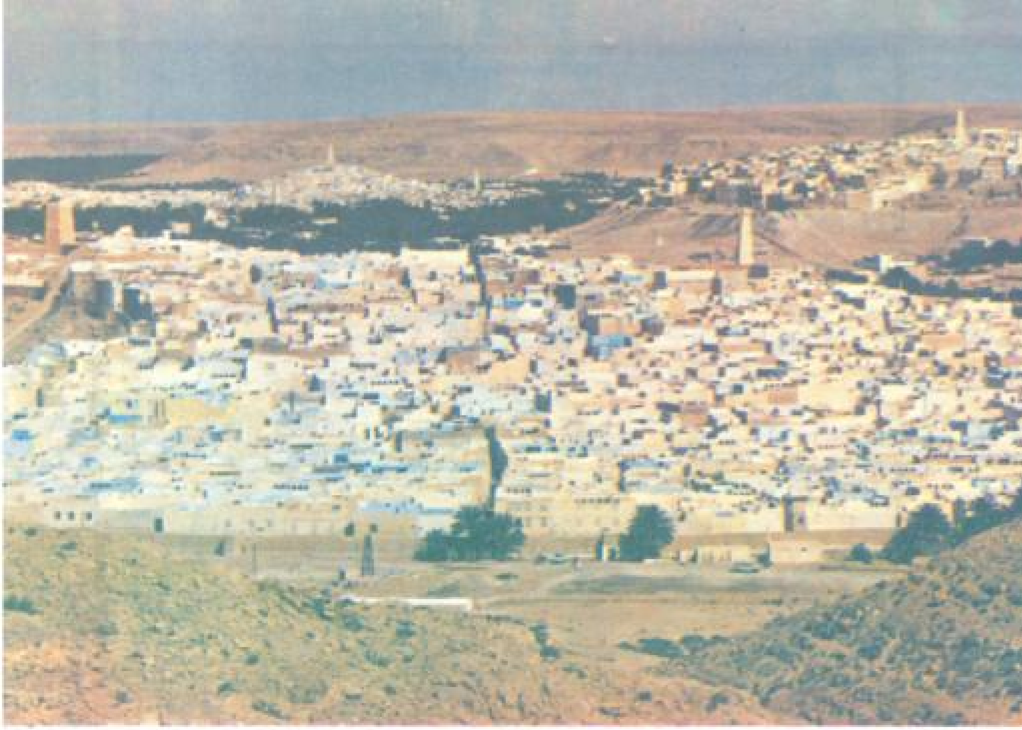
الفصل والاتصال

جاءت اقامتنا في غاردايه في فندق يطلق عليه اسم « الرستميون » ، أقيم على الطراز العربي وصممه أحد المعماريين الفرنسيين مكان قلعة فرنسية قديمة كانت تحتل موقعا استراتيجيا ، وتشرف على غاردايه ، عاصمة المزاب ، وأكثر مدنه تقبلا للتغيير ، وبقدر ما فتحت غاردايه أبوابها للغرباء ، بقيت المدن المزابية الاخرى موصدة الأبواب ، وكأن غاردايه قد اختارت أن تدفع الضريبة عنهم ، فاتسعت وتمددت خارج الأسوار ، وشهدت محلات حديثة وبنوكا ومكاتب حكومية وفنادق ، وبها مقر حزب جبهة التحرير (الحزب الحاكم) ، ويسكنها رجال الادارة والعاملون في كل المشاريع الجديدة .

يزدحم الفندق بالسياح ، وأغلبهم من الفرنسيين ، يتوقفون في غاردايه أهم محطاتهم في الطريق الذي يصل من العاصمة الى تمنراست بلد جبال الحجار (الهوكار) والطوارق (٢٠٠٠ كيلو متر) ، عندما يسلكون الطريق الوطني رقم ١ ، أو طريق الوحدة الافريقية ـ أهم مشاريع الجزائر والذي بدأ عام ٧٣ وينتظر أن يكتمل خلال عام واحد ـ وهو يحول الصحراء من نقطة فصل الى نقطة اتصال مع الدول الافريقية جنوب الصحراء .

وما زالت الصحراء الجزائرية أهم التحديات التي واجهت الجزائر ، فاستهدف المستعمر الفرنسي فصل الصحراء التي تبلغ مساحتها أربعة ملايين ونصف مليون كيلو متر مربع والتي يسكنها عدد قليل من السكان المبعثرين في واحات متباعدة ، وخضعت الصحراء لادارة الجيش الفرنسي مباشرة ، وجعل لها وضعا قانونيا خاصا ، بل وأجرت فرنسا تجاربها النووية فيها ، أما منطقة الساحل التي تمثل عشر مساحة الجزائر فقد سكنها المستوطنون الفرنسيون (الكولون) واستأثرت بكل المشاريع الفرنسية .

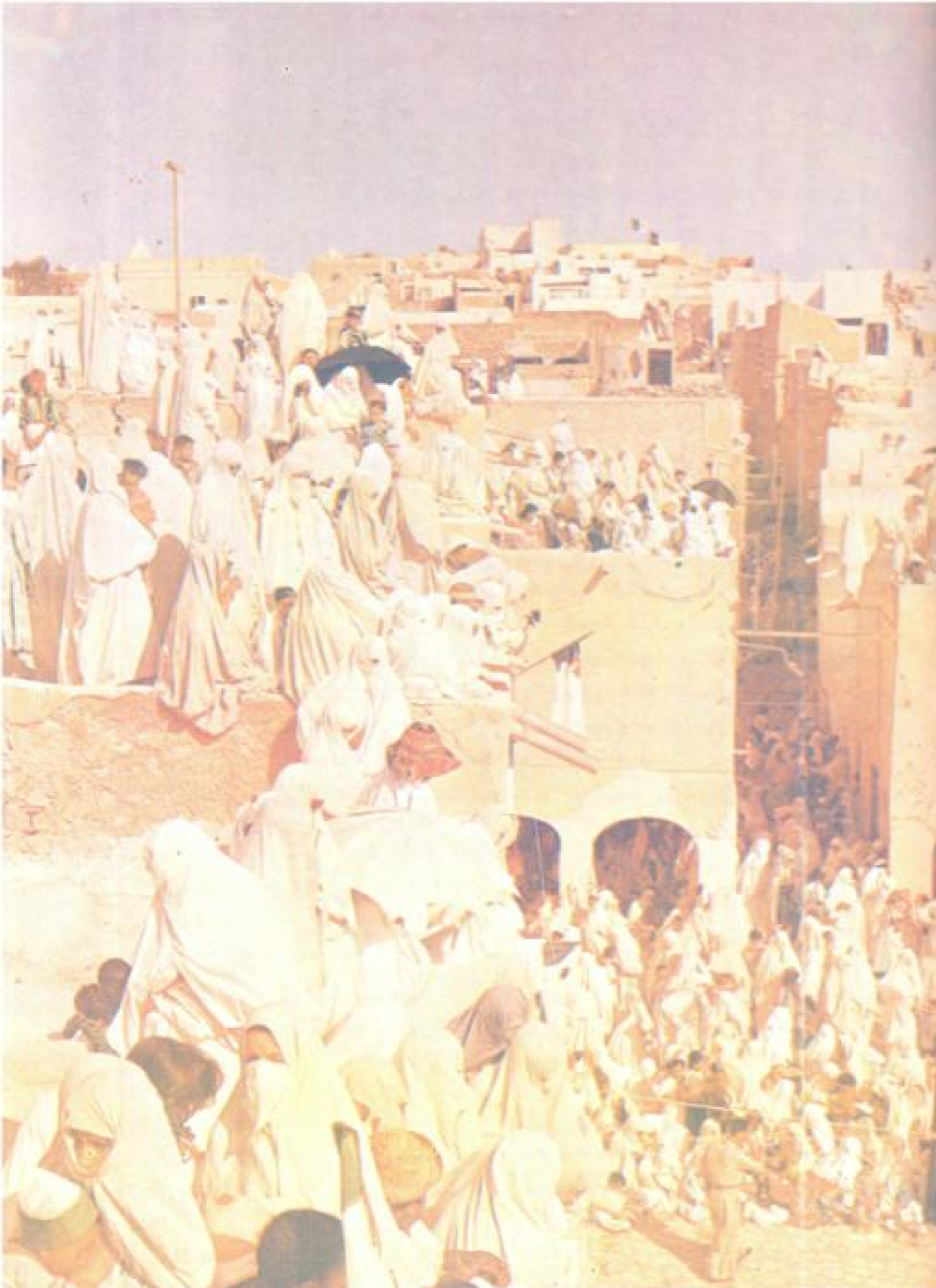
وكان الطريق الذي يقطع الصحراء هو الرد الوطني على فصل الصحراء ، ويصل هذا الطريق الى كل من النيجر ومالي على شكل حرف (Y) مقلوبة ، ويعيد طريق القوافل القديم الى « تمبكتو » ويساهم من جديد في



ثلاث مدن في وادي مزاب فوق ثلاثة تلال ، ويظهر السور الذي يحيط بالمدينة الأولى .

لوحة من الفن التشكيلي لبعض شواهد القبور .





النساء المزابيات في السوق !

نقل البضائع والافكار ، ويقدم لكل من التجر ومالي طريقا الى البحار المفتوحة وخاصة أنه ليس لأي منهما مرافىء .

وبالفعل ساهم ما أنجز من الطريق في اقامة العديد من المشاريع الصناعية الهامة ، كما وضعت الخطط لتوطين البدو وقيام حياة جديدة في الصحراء .

يتحدث السياح في الفندق بشاعرية عن الصحراء ، قال رجل فرنسي في خريف العمر : « تبحث في الصحراء عنها في داخلك ، فهي لا تكشف أسرارها لكل من يرتادها ، بل ولا كنوزها ولاأعاجيبها » . وقالت فتاة رشيقة تصحبه .. « ما أجمل ليل الصحراء ، فالسماء والقمر والنجوم لها طابع وميزة لا تراها على هذه الصورة في أي مكان من العالم » .

وعاد الرجل يصف لحظة وصوله الى الوادي قائلا : « فجأة تظهر الواحة بلونها الاخضر مع خيوط أشعة الشمس الذهبية ، وكلما اقتربنا وظهرت تفاصيل أكثر ، رأينا المدن المزابية وكأنها مدن تاريخية مسحورة في إحدى روايات ألف ليلة وليلة » ، ويستطرد قائلا : « ان الرحلة التي تقطعها السيارة تستغرق أسبوعين من العاصمة حتى تمراست تمثل خلالها الواحة لحظة الوصول الى الحياة ، والاتصال بالعالم الخارجي وهي في هذا تشبه مكاتب التلغراف التي تصلك بالعالم في فضاء لا نهائي » .

الرستميـــون

اسم الفندق وموقعه له ايحاء خاص ، فاسمه جزء من التاريخ الحي ، ومن هذا الفندق نطل على التاريخ ، فهو يحمل اسم حكام دولة بني رستم الأباضيه ، والتي تشكل قصة قيامها وانهيارها في وجدان أبناء الوادي الحلم الضائع والجنة المفقودة .. !

وتكشف صفحات التاريخ الكثير مما يجري حولنا فالوادي وسكانه من بقايا الدولة الرستمية التي قامت في الماضي ، وما زال أهل الوادي يتمسكون بكل ما تمثله دولتهم القديمة ، وقد استمرت هذه الدولة حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، وكانت « تاهرت » هي عاصمة الدولة ، وامتدت لتشمل المناطق الداخلية ، وحدودها الاراضي الوعرة والصحراء الشاسعة ، ووصلت حتى مشارف طرابلس الغرب .

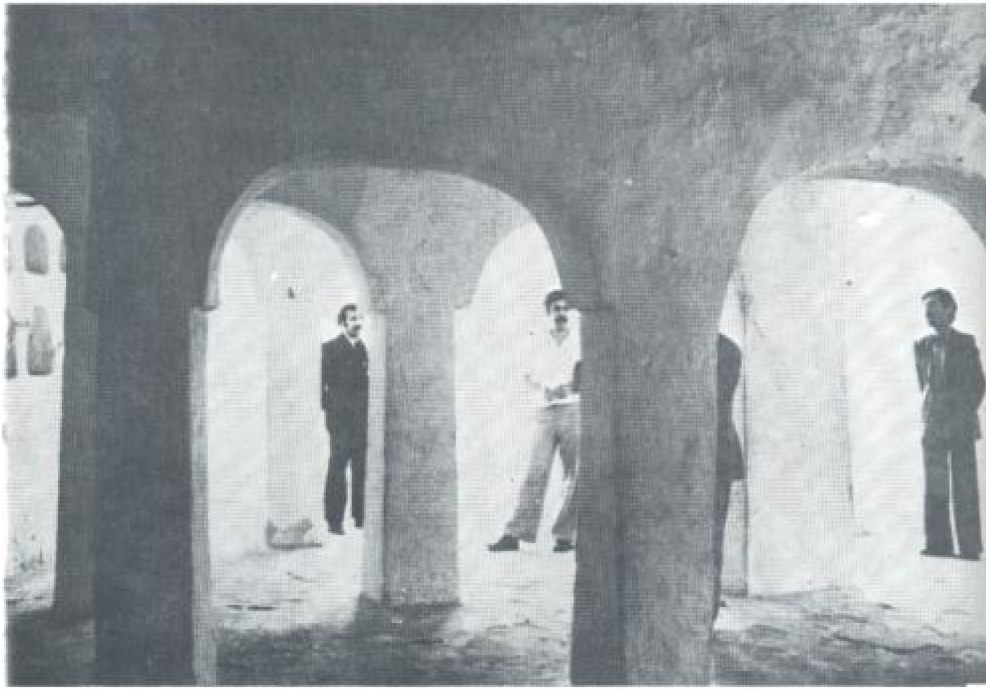
والآن حان الوقت لنكمل جولتنا في المدن المزابية ـ وهي في الواقع قرى أكثر منها مدنا ـ ، يشدني العمل الشاق الذي يبذل وما يحمله الوادي من لمسات الفن والجمال ، ففي هذا الركن المفقود من الصحراء تتوزع مدن مزاب الخمس وهي غاردايه (غار ـ دايه) ومليكه (اسم ابنة أحد الحكام) والعطوف وبني يزقن وبونورة في دائرة لا يزيد نصف قطرها عن سبعة أميال فوق خمسة تلال ، « وهذه المدن نشأت في فترات زمنية متتالية ، وعندما اكتملت وضاق الوادي بسكانه ، أقيمت مدينتان هما القراره وبريان ، تبعد الأولى عن غاردايه مائة كيلو متر والثانية ٤٨ كيلو متر ، وتضاف اليهما متليلي وهي مدينة مشتركة يتعايش داخلها في انسجام كامل كل من أبناء المذهب المالكي والمذهب الاباضي ..

تشاهد أمامك قرى بعمارتها وأزقتها وأسوارها وأبراجها وعادات أهلها وتقاليدهم ولباسهم المميز ـ العمة والسروال ـ ولحاهم الطويلة وكأنهم استمروا هكذا لم يتغيروا منذ ما يقارب التسعمائة عام ويخيل اليك انك ترى ذات البشر القدماء ..

محو الأمية

ولا يخرجك من التاريخ سوى أحد الملتحين بسرواله التقليدي يمرق من جانبك بدراجته البخارية ثم بعض السيارات الحديثة التي تقف عند الأسوار ، والطرق المرصوفة التي تنقلك من مدينة الى أخرى ، فما أصعب مقاومة رياح التغيير والخاح العصرية ..

في هذا المجتمع يزداد كبار السن من الشيوخ بلحاهم الطويلة البيضاء ، وتكاد تختفي المرأة من أزقته ، مجتمع لا تجد فيه أميا واحدا ، بل ويندر أن تجد فيه من لا يتحدث العربية بطلاقة الى جانب اللغة البربرية المحلية ، ولديه نظامه الخاص في التكافل الاجتماعي ، ونظامه في حل الخلافات التي تظهر بين أفراده ، مجتمع يأخذ نفسه بالشدة ويتمسك بتعاليم الدين الحنيف .



احد مساجد مزاب من الداخل

وساهم الماضي في تمسك أفراد هذا المجتمع بكل ما فروا من أجله الى هذه المنطقة النائية ، مما يؤكد ان الاضطهاد والملاحقة لايقضيان أبدا على فكرة بل يساهمان في الحفاظ عليها والتمسك بها .

ومع بداية جولتي حذرني صاحبي بقوله : « ان العديد من معتقداتهم تعتبر من خصوصياتهم التي لا يرحبون بالكشف عنها ، ولا يرحبون بالغرباء كثيرا ، وعندما توجه سؤالا لأحدهم لا تتلقى الاجابة الا بعد استشارة شيخهم . . . » ، وعندما التقيت بعدد منهم وجدت العكس تماما ، ولقيت منهم الحفاوة والترحيب ، والرد على جميع استفساراتي ، فالفارق لديهم كبير بين الاجنبي والعربي ، بل ولاحظت ان الكثيرين منهم يتابعون بشغف أحداث المشرق العربي ، ويناقشون قضاياه باهتمام بالغ .

وأكثر ما جذب اهتمامي بعد البشر وتنظمهم معالم العمارة التي يؤكد الخبراء أن وادي مزاب يضم المجموعة الاسلامية الهندسية الرئيسية في الصحراء ، وأقدمها جميعا . وهي تتميز بدقة وجمال لا في المساكن فحسب بل وفي أعمال الري والدفاع أيضا ، وأول ما يلفت النظر التناغم والانسجام بين التل والمباني من فوقه ، فهنا العمارة عمل أصيل وانعكاس تلقائي للبيئة والفكر الاجتماعي والتقاليد والوضع الاقتصادي .

قادني صاحبي الى جامع سيدي ابراهيم على مشارف بلدة العطوف أقدم المدن المزابية والتي تبعد عن غارداية سبعة كيلو مترات وهو أول مسجد أقيم في مزاب وتحول الى مكان أثري ، يبدو شكل الجامع وكأن المعماري الذي أقامه كان يطوع الحجر وبلاينه ويخرج منه هذا العمل الفني الذي جمع بين الابداع والبساطة ، فالمبنى على نفس شكل الحجر ، ويتسق مع البيئة من حوله .

والجامع لديهم ليس مكانا للعبادة فحسب بل ومركزا للحياة ، يأخذ هذا الجامع بفكرة القبلة المفتوحة والتي تتجه الى الفضاء الواسع ، ولديهم تقليد فريد بألا يقوم في المدينة سوى جامع واحد ، يتسع مع اتساع المدينة ، ولا يقام سواه ، فوحدة الجامع تعني وحدة المجتمع والعقيدة .

ويؤكد مرافقي مسؤول الآثار في مزاب الفنان عبد الحميد عرعور : « ان عددا كبيرا من المعماريين الفرنسيين يجدون هنا الكثير الذي يتعلمونه من هذا الجمال المعماري المتكامل ، وهذا الانسجام بين الوظيفة والشكل » .

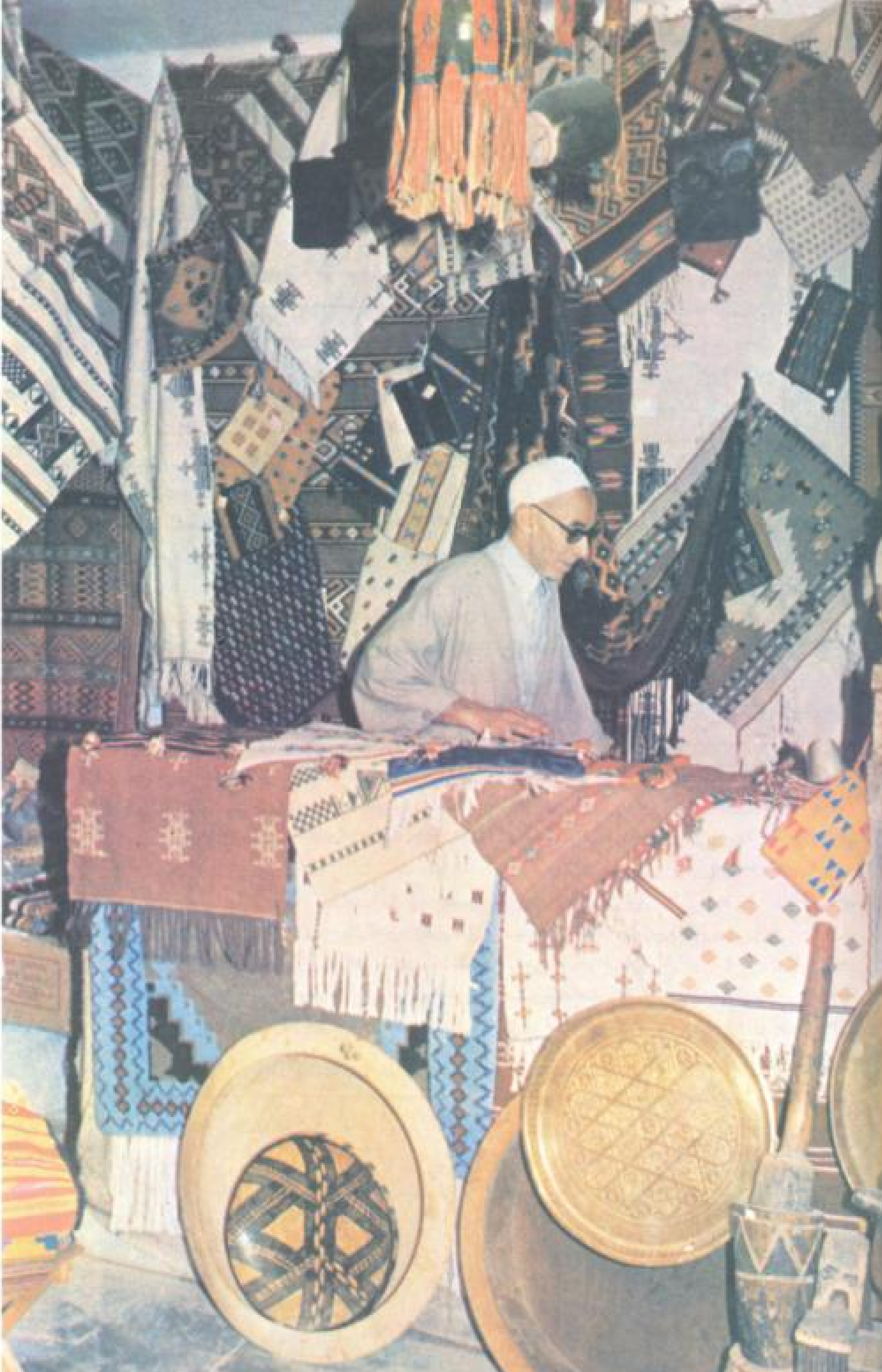
ويقف وراء كل هذا الفن ذلك الانسان الذي عمل بيديه المجردتين في صراعه الطويل مع البيئة ومواد البناء ، لكي يتمخض من هذا الصراع ذلك الجمال المعماري القائم ، ويأتي جمال الشكل من التوافق والتوازن الذي





احد ابناء غاردايه بلحيته وسرواله التقليدي يقود عجلة بخارية . (الى أعلى)
والسلع التقليدية التي يقبل عليها السياح





يعبر عن الوحدة والمساواة في ظل الايمان ، وترى هنا كيف تمثل الزخرفة القطرية القديمة جمالا باقيا ، لم تصل اليه بعد التشكيلية المصطنعة الحديثة .

احد بيوت مزاب

من الصعب أن تدخل أحد البيوت المزابية بلا سابق معرفة ، بل ومن العسير أن تلتقط الصور لأبناء مزاب الذين ما زالوا يعتقدون أن التصوير يخالف الأعراف والتقاليد . . !

أخذنا مرافقنا الى بيت مزابي قديم خارج الأسوار ، يستأجره أحد الفرنسيين المولعين بمزاب . مظهر البيت الخارجي بسيط ولكنه متناسق ، شيد وفق احتياجات المعيشة اليومية ولمسايرة جميع التقلبات المناخية على مدار فصول السنة ، وتلحظ درجة عالية من الانسجام بين مكوناته الأساسية ، وكل خط فيه يعبر عن مصممه ، وكما يقول المعماري الدكتور حسن فتحي حول عمارة المزاب . . . . « حركة اليد لا تصدر عن العقل وحده بل وعن الشعور أيضا ، وذكاء الأصابع ذكاء روحي قبل كل شيء » . . وهو كالثوب المحكم على صاحبه ، ليس بفضفاض ولا ضيق ، وهو ما تفتقده العمارة الحديثة ، فيكتفي بما هو ضروري ، دون إدخال ما يزيد عن الحاجة . .

ومن خصائص البيت المزابي أنه بلا أثاث ، والمبنى يوفي بكل الاحتياجات ، وربما لأن الوادي ليس به أخشاب سوى اعجاز النخيل ، وليس للدار المزابية نوافذ بل فتحات في أعلى المبنى ، وداخله انفصال كامل بين حياة الرجال والنساء ، ويوجد في جناح الزوجة « النول » في مكان رطب تنسج عليه المرأة الزرابي وأعمال الصوف المختلفة . .

وعندما سألت ساكنه الفرنسي : هل يوفي البيت باحتياجاتك . . . وقال : « بعد فترة من التعود ، وجدته أكثر راحة وانسجاما من كل أشكال العمارة الحديثة » .

ولكبار القوم في مزاب داران ، إحداهما في السهل بين أشجار النخيل والأخرى فوق الجبل داخل الأسوار ، ويهاجر جموع السكان كل صيف الى الغابات ، الى الجو الافضل ، وسبق أهل مزاب بهذا التقليد أهل زماننا ، كما يوجد مسجد في الغابة وآخر في المدينة ، ويميز مسجد المدينة الصومعة التي لا توجد في مسجد الغابة .

في غابة النخيل

التلال ـ أقصد المدن ـ محاطة بغابات النخيل من كل جانب ، فقد كان أول ما اتجه اليه السكان بعد استقرارهم في الوادي ، البحث عن مصادر المياه ثم العمل على خزنها ، ثم تقسيمها والاستفادة منها قبل أن تضيع في الصحراء ، وكان على بقايا الدولة الرستمية اللجوء الى مكان يصعب على غيرهم الوصول اليه ، ولا يغري ندرة المياه فيه سواهم من العابرين ، واختاروا قلة المياة مقابل الأمان ، كانت هذه مجرد البداية التي سريعا ما تطورت بالجهد المبذول في توفير المياه وتخزينها ، ولذلك ليس لسدودها وآبارها وقنواتها ونظام توزيع المياه بها مثل في نواحي الصحراء الجزائرية كلها ، فقد ابتكروا أساليب معمارية خاصة ، والسدود القائمة هنا يعود تاريخ بعضها الى سبعمائة أو ثمانمائة عام ، وتهدف الى تخزين وتحويل

احد السدود الذي يرجع تاريخه الى مئات السنين .





مخطورات بني يزقن اول ماتشاهده

مجرى المياه في الوادي الى كروم النخيل ، أما السدود الباقية الواقعة في نهاية الوادي فتهدف الى نشر المياه وتوزيعها على المنطقة كلها لملء الآبار القائمة ، وتبقى الأقنية جافة طيلة أيام السنة ، باستثناء بعض ساعات تنهمر فيها الأمطار ، واذا زادت تتحول الى تهديد خطير ، وكثيرا ما دمرت السيول القرى الصحراوية ، ولهذا يخالط فرح الأهالي بهطول المطر قلق من تحولها الى سيول !

كما احتاج توزيع الكميات المحدودة من المياه الى معرفة جيدة بالأراضي وأساليب ريها ، ووضع نظام صارم يحقق عدالة توزيعها ، وشاهدنا في نهاية كل غابة عند ملتقى شعاب الأودية اليابسة ، سواقي مبنية تتلقى مياه الامطار ، وتوزع فتمر في سواقي عريضة في مدخل كل مزرعة ، وتمر من خلال فتحة تضيق وتتسع حسب مساحة أرضها في دقة وعناية وعدالة ، ثم تنتهي تلك السواقي لتصب خلف سد ، بعد أن تمر وتتخلل حدائق النخيل جميعها ، وتعود وتغذي الآبار ويستخرجها الفلاح من البئر ، ويروى بها نخيله لعام أو عامين آخرين وحتى يهطل المطر من جديد ، وقد استطاعوا أن يحفروا في الوادي ما يزيد عن أربعة آلاف بئر ، يتراوح عمقها بين ٢٥ و ٦٠ مترا ، وغرسوا ١٧٠ ألف نخلة .

وروى لي أحد أبناء الوادي ، وهو يقف أمام بئر عتيقة

● مزاب

قائلا : « هذه البئر حفرت على مدى ثلاثة قرون ، بدأ العمل الجد وواصله الابن ثم الحفيد وابن الحفيد ، وكانت الآلة المستعملة في الحفر لا تزيد عن قرن غزال . . » وهي كلمات بسيطة تعكس شعور أهل مزاب بالجهد المبذول في حفر الآبار على مدى عدة أجيال . .

بني يزقن

وتجولنا طويلا في بني يزقن ، نموذج للمدينة المزابية كما كانت عليه منذ القدم ، المدينة على شكلها الهرمي ترتفع صومعة المسجد المربعة عند القمة . .

السور ما زال على حاله يحيط بالبلدة ، ويصل ارتفاعه الى نحو ثلاثة أمتار ، وتدخل الى البلدة عبر بوابة يقف أمامها حرس خاص ، ويبلغ طول السور ألفين وخمسمائة متر ، التضامن والحاجة الملحة للشعور بالأمن هي التي أقامته .

ولا يفوتك أن تلحظ بعدا هاما في كل أرجاء مدن المزاب ألا وهو الاهتمام البالغ بالاستعدادات الدفاعية ، ليس في الأسوار والأبراج والأبواب فحسب ، بل في تخطيط المدينة ذاتها فالأزقة ملتوية التواء لا تستطيع أن تتبين متى ينتهي ، والأبراج بنيت من أربعة أو خمسة طوابق حتى يتبين رجال الحراسة الخطر وينذروا به الأهالي ، وتمتد هذه الابراج على طول نقط متقابلة تنقل صيحات التحذير من واحد الى آخر ، وتحولت مع الوقت الصيحات الى إشارات ضوئية ثم الى طلقات البندقية ، والأمن هنا لا يقتصر على غارات البدو ، بل ومواجهة خطر السيول والفيضانات ، فطلقة واحدة عندما تبدأ السيول وطلقتان عند هجوم العدو . . أليست هذه مدنا للانتاج والدفاع معا ؟ وهو ما ينبغي مراعاته أمام الاخطار المتلاحقة التي تواجه المدن العربية في عصرنا الراهن .

ممنوع التدخين !

وتدلف الى بني يزقن من بوابتها الضخمة ، وأول ما تشاهده لافتة تتضمن مجموعة من التحذيرات باللغات الثلاث العربية والانجليزية والفرنسية ، تبدأ بطلب الامتناع عن التدخين والامتناع عن تصوير المارة ، وعدم دخول منازلهم ، وارتداء ملابس الحياء ، وعدم تقديم الحلويات للأطفال .



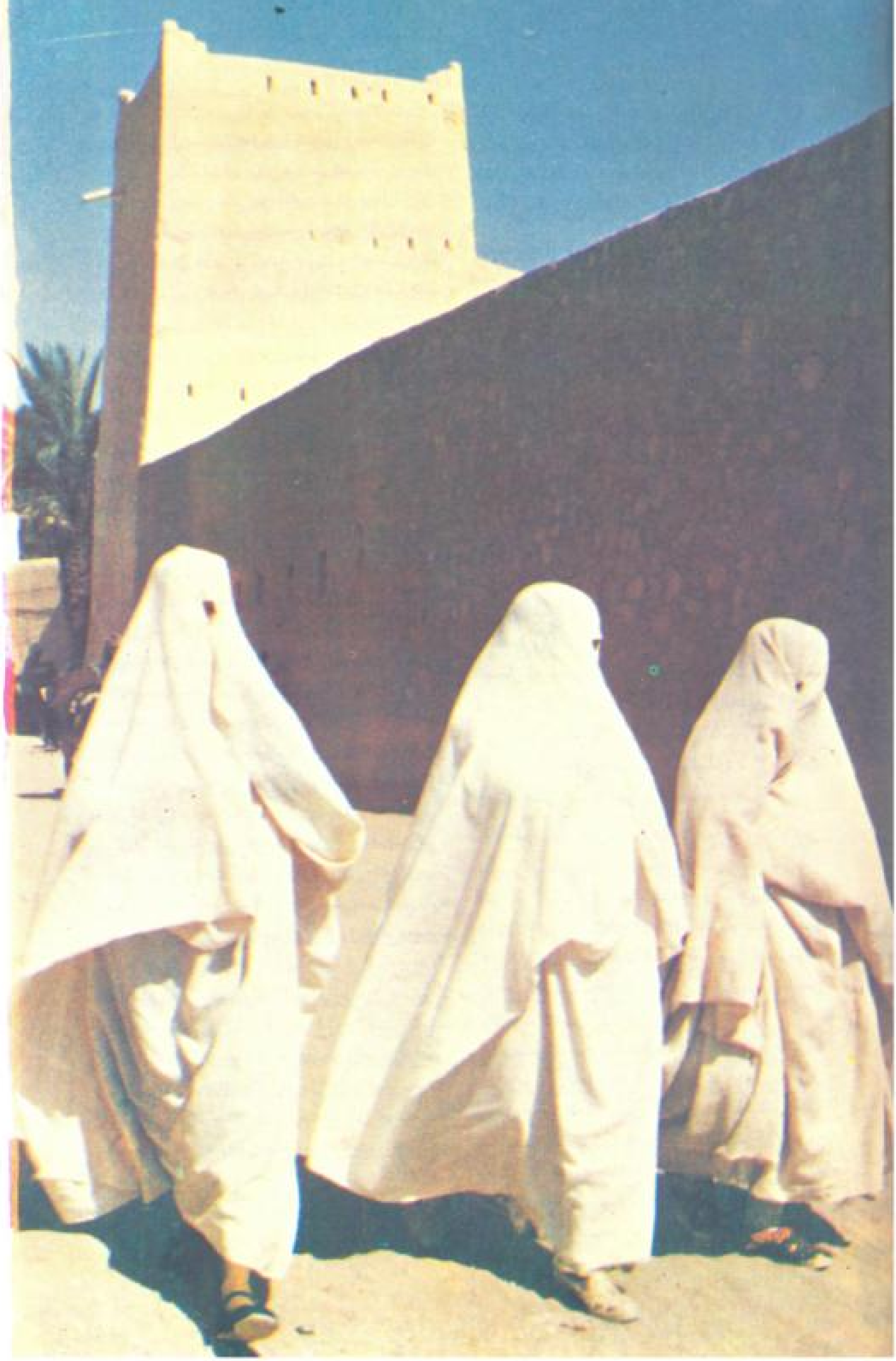
البيت المزابي
الداخل ، بسطام
العلوي والاو
ويلاحظ جمال العم
وغياب النوا
والاثاث !



سوق بني يزقن



بوابة وسوق ، ثلاث
نساء بني يزقن .



والتجول في المدينة التاريخية تشدني وحدة الفكرة المعمارية وتناسقها ، والتي قدمت الضروري على الكمالي ، ووحدة الفكر التي أقامت هذه العمارة والتي تؤكد أنه اذا توجه المعماريون نحو البساطة وكانت البداية هي دراسة المنطقة التي يعملون بها ، لتحققت هذه الوحدة ، ويعود الجمال الغائب الى العمارة الحديثة ، البيوت متساوية الارتفاع تتراوح ألوانها بين الابيض والازرق والاصفر ، الأبيض يعكس الحرارة ، والأزرق يحمي البيت من الحشرات وخاصة البعوض والأصفر لون الصحراء .

وسيلة المواصلات هنا هي ركوب الحمير التي يمكنها وحدها الانتقال في هذه الأزقة الضيقة ، ويصادفك الباعة المتجولون يتنقلون في هذه الأزقة وبضائعهم مكدسة فوق حميرهم ، وحتى موزع البريد يتنقل في أزقة المدينة على حمار حكومي لتوزيع البريد .

وفي ساحة كبيرة وسط المدينة يجلس الشيوخ بلحاهم البيضاء أمام بيوتهم ، ويعقد في هذه الساحة مزاد كل يوم ثلاثاء ساعة الغسق ، يباع خلاله كل ما هو قديم ، فمثلا هنا يتنقل الاناء أو الموقد بين أيدي أكثر من أسرة خلال هذا المزاد الاسبوعي ، مما يكشف الحس الاقتصادي والحرص الشديد الذي يتمتع به أهل الوادي ، بل وعندما يشترك كل من في الساحة في المزاد . .

ولا يمكن للأجنبي البقاء في بني يزقن بعد الغروب ، واذا صادف ولمحت أحد نساء مزاب فهن ملتفات بعباءة بيضاء لا يظهر منهن شيء ، وحتى البئر تغطى لكي تلجه المرأة ولا يتمكن أحد الفضوليين من رؤيتها ، وسمعت مثلا جزائريا يعبر عن مكانة المرأة في الوادي يقول « للمزابي سبعة قبور وللمرأة قبر واحد » . . . رغم أن المرأة المزابية تتولى الاشراف على شؤون الأسرة فأغلب الرجال يسافرون بعيدا للعمل والتجارة خارج الوادي ، كما ساهمت المرأة الى جانب الرجل في مواجهة الظروف التاريخية القاسية ، وهي وحدها التي تصنع تلك المنسوجات الصوفية المختلفة ، اذ تعيب التقاليد على الرجل المشاركة في نسجها ، وتنتج مزاب أشكالا فنية بديعة ، كانت تشتريها في الماضي القوافل ، ويولع بها اليوم السياح الذين يدفعون فيها مبالغ طائلة .

حلقة العزابة

هذا عن مظاهر الحياة المختلفة التي لمستها في مدن مزاب ، وهي لا تتفرد بالعادات والتقاليد والأزياء فحسب ، بل لديها نظام اجتماعي خاص . ما زال يحكم علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية فكل مدينة بها جماعة تقودها تسمى « حلقة العزابة » وهو نظام قائم منذ ما يزيد عن تسعة قرون ، وربما يمتد الى أيام الدولة الرستمية ، و « العزاب » أي الذين يعزبون عن الدنيا ومغرياتها ، وينتقى لهذا المجلس صاحب المعرفة والسيرة الصالحة ويشترط أن يكون حافظا للقرآن الكريم وملتزما بأحكام الشريعة الاسلامية ، ويتكون المجلس من ١٢ عضوا ، وتقوم حلقة العزابة بالفتوى فيما يختلف عليه الأهالي ، ووضع قواعد مقررة للمشاكل الجديدة ، ويتولى مجلس العزابة الاشراف على تدريس القرآن لأبناء المدينة ، ورئيس الحلقة هو الشيخ أو المفتي الذي يتولى التدريس والخطابة في الجامع ، وتضم الحلقة ثلاثة معلمين لتعليم الصغار ، ويفصل أعضاء العزابة في المنازعات في جلسات تعقد في صحن الجامع بين صلاتي الظهر والعصر ، كما تقع على عاتقهم مسؤولية الحراسة داخل الأسوار وينظمون الأسواق والمسالخ ، وسواقي المياه والسدود ، ولا يتقاضى أعضاء مجلس العزابة أجرا على أعمالهم هذه .

ولأعضاء العزابة أيضا دورهم الاجتماعي ، فلا يقع في مدن مزاب ما يقع في غيرها من اختلاف بين العروسين على المهر أو الشبكة ، فأعضاء العزابة وحدهم هم الذين يحددون المهر ، مهما تكن أسرة العروس أو جمالها ، ومهما كان غنى الزوج ، ويترك لأسرة العروسين تحديد موعد الزفاف فحسب ، أما اذا شاء الزوج أن يزيد ، فليفعل ذلك بعد الأشهر الأولى من الزواج .

ويسود شعور بامكانية الاستغناء عن الحكومة المركزية ، وبالفعل كان لاقامة مخفر للشرطة في بني يزقن بعض أوجه المقاومة من الأهالي . . . وهذه الحلقة تساعدها حلقتان فرعيتان أحدهما للنساء اللاتي يقمن ببعض المسائل الاجتماعية مثل دفن الموتى من النساء ، والحلقة الاخرى منظمة « أروان » أي الطلبة .

والدليل الحاسم على نجاح حلقة العزابة هو الغاء الأمية

في مزاب ، ففي الجوامع يتعلم أبناء القرية مبادىء الكتابة واللغة العربية ويحفظون القرآن الكريم ، وهي صورة فريدة ، فالنجاح في القضاء على الأمية حلم غال لم تنجح في الوصول اليه العديد من أصحاب النظريات الحديثة .

مجلس عمي سعيد

ويشكل ممثلو حلقات العزابة في مدن المزاب مجلسا أعلى يسمى مجلس عمي سعيد وهو يضم ١٦ عضوا ، عضوان عن كل بلده ، وهذا المجلس يبحث المشاكل الطارئة ، ويقوم بالصلح بين القبائل وهو هنا بالاصطلاح الحديث مجلس استئناف ، وأطلق عليه مجلس عمي سعيد لأنه يجتمع بمسجد الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي ، وتتلى قراراته على الناس في المساجد ، أما من أين يستمد سلطته وهو الذي لا يملك وسائل السلطة المعروفة .. ؟ انه يكتفي بالقوة المعنوية للمذهب واذا تمرد أي طرف على قراراته يقوم العزابة بـ « العصيان المدني » أي يمتنعون عن القيام بمهامهم ويعتصمون في المسجد ، فيتحرك الرأي العام ضاغطا .

ويتوازى مع حلقة العزابة ، ومجلس عمي سعيد مجلس رؤساء العشائر ، وهذا المجلس يضعف شأنه ويقل تأثيره كلما زاد نفوذ مجلس عمي سعيد .

وهذه المؤسسات القديمة وما تصدره من قرارات ينبغي أن تكون محل دراسة مستفيضة من علماء الاجتماع العرب وخاصة أن الكثير من أعمالها مدونة .

مملكة تاهرت

والآن حان الوقت لنستعرض القصة الكاملة للدولة الرستمية ، ونقلب صفحات التاريخ لكي نستكمل أبعاد ما نرى . . .

قامت الدولة الرستمية بعد جهاد طويل ، وهي امتداد لمحاولات شهدها الشرق العربي ، فبعد زوال دولتهم في البحرين وحضر موت والطائف واليمن سنة ٧٢ هـ ، وبعد أن لجأ أصحاب المذهب الاباضي الى التنظيم والدعوة كبديل عن أعمال التمرد الفاشلة ، تضمن هذا الاسلوب ارسال الدعاة الى المناطق البعيدة عن حاضرة الدولة الاسلامية ، هذا بعد تجارب عديدة ، وبعد أن لجأ أباضية المشرق الى أساليب الدعوة السرية والتنظيم السياسي بعد فشل حركة عبد الله بن أباضي التميمي في عهد مروان بن عمر الأموي ، وأخذوا يبعثون من مركزهم في « البصرة » دعاتهم الى الامصار المتطرفة ، ونجحت هذه الجهود في جنوب الجزيرة العربية وفي المغرب ، وهذا ما يفسر التشابه القائم بين عمارة مزاب وعمارة كل من سيئون وشبام في حضر موت ، وقد سقطت دولة الكندي في جنوب اليمن سنة ١٣٠ هـ ، وتمركز المذهب في عمان والذي ما زال قائما هناك حتى اليوم . .

انتشر الدعاة في المغرب وأخذوا يدعون لمبادئهم التي تقوم على العدل والحرية ، وتعرضوا للاضطهاد بعد أن قامت مبادئهم على التحريض على الخروج ضد الامام الجائر ، والاجماع على جواز الامامة لكل مسلم عالم بالكتاب والسنة بغض النظر عن أصله وجنسه . .

« واستقبلت هذه المبادىء بالحفاوة مما تنطوي عليه من تمسك بالشريعة ، وثورية في قوامها السياسي ، وبساطة في جوانبها الفكرية ، كما لقيت مناخا مواتيا في ظروف المغرب الاسلامي وطبيعة سكانه » ، كما جاء في كتاب الدكتور محمود اسماعيل « الخوارج في المغرب » . .

وتذكر المصادر الأباضية في كتاب « سير الأئمة وأخبارهم » لمؤلفه أبو زكريا يحيى بن أبي بكر والذي نشرته وحققته المكتبة الوطنية في الجزائر : « أن أول من جاء يطلب مذهب الأباضية ونحن بقيروان أفريقيا سلمة بن سعيد . . . » وأضاف . . « قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة بن عباس على بعير » .

وأدت تلك الجهود المتواصلة الى نجاح عبد الرحمن بن رستم في تأسيس دولة تاهرت سنة ١٦١ هـ (٧٧٧ م) وامتد نفوذها لتضم أباضية المغرب ، ويلاحظ أنه في هذا الماضي البعيد غابت وسائل الاتصال الحديثة ، ورغم ذلك كان العالم الاسلامي مترابطا ، اذا انطلقت فكرة من البصرة على الخليج سرعان ما تجد صداها في أقصى المغرب ، فقد سبق وتوجه عبد الرحمن بن رستم الى البصرة مع عدد من المغاربة في حلقة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريم سنة ١٣٥ هـ ، ٧٥٢ م) وتلقى على يديه أصول المذهب وخطة العمل .

وعندما قامت دولته اختار تاهرت القديمة التي تعيش حولها قبائل البربر من هوارة ولواته ومكناسة ومزاته ولمايه لتصبح قصبة الدولة ومركز المذهب ، « في مكان جيد الهواء ، كثير المياه ، خصب الأرض ، قابل للعمارة مأمون من العدو » . وقبل الامامة سنة ١٦٢ هـ . . « على سنة الله ورسوله وآثار الخلفاء الراشدين ، وعاهده رؤساء المذهب على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه » . . . وأصبح أول أئمة الدولة الرستمية .

وتحكي المصادر الأباضية عن تلك الدولة الحلم تعدد مزاياها ، ويكفي أنها دولة ليس لديها جيش نظامي أو شرطة ، أي ليس بها أية أدوات للقمع ، يقول أبو زكريا : كانت خيول الأباضيين من ممتلكاتهم الخاصة ، فبيت المال ليس تحت تصرفهم ، ويكسبون رزقهم من عملهم ، ولم يكن للامام حرس خاص ، والقاضي يتعرض للاهانة - أحيانا - من المتقاضين اذا لم يوجد في القاعة من يتبرع بالدفاع عنه ، كما تروي هذه المصادر باقاضة تتابع وصول وفود المشاركة من المشرق واعجابهم بحكم الامام عبد الرحمن وما كان عليه من زهد وعدل وورع ، وحرصه على استشارة أهل الرأي في كيفية توزيع الاموال التي يحملونها له من المشرق ، والتي كانت تنفق في ثلاثة أوجه ثلث في الكراع (الخيل) وثلث في السلاح ، وثلث توزع على فقراء المسلمين وضعفائهم » ، كما طبق الامام عبد الرحمن بصرامة تعاليم المذهب ، في كل من نظام القضاء والاحتساب ونظم الجباية والصدقات ، مع مراعاة بيئة السكان وظروفهم والذي يقول عنهم ماسكوراي . . . « لقد كانوا سادة الصحراء » . .

الأيام دول

ومرت تلك الدولة مثل سواها بدورتها الطبيعية ، تبدأ بالعنفوان والتطبيق الكامل للدعوة التي حملها مؤسسوها ، ومن مرحلة الشباب الى الشيخوخة ، فمع الزمن دبت فيها الخلافات ، وتحولت الامامة من الانتخاب الى الوراثة ، وتخلت عن سر قوتها وصلب دعوتها ، وعادت الأمور الى سيرتها الأولى والى ذات النهج الذي سبق ودفعهم الى الثورة .

ففي المرحلة الأولى أوصى الامام عبد الرحمن قبل وفاته بتعيين مجلس شورى وكل اليه اختيار الامام الجديد من بين أعضائه ، ولم يمض الوقت حتى تغير الامر ، بل ولم تنجح هذه الدولة سوى فترة قصيرة في التوفيق بين مطالب الحكم وبين الأعراف البدوية المختلفة ، فطمعت القبائل في تولي السلطة ، ونجح محمد بن سالة الهواري في الاستيلاء على الحكم لمدة ثمانية أعوام ، وأخيرا سقطت مملكة تاهرت على يد أبي عبد الله سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) دون قتال ، بعد أن وصلت الى ذروة ضعفها ، وكما جاء على لسان ابن الصغير : « . . . وكان البلد قد فسد ، وفسد أهلها واتخذوا للسكر أسواقا ، والغلمان أضرانا . . » وكانت قد تعرضت لضربة قاصمة بسبب ما حل باباضية جبل نفوسه سنة ٢٨٣ هـ في موقعة مانو (قلعة بين قابس تونس وطرابلس ليبيا) ، عندما أجهز الأغالبة على جيوش نفوسه ، وأمر أبو عبد الله باحراق المكتبة الرستمية ، المعصومة » بعد أن انتقى منها الكتب المتعلقة بالحكم والفنون والرياضيات والصنائع ، وأخيرا أضرم النار في تاهرت .

وبعدما اختفت تاهرت قوي المذهب من جديد في صورة جماعات صغيرة ، مشردة في المناطق الصحراوية ، وانتقلت بعض هذه الجماعات الى واحة وارجلان (في الجزائر) وعندما هجم المرابطون على الواحة فروا في منتصف القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - الى سدارته وعندما دمرت سدارته كانت صيحتهم « افترقوا ولا تتجمعوا فيا اجتمع منكم ثلاثة الا وطلبوا » ، وانتهى بهم الحال الى وادي مزاب ، كما بقي منهم تجمعات في كل من جزيرة جربه بتونس ، والساقية الحمراء ، وتفيلالت (المغرب) وجبل نفوسه بليبيا ، وأصبح سكان وادي مزاب مجموعة متلاحمة فخورة بتاريخها . . . ويضاف الى أسباب الاعتزاز القائم بدولتهم القديمة والمستمر حتى اليوم انها كانت آخر عواصم البربر ، رغم ان عبد الرحمن بن رستم لم يكن واحدا منهم بل قدم من العراق ، ولكن عناصر الدولة الرئيسية قامت على أكتافهم ، وخاصة بعد أن عانى البربر طويلا بسبب التجزؤ الجغرافي وصعوبة المواصلات ، وقلة الأراضي الصالحة للزراعة ، ومن ثنائية البدو والحضر ، والتي استطاعت مملكة تاهرت وحدها أن تتجاوزها جميعا .

وبقي ان من أسباب انهيار تلك الدولة ما يمكن أن يطلق

عليه « سياستهم غير سياسية » فقد كانوا في حركتهم أقرب الى المثالية سواء في خوض الحروب أو معاملة الخصوم ، فكانوا لا يشهرون الحرب على أعدائهم الا بعد إعلامهم وأخذ الحجة عليهم ، ولم يتبعوا المدبر أو يجهزوا على الجرحى كما لم يخربوا الزرع ولم يهدموا سوى الحصون والأسوار ، وتعففوا عن الغنائم من غير السلاح والعتاد ، ولم يقتلوا الأطفال أو يسبوا الزراري ، وطغت في أوقات كثيرة تعاليم المذهب على دوافع العصبية والعنصرية .

هذه هي القصة الكاملة للدولة الحلم جمعنا أطرافها من بين صفحات التاريخ ، وجمعت كل ملاحظاتي وكل ما قرأته وذهبت الى الشيخ صالح بزملال في مكتبة الشيخ الطفيش في بني يزقن ، والذي درس في جامع الزيتونة ، وهو شيخ ضرير لحيته في لون « جلابته » يتهدج صوته عندما يتكلم ، وعندما سألته حول صورة المجاهد سليمان الباروني التي صادفتها في العديد من الأماكن قال : « انه أباضي من جبل نفوسه في ليبيا ، وقد قرأ هنا عند الشيخ الطفيش ـ رحمه الله ـ ، وقد قام بدور وطني في مقاومة الايطاليين ، وتلاحقت أسئلتي .

● تعتبر العديد من الكتب ... الأباضية كأحد فرق الخوارج ، فما رأيك .. ؟

ـ « لاعلاقة بين الأباضية والخوارج ، سوى إتفاقهما في قضية واحدة هي رفض كل منها للتحكيم » .

● ما هو التركيب القبلي لأبناء وادي مزاب .. ؟

ـ « أغلب القبائل يعود أصولها الى البربر ، وبعض القبائل الأخرى تعود الى قبائل عربية فمثلا أنتسب أنا الى احداها الى بني عدي ، وبعض أهل مزاب يمتد نسبه الى الاشراف ، وكل شيء مسطور ، فانساب أبناء المزاب مسجلة ، وما زال نظام العشائر قائما .. » .

● ما هو سر قائمة الممنوعات التي تواجه الزائر عندما يدخل من بوابة بني يزقن ؟

ـ « لا تجد هنا عادة أو تقليدا إلا ويعتمد على الكتاب ، فالمسجد هنا هو الذي يسير المدينة ، وهو قلبها وعقلها .. »

● اذن ما أصل منع تصوير الأهالي .. ؟

ـ « هذا جزء من الحرية الشخصية ، فالأهالي لا يرحبون بالتصوير .. »

● وعدم تقديم الحلويات للأطفال . ؟

ـ .. لكي لا يتعودوا على الحصول على أشياء بلا مجهود .. » .

● وعدم وجود أي غريب في البلد بعد العشاء . ؟

ـ « ليس في البلدة فنادق . فما هو مبرر وجوده عندما يأتي المساء اذا كان ضيفا على أحد الأهالي فترحب به البلدة جميعا .. » .

● يتردد أن مزاب هي المنطقة الوحيدة التي لم تشترك في حرب التحرير ، ولم تقدم شهيدا في هذه الحرب .. ؟

ـ « عندما أطلقت رصاصة الثورة الأولى في عام ١٩٥٤ ، كان الذين أطلقوها يمثلون جميع أنحاء الجزائر ، وكنت في هذا الوقت في القاهرة ، وحضرت اجتماعا لمناقشة ما يمكن أن يقوم به أهل الوادي وكان هذا الاجتماع في بيت السيد البشير الابراهيمي ، واتفق خلال هذا الاجتماع على أن الوادي ليس به كهوف أو مكان تأوي اليه اذا هاجمتنا قوات الاحتلال الفرنسي ، كما ان لدينا جالية كبيرة تعمل في الشمال الجزائري وكانت مشاركتنا الفعالة مادية بما كنا نبعث به للثوار ، وقد التحق البعض بالفعل بالثورة . وصمت برهة وأضاف ... « ولقد أحبطنا المحاولات الفرنسية التي كانت تهدف الى فصل الصحراء عن الجزائر عندما أرادوا أن يدقوا اسفينا بين سكان الصحراء وسكان الساحل ولكن الموقف الحاسم الذي اتخذناه واصرارنا على أننا جزء من التراب الوطني الجزائري أحبط هذه المخططات » .

سيوه ومزاب .. !

وسألته : لقد لاحظت التشابه الشديد في العديد من الجوانب بين واحة سيوه في مصر وبين وادي مزاب في الجزائر ، نفس طراز مساجد مزاب مع المسجد العتيق في سيوه* ، نفس لهجة الأهالي ، العديد من التقاليد ، فهل لديك تفسير لذلك ؟

قال : « لقد سبق وزرت واحة سيوه ، وأهلها يتحدثون ذات اللغة ، وهم على اتصال بأهالي جبل نفوسة في ليبيا ، وتعود علاقاتهم التاريخية الى أيام الدولة الرستمية ، والتي كانت تمتد في الداخل من طنجة وحتى الاسكندرية ، وما زالوا متأثرين بتلك العادات والتقاليد .. » .

وسألته أخيرا عن المخطوطات في بني يزقن ، فقال : ان

لدينا القليل منها ، ولكن في جبل نفوسه من كتب الأباضية ما هو أكثر وفرة وأعرض شمولا » . .

رغم ان كتب التاريخ تحكي إنه بعد أن فتح المرابطون وارجلان رحل أباضيتها بكتبهم وانتهوا الى وادي المزاب ، وان هذه الكتب ما زالت محفوظة لدى مشايخ المذهب ! .

مزابيون في كل مكان

يلحظ زائر المدن المزابية العمل الشاق الذي بعث في هذا الوادي الحياة ،وأصبح الوادي مجتمعا مزدهرا يتمتع سكانه بعقل عملي ، وبعد أن لقنتهم ظروفهم القاسية كيفية العمل والترحال ، فرغم كفاءتهم العالية في زراعة الصحراء ، الا أن الزراعة وحدها لا تكفي لاستمرار حياتهم ، فأضافوا الى أعمالهم التجارة ، وأصبحت المحلات التي يمتلكها أهل مزاب منتشرة في كل المدن الجزائرية ، وفي شمال أفريقيا كلها ، ووصلوا الى البلدان الافريقية المجاورة مثل مالي والنيجر ، فبالاضافة الى التجار الذين تراهم في غارداية تحت أقواس السوق القديم

توجد قوافل الشاحنات التي يمتلكها المزابيون والتي تقطع طريق القوافل القديمة الى أفريقيا ، ونمت تجارتهم من التجزئة الى الجملة وانتقلت الى الاستيراد والتصدير ، وانتشروا في كل مكان حتى مرسيليا ، وعرفوا بأنهم تجار حذقون مشهورون بالصرامة والجد . بل وعملوا بالصناعة ، من صناعة الزرابي الى صناعة النسيج . .

ولكن كل من يرحل يعود في النهاية الى الوادي ، يعود ليتزوج وفي الوادي يشب أطفاله على ذات التقاليد التي اتبعها الآباء ، وعندما يموت أحدهم يدفن في محل ميلاده ، وكثيرا ما ترسل رفاة من يموتون من مختلف الأنحاء الى الوادي بسيارات الأجرة .

ومن يرى مقبرة العطوف يرى الى أي حد تختلط التقاليد مع البيئة مع العقيدة ، فشواهد القبور عمل معماري جميل ، وعمل تشكيلي فذ ، وترى الى جانب تلك الشواهد الأواني والقدور التي تخص المتوفي وهي من العادات القديمة التي حافظوا عليها .



جامع في مزاب وجامع

في ظل الاحتلال

حافظ أهل مزاب على عزلتهم مدة طويلة كمجموعة متلاحمة فخورة بتاريخها ، وبعد سقوط الجزائر أمام الاحتلال الفرنسي ، وعندما وصل الفرنسيون الى الاغواط البوابة الشمالية لمزاب ـ بعث أبناء مزاب وفدا الى الأغواط ، وهناك عقد الوفد مع الجنرال الكونت دي راندون اتفاقية عام ١٨٥٢ ، وضع بمقتضاها الوادي تحت الاحتلال مع الحفاظ على نوع من الحكم الذاتي ، وأن يستثني أبناء الوادي من الخدمة في الجيش الفرنسي . .

ويكمل الشيخ صالح بزمال هذه الرواية التاريخية بقوله . . . « كان الاتفاق يقضي بدفع اتاوة للفرنسيين مقابل عدم اشتراك أبناء مزاب في التجنيد . . . »

رياح التغيير

أما اليوم فتشهد مزاب تغييرا كبيرا ، فرياح التغيير عاتية لا يمكن مقاومتها ، وما شاهدته في مزاب يثبت أنه لم يعد ممكنا في هذا العصر ـ ومع التقدم الهائل في وسائل الاتصال ـ أن يتمكن مجتمع من الحفاظ على عزلته ، حتى لو كان في قلب الصحراء ويتمترس وراء مذهب تدعو ظروفه التاريخية الى التمسك بكل ما تركه الآباء . وها هو ذا الكثير من معالم الماضي يتغير ، فمثلا وسائل حفر



سيوه القديم ويظهر التشابه الشديد بينها .

الآبار الحديثة وفرت المياه ، وأصبحت البلدة تحتاج الى شبكة صرف حديثة ، ولم تعد الجلسة في الغابة كما كانت بعد أن تزايد البعوض ، وأصبح طراز البيوت القديمة مهددا باقامة مكان للسيارة ، مما وضع أمام رجال الآثار صعوبات كبيرة للحفاظ على آثار وطابع مزاب ، ومن جانب آخر تحتاج هذه السيارات الى شوارع واسعة . . !

وقفزت الى السطح مشاكل التغيير المختلفة ، فمثلا المدارس الحكومية الالزامية التي تنتشر في كل أنحاء الجزائر ، مدارس مختلطة تضم البنين والبنات ، ويصر أهل الوادي على منع الفتيات الصغيرات من الذهاب اليها . . !

سجن الماضي

وتعمل الحكومة والحزب برفق وحكمة على إحداث التغييرات الضرورية ، وبدأت بالتجنيد الاجباري لكل شباب الوادي ، ولا يفوت الزائر أن يلحظ الشعارات التي تنتشر في كل مكان ، وأحدها يقول : « ان العناية بالتاريخ لا تعني بأي حال من الأحوال أن تكون سجناء الماضي أو أن نقدسه حتى لا نميز بين ما فيه من ايجابيات وسلبيات » .

ومن هذه السلبيات التي ينبغي تغييرها ، انتشار عادة الزواج من الأقارب أو على الأكثر من المدن المزابية ، مما أدى الى تركيز العديد من الأمراض الوراثية ، ويمكن تجنب ذلك اذا اتسعت دائرة الاختيار ، وتخلت هذه المدن عن عزلتها ، أو حتى التأكد من الطبيب بخلو الزوج والزوجة من الامراض الوراثية .

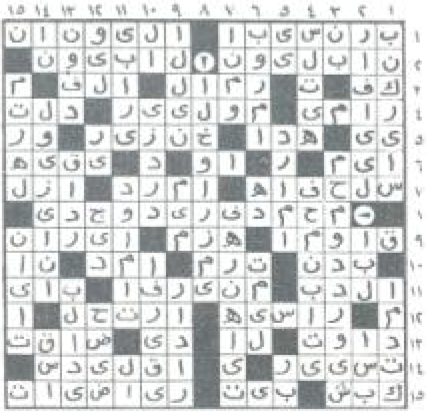
وكانت آخر لقاءاتي في مقر حزب جبهة التحرير ، حيث استعرض مسؤول الحزب عمليات التغيير الواسعة التي يشهدها الوادي ، والتي تقوم على بدء حركة تصنيع واسعة ، وقد أقامت الحكومة منطقة صناعية ضخمة تضم ٥٠ مصنعا صغيرا ، منها مصنع للمبردات الكهربائية وآخر للبلاستيك وثالث للنسيج ومواد البناء . . الخ . . ، والى جوارها عدد من المشاريع الكبيرة مثل انتاج أنابيب النفط ويعمل في هذه المصانع ٤ آلاف و ٥٠٠ عامل منهم عدد من سكان مزاب وعدد آخر من خارجها ، وتقوم أيضا مشاريع الخدمات المختلفة من صحية وتعليمية ، وأصبح في غارداية وحدها ٢٤ مدرسة وبقي « المشكل » المتعلق برفض الأهالي للمدارس المشتركة ، وما زال الازدواج قائما بين التعليم الحكومي والتعليم الديني ! . . .

وعندما التقيت بأحد قيادات الحزب من أبناء مزاب واسمه حنا بكير ، والذي ما زال يرتدي العمامة والسروال المميز ، سلم معي بأن المرأة في مزاب تعاني من الاهمال والتخلف ، وفي الوقت الذي يذهب أبناء مزاب الى آخر الدنيا ، مما يكسبهم معرفة وخبرة واسعة بما يجري في العالم ، فيا زالت المرأة تعيش معرفة محدودة مما خلف فجوة واسعة في الفكر والثقافة بين الرجل والمرأة ، ويترك الرجال زوجاتهم وحيدات في الوادي ويرحلون للعمل رغم ان هناك مثلا يتردد في مزاب مضمونه يرفع من شأن المرأة ، يقول : « ان الحياة صحراء قاحلة ، والمرأة هي التي تساعدنا على قطعها » ، وجاء صوت مرافقي يقول : « ان النساء يعشن حياة غير مجدية فيها عدا انجاب الاطفال ، ومنهن من لا تستطيع أن ترتق جوربا أو تسلق بيضة » . . .

ان آخر ما يتغير في أي مجتمع هي العادات والتقاليد الاجتماعية ، فيقع عبء التغيير على الأجيال الشابة التي تتوجه اليوم للمدارس والمصانع والقوات المسلحة ، وهذه الأجيال هي التي عليها في نفس الوقت الحفاظ على كل ما هو جميل وأصيل في حياة هذا الوادي الذي حافظ أهله على اللغة العربية في أقصى الظروف الاستعمارية قسوة . ■■

مصطفى نبيل

حل مسابقة العدد ٢٨٣



أفقياً

محمد فريد وجدي

رأسياً

الخوارزمي

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : محمد فريد وجدي . ولد ونشأ بالاسكندرية ، وتوفي بالقاهرة عام ١٩٥٤ . أصدر جريدة الدستور عام ١٩٠٧ . وحرر مجلة الأزهر عام ١٩٣٣ . من مؤلفاته « دائرة معارف القرن العشرين » .

(٨) رأسيا : الخوارزمي . رياضي وفلكي اسلامي ، ولد في القرن التاسع الميلادي ، وعاش في بغداد أيام المأمون . أول من ألف في علم الجبر مستقلا عن الحساب والهندسة وهو الذي وضع كلمة « جبر » .

الفائزون بالجوائز

■ الجائزة الأولى وقيمتها ٣٠ دينارا فازت بها : شذى سلمان داود ـ بغداد / العراق

■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : حيدر الشيخ ادريس الامام ـ الخرطوم / السودان

■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فازت بها : سمر محمود أبوسلمى ـ الزرقاء / الأردن

٨جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ بو زمور محمد ـ تطوان / المغرب
٢ ـ أمين محمد عبد الله مقطري ـ تعز / اليمن الشمالي
٣ ـ يوسف راشد محمد ـ المحرق / البحرين
٤ ـ عبد الله أحمد محمد العلي ـ الاحساء / السعودية
٥ ـ ابراهيم محمود علي حمد ـ درعا / سوريا
٦ ـ عادل عبد الموجود ابراهيم ـ طنطا / مصر
٧ ـ نبيل محمود زيدان ـ الفروانية / الكويت
٨ ـ أحمد محمد البكرى ـ أم القوين / الامارات العربية

حالة واقعية



فتاة ترفض جنسها

بقلم الدكتور : محمد عماد الدين اسماعيل

حينما يهرب المرء من جنسه يتصور أنه انتصر ، على مشاعره وعلى الآخرين ، ولكنه يظل في الحقيقة مهزوما بكل المقاييس . .

بدأت الأزمة تشتد بعد أن فرغت من دراستها العليا ، دراستها للماجستير ، وكأنما أزيح الستار الذي كانت تضعه حاجزا كثيفا على مشاعرها وعلى صراعاتها ، أو كأنما بطلت الحجة التي طالما تعللت بها وهي حجة استكمال الدراسة . عندئذ وجدت نفسها في فراغ شديد لا تستطيع أن تملأه ، وأحست بالمخاوف تزحف الى نفسها بشكل بشع . . . . فجاءت تلتمس العلاج .

وما أن جلست على المقعد الذي قدمته لها بجوار مكتبي حتى أحنت رأسها وجعلت تحدق في أرض الغرفة . . . . وبعد فترة من الصمت المحزون سألتها عما سبب لها ما هي فيه من أسى ، وبدلا من أن تجيب اندفعت تبكي في حرقة . . . وانقضت مدة طويلة قبل أن تتمكن من السيطرة على نفسها . . لتقول « انه لأمر فظيع أن يشعر المرء أنه غير مرغوب فيه » .

هكذا قالت أخيرا ثم اندفعت تكمل حديثها .

« قد يبدو الأمر كله سخيفا في نظرك يا دكتور . ولكنني لم أعد أحتمله . . . . لا أستطيع أن أتغلب على هذه الفكرة . . . . اني انسانة لا يرغب فيها أي مخلوق . . . وأهلي لم يعودوا يقبلونني أو يستسيغون وجودي معهم . . . الكل ينظرون الي نظرة اشفاق وترحم . تصور والدتي تقول لي . . . . « أنا غير راغبة في رؤيتك بعد الآن » .

والواقع أن هذا الشعور من ناحية الأم ليس بالجديد عليها ، فلم تكن أمها ترغب فيها فعلا منذ ولادتها . ذلك أنها كانت تفضل أن تكون ولدا ويقال انها صرخت في وجه الحكيمة عندما علمت بالحقيقة المرة قائلة : « ابعدوها عني ، انني لا أريدها » ويقال أيضا انها استمرت أسبوعا بأكمله ترفض ارضاعها . . .

ولقد وصل الامر الى الذروة الآن عندما رفضت « نادية » الخطيب السادس في عمرها الطويل البالغ الآن ثمانية وعشرين عاما .

ونادية فتاة تميل الى الطول سمراء اللون ، جاءت الى العيادة لأول مرة وهي تلبس قميصا أشبه بقمصان الرجال وجيب ضيق ، وكانت تحمل حقيبة ذات حزام طويل من ذلك الصنف الذي يعلق في الكتف ، وكانت دائما تضع في حقيبتها هذه كتابا ، وفي بعض الأحيان « سندويتشات » للطوارىء ، عندما تضطر الى أن تغيب فترة طويلة عن المنزل : في العمل ، أو في السينما ، أو في زيارة احدى

صديقاتها ، أو في رحلة مع أصدقائها وصديقاتها . .

ونادية هي البنت الأولى بعد ذكر في أسرة مكونة من أب وأم وخمسة أبناء ، أما الثلاثة الآخرون فهم بنتان ثم ولد .

دعوها تفعل ما تريد !

أما الأب فهو رجل طيب من الطبقة الوسطى كان يعمل موظفا باحدى الوظائف التعليمية ، كما أنه كان يشتغل الى جانب ذلك بالكتابة والتأليف . وكان الرجل غير موفق في حياته الزوجية ، فقد كانت زوجته بسيطة التعليم من الريف . وكان قد تزوجها على الطريقة التقليدية ـ ارضاء لرغبة والديه . والخلاصة أن الأب كان منقبضا في علاقاته الجنسية . ولقد وجد في تقريب ابنته منه اشباعا جزئيا لدوافعه المكبوتة ، وتعويضا عن عدم التوافق في حياته الزوجية الى حد ما .

كان الأب شديد الاهتمام بابنته شديد الرعاية لها ، شديد التدليل . كان بمجرد دخوله المنزل يسأل عنها ، ويأتي لها بالحلوى ، ويحملها بين ذراعيه . . . وكانت هي تندفع اليه مرحبة به . وكانت تنتظر حضوره بفارغ الصبر حتى ترى مفاجأة اليوم . . . وكان كل يوم مفاجأة بالنسبة لها .

كان لها مركز ممتاز عنده حتى ان اخوتها اذا أرادوا شيئا كانوا يتحايلون عليها أن تطلبه هي من والدها حتى يضمنوا تحقيق طلبهم . . . واذا غضب كانت هي التي تصالحه . . . . وكثيرا ما كان يتشاجر مع زوجته ويمتنع عن تناول الطعام معهم ويتعزل ، فكانت اذا دخلت عليه حجرته لا يستطيع أن يرفض طلبها فكان يقوم معها وكأن شيئا لم يكن ، فيجلس معهم على المائدة مرة أخرى حتى لا يغضبها ، أو يكدر خاطرها .

كانت هي التي تعد له ملابسه وهي دائما التي يناديها اذا أراد شيئا : كوب ماء أو سؤالا عن شيء لا يعرف مكانه . . . هي التي كانت تتلقى الرسائل التي يتركها أصدقاؤه ، وهي التي تسارع بابلاغها له عندما يحضر الى المنزل . .

ولكن هذه المزايا لم تكن بغير ثمن . . . . كانت هذه العلاقة بين البنت وأبيها مثار الحقد والغيرة من الجميع ، وأولهم الأم التي كانت تعمل شعوريا أو لا شعوريا على منع مثل هذا التجاوب . وقد كانت تلجأ في ذلك الى استخدام جميع الوسائل التي تحت أيديها . فقد كانت تتحدث الى الأب بصراحة أمام البنت في أنه يدللها أكثر من اللازم ، أو أنه يعمل على افساد أخلاقها ، أو غير ذلك من التبريرات التي تعبر بها عن احتجاجها على مثل هذا التصرف من ناحيته .

وعندما كانت البنت تذهب اليه شاكية تصرف أحد أفراد العائلة نحوها ، كان يثور ويقول لهم : « أنا قلت لكم الف مرة ! نادية هذه ، اتركوها وشأنها ، تعمل ما تريد » .

كان يصطحبها معه عندما تطلب اليه ذلك حماية لها من أعضاء الاسرة فكانت تذهب معه الى اللجان التي يجتمع فيها بزملائه أو أصدقائه . . .

وكان ذلك يزيد من غيرة الأم . . فكانت تعمل على التقليل من شأن ابنتها . . . . كما كانت تفضل عليها أخاها عند النزاع بينهما . كانت تحتقرها وتتهمها بالاوصاف الوضيعة وغير ذلك لأقل هفوة أو خطأ تقع فيه . . . . معبرة في ذلك عن عدوانها غير المباشر نحوها . كانت تسخف لها زينتها أو تحرمها عليها أو تمنعها من الوقوف أمام المرآة مدة كافية أو تتهمها بالقبح أو تعيرها بنقائص خلقية في شكلها أو منظرها أو قوامها :

لماذا تتجملين ؟ شعر رأسك كالليف ، وعيناك كعيني القرد ، وجسمك مصمص .

لم تكن صلة نادية بوالدها سوى رمز للقيام بدورها الجنسي كأنثى . ان أباها يمثل أحد أفراد الجنس الآخر . . سلوكها نحوه وعلاقتها به وحريتها كأنثى في التعبير عن نفسها . . . كل ذلك كان مصدر السخط عليها ، وكان في الواقع هو السجن الذي أرادت أمها وكل من حولها أن يضعوها فيه .

صار جنسها عبئا

في البداية لم يكن هناك فرق بينها وبين أخيها ، كانت تلعب مع أصدقاء أخيها ، وكانت تنزل معه وكانت تلعب بألعابه . . . . ولكن الأم بحكم غيرتها وبحكم تفضيلها له . . . كانت تصب عليها جام غضبها :

ـ ماذا تظنين نفسك ، أنسيت أنك بنت ، لا ولد .

بهذه العبارة مثلا كانت الأم تلومها عندما تتأخر في



الشارع ، أو عندما تعتدي على ولد في الشارع أو عندما تطلب أن تنزل مع أخيها لتلعب أيضا كبقية الاولاد .

وكانت الأم تستعين بالتهديد بشتى الوسائل والطرق لتخويف ابنتها وتحذيرها من اللعب مع الأولاد ..

رأتها مرة تضحك مع الخادم في المنزل فضربتها ضربا مبرحا أحست معه البنت أنها قد أهينت .

وفي احدى المرات اشتبكت مع أخيها بالضرب وكانت تتحرش به في مناسبات عديدة .. وكان في هذه المرة من أجل لعبة من ألعابه ، أرادت أن تأخذها منه فذهب ليشتكي الى أمه فما كان من الام الا أن أخذت تضربها حتى شجت رأسها ولم تكتف بذلك بل طلبت منها أن تقوم لتساعدها في المطبخ ولما احتجت بأنها تريد أن تلعب قائلة بسذاجة الاطفال : لماذا هو يلعب ، وأنا أشتغل ، ردت عليها الأم قائلة : « هو ولد ولكن أنت بنت » .

في احدى المرات كانت تلعب « الاستغماية » مع بقية الأولاد في المنزل ورأتها أمها وهي في الدولاب مع أحدهم ... وكانت الطامة الكبرى .. لقد نعتتها الأم بشتى النعوت القبيحة وأخذت تبالغ لها في وصف ما يمكن أن يترتب على بعض الأمور كالاختلاء بالذكور أو التقبيل أو اللعب مع الذكور .... فتصور لها أن ذلك يمكن أن يترتب عليه أمور : خطيرة وأضرار سيئة لا يمكن تلافيها .

- « شرف البنت كالزجاج اذا انكسر لا يعاد اصلاحه » .

لقد أصبح جنسها عبئا عليها ... أصبح سجنا تريد أن تتخلص منه ...... انها تنكره على نفسها ، وأخوها يتميز بسببه عليها .... كان الاهتمام الأكبر في الواقع بالولد في الأسرة ... وكانت تجد هي ذلك في فرص ومناسبات متعددة . الأم كانت دائما تعينه عليها في شجاره معها ... والأب ... حتى الأب الذي كانت تعبده كان يصب اهتمامه على الولد من نواح أخرى ، كان يهتم بمستقبله ، بمذكراته .... وباعطائه حريات أكبر في الدخول والخروج ...

وكبرت نادية ووجدت أن أباها قد انقلب فجأة من والد محب مقدر ، الى شخص غير مبال ، وان كانت تختفي تحت عدم المبالاة هذه بعض مشاعر العطف أو العاطفة المستترة التي لا تريد أن تعبر عن نفسها ، كما تعودت منه تعبيرا صريحا غير ملتو ..

أرادت أن تقبله مرة كعادتها ولكنه أشاح بوجهه عنها قائلا :

- «انت كبرت دلوقت يا نادية خلاص ... لست صغيرة» ..

وكانت أول صدمة لها من الوالد ، من المحب الأكبر ..

جاء مرة وسأل عنها وهي في سن الرابعة عشرة .. فقالوا له انها لا تزال تلعب ... فغضب منها ولأول مرة يهددها بالخصام .. وضاع آخر أمل لها في حياتها ... وضاع آخر ملجأ كان يمكن أن تكتسب منه حريتها .... ووجدت نفسها أمام انكار من الجميع ، ورفض من الجميع ... الاولاد لم يصبحوا متقبلين لها كما كانوا ، وأخوها بالطبع أخذ يتهرب منها ويذهب الى أصحابه ولا يرضى أن يصطحبها معه ... وأمها من قبل أنكرت عليها كل تعبير جنسي ... والآن أبوها ..

وكان هناك مصدر وحيد لشعورها بتفوقها ، وانتصارها على أخيها ، واحتفاظها بحب والدها . . . وذلك هو الدرس . . . المدرسة . . . كانت وهي طفلة تشاهد والدها وهو « يزعق » لأخيها لكي يستذكر دروسه . . . وكانت تجد في ذلك فرصة أخرى لجذب انتباه الوالد والحصول على رضاه . . . فكانت تستذكر دروسها وتجيء اليه تقول « سمع لي كذا يا بابا» وكان يستجيب لها ويعجب « بشطارتها » وكان يعير أخاها بذلك .

وجدت البنت ، التفوق الدراسي فرصة وحيدة أمامها الآن . . فأخذت تلعب بهذه الورقة بكل امكانياتها . . . حتى لقد تفوقت كثيرا في القراءة واللغة وكان هذا يعجب والدها ، وكانت تساعده في عمله وكان هو يشجعها على ذلك . .

تقمص الأب والأم

وتقمصت البنت شخصية والدها تماما . . . وأصبح المجال الأكاديمي هو منفذها الوحيد . . . . ولكن الصدمة الكبرى كانت هذه المرة في تخلي والدها عنها . . . . فعندما أصبحت في سن السادسة عشرة ، صمم على أن يخرجها من المدرسة لكي يزوجها . . . مرة أخرى تخلى عنها والدها . . . قاومت كثيرا ولكنها لم تستطع ، وعانت الأمرين من علاقتها بخطيبها . . . . كان في سن قريبة من سن والدها . . . كان رجلا يشبه في صورته الوالد تماما بالنسبة لها . . . الوالد ذلك الشيء المقدس الذي كانت لا تستطيع أن تقترب منه والذي عانت من غيرة والدها من علاقتها به ما عانت . كانت تشعر باختناق شديد كلما اقترب منها . . . وتمنت له الموت .

ولعبت الأقدار دورها . . . لقد مات الزوج قبل أن يدخل بها . . . ومات الوالد . .

وشعرت البنت بذنب شديد . . . كاد يمزق كيانها وكان خلاصها هو أن تستمر في دراستها . . الشيء الوحيد الذي كانت تستطيع فيه أن تجد عزاءها وتفوقها وتغلبها على مشاعر النقص والذنب .

وأصبحت نادية بينها وبين نفسها ، ودون أن تدري ، تقف من الرجل موقف المنافس . . . الرجل شخص غير مأمون . . الرجل يخون . . . الرجل يهجر . . . الرجل منافس . . . معاني اكتسبتها كلها من علاقتها بأخيها وبأبيها وبالأولاد في الشارع ومن أمها ومن التحذيرات التي كانت تحذرها بها :

« الرجال كالذئاب معاشرتهم تعب ونكد . شرف البنت كالزجاج اذا كسر لا يعاد اصلاحه » .

وأصبحت دون أن تدري تصاحب زملاءها في الجامعة كما لو كانت ولدا مثلهم . . . ولكن بمجرد أن يقترب منها أحد أو يغازلها أو يطلب يدها . . . يصبح رمزا لكل هذه المعاني القاسية ويصبح مخيفا مزعجا . . . وأصبحت ترفض الزواج بشتى العلل دون أن تدري لماذا ؟

وأصبح لها ولع شديد في اجتذاب الأولاد نحوها بروحها الاجتماعية اللطيفة الجذابة . . . ولكن لكي ترفض بشدة بعد ذلك أي خطوة أخرى . .

وأصبحت تتلذذ من ذلك . . . وأصبحت تتلذذ أيضا من اجتذاب الرجال المتزوجين بخاصة . . . ثم ترفض عروضهم بالزواج منها حتى ولو وعدوا بطلاق زوجاتهم . .

أصبحت تتلذذ بالمنافسة مع الرجال وصرعهم كما كانت تصرع أخاها .

أصبحت تتلذذ بالمنافسة مع الزوجات وهزيمتهن كما كانت تود أن تصرع أمها وتغلبها .

ولكنها أصبحت أيضا تجد نفسها وحيدة بعد ذلك كله خائفة بعد ذلك كله . . . لا نصير ولا معين ، والدنيا كلها اغراء . . . والحياة معركة لا تنتهي . . تشعر بأن لا أحد يتقبلها ، لأنها هي نفسها لا تتقبل أحدا بل لا تتقبل ذاتها وتخاف من الجميع . . . من الرجال ومن النساء معا . .

فالرجل يهجر . . كما هجر الأب . . . والمرأة تقسو كما قست الأم . . . وليست هناك سوى لذة الانتصار على الرجل . . ولكن أي انتصار ؟ . .

لقد اتضح لها أخيرا أنه مجرد وهم . . . سراب تجري وراءه وتلهث . وعندما تتعب أو تنتهي من الجري لا تجد أمامها سوى الفراغ . . . الفراغ القاتل المميت . وأخيرا لجأت الى المعالج . ■■

د . محمد عماد الدين اسماعيل
رئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب ـ جامعة الكويت

لكل مخلوق قدرة على سماع الاصوات تختلف عن الآخر ، فللانسان قدرة تختلف عن الخيول والكلاب .. وهكذا

من أسرار عالم الأصوات

بقلم الدكتور : محمد محيى الدين لودن

السمعيات هو اسم العلم الذي يبحث في كل مايتعلق بالاصوات وسماعها ، ولقد من الله تعالى علينا بنعمة السمع وذكر ذلك في كتابه الكريم ، في آيات كثيرة جاء فيها ذكر نعمة السمع مقدما دائما على نعمة الابصار . فما اكثر من نبغ رغم فقدانه نعمة البصر وما اقل من بلغ ذلك ممن فقدوا نعمة السمع .

والصوت ينشأ نتيجة لاهتزازات ، قد يكون مصدرها جسما صلبا مثل الطبل او غازيا مثل الهواء في الصفارة او سائلا مثل هدير المياه . وتنتشر الاهتزازات في الوسط - الذي هو الهواء في غالب الامر - حتى تصل الى الاذن . ولكن الانسان لايستطيع سماع كل صوت ، فالله سبحانه وتعالى خلق الانسان وجعل حاسة السمع عنده مقصورة على اكتشاف الاصوات الناشئة عن الاهتزازات التي تقع ذبذبتها في النطاق السمعى للانسان ، وهو مابين حوالى ١٦ الى حوالى ٢٠٠٠٠ (عشرين الف) ذبذبة في الثانية . والذبذبة فى الثانية هي وحدة التردد الذى هو عدد مرات تكرار الحركة فى الثانية الواحدة .

بينما خلق الله تعالى الخيل قادرة على سماع الاصوات التي ينخفض ترددها عن ١٦ ذبذبة في الثانية ، ولذا فان الخيل قادرة على اكتشاف وقوع الهزات الارضية المعروفة بالزلازل ، فتصهل منذرة بقدومها ، حيث ان الزلازل تحدث اهتزازات يقل ترددها عن ١٦ ذبذبة في الثانية ، اي تحت النطاق السمعي للانسان .

اما الكلاب فتستطيع سماع الاصوات التي يعلو ترددها على عشرين الفا في الثانية . فترى الشرطة التي تستخدم الكلاب تناديها بواسطة صفارة خاصة لايستطيع اللص او المتسلل عبر الحدود سماعها ، بينما يسمع الكلب صفيرها المكون من ذبذبات تزيد عن العشرين الفا في الثانية .

علم وسيط

والسمعيات علم وسيط بين الكثير من العلوم الاخرى ، يساعد العاملين بها على وظائفهم . فطبيب الاذن يقوم بقياس درجة حاسة السمع . وهناك الآن اجهزة الكترونية تعرف باسم « الاوديومتر » صممها المتخصصون فى السمعيات لكى يستطيع الطبيب بواسطتها

قياس حاسة السمع بدقة تامة . فغالبا ما يعاني المريض من ضعف في السمع مقصور على جزء محدود من النطاق السمعي للانسان ، فيتم بواسطة « الاوديومتر » تحديد هذا الجزء ، وبهذا يستطيع اخصائي السمع ان يصف السماعة المناسبة ، وهي السماعة التي تقوي فقط الذبذبات التي يعاني المريض من عدم سماعها . ولقد حادثت ضعاف السمع الذين يشكون من السماعات التي يستخدمونها ، ففي حالة معينة كان المريض يستطيع سماع الاصوات الغليظة (ذات الذبذبات المنخفضة) مثل الطبل ، كأي انسان آخر ، بينما يشكو من عدم فهمه للكلام الذي يصل اليه كهمهمة لايستطيع تفسيرها . وعلة ذلك ان المريض كان يعاني من ضعف شديد لحاسة السمع بالنسبة للذبذبات التي تزيد عن ٥٠٠ (خمسمائة) ذبذبة في الثانية ، والتي يجب سماعها لفهم الكلام ، بينما كانت السماعة التي يستخدمها تقوى الذبذبات المنخفضة عن ٥٠٠ ذبذبة في الثانية ـ والتي يسمعها هو جيدا بدون السماعة ـ بنفس الدرجة التي تقوي بها الذبذبات الاعلى ترددا . فاذا ما استخدم المريض سماعته تلك اشتكى من دوي طبل في اذنه رغم عدم وجود صوت طبل . وحينما اكتشفت ذلك اعطيته السماعة المناسبة التي تقوي فقط الذبذبات التي يعاني من عدم سماعها ، واصبح سعيدا لقدرته على فهم الكلام بدون دوي الطبل الذي كانت تسببه له سماعته القديمة .

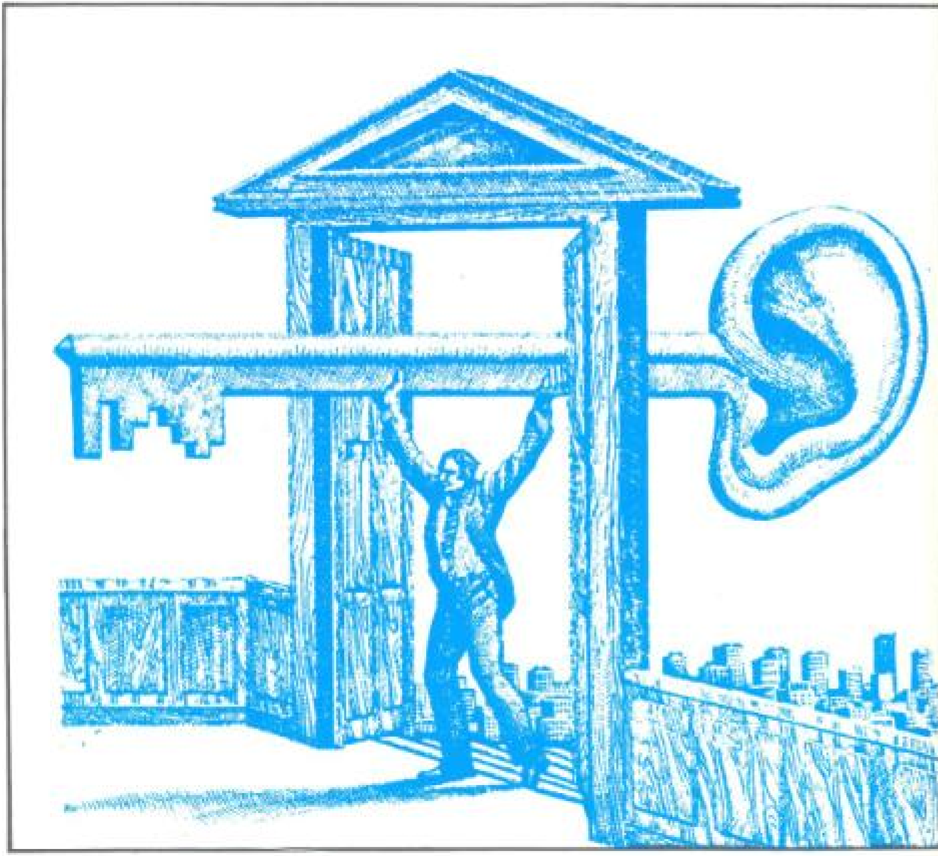
ويساعد علم السمعيات العاملين في مجال هندسة البناء والعمارة ، فمن اهم اسباب انشاء الأبنية هو تواجد الناس فيها ، سواء كانت منازل سكنية أم مكاتب عمل أم مسارح او مدارس وخلافه ، وبما ان الانسان متكلم بطبعه فغالبا مايهم السامع ان ينصت ليفهم مايقال . فمن المهم اذن دراسة العوامل والتصميمات المعمارية التي تجعل الصوت واضحا مفهوما في الحجرات والقاعات . ولهذا فان طلبة هندسة العمارة يدرسون جزءا من علم السمعيات يعرف بسمعيات العمارة . ومن القواعد الاولية التي يجب اتباعها في التصميم المعماري للحجرات كبيرة الحجم مثل المساجد وقاعات المحاضرات عدم بناء الأسطح المحددة للحجرة مقعرة الشكل من الداخل ، وذلك لان الصوت ينعكس عليها بحيث يتجمع ويتركز في مكان معين ، مما يجعل الصوت عاليا عنده بالنسبة للصوت عند الاماكن الاخرى من القاعة : فالقبة مثلا تعطي شكلا مقعرا في سقف القاعة . وللتغلب على مضار تركيز الصوت الناشئ عن انعكاسه على سطح القبة تعلق اسطح من السقف اسفل القبة تكون اشكالها مستوية او الافضل محدبة بحيث ان الصوت ينعكس عندها وليس عند سطح القبة ، وهذا الانعكاس يشتت الصوت بحيث يتم توزيعه بعدالة على الاماكن المختلفة في القاعة .

في ضوضاء العصر

ومع تقدم ركب الصناعة وبازدياد حركة مرور السيارات والطائرات وطرق النقل المختلفة وغير ذلك من مصادر الضوضاء ، وضحت أهمية دراسة السمعيات وطرق عزل الصوت في المباني وعموما فان النوافذ والابواب هي نقاط الضعف التي تتسرب خلالها الضوضاء الى داخل المبنى . وكلما زاد وزن المتر المسطح من زجاج النافذة أو من المادة المصنوع منها الباب زاد عزل الصوت وقلت الضوضاء التي تتسرب عبر النافذة أو الباب بشرط احكام غلق النافذة أو الباب ، أي يجب أن يكون الاطار محكما ولايسمح بمرور الهواء . ويمكن الحصول على عزل كبير للصوت بواسطة النوافذ والابواب المزدوجة السطح ، والتي تتكون من سطحين يفصل بينهما فراغ ومايسري على النوافذ والابواب يسري على الحيطان وان كان وزنها في المعتاد كبيرا بحيث ان عزلها للضوضاء في المعتاد كبير ، ولكن العمارة الحديثة تستخدم حيطانا خفيفة للفصل بين الحجرات ، فيجب في هذه الحالة مراعاة تصميمها مزدوجة السطح ومحكمة الاطار .

ودراسة الضوضاء لمكافحتها والحد منها اصبحت جزءا هاما من علم السمعيات ، بل تكاد تنفصل عنه لتصبح علما بذاته .

ومع ان الانسان قد شعر بمضار الضوضاء من قديم الازل الا انه نسي ذلك او تناساه في العصر الحديث الى ان وصل السيل الزبى ، وأصبح ضعف السمع اكثر اصابات العمل حدوثا في المانيا الغربية نتيجة للضوضاء المرتفعة في المصانع واماكن العمل المختلفة ، حتى ان عدد هذه الاصابات قد زاد عن عشرين الف اصابة في عام واحد . وما احرانا في التفكر في حكمة الله تعالى التي اجراها على عبده لقمان فقال لابنه وهو يعظه : « واقصد في مشيك



واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير » . (الاية ١٩ من سورة لقمان) .

ومهندس الكهرباء الذي يتخصص في الاتصالات السلكية واللاسلكية يدرس علم السمعيات بتوسع ، فمن مجالات عمله الهندسة الاذاعية وهندسة الهاتف . وعليه ان ينقل الصوت سواء كان ذلك عبر الاثير او الاسلاك ، فيجب ان يدرس كيفية تحويل الطاقة الصوتية الى طاقة كهربية ، فتكبير هذه الطاقة الكهربية ، ونقلها الى مسافات بعيدة ، ثم ارجاعها الى الطاقة الصوتية ثانية . ويجب ان يتم كل ذلك بامانة والا حدث تشويه للصوت وصعب بذلك فهمه .

•

وتحديد اتجاهه ولو لم تر مصدره . فان الصوت الذي يصل الى الاذن اليمنى يختلف عن الذي يصل الى اليسرى ، ونتيجة لهذا الاختلاف يستطيع الانسان تحديد اتجاه مصدر الصوت . والصوت المجسم (الستريوفوني) ماهو الا محاولة لتقليد عمل الاذنين : فيتم نقل الصوت او تسجيله عن طريق قناتين منفصلتين للصوت تبدأ كل واحدة منها بلاقط الصوت (الميكرفون) الذي يحول الطاقة الصوتية الى كهربية فالمقوي ، وتنتهي كل قناة بسماعة او اكثر لاعادة الطاقة الكهربية الى صوتية .

فلنحمد الله تعالى ولنشكره على نعمة السمع ، ومن شكره ان نسخر هذه الحاسة لسماع مايفيدنا في دنيانا وآخرتنا ، وان نجنب انفسنا سماع مايضر ومالايفيد . ■■

لقد انعم الله تعالى علينا باذنين لنستطيع سماع الصوت

برلين الغربية ـ د . محمد محيي الدين لودن

العام الخامس

متى يعود الزمن السعيد ؟

بقلم : فريدة النقاش

« هناك خلل ما في مكان ما » هكذا يقول لطفي عبدالله ، البطل والراوي أو بالأحرى اللابطل واللاراوي في قصة قصيرة من أفضل ماكتب في مصر والعالم العربي في السنوات الأخيرة « البطيخة » . . قصة من بين تسع قصص أخرى تضمها مجموعة « العام الخامس » لاسماعيل العادلي ، وهي الكتاب الثاني من مطبوعات خطوة التي صدر عنها في القاهرة « الدف والصندوق » ليحيى الطاهر عبدالله .

والقصة القصيرة في مصر مثلها مثل كل أشكال الابداع المكتوب ، تعاني ازمة عدم تواصل بينها وبين جمهورها ، ذلك ان مستوى جديدا من الكتابة قد نشأ ونضج في السنوات الأخيرة امتدادا وتجديدا لكتابات يوسف ادريس والجيل الذي يليه من صنع الله ابراهيم وابراهيم اصلان ومحمد البساطي ثم يوسف القعيد وجمال الغيطاني واسماعيل العادلي وغيرهم . فأزمة النقد تلقي بظلالها على الابداع وتدفع به - جيدة ومتوسطة الى الغربة والعزلة . . . ذلك هو في الاغلب موطن الخلل . . الكتاب يكتبون والقارىء يقرأ أو لا يقرأ لان المقياس الذي يعتمد عليه هو في مدى قدرة الاعلان على التأثير وليس ذلك الوجود الحي للنقد . . أى للفكر الذي يرشد ويوجه ويضيء عالم الابداع ويقدم لجماهير القراء مقياسا جديدا مستندا الى الجمال لا الى الرواج ، مستندا الى الوظيفة الاجتماعية والروحية الشاملة للأدب لا الى الترفيه السطحي .

وفي مجتمع الاستهلاك حيث يصنع الرواج تتراجع الثقافة أمام الاعلان . . وينحسر الجمال وتختل مقاييسه . ويتحصن النقد والفكر بالاكاديمية اذا استطاع .

تتداخل مساحة القصة القصيرة مع مساحة الشعر ويتكون في الوطن العربي جيل من القصاصين - من المغرب الى بلدان الخليج - يدرك بعمق هذه الحقيقة وتكون خبرته من تمرس طويل مع تراث المقامات ومع الرواد ومع الترجمات التي تنتشر هنا وهناك . وأكثر من ذلك مع احتياج عميق - لدى هؤلاء الكتاب القابلين أكثر من غيرهم للأذى - للتعبير . . للتدفق في اتجاه الحياة بعيدا عن عفن الركود والموت . . وهكذا يحمل المبدعون القصاصون معضلتهم مع النقد ومع افتقاد التواصل الذي يخلقه غياب النقد . . ينشأ الشعر والحزن وتتكثف مفرداته في اغلب الانتاج القصصي الجيد . . وبصفة خاصة في كتابات النساء . . وهذا موضوع آخر . .

من يترك الفلوس ؟

اسماعيل العادلي كاتب مسرحي مقل لأن المسرح ايضا في أزمة . . وقصاص مقل بسبب القضايا السابقة . . كتب مجموعة « العام الخامس » على امتداد سنوات طويلة فجاءت موضوعيا تحمل في صلب مضمونها وحبكتها البنائية هموم هذه السنين .

نحن بصدد راو واحد لا يتغير الا فيما ندر . . ينقسم رجلا وامرأة ، حواديته الصغيرة المتناثرة أقرب الى السيرة تفيض بالبوح الشعري ، ويغلب عليها طابع البناء المسرحي الداخلي . . فالناس يروحون ويجيئون ويتحاورون بنفس الكثافة الشعرية التي يدور بها المونولوج الداخلي ، وقدرة على التقاط التفاصيل الصغيرة الدالة . لكن هذا المونولوج يدور في الخارج ويتحول الى حوار مع العالم وبين الشخصيات وبعضها . . يقوم على السخرية التي لا تثير الضحك وانما مجرد الابتسام ، ولكن تدفع بالمرارة الى الحلق .

« في العام الخامس » محام ناشىء تضيق به وبزوجته

الحياة في مصر يتلقى رسالة من صديق له يعمل في السعودية تدعوه للعمل .. وفي لحظة واحدة عابرة في جملة واحدة مركزة تحمل خبرا ومعنى ورؤية « عقيل بن عبدالله يعلم أنني محام ومع ذلك وافق على توظيفي » يصبح حلمه الكبير تافها بلا معنى .. قابلا حتى للسخرية منه ببساطة .. حلمه خطأ صغير يمكن التجاوز عنه ... « لن اصبح محاميا كما كنت أحلم ، لن أستقيل من الشركة بعد سنوات قليلة ، ثم أذهب الى النقابة وأقسم اليمين ، لن أترافع في القضايا السياسية ، لن أفتح مكتبا في حي شعبي ... »

« المشكلة أنني خائف من شيء غامض » .. وهو لا يستطيع أن يجد اجابة على سؤال زميل له ردا على سؤال زميل آخر « من الذي يستطيع أن يترك الفلوس ويعود الى الفقر مختارا ؟ ومن أجل ماذا بالضبط يعود ؟ » .

تفرح زوجته التي تعاني من وطأة الحياة والديون ... « لقد فكرت في كل شيء ، في العام الأول ستسدد ديون خالتي عايدة وصالح بن عمي ، وفي العام الثاني تؤجر شقة وتؤثثها .. وفي العام الرابع .. قاطعتها ... وفي العام الخامس أموت .... » .

يظل يتساءل ... لا يكف عن التساؤل لماذا لست فرحا ؟

هنالك مقارنة تدور أحيانا بين الانسان والحيوان ، وهي جزئية متكررة ودالة في « الكلب في الظل » يذهب عبده الى صديقه رجب يتخلص من وطأة شيء ما .. أخذ منه سيجارة ، نظر الى وجهه ثم نظر الى الأرض ، وقال انه يشعر أنه كلب ، وأن الفرق الوحيد بينه وبين الكلب أن الكلب يستطيع أن ينبح ويهرول في الطريق دون حرج ... « وكان عبده قبل ذلك واقفا الى جوار أحد المستنقعات الصغيرة ينظر الى وجهه فيها .... »

في « الحصار » يلوذ عالم الحشرات النابغة بعالمها وتتحطم الحدود بين عالمه النفسي ودنيا الحشرات التي كان يبتكر أساليب للقضاء عليها ، ومع ذلك فقد كان يحبها ... يرسل برقية الى زوجته في باريس « أنا محاصر يوشكون على قتلي .. تعالي بسرعة .. في نفس القصة تحدث هذه المقابلة الخفية المرة بين قتل الفلسطينيين ومعركة الدكتور رشاد .... » .... مر بائع الجرائد وكان ينادي بأن قتل الفلسطينيين قد بدأ ..

يبدو الانسان هنا مربوطا الى قوة بهيمية غامضة سرعان ما يتكشف لنا أنها وثيقة الصلة بتفصيلات حياته ووجوده .. فالأبطال تعساء بحكم هذا الواقع والوجود ، حزانى وعاجزون بلا حيلة .. تنبع الرتابة والملل والتكرار من افتقاد هذا الواقع لأي بهجة .. واقع العاهرة والمعجوز والزوجين العاجزين عن الاستمرار في الحياة تحت وطأة الديون والمحاذير .. شاب فقد علاقته تماما بعالم يتكره ، مشروع فنان فاشل في دراسته يسقط الى قاع مجتمع لايعترف بأن الفن قيمة فيصبح حشاشا وسكيرا يعيش على ماتأتي به رفيقته من بيع جسدها .. أبواه عجوزان متهالكان .. عالم مليء بالهزال والسأم على طريقته الخاصة .. طريقة يتكسر فيها المتعارف عليه والثابت فتضيع ببساطة خصوصيته . الرجال يبكون .. الاب يبكي بين يدي ولده في « الوان باهتة » فتتكسر صورة الابوة والبنوة ، الدكتور رشاد النابغة الناجح بكل المقاييس يبكي بين يدي زوجته في « الحصار » فتتكسر صورة الرجل .. لأن زاوية النظر هنا تختلف فليس السأم ولا القرف ولا الاحساس بالهامشية جميعا نابعة من قلب الانسان ذاته ولا هي قضية سيكلوجية بحال وانما تخرج جميعا من قلب حالة اجتماعية حيث الانسان عاجز عن المواءمة بين ذاته الجميلة الطامحة الى الجمال وبين عالم اجتماعي يدوس عليه ويقهره فينسحق الطموح والجمال .

في « سباق الحواجز » يتحايل الزوج مبروك بكل الوسائل لتدبير المال اللازم ليدخل ابنته الى مدرسة اجنبية تدفعه الى ذلك زوجته الريفية « حميدة » واغراء شكل المدرسة التي بها « حديقة كبيرة لها اسوار » ومن المؤكد ان التحاق ابنته بها سوف ينقلها الى مستوى اجتماعي غير ذلك الذي يعيش فيه ابواها .. ينجح الرجل اخيرا وحين يهم باجتياز الحاجز الاخير يجد ان القسط الاول الذي دبره بطلوع الروح جاءه .. مضافا اليه ثمانون جنيها قيمة « اشاعات ، لم انطق بحرف ، ولكني تداركت الامر بعد لحظة حتى لا أبدو كالأبله فقلت لها :

- هل يمكن أن أعود في الغد لتسديد المبلغ .
- بالطبع بالطبع

اشتريت قطعة كبيرة من الحشيش ، وتخدرت تماما ، وفكرت في أنني يجب أن ابتكر كذبة معقولة ابرر بها عدم التحاق رشا بالمدرسة الاجنبية امام من عرف من الجيران ، وعدت الى البيت آخر الليل منهكا ، وعندما سألتني حميدة عن سبب تأخري صفعتها ثلاث صفعات ، ووصفتها بأنها عاهرة وابنة كلب » .

يضرب العالم العبثي بجذوره اذن في الواقع اليومي حيث الناس على الهامش رغم انهم لابد أن يكونوا في القلب ، الحياة تسير كما هي كأنما بدونهم .. تتحلل العلاقات الحميمة وتترك الابطال للفراغ والموت .. يفقدون الاهتمام ويتلقون الضربات وحين يسعى لطفي عبدالله في « البطيخة » لكي يصل هذا العالم الحميمي ..

لكي يواصله تجد أن سعيه هو تتويج للانفصال .. القرار ضمني بوطأة العبث .. لطفي عاجز عن التواصل ايضا ، مدان .. يواجهه انكار قاطع ، انكار لا يطعن في جدواه وحدها وانما في وجوده ذاته .. وبقدر ما يفزعنا هذا التناقض الصارخ والعنيف بين يقينه الحاسم وبين الانكار الحاسم لوجوده .. لاسمه وشكله وهويته وبيته وعلاقاته فانه وباللمفارقة يكون مثارا للسخرية والضحك . لا أحد يعرف أن لطفي عبدالله هو هو لطفي عبد الله .. حتى البطيخة التي دفع فيها سبعين قرشا وصعد الى بيته وبدلا من أن يجد « قدرية » زوجته تخرج له امرأة أخرى « ملأت بجسدها الباب » .. « ولكن هل يمكن أن تتشابه البيوت الى هذا الحد » يتعرض للانكار الثاني حين يلجأ الى جاره لانقاذه فلا يتعرف عليه .

« ولبث برهة في مواجهة الباب المغلق ، ثم عدت الى مقعدي على الدرج أحاول أن أفهم ، طبعا أنا أعلم أن الحياة غريبة ، وأن كل شيء يجوز فيها ، ولكن هل مايحدث الآن من ضمن مايجوز في الحياة ... »

يتعرض للانكار الثالث .. زكريا البقال لا يعرفه « ولكني لا أفلت الفرصة سألته اذا ما كان يعرف الاستاذ لطفي عبدالله ـ الذي هو أنا ـ فاذا به بصفاقة عجيبة يطلب مني أن أسأل المكوجي » .

أما الانكار الرابع والأخير فهو الاجهاز الحق عليه .. يكابد المشقة في الذهاب الى قريته .. الى أمه .. الى بيته الاول وملاذه .. أخيرا هاهو البيت ، الباب المفتوح .. وأخيرا هاهي أمي الجميلة امام الفرن ، كانت تنظر ناحيتي محملقة ، اتجهت اليها صائحا ، أنا ابنك لطفي ياأمي ولكنها قامت تجري مستغيثة ... » .

انها المعزوفة مرة اخرى من ثمانية مقاطع .. معزوفة دائرية .. الانكار الاول في بيته والانكار الاخير في بيته حيث يتوج الخلل والتحلل في اندفاعته الاولى نحو البيت وزوجته « قدرية » كان العقل يعمل بوضوح .. وفي اندفاعته الاخيرة نحو بيت أمه كان القلب يوازن الصيغة الاولى ويضفي عليها الحرارة والألوان « في البدء لم أواجه مثل ذلك في حياتي من قبل ، ولم يواجهه أحد على ما أظن . أن تضيع منك نفسك ، نعم فجأة لم أعد موجودا ، قد تكون مؤامرة استعمارية جديدة ، يجعلون الناس لا يتعرفون على بعضهم البعض .. يشترون دواء معينا في الهواء يفعل بالناس ذلك ويحطمون المجتمع .. أم ماذا ؟ »

هناك خلل ما في مكان ما ؟ نعم هناك خلل أفضى الى هذا التحلل ، أفضى الى صورة من صور اعمال الوعي لدى لطفي عبدالله الذي تعرض للانكار .. الذي بات ـ منذ الآن فصاعدا ـ بلا هوية ولا مأوى .. بلا أوراق ولا اصدقاء ، ولا اسم ضائع في الزمان والمكان معا . ضياع أبدي لا رجعة فيه الا حين ينصلح ذلك الخلل الكامن في مكان ما ، ذلك الخلل الذي ينفي الانسان في وطنه وبين أهله .. ينفي الانسان حتى عن ذاته نفسها والمنطقي أن يسأل لطفي عبدالله بعد ذلك هل أنا أنا ؟ .. ولعله سوف يسأل أيضا اذا ما كان الخلل يكمن في العالم الذي ينفيه ام في نفسه .. لطفي عبدالله هو اختزال لكل الشخصيات المنفية في هذه المجموعة ولكل الشخصيات العاجزة بلا حيلة في الواقع العربي ... ان استغاثة أمه تسدل الستار عن التوافق الذي كان قائما يوما ما بين الانسان وعالمه الحميم ، عالم ضاع الى الأبد ... فلا يقول لنا أحد بعد : متى سوف يعود الزمن السعيد متى ؟ أو بالاحرى متى يتخلص بطل « الكلب في الظل » من هامشيته ومن تلال الاسى ومن تلك القدرة المكتسبة عبر السلبية واللامبالاة التي يساق اليها كالماشية .. القدرة على أن يكون طرفا في حوار ومراقبا له في آن واحد .. ذلك الوعي الثقيل المزدوج بنفس وبنفي نفسي ، ووطأته الوجودية المحسوسة حيث أي شيء يمكن أن يصبح مثل أي شيء .. لابد حينئذ أن يدفع عبده دفعا لهذه الحالة الغريبة .. يرى وجهه في المستنقع .. يتفق مع حبيبته على الزواج في الصباح ويعدل عند الظهيرة « أشعر بحزن عميق يفري قلبي » فالعالم يسير الى مكان ما يدونه .. وتسرح أم مع افكارها وحزنها « كيف اصبحت الحال هكذا ... » حقا ... كيف ؟

لا يمكننا بحال أن نعامل هذه المجموعة باعتبارها العمل الاول لكاتبها لأن مستواها العام أنضج من ذلك كثيرا ، وهذا ما يدعو لتسجيل هاتين الملاحظتين ..

الاولى : خاصة بالانحراف نحو لغة الصحافة التي لا اجتهاد فيها والتي لا تخلو من الاخطاء ، ولكنها تحمل فضيلة الاقتراب العميق ودون حواجز من اللغة الشعبية .

والثانية : اهمال ذلك المستوى الخاص بوعي الشخصيات ومن ثم اهمال مكونات الواقع السلبية والوعي بها فنيا .. صحيح ان العالم الداخلي لها هو وثيق الصلة بكل ما يجري وذلك تأكيد واضافة لنظرة جديدة للعالم ترى أن ما بداخل الانسان هو شديد الالتصاق بخارجه .. إلا أن درجة من السطحية تشوب هذه النظرة نفسها في قصص مثل « ختام يوم من ابريل » و « رغم اننا مازلنا في سبتمبر » و « سباق الحواجز » ■■

فريدة النقاش



السينما في الصين عملاق بلا أفلام

ثورة فكرية ثانية سوف تتيح لمائة زهرة أن تتفتح ومائة مدرسة فكرية تتبارى ، كما قال « ماو » أبو الصين !

بقلم

فاروق عبد العزيز

الرفيق « هونج تشانج » : صورة شائعة للبطل الثوري في السينما الصينية .

« شنت عصابات الكومنتانج الرجعية على منطقة شرقي الصين المحررة هجمات مركزة على نطاق واسع . وقام جيشنا في ميدان شرقي الصين مستندا لمبدأ الرئيس ماو الاستراتيجي الذاعي « لحشد قوات متفوقة لابادة قوات العدو واحدة بعد الأخرى فانسحب تلقائيا بخطوات واسعة بعد أن أحرز انتصارات في المعارك السبع » .

وقد تبدو هذه الفقرة جزءا من بيان عسكري يتلوه مذيع متحمس في اذاعة بكين . لكنه ليس كذلك ! انه ملخص « رسمي » للفيلم الصيني الطويل « من نصر الى نصر » الذي عرض قبيل انتهاء موجة الثورة الثقافية الصينية بقليل (١٩٦٦ ـ ١٩٧٦) .

وهو فوق ذلك « ملخص » للنغم السائد في الانتاج السينمائي الصيني الشحيح ... ملخص تصل نسبته الى ما يقرب من ٨٠٪ من مجمل هذا الانتاج . وهذا يعني أن جل الأفلام الصينية متشابهة وان لم يكن الصينيون متشابهين كما يردد الساخرون الغربيون !

ثم « آه كيو » وهو فيلم آخر قبيل وأثناء ثورة ١٩١١ . وهو يصور المواطن « آه كيو » فلاحا فقيرا متخلفا قليل الحيلة .... ومن خلال القدر الأليم لآه كيو يحدثنا عن القصة المأساوية للفلاحين الفقراء في ظل النظام الاقطاعي كما يشير الى نواحي القصور في ثورة عام ١٩١١ .

هذا الفيلم هو « القصة الحقيقية لآه كيو » أحدث فيلم روائي صيني عرض بمهرجان كان السينمائي هذا العام (مايو ١٩٨٢) .

وما بين « من نصر الى نصر » و« آه كيو » وبين مئات الأفلام التي تشكل تراث السينما الصينية منذ انتصار الثورة في عام ١٩٤٩ يمتد خيط واحد يربط عالما واحدا هو : الثورة ، البناء الثوري والذكريات الثورية والمنجزات الثورية .

الغطس الثوري والصناديق الصينية

في فيلم « الشروق الأحمر » (١٩٧٠) يخاطب معلم الغطس المتمرنين الصغار قائلا لا بد أن يكون الغطس ثوريا والا فلا غطس ! .. كل ما عدا الغطس الثوري باطل ولا يلتزم بفكر الرئيس ماو . وكان المعلم يعني بذلك ـ أمام جمهور مستجيب من الصغار فاغري الأفواه ـ أن الغطس الصحيح هو « الغطس الثوري » !

ويستطيع نقاد السينما الصينية أن يجدوا مئات الأمثلة على شاكلة الغطس الثوري في الأفلام الصينية . وهذا يعني أنها أفلام متشابهة كالصناديق الصينية الشهيرة ما ان تفتح الأول حتى تجد الثاني بداخله وما إن تفتح الثاني حتى تجد الثالث بداخله وهكذا .... أفلام وهي ليست بأفلام ! . الفيلم السينمائي هنا مجرد مادة خام تنقل أفكارا ذات طابع دعائي وتعليمي مباشر .

وكما أن الصناديق الصينية صينية خالصة فان الرؤية السينمائية الصينية (إن جاز التعبير) صينية خالصة أيضا . فهي لا تستند الى نظرية واضحة محددة المعالم ولكنها تنطلق من أردأ أفلام الواقعية الاشتراكية السوفيتية في الثلاثينات أو ما أطلق عليه بعض النقاد « أفلام المحراث والأغنام » وهي أفلام لا حياة فيها تتناول أناسا سعداء دائما مبتسمين أبدا في وجه التاريخ والمحن راضين ومتناضلين في سبيل المجتمع الاشتراكي الأمثل .... وهي أفلام فرضها أتباع قوميسار الفن (أو مدير عموم الفن في الحزب الشيوعي) جدانوف الذي فسر دور الفن باعتباره « مطية للدعاية الحزبية » .

وتقوم الرؤية الفكرية لدور السينما في الثورة الصينية على نفس الدعائم التي تقوم عليها مثيلتها في الثورة الروسية (١٩١٧) : عبارة لينين الشهيرة .... « السينما هي الأهم بين الفنون بالنسبة لنا » واعتبار السينما سلاحا بيد الطبقة العاملة تناضل به في سبيل انتصارها . ولكن خصوصية الرؤية الصينية تأتي من توجيه لماوتسي تونج حول ما يجب أن تنطلق منه الافلام .. « ان تمزج بين الواقعية الثورية وبين الرومانسية الثورية » ... ولا غبار حول مضمون هذه العبارة إلا في غموضها عندما طبقها السينمائيون الصينيون . فقد خضعت لتفسيرات شتى ـ داخل اطار الرقابة الحزبية الصارمة ـ وكانت النتيجة « أفلاما » ليست لها علاقة بفن السينما (ويبدو أن هذا هو ما كان يريده بالضبط قوميسارات الفن في الصين باعتبار أن الفن هو نشاط بورجوازي ما لم يجند مباشرة للدعاية الثورية) . وفي الوقت الذي أثمرت فيه الرؤية السوفيتية المبكرة للعلاقة بين الفن والثورة أفلاما وتجارب عظيمة كتلك التي أثمرها ايزنشتين وكوليشوف وفيرتوف



من فيلم « الزلزال » : صورة تجارية مشوخة عن الزلزال الأميركي .

وبودوفكين وغيرهم ، لم يحدث أن تذكر أحد من صناع الأفلام الصينيين الذين انفردوا بتصور خاص دفع المتحمسين والمهتمين بالتجربة الصينية بالسينما الى الربط التلقائي بين الأفلام الصينية وبين الصناديق الصينية .

ابتسامة شباب الشرق الأحمر

واذا كان عرض بعض ملخصات « من كتيبات رسمية » للأفلام الصينية يخدم هنا بقدر الامكان في التعرف على النغم السائد في السينما الصينية الا أنني آمل أن أتمكن من اضافة بعض الرتوش الى هذه الصورة الكلية .

خذ مثلا الصراع الدرامي في الأفلام الصينية . إنه ليس صراعا دراميا بالمعنى المفهوم في الفن الجاد منذ أيام ارسطو . انه صراع يشبه الصراع في المسرحيات الأخلاقية في العصور الوسطى . فهؤلاء هم الأبطال الأخيار المفعمون بحيوية الشباب (والقلوب الشابة اذا كانوا شيوخا) وهم أعضاء في الحزب أو في سبيلهم الى ذلك ، مبتسمون وسط الأهوال متفائلون تراهم دائما يواجهون الكاميرا وأبصارهم تتجه صوب الأفق يرتدون اللباس العسكري أو الفلاحي أو الصيني البسيط ولا يخالجهم أدنى شك في النجاح والانتصار . . . . هؤلاء الأخيار ينازلون الأشرار الجبناء اللذين يعكسون نقيض الأخيار ، في حومة الوغى أو في أي موقع كان ، وينتصرون . وبوسعك أن تتنبأ بنتيجة الصراع منذ الدقائق الأولى . وبالطبع لا بأس أن تتنبأ حتى في فن البورجوازية ولكننا ونحن نتنبأ في كل مرة نتعرف إلى زاوية جديدة للحقيقة بينما في الفيلم الصيني لا توجد سوى زاوية واحدة لحقيقة واحدة جهد السينمائيون الصينيون لتثبيتها خلال الثلاثين عاما الماضية : « انتصار الحزب على أعدائه » .

في أزمنة الثورة يكون « محتما » على السينمائيين والفنانين جميعا ، استيعاب ضرورة الثورية والتعبير عنها . وقد يبدو التعبير في البداية فجا خشنا مباشرا . . . ولكن لا بد له أن يتطور خاصة مع ظهور عبقريات فنية وفي مناخ من الحرية النسبية (يسمى أحيانا مناخ النقد والنقد الذاتي في الدول الاشتراكية) . . . يتطور الى أعمال فنية حقيقية باقية . . وهو أمر لا يمكن القول حتى الآن بأنه حدث في السينما الصينية .

وهكذا نجد أنه خلال الأعوام الثلاثين الماضية لم يطرأ أي تبدل نوعي على عناوين الأفلام مثلا . فكلها مشتق من الفعل « أشرق » فهناك « الشرق أحمر » . . . « الشروق الكبير » . . . « الشروق العظيم » . . . « اشراقة الجبال » . وكلها مصطبغة باللون الأحمر « الفجر الأحمر » . . . « البراعم الحمراء » . . . « الجسر الأحمر » . . . وتلعب على مترادفات الفعل « ثار » (العائلة الثورية) . . . . ولا بأس من اضافة صور الربيع والشباب والأزهار لكي تكتمل لوحة التفاؤل المطلق !

واذا كان هذا التفاؤل مطلوبا في وقت من الأوقات كدافع ايجابي إلا أن الاسراف في تصويره جعل الأفلام الصينية تبدو كما لو كانت خيالات ممسوخة عن واقع لا حياة فيه كما جعل بساطتها السينمائية والفنية مرادفا واضحا للافتقار الى الموهبة والى الخيال والأهم من ذلك الى الصناعة السينمائية ذاتها .

المرأة الرومانسية والمرأة الواقعية !

ولكن أين تقع المرأة في الأفلام الصينية ؟

تقع حيث تقع في صين الثورة . فقد صدر قانون يقضي بتحريم عمل المرأة في التخديم وتحريم ممارستها للدعارة . وقد أعاد هذان القانونان كرامة المرأة اليها ومن ثم كرسا جهدها للمشاركة في عملية البناء الاجتماعي .

في فيلم « قربان العام الجديد » الذي عرض منذ أربعة أعوام في مهرجان برلين السينمائي ـ نتعرف الى زوجة هسيانج لين الفلاحة التي يموت زوجها وتضطر الى العمل خادمة لدى أسرة « لو » الكبيرة الغنية وعندما تتقلب بها الأحوال تبيعها أسرتها لكي يتزوجها رجل آخر سرعان ما يموت . وبعد موت ابنها الوحيد منه تعود الى الأسرة لكي تطردها الى الشارع لتموت من شدة البرودة صبيحة العام الجديد .

أحداث الفيلم تدور بالطبع قبل الثورة . وهي تقدم صورة سلبية للمرأة التي تستسلم لأقدارها التعسة دون أية مقاومة . وقد أعطى نقاد الأدب صفة المرأة الرومانسية لهذا النوع من الشخصيات .

تعال نلتقي بشخصية واقعية ايجابية تقف على النقيض من زوجة هسيانج لين . إنها شخصية المرأة ايكولي في فيلم « الزهرة الحمراء في جبال تين شان » . الأحداث تدور في كوميون في عام ١٩٥٩ . وهو العام الأول بعد تأسيس الكوميونات . وإيكولي عضو الحزب « وقد انتخبت قائدة فيلق في الكوميون لأنها تحب الحزب والتعاونية وتملك الشجاعة للنضال ضد كافة القوى الشريرة . غير أن هذا التطور المشجع يثير حنق وغيرة الطبيب البيطري عدو الطبقة العاملة هاسمو ابن مالك القطعان الرجعي الذي يقرر التخلص من إيكولي . . « وعبر جسر الصراع بين الحق والباطل نتعرف على الشخصيات الأخرى التي تناصر إيكولي من بينها زوجها « أشال » الذي يحمي نضال زوجته وينتهي الفيلم بانتصار قائدة الفيلق المحبوبة .

وهكذا نرى ان صورة المرأة « البطلة » تشابه تماما صورة الرجل « البطل » ولكن مع فارق جوهري في السينما كما في الواقع . فارق بين المرأة السلبية والمرأة الايجابية وهو نفسه الفارق بين وضعيتها في صين ما قبل الثورة وما بعدها .

« التوائم لم تأت أزواجا » : اتجاه السينما الصينية نحو تناول موضوعات معاصرة .



ولعل من أهم ايجابيات التعامل مع المرأة في السينما الصينية هو تحريم القبلات أو تناول موضوع الجنس على الشاشة . الأمر الذي ساهم بالتأكيد في تكريس كرامة المرأة على الشاشة في نفس الوقت الذي عكس فيه جانبا من نوعية الأخلاقيات السائدة في الصين المعاصرة .

القبلة والطريق الى الغرب

ولأن الصين ظلت ـ باختيارها ـ معزولة عن العالم الغربي لأكثر من ربع قرن (منذ عام ١٩٤٩) فقد عاشت السينما الصينية (على الرغم من تخلفها الفني) بمعزل عن أسوأ ما يمكن أن تصيبها به السينما الغربية : « الجنس والعنف » . وأسوأ ما يمكن أن يحدث في حالة أي انفتاح على الغرب هو أن يحاول الداعون اليه تصوير الغرب بأنه صورة من صور المدنية الفاضلة وجسر الى الحضارة والتمدين ! وأكثر ما يثير الرعب في هذه النظرة هو اهتزاز الاحساس لدى الفنانين والكتاب الصينيين بعظمة وثراء حضارتهم الممتدة لآلاف الأعوام .

وقد شاهدت فيلما أميركيا منذ عام بعنوان « من ماو الى موتسارت » (فاز بجائزة أوسكار كأحسن فيلم وثائقي) عن رحلة عازف الكمان الشهير ايزاك (اسحاق) شيترن الى الصين كل من التقى بهم يتحدثون عن الخراب الذي ألحقته (الثورة الثقافية) . . . (وعصابة الأربعة) بالثقافة في الصين .

هذا عظيم ولكن الأهم من ذلك هو أنك ترى أمامك شعورا مجسدا بعقدة نقص شديدة تجاه الموسيقى الكلاسيكية الغربية كما لو كان التخلف عن تخلفا جوهريا عن اللحاق بركب الحضارة الذي يقوده الغرب . إن هذا الفيلم الأمريكي يقول للمثقفين الصينيين أنه لا جدوى من حضارتكم ولا من ثقافتكم ولا من ثورتكم لأنكم تخلفتم عن فهم عزف موتسارت ! ولعل السخرية الدرامية الوحيدة في الفيلم تبلغ الذروة حين يتعلم الصينيون بسرعة مذهلة عزف موتسارت بدرجة تدهش المعلم القادم من الغرب في إشارة واضحة تدل على مدى تأصل الحضارة فيهم باعتبارها وعاء قادرا على استيعاب الثقافات الأخرى .

وقد طيرت وكالات الأنباء ـ على هذا الطريق نفسه ـ أخبارا في العام الماضي عن سماح المؤسسات السينمائية الصينية بتصوير « القبلة » على الشاشة . . . وهو أمر لا يمكن فهمه الا في ضوء ما رافق موجات الانفتاح الأولى من عقد نقص لا يمكن السيطرة عليها .

وقد تحدث مؤخرا دينج تشياو نائب رئيس هيئة السينما بوزارة الثقافة لصحفي أميركي عن العنف على الشاشة في معرض الدفاع عن الانتصار اليه في السينما الصينية قائلا : اننا يمكننا أن نجد لو شئنا ألفي لاعب كاراتيه من طراز بروس لي بطل أفلام الكاراتيه الراحل لكننا لا نعتقد أن الفنون العسكرية موضوع ملائم ومع ذلك فقد تضمنها بعض أفلامنا حسب السياق .

عملاق بلا أفلام

بدأ انتاج الأفلام في الصين منذ عام ١٩٠٥ وكان موضوع الفيلم حول أوبرا بكين الشهيرة . وفي العشرينات أنتجت بعض أفلام عنيفة من مدرسة الفنون العسكرية وفي الثلاثينات أثناء الحرب اليابانية الصينية والصراع بين تشيانج كاي تشيك والحزب الشيوعي الصيني قام بعض أعضاء الحزب الرواد بانتاج أفلام دعائية اعتبرت مثلا أعلى للمخرجين الصينيين بعد ذلك . وقد كان الثوريون في عام ١٩٣٨ ينتجون أفلاما وثائقية بمعدات يمكن حملها جميعا على ظهر جواد واحد . وكان من بين ما استولى عليه الثوار بعد دخول بكين عام ١٩٤٩ استوديو الأفلام المركزي رقم ٣ الذي كان يديره مخرجو الكومنتانج التابع لتشيانج كاي تشيك . أما استوديو شنغهاي الذي تأسس في عام ١٩٣١ ، فقد تمت توسعته بعد ذلك عدة مرات . هذا بالاضافة الى استوديوهات أخرى تم انشاؤها في مقاطعة كانتون وفي خيان واورمكي وفي مدن أخرى .

غير أنه مع توافر هذا العدد من الاستوديوهات (الذي يعد ضئيلا في بلد بحجم الصين) لم يتوفر انتاج يتناسب مع هذا العملاق البشري . فمجموع ما أنتج حتى الآن (١٩٠٥ ـ ١٩٨٢) لا يصل الى أكثر من ٩٠٠ فيلم روائي طويل ونحو ثلاثة أضعاف هذا الرقم من الأفلام الوثائقية

والعلمية والتعليمية والزراعية والثقافية والرسوم المتحركة . ومع وجود سوق جبارة للفيلم الصيني داخل بلاده يصل الأمر الى حد الدهشة .

ان سبعين مليون صيني يشاهدون الأفلام يوميا . أغلبيتهم من الفلاحين ، وفي رأي يوان وينشو رئيس اتحاد فناني السينما الصينيين « ان الفلاحين يفضلون الأفلام السهلة الواضحة وهذا يتسق مع الثقافة الصينية خاصة الروايات الكلاسيكية الشعبية المعروفة باسم « جانجوى تشيوشو » .... كما أن الصيادين يبرحون بقواربهم كل مساء لمشاهدة الأفلام التي تعرضها قوافل عرض الأفلام .

ولا يدفع الفلاحون أو الصيادون أو غيرهم أكثر من ثلاثة أفلس لقاء مشاهدة الفيلم ، وفي الصين نحو ٨٠,٠٠٠ وحدة عرض سينمائي متحركة . وهو رقم ليس كبيرا على أية حال (قياسا الى تعداد السكان الذي وصل الى ألف مليون نسمة) ومن هنا يمكن جزئيا تبرير قلة الانتاج .

بيد أن هناك رأيا آخر هو الرأي الوحيد تقريبا المتوفر اليوم والذي يقول به كل رؤساء الهيئات والمؤسسات السينمائية الصينية : ان كل التخلف الذي أصاب السينما (والحياة الثقافية الصينية عموما) قد حل فيما بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٦ وهي فترة الأعوام العشرة التي استغرقتها الثورة الثقافية التي تزعمتها زوجة ماوتسي تونج تشيانج بينج والتي حوكمت مع ثلاثة مسؤولين آخرين بعد وفاة ماو فيما وصف بمحاكمة « عصابة الأربعة » .

وعود السينما الصينية

المسؤولون والسينمائيون الصينيون واعون بمشكلات السينما الصينية الماضية والحاضرة .... ولكن الجميع يعلقون كل شيء على مشجب « عصابة الأربعة » التي حالت دون تطوير السينما الصينية الطبيعي من الالتزام الدعائي الى آفاق الفن ....

ها هو مساعد مدير هيئة السينما دينج تشياو يصف الحلقات الأربع الرئيسية التي تهتم بها هيئة السينما الآن :

١ ـ السياسة الفنية : على الهيئة أن تطبق سياسة الحزب في الأدب والفن لتنويع موضوعات الأفلام وأساليبها .

٢ ـ تدريب العاملين : ان كثيرا من المخرجين لم يعملوا لمدة عشر سنوات في عهد « عصابة الأربعة » وكانت النتيجة أن الشبان افتقروا للغاية الى التجربة العملية بينما هرم أصحاب التجارب وهذه فجوة حادة .

٣ ـ التخطيط الشامل : في الصين اليوم ١١ استوديو ولا بد من تنظيم الانتاج فيها .

٤ ـ التحديث : لا بد من تحديث وسائل الانتاج .

ويعترف رئيس الهيئة « سي توهوي مين » بوجود هذه الحلقات ويضيف بأن المشكلات الناجمة عن سوء التنظيم لم توجد فقط بعد عصابة الأربعة بل قبلها ... « فلنكيف علاقة الفن بالسياسة ،ففي الماضي غالبا ما استخدمنا السياسة لتحل محل الفن » .

ويعود دينج الى القول بأن كل الشخصيات التي أبدعت في عهد عصابة الاربعة كان يجب أن تتصف بالصفات التالية : الشخصيات الممتازة يجب أن تكون أفضل من مثيلتها في الحياة الواقعية . كانت جميعا تحاط بهالات القداسة » .

مدير أكاديمية السينما وشركة الفيلم الصيني وشركة الانتاج المشترك والعاملون بالمجلات السينمائية الصينية والمخرجون يتحدثون جميعا عن الديمقراطية في الابداع الفني « نستطيع أن نتكلم عن ذلك الآن . فبدون ديمقراطية لا يوجد فن ... وقد قال ماو « دع مائة زهرة تتفتح ومائة مدرسة فكرية تتبارى » ولكنهم خربوا كل شيء ..

هؤلاء يتحدثون ويعدون بأن تعكس النصوص السينمائية الواقع وبأن يقوم المخرج بالدور القيادي في الفيلم « اذا كان الجميع يتقاضون رواتب من الدولة فلا بأس من تشجيع المجيدين وتخفيض أجور غير العاملين » ـ رئيس هيئة السينما .

« لقد بدأنا وستكون هناك سينما صينية حقيقية ...

ووعود أخرى وتفاصيل أخرى لا يتسع المجال لذكرها .

كل ما نأمله لسينمائي ربع سكان العالم أن يجدوا السينما التي تعبر بفن عن ثقافتهم ... وكل ما نرجوه هو أن تكون وعود السينما الصينية وعودا قابلة للتحقيق . فلا يكفي أن تحيا الثورة الأولى ... فثورة فكرية ثانية ستدع بالفعل مائة زهرة تتفتح ومائة مدرسة فكرية تتبارى !

فاروق عبد العزيز

اقوال من كل مكان

من أسبانيا :

- الاعجاب وليد الجهل .
- النصيحة الطيبة لاثمن لها .
- ابن الجحش ينهق مرتين في اليوم .
- أوقية دم افضل من رطل صداقة .
- دع من لايعرفك يشتريك .
- البقعة لاتسقط الا فوق احسن الملابس .

من ايرلندا :

- الفن خير من الميراث
- جحش يحملك خير من جواد يسقطك عن صهوته .
- الحرص يقطع راس الحظ السيء .
- الخنفساء تعرف اختها .
- لاخطر على الشحاذ من اللص .
- الفاقة خير من سوء الحظ .

من بلجيكا :

- كي تبني يجب ان تملك كيسين .
- ما قيل في حالة النشوة ، قد سبق التفكير فيه .
- من لم يشبع بالاكل لن يشبع باللعق .
- خلقت الاعذار لاستخدامها .
- يجب ان تنظر من فروج الاصابع .
- تهبط الصداقة اكثر مما تصعد .

من ألبانيا :

- الأحماض القوية تأكل أوعيتها .
- ستتقهقر بالقدر الذى تتقدم به .
- لا تسقط التفاحة بعيدا عن شجرتها .
- ذو اللحية ، لايعدم مشطا .
- لاتوجد شجاعة بدون رفيق شجاع .
- القط أسد في نظر الفار .

من الباسك :

- كل شخص يدفع الجمرات قريبا من خبزه .
- عين واحدة تكفى التاجر ، ولاتكفى المشترى مائة عين .
- كل شيء يأتي من عند الله الا الخوف منه .
- « لو كان عندى » و« لو كنت » يتماسكان يدا بيد .
- من تتزوج ذئبا تتطلع دائما صوب الغابة .

السِّيَر الشعبيّة العربيّة

دفاع عن الانسان وامتثال للقدر

بقلم يوسف الشاروني

للسير الشعبية قسمات مشتركه ، تطرح موقفا متقاربا من العنصرية والعدل ومساواة الرجل والمرأة ، والقدر .

من أبرز ما وصلنا من السير الشعبية التي انتجها الخيال العربي وعبرت عن الوجدان العربي : عنتره ابن شداد ، ذات الهمه ، فتوح اليمن ، السير الهلاليه ، الزير سالم ، سيف بن ذي يزن ، حمزه البهلوان ، الظاهر بيبرس ، فيروز شاه ، أحمد الدنف ، على الزيبق . وهذه السير قليل من كثير فليست « هذه القصص التي جاء ذكرها هنا هي كل تراثنا القصصي الاسلامي ، فدور الكتب ملأى بالمخطوطات التي تدلنا على غزارة الخيال العربي وقوته الخالقه » .

ولسنا هنا بسبيل تلخيص هذه السير أو حتى تقديمها فقد أعفانا غيرنا عن القيام بهذه المهمه ، ولكننا نحب أن نوجز بعض ملامحها العامة المشتركة فيما بينها : وأول هذه الملامح أن المضمون في معظم السير قضية من القضايا الاجتماعية أو السياسية تدافع عنها السيرة . فالمضمون الاجتماعي في سيرة عنترة بن شداد يعالج موقف العرب من أبناء الأجناس الأخرى ، ويحاول أن يضع مقياسا اخر يقاس به الناس غير المولد واللون وهما المقياسان اللذان تحدد بها المجتمعات المتخلفة مكانة الأفراد فيها . فعنتره أسير لونه الأسود رغم فضائله التى تؤهله لمركز الصدارة في القبيلة ، فهو فارس شجاع ، وهو في الوقت نفسه شاعر كبير يملك ناصية الفعل والقول معا . وتبلغ مشكلة اللون ذروتها حين يحاول عنتره الزواج من عبله فيحال بينه وبين تحقيق رغبته لأن عبله سليلة أشرف بطون القبيلة ، ويكون منافسه عليها الربيع بن زياد الذي يكافئها في شرف انتسابه . ولكن السيرة تقدمه لنا بصورة ترسم معالم تخنثه ولجوئه الى أساليب النساء في التآمر على عنتره حتى يلجأ ذات مرة الى لبس ملابس النساء للهروب بحياته . فالشرف اذن لا تكفى فيه الصدفة التى تجعل من انسان ما صاحب فضل لمجرد أنه ينحدر من صلب انسان ذى مكانة ومال ، انما هناك شرف آخر ينبع من صفات الانسان وتكامل أقواله وأفعاله .



وبذلك فان سيرة عنتره ربما كانت أول وثيقة فنية تدافع عن قضية الرق والتفرقة العنصرية وتضع حلا لها مطالبة المجتمع الانسانى باتاحة الفرصة أمام الصالحين من أبنائه ليقدموا جهدهم للخير العام دون نظر الى عوامل مفتعله ترفع بعض الناس وتنزل بعضهم الآخر .

وثيقة ضد العبودية

وقضية اللون ملحوظه في كثير من السير الشعبية وكثير من أبطالها سود ، مثل « أبو زيد » في السيرة الهلالية ، وعبد الوهاب » بن ذات الهمه في السيرة المعروفة باسمها . فالأمير رزق والد أبي زيد تزوج من عشر نساء فلم ينجب من واحدة منهن الا ولدا ليس له ذراعان ولا ساقان . وقبيل هذا الحادث غير السعيد كان قد تزوج زوجته الحادية عشرة وهى خضراء ابنة شريف مكه (خضرة الشريفة) - والشريفة هنا لها معنيان فهي نسبة الى أبيها شريف مكة من ناحية ، ولكنها قد تدل أيضا على احتفاظها بشرفها . وقد أسعد زوجها أن يرى امارات الحمل عليها ، وبعث الى الامير غانم رأس بنى زغبه يدعوه ورجاله ليشاركوه الاحتفال بولادة ابنه . فاستجابوا له ونزلوا عليه ضيوفا فى انتظار الحادث السعيد . واتفق للسيده خضره ان خرجت مع الأميره « شمه »

احدى زوجات سرحان أخى زوجها رزق مع جمع من القبائل فرأت طيرا أسود اللون ينقض على سرب من الطيور الأخرى فيقتل بعضهاويشتت البعض الآخر ، فتضرعت الى الله أن يرزقها بغلام يكون في قوة هذا الطير وشدة بأسه حتى ولو جاء أسود اللون ، فاستجاب الله دعوتها . فغضب الأمير رزق ولم يصدق أن الطفل ابنه ، ولكنه أبقى زوجته لحبه لها وان رفض أن يرى الغلام بعينه ، اكتفاء بما سمعه من التي أبلغته النبأ ، وحال بين الجميع وبين رؤيته الى ان كان اليوم السابع وأقيمت الوليمة وأحضر الطفل الى الضيوف فهالهم أن يروا سواده الفاحم ، فأشار أصحاب الأمير رزق بأن يطلق زوجته بعد أن شككوه في أخلاقها فأذعن لهم وطلقها وانتهى الأمر برحيلها هي وابنها الى الأمير فضل رأس قبيلة الزحلان عدو بنى هلال حيث قصت عليه خضراء قصتها فأكرم وفادتها وتعهد ولدها بالرعاية ، حتى اذا شب الغلام بدت عليه امارات الفتوة وأولع بألعاب الفروسيه وركوب الخيل ، وابتدأ يحارب القبائل المعاديه . وكما حدث مع عنتر ، فقد اثبت

أبوزيد رغم لونه أنه يمكن أن يصل الى الصدارة بين أبطال القبائل . ومهدت السيره الى عودة الابن لأبيه فقالت ان بركات ـ وقد أصبح هذا اسم أبي زيد ـ طلب يوما من الأمير فضل جوادا فرد عليه بما يريب في بنوته وان كان لا يقصد اهانته ، فرجع الفتى الى أمه يسألها حقيقة خبره ، فزعمت أن الأمير « فضل » عمه وأن أباه قد قتل على يد هلالي يدعى الأمير رزق . فصمم أن يأخذ بالثأر ويقتل هذا الأمير دون أن يدرى أنه أبوه في الحقيقة . ثم حدث أن هاجم الهلاليون بلاد الأمير فضل زعيم الزحلان فنهض اليهم بركات وهجم على والده وأخذه أسيرا وهم بقتله لولا أن أطلعته والدته على حقيقة الأمر ، وكان هذا بداية التعارف بين الأب وابنه . أما أمير الزحلان فقد أعجب به وزوجه بابنته غصن البان . ومن يوم تلك الواقعه سمى « سلامة » اشارة الى سلامة القوم على يديه وكنوه « بأبي زيد الهلالي » اعترافا بزيادته على الفرسان .

وفي سيرة ذات الهمة نجدها ترغم ارغاما على الزواج من ابن عمها ظالم الذى لا يستطيع أن ينالها الا بأمر الخليفه واجتماع كبار رجال القبيلة عليها ، فتقبل الارتباط به دون معاشرته ، لكنه يستطيع الوصول اليها بعد أن يدس لها خمرا في شرابها ، وحين تنجب ابنها الأمير عبد الوهاب تقع في حيرة عظيمة لأن الولد أسود وابوه أبيض . كما أنها تحب أن تنتسب لأصحاب السيوف ، وولادتها لهذا الطفل يجعلها تنتسب الى عالم النساء . وما تلبث عاطفة الأمومه أن تتغلب في هذه المعركة النفسيه فتحتفظ بابنها وتحاول أن تجعل منه فارسا ، وتقف صامدة في معركة مع زوجها حين يتهمها في عرضها حتى ليحتكم الى الخليفه مرة والى حكيم العرب مرة أخرى . وتظل تحمى ابنها . من الجزء السابع الى الجزء السبعين من تلك السيرة .

ولا شك أن عرض قضية اللون على هذا النحو في سيرنا الشعبيه فيما يبدو تعبير من الشعب العربي عن مشاعره واحتجاج على العناصر الاجنبيه البيضاء التي حاولت أن تفرض تلك التفرقه بين أناس يعيشون في مجتمع واحد ينبغى أن يعاملوا معاملة واحده لا فرق فيها بين أبيض وأسود .

وهذا يؤدى بنا الى القول ان سيرة ذات الهمه لها مضمون اجتماعى كبير لا يقل خطرا عن المضمون الذى رأيناه في سيرة عنتره « فبينما نستطيع أن نسمى سيرة عنتره الوثيقه الفنية ضدالعبودية والتفرقة العنصرية ، نستطيع ان نسمى سيرة ذات الهمه الوثيقه الفنية التي تثبت حق المرأة العربية في المساواة في المجتمع العربي .

ومساواة الرجل والمرأة

ويقوم دفاع هذه السيره عن المرأة العربية على أساسين كبيرين أولهما : ابراز المرأة العربية التي تحافظ على عرضها وتدافع عنه حتى الموت ، وتعرف الوفاء لمن تحب ، والتي ترتفع عندها حاسة الأمومة

حتى تكرس نفسها لها تكريسا يجعلها تذوب في كيان الابن محققة فيه كيانها نفسها . والأساس الثاني مساواة المرأة بالرجل فيما يعتز به من أخلاق وصفات مثل الشجاعة والاقدام من ناحيه والعكوف على التبتل والعباده من ناحية أخرى .

والواقع أن دور المرأة العربية في سيرتنا الشعبية دور بارز يكاد يكون مساويا لدور الرجال ، كل الخلاف أن الرجال يتفوقون كما لا كيفا . فالى جانب سيرة ذات الهمه نجد سيرا أخرى مثل سيرة على الزيبق فيها عشرات الأبطال ولا نجد الا امرأتين أو ثلاثة ومما يثير الانتباه أنهن يتميزن بالقوتين العقليه والبدنيه بل يتفوقن فيهما على الرجال . ففي الملاعيب ـ حيث تتكافأ القوى المتصارعه لأنها جميعا قوى انسانيه ـ نجد أن دليلة المحتالة هي أقدر منافسى على الزيبق على هزيمته فيما ينشب من معارك ، وأمه فاطمه اللبوه ـ وهولقب يدل على شدة الجرأه ـ هي الشخص الوحيد القادر على انقاذه مما يقع فيه من شراك دليله وغير دليلة ، وتستخدم المرأتان في ذلك الذكاء والقوة معا . أما في النقيله ـ حيث لا تتكافأ القوى المتصارعه لأنها بين قوى انسانيه من جانب وقوى غير انسانيه من جانب آخر كالسحر والجن والاماكن المطلسمه أو المرصوده ـ فاننا نجد مرة أخرى ان دليلة هى أقدر الشخصيات على الاستعانه بتلك القوى للايقاع بالزيبق بينما أمه فاطمة أقدر الشخصيات أيضا على ابطال مفعولها .

والمساواة بين الرجل والمرأة تمتد في بعض السير لتشمل حتى التعبير عن العواطف . ففى سيرة مثل السيرة الهلاليه نجد أن سعدى بنت الزناتى خليفه حاكم تونس تعلن حبها دون مداراة لمرعى من قبيلة الهلاليه عندما سجنه أبوها لأنه أتى يتجسس مستكشفا الطريق لحساب قبيلته ، بل ان السيرة أجرت على لسان الزوجات مثلما أجرت على لسان الأزواج مختلف العواطف الحزينه أو الفرحة . فبعد أن تشاجرت عليا زوجة ابى زيد مع الجازية وصممت على العودة الى نجد ، نجد أن أبا زيد حين رآها راجعة تنهد من فؤاد قريح وقلب جريح عظمت عليه المصيبه وقال « لو لم تكن معى عليا في هذه التغريبة ما كنا ملكنا بلد ولا ظفرنا بأحد ولو كنا أضعاف هذا العدد ، لأنى كنت اذا نظرتها وهى في الميدان لا أعود أشبع من الطعان » . وصمم على الرجوع مع زوجته الى نجد لولا ان استعطفه أمراء الهلاليه وعلى رأسهم الأمير حسن الهلالى .

وكانت الجازيه تجلس في مجلس الأمراء والأعيان . وقد تنازل عنها زوجها شكر الشريف بن هاشم شريف مكه لماضى بن مقرب حاكم الصعيد الذى حاول أن يبقيها معه ، ولكن عندما « صممت قبيلة بنى هلال على الذهاب والرحيل جعلت الجازيه تبكى بدمع غزير لأنه لم يكن لها صبر ولا سلوان على فراقهم ساعة من الزمان ، فلما زاد عليها الحال وأكثرت من النحيب والاعوال انزعج ماضى من تلك القضيه وسمح لها بالذهاب معهم الى الغربية » . ونجد أن الزناتى خليفه كان ينسب الى ابنته فيقال « أبو سعده الزناتى » . وعندما طلب الزناتى الصلح وهم الأمير حسن أمير الهلاليه بالموافقه عليه رفضت الجازيه هذا الموقف وابت الا أن يؤخذ بثأر من ماتوا من قبيلتها « وحالا نادت النسوان : دونكم اركبوا الخيل ، ونحن نقهر الزناتى ونأخذ ثأرنا منه . والتفتت الى دياب وقالت له : انزل عن الخضرا حتى أركبها وأقاتل الزناتى . . . فلما فرغت الجازيه من كلامها والأماره يسمعون نظامها فعند ذلك تبادرت البنات الى الخيل وكل واحدة مسكت لجام فرس وقالت لراكبها انزل واركب موضعى فى الهودج وأنا أركب جوادك ، وأما الجازيه فعادت على دياب وقالت : انزل وأنا أركب موضعك وأحارب خليفه . فغضب الأمير دياب وقال لها : لاتقولى هذا الكلام » . وهكذا استطاعت الجازيه أن تثنى رجال بنى هلال عن الموافقه على طلب الصلح وحرضتهم على ضرورة الأخذ بثأر من قتلوا من الهلاليه .

ومعنى ذلك أن المساواه بين الرجل والمرأة في سيرنا الشعبية فى القوتين الفكريه والبدنيه ، وفي التعبير عن العواطف ، قد استتبع بالضروره أن يكون لها كلمة

مسموعة وتأثير على توجيه الأحداث .

أما المضمون الاجتماعي في سيرة على الزيبق فهو نشر العدل بين الناس ومقاومة كل ظلم واستبداد . فهذه السيرة تعكس نظام الحكم التركي أو المملوكي السياسي والاجتماعي في مصر الذي حفل بالظلم والاستبداد . وعلى الزيبق يكافح كل ما يلقاه من عقبات ومغريات في سبيل تحقيق هدفه وهو نشر العدل بين الناس . وهو يقوم برحلته البطوليه ابتداء من أزقة القاهرة حيث ولد ليصبح مقدم درك مصر (يقابل وزير الداخلية حاليا) بعد قتل صلاح الدين الكلبي مقدم الدرك وقاتل أبيه ، ثم يتحرك في طريقه الى الشام حيث يصبح - بعد معارك مشابهه - مقدم درك دمشق ، وأخيرا يصل الى هدفه في بغداد حيث يصبح مقدم الدرك بعد معاركه البطولية مع دليلة المحتاله مقدمة الدرك هناك (لا حظ أن سيدة تصل الى هذا المنصب في مثل هذا المجتمع في خيال القصاص الشعبي) . فالقضية الانسانية في على الزيبق هي « موقف الانسان الفرد أمام مجتمعه الذى يحس فيه أنه لايملك شيئا وأن حقه الطبيعي بحكم كونه واحدا من أبناء هذا المجتمع مهضوم وضائع ، نتيجة لاختلال القيم واهتزاز المثل وتفسخ المجتمع . والقضية في على الزيبق لا تحل بالتقوقع والاستسلام ، انما تحل بالتصدى لعوامل الشر وهزيمتها بنفس الاسلحة التى يتسلح بها هذا المجتمع لتحطيم الفردية » .

عن السياسة والاقدار

وتقودنا أمثال رحلة على الزيبق وتغريبة بنى هلال الى ملمح آخر من ملامح السير الشعبيه . فالى جانب مضمونها الاجتماعي الذى أشرنا اليه سابقا هناك مضمونها السياسي وهو التعبير عن وحدة العالم العربي . فعلى الزيبق يتحرك من القاهرة الى دمشق الى بغداد ثم يعود في النهاية الى القاهرة كما يتحرك الانسان في وطن واحد . والهلاليه يتحركون من نجد الى الشام الى مصر الى بلاد المغرب ويعود منهم من يعود الى نجد فالى المغرب مرة أخرى باعتبار أن كل هذه المناطق تكون وطنا واحدا .

سمة ثالثه نجدها تتميز بها سيرنا الشعبية وتعكس البيئة العقائدية التى نشأت فيها ذلك هو موقف الانسان من القدر . ففى معظم السير نجد ان القدر يعلن بأكثر من طريقه عن خططه المقبلة . فأحيانا يكون عن طريق حلم أو ضرب الرمل أو الاطلاع على كتاب قديم . ومع ذلك فان البطل يجد من يشجعه على الصمود في وجه هذا القدر بدعوى أنها أضغاث أحلام ، ويقوم الانسان بدوره لمواجهة هذا القدر وافساد النبوءة فلا تكون النتيجة الا أن تكون هذه التصرفات عاملا من العوامل المؤديه الى تحقيق النبوءه . ففى السيرة الهلالية نجد أن سعدى ابنة الزناتى عرفت من جاريتها مى التي كانت لها معرفة بضرب الرمل كل الأمور التى ستقع في السيرة ومن بينها حبها لمرعى ، كما أن العلام ابن عم الزناتى خليفة ونائبه في معاملات الأحكام كان قد ضرب الرمل وعرف ما عرفته الجارية وأطلع سعدى عليه فطلبت منه أن يكتم الخبر لا يبوح به لأحد من البشر خوفا عليه من الضرر .

وعندما وصل أبو زيد ومعه يحيى ويونس ومرعى الى أرض تونس ليستكشفوا أحوالها على أن يعودوا ويقدموا للأمير حسن وكبار الهلاليه تقريرهم ووقعوا في قبضة الزناتى فان سعدى ابنته أخذت تعلمهم بسفرهم وما جرى لهم في الطريق بسبب قدومهم الى تلك الديار بهذه القصيدة التى تعبر فيها عن حبها لمرعى كما تعبر فيها عما تعرفه من نبوءة بما سيقع من أحداث :

ضربت تحت الرمل عشرين مره
ومره بعدها شفت الحرف جهار
فعرفتكم وعرفت اسم أميركم
وعرفت أساميكم بلا انكار
ولابد ما تأتى هلال بن عامر
من الشرق في جمع غزار
بأربع تسعينات ألوف عدبدهم
كذا دل الرمل بالأخبار

وحتى في المعارك الصغيرة فاننا نجد أن مصيرها محكوم مرسوم من قبل . فعندما واجهت الهلاليه الدبيسى بن مزيد حاول دياب بن غانم أن يصرعه ففشل ، وحاول الأمير حسن أن يثنيه عن اعادة المحاوله في اليوم التالي ولكن « لما أصبح الصباح ركب الأمير دياب فتقدمت اليه ابنته وطفا وهى تبكى بدموع غزار فتعجب من ذلك وقال لها : اعلميني بما أصابك . قالت : مرادى أن تتوقف هذا اليوم عن قتال القوم فقد رأيت حلما في المنام أصبحت منه في أوهام » ، ثم أنشدت قصيده تروى فيها أنها رأت في حلمها أباها يسبح في بحر من الدم وهو يستغيث بأبي زيد الذى أتى بسرعة ومد اليه يديه فأنقذه . ولكن دياب لم يصغ لمخاوف ابنته باعتبارها أضغاث أحلام ، وعندما تقدم الى المعركة طعنه الدبيسى في فخذه ، ثم أراد أن يقضى عليه لولا أن خلصه أبو زيد .

وأحيانا ما تكون النبوءة لبيان الشدائد المقبله وحفزا للهمم لمواجهتها ، كما حدث عندما واجهت الهلالية قوات التمرلنك (غالبا تيمور لنك) ملك العجم . فقد حلم الأمير حسن بما سيلقاه من أهوال ، كما أن أبا زيد « ضرب تحت الرمل ورسم الأشكال على شرح الحال فشاف الأهوال » . ونتيجة لذلك فقد تأهب الهلاليه وأعدوا قواتهم اعدادا منظما مما أدى الى انتصارهم على قوات العجم .

ودور سعدى في السيره الهلاليه دور فريد ، لأن غيرها يقاوم القدر فيعمل على تحقيقه دون أن يدرى . تلك هى الصورة التقليديه لمثل هذا الموقف حتى في التراجيديا الاغريقية على نحو ما نجد في مسرحية أوديب الذى تنبأ القدر لأبيه بأن ابنه سيقتله ويرث ملكه ، وكانت محاولة تفادى هذه النبوءة هى التى عملت على تحقيقها . أما بالنسبة لسعدى فانها لم تقاوم القدر الذى تنبأ لها بهزيمة بلادها ومصرع أبيها وان كان قد تنبأ لها أيضا بما سينشأ من حب بينها وبين مرعى ، ولعل هذه النبوءة الأخيرة هى التى جعلتها تتقبل حكم القدر بل تعمل على تحقيقه ، وهى في تحقيقها للنبوءة كانت قد حسمت موقفها بين الواجب والعاطفة ففضلت عاطفتها على واجبها .

وهكذا عندما عرف أبوها من المنجمين حقيقة شخصية ابى زيد ويونس ويحيى ومرعى وأراد أن يشنقهم تدخلت طالبة لهم السجن مع الافراج عن ابى زيد ليذهب ويأتى بالفديه لزملائه . فاستجاب لها والدها لشدة محبته لها وهى تعلم جيدا ان هذا لن يحدث لأنه مخالف للنبوءة التى تعرفها . بل ان الهلاليه عندما أصبحوا على أبواب تونس بان لها في الكتب أن الأمير دياب بالذات هو الذى سيقتل أباها . وكانت تعلم أن الأمير حسن زعيم الهلاليه قد نحى ديابا خلف المقاتلين ، فاصطحبت أربعين بنتا من بنات الاماره متقلدات السلاح ، وعبرت سور البلد الى حيث الهلاليه ونصحت الأمير حسن أن يرسل الى دياب لكى يعجل بتحقيق النبوءة ، وعندما ذهبوا لاستدعاء دياب وجدوه يلاعب بنتا صغيرة اسمها نجيه ويقول لها : أين أطعن الزناتى ؟ فقالت له : في عينه . فقال : مبارك وحياتك ما أطعنه الا في عينه ، وهو ما تحقق تماما . وعلى الجانب الآخر نجد أن الزناتى عندما أدرك قرب تحقق النبوءه وانه سيموت على يد دياب أرسل وأحضر ابنته سعدى « وقال لها : يا باغيه ما أحد جلب لنا البلا خلافك ، فلو كان من الأول تركتنى أقتل المحابيس وأبا زيد كنا ارتحنا من بنى هلال ولا نظرناهم وأنا لا أخاف الا من دياب . » وقد تمت هزيمة الزناتى في داخله ـ وبسبب النبوءة ـ قبل أن تتحقق خارجيا . فقد أيقن بزوال عمره ، وكان ينام على فراشه غارقا في الأفكار حتى أنه نادى على ابنته ذات ليله فلما شاهدت حاله بكت وندمت وصارت تشجع والدها على حرب دياب . وقبيل مصرع الزناتى ضربت سعدى الرمل فعرفت أن منية أبيها قد قربت .

وقد عوقبت سعدى على خيانتها لأبيها وبلدها ـ رغم أن القدر تحقق على يديها ـ فان مرعى بعد فتح تونس لم يكترث بتحقيق رغبة سعدى في الزواج منها بحيث بدا أن الحب من طرف واحد ، وفي الوقت نفسه حاول دياب أن يتزوجها فرفضت ، فما كان منه

الا أن حبسها وجعلها تقوم بالاشغال الحقيرة الشاقة مثل طحن الملح ، فلما أرسلت الى الأمير حسن تشكو ما أصابها وتذكره بما فعلته من خيانة لأبيها في سبيل تيسير دخولهم بلدها ، استدعى دياباً وناقشه في سبب تصرفه مع سعدى ، فزعم ان هذا جزاء الخائن « فالتي تخون أباها لا يكون فيها خير لأحد فالواجب اذلالها » . ولسعدى نهايتان مختلفتان فبعض الروايات تجعل الأمير حسن يرغم « دياب » على اطلاق سراحها . ليتزوجها مرعى ، وبعضها يروى ان اتفاقا تم بين دياب وابي زيد والامير حسن على أن تقف سعدى في مكان معين ثم يتسابقون اليها كل على فرسه ، فمن فاز بها فهى له، وكان أبو زيد والأمير حسن يظنان أن « دياب » لن يسبقهما لأن فرسه الخضرا قد صرعت في القتال ، ولكن ابنتها الشهبا كانت أكثر شبابا من أمها ، فسبق بها دياب غريميه وعندما وصل الى سعدى ضربها بالسيف فجرحها جرحا بليغا ماتت بسببه وقبل أن تلفظ أنفاسها لعنت من كان السبب في فراقها عن مرعى وقد تحققت لعنتها بدورها بمصرع الأمير دياب ، وهذه النهاية أكثر فنية ودرامية .

معنى هذا ان مجرد ظهور النبوءة تحطيم للروح المعنويه للعدو ورفع الروح المعنوية للبطل العربي واخوانه مما يعجل بانتصارهم .

سيرة الظاهر بيبرس

وتكاد تكسون سيرة الظاهر بيبرس اجابه روائيه على مشكلة الانسان من الارادة المسبقة . والظاهر بيبرس قدم لهذة المشكله حلا اسلاميا يؤكد ان الانسان حر في تخطيط مستقبله ... لكنه يتحرك داخل اراده أخرى سبقت الى تحديد مصيره وتقرير نهايته . وتظهر هذه المشكله ظهورا سافرا في رسم العلاقة بين جوان (في الجانب الصليبي) وشيحه (في الجانب الاسلامي .)»[١] فقد جاء فيما يمكن ان يكون مقدمة السيرة أن حكيما يونانيا ممن يطلعون على الغيب سجل على صحائف من ذهب « جميع المهالك للاسلام وجميع المسالك الى جوان من مولده حتى انتهاء مدته ، ورتب له كل ما يلزم في سائر البلدان ، حتى اذا ظهر جوان اعتمد على الجان الذين أرسلهم الحكيم يونان في كل مكان ، فلما مات هذا الحكيم وخلفه ابنه ايتان وحكم على الجان وعلم ما يكون وكان ، أحضر اليه الجان الذين أخبروه بما فعل أبوه ، وكان قد هداه الله تعالى الى الاسلام فأسلم ، فكتب لكل مهلكة عملها أبوه مسلكا ، ثم أرسل الجان الى المهالك التي عملها أبوه وجعل فيها مسالك لنجاة الاسلام ، وجعل ذلك في صحائف من الفضة ، وقرنها ببعضها في ذلك الكتاب وسماه « كتاب اليونان » . وقد كانت هذه الصحائف المذهبة والمفضضة بمثابة لوحة المقدور لشخصيات السيرة . وكان وجودها عاملا من عوامل تنفيذها ، فقد اطلع جوان على هذه الصحائف وعلم أن عدويه شيحه والظاهر بيبرس ، فعمل على محاولة التخلص منهما ، وفعلا قبض على شيحه وهو ما يزال غلاما في أحد كتاتيب غزه ، ولكن عم جوان أشفق عليه وطلب منه التمهل حتى يشتد عوده ثم يقتله . وهناك قرأ شيحه كتاب اليونان خلسة وعرف مافيه . ثم يأتي لشيحه خادم من الجان يرشده الى طريقة الخلاص من الطابق الذى كان قد حبسه جوان . وبعد ذلك تسير الاحداث في السيره كما قدر لها من قبل .

وهكذا نجد أن الروح القدريه تسود سيرنا الشعبيه ، وان البشر يمكن ان يعرفوا اتجاه القدر عن طريق وسائل يكشف لهم بها عن وجهه كالحلم وضرب الرمل وصحائف الذهب والفضه ، وانهم قد يتجاهلونه لحظة أو لحظات أو يقاومونه ، كما ان لهم حرية الحركة في النطاق الأضيق ، لكن القدر في النهاية ينفذ ما رسم وما خطط . ■■

القاهرة ـ يوسف الشاروني

---

(١)أضواء على السيرة الشعبية ،ص ١٠٧



طبيب الأسرة

يجيب على هذه الاسئلة نخبة من الاطباء

القلق النفسي

● هل القلق النفسي مرض حقيقي . . أم أنه وهم . . ؟

ـ في خضم الحياة اليومية يتعرض الانسان للعديد من المضايقات والشكوك والمخاوف والرغبات وحتى التهديدات . وكل هذه المؤثرات تكون أحيانا حقيقية وأحيانا أخرى غير حقيقية . ولكنها فقط في خيال الانسان الذي يجب عليه أن يتأقلم مع هذه المؤثرات ويتعامل معها عقليا وبدنيا لأنها من ضمن مكونات الحياة . بل ان الاستجابة لبعض هذه المؤثرات يمكن أن يخفف كثيرا من مشاكل الحياة . فمثلا الحذر الشديد من مخاطر الطريق يدفع السائق للقيادة السليمة . والشعور بأهمية الامتحان يدفع الطالب على الاستعداد له وهكذا . غير أن زيادة هذه المؤثرات في نفس الانسان عن الحد المعقول تدفعه الى حالة القلق . وهذه حالة تسبب العجز عن مواجهة المشاكل الحقيقية . وقد تزداد حتى تسبب الأمراض العضوية ، فيصاب الانسان بالقلق والارق والاضطراب أو التشوش الذهني . وينتهي الى الانهاك البدني ، ويصبح غير قادر على التركيز في عمله . ومن أعراض هذه الحالة التوتر العضلي الذي قد يؤدي الى صداع شديد خصوصا اذا أصاب عضلات الرقبة الخلفية وتزداد ضربات القلب قوة وعددا وهذا يعني زيادة عمل القلب بلا داع مما يؤثر على كفاءته وقدرته على الاستمرار وقد تؤدي هذه الحالة الى توسع في الشعيرات الدموية في العضلات فتتواجد فيها كميات من الدم أكثر من المطلوب . وهي تعتبر في حكم المفقودة ، من الدورة الدموية وهذا أمر يؤدي الى نوبات من الدوخات وربما الاغماء .

ان أعراض حالة القلق لا تدع جهازا من أجهزة الجسم لا تؤثر فيه ، بحيث يشكو المريض من أعراض في كل اتجاه ، تزايد الحاجة الى التبول والغثيان المستمر والقيء والاسهال والامساك وحتى العرق الشديد خصوصا في الأيدي وعدم القدرة على التنفس الطبيعي . ولكن أهم هذه الأعراض هي المبالغة الشديدة في الشعور بالألم .

باختصار فان حالة القلق تضع المصاب بها في مأزق اجتماعي وصحي فهي تؤثر على علاقاته وعمله بلا شك . ولكن المأزق الصحي يكمن في أن الأعراض التي يشكو منها تشابه تماما كثيرا من الأمراض العضوية وهذا يضع الطبيب في حيرة شديدة حين يبحث عن التشخيص المناسب خصوصا وأن استمرار هذه الحالة عند المريض يمكن أن تؤدي الى الاصابة العضوية الحقيقية ، فمثلا القلب الذي يستمر في العمل الشاق لمدة طويلة يمكن أن ينهار في وقت أقصر . بل انه مع زيادة نوبات الضغوط النفسية

الشديدة قد تؤدي الى نوبات قلبية قاتلة سببها انسدادات في الشرايين التاجية التي تغذي القلب . وهكذا في باقي الاعضاء .

ولعل أفضل أنواع العلاج هي مساعدة المصاب أن يكتشف بنفسه الأسباب الحقيقية لقلقه . فاذا استطاع أن يتعرف عليها ويقبلها ويتعامل معها ، فانه سيجنب نفسه كثيرا من المتاعب الذهنية ، ويتغلب على كل عجزه البدني . ولكن اذا كانت الحالة قد أصبح لها مضاعفات عضوية كجلطة في شريان القلب مثلا ، فيجب أيضا علاج هذه الحالة .

لكنه للأسف الشديد أن بعض الناس لا يمكنهم قبول مشكلتهم والتعامل معها . ولذلك يجد الطبيب نفسه مكرها على وصف بعض العقاقير المهدئة حتى يستطيع المصاب أن يتخطى فترة حرجة . ثم يجب الاعتماد على النفس بعد ذلك في مواجهة أسباب القلق .

الأزمات الصحية التي تصيب الجنين

● هل يمرض الجنين وهو في بطن امه .. أم انه في منأى عن الأمراض ؟

ـ تصيب الجنين أزمات صحية تماما كما تصيب أي انسان بالغ ، فالجنين في داخل الرحم كائن حي ، وكل كائن حي معرض لهذه الأزمات الصحية كما هو معرض للموت بسببها أيضا ، ولذلك فان نسبة كبيرة من هذه الأجنة يحدث لها الاجهاض أو الموت داخل الرحم ثم الاجهاض أو حتى بلوغ الاشهر الرحمية العشر القمرية ، ثم عدم القدرة على تحمل ضغوط المخاض .

والأزمات الصحية التي يمر بها الجنين هي السبب في فقدان الأجنة وربما المواليد على الصور السابقة ، وهذه الأزمات تصيب الجنين ربما منذ بدء تكوينه ، فقد يكون التكوين معيبا ، بمعنى أن تكون التركيبة الكروموزومية غير سوية ، ولقد وجد أن أكثر من ربع الاجهاضات كانت بسبب التركيبة الكروموزومية المعيبة ، واذا تكرر هذا الأمر مع أم أو تكرر لها أن تلد طفلا معيبا خلقيا ، فانه يمكن دراسة التركيبات الكروموزومية لها ولزوجها ولأسرتيهما وتقديم النصيحة لتجنب هذه المشكلة .

وقد تكون الأزمات الصحية التي تصيب الجنين منقولة من الأم كأن تصاب بأمراض كالزهري مثلا فينتقل للجنين ، وقد يقتله أو يتركه مشوه الخلقة ، وهذه مشكلة يمكن أيضا تلافيها باجراء التحاليل الدورية أثناء الحمل لاكتشاف هذه الأمراض وعلاجها عند الأم قبل أن تصيب الجنين ، وقد تكون الأسباب منقولة من الوالدين كمرض السكر مثلا وارتفاع الضغط وهذه يمكن علاجها عند الأم ومراقبة تقدم نمو الجنين بحيث يمكن انقاذه في الوقت المناسب .

وقد تكون أسباب الأزمات عرضية جدا كأن تصاب الأم في حادث يؤثر على الجنين نفسه ، على المشيمة أو قد يلتف الحبل السري بحيث ينعقد ويمنع أو يحد من مرور الدم الى الجنين وفي كثير من هذه الأحوال يمكن انقاذ الجنين قبل أن يقضى عليه .

غير أن من هذه الأزمات كلها ما لايكون ضرره بالدرجة الكافية حتى يقضي على الجنين كلية ولكنه يضعف قدرته على التحمل عند حدوث المخاض وهو عبارة عن تقلصات رحية

شديدة تضغط على الجنين لتدفعه الى خارج الرحم ، عند حدوث هذا الضغط الرحمي تنهار مقاومة الجنين وعلى الطبيب الذي يشرف على الولادة أن يدرك ذلك في الوقت المناسب ويعمل على اخراج الجنين من الرحم بأسرع وقت ممكن ، وهذا يكون دائما ممكنا في المستشفيات الحديثة ، لأنه يمكن توصيل الجنين أثناء الولادة مباشرة أو بالتحسس من خلال بطن الأم بأجهزة الكترونية تقوم برسم قلب الجنين أثناء عمليات المخاض والانذار المبكر بامكانية حدوث أية أزمات حتى يستطيع الطبيب أن ينقذه .

رسام القلب

● على كثرة ما أجروا لي من تخطيط للقلب فان رسوم هذا التخطيط او خطوطه الصاعدة الهابطة مازالت رموزا غامضة بل طلاسم بالنسبة لي .. أرجو - لو امكن - اعطائي فكرة عن تخطيط القلب ..

من قديم والاطباء يحاولون الوصول الى طريقة تمكنهم من تتبع عمل القلب باعتبار انه جهاز رئيسي في الجسم وأن عمله يؤثر في كل خلية من خلايا الجسم وأن أي خلل فيه يمكن أن تكون له اضرار عظيمة

وكانت السماعة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها الاستماع الى اصوات دقات القلب وكان على الطبيب ان يستنبط من هذه الاصوات ما يفسر له الاعراض التي يشكو منها المريض . ومازالت هذه الطريقة مستخدمة ولكنها لا تضمن دائما الوصول الى تشخيص دقيق لحالة القلب .

وبتقدم التكنولوجيا الحديثة أمكن استنباط اجهزة عديدة للتعرف بها على نشاط القلب وأسلوب عمله ومن هذه الوسائل (رسام القلب) وهو جهاز يستطيع قياس التيارات الكهربية ويرسمها على اوراق مخصوصة .

فالمعروف أن تقلص العضلات يحدث بناء على تنبيه كهربي ، وأن الارتخاء في هذه العضلات يكون بعد زوال هذا المنبه الكهربي . فاذا امكن تتبع هذا المنبه فيكون ممكنا التعرف على نشاط هذه العضلة وعلى أسلوب عملها .

والقلب عبارة عن عضلة قوية مقسمة الى اربع غرفات : البطينين في الجزء الاعلى الايمن والأذينين في الجزء الاسفل الايسر من القلب تقريبا . ينقبض البطينان في وقت واحد فيدفعان الدم الى الأذينين اللذين ينقبضان سويا ليدفعا الدم من الأذين الايمن الى الرئتين ، ومن الاذين الايسر الى انحاء الجسم .

وتتابع انقباض الاذينين ثم البطينين يصدر الاصوات المتتابعة والمنتظمة المعروفة بدقات القلب وكل هذه الانقباضات تحدث استجابة لمنبه كهربي / وجهاز رسم القلب يقيس هذه التيارات حسب قوتها وتكرارها في فترة زمنية محددة ومرور التيار الكهربي في جهاز قياس التيار يمكنه ان يحرك ابرة صغيرة . وفي جهاز رسم القلب يمر امام هذه الابرة شريط من الورق المقسم لترسم عليه الابرة اثر التيار الكهربي الذي يصل الجهاز . وهكذا يمكن نقل التيار الكهربي الذي يحرك القلب الى رسم على شريط الورق وسيوضح الرسم نشاط كل الغرف الاربع في القلب وبالتجارب العديدة امكن التعرف على اسلوب عمل القلب الطبيعي . وبذلك يظهر على الرسم أي انحراف عن هذا الاسلوب الطبيعي ويساعد الطبيب في تحديد مكان المرض في أي جزء من اجزاء القلب .

الأندية الصيفية بالكويت

تنمية مواهب ونشاط حر

استطلاع : يوسف الشهاب



ثلاث صور عن الحياة اليومية بالاندية ، الاولى لثلاث طالبات جمعهن الكتاب في حوار متبادل ، والثانية للجيل الموسيقي الذي ترعاه الاندية والثالثة لطالبات يزاولن النشاط الفني باشراف المدرسة .





ماحكاية الشباب مع الصيف حين تغلق المدارس ابوابها لتعلن عن بدء الاجازة الصيفية ؟ ثم ماحكاية هذا الصيف الثقيل الذي يجلب الفراغ للشباب حين يدق اجراس بدايته في رحلة فصلية تمتد اكثر من أربعة اشهر وكأنها اربعة اعوام في حياة هذا الشباب الحائر في امره من قسوة الفراغ وثقله عليه . . فالصيف بالكويت قائل وايامه تزحف كالسلحفاة لطول ساعات النهار فيه ، ويزيد من ثقله هذا الفراغ الذي يحيط بابناء المدارس وهو فراغ قد يدفع بهم الى الضياع والهاوية في بعض الاحيان . .

دواء الصيف

اذن اي الدواء نستعمله لمواجهة فراغ الصيف ؟ ثم كيف يمكن اختيار الدواء المناسب لاعمار الشباب واتجاهاتهم وميولهم الاجتماعية ؟ ايضا كيف نضمن نتائج هذا الدواء حين نغرسه في ساعات اوقات الشباب حيث لامدارس ولا اسفار . . الجواب انه دواء الاندية الصيفية احدى المنافذ التي يجد فيها ابناء المدارس متنفسا يزيل عنهم كابوس الصيف وهمومه ويحفظهم من الضياع ومجالسة اقران السوء ، ثم هي احدى الخدمات التي وفرتها الدولة للابناء انطلاقا من ايمانها العميق بان الابناء هم ثروة الامة وعمادها وهم اركان المجتمعات في بناء مستقبلها . وهو ايمان تمثل في مناحي شتى للانشطة التي تقع على كل وزارة من وزارات الدولة المسؤولة عن الشباب من الناحية التربوية لاعداده اعدادا طيبا ياخذ منه الوطن ثمارا طيبة فالغرس الطيب لايعطي إلا ثمارا طيبة . تلك مقولة لايختلف عليها اثنان . .

واذا كانت الاعمدة الرئيسية الخاصة بتربية الشباب واعدادهم تبدو متعددة ومختلفة فان الاندية الصيفية هي إحدى هذه الاعمدة ذات التطبيق لنظرية التربية من خلال النشاط وهي من احدث نظريات التربية وابرزها في مسيرة حياة الشباب التي تحتاج الى عناية ورعاية فقد تم اختيار هذه الانشطه لتأتي ملائمة لرغبات الشباب وميولهم واتجاهاتهم الثقافية والاجتماعية والنفسية .

ولم يقتصر النشاط الصيفي في الاندية على طلاب المدارس بل انطلقت وزارة التربية من دورها في اعطاء الاخرين منهم حقوقهم في هذا النشاط فاعطت طلاب المعاهد الخاصة حقوقهم في النشاط الصيفي ويسرت لهم كل السبل اللازمة لممارسة هذه الانشطة ، بالاضافة الى رعاية الابناء الذين تعرضوا خلال حياتهم لعوامل عاقت مسيرتهم فأنشأت ناديين الاول في سجن الاحداث والثاني في السجن المركزي ليأخذ الشباب فيهما دورهم وحقوقهم في هذا النشاط وحتى يجد الشباب فيهما الفائدة لبناء سلوكهم واعادتهم الى الحياة الجديدة باتجاه جديد ونظرة جديدة تنظر الى المجتمع عبر منظار العمل لخدمة الجميع في هذا الوطن .

بداية المسيرة

اما بداية مسيرة الاندية الصيفية بالكويت ، فانها انطلقت في اول رحلة لها قبل اكثر من عشرين سنة ، ففي عام ١٩٦١م ، حيث شرعت وزارة التربية بافتتاح ناديين للبنين التحق فيهما آنذاك الفا طالب ، والفكرة بدأت كتجربة ولهذا كانت المخاوف تراود المسؤولين عن هذه الاندية لان التجارب تخضع للنجاح او الفشل ، لكن نتائج التجربة كانت تبشر بالخير آنذاك وهي نتائج دفعت الوزارة وشجعتها الى التوسع فيها وفتح الباب امام الفتيات ايضا ليأخذن دورهن في هذا النوع من النشاط الصيفي . فكان افتتاح اول ناد للبنات عام ١٩٦٣ اذ التحق به الف طالبة ، وكما نجحت تجربة اندية البنين وجدت اندية



رئيسة نادي اشبيلية ونائبتها ، في حديث حول نشاط النادي والحركة اليومية بداخله .

البنات ايضا النجاح فحققت الأهداف التي انشئت من اجلها وتوسعت التجربة بعد ذلك لتصبح حقيقة ثابته مع كل صيف في الكويت وهيأت الوزارة كافة الكفاءات القيادية التربوية اللازمة لهذه الأندية وحرصت على ان تكون قواعدها الترفيهيه تقف الى جانب قواعد الارشاد وتكمل عمل المدرسة في اعداد هذا الجيل وتربيته مع اختلاف في الوسائل والبرامج والاساليب ولكن الهدف واحد .

قلنا للاستاذ خالد الحربان ، مدير ادارة النشاط المدرسي ، ماهي فلسفة العمل بالاندية الصيفية ؟ فقال لنا ، انها فلسفة ترتبط بفلسفة العمل المدرسي

واضاف قائلا :

ان نظرية التربية تؤمن ان الانسان يعيش في مجتمع يسير الى صيرورة دائمة والى تغير مستمر ، وان نمو الفرد يتم من خلال البيئة التي يعيش فيها ، فنحن نضع مجموعة اعتبارات حين التخطيط للاندية الصيفية وهي اعتبارات تتلخص في ادراك ظاهرة هذا التغير وطبيعة المجتمع الكويتي وطبيعة ومطالب نمو الابناء هذا الى جانب ضرورة تكامل الخبرة و معرفة الاتجاهات التربوية المعاصرة .

ويواصل مدير ادارة النشاط حديثه حول الاندية فيقول : كان من الواجب علينا ان نتطور ونتوسع في هذه الاندية وان نجعلها تخدم كافة مناطق الكويت دون استثناء ولذا فقد سعينا الى تطويرها من حيث الكم والكيف ، اما التطوير الكمي فهو الذي يعكسه التوسع الافقي في الاندية الصيفية عن طريق انشاء اندية تغطي كافة المناطق الجغرافية في البلاد وهو توسع وصل فيه عدد الاندية اليوم الى ٤٠ ناديا منها ٢٤ للبنين و١٦ للبنات ويبلغ مجموع المنتسبين فيها ٢٤ الف طالب وطالبة ، اما التطور الكيفي فتعكسه الخطط والبرامج ومجالات النشاط التي تطورت جميعها ولاتزال تتطور لتواكب متطلبات التربية الحديثة ورغبات الطلاب في هواياتهم المتعددة ، هذا التطور شمل تقسيم الاندية الى ثمان مجموعات تضم كل مجموعة فيها الاندية التي تقع في منطقة جغرافية واحدة ولكل مجموعة خطتها واسلوبها وبرامجها التي تختلف عن غيرها من المجموعات حسب متطلبات البيئة المحلية ، كما واتجه هذا التطور الى منح الحرية



تهتم الاندية بغرس هواية الطباعة لدى الطالبات اما الصورة السفلى فهى لمجموعة من الطلبة يمارسون نشاطهم الترفيهي .





النشاط الاذاعي له موقعه في الاندية الصيفية والصورة لطالبتين من جماعة الاذاعة لنادى اشبيلية . (الى اليمين)

لوحة اتصال كهربائي يمارس عليها اثنان من جماعة النشاط تدريباتهما العملية بالنادى ، انه التطبيق العمل الذي يتوفر بالاندية . (الى اسفل)



الكاملة للنادي او لمجموعة اندية المنطقة في اقتراح البرامج والنشاطات التي تناسبها بالاضافة الى مراعاة تنوع البرامج والنشاطات وملائمتها لفئات الأعمار المختلفة .

ومن جديد نسأل مدير ادراة النشاط المدرسي عن انواع الانشطة التي تمارس داخل الاندية الصيفية فيقول : كل مانحرص عليه في هذه الاندية توفير كافة انواع الانشطة التي تناسب كافة رغبات الابناء ، لدينا الان مجموعة انشطة تمارس بالاندية منها ماهي ثقافية واخرى اجتماعية وهناك انشطة فنية وصحية وعلمية بالاضافة الى نشاط الاقتصاد المنزلي كل هذه الانشطة تعمل على اتاحة الفرصة لبعض الوجوه الطلابية للمشاركة في تقديم بعض مواد البرامج مع ابراز الكوادر الطلابية القيادية في شتى مجالات العمل بالاندية .

وتحظى الاندية الصيفية بتشجيع امير البلاد الذي يؤكد دائما اهمية هذه الاندية في بناء الشباب وتنمية مواهبه على اختلاف اتجاهاتها ، ويتمثل هذا التشجيع في جوائز سموه التي يقدمها لابنائه الطلبة المتفوقين بانشطة الاندية المختلفة وفي رحلة العمرة السنوية التي يسافر فيها فريق من طلاب الاندية على نفقة سموه ، كما يساهم سمو ولي العهد في هذا التكريم ايمانا منه بدور الشباب وهو تكريم يدفعهم الى المزيد من العطاء لهذه الارض التي اعطتهم كل الحنان والامان ووفرت لهم كافة سبل التعليم .

اسلوب مرن

والعمل داخل الاندية الصيفية يسير وفق اسلوب مرن ومتحرر مستجيبا لميول الابناء معبرا عن حاجتهم الى التعبير والمشاركة في العمل الجماعي ، فالشباب في حاجة الى متنفس يجدون فيه الفرصة سانحه للتعبير عن طاقاتهم وقدراتهم والاندية هي وحدها التي تكفل لهم هذا التحرر ضمن نظام تربوي يجد فيه الطالب ذاته ضمن اطار مجموعة اسرية تعمل جميعا لهدف واحد .

كرة الطاولة .. أحد أنشطة الهوايات التي تمارس داخل الاندية الصيفية .





التصوير بالفيديو .. هواية ساهمت مؤسسة التقدم العلمي على جذب شباب الاندية لها
والصورة لعدد من شباب نادي ابن الاثير يتدربون تحت اشراف مندوب المؤسسة

تجولنا في نادي (اشبيلية) في منطقة كيفان وهو واحد من ستة عشر ناديا يمثلون اندية البنات ، والتقينا برئيسة النادي فسألناها عن سير العمل اليومي داخل النادي فقالت : ان النشاط اليومي عندنا يبدأ في الصباح وهو نشاط يختلف في اسلوبه ونظامه عن المناخ المدرسي لكنه تحكمه انظمة تهدف الى غرس روح النظام واحترامه داخل النادي ، فالطالبات على سبيل المثال يمارسن هواياتهن داخل الفصول وهذه الممارسة لاتخضع للتقييد كما هي في ايام العام الدراسي بقدر ما تخضع للاستفادة من الوقت في تنمية ما يمارس من هوايات والعاب ، وتضيف رئيسة النادي ان ساعات النشاط يمنع فيها خروج الطالبات من الفصل ، لكننا وضعنا وقتا تخرج فيه الطالبات لشراء مايحتاجونه من طعام من مقصف النادي ، اما الحرية التي تعطى للطالبات فقالت عنها رئيسة النادي أننا نحرص دائما على جذب الطالبات الى النادي وهذا مايدفعنا الى توفير حرية التحرك داخل النادي وحرية اختيار النشاط الذي ترغب فيه كل طالبة وبشكل يعود عليها بالخير والفائدة وفيما يتعلق بتعاون البيت مع النادي قالت رئيسة نادي اشبيلية ان مفهوم الاندية الصيفية لدى الأسر قد تطور كثيرا حينما شعرت الأسرة بأهمية النادي في حفظ الطالبات وفي رعايتهن وفي توفير كل احتياجاتهن من هوايات وانشطة ، وفوق هذا كله شعرت الأسرة ان ابنتها في يد امينة ترعاها وتنمي قدراتها الذهنية واليدوية ، هذا المفهوم للاندية من جانب البيت اقام جسورا متينة بين البيت والنادي وادي الى تعاون كبير بين الطرفين ، فالصيف طويل عندنا والوقت يحتاج الى من يعرف قيمته ويستغله استغلالا جيدا ومفيدا وهذا ماهو متوفر لدي الاندية الصيفية .

وحينما سألنا رئيسة نادي اشبيلية عن انواع







فريق من الطالبات يمارس هوايته الرياضية بكرة السلة ، (الى اليسار)



تختلف انشطة الفنون داخل الأندية وتتعدد ، والصورة لفريق الرسم يمارس هوايته باشراف المدرس . (الى اليمين)

حمامات السباحة تشارك في النشاط الصيفي ، والصورة لمجموعة من الطلبة يمارسون هواياتهم في السباحة لبناء الجسم والعقل معا . (الى اليسار)

المكتبة التي يرتادها طلبة الاندية كل يوم للقراءة والاطلاع ، انه النشاط الثقافي الذي يتوفر بالاندية . (الى اليمين)

الانشطة التي تمارس داخل النادي أجابت : الشيء السائد ان برامج البنين تختلف جزئيا عن برامج البنات ، وحتى الهواية بين الطرفين مختلفة كذلك ، لذا فان الانشطة التي تمارسها البنات داخل الاندية تختلف بعض الشيء عن تلك التي يمارسها البنون وان كانت متشابهة في بعض جوانبها ، خذ مثلا الاقتصاد المنزلي من تطريز وغيره تمارسه البنات لكنه لايمارس في اندية البنين ايضا هنالك النشاط الصحي الذي تتعلم فيه الطالبة الكثير من الامور الصحية اللازمة في الحياة ، هذا بالاضافة الى الانشطة الاخرى كالاذاعة والصحافة والطباعة والالعاب الرياضية التي تناسب قدرات الطالبات . كذلك يمارسها البنون .

اسرة واحدة

وكان علينا ان نقف على جانب آخر من الاندية وهو جانب اندية البنين حيث توجهنا الى نادي ابن الاثير الصيفي الواقع في منطقة الروضة وتحاورنا مع رئيس النادي الذي هو ناظر للمدرسة ذاتها فقال لنا لقد كان علينا منذ اول يوم لافتتاح النادي ان نوفر كافة متطلبات الطلبة من انشطة ومناخ يجد فيه الطالب متعة ولذة حين حضوره كل صباح ، وهذا ما استطعنا توفيره بتعاون المسؤولين في ادارة النشاط المدرسي ، ثم كان علينا ان نبحث عن المناخ الذي يشجع الطلاب ويجذبهم الى النادي ونجحنا في ذلك حينما وفرنا الرعاية لكل طالب وشعر الجميع من مدرسين وطلبه انهم جميعا اسرة واحدة داخل هذا النادي ـ هذا هو شعارنا الذي هو اساس كل عمل ناجح .

ويستطرد رئيس نادي « ابن الاثير » فيقول : ان التربية الحديثة تنادي وتؤكد على ضرورة اتباع الوسائل الابوية والتوجيه والارشاد للطلبة بشكل يشعر من خلاله الطالب انه يعيش في مناخ اسري هذا هو مفهومنا داخل النادي .

وسألنا رئيس النادي عن كيفية الاشتراك بالاندية الصيفية فقال لنا : ان الاشتراك بالنادي يقتصر قبل كل شيء على طلبة المدارس ، وعلى من يريد الاشتراك منهم احضار صورتين وتعبئة الاستمارة الخاصة بذلك ثم تعطي له هوية اشتراك وهي هوية يحملها كل عضو بالنادي ضمانا لسير العمل داخله وحتى يشعر التلميذ بشيء من المعنويات ، اما عن فريق المدرسين الذين يعملون بالنادي فقال رئيس نادي ابن الاثير الصيفي ، ان فرق المدرسين الذين يعملون بالاندية لايكونون عادة من مدرسة واحدة لظروف سفر البعض منهم او لعدم رغبة البعض الاخر بالعمل في الصيف ولذا فان ادارة النشاط المدرسي تحاول دائما تعيين مدرسين من مدارس مختلفة في ناد واحد لتوسيع قاعدة التعارف بينهم ولتوفير كافة تخصصات الانشطة لكل ناد من الاندية وهذا ماينطبق ايضا على اندية البنات .

اما من حيث الزيارات التي يقوم بها طلبة الاندية الصيفية فان ادارة النشاط المدرسي تضع جدولا زمنيا لكافة الاندية الصيفية لزيارة عدد من مرافق الدولة ودور الصحف للاطلاع على انشطتها اليومية كما ان هناك رحلات ترفيهية لاعضاء الاندية وهي رحلات تكون لزيادة اطلاع الطلاب والطالبات بأمور وطنهم .

وبعد :

فان الاندية الصيفية استطاعت ان تساهم في ايجاد حل علمي وعملي للفراغ الذي يعانيه طلبة وطالبات المدارس خلال عطلة الصيف ، وهو فراغ قلنا عنه انه قاتل حين غياب الوسائل التي يمكن لهذا النشيء ان يجد فيها فرصته لتنمية مواهبه وسط مناخ اسري يجد فيه حرية التحرك والتوجيه المطلوب له نحو ممارسة هذه الهوايات والأنشطة □ □

يوسف الشهاب .



لؤي كيالي

مأساة لؤي كيالي

تجسيد لتجربة الفنان العربي المعاصر

بقلم : اياد الموسوي

قد يتساءل القارىء ... عن سبب اختيار لؤي كيالي من بين زملائه للحديث عن تجربة الفنان التشكيلي السوري .

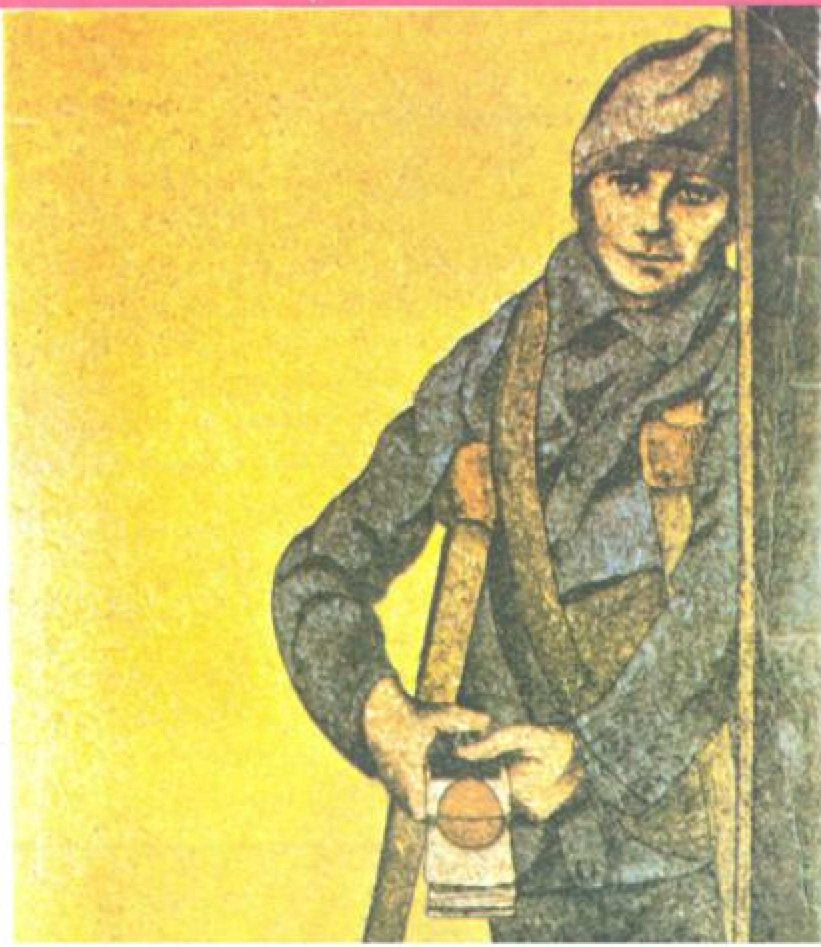
ان القارىء سيجد من خلال سيرة لؤي أنه نموذج واقعي لطموحات الحركة التشكيلية التي انتمى اليها ، ونموذج تتجسد فيه همومها والتحديات التي واجهتها ، والآفاق التي تتطلع اليها ... بل انه رائد من روادها المبدعين ، والذين ساهموا في ترسيخ قيمها الفنية ، وأن الحركة التشكيلية في سوريا تعتز بفنان كلؤي ... فقد عاش حياة غنية بالعمل والانتاج والمشاركة الحقيقية في هموم مجتمعه ومحنته والمصائب التي نزلت به ، محملا روحه المرهفة ووجدانه الحي مشاق وأعباء نفسية كبيرة أودت بحياته .

الحركة التشكيلية في سوريا

لقد كانت الحركة التشكيلية في القطر السوري في الخمسينات ومطلع الستينات ، تحاول الاسراع في بلورة الشكل والمعنى الجديدين لها ، تبحث عن امكانات حضورها وأثرها في المجتمع ، لتساهم الى جانب الحركة الثقافية العامة ، لإثراء الحياة الاجتماعية والمساهمة في بلورة أحداثها ، باعتبار ان الفن التشكيلي ضرورة انسانية واجتماعية ، ولأنه جزء هام من الحركة الفكرية التي صاحبت خروج الاستعمار ، ونمو الحس الوطني .



الفقير ..



بائع اليانصيب

أمومة . . . ١٩٧٢



قارىء . . ١٩٧٦



وقد ساهمت المؤسسات الفنية التي استحدثت ، في تشجيع المواهب الشابة ، وبلورة الطاقات الفنية إذ تولت مديرية الفنون التشكيلية والتطبيقية التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي منذ عام ١٩٥٨ ، الاشراف على المعارض الفنية (في الخريف والربيع) . . . ثم ساهمت في اقتناء الاعمال الفنية لتجميل الدوائر والمؤسسات الحكومية .

إضافة الى انشاء المعهد العالي للفنون الجميلة عام ١٩٦٠ . . (كلية الفنون الجميلة حاليا) ، ومراكز الفنون التشكيلية في المدن السورية الكبيرة لاستقبال هواة الفن ورعايتهم ، بادر المتحف الوطني في دمشق الى تخصيص جناح فيه للفن الحديث . . .

في تلك الفترة المبكرة من عمر الحركة التشكيلية في سوريا . . . سافرت عدة دفعات من الفنانين الشباب الى ايطاليا ومصر وانجلترا وألمانيا وتركيا وروسيا ، في بعثات دراسية لدراسة الفن ، وضمت البعثات أدهم اسماعيل وفتحي محمد واسماعيل حسني ومحمود حماد وممدوح قشلان وفاتح المدرسي ورولان خوري ، وخالد قرقي ، ورجائي الصفدي ولؤي كيالي . . . ورياض معين ومالك بشور وفيصل عجمي ، وعبد الظاهر مراد ، ومصطفى بستنجي ، وقد درس جميعهم في ايطاليا ، ودرس في مصر الياس زيات وهشام زويق وزياد الرومي ونذير نبعة وغازي الخالدي وقطمة الحمصي وخالد المز وغسان السباعي وليلى نصير وعدنان انجيلة .

أما نعيم اسماعيل فقد درسُ في تركيا ، ودرس يوسف أبوبي وهشام معلم في انجلترا ، وتيسير صباحي في المانيا . وعبد المنان شما وميلاد الشايب في روسيا .*

وفي مطلع الستينات أخذ الفنانون يعودون الى سوريا بعد انهاء الدراسة حاملين رصيدا في الاطلاع والخبرة الفنية الجديدة . . . يحملهم حماسهم واندفاعهم الى تقديم فن حديث ، واتجه أغلبهم الى خوض تجربة التحديث ، وساروا في مشارب التجريدية والتيارات الحديثة الأخرى التي لمعت في أوربا حينها وحازت على اعجاب نقاد تلك المرحلة . لكن لؤي الكيالي كان مصرا على مواصلة الرسم بأسلوبه الواقعي ذي القوام الخطي والسطوح (غير المصقولة) والألوان المتقشفة . . . والذي أعلن عن بداياته في معرضه الاول الذي أقامه وهو في المرحلة الثانوية . . . وقبل سفره للدراسة في روما . .

رحلته مع الفن

ولد لؤي كيالي في مدينة حلب في عام ١٩٣٤ ، وبدأ في ممارسة الرسم عام ١٩٤٥ ونشط في مطلع الخمسينات . . . وأقام أول معرض لأعماله في الثانوية الأولى التي أكمل فيها دراسته الثانوية . . . في عام ١٩٥٢ ، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٥٤ ، التحق بكلية الحقوق ، ونشط في الجامعة ، واشترك في معرض الجامعة في السنة التالية وحاز عمله على الجائزة الثانية ، وترك الحقوق في عام ١٩٥٧ ، وذهب الى روما لدراسة الرسم في أكاديمية روما للفنون الجميلة ، موفدا من وزارة المعارف السورية .

وأصّل لؤي نشاطه الفني بين مختبرات الأكاديمية ومراسمها وتنقل بين أقسام الرسم والزخرفة فيها ، وحاز هناك على العديد من الجوائز والميداليات الذهبية ، منها الجائزة الاولى من مركز العلاقات الايطالية التي تنظم مسابقة سيسليا وفاز بالميدالية الذهبية للأجانب في مسابقة رافينا في عام ١٩٦٠ ، ساهم مع زميله فاتح المدرس في بينالي



مرمم شباك الصيد ١٩٧٣



عازف العود ١٩٧٤

البندقية ، ممثلين للفنانين السوريين في المعرض الذي يقام مرة كل سنتين .

في عام ١٩٦١ ، أنهى لؤي كيالي دراسته في أكاديمية الفنون الجميلة في روما ، وحاز على شهادتها ، من قسم الزخرفة .

عاد لؤي بعدها الى بلاده ، وعندها بدأ لؤي نشاطه المنتظم على صعيد تعليم الرسم واقامة المعارض الفنية والمشاركة في نشاطات الحركة الفنية . فعمل مدرسا للتربية الفنية في مدارس دمشق الثانوية .

وانتقل الى المعهد العالي للفنون الجميلة في دمشق لتدريس مادة الرسم ومبادىء الزخرفة .

واقع الانسان العربي

وأقام عدة معارض شخصية مؤكدا أسلوبه في المعالجة الواقعية لطرحه الفني . .

وأدرك الجمهور المتتبع لأعماله . . . ان واقعية لؤي تجاوزت حدود المنظر الاعتيادي والمألوف ، باحثة عن مشارف التعبير عن واقع الانسان العربي الأليم ، ومعاناة الفقر ، وعذاب الأطفال الذين أجبرتهم ظروف الحياة القاسية على العمل وهم في سن الطفولة والصبا ، لقد أبدع في تصوير الطفولة المعذبة . . لذلك فقد لازمت وجوه لؤي صبغة الحزن العميق ، والصبر المرير ، والتصميم على مواصلة الحياة الكريمة بالعمل الشريف ،

وبالروح العصامية ... حتى جاء عام ١٩٦٧ ، وقبل نكسة حزيران بأشهر ، انفجرت معاناة لؤي ، في معرضه المهم ، والذي أطلق عليه اسم « في سبيل القضية » . واحتوى المعرض على ثلاثين لوحة .. رسمها بالفحم الأسود ، وسادت الأجواء الرمادية هذه اللوحات ، وانفجرت شخوصها بالصراخ والرفض ، وتصاعدت صرخات الغضب والضياع والتشرد ... والأصرار على النضال من أجل القرية وبيوتها وأشجارها التي احتلها الصهاينة في سبيل الحياة الكريمة .

وقد خرجّ لؤي في هذا المعرض على واقعيته ، وعافت الوجوه التي برسمها الصمت ، فقد انفجرت شخوصه التي آثرت السكوت طويلا ، والاحتفاظ بحزنها دفينا في وجدانها ، وانفجرت غضبا واقداما ، واقتحمت تلك السحابة السوداء التي تغطي السماء .

وأهمية المعرض ليس لكونه حدثا فنيا فحسب بل لكونه حدثا جماهيريا وطنيا هز وجدان الجماهير المتعطشة لنصرة كرامتها .

فقد تنقل المعرض في العديد من المدن السورية فمن حلب تحول المعرض في حماه وحمص واللاذقية ، ولما وقعت النكسة ، كان نفس يوم افتتاح المعرض في اللاذقية .

لم يستطع لؤي تحمل الكارثة التي حلت بشعبه وأمته ، وأصيب بأزمة نفسية حادة أدت الى اقدامه على حرق جميع لوحات هذا المعرض ، وتوقف عن الرسم نهائيا لثلاث سنين متواصلة ... واعتكف بعيدا عن الناس ، وترك عمله ، وأحيل الى التقاعد بسبب حالته الصحية السيئة ، وذهب الى ايطاليا للعلاج ، لكن دون جدوى ، وعاد الى مدينته حلب حيث قضى أيامه الأخيرة فيها طريح الفراش يعاني من حالة اكتئاب نفسي شديدة ، وتوفي بتاريخ ٢٦ كانون الأول عام ١٩٧٨ في أحد مستشفيات حلب ، وشهادته وضعت حدا لمأساة حياته ، وبقيت مأساة شعبه تزداد عمقا يوما بعد آخر ..



ثم ماذا ١٩٦٥

عاش حياة البؤساء

لم يكن حزن لؤي طقسا طارئا . . . ولم يكن اختيارا طوعيا . . . لكنه كان يعكس موقفا من الحياة ويعكس رأيا في جدواها ومصيرها .

لم يقف لؤي يوما ليعبر عن فرحة الانجاز . . . أو الثقة الذاتية به . . . بل ان الانجاز الفني ـ وما يمثل على حصيد حياته الشخصية ـ لم يكن في حسابه . . ولم يشغل يوما حيزا في اهتمام لؤي . . . الذي عبر عن الجمال والحياة ، على أنها حالة من حالات حزنه العميق . . فقد رسم الأزهار البيضاء ، وزوايا قريته ، مدلولا ، بأسلوب واقعي . . . لكن تلك الواقعية تعكس واقعية أخرى . . . واقعية وجه الحزينة . . . واقعية مشاركته لحياة البؤساء في مدينته وحزنهم المزمن ـ التي تسللت في كل شيء يتعلق بلؤي . . . وانتشرت في جميع عوالمه ولوحاته . .

وظل وحده يعبر عن واقع الفقراء . . . وعن الأطفال المحرومين والمشردين . . . والعمال المسحوقين ، الذين احتلوا مساحات لوحاته . . . تلك الوجوه ، وتلك النظرات . . . لم تعبر عن رغبة المطالبة ، أو الهتاف من أجل الانفكاك من طوق البؤس بل ان تلك الوجوه ، كانت في وضع سكوني . . . وفي هدوء ينطوي على حزنها العميق . . . ومثول مرير أمام الواقع الذي يعيشه الانسان . . . وخيبة الأمل الكبيرة بالمستقبل .

وجوه لؤي تؤثر الصمت . . . الصمت الفجع ، لأنها تحتفظ بأحزانها وآلامها لنفسها . . . لأنها تعيش انسحاقها تحت السماء المحجوبة . . . بالشعارات والهتافات والاحلام والوعود .

وجوه لؤي تعلن يأسها تارة . . . يأسها من القشاع تلك الفقاعات المليئة بالهواء الفاسد عن سمائهم ، وتعلن يأسها من توقف سماع دوي الرياح بين بيوتهم الطينية . وتارة تعلن زهدها بالمستقبل . . . وتعلن تخليها عنه لأنه خيبة ! ؟ وتارة أخرى تعلن ثورتها على كل شيء يحيطها . .

لؤي الحزين

كانت حياة لؤي كيالي جزءا من لوحاته الفنية . . وكانت لوحاته جزءا من حياته بكل واقعيتها وتأزمها ويؤسها واحباطاتها . . . والأزمة النفسية التي عاشها بعد النكسة ، تشير الى ذلك الالتحام بينه كموضوع وكوجود متأزم ، وبين فنه كوسط حاو لذلك الموضوع . . . الذي يتبدى في اللوحات بحس مرهف . . . وكثافة تعبيرية في الخط واللون والاشارة . . . تتسلل كثافة حزنه . . . من خلال تلك الخطوط الواثقة والألوان المتقشفة والاشارات التي تفتح باب التأمل دون حدود . .

كان لؤي واقعيا في اتجاهه الفني . . . لأنه اختار أن يعي واقعه المرير بوعي فني بسيط ومباشرة ، وبأقرب ما يمكن من الوعي . . . باعتباره الفنان الذي لا يملك سوى التفاعل مع حياته الفقيرة . . . ويعبر عنها بوعيه النافذ وحسه المرهف وعاطفته الغامرة وموهبته التي تمتلك أدواتها . .

كانت ممارسة الفن بالنسبة للؤي جزءا من حياته ، شروطها وأسبابها . . . لذلك فقد كان موته مبكرا ، لأن التراكمات المأساوية التي عانى منها ، لا تحتملها قدرة انسان . . . لكنه بقي أمينا مع ذاته . . أمينا مع فقره . . . أمينا مع الذين انتمى اليهم . . . مات لؤي فقيرا ، لكنه ترك ـ ولا شك ـ فنا غنيا خالدا . . . يعبر عن الفقراء . . .

ولم يتوقف لؤي يوما أمام اغراءات المادة ، برغم رواج لوحاته ، لدرجة أنها تباع حال انتهائه منها ، أو عرضها ، برغم ذلك أصر لؤي على أن تبقى لوحاته منخفضة الاسعار .

ـ لماذا كان لؤي يحمل كل هذا الحزن ؟

ـ لماذا كان يائسا وبائسا ؟

ـ لماذا لم يحتفل بالمستقبل ، ولم يتغن به كعادة أغلب الفنانين . . . باعتباره رمز الفرح . . . ويحمل بشارة الأمل . . . لماذا لم يكن تقليديا في ذلك المنحى ؟ !

لا بد ان تجربته في الحياة دلته على حقيقتها ، دلته على مواصيلها ونتائجها . . . . ولا بد أنه عرف ان كل طريق لا تؤدي في النهاية الا الى حتفها .

وهكذا توقف نبض ذلك الفنان الذي عاش الحزن . . موقفا انسانيا من الوجود المر واستطاع أن يحيي روحه الحزينة في جميع آثاره الفنية . . . وما زالت تلك الروح تنبعث من عيون البؤساء والمشردين الذين يستقرون في لوحاته . . . ولا يستقرون في الحياة ! ■■

اياد الموسوي

هل لغتنا صعبة ؟

بقلم : محمد خليفة التونسي

منذ ستين سنة شغلت الصحف والمجلات المصرية بمعركة حامية بين أنصار أدبنا القديم ودعاة تطوير أدبنا اليوم .

كان الأولون يرون أن أدبنا القديم هو النموذج الأمثل الذي ينبغي أن نصونه ونتبع منهجه وأساليبه وحدوده في التفكير والتعبير ، وكانوا يستهينون بكل أدب جديد يجاوزه ، وكان الآخرون أو معظمهم يعتزون به كأنصاره ، بل كان بعضهم يعرفون من أسرار قوته وجماله ما لايعرف أنصاره ، ولكنهم يرون أن ندرسه ونتمثله دون أن نقف حيث وقف ، بل ينبغي لنا أن نكون أبناء عصرنا شعورا وتفكيرا وخيالا وتعبيرا على وفق حياتنا ومعارفنا وثقافتنا ، كما كان كل جيل من أسلافنا أبناء عصرهم ، وكما ينبغي لكل جيل أن يكون .

ثم يرون أن علينا الى جانب عنايتنا بأدبنا القديم الذي نستمد منه أصالتنا فنكون أبناء آبائنا ـ أن نتفتح على كل ما حولنا في حياتنا وحيوات الأمم الأخرى التي تعاصرنا شرقا وغربا ، قديما وحديثا ، ونستفيد منها في تطوير أدبنا وتجديده بكل ما تضمنه من أنواع وصور ، مع التزامنا الاستقلال والبساطة فنكون بذلك أبناء عصرنا المالكين لحريتنا . ولا شك أن لكل عصر حقوقه التي يفرضها على أهله قبلوها أو رفضوها ، فان استطاعوا القيام بها تقدموا وأثروا ، وان رفضوها أو عجزوا عنها جمدوا وتأخروا وحاق بهم البوار .

بين الرافعي وسلامة موسى

وقد اشترك يومئذ في معركة القديم والحديث كتاب غير مصريين أيضا ، وبخاصة حين امتدت الى الشام والعراق ، وكان دعاة التجديد أكثر عددا وأقوى حججا واهدى سبيلا . ولايعنينا هنا أن نذكر من أسماء المشتركين فيها غير اثنين : الاستاذ مصطفى صادق الرافعي وكان من أنصار القديم ، والاستاذ سلامة موسى وكان من دعاة التجديد ، فانهما حين اختصما كان مما غمز به الرافعي خصمه ـ ان من أسباب عداوته لادبنا القديم ضعفه في العربية كما تدل على ذلك أخطاؤه اللغوية في كتاباته .

وكان سلامة موسى أمكر مما حسب الرافعي ففاجأه هو والقراء حين تلقى التهمة بأن ألصقها باللغة العربية ، واستشهد لذلك بموازنة بينها وبين الانجليزية التي ذهب الى أنه تعلمها بسهولة في زمن قليل ، فصار لايخطىء اذا تحدث بها أو كتب ، على حين أنه أقدم تعلما للعربية ، وأنه يلم بكثير من تراثها في مطالعاته بها ثم زاول الكتابة بها في العلم والأدب تأليفا وترجمة نحو عشرين سنة ، فاذا كان يخطىء فيها ـ كما يدعي الرافعي ـ فالعيب في اللغة لا فيه

وهذا جواب يرضي هوى الأستاذ سلامة موسى في انحرافه المعهود عن العربية وتراثها ، ولكن الجواب ـ على علاته ـ يستحق الوقوف عنده ، وتدبره طويلا ، لتمييز صحائحه من شبهاته ، اذ لم يزل هناك الألوف وعشراتها بيننا يشكون ضعفهم في لغتنا وينسبونَ ذلك الى صعوباتها الشاقة .(١)

كثير من النقد اللغوى خطأ

وقبل التعرض لمناقشة الموضوع نشير الى أن الكثير مما كان ينسب من أخطاء الى سلامة موسى وأمثاله المدربين الذين يثابرون على الكتابة في موضوعات حديثة من تأليفهم أو ترجمتهم ليست أخطاء ، وكذلك كثير مما يسمى أخطاء تؤخذ على غيرهم حتى اليوم من الكتاب والمتحدثين ، فمعظم هذه الأخطاء المزعومة ليست أخطاء ، ولكن كل ما فيها أنها تخالف القواعد التي يعرفها نقادهم من ألفاف اللغويين ، ويقفون عندها عن حذلقة وجهل ، حين يقومون بمهمة الشرطة اللغوية ، مع أن

(١) كذلك يفعل الآخرون حين يوازنون في التعلم بين العربية وغيرها من اللغات الحديثة .

أنظمة لغتنا وقابليتها الحيوية للنمو والتجدد أكبر من كل القواعد الضيقة المضطربة التي تعج بها كتب النحو والصرف والمعاجم جميعا .

ثم نبادر فنشير الى أن الاستاذ سلامة موسى في موازنته بين سهولة تعلمه الانجليزية وصعوبة تعلمه العربية قد أغفل عدة أمور يمكن حصر معظمها في أمرين جامعين :-

أولها : طريقة تعلمه هو وجيله الانجليزية وطريقة تعلمهم العربية .

ثانيها : الانجليزية وقواعدها كما دونها علماؤها ، والعربية وقواعدها كما دونها علماؤها .

الفرق بين طريقة صحيحة وطريقة خاطئة

ولسنا نقول إن العربية سهلة بين اللغات ، فهناك ما هو أسهل منها وما هو أصعب ، ولكن صعوبات أي لغة تكاد تختفي حين تتعلم على الطريقة الطبيعية الكلية البسيطة ، وتبرز حين تعلم عن طريق دراسة قواعدها بمعزل عن أدبها والتدرب عليها لأن القواعد في هذه الحالة أشبه بعكاكيز الكسحاء لاتمكن صاحبها من الانطلاق في سيره .

الطريقة الطبيعية هي التي يتعلم بها الطفل لغة بيئته ، وهي وحدها الصالحة أيضا لتعلم الكبار ما يريدون من لغات غريبة عنهم مهما تكن من الصعوبة .

يسمع الطفل كلام من حوله فيحاكيه بحكم ميله الفطري لمحاكاة من حوله في كل شيء ، ويشرع في تفهمه ومحادثة غيره به كما سمعه وفهمه ، وعن طريقة محادثته الدائمة للآخرين تنمو حصيلته اللغوية ويزداد فهمه لها ، وتفكيره المستقل بها ، ومع طول الاستماع لها وحفظ نصوصها تزداد مرانته عليها حتى تصبح عادة على لسانه ، وهذه العادة هي السليقة ، فيصير المتعلم سليقيا في نطقه وان كان لم يتعلم أي قاعدة من قواعدها الصوتية أو الصرفية أو النحوية ، ولم يلجأ الى معجم لفهم دلالات ألفاظها الحقيقية أو المجازية لأنها صارت خبرة لسانية مكتسبة كما تكتسب أي خبرة نظرية أو عملية ، وبهذا يفخر أحد شعرائنا فيقول :-

ولست بنحوي يلوك لسانه
ولكن سليقي أقول فأعرب

كيف تعلم الأعاجم العربية في عصور فصاحتها

وكثير من الأعاجم خالطوا في كبرهم العرب خلال عصور الفصاحة ، فتعلموا في سهولة منهم العربية الفصيحة بهذه الطريقة العملية ونبغوا فيها : كان منهم زنج وفرس وسند وروم ، ونبغ منهم شعراء فاق بعضهم بعض الشعراء العرب ، وكان بلغاء العرب يرددون شعره ، وبقي بعضهم بعد نبوغه في العربية يرتضخ لكنة في نطقه ، لما بقي على لسانه من آثار لغته الأعجمية التي نشأ عليها ، ومثل هذا مشاهد في كل عصر بين من يتعلمون - وهم كبار - لغة لم ينشئوا عليها ، ومن هؤلاء الشعراء في المخضرمين الشاعر الزنجي سحيم عبد بني الحسحاس الذي استشهد النبي عليه السلام بشعر له ، كما روى بعض شعره عمر بن الخطاب ، ومن الاسلاميين الشاعر السندي زياد الأعجم الى عشرات بل مئات من نوابغ الأعاجم يذكرهم التاريخ بين نقلة القرآن وقراءاته ورواة الحديث النبوي والمفسرين واللغويين والفقهاء والمتكلمين والمفتين والقضاة والمترجمين ورواة الشعر والأخبار ، حتى يقول مؤرخنا العبقري ابن خلدون : « إن أكثر حملة العلم كانوا من الأعاجم » .

وبهذه الطريقة العملية نفسها تعلمها في كبره رائد شعرنا العربي الحديث محمود سامي البارودي كما حكى هذا عنه استاذه الشيخ حسين المرصفي ونقلناه عنه في عدد سابق (العربي ٢٨٢) دون أن يتعلم قواعدها النحوية والصرفية أو العروضية .

كيف كانت الانجليزية تعلم في مصر

وهكذا تعلم الاستاذ سلامة موسى وجيله الانجليزية في عهد الاحتلال البريطاني لمصر وسطوته واستبداد طاغيتهم المستر دنلوب بأمور التعليم في وزارة المعارف ومدارسها ، وكان يتنزى حماسة لنشر لغته في المدارس وتثبيتها ، حتى تعم فتغلب الفرنسية [٢] التي سبقتها الى مصر ، ولو استطاع أن يفرضها على كل المصريين بل ينسيهم بها لسانهم لفعل ، ولهذا كان الصبي أو اليافع في نهاية المرحلة الابتدائية يستطيع أن يتحدث بالانجليزية ويقرأ ويكتب في حدود معلوماته ، اذ كانت بعض المواد تدرس بالانجليزية بل كاد أن لا يستثنى من التدريس بها

(٢) كان هذا التنافس اللغوى يومئذ ويعده مظهرا من مظاهر تنازع النفوذ في مصر بين الدولتين الفرنسية والبريطانية .

إلا دروس الدين والعربية .

ومن ذلك الجيل من لم ينل غير الابتدائية ولكن استطاع خلال سنواتها الأربع أن يحرز حصيلة من الانجليزية مكنته من التوسع فيها بجهده وحده ، فملك ناصيتها وناصية أدبها وما ترجم اليها ، واوضح مثل لذلك أمامنا هو الاستاذ العبقري المرحوم عباس محمود العقاد ، ومنهم من لم ينل الا الثانوية فملك ناصية الفرنسية الى جانب الانجليزية ، وأوضح مثل أمامنا لذلك هو صديقنا الكبير الاستاذ علي أدهم رحمه الله .

اهتمام الانجليز بنشر لغتهم في العالم

وقد كان الانجليز ـ وما زالوا ـ حريصين على نشر لغتهم بكل وسيلة جذابة مستطاعة ، وقد كانوا ـ ولم يزالوا ـ يعدون لمن ألم بقليل منها ـ ولو ألفى كلمة ـ كتبا مبسطة جذابة إذا قرأها ثبت في ذهنه ما وعاه وارتقت به فيها قليلا قليلا فشرحت صدره لها وزادت معلوماته ثروة ، ولكل مستوى فيها عشرات من الكتب في شتى المعلومات وفيها قصص وتمثيليات ، وهم لايقتصرون في ذلك على تبسيط تراثهم وحده بل يعرجون على كثير من الأمم القديمة والحديثة فينقلون من تراثها أطرافا شائقة مفيدة ترضي تطلع المتعلم وتغريه بالمزيد دون توقف ، فكأنه راكب طائرة ما تكاد تجري به شوطا قصيرا على الأرض حتى يرى نفسه مصعدا في الجو دون مشقة ثم لم يزل مصعدا أفقا فأفقا حتى تستوي به في الأفق الذي يتوخاه بسهولة

لقد كان الطالب محاطا ببيئة انجليزية لغويا آنا بعد آن طول أيام الدراسة .

فاذا ما أجاد الاستاذ سلامة موسى وجيله الانجليزية ، فهذا هو وحده المتوقع بعد هذه الجهود الحماسية المكثفة ، والتزام الطريقة الطبيعية العملية الصحيحة ، يضاف الى ذلك ما هيأ يومئذ من فرص العمل لاكتساب المعاش والمنصب للعارفين بالانجليزية (أونحوها) عندنا

ثم ما أوحى به عمل المستر دنلوب من التهوين من أقدار مدرسي العربية (والدين) في المدارس وما تركه ذلك من تهوين لقدرهم في المجتمع ، وفي مناصب الدولة ، فيا أكثر من بدأ منهم مدرسا ، حتى احيل على التقاعد في المنصب نفسه ، لكانوا محرومين من كل منصب اداري في مرافق الدولة ومنها سلك التعليم نفسه ، وقد استمر ذلك الى نحو منتصف هذا القرن .

ومن أدلتنا على أثر هذه الطريقة في تعليم الانجليزية بسهولة وقوة ، أنه عندما تغيرت الطريقة أوضعف القائمون بها بعد ذلك ، ظهر ضعف طلابنا في الانجليزية فصار الطالب حتى نهاية الثانوية عاجزا عن كتابة رسالة أو نحوها دون أن يخطىء لغويا .

طريقة تعليم العربية حول مطلع القرن العشرين

أما طريقة تعليم العربية في ذلك العهد « الدنلوبي » فمختلفة ، إذ كانوا يقتصرون في دروس المطالعة على صفحات من كتاب قديم في كل صف دون مراعاة لمستوى الطلاب فكانوا ينفرون منه ، وكان يقتصر في المحفوظات الشعرية والنثرية على نصوص معظمها في الحض على الفضائل ، وفيها كثير من الغريب وما يسمى بالمحسنات البديعية ، وكل ذلك كان منفرا للطلاب أيضا ، وكانت تدرس دون تعمق في فهم ولاتذوق ولا مقارنة .

وكان يقتصر في الانشاء على موضوعات تقليدية لاصلة بينها وبين حياة الطلاب ، وكان المعلم هو الذي يتحدث بمحتويات الموضوع قبل مناقشته مع الطلاب وكانوا يسمعون فيلتقطون ما يستطيعون من كلامه شعرا أو نثرا ليستشهدوا به في كتابة الموضوع

وأما القواعد فكانت تعرض جافة بكثير من عجرها وبجرها التقليدية كثيرة الفصول طويلة الذيول منفصلة عن الأدب عاطلة من التمرينات .

ولم يكن يكتفى لها بحصصها بل كانت تحشر في دروس المطالعة والمحفوظات للتطبيق عليها ، كأنما هذه الدروس تمرينات على القواعد لا للدراسة الأدبية الجمالية .

وكان يقتصر في الامتحان التحريري على الانشاء والقواعد ، وأما المطالعة والمحفوظات فيمتحن الطلاب فيها شفويا ولا تحسب لها درجة بل الطالب فيها ناجح ، وهذا هو الاغلب أو راسب وهذا شيء نادر غاية الندرة ، ثم ان اللغة العربية تدرس للطلاب باللهجة الدارجة فكيف مع هذا البلاء في طريقة تدريس العربية ، يستطيع الطالب اجادة العربية وهو لايجد بيئة عربية فصيحة حتى خلال دروسها

وأما الفرق الآخر بين الانجليزية وقواعدها والعربية وقواعدها فله صفحة أخرى بعون الله .



الكاتب الشجاع

قصة : أنطون تشيكوف

ترجمة الدكتور فوزى عطية محمد

دقت الساعة لتعلن منتصف النهار . وأطل الميجور شلكالويف ـ وهو مالك لألف ديسيتينا (١) من الأرض و . . لزوجة غضة الشباب ـ أطل برأسه من تحت اللحاف . . وسب ولعن بصوت عال . فقد سمع بالأمس وهو يمر بجانب التكعية بالحديقة كيف كانت زوجته كارلينا كارلفنا تحادث ابن عمها ، الذي قدم لزيارتهم ، برقة أعذب من الرقة ذاتها ، وتصف زوجها ، أي الميجور شلكالويف ، بأنه كبش ، وأخذت تؤكد برعونة نسوية انها لم تكن تحب زوجها في أى وقت من الأوقات ، ولن تحبه أبدا ، أى شلكالويف ، لبلادة عقله ، ومسلكه الفظ . . . لفظاظة الأجلاف ، واستعداده الكامن للخلل العقلي ، فضلا عن إدمانه المزمن للخمر . ولقد أذهلت نظرة الزوجة هذه الميجور ، وأثارت سخطه ، وأودت به الى حال من الامتعاض تفوق كل وصف . لم يطرق النوم جفنيه لا في الليل ولا في الصباح . فقد كان رأسه يعمل بهمة على غير المعتاد ، وسخنت وجنتاه وأصبحتا أكثر احمرارا ، وظل طول الوقت يضغط قبضتيه في تشنج وعصبية بالغة ، أما صدره ، فكان يموج بانقباضات وضربات لم يشعر بمثلها حتى حين كان يحارب عند مشارف قلعة كارس(٢) . بعد أن أطل الميجور من تحت اللحاف على نور الدنيا ، وبعد أن سب ولعن ، قفز من السرير وأخذ يذرع الغرفة وهو يهز قبضتيه ، ثم صاح مناديا : أيها الأغبياء !

قرقع الباب وظهر أمام الميجور خادمه بانتلى ، والذي يقوم بعمل الخادم الخاص والحلاق وماسح الأرضية في آن واحد ، وهو يرتدى ما جاد به عليه سيده ، ويحمل جروا تحت إبطه . استند بانتلى على عضادة الباب ، وأخذ يطرف بعينيه في احترام . وبادره الميجور قائلا :

ـ اسمع يا بانتلى . . انى أريد التحدث معك كما يتحادث بقية خلق الله . . حديث رجل لرجل وبصراحة . . لِمَ تقف هكذا ؟ استو في وقفتك !

١ ـ ديسيتينا : مقياس للمساحة يساوى عشر الهكتار .
٢ ـ كارس : قلعة تركية استولى عليها الروس خلال الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ .

نعم . . هكذا ! قل لي : هل ستجيبني بصراحة ونية خالصة أم لا ؟

ـ نعم سأجيبك بكل صراحة وبنية خالصة .

ـ لا تنظر الى بمثل هذه الدهشة . . يستحيل النظر الى السادة بدهشة . أغلق فمك ! يالك من ثور حقا يا صاحبي . لا تعرف كيف ينبغي عليك التصرف في وجودي . . أجبني بصراحة ودون لف أو دوران ! هل تضرب امرأتك أم لا ؟

أخفى باتثل فمه بيده وابتسم ببلاهة ما بعدها بلاهة وهمهم قائلا : ـ كل يوم ثلاثاء يا صاحب السعادة ـ ثم ضحك .

ـ عظيم . . ولكن ما الذي يضحكك ؟ ! هذا أمر لا يستوجب المزل ! أغلق فمك ! لا تحك جلدك في وجودي . . انى لا أحب هذا (فكر المجبور برهة ثم أردف) أعتقد ، يا صاحبي ، أن الأجلاف ليسوا وحدهم الذين يعاقبون زوجاتهم . . ما رأيك أنت في هذا الموضوع ؟

ـ هذا صحيح . . ليسوا وحدهم ياصاحب السعادة !

ـ إلي بمثال على ذلك !

ـ بالمدينة قاض يدعى بيوتر ايفانتش . . هل تعرفه ؟ المهم . . منذ حوالى عشر سنوات مضت كنت أعمل بوابا عنده . . انه سيد رائع بمعنى الكلمة . . قصارى القول . . ولكنه حين يكون ثملا أجارك الله ! وكان يحدث حين يعود الى المنزل وهو مخمور أن يعمل قبضته القوية في جنب السيدة زوجته . . ولأسقط من طولي في مكاني هذا اذا كنت أكذب عليك ! كما كان ينالني أنا الآخر من قبضته بعض الشيء . . . هكذا ومن غير مناسبة . كان يضربها وهو يقول لها : « انك ، أيتها الحمقاء ، لا تحبينني ، ولهذا أريد قتلك ووضع نهاية لحياتك . . »

ـ . . وماذا كانت تفعل هي ؟

ـ تقول له . . أرجوك أن تغفر لي . .

ـ غير معقول ! أصحيح هذا الذي تقول ؟ ! اذا كان الأمر على هذا النحو فانه رائع . . نعم ، رائع . . ـ وفرك المجبور يديه في حبور من الارتياح !

ـ انها الحقيقة بعينها يا صاحب السعادة ! وكيف لايضربهن المرء يا صاحب السعادة ؟ ! إليك ، مثلا ، امرأتي . . كيف لا أضربها ؟ ! لقد داست على الهارمونيكا بقدمها فدعستها ، كما التهمت الشطائر المعدة للسادة . . فهل هذا معقول ؟

ـ اسمع أيها الأبله . . لا تتفلسف ! ما هذا الذي تتفلسف فيه ؟ ! هل تعتقد أنك تستطيع أن تقول شيئا معقولا ؟ لا تزج بنفسك فيما ليس لك ! قل لي : ماذا تفعل السيدة الآن ؟

ـ انها نائمة .

ـ حسنا . . فليكن ما يكون ! اذهب وأخبر ماريا أن توقظ السيدة وتطلب منها المجيء الى هنا . . انتظر ! ما رأيك : هل أشبه أجلاف العامة أم لا ؟

ـ من ذا الذي يستطيع القول ان السيد يشبه أجلاف العامة ؟ ما من أحد على الاطلاق يستطيع ذلك .

هز باتثل كتفيه وقرقع الباب من جديد وخرج ! أما المجبور فشرع يغتسل ويرتدي ملابسه وقد ارتسمت على ملامح وجهه دلائل انشغال البال .

ـ أهلا بك يا روحي ! ـ قال المجبور ، الذي كان قد ارتدى ملابسه ، قالها بنبرة من التهكم ما بعده تهكم مخاطبا زوجته الحسناء ابنة العشرين عاما حال دخولها الغرفة ـ ألا تتفضلين بافراد ساعة لي من وقتك الثمين . . أقصد الثمين لكلينا طبعا ؟

ـ بكل سرور يا عزيزي ! ـ أجابت زوجة المجبور ومالت بجبينها نحو شفتيه كي يطبع عليه قبلة .

ـ انى يا عصفورتي الصغيرة ، أريد التنزه . . أريد القيام بنزهة في البحيرة . ألا تستطيعين أن تجهزي من شخصك الساحر رفيقا لي في هذه النزهة يمنح النفس سعادة بلطفه ورقته ؟

ـ ولكن ألن يكون الجو حارا ؟ على أية حال . . . لا ؟ . . بكل سرور يا بابا الحبيب . ستقوم أنت بالتجديف أما أنا فسأتولى توجيه الدفة . . ما رأيك ؟ . . هل نأخذ معنا بعض المأكولات الخفيفة ؟ انى أكاد أموت جوعا . . .

ـ لا عليك . . لقد أعددت المأكولات ـ أجابها المجبور وتحسس السوط الموجود في جيبه .



بعد نصف ساعة من هذا الحديث بين الميجور وزوجته كان الاثنان يركبان قاربا ويتجهان به نحو وسط البحيرة .. الميجور يتصبب عرقا وهو يجدف ، أما زوجته فقد عكفت على توجيه الدفة .

« ياها من امرأة ! آه منها امرأة ! » ـ ظل الميجور يدمدم وهو ينظر بين الفينة والفينة الى زوجته الحالة نظرة مشحونة بالضراوة وكل ما بداخله يغلى انتظارا للحظة الحاسمة .. وما ان وصل القارب الى وسط البحيرة ، حتى صاح الميجور بصوت جهوري : قف ! وتوقف القارب ، وتضرج وجه الميجور احمرارا وأخذت فرائصه ترتعد .

ـ ماذا بك يا أبالوشا ؟ ـ سألته زوجته وهى تنظر اليه في دهشة .

علا صوت الميجور بالدمدمة قائلا : اذن .. أنا كبش ؟ كبش .. هه ؟ اذن أنا ... من أنا ؟ إذن أنا بليد العقل ؟ هه .. انك اذن لم تحبيني ولن تحبيني ؟

وزمجر الميجور وبسط راحتيه الى أعلى ولوح بالسوط في الهواء ، وحدث بعد ذلك في القارب هرج ومرج ، رهيب ، هرج ومرج لا يمكن وصفه فحسب ، بل لا يمكن تصوره بالمرة . لقد حدث ما يعجز أى فنان عاش في ايطاليا أن يصوره مهما أوتى من خيال متوقد . وقبل أن يتمكن الميجور شلكالوبف من الاحساس بعدم وجود أى أثر لنبت من الشعر على رأسه ، وقبل أن تتمكن زوجة الميجور من استخدام السوط الذي انتزعته من يد زوجها .. انقلب القارب .. و ..

وفي هذه الأثناء كان إيفان يافلفتش ـ والذي كان يعمل مسئولا عن الشئون المنزلية لدى الميجور في السابق وأصبح الآن كاتبا بادارة المركز ـ كان يتمشى

على شاطىء البحيرة ، حيث أخذ ـ انتظارا للحظة التي يمتع نفسه فيها حين تخرج فتيات القرية للاستحمام في البحيرة ـ أخذ يصفر من حين لآخر ، ويدخن ، ويفكر في الهدف من نزهته هذه . وفجأة سمع صيحة تمزق القلب . وفي هذه الصيحة عرف صوت سيده وسيدته السابقين . ـ أغيثونا . كان المجور وزوجته يصيحان . . وفي الحال خلع الكاتب دون تردد جاكتته وبنطلونه وحذاءه ورسم علامة الصليب ثلاث مرات وقفز في الماء وسبح نحو وسط البحيرة لاغاثتهما . كانت سباحته أفضل من كتابته ومن فهمه لما هو مكتوب ، ولذا لم تمض سوى ثلاث دقائق أو نحو ذلك حتى كان بالقرب من الزوجين وهما يصارعان الأمواج . اقترب ايفان بافلفتش منهما وأسقط في يده : « ترى من الذي أنقذه منهما ؟! ـ قال في نفسه اللعنة عليكما ! » . لم يكن ليستطيع انقاذ الاثنين بحال من الاحوال ، حيث لم يكن يقوى الا على انقاذ احدهما فقط وبقدر كبير من الصعوبة . وتنفشت قسمات وجهه في خطوط معوجة تعبيرا عن شدة حيرته ، وبدأ تارة يمسك بالمجور ، وتارة اخرى بزوجته ، واخيرا قال :

ـ لن انقذ الا احدكما فقط ! اني لا اقوى على انتشالكما معا ! اني لست حوتا من الحيتان !

وهنا صاحت زوجة المجور بصوت رفيع وهي ترتعد وتمسك بذيل بدلة السهرة التي يرتديها زوجها :

ـ فانيا ، يا عزيزي ، انقذني انا . . انا ، واذا انقذتني سأتزوجك . . نعم سأتزوجك واقسم على هذا بكل المقدسات . . اخشى فاني اغرق . .

ـ إيفان . . إيفان بافلفتش . . كن في شهامة الفرسان ! اسمعني ـ بدأ المجور يخاطبه بصوته الجهوري وهو يشرق بالماء ـ أنقذني يا أخي ! سأعطيك روبلا تشرب به فودكا ! كن لي أبا رحيم القلب . . لا تدعني أغرق في ميعة الشباب . . سأغرقك ذهبا من قمة رأسك حتى قدميك . . هيا . . هيا . . أنقذني . . حقا يا لك من رجل . . حسنا ، اذا أنقذتني سأتزوج أختك ماريا . . أقسم لك على هذا ! انها حسناء رائعة الجمال . . لا تنقذ زوجتي . . فلتذهب هي الى الجحيم . . اسمعني جيدا ، اذ لم تنقذني ، سأقتلك ، لن أدعك تعيش . .

بدأ رأس إيفان بافلفتش يدور لدرجة أنه كاد يغرق ويستقر هو نفسه في قاع البحيرة بين لحظة وأخرى . لقد كان كل عرض من هذين العرضين عظيم النفع . . كل منهما أفضل من الآخر . . فأيهما يختار ؟ الوقت يمضي وينبغي التصرف بسرعة ، وأخيرا استقر رأيه : « حسنا ، سأنقذهما معا ، والحصول على الفائدة من الاثنين أفضل طبعا . . هذا هو القرار السليم . . ورسم إيفان بافلفتش علامة الصليب ، وأخذ زوجة المجور تحت إبط ذراعه الأيمن ، وأمسك بسبابة يده اليمنى ذاتها رباط عنق المجور ، وبدأ يسبح تجاه الشاطىء وهو يئن بصوت شبيه بالحشرجة . ـ هيا حركا أرجلكما ! ـ أصدر لهما أوامره وهو يجدف بذراعه اليسرى ويحلم بمستقبله المشرق . . « السيدة ستصبح زوجتي ، والمجور صهري . . رائع ! لك أن تمرح كما يحلو لك يا فانيا ! عندئذ حقا سأشبع نفسي بأكل الجاتوهات ، وأدخن أفخر أنواع السيجار وكما يحلو لي ! الحمد لك يا رب ! » كان من الصعب على ايفان بافلفتش سحب هذا الحمل المزدوج بذراع واحدة والسباحة ضد الريح ، غير أن فكرة المستقبل المشرق بروعته كانت تزيده قوة على قوة . وأوصل ، وهو يبتسم ويقهقه من فرط السعادة ، المجور وزوجته الى البر . لم تكن الدنيا تسعه من الفرحة في هذه اللحظة ، ولكن ما ان رأى المجور وزوجته يتشابكان بالأيدي فور نجاتهما مباشرة ، حتى شحب وجهه ، وخبط جبينه براحة يده في ندم ، وأخذ ينتحب بتشنج دون أن يلقي بالا الى الفتيات اللاتي خرجن من الماء وتزاحمن في حلقة تحيط بالمجور وزوجته ويتطلعن بعجب الى الكاتب الشجاع . ■■

د . فوزي عطية محمد

أستاذ ورئيس قسم اللغات السلافية بكلية الألسن جامعة عين شمس ـ القاهرة

محنة البربرية

● تضمن مقال فهمي هويدي بالعدد (٢٨١) عن محنة اللغة العربية ـ معلومات غير دقيقة وهي قوله ان اللغة البربرية لغة منطوقة لم تكتب بعد ، وحقيقة الامر ان الشعب الامازيغي هو الاسم الاصيل لهذا الشعب الذي ينعت بالبربري ـ وكلمة « دراماازيغ » تعني الحر وهو الذي حارب الدخلاء من الرومان والوندال والبيزنطيين والقرطاجيين والبرتغاليين والفرنسيين .

واعتنق الشعب الامازيغي الاسلام عن اقتناع وطاعة وساهم بنشر الدعوة الاسلامية في الاندلس ، واثبت المؤرخون المتوغلون في البحث عن حضارة افريقيا الشمالية علميا ان سكانها هم الامازيغيون ـ وكانوا رسل حضارة الى اوروبا باسرها في طور من اطوار العصر الباليوتي وهو الاوريناكي . ـ لهم ابجدية تسمى « تيفيناغ » استعملوها في الكتابة قبل المسيح بالفي عام ، وكلمة « تيفي » تعني « اكتشاف و « ناغ » اي لنا ـ ويقول اندري جوليان ، في كتابه تاريخ افريقيا الشمالية ومدلول المدنية البربرية عندنا هو هذه المجموعة من التقاليد والعادات والاخلاق .

حمزة عبدالله قاسم
الدارالبيضاء

التطرف الديني

● طالعت ماصدر في مجلتكم « العددين ٢٧٨ ، ٢٧٩ » حول قضية التطرف الديني التي تعتبر من اخطر القضايا في واقعنا المعاصر ـ واهم دوافع هذا التطرف ومسبباته فيما ارى ـ هما : اولا ـ الجهل بمعالم الشريعة الاسلامية وخصائصها المتميزة وكلياتها العامة ، وهذا يعود الى ندرة المرشدين الذين يوجهون الشباب المتحمسين لدينهم الى الطريق الاصوب في العمل الاسلامي ـ

ثانيا ـ قسوة الضغوط التي تستعملها الحكومات والنظم على الشباب وتعطيل نشاطاتهم والحد منها مما يؤدي بالشاب المسلم الى ان ينظر الى المجتمع بتشاؤم ، ويحكم عليه باحكام متنوعة .

الا انني انبه مجلة « العربي » الى انه ـ كما تطوعت بجمع عدد من المقالات والدراسات حول « التطرف الديني » وهذا مما تشكر عليه ـ اود ان تقوم مجلتكم بنفس النشاط والاحاطة بجمع مقالات ودراسات وآراء للعلماء حول « الانسلاخ من الدين » في الاقطار الاسلامية ، اذ انه من غير الممكن ان يكون عدد « المتطرفين » في الدين اكثر من عدد « المنسلخين » من الدين ، وظاهرة التحلل من الدين والاخلاق حسب مايلاحظ كل واحد منا في العالم الاسلامي هي المخيمة على شبابه والقاعدة فيه . بينما نلاحظ ان ظاهرة التطرف موجودة فعلا ولكنها نادرة وشاذة ، فكان الاولى بسيادتكم ان تطرقوا باب الظاهرة الاكثر شيوعا والاكثر تهديدا لكيان امتنا والتي هي التفريط في الدين والقيم قبل ان تطرقوا ظاهرة شاذة يمكن التعديل فيها والحد من اتساع رقعتها والتي هي الافراط والتشدد في الاستمساك باحكام الدين وفروعه ، ورجائي ان تلبوا رغبتنا وتكونوا عند حسن ظننا بعزيمتكم الجبارة وارادتكم القوية على تخطي الصعاب المعهود عنكم .

الاستاذ عبد الكريم الفضلي
الجزائر .

اعيـدوا .. « أنت تسأل »

● لان ارتباطي « بالعربي » قوي ولان هذه المجلة تحوي كل انواع المعارف والثقافات فانني اقترح عليكم مايأتي :

تخصيص باب كامل من ابواب المجلة للرد على اسئلة القراء السياسية والاجتماعية والدينية وذلك اتمام لشكل هذه المجلة الثقافية الواسعة ، وهذا يمكن تحقيقه عن طريق اعادة باب « انت تسأل ونحن نجيب » حتى نعرف التفسير الصحيح للاسئلة التي تدور بعقولنا ، ونعرف رايكم وموقفكم تجاه الاحداث التي تدور في وطننا والتي قد لاتطرقونها لسبب او لآخر .

سامي محمد المصلي
كفر الشيخ ـ مصر

الزهرة يومه مساو لسنته

● ذكرتم في العدد ٢٧٩ العبارة التالية : يقترب كوكب الزهرة من الارض حتى يصل الى مسافة ٨٣ مليون كم ، ثم وردت في احصائيات الزهرة ايضا ان البعد عن الارض ٣٨ مليون كم على الاقل ، نرجو ارشادنا الى الصحيح في هذه الارقام .

المهندس احمد عبد الله ـ عدن

العربي :

كوكب الزهرة هو اقرب الكواكب الى الكرة الارضية ، ولكن بعده عن كوكبنا متغير ويبلغ في حده الادنى ٤٢ مليون كم . . ومما يذكر ان سفينتي الفضاء الروسيتين فينوس ١٣ ، ١٤ قطعتا تلك المسافة في اربعة اشهر وقد هبطتا على كوكب الزهرة في شهر مارس الماضي وارسلتا الى الارض سيلا من المعلومات الهامة والجديدة ـ ومن طريف مايذكر عن الزهرة ان طول يومه مساو لطول سنته بالتقريب ، فهو بطيء جدا ويدور حول نفسه في ٢٢٥ يوما من ايام الارض ويدور حول الشمس في ٢٤٣ يوما ارضيا .

اطبعوا « العربي » .. بالانجليزية

● لماذا لاتصدر طبعة باللغة الانجليزية لمجلة العربي ؟ فهذا جدير بان يجعلها مجلة عالمية بل ان عدد قرائها من البلاد العربية سيكون اكبر منه في أي بلد اخر نتيجة انتشار اللغة الانجليزية على نطاق واسع ، واعتقد ان طبيعة ابواب المجلة والدراسات الواردة فيها تؤهلها لان تصدر باللغات الاجنبية ، واذا كان المانع هو المال فانه ـ مع زيادة توزيع اعداد المجلة وتضافر الجهود ـ سيكون سهلا ، فالمسألة تتوقف على عنصر الوقت دون غيره .

عماد الدين محمود فايز
مصر

اقتراحـات .. من العراق

● لقد بحثت مرارا وتكرارا عن مجلة عربية تغني القارئ العربي بمواضيعها المتنوعة من علم وثقافة وادب ، ومنذ سنوات وجدت مجلات مختلفة ولكني كنت عندما انهي قراءتها اجد نفسي لم

استفد منها الا القليل ، والآن اقول لكم لقد وجدت ضالتي في مجلة العربي الغراء التي هي مجلة الانسان العربي ، ولدي بعض الاقتراحات راجيا اخذها بعين الاعتبار .

١ - زيادة النسخ التي ترسل الى العراق حيث لاتوجد الا نادرا ولا ادري ماالسبب .

٢ - وضع صفحة بعنوان قصيدة العدد ، توضع فيها قصيدة حديثة او قديمة .

٣ - تلوين اكبر عدد من الصفحات لان ذلك يستهوي القارئ .

فرحان حماد نهاد
نينوى / العراق

الوقواق

● قرأت ماكتبه الدكتور عبد المحسن صالح في مجلة « العربي » عدد ربيع الثاني تحت عنوان « الوقواق » وكان بحثا شيقا ، ولكن ماقرأته وعرفته ان « الوقواق » هي جزيرة في شرق آسيا ، وهي قريبة من اندونيسيا - كما ذكر التاريخ -وقرأت عنها في كتاب الف ليلة وليلة وغيره ، واخيرا اقتنع بتلك المقارنة التي تذكرها هذه الكتب عن عادات اهلها وبين مانفهمه ونعرفه ، كما ان اسمها ومايطلق على اهلها pua —pur ولكن العرب لاينطقون حرف - أ - فحرفوها فصارت « وقواق » فهل تفيدوني وترشدوني من حيرتي ؟

علي عقيل/ المملكه السعودية

العربي :

جاء في لسان العرب ان « الوقواق » بلد في شرق بلاد الصين ، والوقواق طائر وليس بثبت ، والوقواق مثل « الوكواك » وتعني الجبان ، والوقواق شجر تؤخذ منه المحابر ، والوقواقة هي الكثيرة الكلام ، يقال امرأة « وقواقة » والوقواقة هي اختلاط اصوات الطير .

الطب والاختراع

● اطلعت على مجلتكم الممتعة ، فاعجبني فيها باب انباء الطب والاختراع وهو باب يخبرنا بكل جديد من علم هذا الباب . ارجو الاستمرار فيه ومتابعة كل جديد حتى يعرف القارىء ما تخرجه لنا عقول العلماء في هذا الشان . .

ولد محسن محمد
الجزائر

يتبرع بكليته

● علمت من خلال قراءتي لعمليات زراعة الكلى بالكويت ، ان وحدة الكلى في بلادكم تعاني من نقص في وجود مثل هذا الجزء الذي يحتاجه المريض حين تتعطل الكلى عن العمل ، واجد لزاما على ان احيطكم علما بكل صدق بانني قد اعددت نفسي جيدا وبمعنويات عالية وصادقة للتبرع باحدى كليتي لمن يكون في حاجة اليها ، - ويكون في نقلها له انقاذ لحياة مريض - من مرضى وحدتكم شفاهم الله .

حسنين ادم - المملكة الأردنية

كتاب يحمل آخر انذار للبشرية :

مصير الأرض

تأليف : جوناثان شيل

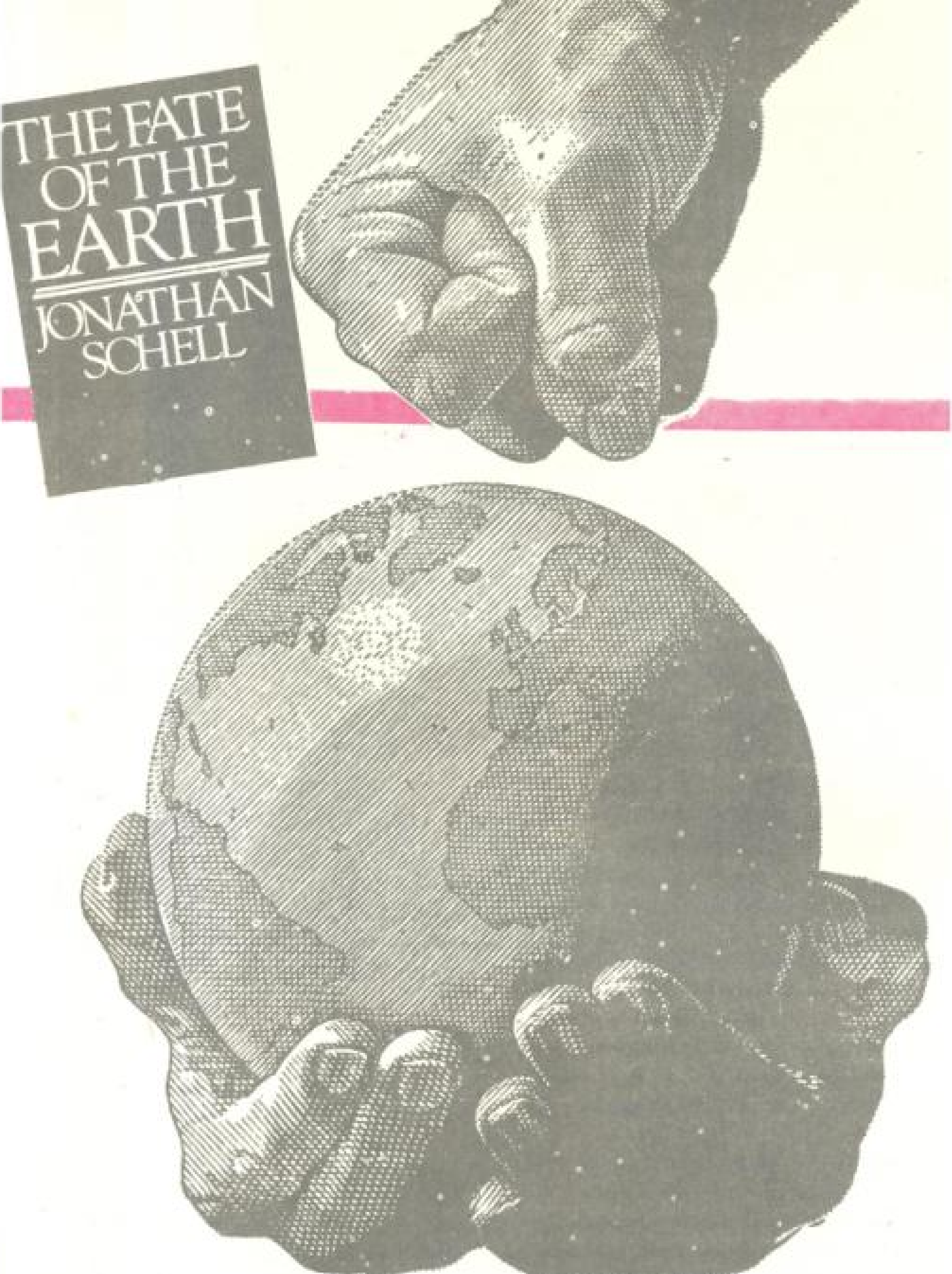
عرض وتلخيص : منير نصيف

الصيحة التي أطلقها « اوبنهايمر » قبل أقل من اربعين عاما : « يا الهي ماذا صنعت ؟» عادت تدوي مرة اخرى في صفحات كتاب جديد بعنوان « مصير الارض » . فقط كانت الصيحة الجديدة تختلف ، فالاولى اطلقها « ابو القنبلة الذرية » عندما توصل اوبنهايمر العالم الامريكي الألماني الأصل الى انتاج أول قنبلة ذرية ثم وقف يرقبها من بعيد اثناء تجربتها في صحراء ترنيتي بولاية نيومكسيكو وهاله ما رأى فصرخ ! وأما الصيحة الثانية فهي لمؤلف الكتاب جوناثان شيل « ياالهي ماذا صنعوا بنا ؟» وقد تصدر كتابه قائمة اكثر الكتب مبيعا ، فهو يحمل آخر انذار قد يتاح للبشرية الانصات اليه !

« في معظم العواصم الاوروبية والأمريكية خرج المتظاهرون يعبرون عن القلق الذي تعيش فيه البشرية . كان حجم المظاهرات التي سارت احتجاجا على التسلح النووي ، أكبر بكثير مما كان مقدرا ومتوقعا لها . فالشعوب . . كل الشعوب تريد السلام ، تريد الحياة . لقد كانت الصيحة التي حملوها في اللافتات التي تقدمتهم في الميادين والشوارع التي شهدت مسيرات الاحتجاج « لا نريد الموت . لا نريد الدمار . لا نريد الزوال لهذه الارض التي نعيش عليها » ! كانت صيحتهم الهائلة استمرارا للحملة الهادئة التي بدأها الفيلسوف البريطاني « برتراند راسل » ولجنة المائة التي كان يرأسها قبل سنوات بعيدة مضت ضد التسلح النووي ، مناديا بالسلام في عالم لم يعرف السلام منذ ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها قبل حوالي اربعين عاما !

ومع « الانذار » الذي حواه كتاب « مصير الارض » لجوناثان شيل ، حيث قدم لنا تقييما واقعيا للخطر الذري ، حرص في الوقت ذاته ان يوجه نداء عاطفيا من أجل تبني سياسة جديدة تحول دون نشوب هذا الحريق الرهيب الذي سيحول كوكبنا الى ارض مقفرة الا من الحشرات والاعشاب !

وساعد ظهور الكتاب الجديد في امريكا في اوائل هذا العام على تركيز اهتمام الامة على هذا الخطر المحدق ، وارغم السياسيين المترددين على ادراج مسألة الرقابة على الاسلحة النووية في قمة جدول اعمال السياسات الدولية . . وظهر اول رد فعل في تلك النغمة الهادئة التي كانت طابع حديث ريجان رئيس الولايات المتحدة اثناء رحلته الأخيرة الى عواصم اوروبا الغربية في شهر يونيو الماضي ، حول موضوع نزع السلاح النووي ، والتي



الارض . . بقاؤها في ايدينا .

استهدف من ورائها ايضا التقليل من شعبية ونفوذ مؤيدي حركة السلام في اوروبا وسحب البساط من تحت اقدامهم لأنه رأى فيها حركة «يسارية» تؤيد السياسة السوفيتية وتتبناها الأحزاب الشيوعية وهو رأي لا يطابق الواقع. فالاعتراض كان ولايزال مركزا على تركيب الصواريخ النووية في دول غرب اوروبا ردا على الصواريخ السوفيتية المضادة التي تم تركيبها في دول شرق اوروبا خلال السنوات القليلة الماضية بدلا من الجلوس والبحث عن وسيلة للاتفاق على ازالة هذه الصواريخ من هنا وهناك!

كابوس الاسلحة النووية

ونعود الى موضوعنا «مصير الارض» ماذا قال لنا «جوناثان شيل» في كتابه: منذ اليوم السادس عشر من شهر يوليو عام ١٩٤٥ عندما فجرت اول قنبلة ذرية في صحراء ترينتي للتجارب بنيومكسيكو، والبشرية تعيش مع كابوس الاسلحة النووية. وفي كل عام، كان عدد القنابل النووية يتزايد حتى بلغ اليوم خمسين ألفا من الرؤوس النووية في جميع انحاء العالم تحمل معها قوة مدمرة تبلغ عشرين بليونا من الأطنان من مادة ت ن ت، أو أكثر من مليون و ٦٠٠ الف مرة من قوة القنبلة الذرية التي القتها الولايات المتحدة الامريكية على مدينة هيروشيما اليابانية قبل اقل من شهر واحد من تجربة اول قنبلة ذرية في صحراء ترينتي!

«هذه القنابل ـ كما ذكر المؤلف ـ صنعت لاستخدامها كسلاح جديد في الحروب، ولكن مغزاها اكبر من الحرب وكل اسبابها ونتائجها. لقد نبتت هذه القنابل من التاريخ، وهي تهدد اليوم بوضع نهاية لهذا التاريخ. لقد صنعها الانسان ومع هذا فهي تهدد بابادة الانسان. لقد اصبحت قبرا كبيرا يمكن ان يسقط فيه العالم كله. انها الخصم الرهيب الذي يقف في وجه كل نوايا الانسان واعماله وآماله. الحياة وحدها التي تتهددها القنابل الذرية بالابتلاع هي التي تستطيع ان تعطينا المقياس الصحيح لخطورة القنبلة الذرية ودلالتها.

مواجهة الخطر

ومع هذا، وبالرغم من الأهمية البالغة والتي لا يمكن قياسها، لهذه الاسلحة النووية، فاننا نجد ان العالم ككل لم يعطها ما تستحق من الاهتمام والتفكير. لقد فشلنا حتى الآن في التوصل الى طريقة للرد عليها، او أن نكتشف بانفسنا الرد العاطفي او العقلاني او السياسي الذي يمكن ان نواجه به هذا الخطر.

هذا الفشل العجيب في التوصل الى وسيلة للرد على الخطر الذي يتهددنا والذي نجد مئات الملايين من البشر يعترفون معه بوجود تهديد مباشر ومستمر لحياتهم وحياة الارض التي يعيشون عليها، ومع هذا لا يفعلون شيئا ازاءه، قد اصبح في حد ذاته ظاهرة مثيرة للدهشة، حتى أنه يمكن النظر اليها على انها جانب بالغ الاهمية من جوانب المأزق الذي تعيشه البشرية في شبح الأسلحة النووية.

ان اي شخص يسأل عن آثار الحريق النووي، سوف يجد نفسه ـ وقد سقط فريسة لانفعالات قوية متضاربة ـ في قمة هذه الانفعالات، رد الفعل المفاجىء القوي الذي سيحتويه بكل تأكيد، وهو يرى منظر الدمار الهائل والمعاناة والموت. ثم الشعور باليأس والهزيمة الذي سوف ينتاب المرء نتيجة لادراكه لهذا العجز الذي يصيب النفس البشرية وهي تواجه هذا القدر الهائل من الرعب.

المرض النووي

ثم يقول جوناثان: «الرأي السائد ان الحريق النووي شيء لا يمكن التفكير فيه ولكن من الممكن حدوثه.. انه أشبه ما يكون بعمل نستطيع القيام به، ولكننا لا نستطيع ان نتصور على وجه التحديد كيف سيبدو بعد اتمامه! ان المرء لا يملك بعد هذا إلا ان يصل الى قرار عن وعي او غير وعي، بألا يفكر بعد اليوم في احتمال نشوب حريق نووي. وعندما يحاول المرء ان يواجه المأزق النووي، يشعر بالمرض، وعندما يطرد هذا الخاطر من ذهنه، وهو ما يجب ان يحدث في معظم الاوقات، حتى يستطيع المرء منا ان يمضي في رحلة الحياة، فانه يشعر بانه قد استعاد صحته. وهذا الشعور الاخير بالرفاه انما يقوم على اساس انكار أهم حقيقة في العصر الذي نعيشه، ولهذا فهو في حد ذاته نوع من المرض! ذلك ان اي مجتمع يغمض عينيه بصورة منظمة امام خطر عاجل يهدد بقاءه المادي ويفشل في اتخاذ اية خطوات لانقاذ نفسه، لا يمكن وصفه بانه مجتمع سليم سيكولوجيا.

وتبقى الحقيقة بعد ذلك، وهي انه سواء شغلت الاسلحة النووية تفكيرنا أو استطعنا ان نتجنب التفكير فيها، فان وجودها بيننا يجعلنا جميعا نحس بالمرض.

موت ودمار

وبعد ان يمضي المؤلف في وصف الدمار والخراب والموت الذي يحدثه الانفجار النووي بعد ثوان معدودة للمنطقة التي تعرضت للانفجار، ينتقل الى الحديث عن الدمار الذي سيحل بالكرة الارضية وما فيها وما عليها نتيجة للاشعاعات الذرية التي تنطلق بعد القاء قنبلة ذات



الانفجار الذري . . ياالهي ماذا صنعوا بنا

قوة انفجارية توازن ٥٠٠ ميجاتون او ٤٠ الف مرة أكبر من قوة القنبلة الذرية التي القيت فوق هيروشيما في الحرب الثانية ، وهذه الاشعاعات الذرية تنتشر بعد الانفجار في الارض والجو والبحر ، وفي خلايا وجذوع وعظام وجذور واوراق كل شيء حي ، وتظل تنفجر داخلها لاجل غير مسمى !

ومن بين الآثار التي ستنتج عن الانفجار الذري ويتعرض لها العالم كله ، ارتفاع ملايين الاطنان من الاتربة الى الجزء الأعلى من الغلاف الجوي ، ومن المحتمل ان يؤدي هذا الى انخفاض في درجة الحرارة على سطح الأرض .

أما الأثر الثالث من الآثار التي ستتعرض لها الأرض بعد الانفجار النووي ، فهو ـ طبقا لتوقعات العلماء ـ دمار جزئي لطبقة الاوزون «**Ozone**» ، التي تحيط بالكرة الأرضية في طبقات الجو العليا . والذي يحدث أن الكرة النارية الذرية تنتج كميات كبيرة من اكسيد النتروجين بعد احتراقه في الهواء . وتحمل حرارة الانفجار اكسيد النتروجين الى طبقات الجو العليا ، حيث تجري عدة



تفاعلات كيميائية تؤدي في النهاية الى نضوب الاوزون . وقد يستمر هذا الحال لسنوات عديدة . وقدر تقرير الاكاديمية الوطنية للعلوم في عام ١٩٧٥ ان الاحتراق الناتج عن تفجير عشرة آلاف ميجاتون في نصف الكرة الشمالي قد يؤدي الى نقص الاوزون بنسبة عالية تصل الى ٧٠٪ ويمتد الى نصف الكرة الجنوبي أيضا ولكن بنسبة أقل قد تصل الى ٤٠٪ ، وقد يحتاج الأمر الى فترة زمنية لا تقل عن ثلاثين عاما لكي يعود الاوزون الى مستويه الطبيعي مرة اخرى .

ان طبقة الاوزون التي تحيط بالكرة الارضية ذات اهمية حيوية بالنسبة للحياة على الارض ، لأنها تحمي سطح الأرض من المستويات المميتة المهلكة للاشعاعات فوق البنفسجية ، ولولا عملية الامتصاص التي يقوم بها الاوزون لجانب كبير من الاشعاعات فوق البنفسجية المنبثقة من الشمس ، لما أمكن وجود الحياة كما نراها الآن ، الا في المحيطات . فبغير هذا الدرع ـ الاوزون ـ وهو شكل من اشكال الاوكسجين لتحولت اشعة الشمس من « مانحة للحياة » الى « مدمرة للحياة » !

ما القضية ؟

والسؤال الاول الذي يطرحه جوناثان وهو يمضي بنا في حديثه عن المصير الذي ينتظر الارض ، ونحن نحكم على الآثار الناجمة عن الاحتراق النووي ، لا يكمن عنده في تحديد عدد الذين تعرضوا للاشعاعات الذرية او الذين احترقوا او سحقهم اللهب حتى الموت نتيجة للآثار المباشرة للانفجار النووي ، ولكن السؤال هو عن مدى صمود الطبقة الحامية للارض والتي تعتمد كل انواع الحياة عليها في وجودها واستمرارها . فالقضية اذن هي قضية صلاحية الارض للحياة

في هذا الاطار ينبثق السؤال عن بقاء البشرية واستمرارها وليس الاطار ابدا المذبحة التي سيروح ضحيتها مئات الملايين من البشر نتيجة للآثار المحلية للانفجار .

واذا وقع هجوم نووي واسع النطاق على الولايات المتحدة الأمريكية ، فسوف يحدث دمار شامل للبيئة الطبيعية على نطاق لم يعرف له مثيل منذ العصور الجيولوجية الاولى ، وتتحول امريكا الى جمهورية للحشرات والاعشاب !

وبالرغم من انه قد يبدو من غير المناسب ان نتحدث عن « الحضارة » بنفس الروح التي نتحدث بها عن موت مئات الملايين من البشر ، الا أنه لابد من الاشارة على الاقل الى انه في حالة حدوث حريق نووي على نطاق واسع في نصف الكرة الشمالي ، فسوف تنتهي حضارة اوروبا

والصين واليابان وروسيا وامريكا ، وستزول تماما عن سطح الارض .

الانسان والطبيعة

واذا نظرنا الى الموضوع ككل وجدنا ان ازدياد قوة الانسان قد أدت الى تغيير حاسم ذي جوانب عديدة في ميزان القوة بين الانسان والارض . فالطبيعة التي كانت في يوم ما سيدا قاسيا مثيرا للخوف ترقد الآن مرقد الخنوع ، في حاجة الى الحماية من قوة الانسان !!

وقد أدت الزيادة المستمرة في سيادة الانسان على الطبيعة ، الامر الذي يعتبر حدثا على هذا الكوكب ، أدت بدورها الى زيادة مطلقة وبغير قيود لقوة الموت على الارض ، واصبحت قدرة الكائن الحي على تجديد نفسه خلال فترة حياته ثم قدرته على التكاثر يعتمدان على تكامل ما يسميه البيولوجيون ، او المشتغلون بعلم الاحياء « المعلومات » المخزونة في جينات هذا الكائن الحي . ما الذي سيبقى ويحتمل وما الذي سيعيش في اي كائن حي ؟ انه تلك المجموعة المرتبة من الخلايا التي تمليها « المعلومات » الوراثية ، وليست مجموعة بذاتها من هذه الخلايا .

ان الحريق النووي ، نتيجة لهذا التزامل الفريد الذي يتميز به من حيث ضخامته وحدوثه المفاجىء ، هو خطر لا يعادله اي خطر آخر ، ولكن - مع هذا وفي ذات الوقت - يعتبر احد الاخطار الكثيرة والتي لا يمكن حصرها ، وهي من انتاج المؤسسة البشرية التي تزايدت قوتها بفضل العلم ، واصبحت هذه الاخطار تهدد العالم الطبيعي . إن الجنس البشري قد اصبح في نفس الشبكة المحكمة التي تمثل النجاح التقني الذي خنق الكثير من الأحياء الاخرى !

قوارض تسعى !

ويمضي جوناثان في كتابه : هناك حالة واحدة قد يمكن معها تكوين فكرة عن حياة ومنجزات الجنس البشري ، ولكن هنا بطبيعة الحال ، لن يكون هناك انسان واحد على قيد الحياة لكي يكون هذه الفكرة . وللتسجيل نستطيع القول بانه خلال الـ ٣٦ عاما من الحياة في هذا العالم المسلح بالقنابل النووية اصبحنا في عداد الموتى وسط الخطر



المظاهرات ضد الاسلحة النووية في اوروبا .. يسقط كل الاستعمار الامريكي والروسي والفرنسي .

النووي . إن كل فرد منا يعترف بصورة أو بأخرى بان هذا الخطر قائم ، ولكن هذا الادراك لم يسفر عن أية نتائج تعبر عنها مشاعرنا او اعمالنا ، بينما تمضي الدول الكبرى في تعزيز اسلحتها النووية ، تماما كما لو كنا تحت تأثير عملية تنويم مغناطيسي او اناس يحلمون او قوارض تسعى في اتجاه البحر ، على حد تعبير جورج كينان .

اهتمام بلا جذور

ربما لفترة قصيرة قبل انتاج اول قنبلة نووية ، وبعدها ، بدا نفر قليل من الرجال في القمة وقريبا منها في الحكومة الامريكية ، على استعداد لمعالجة المأزق النووي بالعمق الذي يستأهله . وكان احد هؤلاء هو وزير الحرب الأمريكي هنري ستيمسون الذي كان يعلم « بمشروع مانهاتن » وفي شهر مارس من عام ١٩٤٥ وقبل اربعة أشهر من تجربة القنبلة الذرية الاولى في صحراء ترينتي في نيومكسيكو ، جلس يحكي ليومياته تفاصيل الحديث الذي دار بينه وبين مساعده المقرب هارفي بندي عن هذا السلاح الجديد . كتب يقول : « ذهبت افكارنا الى قاع الحقائق المتصلة بالطبيعة الانسانية والاخلاقيات والحكومات . وكانت المناقشة بكل المقاييس أكثر الاعمال التي قمت بها بحثا واستقصاء واهمية ، منذ ان جئت الى هذا المكتب كوزير للحرب ، لأنها مست مسائل أكثر عمقا حتى من مبادىء الحكومة الحالية !

ولكن هذه الافكار العميقة ، لم تتخذ لها جذورا قوية بحيث يمكن ان تبقى في قلوب الزعماء الأمريكيين او زعماء العالم الواسع من حولهم ، ومن ثم ما لبثت اساليب التفكير القديم ان عادت ، ولكن في أشكال حقائق جديدة . لقد استطاعوا ان يلمحوا الأبعاد الحقيقية للخطر النووي ودلالة هذا الخطر بالنسبة للجنس البشري ، ولكن هذا الادراك ما لبث ان توارى وعادت المتطلبات العادية للحياة السياسية الدولية بما في ذلك الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تثير انفعالات وقدرات الشعوب .

وهكذا بدأت الحياة الغريبة المزدوجة للعالم الذي استمر حتى وقتنا هذا ! من ناحية وجدنا انفسنا نعود الى اعمالنا كالمعتاد ، كما لو كان كل شيء يسير على ما كان عليه . ومن ناحية اخرى بدأنا في حشد المخزون من الاسلحة النووية التي تستطيع ان تنسف هذا الوجود الذي افترضنا انه لم يتغير ، وتقذف به الى السماء في اية لحظة .

الخطر النووي ينمو

ان الابقاء على هذا الانفصال او « الطلاق » يشكل موقفا عصيبا من الناحية السيكولوجية ففي الوقت الذي طردنا فيه مأساة هيروشيما وناجازاكي من اذهاننا ، اخذ الخطر النووي ينمو بصورة باتت تهدد بزوال كل شيء موجود ، ومع هذا فهو لم يمس اي شيء من الناحية المادية واصبح الناس احرارا في ألا يشغلوا انفسهم بالتفكير في هذا الخطر ، اذا كانت هذه رغبتهم !

ما أشبه القنبلة النووية بجلاد يحمل قلبا طيبا ، انه يسمح لضحاياه المرشحين للموت بالمضي في حياتهم بصورة طبيعية في ظاهرها الى ان يأتي اليوم الذي ينفذ فيه حكم الاعدام فجأة وبلا انذار . ولو ان قنبلة نووية واحدة فجرت في احدى مدن العالم مرة كل عام لاستطعنا ان نتصور كيف سيكون التغيير الذي يطرأ على موقف الرأي العام تجاه الخطر النووي .

ويمضي المؤلف : إن استمرارية الفصل بين عالم ما قبل القنبلة النووية وعالم القنبلة النووية ، مهما كان وهما ، والذي ساعدت تلك السنوات التي انقضت دون استخدام الاسلحة النووية على رسم الخط الفاصل بين العالمين ، كان من الاهمية بالنسبة للاحتفاظ بموقف استبعاد هذا الخطر عالميا . لانه يتيح الفرصة للمضي في حياة طبيعية رغم ما يحتويها من زيف ، ولو ان هذه الحياة « الطبيعية » كانت في بعض الاحيان تحتضن حماسا يقف على حافة القلق الهستيري ! ان منظر الحياة وهي تسير كالمعتاد تحمل معها افتراضا قويا بان الخطر ليس كبيرا .

الجنون الذي أعنيه

اننا لا يمكن ان نرى الخطر الا اذا حولنا انظارنا عن كل مظاهر الحياة العادية المزعومة التي نراها امامنا ، ونظرنا الى سيف الجلاد المسلط على رقاب كل فرد منا .. عندئذ فقط نكتشف ان الحياة الطبيعية هي في واقع الأمر جنون جماعي .. وهو جنون لا يتميز بالصراخ والثورة ، ولكنه واضح بالتحديد لاننا لا نصرخ ولا نثور في وجه هذا الخطر الساحق ، كما لو كنا جميعا واقعين تحت تأثير مخدر ، وهذا هو الجنون الذي أعنيه . تماما كما يحدث لنا ونحن نحلم ، فنحن الذين نؤلف ونحن الذين نعاني من مصائرنا . ولذلك فاننا عندما نخفي عن انفسنا الاستعدادات الهائلة التي قمنا بها لافناء انفسنا ، انما نفعل ذلك لسببين قرضا علينا قرضا . السبب الاول اننا لا نريد ان نعترف بان حياتنا قد تؤخذ منا في اية لحظة ، وان عالمنا الذي نعيش فيه سوف يدمر ويتحول الى تراب .

والسبب الثاني اننا لا نريد ان نواجه الحقيقة وهي اننا يمكن ان نتحول الى قتلة بالجملة !

الغاء الحياة

ومنذ سقراط ، كان يقال دائما ان الهدفين الاساسيين لاي نظام سياسي هما ، (اولا) ضمان الحياة لكل افراد المجتمع ، اي حماية الأرواح ، (وثانيا) منحهم الفرصة لتحقيق ذاتهم في المجتمع ، اي تمكينهم من العيش عيشة كريمة ونبيلة . وخطر ابادة انفسنا بايدينا يلغي هذين الهدفين ويترك سياسة العصر في موقف يبعث على السخرية الا وهو الفشل في التصويب على الاهداف الرئيسية التي طالما كانت مبررا تقليديا لوجود هذه السياسة فاذا كان اقتصادنا قادرا على توفير كميات هائلة من الأواني الفضية والاكواب وأغطية المائدة ولكن بدون غذاء ، فسوف تثور الشعوب وتطالب بتغيير نظام الحكم .

كذلك النظام السياسي العالمي الذي يهدف الآن الى توفير بعض مايحتاج اليه الانسان في حياته ، ولكنه يفشل في رفع اصبع واحدة لانقاذ الحياة ذاتها .. هذا النظام في حاجة ماسة الى نظام آخر بديل .

فالشعوب لا تستطيع ان تضع ثقتها طويلا في مؤسسات ليست قادرة حتى على مجرد الاعتراف بالمتطلبات العاجلة للجنس البشري كله ، ومن اجل هذا فليس مستغربا ان نرى عند هؤلاء الذين ينظرون بازدراء الى المشتغلين بالسياسة في ازدياد مستمر يوما بعد يوم ، ولو انهم قد لا يدركون على وجه التحديد لماذا يتخذون منهم هذا الموقف .

الحياة قبل كل شيء

ان خطر الابادة يستحوذ على اهتمامنا باسلوب جديد على اساس حقيقة بسيطة وجوهرية وهي انه قبل ان يكون هناك خير او شر ، نفع أو أذى ، أحزان أو أفراح ، لابد من وجود حياة اولا .

وفي محاولتنا التوصل الى نوع من التفاهم او التعايش مع خطر الابادة الذي يتهددنا ، لابد وان تكون اولى رغباتنا هي ان يولد الناس من أجل انفسهم ، لا من أجل اي سبب آخر . اما فيما عدا ذلك ، كرغبتنا في خدمة الأجيال المقبلة عن طريق اعداد عالم لائق بهم يعيشون فيه ، ورغبتنا كذلك في توفير حياة كريمة لانفسنا في عالم مشترك تضمن سلامته بفضل تأمين سلامة الاجيال المقبلة ، فهي رغبات تنبع من هذا الالتزام ، وهو ان الحياة تأتي اولا ، وكل ما عدا هذا امور ثانوية .

واول مبادىء الحياة في هذا العالم الجديد المشترك ، هو احترام الانسان المولود او الذي لم يولد بعد ، وهو احترام قائم على اساس حبنا المشترك للحياة وعلى الخطر المحدق بنا جميعا نتيجة لقوانا المدمرة ونزعاتنا ، وهذا الاحترام سوف ينبثق من الامتنان الذي سيشعر به كل جيل للجيل الذي سبقه لانه اتاح له فرصة الحياة . وكل جيل من هذه الاجيال سوف ينظر الى نفسه كما لو كان وفدا تم اختياره من قبل جمعية من كل الأموات وكل الذين لم يولدوا بعد لكي يمثلوهم في الحياة . وهكذا سينظر الاحياء الى هبة الحياة نظرة المندوب السياسي الى انتخابه للمنصب الذي يشغله ، فهو يمثل املا مؤقتا من أجل الخير المشترك .

ظلام أبدي

حتى قوتنا المدمرة من الصعب ان نقول انها ملكنا ، فهي من الممتلكات الاساسية للمادة ، والطاقة النووية من صنع الطبيعة ، ولم نفعل أكثر من اكتشافها . اما الذي نمتلكه حقيقة فهو المعرفة التي مكنتنا من استغلال هذه الطاقة . واما فيما يتعلق بالخلق فما زالت الاشياء قائمة كما كانت دائما . ولكن مع مزيد من القوى البشرية التي انجزت المعجزة والتي يجني البشر ثمارها .

ثم يصل المؤلف الى الدور الذي يجب ان تقوم به بعد هذا كله يقول : « ان دورنا المتواضع ليس في خلق انفسنا ولكن في الاحتفاظ بانفسنا ، لأن البديل هو الاستسلام للظلام الشامل الابدي .. وهو ظلام لن تبقى فيه أمة ، ولا مجتمع ولا ايديولوجية ، ولا حضارة .. لا شيء اطلاقا .. ظلام لن يظهر فيه الجنس البشري مرة اخرى على سطح الارض . ولن نجد معه انسانا واحدا يذكر انه كان هناك بشر على الأرض ■■

نصائح

■ لا تصدق أن الدهر يرمقك أو يخفضك فمصيرك بين يديك .

■ لا تتكل على الاماني فهي بضائع الموتى .

■ إذا شئت أن تعيش في دعة فكن حليما .

نزهة العقل الذكي بجميع أنواعه

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) . . والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا . . ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

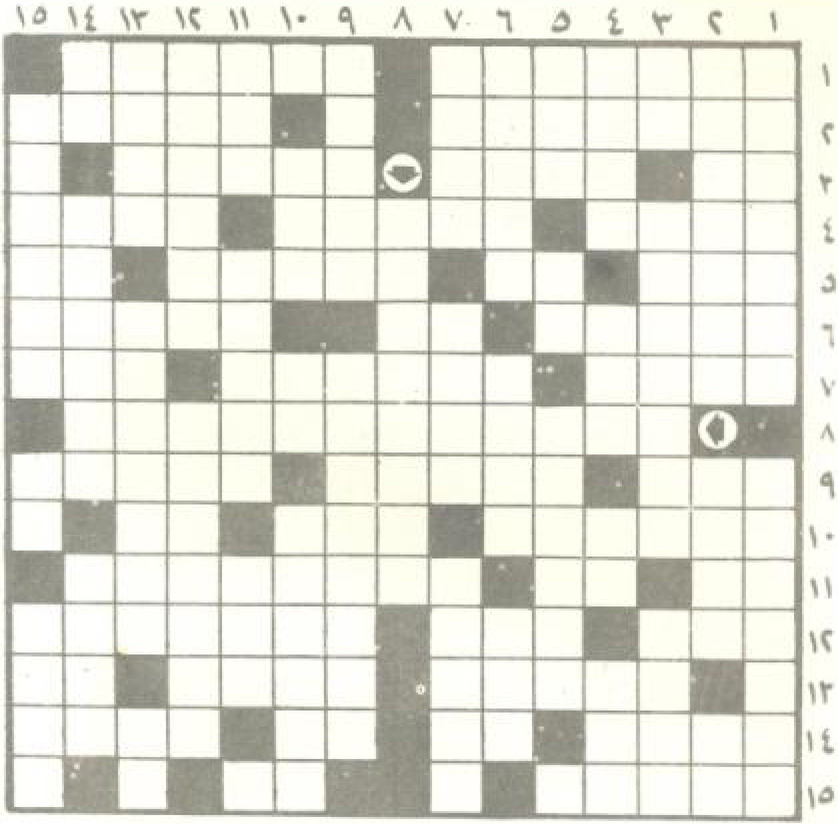
ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٨٦ » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول نوفمبر (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة

• اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم قائد وأديب وشاعر عباسي . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم شاعر أندلسي .

كلمات أفقية :

(١) آلة فلكية عربية قديمة ـ نهر آسيوى .
(٢) سفينة نيلسون التى هاجم بها اسطول نابليون في مصر ـ أوحيا .
(٣) دق ـ رتبة في الجيش ـ دولة آسيوية .
(٤) ضعفت ـ في الذرة ـ هروب .
(٥) الصوت القوى ـ حرفان متشابهان ـ في الوردة ـ يختفي .
(٦) وحدة قياس أطوال ـ حرف نصب ـ قطر عربي .
(٧) تثير الاشمئزاز ـ مدينة مقدسة ـ لمع .
(٨) قائد وأديب وشاعر عباسي .
(٩) من مستخرجات الألبان ـ مشاركة ـ من أنواع الطائرات .
(١٠) ساعدته ـ يابس ـ نصف كلمة (تفيد) .



(١١) من وسائل العلاج القديم ـ مقام موسيقى ـ من معالم القارة الافريقية .

(١٢) أول البشر ـ سهل ـ تخيفاته .

(١٣) قطر عربي ـ الاسم الاول لزعيم عربي ـ جواهر .

(١٤) تدرب ـ نصف كلمة (ساند) ـ نظير ـ تحاشى .

(١٥) نفى ـ من أجزاء الذراع .

كلمات رأسية :

(١) الهة الجمال الاغريقية ـ عاصمة آسيوية .

(٢) عاصمة بورتوريكو ـ قصى ـ حرف جر .

(٣) وحدة أوزان ـ درجة النعيم الأبدي عند البراهمة ـ عملة أوربية .

(٤) عادت ـ طريق ـ نظير ـ يخصنا .

(٥) حرف أبجدى ـ حرفان متشابهان ـ قبائل أفريقية في الكونغو .

(٦) للجلوس ـ أخفيه ـ من الحواس .

(٧) أضاعه ـ لفظ الجلالة ـ من الحيوانات .

(٨) شاعر أندلسي .

(٩) بحيرة عند منابع النيل ـ شاعر فرنسي شهير من القرن التاسع عشر .

(١٠) ثقل ـ نصف كلمة (سبيل) ـ عالم كهرباء شهير .

(١١) رفع الصوت بالدعاء ـ اللهو ـ تجدها في كلمة (سعال) .

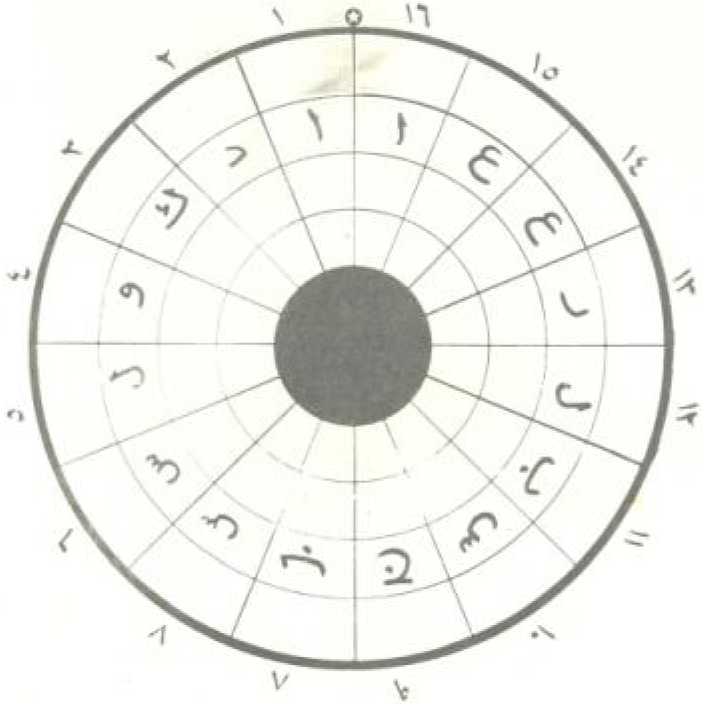
(١٢) شخصية دينية ـ مخترع الطباعة .

(١٣) نصف يوم ـ دولة أمريكية ـ حرفان متشابهان .

(١٤) كثير ـ القسم ـ عاصمة أوربية .

(١٥) عاصمة عربية ـ من الأقارب ـ فرت .

كوبون مسابقة



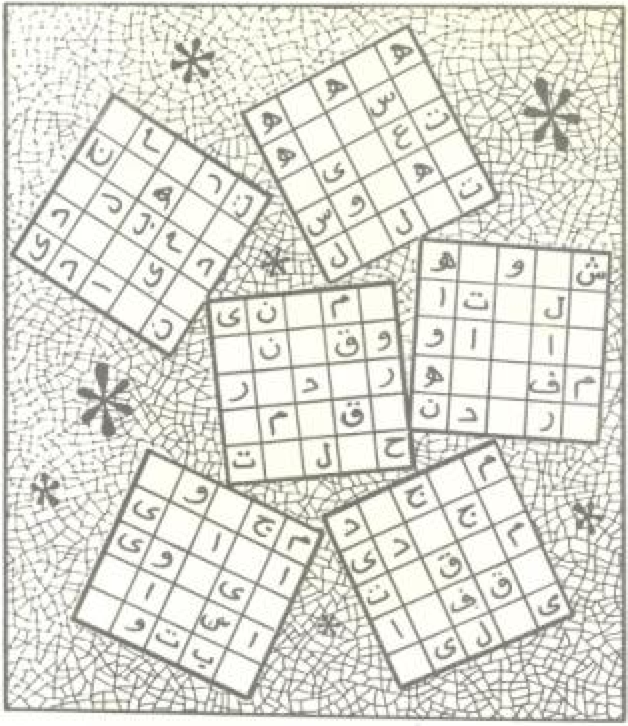
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الحروف الاربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم طبيعي وجغراف ألماني من القرن التاسع عشر

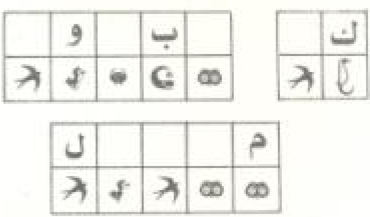
(١) رحما (٢) معلم (٣) ريب (٤) حين (٥) أمصار (٦) فلك (٧) يؤجل (٨) يظهر (٩) خلاعة (١٠) كبيرة في السن (١١) أشرع (١٢) صحيح (١٣) دانٍ (١٤) أجرى (١٥) نبرر (١٦) ساكت .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية سميكة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي :



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل المطلوب اذا عرفت أنه يضرب :
لسأم الناس من الشيء السهل المتوفر

الحلول ١

العواصم : حول الدائرة السوداء : مثل عربي :

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الاصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية .

تصدر عن جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١

رئيس التحرير **د. عبدالله العتيبي**

مدير التحرير **عبدالعزيز السيد**

- تتناول المجلة الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية بما يخدم القارىء والمثقف والمتخصص .
- تعالج موضوعات المجلة الميادين التالية :
اللغويات النظرية والتطبيقية – الآداب والآداب المقارنة – الدراسات الفلسفية الدراسات النفسية – الدراسات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانية – الدراسات التاريخية – الدراسات الجغرافية – الدراسات التربوية – الدراسات حول الفنون (الموسيقى – التراث الشعبي – الفنون التشكيلية – النحت ... الخ) – الدراسات الاثارية (الاركيولوجية) .
- تقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر :
البحوث والدراسات – مراجعات الكتب – التقارير العلمية – المناقشات الفكرية .
- مواعيد صدور المجلة : كانون ثاني – نيسان – تموز – تشرين أول .
- تنشر المجلة ملخصات للبحوث العربية بالانجليزية ، وملخصات بالعربية للبحوث الانجليزية .

ثمن العدد :	للأفراد	٤٠٠ فلس
	للطلاب	٢٠٠ فلس

الاشتراكات السنوية

	داخل الكويت	في الخارج
– للمؤسسات	١٠ د.ك.	٤٠ دولاراً أمريكيا
– للأفراد	٢ د.ك.	١٥ دولاراً أمريكيا
– للاساتذة والطلاب	١ د.ك.	١٠ دولارات أمريكية

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عدة سنوات .
- قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .
- جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير :

ص.ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة)

الكويت – الشويخ – ت : ٨٢١٦٣٩ – ٨١٧٦٨٩ – ٨١٥٤٥٣

استثمارات

منذ زمن طويل ونحن نقوم باستثمار الأموال في اسواق المواد الأولية، وهناك الكثيرون من زبائننا العرب الراضين تماما عن استثمار اموالهم لدينا.

نصيحتنا اليكم اليوم بتفويضنا بافتتاح رصيد شخصي لكم وقيامنا بادارة واستثمار اموال الرصيد الشخصي هذا لصالحكم.

مبلغ الاستثمار الادنى ٢٠٠٠٠ دولار اميركي.

اليكم مثالاً عن افضل نتيجة استثمار حققناها في العامين الماضيين لصالح احد زبائننا:

قيمة الاستثمار ٢٦٢١١,٧٢ دولارا اميركيا وبعد مدة شهر واحد من قيامنا باستثمار هذا المبلغ وصلت قيمته الى ١٢١٨٦٢,٩٢ دولارا اميركيا اي بربح صاف قيمته ٩٥٦٥١,٢٠ دولاراً اميركيا او بنسبة ٤٦٤,٩٢ بالمائة

لهذه الاستثمارات طابع المضاربة بأسعار المواد الأولية لدى البورصات العالمية المتعاملة بها، ولذا فإن نسبة الأرباح المحققة لا تعتبر ثابتة وانما متحركة لأن قيمة الأرباح المحققة أو الخسائر المتوقعة خاضعة لتطور أسعار هذه المواد الأولية.

للمزيد من المعلومات اكتبوا الينا على عنواننا المذكور ادناه ويسرنا ان نرسل اليكم المزيد من المعلومات باللغة العربية والانكليزية (طبعا يمكنكم الكتابة الينا بالعربية)

KDB DEPOTBETREUUNG
GmbH
اتصلوا بنا على العنوان التالي
HANS-THOMA-STR. 19/2
P.O. BOX 700650
6000 FRANKFURT / MAIN 70
WEST-GERMANY

نعمل بنجاح في مجال ادارة واستثمار الاموال منذ عام ١٩٦٤

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

سبتمبر
١٩٨٢م

البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية

مدخل الى دراسة ادارة التنمية فى دول الجزيرة العربية المنتجة للنفط

تأليف :
الدكتور أسامة عبد الرحمن

٢٥٠ فلساً

الكتاب السابع والخمسون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مِنَ المسرح العالمي
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول سبتمبر ١٩٨٢

١٥٦

النمر والحصان

تأليف : روبرت بولت
ترجمة : الشريف خاطر
مراجعة وتقديم : د. علي أحمد محمود

مقياس الزمن



مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :-

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في النواحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٥٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .**

٢- كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .**

٣- كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .**

٤- كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .**

٥- **دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بعدن (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .**

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :-

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

توشيبا تقوم بالعجائب في منازلكم من أجل نظافة أفضل وغسيل أزهى.

تكنولوجيا توشيبا تساعد ربات البيوت في الحصول على أفضل نتائج التنظيف سواء أكان ذلك تنظيف المنزل أو غسيل الملابس.
الغسالات والمكانس الكهربائية التي تصنعها توشيبا جعلت من الأعمال المنزلية أسرع وأسهل، علاوة على الميزات المتفوقة الأخرى التي تتمتع بها

كالتصميم المدمج والمحركات ذات الكفاءة العالية.
غسالات ومكانس توشيبا الكهربائية الجذابة تأتيكم من صانعي أفضل أصدقائكم للراحة المنزلية.
لماذا لا تشترون أدوات توشيبا المنزلية اليوم، فهي ستجعل من حياتكم أكثر سهولة غداً.



TOSHIBA | توشيبا

TOKYO, JAPAN

سنة ٢٠٠٠..
.. أم الانتحار؟

العربي

ذو الحجة ١٤٠٢ هـ - اكتوبر ، تشرين أول ، ١٩٨٢



أعمال ٣ فنانات كويتيات





ارفع أجهزة السمعيّات المحترفة من منتجة أول ستريو.

ان ستريوهات فيشر بمختلف أحجامها تعني الفخامة. غنية بأناقتها مع أحدث مفاتيح التحكم وصوت طبيعي يشعرك وكأنك تعيش في عالم ماتسمعه.

ستريوهات فيشر ذات مزايا لاتضاهى فهي مقدمة من شركة تملك رصيداً من الخبرة في عالم الستريو والهاي فاي أكثر من أي شركة أخرى في العالم، فلقد اخترعت فيشر الستريو ومازالت تطوّره منذ أكثر من ٤٥ سنة.

PH 460K
هاي فاي نقال - راديو ٤ موجات ستريو MW/SW1/SW2/FM
ومسجل كاسيت - طاقة قصوى بقوة ٩ واط للقناة الواحدة

PH 480K
هاي فاي نقال - راديو ٤ موجات ستريو MW/SW1/SW2/FM
ومسجل كاسيت - طاقة قصوى بقوة ١١ واط للقناة الواحدة

عزيزي القارئ

لا نظن أن أمتنا العربية عاشت عيدا مجللاً بالحزن المر مثل هذا العيد الذي عشناه قبل أيام . ففي حين كان الحجيج يكبرون ، ويسعون ثم ينحرون الأضاحي ، وفي حين كانت الأمة الاسلامية من أقصاها الى أقصاها تتبادل كلمات التهنئة بعيد الأضحى المبارك ، كان الانكسار يعم الجميع ، وكان الشعور الكاسح بالاحباط والمهانة يجتاح الأعماق ، ويكاد يدفع بأمتنا الى هوة اليأس والقنوط .

في الوقت ذاته ، كانت الجماهير العربية اللبنانية والفلسطينية تعيش المأساة بالكامل ، بشقيها المادي والمعنوي . . . الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين كانوا في العراء ، بلا مأوى ولا مأكل ولا مشرب ، غير آلاف آخرين في سجون العدو ، انتزعوا انتزاعا أثناء الغزو الاسرائيلي للبنان ، بينما كانوا يدافعون عن النفس والوطن ، والأمل والشرف العربيين .

وكانت بعثة العربي هناك في بيروت ، تنقل الصورة من ركام الواقع وأفواه المحزونين وتسجل معالم تلك الصفحة المجيدة التي خطها على جبين التاريخ ، المناضلون الفلسطينيون واللبنانيون . عاشت بعثة العربي تلك اللحظات التي كان فيها الموت يمشعش في كل شارع وكل بيت ، ويلاحق كل كائن بصرف النظر عن هويته أو جنسه أو عمره ، أو علاقته بما يجري . . . اذ يكفي أن يكون إنسانا ليصبح هدفا لقذيفة أو قنبلة فوسفورية .

ورغم أن الحدث تكفلت بتغطيته وسائل إعلامية عديدة ، عربية وغربية الا أنه لم يكن مقبولا من جانبنا أن تظل العربي بعيدة عما يجري ، حتى اذا كانت الرحلة مغامرة غير مأمونة ، وحتى اذا اضطرتنا ظروف الطباعة المبكرة التي درجت عليها المجلات الثقافية الشهرية ، لأن نقدم استطلاعنا في عدد أول نوفمبر المقبل .

في العدد القادم تقدم بعثة العربي مشاهدتها ـ للقارىء وللتاريخ . .

وكل سنة وأنتم طيبون . .

المحرر

صورة الغلاف



● تشهد الكويت حركة فنية ، امتدت لتشمل انتاجا يثير الانتباه لعديد من الفنانات .. في هذا العدد استطلاع مع ثلاث من فنانات الكويت يعكس جانبا مشرقا من تلك النهضة الفنية ـ انظر الصفحات (١٢٠ ـ ١٣٠) .

قضايا عامة

عروبة واسلام

طب وعلوم

ادب وفنون

قضايا حيوية

استطلاعات مصورة

تاريخ وشخصيات

اجتماع

ابواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : الدكتور محمد الرميحي

مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم . الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء . والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر .

ثمن العدد . بالكويت ٢٠٠ فلس ، السعودية ٤ ريالات ، العراق ٢٠٠ فلس ، الأردن ٢٠٠ فلس ، سوريا ٢٠٠ قرش ، لبنان ٢٠٠ قرش ، مصر ١٥٠ مليا ، السودان ١٥٠ مليا ، المغرب ٣ دراهم ، تونس ٣٥٠ مليا ، الجزائر ٣ دنانير ، البحرين ٣٠٠ فلس ، قطر ٤ ريالات ، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم ، اليمن الشمالي ٣ ريالات ، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسا ، ليبيا ٢٥٠ درهما .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١ ٤٦٨٣٤٢

تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :

قسم الاشتراكات

المكتب الفني ـ وزارة الاعلام

ص . ب (١٩٣١) ـ دولة الكويت

على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام ، طبقا لما يلي :

فلس دينار

ـ الكويت والبلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)

ـ بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

AL - ARABI, NO 287 OCTOBER, 1982 .

P.O.Box 748 - KUWAIT

الواقع العربي

عشرون ألف قتيل وثلاثون ألف جريح ، خمسون ألف مواطن عربي ذهبوا ضحية الاعتداء الاسرائيلي الأخير على لبنان . وهذه الأرقام كما أوردتها أكثر الوكالات العالمية تحفظا - تسير في ركاب قائمة أخرى طويلة من الشهداء الذين قضوا من خلال الصراع العربي الاسرائيلي في البضع والثلاثين سنة الماضية .

هذا - بجانب الدمار البشري والاقتصادي والاجتماعي الذي كان وقودا لهذا الصراع الطويل ، وعدم الاستقرار السياسي الذي أصبح مزمنا في هذا الجزء من العالم . يتزامن مع هذا الصراع تفجر ثروة عربية ضخمة من جراء استخراج النفط ، هي فرصة لا تتكرر من أجل تنمية حقيقية يخطو بها الشعب العربي من جانب التخلف الى جانب التنمية المعتمدة على الذات .

ومن أجل وضع الامور في نصابها فان تجاهل ما حدث في لبنان وتجاهل جذوره الأساسية ، والأسباب التي أدت اليه هو قفز على الواقع ، ونظر الى الخلف بدلا من النظر الى الأمام ، ومعايشة الواقع والحديث عنه هو المستحب بل المطلوب .

ومحاذير المستقبل

بقلم : الدكتور محمد الرميحي

نواقيس الخطر تدق منذ زمن

ان فداحة ما حصل في لبنان أخيرا تذكرنا بفداحة القضية نفسها ، وفداحة تجاهل الاسباب الحقيقية لهذه الكارثة في كل هذه الفترة الطويلة .

وبما أننا لسنا في مقام مواعظ تكرر ، ولا نيات تكتشف ، وكذلك ابتعادا عن الرجم بالغيب ـ علينا أن ننظر الى الواقع القائم اليوم على الساحة العربية من خلال بعض ما كتب في أوقات سابقة ـ وهذه الكتابات السابقة ليست في العقد الماضي أو الذي قبله ولكنها كتابات عربية ، كتبها عرب وأجانب في العقدين الرابع والخامس من هذا القرن ،والحديث عنها اليوم هو مجرد تثبيت لنقاط جوهرية ـ ثبتت لكل العقلاء العرب ـ ولكن بعضهم ما يزال غير مصدق بها فيما يبدو .. وهناك ثلاثة كتيبات ، أولها تحت عنوان « عبرة فلسطين » لكاتب فلسطيني هو موسى العلمي صدر في أواخر الاربعينات يقول فيه باختصار :

« ان اسرائيل خطر داهم على الوجود العربي ، وما لم يستيقظ العالم العربي

بسرعة ويتحصن بالقوة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، فان العدوان اليهودي سيبتلعه دون ريب » .

كلمات موسى العلمي بسيطة ليس فيها تعقيدات ، وربما تبدو للوهلة الاولى عامة ولكنها تتضمن برنامجا واضحا هو قوة العرب مجتمعين . . .

ثم يأتي كاتب فلسطيني آخر لينشر في منتصف الخمسينات كتيبا صغيرا - اختار له عنوانا صحفيا مثيرا هو « ديناميت في الشرق الاوسط » والكاتب هو « خليل طوطح » من أسرة فلسطينية ، سجن وهاجر الى الولايات المتحدة ثم عاد لينظر في أمور وطنه ، عندها كتب خليل طوطح في مقدمة كتيبه الصغير اقتناعاته ، فقال :

« ان السياسة الأمريكية في البلدان العربية ترمي الى جعل اسرائيل أمرا واقعا ، والى اقناع العرب بمحو فلسطين ، بنسيانها وبتوزيع المليون لاجيء عربي - وقتئذ - على الدول العربية وبعقد معاهدة صلح مع اسرائيل » .

ويصل الكاتب في كتيبه الصغير ذاك الى نبوءة وكأنه يقرأ الواقع الذي سوف يصل اليه الوضع العربي بعد ما كتبه بربع قرن فيقول في موضع آخر . .

(. . . والمتشائمون يعلنون ان اسرائيل لا بد من أن تتحرك وتستولي على ما بقي للعرب من فلسطين فأنا لم ألق أحدا يؤمن بأن العرب سيستردون ما فقدوه في المستقبل القريب على الأقل . . . . والعرب يقولون انه من المستحيل - حتى في المنام - أن يقاتلوا اسرائيل وأمريكا من ورائها . . .)

ولو قدر للكاتب أن يشهد حوادث الأمس القريب فماذا كان يقول عنها ؟

خطة اسرائيلية . . . قديمة جديدة

ويعود البرنامج المضاد للتوسع الاسرائيلي ليطرق سمعنا من جديد هذه المرة في نهاية الخمسينات ، وهذه المرة أيضا في كتيب صغير وضعه الكاتب الهندي المعروف ر . ك . كارنجيا . وسماه « خنجر اسرائيل ! »



في مقدمة كتابه ذاك يضع كارنجيا باختصار شديد برنامج الوقوف أمام التوسع الصهيوني بقوله :

« ان الأهم في نظري أن يحل العرب مسألة تضامنهم ودفاعهم المشترك ، فهي أهم مشكلة تستوجب نجاتهم حلها ، حتى يستطيعوا الوقوف في وجه الخطر المشترك المحدق بالأرض العربية » .

ويستعرض كارنجيا في كتابه ذاك ما سماه « الخطة السرية الاستراتيجية للجيش الاسرائيلي » ويقرأ القارىء منا تلك الخطة اليوم فيكاد يصاب

بالذهول ، لا لأنها وضعت ولكن لأن ما تحقق منها يكاد يتطابق بالحرف الواحد مع ما وقع .

تقول بعض أجزاء الخطة ـ وهذا لم يعد جديدا ـ .

« لا تستطيع الدول العربية أن تجابه اسرائيل بمقاومة كبرى إلا اذا كانت متحدة ، وطالما ليس ثمة قطر عربي أقوى من اسرائيل وحده ، وبالتالي طالما لا يستطيع أي قطر عربي أن يشهر بمفرده حربا على اسرائيل ، فان الوحدة العربية في الحرب جوهرية . . . . لذلك فان العمل السياسي القوي (من جانب اسرائيل وحلفائها) يرمي الى زرع بذور الشقاق بين الدول العربية » .

كما نقرأ في مكان آخر من الخطة بالحرف .

(ان مصر هي أقوى أعدائنا وان اخراجها من الميدان قد يؤدي الى رفض أقطار عربية أخرى مواصلة الحرب .) .

فشل البرنامج العربي الموحد

في الوقت الذي نؤمن فيه بأن اسرائيل والصهيونية الدولية ليست بالقوة الخارقة التي تضع مخططا يستمر ربع قرن أو أكثر ثم تنفذه بالحرف الواحد ـ لا نستطيع في الوقت نفسه تجاهل الحقائق القائلة بأن هناك أطماعا أساسية لاسرائيل في الارض العربية ، وهي وان اختلفت تكتيكاتها فان الخطوط العريضة لأهدافها مازالت هي هي لم تتغير ، وفي الوقت نفسه فاننا نلحظ وبأسف شديد فشل البرنامج العربي الموحد لمجابهة ذاك المخطط ، والفشل ليس في الجانب العسكري وحده ، بل في الجانب السياسي أيضا .

يستطيع أي كاتب عربي اليوم أن يستشهد بعشرات الكتابات التي صدرت في طول الوطن العربي وعرضه تنبه للخطر ، وتضع البرنامج المضاد للأطماع الاسرائيلية ولكن ذاك البرنامج كانت تنقصه الارادة السياسية حتى الآن .

والارادة السياسية لا تنبع من لا شيء ، فهي تبدأ بفهم الركائز الرئيسية المتحكمة والمؤثرة في الوضع العام .

واذا كانت السياسة الامريكية بعبارة أحد مهندسيها الرئيسيين في العصر الحديث (بريزنسكي) توصف بأنها آنية ، عملية ، يومية ، تطبيقية ، فان ذلك يفسر الكثير من المبادرات السياسية الامريكية تجاه القضية العربية ، وأقل ما يقال في هذه المبادرات انها لا تفهم اللغة التي يتحدث بها العرب وهي لغة الحق والواقع التاريخي .

محاذير . . . اذا استمر العجز

لذلك فالعرب اليوم على مفترق طرق يتكشف فيها العمل السياسي ، ويطلب أكثر من أي وقت مضى .

هذا العمل السياسي يجب أن يتركز على عاملين : لغة المصالح التي تفهمها أمريكا جيدا ، وركيزة أخرى هي وحدة الأهداف العربية .

فالعجز العربي ان استمر على مختلف الجبهات وفي شتى الميادين فانه سيؤدي بالضرورة الى محاذير كثيرة ، أقلها حركات التمرد والتطرف التي يتقدم من خلالها الجيل العربي الجديد بآراء تريد تجاوز هذا الواقع .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يفرض الجانب الاسرائيلي واقعا جديدا لمصلحته في المدى المتوسط والبعيد .

واذا كان البعض يعتقد أن العمل السياسي اليومي والآني في اطار ردود الأفعال يستطيع أن يواجه محاذير المستقبل فلا شك أنه يقع في المحظور ، فارادة الشعوب لا تتجمد عند نقطة من التاريخ ، كما ان التاريخ نفسه لا يقف محايدا .

لذا فان العمل السياسي الشجاع هو المطلوب اليوم للوصول الى حقوق الشعب الفلسطيني المهضومة ـ وكما قال ديجول ابان الحرب العالمية الثانية « المهزومون هم فقط أولئك الذين يتقبلون الهزيمة » . ■■

د . محمد الرميحي

خواطر



للدكتور حسان حتحوت

اسرائيليات

الجولة العربية الاسرائيلية في لبنان . . والتي بلغت مداها في بيروت تمثل دورا جديدا وخطيرا في الصراع العربي الاسرائيلي وان كانت الأمة العربية والدول العربية غير متنبهة اليه في غمرة ما أصابها من ضرر ومن شلل . . ذلك بأننا كنا حتى هذه المرة ندخل المعارك فنخسرها فيا أسميناه بالنكسة أو بالهزيمة أو بالهدنة أو بغير ذلك . كانت مصائبنا عسكرية ولكن حتى في أقساها وأعتاها وقف عبد الناصر وهو مهزوم يعلن أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ، وبالفعل جاءت حرب الثالث والسبعين فأعادت لنا شيئا من الثقة وأننا بالفعل كسائر البشر وناس بين الناس .

الجولة اللبنانية وضع جديد وطعم جديد ودور جديد . ذلك بأنها استهدفت رأس المنظمة . والمنظمة في عرف الدول العربية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . فالضربة مصوبة للقلب بالنسبة للقضية الفلسطينية التي استحوذت على العالم العربي طيلة ربع القرن الأخير . . . ومن أجل تسديد هذه الضربة انتهكت اسرائيل دولة عربية هي لبنان ومارست فيها من الفظائع ما عصف بالبديهيات الانسانية والقوانين الدولية جميعا . . وبينما كان العدو يعربد ويغتصب وينتهك في احدى غرف الدار كانت بقية الأسرة العربية - كل في غرفته وراء بابه - ينظر ويسمع ويتفرج وقد يخجل من هذه السلبية فيتحرك لا لنصرة الأخ الشقيق ولكن طيرانا من عاصمة لعاصمة يستجدي العون من عالم يحتقر الذين يستجدون .

انتقلنا اذن من دور الهزائم العسكرية الى دور الهزيمة النفسية . . الى دور الاقرار الضمني بأن لاسرائيل أن تفعل ما تريد وأن تتجبر ما تريد فلن تتصدى لها قوة عربية بمقاومة . . . ومن بعدها لن تكون اسرائيل بحاجة الى غزو بلاد أخرى . . ستكون رغباتها أوامر ولو بالتليفون . . لأن الوهن العربي قد أعلن في صراحة لمن مركز الثقل في المنطقة . .

مررنا في مصر بعهد كان يكفي فيه أن يرسل الانجليز بارجة حربية نحو الاسكندرية لكي تستقيل الوزارة وتشكل وزارة أخرى أطوع لرغباتهم . .

هو الثعبان اذن يلتقم الحمامة ولو طارت لنجت، ولكن نظرته تشلها نفسيا فلا تحدثها نفسها بنجاة . . والقطة تفترس الفأر لا لأنها تلحقه عدوا ولكن لأن نفسيته تحول بينه وبين الصراع من أجل الحياة لواذا بالفرار . . وبيننا من يحسبون أن البعد الجغرافي بينهم وبين اسرائيل أمان لهم . . بل بيننا من يظنون أنهم ان اختطف كل من حولهم فلم يبق الا هم ، لظلوا وحدهم في أمان ! فوا أسفاه عليهم من الآن !!

في عام ١٩٤٨ ظهر أثر الجهاد الاسلامي لأول مرة فى المعركة بين العرب واسرائيل . . عندما كان الجيش النظامي بعتاده ومدفعيته وطيرانه يعجز فتنطلق مجموعة من المتطوعين وتحقق ما عجز عنه جيش !!

ولو كان هؤلاء المتطوعون في الساحة الآن لتغير المنظر . . .

ولكن القرار صدر من زمان باستلال خيط الجهاد الاسلامي من نسيج الأمة . . لقد رأى فيه الاستعمار والصهيونية خطرا كبيرا عليها . . فاقنعا حكامنا بأن فيه كذلك خطرا كبيرا عليهم ، ومن يومها سخر الاعلام كما سخرت الأجهزة البوليسية والأمنية لتحطيم هذا العنصر من عناصر الأمة ، والنتيجة الا يبقى في وجه اسرائيل الا هشيم تذروه الريح .

على أنني موقن أن الصدمة التي تجتازها الأمة الآن آنية سيأتي من بعدها الطوفان . . سيأتي رد الفعل اسلاميا أو شيوعيا أو فوضويا ، وهو في أسوأ حالاته خير من الموت . . ويومها سيقرر القادة هل يكون موقعهم على رأس الطوفان أو يختارون أن يجرفهم . . صراع الحياة والشرف بيننا وبين اسرائيل يستدعى أن نسلك مسلكا ثائرا قاهرا هادرا يقبل المغامرة بالنفس والمال والكرسي . . ويؤمن باختصار أن الآخرة أعز وأغلى وأبقى من الدنيا . . فان اتجهت نفسياتنا رعاة ورعية الى ذلك فلن تعجزنا الوسائل . . والا فلا خيار الا بين اثنين : عبودية لاسرائيل تأخذ بخناقنا روحيا ونفسيا واقتصاديا . . أو الطوفان !! ■■

انتحار أم بقاء؟
تحديات عام ٢٠٠٠م

بقلم / الدكتور عبد العزيز كامل

هذا عنوان ملتقى عالمي عقدته هيئة اليونسكو في عام ١٩٧٧، وهو الاول من سلسلة من الملتقيات التي انبثقت عن مائدة مستديرة عقدتها في عام ١٩٧٦ عن تحديات عام ٢٠٠٠ م وهي تحديات واسعة المدى متنوعة الآفاق: اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية واخلاقية.

شارك في هذا الملتقى ثلاثة وثلاثون من اعلام الفكر العالميين من مختلف التخصصات: علماء. فنانون. فلاسفة. سياسيون. منهم الحاصلون على جائزة نوبل. وصدر كتاب الملتقى عام ١٩٧٨. ولا يشترط في هذه الندوات والملتقيات أن تكون آراؤها معبرة عن اتجاهات اليونسكو. فلكل مشارك ان يبدي رأيه بحرية كاملة.

ودارت أعمال الملتقى حول اربعة محاور:

- الانسان، أهو دمية أم سيد أنتاجه؟
- الانسان في مواجهة القوى القائمة.
- عقد اجتماعي جديد.
- المعركة المستمرة للثقافة.

افتتاح

وفي كلمة الافتتاح دعا الدكتور احمد مختار أمبو - المدير العام لليونسكو - المشاركين الى طرح المشكلات، كما دعاهم الى اقتراح الحلول، أو على الاقل، الطرق الممكنة للتغلب على التحديات التي تواجه الانسان. الانسان - لا كمفهوم مجرد - ولكن ككائن حي يقابل التحديات: الغني والفقير. الرجل والمرأة. في النصف الشمالي أو الجنوبي من هذا الكوكب. يقول أمبو «فمصير الانسانية هنا والآن مترابط». «هنا» في الجملة الماضية ينبغي ان تفهم على انها تشمل العالم كله. «والآن» تغطي السنوات الخمس والعشرين المتبقية من هذا القرن. وهي لمحة خاطفة في موكب التاريخ. ولكن تركيز هذه اللمحة وتوجيهها سوف يقرر مصير ابنائنا وأحفادنا، وربما الصيغة الغالبة في القرن الحادي والعشرين.



من العالم العربي

كان الاستاذ توفيق الحكيم هو المدعو من العالم العربي . وتحدث في المحور الاول . الانسان : أهو دميه أم سيد انتاجه . وكان موضوعه « التحديات المقبلة وغير المنظورة في عام ٢٠٠٠ » وأكد ضرورة تحديد المشكلات والمفاهيم واختار منها اربعا : الطاقة . العلاقة بين العلم والدين . والتقدم . والاستقلال الوطني .

وسأذكر خلاصة آرائه ، باعتبارها المساهمة العربية في اللقاء ، لأنتقل الى الهدف الرئيسي الذي دعاني الى كتابة هذا الحديث ، وهو ما جاء في آراء العلماء الذين درسوا المحور الثاني « الانسان في مواجهة القوى القائمة » وبخاصة ما عرضه شين ما كبرايد . وفيليب نويل بيكر . والاثنان من الحائزين على جائزة نوبل . الاول عام ١٩٧٤ . والثاني عام ١٩٥٩ .

١ ـ تكلم الاستاذ توفيق الحكيم اولا عن مشكلة الطاقة وأننا نسرف في استخدام الطاقة الميكانيكية ، ونقلل من الاعتماد على الجهد البدني ، حتى في ابسط امور حياتنا . وفي هذا ما يضر الانسان ، في صحته وكيانه . واذا استمر هذا الوضع اخشى ان نقول في مطلع القرن الحادي والعشرين « مات الانسان » . وانه لأمر شديد الخطر ان تصور الانسان المقبل انسانا ميكانيكيا . فكما نقول إن الله موجود ، نأمل بأن نقول« الانسان موجود »

٢ ـ الامر الثاني هو العلاقة بين العلم والدين ، فالدين خاص بالانسان وحده . وهو يجيب عن السؤال الخالد « من خلق العالم ؟ هل العلم « الملحد » في القرن التاسع عشر يمكن ان يصبح « علما مؤمنا » ؟ ان السؤال عن الايمان قائم . ولكل عصر ان يسأل ذلك السؤال . ان العلم حين يصمت ، يتكلم الدين . ولو اجاب العلم عن هذا السؤال بنعم فما عمل الدين إذن ؟ قد نفكر في أن يتوحد رجل العلم برجل الدين . تماما مثل كهنة آمون في عهد الفراعنة . يقول الاستاذ الحكيم : هذا السؤال عن العلاقة بين الدين والعلم أوجهه الى العالم الكبير الاستاذ الفريد كستلر وسنذكر تعقيبه بعد الفراغ من عرض آراء الحكيم .

٣ ـ التقدم : هل يجب ان نعطيه مفهوما جديدا ؟ وهل مسار الانسان في الحياة كمسار الارض حول الشمس دائري وليس مستقيما ؟ كمثال : هل معمار الاهرام الفرعونية في شكلها الهندسي وكتلتها المربعة الضخمة ، يتكرر في تصميمات حديثة ؟ كمثال : الكتلة المربعة الكبيرة في برج مونبارناس في باريس ؟ انني اترك الاجابة عن هذا للمختصين . ولكن ما اود تأكيده هو الحاجة الى مراجعة مفهوم « التقدم » .

وعلينا ان نسأل انفسنا : التقدم بالنسبة لماذا ، وبالنسبة لمن ؟ : ان الحيوانات تدرك كيف تكيف وسائلها مع غاياتها . انها تستخدم فقط القدر الذي تحتاج اليه من طاقتها ، ولا تبدد شيئا . كذلك تقتصد في طعامها دون تبديد . يدفن الاسد بقايا فريسته لطعام غده . ويدع ـ بتبل ـ جزءا منه لغيره من الحيوانات الاضعف . الحيوانات أعقل من ان تشن حربا عدوانية على بعضها البعض كي تفرض أسلوب حياتها على غيرها . ولكن الانسان مازال عاجزا عن تكييف وسائله وفق غاياته . انه يبدد موارد الطاقة الميكانيكية ويحاول تعويض حاجته الى التوازن ، بوسائل تقنية وعقائدية ، فاذا نجحت هذه الوسائل سموها « تقدما » .

٤ ـ كذلك ما نسميه . « الاستقلال الوطني » معناه ان تنطوي كل دولة على مصالحها الخاصة دون نظر الى الصالح الانساني العام . هل من الصعب ان نتصور اليوم الذي تلتقي فيه حكومات جميع الدول ـ دون تحيز ـ للنظر في مستقبل الانسانية ؟ واذا امكن ـ رغم اختلاف القوميات والدين والعرق ـ ان تجمعنا اليونسكو لدراسة مشكلات الانسانية جميعا ، فلماذا لا نأمل في اجتماع مناظر على مستوى القادة ، على الصعيد العالمي ؟ قد يكون اعادة النظر في مفهوم الاستقلال الوطني معينا أو مقربا لذلك الهدف .

واختتم الحكيم كلمته بقوله :

اخشى أننا اذا لم نراجع معطيات حضارتنا اليوم ، ان نلقى انفسنا مع تحديات غير متوقعة عام ٢٠٠٠ .

تعقيب على العلاقة بين العلم والدين

شارك الاستاذ الفريد كاستلر في هذا الملتقى . وهو عالم فيزياء وعضو في اكاديميةالعلوم في فرنسا ، وحائز على جائزة نوبل عام ١٩٦٠ .

وعقب ـ بناء على طلب الاستاذ توفيق الحكيم ـ على العلاقة بين العلم والدين فقال :

« لا تناقض بين هذين المنشطين للانسان : العلم والدين . هما متكاملان العلم والدين موجودان في مستويات متعددةمن الحياة الروحية . يدخل العلم في نطاق المعرفة ودراسة الحقائق التي تدركها حواسنا . ويدخل الدين في نطاق الايمان .

في كل عصر كان هناك علماء مؤمنون ، وعلماء غير مؤمنين . وأود ان ألخص تعبيرا جاء على لسان الاستاذ الحكيم . إنه يتكلم عن العلم « الملحد » في القرن الماضي . ولا اظن ذلك صحيحا . لقد شهد القرن التاسع عشر نمو اتجاه فلسفي معروف باسم « المادية العلمية » . بعض الناس مازال يستند في أدلته الى معطيات ناقصة من العلم . ومن هنا قالوا بعدم وجود الله . وهذا وهم . إن وجود الله ـ يقول الفريد كاستلر ـ أو خالق الكون لا يمكن الاستدلال عليه أو نفيه بالعلم . العلم ليس معاديا للدين ، ولا مناصرا له . إنه مواز له . ان العلم يحاول تفسير تطور الحياة عن طريق قانون السببية ، بينما يؤكد الدين مبدأ الغائية في هذا العالم . هذان المبدآن (السببية والغائية) متكاملان وليسا متعارضين . والاثنان يدركهما العقل الانساني .

المخزون من القنابل الذرية

ننتقل الآن الى بحث شين ماكبرايد وعنوانه « غسيل المخ بقنبلة طيبة ونظيفة » . . يقول .

رغم تصريحات الزعماء في الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي عن عزمهم على الحد من الاسلحة الذرية أو الغائها ، فان الترسانه الذرية آخذه في النمو . وحتى الحديث عن تحديد الاسلحة الذرية أصابه اجهاض ، حتى اصبح المخزون الان (وكان هذا عام ١٩٧٧)يعادل عشرين ضعفا للقدر اللازم للقضاءعلى البشرية كلها .

في عام ١٩٦١ اتفق زعماء العام (ويقصد لقاء كنيدي مع خروشوف في فينا من ٢ الى ٤ يونيو عام ١٩٦١) على ان عالمنا يقابل خطر الفناء ما لم تحرم الاسلحة النووية وينزع السلاح النووي نزعا كاملا . كان هذا ما انتهى اليه زعماؤنا وقتئذ ، ومن معهم من الخبراء المختارين . وهم من عاشوا اخطار الحرب العالمية الثانية . والان يقولون إن نزع السلاح النووي ليس أمرا واقعيا . هل يعني هذا ان قادة العالم ـ في الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٦١ كانوا في غفلة ولا يقدرون المسئولية ؟ أم ان قادة العالم الان لا يواجهون الحقائق التي تتحدانا ؟ لماذا وضعوا اتفاقيات ١٩٦١ على الرف ؟ لماذا لا يذكرونها الآن ؟

في العام الماضي (١٩٧٦) سرت اخبار خطرة عن زيادة التسلح في العالم . دولة هي جنوب افريقية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من ان تصبح دولة نووية . وفي هذا تهديد موجه اساسا للدول الافريقية والمطلة على المحيط الهندي . وانه لمن النفاق بعد هذا ان تتحدث عن اعتبار المحيط الهندي منطقة سلام بينما مركز تصنيع الاسلحة الذرية قائم في سيمونتون وفالندابا (في جنوب افريقية) .

وقد نشر المجلس الامريكي للتنمية الاقتصادية ـ وهو جهاز غير حكومي ـ تقريرا ذكر فيه « انه في خلال عشرين عاما سوف تستطيع مائة دولة أن تملك المواد الاولية والمعرفة الضرورية لانتاج القنابل الذرية . وفي عام ٢٠٠٠ سيكون ناتج البلوتونيوم معادلا لمليون قنبلة ذرية . وليس هناك أي حماية من هذا الخطر ، وليست هناك أي

سياسة خارجية أو تجارية لايقاف هذه القدرة على إنشاء الاسلحة النووية » .

القنبلة فوق الصوتية

وانتقل ماكبرايد بعد هذا الى الاسلحة الحديثة وما يقوم به العسكريون في هذا الامر .

« فلقد اكتشفوا رأسا نووية جديدة أرخص في التكلفة وأشد تأثيرا : انها القنبلة النيوترونية وهي تقتل عددا كبيرا من الناس بالاشعاع ، اكثر بكثير مما تفعل الرءوس النووية التقليدية ولكنها لا تؤثر في المباني ولا الممتلكات .

بعبارة اخرى هناك مرحلتان : اولاهما : قنبلة ذرية تقتل الناس وتهدم المباني . والثانية قنبلة نيوترونية تقتل الناس وتترك المباني .

يقول ماكبرايد : وفي عدد حديث من جريدة الواشنجتون بوست كان الامر كما يلي : ما يحبذه أصدقاء الرءوس النيوترونية انها تقتل الناس بطريقة نظيفة : بالاشعاع لا بالانفجار ولا بالحرارة .

ولكن هذه طريقة واحدة من طرق فناء البشرية التي يعمل لها رجالنا العسكريون وفي خلال الاسابيع القليلة الماضية ذكر لي - يقول ماكبرايد - بعض خبراء التسليح أن هناك جهودا تبذل في صناعة قنبلة فوق صوتية Altrasnic bomb قادرة على هز العقل الانساني وتحويل كل سكان مدينة الى مجموعة من المعتوهين . وذلك بإتلاف خلايا خاصة في المخ ، فيفقد سكان المدينة القدرة على التفكير أو السيطرة على أنفسهم . وهذه الاصابة غير ممكنة الاصلاح أو العلاج ، كما انها لا تتلف أي شيء في الممتلكات ، ولا تنشر الاشعاع . وهي بهذا - كما يقولون - اكثر انسانية من القنابل السابقة ، لانها لا تقتل . كل الذي تعمله أنها تحول البشر الى حيوانات أو نباتات » .

ويذكر ماكبرايد بعد هذا مثالا آخر لما يصنعه العسكريون والعلميون ، والى أي درك سقطوا .

« فمنذ شهور قليلة جاءت نشرة انباء لم تحظ بأي عناية أو بعناية محدودة على هذا الشاطىء من المحيط الاطلسي (يقصد اوروبا) وذكرت ان البنتاجون (وزارة الحرب الامريكية) قد استوردت خمسة واربعين الف جنين بشري مجمد من عمليات الاجهاض في جمهورية كوريا . وتفسير ذلك أن هذه الاجنة كانت ضرورية لاختبارات تأثير الاشعاع على الانسجة البشرية الحديثة التجميد . وذلك لان الانسجة البشرية في الجثث عندهم لم تكن كافية .

تطور السلاح وانهيار الاخلاق

هذا الذي ذكرته - يقول الكاتب - دليل جديد على الانهيار الاخلاقي في العالم . فالتقدم الذي شهده العالم منذ الحرب العالمية الثانية ، لم يصاحبه نمو معادل في المسئولية الاخلاقية . واعتقد اننا لم نبحث هذا الامر بما تقتضيه اهميته خلال مناقشاتنا واعتقد اننا نستطيع ان نعدل المسار المدمر للانسانية - ولا شك عندي في ذلك - لو وجهنا عنايتنا الى السلام لا إلى الحرب لتحول بين الانسانية وتدمير نفسها . ويعتمد هذا على رغبة الحكومات في ان تقوم به . كما يعتمد على وجود ضمير أخلاقي عند القادة .

ومنذ ثلاثين عاما حذرنا البرت شفيتزر (١٨٧٥ - ١٩٦٥) من ان الانسان قد فقد القدرة على رؤية عواقب اختراعاته . (وشفيتزر : مبشر وطبيب ورجل دين فرنسي عاش في الجابون في افريقية الاستوائية لمحاربة مرض الجذام وحصل على جائزة نوبل عام ١٩٥٢) . وهذا صحيح . ولكن خلال هذه الاعوام الثلاثين حدث انهيار كامل في الاخلاقيات العامة واصبح العلم غير المصحوب بالحكمة القائمة على المسئولية الاخلاقية خطرا على بقاء الانسانية وتهديدا لها . والحكمة - في هذا السياق - هي ان تدرك أن الكون لم يخلقه انسان ، وانه عن طريق العبث بالطبيعة ، تتعرض حياة كل الناس للخطر . المسئولية الاخلاقية - في هذا السياق - تقتضي ايمانا اخلاقيا بمهمة الانسان ، وانها تعاون بينه وبين اخيه ليعيشا معا ، وليتقاسم الجميع الجمال والخيرات ، التي وفرها الخالق لهم . وقد يبدو هذا القول مني ذا روح دينية . ولكنه في ذات الوقت نفس ما تهدف اليه الشيوعية ، (أي انه هدف يلتقي عنده الشرق والغرب) . وباختصار - والقول مازال لماكبريد - ان القضية هي اقتسام خيرات العالم ، واستخدامها لصالح الانسانية .

وللصحافة ووسائل الاعلام مشكلة

ومن المشكلات التي يقابلها عالمنا المعاصر ، اتجاه زعمائنا السياسيين - يقول الكاتب - ووسائل الاعلام الى

التهوين من شأن سباق التسلح ، وتأثيره على بقاء الانسانية . هل شبه الصمت هذا أمر غير مقصود ؟ أم هو شديد الرهبة ؟ أم هل تمارس القوى العسكرية والمنتجة للسلاح ضغطا تصمت به اجهزة الاعلام والصحافة ؟

ان الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تقابل بها عبثية سباق التسلح ، أن يتكون رأي عام عالمي ، لا يسمح للحكومات أن تنفق الشطر الاكبر من مواردها على تطوير اسلحة الحرب النووية ، وألا يقبل هذا الرأي العام العالمي هدفا دون النزع الكامل للسلاح على الصعيد العالمي .

وهنا يبدو دور الصحافة واهميته . ولكننا للأسف نعيش أياما تقابل فيها الصحافة ضغوطا اقتصادية وسياسية رهيبة . وفي بعض مناطق العالم الغربي تبذل الشركات المتعددة الجنسيات والمصالح الاقتصادية ، المرتبطة ارتباطا وثيقا مع الأجهزة الصناعية والعسكرية ، جهودا مكثفة للسيطرة على الأجهزة الصحفية . فجريدة الاوبزرفر البريطانية ذات التقاليد المحترمة العريقة تمتلكها الان شركة بترول امريكية (هي شركة اتلانتيك رتشفيلد) وفي حالة اخرى تحاول شركة متعددة الجنسيات وصفها أحد رؤساءالوزارة السابقين من المحافظين (هو ادوارد هيث) بأنها « الوجه غير المقبول للرأسمالية » . هذه الشركة في طريقها الى السيطرة على اجهزة صحفية هامة في بريطانيا والمريقية . وفي فرنسا رأينا ما تعانيه الصحافة من سيطرة مجموعة هرسان على الفيجارو (وهذه المجموعة تسيطر على اثنتي عشرة صحيفة يومية في فرنسا منها اثنتان في باريس . وقد ادت سيطرتها على الفيجارو الى استقالة عدد من محرريها) . وكذلك في بريطانيا تمارس شركة فيات سيطرة على الصحافة .

ويعقد شين ماكبرايد أمله على اليونسكو ـ أو اي جهاز مناظر ـ ليدرس هذا الامر ، توطئة لاصدار بيان أو ميثاق لتأمين الحق في حرية الاعلام . وهذا ضروري لتأكيد وصول المعلومات الصحيحة وما يهدد الانسانية من اخطار إلى الرأي العام العالمي ، واذا لم يتيسر هذا ، بحكم التكوين السياسي لليونسكو ، فيمكن ان يقوم به المجلس الاوربي فيما يتعلق بأوروبا . ميثاق يوازي حقوق الانسان وخاص بالصحافة .

انه لامر اساسي ان نوجد رأيا عاما ، وان نتأكد من ان الحكومات لا تستغلنا عن طريق الأجهزة الصناعية ـ الحربية ، أو الارباح الاقتصادية التي تعود على صانعي السلاح والحروب .

هذه خلاصة وافية لآراء ومقترحات ماكبرايد انتقل منها الى :

حديث بالأرقام عن السلاح النووي

وألخص فيه بحث فيليب نويل بيكر . وقد اختار له عنوانا هو « وحش الاسلحة فوق النووية » يقول فيه :

حارب هتلر ستة أعوام ، واشاع الفوضى في العالم ، ولم تكن عنده قنبلة ذرية . كانت حربه بالاسلحة التقليدية « ولقد كتب دكتور هربرت يورك عام ١٩٧٣ ـ وكان كبيرا للعلميين في البنتاجون ـ ان مخزون الولايات المتحدة من السلاح النووي يبلغ ١٥,٠٠٠ ميجا طن (والميجا طن يعادل مليون طن) . هل تدرك معنى هذا؟ :

في خلال السنوات الست (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) اسقط الحلفاء على المانيا ١,٢ مليون طن . وأدى هذا الى ان اصبحت المانيا خرابا من شمالها الى جنوبها ، ومن شرقها الى غربها . هذا القدر الذي أسقط على ارض المانيا كلها في ست سنوات تستطيع ان تسقطه الآن قاذفة قنابل واحدة في ثانية واحدة على مكان واحد .

ويذكر فرانك برنابي رئيس معهد استكهلم الدولي لبحوث السلام (وهو معهد بحوث مستقل يعنى ببحوث الحرب والسلام)

ان اربعمائة وحدة سلاح قوة كل منها ميجاتون ، لو اسقطت على الاتحاد السوفيتي سوف تقتل ثمانين مليونا من سكانه وتدمر ثلثي صناعاته .

٤٠٠ ميجا طن تعادل ٣٪ من مخزون الولايات المتحدة أي ٩٧٪ غير مستخدم ، ٨٠ مليونا من القتلى .

ولو توسعنا في استخدام هذا النوع من السلاح فستصل الى ما يسميه الاقتصاديون تناقص العائد ، ولكن عندما نصل الى رقم ٦,٠٠٠ (من الاسلحة التي تلقى من قوة مليون طن) ستكون النتيجة قتل كل روسي وكل حيوان وكل زاحف هناك . وستصبح الارض صحراء اشعاع نووي . هذا الرقم (٦٠٠٠) ميجا طن يعادل ٤٠٪ من مخزون الولايات المتحدة الحالي . (وكان هذا عام ١٩٧٣) .

خطورة الاشعاع

انك لا تستطيع ان تقتل الروسي مرتين ، ولكن القنابل النووية غير قنابل المدفعية . أنت تطلق قذيفة عيار ١٦ بوصة ـ يقول الكاتب ـ وقد كنت هناك في الحرب العالمية الاولى عند استخدامها ـ فتدمر مبنى كبيرا وتقتل مائة انسان . ولكن بهذا ينتهي امرها . السلاح النووي غير ذلك .

انت تدمر الهدف وتقتل هيروشيا بقاذفة نووية متوسطة . في صباح يوم واحد مات ٢٤٠ الفا أي ربع مليون . ومات كثيرون وما زال تأثير من القنبلة الاولى باقيا . ولكن هذه ليست النهاية .

ان سحابة عش الغراب ـ أي هذه السحابة المتوالية الانتشار الناتجة من قنبلة قوة ميجا طن ـ ترتفع الى اربعين الف قدم كأنها تخترق حائط السماء . وفيها تكون نهاية الانسان : ذلك لان الرياح العليا تحمل التساقط النووي القاتل الى المملكة المتحدة وفرنسا وتعبر المحيط الاطلنطي الى الولايات المتحدة . وان نسبة الستين بالمائة من المخزون النووي للولايات المتحدة وهي المعادلة لـ ٩,٠٠٠ ميجا طن ، حتى لو استخدم ، ستصبح خطرا قاتلا على الأمريكيين انفسهم . ان امريكا صنعت هذه الاسلحة ، وانفقت عليها خزائن اموالها ، حتى تجودها ، ولكنها لو استخدمتها فسيموت الامريكيون . ولو استخدمتها جميعا لمات الناس جميعا .

ليس هناك من أمل في مستقبل الانسانية الا نزع السلاح . ولكن هذا خيال ومثالية .

وبعد هذا قص الكاتب تجاربه منذ الحرب العالمية الاولى ، وتعاونه مع الزعماء ، وقيام عصبة الامم كأمل للشعوب ، وقيام محكمة العدل الدولية . ورأى كيف خانت الدول الكبرى عصبة الامم وتسببت في انهيارها ، والدور الخطير الذي قام به الخبراء العسكريون في حكومات هذه الدول ، دعما للسلاح ودعوة اليه ؛ وقيام الحرب العالمية الثانية التي قال عنها تشرشل مع اقتراب النصر « هذه الحرب ينبغي ان تسمى الحرب غير الضرورية ولقد كان من الممكن تجنبها لو وجدت منا عصبة الامم عونا شجاعا في اتخاذ قراراتها » .

وتسأل انفسنا الآن لماذا نظل تحت استعباد رجال الحرب ؟ نحن نريد فكرة بسيطة : ان هذه الحروب ليست ضرورية . ان السلاح لعبة الحكام والقادة العسكريين .

انها أسلوب عفا عليه الزمن .

وتعلق أمل الكاتب كما تعلق أمل ماكبرايد والكثيرين من قبله ، برأي عام عالمي وتشاور وتعاون بين الناس .

الدمار أم التنمية ؟

واود قبل ان اضع القلم ان انتقل الى فقرات جاءت في المقدمة التي وضعها فيلي برانت في تقريره المعروف « الشمال ـ الجنوب : برنامج من اجل البقاء) ١٩٨٠ ـ يقول فيه تحت هذا العنوان : ان هذا التقرير قائم على ما يبدو انه ابسط المصالح المشتركة ، ونقصد بذلك رغبة البشرية في البقاء ، بل والتزامها من الناحية الخلقية بالعمل على البقاء . ان ما تبتلعه النفقات العسكرية في نصف يوم يكفي لتمويل كل برنامج منظمة الصحة العالمية الخاص بالقضاء على الملاريا . . . ويكفي ثمن طائرة نفاثة واحدة (٢٠ مليون دولار) لاقامة نحو ٤٠,٠٠٠ صيدلية قروية . . . . ويكفي مبلغ يعادل نصف الواحد بالمائة من مجموع النفقات العسكرية في العام لدفع ثمن كافة الاجهزة والادوات الفلاحية اللازمة لزيادة انتاج الاغذية والاقتراب من حد الاكتفاء الذاتي عام ١٩٩٠ في الدول ذات الدخل المنخفض ، التي تعاني من عجز في الغذاء . وقد نادى التقرير بنظام اقتصادي دولي جديد .

ولكن القرار في هذا لمن ؟ ومن قبل قالها الامام علي رضي الله عنه « إن من البلاء ان يكون الرأي لمن يملكه لا لمن يعقله » . لقد تكلم علماء وفلاسفة وساسة ورجال فكر . ولكن مازال القرار سياسيا عسكريا . ومن ورائه كل هذه المصالح والشركات والمنتفعين فمتى يعتدل الميزان ؟

أما الاوضاع النووية في الشرق الاوسط فلها حديث .

■■

د عبد العزيز كامل

أقوال معاصرة

■ الرئيس ريجان يتلقى ٥٠٪ من معلوماته عن السياسة الخارجية من متابعته لبرامج التليفزيون الامريكي التي تبثها شركة سي . بي . اس (C.B.S)

« مجلة الايكونوميست البريطانية »



■ ان تعبير اقوى امرأة في العالم هو لقب هزلي لا يمت للواقع باية صلة .

« انديرا غاندي رئيسة وزراء الهند »



■ ثلوج جبل الشيخ أدفأ من قلوب بعض الأنظمة العربية .

« ياسر عرفات »

■ الادارة الامريكية سمحت بتدمير بيروت ومنعت أوروبا الغربية والامم المتحدة من القيام بأي عمل .

« اندرو يانج مندوب امريكا السابق
لدى الامم المتحدة »



■ إن كل الناس في المنطقة العربية يحملون الولايات المتحدة مسئولية أية اعمال عدوانية تقوم بها اسرائيل .

« الرئيس المصري حسني مبارك »



■ انني على ثقة من نجاحي في تأسيس أفضل العلاقات مع الولايات المتحدة ومع العالم الحر .

« بشير الجميل/ رئيس جمهورية لبنان »

■ كما كانت اسرائيل كريمة مع لبنان ، فان رئيس لبنان يجب أن يكون كريما مع اسرائيل .

« الرائد المنشق سعد حداد »

■ أقرضت الدول النامية والفقيرة في العام الماضي ٩٩ الف مليون دولار ، خصصت منها ٤٨ مليونا لسداد الفوائد المستحقة عن ديونها السابقة .

« من التقرير السنوي للبنك الدولي
عن عام ٨١ »

المهدى المنتظر
فى حياتنا المعاصرة

بقلم : حسين أحمد أمين

ثمة مواقف عقلية ، هي نتاج منطقي لطبيعة حياة البدوي ، فرضت نفسها فرضا على أهل الحضر والريف من شعوب الأقطار التي فتحتها جيوش الاسلام ، رغم مخالفتها للمواقف العقلية الأساسية لأفراد المجتمعات الزراعية أو سكان المدن .

جاءت هذه الغلبة للبداوة العربية نتيجة اعتبارين رئيسين :

الأول : أن الاسلام ـ بعد فتوحاته ـ سرعان ما تحول من مجرد دين الى حضارة واسلوب عيش ، ومنهج فكر وموقف أساسي من الحياة ، عمت الدولة أو الدول الاسلامية من الاندلس الى غربي الصين ، وساهم في تعميمها كثرة التزاوج ، وتنقل أفراد المسلمين في ربوع دار الاسلام للحج أو التجارة ، أو العمل أو الزيارة ، أو طلب الحديث والعلم ، أو الاشتراك في الغزوات ، بحيث أضحت هذه الدار بمثابة البوتقة التي اختلطت وصهرت فيها جميع العناصر التي اشتملت عليها ، ومنها بدو العرب ، وبدو شمال أفريقيا .

والثاني : أن ظروفا معينة واحدة ، أهمها الأوضاع السياسية سادت كافة الأقطار الاسلامية ، بحيث عززت عند شعوبها مواقف عقلية تتفق مع المواقف العقلية للبدو ، حتى وان لم تكن هذه الأخيرة مصدرا مباشرا للأولى .

خذ مثلا لذلك نزعة الايمان بالقضاء والقدر .

انه لمن السهل علينا أن نتبين جذور هذه النزعة وأسبابها عند البدوي . فحياة البدوي تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على الماء والكلأ ، يجد في الغيث نجاة وفي الجفاف هلكة وكلاهما لاسلطان له عليه ولا حيلة له فيه كذلك فانه حين يضرب في الصحراء بابله ومواشيه في طلب المنتجع ، قد يضل سبيله فيتلف ، أو يتعرض لهجوم من قبيلة غير قبيلته تنشد السلب ، فيضيع في لحظات كل ما يملك من متاع الدنيا ، بما في ذلك طعامه وقربة مائه ، فاذا به وقد بات مملقا مشرفا يقينا على الموت جوعا وظمأ ، وكان من ساعة أو بعض ساعة شبعان ريان موسرا :

فـمـاهـم وبـطـهـم حـريـر
وصـبـحـهـم وبـطـهـم تـراب

ولكن كيف يسعنا أن نفهم صدور بيت كهذا ، أو مثل شعبي مثل :

« في يدك ويقسم لغيرك » ، من ريفي مصري أو عراقي ، وكيف يمكننا أن نفسر الموقف العقلي خلفه ، وهو الذي يبذر الحب في فصل ، مطمئنا الى حصاد المحصول في فصل ، آخذا حيطته باقامة السدود وغيرها لمقاومة الأخطار التي قد تتهدده ؟

ليس المسئول عن ذلك وحده اتصال الغازي البدوي به ، وانما لابد من ارجاعه كذلك الى شكل الحكم الاستبدادي الذي ساد كافة الأقطار الاسلامية ، والذي خلق للريفي وقاطن المدينة موقفا شبيها بالموقف الذي يتعرض له البدوي في الصحراء : القوة القاهرة التي لاراد لها ولاحيلة له ازاءها ، فاسفر ذلك عند غير البدوي عن نفس الاتجاه العقلي الذي يتميز البدوي به . وصفحات تاريخنا حافلة بالقصص عن اناس كانوا يؤخذون من فراشهم الآمن بغتة الى الوالي أو الخليفة ، ويقدمون للقتل ، ثم قد تصدر عن أحدهم والجلاد شاهر سيفه ، آية قرآنية تدمع لها عين الوالي ، أو تعليق فكاهي يضحك الخليفة له « حتى يفحص برجليه ويستلقي على قفاه » ، فاذا بالوالي أو الخليفة يطلقه ، ويقربه بعد ذلك ويدني مجلسه ، وقد يأمر له بدار وفرس وجارتين ! و هل لنا أن ننسى ابن المقفع الذي دبج « رسالة الصحابة » يزجي فيها النصح الى الخليفة المنصور ، وربما كان يتوقع من وراء تدبيجها وصول صلته أو شمول عطفه ، فاذا به وقد سيق الى الخليفة لتقطع أطرافه الواحد بعد الآخر ولتشوى أمامه على النار حتى يموت ؟

المهدي المنتظر . .

ومن بين الأفكار التي نتجت عن هذا الشكل الاستبدادي من أشكال الحكم في الأقطار الاسلامية ، فكرة المهدي المنتظر التي يحسب بعض السنيين وغير المسلمين خطأ أنها مقصورة على الشيعة دون مذاهب الاسلام السنية الأربعة .

وقد نتجت هذه الفكرة عند الجميع عن حيرة عميقة ازاء التناقض الصارخ من المسلمين في ظل حكومات مسماة بالاسلامية ، قد نبذت الدين جانبا ، وأقرت أوضاعا اجتماعية ظالمة وقد شاء هؤلاء المتدينون والفقراء والمغبونون ، اما عن عجز أو جبن أو حكمة ، الا يفرقوا صفوف المسلمين بالثورة ، وأن يتذرعوا بالصبر على الاجحاف والاستبداد ، زاعمين لأنفسهم انها من ارادة الله ، ولحكمة الهية خافية على مدارك البشر ، أو جزاء على ما يرتكبه المسلمون من المعاصي ، بيد أنهم اهتدوا كذلك الى حيلة يوفقون بها بين المثل العليا التي يتطلعون اليها وكانوا يودون لو رأوها سائدة في مجتمعهم ، وبين الواقع الكئيب الا وهي ابتداع فكرة المهدي المنتظر الذي قد يظهر من مخبئه في أية لحظة ، فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ، وسيكون هذا الامام في زعمهم من أهل بيت النبوة ، يحيى السنة ويميت البدعة ، ويقيم العدل الضائع ويحقق الأمل المنشود . وقد تفرق موقف المؤمنين بفكرة الامام المنتظر الى اتجاهين : الاتجاه الأول سلبي مستكين ، نتج عن فشل متكرر للحركات الثورية ، وعن اضطهاد دائب راح ضحيته الآلاف فالآلاف ، مما خلق في النهاية احساسا بالعجز والاستسلام واستغناء عن فكرة محاولة بشرية لاحداث التغيير ، والركون الى الاله الذي سيحدث التغيير في الوقت المناسب ، بارسال المهدي المنتظر الذي سيسوي الأمور كافة على أحسن وجه ، وخير ما يرام .

الاتجاه الثاني اتجاه ثوري ، يؤمن بأن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وهو بالتالي يجاهد في سبيل تغيير الأوضاع الظالمة المظلمة القائمة ، تمهيدا لظهور الامام ، تماما كما تكنس الدار ويرش الفناء في انتظار ضيف كريم .

وقد كان بعض المسلمين الأول ـ وقبل ان تتحول فكرة المهدي المنتظر الى فكرة يوطوبية ـ يحسب ظهور المهدي أمرا وشيك الحدوث . فان زال عهد وأشرق عهد ثار الأمل في قلبه في أن يكون القائم بالأمر هو الامام المنتظر وتوقع الاصلاح على يديه ، حدث هذا بالأخص عند أفول دولة الأمويين دنيوية النزعات ، وقيام الدولة العباسية . التي ادعت التمسك بأهداب الشريعة ، اذ رحب بها عامة المسلمين ظنا منهم أن الأمور قد آذنت بصلاح . غير أنه سرعان ما تبدد أملهم في هذه الدولة الجديدة أيضا وفي القائمين عليها ، وانحسر الأمل في ظهور المهدي المنتظر الى مجال الغيب .

على أي حال فان ما نجده غريبا حقا ، وشيقا حقا ، هو أن هذه الفكرة عن الامام المنتظر قائمة الى يومنا هذا ، بل ومن أهم معالم التفكير السياسي لدى مسلمي امتنا ولدى المسيحيين بين ظهرانيهم ممن تأثر حتما بالنظرة الاسلامية نتيجة المخالطة الطويلة ، بل ولدى من فتر لديه حماسه للدين ، أو خلف الدين كلية وراء ظهره .

ويتمثل هذا الاتجاه فينا في أنه ما من حاكم يموت أو يطاح به ، وأحيانا ما من وزارة تسقط ويشكل غيرها ، الا خال الشعب أن تغييرا عظيما قد بات وشيك الوقوع ، وأنه ما بين غمضة عين وانتباهتها «ستنصلح الأمور . وتمتلىء الدنيا نورا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا » . ويتولى الحاكم الجديد مقاليد السلطة . فلا الظلمة تنكشف ولا الظلم يزول ، ويتأجل الأمل في الامام المنتظر حتى يجيء من يليه ، حتى اذا ظهر الثالث انتعش الأمل ثم خبا ، ثم ينتعش مع الرابع ثم يخبو ، ثم مع الخامس ثم يخبو !

والحاكم في كل ذلك معذور مظلوم ، ما لم يكن قد ساهم في مستهل حكمه ـ بتصريحاته ووعوده ـ في اثارة هذه الآمال والتوقعات . وهو للأسف كثيرا ما يفعل غير أنه ـ مرة أخرى ـ معذور في ذلك أيضا ، فالحاكم مهما بدا صاحب سطوة وجبروت غالبا ما يجد نفسه مسوقا سوقا الى الأقدام على أفعال والادلاء بأقوال لايكاد يؤمن بها ، بل وقد ينكرها ويرفضها ، ولكنه ازاء توقعات الجموع وقوة الحاجها ، يجد نفسه على رأس التيار الذي يجرفه ويدفعه ، ويخال الناظر انه يقوده ويشق الطريق له . وقد سهل شكل الحكومات الاستبدادية في المشرق حدوث هذا الأمر للحاكم كما سهل عليه أن يتفوه في مستهل حكمه بعبارات مثل : سأقضي على كذا وكذا ، وأفعل كذا وكذا ، وقد انتهى عهد كذا ، وطلع فجر كذا ودشنا ثورة التصحيح ، وأعدنا سيادة القانون وستمتلىء الدنيا نورا كما ملئت في عهد سلفي جورا .

وثمة خصيصتان أخريان ورثناهما عن البدو . وسهلتا على الحاكم اعطاء مثل هذه الوعود ، والافراط في كيلها كيلا :

الأولى : الايمان بالمدلول السحري للكلمة ، فالكلمة عندنا يكاد يكون لها نفس الوظيفة التي اشتهرت عند العرب في الجاهلية ، حين كان الشاعر ينظم قصيدته قبيل نشوب القتال بين قبيلته وأعدائها ، متغنيا فيها بانتصار قومه وكأنما تحقق النصر فعلا . ومتحدثا عما الحقته بالعدو من عار ومذلة وكأنما يتحدث عن الماضي . وهو في هذا كله انما يؤدي وظيفة الساحر بتعاويذه وهمهماته الغامضة بالضبط كما ترشق اليوم دمية في صورة عدونا بالابر وكأن هذا الوخز يضره فعلا وفي ذات اللحظة . ولا يزال لدى شعوبنا حتى يومنا هذا اعتقاد لا شعوري بأن الحاكم ان تحدث عن رخاء شبعت بطونها حتى كادت تصيبها التخمة ، أو ان جعجع عن انتصارات قادمة فقد تم تحقيق النصر منذ أمد بعيد وهو أمر مهدىء ظريف ، حتى ان جاء الغد بمزيد من الفاقة والجوع .

اليوم والغد . .

والخصيصة الثانية : قصر الاكتراث على اليوم دون الغد . وليأت الغد بما شاء ، « أحيني اليوم وأمتني غدا » « ومن تغدى وحل هم عشائه صار من القوم الكافرين » ومن ذا الذي يدري ما عسى أن يطلع الغد به . وقد روي أن جحا قد حصل من السلطان على مال كثير شريطة أن يحول حماره الى انسان في مدة لاتتجاوز سنة ، قابلا لشرط أن يقتل ان عجز فلما قيل له أجاب بقوله : ان السنة أمد طويل ، اما أن يموت خلالها الحمار أو يموت السلطان أو يموت هو ! وقد مضى قولنا أن البدوي في الجاهلية ما كان بوسعه أن يتنبأ بما سيجيء به الغد ، ولا بما اذا كانت البسط ستظل من حرير أم تصبح من تراب . قد يكون بوسع الالماني أو السويسري أن يخطط من الآن لاجازة سنوية يقضيها في جزيرة مايوركا بعد خمس سنوات خلال النصف الثاني من شهر حزيران . أما عن عباد الله في أقطارنا فلا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله فقد يشي بنا واش الى السلطة فنفقد وظيفتنا غدا ، وقد نستقل (الأوتوبيس) الى مكان للنزهة فيحدث فيه شجار نجد انفسنا بعده في قسم الشرطة مع متهمين سياسيين فنرسل معهم الى المعتقل ، وقد تنهار بنا عمارة حديثة البناء شيدها مالكها من تراب بعد تقديم الرشوة المناسبة لسلطة اصدار الترخيص .

المهم في هذا كله هو أن الحكام في أقطارنا بوسعهم أن يطلقوا ما شاءوا من وعود ، ويقطعوا على أنفسهم ما أحبوا من عهود ، وأن يزوروا الاحصائيات ويغيروا الأرقام ويصوروا الأوضاع على أنها وردية ، وليس في الامكان أبدع مما كان ، وأن يعلمونا اننا كنا لانعلم أننا قد بتنا نقرض صندوق النقد الدولي بعد أن كنا في عهد أسلافهم ـ والعياذ بالله ـ نقترض منه ، وقد يظن الساذج منا أن أمر الحاكم من هؤلاء أمر عجيب ، بالنظر الى أن الحقيقة لابد لها من يوم تتضح فيه ولكن هيهات ! فهو اذ يكيل الوعود يفكر : « ما من أحد يستطيع تخمين ما سيحدث غدا » .

ولا ريب عندي في أن ضخامة التوقعات التي تعلقها الرعية على عهد جديد مع افتقارها الى كل أساس من الواقعية والمنطق تنطوي على اجحاف شديد بالحاكم الوافد . والواقع أن الاستبداد والمركزية المفرطة في نظم الحكم في كثير من الدول الاسلامية ، هما المسئولان عن توهم الشعوب أن كافة شئون حياتهم منوطة بارادة الحاكم وأن تغيير الحكومة لابد أن يؤدي الى تغيير في كافة هذه الشؤون . وغالبا ما تنسى هذه الشعوب أن الحاكم انما يرث عن سلفه تركة مثقلة بالدين ، وأن الكثير الكثير من المشكلات قد لايكون له علاقة بالحكومة ذاتها ويأتي الحاكم الجديد ، فيكون « كراكب الأسد » الكل يغبطه ويهابه وهو لمركبه أهيب ، الأبصار متطلعة اليه ، والكل ينتظر من هذا الساحر مايخرجه من قبعته وبحركة من عصاه . والله يعلم أن القبعة كثيرا ما تكون خاوية كفؤاد أم موسى ، وأن العصا قد يكون التقطها من صندوق قمامة بالطريق . حتى اذا ما لم يصدر عن القبعة شيء ، ترددت همهمات الدهشة ، فهمسات الاستياء ، فصيحات الغضب .

أليس من الجائز ان تغدق علينا الولايات المتحدة غدا البلايين فيتصلح حال ميزان مدفوعاتنا المائل ؟ أليس من المحتمل أن نكتشف غدا حقول نفط دونها حقول نفط الكويت ؟ والا فما معنى عبارة « ما لم يكن في الحسبان » أليس الله سبحانه قديرا على أن يغير الأحوال ؟ ثم أليس من الجائز قبل أن تتضح الحقائق ، ويعرف الناس أن صندوق النقد الدولي لم يتلق قرضا منا ، أن أموت ، أو أن أقتل فتصبح مشكلة المصارحة بالحقيقة مشكلة من سيخلفني لامشكلتي ؟

وهذا هو بالضبط ما تجد شعوبنا نفسها ازاءه بين الحين والحين : الحاكم الذي وعدهم بالنصر الأكيد القريب ، توفي على أثر نوبة قلبية قبل أن يتحقق النصر « ومعلهش وحقك علي » . والحاكم الذي وعدهم بالرخاء العميم والخير العظيم سنة كذا ، حدث للاسف الشديد أن اغتيل قبل حلول تلك السنة . ومعلهش وحقك علي ، بل ويبقى الشعب بعد هذا أو ذاك على قيد الحياة ، يتساءل مشدوها وقد فغرفاه : كيف جاز لهذا أن تفاجئه نوبة قلبية ؟ بأي حق يموت ذاك قبل عام الرخاء ؟ ومن عسانا نحاسبه الآن على وعوده ؟ الحاكم الجديد ؟ انه لم يدل بتلك الوعود ولا هو تربطه بسلفه صلة قرابة . بالعكس ، لقد جاء ليصحح الصورة ، ويعترف لشعبه بأن الوضع الاقتصادي مؤلم حقا ، وقد تكون سياسة سلفه هي السبب ، ولكن من يجيء لنا الآن بسلفه ؟

غير ان كثيرا ما تكون لدى الحكام الجدد في أقطارنا ولله الحمد - خطط اقتصادية جديدة كل الجدة . واقعية هذه المرة ، وستكون كل الحقائق من الآن فصاعدا أمام الشعب ، لن يخدعوا أحدا أو يستروا علينا والهيكل العام لاقتصادنا - والحمد لله - سليم بوجه عام ، شهد على ذلك الخبراء الأجانب ، ويمكن بالعمل الجاد والانتاج المكثف . وبانتهاج سياسة الترشيد الانمائي بدلا من سياسة الانماء الترشيدي السابقة التي ثبت فشلها أن نحقق المعجزات ، وأن يحل الرخاء العميم والخير العظيم لجميع طوائف الشعب سنة . . . سنة . . . بعد أربع سنين . . . وخلال هذه السنوات الأربع . اما أن يموت الحمار ، أو يموت السلطان ، أو أموت أنا .

التجربة الخامسة . .

الطريق اذن جديد هذه المرة أيضا ، وعلى الرعية أن تطيع لترى ما سيوصل اليه . لقد اتبعت في الماضي أربعة طرق لم تؤد الا الى خراب ولا بأس من تجربة خامسة . وان شاء الله ، ويمكن ، وجائز ، وربنا يعمل ما فيه الخير لقد قلنا عن الأول انه الامام المنتظر ، ولم يكنه ، وعن الثاني انه هو ، ولم يكنه ، وعن الثالث والرابع . غير أن هذا لا يقوم دليلا قاطعا على أن الخامس ليس بالامام المنتظر . فلننتظر خلفه فقد يملأ الدنيا نورا وعدلا .

غير أنه في اعتقادي أن في هذه النقطة بالذات يكمن لب المشكلة والخطر :

فاحدى تجارب بافلوف تشير الى أنك ان وضعت طعاما لكلب في صندوق أبيض بين صناديق مختلفة الالوان ، فسيمضي الكلب يتفحصها جميعا حتى يجد طلبته في الأبيض ، وهو في اليوم التالي سيتجه أول ما يتجه الى الأبيض فان كنت قد وضعت الطعام هذه المرة في الأحمر ، فسيمضي يتفحصها جميعا حتى يجده في الأحمر . وستجده في اليوم الثالث قد بدأ في بحثه بالأحمر . فان كنت قد أودعت يومها في الأصفر الطعام ، فسيمضي يتفحصها جميعا حتى يصل الى الأصفر . غير أنك ان اخترت في اليوم الرابع صندوقا ذا لون رابع فستجد الكلب منذ اليوم الخامس ، والى الأبد يخرج الى الصناديق كل يوم يتفحصها دون ترتيب أو نظام معين ، حتى لو وضعت له الطعام كل يوم ، من وقتها والى الأبد ، في الصندوق الأسود .

والغالب أن هذه النظرية تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الكلاب ، وأن الشعب الذي يظل ينقل ايمانه وتطلعاته من شخص الى آخر باعتباره المهدي المنتظر ، أو ينتقل أمله في الاصلاح من حكومة الى أخرى باعتبارها الحكومة الرشيدة ، ثم يتبدد أمله مرة بعد أخرى في الأشخاص والحكومات ، ويتكرر اكتشافه كيف كانت مسيرته وراء القائد تلو القائد ، والحكومة اثر الحكومة ، عبثا في عبث ، ومصيبة تليها مصيبة ، لابد أن يأتي عليه اليوم الذي يفقد فيه الثقة نهائيا في كل شيء ، ويصبح وهو لا يدري ما عساه يصدق أو لايصدق ، يضحك كالمعتوه القعيد في الكرسي أو كالريشة في مهب الريح . وقد يجيء بعد ذلك - ولا أقول المهدي المنتظر ، ولكن - شخص ما في جعبته فكرة معقولة عن سبيل الاصلاح ، فيومىء الى الشعب أن هيا نطرق هذا السبيل . فاذا الشعب يحدق فيه في بلاهة ولا يفهم ما يقال له ، وقد تبدر منه حركة عندما يهم بالنهوض ، ثم اذا به يعدل عن القيام ، ويتثاءب ويشيح بوجهه عنه ، ويواصل قعوده بلا حراك . ■■

حسين أحمد أمين

مصير مليار جائع

أمام حركة ٥٠٠ مليار دولار!

بقلم : الدكتور عارف دليلة

اذا أردنا أن نصف العصر الذي نعيش فيه ـ أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين ـ فما هي السمة الجوهرية المميزة له ؟ هل هو عصر السرعة ، أم عصر الفضاء ، أم عصر الذرة ، أم عصر الكمبيوتر ، أم عصر ثورة الاتصالات والمعلومات ؟

لو اعتبرنا مطلع الثمانينات بداية لهذا العصر فانني أقول : انه عصر المليار الواحد والمليارات الخمسمائة الثلاث ! انها قصة المفارقات التي تحكم حياة انسان هذا العصر ، أسعد العصور وأتعسها على الاطلاق !

في مطلع الثمانينات تجاوز عدد سكان الكرة الأرضية الأربعة مليارات انسان . وفي الوقت نفسه كان هناك مليار انسان ـ ربع سكان العالم ـ يعانون من الجوع ونقص التغذية والمرض والأمية والحرمان من المسكن وارتفاع وفيات الأطفال وانخفاض متوسط العمر ، ويقل نصيب الواحد منهم من الدخل ووسائل الحياة عن نصيب الواحد من المليار الأغنى من البشر بحوالي ٤٠ ـ ٥٠ مرة بالمتوسط ، وتزداد هذه الفجوة اتساعا .

فبينما لايزيد نصيب الفرد من السكان من الناتج القومي الاجمالي في أفقر بلدان العالم الثالث عن ١٧٠ دولارا في العام فانه يزيد في أغنى الدول الغربية عن ١٥ ـ ٢٠ الف دولار ، وبينما يبقى الأول ثابتا أو يتزايد بدولارات قليلة سنويا فان الثاني يتزايد عدة مئات من الدولارات في العام .

وفي نهاية هذا القرن سيتجاوز عدد سكان الكرة الأرضية الستة مليارات انسان . والسؤال الذي طرحته السبعينات بالحاح وبقوة وعلى جميع الأصعدة هو : هل يسير رقم الفقراء في العالم إلى الاختفاء نحو نهاية هذا القرن ، أم على العكس ، يسير الى التزايد ، وربما إلى التضاعف ، والعالم يفتح أبواب القرن الواحد والعشرين ؟ والجواب على هذا السؤال يعني تحديد نوعية ربع القرن القادم الذي يتفق الجميع على أنه سيكون أخطر فترة في تاريخ البشرية . ففي أي اتجاه نسير ؟

البعض يبحث عن جواب لهذا السؤال في الجغرافيا ـ وفي موارد الطبيعة وقدرتها على تلبية الحاجات المتزايدة للانسان . وآخرون يبحثون عن الجواب في التاريخ ـ في محاولة لاستعادة أنماط اجتماعية استطاعت ذات يوم مضى استنهاض قوى الانسان وتعظيم امكانياته . والبعض يرى الحل الشامل في الثورة العلمية التكنولوجية وما تحمله من مضاعفة هائلة لطاقات الانسان المادية والعقلية في استغلال الطبيعة وتنظيم حياته الاجتماعية . ولكن أبرز وأخطر سمات العصر لاتتحدد لافي الجغرافيا ولافي التاريخ ، ولا حتى في العلم والتكنولوجيا ، فهذه كلها يمكن أن تصبح

نتائج عوامل أخرى . ان ابرز وأخطر سمات العصر هي الكيفية التي يجري بموجبها تصريف ثمرات المدنية الضخمة وانتاج مليارات البشر ، والتي تتحدد بكيفية توزيع الناتج وتخصيص الموارد على المستوى المحلي ، وبحركة المليارات الخمسمائة الثلاث على المستوى العالمي . فالخمسمائة مليار الأولى هي المبلغ الذي تجاوزته ديون الدول الرأسمالية المتطورة على شعوب العالم الفقيرة . ففي نهاية عام ١٩٨١ بلغت هذه المديونية ٥٢٤ مليار دولار ، ولم تكن في مطلع السبعينات تتجاوز عشرات المليارات من الدولارات .

والخمسمائة مليار الثانية هي « فوائض أموال » دول العالم الثالث المودعة أو المستثمرة في الدول الرأسمالية المتقدمة . فخلال عام ١٩٨٢ أو عام ١٩٨٣ ، حسب مختلف التقديرات ، ستتجاوز أموال واستثمارات عدد من بلدان العالم الثالث الغنية ماليا في العالم المتقدم الخمسمائة مليار دولار أيضا .

أما الخمسمائة مليار الثالثة فهي حجم الانفاق العسكري في العالم على الحروب والتسليح وتحشيد وتموين الجيوش وتكديس أسلحة التدمير الشامل . ومع الارتفاع الهائل في ميزانية الدفاع الأمريكية المقترحة لهذا العام ، فان الانفاق العسكري العالمي سيتجاوز الخمسمائة مليار دولار .

قصة المديونية

خمسة قرون مضت على بداية عهد الاستعمار . في ذلك الوقت لم يكن هناك غرب أو شمال غني متقدم ، ولا شرق أو جنوب فقير متخلف . كان الحال متقاربا . ثم ظهرت الرأسمالية في الغرب ، فحشدت الأموال والبشر . ونظمت الانتاج على أسس جديدة ، واستطاعت توفير القوى لغزو واحتلال القارات الأخرى التي كانت ما تزال تعيش حالة من الركود ، ولكن ليس في مستوى أسوأ بكثير مما كانت عليه أوروبا الغازية ، لافي المعيشة والدخل ، ولا في نسبة الأمية ، ولا في متوسط الحياة .

ومع تطوير البارود والمدفع وبناء الأساطيل فقد استطاعوا غزو القارات الأخرى . ولم يكن يلزمهم الا احتلال ثغور أو مراكز محددة تؤمن وصولهم الى خيرات البلاد وإقامة العلاقات مع بعض قنوات السيطرة على الادارة والاقتصاد والبشر فيها . وهكذا تدفقت الأموال على الغرب ، فكانت الثروات المنهوبة من الهند وأندونيسيا القوة المفجرة للثورة الصناعية في انجلترا وهولندا . وبينما كان الأولون يتعرضون للمزيد من النهب والافقار ، حتى تحللت نظم الانتاج والمجتمعات القائمة في بلدانهم ، وتدهورت الطبيعة من حولهم ، كان الآخرون يزدادون ثراء . ومع الثراء قوة وجشعا وعنفا .

وفي أواسط القرن العشرين بدأت تباشير حقبة جديدة في تاريخ البشرية مع سقوط النظام الاستعماري العالمي . فقد حصلت معظم المستعمرات على استقلالها السياسي .

واذا كان العصر السابق يمثل « التاريخ الطبيعي » للبشرية ، الذي كانت تتطور فيه بقوانين عفوية عمياء ، دون أن تعي مشكلاتها ، وأسباب وأشكال تطورها ، أو تستطيع تغييرها ، فان أواسط القرن العشرين حملت شيئا جديدا مختلفا جوهريا وهو وعي الانسان على قوانين تطوره ، واقدامه للسيطرة على شروط حياته .

كان ابن خلدون أول من درس هذه القوانين والشروط في مقدمته الشهيرة ، ولكن دراسته العبقرية جاءت في وقت انهيار وخسوف في المجتمع العربي الذي عاش فيه ، فلم تجد أرضا طيبة ، حتى اكتشفت بعد خمسة قرون .

في أواسط القرن العشرين يبدأ « التاريخ الاجتماعي » للبشرية ، ذلك التاريخ الذي لايرتسم اعتباطا ، وانما يتشكل في وعي اجتماعي أولا ، ثم ينتقل الى التطبيق في الواقع . هذا التاريخ « الاجتماعي » مازال في بدايته ، وما زالت العفوية وقوانين « التاريخ الطبيعي » هي الأقوى ، ولكنها أصبحت تتعرض للخرق أكثر فأكثر من قبل ارادة الانسان الواعي سلفا لنموذج حياته المنشودة .

لكن المشكلة تكمن في أن هناك من يستخدم هذا « الوعي » ضد اتجاه مسيرة التاريخ ليحافظ على الأشكال القديمة ، كما تفعل القوى العالمية التي لاتريد أن تعترف بأن شعوب المستعمرات السابقة قد تحررت وهي مصممة على بناء حياتها بالشكل الذي يناسبها .

وفي المقابل ، هناك من يحاول أن يستخدم هذا الوعي في خدمة البناء الجديد . الا أن تركة التاريخ ثقيلة جدا . فالبلدان المتخلفة بحاجة الى التكنولوجيا التي ترفع من انتاجية عملها ، وبحاجة الى التصنيع لاستغلال الطبيعة

بصورة أفضل ، والى العلم لرفع كفاءة نظامها الانتاجي والاجتماعي ، وكل ذلك بحاجة الى الموارد والمعونة المتطورة . الا أن من يملك ذلك ، ومهما كان زائدا عن حاجاته ، يرى نفسه في وضعية تفوق جديدة تسمح له بالعودة الى الهيمنة مرة أخرى ، فهل يتخلى عنها طواعية ؟

ومنذ الخمسينات أخذ عجز البلدان النامية يتحول الى ديون متراكمة حتى أصبحت متطلبات سداد الديون وفوائدها في العديد من البلدان تزيد على مجموع ما يتاح لها من قروض ومساعدات جديدة من الدول المتقدمة ، ولم يعد يتبقى لديها شيء من الفائض الاقتصادي من أجل التنمية ، ولا حتى للحفاظ على المستوى القائم ، أو لاطعام السكان المتزايدين. فماذا تفعل من أجل الغاء أو تضييق فجوة التخلف والفقر ؟ بل أصبح السؤال الأكثر خطورة في السبعينات بالنسبة لأكثر من أربعين بلدا فقيرا هو : ماذا تفعل لوقف التدهور في شروط حياتها التي بلغت حافة المجاعة والموت الجماعي ؟

وهكذا ، فمن حيث تريد البلدان النامية التغلب على الفقر والتخلف تجد نفسها في قلب دائرة الاستغلال من جديد ، وقد وقعت في شرك مديونية هائلة تستنزف من مواردها وجهودها ، وبوسائل « مشروعة » ، أكثر بكثير مما كان يستنزفه الاستعمار في ظروف الاحتلال المباشر . هذه هي الدائرة المغلقة للفقر : تستدين لالغاء الفقر ، فتقع في فقر أشد وأدهى . وكلما ازداد وضعها سوءا ازدادت شروط الدائنين قساوة وازدادت أيديهم شحا ، متناسين التاريخ كله !

ان الزيادة التي تضاف سنويا الى متوسط الدخل الفردي في الدول المتقدمة ، مثل سويسرا والولايات المتحدة ، ، تفوق مجموع الدخل السنوي المتوسط للفرد في دول مثل الهند وبوروندي واليمن والسودان ، وكل زيادة سنوية في الدخل الفردي في الدول الغنية تعادل أكثر من ٧٥ ـ ١٠٠ ضعف الزيادة السنوية التي تطرأ على دخل الفرد في الدول الفقيرة .

وتكمن خطورة المشكلة في أن أنماط الاستهلاك الجديد تنتشر بسرعة على النطاق العالمي ، وحاجات الانسان تتشابه وتتقارب في مختلف المجتمعات ، بفعل الاعلام والاختلاط الواسع بين الشعوب ، هذا بينما تزداد الهوة بين أنماط الانتاج اتساعا . ان انقطاع الارتباط بين الاستهلاك والانتاج في الدول المتخلفة وتطور الأول بوتائر سريعة معتمدا على الاستيراد من الخارج مقابل تطور الثاني ببطء ـ هو المشكلة الخطيرة ـ التي تستوجب الحل . ولا حل لهذه المشكلة الا بالسيطرة الواعية على تطور جانبي الحياة الاقتصادية والتوفيق بينهما من جديد ، بحصر الاستهلاك في حدود الانتاج والطاقة الاستيرادية ، وبتطوير الانتاج والطاقة التصديرية الى مستوى الاستهلاك المرغوب .

لقد اعتقدت بعض البلدان النامية أن الحل يكمن في الاقتراض من الخارج ، ودون الالتفات الى الاصلاحات الداخلية . واعتقد أنصار هذا النموذج أنه سيكون معجزة القرن العشرين (كالمعجزة البرازيلية) لكن الوقت لم يطل حتى تكشفت حقيقة أن هذا النموذج كان غالي الثمن جدا : فالتبعية اشتدت ، والبؤر الصناعية المتقدمة كانت جزرا أجنبية وليست جزءا من الاقتصاد الوطني ، هذا بينما دفعت ثمنها الجماهير التي زاد فقرها وبؤسها يوما عن يوم . وحلت خيبة الأمل محل الأمل وبدأ البحث من جديدعن مخرج حقيقي من المأزق المستفحل .

قصة الدائنية (المديونية معكوسة)

ان بداية « التاريخ الاجتماعي » للانسان تعني نهوض الانسان لصنع عالمه بيده . ومن أهم شروط هذا النهوض ازاحة الاستغلال . وهذا ما تفعله البلدان النامية بدءامن تحرير مواردها الاقتصادية من أيدي القوى الأجنبية .

واذا كانت معظم البلدان النامية قد حققت ـ بالسلاح في معظم الأحيان ـ الاستقلال السياسي في الخمسينات والستينات من هذا القرن (وفي القرن الماضي بالنسبة لبلدان أمريكا اللاتينية) ، فان ذلك لم يحسن من وضعها كثيرا . ولم يمض وقت طويل حتى أدركت أن وضعها لن يتحسن الا بالاستقلال الاقتصادي الراسخ .

وفي السبعينات أنجزت البلدان النامية خطوات نوعية متقدمة على طريق التحرر الاقتصادي ، وكان من أبرز منجزاتها السيطرة على أهم مورد في العصر الحديث ، وهو النفط ، الذي وضعت الاحتكارات الغربية هيمنتها عليه منذ مطلع هذا القرن وأخذت تستغله بصورة شبه مجانية ، وكان مصدرا هائلا للازدهار الشامل في الغرب على مدى عشرات السنوات ، بينما كانت الشعوب المستعمرة تزداد تخلفا وفقرا . ومع السيطرة على الموارد الطبيعية وتحديد أسعار عادلة لها ظهر وجه جديد على الخارطة ، وانتعش الأمل في العالم الثالث بأنه مقبل على عهد من التبادل المتكافىءمع العالم المتقدم . الا أن آليات « التاريخ الطبيعي » ترفض الرضوخ ، وتحاول البقاء على المسرح بكل قواها .

لقد ظهرت الطاقات الجديدة منذ الأيام الأولى لارتفاع أسعار النفط في النصف الأول من السبعينات . فخلال أعوام قليلة ظهرت موارد وافرة لدى مجموعة من الدول النامية . وعاد التفاؤل من جديد في أن يستطيع العالم الثالث « استيفاء » ولو جزء بسيط من « ديونه » السابقة على العالم المتقدم .

وخلال عشر سنوات من ارتفاع أسعار النفط تكاد الفوائض المتراكمة من أموال الدول النامية المصدرة للنفط (الأوبك) تبلغ الخمسمائة مليار دولار .

وكانت الظاهرة مفاجئة ، ولم يكن هناك استعداد للتصرف حيالها ولا قدرة على استيعابها في البلدان النامية . أما الغرب فكان قادرا على التصرف بمرونة وبسرعة لامتصاص الصدمة وعكسها . وبينما يضع الغرب ـ حكومات ومؤسسات ـ الشروط القاسية على منح معونة أو قرض لأي بلد نام ، فقد « استوعب » كل هذه الأرصدة الفائضة للبلدان النامية ، دون شروط مسبقة أو لاحقة ، ودون تكلفة حقيقية بل ومع استخدام جميع الوسائل لـ « هضمها » تدريجيا .

واذا كانت النظريات الغربية تطلق على القروض الغربية المقدمة الى البلدان النامية بشروط ميسرة نسبيا أوصاف « المعونة » و « المنحة » ، وهي التي « لاتمنح » الا لتحقيق مصالح مرسومة مسبقة للدولة « المانحة » ، فان هذا الغرب نفسه يتصرف بـ « منح » هائلة حرة من أية شروط من البلدان النامية ، حتى أن بعض مصارفه ترفض أحيانا دفع الفوائد العادية على الأموال المودعة فيها . انه يستخدم هذه الأموال في تغطية عجزه الخارجي والداخلي ، ولزيادة امكانياته على فرض شروطه على البلدان المحتاجة للمعونة ، وزيادة تعنته وتصلبه في مجابهة مطالب البلدان الفقيرة باقامة نظام اقتصادي دولي جديد عادل .

وهكذا يجد العالم الثالث نفسه من جديد أمام مهمة استعادة السيطرة على موارده وتوظيفها في مصالحه . وهذا ما يؤكد على التعاون المباشر بين البلدان النامية . فخلال سنوات قليلة من ظهور هذه الموارد ارتفعت وبصورة سريعة المبالغ الموجهة منها لاقراض واعانة البلدان النامية غير المصدرة للنفط من أجل مساعدتها على مواجهة أوضاعها الصعبة الناجمة عن أزمة الاقتصاد الرأسمالي العالمي وعن ارتفاع قيمة مستورداتها من النفط .

وخلال سنوات قليلة تجاوزت نسبة المعونة التي تمنحها دول الأوبك للبلدان النامية الاخرى تلك النسبة التي تخصصها الدول الرأسمالية الغنية لهذا الغرض والتي ما تزال بعيدة عن بلوغ المستوى الذي حددته قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة هو ٧ , . ٪ من الناتج المحلي الاجمالي . وتتخلف عن هذا المعدل بشكل خاص أغنى الدول ـ الولايات المتحدة ، واليابان ، والمانيا الغربية ، وسويسرا ـ حيث لاتتجاوز هذه النسبة لديها ٢ , . ـ ٣ , . ٪ . بينما بلغت هذه النسبة لدى دول الأوبك حوالي ١ ـ ٣ ٪ من ناتجها المحلي الاجمالي بالنسبة لبعض الدول العربية .

ان الدول الرأسمالية الغنية تحاول ومنذ ظهور فوائض مالية لدى بعض البلدان النامية التلكؤ في تقديم المعونة الى البلدان النامية المحتاجة والتحرر من عبء هذه المسئولية التاريخية وحصر معونتها بعدد قليل من الدول ذات الارتباطات الخاصة التي تخدم نزعتها نحو الهيمنة . فاسرائيل لوحدها تحصل على ثلث مخصصات « المعونة » الأمريكية الخارجية .

بل ان الدول الغربية لاترى في تخلف العالم الثالث أكثر من « سوق سوداء »ومتنفس لتصريف أزماتها فيه ، وبما يحقق لها أفضل الارباح هذا رغم التصريحات الكثيرة المفعمة بالانسانية و « الود » التي تتضمنها البيانات الختامية لاجتماعات القمة الغربية تجاه العالم الثالث .

والأمر الأخطر من ذلك هو أن كل دولار جديد يستثمره الغرب في البلدان النامية يقابله اليوم أكثر من ثلاثة دولارات عائدة من الأرباح والعائدات عن الاستثمارات الغربية في هذه البلدان تحول باستمرار باتجاه البلدان الرأسمالية الكبرى . فاذا أضفنا الى ذلك خسارة البلدان النامية لعشرات مليارات الدولارات سنويا بسبب الارتفاع التضخمي لأسعار الصادرات الغربية بالنسبة لقيم صادرات العالم الثالث ، واذا أضفنا الى ذلك لعبة النقود الدولية التي تأكل مليارات الدولارات من أموال العالم الثالث مع تقلبات اسعار الذهب والدولارات والأوراق المالية والعملات الأخرى ، فان السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه : من يعين من ؟

والجواب الذي لاشك فيه هو أن الغرب مازال « يستعين » بالشعوب المتخلفة في حل مشكلاته على حسابها ، وهو الذي مثل جهنم ، كلما صب فيه المزيد من « العون » قال : هل من مزيد ؟

مائة وخمسون حربا

أما الخمسمائة مليار الثالثة فهي تكلفة الانفاق الحربي في العالم . إنها ثالثة الأثافي : فالدول النامية التي لم يكن يتجاوز انفاقها الحربي في الخمسينات ٤ ٪ من الانفاق الحربي العالمي تكاد تنفق اليوم ما يزيد عن ١٥ ٪ منه ، وان ال ١٥٠ حربا أو نزاعا مسلحا التي اندلعت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية كان أكثر من ١٤٠ منها في العالم الثالث بين البلدان النامية بعضها البعض ، وأن شعوب ومناطق هذه البلدان تحولت الى مسرح لتجريب فعالية الأسلحة الجديدة . وبالطبع ، ما كان للدول الغنية أن « تجود » بهذه الموارد الهائلة على التسلح لمجرد التفاخر والتباهي ، لولا أن المصالح الطائلة التي تدافع عنها تساوي عشرات أضعاف ما تنفقه على السلاح والحروب ، ولولا أنها ما تزال تحتفظ بالقدرة على اشعال الحروب بين البلدان النامية لاشغالها بعضها عن ممارساتها الغاشمة ضدها مجتمعة ، وأن اشعال هذه الحروب سيؤمن الطلب على السلاح الذي تنتجه بحيث يجعله أكثر الصناعات والتجارات ربحية ، ويعوض ما ينفق عليه ، بل يصبح نشاطا « منتجا » للدخل القومي ، مؤمنا « فرص العمل » و « مخفضا للبطالة » !

واذا ما اضطرت احدى البلدان المتقدمة « التحرش » بالأخرى فانها تحسب الخسائر بالقطارة ، من مال وعتاد ورجال ، أما عندما توقد الحرب في مناطق العالم الفقير ، فانها تحاول بكل الوسائل منعها من الانطفاء بصب المزيد من الزيت عليها ، وتخطط بكل وسائلها لجعل هذه الحرب تأتي على الأخضر واليابس ، وعلى الحرث والنسل ، فلا تترك بيتا أو خيمة ، ولامزرعة أو مصنعا أو مدرسة ، ولا مخلوقا يدب على الأرض . الى هذه الدرجة يحبون « الحرية » ويدافعون عنها ويضحون في سبيلها ! ولهذا فان القسم الأعظم من « المعونة » الغربية الى الدول الفقيرة يتخذ شكل « عون » على الحرب بينها ومعدات عسكرية عسرة الهضم على أمعاء شعوبها .

وبعد ، فهل هناك سمة لهذا العصر ـ آخر الزمان ـ أكثر أهمية من هذه السمات : المليار الواحد والمليارات الخمسمائة الثلاث !

لكن عصر « التاريخ الطبيعي » للانسان يعيش أيامه الأخيرة ولابد أن يبدأ عصر التاريخ الاجتماعي » .

فالعالم الثالث يتحرك بشكل مكثف في السنوات الأخيرة لـ« حل » مشكلة المليارات الخمسمائة الأولى ، ويزداد ضغطه تأثيرا ، وتزداد العقول انفتاحا على حجم الخطر الداهم لو تركت المشكلة بدون تسوية ، ليس بالنسبة للعالم الفقير فقط ، بل وللعالم الغني أيضا حتى أصبحت تسوية الديون السابقة المطلب رقم واحد للعالم الثالث مع مطلع الثمانينات في جميع المؤتمرات الدولية .

والعالم الثالث يتحرك أيضا في اتجاه استخدام المزيد من المليارات الخمسمائة الثانية في تقوية مواقع بلدانه في الاقتصاد العالمي . والخطى تتسارع في هذا الاتجاه أيضا ، في وقت يتضاءل فيه الأمان في الغرب على حقوق العالم الثالث . وليس هناك من بديل عن تطوير العلاقة المباشرة « بين الجنوب ـ الجنوب » بعيدا عن وساطة « الشمال » .

وكما من أجل الخمسمائتين الأولى والثانية يتفتح الوعي لدى الكثيرين على عالمية المصير الانساني ، فان هذا الوعي ربما يظهر أكثر تفتحا هذه الأيام بالنسبة للمليارات الخمسمائة الثالثة . وهل ينسى التاريخ المقاومة المهيبة لحرب فيتنام من قبل الشعب الأمريكي نفسه ؟ ثم ، هل هناك من لايرى مئات ألوف المتظاهرين ضد سباق التسلح وتطوير الأسلحة الفتاكة ، بدءامن اليابان ، ومرورا بأوروبا ، ووصولا الى مظاهرة المليون انسان في العاصمة الأمريكية في شهر حزيران من عام ١٩٨٢ ؟ ولايشذ عن ذلك الا الخنوع العالمي المشين لغطرسة العسكرية الفاشية الاسرائيلية ، ولكن هل نفسر ذلك بفساد الضمير العالمي ، أم بكوننا نحن العرب ، كما قال عنا المؤرخ الشهير أرنولد توينبي : « أسوأ محام لأعدل قضية » ؟

أوراق الرزنامة تتساقط بسرعة ، ولم يبق حتى نهاية القرن الكثير ، فماذا نقول للمليار الأول ؟

ان كل ما نستطيع قوله له ، ولكل المليارات الأخرى :

تابعوا ما تفعله المليارات الخمسمائة الثلاث ، ففي حركتها في هذا الاتجاه أو ذاك الخير كله ، أو الشر كله !■■

د . عارف دليلة

لماذا لا يكتب أمين خان بالعربية ؟

بقلم أحمد عبد المعطي حجازي

في القضية التي اثرتها في مقالاتي السابقة ، يختلف موقف المثقفين الأوربيين اختلافا كبيرا عن موقفنا . فمعظمهم يميل الى نسبة العمل الادبي للغة التي كتب بها ، وبعضهم يرى استحالة ترجمته ، وخاصة اذا كان شعرا ، فغاية ما يفعله المترجمون هو ان يقدموا صورا يتفاوت بعدها عن الاعمال الاصلية . ومن هنا يعتبر الفرنسيون كل ما يكتب بلغتهم أدبا فرنسيا ، فيجمعون في دراساتهم ومختاراتهم وموسوعاتهم بين الفرنسي والبلجيكي والكندي والسويسري والسنغالي والمغربي واللبناني ، لا تعصبا منهم للغتهم القومية فحسب ولكن انطلاقا من الفكرة التي ترى ان العمل الادبي ابداع لغوي قبل كل شيء ، وهي فكرة توجه الآداب المعاصرة أو معظمها خلقا ودراسة . بل هي الفكرة التي وجهت كثيرا من النقاد والشعراء العرب القدماء في تقديمهم للالفاظ واعتبارهم ان المعاني ملك للناس اجمعين ولكن صياغتها في الفاظ هي صناعة الشعراء وحدهم .

ولهذا استنتج الجاحظ من حوالي اثنى عشر قرنا استحالة ترجمة الشعر وتحويله من اللغة التي كتب بها الى لغة اخرى ، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه ، أما نحن فالغالب على نقادنا وقرائنا تقديم الموضوعات والعواطف والاراء التي يعالجها الشاعر أو الروائى سواء في النظر الى ادبنا المكتوب بالعربية او في النظر الى أي ادب آخر . وان كنا مع ذلك نتردد في اعتبار اعمال مواطنينا المكتوبة بلغة اجنبية ادبا عربيا لأن المدلول الثقافي اللغوي يغلب على هذه الصفة (العربي) . ولهذا نبحث عن صفة اخرى لهذا الادب خالية من هذا المدلول ، فنتحدث مثلا عن الادب الجزائري أو المغربي المكتوب بالفرنسية ناسبين هذا الادب الى جنسية صاحبه أو وطنه الاول . ولكننا لا نفعل في الحقيقة الا ان نجعل لهذا الادب انتماءين اثنين بدلا من انتماء واحد الاول جغرافي اقليمي ، والاخر ثقافي لغوي . وبالرغم من الاعتبارات المختلفة التي تميل الى هذه الفكرة ، فهي في الحقيقة نوع من المنزلة بين المنزلتين على رأينا ، أو هي وضع للمؤخرة بين المقعدين كما يقول التعبير الفرنسي الساخر .

فلنعترف بأننا نعالج هذه المسألة بقدر كبير من الحساسية الناشئة من تجاربنا المرة مع الاستعمار الاوربي

الذي اراد ان يدمر ثقافتنا القومية تدميرا وان يفرض علينا ثقافته ولغته فرضا ، حتى اصبح الدفاع عن النفس يبيح لنا انكار كل ما اخذناه عن اوربا ولو كان بعضه مفيدا نافعا . هذه الحساسية التي نعالج بها هذه المسألة هي التي جعلت كثيرا من المبدعين المغاربة في فرنسا يحصرون انفسهم في موضوعات مكررة تتصل بتجاربهم الشخصية أو بتجارب المهاجرين المغاربة عامة ، وذلك سعيا للانسجام مع ما يعتقدونه في انهم يكتبون بالفرنسية أدبا مغربيا ، كما نجد في اعمال رشيد بوجدرة وإدريس الشرايبي ، وخالد بن جلون . وهذه الحساسية ايضا هي التي تجعل بعض دارسي هذه الاعمال يبدأون من محاولة اثبات مغربيتها فيقسرونها على اعطاء نتائج لا يعطيها التحليل السليم .

لكني اظن ان علاقتنا بأوربا لم تعد الان كما كانت قبل عشرين عاما . فمن واجبنا ان نعالج هذه المسألة وغيرها بحساسية أقل لننجو من هذا التمزق الذي يفسد تفكيرنا وسلوكنا ويفرض علينا حلولاً خادعة تثنينا عن معالجة قضايانا بجرأة ، وتضللنا عن التقدم والابداع بلا عقد .

ولنسأل انفسنا بصراحة ، هل كانت اللغات الاجنبية مفروضة دائما علينا من جانب المستعمرين ، أم اننا مشاركون نحن ايضا بوعي أو بدون وعي في وجود هذا الوضع الذي ننكره ونحاول التبرؤ منه؟

وإذا كنا في زمن السيطرة الاستعمارية مسلوبي الارادة والقوة ، واذا كان المستعمرون قد حالوا بيننا وبين لغتنا القومية وقهرونا على استعمال لغاتهم في عهود الاحتلال ، فما هو تفسيرنا لبقاء هذا الوضع في عهود الاستقلال ؟

وإذا صح لجيل الخمسينيات أو الستينيات من الكتاب المغاربة باللغة الفرنسية أن يلقي المسئولية على الاستعمار فماذا يقول جيل السبعينيات والثمانينيات ؟

صحيح أن الادب العربي المعاصر أصبح يزهو بأقلام مغربية وجزائرية مرموقة منها عبد الكريم غلاب ، وبرادة والمجاطي ، والمديني ، والاشعري ، والطاهر وطار ،فضلا عن الاقلام التونسية التي سبقت الى ذيوع الصيت ، كالشابي والمسعدي . لكن الكتاب المغاربة ما زالوا يشكلون نسبة لا بأس بها من كتاب اللغة الفرنسية ، حتى أن بعض المجلات هنا تصدر اعدادا خاصة لنشر شعر الأجيال الجديدة من المغاربة والجزائريين الذين ينظمون بالفرنسية . بل ان دور النشر الحكومية في بعض بلاد المغرب العربي تنشر دواوين هؤلاء الشعراء . وامامي الآن ديوانان اثنان لشاعر جزائري شاب هو أمين خان ، صدرا عن الدار الوطنية للطبع والنشر في الجزائر . الاول عام ١٩٨٠ والثاني هذا العام . ورغم ان هذا الشاعر لم يصل كما علمت الى سن الثلاثين ، أي انه شب وتعلم في عهد الاستقلال . فهو في الكلمة المكتوبة على غلاف ديوانه الثاني المسمى « أيدي فاطمة » لاحظ ما يعكسه العنوان من تمزق ـ يتحدث عن دور الشعر في هذا العالم « حيث مئات الملايين محرومون من الكلمة ومن لغتهم » !

من المسئول اذن عن حرمان هذا الشاعر الشاب من لغته ؟ لا اظن أنه الاستعمار هذه المرة . بل هي برامج التعريب التي لم تنجح -حتى الآن في أن تمكن هذا الشاعر الشاب من لغته العربية وأن تزيل هذه الجفوة القائمة بين لغتنا الجميلة وبين احلام وافكار الجيل الجديد . وأنا لا اشك في اخلاص القائمين على التعريب

في بلاد المغرب العربي ، ولا اشك في اهمية النتائج التي حققتها هذه البرامج حتى الآن ، فقد لمست ذلك بنفسي في زيارتي الاخيرة للجزائر في العام الاسبق . ولكن هناك تركة ثقيلة في العادات والمصالح والاراء المتناقضة التي قد تمنع برامج التعريب من ان تتحقق بالسرعة اللازمة ، أو قد تفرض تعريبا لا يستجيب لروح العصر أو لحاجات الشعب بأجياله المختلفة . وهذا ما ينبغي ان تتكاتف الجهود لتجاوزه ، فباللغة العربية وحدها نمتلك ادبنا القومي .

اريد ان اقول في ختام هذه المقالة ان الترجمة العربية لاعمال الكتاب العرب المؤلفة بالفرنسية ضرورية لاسباب مختلفة ثقافية وعاطفية . لكن هذه الترجمة لن تحول هذه الاعمال الى ادب عربي . ربما اثرت في ثقافتنا القومية ، لكن كما يؤثر العمل المترجم سواء كان صاحبه عربيا أو اجنبيا . كما ان تسمية هذه الاعمال بغير اللغة التي كتبت فيها لا تحل المشكلة . فلنترك اذن كتابنا باللغات الأجنبية يبدعون في هذه اللغات احرارا من كل عقدة ، ولنطالبهم بالاضافة الى اداب اللغات التي يكتبون فيها . ولنكف عن اعتبارهم متواطئين مع الاستعمار في قول المتطرفين منا ، وعن اعتبار ادبهم ادبا عربيا في قول المتطرفين على الناحية الأخرى . ولنترجم اعمالهم لنستمتع بها ونستفيد منها . ولننقذ مواهبنا الجديدة من ان تضطر للوقوع تحت نفوذ اللغات الاجنبية . وما الذي يحميها من هذا الخطر اذا كنا نقول لها ان الادب ليس بلغته وانما هو بجنسية صاحبه ؟ ! ■■

باريس ـ أحمد عبد المعطي حجازي

ويحك ياجاهل

● روي أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج ، فقال : ياغلام ! اقطع لسانها ، فأخرج سكينا « ليقطع لسانها فعلا » ، فقالت ويحك ياجاهل ، ان الأمير لم يأمر بقطع لساني بالسكين بل انه أمر بقطع لساني بالجائزة والصلة .

اسحق باشفيز سنجر

فيلسوف «الجيتو» ومؤرخه



بقلم : نوح حزين

رغم منحه جائزة نوبل في الأدب ، فان قصة الرجل لا تثير الدهشة فحسب ، ولكنها تثير أكثر من شبهة حول حياد قرارات منح الجائزة ، ومدى تأثرها بمخططات السياسة وألاعيبها .

في عام ١٩٧٦ تبنت الأمم المتحدة قرارا باعتبار الفكر الصهيوني فكرا عنصريا . وفي العام نفسه منحت أرفع جائزة أدبية عالمية ، وهي جائزة نوبل للكاتب الامريكي الصهيوني سول بيلو . وبعد ذلك بعامين أي عام ١٩٧٨ نال كاتب صهيوني آخر هو اسحق باشفيز سنجر الجائزة نفسها ، مما طرح بقوة التساؤل حول الطابع الانساني للأدب الغربي الذي يمنح كاتبٌ ما من أجله الجائزة .

فان كان بيلو قد حقق قدرا من الشهرة والانتشار عن طريق قوة الاعلام الامريكي واللغة الانجليزية التي يكتب بها ، فماذا عن سنجر الذي يكتب حتى الآن بلغة اليديش القديمة التي لا يزيد عدد من يتحدثها في أحسن الأحوال عن ٦ ملايين نسمة موزعين في أرجاء العالم المختلفة ، وذلك رغم أنه يعيش في الولايات المتحدة منذ ما يقرب من نصف قرن ، ورغم اتقانه للغة الانجليزية ، حيث يقوم بنفسه بالاشراف على ترجمة أعماله إلى الانجليزية ، التي يقوم بمثلها أدباء معروفون مثل سول بيلو أو غير معروفين مثل ابن أخيه جوزيف سنجر وآخرين .

جاء في شرح أسباب منح الجائزة لسنجر أنه استطاع أن يعكس من خلال أعماله الأدبية أوضاع اليهود في أماكن تواجدهم في بولندا والولايات المتحدة بأسلوب يتميز بالحكمة وقوة التعبير . فلنحاول التعرف عن كثب على عالم هذا الروائي الصهيوني من خلال أعماله وسيرة حياته .

من هو المحظوظ بالجائزة ؟

ولد اسحق باشفيز سنجر في بولندا عام ١٩٠٤ لعائلة يهودية متدينة . فقد كان أبوه وجده حاخامين تخرجا في المدارس الدينية التابعة لطائفة « الحاسيديم » اليهودية ، و « الحاسيديم » هي كلمة عبرية تعني الأتقياء ، وهي اسم طائفة يهودية متطرفة يعود تاريخ نشأتها الى القرن الثالث قبل الميلاد ، وذلك ردا على ما اعتبره رجال الدين اليهود تغلغلا للفلسفة الهللينية في الفكر الديني اليهودي مما يهدد بافساده .

وقد طالبت هذه الطائفة بالالتزام الحرفي بالطقوس الدينية اليهودية للحفاظ على نقائها ، لكن آثار هذه الطائفة اندثرت . . الى أن أعيدت مرة أخرى في منتصف القرن السادس عشر على يدي الحاخام اسرائيل بن اليسار . وقد جاءت اعادة التأسيس هذه المرة ردا على انتشار الفكر الفلسفي العقلاني الذي بدأ في التبلور في أوروبا مع التقدم العلمي والصناعي ، مما اعتبره « بن اليسار » تهديدا لروحانية الفكر الديني اليهودي .

قطع سنجر وشقيقه الأكبر اسرائيل جوشوا سنجر (١٨٩٣ ـ ١٩٤٤) شوطا طويلا في دراسة التراث الديني لهذه الطائفة ولا يكاد يخلو عمل من أعماله من الاشارة لها بالاسم أو باستخدام فكرها في رسم صورة اليهودي المثالي النقي من وجهة نظره . ولكنه وشقيقه لم يستمرا في الدراسة الدينية ، واتجه الاثنان للصحافة والكتابة ، وبينما اتجه اسرائيل ج . سنجر للرواية والمسرحية اتجه اسحق ب . سنجر للقصة القصيرة والرواية . وفي عام ١٩٣٥ غادر الاخوان بولندا الى الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٤٣ حصل الأخوان على الجنسية الأمريكية . وطوال هذه الأعوام كانت أعمال اسحق سنجر تكتب أساسا بلغة اليهيش ، في صحيفة تصدر بهذه اللغة في نيويورك ، هي صحيفة « جويش ديلي فورورد » . وفيها نشر قصصه القصيرة التي اشتهر بها بدءا ، وكذلك رواياته التي نشرت مسلسلة فيها ، ومقالاته الصحفية التي كان يوقعها باسم ترشوفسكي ، وباستثناء بعض الأعمال الاولى التي نشرها في بولندا فان كل أعماله تقريبا مكتوبة بلغة اليديش .

في نظر ناقد انجليزي

في دراسة له حول ما أسماه بالرواية اليهودية في أمريكا اختار الروائي والناقد الانجليزي انتوني بيرجس في تصنيف سنجر الذي رغم أنه عاش أكثر من نصف حياته في أمريكا ، وحصل على جنسيتها الا أنه لا يكتب أعمالا أدبية أمريكية ، ولا يستعمل لغة أمريكية ، ولا يصف مشاهد أمريكا ولا يعالج قضاياها . فهمه الأول هو معالجة العادات والتقاليد والطقوس الخاصة بالشخصيات اليهودية التي يرسمها ، ونادرا ما تضم كتاباته شخصيات غير يهودية . ويستنتج الناقد الانكليزي ان اسحق سنجر « لا ينتمي الى تيار الرواية الامريكية ولا تيار الرواية الامريكية اليهودية أيضا » .

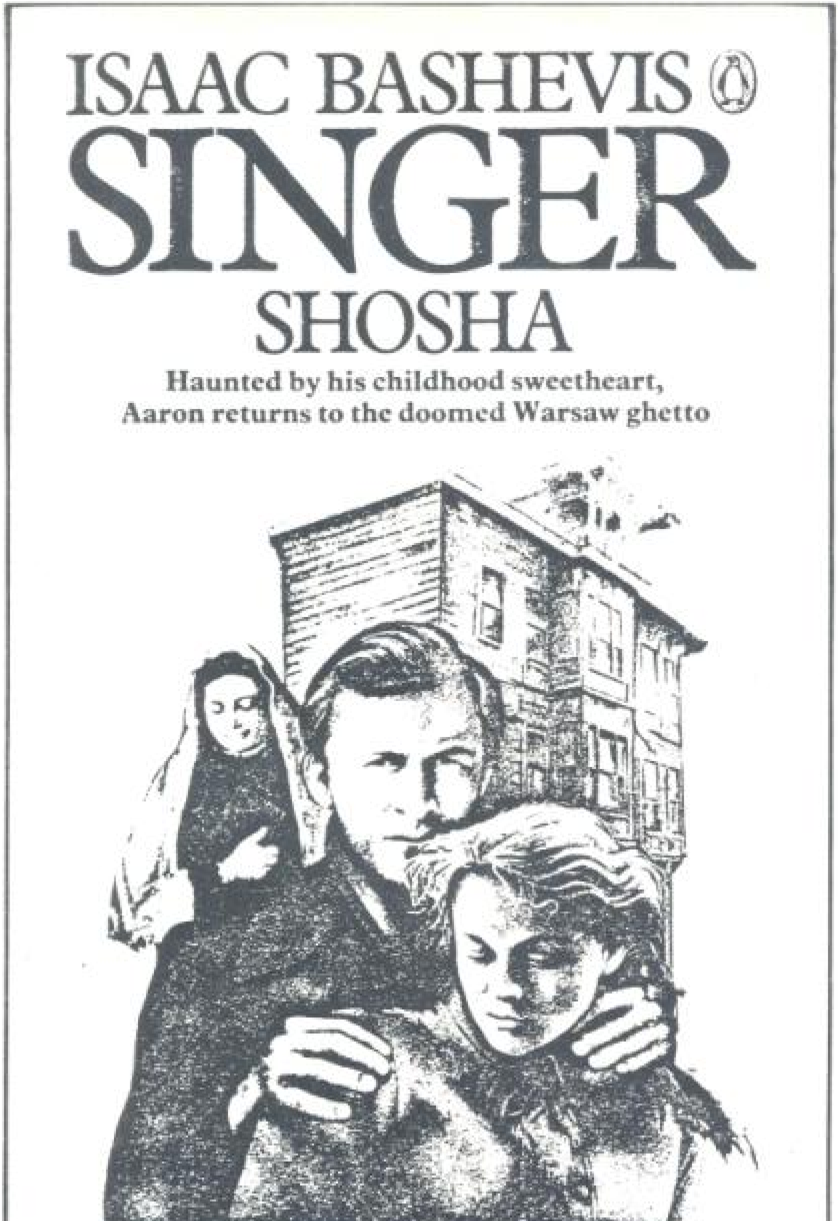
ان استنتاج بيرجس لم يأت اعتباطا على أي حال ، فأعمال سنجر لا تدع مجالا للتأويل في هذا الخصوص . فالرواية التاريخية التي يكتبها هي تسجيل لتطور المجتمعات اليهودية في أوربا . وتاريخ أوربا في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية هو تاريخ اليهود الذين يهدد حياتهم ستالين في الشرق وهتلر في الغرب . والحاضر لديه هو حاضر اليهود الناجين من « المحرقة » الهاربين الى الولايات المتحدة الأمريكية أو فلسطين التي ترد في أعماله تارة باسم « أرض اليهود »وأخرى باسم « أرض اسرائيل » وهو الاسم التوراتي لفلسطين ، وفي كل أعماله تظل صورة « الغيتو » اليهودي هي الأكثر ترددا وتكرارا باعتباره الرحم الذي يحتضن اليهود ، ويحفظهم من التلوث الذي يسببه الاختلاط بـ « الجنتايلز » أي غير اليهود من البشر .

ثلاث لغات ميته

يقول سنجر على لسان بطله أرون غراينغر ـ الذي يحمل كثيرا من صفات الكاتب نفسه ـ في روايته الاخيرة شوشا : « لقد فتحت عيني على ثلاث ـ لغات ميتة ـ العبرية والآرامية واليديش (البعض لا يعتبر الاخيرة لغة على الاطلاق) وعلى ثقافة نشأت في بابل : التلمود » ثم يضيف ، « ورغم ان اجدادي استقروا في بولندا قبل ميلادي بما يقارب ستمائة او سبعمائة سنة فانني لم اتعلم سوى بضع كلمات من اللغة البولندية » .

ضمن اطر العزلة الدينية والثقافية التي اطلقها على لسان بطله المذكور ، عاش سنجر في الغيتو اليهودي الذي اصبح عالمه الوحيد والأثير . والآن وبعد مضي تلك الفترة

العربي « الغيتو » أو « الجيتو » : تعني المكان المنعزل ، وقد جرت عادة اليهود ـ حيث نزلوا ـ على اتخاذ حي خاص بهم يسكنونه وحدهم ، منعزلين عن غيرهم .



غلاف رواية « شوشا » لسنجر

الطويلة على مغادرة الغيتو البولندى الى امريكا لايزال الغيتو هو عالمه الخاص وملاذه وخلاصه أيضا . وبقيت معظم أعماله حتى الآن تتناول حياة اليهودى في الغيتو البولندى في وارسو ولوبلين وفرامبول وغاليا ، ومن خلال تصويره لهذه الحياة بنى سنجر مجده الأدبي . لكن ما يبدو تميزا على الصعيد الادبي وتكريسا لحياة هذا القطاع من اليهود ، تحول على يدى الكاتب الى نوع من التبني لحياة الغيتو لابؤسها وشقائها واساطيرها وخرافتها

ووقـائعها فحسب ، بـل ايضـا بشكـوكها وعـدائيتها وانغلاقها . لقد نظر سنجر لواقع الغيتو وأصبح فيلسوفه ومؤرخه بلا منازع . فالحياة لديه هي حياة الغيتو ومستقبل الغيتو هو مستقبل اليهودي ، ودمار الغيتو دمار له ولفكره وأمله ، وخلاص الغيتو خلاص له ، ولا خلاص له الا بالغيتو .

باختزاله الحقائق على هذا النحو . أصبحت فلسفة الحياة لديه بسيطة جدا وأصبح العالم واضحا وأضحت لعبة السياسة وكذلك لعبة الفن والادب والمجتمع ـ مفسرة . والمفتاح السحري لهذا كله هو معادلة اليهودي مقابل (الجنتايل) أي غير اليهودي . ولكن بدلا من استخدام هذا المفتاح للاطلال على عالم الجنتايلز ، يغلق سنجر باب الغيتو على نفسه وعلى النساء البائسات والحاخامات الطيبين ! وعلى اللصوص والعاهرات والقوادين وأصحاب الحرف اليهودية التقليدية مثل باعة الملابس القديمة والأثاث القديم ، ويخلق جوا فريدا شديد الخصوصية ، لكنه في الوقت نفسه شديد العزلة يفتقد البريق الانساني المتفتح على الشعوب والأجناس والأديان الأخرى فينقلب تفرده الى عزلة ، وتميزه الى شذوذ .

واليهودي لدى سنجر يهودي أولا وقبل كل شيء ، أما ما عدا ذلك فيبهت أمام تلك الحقيقة الرئيسية . ف « هايمل » ـ في رواية « شوشا » ـ ملحد لا يؤمن بالأديان لكنه مع ذلك يراعي بدقة طقوس الدين اليهودي في المأكل والملبس والمظهر . حيث يرسل لحيته في نهاية الرواية على الطريقة اليهودية . وعندما يسأله آرون عن السر في ذلك رغم إلحاده يجيب « لا بد أن تكون لليهودي لحية » . ان عليك أن تكون مختلفا عن غير اليهود بطريقة ما » .

ان موقف هايمل هذا نموذجي بالنسبة لروايات سنجر ، فهناك العديد من التنويعات لهذه الشخصية في قصص وروايات سنجر الاخرى فهناك « فيتلزون » الفيلسوف الاباحي في الرواية نفسها التي تدور أحداثها في ثلاثينات هذا القرن في بولندا التي تنتظر غزو هتلر ، وهناك « الكا » الغانية في قصة « جيل الأحمق » و « بيتي » في حكاية « قاتل الزوجات » و « ناتان » في قصة « اللامرئي » و « ياشا » في روايته الشهيرة « ساحر لوبلين » . وتشترك كل هذه الشخصيات في جوهرها وطابعها الارضي غير الديني .

لكنها تجد خلاصها أخيرا في الدين اليهودي ، وفي الغيتو الذي يأوي اليه كل من ولدته أم يهودية .

وتحفل أعمال سنجر بأسماء الأشهر والأعياد والكتب والفلاسفة والأساطير والرموز الدينية التي تنتمي للتاريخ اليهودي . وهذا التاريخ حاضر أبدا ليعطي الأحداث أبعادها التاريخية ودلالاتها التوراتية والدينية . وشخصيات سنجر الرئيسية يهودية بأسماء عبرية ومن النادر العثور على شخصية غير يهودية في أعماله ، وان وجدت فهي مشوهة أو حاقدة على اليهود ، تتمنى فناءهم ، أو مضطهدة لهم .

ففي المجموعة القصصية المعنونة « جيل الأحمق » التي تضم ١٢ من أشهر قصصه ـ لا نعثر الا على شخصية واحدة غير يهودية ، وهي شخصية خادمة سرقت مدخرات سيدتها اليهودية !! وفي « شوشا » شخصية « تكلا » التي تحب اليهود وتفضلهم على بني دينها لأن « أولاد اليهود » يقرأون الصحف والكتب ويعرفون ما يجري في العالم . وهم يعاملون البنات أفضل مما يعاملهن أولادنا ، ولا تتردد « تكلا » في الالتجاء الى الغيتو هربا من خطيبها السابق الفظ ، الذي يهددها بالقتل ان لم تأت معه . وهكذا تكبر صورة الغيتو ليصبح خلاص غير اليهود أيضا بعد أن كان حكرا عليهم .

هذا هو عالم « اسحق ب . سنجر » عالم « الغيتو » المنغلق ، حيث يعيش اليهودي متقوقعا مكتفيا باتباع تعاليم دينه التي تغنيه عن كل شيء ، بما في ذلك مشاركة الآخرين هلاكهم . ان يهودي سنجر هو حفار قبور هذا العالم . وبائع المتاع القديم الممسك بتوة بدينه وتاريخه وثقافته ولغته ، ولا علاقة له بما هو خارج الغيتو . حياته قدر كموته ، تأخذ استمراريتها من تمجيد الرب اليهودي ، واستذكار قصص أنبيائه ، ليصنع بذلك خلوده الخاص . وهي رحلة عذاب يقوم بها نحو الخلاص الذي يتجسد في الدين كفلسفة ، وفي الغيتو كموقع ، ولا يأتي الخلاص الا بالخروج الى فلسطين ، أو الهروب الى أمريكا والا فالمحرقة هي المصير . وربما كان اخلاص سنجر لفكرة أرض اسرائيل هي امتداد لاخلاصه لفكرة الغيتو الكبير الذي يضم يهود العالم جميعا . ■■

نوح حزين

لماذا يوضع الإسلام في مربع التخلف السياسي ؟

بقلم : فهمي هويدي

يستغرب المرء اجتهادات بعض فقهائنا الذين يرددون على المسامع ومن فوق المنابر ان الاسلام نظام شامل للحياة ، دين ودنيا ، ثم يسجلون مواقف تناقض هذه الصورة وتشكك في سمة ذلك الشمول وجدواه ، او اجتهادات اولئك الذين يشبعوننا كلاما عن صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ، ثم نكتشف ان ادراكهم للزمان لا يتجاوز بضعة عقود في القرن الهجري الاول ، في حين لا تذهب اعينهم في رؤية المكان لأبعد من حدود الحجاز وبحر القلزم !

اقول ذلك بمناسبة الحوار الذي يدور بين الحين والآخر حول موقف الاسلام من مختلف قضايا العصر ، وفي مقدمتها موضوع الحكم والسياسة . اذ يذهب هؤلاء الفقهاء الى مصادرة بعض من اهم ضمانات الحرية والديمقراطية ، او التضييق منها ، لمجرد ان ذلك مما لم يجر العمل به عند السلف ، او لان النصوص لم تشر اليها بعبارات قطعيه ، او ان تفسير النصوص يحتمل اكثر من وجه ، منه ما يعزز تلك الضمانات ومنه ما يقلصها ، فلا يقع اختيارهم - سامحهم الله - الا على تلك التفسيرات التي تتجه الى التقليص والتضييق .

ويعجب المرء لذلك الجهد الكبير الذي يبذله هؤلاء الفقهاء ، من اجل تأويل النصوص وتطويع الالفاظ والواقع ، وتخريج الاستنباطات التي يدعمون بها اجتهاداتهم تلك . وهو جهد لو انصرف في الاتجاه المعاكس ، الذي يكرس حقوق الانسان المسلم ويصون حريته، لأدوا به لدينهم وقومهم خدمة جليله .

ان موقف هؤلاء الفقهاء من قضايا الشورى والاحزاب والانتخابات والمعارضة والدستور ، التي هي في مقدمة ضمانات الحرية والديمقراطيه ، يجسد ذلك الوضع السلبي الذي يثير الاستغراب والعجب من جانب ، ويظلم الاسلام والمسلمين من جانب آخر .

فالذين يقولون ان الديمقراطيه ليست من الاسلام ، ويسعون بمختلف الوسائل الى اثبات ان الشورى لا الزام فيها ، وان النظام السياسي الاسلامي يقوم على حكم الفرد الصالح ، اولئك الذين يخرجون علينا بفتاوى مؤداها انه ليس في الدولة الاسلامية دستور ، لان القرآن دستورها ، كما انه لا محل في التجربة الاسلامية للاحزاب او المعارضه ، لان حزب الله فيه الكفايه . وغيرهم ممن يقولون بانه لا انتخابات في الدولة الاسلامية « لان طالب الولاية لايولى » ، وبان الاغلبية مشكوك في صواب رأيها ، بل ومتهمه في التفكير السياسي الاسلامي لان القرآن الكريم يقرر « وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله » (الانعام - ١١٦) . . هؤلاء وهؤلاء يسيئون بشكل فادح الى التجربة الاسلامية ، والى النصوص من قرآن

واحاديث ، فضلا عن انهم يصنفون الاسلام - من حيث لا يدرون - في مربع التخلف السياسي ظلما وعدوانا .

ولا اريد ان يفهم بأن المطلوب هو ادخال كل ما هو مستحدث من التجارب السياسية المعاصرة في الاسلام ، وتفصيله على قد وقياس النظم البرلمانيه في اوروبا والولايات المتحدة ولكن المطلوب هو ان تستخلص الموقف الاسلامي الحقيقي الاصيل ، وان تدفع عن النظام السياسي الاسلامي شبهات الحقت به بغير مبرر مفهوم .

ان مثل هذه الاراء التي ذكرناها تنطلق في واقع الامر من منطلقات محددة تستطيع ان ترصد منها مايلي :

- اما قراءة للنصوص الاسلامية تتجاهل مقاصد الشريعة واهدافها الكلية .

- او قراءة متعسفة وخاطئه لتلك النصوص ، تحملها باكثر مما تحتمل ، او بغير ماسيقت اليه .

- او قياس في غير موضعه على التجربة الاسلامية الاولى ، يلغي اربعة عشر قرنا من الزمان ، ويلزم مسلمي هذا الزمان بمالا يلزم .

- او رفض لوجه الله لحصاد التجربة الانسانية ، لمجرد ان هذا هو جهد الاخرين له وليس جهد المسلمين .

وهذا السلوك ليس مستغربا في المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، فمنذ استيقظ المسلمون بعد طول سبات وانكسار واتصلوا بالعالم في القرن التاسع عشر ، وهم في حيرة من امرهم . واذا كان البعض يقاوم الان فكرة الديمقراطية ويخرج من الاسلام الدستور والانتخابات والاحزاب ، فقد كان بعض المسلمين في القرن الماضي يتشككون بنفس القدر في شرعية لبس النعال والقبعه ، وقدح الكبريت وانارة المساجد بغاز الاستصباح ، واستخدام اللاسلكي في الاخطار بثبوت رؤية هلال رمضان ، او استخدام المطابع لطباعة المصاحف . وكان منهم من يرفض الاعتراف بعلوم مثل الرياضيات والجغرافيا ، كما يرفض الاعتراف بالبلاد التي ليست مذكورة في كتب « تقاويم البلدان » التي حررها فقهاء السلف !

ان « مس » ماهو مستحدث من اشياء وافكار لا يزال يثير مخاوف الوجدان المسلم . فضلا عن ان ارتباط المسلمين بتجربة العصر الاسلامي الاول تنحو احيانا منحى خطرا ، يعتبر أن كل ما حدث خلال تلك التجربة هو سنة ، وكل ما جاء بعدها بدعه ، والذين يشغلون انفسهم الى الان بتقصير الجلاليب والاكل باصابع اليد الثلاثه بعض هؤلاء .

●

القصص والامثله بغير حصر ، وكلها تعكس خللا فادحا في كيفية قراءة تعاليم الاسلام والقياس على تجربة عصر النبوة والخلافة الراشدة . الامر الذي فرض علينا ان نعود الى التذكير ببعض اساسيات التفكير الاسلامي ، التي في مقدمتها :

● ان مصلحة العباد اعتبار لا يعلو فوقه اعتبار في تقدير المواقف وحسابها ، والشرائع إنما جاءت في الاساس لاجل مصالح العباد في العاجل والآجل معا ، كما يقول الامام الشاطبي . والشريعه - كما يقول ابن قيم الجوزية - عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها .. فكل مساله خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمه الى ضدها ، وعن المصلحه الى المفسدة ، فليست من الشريعه وان ادخلت فيها بالتأويل » .

● ان الاصل في الاشياء هو الحل والاباحة ، وليس التقييد او الحظر ، ونص الشارع الصريح والصحيح هو وحده الذي يمكن الاستناد اليه في الحظر أو التحريم ، فاذا لم يكن النص صحيحا ، كبعض الاحاديث

الضعيفه ، او لم يكن صريحا في الدلالة على المنع ، بقي الامر على اصل الاباحة » *.

● ان الحكمه ضالة المؤمن ، حيثما وجدها فهو احق الناس بها ، كما يقول الحديث الشريف . ومما يخالف المنطق الاسلامي ، بل مما يتنافى مع الادراك السليم ، ان يعرض المسلمون عن اي تجربة انسانية تثري مجتمعهم ، طالما انها لا تتعارض مع النصوص الاسلامية الثابته والصريحه .

● ان التجربة الاسلامية الاولى لا تلزم اجيال المسلمين في شيء . فما يلزم المسلمين ليس مرحله زمنيه بذاتها ، ولكن ـ كما قلت ـ احكام صريحه وقاطعه في ثبوتها وفي دلالتها وخارج دائرة هذه الاحكام ، فان النصوص والشواهد والوقائع تحمل بمعنى التوجيه والارشاد قد يفيدنا ان ناخذ بها ، لكنها لا تكون حجه علينا ان تركناها الى غيرها .

● ان التفكير الاسلامي يرفض عبارة النصوص فضلا عن التطبيق الاعمى لها ، ولمبدأ تغير الفتوى واختلافها باختلاف الازمنه ، والامكنه ، مكانه عند فقهاء المسلمين ، وكتابات ابن القيم بشأنه غاية في النضج والاستناره . وقد تقرر هذا المبدأ الهام من خلال الممارسات الشجاعه والواعيه التي تصدي لها النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته وغيرهم من الفقهاء . ومن نماذج ذلك النهي عن قطع يد السارق في الغزو ، وسقوط حد السرقة ايام المجاعة ، وايقاف نصيب المؤلفة قلوبهم من الزكاة ، وانكار ابن تيمية على من استفزهم شرب عسكر التتار للخمر في الشام ، بل واقراره لسلوك هؤلاء العسكر « لان الخمر تصدهم عن قتل النفوس وسبي الذرية والاموال » .

● ان مقولة شمول القرآن الكريم لكل شيء ، ينبغي ان تستقبل بغير مبالغة ، وان توضع في اطارها الصحيح . والبيان الالهي « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ينصب بالدرجة الاولى على الكليات والاطار العام لحركة الانسان والمجتمع ، اما التفاصيل والجزئيات اللامتناهيه فامرها متروك للمسلمين ، يعالجونها بحسب مقتضيات ومصالح كل زمان ومكان .

● ان تجربة الرسول عليه الصلاة والسلام التي هي المرشد الاول في التطبيق الاسلامي ينبغي ان تظل في مكانها من الاكبار والاجلال عند كل مسلم . لكنها ـ ايضا ـ لاتلزم المسلمين الا في حدود معينه . اذ ليس صحيحا ما يروجه البعض من ان كل ماصدر عن الرسول من قول او فعل او اقرار يعد فريضة واجبة الاتباع .

والتفرقه ضروريه بين ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام باعتباره رسولا ونبيا ، وبين ما صدر عنه باعتباره انسانا له تجربته الدنيوية وخبراته الخاصة . ومن رأى ابن تيميه « ان الانبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته باتفاق الامة » ومما كتبه ابن حزم في « الفصل في الملل والاهواء والنحل » انه « قد يقع من الانبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، فيوافق خلاف مراد الله تعالى ، وانه تعالى لا يقرهم على شيء من هذا اصلا . بل ينبههم الى ذلك اثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده ، وربما عاتبهم على ذلك بالكلام » . . فما صدر عن النبي باعتباره مبلغا وموحى اليه من الله سبحانه وتعالى ، واجب الاتباع والالزام ، ومادون ذلك فقد يكون مستحبا ، او خاصا به عليه الصلاة والسلام . وقصة تلقيح النخل الشهيرة تعبر عن ذلك بوضوح ، اذ كان تعليق الرسول عندما لم تحقق نصيحته لاصحاب النخل نتيجتها المرجوه ، قوله : انتم ادرى بامور دنياكم .

اننا اذا حاولنا الاعتماد على هذه المبادىء البديهية في التفكير الاسلامي ، لنستخلص في ضوئها موقف الاسلام من مختلف قضايا الحكم والسياسه ـ موضوعنا الاصلي ـ فسوف يدهشنا اقحام الشريعه في تفاصيل

---

* د . يوسف القرضاوي ـ الحلال والحرام في الاسلام ـ ص ١٩

مثل الدستور والاحزاب والانتخابات والمعارضه . اذ ان الشريعة لم تحدد سوى إطار كلي للحكم هو الشورى ـ وتركت المسلمين يجتهدون في تطبيق صيغة هذه الشورى ، بالصورة التي تحقق مصالحهم ، وهم في هذا « اعرف بشئون دنياهم » ، وبمنطق ان الاصل في الاشياء الاباحه ، فليس هناك ما يمنع من اقامة كل هذه الابنيه اذا كان في ذلك مصلحة لجماهير المسلمين .

وفيما يتعلق بالنص الذي يصادر به البعض فكرة الترشيح للانتخابات والذي ينص على ان طالب الولاية لا يولي ، فانه ـ ان صح وثبت ـ يعد من قبيل الاجتهاد السياسي ، غير الملزم ، والقابل للمناقشة . ولنذكر هنا ان الصحابي أبا ذر الغفاري طلب لنفسه الولاية ولم يستجب الرسول لطلبه ، ليس لانه طلب الولاية ، ولكن لان قدراته الشخصية التي كان يعرفها النبي جيدا ، لم تكن تؤهله لذلك .

والذين يتعلقون في رفض مبدأ الاغلبيه بالآية « وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله » ، (الانعام ـ ١١٦) ـ هؤلاء ينسون ان تلك الاية ومثيلاتها في ذات المعنى انما تنصب على الكثرة المذمومة ، كثرة الكفر والضلال ، وليس مجموع الامة وخيارها كما يقول الشيخ محمد الغزالي . وفي عدد شهر سبتمبر الماضي في « العربي » ، رد مفصل لهذه النقطة *

لكن ما يحتاج الى وقفه ومناقشة هو موقف الاسلام من قضية الشورى ، لان التوجيه منصوص عليه صراحه في القرآن الكريم على الاجمال ، ولكن استقبال هذا التوجيه يجسد ذلك الموقف المستغرب من بعض الفقهاء .

فقد ذكرت الشورى في آيتين اثنتين ، اولاهما تخاطب النبي عليه السلام قائلة وشاورهم في الأمر »(آل عمران ـ ١٥٩) ، وقد نزلت عقب غزوة احد التي خرج اليها الرسول نزولا على رأى اصحابه ، وخلافا لرأيه في ان يبقوا بالمدينة ويدافعوا عنها من داخلها ، وثبت ان رأيه كان هو الاصوب ـ ومع ذلك نزلت الآية داعية الرسول لان يستغفر لاصحابه ، وآمرا له عليه السلام بان يشاورهم في كل امر ، لتثبيت القيمه وتاكيدها في المجتمع الاسلامي ، رغم سلبية التجربة التي مر بها المسلمون في غزوة احد .

والآية الثانية نزلت في سورة حملت اسم الشورى ، ووصفت مجتمع المسلمين بصفات عدة بينها انهم « استجابوا لربهم ، واقاموا الصلاة ، وامرهم شورى بينهم » (الشورى ـ ٣٨) حيث جاءت الشورى بعد الايمان بالله واقامة الصلاة ، وهو سياق يرفع من قيمة الشورى الى مكانة سامقة في المجتمع الاسلامي .

ورغم وضوح النصين على هذا النحو ، فان جدلا لا يزال قائما الى الان حول ما اذا كانت الشورى ملزمة او معلمة ؟ (بضم الميم وكسر اللام)

والحجة الاساسية التي يقول بها الفريق الرافض لفكرة الزام الشورى للحاكم ، ان الاية الاولى التي نصت على التوجيه الالهي « وشاورهم في الامر » ، قالت في استمرار الخطاب للنبي « فاذا عزمت فتوكل على الله » . ومن ذلك استنبط هؤلاء ان التوجيه يعني ان يستشير النبي ـ او الحاكم في الدولة الاسلامية ـ من يشاء ، ولكن الرأى الاخير يظل متروكا له ، فالمشورة واجبه ، ولكن العزم والقرار له ، يتخذه وحده متوكلا على الله . .

وبصدد هذه الاية هناك تفسيران ، فريق يرى ان « العزم » في السياق امر متعلق بالنبي عليه الصلاة والسلام دون غيره ، على اعتبار ان العزم والتوكل على الله انما يكون في الامر الذي يصدر فيه الرسول عن وحي الله اليه ، وامره اياه بفعل شيء معين . وبالتالي فانه خارج هذا الاستثناء المحكوم بالوحي ، يصبح الاصل في الشورى هو الالزام * . وقد فطن بعض الفقهاء إلى تلك الاهمية الحيوية للشورى ـ ومنهم

---

* انظر مقال د . عبد الحميد الانصاري ـ الاغلبية مبدأ اسلامي اصيل .

* للتفصيل انظر كتاب د . محمد سليم العوا ـ « في النظام السياسي للدولة الاسلامية »

القرطبي والفخر الرازي ـ فقرروا ان من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب .

والتفسير الثاني الذي يتبناه فريق آخر من الفقهاء ، يرى ان العزم عام في دلالته وليس مقصورا على النبي عليه الصلاة والسلام . بل يحق لكل حاكم مسلم ان يباشره بصرف النظر عما اسفرت عنه الشورى ، اي انها هنا تتم في حدود اعلام الحاكم واخباره فقط ، ولذا سميت معلمه .

نحن هنا اذن امام موقف ليس فيه نص صريح وقطعي بالالزام في الشورى وامام صيغة قد تحتمل تفسيرين مختلفين للالزام وعدمه . ولكن يقف في صف الالزام اعتبارات عدة في مقدمتها :

ـ ملابسات الاشارتين القرآنيتين الى الشورى ، سواء في ظروف نزول الاية الاولى ، وسياق العرض في الاية الثانيه .

ـ التوجه القرآني العام الذي يوحي دائما بجماعية القيادة في الدولة الاسلامية ، فلا تشير اليها كافة نصوص القرآن الا بعبارة « أولى الأمر » ، حتى ان تعبير ولي الأمر الفرد لم يذكر على الاطلاق في القرآن .

ـ مصلحة اكيده لجموع المسلمين ، الذين يشكل الالزام في الشورى ضمانا لحقوقهم ومصالحهم ، يفوق بالقطع ما يمكن ان يتحقق لهم من خلال القرار الفردي ، الذي يظل في احسن الفروض مصلحه ظنيه وغير اكيده . ويظل من غير المعقول ولا المقبول ان تترك مصلحه قطعيه لحساب مصلحه ظنية .

ـ منطق اساسه ان الشورى لن يكون لها معنى او جدوى طالما انها ليست ملزمه للحاكم .

ـ تجارب انسانية معاصره اثبتت ان الالزام في الشورى يعد احد اهم الضمانات التي تحمي حقوق الافراد والمجتمع .

لكن بعض فقهائنا المعاصرين يعرضون عن هذا كله ويديرون ظهورهم له ، ويختارون النقيض ، الذي يفتح الباب لكل محاذير ومساويء الحكم الفردي ، ويحاولون ان يعززوا موقفهم بشواهد ووقائع مختلفه ، ليثبتوا فكرة اللاالزام في الشورى ، الامر الذي يهدم ركنا اساسيا من اركان الديمقراطية في اي مجتمع .

اننا اذ نكرر ان التجربة السياسية للعصر الاسلامي الاول ليست حجة على المسلمين ولاتلزمهم في شيء ، نذهب الى انه حتى ولو كان الرسول لم يستشر صحابته ، رغم انه كان بالفعل اكثر الناس مشوره لاصحابه كما يقول ابو هريرة . ، وحتى اذا كانت ممارسات الشورى ليست واضحة في عصر الخلفاء ، وهو ما ليس صحيحا ايضا ، فلماذا لانقرر نحن الالزام فيها ؟ لماذا لا نقف مع المزيد من ضمانات الحرية والديمقراطيه ، مادامت النصوص لا تعارض ذلك ، بل تحتمله ، ومادامت لمجتمع المسلمين مصلحة قطعيه في هذا الالزام .

ان مشكلة كثيرين ممن يتصدون للافتاء في شئون المسلمين ، انهم يقرأون النصوص بمعزل عن اهدافها الكبرى ، وبمعزل عن خريطة الواقع الذي يعيشونه . مشكلة هؤلاء أنهم من اهل « الرواية » ، وليسوا من اهل « الدراية » ، اذا استخدمنا لغة الفقهاء . . لكن هذه قضية تحتاج الى حديث آخر . ■■

فهمي هويدي

المصريون والفلسطينيون شعب واحد

بقلم : ابراهيم محمد الفحام

استمر الانتقال والهجرة بين مصر وفلسطين على مر التاريخ ، ولم يكن يقف دونها أي حدود جغرافية أو سياسية ، وأغلب أيام التاريخ الاسلامي كانت مصر وفلسطين بلدا واحدا . وفي هذا المقال يعرض لنا الكاتب صورا من تلك العلاقات الوشيجة بين الشعبين المصري والفلسطيني .

« علاقة الشعب العربي علاقة انتماء وقفت فيها حدود الدولة الحديثة ولكنها متواصلة بشريا، في هذا المقال يعرض لنا الكاتب العلاقات الوشيجة بين الشعبين المصري والفلسطيني .

قال الكاتب الفلسطيني عمر الصالح البرغوثي في مقدمة كتابه (الوزير البازوري) تحت عنوان (علاقة فلسطين بمصر) .

« ان أكثر من عشر سكان فلسطين يمتون الى أصل مصري . هاجرت عائلاتهم مع جيش ابراهيم باشا الى فلسطين . ثم التجأت عائلات أخرى فرارا من السخرة والشدة في حفر القنال ، ولا تزال تحمل الطابع المصري في الاسم مثل عائلات : المصري والدمياطي والزعبلاوي والشرقاوي والاناشاصي والعرايشي ، وغيرهم . وكذلك اللهجة المصرية ، والطعام المصري ، واللباس الريفي ، والعادات المصرية ، فهي شائعة في الساحل ، ما بين خان يونس وعكا » .

وتعرض عارف باشا العارف لهذه العلاقة في كتابه (تاريخ غزة) بقوله :

« لقد كان المصريون أهم عنصر من عناصر السكان ، الذين استوطنوا غزة على مر الاحقاب . وان كنت في شك

من قولي هذا ، فما عليك الا أن تقلب صفحات التاريخ ، أو تقوم بجولة قصيرة في شارع من شوارع غزة في هذه الأيام (سنة ١٩٣٤) .. تشابه في الرداء واللهجة ، وفي العادات والمتعتقدات وفي الأفراح والمآتم وفي السحن وتقاطيع الوجه ، وفي الأبنية والمآكل وفي كل شيء .

وأشار عباس العقاد الى تلك العلاقة ومظاهرها ، ضمن الفصول التي نشرها عن انطباعاته في رحلته الى فلسطين في صيف ١٩٤٥ ، والتي أعاد نشرها في كتابه (حياة قلم) سنة ١٩٦٤ اذ يقول :

« أحسب أن المصريين والفلسطينيين في مجال الهجرة ، فرسا رهان ، أو فارسان متقاربان .. فمن فلسطين مهاجرون في مصر ، ومن مصر مهاجرون في فلسطين . وقد يعيش الفلسطيني زمنا في مصر ، ثم يعود الى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب بالاشناصي والبلبيسي والطنطاوي . كما ترى بيننا من يلقب بالغزي والرملي والعكاوي ، وكأنهم يتسابقون أو يتلاحقون في حلبة واحدة ، لا يخرجون منها ، لا يسرعون الى تبديل معالمها ، سواء في التقاليد الاجتماعية ، أو معيشة البيوت ، حتى (الملوخية) وهي مصرية لا يتقنها الطهاة في غير وادي النيل ، قد أكلناها في بيت أبي خضرة ، كما تؤكل على أفخر موائدنا ، التي تعتز بتقديمها في بواكيرها ومعقباتها ، لأن أبناء هذا البيت يحافظون على تراثهم القديم ، منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه » .

وقد أسهمت القبائل التي يقيم بعض فروعها في مصر ، والبعض الآخر في فلسطين - السواركة والتياها والترابين والأحارسة والسماعنه والرميلات والرتيمات والوحيدات والمساعيد - في توطيد روابط القرابة بين الشعبين المصري والفلسطيني ، حتى بعد أن تحضرت أعداد كبيرة من عائلاتها في المدن والقرى المصرية والفلسطينية . اذ ظلت زيارات التعارف والمجاملة ، وعلاقات التآزر في السراء والضراء متبادلة بين هذه العائلات (البدوية والحضرية معا) الى عهد قريب .

وقد ذكر لي صديق ينتمي الى عائلة ريفية تمد جذورها الى قبيلة السماعنة ، انه الى ما قبل سنة ١٩٤٨ كانت تفد الى قريته بالشرقية عشرات العائلات الفلسطينية التي تنتمي الى نفس القبيلة ، ليشاركوا أقاربهم المصريين احتفالاتهم بالمناسبات المختلفة ، كالزواج ، وختان الاولاد ، وأداء فريضة الحج ، ولزيارة المرضى ، والتعزية في حالات الوفاة . وكان أقاربهم المصريون يزورونهم أيضا في نفس المناسبات . كما كانوا يشاركون جميعا في الالتزامات التي يفرضها العرف البدوي ، فيما يتعلق بالثأر من الأعداء ، وحماية المستجيرين ، ومؤازرة الحلفاء .

ويذكر عارف العارف في كتابه عن تاريخ بير السبع وقبائلها ، ان تآزر المصريين والفلسطينيين الذين ينتمون الى أصول قبلية مشتركة ، كان يشمل المعارك المسلحة التي كانت تنشب من آن الى آخر بين العشائر المتصارعة .

وقد شجعت تلك الروابط الوثيقة كلا الفريقين ، على تبادل هذه الهجرة بل شملت الهجرة المتبادلة ، جماعات أخرى كثيرة ، تحت وطأة ظروف وأحداث مختلفة .

ففي بداية الحملة الفرنسية على مصر ، لجأ كثير ممن خشوا بطش القوات المحتلة بهم الى فلسطين . وعندما استولى نابليون على يافا في مارس سنة ١٧٩٩ ، وجد فيها أربعمائة مصري ، من بينهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم ، فأعاده الى مصر ، وحاول الحاق الباقين بجيشه ، ولكنهم رفضوا ، فأمر باعادتهم الى وطنهم . ولا يبعد أن تكون هنالك أعداد أخرى أقامت في أنحاء تلك البلاد ، ولم تتح لهم فرصة العودة الى مصر .

وعندما أخمدت قوات الاحتلال الفرنسي ، حركة المقاومة الشعبية التي قادها حسن طوبار في بحيرة المنزلة ، نزح الى غزة ، والتف حوله كثير من الرجال المتعطشين للقتال ، حتى بلغ سلطات الاحتلال انه أعد في تلك المدينة قوة ينوي نقلها في خمسين سفينة الى دمياط ، لاحتلالها ، واستئناف أعمال المقاومة على شواطىء دمياط وبحيرة المنزلة . ولكنه لم ينجح في العودة الى مصر ، الا بعد جلاء المحتلين .

وكان نزوح الآلاف من الفلاحين المصريين الى فلسطين ، تخلصا من الأعباء التي ألقتها على عواتقهم أنظمة السخرة والضرائب والتجنيد ، التي استحدثت في عهد محمد علي باشا السبب المباشر الذي تذرع به لشن حملته على بلاد الشام في سنة ١٨٣١ وخاصة عندما طلب

من عبد الله باشا والي عكا أن يعيدهم الى مصر ، فرفض الاستجابة له .

وعندما أعاد محمد علي جيشه الى مصر سنة ١٨٤٠ تخلف الآلاف من أفراده عن العودة . ويقدر موريه P. Moorie في كتابه (تاريخ محمد علي) عدد أفراد الجيش والملحقين بهم من المدنيين وعائلاتهم - قبل الانسحاب بمائتي ألف نسمة ، وعدد الذين وصلوا منهم الى مصر بستين الفا فقط ، واندمج من كتبت له الحياة من أولئك المتبقين في أبناء البلاد ، فأضفوا بعض السمات المصرية على ملامح المجتمعات التي عايشوها .

وفي ذلك يقول محمد كرد علي في مقال له نشر بعدد ابريل سنة ١٩٤٠ من مجلة (الهلال) « ترك جيش ابراهيم ابن محمد علي الكبير في الديار الشامية وما اليها ، ألوفا من المصريين أصبحوا بعد حين من الدهر كأهل الشام في مناحيهم ، على نحو ما كان من بضعة ألوف من المصريين ، وردوا على فلسطين قبل الحملة المصرية ، وكانوا السبب الظاهر في اعلان محمد علي باشا الحرب على والي عكا ، بل على الدولة العثمانية ، لأنه طلب ارجاعهم الى مصر ، فأبي الوالي على محمد علي اعادتهم ، محتجا بأن مصر والشام شيء واحد ، وكلتاهما تابعة للدولة . وهؤلاء المهاجرون الأول تفرقوا في أنحاء فلسطين ، واحالتهم بودقتها شاميين » .

الفلسطينيون يزرعون الفاكهة

وتكرر نزوح الفلاحين المصريين الى الاراضي الفلسطينية ، عندما أرهقتهم أعمال السخرة في حفر قناة السويس واقامة تلك المنشآت الأخرى المتعلقة بها الا أنه عندما تم حفر القناة وإقامة تلك المنشآت وازدهرت المدن في هذه المنطقة ، وفد اليها كثير من المصريين والفلسطينيين وغيرهم ، للاستفادة من مصادر الرزق الوفير فيها .

وكانت قد استقرت في الريف المصري ، كثير من الأسر الفلسطينية التي استعين بخبرتها في زراعة أشجار الفواكه ، ومن نسلها انحدرت كثير من الأسر التي ظلت تمارس هذا الضرب من التخصص الزراعي .

كما لحقت ببعض العائلات البدوية الأصل ، التي تملكت مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، أسر أخرى تشاركها أصولها القبلية بالأراضي الفلسطينية .

وقد صادفت -- أثناء اهتمامي بدراسة أصول العائلات ذات الملامح أو العادات المتميزة ، خلال عملي بالشرطة في شمال الدلتا - كثيرا من الأسر التي تنتمي الى هذه الأصول . وقد نسي أفرادها من الجيل المعاصر - في غمار مشاغل الحياة ، وأحداثها المتتالية المتراكمة - كل شيء من أصولهم ، ولكنها ظلت من الذكريات العريقة ، التي يعيها كبار السن عنهم ، وقد يحتفظون بما يؤيدها من الوثائق أحيانا ، كما تؤيدها بعض الشواهد المتبقية ، كالأسماء والكنى والالقاب ، واللهجات والأمثال والحكايات والأغاني والأطعمة ، والعادات الاجتماعية الشائعة بينهم ، وخاصة ما يتعلق منها بالاحتفال بالمناسبات المختلفة ، وإن كانت هذه السمات تبدو باهتة في كثير من الأحيان ، تحت الصبغة المصرية الغالبة ، التي اكتسبوها مع الزمان .

وقد تحمل بعض القرى المصرية ، أسماء قرى وعشائر معروفة في فلسطين . وقد قال محمد رمزي - في معرض حديثه عن قرية (السماعنة) بالشرقية ، في كتابه القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، (والسماعنة جماعة من عرب فلسطين نزلوا بهذه الناحية فعرفت بهم ، كما ورد في تاج العروس) .

لطفي السيد وفلسطين . .

وذكر أحمد لطفي السيد في ترجمته الذاتية التي نشرت بعنوان (قصة حياتي) ان قريته (برقين) بالدقهلية ربما استمدت اسمها من قرية (برقين) الفلسطينية ، وانها كانت تسمى قديما (النزلة) كما هو شائع على ألسنة الفلاحين . ويرجح اذن أن يكون أسلاف السكان الحاليين لهذه القرية ، قد نزحوا اليها من فلسطين . وقد يؤكد ذلك ما ذكره عنه صديقه عبد العزيز فهمي (باشا) في ترجمته الذاتية التي نشرت بعنوان (هذه حياتي) . فقد قال انه - أي أحمد لطفي السيد - عندما كان يعمل وكيلا للنيابة لم يكن يركب خيل الشرطة في انتقالاته . كما كان يفعل زملاؤه (بل ان اباه بعث له بحصان خاص وخادم غزاوي خاص ، فكان يركب حصانه في الرياضة ، وعند

قيامه لتحقيق الوقائع .) .

وفي القاهرة وغيرها من المدن المصرية ـ وليس في الريف وحده ـ تتوطن منذ أجيال ، كثير من الأسر الفلسطينية الأصل ، التي تمتهن التجارة ، وأغلبهم من (النابلسة) و (الخلايلة) ـ أي أبناء نابلس والخليل ـ الذين كانوا يترددون على هذه المدن في مواسم معينة للاتجار بالصابون وزيت الزيتون ، ثم طاب لهم الاستقرار فيها ، وجمعتهم بمن خالطهم من المصريين روابط البيع والشراء من جهة ، والمصاهرة من جهة أخرى .

وقد حدثني رجل مصري يصاهر أسرة خليلية الأصل عن أقارب هذه الأسرة ومواطنيها بالقاهرة ، وأحصاهم لي ـ وكلهم من أصحاب المحلات التجارية الناجحة ـ فغلب على ظني أن تعداد أبناء الخليل في هذه المدينة ، لايقل عن تعدادهم في موطنهم الأصلي .

وفي مقابل ذلك استقر كثير من التجار المصريين في المدن الفلسطينية الذين كانوا يترددون عليها ، للاتجار في المصنوعات والمحاصيل المصرية والفلسطينية بين البلدين ، وخاصة (البلابسة) ـ أي أبناء مدينة (بلبيس) بمحافظة الشرقية حتى يقال انه لا تخلو من واحد منهم على الأقل مدينة فلسطينية ، وهم يلقبون باسم مدينتهم ، أو بألقاب أسرهم الأصلية .

بين دمياط ويافا . .

وكانت تجمع أبناء مدينتي دمياط ويافا من الروابط التجارية والاجتماعية والثقافية ، ما يفوق أية روابط تجمع أبناء مدينتين في قطر واحد .

وقد آثر الاقامة في يافا بعض المصريين الذين أبعدوا من بلادهم لادانتهم بالاشتراك في أحداث الثورة العرابية . كما تردد عليها بعض المصريين الذين اختيرت مدينة بيروت منفى لهم ، اذ حرصوا على الالتقاء بمواطنيهم المنفيين في يافا ، وبأبناء تلك المدينة ، ممن تربطهم بمصر روابط وثيقة .

وقد تحدث الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي في كتابه (نفحة البشام في رحلة الشام) ـ الذي ضمنه ذكرياته خلال إقامته بمنفاه في بيروت ـ عن جولته التي قام بها بين بعض البلاد الفلسطينية ، وما قوبل فيها من مظاهر الحفاوة والترحيب . وكا ممن قابلهم في يافا مصطفى أفندي الأرناؤوطي المصري الدمياطي الذي أقام له احتفالا ضم بعض علماء المدينة وأعيانها وذكر عنه انه (من جملة المنفيين معنا في الحادثة المصرية ـ يقصد الثورة العرابية ـ وأقام ببندر يافا لقربها من ثغر دمياط ، حتى يكون ذلك أنجز لمقصوده في ادارة حركته التجارية ، وأقرب المواصلات اللازمة لتلك الجهات . وفضلا عن ذلك فقد نال من لطف هؤلاء السادة ما أذهب عنه وحشة الغربة !)

النديم في يافا . .

وعندما تقرر نفي السيد عبد الله النديم ـ خطيب الثورة العرابية ـ الى بلاد الشام سنة ١٨٩١ ، وكان قد اختفى منذ بدء الاحتلال البريطاني في أنحاء الريف المصري أبحر من الاسكندرية الى يافا ، فاستقبله في ميناءها عدد كبير من العلماء والأعيان ، واستضافه مفتي المدينة السيد علي أبو المواهب ، فأقام في بيته شهرا حتى استأجر دارا خاصة ، لم تلبث أن صارت منتدى أدبيا لعلماء المدينة وأدبائها . وعندما عفي عنه في العام التالي ، وسمح له بالعودة الى مصر ، قام قبل عودته برحلة مع صديق له من يافا الى مدينة القدس ، ثم زار بعض المدن الفلسطينية الأخرى مثل نابلس والخليل وبيت لحم . وكان في كل منها موضع الحفاوة والتكريم .

وقد أشاد النديم في مقال نشر له في عدد ٣ مايو سنة ١٨٩٣ من مجلة (الأستاذ) بما لقيه المصريون الذين نفوا الى بلاد الشام من كرم الضيافة والترحيب .

ويقصد بالشام مفهومها المصري الفسيح الذي يشمل كل ما يلي حدود مصر الشرقية حتى الحدود السورية في أقصى الشمال .

كما أشاد بما لقي هو شخصيا من ترحيب طوال مدة نفيه التي قضاها في ربوع فلسطين . فقال : « ان كثيرا من المصريين أبعد الى سورية والشام ، فما وجدوا غير اخوان كرام ، قابلوهم بوجوه مستبشرة ، ونفوس طيبة ، وأحلوهم محل الكرامة والتجلة ، حتى قضى الكل مدته وهو في أحسن ما يكون من الأنس والراحة ومنهم هذا الضعيف محرر الأستاذ ، فقد غمره أهل يافا والقدس

الشريف بفضلهم ، وأروه من مكارم الأخلاق مالا يحصى الثناء عليه . فقد أجلوه وكرموه ، وبادلوه الزيارة والضيافة ، وساعدوه في تنقلاته وخدموه بما زادهم شرفا وفضلا . ولم يقصر المسيحيون في مشاركة المسلمين في الزيارة والمودة ، حتى جئت ولساني رطب بالثناء عليهم » .

وهكذا كان الشعب الفلسطيني شديد الانفعال بأحداث مصر . كما كانت فلسطين من أكثر الأوطان العربية تأثرا بالحركة الوطنية المصرية .

وكان من مظاهر هذا التأثر اطلاق الوطنيين الفلسطينيين لقب (الزعيم الجليل) على اسحق موسى الحسيني باشا رئيس الوفد الفلسطيني الى لندن سنة ١٩١٩ وهو يشبه اللقب الذي أطلقه الوطنيون المصريون على رئيس الوفد المصري سعد زغلول . كما تذكر فرنسيس اميلي نيوتين في كتابها (خمسون عاما في فلسطين) ان الوطنين الفلسطينيين رفعوا في سنة ١٩٢٠ علما يشبه العلم الذي كان يرفعه الوطنيون المصريون في تلك الآونة والذي يضم هلالا يحتضن الصليب . وعندما توفي ذلك الزعيم المصري في سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلات التأبين له في المدن الفلسطينية مثلما أقيمت في مدن مصر .

بنك مصر ـ فلسطين

ويمثل هذه العاطفة استقبل الشعب الفلسطيني طلعت حرب منشيء بنك مصر عند زيارته لبلادهم سنة ١٩٢٨ . وفي الحفل الذي أقامته لاستقباله الغرفة التجارية بيافا دعاه رئيس الغرفة يوسف طالب بك الى اقامة فرع للبنك في البلاد يسمى (بنك مصر ـ فلسطين) على أن يسهم الفلسطينيون في رأس ماله بنسبة الخمس ، كما أقيم احتفال آخر له في النادي الرياضي بالمدينة . وذكر مراسل صحيفة (السياسة الأسبوعية) المصرية في رسالته التي نشرت في عددها الصادر في ٢٤ يونية ١٩٢٨ مضمون الكلمات التي ألقيت في ذاك الحفل ، وأشار الى النتائج القومية العظيمة ، التي يمكن أن تحققها استجابة بنك مصر للرغبات التي أبداها أعيان البلاد ، خلال تلك الزيارة .

وكانت فلسطين ـ بناء على رغبة أبنائها ـ من أول الأقطار العربية والاسلامية التي أنشئت فيها فروع لجمعية الشبان المسلمين ، بعد انشاء مركزها الرئيسي بالقاهرة . ولم يقتصر انشاء هذه الفروع على المدن الكبرى بل شمل بعض القرى المتواضعة ، وكان لتلك الفروع فضل كبير في توثيق روابط الفكر القومي بين الشعبين المصري والفلسطيني ، فبذلت حكومة الانتداب البريطانية قصارى جهدها للحد من أنشطتها في فلسطين ، ووجهت منشورا الى دواوين الحكومة يدعو الى منع الموظفين من الانتماء إلى فروع هذه الجمعية ، وعملت على اغلاق فرعي الجمعية بكل من يافا وغزة . وكانت تلك التصرفات من أهم الموضوعات التي ناقشها المؤتمر العام الذي عقدته الجمعية بالقاهرة في يوليو سنة ١٩٣٠ وقررت فيه ابلاغ احتجاجها على ذلك الى المندوب السامي في فلسطين والى الحكومة البريطانية وعصبة الأمم ، والصحف العربية والانجليزية .

فندق رمسيس

وكانت معالم الحياة في مدينة يافا ـ بوجه خاص ـ مرآة صادقة دائما للترابط الوثيق بين الشعبين المصري والفلسطيني . وقد عبر عبده حسن الزيات في كتابه (من يوميات محام) عن بعض الانطباعات التي خلص بها من زيارته لمدينة يافا سنة ١٩٤٤ وأبدى تأثره لما شاهده من اطلاق الأسماء المصرية على بعض مؤسساتها مثل (سينما فاروق) و (فندق رمسيس) و (الجمعية المصرية) كما تأثر لرد الفعل الحماسي الذي بدر من المستمعين له أثناء القائه محاضرته عن المحاماة ، وخاصة عندما تحدث عن سعد زغلول كمحام .

وقد ظل الشعب المصري بدوره بالغ الحساسية ، شديد الانفعال بالظروف والأحداث التي يعانيها الشعب الفلسطيني . وقد تجلى ذلك دائما في مواقف الهيئات والمؤسسات الصادقة التعبير عن مشاعر الشعب المصري لأن الرابطة بين هذين الشعبين ليست من قبيل الروابط التي تستمد وجودها وصلابتها من الاتفاقات أو السياسات الرسمية فقط ، بل هي رابطة واقعية بين شعبين يسهم كل منهما بنصيب وافر في النسيج الاجتماعي للشعب الآخر . ■■

القاهرة ـ اللواء ابراهيم محمد الفحام



عيون من حولنا :

الإنسان والرادار

بقلم الدكتور : سعد الحاج بكري

« أبصر من زرقاء اليمامة » مثل قاله العرب منذ قديم الزمان يكمن فيه قصة امرأة من بني جديس زرقاء العينين ، عاشت في نجد أيام الجاهلية واشتهرت بحدة بصر لا مثيل لها فقد قيل عنها انها كانت ترى حركة الناس عن بعد مسيرة ثلاثة أيام ، وتروى قصص العرب القديمة أن هذه المرأة استطاعت بموهبة الرؤية هذه أن تنقذ أهلها وذويها مرات كثيرة من مباغته غزو الأعداء . فقد كانت ترى عن بعد حركة هؤلاء الأعداء عندما يقتربون من أرض قومها استعدادا للهجوم ، وكانت بذلك تنذر من حولها بالخطر المتوقع قبل حدوثه وتعطيهم الفرصة لتهيئة أنفسهم للدفاع وصد الغزاة .

أقلقت العيون الثاقبة اعداء بني جديس ، وخصوصا قوم حسان بن تبع الحميري فكان لابد لهم من البحث عن وسائل للحد من اثر تلك العيون الزرقاء . واستقر رأي القوم على محاولة تمويه حركتهم وهم يقتربون من أرض بني جديس لمنع بصر زرقاء الحاد من تمييز عملية الحشد والهجوم . وفي سبيل ذلك قام رجال حسان باستخدام اغصان الاشجار في مقدمة جيوشهم لتغطية وتمويه مسيرتهم نحو هدفهم المنشود . ورأت عيون زرقاء التحركات المموهة وقالت لبني قومها ارى غابة تتحرك ، لكنهم لم يصدقوا هذا القول بل ظنوا انها تقول مافي خيالها وليس ما رأته عيناها ، إذ كيف يمكن لغابة ان تتحرك . وكان في نكرهم هذا خطأ قاتل ، فقد كان عليهم ان يدركوا ان لكل وسيلة عملا مضادا وان وراء ماتراه زرقاء مكيدة ، او ليس الخداع عماد الحروب ؟ وهكذا نجحت قبيلة حسان في هجومها المباغت وانتصرت على بني جديس ، وانتهت بذلك اسطورة زرقاء اليمامة لتبقى على مر الزمن حديثا يروى ومثلا يقال .

عيون الطبيعة

لقد كانت ظاهرة زرقاء اليمامة مثالا نادرا لاهمية حاسة البصر في حياة الانسان ، فلئن كان البصر متعة يستطلع بها الانسان ماحوله ، فهو ايضا جهاز توجيه وانذار وحماية يؤثر في حركة الانسان ويقيه شر الاخطار التي يبدو انها تهدده . ولعيون الانسان مدى رؤية محدد يتناسب مع متطلبات الفرد العادي في الاستمتاع بما حوله وفي سرعة تحركه وابتعاده عن الاخطار القريبة أو استعداده

لمواجهتها . وعندما امتد مدى رؤية الانسان في عيون زرقاء اليمامة ليصل الى مسافات بعيدة توافق ذلك مع متطلبات قومها في حماية انفسهم من مفاجآت الاعداء . وعلى ذلك فالرؤية وامتداد اثرها هي حاجة اساسية في حياة الفرد والجماعة فوق هذه الارض التي تحيا عليها ، واذا كان الله قد كرم زرقاء اليمامة بحدة بصر نادرة للرؤية عن بعد ، فقد وهب الطبيعة ايضا وسائل رؤية كثيرة ذات اشكال وخواص عديدة . وقد تكشفت هذه الوسائل واسرار خواصها للانسان عبر الاجيال واحدة بعد اخرى . ومن هذه الاكتشافات ما جاء بالملاحظة البسيطة ومنها ماعرف بعد ان تطورت العلوم وكثرت البحوث وازدادت الاحتياجات .

فقد عرف الانسان ومنذ ان وجد العين البشرية وهي اغلى حواسه ، وعرف انها ترى الاشياء عن طريق التحسس بالضوء فضوء النهار يريه ماحوله ليأتي بعد ذلك الليل ويحجب كل ما هو ظاهر لينعكس هذا الضوء عن هذه الاشياء نحو عيون الناس وسترى هذه العيون بعد ذلك ماحولها من اشكال والوان مختلفة . والالوان العديدة في الحياة تأتي من خواص الاشعة الضوئية ، فالضوء الذي نراه هو في الحقيقة طيف متعدد الالوان تمتص منه الاجسام ماتريد وتعكس ماتبقى . فالبحر الازرق مثلا يمتص كل الوان الطيف الضوئي ويعكس الازرق فقط ليرى الناظر اليه زرقته بعد ان تتحسس عيناه بالضوء المنعكس . وهذا ايضا حال ظهور بقية الالوان امام العين البشرية . ولعل ظاهرة قوس قزح التي تطل علينا في الايام الماطرة هي آية الله في اظهار شكل طيفه الضوئي على بني البشر .

ولاحظ الانسان ان في انعكاس الضوء فوق الاجسام المصقولة وسيلة لاتساع مدى رؤيته ، فهو بذلك يستطيع ان يرى نفسه ايضا مايجري خلفه . وتروي اساطير الاغريق القديمة ان الفتى الجميل نارسيوس كان اول من اكتشف ذلك حين رأى صورته منعكسة على صفحة الماء الصافي في احدى البحيرات الهادئة . ولانه لابد من دراما في تلك الاساطير تقول القصة ان الفتى احب نفسه من خلال صورته واستمر ينظر اليها الى ان غرق في مياه البحيرة ، ليتحول بعد ذلك زهرة النرجس العطرة التي تغنى ويتغنى بها الشعراء في كل زمان ومكان .

ولعل في استخدام المرايا مايظهر اتساع رؤية العين البشرية بواسطة الانعكاس على سطح الاجسام الصقيلة فسائق السيارة مثلا يحتاج لرؤية مايجري خلفه وعلى جانبيه بالاضافة الى رؤية الطريق امامه ، فهو لذلك يحيط نفسه بثلاث مرايا ، اثنتين منها تعكسان لعينيه مايجري على كل جانب واخرى تريه ماوراءه وعلى ذلك يستطيع السائق هذا ونظره موجه الى الامام ان يرى مايحدث حوله ليتخذ الوضع الملائم لحركة سيارته بما يضمن حماية نفسه ومن معه .

وبالاضافة الى الانعكاس فوق الاجسام الصقيلة ، اكتشف الانسان وسيلة اخرى لتحسين مدى رؤيته ، وذلك عن طريق النظر خلال بعض الاجسام الشفافة . ومثال ذلك استخدام العدسات الضوئية المكبرة لاعطاء مدى افضل لرؤية العين البشرية . وتعمل هذه العدسات على تغير اتجاه مسيرة الاشعة الضوئية او مايسمى بمبدأ انكسار الضوء حيث يؤدي هذا الانكسار الى تشكل خيال كبير للجسم المنظور . فتستطيع بذلك العين الناظرة من خلال العدسات ان ترى عن بعد مالا يمكن ان تراه بدون استخدام تلك الأجسام الشفافة . ومن يحضر السباقات او الالعاب الرياضية في الملاعب الفسيحة او من يذهب الى الاحتفالات في الصالات الكبيرة يجد المناظير التي تستخدم العدسات الضوئية في ايدي الكثيرين من الحضور ينظرون من خلالها لتعطيهم مدى رؤية افضل من عيونهم المجردة في مراقبة مايجري أمامهم .

اذا كان الضوء هو وسيلة الرؤية للعين البشرية ، واذا كان غياب الضوء يؤدي الى ظلام يحجب هذه الرؤية فقد أوجد في مخلوق آخر هو الخفاش رؤية من نوع مختلف لاتعتمد على الضوء وبالتالي لايحجبها الظلام فالخفاش هذا هو الحيوان الوحيد الذي ينتمي الى فصيلة الثدييات ويستطيع الطيران . فهو يطير في الظلام بين جدران الخرائب والكهوف دون ان يصطدم . والرؤية عنده تعتمد على انعكاس الصوت بدلا من الضوء حيث إنه يملك جهاز سمع خاصا يمكنه من التحسس بما حوله تماما كما تتحسس العين البشرية الضوء . ولعل الله قد شاء ان يضرب لنا المثل ان للطبيعة وسائل رؤية مختلفة وان رؤية الخفاش الخاصة تبدأ حيث تقف رؤية العين البشرية .

الأمواج الكهربائية . . .

واكتشف الانسان وبعد ان تطورت العلوم وتزايدت الاحتياجات وسيلة جديدة للرؤية تختلف عن ماسبقها ، حيث انها لاتعتمد على الضوء ولاعلى الصوت وانما تعتمد على ظاهرة انتشار الامواج الكهربائية والمغناطيسية عبر الفضاء . وقد جاء اكتشاف هذه العين الجديدة واسمها المعروف اليوم الرادار **Radar** ، عشية بداية الحرب العالمية الثانية تحت الحاح الحاجة التي توافقت مع وصول الاكتشافات العلمية الى مستوى مناسب ومع تواجد القدرة الابداعية لدى الذين وضعوا علمهم ومعرفتهم في موضع

الاستجابة للحاجة الملحة . وهذه العين الجديدة هي اليوم ضرورة من ضرورات الحياة للافراد والجماعات في الحرب وفي السلام ، فهي عيون للسفن و الطائرات وكثير من المحطات الارضية ، وهي ايضا في اعالي الفضاء مع الاقمار الصناعية **Artificial Salellite**

ظهور الرادار

عرف العلم مبدأ عمل الرادار قبل سنوات من معرفة الرادار نفسه كعين ترى مايجري من حولها في الليل والنهار وقد جاءت تلك المعرفة نتيجة للدراسات النظرية التي اجراها العالم ماكسويل على ظاهرة الحقل الكهربائي والمغنطيسي وللتجارب العملية التي نفذها العالم هرتز على هذا الحقل عام ١٨٨٦ . فقد اثبت هرتز ان الامواج الكهربائية والمغنطيسية تنتشر في الفضاء بسرعة تساوي سرعة انتشار الضوء وهي ثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية ، وان هذه الامواج تنعكس مرتدة اذا مااصطدمت بجسم معدني لكنه لم يخطر على بال هرتز ان حقيقة ارتداد الامواج هذه يمكن ان تكون وسيلة جديدة لرؤية الاجسام المعدنية . وبعد ذلك وفي عام ١٩٢٢ اقترح العالم ماركوني استخدام خاصة ارتداد الامواج وصنع جهازا يساعد السفن في البحار على الرؤية عن بعد وكشف ماحولها من سفن اخرى او شواطيء لكن هذا الاقتراح لم يلق الدعم الكافي لوضعه موضع التنفيذ الفعلي .

ومع بداية الثلاثينات من هذا القرن ، تزايد التنافس بين دول مايصطلح على تسميته بالعالم المتقدم ، وانقسمت هذه الدول الى معسكرين متنازعين وبدأت طبول الحرب تدق منذرة وداعية للاستعداد لمواجهة حامية الوطيس ولان للعلم في حياة البشر دورين متناقضين ، احدهما استخدام اكتشافات اسرار الطبيعة لبناء الحضارات وتحقيق رفاهية الانسان ، والثاني تسخير تلك الاسرار لحمايه النفس وتدمير حضارات الاخرين ، فقد بدأ التركيز لدى المعسكرين المتنازعين على تبني الدور الثاني برغم البؤس والمآسي التي يسببها . وتوجه قادة البلاد الى العلماء يطلبون مساهمتهم لترجيح كفة بلادهم في صراعاتها التاريخية . وكان طلب القادة في أحد المعسكرات المتنازعة وفيما يختص بالامواج الكهربائية والمغنطيسية هو محاولة تطوير هذه الامواج وجعلها قادرة على تدمير الاهداف عن بعد ، وقد سميت الامواج المطلوبة في ذلك الوقت باشعة الموت **Dealh ray** واتجهت الانظار الى واتسون وات العالم المتخصص بالامواج الكهربائية والمغنطيسية ليقوم بتحقيق حلم قادة الحرب المنشود ، وكان هذا العالم قد نجح في استخدام تلك الامواج لدراسة تقلبات الطقس واكتشاف مراكز واتجاه العواصف .

وعندما تلقى واتسون وات طلب قادته ، اوضح لهم ان فكرة اشعة الموت التي تراودهم هي قضية غير قابلة للتحقيق ضمن معطيات الطبيعة التي كان يعرفها العلم في ذلك الوقت لكنه في نفس الوقت اظهر استعداده لصناعة جهاز جديد . قادر على مراقبة السماء وباستمرار في الليل وفي النهار ، لكشف حركة الطيران المعادي عن بعد وتجنب المفاجآت واعتمد واتسون وات في شرح مبدأ عمل جهازه الموعود على ماقاله ماركوني قبل ذلك بشأن مساعدة السفن في مراقبة ما حولها .

وبينما لم يلق ماركوني مايكفي من الدعم لصنع العيون التي تعتمد على انعكاس الامواج الكهربائية والمغنطيسية في وقت السلم ، وجد واتسون وات كل المساعدات الممكنة لوضع تلك العيون موضع العمل الفعلي تحت ضغط التهديد بالحرب . وهكذا فتحت أجهزة الرادار اعينها لتراقب ماحولها وكان ذلك عام ١٩٣٥

العيون الجديدة . .

اذا كانت عيون الانسان تتأثر بالضوء المنعكس عن الاجسام المحيطة فتراها ، دون ان يكون لتلك العيون اية قدرة على توليد الضوء نفسه ، فان عيون الرادار ترى عن طريق التأثر بالامواج الكهربائية والمغنطيسية المنعكسة عن ماحولها ، ولكن بعد ان تكون هذه العيون نفسها قد ارسلت تلك الامواج . واذا كانت عيون الانسان تحقق رؤية افضل كلما تحسنت الانارة لان الرؤية في وسط النهار اكثر وضوحا منها عند الغروب ، فعيون الرادار تحتاج الى ارسال امواج كهربائية ومغنطيسية قوية كي تحقق مدى افضل لرؤيتها . فهذه الامواج المرسلة تفقد اثناء انتشارها وفي ذهابها وعودتها واثناء انعكاسها على الاجسام الكثير من طاقتها . وعلى ذلك فلابد من تزويدها عند الارسال بقدرة تكفي لعودتها من رحلتها بحد ادنى من القوة يجعلها قابلة للاستقبال وكشف ما قد رأت .

ويتكون الرادار عادة من اقسام رئيسية ثلاثة هي ، جهاز لارسال الامواج الكهربائية والمغنطيسية **Transmitter** وآخر لاستقبال تلك الامواج اذا ما انعكست على جسم ما **Receiver** وثالث لمراقبة وكشف مايحدث امام العين البشرية **Monitor** ويتكون جهاز الارسال من مجموعة من الدوائر الالكترونية لتوليد الامواج المراد ارسالها وتتصل هذه المجموعة مع مجموعة دوائر اخرى لتكبير تلك الامواج واعطائها قدرة تمكنها من الوصول الى ابعد مدى ممكن . اما جهاز الاستقبال فيتكون من مجموعة من الدوائر الالكترونية لالتقاط

وتصفية وتكبير الامواج المرتدة وجعلها قابلة للعرض على شاشة جهاز الكشف والمراقبة وتقوم هذه الشاشة Crt بتحويل الشكل الكهربائي للامواج الى اثر ضوئي تستطيع العين البشرية رؤيته .

ويشترك جهازا الارسال والاستقبال في الرادار عادة باداة معدنية خاصة تدعى الهوائي **Antenna** ويقوم هذا الهوائي ببث الامواج الكهربائية والمغنطيسية بعد توليدها وتكبيرها في جهاز الارسال ، كما يقوم بالتقاط هذه الامواج عند ارتدادها وعودتها الى الرادار ليدخلها الى دوائر التكبير الالكترونية في جهاز الاستقبال وغالبا ما يكون هوائي الرادار موجها **Directive Antenna** اي يعمل على توجيه بث الامواج باتجاه محدد . وفائدة هذا التوجيه هي التمكن من حشد قدرة الامواج في اتجاه واحد بدلا من توزيعها وتبديدها في كافة الاتجاهات ، وهذا يزيد من المدى الذي يمكن ان تصل اليه تلك الامواج . ولكن إذا كان توجيه الهوائي يزيد من المدى فهو يحد من اتساع رؤية الرادار ويقصرها على جهة واحدة فقط . وعلى ذلك ولتحسين اتساع الرؤية مع المحافظة على بعد المدى تؤدي هوائيات الرادار الموجهة في كثير من الاحيان وباستخدام أجهزة ميكانيكية خاصة ، حركة دورانية تقوم خلالها ببث واستقبال الامواج عبر اتجاهات متعددة .

ويحتوي جهاز المراقبة والكشف في الرادار على دوائر توقيت الكترونية تقوم بتحديد زمن ارسال الامواج وزمن عودتها حيث انها تستطيع من خلال ذلك معرفة بعد الاجسام عن عيون الرادار وكذلك وضع تلك الاجسام من سكون او حركة واتجاه تلك الحركة . فاذا ماعادت الامواج بعد جزء من الف من الثانية من ارسالها فهذا يعني انها قطعت مسافة قدرها ثلاثمئة كيلو متر لان سرعة الامواج هي ثلاثمئة الف كيلو متر في الثانية وهذا يعني بالتالي ان بعد الجسم عن الرادار هو مائة وخمسون كيلو مترا لأن الامواج تكون قد قطعت هذه المسافة مرتين مرة في الذهاب واخرى في العودة . اما معرفة حركة الجسم واتجاهها فتتم عن طريق تكرار عمليتي الارسال والاستقبال وكشف اتجاه الامواج المرتدة .

تستخدم اجهزة الرادار لتحقق رؤية بمدى اعظم محدد ، تبعا للغاية من الرادار المطلوب ويعتمد هذا المدى على عوامل رئيسية ثلاثة ، الاول منها يتعلق بقدرة جهاز الارسال وحساسية جهاز الاستقبال والثاني يعتمد على نوع الاجسام المراد كشفها ضمن المدى المطلوب ، اما الثالث فيرتبط بتردد الامواج الكهربائية والمغنطيسية المستعملة وشكل الهوائي المستخدم . فكلما ازدادت استطاعة الامواج المرسلة ازداد مدى الرادار وكلما تحسنت امكانيات جهاز الاستقبال في التقاط الامواج المرتدة ذات الاستطاعة الصغيرة تحسن مدى الرادار ايضا ، أما فيما يتعلق بالاهداف التي ترتد عنها الامواج ، فكلما ازدادت مساحة الانعكاس عن الاهداف اتساعا ، ازدادت كمية الامواج المرتدة . وبالتالي فان مدى الرادار يزداد مع ازدياد المساحة المعدنية للاجسام المراد كشفها ويؤثر عادة توجيه الهوائي ومساحته وازدياد تردد الامواج المستخدمة او نقصان طول تلك الامواج في تحسين مدى عمل الرادار .

خداع الرادار

لئن كان الانسان قد اكتشف خواص الامواج الكهربائية والمغنطيسية واستطاع صنع الرادار فقد بحث ايضا عن وسائل مضادة تخدع بها رؤية هذا الرادار وكما نجح رجال حسان بن تبع في تمويه حركتهم امام عيون زرقاء اليمامة ، فقد نجح رجال هذا العصر في بعض محاولاتهم لخداع الرادار ، ويعتمد المبدأ الاساسي لهذا العمل على التسلل او التمويه ، فالاجسام المتسللة تقوم بتجنب الامواج التي يرسلها الرادار بحيث لاينتج عن هذه الامواج اي انعكاس اما وسيلة التمويه فتعتمد على التشويش على الامواج المرتدة بحيث يصعب تحديد الاهداف على شاشة الرادار ، فكثيرا ماتنطلق الطائرات العسكرية في هجومها على اهدافها ، على ارتفاعات منخفضة بحيث تتجنب امواج رادار اعدائها لتقوم بمباغتتها وتدمير مواقعها . وكثيرا ايضا مايجري التشويش على امواج الرادار عن طريق البث العشوائي على نفس مجال ترددات الرادار او عن طريق اطلاق قصاصات معدنية تقوم باعطاء انعكاسات عديدة للامواج المرسلة ويؤدي هذا التشويش عادة الى تغطية شاشة الرادار المراقب ببقع ضوئية تضيع بينها الاهداف الحقيقية ان وجدت .

وتروي قصص الحرب العالمية الثانية ان تدمير الاسطول الامريكي في قاعدة بيرل هاربر الواقعة في جزر الهاواي على المحيط الهادي عام ١٩٤١ من قبل الطائرات اليابانية ، قد جاء نتيجة لخطأ ارتكبه عامل رادار الاسطول . فقد رأى هذا العامل عددا كبيرا من البقع الضوئية على شاشة راداره لكنه لم يصدق ان هذه البقع تمثل اجساما حقيقية هي طائرات مهاجمة ، بل ظن انها نوع من التشويش وعلى ذلك لم يقم باعطاء الانذار المطلوب ، وكانت النتيجة مفاجأة كاملة وتدميرا شاملا ، تماما كما حدث لاهل زرقاء اليمامة حينما لم يصدقوا قولها ان هناك غابة تتحرك باتجاههم ، فاذا بهذه الغابة جنود مموهة تفاجئهم وتهزمهم .

لقد كان استخدام الرادار في الماضي يعتمد الى حد بعيد على تحليل عامل الرادار للصورة المرتسمة على الشاشة لكن تطور العلوم الالكترونية وظهور دوائر التصفية والتحليل **Signal Processing** قلل من الاعتماد على العامل الشخصي ، حيث اصبحت اجهزة الرادار اكثر دقة في اظهار ما حولها من اجسام مختلفة ، ولكن وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت محاولات تطوير وسائل خداع الرادار وتجري اليوم التجارب على طائرات خاصة لاتستطيع اعين الرادار رؤيتها ويقال ان سر هذه الطائرات هو انها لن تؤدي الى عودة الامواج المرسلة من الرادار اليه مرة اخرى ، ويعتقد انها ستكون جاهزة للعمل الفعلي في حدود الخمس او العشر سنوات القادمة واذا كان قد قيل عند ظهور الرادار ان طائرة مقاتلة ذات رادارتعادل في كفاءتها خمسين طائرة بدون رادار ، فما الذي سيقال باترى عن الطائرات التي لايمكن رؤيتها عن بعد حتى بالرادار .

عيون في كل مكان

وللرادار اليوم اماكن كثيرة يتواجد فيها ، فلئن كان قد ظهر تحت ضغط التهديد بالحرب فقد اصبح وجوده ضرورة في السلم ايضا . فهو العين الساهرة لارشاد السفن والطائرات في رحلاتها عبر مختلف انحاء العالم ، فاي من طائرات السفر مثلا لاتنلقى وهي في الجو وبشكل مستمر امواجا كهربائية ومغنطيسية من رادارات المحطات الارضية التي تقوم بمتابعة موقع الطائرات لتعمل على انذار الطيار اذا ما اصبح الوضع خطرا بسبب اقتراب طائرة اخرى او انخفاض ارتفاع الطيران وظهور حواجز طبيعية . وخلال رحلة الطائرة تنتقل مراقبتها من محطة رادار ارضية الى اخرى تبعا لخط سيرها الى ان تصل الى المكان المقصود . ويقوم الطيار في الطائرة اثناء عملية مراقبته من قبل المحطات الارضية باستقبال الامواج المرسلة ليطمئن الى انه تحت المراقبة والتوجيه . ويساعد رادار تلك المحطات ايضا على التحكم بهبوط الطائرات في المطارات خصوصا في حالات الطقس السيء .

وقد ساهم تطور علوم الحاسبات الالكترونية في تطوير طرق استخدام الرادار حيث ظهرت شبكات خاصة للحاسبات يستخدم فيها عدد من الرادار كمراكز لادخال المعلومات ، وتقوم الحاسبات في الشبكة بتحليل هذه المعلومات واعطاء صورة متكاملة عن مايجري في مناطق مختلفة . وبامكان مثل هذه الشبكات ان تكون العين الساهرة لمناطق شاسعة الاتساع تغطي دولا بكاملها . ولعل اولى هذه الشبكات هي شبكة الدفاع الجوي **Sage** التي اقيمت للمراقبة والانذار المبكر ضد اي هجوم جوي محتمل .

ولئن كان التهديد بالحرب العالمية الثانية قد ادى الى ظهور الرادار ، فقد ادى السلام القائم على الخوف من القوة والتخويف بها الذي اتى بعد تلك الحرب الى ايجاد وسائل كثيرة جديدة لتحقيق اغراض مختلفة والى تطوير استخدام الامواج الكهربائية والمغنطيسية ، ولعل الاقمار الصناعية هي من ابرز الوسائل الحديثة ، وتستخدم هذه الاقمار عيون الرادار لمراقبة ماحولها وتوجيه حركتها . وقد بدأ ظهور هذه المخترعات عام ١٩٥٧ عندما اطلق القمر الصناعي الاول **Sputnik** ولهذه الاقمار اليوم ادوار واغراض عديدة منها ما هو عسكري يخدم مجموعة من الناس ضد مجموعة اخرى ومنها هو مفيد لجميع البشر . فهناك اقمار للمراقبة والاستطلاع والانذار المبكر وهناك اقمار اخرى للملاحة والاتصالات والبحث العلمي . ويبلغ عدد الاقمار العاملة اليوم في مدارات مختلفة حول الارض اكثر من الفي قمر .

ولننظر كمثال على الاقمار الصناعية الى تلك التي تساعد السفن في رحلاتها عبر البحار والمحيطات . ويعتمد مبدأ عمل هذه الاقمار على تواجد ثلاثة منها كل على مدار خاص حول الارض بحيث تتساوى ارتفاعات هذه المدارات وتتساوى سرعة حركة الاقمار حولها . وترتب الاقمار الثلاثة على المدارات بحيث يمكن رؤية واحد منها على الاقل من قبل السفن المسافرة عبر بحار الارض بواسطة الامواج الكهربائية والمغنطيسية ولان للاقمار الصناعية هذه دورة محددة تتكرر وفق تزامن معين فتحديد موقع سفينة ما بالنسبة لاحدها يكفي لمعرفة مكان هذه السفينة بدقة وبذلك يمكن توجيه حركتها نحو خط سيرها المنشود .

لقد استطاع الانسان عبر الزمان ان يكتشف ما سخر له الله في الطبيعة من وسائل الرؤية بالاضافة الى نعمة حاسة البصر . ولئن كان هذا الانسان قد استخدم تلك الوسائل ضد اخيه الانسان تحت ضغط التهديد بالحرب او السلام القائم على تنافس القوى ، فقد استعملها ايضا لاغراض تحقق خدمات لكل بني البشر . وان كان للانسان غريزة تغريه بالتوجه الى القوة والتسلط فبه ايضا مشاعر تشده الى العدل والمساواة . فهل باترى من يوم في حياة البشر يسخر الانسان فيه كل مواهب الطبيعة لخدمة ورخاء الجميع لا للصراع بين المجموعات المختلفة . ■■

د : سعد الحاج بكري .

إنهم يقرأون أكثر

محمود المراغي

في القديم .. كانت الكتابة على الحجر والخشب وجلود الحيوان وأوراق الشجر . لذا كان نطاق الكلمة المكتوبة محدودا .. تسجل التاريخ ، وتقضي الأمور عند الكهنة والملوك والدواوين .. وقلما تستخدمها العامة .

حديثا ، وبعد اختراع الورق والمطبعة ، أصبح للكلمة المكتوبة شأن آخر .. وأصبح للكتاب دوره الأساسي في نقل المعرفة ، ونشر التعليم ، وتبادل الخبرات ، وتسجيل التراث .

ولكن ، ومع التطور أيضا بدا الأمر وكأن هناك ما يهدد الكتاب ويقلل رواجه ، ويحصره في دائرة التعليم أكثر منه في دائرة التثقيف والامتاع ونقل المعرفة بشكل عام .. وخارج فصول الدراسة .

نشأت الصحف ، ونشأت الصناعة .. وقيل ان الصحف شكل أنسب للانسان الجديد .. المتعجل ، المرهق في حياته اليومية ، التواق لمعرفة : واسعة وسطحية وسريعة : .. تناسب نمط حياته .

وتقدمت فنون الصناعة ، وأضافت السينما والمذياع والتلفزيون والفيديو .. وقيل : انها جميعا أكثر اغراء في نقل المعرفة .. ومن ينكر أن الصوت والصورة أكثر تأثيرا وامتاعا من الكلمة المطبوعة في معظم الأحيان ؟

كان هذا هو الاعتقاد السائد ، ولكن بالاحصاء .. ثبت عكس ذلك ، وقالت أرقام اليونسكو ـ طبقا لآخر ما أتيح لها من بيانات ـ أنه في عام ١٩٧٨ زادت الكتب المطبوعة في العالم بنسبة ٢٤ ٪ بالقياس لعام آخر هو عام ١٩٧٢ .

النسبة عالية ، وتسبق نسبة نمو السكان أو نمو التعليم .. والأهم أنها تدحض ما تداولناه من أن الكتاب يتراجع بعض الشيء .. لتحتل مكانه وسائل اخرى في نقل المعرفة .

قراء الكتب اذن يزدادون .. ولكن الأرقام تسجل حقيقة ثانية تقول : ان هؤلاء القراء في معظمهم من العالم المتقدم .. الصناعي في الأساس . أما الدول النامية ، والتي يزيد عدد سكانها عن ثلاثة أضعاف المجموعة الأولى .. فانها لاتستهلك أكثر من ثلث الكتب المنشورة .

المجتمع الصناعي اذن بكل ضوضائه وأثقاله النفسية وأنماط حياته المزدحمة ، وبكل التنافس الحاد بين أدوات مختلفة لنقل المعرفة .. هذا المجتمع لم يقلل أهمية الكتاب .. بل جعل أهميته النسبية ستة أضعاف الأهمية النسبية في دولنا النامية .. فاذا كان هناك ـ

مثلا ـ كتاب لكل الف من السكان في الدول المتقدمة .. فان نفس الكتاب هو ما يخص ستة الاف من السكان في الدول النامية .

قد تكون حركة النشر أحد أسباب الظاهرة ... لكن الأهم هي تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تحيط بالكتاب .

في الدول النامية هناك مجموعتان ، وفقا لتقسيم البنك الدولي وأرقامه ... دول ذات دخل منخفض يبلغ متوسط دخل الفرد فيها (٢٣٠) دولارا .. ودول ذات دخل متوسط ويرتفع فيها الدخل الفردي الى (١٤٢٠) دولارا .. و .. ذلك مقابل (٩٤٤٠) دولارا للفرد في الدول الصناعية الغربية عن نفس العام : ١٩٧٩ .

وبالطبع وحين يبلغ الفرق في الدخول (١ : ٤٠) .. فان السؤال عن الكتاب يصبح أمرا مشكوكا فيه ...

فاذا انتقلنا للعامل الثاني ، وهو التعليم والثقافة ، فاننا نجد طبقا لنفس الاحصاءات أن نصف سكان الدول منخفضة الدخل (ممن هم فوق ١٥ سنة) لايعرفون القراءة والكتابة .... وتنخفض النسبة الى ٢٨ ٪ في المجموعة الثانية من الدول النامية .. ثم تصبح قريبة من الصفر في الدول الصناعية الشرقية والغربية على السواء .

بعد ذلك واذا أضفنا المشكلة السياسية المتمثلة في الديموقراطية وغيابها في الكثير من دول العالم الثالث

.. وأثر ذلك على ازدهار الكلمة .. لأدركنا : لماذا تصبح أرقام الكتاب واضحة ومنطقية .

ولكن ..

يبقى في الأرقام ما يثير الانتباه . فالكتب المنشورة عام ١٩٧٨ .. بالفرنسية تقترب من الكتب المنشورة بالأسبانية .. فتحتل الأولى ٧ ٪ مما تم نشره .. وتحتل الثانية ٦ ٪ بينما ترتفع الأهمية النسبية للغتين : الانجليزية التي تحتل وحدها ٢٥ ٪ من الكتب المنشورة عام ١٩٧٨ .. والروسية التي تحتل ١٥ ٪ .

وقد يعكس ذلك صراع الثقافات .. وقد يعكس اهتماما متزايدا بالكتاب في الدول الاشتراكية ، أو في الاتحاد السوفيتي ذي الكتلة السكانية الكبيرة .. لكن الأهم أننا أمام خريطة تقول ان ربع عقل العالم يتعاطى الفكر ـ اذا جاز التعبير ـ بالانجليزية .. وأن ربعا آخر أو يزيد قليلا يتعامل بثلاث لغات أخرى هي : الروسية والفرنسية والأسبانية ... ثم تجيء اللغات الأخرى ولاتظهر العربية في جدول المقارنة .

لكن الخريطة سوف تتغير ، وسوف يأتي التعبير من قلب العالم الثالث حيث بلغت نسبة التعليم في المرحلة الابتدائية عام (٧٨) بالقياس لمن هم في سن القبول : ٨٣ ٪ في الدول منخفضة الدخل .. و ٩٥ ٪ في متوسطة الدخل .. وزاد التعليم الثانوي والجامعي بدرجة ملحوظة .

الكتاب اذن قادم ، والفضل في العالم الثالث .. للتعليم في الأساس .

الجامع الأزهر ورحلة الألف عام

بقلم : محمد عبدالله عنان

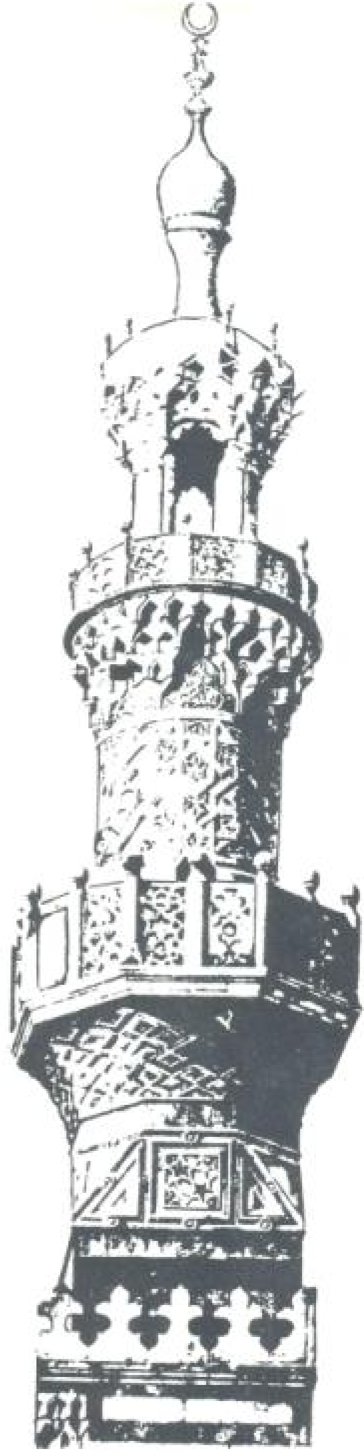
وقد مرت الف سنة من عمر الجامع الأزهر ، فمن حقه علينا أن نقف أمام صرحه الشامخ اجلالا واكبارا ، وان نتأمل جيدا معالم رحلته الطويلة .

كان لي شرف المساهمة في الدعوة الى احياء عيدين قوميين جليلين هما عيد القاهرة المعزية الألفي وعيد الجامع الأزهر الألفي . وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٤١ (١٣٦١ هـ) في بداية الحرب العالمية الثانية . ولم تكن الأذهان يومئذ متهيئة لمثل هذه المناسبات لما كان يشغلها من أحداث الحرب واحتمالاتها المزعجة . وقد ألفت يومئذ بالفعل لجنة للاحتفال بعيد القاهرة . ولكن الآراء تضاربت حول تاريخ هذا الاحتفال من النواحي التاريخية . وكذلك تضاربت الآراء حول عيد الأزهر ورئي بعد فترة من النقاش والدرس ، أن يترك أمر هذين العيدين الى التقويم الميلادي حيث وقع حلول العيدين بالتاريخ الهجري في ظروف عصيبة لا يتيسر معها العمل العلمي والنشاط الاجتماعي الهادىء .

وكان أن تم الاحتفال بعيد القاهرة الألفي في موعده الميلادي في مايو سنة ١٩٦٩ وفي ندوة دولية عظيمة حاشدة . وكان المفروض أن يكون الاحتفال بعيد الأزهر الألفي بعد ذلك بنحو عامين في يونية سنة ١٩٧٢ حيث يكون الأزهر قد أتم عيده الألفي في ٢٣ يونيه من هذا العام . وقد كانت الحكومة المصرية تعتزم بالفعل أن تحتفل بهذه المناسبة على غرار ما فعلت في عيد القاهرة الألفي ، وكانت برامج هذا الاحتفال قد وضعت بالفعل . ولكن من بواعث الأسف الشديد ان حالت الظروف الخاصة التي كانت تجوزها مصر يومئذ دون تنفيذ هذا العزم فصرف النظر عن اقامة الاحتفال في ذلك الوقت . ثم تجدد الحديث أخيرا ، بعد ذلك عن اضطلاع الحكومة باقامة هذا الاحتفال ، في عام ١٩٨٢ ، على أن يكون احتفالا عظيما ، وعلى مستوى عالمي .

أول حلقة للدرس

وان الجامع الأزهر لجدير بذلك كله وباكثر منه . فانه لا يوجد بين معاهد العالم العلمية كلها سواء في الشرق أو الغرب معهد يستطيع أن يفاخر الأزهر بتراثه العلمي العريض الذي لبث مدى ألف عام ينثره من حوله ولا سيما في أقطار العالم الاسلامي ، ولم يبذل أي معهد علمي في الشرق أو الغرب ، ما بذل الأزهر من جهود عظيمة للمحافظة على علوم الدين واللغة ، ولا سيما عقب سقوط الخلافة الاسلامية في بغداد ، وعقب سقوط حواضر الأندلس الاسلامية في يد اسبانيا النصرانية ، ثم في خلال العصر التركي ، فقد لبث حصنا أخيرا لعلوم الدين واللغة العربية ، خلال ما توالى على العالم العربي والاسلامي في تلك الأوقات العصيبة من مختلف الأزمات والمحن القومية .



وانه لمن الحقائق المعروفة ان الجامع الأزهر لم ينشأ ليكون معهدا للقراءة والدرس ، وانما انشأه جوهر الصقلي منشيء القاهرة المعزية ليكون مسجدا جامعا للعاصمة الفاطمية الجديدة ، وقد كان المسجد الجامع دائما منذ نشأة الامصار الاسلامية عنوان الدولة الجديدة ، ومنبرا لدعوتها ، ورمزا لسيادتها الروحية ، وقد اقترن انشاء « جامع القاهرة » بنفس البواعث والظروف ، اما فكرة الدراسة بهذا الجامع ، فقد كانت حدثا عارضا ترتب على فكرة الدعوة المذهبية ، وغلب الحادث العارض شيئا فشيئا على صفته الأولى حتى اسبغ عليه ثوبه الجامعي الخالد .

ففي صفر سنة ٣٦٥ هـ (أكتوبر ٩٧٥ م) في اواخر عهد المعز لدين الله جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت ، وهو المسمى بالاختصار في جمع حافل من العلماء والكبراء ، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر ثم توالت حلقات بني النعمان بالأزهر بعد ذلك ، وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية ، وجعلتهم دعامتها وألسنتها الروحية ، فلحقوا بها الى مصر ، واستأثروا في ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن . وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر وبالقصر حلقات دعاية دينية وسياسية ، تعقد في الغالب للاكابر والخاصة ولم تكن لها في البداية صفة الدروس العامة .

وفي أوائل عهد العزيز بالله حدث بالجامع الأزهر حادث جامعي آخر ، ففي رمضان سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلس وزير المعز لدين الله ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر ، وقرأ على الناس كتابا ألفه في الفقه الشيعي متضمنا ما سمعه في ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز وهو المعروف « بالرسالة الوزيرية » ، وكان يجلس لقراءته بنفسه في الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع الى سماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر والدولة ، وكان ابن كلس شخصية ممتازة تجمع بين السياسة والعلم .

وكانت مجالسه في الواقع أول مجالس جامعية حقة عقدت بالجامع الأزهر ، وكانت تمتاز عن مجالس بني النعمان باتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية .

والظاهر ان الوزير ابن كلس ، هو أول من فكر في اتخاذ الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنظمة المستقرة ، ففي

سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) استأذن هذا الوزير الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه . ويعقدون مجالسهم بالجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر . وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيها ، ورئيسهم ومنظم حلقتهم الفقيه « ابو يعقوب » قاضي الخندق وكان حديثهم في الفقه وما اليه . ورتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات حسنة ، وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم في يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات تشريفا لهم وتكريما .

وهنا نجد انفسنا أمام حادث جامعي حقيقي ، فقد كان هذا الجمع من الفقهاء أول الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر ، وأجرت عليهم الدولة ارزاقا ثابتة ، وباشروا مهمتهم تحت اشرافها بطريقة منتظمة مستقرة ، واذن فنحن نستطيع القول بأن الأزهر يكتسب عندئذ لأول مرة صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة وأنه يبدأ حياته الجامعية الحافلة المديدة .

دار الحكمة

والمسألة الثانية التي يجب التنويه بها هو ان الجامع الأزهر كان يسمى منذ انشائه بجامع القاهرة ، وكان هو في الواقع مسجدها الجامع ، وكان هذا الاسم يطلق عليه أيام الدولة الفاطمية حتى عصر متأخر ، والظاهر أن اسم الأزهر أطلق عليه بعد انشاء القصور الفاطمية في عصر العزيز بالله . فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها اطلق على جامع القاهرة - وهو مسجد الدولة الرسمي - اسم الجامع الأزهر . واما أصل التسمية فالظاهر أنها ترجع الى اسم السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ وهي التي يرجع الفاطميون نسبتهم اليها .

وقد كان لا بد بعد أن شغل الأزهر بمهامه الجامعية الجديدة ، وتحولت مجالس الدعوة الى القصر ، ان ينشأ معهد جديد للعناية بهذه الدعوة ، وهذا ما قام به الحاكم بأمر الله ولد العزيز . ففي جمادي الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (مارس سنة ١٠٠٥ م) ، انشئت دار الحكمة الفاطمية أو دار العلم الشهيرة . وكانت مجالس الحكمة تعقد بالقصر وينظمها قاضي القضاة وتقرأ فيها علوم آل البيت ، ويهرع الناس الى شهودها ، ولكن الحاكم بأمر الله رأى أن تكون هذه المجالس أخص وأوسع مدى ، وأن تنتظم في سلك حلقات دينية وعلمية متصلة ، فأنشىء المعهد الجديد وسمي دار الحكمة أو دار العلم ، ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفي الحر الذي أريد أن يتخذه هذا المعهد أو هذه الجامعة الغريبة فقد كانت جامعة حقة تضم عدة حلقات وكليات دينية وعلمية وأدبية .

وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر الصغير ، وقسمت الى عدة اقسام او مجالس لعلوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والفلسفة والرياضة والتنجيم وغيرها ، وعين لها أقطاب الأساتذة في كل علم وفن ، وحملت اليها من خزائن القصر مجموعات عظيمة من الكتب في سائر العلوم والفنون ، وكان التعليم فيها حرا على نفقة الدولة . وهرع الطلاب الى دار الحكمة من كل صوب وأفردت للنساء فيها مجالس خاصة ، واتخذت في البداية طابعا حرا ، ودعي اليها الأساتذة من المذهبين ، ولكن ابعد عنها الأساتذة السنيون فيما بعد . ولبثت دار الحكمة مدى قرن تنافس الأزهر في مهمته العلمية ، ثم فتر نشاطها من بعد ذلك ، وفقدت كثيرا من أهميتها ، ومازال أمرها في انحلال حتى انتهى أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه الى الأمر بابطالها وانحلالها في اوائل القرن السادس الهجري لما ذاع من تدخلها في العقائد . ثم أعيدت على نمط جديد روعي فيه تخفيف صبغتها المذهبية . بيد أنها غدت عندئذ معهدا عاديا لا يتمتع بكثير من الأهمية .

أما الأزهر فقد استمر أيام الدولة الفاطمية في تقدم ونماء ، واتسعت حلقاته وتنوعت دراساته ، وزاد عدد طلابه حتى تجاوزوا الآلاف . وكان - فضلا عن صفته الجامعية التي استقرت وتوطدت على مر الأيام ، وفضلا عن اقامة الصلوات الرسمية فيه - مركزا لكثير من المظاهرات والمناسبات الرسمية الأخرى . فمن ذلك أنه كان مركز الاحتفال الرسمي بالمولد النبوي الكريم ويوم عاشوراء الحزين وليالي الوقود الأربع : وهي ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة شعبان وليلة نصفه . هذا الى استمراره حتى أيام الحاكم وقبل انشاء دار الحكمة مركزا لمجالس الحكمة الفاطمية ، وقد كان يشترك في شهودها النساء في ركن معين خاص بهن ، وكان الأزهر - كذلك - مركز المحتسب وهو من أهم المناصب الدينية في الدولة الفاطمية ، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة ويجلس في الجامع الأزهر وجامع عمرو يوما بعد يوم .

ولما انهارت دعائم الدولة الفاطمية أيام العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين واستأثر الناصر صلاح الدين وزير العاضد بالأمر عمد الى ازالة شعائر الدولة الفاطمية وكل رسومها وآثارها المذهبية ، وابطل فيما ابطل إقامة الجمعة بالجامع الأزهر فلبثت معطلة به من سنة ٥٦٧ الى سنة ٦٤٥هـ في عهد الملك الظاهر بيبرس حيث اعيدت اقامتها بالأزهر .

على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر في تلك الحقبة لم يبطل صفته الجامعية ، فقد استمر في مهمته كمعهد للدرس والقراءة ، ولبث مقصدا يهرع اليه

الطلاب من مصر وسائر انحاء العالم الاسلامي واستمر محتفظا بكثير من هيبته العلمية القديمة .

بين الدين والفقه

ولما بدأ انشاء المدارس منذ أيام الدولة الأيوبية ، ثم كثر انشاؤها كثرة ظاهرة في القرنين السابع والثامن من الهجرة . وكان انشاؤها - على الأغلب - على قاعدة المذاهب أقبل عليها الطلاب من كل صوب ، وانصرفوا عن الجامع الأزهر وكذا أقبل الأساتذة على العمل بها لارتفاع مرتباتها وكثرة اوقافها . وكان لذلك الرواج العلمي أثره في فتور الاقبال على الأزهر ، وضعف حركته التعليمية بيد انه يوجد في انباء العصر ما يدل على أن الأزهر كان خلال هذه الحقبة يحتفظ بمكانته الخاصة ، يعاونه في ذلك اتساع حلقاته وأروقته ، وتنوع دراساته وهيبته القديمة وما يلاقيه فيه الطلاب ، من اسباب التيسير في الدراسة وايضا في الاقامة . وقد غدا الأزهر - منذ أواخر القرن السابع اعني منذ قضى التتار على بغداد وعفت معاهدها وسقطت قرطبة وغيرها من حواضر الأندلس في أيدي الاسبان - كعبة الأساتذة والطلاب من سائر انحاء العالم الاسلامي ، ومنذ القرن الثامن الهجري يتبوأ الأزهر في مصر وفي سائر العالم الاسلامي ، نوعا من الزعامة الفكرية والثقافية ، وفي انباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع في دولة السلاطين برعاية خاصة ، وكان الأكابر من زعمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ويشغلون وظائف القضاء والامامة العليا ، وكان هذا النفوذ يصل أحيانا إلى التأثير في سياسة الدولة العليا ، وأحيانا في مصاير العرش والسلطان . وربما كانت هذه الفترة في الواقع هي عصر الأزهر الذهبي من حيث الانتاج العلمي الممتاز ومن حيث تبوؤه مركز الزعامة والنفوذ .

أما مواد الدراسة بالجامع الأزهر فقد كانت تتردد طوال هذه العصور بين الأصلين القديمين ، وهما الدين واللغة . فكان يدرس القرآن والحديث والتفسير والكلام والاصول والفقه على مختلف المذاهب . هذا عن الاصل الأول : اما عن الأصل الثاني وهو اللغة ، فكانت تدرس علوم اللغة من الصرف والنحو والبلاغة والبيان والبديع ثم الأدب والشعر والتاريخ . وفي العصور المتأخرة كان يدرس المنطق والطب والعلوم الرياضية ، وأحيانا الموسيقى .

وكانت الدولة المملوكية المصرية - خلال ذلك - قد شاخت وتفككت أوصالها بالرغم مما يتبعها من مظاهر العظمة والتقدم ، وكانت الدولة العثمانية الغازية في عنفوان قوتها ونهوضها . وكانت تتطلع الى افتتاح مصر والشرق الأوسط لتكتمل عظمة دولتها ، وتتسع رحاب آفاقهاوامكانياتها ولتضع يدها على ممر التجارة الغربية الى أسواق الشرق ، وهو الذي كانت تتمتع به مصر ، وكانت مصر تشعر بهذا الخطر على حياتها ، وتحاول من جانبها ان تستعد لرده . ولكن شتان مابين القوتين ولم يمض قليل على ذلك حتى وقعت المأساة المروعة ، وانثالت الجيوش العثمانية على مصر واعتزم السلطان الغوري أن يحاول لقاءها في اوائل حدود مصر الشمالية على مقربة من جنوب تركيا في مرج دابق شمال الشام ، ولكن الصدمة كانت هائلة فانهار الجيش المصري وقتل السلطان الغوري ولم يعثر على جثته ، وانهارت بذلك الدولة المصرية وسقطت صريعة الغزو العثماني وذلك في رجب سنة ٩٢٢ هـ (أغسطس ١٥١٦ م) وفقدت - بذلك مصر - استقلالها التالد العريض .

وفي ظل الفتح العثماني انهار صرح الحركة الفكرية في مصر الاسلامية كما انهارت عناصر القوة والحياة في المجتمع المصري . وتضاءل شأن العلوم والآداب ، واختفى جيل العلماء والكتاب الاعلام ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التي اظلتها دول السلاطين المصرية سوى آثار محدودة يبدو شعاعها الضئيل من وقت الى آخر .

وأصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور فاضطربت أحواله ، ونضبت موارده تباعا ، وانخفض عدد اساتذته وطلابه ، وانكمشت حركة التعليم كلها ، سواء في الجوامع أوالمدارس ، ولجأ كثير من العلماء والطلاب الى اقاصي الصعيد بعيدا عن عسف الفاتحين وظلمهم ، وقامت هناك في قفط وقوص وغيرهما حركة علمية وأدبية محلية .

ان الجامع الأزهركان يقوم عندئذ في ظل هذا الأفق القاتم ، بأعظم وأسمى مهمة أتيح له خلال تاريخه الطويل الحافل أن يقوم بها . فقد استطاع خلال المحنة الشاملة ان يستبقي شيئا من مكانته وأن يؤثر بماضيه التالد ، وهيبته القديمة في نفوس الغزاة انفسهم ، وأن يغدو - خلال ذلك - ملاذا أخيرا لعلوم الدين واللغة ، ويغدو بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية تحتفظ في أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ، ويدرأ عنها - بجهود علمائه وطلابه - عادية التدهور النهائي ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ، وردها عن التغلغل في المجتمع المصري .

مقاومة الاحتلال الفرنسي

ثم جاء الفتح الفرنسي الى مصر في أول يوليه سنة ١٧٩٨ (١٧ محرم سنة ١٢١٣ هـ) ، فاهتزت البلاد واهتز الأزهر لهذا الحدث الجديد ، وأخذ يتأهب لاسترداد عزمه القديم للمشاركة في الأحداث العامة ، وبعث المشايخ في الحال رسالة الى رئيس معسكر الفرنسيين في الجيزة يسألونه عن مقاصدهم ، واسفرت المحادثات التي

جرت بين الرسل وبين الفرنسيين عن اصدار الفرنسيين خطاب لأهل مصر بالامان وتوكيد نيات الفرنسيين الطيبة . وطلب القائد العام حضور المشايخ والزعماء ليؤلف منهم ديوانا لتدبير الأمور ، واسفرت المباحثات عن تأليف الديوان الأول المؤلف من تسعة أعضاء في مقدمتهم الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر وعدد آخر من زملائه .

واستمر الأزهر في الطليعة أيام الاحتلال الفرنسي ، ينادي بتحرير البلاد وذهاب المحتلين ، ويؤلف الوفود وينظم المظاهرات والمطالبة بالتحرير والجلاء حتى برم المحتلون بنشاطه وسعاياته ، وضربوا الأزهر والحي الأزهري بالمدافع ثم احتلوا الأزهر بخيولهم بعد ذلك على مدى ثلاثة أيام ، وقبضوا على عدد من المشايخ المتهمين بالتحريض ، وحاكموهم واعدموهم سرا ، رغم كل ما بذله زملاؤهم لدى السلطات لتحريرهم وانقاذهم .

ولما هدأت الأحوال نوعاما ، أصدر صاري عسكر (نابليون) قرارا بانشاء ديوان جديد أوسع نطاقا من الديوان القديم ، وجُعل اعضاؤه تسعين بدلا من عشرة ودخل فيه الى جانب العلماء ممثلون للطوائف الأخرى من الجند والتجار والأقباط والأجانب ولم يمض قليل على ذلك حتى اضطر نابليون الى مغادرة مصر لمعالجة الأحوال في أوربا . وترك ـ مكانه لرياسة الحملة الفرنسية بمصر ـ نائبه الجنرال كليبر .

واستمر الأزهر على موقفه في تحدي الغزاة ومقاومتهم بسائر الوسائل الممكنة والشعب من حوله يلبي نداءاته لتأليف المظاهرات ، وفي خلال ذلك حدث حادث خطير هو قتل الجنرال كليبر (صاري عسكر) أثناء تجوله في حديقة منزله ، على يد طالب أزهري قديم جاء لقتله خصيصا من بلده حلب ويسمى سليمان الحلبي ، فكان للحادث دوي عظيم ، وأسفر التحقيق عن سؤال عدد من الطلاب والأساتذة وقبض على عدد منهم . واسفرت محاكمة سليمان عن الحكم باعدامه واعدام ثلاثة طلاب آخرين ممن كانت لهم صلات به قبل ارتكاب الجريمة وساد بذلك جو من الرعب والخشوع .

ورأى شيخ الجامع الشيخ الشرقاوي وزملاؤه ان يوضع حد لهذه الحوادث المزعجة وان يغلق الجامع الأزهر ، وتم ذلك بموافقة الجنرال منو الحاكم الجديد ، وأغلق الجامع اغلاقا محكما من سائر ابوابه ومخارجه واستمر ذلك نحو عام ، حتى تم الصلح بين الانجليز والفرنسيين وتم جلاء الفرنسيين عن مصر ، واعيد فتح أبواب الجامع ومداخله وافتتح بتأدية صلاة الجمعة وحضور الأعيان والمشايخ وكان لذلك أطيب وقع في النفوس .

اول قانون للازهر

وتطورت الحوادث الداخلية في مصر وانتهت بتقلد محمد علي ولاية البلاد ، وبدأ محمد علي في التعليم سياسة جديدة ، فانصرف عن الازهر ونزع سائر الاملاك التي كانت موقوفة عليه فضاقت احواله وانصرف معظم طلابه . ومن جهة اخرى فان محمد علي اتجه الى تنظيم البعثات الخارجية من الطلاب الى مختلف بلاد اوربا وابدى في ذلك همة مضاعفة وعلق اعتماده في تعليم البلاد وتثقيفها على هذه الافواج العديدة من طلاب البعثات وكان هذا عملا جليلا بلا ريب ولكنه كان عملا من جانب واحد ، اما الازهر فقد ركدت ريحه وانصرف عنه معظم طلابه . ولبث خلال القرن التاسع عشر يتردد بين مختلف الآراء والاتجاهات ويحاول ولاة الامر ان يتداركوه بالاصلاح . وصدر اول قانون في هذا السبيل سنة ١٨٧٢ في عهد الخديو اسماعيل . وقد نظم هذا القانون طريقة الحصول على الشهادة العالمية وبين موادها ورتبها على ثلاث درجات اولى وثانية وثالثة وقرر ان تكون المواد التي يمتحن فيها الطلاب هي الآتية : الاصول . الفقه . التوحيد ، الحديث ، التفسير ، النحو . الصرف . المعاني . البيان . البديع . المنطق .

وكان هذا القانون اول خطوة عملية في تنظيم الحياة الدراسية بالجامع الازهر بيد انه لم يحقق كثيرا من الاصلاح المنشود .

وفي اوائل عهد عباس الثاني ظهرت بالازهر حركة اصلاحية جديدة قوامها وروحها الشيخ محمد عبده وكانت نتيجة هذه الحركة ان صدر في يناير سنة ١٨٩٦ قانون كساوي العلماء واضيفت الى مواد الدراسة طائفة من المواد الجديدة تشمل الاخلاق ، مصطلح الحديث ، الحساب ، الجبر ، العروض والقافية . وجعل التاريخ الاسلامي والانشاء ومتن اللغة ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان مواد يفضل المشتغل بها على غيره .

وفي سنة ١٩١١ على اثر اضطرابات الازهر المعروفة صدر قانون جديد للازهر ينظم الدراسة على اسس جديدة وبمقتضاه قسمت الدراسة الى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة واضاف هذا القانون الى مواد الدراسة مواد جديدة هي التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادىء الطبيعة والكيمياء .

وتوالت على هذا القانون تعديلات عديدة كان اخرها واهمها القانون الصادر في سنة ١٩٣٠ وهو يتناول الكلام

على الجامع الأزهر والمعاهد الملحقة به وعلى الرئاسة الدينية وهيئة كبار العلماء ، وفيه يعرف الجامع الأزهر بان يشمل كليات التعليم العالي واقسام التخصص وان هذه الكليات هي ثلاث ، كلية الشريعة وكلية اصول الدين . وكلية اللغة العربية وان التخصص نوعان : تخصص في المهنة وتخصص في المادة ويتناول الباب الثاني مراحل التعليم وهي تقسم الى اربع : الابتدائي ومدته اربع سنوات ، والثانوي ومدته خمس سنوات والعالي ومدته اربع سنوات وهي مرحلة الدراسة باحدى الكليات ، وقد كان هذا القانون في الواقع خطوة حاسمة في القضاء على نظم الدراسة القديمة بالأزهر وانشاء ما يسمى اليوم بالجامعة الازهرية .

وفي سنة ١٩٣٦ صدر قانون جديد للازهر يعتبر متمماً للقانون السابق وهو يفصل مراحل التعليم ومدة كل منها ، وتفاصيل المراحل النهائية والاجازات واقسام التخصص للاعداد للحصول على شهادة العالمية والمواد التي تدرس في كل مرحلة . واطلق اسم الجامع الأزهر في هذا القانون على الكليات الازهرية واقسام الاجازات والتخصص والحقت به معاهد التعليم الابتدائي والثانوي بالقاهرة والاسكندرية ، وباقي العواصم الاقليمية .

تطور أم ماذا ؟

على ان ذلك لم يكن كل شيء في تنظيم التطور الجامعي بالأزهر . ذلك انه في الخامس من مايو سنة١٩٦١ ، صدر لتنظيم الازهر قانون جديد شامل للتطور الجامعي الذي اسبغ على الجامع الأزهر ، هو القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، وبمقتضاه يصبح الأزهر جامعة كبرى تشتمل على عشر كليات هي الآتية (١) كلية الشريعة والقانون (٢) كلية اصول الدين (٣) كلية اللغة العربية (٤) كلية المعاملات والادارة (٥) كلية الهندسة والصناعات (٦) كلية الطب (٧) كلية الزراعة (٨) كلية البنات الاسلامية . وانشئت كليتان اخريان جديدتان هما كلية العلوم وكلية التربية وانشىء معهد اللغات والحق بكلية اللغة العربية .

واعيد نظام الحلقات الدراسية تحت اسم « معهد الدراسات العربية والاسلامية » وجعلت كلية البنات الاسلامية بمثابة جامعة خاصة تشتمل على الاقسام الآتية : ـ

(١) الطب (٢) العلوم (٣) التجارة (٤) الدراسات الاسلامية (٥) الدراسات العربية (٦) الدراسات الاجتماعية والنفسية (٧) اللغة الانجليزية (٨) الترجمة الفورية (لغة فرنسية) .

وفي ٢٩ ابريل سنة ١٩٧٢ قرر المجلس الاعلى للازهر تعديل قانون تطوير الأزهر الصادر في سنة ١٩٦١ ولائحته الداخلية . ويقضي هذا التعديل باعادة جميع اختصاصات وزارة شئون الأزهر الى شيخ الأزهر ورفع درجته الى درجة « وزير » كما وافق المجلس على انشاء فروع لجامعة الأزهر في سائر المحافظات .

وان الازهر بعمره الألفي وحياته الممتدة يعتبر أقدم جامعة اسلامية « حية » وان كان جامع القرويين بفاس ، الذي انشئت به أخيرا بعض الكليات الحديثة ، يسبقه بنحو مائة وستين عاما ، على ان القرويين انشىء كمسجد جامع ولم ينشأ كجامعة ، ولكنه استعمل فيما بعد للدراسة على نمط المساجد القديمة . اما في أوربا فانه يقال ان جامعة بافيا قد اسست في سنة ٨٢٥ م على يد الملك لوتير ، وان جامعة اكسفورد اسست سنة ٨٧٢ على يد الملك الفريد ، اعني انهما اسستا قبل انشاء الأزهر . على ان هذه التواريخ موضع جدل . وعلى أي حال فان الحياة الجامعية الحقيقية لم تبدأ في أوربا الا في القرن الثاني عشر . وذلك حينما اسست جامعة باريس في سنة ١٢٥٣ م وأسست جامعة كمبردج في نهاية القرن الثاني عشر ، واسست جامعة بولونيا في سنة ١٤٠٠ م . ولم تعرف المانيا الحياة الجامعية قبل نهاية القرن الرابع عشر . ومن ثم فان الأزهر يستطيع أن يقرر بكل فخر انه سبق في الوجود اشهر الجامعات الأوروبية .

وهكذا تحول الجامع الأزهر الى جامعة حديثة ذات كليات ومعاهد مختلفة . وانطلق ليعمل على غرار الجامعات المدنية ، وليقدم الى طلابه مختلف المواد العلمية والأدبية الحديثة . واختتم الأزهر بذلك رسالته الأصلية التي انشىء من اجلها والتي لبث مدى ألف عام يضطلع بها ، وهي المحافظة على علوم الدين واللغة واختفت حلقاته وتقاليده العلمية العظيمة التي امتاز بها على كر العصور والتي تخرج فيها الألوف من أئمة العلوم الدينية واعلام اللغة والبيان واختتم دوره العظيم في ميدان العلوم الاسلامية والآداب العربية .

وقد يقال ان جامعة الأزهر الحديثة ، ما زالت بكلياتها الثلاث الجديدة وهي كلية الشريعة والقانون ، وكلية أصول الدين وكلية اللغة العربية ـ ما زالت تحمل نفس الرسالة القديمة لعلوم الدين واللغة وانها سوف تعمل على رعايتها وازدهارها على نمط ما كانت في الماضي ، وان المسألة مسألة وقت ، وانه لم يمض على الكليات الجديدة ، ما يكفي من الوقت لتتويج جهودها بالقدر الكافي . ونحن لا نكتفي بهذا التعليل وان كنا نرجو لجامعة الأزهر وكلياتها الجديدة ، مزيدا من النجاح . ومزيدا من الأصالة والتخصص والنبوغ . ■■

محمد عبد الله عنان

بدوي الجبل
شاعر العروبة والشام

بقلم : احمد محمد قدور

نشرت مجلة العربي في عددها رقم ٢٧٤ مقالاً للاستاذ عبدالغني العطري عن شعراء الشام في مطلع القرن العشرين ، ألقى فيه الكاتب ضوءا على اربعة من شعراء الشام هم خير الدين الزركلي ، وخليل مردم ، ومحمد البزم وشفيق جبري .

ولعل من الوفاء ان نذكر شاعرا كبيرا فارقنا الى دار الخلود منذ فترة وجيزة وهو شاعر العربية بدوي الجبل .

لم يكن بدوي الجبل - اسمه : محمد سليمان الاحمد - دمشقيا بالولادة ، بل كان شامي الهوى ، احب دمشق حاضرة الشام ، وفضلها على بلاد العالمين [1]. وقد غنى العروبة اصفى شعره ، وخصها بوافر حبه .

ولد محمد سليمان الاحمد في قرية (ديفة) في محافظة اللاذقية عام ١٩٠٣ ، وكان والده الشيخ سليمان الاحمد من كبار العلماء لغة وادبا وفقه دين .

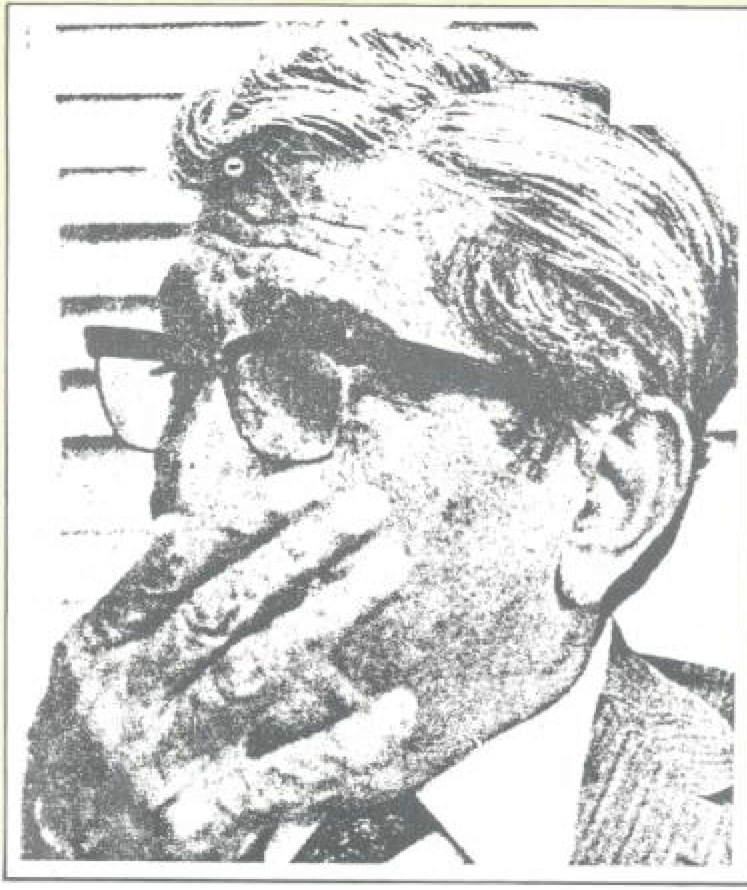
وفي بيت والده الجليل ، ترعرع ، ينهل من علوم ابيه ومن كتبه ، فقد تلقى القرآن والحديث صغيرا ، ثم درج في دوحة الشعر العربي القديم ، يقرأ شعر الفحول الاوائل أمثال ابي الطيب المتنبي والشريف الرضى ، وابي تمام والبحتري . وأضاف الى ذلك دراسة علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة ، مستكملا عدته الادبية من العربية الأصيلة .

ولم يكن الفتى ليقتنع بما حصل من المعرفة وهو كثير ، بل أكب على مطالعة الادب الحديث ونهل من الترجمات العربية للآثار الاجنبية ، وزاد ذكاؤه تلك الثقافة غنى ومضاء .

وأما لقب الشاعر بدوي الجبل ، فله قصة نوردها بايجاز : فقدكتب الشاعر الفتى قصيدة ، ارسلها الى جريدة « الف باء » الدمشقية ، ولم يكن الشاعر معروفا في الاوساط الادبية آنئذ ، فآثر صاحب الجريدة الاديب يوسف العيسى ان يبتدع لهذا الشاعر الناشىء لقبا كي يجذب القراء لقراءة القصيدة . فكان ان لقبه بـ (بدوي الجبل) ونسب القصيدة اليه . ولما جاءه متسائلا عن تبديل اسمه اخبره العيسى انه ما اراد من ذلك الا لفت الانظار

---

(١) ديوان بدوي الجبل طبعة اولى عام ١٩٧٨ ، دار العودة ببيروت ، مقدمة الديوان بقلم الاستاذ اكرم زعيتر ص ٨ .



اليه . ولعل شاعرية بدوي الجبل الاصيلة التي تذكرنا بالفحول الأوائل هي التي اوحت الى يوسف العيسى بهذا اللقب الذي حمله الشاعر ، وعرف به أكثر مما عرف باسمه الحقيقي .

وقد خاض الشاعر بدوي الجبل غمار الحياة الوطنية وهو في مطلع الشباب ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وشارك في الاحزاب الوطنية ، واودع السجون ، وذاق مرارة النفي والبعد عن الوطن .

وفي حياته الحافلة بأنواع الكفاح الوطني ، لم يكن الا الشاعر المناضل الذي جعل العروبة له منهجا ودليلا ، حتى لقد دعي شاعر العربية ، وقد أطلق عليه هذا اللقب الأديب اكرم زعيتر ، واقره عليه اديب العربية اسعاف النشاشيبي وعدد من شعراء العرب وادبائهم .

من سجن الى سجن

بدأ الشاعر حياته السياسية والوطنية بتهمة كلف بها من الملك فيصل الى الشيخ صالح العلي الثائر على الوجود الفرنسي والمطامع الاجنبية . لكن الفرنسيين ما لبثوا ان داهموا سورية بقيادة الجنرال غورو واحتلوا دمشق في عام ١٩٢٠ ، واستشهد وزير الدفاع السوري يوسف العظمة في معركة ميسلون على ابواب دمشق . وسرعان مازج بالشاعر الفتى في السجن فقضى فيه سنة وبضعة اشهر ، ولم يكن بدوي الجبل حينئذ قد بلغ السن القانونية ، فاخرج من السجن بعد ان عانى من العذاب والشقاء الوانا .

ولم يكن السجن ليفت في عضد الشاعر المناضل ، بل زاده ايمانا واصرارا ، فاشتد المستعمرون في طلبه ، لكنه نجا من قبضتهم ، ويمم شطر العراق عام ١٩٣٩ مواصلا

كفاحه . ولما عاد الى وطنه عام ١٩٤٢ القي عليه القبض ، وسجن من جديد ، وفي اثناء احتجازه هذا ، توفي والده ولم يتمكن من رؤيته .

واستمر الشاعر يسهم في نضال شعبه وقومه ، حتى نالت سورية استقلالها عام ١٩٤٦ ، لكنه ما لبث أن ابعد عن الوطن عام ١٩٥٦ متجها الى اوربا ، وبعد انقضاء ست سنوات ، عاد الى دمشق واتخذها مستقرا له حتى وافته المنية في عام ١٩٨١ .

واما شعره ، فقد كان مرآة لتاريخ العرب في شتى نوازعهم ، في نضالهم الدامي في سبيل الحرية والاستقلال ، وفي افراح الوطن واحزانه ، وفي مناسبات العروبة والقومية .

واذا اردنا ان نرد الشاعر الى مدرسة من مدارس الشعر الحديث ، او مذهب من مذاهبه ، فالبدوي من غير شك رائد من رواد المدرسة الاحيائية في الشعر العربي الحديث ، ويقف مع رفاقه الزركلي ، ومردم ، والبزم ، وجبري ، ليمثلوا الاتجاه التقليدي في سورية ، المتمثل في مجاراة اساليب الاقدمين في النظم ، وايثار الجزالة والمتانة في الصياغة .

وموضوعاته الشعرية كثيرة ، متنوعة ، فيها الغزل ، والرثاء والهجاء ، والمدح ووصف الطبيعة ، وديوانه حافل بالوان شتى من تلك الأغراض .

وفي مقالتنا هذه ، نستعرض شعر بدوي الجبل الوطني والقومي ، وما فيه من جوانب متعددة ، فمن هجاء المستعمر ، الى رثاء الشهداء ، الى التنديد بالظلم والاستبداد . وقد امتزج حب الشام بدمه ، فوصف طبيعتها الساحرة ، وحن اليها وهو في ديار الغربة ، وغناها من شعره اعذب الالحان .

صيحات من المنفى

وفي عهد الاحتلال الفرنسي لسورية ، كان يرسل صيحات الالم ، من منفاه في العراق ، معبرا عما يعانيه وطنه من ويلات المستعمرين .

* ومن هذه الصيحات المدوية ، قصيدة له مشهورة يقول فيها :

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا
رق الحديد ومارقوا لبلوانا
خل العتاب دموعا لا غناء بها
وعاتب القوم اشلاء ونيرانا
ويل الشعوب التي لم تسق من دمها
ثاراتها الحمر احقادا واضغانا

ثم يصف دمشق المناضلة وما اصابها من ويلات المستعمرين :

اما الشآم فلم تبق الخطوب بها
روحا احب من النعمى وريحانا
فمن رأى بنت مروان انحنت تعبا
من السلاسل يرحم بنت مروانا
أحنو على جرحها الدامي وأمسحه
عطرا تطيب به الدنيا وايمانا
هل في الشآم وهل في القدس والدة
لا تشتكي الثكل اعوالا وارنانا

* وفي قصيدة اخرى ، نظمت في العراق عام ١٩٤١ ، يصف الشاعر كفاح الشعب وبطولة المناضلين :

نزلوا السجون فعطروا ظلماتها
أنفا وعزا كالضحى جحجاحا
يانازلين على السجون فاصبحت
بهم اعز حمى واكرم ساحا

* ولما فازت سورية باستقلالها ، وجلا المستعمر عن ترابها عام ١٩٤٦ ، كان بدوي الجبل من الشعراء المجيدين الذين وصفوا ذلك الحدث الكبير في حياة الوطن والعروبة ، وقصيدته في مناسبة الجلاء من أجود شعره ، يقول في مطلعها مصورا الفرحة العارمة :

الزغاريد فقد جن الاباء
من صفات الله هذى الكبرياء
بنت مروان اصطفاها ربها
ما يشاء الله إلا ما تشاء
هي في غسان بأس وندى
وهي في الاسلام فتح وبلاء
الاديم السمح عطر ورؤى
ربما اغفى عليه الانبياء

ثم يصف مغاني دمشق ، ويقف على مرابع الجمال فيها ثم يمدح بني امية مشيدا باعمالهم الخالدة .

واما فلسطين فهي في قلب الشاعر ، وقد خصها في قصيدة الجلاء بتحيات الرضا والحب والولاء ، يرسلها من جنبات الشام ، وديار العروبة :

يا فلسطين هوى مستعمر
من ربا الشام ونصر وولاء
وتحيات الرضا من دجلة
وسلام الله من غار حراء

● وفي وحشة المنفى ، يعاوده الحنين الى الوطن ، فيملك عليه احساسه ، ويفجر اشواقه شعرا يفيض رقة وحنانا :

سل الجمر هل غالى وجن وعذبا
كفرت به حتى يشوق ويعذبا
وهل دللت في الغوطتان لبانة
احب من النعمى واحلى واعذبا
وسيا من الاطفال لولاه لم اخف
على الشيب ان اناى وان اتغربا
يزف لنا الاعياد ، عيدا اذا خطا
وعيدا اذا ناغى ، وعيدا اذا حبا
ويارب من اجل الطفولة وحدها
افض بركات السلم شرقا ومغربا

وفيها ايضا ، يصف طبيعة دمشق ، ويذكر قبور احبابه من زعماء الكفاح الوطني :

سقى الله عند اللاذقية شاطئا
مراحا لاحلامي ومغنى وملعبا
وجاد ثرى الشهباء عطرا كأنه
على القبر من قلبي اريق وذوبا

وقد أهدى القصيدة الى حفيده « محمد »

« قلبي بالشام مقيم »

● وفي قصيدة اخرى نظمت في المنفى ، تؤرقه ذكريات الشباب ، فيذكر الشام ويصف جمالها ، وثباته على حبها :

تطوحني الاسفار شرقا ومغربا
ولكن قلبي بالشآم مقيم
واسمع نجواها على غير رؤية
كأني على طور الجلال (كليم)
تبادهني عند البحيرة دمر
وروض على افيائها وشميم
خيال جلالي الشام حتى اذا انطوى
تنازع قلبي عبرة ووجوم

● وحين فجع العرب في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ بنكسة جديدة ، ثارت شاعرية البدوي ، فأنشأ في النكسة شعرا غاضبا ، جر عليه محنة كادت تودي بحياته يقول فيها ، واصفا سلب القدس من جسم العروبة :

هل درت عدن ان مسجدها الاقصى
مكان من اهلها مهجور
اين مسرى البراق والقدس والمهد
وبيت مقدس معمور
لم يرتل قرآن احمد فيه
ويزار المبكى ويتلى الزبور
طوي المصحف الكريم وراحت
تتشاكى آياته والسطور

ولما أصدر الشاعر ديوانه عام ١٩٧٨ ، أهدى القصيدة المذكورة الى ابطال حرب تشرين (حرب رمضان) عام ١٩٧٣ ، الذين كانوا فجرا من أمل وبصيصا من نور على طريق الكفاح الطويل الذي تخوضه الامة العربية جمعاء .

وما تلك اللمحات التي قدمناها الا خطوط بارزة من حياة الشاعر بدوي الجبل وكفاحه ، واما تفاصيلها ، فقد استوفاها الاستاذ اكرم زعيتر في دراسته لحياة الشاعر وشعره في مقدمة الديوان ، وتعد هذه الدراسة من اوثق المصادر عن حياة الشاعر وسيرته النضالية .

ومن الجدير بعدئذ ان يوصف بدوي الجبل بشاعر العروبة والشام ، فقد تغنى بجمال الشام اصدق غناء ، وناضل في سبيل حرية الوطن ، وكرامة العرب وذاق من ألوان العذاب بسبب مواقفه الجريئة ، ما عرض حياته لشتى المخاطر .

وهو صادق اذ يقول :

اتنكرني الشآم وفي فؤادي
تلاقيت الصوارم والرماحا
اذا نسيت على الجلى وفائي
فقد عذروا على الغدر الملاحا
وغنيت الشآم دما ونارا
فلا شكوى عرفت ولا نواحا ■■

دمشق ـ احمد محمد قدور

الدرس الأخير

بقلم : عبد الرحمن سلامه

(ابن الدوايمه)

« معرفة الرجال كنوز ومعرفة النساء خنوز »
« مثل شعبي جزائري »

وضعت محفظتها على المكتب .. ارتدت مئزرها الابيض .. فتحت كراس المناداة نظرت الى التلميذات نظرة مليئة بالمعاني .. بدت كئيبة .. شاحبة .. الحزن يملأ وجهها .. يحجب تلك الاشراقة الجميلة التي كانت تزين وجهها دائما .. ساد حجرة الدرس صمت شفاف .. تعلقت بها انظار التلميذات البريئة .. هزت رأسها وهي تتذكر كلام والدها : « المرأة عندنا تخرج من الدار مرتين يابنتي .. الاولى من دار اهلها الى دار زوجها والثانية من دار زوجها الى القبر » .. تمتمت بعبارات مبهمة ـ آه ليتني لم اخلق .. ليتني لم اخلق .. وحاولت منع دمعة تصارع للسقوط : « ترى هل سيكون مصيركن مثل مصيرى ؟ وسرحت ببصرها في تلميذاتها ..

قطعت عليها المراقبة شرودها .. وقعت على سجل المناداة .. نظرت الى التلميذات نظرة اكثر عطفا وحنانا واشفاقا :

ـ لماذا ليلى ماتزال غائبة ؟

ـ قلن : لقد تركت الدراسة يا سيدتي

ـ لماذا ؟

ـ اجابت احداهن : لان والدها وافق على خطوبتها وقد اشترط خطيبها توقفها عن متابعة الدراسة ، ووجدت نفسها تهمس : « والدها .. الخطوبة .. اذن مصيرها كمصيرى » آه لو تعرفن ان مصيرى هو نفس مصير ليلى وان هذا هو الدرس الاخير لي معكن » .

وقطعت احدى التلميذات على المدرسة شرودها من جديد وسميرة يا سيدتي أيضا ؟

ـ سميرة .. آه سميرة .. ماذا جرى لها ؟

ـ هي في المستشفى يا سيدتي !

ـ لماذا ؟

ـ لانها حاولت الانتحار بعد قرار والدها تزويجها رغما عنها من شخص يكبرها بثلاثين عاما وهو تاجر كبير ..

وشعرت بدوار .. اغمضت عينيها .. مسحت دمعة سقطت على خدها الأيمن .. اتجهت الى السبورة كتبت .. درسنا اليوم : « الزواج في الجزائر » .



استغربت التلميذات ذلك . . وأدركت من نظراتهن هذه الدهشة فاستطردت قائلة : « قلت الزواج في الجزائر» بدلا من درسنا المقرر» المجالس الشعبية البلدية » . . وساد الفصل صمت لم يلبث ان تحول الى حركة وحيوية .

ـ ما هي اهم مشكلة تعترض الزواج في بلادنا ؟

ـ قالت الاولى : الشروط التعجيزية لأهل الفتاة

ـ قالت الثانية : غلاء المهر يا سيدتي

ـ قالت الثالثة : رغبة وطمع الأهل في مصاهرة ثرى

ـ قالت الرابعه : بيع الأهل لابنتهم تحت اسم الزواج

ـ قالت الخامسة : لا . . . لا أتفق مع زميلاتي . . الأهل على حق . . وانفجرت بالبكاء .

ـ سألتها المعلمة باندهاش لماذا ؟

ـ قالت وهي تمسح دموعها : لأن اهل العريس يجدون فخرا في هذه الشروط ويعتبرونها دليلا على قيمة الفتاة ومكانة اهلها »

ـ قالت المعلمة : « لكن هذا غير ممكن » (قالتها وهي تعرف جيدا ان هذا صحيح وانها هي ايضا عاشت هذا الوضع بنفسها) .

ـ قالت التلميذة باصرار : بل ممكن ياسيدتي . . لقد جاءت احدى العائلات الغنية تطلب يدي من اهلي وقد تم كل شيء على ما يرام . . انا لم ارفض العريس والاتفاق كان تاما بين اسرتينا ولكن المفاجأة حدثت فيما بعد . . واجهشت بالبكاء اقتربت المعلمة منها وهي تستعيد ما وقع لها . . انها الصورة نفسها . . ربتت على كتفها قائلة :

ـ وماذا حدث ؟

ـ طلب والد العريس من والدي تحديد الشروط فما كان منه الا ان قال : ليس لي شروط الولد ابننا والبنت ابنتنا وسعادتها هي سعادتنا والذي يهمنا هو سعادتها . . وعلى عكس ما توقع والدي فقد تبرمت والدة العريس وطلبت تاجيل البحث في الموضوع وضغطت على يد زوجها وخرجا . ثم ارسلوا لنا فيما بعد من يبلغنا بتخليهم عن الخطوبة وليت الامر توقف عند هذا الحد ؟

ـ « كيف » . . قالت المعلمة ؟

ـ لقد اشاعوا ان والدي لم يشترط شروطا لانه يعرف انني لا اصلح وانني . . ؟ !

وكلام كثير واقاويل كثيرة . . والغريب في الأمر ان والدي . . ؟

ـ ما به والدك قالت المعلمة مقاطعة ؟

ـ لم يعد يثق بي . . واصبح يشك في تصرفاتي . . ويكرر على مسامعي . . انت السبب في تمريغ كرامتي بالوحل . . لايوجد دخان بلا نار وقرر ان يوقفني عن الدراسة وسيكون هذا هو الدرس الاخير لي هنا سيدتي .

القت بجسدها المتثاقل على المقعد . . طلبت الى التلميذات ابداء رأيهن بهذه المشكلة كتابيا عاودتها الصور . . نفس الوضع . . نفس [illegible] ما وقع لي يتكرر مع هذه التلميذه الطيبة المجدة . . كلتانا تواجه نفس المصير . .

وقطعت عليها احدى التلميذات شرودها من جديد !

ـ سيدتي عندي اقتراح ؟

ـ ما هو ؟

ـ ان تتفضلي بالاتصال بوالديها واقناعها بضرورة متابعتها الدراسة .

هتفت التلميذات . . نعم الرأى . . نعم الرأى !!

انتفضت المعلمة . . لم تحتمل . . صرخت : « آسفه . . آسفه . . لا استطيع . . فانا تماما كما هي اواجه نفس المشكلة ونفس المصير وهذا هو الدرس الأخير لي معكن واندفعت خارج حجرة الدرس التي سادها صمت حزين تخللته اصوات مبحوحة وقطرات ملأت العيون البريئة حزنا وحيرة . ■■

عبد الرحمن سلامه
(ابن الدوايمه) ـ الجزائر



أديب من شيلي

خوزيه دونوزو :

العنف والجنس يسودان العالم

بقلم : محمود قاسم

ترجمت كتبه الى تسع عشرة لغة ، هل لأنه مس فيها العنف والجنس ؟ أم لأنـه استطاع أن ينتقل بأعماله فعلا الى العالمية .

منذ سنوات طويلة تساءل المفكر الانجليزي توماس كارلايل عن مدى امكانية دخول الكاتب الى غرفة النوم ... وما هي حدود حريته في التعبير عما يحدث بداخلها ... فاذا كان د . هـ لورانس قد دخل الكوخ لـ ف وصفا دقيقا ما حدث بين الليدي تشاترلي وحارس نغابة . واذا كان هذا الكتاب قد منع في انجلترا سنوات طويلة ... فان الكثيرين من كتاب هذه الأيام مشغوفون بتفاصيل العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ... وهذه مرة لا تمس كاتبا دون آخر ... فهناك العديد من الكتاب الجادين وكتاب القصص الجماهيرية مشغوفون بتلك التفاصيل . واذا كان إحسان عبد القدوس ونزار قباني اكبر من كتب عن المرأة باللغة العربية . فان الأدب الاباحي لا يقتصر على كاتب دون آخر ... أو على دولة دون أخرى ... فمن المانيا رأينا جونتر جراس ... وفي الولايات المتحدة هناك « أنايس نين » وهنري ميللر ... وهارولد روبنز ... وآخرون ..

والكاتب الشيلي خوزيه دونوزو هو أحد الكتاب الذين مسوا هذا اللون من الكتابة في بعض أعمالهم ... ولا ندري هل لهذا السبب ترجمت كتبه الى تسع عشرة لغة ... ومنعت من دخول الاتحاد السوفيتي .. أم لأنه فعلا كاتب استطاع أن ينتقل بأعماله الى العالمية ... ذلك ما سوف نحاول التأكيد عليه .. الطريف أن دونوزو لم يكتب أدبا مكشوفا سوى في رواية واحدة فقط هي التي ترجمت أخيرا الى اللغة الفرنسية بعنوان « الاختفاء الغامض لماركيزة لوريا الشابة » .

وهذه الرواية تجيء غريبة الشكل مقارنة بالأعمال التي سبق للكاتب القادم من أمريكا الجنوبية أن قدمها ...

في أعماق الكابوس

يضع النقاد دونوزو - الذي ولد في ستياجو بشيلي عام ١٩٢٤ - في مصاف كل من هيمنجواي وفيتز جيرالد .. قضى فترة طفولته الاولى في برنكتون ثم التحق بجامعة ايوا في الولايات المتحدة وعاد الى بلاده وعاش ردحا من الزمن ثم هجرها الى اسبانيا عام ١٩٦٧ . الى أن عاد لبلاده مرة أخرى بصفة نهائية في منتصف العام الماضي .

نشر خوزيه أولى رواياته عام ١٩٥٧ تحت عنوان « التتويج » بعد أن انتهى من دراساته بالولايات المتحدة ... وفي شيلي قام بنشر مجموعة من الروايات باللغة الاسبانية من أهمها « طائر الليل القبيح » و « العائلات المقدسة » و « منزل المعسكر » و « مكان ليس له حدود » التي سوف يخرجها للسينما المخرج الاسباني الأصل لوك بوتويل هذا العام . ثم « الاختفاء الغامض لماركيزة لوريا الشابة » ثم نشر مجموعة قصص قصيرة بعنوان « شارلتون وقصص أخرى » وانتهى في الفترة الاخيرة من اعداد نص سينمائي سوف يخرجه المخرج الايطالي مايكل انجلو انطونيو في الولايات المتحدة .

في روايته الاولى « التتويج » يصور الكاتب عالما أشبه بما يصفه تينسي ويليامز خاصة في « عربة اسمها اللذة » و « شم الوردة » ... فهناك منزل يتكون من طابقين . في الطابق الأعلى تسكن السيدة اليزا جراي ... الشقة واسعة الغرف ... مريحة وجيدة التهوية . هناك اثنان من الخدم يقومان بخدمتها . انها امرأة تعاني من جنون حاد قد يسوقها نحو الموت ... يعيش معها حفيدها الذي يهوى جمع العصي ... يراقب موت الجدة فيصاب بانهيار عصبي شديد . انه انسان قليل التجارب والحيلة . وهو لم يمر قط بمغامرة في حياته .

في الدور الارضي تسكن مجموعة من الناس في غرف منفصلة ... طباخ . بائع كتب . وصيفات يرين أن الصحف هي التي تجيء وحدها بالأخبار الصادقة ... فهن يقرأن دائما أخبار البرجوازية الكبرى التي تسيطر على البلاد .



بلاد تناهض القراءة

والمنزل الذي يفصل داخله عالمين مختلفين يمثل كل مجتمع فيه هذا التباين . فاذا كانت الشقة العلوية الفاخرة بها عدد محدود من الناس فان الدور الأرضي مليء بالسكان الذين يعانون ويتطلعون الى أعلى ... ينتظرون يوم التتويج حين يسيطرون على هذه الشقة ويسكنونها ... لكن لا نعرف ... هل سوف يسكنونها جميعا ؟ .. أم سوف يستولي عليها واحد فقط هو الأقوى ؟

ويقول ميشيل جريزوليا في مجلة الاكسبريس (٢٤ يوليو - تموز - ١٩٨١) : « بعد أن تقرأ التتويج وتحت تأثير الصدمة التي تحدثها فينا . لا يوجد ما يمنع المرء من أن يقوم بمغامرة في وادي الورود ... هنا يثير دونوزو قطاع المتعة كأنه عازف موسيقى ممتاز ... هناك أعماق الكابوس الذي تنبع منه الشهوة الجارفة . دوامة الحب الطبيعي الذي يثير الرعب المعنوي . فلماذا لا تترك أنفسنا وسط مزيج من هذه الأشياء ؟ ..

البرجوازيون في شيلي

وفي « العائلات المقدسة » يتناول الكاتب نماذج اجتماعية تنتمي أيضا الى الطبقة البرجوازية التي انحدر منها الكاتب وتمثل القلة في البلاد . فاذا كانت الطبقة الفقيرة يمكنها أن تنجب أطباء ومهندسين فان تفكير مثل هذه الفئات يختلف عن مثيلتها من أبناء الطبقة الثرية ... فهناك الى جانب كل من الأطباء والمهندسين مجموعة من النساء يعملن كنماذج للفنانين ... ورسامون ورجال فكر جميعهم ينتمون الى البرجوازية الكبرى في شيلي . هناك امرأتان بلغتا الأربعين من عمرهما انهما الشقيقتان : « اينان » المسماة بالقطة نجمة سينمائية كبيرة

« وباوهاوس » التي تلازم المنزل وتنتظر عودة أختها من عملها ... تصادق الأختان سيلفيا التي تعمل نموذجا للرسامين ... تتنقل في غرفهم . تحتسي معهم الأكواب قبل أن ينتشي كل منهم في عمله تجلس هي متحجرة أمامهم يرسمونها ويجلس الرسام ساعات يرسم خطوطها الخارجية بمنظاره الداخلي ، سيلفيا هي نموذج امرأة العصر الغربية . هناك رجل واحد تحبه بجسدها وروحها .. انه انسيلمو ... لكنها ترفض أن يعاملها حبيبها كما يعامل العبيد يأمرها ويبهرها ويحاول أن يتحكم في سلوكها . وبالرغم من رضائها بهذا السلوك الا أن انسيلمو يهجرها الى زوجته ... تؤلم الصدمة المرأة ... تؤثر أن تعيش مع نساء مثلها ... المعاناة هنا تختلف تنضم الى الشقيقتين ... تعيش الثلاث في عالم واحد لكن لكل منهن عالمها الآخر ... فاذا كانت هناك حلقة تضم النساء الثلاثة فهي لا تكتمل الا بوجود الرجل في حياة كل منهن ... لكن لكل منهن تجربتها المؤلمة التي عليها أن تتقوقع داخلها تجتر منها وترتشف .

ويقول دونوزو حول هذه الرواية « الكاتب هو فنان تشكيلي من الطراز الأول في أعماقه » . لا أعرف أن أتكلم أو أكتب إلا رسما ، فأنا أجد نفسي أنجرف الى الوصف .. فهناك دائما لحظة أشعر فيها أنني أصبحت فنانا تشكيليا ... لقد درست الفن التشكيلي والعمارة في الولايات المتحدة فيما بين عامي ١٩٥٠ ، ١٩٥١



د . هـ . لورانس

منزل المعسكر

ودونوزو شغوف جدا بالفنانين اتجر وروتكو . واذا كانت رواياته الأولى تتحدث عن العالم الخاص للفنان التشكيلي فان هذا الأمر قد قل مع رواياته التالية ... ففي روايته « منزل المعسكر » يصور الكاتب جوا فنتازيا لم يعتد تقديمه من قبل وإن كان هذا اللون منتشرا جدا في الغرب حاليا . هناك رجل من الأثرياء يدعى فنتورا ... تاجر ذهب يعيش مع أسرته في قصر كبير تزحف اليه السلاحف وآكلو لحوم البشر . تنهش في أجساد ساكنيه ... ويكون أبناء فنتورا هم أول من تنهشها هذه المخلوقات المتوحشة ... يجذبونهم من المدخنة ... يصعدون بهم الى أعلى القصر ثم يجذبونهم الى ممرات الحديقة .. من يجرؤ أن يطاردهم ... بل من يجرؤ أن يفتح مصراع الباب ... لقد تمرد آل فنتورا على قانون البلاد ... وعليه أن يدفع الثمن .

تدور الأحداث في مدينة ماريلاند الخيالية ... اعتاد ماركيز المدينة أن يخرج من قصره كل يوم في الساعة الخامسة مصطحبا أطفاله . انه لا يعرف شيئا عن اشعار بول فاليري ... لقد تحدث شاعر فرنسا الكبير كثيرا عن آكلي لحوم البشر . مكتبة مدينة ماريلاند لا تضم أية أنواع من كتب الأدب . لكنها تضم مجموعة من الرسومات واللوحات المصاغ فيها الأوامر ... أمر بالصمت أو أمر بمنع الطعام أو بمنع التدخين ... على ظهر بعض الكتب يمكن أن نقرأ حول بعض الأسماء المجهولة كوبرنيكس ونيوتن . أفلاطون : « الكتب هي صانعة الثورات » ..

يأكل ابنته !

أما فنتورا فيرى أن القراءة عالم ممتع . انه أشبه برجل الاطفاء في رواية « فهرنهيت ٤٥١ » لراي براد بوري ... انه يعيش في مدينة المستقبل التي يصنعها الطغاة ...

يحرمون الآخرين لذة القراءة والمعرفة فالكتب هي سبب إفساد الشعوب ... وعلى الناس أن تجلس فقط أمام التليفزيون ليشاهدوا ما يملي عليهم النظام الحاكم من مواد اعلامية .. فتورا ورجل الاطفاء يجربان لذة القراءة يعشقان الكتب . يثوران على النظم الطاغية ... يرى فتورا أن آكلي لحوم البشر ليسوا هم من سحبوا أبناءه من المدخنة ونهشوا أجسادهم في حديقة القصر ... بل هم أولئك الذين يأكلون من الكتب .

أصيب ادريانو جومارا ـ صديق فتورا ـ بحالة انهيار بعد أن حدثته ابنته انها سوف تشعر بالمهانة اذا لم يتحول مثلها الى آكل لحم البشر . فأكلو لحوم الآخرين شيء رائع ... انها تتلذذ بهذا الأمر وعليه أن يفعل مثلها ... ابتسم بسذاجة دون أن يرد ... فتح الفرن الذي فاحت منه رائحة الاطباق التي لم ينضج بعد ما بها ... هناك فوق الطبق بعض الجزر والخضروات ورأس ابنته الكبرى بتجامين ، أصيب ادريانو بحالة من الرعب والفزع ... ان عليه أن يتحول الى آكل لحوم البشر بأكل من نهشوا لحم ابنته ... حبس نفسه في برج عال عدة أيام ... حملت الرياح صرخاته الى كل أبناء المدينة بصرخ مناديا « ابعدوا هذه الطواويس » يقول رجل لابن ادريانو ان أباه لم ير طواويس من قبل فلا يوجد في ماريلاند أي من هذه الطيور .

ليست خيالا محضا

واذا كان براد بوري قد صور لنا علاقة حب رائعة بين رجل الاطفاء واحدى الفتيات المتمردات التي تذهب به الى بلاد الحكمة ... حيث يقوم الرجال بحفظ الكتب وتوريثها . فان عالم دونوزو في هذه الرواية يخلو دائما من الأمل ... فالكل يسقط تحت وطأة القانون ... الدكتاتور هو الذي يتحكم ... هو الذي يسوق هؤلاء الآكلين ويربيهم في حديقته .. ولا أمل في الخلاص منه .. كل ما يفعله هؤلاء النهاشون هو أن يأكلوا من لحوم الآباء ويتركوا الصغار دون عائل ..

ويقول يان كويفلك في نوفيل اوبزرفاتور (٢٨ يونية ـ حزيران ـ ١٩٨٠) ان هذه الرواية لا تعتبر خيالا محضا . فاذا جردنا بعض الاشياء من الصفات الفاقعة فيها مثل أكل لحوم البشر والطواويس الغادرة ... فان أحداث الرواية يمكن أن تدور في أي بلد من بلدان العالم الثالث الذي يعاني معظمه من تخلف ثقافي وديكتاتورات تتحكم فيه .

ويتحدث الكاتب حول روايته فيقول : فتاة صغيرة تطهي أختها بتجامين في الفرن .. وقد أحاطتها بالخضروات ذات الطعم الجميل والبهارات كأنها دجاجة .. قرأت منذ عدة سنوات دراسة طويلة حول الأسلوب الذي اتبعه كاتب لا يحضرني الآن اسمه ..

لقد أعد تقريرا حول الأوضاع في أمريكا اللاتينية قبيل حدوث كارثة وطنية . أثيرت ضجة بعد أن ذبحت فتاة صغيرة ووضعت في فرن وقام البعض بأكلها . هل هناك اختلاف بين ما حدث في الرواية وبين هذه الحادثة ؟ هل تعد مثل هذه الأشياء أهازيج روائية عند صياغتها في كتاب ؟ ..

الاختفاء الغامض

قلنا في أول المقال ان دونوزو شغوف جدا بالكتابة حول الجنس ... كأنه يتقلد بتلك الروايات والأفلام التي لاقت نجاحا خلال السنوات الأخيرة .. وها هو يقدم أحدث أعماله « الاختفاء الغامض لماركيزة لوريا الشابة » هناك امرأة شابة من لوريا . وهي ليست مثل هؤلاء الشابات الباردات اللاتي يعشن بالقرب منها ... تهب نفسها الى كونت مشغوف بصيد الحيتان ثم الى فنان تطلب منه أن يرسم جسدها كما يراه .. تدخل الى عوالم الراقصات وتصادق طالبات المدارس الداخلية ... تفعل كل ما يمتعها حسيا ... انها أقرب الى « ايمانويل » التي تعلمت كل فنون الهوى من رجل عجوز ثم مارستها مع الشباب الأقوياء . يقول دونوزو « خطرت لي فكرة الرواية فجأة ذات ظهيرة حارة حين رأيت ابنتي ذات الثلاثة عشر ربيعا تتغازل مع ابن أحد أصدقائي ... اختمرت فكرة



انطونيو في فيلم عن رواية لدونوزو

الكتاب في ذهني على التو ... لم تتطلب الكتابة مني أي مجهود ..

ويرى دونوزو أن الأدب الاباحي ليس هو الذي يحوي عبارات مكشوفة . ولكنه ذلك الذي يحوي مواقف مشينة مثل سلوك مدام بوفاري . ثم ميرسولي « الغريب » .

واذا كان دونوزو قد كتب الرواية وتفوق فيها ونال شهرته من خلالها . الا أنه على صلة وثيقة بفنون الكتابة الاخرى . فقد بدأ شاعراً وقدم مجموعة من الأشعار الى ناشر في شيلي الا أنه ما لبث أن أعادها اليه قائلاً : ليس هذا بالحدث الأدبي الكبير ، فألقاها في أدراجه ولم ينشرها

حتى الآن ... ونشر مجموعة أقاصيص قصيرة بعنوان « شارلتون وقصص أخرى » حاول فيها تجسيد بعض المواقف الانسانية التي عاشها هنا أو هناك ... ففي أقصوصة « الذرة الزرقاء رقم خمسة » يتناول فيها موضوعاً نعاني منه جميعاً نحن أبناء العالم الثالث . وهو البحث عن مسكن . من خلال عاشقين يودان ممارسة الحياة في مكان هادىء مغلق يشعران فعلاً أن كلا منهما يخص الآخر ويمتلكه ..

أنا رجل متلصص

وفي موقف منفصل وأقصوصة مختلف يتناول دونوزو شريحة أخرى من تلك الشرائح . حيث ترى سيلفيا تقوم بمساعدة عاشقين آخرين في أن يعيشا معها .. انها تعيش مع ابنها البالغ من العمر الثانية عشرة يقضي أغلب أوقاته في الطرق يتسول من هنا وهناك بعض النقود كي يأتي بها الى أمه ..

وعن الموسيقى يقول دونوزو « أعرف في الموسيقى قليلاً . لا أحب الجاز والبوب . ولكنني أميل كثيراً الى الموسيقيين الرومانسيين . وبصفة خاصة شومان وشوبيرت . أنا رجل ضعيف أمام الايقاعات الخاصة التي تحملني نحو موسيقى الحجرة .

ويحمل دونوزو للسينما حباً أقل ... فاذا كانت رواياته قد وجدت طريقها الى السينما . مثل « هذا المكان بلا حدود » في السينما المكسيكية « والتتويج » التي سيقدمها انطنيوني .. فان دونوزو يرى أن السينما ليست عالمه الذي عليه أن يخوضه .

في أحد أحاديثه قال مداعباً « أنا رجل متلصص » .. انه يدخل الى غرفة النوم ويصف بدقة ما يحدث فيها ... تحدث أيضاً عن الدكتاتورية في أمريكا الجنوبية . لكنه بالرغم من شهرته الواسعة الآن في الولايات المتحدة وأوروبا الا أن هذا لا يعني أنه أفضل من أدباء شيلي المعاصرين ■■

محمود قاسم



الكتيبة الأدبية

الدكتور زكى مبارك

في اليوم الثالث من شهر يونيو (١٩٤٠) قدمت الى وزير المعارف اقتراحا ادعو فيه الى تأليف « كتيبة ادبية » من رجال المعارف يتطوع فيها المدرسون والمفتشون وتكون مهمتهم تقوية الروح القومي وحراسة العزيمة الوطنية من عدوان الأراجيف بما ينشرون على صفحات الجرائد والمجلات وبما يذيعون من خطب ومحاضرات ثم قلت :

« ولي مطلب اوجهه اليك : وهو أن تدعو رجال الاقلام من وقت لآخر لتشير عليهم بما تراه في تسديد العزائم الوطنية ولتشعرهم بأن الدولة ترى ان القلم من أدوات الجهاد .

ومضيت افكر في تكوين تلك الكتيبة على مهل ولكني سارعت فنشرت في المقطم والأهرام مقالات حماسية في نطاق الغرض الذي دعوت اليه راجيا ان يكون ذلك بتكوين (الكتيبة) الأدبية وتذكير لأهل الأدب بواجبهم في هذا الميدان . وفي الأسبوع الماضي وجه الأستاذ احمد أمين دعوة الى الكتاب على صفحات الأهرام يقول فيها انه يرجو من أرباب الأقلام ان يتناولوا بعض المشكلات الحاضرة بالدرس فيتحدثوا عن الهجرة الى الريف وتنظيم الشؤون الاقتصادية بما يضمن السلامة من القلقلة التي تحدثها الحرب الى آخر ما نص عليه من المسائل التي تستوجب الدرس فرد عليه الدكتور طه حسين في اليوم التالي بمقال صرح فيه بأن الجرائد تحت رقابة الأحكام العرفية وأن الكاتب لا يملك من الحرية ما يساعد على درس تلك المشكلات بصراحة وعد السكوت تضحية فعجب الأستاذ توفيق الحكيم من ذلك وكتب يقول انه لم يكن يعرف قبل اليوم ان السكون من التضحيات فوخزه الدكتور طه وخزة اليمة جاء فيها انه يدعو الى الأدب الرخيص في حين ان الاستاذ احمد امين يدعو الى الأدب الثمين وانزعج الاستاذ توفيق الحكيم فكتب يرجو الدكتور طه ان يعد الكتابة في تقوية الروح الوطني من الأدب الرفيع لانها على كل حال مما يدعو الى الواجب في هذه الظروف .

اولئك كتابنا الاماجد وهم قوم يمزحون في غير أوقات المزاح فالأستاذ احمد امين في يده مجلة اسبوعية وكان يقدر على معالجة تلك الشؤون منذ اليوم الذي نعب فيه نفير الحرب وقد كان مفهوما ان مصر لن تترك بغير ايذاء فما الذي قهره على السكوت الى اليوم الا ان يكون تذكر فجأة ان الدنيا فيها اشياء غير الحديث عن ادب المعدة وادب الروح .

واحمد امين الغيور على الريف هو نفسه احمد امين الذي صرح في احدى مقالاته بان الموت بالقنابل في القاهرة افضل من الموت بالميكروبات في الريف وذلك ايحاء اثيم سيلقى عليه (اطيب الجزاء) بعد حين . .

امن الحق أن الريف ليس فيه غير الميكروبات وكيف امكن اذن ان تعيش كل تلك الخلائق في الريف ! وكيف عاش آباؤنا واجدادنا جميع تلك العصور الطوال ؟

تلك وسوسة سخيفة لا تبلبل غير المتحذلقين ولو انصف احمد امين نفسه وقلمه لقال اننا فرطنا كثيرا في

حق الريف ومن الواجب ان تنتهز هذه الفرصة لترجع اليه بالتحسين والتجميل عساه ينسينا ما تعودناه من القرار الراكد في الحواضر أيام الصيف والدكتور طه حسين امره عجب فهو يدعي ان الرقابة لا تسمح له بشيء ويدافع عن كل ذلك بأن البرلمان يلجأ في بعض الأحايين الى عقد جلسات سرية ، فمن حقه ان ينتظر إلى ان تنتهي تلك الحرب ويستطيع الكتاب ان يقولوا ما يشاءون . .

ومن الذي يضطر الدكتور طه الى الوقوف عند درس المسائل التي لا يعرض لمثلها البرلمان الا في جلسات سرية ؟

الكون كل مشكلاتنا القومية من اقتصادية واجتماعية وسياسية مشكلات لا يتحدث الناس عنها الا في الخفاء .

ايؤمن الدكتور طه بان من المحرم عليه ان يتحدث في الشئون التي تصور مستقبلنا بين امم الشرق وامم الغرب ؟

أيعتقد ان الحديث عما تفترض لمصر من المصاير الاجتماعية والاقتصادية بعد الحرب امر قد يستوجب الوقوف امام المحكمة العسكرية ؟

وما هذا الذي يدعيه الدكتور طه حسين حين يقول بأن الكتابة في تقوية الروح الوطني من الأدب الرخيص ؟ ومن الذي اوحى اليه هذه الحكمة « الغالية » وعمن اخذ القول بان الحديث في تقوية الروح الوطني هو المقصود بالحديث المعاد الذي نهى عنه الحكماء ؟

لقد دافع توفيق الحكيم عن هذه القضية ولكن توفيق الحكيم رجل قصير وتحيل ولا يقدر ابدا على صرخات طه حسين وغاراته .

للدكتور طه حسين ان ينسحب من الميدان بحجة انه مشغول بشواغل ادبية تصرفه عن الحرب واخبار الحرب وما يجب على مصر ايام الحرب ولو قالوا ذلك لكان لهم عذر مقبول فالدولة تطالب كل رجل بالتفرغ لما يصلح له من اعمال والاديب الذي يشغل بالادب الصرف ايام الحرب هو ايضا من المجاهدين لان الجهاد في سبيل الوطن له ميادين مختلفات منها ميدان الادب الصرف الذي ينسى صاحبه انه يعيش في غمرات الحرب .

قد اتفق الدكتور طه في احيان كثيرة ان يتناسى المكاره القومية ليفرغ لعمله الادبي في الجامعة العربية فما لامه على ذلك لائم ولا اتهمه احد بالجبن عن الاستجابة لنداء الواجب الوطني لان الوطن يعرف ان المتفرغ للادب الصرف هو ايضا جندي في الميدان لم يحمل السلاح ويتقدم للقتال ولكن الدكتور طه يأبى الا ان يقع في خطيئتين : خطيئة الدعوة الى السكوت عن درس المشكلات القومية الى ان تنتهي الحرب وخطيئة السخرية من الكتابة في تقوية الروح الوطني بحجة أنها من الأدب الرخيص .الا يفتح الله عليك مرة واحدة يا دكتور طه فتكتب مقالا واحدا يسلم من اثم المغالطة والتلبيس ؟

بقيت حكاية توفيق الحكيم ، الكاتب الذي يجمع بين الظرف والضعف ، وانا اقترح ان يمحى اسم هذا الكاتب من سجل القومية الوطنية ، هذا الكاتب خفيف الروح في بعض نواحيه ولكن روحه يثقل جدا حين يتحامل على القومية العربية وحين يتوهم انه من المصلحين ومن خلفاء قاسم امين . .

وما ظنكم بكاتب يزعم ان الفكر لا يساوره في مصر وانما يساوره حين ينتقل الى الهضاب السويسرية او الفرنسية ؟ العفو ياسيد الملاح ؟

فمصر يا أخي فيها متادح الفكر والبيان وهي بشهادتك قد عزت على عدوان الغرب وطغيان الشرق وقد عجزت المصائب والويلات عن قتل مواهبها الذاتية فكيف يجوز لك ان تسخر منها اقبح السخرية في بعض مؤلفاتك وان تعجز عن الرد على كاتب مثل طه حسين ؟

اما بعد فانا ما زلت ادعو الى تأليف كتيبة ادبية تجرد ألسنتها واقلامها لتقوية الروح الوطني لتحول الوطنية الى عقيدة راسخة لا تزعزعها النوازل والخطوب .

ضوء جديد على قضية مثارة

بصمات القصة العربية على الإنتاج الأدبي الأوروبي

بقلم : علي شلش

ظلمت القصة في التاريخ العربي ، فلم تعط حقها ، ولم يسلط الضوء على حقيقة الدور الذى أدته بالأخص في التأثير على القصة الاوروبية . .

عرف العرب فن القصة منذ عهد قديم شأنهم في ذلك شأن الجماعات القديمة . وظهرت القصص في أدبهم بعد ظهور الشعر شأنهم في ذلك شأن الجماعات القديمة أيضا . وهم قد أحلوا القصص منزلة رفيعة في حياتهم الاجتماعية منذ كانوا يعيشون داخل الجزيرة العربية وحدها قبل ظهور الاسلام . وقد أشارت الكتب العربية القديمة مثل الأغاني والأمالي والعقد الفريد الى كثير من هذه القصص التي كانت متداولة على نحو شعبي فولكلوري . وقبل ظهور هذه الكتب المذكورة ذاتها أشار القرآن في القرن السابع الى الكثير من هذه القصص التي كانت معروفة عند العرب قبل ظهور الاسلام ، ومنها قصص الأنبياء بصفة خاصة مثل يوسف وسليمان ولوط وموسى وعيسى ، مما يؤكد مرة أخرى سابق معرفة العرب للقصص واحتفائهم بها على الرغم من أن هذه القصص لم تدون في حينها . ومن ناحية أخرى تضمن الشعر الجاهلي الكثير من العناصر القصصية مثل السرد والحوار والمونولوج ولا سيما عند امرىء القيس والنابغة وغيرهما .

ومن الواضح أن الاسلام عند ظهوره لم يحظر القصص أو يمنع سماعها . فقد تضمن القرآن الكثير منها ولكن الجدير بالذكر أن القصص قد ارتقت بعد ظهور الاسلام . وساعد على ذلك الارتقاء الفتوحات العربية واختلاط العرب بالأمم القديمة المجاورة التي دخلت في الاسلام أو عاشت في ظله مثل فارس ومصر . وكان السمار ورواة القصص يجلسون في الأسواق وعند المساجد ، ويروون للناس القصص ، وهي عادة كانت متبعة قبل ظهور الاسلام أيضا . وقيل إن عمر بن الخطاب أذن لسليمان بن عتر قاضي مصر بأن يقص على الناس القصص في مسجد عمرو ، وأن معاوية كان يلتذ بسماع القصص . ومع ذلك جاء وقت في القرن الثالث الهجري (نحو القرن العاشر م) تسللت فيه الى القصص عوامل الفكاهة والخرافة عند العامة ، فكان أن حارب العلماء القصاص بدعوى أنهم خرجوا بالقصص عن مغزاها ودورها الاجتماعي في الحث على الفضيلة . بل قيل إن الحريري صاحب المقامات المعروفة قد قوبل بالاعتراض والاستهجان من الفقهاء برغم مكانته الأدبية ودوران مقاماته حول المغزى الأخلاقي .

وعلى طول التاريخ العربي الوسيط انتشرت القصص ، وانتشرت معها عبارات مميزة نقلت بنصها فيما بعد الى اللغات اللاتينية مثل ، زعموا أن ، يحكى أن ، قال الراوي ، في قديم الزمان ، كان ياماكان ، وغيرها . وكانت هذه من عبارات الاستهلال الثابتة في القصص العربية طوال العصور الوسيطة . وبالمثل نقل العرب الى لغتهم عيون القصص عند الأمم الأخرى المجاورة . فنقل كتاب الباتشاتانترا الهندي وصار اسمه في العربية ، كليلة

ودمنة » . كما نقل كتاب « الجاتاكا » و « كتاب سندباد » وصارت قصصهما أساساً لكتاب « ألف ليلة وليلة » العربي .

ويمكن أن نقسم الكتابات القصصية العربية التي دونت عبر العصور حتى العصر الحديث - الذي يبدأ في التاريخ العربي بحملة بونابرت على مصر والشام عام ١٧٩٨ - الى أربعة أنواع رئيسية ، وهي :

١) النوادر والطرائف والملح والأمثال التي تروى للتعليم أو الترفيه وتنتشر في كثير من الكتب القديمة الجامعة .

٢) السيرة الشعبية التي تروي قصص غرام ومغامرات أبطال شعبيين معينين مثل عنتر (أو عنترة) وأبوزيد الهلالي وسيف بن ذي يزن .

٣) القصة ذات الغرض التعليمي ، مثل حكايات كليلة ودمنة وبعض حكايات الأمالي والعقد الفريد وكثير من المقامات .

٤) القصة ذات الغرض الترفيهي مثل ألف ليلة وليلة .

في الطريق الى اوروبا

وفي هذه الأنواع الأربعة تطالعنا العناصر القصصية المعروفة في العصر الحديث مثل السرد والحوادث والمغزى ورسم الشخصيات والحوار والتشويق . بل تطالعنا أيضاً بعض الحيل القصصية الحديثة التي تعد من مبتكرات العصر مثل العود للماضي والقصة داخل القصة والمونولوج الداخلي . كما يطالعنا من ناحية أخرى التباين في الطول . فقد لا تزيد القصة على أن تكون طرفة أو نادرة تؤكد معنى حكمة أو مثل أو قول مأثور وقد تطول الى ما يساوي حجم القصة القصيرة اليوم كما في المقامات . وقد تتدفق دون حد ثابت أو متعارف عليه للمغامرات أو الحوادث مثلما في سيرة عنترة . وقد تتسلسل القصة وتتوالد ويمسك بعضها برقاب بعض مثلما في ألف ليلة وليلة .

ومادمنا قد ذكرنا المقامات فلابد أن نذكر أيضاً أنها في الحقيقة شكل خاص من أشكال الكتابة القصصية ، وهو شكل متميز بهدفه التعليمي البحت ولغته المسجوعة التي يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتكنيكه الذي يأخذ من القصة عنصري الشخصية والتشويق كما يأخذ من المسرحية عنصري الواقعة والحوار مثلما يأخذ من المقالة أو الحديث البليغ التدفق ورصانة اللغة . والمقامة أيضاً شكل لم يتطور كثيراً في الأدب العربي فقد بقي على حاله على الرغم من المحاولات المستمرة عبر العصور لتطويره واكسابه المرونة المناسبة .

في الوقت الذي انتشرت فيه الأنواع الأربعة السابقة لم تكن أوروبا قد تقدمت قليلاً أو كثيراً في مضمار القصة ، أو طورت ما استحدثه الاغريق من أنواع قصصية مبكرة قريبة من الأنواع العربية السابقة . ولكن مع الاحتكاك بالعرب ونقل ما سبق أن نقلوه عن الاغريق في الفلسفة والمنطق والعلوم بدأت القصص العربية تجد سوقاً رائجة في أوروبا اللاتينية .

ولكن قبل أن نمضي في بحث هذه النقطة علينا أن نتوقف قليلاً عند نقطة أخرى متصلة . فقد نتساءل : لماذا لم ينقل العرب قصص الاغريق ومحاولاتهم الروائية ؟ لقد نقل العرب عيون التراث الاغريقي في الطب والفلسفة والمنطق ، ولكنهم لم يقتربوا من الدراما أو القصص الاغريقية . ومهما كانت الدوافع التي أدت الى اهمال فنين خطيرين كهذين فان عملية نقل التراث الاغريقي قد دفعتها ووجهتها منذ البداية احتياجات اجتماعية بالدرجة الأولى وتحكم فيها قانون الأولويات بعد ذلك . ومن الناحية الأخرى لم تكن الثقافة العربية في ذلك العهد في حاجة الى الدراما التي حاربها الدين الجديد ، ولا الى القصة التي كان الكثير منها منقولاً أو مؤلفاً . وأغلب الظن أن المترجمين الأوائل لم يقعوا على القصص الاغريقية التي لم تكتشف في أوروبا إلا في القرن الخامس عشر ، أي بعد انقضاء عصر الترجمة في عهد العباسيين . أما القول بأن العرب لم ينقلوا تراثاً قصصياً عن غيرهم فهذا يدحضه نقل كليلة ودمنة وكتاب سندباد اللذين أشرنا اليهما .

وجهتا نظر

ومرة أخرى نتوقف قليلاً لنناقش نقطة ثانية تتعلق بمدى ما وصل اليه العرب من تقدم في فنون القصة حتى العصر الحديث ، وهي نقطة اختلف حولها الدارسون العرب المحدثون أنفسهم ، وانقسموا ازاءها الى فريقين .

أما الفريق الأول فقد أنكر على العرب أن يعرفوا القصة بفنونها الحديثة مثل الرواية والقصة القصيرة بدعوى أن الذهن العربي تنقصه الطاقة على التجرد من الذاتية وجعل الظواهر الموضوعية في طبيعتها الموضوعية . ومن هنا كان الفن العربي في رأي هؤلاء مظهراً لتفتح ذاتية الفنان على نفسه ، ومن ثم كان فناً فردياً .

ويضيف آخرون هنا بأن نقص الأسطورة في التراث العربي واعتزاز العرب بالشعر جعلهم لا يترجمون القصص من الآداب الأخرى . ولا شك أن هذا الفريق

قد تحامل كثيرا على التراث العربي ولم يضعه في إطاره التاريخي حين أصدر ما سبق من أحكام . فهو قد نظر بعين حديثة متأثرة بما وصلت اليه فنون القصة من تقدم في أوروبا ، غير واضع في اعتباره أن هذا التقدم الذي بلغته فنون القصة الأوروبية قد جاء محصلة لظروف وعوامل تاريخية خاصة لم يمر بها المجتمع العربي قبل العصر الحديث ، مثل نمو الطبقة الوسطى في المدن وحرية المرأة وانتشار التعليم وظهور المطبعة والصحافة ، وهي الظروف والعوامل ذاتها التي أدت فيما بعد الى نشأة هذه الفنون القصصية المتقدمة في الأدب العربي في العصر الحديث نتيجة احتكاك العرب بأوروبا . كذلك لم يضع هذا الفريق في اعتباره حقيقة جوهرية بسيطة تتعلق بالتطور في أي مظهر من مظاهر الحياة أو الفن ، وهي أن الظواهر تبدأ صغيرة محدودة ثم تنمو وتتطور وفق ظروف وعوامل معينة . فضلا عن أن الذاتية أو الفردية التي أوشك أن يأخذها هؤلاء على الذهن والفن العربيين ليست معادية لفنون القصة ، وانما هي دافع لنشأتها حين تكون دالة على التجربة والقدرة على التعبير ، وهي أيضا تسم الكتابات القصصية الاوروبية في أولى مراحلها مثلما تسم الكتابات القصصية العربية الحديثة في أولى مراحلها أيضا .

ومن ناحية أخرى فان نقص الأساطير في التراث العربي واعتزاز العرب بالشعر ووقوف ذلك عقبة أمام الترجمة ليس مبررا لعدم الابداع القصصي أو مانعا للترجمة التي تمت بالفعل كما أشرنا . وقد كان الاغريق أكثر اعتزازا بالدراما والأساطير ومع ذلك أنشأوا شعرا وقصصا .

وأما الفريق الآخر فقد تحمس لصنيع العرب في فنون القصة ، وعد هذه الفنون راسخة الجذور في التراث العربي شعرا ونثرا على السواء ، ولكنه وقف عند هذا الحد ولم يحاول أن يمد بصره عبر التراث الاوربي في القصة ليرى الى أي حد أفاد هذا التراث مما نقل اليه من قصص عربية في العصور الوسطى ، أو حتى ما بعد عصر النهضة في القرن الثامن عشر .

شهادة غربية

ونعود الآن الى موضوعنا الأساسي لنرى كيف انتقل تراثنا القصصي القديم الى أوربا في العصور الوسطى ومابعدها ، وكيف دخل هذا التراث نسيج القصة الأوربية في تلك العصور . وقد جاء ذلك الانتقال عن طريق الفتح العربي لأسبانيا وصقلية من ناحية وكذلك عن طريق الحروب الصليبية فيما بعد من ناحية أخرى . وكانت قنوات ذلك الانتقال هي الترجمة والاتصال الشخصي . وسنكتفي في هذا المجال بكتابين كان لهما أبلغ الأثر في التراث القصصي الأوربي : أحدهما يكاد يكون مجهولا في الدراسات العربية ، فضلا عن أنه محدود الشهرة في الدراسات الاوربية ، وهو كتاب « التهذيب الديني » الذي جمعه بتروس ألفونسوس وترجمه الى اللاتينية بعد عام ١١٠٦ أي في الربع الأول من القرن الثاني عشر ، والآخر مشهور تماما في الدراسات الأوربية والعربية معا ولكنه لا يعد في الأخيرة من كتب الأدب الجاد ، وهو كتاب « ألف ليلة وليلة » الذي عرف في أسبانيا في مطلع القرن الثالث عشر ثم ترجم الى الفرنسية عام ١٧٠٤ ، وبعدها ترجم الى الانجليزية وغيرها من اللغات عبر العصور التالية .

لقد تناولت أثر الكتابين معا باحثة غربية معاصرة هي أ . ل . رانالا الأيرلندية الأصل وأستاذة الأدب الشعبي بجامعة ماريلاند الأمريكية وكشفت بالتحليل والتقييم الكثير من آثار الكتابين في دراسة مطولة صدرت مؤخرا بعنوان « الماضي الذي نشترك فيه » عن دار كوارتيت الانجليزية عام ١٩٧٩ .

أما الكتاب الأول « التهذيب الديني » فقد وضعه بتروس ألفونسوس (المولود في أراجون بأسبانيا عام ١٠٦٢) وهو رجل يهودي الأصل كان اسمه موشي سفاردي ثم تحول الى المسيحية عام ١١٠٦ وتسمى باسمه اللاتيني السابق . وكان يجيد العربية والأسبانية واللاتينية فضلا عن لغته الأصلية العبرية ، كما كان طبيبا وعالما مرموقا في عصره . وقد أخذ مادة الكتاب من النوادر والحكايات العربية وأقوال الحكماء والفلاسفة والأمثال والشعر وخرافات الطير والحيوان . ثم ترجم هذا كله الى اللاتينية ، بعد تحوله الى المسيحية ، بقصد أن ينتفع به طلاب الدين والمعرفة الأخلاقية . ولكن الكتاب ما لبث أن نقل الى لغات أوربا الأخرى حيث نسخ وقلد . وعلى الرغم من مغزاه الديني والأخلاقي فقد أقبل عليه الناس كنص أدبي حتى صار جزءا من نسيج الفولكلور الأوربي .

لقد أحصى المستشرق الفرنسي فيكتور شوفان ٥٠ كاتبا أوربيا تأثروا بهذا الكتاب وعلى رأسهم : بوكاشيو ، تشوسر ، ماري دي فرانس ، سرفانتس ، شكسبير . وعن طريق ما تضمنه الكتاب من قصص وعظية عرفت أوربا لأول مرة القصة ذات الاطار الثابت **Frame - story** التي لم تكن قد عرفتها من قبل على حين عرفها العرب في كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة ، وهي نمط قصصي بسيط تتكاثر فيه الحكايات ولا يربطها الا تصوير نصح أو عتاب أو لوم أو تحذير . وقد أثر بشكل واضح فيما بعد في كتب مثل الديكاميرون لبوكاشيو ، وحكايات كنتربري لتشوسر ، وقصص البيكاريسك أو الصعاليك (الشطار)

التي ظهرت في اسبانيا خلال القرن السادس عشر وكانت خطوة سبقت ظهور الرواية الحديثة . وهكذا يمكن القول بأن الكتاب قد قدم لأوربا ثلاثة أنماط من الكتابة القصصية أخذها بشكل مباشر عن العرب ، وهي : المثل الذي يحتذى ، والموعظة التهذيبية ، والحكاية المسلسلة كمثل أو كتصوير للموعظة ، وعلى الرغم من ان أدب الحكم والمواعظ قد عرف في الشرق ـ كما ذكرت راتالا ـ منذ الفراعنة والعبرانيين فقد احتفل به العرب أيضا بعد ظهور الاسلام ، وأحلوه منزلة لائقة في أدبهم .

تأثير الف ليلة . . .

وأما الكتاب الآخر ، ألف ليلة وليلة ، فقد صار مقدمة الغرب الى العالم العربي ، وعن طريقه كونت أجيال القراء الغربيين أفكارها عن الشرق كما ذكرت راتالا . بل إنه صار إحدى الكلاسيكيات الغربية كما قالت بحق . فخلال المائتي عام التي تلت ترجمته الى الانجليزية مرة أخرى عام ١٧٨٢ نشر أكثر من ٤٠٠ مرة في مختلف لغات أوربا الغربية ، وأثر في نمو الاهتمام في الجامعات الغربية بالدراسات الشرقية والفولكلور والقصص المتأثرة بالشرق مثلما أثر في الحركة الرومانتيكية . وفوق هذا كله أثر في العديد من الكتاب الأوربيين . فقد ذكر فولتير انه لم يكتب قصصا الا بعد أن قرأه ١٤ مرة ، وتمنى ستندال أن ينسى ذكراه التي علقت بذهنه حتى يعود اليه فيستعيد متعة قراءته مرة أخرى . كما تمنى سومرست موم أن يتعلم العربية حتى يتمكن من قراءته في أصله العربي . بل إن فولتير اعتقد بعد قراءاته العديدة للكتاب أن القصص نوع أدبي من ابتكار العرب . وفضلا عن هؤلاء فاننا نسوق أسماء بعض الآخرين ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ممن تأثروا بهذا الكتاب الفريد أو بغيره من الأعمال القصصية العربية ، وهم تشوسر وجاك لندن وواشنطن ارفنج ومكسيم جوركي ورديارد كبلنج . وربما جاء على رأس هؤلاء وأولئك الأخوان الألمانيان يعقوب ووليم جريم اللذان اقتبسا أكثر من عشرين حكاية من ألف ليلة وليلة في كتابها عن الحكايات .

عن طريق هذين الكتابين قدمت القصة العربية بأنماطها البسيطة والمبكرة أساسا أوليا للقصة الأوربية . والمتتبع لتاريخ تطور القصة القصيرة والطويلة في الآداب الأوربية يلاحظ أن هذين الشكلين لم يولدا ناضجين كما نقرأهما اليوم ، وانما ولدا ـ على العكس من ذلك ـ بسيطين غاية البساطة ثم تطورا شيئا فشيئا على مر الزمن وبفعل الظروف والعوامل التي أشرنا اليها في مطلع هذا المقال . فالقصة القصيرة من أقدم الأشكال الأدبية وأوسعها انتشارا في الثقافات القديمة . وكانت تكتب شعرا في الأصل ثم تطورت فصارت تكتب نثرا . وفي كلتا المرحلتين الشعرية والنثرية مرت بعدة أطوار حتى أخذت شكلها الحالي المتقدم . ومن هذه الأطوار الحكاية الشعبية التي لا يعرف مؤلفها ، الخرافة ، الحكاية الكوميدية الهجائية ، المثل التهذيبي ، وكانت الحكاية الكوميدية الهجائية هذه تكتب بالشعر في العصور الوسطى وتدور على نحو واقعي حول شخصيات ماجنة من الطبقة المتوسطة أو الدنيا . وقد ازدهرت في فرنسا في القرنين ١٢ ، ١٣ . وذاعت في انجلترا خلال القرن ١٤ . وقد كتب تشوسر واحدة من أفضل ما كتب في هذا الباب بعنوان « حكاية الطحان » واستوحاها من كتاب الفونسوس السابق . وفي كل هذه الأطوار كانت النماذج العربية التي تضمنها الكتابان السابقان تقف كدليل للقاص طوال الفترة التي سبقت ظهور مصطلح « القصة القصيرة » ، أي قبل أن تبلغ القصة القصيرة طورها المتقدم في القرن التاسع عشر على أيدي جوجول وتشيكوف في روسيا وموباسان في فرنسا وادجار ألن بو في أمريكا .

وكذلك الحال بالنسبة للرواية . فقد سبق طورها الأخير المتقدم في القرنين الماضيين عدة أطوار ابتداء من القرون الوسطى حين ذاعت رواية الغرام والمغامرات وقصص الشطار ثم رواية الشخصيات ورواية الغرائب اللتان ظهرتا في القرن ١٨ حتى تطورت بعد ذلك الى ما وصلت اليه على أيدي كتاب القرن التاسع عشر من أمثال ستندال وبلزاك وفلوبير ودستويفسكي وجين أوستن وغيرهم . وفي كل الأطوار التي سبقت هذا الطور الأخير لعبت الكتابات القصصية العربية دورا خفيا وإن لم يكن ملحوظا ، وهو دور وصفته راتالا في كتابها المذكور بأنه « ثبت شكل الفن القصصي في العالم » .

وهكذا يمكن القول بأن العرب قد عرفوا القصة لفظا ومعنى وأنهم لم يكونوا في ذلك بدعة ، وانما اشتركوا مع غيرهم من الأمم القديمة التي عرفت القصص وسجلتها في تواريخها وآثارها . ولكن الكتابات القصصية العربية توقفت عند الأطوار الأولى ، وحالت دون تطورها الظروف والعوامل التاريخية التي أشرنا اليها وكانت سببا في تطورها . وليس من الصواب ان تكون أوربا هي أم هذا الفن الراسخ وانما الصواب انها طورته ونقلته من بداياته الأولى التي نقلتها عنا الى مراحله المتقدمة في وقت مبكر بالقياس الينا ، نتيجة للظروف والعوامل التاريخية السابقة . ■■

علي شلش

قضايا حيوية

اعداد : مصطفى نبيل

على هامش مؤتمر التعريب في دمشق

نحو منظمة عربية للدفاع عن اللغة

بقلم : الدكتور أحمد خطاب

جامعة الموصل ـ العراق

« عقد في دمشق مؤتمر التعريب لاتحاد الجامعات العربية ، شارك من العراق وحده أربعون أستاذا جامعيا . مع اخوة لهم من كل قطر ليخططوا لأن تأخذ العربية موضعها في التعبير عن العلم والحضارة » .

تتقارب القلوب والأفكار ، وتتضافر الجهود ، بعد كل مؤتمر أو ندوة يقيمها أبناء الأمة العربية ، يتدارسون المشكلات ويضعون المقترحات والتوصيات لسيرة حياتهم في مستقبل أيامهم ، فتشد الأيدي على بعضها ، تتعاهد على السير على الدرب ، انه الأمل العربي والهمة العربية ، هي الروح الأصيلة التي تتسم بها هذه الأمة ، فلا يبعد بعيدها ، ولا يضل قريبها ، ويتعارفون عند أول كل لقاء ، وكأن واحدهم عرف الآخر قبل عصور ، أو كأنهم ولدوا متقاربين ، يحمل من في الشرق هموما هي هموم من في الغرب ، عربيتنا تعرضت للتغريب في مشرق الوطن أو في غربه . ذلك هو المهم ، والاعداء قد خططوا وانطلقوا من فكر واحد : « عربيتكم قاصرة غير مفهومة . . . شديدة القواعد والأحكام . . . أصوات حروفكم صعبة لا تجارى . . . فاكتبوها ميسرة باللاتينية أو بالعامية . . . وذروا المتحدث ينطق كيف يريد . . . فالأمم تعدو وأنتم ما زلتم تعبدون الأشباح وتسعون وراء الخيال وتقدسون القديم » .

ويجتمع علماء هذه الأمة يتناقشون ويخططون ويضعون الحلول في كيفية التيسير مرة وفي قيمة هذه اللغة أخرى . . . فتتألم القلوب ويزداد أود النفوس . . . والعربية قائمة ظلت تصاول العاتيات وتغالب الزمن . . يترنم بها الناس في الشرق والغرب ، فيكتشفون في كل يوم الجديد من عوامل نموها واستمرارها : كثرة المترادفات وسعة الاشتقاقات وسلامة القياسات . . . تنمو عن طريق النحت والتوليد والمجاز والتعريب . . . هي لغة حية اذن ، متطورة ، تستجيب لكل جديد ، وتحتوي كل طارىء . . استجابت للحضارة الانسانية قرونا طويلة وما زالت لغات العالم تحتفظ بمفرداتها وأساليبها . . . واستجابت لكل خاطر في قلب أو هاجس في نفس . ولم تقف في يوم ما عاجزة عن ذلك ، فلم لا تأخذ طريقها اليوم الى العلم والحضارة . هذه بديهة لا يناقش فيها انسان ، ولا يختلف فيها أحد ، الا من كان في قلبه مرض أو ألقى السمع . ذلك أول ما خلص اليه المؤتمر ، ثم جاءت بحوثه الأخرى لتفتش عن المصطلح ، أو تسعى لأن تبين وسائل

التعريب ، فتكون مناقشات الغيارى من أبناء هذه الأمة الاطار العام لوضع تلك الأسس ، فتكون هنا الروعة ، روعة العرض وروعة المناقشة ، فتعلو صيحة أصيلة : أيها الغيارى في الشرق ، هاتوا تجربتكم قبل أن تنتكس في الغرب وتصيبنا الردة ، ويصدح صوت : ان عربيتنا قادرة ولا تختلف في ذلك ، ويلقى رأي : لغتنا حية ليست كغيرها التي نبش قومها عنها القبور ، واستعاروا لها من كل لغة كلمة بل حرفا . . . ولو بعث أجدادهم لما استطاعوا أن يأكلوا مع أحفادهم ، ولعادوا الى قبورهم عطاشى .

وتسير المناقشات فتدعو الى الرجوع الى الكنوز في معجمات العربية ، فاذا عجزت من أن تمد العون ، فلنسع الى التعريب ، على أن يكون المعرب بثوبه العربي : صوتا ووزنا ، ثم نشتق منه كما نشتق من العربي الأصيل . . . لقد كانت جهود من سبقونا عظيمة ، نظموا لنا المصطلحات في كل فن : فرادى ومجامع علمية . . . فلو جمعت الأفكار الى الأفكار ونظمت الخواطر الى الخواطر ، وبذل كل فنان أو عالم أو لغوي جهدا فقدم في كل شهر شيئا جديدا ، لتجمع لنا ما لم يتجمع لغيرنا ، ولأفاد منه كل عربي على هذه الأرض ، وكل مسلم ترفرف عليه لغة القرآن ، ولكان لنا جدار صلد لن يخرقه كل قوي ، ودوت عملية التعريب واهتدى كل ضال .

عربيتنا أيها القراء - كنز لا يعرفه الا المتعمقون : موسيقى رقراقة ، وأصوات على المعاني ، وخط على النطق ، انها قادرة لأن تعود اليوم للتعبير عن الحضارة كما كانت فكيف تأخذ سبيلها الى ذلك ؟ .

منظماتنا العربية ليست لها صفة التنفيذ أو سلطة التنفيذ ، وانما لها أن توصي وتقترح ، فلماذا لا تستحدث الجامعة العربية منظمة جديدة باسم « منظمة الحفاظ على اللغة العربية وسلامتها » يودع فيها كل عالم تجاربه ، ويرسل كل مجمع ما خطط ، فينطلق منها التخطيط ، ثم يأتي القرار السياسي ليلتزم كل قطر بتلك المقررات ، فتأمن على عربيتنا ويتحقق التعريب ويفشل كل مخطط ويهار كل ما بنوه ، وتكم الأفواه وتقطع الألسن ويكون النصر .

ثلاث قضايا خرج بها المؤتمر : التعريب ضرورة تقتضيها ذات الأمة ، وعيب عليها ألا تحقق ذاتها ، فلتتخذ لغة الدين ولغة القومية ، السبيل الصحيحة في التعبير عن العلم والحضارة .

وقضية ثانية هي أن يرجع بالتعريب الى الأصول العربية الأولى ، فاذا لم يجد المعرب ما يغنيه عاد ليستفيد من التعريب ، ولتنفيذ ذلك تأتي القضية الثالثة وهي اصدار القرار السياسي فهو السياج الذي يحمي المسيرة ويخلصها مما يعرقل سلامتها .

بهذا انطلق المؤتمر ونرجو أن يكون هذا يوما له ما بعده .

هل تتضافر الجهود لإصدار معجم تاريخي للغة العربية ؟

بقلم : احسان محمد جعفر

منذ أن طبع أول معجم عربي سنة ١٨٤٩ في مرسيلية ، وهو « احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب » لجبرائيل ابن فرحان الحلبي ، وحتى الآن ، أخرجت المطابع العربية ما ينوف على (٤٦) معجما عربيا ، ما بين قديم من صنع رواد اللغة الأول ، ومصنف حديثا بتبويب جديد لبعض النهضويين ، ومع هذا فحاجتنا ما زالت ماسة الى معجم آخر ، عتيد ، غير تلك جميعها قديمها وحديثها ، ما فتىء المترقبون يودون أن يكون في متناولهم ، يدفع القصور عن معاجمنا التي نعاني منها ،

وتشكو الكشف فيها لأسباب متعددة تزداد بمرور الزمن ، اذ من عيوب معاجمنا القديمة كاللسان والقاموس ومختار الصحاح إلخ . . . وقوفها باللغة عند حدود زمانية ومكانية ضيقة ، مما أدى الى ضياع كثير من معالم الحياة والتطور ، وبخاصة الألفاظ والمعاني المبتكرة في مظاهر الحضارة . . . ومن عيوب تلك الحديثة تقليدها للقديمة وكثرة أخطائها وابتعادها عن المنهجية وعدم تعرضها لنشأة الألفاظ وتطور دلالاتها ، هذا فضلا عن أن هذه المعجمات ـ أي الحديثة ـ كمحيط المحيط ، والبستان ، والمنجد ، والوسيط ، والرائد إلخ . . . انما وضعت ، في الحقيقة ، للطلاب في المراحل التي قبل الجامعة ، ولا تتوجه للدارسين وأهل الاختصاص .

ومن ثمة كان ازدياد الحاجة الى معجم مغاير تماما في تطلبه ، وأعني به ما اصطلح على تسميته بالمعجم التاريخي للغة العربية ، أو المعجم النشوئي ، ان شئت القول بتعبير آخر ، وفيه تعالج نشأة الألفاظ العربية وتطوراتها الدلالية المختلفة وسبل استعمالها وتراوحها بين الحقيقة والمجاز ، وعلاقتها باللغات السامية واللغات الأخرى ، ان وجدت .

وهذا المعجم المنشود خطط له كثيرون ، وتخيله آخرون ، وكان المجمع اللغوي في القاهرة ، قد وضع مشروع انجازه بين أغراضه المنصوص عليها ، ولكن طبع معجم المستشرق الألماني « فيشر » المتوفى سنة ١٩٤٩ حيث اهتم فيه بالتطور التاريخي للألفاظ العربية ، وبحث علاقتها بغيرها من اللغات السامية ، غير أنه تبين للمجمع أنه يحتاج الى جهود جديدة لاعداده للطبع ، فعدل عنه ليفرغ الى اصدار ما أطلق عليه « المعجم الكبير » ، وعلى الرغم من أن هذا المعجم ـ وان أنجز فعلا ـ لا يمكن بأية حال أن يوصف بأنه « معجم تاريخي » الا أن انجازه يعد عملا فائقا ومعلما لغويا بارزا على الطريق الموصلة الى المعجم التاريخي المتكامل ، فقد عني بذكر نظائر الألفاظ العربية في غيرها من اللغات السامية ، ورد الكلمات المعربة الى أصولها ، وأعطى المعاني متدرجة من الأصلي الى الفرعي ، من الحسي الى المعنوي ، من الحقيقي الى المجازي . الا أنه للأسف لم يصدر منه سوى الجزء الأول « حرف الهمزة » ، على الرغم من افتقار المكتبة العربية الى مثله ، ولم تبلغ التغطية فيه الا مادة « أخي » فقط .

ولا ندري لم توقف المجمع عن انجازه ! ؟ أم هكذا شأن أغلب المشاريع اللغوية والثقافية العربية أن تقف في منتصف الطريق بعد أن تسد المنافذ أمامها لأسباب لا يمكن أن تسوغ أو أن تعلم !!

ومهما يكن فلغتنا التي تتشدق بعشقها وتقديسها تلوح غير مخدومة بشكل لائق بمكانتها من عرب اليوم الذين ما فتئوا يقصرون بحقها مع أن الامكانيات التي تسهل خدمتها متوفرة ، ولا أدل على تهاونهم في هذا السبيل من أنه ونحن في الثمانينات من هذا القرن لم نسجل أي معجزة لغوية بله مفخرة للغتنا نعتز بانجازها قبل أن تغرب شمس القرن العشرين الى الأفول .

ان اللغة العربية هي أحوج ما تكون ـ اليوم ـ الى معجم تاريخي لألفاظها على غرار معجم أكسفورد الانكليزي الكبير ، يستند الى أسس علمية واضحة ، ويؤرخ للكلمة ويتناول بالمعالجة الألفاظ العربية في اللغة السامية من آرامية ، وحبشية ، ونبطية الخ . . . . والألفاظ التي عربت من الفارسية والهندية والمصرية القديمة . . أو من اليونانية ، واللاتينية ، « الرومية » والألفاظ التي اختص بها العرب دون الساميين . . . والألفاظ المشتركة بين اللغات السامية . . . ثم يبين الوصف الدقيق لكل لفظة ، معناها ، أصلها ، تاريخ استعمالها ، تطور صورها ، المعاني التي اكتسبتها . . متى صارت عربية إن كانت من الدخيل ، ويدعم ذلك بالشواهد الزمنية من اللغة الأدبية على مر العصور .

ومثل هذا العمل لا يمكن في الحقيقة ، أن يقوم به فرد أو جماعة من المتخصصين أو مجمع لغوي واحد أو حتى حكومة عربية بمفردها ، بل هو عمل مشترك واسع يجب أن تتولاه جامعة الدول العربية ومجامع اللغة العربية وكل الهيئات التي تهتم باللغة العربية ، فوضع هذا المعجم مسؤولية عربية مشتركة ، وأن الحجج التي قد تبدى لعدم الشروع بالبدء فيه من الأجدر استبعادها لأنها لا يمكن أن تقف في وجه الحاجة الملحة .

لقد صنعنا بأيدينا التلفزيون النيتروني!

بقلم : ماجدة موريس

كتب الدكتور عارف دليلة في عدد يونيو (حزيران) الماضي من العربي ، عن التليفزيون النيتروني ، وهو تعبير اشتقه من قنبلة النيوترون أحدث أسلحة الدمار الأمريكية التي تبقى على الحجر وتقتل البشر ، محذرا من التليفزيون العربي ، الذي قد يصبح شبيها في تأثيره بتلك القنبلة ، يبقى على كل شيء ولكنه يقتل الوعي والانسان بما يقدمه من أعمال مستوردة ، وأعمال عربية .

والقضية في رأيي تحتاج منا الى أكثر من حوار يتجاوز التعميم الى الدراسة والبحث الدقيق ، لهذا الخطر الداهم علينا ، والذي وان كنا نستشعره اليوم بهذا القدر ، فان نتائجه العملية تتوالى علينا يوميا في كل اختبار يجتازه العقل العربي على كل المستويات ، ويخرج منه ـ غالبا ـ مهزوما . ومن ثم يصبح الحديث عن المستقبل العربي شديد الكآبة اذا ما استمر الحال بأمتنا على ما نحن عليه سائرون .

لقد صنعنا نحن قنبلة النيوترون داخل بلادنا ، وبأيدينا وليس بأيدى الأمريكيين ، والا لما أصبحنا على هذا القدر كأمة كبيرة ، ولكنها مشتتة متناحرة ، يفتقد أبناؤها الثقة بأنفسهم ، وببعضهم البعض ، ويسعون الى جلب الغريب ، واعطائه الثقة المطلوبة .

وصنعنا نحن قنبلة النيترون لأنفسنا عندما رفعنا شعارات العمل القومي ، والتحرر من التبعية السياسية ، والاستقلال الاقتصادي في نفس الوقت الذي تركنا فيه الثقافة الاستعمارية تتغلغل لدينا حتى النخاع ، فتراجع العقل العربي عن الابداع في كل المجالات الا استثناء وصارت حرية الرأي من الممنوعات ، فاذا انشغلنا جميعا في اهدار طاقاتنا ، تمكن الآخرون منا ، وغزونا فكريا بأشد أنواع الثقافة انحطاطا .

وليس من المنطقي طبعا أن نقول ان هذا الغزو الغربي الثقافي المتعدد الوجوه قد صنع خصيصا من أجل العالم المتخلف أو النامي ، ونحن جزء منه ، وان كان الكثير من الانتاج الغربي يصنع خصيصا لهذا العالم ، إن ما نراه من صور هذا الغزو هو جزء من كم هائل من الانتاج الثقافي الذي يتنوع بين أقصى درجات الجدية والانسانية الى أقصى درجات العبث والاثارة المجردة ، وتحت تلك النوعيات الأخيرة يندرج معظم ما نراه من انتاج غربي ،

ومن يسافر منا الى الخارج لفترات غير خاطفة ، ويدقق النظر فيما يقدم على شاشات التليفزيون الغربية ، يدرك أن هناك الكثير من الانتاج المختلف المواصفات عما نراه ، وان هناك الاعمال التي لا يمكن وضعها ضمن قوائم المشتريات ، ولكنها توضع في بلادنا على رأس قائمة أفضل الاعمال قيمة وجاذبية ، تلك هي البرامج والتحقيقات الاخبارية الجادة ، والدقيقة والمتابعة الدؤوب لكل أحداث العالم ، ولنبض الرأي العام في كل مكان ، ولقد قدر لكاتبة هذه السطور أن ترى تحقيقا شاملا عن ثورة الشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة في أول عام ليوم الارض ، وذلك من خلال التليفزيون الألماني الغربي والشرقي معا منذ سنوات ، لقد رأى المواطن الأوربي يومها مالا يستطيع أي مواطن عربي رؤيته عن موضوع يخص العرب بالدرجة الاولى ، واذا كان من المستحيل على أي تليفزيون عربي أن يقوم بمثل ما قام به التليفزيون الغربي وقتها بسبب الصراع العربي الاسرائيلي فما الذي يمنع التليفزيون العربي من تقديم تحقيقاته من مواقع الاحداث في العالم العربي الممتد ، وما الذي يمنع هذا التلفزيون أن

يشتري تحقيقات اخبارية عن أحداث العالم ، والأحداث العربية نفسها ، انه لا يعترف ـ أي التليفزيون العربي في كل الاقطار ـ بقصوره عن تغطية الأحداث العربية للعرب ، وبالتالي فان لجوءه لشراء الأعمال الاخبارية والتحقيقات الحية من الآخرين هو صورة مجسدة لهذا القصور ، بالاضافة الى ما تفتحه من أبواب المعرفة لوجهات نظر وحقائق قد يعمد العرب الى اخفائها عن بعضهم ضمن سلسلة الوصاية من الحكام على المحكومين ، ومن هنا يبقى المواطن العربي في موقف فريد عن أي مواطن آخر في العالم : فهو محروم من معرفة أحداث بلاده ووجهات نظر مواطنيه بواسطة نفس الجهاز المنوط به تلك المهمة . .

مواطن فاقد الهوية

لو تصدت أية هيئة عربية لاجراء استفتاء مع المواطن العربي في كل مكان ، ما الذي يعرفه عن بلاده وما الذي قدمه له التليفزيون عنها من معلومات وتحقيقات واستطلاعات لكانت النتيجة محبطة حقا ، بالرغم من الساعات الطوال التي يقضيها المواطن العربي أمام التليفزيون ، ولقد عقد بالقاهرة في ديسمبر الماضي ندوة للادارة أذيع فيها نتائج دراسة حديثة تقول ان المصريين يقضون ٤٤٪ من أوقاتهم نائمين ، ٣٦٪ في مشاهدة التليفزيون ، ومعنى هذا أن أكثر من ثلاثة أرباع وقتهم (أي ٨٠٪ منه) يهدر بلا عمل ، ولا نظن أن النسبة ستختلف كثيرا اذا ما أجريت دراسات مماثلة على بقية البلدان العربية ولكن الذي نستطيع أن نحدده فيما يختص بالعلاقة بين المواطن العربي وبين جهاز التليفزيون مجموعة مؤشرات هامة :

أولا : ان ثلث الوقت لدى المواطن العربي ـ كحد أدنى ـ يضيع في مشاهدة التليفزيون ، (ونضيف اليه أجهزة الفيديو لمن يملكونها) .

ثانيا : ان التليفزيون اليوم في بلادنا العربية أصبح المصدر الرئيسي للثقافة والمعرفة ، بل ان مقارنته بالاستماع للاذاعة أصبحت مقارنة غير عادلة حيث أظهر آخر بحث لتقييم برامج الاذاعة والتليفزيون في مصر أن ٩٥,٤٪ من المواطنين يشاهدون التليفزيون بانتظام ، وأنه أصبح نافذتهم الأولى ، وفي أحيان كثيرة ـ الوحيدة ـ للاطلاع على كل شيء ، وبالتالي فهم يستعيضون به عن كل الفنون الأخرى ومصادر الثقافة والتعليم .

ثالثا : اننا اذا رجعنا للاحصائية السابقة عن مدة ساعات المشاهدة التي تصل الى ٣٦٪ من الوقت اليومي كله ، وترتفع كثيرا عن تلك النسبة في شهر رمضان حيث تزيد ساعات الارسال فاننا نجد أن معظمها يتضمن مسلسلات متتالية ، عربية وأجنبية ، وحلقات ، وفوازير وبرامج ترفيهية ، وانما تمتلىء بكل ما يثبت العقل العربي على ما هو عليه من خمول فكري ، وكسل ذهني ، ولا يضيف الى معلوماته الكثير ، بل ان الحديث عن العرب في هذه المواد كلها لا يتم الا من خلال المسلسلات التاريخية والدينية ، أي أنه حديث عن الماضي سواء أكان العمل نفسه لائقا وأمينا على التاريخ وجذابا أم لا ، أما العرب اليوم ، علاقاتهم ، صراعاتهم،حوارهم وتشابك مصالحهم فليس واردا على خريطة البرامج التليفزيونية العربية ، وربما يتسنى للمواطن العربي أن يعرف شيئا عن كل هذا بعد أن يصبح تاريخا ، ومن هنا فان ساعات الارسال الطويلة التي يجلسها أمام التليفزيون تضيع في غير صالح بنائه وبناء حضارة العرب ، بل تصبح سببا في تراجع وعي المواطن العربي وتخلفه عن أوضاع مكنت المواطن الأوربي مثلا من بلورة وعيه ، فليس من حق هذا المواطن المعرفة ، ولكن معرفته من وجهة نظر أصحاب القرار السياسي في بلاده . .

رابعا : اننا في الوقت الذي نختار فيه أن نتعامل مع نوعيات من الانتاج التليفزيوني والسينمائي الغربي لا تناسبنا أو تناسب مجتمعنا النامي ، بل تؤدي إلى اصابتنا بانفصام في الشخصية ، وانفصال عن الواقع حولنا ، فاننا قد نقع أيضا فريسة سهلة للحرب الباردة بين الغرب والشرق .

خامسا : ان غزو الثقافة الغربية لنا لم يصل الى حد البرامج المنتجة في الخارج والمصدرة الينا فقط ، وانما

أصبح يدخل في تلافيف أمخاخ الكثير منا بشكل يدعوه اما الى تبني النموذج الغربي في الحياة والاستهلاك بوعي أو بلا وعي ، أو بالاتجار فيه والاستفادة من الاعجاب به وهو ما اعتاد أن يفعله عدد كبير من المؤلفين والمخرجين والصناع للفن العربي ، عندما يلجأون الى تحويل الأفلام والحلقات الأجنبية الى العربية بتغيير الأماكن والأسماء .

سادسا : ان المشاهد العربي الذي يتعرض للاستلاب من جراء الغزو الثقافي الغربي يتعرض في الوقت نفسه لاستلاب آخر بسبب الرقابة المفروضة على الفكر والابداع العربي ، ويكفي أي مؤلف أن يعرف قائمة الممنوعات والمحظورات قبل أن يبدأ بكتابة نص مسلسل أو حلقة تلفزيونية .

سابعا : انه برغم ساعات الارسال الطويلة للتليفزيون في العالم العربي فان ترتيب سلم الأولويات مقلوب فتتوارى البرامج التعليمية وتقتطع لها أوقات قصيرة كما لو كانت مواد هامشية ، ويعطى لها أقل ما يمكن من امكانيات ، يحدث هذا في عصر خرج فيه أمر التعليم من يد المؤسسات التعليمية وحدها ومن يد الأسرة أيضا ، وأصبح التليفزيون بوضعه الحالي شريكا أساسيا ، ويحدث هذا ونحن نعاني في بلادنا من مرض الأمية ، وفي الوقت الذي تخصص فيه الحكومة البريطانية قناة كاملة (للجامعة المفتوحة) تقدم كل أنواع التعليم ودرجاته للمواطنين ، وتتيح لهم فيها استكمال تعليمهم الى التخصص المطلوب ثم الحصول على شهادات تمكنهم من تطوير خبراتهم فاننا لم نفكر في العالم العربي في اقتباس أو نقل تلك الفكرة منهم وانما يقتصر اقتباسنا على مسلسلات بوليسية .

ماذا يريد المواطن العربي ؟

في النهاية نصل لنقطة حيوية ، هي علاقة المواطن العربي بأجهزة الثقافة والاعلام المتاحة له ، والملخصة في جهاز التليفزيون غالبا ، ان تلك العلاقة تأخذ أبعادا متعددة أهمها انها تدور بين طرفين غير متكافئين ، الأول هو الدولة التي تملك هذه الأجهزة وتفرض عليها التعبير وبالتالي تحرم الجماهير من التعبير عن رأيها الخاص واستخدام تلك الأجهزة ، كمنابر شعبية ، كما انها تتيح الفرصة من خلال تلك السيطرة لكل النزعات الشخصية ، أن تتفوق على العوامل الموضوعية فيما يقدم في تلك الأجهزة الى المواطن العربي ، وعندما يرتفع النقد ضد البرامج التي تغيب الوعي وتشوه الوجدان يصبح المسئولون عن استيراد وانتاج وتعليب تلك الأعمال كيف هذا ونحن نقدم له ـ أي للمشاهد العربي ـ ما يريده ، وعندما ترتفع شكوى المواطن العربي نفسه من تلك المواد ، فان تراثه وايجابيته لا تسمحان له بمقاطعة تلك الأعمال وعندما يوضع المسؤولون عن تنمية (ذوقه) في مأزق أدبي يكون جوابهم انهم لا يريدون أن يتصرف المشاهد عنهم ، وانهم بالتدريج سوف يقدمون له ما يفيده حقيقة وليس ما يضره ، والحقيقة أن المواطن العربي المسكين هو المجني عليه حتى وان ظهر في صورة من لا يعي مصلحته وذلك أن وضعه تحت تأثير ذلك الكم الهائل من المسلسلات والحلقات والمغامرات المثيرة والسهلة في آن واحد والتي لا تجعله يبذل أي مجهود ذهني أمامها ، وانما عليه فقط أن يتلقاها ، ومن هنا يقع المواطن العربي فريسة سهلة لتلك البرامج المغيبة لوعيه ، وبيده ، وليصبح وهو المتلقي في الوضع المناسب الذي أراده له (المرسل) برغم كل الادعاءات وقد يتساوى الاثنان ظاهريا ، ولكنه الحق الذي يراد به باطل ، لأن المواطن العربي ـ وهو في تلك الحالة والأوضاع التاريخية والسياسية والحضارية ـ سيق الى (اختيار) ما يراه ، ولم يتقدم له بمحض ارادته ، وبناء على تبلور وعيه وتدريبه على التلقي الجيد والتمييز بينه وبين الرديء ، وقد تكون الصورة قاتمة ، ولكن الحل موجود ، برغم أن صاحبه (أجنبي) هو أول مدير لاذاعة البي . بي . سي . الذي قال (ان الاذاعة والتليفزيون أم تخلق أولادها على شاكلتها ، فهي ليست قوادا يقدم للناس ما يطلبون ولكنها قائد يأمر الناس بما يصلح أحوالهم ومن هنا فاذا كنا نستهدف تنمية الانسان فلا بد أولا أن ننمي الاذاعة والتليفزيون) والحقيقة أن الكلمات الاخيرة تحمل الرد على جزء كبير مما نعاني منه .

اذا لم تصدق ان التلوث يعيش معك في بيتك ، فاقرأ هذا المقال !

لعنة التلوث تطاردك

بقلم : المهندس سعد شعبان

من أغرب القرارات التي صدرت عن الدوائر الصحية في ألمانيا الغربية عام ١٩٨١ ، قرار موجه الى الأمهات اللاتي يرضعن أبناءهن ، أن يكففن عن القيام بهذه المهمة والتوقف عن الارضاع .

هذه النصيحة الموجهة الى الأمهات ، على غرابتها لم تأت من فراغ ، بل صدرت بعد بحوث دقيقة وقياسات متأنية وتشاور وتداول بين خبراء شاءوا أن يوجهوا هذه النصيحة ، لتكون وقفة أمام الحقيقة المرة ، وقفة أمام « الطبيعة الملوثة » التي يتوارثها الأبناء عن الأمهات والآباء بدءا من وقت الرضاعة حتى سكرات الموت .

فالهدف هو جعل هذا العام فاصلا بين عالم نلوثناه بارادتنا ونعمل على تدميره باسم التكنولوجيا الحديثة ، وبين بيئة مثالية يتطلع اليها العلماء خالية من بعض ماتترناه فيها من مهالك بطيئة لانحس بوطأة خطورتها في حياتنا السريعة التي تلهث فيها وراء مزاعم كثيرة ، أولها لقمة العيش ، وآخرها عمارة الكون ، وفي حقيقة الأمر نحن ندمر من أركانه الكثير .

ولقد استجابت كثير من الأمهات الألمانيات ، ولم يربح من وراء ذلك غير الأمهات الريفيات اللاتي يعشن في غضون الطبيعة البكر وفوق الجبال بعيدا عن كثير من مصادر التلوث . .

انكم تدمرون الحياة

وقد يبدو للكثيرين أن هذا النداء ضرب من الهوس العلمي ، أو الافراط في التشاؤم يقوده أناس بعيدون عن تيار الحياة الجارف ، وهم يلبسون نظارات سوداء فلا ترتسم لهم الصور الا قاتمة . ولكن الحقيقة المرة أن الأمر قد بلغ مبلغ الخطورة فعلا ، وأن هؤلاء العلماء هم حملة نواقيس الانذار ونحن في غينا ماضون يلهينا عن المأساة أو يصرفنا عنها الجانب البراق من التكنولوجيا وانجازاتها السريعة التي صورت الأمور وكأنها قد صنعت للانسان المعجزات في حياته من الملبس والمأكل وكل ما يرفه عنه ويسهل له الحياة ، فجعلت السرعة طابعا لعصره ، وما يمضي به وقته في سعادة وحبور .

ولقد كنت في مطلع الشباب أقرأ لفيلسوف أسباني اسمه « ثورو » يقول بأن « الانسان صنع الآلة ، ثم أصبح عبدا لها » . وأتعجب أن يكون هذا الفكر لأحد مفكري الغرب الذي يقود ركب التكنولوجيا والتصنيع في عالمنا . وكنت أتطلع الى كلمات الفيلسوف العالم البريطاني « برتراند راسل » ، وهو يهجو كل شيء ، ويمتد هجاؤه الى العلم والعلماء الذين هو منهم . لقد ملأ الدنيا ضجيجا وصياحا وتحذيرا للناس عامة وخاصة وسياسيين وعسكريين ويقول للجميع كفوا أيديكم عن المغالاة في تحطيم الطبيعة ، لأنكم في حقيقة الأمر تدمرون الحياة ، فسعيكم وراء

التسليح الذري والنووي ، والتسابق على امتلاك أدوات الفتك والدمار ، والتعلق بأساليب الرفاهية سيؤدي بالبشرية كلها الى الهلاك .

ان اتلاف الانسان للطبيعة ، الذي يطلق عليه العلماء « تلوث البيئة » لم يقف عند حد ، وشمل كل شيء من الهواء الذي نستنشقه ، الى الغذاء الذي نطعمه ، الى الكساء الذي نلبسه ، الى النبات الذي نزرعه .. فهو معنا في داخلنا ومن خارجنا ، لأنه معنا في أجسادنا ، ومن حولنا .

ولكي تكون الصورة واضحة أمامنا بلا مغالاة ، أدعو القارىء الى أن يتتبع معي بفكره ايقاع الأحداث خلال يوم كامل منذ الصباح حتى المساء لكي يتصور مبلغ التلوث الذي يحيط بنا من كل جانب .

رحلة من الصباح

■ في الصباح يكون من متطلبات الابتداء غسل الوجه والاسنان . فيواجه المرء بصابون رائحته ليست زكية ورغوته ليست جيدة لأن الصودا الكاوية فيه نسبتها كبيرة .. انها تدمع العينين ، ومعجون الاسنان كذلك يحوي جيرا أو طباشير .. « والشامبو » بعضه بالبيض وبعضه بالنخاع !! وهو بريء من ذلك و « الكولونيا » التي تستخدم بعد حلق الذقن تحتوي على كحول الله أعلم بنسبته ورائحته المسجلة على الزجاجة انه من الياسمين وهو أبعد ما يكون عن ذلك .. لأن معامل الكيماويات أصبحت جاهدة في تقليد كل الروائح ... هكذا ، يبدأ المرء يومه بشعور الواقف على أبواب معمل كيماوي شعاره صب « لعنة الكيمياء » على رؤوس العباد .

■ على طعام الافطار نلاحظ الحجم الكبير الذي اصبح عليه البيض ، ونستغرب طعمه .. لقد استكبروه بغذوه بالهرمونات والبروتينات المكثفة . ولذلك أتى طعمه غريبا خلوا من نكهة البيض الذي ألفته في الصغر .. لقد كان صغير الحجم ولكن كان له طعم آخر . البيضة في الحقيقة فيها سر إلهي مأروعه ... لأن في صفارها تتجمع أسرار الحياة .. وفي قشرها الرقيقة تتجمع كل القوى .

ان هذه البيضة خير برهان على تدخل الانسان في الطبيعة .. انه انسان شره متعجل ، يستحث الطبيعة بسوطه من أجل الكسب السريع .. لتعطيه من خيراتها أكثر مما تطيق حتى تتلقفها ملايين الأفواه الجوعى .

■ ها هو الجبن الابيض .. ان اللون الأبيض عنوان البراءة .. واللبن سر آخر من أسرار القدرة الالهية .. انساب الينا من ضروع الأبقار والجواميس من بين دم وفرث .. كما ذكر القرآن الكريم ، ولكنه اختلط بما دس في طعامها من مواد كيماوية جعلت هذه الأبقار أكثر اكتنازا ، وأكثر سمنة ، وأكثر ادرارا للبن .

لقد كانوا على حق في أغلب دول اوروبا ، عندما أخضعوا اللبن لعمليات معملية عديدة ، بغرض التأكد من عدم تلوثه بالمبيدات الكيماوية المخصبة التي أطلقنا عليها « السماد » .. والكيماويات الحشرية المبيدة التي أطلقنا عليها المبيدات ، وما زاد على ذلك من اشعاع ... وما أدراك ما الاشعاع ؟ ..

مع مملكة البلاستيك

■ على المائدة ستجد في الأغلب طبق « البلاستيك » .. الذي استقرت فيه قطع الجبن . لقد حال لونه وتبدلت بعض نقوشه . ها هو البلاستيك اللعين قد احتل كل ما كان في الماضي يصنع من زجاج أو خزف أو بورسلين ، أو عاج أو فبر .. وأصبح سيدا متربعا على العرش ... بل له عرش كمثل عروش أسياده المنحدرة من سلالة البترول ... لقد بدلت مملكة البلاستيك كل شيء على المائدة ... فأصبحت أغلب أدوات المائدة من هذه المادة التي من السهل اكتشاف تفاعلها مع الطعام .. لكم ظلمنا جداتنا عندما كنا نهزأ من حرصهن على تسوية الطعام في « اوعية الفخار » او « النحاس الأحمر » أخيرا أصدرت كثير من الدول الأوروبية قراراتها بعدم تعبئة أصناف معينة في عبوات البلاستيك ، وخاصة اللبن الزبادي والزيت ولبن الأطفال ، والصابون السائل .

■ سلة الخبز القابعة على المائدة احتوت على خبز ناصع البياض . ألا ما أقبح ما يتداوله الناس من أفكار . لقد وقر في اذهان الكثيرين من العامة والخاصة أن الجيد

من الخبز هو الأبيض .. وأنه كلما زاد بياضه زاد حسنه .. ولذلك يحرص الاغنياء على تناول الخبز الاوروبي لانه هش ورقيق البنيان .. ونسوا أنهم يطرحون أثمن ما في حبة القمح من مواد .. وهي البروتينات المتمثلة في قشرته .. والتي خلقها الله سمراء .. ان بعض العقلاء لا يأكلون غير الخبز الأسمر ..

■ عندما تشرع في ارتداء ملابسك ، سوف تستوقفك نعومة ملمسها ، وسوف تلاحظ البيانات المدونة على الثياب ٦٥٪ بولستر ـ ٣٥٪ قطن ... هاهي لعنة البترول تطاردك حتى في الملبس .. لقد أصبحت خيوط النسيج من مستخرجات البترول وتوارت خيوط القطن وأصبحت تمثل ثلث النسيج .. ان هذا هو السبب الحقيقي لعدم امتصاص العرق ، فما ان تبذل اي جهد حتى تشعر بانك عائم داخل الثياب ، من الجورب البوليستر الى القميص

وتترحم على الصناعات القطنية التى اختفت من حياتنا .

● واذا كنت من ركاب الحافلات او الباصات ، فسوف تلاحظ انها ملطخة بالقذارة من الخارج .. خليط من الشحم مع الطين وما اشبه ذلك .. ولابد ان تسعل وتسعل لان العربات في الشوارع تمر وسط سحابات من الدخان تتصاعد من مؤخراتها ناهيك عن عربات النقل وما يصدر عنها من دخان في كافة الاتجاهات ..

● ويزيد الطين بلة ، اولئك الشبان الذين يركبون الدراجات النارية ويمرقون مسرعين .. وكأنهم فرسان مغاوير يمتطون صهوات الخيل .. ويصدر من مؤخرات الدراجات ريح دبور اختلطت برائحة الزيوت التي تزكم الانوف .. فضلا عما يصدر عنها من نقيق وفرقعات وطبل مع كل ضغطة بنزين !

● يذهب المرء الى مقر عمله لتتلقاه الاتربة على مكتبه وفي الطرقات وفي حجرة الارشيف فضلا عن دخان السجائر الذي يتصاعد في كل الحجرات ، والذي لابد واصل الى صدرك . فمن بين ٦ سجائر يتم تدخينها حولك ، تشرب انت واحدة منها رغم انفك .. هكذا يقول الباحثون ، ذلك فضلا عن ان من بين السجائر أنواعا مصنعة من الطباق الصناعي .. حتى لعنة البترول دخلت علب السجائر ، التي أصبحت من مشتقات البترول مثلها مثل النفثالين !

الدجاجة المنتفخة

■ على الغداء يلفت نظرك حجم الدجاجة المنتفخة . انها دجاجة من صنع المتهوسين الذين يحبسونها في حيز ضيق ويقدمون أمامها الطعام المركز لتأكل ليل نهار .. لتنتفخ عضلاتها خلال شهر واحد وتصبح أضعاف حجمها الذي خلقها الله عليه . ان لحم هذه الدجاجة مخلوط بالبروتينات المركزة ، وان استدعى الأمر بالهرمونات التي تضاعف حجم الأنسجة ، مع قدر هائل من الأملاح التي تجعل هذا الطائر الضعيف في حاجة الى الماء طوال الوقت ، ليرتوي وتكتنز أنسجته بالماء . ولذلك أن طعمها .. كالفول النابت ، وكأنه ألياف صناعية لا لون لها ولا طعم .. ولكن ماذا يصنع المسئولون لملايين الأفواه المفتوحة تنادي بالبروتين واللحوم والأسماك ... ان المركزات الكيماوية بمثابة السوط الذي يجلد صغار الطير لتكبر بسرعة .. وليأكلها الانسان بسرعة أيضا .

■ واذا كنت ممن يتعاطون المياه الغازية على الغداء ، فثق انك مازلت مطاردا بلعنة الكيمياء ، التي دخلت قنينة المياه ، وشدت معها لعنة جديدة تحت اسم « لعنة الألوان » . وأصبحت هذه الألوان الجذابة هي السم الزعاف .. ما بال الناس يملئون تجويف البطن بالطعام ثم يسكبون فوقه غازات ثاني اوكسيد الكربون لتقليه بدعوى « الهضم » . ان البعض لا يدري ان كثيرا من هذه الألوان تذر على الاطعمة بدون تعقل .. وبعضها للأسف ضار ولكن نسبته الضئيلة لا تجعل هذا الضرر يصل الى مرحلة التسمم !!

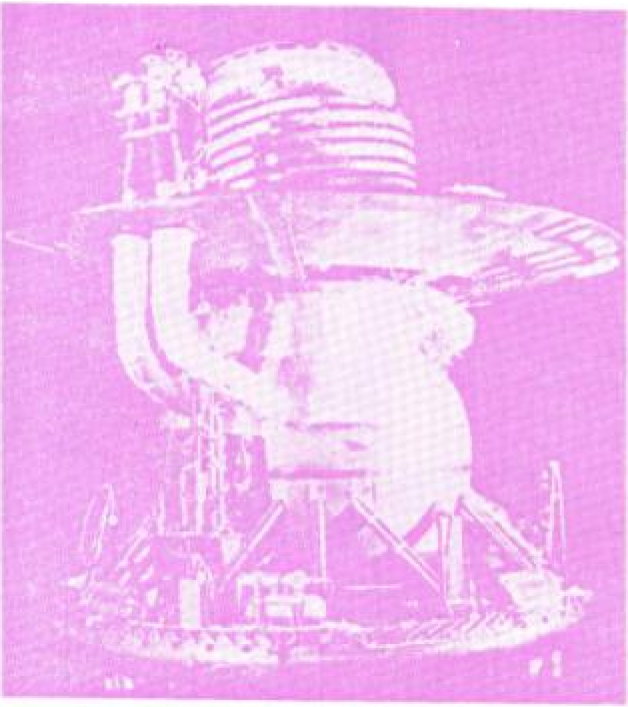
● واذا تناولت الفاكهة بعد الطعام ولم تغسلها جيدا ، فقد ادخلت بيدك سموما اخرى في جسمك ، ذلك ان قشور هذه الثمار تحمل قدرا هائلا من المواد الكيماوية المبيدة التي تستطيع ان تقوض حيوانا ضخما !

● ذلك كله في جانب ، وكم النفايات الذي يلقى في المجاري المائية وعلى شواطىء البحار فيفسد ماء الشرب ويسمم الاسماك والحيوانات البحرية في جانب آخر . فذلك وجه مختلف للعنة ، يتآمر على الطبيعة من حولك ، ويحاصرك ليمسك بخناقك في النهاية .

كيف يمكن ان تنجو من هذا كله ؟ تلك مشكلة يستعصي حلها لانها قد تتطلب ان تغادر هذا العالم ، لتنسحب الى عالم آخر !■■

القاهرة ـ مهندس سعد شعبان

اعداد : يوسف زعبلاوي



كوكب الزهرة يكاد يومه وسنته أن يكونا متساويين

هبطت سفينتنا الفضاء السوفياتيتان ، فينوس ١٣ وفينوس ١٤ على سطح كوكب الزهرة في شهر مارس الماضي . وقد اطلقتا في ٣٠ أكتوبر و ٤ نوفمبر الماضيين ... أي انهما استغرقتا أربعة شهور لقطع المسافة الهائلة التي قطعتاها للوصول الى كوكب الزهرة المذكور ... وتبلغ ٣٠٠ مليون كيلومتر ... ونجحت السفينتان في الهبوط على سطح الزهرة برفق ، ونجحتا كذلك في ارسال المعلومات طيلة ١٢٧ دقيقة ... وتعتبر هذه المدة طويلة نسبيا ... ذلك أن الحرارة على سطح الزهرة شديدة وقد تبلغ في أقصاها ٤٨٠ درجة مئوية ولا تسمح بصمود السفينة ، أي سفينة مدة طويلة دون انهيار أو تبخر مالم تكن المواد التي صنعت منها السفينة مواد غير عادية وتتميز بقدرة فائقة على مقاومة الحرارة .

أما الهدف الذي من أجله أطلقت السفينتان ... فهو أخذ عينات من تربة الزهرة وتحليل عناصرها واكتشاف المزيد من الحقائق عن كوكب الزهرة ، الكوكب الساخن الذي تلفه السحب ... وأقرب كواكب المجموعة الشمسية من كوكبنا ، كوكب الأرض .

ومعنى هذا أن الكبسولة التي انفصلت عن السفينة فينوس ١٣ ، ١٤ وهبطت على سطح الزهرة ... كانت مجهزة بحفارة ولا قطة ... فضلا عن أجهزة تحليل التربة .

وتجدر الاشارة الى أن السوفيات كانوا ارسلوا في الماضي سفينتين فضائيتين آخرين الى كوكب الزهرة ... هما فينوس ١١ وفينوس ١٢ وقد وصلتا الى سطح الكوكب في شهر ديسمبر ١٩٧٨ ، وواصلتا ارسال المعلومات الى الأرض لمدة ١١٠ دقائق ، ٩٥ دقيقة على التوالي . أي انهما لم تقاوما حرارة الكوكب الشديدة بقدر ما قاومتها سفينتنا فينوس ١٣ ، ١٤ .

أما بداية الأبحاث السوفياتية الرامية الى

استكشاف كوكب فينوس والتي سموها (أبحاث فينوس) فتعود الى سنة ١٩٦١ .. ويذكر هنا أن سنة ١٩٦٧ شهدت هبوط سفينتين روسيتين على سطح ذلك الكوكب .. الا انهما لم تصمدا أكثر من ٧٥ دقيقة ... ارسلتا اثناءها من المعلومات ما ارسلتا .. ثم ما لبثتا ان تلفتا بسبب شدة الحرارة .

ولئن تأخرت الولايات المتحدة في ابحاثها الخاصة بكوكب فينوس (ابحاث ماريتر) ولم تبدأها الا سنة ١٩٦٢ ... فانها واصلت تلك الابحاث أيضا وارسلت سفن الفضاء مارينر بالتتابع ... وكانت سفن مارينر الأمريكية تمر بكوكب الزهرة ولا تهبط عليه في الغالب ، فتصور سطحه من على بعد أو قرب ، وترسل الى الأرض من المعلومات عنه ما ترسل . على أن هذه المعلومات لا تصل الى محطات الأرض معلومات جاهزة وانما رموزا تتطلب الكثير من الدراسة والتحليل .... وقد يستغرق ذلك بضع سنوات وقد تعمد الدولة المعنية الى نشر بعض ما يتجمع لديها من تلك المعلومات وقد تمتنع عن ذلك .. ومهما يكن فان المعلومات التي كانت ترسلها سفن الفضاء منذ بداية عصر الفضاء في أواخر الخمسينات قد أحدثت ما يشبه الثورة في علم الفلك ...... وقد اثبتت خطأ أو بطلان الكثير من المعلومات الفلكية التي تم جمعها بواسطة التلسكوبات على مر العصور .

كوابح النشو

● ظهرت في الأسواق الأمريكية مؤخرا مستحضرات لتخسيس الوزن جديدة .. أطلقوا عليها اسم كوابح النشويات . **Starch Blockers** .. وقد انتشرت هذه المستحضرات وظهرت في شتى الأسواق المركزية والبقاليات فضلا عن الصيدليات .. ولكن وكالة الغذاء والدواء الحكومية في واشنطن حظرت في مطلع شهر يوليو الماضي بيع هذه المستحضرات ، ريثما تثبت التجارب التي يجريها علماء الوكالة حاليا ، ان تلك الحبوب كفيلة بتخسيس الوزن .... دون أن يكون لها آثار جانبية ضارة .

وقوام هذه الكوابح أو المعيقات بروتين مستمد من نوع معين يعرف بالانجليزية باسم **Kidney beans** ومن خواص هذا البروتين انه يبطل مفعول الانزيم الذي يقوم بهضم النشويات وهو انزيم اميليز (**enzyme amylase**) ..وتؤكد الشركات التي تصنع هذه الحبوب ـ وهي كثيرة ـ أن حبة واحدة منها تؤخذ مع وجبة الطعام كفيلة بالحيلولة دون حصول الجسم على ٤٠٠ سعر حراري ...

ويقر علماء الوكالة وغيرهم بأن النظرية التي تقوم عليها الحبوب الكابحة نظرية سليمة ووجيهة ولا ريب .. ولكن صحتها لم تثبت عمليا بعد .. أي ان الشركات المعنية لم تجرب

النوم له هرمون طبيعي

● منذ أكثر من سبعين عاما والعلماء يجرون الأبحاث العلمية الخاصة بالنوم ويسعون الى اكتشاف المواد الطبيعية التي يفرزها الجسم البشري والتي تبعث على نوم الانسان أو الحيوان ... ذلك أن التجارب الرائدة التي اجراها العالم الفرنسي هنري بايرون H. Pieron دلت على أن النوم انما يأتي نتيجة نشاط بعض المواد الكيماوية داخل المخ ... وقد نجح عالم الفيولوجيا المذكور في احداث النوم العميق لبعض الحيوانات بعد أن حقنها بمادة من سائل النخاع الشوكي ، أخذها من بعض الكلاب التي كانت محرومة النوم .... واقتفى أثر ذلك العالم الفرنسي علماء آخرون في سويسرا واليابان .

وجاءت الستينات فعمد فريق من علماء جامعة هارفرد الأمريكية الى القيام بأبحاث علمية واسعة النطاق وذلك من أجل عزل مادة النوم الطبيعية أولا ومن أجل اجراء التجارب على تلك المادة بالذات ثانيا .

وقد تبين لأولئك العلماء الأمريكيين وهم جون بنهايمر

مستحضرات جديدة قد تكون عظيمة النفع



الحبوب على نطاق واسع قبل عرضها للبيع في الأسواق . ولا بد من التثبت من فاعليتها وفائدتها المزعومة قبل السماح ببيعها ثانية في الأسواق .

ولعل لوجهة النظر التي ابداها الدكتور جورج بلاكبورن Blackburn ..... خبير الغذاء في جامعة هارفرد .. حول كوابح النشويات اثرا في الموقف الذي اتخذته وكالة الغذاء والدواء .. فما دام قوام هذه المستحضرات بروتينا .. كما يقول خبير هارفرد .. فهو عرضة لفعل انزيمات أخرى غير التي ذكرنا ، هي انزيمات peptidase .... وباستطاعة هذه الانزيمات أن تحلل بروتين الكوابح ، أو تحطمه ، بحيث يفقد قدرته على الكبح ويصبح عديم الفائدة .

أضف الى ذلك الأثر الجانبي الضار الذي يمكن ان يترتب على تناول الحبوب الكابحة . فلو سلمنا بأن هذه الحبوب ستنجح في اداء المهمة المتوخاة لترتب على ذلك تراكم كميات من النشويات غير المهضومة في الجهاز الهضمي .. وقد يؤدي ذلك بالتالي الى مضاعفات مزعجة كالغازات والاسهالات وغير ذلك ... وقد تبلغ هذه المضاعفات من الخطورة ما يحمل الكثيرين على تفضيل البدانة باعتبارها اهون الشرين ..

John Pappenheimer وصانفرد كارنوفسكي وجيمس كروجر ان مادة النوم الطبيعية ، ضالتهم المنشودة ، فعالة شديدة الفعالية ، وأنها توجد حيث توجد بمقادير ضئيلة للغاية .

وبدأوا تجاربهم بالسائل النخاعي على نحو ما فعل العالم الفرنسي ... وقضوا أربع سنوات وهم يجمعون ذلك السائل من الماعز المرهق المحروم من النوم .... ولما لم يتجمع لديهم طيلة تلك السنوات الا جالون ونيف من السائل النخاعي ، انصرف علماء هارفرد عن الماعز الى الأرانب فجمعوا مادة النوم المطلوبة من مخ ١٥٠٠٠ أرنب . وثبت لهم أن هذه الكمية كانت قليلة أيضا ولا تسمح بتحليلها كثيرا ولا قليلا .. ثم تحول العلماء الأمريكيون الى جمع المادة المطلوبة من بول الانسان ... وبلغت الكمية التي استطاعوا عزلها من كمية ١٠٠٠ جالون من البول ٣٠ ميكروغرام فقط ... وعلى ضآلة هذه الكمية فقد كانت كافية لتحليلها وتحديد بنيتها الكيماوية .

وهكذا استطاع باحثو هارفرد أن يؤكدوا في مطلع هذه السنة (١٩٨٢) ان مادة النوم الطبيعية قوامها أربعة احماض ... وهي .

Glutamic Acid,
Alanine
Diaminopimelic Acid,
Muramic Acid.

المعروف ان المادتين الأخيرتين توجدان في البكتريا ولكن وجودهما في جسم الانسان لم يكن معروفا في السابق . أما الاسم الذي أطلقه العلماء على مادة النوم الطبيعية فهو (العامل س) **Factor S** .

وقد دلت التجارب على قدرة مادة النوم الطبيعية على مضاعفة مدة النوم التي يحتاجها الحيوان ـ الأرانب بالتحديد ـ ضعفين الا ربعا (١,٧٥) فلو كانت تلك المدة ٤٠٪ من ساعات اليوم لأصبحت ٧٠٪ من تلك الساعات ... نتيجة تناول مادة النوم الطبيعية ... وذلك دون التعرض للآثار الجانبية التي تحدثها مواد النوم الكيماوية .

عبيد الله كلهم إخوان

بقلم عباس خضر



ألقيت شبكتي مرارا في البحر الزاخر : الف ليلة وليلة ، وقد صبرت على خروجها من الماء ممتلئة رملا وحصى ، الى ان يسر الله لي وحصلت على جواهر ، منها الانسانية والوفاء والاخاء ، هذه القيم التي استقرت في امتنا العربية منذ قديم الزمان .

كذلك فعل «عبد الله البرّي» الصياد الانسان المكافح ، كان كثير العيال : تسعة اولاد وامهم . انه فقير لا يملك الا الشبكة ، يعول اسرته بما تصطاد ، يذهب الى شاطيء البحر كل يوم ، فاذا اصطاد سمكا قليلا ذهب إلى به السوق ليبيعه ، وينفق ثمنه على عياله ، وان اصطاد كثيرا وسع على العيال مما رزق الله .

الى ان كان يوم وضعت فيه زوجته الولد العاشر ، ولم يكن في الكوخ شيء يقتاتون به ، فقالت له زوجته :ـ

ـ التمس لنا شيئا نأكله .

ـ سأخرج اليوم على بركة الله تعالى الى البحر ، وارجو ان يكون قدوم المولود سعيدا .

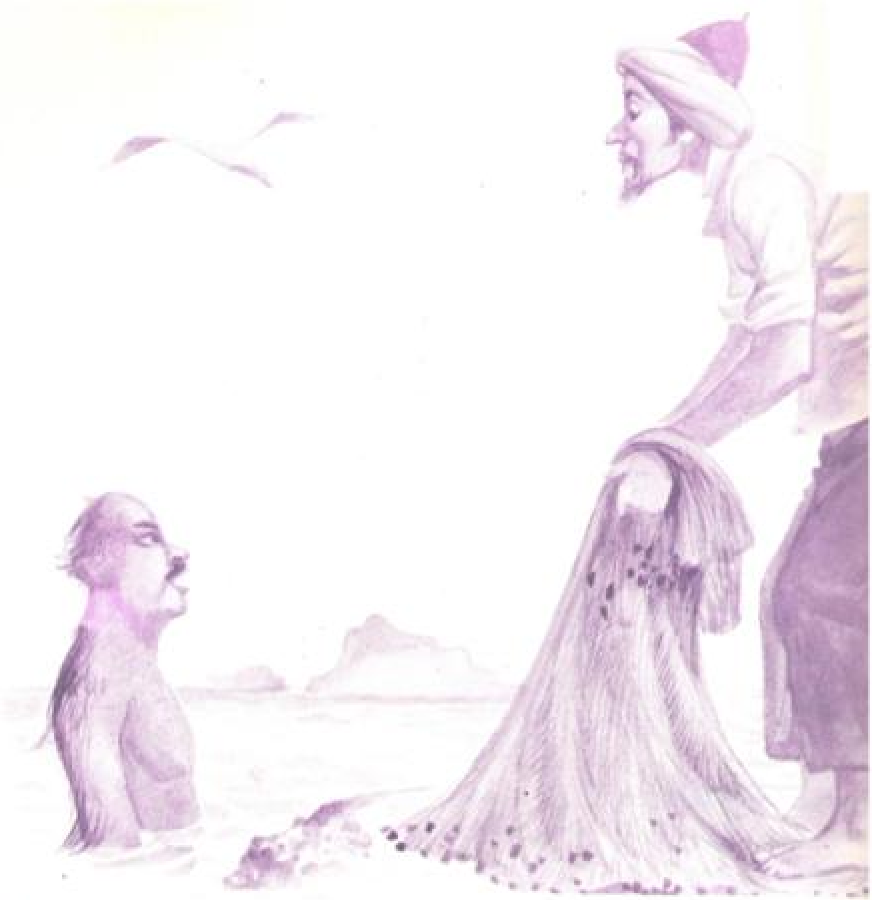
ـ توكل على الله .

خباز انسان

اخذ شبكته واتجه الى البحر ، ورماها فيه ، ثم سحبها فخرجت مملوءة اعشابا وحصى ، فرماها مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة وخامسة ، ولا شيء من السمك يخرج فيها ، فانتقل الى مكان آخر وهو يدعو الله ان يرزقه برزق العيال ، ولم يزل على هذه الحال الى آخر النهار ، فتعجب في نفسه وقال :

ـ هل خلق الله هذا المولود من غير رزق ؟ هذا لا يكون ابدا ، لان الذي شق الافواه تكفل لها بالارزاق .

لمّ الشبكة في حسرة ، ورجع مشغول الفكر مهموم القلب ، وسار حتى وصل الى مخبز يزدحم الناس امامه



لشراء الخبز ، وكان الغلاء قد عمّ في تلك الايام،والخباز لا يكاد يلتفت لاحد ، من كثرة الزحام .

وقف عبد الله البري ينظر ويشم رائحة الخبز الساخن ، ونفسه تشتهيه من شدة الجوع . . وترامى اليه صوت الخباز لما رآه واقفا ينظر في سكون ومسكنة :

- يا صياد .

تقدم اليه فقال له الخباز :

- اتريد خبزا ؟

سكت محرجا ، فقال له :

- تكلم ولا تستح فالله كريم ، ان لم يكن معك دراهم انا اعطيك واصبر عليك حتى بجيئك الخير .

- شكرا لك ، ليس معي دراهم ، ولكن اعطني خبزا يكفي عيالي ، وخذ هذه الشبكة رهينة عندك الى غد .

- يا مسكين . . هذه الشبكة الة رزقك ، اذا رهنتها فبأي شيء تصطاد ؟ قل ما الذي يكفيك ؟

- بخمسة دراهم .

اعطاه الخبز وخمسة دراهم اخرى ليشتري بها ما يلزم ، وقال له : عندك عشرة دراهم وفي غد هات لي سمكا بها ، وان لم يقع لك سمك فتعال وخذ خبزك وخمسة دراهم ، وانا اصبر عليك حتى يأتيك الخير .

في اليوم التالي حمل شبكته وذهب الى البحر ، وصار يرمي الشبكة ويجذبها فلا يخرج فيها شيء من السمك . . فرجع مهموما . ولما كان طريقه على الخباز وليس له طريق غيره مر به مسرعا حتى لا يراه ، ولكن الخباز لمحه من بعيد فصاح :

- يا صياد ، تعال خذ خبزك ومصروفك ، فانك نسيت ،

لم يجد بدا من ان يتجه اليه قائلا :
ـ والله ما نسيت ، ولكني استحييت منك .
ـ لماذا تستحي ؟ اما قلت لك ، على مهلك حتى يأتيك الخير ؟

لم يزل على هذه الحال شهرا ، والخباز يعطيه كل يوم ما اعتاده ، ولا يذكر له السمك .

قال الصياد لزوجته وهو في منتهى الحزن :
ـ اريد ان امزق هذه الشبكة وارتاح من هذه العيشة .. لقد ذبت حياء من الخباز .
ـ لا تفعل يا سيدي ، الله كريم .

لست عفريتا

حمل شبكته واتجه الى البحر وهو يقول : يارب ارزقني ولو بسمكة واحدة اهديها الى الخباز .

رمى الشبكة في البحر ، ثم جذبها ، فوجدها ثقيلة ، فعالجها حتى اخرجها فاذا فيها حمار ميت ، فاغتم وذهب الى مكان آخر لا تصل اليه فيه رائحة الحمار الكريهة ، ورمى الشبكة ، وصبر عليها ، ثم جذبها ، فرأى فيها مخلوقا يشبه الانسان ، فظن انه عفريت من الجن ، فهرب منه ، فقال له ذلك المخلوق :

ـ تعال يا صياد لا تهرب مني ، فأنا انسان مثلك .. خلصني لتنال الثواب .
ـ اما انت عفريت ؟
ـ كلا ، انا مثلك مؤمن بالله ورسوله .
ـ ومن رماك في البحر ؟
ـ انا من اولاد البحر ، واذا خلصتني أكون أسير معروفك ، فهل لك ان تعتقني لوجه الله تعالى ؟ وانا اعاهدك على الصداقة ، اجيئك كل يوم في هذا المكان ، وانت تأتيني ومعك هدية من ثمار البر . فان عندكم عنبا وتينا وخوخا ورمانا وغير ذلك ، ونحن عندنا لؤلؤ ومرجان وزبرجد ، وزمرد وياقوت ، فأملأ لك السلة التي تجيء لي فيها بالفاكهة جواهر . فما تقول في ذلك ؟ الفاتحة بيني وبينك على هذا الكلام .

قرأ الفاتحة ، ثم سأله الصياد عن اسمه فقال : عبد الله البحري ، وانت ما اسمك ؟ فقال الصياد : اسمي عبد الله ، فقال : انت عبد الله البري وانا عبد الله البحري . قف هنا حتى أجيء اليك بهدية ، ثم رجع عبد الله البحري ويداه مملوءتان من جواهر البحر .

ليس بين الخيرين حساب

فرح عبد الله البري ، واخذ الجواهر ، وعاد بها الى المدينة ، ولم يزل ماشيا حتى وصل الى الخباز ، وقال له :
ـ يا اخي قد اتانا الخير ، فحاسبني .

ـ ليس بيننا حساب ، ان كان معك شيء فهاته ، والا فخذ خبزك والدراهم ، وامض الى عيالك .
ـ يا صاحبي اتانا الخير من فضل الله ، خذ هذا . . .
اعطاه نصف الجواهر ، وعاد الى بيته فاخبر زوجته بما حدث ، فقالت له :
ـ اكتم سرك لئلا يتسلط عليك الحكام .

ـ ان كتمت سري عن جميع الناس فلا اكتمه عن الخباز الذي كان لي في الشدة خير معوان .
في اليوم التالي ملأ السلة فاكهة وتوجه الى البحر ، والتقى بعبد الله البحري وقدمها له ، فاخذها وغطس في الماء ، ثم خرج بالسلة مملوءة بالجواهر ، فاخذها وذهب الى الخباز فاعطاه بعض الجواهر . وقال له الخباز :

ـ لقد خبزت لك خبزا خاصا وارسلته الى البيت .

امسك . . حرامي

اخذ من كل صنف جوهرة نفيسة ، وذهب الى السوق ، وقال لشيخ السوق :
ـ اشتر مني هذه الجواهر .
ـ ارني اياها .
فلما رآها شيخ السوق دهش وقال له :
ـ هل عندك غيرها ؟

ـ عندي سلة مملوءة .

اخذ منه الجواهر .. وقال لا تباعه

ـ امسكوه .. انه اللص الذي سرق جواهر الملكة .

اوثقوه وضربوه ، وتجمع الناس ، ثم اخذوه الى

الملك ، وقال شيخ السوق للملك :

ـ يا ملك الزمان ، لما سرقت جواهر الملكة ارسلت الينا وطلبت منا ايقاع اللص ، فهذا هو بين يديك .. فنادى الملك « الطواشي » ، وامره ان يأخذ الجواهر ويعرضها على الملكة لتنظر اهي جواهرها ؟

قالت الملكة لزوجها الملك :ـ

لقد عثرت على جواهري ولم تسرق ، ولكن هذه الجواهر احسن منها فاشترها لابنتك « ام السعود » .

التفت الملك الى التجار وقال لهم :

ـ يا ظلمة ، اتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ لقد رزقه الله بها من حيث لا يحتسب ، اخرجوا لا بارك الله فيكم ، ثم قال للصياد :

ـ بارك الله لك فيما انعم عليك ، لك الامان ، ولكن اخبرني بالصحيح : من اين لك هذه الجواهر ؟

ـ يا ملك الزمان ، عندي سلة مملوءة منها ...

واخبره بالقصة كلها ، فقال الملك :

هذا نصيبك ، ولكن المال يحتاج الى الجاه ، «فانا ادفع عنك تسلط الناس عليك ، ولكن ربما عزلت او مت وتولى غيري فماذا تصنع ؟

ـ لا ادري يا ملك الزمان .

ـ اسمع ايها الرجل ، انا ازوجك ابنتي الوحيدة ، واجعلك وزيري ، واوصي لك بالملك من بعدي .

قال الملك ذلك ، ثم امر ان يؤخذ الصياد الى الحمام ليغتسل ، وان يحضروا له ملابس تليق به كوزير ، ثم امر الملك باحضار زوجته واولاده ، فاكرمهم وداعب الاولاد . واستقبلت زوجته زوجة الصياد واكرمتها وجعلتها وزيرة لها ،

الصياد الوزير

صار عبد الله البري وزيرا ، وتم زواجه بابنة الملك . في اليوم التالي نظر الملك من النافذة فرأى الوزير يحمل سلة ممتلئة بالفواكه فناداه وقال له :

ـ ما هذا يا صهري ؟ والى اين ؟

ـ الى صاحبي عبد الله البحري حفاظا على موعدنا عند الشاطيء حتى لا يظن ان الدنيا الهتني عنه .

صدقت اذهب الى صاحبك ، اعانك الله .

ذهب الى صاحبه واعطاه الفاكهة واخذ الجواهر واستمر على ذلك عدة ايام ، وكل يوم يمر بفرن الخباز فيراه مغلقا ، فقال في نفسه : هذا شيء عجيب .. يا ترى اين الخباز ؟ سأل جاره عن بيته ، فدله عليه ، طرق الباب ، فاطل الخباز من الكوة ، فرأى صاحبه الصياد وعلى رأسه سلة ، فاسرع وفتح له الباب ، وعانقه وقال له :

ـ جزاك الله خيرا ، ليس في الامر شيء الا اني علمت ان بعض الناس كذبوا عليك واتهموك بالسرقة واخذوك الى الملك ، فخفت انا واغلقت المخبز واختفيت

اخبره عبد الله البري بما وقع له وان الملك زوجه ابنته واتخذه وزيرا .. ودفع اليه الجواهر التي كانت في السلة ثم ذهب الى الملك والسلة فارغة ، فقال له الملك :

كأنك لم تجتمع بصديقك عبد الله البحري في هذا اليوم ؟

ـ ذهبت اليه ، والذي اعطاه لي اعطيته لصديقي الخباز ، فان له علي جميلا لا انساه ...

ـ من يكون هذا الخباز ؟

ـ رجل صاحب معروف .

وحكى للملك ما جرى بينه وبين الخباز بالتفصيل ، قال الملك :

ـ ما اسمه ؟

ـ عبد الله الخباز .

ـ عبد الله الخباز ، وانت عبد الله البري ، وصاحبك عبد الله البحري ، وانا اسمي عبد الله . .

سكت الملك قليلا ثم قال :

ـ عبد الله اخوان . . ارسل الى صاحبك الخباز ، وهاته لنجعله وزير الميسرة . . .

حضر الخباز فألبسه الملك حلة وزير ، وصار هو وزير الميسرة وعبد الله البري وزير الميمنة .

استمر عبد الله البري في علاقته مع عبد الله البحري ، وهما يتبادلان الفاكهة والجواهر . وذات يوم جلسا يتحدثان ، وجرى الكلام الى ذكر المقابر ، فقال البحري :

ـ يا اخي يقولون : ان النبي صلى الله عليه وسلم مدفون عندكم في البر . . .

ـ نعم في المدينة المنورة .

ـ وهل يزوره الناس اهل البر ؟

ـ نعم .

ـ هنيئا لكم يا اهل البر بزيارة هذا النبي الكريم ، هل زرته يا اخي ؟

ـ لا ، لأني كنت فقيرا ، ولا اجد ما انفقه في سبيل الزيارة ، الآن وجبت علي زيارته بعد ان احج الى بيت الله الحرام ، وما منعني من ذلك الا محبتك ، فاني لا اقدر ان افارقك يوما واحدا ،

ـ وهل تقدم محبتي على زيارة قبر الرسول ؟

ـ لا ان زيارة الرسول مقدمة عندي على كل شيء ، لهذا استأذنك في ذلك هذا العام .

ـ واذا وقفت على قبره فاقرئه مني السلام ، وعندي امانة فادخل معي في البحر حتى آخذك الى مدينتي وادخلك بيتي ، واضيفك ، واعطيك الامانة لتضعها على القبر النبوي الشريف .

ـ يا اخي ، انت خلقت في الماء ، ومسكنك الماء ، وهو لا يضرك ، ألست اذا خرجت منه يلحقك الضرر ؟

ـ بلى : يجف بدني وتهب علي ريح البر فاموت .

ـ كذلك انا ، خلقت في البر ومسكني البر ، فاذا دخلت في البحر يدخل الماء في جوفي ويخنقني فاموت

ـ لا تخف من ذلك فاني آتيك بدهان تدهن به جسمك فلا يضرك الماء .

قال ذلك ونزل في البحر ، وغاب قليلا ثم رجع ومعه الدهان قال عبد الله البري :

ـ توكلت على الله .

وخلع ثيابه ، وحفر لها في الشاطىء حفرة اخفاها فيها ليلبسها عند خروجه من الماء ، ودهن جسمه ثم نزل في الماء وغطس . رأى عبد الله البري في اعماق البحر عالما غريبا . . غريبا . . اكثر غرابة مما يحدثنا به علم البحار الحديث كالذي يكتبه في « العربي » عالمنا الاديب الدكتور عبد المحسن صالح. فاذا كان هذا علما يحاول ان يكتشف المجهول ، فذاك خيال يسبح في ذلك المجهول ، والخيال يسبق العلم كما هو معروف .

وفي المقال التالي ـ ان شاء الله ـ حديث ذلك الخيال ، فقد ادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . ■■

عباس خضر

لا رحم الله أباك

دخل رجل من قبيلة الأزد على سليمان بن عبدالملك متظلما وقال : يا أمير المؤمنين ، ان « أبانا » قد هلك وترك « مالا كثيرا » فوثب « أخونا » على مال « أبينا » واملكه فقال سليمان : « لا رحم الله أباك ، ولا بارك الله فيما ورثت » .

قبور في السماء سوداء وبيضاء

بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

عندما يتوقف الزمان ، وتتلاشى حدود المكان ، وتصبح المادة ذاتها في خبر كان ، فلابد أن تتوقف معارفنا عند هذه الحدود ، وتقبر معها كل القوانين العلمية التي نتعامل بها في فهمنا لأسرار الكون ، وخبايا الوجود ، لأن القوانين تصبح عاجزة عن توضيح ما يحدث في مناطق غريبة في السموات !

اذا حدث ذلك ، فاعلم انك تقف امام قبر من قبور الفضاء ، وهي التي يطلق العلماء عليها اسم الثقوب السوداء ، وما هي بالثقوب التي وقرت في العقول ، ولاهي بالسوداء ـ كما تدل الأوصاف ، لأن الأوصاف ذاتها ليست واردة هناك ، بل ربما نشأت التسمية والوصف نتيجة لجهلنا بما هو كائن ويكون !

لكن ذلك لايعني ان هذه القبور او الثقوب غير موجودة ، بل تعني ان مداركنا ومعارفنا بالأساسيات التي نشأ عليها عالمنا ، غير واردة ولاسارية في هذه العوالم الزائلة المجهولة . فماذا نعني حقا بوجود ثقب في الفضاء وهو الخواء ؟

ان ذلك يرجع اساسا الى قوة من قوى الكون التي تعمل في الخفاء . . صحيح اننا نحس بها على ارضنا ، ودائما ابدا تجذبنا اليها كلما سولت لنا نفوسنا بالقفز الى أعلى ، عندئذ نجدها تشدنا الى الأرض شدا ، فلا نستطيع لذلك صدا ، اللهم الا اذا استنبطنا وسيلة نتغلب بها على هذه القوة غير المنظورة ، علنا نهرب من قبضتها ، ولقد تحقق ذلك في سفن الفضاء ، اذ انها تنطلق بقوة دفع هائلة ، فتتخلص من جاذبية الأرض الى الأبد ، لكن ذلك لايمنع من وقوعها في جاذبية اي جرم سماوي آخر ، خاصة اذا حلت برحابه ، وهذا يعني ان قوى الجاذبية شيء متوارث في طبيعة مادة الكون ذاتها ، فحيث وجدت المادة ، صاحبتها الجاذبية ، وكأنما هما كالجسد والروح ، او كالموت والحياة .

للجاذبية درجات

لكن . . ماذا تعني هذه الجاذبية عندنا بالنسبة للثقوب السوداء ؟

الواقع ان هذه ريبة تلك ، فعندما تتعاظم قوى الجاذبية ، لتصبح قريبة من حدودها اللانهائية ، فانها تسحق كل شيء سحقا ، وتطويه طيا ، او تكوره وتبيده من الوجود ، وبحيث تتلاشى حدود الزمان والمكان والمادة ، او كل صفة كونية نعيها في عقولنا ، او نشعر بها بأحاسيسنا .

ان قوى الجاذبية الرهيبة هي المسئولة حقا عن تكوين الثقوب السوداء ، وفيها تتغير طبيعة الأشياء ، اذ كلما زادت قبضتها ، تضاعف جبروتها ، وتلاعبت بالزمن لتجمده ، وبالفضاء لتكوره ، وبالتجسيد المادي لتمحقه ، فلا تستطيع ان تحدد معنى زمن او مادة او مكان ، لأنها تطوي كل هذا في « جيبها » . . حتى الأضواء المنطلقة او الموجات المتحررة لاتسلم من قبضتها ، فلو اننا تصورنا وجود كائن كوني في جوفها ـ

مجرد تصور ، واراد ان يطلق شعاعا ضوئيا من كشاف قوي ، فان الضوء ذاته ، لايحقق مساره ، بل ينطوي على نفسه ، وينكور ويعود ليقبر في ثقبه الأسود !

وطبيعي ان مثل هذه الأمور غريبة اشد الغرابة على عقولنا ومداركنا ، بل هي أغرب مما نتصور ، ولقد وضعت علماء الرياضيات والفيزياء الكونية في مأزق كبير يعصر عقولهم عصرا ، ومع ذلك فلا مفر من تقبلها ولامهرب ، حتى ولو أدى ذلك الى احناء الرؤوس ، وترويض العقول . . فخير لنا ان نروض عقولنا على تقبل مايحدث في الكون من امور محيرة اشد حيرة ، على ان نروض الكون ذاته لعقولنا ، لانه أكبر وأعظم من العقول المحدودة !

ومع ذلك ، فلقد جاءت المعادلات الرياضية لتكون امام العلماء بمثابة « حجر رشيد » الكون ، اذ انها تشير الى مفاتيح ألغاز وأسرار لا يمكن تصديقها ، ولو كانت القضية قضية معادلات صاغها العلماء في عقولهم ، وكتبوها على هيئة طلاسم في مراجعهم ، لهان الأمر ، ولاعتبرنا ما جاءوا به مزاحا رياضيا قد يسعد العقول او يشقيها ، ولكن المعادلات قد اشارت ـ في الحقيقة ـ الى ظواهر غريبة بدأ علماء الفلك تسجيل احداثها بمراصدهم الجبارة التي تشير الى وجود ثقوب في السماء !

لكن . . ماذا سيدور بخلدك ، لو جاء احد العلماء وقال : ان أرضنا العظيمة لو تهاوت في واحد من هذه الثقوب السوداء ، فانها لن تشغل منه الا حجم عقلة اصبع او ربما أضأل ، ليس هذا فحسب بل ان بعض العلماء يشير الى ان الأرض هناك قد تصبح على هيئة نقطة من التي تراها هنا فوق الحروف او تحتها ، هذا رغم ان ارضنا تبلغ من القطر حوالى ١٢ ألف كيلو متر ، ومن الوزن حوالي ستة آلاف مليون مليون طن . . كل هذا يتضاءل الى نقطة .

ان أحدا لايلوم أحدا لو تسرع وقال : انه تهريف وتخريف ، لكن لاشيء ـ في الحقيقة ـ يمنع حدوث ذلك ، رغم ان العقل البشري لايستطيع هضم ذلك !

ان ذلك يعيد الى الذهن ماكتبه العالم الرياضي الفيزيائي « سير » آرثر ادينجتون في عام ١٩٢٦ ، عندما اشار بعض علماء الفلك الى اكتشاف نجم صغير مصاحب للشعرى اليمانية (والذي يبعد عن ارضنا حوالى تسع سنوات ضوئية) ، وقالوا عنه انه نجم ميت متجمد وذو مادة ثقيلة ، بحيث تزن البوصة المكعبة منه حوالى الف طن ، عندئذ رفض معظم الفلكيين تصديق ذلك ، ويعلق ادينجتون على ذلك في عام ١٩٢٦ « لو ان الرسالة التي بعث بها النجم المرافق للشعرى اليمانية قد كتبت شفرتها بلغتنا ، فربما تجيء هكذا : انا نجم يتكون من مادة اثقل بثلاثة آلاف مرة من أية مادة معروفة لكم ، اذن فماذا يكون التعليق لو ان أحدا سمع ذلك في عام ١٩١٤ ؟ . . سيكون التعليق : خير لك ان تصمت بدلا من هذه السفسطة ! » .

أكثر من ذلك قد يقال الآن ، خاصة اذا ألمحنا الى ان الثقب الأسود قد يبتلع ملايين النجوم ، ثم يسحقها سحقا ، ولا أثر الا قوى الجاذبية الهائلة التي تتركها مادة النجوم خلفها ، لتزيد سحقها لكل مايسقط نحوها !

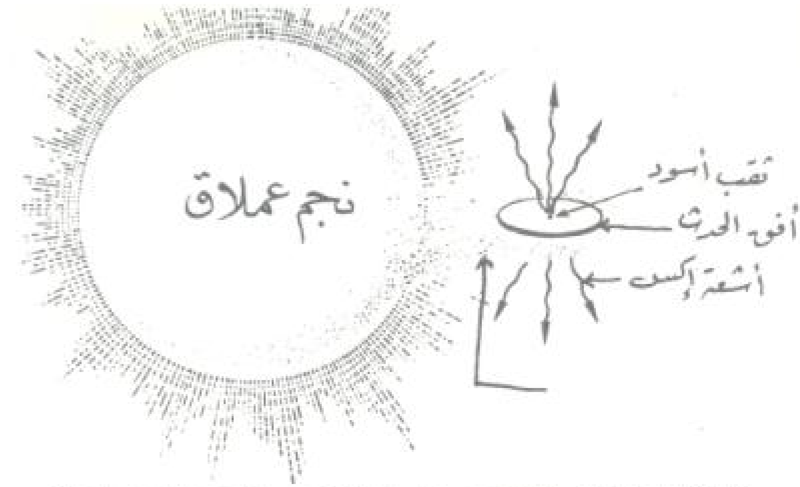
والواقع ان مؤلفي الخيال العلمي لن يسعفهم خيالهم الخصيب لتقديم مثل هذه الصورة المرعبة حقا ، والمرفوضة عقلا ، ومع ذلك فليست قصة الثقوب السوداء الا مؤشرا حقيقيا لصورة اخرى من صور موت المادة وفنائها ، لكن لاشيء حقا الى فناء ، اذ يبدو ان النجوم تموت في ثقوب سوداء ،

ثم تبعث من خلال ثقوب بيضاء ، او هكذا يشير بعض العلماء !

حقيقة الثقوب السوداء

كأنما نحن بهذا القول نخرج من لغز محير ، لندخل في لغز آخر اكثر حيرة ، فماذا تعني حقا تلك الثقوب السوداء والبيضاء ؟

ان الثقب الأسود ببساطة شديدة يمثل حالة من حالات الموت التي تحل ببعض نجوم السماء ، او هو قبر من انواع ثلاثة من القبور التي تتردى فيها مادة النجوم ، لكن الثقب الأسود اشد هذه القبور غموضا ، واعظمها عنفا ، لأنه لاينشأ الا من موت نجم عظيم ، ولكي يتكون ـ بمادته الميتة ـ قبر او ثقب اسود ، فلابد ان تكون كتلة هذه المادة المنهارة قدر كتلة ثلاثة نجوم من نوع شمسنا ، او اكثر ، او هكذا تشير المعادلات الرياضية النابعة من النواميس الكونية ، كما اشارت من قبل الى ان موت النجوم الصغيرة والمتوسطة يؤدي الى انهيار مادتها في جوفها تحت وطأة قوى الجاذبية ، وكلما كانت الكتلة كبيرة ، كان الانهيار شديدا ، والضغط عظيما ، والكثافة في الجوف جد عالية ، ولقد اكتشفت بالفعل امثال هذه النجوم الميتة ، وامكن



عندما تتسلط جاذبية الثقب الأسود على ما حولها من مادة (ممثلة بنجم عملاق) فانها تجذبها بضراوة بالغة ، وعند اندفاعها نحو الثقب بسرعة هائلة ، تنطلق منها اشعاعات عنيفة (أشعة إكس) ترصد بالتليسكوبات .

التعرف عليها ، والاستدلال على وجودها ، ووضعها في رتب خاصة ، وتمييزها الى أقزام بيض ناشئة من موت النجوم الصغيرة نسبيا ، أو نجوم نيوترونية تمخضت عن انهيار نجوم اكبر من شمسنا بحوالي مرتين او ثلاثا (انظر دراستنا السابقة على صفحات هذه المجلة بعنوان : وللنجوم في موتها منازل وأقدار) .

ثم اذا ماقورنت كثافة المادة او ثقلها في جوف النجوم الميتة ، لوجدتها في ثلاثة مستويات : فالبوصة المكعبة من مادة القزم الأبيض تزن حوالى الف طن ، في حين انها تصل في النجم النيوتروني الى حوالى عشرة آلاف مليون طن للبوصة المكعبة ، لكنها في الثقب الأسود اكثر من ذلك بملايين المرات .. انها كثافة اقرب الى اللانهائية .

ومن المبادئ العلمية المعروفة ان قوة جاذبية اي جسم سماوي تزيد بزيادة كتلته .. فالانسان على سطح القمر يحس انه أخف كثيرا ، لأن جاذبية القمر اقل من جاذبية الأرض ، ولأن الأرض اكبر او اثقل من القمر ، وهو على المشترى أثقل كثيرا ، لأن هذا الكوكب اكبر كتلة وجاذبية من الارض .. صحيح ان كتلة الانسان لم تتغير ، لكن التغير يرجع الى تغير في قوى الجاذبية ذاتها ، ولنتصور بعد ذلك ان الانسان قد حل ضيفا على جرم سماوى اكبر كتلة من الأرض بملايين المرات ، عندئذ قد يسحق نتيجة للجذب الهائل الذي يتسلط على جسمه ، وهنا لايدق لحمه وشحمه في عظامه فحسب ، بل تدك ايضا اليكترونات ذراته في أنويتها ، وتسحق مادة جسمه الى حجم ميكروب لايرى الا بالميكروسكوب ، لكن ذلك لايحدث الا اذا حل

على رفات نجم نيوتروني ميت تصل كثافة المادة فيه الى مليون بليون مرة قدر كثافة المادة العادية التي نتعامل معها في عالمنا ، او تطويها في اجسامنا .

لكن الأمور قد تتجاوز ذلك في مركز الثقب الأسود ، حيث تصل كثافة المادة الى بليون بليون بليون مرة (واحد مسبوق بسبعة وعشرين صفرا) قدر كثافة المادة العادية ، وطبيعي أن أحدا لايستطيع ان يستوعب ذلك ، فكأنما أية مادة تتهاوى في الثقب الأسود ، تصبح أثرا بعد عين ، ويرجع ذلك حقا الى ان قوى الجاذبية قد اخذت مبدأ المبادرة ، وأصبحت لها السيادة على كل القوى الأخرى المعروفة ، وبحيث تفعل فيها ماتشاء ، دون ان نعرف شيئا عما يحدث هناك .

ومن أين جاءت هذه الجاذبية الهائلة ، وكيف نشأت ؟

الواقع انها كانت مصاحبة للنجم العظيم الذي مات ، وعندما انفجر وانتشرت معظم مادته في الفضاء ، اندفعت الى جوفه بعنف شديد بعض مكونات هذه المادة ، ولابد ان تكون كتلة المادة المنهارة ذاتها اكبر من كتلة شمسنا بحوالى ثلاث مرات ، ولايهم بعد ذلك ماتشتت من مادة العملاق في الفضاء (هناك نجوم أكبر من شمسنا بعشرات المرات) ، لكن المهم ان تندفع بعض هذه الكتل الجبارة الى قلب النجم بفعل الجاذبية التي كان النجم يقاومها دائما أثناء حياته ، وكلما زاد الضغط ، تعاظمت الكثافة ، وقويت قبضة الجاذبية ، وسحقت المادة ، الى ان تصل الى حدود اللانهائية ، ونحن لانستطيع ان نستوعب معنى

اللانهائية على أية حال . . لا في زمن ، ولاجاذبية ، ولا أكوان ، ولامادة ، ولافضاء !

حدود المعرفة

ومما لاشك فيه ان مثل هذه الأمور لاتنشأ من فراغ ، اذ لاشيء يأتي من لاشيء ، وطبيعي ان العلماء يتعاملون مع الكون على اساس معادلات رياضية - كما ذكرنا - وفي هذه المعادلات يتناولون كل شيء فيه بالتحليل الرياضي ، ولولا ذلك ، لما استطاع الانسان مثلا ان يغزو الفضاء بصواريخه الجبارة ، اذ لابد ان يكون كل شيء محسوبا ومقدرا مقدما - الكتلة والجاذبية والزمن والحركة وما شابه ذلك .

ان انطلاق صاروخ من القمر ليهرب من جاذبيته ، يحتاج الى سرعة دفع اقل من سرعة الدفع التي يحتاجها نفس الصاروخ وهو قابع على الأرض ، ليهرب من جاذبيتها كذلك ، ففي الحالة الأولى تصل قوة الدفع الى ٢,٤ من الكيلومتر في الثانية الواحدة ، في حين أنها ١١,٢ من الكيلومتر في الحالة الثانية ، ومن على المشترى ٦٠,٥ كليومتر في الثانية ، ومن على الشمس (فرضا) ٦١٧ كيلومترا ، ومن فوق قزم ابيض ٣٤٠٠ كيلو متر ، ومن النجم النيوتروني ٢٠٠ ألف كيلو متر في الثانية لكي يهرب من قبضة جاذبيته ، اما بالنسبة للثقب الأسود ، فلا مفر ولامهرب ، حتى ولو بلغت سرعة الهروب ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية (سرعة الضوء) ! . . .

لاشك اذن ان الجاذبية الهائلة في الثقب الأسود تلعب لعبتها لتغلفه بالسواد ، فالمادة فيه ثقيلة وكثيفة الى أبعد الحدود ، ولايعلو عليها شيء آخر من ظواهر الكون التي نعرفها ، لكن ليس معنى التغليف بالسواد ، ان الثقب نفسه اسود اللون ، بل يعني ان الموجات الكهرومغناطيسية المختلفة (ومنها بطبيعة الحال موجات الضوء) تقبر فيه ، ولاتستطيع منه هروبا ، ومن هنا تقف معارفنا عند حدودها ، لأن معرفتنا بأسرار الكون انما تعتمد اساسا على الموجات التي تبعثها الأجسام السماوية ، وتنتشر حولها بطول السموات وعرضها ، حتى تصل الى ارضنا ، فترصدها اجهزة الرصد الجبارة المنتشرة على كوكبنا ، وتحدثنا بأخبارها . . الا الثقوب السوداء ، فلا اخبار منها ولا انباء ، اذ كيف تعرف الأخبار بدون اخبار . . بدون موجات ؟

هل يعني ذلك حقا اننا نتحدث عن ظواهر كونية غيبية ، رغم ان العلوم التطبيقية بعيدة كل البعد عن البحوث في الغيبيات ؟ . . ثم كيف نتحدث عن اشياء لايمكن رؤيتها أو رصدها او التعرف عليها من رسالاتها الموجية غير الموجودة أصلا ؟ . . ثم مايدرينا ان المعادلات الرياضية نفسها يمكن ان تكون صحيحة في كل الأحوال ؟

الواقع ان للثقب الأسود علامات تشير اليه ، وتدل عليه ، حتى ولو لم تره مراصدنا ، او تتعرف عليه بتحليلاتنا . . الاعرابي مثلا قد يخبرك بان غزالا قد مر من هنا ، او جملا قد سار على هذه الرمال ، وهو يحمل الأثقال ، رغم انك وانه لم تريا الجمل بما حمل ، لكن من آثار القدم ، يستطيع ان يتعرف على الغزال والجمل .

وكذلك الحال مع العلماء ، فهم يرون الآثار التي تحيط بالثقب الأسود ، لكنهم لم يروا ابدا ماذا يحدث بداخله ، ولاطبيعة المادة الكامنة في جوفه ، فهناك حدود حقيقية للمعرفة ، ولهذه الحدود أبعاد ، ولقد امكن حسابها ، ومعرفة ابعادها ، ولها اقطار تختلف باختلاف كمية المادة المدفونة ، فكلما كانت أضخم ، كانت الحدود حولها أكبر ، وآثار الجاذبية اعظم ، وهي - على أية حال - خطوط وهمية كخطوط الطول والعرض التي يحدد بها العلماء ابعاد الأرض ، اي ليس لها من وجود حقيقي ، لكنها مع ذلك تساعدنا على تحديد طبيعة الأشياء في ارض او سماء ، وكل هذا تحكمه معادلات رياضية ، وحسابات فلكية .

ولقد اطلق العلماء على الحدود التي تحيط بالثقوب السوداء اسم أفق الحدث او الكارثة او القبر او الثقب ، تعددت الأسماء ، والمعنى واحد ، وهذا الأفق الغريب يفصل بين عالمين مختلفين ، عالمنا الذي نعيش فيه ، ونتعامل معه بنظرياتنا ومداركنا ومعادلاتنا ومشاهداتنا ، وعالم آخر يغلفه الأفق في داخل الثقب الأسود بالسرية والكتمان ، وفيه تتهاوى حدود الزمان والمكان ، وتصبح المادة ذاتها في حال غير الحال ، ولهذا اطلقوا عليها الحالة المفردة او المتفردة ، أي التي ليس كمثلها شيء مما تعرفه عقول البشر ، حتى ولو اجتمعوا لها بكل معادلاتهم وقوانينهم ونظرياتهم ، ذلك ان كل شيء في هذا العالم الكائن في داخل الثقب او القبر الأسود ، يبدو وكأنما هو محظور علينا معرفته ، لكن مسموح لنا فقط بمعرفة ما يجري خارجه ، اي اكواننا الحية والمنظورة والمجسدة ، سواء في الأرض او السموات ، وفيما وراء ذلك ، فلاحق لنا في ادراكه !

علامات على الطريق

لكن . . ما يدرينا ان حسابات ومعادلات علماء الطبيعة الكونية صحيحة ؟ . . وهل هناك دليل على وجود ثقوب سوداء في السماء ؟

لكي لاتصبح الحسابات حبرا على ورق ، فلابد من بحث للخروج من هذا المأزق . . . فالمعادلات تشير الى وجود جاذبية هائلة في جوف الثقب ، لكن هذه الجاذبية تنتشر حوله ايضا ، كما تنتشر في أي جرم سماوي او حوله ، وما دامت معرفتنا معدومة بما يجري من احداث في داخل الثقوب السوداء ، فلا أقل من البحث في الظواهر التي تنتشر حولها ، واهمها على الاطلاق هي قوى الجاذبية الرهيبة التي تجذب اي شيء لتدخله الى هذا العالم المجهول ، ذلك ان الجاذبية على أفق الحدث ذاته ، أو على حدوده ، أكبر من الجاذبية التي تمارسها على سطح كوكبنا بحوالي ١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مرة (اي ١,٥ مليون مليون مرة) ، ولهذا فلو تصورنا ان انسانا كان يقف على حافة هذا القبر السماوي ، فانه سيثاقل او يتضاعف وزنه الى حوالي ١٠٠ تريليون كيلو جرام ، لأن الكثافة ذاتها ستصبح على الحافة حوالي ١٧ , ٨٠٠ , ٠٠٠ , ٠٠٠ طن لكل سنتيمتر مكعب واحد ، وهي بلا شك في مركز الثقب أعنف وأكبر من ذلك !

ومثل هذه الأرقام الكونية توضح أن الأمور هناك فوق عادية ، ومن أجل هذا فان أقرب تصور لحالة الثقب الأسود أنه أشبه بدوامة سماوية هائلة ، أو هي دوامة جاذبية تخلق حولها تيارات لتدور بكل شيء حولها ، الى أن يسقط في جوفها ، مع الاختلاف طبعا بين طبيعة دوامة مائية أو هوائية ، ودوامات جاذبية ، اذ أن كل شيء يسوقه قدره للاقتراب من دوامة الجاذبية ، فلا مفر من بلعه في جوفها ، أو كأنما هي أشبه « بمكانس » سماوية جبارة « تشفط » ما حولها ، ليعبر أفق الحدث ، ويروح في خبر كان ، دون أن نعرف الى أين ذهب ، أو ما حدث .

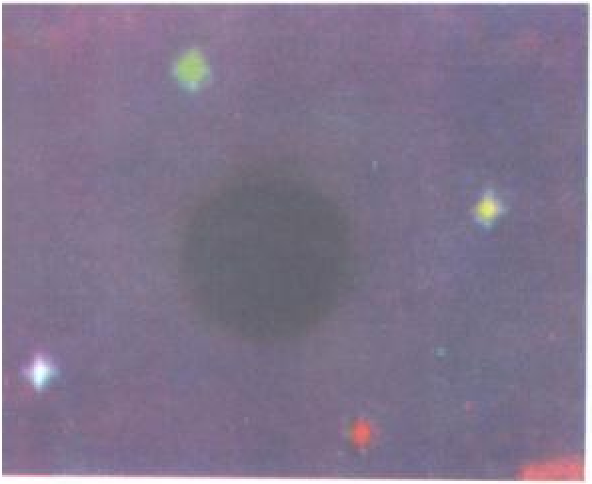
وطبيعي ان هذه المكانس او الثقوب لاتتعامل الا مع كميات هائلة من المادة ، ذلك أن الثقب الأسود يلتهم النجوم بنفس السهولة التي نلتهم بها الطعام ونحن جوعى ، وحيث نشبع نحن بعد دقائق قد تطول ، الا ان الثقب الأسود لايشبع أبدا ، فكلما زاد بلعه ، زاد نهمه ، وكأنما لسان حاله يقول « هل من جديد . . هل من مزيد » ؟!



الثقب الأسود كما يتصوره العلماء يبدو هنا كدوامة كونية يختفي فيها الزمان والمكان والمادة بكل صورها (ممثلة بنماذج اعلى الصورة) وبحيث تتحول كل ظاهرة معروفة في عالمنا الى حالة مفردة ليس كمثلها شيء بعد أن تتخطى أفق الحدث

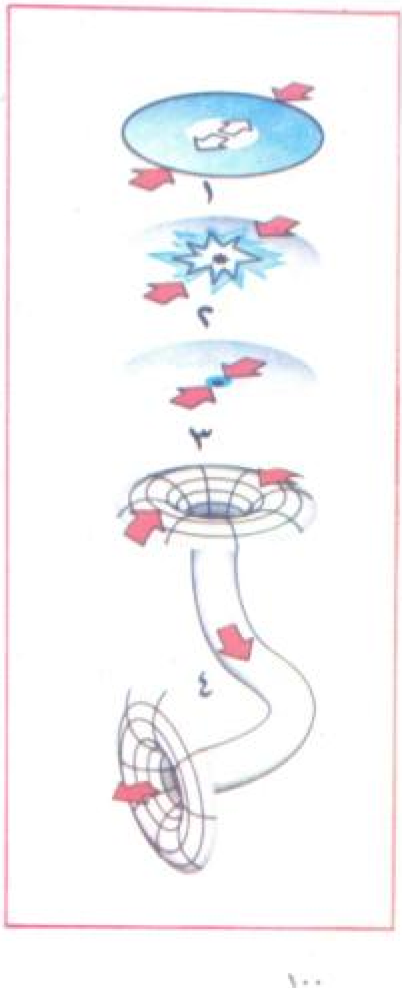
ويبدو ان الثقوب السوداء هي « جبانة » أو مقبرة النجوم ، او أية مادة كونية اخرى ، اذ ان هذه المقابر السماوية تنمو وتتسع وتنتشر جاذبيتها الرهيبة على كل ما حولها لأن الجذب يزيد ، كلما زاد الرصيد ، ولا رصيد بالمعنى المفهوم ، لأن رصيدها ليس مادة ، بل هو في الحقيقة « حالة » . . حالة متفردة لا يدرك احد أبعادها ، فكأنما المادة ذاتها قد تحولت الى قوى جذب ، أو كأنما هي بالنسبة لمجموعتنا الشمسية كلها بمثابة انسان « يقزقز اللب » . . اي ان المجموعة لاتحتل في جوفها شيئا مذكورا !

ولكي نتعرف على وجود الثقوب السوداء ، فلا بد من البحث أولا في « مراسم » الدفن ، وما يصاحبها من « بكاء ونحيب » ، ذلك أن كل مادة كونية يسوقها قدرها للاقتراب من جاذبية الثقب ، فلا بد أن تشدها اليها بضراوة ، وكلما اقتربت أكثر ، جذبتها أعظم . . وأعظم . . وأعظم ، وفي هذه الاثناء يصاحب اندفاعها موجات كهرو مغناطيسية أعنف وأعنف ، وكأنما هي بمثابة الأنباء التي تصل العلماء ، كشهادة وفاة تسبق عملية الانتقال من كونها المعلوم الى كون مجهول بكل أبعاده



من خلال هذه الصورة التوضيحية تصور وجود الثقب الأسود في الفضاء ، وحدوده تفصل بين عالمه الغامض وبين عالمنا الذي نتعامل معه بأحاسيسنا ومعاملاتنا ونظرياتنا .

يوضح هذا الرسم ببساطة شديدة (١) كيف تعمل قوتان متضادتان متساويتان (جاذبية الى الجوف يقابلها طاقة رهيبة تدفعها للخارج) للحفاظ على حياة النجوم من الانهيار ، لكنها في النهاية تنهار وتتكدس المادة في الجوف (٢) ثم قد يتكون نتيجة لذلك ثقب أسود (٣) يبلع كل شيء حوله نتيجة لجاذبيته العنيفة ، ثم تبعث المادة من خلال ثقب ابيض ، بعد ان تمر في نفق (تصوري بطبيعة الحال) .. وهو هنا موت وبعث على مستواه الكوني الضخم .



مجرتنا التي نعيش فيها ، والسهم يشير الى موضع المجموعة الشمسية التي تقع في الثلث الخارجي لحافة المجرة .. ونظرا للاحداث غير العادية التي تتم في قلب المجرة أو مركزها وما ينبعث منها من إشعاعات جبارة ، فان بعض العلماء يعتقد أن هذا القلب ربما كان بؤرة لثقب أسود يلتهم كل يوم مادة قدر المادة الموجودة في شمسنا .. هذا وتبلغ كتلة الشمس حوالي ٢ بليون بليون بليون طن !



تجمع كثيف من نجوم يعتقد العلماء انه يحتوي في مركزه، على
ثقب أسود تتهاوى فيه النجوم المزدحمة في قلب التكوين .



ومماتيه ، فاذا تخطت حالة القبر ، أوالق الحدث ، فلا حس ولاخبر !

البحث عن القبور السوداء

والواقع ان العلماء يتعاملون مع الكون من خلال مادته وموجاته ، لأن هذه تنبع من تلك ، ولاشك أن الموجات توضح لنا الحالات التي تتعرض لها المادة في فرجها وضنكها ، وفي ابتعاد الأكوان عنا ، أو اندفاعها نحونا ، أو مرورها في مجالات مغناطيسية ، أو تعرضها لقوى الجاذبية ، الى آخر هذه الأمور التي تصبح فيها الموجات بمثابة « الف باء » الكون ، أو هي لغته الشفرية التي تحكي لنا أحداثه وبعثه وموته ودفنه . . الخ .

ونحن لا نتعامل مع هذه الموجات بذاتنا أو أحاسيسنا ، لأن حواسنا قاصرة عن ذلك ، ومع ذلك فهناك أجهزة استقبال فائقة الحساسية ، وهي جزء هام من المراصد الفلكية التي تلتقط أنباء السموات بالصورة والموجة ، وتتوغل في جنباتها لآلاف الملايين من السنوات الضوئية ، وترصد كل بقعة في السماء ، وتمدنا بالأنباء ، وقد يكون الرصد من خلال موجات الراديو ، أو الموجات تحت الحمراء (الأشعة الحرارية) ، أو موجات الضوء المنظور ، أو الأشعة فوق البنفسجية أو الأشعة السينية (أشعة إكس) أو أشعة جاما ، وكل واحدة من هذه تنبيء عن حالة ، لكن ما علينا من كل ذلك ، فالشرح قد يتشعب ويطول ، لكن يكفي أن نقول أن المراصد عندما تتوجه الى أي ركن في السماء ، وتلتقط أحداثه ، فانها تأتي عادة بكل ما هو مثير وغريب ، وأحيانا يمكن تفسير الظاهرة ، وأحيانا أخرى تفشل على التفسير ، وهنا يقدح العلماء زناد فكرهم ، ويطورون معادلاتهم ونظرياتهم علهم يصقلون معارفهم ، فيقتربون من الحقيقة ، علهم يصبحون منها قاب قوسين أو أدنى .

ولقد التقط العلماء بالفعل رسائل غريبة ، مسجلة بالاشعة السينية ، وعندما تسلطت المناظير الفلكية لرصد مصادرها ، لم يروا لدهشتهم اي جسم سماوي قد يكون هو المسئول عن بثها ، واغرب من ذلك ان البث لم يكن صادرا الى الخارج ، كما هو الحال في اي نجم او منطقة « ساخنة » في السماء ، لكنه بث الى الداخل ، بمعنى ان هناك بؤرة غريبة تصطاد كل ما حولها ، وتدفنه في باطنها ، ودون ان يظهر في الباطن شيء على الاطلاق .

كذلك يعتقد بعض العلماء ـ نتيجة لدراسات طويلة ومعقدة ـ ان مراكز معظم المجرات ـ ومنها مجرتنا ـ ليست في الواقع الا بؤرات لدفن نجومها التي تتكدس حولها ، وتهوي فيها ، اذ تصل كثافة النجوم في قلب المجرة لمئات الألوف او ربما الملايين قدر كثافتها على حافة المجرة ، ويذهب بعض العلماء الى أبعد من ذلك ويقدرون أن الثقب الأسود في مركز مجرتنا ربما يكون قد ابتلع وأباد حوالى مائة مليون شمس ، والبقية تأتي ، ورغم ان هذا الرقم كبير ومخيف ، الا انه لايمثل الا جزءا واحدا من الف جزء من نجوم مجرتنا ـ وهناك حقائق اخرى كثيرة ومثيرة ، لكن المجال هنا لايتسع لذكر المزيد .

الموت والبعث على المستوى الكوني

هل يعني هذا أن النجوم والمجرات والكون ذاته . . . كل هذه الأشياء ستدفن في ثقب اسود ؟

الواقع ان كثيرا من العلماء يعتقدون ذلك ، خاصة وان الدلائل التي تجمعت تشير الى ذلك ، فهناك ظواهر كونية غريبة اشد الغرابة ، ولغرابتها جعلت العلماء يضربون اخماسا في أسداس ، ولهذا اطلق بعضهم عليها ظواهر او اكوانا غير عادية او اكوانا عليا Super universes ولن نتعرض لتفاصيلها هنا لضيق المجال ، لكن هذه التفاصيل تشير الى ان الثقوب السوداء ـ رغم غرابتها ـ هي الملجأ الاخير لتفسير ما يعجزون عن تفسيره !

ولاشك ان هناك سؤالا هاما ربما يكون قد راود بعض العقول ، والسؤال المحير هو : اين تذهب مادة ملايين الشموس المقبورة ؟ . . وهل تبقى حقا على هيئة حالة مفردة او متفردة ؟ . . وهل يمكن ان يطوى الزمان والمكان الى الابد ، فلا يكون لهما في داخل الثقب الاسود من وجود حقيقي ؟ . . وماذا يعني حقا اختفاء الزمان والمكان ؟

وكلها ـ كما ترى ـ أسئلة حرجة تعصر العقول المفكرة عصرا ، ومع ذلك ، فقد راح العلماء يبحثون عن بعض الحلول ، علها تريح العقول ، ولقد برزت بعض هذه الحلول لتكون اقرب الى مداركنا فيما نعرفه ـ نسبيا ـ عن معنى التناسق في الظواهر الطبيعية ـ فكما كان هناك نور وظلام ، وسالب وموجب ، وخير وشر ، وموت وحياة ، وأسود وابيض ، وماض ومستقبل . . الخ . . الخ ، كذلك كان التناسق في بناء هذه الاكوان وبعثها وموتها .

يعني هذا ان الثقب الاسود ظاهرة او حالة تدفن فيها المادة القديمة ، لكنها تبعث مرة اخرى من خلال ثقب ابيض ، وهو ايضا حالة اخرى لا ندري عن طبيعتها شيئا ، ومن خلال هذا الثقب الابيض ، ينفرد المكان

(الفضاء) ، ويسري الزمان ، بعد ان مر هذا وذاك بحالة من الانطواء التي لا زمان فيها ولا مكان !

لكن ... ما هو الثقب الابيض ؟

ليس هناك ما هو ايسر من تعريف كتبه الفلكي آدريان بيري عن ذلك « ان الثقب الابيض ليس اقل غرابة من الثقب الأسود ، لكنه ببساطة عكس الأسود .. فحيث يبدو الثقب الأسود انطواء الى الداخل ، يبدو الثقب الأبيض انتشارا الى الخارج ، اي ان العملية معكوسة ، واذا كان كل شيء لا يستطيع ان يهرب من الثقب الاسود ، الا ان كل شيء - ان آجلا او عاجلا - سوف يهرب من الثقب الابيض ، واذا كانت الثقوب السوداء يمكن معاملتها على انها ظواهر كونية لذلك فان الثقوب البيضاء هي الظواهر الكونية المضادة او المعكوسة **Antiphenomena**.

وعلى نفس هذه الظواهر الغريبة يعلق العالم الرياضي روبرت هيلمتج بقوله « ان الثقوب السوداء مرتبطة بالثقوب البيضاء وانه في نقط محددة بين هذه وتلك ، يرتبط عالمنا (الاكوان المرئية او المرصودة) ويوصل بالحالات المتفردة في الثقوب السوداء والبيضاء ».. وربما يعني هيلمتج بذلك ان اكواننا التي نعرفها هي حالة وسط بين حالتين متناقضتين لا نعرف عن طبيعتها شيئا ولا ندرك ما يجري فيها او لنضعها هنا بتصور قريب لنا جميعا وهي حالة الاجسام الميتة التي تعود الى التراب او تتحول الى عناصر بسيطة لكنها بعد ذلك تدخل في تكوين اجسام الاحياء من خلال دورات ازلية تتم على كوكبنا بمعنى ان كل ما يخرج من عناصر الأرض لا بد ان يعود الى الارض في عمليات بناء وهدم متتالية .. ربما مصداقا للآية الكريمة « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى ».

كذلك الحال مع الثقوب السوداء والبيضاء .. ففي الثقوب السوداء تقبر الاكوان القديمة ومن الثقوب البيضاء تبعث الاكوان الجديدة ... لكن كيف يتم ذلك فلا ندري عن ذلك شيئا ... كل ما ندريه ان السموات قد نصبت امامنا مسرحا هائلا لنرى فيه احداثا تتم بدورها عن هدم وبناء او موت وحياة على كل المستويات في المادة والزمان والمكان ، فحيث توجد اي ظاهرة من هذه الظواهر فلابد من وجود الاخرى،بذلك ان المادة مرتبطة بالزمان والمكان ،لا مادة،اذن لا مكان ولا زمان،وكل هذا مرتبط ايضا بمعادلات رياضية عالج البرت اينشتاين بعضها في نظريته النسبية ولا ننسى بطبيعة الحال ان بعض معادلات هذه النظرية قد تحقق تطبيقه في القنابل الذرية والايدروجينية ، وجاء من بعده خلف اضاف الى معادلاته الكثير وبها تفتحت العقول على اسرار الكون واشارت الى ما يمكن ان يحتري المادة والزمان والمكان من احداث غريبة قد لا يمكن استيعاب بعضها الا من خلال المعادلات وبحيث لا تنفع معها لغتنا العادية التي نعبر بها عن امور عالمنا العادي كذلك ، لكن الامر يختلف مع الثقوب السوداء والبيضاء فعندها تتوقف حدود معرفتنا اذ ليس كمثلها شيء مما بين ايدينا .

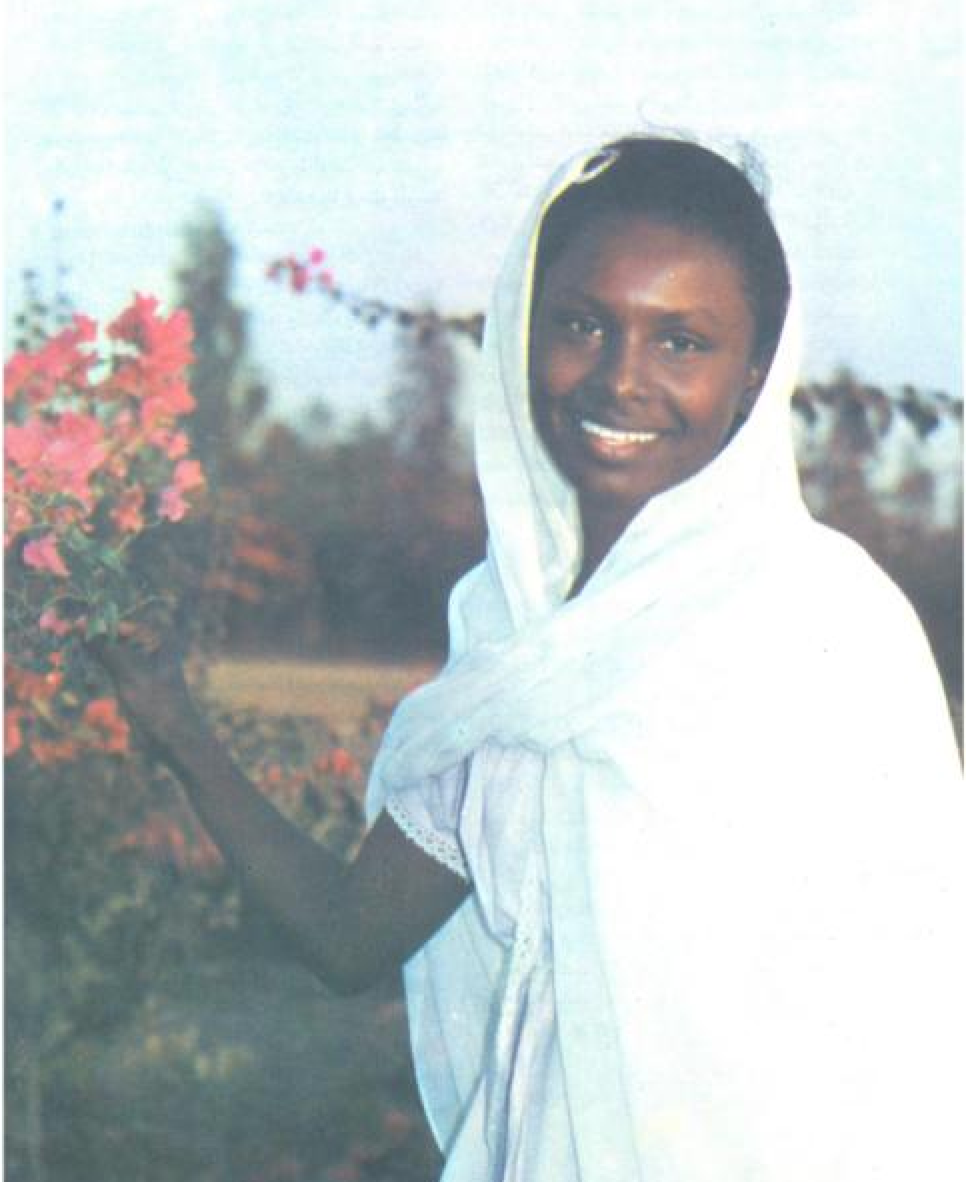
لقد ذكرنا ان ما بداخل الثقب الأسود لايمكن ان يرى ، حيث لايخرج منه شيء على الاطلاق ، ليتم عن طبيعته ، لكن الثقب الأبيض قد يرى ، لأنه بعث جديد على مستوى المادة الكونية المنهارة ، وفي البعث نشور ، وفي النشور ظهور ، ولقد وقعت « عيون » المراصد الفلكية الجبارة على ظواهر كونية باهرة الضياء ، وتقع بالنسبة لنا على حافة الكون المنظور ، اي على مسافات جبارة تقدر بحوالى ١٢ الف مليون سنة ضوئية ، وعلى مثل هذا البعد الشاسع لايمكن ان يظهر شيء ، لكنه ظهر ، لأن الأضواء هناك ليس كمثلها ضوء آخر معروف .. لأن شدته ولاجبروته .. ولقد اطلق العلماء عليها اسم الكوازرات **Quasers** ، وتعني النجوم الثاقبة او شديدة الضياء ، وهي ليست بنجوم ، بل مجرات تقدر اعدادها بالملايين ، وقيل عنها الكثير ، ومن ضمن ماقيل انها ثقوب بيضاء ، تقابلها ثقوب سوداء .. الأولى ترى ، والثانية لاترى .. فكأنما خروج كون جديد ، يتم عن طريق كون قديم ، اذ يدخل هذا من ثقب ، ليخرج ذاك من « ثقب » وكأنما ينطبق عليهما نص الآية الكريمة « يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي » .. سواء كان ذلك على مستوى مخلوقات او نجوم ومجرات !

هناك ايضا مجرات غريبة كأنما هي تلتهم مادتها ، لتتحول الى اضواء باهرة ، ولقد اطلقوا عليها اسم مجرات سيفرت **Seyfert** نسبة الى مكتشفها العالم الفلكي كارل سيفرت ، وفي هذه المجرات الغريبة ايضا يتشعب الحديث ويطول ، لكن يكفي ان نقول انها مؤشر حسن لوجود ثقوب سوداء توصل الى ثقوب بيضاء ... او هي قبور ونشور ، او موت وحياة .. الخ .

أي كأنما المادة الكونية تموت وتبعث ، وتطوى ثم تعود الى الظهور ، وتتكرر العملية الى الأبد ، ليكون الدوام لقدرة الله وجلاله في اكوانه ، فتصبح اقرب الى المفهوم الذي ورد في القرآن الكريم « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين » وفي هذا الكفاية لقوم يتفكرون ويتدبرون . ■■

الاسكندرية - د . عبد المحسن صالح

الرهد في



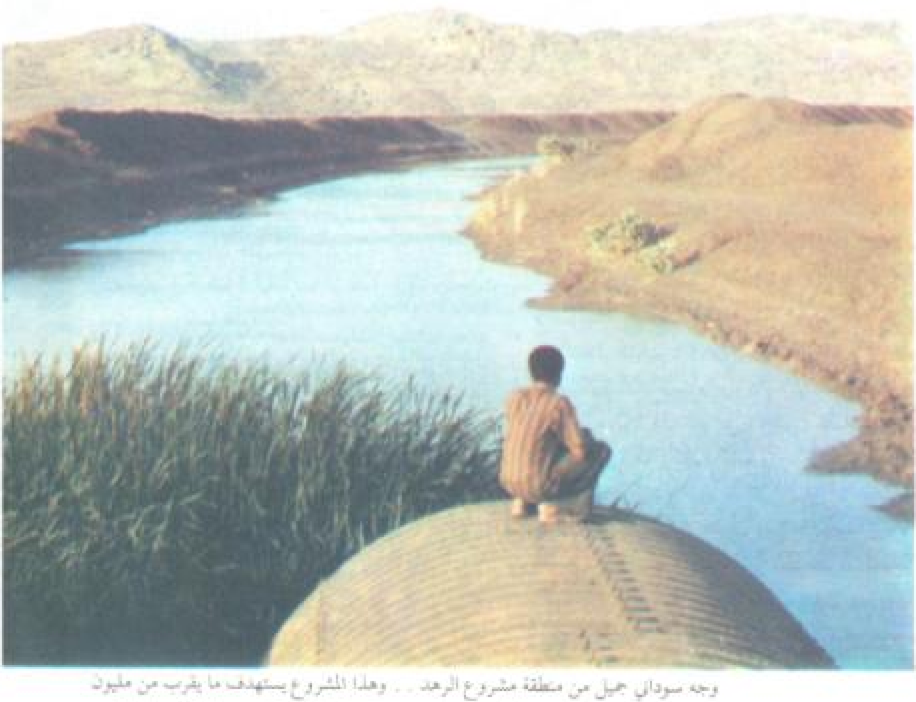
السودان
رحلة مع الأرض والماء والمستقبل

استطلاع : منير نصيف

تصوير طالب الحسيني

ثمة شعور ينتابني في كل مرة أحزم فيها أمري وأذهب الى البلد الشقيق السودان انه شعور « العائد » الى بلده وأرضه ، وأبحث في داخلي عن سر هذا الحنين ، فلا ألبث أن أجده .. لقد أمضيت جانبا من طفولتي في السودان ، وما زالت صورته عالقة بتلك الصفحة التي كانت بيضاء ثم ما لبثت أن ملأتها السنون بصور أخرى عديدة للحياة التي يراها المرء وهو ماض في رحلته القصيرة عبر الزمن . . . انها تتزاحم وتتراكم ولكنها لا تلغي بعضها البعض .

ولكن ربما أيضا هذا الدفء الذي يحس به الزائر . . . أي زائر حتى لو كان غريبا عندما يلتقي بأهل هذا البلد الطيب . . . وجوه سمراء باسمة قانعة بحياتها حتى مع الحرمان تراها في كل مكان فيخيل اليك أنها ليست أبدا غريبة عنك !



وجه سوداني جميل من منطقة مشروع الرهد . . وهذا المشروع يستهدف ما يقرب من مليون فدان تروى من مياه النيل الأزرق عن طريق حفر ترعة رئيسية تمتد منها شبكة مياه الري .

لقد زرنا السودان مرات ومرات .. ذهبنا في كل اتجاه من هذه الأرض الشاسعة التي تزيد مساحتها على مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع .. زرنا الشمال فوجدناهم يبكون على الأرض التي أغرقتها مياه السد العالي، وذهبنا الى الجنوب فرأيناهم يرقصون بعد أن توقف الصراع الطويل بين أهل الشمال وأهل الجنوب الذي ثار بذوره المستعمر الانجليزي قبل أن يحمل عصاه ويرحل عندما اختار السودانيون الاستقلال منذ ربع قرن أو يزيد.

وسافرنا الى الشرق حتى اقتربنا من حدود أثيوبيا عند مدينة كسلا وما حولها ورأينا الأرض الطيبة وقد كساها اللون الأخضر .. لون الحياة، كل أنواع الخضر والفاكهة تنمو هناك وتتساقط ثمارها تحت الأشجار التي تحملها. ولا تمتد الايدي لجمعها ... فهذه هي بعض مشاكل السودان ... وذهبنا غربا الى الابيض عاصمة كردفان، ورأينا حضارة قديمة تتمثل في شجرة ... انها شجرة الصمغ الذي عرفه العرب واستخدموه في غذائهم ودوائهم منذ قرون ... وما زال هناك تمتلىء به جذوع الشجرة العجوز.

أهل السودان وثروته

وفي كل مرة كنا نعود من زياراتنا لنسجل ما رأينا بالكلمة والصورة، ولكننا كنا نحس أننا أكثر حيرة ... فما زال أمامنا الكثير الذي لم نصل اليه ولا نعرف عنه شيئا ... وعلى الفور يحضرنا قول زعيم عربي كبير: رأس مال السودان خلق أهله الكريم ثم الثروات الهائلة المدفونة في أرضه! كيف لنا أن نصل اليها ونتحدث عنها ... ولكنها محاولات!

وعندما ذهبنا اليهم في هذه المرة وجدناهم يعيشون أعقد مشكلة واجهتهم. الحالة الاقتصادية السيئة التي يعاني منها الغني والفقير، ثم بعد هذا المشاكل الكثيرة الاخرى التي كان السودان ولايزال يعاني منها، وفي مقدمتها ندرة الأيدي العاملة، فتعداد السكان لا يتناسب مع المساحة الهائلة للارض التي يعيشون فوقها ... انهم لا يزيدون على عشرين مليون نسمة (تعداد تقديري)، موزعين على مليونين ونصف مليون من الكيلو مترات المربعة، هذا لا يعني طبعا ان الناس يعيشون في كل شبر من أرض السودان، فهناك مناطق لم تطأها قدم حتى اليوم. ويقدرون المساحة غير المأهولة أو غير المسكونة من هذه الارض الواسعة بأكثر من ثلث المساحة الاجمالية للسودان التي كما تقول الارقام تزيد على ثلاثة أضعاف مساحة فرنسا، أكبر الدول الاوروبية الغربية اتساعا، والتي يبلغ تعداد سكانها أكثر من أربعين مليون نسمة. ومع هذا تشكو فرنسا من قلة الأيدي العاملة وتفتح أبوابها للعمال المهرة الوافدين، وفي الوقت ذاته تشجع زيادة النسل، [وكان ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية الخامسة يمنح الأم الفرنسية التي تنجب أكبر عدد من الأطفال، وساما ومعونة مادية مع لقب « الأم المثالية » !].

الجبل .. والرهد !

يحدث هذا في فرنسا بينما نجد في السودان هجرة مضادة، نتيجة للأسباب الاقتصادية ذاتها ... وهم جميعا أو معظمهم من أصحاب المهن الذين يجدون كل ترحيب بعملهم وخبرتهم في كل بلد عربي وغير عربي .. وعدد كبير نسبيا من العمال الفنيين وغير الفنيين ... ولكن في قلوبهم كلهم حب كبير لكل ما هو عربي أو يمت للعروبة بصلة ... فهذه الصلة كانت وما زالت قائمة منذ قرون بعيدة مضت.

هذه المرة الأخيرة التي زرنا فيها السودان، كانت وجهتنا منطقة بعيدة نائية في غرب السودان اسمها « جبل مرة »، كنا قد سمعنا عنها كثيرا، وأهم ما سمعناه عن الجبل انه أرض خصبة يزرعون فيها كل أنواع الخضر والفاكهة ... وانه منطقة سياحية جميلة اذا استغلت الاستغلال السليم ... ولكن لاثماره تخرج الى خارج حدوده ولا السياح يزورونه، بسبب مشكلة النقل ثم النقل. سمعنا هذا كله عن « الجبل » القابع في أقصى الغرب، ولكننا لم نجد كلمة واحدة مطبوعة أو حتى صورة تمثل الحياة في هذه المنطقة، يمكن أن تعطينا فكرة أوضح لما نحن مقبلون عليه، ومع هذا وطدنا العزم على الذهاب وبذلنا جهدا كبيرا حتى استطعنا أن نحجز لنا مقعدين في الطائرة الذاهبة الى مدينة (نيالا)، ومنها الى الجبل بالسيارة ... ولكن خطتنا ما لبثت أن اصطدمت



خريطة توضح موقع مشروع الرهد

بالأزمة الطاحنة التي كان السودان كله يعاني منها في ذلك الوقت .. أزمة البترول الخانقة التي توقف عندها كل شيء يتحرك من الانسان الى الآلة .

وكانت هناك منطقة أخرى تدخل ضمن برنامج زيارتنا للسودان ... وهي منطقة « مشروع الرهد » ... وقد سمي المشروع باسم النهر الذي ينبع من جبال الحبشة أو أثيوبيا على مسافة عشرين كيلو مترا شمال غربي بحيرة (تانا) ، ثم ينحدر نحو الشمال الغربي لمسافة سبعمائة كيلو متر حتى يبلغ مصبه الضفة الشرقية للنيل الأزرق بالقرب من قرية أبو حراز ، وهو نهر موسمي يفيض أربعة أشهر فقط كل عام فيبلغ ذروته في شهر سبتمبر ، وتقدر المساحة التي تتجمع فيها مياه الرهد بحوالي ثمانية آلاف كيلو متر مربع أما حجم مياه فيضانه فيصل الى ألف ومائة مليون متر مكعب .

وهو مشروع زراعي ساهم في انجازه صندوق التنمية الكويتي بمبلغ ٥٠ مليون دولار ، أو أكثر من ثلث المبالغ التي ساهمت بها هيئات ومؤسسات أخرى ... وهو أول مشروع زراعي صناعي في السودان يعتمد على الميكنة الزراعية .

الميكنة الزراعية

وذهبنا اليه ... المسافة من الخرطوم الى موقع المشروع حوالي ثلاثمائة كيلو متر ... وهو يمتد على الضفة الشرقية لنهر الرهد ويغطي مساحة طولها ١٤٠ كيلو مترا وعرضها يتراوح بين ١٥ و ٢٥ كيلو مترا بين قرية الحفارة في الجنوب وقرية أبو حراز في الشمال ، ويخترق المشروع طريق مدينة [مدني ـ القضارف] ، وهو طريق ممهد ، وقد أقامت رئاسة المشروع في تقاطع الطريق عند جبال الفاو التي تبعد حوالي ٨٠ كيلو مترا عن مدينة مدني .

وأمضينا عدة أيام بين العاملين في مشروع الرهد ... زرنا حقول القطن وكان توقيت الزيارة ملائما ورأينا آلات « جامعات القطن » **Cotton PICKERS** وهي تجمع القطن آليا بدلا من ألوف الأيادي التي اعتدنا أن نراها في موسم الجني . ورأينا المحالج ، ومررنا بكل المراحل التي تسبق عملية كبس بالات القطن واعدادها للتصدير ... مجتمع متكامل بمدارسه ومساجده ومستشفاه وأسواقه وبيوت العاملين فيه ... ولتدع الصور تتكلم ، فهي أصدق من كل وصف .

كيف بدأ هذا المشروع ولماذا هنا وماذا حقق من أهدافه ؟ ومع المهندسين الشبان القائمين على هذا العمل كان لنا لقاء ومشوا يحدثوننا ونحن نتجول معهم في أرجاء هذه المزرعة التي يعتمد العمل فيها على الآلة حرثا وريا وجمعا لما تقدمه من محاصيل .

منطقة مشروع الرهد مرعى خصب لتربية الحيوانات اذا اهتم المشرفون عليه بزراعة الأعلاف

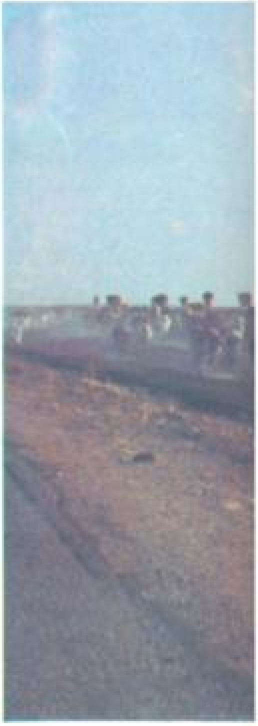


مشروع الرهد الأول من نوعه الذي تستخدم فيه الميكنة الزراعية . . ترى لماذا لا يكون عندنا مصنع لانتاج الجرارات الزراعية





ان الهدف من المشروع زيادة الرقعة الزراعية في أرض كلها صالحة للزراعة .. والقطن أو الذهب الأبيض ثم الفول السوداني من المحاصيل الأساسية لهذا المشروع .





ولدت فكرة مشروع الرهد في أوائل الستينات عقب حصول السودان على استقلاله ، وكان الهدف من المشروع الذي بقي لأكثر من عشر سنوات حبرا على ورق هو زيادة الرقعة الزراعية في أرض صالحة كلها للزراعة ، ولكنها لا تجد التمويل الكافي لتنفيذ المشروعات التي لا بد من انجازها لتحويل هذه الارض الخصبة الى واحدة من أكبر المزارع في العالم ، فهم يقدرون مساحة الأرض الصالحة للزراعة في السودان بأكثر من مائتي مليون فدان لم يزرع منها حتى الآن أكثر من ١٦ مليونا فقط في جميع أنحاء القطر ، سواء كانت أرضا مروية بمياه النيل ، أو أرضا تعتمد على الأمطار .



الدكتور علي التوم .. الرأي الآخر

٣٠٠ ألف فدان

ويقول المهندس صديق عابدين المدير الزراعي للمشروع : « كان مشروع الرهد أساسا ، وطبقا للدراسات التي تم اجراؤها ، يستهدف ما يقرب من مليون فدان تروى من مياه النيل الأزرق عن طريق حفر ترعة رئيسية تبدأ أمام خزان الروصيرص الذي يبعد عن الخرطوم بحوالي خمسمائة كيلو متر الى الجنوب من العاصمة ، خارج أرض الجزيرة في مديرية النيل الأزرق .

« ولكن ما لبث المشروع أن بدأ على أسس مختلفة تماما ، فقد تم تعديل الدراسة الأساسية ، وتقرر تعمير مرحلة أولى تبلغ مساحتها ٣٠٠ ألف فدان ، تروى بواسطة طلمبات سحب المياه من النيل الأزرق ، وهي محطة طلمبات مينا » بالقرب من مدينة « سنجة » التي تبعد عن الخرطوم بحوالي أربعمائة كيلو متر الى الجنوب على الضفة الشرقية للنيل الأزرق . وقد بدأ تنفيذ هذه المرحلة في عام ١٩٧٣ .

« وفي عام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ تمت عمليات المنشآت الرئيسية الخاصة بالري والمحالج والمباني والورش والمخازن وكل ماله صلة بقيام هذا المجتمع الزراعي الصناعي الجديد في هذه المنطقة التي تقع تقريبا في منتصف المسافة بين الخرطوم العاصمة وميناء بور سودان ، وهو الميناء الرئيسي للسودان على البحر الأحمر .

ويكمل حديثه : « وفي هذا العام أيضا ١٩٧٧ بدأ تشغيل المرافق وهي العملية التي واكبت بداية رحلة الانتاج بالقسم الجنوبي من المشروع حيث تمت زراعة ٥٠ ألف فدان قطن متوسط التيلة ، وكذلك عشرة آلاف فدان قمح ، وألف فدان بساتين . وفي العام الذي تلاه ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ بدأت عمليات التوسع في الرقعة الزراعية ، وكانت تسير جنبا الى جنب مع أعمال الانشاءات للقسمين الاوسط والشمالي ، وتمت في هذا العام زراعة حوالي ٩٠ ألف فدان قطن أي بزيادة ٤٠ ألف فدان عن الموسم الذى سبقه بالاضافة الى زراعة ٦٠ ألف فدان فول وكذلك ثلاثة آلاف فدان خضر وفاكهة للاستهلاك المحلي .

« وفي عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ بقيت المساحات المزروعة على ما كانت عليه في العام الذي سبقه فيما يتعلق بالقطن أي ٩٠ ألف فدان . أما الفول فقد زادت مساحة الأرض المزروعة به الى ٩٠ ألف فدان ، أي بزيادة ٣٠ ألف فدان عن العام الذي مضى وكذلك بقيت مساحة الأرض المزروعة خضرا وفاكهة على ما هي عليه .

« ثم جاء عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ وارتفعت مساحة الأرض المزروعة قطنا الى ١١٥ ألف فدان كما ارتفعت مساحة الارض المزروعة فولا إلى ١٠٤ ألف فدان ، وزادت مساحة الأرض المزروعة بالخضر والفاكهة الى أربعة آلاف

و ٥٠٠ فدان للاستهلاك المحلي داخل المشروع والمناطق المجاورة .

« وهكذا تكون المرحلة الأولى للمشروع قد اكتملت في عام ١٩٨١ - ١٩٨٢ ، فقد ارتفعت رقعة الارض المزروعة قطنا الى ١٣٠ ألف فدان والفول الى ٩٠ ألف فدان وأدخلت في هذا العام أيضا ولأول مرة زراعة الذرة وقد شغلت مساحة تقدر بأربعين ألف فدان ، كما ارتفعت مساحة البساتين الى سبعة آلاف وخمسمائة فدان (خضر وفاكهة) ويبقى بعد هذا ١٢ ألفاً وخمسمائة فدان خصصت لتنمية الثروة الحيوانية والمراعي والأعلاف وزراعة الغابات وقد بدأ العمل بالفعل في هذه المشروعات التي تشغل المساحة المتبقية من أصل الثلاثمائة ألف فدان التي تمثل المرحلة الأولى من مشروع الرهد والتي اكتملت بحلول عام ١٩٨٢ .

ولم يعد النهر يجف

ويمضي المدير الزراعي يحدثنا عن أهداف المشروع :

« انه خطوة في طريق زيادة رقعة الأرض الزراعية بطبيعة الحال ، ثم تحويل المجتمع الرعوي الذي تعود على الزراعة الموسمية الى مجتمع زراعي حديث مرتبط بالأرض ، وما يترتب على هذه المحاولة من بناء الانسان السوداني الجديد . وقد ساعد على المضي في تنفيذ المشروع زيادة حصة السودان من مياه النيل بعد توقيع الاتفاقية الخاصة بها في عام ١٩٥٩ ، إذ ارتفعت هذه الحصة من ٤ مليارات متر مكعب من المياه الى ١٨,٥ مليار .

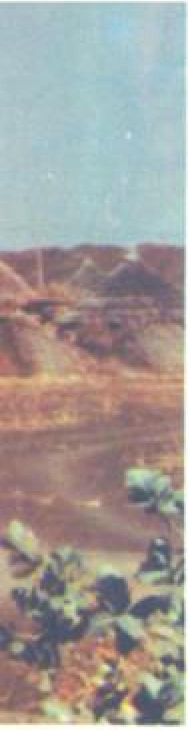
« وكانت الفكرة تقوم أساسا على استغلال هذه الزيادة من المياه ، ونظرنا حولنا فوجدنا نهر الرهد أو النهر الموسمي كما ذكرنا - وهو يفيض بالمياه أيام الفيضان ، أي في أشهر الخريف ، وكان غير مستغل قبل بدء المشروع ، اذ سرعان ما كانت المياه تجف فيه . وعلى الفور بدأنا بانشاء خزان (أبو رحم) الواقع على نهر الرهد لتحويل مياه النهر خلال أشهر الفيضان الى القناة الرئيسية للمشروع ، ولكن ماذا بعد انقضائها . . . سوف يعود النهر الى الجفاف ومن هنا بدأنا التفكير في انشاء طلمبات على النيل الأزرق ، ومهمة هذه الطلمبات سد احتياجات المشروع من مياه الري خلال فترة جفاف النهر ومن هذه الطلمبات تتحول الحياة عبر قناة توصيل طولها ثمانون كيلو مترا ، مارة تحت مياه نهر الوندر بواسطة « سيفون » **Syphon** « لتواصل مسيرتها الى أن تصب في مجرى نهر الرهد عند أبو رحم فتملأه بالماء من جديد . ومن هناك تتحول المياه الى ترعة المشروع الرئيسية ومنها تتفرع شبكة قنوات الري التي تحمل المياه الى الحقول » .

ونسأل عن علاقة الفلاح أو المزارع بصاحب الأرض ؟

ويقول المسؤولون في المشروع : « تقوم العلاقة بينهما على اساس قيمة الماء والارض وتكلفة الانتاج في شكل حساب فردي ، وينتقل صافي العائد الى المزارع دون مشاركة من صاحب الارض ، الذي هو في هذه الحالة « الدولة » ممثلة في المؤسسة التي تشرف على ادارة المشروع ، وهذا النظام في حد ذاته يعتبر حافزا للمزارع على الاستمرار ، وسوف يعمم في جميع أنحاء السودان هذا العام .

خريطة تبين مراحل تنفيذ المشروع

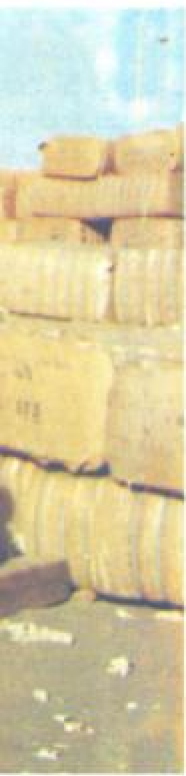




مجموعة من النساء في طريق عودتهن الى منازلهن بعد انتهاء يوم حافل بالعمل .



« جامعات القطن » **Cotton Pickers** . . الاولى من نوعها في الشرق الأوسط وهي تجمع القطن آليا بدلا من ألوف الأيادي التي اعتدنا أن نراها في موسم الجني . (الى أعلى) . .



بالات القطن وقد أعدت للشحن الى ميناء بور سودان المنفذ الرئيسي لصادرات السودان على البحر الأحمر (الى اليسار)





الرأي الآخر

وعدنا الى الخرطوم ، وفي ذهني أن ألتقي بشخصية لها ثقلها في كل ما يتصل باقتصاد هذا البلد الشقيق . انه الدكتور علي التوم وزير الزراعة الأسبق والمستشار الاقتصادي والمدير العام لهيئة المستشارين المستقلين . وكان الهدف من لقائه هو محاولة الوصول الى ما يدور في رأس هذا الاقتصادي الكبير وخاصة فيما يتصل بمستقبل الزراعة في السودان ، وأيضا جدوى المشروع بالنسبة لاقتصاد السودان وبحثنا عن علي التوم طويلا وكدنا نيأس من لقائه ثم وجدناه أخيرا يطرق باب الفندق الذي كنا ننزل فيه ويسأل عنا . . . والتقينا ، وانطلق الخبير في الاقتصاد الزراعي يتحدث .

قلنا ، « هل صحيح أن الانتاج الزراعي في السودان لا يتقدم بالسرعة المتوقعة والمرجوة وماهي أسباب هذا التأخر في رأيك ؟ » .

وقال الدكتور علي التوم : « قبل أن أجيب على سؤالك لا بد لي من أن أؤكد حقيقة ماثلة ، وهي أن الموارد المتاحة في السودان كبيرة ومتنوعة ، وهي تشمل الأراضي الخصبة المروية من مياه النيل وروافده وكذلك الأراضي التي تروى بمياه الأمطار . هذا الى جانب توفر مناخ متباين ومتنوع ، الأمر الذي يتيح انتاج أنواع مختلفة من الحاصلات الزراعية كما أن هناك أيضا موارد مياه سطحية وأخرى جوفية وبكميات هائلة ، وكذلك غابات ومراعي طبيعية يمكن استغلالها بطريقة اقتصادية الى جانب الثروة الحيوانية الهائلة المنتشرة في جميع أنحاء السودان وبصفة خاصة في غربه وأوسطه وجنوبه ، والتي تشتمل على الضأن والماعز والأبقار والجمال ، وكذلك الثروة الحيوانية الوحشية ولو أنها لا تستغل اقتصاديا وسياحيا » الا في حدود ضيقة ومحدودة .

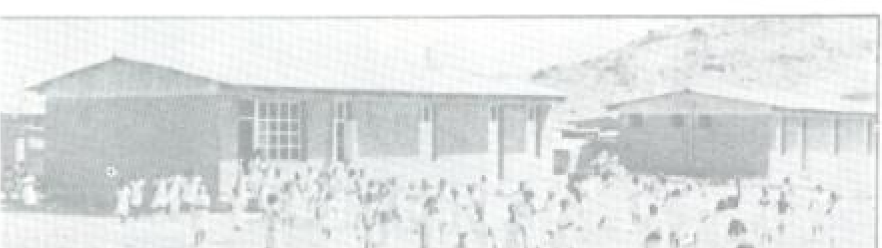
خطأ شائع

« هذه مقدمة ذهبت اليها في بداية حديثي ، ولا شك عندي أنكم تعرفونها ، ولكن كان لا بد لي من أن أؤكدها ، لأدخل معكم بعدها الى القضية الأساسية ، وأعني بها الاعتقاد الشائع خطأ ، والذي يحتاج الى الكثير من التدقيق والتصحيح ، وهو أن هذه الموارد الطبيعية متوفرة بكميات تفيض كثيرا عن حاجة السودان مستقبلا . هذا القول لا يخرج عن كونه نظرة استاتيكية جامدة وغير قائمة على حقيقة العلاقة بين الموارد المتاحة بالفعل في القطاع الزراعي وبين الطلب على منتجاتها مستقبلا .

« صحيح أن السودان يتميز حاليا بندرة نسبية في الأيدي العاملة والموارد البشرية مما يجعل هذه الموارد فائضة عن حاجة سكانه ، ولكن النمو الاقتصادي والسكاني المطرد والزيادة والتنويع في الطلب يدعوان الى ضرورة التحفظ في تقدير الفائض الزراعي مستقبلا ، وخاصة اذا وضعنا في الاعتبار حقيقة أن السودان يقف اليوم على مشارف انتاج وتصدير المواد البترولية الأمر الذي سيترتب عليه قريبا تحول كبير في الطبيعة المهنية للموارد البشرية ، اذ سيتحول أغلبها من أيد عاملة منتجة زراعيا الى قوى استهلاكية عاملة أساسا في قطاعات الصناعة والخدمات ولو أن هذا لا يعني بالطبع أن الاستخدام الراشد للموارد الزراعية في السودان وادخال وتكييف التكنولوجيا الحديثة فيه لن يؤديا في المستقبل الى انتاج فوائض سلعية للتصدير للعالم العربي وللاقتصاد العالمي ، فسوف يظل السودان باذن الله مصدرا رئيسيا للصادرات من القطن والحبوب الزيتية واللحوم والخضر والفاكهة ، غير أنه ينبغي عدم المبالغة في تقدير حجم هذا الفائض .

قلنا : « ما رأيك فيما يقال عن المعوقات التي أدت الى

من خدمات المشروع فتح مدارس لأبناء أهل المنطقة .






الموز والباباي . . بعض الفواكه التي بدأت زراعتها في منطقة المشروع . . مع أنواع أخرى من الفواكه التي تزرع في السودان

تدهور الانتاج الزراعي في السودان بينما كان المفروض والمتوقع أن يحقق السودان تطورا ملموسا في المجال الزراعي ؟

ويقول الخبير الاقتصادي : « ظل القطاع الزراعي في السودان يتميز منذ زمن بعيد بانخفاض كبير في انتاجيته للفدان وللأيدي العاملة ، أي أن اليد العاملة هنا لم تكن تنتج بمستوى مثيلاتها في البلدان الأخرى ، ويرجع هذا الى أسباب عدة ، من بينها المناخ وأثره على الصحة العامة وضعف التغذية ، ثم النظرة السلبية للعمل اليدوي في مناطق كثيرة على أساس أن هذا العمل يرتبط بعهد العبودية فهناك من يرى أن العمل اليدوي بصفة عامة والزراعي بصفة خاصة انما هو عبودية للانسان !!

بين القديم والحديث

ويمضي الدكتور علي التوم : « والقطاع الزراعي عندنا ينقسم الى قسمين رئيسيين هما القطاع التقليدي المتمثل أساسا في أواسط وغرب وجنوب السودان ، والذي يعتمد أساسا على الري بالأمطار في مساحات لا تزيد كثيرا عن طاقة العائلة كوحدة انتاجية . وحتى زمن قريب ، وقبل التوسع في انتاج المحاصيل النقدية ، مثل الفول السوداني والسمسم والصمغ العربي وحيوانات اللحوم لم تتعد المساحة المزروعة في كل وحدة الحاجات الاستهلاكية للعائلة الواحدة . وهذا ما يسمى عادة بالانتاج المعيشي . في هذا القطاع التقليدي يرجع تدهور الانتاج والانتاجية الى أسباب عديدة من بينها عدم إدخال وسائل الانتاج الحديثة اذ لاتزال وسائل الانتاج يدوية وبدائية ، حتى التكنولوجيا الوسيطة لم تدخل هذا القطاع الا في حدود التجارب الضيقة ثم هناك أيضا اهمال صيانة الموارد الطبيعية مثل حماية التربة من الانجراف وحماية المراعي من الحرائق وتوفير مياه الشرب للانسان والحيوان وتحسين وسائل الاتصال والمواصلات (وهي مشكلة السودان الأولى) ، الأمر الذي يجعل المنتج الأول معزولا عن الأسواق ومعرضا لاستغلال الوسطاء والسماسرة فلا يجد العائد الكافي من جهده على المستوى الذي يمكن أن يكون حافزا له لزيادة وتطوير انتاجه . المدهش والغريب في الأمر انه بالرغم من هذا التخلف النسبي في القطاع التقليدي ، فان هذا القطاع ينتج ما يزيد على ٦٠٪ من صادرات السودان الزراعية من الحبوب الزيتية والذرة الرفيعة والصمغ العربي والانتاج الحيواني .

ومن المصاعب التي تواجه هذا القطاع أيضا ، هجرة ونزوح الأيدي العاملة الشابة القادرة الى مناطق التنمية الزراعية داخل السودان وخارجه .

لماذا تدهور الانتاج ؟

ننتقل بعد هذا الى القطاع الزراعي الحديث ويقول علي التوم : « وأعني به القطاع المكون أساسا من الزراعة





فصل في مدرسة اعدادية .. منطقة مشروع الرهد هي منطقة متكاملة ... ومجتمع جديد في قلب أرض كانت-الى عهد قريب-قاحلة جرداء . (الصورة الى أعلى)

.. ومهندسة زراعية تعمل في المشروع (الى اليمين) ..

حلج القطن آليا في منطقة المشروع قبل ارساله الى المكابس

(الصورة الى اليسار)




MURRAY
MURRA

المروية في حوض النيل وهي تنتج القطن والفول السوداني والقمح والخضر والفاكهة ، وكذلك قطاع الزراعة الآلية المطرية على نطاق واسع (الذرة الرفيعة ، والقطن المطري والسمسم) ، ومن أهم أسباب تدهور الانتاجية ، هو تركيز السياسة الزراعية على التوسع الأفقي أي زيادة المساحة المزروعة بدلا من التوسع الرأسي ، أي زيادة انتاجية الفدان عن طريق ادخال وتحسين استخدام التكنولوجيا الحديثة ، ففي مشروع الجزيرة وكذلك في مشاريع الرهد والسوكي وحلفا الجديدة أو خشم القربة » وغيرها من مشاريع الزراعة المروية تسببت ندرة توفير المدخلات الزراعية الحديثة مثل الآلات والمعدات الزراعية والأسمدة والبذور المحسنة ومبيدات الحشرات والحشائش في تدهور الانتاج والانتاجية في هذا القطاع ، ومن أهم الأسباب التي أدت الى ذلك سوء التخطيط واعطاء أسبقيات الانفاق التنموي لمشاريع غير انتاجية بعضها لا ينبغي أن يعطى الأولوية ، وأيضا ندرة وهجرة الزراعيين والخبراء الى خارج البلاد » .

قلنا : « هذا عن السلبيات . فماذا عن الايجابيات ؟ » .

ويقول الخبير الاقتصادي : « كل هذه الأسباب مجتمعة أدت الى الحالة الاقتصادية السيئة التي يعيشها السودان هذه الأيام ، ولكن هناك ايجابيات بطبيعة الحال . . هناك بعض الصور المشرقة والانجازات التي تستحق التسجيل في القطاع الزراعي . فمشروع الرهد على سبيل المثال ، وبالرغم من كثرة سلبياته ومشاكله الاقتصادية المعقدة ، إلا أنه قد أصبح حقيقة اقتصادية ملموسة ويمكنه أن يلعب دورا ايجابيا اذا ما حلت هذه المشاكل التي تنحصر في ارتفاع تكلفة مياه الري وصغر حجم الحيازة الانتاجية بالمقارنة مع المستوى التكنولوجي العالي المستخدم فيه وانعدام زراعة الأعلاف ومتطلبات الانتاج الحيواني في منطقة تتميز بضخامة ثروتها الحيوانية » .

« ومن الايجابيات أيضا في القطاع الزراعي مشروع سكر كنانة* الناجح فنيا والمبشر بالنجاح اقتصاديا والذي ينهض دليلا ايجابيا على امكانية التعاون بين رأس المال العربي والموارد الطبيعية والخبرة السودانية والتكنولوجيا الحديثة . وفي مجال الزراعة الآلية المطرية التي تغطي الآن مساحة كبيرة في أواسط القطر تقدر بأكثر من أربعة ملايين فدان ، استطاع القطاع الخاص أن يحقق انجازات كبيرة في زراعة الذرة الرفيعة والسمسم وقد دخل رأس المال العربي هذا القطاع في السنوات الأخيرة في مساحة تزيد على المليون فدان لا تزال في طور التنمية » .

مساهمة دولة الكويت

قلنا : ما حجم رأس المال العربي الذي أسهم في تنمية القطاع الزراعي في السودان ؟

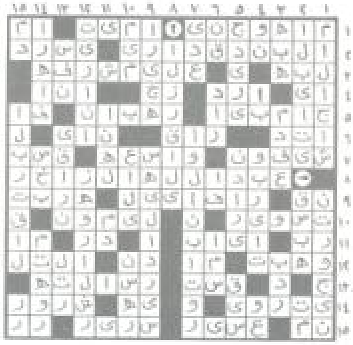
قال الدكتور التوم : لا بد من الرجوع الى سجلاتي ، ولكن في رأيي استنادا الى الأرقام ان دولة الكويت في مقدمة الدول العربية التي ساهمت وما زالت تساهم في تنمية القطاع الزراعي في السودان ، فمن المعروف ان رأس المال الكويتي قد أسهم بنسبة كبيرة في مشاريع كنانة والرهد والزراعة الآلية .

ولكي تكتمل الصورة بعد هذا الحديث الصريح كان لا بد من سؤاله عن موضوع يتصل اتصالا مباشرا بكل القضايا التي طرحها عن حاضر السودان ومستقبله ، قلنا : ما مدى نجاح الخطوات التي اتخذت وتتخذ لتحقيق التكامل الاقتصادي بين مصر والسودان ، وما هو مستقبل هذا التعاون ؟

وقال الدكتور علي التوم : كان هناك دائما تعاون وتكامل اقتصادي غير معلن بين السودان ومصر منذ فجر التاريخ . كل الذي حدث خلال الاعوام الاخيرة ، هو تقنين هذا التعاون وتخطيطه بهدف بناء علاقات طويلة المدى ومتكافئة الفائدة بين البلدين بالرغم من الحساسيات الموروثة بين السودانيين والمصريين والتي خلقها وعمقها الاستعمار . انني أعتقد ان المجال طيب والفرص سانحة ، خاصة بعد دخول السودان مرحلة انتاج وتصدير البترول لهجرة واستيطان ملايين الفلاحين المصريين المعروفين سلفا عندنا بانتاجيتهم العالية وتعلقهم بالأرض . وسوف يعود قريبا المليون عامل سوداني المهاجرين حاليا في الدول العربية ليسهموا بدورهم في بناء السودان الجديد ■■

منير نصيف

* راجع العربي ص ٦٨ العدد رقم (٢٤٧)



أفقيا
عبدالله الزاخر

رأسيا
الزرقالي

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : عبدالله الزاخر : مهندس ورجل صناعة عربي ، ولد في حماة من أصل حلبي في القرن الرابع عشر . من عائلة عملت في الصياغة والحفر والنقش والتصوير . أنشأ مطبعة ، كل ما بها من تصميمه وصناعته . أتقن صنع الساعات المائية والميكانيكية ..

(٨) رأسيا : الزرقالي : من مشاهير الرياضيين والفلكيين في القرن الحادي عشر ، ابتكر بعض الأدوات المستخدمة في الفلك ، وكان أول من قال بدوران الكواكب في مدارات بيضاوية . وكتب (الصحيفة الزرقالية) في استخدام الأسطرلاب ..

الفائزون بالجوائز

- الجائزة الأولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : عوض حسن سليمان / اسوان/مصر
- الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : خالد ابراهيم شهابي / دمشق / سوريا
- الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : يوسف عبدالله الشبعان/ المحرق / البحرين

٨ جوائز قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير فاز بها كل من :

١ ـ صالح مبارك صالح / المكلا / اليمن الديمقراطي
٢ ـ الحريقي فريدة / أسفى / المغرب
٣ ـ آمال خميس الجمل/ عمان/ الأردن
٤ ـ محمود عبد القادر زيدان / الكويت
٥ ـ مبارك سلمان محمد أحمد / واد مدني / السودان
٦ ـ محمد عبد الله الحلالي / صنعاء / اليمن الشمالي
٧ ـ شذى سلمان داود / بغداد / العراق
٨ ـ عبد الله أحمد محمد العلي / الاحساء / السعودية

٣ فنانات كويتيات

استطلاع : صادق يلي

تصوير : صلاح آدم

الفنانة موضي الحجي امام مجموعة من لوحات معرضها ، الرواد الأوائل ، حيث ضم المعرض مجموعة لوحات لأمراء الكويت ورجالها الذين قامت على اكتافهم نهضة الكويت الحديثة .





تقول الفنانة موضي الحجي « اني لا أتقيد في رسوماتي بمدرسة معينة وانما أسخر كل الامكانيات لاخراج عمل فني أرضى عنه » .

في البحرين الاستاذ طارق المؤيد وزير الاعلام افتتح معرض الفنانة موضي الحجي وكتب في سجل الزيارات قائلا : « ان جولة الفنانة موضي الحجي في دول المنطقة ستكون بداية لتخليد الرجال الاوائل الذين وضعوا اللبنة الاساسية في بناء خليجنا المعاصر » .



يقول الكاتب والناقد البريطاني جون رسكين : « ان الأمم العظيمة تكتب سيرتها في كتب ثلاثة : كتاب أعمالها ، وكتاب أقوالها ، وكتاب فنونها . والواقع أن الكتاب الأجدر بالثقة بين الكتب الثلاثة فهو بلا ريب الكتاب الاخير . . كتاب الفنون . . . والكويت تشهد حركة فنية تشكل أحد وجوه النهضة في البلاد .

وهذا الاستطلاع يسجل أحد وجوه هذه الحركة التشكيلية ، مع ثلاث من فنانات الكويت البارزات .

براعم فنية

لا بد هنا أن نشير الى البدايات التي أثرت في الحركة التشكيلية الكويتية ، فقد كانت المدارس هي اللبنة الأولى في بناء هذه الحركة بعد أن تقرر تدريس الفنون الجميلة ضمن المناهج الدراسية ، فترعرعت تلك البراعم الفنية تحت اشراف نخبة من المدرسين . فكان الفنان الراحل الأستاذ معجب الدوسري الذي تخرج في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة هو اللبنة الأولى في صرح الحركة التشكيلية في الكويت . وفي نفس الوقت كان هناك شباب فنانون بدأوا المسيرة أمثال أيوب حسين وخليفة القطان وطارق السيد فخري وأحمد زكريا الانصاري . وعيسى بوشهري .

لقد كانت البيئة الكويتية هي المؤثر الأساسي على حياة الفنان وأسلوبه وأعماله . فشواطيء الكويت وسفنها التي كانت تجوب البحار بحثا عن اللؤلؤ أو التي تقصد الأسفار البعيدة للتبادل التجاري ، كل تلك المظاهر كانت تشكل مقوما أساسيا في حياة الفرد الكويتي ، وبقيت آثارها مطبوعة وراسخة في أخيلة وعقول تلك البراعم ، لقد اتضح من المعارض الأولى للفنانين الكويتيين مدى تأثرهم بالبحر من خلال أعمالهم التي تصور مظاهر ومشاهد بحرية ، كما أن الصحراء كان لها نصيب كبير في رسوماتهم ، فبيوت الشعر ومظاهر الحياة البدوية وما تحمله من سمات عربية عريقة أصبحت مصدر اعتزازهم وفخرهم وكذلك فان العادات والتقاليد والرقصات الشعبية والقصص الخرافية بالاضافة الى ألعاب الأطفال كانت منهلا عذبا في انتاج الفنانين الأوائل الذين عاصروا المجتمع الكويتي آنذاك ، فخلدوا أحياء الكويت وأزقتها وأسوارها ، كانت ريشة الفنان أيوب حسين واضحة جلية في هذا الميدان فقد رسم موضوعاته مؤكدا هذا الاتجاه الشعبي وكلها تتعلق بالتقاليد التي هي جذور هذا المجتمع ، وتمثل روابطه القديمة وكيانه الروحي والاجتماعي .

من هنا يتضح لنا ان بدايات الحركة الفنية في الكويت كانت أعمالا تتبع أسلوب الواقعية والانطباعية وتنسجم مع روحية الموضوع المعالج .

يقول الفنان الكويتي عبد الرسول سليمان في كتابه « بداية مسيرة الفن التشكيلي في الكويت » يمكننا أن نقسم الحركة التشكيلية في الكويت منذ بدايتها الى ثلاث مراحل ، تبدأ المرحلة الاولى في الخمسينات من هذا القرن والتي ظهرت فيها بوادر الحركة التشكيلية حين أقيم معرض البطولة العربية ليكون المؤشر الأول للحركة ، أما المرحلة الثانية فكانت في الستينات وتمثل طور النشوء والاتضاح في الحركة التشكيلية ، ففي هذه المرحلة واجه الجمهور النشاطات الفنية للفنانين الشباب . أما المرحلة الثالثة فكانت في السبعينات وتمثل بداية النضوج الاسلوبي والفكري في العمل مع ازدياد المعايشة الجماهيرية والرسمية للحركة التشكيلية في الكويت . فقد ظهرت الأساليب الحديثة متمكنة أكثر في أعمال الفنانين مع تقدم مستواهم الأدائي في التكوين وتنوعيته واتساع آفاقهم الثقافية وبذلك استطاعوا معايشة الحركات والأساليب المعاصرة .

كويتية في السنغال

ولم تكن المرأة الكويتية بعيدة عن هذا المجال ، وانما دخلته ، وأثبتت فيه قدرة وتمكنا يلفتان الأنظار ، وليس



احدى لوحات الفنانة ثريا البقصمي من رسالتها للماجستير « علاء الدين والمصباح السحري ».

بمقدورنا أن نقدم حصرا لهذا الوجود ، انما فقط نقدم هنا ثلاثة نماذج لفنانات كويتيات لهن حضور بارز في ساحة الفن التشكيلي .

الأولى هي الفنانة ثريا البقصمي التي تقيم الآن في داكار ، بحكم زواجها من القائم بالأعمال الكويتي في السنغال ، وقد درست الرسم في كلية الفنون الجميلة في القاهرة لمدة سنتين ، ثم انتقلت بعد ذلك مدة سبع سنوات الى كلية سوريكوف في الاتحاد السوفيتي . تقول ثريا البقصمي : لقد استفدت كثيرا من دراستي في الاتحاد السوفيتي فقد درست في قسم (الجرافيك) وهو الرسم بالألوان المائية مع استخدام أنواع مختلفة من الطباعة الى جانب تخصصي في الاعلانات ورسوم الكتب . لقد تخصصت في رسوم الكتب لأننا في حاجة ماسة لهذا النوع من الرسم ، كما أن موضوع رسالتي للماجستير التي حصلت عليها من الاتحاد السوفيتي تناولت قصة علاء الدين والمصباح السحري ، لأنه موضوع فيه مجال لأبراز الحياة الشرقية ثم العادات والفلكلور الشرقي ، وبالطبع فان قصة علاء الدين والمصباح السحري مأخوذة من كتاب ألف ليلة وليلة ، لقد كانت رسالتي عبارة عن ٢٢ لوحة وهي حاليا ملك لكلية الفنون في موسكو .

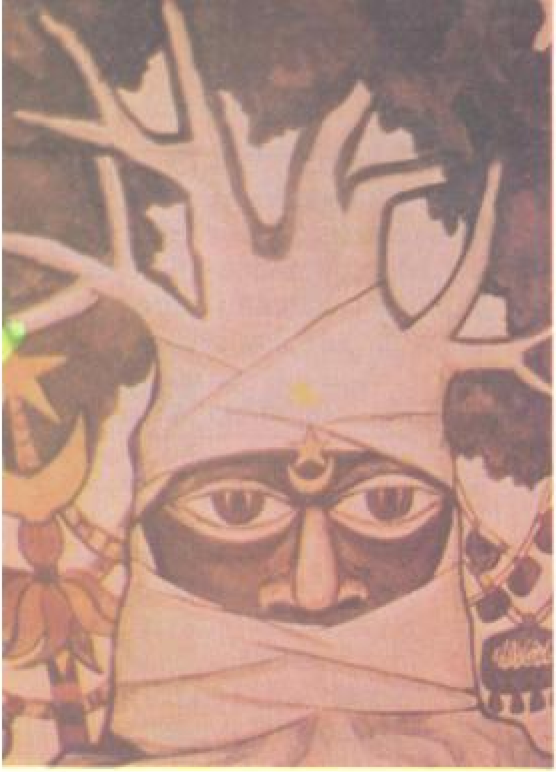
وتستطرد الفنانة ثريا قائلة : أما المواضيع التي أعالجها فتتعلق بالفلكلور الكويتي ثم المواضيع ذات الصبغة الرمزية كما انني أحب رسم المناظر الطبيعية والوجوه (البورتريه) . انني في الحقيقة لا أميل الى التجريد أو رسم الأشياء المبهمة انما أضع بالدرجة الأولى احساساتي في اللوحة التي أرسمها كما أنني أفضل (اللونا ليوم) وهو نوع من الطباعة اليدوية تعتمد بالدرجة الأولى على الطريقة التي يقطع فيها (اللوناليوم) الربط بين مساحات الابيض والاسود ، أما الخامات التي استخدمها في لوحاتي فهي الألوان المائية وألوان (التمبرا) وهي الوان ممزوجة بالبيض وتمتاز بالشفافية ثم الحبر الشيني والوان الباستيل كما انني أرسم على قماش الحرير ، والرسم على الحرير تعلمته في أفريقيا .

وتضيف قائلة : انني لا أميل الى الرسم بالألوان الزيتية لأني أحس بأنها ثقيلة ولا تعطي النتيجة التي أطلبها مع أن معظم الجمهور يعتقد بأن الألوان الزيتية هي الأفضل لأنها تدوم مدة أطول . ان الفنان الجيد هو الذي يستطيع أن يتحكم في المادة ويبرز موضوعه بشكل جيد ، وبالطبع يفترض أن يتوافر فيه الخيال والموهبة ثم الدراسة الأكاديمية التي تعد الأساس في خلق الفنان الجيد .

وفي اجابتها على سؤال عن المعارض التي ساهمت وشاركت فيها فتقول : انني ساهمت في معارض مشتركة في بغداد وبرلين والقاهرة والاتحاد السوفيتي ثم في كنشاسا عاصمة زائير ، ومن طريف ما حدث في معرضي الذي أقمته في كنشاسا أن أشاعت بعض زوجات الدبلوماسيين انني استأجرت أحد الفنانين لينفذ لي اللوحات ، ثم عرضتها باسمي . لأنهن لا يمكن أن يتصورن بأن المرأة العربية يمكن أن تكون فنانة تشكيلية ، بل انهن أشعن بأنني روسية الأصل ، وأحب أن أقول إنني من أسرة عايشت الفن فقد كان جدي الحاج أحمد البناء المعروف بالكويت بالأسطى أحمد قام ببعض الأعمال الفنية في معظم قصور أمراء الكويت ، ويعود له الفضل في هندسة مستشفى الارسالية الامريكية والمستشفى الأميري وبعض مساجد الكويت .

ولما كانت الفنانة ثريا البقصمي قد قضت عدة سنوات في دول أفريقيا فقد تحدثت عن تجربتها مع الفن الافريقي





«علاء الدين والمصباح السحري» هو موضوع رسالة الماجستير للفنانة ثريا البقصمي وتشاهدها هنا امام احدى لوحات هذه الرسالة . (إلى اليمين)

لما كانت الفنانة ثريا البقصمي قد امضت فترة من حياتها في دول افريقية بحكم عمل زوجها كدبلوماسي هناك ، فانها استوحت بعض الملامح الافريقية في رسوماتها ، وفي الاعلى والاسفل لوحتان تمثلان البيئة الافريقية .



قائلة ان الفنان في أفريقيا مع الأسف الشديد نسي اصالته فهو يقلد الفنون الأوربية الحديثة كما شوه الفن الافريقي فهو يرسم أشياء غير مفهومة وبعيدة كثيرا عن قضاياه المحلية . مثلا نلاحظ أن الفنان الافريقي يستخدم ألوانا صارخة يضعها في أشكال معقدة في محاولة لتقليد الآخرين ، بينما الفن الافريقي الحقيقي يتسم بأنه يتناول المواضيع الحياتية الحية ، وألوانه تتدرج ما بين الرمادي ومشتقاته ، وهي ألوان هادئة فيها الكثير من الروحانية .

وعن الفن في الكويت تقول الفنانة ثريا البقصمي : هناك مجموعة جيدة من الفنانين الكويتيين أمثال الفنان عبد الرسول سليمان والآنسة موضي الحجي وسامي محمد فهؤلاء لهم انتاج لا بأس به ، ولكن الشيء الذي لا يعجبني هو اتجاه أكثر الفنانين الكويتيين للسريالية ، كما ان البعض يكرر نفسه في عدة أعمال فالفنان الجيد هو الذي يجعل التجديد أساس نجاحه الفني .

وحول تخصصها في رسومات أغلفة الكتب والرسوم الداخلية للكتاب ، تقول : ان الكتاب العربي ما زال يفتقر الى الغلاف الجيد . والأغلفة الموجودة الآن تطغى عليها الصبغة التجارية ، لا شك أن الرسومات الداخلية للكتب مهمة جدا لتوضيح فكرة الكاتب . كما ان الغلاف الجيد والرسوم الجيدة مكملة للكتاب وتساعد في تنمية الخلفية الثقافية للقارىء ، ومن الملاحظ أن الكثير من الكتب الجيدة لم تنجح نظرا لعدم وجود الغلاف الجيد ، وغني عن القول ان هناك اهمالا واضحا في أغلفة وصور كتب الاطفال التي يجب أن تحظى باهتمام كبير لتنمية قدرات الطفل ، أما بالنسبة لكتب الشعر والقصص العربية فاني أدعو الى الاهتمام بالرسوم التوضيحية فيها ، وأن تكون تلك الرسوم ذات احساس نفسي بصور احساسات مؤلف الكتاب .

أما عن آخر معرض اشتركت فيه الفنانة ثريا البقصمي فقد كان في مدينة دكار في السنغال في مارس سنة ١٩٨٢ حيث افتتحته السيدة اليزابيث ديوف قرينة رئيس الجمهورية وبرعاية سفارة دولة الكويت في السنغال ، وبحضور حشد من رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدة لدى السنغال المهتمين بشؤون الفن ، حوى المعرض ٧٠ لوحة رسمت لطرق وتقنيات مختلفة ما بين الطباعة ورسم الوان الزيت (التمبرا) والرسم على الحرير وقد كانت



الفنانة موضي الحجي امام لوحة للمغفور له الشيخ احمد الجابر الصباح احد حكام الكويت السابقين .

مواضيع اللوحات جديدة بالنسبة للجمهور السنغالي ، وخاصة فيما يتعلق بحياة البادية والفلكلور الكويتي ثم اللوحات ذات المواضيع الشرقية والاسلامية .

سامية السيد عمر

أما الفارسة الثانية من رائدات الحركة التشكيلية في الكويت فهي الفنانة سامية السيد عمر تقول : الحقيقة كنت متفوقة منذ طفولتي في مادة الرسم ، فقد كنت أحب مادة الرسم في المدرسة الابتدائية ، كما كنت أهتم بدرس الأشغال والرسم ، كنت أرسم كل شيء يخطر ببالي في فترات الاستراحة بين الدروس وكنت أتلقى التشجيع والمساعدة من مدرساتي .

وتستطرد الفنانة سامية السيد عمر قائلة : لقد كانت مدرسات التربية الفنية هن أول من شجعنني فعشقت الرسم وحرصت أن أبرز فيه ، فسافرت للخارج كي

أصقل هذه الموهبة . تقول الفنانة سامية عمر : انني لم أقم معرضا شخصيا خاصا بي بل اشتركت مع مجموعة من الأخوة الفنانين في معارض الربيع التي كانت تقيمها جمعية الفنانين التشكيليين ، لقد اشتركت لاول مرة في معرض الاندية الصيفية الاول عام ١٩٦٣ بمجموعة من اللوحات، كما اشتركت في معرض الربيع الثالث عام ١٩٦١ الذي أقيم في صالة المباركية وقدمت فيها لوحتين زيتيتين تمثلان البيئة الكويتية الاصيلة ، وهي لوحة (رقصة شعبية) ولوحة (حفلة زواج) وذلك بالأسلوب الواقعي . ثم تابعت بعد ذلك الاسهام في المعارض التي أقيمت في الكويت حتى حصلت على الثانوية العامة والتي مهدت لي الطريق للالتحاق بكلية الفنون الجميلة في القاهرة عام ١٩٦٦ ولكن لم أكمل دراستي في القاهرة لظروف خارجة عن ارادتي . ثم تابعت دراستي بعد ذلك فسافرت الى اسبانيا والتحقت بكلية (سان فرناندو) للفنون الجميلة لمدة خمس سنوات . وتستطرد الفنانة سامية السيد عمر قائلة : ان الصدفة ووالدي كانا سببا لدراستي في اسبانيا ، فهناك عشت حياة فنية حافلة ، درست الفن وتاريخ الفن ومارست الاتجاهات الحديثة ، فتأثرت أعمالي بالأساليب الحديثة مبتدئة بالانطباعية والتجريدية ، .

وقد تخرجت الفنانة سامية السيد عمر سنة ١٩٧١ وعادت لتشارك أخواتها واخوانها في النهضة الفنية ، فهي الآن مدرسة تقوم بتدريس مادة التربية الفنية في احدى مدارس الكويت المتوسطة . تقول الفنانة سامية السيد عمر : انني لا أتبع في رسوماتي مدرسة معينة بل لي أسلوبي الخاص واستخدم الألوان المائية أكثر في التصوير ، كما أشارك في تصميم شعارات بعض النوادي والمؤسسات والشركات التجارية ، كما انني أدرس فن الديكور بالمراسلة ، أعمالي الحديثة تجريدية مستمدة موضوعاتها من الحياة ، تمتاز بأن خطوطها قوية في توزيع الألوان وتكوين العناصر المجردة بمصورات شيقة .

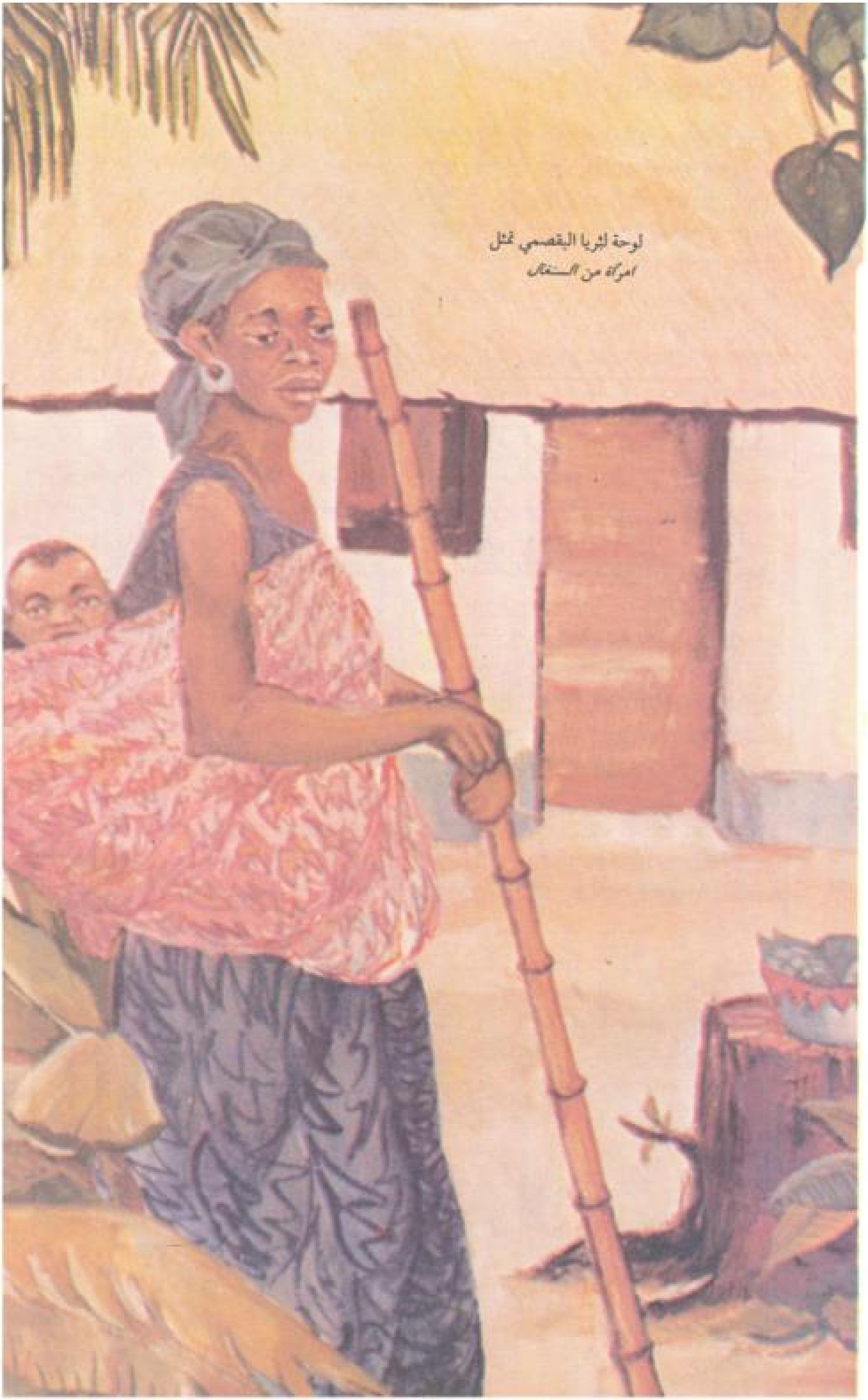
موضي . . . والرعيل الأول

وثالث فنانة تشكيلية هي موضي الحجي التي افتتحت منذ مدة معرض الرواد الأوائل على ظهر سفينة كويتية قديمة هي السفينة « محمدي الثاني » التي سوف تستخدم كمقهى فريد من نوعه لأحد الفنادق في البلاد . عرضت الفنانة موضي الحجي في معرضها هذا ٤٠ لوحة تمثل صورا لشخصيات كويتية كان لها دور بارز في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الكويت قبل ظهور النفط حيث نشطت حركة تجارة اللؤلؤ وتجارة الاخشاب ، فكانت السفن الكويتية تمخر عباب البحر بحثا عن مغاصات اللؤلؤ ، عماد الاقتصاد الكويتي آنذاك أو تلك السفن التي كانت تسافر الى الهند وشرق أفريقيا للتجارة . هذه الفترة عاصرت عهدي الشيخ مبارك الصباح والشيخ أحمد الجابر الصباح .

تحدثنا الفنانة موضي الحجي عن سبب اختيارها لهذا الموضوع فقالت : لقد استوحيت فكرة رسم الشخصيات الكويتية من خطاب سمو الأمير الشيخ جابر الأحمد

السيد فيصل بن علي وزير الثقافة في سلطنة عمان يفتتح معرض الفنانة موضي الحجي في مسقط .





لوحة لثريا البقصمي تمثل
امرأة من السنغال



الفنانة سامية السيد عمر ومشروع لوحة جديدة تمثل جانبا من جوانب مجتمعنا الكويتي المعاصر . (الى أعلى) وتقوم الفنانة سامية بتدريس مادة التربية الفنية في احدى مدارس الكويت وهنا ترشد احدى طالباتها للطريقة المثلى في الرسم البارز . (الى اسفل)



الصباح أمير الكويت عام ١٩٧٨ حينما تحدث عن الرواد الأوائل في الكويت . وتستطرد الفنانة موضي الحجي قائلة تمنيت يوما أن أقوم بعمل أبرز فيه هؤلاء الأفذاذ الذين خدموا الوطن وتركوا منجزات تستحق التقدير .

وتضيف موضي قائلة : في البداية لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لي حيث ان هؤلاء الرجال كانوا في عداد المتسيين فلم يدون شيء من سيرة حياتهم أو أعمالهم . لذا بذلت جهدا كبيرا في سبيل الحصول على معلومات عنهم فقمت بزيارة أقربائهم واطلعت على صورهم وأوصافهم وقصص حياتهم ، وبذلك تكونت لي حصيلة طيبة من المعلومات التي أفادتني في عملي .

من أبرز هذه اللوحات المعروضة لوحة تمثل شخصية السيد أحمد الغانم أول طبيب شعبي في الكويت عاش نحو ١٠٥ سنوات . كان يقوم بمعالجة الكسور والأمراض المستعصية ، ثم لوحة أخرى تمثل السيد حمد عبد الله الصقر وهو صاحب سفن نقل البضائع ثم لوحة للسيد ناصر البدر أحد تجار اللؤلؤ واشتهر بتربية الخيول الأصيلة وكان كريما مضيافا ، ثم لوحة لشاعر نبطي هو زيد الحرب بالاضافة الى لوحات عدة لأمراء الكويت منذ الشيخ مبارك الصباح حتى الآن ، كما حوى المعرض لوحات أخرى تمثل السفن الكويتية القديمة التي كانت تستخدم للتنقل والسفر مثل الداو وبوم بن رشدان والمهلب . وقد حرصت الفنانة موضي الحجي أن تشير من خلال لوحاتها الى فترات الحكم في الكويت بأعلام السفن منذ العهد العثماني حتى عهد الاستقلال .

وهي تقول:ان كل الزوار الذين قاموا بزيارة المعرض أشادوا بتلك اللوحات الا انهم حبذوا لو اني رسمت كذلك صورة الانسان الكويتي الكادح المتمثل في الغواص والبناء والحداد والتاجر وغيرهم تلك الطبقة التي قامت الكويت على أكتافهم .

معرض متنقل

لقد طافت الفنانة موضي الحجي بمعرضها هذا ببعض دول التعاون الخليجي فزارت قطر والبحرين والامارات العربية المتحدةوسلطنة عمان وقد لاقى معرضها اقبالا جماهيريا كبيرا . ففي دولة البحرين مثلا كتب الأستاذ طارق المؤيد وزير الاعلام في سجل الزيارات كلمة قال فيها : ان فكرة تدوين الفكر المعاصر من خلال الفن هو فكرة حضارية تستحق كل تشجيع وقال : ان جولة الفنانة الكويتية في دول المنطقة ستكون بداية لتخليد الرجال الأوائل الذين وضعوا اللبنة الأساسية في بناء خليج المعاصر .

تقول الفنانة موضي الحجي : ان الفن التشكيلي عند يمثل لغة عالمية تصل الى كل الشعوب من غير تمييز ؟ تفهمه الشعوب ـ معان من غير مفردات أو قل مفردا: اللون والمساحة والمضمون ، والفن التشكيلي في نظر: أداة تعبير محلية يتفاعل من خلالها الانسان بمجتمعه همومه وآماله وآلامه وتاريخه ومكونات نفسه .

أما عن المدرسة التي تتبعها فتقول : انني لا أتقيد نفس بمدرسة معينة من المدارس الفنية المعاصرة ، بل أسخ امكاناتي الفنية لأظهر الموضوع الذي أريد معالجته وليس عندي مانع في مزج المعالجات الحديثة مع المدر الواقعية لابراز الموضوع الذي أريد أن أطرحه ، ومث ذلك معرضي الأخير الذي أقمته في الكويت وطفت به ع بلدان خليجية ، لقد كان الجمهور مقبلا على هذا المعر واستحسنوا فكرته بل اعتبروها فكرة رائدة ، لأن أبن الخليج هم أبناء منطقة واحدة والتجارب التي مروا بها ، نفس التجارب التي مرت بها الكويت والبحرين أو قطر أي بلد خليجي آخر . وتستطرد لتقول : إن الشخصيا التي تناولتها كانت معروفة لديهم فأغلبهم كانت لديه تج رائجة في أسواق هذه المدن الخليجية ، بالاضافة الى أ. كانوا معروفين في الهند وسيلان وأفريقيا الشرقية ـ اليمن والبصرة ، حتى ان الجمهور هناك كان يعر السفن التي رسمتها بل قال بعضهم انه عمل في هذه الس مثل بوم بن رشدان أو الداو أو المهلب .

وحول سؤال لنا عن الفتيات اللاتي يزاولن الفن التشكيلية والمشاكل التي يواجهنها قالت : ان المجتم النسائية اللاتي يعملن في هذا المجال قليلات جدا ، أتيحت لهن الفرصة والتشجيع فسوف تقبل الفتاة الكو على هذا النوع من الفن لقربه من طبيعة الفتاة ، كما العمل الفني يحتاج الى صبر وجلد ومع الأسف فمعظ فناناتنا قليلات الانتاج . ■■

صادق يلي

مُعجَمُ الجَمهرة

ثاني عمل موسوعي في تاريخ العرب

بقلم قسطنطين تيودوري

في العدد رقم ٢٥٣ (ديسمبر ١٩٧٩) نشرت « العربي » مقالا للأستاذ قسطنطين تيودوري حول « الفراهيدي » ـ أول من قدم المعاجم عند العرب . . . وفي هذا المقال يعرض الأستاذ قسطنطين لثاني المعاجم العربية ، الذي يحمل اسم الجمهرة .

صاحب معجم الجمهرة هو ابن دريد الأزدي الذي ولد بالبصرة في خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م ، وأخذ العلم عن جماعة من كبار البصريين في زمانه كأبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي ، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي وغيرهم . وكان ممن أكسبوا مدرسة البصرة شهرة وازدهارا بتميزه بالعلم والشعر . ولزم البصرة حتى سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م حين دخلها الزنوج ونكلوا بكثير من أهلها ، فرحل عنها مع عمه الحسين وقصد الى عمان ـ وطن قومه الازد ـ ، فأقام بها اثنتي عشرة سنة ثم عاد الى البصرة ، وبعد ذلك خرج الى فارس ووفد على عبد الله بن محمد بن ميكال ، وكان والي نيسابور عاصمة خراسان ، فنال حظوة في عينيه وعيني ابنه اسماعيل ، فمدحهما بقصيدته المشهورة ، وهناك ألف معجمه « الجمهرة » ، ولما عزل اسماعيل سنة ٢٨٠ هـ / ٩٢٠ م ، قدم الى بغداد ، وعين له الخليفة المقتدر راتبا شهريا ليتوفر على العلم والتعليم .

ظهر هذا المعجم في القرن الثالث للهجرة ، وقال صاحبه في مقدمته : وانما أعرناه هذا الاسم لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي والمستنكر .

بين الجمهرة والعين

نسج ابن دريد في تأليف معجمه على منوال « العين » للخليل ، الا أن هناك اختلافا بينهما من ناحية الترتيب والتنظيم ، فالخليل كان يجمع كل الصيغ التي تشتق من

مادة تحت مادتها ، فاذا كانت اسما ذكر مفرده وجمعه ، وان كانت فعلا ذكر ماضيه فمضارعه فمصدره ثم الصفة منه ، فهو من هذه الناحية يميل الى نوع من التنظيم والتنسيق في صياغة هذه الصيغ ، بينما نرى صاحب الجمهرة يوزع صيغ المادة الواحدة على أبواب متباعدة ، ويحاول أن يربط بين الصيغ الفرعية والاصلية ، ولكنه في آخر الأمر يغلب عليه التشويش والفوضى ، اذ كثيرا ما كان يبدأ بالفعل اللازم والمتعدي والمجرد ، ويهمل اهمالا تاما قضية الفعل فلا يتطرق الى ذكر مصدره والصفة منه . وفي الوقت نفسه ، لا نجد عند ابن دريد الدقة والوضوح في تفسيره للقواعد الصرفية والنحوية كما نجدها عند الخليل الذي ـ وإن سبقه في الزمن ـ فاقه في بعض المزايا .

على أن لابن دريد حسنات ومميزات ، فقد تجنب النظام الذي اتبعه الخليل ، فأهمل ترتيب معجمه على المخارج ، وسار على الترتيب السهل الشائع للألف باء ، وابتكر تبويبا جديدا في المواد نفسها وزاد الأبواب اللغوية من المعجم وصيغا كثيرة أهملها صاحب العين . وكانت هذه الزيادة من الكثرة بحيث اعتمد عليها الموسوعي الكبير ابن التياني القرطبي في معجمه « الموعب » الذي ظهر في صدر القرن الخامس . وكان هذا المعجم من أضبط المعاجم وأصدقها رواية .

لقد اقتبس ابن دريد الشيء الكثير في اللغة والادب والتاريخ ، واستمد الكثير من الشواهد القرآنية ، وعنى بالمعرب والدخيل من الحبشية أو الرومية أو السريانية والعبرانية أو النبطية أو الفارسية ، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين على حد قول المسعودي صاحب مروج الذهب ، وأورد كذلك كثيرا من الألفاظ من لغات اليمن فاق بها الخليل . ومع ذلك فقد رماه أبو منصور الأزهري صاحب معجم « تهذيب اللغة » وأحمد بن فارس صاحب معجم « مقاييس اللغة » بافتعال العربية وتوليد الالفاظ ، وادخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم ، وهذه التهمة التي رماه بها لم تكن صحيحة ، لأنه لم يكن جامدا متزمتا في تفكيره كغيره من اللغويين ، انما كان ذا عقلية جبارة يزينها التجدد والابتكار .

لقد كان ابن دريد أكبر علماء عصره في اللغة وأقدر النقاد ، لذلك كان يطلق عليه « أعلم الشعراء وأشعر العلماء » . وكان ابن الطيب اللغوي يقول عنه في كتابه (مراتب النحويين) : « هو الذي انتهت اليه لغة البصريين وكان أحفظ الناس وأوسعهم علما وأقدرهم على الشعر ، وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر ابن دريد . وكان رجال اللغة يحتجون بأقواله ويستندون اليها ، منهم أكبر الموسوعيين وأوسعهم شهرة ابن منظور الذي ضم معجم « الجمهرة » من جملة ما ضم من معاجم في معجمه الضخم (لسان العرب) . ونظرا لقيمته اللغوية اختصره الصاحب بن عباد في كتاب سماه (الجوهرة) .

الطعن في معجم الجمهرة

لم يسلم هذا المعجم من مآخذ اللغويين ولذعات النقاد ، فقد طعن فيه نفطويه أحد أئمة النحو والأدب مدعيا ان كتاب الجمهرة مسروق من كتاب العين الا أن السيوطي أنكر عليه ذلك بقوله « ولا يقبل فيه طعن لأنه كان بينهما منافرة عظيمة » ، والحقيقة أن نفطويه (٨٥٩ ـ ٩٣٥) م كان متحيزا تحيزا شخصيا اذ كان يكن كراهية خاصة لابن دريد بسبب معاقرته الخمر . قال نفطويه هاجيا له :

ابن دريد بقره — وفيه عيّ وشره
ويدعي من حمقه — وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين الا — أنه قد غيره

فرد عليه ابن دريد بقوله :

لو أنزل الوحي على نفطويه — لكان ذلك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه — مستأهل للصفع في اخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه — وصير الباقي صراخا عليه

من هذه الأبيات نستطيع أن ندرك شاعرية صاحب الجمهرة الذي يذهب بالشعر كل مذهب ، فطورا يجذل وطورا يرق ، فاسمعوه يقول :

غراء لو جلت الخدود شعاعها
للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على دعص تأود فوقه
قمر تألق تحت ليل مطبق
لو قيل للحسن : « احتكم » لم يعدها
أو قيل « خاطب غيرها » لم ينطق

وكأننا من فرعها في مغرب
وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهتف للعيون ضياؤها
« الويل حل بمقلة لم تطبق »

القصيدة المقصورة

وقد اشتهر صاحب « الجمهرة » بقصيدته المقصورة التي مدح بها آل ميكال ، وهي تشتمل على مائتين وثلاثة وخمسين بيتا ، ينتهي كل بيت منها بألف مقصورة ، ويقال انه أحاط في هذه القصيدة بأكثر المقصور . وقلده في هذا النوع من الشعر من جاء بعده من الشعراء ، وعني بشرحها والتعليق عليها عدد من كبار الشراح منهم : محمد ابن أحمد بن هشام اللخمي (٥٧٠ هـ / ١١٧ م) ، وأبو زكريا التبريزي (٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م) ، والامام أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب « الجامع » في اللغة (ت ٩٥٣ هـ / ١٠٢١ م) وغيرهم كثيرون . ونظرا لشهرة هذه القصيدة وتداولها بين الناس ، نشرها أحد جودت القدسي المعروف بالمكاري الطرابلسي في طرابلس سنة ١٣١٩ هـ ، وترجمها المستشرقون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كما ترجمها بعضهم الى اللاتينية .

وقد خمس القصيدة المقصورة سعد بن علي الاربلي ، وعبد الله بن عمر الانصاري الوزير (ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) وشرف الدين الحسن بن الحسين بن علي وغيرهم . وأورد هنا كنموذج لهذه القصيدة المشهورة ثلاثة أبيات مخاطبا فيها امرأة يذكر لها مشيه وذهاب أيام لهوه :

إما ترى رأسي حاكى لونه
طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده
مثل اشتعال النار في جزل الغضى
فكان كالليل البهيم حل في
أرجائه ضياء صبح فانجلى

أما مطلعها فهو :

يا ظبية أشبه شيء بالمها
ترعى الخزامى بين أشجار النقا

قصائد أخرى مشهورة

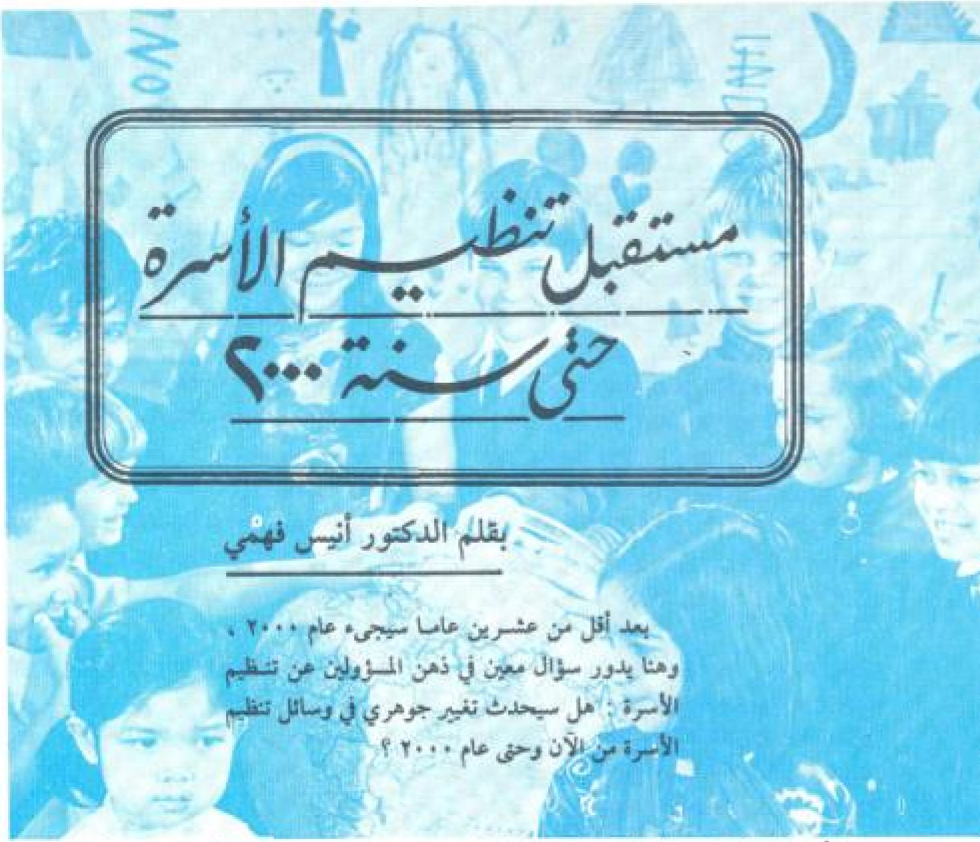
ولابن دريد قصائد أخرى مشهورة منها : « المقصور والممدود » نظمها في خمسة وعشرين بيتا يحتوي كل منها على كلمتين متماثلتين ، إحداهما مقصورة والأخرى ممدودة مع شرح فروق المعاني بينها في بعض الأحيان . وله قصيدة في ثلاثة عشر بيتا عن أعضاء الانسان المذكرة والمؤنثة ، وله أيضا قصيدة على حرف الظاء نظمها سنة ٣١٦ هـ وموجودة في المتحف البريطاني . وله مرثيتان الاولى في الامام الشافعي ، والثانية في ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) ذكرهما الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٢ م) في كتابه « تاريخ بغداد » ، وله قصيدة يهجو فيها أبا نصر أحمد بن حاتم الباهلي (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٨ م) وله أيضا قصيدة يمدح فيها يحيى بن عبد الوهاب الكاتب .

ونشر معجم « الجمهرة » في حيدر أباد بالهند في ثلاثة أجزاء سنة ١٣٤٤ هـ ، وطبع لها فهارس في جزء رابع بعناية كل من الشيخ محمد السورتي ، والمستشرق البريطاني كرنكوف (١٨٧٢ ـ١٩٥٣) ، ومنه مختصر لا يعرف مؤلفه موجود في المتحف البريطاني ، في قسم « براون للدراسات الشرقية » . وله غير « الجمهرة » كتب كثيرة منها كتاب مشهور موضوعه « اشتقاق أسماء القبائل » يبحث في أسماء القبائل والعمائر وأفخاذها وبطونها وساداتها وشعرائها على شكل معجم ، ويتضمن فوائد لغوية جمة ، ونشره المستشرق الالماني فردينان وستنفلد (١٨٠٨ ـ ١٨٩٩) في جوتنجين بيروسيا في جزءين سنة ١٨٥٣ ـ ١٨٥٥ ، وقد نفدت نسخه ، فأعاد نشره محققا الاستاذ عبد السلام هارون بالقاهرة عام ١٩٥٨ .

وعرض لابن دريد وهو في التسعين من عمره فالج فبرىء منه ثم عاوده بسبب غذاء ضار تناوله ، وتوفي عام ٣٢١ هـ ، فيكون قد عاش ٩٨ سنة ، وقد رثاه جحظة البرمكي (٢٢٤ ـ ٣٤٢ هـ) بقوله :

فقدت بابن دريد كل فائدة
لما غدا ثالث الأحجار والترب
وكنت أبكي لفقد الجود منفردا
فصرت أبكي لفقد الجود والأدب ■■

قسطنطين تيودوري
عمان / الأردن



مستقبل تنظيم الأسرة حتى سنة ٢٠٠٠؟

بقلم الدكتور أنيس فهمي

بعد أقل من عشرين عاما سيجيء عام ٢٠٠٠ ، وهنا يدور سؤال معين في ذهن المسؤولين عن تنظيم الأسرة : هل سيحدث تغيير جوهري في وسائل تنظيم الأسرة من الآن وحتى عام ٢٠٠٠ ؟

اذا ألقينا نظرة الى الوراء على عام ١٩٦٠ وعقدنا مقارنة بين التوقعات التي حدثت في ذلك الوقت وبين ما تم فعلا حتى عام ١٩٨٠ لوجدنا أن بعضا من هذه التوقعات قد تحقق ، ولكن عددا كبيرا من الأشياء غير المتوقعة قد حدث ، فهل سيحدث نفس الشيء بالنسبة لتوقعاتنا عام ٢٠٠٠ ؟ للاجابة على هذا السؤال ينبغي لنا أن نستعرض ماذا حدث بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٨٠ .

تنظيم الأسرة من ١٩٦٠ - ١٩٨٠

حبوب منع الحمل : بدأ استعمال هذه الحبوب للمرة الأولى في شهر يونية ١٩٦٠ بالولايات المتحدة الأمريكية على أساس أنها وسيلة للتحكم في انجاب الاطفال تبعا لرغبة الزوجين . ويستخدم هذه الوسيلة في الوقت الحالي من ٦٠ الى ٨٠ مليونا من السيدات . الا أن استخدام هذه الحبوب بدأ يقل بسبب الخوف من بعض الأعراض الجانبية مثل تجلط الأوردة وغيرها .

اللولب : في عام ١٩٦٠ بدأ الاهتمام يزداد أكثر فأكثر باستعمال اللولب الذي يتم ادخاله داخل الرحم . ويستخدم هذه الوسيلة الآن حوالي ٢٠ مليونا من السيدات . ويرجع الاستخدام المحدود لهذه الوسيلة الى قلة عدد الأشخاص المؤهلين والقادرين على ادخال اللولب الى الرحم بكفاءة ومقدرة ، كما يرجع أيضا الى ازدياد كمية الحيض والآلام التي قد تحدث بعد وضع اللولب .

التعقيم : لم يكن من المتوقع في عام ١٩٦٠ أن يزداد الاقبال على هذه الوسيلة في عام ١٩٧٠ من ناحية الرجال والسيدات لا سيما في الولايات المتحدة الامريكية والمملكة المتحدة . وقد أوضحت الاحصاءات ان ٦٠ مليون سيدة و ٢٠ مليون رجل لجأوا الى هذه الوسيلة لمنع الانجاب . وقد تقدمت طريقة تعقيم السيدات في السبعينات وأمكن الاقلال من حجم الندبة المتخلفة عن الجراحة مما أدى الى زيادة الاقبال على هذه الوسيلة .

الاجهاض : لم يكن أحد يتوقع في عام ١٩٦٠ حينما كان الحديث عن الاجهاض لا يجري الا همسا أن يحدث تطور

كبير في القوانين الخاصة بالاجهاض في السنوات العشرين التالية . ففي الوقت الحالي يعيش ثلثا سكان العالم في بلاد تبيح الاجهاض بناء على رغبة السيدة الحامل بدون ابداء الأسباب ، أو في بلاد تبيح الاجهاض لأسباب اجتماعية أو اقتصادية أو صحية . وتقدر الاحصاءات ان عمليات الاجهاض التي تجري كل عام تصل الى ٣٠ مليون عملية .

ـ الوسائل الخاصة بالرجال : في عام ١٩٧٠ اشتد الطلب على الوسائل الخاصة بالرجال مثل استخدام العازل المطاطي أو قطع القناة المنوية . ولم يتحقق ذلك نتيجة لحركات تحرير المرأة فحسب ، بل لرغبة الرجال أيضا في الاشتراك في مسؤولية تنظيم الأسرة . ولكن هاتين الوسيلتين يتناقص استعمالها الآن .

ـ استخدام الحقن : تم العثور على مستحضر مشتق من البروجسترون يمكن حقنه في السيدة كل ثلاثة شهور . ويستعمل هذه الوسيلة الآن مليون وربع فقط من النساء . ولم تقابل هذه الوسيلة حظا كبيرا من النجاح لأن هذا المستحضر يوقف الدورة الشهرية عند عدد كبير من السيدات ، كما ان فعالية استعماله لمدة طويلة ليست مضمونة .

ـ الوسائل الطبيعية : وهذه تعتمد على ممارسة المعاشرة الجنسية خلال فترة الأمان (أي الفترة السابقة على خروج البويضة من المبيض) . ولكن نظرا لعدم ضمان هذه الوسيلة فان استخدامها يقل تدريجيا كما ان وجوب الانقطاع عن المعاشرة الجنسية في فترات طويلة معينة يجعل هذه الوسيلة عاجزة عن التعميم .

توقعات للمستقبل

في خلال السنوات العشر القادمة سيحدث تطوير بالنسبة لحبوب منع الحمل اليومية للسيدات ، يترتب عليه الاقلال من حدوث الأعراض الجانبية مثل الغثيان والقيء واضطرابات الحيض ، كما أن الأعراض الجانبية الخطيرة مثل حدوث التجلط بالأوردة ستصبح أكثر ندرة . وتوجه الآن الجهود نحو ايجاد تركيبات جديدة تساعد على ترسيب المواد الفعالة في حبوب منع الحمل في الأنسجة الدهنية بالجسم ومنها تنطلق بطريقة تلقائية الى سائر أنحاء الجسم . ونتيجة لذلك يمكن أن تتحول الحبة اليومية الى حبة أسبوعية أو حبة تؤخذ كل شهر . كما أن الأبحاث الحالية تجرى أيضا لادخال تحسينات على اللولب بحيث لا يؤدي الى زيادة كمية الحيض ، وبحيث يستطيع اللولب المكوث في الرحم بدون مضاعفات لمدة عشر سنوات على الاقل . وفي عام ١٩٩٠ نتوقع أنه ستكون تحت أيدينا مستحضرات جديدة لمنع الحمل تعطى بواسطة الحقن . وسوف تستطيع السيدة عندئذ أن تختار بين أخذ حقنة كل شهر أو كل ثلاثة شهور أو كل ستة شهور . ومن المنتظر أيضا تخليق عقاقير تغرس تحت الجلد ويستمر مفعولها لمدة خمس سنوات ، كما يمكن استئصالها اذا رغبت السيدة في الحمل أو في حالة حدوث بعض المضاعفات .

ومن المتوقع أيضا أن يتم تعقيم السيدة بدون جراحة عن طريق حقن مواد كيماوية في الرحم تؤدي الى انسداد في الأنابيب .

أما في سنوات ١٩٩٠ وما بعدها حتى نهاية القرن العشرين فمن المتوقع أن تحدث تطورات ضخمة في تنظيم المواليد . ففي تلك الحقبة سوف تستطيع السيدات الحصول على « فاكسين » يمنع الحمل بطريقة تلقائية عن طريق احداث مناعة ضد الحمل ، أو بالتدخل في المراحل الأولى للحمل بدون أن تشعر السيدة بأن الحمل قد حدث . والأبحاث التي تجرى حاليا على هذا « الفاكسين » تهدف الى تحديد مدة مفعوله من ستة الى خمس سنوات بحيث يمكن بعد ذلك أن تستعيد السيدة قدرتها على الانجاب .

وفي السنوات الأخيرة وضعت تحت الاختبار بعض العقاقير التي تنظم القدرة على الانجاب عند الرجال ولكن النتائج ليست مشجعة .

ان الأمل يحدونا بأنه في خلال السنوات العشرين القادمة سيتوصل العلماء الى اختراع حبوب لمنع الحمل يمكن استعمالها في ظروف مختلفة : فمثلا حبة بعد المعاشرة الجنسية تتناولها السيدة في صباح اليوم التالي ، وحبة تتناولها السيدة عندما تلاحظ تأخيرا في ميعاد الحيض ، أو حبة تتكون من مستحضرات جديدة يمكن تناولها بطريقة منتظمة مرة كل شهر مع ضمان مفعولها . ■■

د . أنيس فهمي ـ القاهرة

جان بياجيه

٦٠ عاماً من البحث في عقل الطفل

بقلم الدكتور حسن أحمد عيسى

هذا الرجل قضى ٦٠ عاما من عمره يحاول استكشاف الحياة العقلية للطفل . وقد مرت الذكرى الاولى لوفاته في الشهر الماضي ، دون أن يذكره أحد ، وهو الذي وصفته مجلة نيوزويك الامريكية بأنه في مرتبة فرويد الذى كان له الدور الأكبر في استكشاف العالم الانفعالي للطفل .

بدأ عالم النفس السويسري جان بياجيه حياته العلمية كباحث في وقت مبكر للغاية . ففي سن العاشرة كتب ونشر بحثا عن نوع نادر من الطيور . ثم تحول اهتمامه فيما بعد الى دراسة الرخويات وعلى الأخص القواقع ، وكتب الكثير من المقالات عن هذا الموضوع نال منها بعض الشهرة حتى انه قد عرضت عليه سرا وظيفة أمين متحف لمجموعة الرخويات في متحف جنيف مسقط رأسه . وهو عرض كان من الممكن أن يقلب حياته رأسا على عقب في حالة قبوله لأنه لم يكن قد أنهى بعد دراسته الثانوية .

وقد بدأ بياجيه حياته الأكاديمية فعلا بحصوله على درجة الدكتوراه في البيولوجيا في عمر مبكر نسبيا . اذ لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين من عمره . وبعدها انخرط فجأة في سلك التحليل النفسي الذي ترك تأثيرا واضحا في نظريته عن النمو العقلي للطفل وخاصة في المرحلة الثانية من هذا النمو التي تتميز عنده بالتفكير المتمركز حول الذات .

وفي سن الرابعة والعشرين اتجه بياجيه القيام بدراساته الرائدة عن نمو الذكاء عند الاطفال . وعندما بلغ الثلاثين من عمره أكسبته دراساته تلك الشهرة الواسعة في أوروبا كلها . الا أن نظريته لم يدم تقبلها في الولايات المتحدة الامريكية وغيرها من البلاد الا ابتداء من الخمسينات وبشكل تدريجي .

وعلى الرغم من أن بياجيه قد ظل عقلا نشطا منتجا في مجال البحث العلمي لأكثر من ٦٠ عاما ، وترك وراءه ما يزيد عن خمسين مصنفا ما بين كتاب وبحث مفرد . الا أن ما ستذكره له الأجيال المقبلة هو أعماله الاولى التي بدأها في



جان بياجيه في بيته بجنيف في مارس ١٩٧٣

العشرينات واكتشف من خلالها ما يمكن أن نسميه « بذرة الذكاء » وتطور نموها كما ينمو الجنين ، أو على حد قوله هو « التطور الجنيني للذكاء أما اهتمامه في السنوات الأخيرة من عمره فقد انصرف الى دراسة المنطق المجرد ، وأصبحت كتبه بالتالي مدعاة لمزيد من الصعوبة في فهمها .

بياجيه وفرويد

اذا كانت فكرة الانسان عن نفسه قد تغيرت تماما بعد أن قام فرويد بوضع تخطيطه للحياة الانفعالية للطفل ، كذلك فان بياجيه قد وضع خريطة العالم العقلي للطفل وأحدث فيها تحولات كبيرة . ويعتبر بياجيه وفرويد من أكثر مفكري القرن العشرين اصالة فيما أتيا به من أفكار جديدة أدت الى استكشافات خطيرة في حياة الطفل والى مزيد من الفهم للانسان . وقد أثرت أفكارهما هذه على الكثيرين من علماء النفس الذين جاءوا بعدهما وساروا على نفس النهج الذي اتبعه كل منهما وابتعدوا عنه قليلا أو كثيرا وحتى عارضوه معارضة شديدة .

الا أنه لم يكن لدى بياجيه ـ على عكس فرويد ـ ميل الى بناء النظريات الكبيرة الشاملة كما لم يكن عنده أي ميل الى الآراء القاطعة الموثوق بها ثقة عمياء بحيث يخوض في سبيلها معارك حامية الوطيس من الجدل الأكاديمي ، كما فعل فرويد مع من عارضه من تلاميذه مثل يونج وادلر وغيرهما من المنشقين عليه والمعارضين له . بل الواقع أن بياجيه كان يتميز بشخصية متحفظة هادئة تشعر حينما تقابله وهو يسعى في شوارع مدينة جنيف ، سواء كان على قدميه أو فوق دراجته ، بأن وجهه الأبوي مألوف لديك ، بغطاء الرأس الأزرق الذي يرتديه دوما ، والغليون الذي يدخنه باستمرار والنظرات المتألقة في عينيه كما لو كان في طريقه الى اكتشاف الحل لآخر معضلة عقلية واجهته ، ولم يكن بياجيه ممن يعيرون كبير اهتمام للشهرة أو المناظرات الجدلية أو صغائر القول .

والثابت أن بياجيه قد أحدث ثورة في دراسة تطور التفكير واللغة عند الطفل ، فقد ابتكر طريقة لم يسبقه اليها الا فرويد في دراسته للاضطرابات الانفعالية ، وكانت جديدة تماما في مجال دراسة تفكير الأطفال ، ونعني بذلك الطريقة الاكلينيكية التي تعنى بدراسة الحالة الفردية دراسة متسعة ومتعمقة في نفس الوقت .

وقد أحدثت بحوث بياجيه انتقالة هامة في تاريخ دراسة علم النفس لتفكير الاطفال . فبدلا من النظرة السلبية التي كان علم النفس التقليدي يتناول بها تفكير الطفل عن طريق تسجيل نواقص وعيوب هذا المستوى من نمو التفكير الانساني بمقارنته بتفكير الكبار ، حاول بياجيه أن يكشف عن الخصائص الكيفية المميزة لتفكير الطفل من منظور ايجابي . فلما كان يسترعي اهتمام الباحثين من قبل هو : « ما الذي لا يوجد عند الطفل في تفكيره ؟ وما الذي ينقصه بالمقارنة بالكبار ؟ وعلى هذا الأساس حددوا خصائص التفكير عند الطفل بأنه تعوزه القدرة على التفكير المجرد ، وتكوين المفاهيم وربط الأحكام ، والاستنتاج . وما الى ذلك ولكن بفضل بياجيه اتخذت البحوث في هذا الصدد مسارا آخر يدور حول : ما الذي يوجد عند الطفل ؟ وما الذي يتصف به تفكيره من

خصائص وصفات تميزه ؟ » . والحق أن ما قام به بياجيه يعتبر جادا وجديدا في تاريخ الفكر السيكولوجي استفادفيه من آراء « روسو » الذي كان مديرا للمعهد الذي يحمل اسمه بجنيف ، والتي تقول بأن الطفل ليس اطلاقا بالنموذج المصغر للشخص الراشد وبأن عقله ليس بعقل الراشد على نطاق صغير . وتكمن وراء هذه الحقيقة التي أيدها بياجيه بالبرهان التجريبي ، فكرة بسيطة في جوهرها ، هي فكرة التطور التي أضاءت كل دراسات بياجيه .

وقد أثبت بياجيه أن عقل الطفل يتميز بالنشاط والايجابية منذ الطفولة المبكرة . فالطفل يجاهد منذ نعومة أظفاره لكي يفهم هذا العالم المعقد الذي يجد نفسه فيه ، ذلك العالم الذي تتغير فيه أشكال الأشياء بشكل غامض كلما تحركنا حولها ، وتختفي فيه الاشياء دون سابق انذار حينما يقف شيء أو شخص آخر في مواجهتها . عالم يجعل الحياة تدب فجأة في مجموعة من حبات « البلي » بمجرد أن توضع على مكان منحدر .

كان النهج الذي انتحاه بياجيه هو نهج العالم الطبيعي القائم على الملاحظة والتجريب . وكان أهم مفحوصيه الذين أجري عليهم تجاربه وملاحظاته هم أطفاله الثلاثة ، على أن النتائج التي توصل اليها من دراستهم قد تكرر الحصول عليها من تجارب أخرى أجريت على مئات الأطفال من ثقافات ومجتمعات متنوعة .

مرصد للذكاء

وكانت عبقرية بياجيه تكمن في أنه يستطيع أن يرى ذروة الذكاء في أعمال لا يرى فيها الآخرون الا مجرد أخطاء طفلية . والواقع أن هذه الاخطاء كانت بالنسبة له المادة الخام للبيانات التي يحصل منها على نتائجه الباهرة .

ففي احدى تجاربه التقليدية كان يواجه طفلا صغيرا باناءين أحدهما طويل وضيق والآخر متسع وضحل العمق ، ويحتوي كل منهما على نفس الكمية من الماء (أو الخرز) ، وقد اكتشف ان الأطفال كانوا يظنون أن بالاناء الأطول كمية أكثر من الماء عما يوجد منه في الاناء الأقصر (المتسع) ، ولا يمكن أن نجعلهم يغيرون من رأيهم هذا مهما استخدمنا من وسائل لأيضاح غير ذلك ، ولكن يحدث لنفس هؤلاء الاطفال فجأة في سن السادسة أو السابعة أن يصلوا بشكل تلقائي الى تكوين التصور القائل بأن حجم السائل لا علاقة له بشكل الاناء الذي يحتويه ، وانه يظل ثابتا دون تغير مهما تغير شكل الاناء .

وفي تجربة أخرى كان الاطفال حتى سن الخامسة أو السادسة يعتقدون أن ستة بنسات موضوعة فوق بعضها البعض تكون أقل في كميتها منها هي نفسها حين تكون موضوعة في صف أفقي . أما عند سن السابعة أو الثامنة فان كل الاطفال تقريبا يفهمون أن عدد البنسات لا يتغير بصرف النظر عن طريقة ترتيبها . وقد يكون لدى الطفل القدرة الفطرية على فهم هذه القاعدة العقلية الجديدة الا أنه لا يتعلمها الا من خلال ما يقوم به من فعل وما يمر به من خبرة .

والواقع أن نظرة بياجيه الى تأثير الخبرة لا تنفصل عن تقديره للعوامل الفطرية الكامنة في كل طفل بشري على أساس من الوراثة الانسانية العامة فكل خبرة يمر بها الطفل ، في رأيه ، انما ينظمها الذكاء الفطري لديه . وكل طفل عنده يبني لنفسه نموذجه الخاص الفريد عن الواقع ، ويقوم بمراجعة هذا النموذج على الدوام وبتتابع منتظم في مراحل نموه العقلي المتتالية .

وصل بياجيه من تلك التجارب والملاحظات التي قام بها في العشرينات والثلاثينات الى تكوين نظريته عن النمو العقلي ومراحله . فهو يرى أن الأطفال يمرون جميعا بسلسلة متتابعة من مراحل النمو المحددة تتمثل في خمس مراحل كبرى تنقسم الى عدد من المراحل الفرعية أو الاطوار . وتبدأ أولى هذه المراحل عند الميلاد حينما يكون الوليد الصغير غير واع بوجوده الخاص ولا يدرك العالم المحيط به على هيئة أشياء دائمة توجد في المكان والزمان ، وتنتهي بين الحادية عشرة والخامسة عشرة بالوصول الى القدرة على استخدام التفكير المنطقي والمجرد .

التمثل والمواءمة

وقبل أن نخوض في تفاصيل هذه المراحل ينبغي أن نشير الى عمليتين هامتين يبدأ بهما بياجيه نظريته في النشاط العقلي ويعتقد أنهما أساسيتان لنمو كل كائن عضوي . وهما عمليتا التمثل والمواءمة ويضمهما لعمليتين متكاملتين :



إن للاطفال نظرات مختلفة للعالم ، كما أن لهم طرقا مختلفة في التفكير

مفهوم التكيف والتمثل هو عملية تلقي الأشياء من البيئة واستخدامها في نشاط معين موجود في ذخيرة الكائن العضوي من الأنشطة . وأبسط الأمثلة على التمثل هو الأكل ، فالطعام يتغير في أثناء عملية ادخاله للجسم ويصبح جزءا من الكائن العضوي . أما المواءمة فتعني اضافة أنشطة جديدة الى ذخيرة الكائن العضوي أو تعديل أنشطته القائمة استجابة لظروف البيئة . وتتكامل هاتان العمليتان وتتضمن كل منها الأخرى . فاذا كانت أجزاء الطعام المطلوب من الكائن تمثلها كبيرة ، يكون عليه أن يفتح فمه فتحة واسعة . كما أن هناك عددا من العمليات البدنية والكيمائية التي تحدث في الكائن العضوي لكي توائم بينه وبين نوع الطعام الذي سيتمثله وتغير في نفس الوقت ما تم هضمه منه . ويستعمل بياجيه مصطلحي التمثل والمواءمة بمعنى أوسع لكي ينطبق على العمليات العقلية . فيشير التمثل الى أي عملية يغير بها الكائن المعلومات التي يستقبلها ، أي العملية التي يجعلها فيها جزءا من معرفة الكيفية عند الكائن . وهكذا فان المعلومات تهضم ، أما المواءمة فتعني أي توافق يكون على الكائن أن يقوم به ازاء العالم الخارجي حتى يتمثل المعلومات ويرجع النمو العقلي الى التبادل المستمر النشط للادوار بين التمثل والمواءمة .

ويحدث التكيف الذكي حينما تتوازن العمليتان أو يكونان في « حالة اتزان » ، ولكن حينما لا يكونان كذلك فان المواءمة أو التوافق مع شيء ما يمكن أن يتغلب على التمثل ، وهذا ما ينتج عنه المحاكاة . وبالمقابل فان التمثل قد يتغلب بدوره كما يحدث في ملاءمة الانطباع والادراك مع الخبرة السابقة وتكييفها لحاجة الفرد . وهذا ما يحدث في اللعب فهو تمثل خالص يغير المعلومات المتحصلة لتتلاءم

مع متطلبات الفرد . ويكون اللعب والمحاكاة جزءا متكاملا يساعد في نمو الذكاء عند الطفل الانساني وارتقائه . وهذا ما ينتج عن تحقيق نوع من التوازن بين عمليتي التمثل والمواءمة ، كذلك حيث يصبح الطفل أقدر على تناول المثيرات البعيدة عنه في المكان والزمان ، وعلى استخدام الطرق غير المباشرة في حل المشكلات . ٢

وقد بذل بياجيه جهدا علميا مضنيا لم يسبقه اليه أحد لكي يحدد بالتفصيل الخصائص المميزة لكل مرحلة من مراحل النمو العقلي التي نتناولها بايجاز :

١ ـ مرحلة الذكاء الحسي الحركي

وتبدأ من الميلاد وحتى نهاية العام الثاني تقريبا . ويبدأ النمو العقلي فيها معتمدا على انطباعات غير متآزرة تأتي للطفل من حواسه المختلفة . فالطفل في البداية لا يميز بين ذاته والعالم الخارجي ثم يبدأ في ادراك ذاته كشيء أو موضوع بين مكونات العالم الكثيرة المحيطة به والتي لا يتأثر عليها بنشاطه .

وهو يكتسب تدريجيا أثناء هذه المرحلة الاحساس والتآزر الحركي والتوافقي اللازم لادراك الأشياء ومعالجتها في المكان والزمان . وتتميز استجابات الطفل الرضيع بأن الحكم على الأشياء يكون عن طريق الاختلاف ، فالزجاجة التي تكون بعيدة عن النظر بالنسبة له هي زجاجة فقدها الى الأبد . وهو قد يتابع نقطة من الضوء المتحرك حينما تكون في مستوى نظره ، ولا يكون هناك أي استجابة لها اذا ابتعدت عن هذا المستوى . وهو يستمر في التفرس في شيء ملفت للانتباه ، الى أن يختفي عن نظره ويتعلم الطفل قرب نهاية هذه المرحلة كيف يتحكم في حركاته في الفراغ وأن يكون فكرة دائمة عن الاشياء ، وهذا ما يوفر له نوعا من الاحساس بالثقة النابعة من توقعاته بوجود الانتظام في العالم المحيط به ومن امكانه الاعتماد على ذاته في القيام بأفعال معينة . اي انه باختصار يكتشف العالم الخارجي من خلال ذاته كجسم ، فهي الاطار المرجعي الذي ينسب اليه كل ما يدركه في العالم الذي يجد نفسه فيه .

٢ ـ مرحلة ما قبل المفاهيم

وتستمر من العام الثاني الى نهاية العام الرابع . والطفل فيها يستخدم تمثيلات أو صورا تمثل أو ترمز لأشياء أخرى . فبدلا من مجرد القدرة على تخيل الأشياء في حالة غيابها ، يتعلم الطفل أن يرمز الى عالم كامل من الأشياء

والعلاقات التي بينها . ولكنه لا يزال غير قادر على أن ينظر لهذه الأشياء من وجهة نظر أخرى الا وجهة نظره الخاصة به ، وهذا ما يسميه بياجيه بالتفكير المتمركز حول الذات . فهو يضع شيئا الى جانب شيء آخر لأن شيئا من كل منها قد جذب انتباهه . وتعطى أسبابا لما يقوم به من أفعال بطريقة مشابهة . فالبالون تطير لأنها حمراء وعليها شريط أو خيط أي أن تفكيره يتميز بأنه نوع من التفكير التحولي من الخاص الى الخاص . وهو يختلف عن التفكير الاستنباطي من العام الى الخاص والتفكير الاستقرائي من الخاص الى العام .

٣ ـ مرحلة التفكير الحدسي

وتدوم من سن أربع سنوات وحتى السابعة من العمر . ويتحرر تفكير الطفل في هذه المرحلة من كثير من نقائص المرحلة السابقة . ومع ذلك يظل محكوما بحدود كثيرة ، والسبب الرئيسي لذلك ان التفكير لم يتحرر تماما من الادراك . ويتميز التفكير في هذه المرحلة حسب تعبير بياجيه ـ بأنه من النوع الحدسي أو البدهي ، ونفهم معنى ذلك من تجربته المشهورة التي يصب فيها مجموعة من الخرز من اناء زجاجي معين الى اناء زجاجي آخر أطول وأضيق . ومع ذلك فان الطفل يقول بأن كمية الخرز صارت أكبر (بسبب طول الاناء وضيقه) . والسبب الأساسي في هذا ان الطفل ما زال محكوما بالادراك أكثر منه بالتفكير ، وبالتالي فان نتائجه تتأثر بالتغيرات في النقاط التي تكون مركزا للادراك . وبالاضافة الى ذلك فان الطفل يركز على جانب واحد ويتجاهل الجوانب الأخرى . فالتمركز يؤدي به الى التهويل من شأن عنصر معين وتجاهل العناصر الأخرى فهو يركز على طول الاناء أو ضيقه ، وليس على كليهما كما يفعل الراشد السوي في مثل هذه الحالة .

٤ ـ مرحلة العمليات العيانية

وتستمر من سن السابعة وحتى الحادية عشرة . ويبدأ الطفل في هذه المرحلة أولى العمليات الاستدلالية التي يمكن أن تتفق مع أسس المنطق . فالتفكير المنطقي لا يظهر الا حين يتوفر لدى الطفل ذخيرة من المفاهيم التي تنتظم فيما بينها في نسق متماسك . وتسمى هذه المفاهيم التي تشكل التفكير المنطقي أو الاجرائي « بالعمليات » لأنها عبارة عن استجابات تم استيعابها وأصبحت تمثل قواعد عقلية أو قوالب للتفكير .

وفي هذه المرحلة يصبح الطفل قادرا على عكس العمليات في ذهنه ، ولكن هذا يحدث فقط في العمليات العيانية (كتجربة صب الخرز من اناء واسع لاناء ضيق) . ولا تصبح هذه العمليات مجردة تماما عن كل الأمثلة العيانية الا في المرحلة التالية في سن المراهقة .

٥ ـ مرحلة العمليات الصورية

في هذه المرحلة التي تستمر حتى سن الخامسة عشرة يمكن التوصل الى البرهان المنطقي الصوري الذي لا يكون متعلقا بالوقائع بل خالصا في نوع من التفكير المجرد . فيمكن للمراهق أن يتأمل الفروض بصرف النظر عما اذا كانت حقيقية أم متخيلة ، كما يستطيع أن يستخدم المنهج الفرضي الاستنباطي كما يستخدم في العلم والرياضيات والمنطق ، وتزداد رغبته في التنظير والنقد .

وتتكون المفاهيم في كل مرحلة بالخبرة ومن خلال تبادل الأدوار والتوازن بين أنشطة التمثل والتواؤم فالخبرة وحدها لا تكفي . وهناك حدود فطرية للنمو في كل مرحلة ترجع جزئيا الى مرحلة نضج الجهاز العصبي المركزي للفرد . كما تعزى جزئيا كذلك الى خبرته في كل من البيئتين المادية والاجتماعية ، ويكون التعاون مع الآخرين وتبادل الأفكار فيها بعد أمرا هاما ، لأنه يجعل الفرد ينظر الى الأشياء من خلال العديد من وجهات النظر المختلفة ، وهذا أمر جوهري لرؤية التضمينات والتناقضات المنطقية .

ويعتقد بياجيه بأن الأطفال جميعا يمرون بهذه المراحل بنفس الترتيب وفي نفس الأعمار على وجه التقريب . وهو أمر ظل موضع تساؤل ، حتى أثبتت بعض البحوث الحديثة وصول بعض الأطفال الذين يتلقون دراسة من نوع خاص الى بعض هذه المراحل في وقت مبكر عما ذكره بياجيه . الا أن المفهوم العام عن هذه المراحل أصبح مقبولا الآن على نطاق واسع من الجميع .

لقد كان لأفكار بياجيه عن التربية بوجه خاص تأثير عظيم . فقد كتب يقول « ان هدف التربية هو أن تخلق الامكانات للطفل لكي يقوم هو بالاختراع والاستكشاف » . ويعتبر هذا هو « المانيفستو » الذي تلتزم به حركة الاهتمام بالطفولة المبكرة منذ الستينات والسبعينات . وعلى الرغم من اسهامات بياجيه في كل من

مجال علم النفس والتربية ، الا أنه لا يعتبر نفسه عالم نفس أو مربيابقدر ما يعتبر نفسه باحثا عن « ارتقاء المعرفة » أو عالما بيولوجيا يطرح متفلسفا السؤال الخالد : كيف يتعلم الكائن الانساني؟ » .

واجابته عليه هي : انه يتعلم من ناحية بفضل طبيعته وما يرثه ، ومن ناحية أخرى بفضل بيئته وما يكتسبه فيها من خبرات . ويعني بياجيه بذلك ان كل طفل انساني يحتوي على برنامج وراثي على نحو ما لكي يصل الى اكتساب التفكير المنطقي في مراحل للنمو يمكن التنبؤ بتتابعها . ولكنه يضيف الى ذلك ان النمو يعتمد أيضا على التفاعل القوي مع البيئة . وعلى ذلك فالتعليم ليس شيئا يصب داخل الطفل بل انه شيء يساعد الطفل على خلقه من خلال ما يبذله من نشاط خاص به .

بين الشرق والغرب

على الرغم من أن أفكار بياجيه السابقة تؤكد على العمليات الفطرية ودورها خلال عملية التعلم ، الا أنه لم يهمل دور البيئة ـ كما رأينا ـ وهو لذلك يسمي نفسه « الرجل الذي يقف في منتصف الطريق » فيما بين الوراثة والبيئة من نزاع . ومع ذلك فان نظريته لم يتم تقبلها في الولايات المتحدة الا ابتداء من الستينات نظرا لأن الاتجاه العقلي السائد فيها لسنوات طويلة كان هو التحمس الزائد لمناصرة البيئة على حساب الوراثة . فالبيئة في نظر أصحاب هذا الاتجاه هي التي تشكل الشخص وليس الوراثة . وهم بالتالي ينكرون وجود غرائز أو غيرها من التكوينات الفطرية التي يمكن أن تؤثر على الانسان . نتيجة لذلك كان بياجيه مرفوضا لدى الكثيرين في الهيئات الأكاديمية والكليات الجامعية . ولما ثبت علميا خطأ هذا الاتجاه بدأت أعمال بياجيه تنتشر وتساعد الى جانب أعمال بعض العلماء الآخرين مثل الانثروبولوجي كلود ليفي شتراوس وعالم اللغويات نوام كومسكي ـ على اقناع المتشككين من الناس ، بأن هناك بعض أشكال من التكوينات الفطرية التي يمكن أن تؤثر على تشكيل حياة الانسان وتحديد مصيره . وبدأ الجانب الخاص بالوراثة يلقى مزيدا من الاحترام باعتباره جانبا هاما من الحقيقة في هذا المجال .

أما في الشرق فقد انبرى عالم النفس السوفيتي الشاب ل . س فيجوتسكي الذي ولد مع بياجيه في نفس العام (١٨٩٦) ولكنه توفي في ريعان الشباب عن ٣٨ عاما من العمر ـ انبرى هذا العالم لكي يوجه الى بياجيه أهم نقد وجه الى نظريته على الاطلاق ، والغريب في هذا الأمر ان نقد فيجوتسكي لم يصل الى بياجيه الا بعد اكثر من ربع قرن من وفاة فيجوتسكي (في سنة ١٩٣٤) وقد أقر في تعقيبه على هذا النقد (في سنة ١٩٦٢) بصواب الكثير من الملاحظات النقدية للباحث السوفيتي التي تدور في معظمها حول مرحلة التفكير المتمركز حول الذات . وهي التي يرى بياجيه ان التفكير الفردي فيها يسبق التفكير الاجتماعي كما يظهر ذلك من خلال كلام الطفل الذي يدور معظمه حول ذاته . بينما يثبت فيجوتسكي بتجاربه التي أجراها وذكرها في كتابه « التفكير واللغة » ان العكس هو الصحيح ، وان هذا التفكير الذي يصفه بياجيه باللاواقعية (تأثرا بفرويد) يرتبط بشكل وثيق بالواقع ويستند الى ما يحيط بالطفل والى ما يحتك به . وهو يرى أن الاتجاه الحقيقي لنمو التفكير يسير من التفكير الاجتماعي الى التفكير الفردي . ورغم نقده هذا ، الا أن فيجوتسكي يعترف بعظمة أعمال بياجيه ودورها الرائد .

ويمكن أن نذكر نقدا شائعا يوجه لبياجيه عموما وهو أن أعماله لم تؤد لأي رؤية واضحة عن كيفية تربية الأطفال . . . وعلى الرغم من ذلك فهناك نتيجتان من نتائجه على درجة كافية من الوضوح في هذا المجال ، هما :

١ ـ ان الدافع والجزاء أو المكافأة ليست لازمة بالضرورة للتعلم ، فالتكوينات الموجودة في عقل الطفل تؤدي الى نوع من النمو التلقائي .

٢ ـ ان المعلم يلعب دورا محدودا في عملية التعلم . فعند بياجيه الطفل هو المربي الحقيقي لنفسه وليس المعلم .

وفي التحليل النهائي لحياة هذا العالم الفذ وأعماله ، يكفي أن نذكر ما قاله عنه عالم النفس الامريكي جيروم كيجان الذي يعمل أستاذا في جامعة هارفرد : « لقد كان أعظم من وضع النظريات الارتقائية تأثيرا على العصر كله ان لم يكن على كل العصور » ■■

د . حسن أحمد عيسى

المعرفة الإنسانية بين الرواية شفوياً والتدوين كتابياً

بقلم : محمد خليفة التونسي

١ ـ المعرفة بدأت مختلطة شفوية

في كل جماعة من امم العالم ينشأ الادب شفويا على اختلاف انواعه الشعرية والنثرية ، بل هكذا في كل جماعة تنشأ المعرفة كلها شفوية وتكون مختلطة لا يمتاز فيها شيء من غيره ، ثم تنمو وتتطور ، فتتمايز وتتنوع انواعها ، ثم يتفرع كل نوع الى انواع وهلم جرا .

وفي البداية يكون الادب متصلا بالمعرفة كلها مختلطا بها ، ثم يتميز عنها بالذاتية التي تغلب عليه ، لأنه تعبير لغوي عن المواجد في نفس صاحبه بخاصة وليس تحديدا لغويا لحقائق ذهنية عامة يشترك الناس في ادراكها بمحض عقولهم على نحو واحد وبصورة واحدة ، ولكن الادب ـ مع سائر الفنون ـ يبقى متصلا بالمعرفة يأخذ منها ويعطيها ، ويتأثر بها ويؤثر فيها وان كان متميزا منها بالذاتية التي هي قوامه وطابعه ، وهذه الميزة او هذه الخصيصة هي التي تجعله متفردا بكيانه وميدانه فلا يختلط بغيره من انواع المعرفة جميعا ، وان بقي متصلا بها اقوى اتصال .

٢ ـ الاختراع وليد العبقرية

وما من جديد فيما يخترعه الناس في شئون الثقافة او الحضارة ـ مهما يهن خطره ، وتتيسر اعادته وصنع مثله بعد اختراعه ـ الا وهو في البداية وليد عبقرية مبدعة تؤيدها شجاعة فادية ، بدءا من اختراع اللفظة والنكتة والحرف الى تكوين نظام فلسفي او ديني او اجتماعي ومن استعمال الحجر للرمي وفتل الحبل لتقويته الى بناء الصواريخ والقنابل الذرية والنجوم الصناعية بل قد تكون الطاقة العقلية اللازمة للاهتداء الى فتل الحبل او صنع الفأس اكبر من الطاقة العقلية اللازمة لاختراع صاروخ او نجم صناعي او سفينة فضاء وكل هذا يصدق على الادب كما يصدق على غيره .

٣ ـ الخلق قبل النقد

وفي البداية يغلب على المهتمين بكل نوع ادبي انهم يبرعون فيه صنعا او عملا دون ان يهتموا بتعريفه او وضع حدوده ولكنهم ـ على اية حال ـ يكونون على معرفة وافية دقيقة باركانه وشروطه وتراكيبه ومزاياه سواء كانت معرفتهم هذه لدنية من جهة الطبع والبداهة في الفطرة او كانت مكتسبة من جهة التعلم والدرس او مراجعة النظر في التجارب الناجحة والفاشلة وطول الدربة ووفور الخبرة

وقد نشط الانسان بجهوده العقلية والنفسية في مجالات الثقافة والحضارة قبل ان يسأل عن هذه المجالات النظرية والعملية ويبحث عن احوالها ويكتشف قوانينها وطرق

نشاطها وركودها : فقد تكلم وغنى ونظم ولحن قبل ان يعرف قواعد الكلام والغناء والنظم والتلحين وحكى ورقص ورسم وبنى ، قبل ان يعرف قواعد الحكاية والرقص والرسم والبناء ورصد الطبيعة ولاحظ تقلباتها وجرب قدرته في الانتفاع بظواهرها وموادها قبل ان يدرك نواميسها ويقسم دراساته لها علوما ويعرف حدود كل علم وقوانينه ونظر الى جماعته ثم الى نفسه ، قبل ان يعرف خصائص الاجتماع وخفايا النفس .

وهكذا الانواع الادبية فاضت بها الحيوية في الفطرة البشرية تنفيسا عن رغباتها واستجابة لحاجاتها ، ومناجاة لاشواقها وتصويرا لخيالاتها ، وتسجيلا لوقائعها ، قبل ان تميز العقول بين هذه الانواع ، وتفرز مجال كل نوع ، او توسم محيطه ، وتستنبط خصائصه وقواعده .

٤ ـ تنوع الفنون والأدب

ومع تقدم حضارة الجماعات ـ بعد تقدم ثقافتها ـ تمايز المعارف البشرية وتتنوع ، وتشرع العقول في نقدها والبحث عن أقسامها ، وخصائص كل قسم ومجاله وقواعده وتاريخ تطوره ، وطرق تنوعه .

حتى الأدب ـ وهو من الفنون الجميلة التي هي فيض المواجد النفسية في قوالب حرة مشخصة لخفايا هذه المواجد بوسيلة اللغة ـ يسير كغيره من الفنون في هذا الطريق الذي تسير فيه كل المعارف الانسانية ، فيبدأ مثلها مختلطا ثم يتمايز ويتفرع ، كما تكون النواة في اختلاطها ، وقواها كامنة الى أن تصير شجرة تامة ذات جذور وساق وفروع وأغصان وعساليج وأوراق وأزهار وثمار ، ولكل منها خواصه ووظيفته ، سواء في ذلك ما كان من اللباب أو كان من القشور . ومع نمو الأدب يكون منه الشعر كما يكون منه النثر ثم يكون الشعر غنائيا أو قصصيا أو تمثيليا أو تعليميا ، ويكون النثر قصصيا وأمثالا وخطبا وأساطير ، ورسائل ، وتراجم ، وتواريخ وعهودا ، ومقامات ومقالات ونكتا ، والغازا ، وسوانح ، وحكما ، ومسرحيات ، وملاحم ، ورحلات ، ومفاخرات وأجوبة مسكتة ، وكلمات جامعة .

٥ ـ بين الرواية والكتابة

ومع تقدم الحضارة ، بعد تقدم الثقافة ، تتعلم الجماعات الكتابة ، فتحاول تقييد تراثها بعد أن كانت تتناقله رواية بالمشافهة ، وحين تبدأ براعتها في الكتابة تحرص أولا على تقييد أنفس ما في تراثها الثقافي الذي تصونه عن التحريف أو السهو أو الضياع أيا كانت أسباب ايثارها له وضنها به .

وربما كان من أهم هذه الاسباب تعلقه بحاجاتها الحيوية المباشرة ، سواء كانت نفسية أو مادية ، كالشئون الدينية والتجاريةوالقانونية ، كما يظهر من تاريخ الكتابة عند قدماء المصريين ، والبابليين ، والفينيقيين ، والعبرانيين ، واليونانيين ، والصينيين .

ومن أهم هذه الاسباب أن هذا التراث نتاج ما أبدعته خاصتها أو أشرافها الذين بأيديهم قيادة الجماعة ، فهم القائمون بسلطانها ، والمسئولون عن توجيهها وفيهم تتمثل أرقى مزاياها ، وهم أشد اهتماما بمستقبلهم ومستقبلها وتخليد مآثرهم ومآثرها .

ومنها أن العارفين فيهم بالكتابة أو المقدرين لشرفها يومئذ ، كانوا هم هؤلاء الخواص ، فهم يتعصبون لانتاجهم الخاص بهم ، ويضنون به على الضياع ، وهم دون غيرهم أصحابه ، سواء كانوا هم الذين أبدعوه ، أو كان مما أبدعه لهم غيرهم من العامة ، ولكنهم هم ومفاخرهم موضوعه ، ومن أجلهم وحدهم أبدعه أصحابه ، وذلك كالاشعار التي يمجد فيها قائلوها الأبطال والعلية ، وان كان الشعراء الذين قالوها من العامة أو الدهماء مولدا وتربية ومعيشة ، كما يدل على ذلك تدوين الالياذة والأوديسة اللتين تنسبان الى الشاعر اليوناني هوميروس ، فان هذا الشاعر العبقري الكبير لم يكن يعيش الا كما يعيش السائلون على الصدقات ، وما كان في كل ما وعي من أشعار غيره ، وما أبدع من شعره ، ولفق في اخراج ملاحمه ، ثم أنشدها على قيثارته في المجامع ـ الا مسكينا مهملا ، وكان أبعد همه من كل عمله نظما وانشادا ان يظفر في الحفلات بأكلة يسكن بها جوعته ، ويمسك بها رمقه .

٦ ـ النفور من تدوين الحكمه

واذا كانت الأسباب التي دعت وتدعو الى تسجيل بعض التراث الثقافي كثيرة ، فهناك أسباب مثلها كثيرة دعت وتدعو الى اهمال تسجيل بعض هذا التراث بالكتابة ، ولعل اعجب هذه الاسباب ـ ولو ظاهرا ـ نفاسة بعض هذا التراث عند أصحابه ، فهم يضنون به على الكتابة مخافة أن يقع في يد من ليسوا من أهله ، فلا يعرفوا قدره ، أو يسخروه فيما يؤذي الناس ، أو ينشر بينهم الشغب والفتنة . ومن ذلك المباحث الفلسفية عند اليونان حتى أيام ارسطو وتلميذه الاسكندر ، فان « بلوتارك **plutark** أعظم كتاب التراجم في العصور القديمة ـ كما يظهر من كتابه في عظماء اليونان والرومان ـ يذكر في ترجمته للاسكندر أن أرسطو تعرض لعتاب شديد من تلميذه الاسكندر ، خلال بعده عنه في غزواته الآسيوية ، وسبب هذا العتاب ما بلغ التلميذ من أن استاذه يدون في أوراقه الحكمة التي كانوا يسمونها « المعرفة الشفوية » فيجعلها عرضة لأن تقع في أيدي من ليسوا أهلا لها فيضاروا بها ويضيروا أكثر مما ينتفعون وينفعون . وانما سميت هذه الأسرار الحكمية « المعرفة الشفوية » لأن الخاصة من أهلها كانوا يتداولونها مشافهة ،وكان الحكماء العارفون بها لا يعلمونها لغيرهم الا شفاها ويختصون بها بين تلاميذهم من هم أهل لها عقلا وخلقا .

٧ ـ ضياع معارف المصريين القدماء

وقبل عصر ارسطو والاسكندر بمئات السنين كان فراعنة مصر وكهنتها يحتكرون البحث في المسائل الالهية وغيرها من الحكميات ، ويعتدونها اسرارا مقدسة لا يجوز افشاؤها للعامة لا بالكتابة ولا بالمشافهة ، ومن هنا ضاع كثير من مباحثهم الحكمية في الالهيات والفلسفة والسياسة والاجتماع والرياضة والآداب والفنون لزواله بزوال الملك والكهانة ، وكل ذلك مما اتاح للاوروبيين المحدثين أن يردوا كل انواع المعارف في ابتدائها الى قدماء اليونان ، لأنهم منهم بمكانة الأجداد ، ومجد الأجداد فخر للمحدثين ، وهو حامل لهم على العصبية للغرب ولا سيما اليونان ، ولو سجل الكهنة الفرعونيون معارف الحكمة عندهم وحفظها التاريخ كما حفظ كثيرا من الآثار القديمة في مصر ـ لما تبجح الأوروبيون المحدثون بما يتيهون به اليوم من سبق اليونان وامتيازهم على غيرهم من الأمم .

وفيما بين عهد الكهانة الفرعونية وعهد ارسطو والاسكندر ظهر في ايران الحكيم زرادشت **Zaradosht** أوزراوستر **Zaraoster** وجدد المجوسية وكان كتابه الافستا **Avesta** او الابستاق ينطوي على جملة تعاليم مذهبه ، فامر كهنته بتدوين كتابه وحفظه سرا في معابدهم ، حتى لا يطلع عليه غيرهم من العامة لسوء ظنه بالعامة ، اذ هي عاجزة ان تفهمه وتقدره وتلتزم بهداه .

٨ ـ عدم القاء الجواهر في طريق الخنازير

ومن وصايا المسيح عليه السلام لتلاميذه الا يلقوا الجواهر في طريق الخنازير ، ومن وصايا النبي محمد عليه الصلاة والسلام لاصحابه « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » وجاء في الأثر أيضا « لا تعلموا اولاد السفلة العلم » وجاء فيه « واضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير قلائد الذهب والجوهر » ومن جوامع الكلم للامام علي كرم الله وجهه « ليس كل ما يعرف يقال » . ولو مضينا مع منطق هذه الكلمة الجامعة وروحها لفهمنا منها أيضا ـ بالضرورة ـ انه « ليس كل ما يعرف يكتب » .

وممن تنبه لذلك حجة الاسلام الامام أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ فهو صاحب (المضنون به على غير أهله) ، وهو مؤلف كتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » .

٩ ـ تصعيب اللغة ، والالغاز فيها

ومن أواخر من نزعوا شبيه هذه النزعة « عما نويل كنت » أكبر فلاسفة الألمان في العصر الحديث ، فقد كتب معظم فلسفته ـ ولا سيما كتبه في نقد العقل ـ بأسلوب عويص ، فلما سئل عن ذلك وعوتب عليه اشار الى أنه قد تعمد ذلك حتى لا تبتذل فلسفته عند غير أهلها .

وكان القدماء من علماء الكيمياء يكتبون في هذا العلم ملغزين ، فكأنهم لم يكتبوا شيئا الا عند من يفهم رموزهم ، فيفك طلاسم ما يكتبون ، ويقف على ما يقصدون .

وقريب من ذلك ـ وإن كان أدخل في الدجل والمخرقة ـ كتب التنجيم ، فكلتا كتب الدجل وكتب التنجيم ، حافلة بالألغاز واحالة قارئها إلى ما لا قبل له بفهمه أو العثور عليه ، فهي مكتوبة وكأنها غير مكتوبة ، لأن قارئها لا يحصل منها شيئا مفهوما ولو غير نافع .

١٠ ـ تدوين القرآن والحديث

ونعلم من تاريخ تدوين القرآن الكريم انه دون متفرقا في حياة النبي على الرقوق أو اللخاف والجريد والعظام ، ولكنه لم يدون في مصحف واحد ، فلما جاء ابو بكر اشار عليه عمر ـ رضي الله عنهما ـ بجمع القرآن في مصحف ، فتمنع أبو بكر من ذلك طويلا ، لأنه اتقى أن يعمل ما لم يعمل النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان أبو بكر شديد الاغراق في اتباع النبي فيما عمل وما لم يعمل ، ثم بدا له وجه الرأي فيه فأمر بتدوينه في صحف خوفا من ان يضيع القرآن بضياع الحفاظ ، ولا سيما بعد وقعة اليمامة التي قتل فيها مئات من القراء أو حفاظ القرآن الكريم .

ونعلم من تاريخ تدوين السنة النبوية ـ ولا سيما القولية ـ أن معظم الصحابة والجيل التالي لهم لم يكونوا يدونون أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى لا تختلط بالقرآن الكريم ، فلم يبدأ تدوينها الا في نهاية القرن الهجري الاول واوائل الثاني أي بعد نحو قرن من انتقال النبي الى الرفيق الأعلى .

١١ ـ العلم للجميع ، ولكنه يصون نفسه عن غير أهله

وكل من هذه الأحداث يكشف لنا سببا من أسباب العدول عن تدوين جانب من جوانب التراث الذي تعتز به الانسانية وتجله ، وحسبنا أن نشير في هذا الاتجاه المشكل الى ما انتهى به تأملنا وتجربتنا الخاصة ، فنحن مع احساننا الظن بالوعي والخلق الانسانيين في الجملة ـ نرى أن كل سبب من أسباب العدول عن تدوين بعض جوانب التراث الانساني العزيز لا يخلو من وجاهة وان كانت اسباب تدوينه لا تخلو من وجاهة أيضا ، ونحن أميل الى أن نقول في اشفاق وتحفظ شديدين ما قاله عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي ـ وكان أميرا أديبا شاعرا ناقدا ـ « ينبغي ان يبذل العلم لأهله ولغير أهله ، فان العلم أمنع لنفسه من أن يصير الى غير أهله » ولا شك أن تدوين العلم وتعريضه للناس بذل له ، وقد يؤدي البذل الى الابتذال مع سوء الفهم أو سوء الخلق ، وقد يجتمع السوءان معا في نفس واحدة .

ومن الكلمات الحكيمة في ذلك ما قاله الاديب الأمريكي إمرسون **Emerson** 'ليس في العالم خلال وقت واحد أكثر من اثني عشر شخصا يقرءون افلاطون ويفقهونه ، وليس بين هؤلاء من يقدر على شراء نسخة واحدة من تواليفه ، وانما ـ مع ذلك ـ تنتقل من عصر الى عصر لأجل هذه الصفوة النادرة من القراء ، كأن الله يحملها لهم بيديه»، وليس بخاف على « إمرسن » ولا على أي قارىء حصيف من قراء الفلسفة أن معظم كتب افلاطون قد كتبت باسلوبه الشعري المتألق الذي يكثر فيه من الأمثلة والاخيلة والأساطير لتقريب الحقائق الى قرائه ، وبخاصة محاوراته التي كتبها في سنوات شبابه وفيها يعرض للجوانب المختلفة والاراء المتباينة فيما يعرض من المسائل ، فهي لذلك من السهولة بمكان عند القراء الأكفاء ، وهي عند غيرهم أحاجي والغاز ، ومعاناة قراءتها كمعاناة مضغ الصخور النارية .

١٢ ـ بين القضايا الوجدانية والقضايا الذهنية

ومن المعروف عند الحصفاء من قراء الفلسفة وغيرها ان قضايا الفلسفة ومقرراتها يغلب أن تكون ذهنية محضة أو أميل الى ذلك ، ولهذا يقل اختلافها بين عقل وعقل على تباين الازمنة والامكنة ، وهي لذلك ايسر ادراكا من القضايا الدينية والصوفية والسياسية والفنية ونحوها ، مما يعتمد على الذوق والبداهة والمزاج والخبرة ، وهكذا كل

الحقائق الوجدانية التي لا يتفق فيها اثنان في جميع البيئات والعصور ، بل لا يتفق فيها انسان مع نفسه بين حالين متباينين . وحسبك أن تقرأ كتابا في الفلسفة ثم تعود الى قراءته بعد أعوام فانك لا تجد الفرق بعيدا بين القراءتين إلا من حيث سعة الفهم وضيقه ، ولكن اقرأ قصيدة ، أو انظر صورة ، أو أسمع لحنا ، وانت في حالة نفسية خاصة ، ثم عد الى هذا الشيء نفسه ألذي قرأت ، أو نظرت ، أو سمعت ، ولو بعد ساعة ، وانت في حالة نفسية بعيدة عن حالتك الأولى تحس الفرق بعيدا بين المطالعة الأولى والمطالعة الثانية ، فالفلسفة أو حقائقها ذات وجه واحد غالبا ، فاما أن ينكشف هذا الوجه فيفهم أو يبقى خافيا فلا يفهم وأشد من ذلك تجريدا القضايا الرياضية ، ومثلها العلمية فيزيائية وكيميائية اما الحقائق الذوقية أو النفسية فهي ذات ألف وجه ووجه وكلها قد تكون مكشوفة ، ولكن العين لا تقع منها الا على ما يلائم الحالة النفسية للمتأمل فيها وكذلك استحضار الحالة النفسية المناسبة لها كاستحضار الشياطين لا يتيسر في كل وقت على وفق المشيئة كما أن استبعاد الحالة النفسية غير المناسبة كاستبعاد الشياطين ، لا يخضع لمشيئة الانسان في كل وقت، ولو كان من ذوي الدربة والرياضة على استحضار شياطينه وصرفها وفق المشيئة .

ويطول بنا الطريق مع هذا الاتجاه الذي سارت فيه معظم الامم باهمالها عمدا تدوين جانب أو أكثر من تراثها الرفيع القيم ، فلا سبيل أن تستوفي التعريف بهذا الطريق في مقالة قصيرة لنقف على اسباب هذا الاهمال عند كل الأمم .

وعند كل الأفراد الذين تمسكوا به عن عمد ، ولو في بعض المجالات دون بعض ، واذن فحسبنا الاشارة الوجيزة السابقة الى هذا الاتجاه وبعض اسبابه وبعض الاخذين به ، ولمن شاء بعد ذلك أن يتتبعه عند أمة أو أكثر ، وأن يكشف عن أسبابه فيها ، أو عند فرد منها ، وان يدرسها دراسة مقارنة ، كأوسع ما تكون الدراسات المقارنة وادقها على نحو ما نشطت الآن في كل فروع المعرفة .

١٣ ـ الاتجاه إلى دراسة الفنون الشعبية

ولكننا حريون الا نختم مقالتنا الوجيزة في هذا الاتجاه دون اشارة خاطفة الى أن معظم الأمم فيما قبل العصر الحديث قد اهملت تدوين جملة تراثها الفني ، أو الأدب / العامي **folkliterature** الا نبذا متفرقة مبتورة الجذور ، ومن أمثلة ذلك من تراثنا العربي ما نطالعه في بعض كتب الجاحظ وأمثاله ممن عنوا بأدب الجماعات العامية عندنا ، وكذلك ما نطالعه في كتب الأمثال والخرافات والقصص ونحوها عندنا وعند غيرنا من الامم ذوات الثقافات العريقة شرقا وغربا ، ولعدم كتابة هذا الأدب يمكننا ان نسميه الأدب الشفوي **Verbal literature**، وهو قسم مما يسميه الغربيون المحدثون بالفلكلور **folklore** وهذا العلم من أحدث العلوم واهمها في الدراسات الانسانية في العصر الحديث .

وما من سبب من الاسباب الكريمة الخطيرة التي اشرنا اليها أو لم نشر اليها من قبل ـ دفع اسلافنا الى اهمال تسجيل هذا الأدب العامي ، بل حداهم الى ذلك ـ عمدا أو سهوا ـ اسباب أخرى صغيرة كثيرة ، يمكن ارجاعها الى سبب واحد أكبر واشمل ، هو الاستهانة بهذا الأدب وعدم تقدير خطورته في ثقافة الأمة وتاريخها ، أو في أطوار ثقافتها وحضارتها معا ، مع ان هذا التراث اشبع الجوانب الفكرية في جماعاتها جلة ، وهو أكثر تمثيلا للجذور أو القواعد النفسية والاجتماعية الصغيرة والكبيرة التي تقوم عليها ثقافتها وحضارتها معا بكل ما ينبثق عنهما من فروع ، وهما تستمدان من هذه الجذور اسباب حياتها ونموها وتجددها وازدهارها مهما تختلف أحوال الأمة أو جماعاتها كلها أو بعضها من الرقي أو التخلف . ■■

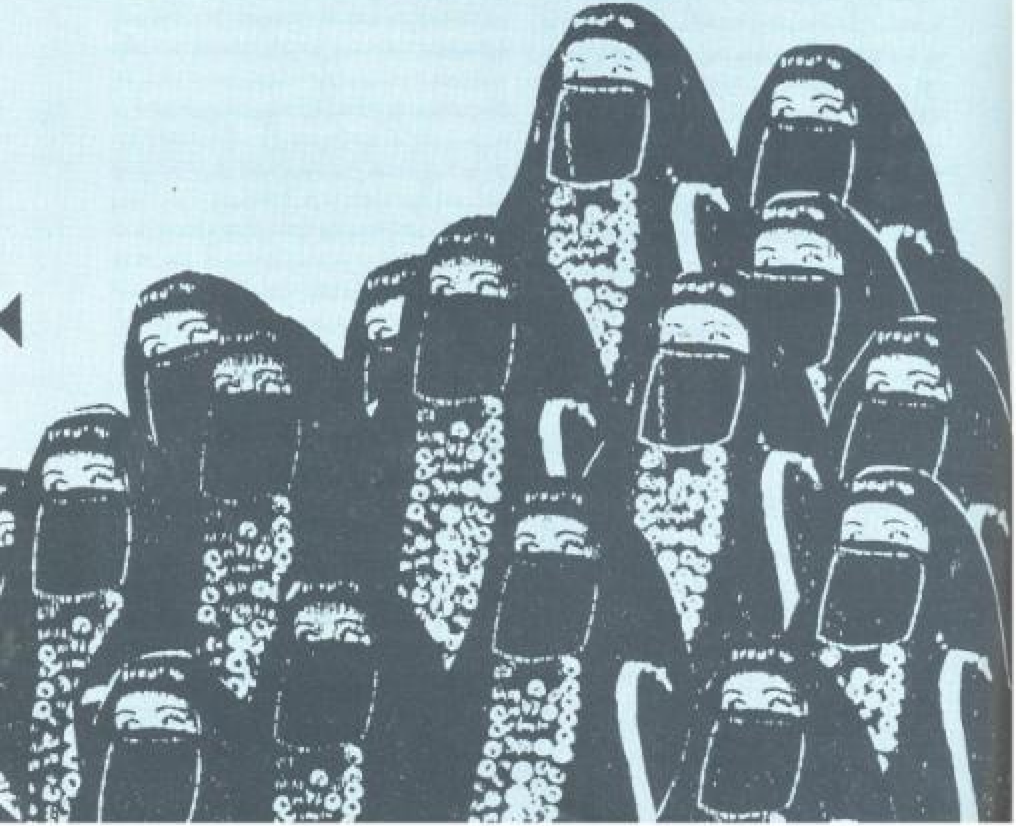
محمد خليفة التونسي

هذه قصة امرأة لعبت ظروفها الخاصة دورا أساسيا في تبنيها لقضية تحرير المرأة بمصر . في بداية القرن الحالي . .

باحثة البادية

أول صوت نسائي يشارك في معركة تحرير المرأة

بقلم : شفيق العمروسي




الشيخ محمد عبده

من الملفت للنظر أن أغلب الباحثين الذين تصدوا لدراسة البدايات الاولى لحركة تحرير المرأة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين قد أغفلوا الدور الريادي الذي قامت به المرأة تجاه قضيتها . ولعل ذلك يرجع الى أسباب من أهمها أن « قضية المرأة » ظهرت في أول الأمر كنتيجة للصدام مع الحضارة الغربية سواء ابان الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ او بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ . ثم ما كان من وجهة نظر تبناها المستفيدون من أبناء الأرستقراطية المصرية وابناء الطبقة الوسطى والتي مؤداها ان تخلفنا ـ بالمقارنة بالتقدم الاوروبي ـ سببه نظام الاسرة ، ومن ثم وجب اصلاح المرأة كزوجة وام لبناء نظام اسري جديد يدفع الى تقدم المجتمع ككل . وبالرغم من خروج اتجاهات متعددة من هذا المنطلق الا انها جميعا كانت تدور في اطار حل لا يخرج عن النظام الابوي الصارم الذي يكبل الأسرة .

ومن هنا يكون طبيعيا ان تصبح قضية المرأة قضية تهم الرجل في المقام الاول ويصبح هو القادر بمفرده على حلها . ولهذا لم يكن غريبا ان نرى باحثة البادية تطالب في المادة العاشرة من اللائحة التي اقترحتها لترقية المرأة المصرية أنه « على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا » . وتلك العبارة تعطينا مؤشرا في غاية الاهمية لعلاقة المرأة بقضيتها ، كما انها تفسر لنا اهمال عديد من الباحثين لدور المرأة الريادي . فغريب مثلا أن نجد اسماء متعددة لرجال يتبنون قضية المرأة ، وفي نفس الوقت تهمل اسماء النساء اللاتي شاركن في تلك النهضة . بل اننا سوف نذهل لو رصدنا لحركة الصحافة النسائية في تلك الفترة ، اذ سنجد انه من بين سبع مجلات نسائية صدرت في المدة من ١٨٩٦ ـ ١٩١٥ مجلة واحدة اصدرها رجل (عبدالحميد أفندي حمدي) بينما الست مجلات الباقية أصدرتها نساء .

وقد لا نجاوز الحقيقة اذا تحدثنا عن الدور (البطولي) لرائدات المرأة . فكم كانت البطولة لامرأة تواجه مجتمعا متخلفا أشد درجات التخلف لم ينظر للمرأة الا كأداة من أدوات المتعة ووضعها وراء ستار يحول بينها وبين رؤية أي شعاع للنور . وقد يكفي ان نذكر من ذكريات سلامة موسى ـ عن تلك الفترة ـ انه ضرب من اخته لأنه ناداها باسمها في الشارع ، اذ كان من الشعائر الاجتماعية الا تعرف أسماء الفتيات ، بل لم يكن غريبا أن يكون مقياس الرجولة أن يفخر الرجل بأن زوجته لم تخرج الى الشارع سوى مرتين ، الاولى حين خرجت من منزل والدها الى منزله ، والثانية حينما خرجت من منزله الى مقرها الاخير .

في ذلك المناخ العام ولدت ملك عام ١٨٨٦ ـ التي اختارت لنفسها اسم (باحثة البادية) توقع به مقالاتها ، ولكن ساعدها ألا تصبح واحدة من آلاف النساء المستسلمات لحظهن في مصر أن تولد لرجل (حفني بك ناصف) من رجال العلم ، تتلمذ على يد الافغاني وكان صديقا للشيخ محمد عبده ، فساعدها على تلقي قدر من التعليم وشجعها على العمل كمدرسة للبنات ، وكان معينا لها الآن تتعرف على أفكار محمد ـ عبده وقاسم امين ، وان تجد الفرصة سانحة أمامها لصفحات (الجريدة) وجماعة لطفي السيد ، الذي كان أحد الرموز الثقافية البارزة في مصر . ثم ما كان من تجربتها الخاصة في الزواج ، وقد استطاعت الباحثة بشاعريتها أن ترسم صورة للمرأة في كافة أدوارها في ذلك العصر ، تلك المرأة المسلوبة الحق المظلومة في كل أدوار حياتها . نراها يتشاءم منها حتى وهي جنين فاذا ظهرت مولودة تستقبلها الجباه مقطبة والصدور منقبضة ... كأنما كان لها بعض الذنب في ولادتها أنثى ! ... وليس حالنا في سن الشباب بأدعى للطمأنينة منه في الطفولة فاننا لا نزيد عن المساجين شيئا الا بالاسم فقط .. واذا تزوجنا لم نزدد الا ضعفا فيقوى الرجل ويستبد . ولذا كان عليها أن تواجه ذلك كله ، وأن تشارك في المعارك القائمة حول المرأة في ذلك الوقت بتقديم الحلول والمقترحات ..

تجربة الزواج وأثرها

ولقد كانت قضية الزواج من أهم القضايا التي تشغل الرأي العام في ذلك الوقت ، فقد كانت هناك مشاكل يعاني منها المجتمع المصري ـ لم تعد تهتم بها الآن ـ كتعدد الزوجات (الضرائر) وكثرة الطلاق واندفاع الشباب المثقف للزواج من الاجنبيات ثم ما كانت تلقاه المرأة من معاملة قاسية على يد زوجها ، كل ذلك جعل من الزواج قضية تتناولها كافة الاقلام .



حفني ناصف



قاسم أمين



احمد لطفي السيد

يمثل عام ١٩٠٧ نقطة تحول في حياة الباحثة . ففي ذلك العام اقترنت من عبدالستار الباسل رئيس قبيلة الرماح بالفيوم الذي كان من أكبر الاثرياء ، وظلت حيـة احدى عشرة سنة تستعر داخلها (نار مقدسة) حدثت مي زيادة عنها فيما تبادلتاه من رسائل . فضلا عن انها اكتشفت بعد زواجها ان زوجها متزوج من ابنة عمه وأن له ابنة !

كان هذا الزواج دافعا قويا لان تكرس الباحثة جهودها حتى وفاتها عام ١٩١٨ في مناقشة مشاكل الزواج والحياة الزوجية ، بل ونحن نلمس من خلال كتاباتها انها جعلت من الزواج المحور الذي تدور حوله باقي القضايا المتعلقة بتحرير المرأة . لقد اندفعت لتتحدث عن الحب . وتلك كانت اندفاعة خطيرة من امرأة في تلك الفترة ، خاصة اذا عرفنا أن « قاسم أمين » كان يتحدث عن ذلك الموضوع على استحياء شديد وأن أحمد لطفي السيد استخدم تعبير « امتزاج روحين » . وهي عندما تضع الحب أساسا للحياة الزوجية المستقرة فانما تأخذ موقف احمد لطفي السيد في مقابل الأساس الذي كان يعتمد عليه المجتمع في ذلك الوقت باعتبار الزواج (صفقة تجارية) أو « عقدا من العقود المالية ، عقد شركة اقتصادية صرفة » .

والباحثة حين تضع تلك القاعدة للزواج تصل اليها بعد أن ترى حولها اسلوبا غريبا للزواج ، تصفه قائلة : « طريقة الزواج في مصر معوجة عقيمة نتيجتها في الغالب عدم الوفاق بين الزوجين ، يقيم الرجل معالم العرس اياما وليالي ويتكبد مصاريف جمة لعروس لم يرها عمره ولم يتأكد من حسن اخلاقها أو جمال نفسها ، انما سمع عن بياضها وسمنها او مالها من الخاطبة التي تصف حسب نصيبها من مكافأة العروس وأهلها » .

هـذا الزواج الـذي هو في جـوهره صفقـة تجاريـة ، سرعان ما يجعل العلاقة بين الزوجين غريبة اشد الغرابة ، نسمع الزوجة عندنا تقول لزوجها : يـاسيدي أو يا أفندي وهو ينـاديها يـا هانم كـأنهما غريبان بعضهما عن بعض ، ولم يكن الامر يتوقف عند ذلك الحد اذ كان الطلاق والخلاف ضرة من السيوف المسلطة ضد أي زوجة في ذلك الوقت . فالضرة « اسم فظيع تكاد انامل تقف بالقلم عند كتابته » . والباحثة هنـا كعادتهـا كانت تتحدث حديث الشاعرة التي تزيدها التجربة والمعاناة شاعرية ، اقرأ كل ما كتبته تجد أنينا متواصلا يخترقه من أوله الى اخره . وذلك الأنين الذي يكاد يكون ركزا ينقلب ساعة الوجع الشديد زئيرا وعويلا » . ومن هنا فان دعوتها كانت تقوم على موقف انساني استمدته من خلال تجربتها الخاصة وما كانت تراه حولها . وذلك بعكس قاسم امين الذي اعتمد على البحث الاجتماعي القائم على المنهج العلمي الاستقرائي . فهي حين تقول « اي ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرق بينهما وتشتت ملتأمهما » ، كانت تعرف حقا مدى الحجم الذي وصلت اليه مشكلة الطلاق في مصر ولكنها كانت تتحدث حديث المرأة الشاعرة لا حديث الباحث الذي يعرف أن نسبة الطلاق الى حالات الزواج في ذلك الوقت بلغت ١ الى ٢ ومن هنا فان الباحثة تضع مجموعة من الشروط كحل لمشكلة الزواج يمكن ايجازها على النحو التالي :

اشتراط أن يقوم الزواج على الحب ـ ضرورة تعرف الخطيبين بعضهما على بعض قبل الزواج ـ تقييد الطلاق وتعدد الزوجات بجعل ذلك باذن من القاضي .

وهي حين تعرض حلها تربطه دائما بتعاليم الدين الاسلامي ، مما جعل البعض يقول وقتئذ انه لا ينقصها سوى « العمامة » لتصير شيخا ، ولعلها من جهة كانت متأثرة بتعاليم وافكار الشيخ محمد عبده ومن ناحية اخرى فلعلها كانت تضع سياجا يحميها من أن تتهم في صدق ايمانها والتزامها بتعاليم الاسلام .

علموا المرأة اولا

كانت مشكلة الحجاب من أكثر القضايا اثارة في ذلك الوقت ، وقد لا يتصور قارئنا مدى خطورة تلك القضية الا اذا عرف أن « قاسم أمين » الذي اتهم بالكفر لارتباط دعوته بالسفور لم يكن يدعو في ذلك الوقت الى السفور كما نعرفه في أيامنا هذه ، بل كان ينادي بحجاب شرعي يمكن المرأة من اظهار بعض وجهها ! كما أن عبد الحميد (افندي) حمدي الذي أصدر مجلة (السفور) عام ١٩١٣ والذي اطلق عليه (زعيم السفوريين) كان ينادي بحجاب أشبه بغطاء الرأس الذي ترتديه الراهبات ! وهذا يعطينا ضوءا على طبيعة المعركة فلم تكن الدعوة للسفور وقتها الا من قبيل الدعوة الى الغاء حجاب ووضع آخر أخف ، وعلى هذا الحجاب الجديد كانت الثورة المضادة .

وفي وسط هذا المناخ ظهرت باحثة البادية ، وكان غريبا على المرأة أن يكون لها رأي في ذلك الوقت ، ثم كان من المتعذر عليها وهي المتأثرة بقاسم أمين أن تؤيد دعوته - وقد رأته أمامها - وهو الرجل - يتعرض لاتهامات شتى امتدت لتشكك في ايمانه . ولهذا رأت أن تتبع « طريقا وسطا بين الظلام الدامس الملقى الى التهلكة وبين الضوء الشديد الخاطف للأبصار » وبالرغم من أنها لم توجه نقدا واحدا لدعوة قاسم أمين الى نبذ الحجاب القديم الا أنها لم تتردد صراحة في أن ترفض أن يزج بها الى معسكر قاسم أمين فهي ليست قاسمية متطرفة ولكنها تصدر آراءها « على حسب الأحوال الحاضرة » . ولهذا فهي تنحو الى الأخذ بالموقف التدريجي . وهي في أكثر من موضع من كتاباتها تؤكد « أن الطفرة محال » ولذا فالتغير الاجتماعي لابد أن يأخذ مجراه بهدوء كامل « اذا أردت هدم بناء افلا تهدمه قليلا قليلا الى أن يتم الهدم فتبني على أنقاضه أحسن منه ؟ » وتلك النظرة كانت تتفق تماما مع مدرسة أحمد لطفي السيد - الذي أفسح لها صفحات الجريدة - ومنها انطلقت الباحثة للحديث عن الحجاب والسفور . وكان عليها أولا أن تحسم القضية من الناحية الدينية خاصة بعد تجربة قاسم أمين - ولم يكن صعبا عليها أن تقرر « لست انتقد اقتراح السفور من الوجهة الدينية لاني أعلم أن الدين لم يحرجنا في هذه المسألة » وبالتالي فهي ترى « اتباع عادة نساء الاتراك في الآستانة في الحجاب والخروج » . فانها تضع لنفسها الحق في أن يكون السفور مطلبا لها في المستقبل ان كان العمر قد امتد بها ، فهي ان « لامت المنادين بالسفور فلانهم متسرعون » . وهي حين تنظر الى القضية من جانب آخر تجد أنها ليست مجرد خلع الحجاب . فمن ناحية فان نساء مصر متعودات على الحجاب فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبه على أنفسهن من الخزي وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغير الفجائي من أسباب البلاء وتكون النتيجة شرا على الوطن والدين » . وهي في حديث لها مع (مي) نشر في جريدة « البروجريه » وذكرته مي في كتابها عن الباحثة تعلنها صريحة « سيمزق الحجاب عن قريب ، ونحن سائرات حتما نحو السفور » .

ومن ناحية أخرى فقد حرصت على أن ترى المشكلة من زاويتها الصحيحة فان المسألة ليست في ارتداء الحجاب أو طرحه ، ولكن هي في تلك المرأة المتخفية بجهلها وراء الحجاب ، ومن هنا كانت دعوتها لتعليم المرأة مرتبطة بقضية الحجاب « رأيي أن الوقت لم يؤذن لرفع الحجاب ، فعلموا المرأة تعليما حقا ، وربوها تربية صحيحة وهذبوا النشء وأصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الامة مهذبا ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الامة » . واذا كان الوقت لم يؤذن لرفع الحجاب فان الباحثة تعلنها صريحة « عندي ان المرأة السافرة الجادة في اخلاقها وسيرها خير من المتدثرة بالتفل الحرير وأرفع النقاب وهي خليعة لعوب » وهذا يذكرنا بالطهطاوي حينما وجد ان (وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة) .

وتلك دعوة طبيعية تتخطى بها الباحثة كل ما يمكن أن تتهم به ، اذا هي اكتفت بالدعوة لرفع الحجاب ، وقد كانت الاذهان في ذلك الوقت قد تهيأت لقبول فكرة تعليم المرأة ، ففي الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩١٠ تقريبا اصبح مبدأ تعليم المرأة « مستقرا في المجتمع المصري قبله الجميع حتى غلاة المحافظين » . وذلك على العكس من تلك الفترة التي تلقت فيها الباحثة تعليمها في أواخر القرن التاسع عشر اذ كان تعليم البنات « موضع التعبير الجائر من السواد الاعظم من الناس » (لاحظ انها نالت الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٠ ، ونجحت في دبلوم المعلمات سنة ١٩٠٣) لقد أصبح مبدأ التعليم نفسه مقبولا ولكن « المعركة بقيت دائرة حول ما ينبغي أن تتعلمه المرأة وحول معنى تحريرها ومداه » .

سعادة المرأة والمساواة

ومن هنا فان الباحثة تخطو خطوات أخرى جديدة بأن

نتوقف عندها ، اذ أنها تضع أمامنا نصا جديدا لم يسبق لاحد أن ذهب اليه « ما الغرض من تربية البنت على العموم والمصرية على الخصوص ؟ الغرض تقريبها من السعادة بقدر الامكان واعدادها لان تكون عضوا حيا نافعا في جسم الامة وتهيئتها للقيام باعباء الزوجية والامومة » .

هنا نلاحظ ـ أولا ـ أن الباحثة تضع شرطا هاما لتعليم المرأة ، هو تقريبها من السعادة . وهذا يجعل من فهمها لقضية تعليم المرأة في ذلك الوقت فهما متقدما عن دعوة قاسم امين التي ارتبطت باعطاء المرأة المقدرة على مواجهة مشاكل وضرورات الحياة او على دعوة لطفي السيد التي ارتبطت ببناء حياة زوجية مثالية ، فتقريب المرأة من السعادة وان كان قد يبدو للبعض (الثانية) وللاخرين مجرد امتداد لرومانسية شاعرية ، إلا أن هذا الرأي يسقط تماما إذا نحن وجدنا أن الباحثة تقوم ـ ثانيا ـ باكمال نصها بأن من أهداف التعليم اعداد المرأة لتصبح عضوا نافعا في جسم الامة ، وهي لن تصبح هذا العضو الناجح الا اذا قامت بواجبات الزوجية والامومة على أصح جانب ، فتعليم المرأة هو انقاذ لاطفال مصر ، اذ كيف يمكن للمرأة المصرية وهي على « ماتعهد من الجهل والتأخر .. ان تخلص طفلها من الشوائب والادران .. فالطفل الذي يشب والتمائم تثقل عاتقه والخرزة الزرقاء معلقة (بالقاسوخ) على جبهته لا يسعه وهو رجل الا ان يقبل عتبات الاضرحة ويذر من تراب ارضها على رأسه وان يعتقد بالخرافات والسحر وتأثيرهما في شفاء الأمراض بلا طبيب ولا دواء » اذن فتعليم المرأة ان كان يحقق لها السعادة او يحقق ذاتها فهو وسيلتنا لمواجهة التخلف الذي يغشى المجتمع ، ومن هنا كانت دعوتها لتعليم المرأة الطب بأكمله وإباحة التعليم العالي لمن تريد منهن .

ومرة أخرى تذهب الباحثة أبعد مما ذهب معاصروها في قضية (تحرير المرأة) وذلك اذا تعرضنا لموقفها من اشتغال المرأة بالسياسة ومساواتها بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية ، فاذا كان قاسم أمين قد « احتفظ لنفسه في (المرأة الجديدة) بحق المطالبة للمرأة مستقبلا بحقوقها السياسية ، فقد رأى لطفي السيد في اشتغال المرأة بالوظائف العامة وبأمور السياسة مصدرا للازعاج العام » ولكن الشيخ احمد المكندري يذكر في كتابه (الوسيط في الادب العربي) ان الباحثة وضعت كتابا في (حقوق النساء) أنجزت منه ثلاث مقالات : الاولى في الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتمدينة الغربية في الحقوق المالية ، والثانية في حقوق المرأة المسلمة من جهة ادارة الاعمال العامة ، والثالثة في حقوق المرأة المسلمة من جهة الانتخاب . ولا شك أن ذلك يضعها في موضع الريادة بشأن المطالبة باعطاء المرأة حقوقها السياسية .

وبالرغم من أن نصوص تلك المقالات الثلاث غير موجودة الآن ، الا أننا لا نستبعد أن يكون للباحثة دراسة في ذلك الموضوع ، بل انه لابد وأن يكون ذلك موضع حديث لها ، وذلك لأسباب متعددة ، فمن ناحية فقد كان الحديث في السياسة من الاشياء الشائعة في مجتمع تسيطر عليه جيوش احتلال اجنبي ، ثم ان مشكلة المرأة والحقوق المدنية والسياسية كانت مثارة في ذلك الوقت . ومن ناحية اخرى فاننا نجد نصا حاسما للباحثة بشأن مساواة الرجل بالمرأة « ما أظن اصل تقسيم العمل بين الرجال والنساء الا اختياريا ، بمعنى أن آدم لو كان اختار الطبخ والغسل ، وحواء السعي وراء القوت لكان ذلك نظاما متبعا الآن » .

ومما يعضد وجهة نظرنا نشاطها الغالب بتقديمها اقتراحات للأميرة (بهوبال) بشأن رفع مستوى المرأة الهندية ، كما انها اتصلت بالسيدة (خالدة اديب) التي عينت في منصب أول وزيرة في البلاد الاسلامية الحديثة (وزيرة معارف في اول وزارة شكلها كمال أتاتورك) . وقد استطاعت الباحثة ـ عن طريقها ـ نشر مجموعة من المقالات بجريدة (تركيا الفتاة) . ثم ان نشاط الباحثة لم يكن وقفا على الكتابة ونشر المقالات اذ أنها شاركت أيضا بالخطابة والقاء المحاضرات وكانت أول امرأة تشارك في المؤتمر المصري الاول الذي عقد بدار سينما روكسي بمصر الجديدة لبحث « شتى الاتصالات والتوجيهات التي يجدر بالامة والحكومة انتاجها » عام ١٩١١ . وقامت بتأسيس (اتحاد النساء التهذيبي) وجمعية على غرار الصليب الاحمر ، ومدرسة لتعليم السيدات التمريض ومشغلا للفتيات وملجأ للمعوزات .

تلك الافكار والصور والانشطة التي تبدو لنا طبيعية ومألوفة كانت في ذلك الوقت مثار نقاش عنيف واخذ ورد ، أو كانت ثورة عنيفة تنفجر داخل المجتمع بهدف تغيير العلاقات الاجتماعية المتخلفة ، وبهدف نفض غبار لقرون مضت . وان كان لهذه الافكار اهمية بالقياس الى عصرها فسوف تبقى لها اهمية اخرى ذات دلالة . اذ أنها افكار لامرأة لم يمهلها القدر أكثر من اثنين وثلاثين عاما لتشارك خلالها في معركة كانت من اقسى معارك هذا المجتمع في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ولعلها تكون ـ أيضا ـ معركة نهاية هذا القرن !! ■■

الاسكندرية ـ **شفيق العمروسي**



طبيب الأسرة

يجيب على هذه الاسئلة نخبة من الاطباء

أضرار الاشعاعات

● ما هو الضرر الذي يحدثه الاشعاع في صحة الانسان وكيف يحدثه ؟

- ليس لجسم الانسان أية قدرة على التغلب على الاشعاعات ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد حماه أصلا من هذه الاشعاعات حيث خلق حول الارض منطقة تحيط بها ، فيها من المواد ما يجذب اليه كل الاشعاعات القادمة من الشمس . هذه المنطقة تسمى « حزام فان ألت » باسم العالم الذي اكتشف وجودها ، ولكن خطر الاشعاعات أصبح في العصر الحديث يهدد الانسان ، وهو بذلك خطر من صنع الانسان نفسه ، الذي اكتشف ثلاثة أنواع من الاشعاعات الذرية والالكترونية والكهرومغناطيسية والانسان يستخدم كل هذه الاشعاعات لأغراضه . ولعل أشهرها هي الأشعة الكهرومغناطيسية أو أشعة × أو الأشعة السينية . ورغم أن لاستخدامات هذه الاشعاعات فوائد الا أن لها أيضا أضرارا .

يعتمد أثر الاشعاع في الخلية على الجرعة التي تتعرض لها الخلية فاذا كانت الجرعة بسيطة فان أثرها غير معروف للآن . أما الجرعات الأكبر نسبيا فانها تؤثر في قدرة الخلية على الانقسام . واذا كانت الجرعة أكبر من ذلك فان الخلية قد تهلك تماما . والملاحظ أن الخلايا التي تتأثر بسرعة وبحساسية شديدة هي الخلايا التي يكون من خصائصها القدرة على الانقسام والتكاثر كخلايا المبيض والخصية والجنين .

وتؤثر الأشعة على الخلية بطريقتين : الأولى أن تصيب المادة الحية في الكروموزمات فتؤثر في مستقبل تكوين الخلية كلها إن لم تقتلها . وهذا ما يفسر النسبة العالية من التشوهات الخلقية عند المواليد الذين تعرضت أمهاتهن للاشعاعات خصوصا في الشهور الأولى من الحمل . والطريقة الثانية التي يؤثر بها الاشعاع على الخلية هي بتحليل ماء الخلية ، أو جزء منه ، بحيث ينتج الأكسجين الحر ، الذي يكون الماء الثقيل . وهذه مادة مؤكسدة ونستخدمها كمطهر لأنها تؤكسد الجراثيم وتقتلها . ولكنها في الخلية تؤكسد أجزاء هامة فتصيبها بالعطل أو العطب . واستخدامات

الاشعاعات تكون بقياسات وخبرة وعن طريق أجهزة معقدة بحيث يستطيع الانسان أن يستفيد منها في الأغراض الطبية ، كالتصوير أو العلاج ، وبحيث يمكنه تجنب آثارها الضارة . ولكن هذه الآلات قد تعطب وتفشل في منع الضرر ، كما حدث في الانفجارات التي أصابت المفاعلات الذرية ، أو عندما يصاب الانسان بالجنون ، فيلقي القنابل الذرية على أخيه الانسان . والموت في هذه الحالات يكون مؤكدا اذا زاد تعرض الجسم لأكثر من ٥٠٠٠ وحدة اشعاعية . ولكن حوالي ١٠٠٠ وحدة فقط تترك الانسان في حالة سيئة جدا يموت منها بعد أسبوعين .. ويبدو أن ١٠٠ وحدة هي أكبر جرعة يمكن أن يتحملها الانسان بعد المرور بمرحلة صحية صعبة .

الحياة في الجو الحار

○ كيف يصاب المرء بضربة الشمس ومتى .. ؟ وما السبيل الى الوقاية منها .. ؟

لقد زود الله سبحانه وتعالى جسم الانسان بالقدرة على التغلب على ارتفاع الحرارة وانخفاضها . ولكن هذه الخاصية تعمل بحيث تبقى درجة حرارة الجسم شبه ثابتة ، عند معدل ٣٧ درجة مئوية تقريبا . فان طرأ من الاجواء المحيطة بالجسم ، او التفاعلات التي بداخل الجسم ، مايسبب ارتفاع درجة الحرارة عن هذا المعدل ، فان الخاصية أو القدرة التي ذكرنا تبدأ بالعمل بعدة وسائل . أولها ان تتسع شعيرات الدم في الجلد فتتدفع اليها كميات اكبر من الدم الذي يحمل اكثر من ٨٠ في المائة من حرارة الجسد .

وبذلك ترتفع حرارة الجلد وهو ملاصق لهواء الجو البارد فتنتقل الحرارة الزائدة من الجلد الى الهواء وهكذا حتى تنخفض درجة حرارة الجسم الى المعدل الطبيعي ، أما اذا كانت درجة حرارة الجو اكثر ارتفاعا من درجة حرارة الجسم فان هذه الوسيلة تصبح عديمة الفائدة ويلجأ الجسد الى طريقة اخرى وهي الاكثار من العرق الذي يتبخر من فوق سطح الجلد ويستهلك بالتالي كمية من حرارة الجسد .

ولكن هذه الوسيلة ايضا يمكن ان تعطل اذا كان الجو مشبعا بالبخار ، وكانت درجة الرطوبة مرتفعة . من هنا كان ذكر درجة حرارة الجو بلا فائدة الا اذا ذكرت معه الرطوبة النسبية ... أو نسبة تشبع الجو بالرطوبة . فمثلا درجة الحرارة ٣٥ مئوية مع نسبة رطوبة ٩٥ في المائة تكون بنفس سوء درجة حرارة ٤٥ مئوية مع نسبة رطوبة ٤٠ في المائة

فاذا وضع الجسم في مثل هذه الظروف الجوية فان قدرته على التغلب على الحرارة تكون تحت ضغط شديد في بادىء الامر وقبل حدوث التأقلم على تلك الظروف ... وقد تصيبه نوبات اغماء بسبب نقص الدم الذي يجري في الشرايين وذلك نتيجة اندفاع الدم الى شعيرات الجلد في محاولة لطرد كمية من حرارة الجسد للخارج . ونوبات الاغماء هذه تزداد اذا قام الانسان بمجهود أو عمل ما او ظل واقفا لمدة طويلة قبل ان تستعد اعضاء الجسم للعمل في الاجواء الحارة . وهذا التعود قد يتطلب حوالى اسبوعين حتى يعود الجسم الى العمل بكفاءته الأصلية .

وحتى بعد حدوث التأقلم على العمل في المناطق الحارة ، فان عددا من الاعراض والامراض تهدد سكان هذه المناطق ، كتقلصات العضلات في الساقين والبطن . فهذه التقلصات يمكن ان تكون شديدة في البطن بحيث تسبب آلاما شديدة للغاية وهي تحدث في الاشخاص الذين يتعرقون بكثرة . ويترتب على ذلك نقص في كميات الماء والملح في الجسم . ولكن الاحساس بالعطش يدفع الانسان للشرب ليعوض كمية الماء المفقودة ويعرق من جديد فيفقد ماء وملحا من جديد ولانه لاينتبه الى تعويض كمية الملح كما عوض كمية الماء فان العجز في الملح يتزايد بتكرار العرق والشرب حتى يصل الى الدرجة التي تسبب هذه التقلصات العضلية وعلاجه ان يتناول المرء اقراص ملح الطعام وعند الضرورة يمكن حقن سائل الملح في الأوردة .



اما ضربة الشمس فهذه مسألة خطرة حقا ويجب على العاملين في المناطق الحارة التنبه لتحاشيها قبل وقوعها ، ذلك ان الاشخاص المعرضين لضربة الشمس هم الذين يقعون تحت تأثير الحرارة لمدة طويلة بحيث تنهار كل قدرة الجسد على التغلب على الحرارة ، فترتفع حرارة الجسد بحيث تصل الى ٤٣ درجة مئوية مثلا ، وهذه درجة لايتحملها الجهاز العصبي فيصبح الانسان مضطربا في كل وظائفه واهمها النظر والقدرة على التفكير فلا يلبث أن ينهار تماما ، ويصيبه الاغماء التام وقد لايمكن التغلب على هذه الحالة بحيث تكون الوفاة هي القدر المحتوم .

والعلاج اولا: الوقاية وذلك بعدم البقاء في الاجواء الحارة لمدة طويلة ، فان بدأت اعراض ضربة الشمس فلابد من نقل المصاب الى اماكن معدة لعلاجه كالمستشفيات وعلى الاقل يجب نقله الى مكان بارد او مكيف ، ويمكن حتى لفه في رداء واحاطته بقطع الثلج حتى يمكن نقله الى اقرب مستشفى .

المطوعة

ودورهم في حراسة ديار العروبة والإسلام

بقلم الدكتور احسان صدقي العمد



قام المطوعة ـ المجاهدون المتطوعون ـ على طول التاريخ العربي الاسلامي ، ومازالوا يقومون كلما اتيحت لهم الفرصة ، بدور حيوي بارز في الدفاع عن ديار العروبة والاسلام ، كانوا يهبون في الظروف الخطرة لمواجهة الاعداء وشد ازر القوات النظامية في التصدي لهم دفاعا عن الدولة .

عرف الماوردي في الاحكام السلطانية المجاهدين المطوعة بانهم « الخارجون عن الديوان ـ ديوان الجند المرتزق ـ من البوادي والاعراب وسكان القرى والامصار ، الذين خرجوا في النفير ، الذي ندب الله تعالى اليه بقوله : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله » . وهناك العديد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والاحكام الفقهية التي تحث على الجهاد وترغب فيه وتثيب عليه . وتبوىء المجاهدين المكانة السامية لدى المجتمع العربي والاسلامي ، وتخصهم بالمنزلة الاسمى في الدار الباقية ، مما جعل الكثيرين يقبلون عليه ، ويتنادون من كل حدب وصوب ، علهم حين يضربون بسهم فيه ينالون رضا الله في الدارين .

التطوع هو الاصل

وبالرغم من ان الدولة العربية الاسلامية عرفت منذ وقت مبكر في صدر الاسلام الجند النظامي ، وفرضت له الاعطيات والارزاق للدفاع عن الدولة وحمل رسالتها والجهاد في سبيلها ، بالرغم من ذلك فان « التطوع » كان هو القاعدة الاساسية التي دعا اليها الرسول الكريم ونفذها في جميع غزواته وسراياه ، واتبعها من بعده خليفته ابو بكر الصديق رضي الله عنه . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يندب المسلمين للقتال ، ويرتدي لباس الحرب ، ثم يعسكر على مقربة من المدينة المنورة حتى يكتمل توافد المطوعة من اصحابه المجاهدين في عددهم وجهازهم . وبعدها يتوكل على الله ويسير في اصحابه الى الوجهة التي حددها . وكان صلى الله عليه وسلم لا يأتيه احد من المسلمين معتذرا عن الخروج معه للقتال الا قبل عذره ، واعفاه من الاشتراك معه في مجاهدة العدو ، وكان يقول عندما يندب المسلمين للتجهز لمحاربة الاعداء : « لا يخرجن معنا الا راغب في الجهاد » . ولعل الرسول القائد كان يهدف من وراء ذلك الى الحرص على ان لا يشترك في قتال الاعداء سوى المسلمين المؤمنين من ذوي العزيمة القوية والرغبة في الجهاد الصادق ، وابقاء المنافقين واصحاب القلوب المريضة والمترددين بعيدا عن جموع المجاهدين حتى لا يبثوا روح الهزيمة في صفوفهم ، وهو ما اكده الله تعالى في سورة التوبة بقوله : « لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » .

وسار ابو بكر الصديق رضي الله عنه على هدى الرسول صلى الله عليه وسلم . فكانت جميع قواته وجيوشه التي حارب بها المرتدين ثم ارسلها للفتوح من الجند المطوعة اصحاب النية والثبات والاحتساب .

وكان طبيعيا ان يؤدي اتساع رقعة الدولة وترامي ميادين الجهاد التي خاضها المجاهدون المسلمون ، الى اقامة الجند النظامي ابتداء من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتعزز هذا التنظيم بالحاجة الى انشاء قواعد ثابتة ينطلق منها المجاهدون ويرابطون فيها كما كان الحال بالنسبة للكوفة والبصرة وواسط والرملة والفسطاط والقيروان ، وعشرات غيرها من المسالح والرباطات التي انتشرت على طول تخوم الدولة الاسلامية وثغورها وسواحلها .

على ان قيام الجند النظامي لم يوقف تدفق المطوعة على ميادين القتال وجبهاته في المشرق والمغرب لشد ازر قوات المسلمين والاسهام في مجاهدة اعدائهم طلبا للشهادة وكان هؤلاء المطوعة يشكلون فرقا او جماعات ، ويقودهم رؤساء من بينهم على غير ما كان عليه الحال بالنسبة للجند النظامي الذي كان يخضع لقواد تعينهم الدولة . وقد جسد المطوعة باندفاعهم الى ميادين الجهاد الارتباط الاسلامي بين العبادة والجهاد واشاعوا في اماكن تواجدهم سواء في المعارك او الرباطات والثغور شعورا دينيا خاصا كان له ابعد الاثر في الصمود والنصر في كثير من المواقع . ونلتقي في المصادر بالوف من المطوعة الذين خرجوا من ديارهم للجهاد في سبيل الله . ويمكن اعتبار الروادف الذين التحقوا بالامصار الاسلامية في القرن الاول الهجري من أولئك المتطوعين . وقد ساهموا مع اخوانهم في تلك الامصار بواجب الدفاع عن الدولة ومجاهدة اعدائها

طلاب نصر أو شهادة

وكان المطوعة في ملاقاتهم للعدو يحرصون اشد الحرص على النصر او الشهادة ويصرون على هذا الموقف بعزم وثبات حتى في احلك الظروف والمواقف . ويحدثنا الطبري عن موقف مماثل لهؤلاء في الحملة التي قادها عبيدالله بن ابي بكرة على سجستان (افغانستان الحالية) عام ٧٩هـ . اذ رفض شريح بن هانئ مصالحة الترك لدى محاصرتهم المسلمين ، واصر على قتالهم حتى الموت ، فنادى قائلا : « يا اهل الاسلام ، من اراد منكم الشهادة فالي ، فاتبعه ناس من المتطوعة . . وفرسان الناس واهل الحفاظ ، فقاتلوا حتى اصيبوا الا قليلا . » كذلك انضمت اعداد كبيرة من المطوعة الى حملات الصوائف والشواتي التي استمدت اليها منذ وقت مبكر مهمة الدفاع عن الثغور الاسلامية المتاخمة للروم في جنوب شرق آسيا الصغرى . وقد رابط الوف المتطوعين من شتى ارجاء الدولة الاسلامية في تلك الثغور ووقفوا حياتهم على جهاد الروم ودرء خطرهم عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية . وما زال جهاد عبد الله البطال والآلاف العشرة من المتطوعين الذين دوخ بهم الروم في آسيا الصغرى في القرن الاول الهجري ماثلا في الاذهان .

ولعل اوضح مثال على ذلك ما كان من امر ثغر طرسوس الذي اعتبر اهم ثغور الدولة الاسلامية مما يلي حدود الروم البيزنطيين . فقد كان المطوعة يتوافدون على هذا الثغر من معظم اقاليم الدولة طلبا للجهاد والدفاع عن ديار المسلمين من خطر اجتياح الروم لها . ويقول ابن حوقل ان حوالي مائة الف فارس من اولئك المجاهدين المتطوعين كانوا يرابطون فيها ويخرجون فيها في اوقات معلومة لغزو الروم . ويقرر : « ان ليس مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والري واصبهان وجميع الجبال ، وطبرستان والجزيرة واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب ، الا وبها لاهلها دار ورباط ، فينزل غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها » . ويأتي في مقدمة هؤلاء في القرن الثاني الهجري المجاهد المتطوع والفقيه العالم عبد الله ابن المبارك الذي كان يرابط في ذلك الثغر ويخرج منه لجهاد الروم وهو الذي وضع اول كتاب عن الجهاد في الاسلام . وتحدثنا حوليات التاريخ العربي الاسلامي عن تنادي المطوعة من كل مكان لوقف اجتياح الروم لشمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية في فترات من القرنين الثالث والرابع للهجرة . فلما ترامت انباء هذا الاجتياح الى العاصمة العباسية وغيرها من المدن والنواحي الاسلامية عام ٢٤٩هـ ، « اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير ثم اخرج اهل اليسار من اهل بغداد وسامراءاموالا لحرب الروم بذلك واقبلت العامة ـ المطوعة ـ من نواحي الجبل وفارس والاهواز وغيرها لغزو الروم » وتكررت مبادرة المطوعة لنجدة الثغور الاسلامية المتاخمة للروم في منتصف القرن الرابع الهجري . فقد توجه ثمانية آلاف فارس وراجل من هؤلاء المطوعة للدفاع عن ميافارقين عام ٣٥٢هـ ، حتى اذا اجتاح الروم الثغور كلها بعد ذلك بسنتين احتشدت جموع من المطوعة تقدر بعشرين الف رجل في محاولة لرد ذلك الاجتياح .

ولم يقتصر نشاط المطوعة على الدفاع عن الثغور الرومية والجزرية وانما شمل ايضا الدفاع عن الجبهة الشمالية للدولة الاسلامية حيث شكل الخزر خطرا ماثلا على طول تلك الجبهة وبخاصة في اواخر الدولة الاموية . فقد انضمت جماعات من المطوعة المجاهدين الى جيش سعيد الحرشي الذي وجهه هشام بن عبد الملك لقتال الخزر . ويمدنا ابن اعثم الكوفي في كتابه الفتوح بنماذج عديدة رائعة من جهاد المطوعة في تلك الجبهة . كما تميزت حدود الدولة الشمالية الشرقية فيما وراء النهر بمرابطة المتطوعين فيها ، بل كان معظم المسلمين هناك في عداد المجاهدين المطوعة الذين ينفقون اموالهم على « الرباطات وعمارة الارض والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير » . وقد اعفتهم الدولة من الخراج ، « وذلك ليصرف اهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام في تلك الارض » وقام المطوعة في الجناح الشرقي للدولة الاسلامية بدور سياسي بعد ذلك ، اذ استطاع احد قادتها وهو يعقوب بن الليث الصفار ان ينشىء الدولة الصفارية في المشرق ، كما انضم عشرون الفا من مطوعة بلاد ما وراء النهر الى قوات السلطان محمود الغزنوي ، وكان لهم دور بارز في فتوحاته المشهورة » كذلك ساهم المطوعة في حملة المهدي العباسية البحرية ضد ثورة الزط في السند عام ١٦٠هـ . وضمت تلك الحملة عشرة آلاف مقاتل بينهم الف من مطوعة البصرة والف وخمسمائة من المطوعة الذين كانوا يلازمون الرباطات . كما شاركوا مشاركة فعلية في القضاء على ثورة بابك الخرمي في عهد المعتصم .

جهاد متصل

واذا انتقلنا الى الثغور البحرية على طول سواحل بلاد الشام ومصر والشمال الافريقي ، نجد المطوعة يرابطون في هذه الثغور الى جانب حاميات الدولة من الجند النظامي . وقد احرزت هذه الثغور والرباطات شهرة كبيرة بحصونها ومجاهديها ، كما هو الحال بالنسبة لقيسارية بفلسطين ودمياط والاسكندرية بمصر والمنستير في تونس

والرباط والسوس في المغرب . وشهد الجناح الغربي للدولة الاسلامية دورا سياسيا للمطوعة يماثل «دورهم في المشرق ، حيث استطاعوا ان ينشئوا دولتي المرابطين والموحدين اللتين اسهمتا بجهد مشكور في الدفاع عن ديار العرب والمسلمين في المغرب والاندلس .

وهناك في الاندلس كانت للمطوعة صولات وجولات ، وكان الجيش النظامي يغزو في الصوائف والشواتي الاندلسية باعداد كبيرة من المطوعة . بل ان جانبا من المتطوعين دخل الاندلس مع المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين واسهموا في تحقيق النصر الذي حققته قواته على القوى الاسبانية في وقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ . وكانوا يتقدمون الصفوف عند ملاقاة الاعداء ويتسابقون الى الشهادة في ميادين القتال . اذ تحدثنا المصادر عن استشهاد عشرين الفا منهم في وقعة كتندة في الاندلس عام ٥١٤هـ . كما يذكر ابن خلدون ان ثلاثة آلاف من مطوعة زناته قد توجهوا للجهاد في الاندلس عام ٦٦١هـ . في زمن بني الاحمر « فحسنت آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم » . وشارك مطوعة الصوفية كذلك بجهود كبيرة في ميادين الجهاد في الاندلس بينهم على سبيل المثال لا الحصر ابو مروان عبد الملك بن ابراهيم بن بشر القيسي وابو جعفر احمد بن الحسن بن علي بن الزيات الذي كان « موغلا في الكلف بالجهاد . . . حريصا على الشهادة » . وجعفر بن احمد الخزاعي صاحب « الجدوي في نفير الجهاد » وغالب ابن حسن الذي كان من اهل الجلد . . والمثابرة على الرباط والخفوف الى الجهاد . وكانت اعداد كبيرة من هؤلاء المطوعة يقيمون في الارباض والرباطات استعدادا للمدافعة والجهاد ، حتى ان بعض هذه الارباض كان يخرج منه حوالي عشرة آلاف مجاهد من المتطوعين .

واستمر جهاد المطوعة متصلا ومتواصلا لدرء الخطر الصليبي ثم المغولي عن ديار العرب والمسلمين وكان هؤلاء المجاهدون المتطوعون يتعرضون للقوات الصليبية في حال تقدمها وتقهقرها ويقطعون الامدادات عنها . ويحدثنا ابن الاثير عن بلاءبعضهم في موقعة حطين عام ٥٨٣هـ ، اذ اشعل نفر منهم الحرائق في ارض المعركة عندما كان الريح باتجاه الصليبيين . « فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال مما ساعد في هزيمتهم » . بل ان هجمات المطوعة على امدادات جيوش الصليبيين وراء القدس كانت سببا رئيسيا في رفع الحصار عن المدينة ، وكان صلاح الدين يسير المطوعة ليلا لحصد غلات العدو . « وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم واحمالهم موثقة باثقالها » . وهذا شاب نحاس من مطوعة دمشق يتطوع لحرق ابراج الصليبيين المطلة على سور عكا ، ويرفض ان يأخذ اجرا او جائزة على عمله ويقول : « انما عملت ذلك ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده سبحانه فلا اريد منكم جزاء ولا شكورا » . ودور المطوعة مشهور ومشهود في صد الصليبيين عن دمياط والمنصورة . وقد وصف المقريزي وصول المطوعة من كل النواحي للجهاد حيث « اخذوا في الغارة على الفرنج ومناوشتهم . . . وما من يوم الا ويقتل من الفرنج ويؤسر . وقد لقوا من عامة المسلمين (المطوعة) نكاية عظيمة وتخطفوا منهم وقتلوا كثيرا » .

وبالرغم من النكسات التي مني بها العرب والمسلمون في تاريخهم الحديث ، فان جهاد المتطوعين منهم ضد قوات الاحتلال الاجنبية الغازية كان ولا يزال انصع صفحة في هذا التاريخ . ويسهب الجبرتي في الحديث عن دور المطوعة من اولاد البلد والفتوات في تنظيم انفسهم ووضع الخطط وشراء السلاح لمقاومة الفرنسيين ابان حملة نابليون على مصر في مطلع القرن التاسع عشر ، وتكرر هذا الموقف من مطوعة اهل فلسطين عندما تقدم نابليون حتى عكا ونرى آلافا من المطوعة يقفون الى جانب حامية رشيد ويفشلون الغزو الانجليزي لها عام ١٨٠٧م . وكان في جملة المتطوعين المصريين نفر من اهل مكة والمغرب كانوا يقيمون في مصر آنذاك ، ويقول الجبرتي في ذلك : « وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق واعلاما ، وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء وخرجوا في مواكب وطبول وزمور ، فلما وصلوا الى متاريس الانجليز دهموهم من كل ناحية وصدقوا في الحملة عليهم واختلطوا بهم وادهشوهم بالتكبير والصياح حتى ابطلوا رميهم ونيرانهم فألقوا سلاحهم وذبحوا الكثير منهم . . . وفر الباقون . » وفي تاريخ بلاد العرب والمسلمين الحديث في المشرق والمغرب حديث طويل عن جهاد المتطوعين ومقاومتهم الباسلة للعدو المستعمر . فقد تصدوا للمستعمرين الاسبان والبرتغاليين والفرنسيين والانجليز ، ففي مصر والمغرب الكبير انضمت الوف منهم تحت لواء عبد القادر الجزائري واحمد عرابي وعبد الكريم الخطابي ، وثورات التحرير الاخيرة في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . وشهد الخليج العربي في المشرق جهادا مشرفا مماثلا ضد المستعمرين لدى محاولتهم بسط نفوذهم على سواحله . ولا يزال المجاهدون المتطوعون يقومون بمثل هذه الجهود في المشرق العربي والاسلامي منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى وحتى الابتلاء بالغزو الصهيوني لفلسطين والتدخل العسكري السوفياتي في افغانستان مما لا يحتاج الى مزيد من شرح او تفصيل لقرب عهدنا باخباره ومعايشتنا اياه . ■■

د . احسان صدقي العمد

أصالة لغوية في اللهجات الأردنية

بقلم : توفيق أبو الرب

اللهجات الدراجة في الأردن ، وان بدت للبعض غير مفهومة ، ليست بعيدة تماما عن اللغة العربيةالفصحى ، بل ان بصمات الأصالة اللغوية واضحة فيها .

. . . . تتجلى مظاهر الأصالة اللغوية في لهجات سكان الضفة الشرقية من الأردن - كما تبدو من خلال الغناء الشعبي والأمثال - في ناحيتين رئيسيتين : الاولى صرفية والثانية نحوية .

اما الناحية الصرفية فتتجلى حين نلاحظ أن كثيرا من اللهجات العربية القديمة التي ذكرتها كتب اللغة لاتزال الى اليوم حية ، تنطق في البادية الأردنية ، كما يظهر ذلك واضحا في الغناء الشعبي البدوي مثل : العنعنة : وهي إبدال الهمزة عينا ، ومثالها في الغناء الأردني :

يابو منديل امشتك

ماحاكتك

عشيرك (يسعل) عنك

عند الطليان [1]

فقد قال « يسعل » اي يسأل ، وهذه لهجة قديمة مشهورة ذكرتها كتب اللغة ، ومنها قول ذي الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة
ماء الصبابة من عينيك مسجوم

أراد « أأن ترسمت » ، ومنها ما أنشده يعقوب :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل
لأخرة لابد عن ستصبرها

أراد « لابد أن » .

ومثل الكشكشة . . وهي ابدال الكاف شينا ، ومثالها في الغناء الشعبي الأردني :

قلبي يحبش ويريدش
وش طالع بيدي وبيدش
ما ادري المحبة من الله ولابرادت عبيدش

. . وهذه ايضا لهجة عربية قديمة كانت تنطق بها ربيعة ومضر ومنها قول الشاعر القديم :

فعيناش عيناها ، وجيدش جيدها
ولونش الا انها غير عاطل

. . ومثل « التلتلة » : وهي كسر اوائل الافعال المضارعة ومثالها في الغناء الأردني :

يقول على ما قال ادبيس الفايز
من فوق صفرا كالحليب الصافي

والتلتلة لغة جميع العرب الا اهل الحجاز ، فانهم لايتكلمون بها

ومثل ابدال القاف جيما ، ومثالها في الغناء الاردني :

ولك ياغراب حيد عن طريجي
واريد اشرب ميه بالبريجي

يريد « طريقي وبالابريق » وهذه لهجة عربية قديمة . ذكر الدكتور صبحي الصالح في كتاب « دراسات في فقه

---

(١) الطليان : مفردها طلا ، وهو الحمل ساعة ولادته .

اللغة » « والقاف ابدلوها على تقارب جيا فقالوا « عانقت الرجل وعانجته . . ص٧٣ »

ومثل قلب العين نونا في الفعل « اعطى » خاصة ، فيقال : « انطي » وشاهدها في الغناء الشعبي الاردني :

ونـا انـطيـتـك عـهـد
عـيـني مـاتـفـارق عـيـنـك

وابدال العين نونا ظاهرة لغوية قديمة ، تدعي في كتب اللغة « الاستنطاء » وهي لهجة يمنية ، نسبت فيما مضى الى قبائل سعد بن بكر وهذيل والازد .

ومثل ابدال الجيم ياء في لهجة عشيرة عيسى الأردنية كقول شاعرها الشعبي :

عـيـنـت ركـبـا مـن هـلا (الـيـوف) مـداد
يـبن الـيـثـوم وبـين خـشـم الحـمـاد

اراد « الجوف » وهذه لهجة عربية قديمة ايضا ، وقد ذكرها الاشموني في شرحه كما ذكرتها معظم كتب الصرف ، وشاهدها قول الشاعر القديم :

اذا لم يـكـن فـيـكـن ظـل ولاجـنى
فـابـعـدكـن الله مـن شـيـرات

اراد شجرات .

ومثل ابدال الفاء في كلمة « فم » ثاء بحيث يقول سكان الريف الاردني « ثم » بينما يقول سكان البادية « اثم » ، وشاهدها في الغناء الشعبي :

انـا مـا صـيـدي صـلاه
ودي حـبـه[2] مـن اثـمـك

وهذا الابدال في الكلمة هو اثر من لهجة تميمية مشهورة مازالت متبقية ، قال الدكتور صبحي الصالح « الثاء عند تميم تقابل الفاء عند الحجازيين ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : « يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها ، وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » ومثلها قولهم « الاثاثي » فانها لغة تميم في الاثافي » . . . ومثل ابدال الميم في كلمة « غيم » نونا . اذ ان الأردنيين في الريف والبادية على السواء ينطقون الكلمة دائما بالابدال . فيقولون « غين » . وهذا الابدال عربي قديم ، وشاهده قول شاعر من بني تغلب يصف فرسا :

فـانـت حـبـوتـي بـعـنـان طـرف
شـديـد الـشـد ذي بـذل وصـون

كـأني بـين خـافـيـتي عـقـاب
يـريـد حـمـامـة في يـوم غـين

والحق اننا اذا رحنا نتقصى كل اللهجات العربية القديمة في اللهجات الاردنية الحالية ، فاننا لاشك سنجد الكثير منها لايزال حيا ينطق به ، ولكننا مع ذلك نفتقد بعض اللهجات العربية القديمة مثل : كـكـسـة بكر ، وفحفحة هذيل وطمطمانية حمير وعجعجة قضاعة ولخلخانية شحر وعمان .

من الناحية النحوية

هذا من الناحية الصرفية ، واما من الناحية النحوية فيظهر ذلك من خلال احتفاظ اللهجة البدوية الاردنية خاصة ، ببعض مظاهر الفصاحة القديمة ، كتحريكها أواخر الكلمات احيانا بالفتح او بالكسر ومثال التحريك بالكسر وبالفتح في الغناء الشعبي الأردني :

يـابـنـت يـلـلي هـويـت اثـنين
نـاشـدتـش الله مـنـو الـغـالي
الاول مـنـهـم صـبـي الـعـين
والـثـاني مـن الـروح خـلـفـاني

وفضلا عن تحريك بعض الكلمات في البيتين السابقين بالفتح وبالكسر ، فان فيهما ايضا ظاهرة لغوية ، تدل على عراقة اللهجة ، اذ ان سكان الضفة الشرقية من الاردن يقولون في السؤال عن العاقل : « منو » اي من هو ؟ و« منى » اي من هي ؟ وشاهده في البيتين السابقين « منو الغالي » ؟ وهذا فصيح وجائز في باب حكاية الاستفهام عن العاقل ، قال ابن هشام في اوضحه « ويجب في من الاشباع فتقول « منو » و « مني » واما قوله :

أتـوا نـاري فـقـلـت : مـنـون انـتـم ؟
فـقـالـوا : الجن قـلـت : عـمـوا ظـلامـا

فذلك نادر في الشعر ، ولايقاس عليه خلافا ليونس »[3]

كما يلاحظ على البيتين السابقين انه اعمل حرف الجر فقال : من الروح » على ان ذلك يأتي في كلامهم اتفاقا دون قاعدة ثابتة ، والغريب ان اللهجات الاردنية تستثقل حركة الضم ، لذا فمن النادر ان نلحظها فيها !

ومن مظاهر الاصالة النحوية المتبقية في اللهجات الاردنية كما تبدو من خلال الغناء الشعبي تنوين اواخر الكلمات احيانا : ومثال ذلك

---

(٢) ودي : بودي اي ارغب ، في حبة : قبلة او لثمة .

(٣) انظر باب الحكاية من كتاب اوضح المسالك الى ألفية ابن مالك - ج٣ - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ص٢٣٢

الكبد صدت عن المطعوم
من يوم فارقت سلومه
(مزيونتن) وحرجت بالسوم
والردى (دانين) يومه

فالتنوين ظاهر في البيت الثاني في كلمتي « مزيونة » و« دانيا » .

على ان ذلك يأتي في كلامهم دون قاعدة ثابتة ، ويلاحظ على اللهجات الاردنية انها تستثقل ايضا تنوين الرفع استثقالها حركة الضم !

ومن مظاهر الأصالة اللغوية المتبقية في اللهجات الاردنية ان البدو الاردنيين خاصة لايزالون يحافظون في كلامهم على جميع صيغ الافعال الخمسة باستثناء صيغتي التثنية (يفعلان ، تفعلان) ومثال صيغة الجمع في الغناء الشعبي الاردني هذا المطلع الشهير :

ياطايح البير دونك دلونا دونك
قلبي يحبك واهلي مايريدونك

والشاهد فيه كلمة « يريدونك » ومن جهة اخرى يلاحظ ان صدر البيت يكاد يكون منقولا حرفيا عن بيت شعري قديم ، استشهدت به كتب النحو في باب اسماء الافعال وهو :

يأيها المائح دلوي دونكا
اني رايت الناس يحمدونكا

ومثال صيغة المفرد المؤنث « تفعلين » في الغناء البدوي الاردني :

يابنتيه يا أردنيه
يابنيه يا اردنيه
(لاتشين) بحر الغور
يقدم جفني شمسيه .

والشاهد في كلمة « تشين »

واما صيغتا المثنى « يفعلان »و«يفعلان » فهم يعبرون عنهما بصيغتي الجمع « يفعلون » و « تفعلون » مثلما يخاطبون المثنى بلغة جمع المذكر السالم ، كما هو واضح في هذا البيت الشعبي الشهير :

ياعيال يامشرقين اثنين يامتيلين المناديل

فقد خاطب الاثنين بقوله : يا « مشرقين » ويا « متيلين » ، وبها يخاطب الجمع المذكر ايضا . ■■

توفيق ابو الرب
اربد ـ الأردن

ماذا تقولين ؟

يحكى أن جارية عرضت على أم جعفر زوجة الرشيد ، وطلب البائع لها ثمنا باهظا ، فقال الرشيد ، اني أدفع لك هذا الثمن بل ازيد عليه اذا أجابتني عمّ اسألها ، ثم قال لها : ماذا تقولين لمن خطب ودك ، وأضناه الشوق لحبك ، وتلهف الى وصلك ؟

قالت : اذا رأينا محبا قد أضربه
أمر الصبابه اوليناه احسانا

فأعجب الرشيد بجوابها واشتراها .



أسرار لعبة الكاراتيه تتكشف

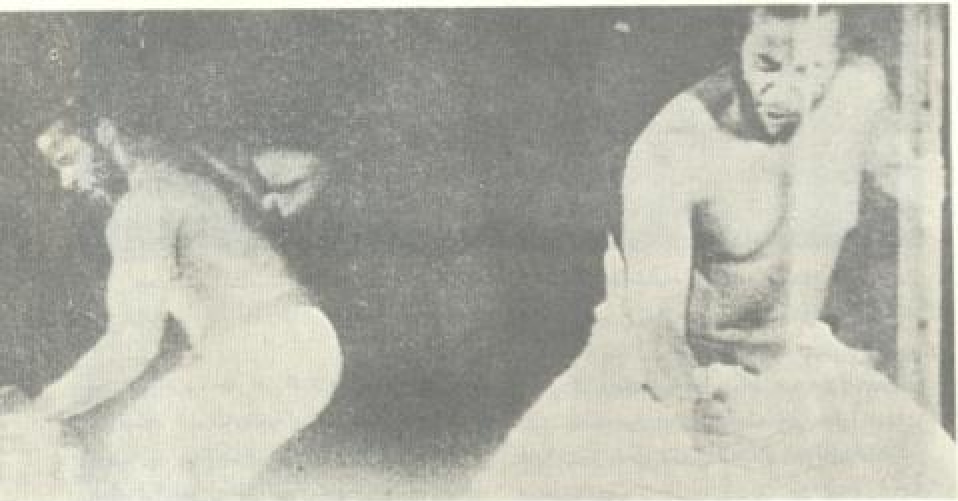
بقلم الدكتور محمد نبهان سويلم

كيف يستطيع انسان بيده العارية كسر كتلة من الاسمنت أو الخرسانة المسلحة ، كيف يستطيع أن يخترق باصبعه لوحا من الصلب أو يصد بعظامه ضربة سيف مصقول دون أن يخدش جلده أو تسقط منه نقطة دم واحدة ؟

هل يمكن أن يكون ذلك نوعا من السحر القديم اخترعه كهنة التبت وأسموه « كاراتيه » ، وظلت أسراره حكرا عليهم حتى جاء تجار السينما والمسلسلات والتليفزيون بعد عشرات السنين . ثم حولوه مع مطلع هذا العقد الى تجارة ومصدر لا ينضب للعنف ، يضمن لهم أرباحا خيالية ولتجارتهم في الترفيه والتسرية عن المهمومين والمكدودين الرواج والاستمرار . فالتجارة بالكاراتيه تجارة رائجة اليوم تلعب على أوتار التصور البشري صوب القوة وتسقط في ذهن المشاهد ما يعجز عن تحقيقه من الواقع الفعلي في وضح النهار ، فيقدمها له تجار اللعبة على الأشرطة حلما يعيش معه وبه ، عندما ينحسر الضوء عن الناس ويهدأ السابلة من الطرقات والشوارع .

قد تكون مسألة التجارة بالكاراتيه في الأشرطة والفيديو صحيحة ، لكن مسألة السحر هذه تستوجب منا مزيدا من التأني في القول والتدقيق والتمحيص . فلم يعد مقبولا في نهايات القرن العشرين ودخول العلماء بفهم العلم المجرد من كل شاردة وواردة وسعيهم غير الكلول لمعرفة حقائق الكون حتى أعمق أعماقه ، وكشفهم أسرار هذا الكون

اللاعب يحطم بيده اليمنى ثلاثة قوالب من الطوب بزن الواحد منها ٦¼ كيلو جرام وطول القالب ٤٠ سم وعرضه ١٩ سم وسمكه ٤ سم



لحظة التلامس بين اليد الهاوية وقطع الطوب والتشقق الحادث

الفسيح الممتد الى مالا نهاية ودخول العلم برأسه من أدق وأصغر وأدق مكونات الذرة . . . ثم يبقى الوهم محيطا بالكاراتيه .

ولو حكمنا العقل وأخذنا الفطرة السليمة هي المنطق الذي نتناقش على هديه وضوئه لقلنا . . . لو كان الكاراتيه سحرا كما يتوهم البعض لظل مقصورا على عدد محدود ومعروف من الناس . . . يمارسونه بعيدا عن العيون ويعرضون بعضا منه على الناس فيرهبون منهم القلوب والأفئدة ، لكن الكاراتيه رياضة بدنية يستطيع ممارستها من هب أو دب دون سابق خبرة أو معرفة بعد عدة أشهر ، وهو لو أحسن التدريب وأطاع تعليمات المدرب ، يستطيع منافسة باقي مزاولي اللعبة وربما استطاع أن يحقق نصرا مؤزرا عليهم . ولن يندرج انتصاره تحت بند المعجزات أو الخوارق انما هو حصيلة عرق سال ، على جبهته عزم لا يلين على تحقيق النصر والفوز ، وثمرة جهد بذل ومجهود لم يبخل به .

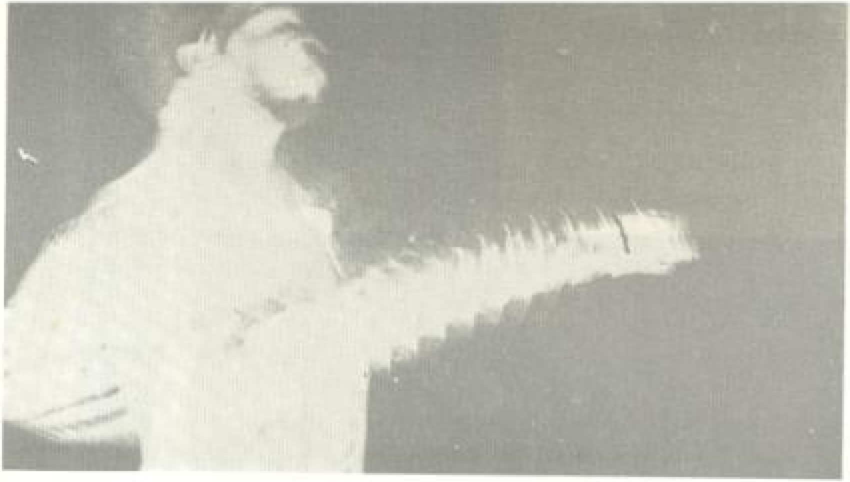
بالتالي أستطيع الزعم وأنا مطمئن ان لعبة الكاراتيه تنضوي تحت لواء قوانين الطبيعة وتخضع لضوابطها وليس بالافلات منها كما هو المفترض في السحر الحقيقي .

رياضة جسدية وذهنية

والكاراتيه الذي يزاوله كل لاعب اليوم هو طريقة أو فن للدفاع عن النفس له تاريخ قديم يعود الى عدة قرون منصرمة ، فمن الثابت ان الجودو ـ المصارعة اليابانية ـ والعاب المبارزة بالسيف (الكمبو والكندو) والكاراتيه كلها تفرعات أو أوجه تباين ومشتقات من فن الصين القديم المسمى ـ شوان فا ـ أي طريقة القبضة .

وما يعنينا هنا هو فن الكاراتيه ولفظة « كارا » اليابانية تعني خالية أما لفظة « تي » فتعني يد ، ومن هنا فان الكاراتيه معناه اليد الخالية واستخدامها في الدفاع عن النفس .

والكاراتيه نقله اليابانيون عن سكان جزيرة أوكيناوا في القرن السابع عشر الميلادي عندما فرض اليابانيون اثر



معدلات اكتساب يده لسرعة ٦٠ ـ ٩٠ كيلو مترا في الساعة تتضح من هذه الصورة وتقل السرعة الى أقصاها قبل انفراج الذراع على امتداده الطبيعي مما يعطي عزما وقوة هائلة

احتلالهم الجزيرة حظر حمل السلاح أو صناعته . وقضوا على صناعة السيوف ومنعوا استخدامها ، حتى في الأعياد الوطنية والاحتفالات الدينية ، ومن هنا لجأ الأهالي الى الرهبان الذين أسدوا اليهم المشورة بوضع قواعد لاستخدام اليد الخالية وتبهوهم الى القوة البشرية المركزة في اليد والكوع والركبة الى آخر هذه المناطق . وهكذا نشأ فن الكاراتيه وشاع وانتشر في شرق آسيا بأسرها .

على أن اليد الطولى في تطويره ووضع أسس وقواعد له كانت للخبراء العسكريين ورجال بلاط القصر في كل من اليابان وكوريا حتى صدر مرسوم امبراطوري ياباني بضرورة اجادة أفراد الحرس الامبراطوري للكاراتيه . . .

ومرت الأيام حتى جاء رجل يدعى فونا كوشي كواحد من أعظم خبراء الكاراتيه في العالم ، ووضع الأسس الحديثة له في عام ١٩٢٢ ميلادية وتبنت وزارة التعليم اليابانية طريقة الرجل وقررت اللعبة في جميع المدارس والجامعات .

ويعتبر فونا كوشي أول من قال بأن لعبة الكاراتيه هي لعبة بدنية وذهنية بخلاف ما كان معتقدا بأنها لعبة بدنية محضة لا دخل لقوى العقل فيها . لأن اللاعب يركز كل طاقة جسده في برهة زمنية قصيرة للغاية تقع على مساحة محدودة فتؤتي تأثيرها البالغ .

والكاراتيه على هذا النحو تدريب ممتاز ليس للناحية الجسدية فقط ، انما للقدرات الذهنية بما تكسبه للاعب من التركيز البالغ والدقة الفائقة . وهذا ما توصل اليه حكماء التبت القدماء دون أن يتبينوها بيقين لكي يصلوا الى هذه القوانين والى الحد الأقصى لاحتمال انطباقها ونفاذها في الواقع الفعلي .

بداية اكتشاف السر

ونتناول هنا احدى الدراسات الشيقة والممتعة التي وضعت لعبة الكاراتيه تحت أضواء العلم وعلى مشارفه حيث لا فرصة للخلل أو البعد عن المصداقية ، لكننا سنقدم الدراسة في خطوطها العامة دون أن نغوص في أعماقها ، فذلك يتطلب من القارىء جهدا شاقا والماما بقوانين الرياضيات والنظريات الفيزيائية وميكانيكا المواقع وعلوم الاهتزازات ، وهذا ليس هدفي بحال من الأحوال .

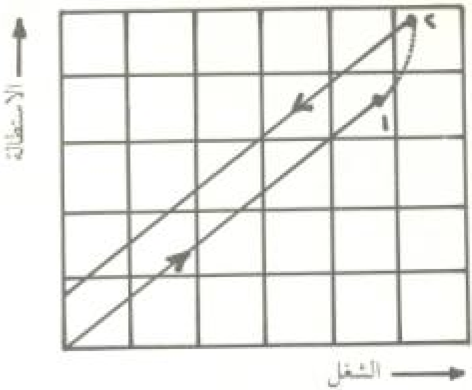
والحكاية هي ان عالم رياضيات تطبيقية مختصا بعلوم « الكومبيوتر » وأستاذا لها باحدى جامعات انجلترا هوى الكاراتيه ، فمارس اللعبة مع زمرة من الطلبة على ملاعب كلية العلوم . لكنه بحدس العالم ورغبة العلماء الجامحة في المعرفة العلمية المؤصلة والموثوقة ، لاحظ على أحد اللاعبين أنه يتقدم في فنون الكاراتيه بطريقة مثيرة للدهشة والاعجاب . . . فالطالب دائما يحقق أعلى النتائج ولا تقف في طريقه صعاب ، فسعى اليه سائلا ومدققا وباحثا

ومتلبيا ، وفي مناقشة عابرة سأله العالم الانجليزي بضعة أسئلة عن سر تفوقه ، وهز الطالب رأسه وقال دون مبالاة : "قد يعود السر الى محاولتي تركيز ضرباتي على أصغر مساحة ممكنة من قطعة الخشب أو الطوب أو الحديد بعد أن استجمع كل ارادتي بسرعة كافية لتوجيه الضربة بالعضو الذي استخدمه . . . يدي أو قدمي ."

وعاد العالم الى منزله يفكر في مقولة الطالب مرة ومرات وكأن حديثه كان ومضة ضوء مبهر برقت في ذهن العالم وجذبت اهتمامه ووجهت فكره صوب دراسة اللعبة وفق قواعد البحث العلمي ، فراح العالم يحلل تعاليم أساتذة الكاراتيه عبر القرون والعصور . فوجد أن ملاحظة الطالب صادقة تماما ، رغم أن لكل لاعب طريقة يستخدم فيها أجزاء بعينها من يده أو المرفق أو القدم فان الجزء المستخدم يركز - عند ملامسته الغرض - الجانب الأكبر من طاقة الجسد كله «في أصغر مساحة ممكنة .

وأعد العالم عدته وقام بمئات التجارب على تحطيم قطع الخشب والطوب والخرسانة المسلحة ومنها وضحت الاسباب وتكشفت أسرار الكاراتيه لأول مرة بطريقة علمية .

من هنا نتطلق للرد على السؤال كيف يستطيع لاعب بيده المجردة تحطيم هذه الأشياء ؟



النقلة ١ - نقطة الحد المرن
النقلة ٢ - نقطة الكسر

والاجابة العلمية هي الصدمة التي تحدثها قبضة اللاعب على قطعة خشب مثلا تؤثر على السطح العلوي فينثني تحت وقع الضربة ويتأثر بالتضاغط في اتجاه حركة القبضة بينما يقع السطح السفلي للخشب تحت وقع الشد المريع ، وتبدأ قطعة الخشب في التشقق من سطحها السفلي وينتشر التأثير عموديا بسرعة مذهلة الى أعلى عكس اتجاه



شكل مبالغ فيه يوضح ميكانيكية كسر قطعة من الخشب حيث تحمل قطعة الخشب كأنها زمبرك أو «سوستة» تتلقى الصدمة وتحاول استعادة شكلها الأساسي الموضح بالنقط لكن متى تعدت حد المرونة بدأت الشروخ

القبضة حتى تنهار القطعة وتتكسر الى قطع صغيرة وأشلاء .

وفق قواعد علوم المرونة فان قطعة الخشب أو الطوب أو الخرسانة المسلحة تنحني ويتناسب هذا الانحناء مقدارا واتجاها تناسبا طرديا مع مقدار القوة ، ويتقلص السطح العلوي ويتمدد السطح السفلي ، ويفقد الجسم مرونته متى تعدت القوة حد المرونة أي النقطة التي يعود فيها الجسم الى شكله وأبعاده الاصلية دون تحطيم ، وكأن الجسم عبارة عن زمبرك مرن .

نتائج مدهشة

وقام العالم مع فريق من معاونيه الى وضع معادلة رياضية تحكم هذه المتغيرات ، واستخدم لذلك حاسبا آليا ذا كفاءة عالية . ثم شرع في احصاء الطاقة اللازمة للكسر التي تركزها الضربة ومقارنتها بكمية الطاقة المناظرة لكسر الكتل الخشبية أو الخرسانية مستخدما في ذلك قوانين الصوت وحركة الموجات وانتقال الاهتزازات .

وكل التجارب تم تسجيلها ضوئيا بوسائل التصوير العلمي السريع . ووضح من الصور ان سرعة اليد كانت تتزايد بمعدل هائل ثم تنخفض السرعة حين تدور قبضة اليد على محور المعصم ثلاثة أرباع الدورة تقريبا ، ثم تزيد السرعة زيادة مخيفة قبل الملامسة التي تأتي على شكل تصادم بسرعة تصل الى ٦٠ كيلو مترا في الساعة ، وفي دراسة على نوع آخر من الضربات المعروفة باسم « الشاكوش » أو المطرقة تهبط اليد على قطعة الخشب بسرعة تتعدى ٩٠ كيلومترا في الساعة .

معنى هذه السرعات ان رفع القبضة بسرعة تتراوح بين ٦٠ الى ٩٠ كيلو مترا يحمل طاقة رهيبة وحين تقع هذه الكمية من الطاقة لمدة زمنية لا تتعدى عدة أجزاء من ألف جزء من الثانية (ميللي ثانية) فانها تماثل شحنة كهربية قوتها نحو ١٥ كيلو واط ساعة .

وقد ثبت من القياسات العملية دون الاستعانة بلاعبي الكاراتيه ان قطعة الخشب أو قالب الطوب أو بلاط خرسانة لا يحتاج في الحقيقة لأكثر من $\frac{١}{٤}$ كمية الطاقة التي تحملها يد اللاعب لكسر الخشب ، ولا تحتاج الخرسانة الى $\frac{١}{١٠}$ ذات الكمية ولا يحتاج الطوب الى $\frac{١}{٨}$ نفس كمية الطاقة .

أليس غريبا على الناس ان قطعة الخشب تحتاج طاقة أكثر مما تحتاج بلاطات الخرسانة أو الطوب ؟

نعم غريب .. لكن في دراسات أخرى تمت بالولايات المتحدة الامريكية على كسر الخشب والخرسانة باستخدام مكابس هيدروليكية ، ومن حساب حدود المرونة ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن يد أو رجل أو كوع لاعب الكاراتيه تحمل قدرا رهيبا من الطاقة الحركية ... هذا أولا ... وثانيا ان الخشب على درجة كبيرة من المرونة أكثر من الخرسانة أو الطوب يجعل الوصول به الى حد المرونة أكثر مشقة من الخرسانة أو الطوب رغم هشاشة الخشب الشديدة ورغم أن لاعب الكاراتيه يستهلك نحو ٧٥٪ من الطاقة في الكسر .

إنه لصحيح أن الألم الذي يتولد من اصطدام يد اللاعب مع الخرسانة أو الطوب يفوق الألم المتولد من اصطدام يده بالخشب الذي يمتص قدرا أكبر من الطاقة فيخفف الألم الناتج عنها . لكن الألم المتولد من ضرب الخشب يفوق الألم المتولد من ضرب قطعة أو قضيب من الحديد لذات الأسباب .

وتوضح مجموعة الصور - مع المقال - الدراسات على الكاراتيه ، كما يوضح المنحنى المرفق حدود الكسر ونجد أن الاجهاد داخل المادة يساوي القوة أو الطاقة التي اكتسبتها يد اللاعب مقسومة على مساحة مقطع الخشب أو الخرسانة أو الطوب . كما ان الاستطالة نتيجة الصدمة تقدر بالتطاول في القطعة على طولها الاصلي ، ومن المقدارين يمكن حساب حد المرونة لكل مادة ومقدرة اللاعب .

وبهذه الدراسة ومثيلاتها يوضع الكاراتيه في موقعه الصحيح من القدرات البشرية ويمحو السر عن واحد من أحسن فنون الدفاع عن النفس كرياضة روحية وبدنية سامية .

ويمضي العلم يزيح أستارا من وراء أستار كاشفا النقاب عن مزيد من الأسرار ، ويصدق قول الحق جل وعلا ..

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » . ■■

د . محمد نبهان سويلم

الغريب

تأليف : فرانسيس ستيغمولر

تعريب : حسن بو غنام

لو لم تكن السماء تمطر عندما خرجت من السينما ، لذهبت سيرا على الأقدام الى بيتي ، فالشقة التي أسكنها ليست بعيدة ، انما الطريق اليها معقد بعض الشيء اذ عليك أن تسلك طريق البوليفار وتقطع شارعين اثنين وتنحرف يمينا نحو الشارع الثالث ، شارع غربيل ، حيث منزلي .



أشرت لسيارة تاكسي ، وما ان أعطيت السائق العنوان حتى انطلق في طريقه ، وفي الطريق ومن خلال مرآة السيارة بدا السائق على حقيقته : رجل متقدم في السن ، أحمر الوجه تظهر عليه امارات المشاكسة والعصبية ، وتأكد لي ذلك ، لأنه ما ان سلك طريق البوليفار حتى انحرف يميناً نحو الشارع الأول ، شارع سان دومينيك فصحت : « لا ، ليس من هنا » ، فتمتم بكلمات غير مفهومة وعاد ثانية الى البوليفار ، ومن ثم دار ليدخل الشارع الثاني ، فما كان مني الا أن صحت ثانية : « الشارع التالي من فضلك هو شارعي ، شارع غرينل » .

في هذه اللحظة رمقني بنظرة قاسية ، وما ان قفل عائدا الى البوليفار حتى انطلق بسرعة هائلة متجاوزا الشارع المطلوب ، مما اضطرني لتنبيهه للمرة الثالثة قائلا : « والآن لقد تجاوزت الشارع ، كان عليك أن تنحرف نحو اليمين . أرجوك أن تعود الى شارع غرينل » .

ولدهشتي وخوفي ادار السائق سيارته واندفع بسرعة (جهنمية) ، ولم يتوقف الا عند مدخل شارع غرينل بقسوة ومرارة : « اخرج . اخرج من سيارتي حالا . لن أتقدم خطوة واحدة . لقد عاملتني ثلاث مرات كأبله . لقد أهنتني ثلاث مرات . سيارتي ليست للغرباء . اخرج حالا . » .

قالت له : « في هذا المطر . لا ، لن أفعل ذلك . لم أوجه اليك أية اهانة ؟ لقد كنت أحاول ان الفت انتباهك لتوصلني الى منزلي ولكن دون جدوى . والآن من فضلك أوصلني سأعطيك « بقشيشاً » محترما وسنفترق بطريقة حية .

لم ينتظر نهاية حديثي حتى عاد ليقول : « اخرج . لقد اهنتني ، وستخرج من سيارتي » وتابع مهددا : « اما ان تخرج من سيارتي او سأمضي بك الى مركز الشرطة ، وسأدعي عليك واطلب تعويضا عن الاهانات التى لحقت بشرفي . اختر .

قلت له : « في هذا الجو الماطر ليس لي الخيار . الى مركز الشرطة . هيا » .

وفي مركز الشرطة الذى لايبعد عن منزلي سوى مسافة قليلة ، وحيث المكان مألوف لدى ، دخلنا معاً الى



غرفة المفوض ، الذي ما ان وقع نظره على حتى حياني وناداني باسمي كأحد معارفه قائلا : « مساء الخير يا سيدي . بم أساعدك ؟ هل من خدمة أؤديها لك » .

غير أن الرجل العجوز ، سائق السيارة ، والذي لم يكد يلتفت اليه المفوض لم يترك لي مجالا للكلام فصرخ قائلا : « انا من يحتاج الى الخدمة . انا من يرغب في الادعاء على هذا الغريب . لقد عاملني هذا السيد ثلاث مرات كأبله . لقد أهانني ثلاث مرات . انني أطلب العدالة يا سيدي » .

نظر المفوض الى السائق باهمال مندهشا من الحالة العصبية التي بدا فيها الرجل ، واتجه نحوي ليطلب مني بكل احترام أن أقول ما لدىّ .

أخذ المفوض قلما وفتح سجلا كبيرا أمامه ، وعرضت القضية بالتفصيل : « إعطائي العنوان للسائق . الدورتان اللتان قام بها بشكل خاطيء . التمتمة بكلام غير مفهوم ،

عدم ايصالي الى الشارع المقصود . الهياج . وأخيرا طلب خروجي من السيارة في ذلك الجو الممطر . »

كان المفوض يقاطعني أحيانا ليسأل السائق عن بعض التفاصيل وكانت اجابته لا تتناقض مع أقوالي . وعندما أنهيت كلامي تابع المفوض الكتابة للحظات . ومن ثم شكرني . والتفت نحو السائق بجفاء . وطلب منه أن يقول ما عنده .

لم يكن لدى السائق ما يدعيه سوى أن يعيد ما قاله في البداية : « ثلاث مرات عوملت كأبله . ثلاث مرات أهنت من قبل هذا الغريب » كان يردد ذلك بصوته الأجش الغامض وحركاته الناقمة .

أخيرا وضع المفوض قلمه وقال : « المسألة أصبحت واضحة . »

أنت أيها السيد (وأشار الي) من أهين في هذه القضية . وسأكون سعيدا لأعلن قراري بأن على هذا السيد (وأشار الى السائق) أن يوصلك الى منزلك دون مقابل . ولكن .. اذا لم يكن لدى السيد أي ازعاج أرجو أن يسمح لي بالقاء نظرة على أوراقه .- يطلب القانون الفرنسي من الغرباء ابراز بطاقة الهوية في مثل هذه الحالات - وسأنهي المشكلة الآن . « هويتك من فضلك » .

أحسست بقلبي يهبط . وأصابني الدوار . فقد نسيت « هويتي » على الطاولة في المنزل . وبصوت متعلثم قلت : « سيدي . بسبب المطر الغزير تركت هويتي في المنزل حتى لا تتلفها الرطوبة . في الصباح سأحضرها بكل تأكيد . وأرجو أن يكون هذا سببا مقنعا وكافيا . مع اعتقادي بوجوب حمل البطاقة وضرورة ذلك » .

غير أن ما قلته لم يقنع المفوض . وتغير كل شيء . وانقلبت المواقف . وتبدلت لهجة المفوض الذي قال بصوت رصين ووجه بدا كالحجر : « ان ما قلته ليس كافيا لانهاء القضية . من الواضح أنك ستحضر البطاقة غدا صباحا . ولكن بالنظر الى هذه الحالة الحاضرة أنا مضطر لتغيير حكمي في القضية . فبسبب المطر الغزير أرجو السيد السائق أن يتكرم بايصالك الى منزلك . ولكني أطلب منك أن تدفع له بالمقابل ليس فقط اجرة الرحلة من البداية حتى النهاية . بل أجرة الوقت الذي هدر بمجيئكما الى هذا المكتب . وأظن - متوجها الى السائق - لقد تركت عداد سيارتك شغالا .

هز السائق رأسه بالموافقة . ووقف المفوض ليقول : « مع السلامة » . والتفت نحوي عابسا : (لاتنس أيها السيد موعدنا غدا صباحا) .

وجنبا الى جنب . كما دخلنا . خرجنا من مركز الشرطة . لقد لاحظت بريقا يطل من عيني السائق عندما انقلبت المحاكمة . ولكن لم تظهر عليه علامات الانتصار . لقد أوصلني الى منزلي دون أية كلمة . وعندما وصلنا ونقدته الاجرة كاملة كما طلب المفوض قال ببرود : « لا أعتقد أن سيدي نسي وعده لي » بقشيش » محترم وأن نفترق بطريقة حية » . ■■

حسن بو غنام

سيد العرب

وفد حاجب بن زرارة على انوشروان . فاستأذن عليه . فقال الحاجب : من أنت ؟ فقال : رجل من العرب . ولما مثل بين يديه سأله الملك : من انت ؟ قال : سيد العرب . قال : أوليست اخبرت الحاجب بأنك رجل من العرب ؟ قال : نعم اني كنت لكذلك . ولما أكرمني الملك بمكالمته صرت سيدهم . فأعجب به كسرى وملأ فمه درا .

حوار القراء

جوركي وتولستوي

● اطلعت في عدد العربي (٢٨٣) على مقالة عنوانها « الاكاديميون والدكاترة » ، وقد تبين فيها خطأ غير مقصود ، اذ اشير فيها الى ان الاديب الروسي تولستوي لم يتلق تعليما جامعيا ، والحقيقة ان المقصود بهذا هو الاديب الروسي جوركي ، فنرجو التنبيه الى ذلك . .

د . السيد محمد عمار / المنصورة / مصر

العربي :

لا خلاف في ان مكسيم جوركي ، لم يتلق تعليما جامعيا ، ولكن تولستوي لم يكمل تعليمه الجامعي ايضا ، ففي سن السادسة عشرة مال الى دخول السلك السياسي واخذ يتلقى دروسا في لغات كثيرة منها العربية والتركية استعدادا للالتحاق بكلية الدراسات الشرقية في جامعة - قازان - الروسية ، فنجح بعد اعادة الامتحان والتحق بها ، واخفق في نهاية السنة الاولى ، فترك الجامعة وكان حريصا على احراز تعليم جامعي ، فدخل كلية الحقوق واستمر فيها سنتين ثم انقطع بسبب مرضه .

ومن هنا يظهر لنا ان تولستوي لم يتم تعليمه الجامعي ، ولعل هذا ما اراده كاتب المقالة . . . .

الاسلوب المعقد

● أنا طالب في الصف الرابع الثانوي ، واود في بداية رسالتي ان اشكر جميع الذين يعملون في مجلة العربي ، والحقيقة انها اصبحت ضرورية في كل شهر لما تقدمه من معلومات مفيدة ومواضيع هامة ولما أجده من متعة لي حين قراءتها ، الا انني الاحظ ان بعض الكتاب يستعملون احيانا أساليب معقدة في كتاباتهم ، وأطلب منهم ان يحاولوا الكتابة بأسلوب بسيط حتى يسهل فهمه . .

محمد العزبي . . . الدار البيضاء - المغرب

اشتراكات العربي

● الى قراء العربي الذين يبعثون الينا برسائلهم يسألون فيها عن كيفية الاشتراك بالمجلة . . . . نقول ان عنوان قسم الاشتراك موجود في المجلة لكل من يود بالاضافة الى قيمة هذا الاشتراك .

الدكتور احمد زكي

● أرجو اعطائي فكرة عن المرتبة العلمية التي وصل اليها المرحوم الدكتور احمد زكي - طيب الله ثراه أول رئيس لتحرير مجلتنا « العربي » مع ذكر الدرجات العلمية والشهادات التي حصل عليها - رحمه الله - وجوانب من حياته . . .

يحيى محسن / اللاذقية / سوريا

العربي :

عمل المرحوم الدكتور احمد زكي مديرا لجامعة القاهرة ، ووزيرا في احدى الوزارات المصرية السابقة ، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه الفلسفية عام ١٩٢٤ ودكتوراه العلوم ١٩٤٨ وقد سبق له ان تولى رئاسة الاتحاد الثقافي المصري ، واشترك في تأسيس لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة . وهو عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجمع العلمي بدمشق والمجمع ببغداد ، تولى رئاسة تحرير مجلة الهلال خمس سنوات . بالاضافة الى اعماله الرسمية ومن كتبه المؤلفة والمترجمة . . وغادة الكاميليا - ساعات السحر - مواقف حاسمة في تاريخ العلوم - جان دارك - مع الناس - مع الله في السماء - قصة الميكروب -

وغيرها من الكتب ـ وقد وصل الدكتور احدزكي الى الكويت في مارس ١٩٥٨ ليرأس تحرير العربي وبقي فيها حتى ١٩٧٥ حيث انتقل الى الدار الآخرة . .

عشرة كواكب

● رغم تقدم العلوم في انحاء العالم فان الكثير يصرون بالابقاء على معلوماتهم القديمة وعدم تجديدها وفقا لما يطرأ من اكتشافات مختلفة ، واكبر دليل على ذلك ما نلاحظه في المجلات المختلفة حيث يشير كتاب المقالات فيها الى أن عدد كواكب المجموعة الشمسية هو تسعة فقط رغم ان عددها اصبح عشرة اثر اكتشاف كوكب « خيرون » عام ١٩٧٧ وكذا الحال بالنسبة لاقمار كواكب النظام الشمسي فقد ارتفع عددها من ٣٤ قمرا الى ٣٩ قمرا بعد اكتشاف قمري المشترى الثالث عشر والرابع عشر وقمر زحل الحادي عشر وقمري بلوتو .

سامر السراج

جامعة دمشق ـ كلية الهندسة

الحضارة العربية

● قرأت قبل فترة احدى اصدارات دار الجاحظ ، العدد (٩٧) في الموسوعة الصغيرة ، باسم صفحات مشرقة من الحضارة العربية ، وهو كتيب رائع يضم نصوصاً اخذت من الكتب المؤرخة لتاريخ العرب ، وهذه النصوص تشمل مختلف جوانب العلم الذي تقدم فيها العلماء المسلمون العرب ، فقد تناولت جوانب الطب والفيزياء والجغرافيا وعلم النفس وغيرها .

هذه النصوص لو قرأت من قبل اي مسلم عربي لدفعت درجة ايمانه بأمته ولعرف انها توصلت قبل عدة قرون الى اشياء توصل اليها علماء الغرب قبل فترة وجيزة .

ان هذه النصوص رائعة من الروائع العربية ، وهو لا يتوقعها لانه سوف يعجب بما توصل اليه اجداده قبل عدة قرون ، وسوف يعرف لو ان العرب تابعوا تطوير الاختراعات وما توصل اليه علماء الاسلام العرب لتقدموا على حضارة الغرب الا انهم تركوا الاعمال الجادة واتجهوا نحو اللهو ـ فتأخروا وتقدم الغرب ـ ويجب علينا اخيرا استلهام حضارة اجدادنا الاوائل للارتفاع والسمو بأمتنا .

المهندس/سالم احمد فاضل/العراق

علم الالكترونيك

● نشكر لكم جهودكم الرائعة التي تبذلونها لخدمة الانسان عبر مجلتكم ـ العربي ـ التي تتناول جميع المواضيع التي تهمنا في هذه الحياة بيد انه مازال هناك موضوع اريد ان الفت نظركم اليه وهو علم الالكترونيك . وهو العلم الذي بات يقاس به مدى حضارة الدول وتطورها لاهميته في مختلف المجالات ، هذا العلم دخل متأخرا الى عالمنا العربي ووجد كثيرا من المهتمين به ـ ونحن منهم ـ لذلك نرجو ان تنشروا لنا مواضيع تتعلق به سيما وان مكتباتنا العربية تعاني من نقص في هذا المجال .

عامر عواضه ـ بيروت/لبنان

اقتراحات ...... عن فلسطين

●شهرا بعد شهر ، وجدت نفسي احد رواد مجلة « العربي » بما يتيسر لي منها رغم التشويهات التي كان الرقيب الاسرائيلي يجريها على المجلة حين وصولها الى اسواق الارض المحتلة عن طريق « غور الاردن » اما الآن فلا استطيع ان اصف لكم شعوري بعد انتقالي الى عمان للدراسة في الجامعة الاردنية اذ اصبح بوسعي الحصول على مجلتي كاملة وبلا تدخل من الرقيب الاسرائيلي .

وأريد أن أشير لبعض النقاط التي أقترحها عليكم .

× نشر استطلاعات او مقالات مصورة « مجمعة تجميعا » عن مدن وقرى فلسطين وربوعها الحبيبة ، وهذا لا يعني ان « العربي » لا تقوم بذلك ، بل نريد المزيد .

× تخصيص ركن ثابت في المجلة لفلسطين ، يقوم بالكتابة فيه نخبة من ابرز كتاب العالم الاسلامي والعربي ، بهدف تعريف الناشئة العربية بقضيتهم المصيرية .

× اعطاء المواضيع السياسية اهتماما اكبر بتحليل الكثير من القضايا السياسية سواء الحاضرة أو التي مضى عليها زمن يسير ، من أجل تنوير الذين لم يعاصروا الاحداث المعاصرة الخاصة بقضية الشرق الاوسط وفلسطين ...

فازع عود ثاني/عمان/الجامعة الاردنية

أعمال الفنانين

في عددكم « ٢٨٣ » قرأت مقالا عن الفنان « رامبرانت » ولا شك ان مقالات من هذا النوع ، اي تلك التي تقدم الفنانين العالميين الى القارئ او وجهات نظر حول هؤلاء العمالقة هي مقالات هامة ونتمنى ان تتابع العربي هذه الدراسات في الاعداد القادمة لتقدم لقارئ « الضاد » الفنانين العرب والعالميين مع اضافة نماذج من اعمال هؤلاء الفنانين بالألوان اذ ان اسلوب الفنان في توصيل رسالته هو عبر الالوان وتوزيع الظل والنور ...

محمد حسان شوا
حلب/سوريا

اللغة العربية

●اكتب لكم بشأن اللغة العربية في مجلتنا العربي ، وهو أمر لا يمكن التهاون فيه او السكوت عليه ، وقد يكون السكوت اشد خطورة من المأخذ نفسه ، في عدد يوليو ١٩٨٢ م يطالعنا الغلاف الخارجي - كجميع الاعداد قبله بشهر يوليو وبين قوسين ، (تموز) اي ان الاسم العربي هو الذي يجب ان يقع عليه الاهمال فيدخل بين القوسين بينما العكس هو الصحيح .

ابراهيم عبد الله حسن - الاسكندرية - مصر

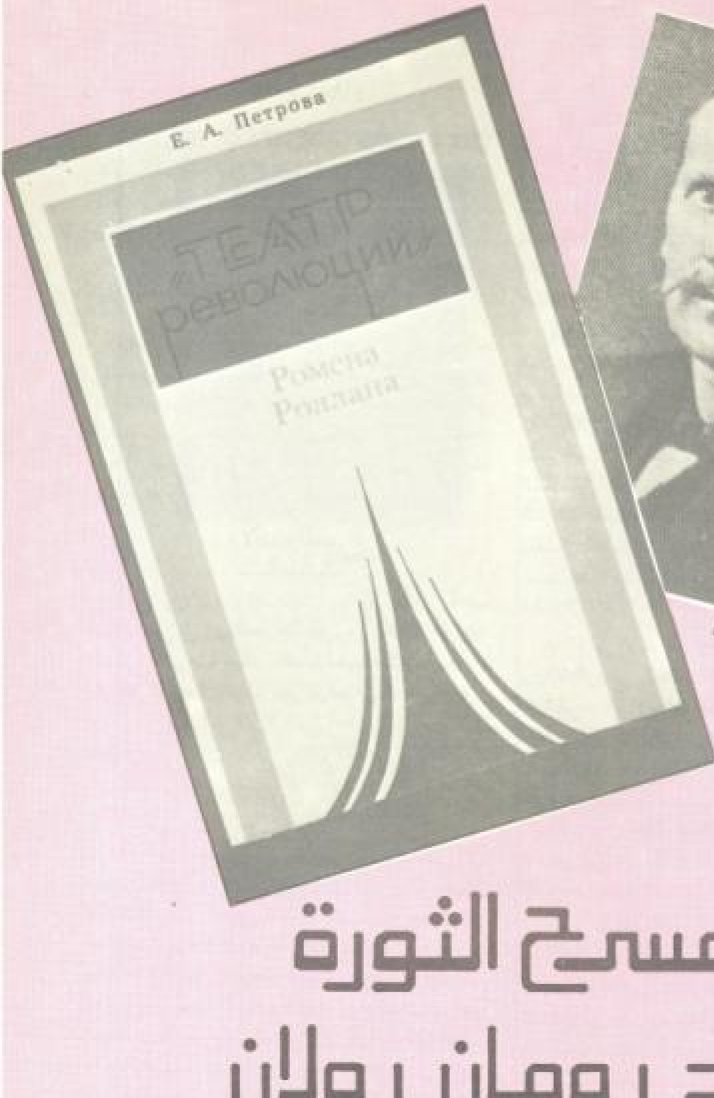
العربي :

حتى تموز شهر ... سرياني ... ونحن نستعمل الشهر الاجنبي كشأن معظم البلاد العربية ، وقد كان المغاربة والاندلسيون قبل قرون يؤرخون بهذه الشهور ولكن بنطق مختلف . وشكرا لغيرتك العربية .

أغلفة النساء

●اتابع باستمرار ما يكتب في زاوية .. حوار القراء .. وارى فيها منبرا للصراحة المتناهية بين « العربي » والعرب المسلمين في كل مكان ومن هذا المنطلق فقد بعثت لكم بهذه الملحوظة آملا ان تلقى اهتمامكم . لقد اطلعت على صورة الغلاف في جميع اعداد ١٩٨٠ و ١٩٨١ م فوجدت انه يغلب عليها صور النساء على الرجال بنسبة ٩ - ٣ في ١٩٨٠ و ١١ - ١ في ١٩٨١ ، فما تفسير ذلك بنظركم ؟ ، هل هو تفضيل للأنثى ؟ ام انه اقتداء بالمجلات العربية المنتشرة والتي لا ترقى لمنزلة « العربي » الثقافية والادبية .

ماجد سيف الدين محمد
اربد/الاردن





رومان رولان

من مكتبة العربي

مسرح الثورة عند رومان رولان

بقلم : ي . بيتروفا

عرض وتقديم الدكتور هاشم حمادي

« أعتقد أن التاريخ البطولي لا يجب أن يكون كالمصباح في مؤخرة القطار ، بالكاد ينير بضوئه الطريق المجتاز ، بل يجب أن يكون المنارة في الليل ، ترشد بسيل الأشعة الجبارة السفينة في المحيط - من أين تبحر والى أين » .

بعبارة رومان رولان هذه تبدأ الباحثة السوفيتية يفغينيا أندريفنا بيتروفا كتابها « مسرح الثورة » عند رومان رولان الصادر عن جامعة ساراتوف في نهاية ١٩٧٩ (١). والمكرس لواحدة من أهم ظواهر الأدب الأوربي الغربي والمسرح في بداية القرن العشرين ـ مسرحيات رولان التاريخية حول أحداث الثورة الفرنسية .

وتشير الباحثة في مستهل كتابها الى أن تحليل مسرحيات الفنان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يستند الى دراسة العديد من المصادر التاريخية الهامة ، التي أرسى « مسرح الثورة » عليها ـ الوثائق التاريخية وأبحاث العلماء الفرنسيين ، التي اعتمد عليها رولان في كتابة مسرحياته وعلى المسرحيات نفسها بالطبع .

رولان والمسرح

يقول رولان : « كان المسرح ، ولا يزال . أحب أشكال الفن الى » وبالفعل فقد ظل رولان محافظا على حبه للمسرح حتى نهاية حياته . فقد بدأ طريقه الابداعي وأنهاه بالكتابة المسرحية ، وذلك على الرغم من أن مسرحياته ، وبالأخص « مسرح الثورة » ، لم تحظ بذلك المجد الذي حظيت به رواياته . ولكن رولان كان على قناعة تامة أن تجربته المسرحية لن تلبث ، ان عاجلا أو آجلا ، أن تنال حقها من التقويم ، سواء لدى النقاد أو الجمهور .

وقد تجلى عطاء رولان المسرحي بأروع صوره في « مسرح الثورة » ، الذي يضم ثماني مسرحيات مكرسة للثورةالفرنسية العظمى والذي كان نسيج وحده بين التيارات المسرحية المعاصرة : البورجوازية ـ التسلية ، والدراما الطبيعية والطبيعية الجديدة والرمزية . وقد كان ذلك بالذات أحد الأسباب الكامنة وراء ظهور المزاعم التي تصور « مسرح الثورة » ، الذي يطرح نموذجا جديدا للفن البطولي ، على أنه بعيد عن النهج الأساسي لتطور المسرح الأوروبي في القرن العشرين . ولكن ذوي النظرة الثاقبة كانوا يدركون أن « مسرح الثورة » لم يكن ظاهرة مصادفة في الحياة الأدبية آنذاك .

والواقع أن فكرة ابداع لوحة درامية كبيرة ، مكرسة لأحداث ثورة ١٧٨٩ ، ولدت في وعي الفنان وهو في سن الشباب . والى ذلك يشير رولان فيقول : ان الانطباعات القوية ، التي تركتها التمثيلية المقتبسة عن رواية فكتور هيجو « عام ثلاثة وتسعين » كانت بمثابة « التربة » الأولى لابداع هذه اللوحة ـ « البادئة » الشعب الفرنسي .

ولابد من الاشارة هنا الى أن هذه الفكرة وليدة طبيعية ومنطقية لاهتمام رولان بالثورة الفرنسية العظمى ، ففي عام ١٨٩٨ كتب يقول : « انني مشبع بهذا العصر البطولي . . . وكلما ازددت تعمقا في هذا العالم انداحت الحدود أمامي ، وشعرت أن رأسي يشهد مخاض ملحمة هائلة . . .

يقول روبير ميرل : « في بريطانيا تطالعنا مسرحيات شكسبير التاريخية الخالدة . وقبل رومان رولان لم تكن فرنسا تملك شيئا من هذا الفن . فقد كان التاريخ اليوناني والروماني وحتى الاسباني أكثر جاذبية بالنسبة لكتابنا المسرحيين . . . لقد بعث رومان رولان التراجيديا الشكسبيرية العظمى : ان « مسرح الثورة » مشبع بالروح التاريخية الأصيلة ، ففيه نعثر على المغامرات العاطفية والمصائر الفردانية ، ولكنه يتطلع بالدرجة الأولى نحو تجسيد هذا الحدث التاريخي أو ذاك وبث الحياة فيه على خشبة المسرح » .

هذا وعلى الرغم من اهتمام النقاد والباحثين ـ الكبير برولان الروائي والكاتب الاجتماعي والمنظر الفني وحتى الموسيقي ، فان الابحاث المكرسة لرولان المسرحي لاتزال قليلة ، وفي هذا الكتاب ، الذي تضعه « العربي » بين أيدي القراء ، تتناول الباحثة السوفيتية بيتروفا المسرحيات الأربع الأولى من « مسرح الثورة » لدى رولان ـ « الذئاب »، « وتغلب العقل » ، « دانتون » و « الرابع عشر من تموز » ، وقد كتب رولان هذه المسرحيات خلال ثلاث سنوات (١٨٩٨ ـ ١٩٠١) .

« الذئاب » كانت البداية

كتب رولان مسرحية « الذئاب » في عام ١٨٩٨ وهو في الثلاثين من عمره ، وقبل ذلك كان قد كتب عشر مسرحيات ، كانت أحداث تسع منها تعود الى العصور الغابرة من تاريخ فرنسا وأوروبا . ولكن هذه المسرحيات ، على كثرتها ، لم تجلب لرولان الشهرة ، وقد جاءت « الذئاب » ـ الدراما الأولى في « مسرح الثورة » ـ فتحت باب الشهرة على مصراعيه في وجه الفنان . والى أهمية هذه المسرحية يشير رولان نفسه فيقول : « فتحت مسرحية » « الذئاب » الباب لجميع مسرحياتي الأخرى ، المكرسة للثورة . انها مسرحية سياسية ، وهي تتميز بالحدة . وقد اسقطت أحداث عصر الثورة على الأحداث الراهنة » . ويقصد رولان « بالأحداث الراهنة » . النقاش الحاد حول قضية « دريفوس » ، التي عصفت

● يفغينيا أندريفنا بيتروفا « مسرح الثورة » عند رومان رولان ـ جامعة ساراتوف ١٩٧٩ . ٢٨٤ صفحة .

بالحياة الفرنسية في منتصف العقد الأخير من القرن الماضي . ووضعت البلاد على شفا هاوية الحرب الأهلية .

وفي رسائله الى فون ميوزينبوغ وفي يومياته ، العائدة الى عام ١٨٩٨ وفي تعليقاته على « الذئاب » يصر رولان على أن مسرحية « الذئاب » لاتقتصر على كونها سياسية وفلسفية ، بل هي في الوقت نفسه شريحة تاريخية مستقاة من أحداث حروب ١٧٩٣ الجمهورية .

ولكن ما الذي جعل رولان يتناول فن المسرحية التاريخية ، وهو الذي أعلن أكثر من مرة رفضه مثل هذا النوع من المسرحيات ، فقد كتب عن مسرحيته « لودفيغ المقدس » يقول : « انني أحاول طمس الأسماء التاريخية حيث أمكن . . . لأن يودي خلط الواقع بالخيال » . ولكن رولان لم يلبث أن اكتشف في أواسط الثمينات أن بوسع التاريخ أن يكون عبرة تعتبر ودرسا رائعا للمعاصرة ولحل مشاكلها المعقدة .

ان رولان ، اذ يدلي بدلوه في قضية دريفوس ، يحاول اصلاح ذات البين بين المتخاصمين ، وتذكيرهم بمصالح الأمة وضرورة الدفاع عن الجمهورية ، وليس من باب المصادفة أن المسرحية تنتهي باعدام دأوآرون ، المتهم بالخيانة ظلما وبهتانا ، كرمز لأولوية مصالح الوطن بالنسبة للمصالح الشخصية . ان طريق رولان من المعاصرة الى التاريخ الفعلي طويل وقاس ، فلم يكد رولان يبدع مسرحية « الذئاب » ، التي تتحلى بهذه الصفة الرفيعة الجديدة ، حتى راح يبذل قصارى جهده من أجل جعلها مفهومة ومعترفا بها من قبل الآخرين .

ففي رسالته الى فون ميزنبوغ (٢٨ أيار ١٨٩٨) أورد رولان عددا من البراهين ، الدالة على تاريخية مسرحيته : « أولا ـ كون الأبطال الرئيسين والشخصيات الأخرى تحمل بصمات عصر ١٧٩٣ ، ثانيا مطابقة أحداث المسرحية للأحداث التاريخية ، ثالثا ـ خصائص الاسلوب اللغوي ، الذي يتناسب ولغة عهد الثورة الفرنسية » .

وقد تمكن رولان ، مع المحافظة على روح الثورة ، من ابداع مسرحية يدق فيها نبض عصره ، وتتردد فيها المسائل ، التي اسقطت على المعاصرة بشكل غاية في الجودة والاقناع .



رومان رولان
١٨٦٦ ـ ١٩٤٤

ولد في بلدة كلاميسى في نيفر بفرنسا في ٢٩ يناير ١٨٦٦ . كان عضوا في المدرسة الفرنسية في روما في ما بين ١٨٨٩ ـ ١٨٩١ ، ثم شغل منصبا في تاريخ الفنون وذلك في المدرسة الشهيرة « ايكول نورمال سوبيرياعتبارا من سنة ١٨٩٥ ، ثم عين استاذا في السوربون حيث ادخل دراسة موضوع تاريخ الموسيقى .

وكان رولان منتجا غزير الانتاج ، وكتب ـ خارج اطار المسرح ـ عديدا من الكتب النقدية والتاريخية الى جانب كتب السير التى وضعها عن ميليه (١٩٠٢) وبيتهوفن (١٩٠٣) وميخائيل انجلو (١٩٠٦) على أن أهم سيرة كتبها كانت عن الموسيقى الالمانى جان كريستوفا ، وقد استغرقت ثمانى سنوات (١٩٠٤ ـ ١٩١٢) ملأت عشرة مجلدات ويعتبر كتابه عن المهاتما غاندى (١٩٣٤) دفاعا موضوعيا ونزيها عن الزعيم الهندى .

نال رومان رولان جائزة نوبل للأدب سنة ١٩١٥ وتوفى فى فازليه فى فرنسا فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ .

وتغلب العقل

بعد الضجة الهائلة ، التي أثارتها مسرحية « الذئاب » كتب رولان يقول « . . . لقد حصلت على مكان لنفسي - قد لايكون تحت الشمس ، وقد يكون تحت المطر ، تحت الثلج . تحت صفعات الرياح المتقاطعة . . . ولكن ، والحمد لله ، فالقارب يسير نحو الامام ، في هزيم الرعد أو عصف الرياح ! »

هذا وتجدر الاشارة الى أن رولان في تناوله للثورة الفرنسية يركز ، بالدرجة الأولى ، على التناقضات الداخلية ، على صراع الأحزاب والأجنحة في حكومة الجمهورية الفتية ، لأن ذلك ، كما يؤكد رولان ، كان سبب فاجعة ١٧٩٤ ، لأن الجمعية لم تتمكن ، بعد أن استنزفت قواها في النزاعات والصراعات الداخلية من التصدي للحلف البورجوازي المعادي للثورة ، الذي تمكن في النهاية من الوصول الى سدة الحكم .

ففي « وتغلب العقل » يصور رولان المرحلة الأولى من تشكل هذه التناقضات وتطورها . والموضوع الرئيسي لهذه المسرحية هو مصير الجيروندين - الحزب الذي تحدى اليعاقبة ، وهم الأغلبية في الجمعية . ويحاول فيها فهم الجيروندية من الداخل ، عن طريق تحليلها بشكل موضوعي وشامل مع الالتزام التام بمبدأ رولان المعروف - الموضوعية المطلقة في تقويم الناس والأحداث .

ولكن وجهة نظر رولان تبدو واضحة جدا في « وتغلب العقل » . فرولان لايكتفي بالدراسة الشاملة للظاهرة ، بل ويقومها .

فمنذ الأسطر الأولى يحدد رولان موضوع مسرحيته - الجيرونديون والشعب ، مع التركيز على كراهية الجيرونديين للشعب ، الذي تغلب على حزبهم في تمرد ٣١ أيار - حزيران ١٧٩٣ . وقد وصل بهم الحقد لدرجة أنهم كانوا على استعداد لمحو مدينة كاملة عن بكرة أبيها ، لأن « الغوغاء » فيها تجرأت فشقت عصا الطاعة ، وتمردت على حزبهم ، وراحت تطالب بطردهم ، بعد أن كانت تناصرهم وتؤازرهم .

ان شارلوتا كوردي ، اذ اغتالت مارات ، صديق الشعب ، قد ترجمت الى الواقع نوايا الجيروندين الدفينة - قطع دابر الارهاب ووقف مسيرة الثورة ، واعادة عجلة التاريخ الى الوراء الى عهد جمهورية الجيروندين .

ولكن اغتيال مارات جاء مخيبا لآمال الجيروندين ، وهذا مايعترف به فايير بمرارة : « . . . ان الدم المسموم يخضب الأرض . انني أشعر أن ظلام باريس المشئوم يضج اليوم بآلاف « المارات » . وبالفعل فإن الشعب ، الذي كان يطالب في البداية بسجن الجيروندين قد أصبح يتعطش الآن لدمهم . وعلى الرغم من أن أبطال « وتغلب العقل » يبدون وكأنهم أبرياء من دم مارات ، فان عليهم أن يدفعوا ثمنه . فمنذ البداية يقف ابطال المسرحية أمام خيارين « أحلاهما مر » : اما اقتفاء أثر شارلوتا كوردي في النضال ضد اليعاقبة ، واما التخلي عن المنافسة معهم ، والابتعاد عن طريق الثورة ، مضحين بمبادئهم وبأنفسهم من أجلها . وفي المشهد الثاني من المسرحية يقع اختيار هيجو وفايير وليوكس على الخيار الأول . حتى أن هيجو يقترح التحالف مع بريطانيا - عدو الجمهورية .

ويأتي المشهد الثالث ، الذي يحتل مكانة متميزة في البنية العامة للمسرحية ، مكرسا لتغلب عقل الأبطال - الجيروندين ، وتأتي أحداثه غنية بالشحنات الفلسفية والأخلاقية الكبيرة . ففيه تحل العقدة ، بتخلي الجيروندين عن ادعاءاتهم السابقة ، وبمغادرة أحد الطرفين المتخاصمين ساحة الصراع ، يبدأنهم - وهم على حافة الموت - واثقون من أن حياتهم لم تكن عقيمة ، وأن نضالهم لم يكن عبثا ، فقد ساهموا بانجازاتهم في السنوات الأولى للثورة في حمل وأداء الرسالة الخالدة ، التي تهدف الى تغيير العالم على أسس العقل والعدالة : فهذا « هيجو » ، الصامد حتى النهاية ، يعلن بصوت يغطي على ضجة الغوغاء : ستصبح الحياة كما أريدها ، لقد سبقت النصر . ولكن النصر سيكون الى جانبي » .

وهذا فايير الذي حكم عليه اليعاقبة بالاعدام يعلن بصوت مفعم بالايمان الراسخ والهادىء : « على الرغم من كل شيء فإن الروح تنتصر : لقد جلبنا العقل للناس ، ولكن رؤوسهم كانت أضعف من أن تتحمل الشراب الثقيل » .

ان مفهوم العقل عند رولان مرتبط سواء بشخصيات الأبطال المتمردين ، الذين يدفعون دمهم تكفيرا عن ذنبهم

بحق الجمهورية ، أو بشخصية الشعب الذي يحتفل بالنصر واعدام الجيرونديين ، ولكن اذا كان الأولون يتحلون عن وعي بمبادىء هذا العقل ويدافعون عنها ، فان الآخرين هم اداته غير الواعية ، وهي أداة فظة لاتخلو من القسوة .

ان التضاد بين العقل والغريزة . بين الفكر والسلوك يطالعنا في المشهد الثالث كمبدأ لمنظومة رولان الفلسفية - التاريخية . ومن هنا التباين بين الانتصار الفعلي لعقل الجيرونديين وبين تقديس الشعب للعقل ، هذا التقديس ، الذي يفتقر للحوافز الواعية . وعلى هذا التباين يقوم المبنى المجازي للمشهد الختامي » .

«دانتون» وتناقضات الجمهورية

تعتبر مسرحية « دانتون » استمرارا ، أكثر عمقا ، لموضوع الدراما السابقة - التناقضات الداخلية للجمهورية الفضة . واذا كان الصراع في « وتغلب العقل » يدور بين اليعاقبة والجيرونديين فانه في « دانتون » بين دانتون وروبسبير - زعيمي الحزبين ، الأساسيين في الجمعية .

تبدأ أحداث هذه المسرحية في الرابع والعشرين من آذار (مارس) ١٨٩٤ - اليوم الذي تم فيه اعدام زعماء كومونة باريس ، ممثلي الفئات الدنيا ، وتنتهي في الخامس من نيسان / ابريل / اليوم الذي صدر فيه الحكم باعدام الدانتونيين - زعماء حزب « المعتدلين » أو « العطوفين » ، ممثل التكتل الليبرالي البورجوازي في جمعية اليعاقبة . ويكتسب الصراع الاجتماعي هنا - كما في المسرحية السابقة - طابع التصادم بين المبادىء الايديولوجية والمعايير الأخلاقية المختلفة ؛ وهو هنا أيضا على ارتباط وثيق بخيوط غير مرئية ، بالأحداث المعاصرة .

ولم تكد « دانتون » ترى النور حتى أثارت موجة من الجدل والنقاش بصدد النزاع بين دانتون وروبسبير فمن كان منهما على حق : دانتون ، الذي رفض بشكل قاطع في المرحلة الراهنة تبني سياسة الارهاب الثوري ، والذي دفع حياته ثمن ذلك ، أم روبسبير ، الذي اعتنق هذه السياسة ، ولم يتورع - من أجل انتصارها - عن ارسال دانتون الى المقصلة ؟

اذا كان المؤرخون الفرنسيون ، في تقويمهم لهذين الزعيمين ، يتبنون موقفين متناقضين تماما ، بعضهم موال لهذا لدرجة التطرف ، والبعض الآخر لذاك لدرجة التطرف أيضا ، فان رولان يحاول ، معتمدا على موضوعيته المبدئية ، انصاف هذا وذاك . فبالاختلاف عن بلان ، يضع رولان كل عبء مسؤولية دم دانتون المراق على عاتق روبسبير ، ولكنه يرفض السير في أعقاب المؤرخين امثال:تير ، ميشلي وأو أولار » فيا بالك بتين » الذين يرجعون العداء بين دانتون وروبسبير الى أسباب الأنانية ، ويرى أن جذور هذا العداء تكمن - قبل كل شيء - في الخلافات المبدئية بين دانتون وروبسبير بصدد المسائل الهامة ، المتعلقة بتبني الثورة واهدافها ومهامها .

ومن هنا فان التضحية لاتتم على مذبح الانانية ولا نتيجة سوء فهم ، بل من أجل مصلحة الجمهورية ، كما يفهمها روبسبير . وللاجابة على سؤال ، فيما اذا كان لاراقة دم دانتون ما يبرره ، ومدى ضرورة ذلك ، رأى رولان أنه لابد من النفوذ الى منطق تفكير روبسبير وفهمه من الداخل . ففي عام ١٨٩٦ كتب رولان يقول : « كلما ازددت نفوذا الى روح الابطال ! ازدادت فرص المشاركة في نشاطهم . ولذا فمن المهم رؤية الأبطال ، ليس في اللحظة الحرجة فقط . . . حينما ترفعهم الأزمة أو تشوههم . . . بل لابد من رؤيتهم في لحظة الراحة » ، وانطلاقا من ذلك يكرس رولان المشهد الثاني من مسرحيته لروبسبير ، بهدف النفوذ الى عالمه الداخلي وحياته الخاصة .

ولكن هل تمكن رولان من اعادة الاعتبار لروبسبير وبلوغ الهدف الذي وضعه نصب عينيه مذ ولدت فكرة هذه المسرحية في رأسه ؟ ينقسم النقاد في الاجابة على هذا السؤال الى قسمين : الأول - ويرى أن روبسبير في « دانتون » لايختلف عن روبسبير التقليدي ، الذي شوهت الأجيال المتعددة من العلماء البورجوازيين صورته ، بحيث لم يعد بالامكان التعرف عليه ، والثاني يرى العكس تماما .

ان دانتون بالنسبة لرولان ابن فرنسا العظيم ، الذي ساهم في انتصار الجمهورية . ولكن رولان يرفض الطابع البورجوازي لبرنامج دانتون ، كما يرفض سياسة الحلول الوسط ، وكل ما يقوم عليه تقديس دانتون في الأوساط الفرنسية الرسمية . ولهذا يسمو بروبسبير على دانتون ولكن عظمة روبسبير - رولان لاتمت بصلة الى تقديسه ،

فكلاهما في نظر الفنان ابناء الثورة . واذا كان دانتون ابنها العظيم فان روبسبير ابنها الأكثر عظمة ، واذا كان دانتون أحد ضحاياها المأساويين فإن روبسبير الأكثر مأساوية . وللكشف عن عظمة روبسبير المأساوية كان رولان يخطط لكتابة دراما أخرى بعنوان « روبسبير » ، ولكنه لم يتمكن من ذلك الا بعد أربعين عاما .

الرابع عشر من تموز

انها المسرحية الأخيرة من المسرحيات الأربع ، التي كتبها رولان في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الجاري في اطار ما يعرف باسم « مسرح الثورة » ، الذي ولد في ذهن الكاتب في عام ١٩٠٠ .

وتأتي أهمية هذه المسرحية في أنها جاءت مكرسة لموضوع الشعب ودوره في الثورة . فقد كتب رولان عشية عرض هذه المسرحية في مسرح « ريتيانس » يقول ، على لسان أحد معاصري الثورة الفرنسية : « لقد حاولت طويلا تجسيد الثورة في بطل واحد ، وقد بحثت عن هذا البطل في لافاييت وميرابو ورولان وفيرنير وروبسبير . . . ولكن بطل هذه الملحمة ليس مرئيا : انه الجنس البشري ، الذي يكتب ملامح بعض الناس ، كي يتجلى لأعين الناس ، فالجندي البسيط ، الذي يستشهد ، وهو يردد : « عاشت الجمهورية ! » ، والبحار ، الذي لايزال يطلق هزيم الرعد من البطارية الأخيرة في سفينته الغارقة ، والعامل الشريف ، الذي يريق عرقه ليلا ونهارا كي يسقي الحديد لتحرير البلاد - لايقلون عبقرية في نظري عن روبسبير نفسه » .

ان الشعب الفرنسي بالذات ، وفقراء باريس الذين لااسم لهم ، الذين اقتحموا الباستيل ، كي يقيموا على أطلال العالم القديم عالما جديدا سداه المساواة ولحمته العدالة ، يجسدون في « الرابع عشر من تموز » عبقرية الثورة وعظمتها .

والواقع أن اختيار رولان لم يقع على الشعب كبطل للمسرحية ، مصادفة ، فقد كانت هذه المسألة غاية في الالحاح في تلك الفترة ، حيث كانت البلاد على شفا هاوية الحرب الأهلية وهكذا فان عودة رولان الى بطون التاريخ تهدف هنا أيضا الى اكتشاف الدروس والعبر من أجل بناء الحاضر والمستقبل .

ان رولان في مسرحيته يتطلع نحو مديد العون للشعب في وعي نفسه وادراك رسالته . ومن أجل هذا الهدف ينضوي رولان تحت راية « حركة من أجل المسرح الشعبي » ويصبح من أكثر أعضائها نشاطا ، وقد تجلى ذلك - فيما تجلى - في عطاءاته الفنية الشعبية ، التي تمثلت في ابداع « مسرح للشورة » - « الياذة الشعب الفرنسي » الخالدة .

كانت مسرحية « حصار مانتوى » ١٨٩٤ أول مسرحية رولانية يعطى فيها الشعب بعض الدور ، ويظهر فيها هذا الشعب (حرفيو القرون الوسطى وبورجوازيو المدينة) متحليا بالمواطنة الفعلية والدفاع عن الأرض الأم . وفي مسرحية « لودفيج المقدس » /١٨٩٥م/ نكتشف أدلة جديدة ، أكثر وضوحا وسطوعا على اهتمام رولان

فيه رقّي

أرسل عثمان بن عفان مع عبد له كيسا من النقود الى أبي ذر الغفاري . . وقال له : ان قبل هذا فأنت حر ، فأتى الغلام بالكيس الى ابي ذر وألحّ عليه فلم يقبله . فقال : اقبله ففيه عتقي ، فقال أبو ذر : ولكن فيه رقّي .

بالشعب ودوره في التاريخ . ونفس هذه السمات تتجلى في مسرحية « ايرت » / ١٨٩٦ / ، فبطلها الرئيس أمير صغير ، يبحث جاهدا عن التقرب من الشعب ، وهو على قناعة راسخة بحتمية انقاذ الوطن من براثن المغتصبين ، اذا اعتمد في ذلك على تأييد الشعب ودعمه له .

ولكن مشكلة الشعب لم تكتسب أبعادها الكاملة الا في « الرابع عشر من تموز » ، حيث أصبحت موضوعها المركزي ، وأصبح الشعب بطلها الفعلي ، وأصبحت حياته سداها المسرحية ولحمتها .

ان رولان على قناعة تامة بأن الفضل في انتصار الشعب الفرنسي المجيد في الرابع عشر من تموز يعود ـ قبل كل شيء ـ الى التلاحم والتعاضد في صفوف هذا الشعب ، يلهمه الاندفاع نحو الحرية ، ويحدوه التطلع الى العدالة . وهكذا فان فكرة الانسجام ، فكرة التكاتف والتآلف ، هي الفكرة الأساسية في مسرحية « الرابع عشر من تموز » . فقد كان رولان يرى أن انعدام الانسجام وتفشي التشتت وانقسام الأمة الى طبقات متناحرة فيما بينها يعتبر كارثة وطنية ومصدرا للمصائب والمحن .

واذا كان رولان قد حاول في « وتغلب العقل » و « دانتون » الكشف عن أخطاء زعماء الثورة بحق الثورة والشعب فهو يحاول في « الرابع عشر من تموز » فهم هذا الشعب والقوانين الكاملة في حياته الداخلية والمحرك الأساسي لسلوكه والالمام بجوهر طبيعته .

ان هذه المسرحية المكرسة للثورة المنتصرة تجسد آمال الفنان وأمانيه في اندلاع الثورة القادمة ، والى ذلك يشير رولان مباشرة في مقدمة مسرحيته فيقول : اني ، اذ كتبت هذه المسرحية عن ثورة ١٧٨٩ المظفرة ، أضع نصب عيني هدفا محددا وواضحا : « اكمال القضية التي قطعت في عام ١٧٩٤ ، واستئنافها وتنفيذها على أيدي الشعب الأكثر نضجا والاعمق تفهما لرسالته » .

يقول رولان في مذكراته : « ان ملحمتي البطولية عن الثورة ليست مخصصة للوضع على رفوف المكتبات ... بل يجب أن تصدح على مسامع الشعب الفرنسي ، ومن أجل ذلك كان لابد من المسرح الشعبي « وكان لابد من مسرحية « الرابع عشر من تموز » .

ولكن مسيرة هذا المسرح تعثرت ، وهي لاتزال في سنواتها الأولى « لقد منينا بالفشل ـ كما اعترف رولان ـ لأن عناية الحكومة الزائدة بمسرح الشعب قد حولته الى مؤسسة رسمية ـ سلبية لاضرر منها . وانطفأت جذوة المسارح الشعبية المسكينة في باريس بسبب قلة الوفود ... هل تريد ابداع فن شعبي ؟ فابدأ اذن بخلق الشعب ، الشعب المتحرر ، بما فيه الكفاية من المشاغل ، كي يتمكن من تذوق الفن ، الشعب ، الذي لاتثقله الحاجة ، ولايرزأ تحت عبء الأعمال القاسية ، الشعب ، الذي لاتخدره الخزعبلات والخرافات ولايسيطر عليه التعصب من اليمين واليسار ، الشعب الذي يملك تقرير مصيره بنفسه ، الشعب المظفر في الصراع الدائر حاليا .» ■■

موسكو ـ هاشم حمادي

سخرية

بينما كان طاليس الفلكي خارجا من مرصده ، اذ مر بحفرة عميقة ، فوقع فيها ، فرأته عجوز فأخرجته منها وهي تقول : اتزعم يا طاليس انك تعلم جميع ما في السماء مع انك لم تعلم ما تحت رجليك ؟

نزهة العقل الذكي بجهود الرابح

مسابقة العدد

● مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) . . والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا . . ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العددبقطعها منه أما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري أن يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الأولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥دنانير .

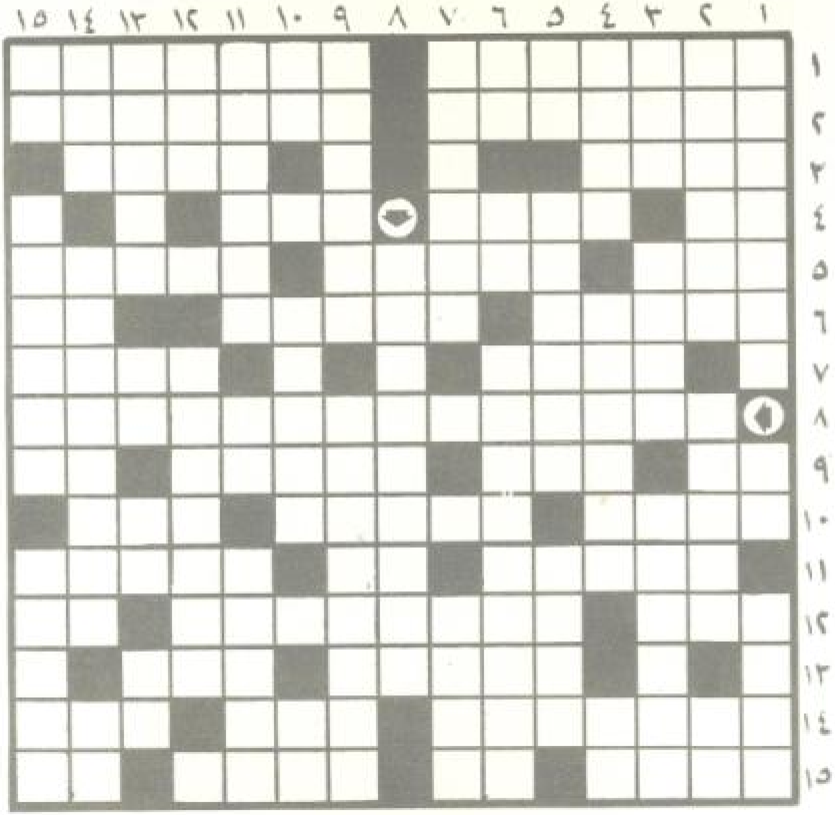
ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٨٧ »وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول ديسمبر (١٩٨٢) .

اثنان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم عالم نحوي ولغوي عربي . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم كاتب ووزير عربي .

كلمات افقية

(١) أول رئيس جمهورية تركي ـ جهاز لقياس الضغط .
(٢) مصور شهير من عصر النهضة الايطالي ـ قرصان انجليزي شهير .
(٣) ذيوع صيت ـ ناعم وجميل .
(٤) مقام موسيقي ـ بحيرة افريقية ـ حرف أبجدي .
(٥) يكتمل ـ عملات أوروبية ـ دولة آسيوية .
(٦) عملة عربية ـ يسبق الى الأداء ـ حرفان متشابهان
(٧) من وسائل الانتقال ـ من مستلزمات العالم الفلكي .
(٨) عالم نحوي ولغوي عربي .
(٩) أداة تعريف ـ للاستفهام ـ حيوان شهير في تجارب غزو الفضاء ـ نصف كلمة (خندق)
(١٠) من الالوان ـ يساند ـ تخمين
(١١) حادة ـ حرف استفهام ـ أنافس

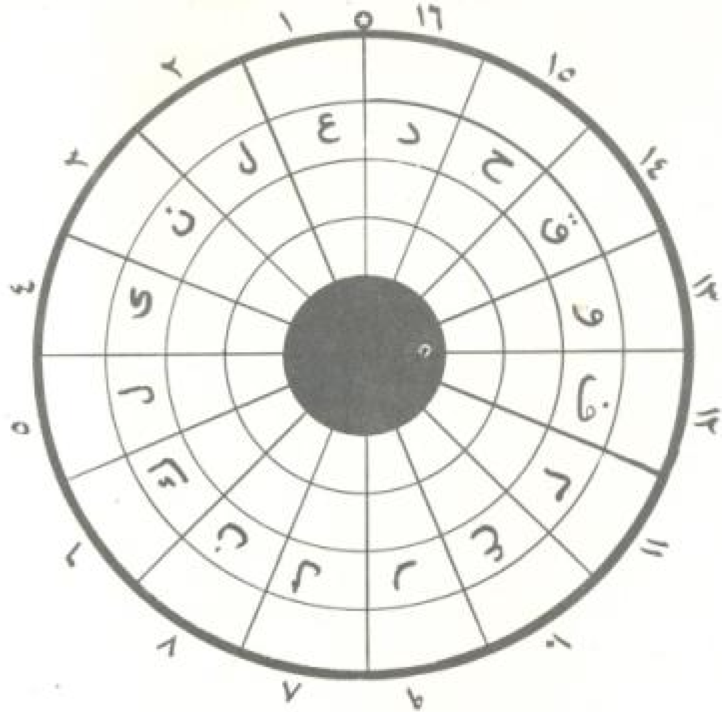


(١٢) أغراض - عالم عربي قديم - نصف كلمة (فروع)
(١٣) أبصرت - صيد .
(١٤) دولة أوروبية - يفي - سكان الصحراء .
(١٥) ناسك - هجم - نطلي - حيوان قطبي .

كلمات رأسية :

(١) عالم يوناني قدير عاش قبل الميلاد - حرفان متشابهان - من مصادر مياه الشرب .
(٢) جزيرة معروفة في المحيط الهادي الجنوبي - صيغة جمع لحيوان مستأنس - للنداء .
(٣) أهرب - باحث - موثوقة .
(٤) ضلت - أحواله - من الأقارب .
(٥) لفظ تعجب - عالم عربي قديم - غير ناجح .
(٦) مقام موسيقي - نصف كلمة (أجني) - مكتشف أشعة اكس .
(٧) صحراء افريقية - يضاف الى الطعام .
(٨) كاتب ووزير عربي .
(٩) عاصمة كولومبيا - شاعر فرنسي شهير من القرن التاسع عشر .
(١٠) أداة تعريف - خبرة - مناص .
(١١) فنان تشكيلي فرنسي من المدرسة التأثيرية - نصف كلمة (نكره) - عاصمة آسيوية .
(١٢) لمع - مرافقين .
(١٣) مؤامرة - نصف كلمة (رائد) - نصف كلمة (دان) - عاشق .
(١٤) تجدها في كلمة (تيار) - رحالة فارسي شهير - حرفان متشابهان
(١٥) أجاب - وحدات قياس مساحات - من الأنبياء .

كوبون مسابقة العدد ٢٨٧



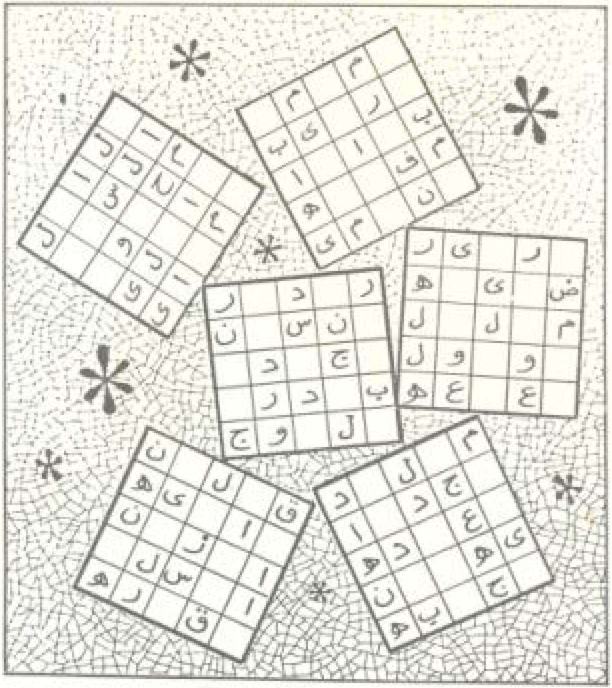
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الحروف الأربعة ، والتى نعطيك معانيها ، فى أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثانى من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم كيميائى سويدي من القرن التاسع عشر

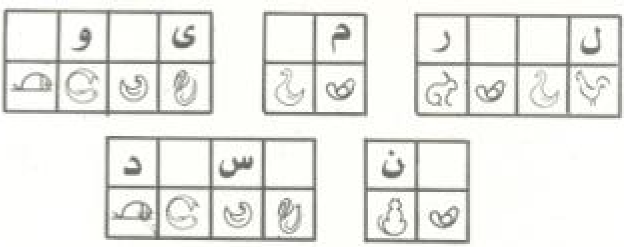
(١) من الملاشية (٢) العب (٣) موت (٤) سور (٥) ألود (٦) ريب (٧) يسلم (٨) حيوانات (٩) دان(١٠) يقصد (١١) حيوان (١٢) يكسب (١٣) شهر هجري (١٤) يمد (١٥) يطيب (١٦) يطأ .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية سميكة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل المطلوب اذا عرفت أنه يضرب :

لتأكيد أن الرجل لايرأس قومه ، الا بالاستحقاق

الحلول ا

حول الدائرة السوداء :

العواصم :

مثل عربي :

رولكس "آرنولد پالمر"
دائمًا تدور ستين



في نادي غولف
"بيركدال" الملكي لوحة
تحيي ذكرى أشهر ضربات
اللاعب "آرنولد پالمر".
حدث ذلك أثناء المباراة
التي أقيمت عام ١٩٦١
في بريطانيا للاعبين المؤهلين فنيًا
لدخول المباراة،
عندما انتهت رمية "پالمر"
الخامسة عشرة - وكان
"داي ريش" الويلزي يستحثه
ويحفزه - بأن استقرت الكرة
تحت شجيرة خفيضة.
وما أن أمسك "پالمر"
بالمضرب "رقم ٥"،
حتى أدرك
جمهور النظارة أنه يحاول
قذف الكرة
الى المرج الأخضر
على بعد ١٥٠ ياردة.
وفيما بعد، قال "پالمر"
أنه لم يسبق له
أن ضرب الكرة بهذه القوة،
حيث انه قطع الشجيرة بضربته
وفصلها عن الأرض وانطلقت
الكرة بعيدًا نحو الهدف.
ضربات جريئة كهذه هي التي أكسبت
"آرنولد پالمر" المقام الرفيع
وجميع ألقاب البطولة في هذه اللعبة.
والساعة التي يتقلدها شبيهة به من حيث
القوة والدقة والشهرة.

إنها "رولكس داي-ديت"
التي اكتسبت هي أيضًا
أرفع مقام مستطاع ونالت
لقب "الكرونومتر السويسري"
الذي يصبو اليه كثيرون.
الواقع، وعلى الرغم
من أن إنتاجها
لا يشكل سوى جزء ضئيل
من الإنتاج الإجمالي
للساعات السويسرية، فقد
حصلت رولكس
على ما يقرب من
نصف الشهادات التي منحت
في أي وقت مضى
لصانعي الساعات الكرونومتر.
عندما يقذف "پالمر"
الكرة بمضربه تنطلق
بسرعة ١٥٠ ميلاً في الساعة.
ويساوي وزن
قوة الصدمة الدافعة القصوى
ما يزيد على الطن.
ومع ذلك، يستطيع
"پالمر"، بضربة فنية دقيقة،
أن يدخل الكرة في الحفرة
ويحرز معها
قصب السبق.

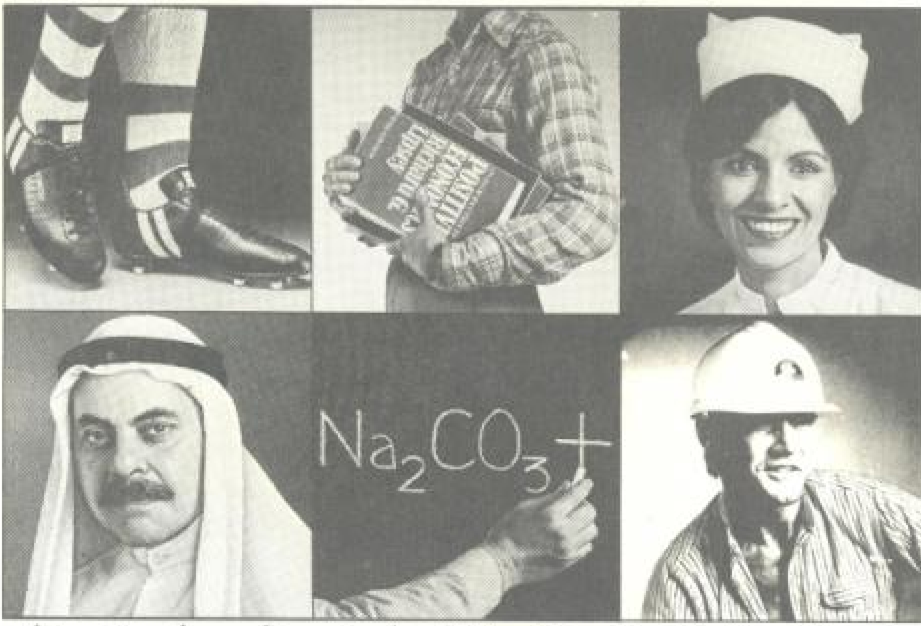
هذا الجمع بين القوة الخارقة والدقة البالغة
هو الذي جعل من "آرنولد پالمر" أشهر لاعب
عرفه مضمار الغولف.
إحساس كهذا
ليس غريبًا عنا.

ROLEX
رولكس



ساعة رولكس «داي-ديت» كرونومتر مصنوعة من ذهب عيار ١٨ قيراطًا، مع سوار متلائم

ما هو الشيء المشترك بين هؤلاء الأشخاص؟



بنك الكويت الوطني طبعاً.

لكل منهم إحتياجات مالية ومصرفية مختلفة، لهذا فهم يتعاملون مع بنك الكويت الوطني.

الجميع، من أطباء ومدراء شركات ورجال أعمال وحتى الأطفال، كلهم يجدون لدى بنك الكويت الوطني خدمات شاملة تناسب كافة المتطلبات والأعمار.

حسابات إدخار، حسابات جارية، حسابات أمانات، قروض شخصية، حسابات إيداع، شيكات سياحية وشهادات إدخار، جميع فروع بنك الكويت الوطني تقدم شيئاً مشتركاً، الخدمة التي تحتاجها.

لكافة احتياجاتكم المالية، اتصلوا بأي فرع من فروعنا الأربعين المنتشرة في كافة أنحاء الكويت.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك.

شارع عبدالله السالم - ص.ب ٩٥ صفاة، كويت - تلفون: ٤٢٢٠١١ (٢٠ خطاً) - برقياً: ناشيونال - تلكس: ٢٢٤٥١

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الأصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية .

تصدر عن جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١

رئيس التحرير د. عبدالله العتيبي

مدير التحرير عبدالعزيز السيد

- تتناول المجلة الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية عما يخدم القاريء والمثقف والمتخصص .
- تعالج موضوعات المجلة الميادين التالية :
اللغويات النظرية والتطبيقية – الآداب والآداب المقارنة – الدراسات الفلسفية الدراسات النفسية – الدراسات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانية – الدراسات التاريخية – الدراسات الجغرافية – الدراسات التربوية – الدراسات حول الفنون (الموسيقى – التراث الشعبي – الفنون التشكيلية – النحت ... الخ) – الدراسات الاثارية (الاركيولوجية) .
- تقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر :
البحوث والدراسات – مراجعات الكتب – التقارير العلمية – المناقشات الفكرية .
- مواعيد صدور المجلة : كانون ثاني – نيسان – تموز – تشرين أول .
- تنشر المجلة ملخصات للبحوث العربية بالانجليزية ، وملخصات بالعربية للبحوث الانجليزية .

ثمن العدد : للأفراد ٤٠٠ فلس

للطلاب ٢٠٠ فلس

الاشتراكات السنوية

	داخل الكويت	في الخارج
– للمؤسسات	١٠ د.ك.	٤٠ دولاراً أمريكيا
– للأفراد	٢ د.ك.	١٥ دولار أمريكيا
– للاساتذة والطلاب	١ د.ك.	١٠ دولارات أمريكية

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عدة سنوات .
- قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .
- جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير :–

ص.ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة)

الكويت – الشويخ – ت : ٨٢١٦٣٩ – ٨١٧٦٨٩ – ٨١٥٤٥٣

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

اكتوبر
١٩٨٢م

الوجودية

تأليف : جون ماكوري

ترجمة : الدكتور امام عبد الفتاح امام

مراجعة : الدكتور فؤاد زكريا

الكتاب الثامن والخمسون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مِنَ المَسْرَح العَالَمِيّ
سِلْسِلَةٌ ثقافيّة
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام فى الكويت

أول اكتوبر ١٩٨٢

١٥٧

حملة الدكتوراة

تأليف : موريل سبارك
ترجمة وتقديم : د. احمد النادى
مراجعة : د. طه محمود طه

مقياس الأناقة

الجمال يعني الثقة في مفهوم محدد للصور المرئية.
الأمر الذي لا يتحقق بين ليلة وضحاها لأن الجمال
والأناقة هما تعبير عن حاجة يتطلبها الرقي الفكري،
المتطور عبر الأجيال ، ووليد الشجاعة والذكاء
والشعور المرهف . لذا كانت رادو دائما فئة
متميزة في حد ذاتها ـ ساعة متفوقة تتحدى
التقليد على الإطلاق لأنها جاءت نتيجة للتقدم
التكنولوجي الرائد في مجال التصميم وقياس الزمن.

RADO رادو

مقياس الأناقة . مقياس المتانة . مقياس الزمن



مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي)

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - **كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) ١٩٧٩ .**
٢ - **كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الإله أبو عياش) ١٩٧٩ .**
٣ - **كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) ١٩٧٩ .**
٤ - **كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .**
٥ - **دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .**

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ ، ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

توشيبا تقوم بالعجائب في منازلكم.

السرعة، الرّاحة، جودة النوعيّة، والاعتمادية الفائقة، هي بعض الأسباب التي تجعل من أجهزة توشيبا المطبخيّة رمزاً للسّعادة في منازلكم. كل جهاز من أجهزة توشيبا مصمّم بأسلوب يتيح تشغيله بسهولة تامّة، كما أنّه مزوّد بمحرّك وضاغطة ذوات قدرة فعّالة واعتمادية فائقة.

وأجهزة توشيبا المطبخيّة سرعان ما تصبح أفضل صديق لجميع أفراد العائلة بتشكيلتها الواسعة ابتداءً بالثلاّجات وأجهزة تحضير الطعام، وانتهاءً بالعصّارات وأجهزة التحميص والأفران. فلماذا لا تشترون أجهزة توشيبا المنزلية اليوم، فهي ستجعل من حياتكم أكثر سهولة ومتعة غداً.

ثلاجة GR-1002EW(G)

ثلاجة GR-471EIA



MT-800A
مطحنة كهربائية لفرم اللحوم.

جهاز تحضير القهوة
HCD-800M

ER-798ET
فرن يعمل بالميكروويف

TFP-1200
جهاز تحضير الطعام

MX-460G
خلاّط

JC-580A
عصّارة وخلاّط

TOSHIBA | توشيبا

TOKYO, JAPAN

إنـه نقـال، مسلٍّ، في البيت والترحال



C5

أجزاء متكاملة للتنقل



نظام سانيو C5 الميني الجديد لأجهزة الستيريو النقالة المتكاملة

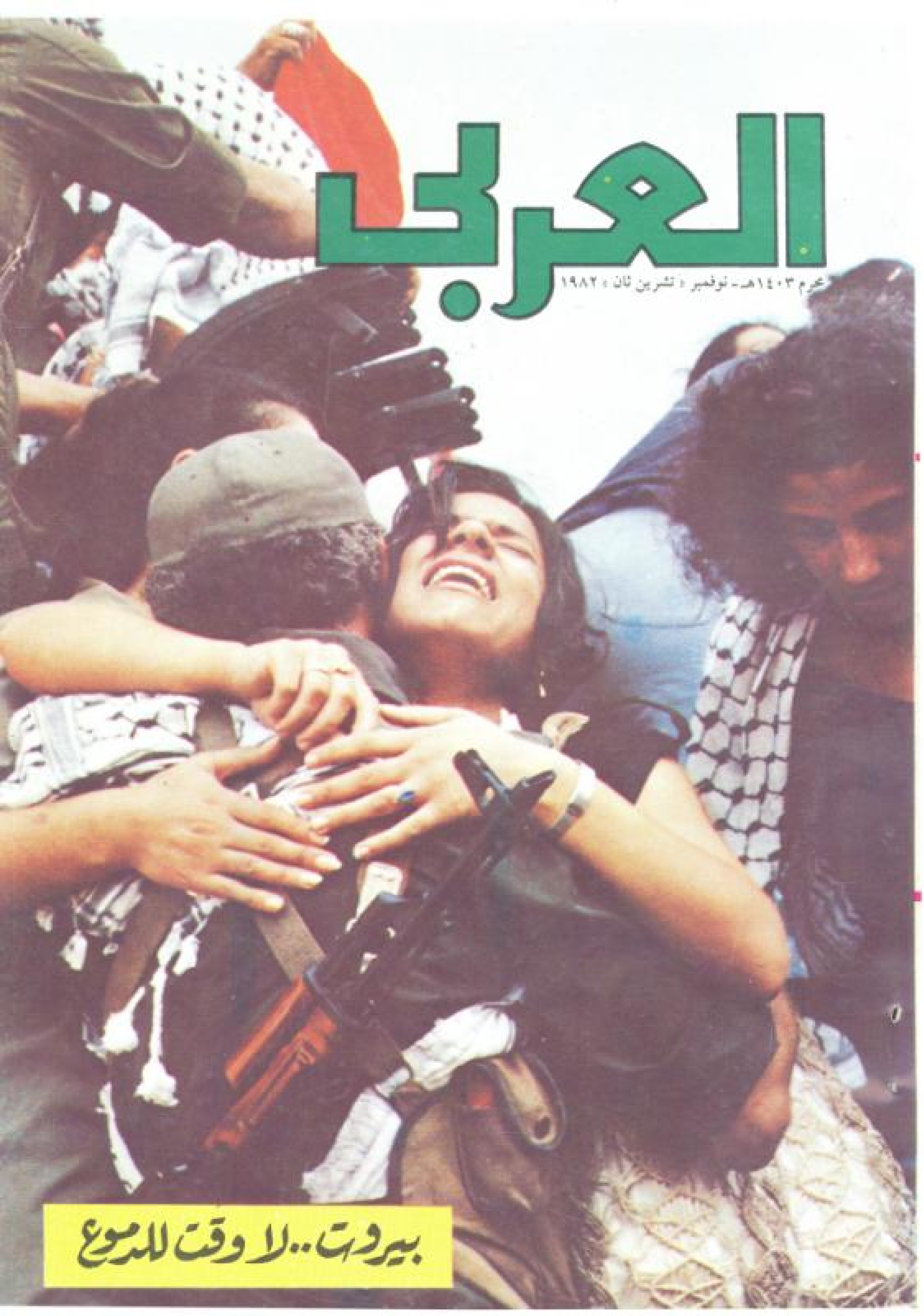
طاقة صوتية هائلة تبلغ ١٢ واط للقناة.
ستيريو FM/MW/SW₁/SW₂ ـ خمس موجات متوازنة
ستيريو كاسيت ذو AMSS لانتقاء الموسيقى آلياً
ودولبي* NR. قارئ للأشرطة المعدنية. نظام لمكبري
الصوت ثنائي الإتجاه. يعمل على البطارية أو التيار
الكهربائي أو بطارية السيارة (إختياري).
ملائم لتجميعه كوحدة متكاملة للإنتقال به حيثما تشاء.

* دولبي هي العلامة التجارية لمعامل دولبي

SANYO سانيو

العربي

محرم ١٤٠٣هـ - نوفمبر «تشرين ثان» ١٩٨٢



بيروت.. لا وقت للدموع

خبرة الماضي



١٩٥٢
أول بنك كويتي تأسس في الكويت هو بنك الكويت الوطني وكان موقعه في شارع عبد الله السالم مقابل المكتب الرئيسي الحالي.

١٩٨١
أحدث غرفة لتداول العملات (Treasury Dealing Room) في الشرق الأوسط متصلة بالأقمار الصناعية وهي موجودة في المكتب الرئيسي.



وأحدث الخدمات العصرية

بنك الكويت الوطني كان ولا يزال الرائد في مجال التطور على مدى ٢٩ عاماً. هذا التطور الذي وضع التكنولوجيا الحديثة في خدمة الزبائن الكرام، والذي أدى الى توسيع البنك فأصبح يملك ٤٠ فرعاً متصلة جميعها بالكمبيوتر المركزي وذلك لتأمين خدمات فورية للعملاء الكرام.

ان هذا التطور أدخل مقياساً جديداً على الخدمات المصرفية في الكويت دون ان يمس بتقاليد اللباقة وروح الخدمة التي كانت موجودة يوم أنشئنا أول فرع لنا عام ١٩٥٢.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك

المركز الرئيسي، شارع عبد الله السالم، ص.ب ٩٥ الصفاة، الكويت

عزيزي القارئ

اذا كان تدمير بيروت هو شهادة انتصار لجيوش الظلام التي تدق الابواب بعنف في العالم العربي ، فان مذبحة صبرا وشاتيلا هي شهادة ابلغ واكثر صراحة وفظاعة في التعبير عن ذروة هذا « الانتصار » الاسود !

واذا كان البعض يرى ان اقنعه عديدة سقطت في المنطقة خلال تلك التجربة المروعة والمرة فان اهم هذه الاقنعة التي سقطت هو القناع الاسرائيلي ذاته . مما كشف امام الجميع في الشرق والغرب حقيقة الوجه الاسرائيلي القبيح . واذا كانت الاجهزة الاسرائيلية قد حاولت بخبث شديد ان تلقي الكرة في مرمى شخصين او ثلاثة في القيادة الاسرائيلية هم رئيس الوزراء ووزير الحرب ورئيس الاركان الا ان الذي بات يدركه الجميع انها ليست مسألة اشخاص مهما كان تطرفهم او مبلغ حماقتهم وان هذه هي اسرائيل الحقيقية التي ظلت طوال ٣٤ عاما تحاول ان تستر قسمات وجهها الطبيعية باصباغ واستار ديمقراطية وحضارية واشتراكية .

وفي حين تحل ذكرى وعد بلفور بعد ايام قليلة تشاء الاقدار ان تحدث المجزرة بعد تدمير بيروت لترفع الستار عن الحقيقة الكاملة للكيان الاسرائيلي بكل ما فيها من فظاعة ووحشية وهمجية فلم يعد محل جدل او مناقشة ان ثمة حقدا اسود وكراهية للعرب حتى النخاع اصيلة في التركيبة الاسرائيلية من الاساس ، ارضعت للاجيال الجديدة حتى تمكنت من كل النفوس وظهرت تماما في تلك المجازر ، التي ستظل عارا على جبين العصر .

ورب ضارة نافعة . .

ذلك ان انكشاف الحقيقة الاسرائيلية بايدي الاسرائيليين انفسهم يظل نقطة لصالح الحق العربي المهدور ، اذا احسن استثمارها . فضلا عن ان هذا الانكشاف يسقط والى الابد اوهام السلام مع اسرائيل التي راودت البعض وهو اسقاط تكفلت به اسرائيل ايضا . .

المحـــرر

صورة الغلاف



● كانت « العربي » في مسرح الجريمة ، ثم مع مواكب النصر .. في بيروت كان الوداع ولكن إلى لقاء .. وفي دمشق خرج عشرات الألوف لاستقبال الابطال العائدين .. ابطال المقاومة الفلسطينية الذين عجزت اسرائيل عن اعجازهم .. تركوا الميدان ليجنبوا لبنان المزيد من المذابح ، ولم يدروا أن رحيلهم كان بداية لأبشع مذبحة تعرض لها الشعب الفلسطيني (اقرأ ص ١٠٠) .

محتويات العدد

— قضايا حيوية —

— تاريخ واشخاص —

— تربية وعلم نفس واجتماع —

— استطلاعات مصورة —

— ابواب ثابتة —

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : الدكتور محمد الرميحي

مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم

ثمن العدد . بالكويت ٢٠٠ فلس . السعودية ٤ ريالات . العراق ٢٠٠ فلس . الأردن ٢٠٠ فلس . سوريا ٢٠٠ قرش . لبنان ٢٠٠ قرش . مصر ١٥٠ مليما . السودان ١٥٠ مليما . المغرب ٣ دراهم . تونس ٣٥٠ مليما . الجزائر ٣ دنانير . البحرين ٣٠٠ فلس . قطر ٤ ريالات . الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم . اليمن الشمالي ٣ ريالات . اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسا . ليبيا ٢٥٠ درهما .

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١ ٤٦٨٢٤٢

تلغرافيا « العربي »

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى :

قسم الاشتراكات

المكتب الفني ـ وزارة الاعلام

ص . ب (١٩٣) ـ دولة الكويت

على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام . طبقا لما يلي :

فلس دينار

ـ الكويت والبلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)

ـ بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

العربي ـ العدد ٢٨٨ ـ نوفمبر ١٩٨٢

AL—ARABI, No. 288 — November, 1982
P . O . Box, 748 — KUWAIT

حديث الشهر

بقلم
الدكتور محمد الرميحي

الثقافة

من أصعب المفاهيم المستعصية على الشرح البسيط في العلوم الاجتماعية اليوم مفهوم « الثقافة » ، فهذا المفهوم واسع ومتعدد الجوانب ، ويحار الكثيرون في تحديد معناه بدقه في أذهانهم عند الحديث عن « الثقافة » .

قد يتبادر إلى الذهن أن الثقافة هي المعلومات العامه ، أو فهم وتذوق الفنون بأشكالها المتعددة ، أو هي معرفة فرع أو أكثر من فروع المجالات الأدبية أو الاجتماعية .

قد تعني الثقافة عند بعضهم وجود أو نشر الكتب والمجلات ، وقد تعني عند آخرين إقامة مباني المسارح وصالات السينما وقد تعني عند فريق ثالث وجود المعارض الفنية وعند فريق رابع قرض الشعر وحفظه .

كل هذه المعاني صحيحة وهي خاطئة في الوقت نفسه ، إذا كنا نعني بها الثقافة فماهي الثقافة ؟

لقد تعددت المفاهيم واتسعت لمعنى الثقافة ، حتى أصبحت تعني مرادفا آخر هو المجتمع بكل مافيه وما يعنيه .

هناك اليوم ما يزيد على المائة والخمسين تعريفا للثقافة ، بعضها جامع شامل ، وبعضها محدود .

ولكن لنبدأ أولا بتحديد الاطار العام لمعنى الثقافة .

العربيـة

في هذا المجال هناك إطاران ، أو ما اتفق على تسميته بالاطار العام أو المعنى الواسع للثقافة ، وهو كل ما ينتجه مجتمع ما من إنتاج مادي ومعنوي ، أي كل منتجات الانسان في حياته اليوميه العملية والترفيهيه هو الثقافة لذلك المجتمع ، أو لتلك المجموعة الانسانية . والمعنى الآخر هو المعنى الضيق للثقافة و يعني ما ينتجه الانسان في مجتمعه من نتاج فكري وأدبي وهذا المعنى الشائع للثقافة .

ولكن في إطار المعنى الأخير يمكن أن يتحول منتج فكري ما إلى واقع مادي . كأن يتكون لدى فرد أو بعض أفراد مجموعة من الأفكار السياسية أو القانونية أو العلمية وتتحول هذه الأفكار في وقت لاحق إلى شيء مادي .

فهناك إذا حتى في المفهوم الضيق للثقافة إمكانية التبادل بين المفهوم الواسع والمفهوم الضيق أو العلاقة الجدلية بين المفهومين .

الثقافة العربية

من جهة أخرى يعاني مفهوم « الثقافة العربية » لدى الكثيرين من خلط بين الفكر ـ من حيث هو نشاط عقلي مميز ، وبين « الأدب » من حيث هو نشاط فكري ذو طابع رمزي ، ومن الصعب أن يكون هناك تفريق دقيق بين المفهومين . إلا أن الفكر يغلب عليه تناول قضايا المجتمع بشكل مباشر ، أما الأدب فيغلب عليه ثقافة الرمز كما في القصة القصيرة أو

الشعر أو الرواية . والفكر يمثل في المجتمع العربي بشكل عام مكانا ثانويا في الثقافة بعد الأدب أو النقد .

لقد حاول رواد الثقافة المعاصرة في الوطن العربي أن يحددوا إطارا شاملا للثقافة ، فظهر هناك اتجاهان لا يخلوان من الفروع الجانبية .

الاتجاه الأول هو نقل الثقافة الأوربية الحديثه الغربية بشكل عام ، ومحاولة تبنيها بكل أبعادها ، فظهر دعاة لتلك الثقافة حتى في تعدد اجتهاداتها ومدارسها الغربية . والاتجاه الثاني هو محاولة المواءمة القسرية بين التراث العربي وبين معطيات الثقافة الحديثة ، فجاء هذا التيار انتقائيا إلى أبعد الحدود .

إلا أن الحديث عن الأصالة أو التأصيل في الثقافة العربية مازال خاضعا لاجتهادات حتى يومنا هذا .

الاعلان العالمي للثقافة

لصعوبة تحديد مفهوم الثقافة وتعدده نجد أن إعلان مكسيكو بشأن الثقافة (يوليو/ اغسطس/ ١٩٨٢) يحاول تحديد مفهوم الثقافة في إطار واسع بعد أن أخذت مناقشات هذا المفهوم كثيرا مما لدي المؤسسة الدولية للثقافة (اليونسكو) من جهد ووقت

كيف حدد مفهوم الثقافة في إعلان مكسيكو الاخير ؟ :

يقول التعريف :

(إن الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه ، أو فئة اجتماعية بعينها ، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة ، كما تشمل الحقوق الأساسية للانسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات) .

ويفسر الاعلان بعد ذلك الثقافة تفسيرا إجرائيا فيقول :

(إن الثقافة هي التي تمنح الانسان قدرته على التفكير في ذاته ، وهي التي تجعل منه كائناً يتميز بالانسانية المتمثلة في العقلانية ، والقدرة على النقد ، والالتزام الأخلاقي ، وعن طريقها - اي طريق الثقافة ، - نهتدي إلى القيم ، ونمارس الاختيار ، وهي وسيلة الانسان للتعبير عن نفسه ، والتعرف على ذاته كمشروع غير مكتمل ، وإعادة النظر في إنجازاته ،

والبحث دون توان عن مدلولات جديدة وإبداع وأعمال يتفوق فيها على نفسه) .

من إعلان مكسيكو نتبين أن الاهتمام بالثقافة بمعناها الواسع يعني الاهتمام بالعدالة العالمية والسلم العالمي وحقوق الشعوب والأفراد في الديمقراطية ، والتنمية ، بل لقد أفرد إعلان مكسيكو صفحات كثيرة للحديث عن الثقافة والتنمية ، الثقافة والديمقراطية والعلاقة الحميمة بين الثقافة وبين التربية وعلوم الاتصال .

النموذج الثقافي

من هنا يأتي تأكيدنا السابق أن الثقافة تعني المجتمع ـ تعني كل ما ينتجه المجتمع من إنتاج مادي ومعنوي ، كما تعني تأثير ذلك المجتمع أو تلك المجموعة الانسانية على غيرها في الانتاج المادي والمعنوي ، وتأثرها به .

فالثقافة السائدة في مجتمع ما تعني كما نرى في التعريف العالمي السمات الاساسية الروحية والمادية والفكرية التي يتميز بها مجتمع ما أو جماعة ما . هذه السمات الأساسية هي التي تميز ثقافة من ثقافة اخرى ، هي التي تعطي النتاج المادي والفكري خصوصيته وتفرده .

ولا شك أن كل جماعة في مجتمع لا يمكن أن تتطابق سماتها الأساسية الروحية والمادية والفكرية والعاطفية مع غيرها من الجماعات . لا شك أن هناك تنوعا وتفردا لدي جماعة يميزها من أخرى في المجتمع نفسه ، أو الدولة ، في حدودها السياسية ، ولكن المراد هنا السمات الاساسية الجوهرية المشتركة في مجتمع ما . وبالتحليل نفسه قد نجد سمات أساسية وجوهرية مشتركة لدي جماعة من الناس قد تفرق بينهم (حدود) سياسية . فالسمات الأساسية الجوهرية والمشتركة الروحيه والفكرية والمادية ليست بالضرورة تابعة أو مقيدة ومحصورة في إطار سياسي معين ، أو ما يسمى « بالدولة الحديثة » فقد نجد في هذه الدولة مجموعات ذات سمات ثقافية متعددة ، وقد يشترك بعض هذه المجموعات مع مجموعات أخرى ـ خارج الاطار السياسي ـ بسمات ثقافية مشتركة .

فمحاولات توحيد النموذج الثقافي لأسباب سياسية أو عقائدية هو قتل وتدمير للثقافة وليس بالضرورة تطويرها .

توجد هناك ثقافة وطنية وثقافة إقليمية (داخل الوطن الواحد) ويوجد هناك ثقافة غير وطنية (مشتركة خارج الاطار السياسي)

وكذلك توجد أيضا ثقافة ذات قنوات عالمية ، فعالم اليوم شديد التعقيد ، سريع الاتصال ، لا شك أنه تخطى الكثير من الجدران التي كانت إلى وقت قريب تحيط بالثقافات الوطنية .

من مجمل تعريفات الثقافة نجد أن هناك علاقة وطيدة بين (الثقافة) و (التربية) وعلوم الاتصال الجماهيري . والاخيرتان جزء لا يتجزأ من الثقافة بمعناها الواسع

التعليم العربي

ولقد خضعت مسيرة التعليم وتطوره إلى مناقشات عديدة من قبل المفكرين العرب منذ أن شهدنا في منطقتنا العربية ما يعرف اليوم بالتعليم الحديث .

فطه حسين يتحدث في الثلاثينات عن التعليم في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » فيقول لنا :

« التعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه ، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي (التاسع عشر) على النحو الاوربي الخالص ، ما في ذلك من شك ولا نزاع ، ونحن نكون أبناءنا في مدارسنا الأوليه والثانوية والعالية تكوينا أوربيا لا تشوبه شائبة » .

وجاء بعد طه حسين من المفكرين العرب من ينقد نظام التعليم العربي نقدا مرا كواحد من مكونات الثقافة العربية المعاصرة لقد صك الاستاذ محمد محمود شاكر مفهوما لمخرجات التعليم الحديث سماه « جيل المدارس المفرغ » أو جيل (دانلوب) نسبة إلى الخبير الانجليزي (دانلوب) الذي وضع للأمة (مصر) نظام التعليم المدمر والذي لا نزال نسير عليه كما يقول شاكر . ومن التجنى ان نضع كل مشكلات التعليم على « الاجانب » فقد ساهم فيها جيل آخر من العرب بعد ذلك بحسن أو بسوء نية .

ونظام التعليم هذا فرخ أنظمة تعليم مشابهة في كثير من الأقطار العربية إن لم تكن متطابقة مع نظام دانلوب فهي تشترك معه في كثير من الصفات .

جيل (دانلوب) إذا ليس في مصر وحدها ولكنه منتشر في الوطن العربي شرقه وغربه .

قد يكون هذا النقد المر مبالغا فيه بعض الشيء ، إلا أننا ما زلنا نرى كثيرا من المثقفين العرب من المشتغلين بالتعليم أو من خارجه ، لا يألون جهدا في نقد نظام التعليم العربي القائم .

فالدكتور على فخرو وزير التربية والتعليم في البحرين ـ وفي افتتاح ندوة رؤساء ومديري الجامعات العربية في الخليج يردد ذاك المعنى النقدي المر لأنظمة التعليم بقوله :

(لقد رأينا أفواج الجيل المسخ تلو الجيل المسخ يتخرجون من الجامعات الى الوزارات وينتشرون في الأرض العربية دون أن يكون لهم تأثير حاسم في صراع أمتهم مع الجهل والفقر والمرض والتخلف والتجزئة)

وإذا كان السابق مما نقلناه هو مثال لما يردده الناقدون على أعلى المستويات لانظمة التعليم العربية ، فهو المثال الغالب ، ولقد لخص أحد المفكرين العرب الاسلاميين مالك بن نبي معضله المواءمه في التعليم بين النقل والاستنبات بقوله « إن اليابان وقفت من الحضاره الغربية موقف التلميذ ووقفنا منها موقف الزبون ، استوردوا منها الأفكار بوجه خاص واستوردنا نحن منها الأشياء بوجه خاص »

والاتصال الجماهيري

لم تعد المدرسة هي الموزع الشرعي) الوحيد للمعرفه في عالم اليوم ، فأصبحت أجهزة الاتصال الجماهيري (المسموعة والمرئية والمقروءة) تنافس المدرسة في التثقيف .

وأحسب أن النقد الموجه اليوم من رجال ونساء الاعلام والاتصال العرب لأجهزة الاتصال ودورها السلبي في نمو ثقافة عربية إيجابية مكافئة لتحديات العصر ـ يساوي نقد التربويين لأجهزة التربيه العربية .

لقد ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على غربة العربي الثقافية أكثر مما قربته إلى وعي ذاته الجديدة .

وأصبحت برامج التلفزيون والموضوعات المنشورة في الصحف والمجلات وبقية المواد التي تستهلك عبر معظم أجهزة الاتصال مواد يصدرها لنا العالم الخارجي ولا نشارك في استنباتها من بيئتنا العربية . ولقد أصبح الاتصال الجماهيري في العالم يخضع لصناعة ضخمة يمكن أن تسمي (الصناعة الثقافية) تملكها شركات عبر وطنية ، وهي صناعة تسيطر عليها التكنولوجيا المتقدمة ولسنا نملك منها إلا القليل .

وبعد ،

إن كانت هناك معادلة صعبة تواجه الأمة العربية اليوم فهي معادلة الثقافة بشقيها : التعليم والتربية ووسائل الاتصال الجماهيري .

وما ردة الفعل البطيئة أو غير المكترثة للأهوال التي تلاقيها الأمة العربية اليوم في مشرق الوطن العربي ومغربه إلا جزء من الانهيار الثقافي الاكبر ، لقد فهم عدونا أهميه الثقافة فسلط القوات الاسرائيلية في بيروت على مركز ثقافي هو « مركز الدراسات الفلسطينية » فهل وصلت الرسالة ؟ . ■■

د. محمد الرميحي

خواطر



اسلاميات

للدكتور حسان حتحوت

يشهد الزمن الحاضر صحوة اسلامية لا تنكر ، واقبالا على الاسلام أو عودة اليه ، لواء السبق فيه معقود للجيل الحاضر من شبان وفتيات على الجيل الماضي من آباء وأمهات ، فليست اذن تلقين جيل لجيل ولكنها بعث حقيقي وأصيل في هذا الجيل . . والظاهر أن ضمير الأمة المتمثل في شبابها قد ضاق ذرعا بما جربته من أيديولوجيات سابقة ولاحقة تختلف فيما بينها اختلافا شاسعا ولكنها تتفق على استبعاد الاسلام سكان سفين ومنهاج حياة ، وكيف افضت التجارب كلها الى الهزيمة والافلاس والهوان ، فكان رد الفعل أن اتجهت الى الاسلام تلتمس فيه ذاتها وحياتها ونجاتها .

والذي نخشاه ونحاذره أن يقف هذا المد الاسلامي عند رد الفعل وانما نريده « فعلا هادفا مدروسا منظما . . لا نريد له أن يظل فورة عاطفة بل نريد أن يشق له مجرى عميقا بين منبع ومصب ، ليكون نهرا يتناوله التنظيم والتهذيب والانضباط ، إن اريد أن تقوم على ضفتيه الحياة والحضارة والبقاء .

ولا نشك أن الغالبية الكبرى من خامة هذا المد مخلصون ومخلصات ، ولكننا ننبه الى أن الاخلاص وحده لا يكفي وقد يضر ، فان معركة الاسلام في زمننا هذا معركة ذكاء بقدر ما هي معركة اخلاص على الاقل ، وياليت المخلصين في غير ذكاء يدركون أن واجبهم أن يتركوا مجال الدعوة لاخوانهم الذين أوتوا الذكاء والمهارة والمراس ، فرب داع أراد أن يبشر فنفر ، ورب محام تولى قضية حتى فخسرها بسوء مرافعته . . .

وفي زمننا هذا الذي ينادي فيه نحو نصف البشر بأنه لا إله . . ونحو نصفهم بأن هناك إلها ولكن يجب ان يظل في المعبد ، وينحى عن الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتشريعية ، ويجري الفريقان في عنان واحد من كراهة الاسلام والكيد له والتخطيط لاستئصاله (موقف الشيوعية والبهودية معروف وننصح كذلك بقراءة كتاب **the gospel islam** الصادر في امريكا عام ١٩٧٨ وفيه الخطة العلمية المدروسة لتنصير العالم الاسلامي) . . في مثل هذا المناخ العالمي يحز في النفس أن نرى دائرة الاهتمام عند كثير من الشباب الاسلامي المخلص لا تتسع لأبعد من الأمور المظهرية في الزي أو إطلاق اللحية أو تقصير الثوب أو مدى الحجاب أو صوت المرأة ، أو مشروعية دخولها الجامعات !!

بل انني وانا اعلم أمراض النساء والولادة في الجامعة التي أعمل بها يدهشني أحيانا أن بعض طالباتي ذوات الصبغة الاسلامية المتشددة يضقن عن سماع بعض الامور في صميم تلك المادة ، والأحكام الشرعية المتعلقة بها ، بدعوى ان هذه الأمور تمت للجنس ، علماً بأن هذه الامور ذاتها كانت تتناولها المرأة المسلمة في صدر الاسلام بالسؤال والاستفهام ولاحياء في الدين ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

يروي الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي أنه كان في صعيد مصر يلقي محاضرة فلما ختم قام من الشباب واحد يسأله عن حكم الشرع في الخل .. ولم يكن الخل ذا صلة بموضوع المحاضرة .. فضلا عن ان الحديث يقول « نعم الادام الخل » . ولكن وجه الطرافة والغرابة أنه بعدها بأيام كان يحاضر في احدى دول الخليج ، فاذا سائل بعد المحاضرة يجابهه بنفس السؤال عن حكم الشرع في الخل !! وهنا تقوم القرينة قوية بأن جهة واحدة تقوم باصطناع هذه الاسئلة والقضايا ووضعها على ألسنة هؤلاء « المخلصين » وفي أذهانهم ، ليدور النقاش وتمتص الطاقات ويضيع الجهد والوقت في هذه التفاهات ، بينما الحريق الكبير يزداد اشتعالا ويلتهم الأخضر واليابس وأهل بيزنطة غافلون .

ان أهم ركائز العمل الاسلامي في نظري خمس أضعها تحت أنظار من يتوي :

الأولى ان تحب فلا تكره .. فالذي يريد ان يهدي الناس لا يمكن أن يكرههم .. ورغم ان النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو كفارا يحاربونه فقد دعا ربه مرة « اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين .. » ومرة « اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون » .

والثانية ان تنشغل بما يجمع ، وتشيح عما يفرق .. وقد أحسن الاستاذ حسن البنا رحمة الله عليه التعبير اذ قال : « نتفق معا ما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا عليه .. فاختلاف الرأي أو المذهب لا ينبغي أن يصمد امام قضية مصير الاسلام .

والثالثة أن تقبل أن تبدأ بالناس من حيث هم ، وتأخذهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولين القول ، وطول الأناة والصبر والمصابرة والملاطفة الى حيث تريد .. دون زجر أو قهر .

والرابعة ألا تعوزك الدراية والوعي والدراسة على مدى واسع يضم سيكولوجية التعامل وكذلك الخريطة الايديولوجية العالمية أهدافا ووسائل .. فان كنت من أهل الاخلاص وحده فرحم الله خليفة رسول الله اذ قال وهو يرشح للقيادة أحد رجلين « هذا تقواه لنفسه وضعفه على المسلمين وذاك فجوره على نفسه وقوته للمسلمين » واختار الاقدر .

والخامسة ان الدعوة بالقدوة قبل الدعوة بالخطبة .. فالناس تقرأ دعوتك فيما تفعل لا فيما تقول .

فان كان ذلك فلعل ولاة الامور من الجانب المقابل يتعاملون مع الاسلام بأجهزة الأمان لا بأجهزة الأمن .. والذين صنعوا السلام مع غير المسلمين لن يعجزهم أن يصنعوه مع المسلمين .

لماذا اعتبر الاسلام العودة إلى البداوة من الكبائر ؟

بقلم الدكتور : محمد جابر الانصاري

من الظاهرات المتميزة ذات الخصوصية في منشأ الحركة الاسلامية موقف الاسلام من « البداوة » . وهو موقف على اهميته القصوى ودلالته البالغة ، لم يوف حقه من البحث والتحليل والاستنتاج ـ فيما نرى ـ رغم كثافة الابحاث العربية والاستشراقية في نشأة الحركة الاسلامية ، ودلالة هذه النشأة التاريخية والاجتماعية والحضارية .

وأبرز ما يلفت النظر في مغزى الموقف أن الاسلام حرم على العرب المسلمين من أهل الحضر العودة الى البادية للعيش بها بصفة دائمة مع الأعراب ، واعتبر ذلك كبيرة من الكبائر يعاقب مرتكبها كما يعامل المرتد عن الاسلام . فكأن العودة من التحضر إلى البداوة جرم في مستوى العودة عن الايمان الى الشرك والكفر . والشرك كما هو معروف كبيرة الكبائر في الاسلام يفوق في خطورته أي كبيرة اخرى . هذا مع العلم أن العائد للبداوة يعتبر مرتدا وان احتفظ باسلامه ، وهنا يكمن المغزي الاجتماعي المتميز والفريد لهذا الموقف الاسلامي يقول ابن منظور في لسان العرب : « في الحديث (النبوي) : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة : هو ان يعود الى البادية ويقيم مع الاعراب ، بعد ان كان مهاجرا . وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه من غير عذر ، يعدونه كالمرتد » .

وفي « صحيح البخاري » أن الحجاج لما بلغه أن سلمة ابن الأكوع قد خرج الى سكنى البادية ، قال له مستنكرا : « أرتددت على عقبيك ؟ تعربت ؟ » ، أي صرت في الأعراب ، فقال له : « لا ، ولكن رسول الله أذن لي في البدو » .

العقيدة والحضارة

ونلاحظ هنا في تعبير الحجاج أن التعرب ، أي عودة العربي الى حالة الأعراب ، بمثابة ارتداد الانسان على عقبيه ، وهو تعبير في اللغة العربية يدل على النكوص والتراجع وانقلاب المرء الى الخلف بعد أن كان يتقدم الى الأمام . كما نلاحظ ان سلمة بن الأكوع من ناحيته لم يذهب الى البادية الا باذن من الرسول نفسه ، مما يدل على خطورة المسألة في منظور الاسلام .

ويقول ابن خلدون في المقدمة : « كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب ، وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة » .

ونرى ان أي تفسير لاتجاه الحركة الاسلامية الاجتماعي والحضاري يغفل حقيقة هذا الموقف ، من شأنه أن يخفق في فهم جوهر الاسلام .

فنحن لو أخذنا الأمر من الناحية الفقهية النظرية البحتة لما استدعى أن نربط بين العودة إلى البادية والارتداد عن الاسلام فمن أقر بالشهادتين واعتنق الاسلام عد مسلما أينما كان ، وحيثما انتقل من البادية الى الحضر ، أو من المدينة الى القرية ، أو من الجبل الى السهل ، فأرض الله واسعة وهي مفتوحة للمسلم ، يضرب فيها ، وينتقل محتفظا باسلامه وعقيدته طالما لم يكفر أو يشرك أو يرتد . . . هذا من الناحية النظرية ، المبدئية العقيدية .

ولكن ها نحن نرى أن الاسلام يضع استثناء واحدا مهما لهذه القاعدة المبدئية الشمولية ، وهو - تحديدا - : عودة العربي المهاجر ، أي ساكن الحضر ، الى وضع البداوة مع الأعراب . فهذه كبيرة من الكبائر ، وصاحبها كالمرتد ، وإن احتفظ بدينه .

هذا التحول في الوضع الاجتماعي ، المعيشي ، التحضري يراه الاسلام جرما في مستوى الردة ، ويستنكر المسلمون حدوثه ، ويتساءلون عن سببه ، ويستعيذ المهاجرون بالله من تعرضهم له . وهو تحول كما ترى في مستوى الاجتماعي الحضاري ، وليس في الوضع العقائدي للانسان ، ومع هذا يراه الاسلام مسا خطيرا بالعقيدة . وهذا يقودنا الى الاستنتاج أن الاسلام يعتبر عقيدة مرتبطة جوهريا بوضع حضاري اجتماعي متقدم ، هو وضع التحضر ، بحيث لو انتفى هذا الوضع وتم التراجع عنه الى مستوى البداوة تعرضت العقيدة ذاتها للخطر ، واعتبر القائم بهذا الفعل مرتدا عن عقيدته ، مع ارتداده الى الصحراء عن تحضره ، وان لم يعلن خروجه عن الاسلام .

وذلك حكم طبقه الرسول على المهاجرين معه إلى المدينة ، من الذين حسن إسلامهم ، وقوي إيمانهم بالهجرة والصحبة ، حيث خشي عليهم وعلى عقيدتهم جفاء البادية وعصبية الأعراب وابغاهم في الجاهلية . . . فما بالك بالمسلم العادي من عامة الناس لو تعرض لذلك ؟

من بدا جفا

ولم ينحصر موقف الاسلام من « ظاهرة البداوة » في الجزيرة العربية في هذا النهي عن العودة الى البادية وأحوالها (وإن كان هذا النهي في سياقه الاجتماعي الحضاري الخاص يمثل في نظرنا صميم الموقف الاسلامي من هذه الظاهرة لكونه نهيا عمليا حاسما .)

ففي القرآن الكريم آيات واضحة وصريحة تحدد أبعاد هذا الموقف ، كالآية :

« الأعراب أشد كفرا ونفاقا » والآية : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا »

ونلاحظ ايضا الربط الوثيق بين الحالة الاجتماعية والحالة العقائدية الأخلاقية . فالكفر والنفاق يرتبطان بالحالة البدوية الأعرابية في الآية الاولى ، كما ترتبط بما قلة الايمان مع الاسلام الظاهري في الآية الثانية بما يوحي أن الايمان الحقيقي الذي يتطلبه الاسلام لا يتطابق وحالة البداوة وما فيها من جفاء وغلظة .

وهذا يتضح من الحديث النبوي : « من بدا جفا » أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب .

ويحذر الحديث من قبول شهادة البدوي لاحتمال بعدها عن الحقيقة حيث يقول : « لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » ويوضح ابن الاثير ذلك بقوله : « انما كره شهادة البدوي لما فيه من الجفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع . ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها . »

وقد اخذ الامام مالك بهذا التفسير ، لأنه بحكم البيئة أقرب أئمة الفقه إلى فهم الطبيعة الأعرابية البدوية .

ومن المهم أن نلاحظ أن « شدة » حكم الاسلام على الاعراب البدو مصدرها ثورة الاسلام على ما أفرزته البداوة من عقائد ومسلكيات وعصبيات ، وهي ليست موجهة بأي حال ضد الأعراب كمجموعات وأفراد ، الا بقدر ما يخضعون لتلك الحالة .

والمعيار هو الوضع الاجتماعي المعيشي ، فحالما يتحضر الاعرابي يصبح حضريا ، حكمه حكم المهاجرين

والأنصار من عرب المدن والقرى والريف ، أي الحضر المستقرين في تجارة أو زراعة أو غيرهما من أعمال لا تتطلب التنقل المستمر في البوادي والايغال في الصحراء . فالفارق بين « العربي » و « الاعرابي » هو فارق معيشي بيئي محض .

كان العرب أنفسهم يدركونه بجلاء منذ الجاهلية .

وهذه مسألة واضحة بينة لمن ينظر للأمر من زاويته الاجتماعية ، ولكنها مع ذلك بحاجة الى إيضاح ، لأن الشعوبية في القديم ، والاستشراق المغرض في الحديث ، حاولا الخلط المتعمد بين مفهوم « أعرابي » ومفهوم « عربي » لتحقيق مآرب خاصة ، كما وقع مفكر ومؤرخ كبير هو ابن خلدون في هذا الخلط حيث استخدم في حالات كثيرة مصطلح « عرب » وهو يقصد أعراب مما فتح الباب لحدوث لغط كثير حول هذه المسألة .

حتى ينقطع اللغط

وأرى ان هذا اللغط ينقطع ، وتتضح الحقيقة ، برجوعنا الى دقة المصطلح القرآني نفسه في مقاربته لهذه المسألة . والمصطلح القرآني ملزم لكل المسلمين ، وإن كانوا من غير العرب ، في طريقة فهمهم لمصطلح « عربي » و « أعرابي » ، بغض النظر عن مشاعرهم القومية الخاصة .

فبينما القرآن الكريم ، يصف « الأعراب » بالكفر والنفاق ، يتحدث عن التنزيل القرآني نفسه على أنه « عربي » كما في الآية : كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » .

وصفة « عربي » هنا ـ كما يرى علماء التراث ـ ليست مجرد صفة لغوية وانما هي صفة نسبة الى العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، كما يقول الازهري : « جعل الله القرآن المنزل على النبي عربيا ، لأنه نسبة الى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وهم النبي والمهاجرون والانصار » كما ان صفة « عربي » نسبت إلى النبي ذاته بهذا المعنى ـ أي المعنى المتحضر الشريف ، لأنه من صريح العرب » .

وهذا التمييز بين « عربي » و « أعرابي » على أهميته البالغة ، كما نرى ، ليس تمييزا سلاليا أو عرقيا أو طبقيا . كما أنه ليس بالصفة الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل[1]

فالتمييز كما قلنا حضاري معيشي بيئي . فمن سكن الحضر من العرب اعتبر « عربيا » ومن عاش بدويا متنقلا في البادية اعتبر « أعرابيا » .

فليست هناك على سبيل المثال قبائل عربية لا أعراب فيها ولا قبائل أعرابية لاعرب فيها . ويلاحظ جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » ان سجلات دولة سبأ كانت تشير الى الحضر والبدو من قبائل شمال الجزيرة بقولها : « القبيلة الفلانية وأعرابها » بما يدل على أن العربي والأعرابي ينتميان لقبيلة واحدة ، والفرق بينهما في أسلوب المعيشة .

ولنتأمل في هذا النص الهام من لسان العرب : « الذي لا يفرق بين العرب والأعراب ، والعربي والأعرابي ، ربما تحامل على العرب »ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، انما هم عرب لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن ، سواء منهم الناشيء بالبدو ثم استوطن القرى ، والناشيء بمكة ثم هاجر الى المدينة . فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم واقتنوا نعما ، ورعوا مساقط الغيث ، بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة ، قيل « تعربوا » أي صاروا أعرابا بعد ما كانوا عربا » ـ (راجع مادة « عرب » في معجم لسان العرب لابن منظور) .

واعتقد أن هذا النص القديم الوارد في مصدر من أمهات التراث العربي ، يحسم الجدل الطويل حول الفرق بين مفهومي « عرب » و « أعراب » بما في ذلك هفوة الخلط التي وقع فيها ابن خلدون

فالعربي عربي طالما انه على درجة من الاستقرار الحضري ، وهو أعرابي ان انتقل الى البادية ، يستوي في ذلك أشراف القوم وعامتهم ، ووجهاؤهم وسوادهم دون تمييز . و « الناشيء بالبدو » يصبح عربيا كالمهاجرين والأنصار إذا « استوطن القرى » ، وأشراف المهاجرين والانصار يصبحون أعرابا ـ بعد ان كانوا عربا ـ اذا

---

(١) العرب : اسم أمة ، والعربي من ينتسب اليها ، أيا كان مسكنه من بادية أو حاضرة ، كما يقال اليونان والرومان والفرس . والاعراب : البدو ، والمفرد أعرابي ، وهو من يسكن البادية ، ايا كانت الامة التي ينتسب اليها ، فتسمية الأعرابي مرتبطة بسكنى البادية ، وترادف كلمة الأعرابي كلمة البدوي ولولم يكن عربيا (العربي)

التحقوا بأهل البدو . وذلك ما منعهم الرسول من فعله لأنه يساويهم بالأعراب معيشيا ويلغي صفتهم الحضرية والعقائدية المتميزة أيا كانت أنسابهم وأحسابهم ودرجتهم في الاسلام والصحبة .

بين العرب والأعراب

أما الخلط عبر عصور التاريخ بين مفهومي « عرب » و « أعراب » ، واستخدام أحدهما ، محل الآخر ، فمرده في نظرنا الى الوضع التاريخي الحضاري الذي تكون فيه الأمة العربية ففي عهود محمد وعمر والوليد والمأمون ، أي في عهود الازدهار ، يبرز في الامة وجهها « العربي » المتحضر ، وتكون صفة « عربي » مرادفة لمعنى الشرف والعدل والشجاعة . أما في عهد الانحطاط ، عندما يبرز من الأمة وجهها البدوي المتخلف ، وتنطلق الموجات البدوية تخرب المدن والقرى وتدمر العمران ، فان صفتها « الأعرابية » هي التي تغلب ، ويزول ذلك الفارق الحضاري الدقيق والهام الذي وضعه الاسلام والقرآن بين مفهوم « عربي » و« أعرابي » ، وتصبح صفة « العرب » ألصق بالبدو ، ويطلقها اهل الحضر والقرى والارياف على القبائل البدوية ، وتتغلب « الأعرابية » على العروبة » حتى تأتي موجة حضارية جديدة ـ شبيهة بثورة الاسلام ـ فتعيد للعروبة اعتبارها وترد « الاعرابية » الى حجمها الطبيعي » .

والخلاصة أن الصراع بين الحضارة والبداوة ، أو بمعنى آخر بين العروبة المتحضرة والأعرابية البدوية ـ صراع تاريخي طويل الأمد في المنطقة العربية ، واذا كانت الأمة العربية لم تستوعب حضارة العصر بعد ، فذلك لأنها لم تحسم هذا الصراع بصفة نهائية .

وكل نهضة أو ثورة حضارية عربية يجب أن تحدد موقفها قبل كل شيء من هذا الصراع ، بحيث تعبيء طاقات الأمة المتحضرة ، المنظمة ، المنتجة ، المترقية ـ ضد عناصرها المشتتة المتخلفة ، غير العاملة وغير المنضبطة ، التي تجد في « البداوة »وقيمها غطاء تحتمي به . ولم تعد البداوة اليوم تنقلا في الصحراء .

فعلماء الاجتماع يرون أن البداوة يمكن أن تتخذ مختلف مظاهر الحضارة أو المدينة بكل أشكالها البراقة وتبقى بدوية في جوهرها وقيمها وطريقة عيشها . وهذه البداوة « المقنعة » أخطر من تلك البداوة الصريحة التي حاربها الاسلام .

والعروبة الحديثة اذا ارادت الانتصار على أعدائها وعلى تخلفها ، فيجب أن تنتصر أولا على ما تبقى بداخلها من بداوة ظاهرة أو مقنعة ، مثلما انتصرت عروبة الاسلام في عهد النبي والصحابة على بداوتها الجاهلية وحاربتها ماديا ومعنويا بصورة لا تدع مجالا للشك في ان الاسلام كان ثورة ضد البداوة وأنه لم يكن دينا بدويا كما يزعم أعداؤه . ■■

د . محمد جابر الانصاري

عبقرية

ذهب غلام الى الموسيقار العظيم « موزار » وسأله ماذا يفعل لكي يؤلف سيمفونية ؟

فقال موزار : انك ما زلت صغيرا يا بني ، فلم لا تبدأ بتأليف ألحان بسيطة ؟

فقال الفتى : ولكنك ألفت سمفونيات حين كنت في العاشرة .

فقال موزار : نعم ولكنني لم أسأل كيف أؤلفها .

كاتب هذا المقال قضى خمس سنوات في باريس يبحث موضوع استخدام السخونة في علاج السرطان . وحصل على شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف في شهر مارس (آذار) الماضي . على نتائج بحثه ، التي نحاول استعراضها هنا لقارىء العربي . .

السخونة أمل جديد في علاج السرطان

بقلم الدكتور أنور ميخائيل سلامة

الى جانب الطرق المعتادة التي تستخدم في علاج السرطان والتي تتلخص في الاستئصال الجراحي للورم أو العلاج بالاشعاع والذرة أو بالعقاقير ، وبصرف النظر عن العلاج المناعي الذي تعتبر فائدته غير أكيدة حتى الآن ، فان السخونة تمثل علاجا للأورام السرطانية . ويمكن استخدام السخونة بمفردها أو باضافة جرعات قليلة من الاشعاع أو العقاقير اليها .

ويتم العلاج بالسخونة برفع درجة حرارة جزء من الجسم أو الجسم كله الى درجة تفوق قليلا درجة الحرارة الفسيولوجية (وهي ٣٧م)

ولا يعتبر علاج السرطان بالسخونة علاجا حديثا . فقد مارسه الفراعنة في علاج الأورام بوخزها بإبر ساخنة حسبما جاء في أوراق البردى التي يرجع تاريخها الى حوالي ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ولقد استخدم هيبوقراط أيضا

السخونة منذ ٤٠٠ سنة قبل الميلاد بكي الأورام بمكواة ساخنة . ونذكر قولا هاما له هو :

« لو وهبت القدرة على توليد الحمى في الجسم لشفيت المرضى »

ولقد لاحظ الأطباء في نهاية القرن التاسع عشر اختفاء أو ضمور الأورام عند المرضى الذين يتعرضون للاصابة بالتهابات مصحوبة بارتفاع كبير في درجة الحرارة . وحاول الأطباء في هذا القرن الاستفادة من الظاهرة في علاج الأورام وذلك بإحداث سخونة عند مرضى السرطان بحقنهم بسموم أو ميكروبات . ولكن نتائج هذه المحاولات كانت متناقضة بسبب صعوبة التحكم في درجات الحرارة الناتجة . اذ لو زادت درجة حرارة الجسم كله عن ٤٢ م لتسببت في حدوث الوفاة لحساسية المراكز العصبية في المخ بالنسبة لدرجات الحرارة العالية . بالاضافة الى الاضرار التي تنجم عن حقن الميكروبات والسموم في الجسم . لكن هذه الطريقة في العلاج أصبحت في طي النسيان في القرن الماضي بسبب صعوبة تطبيق الوسائل المستخدمة للتسخين في ذلك الوقت ، وأيضا بسبب اكتشاف « رونتجن »لأشعة اكس سنة ١٨٩٥ .

وخلال السنوات العشرين الأخيرة تجددت العملية مرة أخرى . وبدأت الدراسات المعملية (البيولوجية) التي أوضحت لنا بعض النقاط الهامة ، منها :

أن ارتفاع درجة الحرارة في مزارع الخلايا الى ٤٢ م أو أكثر يؤدي الى موت الخلايا السرطانية . كما أن درجة تأثر هذه الخلايا تعتمد على مدى ارتفاع درجة الحرارة ومدتها .

ومن هذا نجد أن الحرارة والاشعاع يمكن ان يكمل عمل كل منها الآخر .

ـ أخيرا تزيد الحرارة من تأثير الاشعاع والعقاقير على الخلايا السرطانية . ولنحاول أن نستعرض طرق التسخين المختلفة ، وهي ثلاث : على النحو التالي :

أولا : التسخين الكلي

في هذه الطريقة يتم تسخين الجسم كله الى درجة تقل قليلا عن ٤٢ م لأن رفع درجة حرارة الجسم كله الى أكثر من ٤٢ م من شأنه أن يعرض حياة المريض للخطر وربما يؤدي ذلك الى وفاته كما أشرنا من قبل . وتعتبر درجات الحرارة المستخدمة هنا غير كافية لقتل الخلايا السرطانية بطريقة مباشرة وربما يرجع تحطيمها للخلايا السرطانية بطريقة غير مباشرة الى تنبيهها لأجهزة الجسم الدفاعية .

وهناك وسيلتان أساسيتان لتحقيق هذه الطريقة :

طرق بيولوجية : يحقن مرضى السرطان بميكروبات أو مستخلصاتها أو بالسموم ، وهي تعمل على رفع درجة حرارة الجسم كله . ولا يمكن بكل تأكيد أن تكون درجة حرارة السخونة دائما ثابتة بالاضافة الى الأضرار الجانبية لمثل هذه الميكروبات والسموم .

طرق فيزيائية : بوضع المريض في حمامات الماء أو في البرافين الساخن مع تنفسه الهواء الساخن ، أو يغطى المريض بأغطية ساخنة أو باستخدام الهواء الساخن.أو الأشعة تحت الحمراء أو الموجات القصيرة . وتعتبر هذه الوسائل صعبة التطبيق كما أنها في معظم الأحيان تحتاج الى تخدير كلي للمريض بالاضافة الى احتمال تعرض المريض للموت اذا زادت درجة حرارة جسمه عن ٤٢ م .

ثانيا : التسخين الطرفي

تستخدم هذه الطريقة لعلاج أورام الأطراف وهنا يسخن دم المريض في دورة خارجية ويعاد حقنه في الطرف المصاب بعد عزل الدورة الدموية لهذا الطرف عن الدورة العامة ، وغالبا ما يضاف لهذا العلاج حقن عقاقير في نفس الوقت .

ثالثا : التسخين الموضعي (٤٢ ـ ٤٥°م)

وهي الطريقة الشائعة في تسخين الأورام وفيها يتم تسخين المنطقة المصابة بالورم بطرق عديدة ومختلفة . وتعتمد الطريقة المستخدمة أساسا على مكان الورم (سطحيا كان أم داخليا) وأيضا على حجمه . وبصفة عامة يمكن تسخين أورام الجلد السطحية بصورة ملائمة باستخدام طرق مختلفة منها الأشعة تحت الحمراء ـ موجات الراديو ـ الهواء الساخن والموجات فوق الصوتية والوخز بابر تسخن بتيار كهربائي بتردد عال .

وعلى العكس توجد بعض الصعوبات في تسخين الأورام الداخلية (بالبطن أو الصدر) نظرا لأن الوسائل المستعملة حاليا لاتمكن من رفع درجة الحرارة للاورام الداخلية الى الدرجات المطلوبة لتحطيمها وصعوبة قياس درجة الحرارة في الأورام الداخلية . ويستخدم في تسخين الأورام الداخلية الموجات القصيرة بذبذبة قدرها ١٣ أو ٢٧ ميجاهرتز أو الموجات فوق الصوتية (أوميجاهرتز) وهناك بحوث مختلفة للتغلب على صعوبة تسخين الأورام الداخلية .

ويعتبر التسخين الموضعي الى درجات حرارة تتفاوت بين ٤٢ و ٤٥°م هو الوسيلة التي تستخدم في مختلف أنواع الأورام بمعهد جوستاف روسي وهو من أكبر مراكز علاج الأورام بفرنسا . وتستخدم هذه الطريقة أكثر من ٥ سنوات . ولقد قام الباحثون به بعلاج أكثر من ١٥٠ حالة بالسخونة وحدها . وفي بعض الحالات أضيف اليها الاشعاع أو العقاقير .

ويتكون العلاج بهذه الطريقة في معظم الحالات من ٦ جلسات خلال اسبوعين بواقع ٣ جلسات أسبوعيا مدة كل منها ساعة واحدة . ويمكن تكرار هذه الدورة وبدون أية أعراض جانبية موضعية كانت أم وظيفية . والنتائج الأولى تبشر بنجاح هذا الاسلوب في علاج الأورام السرطانية خاصة اذا أضيف اليها جرعات قليلة من الاشعاع أو العقاقير .

ولقد لاحظنا بعد جلسات قليلة أن الورم الذي تم تسخينه يضمر في الحجم أو قد يختفي تماما خاصة لوصاحب السخونة جرعات قليلة من الاشعاع أو العقاقير . كما تقل أو تختفي الآلام بعد جلسات قليلة . هذا بالاضافة الى أن السخونة تقدم لنا مصدرا علاجيا جديدا للسرطان عندما يستحيل استخدام جرعات كافية من الاشعاع أو العقاقير . ولقد تخطت هذه الطريقة بكل تأكيد المراحل التجريبية . وتجري حاليا بعض البحوث للتغلب على بعض الصعوبات الفنية في تسخين الأورام الداخلية . ونظرا لأن هذه الطريقة الجديدة لاتزال في مرحلة أولية فانه ينبغي التثبت من نجاحها التام قبل تعميمها . ■■

د . انور سلامة

من فوائد الصواعق

● قال ملك لوزيره :

« ما خير ما يرزق الله عبده ؟ قال : عقل يعيش به . قال : فان عدمه ، قال : صديق يستشيره في مهماته ، قال فان عدمه ، قال : حظ يسعده ويستر عليه ، قال : فان عدمه ، قال : صاعقة تحرقه وتريح منه البلاد والعباد .

أقوال معاصرة



■ كأن العرب والمسلمين لم يكفهم ما يلقونه من اعدائهم ، فأضافوا اليه الحروب الداخلية والمؤامرات والاغتيال .

الشيخ جابر الاحمد الصباح امير الكويت

■ بوسعنا ان ننجز الكثير ، وان نظهر للعالم اجمع كيف ستكون العلاقات بين الاردن وفلسطين داخل اتحاد كونفدرالي .

الملك حسين بن طلال



■ لا ادري كيف اقيم الشعر الحديث ، فهو فوق مستواي العلمي والادبي . اني اقرأه واعترف باني عاجز عن ادراك معانيه .

الشاعر عمر ابو ريشة

■ اننا نعرف ردود الفعل العربية تجاه الاحداث . انهم يذبحون بعضهم البعض في العادة !

الكاتب الاسرائيلي شموئيل كاتز

■ هناك حركة تشد جزءا من الضمير الغربي إلى الاسلام .

فرانسيس لاماند

رئيس الفرع الفرنسي لجمعية الاسلام والغرب



■ لقد وصلنا الى مدى لم يعد نعتبر فيه الفلسطينيين بشرا !

يوري افنيري

صحفي اسرائيلي

■ المشكلة اللبنانية انفصلت جزئيا عن ازمة الشرق الاوسط ، والعملية التي بدأت في هذا الاتجاه سوف تستمر .

رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان



■ نقف ضد محاولات تحييد الدور المصري بالمرصاد ، ولا ننتظر ترخيصا لممارسته من احد .

الرئيس المصري حسني مبارك

■ اذا كان اسقاط كل رئيس وزراء اسرائيلي سيكلفنا ما بين عشرة الى عشرين الف قتيل ومذبوح ، فنحن نرجو للوضع الوزاري في اسرائيل الاستقرار والاستمرار .

نبيل خوري رئيس تحرير مجلة المستقبل

القمة الصناعية الغربية .. من أجل ماذا وضد من؟

بقلم الدكتور عارف دليلة

برغم ظهور أشكال تنظيمية عديدة لتنسيق العمل والسياسات بين الدول الرأسمالية المتقدمة، مثل: حلف الأطلسي، والسوق الاوربية المشتركة، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وغيرها من الأشكال المؤسسية، فقد أخذت الدول الصناعية الغربية الكبرى تعقد قمة سنوية منذ عام ١٩٧٥. فما هي أسباب وأهداف هذا الشكل الجديد من أشكال العمل المشترك في العالم الرأسمالي؟ وماذا حقق حتى الآن، وفي أي اتجاهات يتطور؟

القمة الأولى في مواجهة الدول النامية المصدرة للنفط

انعقدت القمة الصناعية الغربية الأولى في رامبوي بفرنسا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ بمشاركة كل من: الولايات المتحدة، اليابان، المانيا الغربية، فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، وبلجيكا، ورئيس لجنة السوق الاوربية المشتركة.

كانت أزمة النقد الدولي التي تفجرت مع الانخفاض الحاد في قيمة الدولار الأمريكي في مطلع السبعينات، والتضخم السريع، والانخفاض الحاد في النمو الاقتصادي قد بلغت حداً لم تعرفه الدول الغربية منذ الأزمة الاقتصادية الكبرى (١٩٢٩ - ١٩٣٣). لكن السبب المباشر الذي جمع رؤساء هذه الدول هو نجاح الدول النامية المصدرة للنفط (أعضاء منظمة الأوبك) في رفع أسعار النفط أكثر من أربعة أضعاف عقب حرب تشرين ضد الاحتلال الاسرائيلي للأرض العربية عام ١٩٧٣.

كانت اليابان ودول أوربا الغربية أكثر الدول المتقدمة تأثراً بأزمة النفط بسبب انعدام إنتاجها النفطي وعدم استعدادها للتكيف مع نتائج النقص الخطير في الامداد النفطي والارتفاع المفاجىء والكبير في تكلفته، بينما كانت الولايات المتحدة من أكبر الدول المنتجة، بالاضافة الى أن احتكاراتها هي التي تهيمن على إنتاج الدول النامية من

النفط والتي تربح من رفع أسعاره . وهكذا وجدت اليابان وأوربا الغربية نفسها مضطرة للانضواء تحت مظلة السياسة الأمريكية لضمان حاجاتها من مصادر الطاقة المستوردة .

لكن الولايات المتحدة وظفت نقطة الضعف الأوربية واليابانية هذه من أجل الحفاظ على هيمنتها على النظام الاقتصادي العالمي ، والسيطرة على تطور اقتصاديات الدول الأخرى بما يخدم الاقتصاد الأمريكي . ولم يكن بإمكان مثل هذه العلاقة الاستمرار طويلاً . ففي مطلع الثمانينات لم يعد بالامكان الابقاء على التناقضات الحادة بين مصالح هذه الكتل الاقتصادية بعضها البعض ، وبينها وبين الكتل الأخرى ، في حالة الكمون ، وبالأخص مع تناقص الاعتماد على النفط كمصدر للطاقة ومع انخفاض مخاطر توقف إمداداته إلى الدول الصناعية .

مصدر الأزمة

لم تكد أسعار النفط ترتفع باتجاه « السعر العادل » حتى نظمت الدول الصناعية الغربية مواقفها وقامت بحملة إعلامية مركزة تلقي فيها على الدول النامية المصدرة للنفط ، وبالأخص الدول العربية من بينها ،بالمسؤولية الكاملة عن كل ما يعانيه الاقتصاد الغربي من مشكلات وأزمات . وخلال أربع سنوات (١٩٧٥ - ١٩٧٨) بقيت أسعار النفط ثابتة تقريبا ، إلا أن وضع الاقتصاد الغربي لم يتحسن كثيراً . فالركود وتردي معدلات النمو والتضخم المستمر أصبحت من السمات المزمنة للاقتصاد الغربي . وقد أدى ذلك إلى تآكل ارتفاع أسعار النفط وعودة قيمته الحقيقية إلى ما يقرب من مستواها السابق لارتفاع الأسعار مما حمل الدول المصدرة الى رفع الأسعار مرة أخرى خلال عامي١٩٧٩-١٩٨٠ بأكثر من الضعف .

وخلال العامين الأخيرين (١٩٨١ - ١٩٨٢) مالت أسعار النفط إلى الانخفاض وظهر فائض نفطي في السوق العالمية ، لكن وضع الاقتصاديات الصناعية لا يميل نحو التحسن . وهذا ما يدفع الدول الصناعية إلى محاولة كل منها الخروج من الأزمة على انفراد والبحث عن الحلول التي تناسبها ولو كان ذلك على حساب الدول الأخرى .

فالولايات المتحدة استثمرت ارتفاع أسعار النفط لطرح المزيد من الدولارات الأمريكية في السوق العالمية مع إطلاق الحرية لأسعار الدولار في التقلب . وهذا ما جعل أوربا الغربية تسعى لتشكيل نظام نقدي أوربي يخفف من الآثار السلبية لتقلب سعر الدولار على اقتصاديات الدول الأوربية ويزيد من الاعتماد المتبادل بين عملات هذه الدول في مواجهة الدولار . ولقد قادت ألمانيا الغربية هذه السياسة ، واضعة فائض ميزان مدفوعاتها تحت تصرف نظام النقد الاوربي .

وفي القمة الرابعة (بون - تموز (يوليو) ١٩٧٨) عبر قادة ألمانيا الغربية واليابان ، ولأول مرة ، في مؤتمر على مستوى عال عن نقد مكشوف للسياسة الاقتصادية والنقدية الأمريكية وألقوا عليها المسئولية عن المصاعب التي يعاني منها الاقتصاد العالمي . فقيمة الدولار الأمريكي استمرت في التدهور ، وعدد العاطلين عن العمل في الدول الرأسمالية وأعضاء منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية ، بلغ عام ١٩٧٨ ما يزيد عن ١٨ مليون عامل ، والحرب التجارية بين أوربا الغربية واليابان والولايات المتحدة تزداد حدة .

لقد أصبحت القضية الأساسية أمام القمة الرابعة هي « وضع استراتيجية عامة تشمل النمو والعمالة والتضخم والسياسة النقدية والطاقة والتجارة » كما ورد في البيان الختامي لقمة بون . ولأول مرة يجري تحديد واجبات والتزامات كل طرف من المشاركين من أجل تنشيط الاقتصاد الرأسمالي ورفع معدلات نموه . فقد كان على الولايات المتحدة ، بموجب البيان ، تخفيض استيرادها من النفط ورفع أسعاره المحلية الى المستوى العالمي وزيادة إنتاج الفحم وتحقيق الاستقرار الاقتصادي واستقرار قيمة الدولار ، والالتزام بتزويد الأعضاء الآخرين باليورانيوم . أما اليابان فقد فرض عليها زيادة الاستيراد والابقاء على الصادرات عند مستواها عام ١٩٧٧ .

لكن التطورات الفعلية لم تتوافق مع الرغبات . فقد حصل انخفاض حـ . في أسعار الدولار وفي معدلات النمو وارتفاع في معدلات التضخم والبطالة . كما أن الاجراءات المعلنة كانت ضعيفة القابلية للتطبيق بسبب عدم اتفاقها مع السياسات الوطنية لكل دولة ومع مصالح مؤسساتها الاقتصادية . وبرز خطر جديد يتمثل في مواجهة عدد من حكومات الدول الرأسمالية الكبرى احتمال تغير السلطة السياسية . وهذا ما حصل فعلاً في فرنسا وكندا والولايات المتحدة .

مشكلة التنمية في العالم الثالث

في البيان الختامي لقمة بون طلب من البلدان النامية « توفير مناخ ملائم للاستثمار الرأسمالي وتوفير ضمانات

للاستثمارات الأجنبية » باعتباره ، في نظر الدول الرأسمالية ، مفتاح التنمية في العالم الثالث !

وكان من المنتظر أن تخرج قمة البندقية (حزيران « يونيو » ١٩٨٠) بإعلان حول إجراء مفاوضات عالمية بين الشمال والجنوب بخصوص إصلاح نظام العلاقات الاقتصادية الدولية والتمهيد لأول قمة بين الشمال والجنوب ستعقد في كانكون (تشرين اول « اكتوبر » ١٩٨١) . لكن قمة البندقية أجلت هذه المسألة الى القمة التالية (اوتاوا - تموز - يوليه - ١٩٨١) .

في البيان الختامي لقمة البندقية ألقت الدول الصناعية بمسؤولية تفاقم مشكلات الدول النامية على ارتفاع أسعار النفط . لكنه رغم الآثار القاسية لتزايد تكلفة الفاتورة النفطية على البلدان الفقيرة فإن المسؤولية الكاملة عن تردي أوضاعها تقع على العلاقات غير المتكافئة بينها وبين الدول الرأسمالية بالدرجة الأولى .

لقد عادت قضية ارتفاع أسعار النفط لتحتل مكانة بارزة على مائدة قمة البندقية بسبب الارتفاع الكبير الذي حصل عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ والذي اعتبره البيان الختامي غير مبرر و « يؤدي إلى مزيد من التضخم ويشكل تهديداً قوياً للاقتصاديات الصناعية بالركود الحاد وبالبطالة ، كما يقوض آفاق النمو في البلدان النامية » . ويشجع البيان على استثمار الفوائض المالية للبلدان النفطية في « التداول والقطاع السكني » !

ولقد نص بيان البندقية على زيادة مساعدات التنمية للبلدان النامية من أجل تطوير مصادر الطاقة ومعالجة مشكلات نقص الغذاء والفقر وتزايد السكان السريع والاستعداد لعقد مفاوضات عالمية حول هذه المشكلات « في إطار الأمم المتحدة وتشكيل استراتيجية تنمية دولية جديدة » .

أما بيان قمة أوتاوا (تموز ١٩٨١) فعلى العكس مما كان متوقعا ، بدلاً من أن يقدم إعلاناً واضحاً بخصوص عقد مفاوضات عالمية في إطار الأمم المتحدة حول المشكلات الاقتصادية الدولية ، فقد تجاهل المسألة ، وتراجع عما نص عليه بيان البندقية .

ولم يكن ذلك إلاّ نتيجة للتغير في إدارة الولايات المتحدة ووصول الرئيس الأمريكي الجديد رونالد ريغان إلى السلطة الذي حمل برنامجاً جديداً يتصف بالمجابهة في القضايا الدولية وإضعاف دور المنظمات العالمية والعمل على إعادة هيمنة وتفرد الولايات المتحدة في معالجة المشكلات الدولية .

ومن أبرز نقاط البرنامج الاقتصادي لادارة الرئيس ريغان التي وضعت فوراً موضع التطبيق رفع أسعار الفائدة الأمريكية بشكل لم يسبق له مثيل (تجاوزت ٢٠٪) . وكان هذا الاجراء من أهم وسائل الادارة الجديدة في الضغط على الدول الأخرى و إضعاف مواقعها الاقتصادية لاجبارها على العودة الى الانضواء تحت السياسة الامريكية . ذلك أن ارتفاع الفائدة الأمريكية لم تحقق الأهداف الاقتصادية الداخلية المعلنة (مثل تخفيض التضخم والبطالة) وإنما اضطر معدلات الفائدة في الدول الأخرى إلى الارتفاع في محاولة لمنع رؤوس الأموال من التحول إلى الولايات المتحدة ، مما سبب تضخماً في الدول الأخرى وأوقعها في المزيد من العجز . لكن هذا الأثر كان أخطر ما يكون على اقتصاديات البلدان النامية ، فقد استنزف مواردها الخارجية وأوقعها في عجز غير محتمل وأوقف مسيرة نموها العادي .

لقد وعد البيان الختامي لقمة أوتاوا بالتعاون الايجابي مع الدول النامية في قمة « كانكون بين الشمال والجنوب » ، فماذا حقق مؤتمر « كانكون » ؟

اجتمع في «كانكون» بالمكسيك(تشرين اول -اكتوبر - ١٩٨١) رؤساء ٢٢ دولة غربية ونامية ، غنية وفقيرة ، مع شرط أمريكي مسبق ، هو أن لا يصدر بيان ختامي عن المؤتمر ، وأن يكتفى فيه بتبادل الآراء مع ضرورة الاعتدال .

وكان أهم ما ينتظر من قمة كانكون الاعلان بشأن تحديد موعد وقواعد اجراء المفاوضات العالمية في إطار الأمم المتحدة . لكن الولايات المتحدة كان لها أهداف أخرى وهي الدفاع عن النظام الاقتصادي الدولي في شكله القائم وعدم المساس بمؤسساته التي تضمن سيطرة المصالح الأمريكية ، إنما تكريسها والعمل من خلالها . ولم يخرج المؤتمر بأية توصيات متفق عليها حول حل المشكلات العالمية . فقد عارضت الولايات المتحدة تشكيل مخزون احتياطي عالمي من الغذاء للطوارىء ورفضت اقتراح تشكيل فرع للطاقة ملحق بالبنك الدولي . وهذا ما جعل رئيسة وزراء الهند تصرح في نهاية المؤتمر بقولها : « نأمل أن تأخذ الولايات المتحدة وجهات نظر البلدان النامية بالاعتبار في تفكيرها وفي عملها » .

إن الموقف الأمريكي يرفض « أن يؤخذ من الدول الغنية ليعطى للدول الفقيرة » ويتمسك بأن علاج مشكلة التخلف يكمن باللجوء إلى السوق الحرة كطريق للتنمية وضرورة توفير المبادرات الفردية وتشجيع الاستثمارات الخاصة وتوفير التسهيلات والضمانات لرأس المال الأجنبي ، أي بالعودة الى التاريخ السابق الذي جر البلدان النامية إلى وضعية التخلف الحاضرة ، هذا رغم أن كبرى الدول الرأسمالية أصبحت اليوم تتدخل بصورة متزايدة في تنظيم اقتصادها وعلاقتها الخارجية .

ويرى الرئيس المكسيكي لوبيز بورتيلو بأن قيام الولايات المتحدة برفع سعر الفائدة يضر بمصالح الدول النامية والصناعية على حد سواء ، أضعاف الضرر الذي يمكن أن يسببه رفع الدول النامية لأسعار مواردها الأولية ، كالنفط ، مثلاً .

القمة الثامنة (فرساى ـ حزيران ١٩٨٢)

الغرق في المشكلات الخاصة

لقد وجدت القمة الثامنة (فرساي ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٢) نفسها في مواجهة أعداء داخليين ، حيث كل طرف متهم أمام الأطراف المشاركة الأخرى .

فالولايات المتحدة هي المتهم الأكبر أمام الآخرين بسبب رفع أسعار الفائدة على الدولار ، واليابان هي المتهم الثاني بسبب إغراقها الأسواق الأخرى بالصادرات وتقييدها للواردات . والدول الأخرى متهمة برفضها رفع أسعار الفائدة وباتباعها سياسة الحماية .

وبشكل عام عادت معدلات النمو في جميع البلدان المتقدمة ، بعد انتعاش طفيف خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩ ، الى الانخفاض الحاد خلال الأعوام اللاحقة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢ . ويعتقد الخبراء أن معدل النمو الفعلي في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (٢٢ دولة رأسمالية) لن يزيد عام ١٩٨٢ عن ٣٪ وليس ١,٢٥٪ كما كان متوقعاً في بداية العام . ويترافق ذلك بمعدلات تضخم عالية وزيادة عدد العاطلين عن العمل عن ٣٠ مليون عامل ، هذا مع انخفاض ملموس في المداخيل الحقيقية للعاملين بأجر . وفي آب « اغسطس » ١٩٨٢ قدم الرئيس الأمريكي الى الكونغرس مشروع قانون بفرض ضرائب غير مباشرة على السكان تبلغ حصيلتها ٩٨ مليار دولار على مدى ثلاث سنوات وهو الأضخم من نوعه في تاريخ الولايات المتحدة وقد حظي بموافقة الكونغرس . ولكن الكونغرس يعارض مطالب أخرى بزيادة المخصصات لانتاج وتطوير مخزونات الأسلحة الستراتيجية ، مثل طلب الرئيس بتخصيص ٧,٢ مليار دولار لانتاج وتخزين القنابل النيوترونية ، في الوقت الذي بلغت فيه نسبة العاطلين في الولايات المتحدة حوالي ١٠٪ من قوة العمل (أكثر من عشرة ملايين عاطل عن العمل) .

إن تفاقم الحرب التجارية بين الدول الغربية واتفاقها على تضييق أسواقها أمام منتجات البلدان النامية ، أدى الى انخفاض كبير في معدلات نمو التجارة العالمية . ومن الملفت للنظر أن الدول الكبرى التي يفترض أن تجسد مبادىء حرية التجارة أصبحت من أكثر الدول تدخلاً في التجارة الخارجية ، بينما تفرض على الدول الأخرى ، وبالأخص الدول النامية فتح أسواقها والامتناع عن التدخل في تعديل علاقاتها الخارجية غير المتكافئة .

ويبدو أن الدول الغربية لم تستطع أن تتوصل من خلال المؤتمرات العديدة الى أكثر من « الاتفاق على أن تتصرف كل دولة الى محاربة أمراضها بنفسها : ويعني ذلك بالنسبة الى البعض محاربة التضخم ، بينما يعني بالنسبة الى الآخرين محاربة الفوائد المصرفية المرتفعة أو عجز الميزانية أو تقلب أسعار العملة » حسب تعبير رئيس الوزراء النيوزيلندي .

لقد خمدت قضية إصلاح النظام الاقتصادي العالمي وإجراء المفاوضات الشاملة . ويتركز همّ الولايات المتحدة الآن على الدفاع عن ارتفاع قيمة الدولار على حساب جميع العملات الأخرى بينما تطالب اليابان الدول الأخرى بتنشيط النمو الاقتصادي وفتح الأسواق أمام صادراتها . أما أوربا الغربية فتركز اهتمامها على حل مشكلات التضخم والبطالة والعجز . وبينما تزداد الدول الأوربية ، وبالأخص فرنسا ، حماساً لتسريع التنمية في العالم الثالث مع الاقتناع بأن ذلك ينعكس إيجابا على النمو الاقتصادى في الدول المتقدمة نفسها ويساهم في علاج مشكلاتها ، فإن الولايات المتحدة ما تزال على مواقفها من حيث اعتبار معونات التنمية مجرد وسيلة للنفوذ وفرض المواقف السياسية .

هل نحن أمام حلف جديد ؟

من متابعة مسيرة القمة الغربية منذ الانعقاد الاول (١٩٧٥) وحتى الانعقاد الثامن (١٩٨٢) يمكن التوصل

الى الاستنتاجات التالية :

١ ـ في القضايا الاقتصادية تحولت القمة تدريجياً من مجابهة مشكلات خارجية وكتل دولية أخرى الى مجابهة تناقضاتها الداخلية وتضارب المصالح والسياسات بين دولها . وربما كان من الأسباب الهامة لهذا الانكفاء تمكن الدول الغربية من تجريد تكتلات الدول النامية التي نهضت في السبعينات لاصلاح وضعها في الاقتصاد العالمي من بعض عوامل قوتها ووحدتها ، وبالأخص ، جعل النفط مادة فائضة في الأسواق العالمية وتخفيض أسعاره وجعل الدول النامية المصدرة له تتنافس وتتسابق على بيعه للدول المستهلكة .

٢ ـ بسبب تعمق التناقضات في السياسات والمصالح الاقتصادية للدول المشاركة في القمة الغربية وتباعد المواقف بينها فقد أخذت القمة تتحول عن القضايا التي يصعب الاتفاق حولها (الاقتصادية) والتي تبدو أكثر « علنية » إلى القضايا التي تجمع مواقف دول القمة وتمس مصالحها المشتركة (السياسية والعسكرية الستراتيجية) والتي تعتبر أكثر « سرية » . فالقمة الثامنة (فرساي ١٩٨٢) صرفت جل اهتمامها لتقديم الدعم لانجلترا في حربها ضد الأرجنتين لاستعادة جزر فوكلاند ، ولتوحيد مواقف أعضائها بخصوص الشرق الأوسط ومتابعة الغزو الاسرائيلي لاحتلال لبنان و « إدارته » بما يحقق أكبر الفوائد للدول الغربية مجتمعة في الشرق الأوسط . واذا كانت دول القمة قد خرجت بالاتفاق حول هاتين القضيتين ، إلا أنها لم تستطع أن تزيل الاختلاف فيما بينها بخصوص الموقف من تنفيذ صفقة أنابيب الغاز من سيبيريا الى أوروبا الغربية مع الاتحاد السوفيتي .

ولقد تفجر الصراع بعد المؤتمر إلى درجة انشقاق أوروبا الغربية عن الموقف الأمريكي وتصميمها على المضي قدماً في التعاون من أجل إنجاز الصفقة رغم كل التحذيرات والتهديدات الأمريكية . فالولايات المتحدة تخشى من استقلال أوروبا الغربية في شؤون الطاقة عنها مما يجعلها أكثر حرية في مواقفها السياسية الداخلية والخارجية بينما أوروبا الغربية تريد ضمان امداداتها بالطاقة وتنويع مصادرها درءاً لأية مخاطر يمكن أن تنجم عن الاعتماد على المصادر التي تسيطر عليها الولايات المتحدة في المستقبل .

مما سبق نتساءل :

١ ـ هل تتحول القمة الغربية الى « حلف دولي سياسي عسكري » جديد تسعى فيه الدول الرأسمالية الكبرى بقيادة الولايات المتحدة إلى الانفراد بالمواقف من المشكلات العالمية ؟ . . والموقف من حرب فوكلاند والشرق الاوسط يبرر هذا التساؤل ؟ !

٢ ـ وهل تتحول القمة الغربية ، التي لم تستطع تحقيق أي نجاح ملموس في تسوية التناقضات الاقتصادية بينها ، إلى توحيد مواقف دولها في مواجهة مطالب الدول النامية ومعارضة تطلعاتها نحو إقامة نظام اقتصادي عالمي جديد عادل وإبقائها في وضعية التبعية والتخلف والاستمرار في حل مشكلات الدول الرأسمالية المتقدمة على حسابها ؟

إن القمة الغربية لم تستطع منع وقوع انشقاق حاد بين أعضائها بخصوص علاقاتها الاقتصادية مع الشرق بينما تبدو موحدة المواقف تجاه البلدان النامية مما يعيقها من تحقيق أي إنجاز تنموي بتطور قدراتها الذاتية ويقوي استقلالها . وهذا ما يبرر أيضاً طرح التساؤل الثاني .

٣ ـ واذا كان حلف الاطلسي لم يضم اليابان من الأساس ، بينما خسر فرنسا التي خرجت من قيادته العسكرية في الفترة الديغولية التي اتصفت بالنزعة الاستقلالية عن الهيمنة الأمريكية ، فهل في ذهن المعسكر الرأسمالي تحويل القمة الصناعية للدول السبع الكبرى إلى « قمة ما فوق حلف الأطلسي » بمشاركة فرنسا واليابان هذه المرة ؟ .

إن إصرار الولايات المتحدة المستمر على أن تتجه اليابان نحو زيادة الانفاق العسكري ، وتطوير قواتها المسلحة ، وتنامي النزعة العسكرية اليابانية استجابة لذلك ، وتنفيذ برامج متطورة لتنمية الطاقة العسكرية في اليابان ، كل ذلك يبرر أيضاً هذا التساؤل !

لكن التوجه العسكري الجديد الذي يجتاح الغرب ، والذي حملته إدارة الرئيس ريغان معها ، خلق التيارات المضادة التي أخذت تعترض طريقه ليس خارج الولايات المتحدة فحسب ، بل داخلها أيضاً ، وعلى النطاق الاجتماعي كما في الكونغرس الأمريكي نفسه . وعلى كل حال فإن الآثار الاقتصادية ـ الاجتماعية السلبية لهذه السياسة داخل البلدان الرأسمالية ، وتدهور مسيرة التنمية بسبب الانجراف في تيارها في البلدان النامية أيضاً ، يؤكد على أن هذه السياسة قصيرة النظر ، وقصيرة العمر أيضاً ، بمقدار ما هي قصيرة الفترة الانتخابية الأمريكية التي تودي بإدارة وتجيء بإدارة جديدة .

فهل يمكن أن يكون مصير العالم رهناً بهذه الدورة الانتخابية ؟ ■■■

د . عارف دليلة

غاب فجرى

بقلم : مصطفى عبد الرحمن

غابَ فجرى . . . غابَ عنى مذْ غِبْنا
أنتَ ياظالم رُوحى . . . أين أنتا ؟

آه . . مِنْ أشواقِ قلبى ، وحنينى
وشجونٍ تتلاقى بشجونِ
وليالٍ لم تنمْ فيها عيونى
أقفرتْ لما خلتْ منك يمينى

نورها كنتَ ، فقل لى : « أين انتا ؟ »
كلُّ نورٍ غاب عنى مُنذُ غِبْتا

***

لا رأتْ عيناكَ يوماً ما الاقى
من عذابٍ واشتياقٍ واحتراقِ
ودموعٍ حائراتٍ فى المآقى
تسألُ الأيام عن يومِ التلاقى

يوم ألقاكَ مع الفرحةِ عُدْتَا
وأرى الدنيا على نورك أنتا

***

عُدْ فإنْ عُدْتَ ليالينا تنير
إن خطوْنا يسبقُ الخطو البشيرْ
أو أردنا فلنا دُنيا تسيرْ
عدْ ، هوَ العمرُ وإنْ طالَ قصيرْ

ومُنى عُمْرى أنْ ألقاكَ أنتا
وأغنى عادَ لى قلبى وعُدْتَا

***

ياحبيبَ الروحِ عُدْ لى . . عُدْ إلينا
أملاً يحيى المنى فى ناظرينا
فرحةً تملأ أيامى علينا
نغمةً خالدةً فى أذنينا

أنا ادعوك بقلبى ، هل سمعتا ؟
أين أنت اليوم منى . . أين أنتا ؟ ■ ■

هذه هي القنبلة العنقودية

فى داخلها ما بين ٤٥٠ و ٢٠٠٠ قنبلة صغيرة

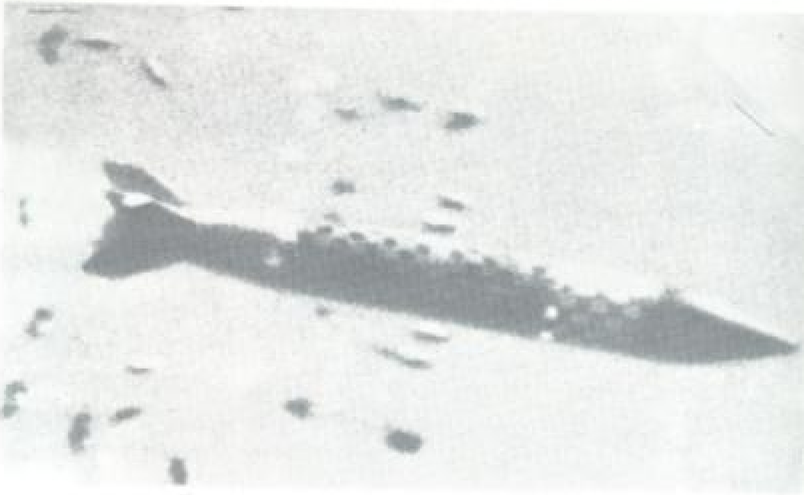
بقلم اللواء دكتور : محمد كمال عبد الحميد

ظهرت القنابل العنقودية لأول مرة في سماء الشرق الاوسط ، اثناء الغزو الاسرائيلي للبنان ، ومحاولة العدو الشرسة لارغام الفلسطينين والوطنيين اللبنانيين على الاستسلام . ألقت اسرائيل هذه القنابل العنقودية مرتين على لبنان ، احداهما اثناء احتلال مدينة صور ، والثانية في منطقة الشوف جنوب الطريق الدولي الممتد من بيروت الى دمشق . . ماهي قصة ذلك السلاح الخطر والمحرم دوليا ؟ .

القنبلة العنقودية سلاح شديد الفتك نظرا لاحتوائها على عدد كبير من « القنيبلات » ، التي تتناثر في الجو عقب اطلاق القنبلة « الأم » الحاوية لعنقود القنيبلات ، وقد صممت بطريقة تكفل لها الانفجار بعد انطلاقها من المدفع ، لتتناثر منها تلك القنابل الصغيرة لتنتشر على مساحة ارضية واسعة فتهبط متفجرة لتخترق جسد الانسان الذي قد يكون مختبئا وراء أي صخرة أو أكياس من الرمل أو قد يكون مرتكزا في أحد الخنادق أو مستترا وراء أي ساتر طبيعي أو صناعي . . لتسبب له تمزقا في أنسجته فضلا عن احتراق الاجزاء التي تتعرض لسقوط الشظايا الصغيرة المتعددة . وهو ما ينشأ عن انفجار تلك المجموعة الكبيرة من القنيبلات . . .

أصلح المدافع

هذه هي الصورة العامة لخطورة تلك القذيفة المدمرة . وقد روعي في تصميمها لتكون سهلة التداول والاستخدام في وحدات المدفعية ذات المرامي المرتفعة الزاوية . .



● قنبلة عنقودية جديدة متطورة أثناء انتثار القنبلات في الجو قبل الوصول الى الهدف . .

ومعلوم أن وحدات المدفعية الميدانية في مجموعها تنقسم الى مجموعتين من حيث خصائصها او من حيث طرق مناطق استخدامها ، والنوعان هما :

فهناك « المدفعية الميدانية العادية » وهي المعروفة بمرامها المستقيمة « نسبيا » ، والتي يقتصر استخدامها عادة على القصف المباشر ضد الاهداف المكشوفة كالمباني والقلاع والحصون الخراسانية والمرافق الهامة . وهناك نوع آخر من المدفعية التي تستخدم ضد الاهداف المستترة وراء التلال أو بالخنادق او خلف المباني او في الوديان ، والتي تحتاج الى اسقاط القذائف عليها من أعلى . وهذا يقتضي استخدام نوع من اسلحة المدفعية التي تتميز بقدرتها على الضرب على زوايا مرتفعة حتى يتاح للقذيفة اتخاذ مسارها الى ارتفاع أعلى من المسار الذي تسلكه القذيفة العادية . وحتى اذا ارتفعت القذيفة الى ما تتجاوز به السواتر والمرتفعات التي تعترضها تعود للسقوط على أهدافها المستترة أو الموجودة خلف تلك المواقع أو الهيئات .

ويعرف هذا النوع من المدفعية . . باسم المدفعية « الهاوتزر » والتي يمكن تبسيط خصائصها بأنها تمزج بين مميزات كل من :

● مدافع « الهاون » التي تتميز بارتفاع زاوية انطلاق قذيفتها .

● ومدافع الميدان التي تتميز بطول المدى الذي تصل اليه قذيفتها .

ولهذا فان مدافع الهاوتزر تعتبر أكثر أنواع الاسلحة الميدانية صلاحية لاستخدام القنابل العنقودية ، للحاجة الى ارتفاع تصل اليه القذيفة حتى يتسع المجال لقنابلها الصغيرة لكي تنفجر بعد انفصالها من القذيفة الأم قبل سقوطها على أهدافها المحددة لها .

● هذا من حيث سبب اختيار أو تفضيل نوعية مدافع الهاوتزر لتكون أداة الاطلاق لتلك القذائف العنقودية . تبقى بعد ذلك قضية اختيار حجم او نوع مدفع الهاوتزر الاكثر ملاءمة للقيام بهذا الدور . اذ معروف أن احجام المدافع والاسلحة تختلف من حيث وزنها و « عيارات » أي « أقطار » فوهاتها . . وبالتالي تختلف أنواع القنابل المستخدمة لكل نوع من تلك المجموعات المتعددة الاحجام . . وأن لكل منها واجبات ميدانية خاصة تتطلبها ظروف المعارك . . وأن اختيار أو تحديد هذه الانواع وهذه الأحجام إنما جاء نتيجة للدروس المستفادة من

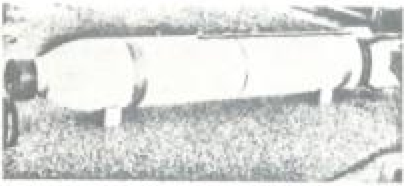


● مدفع هاوتزر من عيار ١٥٥ محمول على دبابة ويمكنه اطلاق القنابل العنقودية والقنابل الفوسفورية لارتفاع زاوية اطلاقه بدرجة تسمح بانفجار هذه القنابل وهي في الجو لتؤدي وظيفتها على هذا الاساس . .

المعارك الطويلة في الحروب التي جرت على مختلف الساحات والميادين عبر العصور الطويلة . .

من ٤٥٠ الى ألفي « حبة »

● ونظرا لان القنبلة العنقودية قد صممت أصلا . للقضاء على التجمعات « البشرية » حيثما كانت ، سواء في مناطق الحشود العسكرية ، أو على خطوط « الابتداء » قبل أو أثناء التقدم الى مسرح العمليات ، أو أثناء راحة القوات في المناطق الادارية المخصصة للراحة أو للتدريب . . فان القذيفة « الأم » تحمل في جوفها عادة عنقودا من القنابل الصغيرة . ويتراوح عدد تلك القنيلات من ٤٥٠ الى ٢٠٠٠ « حبة » وذلك حسب حجم كل حبة منها . . وبذلك تكون القذيفة العنقودية قادرة على نثر وبعثرة هذا العدد الكبير من القنابل الصغيرة بعد انفجارها لتهبط متفجرة على الاهداف « البشرية » لتسبب أنواعا وألوانا مختلفة من الاصابات القاتلة والحارقة والمزعجة . . ومعنى هذا أن وزن القنبلة العنقودية لا بد وأن يكون مناسبا لحمل هذا العدد من القنيلات ، بالاضافة الى ما تحمله أيضا من



● « عين الصخرة » أو القنبلة العنقودية المضادة للدبابات والتي تلقى من الطائرات الى ساحات تجمع المدرعات ووزنها ٢٢٧ كيلو جراما وتحتوي على ٢٤٧ قنيلة وزن كل منها حوالي جرام وتكفي لتدمير دبابة بعد أن تنفجر فوقها ولتهلك طاقمها . . . .



● مدفع هاوتزر اسرائيلي امام بيروت اثناء اطلاق قذائفه في شهر يونيو الماضي .

المادة المتفجرة التي تسبب انفجار تلك القنيبلات بمجرد انفراط « العنقود » الذي كان يضمها جميعا .

● ولهذا كان لابد وأن يكون المدفع الهاوتزر الذي يطلق هذا النوع من القنابل العنقودية .. من المدافع الضخمة القادرة على دفع القنبلة العنقودية بما تحتويه في جوفها الى مسافات بعيدة .. والمعروف أن وزن القنبلة العنقودية يكون عادة حوالي ٤٣ كيلو جراما . ولذلك كان أفضل أنواع المدفعية الهاوتزر القادرة على اطلاق تلك القنابل وبسرعة .. والى مسافات كبيرة هي المدافع ذات عيار « أي قطر » ١٥٥ ملليمترا . والتي يصل مدى القذيفة المنطلقة منها الى ٢٤ كيلو مترا « .

وتبلغ مساحة المنطقة التي تغمرها تلك « القنيبلات » الصغيرة التي تنفرط متفجرة من « العنقود الطائر » ضعف مساحة ملعب كرة القدم . وهذا يعني وجود احتمال كبير جدا لاصابة أعداد كبيرة من الأفراد الموجودين في المنطقة المراد قصفها .. ويمكن اطلاق القنبلة العنقودية على زوايا مختلفة من المدفع الهاوتزر لقدرته على الضرب على مدى قوس طويل بين زاويتين بين (درجتين و ٦٧ درجة رأسية) وهذا يعني اتساع الفرصة للضرب على أهداف مستترة وراء أية مواقع عالية في حدود هذه الزوايا .. وهذا ما لا يتيسر تحقيقه بواسطة أسلحة ميدانية أخرى ..

وتختلف شدة الاصابة التي تحدثها تلك القنيبلات .. حسب ما يتعرض لها من جسم الانسان .. فهي قاتلة حتما لو أصابت الجمجمة أو القلب وقد تخترق انسجة العضلات فتمزقها وتحرق الجلد ... وقد تنثر شظاياها الصغيرة لتستقر في مساحات مختلفة من الجسم فتسبب آلاما كبيرة ، بالاضافة الى الآلام النفسية التي تسببها كل تلك الاصابات مهما تضاءلت أحجام الشظايا المسببة لها .

و « العنقودية » .. المضادة للمدرعات !!

وهناك نوع آخر من القنابل العنقودية التي تستخدم

ضد المركبات مع اختلاف انواعها سواء كانت من السيارات المدرعة الخفيفة أو من الدبابات المتوسطة أو الثقيلة أو من الجرارات القاطرة لعربات الذخائر أو البترول أو العربات المجنزرة الناقلة للافراد الخ . . . .

ومن الطبيعي أن تكون « القنابل » التي تنفرط من العنقود الأم مناسبة لاحداث الاصابات الفعالة في تلك المركبات أيا كانت انواعها . . ومعنى ذلك ان يكون حجم « القنبلة » كافيا لتدمير أي مركبة تسقط عليها .

ولهذا كان وزن كل قنبلة من هذه المجموعة العنقودية حوالي كيلو جرام واحد ويوجد في كل قنبلة عنقودية ٢٤٧ « قنبلة » وبذلك كان وزن القنبلة العنقودية المضادة « للمركبات » ٢٢٧ كيلو جراما أو ٥٠٠ رطل . . ونظرا لضخامة حجم هذا النوع من القنابل فإنه من الصعب جدا استخدامها بالاسلحة الميدانية التقليدية والمتاحة عادة بالوحدات البرية المسلحة

وعلى ذلك . أصبح حتميا استخدام الطائرات في اسقاط هذا النوع « الضخم » من القنابل العنقودية . ويبلغ تأثير انفجار تلك القنابل وهي في الجو وعلى ارتفاع بسيط من اهدافها المحددة لها درجة كبيرة من الدقة والخطورة بحيث تكفي لاصابة المركبة بقنبلة صغيرة واحدة لكي تتعطل ويصاب افرادها من شظاياها المتناثرة .

وتختار اهداف هذه القنابل . لتكون في العادة بمناطق تجمع الوحدات المدرعة قبل « انتشارها » في تشكيلات المعركة أو تشكيلات القتال حيث تتطلب تباعد المركبات عن بعضها البعض أثناء التحرك . .

وقد تطلق على القوافل « الميكانيكية » المتقدمة أو المنسحبة على الطرق وعلى مداخل المدن والجسور أو على مناطق الصيانة ، حيث تتجمع بها الوحدات المنتظرة « ادوارها » للصيانة والاصلاح .

وتزداد خطورة الاصابة لو تعرضت احدى العربات الحاملة لاية مواد متفجرة أو قابلة للالتهاب كمواد الوقود والذخائر . .

وللعلم فان هذا النوع لم يستخدم فقط في الحرب الاسرائيلية بلبنان ، ولكنه استخدم لاول مرة في حرب فيتنام . . وتقدمت فيتنام الشمالية بالشكوى الرسمية في الامم المتحدة ضد القوات الامريكية وكان ذلك في اواخر الستينات . .



*فتاة فلسطينية من ضحايا القنابل العنقودية وترى تمزقات وثقوب الاصابة من شظائر وشظايا انفجار « القنيلات » التي أصابتها بعد انفجارها في الجو قبل وصولها الى الضحية .

عودة الى الماضي

* والمعروف أن هذا النوع من القنابل العنقودية ظهر انتاجه لاول مرة في الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ وتم اعتمادها كسلاح رسمي للقوات الامريكية المسلحة عام ١٩٦٧ . . وأما القنابل العنقودية المضادة للافراد فقد استخدمت في فيتنام . . ونيكاراجوا . . ولبنان ، أما القنابل العنقودية للافراد فقد ذاع سرها في اوائل السبعينات .

* وتعود فكرة اختراع هذا النوع من القنابل . . الى فكرة متطورة لنوع القنابل المعروفة بقنابل « شرابنيل » والتي كانت معروفة منذ ما قبل الحرب العالمية الاولى ، والتي يعود تاريخها الى اواخر القرن الثامن عشر . اذ أخذ عنها أحد ضباط المدفعية البريطانية واسمه « هنري شرابنيل » وكانت هوايته دراسة خصائص الأسلحة والقذائف ، وهو الذي اخترع قنبلة للمدفعية تضم بداخلها كرات حديدية صغيرة وكميات من البارود



● قنبلة عنقودية أمريكية الصنع استخدمتها اسرائيل في قصف معسكر « برج البراجنة » ولم تنفجر في الجو فوق الهدف كما كان مقدرا لها ، فسقطت وتحطمت ، وتناثرت محتوياتها . .

الاسود تكفي لتفجير القنبلة الام الحاوية لتلك الكرات والبارود . ولتنفجر في الجو فوق الوحدة المحددة لها لتسقط تلك الكرات لتصيب الأفراد اثناء وجودهم في المعركة سواء بالعراء أو بداخل خنادقهم . .

وقد نجحت تلك القنابل تماما في اداء وظيفتها في حرب الفلاندر سنة ١٧٩٣ وفي جبل طارق ونيوفوندلاند وفي الهند الغربية . واستمرت سلاحا معترفا به الى الآن رغم ما تناوله وتعرض له من تطوير وتحسين . وكانت القنبلة العنقودية صورة متطورة لها مع الفارق الكبير في الخصائص بين السلاحين . . ولكن الهدف كان لتدمير اكبر وحدات من الهدف بشظايا وقنيبلات قذيفة واحدة . .

وهناك دراسات كثيرة متعددة في ترسانات ومراكز بحوث الاسلحة والذخائر في كل من الشرق والغرب وحتى في اسرائيل ، من أجل تطوير القنابل العنقودية ولا شك أن بالامكان استحداث اضافات وتعديلات خطيرة لمضاعفة قوة فتك تلك القذائف . .

وعلى سبيل المثال :

● يمكن أن تضم القنابل الجديدة اعدادا اكبر من القنيبلات حتى ولو اقتضى الامر تصغير أحجام وحداتها . وتغيير نوع المعادن التي تصنع منها . . مقابل زيادة عددها في القذيفة دون حاجة الى تغيير وزن تلك القذيفة ولكي تبقى صالحة لاستمرار استخدامها من نفس المدفعية الهاوتزر ذات عيار ١٥٥ ملليمترا .

● كما يمكن صناعة أحجام أصغر من القذائف العنقودية حتى ولو احتوت اعدادا أقل من القنيبلات لكي يسهل استخدامها من المدافع « الهاون » التي يعمل عليها فردان فقط والتي تستخدم في العمليات السريعة وفي المناطق الامامية وخاصة في المناطق الجبلية وذات الاراضي المرتفعة (كأراضي لبنان وفلسطين وبعض مناطق سوريا . والعراق والجزائر واليمن والمغرب وسلطنة عمان والأردن . .)

● وكذلك يمكن اضافة مواد حارقة لمحتوى القنيبلات بحيث يتضاعف خطرها فور سقوطها بعد الانفجار وهي فوق اهدافها .

● فضلا عن ان اضافة مواد لتوليد دخان « ملون » الى محتوى القنبلة سيثير حتما الرعب والتوتر لما سيظنه الضحايا بأن هذا الدخان الملون من انواع الغازات السامة . . فيتركوا مواقعهم طلبا للنجاة . .

ولا شك أن هناك احتمالات كثيرة حول تطوير خصائص وقوة فاعلية القنابل العنقودية ليسهل تداولها وتزداد خطورتها . ■■

لواء د . محمد كمال عبد الحميد

مصر وشعرها الفرنسي

بقلم أحمد عبد المعطي حجازي

قليلون هم الذين يعرفون أن مصر مثلها مثل بلاد المغرب العربي ولبنان ، كان لها شعراء يكتبون بالفرنسية ربما سمع بعضنا عن جورج حنين ، أو أحمد راسم ، أو بشر فارس ، وربما كان المتصلون بالثقافة الفرنسية يعرفون أن بعض الشعراء المشهورين الآن في فرنسا مثل ادمون جابس وأندريه شديد ولدوا وعاشوا شطرا كبيرا من حياتهم في مصر . لكن الكثيرين سيفاجأون ـ كما فوجئت ـ بأن مصر عرفت خلال النصف الأول من هذا القرن أكثر من خمسين شاعرا يكتبون بالفرنسية ، وبدقة أكثر خمسة وخمسين شاعرا هم أصحاب القصائد المختارة التي ضمها كتاب صدر في القاهرة عام ١٩٥٥ عن منشورات الأتيلييه « بعنوان « شعراء في مصر » وهو عنوان حذر كما نرى ، يكتفي بالقول ان هؤلاء الشعراء يعيشون في مصر دون الادعاء بأنهم منها .

وربما ظن بعضنا ـ وله الحق ـ أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا الا هواة غير محمولين على محمل الجد لأننا لم نسمع بهم رغم أن الفاصل الزمني بيننا وبينهم لا يزيد عن ربع قرن . لكنهم في الحقيقة لم يكونوا كلهم هواة . لاشك أن بعضهم كان كذلك ، لكن بعضهم الآخر كان له شأن في مصر وخارجها ، واستطاع أن يحصل على الاعتراف والشهرة وأن يعد بين كبار الشعراء باللغة الفرنسية أما جهلنا بهم فيعود الى أسباب أخرى لاتتعلق أولا بقيمتهم ، وانما تتعلق من ناحية بعجزهم عن اختراق الحاجز الذي كان يفصلهم عن البيئة الثقافية في مصر ، وهي مع اتصالها المبكر بالثقافة الغربية ، بيئة عربية تهضم وتزداد اتصالا بجذورها ، وهذا هو ما عبر عنه عنوان الكتاب ، كما تتعلق هذه الاسباب من ناحية أخرى بالمصير الفاجع للثقافة الفرنسية في مصر هذه الثقافة التي عاشت غالبا في كنف الارستقراطية المصرية والأجانب المتمصرين الذين كانوا يعيشون في وسط شبه مغلق ، حتى قضت عليهم جميعا الاجراءات السياسية والاقتصادية لثورة ١٩٥٢ .

لقد كان للفرنسيين في مصر حتى قيام الثورة ١٤٩ مدرسة ، كما كان لهم مركز ثقافي ومجلة فصلية . أما المصريون المثقفون بالفرنسية فقد حاولوا أن يلعبوا دورا طليعيا في الأدب والفن والسياسة ، ومن ذلك اسم الجماعة التي أنشأها (المحاولون) كما كانت لهم صحفهم ومجلاتهم التي تصدر بالفرنسية ومعارضهم ، وصالوناتهم الأدبية ، ومن المعروف أن بعض كتاب العربية الذين تعلموا في فرنسا بدأوا محاولاتهم الأولى باللغة الفرنسية كما فعل الدكتور محمد حسين هيكل عندما كتب روايته « زينب » في صورتها الأولى ، وكما فعل توفيق الحكيم في بعض مسرحياته وفي جزء من روايته (عودة الروح) ، وبالمقابل فان عددا من هؤلاء

الشعراء الذين كانوا يكتبون بالفرنسية ، كانت لهم علاقات قريبة أو بعيدة بالثقافة العربية ، وبعضهم كان يكتب باللغتين في وقت واحد مثل بشر فارس ، وبعضهم كان يترجم عن العربية الى الفرنسية مثل أحمد راسم الذي نقل الف مثل شعبي من العامية الى الفرنسية ، وخضري عبد المنعم الذي تخصص في نقل عدد من أعمال توفيق الحكيم الى هذه اللغة . وكانت للبعض صلات قرابة حميمة بعدد من أعلام الأدب العربي الحديث كما تجد عند مؤنس ابن الدكتور طه حسين وعند فولاد يكن ابن الشاعر ولي الدين يكن ، وعند جورج حنين الذي تزوج بحفيدة أمير الشعراء شوقي .

لكن علاقة هؤلاء الشعراء بالثقافة العربية تظل هامشية اذا قيست بعلاقاتهم بالثقافة الفرنسية ، ان أربعة عشر شاعرا فقط يعودون الى أصول مصرية واضحة مثل أحمد راسم ، وخضري عبد المنعم ، وفؤاد أبو خاطر ، والأمير حيدر فاضل ، والدكتورة درية شفيق ، ومحمد خيري ، وجورج حنين وابراهيم راتب ، ومحمد ذو الفقار . أما الباقون فكانوا لبنانيين ، أو أجانب متمصرين وهؤلاء لم تكن الفرنسية بالنسبة لهم لغة كتابة فحسب ، بل كانت انتماء ثقافيا وسياسيا في أغلب الأحيان ،كانوا جزيرة فرنسية فيما وراء البحار ، قلوبهم مشدودة الى الثقافة الأم ، يتابعون ما يصدر في فرنسا ، وينخرطون بلا جهد في تياراتها الادبية والفكرية ، كان بعضهم لايزال متعلقا بالرومانتيكية أو البارناسية ، وآخرون كانوا رمزيين أو سورياليين ، كما كانت لعدد منهم علاقات شخصية وثيقة بعدد من الكتاب والشعراء الفرنسيين مثل بيير لوتي ، وجورج ، وهاميل ، وجوليبت آدم ، وبول فاليري ، وأندرية جيد ، وأندريه بريتون وسواهم .

واذا كان هؤلاء الشعراء قد نشأوا في أوساط اجتماعية مقتدرة وفي بيئة مختلطة تدين بالاسلام والمسيحية واليهودية وتتكلم الفرنسية والانجليزية والايطالية واليونانية والالمانية فضلا عن العربية والتركية ، أقول اذا كانوا قد نشأوا هذه النشأة فمن الطبيعي أن يتمتعوا بثقافة يندر أن يتمتع بها انسان . كان كل منهم يتكلم ويقرأ ويكتب بلغات عدة ، وكانت تتمثل فيهم وحدة الفنون ، فهم شعراء ، وقصاصون ، ورسامون ، ونقاد تشكيليون ، ومقتنو تحف وهواة آثار ، بل ان واحدا منهم كان مغنيا ممتازا ، وهو إليك سكوتي الذي درس الأوبرا في ايطاليا واشترك مع المغني العالمي الشهير كاروزو في أداء أوبرا ريجوليتو لفيردي ، في أحد العروض التي قدمت لها في موناكو في العشرينات .

ما هي القيمة الحقيقية لهذا الشعر ؟

لقد نشرت أعمال هؤلاء الشعراء في فرنسا وبلجيكا فضلا عن مصر ، وقوبل بعضها بحفاوة شديدة من الشعراء والنقاد الفرنسيين ، كما نرى مثلا في هذه الكلمة التي نشرتها مجلة « كاييه دي سود » كراسات الجنوب ـ عن جورج حنين ، في عددها الخاص بالسورياليين الأجانب الصادر عام ١٩٤٦ حيث قدم الشاعر المصري كرجل « كرس نفسه لكشف امكانات السوريالية والتعريف بما تستطيع أن تقدمه في الوقت الحاضر . انه جورج حنين ـ لا يعتبر السوريالية مجرد حركة أدبية ، بل يراها تعبيرا قويا عن حالة نفسية توجه سلوك الفرد » . وتضيف المجلة أن جورج حنين الصديق الحميم لبيريه ، وبريتون وكالاس ، لايزال حتى الأن قليل الشهرة لكن كل الدلائل تدفع الى التفكير بأن السوريالية تستطيع بفضل نشاطه أن تستعيد عنفوانها الكامل » .

هذا الترحيب لقيه كذلك إدمون جابس من ماكس جاكوب ، وبشر فارس من رينيه اتيامبل على صفحات « نوفيل ريفو فرانسيز » بمناسبة عرض قصيدته الدرامية « مفرق الطريق » على مسارح باريس وسالزبورج وفيينا في أوائل الخمسينات ، وكذلك من لان ريفاري الذي قال عنه في مجلة « بارول فرانسيز » انه مقدمة مصرية لكافكا .

هذه الكلمة الأولى في التعريف بهؤلاء الشعراء لا تكتمل الا اذا قرأنا شيئا من أشعارهم .

طرائف عربية

تسع نصائح قيمة

● قيل ان عنوان المصري كان شيخا قد أتت عليه أربع وتسعون سنة ، وكان يختلف الى مالك بن أنس يأخذ منه العلم . فلماقدم جعفر بن محمد الصادق ـ رضي الله عنه ـ أخذ يختلف اليه ، ويأخذ عنه وفي مرة قال له الصادق يا أبا عبد الله ، أوصيك بتسعة أشياء فانها وصيتي لمريدي الطريق الى الله ، اسأله أن يوفقك لاستعمالها : ثلاثة منها في رياضة النفس ، وثلاثة منها في الحلم وثلاثة منها في العلم . فاحفظها واياك والتهاون بها .

قال عنوان المصري : « ففرغت قلبي له فقال رضي الله عنه : أما اللواتي في الرياضة فاياك أن تأكل ما لا تشتهيه ، فانه يورث الحماقة والبله ، ولاتأكل الا عند الجوع ، واذا أكلت فكل حلالا .. وسم الله ، واذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ، فان كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه »

وأما اللواتي للحلم فمن قال لك ان قلت واحدة سمعت عشرا فقل له ان قلت عشرا لم تسمع واحدة ، ومن شتمك فقل له : ان كنت صادقا فيما تقول فاسأل الله تعالى أن يغفر لي ، وان كنت كاذبا فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لك ، ومن وعدك بالخنى فعده بالنصيحة والدعاء .

وأما اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما جهلت ، واياك أن تسألهم تعنتا وتجربة ، واياك أن تعمل برأيك شيئا ، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد اليه سبيلا ، واهرب من الفتيا هروبك من الأسد ولا تجعل رقبتك للناس جسرا . »

قضاة صغار

● ذكر الخطيب في تاريخ بغداد قال : ان يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسنه عشرون سنة أو نحوها فاستصغروه ـ فقالوا : « كم سن القاضي ؟ » فقال « أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من معاذ ابن جبل الذي وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن ، وأنا أكبر من كعب ابن سويد الذي وجهه عمر بن الخطاب قاضيا على البصرة » . فجعل جوابه احتجاجا له .

صحبة الناس

● قيل لابراهيم ابن أدهم : « لم لاتصحب الناس ؟ » فقال : ان صحبت من هو دوني آذاني بجهله ، وان صحبت من هو فوقي تكبر علي ، وان صحبت من هو مثلي حسدني ، فاشتغلت بمن ليس في صحبته ملال ، ولا في وصله انقطاع ، ولا في الأنس به وحشة »

عق يومه

● قال الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من أمضى يومه في غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو خير أسسه أو علم اقتبسه ـ فقد عق يومه

بحر بن فياض

● سئل بعض العرب عن اسمه فقال : « بحر » قيل : « ابن من ؟ » قال : « ابن فياض » . قيل : « ما كنيتك » ؟ فقال : « أبو الندى » فقيل : « لاينبغي لأحد لقاؤك الا في زورق . »

الإنسان حقاً لا يموت !

بقلم الدكتور عبد المحسن صالح

من المبادىء الراسخة التي تقوم عليها شرائع الكون والحياة ان يحل الجديد دائما محل القديم ، وفي هذا الاحلال فكرة وعدل ، وفيه ايضا خير وفضل . وعلى نفس هذا المبدأ نشأت فكرة الموت والحياة - ليس فقط على مستوى الانسان او غيره من الكائنات التي تشاركه الحياة على هذا الكوكب ، بل على مستوى الجسيمات والذرات والجزيئات والكواكب والنجوم والمجرات . . . وهذا ما سبق ان اوضحناه في ثلاث دراسات سابقة على صفحات هذه المجلة .

في هذه الدراسة سوف نركز حديثنا على معنى الموت في الانسان خاصة ، والكائنات الاخرى عامة ، ولكي ندرك المعنى الذي اتخذناه عنوانا لهذه الدراسة ، اي ان الانسان لا يموت ، كان لابد ان تكون نظرتنا الى ما يجري على كوكبنا نظرة شاملة جامعة ، ومنها ستعرف ان الحياة حقا لا تموت ، لأن الموت والحياة سمتان متلازمتان لهدف كبير ، فمن خلالهما تنبع ظاهرة التجدد والتغير ، ليكون التطور الى الارقى دائما .

ولكي تتضح لنا ابعاد هذه المسرحية القائمة على ارضنا ، ونراها برؤية اوسع واعمق واشمل ، فلا اقل من تقديمها بطريقة تصورية ، ولنتخيل ان هناك كائنا عاقلا ينزوي في مكان ما بالفضاء ، ثم راح ينظر الى الارض من بعيد بمنظار يقرب له البعيد ، ويكبر الصغير ، ولنفترض ان هذا الكائن لا يتأثر بمرور الزمن ، بل يبقى على حاله وهو يرقب كوكبنا لعشرات او مئات الالوف من السنوات الماضية ، او ربما القادمة . . . عندئذ سيرى مخلوقات كثيرة مختلفة ، لكنها صغيرة جدا ، اذ تبعد عنه بمسافات تقدر بآلاف الكيلومترات ، لكنه يراها كما نرى نحن مثلا صور الحياة الدقيقة تحت العدسات . ولاشك انه سيرقب من بينها مخلوقات تسير قائمة ومنتصبة على شعرتين دقيقتين (هما ساقا الانسان) ، ومنها ما يجري على شعرات اربعة (اي الحيوانات الاخرى التي تمشي على اربع) ومنها

ما يحلق في جو الكوكب بهدبين او شعرتين (اجنحة الطيور) ، ومنها ما يزحف على هيئة خيوط دقيقة (الافاعي) . . . الخ

المهم ان صاحبنا هذا يرى طوفانا دافقا من حياة مختلفة ، وهو بهذه المعايير لا يستطيع ان يميز بين نساء ورجال ، او بين شيوخ وشباب ، ولا فلانا من علان . . . الخ ، كل ما يستطيع تمييزه عبر آلاف السنين هو دوام هذه المخلوقات ، وانتشارها في الزمان والمكان ، وقد تزيد اعدادها او تنقص على حسب الظروف السائدة على الكوكب ، او قد يراها تتجمع وتتفرق ثم تختفي حينا ، وتظهر حينا آخر ما بين راحة ونشاط .

ويظل هذا الكائن يرقب ويرقب ، والحياة بكائناتها تسير وتسير ، وعندئذ قد ينفد صبره ، ويتخلى عن منظاره ، وبعدها قد يشحذ فكره ، ويقدح ذهنه ، ويلخص ما رآه في عبارة واحدة ، قد تكون هكذا « ان مخلوقات هذا الكوكب لا تموت ولا تفنى بمرور الزمن . . . . انها تبدو وكأنما هي خالدة »!

وهو على حق فيما استنتج ، لأن نظرته البعيدة والثاقبة والشاملة قد ركزت على الانواع لا الافراد ، وطبيعي اننا نعتبر نظرته ـ بالنسبة لنظرتنا ـ خاطئة ، رغم ان نظرتنا هي القاصرة ، فعيب الانسان الفرد انه يركز كل الحياة في شخصه هو ، ويحاول جاهدا ان يحافظ على ذاته من الموت ، لأن معنى الموت ـ بالنسبة له ـ يعني موت كل شيء يتصل بوجوده على هذا الكوكب . . . عطاؤه وماله وكيانه واحساسه ، وكأنه بالموت لم يكن ، رغم ان كل شيء يسري بعد ذلك سريانه الطبيعي لأن الحياة لا تتوقف لأحد ، ولا كذلك الزمن ، فلقد انتهى الزمن فيه هو ، لكن الزمن ذاته ، لا يزال يمضي بمخلوقاته ، ويتعاقب بليله ونهاره لغايات اسمى ، واهداف اعلى ، وافكار ارقى . . ولن يتأتى ذلك الا بموت يعقبه حياة . . او اختفاء القديم ، ليحل محله الجديد .

ولاشك ان الزمن يلعب لعبته الازلية على مسرح الحياة المنصوب على كوكبنا . . . فيظهر عليه ممثلون ، ويختفي آخرون ، ولكل واحد منا دوره في المسرحية ، وقد يطول دوره ، وقد يقصر ، وقد تكون حياته مؤثرة ، وقد تكون عابرة . . لكن الشيء الهام جدا ان الحياة ذاتها تجدد نفسها من خلال مخلوقاتها . . . انها تتغير وتتبدل ، وتختفي وتظهر ، وتبعث وتقبر ، وكأنما شعارها الذي سارت وتسير وستسير عليه عبر الزمان الطويل هو : التنوع في المخلوقات ، ثم انتقاء الصالح من الانواع ، واسقاط الطالح من كشف الحساب !

ورغم اننا نحب جميعا التخلي عن كل شيء قديم ومتهالك ، واقتناء كل جديد ومتطور . . الثاكان ذلك او ثيابا او سكنا او سيارة . . الخ ، الا اننا نمقت تطبيق المبدأ ذاته على انفسنا ، فلا احد يرحب حقا بالشيخوخة ، ولا يرتاح قطعا لفكرة الموت ، الا ان نواميس الكون ، وشرائع الحياة لا بد سارية ، سواء رضينا ام لم نرض ، اذ مما لا شك فيه ان ظهورنا على هذا الكوكب كان نتيجة لاختفاء اجيال سبقتنا ، فالموت يخلفه حياة ، والحياة يخلفها موت ، ولولا ذلك لركد كل شيء ، وليس الركود من سمة الحياة ، اذ انها دائما في ديناميكية متجددة لتبقى لها قوتها وصمودها ، طالما كانت الظروف في صالحها ، لتؤدي الى استمرارها .

ومن الأموات تبعث الحياة

والذين يقولون ان الانسان حتما يموت ، فاننا نعطيهم الحق فيما يقولون ، فهم على قدر ما عرفوا قالوا ، رغم ان الانسان نفسه لا يموت ، لأن الانسان ذاته نوع من انواع الكائنات الحية ، والانواع لا تموت ، بل ان الذي يموت هو زيد وعمرو وسنية وبهية وغير ذلك من افراد النوع الواحد ، ويعني هذا ان الفرد زائل ، لكن النوع باق ، لأن النوع يحمل في طياته مسببات وجوده ، وهي تنتقل من جيل الى جيل عن طريق التناسل ، وبالتناسل تنتشر الانواع في الزمان والمكان ، فكأنما كل جيل يعيش زمنه المحدود ، لكن قبل ان تدب فيه عوامل الفوضى والموت والفناء ، كان لابد ان تنفصل منه عوامل البقاء ، وهذه تتمثل لنا في الخلايا الجنسية وعندما تنفصل وتترك الجسد الذي يحمل في طياته عوامل موته ، فانها تتقابل كنطف ذكرية وانثوية ، لتبدأ بها حياة جديدة اعظم نضارة ،



في الموت والحياة تكمن حكمة احلال الجديد الغض محل القديم المتهالك ، وبهذا يكون الاستمرار للأنواع دون الأفراد

واكثر حيوية ، وبهذا يحل الجديد في النوع الواحد محل القديم .

أي كأنما الخلائق بمثابة كبار او قناطر لتعبر عليها الحياة طريقها ، لتجدد وتنوع وتنتقي وتختار ، وبعد ذلك يحل بالأفراد البوار ، وتزحف عليهم الشيخوخة والموت . . . وما الشيخوخة الا اغلال تحل بأنسجة الجسد وخلاياه وجزيئاته ، فيتحول النشاط فيها الى خمول ، والقوة الى ضعف ، والنضارة الى ذبول ، والصحة الى مرض ، ومع كل هذا فان الجسم يحمل في ثناياه عوامل استمراره ، اي بعث حياة قادمة ، على انقاض حياة زائلة ، وكأنما ينطبق عليها قول القرآن الكريم « يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي » (الروم / ١٩) . . « او لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » (العنكبوت / ١٩) .

ولاشك ان كل حي ميت ، لأنه يحمل في جنباته عناصر موته ، كما ان كل ميت حي ، ليس بذاته ، لكن بجزء او بذرة من نفس تكوينه . . . واذا كان لابد لأي حي ان يعيش حياة اقرب الى الخلود ، فعلى خلاياه ان تداوم على الانقسام باستمرار ، لأن عملية الانقسام ذاتها فيها شباب دائم ، اي ان الخلايا ـ في هذه الحالة ـ لن تهرم ابدا فكأنما هي بهذه العملية ـ عملية الانقسام ـ تعيد شبابها ، وتشحن نفسها بعوامل كيميائية تضمن لها خلود مادتها الحية ، وهذا ما نراه حقا في الكائنات الدنيا ، ولا نراه في الكائنات العليا ، ومنها الانسان بطبيعة الحال .

ولكي نوضح ، دعنا نأخذ الميكروب او الاميبا كمثال ، فلقد ظهرت هذه الكائنات البسيطة منذ اكثر من الفي مليون عام ، ومن خلال هذا العمر الطويل داومت على الانقسام ، فعاشت خلاياها شابة على الدوام ، اذ كلما وصلت الخلية الى حجم اكبر ، انقسمت الى خليتين اصغر ، حتى اذا وصلت كل خلية منها الى حجمها المناسب ، عادت لتنقسم ، وتنقسم . . . الخ ، ودون ان تحل الشيخوخة بمادتها الحية مطلقا ، وهي بلاشك تموت لكن الموت هنا عارض ، وليس بسبب الشيخوخة التي نراها في الكائنات الارقى ، والموت العارض يأتي من ظروف غير مناسبة ، كجفاف او جوع او حرارة او نفايات سامة ، او يصبح لغيره لقمة سائغة . . . الخ

ولاشك ان هناك توازنا بين الانتاج والاستهلاك ، او بين ما ينتج بعملية الانقسام ، وما يضيع نتيجة للظروف العارضة ، لكن اهم من ذلك كله ان ميكروب اليوم قد ورث مادته الحية من ميكروب الماضي السحيق ، ودون ان تظهر عليها اعراض الوهن والضعف والبوار ، لأنها تنقسم باستمرار .

والى الانسان نعود

وطبيعي ان المداومة على الانقسام في خلايا اجسامنا في مراحل العمر المختلفة لن تكون غير ذات معنى ، لأن ذلك سيحولنا الى مخلوقات ضخمة غاية الضخامة ، مما يستلزم موارد غذائية خرافية ، اذ ستكون في هذه الحالة كائنات سرطانية لا تبقى في موارد هذا الكوكب ولا تذر ومن اجل هذا يتوقف نموتا عند مرحلة البلوغ او بعدها بقليل وكأنما هي موقوتة بزمن ، وتلعب الهرمونات هنا الدور الاساسي ، واهمها هرمونات الجنس فتأخذ الخلايا الجنسية من الخلايا الجسدية زمام الامر ، وهي الوحيدة (مع استثناءات قليلة لتعويض ما يفقد من كرات الدم وما يتهتك بالجروح والاصابات) التي يسمح لها بالانقسام والتكاثر لانتاج خلايا جنسية شابة حتى ارذل العمر في الرجال ، وحتى سن اليأس في النساء ، وحيث تحل الاغلال الكيميائية بخلايا الجسد وتؤدي الى كهولتها ، فان ذلك لايسري على الغدد الجنسية فكأنما الشباب (على مستواه الخلوي) هنا ينبع من الكهولة ، ولكي تتم فصول المسرحية كان لابد ان تسعى ذكور الانواع المختلفة الى اناثها في عمليات تزاوج وتلقيح واخصاب ، وفيها تندمج الخلايا الجنسية الذكرية مع الانثوية ، وتبدأ البويضة الملقحة في سلسلة متتابعة من الانقسامات لتنتج خلايا جسدية شابة تتميز الى انسجة واعضاء في جنين لأهم خلاياه الا المداومة على الانقسام ، فيولد وينمو بالانقسام ايضا الى ان يصل الى مرحلة البلوغ ، فتتوقف الخلايا الجسدية ، ويبرز دور الخلايا الجنسية التي تواصل الانقسام ، ومن خلال هذه الفكرة الحكيمة تجدد مادة الحياة شبابها ممثلة في مخلوقات تروح وتجيء ، وتتكرر الدورة كما تكررت قبل ذلك ملايين وبلايين المرات .

وهذه - في الواقع - سنة الله في كل خلقه ، انسانا كان ذلك او حيوانا او نباتا ، فنحن نلحظ دائما ان النباتات الموسمية او الحولية يتوقف نموها بعد ازهارها ، او بمعنى آخر يتوقف الانقسام الخضري ، ويبرز الجنسي ، لأن الزهور هنا بمثابة عش زوجية يجمع بين خلايا جنسية ذكرية وانثوية (حبوب اللقاح والبويضات) ، فتندمج في عمليات التلقيح لتؤدي الى بذور ، والبذور اجنة نائمة ، فاذا زرعت بدأت الخلايا في الانقسام حتى تصل الى مرحلة الازهار والاخصاب والبذور ، وبعدها يذبل النبات ويجف ويموت ، بعد ان يكون قد انتج من ذاته الفانية ، بذور الحياة التالية ، ولهذا فان الافراد تموت ، والانواع تبقى لتواصل المشوار عبر الزمان .

لكن مما لاشك فيه ان خلود الانواع اهم وابقى بالنسبة للحياة من خلود الافراد لأن خلود الافراد ، يصيب الحياة بالركود ، والافكار بالجمود ، والتطور بالتوقف ، وبهذا تصبح الحياة ذاتها كمستنقع آسن عفن لا يفوح منه الاكل رديء فج ، ومن هنا تنبع حكمة الموت ويتضح معناه على كل المستويات ، اي لابد ان يهدم القديم ويبني الجديد ، ومن وراء هذا هدف عظيم ، والهدف ان يتطور كل شيء الى الاحسن دائما ، وهذا ما يراه العلماء حقا من خلال سجلات الحياة الحفرية التي احتفظت بها في طبقات الارض على هيئة حلقات من كائنات بدأت من بساطة الى تعقيد حتى توجت مشوارها الطويل بظهور الانسان العاقل الحكيم كنوع فريد بين ملايين الانواع التي اثبتت وجودها على هذا الكوكب من قديم الزمن . . . لكن هذا موضوع آخر يتشعب الحديث منه ويطول ، وليس له هنا مجال .

الفكرة العظمى

والواقع ان ظاهرة الموت والحياة ، او التخلي عن القديم واحلال الجديد ، تنطوي على فكرة سامية نشأت منذ ان دبت الحياة على الارض من عصور موغلة في القدم ، والفكرة كلها في جزيء او جزيئات وراثية تعرف باسم الاحماض النووية - نسبة لنواة الخلية التي تسكنها - وهذه الجزيئات بمثابة ذاكرة الحياة التي تحتفظ فيها بمخزون هائل من المعلومات مسجل على اشرطة دقيقة غاية الدقة ، واهم صفات هذه الاشرطة على الاطلاق هي التكاثر

اولا ، والطفرة ثانيا والتنوع دائما والتغير بتغير الظروف البيئية السائدة ، وكأنما هي تخضع لتجربة هائلة تكتسب منها في ذاكرتها خبرات تتعاظم وتصقل وتتقن بمرور الزمن ـ ألفا مليون عام او يزيد ـ وهي تترجم ما في ذاكرتها على هيئة مخلوقات وانواع لا نحصيها عدا ولكي يكتب لهذه التجربة الاستمرار ، فتحقق الفكرة الكبرى من وجودها ، والغايات الاسمى لاهدافها كان لابد من موت يتبعه حياة يسيران في دورات لا تتوقف ابدا اللهم الا اذا نسف هذا الكوكب نسفا .

ومما لاشك فيه ان الذي يوحد بين الخلق جميعا ـ بداية من الفيروس والميكروب الضئيل جدا ونهاية بالانسان الحكيم ـ هو الجزيء او الشريط الوراثي ، وهو لا يختلف في التكوين بين مخلوق جد بدائي وآخر جد متطور . . اي ان الفكرة واحدة لكن الاختلاف في طول الاشرطة ، وفي تنظيم الشفرة التي تترجم بها الحياة فكرتها في مخلوقاتها ، ولاشك ان الزمن كفيل بتزويد هذه الاشرطة بكل المعلومات والخبرات التي اكتسبتها الحياة في مشوارها الطويل حتى توجته في النهاية بظهور الانسان الحكيم .

ان مثالا واحدا من واقع حياتنا قد يوضح لنا ذلك تماما اذ عندما يولد طفل الانسان فانه لا يعي من ذكريات عالمه شيئا لأن ذاكرته لاتزال كصفحة بيضاء ، وعندما يتقدم به العمر ، ويمر بمراحل التعليم ، ويمارس الحياة بين الناس ، فانه يكتسب خبرات ، ويحتفظ في ذاكرته بالذكريات ، ويستخرجها كلما دعت الحاجة اليها ، ليخطط ويقرر ويغير ويبدل ويختار الى نهاية المشوار ولا يستوي هنا من له خبرات ، مع من لا خبرات له وكلها مسجلة عن طريق دوائر كيميائية كهربية كما اوضحت العلوم الحديثة ، ولقد اوضحت ايضا ان للحياة « ذاكرة » كيميائية تحتفظ بها في اشرطتها الوراثية لتستخرج من ملفاتها خططها ثم تنتقل هذه الاشرطة عبر الاجيال والانواع عن طريق خلط الاشرطة بين ذكور واناث النوع الواحد وبحيث يؤدي ذلك الى عملية تفنيط بين المكونات الوراثية اشبه بتفنيط اوراق اللعب وفي كل مرة لا يتخذ التفنيط نفس النظام لا في ورق ولا في مخلوقات ومن اجل هذا تظهر « تشكيلة » هائلة من الكائنات ليس على مستوى الانواع فقط بل ايضا على مستوى الافراد وبحيث لا يتشابه فرد مع فرد آخر شبها مطلقا ثم ان نقل الانسجة والاعضاء وزراعتها في مخلوق من مخلوق آخر خير دليل على ما نقول ـ لأن الاشرطة الوراثية تترجم خططها على هيئة بروتينات ليست موحدة بين افراد النوع الواحد ومن اجل هذا تحاربها اجهزة المناعة وتلفظها لفظا ما لم يكسر العلماء شوكتها ويمحون لها ذاكرتها وعندئذ قد يتقبلها الجسم على مضض !

عود على بدء

واخيرا . . . ما معنى الموت الذي افردنا له هذه الدراسة التي سبقتها ايضا ثلاث دراسات تتناول نفس المعنى ، لكن على مستوى الجسيمات والذرات والنجوم والمجرات ؟

معناه على المستوى العام ان كل خلق قد جاء بنظام ، وسرى في الوجود باحكام ، وعندما ينهار ، أي نظام ـ صغر شأنه او كبر وسواء اكان حيا أم جمادا ـ فان هذا يعني زوال النظام او بمعنى ابسط يموت ، ربما تمشيا مع احكام الآية الكريمة « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » (الرحمن ٢٦/ ٢٧) . . ومع ان هذه الآية تخاطب اهل الارض ، الا ان الفناء مبدأ عام في الارض وفي السماء ، مستندين في ذلك الى آية اخرى « يوم تطوي السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا اول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين » (الانبياء / ١٠٤) .

ولماذا يموت النظام وهو نظام ؟

لأن اي نظام مدرك ، لابد ان يحتل في الكون مكانا ، اي لابد ان يكون مجسدا ، وكل ما ومن تجسد ، يدركه الزمن ، فينهار في النهاية ، طال الزمان او قصر ، والذين يشيرون دائما الى ان الله في السماء ، او قد يتصورون ذلك ، فان الله ليس حقا بذلك ، لانه خارج اطار حدود الزمان والمكان . . او لا يدركه زمان ولا مكان ، ولهذا كان الخلود من صفاته ، وكل ما عداه فان !

وعلى ذلك تتأسس حقيقة عظمى . . . فكل خلق مجسد ، ولهذا فليس لخلوده معنى ، فالذرة نظام ، لكنها ليست بخالدة لأنها تموت كنظام مع موت النجوم التي تتحول الى اجسام نيوترونية مدكوكة دكا شديدا ، وبحيث

لا تستطيع ان تميز فيها جسيماتها التي كانت تعطيها نظامها ، وتهبها مداراتها ، والمادة ذاتها تموت كشظام في الثقوب السوداء ، وبحيث تصبح حالة مفردة ليس كمثلها شيء من مادة عالمنا التي نتعامل معها في جماد واحياء ، والنجوم تموت وتقبر ، والكائنات تموت وتدفن لتتحلل ، وحتى نحن نموت كل يوم قليلا قليلا ، ففي داخل اجسامنا او اجسام الكائنات الاخرى تموت الجزيئات والخلايا ، في كل يوم بالبلايين ، ويعوض الجسم موتها بتكوين جزيئات جديدة وخلايا وليدة ، كما في كرات الدم مثلا التي تموت داخل اجسامنا وتقبر وتتحلل ، لتدخل عناصرها في تكوين جزيئات جديدة ، ومع مرور الزمن الذي تقدر به اعمارنا تسود محصلة الهدم على محصلة البناء فيؤدي ذلك الى شيخوخة محتومة تنتهي بموت اكيد ، وكذلك الحال مع الخلائق الاخرى التي تتحلل جميعا الى غازات وعناصر ومركبات بسيطة ، وتعود لتتشكل من جديد في احياء قادمة ، والذي يشكلها الخلايا الحية ، وفي داخل الخلايا بروجرامات والبروجرامات خطة والخطة على اشرطة وراثية والاشرطة تحمل صفات الكائنات وهي هنا شبه خالدة لانها تعبر باستمرار طريقها من خلال الكائنات الحياة لتتكاثر وتتنوع ثم تموت وتهدم وتتحلل ومن رفاتها تنشأ انظمة جديدة ليست بخالدة بل تعيش اعمارها المقدرة ثم تتكرر الدورة ما بقيت على الارض حياة ، ولابد للارض ان تموت بموت الشمس ، والشمس نجم من نجوم السماوات ، وقد تدفن ، بعائلتها الكوكبية في ثقب اسود حيث تذهب مادتها في طريق لا ندري عنه شيئا ثم قد تبعث المادة مرة اخرى من خلال ثقب ابيض وقد يقبر الكون كله في ثقب ويبعث من ثقب فتتكون شموس جديدة لتدور حولها كواكب جديدة (انظر دراستنا السابقة على صفحات هذه المجلة) . . . وهكذا ايضا تستمر الدورة في السماوات كما استمرت قبل ذلك على الارض وغيرها من اجرام . . . وبالاختصار نشير الى الاية الكريمة « او لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الاخرة ان الله على كل شيء قدير » (العنكبوت / ١٩ ، ٢٠) .

ومما لاشك فيه ان الشيء يعرف بضده ، ومن اجل هذا كانت هناك بداية ونهاية . . . حياة وموت . . بناء وهدم . . . نظم تروح ونظم تجيء ليبقى للكون والحياة تلك الديناميكية المتجددة دوما حتى لا يصيب النظم جمود والجمود ضد شرائع الكون ونواميسه « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

اذن . . فما معنى الموت بالنسبة لنا ، خاصة وانه مبيد لذاتنا ؟ ليأخذ غيرنا مكاننا ، كما اخذنا نحن مكان غيرنا . . سنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

وليحل الجديد القوي ، محل القديم المتهالك . . وفي الاحلال تجدد ، وفي التجدد تغير ، والتغير تطور الى الاحسن دائما لأن الحياة تختار احسن ما انتجت وتحافظ عليه ، اما السيء فمآله الى زوال او قل انه يقضي على نفسه « فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » (الرعد / ١٧) .

واخيرا ، فان من صفات الحياة الطفرة او التغير في صفات الكائنات . ولقد كان الهدف من البداية الوصول بالبروجرام الوراثي الى اسمى درجات الرقي والصقل والاتقان فتمخض هذا في النهاية عن ظهور الانسان وهو بلاشك فريد بين المخلوقات بعقله الراجح وادراكه الواضح وفكره الصائب ، ولقد كان هذا محصلة تجربة هائلة بدأت منذ اكثر من ٢٥٠٠ مليون عام وقد لا تتوقف عند هذه الحدود بل قد تتعداها الى صقل اعظم واتقان اكبر وليتمخض البروجرام في المستقبل البعيد عن ظهور انسان « سوبر » ، يدرك من ابعاد الكون والحياة ما لا يستطيع انسان العصر الحالي ادراكه . . . ولكي يظهر ، كان لابد من موت اجيالنا ، لتظهر اجياله . . تماما كما انقرضت اجيال اشباه الانسان لتظهر اجيالنا نحن .

ولهذا فلربما كان الهدف من الموت ، ان تبعث حياة اكبر عقلا وانضج فكرا واكثر ادراكا واسمى وعيا باسرار الله المطوية في خلقه وكأنما هي ـ اي الاسرار ـ تحتاج الى عقول اكبر من عقولنا القاصرة ومع ذلك فكل شيء يتطور ويتجدد ومن وراء ذلك موت وحياة لتدور عجلة الحياة قوية هادرة الى ان يرث الله الارض بمن عليها . . . « حكمة بالغة » . . « فهل من مدكر » . . ■■

الاسكندرية ـ د . عبد المحسن صالح

حروف الحاضر وحروف المضارع

بقلم : عبد الله زكريا الانصاري

لابد ان يكون للحرف مكان بين الحروف ، والا سقط منها وأصبح من الحروف الزائدة ، والحروف الزائدة هي تلك الحروف التي لا تؤدي عملا ، ولا تدل على شيء من الاشياء ، وقد يأخذ الحرف مكانا له مع الحروف الاخرى ، لكن هذا المكان الذي يأخذه هذا الحرف بالذات ليس مكانه ، أو ليس مناسبا له ، اذن لابد من أن تبدله بحرف آخر في هذا المجال ، أو اسقاطه اسقاطا .

الكلمة تتجمع من عدة حروف ولا يمكن لهذه الكلمة أن تدل على معنى من المعاني الا اذا كانت حروفها متكاملة متناسقة ، كل حرف يحل في محله المناسب له ، أي أن الحروف يكمل بعضها بعضا ، فاذا انتظمت وتناسقت ، وأخذ كل حرف محله الصحيح كونت كلمة دالة على معنى ، والا سقطت سقوط الحرف الزائدة .

وبعد الحرف والكلمة تأتي الجملة ، والجملة عبارة عن كلمات متجمعة متكاملة ، أي كلمات صحيحة سليمة ، ذات معانٍ واضحة . ومع ذلك فهناك جمل تأتي غير واضحة أو تأتي ضعيفة ، أو تأتي ساقطة ليست بذات مفهوم واضح ، فهي في شكلها الظاهر جملة ، لكنها ليست جملة في معناها وهدفها ، والسبب ان الكلمات لم تأخذ محلها اللائق بها في الجملة ، أو ربما تكون بعض هذه الكلمات زائدة في الجملة ، أو تكون الجملة أصلا ناقصة من كلمات مفيدة مكملة لها ، ولهذا تأتي الجملة جملة في مبناها وغير جملة في معناها ، أعني جملة شكلا ، وغير جملة موضوعا .

اذن فالحرف أداة الكلمة ، والكلمة أداة الجملة ، والجملة اداة الكلام الواضح الدال على المعاني ، والمعاني هي روح الجمل ، وروح الحروف أيضا .

روح الجملة وروح العمل

انك تصل الى مرادك ، وتحصل على غايتك بالعمل الواضح الجاد ، وان لم تعمل بجد ووضوح ، سقطت ولم تحقق شيئا مما تصبو اليه .

ان الجد في العمل انما هو العمل المتواصل المستمر دون كلل أو ملل ، فان اعتور أحدهما العمل أسقط منه الجدية ، واذا سقطت الجدية فسد العمل وقعد عن بلوغ الغاية .

أما الوضوح فهو الصفاء ، فالعمل الواضح انما هو العمل الصافي ، أعني العمل الذي لا تختلط فيه شائبة من الشوائب ، والشوائب هي العيوب والعيوب هي **النقصان** .

قد يعمل الانسان عملا مستمرا متواصلا جادا ، لكن عمله هذا قد يشوبه الغموض ، أو قد تشوبه شائبة ، أي قد يعتوره عيب من العيوب ، كأن يكون عمله هذا هادفا

لغرض من الاغراض التي تشوه العمل ، وتنقص من قيمته ، وتحط من قدره ، وفي هذا الحال يصل صاحب العمل الى مراده ويحصل على غايته ، لكن هذه الغاية وذلك المراد لايدلان على المعنى الرفيع الذي نرمي اليه في كلامنا هذا .

ان المعنى الرفيع هو ذلك المعنى الذي تتجمع فيه الحروف والكلمات والجمل المترابطة المتناسقة والتي يمسك بعضها برقاب بعض ، يعني تأخذ محلها المناسب الجميل ، وصاحبها أو حاملها هو ذلك الانسان الذي يتخذها عملا له لخدمة الانسان .. أعني اذا كان هذا الانسان أو ذاك يتخذ من الحروف والكلمات والجمل أدوات لعمله الواضح الجاد ، فان هدفه الذي يرمي اليه وغايته التي يعمل من أجلها ، لا بد ان يكونا لصالح الانسان أيضا ، والا فسد المعنى ، واختل الغرض وسقطت الغاية .

العمل الفردي ، مهما كان ناجحا لا يؤدي الى المعنى الانساني المطلوب ، ان لم يهدف الى خدمة الانسان .

هناك اعمال فردية ناجحة ، لكنها اعمال تصب في خدمة المجتمع وهذه هي التي تؤدي الى المعنى . أما الاعمال الفردية التي لا تصب في خدمة المجتمع ، فليست بذات معنى . فالمعنى هو المضمون الذي يدل على الكل ، أو على الاصح هو المضمون الذي يركز دائما وأبدا على خدمة المجتمع ، ذلك أن المجتمع مجموعة أفراد من الناس ، واذا لم يؤد هؤلاء الافراد وظائفهم كما تؤدي الحروف والكلمات والجمل وظائفها فشل مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، والفشل يؤدي الى السقوط .

المجتمع الصالح مثل الكلام الدال على المعنى الرفيع ، والمجتمع الفاسد لا يختلف عن الكلام الفاسد . فاذا كانت الجمل أو الكلمات والحروف تفسد الكلام فكثيرا ما أفسد الافراد المجتمعات .

ان الافراد هم حروف المجتمعات ، واذا لم يأخذوا محلهم المناسب فيها أصبحت مجتمعاتهم ضعيفة هزيلة ، وبالتالي أصبحت مشلولة عن اداء أي عمل ذي بال . وهذا حال يؤدي بها الى الجمود ومن ثم التأخر ، ومن ثم الفساد ، ومن ثم تسلط مجتمعات أخرى مستغلة لاحتوائها واتخاذها ادوات لتنفيذ أغراض غير انسانية .

هناك حروف تتخذ أوضاعا غير مناسبة ، وهي أفراد تأخذ أماكن وأوضاعا شاذة في الكلام وفي المجتمع ، لو تمعنت جيدا لعرفت أن شذوذها منصب انصبابا واضحا على قلب المعاني الرفيعة التي جاءت في الكلام الرفيع الذي يدل على المعاني السامية ، وتحريف المعاني أيضا التي جاءت في عمل الأفراد الذين ارتفعوا بمجتمعاتهم درجات عالية .

هل للفرد قيمة في المجتمع ؟ سؤال طالما ردده بعض المرددين ، ومع ذلك فهم يدركون جيدا أن الانبياء أفراد ، لكن الله تعالى اصطفاهم وفضلهم واختارهم لاصلاح مجتمعاتهم ، فأصلحوها .

لابد للمجتمع من مصلحين

ويدركون جيدا ايضا أن المصلحين أفراد ، وان العباقرة أفراد كذلك ، ولولم تشأ إرادة الله لما كانوا عباقرة ولا مصلحين .

فما هي قيمة المصلحين والعباقرة في الحياة ، ان لم يكونوا أدوات لقلب الاوضاع الخاطئة ، وازالة العقبات التي تعترض تقدم الحياة ، والقضاء على البدع والضلالات التي هي من عوائق تقدم البشر ، وازدهار الحضارة ؟ وهل الحضارة الا احترام العقل ، واجلال الفكر ، وتقديس الحرية ؟ وهل الحرية الا تفتح العقول والافكار وعملها المتواصل الدائب على اسقاط الخرافات وتحطيم الطقوس التي ما أنزل الله بها من سلطان ؟

هم أولئك الانبياء والمصلحون والعباقرة الموهوبون الذين أدركوا قيمة الحياة ، وفهموا معناها الواضح الجميل . وعملوا ما وسعهم العمل على قلب الاوضاع الخاطئة ، رأسا على عقب ، وأزالوا من الاذهان ما علق فيها من شوائب الحياة وما الشوائب إلا الاخطاء ، بل الادران العالقة في أذهان بعض الناس والمسيطرة على عقولهم .

وهم أولئك الذين كانوا ينادون الناس في شتى المجتمعات على هذه الارض ، بأن خالق الانسان ما أوجد الانسان في هذه الحياة الا لخدمة الانسان ، وما خدمة الانسان للانسان الا لخدمة الحياة نفسها . ومن ذا الذي يدعي أن تعطيل العقل النير ، وتجميد الفكر الحر خدمة للانسان والحياة ؟

أنت تحاول اختيار حروفك ، وتجميل كلماتك وتنقية الجملة التي تتكون منها ، فلماذا تغلق على فكرك وعقلك

منافذ النور ؟ وهل منافذ النور الا منافذ الحرية ؟ اذن لماذا تحارب حرية عقول الناس ، وحرية افكارهم لتزن وتقارن وتقيس ، وترجح ميزان المنطق ، وتنبذ البدع والضلالات ، وتطرد الخرافات والاقاويل الباطلة التي حاربها الأنبياء والمصلحون ؟

انك واحد من هذا الخلق ، ولا بد لك من احترام عقله وفكره أولا ، والا وصلت الى طريق مسدود ، وان نجحت في الازدراء بفكره ، وعقله فنجاحك هذا نجاح ظاهري سرعان ما ينهار ولو بتسرب بصيص من النور الى عقله وفكره .

ان الفرد حرف من حروف المجتمع ، ولا بد لهذا الحرف أن يكون نظيفا حتى يؤدي دوره على الوجه الصحيح .

ومجتمعنا اليوم تحيط به تيارات مختلفة ، تتصارع على الاخلال به وببنائه ، ولا شك أن الخلل في البناء لا يصلحه الا أولئك الذين يقدرون للانسان قيمته ، ولكرامته قدسيتها ، ولحريته سموها .

ان التيارات المتصارعة تحركها أيد خفية من بعيد او من قريب ولعل تقدم الحضارة في مختلف علومها لدى المتفتحين عليها يقاوم الذين انحرفوا بها عن خدمة الانسان الى خدمة أغراضهم ومطامعهم الخاصة ، فوصلوا الى درجة المقدرة على الايحاءات النفسية أو غير النفسية لاستغلال بعض الحروف والكلمات والجمل ، وكذلك بعض الافراد ، لتعمل وتصب في خدمة مطامعهم وأغراضهم عن طريق ايجاد التيارات المتصارعة وخلقها خلقا ، ودفعها الى المزيد من الصراع في أمور لا تؤدي الا الى شل حركة العقل وتعطيل الفكر ، وتشويه ما أتى به الانبياء والمصلحون ، والعباقرة المخلصون .

البقاء للجوهر الصحيح

انظر حولك فانك واجد بعض الحروف والأفراد تعمل بدأب ، وبعضها تعمل بايمان بما تعتقده صوابا وهو خطأ ، انها تعمل على تشويه الحقائق وتضليل العقول ، والتمسك بالقشور دون اللباب ، والتشبث بالطقوس ، والضرب صفحا عن الجوهر وعدم الدخول فيه .

انها حروف الحاضر في أسوأ حالاتها ، بل لعلها تتعدى الحاضر أيضا . اذن فهي حروف للمضارع التي تحاول أن تدل على الحال والاستقبال .

فهل تنجح في اداتها ؟ وكيف لها النجاح وهي ليست بذات دلالات واضحة ؟ انها ستسقط بلا جدال لعدم وجود دلالات لها على معان واضحة جلية .

فمتى تسقط حروف المضارع هذه ؟ لاشك انها سوف تسقط اذا ما قام محلها حروف للحاضر وللمضارع أيضا ، حروف صالحة رفيعة ، لها دلالات واضحة جلية في معناها وفي مبناها ، أي في شكلها وفي محتواها .

تلك هي حروف الحاضر والمضارع ، وهل ترانا واصلين الى ايجاد حروف للمستقبل ؟

نقول نعم ، اذا استطعنا أن ننتهي من بناء حروف الحاضر وحروف المضارع بناء قويما صادقا نظيفا . ■■

عبد الله زكريا الانصاري

وصف جارية

وصف أحمد بن أبي خالد جارية كاتبة فقال : كأن خطها أشكال صورتها ، ومدادها سواد شعرها ، وقرطاسها أديم وجهها ، وقلمها بعض انامها ، وبيانها سحر مقلتها .

الأمن قبل كل شيء !

بقلم : محمود المراغي

على مر التاريخ ، وقبله .. كان الانسان يدافع عن نفسه . دخل الكهف ليحتمي من أخطار الطبيعة والبيئة .. وبنى الحصن ، وصنع القوس والسهم والدرع والخوذة والمركبة الحربية ليحتمي من الاعداء .

مع تطور الانسانية تطورت الأخطار .. وتطورت فنون الحرب ، وباستمرار كان الانسان الفرد ، ومن بعده المجتمع يخصص جزءا من موارده البشرية والمادية لتحقيق فكرة الدفاع .

حديثا ، وفي النصف الثاني من القرن العشرين فاقت نفقات الدفاع كل حد ، وأصبحت عبئا حقيقيا تنوء به المجتمعات ، ويقوم في كثير من الاحيان على حساب رفاهة البشر وحاجاتها الاساسية .

في العام الماضي - ووفقا للتقرير السنوي الثالث عشر لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام والمنشور في ٢٦ مايو ١٩٨١ - بلغت المصروفات العسكرية للعالم (٦٥٠) مليار دولار .. ووفقا لتقرير آخر هو تقرير وكالة مراقبة التسليح ونزع السلاح في واشنطن يوم ٢٩ أبريل الماضي كان الرقم - وفي عام سابق قريب هو عام ١٩٧٩ - (٧٥٠) مليار دولار .

وأيا كانت دقة الرقمين ، وهما متقاربان على اي حال .. فإن الدلالة الأولى والبسيطة هي ان العالم يدفع الكثير من أجل الحرب ومن أجل الدفاع ..

لكن هذه الدلالة تبدو أكثر وضوحا اذا بحثنا عن تفصيل ما يدفعه الفقراء والأغنياء .. المتواجدون في مناطق التوتر والمتواجدون في مناطق هادئة نسبيا .

تقول ارقام البنك الدولي - المنشورة في أغسطس ١٩٨٢ - إن المجموعات الدولية المختلفة قد دفعت نسبا تتراوح بين (٣ر٣٪ - ٥ر٤٪) من ناتجها القومي من أجل الدفاع لكن النسب تتزايد عندما تقيس نفقات الدفاع بالانفاق الحكومي في الدول المختلفة .. و .. هنا ترتفع النسبة - والارقام كلها عن عام ١٩٧٩ - الى ٥ر١٣٪ - بالنسبة للدول الصناعية و١ر١٨٪ بالنسبة للدول منخفضة الدخل .

وبمقارنة الارقام المحققة في ذلك العام وفي أعوام سابقة فإننا نجد ظاهرة أولى تقول : إن الفقراء يدفعون أكثر . ليس بالاحجام المطلقة للانفاق .. ولكن كنسبة مئوية ناتجها القومي او ميزانيتها المركزية . وبالمقارنة بالمجموعات الدولية الاخرى ، فقد احتلت نفقات الدفاع أعلى أهمية نسبية في التاريخ القومي فيما تسمى مجموعة الدول منخفضة الدخل وهي التي يقل فيها متوسط دخل الفرد عن (٤١٠) دولار في السنة .. بينما هبطت الأهمية النسبية لنفقات الدفاع في الدول الصناعية (فيما عدا الدول الاشتراكية التي لم تشملها الدراسة الاحصائية) من (١ر٥٪) من الناتج القومي عام ١٩٧٢ .. الى (٨ر٣٪) من هذا الناتج عام ١٩٧٩ . بينما حدث ذلك في الدول الصناعية فانه في الدول منخفضة الدخل ارتفعت الأهمية النسبية من ٨ر٣٪ الى ٥ر٤٪ - وفي الدول متوسطة الدخل من ٩ر٢٪ الى ٣ر٣٪ .

وقد يفسر ذلك ضخامة امكانات الدول الصناعية ، وناتجها القومي وامتلاكها لأسباب القوة في وقت مبكر بينما تسعى الدول منخفضة ومتوسطة الدخل لكل ذلك .. بعد الاستقلال وهو ما حققته كثير من الدول بين عامي (١٩٥٠ و ١٩٧٠) .

أما الظاهرة الثانية ، واذا انتقلنا من الأهمية النسبية للأرقام المجردة ، فان البون مازال شاسعا بين استعداد الفقراء واستعداد الاغنياء في الدفاع عن النفس (أو في الاعداد للعدوان في بعض الحالات) .

بالارقام المجردة كان متوسط نصيب الفرد من الانفاق العسكري عام ١٩٧٩ . تسعة دولارات في الدول منخفضة الدخل .. مقابل (٣٩) دولارا في الدول متوسطة الدخل و (٢٨٣) دولارا في الدول الصناعية ..

أي أن استعداد الفرد في الدول الغنية ـ واذا اعتبرنا الارقام مؤشرا كافيا ـ يفوق استعداده في الدول متوسطة الدخل سبع مرات ، ويفوق الاكثر فقرا (٣١) مرة .

وبالطبع فان لذلك كله ترجمته الكبيرة فيما تمتلك الدول من امكانات عسكرية وفنون وتكنولوجيا متقدمة .

ولكن .. ولأن لكل قاعدة استثناء فان هناك دولا عديدة تشذ عن الصورة العامة وتسجل حقيقة أن التوتر يصنع الخطر ، والخطر يستلزم الاعداد .

الصومال ـ ومازالت الارقام للبنك الدولي عن عام ٧٩ ـ تنفق ربع ميزانيتها العامة أو ٩٪ من ناتجها القومي على الدفاع .

تنزانيا ـ وهي من نفس المجموعة الدولية الافقر ـ تفعل الشيء نفسه تقريبا . فاذا صعدنا الى الدول المتوسطة الدخل والتي تنفق ٣ر٣٪ من ناتجها على الدفاع فاننا نجد النسبة قد ارتفعت في سوريا والاردن الى ما يفوق قليلا الـ (١٤٪) .. ووصلت في ايران الى ٢ر١١٪ .. وفي إسرائيل حوالي (٣٠٪) من الناتج القومي و ٤٠٪ من الميزانية العامة .

وفي الاخيرة تبدو الفكرة واضحة فحين تمثل ، ويبون شاسع أعلى انفاق عسكري في العالم منسوبا بالحجم الاقتصادي والميزانية ، فان الامر يتجاوز فكرة الدفاع الى فكرة العدوان .

على اي حال فان السؤال الهام . الى اي حد يؤثر ذلك كله على رفاهية وحاجات المجتمعات الاساسية ؟ .

واذا أخذنا التعليم والصحة مؤشرا في ذلك .. فاننا نجد انفسنا أمام حقيقة غريبة . لقد دفع الجميع من أجل الدفاع أكثر مما دفعوا مرات عديدة من أجل صحة المجتمع أو تعليمه .

كان نصيب الدفاع للفرد الأكثر فقرا في المتوسط تسعة دولارات في العام .. بينما كان نصيبه في الصحة دولارا واحدا .. وفي التعليم أربعة دولارات في العام !

في الدول متوسطة الدخل تتحسن الصورة فتقترب اعتمادات الدفاع ـ وان تفوقت قليلا عن اعتمادات التعليم .. لكنها تمثل ٢٦٠٪ مما تنفقه هذه المجتمعات على الصحة .

في الدول الصناعية يظل الدفاع في المركز الأول .. ولكن تنقلب الوقائع هنا فتتقدم الصحة وتتراجع الأهمية النسبية للتعليم .

ماذا يعني كل ذلك ؟

انه يعني ببساطة أن احساس انسان الربع الاخير من القرن العشرين بالخطر يتزايد أمام الآخرين وأمام الجيران وأمام القوى الكبرى .. بأكثر مما يتزايد أمام غول اسمه المرض ، وداء اسمه : الجهل .

وفي كثير من الدول يضحي الانسان بصحته وصلته بالعلم والثقافة .. من أجل بندقية

والأرقام واضحة . ■■

من فقه الرواية

بقلم : فهمي هويدي

ربما كانت أهم مشكلات التفكير الاسلامي في زمننا أن انتباهه للرواية أكثر من اتمائه للدراية . أن اللذين يتصدون له مشغولون بالنقل عن العقل ، وبالنص عن الحقيقة ، وبلغة الكلمات عن لغة الواقع . فباتوا في النهاية أسرى صحائف الكتب ومدلولات الألفاظ ، التي بها ومنها أقاموا جدرانا ، أو قل أبراجا ، باعدت بينهم وبين الناس ومتغيرات حياتهم . حتى أصبح هؤلاء جميعا ملتحقين بالماضي ، معزولين عن الحاضر والمستقبل . . وتلك طامة كبرى !

أقول ذلك وفي ذهني الكثير من الدعاوي التي تطرح باسم التفكير الاسلامي ، من جانب عدد لايحصى من الشيوخ ، وأضعاف أضعافهم من الشباب [1] الذين أصبحوا يتصدون للفتيا بصورة يحسدهم عليها أهل بدر !

ولست في مقام استعادة تلك الدعاوي ، فكلنا تصادفها بدرجات متفاوتة . انما أذكر فقط بما طرحته للمناقشة في عدد الشهر الماضي ، حول موقف بعض الفقهاء من قضية الشورى ومختلف ضمانات الحرية ، وانحياز هذا البعض لفكرة عدم الالزام في الشورى ، بتبريرات مفتعلة تصب في طريق الاستبداد وحكم الفرد ، وتفصح بأبلغ بيان عن المدى الذي بلغته غيبة « الدراية » عند هؤلاء . وبينما المجلة تحت الطبع ، خرج علينا رئيس جمهورية باكستان « الاسلامية » بخطاب أعلن فيه أن الاسلام لايأخذ بحكم الأغلبية ! وفيما أعلم فان الرئيس الباكستاني ليس فقيها ولكنه استند بطبيعة الحال الى فتاوي بعض الفقهاء ، ممن برروا له غيبة البرلمان لفترة تكاد تصل الى عشر سنوات ، والغاء الأحزاب ، وتصفية المعارضين فضلا عن جلدهم ، كل ذلك باسم تطبيق الشريعة الاسلامية !!

ولا أريد أن أترك المجال للانفعال والسخط على هذا الموقف الذي يطعن الاسلام بأيدي المنتمين اليه والكارثة أن منهم حسني النية ـ لكنني فقط أقتبس في هذا الصدد بعض عبارات مما كتبه الداعية الاسلامي الأشهر ، الشيخ محمد الغزالي ، في آخر كتاب صدر له (مشكلات في طريق الحياة الاسلامية) حيث يقول

إلى فقه الدراية

صراحة : « ان المسلمين اليوم عبء على الاسلام »، « ان انتشار الكفر في العالم يقع نصف أوزاره على متدينين بغضوا الله الى خلقه بسوء كلامهم أو سوء صنيعهم ! » .

لقد شكلت قضية وعي الفقيه ركنا أساسيا في التفكير الاسلامي منذ البداية ، وكان الوعي المطلوب مطروحا في اتجاهين : اتجاه ادراك المعاني والاهداف الكلية للرسالة ، وهو ما سمي بمقاصد الشريعة . واتجاه حسن قراءة واقع الناس وحياتهم ، سواء تمثل ذلك في أعراف متبعة أو طبيعة بشرية تختلف باختلاف الزمان والمكان .

وفي ادانة الموقف الترديدي ـ أو الببغاوي ـ للفقهاء ، ينسب الى رسول الله قوله :ان العلماء همتهم الرعاية ، وان السفهاء همتهم الرواية (١) .

وينقل عن عبد الله بن مسعود : كونوا للعلم رعاة ، ولا تكونوا له رواة .

وتقل عن الامام مالك قوله : ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنه نور يجعله الله في القلوب .

وقد اشترط الامام الشافعي شروطا عديدة فيمن يتصدى للفتيا في الدين ، بينها أن يكون عارفا بكتاب الله .. وبصيرا بحديث رسول الله ، وبصيرا باللغة ، وبالشعر .. ثم اشترط بعد ذلك ثلاثة شروط في استثمار تلك المعارف : أن يستعملها مع الانصاف ، وأن يكون مشرفا على اختلاف أهل الأمصار (يقصد الاختلافات البيئية والثقافية) ، ثم ـ وهو المهم ـ ، أن تكون له قريحة بعد هذا » ، أي عقل يميز ويضع الشيء في مكانه .. فاذا توفرت له هذه الشروط ، فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام ، واذا لم يكن فليس له أن يفتي .

---

(١) الامام الشاطبي ـ الموافقات ج١ ص ٦٤

أما الامام احمد بن حنبل فقد اشترط فيمن يفتي شروطا خمسه : النية ، والعلم والحلم والوقار ، ثم أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته ، والكفاية ، والشرط الخامس هو : معرفة الناس .

ويشرح ابن القيم هذا الشرط الأخير بقوله : ان معرفة الناس « أصل عظيم يحتاج اليه المفتي والحاكم » فاذا لم يكن المفتي فقيها في معرفة الناس ، فقيها في الأمر والنهي ، كان ما يفسد أكثر مما يصلح . ودعا ابن القيم المفتي لأن يكون فقيها في معرفة مكر الناس وخداعهم واحيالهم وعوائدهم وعرفياتهم (أي أعرافهم)[٢] .

ونقل عن الامام احمد قوله : أحب أن يتعلم الرجل كل ما يتكلم فيه الناس . (وقد اشتهرت في تراجم طبقات الفقهاء وكتب المحدثين عبارة « فقيه الرواية» وفقيه الدراية » . وكان الأول هو الحافظ للاحكام الذي يقوم بدور الكتاب الجامع أو الشريط المسجل . أما فقيه الدراية فهو الذي كانت له قدرة على الفهم والنقد والتمييز والاستنباط ، وقد اعتبر في مقام أعلى طبقة أو درجة ، في حين كان وصف الفقيه بأنه من أهل الرواية ، يعد تجريحا لقيمته العلمية وتعبيرا عن تواضع قدره ودوره .

ان الناس ، الواقع والقدرة ، موجودون في صلب التفكير الاسلامي من البداية . ليس فقط لأنهم موضوع الخطاب والمكلفون بحمل الأمانة . وليس فقط لأن هدف التعاليم هو تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهو التعبير الذي درج الفقهاء على استخدامه . ولكن أيضا لأن شمول الرسالة لعبادات الناس ومعاملاتهم أضفى على المنهج الاسلامي خصوصية فريدة ، ناشئة عن أن الشق المتعلق بالمعاملات يعالج وقائع ومتغيرات لامتناهية . وهذه فرضت بدورها اقامة جسور مرنة مع واقع الناس وظروفهم .

ان الاسلام لايتعامل مع البشر باعتبارهم أجهزة استقبال متحركة ، وليس صحيحا أن دورهم مقصور على التلقي واستقبال التكاليف كما يزعم بعض الدراويش ، وأسوأ من ذلك أن يقال ان الامتثال الأعمى هو نصيب المؤمن الحق . وانما عومل « الناس دائما باعتبارهم خلايا فاعلة وحية ، وظلت ظروفهم وقدراتهم نصب العين وموضع الاعتبار . والنصوص القرآنية العديدة الداعية الى رفع الحرج عن الناس ، وعدم تكليفهم فوق طاقاتهم ، بل والاشارات المتكررة الى تكريم بني آدم من قبل الله سبحانه وتعالى ، هذه النصوص في مجموعها تكرس تلك الحقيقة وتعلن عنها بجلاء لايحتمل اللبس .

ليس هذا فقط ، بل ان الامام الشاطبي يرى أن من يتعرض للافتاء ينبغي أن يخاطب الناس بلغة يفهمونها ، فذلك هو « المطلوب والمنبه عليه » ، ويستنكر عدم مراعاة المفتي لهذا الاعتبار « فعدم مناسبته للجمهور أخرجه من اعتبار الشرع له ، لأن مسالكه صعبة المرام ، وما جعل عليكم في الدين من حرج »[٣]

ذلك على مستوى قدرات الناس وأفهامهم ، أما اذا تحول الأمر الى تقليد مستقر ـ جيد بطبيعة الحال ـ فان الموقف الشرعي تجاهه يذهب الى مدى أبعد . « فالاعراف » اسم لواحدة من أكبر سور القرآن

---

(٢) ابن قيم الجوزية ـ اعلام الموقعين ج ٤ ص ١٩٩ و ٢٠٤

(٣) الموافقات ج ١ ص ٥٧

الكريم . وفي صلب السورة توجيه يقول فيه الله سبحانه لنبيه (خذ العفو وأمر بالعرف - الآية ١٩٩) ، والعرف المقصود هنا كما يقول القرطبي كل خصلة ترتضيها العقول وتطمئن اليها النفوس .

وفي تعقيب الشيخ رشيد رضا على هذه الآية يقول : والأمر به (العرف) في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع ، يثبت لنا أن العرف أو المعروف أحد الأركان للآداب الدينية والتشريع الاسلامي ، وهو مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها . (المنار - جـ ٩ ص ٤٤٦) .

وفي هذا الصدد فان ابن قيم الجوزية ينقل عن ابن مسعود قول النبي صلى الله عليه وسلم أن : ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

وهذه المكانة لأعراف الناس في التفكير الاسلامي الأصيل هي التي رشحت العرف ليصبح من مصادر التشريع الاسلامي عند بعض الفقهاء . وهؤلاء قالوا : ان العادة شريعة محكمة ، واستندوا في ذلك الى أن الامام مالك بنى كثيرا من أحكامه على عمل أهل المدينة . وأبو حنيفة وأصحابه اختلفوا في بعض الأحكام بناء على اختلاف اعرافهم . والشافعي لما هبط الى مصر غير أحكاما ذهب اليها وهو في بغداد لتغير العرف . . . وقد الف العلامة المرحوم ابن عابدين رسالة سماها (نشر العَرف - الرائحة - فيما بني من الأحكام على العُرف) . ومن العبارات المشهورة : المعروف عرفا كالمشروط شرطا ، والثابت بالعرف كالثابت بالنص .

ومن هذا الباب ذاع في المغرب العربي الذي يسوده المذهب المالكي ما عرف « بفقه العمل » الذي استند الى احتجاج الامام مالك بعمل أهل المدينة ، وتوسع فقهاء المالكية المغاربة في الأخذ بهذا الاتجاه ، حتى شاع الأخذ بما جرى عليه العمل ، واشتهرت في المغرب كلمة العمل الفاسي والعمل السوسي والعمل الغرناطي .[٤]

ان هذا الوعي الشديد بالواقع ، يتمثل في الفصل الذي عقده ابن القيم في افتتاح الجزء الثالث من مؤلفه الممتاز (اعلام الموقعين) وأسماه « فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد » وفيه يبرز فقيهنا الكبير الدور الهام للعناصر البيئية التي يسقطها بعض الفقهاء أو يتجاهلونها في التعامل مع الأحكام .

في هذا الفصل يقول ابن قيم الجوزية مثلا أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأمته ايجاب انكار المنكر . . ليؤدي ذلك الى اقامة المعروف الذي يحبه الله ورسوله . فاذا كان هذا الانكار يؤدي الى ما هو أسوأ منه وأبغض الى الله ورسوله ، فانه لا يسوغ انكاره ، وان كان الله يبغضه ويمقت أهله . . وهو يشرح ذلك بقوله انه اذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها ، وخفت من نقله عنها أن ينتقل الى كتب البدع والضلال والسحر ، فدعه وكتبه الأولى !

---

(٤) د . محمد فاروق النبهان - فقه العمل باب الازدهار الفكر الاسلامي - عدد ٢٨٥ من العربي - اغسطس ١٩٨٢ .

ويستشهد ابن القيم بمثل آخر في هذا الصدد ، ناقلا عن ابن تيمية قوله انه مر وبعض صحابته في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر (رغم أنهم كانوا على الاسلام) فانكر عليهم من كان معي ، فانكرت عليه ، وقلت ، انما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم » !

وضرب مثلا ثالثا بنهي النبي عن قطع يد السارق في الغزو « خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض الى الله من تعطيل الحد ، اذا ما لحق السارق بالمشركين حمية وغضبا » .

ان ابن القيم بالأمثلة الثمانية التي يضربها ، يتحدث وعيناه على الواقع ، وهمه الأول هو مصلحة مجتمع المسلمين ، ولا يمانع ـ عند الاختيار الصعب ـ من الابقاء على مفسدة أقل قد لاترضي الله اتقاء لمفسدة أكبر ، تزيد من غضب الله وسخطه .

•

وكأني به يخاطب تجمعات الشباب المسلم في زماننا وهو يقول ما نصه « من تأمل ما جرى على الاسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من هذا الأصل ، وعدم الصبر على المنكر (ولتضع تحت الجملة الأخيرة عشرة خطوط) فطلب ازالته ، فتولد منه ما هو أكبر منه ! (ص ٤) .

ان هذا الوعي سواء بالاهداف الكلية للشريعة ، أو بخريطة وملابسات الواقع الذي يتلقى الأحكام والتعاليم ، يشكل الحد الفاصل بين فقه الرواية وفقه الدراية . بل هو شاهد على مدى نضج المسار الفكري أو تدهوره . فكلما انحصر الحوار في دائرة الترديد والحفظ ومدلول الالفاظ والجزئيات ، كان مؤشرا على غيبة الوعي لدى الفقيه ، وعلامة على تدني قيمة العقل في المجتمع . وكلما اتسعت آفاق الحوار ليظل محكوما بالرؤية الواضحة للمقاصد والكليات ولواقع الجماهير وقوانين حركتها ، كان ذلك تعبيرا عن النضج والصحة وسلامة الفهم . وللامام الشاطبي تعبير ينبه فيه الى ذلك يقول فيه : كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو الفقه في العبارة ، بل التفقه في المعبر عنه والمراد به .

ثمة محظور أرجو الا أكون بحاجة للتنبيه اليه والتذكير به ، هو أن الدعوة الى بلوغ مرتبة الدراية ، لاتعني على الاطلاق اسقاط الرواية . فالدراية الحقيقية لا يمكن أن تتم بغير اتقان للرواية . ولا يمكن للفقيه أن يمارس اجتهاده الواعي الا اذا كان مستوعبا أولا للنصوص وعلى أوسع معرفة بها . ومعرفة الواقع بغير دراية بالنص ، نقص لا يقل فداحة عن معرفة النص مع الجهل بالواقع . غاية ما هنالك أن الدراية مرحلة متقدمة عن الرواية ، تبنى عليها ولاتستغني عنها بأي حال .

البديهية الأخيرة التي أود التنبيه اليها هو أنني عندما أتحدث عن المجتهد والفقيه وعن العرف والمصلحة ، فينبغي أن توضع كل كلمة في مكانها . فلكل من المجتهد والفقيه أدواته وشروطه ، فضلا عن أن العرف والمصلحة اللذين أعنيها أيضا لهما شروطهما . فليس كل من قرأ كتابا في الفقه واستوعب نصفه أو كله يمكن أن يكون مجتهدا ، مثلا ، وليس كل هوى أو نزوة تعد عرفا أو تدخل في باب المصلحة !

بعد هذا الايضاح وذاك ، تبقى القضية قائمة وملحة : اننا نحلم بذلك اليوم الذي نرى فيه فقهاءنا المعاصرين وقد أعطوا للدراية النصيب الذي يعطونه للرواية . ولا أطمع في يوم قريب يسود فيه فقه الدراية ، وان تمنيت ذلك بكل تأكيد ، لأن هذا طموح يتجاوز الحلم ، وتحقيقه يحتاج الى معجزة ! ■■

● حل مسابقة العدد ٢٨٥ ●

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
١	ا	ب	ن	ج	ا	م	ع	●	س	ا	ن	ز	ى	م	و
٢	ب	ل	ا	س	ت	ى	د	ا	ت	■	ك	ا	ق	ك	ا
٣	و	ا	■	و	ى	ل	■	ب	ر	و	ت	ى	ن	ا	ت
٤	ن	د	ب	ر	■	ا	ل	و	ه	ا	ب	■	ى	ت	■
٥	م	و	ا	■	ا	ن	ا	ب	■	د	■	ت	ه	ب	ك
٦	ا	ن	ب	■	ل	و	■	ك	ت	ى	ب	ه	■	ا	ر
٧	م	ا	و	ا	ه	■	ق	ر	ا	■	ر	ا	ق	ت	ه
٨	■	●	ن	ع	م	ا	ن	ب	ن	ث	ا	ب	ت	■	■
٩	ا	ت	ج	ا	س	ر	■	ن	ا	ق	ه	■	ا	ب	ن
١٠	ب	ر	■	■	ا	ق	س	م	■	ى	م	ى	ل	و	ن
١١	ن	غ	م	ا	ت	■	ى	ح	و	ل	ا	ن	■	ل	و
١٢	س	م	ا	ن	■	ك	ا	م	ل	ك	■	ا	غ	ن	ى
١٣	ى	■	■	ا	ل	ب	ر	د	ى	■	ج	ى	ا	د	■
١٤	ن	ق	س	■	ت	ل	ا	■	م	ب	ا	ر	ى	ا	ت
١٥	ا	ل	ك	ب	ر	ى	ت	■	ه	ر	ب	■	ه	■	ت

أفقيـًا

نعمان بن ثابت

رأسـيًا

أبو بكر بن محمد

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : نعمان بن ثابت . هو أبو حنيفة امام المذهب الحنفي . ولد بالكوفة عام ٦٩٩م . عاصر بعض معمري الصحابة ، وأخذ عن الامام جعفر الصادق . رفض عرض المنصور بتولي قضاء بغداد ، فسجنه المنصور وعذبه حتى توفي بالسجن .

(٨) رأسيا : أبو بكر بن محمد . هو الملك المنصور ، ابن الناصر محمد بن قلاوون ، سلطان المماليك البحريين عام ١٣٤١ . قتله قوصون قائد عسكره .

الفائزون بالجوائز

- ■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : ـ صالح مبارك صالح/ المكلا ـ اليمن الديمقراطي
- ■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : ـ عماري عبد القادر/ تلمسان/ الجزائر
- ■ الجائزة الثالثة وقيمتها عشرة دنانير فاز بها : فتحي الصادق محمد رجوبة / بنغازي / ليبيا

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها : ـ

١ ـ عادلة نجيب عبد الأحد / بغداد / العراق

٢ ـ اشرف فتحي حسن سعد / سمنود / مصر

٣ ـ عبد سعيد محسن السعدي / الدوحة / قطر

٤ ـ جمال الزاكي عبد الماجد/ الخرطوم / السودان

٥ ـ ساكا احمد بن علي / بولمان / المغرب

٦ ـ احسان صبحي الخطاب / عمان / الاردن

٧ ـ عبد القادر حاج ايوب / حلب / سوريا

٨ ـ فاطمة غلوم محمد عبد العزيز / الاحمدي / الكويت

أعمال لم تنشر لغسان كنفاني



● غسان كنفاني

بقلم : سليمان الشيخ

قضى الشهيد غسان كنفاني خمس سنوات ، مشتغلا بالتدريس والصحافة ، قبل أن ينتقل الى عالم الأضواء في بيروت ، أديبا وفنانا ومناضلا صلبا ، ورغم أن انتاجه الأدبي قد نشر في مجموعات متلاحقه الا أن كتاباته في « الفترة الكويتيه » لم تعرف طريقها الى النشر بعد . . هذه محاولة لاستكشاف ماكتبه غسان في تلك المرحلة المبكرة . .

لقد كان يملك غسان كنفاني مواهب متعدده . فقد مارس الرسم ودرسه في الكويت ، وكتب القصة والمسرحية والرواية ، والمقالة ، والدراسة . وقضية فلسطين واللجوء ومعاناة الغربة والفقر ، وزرع آمال العودة والتحرير كانت هواجس أساسية لم يخل منها أي نتاج له .

وقد أصدرت لجنة تخليد ذكراه التي تشكلت في مدينة بيروت اثر استشهاده* معظم مؤلفاته في مجلدات ، القصص بمفردها ، والروايات ، والمسرحيات ، والدراسات الخ .

كما أن دار الأبحاث العربية في بيروت بدأت باعادة نشر مجموعة من أعماله ، ونشرت بعض الأعمال التي لم تنشر ضمن أعماله الكاملة .

مع ذلك بقي في ذهني سؤال ، لم يسعني الاغلاق عليه أو الانشغال عنه ، وهو : لقد أمضى غسان كنفاني مايزيد على خمس سنوات في الكويت ، منذ سنة ١٩٥٦ وحتى سنة ١٩٦٠م وعمل فيها بالتدريس والصحافة . فهل تم نقل كل ماكتبه في تلك الفترة الخصبة من حياته الى مؤلفاته المنشورة ، أم تم استثناء بعضها ؟

ان رواية « من قتل ليلى الحايك » أو « الشيء الاخر » على سبيل المثال لا الحصر ، لم تنشر في كتاب يحمل اسم غسان الا في السنة الماضية ، مع أنها نشرت في حلقات مسلسلة في مجلة الحوادث اللبنانية سنة ١٩٦٦م .

كما أن مسرحية « القبعة والنبي » لم تنشر الا في سنة ١٩٧٣م في مجلة شؤون فلسطينية ، مع أنها مكتوبة سنة ١٩٦٧م .

* قتلته اسرائيل في ٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٧٢ ، بان زرعت متفجره في سيارته ، وما ان ادار مشغلها حتى تفجرت ، واودى ذلك بحياته وحياة ابنة شقيقته الشابة لميس التي كانت برفقته .



انطلاقا من هذه الاعتبارات ، ونظرا لأهمية كشف ورصد كل ماكتبه هذا الأديب الذي يعتبر من أهم الكتاب الفلسطينيين ، ان لم أقل الكتاب العرب جميعا في المجالات التي كتب فيها ، بدأت في البحث والتقصي واستعراض شتى المجلات والصحف التي صدرت في عقدي الخمسينات والستينات في الكويت .

فماذا وجدت من نتاج لغسان كنفاني لم يتم نشره في مجلداته وكتبه المنشورة ، في مجالي القصة والرواية ؟ .

أربع قصص ورواية

لقد وجدت أربع قصص قصيرة ورواية لم تتضمنها أعماله المنشورة كلها . والقصص القصيرة هي :

قصة « السارق » نقلها غسان عن الفرنسية بتصرف ونشرها بمجلة الرائد ـ لسان حال جمعية المعلمين حتى الآن ـ بتاريخ ٣ يونيو ـ حزيران من سنة ١٩٥٣ م .

ومن المؤكد أن غسان كنفاني لم يكن أيامها قد جاء واستقر في الكويت ، الا أن شقيقه غازي كنفاني كان على مايبدو يكتب في المجلة وغيرها من المجلات التي كانت تصدر في ذلك الوقت ، ووجدت عدة مقطوعات وجدانية تحمل نفسا أدبيا كانت ممهورة باسمه ، واعتقدت في البداية أنها من كتابات غسان .

وسبب هذا الاعتقاد يعود الى أن غازي كان يوقع بعض كتاباته بالحرف الاول من اسمه واسم عائلته كاملا (غ . كنفاني) والغين ، أي الحرف الاول ، هو حرف مشترك بين اسمي غسان وغازي . وكي أزيل أي لبس في هذا الموضوع فانني استفسرت من شقيقتهما فائزة كنفاني التي تعمل ناظرة في المدرسة الشرقية للبنات حتى الآن ، وكانت قد حضرت الى الكويت في بداية الخمسينات . كما استفسرت أيضا من عدة شخصيات عرفت وتعاملت وقرأت لغازي وغسان في تلك الفترة كالسادة : عبد الرزاق البصير ، برجس حمود البرجس ، سامي المنيس ، وخالد سعود الزيد . واتضح لي بعد تلك الاستفسارات أن غ . كنفاني هو غازي كنفاني ، في حين أن غسان كان يكتب للمجلة أيامها من دمشق ويوقع باسمه كاملا .

ـ أما القصص الثلاث المؤلفة فهي :

١ ـ « رسالة من حسن » ، ونشرت في جريدة الفجر الأسبوعية التي كانت لسان حال نادي الخريجين وكان يرأس تحريرها السيد يعقوب الحميضي ، بتاريخ ٧/ ١٠/ ١٩٥٨ مع رسم معبر عنها رسمه غسان نفسه .

٢ ـ القصة الثانية كانت بعنوان « الشيخ الصغير » ونشرت في جريدة الفجر أيضا بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٥٨م مع رسم معبر لغسان نفسه أيضا .

ويبدو أن غسان كان مشرفا على صفحات الثقافة في الجريدة ، لأن الحرف الأول من اسمه كان يرد في مقدمات بعض الأعمال الأدبية التي كانت تنشر في الجريدة ، كما أن رسوماته ترافقت مع الكثير من الموضوعات التي كانت تنشر فيها . (أنظر الصورة المرفقة) .

٣ ـ أما القصة الثالثة المؤلفة فهي « صمت ونعال وقبر صغير » ونشرت بتاريخ ١٧/ ٩/ ١٩٦٣ في العدد رقم ٤٩ من مجلة الطليعة الأسبوعية التي كان يرأس تحريرها يومذاك السيد عبد الرزاق الخالد الزيد .

الرواية : العبيد

● أما العمل الهام الذي أدخل الى نفسي الطمأنينة وأقنعني بأن جهدي لم يذهب سدى فهو عثوري على رواية كاملة اسمها « العبيد » منشورة في مجلة الطليعة الأسبوعية في حلقات مسلسلة بلغت سبع عشرة حلقة اعتبارا من ٢٢/ ٩/ ١٩٦٣ .

أي اعتبارا من العدد رقم ٣٢ حتى العدد رقم ٤٨ من السنة الأولى لصدور المجلة وفي خمسة فصول .

وقد تولى الفنان ناجي العلي رسم الرسومات التوضيحية المعبرة التي ترافقت مع النص الروائي في كل فصوله وحلقاته . ويعود سبب ذلك الى ان الشهيد كنفاني كان قد غادر الكويت الى بيروت منهيا تعاقده مع وزارة التربية ليتفرغ للعمل في مجلة الحرية التي صدرت اعتبارا من سنة ١٩٦٠ م .

وعلى ان اشير الى ان الشهيد كنفاني كان من اوائل الذين بشروا بموهبة الفنان ناجي العلي في الاعداد الاولى من مجلة الحرية ، ونشر له ايامها مجموعة من رسوماته على الغلاف الخارجي منها .

ويبدو أن الفنان العلي حضر الى الكويت اعتبارا من سنة ١٩٦٣ ليعمل في مجلة الطليعة منذ صدور أعدادها الاولى .



● وفي ما يتعلق بالرواية التي اشرت اليها ، فانني لاحظت أن دار الابحاث العربية التي تولت اعادة نشر بعض اعمال الشهيد كنفاني أشارت في مقدمة كل عمل نشرته الى أن للشهيد رواية لم تنشر حتى الآن تحمل اسم « اللوتس الاحمر الميت » كتبها سنة ١٩٦١ ٠ ومع ان الرواية المنشورة في مجلة الطليعة الكويتية تحمل اسم « العبيد » الا انني لاحظت أن عبارة « اللوتس الاحمر » وردت في بعض فصول الرواية ٠ مما جعلني أقع فريسة الشك بين الاسمين والنصين ٠

وقد نقلت شكوكي وملاحظاتي الى مدير دار الابحاث العربية ، واتفقنا على ان نعقد مقارنة بين نص « العبيد » و « موت اللوتس الاحمر » فربما وصلنا الى نتيجة تؤكد أو تنفي أن العنوانين هما لرواية واحدة ، أو أن كل عنوان تندرج تحته رواية مختلفة ٠

وبقي السؤال معلقا : هل « اللوتس الأحمر الميت » هي نفس رواية « العبيد » أم انها روايتان مختلفتان ؟

● هذه هي الأعمال التي عثرت عليها ، ووجدت أنها غير منشورة في الأعمال الكاملة للشهيد غسان كنفاني أو غيرها من المطبوعات ٠

فهل تحتوي بعض الصحف والمجلات التي لم أستطع الوصول اليها أعمالا أخرى ؟

إني أترك ذلك لباحثين آخرين ، علهم يجدون قدما منسيا .

وفي دراسة لاحقة سألقي الأضواء على الاعمال التي توهمت بأنني عثرت عليها . ■ ■

سليمان الشيخ

البحث عن طريق جديد

من يتقصى التحولات البالغة الاهمية للرواية المصرية العربية يكتشف ان ابرز مجدد فيها وانشطهم بعض كتاب الشباب في الستينات الذين احدثوا تغيرات اساسية في مبنى ومعنى القصة القصيرة ، بحيث اصبحت ابرز واكثر الاشكال الادبية قدرة جمالية وفكرية لتجسيد وتحليل ونقد المهمات التاريخية والروحية في فترة التغيرات الحاسمة التي عاشتها الحركة الوطنية والاجتماعية .

لقد سبق ان درسنا وحللنا اتجاهات هذا النشاط الابداعي في مجال القصة القصيرة وانتهينا من رصده الى التنبؤ بأن قدرات وامكانيات القصة القصيرة سوف تضيق يوما عن امكانية حصار التعدد والتباين والتناقض في طبيعة المرحلة التاريخية وازماتها ، بحيث تتهيأ حاسية الابداع لدى الموهوبين من كتاب القصة القصيرة للتحول لشكل اكثر رحابة وقدرة على تكثيف وتحليل ورسم اللوحة العريضة للتغيرات ، بمعنى محدد كانت عملية البحث عن شكل جديد للرواية المصرية قضية مطروحة تحتاج مغامرة واستعدادا وثقافة وحماسة .

واول شروط تحقيق احتياجات هذه القضية الفكرية والجمالية هي تجاوز الطريق المستهلك الذي سلكته الرواية المصرية أقصد الرواية الاجتماعية الوصفية المستوفية الشروط في الحبكة ورسم شخصيات نمطية والسرد الآلي للزمن بمفهوم خارجي دون تقص لنفوس الشخصيات او لطبيعة الجو . . . والمكان والزمان واهم من ذلك وجود خلفية فكرية وراء عملية الابداع الروائي .

انجازات الكبار

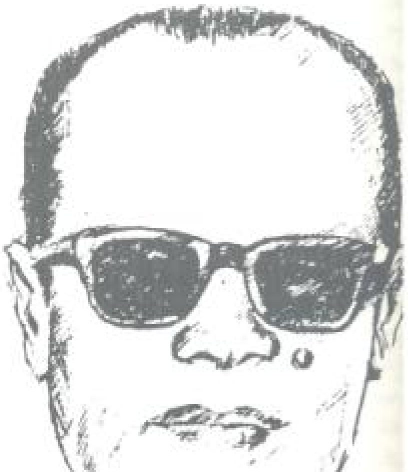
ولكننا لايمكن ان نغفل هنا التطورات الهامة في الانجاز الجمالي والمعماري الذي قدمه كل من نجيب محفوظ ، والطيب صالح ، وجبرا ابراهيم جبرا ، وحنا مينا وحليم بركات وغسان كنفاني .

فلا جدال ان طريق الرواية العربية الذي سلكه هؤلاء الروائيون كان تطويرا وتأسيسا لشكل وفن الرواية العربية ودليلا على نضجها واستطاعتها بلوغ مرحلة التأهيل وتجاوز المراهقة الفكرية والجمالية .

فالرواية لدى (نجيب محفوظ) قد أصبحت مرآة تتجول في تاريخ وزمن وحضارة المجتمع المصري والعربي ، وتقدم وصفا مجازيا بانوراميا لكل المشكلات الروحية والسلوكية التي يعانيها ، ثم انه قد خلق من الحارة المصرية مكانا اسطوريا تعالج فيه كل المشكلات الانسانية برحابة واصالة وبصوته الخاص ، في حين كان الطيب

الرواية العربية المعاصرة

بقلم : عبد الرحمن أبو عوف



نجيب محفوظ

صالح تجديدا حساسا لنوع من خلق عالم اسطوري له لغته التي تكاد تقترب من شفافية التصوف ، فخلق من (دومة ود حامد) عالما ساحرا خلط فيه الواقع بالحلم العبق والاسطوري الشخصي واللاشخصي وتتابعت سلسلة اعماله (عرس الزين) وموسم الهجرة الى الشمال ، وضو البيت ، ومريود)كملحمة روائية غنية بأفانين السرد الروائي والروح الفلسفية والنغمة والرصيد الاسطوري ، وخلقت تاريخا وجدانيا لطبيعة ونوعية وجوهر الشخصية السودانية في بحثها عن نفسها ، وفي تجاوزاتها لامكانياتها المحددة .

أما كل من (جبرا ابراهيم جبرا) و (غسان كنفاني) و (حليم بركات) فقد ابرزت اعمالهم بتعدد مستوياتها ومواقفها الفكرية والسياسية مأساة الفلسطيني وغربته ومشكلاته في الارض المحتلة وفي الهجرة والشتات وصورت اعمال ـ غسان كنفاني ـ فاعلية النضال اليومي وصلابة الفلسطيني الذي اكتشف ان طريق الهجرة طريق مسدود في حين ان طريق النضال والدم هو طريق المستقبل حيث ينتزع الفلسطيني حقه وارضه بالبندقية بينما اختارت اعمال (جبرا ابراهيم جبرا) في روايات (صراع في ليل طويل)و(صيادين في شارع ضيق)و(السفينة)واخيرا رواية (البحث عن وليد مسعود) ازمة المثقف الفلسطيني المغترب الباحث دوما عن فهم وتقصي لجذور ازمته وازمة شعبه والحالم دوما بالفردوس المفقود ، غير انها غالت كثيرا في وضع هذه المفاهيم في اطار تركيبات معقدة من البناء الروائي المتصنع العذوبة ، وركزت كثيرا على قضايا ميتافيزيقية واسطورية ذات دلالة عن الجنس كمعنى ومجاز للضياع والعقم وفقدان الجذور عند الفلسطيني المغترب الهارب من معركته الاساسية وسط شعبه وشاركه في هذا الاتجاه (حليم بركات) في روايتيه (ستة ايام ، عودة الطائر الى البحر) .

وكل هذه الاعمال الروائية تشكل جسرا ومعبرا للتطور الجديد الذي احدثته اجيال جديدة شابة معاصرة في الرواية العربية .

غير ان ما يهمنا التركيز عليه في هذه المقالة هو ـ البحث عن مدى هذا التطور في مفاهيم البناء الروائي ودلالة الزمن الروائي واستحداث اشكال تجريبية لها اصالتها وتفردها ، ولقد تحقق جزء كبير من هذه المهمات على ايدي جيل الروائيين المصريين الشبان أمثال ، صنع الله ابراهيم ، جمال الغيطاني ، ويحيي الطاهر عبد الله ، يوسف القعيد ، عبده جبير ، مجيد طوبيا ، عبد الكريم قاسم ، ومحمد البساطي .

١ ـ عن صنع الله ابراهيم ـ ومرارة أزمة جيل الستينات

قدم صنع الله ابراهيم في روايته (تلك الرائحة) معالم الطريق الجديد الذي تميزت به مرحلة الرواية الجديدة في مصر ، لقد حطم السرد الرتيب والحبكة المصنوعة ورسم الانماط الروائية والاستغراق في التحليل والوصف والحوار ، بل جعل روايته قطعة صارخة من الصراحة الذاكتة التي تبلغ حد التطرف في تناولها كل ندوب وتآكل الواقع النفسي والحياتي الذي يحاصر معتقلا سياسيا خارجا من السجن الى المجتمع الذي ترتفع فيه اصوات زاعقة عن شعارات العدالة والاشتراكية والتحرر والوحدة .

انها « مونولوج » طويل حزين يقدم في حضور متوتر كئيب اختيارات معاشة للأنا المحبطة بعد التمرد والثورة . . . حيث تبدأ في استعادة عناصر اللوحة الاجتماعية بكل تناقضاتها وزيفها . . . الخروج من السجن والبحث عن مأوى وعمل وبداية جديدة ، وحلم بالاستمرار ، ماذا حدث للرفاق ؟ من استسلم بعد نصف المسيرة ؟ من بلعته لعبة التوازن السياسي والاحتواء . . . كل ذلك يشكل في النهاية أزمة جيل الستينات الذي عاش مرارة الاغتراب وواقعا يدعي كل من يتحدث باسمه انه واقع المستقبل والأمل .

ولقد التقينا في رواية (صنع الله ابراهيم) الثانية (نجمة اغسطس)بنفس الراوية بملامحه وسماته الفكرية والسياسية في موقف اجتماعي أكثر تحديدا ، وهو رحلته الى اسوان ليعايش التجربة القلقة والحلم المستحيل في بناء مصر الصناعية حيث تبنى (السد العالي) ليوفر الكهرباء والأرض وليتحول مجرى النيل ، هذا الانجاز



جبرا ابراهيم جبرا

الحضاري الضخم الذي طالما داعب حلم الثوريين والتقدميين يعايشه ـ الانا ـ نفس الشخص الذي دفع من عمره سنوات في السجن والاعتقال ،وفي مزاوجة رائعة بين الذكريات السوداء للمعتقل والانتقال لرصد مظاهر الحياة الجديدة في اسوان حول بناء السد تتم فصول رواية (نجمة أغسطس) وهي نوع جديد من الرواية التسجيلية ورواية التحقيق الصحفي ، ورواية التحليل لمعنى اللحظة التاريخية ، بكل تناقضاتها ، حيث تظل العيون البوليسية ترقب الراوية وهو يتنقل في اسوان ويلتقي ببعض الزملاء القدامى ، مهندس بالسد رغم توقف نشاطه السياسي الا انه ما زال يستفسر عن اخبار الزملاء ، ويقدم الكاتب عبر رحلته جانبا من وصف طبيعة ونوعية شخصية السوفييت . . . ابناء روسيا وهم يلتحمون في ود مع الصعايدة وابناءمصر في انجاز هذا العمل الضخم ، ورغم ما يشوب هذا الوصف والتجسيد من رؤية من الخارج ، لم تتعمق جوانب وتناقضات النفسية والعادات والسلوكيات الاخلاقية للشعبين ، غير ان الرواية تقدم جانبا آخر من أدب الرحلة في وصف القرى القديمة الأصيلة بابنيتها ورائحة حياتها الأثرية والتي تطل على النيل من أعالي اسوان حتى « ابوسنبل » ، وتتصاعد هذه الرؤية الوصفية متجاوزة البعد الاجتماعي المحدد الى نوع من التأمل الفلسفي لكبرياء وشموخ في العمارة والنحت الفرعوني ، والمزاوجة بين هذا التراث الفني من البناء وبناء الحاضر والمستقبل المتجسد في السد العالي . . . ان ابناء واحفاد الفراعنة البناة العظام ما زالوا يحافظون على تراثهم في البناء والتشييد ولكن ثمة شرخا هنا في محاولة الاسترجاع التاريخي التي قام بها (صنع الله ابراهيم) في المقارنة بشكل من التعسف والخارجية دون أي تبرير او اقناع فني ، وبرغم ذلك فان هذه النغمة النشاز لا تمنع من الاحساس الثقيل بالمراقبة والمباحثية التي نحسها في متابعة حركة الرواية ، مما يدل على بقاء ما يهدد أمن وحرية الاختيار والعمل للشخصية المصرية المعاصرة .

٢ ـ عن جمال الغيطاني وجدل التاريخ واستخداماته في فن الرواية

يعتبر (جمال الغيطاني) من ابرز وجوه الرواية المصرية المعاصرة ، ولا جدال ان روايته الاولى (الزيني بركات) كانت دليلا على تفرده وتميزه في اكتشاف صوته الخاص في اعطاء نوع من الرواية الواقعية النقدية المستندة على وعي بجدل التاريخ الاجتماعي والحضاري لمدينته العريقة القاهرة ، حيث تتحول في هذه الرواية وتستخدم بحريات واعية موسعة كل التقاليد التي وضعها مؤرخو الفترات السوداء من حياة القاهرة في العصر المملوكي ، تتحول هنا برائحتها ولغتها وبنائها وسردها تتحول الى رصيد يغني عملية السرد الروائي ، وبناء المواقف والشخصيات ، وتكوين الموضوع والوصول به رغم هذا الثوب التاريخي الى المعاصرة ومعانقة ومواجهة مشكلات العصر ، والآن ، الملحة في شجاعة ووعي وواقعية نقدية لها بصيرتها الجدلية بمعرفة اتجاه المستقبل ، ولعل اوضح أمثلة المعاصرة التقاط الروائي بحساسية مشكلة مشاكل المرحلة المعاشة وهي التجسس والبوليسية والمراقبة والرصد لسلوك الناس ، واحالة هذه المشكلة الى لغة تاريخ الفترة المملوكية باطلاق لفظ (البصاصين) على اجهزة الرصد والتجسس ، وديوان البصاصين هو الحاكم الأمر الناهي في دولة المماليك ، ثم انه تعرض لمشكلة الانتهازي وصعوده سلم الدرجات الاجتماعية في شخصية المحتسب ، وتعرض في الجانب الآخر لعوامل الثورة والتمرد في اروقة الأزهر والمواجهة من جانب الفقراء وحرافيش واهالي الحواري والأزقة ، كل ذلك يتم في اطار بناء روائي يحاكي نفس سمت المساجد المملوكية بتقسيماتها المعمارية ، فليس هناك فصول ولا اقسام ، بل سرادقات وأروقة ومآذن وقباب تحولت في هيبتها الى لغة فن روائي صلب أصيل له رائحة التاريخ وشحونة الحاضر .

وقد قدم بعد ذلك (جمال الغيطاني) عملين روائيين يشكلان اتصالا وانفصالا في نفس الوقت عن خطورة واهمية اكتشافه الخاص في كتابة روائية فذة لها صوتها الخاص ، كما قلنا وتعبيرها السردي والجمالي المميز عنده كما حدث في (الزيني بركات) .

لقد كتب رواية (وقائع حارة الزعفراني) والسبب في اعتقادي ان جمال الغيطاني بدأ حياته الابداعية كـأمهر الأصوات الجديدة المتطورة لمدرسة الواقعية النقدية في فن القصة القصيرة ، وكان قد قدم مجموعته الباهرة (اوراق شاب عاش منذ الف عام) سنة ٦٩ التي تشتمل على نضج ووعي بمفاهيم الجماليات القصصية للقصة الواقعية النقدية حيث ركز عدسته القصصية على ارضية الطبقات المسحوقة في السلم الطبقي وصور وجسد وحلل وحلم مع الفئات الشعبية في حواري القاهرة بكل ما يعيشون فيه من قهر وابتزاز وتخلف وبؤس ، غير انه اتخذ في تعبيره طريقين ، طريق الواقعية النقدية المختلطة احيانا بالفانتازيا ، والخلط بين الحلم والواقع ، الوهمي والحقيقي ومن تقصي رؤية مدرسة التاريخ المملوكي كما قلنا ، ومنذ هذه المجموعة انشطر العالم القصصي والفني عند (جمال الغيطاني) الى طريقين طريق الواقعية المعاصرة الرحبة المستخدمة في حرية كل الوسائل المعاصرة في السرد الفني بحيث تستخدم حيل كل الفنون ومنها اسلوب السيناريو أو التقطيع الفيلمي ـ والمونتاج وطريق استعادة واستعارة اسلوب كتب المؤرخين للفترة المملوكية وعبق وسحر بقايا آثار ومدلولات المعمار وبقايا رواسب الحياة في حي الحسين والأزهر والدراسة ، وكانت (الزيني بركات) استمرارا لهذا الاتجاه ، بينما كانت وقائع (حارة الزعفراني) استمرارا لاتجاه الواقعية النقدية .

في حارة الزعفراني

غير انه في رواية (وقائع حارة الزعفراني) تعثر في بناء تملك فني وفكري بين تفجيره وتأملاته لركام الواقع الشعبي في حارة عتيدة بكل نماذجها الشعبية الحية واحداث حياتها الرئيسية والمثيرة ، لقد اراد ان يحول مادة الواقع الهلامية الى بعد فانتازي يتحدث عن العقم والخسة واغتيال البراءة غير ان حدود واقانيم الفانتازيا قد افلتت من سيطرة ادواته التعبيرية التي جاءت في اجزاء منها مترهلة ميلودرامية في بناء الحدث الروائي ، طويلة ومطنبة في سردها ، قلقة ومتسكعة في لغتها .

ويبقى من أعمال (جمال الغيطاني) جانب من الابداع يعطيه مزيدا من التميز عن ابناء جيله من كتاب القصة والرواية واقصد به نوع الرواية والقصة التسجيلية عن تفصيلات وخبايا معارك الاستنزاف والحرب التي اعقبت هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧ ، لقد اتيحت له الفرصة كمراسل حربي في الجبهة ان يرصد ويسجل ويحلل ويجمع معلومات وخبرات حية عن طبيعة وجوهر المعارك العنيفة التي عاشها الجيش المصري منذ العدوان الاسرائيلي .

وكانت رواية (الرفاعي) عام ١٩٧٨ ذروة متابعاته في هذا اللون من أدب الفاعلية التاريخية أدب الانسان والحرب ، الانسان في مواجهة الموت ، وهي تسجيل تفصيلي واعادة تجميع وتحليل وتأمل لشخصية المقاتل

المصري في أشرف معاركه الحربية المعاصرة معركة العبور في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ولقد أقام (جمال الغيطاني) هذا العمل على قصة واقعية هي حياة واستشهاد (العقيد الرفاعي) التي سجلت الملفات والتقارير والوقائع والأخبار روعة اداله وكفاءته العسكرية في معارك الاستنزاف هو ومجموعته القتالية التي أثارت الرعب في قلب العدو ، ولا جدال ان بناء هذه الرواية الوثائقية المفهومة بالتشوف للحظات المقاومة والقتال تعتبر تطويرا لاتجاهات الرواية المصرية العربية وتشكل شهادة عن تحولات الرؤية الواقعية في الرواية وفن الابداع الادبي ، حيث تصبح الرواية في المواجهة مع الواقع واداة فعل واع ، لفهم المدى العميق والواعي لتناقضات الواقع في ذروة احتدامه .

عن حرب الاستنزاف

غير ان هذا النضج في رواية (الرفاعي) قد سبقه محاولات دؤوبة أصلية في مجموعات سابقة دارت محاورها القصصية حول حرب الاستنزاف وقسوة الحياة ورعبها الذي تعرضت له مدن القنال ، بورسعيد ، والاسماعيلية ، والسويس ، وايضا قدمت شرف وصدق وشجاعة المقاومة والاحتمال عند الشعب المصري في دفاعه عن حضارته وشخصيته المستقلة واستمراره في بناء حياته وطموحاته رغم خسة وقسوة ونذالة المؤامرة الاستعمارية الصهيونية القائمة حتى الآن ، لقد قدم الكاتب تجربته التي تشكل قدرا من الشهادة والوثائقية عن هذه الفترة الحساسة والحاسمة من حياة شعبنا في كل من مجموعاته القصصية (ارض . ارض) ١٩٧٢ ، (الحصار من ثلاث جهات) ١٩٧٥ ، (حكايات الغريب) ١٩٧٦ .

وكل من هذه المجموعات الثلاث يستحق دراسة تحليلية لكشف ما فيها من جهد وصدق ووعي ربما ابرز ما تضيفه لفن القصة المصرية والعربية هو القدرة على تحويل الحدث والخبر والفعل المعاصر والآني واللحظي الى جزء من سيولة الزمن الابدي . . . بمعنى فلسفي تطمح بعض قصص هذه المجموعات الثلاثة في تحويل اللحظة الى جزء من الزمن الذي يكشف عن تقدم انسانية الانسان وصموده ضد كل عوامل القهر والتآكل والاستغلال والخوف والجمود ان ابطالها اناس بسطاء من لحم مدينتنا ومن جسد شوارعها الزاخرة بالحياة والحيوية واحداثها من شبكة العلاقات اليومية ذات السيولة والمعنى والدفء الانساني ، كل هذه البانوراما الانسانية تتحول وتتشكل وتتصاعد تحت رؤية واقعية ملحمية شاعرية لها صدق الموقف الانساني والتزام الكاتب .

يبقى بعد كل ذلك وقبل كل ذلك الدليل الذي يؤكد وعي واستمرارية (جمال الغيطاني) الابداعية في كشف وتجسيد ازمة وامل الواقع المصري المادرة حركته المحاصرة احلامه ، الواقعة حياته وطموحاته لسرطان مخطط استعماري صهيوني رجعي ، يساعد على تنفيذه افلاس وخواء قيادة (الطبقة الرأسمالية الطفيلية) المتحكمة في مصيره والتي تمكنت بفضل تفعيتها وسعيها لمصالحها الاقتصادية الوقتية من حصار وهدم السعي الدائم للاستقلال والتحول الاجتماعي واستطاعت بفعل عناصر ومكونات الطبقة الطفيلية من (سماسرة ، ووكلاء ومقاولين) من تحويل شعارات ثورة ١٩٥٢ الى همهمة من شعارات الانفتاح والتهاون التي اوشكت ان تهدد استقلال وامن واحلام مصر .

ان كل هذه الهموم والاخطار ، وكل هذه الندوب والتآكل والمهانة يتبلور في آخر كتابات (جمال الغيطاني) في مجموعته الفذة (ذكر ما جرى) ١٩٧٨ حيث يصدرها الكاتب بدعاء من ادعية الصوفية (الهي انت عالم بحالي فهل من فرج قريب) . . . نعم وثمة ذهول وجنون ورعب يحدث في قصة (ما جرى لارض الوادي) حيث تكشف الوثائق القديمة عن مأساة بيع شوارع ومباني ومؤسسات مصر للغريب ، فيظل البيع يتم من جسد الأمة حتى يصل الى التفكير في بيع النيل (لا يدري انسان متى بدأ ذلك ؟ لا يمكن تحديد سنة معينة او تاريخ محدد . لكن يذكر الكثيرون ان القلق كبر في النفوس بعد صدور المجموعة الثانية من الصياغات الاجرائية والتي اباحت حق التملك للاراضي بالنسبة للاغراب) . . . ولكن وكما تكشف الوثائق فقد تراكم السخط ونمت المقاومة . . . وكانت النهاية التي يقرأ معنا الكاتب مستقبلها ضد كل ما يدبر لمصر (ان اتجه عدد لا يعرف مقداره بالضبط ، ضم رجالا مسنين وشبابا واطفالا ، وعددا لا يحصى من نساء يحملن اطفالا رضعا على صدورهن ، تجاوروا أمسك كل منهم بذراع الآخر ، قيل ان بعض الأمهات حملن اطفالهن بيد وألقمهن الثداء هن بيد أخرى بينما تلاحمن بجيرانهن ، دفعوا باجسادهم الى الخلف ليسدوا الثغرة ويحوشوا ماء الغرق) .

وتلك في اعتقادي صرخة تحذير بارزة تكررت في معظم قصص المجموعة مما جعل منها نوعا من أدب وفن التمرد الواعي الجديد بالمساهمة في معركة الانسان المصري الشريفة التي يجتازها الآن في اخطر محن ومنعطفات تاريخه . ■■

القاهرة ـ عبد الرحمن ابو عوف

شئون عائلية

قصة : مجيد طوبيا

الديوك : (أقاويل وحكايات مروية) :

في التاريخ المروي لأسرتنا : قيل انني واخي ولدنا في بطن واحد ، لا أقصد من نفس الأم وانما أيضا في ذات الولادة ، وهذا يعني أنه توأمي . . وقيل أيضا أنني أرهقت أمي ارهاقا قاسيا قبل أن أسلم قدمي اليسرى الى المولده كي تسحبني الى هذه الحياة ، وأنني قد تفوقت على جميع الأطفال في مدى ارتفاع بكاء الميلاد ، وأنه بمجرد سماعه لعلعت الزغاريد من جميع القريبات والجارات المتجمعات في الدار ، وأن احداهن توجهت الى النافذة وأخبرت باقي الجارات بأن المولود ذكر فأطلقن على الفور المزيد من زغاريد المجاملة ، ثم اختارت المرأة أخف الأولاد اللاعبين في الشارع وأمرته بأن يسرع الى أبي بالنبأ الميمون !!

قيل أيضا في تاريخ عائلتنا الذي تناقله الرواة بأن أبي بمجرد رؤيته لدلائل الوضع عند الصباح ترك المال اللازم وغادر البيت مؤمنا بأن هذا اليوم هو شأن من شئون النساء ، وجلس على مقهى الشارع العمومي وقد استقر فكره على اسم لولد ، وأيضا على اسم لبنت ، تسبه بمجرد أن عرف خبر مولدي ، وهب نشيطا مسرعا لتقييدي في سجلات الحكومة . . وبعد أن أتم ذلك اشترى بطيخا وشماما وتوجه عائدا به الى الدار مطمئنا الى نجاح جهوده في استمرار نسله ، غير أنه ما ان وطأ عتبة الدار حتى جمد في مكانه مصعوقا ، توقع أن يسمع صراخ طفل واحد فاذا به يسمع صراخين !! . . وعلى الفور تأكد أنه قد بالغ بعض الشيء في جهوده من أجل استمرار الذرية !! . . وكان أخي خارجا لتوه ، ويبدو أنه لم يشأ أن يتخلى عني منذ خطته الأولى ، فما ان سمعني أصرخ حتى انطلق يشاركني بأقصى طاقته ، وان كان صراخي قد سمعه القاطنون في البر الغربي فمن المؤكد أن صراخه قد عبر النهر الى البر الشرقي !! . . وكان صخبا مروعا شد انتباه كلاب الطريق فراحت تنبح متسائلة ، وأقلق طيور السطح فانطلقت الديوك تصيح معلنة عن فجر قدومنا !!

هذا ما قيل وما تناوله الرواة شفاهة ، والوقائع تؤكد أننا ولدنا معا في ذات اليوم من نفس عام ١٩٤٦ ، وأنني لم أسبقه الا بساعة أو أكثر بقليل ، لكن السجلات الحكومية والأوراق الرسمية تقول غير ذلك ، فالذي حدث أن أبي بالطبع لم يكن يتوقع قدوم توأمي ، ولهذا لم يكن قد اختار له اسما ، فجلس يفكر وعندما استقر رأيه ونهض متوجها لتسجيله كانت مواعيد العمل الرسمية قد انتهت وأغلقت المكاتب أبوابها ، فعاد أدراجه ولم يسجله الا في اليوم التالي !! . . وهكذا صرت أنا لدي الحكومة أكبر من أخي بيوم كامل ، وهذا ما كان له شأن كبير فيما تلا ذلك من أيام وأعوام !

السكر (ذكريات مبهمة وغائمة) :

وقيل أيضا أننا كنا شديدي الشبه في البداية ، وأن الكبار اتخذوا من هذا لعبة للتسلية ولاثبات قوة الملاحظة ، لكن لم تمض سوى سنوات قليلة الا وظهر الخلاف بيننا واضحا ، ورفض أحدنا أن يلبس مثل الآخر ، وصرنا دائمي المشاكسة الى درجة أزعجت أبي ، فراح يعيرنا ساخرا بأن قدومنا كان نحسا ونذيرا بقدوم الغلاء الفاحش ، ولم نفهم وقتها شيئا ، ووجمنا وقد ظننا أننا ارتكبنا خطأ ما !! . . ورحت أفكر محتارا في أمر والدي ، فمنذ أيام سمعته يتحدث مع أصحابه من الرجال ويقول لهم بأن العالم قد فسد بسبب فجر النساء ، فالمرأة التي لم تكن تخرج من البيت الا بالحجاب صارت تخرج بدونه ،

بل وتعمل مثل الرجال ، ثم وصل التبجح ببعضهن الى جعل أكمام الثياب قصيرة بحيث تظهر نصف الذراع وأحيانا الذراع كله !! . . أذكر جيدا أنهم أجمعوا على أن أفعال النساء هذه هي سبب خراب الدنيا والسر في الغلاء الفاحش الذي قفز بثمن الخروف البلدي الحي الى أكثر من جنيه وأحيانا الى جنيهين كاملين !! . . لماذا اذا يغير رأيه ويوجه الاتهام لي ولأخي ؟ ! . .

عندما عجزت عن حل هذا اللغز انكمشت وأخي في حضن أمي التي رمقته بنظرة متوعدة فسكت ، لكنه بعد خمسة أيام عاد الى تكرار اتهامه فما كان منها الا أن لجأت بي وبتوأمي الى عشيرتها ! . . وقد أسعدنا هذا جدا ، اذ رحنا نلعب مع الكباش والماعز ، نتقافز معها ، نناطحها وتناطحنا ، نركبها فتلقينا أرضا ، ثم نتوجه الى أطلال المعبد القديم ونستلقي نتشريح في ظلال أصنام الفراعنة . . الى أن جاء أبي وصالح أمي وعاد بنا بعد أن تعهد بعدم العودة الى رمينا بتهمة النحس الجائرة !

في الطريق الى الدار ظل صامتا ثم هزّ رأسه ثلاث مرات أعلن بعدها وفي لهجة جادة تماما أن السر الحقيقي وراء الغلاء الفظيع انما هو حرب فلسطين التي جاءت بعد مولدنا بحوالي العامين ، وكانت هذه أول مرة نسمع فيها عن شيء اسمه حرب فلسطين أدى الى شكوى أبي والى جعل السكر الأبيض المكرر يختفي من بيتنا لنستعمل بدلا منه السكر الأصفر غير المكرر !! . . لكن سرعان ما استرد بياضه وكنا قد دخلنا المدرسة وعرفنا الكتب والمذاكرة ورهبة الامتحانات والخوف من الرسوب ، وعندما كبرنا الى الحد الذي يسمح لنا بارتداء البنطلون الطويل سمعنا من المذياع أن الملك قد طرد هو وحاشيته !! . . فجلست أنا وأخي نتحدث عن هذا الحدث ، وكان أخطر ما شغلنا هو الرغبة في معرفة ان كان الملك قد أخذ معه تاجه الذهبي المرصع بالجواهر والماس والياقوت !! . . أذكر هذا جيدا لأننا سألنا أبي عنه فضحك ثم قبلنا وخرج ، وفي المساء عاد ليضع على رأسي ورأس أخي تاجين من الورق الملون بالأحمر والأزرق والأخضر ، فرحنا بهما جدا ، وبدأنا نتنافس على تقمص صور الملك ، وانتهى الأمر بالتنازع عندما رفض أخي أن يكتفي بدور الأمير أو رئيس الوزراء ، فتشاجرنا وقبل أن ننام كان التاجان قد تمزقا !!

الملعب (ذكريات مبتورة غير مكتملة) :

وكانت في أطراف البلدة أرض فضاء في اتساع ملعب المدرسة الثانوية تلاصقها أرض الكلأ المهجورة التي ترعى فيها كباش الغجر وماعزهم ، وكنا وأقراننا تعودنا على اللعب في هذه الأرض المهجورة ، وذات نهار ذهبنا اليها كالمعتاد فوجدنا عددا من الرجال يقيسون ويخططون فوقها ، ظننا أنهم سيحولونها الى ملعب حقيقي من أجلنا ، غير أنهم جاءوا في اليوم التالي بعمال البلدية ومعدات الرصف ليشقوا في خلال يومين طريقا من الأسفلت كطريق السيارات ، ثبتوا على جانبيه رايات صغيرة وخفيضة ، ثم أحاطوا كل الأرض بأسلاك شائكة لم نر مثلها من قبل في بلدتنا !! . . بالسؤال عرفنا أن هذه الأرض قد صارت مطارا حربيا !!

وفي المساء عندما أنصت الى حديث أبي مع أمي عرفنا المزيد عن تاريخ هذه الأرض كنا نجهله ، قيل انها كانت فيما مضى مطارا مدنيا لم يستعمل الا مرة واحدة ، وأنه أنشيء خصيصا كي تهبط فيه طائرة الأميرة فوزية أخت الملك ، وكانت قادمة لحضور زفاف ابنة أحد أثرياء المدينة يحمل لقب باشا ، وأن موسيقى فرقة المطافيء النحاسية صدحت لها ، وأن المأمور انحنى مقبلا ظهر كفها !! . . وأن الطائرة وهي في سماء البلدة ألقت علبا صغيرة بها بعض الحلوى لم يقع أي منها فوق سطح دارنا لسوء الحظ ، وان كان بعضها قد سقط فوق النهر فاندفع الصبية الى الماء لالتقاطها فغرق منهم ولدان وبنت !! . .

حذرتنا أمي من النهر لأن من عادته أن يأخذ الى جوفه صبيا كل عام !! . . ثم تنهد أبي متحسرا على الأميرة فوزية وعلى جمالها وحسنها ورقتها وأناقتها وجمال عينيها مما دفع أمي الى اتهامه بفراغة العين والسذاجة ، مؤكدة أن جمال الأميرة لم يكن طبيعيا وانما وليد المساحيق التي يحرمها علينا !! . . لكن الذي أثار عجبي أنا وأخي هو أن يقبل المأمور ظهر كف الأميرة !! . . وكنا لا نقبل الا يد جدنا ولهذا تساءلنا ان كانت جدته !!

في الايام التي تلت ذلك انتقل مكان لعبنا الى أرض الكلأ ، حيث كنا نتسلق صخور المعبد الفرعوني ونجلس فوق أعلى بقعة فيه نتفرج على ما يحدث فوق أرض المطار الجديد في اندهاش بالغ ، وتحدثنا بالطبع كثيرا عن الطائرات وغاراتها ، وقال أحد الأولاد بأنه عندما تتقاتل طائرتان فان الطيار الذي سبق في تصويب بندقيته الى رأس الطيار الآخر ويقتله يكون هو المنتصر ! . . وأذكر أيضا أننا رأينا القمر في السماء ذات صباح غريب مستديرا باهتا رغم بزوغ الشمس ، أشار اليه أخي وقال بأن الطائرة القوية يمكنها أن تعلو في الفضاء وترتفع مثل بساط السندباد السحري حتى تصل الى هذا القمر ، ومن هناك يستطيع الطيار أن يبول فوقنا لو أراد ، فقفزنا الى الأرض ساخرين



من سذاجته لأن الوصول الى القمر ضرب من المحال ، وسحبناه من فوق رأس الفرعون وحملناه من يديه وساقيه وألقينا به وسط مجموعة من ماعز الفجر ونحن نضحك ، فنهض يطاردنا لكنه تركنا لاهيا مع الكباش المتقافزة !

وفي أحد أيام عامنا العاشر عدنا الى الدار من المدرسة لنجد ابي جالسا قرب المذياع الكبير يقلب مؤشره بحثا عن نشرات الأخبار .. تأملني وأخي مليا ثم قال في عطف :

ـ في عامكما الثاني وقعت حرب فلسطين ، والآن تقوم حرب ثانية !!

هذه المرة لم يتهمنا بالنحس ولم يلق اللوم على بجاحة النساء ، وانما أطرق مشفقا ملقيا اللوم كله على « التصيب » ! .. ثم أخذ يسعل ، وكانت صحته قد بدأت تعتل ، لكنه رفع رأسه في حزم ليمنعنا من اللعب ثانية قرب المطار بسبب هذه الحرب التي قامت .. قبل أن تنام همس أخي بأن « التصيب » هذا لا بد أن يكون ملكا شريرا يتسبب في الحروب ، ولا أظنني قد وافقته على هذا ليلتها !!

لكن مخاوف أبي صدقت اذ جاءت طائرات الأعداء وألقت بقنابلها ، فقتلت بعض الناس وتناثرت شظاياها لتصيب خمسة من كباش الفجر التي رأيت دماءها فيما بعد جافة فوق قدمي الفرعون الكبير !! ..

ثم سرعان ما سمعنا في الشارع أن دولا ثلاثا تهاجمنا ، ومن فوق فراش المرض أكد أبي أن هذه الدول هي فرنسا وانجلترا واسرائيل ، عاد يسعل ثم تساءل ان كنا نقدر نحن الدولة الصغيرة على محاربة بريطانيا العظمى !! .. وغلبه سعال حاد !

الأزمة (بعض الكوابيس المؤكدة) :

لم تخلع أمي سواد الحداد على أبي الا يوم تخرجي وشقيقي من الجامعة ، فجأة رجعت الى حيويتها لتطلق الزغاريد التي جذبت الجارات الى دارنا والتي انتهت بتوزيع شربات الورد المعطر .. لكن الفرحة لم تتم ، اذ سرعان ما تم استدعاء أخي الى التجنيد ، ولم استدع أنا لأنني أكبره في السجلات الرسمية بيوم كامل فأكون أنا رشيد الأسرة وعائلها من بعد رحيل أبي !! .. ومر عام تجنيده ، وبمجرد قرب موعد خروجه وعودته الى الحياة المدنية انهمكت أمي في مهمة لم تطلبها منها ، بدأت تبحث لكلينا عن عروسين ، وهي مهمة عسيرة ولا شك ، فمن الممكن تصور مدى حرصها مثلا على اختيار فتاتين متقاربتين من شتى النواحي كي لا يشعر أحدنا بالغيرة ان هو وجد أن عروسه مثلا تقل في الجمال أو خفة الظل أو الارث عن عروس الآخر !! .. وعبثا حاولنا افهامها بأن كل واحد سيتزوج بالطريقة التي ترتيجه وعلى مسئوليته الخاصه !!

ومرة أخرى فان الفرحة لم تتم ، اذ توقفت أمي تماما عن محاولتها بفعل طاريء خارج عن ارادتنا ، وذلك عندما زج بأخي فجأة الى سيناء في حرب سميت في مصر باسم مخفف نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وفي البلاد العربية حزيران ، وعند البلاد الاوربية حرب الأيام الستة ، التي ملأت بلدتنا بالمآتم وجاءت بالأعداء الى مياه قناة السويس ، وأدت الى اهتمام أمي بسماع نشرات الأخبار ، على أمل أن تسمع فيها شيئا عن مصير ولدها الذي تأخرت أوبته ، والذي مضت أيام انتظارنا له متثاقلة ونحن لا نعرف ان كان قد مات أو ما زال حيا أو سقط أسيرا ، ولم يكن هناك من المسئولين من يعرف كيف يدلنا !! .. كانت أيام الارتباك الشامل وتصفية الحسابات والقاء الاتهامات والتنصل من المسئولية !!

انهالت دموع أمي ، وظلت حالتها تسوء الى أن حدثت المعجزة وعاد الينا ذات يوم حار رطب من أيام يوليو ، منكس الرأس زائغ النظرات رث الثياب ، ظهر على باب الدار مثل شبح تأكد في وضح النهار ، استقبلته أحضان أمي باللهفة والحنان ، وذبحت له البطة المسمنة !! .. الا أنه ظل ممددا على السرير مختقن العينين ، ولاحظت أنا أن بطني قدميه متشققتان مثخنتان بالجراح ، ولم أشأ أن أسأله عن كيفية عودته ، عن طريقة إجتيازه صحراء سيناء العارية ، عن وسيلة عبوره قناة السويس من الشرق الى الغرب ، ثم وصوله الينا !!

أيام قليلة والتأمت جراح قدميه ، الا أن جراح كبريائه بقيت تنضح عليه ، وكثيرا ما كان يهب فزعا من نومه ، فمكث قابعا في غرفته يخجل من مواجهة الناس !! .. ولأن لكل حال نهاية فسرعان ما تماسك وعاد الى وحدته وجيشه الجديد ، وودعناه أمي وأنا والجيران بالدموع والأمل !

بعد رحيل قطاره سرت هائما الى أن وجدت نفسي على شاطيء النيل ، حيث جلست هناك ساكن الجسد مبلبل الخاطر بالتوتر والغضب ، يبدو أن أبي كان محقا في اعتقاده بسوء حظنا ونحسنا ، ويبدو كذلك أن هذا العالم غريب كبير وضئيل ، مترابط ومتنافر ، سعيد وبائس .. وكل حدث فيه ينعكس على سائر الناس !! .. صرخت وأنا أنظر الى الضفة الأخرى حيث قبور موتانا : ما ذنب أخي ما ذنبه ؟؟ ما ذنب جيلنا كله ؟ ! .. وقتها أيقنت أن أمورا

كثيرة يجب أن تتغير ووجوها عديدة عليها أن تزول ، كي تمحو هزيمتنا السوداء!! .. لكننا بدلا من ذلك فوجئنا بمن يسميها « أزمة الشرق الأوسط » .. فأدركنا أن الأمر سوف يطول .. وفي الحقيقة لم تكن هذه الهزيمة سوى هزيمة شخصية لأخي وأمي ولي ولجميع أصحابنا ومعارفنا ، ومن كافة الجوانب !!

السنين الست (اليقين والصعود الى القمر) :

مرت الأيام بالمرارة ، وتعاقبت الأسابيع بالتثاقل ، وتجمعت لتكون ست سنوات طويلة كأنها ستة قرون ، تعادل ربع عمري أو عمر توأمي تقريبا ! .. وقد سمعنا خلالها سماجات لا حصر لها ومنغصات لاآخر لها ، وظلت رغبة أمي في تزويجنا رغبة معطلة وقد صار جميع شعرها أبيض اللون ! ! .. كما وقعت أمور عديدة لاهثة ، بعضها كان واضحا ومعظمها كان محوها ، ففيها صار اهتمام أمي بنشرات الأخبار اهتماما محموما وقد أيقنت بشكل غريزي أن ما يحدث في الخارج له علاقة بنا بشكل أو آخر .. وعندما سمعت ذات يوم أن مناورات مشتركة تدور بين الأسطول السادس الأمريكي وبين طيران وبحرية العدو انقبض قلبها وراحت تضرع الى الله أن يحفظ ابنها وأبناء مثيلاتها !

ستة أعوام زاد فيها عمر البشر ست سنوات حدثت فيها ملايين الوفيات والولادات والقبلات والأكاذيب والخيانات والأعمال الطيبة ، ودك العدو مدن القناة الثلاثة وحرق معامل بترول الزيتية وأغار على عمال أبي زعبل وأطفال مدرسة بحر البقر ، وعلى الناس في سوريا ولبنان والأردن ، وعلى المطار عند أطراف بلدتنا حيث قتل للمرة الثانية بعض كباش الفجر ! .. وزاد الضغط على الأعصاب حتى قارب الانسان أن يصاب بضغط الدم أو بتصلب الشرايين !! .. وفيها أيضا مضت خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ وحدث ما لم نكن نصدقه ونحن صبية اذ صعد الانسان الى القمر لأول مرة حيث وصفه رائد الفضاء بأنه كشاطيء رملي قذر عليه آثار أقدام ضخمة وتنتشر فوقه الفوهات البركانية والجبال الوعرة ، وبهذا لم يعد من حق الرومانسيين أن ينعتوا المرأة الجميلة بأنها تشبه قمر ١٤ !! .. وفيها قرأت أن عالم المصريات ايمري واصل تنقيبه ربما للموسم السادس على التوالي في محاولة لاكتشاف مقبرة ايمحوتب الذي كان من عامة الناس ثم رفعه الأسلاف فوق مرتبة الفرعون الى مرتبة الآلهة لنبوغه في العلم والطب !!

وفي خلال هذه الأعوام الستة كذلك تغير الناس وعلى الأخص الشباب والطلبة ، كما استفاد بعض الانتهازيين من ظروف الركود وأثروا في السوق السوداء ، وانتشرت الآفات الرديئة والفجة ، وشاهد أخي في احدى أجازاته القصيرة فيلما قال انه تافه ويعكس التفسخ الذي حدث للناس من فعل الهزيمة ، كما حدثت اشتباكات عديدة على جبهات القناة والجولان وربما الأردن ، وقامت دولة جديدة سميت بنجالاديش ، وانتشرت موضة ملابس النساء القصيرة جدا التي لو رآها أبي لمات من جديد ، ثم موضة الملابس الطويلة جدا ، وسمعت عشرات النكات !! .. وفيها قال لي أخي أنه قرأ عن اكتشاف عالم ايطالي يقول فيه بأن الحب هو خير عقار ضد تصلب الشرايين ، ولهذا فان أخي قد وقع في حب فتاة تسكن في شارع « ابن خصيب » وتعمل مدرسة ، وكان وجهه محمرا وهو يخبرني بذلك ، وهي التي تعيش في دارنا منذ أن تزوجها في شهر فبراير من عام ١٩٧٣ وقد انتقلت الى دارنا كواحدة عزيزة من أسرتنا ، ولم يمض سوى شهر أو أكثر الا وبدأ بطنها ينتفخ بجنين من أخي !!

وقد كنا في المساء وهي تتحسس بطنها وقد أوشكت على الولادة عندما علمنا بشكل فجائي أنه قد تم عبور قناة السويس ، وكان ذلك في يوم ٦ أكتوبر على وجه التحديد ..

في ست ساعات تم العبور المستحيل فدبت الفرحة في أوصالنا ، ورحنا نتأمل رقم الستة وكم لعب في حياتنا !! .. ورحنا نتباهى بأنه ان كان العدو قد كسرنا في ستة أيام فقد دحرناهم في ست ساعات أي في ربع يوم فقط !! .. لكن دعاء أمي لأخي ورفاقه أن يعودوا سالمين لأمهاتهم وزوجاتهم جعلني أكف عن الكلام الممنوع وأنزوي متسائلا : هل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟؟ ..

انتهى الأمر وعاد أخي وأصبح أبا ، وسرقت ابنته اهتمام الجميع .. ومنذ أيام استرجعنا ذكريات السنوات الأليمة ، فشعرت بانقباض خفي ، في الحروب يبكي المهزوم ويشتذل ، أما المنتصر فمن حقه الزهو والابتهاج ، لكن فرحته تكون غارقة في دماء عزيزة ولهذا تكون ناقصة ، ولعل ذلك هو علة انقباضي ، ولعله عدم الاطمئنان بأن الأمر انتهى بالفعل !! .. وربما كان السبب هو دعاء أمي كلما رأت أحد الجنود بأن تكون الحرب الأخيرة هي آخر الحروب ، تلك الحرب التي ملأت حياتي وأخي وجيلنا كله منذ ولدنا ، بحيث صارت تشكل ذكريات لا تنسى ، هي من أخص شئوننا العائلية . ■■

مجيد طوبيا



الوسائل والغايات (*)

للدكتور طه حسين

نستعير هذا العنوان من الكاتب الانجليزي المعروف « الدوس هكسلي » ، ولكننا لانستعيره ، لبحث عن المشكلات العليا التي بحث عنها في كتابه المشهور .

نستعير هذا العنوان الخطير من الكاتب الانجليزي العظيم لبحث متواضع يسير ضئيل ، كحياتنا المتواضعة اليسيرة الضئيلة . . وأول ما نلاحظه في هذا البحث الذي لاخطر له ولا قيمة ـ والذي نرجو مع ذلك ان يقرأه الناس ولو نياما كما يقدمون على كل شيء في هذه الأيام وهم نيام كالايقاظ أو ايقاظ كالنيام ـ ان نفس الأمة المصرية مريضة منذ كان الاحتلال البريطاني ، بمرض يفسد عليها حياتها كلها ، ولن تستقبل الحياة الخصبة المنتجة الا اذا برئت من هذا المرض ، وهو الاشتغال بالوسائل عن الغايات ، وبالظواهر عن الحقائق . نلاحظ آيات هذا المرض في سيرتها كلها ، سواء منها ما يتصل بحياتها العامة وما يتصل بحياتها الخاصة ، وسواء منها ما يتصل بالجد الذي يقصد به الى الانتاج وما يتصل بالترفيه الذي يقصد به الى الراحة والاستجمام !

فالمصري لايأكل ليعيش ، وانما يعيش ليأكل . وهو كذلك لايستريح ليتنج ، وانما ينتج ليستريح ، ان أتيح له شيء من انتاج . وهو لا يتعلم لينتفع بعلمه وينفع الناس ، ولايتخذ المنصب وسيلة الى هذا النفع ، وانما يتعلم ليجد المنصب ، ويجد المنصب ليقبض المرتب آخر الشهر ، ويقبض المرتب ليعول أهله كما يستطيع أولا ، ثم ليختلف الى الأندية والقهوات بعد ذلك ، فيخوض من لغو الحديث وسخف القول فيما شاء أن يخوض فيه ، وحياته العامة كحياته الخاصة قد أصيبت بهذا المرض من أعراض المرض ، فلزمها في كل فروعها ! وقد يكون مما يضحك ويسلي ـ ان كان في الشر ما يضحك ويسلي ـ ان نلاحظ أن مصدر هذا المرض في حياتنا العامة خطأ يسير في الحكم والتقدير . . فقد قامت النهضة المصرية الحديثة كلها على فكرة خطيرة خصبة هي أن مصر اضطرت أيام الترك العثمانيين الى الركود والجمود ، ومضت أوروبا في طريقها الى الرقي حتى سادت العالم وسيطرت عليه . ففكر زعماء النهضة منذ أول القرن الماضي في أن أول ما يجب على مصر هو النشاط الذي يتيح لها أن تدرك أوروبا ، وأن تأخذ بأسباب الحضارة كما أخذت بها ، وتسعى الى الرقي كما سعت اليه . فكان التشبه بأوروبا في أول النهضة وفي أثنائها أيام محمد علي واسماعيل وسيلة لاغاية ، فكر محمد علي واسماعيل وأعوانهما ومشيروهما في أن أوروبا قد غيرت من حياة القرون الوسطى ، فأتيح لها رقي في النظم الاجتماعية والسياسية كفل لشعوبها حرية بعد استعباد ، وعدلا بعد جور ، واستعلاء في الأرض بعد أن كانت مستضعفة متهالكة ، فأراد محمد علي واسماعيل واعوانهما أن تسترد مصر حرية بعد استعباد ، وعدلا بعد جور ، ومساواة بعد تفاوت ، وعزة بعد ذلة .

ولكن هذه الوسيلة لم تلبث ان أصبحت غاية في نفوس كثير من المصريين ثم في نفوس أكثر المصريين ، ثم في نفوس المصريين جميعا الا أفرادا قليلين يمكن أن يبلغهم الاحصاء ! فليس المهم الآن هو أن يتحقق في مصر مثلما تحقق في أوروبا من العدل الاجتماعي والسياسي ، وانما المهم هو أن توجد في مصر النظم والادوات التي اتخذتها أوروبا وسيلة الى تحقيق العدل السياسي والاجتماعي ، سواء أكان لهذه النظم والادوات من الانتاج مثلما كان لها في أوروبا أم لم يكن !

في أوروبا وزارات منظمة فيجب أن تكون في مصر وزارات منظمة لتصبح مصر كأوروبا ، سواء أعملت الوزارات المصرية كما تعمل الوزارات الأوروبية ، أم اكتفت بوجودها ليعرف العالم أن مصر ليست أقل من أوروبا تقدما ولا رقيا .

وفي أوروبا دساتير تنظم ما للشعب من حقوق وما عليه من واجبات فيجب أن يكون لمصر دستور مكتوب ، ينظم ما للمصريين من حقوق وما عليهم من واجبات . وليس ضروريا أن ينفذ الدستور في مصر على وجهه ولا أن تحترم الحريات التي يكفلها للناس ، ولا أن تجري الحياة البرلمانية نقية من كل شائبة ، مبرأة من كل عيب ، ولا أن يذهب الشعب الى حيث ينتخب ممثليه حرا آمنا على ضميره من أن يعبث به الترغيب أو الترهيب ، ولا أن يؤدي النواب والشيوخ واجباتهم في مراقبة الحكومة ومحاسبتها أحرارا آمنين على ضمائرهم ومصالحهم القريبة والبعيدة ، ولا أن تقف الوزارة أمام البرلمان موقف المسؤول عن أعماله بالفعل ، ولا أن يثق البرلمان بالوزارة فتبقى ويسخط عليها فتزول ! ليس شيء من هذا كله ضروريا وانما الضروري الذي لايصح الاغضاء عنه ولا التقصير فيه هو أن يكون لمصر دستور مكتوب كما أن لكل بلد راق في أوروبا دستورا مكتوبا !

وقد يكون من الظريف أن تلاحظ أننا حين نتمدح بالدستور لانتمدح بأنه يمتعنا بالحرية والعدل والمساواة حقا ، وانما نتمدح بأنه كأحدث الدساتير الأوروبية . أمرنا في الدستور كأمرنا في الأزياء وفي أزياء السيدات بنوع خاص ، لاينبغي أن يبعد بها العهد وانما ينبغي أن تأتي من أشهر دور البدع في باريس ، أو تكون طبق الأصل لما تنتجه أشهر دور البدع في باريس !

والأزياء التي تأتي من باريس تكلف الذين يشترونها ثمنا غاليا فيجب أن يكلفنا الدستور الذي هو كأحدث الدساتير الأوربية ثمنا غاليا أيضا . ولست أذكر نفقات الانتخاب ولا المكافآت البرلمانية ولا المرتبات التي يتقاضاها الموظفون في البرلمان ، وانما أذكر المرافق المهملة ، والمنافع المضيعة ، والأخلاق التي اشتمل عليها الفساد ! فهذه هي الأثمان التي يجب أن نؤديها ليكون لنا دستور مكتوب كأحدث الدساتير المكتوبة في أوروبا .
ولكل بلد من البلاد الراقية جيش منظم على أحدث طراز فيجب أن يكون لنا جيش منظم على أحدث طراز ، تنفق عليه الملايين « المملينة » ان اجاز المجمع اللغوي هذا التعبير ! وليس ضروريا أن يكون هذا الجيش أو لايكون قادرا على حماية مصر من المغيرين ، بل ليس هناك بأس من أن يحتفظ هذا الجيش بكبريائه وتمتلىء قلوبنا نحن بالكبرياء لأن لنا جيشا منظما على أحسن طراز في نفس الوقت الذي يحتل فيه مصر جيش أجنبي منظم كذلك على أحسن طراز ! . .

وفي كل بلد من البلاد الراقية وزارة للتعليم ، فيجب أن تكون لنا وزارة للتعليم . وقد تلاحظ أن الجاهلين في مصر ما زالوا الكثرة الكثيرة ، وأن المتعلمين ما زالو هم القلة القليلة . ولكن هذا كله ليس ذا خطر ، فوزارة التعليم لايراد منها ازالة الجهل ونشر التعليم ، كما أن وزارة الصحة لايراد منها ازالة المرض ونشر الصحة ، وكما أن وزارة الشئون الاجتماعية لايراد منها ازالة الشقاء واشاعة الثراء ، وانما الذي يراد من هذه الوزارات ومن غير هذه الوزارات ، كالذي يراد من الدستور ومن كل نظمنا الحديثة هو أن توجد لنستطيع أن نقول ، وقد رفعنا الرؤوس وشمخنا بالأنوف ونظرنا الى السماء وأبينا أن ننظر الى الأرض : « ان مصر بلد حديث ، فيه كل النظم التي تستمتع بها البلاد الحديثة الراقية ! »

وويل لنا ان نظرنا الى الارض فقد نرى على الارض ان نظرنا اليها شعبا جاهلا مريضا فقيرا ، لايوجد في أوروبا ولا في غير أوروبا من البلاد الراقية المتحضرة ! فلننظر الى السماء ، والى السماء وحدها ، ولنكتف بالوسائل ولنتجنب الغايات .

* عام ١٩٤٧



اعترافات بيير رفيير

الرجل الذي دخل التاريخ من باب الجريمة

بقلم : الدكتور أحمد أبو زيد

في البدء كانت جريمة بشعة، ثم تحولت الى اعترافات مكتوبة ، انتهت الى ان صارت جزءاهاما في أعمال الفكر البنائي الفرنسي.

بيير رفيير فلاح عادي كغيره من الفلاحين في نورماندي بفرنسا . ارتكب في يوم ٣ يونيو ١٨٣٥ جريمة قتل ولكنها لم تكن كغيرها من جرائم القتل التي كثيرا ما يرتكبها الفلاحون ، اذ كان ضحيتها أمه الحامل وأخته ذات الثمانية عشر عاما وأخاه الصغير ذا السبعة أعوام . وقد حكم على رفيير بالاعدام ثم خفف الحكم الى السجن مدى الحياة . وفي فترة الأيام العشرة (من ١٠ الى ٢١ يوليو ١٨٣٥) التي أمضاها في الحبس قبل تقديمه للمحاكمة كتب اعترافاته بناء على طلب المحققين ، وهو اعتراف طويل نسبيا يقع في أربعين صفحة من الحجم الكبير وبه كثير جدا من التفاصيل . وفي عام ١٨٤١ أي بعد أربعة أعوام ونصف عام من الحكم عليه بالسجن شنق نفسه في زنزانته ، وبذلك أسدل الستار تماما على قصة الفلاح المجرم وجريمته .

ولكن في عام ١٩٧١ عثر الفيلسوف البنائي الفرنسي ميشيل فوكو على تلك الاعترافات في ملفات اقليم كالفادوس في نورماندي ، وأفلحت الوثيقة في أن تثير اهتمامه بحيث عقد ندوة بحث لمناقشتها . ثم عكف على تتبع القضية وجمع كل ما يتعلق بها من وثائق وتقارير وقام هو وعشرة من تلاميذه ومريديه بدراستها كلها وتحليلها ثم نشر ذلك كله عام ١٩٧٣ في كتاب جعل عنوانه الجملة الافتتاحية في تلك الاعترافات وهي : « أنا بيير رفيير ، لما كنت قد ذبحت امي وأختي وأخي ..... » وفي عام ١٩٧٥ تم تصوير أحداث الكتاب في فيلم سينمائي ظهر فيه فوكو نفسه في دور احد القضاة اللذين حاكموا رفيير . وبذلك أصبحت هذه الاعترافات جزءا هاما من التراث العلمي في المدرسة البنائية الفرنسية بعد مرور قرن ونصف على ارتكاب الجريمة . فما قصة هذه الجريمة وتلك

الاعترافات ؟ وما الذي جعل مفكرا جادا مثل ميشيل فوكو يهتم بها كل هذا الاهتمام ؟

منبر للمجرمين

لاشك ان الصدفة لعبت دورا كبيرا في ذلك كله . ففي العام الجامعي ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ كان فوكو يحاضر في الكوليج دي فرانس في موضوع « نظريات ونظم العقوبات » وفي اثناء اعداد محاضراته والبحث في المراجع والوثائق التي يمكن الاستعانة بها ، وجد بعض الاشارات السريعة الى تلك الجريمة في عدد من المجلات العلمية القديمة . وأثار دهشته قلة ما كتب عنها في ذلك الحين رغم أن الجريمة لم تكن جريمة عادية . ولذا عمل على جمع كل ما يمكن جمعه حولها ، وأمكنه بذلك أن يصل الى تلك الاعترافات والى كل الوثائق المتعلقة بالجريمة من تقارير الاطباء الشرعيين الذين فحصوا جثث القتلى الى شهادة الشهود الى محاضر المحكمة الى كثير من قصاصات الجرائد والمجلات التي أشارت الى الحادث وقت وقوعه .

ثم زاد اهتمامه بالقضية كلها بعد أن اطلع على الاعترافات والطريقة التي سجل بها بيير رفيير وقائع الجريمة ، والظروف والملابسات التي تمت فيها ، والاسباب والدوافع التي دفعته الى ارتكابها ، ومشاعره وأفكاره وخواطره بعد أن اقترف جريمته . وفوكو نفسه يقول في ذلك إنه لم يكن ليخصص عاما ونصف العام لدراسة القضية والوثائق لولا ، « جمال اعتراف رفيير » .

ولقد حرص حين نشر كتابه ان تظهر الاعترافات في صورتها الأصلية ، فلم يحاول أن يصحح ما بها من أخطاء هجائية أو غير ذلك ، كما لم يحاول تفسير أفعال ريفيير وسلوكه حتى لا يضطر الى الالتجاء الى التأويلات السيكولوجية أو الطبية أو القانونية أو الاجرامية ، وهو الامر الذي يرفضه فوكو وغيره من البنائيين الفرنسيين بحكم منهجهم البنائي الذي يهتم في المحل الاول بالتحليل اللغوي ويعطي أولوية مطلقة لتحليل (النص) وفهمه .

ولم يكن فوكو على هذا الاساس يؤمن بجدوى أي « مقال **Discours** » آخر خارج النص ذاته لفهم المشكلة ويرى أن مثل هذه التأويلات تؤدي في آخر الامر الى التبسيط والاختزال والتقليص وليس الى الفهم . .

ولقد كان فوكو متطقيا مع نفسه حين اهتم بتلك القضية وبذل كل تلك الجهود لدراستها ونشر وثائقها ، اذ كان ينادي في ذلك الوقت ـ ولا يزال بضرورة اتاحة الفرصة للمجرمين ونزلاء السجون للتحدث بأنفسهم عن أنفسهم وعن التجارب التي مروا بها وقد اشترك مع عدد من المثقفين الفرنسيين في تكوين جماعة لجمع المعلومات عن حياة السجون أسماها « جماعة معلومات السجون » **Groupe d'information Sur les prisons** وعاونه في ذلك عدد من السجناء السابقين ووضعوا استمارة بحث وزعوها على حوالي ألف شخص من نزلاء السجون والمساجين السابقين وعائلاتهم والمحامين وعدد من المتعاطفين مع المجرمين .

ولم يكن هدف الجماعة التحدث باسم المجرمين أو الدفاع عنهم أو اظهار مشكلتهم أمام الرأي العام وانما كان هدفها مساعدة هؤلاء المجرمين ونزلاء السجون عامة على أن يتحدثوا عن أنفسهم ويضعوا قضاياهم بكل جوانبها أمام المجتمع في ضوء المعطيات الاجتماعية التي لابست ارتكاب جرائمهم وكذلك لفضح الاوضاع الشنيعة القائمة في السجون الفرنسية .

وبطبيعة الحال أثار تكوين هذه الجماعة ردود فعل متباينة في المجتمع الفرنسي الذي كان يعجب على الخصوص لأستاذ الكوليج دي فرانس الذي ينضم لجماعة لاتدافع عن حقوق الفقراء بل يتبنى قضية المجرمين والخارجين على القانون وعلى المجتمع . ويجب ان لا ننسى أن فوكو كان مشغولا في ذلك الحين بالاعداد لكتابه عن « التهذيب والعقاب : مولد السجن » الذي ظهر عام ١٩٧٥ . فمشكلة الجريمة وانساق العقوبة وحياة السجون كانت تشغل جانبا كبيرا من وقته وتفكيره ، ومن هنا كان اهتمامه البالغ باعترافات بيير ريفيير حين عثر عليها وبالقضية كلها .

حقيقة الأم

بيير ريفيير ابن فلاح طيب من إقليم كالفادوس في نورماندي - تزوج أبوه الطيب المسالم من امرأة من قرية مجاورة ، لكن الزوجة كانت تتمتع بشخصية قوية مسيطرة وعدوانية ولذا أذاقت زوجها كل صنوف العذاب وسببت له كثيرا من المشاكل وملأت حياته بالشجار العنيف المستمر وأساءت إلى سمعته في القرى المجاورة وأوقعته في الديون ، ثم رفضت أولا أن تعيش مع أمه في بيت واحد ، وبعدها رفضت أن تعيش في قريته حيث توجد أرضه وأعماله وعادت إلى قريتها واضطر الى أن يوزع وقته في العمل في أرضه هو وفي أرضها وأن يتنقل بشكل مستمر بين القريتين . ومع ذلك لم يسلم من لسانها ، فقد كانت تتهمه دائما بسرقة أموالها وأمتعتها وبسوء التصرف في إدارة ممتلكاتها ، بل وصل بها الامر في النهاية الى أن عملت على إذلال رجولته وكبريائه بالادعاء بانها تعاشر غيره من الرجال .

كانت تؤمن بالقوة وتترجم هذه القوة الى فعل - تبعا لنظرية فوكو عن القوة والقهر الاجتماعي (انظر مقالنا عن فوكو في عدد سبتمبر ١٩٨٢ من « العربي ») وأفلحت الزوجة في تحريض بعض أبنائها على الأب وضمتهم إلى صفها وبذلك انقسمت العائلة إلى قسمين وأصبحت الحياة قاسية لا تطاق وكان بيير يراقب ذلك كله ويأسى لوالده الطيب ويحنق على أمه القوية المتسلطة إلى أن اتخذ قراره بضرورة التخلص منها لانقاذ الأب المسكين .

وقد سجل بيير هذا كله في النصف الأول من اعترافاته بكثير من التفاصيل التي تعطي فكرة واضحة عن تصرفات الفلاحين وسلوكهم وعاداتهم ، وأعطى صورة متكاملة عن الحياة في الريف الفرنسي في هذه المنطقة والعلاقات بين الناس واهتماماتهم وكيف تنتشر الفضائح والأقاويل والاشاعات بينهم بسرعة ، وقد وصف فوكو هذا القسم بانه « قطعة رائعة من الانثولوجيا الريفية » .

وقد افتتح بيير ريفيير اعترافاته بقوله « أنا بيير ريفيير .. لما كنت قد ذبحت أمي وأختي وأخي ، ولما كنت أرغب في أن أكشف عن الدوافع التي دفعتني إلى ذلك العمل ، فانني أسجل هنا أحداث الحياة التي عاشها أبي مع أمي منذ زواجهما . ولقد شهدت بنفسي الجزء الاكبر من هذه الوقائع والأحداث وهي التي سوف أذكرها في نهاية هذه القصة . أما الاحداث المبكرة فقد سمعتها من أبي وهو يحكيها ويعيد حكايتها لأصدقائه وأمه ولي أنا نفسي ولكل من له علم بها . وعلى ذلك فسوف أروي كيف قررت ارتكاب هذه الجريمة وما هي أفكاري في ذلك الوقت ، وما كنت أرمي اليه . كذلك سوف أسجل هنا كل ما دار في ذهني بعد ارتكاب هذا الفعل ، والحياة التي عشتها بين الناس والاماكن التي ذهبت اليها بعد الجريمة الى أن تم القبض عليّ ، ونوع القرار الذي اتخذته . وسوف أقص كل هذه الاشياء باسلوب ساذج بسيط لانني أعرف القراءة والكتابة بالكاد . وكل ما أرجوه هو أن يفهم الناس ما أعنيه . ولقد كتبت كل شيء كأحسن ما أستطيع » .

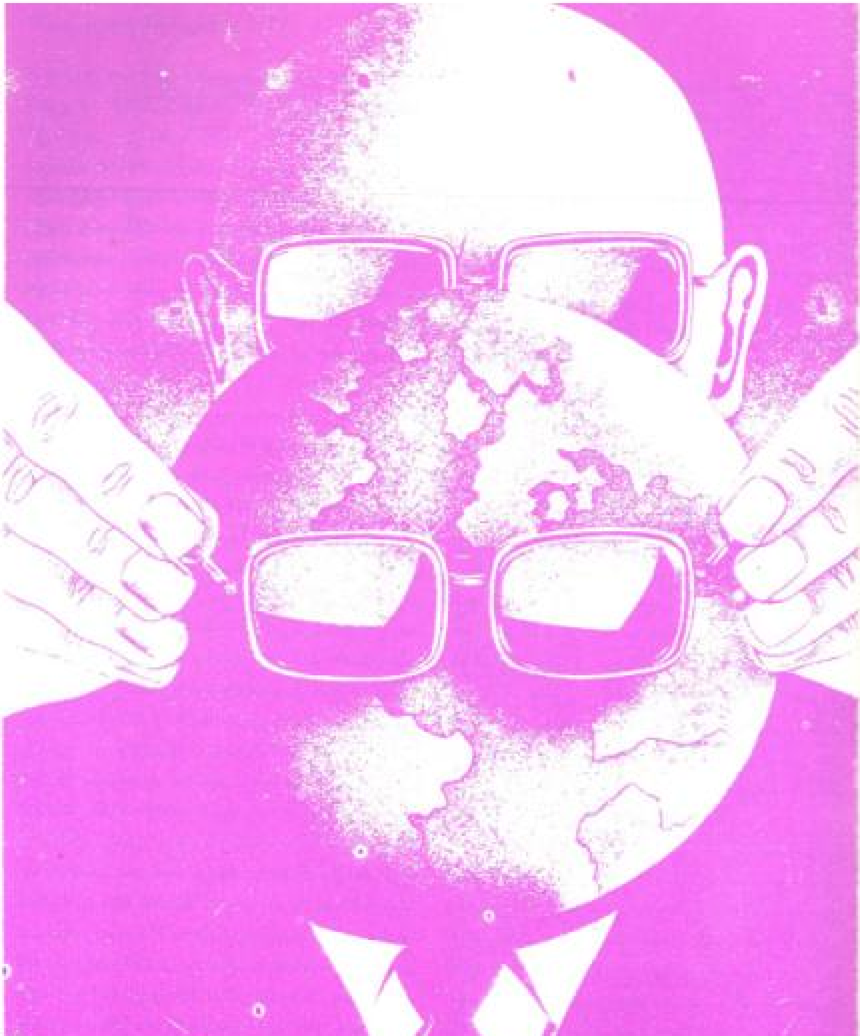
وحقيقة الابن

ولكن « الاعترافات » ليست مجرد سرد أو تسجيل للأحداث والظروف التي أدت الى ارتكاب الجريمة ، وإنما هي تسجيل أيضا للافكار التي كانت تمر طيلة الوقت بذهن بيير ريفيير والمبررات التي قدمها لنفسه حتى يقنع نفسه بضرورة قتل أمه وأخته وأخيه وتخليص الاب من تلك القوة الغاشمة المسيطرة . وقد أعطت هذه (التبريرات) كثيرا من العمق للاعترافات بشكل لا يتناسب إطلاقا مع ما يدعيه ريفيير من قلة معرفته بالقراءة والكتابة ، كما أنها تكشف في الوقت ذاته عن درجة عالية من الذكاء الذي لم يكن الناس يتصورونه فيه إذ تدل شهادة الشهود في المحكمة على أن معظم أهل القرية كانوا يرون فيه شابا خجولا وعلى درجة كبيرة من الغباء .

وبيير ريفيير يقول في ذلك إنه كان في صغره - وهو في سن السابعة أو الثامنة - يميل الى التدين وكان يرغب في أن يصبح قسيسا ووجد من أبيه كل تشجيع ، ولكن لم يلبث أن نبذ هذه الفكرة وعكف على القراءة في مختلف الموضوعات ، وإنه كان يميل بطبيعته الى الاعتكاف والبعد عن زملائه مما جعلهم يعتبرونه شخصا غريب الأطوار ويهزأون منه ، ولكنه كان ينظر اليهم جميعا بكثير من الاحتقار .

وظل متمسكا بالدين طيلة شبابه ، كما كان ينفر عموما من النساء ولا يحاول الاتصال بالفتيات كما هو شأن زملائه في سن الشباب . ورغم ذلك فان سوء معاملة الأم للأب والقوة المسيطرة التي كانت تتمتع بها والتي كانت تستخدمها في تحطيم الأب والاساءة الى رجولته وكبريائه جعلت صوت الدين والاخلاق وقواعد المجتمع يتضاءل ويتوارى ثم يختفي تماما ، وهو يقول في ذلك :

« لقد نسيت تماما كل المبادىء التي كانت خليقة بأن تجعلني احترم أمي وأختي وأخي . كنت أنظر الى أبي فأجده واقعا تحت قوة وسيطرة مجموعة من الكلاب المسعورة أو



جماعة من المتبربرين الذين كان يجب على أن أقف في وجوههم . ومع أن الدين يمنع مثل هذا العمل إلا أني تجاهلت تعاليمه . بل إنه كان يبدو لي أن الله نفسه قد سخرني للقيام بهذا العمل وأني سوف أنفذ قضاءه وحكمته بذلك . لقد كنت أعرف قوانين البشر وقوانين المجتمع المنظم ، ولكنني كنت أعتبر نفسي أعقل وأحكم منها كلها . . وعلى ذلك فإن الفكرة التي كانت تشغل عقله طيلة الوقت كانت ضرورة تخليص الأب من سيطرة وجبروت الزوجة القاسية المسيطرة وأنه لا بد من أن تلقى الأخت الكبرى والأخ الأصغر نفس المصير لأنها كانا يساعدانها ويحرضانها على الأب .

بسبب تحرر المرأة

ويذهب ريفير الى أبعد من ذلك حين ينعى على فرنسا سماحها بتحرر المرأة لدرجة أنها أصبحت تتحكم في

الرجال في هذا العصر المجيد الذي يسمى نفسه « عصر التنوير » . كما كان يأسف لهذه الأمة التي يبدو أنها حريصة كل الحرص على الحرية والمجد ، ولكنها مع ذلك تطيع نساءها . لقد كان الرومان اكثر تحضرا من فرنسا وكذلك كانت قبائل الهيرون والهتنتوت والالجونكان التي توصف بالغباء ولكنها أكثر تحضرا ايضا لأنها لم تكن تستهين أبدا بقوة الرجال .. لقد استرجعت في ذهني بونابرت في عام ١٨١٥ وقلت لنفسي ان ذلك الرجل أرسل الآلاف الى الموت لكي يشبع نهمه وشهوته ولذا فليس من العدل أن اترك امرأة تعيش لكي تعكر على أبي صفو حياته وسعادته » .

فكأن فكرة (القوة) كانت الفكرة المركزية التي يدور حولها كل تفكيره وكان يتصور بالضرورة لقوة الرجل على المرأة .... كما هو الحال في كل المجتمعات الريفية ، كما أنه كان يرمي من جريمته أن يسجل لنفسه مكانا بارزا في التاريخ . وقد أشار الى ذلك في أكثر من موضع في الكتاب : « لقد قرأت تاريخ الرومان ووجدت القانون الروماني يعطي الزوج حق الحياة والموت على زوجته وأولاده ، ولكنني كنت ارغب في أن اتحدى القانون وأن أضع اسمي في سجل الخلود بأن أموت في سبيل أبي . لقد استرجعت في ذاكرتي الأبطال الذين ماتوا في سبيل الملك والوطن ... وكنت اقول ان هؤلاء الرجال ماتوا في سبيل رجل لا يعرفونه ولا يعرفهم بل ولم يكن يعيرهم أدنى التفاتة من فكره ، ولكنني انا جدير بأن أموت لكي أخلص رجلا أحبه ويحبني من القوة والقهر » . وواضح من هذا كله أن الثورة ضد القوة التي كانت تمثلها الأم انما هي ثورة لتحقيق قوة ذاتية يكتسبها الابن عن طريق قتل الام القوية المسيطرة وانصاف الاب المسكين الضعيف والدخول في التاريخ وتخليد الاسم عن طريق ارتكاب جريمة تفوق غيرها من الجرائم في البشاعة والقسوة .. « ولقد كنت اتصور أن الفرصة قد أتيحت اخيرا لكي أرفع نفسي بحيث يحدث اسمي دويا عاليا في العالم ، وأن الحكم علي بالموت يضفي على اسمي كثيرا من المجد ، وأن أفكاري سوف تسود العالم كله في المستقبل وتجد الكثير من الاحترام والتعظيم » .

وكانت هذه وامثالها هي المبررات التي حاول أن يقنع بها نفسه بضرورة قتل أمه وأخته وأخيه ، ونفذ جريمته يوم ٣ يونيو عام ١٨٣٥ حين وجد ضحاياه الثلاثة وحدهم في البيت ثم ترك جثث ضحاياه وفي نيته أن يتجه الى مخفر الشرطة في المدينة المجاورة ليسلم نفسه حتى يكون له « الفخر بأن يكون هو نفسه أول من يعلن عن خبر جريمته » . وقد اجتاز طريقا طويلة غير مطروقة عبر الغابات حتى لا يراه أحد ويتم القبض عليه بعد أن تكون اخبار الحادث قد انتشرت بين الناس وبذلك يفقد هذا « الشرف والفخر » . ولكن وجد أن فكرة المجد والشرف التي كانت تدفعه دفعا الى ارتكاب الجريمة بدأت تضعف بالتدريج أثناء سيره الطويل وبدأ يراجع نفسه ، وتبدى له سوء عمله الوحشي وتملكه الخوف وبدلا من أن يتابع سيره الى مخفر الشرطة أخذ يهيم في الغابات مبتعدا عن الناس هاربا من العدالة وقد تملكه الخوف والجبن والندم حتى تم القبض عليه .

ذكي أم مجنون ؟

ومن السخرية ـ كما يقول الأستاذ الآن شريدان وهو من أكبر الباحثين المهتمين بالمدرسة البنائية الفرنسية وباللذات بكتابات ميشيل فوكو ـ إن هذه الاعترافات التي كتبها بيير ريفيير وهو في الحبس ينتظر محاكمته والتي كان يأمل منها أن تقنع المحكمة بفداحة جريمته فتحكم عليه بالاعدام ويدخل في سجل الخالدين عن طريق الموت حسبما كان يتصور ، اعتمد عليها علماء الطب النفسي في باريس لكي يدللوا على جنون ريفيير ويستصدروا بذلك حكما جديدا بتخفيف العقوبة من الاعدام الى السجن مدى الحياة . وبذلك حرموه المجد الذي كان يطلبه ، وان كان قد انتحر بعد ذلك في زنزانته على ما قلنا .

الا ان ميشيل فوكو لا يشارك شريدان سخريته واستخفافه ويدلي بدلا من ذلك في مقال له بعنوان (قصص القتل) بعدد من الملاحظات الجادة الصائبة حول الاعترافات . وهي ملاحظات تكشف عن الاسلوب الذي يتبعه هو وزملاؤه من البنائيين الفرنسيين في دراسة النصوص وتحليلها ولم يستغرب فوكو أن يجد القضاة والاطباء والمحامون أنفسهم في حيرة ازاء اعترافات ريفيير بحيث يصدر الحكم بالاعدام لكي يخفف بعد ذلك الى السجن المؤبد . فبعض التبريرات التي يذكرها ريفيير ليفسر بها ارتكاب الجريمة تدل دلالة قاطعة على جنونه ، بينما (النص) في مجموعه لا يمكن أن يصدر الا عن شخص ذكي يعرف كيف يفكر ويكتب بطريقة منطقية ، بل ويفسر بعض أفعاله تفسيرا عقلانيا مقبولا . ولعل اهم تلك الملاحظات هي العلاقة الوثيقة بين الحكاية « ـ أي الاعترافات المكتوبة أو النص ـ والفعل أو جريمة القتل ذاتها . فليس ثمة ما يدل في سلوك بيير ريفيير نفسه على أي ترتيب زمني مسبق بين النص والفعل بحيث يرتكب جريمته اولا ثم يكتب القصة أو يرويها بعد ذلك في اعترافاته

خاصة » وان النص نفسه لا يتضمن أي معلومات تفصيلية عن كيفية ارتكاب الجريمة أو اداء الفعل ولكن المهم في رأي فوكو هو أن (واقعة القتل ، الكتابة أو الأفعال التي تمت والاشياء التي رويت في الاعترافات تزامنت معا لأنها عناصر من طبيعة واحدة » ، وصدرت عن شخص واحد هو « مؤلف » الجريمة » ومؤلف »النص .

ولو صدقنا ما جاء في هذه الاعترافات فسوف يكون هناك ثلاثة احتمالات ، أو ثلاثة مشروعات ، حسب تفكير فوكو عن العلاقة بين الجريمة والنص : الاحتمال الاول هو ان يكون الهدف من الاعترافات هو الاحاطة بالجريمة ، ولو كان الامر كذلك لكان يتعين على ريفيير أن يبدأ بكتابة اعترافه أو (مذكراته) ، وهذا معناه أن يعلن اولا عن جريمته ثم يشرح وقائع وتفاصيل حياة ابيه مع أمه وفي النهاية يتعرض لأسباب ارتكاب الجريمة وطبقا لهذا الترتيب كان يجب أن يرتكب جريمته بمجرد انتهائه من كتابة مذكراته أو اعترافاته ويقوم بارسالها بالبريد الى السلطات المسؤولة ثم ينتحر . اما الاحتمال أو المشروع الثاني فهو عدم وجود أي علاقة متبادلة بين النص أو الاعتراف والفعل اي بين الحكاية وجريمة القتل ، وفي هذه الحالة كان ينبغي أن يأتي ذكر الجريمة في نهاية النص بحيث تبدو كما لو كانت حصيلة أو نتاجا للنص ذاته . وهذ معناه أن خطة ريفيير الاساسية هي أن يروي القصة اولا لكي يطلع عليها الناس ، ثم يكتب نصا آخر (سريا) يروي فيه تفاصيل الجريمة كما ينوى ارتكابها بها ، وبعدها فقطه يقوم بتنفيذ الجريمة . أما المشروع الاخير وهو الذي وقع عليه اختياره والذي تتزامن فيه أحداث الجريمة مع احداث الرواية ، فقد اصابه بعض الوهن (ولم يفسر لنا فوكو معنى ذلك) الذي منعه من الكتابة في البداية وانتهى به الى نسيان أمر تلك المذكرة التي كان سينفذ بمقتضاها جريمته ويسلم نفسه للقانون وبعدها يسجل اعترافاته ويستقبل الموت . ولكن الذي فعله هو أنه بدلا من أن يكتب هذه المذكرات هام على وجهه في الغابات لمدة شهر الى أن تم القبض عليه ، وبعد ان حاول تضليل المحكمة بالتظاهر بالجنون استسلم للامر الواقع وعكف على تسجيل القصة الحقيقية حين طلب اليه قاضي التحقيق ذلك . والدليل على ذلك هو أنه على الرغم من مضي زمن طويل نسبيا بين ارتكاب الجريمة وكتابة النص فانه كان حريصا على أن يؤكد أن الاعتراف كان (مكتوبا) طيلة الوقت في ذهنه وأنه فكر طويلا في معظم الكلمات التي سوف يستخدمها في كتابة اعترافه وهذا السبب في انه ـ حسب ما يقول فوكو ـ ظل يستخدم ألفاظا قاسية وجارحة ضد ضحاياه رغم موتهم . « لقد كان الاعتراف مختزنا منذ البداية في ذاكرته » .

تناقض ظاهري فقط

ولم يكن غريبا ـ في رأي فوكو ـ أن يستشهد ريفيير في محاولته تبرير الجريمة ببعض أحداث التاريخ الكبرى التي تقوم على القتل وأن من حقه أن يدخل التاريخ عن طريق القتل مثلما دخله كثير من الابطال والقواد فوق جثث ضحاياهم . فلقد كانت الصحف في ذلك الحين تروي أحداث الجرائم جنبا الى جنب مع احداث التاريخ المعاصر وحروب الامبراطورية وأيام الثورة العظيمة وأحداث عام ١٨١٤ وغزو الجزائر ، وكانت اسماء المحاربين الابطال تظهر في نفس الصفحة مع اسماء القتلة واللصوص والسفاكين والقراصنة . واذا كان هناك تناقض بين المجموعة فانه تناقض ظاهري فقط ، كما ان ثمة نوعا من التماثل بين الجريمة والمجد وبين اللاشرعية والبطولة ، وبين المشنقة وسجلات الخلود . فهي كلها تدخل في نسق واحد ولو تغاضينا عن القانون والاخلاق فسوف نجد ـ كما يقول فوكو ـ تشابها وتناظرا بين الأنصاب التذكارية التي تسجل المواقع الحربية والسجلات المخزية التي تسجل اسماء القتلة فالتناظر بين الفئتين أقرب مما نظن . فالمواقع الحربية تضع طابع التاريخ على كثير من المذابح والمجازر التي لاتعرف أسماء اصحابها بينما الحكايات والقصص تضع مادة التاريخ من المعارك الصغيرة التي تحدث في الشوارع والحواري . واذا كان ثمة حد فاصل بين الاثنين فان ذلك الحد يسقط ويزول حين تقع حادثة ذات أهمية بالغة مثل حادث قتل ، فهنا يتداخل التاريخ والجريمة . « فالقتل هو الذي يضفي الخلود على البطل والقتل هو الذي يضفي السمعة السيئة على المجرم ، والقتل هو الذي يخلق ذلك الغموض بين ما هو قانوني وما ليس قانونيا .

وأيا ما يكون الامر ، فالظاهر ان « الان شريدان » لم يكن محقا في جملته الساخرة . فلقد وجدت جريمة بيير ريفيير طريقها الى الادب الشعبي في القرن الماضي وسجلتها احدى الاغاني الشعبية الكثيرة التي تدور حول البطولة والجريمة والقتل ولكن مع فارق هام وهو أن قصة ريفيير كانت قصة حقيقية بعكس القصص الاخرى التي كانت في معظمها من نسج الخيال . وقد عثر ميشيل فوكو على نسخة من هذه الاغنية ضمن المطبوعات غير المصنفة في المكتبة الاهلية بباريس ولقد نسيت القصة والاغنية تماما . أما الان وبعد ان اصبحت اعترافات بيير ريفيير تؤلف جزءا من الاعمال الهامة في الفكر البنائي الفرنسي ، فالاغلب ان ما كان يرجوه ريفيير من دخول التاريخ من باب الجريمة قد اصبح وشيك التحقيق . ■■

د . احمد أبو زيد

خلق الشوكاني شاعرا ، ولكن علمه وفقهه جنيا على شاعريته

الإمام الشوكاني ... شاعراً

بقلم : احمد بن محمد الشامي

كثيرون يعرفون الشوكاني إماما وفقيها ، لكنهم لا يعرفونه شاعرا ..

القاضي محمد بن علي الشوكاني من شوامخ أعلام اليمن ، وقد طار ذكره في الآفاق ، فقيها ، ومحدثا ، ومفسرا ومؤرخا ، وأضفى عليه العلماء ، والمؤرخون ألقاب : الامام المجدد ، وشيخ الاسلام ، وقاضي القضاة .... واليوم ها هو الأديب الاستاذ حسين عبدالله العمري يبرزه للناس شاعرا بنشره ديوانه الذي سماه جامعه : « أسلاك الجوهر ، في نظم مجدد القرن الثالث عشر » .

ولقد ظهر الديوان في حلة قشيبة إذ بذل الاستاذ « العمري » جهدا كبيرا في قراءة قصائده ، وضبطها وتحقيقها ، برغم ان النسخة التي اعتمدها وحيدة ومليئة بالتصحيفات والاخطاء الاملائية ، والتحريفات التي تخل بالمعاني والأوزان ، وذلك ما جعله يرجع الى قراءة الكثير من قصائد الديوان المثبوتة في كتب الشوكاني وغيره ممن ترجم له ، أو تحدث عنه أو راسله ، ومعظمها مازال مخطوطات مملوءة أيضا بالاخطاء والتصحيفات والتحريفات ..!

في منهج التحقيق

استهل الاستاذ العمري الديوان بمقدمة مفيدة طويلة (٤٠ صفحة) تحدث فيها حديث المؤرخ الخبير عن الشوكاني ، ونشأته ، وملامح عصره ، وأساتذته ، وبعض تجربات حياته ، فأحسن الى قرائه ، إذ قد نقل اليهم بأمانة العالم الناقد الجو الذي عاش فيه « الشوكاني » ... وأطلعهم على طبيعة الحياة والظروف التي مارس فيها شئونه الشخصية ، والاجتماعية ، والدينية ، والأدبية والسياسية ، وساعدهم على معرفة التيارات ، والدوافع التي تكمن وراء قصائد ومقاطع الديوان ... وليس ذلك فحسب بل ودبج ببراعة تراجم موجزة في فقرات تنبض بالحياة لأكثر من ستين عالما وشاعرا وأديبا ، ممن عاصرهم الشوكاني أو تتلمذ لهم ، أو حاورهم ، أو تأثر بهم أو تأثروا به ... وهو بذلك قد أفاد مؤرخ الأدب اليمني ، ودله على مصادره ورجاله ، في تلك الفترة المهمة من فترات تاريخ آداب اليمن .

● ولد الامام الشوكاني في سنة ١١٧٣ هجرية (١٧٥٨م) وتوفاه الله في سنة ١٢٥٠ هجرية (١٨٣٤م) .

ومما يدل على حسن تقدير الاستاذ حسين العمري وحرصه على وقته ، ووقت القارىء أيضا أنه لا يهتم إلا بتعريف المجهولين والمغمورين ، من أدباء وشعراء وعلماء وزعماء في اليمن ، ويضرب صفحا عن ذكر المشاهير من علماء وخلفاء وأعلام الفكر الاسلامي الذين تزخر بأحاديثهم كتب التاريخ والأدب والتراجم - وذلك ما تورط فيه ولايزال - بعض من يهتمون بكتب التراث فيغرقون الكتب بحواشيهم وتعليقاتهم التي لا علاقة لها البتة بالأصل ، ولا جدوى منها ، ويترجمون لمشاهير الصحابة والخلفاء الراشدين ، وملوك بني أمية وبني العباس ، وشعرائهم ، ولا يكلفون أنفسهم البحث والتنقيب عن أعلام اليمن المغمورين الذين لم تتحدث عنهم غير المخطوطات اليمنية ، بل يكتفون بالقول المكرر : « لا أعلم عنه شيئا » أو « لم أجد له ترجمة » . . . وهذا ما لم يقع فيه البحاثة العمري ، بل نقب ، وتعب وعرف قراءه بأدباء وعلماء وشعراء اليمن الذين لا تزال آثارهم وأخبارهم في بطون الدفاتر والمخطوطات .

ولقد تلطف المحقق - حسن ظن منه أو كرما - فجعلني من نقاد الشعر الذين قدم الديوان اليهم ، وكأنه بذلك يستدرجهم ليتحدثوا عن « الشوكاني » الشاعر ، وأنا لا أنكر أن صلتي بآثار الشوكاني عريقة ولا سيما كتابه « البدر الطالع » فقد استفدت منه كثيرا . . . وكان من مراجع كتابي « قصة الأدب في اليمن » الذي ألفته قبل عشرين عاما ، ولايزال من مصادري في كتاباتي عن تاريخ آداب اليمن ، و « معجم شعراء اليمن » كما إني كنت قد درست الشوكاني المحدث والمفسر والمتكلم ، وقرأت له الكثير من الرسائل والمنظومات والقصائد . . . ثم ساعدت بقدر ما أتاح لي الاستاذ العمري في قراءة القليل من قصائد الديوان عندما كان يتفضل فيشركني في تصحيح ما يريد .

شاعر بالفطرة

لا شك أن « الشوكاني » قد خلق بفطرة شاعر ، ذي ذكاء خارق ، وحس حديد ، وخيال مرهف ، وبصيرة نافذة ، وحافظة واعية ، وطبع متحفز مستوفز متوثب ومستنفر ، وذلك ما لا يتوفر كله أو جله - إلا للأفذاذ من البشر المتفوقين على أترابهم فيما يمارسونه ، أو يوجهون إليه من قبل آبائهم ، ومعلميهم ، حسب بيئاتهم المعيشية والدينية ، والثقافية ، وتكويناتهم الخلقية ، والخلقية .

وإذا كان الشوكاني - كما يحدثنا عن نفسه في البدر الطالع وكما نقل عنه المحقق الكريم - لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره الا وقد حفظ عن ظهر قلب القرآن الكريم و « متون » الكتب المطولة في « الفقه » و « الأصول » و « النحو » و « الصرف » و « قواعد الاعراب » و « المعاني والبيان والبديع » و « أصول الدين » و « العروض » و « التجويد » و « الفرائض » و « آداب البحث » ، وأنه ما تخطى العشرين إلا وقد درس موسوعات تلك العلوم ، وقرأ « الامهات » وكتب « التفسير » واللغة والتاريخ . . . فقد هيأه كل ذلك الجهد والجد والمثابرة لأن يتربع على كرسي الافتاء بصنعاء وهو في تلك السن المبكرة . . !

وهنا يستطيع « الناقد » أن يزعم بأن ذلك قد كان على حساب شاعريته إذ أنه لو حشا فكره وشغل نفسه في شبابه المتفجر بالذكاء والحيوية بقراءة وحفظ روائع الشعر وبدائع مختاراته في « الحماسة » و « الوحشيات » لأبي تمام ، و « الاصمعيات » و « المفضليات » ودواوين شعراء الفحول بدلا عن « متن الازهار » و « مختصر الفرائض » و « الكافية والشافية » و « الغاية » و « منظومه الجذري » و « الجزاز » و « التهذيب » للتفتازاني و « التلخيص » للقزويني . . . الخ . لبرز فيه الشاعر وتلاشى « الشوكاني » الفقيه والمحدث والقاضي وشيخ الاسلام . . ؟

وربما أن الأقدار قد اختارت له الأفضل والأنفع فأوجدت منه بذلك الاتجاه الذي توغل فيه ، علما من أعلام الفكر الاسلامي ، وربح طلبة العلم والفقه ، والتفسير ، دون أن يخسر الشعراء والشعر شيئا . . . ولا سيما أن شعراء اليمن ظلوا ، وكانوا ومازالوا . . كثيرين . . ! ومنهم الفحول الاولى ما برحوا مجهولين مغمورين ، ولو أن الشوكاني بلغ شعريا مرتبة « عماره » أو « ابن هتيمل » أو « الهبل » أو « الهندي » لظل يعاني ما يعانونه من إهمال ونسيان ! ولكنه كان محظوظا وموفقا ، فانهزم الشاعر في « الشوكاني » وانتصر الفقيه المجتهد ، والعالم السياسي ، وقاضي القضاة ، فاشتهر أمره ، وسار ذكره وفتحت له الدنيا أبوابها في حياته وبعد مماته .

ولا أعني بهذا القول التقليل من قيمة الشوكاني الأديب أو الشاعر ، أو أنه قد سحق أو أهمل « موهبته الشعرية » ، فمن يطلع على آثاره نثرا ونظما ، يعرف بأنه قد تبحر في قراءة الأدب ، ودراسة أصوله ، في كتبها المشهورة وموسوعاته المعروفة ، وانه قد مارس موهبته الشعرية . . ولكن ممارسة المستغني عنها إن صح هذا التعبير ، فهو لم يكن يمارسها تكسبا أو تصويرا ، ولا معاناة ولا هموما كما فعل الشعراء قبله ، وكما كانوا يفعلون في

زمنه ، وكما لا يزالون يفعلون . . . بل ترفا ، وإسرافا ومبالغة فيما يريد الاعراب عنه أو تبيينه ، أو تنسيقه وتقريبه الى الأفهام أو وسيلة من وسائل التلهي وتبديد أوقات الفراغ ، أو تقربا الى صديق ، وجل ما في الديوان . . . « أسلاك الجوهر » من هذا القبيل . . . ولو ذهبت أضرب الأمثال . أو أعدد الشواهد لأطلت فيما لا طائل تحته أو فيما سيدركه ، ويعرفه قارئه الديوان والمطلع عليه . . . غير أن الشاعر قد يتحرك في « الشوكاني » فيفعل انفعالا فطريا عفويا ، ويتلاشى فيه « الفقيه » و « العالم » ويبرز « الشوكاني » الشاعر الأصيل ، ولا سيما إذا توجع أو اشتاق أو غشيته نوبة تصوف أو استفزه شعور انساني .

فهو حين يرى الفضلاء من زملائه وأصدقائه ، قد عضتهم الفاقة وطحنتهم الحاجة وقعد بهم الحظ التعس عن التربع على كراسي السعادة ، ولكنهم ـ إباء منهم وسموا ـ يحاولون اخفاء حقيقة عوزهم ، وستر فاقتهم بتصنع الابتسام والتوهج والظهور بمظاهر العزة اللائقة بكراماتهم ، صبرا منهم وتجلدا . . . حين يرى ذلك ينفعل فيه الشاعر الانسان فيقول :

وما ذات أفراخ جياع بعشها
وقد قطعت في حبهم كل فدفد
فأعوزها ما يدفع الضر عنهم
وضاقت بها طرق المكاسب عن يد
وأرخت جناحيها من الضعف والتوى
على فرع دوح من بنيها بمشهد
بأجزع مني .. اذ نظرت معارفي
بهم فاقة مستورة بالتجلد

وهذا من الشعر التصويري البديع . (الديوان : ص ١٣٦) وقد ورد عجز البيت الرابع هكذا : « هم فاقة مستورة بالتجلد » ، وهو خطأ مطبعي .

دفاع عن الشعب

كما أن الشوكاني حين ينسى أو يتناسى مركزه السياسي ، ويتلاشى فيه أكبر مستشاري الامام وقاضي قضاته ، وينفعل بما يقاسيه أبناء الشعب من غبن وظلم ، وكيف توزع أموال المسلمين على فئات معينة ليسميهم « الأوزاع » ، والأوزاع هم : الجماعات ، ولا واحد لها من لفظها يتأثر فيصور الحالة تصويرا صادقا وبالاسلوب الذي يسميه النقاد « السهل الممتنع » فيقول :

رعايا واليمن الميمو
ن ، أضحوا ما لهم راعي ،
فلا العدل يرجون ،
ولا الردع لطماع ،
ومال الناس قد وزْ . . . . .
. . . . ع ظلما بين « أوزاع » ،
فهذا بيد الوالي ،
وهذا بيد الساعي
وهذا نهب خوان
وهذا نهب خداع ،
وهذا عند جماع
وهذا عند مناع . . .
فيا باري البرايا ، يا
مجيبا دعوة الداعي
أرح خلقك من جور
ومن خوف وافزاع .

وهي صورة صادقة تتكرر في المجتمعات التي لا تحكمها العدالة الاجتماعية وتسودها الفوضى (الديوان ص : ٢٢٦) .

ويقول حين يرى تجاهل الحكام والكبراء لأهل الفضل من العلماء : (ص : ٢٨٩) .

ما كنت أعلم أن العلم عندكم
إن زاد ينقص من مقدار حامله
فلا رعى الله عصرا ساد مثلكم
في مثله ، فجهلتم حق فاضله

وهي سخرية لاذعة وتقريع عنيف .

وفي الديوان مراجعات نفسية يظهر فيها « الشوكاني » المبتهل الخاشع الخائف الراجي يحاسب نفسه حسابا عسيرا فيقول : (ص : ٩١) .

محمد « أيها المسكين أقصر
فقد لعبت بك الدنيا ضروبا » !
وقد باشرت أعمالا ثقالا
فما تدري أجورا ، أم ذنوبا ؟

وقد ضبطت في الأصل لفظة « أجورا » بفتح همزة الاستفهام ، وفتح الجيم وانما هي « أجورا » ، جمع أجر ، فلتصحح .

ويقول : (ص : ٢٩٧)

فكرت في علمي ، وفي أعمالي
ونظرت في قولي وفي أفعالي ،
فوجدت ما أخشاه منها فوق ما

أرجـو ، فـطاحـت عـنـد ذا آمـالي !
ورجـعـت نـحـو الـرحمـة الـعـظـمى الى
مـا أرتجـي مـن فـضـل ذي الافـضـال
فـغـدا الـرجـا والخـوف يـعـتـلـجـان في
صـدري ، وهـذا مـنـتـهـى أحـوالي ..

ولكنه يغرق في محاسبة نفسه فينقدها نقدا ذاتيا عنيفا ، ويتواضع ذلك النوع من التواضع الذي يدفع الانسان الى احتقار نفسه والسخرية منها فيقول : (ص : ٢٦٣) .

يـقـولـون : هـذا عـالم المـصـر ، والـذي
يحـل عـقـال المـشـكـلات الـبـوارك
فـقـل لهـم : هـذا كـبـير كـلابهـا ..
لـه نـبـحـتـان عـنـد كـل المـدارك
فـيـاليت شـعـري ، مـا أنـا عند خـالقي ؟
وهـل أنـا نـاج بـعـد تـلـك المـعـارك ؟

وهذا الشعر يذكرني بقول الشاعر الظريف السيد أحمد بن شرف الدين المعروف « بالقارة » والمتوفي سنة ١٢٩٥هـ

أنـا كـلـب مـن الـكـلاب الـضـواري
أنـا مخط الى جـنـاب الـبـاري
أنـا مـسـتـقـطر الـعـصـاة واني
لـكـثـير الـذنـوب والاوزار
أمـر امـارتي عـلى مـطـاع
انـا عـبـد لهـا بـلا انـكـار ..
أحـصـى الـذنـوب كـأنـا دهـاقـا
لم أخـف شـؤم ذلـك الاسـكـار

اعتذار وسخرية وتأنيب

والشوكاني أحيانا يتعش ، فيبلغ في الاعتذار لنفسه من الذنوب ويبرهن على أنه يستطيع أن يجادل عنها بلسان المنطيق الفيلسوف فيقول :

عـصـى أبـو الـعـالم وهـو الـذي
مـن طـيـنـة صـوره الله !
وأسـجـد الأمـلاك مـن أجـلـه ،
وكـان في الجـنـة مـأواه ،
أغـواه إبـلـيـس ، فـمـن ذا أنـا المـسـكـ
ـين .. إن إبـلـيـس اغـواه .؟

وهي نفثة شاعر ، يطرب لها المؤمنون ، الصالحون منهم ، والعصاة !؟ (الديوان ص : ٣٥٨) .

وله قصيدة « نونية » أجاب بها على السيد العالم الشاعر محمد بن حسين الحوتي (١١٥٠ ـ ١٢١١هـ) عدد أبياتها ٣٢ بيتا من النظم العادي ، لكنه سخر في بيتين منها سخرية لاذعة من ذلك الذي يسلق الناس بلسانه ، في المجالس التي يغيبون عنها ، وهو ـ إذا حضروا ـ الجبان الذليل ، فقال : (ص ٣٣٢) .

يسيء بـنـا اذا غـبـنـا مـقـالا ،
وفي حـضـراتـنـا رعـش الجـنـان
ويـشـهـر عـضـب مـقـولـه اغتيـابـا ،
ويـلـقـانـا .. كـمـخـتـلـج الـلـسـان

وما ألطف سخريته بذلك الصديق « الكبير الذي يزعم انه عبد نفسه للمجد ، وكرس جل أوقاته لطلب العلا ، والعمل من أجلها ... ولكنه لم يحقق شيئا فقال : (ص ٣٥٩) .

لـك الـويـل ، لا فـاجـر يـتـقـي ،
ولا كـنـت في الـنـاس بـرا تـقـيـا
تـروح وتـغـدو عـلى الـزعـم في
طـلاب الـعـلا ، والـعـلا مـا تهـيـا
وقد نـال فـوق الـذي تـبـتـغـي
من الناس ، من ليس في الناس شيأ !

ولا شك أن هذا الصديق كان صاحبَ دعاوي عريضة ، ضاق الشوكاني الشاعر بها ذرعا فأنبه هذا التأنيب الشديد ، والذي نظر فيه الى قصة « الشعبي » .

إثر هزيمة « ابن الاشعث » حين جيء بالشعبي أسيرا الى « الحجاج » ودار بينهما الحوار المشهور الذي قال فيه « الشعبي » معتذرا للحجاج : « لقد كانت فتنة لم نكن فيها فجرة أقوياء ، ولا بررة أتقياء » أو كما قال .

وربما أن الشوكاني قد قصد نفسه ..

وهناك في « الديوان » الكثير من هذه الصور الشعرية التي تدل على ان الشوكاني قد خلق شاعرا ولكن علمه وفقهه قد جنى على « شاعريته » ! وأكرم بها من جناية .. أوجدت لنا منه مفخرة من مفاخر الاسلام ■■

بروملي ـ المملكة المتحدة
● احمد بن محمد الشامي

اعداد : مصطفى نبيل

حتى نفهم قضية الأندلس

بقلم محمد عبد الله عنان

ان الذين يعالجون الأندلس ، تاريخها أو جغرافيتها ، لا يشعرون على الأغلب بحقيقة المادة التي يعالجونها ، وانما يعالجون مجموع أعصار وحدود جغرافية مختلفة . ثم يطلقون عبارة الاندلس على ذلك المجموع دون تحديد أو تعيين أو تمييز . واذا أردنا نحن أن نضع حدا معينا لعبارة الاندلس استطعنا أن نقول إن الأندلس في سائر الاعصار أو الحدود الجغرافية هي « إسبانيا المسلمة » وذلك ايتا كانت مواقعها الجغرافية أو مداها التاريخي .

فقد شملت إسبانيا المسلمة ، عقب الفتح سائر شبه الجزيرة ماعدا ركنها الشمالي الغربي المسمى جليقية ، ومع ما افتتحه المسلمون فيما وراء جبال البرتية من الأراضي والمدن . وكانت هذه هي الأندلس الكبرى . التي خضعت للحكم الاسلامي ، أو بعبارة أخرى كانت هذه الاراضي هي التي تشملها إسبانيا المسلمة أو الاندلس الكبرى .

ولما فقدت اسبانيا المسلمة أراضيها فيما وراء جبال البرتية ، أصبحت إسبانيا الكبرى الخاضعة للمسلمين تضم شبه الجزيرة الاسبانية ماعدا ركنها الشمالي الغربي جليقية .

ومن ذلك الحين تنقسم اسبانيا المسلمة الى القطاعات أو ثغور ، فكان الثغر الأعلى يضم قطلونية ، بعد أن خرجت منه ثيرة واستقلت ، ثم يلي ذلك الثغر الأوسط ، فالثغر الأدنى ويقع وسط إسبانيا وجنوبها تحت حكم الامارة ثم الخلافة فيما بعد ، وذلك حتى البحر جنوبا وشرقا وهذه المنطقة هي التي تعتبر الأندلس من الناحية السياسية والتاريخية وهي التي يلتف حولها تاريخ الاندلس الكبرى . أما شمال الاندلس الشرقي فقد كان يكون ولاية سرقسطة التي لبثت مدى حين تحت حكم الامراء الشماليين من بني هود وبني هاشم .

ولبثت الأندلس الكبرى تحت حكم الامارة ، ثم الخلافة منذ عصر الناصر . وكانت هي الأندلس الحقيقية من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ، حتى وقعت الثورة وسقطت الخلافة تحت ضربات البربر أواخر القرن الرابع الهجري ، وتمزقت الأندلس فيما بعد الى الممالك الصغيرة المتنافسة التي عرفت بدول الطوائف واختفت الأندلس الموحدة أو الأندلس الكبرى ، مدى حين حتى عبر المرابطون البحر الى الاندلس ، واستولوا على دول الطوائف وأصبحت الاندلس ولاية مغربية ، تقع تحت حكم الامبراطورية المغربية الكبرى فيما وراء البحر ، ثم كان بعد سقوط المرابطين نهوض الموحدين ، واستيلاؤهم على المغرب و الاندلس . ولبثت الأندلس تحت حكم المرابطين ثم الموحدين أكثر من مائة وخمسين عاما محيت خلالها صحيفة الأندلس من الوجود ولبثت مستعمرة مغربية ، وأصبحت الأندلس لا تعرف إلا بانها مستعمرة

مغربية تحت حكم الموحدين . ومحيت الأندلس من الوجود كأمة مستقلة ، ولبثت تابعة في وجودها لحكومة الموحدين وهي التي تمثلها ، وتتحدث باسمها .

ولما ضعفت حكومة الموحدين ، كانت الأندلس قد تمزقت . وظهرت بها حكومات محلية ضعيفة . وشغل الموحدون بخلافهم الداخلي في المغرب والأندلس تحت ستار من النسيان على تلك المنطقة التي شغلت بحوادثها الداخلية كما شغل الموحدون بخلافاتهم في المغرب وهي خلافات ظهر أثرها في الأندلس بيد أن الأندلس لم تنس تماما ، بل لبثت تلمع بعلومها في الأوساط العلمية الأوربية ، وكانت أسماء مثل ابن رشد وابن طفيل وابن زهر وابن باجة وغيرهم من اعلام الاندلس الموحدية تسطع في دوائر أوربا العلمية . وتدرس آثارها في دوائر العلوم الأوربية العالية .

وخرجت الأندلس الجديدة من غمار الفوضى ، لتغدو مملكة غرناطة ، ولتحتل منطقة الأندلس الحقيقية من الناحية الجغرافية . وذلك أن الأندلس هي قطر من أقطار أسبانيا الجنوبية ويطلق هذا الاسم على سائر الأراضي التي تقع جنوب نهر الوادي الكبير في جنوبي إسبانيا وتمتد من مجراه حتى البحر الابيض المتوسط جنوبا وشمالا حتى اشبيلية وقرطبة ، وجنوبا حتى المرية وقرطاجنة غربا ، وهي الأندلس الحقيقية من الوجهة الجغرافية وهي التي كانت تقع تحت حكم مملكة غرناطة مع استثناء إشبيلية وقرطبة ويسمى هذا الاقليم باللغة الاسبانية **Andalu-cia** أي الأندلس ، ومازال حتى اليوم في الجغرافية الاسبانية محتفظا بأوضاعه الجغرافية والادارية القديمة . ولكنا مازلنا نطلق اليوم الأندلس التاريخية على أسبانيا المسلمة بسائر أقاليمها التي كانت تقع تحت حكم الحكومة الاسلامية ولا تقتصر هذه التسمية على إقليم الأندلس حسبما تحدده لنا الجغرافية الاسبانية . ونعني الأندلس .

والآن فلنر بايجاز ما هي محنة الأندلس التي صارت في التاريخ مثلا وعبرة من أروع العبر التاريخية :

كانت الأندلس الصغرى أو مملكة غرناطة تعيش في عزة وفي رغد ولم يكن يزعجها سوى عدوها النصراني الرهيب ، مملكة قشتالة ، التي كانت تعمل بكل ما وسعت على القضاء عليها ، وعلى طمس معالم الاسلام فيما بقي من أنحاء الجزيرة . وكان رجال غرناطة الاسلامية ينتظرون هذه النهاية بتوجس وقلق ، ولم يكن يساورهم شك في وقوعها عاجلا أو آجلا ، وأخيرا فرغت قشتالة من مشاغلها الداخلية ، وتأهب ملكاها فرناندو وايزابيلا لتحقيق هذه الامنية العزيزة ، أمنية القضاء على المملكة الاسلامية الصغيرة ، والقضاء على ما بقي من آثار الاسلام في إسبانيا . وشهرت قشتالة الحرب على غرناطة ، وضربتها بكل ما وسعت . وقاومت المملكة الاسلامية الصغيرة ما استطاعت ولكن دون جدوى . وسقطت غرناطة وما بقي من مدنها وقراها في يد عدوتها الكبرى . لم يكن هذا كل ما تبقى . فقد كانت قشتالة تبغى القضاء على الاسلام وتحويل الشعب المغلوب الى أمة نصرانية . ووقع ذلك بالقهر والقوة ولم يفلت من هذا المصير من المسلمين الا من غادر الجزيرة وعبر الى المغرب وثغوره . واستعمل الملكان النصرانيان فرناندو وايزبيلا لتحقيق هذه الغاية كل ما وسعا من ضروب القهر والغصب واستعملا لذلك حبرهما الجبار المتعصب الكردينال خمنيس اسقف غرناطة . فأمر باعدام كل من أبى التنصر أو الخروج من الجزيرة وأصبحت الأندلس أو كل من بقي فيها كلها نصرانية واختفى منها كل ظل للاسلام . ثم توالى الاضطهاد بعد التنصير . فأمر المسلمون أن يخلعوا ملابسهم العربية الاسلامية وان يرتدوا الملابس النصرانية ويحضروا بها القداس أسوة بالاسبان ، وأن يتركوا عوائدهم الاجتماعية الخاصة مثل الرقص والموسيقى الأندلسية وان يقيموا حفلات زواجهم في الكنيسة على الطريقة النصرانية . ثم تلا ذلك إرغام المسلمين على ترك لغتهم العربية ، وعلى تعلم القشتالية لتكون لغتهم القومية ، ولاتخاذها لغة الحديث والتعامل ، وأنشأ الاسبان-للسهر على الشعب المتنصر ومراقبته سرا وجهرا ديوان التحقيق الكنسي أو « محاكم التفتيش » الشهيرة التي غدت سيفا مسلطا على أعناقهم ترميهم في كل وقت

بالمروق والردة ، وعدم الاخلاص للدين الجديد ، وتقبض على الكثير منهم ، وتحرق من تحرق منهم وتجردهم من أموالهم الثابتة والمنقولة عقوبة للردة وهكذا عاشت الأمة الاندلسية المتنصرة في عذاب لا يوصف واضطهاد لم يلقه شعب في التاريخ ومع ذلك فان الكنيسة الاسبانية لم تنجح في القضاء على إيمانهم وتمسكهم سرا بالاسلام دينهم . ورأت إسبانيا أخيرا أنها اخفقت في سياستها العتيقة . وقررت أن تخرج بهذه البقية الشهيدة من العرب المتنصرين الذين سمتهم منذ التنصر « بالموريسكيين » من أرضها . وكان ذلك في سنة ١٦٠٩م ، (١٠١٨هـ) ، وكان عدد المتبقين من هذه البقية الشهيدة من الأمة الأندلسية يبلغ زهاء المليونين وعبر معظم المتبقين البحر الى معظم ثغور البحر الابيض ، ولاسيما ثغور المغرب والجزائر وتونس وتركت حيث نزلت من ذكائها ونشاطها ومهارتها ، ماشهدت به كل الامكنة التي نزلوا فيها . ومازالت بقاياهم توجد حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس ، وتوجد منها مدن وقرى كاملة مثل تستور بتونس ، وهي بلد موريسكي اصيل بمسجدها ومبانيها الموريسكية .

وتلك هي المحنة المروعة التي عاناها الموريسكيون أو الاندلسيون المتنصرون ولا يعرف التاريخ محنة في مثل روعتها وفظاعتها . ومن ثم فقد اصبحت من أروع العبر التي تضرب بها الأمثال . ■■

القيم الراسخة سلاحنا في مواجهة الغزو الثقافي

بقلم : تركي علي الربيعو

الثقافة العربية في إطارها العام والخاص ، قديما وحديثا ، ثقافة مواجهة بين الذات والآخر بين الخير والشر ، حيث كتب على انسان هذه الثقافة أن ينازل الشيطان في عقر داره وينتصر عليه .

والمواجهة في نهاية القرن العشرين وفي ظل شعار أمركة العالم والذي بدا وكأنه حقيقة مطلقة لا مفر منها تأخذ شكلاً جديداً خارج إطار الشورية وصف الكلام الشوري ـ فالمواجهة حالة وعي شمولي يعكس شموليته على جميع مرافق الحياة ، على صعيد الشكل والمضمون . بحيث يتلمس ويربط بدقة بين جميع مظاهر الثقافة التي ننتمي إليها . في طريقة اللباس والأكل والرقص والغناء . وفي الشعر والأدب وفي جميع مظاهرنا الحيوية التي نحياها والتي تستمد جذورها عبر تقليد قديم وأصيل في كونه ثمرة لمواجهة أصيلة وعريقة ـ فكما يقول أحدهم : إننا لا نستطيع أن نفرق بين صرامة الحياة العسكرية الرومانية وبين صرامة اللغة اللاتينية .

ما نحتاجه الآن

ما نحتاجه الآن هو حالة من الوعي الفذ من شأنه أن يتلمس الخيط الرفيع الكامن وراء الاخفاقات المعاصرة والتي انعكست بؤسا وشقاء وتسيبا وفوضى وحروبا دموية بين الأخ وأخيه ، في محاولة مستمرة لتلمس الأسباب الموضوعية لامكانية القيام بحركة ثقافية شاملة ـ ومن صلب الثقافة التي ننتمي إليها ـ تنجز المواجهة وتحفظ الذات إزاء اشكال التسيب والمغريات التي تقدمها حضارة

البعد الواحد وتفرز خصوصية عريقة وحضارية في عصر قادم يقوم على تعددية الحضارة . يكتب « سكينر » في تكنولوجيا السلوك الانساني على لسان خبراء الأنثروبولوجيا بأن ما هو تقليدي ، هو مشتق ومختار تاريخياً ، وبالتالي فهو أصيل تضرب جذور أصالته في القدم . انطلاقا من هذا فان الهجمة التي تقودها بعض التيارات المعاصرة على جملة القيم التقليدية ، واتهامها بأنها قيم رجعية في محاولة لترجيح لغة المعاصرة الوافدة من أوروبا عبر الجينز والمخدرات والركض اللامتناهي وراء الموضه وآخر صيحات الأزياء في عالم الغرب ، هذه الهجمة تصبح خارج إطارها التاريخي وتخدم تطلعات الصهيونية والامبريالية في سعيها المستمر لطمس هوية الوطن العربي .

إن جملة القيم التقليدية الموروثة ، المكتوب منها والشفاهي ـ والفولكلور تصلح لحالة المواجهة بل وتخدم تطلعات العربي المعاصر في الوحدة والتنمية . في جانبها الجدي العملي وليس في جانبها الاستهلاكي الترويحي والمناسباتي .

إن الهجوم الذي تشنه دعوات المعاصرة على جملة القيم التقليدية في محاولة لحجب القيم الأصلية لتحل محلها القيم الهشاشة والسطحية يخدم كما أسلفت القوى المناوئة لحركة التقدم العربي . فالتقليد هو وعي هذه الأمة في نزوعها نحو الحضارة وبالتالي فإن الحجج التي يسوقها البعض لغاية في نفس يعقوب ـ باسم الواقع والواقعية ووفاء للتصنيفات الغربية ـ تسقط في الابتذال .

إن أوروبا بدورها تقدم نموذجاً جديدا بالتأمل والدراسة واستخلاص العبر .

فبلجيكا الكاثوليكية لم تكن أكثر تخلفاً ولا أقل تقدماً من أوروبا البروتستانتية على حد تعبير « بول بالبروك » في كتابه مأزق العالم الثالث .

مواجهة يومية

إن مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي لا تتم من خلال الندوات ـ ولا حتى ألف ندوة ـ ولا من خلال التوصيات التي يقرها وزراء الثقافة والاعلام العرب ولا من خلال كتيب تصدره احدى دور النشر والذي يبقى محكوما بالعجز إزاء وسائل الاعلام من جرائد وصحف وتلفاز وراديو ، والتي لا ترى المعاصرة إلا من خلال سجاير المارلبورو والعطور الفرنسية .

المواجهة تبدأ عبر سلوك يومي يستمد وجوده من تقاليدنا الأصيلة ـ وعلى سبيل المثال فمن الممكن في ظل ثقافة تنهل من خصوصيتها أن يتحول رمضان إلى مناسبة قومية لمعاداة البضائع الأمريكية . إن تقليد الغرب هو حالة مجتمع فقد وعيه الحضاري على حد تعبير مالك بن نبي وإذا كان التحرر ينطوي على وعي العبودية . فالعبودية المتجسدة وعيا وسلوكاً إزاء الغرب المعاصر ، تهيء المناخ خارج النوايا الحسنة . فجهنم مملوءة بأصحاب النوايا الحسنة ـ لتستمر هذه العبودية شكلا وممارسة في عبودية لذيلة تحافظ على الهوة بين العبيد والأسياد .

إن وراء جملة القيم التقليدية حكمة بليغة تخدم تحولاتنا القادمة في الحفاظ على الذات والنهوض بها . والا فلنتساءل من الذي أقنعنا بأن البنطلون أفضل من الثوب الطويل والفضفاض . شيء واحد يقف وراء هذه القناعات وهو أن المجتمع العربي يغير نهجه الأصيل في الحياة ويستعير أدوات التعبير من مجتمع آخر . ولعل صورة محجوب عبد الدايم ـ بطل القاهرة الجديدة لنجيب محفوظ لا تزال ماثلة كنموذج لذلك المستهتر بكل القيم .

أخيرا . إن من يريد أن يضع ثقافة كما يقول « سكنير » عليه أن يضع ثقافة يحبها هو وأن يظل مرتبطا بثقافته وأن يكون كنخلة الطيب صالح في موسم الهجرة الى الشمال مخلوق له أصول وله جذور وله هدف .

الترجمة في عالم اليوم

بقلم الدكتور مصطفى كامل فوده

نحن نعيش في عصر كادت تتلاشى فيه المسافات نتيجة للثورة في وسائل الاتصال وهي ثورة قد امتدت إلى مجال النقل من لغة إلى أخرى فأصبح للترجمة أهمية كبرى . وشاعت اليوم كلمة الترجمة الفورية وكانت شيئا مجهولا

لدى العرب منذ عهد ليس ببعيد ، بل لم تكن هناك كلمة تؤدي هذا المفهوم باللغة العربية . وأول ما وقعت أعيننا على هذه الكلمة كان في مقال نشرته الطبعة العربية لمجلة « ريدرز دايجست »(المختار) أثناء الحرب العالمية الثانية وتحدثت عن تلك العملية الفريدة وأطلقت عليها اسم الترجمة المصاحبة . وبعد الحرب العالمية الثانية دخل العالم في عصر المؤتمرات وشاعت لدينا شيئا فشيئا كلمة الترجمة الفورية ، وراحت كبرى المدن والفنادق العربية تخصص قاعات للمؤتمرات مزودة بأجهزة الترجمة الفورية . ثم أصبحنا نسمع عن ما كينات الترجمة ، وهي ليست كما يظنها العامة ، فهي آلات لا تحقق غير عملية ميكانيكية أشبه ما تكون بمعجم آلي يسهل استخراج الالفاظ بسرعة ويعطي نصوصاً لابد من معالجتها بواسطة الانسان لتكون مفهومة أما الترجمة الحقه فلا يستطيعها إلا عقل الانسان : ثم أصبحت الترجمة منذ العقدين الماضيين من قرننا هذا علما قائما بذاته يدرس في جامعات البلدان المتقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الاتحادية وفرنسا . ورغم هذا الاهتمام العام بالترجمة ، لم يظهر في الوطن العربي بأسره عن علم الترجمة سوى كتاب واحد مترجم هو كتاب العلامة الأمريكي نيدا وقد ظهرت الترجمة في العراق ولكنها لم تأت وافيه بالمرام .

وأول سؤال يتبادر الى الذهن هو : « ما جدوى علم الترجمة ، والناس يترجمون منذ عصر الفراعنة بدرجات متفاوته في الدقة ؟ » ولا شك أن مثل هذا السؤال قد طرح نفسه عندما خرج الطب أو الهندسة من دور الخبرة وأصبحا علمين بمعنى الكلمة .

يقوم علم الترجمة على أساس ما توصلت إليه علوم اللغويات الحديثة ، وعلوم الاتصال ، والسيكولوجيا والانثربولوجيا ، والاثنولوجيا . وقد شملت التجارب التي أجريت في هذا المجال أبحاثا شتى ربما كان من أبرزها ما أجرى على سكان البلدان الواقعة على تخوم دولتين ناطقتين بلغتين مختلفتين وكذلك الدراسات على الأطفال والصبيان الناطقين بلغتين مختلفتين . وكذلك الأبحاث التي قامت بها أستاذة الترجمة الفورية ليدرار **Ledrer** بمعهد الترجمة بباريس على تسجيلات لترجمات فورية مختلفة وكذلك الدراسة التي قام بها العلامة الفرنسي مويتان **Mounin** على عدة ترجمات لقصيدة إيطالية

وسنستعرض هنا سريعا أهم وأبرز انجازات الترجمة التي قد نستفيد منها فائدة عملية في الترجمة إلى العربية . لقد تعمقت علوم اللغويات الحديثة وعلم الترجمة في دراسة الكلمات ودلالاتها وألقت الضوء على أسباب ونتائج عدم تطابق أو تكافؤ معظم الكلمات من لغة الى أخرى . فنحن في اللغة العربية مثلا نطلق كلمة « نظام » على مفهوم معين . فاذا أردنا ترجمة هذا المفهوم الى الفرنسية كان علينا أن نختار كلمة من عشر كلمات وفقا لمعنى الكلمة في السياق [١]

ولهذا كان على من يريد فهم نص بلغة أجنبية أن يتحرى معنى ذلك اللفظ في السياق وأن يضرب صفحا عن دلالة اللفظ التي توردها المعاجم مزدوجة اللغة .

[« البحر » . . ماهو ؟]

كما أوضحت الدراسات اللغوية الحديثة أيضا أن معرفة لغة أجنبية لا تكفي لفهم أدب تلك اللغة فأي نص أدبي فرنسي مثلا يحوي عادة أصداء من الحضارتين الاغريقية والرومانية واشارات الى الأساطير القديمة ، وصورا مستمدة من الكتاب المقدس ومن حياة الفرنسيين اليومية ، فعلى من يتصدى للترجمة أن يعرف ثلاثة أشياء : اللغة والحضارة ، ومباديء عن المادة التي يترجمها . فلن يستطيع أعظم أستاذ عربي متخصص في الادب الانجليزي ان يترجم كتابا عن الطبيعة النووية إن لم يكن على معرفة بأساسيات ذلك العلم .

وهناك ميدان هام آخر أسهم فيه علم اللغويات الحديثة والترجمة اسهاما ملحوظا ، وهو دلالات الكلمات وإيحاءاتها أو ما يطلقون عليه بالفرنسية **Connotations Denotations** ولنأخذ كلمة بحر على سبيل المثال فدلالة هذه الكلمة لا يختلف عليها اثنان ولكنها اذا ما طرقت السمع فانها توحي بكثير من المعاني مثل :

(١) أشار أحد كبار اللغويين الفرنسيين الى أن لكلمة paltesn الانجليزية خمسين مرادفا بالانجليزية .

الاتساع ، الخوف من المجهول ، الجمال ، تقلب الحياة ، متعة أجازة الصيف إلى آخر ما في تلك الكلمة من إيحاءات وكثيرا ما تكون إيحاءات كلمة بالفرنسية مختلفة تمام الاختلاف عن إيحاءات ترجمتها العربية وهي مشكلة كبرى من مشاكل الترجمة لا يستطيع حلها إلا من أجاد اللغة الأجنبية إجادة تامة وكان كاتبا أو شاعرا بلغته الاصلية وليست فكرة الايحاءات بدعة على الثقافة العربية . فقد قرأنا للعلامة المرحوم أمين الخولي في المقدمة التي كتبها لأساس البلاغة للزمخشري طبعة محمد نديم ، القاهرة ١٩٥٣ ما يلي : الدلالات المعجمية المجردة ليست هي كل دلالة الكلمة بل ليست الدلالة الادبية التي تحمل عنصر التأثير النفسي للكلمة وما لها من وقع على سامعها بما تثير من أحاسيس ، وما تلفت إليه من آفاق . . . إذ أن كل كلمة حين يطرق صوتها أذن المخاطب ، أو تلمحها عين القارىء تثير فيه كل ما يتصل بمدلولها عنده من مشاعر وذكريات وحسبنا ما يقدره من يعانون تفهم النص الأدبي ، من هذا الايحاء للكلمات ، فهو الذي يقوم كل ما أودعها صاحب الفن القولي من الوضوح والتأثير » .

تذوق الشعر والأدب

وهناك أيضا من منجزات علوم اللغويات ، الدراسات العلمية عن الاسلوب ، والتي أصبحت علما قائما بذاته هو الـ **Styeistique** وترجمه البعض بكلمة الاسلوبية ولهذا العلم أهمية كبرى في مجال تذوق الشعر والأدب ، إذ أنه يحاول إيجاد قواعد علمية لفكرة الاسلوب ويمكن الافادة من ذلك في مجال الترجمة الأدبية التي ترمي إلى نقل المعنى والأسلوب معا . ولايضاح ذلك نسوق هذا المثال :

في اللغة الفرنسية مثل يقول : «**Si jeunesse savait, si vieillesse pouvait**» الترجمة الشائعة لهذا المثل والتي نجدها في بعض المعاجم هي : « ليت للشباب الحكمة وللشيوخ القدرة » ، ولكننا نستطيع أن نترجم ذلك المثل بعبارة تنقل المعنى الأصلي ولا تهمل الأسلوب وهي : « ليت الشباب يعرفون ، وليت الشيوخ يقدرون » .

ولكن هناك ترجمة ثالثة (٢) هي أقرب إلى الأصل معنى وأسلوبا وهي : « أواه لو عرف الشباب وآه لو قدر المشيب » .

تبقى نقطة أخرى وهي ضرورة مراعاة مستوى أو طبقة اللغة في الترجمة . فالمسرحية مثلا مكتوبة في اللغة الاصلية لتفهم فور تمثيلها ، ولهذا يجب ان تكون ترجمتها بلغة في نفس المستوى .

والكتاب الذي ألف أصلا للاطفال أو المراهقين ، ينبغي أن تكون ترجمته بلغة يفهمها الاطفال والمراهقون . وهناك أخيرا نقطة يعرفها كل من تمرس بالترجمة ، ألا وهي تجنب ظهور اللون الأجنبي في الترجمة العربية ، وهو عيب يقع فيه كثير من مترجمي اليوم بدعوى أمانة الترجمة وهي دعوة باطلة فالأمانة تقتضي أن تجيء الترجمة صورة جميلة للأصل وليست شكلا مشوها . ولتلافي هذا العيب يمكننا ان نستلهم الطريقة التي اتبعها فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) في العدد القليل من الكتب التي ترجمها . فقد ذكر أنه كان يقرأ الفقرة باللغة الانجليزية ثم يطوي الكتاب ، ويعبر عما فهمه وعما تذوقه بلغته الالمانية ، فتجيء الترجمة وكأنها من وحي المترجم وإبداعه . ■■

---

(٢) صادفنا هذه الترجمة في مقال للعلامة الفقيه المرحوم عبد الرزاق السنهوري ، في كتاب « علمتني الحياة » نشرته مؤسسة فرانكلين ، ١٩٥٣ القاهرة .

قال ابو العيناء : قلت لأحمد بن ابي داود : ان قوما تضافروا عليّ . قال : يد الله فوق ايديهم . قلت : انهم عديدون وانا واحد . قال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصادقين ، قلت : انهم أهل مكر وخديعة ، قال : لا يحيق المكر السيىء الا بأهله .

الرحلات التاريخية في البحر الأحمر

بقلم : الدكتور محمود كامل



البحر الأحمر الذي تقع على شواطئه من الغرب مصر والسودان واريتريا (الحبشة) ومن الشرق المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية ، هو الذي اعتاد العرب أن يطلقوا عليه اسم بحر القلزم نسبة لمدينة القلزم التي كانت تقع على مقربة من مدينة السويس الحالية وكان يعرف في التعبير العبري باسم « يم صوف » ، كما أن كتاب « المحيط » الذي وضعه الملاح والشاعر التركي « سيدي علي ربس » قد اطلق عليه اسم « بحر الحجاز » ودرج الترك على اطلاق هذا الاسم عليه عقب احتلالهم للأقطار العربية الواقعة على شواطئه في أول القرن السادس عشر . كما أن الوثائق الملاحية اليونانية الأولى قد أطلقت على هذا البحر ـ وخاصة على الجزء الجنوبي منه ـ اسم « بحر اريتريا » .

والرحلات التاريخية في البحر الاحمر قد بدأتها مصر منذ فجر التاريخ ، وسجلتها النقوش الهيروغليفية . وأشارت هذه النقوش الى الاهمية شبه الدينية لبلاد « بونت » التي يكاد الاجماع ينعقد على أنها تعني شواطىء هذا البحر ، التي تقع عليها الآن اريتريا وما يتلوها جنوبا من بلاد الصومال على المحيط الهندي ، كما تقع عليها الجمهورية العربية اليمنية وما يتلوها جنوبا من أراضي جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية التي تقع على المحيط الهندي .

وقد تساءل علماء المصريات عن السبب في اهتمام مصر بتلك البلاد ، ويبررونه بأنها ـ طبقا لما تصوره المصريون اذ ذاك ـ تقع الى الشرق أي في الجهة التي تشرق منها الالهة الشمس كل يوم ، كما أنها البلاد التي ترد منها العطور المقدسة التي لم يكن ممكنا الاستغناء عنها في ممارسة طقوس عبادة الالهة أو في تأليه ما يرفع الى مرتبة الآلهة . أو في تحنيط الموتى ، وقد ذهب كهنة المصريين القدماء الى أن تلك البلاد . بلاد « بونت » هي مهد أعظم آلهة مصر « هاتور » سيدة السماء . و « مين » حاكم الصحاري

الشرقية وغط من الاله « حورس » ـ الصقر ـ الذي أطلقوا عليه اسم « أسد بونت » والاله القزم « بيس » الذي كان طبقا لعقائدهم يشرف على الحوامل عند الوضع

وقد استطاع الفراعنة الحصول على منتجات تلك البلاد ، وعلى معلومات عنها بطريقين . طريق النيل والدروب الصحراوية المختلفة المتاخمة له . والطريق الذي كانت تسلكه الأساطيل المصرية عبر جنوب البحر الأحمر مجازفة بتحمل أخطاره في الذهاب والاياب . وسواء كان ذلك بأحد ذينك الطريقين أو بالآخر ، فان العلاقات مع بلاد « بونت » ثابتة من أقدم النصوص الهيروغليفية التي لا تسجلها كأنها علاقات جديدة وغير عادية بل تنبيء بما لا يدع مجالا للشك بانها علاقات كانت قائمة فعلا قبل تأسيس الأسر الفرعونية الأولى بمدة طويلة .

ففي أثناء حكم الأسرة السادسة (٢٨٣٠ ـ ٢٦٣٠ق . م) أشارت تلك النصوص الى الاستعدادات الخاصة بتلك الرحلات البحرية . وتحت حكم الاسرتين الحادية عشرة (٢٣٧٥ ـ ٢٢١٢ ق . م) والثانية عشرة (٢٢١٢ ـ ٢٠٠٠ ق . م) تعددت تلك الرحلات التي كانت تجلب المر وسبائك الذهب والفضة والخشب الثمين . وطبقا لما قرره العالمان « ماريت » و « ماسبيرو » فان المناطق التي كانت هدف تلك الرحلات تقع على الشاطيء الافريقي حول مكان « مصوع » (على البحر الأحمر) حتى رأس جاردفوي . وقد تتالت تلك الرحلات الى بونت وتكاثرت الى حد أن مصر أنشأت ميناء شمال القصير الحالية في رأس وادي الحمامات على البحر الاحمر .

حتشبسوت



وخلال قرني الركود في نهاية العصر الوسيط الثاني (١٧٨٥ ـ ١٥٨٠ ق . م) يبدو أن الرحلات عبر البحر الأحمر توقفت . لان الملكة القوية « حتشبسوت » (١٥٠١ ـ ١٤٧٩ ق . م) ارسلت الى بلاد البخور أسطولا من أجمل الأساطيل التاريخية التي مخرت في جنوب البحر الاحمر ـ تباهت بتلك الرحلة وسجلتها على النقوش كحدث تاريخي لم يسبق له مثيل . اذ زعمت : « لم يعد أحد يعرف الطريق الى أراضي الآلهة . ولم يعد أحد من المصريين يرحل الى حقول البخور . فقد اقتصر الحديث عن كل ذلك على ما يتناقله الرواة عن الاجيال السابقة » .

أسطول حتشبسوت التجاري

وعلى أية حال ، فاننا مدينون لتلك الرحلة بأكثر التفاصيل الدقيقة عن بلاد « بونت » . وبين تلك التفاصيل اسم الربان الذي قاد الاسطول المصري وهو « سنموت » نفس المهندس الذي صمم مبنى الدير البحري بالأقصر . وقد لاحظ المؤرخون أن السفن الخمس الكبيرة التي كان يتكون منها اسطول حتشبسوت ، انما كانت سفنا تجارية جهزت لكي تحمل أقصى ما يمكن حمله من بضائع . وكانت ـ سواء بطرازها أو بالعاملين عليها ـ تنبيء بأنها انما أوفدت في رحلة لم تكن في حاجة اطلاقا الى أية حماية عسكرية . أي أن مصر كانت تعلم أنها انما توفد تلك السفن الى بلاد مستقرة تمارس مع تجارها صلات تجارية في ظل ظروف آمنة لجلب المنتجات الثمينة اللازمة لتجميل المعبد الذي أقامته حتشبسوت للاله آمون في طيبة .

ولم يقتصر رمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧ ق . م) على جلب البخور والمر ، بل انه جلب أشجارا بكاملها غرسها في معابد الآلهة . ويبدو أن كميات العطور اللازمة للمعابد كانت من الكثرة بحيث احتاج الأمر الى خطة للاستغلال المنتظم للبخور وأنواع الصمغ على شاطيء أريتريا وخليج عدن .

وفي عهد رمسيس الخامس (١١٦١ ـ ١١٥٧ ق . م) تبين أن مصر قد أعدت طرقا صحراوية جديدة الى شواطيء البحر الأحمر تبحر منها السفن الى « بونت » .

وقد ثبت أن « حيرام » ملك صور الفينيقية كان يبغي أن يكفل للتجارة في البحر الأحمر طريقا آمنا عبر تلال المنطقة التي كان يسكنها العبريون ، فأنشأ مع داود (١٠١٣ ـ ٩٧٣ ق . م) ومع ابنه سليمان (٩٧٢ ـ ٩٣٣ ق . م) ـ أي في عهد المكربين السبئيين في الجنوب العربي ـ صلات تستهدف بناء سفن على البحر الاحمر لنقل التجارة الفينيقية العربية وربما الهندية . وأغلب الظن ان تلك السفن كانت

تستخدم موانئ البحر الأحمر الجنوبية ، كما ثبت أيضا أن نخاو الثاني (٦٠٩ ـ ٥٩٣ ق .م) من الأسرة السادسة والعشرين قد كلف الملاحين الفينيقيين بالطواف حول افريقيا فنجحوا في تلك المحاولة التي أتموها في ثلاثة أعوام .

ربط البحـــرين الأبيض والأحمر

ومن أقدم المحاولات لكشف الطرق الملاحية في البحر الاحمر تلك المحاولة التي أشار اليها « هيرودوت » فذكر أن « سكيلاكس » وعددا من البحارة اليونانيين ـ نزولا على أمر « دارا » ملك الفرس حوالي سنة ٥١٠ق .م ـ استطاعوا أن يدوروا حول شبه الجزيرة العربية حتى مصر عبر البحر الأحمر . وهذا البحار اليوناني « سكيلاكس » هو ، بذلك ، أول بحار يوناني يبلغنا خبره حتى الآن يدخل البحر الأحمر ويطوف حول جزيرة العرب للوصول الى الهند . ويفخر « دارا » ـ في نقش أشار فيه الى مشروع قناة حفرها ، ربطت البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بانه استطاع أن يسير السفن عبر هذه القناة والبحر الاحمر من مصر الى فارس .

وقد تتابع التوسع المصري ـ بحريا وتجاريا ـ في البحر الاحمر حتى عهد البطالمة واتضحت التفاصيل عن شواطىء هذا البحر . فزادت المعلومات عن المدن الواقعة عليه وأسواقها . ما يستورد منها . وما يصدر اليها . وفي ذلك العصر تدل النصوص اليونانية واللاتينية وغيرها من الوثائق التاريخية ، على ان بعض الشعوب الشرقية قد بدأت تتردد على البحر الاحمر . وان الفرس والهنود والصينيين كانوا يعرفون عن شواطىء هذا البحر أكثر مما عرفه اليونان والرومان .

ومن العوامل التي دفعت البطالمة الى ارسال الاساطيل الى جنوب البحر الأحمر الرغبة في جلب الحيوانات القوية العجيبة وخاصة الفيلة . وقد حدتهم تلك الرغبة الى متابعة اكتشاف شواطىء هذا البحر الجنوبية . للحصول على منتجاتها المحلية وعلى ما كانت تضمه أسواقها من البضائع التي تجلبها أساطيل الهند والصين كعطر الناردين والفلفل والحرير .

وقد بلغ من اهتمام البطالمة بجلب الفيلة أن أقاموا على شاطىء البحر الأحمر في اريتريا وما يتلوه جنوبا موانىء أعدت لشحن هذه الفيلة الى مصر على سفن أعدت هي الأخرى خصيصا لذلك . وكان يتولى ترويض تلك الفيلة في بادىء الامر مروضون يجلبون من الهند ، الى أن تبين أن الفيل الافريقي لا يصلح لما يصلح له الفيل الأسيوي من الاشتراك في الاستعراضات أو في المعارك الحربية .

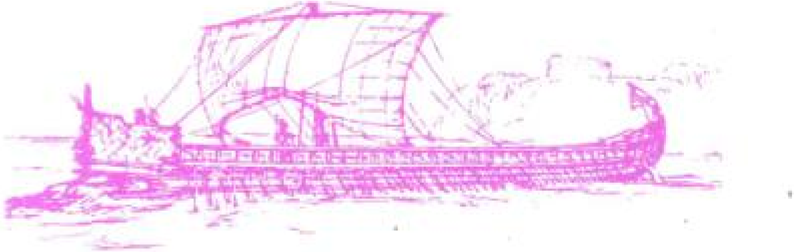
الرحالة الرواد

وكانت تلك الرحلات العديدة التي وفرت مادة ضخمة من المعلومات عن شبه القارة الافريقية سببا في ظهور طبقات مختلفة من الرحالة ، بدأت بالرواد والبحارة والمكتشفين والمغامرين الذين أثبت أكثر من واحد منهم قدرته على جمع بيانات دقيقة عن تلك المناطق ، ثم تلاهم الموظفون والصناع الذين أسهموا في اقامة الموانىء أو في اصلاحها . وأحيانا في اقامة التماثيل وكذلك الصيادون والعاملون في المناجم عندما كانت ترغب مصر في البحث عن الذهب أو الاحجار الكريمة . وأخيرا التجار . ولا شك أن بعض أولئك في العصر اليوناني (٣٣٢ ـ ٣٠ق .م) كانوا يتخلفون في تلك المناطق جنوب البحر الأحمر على الشاطىء الافريقي لتعليم الاهالي بعض الصناعات أو اللغة اليونانية .

ولعل من أقدم من سجل ، وصف شواطىء البحر الاحمر في عام ١٨٠ق .م هو « أجاثا رخيدس » الذي وضع خمسة كتب عن « بحر اريتريا » وبعده بقليل في عام ١٠٠ق .م « اريتميدور ديفيس » مؤلف « رحلة » في أحد عشر جزءاستشهد بها الجغرافيون اللاحقون . ولكن أقدم النصوص التي لا يخلو كتاب سياحي أو تاريخي أو جغرافي أو ملاحي عن البحر الاحمر من الاشارة اليها أو الاستناد عليها هو كتاب لمؤلف مجهول أطلق عليه اسم « رحلة في بحر اريتريا » في منتصف القرن الاول الميلادي ، وقد نسب هذا الكتاب بواسطة ناشريه في أعوام ١٥٣٣ و ١٥٧٧ و ١٦٨٣ الى « أريان » وقد نشرت الترجمة الانجليزية له عام ١٩١٢ كما نشرت الترجمة الفرنسية عام ١٩٢٧ وقد وصف هذا الكتاب بأنه « سرد لايمكن تقدير قيمته للتجارة في البحر الاحمر » .

ومما يدل على اهتمام البطالمة برحلات البحر الأحمر ، اقامة بطليموس الثاني (٢٧٥ق .م) لميناء « بيرينيس » على هذا البحر . في أقصى حدود مصر الجنوبية حاليا عند التقائها بحدود السودان . و « بيرينيس » تكاد تكون على خط عرض مدينة أسوان ، وقد سميت باسم ام بطليموس الثاني تكريما لذكراها . وتجد في خرائب « بيرينيس » الحالية بقايا المعبد الذي جدده الامبراطور الروماني « طيبيريوس » في القرن الأول الميلادي . وقد ظل هذا الميناء المصري أكثر من خمسمائة سنة ينافس غيره من الموانئ وبخاصة ميناء القصير في تجارة افريقيا وبلاد العرب والهند . وكانت تنقل تجارتها بالقوافل من البحر الاحمر الى ادفو على النيل والى غيرها من البلاد .

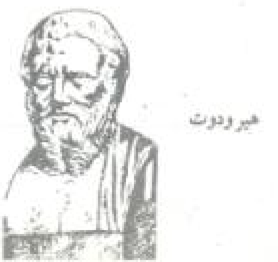
وقد بذلت جهود في عام ١٨٧٣ للكشف عن المعبد الصغير الذي أقيم في « بيرينيس » بعد أن عانى من طول



الاهمال . وبين النقوش التي وجدت به صور للامبراطور « طيبيريوس » يقدم القرابين الى الاله « مين » ، وفي نقش آخر بواجهة المعبد صورة ذلك الامبراطور يقدم تلك القرابين الى الهة المنجم الاخضر اذ كان لمناجم الزمرد آلهتها الخاصة . ويقع الميناء القديم على بعد دقائق من « بيرنيس » وقد ذاعت شهرة مناجم الزمرد هناك في الزمن الماضي . اذ عرفها المصريون القدماء كما عرفها الخلفاء المسلمون وسلاطنة المماليك . وحاول محمد علي أن يعيد استغلال تلك المناجم ، إلا أنه سرعان ما أوقف العمل بها . ويوجد بنفس المنطقة معبد بطلمي صغير محفور في الصخر ، عليه بعض نقوش يونانية تذكر الاله « سيرابيس » والالهة « ايزيس » .

ومن الوثائق القديمة التي تعود الى العصر اليوناني مجموعة « التاريخ الطبيعي » التي وضعها « بليني » (٢٣ - ٧٩ م) في سبعة وعشرين جزءا عن وصف العالم والجغرافيا وعلم السلالة البشرية « الثنوجرافي » ، وعلم الانسان « انثروبولوجي » . وقد تضمنت وصفا للبحر الاحمر بدأ من « أدوليس » مكان « عصب » الحالية باريتريا . وقد ذكر « بليني » عن « أدوليس » أنها أكبر سوق للبدو الذين أسماهم « التروجلوديت » ـ وهم الذين اتجه معظم المؤرخين الى ان يدرجوا فيهم المصريين من سكان الصحراء الشرقية ـ والاحباش ، فانهم يحضرون الى هذه السوق كميات كبيرة من العاج وقرون وحيد القرن وجلود فرس البحر وقشور جلد السلحفاة . والى الجنوب من « عصب » يشير « بليني » الى « ميناء ايزيس » حيث يشاهد تدفق المر القادم من بلاد البدو . وتنبيء التفاصيل التي أعطاها عن هذا الميناء وعن الجزائر المواجهة له ، وعن لوحات التماثيل التي تحمل نقوشا سرية التي تشاهد فيها عن انه يقصد خليج عصب الاريتري على البحر الاحمر الجنوبي .

وهنا يجب أن نذكر أن تعبير « البحر الاريتري » لدى القدماء لم يكن ينصرف الى البحر الاحمر فحسب بمفهومه الحالي ، وانما كان يشمل الجزء الشمالي من المحيط الهندي



هيرودوت

مع بحر عمان ، كما يشمل الخليج الفارسي وخليج عدن والبحر الأحمر الحالي الذي كان القدماء يسمونه الخليج العربي . .

كشف هيبالوس

ولكن أهم كشف ملاحي تحقق هو الكشف المنسوب الى « هيبالوس » الروماني الذي اختلف المؤرخون في تحديد تاريخه ثم رجح معظمهم ان هذا الكشف قد تم بين عامي ٤٠ و ٥٠م . وهو الكشف الخاص باستخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في رحلة واحدة من خليج عدن الى الهند . وقد يكون هناك ما يبرر التفكير في ان الاستعانة بتلك الرياح كانت معروفة للبحارة العرب الذين عبروا المحيط الى عدة نقط على شواطىء الهند ، ولكنهم لم يفضوا بذلك السر الى منافسيهم اليونانيين والمصريين ، وأنه لذلك فان ما انجزه « هيبالوس » يعد كشفا من وجهة النظر الرومانية فحسب .

الرحالة العرب

وقد جاء ذكر البحر الأحمر في سياق وصف الرحالة العرب لرحلاتهم ابتداء من القرن العاشر الميلادي ، فذكر ابن خرداذبه (ت . عام ٩١٢) في كتابه « المسالك والممالك » طريقين مهمين كان يسلكهما التجار اليهود من اوروبا الى الهند والصين أحدهما يمر بالسويس والبحر الأحمر .

وشملت رحلات المسعودي (ت . عام ٩٥٦) مؤلف كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وصف طريق البحر الاحمر ، وذكر ابن حوقل (ت . عام ٩٨٨) ـ مؤلف كتاب « صورة الارض » الذي يطلق عليه ايضا نفس الاسم التقليدي « المسالك والممالك » ـ البحر الاحمر في صدد اشارته للشعوب التي تعيش على شواطئه كالنوبة والحبشة فانهم نصارى . وقد كانوا قبل الاسلام يتصلون بمملكة الروم المجاورة لأن أرض النوبة مصاقبة أرض مصر والحبشة على بحر القلزم « الاحمر » وبينها وبين أرض مصر مفاوز معمورة فيها معادن الذهب ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم .

وأوضح البيروني (ت . عام ١٠٤٨) في كتابه « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » أن « خليج القلزم

(البحر الاحمر) يتعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة . ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فانه يسمى بها فيقال لجنوبه بحر الحبشة ، وللشمالي بحر اليمن ولمجموعها بحر القلزم وانما اشتهر بالقلزم لأن القلزم مدينة على منقطعه في أرض الشام ؟ (الصحيح أنها على مقربة من السويس الحالية كما سبق أن أشرنا) » وللبيروني كتاب آخر هو « تحديد نهاية الاماكن لتصحيح مسافات المساكن » ولا يزال مخطوطة محفوظة في الاستانة بخط المؤلف ، وقد أشار فيه الى محاولات القدماء حفر قناة بين البحر الاحمر والابيض المتوسط .

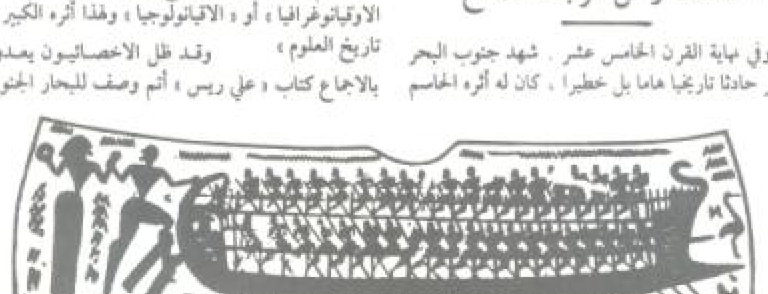
ومن الرحلات عبر البحر الاحمر رحلة « سفرنامه » لناصر خسرو (ت . عام ١٠٨٨) فقد أقام بمصر عدة أعوام أدى أثناءها فريضة الحج ثلاث مرات كانت كلها عن طريق البحر الاحمر من القلزم « السويس » الى المدينة ومكة . أما حجته الرابعة فاتخذ طريقا آخر . اذ اتجه الى اسوان ثم عيذاب (القصير) على البحر الأحمر ، ومنها عبر هذا البحر الى جدة وذكر ابن جبير (ت . عام ١٢١٧) في كتاب لم يعطه عنوانا معينا . البحر الاحمر في وصف رحلته التي قام بها من القاهرة الى عيذاب (القصير) وكان ـ اذ ذاك ـ المرفأ الذي اعتاد الحجاج أن يبحروا منه الى الحجاز ونزل بجدة كما ان ابن بطوطة (ت . عام ١٣٧٧) في كتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » الذي أملاه في عامي ١٣٥٥ و ١٣٥٦ ، قد حاول ـ لاداء فريضة الحج ـ أن يتخذ نفس الطريق الذي سلكه ناصر خسرو في حجته الرابعة . أي أن يتابع النيل من القاهرة الى اسوان ومنها يتجه عبر الصحراء الى عيذاب على البحر الاحمر ثم يعبر هذا البحر الى جدة . ولكن الحرب التي نشبت بين المماليك وقبائل البجة أوقفت سير السفن المصرية بين القصير وجدة . فعاد الى القاهرة فدمشق حيث انضم الى قافلة الحجاج . وبعد اقامته بمكة غادرها الى جدة ثم عبر البحر الاحمر الى شاطئه الشرقي الافريقي . وعبر هذا البحر الى اليمن . وبعد أن زار مكة للمرة الثالثة اجتاز البحر الاحمر الى القصير (عيذاب) ومنها الى القاهرة .

اكتشاف رأس الرجاء الصالح

وفي نهاية القرن الخامس عشر . شهد جنوب البحر الاحمر حادثا تاريخيا هاما بل خطيرا . كان له أثره الحاسم في مسار الرحلات عبر البحر الاحمر هو اكتشاف « فاسكو دي جاما » البرتغالي للطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ . وقد اتضح فيما بعد ـ من كتاب وضعه المؤرخ قطب الدين النهر والي (١٥١١ ـ ١٥٨٢) عن فتح العثمانيين لليمن وأسماه « البرق اليماني في الفتح العثماني » ـ أن « دي جاما » استعان في اتمام كشفه الجغرافي التاريخي ببحار من الجنوب العربي هو احمد بن ماجد . وقد عاد ذكر هذا الاسم في كتاب آخر وضعه أمير البحر التركي سيدي علي ريس عام ١٥٥٤ وأسماه « المحيط » ـ فاتضح من هذا البحث أن كتاب أمير البحر التركي قد أشير فيه الى عدد من مصنفات أحمد بن ماجد . وبفضل هذا وجد اسم « ابن ماجد » طريقه الى الدوائر العلمية الاوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر . غير ان الكشف عن الاصول العربية لمصنفاته تأخر الى عام ١٩١٢ . كما تبين أن الرحالة الانجليزي « ريتشارد بيرتون » قد سجل في كتابه « السبيل الى افريقيا واكتشاف هرر » الذي نشره بلندن عام ١٨٥٦ أن ملاحي عدن كانوا الى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة الى من يدعى « الشيخ ماجد » . ويقرأون الفاتحة على روحه قبل ركوبهم البحر . . وآثار ابن ماجد كثيرة . ويبلغ عدد الموجود منها في الآونة الحاضرة الاربعين . غير أن واحدا من مصنفاته الكبرى يحمل عنوان « كتاب الفوايد في أصول علم البحر والقواعد » وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظري والعملي للمسائل الملاحية .

فضل ابن ماجد

وقد علق رئيس قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية على المخطوط الذي ضم تسعة عشر مؤلفا من مؤلفات « ابن ماجد » بأن : « هذا المخطوط في الواقع أهم وثيقة في الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الاطلاق وتنحصر أهميته في أنه أقدم الوثائق الجيدة التي وصلتنا والتي دونت عن الملاحة وفنون البحر في البحار الجنوبية . كما أنه يرد فيه لاول مرة ذكر اسم لعلم جديد هو « علم البحر » بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم « علم الاوقيانوغرافيا » أو « الاقيانولوجيا » ولهذا أثره الكبير في تاريخ العلوم » وقد ظل الاخصائيون يعدون بالاجماع كتاب « علي ريس » أتم وصف للبحار الجنوبية



ومنها البحر الاحمر الجنوبي . إلا أنه بمجرد ان اكتشف المستعرب « فيران » مخطوطات « ابن ماجد » و « سليمان المهري » حدث تبدل جوهري في الصورة اذ وضح أن جميع ذلك الثناء الذي أغدق على كتاب « علي ريس » التركي انما ينبغي أن يكون في الحقيقة من نصيب تلك المصادر العربية بل ان « فيران » يصر اصرارا شديدا على أن كتاب « المحيط » بأجمعه لا يمثل سوى ترجمة بل وترجمة حرفية في بعض الاحايين لمصنفات احمد بن ماجد وسليمان المهري .

أطلس ملاحى

وقد استفاد العثمانيون - بعد احتلالهم للعالم العربي - من تلك الوثائق الملاحية العربية في تسيير سفنهم في البحر الاحمر . فان قائد الاسطول العثماني المصري الذي كلفه السلطان سليمان القانوني بمقاتلة البرتغاليين وهو « بيري ريس » والذي سلك بسفنه البحر الاحمر فاخضع عدن عام ١٥٣٨ في طريقه الى الخليج الفارسي - العربي ، هذا القائد البحري قد خلف لنا كتابا أسماه « بحرية » أرفق به أطلسا ملاحيا كبيرا . بدأ العمل فيه عام ١٥٢٠ .

وفي عام ١٥٠٥ قام الرحالة الايطالي « لود فيكو ده بارتيما » برحلته التاريخية الى المناطق المتاخمة لشاطىء البحر الاحمر الشرقي من اليمن فمر بتعز وزبيد « الجمهورية العربية اليمنية » . وقد وصف مسجد « تعز » الكبير بانه مازال محتفظا - عام ١٥٠٨ - بكيانه ورونقه . وشبهه بكنيسة سانتا ماريا روتوندا بروما . وقد وصفت رحلة « ده بارتيما » بانها : « مامن قصة رحلة لاقت طوال نصف قرن مثل النجاح الذي لاقته قصة رحلته . فقد تعاقبت طبعاتها وترجمتها خلال ثلاثين عاما دونما انقطاع ، وظهر منها بعض الطبعات في القرن السابع عشر » كما وصف «ده بارتيما» بانه « اول اوروبي نزح الى بلاد اليمن وأول من نشر الاخبار عن مدنها وسكانها ومزروعاتها ومناخها » ، وقد ضم كتاب « ده بارتيما » خارطة لشبه جزيرة العرب كما رسمها بطليموس وأعطى لسواحله وصفا مقتضبا ولكن صحيحا لشبه الجزيرة وسواحلها .

وفي عام ١٦١٦ زار الرحالة الهولندي « فان دن بروكه » ميناء مخا على البحر الاحمر ووصفها بانها ازدهرت بعد استيلاء الاتراك عليها لان مراكبهم التي تأتي من السويس في كل سنة محملة بالبضائع الثمينة كانت تتعرض لاخطار جسيمة لدى اجتيازها مضيق باب المندب في طريقها الى عدن . فاصبح ميناء مخا ميناء دوليا [١٨] .

وبين عامي ١٧٠٨ و ١٧١٠ ثم بين عامي ١٧١١ و ١٧١٣ قامت سفينتان فرنسيتان برحلتين الى شاطىء البحر الاحمر الجنوبي الشرقي وزارتا ميناء « مخا » اليمني ، وكانت الرحلتان لحساب احدى شركات استيراد البن .

وفي اكتوبر عام ١٧٦٢ رست في مرفأ « القنفذة » اليمني على شاطىء البحر الاحمر بعثة أوفدها ملك الدانمرك مكونة من ستة لم يبق على قيد الحياة منهم في نهاية الرحلة التي كان الغرض منها كشف الغموض عن جنوب شبه الجزيرة العربية الا واحد . وقد تنقلت البعثة بين « القنفذة » و « اللحية » و « زبيد » و « مخا » على شاطىء البحر الاحمر الشرقي . و « مخا » هي المنطقة التي كان الاوروبيون قد عرفوها أكثر من غيرها لانها موطن البن الذي أطلق عليه في التعبير الاوروبي اسم ذلك الميناء العربي .

كشف جيمس بروس

ويعود الفضل في اتمام اكتشاف شواطىء البحر الاحمر من السويس الى باب المندب الى بريطاني هو « جيمس بروس » في عام ١٧٦٩ وقد تشكك الكثيرون من مواطنيه في صحة البيانات التي جاء بها الى أن جاء « ولستد » مواطنه فأكد صحتها . وعلى ذلك أوفدت شركة الهند الشرقية البريطانية « اروين » لمتابعة اكتشاف شواطىء البحر الاحمر بغية اختصار الطريق البحرية حول رأس الرجاء الصالح والاستعاضة عنها بسلوك الطريق البرية بين الاسكندرية والسويس ثم الطريق البحرية عبر البحر الاحمر الى الهند . . وكان الاتجاه الاستعماري الاوروبي قد استشرى فتابعت شركة الهند الشرقية البريطانية ارسال البعثات لاستكشاف شواطىء البحر الاحمر ومنها البعثة التي اشترك فيها « ولستد » الذي سبقت الاشارة اليه .

وفي عام ١٨٣٥ وصل الرحالتان الفرنسيان « ادوار كومب » و « تاميزيه » الى شاطىء البحر الاحمر الشرقي الجنوبي في منطقة « جيزان » السعودية حاليا والتي كانت يمنية اذ ذاك . وتنقلا الى الشاطىء بين « اللحية » و « الحديدة » و « زبيد » و « مخا » ثم عادا الى جيزان . وسجل الرحالتان وصف هذه الرحلة التي كان قد زارها الرحالة الدانمركي « نيبور » قبل ذلك بأكثر من سبعين عاما .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر - وخاصة بعد افتتاح قناة السويس - انتظمت الملاحة في البحر الاحمر لتحقيق الاغراض المختلفة تجارية وثقافية وسياحية وعسكرية . ■■

د . محمود كامل



هل هناك علاقة ما بين

النوم والأكل ؟

بقلم الدكتور صلاح بركات

من منا لا ينام !! وكيف ؟ وهو أمر مستحب لدى الجميع من الكائنات الحية ، من بني الانسان والحيوان والنبات . ولا نعتبر بعاشقي النوم بالرغم من أننا نقضي على الاقل ثلث حياتنا بالنوم ، فهناك من النباتات والحيوانات من ينام عدة سنوات دفعة واحدة ؛ هذا الثلث من حياتنا وجدأنه يزداد ويقل تبعا لنوع الطعام وحميته . . .

لاشك أن الكثير منا ، منْ تنتابه الرغبة الشديدة في الاستلقاء والنوم . بعد تناول وجبه من الطعام ، هذه الرغبة ربما لا تكون مباشرة بعد تناوله ، بل تتأخر بعض الوقت ، يزيد آخرون القول فيقولون بأن النوم يأتي سراعا كلما ازداد حجم ونوعية الغذاء المتناول ، ويستشهدون على ذلك بتجاربهم وملاحظاتهم الشخصية .

تعريف النوم واشكاله

إن دراسة هذا الموضوع بشكل تجريبي وعلمي . لم تبدأ إلا منذ عدة سنوات خلت ، وقبل الاسترسال بالحديث فانه من المفيد أن نتامل ظاهرة النوم ونعرفها ، فكما هو معروف : فان النوم عبارة عن حالة فيزيولوجية طبيعية متكررة تتميز بانعدام الاحساس والشعور للكائن الحي وبارتخاء العضلات ، وبطء دوران الدم والتنفس ، ويتخلل فترة النوم هذه ، ظاهرة حدوث الاحلام . ويمكن القول أيضا بأن النوم عبارة عن فترة من الراحة والاستجمام لأعضاء الحس والحركة ، هذه الراحة مطلوبة وضرورية لتلك الأعضاء لتتخلص من نواتج نشاطاتها خلال مرحلة اليقظة ، والتي غالبا ما تكون سامة ، فالنوم اذا يحقق للكائن أمرين :

- التخلص من نواتج العمليات الحيوية لاجهزته واعضائه .

- فترة من الراحة ، لتجديد نشاط هذه الاعضاء .

ويتنوع شكل النوم أو الرقاد هذا ، من شخص لآخر ويرجع سبب الاختلاف إلى طبيعة الكائن والظروف المحيطة به ، ويمكننا تمييز عدة أشكال من النوم :

- رقاد مجدد القوى والنشاط .

- نوم خفيف .

- نوم قلق .

- نوم عميق وثقيل .

- النــوم المرهف او النشيط - Sommeie Para-doxal

اظهرت النتائج التي أجريت على الحيوانات المختبرية كالجرذ مثلا ، بأن هناك علاقة موجبة ماببن كمية القدرة الحرارية الناتجة عن هضم الطعام بالمعدة ، وطول الفترة الزمنية للنوم الحاصل ما بعد تناول الطعام ، بل أكثر من ذلك فقد بينت التجارب وجود علاقة ما بين حجم الوجبة المتناولة ، والنوم الحادث ما بعد ساعتين او ثلاث ساعات من تناولها ، واستنتج من ذلك بأن النوم بشكـل عام ، لايحدث أثناء هضم الطعام وانما يحدث أثناء امتصاصه من قبل خلايا الكائن الحي .

سبب تواتر النوم واليقظة

إن الجرذان حيوانـات ليلية ، بمعنى أنها تنشط خـلال الليل للبحث عن غذائها وتأمينه ، وتنام خلال النهار . فهي ذات نظام مخالف تماما للانسـان ، فعمليات الهضم عند الجرذ تنشط خاصـة خـلال الليـل ، أي أثناء تناول الطعام ، لتمد الجسم بما يحتاجه من الطاقة . أما الفائض عن الحـاجة ، فيحتفظ بشـكـل دهون . هذه الـدهـون المخزونة تفكك وتحرق نواتجها للحصول على الطاقة ، خلال النهار ، أي خلال فترة الاستراحة ، وهكـذا ففي الليل يوجه الجرذ عمليات تحويل الغذاء بعد هضمه الى تكوين الدهـون ، وفي النهار نحـو تفكيكها ، وبحسب نظامه هذا فان حقن محلول من سكر الغلوكوز او مزيج من الدهون داخل اوردته الدموية يتغير تأثيره بحسـب وقت إعـطاء هذه الحقن ، فلو حقنـا الجرذ بمحلول من سـكـر الغلوكوز خلال الليل ، لوجدنا بأن فترة نومه قد طالت وازدادت بالرغم من أنه حيوان ذو نشاط ليلي كما ذكرنـا سابقا ، أما لو حقنا هذا الجرذ بمحاليل من مركبات دهنية خلال النهار ، فان ذلك يطيل فترة نومه ايضا ، بمعنى آخر فان مد الجرذ بما يحتاجه من مواد غذائية مناسبة وموافقة لنظام عملياته الحيوية ، يسبب زيادة فترة نومه ، أما اذا عكسـنا الامر وأمددنا الجرذ بحقن من مواد غذائية مخالفة المعتاد لعملياته الحيوية ، فان ذلـك ينقص فترة نـومه ، وهذا ما يحدث حين نمد الجرذ بالمركبـات الدهنية خلال الليل ، وبسكر الغلوكوز خلال النهار ، من ذلك يتبين بأن دورة تكون وتفكيك المواد الدهنية عنـد الجرذ تبـدو هامة ولها دور كبير في آلية تنظيم النوم واليقظة .

ويمكننا التحقق من صحة هذه الفكرة عن طريق حقن الجـرذ خلال الليـل بهرمـون يعمل عـلى زيـادة تفكيـك الدهون ، أي هرمون « الادرينالين » والذي يفرز من قبل الغدة الكظرية ، اما خـلال النهار فيتم حقنه بهرمـون الانسـولين الـذي ينشط الجسم عـلى تكـوين وتـراكم الـدهـون ، بهـذه الطريقـة يتم قلب وعكس دورة النوم واليـقـظة عند الجـرذ بحيث يصبح نـومه خـلال الليل ، ونشاطه يتم خلال النهار . ويبدو ان سبب النوم يعود إلى استعمال الأغذية من قبل خلايا الكائن الحي ، فلو أضيف هرمون الأنسـولين إلى محلول سـكـر الغلوكوز ، وحقنـا داخـل جسم الجرذ فـان فترة النـوم تزداد لأن هـرمـون الانسـولين ، كـما هو معـروف يعمل عـلى تنشيط وزيادة دخـول سكـر الغلوكوز الى الخلايا .

الاحماض الامينية والاحلام

يـلاحظ أنـه خـلال فتـرة النـوم الـطويلة والمميـزة بالانخفاض الكبير لنشاطات الكائن ، وجود حالات من النوم تنتاب الكائن بشكل متقطع وقصير ، يحدث خلالها ازدياد في نشاط خلايا الدماغ مشابهة تماما لحالة اليقظة ، كما يـلاحظ خلال هـذه الفترات القصيـرة ، اهتزاز سـريع للاجفان ، هـذا النوع من النـوم دعي بالنوم النشيط او المرهف وقد تبين من خلال التجارب أن هذا النـوع من النوم يصادف تماما وقت حدوث الأحلام عند الكائن .

إن تأثير حقن محلول من الاحماض الامينية مباشرة داخل اوردة جسـم الجرذ يتغير بحسـب وقت حقنه : أثناء فترة النوم العادية أي الخالية من الأحلام مثلا ، أو أثناء فتـرة النـوم النشيط أي خـلال حـدوث الأحـلام . وأظهـرت التجـارب أن فترة النـوم العاديـة ، والتي تأخـذ الشـطر الأطول من النوم ، لاتتأثر بالاحماض الامينية ، بينما تزداد فترة الاحلام بنسبة ٨٠٪ عن وقتها العادي ، هذه الزيادة تبين وجود ترابط ما بين انتاج وتكـوين البـروتينـات وحدوث الأحلام . وهناك بعض الملاحظات تدعم هذه الفرضية ، فالمعروف أنه لدى الصغار الحديثي الولادة ،

فان فترة النوم النشيط تأخذ الحيز الأكبر من فترة نومهم ويعرف هؤلاء أيضا بانهم ذوو إنتاج كبير للمواد البروتينية . أما الملاحظة الثانية ، فان تقوية الذاكرة عند البالغين ، يعتقد بانها مرتبطة بانتاج بروتينات جديدة مترافقة بزيادة فترة النوم النشيط .

الأرق

وهناك بعض الدلائل والملاحظات تؤيد ربط الأرق وقلة النوم لدى الكائن مع انخفاض كمية الغذاء الحاصل عليها ، وللتاكد من صحة هذه الملاحظات ، فقد تم تجويع الجرذ لفترة طويلة ، ولوحظ خلالها بأن فترة نومه المعتادة قد انخفضت لدرجة كبيرة ، هذا الانخفاض عائد بالطبع الى انخفاض مخزونات الجسم من الطاقة ، وحالما يمد الجرذ بالغذاء سواء كان عن طريق الفم . أو مباشرة عن طريق المعدة ، فان ذلك يؤدي الى حدوث فترة نوم طويلة .

هذه الفرضية تتأكد أيضا من ملاحظة الصغار الحديثي الولادة ، اذن أن النوم لديهم غالبا ما يكون مرتبطا بعملية الشبع ، كما أن الأرق الحادث عند فاقدي الشهية للطعام ، يمكن أن يزال على الأقل جزئيا ان لم نقل بشكل كامل عن طريق تقديم وجبة غذائية لهم ، تحتوي على قدر كبير من الحراريات ، مركبة من البروتين والسكاكر ، وبالعكس فان الشراهة للأكل ، تسبب البدانة ، المترافقة عادة بافراط بالنوم . ويمكننا أن نصل إلى هذه الحالة ، باحداث سلوك غذائي مفرط لدى الجرذ ، عن طريق إحداث جرح عميق في القسم الخلفي من الدماغ الأمامي والمسمى بالهيبوتلاموس وبدقة اكثر للخلايا العصبية الموجودة في وسط هذا القسم والمسماة بنوى وسط البطن . هذه الحالة من الشراهة للطعام ، تحدث أيضا للانسان حينما تصاب الخلايا السابقة الذكر بضرر نتيجة حادث ما ، هذه الشراهة للطعام المصحوبة بافراط بالنوم هي أعراض مرض كلين ليفان .

إن الارتباط الحاصل ما بين عمليات تحويل وهضم الغذاء والنوم يجعلنا لانستبعد أبدا حدوث خلل في فترة النوم ، نتيجة عطل او اضطراب في نظام هضم وتمثيل الطعام ، وهناك بعض الحالات المرضية من إفراط النوم ، معروفة السبب والتي ترجع لاضطراب في افرازات الهرمونات المسؤولة عن عمليات الهضم والتحويل الغذائي ومثال على ذلك فان عدم انتظام هضم سكر الجلوكوز يسبب أرقا للمريض .

ولهذا فانه من المفيد دراسة نظام الغذاء عند المريض بالأرق قبل وصف أي علاج له ، فقد يكون هذا الارق نتيجة جزئية او كلية لاضطراب في نظام غذائه ، او اضطراب في عمليات هضم الطعام وتمثيله .

وخلاصة القول انه يمكننا الاشارة الى ان النوم مرتبط بشكل كبير بالتغذية ، هذا الارتباط لايعود بالدرجة الاولى الى نوعية الغذاء بقدر ما يعود الى الشروط المساعدة لاستعماله من قبل جسم الكائن ، ولهذا فلا يكفي الأكل الكثير كي تنام جيدا ، بل أن تكون خلايا جسمنا قادرة على تمثيل واستخدام هذا الغذاء سواء قل أم كثر . ■■

باريس ـ د . صلاح بركات

كيف أخذ هذه الجائزة

غنى اسحاق ذات مرة عند الرشيد بأبيات اعجب بها ، فقال : لله در ابيات تأتينا بها ، ما اشد اصولها ، واحسن فصولها ، وأقل فضولها ، وأمر له بخمسين الف درهم . فقال له اسحاق : وصفك ـ والله يا أمير المؤمنين ـ لشعري احسن منه ، فكيف آخذ هذه الجائزة ؟

فضحك الرشيد وقال : اجعلوها لهذا القول مائة ألف درهم .

كلمات في المرأة

■ المرأة وحدها هي التي علمتني ما هي المرأة . .

(ردیارد كبلنج)

■ المرأة . . زهرة لا يفوح اريجها الا في الظل فقط . .

(لابناي)

■ المرأة قلب الانسانية . . والرجل هو الرأس . .

(سميلس)

■ المرأة هي الوسيلة الوحيدة لاستمرار الحياة .

(تورانس)

■ المرأة الصالحة خير للرجل من عينيه ويديه .

(مسلمة بن عبد الله)

■ المرأة الصالحة لا يعدلها شيء . . لأنها عون على امر الدنيا والآخرة .

(عبد الله بن المقفع)

■ المرأة هي الجزء العصبي من المجموع الانساني . . والرجل هو الجزء العضلي منه .

(هالي)

■ المرأة كالغصن الرطب . . تميل الى كل جانب من الرياح ، ولكنها لا تنكسر في العاصفة .

(زواتلي)

■ لم تخلق المرأة لتكون محط اعجاب الرجال جميعا . . . بل لتكون مصدرا لسعادة رجل واحد .

(ايتان راي)

■ خلقت المرأة ليحبها الرجل . . لا ليدرك سرها .

(اوسكار وايلد)

■ تحب المرأة في الرجل ان يكون في حاجة الى أم ترعاه .

(اثيل باريمور)

■ تضحي المرأة بكل شيء من اجل الرجل الذي احبته ، ولكنها لا تهتم بمن تثق في محبته لها .

(برنارد شو)

■ الحب يزيد من رقة الرجل . . ويقلل من رقة المرأة .

(جارلسون)

انفجار السكان لم يعد خطرا مؤكدا كما كان

● تتفرع عن هيئة الأمم المتحدة ، كما هو معروف ، وكالات عديدة مختلفة تعنى على نحو من التخصص بشؤون وقضايا عديدة مختلفة .... من هذه الوكالات .. وكالة السكان **UN Fund For Population Activities** التي اتخذت مقرا لها في نيروبي ، كينيا ، والتي تصدر تقريرا سنويا عن حالة سكان العالم ، تضمنه من الاحصاءات والمعلومات والتنبؤات ما لا غنى عنه للمهتمين بشؤون المجتمع ومشاكله ومستقبله ... وقد أصدرت الوكالة المذكورة في ١١ يونية الماضي تقريرها الأخير « حالة سكان العالم في سنة ١٩٨٢ » الذي يبعث على التفاؤل الى حد ما .. خلافا لتقارير لها سابقة .. غلب عليها التشاؤم نظرا لتزايد السكان المطرد في كل مكان من بلدان العالم الثالث ، وتبعا لعدم تزايد انتاج الغذاء بالقدر الذي يفي بحاجة تلك الزيادة السكانية .. وتوقعا للكارثة الكبرى التي ستترتب على هذا وذاك فتحل بالعالم لا محالة في القرن الواحد والعشرين .. اعني كارثة انفجار السكان .

أما الباعث على التفاؤل في التقرير الجديد فالانخفاض الملحوظ في نسبة الزيادة في عدد سكان العالم .. فقد بلغت هذه النسبة في فترة الخمس سنوات الماضية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠) ١٫٧٢٪ علما بأنها لم تقل في مطلع الستينات (١٩٦٠ ـ ١٩٦٥) عن ١٫٩٩٪ ...... وانها لن تزيد على ١٫٥٪ في سنة ٢٠٠٠ وفق التقديرات العلمية الموثوقة .

ومعنى هذا أن مجموع سكان العالم البالغ حاليا (١٩٨١) ٤٫٤٩٥ الف مليون نسمة سيبلغ في نهاية القرن (سنة ٢٠٠٠) ٦٫١ الف مليون نسمة ... لا ٧٫٥ الف مليون نسمة كما أجمعت وأكدت التقارير السابقة ... والفارق بين المجموعين كبير (٢٠٪) ومن شأنه ان يبعث على شيء من التفاؤل أو على الأقل يحد من التشاؤم الذي كان سائدا في هذا الصدد حتى الأمس القريب .

وغني عن البيان أن ما ذكرناه من انخفاض في الزيادة التي تطرأ على مجموع سكان العالم انما يعزى الى نقص في زيادة عدد المواليد من جهة ، ونقص آخر في زيادة الوفيات من جهة أخرى .. وكلا النقصين مردهما الى التقدم الذي تم احرازه في التوعية الجماهيرية .. وذلك نتيجة برامج التعليم والاعلام الواسعة التي قامت وما زالت تقوم بها المنظمة الدولية وسواها . وقد ترتب على هذه التوعية اقبال على الأخذ باسباب تحديد النسل .. لا سيما بعد ظهور المبتكرات الفعالة الآمنة من وسائل منع الحمل .. وحسبك أن نصف النساء في العالم الثالث » كما يقول التقرير » قد فقدت الرغبة في انجاب مزيد من الأطفال وذلك نتيجة للتوعية التي ذكرنا .

ويذكر تقرير المنظمة الدولية أن مجموع الدول التي راحت تطبق برامج تحديد النسل تطبيقا جادا مثمرا بلغ ٥٩ دولة سنة ١٩٨١ ولم يزد على ٢٦ دولة سنة ١٩٦٩ .... والمقصود هنا البرامج التي تقوم بها هيئة الأمم أو وكالاتها المختصة والتي تتضمن فيما تتضمن توزيع المال على الدول الفقيرة تشجيعا لها ولمواطنيها على الأخذ باسباب تحديد النسل ...

وتأتي الدول الأسيوية في الطليعة في هذا الصدد .. تليها دول أمريكا اللاتينية فالدول الأفريقية .. ذلك أن عدد الدول التي احتضنت برامج تحديد النسل من مجموع الدول النامية الموجودة في تلك القارات كان

الزيادة في مجموع سكان العالم وانخفاضها المرتقب



يلاحظ أن هذه الزيادة ستظل في ازدياد حتى نهاية الفترة الحالية (١٩٧٥ ـ ٢٠٠٠) ... ويلاحظ أيضا أنها ستبدأ في الانكماش اعتبارا من الفترة القادمة (٢٠٠٠ ـ ٢٠٢٥)

كالتالي : ـ

آسيا ٢٢ دولة من أصل ٣٢ دولة

أمريكا اللاتينية ١٠ دول من أصل ٣٠ دولة

أفريقيا ١٨ دولة من أصل ٥٠ دولة

ويميز التقرير بين الدول الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وتلك الواقعة الى شماله فاللامبالاة ببرامج تحديد النسل على الرغم من الحاجة البالغة اليها ، انما توجد في فئة الدول الأولى لا في الفئة الثانية .. وهي دول المغرب العربي ..

• ويشيد التقرير بذكر كوبا باعتبارها الدولة الأولى بين الدول جميعا من حيث النتائج الباهرة التي احرزتها في تطبيق برامج تحديد النسل .. وقد نقصت الزيادة في عدد مواليدها بنسبة ٤٧٪ وذلك في غضون العشر سنوات التي توسطت الفترتين السالفتي الذكر فترة (١٩٦٥ ـ ١٩٧٠) وفترة (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠) .....

وتأتي الصين في المرتبة الثانية وقد بلغت نسبة النقص بين الفترتين المذكورتين ٣٤٪ ويذكر التقرير سبع دول أخرى تراوح نصيبها من النقصان المذكور فيما بين الفترتين السالفتي الذكر بين ١٥٪ و ٢٥٪ .. واثنتان من تلك الدول هي الشيلي وكولمبيا والخمس الباقية هي اسيوية الهند واندونيسيا وكوريا الجنوبية وماليزيا وتايلاند .. يلاحظ أن ليس بين هذه الدول السبع أية دولة أفريقية ....

• نكتفي بهذا القدر ونصرف النظر عما تضمنه التقرير من معلومات أخرى لا تقل أهمية عما ذكرنا .... وذلك بسبب ضيق المجال .

طبقة الاوزون مازالت أخذة في التناقص

● نشرت مجلة الابحاث الجيوفيزيائية Geophysical Research Letters في عددها الصادر في شهر ابريل الماضي تقريرا عن المخاطر التي تتعرض لها طبقة الاوزون الجوية ... وذلك بالاستناد الى آخر المعاينات والاحصاءات التي تم تسجيلها على مدى السنوات الأخيرة في شتى محطات الرصد والبحث العلمي العالمية .... وفي محطات أوربجون في القطب الجنوبي بصفة خاصة .

حقا لقد تنبه العلماء منذ مطلع السبعينات الى تلك المخاطر والى كون مادة الايروزول ومادة الفلوروكربون (١٢) في طليعة المواد التي تتهدد طبقة الاوزون بتلك المخاطر .... والمادتان المذكورتان تدخلان ـ كما هو معروف ـ في صنع عدد من المستحضرات الكيماوية التي يستعملها الانسان على نطاق واسع كمبيدات للحشرات ومستحضرات التجميل وتصفيف الشعر ... وهما تتصاعدان الى اعالي الجو وتتراكمان فيه ... وتعملان على الحد من كمية الاوزون في الجو ... الا ان العلماء لم يعرفوا في السابق الكمية المتراكمة من هاتين المادتين واشباهما ولا مدى النقصان الذي يتعرض له غاز الاوزون الذي يلف الكرة الارضية كحزام واق على ارتفاع يتراوح بين ١٥ ـ ٤٠ كيلو مترا

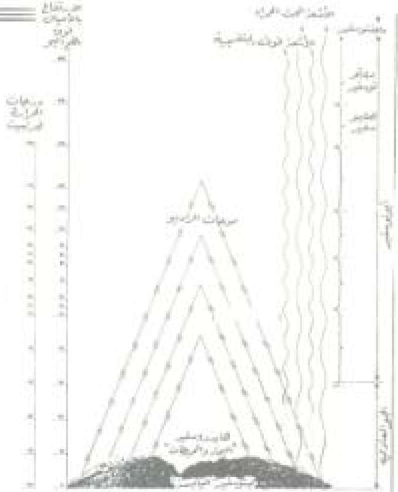
أما الآن فقد دلت الاحصاءات والمعلومات الجديدة على ان كمية الايروزول والفلوروكربون (١٢) المتراكمة في الجو قد تضاعفت ثلاثة أضعاف في غضون السنوات العشر (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠) وان كمية الاوزون الموجودة على ارتفاع ٤٠ كيلو مترا قد نقصت بنسبة ٥٪ في سنة ١٩٧٨ عما كانت عليه سنة ١٩٧١ .

وقد يؤدي تناقص الأوزون هذا ـ اذا استمر الى تسرب المزيد من أشعة الشمس الضارة ـ لا سيما الأشعة فوق البنفسجية ، الى طبقة الاكوسفير .. وهي الطبقة الجوية التي تؤوي الحياة بكافة صورها ، والتي تقع فوق سطح الأرض مباشرة .

ولو حدث ذلك لترتب عليه في المدى القريب انتشار عدد من الأمراض الخطيرة ، سرطان الجلد مثلا .... وأدى في المدى البعيد الى القضاء التدريجي على الحياة بكافة صورها واشكالها .

وتجدر الاشارة الى أن الولايات المتحدة وكندا وكذلك السويد والنرويج والدانمرك قد حظرت منذ سنوات انتاج مادة الايروزول والفلوروكربون (١٢) ، فضلا عن حظر استعمالها.... وذلك بدافع حماية البيئة من التلوث ... علما بأن هذه الحماية لا سبيل اليها ما لم تنتشر اجراءات منع الخطر التي ذكرت وتعم دول العالم جميعا ...

غلاف الأرض الجوي
وموقع الاوزون منه



بقي أن نذكر أن الاوزون ضرب من الاوكسجين .. ولكنه ثقيل ، أثقل من الأوكسجين العادي بمرة ونصف .

ويصطلح عليه برمز O_3 نظرا لأنه ثلاثي البنية : Allotropic ويحتوي الجزيء الواحد منه على ثلاث ذرات .

على أنه غاز سام وقابل للانفجار... لونه ازرق باهت ... وهو سبب الرائحة التي نشمها في اعقاب العواصف الرعدية وكذلك فيما حول المعدات والمحولات الكهربائية .....

على أن الاوزون يمكن انتاجه صناعيا أيضا وذلك بتعريض تيار من الأوكسجين العادي لشحنة كهربائية ... وله استعمالات صناعية عديدة نذكر منها تبييض المركبات العضوية ... وابادة الجراثيم ... وازالة الرائحة الكريهة والطعم المنفر... هذا الى جانب تعقيم مياه الشرب ..

اذا ..

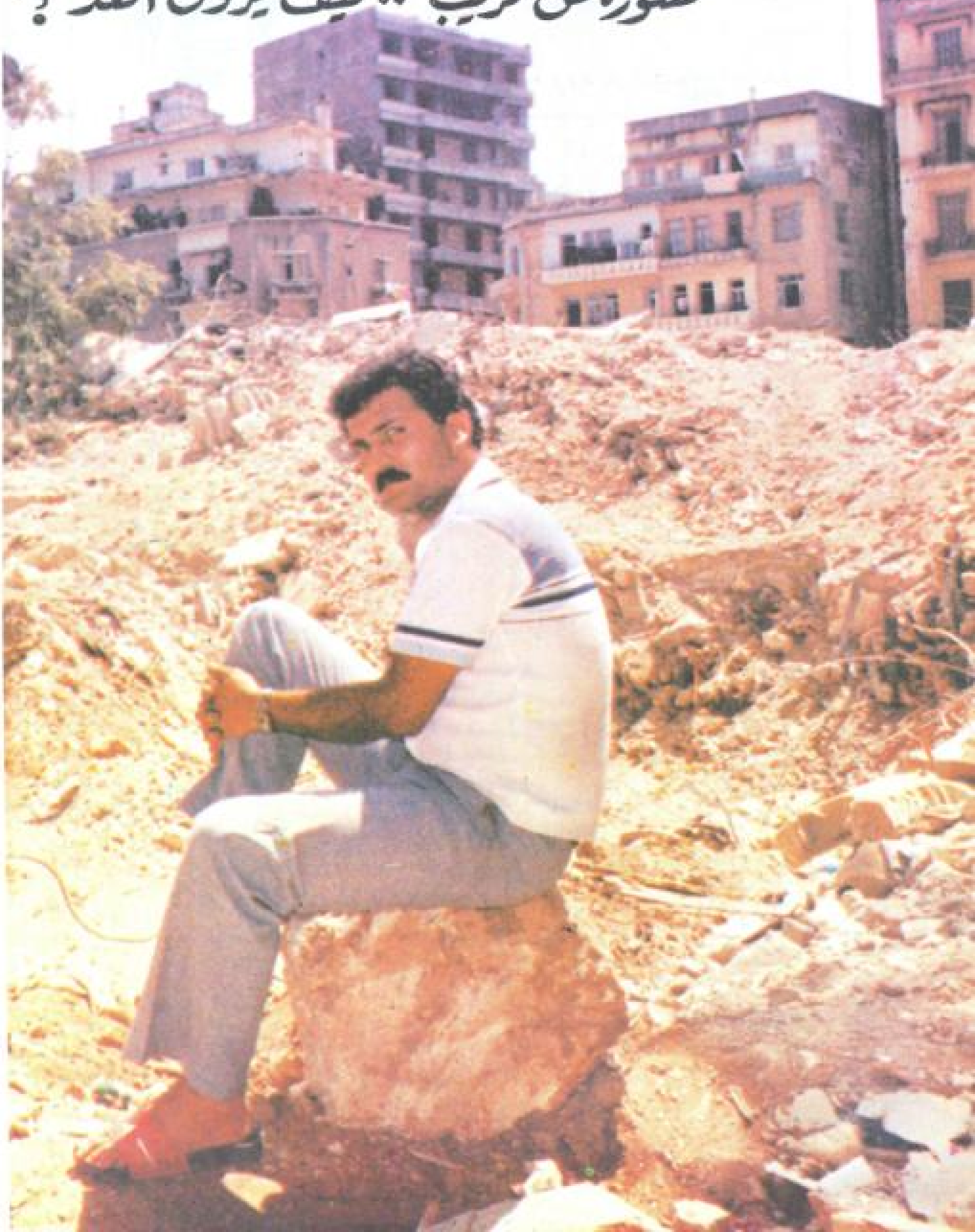
قصيدة رود يارد كبلنج الخالدة

ترجمة : الدكتور صفاء خلوصي

اذا استطعت ان تحتفظ برأسك عندما يفقد كل من حواليك
رؤ وسهم وينحون عليك باللائمة ،
اذا وثقت بنفسك عندما يفقد كل انسان ثقته فيك ،
وتترك مع ذلك مجالا للشك ،
اذا استطعت ان تنتظر دون ان تمل الانتظار
او أن يعاملك الأخرون بالكذب من دون ان تلجأ اليه
او تكون موضع كراهية ، ولكنك لا تدع لها مجالا للتسرب الى نفسك ،
ولا تبدو أفضل مما ينبغي ، ولا تتكلم بحكمة اكثر مما يجب .
اذا استطعت ان تحلم ، ولا تدع للأحلام سيادة عليك ،
اذا استطعت ان تفكر ، ولا تجعل الافكار غايتك القصوى ،
اذا استطعت ان تجابه الفوز والفشل
وتعامل هذين المخاتلين الخادعين على حد سواء ،
اذا استطعت ان تكدس كل ما تملك من ارباح
وتغامر بها دفعة واحدة
وتخسرها جميعا ثم تبدأ من جديد ،
من دون ان تنطق بكلمة واحدة عن خسارتك ،
اذا استطعت ان تخاطب الجماهير من غير ان تتخلى عن فضائلك ،
وان تسير في ركاب الملوك من دون ان تفقد مزاياك المعتادة ،
اذا عجز الاعداء والاصدقاء والمحبون عن اثارة حفيظتك بايذائهم اياك ،
اذا كان الناس كلهم عندك سواسية ، من دون ان يكون لأي منهم اهمية خاصة
اذا استطعت ان تملأ الدقيقة الغاضبة التي لا تغفر لأحد
بما يعادل ستين ثانية من السعي ركضا ،
فلك الارض وما عليها ،
وانت ، فوق ذلك كله ، ستكون رجلا ، يابني !! .. ■■

بيروت .. بعد

صورة من قريب .. كيف يرون الغد ؟



المذبحة



استطلاع : منير نصيف   تصوير : طالب الحسيني

عاشت العربي أياما في قلب بيروت .. شهدت آثار الجريمة البربرية التي دبرها الاسرائيليون لابادة شعب واحراق مدينة ودفن أطفالها ونسائها ورجالها أحياء ... ثم كانت هناك مع الألوف الذين وقفوا يستقبلون ويودعون مواكب الأبطال .

بناية « عكر » أو ما تبقى من طوابقها الثمانية .. أكوام من الحطام والركام . تصور العدو أن ياسر عرفات يقيم فيها ، فدمروها بالقنابل ودفنوا سكانها أحياء ٢٥٠ قتيلا ، من بينهم ثلاثون ينتمون لأسرة واحدة .

« تحررنا من عقدة الذنب ، فقد فعل الاسرائيليون بالعرب في لبنان أكثر مما فعله النازى بهم ! »

بيتر هانز
مدير تحرير مجلة شتيرن الالمانية

كان لقاؤنا بالجحيم وجها لوجه وسط أنقاض المدينة التي كانت .. جئنا اليها بعد رحلة شاقة طويلة من دمشق الى بيروت بالسيارة .. حقيقة لم نعش المأساة التي أدمت قلوب ومشاعر الجماهير في العالم القريب والبعيد .. كنا بعيدين عنها ولكن ايضا كنا قريبين منها نتمزق مع كل رصاصة تنطلق .. مع كل جريح ومشرد وجائع في لبنان الجريح .

لقد دمروها .. أحرقوها .. ذبحوا أهلها .. قطعوا الشرايين التي تحمل اليهم الحياة .. ولكنهم أبدا لم يقهروها . لم تركع بيروت ، فقد وقفت صامدة كما وقفت دائما خلال الأسابيع الطويلة التي لفها الظلام والموت والدمار ..

وصلنا اليها بعد ثمانين يوما أو أكثر أو أقل من بداية العدوان الوحشي الذي شنته اسرائيل على جنوب لبنان ، الدولة الصغيرة ، أصغر الاقطار العربية مساحة وأجملها . عشرة آلاف كيلومتر مربع تضم بين جبالها وسهولها ثلاثة ملايين نسمة ، هم كل سكانها ولكنهم اختاروا بقعة معينة في العاصمة التي تشرف على البحر في هذا اللقاء الأبدي بين الماء والارض . غرب بيروت كان هدفهم بعد أن اجتاحوا جنوب لبنان ومزقوه لأنه يأوي « العدو » الذي يريدون أن يتخلصوا منه .. أصحاب الأرض الذين سلبوها واغتصبوها .. « لماذا لا تجرب إبادتهم . لماذا لا نحاول أن ننفي هذه الاسرة التي بدأ العالم كله يسمع صوتها وهي تدق على الباب بقوة .. أن اخرجوا فهذا بيتنا وأنتم فيه غرباء ؟ ! »

بلد ذبحوا أهله

وجاء المغتصبون بكل ما عندهم من أسلحة الموت والدمار .. ثماني فرق اسرائيلية مدرعة (٩٠ ألف جندي) شاركت في المذبحة التي وقف العالم كله أمامها في ذهول هل يمكن أن يحدث هذا في القرن العشرين .. بلد يذبحون أهله ، وتمضي الاسابيع الطويلة قبل أن يستيقظ الضمير العالمي وتمتد الأصابع ولكن من بعيد ، لتقول لهم كفوا ، فهذه ليست معركة ضد المقاتلين الفلسطينيين كما تزعمون ، ولكنها حرب إبادة . وكان للصحافة « الغربية » الفضل الأول في فضح أبعاد المجزرة البشرية ، وهي تنقل صور الاطفال والنساء والشيوخ الذين احترقوا بقنابل إسرائيل حتى الموت .. فقد كان مراسلوها في لبنان كله منذ اليوم الأول للجريمة المدبرة !

ووجدنا أنفسنا ونحن نقف أمام اكوام الحطام والركام الذي يحيط بنا من كل صوب نقارن بين صمود بيروت أمام الغزو والحصار الاسرائيلي ، وصمود ستالنجراد في الحرب العالمية الثانية امام ألمانيا النازية ولكن صمود المدينة العربية كان أعظم وأطول . ستالنجراد صمدت ستين يوما خرج فيها كل رجل وامرأة وطفل يحملون السلاح ويقاتلون جنود النازي من بيت إلى بيت .. فقد كان الاتحاد السوفيتي وألمانيا النازية في حالة حرب معلنة ولكن صمود بيروت استمر ٧٨ يوما ، ولم يكن عدد المقاتلين فيها يزيد على بضعة آلاف رجل وبأسلحة تقليدية محددة إذا ما قورنت بما يحمله العدو من أحدث ما توصلت إليه مصانع الأسلحة الامريكية في مجال القتل والدمار . وأكثر من هذا



وسط الركام والحطام .. مشت الأم وابنتها .. ولكن الى أين ؟ رحلة مع ذكريات أليمة لا تنسى !

فقد كانت بعض أنواع القنابل التي ألقتها الطائرات الاسرائيلية على بيروت تستخدم لاول مرة ، وهي القنابل « التفريغية » ... وهكذا كانت بيروت حقلا للتجارب .. لم يتركوا شيئا لم يقذفوه بقنابلهم وصواريخهم حتى المستشفيات التي تحمل الهلال والصليب .

الا الابطال

كان كل شيء في بيروت يبكي ، إلا أهلها .. وإلا الأبطال الذين صمدوا وبنوا باجسادهم هذا الجدار الحديدي الذي وقف الاسرائيليون أمامه عاجزين عن التقدم شبرا واحدا داخل المدينة المحاصرة .. المباني التي انهارت فوق سكانها فتحولت إلى قبور تحوي ألوف القتلى الذين دفنوا أحياء . كانت تبدو أمامنا وكأن الدموع تسيل من فوق أطلالها .. الشوارع والطرقات والأزقة الضيقة التي دمرتها الصواريخ ، ثم أكوام القمامة التي كانت تتراكم وترتفع وترتفع حتى صارت تلالا عالية من القاذورات والأوساخ والركام وقد عششت فيها الفئران والقطط في ألفة وكأنها تشعر بما هي فيه من خطر يهدد بقاءها .. في كل هذا رأينا الدموع .. في السهل والجبل .. وحتى عندما رفعنا أبصارنا تتطلع إلى السماء فوق رؤوسنا .. كانت هي أيضا تبكي في أول يوم للقائنا بالمدينة الباسلة فقد هطلت الأمطار في الصيف ، في غير موسمها .. وكأنها تريد أن تكفر عن خطيئة لا ذنب لها فيها عندما حلت إليهم بالأمس الموت والخراب والدمار .

القصة من أولها

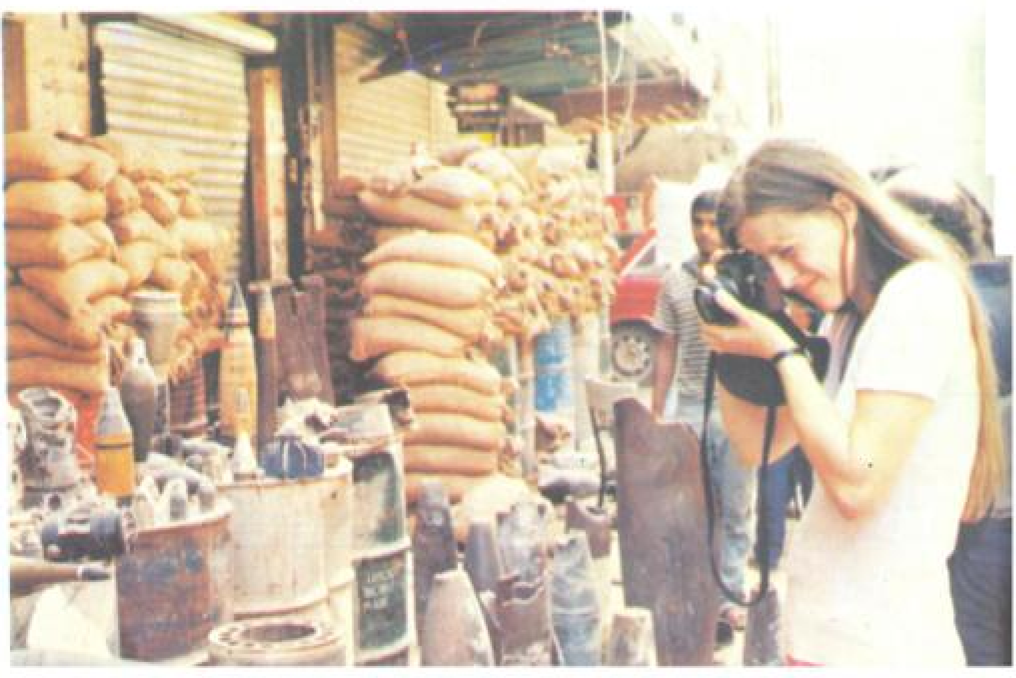
ولكن متى وصلنا ؟ ومتى كان اللقاء وكيف ؟ ونعود الى الرحلة من بدايتها .. الرحلة التي نحاول ان ننقلها في هذه الصفحات الصغيرة ... من دمشق عاصمة سوريا الشقيقة التي جئنا اليها قادمين من الكويت ، بدأنا رحلتنا بالسيارة التي انطلقت بنا ـ زميلي مصور العربي وانا ـ ، وقال سائق السيارة السوري : « الرحلة طويلة وشاقة ولا اعني بطولها المسافة التي تفصل بين دمشق وبيروت ، فهي لا تزيد على المائة كيلومتر ، كنا نقطعها في الماضي في اقل من الساعة ونصف الساعة ، اما الآن وبعد الذي حل بلبنان فقد تستغرق الرحلة ست او سبع ساعات .. المهم ان تحتفظوا بهدوء اعصابكم .. الاسرائيليون منتشرون على حدود لبنان ، والالغام ايضا مدفونة تحت الارض . لقد اقامت اسرائيل عدة مراكز للتفتيش على الطريق الدولي المؤدي الى العاصمة اللبنانية ... انهم يفتشون كل شيء يتحرك وكل شخص داخل الى المدينة ، هذا اذا سمحوا له بالدخول ! » .

ومضينا في رحلتنا ، وعلى الطريق داخل الاراضي السورية وقبل ان نبلغ الحدود اللبنانية كان لقاؤنا الاول بموكب الابطال العائدين الى وطنهم الثاني سوريا ... ابطال المقاومة الفلسطينية الذين تحدثت صحافة العالم كله عن صمودهم وبطولتهم . كانوا في سيارات النقل الكبيرة العسكرية ... الفوج الثالث الذي يصل بطريق البر الى





وجوه بريئة تبحث عن شيء .. أي شيء وسط الأنقاض ، لا يمت الى الحياة بصلة .. بيروت الغربية كلها أصبحت ركاما ودمارا .. وصحفية امريكية (تحت هذا الكلام) تسجل بعدستها بعض أنواع أسلحة الدمار .. القنابل والصواريخ التي استخدمها الاسرائيليون في مذبحتهم وقد نقلوها من قلب الحطام الى هذا المكان الذي حولوه الى « معرض » لأسلحة الموت ، قنابل فوسفورية وعنقودية وقنابل نابالم وقنابل تستخدم لأول مرة ، في هذا « الحقل للتجارب » !





وحده وسط الأنقاض والدمار . . إنه لا يعرف أين ذهب كل الذين أحبهم . . ماذا حدث للدنيا من حوله . . ما ذنب هؤلاء الأبرياء الذين شردهم العدو المجنون ؟

دمشق . بدوا عمالقة في ثيابهم العسكرية واسلحتهم المرفوعة وهم يردون تحية الالوف من ابناء سوريا وفلسطين الذين خرجوا لاستقبالهم على بعد عشرات الكيلومترات قبل الدخول الى دمشق : كانوا يصطفون على جانبي الطريق . . . الأطفال والنساء والرجال . . وابطأت السيارات في مسيرتها وقفز المستقبلون اليها ،

الذين عاشوا المأساة . . والذين كتبت لهم الحياة مع الألم والحزن قد يعتبون علينا لأننا لم نضع أمام القارىء الصورة التي رأيناها وسجلناها للمئات من الجرحى والمشوهين . . اطفالا ونساء ورجالا . . صورة تقشعر لها الأبدان . . لكننا أشفقنا على القارىء فاخترنا أقلها ايلاما . . ومع هذا فلا نظن أن أحدا سوف يخطىء من خلالها وجه بيروت الذى أدماه العدو بقنابله المحرقة ونزفت منه الدماء حتى الموت !

وكان العناق طويلا حارا تحت علمي فلسطين وسوريا وبين الايدي المرفوعة بعلامة النصر .

ولم يكونوا وحدهم ، كانت ترقبهم وتسجل لقاءاتهم عشرات الكاميرات وآلات التصوير السينمائي التي حملها الصحفيون الذين جاءوا من مختلف العواصم الغربية والشرقية ليسجلوا الحدث بالصورة والكلمة . . . ولم تكن هزيمة كما اراد الاسرائيليون ان يصوروها . . . بل كانت نصرا . . . ان المقاتلين الابطال لم يتركوا بيروت مهزومين وانما تركوها ليجنبوا اهلها مزيدا من الموت والدمار . خرجوا من بيروت شفقة ورحمة بها وباطفالها ونسائها وشيوخها ! ولم تكن الصورة التي جاء الصحفيون والمصورون الاجانب والعرب لتسجيلها صورة نعوش محمولة على الاكتاف كما ارادتها اسرائيل ، ولكنها كانت صورة ابطال عجزت كل اسلحة الدمار التي استخدمها العدو عن ان تعجزهم .

اسرائيل تعترف

في هذا المعنى يعترف الكاتب الاسرائيلي هـ . ايش في مقال نشرته صحيفة « يدعوت احرونوت » بالهزيمة التي حلت باسرائيل ، فقد كتب يقول تحت عنوان : « هل خسرنا الحرب في لبنان ؟» « نعم هذه الحرب خسرناها

بشريا وخسرناها عسكريا والخسارة العسكرية موجهة بشكل خاص وذلك للسبب نفسه الذي اوقفت من اجله كل جيوش العالم في نقطة جغرافية معينة لا تستطيع هذه الجيوش ان تحتلها دون خسائر كبيرة جدا ، ولولا الخوف من المعارك ، هذا الخوف الذي تأكد بالقتال من بيت الى بيت في مخيمات اللاجئين في صيدا وصور ، لكانت حكومة اسرائيل قد قررت منذ زمن ان تدخل بيروت .

ثم يقول : « ولا يوجد في الحرب تعادل . ان من لا ينتصر في الحرب فهو خاسر ، ونحن لم نتغلب على منظمة التحرير الفلسطينية عسكريا ، لذلك فقد خسرنا . فلو ان منظمة التحرير الفلسطينية هربت او ان مقاتليها تبعثروا كما توقعت دوائر حكومية رفيعة عشية دخولنا الى بيروت الشرقية ، لكان النصر لنا ، ولكن مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية لم يهربوا بل تحصنوا في المدينة يقاتلون فيها وهذا موجع لنا . ان خسائرنا . . . في حرب لبنان جعلت من الضروري ان تبدأ الآن بتغيير اسمها حيث اصبحت في الحقيقة حرب بيروت ، وهي تزيد في بعدها الاستراتيجي على فساد حرب الغفران زيادة كبيرة . لقد اصيبت في حرب يوم الغفران مقدرة الردع لدى جيش الدفاع الاسرائيلي ولكنه ثبت بهذه الحرب عدم قدرته على الحسم النهائي » الى ان يقول : « وفوق هذا كله ففي ظل الحصار العسكري تبرز الخسارة السياسية ، لقد خرجت حكومة اسرائيل الى الحرب الاسرائيلية الفلسطينية لكي تهزم البنية القيادية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ولكن المنظمة خرجت من هذه الحرب قوية جدا ومكللة بالمجد والثناء العربي والعالمي . . . وزادت تأثيرا كما لم تكن ابدا . انظروا كل الحضارة تحبس انفاسها لتسمع ما يتفوه به ياسر عرفات . والادعاء الفلسطيني بحق الحصول على وطن اصبح مقبولا اليوم عند كل حكومات العالم الغربية ، من هولندا الى كندا » .

على حدود لبنان

ونعود الى رحلتنا نكملها الى بيروت . . . لقد وصلنا الى آخر نقطة على الحدود السورية . . وودعونا متمنين لنا التوفيق ، ثم مضينا الى الحدود اللبنانية . . وكان التدقيق والتفتيش والبحث في جوازات السفر عن تأشيرة الدخول ثم اسئلة كثيرة حول الهدف من دخولنا والى اين نحن ذاهبون ؟ واخيرا « الا تخشون ان تتجدد الحرب ؟ » .

قلنا : « وهل كانت حربا ؟ » .

قالوا : « طبعا هي حرب ، هل عندكم وصف آخر



جد وحفيدته أمام الدمار في المدينة التي كانت . . قال الجد : « ليتني لم أعش لأرى هذا اليوم . مساكين أبناء هذا الجيل ! » ثم أشار بيده الى حفيدته التي لم تتجاوز الثانية عشرة !


20





(الى اليمين فوق) في مستشفى « اللاهوت » الذي امتلأ بضحايا العدوان الوحشي .. الدكتور بول الجراح الانجليزى مع طبيبة سويدية .. « لن تترك بيروت قبل شفاء كل الحالات التي تشرفُ على علاجها » .



ابراهيم وإيمان الفقير اصيبا بحروق في كل اجزاء جسميهما أثناء القصف الاسرائيلي لمنطقة الرديس شرقي مخيم برج البراجنة .. وبدأت إصاباتهما تقترب من الشفاء .. انهما ينتظران أمهما التي ستأتي لتعود بهما الى البيت ! ولكن الأم قتلت وكذلك الأب وتهدم البيت وهما مازالا ينتظران . (الى اعلا والى اليسار)

« هنادى » أصغر المصابين سنا لم تكمل عامها الثاني بعد .. أصيبت بكسور مضاعفة في كلتا ساقيها .. انها لا تعرف لماذا لم تعد قادرة على اللعب مع اصدقائها الصغار .. انها لا تكاد تراهم عندما يأتون لزيارتها في المستشفى حتى تنفجر باكية .. في عينيها الصغيرتين المأساة في أبشع صورها . (الى اليمين)

لها : لقد كانت حربا لاناقة لنا فيها ولا جمل !! »

قلنا : بل كانت مذبحة او حرب ابادة . كانت شيئا لم نسمع عن مثيل له قبل اليوم !

وتصورنا اننا دخلنا الاراضي اللبنانية بعد ان تركنا السيارة السورية ، قبل بلوغ الحدود وانتقلنا الى سيارة أخرى لبنانية !*

ثم كانت المفاجأة عندما توقف بنا السائق وقال : « هنا نهاية المطاف ! » ومرت بضع دقائق قبل ان ندرك اين نحن . لقد وصلنا الى نقطة الحراسة الاسرائيلية . وكانت تضم قوة من الجنود الاسرائيليين الذين ينتشرون امام بيت فخم يملكه احد اللبنانيين الاثرياء في سهل البقاع .. ولكن احدا لا يعرف اسم صاحبه !

لغة اخرى

ونزلت من السيارة احمل جواز سفري وجواز سفر زميلي المصور ، والبطاقات الصحفية التي تقول انني انتمي لعدد من النقابات الصحفية العالمية ... وقابلت « الكابتن » وهو يهودي فلسطيني ، يتحدث العربية بطلاقة ولكنه يتعمد خلطها بكلمات انجليزية وفرنسية حتى يوحي لمن يتحدث اليه انه رجل مثقف ! ومع هذا فهو لم يستطع ان يخفي حقيقة شخصيته .. لقد كان مهرجا !

وشرحت له مهمتنا ولكن باسلوب آخر يختلف طبعا عن الواقع . « بلغة » أخرى لا يخطئها وحركة الكلام الذي قلته له وجاء معي الى السيارة التي تقلنا يرافقه اثنان من الجنود الاسرائيليين . وكانا يتحدثان العربية ايضا احدهما يهودي ولد وعاش في المغرب قبل ان يأتي الى ارض « الميعاد » !

وقام الاثنان بتفتيش دقيق للحقائب والصندوق الذي يحوي آلات التصوير وأخيرا السيارة نفسها وتوقعنا ان تنتهي المشكلة ويسمح لنا بالدخول . ولكننا فوجئنا « بالكابتن » يقول : « انا لا استطيع ان اتحمل مسؤولية دخولكم الى لبنان الان .. هناك قتال عنيف يدور بين الاسرائيليين « والمخربين » وهي الصفة التي يطلقونها على المناضلين الفلسطينيين !! وقد تموتان ! »

قلت : « لم نسمع عن قتال جديد ، ثم نحن لا نخاف الموت ! »

ودار حوار طويل ما لبث ان انتهى بالسماح لنا بالدخول تاركين وراءنا مئات السيارات التي تحمل العائدين من ابناء لبنان الذين هجروا بيوتهم هربا من المذابح الاسرائيلية !



لابد للحياة أن تستمر .. وفي شارع الحمراء تحولت الارصفة الى متاجر صغيرة يبيعون فيها كل شيء من رغيف الخبز الى وقود السيارة .

الواقع افظع

وبعدها ، وعندها فقط كانت بداية اللقاء مع آلام وأحزان بيروت .. كنا كلما تقدمنا وجدنا أنفسنا نصيح في السائق : « قف ! » وتتوقف السيارة وتنزل لنقف ونتأمل الدمار الذي يحيط بنا وكأننا نراه لأول مرة .. لقد شاهدنا مئات من الصور في الصحف الأجنبية والعربية وعشرات من الافلام التي نقلتها الينا الشاشة الصغيرة في التلفزيون وقرأنا مئات الألوف من الكلمات التي امتلأت بها اعمدة الصحف العالمية في وصف ابشع جريمة ترتكب في القرن العشرين وبالرغم من هذا كله فقد شعرنا ان الواقع افظع بكثير من كل محاولة لنقله بالصورة او بالكلمة او بالاثنين معا !

لقد دمر هتلر لندن ، ولكن دمار بيروت كان ابشع .. ودمر الحلفاء برلين .. ودمر الامريكيون هانوي .. ولكن الدمار هنا كان اشد واقسى .. ربما كانت هيروشيما بعد قصفها بأول قنبلة ذرية في الحرب الثانية اكثر المدن المدمرة شبها ببيروت الغربية بعد ثلاثة اشهر تقريبا من القصف الجوي والبري والبحري الذي صمد امامه المقاتلون الابطال والمدنيون الابرياء العزل من السلاح الذين ظلت القنابل والقذائف والصواريخ تلاحقهم في البيوت والشوارع وحتى في المخابيء والمستشفيات التي لجأوا اليها وعاشوا في ظلامها بلا ماء ولا غذاء ولا دواء !

ووصلنا الى الفندق اخيرا ، وكانت الشمس قد اوشكت على الغروب .. ان كل فنادق بيروت وهي محدودة الان لا تزيد على اربعة او خمسة فنادق بعد الخراب والدمار الذي اصاب معظمها قد امتلأت بالنزلاء .. ومعظمهم او كلهم من الصحفيين العالميين وقلة من الصحفيين العرب ، وعدد كبير من المراسلين الامريكيين الذين اتخذوا من فندق « الكومودور » مقرا ومركزا لهم ، واستطاعوا الابقاء فيه على شبكة اتصال دائم بالخارج .. التلكس يعمل عندهم والهاتف الآلي ايضا لم يتوقف يوما واحدا حتى عندما كانت بيروت تحترق ! وغير مسموح لأحد باستخدامه الا باذن خاص منهم !

وفي غرفتينا بالفندق جلسنا نعد برنامج العمل وساعدنا مدير الفندق على استئجار سيارة خاصة بنا ، فهذه ايضا مهمة شاقة لان الوقود غير متوفر ... فهو يصل اليهم من بيروت الشرقية التي مضت الحياة تسير فيها سيرا طبيعيا طوال ايام الحصار والقصف الدموي المجنون . وكأنها مدينة اخرى في منطقة بعيدة لا تربطها ببيروت الغربية التعسة اية صلة ! ويبلغ ثمن جالون الوقود اكثر من اربعين ليرة لبنانية !

وفجأة سمعنا دوي الرصاص .. في البداية كانت الطلقات متقطعة ، ولكنها ما لبثت ان ازدادت وتلاحقت

هكذا اصبحت معظم أحياء بيروت الغربية بعد الدمار والمذابح التي راح ضحيتها عشرات الألوف .





مرفت « ثماني سنوات » قطعوا ساقها اليمنى بعد اصابتها أثناء القصف الاسرائيلي المفاجىء لمدرستها . . والى (اليسار) ميلاد « ٧ سنوات » مع طبيبه وقد تبرع مواطن كويتي بعلاجه على نفقته في الخارج .





خط المواجهة بين المقاتلين الفلسطينين الابطال وجيش العدو الاسرائيلي . . بين بيروت بقسميها الغربي والشرقي . . هنا دارت اعنف المعارك . . لقد وقف المقاتل الفلسطيني أمام العدو عملاقا لا يهاب الموت . ▼



. . . واسرعنا بالنزول الى بهو الفندق نستطلع الامر . . ربما كان هناك قتال جديد . . ولكن ضد من ؟

ما بعد الحريــق

وكانت المفاجأة الثانية عندما وجدنا الكل من حولنا مشغولا بشيء آخر غير الانصات الى دوي الرصاص وكأن شيئا مما يحدث في الخارج لا يعنيه في قليل او كثير . . . كان معظمهم من اللبنانيين والفلسطينيين وبعض الصحفيين العرب الذين سبقونا في المجيء الى بيروت بعد ان خمدت النيران وارتفعت سحب الدخان في سماء المدينة معلنة اطفاء « الحريق » ولو مؤقتا »!

ذهبنا نسأل احد الاخوة الزملاء : « ما هذا ؟ لماذا يطلقون الرصاص ؟ » وضحك صاحبنا للسؤال الساذج ، وقال : « بعض الشباب يلهو . . يجب ان تعتادوا على دوي الرصاص . . هكذا كانت الحياة في لبنان منذ سنوات . . . اذا توقف هذا الدوي الذي تسمعونه ، فمعنى ذلك ان شيئا غير عادي قد حدث ! ».

وقلنا ونحن نعود الى غرفنا ، ما دام الرصاص لن يصل الينا . فلماذا لا نجرب النوم ونمنا ، فقد كان يوما مرهقا حافلا بالاحداث . وفي الصباح ، رأينا البندقية والمدفع الرشاش والمسدس ، وكل انواع الاسلحة . . انها هناك في كل يد وعلى كل كتف . . كلهم يحملون البنادق السريعة الطلقات والبطيئة الطلقات . . كلهم يسيرون بأسلحتهم في الشوارع ، ويبيعونها لمن يستطيع ان يدفع . وكلهم يطلقون الرصاص في الهواء ، وفي كل اتجاه . . في كل ركن . . في كل شارع . . لقد اصبح لبنان كله يحمل السلاح . . ولكن مع من ، وضد من ؟ لا احد يدري ، ولا حتى الذين يحملون السلاح انفسهم !

مع ضحايا المذبحــة

كانت وجهتنا في أول يوم نمضيه في بيروت المستشفيات التي تأوي الجرحى والمصابين الذين احترقوا في جحيم بيروت . . في العنبر الكبير بمستشفى اللاهوت طالعتنا الصورة . . إنها ليست غريبة علينا ، فقد احسسنا ونحن نقف أمام هؤلاء الأطفال الأبرياء أننا نعرفهم ربما لا نعرف أسماءهم ، ولم نكن قريبين منهم كما نحن الآن في هذه الساعة . . ولكننا رأينا صورهم في الصحف من قبل .

هذه أصغر المصابين سنا . . لم تتجاوز العام الثاني من عمرها ، اسمها « هنادي » أصيبت بكسور في ساقيها



المهندس سليمان يوسف بلوط . . قتل الاسرائيليون كل أسرته عندما ألقوا قنابلهم « التفريغية » فوق بناية « عكر » . . وعاش هو ليروى جانبا من مأساة بلد ذبحوا أهله . .

ورفعوا الساقين وبقي رأسها وكتفاها على الفراش .. ابتسمت عندما رأتنا نقترب منها ونداعبها ، لكنها بكت لما أحست بضوء الكاميرا أمام عينيها .

واقترب منا الدكتور بول ، وهو انجليزي جاء مع الصليب الأحمر الدولي من مستشفى جامعة لندن ، ورحب بنا ، وقال : « خذا أية صور تريدانها ، فقط ارجوكما أن تترفقا بالاطفال إنني لا أحتمل سماع بكاء أي طفل منهم وخاصة هذه الصغيرة التي مضى عليها أكثر من خمسة أسابيع في المستشفى .. وبقي معنا .. لقد كان صديقا لمرضاه الأبرياء الصغار برغم أنه لا يتحدث لغتهم .. ومع هذا فقد بدوا وكأنهم يفهمون تماما مايريد أن يقوله لهم ، لأنهم يحبونه .

وعلى فراش آخر كانت ترقد الطفلة مرفت .. كانت في مدرستها مع مئات الاطفال مثلها عندما قامت اسرائيل باحدى غاراتها الوحشية ، وألقت قنابلها على المدرسة في « برج البراجنة » وأصيبت مرفت مع العشرات من زميلاتها وزملائها الاطفال الذين حملهم الاهالي الى المستشفيات والدماء تنزف من جروحهم والحروق تأكل اجسادهم .. وكانت اصابتها بالغة في ساقها فاضطروا الى بتر الساق ، وكانت مرفت تبتسم ، وترفع اصابعها الصغيرة بعلامة النصر .

سوف تعيش مرفت .. ولكن هل تنسى اليوم الذي فقدت فيه إحدى ساقيها وكيف فقدت هذه الساق ؟ !

ومع الطفل ميلاد وقف الدكتور بول يتحدث طويلا .. كان حديثا صامتا أو لغة يفهمها الاثنان بلا كلام ، استطعنا أن نفهم بعضا منه عندما ارتسمت على وجه الطفل الشاحب ابتسامة باهتة ، ثم راح يصلح من جلسته قبل أن ترتفع الكاميرا لتلتقط له صورة وهو راقد على فراشه . عندما نقلوا ميلاد الى المستشفى كان بين الحياة والموت فقد كانت إصابته خطرة نتيجة الجروح البالغة التي تعرض لها على أثر انفجار قنبلة عنقودية .. وساءت حالة ميلاد وأوشك على الموت عندما قطع الاسرائيليون الماء والغذاء عن غرب بيروت .. إنه لا يعرف حتى الآن أن أمه وشقيقته قد قتلتا في الانفجار ولكن مواطنا كويتيا عرف بقصته تعرض على الدكتور بول أن يتكفل بنفقات علاجه الطويل في أي مستشفى في الخارج .

والسيدة كلثوم أحمد (لبنانية) لا تعرف أن لا أمل في شفاء ساقها التي اصيبت بنفس الحروق التي اصابت الطفل

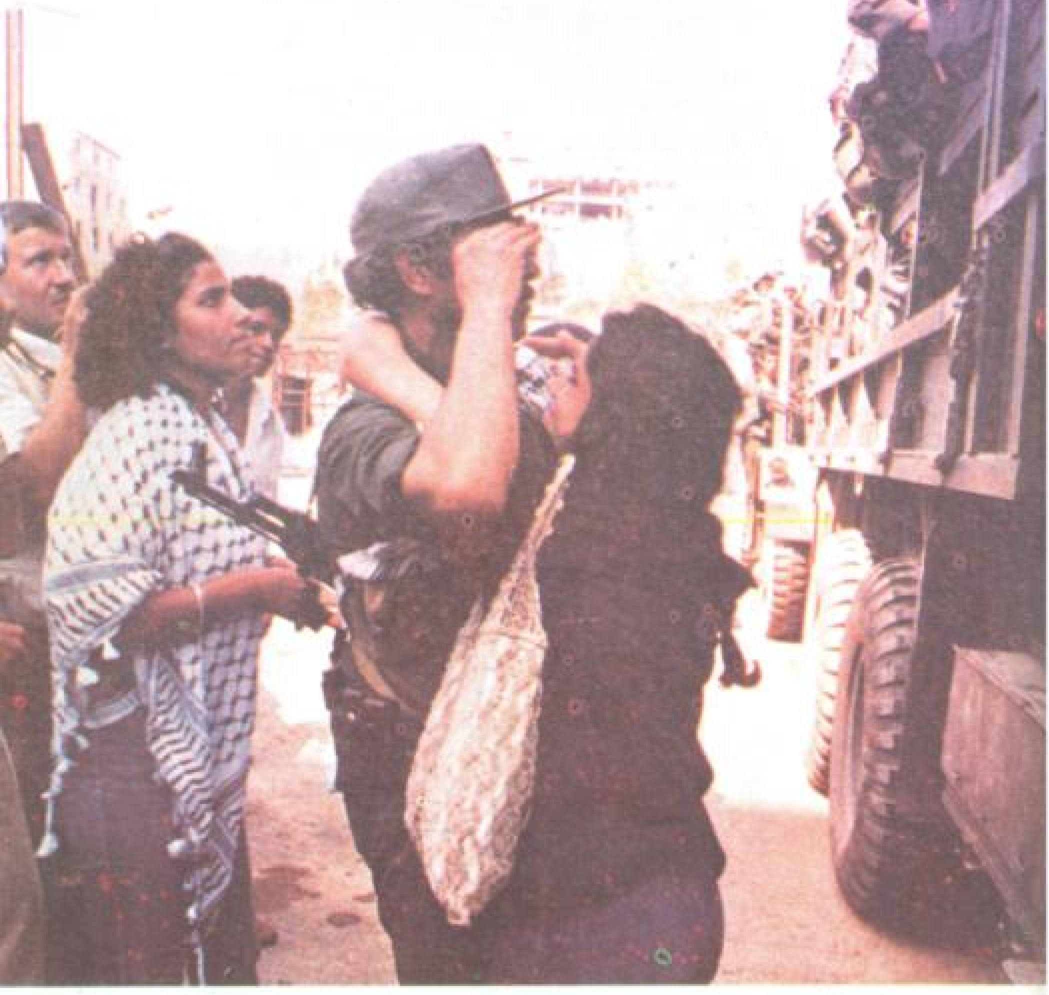


قطعوا ساقه .. ولكنه لا يعرف أين ولا كيف ولا متى أصيبت هذه الساق في بداية القصف الاسرائيلي . لم يعد له أحد يسأل عنه .. وهو لا يريد أن يترك المستشفى ويواجه الدنيا وحده وبساق واحدة !



لحظة الوداع في منطقة « البور » كما يسميها اللبنانيون أو الميناء . . وصلت السيارات تحمل الابطال . . وجاءت الامهات والزوجات والاطفال ليودعوا الرجال . . ولأول مرة رأينا الدموع تملأ عيون المودعين ، وكأنهم كانوا يشعرون بالرصاص الغادر الذي أخفاه السفاحون وانطلق يفتك بهم بعد رحيل ابطالهم .





صورة ليست في حاجة الى تعليق .. والتحذير موجه الى قوات العدو . الذين كانوا يتربصون بالصحفيين والمصورين حتى لا يكشفوا أبعاد المذبحة . ▼





« الى اللقاء يا حبيبتي » . . بطل يودع زوجته في منطقة الميناء يوم الرحيل . . ليتهم لم يرحلوا !

ميلاد وأن الاطباء سوف يضطرون الى بتر الساق لأن العظام احترقت ، انها ترقد وحدها في المستشفى ولا تعرف حتى الآن شيئا عن مصير أبنائها بعد أن ضربت الطائرات الاسرائيلية بيتها بالقنابل العنقودية .

والمستشفى ملىء بضحايا المذبحة ولو أنهم قالوا لنا ان معظم المصابين باصابات خطرة قد نقلوا الى مستشفيات اليونان ومستشفيات أخرى في الخارج لاستكمال علاجهم وأن من بقى منهم لا يعدو أن يكون أكثر من حالة واحدة بين كل عشر حالات .

وعاد الدكتور بول يقودنا إلى فراش رجل مصاب . . كان يرقد في هدوء شاردا وقد وقفت بجانبه احدى قريباته . . قال الطبيب : عند هذا المصاب قصة مفجعة . دعوه يرويها لكم .

ووقفنا امامه . وبدأ الرجل يتحدث . . اسمي سليمان يوسف بلوط ، اعمل مهندسا معماريا . . . من المهجرين من مخيم ضبية . . . كنت اقيم مع اسرتي واقاربي في بناية عكر ، وضرب الاسرائيليون المبنى الذي يتألف من ثمانية طوابق بالقنابل الارتجاجية ، وهي نوع جديد من القنابل تجربه اسرائيل لاول مرة في عدوانها الوحشي على لبنان ، وفي لحظات كانت العمارة الكبيرة قد تساقطت فوق سكانها وقتل ٢٥٠ شخصا تحت الحطام والركام ، دفنوا جميعا احياء ، وكان بينهم جميع افراد اسرتي واقاربي ، ثلاثون شخصا . . . ماتت زوجتي وابنائي الخمسة وابنتي العروس وامي وابي وكل اقاربي . وبقيت وحدي . عشت لأروي مأساتي للعالم كله : ليتهم تركوني اموت انا ايضا فقد كنت تحت اكوام الحجارة والتراب وسمعوا استغاثتي فأخرجوني !

لم يكن سليمان يبكي ، ولكن عينيه كانتا تحملان احزان رجل فقد كل شيء في الدنيا الا الامل في حياة كريمة لابنائه . . من هم ؟ كل شاب وفتاة وطفل فلسطيني اينما كانوا في العالم الكبير من حوله ! كانت هذه اخر كلماته وهو يودعنا ثم بكى !

منعونا من التصوير

قال لي صحفي امريكي قابلته في فندق الكومودور : « لا تنس الذهاب الى المستشفى الامريكي . هناك عدد كبير من الاطفال المصابين الذين يعالجون من الجروح والكسور ! »

وذهبنا ولكن مدير المستشفى رفض السماح لنا بالتصوير !

قلنا : « ولكنكم سمحتم لغيرنا من الصحفيين الاجانب بالدخول والتقاط صور للاطفال الذين اصيبوا في الحرب » ، قال : لابد من الحصول على موافقة والدي الطفل قبل تصويره !

- هل انت طبيب ؟

- لا انا اداري فقط واحمل الماجستير !

قلت : الذي اعلمه ان الطبيب المعالج وحده هو المسئول عن مرضاه في اي مستشفى . قد تكون موافقة

الاهل ضرورية اذا تطلب العلاج اجراء جراحة خطرة او اذا كان المريض سيدة وفي ظروف عادية والهدف من تصوير هؤلاء الاطفال الابرياء الذين احترقوا بقنابل العدو غير خاف عليك . . . اننا نقوم بنقل صورة لهذه المذبحة للعالم الخارجي . . . وما اكثر الصور التي سبقنا الى نقلها صحفيون من كل انحاء الدنيا ، وجاءوا اليكم ولم تمنعوهم من التصوير !

أمي ستأتي غدا

وانتهى الحديث وتركنا المستشفى الامريكي لنذهب الى مستشفى آخر صغير اقيم في فندق ، تريومف ، معظم الحالات الخطرة التي كانت فيه نقلت للخارج لاستكمال العلاج لم يبق منها سوى حالات معدودة لاطفال ورجال ونساء بدأت حروقهم تتماثل للشفاء . . ورحنا نتجول بين غرفهم فنقف عندهم وتستمع الى قصصهم . .

ووجدنا أنفسنا نقف أمام فراشين صغيرين يرقد عليهما طفلان صغيران ، إبراهيم وإيمان القطير ، عندما نقلا الى المستشفى كان كل جزء في جسميهما محترقا ثم بدأت الحروق تلتئم بعد العلاج المركز . قال ابراهيم : غدا ستأتي أمنا لتعود بنا الى البيت . لقد شفينا ، لم نعد نشعر بالالم ! ثم نظر الى شقيقته إيمان وقال : اليس كذلك هل تتألمين ؟

وأجابت بالنفي !

وخرجت الممرضة من الغرفة لتجفف دموعها التي لم تستطع ان تحبسها ، بعيدا عن عيون الطفلين . . . وسألناها لماذا تبكين ؟ انهما بخير . .

ـ هذا صحيح . . . ولكن الام التي ينتظران مجيئها لن تأتي ابدا . . . لقد قتلت في القذف الاسرائيلي المحموم . وكذلك قتل والدهما . .

قد اصبح الطفلان يتيمين وهما لا يدريان !

هذه الجبال من الاتربة والعوائق التي جمعها أبطال المقاومة وسدوا بها المنافذ ساهمت في صد الزحف الاسرائيلي على المدينة الصامدة .





مواكب النصر تدخل دمشق .. الدفعة الثالثة من المناضلين الأبطال في السيارات التي حملتهم من بيروت الى الشام .. لقد خرج الألوف من ابناء سوريا وفلسطين يستقبلونهم بالزهور والأرز وطلقات المدافع تحية لهم في بلدهم ووطنهم الثاني . . .







مجموعة من الابطال
الفلسطينيين في إحدى
السيارات التي اقلتهم عبر
الطريق الدولي .. رجال
يخوضون معركة الحياة
والمصير .. انهم لم يعرفوا
الهزيمة أبدا . (اعلا)



ضابط في جيش التحرير
الفلسطيني في بيته بدمشق مع
زوجته وأطفاله .. لقد عاد
اليهم بعد غيبة طويلة في
ميدان الشرف والقتال ..
يحمل أصغر اطفاله (الى
اليمين)

وعشرات القصص الاخرى .. في كل مكان ذهبنا اليه مع الذين عاشوا المأساة من الفلسطينيين واللبنانيين ومع الصحفيين الذين بقوا في مواقعهم يسجلون بأقلامهم وعدساتهم الاحداث الدامية . سمعنا قصصا تملأ كتبا عن الاحزان التي يعيش معها هؤلاء الذين كتبت لهم الحياة بعد الطوفان .

قصة الام التي فقدت ابناءها الاربعة .. كلهم كانوا يقاتلون مع المناضلين في منظمة التحرير الفلسطينية .. كلهم ذهبوا لصد تقدم الغزاة .. وراحت المسكينة تنتظر .. ومرت الايام والاسابيع .. وتوقف القتال عند اسوار بيروت الغربية التي اقامها الفدائيون من الاتربة التي راحوا يجمعونها حتى صارت جبالا .. وعاد المقاتلون الابطال الا هم .. الا أبناءها الاربعة ..

وخرجت تستقبل العائدين .. وتسأل : هل رأيتم ابنائي .. لقد كانوا معكم يقاتلون اليس كذلك !

وعندما عرفت ان ابناءها لن يعودوا وانهم استشهدوا جلست المسكينة في هدوء .. في نفس المكان الذي كانت تقف فيه تبحث عن ابنائها وسط وجوه العائدين .. ولم تتكلم .. بقيت هناك اياما ثم اختفت .. وبحثنا عنها مع الباحثين ولكننا لم نعثر لها على اثر ..

طفولة وأمومة !

والطفلة الصغيرة التي لم تبلغ بعد عامها الثاني لقد عثروا عليها وسط أنقاض احدى العمارات التي احترقت وتهدمت .. ان احدا لا يعرف شيئا عنها حتى اسمها .. كانت تنادي امها ولعلها الكلمة الوحيدة التي تعرف كيف تنطق بها .. ابنة من ؟ اين والداها ؟ هل هناك من يعرفها ؟ هل لها اقارب احياء ؟ .. لا احد يدري وبقيت الطفلة في رعاية احدى الاسر اللبنانية .

وقصة الام التي كانت في شهرها الاخير من الحمل .. لقد قتلتها قنبلة فوسفورية وعندما جاءوا يحملون جثتها احسوا بالجنين الذي تحمله في احشائها فقد كان يتحرك وفتحوا بطنها واخرجوه .. كانت طفلة جميلة تزن ثلاثة كيلوجرامات .. وكانت المشكلة في اليوم الثاني او الثالث لخروجها من بطن امها التي لن تعرفها ابدا ، هي البحث عن طفل حديث الولادة يسمح لها بأن تشاركه الرضاعة من ثدي امه !

هل نمضي في سرد المزيد من هذه القصص التي حمل الابطال المقاتلون صورها في صدورهم وهم يحزمون امرهم ويتركون بيروت ؟ . لا اظن .. فليس هذا وقت البكاء فوق اطلال لبنان .. واذا كان الابطال المقاتلون قد رفضوا ان تنتهي القصة بالدموع .. فلن نقبل ان تكون مساهمة العرب في التخفيف عن آلام وأحزان لبنان واهله من اللبنانيين والفلسطينيين مجرد دموع تذرفها وآهات تخرج من صدورنا حزنا على ما حل بهذين الشعبين العربيين الشقيقين !

اين كنتم ؟

لقد رأينا نظرات العتاب في عيونهم وهم يتحدثون الينا بلهجة يشوبها اليأس وخيبة الامل ... « اين كنتم .. هذا هو لبنان .. هل رأيتم ما حل بنا ؟ احكوا للعرب .. كل العرب ماذا شاهدتم .. كيف احترقت شجرة الارز حزنا على ابنائها .. كيف نام أهل بيروت في الظلام بلا ماء ولا غذاء .. كيف عربد الاسرائيليون في سمائنا وقتلوا واحرقوا كل شيء يتحرك تحتهم حتى العصافير لم تعد تراها في سمائنا التي امتلأت برائحة الموت .. العرب ؟! اين العرب ؟ اننا لم نجد يدا واحدة تمتد الينا في محنتنا .. كلهم تخلوا عنا .. كلهم تنكروا لنا ... كلهم نسوا اشقاءهم في الجبل الذي طالما جاءوا اليه يتعمون بالماء والهواء في ربوعه وبين اشجاره الوارفة » .

هل انتهت مأساة لبنان ..؟

لقد بدأت ولم تنته .. في حديث طويل مع مجموعة من

جاءت الاجابة على بعض الأسئلة الحائرة التي طرحناها في نهاية هذا الموضوع سريعة متلاحقة . اذ ماكادت بعثة العربي تعود من بيروت الغربية حتى فجع العالم بأخبار مذبحة صبرا وشاتيلا ثم سلسلة الاغتيالات وعمليات التعذيب التي تعرض لها الفلسطينيون الأبرياء في لبنان .



بعض افراد القوات المتعددة الجنسيات .. خرجوا من بيروت وتركوها تحترق من جديد بعد أن ذهب الابطال .

الصحفيين الاجانب في فندق « الكومودور » حيث يتمركزون دار الحوار حول احتمالات المستقبل ... القريب والبعيد ولكن الحديث كله بدا وكأنه اسئلة يطرحها الموقف الخطير في لبنان ، دون ان نجد جوابا ولا اظن انها ستجد جوابا في المستقبل القريب ..

انني انقل بعض النقاط التي برزت من خلال الحوار الذي كان يدور بينهم وشاركت فيه مستمعا اكثر مني محدثا ..

○ هل يعود لبنان الى ما كان عليه ، وكيف ومتى ؟

لقد قدر المسؤولون الخسائر المادية التي نجمت عن هذا الهجوم الوحشي باكثر من ٢٠ بليون دولار . اما رقم الضحايا الذين لن يعوضوا فقد زاد على خمسين الف قتيل وجريح من الاطفال والنساء والرجال .

○ ما هو المصير الذي ينتظر اللاجئين الفلسطينيين في لبنان الذين يزيد عددهم على نصف مليون لاجيء ، بعد مغادرة المناضلين ؟

○ هل يخرج الاسرائيليون من لبنان ومتى يخرجون ؟

○ كيف سيكون الموقف بعد اغتيال رئيس جمهورية لبنان الجديد الذي وصل الى الكرسي بتأييد اسرائيل ومساندتها وكانت شوارع بيروت قد امتلأت باللافتات تستنكر انتخابه وترفض رئاسته ؟

كلها اسئلة حائرة لا نجد لها جوابا ... الشيء الثابت هو ان الجرح الذي اصاب لبنان لن يندمل ، وسوف يزداد عمقا ويزداد ايلاما مع الايام !! ■■

منير نصيف



هرم الكاستيلو

الفن

لوح التقويم الازتيكي



شهد الدكتور عفيفي البهنسي المدير العام للآثار في القطر السوري مؤتمر السياسات الثقافية في العالم الذي دعت اليه منظمة اليونسكو بالمكسيك خلال شهر اغسطس (آب) ١٩٨٢ . وهناك ، على الطبيعة ، كتب هذه الدراسة لمجلة العربي .



معبد المحاربين

المكسيكي قبل الكولومبي

بقلم الدكتور : عفيف البهنسي

يمتاز الفن قبل الكولومبي في المكسيك بالوحدة والوضوح والذاتية الابداعية . وعلى امتداد ثلاثة آلاف عام كان هذا الفن يتطور ضمن حدود الظروف الحضارية الاخرى والعقائد الزراعية ، وكانت الأواصر اللغوية والعرقية والعقائدية التي تربط القبائل السبعة الأساسية التي هاجرت من الشمال الى المكسيك عبر التاريخ ، قد وحدت مفاهيم الفن وربطته بوظيفة دينية واجتماعية واحدة أو متشابهة . ثم ان الحضارات التي وجدت على أرض المكسيك كثيرا ما تعايشت أو توارثت بعضها بعضا ، فحضارة المايا الثانية كانت تعيش في فترة واحدة مع حضارات أخرى مثل حضارات واكزاكا وخليج المكسيك وتيوتيهواكان ، وأن حضارة الأزتيك ورثت حضارة التولتيك ، وهذا ما جعل الفن في هذه القبائل

والمناطق واحدا يحمل هوية واحدة على تنوعه وغزارته مما يزيد الفن المكسيكي قبل الكولومبي غنى .

ووضوح هذا الفن جاء عن حداثته واستمراره حيا عند المايا والأزتيك في وادي تيوتيهواكان الى عهد الفتح الأسباني الذي وجد التراث المحلي جاهزا وفي حالة جيدة ولكنه هدمه بقسوة . ومع ذلك فان المواقع الأثرية والمتاحف تحوي أوضح الأمثلة وأوفرها عن هذا الفن .

والأمر الأخير الذي يتميز به الفن قبل الكولمي الأصيل هو الذاتية الابداعية . فهو فن ذو خصائص متميزة ومفهوم خاص سواء في مجال العمارة أو النحت والتصوير . ولكن ما يلفت نكر المؤرخ الفني هو ذلك التقارب المذهل بينه وبين الفن الرافدي . ففي مجال العمارة ، نرى الزيقورة الرافدية على أكمل مثال في الاهرامات الموجودة في تيوتيهواكان وفي شولولا وفي يوكاتان . فهي مدرجة ولها سلالم متوسطة ويعلوها حرم مقدس . ولكنها مبنية من الحجر . فيما كانت الزيقورة تبنى من اللبن والآجر . وهي مزينة بالزخارف الحجرية التي ما زالت واضحة في المتاحف . ولكنها في الزيقورة كانت ملونة الطبقات بحسب رموز الكواكب . الا أننا لا ندري ما اذا كانت هذه الالوان تغطي أشكالا نحتية كما هو الأمر في معبد عشتار في بابل .

أما طراز عمران المدن وشكل العمارة السكنية فيكاد يكون متطابقا كما يبدو في المجسم الخاص بعاصمة الازتيك .

وثمة تشابه واضح في مجال النحت الفخاري أو مجال الحفر . وتشابه التماثيل في كتلتها المتراصة . ولكن الفن قبل الكولومبي في المكسيك يبقى في تكوين مواضيعه ورموزه وهيروغليفيه محتفظا بخصائص مستقلة متفردة .

بداية الفن والتاريخ في المكسيك القديمة

قبل أن تحتل اسبانيا المكسيك بقيادة كورتيز عام ١٥١٩ كانت ثمة حضارة قائمة في تلك المنطقة تشمل ما يسمى اليوم بالمكسيك وغواتيمالا . ولقد توقفت هذه الحضارة بل الكولومبية مع امتداد التأثير الأسباني الأوروبي اللاتيني كما ذكرنا .

ولكن منذ متى ابتدأت هذه الحضارة . ومنذ متى تشكل هذا الفن الرائع ؟ ان الحفريات الأثرية التي تمت على ضفاف بحيرة تكسكوكو texcoco أبانت عن توضعات سكنية وحياة انسانية وحيوانية تعود الى نهاية العصر الحجري القديم ؟ (الالف ١٢ ق . م) . كما عثر على آثار حجرية تعود الى بداية الحياة المتحضرة في بداية العصر الحجري الحديث (الالف السابعة ق . م) . ولقد تبين أن السكان الأوائل في المكسيك القديمة كانوا من الرحالة البداة ثم أصبحوا منذ عام (٥٠٠٠ ق . م) رعاة ومزارعين أنتجوا الذرة والخضار . واستقروا في مستوطنات منذ عام (٣٥٠٠ ق . م) ثم ابتدأت حضارتهم تتوضح ضمن مراحل ثلاثة يطلق عليها الفن قبل الكلاسي .

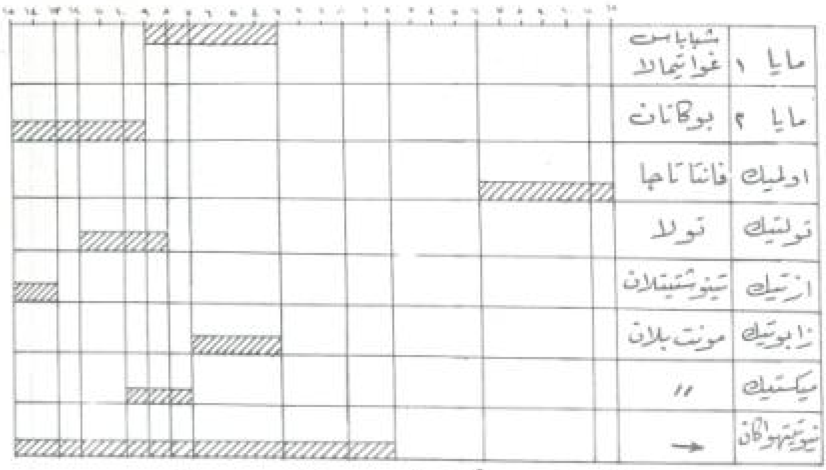
المرحلة الاولى قديمة من ١٧٠٠ ـ ١٣٠٠ ق . م ، والثانية حتى ٨٠٠ ق . م ، والثالثة حتى ٢٠٠ ق . م . ثم جاءت المرحلة الكلاسية ٢٠٠ ـ ٨٠٠ م وتلتها المرحلة بعد الكلاسية ٨٠٠ م ـ ١٢٠٠ م ثم المرحلة التاريخية حتى امتد السكان في هذه المرحلة على مدى أمريكا الوسطى . وكان انتاجهم من الفار مميزا لتطورهم المستمر .

ولا بد من الاشارة الى أن صانعي هذه الحضارة الأولى كانوا من قبائل السهوب الشمالية والتي عبرت مضيق بيرنغ مجتاحة أمريكا الشمالية . وفيها استقرت بعض القبائل الهندية التي تسمى سيو Sioux ومانادان Man-dan . وفي الجنوب الغربي (التكساس)كانت قبائل البويلو Peublo . وأناسازي Anasazi .

ولم تكن هذه القبائل على حضارة واضحة كما تم الأمر في المكسيك . بل ان الأقسام الشمالية من المكسيك بقيت أيضا وأطلق عليها اسم الحضارة الصحراوية وكانت مرتبطة بحضارة جنوب الولايات المتحدة في تكساس وأريزونا .

فن المايا

يقدم فن المايا أعلى ذروات التطور الفني والحضاري في المرحلة قبل الكولومبية . ولقد امتد فن المايا وتطور في أكثر أنحاء المكسيك وبخاصة في المنطقة الجنوبية ؛ شياباس وغواتيمالا . حيث ابتدأ الفن الأقدم تاريخيا ٣٠٠ ـ ٩٠٠ م وتقدم في المناطق الجبلية . ثم امتدت مراكز الحضارة والفن الى هوندوراس وشبه جزيرة يوكاتان Youcatan (١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ م) وما زالت مواقع أثرية تشهد على روائع هذا الفن وخاصة في شيشين ايتزا التي تقع في أقصى الجنوب الغربي يحيط بها عدد من المواقع الأثرية التي تعود



الحضارات المكسيكية ومراكزها ، وحقبها التاريخية

الى المايا مثل تولوم وكاباك ومايابان وفي هذا الموقع أهرام ضخم يسمى الكاستيلو ويقوم قربه تمثال شاك مول ، وليس بعيدا عنه معبد المحاربين الشهير ، والبيت الأحمر .

لقد انتقلت شعوب المايا نحو الشمال نازحة بتأثير الضغط الذي داهمها من شعوب التولتيك بعد القرن التاسع الميلادي وأقامت في الشمال مراكز حضارية هامة . ولقد عثر على كثير من النصب والتماثيل وأدوات الموسيقى ووسائل العبادة والحلى التي تحمل بعض الكتابات الهيروغليفية . ومجموعة من التماثيل الفخارية الصغيرة التي اكتشفت في جزيرة جاينا في خليج المكسيك . وفي بالينك ما زال يقوم اهرام الكتابات وهو الأهرام الوحيد المخصص كمدفن ، وفيه ضريح رائع كان يقع خارج الأهرام ، وثمة حجر مصلب عليه نحت نافر يمثل الكهنة يقدمون الأضاحي لاله الذرة وهي النبات المقدس عند المايا . ويبدو أن هذا الضريح الضخم كان لشخصية هامة في بالينك ، يبدو ذلك من الزينة الذهبية والأحجار الكريمة التي عثر عليها والتي كانت تغطي جسده .

وثمة معبد رائع عثر عليه في كامبش **Campeche** ويمتاز اسلوبه المعماري باستعمال الحجر المنحوت وباستعمال القبقاء ، وهذا الطابع يشمل عمارة كامبش ، وفي واجهة المعبد رأس كبير لاله المطر (شوك مول) تقع عيناه وأنفه عاليا ويشكل فمه باب المعبد ، ولقد أقيمت في متحف مكسيكو نسخة كاملة من واجهة هذا المعبد .

ومن أبرز المكتشفات التي تعود الى فن المايا ، الغرف التي عثر عليها مؤخرا في بوناباك **Bonampak** والتي تحوي صورا جدارية تمثل في الغرفة الأولى مراسم تعبدية يشارك فيها كهنة وسدنة وراقصون وموسيقيون ، وثمة طفل لعله سيكون تقدمة للآلهة .

وفي غرفة أخرى صورة تمثل معركة ونصرا ومحاكمة الأسرى ، وفي غرفة ثالثة صورة تمثل انتصار المحاربين ومشهدا مفرحا .

فن الاولميك في الخليج

ثمة حضارة قد امتدت على شواطيء خليج المكسيك بين ١٢٠٠ - ٦٠٠ ق . م . ولقد شهد هذا الخليج ثلاث حضارات رئيسية ، حضارة الاولميك **Olmeques** والهواستيك **Hwaxteques** والتوتوناك **Totona-ques** الأولى كانت هي الأكثر أهمية والأكثر قدما وانتشرت في جنوب الخليج ، ثم أعقبتها الثانية وهي الهواستيك وظهرت في منتصف ولاية فيراكروز . وأخيرا ظهرت حضارة التوتوناك في شمالي منطقة الخليج . وما



تمثال شاك مول

تمثال الهة الزهور والفرح



زالت قبائلهم مقيمة حتى يومنا هذا تمارس الزراعة البسيطة . وحضارة الأولمك هي الحضارة الاكثر تقدما ، ولقد أثرت كثيرا على الحضارتين اللاحقتين . وامتد ازدهارها من ١٢٠٠ - ٦٠٠ قبل الميلاد واقامت عددا من المدن التي ما زالت آثارها قائمة ، وقبائل الأولمك هي الأولى التي مارست طقوسا مدفنية ويعود اليهم ابتكار أول تقويم واكتشاف النظام العشري . وهي أول من أوجد نوعا من الكتابة . ولقد أنشأوا عددا من المدن مثل فانتا Venta ، وكان المجتمع فيها منظما . اذ انصرف العمال المهرة لاقامة المنشآت الضخمة والتماثيل ، كرأس فانتا الشهير الذي يزن ٢٠ طنا واسمه تاباسكو Tabasco وتمثال المقاتل .

ومن أضخم المنشآت التي تعود الى التوتوناك معبد التاجان الذي يحوي ٣٦٥ فتحة على عدد أيام السنة وارتفاعه ٢٠ مترا . ومن أشهر التماثيل - الراقصات في باپانتلا Papantla القريبة من التاجان .



آثار من تيوتيهواكان في متحف مكسيكو تماثيل آلهة من تولا

أما الهواستيك فلقد تميزوا بالتماثيل الجميلة التي نرى بعضا منها في المتاحف . ولقد اختلطت حضارتهم بحضارة المايا الثانية .

فن الزابوتيك والميكستيك في مونت البان (واكزاكا)

في ولاية واكزاكا التي تقع في أقصى جنوب المكسيك عثر عام ١٩٣٢ على آثار هامة وقبور في منطقة مونت البان تنسب الى قبائل الزابوتيك والمكستيك . وتعود هذه الآثار

الى حقبة قديمة تمتد من ٩٠٠ ق . م الى ٨٠٠ م . وصلت قمة ازدهارها في عهد قبائل الزابوتيك (٣٠٠ م - ٧٠٠ م) الذين اشتهروا بالمهارة اليدوية وتركوا آثارا نحتية هامة .

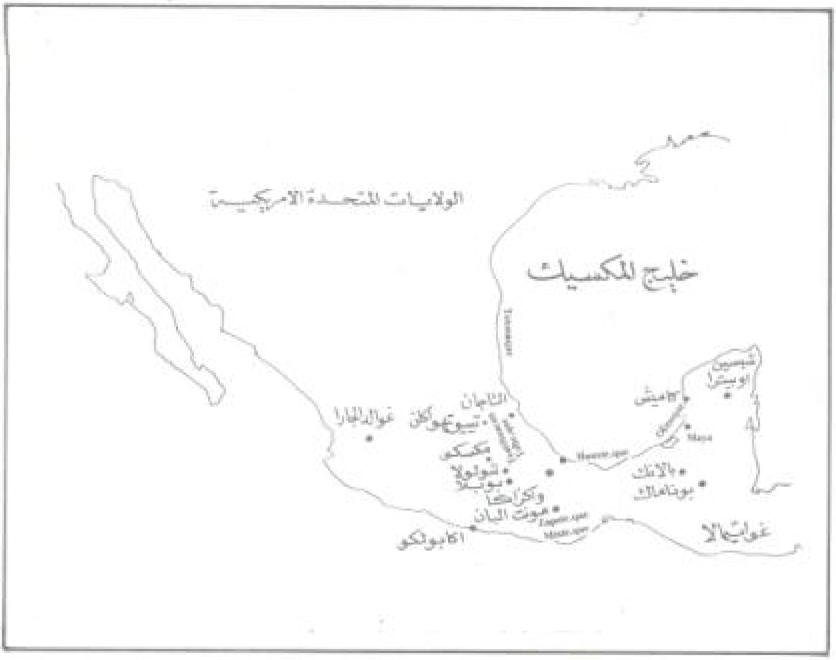
أما الميكستيك (٧٠٠ - ١٠٠٠ م) فلقد تفوقوا بصناعة الحلي المحلاة بالاحجار الكريمة والمصنوعة من الذهب والفضة . وأوجدوا كتابة تصويرية فنية .

ومن أهم آثار هذه القبائل تمثال الفهد الاله المعبود الذي عثر عليه في مونت البان ويعطينا فكرة عن فن النحت المعبر جدا .

وفي مونت البان ، اكتشف أكثر من مائتي قبر ، وعند الزابوتيك يعتبر الموت استمرارا للحياة .

الفن في منطقة تيوتيهواكان

ثلاثون ميلا من شمال العاصمة مكسيكو تقع منطقة المعابد في وادي تيوتيهواكان **Teotihuacan** حيث استمرت حضارة من عام ٢٠٠ ق . م الى ١٥٢١ م . وصلت ذروتها بين عامي ٣٠٠ - ٦٥٠ م . وجنوب العاصمة تقع شولولا **cholola** التي كانت امتدادا لهذه الحضارة . ولقد عثر على كثير من الأواني والتماثيل



الفخارية التي تعطينا فكرة عن اسلوب الحياة والتفكير في تيوتيهواكان .

ومن أشهر المنشآت الضخمة في تيوتيهواكان معبد اله المطر بما يحويه من رسوم جدارية . ومعبد كيلزالكوات **Quelzal Coat** بتماثيله الملونة الرائعة . وأهرام الشمس وأهرام القمر الذى يضم تحته كتلة صخرية وزنها ٥٧ طناً تمثل إله المياه شالشتليكو **Chalchitlicue** . وهذه الآثار تعود الى الفترة بين ٣٠٠ م ـ ٦٥٠ م .

وفي شولولا أهرام ضخم لا نظير له في العالم مؤلف من ست منشآت موضوعة فوق بعضها .

فن التولتيك

في نهاية الحضارة في وادي تيوتيهواكان قدمت قبائل من الشمال واحتلت هذا الوادي وأصبحت خلال الفترة الواقعة بين (٨٠٠ م ـ ١٢٠٠ م) من أكثر الشعوب أهمية وتشاطا ، ومن أبرز هذه القبائل كان التولتيك الذين أنشأوا عاصمة لهم هي تولا **Tula** التي تقع على بعد (٨٠) كم شمالي العاصمة الحالية مكسيكو . ولقد هدمت هذه العاصمة عام ١٢٠٠ م من قبائل الشيشيميك المحاربين القساة الذين أقاموا أهرام تينايوكا **Tenayuca** الذي هدم بدوره عام ١٣٠٠ م .

يعتبر التولتيك من أبرز صناع الفخار ومن أحسن المنشئين والنحاتين يشهد لي ذلك سور الثعابين في تولا وتمثال المحارب الضخم ومعبد نجمة الصبح ، وتمثال شاك مول **Chac mool** الشهير وهو يمثل وسيطا بين الانسان والآلهة ، انسان يرتدي الملابس الملكية ويجلس مضجعا يحمل على بطنه وعاء التقدمة ، ولقد ظهر مثل هذا التمثال عند المايا .

ولقد عبد التولتيك الشمس والكواكب ، وقدموا لها النذور والأضاحي الدموية وكانت لغتهم قريبة من لغة الأزتيك .

فن الأزتيك

آخر القبائل السبعة الفاتحة التي جاءت من الشمال واحتلت في البداية وادي جبال الأنذر هي قبائل الأزتيك التي جاءت في هجرات متتابعة كان يقودها الكاهن تنوش Tenoch وقد حدد بداية حضارتهم باشارة الآلهة وهي شعار « نسر ينعطف على نبات شوكي يبتلع أفعى » والتي أقيمت في جزيرة صغيرة في وسط بحيرة تكسكوكو عام ١٣٢٥ م ، حيث ابتدأ تاريخ حضارة الأزتيك التي امتدت خلال قرنين على جميع أراضي المكسيك الحالية ، وانتهت عام ١٥١٩ على يد كورتيز الاسباني وكانت نهاية الفن المكسيكي الأصيل الذي يطلق عليه الفن قبل الكولمي . وهذا الشعار أصبح شعار المكسيك بعد عهد الاصلاح عام ١٩١٠ م .

ومن أبرز مخلفات الفن الازتيكي لوحة حجرية تذكارية لزعيم الازتيك تيزوس , Tizoc ولوحة دائرية أخرى تذكارية للشمس تسمى « التقويم الأزتيكي » ويبدو في مركز الدائرة صورة الشمس على شكل رأس محاط بقبضتي يدين تضمان قلبين بشريين لتغذية الشمس . وحول الصورة أربعة مربعات تمثل الجهات الأربعة ، وحول الدائرة ثعبانان يلتقي رأساهما في الأسفل ، يمثلان صراع الحياة والموت أو النهار والليل .

وما يدعوالى اعتبار أن هذا اللوح هو تقويم ، المربعات العشرون المحيطة والتي تقابل الأيام العشرين التي تشكل الشهر عند الأزتيك . ويحفل متحف المكسيك بروائع التماثيل التي عثر عليها بكميات كبيرة وبخاصة تماثيل الآلهة ، مثل تمثال الهة الزهور والفرح ، وتمثال الهة الخصب ، وهي بحالة حسنة نظرا لأن حضارة الأزتيك وفنهم كانا حيين زاهرين عند الفتح الاسباني ، وكانت عاصمتهم تينوشتيتلان Tenochtitlan التي أصبحت مكسيكو العاصمة اليوم . وكانوا قد أنشأوها منذ بداية ظهورهم عام ١٣٢٥ م .

ان الحديث عن الفن قبل الكولومبي في المكسيك لا ينتهي عند الحدود التي تحدثنا عنها ، فالآثار المنتشرة في المواقع الأثرية المختلفة وبخاصة في منطقة العاصمة مكسيكو أو في المنطقة الجنوبية الشرقية المتاخمة لغواتيمالا ، تعطينا فكرة أوضح عن تقدم الحضارة عند الشعوب الهندية التي كانت تعيش مستقرة مسالمة في ظروف حضارية متقدمة ، من أبرز ملامحها الفن الأبدي المسخر للعقيدة الزراعية التي تعتمد على الاهتمام بالمطر والماء وتكريم المحصول سبب استمرار العيش . وكان من الهنود فنانون ومعماريون وشعراء ومنجمون وفلاسفة وفلكيون . وانتهت هذه الحضارة على يد الفاتحين الاسبان عام ١٥١٩ الذين غزو أمريكا الوسطى من المرفأ الذي يطلق عليه اليوم اسم فيراكروز ، مزودين بأسلحة نارية كالمدافع والبنادق مما لا عهد للسكان الهنود بها . وهكذا قضى الغزاة بقيادة هرنان كورتيز على المدينة الجميلة المنتظمة وهدموا معابدها وحصونها ، وكان أكثر القبائل انتشارا ونفوذا في ذلك الوقت هم الأزتيك . وابتدأ العصر الاستعماري القاسي الذي أقام على أنقاض التراث الهندي الرائع حضارة أوروبية ، وكانت مكسيكو العاصمة قد أقيمت على أنقاض عاصمة الازتيك .

وامتد نفوذ الاسبان في أمريكا الوسطى والجنوبية وبخاصة في المكسيك خلال ثلاثة قرون ، وحلت اللغة الاسبانية محل اللغات الأصلية التي لم يبق منها الا شتات حتى يومنا هذا . وامتزج الدم الاسباني بالدم الهندي وظهر شعب جديد هو الشعب المكسيكي الذي يطلق عليه اسم الميستيسو يدين بالكاثوليكية ويتكلم الأسبانية . ثم بدأ هذا الشعب يشعر بانفصاله عن اسبانيا ، فقامت ثورة على الاستعمار عام ١٨١٠ بقيادة هيدالغو وآخرين وتحقق الاستقلال عام ١٨٢١ . ولم تلبث بلاد المكسيك أن تعرضت الى طامع جديد هو نابليون الثالث ، الذي غزت جيوشه المكسيك عام ١٨٦٣ وعين نابليون ، ماكسمليان امبراطورا على المكسيك ، ولم تمض أربع سنوات على الاستعمار الفرنسي حتى هب الشعب المكسيكي بقيادة بنيتو خواريز لمقاومة الفرنسيين وتحقيق الاستقلال الثاني عام ١٨٦٧ .

والمكسيك اليوم ومنذ عام ١٩١٠ هي اتحاد لمجموعة من الولايات يضمها علم واحد ونظام واحد . تحيا الى « شمسها السادسة » ، وتظهر فيها حركة أدبية وفنية تنتشر ظلالها في العالم ، ويكون من فناني المكسيك أعلام لهم شهرتهم العالمية وأسلوبهم الحديث الذي ارتبط بهوية مكسيكية واضحة ، والتزم أفكارا شعبية ثائرة ، في لوحات حائطية جماهيرية ضخمة . وتاريخ الفن الحديث يذكر بالتمجيد فنانين مكسيكيين أفذاذا من أمثال ديجو ريفيرا وخوزيه أوزكو والفارو سيكويروس ورفينو تاماينو . ■■

د . عفيف البهنسي

السرقة الشعرية تهمة لم يسلم منها شاعر

بقلم الدكتور : كمال نشأت

السرقات الشعرية باب معروف في آداب الأمم القديمة ، أشار اليه ارسطو ، كما أشار اليه « هوراس » أما أدبنا العربي ، فمنذ شعراء الجاهلية والحديث مستفيض عن الشاعر الذي أخذ عن آخر ، وعن توارد الخواطر ، بحيث نستطيع أن نقول ان هذا الباب قد شغل النقد العربي برمته عبر القرون حتى أوائل نهضتنا الأدبية الحديثة . وكان كبار النقاد يعترفون به ، ويشيرون اليه ، فالجرجاني يقول عنه (داء قديم وعيب عتيق) ويقول الآمدي (باب ما تعرى منه متقدم أو متأخر) . ومع الاعتراف بشيوعه ، وأن شاعرا ما لم يسلم منه ، ظلت سبة السرقة لاصقة بالشاعر السارق ، ومن هنا أجهد المتعصبون على أبي تمام والمتنبي أنفسهم في البحث عما يعتقدون أنه سرقة من شعراء آخرين . ومن المعروف أن بعضا من المعاني قد يتسرب ـ دون وعي من الشاعر ـ الى شعره ، بل قد تتسرب المعاني لابسة الفاظها من شعر شاعر آخر في شطر بيت أو في بيت كامل ، وقد يكون الشاعر متعمدا ذكر هذه المعاني مع علمه أنها ليست له ، وقد يكون التشابه في أبيات شاعرين مجرد توارد خواطر ، لأن الموقف المتشابه لدى الشاعرين يوحي بأفكار واحدة أو قريبة ، ولكن الغريب في هذا المجال ما كان يفعله شاعر كالفرزدق ، فقد كان يتصادف أن يسمع شاعرا يلقي بعض شعره ، فيعجب بأبيات معينة فيعلن أنها له ، وأنه سيعدها من شعره .. يقول هذا علنا أمام الناس غير متورع . يقال ان « ذا الرمة » مر فاستوقفه أصحابه فوقف ينشدهم قصيدته التي يقول فيها :

أحين أعاذت بي تميم نساءها
وجردت تجريد اليماني من الغمد
ومدت بضبعي الرباب ودارم
وجاشت ورامت من ورائي بنو سعد

فقال الفرزدق : اياك أن يسمعها منك أحد ، فأنا أحق بها منك . والروايات كثيرة حول سرقات الفرزدق وحول سرقات « كثير » التي الف فيها « الزبير بن بكار » كتابا أسماه « كتاب اغارة كثير على الشعراء » ، وكذلك فعل مهلهل بن يموت الذي الف كتاب (سرقات أبي نواس) ، وابن وكيع التنيسي الذي الف (المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي) . ولقد ظلت تهمة السرقة الشعرية سيفا مصلتا على رؤوس الشعراء حتى نستطيع القول ان شاعرا ما من شعراء العربية لم يسلم من الاتهام بها . وطبيعي أن تكثر الاتهامات اذا كان الشاعر جهير المكانة ، ولذلك كان باب السرقات فرصة للحاسدين والحاقدين الذين تعمدوا ـ اذا كرهوا شاعرا ـ أن ينفذوا من خلاله الى محاولة التقليل من شاعريته ومن مكانته الادبية .

مرحلة جديدة من التطور

لقد تنوعت مصادر السرقات بتنوع الثقافات والعلوم التي عرفها العرب ، فبعد أن كان الشاعر ينظر الى معاني شاعر آخر في العصور المتقدمة أخذ الشعراء في العصر العباسي يستفيدون من أقوال الفلاسفة والحكماء والأمثال السارية والقرآن الكريم والحديث الشريف ، وظلت السرقة الشعرية في كل العصور باب تراشق ونقاش ومهاترات بين معجب بشاعر وكاره له . . . مثل دعبل عن أبي تمام فقال :

ثلث شعره سرقة ، وثلثه غث ، وثلثه صالح . . .

ومرة ادعى دعبل أن أبا تمام يأخذ معانيه فقال له رجل في مجلسه : ما من ذاك أعزك الله ؟ قال قلت :

وإن امرءا أسدى إلي بشافع
إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
شفيعك فاشكر في الحوائج إنه
يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقال له الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ قال : قال :

فلقيت بين يديك حلو عطائه
ولقيت بين يدي مر سؤاله
واذا امرؤ أسدى الي صنيعة
من جاهه فكأنها من ماله

فقال الرجل : « أحسن والله » ! فقال دعبل : كذبت . . قبحك الله ! فقال : « والله لئن كان أخذ هذا المعنى وتبعته فما أحسنت ، وان كان أخذه منك لقد أجاده فصار أولى به منك » فغضب دعبل وقام .

ولأهمية باب السرقات الشعرية ، ودوران الحركة النقدية عليه حدد بعض النقاد مجالاته ، فالقاضي الجرجاني يحصر السرقات في المصطلحات الآتية : السرق ، والغصب ، والاغارة ، والاختلاس ، والالمام ، والملاحظة ، المشترك الذي لايجوز لأحد ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به ، والمختص الذي حازه المبتديء فملكه سواء أكان معنى أم صياغة . على أن الجرجاني لم يوضح بالتفصيل هذه المصطلحات ، وان كان أضاف اليها (النقل) ويقصد به نقل المعنى ويضرب مثلا لذلك قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لي ليلى بكل سبيل

وقول أبي نواس:

ملك تصور في القلوب مثاله
فكأنه لم يخل منه مكان

فهو يقول (ان أحدهما من الآخر ، [1] وان كان الأول نسيبا والثاني مديحا) . والقاضي الجرجاني يتفق مع النقاد في أن الشاعر الآخذ من زميله معنى ما اذا أحسن عرضه أو أضاف اليه فالسرقة تكون محمودة ، وقد ضرب لذلك مثلا هو قول أبي تمام :

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى
بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها
من الجيش الا أنها لم تقاتل

فقد فضل هذين البيتين على أبيات الشعراء الذين تعرضوا هذه الصورة نفسها لأنه زاد عليهم زيادة حسنة بقوله (الا أنها لم تقاتل) وزاد عليهم أيضا بقوله (في الدماء نواهل) . أما ابن الأثير فقد قسم السرقات الى خمسة أقسام هي :

١ ـ النسخ ـ وهو أخذ اللفظ والمعنى ، من غير زيادة مأخوذ ذلك من نسخ الكتاب .

٢ ـ السلخ ـ وهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذ ذلك من سلخ الجلد .

٣ ـ المسخ ـ وهو احالة المعنى الى ما دونه ، مأخوذ ذلك من مسخ الآدميين قردة .

٤ ـ أخذ المعنى مع الزيادة عليه .

ه ـ عكس المعنى الى ضده .

ويمضي ابن الأثير فيقسم بعض المجالات هذه الى شعب أخرى لا داعي لذكرها هنا .

تأثير وتأثر وليس سرقة

ان بعضا من النقاد خففوا وقع السرقات والتمسوا للشعراء العذر .. من هؤلاء القاضي الجرجاني الذي قال (ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ، ثم العصر الذي بعدنا ، أقرب فيه الى المعذرةوأبعد عن المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق اليها ، وأتى على معظمها ...) ويعلل الدكتور محمد مصطفى هدارة السرقات الشعرية ، الى أهم أسبابها .. يقول (ان عناية عمود الشعر بالجزئيات دون أن يرسم معالم شاملة لأسرار الجمال الفني ، ضيق أمام الشاعر فرصة التجديد والابتكار في غير جزئيات التعبير وجعله محصورا في دائرة المعاني الجزئية ، وحدود الصفة اللفظية ، وأحيانا كثيرة في جزئيات التعبير التي حصر عمود الشعر ميدانها ..) ثم يرجع ليقول : (ان نهج القصيدة العربية القديمة قد حدد المجال أمام الشاعر أيضا . أما الذين أرادوا أن يجددوا ولو في هذا المجال الضيق ـ فقد قوبلوا بمعارضة شديدة من النقاد ... من هنا كانت قولة ابن الأعرابي مثلا في شعر أبي تمام إذا كان هذا شعرافما قالته العرب باطل)وها هو ابن قتيبة يقول (وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي ...) .

واذا كان الاجماع قد انعقد بين نقدة الشعر وقائليه من العرب على أن المعاني مطروحة أمام الجميع ،وأن العبرة في التعبير اللفظي ، فان كثيرا من النقاد والأدباء الغربيين قد ساروا على نفس الدرب ، فها هو (هيرد) يقول : « ان المعارف الانسانية تراث شائع ولكن عظمة الشعر تكمن في قدرة الشاعر على اخضاع هذه المعارف لتجاربه الخاصة » ، وها هو (الفرد هو سمان) يقول ان (الشعر ليس هو المعنى الذي يقال ، ولكن هو الطريقة التي يعبر بها عن هذا المعنى ...) وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن المادة الخام التي يشكل منها الشاعر قصيدته هي جملة من القراءات والمشاهد والافكار والذكريات والخبرات المختلفة أغلبها مأخوذة من العالم الخارجي أو عالم اللاشعور الجماعي أو منهما معا ، فمن الطبيعي اذن أن تجد صورة ماقد سبق لشاعر آخر أن رسمها ، أو معنى ماقد سبق لشاعر ذكره ، والعبرة هنا هي القدرة الفنية الخاصة التي يملكها الشاعر والتي عن طريقها استطاع أن يشكل هذه الصورة أو هذا المعنى ويسحب عليها أو عليه طابع روحه وبصمات وجدانه الخاص ، وقد تتبع باحث أثر قصيدة كولردج ، وعنوانها « Kubla Khan قوبلاخان » التي قيل إنه قد ألهمها وهو نائم فاكتشف أنه يرجع الى قراءات كولردج ، فنفس الفنان تستوعب ما ترى وما تختبر ، وتظل تختزن حصيلة ما يصل إليها عن طريق الحواس التي تصلها بالعالم الخارجي ، فضلا عن الموروث في اللاشعور الجماعي،ومن هذا الحشد العجيب تنبثق الصور والأفكار والعواطف في العمل الشعري ، ومن هنا ، انقشعت فكرة الالهام الغيبي ، وفكرة « شيطان الشاعر » في ضوء الدراسات النفسية الحديثة التي تناولت عملية الخلق الشعري . وقد فصل القول في هذا المجال الدكتور مصطفى سويف في كتابه الرائد « الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة » .

وفي ضوء هذه المكتشفات أسقط النقد الأدبي الحديث فكرة السرقات ، وعلى أساس فكرة التأثر والتأثير بين الآداب قام صرح الأدب المقارن . ■■

د . كمال نشأت

■ أسعد ساعات المرأة .. هي الساعة التي تحقق فيها أنوثتها الخالدة ... وأمومتها المشتهاة وتلك ساعة الولادة .

« عباس محمود العقاد »

المقاومة الشعبية في شمال المغرب :

الشريفان محمد أمزيان ومحمد ولد سيدي الحسن

بقلم الدكتور
عبد العزيز التمسماني خلوف

هذه صفحة مجيدة من نضال الشعب المغربي ، الذي تصدي للغزوة الاسبانية في القرن التاسع عشر .. وكان سلاحه الأول والأمضى هو : الجهاد .

موضوع المقاومة المغربية المسلحة في الشمال يكتسي أهمية قصوى نظرا للدور الخطير الذي اضطلعت به في رد التحدي الغربي والدفاع عن الوطن ، منذ احتلال سبتة سنة ١٥١٥ ، وسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ . فهذه المقاومة لم تكن وليدة الأمس . بل تبلورت كظاهرة تاريخية منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو التاريخ الذي بدأت فيه الهجمة البرتغالية والاسبانية الشرسة على المغرب . واذا لم يكن أبناؤه قد تعرضوا ، في تلك المرحلة التاريخية ، للابادة أمام الحملات الأيبيرية ، كما حدث بالنسبة لبعض شعوب أمريكا اللاتينية ، فذلك راجع أساسا إلى الحماس الذي أظهروه في الصمود أمام الطموح الغربي ، وإلى المقاومة المستميتة التي واجهوا بها الغزاة .

ولقد لعب القادة الاسلاميون دورا بارزا ، في هذه المرحلة ، باستنفار المجاهدين وقيادتهم إلى ساحة المعركة ، فنشأت رباطات جهادية قرب السواحل ، كحركة بني راشد في شفشاون ، وبني المنظري بتطوان ، وأتباع الامام الجزولي في الأصقاع السوسية . فأثارت هذه الصفوة الدينية حمية النفوس ، وألهبت العواطف لدرء الخطر الغربي ، وخلقت بذلك جوا مشبعا بالشعور الوطني . وهذا الشعور لم يكن مقصورا على جهة دون أخرى ، بل تبلور في كل المناطق المغربية .

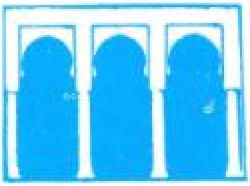
وبفضل هذا الالتحام ، ووحدة الصف ، تمكن المغاربة من إيقاف الغزو الأجنبي و محاصرته في المدن الشاطئية ، قبل طرده بعد ١٥٠ سنة ، حيث لم تبق بيده سوى مليلية وسبتة وبعض الجزر المتوسطية . ولا أدل على فعالية هذه المقاومة من أن البرتغال فقدت ملكها وجيشها على ضفاف وادي المخازن .

بداية المد الاوروبي

فالمد الأوربي الذي تمثل ، في مرحلته الأولى ، في شكله البرتغالي والاسباني ، لم يستطع قهر المغرب بفضل هذه المقاومة الشعبية المسلحة . لكن هناك حقيقة أخرى لا ينبغي أن نغفل عنها ، وهي ان البرتغال وإسبانيا دخلتا العصر الحديث دون أن تغير هياكلهما التقليدية ، وأنظمتها الاقتصادية . بمعنى أنها لم يستفيدا من التطور الذي عرفته القارة الأوربية على الصعيد البنيوي . فلم يمتلكا ، مثلا ، وسائل حربية جديدة . و بذلك ظل المغرب قادرا على الصمود أمامها .

ومع بداية القرن الماضي ، كان على المغرب أن يقاوم المطامع الأوربية التي أصبحت أخطر من السابق في عهد البرتغال والأسبان ، وتبلورت بشكل واضح ابتداء من ١٨٣٠ ، أي منذ دخول الفرنسيين الى الجزائر . في حدود هذا التاريخ ، كان المغرب من بين البلدان القليلة التي ظلت محافظة على كيانها ، الا أن اختلال موازين القوى بينه و بين أوربا ، التي امتلكت وسائل مادية ومعدات حربية جهنمية بفضل الثورة الصناعية ، أقول إن اختلال موازين القوى بينه وبين أوربا جعله غير قادر على الصمود أمام الخطر الفرنسي الجاثم على الحدود الشرقية . لقد وجد المغرب نفسه ضعيفا أمام تحديات فرنسا ، و أمام المخططات الامبريالية الأوربية الرامية الى تلغيم سلطته ونسف إصلاحاته ، وإبقائه بلدا ضعيفا محافظا على الأبنية التقليدية العتيقة . فاستطاعت فرنسا إزالة هيبته بهزيمته في إيسلي سنة ١٨٤٤ ، ثم توالت عليه عناصر الشر ، وتكالبت عليه قوى البغي ، وقد تجلى ذلك على إثر هزيمته مرة أخرى في حرب تطوان سنة ١٨٦٠ أمام إسبانيا . وعلى إثر هاتين الهزيمتين ، تغيرت طبيعة العلاقات المغربية الأوربية تغييرا جذريا ، وتعرضت السيادة الوطنية لشتى التدخلات الأجنبية في شؤون البلاد وإذا كان المغرب قد ظل محافظا على استقلاله الى غاية ١٩٠٢ ، فذلك راجع الى تنافس القوى الأوربية حوله .

وقد عملت فرنسا منذ ١٩٠٢ على وضع حد لهذا التنافس عن طريق سلسلة من الاتفاقيات الثنائية ، وفي نفس السنة التي أبرمت فيها مع انجلترة الاتفاق الودي (٨ أبريل ١٩٠٤) ، عقدت معاهدة أخرى مع اسبانيا (٣ أكتوبر ١٩٠٤) ، نصت على تقسيم البلاد الى منطقتي نفوذ بينهما . وفي نفس الوقت استغلت بعض الأحداث الطارئة للاحتلال العسكري . فاحتلت وجدة في عام ١٩٠٧ ، ثم الدار البيضاء والشاوية في أغسطس من نفس السنة . كما قامت اسبانيا بنفس العمل في المنطقة الشمالية ، فاحتلت الجزء الشرقي من الريف في صيف ١٩٠٩ ، والعرائش في يونيو ١٩١١ ، و القصر الكبير في العاشر من نفس الشهر ، وأصيلة في العام التالي وتدخل الى تطوان في سنة





١٩١٣ . وهكذا بدأ احتلال المغرب عسكريا قبل عقد الحماية الذي لم يبرم إلا في عام ١٩١٢ ، وهي السنة التي تم التوقيع فيها أيضا على اتفاقية ٢٧ نوفمبر الاسبانية - الفرنسية والتي حددت منطقة الاحتلال الاسباني .

وبطبيعة الحال فإن هذا المد الاستعماري ، قوبل بمقاومة مستميتة على الصعيدين العسكري والسياسي ، إلى أن استرجع المغرب استقلاله سنة ١٩٥٦ .

وفيما يخص المقاومة المسلحة في الشمال ، أرى أنها مرت بمرحلتين أساسيتين :

- المرحلة الأولى تنطلق من ١٨٩٣ الى ١٩٢١ ، وهي ما أقترح تسميتها بالمقاومة التلقائية .

- المرحلة الثانية ، وهي مرحلة يمكن تسميتها بالمقاومة العسكرية المنظمة .

وطبعا ، هناك مرحلة ثالثة ، اختلطت فيها الممارسة العسكرية بالعمل السياسي .

وسوف نقتصر هنا على استعراض المرحلة الأولى من المقاومة المسلحة في الشمال ، وهي مرحلة بالغة التعقيد ، شديدة الحساسية ، لان فيها من الاعتبارات الموضوعية ما يسبب لمن يتصدى لها بالدراسة بعض الحرج . في هذه المرحلة اتسمت المقاومة بكونها عفوية ، فهي تمثل ردود الفعل التلقائية ، والنضال البطولي الذي خاضته الكتل الشعبية ضد التدخل الاجنبي ، ففرضت ذاتها على مجرى الأحداث ، وكان هدفها هو القضاء التام على الاحتلال وتقويض أركانه . وهذا ما كان عليه الأمر أيضا في المناطق المغربية الأخرى ، حيث شاركت كل الشرائح الاجتماعية في هذه المقاومة الجماعيه سواء في المغرب الشرقي أو الشاوية ، أو الجنوب .

الشريف محمد امزيان

وحيث أنه يصعب تقصي هذا التيار الشعبي من كل جوانبه ، فإنني سأحاول أن أسلط بعض الأضواء على حركتين ، يمكن اعتبارهما من أبرز حركات المقاومة الشعبية في هذه المرحلة .

الحركة الأولى هي حركة الشريف محمد أمزيان . هذه الحركة لا يمكن فهم طبيعتها وسياق تكوينها إلا من خلال الرجوع قليلا الى الوراء ، أي خلال الفوضى التي شهدتها منطقة الريف في أواخر القرن الماضي لقد كانت جزيرتا النكور وبادس تمثلان أهمية قصوى بالنسبة للمغرب ، باعتبارهما منفذين تجاريين ، لذلك اهتم سلاطين المغرب باسترجاعهما ، إلا أن هذه الجهود باءت بالفشل لافتقار المغرب إلى أسطول بحري . ولذلك فقد اكتفى بفرض حصار عليهما ، وتكفلت القبائل المحلية بهذه المهمة ، وخاصة قبيلتي قلعية وبني ورياغل ، فضربت حصارا محكما على الجزيرتين ، مما جعلهما يتمولان من إسبانيا بما في ذلك مادة الماء . وقد ازدادت القبائل الريفية حماسا في ضرب هذا الحصار بعد احتلال الجزائر ، الذي بلور الأخطار الأجنبية على المغرب . غير أن انهزام المغرب في حرب تطوان ، جعله يقدم بعض التنازلات للاسبان في ناحية مليلية كان من شأنها أن تفك الحصار المضروب على الجزيرتين ، مما خلف وقعا سيئا وسط الريفيين . وكانت هذه التنازلات بداية لمرحلة جديدة ، اذ أخذ الريفيون يبحثون عن قيادة أخرى لتعبئة الطاقات ضد الأسبان . وقد تمثلت هذه القيادة ، اولا ، في بروز شخصية دينية ذات نفوذ محلي ، هو الشيخ ميمون . وبقيادته قام الريفيون بعمليات حربية ضد الاسبان خاصة سنة ١٨٩٣ .

وعندما ظهر الجيلالي الزرهوني المعروف بكنية أبي حمارة ، في الريف ، قام الريفيون بالترحيب به ، والالتفاف حوله ، لأنه تقمص شخصية المولى محمد ، ورفع شعار الجهاد ضد الأجانب ، غير أن هذا الأخير سرعان ما انكشف أمره ، خاصة بعد تنازله للاسبان عن بعض المناجم في الريف ، فحاربوه ، و طردوه من الاقليم ، واتجهت أنظارهم بعد ذلك الى شخصية جديدة جسدت الروح الحماسية و الارادة الكفاحية لديهم ، وهو الشريف محمد أمزيان . فعندما ظهر هذا الأخير على مسرح الأحداث في الريف سنة ١٩٠٩ ، كانت اسبانيا قد قررت استئناف أشغال المناجم بالريف ، مستغلة موسم الحصاد وتوجه كثير من الريفيين إلى العمل في الجزائر ، الا

ان أمزيان وقف لها بالمرصاد و قام بدور كبير في استنفار القبائل حتى إنه كان يطوف بالأسواق لاستنهاض هممها . وبناء على دعوته ، انعقد في يوليو ١٩٠٩ ، مؤتمر عام في قبيلة مزوزا ، تقرر في أعقابه خوض غمار الحرب . وبالفعل ، فقد عمدت جماعة من الثوار ، منذ ٩ يوليو ، إلى مهاجمة الأسبان العاملين في منجم القبيلة البويفرورية ، وأرغموهم على الفرار ، بعد أن خلفوا في الميدان ستة قتلى . وكان جيش الاحتلال ينتظر الفرصة المناسبة للتدخل ، فتحرك لحماية المناجم ، وعسكر فيما بين السفح الشرقي لجبل كركو والبحر . وقد شعرت إسبانيا بالحماس الثوري الذي ساد الريف ، مما جعلها تستورد مزيدا من الوحدات العسكرية من اسبانيا .

وفي ٢٣ يوليو ١٩٠٩ ، شن الاسبان هجوما جديدا ، غير أن الريفيين كانوا قد أعدوا عدتهم ، و تمكنوا من ارغامهم على التراجع نحو مليليه بعد تكبيدهم خسائر فادحة . و قد خلفت هذه المعارك داخل إسبانيا انعكاسات عميقة ، فقامت حركة إسبانية تدعو الى وضع حد للمغامرة الأسبانية في اقليم الريف ، و قامت عدة مظاهرات صاخبة ، أعظمها مظاهرة برشلونة في ٢٦ يوليو ١٩٠٩ ، التي اضطرت معها الحكومة الأسبانية إلى إعمال السلاح وفرض الأحكام العرفية ، في حين تزايد حماس الريفيين ، وكبدوا العدو بعد أربعة أيام هزيمة جديدة في وادي الذيب ، قتل فيها الجنرال بنطوس **Pintos** وعدد من كبار الضباط . و بفضل الذخائر و العتاد الحربي الذي غنمه الثوار ، تمكن أمزيان من رفع مستوى الكفاح . وعندما تمكنت إسبانيا من القضاء على المعارضة الداخلية ، عبأت أكثر من أربعين ألف جندي لمواجهة حركة أمزيان . و بالرغم من أن هذا الأخير حقق انتصارات جديدة خلال سنة (١٩٠٩) ، فان اختلال موازين القوى بين الطرفين مكن إسبانيا في الأخير من توسيع رقعة الاحتلال بعد استشهاد الشريف أمزيان في مايو ١٩١٢ .

وهكذا فقد أظهرت تجربة محمد أمزيان فعالية تواجد قيادة محلية تنبع من الوسط القروي ، وتقوم بتعبئة الطاقات لصد الغزاة . بيد أن مقتله أحدث فراغا على الصعيد القيادي استغلته إسبانيا لتدشين سياسة التسرب السلمي . وانطلاقا من مليلية وجزيرتي بادس والنكور تمكنت من استقطاب الشخصيات ذات النفوذ والداعية الى المهادنة . وبذلك فقد تقوى « حزب أصدقاء إسبانيا » ، الذي اضطلع بمهمة تأجيج الخلافات بين القبائل الريفية قصد شل المقاومة الشعبية ، وإحباط كل محاولة ترمي إلى توحيد الجهود لخوض الكفاح . مع ذلك ـ وهذه هي النقطة الأساسية ـ فان إرادة المقاومة ظلت سائدة وسط



القبائل ، وكانت تنتظر الفرصة المناسبة لتتفجر من جديد . وهذا ما سيحدث بعد حوالي عشر سنوات ، حينما ستلتف القبائل حول محمد بن عبد الكريم . وهناك حقيقة أخرى ، هي أن كثيرا من الريفيين بدأوا ، بعد استشهاد أمزيان ، يتقاطرون على الجبهة الشمالية الغربية لتعزيز المقاومة الشعبية الأخرى التي كان يقودها الشريف العلمي محمد ولد سيدي الحسن ، وهي الحركة الثانية التي اخترتها كمثال ثان للمقاومة الشعبية التلقائية في الشمال ضد الاسبان .

وأشير باديء ذي بدء الى أن هذه الحركة ما يزال يكتنفها كثير من الغموض ولا يوجد فيما أعلم ، تقييم موضوعي لها ، كحركة قادتها الشرائح الفقيرة الفلاحية للصمود في وجه الغزاة . بيد أن الرجوع الى الوثائق من شأنه ان يساعدنا على استجلاء طبيعة هذه الحركة الجبليه . فوثائق قصر فانسين و محفوظات وزارة الخارجية بباريس ، والمصلحة التاريخية العسكرية بمدريد ، كل هذه الدور تقدم مواد وعناصر تاريخية تبرز جوانب من حركته وتساعد على التعرف على اشكال المعارك التي خاضها المجاهدون تحت قيادته ، ابتداء من الهجمات الخاطفة الى الحروب الدفاعية ، كما أنها تحدد جبهات القتال والرباطات الاستراتيجية التي تم تأسيسها في نواحي تطوان ، وتتحدث أخيرا عن القبائل الغمارية والهبطية التي انضمت اليه . وهي بذلك تقدم لنا معلومات قيمة ، ولكن ينبغي التعامل معها بحذر وتطعيمها بالوثائق المغربية .

محمد ولد سيدي الحسن

ينتمي الشريف محمد ولد سيدي الحسن الى شرفاء بني عروس ، وان مقره الأصلي مدشر تكزارت قرب تازروت (بشمال المملكة) . وكانت هذه الشخصية الدينية تحظى بالنفوذ وسط القبائل الجبلية ، وتمثل حركته رد الفعل الشعبي الذي تبلور مباشرة وبصورة تلقائية بعد احتلال تطوان سنة ١٩١٣ . وفي هذا الصدد يقول الفقيه أحمد الرهوني في مخطوطه : « ثم ان القبائل الجبلية قامت وقعدت لهذا الاحتلال وعقدت الاجتماعات الكثيرة فقر رأيها على محاربة الدولة الحامية ونصبوا على أنفسهم أميرا وهو الشريف سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي الحسن العلمي وأسسوا رباطا بمدشر دار ابن قريش وآخر بمدشر أبي زيان الودراسي وآخر بمدشر مدينة الحوز ونصبوا الحصار على تطوان وقطعوا الطرقات » .

لقد تمكن إذن ولد الحسن من قيادة القبائل الجبلية للجهاد ضد الاسبان ، ولقيت حركته تأييدا واسعا ، كما تفصح الوثائق عن ذلك ، فقد فر كثير من أهل تطوان ، والتحقوا بصفوفه ، كما استقطبت حركته طاقات بشرية أخرى بتوافد القبائل عليه من جهات بعيدة كالريف ، وغمارة . وبذلك تمكن من أن يفرض حصارا محكما على تطوان ، ويهدد بصورة جدية قواعد الاحتلال الأجنبي بها .



وقد حاولت إسبانيا بمختلف الوسائل ، عن طريق المقيم العام فيليبي ألفاو وخوسيه مارينا احباط حركته ، فوجهت له رسائل تهديدية ، كان يرد عليها بحماس تتجلى فيه إرادة المقاومة ، واستعداده لمواصلة الكفاح إلى آخر رمق . وقد عثرنا على بعض هذه الرسائل الجوابية ، منها رسالة موجهة إلى المقيم العام الجنرال خوسيه مارينا ، وهي مؤرخة في ٢٦ محرم ١٣٣٢هـ ـ ٢٥ ديسمبر ١٩١٣ ، جاء فيها :

« بلغنا مسطورك أولا وثانيا ، وقد أكدت علينا الآن في كتابك الثالث بأنك عازم على إطلاق القنابل والكور من المناطيد الطيارة في المداشر والقرى والأسواق وقد أخبرتنا بهذا شفقة على نساء المسلمين وصبيانهم ، وأول ابتداء ذلك عندك يوم الجمعة . . . فأما ما كان من اطلاق القنابل والكور من المناطيد الطيارة فذلك لا يهمنا . . وقد تحققنا قلة عقلكم وعدم سياستكم حين صدرتم ذلك في كتابكم لأن ذلك والعدم سواء فيا يقتل منا رجل واحد حتى يقتل منكم عدد مع زيادة فساد الكور وإقامة المواكن . . . والرجل لا بد أن يقتل على دينه وماله وعرضه لأنكم عزمتم على تملك رقاب المسلمين وأعراضهم وخروجهم عن دينهم » .

وقد تركت لنا المصادر العسكرية الاسبانية معلومات عن الجهود العسكرية الضخمة التي بذلتها إسبانيا للقضاء على حركته ، تلك الجهود التي قادها أشهر القادة العسكريين من أمثال برنكر وبريمو دي ريفيرا . ومع ذلك فقد استمر ولد سيدي الحسن عقبة كأداء أمامها وكبد العدو خسائر جسيمة خلال هجوماته الخاطفة . غير أن حركته منيت في الأخير بالفشل بسبب الانقسامات الداخلية التي كانت تغذيها إسبانيا وعملاؤها .

لقد تمثلت المقاومة المسلحة بشمال المملكة في التيار الشعبي الذي لم يكن يعرف أية وسيلة للتعامل مع الاسبانيين سوى وسيلة الجهاد . وهي بذلك لم تكن من صنع شخص بعينه ، فالبطل الذي خلق ملحمة المقاومة أسطورة تتنافى والواقع التاريخي . فالجماهير العريضة والكتل الشعبية القروية هي صانعة الأحداث . ولم يكن الشريفان أمزيان وولد الحسن سوى تجسيد لهذه الارادة الشعبية . إلا أن هذا لا ينبغي أن يقلل من دور هؤلاء القادة . ففضلهم يكمن في تفطنهم إلى هذه الطاقة الشعبية وإلى توجيهها وقيادتها . ■■

طنجة ـ د . عبد العزيز التمسماني خلوق



هان سوين أديبة من الصين

بقلم : محمود قاسم

لايمكن أن نرصد حياة كاتب من بلد دون أن نربط هذا الكاتب بحركة الادب في بلاده . وعليه فلا يمكن ان نتحدث عن الكاتبة الصينية « هان سوين » دون أن نهمل الحركة الادبية في الصين . . .

ولاننا نكتب عن اللغة الفرنسية . . . فسوف نحاول القاء الأضواء على الادب الصيني المعاصر من خلال الترجمات التي شهدتها المكتبة الفرنسية في السنوات الاخيرة . . . قد تكون مثل هذه الكتب عنوانا للثقافة في الصين . . . وقد تمثل عينة عشوائية للحركة الفكرية هناك . . . .

شهدت العاصمة الفرنسية خلال الاعوام الثلاثة الماضية حركة واسعة في ترجمة الاداب الصينية الحديثة الى اللغة الفرنسية . . ولم تكن مثل هذه الاداب لتظهر دون حركة ترجمة واسعة . . . وهذا ما تنادي به . . اذ انه من المعروف ان دول العالم الثالث تتعارف على بعضها البعض من خلال ما ينشر حولها في بلاد الغرب . . . وهذه الكتب التي ترجمت لم تقتصر على فن دون آخر . . . فهناك الرواية والشعر والمسرح . . والاعمال الموسيقية . . فضلا عن افتتاح سينمائي شهد منه كل من مهرجاني كان والقاهرة للسينما في دورتيها الاخيرتين .

تقول مجلة الاكسبريس الفرنسية انه في الفترة من نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٧٨ الى مارس (آزار) ١٩٧٩ فان الشعب الصيني قد استيقظ على زهرة جديدة تفوح منها رائحة الديموقراطية . وحول هذه المرحلة الانتقالية في تاريخ الشعب الاصفر ظهر كتابان أولهما « عش العندليب لم يصنع ربيع بكين » الذي قدمه الكاتب هوانج ستان وهو مدرس بجامعة الصين الشعبية يعيش في اوروبا منذ فترة طويلة ثم عاد الى هونج كونج واستقر بها . . أما الكتاب الثاني فهو « ربيع بكين » الذي قدمه ايضا الكاتب الفرنسي فيكتور سيدان . . . وهذان الكتابان ركزا على المرحلة الانتقالية التي تمر بها البلاد بعد موت الزعيم ماوتسي تونج . . . . وفيهما يركز الكاتبان على المعالم الجديدة لهذه المرحلة ، تستلزم الديموقراطية خطا من التوازن الذي يعبر تاريخ الصين الحديثة والثورية . . . شيانج كاي شيك قام بتجميع تحالف كل القوى الحيوية في الصين ورفض الديمقراطية . ، ماو ، يكسبهم وهو يعدهم بها . انه يمارس ديمقراطيته . فالديمقراطية التي يتحدث

حولها العالم ؟! ليست الافضل . هناك جيل كامل عليه ان يصنع ثورة ثقافية تختلف » .

ومن بين الكتب التي برزت اخيرا في الساحة الادبية في فرنسا « حلم في الراية الحمراء » لكاد اكسوكين الذي يتناول سلوك بادبوا وريث احدى الاسر الثرية الذي ولد وفي فمه ملعقة من الذهب . لقد باركته سماء بوذا . يحلم الفتى . انه ينام في ارض واسعة تعلوها العديد من الرايات . انه حلم مضاد لما حلمه يوما الامير بوذا قبل ان يذوب في النرفانا .

واشهر الاسماء في الصين الان هو الكاتب العجوز با ـ كين الذي ترجمت له الى اللغة الفرنسية روايتان هما (الليلة المثلجة) و (اسرة) وينتهي حاليا من اعداد روايته المعنونة « العيون الجميلة » التي يتحدث عنها قائلا « رواية قصيرة تصف معاناة رجال الفكر الصيني ابان الثورة الصينية . كتابة هذه الرواية تثير العذاب لانني ربطتها بالاحداث التي تمسني عن قرب . اتكلم فيها عن زوجتي التي عانت كثيرا وماتت وهي بعيدة عني » .

وبا ـ كين الذي يبلغ الثالثة والسبعين من العمر يعمل الان كرئيس لاتحاد الكتاب في الصين الشعبية . ويرأس تحرير جريدة « واجو نجباو » التي تصدر في هونغ كونغ وقد اضطهد اكثر من احد عشر عاما (١٩٦٦ ـ ١٩٧٧) حين اتهم ان اعماله تناصر الاقطاعية .

الشجرة الجريحة

أما هان سوين التي نحن بصدد الحديث عنها فهي الكاتبة الصينية الاكثر توزيعا وشهرة في العالم .. لانها تعيش بين بلادها وبين اوروبا .. ويبدو ان هان تكرر نفس المأساة المعروفة من ان الاداب في العالم الثالث لا تجد لها منفذا الا من خلال كاتب غربي عاش في البلاد ، أو أن يعيش الكاتب القادم من هذه البلاد في بلاد الغرب ... فبعد السنوات التي عاشتها بيرل في الصين وعبرت عنها اعتبرنا ان هذه الكاتبة قد اجادت التعبير عن بلاد الالف مليون نسمه ... سومرست موم كتب العديد من رواياته عن فترة عاشها في بلاد شرق آسيا .. الكاتب الصيني لوسيان بودار عاش في الصين ايضا بعض سنوات من حياته ونال جائزة جونكور في العام الماضي عن روايته « آن ماري » التي صور فيها بعض صفحات من حياة امه الصينية الجنسية . هذا الكاتب لم يكتب كثيرا عن الصين وان كان النقاد يضعونه في مصاف كتاب الصين .

وهاهي هان سوين تؤكد نفس النظرية .. وكان يمكننا ان نعتبرها كاتبة اوربية جاءت من الصين لولا التصاقها الشديد ببلادها وبتاريخها .. وبكتابة العديد من الروايات والكتب السياسية حول هذه البلاد . وتتحدث هان سوين المولودة عام ١٩٢٠ : « ابي صيني وامي بلجيكية . اذن فانا أورو آسيوية . عشت في اوروبا وامريكا مثلما عشت في الصين ، انا امرأة من العالمين . وانا اعتقد انني قد وضعت بصفة عامة في مكان جيد كي اقدم لكل طرف جوانب الطرف الآخر . وهذا شيء ضروري » .

« وهذا الشيء اكثر ضرورة لاوروبا منه الى الصين . فلأن الصين « شيء هام » فمن الاحرى ان تفهم الثورة الصينية . وانتم يارجال الغرب . قد يبدو هذا الامر بالشيء البسيط لانكم ترون دائما قصصا غبية . » .

وتقول هان سوين في حديث اجرته معها مجلة ماري فرانس في اغسطس (آب) ١٩٨٠ « لم اقل قط ان الصين جنة . ولم احاول ان اقول انها عالم رائع . على كل الناس ان يفعلوا ما فعلته .. لا .. لا لم اقل ابدا ان الثورة الصينية بلا اخطاء أو نقائص .. لكنني اقول ان هناك شيئا عظيما فيها . فهي تجربة عالية يحتذى بها .. وبعد كل شيء فاننا نعرف أن الثورة الفرنسية كان بها بعض الارهاب والسلبيات العظيمة » « لكنني أحاول أن أطرح جانبا هذه المزاعم الفردية . اقول عندما اقدم كتبي «هذه هي الصين » .

قضت هان سوين الفترة الاولى من حياتها في بلادها داخل اسرة تنتمي الى طبقة الاثرياء . ذلك قبل ان يأتي الى البلاد صن يات صن ثم ماوتسي تونج .. شهدت فترة الانتقال الرهيبة التي مرت بها بلادها فتشبعت بمشاكلها ومعاناتها .

ومن بين اعمالها العديدة المتناثرة نشرت هان سوين ثلاثة كتب تحدثت فيها عن سيرتها الذاتية هي : « زهرة ميته » و « الشجرة الجريحة » ثم « صيف بلا طيور » . وفي هذه الكتب تتناول حياتها العائلية وعلاقة اسرتها الثرية بمشاكل بلادها .. ثم نشرت في العام الماضي احدث هذه الكتب بعنوان « هناك بابان لمنزلي » وفيه تتحدث عن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي ظهرت فيها الثورة الثقافية . كانت هان قد حصلت على شهادة كلية الطب وانفصلت في تلك الفترة عن زوجها الاول « بو » الذي كان يعمل بالسلك الدبلوماسي ومعاصرا لتلك الفترة السياسية التي ظهر فيها شانج كاي شيك . تقول هان ان

زوجها كان يسعى دائما الى اذلالها واهانتها . . وكان يتعمد أن يجعل جنوده يضربونها امام عينيه امعانا في اذلالها . . وبعد ان حصلت على الطلاق من زوجها ترافق ابنتها التي تبنتها يونجماي الى مدينة هونج كونج . حيث تعمل طبيبة في احد المستشفيات وتنجح في ممارسة عملها ويزداد نشاطها المهني والفكري . فهي في الصباح طبيبة ناجحة اما في الليل فانها تظل جالسة الى ساعة متأخرة امام آلتها الكاتبة تكتب رواياتها . . وقد شاركت هان في تلك الفترة في انشاء الجامعة الصينية بسنغافورة وشاركت البعثات الاثرية في جمع الآثار الصينية القديمة كي تضمها الى متحف كوالا لامبور . وفي تنظيم اقامة المعارض . . تقوم بانشاء المنازل التي تؤجرها الى هؤلاء القادمين من الصين الى سنغافورة وماليزيا . . . شاركت في انشاء العديد من العيادات . . واقامت مؤتمرا حول رياضة اليوجا . . لم تكن تكف عن السفر طيلة العام . . من هونج كونج الى سنغافورة وماليزيا والهند حيث تزوجت من هناك « احب الهند كثيرا . عشت فيها اكثر من عشرة اعوام . . وتباحثت مع الحكومة الهندية في مشكلة الحدود مع الصين وفكرت ان هذا العائق سوف يحل بأية صورة ممكنة . . . » .

« لم اقل في تلك الفترة للهنود ان افعلوا مثل الصينيين . ولكني ادركت انهم يؤمنون بالاسلوب الصيني لان البلدين مشكلتهما المشتركة هي زيادة النسل . وتنظيم الاسرة شيء هام في كل من الصين والهند . الا تعرف ماذا يحدث عندما يصل رجال التخطيط الى احدى القرى الهندية ؟ . انهم يقبضون على كل الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والستين ويقومون بتعقيمهم دون مشورتهم » .

وفي هذه الفترة تنشر هان سوين روايتها الاولى « العظمة المتزايدة » التي تجلب لها شهرة في كل انحاء العالم . . فتدعوها بعض دول الغرب لزيارتها والقاء محاضرات عن العالم الثالث . ومن هذه الدول السويد وفرنسا . . وفي عام ١٩٥٧ دعاها المؤتمر الافرو آسيوي بالقاهرة لحضور جلساته . كما حضرت ايضا مؤتمرا حول الطب في العالم الثالث ببرلين الغربية . . . ودون ان يدعوها احد قامت بنفسها باستقبال نهرو في ليلة اندلاع الحرب بين كل من الهند والصين .

وقد زارت هان سوين مصر في اوائل الستينات وكتبت مقالا حول منطقة النوبة انتقدت فيه بعض مظاهر الحياة في تلك المنطقة . ثم قامت بزيارة مماثلة لماليزيا ابان الاحتلال الياباني وانتقدت العديد من الاوضاع هناك ايضا .

باركين أمع أدباء الصين المعاصرة

معالم الرحله

وربما ساعدها عدم ارتباطها برجل في تلك الفترة في ازدياد نشاطها . فهي لم تحاول التعرف على العالم الثالث من خلال ما تنشره الصحف في الغرب حوله . لكنها قامت بزيارة العديد من هذه الدول تتفحص مشاكلها وتكتب عنها . . وتلتقي بالمسئولين فيها . وكانت تستقبل في الكثير من الاحيان استقبالا رسميا في دول مثل نيبال والملايو واندونيسيا .

وتقول هان سوين ان نهرو هو اكثر الزعماء الذين قابلتهم سحرا وتقول انها تزوجت من رجل مات في كوريا وحزنت عليه كثيرا ، لكن فجأة بعد ثلاثة اسابيع من وفاته جاءتها رسالة من احدى عشيقاته التي لم تكن تعرف بخبر وفاته . . وتتزوج هان للمرة الثالثة من قائد هندي الذي يعمل في علوم الطبيعة . « انت كل الارض . لقد وهبتني الحياة » وتقول له « اول شيء في حياتي هو الصين ثم هناك يونجماي ثم أنا وانا ليس لي سواك » .

وقد ترجمت في السنوات الأخيرة مجموعة من الروايات التي كتبتها هان سوين الى العديد من لغات العالم لدرجة انها كتبت باللغة الانجليزية مباشرة بعض الكتب . كي تكون اقرب الى قلب الرجل الامريكي والاوربي ومن بين رواياتها المشهورة . « حب الشقاء » و « انت ظلي » ثم « الوجوه الأربعة » .

وفي السنوات الأخيرة بدأ نشاط الكاتبة يزداد كثافة ايمانا بقضايا بلادها . . فقامت بكتابة مجموعة من الكتب السياسية نشرتها في لندن منها « الصين عام ٢٠٠١ » عام ١٩٦٧ و « آسيا اليوم » ١٩٦٩ ثم « الريح في البرج » عام ١٩٧٦ ثم كتاب عن حياة الزعيم الراحل ماوتسي تونج بعنوان « اول يوم في العالم » ترجم الى الفرنسية عام ١٩٧٦ .



لوسيان بودار أديب صيني يعيش
جونكور في فرنسا ونال جائزة .

وتقول هان سوين عن معاناتها كامرأة في السنوات الاولى للثورة . حتى عام ١٩٤٩ كان الأباء هم الذين ينظمون الزواج دائما . لكنه في عام ١٩٥٠ بدأت المرأة تكتسب الحق في ان تتزوج عن طريق الحب . لكن هل هذه هي الثورة ؟

« وماذا عن الأرامل ؟ لم يكن للأرامل الحق في الزواج فيما قبل . اما في عام ١٩٥٦ . بعد ست سنوات من الثورة ـ جرؤت أرملة ان تتزوج . لقد غيرت الثورة العادات » .

« عندما نتكلم عن الحرية الشخصية علينا أن نبدأ من القاعدة . والحديث عن حرية القاعدة . هل تنتمي ام لا ؟ يمكنك اليوم ان تجد الحرية الشخصية مجسدة في الصين المعاصر » باسلوب لم يكن يوجد في الصين القديمة .

عندما تزوجت لأول مرة من رجل صيني لم أكن أعرف أدنى قدر من الحرية . كان يمكنه ان يقتلني لأن للرجل الصيني الحق في ان يقتل زوجته . اليوم اختلفت الأمور .

عندما يحدثونى عن الحرية أقول : لا تفكر فيها وانت جالس في منزل فخم بفرنسا وأمامك أشهى المأكولات . الحرية بالنسبة لك أشبه بالكافيار . شيء لا لزوم له . اما الحديث حول حرية ناس ليس لهم حرية الطعام والزواج والمعيشة ويدركون ذلك تماما فيختلف .لأنه بدءا من الآن سوف نتجه جميعا نحو الحرية .

لست شيوعية

وبالرغم من اعجاب هان سوين بتجربة بلادها التي مرت بها خلال الثلاثين عاما الماضية . واعجابها الشخصي بماوتسي تونج الذي كتبت حوله كتابا وذكرته في العديد من كتبها كبطل قومي . بالرغم من ذلك فانها تقول : لست شيوعية لانني امرأة . ولا اعتقد انني ذلك . قيل انني كلاسية ولا أفهم ماذا يعنون . قد يعني ببساطة انني اقول الحـ… : أنا لا أؤمن بأية نظرية . فقط ان انظر وارى اذا …ت الأمور تسير أم توقفت .

● هان سوين

وهان سوين مؤمنة الى حد بعيد بحركة المرأة في بلادها . وهي تدافع عن هذه الحركة . فالمرأة في الصين هي التي تعمل في الحقول . في المصانع . ترتدي الملابس الخشنة مثل الرجال . وهان نفسها اشتركت في مثل هذه الأعمال داخل وخارج بلادها . . وتقول عن هذه التجربة « حرية المرأة في الصين ليست مثيلتها في بلاد الغرب . . قائمة على كراهية الرجل . . ليس من العدل ان نكره الرجل وان نقول اننا نساء نواجه رجالا . نحن نؤمن انه على الرجال والنساء أن يعملوا معا من أجل حريتهم وهذا شيء يحدث في الصين . . من أجل سنوات قادمة أفضل . ونتيجة لاهمية هذا الموضوع فسوف أقدم كتابي القادم حوله[٢] . .

« عرفت ولست وضعية المرأة في الصين القديمة . . أنا امرأة مطحونة . واتذكر انني قلت هذا في باريس منذ اثني عشر عاما . قلت : أنا امرأة مطحونة » حينذاك انفجرت النساء في كل انحاء الصالة صارخات « ونحن أيضا . . ونحن أيضا » .

« حرية المرأة في الصين هي جزء من التيار المتدفق لكل العالم . لكن للمرأة اسلوبها الصيني الذي تعيش به . الحركة تختلف قليلا . نحن لانعاني من مشاكل حول الجنس ونعتقد ان الحرية الجنسية يمكن ان تصبح عبودية أخرى .

« هناك شيء آخر . فللمرأة الحق في أن يكون لها عدد من الأطفال كما تريد . انها هي التي تقرر وليس الرجل » .

هان سوين امرأة تعكس الوجه الصادق للصين المعاصرة . وهي ترى ان عليها ان تحنك أكثر بمشاكل بلادها . فهي لا تكف عن العطاء حتى بعد ان تجاوزت الستين ببضعة أعوام . انها لا تزال تكتب ليلا حتى ساعة متأخرة من الليل . . أما النهار فهو ميدان رائع للعمل . حضور مؤتمرات . . الدفاع عن قضايا بلادها . . عن الرجال والنساء هناك . . والقاء أضواء حقيقية مشعة حول هذه البلاد لكل وسائل الاعلام في مختلف انحاء العالم . ■■

محمود قاسم

٦ غدد تصنع شخصيتك

بقلم الدكتور : ابراهيم فهيم

أستاذ بكلية الطب ـ جامعة حلب

في جسم الانسان ست غدد صغيرة تتراوح احجامها بين حجم حبة البازلاء وحجم البيضة ، وهي لو وضعت معا في الميزان لبلغ وزنها نحو رطل تقريبا . ومع ذلك فعليها يتوقف طول الشخص أو قصره ونحافته أو بدانته . وسرعة تفكيره أو بطئه وهدوء طبعه أو حدته وسرعة غضبه .

انها الغدد الصم ، التي لها القدرة على تغيير اخلاقنا أو شخصياتنا الى حد نعجز عن تصوره ، فلو أن واحدة منها أو اثنين اضطربتا في تأدية وظائفها فقد يصبح الرجل الحكيم « أبله » أو المرأة الفاضلة شيطانة .

فاذا أخفقت الغدة الدرقية التي توجد في مقدمة الرقبة في صنع القدر المناسب من الهرمون في الطفولة وقف نمو الطفل العقلي والجسمي وتشوه شكله ولو بلغ عمره ٢٨ عاما فان نموه وادراكه يظلان لطفل في الرابعة . أما اذا حدث هذا الاخفاق بعد سن البلوغ فانه يسبب تورما بالجسم ، كما يسبب الصلع والبله والضعف الشديد .

ولكن ماذا يحدث اذا زاد افراز هذه الغدة لسبب ما كما يحدث عادة بعد الصدمات النفسية الشديدة .. ان حيوية الجسم وحدة الذهن تتضاعفان بدرجة يدوى معها البدن ويسرع النبض ، ويصبح العقل في حالة نشاط متواصل وبغير علاج لايلبث الشخص أن يقضي على صحته ، هذا بالاضافة الى جحوظ العينين .

تغيرات المزاج

والى جوار الغدة الدرقية في الرقبة توجد مجموعة من الغدد الصغيرة تعرف باسم جارات الدرقية وهي ذات أهمية حيوية بالنسبة للانسان فبدونها تتقلص عضلات الجسم وتنتهي حياة المصاب . وأثر هذه الغدد على الشخصية قوى أيضا فاذا ما افتقر الشخص الى النسبة الصحيحة من هرمونها أصبح سريع الضجر ، حاد الطبع ، مرهف الحساسية فينفجر غاضبا لاتفه الاسباب . ويقال ان هتلر في أخريات أيامه أصيب باضطراب هذه الغدد ، وأغلب الظن أن هذه الغدد هي سبب التغيرات اليومية في الأمزجة التي نصادفها جميعا ، فهي حين

تضطرب تبدو الحياة قاتمة مظلمة ويبدو كل شيء في نظرنا معاديا لنا ، وحين تكون الغدة صحيحة ، تصبح نظرتنا الى الحياة خلال منظار وردي اللون .

وكما هو الحال في جميع الهرمونات ، فان زيادة هرمون هذه الغدة مضر مثل الاقلال منه ، فالعظام في هذه الحالة تصبح هشة سهلة الكسر ، ويضعف الذكاء وينعدم الطموح ، والعلاج هنا ينحصر في ازالة الغدد المريضة جراحيا .

ويهيمن على التوازن الكيماوي للجسم ثلاث غدد صغيرة لايزيد وزنها جميعا على ثلث الاوقية ، هي الغدة النخامية الموجودة في قاع الجمجمة والغدة الكظرية الموجودة في أعلى كل كلية . وعندما يتعرض الانسان للبرد ، مثلا ، تفرز هذه الغدد هرمونات تضيق الاوعية الدموية ، وترفع ضغط الدم وبذلك تحتفظ للجسم بأكبر قسط من التدفئة .

وعندما تغزو الجسم ميكروبات تقوم هذه الغدد بمهمة اقامة الاسوار والحواجز لرفع المقاومة ، وفي حالات الجروح البليغة تعمل هذه الغدد على سرعة تجلط الدم وخفض ضغطه ، وبذلك تجتهد في وقف النزيف تلقائيا ، كما تزيد مقدار السكر في الدم وتحرره من مخازنه لتعطي للجسم وقودا سريعا وتقلل الاحساس بالالم ، وهكذا يمكن التغلب على الصدمة .

ومن ذلك يتضح أن هذه الغدد الثلاث هي بمثابة القيادة الواعية التي ترسل جنودها البواسل لتدفع عن الجسم كل بلاء يطرأ عليه من الخارج أو من الداخل .

ونحن في حياتنا اليومية مشغولون دائما قلقون أبدا ، وهكذا تلقى هذه الغدد الثلاث ضغطا مستمرا ينبعث من نفوسنا المثقلة بأعباء الحياة .

وتجتهد هذه الغدد الصغيرة في الصمود أمام الضغط المستمر عليها فتظل تقذف بهرموناتها في الدم ، وتنجح في مبدأ الامر في مجابهة هذه الطوارىء . ولكن عندما تزول عن هذه الاحداث صفة الطوارىء ، وتظهر صفة الاستمرار تفشل كل الجهود في مجابهتها . فتتصلب الشرايين ويرتفع ضغط الدم ويمرض القلب ويلتهب الجلد وتتورم المفاصل .

وهكذا يتعرض الانسان لأمراض متنوعة مبعثها القلق والعصبية والتفكير الدائم والهم المكبوت ، الذي يلقي عبئا ثقيلا على مركز القيادة في هذه الغدد المسئولة عن تنظيم حيوية الجسم .

أما مدى احتمال الانسان لهذه المؤثرات فيتوقف على مقدرة هذه الغدد على مواءمة الجسم لمجابهة الموقف ، واننا لنجد الحادث الواحد يسبب في الناس آثارا مختلفة ، فهو عديم الاثر في البعض ، وهو صدمة عصبية في البعض الآخر ، وهو أحيانا انهيار تام يحث على التخلص من الحياة نفسها على النحو المثير الذي تطالعنا به الصحف ، والذي يدهش الكثيرون لتفاهة أسبابه .

غدة تتحكم في الطول

فهرمون النمو الذي تفرزه يكسب الشخص في حالة زيادته في مراحل العمر المبكرة الشجاعة وقوة الارادة والاقدام وحب المغامرة ، ويقال ان نابليون يدين بأمجاده العسكرية لهذا الهرمون .

أما عن أثر غدد الجنس فيمكن أن يقال - بغير مبالغة - ان معظم أعمال الخير والشر في هذا العالم تنبع من زيادة افراز غدد الجنس أو قلتها .

وهرمون الخصبة لاينشط الوظيفة الجنسية وحدها ولكنه يبعث الحيوية في الجسم كله . وقد أمكن بتحوير بسيط في تركيبه الحصول على هرمون يبني الجسم ولاعلاقة له بالجنس ويستعمل لزيادة وزن ذوي النحافة من الرجال والنساء على السواء .

وهرمونات الجنس تعمل على وقف نمو العظام وهذا يفسر وقوف النمو بعد سن البلوغ ، كما يمكن أن يفسر زيادة متوسط الطول في المناطق الباردة .

ومن هنا ، تتبين الدور الحيوي الذي تقوم به الهرمونات وكيف أن مصيرنا يتوقف الى حد كبير على انتظام وظائف الغدد الصم فهي التي تصنع شخصياتنا وتقرر خلقنا وطباعنا وهي التي تحدد مدى تمتعنا بحيوية الشباب وفتوته . ■■



لغز الذكاء المبكر عند الأطفال

بقلم الدكتور . عدنان رشيد

يؤكد علماء التربية وعلماء النفس على أن لتربية الأم دورا كبيرا في نبوغ الطفل وصياغة شخصيته ، الا أن علماء الأحياء والوراثة يؤكدون من جانب آخر على أن الذكاء المبكر عند الطفل وراثي وليس مكتسبا وانه نوع من المعجزة التي يندر ظهورها دائما . .

يحدثنا التاريخ عن ظهور العبقريات والمعجزات الذكية لدى الأطفال وهم في سن مبكرة حتى ان الانسان لا يكاد يصدق عقله ، فمهما كان دور الأم في التربية قائما لا تستطيع أن تهب طفلها هذه القابلية من الذكاء كما حدث مع الموسيقار موزارت الذي لحن السوناتات الشعرية وهو في السادسة من عمره .

وظهر في فرنسا بسكال وهو عالم وفيلسوف ورياضي حيث نشر بحثا علميا عن السمع وكان عمره ١٢ عاما . كما نشر دانتي البكري أشعاره عن باتريسا عندما كان عمره ٩ أعوام .

ويروى أن العالم الرياضي كاوس بدأ في حل الغاز المسائل الرياضية عندما كان في الثالثة من عمره . . وكانت معلوماته لا تقل عن معلومات الاستاذ الجامعي في الرياضيات .

ويوجد في المانيا الاتحادية الآن شاب عمره ٢٤ عاما يسكن مدينة ميونخ اسمه (المر ايدر) ويعتبر اليوم من فطاحل الرياضيات في المانيا . فقد برز نبوغه عندما كان عمره ١٢ عاما ، وكان يملك من المعلومات الرياضية أكثر من أساتذته ، مما دعا اساتذته الى ارساله الى الجامعة فورا . وبدأ بالقاء المحاضرات في جامعة ميونخ عندما بلغ الثالثة عشرة من العمر وحصل على الدبلوم في الرياضيات في الرابعة عشرة من العمر وكتب اطروحة الدكتوراه في الفيزياء عندما بلغ التاسعة عشرة من العمر !

وظهرت في المانيا أيضا قبل عدة سنوات طفلة اسمها أنيا سليا وكان عمرها خمسة أعوام عندما بدأت تغني الحان الاوبرا الطويلة ولمدة ساعتين دون انقطاع ، حتى أنها كانت تقود الاركسترا عندما بلغت الحادية عشرة من العمر ومن الأطفال النابغين الذين أصبحوا من مشاهير العلماء العالم الفيزيائي فيرنر هايسنبيرغ الذي نال جائزة نوبل في الفيزياء .

وقد برز نبوغه أيام الدراسة الثانوية وكان يشرح لطلاب الصف السادس الثانوي أعقد المسائل الرياضية رغم أنه كان في السنة الأولى من الدراسة المتوسطة .

حل ٦٠٠٠ معادلة

وتشير المصادر التاريخية الى أحد النوابغ الاطفال وهو كريستيان هاينريش هاينكن حيث ظهر نبوغه وهو في الرابعة من العمر علما بأنه ولد عام ١٧٢١ في مدينة لوبيك في المانيا ، وقد انصرف اهتمامه آنذاك الى التاريخ العالمي وعندما كان عمره ثلاث سنوات أصبح مختصا في تاريخ الدنمرك ونشر فيما بعد كتابا عن ذلك . .

وصادف أن دعاه ملك الدانمرك لحضور حفلة عشاء في القصر الملكي فاعتذر الطفل النابغة وكتب للملك قائلا . . « اني أشكر دعوة جلالتكم اذ انني لاأتناول سوى السوائل . . »

وظهر في القرن السادس عشر طفل نابغة في بريطانيا اسمه « جيمس كريستوف » حيث ولد عام ١٥٦٠ في سكوتلندا وكان ملما بجميع المسائل الفكرية منذ طفولته وتحدى عام ١٥٨٠ علماء فرنسا للاجابة على الاسئلة العلمية ب ١٢ لغة .

وفي الهند ظهر طفل نابغة عام ١٨٨٧ يدعى « سرنيفاسا رامونيان الباتغار » الذي ولد في مدراس وعندما كان في الابتدائية أدهش اساتذته بذكائه ونبوغه في حل المسائل الرياضية المعقدة حتى أرسلته المدرسة الى المرحلة الثانوية دون اجتياز الابتدائية ونشر في الخامسة عشرة كتابا في الرياضيات وكان يخلو من الشروحات ولكنه كان يحتوي على الحلول النظرية فقط واكتشف طرقا مختلفة لحل (٦٠٠٠) معادلة رياضية . وأرسل مرة خطابا الى عالم الرياضيات البريطاني البرفسور هاري ضمنه حلا لأكثر من ١٢٠ معادلة هندسية مما أدهش الاستاذ الانجليزي ثم أصبح هذا الطفل الهندي عالما مشهورا اذ اكتشف نظرية الاعداد . .

ولم يستطع العلماء آنذاك قياس معدل ذكاء راماتيان ولكنه كان على أكبر الظن يملك معدل (٢٠٠) من معدلات الذكاء وهذا المعدل هو من المعدلات النادرة في العالم . .

شديدو الحساسية

ويشير الخبير الأمريكي « هرمان كان » الى أن درجة (١٤٠)تعتبر فوق المتوسط لذكاء الفرد . ويشير البرفسور البريطاني « هنري » بأن ثمة عددا من الاذكياء الاطفال لم يستطع احد اكتشاف ذكائهم في وقت مبكر الامر الذي يؤدي بهم الى الانحدار الى هاوية الجريمة ويصبحون من المجرمين الاذكياء . كما أن هؤلاء الأذكياء يتميزون بحساسية مرهفة . وقد تؤدي بهم الانفعالات النفسية الى الانتحار كما حدث قبل مدة مع الطفل الامريكي النابغة « جيمس دلاس ايكبرت »الذي كان عمره ١٧ عاما عندما انتحر بسبب أزمة نفسية ولم يستطع ايجاد حل لها وكان يقرأ وهو في الثالثة عشرة من العمر كتبا في علوم الرياضيات ودخل الجامعة وهو ابن الخامسة عشرة . وتشير دراسة لعالم النفس الأمريكي « لويس تيرمام » بأن معدل وفيات الفاشلين ضعف معدل وفيات النوابغ . . كما أشارت دراسته الى أنه من بين (٤٥٦) شخصا تم تشخيص أربع حالات ذكاء وراثي عن الأب أو الأم . أما بقية الحالات فتلعب التربية فيها دورا كبيرا . في عام ١٩٤٠ ظهر في الولايات المتحدة توأمان هما جورج وشارل وكان هذان التوأمان يستطيعان معرفة التواريخ السنوية ، فمثلا كانا يعرفان أي يوم يصادف في ١٥ كانون الثاني يناير من عام (٢٠٠٢) فهو يوم جمعة . . ويعرفا بسرعة خارقة اليوم الذي يصادف فيه الأول من تموز يوليو عام (٤٢٩٣٠) حيث يكون يوم الاثنين ، كما كانا يعرفان الأيام والتواريخ ل ٥٠ الف عام قادمة وكانا لايحتاجان لمعرفة ذلك سوى بضع ثوان .

ان العلماء لم يستطيعوا حتى الآن ادراك اللغز المحير لنبوغ الاطفال المبكر وربما يكون هذا الذكاء نفحة من الخالق ، علما بان دماغ الانسان يزن ١٤٠٠ غرام وان كل ملم مكعب منه يحتوي على (٧٠) الف خلية وهذا عامل مهم بالنسبة للتفكير وقد يحدث أن يتمتع دماغ هؤلاء النوابغ بخلايا أكثر من غيرهم . فمثلا ظهر في بغداد عام ١٩٦٠ طفل اسمه عادل شعلان كان يستطيع حل معادلات الضرب ل ٢٠ عددا وأكثر ولكنه لم يجد آنذاك من يرعاه ، وبدلا من أن يدرس الهندسة ليواصل عطاء نبوغه ،درس الزراعة وخسره المجتمع آنذاك وقد تضاءل معدل نبوغه بمرور الزمن .

ان هؤلاء النوابغ مثل الشهب التي تظهر بسرعة وتختفي بلمح البرق وستظل هذه الظاهرة تحير الانسان الى الأبد . . ■■

بصمات ذهبية للحصان العربي على سلالات الخيول في أوروبا وأمريكا



الجواد العربي « راسم » تربي في اسطبل « كرابت بارك » وحصل على البطولة العالمية عام ١٩٢٦ .

بقلم : الدكتور عثمان مهملات

الحصان العربي لعب دورا بالغ الاهميه في تحسين سلالات الخيول في مختلف انحاء العالم . هذه الدراسه تؤكد تلك الحقيقه وتدلل عليها بعشرات الأسانيد والدلائل .

تعد الخيول العربية من أقدم سلالات الخيول الخفيفة . ويرجع تاريخها الى ٥٠٠٠ سنة تقريبا . ويقال إن معظم سلالات الخيول الخفيفة في العالم تحمل خاصية من خصائص الخيول العربية . بعد اختلاط حدث في وقت ما بين دمها ودم الخيول العربية .

ولقد احتلت الخيل مكانة رفيعة وسامية في قلب العربي قبل الاسلام وبعده ، مما دعاهم الى الاهتمام الشديد بأنساب خيولهم وأصلها . بعكس الكثير من الأمم الاخرى التي عاصرتهم .

فترى العربي يقطع مئات الأميال مع فرسه ليصل الى فحل معروف نسبه وأصله وعراقته فيلقحها منه . وقد يترك العربي فرسه سنوات بدون سفاد حتى تحين له الفرصة ويجد لها الفحل المناسب .

ولقد ساعد على تحسين الانسال بشكل مستمر العديد جداً من العادات الجيدة التي تحلى بها العربي في ذلك الوقت . فقد كان من الشائن على العربي صاحب الفحل أن يأخذ مالاً مقابل السفاد منه لافراس الضيوف . ثم أتى الاسلام وأكد على هذه العادة عندما نهى الرسول (ص) عن أخذ ثمن السفاد .

وكان من العادات الأخرى التي يتبعها العرب نحو إناث خيولهم ، أنهم يلجأون الى خياطة فروجها بخيوط من الفضة خوفا من أن ينزو على الأفراس فحل غير

منسوب أو معروف . وتسمى هذه العملية بالتخريض . وأن الفرس التي ينزو عليها فحل غير معروف أصله تهبط قيمتها بشدة ولو كانت ذات نسب عريق . وليس هذا هو كل العقاب بل إن نسلها بعد ذلك يلاقي نفس المعاملة والاهانة وعدم التقدير .

ولقد انتشرت الخيل العربية في البلاد المجاورة للجزيرة العربية كبلاد الشام وما بين النهرين ومصر . وحصل ذلك بسبب الحروب والغزوات المستمرة بين شعوب هذه المناطق . وكان فيا بعد للجيوش الاسلامية الفضل الأكبر في نقل الخيل العربية الى البقاع الواسعة التي وصلوا اليها وليتركوا أجل الأثر في أرجاء الأرض المختلفة .

جاءت الحروب الصليبية بعد ذلك لتزيد من اختلاط الحصان العربي بالأوربي . ولتنتهي بعد ذلك بنقل أعداد كبيرة من الخيل الى البلاد الاوربية . واستمر انتقال الحصان العربي الى اوربا بشكل فردي وغير منتظم حتى شعر الاوربيون في بداية القرون الوسطى بأهمية وقيمة الحصان العربي . ولتبدأ بعد ذلك عملية التهجين المنتظمة من الحصان العربي .

الحصان العربي في انجلترا :

إن أهم الخيول التي وصلت الى إنجلترا هي ثلاثة : تركي بيرلي - عربي دارلي - عربي غولدفين . وهي السلف الأكبر لسلالة الثور برد .

وقد كان تركي بيرلي BYERLY TURK أقدمها وصولاً الى إنجلترا ، حيث كان يخص أحد الباشوات الأتراك اللذين رافقوا الوزير الأكبر كارا مصطفى في حصاره لمدينة فينا بالنمسا . وعندما خسر الأتراك معركة « كا هلينبرج » غنم أحد الضباط الانجليز ، - والذي كان يقاتل في صفوف الجيش النمساوي - هذا الحصان البني الجميل من بين الغنائم التي تلت هذه المعركة .

وبالرغم من أن أصله غير معروف تماما ، إلا أن جميع من وصفه يشير الى أن تقاطيعه تدل على كونه حصاناً عربيا أصيلاً .

ولا يخفى عن الذكر أن تركيا في ذلك الزمان ، كانت تحوي الكثير من الخيول العربية الأصيلة . ولا يزال بعضها هناك حتى الآن . وذلك بسبب الجوار المباشر مع بلاد الشام فضلا عن طول فترة الخلافة العثمانية التي اتاحت للأتراك فرصة الاختلاط ببلاد الشام والجزيرة العربية . وبالتالي استخدام الجنود الأتراك الخيول العربية التي توفرت لهم هناك .

وقد نقل الكابتن بيرلي هذا الحصان معه الى إنجلترا . ليصبح حصان السفاد الأول في مربطه الخاص . وليبدأ فعاليته كفحل للتهجين في أوائل عام ١٦٩٠ م . وبالرغم من أن نتاجه الكمي كان أقل بكثير من نتاج الفحلين الاخرين عربي دارلي - وعربي غولدفين . الا أنه خلف الكثير من الأفراس الاناث والتي كان لها اثر بالغ في تأسيس سلالة الثوربرد بعد ذلك من ناحية الاناث . ويعتبر بيرلي

المهر العربي « سيلفابر » بيع لحكومة البرتغال عام ١٩٣٦



ترك المؤسس الاكبر لسلالة الهيرود والتي هي فرع من السلالة الكبرى الثور برد . ويعد الحصان التراخ والتوربيلون من اشهر احفاده اللذين لن تساهم ساحات السباق .

اما عربي دارلي DARLEY ARABIAN فهو اعظم حصان سفاد عرفه التاريخ حتى الان . وقد بدأت فعاليته في التهجين منذ حوالي ٢٧٥ عاما ، ولا يزال خلفه المباشر يظهر القوة والسرعة والعظمة حتى الان ، وهذا ما لم يظهره أي دم آخر ، وأكبر مثال على ذلك فوز احد أحفاده المباشرين بالمركز الاول في سباق الدربي الانجليزي عام ١٩٧٦ .

وقد اشتراه اللورد توماس دارلي ، وكان يشغل منصب القنصل العام لبريطانيا في مدينة حلب ، من أحد شيوخ القبائل (عنزة) ويدعى ميرزا وقد تضاربت الأقوال حول الثمن الذي دفع في الحصان آنذاك .

وهناك من يقول إن اللورد دارلي قد فشل في البدء بالحصول عليه بالرغم من عروضه المالية الجيدة . ونجح في النهاية بمقايضته مع بندقيته النارية الخاصة .

وهو حصان معنقي يقال إن أصله من مرتفعات نجد في الجزيرة العربية وقد وصل هذا الفحل الى انجلترا عام ١٧٠٤ ليصبح الفحل الأول في مربط ريتشارد دارلي شقيق توماس في مدينة « الدباي » بمقاطعة يوركشاير الانجليزية . وقد أظهرت الطبيعة تفاعلها لولادة ابن حفيده المباشر « الخسوف » ECLIPSE عام ١٧٦٤ فرافق ساعة الولادة خسوف للشمس ، وهذا هو سبب دعوته بهذا الاسم .

وقد جعلته القدرة الهائلة والسرعة الفائقة التي تمتع بها ، أسطورة زمانه حتى أنه ربح خلال ستة ونصف ١٨ سباقا كبيرا . وهو الحصان الذي لم يلمسه سوط ولم يجز عليه مهماز خلال حياته . ولقد فاز ٣٤٤ من أحفاده خلال ٢٣ عاماً بـ ٨٦٢ سباقاً ونالوا بذلك ربحاً يقدر بـ ١٥٨,٠٤٧ جنيها استرلينيا !

والحقيقة أن فرع اكليبس (ECLIPSE) يمثل حوالي ٩٠٪ من شجرة العائلة الكبرى لخيل التوربرد .

ولقد توفي الحصان عربي دارلي عن عمر يناهز الـ ٣٠ عاماً بعد أن خلف أسرع نسل عرفه السباق فيما بعد .

ومن أحفاده البالغي الشهرة الحصان St. simon الذي لم يقهر خلال أي سباق من السباقات العشرة الكبيرة التي خاضها . وقد خلف فيما بعد ٥٥٤ خلفاً احتل الكثير منهم المراكز الأولى في العديد من السباقات . وقد جلب لمربط بورتلاند لقاء السفاد مبلغاً قياسياً لم يبلغه حصان آخر حتى الآن وتجاوز الخمسة ملايين مارك ذهبي .

الحصان الثالث يسمى عربي غولدفين GOLDOLPHiN واسمه الاصلي « شام » SHAM وكان هدية من باي تونس الى الملك لودفيك الخامس عشر الفرنسي والذي لم يجد فيه من الصفات التي تؤهله للبقاء في مربطه الملكي ، فأعطي لأحد تجار الخيل لتصريفه .

وقد اشتراه ادوارد كوك في أحد شوارع باريس من التاجر السابق بمبلغ ١٥ LOUISDOR ونقله الى انكلترا عام ١٧٢٩ حيث أصبح حصان السفاد الأول في مربطه الخاص بمدينة دربيشاير وهناك لقح عام ١٧٣١

الجواد العربي نصار تربي في اسطبل كرابت بارك



الفرس ROXANA روكسانا ، وكان الناتج من ذلك المهر « لاث » الذي أصبح من أسرع خيول السباق فيما بعد .

وعندما توفي ادوارد كوك عام ١٧٣٣ ورث هذا الحصان صاحب المطاعم اللندني روجر وليامز والذي بدوره أرسله الى مربط آخر ، وهناك أطلق على شام اسم مالكه الجديد غولدولفين ، الذي توفي عام ١٧٥٣ عن عمر يناهز ٢٩ عاماً في ليلة رأس السنة الميلادية . وأقيم لوفاته مأتم كبير في المربط المذكور . قدم فيه الشاي والحلوى على الحاضرين !

والرأي الراجح في أصل هذا الحصان أنه من خيل العبيان وأنه أتى من بلاد اليمن . وبرغم ان هناك من يدعي أنه من خيل البربر الموجودة في شمال أفريقيا القريبة للخيل العربية الأصيلة .

ويعتبر هذا الحصان السلف الاكبر لسلالة MATCHEM ZWEIG (ما تشم زويج) والتي هي فرع من الرسن الأكبر الثوروبيرد . ومن أعظم أحفاده الحصان « ما توفر » ويعود اليه بشكل مباشر بفرق ١٤ جيلا . والحصان « الرسول » السلف الأكبر لخيل السائدربرد الأمريكية المشهورة .

رسول ملك فرنسا

يذكر التاريخ أن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر أرسل الى سورية رسولاً خاصاً استقر في مدينة حلب فترة من الزمن ، واشترى خلالها عدداً من الخيول العربية والتي أعطت فيما بعد أثراً كبيراً على معظم الخيول الفرنسية المهجنة . وكان أكبر تجمع لها في مربط بمبادور الشهير .

ومن السلالات التي كانت فيها آثار محسنة من الدم العربي تذكر الليموزين المختلط LIMOUSIN (HALF BLOOD) ـ الشارولي المختلط (CHAROLAIS HALF — BLOOD) الانجلو نورمان -ANGLO —) (NORMANN الانجلو اراب الفرنسي —) ANGLO-ARABER) — حصان الخبب الفرنسي (FRENCH TROTTER)

ويعد الحصان KAPIRAT (كابيرات) الذي ولد عام ١٨٤٤ الأب المؤسس لسلالة الخبب الفرنسية المشهورة . وهو حصان ثوربرد الذي يعود بأصله للحصان الكبير عربي دارلي . وقد تميز أفراد هذا الرسن بالظهر القوي الذي يؤهلها لأن تستخدم للركوب بعكس سلالات ORLOW (اورلو) الروسية . ومن المعروف أن هناك ٨٠٠٠ فرس أنثى من سلالات الثوربرد مسجلة رسمياً في سجل الخيل المخصصة للتهجين .

وفي هنغاريا وبولونيا

في عام ١٨٣٦ أرسلت الحكومة الهنغارية الى سورية بعثة برئاسة الميجور هيربرت ، لشراء بعض الفحول والافراس الاصيلة . وكان بين الخيل المشتراه حصان اشهب فاتح سمي شاغيا SHAGYA والذي أسس فيما بعد سلالة الشاغيا الشهيرة .

ومن الخيل العربية الشهيرة في هنغاريا الحصان عبيان الذي اشتراه فضل الله حداد الهنغاري الجنسية والسوري الأصل من سورية وأخذه معه الى هنغاريا .

ومن أشهر أحفاد الحصان العربي في هنغاريا الفرس KINNCSEM (كينسم) والتي لم تهزم في أي سباق اشتركت فيه وربحت خلال فترة نشاطها ٥٤ سباقاً في مدن أوربا المختلفة .

واحتلت المركز الأول في السباق الشهير لمدينة بادن الالمانية ثلاث مرات متتالية من عام ١٨٧٧ حتى عام ١٨٧٩ . وتوفيت هذه الفرس الرائعة في ١٧ أيار ١٨٨٧ في عيد ميلادها الثالث عشر وكان للحصان العربي في هنغاريا الفضل في تأسيس السلالات المشهورة التالية :

الفيريوزو — (FURIOSO) الجيدران — (GIDRAN) الشاغيا (SHAGYA) النونيوس الصغير (NONIUS)

ولم يكن الاهتمام بالحصان العربي في بولونيا أقل عنه في هنغاريا ، فنرى كيف أرسلت الحكومة البولونية بعثة برئاسة الكونت والكورزويكس الى البلاد العربية لاحضار ما توفر لها من أجاود الخيل وأعرقها .

وقد استغرقت زيارتها للبلاد العربية ستتين حصلوا فيها على ٣٧ فحلاً وفرساً نقلوها معهم الى بولونيا . ومن أشهر السلالات المهجنة التي خضعت لأثر عميق من الدم العربي . هي الكونيك — (KONIK) والمالوبولسكا (MALOPOLSKA) وهي تسمية أخرى للحصان انجلو أراب البولوني

في المانيا وروسيا

إن اعظم أثر للحصان العربي يتجلى في سلالة التراكنر TRAKEHNER والتي تعود بالأصل الى عام ١٧٣٢ حيث تأسس هذا الرسن من فحل عربي صاف وفحل ثوربرد مع الاناث المحلية .

وكان مركز هذا الرسن في المربط المشهور « اوست بروين » الموجود في شمال المانيا الديمقراطية الآن .

والمربط الاخر الذي اشتهر بعد الحرب العالمية الثانية لهذه السلالة موجود في مدينة مارباخ بألمانيا الغربية .

ولقد كانت خيل التراكنر تمثل ٦٠٪ من الخيل الموجودة في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى وقد أعطى هذا الرسن تأثيرا كبيرا على السلالات المجاورة وخاصة الهانوفرانا والتراكنر البولوني الروسي .

ومن السلالات التي أثر فيها الحصان العربي بشدة في روسيا الحصان « اشال تكلنر » ACHAL TEK-KINER والذي تعود نسبة كبيرة منه الى اختلاط بين الحصان العربي الصافي وحصان الثور برد الانجليزي مع الاناث المحلية .

ومن اشهر ما برز من هذا الرسن الحصان ابسنت ABSENT الذي كان محط أنظار الجميع في أولمبياد روما ١٩٦٠ حيث فاز بالميدالية الذهبية في مسابقات الدرساج . وقد ترك الحصان العربي هناك بصماته الجميلة على السلالات التالية . أرلوف ORLOW للخبب بود جوني BUD JONNY المشهورة بسباقات تعدد القدرات . واليمود IUMUD المشهورة بجر العربات ثم « ستريلتزر » STRELETZKER ARA-BER التي اشتهرت في السيرك والسباقات .

ومن ناحية اخرى ، فقد جلب العرب معهم في غزوهم لاسبانيا الكثير من الخيل العربية الأصيلة . بالاضافة الى الخيول البربرية من شمال أفريقيا والشديدة القرب من الخيل العربية الأصيلة .

وكان نتاج اختلاط هذه الخيول المحلية التي وجدت في ذلك الوقت ظهور السلالة الأندلسية .

وقد تم تصدير الكثير منها الى أمريكا وكانت أول سلالات الخيول التي وطأت الأراضي الأمريكية ، وتلا ذلك تأثير عميق على معظم السلالات الامريكية .

وقد صدر الكثير منها الى دول شمال أوروبا وخاصة فنلنده والدنمارك حيث هجنت مع الخيل ذات الدم البارد التي كانت هناك . والحقيقة أنها لعبت دوراً مؤسسا وكبيرا مع السلالات الاوربية ذات الدم الحار .

أما السلالة الاسبانية . والتي تدعى أيضاً الحصان الانجلو أراب الاسباني فهي نتاج لتزاوج الخيل الاندلسية مع الثوربرد والخيل العربية الأصيلة ، وتتمتع بجمال ورشاقة مشابهة للحصان العربي الأصيل . وهي مثالية لرياضة مصارعة الثيران بشجاعتها وخفتها .

الحصان العربي في امريكا

لقد كان وصول حفيدي الحصان عربي دارلي . سليم وعطيل SALIM AND OTHELLO عام ١٧٥٠ الى أمريكا ، نقطة التحول الكبرى التي مرت على تاريخ الخيل في أمريكا وتلاها إنشاء أكثر السلالات عددا وأفضلها جودة ألا وهي سلالة الثوربرد الأمريكية .

وتشير المصادر الرسمية الى وجود ٦٠٠ الف حصان ثوربرد في امريكا بينها حوالي ٦٠ ألف فرس أنثى مخصصة فقط للتهجين . بينما نرى مقابل ذلك ١٠ آلاف فرس أنثى من نسل الثوربرد مسجلة للتهجين في إنكلترا .

ولقد كانت هذه السلالة ولا تزال مصدر أعظم خيل السباق وأشهرها كالحصان الأسطورة مانوفر MAN-O WAR والذي ولد في كنتكي بالولايات المتحدة في ٢٩ آذار ١٩١٧ وخلال ستين من فترة نشاطه فاز بحوالي ربع مليون دولار ، ولم يخسر سوى سباق واحد بين ٢١ سباقاً خاضها ، وبسبب طاقته الرهيبة وسرعته الجبارة أطلق عليه لقب الشعلة الملتهبة .

وحول خسارته في سباق سارا توجا عام ١٩١٩ يدور كثير من الاشاعات ، عن أسباب مقصودة في تخسيره لأن معظم المراهنين وضعوا ارقاماً خيالية على اسمه .

ومن مفارقات القدر أن هذا الحصان قد مات بعد أسبوعين من وفاة السايس الزنجي « هاربوت » الذي اعتنى به طيلة حياته منذ كان مهرا . ويقال إنه قد امتنع عن الأكل بعد غياب سائسه حتى مات في الأول من تشرين الثاني ١٩٤٧ ، وكان للمأتم الذي أقيم له صدى كبير حضره أكثر من ألفي شخص . وتخليداً له نصب على قبره تمثال من البرونز بحجمه وشكله ولا يزال تمثاله هذا الموجود في ليكسنجتون مزارا لكثير من عشاق الخيل الامريكان .

ومن السلالات الأخرى التي تحسنت بالدم العربي حصان « الربع الأمريكي » والذي يعود سلفه إلى الحصان الثور برد جانوس الذي استورد من انجلترا عام ١٧٥٦ ثم سلالة الستاندر برد والتي تعود للحصان الشهير « الرسول » أحد أحفاد الحصان عربي غولد فين . ثم سلالة البوني الامريكي المعروفة اختصارا PONY OF THE AMERICA (POA) وحصان السرج الامريكي .

وهكذا نجد أن الحصان العربي قد وضع بصمات ذهبية على معظم سلالات الخيل الخفيفة ، وساعد في تطورها ونقائها وضافة مسحة جمال وأناقة على منظرها وملامحها وللأسف فان الكثير من التفصيل والوثائق الأخرى لا تسعها هذه الصفحات القليلة . ■■

المانيا الغربية ـ د . عثمان مهملات



طبيب الأسرة

يجيب على هذه الاسئلة نخبة من الاطباء

هل يفقد الانسان حاسة الذوق

● أين توجد حاسة الذوق من الفم على وجه التحديد .. ؟ وهل هنالك حالات يتعرض الانسان فيها لفقدان هذه الحاسة ... ؟

يستطيع الانسان أن يتعرف على اربعة مذاقات رئيسية هي الحلو والمر والحامض والمالح . واحيانا يمكن أن يضاف مذاقان آخران هما الطعم القلوي والمعدني . ولكن الاربعة الاولى هي المذاقات الرئيسية والمعروفة لدى الاغلبية العظمى من الناس . وهذه المذاقات تستقبل من فوق سطح اللسان بصفة اساسية ومن فوق سطح عضلة اللهاة وتجويف الفم وحتى اللوزتين، وتستقبل هذه المذاقات نهايات عصبية تنتشر فوق الاماكن المذكورة . واللسان هو السطح الذي تتواجد عليه معظم المذاقات ، فالنهايات العصبية التي تستقبل الطعم الحلو والمالح تقع معظمها على طرف اللسان بينما تقع النهايات العصبية التي تستقبل الطعم المر في آخر سطح اللسان . ويبقى جانب اللسان ليستقبل الطعم الحامض ، أما مركز سطح اللسان فانه لاتوجد عليه نهايات عصبية خاصة بالتذوق ، ولذلك فهذا المكان لايمكنه أن يتذوق أي طعام ، واللعاب ضروري حتى ينبه نهايات الاعصاب . لان اللعاب يذيب جزءا من المواد لتكون سائلا يستطيع ان يصل الى هذه النهايات . ولذلك فانه لايمكن تذوق طعم المواد الصلبة التي لاتذوب في اللعاب .

وتختلف حساسية التذوق من طعم لآخر . فبينما يستطيع الانسان أن يتذوق المادة المرة اذاخففت بنسبة جزء من مليوني جزء تقريبا ، تراه يستطيع ان يتذوق الحامض اذا خفف بنسبة جزء من مائة وثلاثين ألفا تقريبا . ويتذوق المالح اذا خفف بنسبة جزء من اربعمائة ويتذوق الحلو اذا خفف بنسبة جزء من كل مائتي جزء . وهذه الارقام تعني أن القدرة على تذوق المر اقوى بكثير من القدرة على تذوق الحامض والمالح والحلو على التوالي . وللمقارنة فان القدرة على الشم اقوى بكثير

حتى من القدرة على تذوق المر . ذلك انه يمكن شم الرائحة حتى اذا خفضت بنسبة جزء من آلاف الملايين من الاجزاء . المهم أن فقدان الطعم أمر نادر الحدوث تماما

لان اللسان يصله عصبان رئيسان من المخ رأسا في كل جهة رغم أن مساحة سطحه صغيرة جدا بالمقارنة لاعضاء اخرى واذا اصيب مريض بفقدان حاسة التذوق ، فلابد ان تكون الاصابة العصبية بالغة وفي المخ غالبا ، لان

قطع احد العصبين يمكن ان يتم تعويضه من العصب الثاني . واصابة العصبين في الجهتين في وقت واحد امر صعب الحدوث . بالاضافة الى ان عدد النهايات العصبية كبير نسبيا على سطح اللسان ، ويبلغ حوالى ثلاثة آلاف نهاية عصبية للتذوق على الاقل .

وهذا عدد يصعب تدميره كلية بأي مرض دون تدمير اللسان نفسه . لكن الانفلونزا تعطي الشعور بفقدان حاسة التذوق والحقيقة هي أن الانفلونزا تؤثر فقط في القدرة على شم رائحة الطعام ولان حاسة الشم أقوى بكثير من حاسة التذوق ـ كما ذكرت ـ فان اثرها يكون هو الاهم والاقوى ، بحيث يعطي الانطباع بأن الطعام قد فقد الرائحة والطعم ، ولكنه يمكن ـ عمليا ـ اثبات ان حاسة التذوق لم تتأثر بالانفلونزا . غير أنه في بعض الامراض العصبية كالصرع يمكن ان تضعف القدرة على التذوق او تضطرب ، خصوصا قبيل بداية نوبات الصرع ، وبعد الافاقة منها . وتكون اسباب فقدان أو اضطراب حاسة التذوق في هذه الحالات جزءا من اسباب المرض الاصلي نفسه كما يكون علاج المرض الاصلي هو نفسه علاج لاى خلل في حاسة التذوق .

اللغط على القلب

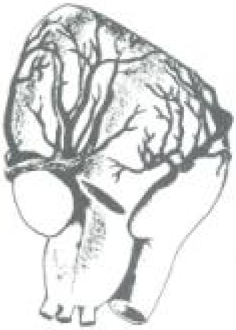
● سمعت بعض الأطباء في المستشفى يتحدثون ويستعملون عبارة « اللغط على القلب » .. وقدرت أن تكون هذه العبارة اصطلاحا طبيا ... ولم أجد المناسبة لسؤال أحدهم عن المقصود بهذا الاصطلاح ... لذلك لجأت اليكم طارحا هذا السؤال ... وراجيا الجواب ..

ـ اللغط هو الأصوات التي تسمع فوق جهاز الدورة الدموية القلب والشرايين العظيمة عندما يمر الدم فيها على شكل « توربيني » أو دائري كالدوامة بدلا من التيار المستمر المنتظم

الذي يسمح به التكوين الطبيعي للقلب والشرايين العظيمة . ولكن تغيرات في تكوين جهاز الدورة هي التي تسبب حدوث اللغط ولذلك فاللغط في حد ذاته هو أثر لهذه التغيرات وهو وسيلة يتعرف الاطباء عند سماعها على المرض الذي سبب التغيرات التي سببت اللغط .

الطبيعي أن يسير الدم في تيار هادىء منتظم مدفوعا بانقباض القلب والشرايين العظيمة ولكن أي تغير في سرعة الدم أو في درجة لزوجته يمكن أن يسبب حدوث اللغط .

فالشاب الرياضي عندما يمارس رياضته المفضلة تزداد دقات قلبه ويدفع كميات أكبر من الدم ولا بد أن تزداد سرعة جريان الدم حتى يمكن أن تمر الكميات الزائدة من نفس الشرايين . ولذلك يمكن سماع اللغط فوق صدر الرياضيين عند ممارسة التمرينات . وهذا أمر لا يسبب ازعاجا للاطباء ، ولكن من الامراض ما يمكن أن تسبب زيادة في سرعة جريان الدم كمرض فقر الدم أو ازدياد افراز الغدة الدرقية . ومثل هذه الامراض يمكن أن يسبب حدوث اللغط على القلب . ولكن



العلاج يكون في علاج المرض ذاته ولا علاقة للقلب بذلك .

وتزداد سرعة الدم عندما يكون مضطرا للمرور من مكان ضيق . ولذلك فان لغطا يسمع فوق القلب عند حدوث ضيق في أحد صمامات القلب أو حتى عند حدوث توسع في هذه الصمامات . والخطورة هنا أن ضيق الصمام يجعل عملية دفع الدم بواسطة القلب ليعبر هذا المضيق عملية صعبة يضطر القلب أن يزيد من مجهوده حتى يمكنه أن يتغلب عليها ليدفع الدم خلال الصمام الضيق الى باقي أجزاء الجسم . وبمرور الوقت يمكن أن تنهار قوة القلب ويحدث ما تسميه بهبوط القلب والعلاج لهذه الحالة وقائي أولا بتلافي الأسباب التي تؤدي الى حدوث الضيق وأهمها علاج الأطفال من مرض الحمى الروماتزمية قبل أن يصل أثرها الى القلب أما اذا وقع البلاء فان علاجه يكون بجراحة في القلب لتوسيع هذا الصمام الضيق .

أما التوسع في أحد صمامات القلب فانه يحدث غالبا نتيجة لأثر ضيق نفس الصمام سابقا لأن حدوث التيار التوربيني يؤثر على أنسجة الصمام ويعمل على تهتكها . وخطورة توسع الصمام هي أنها تفسد الوظيفة التي خلق من أجلها وهي تمرير الدم في اتجاه واحد فقط بحيث يصل الى غايته ، اما الى الرئتين للتنقية ، وإما الى باقي أنحاء الجسد ليقوم بعمله . أما في حالة توسع أي صمام فان الدم يمر في الاتجاهين حسب قوة الضغط والنتيجة أن يتراكم الدم في المكان غير المناسب كالرئتين ويشح وجوده في المكان المناسب كباقي أنسجة الجسم . بالاضافة الى زيادة الجهد الذي يبذله القلب حتى يتغلب على المشكلة . والنتيجة تكون هبوطا في كل أعضاء الجسم ابتداء من الرئتين والقلب .

وعلاج هذه الحالة يكون أولا بالوقاية من أسباب حدوثها كما ذكرت ، وثانيا بتركيب الصمامات في الوقت المناسب أو عمليات زرع القلب .

في مناسبة عام المسنين

في عيد ميلادي الثمانين

للفيلسوف الانجليزي : برتراند رسل

ترجمها : نصري عطا الله

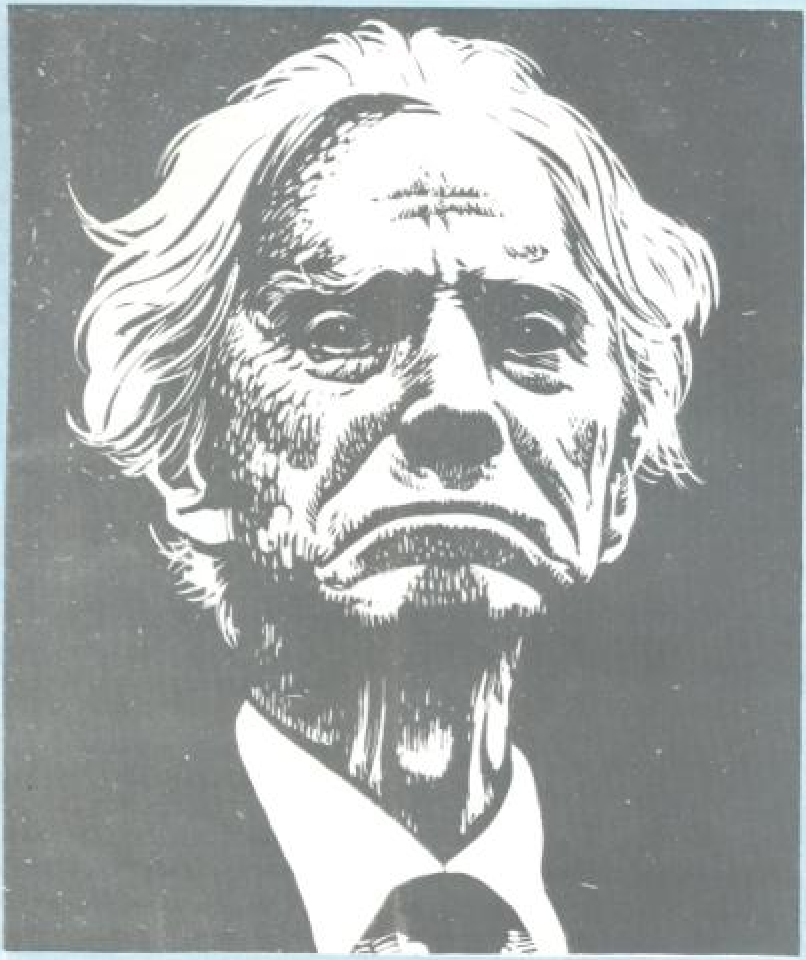
« ولد الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل عام ١٨٧٢ ومات عام ١٩٧٠ وقد دعته هيئة الاذاعة البريطانية الى القاء الحديث ، الذي نقدم ترجمته اليوم ، عام ١٩٥٢ اي عند بلوغه الثمانين .

وقد واصل برتراند رسل نشاطه بعد ذلك واضاف الى رصيده الهائل من الانتاج الفلسفي والاجتماعي والادبي احد عشر كتابا تتسم بالاصالة وعمق التفكير ومنها « امال جديدة لعالم متغير » ـ ١٩٥٢ و « والمجتمع البشري في الاخلاق والسياسة » ـ ١٩٥٤ « وصور من الذاكرة » ١٩٥٦ « والمنطق والمعرفة » ١٩٥٦ « وفلسفتي وكيف تطورت » ١٩٥٩ « وبرتراند رسل يفصح عن آرائه » ـ ١٩٦٠ . وكان آخر ما كتب هو « سيرتي الذاتية » ـ ١٩٦٧ « ولعل العمل الدائب المتواصل المتسم بالمثالية والتفاؤل والايجابية » كان احد اسباب عمره الطويل المثمر .

« المترجم »

عندما يبلغ المرء سن الثمانين ، يفترض ان يكون قد اتم معظم عمله وان ما تبقى لديه ليؤديه سوف يكون اقل اهمية . ولقد خصصت الشطر الجاد من حياتي ـ منذ بواكير الصبا ـ لغايتين مختلفتين ظلتا منفصلتين لامد طويل ولم تتحدا لتكونا كلا واحدا الا منذ حين قريب ، والغايتان هما : المعرفة واسعاد الناس .

وحتى سن الثامنة والثلاثين منحت جل طاقاتي للغاية الاولى ، وكان يلح على الشك ، منساقا على غير رغبة مني الى النتيجة القائلة ان غالب ما نعتبره « معرفة » كان عرضة للشك المنطقي ، كنت انشد اليقين على النهج الذي يطلب الناس عن طريقه الايمان الديني . واعتقدت ان الارجح هو ان نعثر على اليقين في علوم الرياضيات اكثر منه في اي مجال آخر . ولكنني اكتشفت ان كثيرا من البراهين الرياضية التي افترض اساتذتي انني سوف اسلم بها كانت



مليئة بالاوهام ، وانه اذا ما كان اليقين سوف يوجد حقا في مجال الرياضيات فسوف يكون ذلك في نوع جديد من الرياضيات يقوم على اسس اكثر متانة من تلك التي كان يسود الاعتقاد حتى ذلك الحين انها يقينية ، ولكن مع تقدم المحاولات كنت اتذكر على وجه الدوام خرافة الفيل والسلحفاة ، فبعد ان صنعت فيلا يرتكز عليه عالم الرياضيات وجدت الفيل يترنح ، ورحت اكون سلحفاة لتحمي الفيل من الانهيار ولكن السلحفاة لم تكن اكثر ثباتا من الفيل وبعد حوالي عشرين عاما من الجهد الشاق انتهيت الى نتيجة انه لم يعد هناك اي شيء آخر استطيع ان افعله كي اجعل المعارف الرياضية غير قابلة للشك ! ثم قامت الحرب العالمية الاولى ، وتركز تفكيري على البؤس والحماقة البشرية . ولا يبدو لي ان البؤس او الحماقة قدر مكتوب على الانسان لا مفر منه وانا مقتنع ان الذكاء والصبر والبلاغة سوف تحرر الجنس البشري عاجلا او آجلا من العذابات التي فرضها الانسان على نفسه ، هذا بشرط الا يقضي الانسان على جنسه قبل ان يحين ذلك الحين .

بحاجة الى افكار جديدة

وعلى اساس هذا الاعتقاد توفر لدي دائما قدر معين من التفاؤل ، ولو انه مع تقدم السن اصبح التفاؤل اكثر



اعتدالا ، والحلّ البعيد اكثر ابتعادا ولكنني اظل غير قادر تماما على الموافقة على رأي اولئك الذين يسلمون قدريا ان الانسان ولد للشقاء وليس من الصعب التيقن من اسباب الشقاء في الماضي وفي الحاضر كان هناك الفقر والاوبئة والمجاعات نتيجة لعدم السيطرة على الطبيعة بما فيه الكفاية ، وكانت هناك حروب ومظالم وتعذيب ترجع الى عداء الانسان لاخيه الانسان وكانت هناك صنوف من البؤس المريض غذتها المعتقدات المظلمة التي قادت الانسان الى صراعات نفسية عميقة ، جعلت كل صنوف الرخاء الظاهري غير ذي جدوى . كل تلك الاشياء غير حتمية وهناك الوسائل المناسبة التي تعين على التغلب عليها ، واذا ما كانت هناك جماعات لا تحظى بالسعادة في العصور الحديثة فذلك لأنها تختار ان تكون كذلك ، واذا ما تكلمنا على وجه اكثر دقة ، فذلك لأنها تعاني صنوفا من الجهل والعادات والمعتقدات والاهواء تعتز بها اكثر مما تعتز بالسعادة او حتى بالحياة .

اني اجد في عصرنا المحفوف بالمخاطر كثيرين يبدو انهم ينزعون الى البؤس والموت ويغضبون عندما تقترح عليهم الآمال . . . انهم يعتقدون ان الآمال غير منطقية ، وانه باستسلامهم لليأس الخامل انما يواجهون الحقائق فحسب . انني لا استطيع ان اتفق في الرأي مع هؤلاء الناس . ان استبقاء الامل في دنيانا يستلزم قدرا من ذكائنا ونشاطنا ، وغالبا ما يفتقر اولئك الذين يعانون اليأس الى النشاط .

ولقد وقع النصف الاخير من حياتي في واحدة من تلك الفترات المؤلمة من التاريخ الانساني ، فيها تسوء حال الدنيا والانتصارات السالفة التي كانت تبدو نهائية ظهر انها مؤقتة فحسب وعندما كنت شابا كان التفاؤل الفيكتوري يبدو امرا مسلما به ، وكان يسود الاعتقاد ان الحرية والرخاء سوف ينتشران تدريجيا في كل انحاء العالم على نهج منتظم وكان من المأمول ان القسوة والاستبداد والظلم سوف تتضاءل على نحو مستمر وقلما كان يساور اي امريء خطر الحروب العظمى . وقلما اعتقد واحد من الناس ان القرن التاسع عشر ليس سوى فترة انتقال بين بربرية سابقة وبربرية لاحقة .

ان الذين شبوا في ذلك المناخ العام يجدون ان احداث التوافق بينهم وبين العالم الحالي امر شاق ولقد كان امرا شاقا لا عاطفيا فحسب بل عقليا .

ان الافكار التي كانت تبدو وافية بالمراد ثبت انها غير كافية وفي بعض الامور وضح انه من الصعب الاحتفاظ بالحريات الثمينة وفي بعض الامور الاخرى ـ لاسيما ما يتعلق بالعلاقات بين الشعوب ـ ثبت ان الحريات التي سبق الاعتزاز بها صارت مصادر عنيفة للكوارث .

اننا في حاجة الى افكار جديدة وآمال جديدة وحريات جديدة وقوانين جديدة اذا كان للعالم ان يتخلص من وضعه الخطر الحالي .

ولا استطيع ان ادعي ان ما قمت به في مجال القضايا الاجتماعية والسياسية له اي اهمية كبيرة وانه لمن السهل نسبيا ان يحدث تأثير هائل عن طريق تعاليم جازمة ومحددة مثل تلك الخاصة بالاشتراكية ولكن من جانبي لا استطيع ان اؤمن ان ما يحتاجه العالم هو شيء دقيق وجازم ، كما انني لا استطيع ان اؤمن بكل قلبي بمذهب يتناول مجرد شطر او جانب من الحياة الانسانية فهناك اولئك الذين يعتقدون ان كل شيء يعتمد على المذهب وان المذاهب الجيدة سوف تحقق حتما العصر الالفي السعيد (فترة سعادة او عدالة مطلقة او تحرر من نقائض الوجود البشري) ومن جهة اخرى هنالك اولئك الذين يعتقدون ان ما نحتاجه هو تغيير في الخلق والغايات ، وانه ـ بالمقارنة الى ذلك ـ تكون المذاهب ضئيلة القيمة ، ولا استطيع ان اقبل اي الرأيين .

ان المذاهب تشكل الخلق والخلق يغير المذاهب والاصلاح في كليهما يجب ان يسير جنبا الى جنب واذا ماكان للافراد ان يستبقوا ذلك القدر من المبادرة والمرونة الذي يجب ان يتوافر لهم فيجب الا يصبوا جميعا قسرا في قالب واحد صلب او ـ اذا ما استبدلنا الاستعارة ـ ان يدربوا جميعا للانضمام الى فريق واحد .

ان التنوع ضروري برغم حقيقة انه يعوق التسليم العام بمذهب موحد . ولكن التبشير بمثل هذا المذهب امر صعب ، وبخاصة في الاوقات الحرجة وفي الغالب لن يصبح ذلك فعالا حتى يتم استيعاب بعض الدروس المريرة عن طريق بعض التجارب المأساوية .

مجالات النجاح والفشل

ان عملي قد اوشك على نهايته ولقد حان الوقت لاستعرضه ككل : الى اي حد نجحت والى اي حد فشلت ؟ منذ سن مبكرة جدا كنت افكر في ذاتي كشخص اوقف نفسه على مهام عظيمة وشاقة ومنذ خمس وخمسين سنة وبينما كنت اسير وحدي في برلين عبر الثلوج التي كانت تذوب تحت شمس شهر مارس التي كانت تتلألأ في برودة قررت ان اكتب سلسلتين من الكتب : واحدة تجريدية متجهة تدريجيا نحو المحسوس والاخرى عن المحسوس وتتدرج في بطء نحو المجرد على ان يلتقيا اوجيهما في تركيب يجمع بين النظرية البحتة والفلسفة العملية الاجتماعية وفيما عدا التركيب النهائي الذي مازال محتما على كتبت تلك الكتب واستقبلها النّاس بحفاوة وامتدحوها وتأثر بها تفكير كثير من الرجال والنساء . . الى هذا الحد نجحت .

ولكن ازاء ذلك يجب ان اضع نوعين من الفشل احدهما ظاهري والاخر داخلي ولابد ان ابدأ بالفشل الظاهري فلقد اصبحت بعض بقاع برلين صحراء والمنطقة التي ذرعت ارضها صباح ذلك اليوم من شهر مارس اصبحت الحد الفاصل بين امبراطوريتين متعاديتين ، كل تحملق في الاخرى عبر حد فاصل لا يكاد يرى ، وتستعد في ضراوة لدمار الجنس البشري(١) .

والاشتراكيون والفاشيون والنازيون تحدوا على التوالي كل ما اعتبرته خيرا وفي سبيل هزيمتهم فقد معارضوهم الكثير مما كانوا يحرصون على الابقاء عليه . ان الحرية اصبحت تحسب ضعفا ولقد اجبر التسامح على ان يرتدي ثوب الخيانة ، والمثل العليا القديمة اصبحت غير ملائمة وما من مذهب خال من العنف يحظى بالتقدير .

اما الفشل الداخلي ـ ولو انه قليل الاهمية في نظر الدنيا ـ فقد جعل من حياتي العقلية معركة مستديمة فقد بدأت بايمان ديني بعالم افلاطوني ابدي تلمع فيه الرياضيات بجمال يشبه جمال المقطوعات الاخيرة من ملحمة (الفردوس) للشاعر الايطالي دانتي ووصلت الى نتيجة فحواها ان العالم الابدي غير ذي اهمية وان الرياضيات هي فن التعبير عن ذات الشيء بعبارات مختلفة ـ بدأت بعقيدة ان الحب ، الحر الشجاع يستطيع ان يغلب الدنيا دون صراعات وانتهيت بمعاضدة حرب مريرة فظيعة . . وفي هذا المجال كان الفشل .

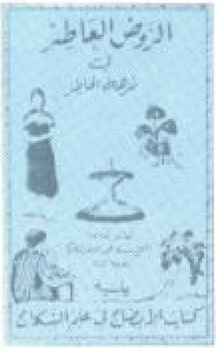
ولكن برغم هذا الفشل مازلت اشعر بشيء ارى انه انتصار ، ربما اكون قد تصورت الحقيقة النظرية على وجه خاطيء ، ولكنني لست مخطئا في اعتقادي ان هناك مثل ذلك الشيء ، وانها تستحق منا الولاء .

وربما اعتقدت ان الطريق الى عالم من الناس الاحرار السعداء اقصر مما هو كما وضحت حقيقته عن طريق التجربة ، ولكنني لم اكن مخطئا في اعتقادي ان مثل ذلك العالم ممكن الوجود ، وانه يستحق ان نقضي العمر في محاولة ان نقترب من تحقيقه . لقد عشت متابعا رؤيا شخصية واجتماعية . شخصية بمعنى ان اهتم بما هو نبيل وبما هو جميل وبما هو رقيق ، ان اتيح للحظات التبصر ان تضفي الحكمة على الاوقات الاكثر دنيوية . وهي اجتماعية بمعنى ان ارى بعين الخيال المجتمع الذي يجب ان يتشكل حيث ينمو الافراد في حرية ، وحيث تموت الكراهية والطمع والحقد ، لأنه لا يوجد ما يغذيها .

انني اؤمن بتلك الاشياء والدنيا بكل ما فيها من مسببات الرعب لم تزحزح ايماني بها . ■■

(ترجمة) نصري عطـا الله

هاتان رسالتان تلقتهما المجلة بشأن كتاب « الروض العاطر في نزهة الخاطر » الذي نشرته العربي في عدد اغسطس (آب) الماضي . الرسالة الأولى تتضمن تعقيبا وايضاحات هامة ، والرسالة الثانية تتضمن تصحيحا لايقل أهمية . ونحن ننشر الرسالتين ليعطى الكتاب حقه ، من حيث قيمته ، والمعلومات المتعلقة به .



« الروض العاطر » ومسائل نفزاوية

بقلم الدكتور : حسام الخطيب

أثارت في النفس شجونا قديمة الكلمة الجميلة التي كتبها الأستاذ أحمد عمر شاهين بعنوان « الروض العاطر ونزهة الخاطر : موسوعة عربية فريدة في الثقافة الجنسية » في العربي (شوال ١٤٠٢ هـ ـ أغسطس (آب ١٩٨٢) .

وقد أذكرتني هذه المقالة بمساجلة نقدية حارة حول هذا الكتاب دارت بيني وبين أحد الزملاء وشارك فيها على مدى شهرين عدد من الكتاب بعضهم من خلال اتخاذ مواقف حادة وبعضهم من خلال اضاءة الموضوع بما تجمع لديهم من معارف وآراء . وقد دارت معظم هذه المساجلات على صفحات جريدتي (الثورة)و« البعث » الدمشقيتين خلال شهري تموز وآب ١٩٧٨ .

ومن الطريف أن الذي دفع كاتب هذه السطور الى إثارة موضوع كتاب (الروض العاطر) هو مقال نشر في جريدة الثورة حول أهمية الكتاب وضرورة العناية به اعتمد اعتمادا كليا على رأي أجنبي في هذا الكتاب ، على نحو ما أورده الأخ أحمد عمر شاهين دون الرجوع ـ فيما يبدو الى الأصل بل دون أن تكون لدى المؤلف ـ كما هو واضح ـ أدنى فكرة عن الطبعة العربية للكتاب .

وليس الغرض من هذا التعليق البسيط الذي رأيت من واجبي أن أضعه بين يدي قراء « العربي » الأعزاء اعادة فتح هذا الموضوع وإشغال الناس به عن كل مكرمة ، فلدينا على الأقل في هذه الفترة الكثير مما ينبغي الانشغال به وانما رغبت أن أقدم الايضاحات في موضوع « الروض العاطر » لكي تكتمل الصورة اللطيفة التي قدمتها (العربي) في عدد آب الماضي .

١ ـ الاصل العربي والترجمة الانكليزية

لاتعطي النسخة العربية للروض العاطر الانطباع نفسه الذي تعطيه النسخة الانكليزية ، فالنسخة الانكليزية جميلة متقنة مكتوبة بلغة لطيفة أنيقة ومذيلة بالحواشي والتعليقات العلمية والمقارنات الذكية ، وتساعد مقدمة « الان هل والتون » لترجمة السير ريتشارد بيرتون على الرفع من شأن الكتاب واعطائه حالة براقة ومقاما رفيعا . ان السير بيرتون هو داعية ناجح للشيخ النفزاوي ومن يقرأ ترجمة بيرتون أولا ثم يطلع على النص العربي ـ كما يحدث للكثيرين ـ لابد أن يقع فريسة خيبة الأمل بسبب مايجده في النسخة العربية من التواء في العبارة وركاكة في اللغة وهلهلة في قماشة السرد وتشويه للأشعار والحكايات ، ناهيك عن كوارث الأخطاء المطبعية التي تركت الكتاب جسما مجرحا بلا روح .

وفي المستقبل حين يتحدث علماء الأدب المقارن عن طبيعة الترجمات وفوائدها يجب أن يذكروا للسير ريتشارد بيرتون أنه أبدع عملا جديدا من خلال ترجمته فهو من طراز المترجم الخلاق الذي تحدث عنه ريناتو برغيولي ولا أشك أن الترجمات الاوروبية الاخرى لاتقل جمالا ونحن نعرف الكثير عن رواج هذا الكتاب في البلدان الاوربية وبخاصة في اسكندنافيا بلد الأدب الخلاعي (بورنوغرافي) . والطبعة التي اتحدث عنها هي الطبعة الرخيصة التي تباع على البسطات في أسواق الدار البيضاء في المغرب ، وربما كانت هناك طبعة أخرى لاعلم لي بها .

٢ ـ حول قيمة الكتاب

ومن هنا كان أول ماينبغي الاشارة اليه لدى المقارنة بين الطبعتين العربية والانكليزية هو ضرورة العمل على العودة الى الطبعة العربية وتقصي أصولها المخطوطة ، والتأكد من صحة النص ، فلعل للنفزاوي عذرا ونحن نلوم ، وما أظن الا أنه الملوم . فهذا الكتاب ـ كما يتبين من مقدمة الطبعة الانكليزية ـ يعود الى القرن السادس عشر الميلادي ، وقد كتب لبلاط لم يشتهر بالعلم والادب وبالتالي من المتوقع أن يكون مستواه (الخارجي واللغوي على الأقل) متواضعا . وفي رأيي المبدئي أن الكتاب تجميع لمعلومات متداولة في زمنه تنقصه الأصالة والنظرية الذكية واستقامة الغرض ، وليس فيه تحليق لافت للنظر في وصف اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة ، بل انه يكرر اوصافه كثيرا حتى تكاد صورة النموذج الذكري والانثوي تطغى على خصوصية كل موقف ويستطيع المرء دون عناء أن يكتشف أنه خلاصة تجميعية للافكار والأوصاف الجنسية المتداولة في الادب العربي منذ أيام بغداد ، ولاسيما فيما يتعلق بالحياة الخلفية لمجتمع الطبقات العليا البراق من الخارج . والحكايات التي يوردها الكتاب يمكن أن تقول الشيء وعكسه ذلك أنه لايخضع لأي موقف فكري أو أخلاقي متسق .

ويقتضي الانصاف أن نشير الى أنه ينجح في تأكيد ناحية واحدة فقط لايمكن انكار اهميتها وهي ابراز لذه الجماع وما يمكن أن يكون وراءها من حكمة الهيه متعلقة بطبيعة الكون وهذا هو ما رمى الى تأكيده الكاتب المغربي الدكتور عبد الكبير الخطيبي في الفصل الذي عقده بعنوان (بلاغة الجماع) في كتابه المدهش الذي يحمل عنوان (الاسم العربي الجريح) بيروت ١٩٨٠ .

وفيما عدا ذلك يبدو الكتاب عاديا جدا بالمقارنة مع الكتب الجنسية العربية القديمة التي سبقته وكذلك بالمقارنة مع الكتب الجنسية القديمة التي عرفت في الهند واليابان أو مع الكتب الاوربية الحديثة . ومشكلة هذا الكتاب ـ فيما يبدو ـ أن صاحبه لم يستطع أن ينحو فيه لامنحى علميا ولامنحى خلاعيا (بورنوغرافيا) . وفي رأيي أنه كتاب غير مبدع في مجاله ولست آخذا عليه أنه كتاب جنسي بل مآخذي عليه بأنه من أنه لم يحلق في موضوع خصب كالجنس .

٣ ـ التقرب الاجنبي للنصوص العربية وأدب العجب Exotism

ان شهرة (الروض العاطر) لها مايسوغها عند الاوروبيين من خلال سيكلوجية أدب العجب أو الغرابة .

ذلك أن الكتب التي تتحدث عن الحياة الفردية أو الاجتماعية الخاصة للمجتمعات الغربية عن اوربة تلقى اقبالا واسعا من القراء . وموضوعة الحريم بوجه خاص تعد من الموضوعات الأشد اثارة لدى الغربيين ، وما نظن الا أن شهرة (الروض العاطر) نابعة من هذه الاعتبارات بوجه خاص . فهاهو ذا كتاب يتحدث عن الجماع تحت شعارات عريضة للحكمة الدينية ، ويروي مغامرات العبيد وربات القصور ومكائد النساء ويصف انواع ذكر الرجل وفرج الانثى من خلال مفهومات شرقية خالصة ، فلماذا لايكون مثيرا لدى الغربيين ؟ نحن نتحدث يوميا عن ضرورة تنمية ذوقنا الخاص ولكن نسمح لأنفسنا أن نظل أسرى المكتشفات الغربية لتراثنا ، أترى المرء يبالغ ؟ هل يستطيع أي باحث عربي أن يسمي كتابا تراثيا واحدا (فقط) نال شهرة واسعة بفضل اكتشافه على يد العرب أنفسهم ؟ ان (رسالة الغفران) و(البخلاء) و(كليلة ودمنه) وكتابات التوحيدي وابن سينا وابن رشد وألف ليلة وليلة وحتى المعلقات وردتنا في عصر النهضة من خلال اعادة الاكتشاف الاوربي لها ، وقد طبعت طبعاتها الأولى بتحقيق أوربي ، ولايرمي هذا الكلام الى الانتقاص منها ، ولكنه يرمي الى دعوة الباحثين العرب الى الانتقال الى مرحلة التمحيص . وفيما يتعلق بالكتب الجنسية وأمثالها مما يمكن أن يمت الى (أدب العجب) بوجه خاص ينبغي أن نكون حريصين على استقلالنا الذوقي .

أخيرا أرجو أن اعترف أن الذين يخالفون رأيي في (الروض العاطر) ربما كانوا أكثر عددا (وربما عدة !!) من الذين يقبلونه ، ولم تكن غايتي الانتقاص في الكتاب ولا من معجبيه وكيف أستطيع ذلك وقد قال فيه الوزير الأعظم التونسي ـ كما ورد في مقدمة الشيخ النفزاوي (وهو والله مما يحتاج الى معرفته ، ولايجهله ويهزأ به الا جاهل أحمق قليل الدراية) .

ولا يأتي الاعتراض على الكتاب هنا من حيث المبدأ ولكن من حيث مستوى الطبعة المتوفرة بين أيدينا ، وهي في أربع وستين صفحة فقط ، أي يصعب أن تسمى موسوعة . وما يتمناه المرء أن يتاح لهذا الكتاب تحقيق علمي يكشف عن أصوله ويجعل أحكامنا بشأنه أكثر دقة .

وعلى أية حال هناك جوانب أخرى كثيرة من كتاب النفزاوي مثيرة للنقاش . ولكن المجال ـ كما هو معلوم ـ يضيق عن الدخول فيها عمقا بل التعرض اليها على سبيل مر الكرام !!

دمشق د . حسام الخطيب

تصحيحات واجبة .. عن العصر والنشر

بقلم : محمد الامراني

لفت نظري في عرض كتاب « الروض العاطر في نزهة الخاطر » أن كاتب المقال الاستاذ أحمد عمر شاهين وقع في خطأين هما :

أولا : يطالعنا الكاتب في تقديمه للكتاب بعبارة يقول فيها : « تعود بالتاريخ الى الوراء الى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، وتجول في المكان لتصل الى تونس ، فترة حكم السلطان « أبي فارس عبد العزيز » من بني حفص ، حيث اتسعت المملكة في عهده ، وامتدت الى المغرب الأقصى والأوسط ، وازدهرت البلاد أيامه وازدانت بالعلماء ، وفي طليعتهم المؤرخ والفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون ، الذي أهدى نسخة من مقدمته الى السلطان لتحفظ بجامع القرويين بجانب الكتب والمصادر الموسعة . . » والمعلومات الواردة في هذه الفقرة لاتتفق مع حقائق التاريخ وبيان ذلك أنه من المعروف أن ابن خلدون كتب نسخته الأولى للمقدمة ولكتاب العبر في قلعة ابن سلامة بالجزائر وذلك من سنة ٧٧٦هـ الى ٧٨٠ هـ ثم قام بتنقيح مؤلفه وتهذيبه في تونس التي ارتحل اليها في شهر رجب سنة ٧٨٠ هـ ، وفي تونس أهدى ابن خلدون

نسخته المهذبة والمنقحة للمقدمة ولكتاب العبر ، لسلطان تونس « أبي العباس أحمد » وذلك أوائل سنة ٧٨٤هـ (أوائل ١٣٨٢م) ـ وتعرف هاته النسخة بالنسخة التونسية ـ ثم مالبث ابن خلدون لدى مغادرته تونس بعد استئذانه سلطانها أبي العباس احمد ، أن توجه الى مصر ، متذرعا بفكرة الحج ، وذلك في أواخر سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) ، وبمصر التي بقي بها الى أن توفي سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) ، بعد أن اضطلع بمهام سياسية وثقافية ، وعلمية مهمة ، خارج مصر وداخلها ، قام ابن خلدون بتنقيح وتوسيع لمؤلفه « المقدمة وكتاب العبر » ، وقدم نسخة من ذلك الى ملك مصر الظاهر برقوق ، وحوالي سنة ٧٩٩ هـ بعث ابن خلدون مع وفد متوجه الى المغرب الأقصى ـ من قبل الملك برقوق ـ نسخة الى سلطانه « أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن بن أبي سعيد المريني » (ولي سنة ٧٩٦هـ وتوفي ٧٩٩هـ) لتحفظ في خزانة الكتب بجامع القرويين بفاس وتعرف هاته النسخة بالنسخة الفارسية . نسبة الى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني .

يستنتج من كل هذا مايلي :

١ ـ أن السلطان أبا فارس عبد العزيز والذي أهداه ابن خلدون نسخته كان سلطانا على المغرب الاقصى جاعلا من فاس عاصمة ملكه ، لاسلطانا على تونس ، وانه بالتالي مريني لاحفصي ، وهذه حقيقة لم يتنبه لها كاتب المقال عندما اعتبر السلطان أبا فارس عبد العزيز من بني حفص .

٢ ـ أن سلطان تونس (افريقية) الذي أهداه ابن خلدون نسخته الأولى سنة ٧٨٤هـ ، وهو أبو العباس أحمد كانت مملكته لاتتعدى تونس وبعض انحاء من الجزائر .

٣ ـ لم يحدث في تاريخ المغرب الأقصى وعلى عهد ابن خلدون أن امتد سلطان بني حفص الى المغرب الأقصى كما يوحي بذلك كلام الأستاذ شاهين .

٤ ـ لايمكننا باي حال من الاحوال اعتبار فترة حكم السلطان « أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن بن أبي سعيد المريني » فترة ازدهرت البلاد ابامه كما يشير المقال ، بل انها فترة اضطراب وفوضى ، لدرجة أنه يمكننا أن نقول بأن عصر بني مرين وخاصة بعد موت السلطان أبي عنان المريني ٧٥٩هـ ، وكذا عصر بني عبد الواد بالجزائر ، وبني حفص في تونس آنذاك ، هو عصر احتضار وتراجع ، وانقسام في الدولة الاسلامية .

ثانيا : اعتمد كاتب المقال في عرضه للكتاب على ترجمته الانجليزية ، بدعوى أنه لم يعثر بتاتا على نسخة منه مطبوعة باللغة العربية ، رغم بحثه عنها ، ثم أضاف :

« ورغم أن الكتاب وضع باللغة العربية الا أنه من الكتب النادرة ، فهو لم يطبع بالعربية على الاطلاق » لكن هذا اطلاق مبالغ فيه ، فما كان لباحث في مثل هذا المجال أن يطلق الاحكام جزافا بدون تقييد ، اذ الكتاب (الروض العاطر في نزهة الخاطر) مطبوع بالمغرب ومتداول منذ أمد بعيد . بلغ من انتشاره أن طبع طبعات شعبية غير محققة زهيدة الثمن .

وربما جاز لنا أن نقبل كلامه لو أنه أشار الى أن الكتاب لم يطبع في المشرق العربي .

وبالمناسبة أريد أن أثير نقطة تحتاج الى بحث وهي : أننا نجد في الطبعة المتداولة بالمغرب لكتاب « الروض العاطر في نزهة الخاطر » ، أن المؤلف « ص ٢ » يذكر لنا أنه ألف « الروض العاطر » بعد كتابه الصغير المسمى « تنويع الوقاع في أسرار الجماع » ، ومعنى هذا أنه كان للمؤلف كتاب مختصر بهذا الاسم نقحه ووسعه في كتابه « الروض العاطر في نزهة الخاطر » ، في حين أن الاستاذ شاهين يذكر لنا نقلا عن الترجمة الانجليزية لكتاب « الروض العاطر » أن هذا الكتاب توسيع وتنقيح لكتاب مختصر للمؤلف هو : « مصباح الكون » the Torch of Univers

فهل كان للشيخ محمد النفزاوي كتابان صغيران هما : « تنويع الوقاع في أسرار الجماع » ، « ومصباح الكون » ، اكتفت النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة المغربية بذكر كتاب « تنويع الوقاع في أسرار الجماع » ، واقتصرت النسخة التي اعتمدت عليها الترجمة الانجليزية بذكر كتاب « مصباح الكون » ، وتعدد النسخ لكتاب « الروض العاطر في نزهة الخاطر » أمر لايستبعد ، أم أن الأمر شيء آخر ؟ ■■

محمد الأمراني
المغرب

أذيعت علينا الأخبار

بقلم : محمد خليفة التونسي

يقال « ذاع الخبر » أي ظهر وانتشر ، وشاع ، وكذلك يقال : ذاع السر أو النور أو الظلام أو المرض أو الزي ، أو أي شيء من قول أو عمل ، وهذا الفعل الثلاثي « ذاع » لازم ، يتعدى بالهمزة فيقال : « أذاع الرجل الخبر » أو يقال « أذاع به » كما في آية النساء « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » والمقصود بهم المنافقون أيام النبي - عليه الصلاة والسلام - اذ كانوا ينشرون الأراجيف والشائعات وكان يتبعهم بعض ضعفاء المسلمين لجهلهم ما ينبغي التزامه من الصمت في هذه المواقف .

« والمذياع » من لايكتم السر صفة للفاعل في حال المبالغة وجمعه مذاييع مثل : « مقدام ومقاديم ، مطعام ومطاعيم ، مغوار ومغاوير ، ومنه قول الامام علي - كرم الله وجهه - يصف الأولياء بأنهم « ليسوا بالمذاييع البذر » أي لايذيعون ما اودعوا من أسرار ووصفهم بالبذر جمع بذور كما تجمع غيور على غير ، وصدوق على صدق ، وصبور على صبر ، يقال : هم غير على الحق صدق في الحرب ، صبر على الشدائد .

ومن بدع عصرنا اختراع الاذاعة المسموعة ولها دار أو اكثر في كل قطر تبث الاخبار والبرامج ونحوها والقائم بها يسمى بيننا « المذيع » ومؤنثه « مذيعة » وكذلك يسمى القائمون والقائمات بمثل هذا العمل في دور التلفزة ، وكذلك تطلق كلمة « المذياع » على الاداة التي تستقبل الاصوات من دور الاذاعة لتذيعها وقد صيغ هذا الاسم كما تصاغ بعض أسماء الآلات أو الادوات مثل : مقياس ، ومعيار ومكيال وميزان وملقاط ،

وقد تعودنا ان نسمع مذيعي الأخبار في دور الاذاعة يقولون : (نذيع عليكم) وبعض اللغويين المعاصرين يعارضون استعمال « عليكم » هنا ويدعون الى استعمال « نذيع فيكم أو بينكم » وتعلتهم في ذلك أن عبارة « نذيع عليكم » قد وردت في بعض النصوص الأدبية بمعنى « بث الأخبار السيئة » وأنهم لم يجدوها مستعملة في غيرها وفاتهم أن « أذاع » يعني مطلق النشر أو الاظهار سواء فيما يحب وفيما يكره « بل انه غير مقصور على الاقوال اذ يشمل الأعمال أيضا وإن وروده مع « على » في بعض النصوص ليس دليلا قاطعا على خطأ وروده في غير ما يكره من الاقوال .

ثم ان الاداة « على » قد تفيد الظرفية مثل « في » « وبين » كما في الآية « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » ، ثم انوعلى به تفيد الاستعلاء مطلقا : ماديا أو معنويا ، مثل :«أصبحنا على سفر » « وفي عليه حق » « وبتنا على النار » « والله فضل بعضكم على بعض » ، « وزدنا قوة على قوة » .

وهناك أفعال بمعنى « أذاع » ونحوها وردت مع « على » فيقال : « قرأ فلان علينا الرسالة وتلا علينا السورة » « وتقول عليه الأقاويل » .

وهناك التضمين وقد عرفته لغتنا على سعة في كل تاريخها وهو تحميل كلمة معنى كلمة أخرى للمناسبة بين المعنيين فتستعمل معها متعلقات الكلمة الاخرى فان لم يكن الفعل « أذاع » مرادفا أو كالمرادف للفعل « قرأ » أو « تلا » فإنه يتحمل معناه ، فيتعدى مثله بالأداة « على »

وباب التضمين من أوسع أبواب التصرف في الكلام .

■■

ابن أبي عتيق

أظرف أهل الحجاز في العصر الأموي

بقلم : رابح لطفي جمعة

هذا الرجل ـ ابن أبي عتيق ـ كان من أظرف الشخصيات التي عرفها مجتمع الحجاز في العصر الأموي ، ولكن النقاد والأدباء احتاروا في أمره كثيرا :

قال عنه الدكتور طه حسين انه كان ماجنا ازدان به الحجاز حينا ، وقال عنه لطفي جمعة انه كان : بوهيميا مغلوكا بالمعنى المقصود من البوهيمية والفلاكة في الادب وأسلوب الحياة ، في حين قال عنه المبرد في كتابه « الكامل » ، انه كان من نساك قريش ومن ظرفائهم ، بل بذهم ظرفا وله أخبار كثيرة عن ظرفه ومزاحه ، وأما خليل هنداوي فقد رأى فيه ناقدا حصيفا ذواقة للأدب والشعر لايستلهم في نقده الاذوقه الأدبي واحساسه الفني .

انه شخصية من أعجب الشخصيات حقا في تاريخ الحجاز الأدبي والاجتماعي لعصر بني أمية ، تركت بصماتها الواضحة وتأثيرها الكبير على المجتمع الحجازي بمختلف طبقاته من أمراء وأشراف ونساك وشعراء وأدباء ومغنين ومغنيات ، وعلى الرغم من ذلك كله فنحن لانكاد نعرف شيئا من أمره غير ما جاء عنه في كتاب الأغاني .

على أن الذي نستطيع أن نجزم به أنه عاش خلال القرن الأول من الهجرة وأنه كان من سلالة أبي بكر الصديق . وكان من أشراف قريش أو من الطبقة الارستقراطية التي شهدها الحجاز في العصر الأموي ، غشي كثيرا من مجامع اللهو والسمر واختلف الى محافل الأدب ومجالس الغناء وعاصر المدرسة الغزلية في الحجاز وأعجب بعمر بن أبي ربيعة امام تلك المدرسة ، وخالط المغنين والشعراء وتذوق الغناء والشعر ، ويبدو أنه كان ذا ثقافة واسعة تخول له الحكم في هذين الفنين ، يقصده الملحنون والمغنون والشعراء لكي يحتكموا اليه في لحن أو بيت شعر أو يختصموا اليه في ملحن أو شاعر ، فلا يتباطأ في حكمه ، حديد اللسان ، حاضر البديهة ، لاذع النكتة ، حاد الذكاء ، مزاح فكه ، خفيف الظل والروح ، عاش في عصر اشتهر فيه الحجاز بالظرف من دون سائر الأقطار الاسلامية شهرة واسعة حتى لقد نسبت اليه هذه الصفة وضرب بها المثل وقال الشاعر :

شادن يسكن الشأم وفيه
مع دلّ العراق ظرف الحجاز !

كان الظرف الحجازي يتمثل حينذاك في اقبال القوم على مباهج الحياة وطيباتها وافتنانهم بمظاهر الجمال والتأنق في الزينة واللباس والعطور ومرافق العيش ، لقد كان قوام هذا الظرف تلك الخاصة التي عرف بها العرب : ونعني بها الفصاحة والبلاغة وذلاقة اللسان والقدرة الفائقة على فنون القول من شعر وخطابة وأمثال وما يقترن بذلك كله من براعة الاحتجاج وحسن التخلص والقدرة على الجواب المسكت والرد المفحم ،

أضف الى ذلك روح الفكاهة والمزاح ونزعة المرح والميل الى الهزل والدعابة نتيجة للترف والتحضر والثراء والأمن والاستقرار والفراغ الذي أعقب الفتوحات الاسلامية وانتشار المنتديات الأدبية والمجالس الفنية وتشجيع القوم للفن وعطفهم على الفنانين ، فضلا عما كان للمرأة والشعراء والمغنين والمغنيات من دور فعال في هذه الحياة .

في هذه البيئة الحجازية نشأ وعاش ابن أبي عتيق ، وأسهم في إثرائها وازدهارها . فهو الى جانب أنه كان ذواقة للأدب والشعر ، ينتقد الشعراء باحساس فني وذوق أدبي . فقد كان ميالا لسماع الغناء والألحان وغشيان مجالس اللهو والطرب عطوفا على رجال الفن ، حدبا على المحبين والعشاق يمتزج بهؤلاء ، ويختلط بأولئك ويحس باحساسهم وينفعل بمشاعرهم وله معهم مواقف كثيرة كان يقوم فيها بوصل المنقطع من حبال المودة : يجمع بينهم تارة ويصلح ذات بينهم تارة أخرى . يساعده على ذلك رقة حجازية فطر عليها ومجون بريء طبع عليه وظرف مستملح يرق الذهن ويلطف الحواس ويرهف المشاعر .

كان شديد الاعجاب بعمر بن أبي ربيعة وبشعره ، قال لرجل فضل شعر أحد الشعراء على شعر ابن أبي ربيعة :

بعض ذلك يابن أخي ! لشعر عمر نوطة في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة وما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر أشعر قريش !!

مع عمر بن أبي ربيعة

ولابن أبي عتيق أخبار كثيرة مع شاعره المفضل عمر ابن أبي ربيعة . لاتخلو من نكاهة ودعابة وظرف ومعابثة . فقد هام عمر بسيدة أكثر فيها من الشعرهي زينب بنت موسى الجمحية من شريفات قريش ونبيلاتها . وهي في نفس الوقت ابنة عم ابن أبي عتيق ، ويذكر أبو الفرج الأصبهاني أن ابن أبي عتيق هو الذي عرف عمر بها وأثنى على حسنها وجمالها . فلما شبب عمر

بها وتغزل في جمالها لامه ابن أبي عتيق على ذلك وقال له :

أتنطق الشعر في ابنة عمي ؟

فقال عمر :

لاتلمني عتيق ! حسبي الذي بي
أن بي ياعتيق ما قد كفاني
لاتلمني وأنت زينتها لي

وهنا غلبت ابن أبي عتيق نزعة الظرف والميل الى الدعابة فالتقط الخيط وأكمل شطرة البيت وقال :

أنت مثل الشيطان للانسان !

كذلك شغف عمر بالثريا بنت على بن عبدالله بن الحارث وكانت في سعة من العيش وعلى صلة بالمغنين والمغنيات . تحرّج في دارها الفريض وسمية وكانت تستقبل عمر وتستمع الى أحاديثه ولها ذوق أدبي وحس فني ، وقد روى أبو الفرج طرفا من أخبارها مع عمر ، فتارة ترضى عنه وتارة تغضب عليه ، وهي في الحالتين تمثل الدلال والاعجاب بنفسها وجمالها ، وقد غضبت على عمر يوما وامتنعت عن لقائه فقال من أبيات :

من رسولي الى الثريا فاني
ضقت ذرعا بهجرها والكتاب !

وسمع ابن أبي عتيق هذه الأبيات وهو في المدينة فقال :

اياي أراد وبي نوه ، لاجرم والله لاأذوق أكلا حتى أشخص (أي أتوجه) فاصلح بينهما .

ونهض ، ونهض معه مولاه بلال ، واكترى راحلتين ركب احداهما وركب بلال الأخرى وسار سيرا شديدا حتى قال له مولاه :

أبق على نفسك فان ماتريد ليس يفوتك !

فقال له :

ويلك ! « ما حلاوة الدنيا ان تم الصدع بين عمر والثريا ؟ »

وقدم مكة فدق على عمر بابه فخرج اليه وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته وقال له :

اركب أصلح بينك وبين الثريا فاني رسولك الذي سألت عنه فلامه عمر فقال له :

لما رأيتك تلتمس رسولا لخففت (أي أسرعت) في حاجتك ، فانما كان ثوابي أن أشكر !!

فركب عمر معه حتى قدما الطائف واستأذن ابن أبي عتيق على الثريا ، فلما رأته قالت له :

ماكنت لنا زائرا !

فقال لها :

هذا عمر جشمني السفر من المدينة اليك ، فجئتك به معترفا لك بذنب لم يجنه ، معتذرا لك عن إساءته اليك ، فدعيني من التعداد والترداد ، فانه من الشعراء الذين

يقولون ما لايفعلون .

فضحكت الثريا وصالحت عمر أحسن صلح وأتمه وأجله ، ورجع ابن أبي عتيق مع صاحبه الى مكة ثم تركه الى المدينة .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي أصلح ابن أبي عتيق فيها بين المحبين والعشاق ; فقد أصلح بين نصيب ومحبوبته سـ ـى ، كما أصلح بين عائشة بنت طلحة ومصعب بن الزبير في خبر طريف لايخلو من عبث ودعابة . فقد عتبت عائشة على مصعب وهجرته فقال مصعب :

هذه عشرة آلاف درهم لمن احتال لي أن تكلمني !

فقال له ابن أبي عتيق :

عد لي المال !

ثم صار الى عائشة فجعل يستعتبها لمصعب ويسترضيها عليه فقالت : والله ما عزمي أن أكلمه ابداً !

فلما رأى اصرارها قال لها :

ـ يابنت عم ! انه قد ضمن لي ان كلمته عشرة آلاف درهم فكلميه حتى أخذها ثم عودي الى ما عودك الله من سوء الخلق !!

ومن العجيب أن الدكتور طه حسين يرى في ابن أبي عتيق بسبب هذه الأخبار أنه كان قوادا يجمع بين المحبين والعشاق ويصلح بينهم . في حين أن الاستاذ خليل هنداوي يفسر هذا المسلك تفسيرا أقرب الى المعقول ويبرر قيامه بهذا الدور بأنه لابد أن حادثا من حوادث غرامه جعله يحدب على المحبين والعشاق ويمثل دور الرسول بينهم ، يجمع بينهم تارة ويصلح ذات بينهم تارة أخرى .

دفاع عن المغنين والمغنيات

أما عطفه على المغنين والمغنيات وتشجيعه اياهم ، فقد وردت في ذلك أخبار طريفة . بل أنه تعلق بعزة الميلاء أقدم مغنيات المدينة في العصر الأموي . وكانت أقدم من غنى الغناء الموقع بالحجاز من الجواري وكانت من أجمل النساء . ولها دار اتخذتها تغني فيها الناس حتى يقال انها فتنت رجال المدينة ونساءها فتنة شديدة ، شغف ابن أبي عتيق بعزة وقصدها يوما مع عبد الله بن جعفر وعمر بن أبي ربيعة فغنتهم ، وغنت لعمر بعض أشعاره فشق الشاعر ثيابه وصاح صيحة عظيمة من شدة الطرب كما يقول أبو الفرج الأصبهاني .

ومن طريف أخبار ابن أبي عتيق مع أهل الفن أنه رأى حلق ابن عائشة المغني المشهور مخدشا فقال :

من فعل بك هذا ؟!

قال : فلان

فمضى ابن أبي عتيق ونزع ثيابه وشمر عن عضلاته وجلس للرجل على بابه فلما خرج أخذ بتلابيبه وجعل يضربه ضربا شديدا والرجل يصيح ويقول له :

مالك تضربني ؟ أي شيء صنعت ؟ وهولا يجيبه حتى اشبعه ضربا وبلغ منه الغاية ، تركه وقال لمن حضر هذه الواقعة :

ـ هذا أراد أن يكسر مزامير داود ! شدَّ على ابن عائشة فخنقه وخدش حلقه !!

ويروي المبرد في كتابه « الكامل » في مقام عطف ابن أبي عتيق على المغنين والمغنيات ـ طرفة من طرائفه فيقول ان عثمان بن حيان المري لما دخل المدينة واليا عليها اجتمع الأشراف عليه من قريش والأنصار وقالوا له انك لاتعمل عملا أجدى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء !

ففعل وأجلَّ المغنين والمغنيات ثلاث ليال حتى يخرجوا من المدينة . وقدم ابن أبي عتيق في الليلة الثالثة فحط رحله بباب سلامة الزرقاء المشهورة « بسلامة القس » وكانت أعظم مغنية في عصرها وقال لها :

ـ بدأت بك قبل أن أسير الى منزلي .

فقالت :

أوما تدري ما حدث ؟

وأخبرته الخبر فقال لها :

أقيمي الى السحر حتى ألقاه .

ثم مشى الى عثمان المري فاستأذن عليه وأخبره أن أسرع ما أقدمه اليه هو حب التسليم عليه ثم قال له :

ان أفضل ما عملت به تحريم الغناء والرثاء !

فقال عثمان :

ان أهلك أشاروا علي بذلك .

فقال ابن أبي عتيق :

فانك قد وفقت ولكني رسول امرأة إليك تقول : قد كانت

هذه صناعتي ، فتبت الى الله منها وأنا أسألك أيها الأمير ألاتحول بينها وبين مجاورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال له عثمان : اذن ادعها .

فأمرها ابن أبي عتيق فتقشفت ولبست مسوح الزهاد وأخذت سبحة في يدها وسارت الى عثمان المري وحدثته عن مآثر آبائه ففكه لها وارتاح اليها . وهنا انتهز ابن أبي عتيق الفرصة السانحة وقال لها : اقرئي للأمير .

ففعلت فأعجب بذلك .

فقال لها :

فاحدي للامير !

فحركه حداؤها .

ثم قال لها :

غنيّ للأمير .

فجعل عثمان يعجب بذلك .

فسأله ابن أبي عتيق :

فكيف لو سمعتها في صناعتها (أي الغناء) ؟

فقال عثمان : قل لها فلتفعل

فأمرها فغنت ، فما كان من عثمان المري إلا أن نزل عن سريره حتى جلس بين يدي سلامة ثم قال :

لا والله ما مثلك يخرج من المدينة !

وهنا يحتال ابن أبي عتيق على الأمير فيقول :

اذن يقول الناس أذن لسلامة في المقام ومنع غيرها .

فقال له عثمان :

قد أذنت لهم جميعا !

وهكذا أبطل ابن أبي عتيق بظرفه وذكائه أمر الأمير بتحريم الغناء وخروج المغنين والمغنيات من المدينة وظفر ببقائهم جميعا بها .

ولا نجد ما نختتم به هذا المقال عن ابن أبي عتيق خيرا من ايراد طرفة من طرائف طرفه مع شاعره عمر بن أبي ربيعة ، فقد سمع وهو بالمدينة قول عمر :

فما نلت منها محرما غير أننا
كلانا من الثوب المورد لابس

ـ أما زعمت أنك لم ترتكب حراما قط ؟

قال : ـ بلى .

فقال :أبنا يلعب ابن أبي ربيعة ؟ فأي محرم بقي ؟ وركب بغلته متوجها الى مكة ولقي ابن أبي ربيعة فقال له :

قال : فما قولك « كلانا من الثوب المورد لابس) وهنا أسقط في يد عمر وقال له : اذن أخبرك الخبر .. خرجت بعلة المسجد ، أي بحجة أنه يقصدالمسجد) فصرنا الى بعض الشعاب فأخذتنا السماء وأمطرتنا مطرا شديدا فأمرت بثوبي فسترنا الغلمان به لئلا يروا بنا بلة فيقولوا هلا استترت بسقائف المسجد .

وهنا حبكت النكتة لابن ابي عتيق وقال له :

يا عاهر : هذا البيت يحتاج الى حاضنة !!

وبعد !! فهذه بعض طرائف ابن أبي عتيق أظرف شخصيات أهل الحجاز في العصر الأموي تعطينا صورة عن الحياة الحجازية على حقيقتها في القرن الأول للهجرة ■■

رابح لطفي جمعة

مستشار بمحكمة النقض ـ القاهرة

جواب لطيف

● اشتكى عند المأمون جماعة من عامل نصّبه عليهم ، فأجاب الخليفة : « انه عادل تقي ، ولا اعلم منه الا خيرا » فرد عليه احدهم قائلا : فليأمر أمير المؤمنين بتعيينه في بلد آخر حتى يستفيد الآخرون من عدله وتقواه » .



المثال

قصة ـ جي دي موباسان

ترجمة : الدكتور عيسى المصو

كان ذلك في احد ايام منتصف شهر يوليو ، حيث رقدت بلدة (اتريتا) تحت الشمس منحنية على شكل هلال ، بصخرها الاشهب وحصاها الابيض وبحرها الازرق ، فيما انتهى طرفا استدارة الهلال بميناءين احدهما صغير وهو الايمن والآخر كبير وهو الايسر .

جلس على الشاطىء جمهور من المصطافين يراقبون المستحمين ، بينما احتشدت جماعة اخرى على شرفة الكازينو جالسة او متمشية تعرض تحت الشمس المشرقة مجموعة من ملابسها الزاهية ، سطعت من خلالها المظلات الحريرية الحمراء والزرقاء مطرزة بازهار ملونة .

وانعزل فريق آخر من المصطافين على طريق النزهة المحاذي للبحر ينشدون الهدوء بعيدا عن الجمهور الآخر المترف .

وكان بين هؤلاء شاب معروف بانه هو الرسام (جان سوميير) . كان يمشي ساهما واجما بجانب عربية من العربات التي يستقلها المقعدون يدفعها خادم في رفق وقد جلست عليها زوجته المقعدة وهي شابة في مقتبل العمر تسرح بنظرها الحزين في بهجة السماء وروعة اليوم ومرح الجمهور .

كان الزوجان يسيران على هذه الحال لا ينبس احدهما ببنت شفة ولا يتبادلان النظر الى ان قالت الزوجة : « لنتوقف قليلا هنا ». فتوقفا وتقدم الخادم الى الرسام بكرسي من تلك الكراسي التي تطوى فجلس عليه بينما تعرض الزوجان الصامتان الى نظرات المارة التي تنم عن الشفقة فقد دار على الالسن ان حادثا من حوادث الاخلاص والتضحية قد وقع بينهما وقيل ان الشاب تزوجها برغم عاهتها متأثرا بحبه لها .

قال رجل لآخر وكانا جالسين على مقعدين يجيلان نظريهما في الفضاء :

ـ كلا ليس هذا صحيحا ، فانا اعرف جان سومير حق المعرفة .

ـ اذن لماذا تزوجها ؟ فقد كانت مقعدة حين الزواج ، اليس كذلك ؟

ـ اجل ، وهو كذلك ولكنه تزوجها . . . تزوجها كما يتزوج بعض الناس حمقا وسفاهة .

ـ وبعد ؟

ـ وبعد ؟ ليس هناك بعد ولا قبل يا صديقي الانسان احمق لانه احمق وانت تعلم حق العلم ان من خصائص الرسامين الزواج المضحك . فالكثرة الكاثرة منهم يتزوجون امثلتهم او من العشيقات المسنات او من السيدات اللواتي تدور الشبهات حولهن من جهة او اخرى . لماذا ؟ لا احد يدري وقد يخيل الى البعض عكس ذلك فيذهبون الى انه بسبب مصاحبة الفنانين لهذا النوع من النساء اللواتي يسميهن الناس (امثلة) قد يعافون ذلك النوع من النساء ولكن الامر ليس كذلك . فانهم بعد ان يجلسوهن ليرسموهن يتزوجوهن . اقرأ الكتيب الصادق القاسي والجميل الذي الفه (الفونس دوديه) بعنوان (نساء الفنانين) .

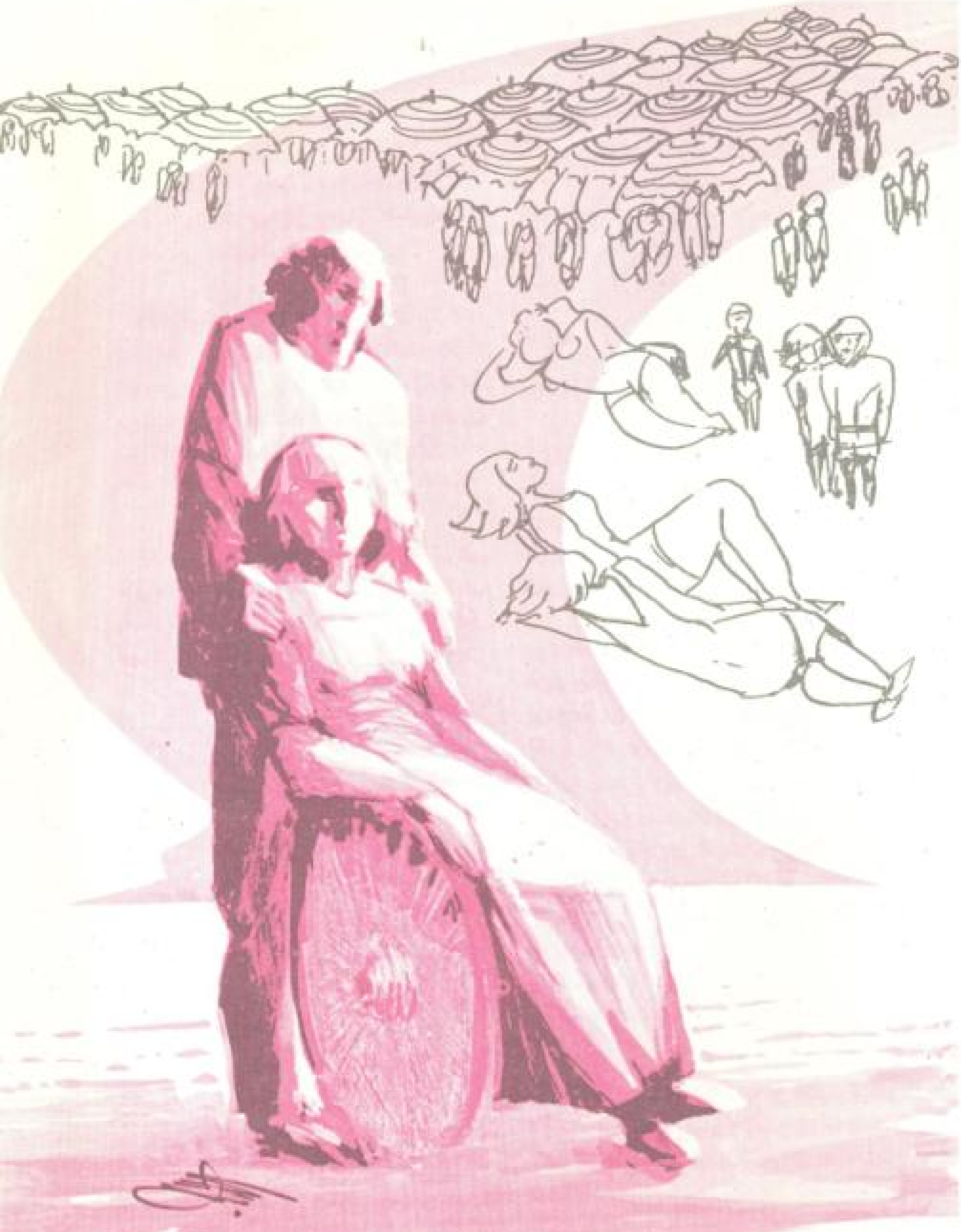
لقد تدخل القدر بالنسبة الى الزوجين اللذين تراهما على صورة خاصة وحالة فظيعة ، لقد قامت هذه الفتاة بتمثيل مهزلة او بالاحرى مأساة مخيفة فقامرت بكل شيء لتربح كل شيء او لتخسره فهل كانت مخلصة ؟ وهل كانت تحب (جان) ؟ لا يدري ذلك الا الله . ومن ذا الذي يستطيع ان يجزم بما في عمل المرأة من تخطيط مدبر أو غير مدبر ، ان اخلاصهن يعكس بصدق تغيرا مستمرا في مزاجهن فقد يكن عاطفيات او شريرات او مخلصات او رائعات او فاسدات متجاوبات مع ما يجري في شعورهن من البواعث ، وهن لا يفترن عن الكذب من غير ان يردن او يعلمن او يفهمن . وتنبعث فيهن مع ذلك صراحة مطلقة في الاحاسيس والعواطف التي يظهرنها عن طريق احلام وحلول عنيفة غير متوقعة ولا مفهومة ، تضلل حسابات منطقنا في الرأي والتفكير . فالمفاجأة والعنف في قراراتهن يجعلانهن الغازا لا يسبر غورها فنحن لا نفتأ نسأل هذا السؤال : هل هن صادقات ام كاذبات ؟

غير انهن يا صديقي صادقات كاذبات في وقت واحد معا لان في طبيعتهن ان يكن صادقات كاذبات على اشد ما يكون الصدق والكذب او لا يكن على شيء منهما اصلا .

فكر في الوسائل التي تتوسل بها اكرم النساء ليبلغن منا ما يشأن تجدها وسائل معقدة وساذجة . فهي معقدة بحيث لم تقع في حساباتنا من قبل وساذجة بحيث ترانا بعد ان نصبح من ضحاياها لا يسعنا الا ان نتفاجأ فنقول : ماذا ؟ لقد خدعتني بحمق وغباوة . ثم انهن يا عزيزي ينجحن دائما ولا سيما اذا تعلق الامر بزواجهن . وهاك قصة السيد (جان سومير) .

كانت الفتاة مثالا كما علمت تجلس في مرسمه بحسب الاوضاع التي يريدها . وكانت جميلة الشكل وفورة المنظر رشيقة القوام فعشقها كما يعشق الانسان اية امرأة جذابة يراها باستمرار وتخيل ان حبها قد اخذ بمجامع قلبه وتلك ظاهرة غريبة فاذا ما رغب الانسان امرأة ظن مخلصا انه لن يكل منها بقية عمره ولكن متى ملكها زهدها . ولا يمكن التعويل على الشهوة الجسمية كي تستبقيه بجانبها طول الحياة فلابد من شيء آخر الا وهو توافق النفس والعقل والمزاج . وعلى الرجل حين تفتنه المرأة ان يقرر فيما اذا كان هذا الافتتان منبعثا عن اغراء الجسم ام عن جاذبية الروح .

وقصارى القول أنه أحبها أو أنه ظن ذلك ، فعاهدها على الاخلاص وأحضرها لتعيش معه ، وفي الحق كانت الفتاة ظريفة ، وزاد في ظرفها تلك السذاجة اللطيفة التي تتصف بها الباريسيات الصغيرات . فهن يثرثرن ويهذين وينطقن بالحماقات التي تجعلها تبدو أشبه ما تكون بالخطرات الذهنية بسبب الطريقة الغريبة التي تلقيها بها .



وكان لها في كل لحظة حركات يقصد بها أن تفتن عين الرسام : فهي حين ترفع ذراعيها وحين تنحني وحين تستقل عربة ، وحين تبسط يديها ، تجيء حركتها محكمة ومنسجمة .

وفي غضون ثلاثة أشهر لم يلاحظ (جان) انها في حقيقة أمرها لم تكن تختلف عن سائر مثيلاتها فاستأجرا بيتا صغيرا (في اتدرسي) ليقضيا فيه فصل الصيف .

وكنت هناك ذات ليلة حين أخذت الشكوك الاولى تراود عقل صديقي . وكانت تلك الليلة قمراءفرغبنا في التنزه على ضفة النهر . وكان القمر يرسل على الماء فيضا من نوره ، ويبعثر أشعته الصفراء على دوامات الماء وتيار اللج ، وعلى القصب المريض البطيء الحركة .

كنا نتنزه بمحاذاة الشاطيء نعيش ذلك الطرب المبهم الذي تبثه فينا تلك الليالي الحالمة وكانت نفوسنا مهيأة للقيام بأعمال تفوق أعمال البشر ، وقلوبنا متفتحة لحب كائنات مجهولة من نوع شعري نادر . وكنا نشعر بالنشوة والرغبات والأماني الغريبة تختلج في نفوسنا . فلزمنا الصمت مفتونين بصفاء السماء ونسمات الليل العليلة . وبدا على جمال القمر انه يتسلل الى أجسامنا فيغمر الذهن ويعطره ويشعره بالسعادة والرضا .

وعلى حين بغتة صاحت (جوزفين) ـ وهو اسم الفتاة قائلة : هل رأيت السمكة الكبيرة التي وثبت هناك ؟

فأجاب بلا اكتراث من دون أن ينظر :

نعم يا عزيزتي . فأجابت غاضبة : كلا انك لم ترها لأن ظهرك كان اليها .

فابتسم وقال : نعم هذا صحيح فالجو قد استحوذ على بجماله فلم أفكر في غيره .

فسكتت عن الكلام . ولكن رغبتها في الحديث تملكتها بعد لحظة ، فسألت (جان) : أذاهب أنت غدا الى باريس ؟

فأجابها : لا أعلم .

فعاودها الغضب وقالت : لعلك تعتقد أنه مما يبهج نفسك أن تتنزه وأنت صامت . ان الناس يتحدثون ما لم يكونوا حمقى . فلم يعلق على قولها بشيء .

وفطنت بفضل غريزة المكر فيها ان في مقدورها أن تغني ذلك اللحن المثير الذي أضنى الاسماع والأذهان مدة عامين ومطلعه : « كيف أنظر الى السماء » . فقال لها مغمغما : اسكتي من فضلك .

فردت محتدة : ولماذا تريدني أن أسكت ؟

فأجابها : انك تفسدين علينا المنظر .

وهنا حدث المشهد البشع المتطوي على عتاب لا اساس له واحتجاجات في غير محلها ، فانهمرت الدموع ثم عادا الى البيت . وكان « جان » قد تركها تمضي في ثورتها ، لأنه كان مخدر الاعصاب بنشوة هذه الليلة مبهوتا أمام هذه العاصفة الهوجاء .

ومضت بعد ذلك ثلاثة أشهر كان الشاب فيها يصارع بيأس مع تلك القيود الخفية التي تربطنا بالعادة في مثل هذه الحالة ، اذ كانت الفتاة لاتبرح ترهقه وتحمله عذابا شديدا ، فتشاجرا على الدوام شجارا لا يخلو من سباب وشتم .

وأخيرا عقد العزم على أن تنتهي هذه الحالة على اي وجه وبأي ثمن . فباع رسومه ، واقترض بعض المال من أصدقائه حتى تجمع لديه عشرون الف فرنك (فبالكاد كان معروفا) ووضعها ذات صباح على رف المائدة ، ومعها رسالة ، وترك لها المنزل ولجأ الى بيتي .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر قرع الباب ، فذهبت أفتحه فاذا هي أمامي تكاد لا تملك نفسها من الحنق ، فدفعتني جانبا واندفعت الى الاستوديو . ونهض لما رآها تدخل ، والقت بين قدميه الغلاف وفيه الأوراق المالية وقالت باستعلاء وبايجاز : ـ

هاك نقودك ، لا حاجة لي بها .



وكانت حينئذ ممتقعة اللون ، مرتجفة الأوصال مستعدة لأن ترتكب أية حماقة ، وكذلك كان هو ممتقع اللون ، حانق الصدر مهيأ لارتكاب أي عنف . فسألها ماذا تريدين ؟أجابت : لاأريد أن تعاملني معاملة البغي ، لقد توسلت الى كي أسكن عندك ، فانا لا أطلب منك شيئا الا أن تستبقيني عندك .

فضرب الارض برجله وقال منفعلا : « لا هذا كثير ، اذا كنت تظنين أنك . . » فامسكته أنا من يده وقلت له « دعني يا (جان) أتصرف » . وأخذت بالتدريج أحاول أن أخفف من حدة غضبها بكل ما يمليه الخاطر في مثل هذه المناسبات . وكانت تستمع الى دون حراك شاخصة في المشهد الذي تراه أمامها وما تزال متشبثة بموقفها .

وأخيرا أعيتني الحيلة فيها اقول ، وإذ أدركت أن هذا الموقف لا يمكنه الا أن ينجلي على وجه سيء ، لجأت الى آخر حيلة من الحيل ، فقلت بتمهل : إنه لا يزال على حبك ياصغيرتي ، غير ان أسرته تريد أن تزوجه . وأنت تعلمين . .

فاعترتها قشعريرة قوية وقالت :

آه . . ، لقد فهمت الآن ، ثم التفتت اليه قائلة : أتريد أن تتزوج ، فأجابها بحزم : أجل . فخطت نحوه خطوة وقالت : اذا تزوجت قتلت نفسي ، أتسمع ؟ فهز كتفيه وقال بهدوء : حسنا ، اقتلي نفسك .

فتملك حلقها ألم شديد ، الا أنها استطاعت أن ترده :

أتقول ؟ أتقول ؟ أتقول ؟ أعد . .

فكرر القول : أقتلي نفسك اذا كان هذا يسرك .

أجابت وقد زاد شحوبها : يجدر بك ألا تتحداني أكثر مما يجب . سأرمي نفسي من النافذة .

وضحك (جان) بملء فيه ومضى الى النافذة ففتحها ، وانحنى كمن يريد أن يقدم عليه غيره في المرور وقال : هذا هو الطريق ! تفضلي !

ولمدة لحظة ثبتت نظرها الهائج المشوش ، ثم جمعت نفسها كمن يريد أن يقفز سياجا في حقل ، ومرت أمامه وأمامي نحو النافذة واختفت .

لن أنسى ما حييت الأثر الذي أحدثته هذه النافذة المفتوحة في نفسي ، وقد هوى منها ذلك الجسم لقد خلتها في تلك اللحظة واسعة كالسماء ، فارغة كالفضاء ، فرجعت القهقري دون أن أجرؤ على النظر كأنني خشيت على نفسي من السقوط . أما « جان » فقد تبلد حسه ، ولم يستطع حراكا .

وتدافع الناس فأتوا بالفتاة مكسورة الساقين ، فلن تمشي على قدميها بعد اليوم ، وتقدم حبيبها ، وقد تملكه وخز الضمير متضل النفس من اخلاص الفتاة ، فآواها اليه وتزوجها .

ذلك يا عزيزي حديث هذين الزوجين .

وأقبل المساء فرغبت الفتاة في العودة خشية البرد ، فأخذ الخادم يدفع عربة المقعد نحو القرية . ومشى الرسام بجانب امرأته وقد مضت عليهما ساعة من الزمان دون أن يخاطب أحد منهما الآخر بكلمة واحدة . ■■

« الكتاب القنبله » في فرنسا

فن الإنتحار !

تأليف : كلود جيلون وايف لوبوبتيك

تقديم : الدكتوره ليلى ابراهيم شلبي

هذا الكتاب يوصف الان في فرنسا بانه « الكتاب القنبلة » ، لخطورة الموضوع الذى يعالجه ، وحجم الدوى الذى احدثه . الكتاب عنوانه هو : « فن الانتحار » . . وقد بيع منه خلال شهر واحد ٤٠ الف نسخة ، وطبع مؤخرا للمرة الثالثه .

ـ جمعية الموت الجميل الفرنسية . . تعد عملاءها بوصفات للموت لا تحتمل الفشل . . ومستعده لتوصيلها للمنازل !

ـ مصلحة الموت الأمريكية . . تحفظ لكم بأسراركم حتى تودعكم واياها الى غير رجعة ! . .

ـ جمعية المخرج البريطانية . . توفر لكم مخرجا . . الى حيث لا مدخل بعد ذلك ! . . . .

ـ جمعية يحيا الموت الايطالية . . تقدم لكم أسرع الوسائل . . ولن تتيح لكم التردد ! . .

ـ التجمع الألماني لاقرار حق الموت للجميع . . يتيح لك ميته هادئه . . في كرامة ! . . . . . .

ـ جمعية الموت قدر بزيمبابوى . . تدعوكم لحفلة موت على الطريقة الأفريقية ! . . . .

. . الى السادة راغبي الخلاص . . اذا لم تعجبكم كل هذه الوسائل لرحلتكم الاخيرة الرائعة . . الى حيث الظلام والصمت يمكنكم استشارتنا . فهناك جمعيات مماثله في انحاء العالم ، جنوب أفريقيا ، استراليا ، النمسا ، بلجيكا ، كندا ، الدانمارك ، النرويج ، نيوزيلندا ، السويد ، بل وأيضا سويسرا حيث تغمضون أعينكم والى الأبد على أكثر المناظر الطبيعية جمالا . .

قد يتصور القارىء ان ما أكتبه هو مزحة تبدو ثقيله وهى تتناول أكثر وقائع الحياة ثباتا ، ألا وهو الموت . . الذى نقف أمامه جميعا وقفة الذى لا حول له ولا قوة . . لا نملك حتى رده . . أو استمهاله . . . وإن كنا جميعا ببابه وقوفا . . نحترف الانتظار . ولكن الحقيقه غير ذلك تماما ، فهذه الجمعيات لها وجود فعلى وقانونى ، ولها مقار



رسمية .. ووفود تجتمع في مؤتمرات عالمية .. وقرارات تنفذ بدقة صارمه تحسدها عليها مؤتمرات القمة العربية !

جمعيات للموت ! ...

جمعيات تمدك بالمعلومات الكاملة عن أسرع الوسائل .. وأجملها .. بل واحدثها أيضا .. وتعرض عليك آخر جرعات السموم مغلفة بابتسامه رقيقة .. تودعك الى الأبدية .. وتدعوك لاستخدام حقك الطبيعي في حرية الموت ! ! ....

أى عالم مجنون نعيش ؟ .. وأى تعاسه تنتظرنا بعد ؟ ..

الكتاب انفجر حديثا في باريس ، وتناثرت شظاياه في كل مكان ، وترددت أصداء الانفجار فيا بين اوروبا وامريكا . الكتاب سجل أعلى توزيع خلال شهر . فقد نفدت الطبعة الأولى فور صدورها وتلتها الثانية .. ثم الثالثه . ومع ذلك صاحب انتشار الكتاب موجه هائلة من السخط العام بين الأطباء ورجال القانون وعلماء الاجتماع ، بل وأيضا رجال الشرطه اثر البلاغ الأول الذى تلقوه من البرفسور « مورو » المسئول عن غرفة الانعاش بكلية طب « تولوز » ، والذى يطلب فيه التحقيق مع مؤلفى الكتاب حيث استقبل بنفسه ثلاث حالات انتحار ، اتبع فيها المنتحرون بدقة وصفات الكتاب التي لا تخيب .. تلاها انتحار شاب في الرابعة والعشرين من عمره وجد ميتا في حجرته والى جواره الكتاب مفتوحا على بابه العاشر ... أو ذلك الباب القاتل الذى ضمنه المؤلفان وصفات حقيقيه ، أكيدة المفعول ، عن طريق جرعات محسوبة من الأدوية التي يمكن الحصول عليها بسهولة من الصيدليات وتستخدم في علاج أمراض القلب والضغط وضد الألم أو المنومات!

خرجت أبحث عن الكتاب يحدونى أمل في أن أكون مخطئة واهمة ... فالعلم دائما كان للحياة ... ربما للعلم ... أما العلم للموت .. فهذا اشعار لا أظنه يلقى رواجا في مدينة تعشق الحياة كباريس ! ...

لكنى سرعان ما تراجعت حينما دفع قلبي بنبضه ثقيله حزينه الى كل شرايينى دفعة واحدة ، وأنا اطالع إعلان آخر فيلم لبطل أحزان السينما الفرنسية وطفلها باتريك ديوير ، الذى رحل فجأة صباح الجمعة ١٦ يوليو بعد ما سحبت اليه كل آمال الشباب في سن الخامسة والثلاثين .. والذى أنهى حياته برصاصة واحدة اخترقت الرأس الذى طالما حلم بالمجد والحياة ! ..

دخلت أول مكتبة صادفتنى في حى « سان ميشيل » المعروف جدا لكل أوساط الطلبة والمثقفين . يبدى

قصاصه من جريدة نشرت الحادث . تجهمت البائعة قليلا قبل أن تجيب : حسنا . . إننا المكتبة الوحيدة التي رفضت توزيع هذا الكتاب . . . ولنا أسبابنا الأخلاقية . . لكنك كما تقولين طيبه . . . سأعطيك إذن اسم الناشر !

لم أكن في الواقع بحاجة لاسم الناشر لأنه في المكتبه الملاصقة تماما وجدت الكتاب . في لوحة خاصة تعلن في زهو أنه الكتاب الأعلى توزيعا هذا الشهر ! . . . .

الاحتفال بالموت !

يحكى الكتاب أن بداية الهمس عن تزايد حالات الانتحار لم تأخذ شكلها العلني حتى بعد تناثر حالات الانتحار في انحاء فرنسا حتى بين الاطفال الذين قد يتجاوزون الثالثة عشرة ، . فيعرض لبعض حالات الانتحار بين العشاق الصغار . . . لكن إعلانا صغيرا في جريدة « ليبراسيون » شد الانتباه الى أن الانتحار أصبح ظاهرة تستحق الدراسة . فقد نشر أحدهم اعلانا بدون توقيع في الاعلانات المبوبه في ١٤ يونيو سنة ١٩٧٧ يدعو الى « حفلة انتحار » بكلمات تقول ان : « الموت بشكل ثنائي أو مع مجموعة قد تحول الى احتفال » ولم تمض ذات السنة حتى ظهر إعلان آخر يتساءل « من يدلنا على ميته هادئه ، إن من حقنا الرغبة في الموت ولكن ليس بإلقاء أنفسنا من الطابق العشرين أو إطلاق الرصاص على رءوسنا ، هيا أيها الاطباء تخلوا عن أنانيتكم وارشدونا الى ميته سهله .:. رائعه » التوقيع بياتريس ! ويتساءل المؤلفان ببراءة شديدة مع هذه البياتريس : اذا كان الموت حقيقة يومية وارده . . فلماذا لا يكون الطريق اليه واضح المعالم . . . سهلا لكل راغب فيه ؟ . . .

ويمضى الكتاب في سرد حقائق مذهله عن الطريق السهل للموت في بلاد أخرى . . فيذكر أن أول مؤسسة وجدت للدفاع عن حق الانسان في الموت (EXIT) تأسست في بريطانيا عام ١٩٣٥ وأنها وزعت ٧ آلاف نسخة من برنامجها للموت في العام الماضى وحده . . . ضمنته أحدث ما جادت به قريحه علماء الانجليز من وصفات شهية للموت في نعيم . . ابتداء من ابتلاع الأقراص مرورا باستنشاق الغاز أو الاستمتاع بحمام مثلج إلى الأبد ، وإنتهاء بحقنه من السم العليل تخلصك من عذاب الاستماع لنشرة الأخبار العربية . . الى يوم الحساب ! . .

بالطبع لم تنس الجمعية أن تطبع دليلا خاصا للقتل . . نعم لقتل من تحب ! . . لكنها ولأسباب انسانية بحته حددت نطاق استخدامه في حالة الأمراض الميئوس منها أو التي تسبب آلاما . . ولعلنا نذكر قصة تلك الفتاة التي أقدمت على قتل صديقتها المصابه بالسرطان في لندن ، واثارت إشكالا قانونيا دام طويلا في المحاكم البريطانية الى أن صدر حكم بسجنها ثلاث سنوات فقط ، بحجه أنها أقدمت على ذلك بدافع إنسانى بحت ! . .

أما الموت على الطريقة الأمريكية فتحتفظ بأسراره « مصلحة الموت » والتي تضم ٢٥٠ ألف عضو ـ ليس مفهوما حقا لماذا هم من الأحياء ! ـ ولا تبوح بها إلا لمن تتأكد من أنه راغب لامحالة في الموت . . . . فعندها ما يكفيها من الأعضاء ، وشارة العضوية تسلمها مع مصاريف الجنازة . . والكفن ! . . .

وهذه الجهود ليست حكرا على الدول الكبرى ، فجمعيات الموت منتشرة في جنوب أفريقيا وأستراليا وبلجيكا والدانمارك ونيوزيلندا والسويد والنرويج وسويسرا ، وزيمبابوى ممثلة للقارة الافريقية .

حق لكل انسان

يحكى الكتاب أسرار مؤتمر « الموت حق لكل انسان » والذى عقد في أكسفورد في الفترة ما بين ١١ ـ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٨٠ بحضور عشرين وفدا يمثلون خمس عشرة دولة والذى انتهى بموافقة جماعية على التجمع تحت لواء اتحاد عالمى شعاره « اذا لم تكن الحياة اختيارا . . فليكن لنا في الموت خيار » !!! . . . .

ويعلو صوت الكتاب مؤيدا الشعار « في عالم اللامعقول المهدد بالموت النووى . . من يريد الموت لا ينتظر القانون . . . ولا تكييف التهمة » .

« مشكلتهم معنا ان حسنا السياسى لن يغادر اجسادنا الا ومعه ارواحنا » . بهذه الكلمات يقدم المؤلفان للفصل الثالث من الكتاب وقد أسمياه « مذبحه الدولة » . والكلمات لأولريكا ـ ما ينهوف . . زعيمة منظمة بادر ـ ما ينهوف والتي كتبتها من سجنها في فبراير سنة ١٩٧٤ الى محاميها قبل انتحارها في سجنها ، في محاولة لعرض وسيلة أخرى للموت الاختيارى الذى قد يضطر اليه الانسان تحت ضغوط خارجية موحية كالسجن السياسى مثلا .

ويتعرض الكاتبان أيضا للموت جوعا والذى أعلن عنه ثوار جيش التحرير الايرلندى ، حتى بات زعيمهم بوبى ساندرز زعيما ورمزا للبطولة والنضال .

يعترض الكاتبان على طبيب السجن الفرنسى الذى أخضع ستة من السجناء المطالبين باستقلال كورسيكا لفحوص الدم لتحديد الوقت المناسب لانقاذهم من الموت

جوعا ، بعد أن أعلنوا عن الاضراب عن الطعام حتى الموت .

بعد ذلك ينتقل الكتاب لعرض قضية ربما كانت القضية الوحيدة القابلة للجدل العلمي إذ أنها بالفعل حاليا أهم القضايا المطروحة في جدول أعمال لجنة أخلاقيات الطب البريطانية ، والتي ينتظر فيها قول فصل بعد التطور الهائل في عمليات طفل الانابيب . والقضيه تتلخص في السؤال التالي : هل يحق للطبيب التدخل في تحديد اللحظة لقتل جنين ما زال نطفة برحم أمه اذا ما ثبت أنه سيولد مشوها أو مريضا بعيب خلقي لا يمكن اصلاحه بعد الولاده !! . . .

يثير الكتاب جدل القضية .. لكنه لا يجد لها حلا : يمضي الكتاب بعد ذلك في وصف العلاقة بين الاطباء والمنتحرين بأنها علاقة شائكة .. وأن الاطباء يميلون الى التردد في انقاذ المنتحرين ، اذ ينظرون اليهم باحتقار ، واذا بدءوا في انقاذهم فانهم كثيرا ما يلجئون لاعمال العنف !! .. يغرزون الانابيب المطاطية في حلوقهم لاجراء غسيل المعدة بل وممارسة « طب المعدة » كما كان يطلق قديما على عملية انقاذ المنتحر . . .

بل ويجزم الكتاب أن معاملة المنتحر السيئة لا تقف عند هذا . . . بل تمتد الى جثته فيما بعد حيث تستخدم لأغراض التشريح واجراء التجارب !! . .

ويقف الكتاب عند سرد مشاهير المنتحرين وفي تكييف عمليات انتحارهم وقانونيتها . فيحكي انه في اعقاب الثورة البلشفية ، انتشرت في روسيا اللصقات الجدارية التي تقول « قبل أن تنتحر . . تعال لكي تلتقي بنا » وكانت صاحبة الدعوة هي الدولة بطبيعة الحال ، التي أنشأت مراكز للتقصي النفسي .

وقد تستوقفك كما استوقفتني حادثة انتحار شهيرة وقعت عام ١٩١١ م حينما وضع بول ولارا لافرج حدا لحياتهما معا مستخدمين السيانور ـ وقد كان بول لافرج أحد الماركسيين البرزين متزوجا من لورا ابنة كارل ماركس ـ بناء عن سبق إصرار من بول للموت في سن السبعين .

حزن العالم الآخر كله ، بل وشيعه لينين بنفسه .. لكن يبدو أنه تراجع فيما بعد حيث صرح في حديث خاص لأصدقائه « إن الاشتراكي ملك لحزبه .. وبالتالي ليس له حق الانتحار » !

دليلك الى الموت !

آخر واخطر فصول الكتاب بعنوان « دليلك الى الموت » ، وهو يقع في ٥٧ صفحة ، كتبت بطريقة يحمد عليها مؤلفا الكتاب . ويضم أسهل الطرق الى الموت



مارلين مونرو .. اسطورة السينما الامريكية .. عاشت الضياع .. واحترفت التمثيل حتى تفشته .. وماتت بهاجس أن يذوى الجمال يوما ..



باتريك دوفير . . بطل الأحزان الفرنسية . . مع كاترين دينيف في أحد أنجح أفلامه « فندق أمريكا » فضل « الموت الجميل » على المجد والشهرة . . واختار الموت قبل أن يسعى اليه !

بالعقاقير التي تبدو أنها الوسيلة المفضلة للفرنسيين مرتبه في مجموعات يسهل الحصول عليها من الصيدليات . . . تحت عناوين تحمل ـ على سبيل المثال ـ أسماء :

أدوية ضد الألم ـ أدوية منشطة لعضلة القلب ـ أدوية لعلاج ضغط الدم ـ أدوية ضد الاكتئاب ـ أدوية مهدئة ـ أدوية منومة . .

مع تصنيف لانواع العقاقير ووصف الكمية اللازمة تماما بالجرام لموت هادىء جميل ، بل ودراسات مقارنة بين تأثيراتها المختلفة السريعة والبطيئة . كيف تعمل ؟ وعلى أي الاجهزة تؤثر ؟ . . . باختصار كيف تقتل ! . . . وحتى تكتمل لك الصورة الجليلة . . فانهم بذات البساطة يصفون لك كيف تتأكد من أنك أصبحت على حافة العالم . . . وأنك على مشارف النهاية . . ومن أين سيأتيك مصيرك ؟! من الرئة . . أو القلب . . أو من شرايين المخ ! . . .

لم يقتصر الأمر على ذلك إنهم يدعونك لمشاركتهم متعة « تركيب مجموعة من العقاقير » قد تبدو أفضل ويستفيضون في حديث لا يختلف كثيرا عن ثرثرة سيدة فرنسية مع جارة لا تعرفها في السيارة العامة عن طبق شهي أعدته أمس لابنائها ! . . .

وفي النهاية يعدد الكتاب الجمعيات التي تساعدك على اتخاذ القرار الجلل . . وتزودك بكافة عناوينها وأرقام الهاتف وساعات العمل دائما اربع وعشرون ساعة مستمرة ! . .

وعلى استحياء وعجل . . يذكرك بأنه هناك جمعيات لانقاذ من يجبن عن اختيار الطريق بنفسه أو يتردد في المضي قدما نحو الأبدية بخطى ثابته . . ساعيا للموت باحثا عنه . انها هناك اذا تراجعت عن الركب ! . . .

● ● ●

انتهى « الكتاب القنبلة » . . مفجرا عددا لانهائيا من الأسئلة . . تتردد عبر ذلك الحوار الهائل الذي بدأ في باريس منذ صدوره وتحوله الى قضية تناقشها كل وسائل الاعلام بل والقضاء الفرنسي .

ان السؤال الاساسي الذي يمكن ان يطرح على مؤلفي الكتاب هو : « لمن بالتحديد كتبتما هذا الكتاب ؟ ! هل هو حقا لراغبي الموت أم لمحبي الحياة الحقيقية » ؟

لست أدري ربما كان هذا السؤال هو آخر محاولة مني لرفض منطق هذا الكتاب القضية !

بل ورفض القضية برمتها ومن أساسها لعدم اكتمال اركانها ـ واختلال منطقها ! . . .

ربما ! ■■■

باريس ـ د . ليلى ابراهيم شلبي

من مكتبة العربي



التبشير

في منطقة الخليج العربي

● دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي

تأليف : الدكتور عبد المالك خلف التميمي

الناشر : شركة كاظمة للنشر والترجمة ـ الكويت

يتناول الكتاب بالدراسة والبحث تسلل الفكر الغربي الامبريالي إلى المجتمع العربي في منطقة الخليج بوسائله المتعددة ولفترة زمنية طويلة عندما اتجهت الدول الاستعمارية للسيطرة على هذه المنطقة . لقد كان هذا النوع من التغلغل سابقا على السيطرة العسكرية والسياسية ممهدا لها ثم معاضدا لها ، كان التبشير بمعناه الشامل ليس فقط التبشير الديني بل تعداه إلى التبشير للثقافة الغربية الامبريالية . وكانت إحدى الوسائل التي سلكها الغربيون وأقاموا لها المؤسسات التبشيرية لاغراض دينية ولكنها سرعان ما استغلت واستخدمت لاغراض سياسية واسعة .

وتحاول هذه الدراسة الاجابة على عدة أسئلة منها : كيف قامت هذه المؤسسات ؟ وما هي الوسائل التي اتبعتها ؟ ما هي طبيعة النشاط السياسي للمبشرين ؟ ثم لماذا فشل العمل التبشيري في هذه المنطقة .



شواهد الشعر

في كتاب سيبويه

تأليف : الدكتور خالد عبد الكريم جمعة

الناشر : مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع .

هذا الكتاب رسالة جامعية حصل بها المؤلف على درجة الدكتوراه في الادب من جامعة القاهرة ، وهو بحث يتناول بالدرس والتحليل شواهد الشعر في كتاب سيبويه من نواح متعددة أهمها أثر الرواة والعلماء في كتاب سيبويه ، ومنهج صاحبه في معالجة قضايا النحو والصرف من خلال شواهد الشعر ، ثم موقفه من اللهجات والروايات المختلفة من الشواهد ثم الضرورة الشعرية وغير ذلك .

وقد قسم المؤلف بحثه إلى تمهيد وبابين ، ففي التمهيد عرض المؤلف إلى أمور متعددة أهمها حياة سيبويه : نشأته واسرته وسيرة حياته وشيوخه وتلامذته ، كما تناول بالبحث كتاب سيبويه وقيمته لدى الدارسين وأثره في مجال الدراسات اللغوية وموقف العلماء منه ، ومنهج صاحبه فيه بالاضافة الى عرض شروح الكتاب وأهم ما بقي من شروح الكتاب او شروح بعض مشكلاته ثم شروح شواهد الكتاب .

أما الباب الاول فموضوعه رواية شواهد سيبويه وتوثيقها وهو في فصلين ، الفصل الأول بعنوان رواية كتاب سيبويه وأثرها في شواهده ، والفصل الثاني بعنوان توثيق الشواهد .

اما الباب الثاني فبحث فيه المؤلف منهج سيبويه في استخدام شواهد الشعر في كتابه . وهذا الباب مقسم إلى أربعة فصول . ففي الفصل الأول حديث عن مصادر سيبويه في شواهده والفصل الثاني بحث فيه المؤلف قضية الشواهد والروايات المتعددة فيها ، والفصل الثالث قد خصص لقضية الشواهد واللهجات . أما الفصل الرابع والأخير فكان موضوعه الشعر والضرورة عند سيبويه .

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الأولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد٢٨٨ » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول يناير (١٩٨٣)

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم عالم عربي لغوي قديم ـ كما ستجد في (٨) رأسيا اسم محدث من الائمة .

كلمات افقية

(١) عاصمة نيكاراجوا ـ أبغى ـ نظير .

(٢) مدينة مقدسة ـ دولة أفريقية .

(٣) نصف كلمة (لسان) ـ من الآثار العربية بالقدس ـ أخيف .

(٤) مصر ـ نصف كلمة (طرقة) ـ قيظ ـ من الأشجار .

(٥) يرسله ـ في البحر ـ آلة ايقاع عربية .

(٦) نصف كلمة (مرهق) ـ من الثمار ـ كاتبه .

(٧) للنداء ـ يلاحظ ـ مدينة هندية .

(٨) عالم عربي لغوي قديم .

(٩) استغلا ـ شغل ـ نصف كلمة (بارز) .

(١٠) أقدم العظام الآدمية التي تم اكتشافها .

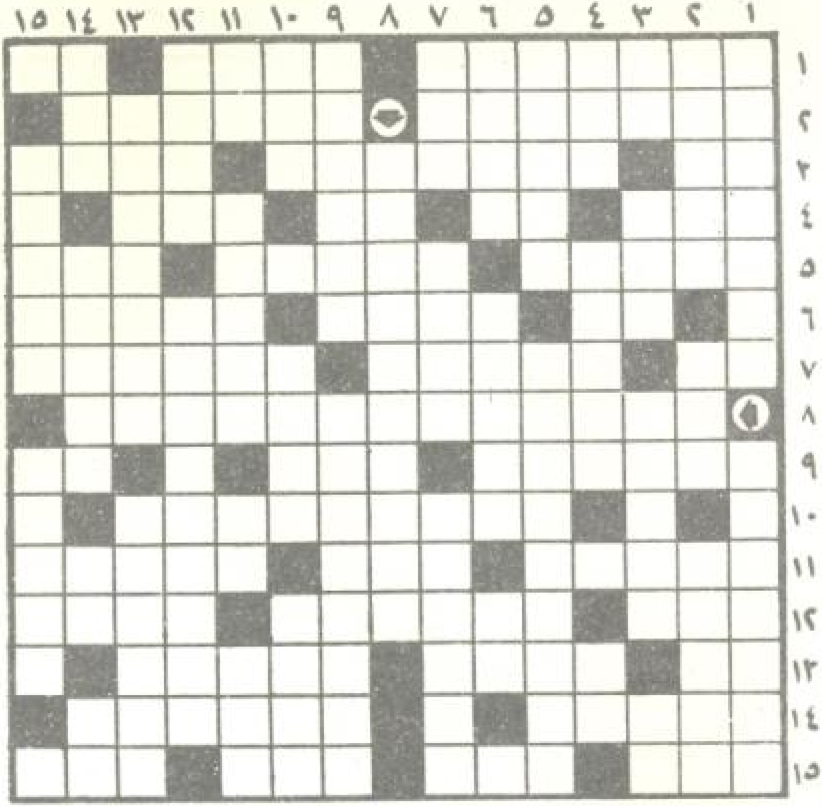
(١١) منطقي ـ الغليظ من الصوت ـ مبررها .

(١٢) معبود ـ يبغضون ـ فاسد .

(١٣) نصف كلمة (عيون) ـ من الادوات الزراعية ـ من الاحجار الكريمة .

(١٤) يمس ـ أمتلكه .

(١٥) في النار ـ غصن ـ تحضر ـ من الحشرات .



كلمات رأسية :

(١) عالم ايطالي وضع أسس علم التشريح المجهري - من الانبياء .
(٢) عاصمة أوربية - للاستفهام - مريضة .
(٣) نصف كلمة (نرجس) - في المركب - قديمة - من الأقارب .
(٤) أنمو - وحدة قياس زمن - كشف .
(٥) خلطة - من رائدات المسرح والصحافة في مصر .
(٦) من المكاييل - مخترع السفينة البخارية - هجم .
(٧) أبسط - أبحث - ملك آشوري قديم .
(٨) محدث من الائمة .
(٩)مطلع الشمس - من عناصر الغذاء الانساني .
(١٠) رضاب - حيوانات - من العلامات الحسابية .
(١١) من سور القرآن الكريم - نواقيس - نصف كلمة (كسير) - أردى .
(١٢) احساس بفقدان التوازن - غاز في الهواء .
(١٣) زعيم شيوعي أقصاه ستالين - من الدهون الصناعية .
(١٤) صنف - قبائل كانت تسكن أواسط آسيا عرفت بقدرتها العسكرية - للاستفهام - ضمير .
(١٥) نظرها - حيوان .

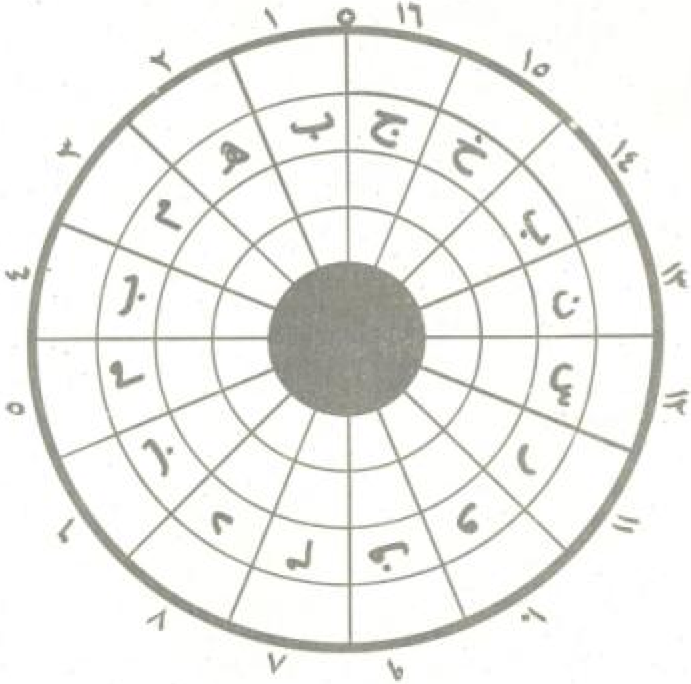
كوبون مسابقة العدد ٢٨٨

حول الدائرة السوداء

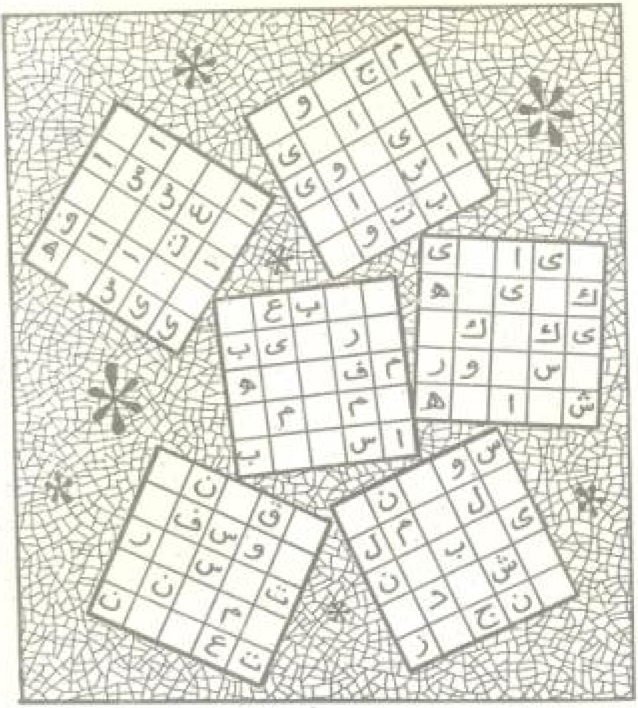
ضع الكلمات ذات الحروف الاربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

مكتشف الاشعة السينية

(١) أظهر (٢) مقصر (٣) يفرض (٤) يشرع (٥) قبيح (٦) للصيد (٧) أقترب (٨) عاصمة عربية (٩) يشرح (١٠) عاصمة أوربية (١١) حشرات (١٢) فلك (١٣) توجع (١٤) منع (١٥) أمضى (١٦) خلاعة .

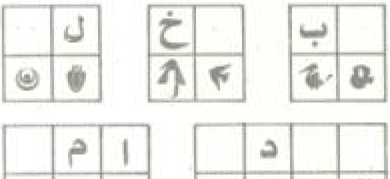


العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية سميكة . في كل مربع منها خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يضرب :
للصديق الذي قد يكون أكثر قربا من الأخ .

الحلول ١

حول الدائرة السوداء :

العواصم :

مثل عربي :

حوار القراء

دعوة .. لالغاء الفيتو

● نسمع كثيرا عن « الفيتو » في مجلس الامن ، والكلمة تعني الاعتراض على قرار قد يتخذه المجلس فيصبح لاغيا بوجود الفيتو ، وهو حق مكفول لخمس من الدول ذات العضوية الدائمة في المجلس وهي - الولايات المتحدة - الاتحاد السوفيتي - الصين - فرنسا - انجلترا .

وقد استعملت الاولى هذا الحق ضد ١٤ دولة ، وفي الجمعية العامة للامم المتحدة ضد ١٢٧ دولة - ولما كان هذا « الفيتو » يعد المنظمة الدولية عن اهدافها التي انشئت من اجلها فان الضرورة تستدعي الان ايقاف هذا الحق المكفول للدول الخمس ، والاستعاضة عنه بتنفيذ اي قرار يحصل على نسبة ٧٠٪ من مجموع الاصوات .

عاطف محمد الشبشيري

مصر/المنصورة .

المقالات الدينية

● لاحظت في الاعداد الاخيرة قلة اهتمامكم بالمقالات الاسلامية بعد فترة من التركيز عليها ، وحتى لو نشرتم مقالات دينية فانها تكون ذات موضوع هامشي وليست من الامور التي يفرضها الواقع الحالي للعرب والمسلمين ، وارجو ان يكون المانع خيرا وان تعودوا الى نشر مثل تلك المقالات على صفحات مجلتنا العربي ، وحبذا لو بدأتم سلسلة جديدة بمعدل مقال في كل عدد ويكون موضوعها في كل مرة حول فتح مدينة او بلد من العالم الاسلامي .

حمود ماطر/الكويت/الجهراء

العربي : نرجو ان تعيد قراءة العربي مرة ثانية !

انقذوا العربية في افريقيا

● قرأت في عدد سابق من « العربي » ضمن باب « للمناقشة » ، عن استغاثة من عرب أفريقيا لانقاذ اللغة العربية ، وتألمت جدا للوضع الذي يعيشه العرب وخاصة الطلاب منهم فليس غريبا علينا ان نرى هذا الوضع ، فمنذ زمن بعيد وأعداء العروبة يريدون استعمارنا واستعبادنا لانهم متأكدون من أن لغتنا العربية هي .. ام اللغات .. وهي لغة القرآن ، وهي التي تشكل واقع الترابط والتضامن والالتقاء بين العرب والافارقة .. فجاءت فرنسا باسلوبها الذي يهدف الى محو اللغة العربية لكنها لم تنجح كما ارادت لانها وجدت من يعمل للحفاظ على لغته العربية واني لاتجه الى المسؤولين العرب بالوقوف مع الاخوة الافارقة لينقذوا مستقبل الطلاب العرب في غرب افريقيا عن طريق امدادهم بالمساعدات اللازمة لرفع معنوياتهم وللحفاظ على لغتنا التي يحاول الاعداء طمسها بكل الوسائل ..

فاطمة شقير

لبنان/الغازية

اعداد : يوسف الشهاب

مسابقة العربي

● ان النمط الحالي لمسابقة العربي القائم على الكلمات المتقاطعة غير موضوعي وغير ذي بال بالنسبة الى المكانة العالية التي تتمتع بها « العربي » في كافة انحاء المعمورة .

ولقد كان النمط السابق للمسابقة القائم على الاسئلة في مختلف انواع العلوم من ادبية وفنية وتاريخية وسياسية وما الى ذلك هو الطريق الصحيح نظرا لما فيه من فائدة كبرى للقارىء في تنمية ثقافته عن طريق البحث والاستقصاء عن الاجابات الصحيحة .

لذا نقترح اعادة الطريقة السابقة لكونها تعد اختبارا لسعة اطلاع القارىء ومعرفته العامة .

محمد عمر المروعي
الجمهورية اليمنية / الزيدية .

العربي :

مسابقة العربي تاخذ الان تفكيرا جديا لدى اسرة التحرير لاظهارها بمظهر يجد فيه القارىء الفائدة التي يرجوها ، وسوف تلاحظ ذلك مستقبلا ان شاء الله .

الانعاش الصناعى والشريعة

● قرأت موضوع « الانعاش الصناعي والشريعة » للاستاذ الدكتور احمد شرف الدين ، في العدد ٢٨٤ يوليو ١٩٨٢ ، وقد اعجبني كثيرا رغم قلة استخدام مثل تلك الأجهزة ، ولكن لان الدين الاسلامي دين دقيق فانه كان يجب طرح تلك القضية ذات الامد البعيد .

وقد اقترح كاتب المقال في نهاية مقالته اقتراحا يقضي بوقف تلك الاجهزة عن جسم المريض حالة مروره بالمرحلتين الاولى والثانية من مراحل الموت (توقف القلب وموت خلايا المخ) . وقد اشترط لذلك ان يشرف على تلك العملية فريق من الاطباء بعد تحرير تقرير من الشرطة وموافقة اهل المريض على ذلك . وارى ان الشروط الثلاثة السابقة الذكر لايحتاج منها الا لواحد حيث نكتفي بفريق الاطباء فقط اما بقية الشروط فلا داعي لها ، لان عمل الطبيب عمل انساني قبل اي اعتبار ولذا فانه لن يوقف الجهاز الاحين شعوره بعدم فائدته ، وكذلك حين استشارة اهل المريض على وقف الجهاز سيرفضون بدافع العاطفة لديهم تجاه مريضهم وقد يتوفى في تلك اللحظة احد اهل المريض نتيجة لسبب عارض ولاتتمكن اجهزة الانعاش من انقاذه ، وقد يؤدي ذلك الى تغير في الميراث ، وربما يصبح الوارث موروثا نتيجة لوجود جهاز الانعاش في جسم مريض لم ينقذه هذا الجهاز من الموت ، فهو ميت قبل موت قريبه .

محمود عبد الله يونس / مصر العربية/ جامعة اسيوط .

خصصوا ركنا للرياضة

● بفرح عظيم اقرأ كل شهر مجلة كل العرب ، والتي نحصل عليها بشق النفس وكثير من التوسلات لأصحاب المكتبات في بلادنا ـ ان مجلتكم فيها الفائدة والتسلية للكبير والصغير ، للرجل والمرأة فهي منوعة المواضيع والمقالات ، لكن الذي ينقصها عدم وجود ركن للرياضة التي اصبحت الان تأخذ اهتماما عالميا واسعا مثل الانشطة العالمية الاخرى .. وما نتمناه ان تخصص مجلتنا « العربي » بعض الصفحات الرياضية التي تسلط الضوء على النشاط الرياضي بالوطن العربي والعالم اجمع ..

ليث مروان / العراق ـ بغداد

تصويب

● نشرنا في عدد سبتمبر الماضي (صفحة ٦٦) مقالا للدكتور محمد علي الفرا بعنوان : لماذا يختلف التوقيت المحلي من بلد الى آخر ؟

فوارق التوقيت المحلي تفسرها خطوط العرض لا خطوط الطول والسطر الثاني من هذا العنوان مغلوط .. والصواب هو أن خطوط الطول لا خطوط العرض هي التي تفسر فوارق التوقيت المحلي .. ولما كان كاتب المقال غير مسئول عن هذا الخطأ الذى وقع سهوا بادرنا الى هذا التنويه . كما وتجدر الاشارة ايضا الى الرسوم الظاهرة على صفحة ٦٩ .. فالشكل العلوى الايسر خطأ .. بينما الشكل السفلي الايمن هو لخطوط الطول وليس لدوائر العرض .

المجموعات البشرية

● أنا من قراء مجلة العربي منذ صدور العدد الاول منها ، لكنني لم أكتب قط اي رسالة اليكم ، وهذه اول رسالة ابعثها لكم وتتضمن بعض الاقتراحات لعلها تنال تأييدكم وتأخذون بها ـ أما الاقتراحات فهي ـ « أرجو ان تكون هناك مسابقة كبرى كل عام او مع كل عدد حسب رأيكم والقصد بالمسابقة الكبرى أن تكون هناك اسئلة ثقافية وعلمية متنوعة من جميع الفئات للاجابة عليها مع جائزة كبرى تقدم للفائز » .

« أن تتناولوا بالكتابة والصور شعوب العالم والمجموعات البشرية المتناثرة فيها حول اصولها وانحدارها البشري ـ كما هو الحال للاكراد والشركس وغيرهم .

وآمل ان تباشروا بهذه الاقتراحات حين موافقتكم عليها .

نهاد محمد / سوريا / الرقة

ضاعفوا كمية العربي

● أنا احد قراء مجلتكم « العربي » التي هي الوحيدة بين مجلات العرب من جميع النواحي الادبية والعلمية والثقافية ، ونحن هنا في اليمن الديمقراطي نشاهد في آخر كل شهر توافد الناس على المكتبات لشراء « العربي » التي تنفد قبل اشباع رغبة كل القراء الذين يحرصون على قراءتها ولتكملة مجلداتها في مكتبات بيوتهم ـ فالرجاء مضاعفة اعداد العربي الى بلادنا حتى يستطيع كل قارىء ان يحصل عليها . . .

محمد احمد المندوان
اليمن الديمقراطي ـ حضرموت

العربي :
الشكوى من قلة الكمية تأتينا من كافة الاقطار العربية ، وعزاؤنا الوحيد ان المطبعة لاتستطيع زيادة الكمية التي نريدها لنلبي كل طلبات القراء الذين نعتز بتكاثرهم ـ لكننا نعد القراء بزيادة الكمية حين الانتقال الى المطابع الجديدة بعون الله .

الفنون العربية

● تتلقف شهريا مجلتكم العربي بكل شوق واهتمام تصفحها بكل احترام وحرص لانها مجلة تستحق من كل قارىء عربي التقدير والثناء لما تحمله من افكار وآراء وعلوم وآداب .

والشيء الذي لاحظته في مجلتنا انها لاتعطي الفنون الجميلة كالرسم والنحت والخط والتصوير اهتماما في صفحاتها ، خاصة الخط العربي ، هذا الفن العريق الذي امتاز العرب بفنونه عن غيرهم وهم الذين وصفوه بانه للاسير جمال وللغني كمال وللفقير مال وارجو منكم دراسة هذا الاقتراح وتنفيذه في الاعداد التي تصدر مستقبلا بعون الله ، خاصة وان الكثير من القراء يشاركونني هذا الرأي .

محمد الكليلي
العراق / بابل

مِنَ المسرح العالمي

سلسلة ثقافية

تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام في الكويت

أول نوفمبر ١٩٨٢

١٥٨

فلهلم تل : ١٨٠٤

تأليف : فريدرش شلر

ترجمة وتقديم : د. عبدالرحمن بدوى

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الاصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزيــة .

تصدر عن جامعــة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١

رئيس التحرير د. عبدالله العتيبي

مدير التحرير عبدالعزيز السـيد

- تتناول المجلة الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية بما يخدم القارىء والمثقف والمتخصص .
- تعالج موضوعات المجلة الميادين التاليــة :
  اللغويات النظرية والتطبيقية – الآداب والآداب المقارنــة – الدراســات الفلسفيــة الدراســات النفسية – الدراســات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانيـة – الدراســات التاريخيـة – الدراســات الجغرافيـة – الدراســات التربويـة – الدراســات حول الفنون (الموسيقى – التراث الشعبي – الفنون التشكيلية – النحت ... الخ) – الدراســات الآثارية (الاركيولوجية) .
- تقدم المجلة معالجاتها من خــلال نشر :
  البحوث والدراســات – مراجعــات الكتب – التقارير العلميــة – المناقشات الفكرية .
- مواعيــد صدور المجلــة : كانون ثاني – نيسان – تموز – تشرين أول .
- تنشر المجلــة ملخصــات للبحوث العربيــة بالانجليزيــة ، وملخصات بالعربية للبحــوث الانجليزيــة .

ثمن العـدد : للأفراد ٤٠٠ فلس
للطلاب ٢٠٠ فلس

الاشتراكات السنوية

	داخل الكويت	في الخارج
– للمؤسسات	١٠ د.ك.	٤٠ دولاراً أمريكيا
– للأفــراد	٢ د.ك.	١٥ دولاراً أمريكيا
– للاساتذة والطلاب	١ د.ك.	١٠ دولارات أمريكية

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عــدة سنوات .
- قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .
- جميع المراسلات توجــه باسم رئيس التحرير :ـــ

ص.ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة)

الكويت – الشويخ – ت : ٨٢١٦٣٩ – ٨١٧٦٨٩ – ٨١٥٤٥٣

استثمارات

منذ زمن طويل ونحن نقوم باستثمار الأموال في أسواق المواد الأولية. وهناك الكثيرون من زبائننا العرب الراضين تماما عن استثمار أموالهم لدينا.

نصيحتنا اليكم اليوم بتفويضنا بافتتاح رصيد شخصي لكم وقيامنا بادارة واستثمار أموال الرصيد الشخصي هذا لصالحكم.

مبلغ الاستثمار الادنى ٢٠٠٠٠ دولار اميركي.

اليكم مثالاً عن افضل نتيجة استثمار حققناها في العامين الماضيين لصالح أحد زبائننا:

قيمة الاستثمار ٢٦٢١١,٧٢ دولاراً اميركيا وبعد مدة شهر واحد من قيامنا باستثمار هذا المبلغ وصلت قيمته الى ١٢١٨٦٢,٩٢ دولاراً اميركيا أي بربح صاف قيمته ٩٥٦٥١,٢٠ دولاراً اميركيا أو بنسبة ٤٦٤,٩٢ بالمائة

لهذه الاستثمارات طابع المضاربة باسعار المواد الأولية لدى البورصات العالمية المتعاملة بها. ولذا فإن نسبة الأرباح المحققة لا تعتبر ثابتة وانما متحركة لان قيمة الارباح المحققة او الخسائر المتوقعة خاضعة لتطور أسعار هذه المواد الأولية.

للمزيد من المعلومات اكتبوا الينا على عنواننا المذكور ادناه ويسرنا ان نرسل اليكم المزيد من المعلومات باللغة العربية والانكليزية (طبعا يمكنكم الكتابة الينا بالعربية)

KDB DEPOTBETREUUNG
GmbH
اتصلوا بنا على العنوان التالي:
HANS-THOMA-STR. 19/2
P.O. BOX 700650
6000 FRANKFURT / MAIN 70
WEST-GERMANY

نعمل بنجاح في مجال ادارة واستثمار الأموال منذ عام ١٩٦٥

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

نوفمبر
١٩٨٢م

العرب أمام تحديات التكنولوجيا

الدكتور
انطونيوس كرم

٥٠٠ فلس

الكتاب التاسع والخمسون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

لاصوت آخر يصف ساعة رولكس بمثل هذا الجمال

أحيت «كيري تي كاناوا» أولى حفلاتها الغنائية، وهي في الخامسة عشرة، أمام جمهور من السيدات ينتمين إلى جمعية نسائية محلية في أوكلاند، نيوزلندا.

ولربما لامس صوت "كيري" وتراً حساساً في نفوس هذا الجمع من السيدات، إلا أن أياً منهن لم يخطر لها ببال ان الفتاة سوف يلمع نجمها لتصبح من أشهر مغنيات سوبرانو الأوبرا في العالم.

وكان ما تقاضته مقابل ظهورها على خشبة المسرح آنذاك مبلغاً سخياً مقداره جنيهان استرلينيان.

واليوم، وبعد قيامها بدور «دونا الفيرا» من مسرحية «دون جيوفاني» في باريس، أو دور الكونتس في مسرحية «عرس فيغارو» في كوفنت غاردن، بلغ التأثر منتهاه بكثير من النقاد حتى وصفوا صوتها بأنه لا يقدر بثمن.

وحيثما غنت هذه النجمة العالمية، إن في نيويورك، لندن، باريس أو ميلانو، تلاقي تجاوباً رائعاً وحماساً منقطع النظير. يضاف إلى ذلك النجاح الخارق لفيلم "دون جيوفاني" - إخراج جوزيف لوسي - الذي تألقت فيه كيري بدور "الفيرا".



تقول كيري، "إني مدينة بالكثير للتدريب والتكنيك الفني الذي اعتمدته أساساً حيث أصبح صوتي مكيفاً للغناء متخطياً كل المصاعب". واختيار "كيري تي كاناوا" ساعة لمعصمها لأمر يغمرنا بالسرور، حيث تقول: "بكل بساطة، رولكس اويستر ليدي - ديت جست الذهبية هي ساعة رائعة. وطوال سنوات، وأنا أستعملها، لم يحدث أبداً أن زلّت أو أخلّت... وأنا أعلم كم من الصعب أن تبلغ الأمور مرحلة المنّة بالمئة.

وكل يوم، وحيثما كنت، أمضي ساعة على الأقل في غناء دور مسرحي لأحافظ على صوتي نقياً رخيماً. لذا، أقدّر الوقت حق تقدير، وكذلك المهارة والمجهود الذي يُبذل لابداع شيء في منتهى الجمال والدقة، كهذه الساعة."

"كيري تي كاناوا" وساعتها رولكس ليدي-ديت جست.

لم يصدر عن أي صوت آخر تعبير بمثل هذا الجمال.

ROLEX
رولكس



ساعة رولكس ليدي - ديت جست المصنوعة من الذهب عيار ١٨ قيراطاً أو من فولاذ لا يصدأ مع سوار ينسجم معها

مقياس الزمن

الجودة تنبع من المعرفة والمعرفة تقوم على أساس من الخبرة ولذا فإن ساعات رادو متفوقة الجودة من الناحية التكنولوجية والتصميم والصنع. إن الدقة العالية في حركتها الكوارتز تعكس الخبرة السويسرية في صناعة الساعات بأروع صورها. فضلاً عن أناقة رادو المعترف بها عالمياً من حيث الابتكار والأصالة والشخصية المميزة. وهكذا فإن ساعات رادو جميعها تمثل فلسفة فريدة في نوعها: الشجاعة في الإقدام عبر مسالك جديدة إضافة إلى الشعور العميق بالإلتزام نحو الزمن والإنسان.

RADO رادو

مقياس الأناقة. مقياس المتانة. مقياس الزمن



مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) ؛

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .
٢ - كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .
٣ - كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .
٤ - كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥ - دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .


• جهاز أنيق ذو شاشة بقياس ٢٦ انشا.
• نظام تكبير الصوت يمين باتجاهين وبواسطة ٤ مكبرات للصوت.
• منظم آلي للفلطية.
• وآلة للتحكم عن بعد.
C-2627QB
Beta
β
V-9680
• واجهة أمامية سهلة التشغيل.
• ثلاثة أنظمة للمشاهدة والتسجيل في أي مكان من العالم (بال/ سيكام/ إن. تي. إس. سي ٤٫٤٣).
• مؤقت بشكل ساعة رقمية يتيح تسجيل ٨ برامج في مدى أسبوعين أوتوماتيكيا.
• آلية للتحكم عن بعد.
• سرعات مختلفة للبحث عن الصورة ومضاعفة السرعة.
• سرعات مختلفة لابطاء الصورة وتجميد الصورة.
• منظم آلي للفلطية.
Toshiba
TOSHIBA | توشيبا
TOKYO, JAPAN

إنه نقال، مسلي، في البيت والترحال



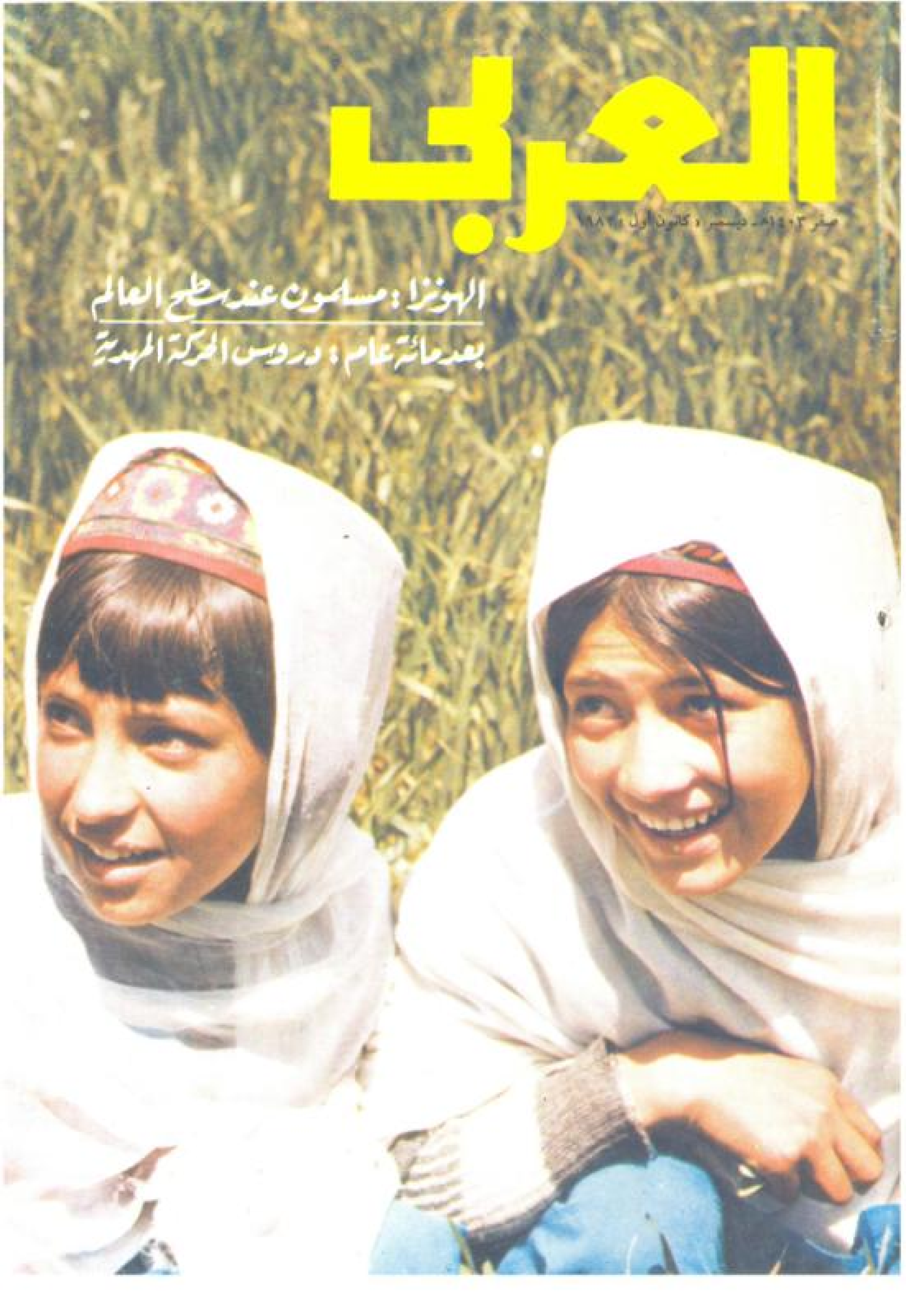


نظام سانيو C5 الميني الجديد لأجهزة الستيريو النقالة المتكاملة

طاقة صوتية هائلة تبلغ ١٢ واط للقنال.
ستيريو FM/MW/SW₁/SW₂. خمس موجات متوازنة
ستيريو كاسيت ذلك لانتقاء الموسيقى آلياً AMSS
ودولبي* NR. قارئ للأشرطة المعدنية. نظام لمكبري
الصوت ثنائي الإتجاه. يعمل على البطارية أو التيار
الكهربائي أو بطارية السيارة (إختياري).
ملائم لتجميعه كوحدة متكاملة للإنتقال به حيثما تشاء.

* دولبي هي العلامة التجارية لمعامل دولبي

SANYO سانيو


العربي
صفر ١٤٠٣هـ ، ديسمبر ، كانون أول ١٩٨٢
الهونزا : مسلمون عند سطح العالم
بعد مائة عام : دروس الحركة المهدية



خلال ثلاثين عامًا
شاهدنا الكثير من التطوّرات

يوم بدأنا أعمالنا، كانت الروبية هي العملة السارية، وفي عام ١٩٦١، أي بعد تسع سنوات، ساهم بنك الكويت الوطني في استبدال الروبية بالدينار الكويتي.

تأسس بنك الكويت الوطني بمرسوم أميري في ١٩ مايو، ١٩٥٢، فكان أول بنك كويتي تؤسسه مجموعة من الفعاليات الإقتصادية عندما كانت الكويت بحاجة ماسة لمؤسسة مالية باستطاعتها خدمة متطلباتها المحلية.

ومنذ تأسيسه، ركز بنك الكويت الوطني جهده في نشر الوعي المصرفي وتوفير خدماته في كافة أنحاء البلاد، عاكسًا بذلك تطور الكويت تجاريًا وصناعيًا واجتماعيًا.

يوجد لدينا اليوم أكثر من ٤٠ فرعًا منتشرة في كافة أنحاء الكويت بالإضافة إلى أكثر من ٧٠٠ بنك مراسل في العالم، ومكتبي تمثيل في لندن وسنغافورة.

للمزيد من المعلومات عن بنك الكويت الوطني وعن الخدمات التي يقدمها إتصل بنا اليوم.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك
The National Bank of Kuwait SAK

رائد البنوك الكويتية.

عزيزي القارئ

وسط تلك الظروف المقبضة والمعتمة التي تحاصر العالم العربي ، فانه عندما يصدر كتاب ، فذلك يعد خبرا يستحق الرصد ، وعندما يقام معرض للكتاب فان ذلك يصبح حدثا كبيرا جديرا بالاحتفال .

بهذا المنطق استقبلنا في الشهر الماضي المعرض الثامن للكتاب العربي الذي أقيم بالكويت ، والذي كان بمثابة تظاهرة ثقافية هادئة وعميقة الدلالة في الظروف الراهنة . وبرغم أن حضور دور النشر اللبنانية تأثر نسبيا بسبب الظروف التي مرت بها بيروت ، وبرغم أن القديم كان أكثر من الجديد في كتب المعرض ، وأن الذي يخاطب الماضي منها كان أكثر مما يخاطب الحاضر والمستقبل ، برغم هذه الملاحظات وغيرها ، الا أن وقوع الحدث بحد ذاته كان أمرا له أهميته .

وفي زمن تميز بالشرود العربي ، وتباعدت فيه المسافات بين أطراف الجسد الواحد ، وحفرت الخنادق في أرجاء الوطن الواحد واشهرت السيوف والمدافع بين الأشقاء ، في زمن كهذا يصبح أي لقاء عربي مهما كان مستواه أو مجاله انجازا كبيرا .

ان ترحيبنا بمعرض الكتاب العربي الذي أشرف على اقامته المجلس الوطني للفنون والآداب بالكويت ، لايعادله الا أملنا في أن تتكرر اللقاءات بين أبناء الثقافة الواحدة ، وأن تتنوع ميادين هذه اللقاءات ، علها تقرب ما تباعد ، وتضمد جراحا غائرة وعميقة .

وكما كان معرض الكتاب هو الحدث الثقافي الأهم في الشهر الماضي فان مجلة العربي تتطلع لأن يأخذ عددها الممتاز في يناير مكانه ضمن الأحداث الثقافية للشهر القادم . ذلك أننا منذ عدة أشهر ونحن نعيد النظر في العديد من أبواب المجلة وموضوعاتها ، شأن محاولاتنا الدائمة في كل عام لتطوير المجلة وتحسين خدمتها للقارىء ، في بداية العام الجديد .

سوف يجد القارىء باذن الله في عدد يناير تغييرا في بعض ملامح المجلة ، شكلا وموضوعا ، وكلها تصب في هدفها الكبير الذي حرصت عليه منذ صدورها : أن تكون للقارىء منارة للمعرفة ، وأن تكون لكل العرب منبرا ثقافيا صادقا وملتزما . ■■

« العربي »

صورة الغلاف



● وجهان من الهونزا ، تلك الامارة الاسطورية التي تعيش عند سقف العالم ، في أقصى شمال غرب باكستان ، حيث الجبال العملاقة والطبيعة العذراء ، واحد معاقل المذهب الاسماعيلي ! [انظر الاستطلاع ص ١٠٠] .

محتويات العدد

استطلاعات مصورة

تاريخ وشخصيات

فلسفة

ابواب ثابتة



رئيس اليونسكو

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير الدكتور محمد الرميحي

مدير التحرير فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت للعالم العربي وكل قارئ للعربية في العالم. الوزارة غير مسؤولة عما ينشر فيها من آراء والمجلة غير ملزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد: بالكويت ٢٠٠ فلس، السعودية ٤ ريالات، العراق ٢٠٠ فلس، الأردن ٢٠٠ فلس، سوريا ٢٠٠ قرش، لبنان ٢٠٠ قرش، مصر ١٥٠ مليما، السودان ١٥٠ مليما، المغرب ٣ دراهم، تونس ٣٥٠ مليما، الجزائر ٣ دنانير، البحرين ٣٠٠ فلس، قطر ٤ ريالات، الامارات العربية المتحدة ٤ دراهم، اليمن الشمالي ٣ ريالات، اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسا، ليبيا ٢٥٠ درهما.

الاعلانات: يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات: باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت: صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١ ـ ٤٦٨٢٤٢

تلغرافيا «العربي»

الاشتراكات

ترسل الطلبات الى:

قسم الاشتراكات

المكتب الفني ـ وزارة الاعلام

ص. ب (١٩٣) ـ دولة الكويت

على طالب الاشتراك تحويل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام.

طبقا لما يلي

فلس دينار

البلاد العربية ٢/٥٠٠ (ديناران ونصف)

ـ بلاد غير عربية ٣/٥٠٠ (ثلاثة دنانير ونصف)

العربي ـ العدد ٢٨٩ ـ ديسمبر ١٩٨٢

AL - ARABI, NO 289 - Dicember, 1982

P. O. Box, 748 - KUWAIT

حديث الشهر

بقلم

الدكتور محمد الرميحي

الكتابة..

كيف تكون الكتابة معتدلة سلسة سهلة ، يهضمها القارىء دون عسر هضم ، يتشرب الفكرة من خلال الكلمات دون إزعاج عصبي أو نفسي .

كثيرا ما دارت في ذهني هذه التساؤلات وأحسب أنها تؤرق الكثيرين من حملة القلم بشتى تخصصاتهم .

ويلحق بهذه التساؤلات تساؤل آخر هام هو : متى يحق لكاتب ما أن يشير إلى الآخرين ـ من خلال فكره أو انتاجه الأدبي ـ أن يتبعوا هذا الطريق أو ذاك في حياتهم العملية والاجتماعية . وهل كل قادر على الكتابة يستطيع أن يوصل رسالته إلى القارىء أم أن ذلك يحتاج الى موهبة خاصة وقدرة من نوع ما .

هذه الأسئلة يمكن أن توضع بأشكال أخرى أعم هي : هل الكتابة ـ بأشكالها المختلفة ـ فن أم علم ؟ أهي موهبة أم خبرة وممارسة ؟

وهل هناك دائما معاناة ، من نوع ما ، يعانيها الكاتب أو الكاتبة قبل أن ينتهي من عمله الأدبي أو الفكري ؟ وهل تتطلب الكتابة جوا معينا في

فن السهل الممتنع

البيت أو مكان الكتابة يتسم بمواصفات معينة أم أن الكاتب يستطيع أن يكتب في أي مكان بصرف النظر عن الجو المحيط به سواء كان هادئا أو صاخبا ، وفي أي موضوع يتقنه الكاتب أو لا يتقنه ؟

هل الكاتب المبدع يمكن أن يظهر فجأة ويختفي فجأة كأن يكون لدى شخص ما دافع خفي يجعله يكتب موضوعا أو قصة أو مقالا يبدع فيه ثم ينتهي هذا الابداع بانتهاء ذلك العمل .

كل تلك الأسئلة تطوف بالخاطر عندما نستعرض تجارب بعض المبدعين .

القدرة والعجز . . وذهب مع الريح

المشكلات الشخصية والانسانية ، وكذلك المشكلات العامة الوطنية والقومية ، قد تخلق ذاك الكاتب المبدع من خلال معاناته ، إما الشخصية أو العامة .

ومن القصص الطريفة في مجال الخلق والابداع بدافع ذاتي ، قصة

(مرجريت متشل) الصحفية الشابة التي كانت طريحة الفراش نتيجة حادث طريق عادي ، فعندما كانت تقطع الطريق مع زوجها في أحد شوارع مدينة (اتلانتا) الأمريكية ، اجتاحتها سيارة مسرعة أقعدتها عن الحركة لمدة ثلاث سنوات كانت أثناءها مقيدة الحركة ، وحتى تقضي على المعاناة التي لازمتها وكذلك للتخفيف عن زوجها ، داومت على القراءة إلى أن جاء الوقت الذي لم يستطع فيه زوجها أن يجلب لها كتبا جديدة من مكتبة الحي فاقترح عليها أن تكتب هي بدلا من أن تقرأ فحسب . وبدأت بالفعل محاولة كتابة رواية طويلة تستطيع أن تسليها مدة أطول ولكن كيف تبدأ . وبدأت من الفصل الأخير رواية طويلة عن تاريخ الحرب الأهلية الأمريكية ، وانتهت من الفصل الأخير لتبدأ بالفصل الذي قبله وهكذا تعافت الكاتبة قبل أن تكتب الفصل الأول ، ولم تكن واثقة أن ما كتبته صالح للنشر ، حتى هيىء لها ناشر أعجب بما كتبت وطلب منها كتابة الفصل الأول للرواية ـ تلك الرواية التي عرفت لاحقا بعنوانها « ذهب مع الريح » ـ والتي حولت إلى فيلم سينمائي ناجح وبيع منها ملايين النسخ ، واشتهرت مارجريت متشل من خلال النجاح الهائل الذي حققته الرواية . إلا أن الأقدار كانت لها بالمرصاد ، ففي مساء أحد أيام أغسطس ١٩٤٩ ، كانت مارجريت متشل تعبر الشارع مع زوجها هذه المرة في طريقها الى المبنى الواقع عبر الشارع لمشاهدة فيلم « ذهب مع الريح » وفجأة جاءت سيارة أجرة مسرعة لتصدم مارجريت المسكينة في حادث جديد هذه المرة لتبقى خمسة أيام أخرى على قيد الحياة ثم تفارقها متأثرة بجراحها . وتذهب مارجريت متشل لتظل روايتها « ذهب مع الريح » رواية خالدة في تاريخ الأدب العالمي ، والرواية الوحيدة للمؤلفة المغمورة .

التصرفات الشاذة

ويقول لنا تاريخ الأدب إن شخصية روائية مثل « إرنست همنجواي » المحب للحياة بكل ملذاتها يتحول إلى شخص آخر عندما يبدأ كتابة رواية له ، ففي الوقت الذي كان يفتح مقر إقامته لأصدقائه الكثيرين من فنانين وكتاب وسينمائيين في مزرعته الكبيرة في غرب

الولايات المتحدة في الأوقات العادية ، كان يطلب من الجميع عدم زيارته أو مغادرة المكان إن كانوا هناك حين يبدأ في كتابة رواية أو قصة ، فوق ذلك ينصرف عن الحديث للمقربين منه بل مع من يسكن معه في المنزل ويغلق عليه حجرة الكتابة في الوقت الذي يضع لافتة على باب منزله كتب عليها : يمنع الدخول .

كما يذكر لنا تاريخ الأدب أن « جورج سيمونز » كان عندما يكتب يتصرف وكأنه مسافر أو مريض ، فالزيارات غير مسموح بها والرسائل والبرقيات لا تفتح وحتى التليفون لا يرد على ندائه ، وعندما تتعثر الكتابة لأي سبب كان يلقى بكل ما كتبه في سلة المهملات كي يبدأ من جديد .

أما أجاثا كرستي ، التي شغلت نفسها بالكتابة في الجرائم والقصص البوليسية والتي تعد في عصرنا ملكة في مملكة الروايات البوليسية ، فكانت تستوحي أفكارها البوليسية في (الحمام) وكانت تقول : إني في العشرة أيام الأخيرة قبل الكتابة أحتاج لتركيز محكم على أن أظل وحدي دون ضيوف ودون رسائل ودون تليفونات ، ثم أبدأ في كتابة الرواية بعد ذلك .

روايات أجاثا كرستي المثيرة ما زالت تعرض على مسارح لندن - ومسرحية مصيدة الفئران شاهدتها في الصيف الماضي وهي تعرض دون انقطاع في الثلاثين سنة الأخيرة وما زال الجمهور يقبل عليها ، كانت أجاثا كرستي تكتب رواياتها في خيمة في الصحراء عندما تكون برفقة زوجها المنقب عن الآثار .

الابداع والمعاناة

ولكن هل هذه تصرفات شاذة أم هي حالة طبيعية يمر بها الكاتب الخلاق نتيجة معاناة إنسانية حقيقية كي ينتج ما ينتج من فن وأدب ؟ في

تجارب كثير من الكتاب فى مجالات كثيرة نجد مثل هذه التصرفات والسلوك والذي يكون إعدادا نفسيا مسبقا للكتابة .

فالكتابة ليست عملية ميكانيكية يدرب عليها الانسان كما يدرب حيوان ما على التقاط كرة أو يدرب طير ما لترديد ما يقوله الآخرون ، فإذا اختفت المعاناة اختفى الابداع . ونحن نجد اليوم عشرات بل مئات المقالات والقصص والروايات والمؤلفات ولكن عندما يفتقد كتابها المعاناة تفتقد كتاباتهم الروح المؤثرة على القارىء فتصبح مجرد صفوف من الكلمات .

والكتابة ـ بجانب كونها إبداعا وفنا ـ هي علم كذلك وتكنيك ، فعدم الالمام بهذا العلم أو التقنية والتكنيك يجعل من الكاتب مجرد كاتب متوسط على أبعد تقدير .

فكما للقصة والرواية تكنيك محدد يتبعه الكاتب ، كذلك للمقال والدراسة وحتى للتحقيق الصحفي ، وهناك مؤلفات تنشر اليوم يمكن من خلالها أن نعرف كيف تكون الكتابة مقنعة ومنطقية وسلسة ، بأي لغة كانت .

والفرق بين الكاتب الجيد وغير الجيد هو فرق في المعاناة والمدخل والتناول .

ليس جمع المعلومات وتنظيمها ثم وضعها على ورق يعني الانجاز الجيد لكاتب مقال أو دراسة ، وليست مقدمة وحبكة ونهاية القصة هو المطلوب في القصاص والروائي ، ولكن بجانب ذلك فان المعاناة الانسانية للكاتب والقاص هي التي تجعل عمله ناجحا أو العكس .

فكاتب المقال الصحفي إن لم يكن ملما بتقنية الكتابة مثل كيفية الدخول في الموضوع ومناقشة آراء الخصوم واحدا تلو آخر بادئا بأقوى ـ

حجة لديهم منتهيا بأضعفها مفندا لها وراح مبتدئا بعد ذلك بأضعف حجة لديه منتهيا بأقواها كي يترك الانطباع الأقوى لدى القارىء أو السامع - إن لم يكن ملما بهذه التقنية فهو جامع كلمات أكثر منه كاتب مقال صحفي ناجح .

ومثاله مثال آخرين في مهن أخرى . فكما لا يستطيع أي مغن أن يطرب ، وكل عازف على الآلة الموسيقية أن يشجي ، لا يستطيع جامع الكلمات أن يؤثر ويصبح كاتبا إلا إذا أتقن فنه علما ومعاناة .

وليس بالضرورة أن يكون الانسان طبيبا ناجحا أو مهندسا قديرا أو اقتصاديا بارعا أو سياسيا ذكيا أو حتى أستاذ جامعة لامعا وأن يكون كاتبا قادرا على توصيل فكره وآرائه إلى الآخرين من خلال الكتابة بنفس الوقت . وأصبح فن الكتابة والاقناع له أساتذة متخصصون يرجع إليهم في تدبيج الكتابات كما هو حاصل في كتابة الخطب السياسية ، حيث يقوم محترفون بهذا العمل .

من هنا نجد أن الكتابة فن وعلم وكذلك عملية سهلة وممتنعة ، فدون تعميق الموهبة بالعلم والدراسة وفهم تقنية الكتابة وإجادتها ، تسود الصفحات دون طائل أو جدوى ، بل قد تأتي النتائج مضادة للهدف المراد .

ونجد اليوم في وطننا العربي أمثلة كثيرة على ذلك ، فمن يكتب في التراث قد يسيء إليه أكثر مما يخدمه ان هو ركب مركب العاطفة وتجاوز حدود العلم وتقنية الكتابة ، ومن يكتب في السياسة والاجتماع والفكر دون روية ومعاناة وتقنية يفسد الرسالة وكذلك عقول الآخرين .

فالكتابة عملية سهلة في الظاهر ، ممتنعة على الكثيرين في الواقع العملي .

O

محمد الرميحي



خواطر

للدكتور حسان حتحوت

مستقبليات

بين يدي كتاب صغير لا يتجاوز بضعاً وثلاثين صفحة . . . صدر عن بريطاني اسمه فرنسيس كنسمان ، وهو اختصاصي في الاستقراء الاقتصادي . ولعل هذا التخصص جديد على القارىء العربي بل على العالم العربي ، ولكنه استقر لدرجة كبيرة في الغرب ، ومداره أنك تعطي هذا الاختصاص ما توفر من المعلومات والمعطيات في الحاضر فيرسم لك بموجبها صورة أو اكثر ـ لما يكون عليه الامر في المستقبل . « وعلم المستقبل » كما يسمونه الآن ليس رجماً بالغيب ولكنه أشبه الأشياء بعمل رجال الأرصاد الجوية مطبقاً في شتى مجالات الحياة . . . . ومن قرأ كتاب « لعبة الأمم » لمايلز كوبلاند يذكر أنهم اجتمعوا مع زملائهم في المخابرات الأمريكية في الخمسينات ، وعلى ضوء معلوماتهم عن مصر وشخصية عبد الناصر طرحوا سؤالاً عما يصير إن سحبت أمريكا عرضها بتمويل إنشاء السد العالي (كما حدث من بعد) ، فكانت إجابته هو ـ وقد أسندوا إليه تمثيل دور عبد الناصر ـ : « أؤمم قناة السويس » وهذا ما حدث من بعد بالفعل !

كتاب فرنسيس كنسمان ليس من وضعه هو ولكنه إجمال عام مشترك لآراء خمسة عشر من المستقرئين . . الكتاب اسمه « الزمن المقبل . . نبوءات عن الثمانينات » وقد كتب عام ١٩٧٩ ونشر في فبراير ١٩٨٠ . ومنذ صدر صدقت الأيام مما ورد فيه أموراً هامة . . . فقد تحدث عن عودة أنديرا غاندي للسلطة ، وعن خطوة عسكرية لروسيا ، وعن مصرعين في الشرق الأوسط : أحدهما شاه إيران والثاني السادات ، وعن حرب إسرائيلية أخرى في الشرق الأوسط ، ولعل أهم نبوءاته بداية تخلي أمريكا عن إسرائيل .

بين عدد من توقعات التغيير العالمية في المجالات الروحية والأخلاقية والاقتصادية .

والخاطرة التي وددت أن أقتنصها لقرائي لنقف لديها بشيء من التأمل هي « بداية تخلي أمريكا عن إسرائيل » . . وماذا يبقى لاسرائيل إن تخلت عنها أمريكا ؟ ! . . ولكن هل الى ذلك من سبيل ؟؟

الواقع أن النفوذ الاسرائيلي الصهيوني في أمريكا غير عريق . . ولكن اليهود الذين استوطنوا أمريكا وصاروا أمريكانا قد نظموا أنفسهم وجعلوا من عددهم المحدود قوة ضغط كبيرة في مجالات السياسة والاقتصاد والاعلام . ويخطىء من يظن أن المواطن الأمريكي المسيحي العادي غافل عن هذا أو راض عنه . . بل إن كوامن النفوس تحمل بذور تغيير تنبت وتثمر إن وجدت من يتعهدها ويتولاها . . من كان يتصور أن الجنرال براون القائد الأعلى للقوات الأمريكية منذ سنوات يصرح أن أمريكا تسلح إسرائيل لدرجة تعرض أمن أمريكا ذاتها للخطر . . وأن الصحافة الأمريكية تتساءل عن ولاء اليهود الأمريكان - هل هو لأمريكا أم لاسرائيل ، وتتحدث عن تحويل دافع الضرائب الأمريكي لنزوات إسرائيل التوسعية . . إن عضواً في البرلمان الأمريكي هو السناتور ما كلوسكي صرح هذا العام أن اليهود الأمريكان لا يعملون لصالح أمريكا . . وهذا في أمريكا حدث خطير . . وجاء موعد الانتخابات التالية ولأول مرة تصدى المسلمون الأمريكان في دائرته الانتخابية لنصرته وتكتل اليهود ضده . وخسر الرجل الانتخاب ولكن هذه بداية ، فهذا سياسي أمريكي تحرر من أسر الخوف من اليهود ، والمسلمون الأمريكان - والأمريكان من أصل عربي - ما زالوا على بداية طريق جديد من الاحتشاد السياسي والتمرس بالحياة العامة . . وحين يأتي اليوم الذي ينجح فيه ماكلوسكي أو مثيل له في رأيه في اليهود ، فسيكون هذا أول الغيث ، لأن هناك الكثيرين ممن يترقبون كسر طوق الاحتكار اليهودي لمقدرات السياسة الأمريكية .

والأمريكان المسلمون والأمريكان ذوو الاصول العربية في أمريكا ليسوا أقل عدداً من اليهود ، وقد قامت من بينهم بالفعل أعداد قليلة تحاول أن توقظ النوام وتعيد الشاردين وتنظم المشتتين وتنظم هذه الخرزات المتناثرة في خيط واحد ليكون منها كيان ، له قيمة له أثر .

ترى هل لهؤلاء الرواد من حق علينا ؟
وهل في رقابنا من واجب نحوهم ؟

كثيراً ما جمح بي الخيال فغبطت المسيحية على أن لها كنيسة . وأعلم أن ليس في الاسلام كهنوت وليس له كنيسة . . . فكل مسلم داعية ، والحكومة المسلمة قائمة على أمر الاسلام . . ومع ذلك فربما مرت علي لحظات تلفت فيها حولي وقلت « لو كان للاسلام كنيسة تتبناه وتتولاه ؟ . . ثم ما ألبث أن أقول « أستغفر الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وانا لله وإنا إليه راجعون » . ■■

تقرير من داخل ثاني مؤتمر عالمي للقمة الثقافية

□ فرنسا تفجر قضية الغزو الثقافي الأمريكي للعالم
□ واليونان تطالب برد الآثار المنهوبة من العالم الثالث
□ العرب يثيرون قضية استلاب الهوية الثقافية للشعب الفلسطيني

بقلم : سليمان موسى

كان المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي عقد في مدينة المكسيك خلال أيام ٢٦ تموز - ٦ آب ١٩٨٢ ، ثاني مؤتمر من نوعه تاريخ العالم . ذلك أن المؤتمر الاول عقد في مدينة البندقية بايطاليا سنة ١٩٧٠ .. وللتدليل على ذلك يكفي القول بأن ١٥٤ دولة اشتركت في أعماله ، وأن ٩٨ وزير ثقافة كانوا على رأس وفود بلادهم ، وأن عدد أعضاء الوفود الى المؤتمر تراوح ما بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ شخص . ومن هنا كان وزير ثقافة المكسيك فرناندو سالونا على حق عندما أطلق على المؤتمر اسم (القمة الثقافية) ، إذ لم يسبق في تاريخ الجنس البشري أن التأم مؤتمر ثقافي بمثل هذه الضخامة وهذا الشمول .

انقضت الأيام الثلاثة الأولى من أيام المؤتمر في الاستماع إلى خطابات ممثلي الدول الكبرى وغيرهم ممن كانوا طلبوا القاء خطابات قبل عقد المؤتمر بأشهر ، وفي الاستماع أيضا إلى خطابات بعض الشخصيات البارزة في عالم الثقافة التي دعيت بصورة استثنائية وخاصة ، لالقاء كلمات في المؤتمر ، وأخص بالذكر من بينها الرئيس السابق ليوبولد سنغور ، ورئيس وزراء تونس الأستاذ محمد مزالي ، وكذلك الدكتور محي الدين صابر ، المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو العرب) .

كان الحضور العربي في المؤتمر قويا وواضحا ، مع أنه كان من الممكن أن يكون أكثر قوة ووضوحا ، فقد اشتركت جميع الدول العربية فيه باستثناء دولتي عمان واليمن الجنوبي . وكان هناك ثمانية وزراء ثقافة عرب على رأس وفود بلادهم (الامارات ، قطر ، الكويت ، سوريا ، الجزائر ، تونس ، المغرب ، مصر)[1] . وعقدت الوفود العربية ، عدة اجتماعات لتنسيق مواقفها ، وكان من جملة ما اتفق عليه أن يلقي رؤساء الوفود خطاباتهم باللغة العربية ، باعتبار أنها احدى اللغات الست المعترف بها في منظمة اليونسكو (اللغات الأخرى هي : الانجليزية والفرنسية والاسبانية والصينية) . وقد انتخب عشرون نائبا لرئيس المؤتمر (وزير ثقافة المكسيك) كان من بينهم اثنان من العرب هما وزيرة ثقافة سوريا ووزير ثقافة دولة الامارات العربية ، وتراوح عدد أعضاء الوفود العربية من أحد عشر شخصا (تونس ومصر) إلى شخص واحد (ليبيا والاردن والسودان وموريتانيا والصومال) وفي هذا الصدد لا بد من تسجيل ملاحظتين: (١) إن بعض الوفود العربية غادرت المؤتمر قبل أن يختتم أعماله و(٢) أن الحد الادنى

---

١ - وزراء الثقافة العرب الذين اشتركوا في المؤتمر هم : السيدة نجاح العطار (سوريا) ، السادة : سعيد بن بشير (المغرب) عبدالمجيد بازيان (الجزائر) ، بشير بن سلامة (تونس) عبد العزيز حسين (الكويت) ، سعيد بن سلمان (الامارات) محمد بن حمد آل ثاني (قطر) ، ومحمد عبد الحميد رضوان (مصر) .



مليـنـا ميركـوري وزيـرة ثقـافـة اليونان



أحمـد مختـار أمبـو رئيس اليونسكو

لعدداعضاء كل وفد ما كان يجب ان يقل عن ثلاثة ، لملء كرسي الدولة في قاعة الاجتماعات الرئيسية وفي قاعتي اللجنة الأولى واللجنة الثانية .

ومن خلال مسيرة المؤتمر ، اتضحت مواقف الدول ـ من غربية وشرقية ، ويمينية ويسارية ومعتدلة . كما اتضحت درجة الوعي الثقافي من خلال قوة المتابعة والمبادرة أو ضعفها . فهناك دول أرسلت اختصاصيين ذوي خبرة واسعة في قضايا الثقافة وعلى مستوى عال في سلم المسؤولية الثقافية ، وهناك دول أرسلت أشخاصا وموظفين عاديين ، لاخبرة لهم بالقضايا الخطيرة التي طرحت على المؤتمر . وهناك دول حرص مندوبوها على متابعة مسيرة المؤتمر ، والمشاركة في كل خطوة ، وعلى متابعة ما كان يلقى من خطابات وتحليل المواقف على ضوئها ، مع تسجيل الملاحظات وأخذ المبادرات . ولم يكن ذلك النشاط مقصورا على الدول المتقدمة في دنيا الثقافة والصناعة ، لأني لمست من بعض دول آسيا الشرقية نشاطا ويقظة لامثيل لها .

فتحت رئاسة المؤتمر مجال الحديث لرؤساء الوفود ، فأخذ هؤلاء يتسابقون على أخذ الادوار لالقاء «الخطب» يسجلون فيها مواقفهم ويطرحون قضاياهم وآراءهم ، حتى ضاق الوقت ، وامتدت الجلسات أحيانا الى منتصف الليل ، وأخذت رئاسة المؤتمر ترجو وتلحف في الرجاء بأن يختصر الخطباء ، وتقلص الوقت المتاح أمام كل خطيب في الأيام الأخيرة الى خمس عشرة دقيقة ، بينما أطال البعض في الأيام الأولى ساعة بل أكثر من ساعة .

خلاف في الصف الغربي

وسرعان ما اتضح أن المؤتمرين قد انقسموا في نظرتهم للاطار الذي يجب أن تسير فيه الأعمال ، الى قسمين رئيسيين :

الأول : ويدعو الى حصر النقاش في نطاق العمل الثقافي المحض ، والميزانيات المالية المخصصة له ، والأساليب التي يمكن اتباعها للنهوض بالثقافة وتوسيع القاعدة الثقافية . وقد تزعمت هذا الرأي دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية . وكان من رأي السفيرة جين جيرارد ، رئيسة الوفد الأمريكي ، أن المؤتمرين يجب أن لايتحدثوا عن دول فقيرة ودول غنية ، لأن كل دولة تمثل جذورا وقيما ثقافية وتاريخية فريدة في بابها ، ويجب عدم بحث القضايا السياسية على هذا المنبر لأن ذلك يمثل ابتعادا عن أهداف المؤتمر ـ الأهداف التي ترمي الى تحسين العلاقات بين شعوب العالم وتسهيل التبادل الثقافي . وكان موقف بريطانيا منسجما مع موقف الولايات المتحدة ، اذ أكد وزير الثقافة والفنون على ضرورة ابقاء الحرية فوق كل شيء ، وأن على الحكومات أن تبتعد عن توجيه المضمون الثقافي ، وأن تكتفي بخلق الفرص والحوافز ، ولا تملي على الناس ما يجب أن يشاهدوا أو يسمعوا . واختتم خطابه بقوله « ان الحرية لا تزدهر إلا في مجتمع حر » .

الثاني : ويقول انه لايمكن فصل الثقافة عن جوانب الحياة الأخرى . فكيف يمكن لشعب يتعرض أمته للتهديد

أن يعمل على النهوض بالثقافة ؟ وكيف يمكن لشعب فقير جائع أن يخصص ميزانية لدعم المسرح والموسيقى بينما لايجد كثيرون من أبنائه رغيف الخبز ؟ وقد تزعمت روسيا هذا الاتجاه ، اذ جاء في خطاب يورى باراباش ، نائب وزير الثقافة في الاتحادالسوفياتي قوله : ان الثقافة والأمن والسلام يجب أن تمثل لنا جميعا كلا لايتجزأ ، وان هدف السياسات الثقافية بالنسبة لنا أن نحقق أفضل ما يمكن تحقيقه من التقدم الاجتماعي - الاقتصادي وتطور الحياة الثقافية . وفيما بعد أعلن أنه يدعو المؤتمر الى شجب المحاولات الرامية الى تسخير الثقافة واستعمالها أداة في الحرب الباردة .

ولكن الاختلاف في المواقف لم يقتصر على ما حدث بين الغرب والشرق (أوبين اليمين واليسار) ، بل حدث صدع كبير في داخل الصف الغربي . ذلك أن وزير الثقافة الفرنسي فجر موقفا ثقافيا ذا طابع سياسي ، اذ أنه في خطابه (الذي استغرق أكثر من ساعة) هاجم السياسة الثقافية الاعلامية للولايات المتحدة قائلا انها تريد فرض سيطرتها على الثقافة والاعلام في العالم ، وأن فرنسا ستدعو عددامن المثقفين من جميع أنحاء العالم لعقد مؤتمر في كوبا ، لبحث هذا الموضوع . ثم عقد مؤتمرا صحافيا اتهم فيه الولايات المتحدة بالاستعمار الدولي ماليا ، وبأنها تسيطر على وسائل الاعلام الجماهيري في العالم . ثم قال : اننا في خطر بأن نصبح كالشاطر والمشطور في أشداق مؤسسات تبسط ظلها على العالم بأسره . وقال ان السيطرة الأمريكية على وسائل الاعلام الدولي تشجع على تدمير الثقافات الاخرى ، وخاصة ثقافات الشعوب الصغيرة ، وأن قبضة أمريكا على الاقتصاد العالمي سوف تؤدي الى السيطرة على أذهان الناس اذا ما سمح لها بالمضي فيما هي بسبيله . وأضاف قائلا : أليس من الأفضل أن نتكلم بصراحة ونسمي الأشياء بأسمائها ؟ ان الولايات المتحدة تغرق العالم بخاصيتها الثقافية فتتسبب في نشوء تضخم دولي .

وفي معرض ردها على الوزير الفرنسي ، قالت رئيسة الوفد الأمريكي : اننا لن نصغي لهجمات الوفود الاخرى ، ولكننا سندافع عن القيم التي نؤمن بها . وقال ألن وايشتاين ، نائب رئيسة الوفد الأمريكي (وهو استاذ في جامعة جورجتاون) انه يدعو الوزير الفرنسي الى مناقشة علنية مع السفيرة جين جيرارد . ثم قال في مؤتمر صحفي : لاتصغوا للأنباء الكاذبة . ان فرنسا تعمل أيضا على تصدير ثقافتها ، وتفعل كذلك دول عديدة أخرى . واتهم الوزير الفرنسي بأنه انما يعمل على كسب ود الدول اليسارية .



سوليداد بسريل وزيرة ثقافة اسبانيا

وقد فتح الوزير الفرنسي في خطابه مجالا لعدد من رؤساء الوفود الاخرى ، فقد أبدت وزيرة ثقافة اليونان وجهة نظره بقولها : (مثلما نعارض في أن تغزو دولة ما دولة أخرى بجيوشها وأسلحتها ، فاننا نعارض قيام احدى الدول بغزو بلاد أخرى ثقافيا) . وأضافت تقول (انها تشعر بالانزعاج لسيطرة الولايات المتحدة في الميادين الثقافية في العالم ، اننا نتعرض للغزو عن طريق السراويل الضيقة الزرقاء**Blue Jeans** والافلام والموسيقى . حتى أسماء المتاجر في أثينا أخذوا يكتبونها بالانجليزية . هذا أمر يجب مقاومته للحفاظ على تراثنا وجذورنا) . وقال الوزير الكوبي ان ٧٠٪ . من برامج التلفزيون ونشرات الأنباء المستعملة في أمريكا الجنوبية تأتي من الولايات المتحدة . بل ان وزير ثقافة نيكاراجوا قال : ان مقاومة الغزو المسلح أسهل من مقاومة الغزو الثقافي ، وخاصة ما تقوم به وكالات الأنباء الكبرى (الاسوشيتدبرس واليونايتدبرس وأمثالها)ذلك أن تلك الوكالات تعدل الأخبار وتحورها على هواها لكي تلائم المصالح السياسية للولايات المتحدة .

ورد وايشتاين على هذا كله بأن أمريكا ترفض أية ضغوطات تستهدف خنق النشاط الابداعي ، وسترفض أية قيود قد تفرضها الدول على حرية تدفق المعلومات . وكان جواب جاك لانج :حرية من ؟ حرية الثعلب في قن الدجاج ؟

وفي هذا الصدد قال وزير ثقافة الباكستان : ان الاستعباد الثقافي هو أسوأ أنواع الاستعباد التي يمكن أن يتعرض لها قطر من الأقطار . ومن أجل مقاومة هذا الاستعباد على كل أمة أن ترفع من مستوى ثقافتها القومية . وعلى دول العالم الثالث أن تتعاون لكبح جماح الغزو الثقافي الذي تقوم به دول الغرب الصناعية . وقال ان باكستان تمنع عرض مسلسلات العنف والجنس .



Tiempo de la Cultura

عنوان الجريدة التي أصدرتها اليونسكو لتغطية أخبار المؤتمر

أزمة الممتلكات الثقافية

لم تقتصر المبارزة الكلامية على ما حدث بين الوفدين الفرنسي والأمريكي (وأنصارهما) ،لأن وزيرة ثقافة اليونان مليتا ميركوري لم تلبث أن أثارت ضجة واسعة عندما أعلنت في خطابها أن حكومتها تطلب رسميا أن تعيد بريطانيا تماثيل المرمر التي أخذتها من هيكل البارثينون ، والتي يسميها الانجليز (رخامات الجن Elgin Marbles) على اسم اللورد « الجن » الذي اقتلعها من الاكروبوليس عام ١٨٨٠ وقدمها الى المتحف البريطاني ، فأطلقت ادارة المتحف اسمه عليها ، وأنها تتخذ الاجراءات لاقامة دعوى قضائية في المحاكم البريطانية من أجل استعادة تلك التحف الأثرية الى مكانها الطبيعي .

لقد حظيت ميركوري بتصفيق لايقل عن التصفيق الذي حظي به جاك لانج ،ليس فقط لأنها شابة حسناء وممثلة شهيرة ومغنية واشتراكية ، بل لأن خطابها صيغ باسلوب عاطفي ورصع بأبيات الشعر والأقوال المأثورة وحفل بالاشارات الذكية والعبارات المتعلقة بأساطير الاغريق . هذا كله أتاح لها أن تستولي على ألباب المؤتمرين الذين غصت بهم القاعة الرحيبة . ومما جاء في خطابها قولها : انها من تلك الأقلية من نساء العالم اللاتي يتولين منصب الوزارة ، مع أن الأساطير القديمة تقول ان الهة الحكمة والهة السلام من الاناث ، ورسالتهما حفظ الحياة . وفي عبارة ذات مغزى قالت ان هذا المؤتمر كان جديرا بأن يحقق نتائج أفضل لو أن النساء المشتركات فيه كن أكثر عددا (كان هناك أكثر من عشر سيدات يترأسن وفود بلادهن) . ولم تكتف الممثلة المرموقة بالمطالبة بكنوز اليونان الأثرية ، بل طالبت جميع الدول التي نهبت آثار غيرها من شعوب العالم الثالث - أن تبادر الى اعادة تلك الآثار الى أصحابها الشرعيين . ووصفت عمل اللورد الجن بأنه جبان ، اذ ألحق تخريبا فظيعا بهيكل البارثينون الذي أنشىء في القرن الخامس قبل الميلاد وهو من أهم معالم الحضارة اليونانية .

ولكن المجابهة الحقيقية في موضوع اعادة الممتلكات الثقافية ، حدثت قبل انتهاء المؤتمر بيومين ، عندما عرضت على اللجنة الثانية مشروع توصية يونانية بهذا الشأن . وقد أخفقت محاولة لتخفيف صيغة التوصية ، اذ اقترح وفد الدانمرك أن يوصي المؤتمر بريطانيا واليونان ببحث الموضوع بينهما . وقال وفد المانيا الغربية ان التصويت على توصية كهذه سيدمر اليونسكو . ولكن الوفد اليوناني أصر على أن تطرح التوصية للتصويت دون تعديل . كان الجو مشحونا بالتوتر والعصبية . وتم التصويت فأيدت التوصية ٥٦ دولة وعارضتها ١١ دولة (أكثر دول أوروبا الغربية) وامتنعت ٢٦ دولة عن التصويت . وكما يتوقع القارىء فان جميع أقطار العالم الثالث صوتت مع التوصية . (في ذلك اليوم كانت وفود بعض الدول قد غادرت المؤتمر أو تغيبت ، ومن بينها خمس دول عربية) .

بعد التصويت تساءل كثيرون : والنتيجة الفعلية ، ماذا ستكون ؟ هل يمكن أن تعيد بريطانيا التماثيل اليونانية ؟ ان مجال التفاؤل في هذا الأمر ضئيل ، لأن الكنوز الأثرية التي حصلت عليها الدول الغربية من مختلف أقطار العالم كثيرة ولاتقدر بثمن . ومن الصعب - ان لم يكن من المستحيل - أن توافق أية دولة طائعة مختارة على اعادة أي شيء . والواقع أن رئيس الوفد البريطاني أعلن أن ما تضمه متاحف بريطانيا من تحف يؤلف جزءا من تراث بريطانيا الثقافي « لقد حافظنا على كنوز كانت ستضيع لولانا . ولن نسمح لصنف الجماعات المتعصبة أن تدمر تراثا لايعتبر قوميا فحسب بل عالميا ، يستطيع أن يشاهده كل انسان ، وهو يؤلف مراكز للدراسة والبحث » . ثم قال : ان بريطانيا حصلت على ما لديها من آثار بصورة قانونية .

نهب مدينة القدس

ومثلما كانت لكثير من الدول قضايا تتبناها ، فقد كانت للدول العربية قضايا بالغة الخطورة تتعلق بما يجري في الأراضي المحتلة من استلاب ثقافي ومن تدمير للمعالم التاريخية والثقافية ، وبما فعل الغزاة في لبنان . ولم يكتف رؤساء الوفود العربية بمناشدة وفود المؤتمر أن تقف بحزم في وجه اجراءات العدو التي تستهدف القضاء على الهوية الثقافية للشعب الفلسطيني ، بل أعدوا ـ بالتعاون مع دول عدم الانحياز ـ عددا من مشاريع التوصيات التي تدين تلك الاجراءات . وكان مشروع التوصية رقم ١٥٠ من أهم ما قدم في اللجنة الثانية ، وهو يتعلق بمدينة القدس ، وبما تتعرض له من خطر فقدان طابعها الفريد الذي تميزت به ، وادراجها في قائمة المدن المهددة بخطر الاندثار .

عندما طرح رئيس اللجنة (رئيس وفد سيراليونا) مشروع التوصية اعترض المندوب الامريكي قائلا : كيف نستطيع أن نقرر أن المدينة مهددة ، وهل لدينا تقارير تثبت ذلك ؟ أقترح تعديل التوصية بحيث تدعو إلى ايفاد لجنة تتقصى الحقائق . وقد ألمانيا الغربية أيد الوفد الأمريكي في موقفه . تحدثت مندوبة العدو عن اصلاحات وأعمال عمران قاموا بها في القدس ، وكررت بعض الاتهامات ضد العرب . تكلم عدد من المندوبين العرب . قدم أحدهم احصاءات عن تناقص السكان العرب ، حتى هبط عدد المسيحيين العرب في المدينة من ٣٠ الفا عام ١٩٤٨ الى ١٢ الفا فقط عام ١٩٨١ . ما نفع الأماكن المقدسة اذا بقيت دون سكان ؟ أتبقى متاحف سياحية ومعالم أثرية لجلب العملات الصعبة التي ينفقها السياح ؟ الأماكن الاسلامية في خطر أشد ؟ ففي عام ١٩٦٩ حاول أحد الاسرائيليين احراق المسجد الأقصى . وفي أيار ١٩٨٢ أطلق شخص آخر النار على المصلين في المسجد الأقصى فقتل عددا منهم . وجود القدس في خطر يدلل عليه القرار الذي اتخذه مؤتمر اليونسكو العام الذي عقد في بلغراد عام ١٩٨٠ (رقم ٤/ ١٤) .

قال المندوب الأمريكي : اننا نتحفظ كثيرا على طرح هذه التوصية للتصويت . ولكن اذا كانت الأكثرية ترى ذلك فليكن .

تم التصويت على طريقة المناداة بالاسم . كانت النتيجة ان ٤٩ صوتا أيدت التوصية بينما امتنع ٢٤ وفدا عن اعطاء رأي . عارض التوصية مندوبا الولايات المتحدة واسرائيل فقط . دول أوروبا الغربية (باستثناء أسبانيا) امتنعت عن اعطاء رأيها . بعد اعلان النتيجة طلب وابنشتاين من رئاسة المؤتمر اعطاء احصاء بالدول الغائبة (لكي يظهر أن ٤٩ صوتا لاتؤلف أكثرية) . أحد المندوبين العرب سأل الرئيس : هل نؤلف نحن نصابا قانونيا أم لا ؟ رد الرئيس قائلا : اننا بالفعل نؤلف نصابا قانونيا ، وقد أصبحت التوصية نافذة .

عندما تم التصويت يوم ٥ آب كانت مقاعد عدد من الدول العربية خالية ، بسبب عودة اعضاء الوفود الى



دعا الأستاذ عبد العزيز حسين وزير الدولة ورئيس وفد الكويت في كلمته امام المؤتمر الى مقاومة الاستلاب الثقافي والقضاء على الذاتية الثقافية ودعا الى ضرورة تصحيح دور وسائل الاعلام لتكون وسيلة لتيسير التبادل الثقافي بين الشعوب لا أن تكون وسيلة لفرض ثقافة واحدة هي ثقافة الاقوياء على الثقافات الاخرى . .

كما أيد وفد الكويت اعادة بعض الآثار التاريخية والفنية التي تسربت عن الكثير من البلاد وخاصة في دول العالم الثالث والذى تعرضت له في المرحلة الاستعمارية .

كما طالبت العديد من الوفود العربية بانقاذ تراث الشعب الفلسطيني ومساعدته على المحافظة على الشخصية الفلسطينية ، وطالبوا اليونسكو بأن تقوم بمسئوليتها في صون مدينة القدس وادراجها في قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر ، والعمل على الحفاظ على التراث الفلسطيني . .

وأيدت الوفود العربية صون التراث الثقافي وإحياءه ، باعتبار أن هذا التراث هو مظهر الابداع الجماعي مما يؤكد الشخصية الاساسية لكل أمة ، وهو لايقتصر على الآثار التاريخية بل يمتد ويشمل الفولكلور والحرف والتقنيات والمهن التعليمية وأشكال العروض الفنية المختلفة والعادات الشعبية وأنشطة الألعاب الرياضية القديمة . . وغيرها .

بلادهم قبل اختتام المؤتمر .

ومثلما أحرزت التوصية رقم ١٥ أغلبية الأصوات ، فان الأكثرية في اللجنة الأولى أجازت التوصية رقم ١٢٦ وعنوانها (الذاتية الثقافية وتراث الشعب الفلسطيني) . ومن المؤسف أن معظم دول أوروبا الغربية اختارت أن تمتنع في الحالتين عن التصويت على الرغم من تعاطفها مع العرب (وخاصة فرنسا وايطاليا) . وهنا لابد من الاشارة الى أن دولة زائير كانت الدولة الافريقية الوحيدة التي وقفت موقف المعارضة من القضايا العربية .

كان الوفد الاسرائيلي في المؤتمر على مستوى جيد من الكفاءة الاختصاصية ، فقد كان برئاسة مدير عام وزارة التعليم والثقافة ، ومن بين أعضائه مندوبة اسرائيل لدى اليونسكو واستاذ في الجامعة ـ وزير تعليم وثقافة سابق . وقد كان هؤلاء يتابعون أعمال المؤتمر بيقظة ويردون على ما يرون ضرورة الرد عليه ، ولايفكون عن ترديد الاتهامات ضد العرب ـ بالباطل في أكثر الأحيان ، وفي الوقت نفسه يتجاهلون الحقائق التي تمس سمعتهم . فقد كانوا يرددون دائما أن الأردنيين دمروا الحي اليهودي في القدس (وقد حدث ذلك في أثناء حرب ١٩٤٨ وبعد أن أصر اليهود على اتخاذ ذلك الحي قاعدة عسكرية) ، ولكنهم لم يجيبوا أبدا على القول انهم اغتصبوا ١٢ حيا عربيا في القدس وحدها ، ودمروا حي المغاربة في القدس القديمة (بعد انتهاء الحرب)وأزالوا من الوجود عشرات القرى العربية بجوامعها وكنائسها ومقابرها ومزاراتها .

تفجرت في المؤتمر خلافات سياسية عديدة ، ألبسها أصحابها حلة ثقافية ومن جملتها نزاع العراق مع ايران ونزاع تركيا مع قبارصة اليونان ، ونزاع كوبا مع الولايات المتحدة .

وقدمت للمؤتمر أكثر من مائتي توصية ، ومعظم التوصيات التي أجمعت الوفود على قبولها تؤكد على حرية الثقافة والفن وتشجيع المؤلفين وأصحاب المواهب ، وعلى حق جميع الأجناس والشعوب في ممارسة ثقافاتها ، دون تفريق في الجنس والعنصر والقومية

وأخيرا وليس آخرا ، يجدر التنويه بنشاط رجل قدير هو أحمد مختار امبو ، المدير العام لمنظمة اليونسكو ، ذلك النشاط الذي تجلى في الترتيبات الدقيقة للمؤتمر . والسيد امبو سنغالي كان يعمل أصلا في السلك الدبلوماسي قبل أن ينتخب لهذا المنصب .

وفي حديث له مع الصحافة عرفنا أنه مؤرخ ويدير عمله بروح المؤرخ . من رأيه أن المؤرخ يجب أن يكون مستعدا لفهم أي وضع من أوضاع التاريخ : ليس من منطلق موقفه الشخصي ، ولا من منطلق المجتمع الذي يعيش فيه ، بل من منطلق المجتمع الذي يدرسه . المؤرخ يجب أن يتعامل مع كل الأزمنة ومع كل الشعوب . عليه أن يتمثل مشاعر الفترة التي يدرسها ويتعرف عليها . وعليه أن يبذل جهدا لكي يفهم الأشخاص على اختلاف ثقافاتهم .

لقد جندت منظمة اليونسكو أكثر من مائة موظف لكتابة كل ما يقال في المؤتمر علنا ، وليعملوا على ترجمته الى اللغات الست المعمول بها في اليونسكو . وهناك آلات طباعة صغيرة لم ينته المؤتمر الا وكانت قد طبعت أكثر من مليوني صفحة . وقال أحد الخبراء ان هذه الصفحات لو وضعت فوق بعضها البعض لارتفعت أكثر من عشرين مترا . وكانت هناك آلات لتصوير الوثائق تصور ما يقارب ٢٠ الف صفحة يوميا . وأصدر المؤتمر جريدة يومية (وقت الثقافة) باللغتين الانجليزية والفرنسية ، وكانت تنقل خلاصة ما يدور في المؤتمر من مناقشات وما يلقى فيه من خطب . وقد أرسلت اليونسكو من باريس الى مدينة المكسيك ٦٠٠ صندوق كبير وزنها عشرة أطنان ، وتتألف من كتب ونشرات ووثائق . وكان هناك ٤٨ مترجما ومترجمة ينقلون أقوال المتحدثين الى اللغات الخمس الأخرى . وقد غطى هؤلاء المترجمون اجتماعات الهيئة العامة واللجنتين الأولى والثانية . ولولاهم لما استطاع ذلك الحشد القادم من مختلف بقاع العالم وبلغاته المتعددة أن يتفاهم مع بعضه البعض . لولاهم لكان المؤتمر بمثابة « برج بابل » حقيقي . وقد لاحظت أن بعض المترجمين العرب لم يكونوا بالمستوى الضروري من حيث ضبط الالفاظ ونطق الحروف ، اذ سمعتهم يلفظون (الثقافة : السقافة والنظرات : النزرات) و « الجميل : القميل » ، مما لانسمع مثله عند لفظ لغة أخرى .

كان المؤتمر فريدا في بابه حقا . وخير ما أختتم به أن أنقل ما كتبته محررة جريدة (وقت الثقافة) في أحد أعدادها :

اذا كانت الكلمة أفضل سلاح للقضاء على الجهل ، فان جيشا سينطلق من ردهات هذا المؤتمر لكي يدافع عن ثقافة المجتمع البشري . هناك يقف برج من الورق ، شاهدا صامتا على واحد من أعظم المجهودات الثقافية للانسان .

عمان ـ الأردن ـ سليمان موسى

ماهو مستقبل البحث العلمي في وطننا العربي ؟

بقلم الدكتور / عبد العظيم أنيس

يحزنني ويحزن الكثيرين من أمثالي من المشتغلين بالبحث العلمي أن تجد مراكز البحوث والجامعات في الوطن العربي لاتساير التطورات العلمية الرئيسية التي تحدث في اوربا أو الولايات المتحدة اذا كانت هذه التطورات حديثة العهد كأن تكون قد تحققت في السنوات العشر الماضية مثلا . وأنا هنا أتحدث عن التطورات الرئيسية وليس أي تطورات . وقد كنت أظن أن عشر سنوات مدة كافية لكي تستجيب هذه المراكز البحثية لهذه الاكتشافات الجديدة على الاقل من باب الفهم والدراسة والنقد ، ولن أقول من باب التطوير والاضافة .

ان مثل هذه الاكتشافات هي ثمرة ديناميكية المجتمعات الصناعية المتقدمة ، ولذلك يبدو لي أنه الى ان تتحول مجتمعاتنا من مجتمعات متخلفة صناعيا الى مجتمعات متقدمة فليس من المتصور أن تبدأ مثل هذه الاكتشافات عندنا .

لكن يكون من الضروري على الاقل أن نتابعها ، وأن نترجم المؤلفات الاساسية التي تصدر في الخارج منها ، وأن تعقد الندوات التعليمية في مراكز البحوث والجامعات لمناقشتها والقاء الاضواء على خفاياها . وبهذا نمهد للزمن الآتي حيث نستطيع أن نضيف ونطور ونكون بذلك من المساهمين في حركة البحث الدولية .

هل هذا يحدث ؟

لا أعتقد أن شيئا من هذا يحدث في أي جزء من عالمنا العربي ، وأنا على الاقل واثق من أنه لا يحدث في مصر . وسوف أضرب مثلين لتطورين أساسيين في مجال العلوم الرياضية وهو المجال الذي أعرفه جيدا ، لم أجد اهتماما في مصر بهما ، ولا شك أن هذا الوضع ينطبق في مجالات أخرى .

نظرية الكارثة

منذ عودتي من الكويت منذ أكثر من عام وانا أسأل مراكز البحوث في مصر إن كان هناك اهتمام بما يسمى في أوروبا « نظرية الكارثة » Catastrophe Theory

وهذه النظرية الجديدة هي ثمرة السنوات العشر الماضية

منذ أن ظهر أول كتاب عنها عام ١٩٧٢ للرياضي الفرنسي رينيه توم . وأهمية هذه النظرية أن تطبيقاتها تخرج عن الحدود التقليدية للتطبيقات الرياضية في العلوم الطبيعية أو الهندسية . . . الى تطبيقات في العلوم البيولوجية والطبية والعلوم الاجتماعية ، بل في بحوث الحرب والسلام . ولهذا السبب أثارت من الجدل والخلاف والصراعات الفكرية ما أثارت بين العلماء في أوربا والولايات المتحدة . وحتى اليوم مازال غبار هذه المعارك الفكرية عالقا في أجواء البحث العلمي هناك ، لكننا نحن لا ندري ، أو بمعنى أدق لا يدري المتخصصون عندنا شيئا عن ذلك ، وربما لم يسمعوا أصلا بهذه النظرية ذاتها .

ومن حق القاريء - مادام الموضوع قد أثير - أن أقول كلمة عن هذه النظرية هنا حتى تعرف شيئا عن أهميتها .

لقد تطورت العلوم الرياضية ابتداء من نيوتن حتى النسبية العامة في ارتباط وثيق بالعلوم الفيزيائية والفلكية أساسا . وهذه الحقيقة طبعت الاكتشافات الرياضية في الغالب الأعم بطابع خاص . . . هو قدرتها على وصف التغيرات البطيئة والمتصلة وتحليلها مثل حركة الكواكب والنجوم . . . . . الخ . لكن الظواهر الطبيعية لا تحدث كلها على هذا المنوال . فهناك الظواهر الطبيعية التي تحدث فجأة كغليان الماء وذوبان الثلوج وحدوث الزلازل . . الخ وفي العلوم البيولوجية نجد هذا السلوك الفاجيء كظاهرة أساسية في كثير من المواقف ، ومثال ذلك الخلية التي يمضي إيقاع تكاثرها بشكل عادي ثم فجأة تتضاعف وتتضاعف بشكل سرطاني . فاذا انتقلنا الى العلوم الاجتماعية والسياسية فسوف نجد هذه التحولات الكيفية التي تحدث بشكل مفاجيء ظاهرة ملموسة كانهيار البورصة واندلاع الحروب وقيام الثورة . . . الخ . وفي حياتنا العادية نتحدث عن القشة التي قصمت ظهر البعير دون أن نستطيع أن نصف هذه الظاهرة علميا .

ان التقنيات الرياضية المتوفرة لم تكن قادرة على وصف هذه التحولات الكيفية المفاجئة فضلا عن تحليلها لاسباب عديدة منها كما أسلفنا أن العلوم الرياضية نشأت في حضن العلوم الطبيعية وتأثرت اكتشافاتها الى حد كبير بهذه الحقيقة . ومنها أن مثل هذه التحولات المفاجئة في حاجة الى رمزية رياضية غير الرمزية التي تعودنا عليها .

لماذا لا نهتم ؟

وكما يقول الأوربيون المتخصصون ، في البدء كان رينيه توم ، العالم الرياضي الفرنسي العبقري الذي أصدر أول كتاب عام ١٩٧٢ باسم « الاستقرار البنيوي والتكوين الشكلي » وكان حلمه الأساسي هو أن يطوع العلوم البيولوجية رياضيا أي يبني نماذج رياضية تصف الظواهر البيولوجية الأساسية وتقوم بتحليلها . ولقد استخدم رينيه توم نظريات الرياضي الفرنسي الاشهر بوانكاريه عن الانظمة الديناميكية ، لكن كتابه كان مع ذلك مثالا في المفاهيم والتصورات الجديدة والبناء الفكري الفذ .

ومع ان رينيه توم لم يكن مشغولا بالعلوم الاجتماعية أو السياسية ، فقد كان طبيعيا أن يندفع كثير من علماء الاجتماع والسياسة نحو هذه الفرصة الذهبية للاستفادة منها . لقد سمى رينيه توم هذه التغيرات المفاجئة بالكوارث لان كلمة « كارثة » في اللغة الفرنسية هي القادرة في رأيه على اعطاء هذا الشعور بالتغير المفاجيء الدراماتيكي . لكن بعض ايحاءات هذه الكلمة في كثير من التطبيقات مضلل ، لكن لا حيلة لنا في هذا . فمنذ تسمية رينيه توم أصبح الموضوع معروفا ودوليا باسم « نظرية الكارثة » . والكوارث بالمناسبة تنقسم رياضيا الى نوعين : الكوارث الاولية والكوارث العامة !

ولاشك ان لمثل هذه النظرية آثارا هامة على تطور علم المنطق ولا سيما الرياضي ، وهو الذي انحصر معظمه حتى اليوم في المنطق الأرسططالي ، ويحق لنا أن نتوقع استيعابا رياضيا جديدا للمنطق الجدلي الذي بدأ على يد هيجل .

والغريب ان معظم تطبيقات نظرية الكارثة (والتي لاتثير خلافا) هي في العلوم الطبيعية والهندسية وليست في العلوم الاجتماعية أو البيولوجية . وكثيرون يعتقدون أن هذا هو المتوقع الى مستقبل قريب ، وأن الاستخدام الناجح والواسع لهذه النظرية في العلوم البيولوجية هو أمر يتعلق بالمستقبل المتوسط . وبعد هذا ، وبعد هذا فقط يمكن أن نتوقع التطبيقات الناجحة في العلوم الاجتماعية . وليس هذا هو رأي الجميع على اي حال ، ويكفي ان نشير الى محاولة علماء رومانيا بناء نموذج رياضي باستخدام نظرية الكارثة لوصف مشكلة الصراع بين المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي من ناحية ، وبين الدول الفقيرة والدول الغنية من ناحية أخرى .

فهل نحن مهتمون في الوطن العربي بهذا التطور العلمي الكبير بتطبيقاته المترامية ؟

في حدود علمي لا اعرف مركزا بحثيا في العالم العربي

مهتما بدراسة وتوسيع دائرة النقاش حوله في المجالات المختلفة . وسوف يسعدني جدا أن يثبت أنني مخطيء !

أما المثال الثاني على النوم الذي تغط فيه مراكز بحوثنا فيتعلق بمجال أكثر تخصصا لكنه لا يقل اهمية . وهو محاولة للنفاذ الى أسس العلوم الرياضية ويعرف باسم « التحليل غير القياسي » . وقد بدأ هذا التطور في الولايات المتحدة أيضا منذ حوالي عشر سنوات على يد رياضي أمريكي يدعى ابراهام روبنسون ، لكنه سرعان ما أخذ أبعادا جديدة وعقدت من أجله ندوات عديدة في أوروبا والولايات المتحدة .

ولست أنوي أن أرهق القاريء بشرح معنى هذا التحليل غير القياسي ، لكن يكفي أن اقول ان هذا التطور يثير قضايا فلسفية كثيرة فضلا عن أنه يقدم براهين بسيطة لنظريات رياضية سبق برهانها بأساليب معقدة تماما .

أزمة الاتصال الدائم

هذان إذن مثالان على تطورين أساسيين في العلوم الرياضية وقعا في السنوات العشر الاخيرة لا يجدان لهما صدى في الوطن العربي حتى اليوم في دوائر البحث العلمي . ولا بد أن تكون العلوم الاخرى حافلة بأمثلة من نفس النوع . والمشكلة ليست هي انعدام الباحث العربي المهتم ، وانما هي مشكلة توفر الاتصال الدائم بيننا وبين مراكز البحوث في الخارج ، وتوفر المكتبات المليئة بالمراجع العالمية الحديثة ، وتوفر الوقت الكافي للأكاديميين للانصراف لمثل هذا العمل الجليل بدلا من الجري وراء لقمة العيش !

حكى لي صديق مصري يعمل أستاذا في الجامعة كمتخصص في علوم الكمبيوتر أنه عندما سافر في الصيف الماضي لحضور أحد المؤتمرات العلمية دار بينه وبين أستاذ إنجليزي من نفس تخصصه نقاش استطرد الى التعرض لما هو معروف الآن باسم « النماذج العالمية » التي بدأت على يد « نادي روما » ، واستخدم فيها الكمبيوتر استخداما واسعا ، وقال لي الأستاذ المصري انه فوجيء بأن الأستاذ الانجليزي على علم دقيق بالنماذج المختلفة التي استخدم الكمبيوتر فيها ، بينما لم يكن هذا الأستاذ المصري قد سمع بنادي روما أصلا !

الى متى يستمر هذا ، ومتى نفيق من الكارثة العلمية التي نعيش في ظلالها ؟ ○

د . عبد العظيم انيس

ضاع وضاء

حكى بعض الشعراء أنه دخل على بعض الخلفاء فوجده جالسا والى جانبه جارية سوداء تدعى خالصة ، وعليها من الحلي والمجوهرات ما لا يوصف ، فصار الشاعر يمتدحه وهو غافل عن سماعه ، فلما خرج كتب على الباب :

لقد ضاع شعري على بابكم
كما ضاع در على خالصة

فقرأه بعض حاشيته واخبر الخليفة به ، فغضب ، وامر باحضار الشاعر ، ولما وصل الى الباب مسح العينين من لفظتي « ضاع » و « ضاع » واستبدل بهما همزتين ، فلما احضر بين يديه قال له : ما كتبت على الباب ؟ قال كتبت :

لقد ضاء شعري على بابكم
كما ضاء در على خالصة

فعفا عنه

أقوال معاصرة



■ كيسنجر كان دائم الكذب على الرؤساء العرب ، وهم يعرفون ذلك .

الرئيس الامريكي جيمي كارتر

■ الساحة الفلسطينية تعرف نمطا فريدا من الديمقراطية ، هو ديمقراطية البنادق .

ياسر عرفات



■عندما تهان الكرامة العربية فلا بد من الرد بالمثل ، لا أستطيع أن أقول متى . . ؟ ولكن الرد سوف يأتي يوما ما .

الملك فهد بن عبد العزيز

■نحتاج إلى سبعين سنة لمحو الأمية في الوطن العربي

د . محمد العمادي

رئيس الصندوق العربي للانماء



■ إذا جاء حزب العمال إلى الحكم فلن يغير شيئا من سياسة إسرائيل التوسعية

المستشار النمساوي كرايسكي

■ لقد ساهمنا نحن العرب في حرب بيروت بتقديم القتلى الأبرياء فقط ، وعند هذا الحد توقف دورنا !

أحمد بهاء الدين



■ ليس هناك إلهام في الشعر ، وإنما هناك جهد وعلاقة جدلية مع النفس والحياة والناس والتاريخ والزمان .

الشاعر اليمني عبد الله البردوني

■ من حسن حظ الانسان أن يجد في هذا الزمن العربي المزدحم بالسماسرة والمقاولين ، والمخبرين ، كرسيا يجلس عليه ، وورقة يبكي على صدرها .

نزار قباني

هذه الحركات قادرة على هدم مالاتريد ،

لكنها عاجزة عن اقامة ما تريد .

الحركة المهدية

دروس التجربة بعد مضيّ مائة عام

بقلم الدكتور : محمد جابر الأنصاري

عام ١٨٨٢ ـ أي قبل مائة سنة على وجه التحديد ـ كانت الثورة الاسلامية المهدية في السودان تستأثر باهتمام العالم العربي الاسلامي ، واهتمام القوى الكبرى المتنافسة على حد سواء . . . فقد كان انبثاقها وانتصاراتها الكبيرة المتلاحقة ـ في زمن الهزائم والتراجعات الاسلامية أمام الغرب ـ مدعاة دهشة ومثار عجب واعجاب للعرب والمسلمين أنفسهم قبل غيرهم .

فقد أثبتت هذه الثورة ، كما يقول الباحث دزموند ستيوارت في تاريخه للشرق الأوسط الحديث : « ان الاسلام يستطيع دون مدافع حديثة ، أو خطوط برق ، أن يكون في القرن التاسع عشر قوة لاتقاوم ، كما كان في القرن السابع » .

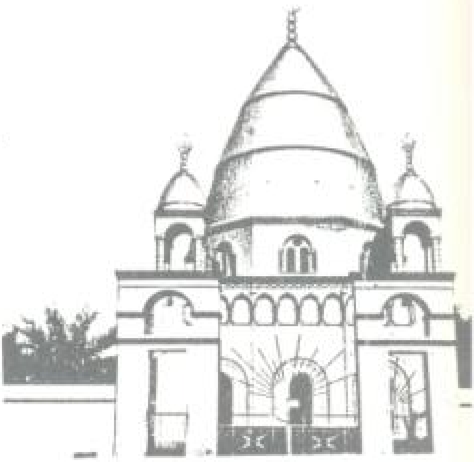
وقد مر الآن قرن كامل على الثورة المهدية ، هذه الثورة يمكن أن نعتبرها بمثابة « النموذج » المبكر لمختلف الحركات الاسلامية الجماهيرية التي شهدها ويشهدها الاسلام الحديث ، منذ أن جابه تحدي الحضارة الغربية واستعمارها ، في غمرة استغراقه على ضعفه الداخلي وأزمته الذاتية ، وسعيه للتعويض عن ذلك .

والحديث اليوم عن الثورة المهدية ليس فقط حديث ذكرى ، كما أنه لايخص تاريخ السودان وحده . .

ان الحديث عن هذه الثورة اليوم هو حديث دروس وعبر ، وحديث خلاصات تاريخية مفيدة بالنسبة للدارسين والمهتمين بالظاهرة الاسلامية المعاصرة على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم ، وعلى الأخص فيما يتعلق باكتشاف نقاط الأضواء والظلال ، وجوانب السلب والايجاب ، والنجاح والاخفاق ، في مجمل مساراتها وتوجهاتها .

ذلك أن استخلاص الدروس الكاملة ـ سلبا وايجابا ـ من تاريخ الثورة المهدية في بدايتها ونهايتها ، بدايتها الرائعة ونهايتها المحزنة ـ يمثل في نظرنا الخطوة الأولى لفهم وتقييم الظاهرة الاسلامية في ساعتها الراهنة ، ويدخل في صلب هموم المعاناة العربية الاسلامية التي يتمخض بها عالمنا العربي الاسلامي في هذه الأيام بكل الألم والاحباطات والتطلعات التي تكتنفنا ، خاصة وأن الثورة المهدية لم تبق حركة معارضة ، وانما أقامت سلطة ودخلت تجربة الحكم أو بالأحرى محرقته !

فكيف تبدو لنا دروس الثورة المهدية وعبرها بعد مائة



بيت المهدى بمدينة الخرطوم

سنة وفي مرحلة مماثلة - الى حد كبير - لمرحلتها القاسية من حيث تفاقم التحديات والاعتداءات الخارجية ، واستشراء الضعف الداخلي ، وعودة الاسلام الشعبي الجماهيري ، والسلفي الأصولي للرد على حالة التقهقر ، باسلوب مماثل ؟؟

التحدى بفكرة المخلص

قامت الحركة المهدية في السودان كردة فعل لوقوع شمال وادي النيل تحت الاحتلال البريطاني المباشر وفشل انتفاضة أحمد عرابي بمصر عام ١٨٨١ ، بحيث أصبح جنوب الوادي أيضا لقمة سائغة أمام القوة المحتلة ولكن جذور هذه الثورة تمرد الى ما هو أعمق من ذلك . .

فقد كان هناك التحدي الحضاري الغربي للاسلام على مستوى العقائد والأفكار والمنجزات الحديثة . .

وكان هناك التحدي السياسي العسكري المحدق بديار الاسلام من جميع الجهات . . وكان هناك الاستغلال الاقتصادي الذي وصل الى الأراضي السودانية البكر ، ذاتها ، متمثلا في المغامرين الأوربيين وعملائهم من الباشوات الأتراك والمحليين الذين انصب استغلالهم على الجماهير مباشرة وأشعرها بالتسلط والقهر .

وبالاضافة إلى ذلك كان هناك الانحطاط والفساد المستشري في أوصال الدولة العثمانية التي أخذت - عبثا - تطرح صيغة اصلاحية تخطاها العصر ، وأجهضها الانحلال الساري في الكيان العام للدولة ونظمها ، فابتعدت عن جوهر الاسلام ، ولم تعد قادرة على مجابهة تحديات العصر ،ولا على الوصول الى الجماهير المسلمة في آلامها وتطلعاتها الحقيقية .

ثم جاء الاخفاق السياسي للنخبة الفكرية التوفيقية متمثلة في جماعة الافغاني ومحمد عبده ، وللنخبة العسكرية الاصلاحية متمثلة في جماعة أحمد عرابي ، ليؤكد الحاجة الى تحرك جديد من نوع آخر . . تحرك جماهيري واسع يلجأ الى « الايدلوجية » الشعبية الاسلامية باعتبارها الايدلوجية الوحيدة القادرة على تحريك الجماهير ، ودفعها للعمل والاستشهاد والتصدي والرد خاصة في أوقات النكبات والهزائم ، والانهيارات الكبرى عندما تصل حربة التحدي المعادي الى صميم الوجود الاسلامي في العمق .

ولم تكن المدن العربية الكبرى وأقاليمها المركزية الواقعة مباشرة تحت وطأة الاحتلال الغربي أو التركي مهيأة أو قادرة على هذا النوع من التحرك ، بعد أن أخفقت فيها المحاولات الاصلاحية الوسطية ، وانتهت بالوقوع تحت السيطرة الأجنبية المباشرة .

لذلك فان أقاليم الأطراف هي التي تصدت لتوليد حركات المقاومة العنيفة للتعويض عن سقوط الحواضر الاسلامية المركزية . ولقد كان جنوب وادي النيل ، بحكم هذه الظروف مجتمعة ، احدى الساحات الأكثر اخصابا وتقبلا لهذه الحركة الجماهيرية المتسلحة بالأفكار الدينية الاصولية المبسطة ، والقائمة على روح التقشف والجهاد باسلوب الحسم ورفض الحلول الوسط .

اعتمدت الحركة على فكرة ظهور « المهدي » - وهي الفكرة التي ظلت تراود الجماهير المسلمة - على اختلاف مذاهبها - منذ عصور الاسلام الأولى ، معبرة عن توقها لرجل الخلاص المنتظر ونظامه المثالي العادل الذي سيقيمه

للمؤمنين الفقراء ، ليملأها عدلا بعد أن ملئت ظلما .

وتنبثق من فكرة ظهور المهدي دعوة الجهاد العام ، ودعوة التقشف والزهد والتصوف ، ونبذ حياة اللهو والترف ، ومحاربة المترفين ، وتكديسهم للثروات ، والعمل على اقامة العدل الاجتماعي بين الكافة .

وهذه التوجهات تعني أن الحركة وان اتسمت بالطابع الصوفي الديني ، لكنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعوامل الاجتماعية الاقتصادية الفاعلة في حياة الجماهير ، شأنها في ذلك شأن معظم الحركات الدينية ذات المنشأ الاجتماعي التي دخلت معترك السياسة في تاريخ الاسلام .

يقول المؤرخ المستعرب فلاديمير لوتسكي في الربط بين الناحيتين « وفي آخر المطاف أدت مواعظ محمد أحمد (المهدي) المنطلقة من مقدمات أخلاقية ودينية الى نضال وطني تحرري وطبقي ، وكانت ثمرة كافة الظروف الاقتصادية والسياسية القائمة في البلاد » .

ما أنجزته الثورة

هذه الحركة الجماهيرية الروحية الفاعلة في ميدان الواقع السياسي الاجتماعي ، والمتفاعلةمعه ، أنجزت في بدايتها النتائج التالية : ـ

○ أولا : استطاعت الجماهير الفقيرة بأسلحتها البدائية تحقيق انتصارات حاسمة ضد جيش الاحتلال المتفوق عليها تنظيما وتسليحا ، ووقعت معظم مدن البلاد وأقاليمها تحت سيطرة قوات الثورة ، بما في ذلك العاصمة ، وقتل الثوار أكبر قائدين استعماريين أرسلا لاخمادها وهما هيكس باشا والجنرال غوردون اللذان كانا يتمتعان بشهرة عسكرية عالمية في وقتها .

مثل هذه الانتصارات لم يستطع تحقيقهاجيش عرابي بنخبته العسكرية ـ المفتقرة الى تنظيم جماهيري فاعل ، كما لم تستطع تحقيق شيء منها جيوش السلطان العثماني رغم ما مر بها من اصلاح وتحديث .

كان شيئا جديدا مدهشا . . أن تنتصر جماهير فقيرة متواضعة التسليح على قوات عصرية تسيرها أقدر القوى العالمية في ذلك الوقت وهي بريطانيا العظمى وإداراتها الاستعمارية بمصر .

بل ان قوات الثورة كانت تدمر قوات الغزو تدميرا تاما وتبيدها ابادة كاملة حملة بعد حملة وهجوما بعد آخر . .

(هذا الدرس يجب ألا يقتصر على زمانه . فهذه التجربة يمكن أن تعيدها الجماهير العربية المسلمة ضد جيش الاحتلال الاسرائيلي في أكثر من جبهة عندما تتوفر ظروف المواجهة الحقيقية بين الجانبين) .

○ ثانيا : استطاعت الثورة أن تحبط أول مناورة سياسية تعرضت لها وأن تسقطها تماما ، وذلك عندما رفضت الخدعة البريطانية القائمة على التظاهر بمنح السودان استقلاله عن مصر ، والاعتراف به ككيان منفصل تتعامل معه الدولة البريطانية مباشرة وذلك في محاولة من الانجليز لالقاء كل اللوم على فساد الادارة المصرية في السودان والتستر على أبعاد المخطط الاستعماري الشامل الذي هو السبب الحقيقي لفساد الوضع .

وردت الثورة على ذلك بتعميق التحالف بينها وبين القوى الوطنية المصرية ، حتى أن فرقا عسكرية من الجيش المصري ـ من بينها فرق مدفعية ـ وجدها الانجليز تقاتل في صفوف الثورة . . بدل قيامها بمهمتها « الرسمية » الموكلة بالقتال الى جانب الانجليز !

ثالثا : بعد الانتصار السياسي والعسكري ، أي بعد اسقاط النظام القديم ، بدأت الحركة تسعى لاقامة معالم المجتمع الجديد المنشود الذي بشرت به . . . ونجحت في البداية في تحديد بعض معالمه العامة .

يقول المؤرخ لوتسكي : « كانت الدولة المهدية » تتسم في باديء الأمر بطابع ديمقراطي ، اذ كان الجيش يتألف من الفلاحين والبدو الرحل ، والأرقاء . وشغل مناصب القيادة فيه أبناء الشعب . وقد خفضت الضرائب تخفيضا كبيرا . ومارس الضباط وموظفو الدولة الزهد والتقشف كنموذج لحياتهم . وكان رئيس قضاة الدولة المهدية يتناول ٤٠ تاليرة شهريا ، أي ما يعادل متوسط راتب الصانع الحرفي . . وناهض المهديون الاثراء الفردي وسعوا الى المساواة العامة ، وعاقبوا أولئك الذين ينهبون ويسلبون عقابا شديدا ، وفرض المهدي على أتباعه تقديم الأشياء الذهبية والثمينة الى بيت المال الذي كان يشرف على الحياة الاقتصادية في البلاد ، و سمح بذبح خروف واحد فقط من أجل مآدب الأعراس ، وخفض المهر الى ١٠ تاليرات . . . (راجع لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص ٣٠٥) .

هذه التجربة « الخطيرة » والخارجة على المألوف لم تتسامح معها بطبيعة الحال أية قوة دولية أو أي نظام اقليمي آخر . فقد كان استمرارها يعني أشياء كثيرة في مقدمتها قلب مجرى التاريخ في المنطقة الاسلامية العربية رأسا على

عقب !

كانت القوى الكبرى منهمكة حينئذ في تصفية الكيان الاسلامي الهرم المتمثل في الدولة العثمانية لوراثة تركته ، فلم يكن من المنتظر أن تتسامح مع كيان اسلامي جديد صاعد يعيد الحيوية والشباب الى روح الاسلام ويدفع الجماهير الى المقدمة في ساحات القتال ، لتهزم جيوش الرجل الأوروبي الأبيض !

لذلك بقيت الدولة المهدية طوال عمرها البالغ ١٣ سنة (حتى عام ١٨٩٨) ـ عبارة عن : « معسكر مسلح محاط بالاعداء من كل جانب ومعرض للحصار بصورة متواصلة ، وكانت مهمتها الرئيسية تنظيم الدفاع ، ولهذه الغاية شيد الخليفة عبد الله (خليفة المهدي) ترسانات بدائية ومعامل ودورا لبناء السفن ، كما أصلح السفن التي حصل عليها كمخلفات حتى أنه شيد دارا للطباعة . ولتنظيم الجيش والصناعة الحربية استخدم الأسرى الأوربيين كاختصاصيين » ـ (انظر لوتسكي ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥) .

السقوط في الداخل أولا

ولكن برغم شراسة قوى الخصم ، فان الدولة المهدية لم تسقط من الخارج . . وانما سقطت قبل ذلك من الداخل ، ثم تم الأجهاز عليها من القوى الخارجية المتربصة .

وهنا نصل الى جوهر الدرس الذي ينبغي استيعابه والتفكير فيه مليا من جانب جميع المهتمين بالظاهرة الاسلامية الحاضرة . . . فأين بدأ القصور والخطأ في تجربة الدولة المهدية وانتهى بهذه التجربة الاسلامية المتميزة الى الاخفاق ؟؟

يمكننا اجمال الاجابة في العوامل الحاسمة التالية : ـ

أولا : ان التجربة المهدية افتقرت الى برامج حكم دقيقة والى غايات وأهداف واضحة محددة بعد تسلم السلطة والى تكتيك تفصيلي لمواجهة الأعداء والى خطط مرسومة لخوض معركة البناء ...بناء الدولة والمجتمع والمؤسسات الجديدة . وكان الطابع العفوي يغلب على نشاطها . وغني عن البيان أن الافتقار الى برنامج عمل محدد كان القاسم المشترك بين الحركات الدينية وما يزال حتى يومنا هذا فيما نرى حولنا من تجارب . فاذا لاحظنا أن معسكر الخصم يمتلك أدق الخطط والتكتيكات للقضاء على هذه الحركات التي تمتلك خطط المواجهة ، أدركنا مدى الفارق بين الجانبين في هذا المجال ، وهو فارق لابد أن يعكس نفسه آجلا أو عاجلا على ساحة المواجهة مهما كانت تضحيات الجماهير مكثفة وهائلة لأن هذه التضحيات والطاقات لاتصب في قنوات منظمة ، وانما تذهب حيث يجب ألا تهدر .

ثانيا : لغياب الرؤية الاستراتيجية وبرامج العمل ، تنشق الثورة ـ كما يحدث في الأغلب الى تيارين : محافظ وثوري . ـ الأول يريد امتيازات جديدة والتحول الى دولة تقليدية منتقيا من الحجج الدينية ما يلائم توجهاته ، بينما يستمر الثاني باحثا برومانسية عن الحلم الضائع في اقامة النظام الجديد المأمول . . . ويستمر الصراع لفترة بين التيارين ، ويأخذ التيار المحافظ زمام المبادرة لأنه أقرب بميوله ومصالحه الى بقايا المجتمع القديم الذي كان يفترض تغييره . ولكن لاتتغير سوى الأسماء ويبقى الأرقاء الذين حاربوا مع الثورة . . أرقاء يعيشون على وعد الحرية ، ويسود قانون الارهاب والعنف الدموي غير المبرر بين أطراف الثورة ذاتها ، ويتبدد شيئا فشيئا حلم الديمقراطية ومعه حلم العدالة ولا يبقى غير كابوس الحصار في الداخل والخارج .

ثالثا : سرعان ما تستنفد الثورة بعد أن تصبح نظاما ودولة رصيدها المتألق الذي خلقته عندما كانت في مرحلة المعارضة ، فتذبل الاحلام الكبيرة ، ويبدأ الواقع المرير الذي عجزت القيادة عن التعامل معه في فرض نفسه ، فتنكفيء الثورة على نفسها ولا تعود نموذجا مشعا قابلا للتأثير في الأقطار الأخرى . فتبدأ القوى الحليفة لها في التخلي عنها وتهبط الهمم ويجد المعسكر الآخر فرصته السانحة لاحكام الحصار حولها في اقليمها الأصلي دون أن تتمكن هي من الرد بفتح جبهات أخرى . فمما يلفت النظر أن الامام محمد عبده ، رغم معارضته لأسلوب العنف الثوري في التغيير ، فكر جيدا في الالتحاق بالمهدي ، والانضمام الى الثورة ليدعو من هناك بقية الاقطار الاسلامية الى الالتحاق بركبها ، ولكنه عدل عن ذلك فيما بعد عندما رأى سرعة التباعد بين الواقع والمثال في مسار الحركة . ولا شك أن أية حركة اسلامية تصاب بالتعثر في موقع انطلاقها تقضي على نفسها بالتقوقع والتحول الى حدث محلي ، ولا تعود قادرة على استخدام ساحة المواجهة الشاملة ضد الخصم في مختلف الجبهات والأقطار .

رابعا : هذا العامل هوأهم وأقوى عوامل القصور التي أدت الى اجهاض التجربة . وسائر العوامل التي ذكرناها تتفرع منه وتعود اليه . وقد وضعناه في هذا الموضع ليكون بمثابة خلاصة النقد والتقييم لهذه الحركة . هذا العامل يمكن أن نطلق عليه عامل الافتقار الى الحداثة أو العامل

الحضاري » . فلقد ظل فكر الحركة سلفيا خالصا ونقليا حرفيا ، ولم يستوعب روح العصر وجوهر التقدم ، فاستحال عليها خلق عناصر وطنية عصرية منتجة لبناء الدولة ورسم برامجها وتلبية احتياجات المواجهة ضد الخصم التكنولوجي المتقدم . هذا القصور يتضح بجلاء اذا علمنا انها اضطرت للاعتماد على خبرات أسراها الأوروبيين في شئون الدفاع . وقد كان هذا مقتلا لها ، لأن هؤلاء الأجانب اعتمدوا أساليب التخريب والتعطيل المتعمد على نطاق واسع في المعامل الحربية والسفن والانشاءات - كما أكدوا ذلك في مذكراتهم فيما بعد .

وهذا مصير أية دولة ناشئة تعتمد على الخبراء الأجانب في هذه الناحية الحيوية من وجودها .

استيعاب روح العصر

إن إخفاق الحركات الدينية في استيعاب روح العصر والتقدم سيظل العامل الأكبر في عجزها عن بناء نظامها ومجتمعها المنشود . لأن الافتقار إلى امتلاك ناصية العقل الحديث والعلم الحديث ومقوماتها الأساسية ، يؤدي الى عدة نتائج قاتلة لأية حركة سياسية تجابه تحديات العصر ، فهذا الافتقار يحول دون رسم برامج العمل الضرورية لسير الحركة ، كما لاحظنا - خاصة بعد أن تتسلم الحكم ، كما يحول دون فهمها للاستراتيجيات الدولية المحيطة بها ، وتكتيكاتها المتشابكة التي هي نتاج العقل الحديث أيضاً ، أضف الى ذلك ما يؤدي إليه الافتقار للحداثة من عجز عن خلق العناصر والمؤسسات العلمية المنتجة التي لا يمكن أن تقوم وتستمر بدونها دولة في العصر الحديث .

وكل هذه المقومات افتقدتها الحركة المهدية لابتعادها عن استيعاب جوهر العقل الحديث وحضارته الحديثة وما يتفرع عنها من فكر سياسي .

وربما أمكننا التعرف الى « نوعية » فكرها السياسي لو قرأنا هذه السطور من منشور عام وجهه المهدي الى الجماهير : « أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لي على المهدية علامة وهي الخال على خدي الايمن ، وكذلك جعل لي علامة أخرى : تخرج راية من نور ، وتكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام ، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله . . . . وليكن في معلومكم اني من نسل رسول الله ، فأبي حسني من جهة أبيه وأمه ، وأمي كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسي . . . والعلم لله ان لي نسبة الى الحسين . . .

أما طريقة انتقال السلطة في الدولة المهدية فقد تقررت على النحو التالي في غياب مبدأ الشورى . . . كانت آخر كلمات المهدي لأتباعه : « ان النبي صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله الصديق خليفة لي وهو مني وأنا منه ، فأطيعوه ما أطعتموني . . . »

والملاحظ أن الحركات الدينية بقدر ما تقدم من تضحيات مدهشة في مجال الجهاد والعمل الشعبي لانجاح الثورة وإسقاط النظام القديم ، بقدر ما تكون عاجزة بعد ذلك عن تقديم منجزات حقيقية ملموسة للجماهير ، وعن إقامة اسس ثابتة مستمرة للنظام الجديد المنتظر ، الذي يطول انتظاره ، ولا يأتي ، حتى تفقد الجماهير أملها في اقترابه ، وتبدأ في انتظار مهدي آخر أو مرشد آخر . . يأتيها بعد قرن آخر ، وهكذا في سلسلة تاريخية متوالية تتصف دائما بروعة الاستشهاد لكنها تفتقر الى قدرة البناء .

ولقد لفتت هذه الظاهرة المتكررة المفكر فردرك إنجلز عندما تحدث عن الثورة المهدية في زمنه ولاحظ كيف أنها قاومت الانجليز بنجاح ثم أخفقت في تثبيت نظامها الجديد ونقض العلاقات الاجتماعية القديمة ، شأنها في ذلك شأن ما سبقها من حركات مشابهة .

ولو أردنا أن نلخص بايجاز على ضوء التجربة المهدية أزمة الحركات الاسلامية في العصر الحديث لقلنا بايجاز : ان هذه الحركات قادرة على هدم ما لا تريد ، لكنها عاجزة عن إقامة ما تريد . فهل ستتمكن يوماً ما من كسر هذه الحلقة المفرغة ؟

ذلك هو السؤال الذي يواجهها . .

وذلك ما تطرحه الحركة المهدية في ذكراها المئوية . .

وأيا كانت مصاعب التجربة وإحباطاتها ، فان ما يبقى لنا من الذكرى حيا موحيا هو قدرة الجماهير المدهشة على مواجهة هيكس باشا والجنرال غوردن وكل القوى التي يمثلانها في تلك الحقبة .

وهي ذكرى نحتاج إلى عبرها في وقت تواجه فيه عناصر شريفة ، قليلة العدد ، من أمتنا ، مناحم بيغن وأريل شارون وكل القوى التي يمثلانها في معركة طويلة لا غنى لها عن الاستفادة من كل عبر التجارب الماضية ودروسها القاسية ووميضها الرائع . ○

باريس د . محمد جابر الانصاري

تجربة فرنسا الاقتصادية بين المصالح والمبادئ

بقلم الدكتور حازم الببلاوي

يبدو أن المزاج السياسي والاقتصادي يمر في دورات متعاقبة ، وأن عقد الثمانينات يمثل عقد المحافظين واليمين . فرونالد ريغان يكتسح كارتر ببرنامج يطالب بالعودة الى نظام الحرية الاقتصادية ومحاربة تدخل الدولة ، وقبله بقليل جاءت مسزتاتشر ممثلة لأكثر أجنحة حزب المحافظين تشددا . ومنذ أسابيع قليلة سقط التحالف الاشتراكي في المانيا الاتحادية مفسحا الطريق أمام الديموقراطيين المسيحيين بعد غياب استمر أكثر من ثلاثة عشر عاما . وهكذا يبدو أن المزاج العام السائد في معظم دول العالم أقرب الى المحافظين واليمين . وقد انعكس ذلك على أهداف السياسات الاقتصادية . فالاستقرار وليس النمو هو الهدف ، كما أن مكافحة التضخم قد غلبت على اعتبارات البطالة . وحل شعار « القانون والنظام » محل شعارات « المجتمع العظيم » و « الآفاق الجديدة » ، وسيطرت نغمة التشاؤم على الآمال المتفائلة والتي سادت في الستينات .

ولعل ذلك يرجع الى تغير الظروف الاقتصادية الدولية . فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الستينات عرف العالم أكثر فترات الازدهار الاقتصادي والتي تمثلت في معدلات مرتفعة في النمو مع استقرار كبير في الأسعار . فالدول الصناعية عرفت ـ وبشكل مطرد ـ معدلات للنمو تراوحت بين ٤ ـ ٥ ٪ سنويا مع ثبات كبير في الأسعار حيث لم يتجاوز معدل التضخم ٣ ـ ٦ ٪ بحسب الدول . كما أن الدول النامية حققت بدورها معدلات تاريخية للنمو تتراوح بين ٦ ـ ٨ ٪ . واستمر ذلك لحوالي عقدين من الزمان .

وانقلبت الآية

ومنذ نهاية الستينات وخاصة مع بداية السبعينات انقلبت الآية . فتراخى معدل النمو الى ١ ـ ٢ ٪ وكان سلبيا في بعض السنوات وارتفعت الاسعار حتى جاوزت ١٥ ـ ٢٠ ٪ في دول عرفت بالاستقرار وبلغ التضخم في دول أمريكا اللاتينية ١٤٠ ـ ٢٠٠ ٪ . وهكذا بدأ العالم الثمانينات وجو الأزمة يغلب عليه ، وتغلبت غريزة « البقاء » على الرغبة في « التقدم » ، وأصبح الهاجس الأكبر هو « المحافظة » على النظام والحيلولة دون الكارثة . وهو جو عام تغلب فيه الدعوات « المحافظة » والرجوع الى [illegible] قبل النظر الى المستقبل . فعادت قوة التيارات المحافظة واليمينية واستردت الاتجاهات الدينية قوتها في عدد غير قليل من الدول النامية .

وفي هذا الجو العام جاءت الانتخابات الفرنسية في بداية الثمانينات استثناء من الاتجاه العام . فبعد أكثر من اثنين وعشرين عاما من حكم الديجوليين وحلفائهم ، جاء ميتران الاشتراكي وأدخل الحزب الشيوعي في الحكم ولأول مرة منذ تجربة ١٩٤٧ . وهكذا بدا أن فرنسا الآن تسير في اتجاه معاكس للاتجاه الغالب .



● « شيفنموه » .. وزير الصناعه الجديد في فرنسا

ومع ذلك فيبدو أن الاتجاه العام أقوى من برامج الاحزاب . فسياسة فرنسا الخارجية تكاد تصنفها مع الاتجاهات الأكثر محافظة . حقا ان فرنسا تساعد حركات التحرر في السلفادور ، ولكنها في القضايا الأكثر جدية تقف أقرب الى السياسة الامريكية . فالحكومة الفرنسية الاشتراكية أكثر حماسا لحلف الأطلنطي من الحكومات السابقة ، وأشد معارضة للاتحاد السوفيتي في بولندة وأفغانستان . وهي أكثر ميلا لاتفاقات كامب ديفيد وأكثر تنسيقا مع الحكومة الأمريكية في سياستها في الشرق الأوسط ولبنان .

واذا انتقلنا الى السياسة الاقتصادية الداخلية فان تحولا هاما يبدو أنه يتم الآن . ففي خلال العام الأول من حكم الاشتراكيين وعندما كانت الوعود الانتخابية ما زالت ماثلة في الأذهان ، فان السياسة الاقتصادية قد أخذت ببعض الاتجاهات التوسعية مثل زيادة الاجازات المدفوعة وبعض مزايا التأمينات الاجتماعية . كذلك لجأت الحكومة الى بعض التأميمات ، ولكنها حرصت على أن تكون في حدود الحد الأدنى الوارد في البرنامج المشترك للانتخابات ، مع التأكيد دائما على أنه لاتأميمات أخرى . كذلك فرضت الضرائب على الثروة ولكن في حدود أقل مما كان متوقعا . وكانت حصيلة العام الأول غير مشجعة على الاطلاق . خفض الفرنك الفرنسي مرتين وانخفض سعره من حوالي ٤,٩ من الفرنك للدولار الى حوالي ٧,٢ الآن . كذلك ارتفعت البطالة وازداد العجز في ميزان المدفوعات وتدهورت الاحتياطات .

امتثال على الطريق

والآن وفي مواجهة هذه الأوضاع ، اذا بالحكومة

الفرنسية تجري تغييرا شاملا في سياستها الاقتصادية يكاد يضعها في نفس الاتجاه تقريبا لسياسة ريموند بار الاقتصادي اليميني . فسياسة التقشف وتوازن الميزانية وقد كانت هدفا مستمرا للنقد ، أصبحت اليوم أساس السياسة الاقتصادية لوزير الاقتصاد القوي « ديلور » . وبعد أن كان هذا الوزير يمثل الاقلية الأكثر محافظة في الوزارة أصبح ديلور ومعه رئيس الوزراء موروا المعتدل يمثل الاتجاه الأكثر غلبة . بل ان وزير الصناعة الجديد « شيفنمو » وبعد أن كان أحد أعمدة الراديكاليين قد تحول الى استخدام لغة اقتصادية أقرب الى تعبيرات الاقتصاديين المحافظين ، بل انه يعلن صراحة أنه في عالم رأسمالي لابد من ممارسة اللعبة الرأسمالية . وبعد أن كان يمثل أحد العناصر الأكثر مذهبية إذا به في وزارة الصناعة والبحث العلمي الأقرب الى نفوس رجال الأعمال . وفي نفس الوقت عمدت الحكومة الاشتراكية بالرغم من معارضة شركائها الشيوعيين الى تخفيف أعباء التأمينات الاجتماعية على رجال الأعمال . وبدلا من نبذ السوق الدولية للاقتراض ، لجأت فرنسا الى سوق اليوروماركت للحصول على واحد من أكبر القروض (٤ بلايين دولار) لتدعيم سعر الفرنك . والخلاصة أنه بعد عام من الممارسة والتجربة والخطأ ، أصبحت السياسة الاقتصادية في فرنسا لاتكاد تختلف عن تلك المتبعة في انجلترا مع تاتشر « الحديدية » ، أو في الولايات المتحدة مع فولكر على قمة الجهاز المصرفي . وأصبح حرص فرنسا على استقرار الفرنك وضمان بقائها ضمن نظام النقد الأوربي أهم أهداف السياسة الاقتصادية ، وتوارت أهداف المساواة والمشاركة في الادارة والسيطرة على أدوات الانتاج الى درجة متأخرة ان لم تكن قد ضاعت فعلا في طي النسيان . وهذه كلها أمور جديدة على الأحزاب الاشتراكية فرضتها الظروف الدولية ، والمرونة السياسية لحكومة ميتران .

ولعل الفارق الأساسي الذي يميز الاشتراكيين الاوربيين الآن كما تعبر عنهم التجربة الفرنسية يرجع الى مدى استجابة نقابات العمال لهم أكثر مما يكمن في اتجاهات السياسة . فأهداف السياسة الاقتصادية الفرنسية لاتكاد تختلف عن تلك المطبقة من حكومات أخرى محافظة ، ولكن الاشتراكيين يتمتعون بميزة اضافية وهي انصياع نقابات العمال لهم بدرجة أكبر . فبالرغم من الاجراءات التقشفية التي بدأت تميل اليها الحكومة الفرنسية ، وبالرغم من استمرار معدلات البطالة فان فرنسا لم تواجه الاضرابات الشديدة التي كانت تميز الفترات السابقة . واستخدام الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي نفوذهما لدى نقابات العمال لفرض تجميد الاجور والأسعار ماكان يمكن أن يتم بنفس السهولة بغير توفر نوع من الولاء الحزبي .

الكل في مربع واحد

وهكذا يبدو أن التغيير السياسي في فرنسا لا يكاد يختلف عن الاتجاه العام السائد في معظم الدول الصناعية ، كما يتأكد من جديد أن حقائق الحياة الاقتصادية تفرض نفسها بقوة تتراخى معها الاعتبارات المذهبية .

وعلاقة الحزب الشيوعي بالحكم أمر يستوقف النظر ، فقد أدى تراجع شعبية الحزب من حوالي ٢٣ ٪ من الناخبين الى أقل من ١٧ ٪ في الانتخابات الأخيرة الى ضعف الحزب على الخريطة السياسية الفرنسية ، مقابل ما حققه الحزب الاشتراكي من تقدم مذهل مكنه من الحصول على الأغلبية المطلقة لتشكيل حكومة اشتراكية دون حاجة الى أصوات الشيوعيين . ولكن ميتران اختار بدلا من ذلك استراتيجية أخرى وهي اشراك الحزب الشيوعي معه في الحكومة ، وهو أمر أثار في ذلك الوقت فزعا لدى الادارة الأمريكية . ولكن سياسة ميتران أوضحت على العكس أنه على المدى الطويل قد قلم أظافر الحزب الشيوعي في الحياة السياسية الفرنسية محولا اياه الى مجرد تابع للحكومة الاشتراكية ، فهو باشراكه في الحكم قد فقد الكثير من قدرته على المعارضة السياسية الفعالة . ولكنه من ناحية أخرى يشترك في الحكومة باختيار من الحزب الاشتراكي وليس ضرورة للحصول على أصواته ، ومن ثم فان تأثيره الفعلي على اتجاه الاحداث لايزال محدودا . وعلى العكس فان هذا الحزب بتأثيره الواضح على نقابات CGT بوجه خاص قد حيد مقاومة الطبقة العاملة لعدد من الاجراءات التقشفية للحكومة . وهكذا يبدو أن مشاركة الحزب الشيوعي في الحكم الفرنسي قد ساعدت على قبول واستيعاب سياسة الحكومة التقشفية دون أن يكون للحزب تأثير كبير في رسم هذه السياسة .

وبذلك يتأكد من جديد أن الانسجام على رقعة السياسة الدولية للدول الصناعية المتقدمة أكبر مما يبدو للوهلة الأولى ، وأن وجود حكومة اشتراكية في فرنسا ليس أكيدا مع الادارة الجمهورية الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية أو حكومة المحافظين في انجلترا ومع الحكم الجديد في المانيا الغربية . ولعلها الطريقة الفرنسية في تنفيذ الأشياء . ○

د . حازم البيلاوي

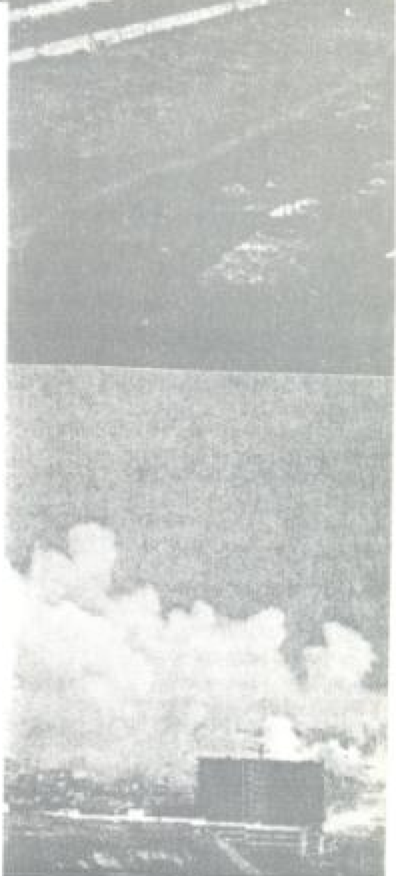
بيروت



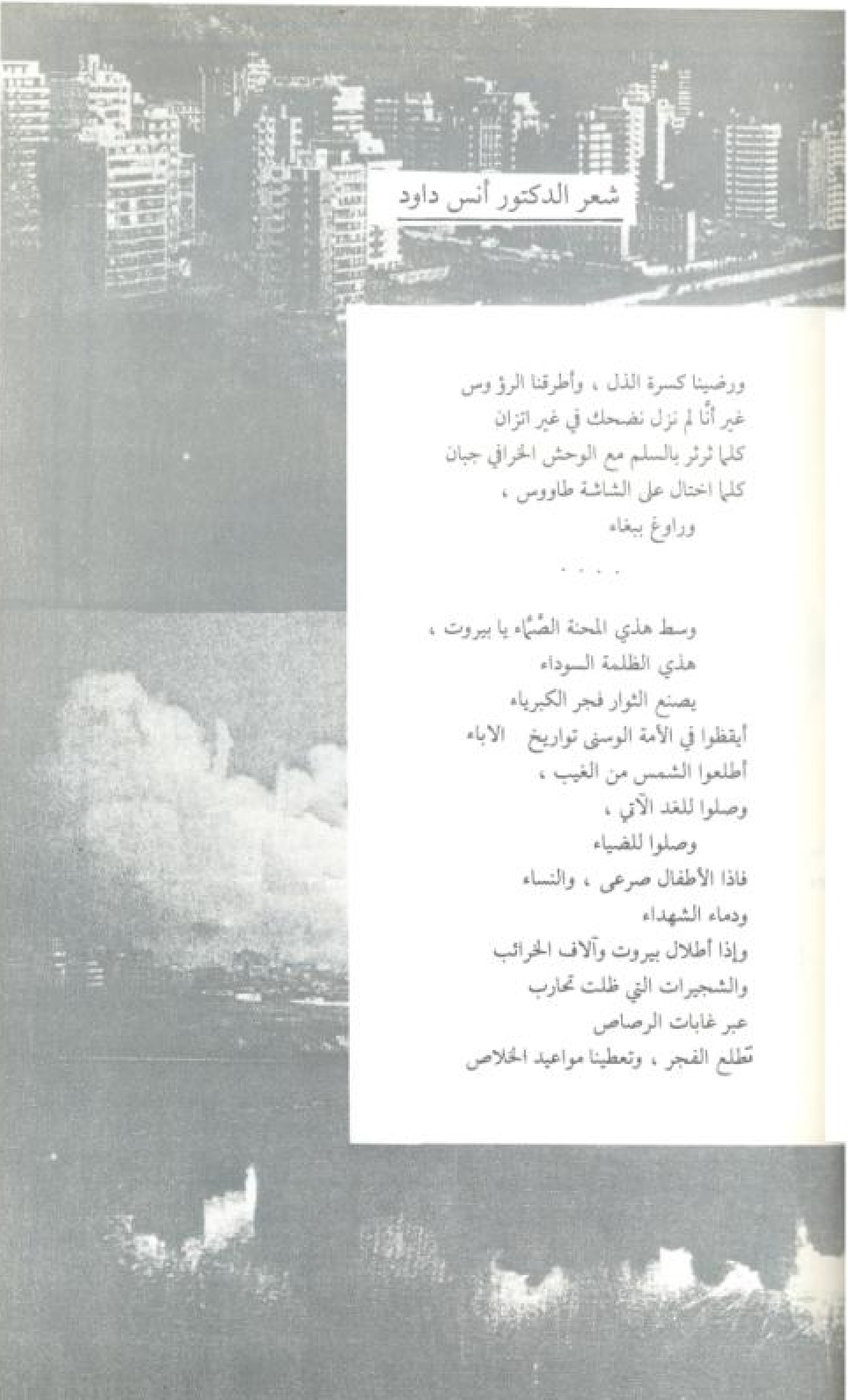
كل هذا الألق الرائع يا بيروت
كان مخبوءا بأضلاعك ،
في قلب البيوت
كل هذا اللهب المضرم شوقا للفداء
كان مخبوءا إلى يوم اللقاء
وملايين ملايين الرصاصات ،
وأمطار القنابل
لم تجد إلا جدارا من صمود
وفلسطينا تقاتل
وجموعا لا تموت

. . . .

ما الذي نحكيه لليل الصموت
بعد أن جردنا الأعداء من كل انتماء
وأحالونا تماثيل من الشمع ،
وأنصابا من الرمل ،
وأشباحا على أرض الأساطير
وشعبا يرتجي الغوث من الجلاد
والجلاد يسقيه بحيرات دماء
وزعوا الموت بطاقات ، وأعطونا مواعيد الفناء







شعر الدكتور أنس داود

ورضينا كسرة الذل ، وأطرقنا الرؤوس
غير أنّا لم نزل نضحك في غير اتزان
كلما ثرثر بالسلم مع الوحش الخرافي جبان
كلما اختال على الشاشة طاووس ،
وراوغ ببغاء

. . . .

وسط هذي المحنة الصّمّاء يا بيروت ،
هذي الظلمة السوداء
يصنع الثوار فجر الكبرياء
أيقظوا في الأمة الوسنى تواريخ الاباء
أطلعوا الشمس من الغيب ،
وصلوا للغد الآتي ،
وصلوا للضياء
فاذا الأطفال صرعى ، والنساء
ودماء الشهداء
وإذا أطلال بيروت وآلاف الخرائب
والشجيرات التي ظلت تحارب
عبر غابات الرصاص
تطلع الفجر ، وتعطينا مواعيد الخلاص





القارات ... الزاحفة .. كيف كانت وكيف أصبحت : ١ ـ قبل ٢٠٠ مليون سنة . ٢ ـ قبل ١٣٥

نظرية زحزحة القارات

بقلم الدكتور : محمد على الفرا

كيف كان شكل الارض منذ ملايين القرون ؟ في هذا المقال يتعرض الكاتب لابحاث علمية تستند الى ادلة ملموسة تؤكد أن انقلابا هائلا قد حدث منذ قرون بعيدة تحولت الارض معه من كتلة يابسة واحدة الى ما هي عليه اليوم .





مليون سنه . ٣ ـ القارات كما هي في الوقت الحاضر . ٤ ـ القارات كما ستصبح بعد ٥٠ مليون سنة .

تبعث من جديد

كانت نشأة الكرة الارضية ، وتباين أشكال سطحها ، وتوزيع اليابس والماء من القضايا الهامة التي شغلت وما زالت تشغل أفكار الكثيرين من العلماء والباحثين . فالبحار والمحيطات تغطي اليوم معظم سطح هذا الكوكب بحيث تصل نسبتها الى نحو ٧٢٪ من جملة السطح بينما تبلغ مساحة اليابس ٢٨٪ فقط ، ونظرا لغلبة الماء على اليابس فقد اطلق البعض على الارض الكوكب المائي .

وهناك بعض النظريات التي حاولت أن تعطي تفسيرا لكيفية نشوء المحيطات والقارات . . نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الفرضية التراهيدية أو الهرمية لصاحبها « لوثيان جرين » البريطاني في عام ١٨٧٥ . ومفادها بأنه نظرا لاستمرار فقدان الأرض لحرارتها ، وتعرضها للبرودة ، فان سطحها أخذ في الانكماش التدريجي متخذا في النهاية شكل الهرم الثلاثي ، قاعدته في الشمال ،

ورأسه في الجنوب وتحتل القارات حافات هذا الهرم في حين تغطي البحار والمحيطات جوانبه المسطحة .

أما لابورث فيرى بأن الارض حينما بردت انكمشت مثل انكماش التفاحة بعد ان تفقد عصارتها ، ثم تجمدت دون أن تتخذ أي شكل من الاشكال الهندسية . وقد شغلت المياه المناطق المنخفضة ، في حين شكلت المرتفعات الارض اليابسة .

ويعتقد العالم الفرنسي « سولاس » أن الارض كانت في أول نشأتها لينة سريعة الاستجابة لعامل الضغط الجوي الذي يختلف تأثيره على مناطقها . فالجهات التي تأثرت بالضغط الجوي المرتفع هبطت وانخفضت مكونه قيعان البحار والمحيطات أما المناطق التي تعرضت للضغط الجوي المنخفض فظلت مرتفعة نسبيا وكونت القارات .

توزيع اليابس والماء

لو نظرنا اليوم الى خريطة العالم لأخذنا فكرة عامة وسريعة عن شكل توزيع اليابس والماء . ففي نصف الكرة الشمالي يتركز معظم اليابس ، وتتقارب القارات من بعضها البعض حتى يكاد يخيل الينا بأنها تشكل كتلة واحدة لا تفصلها عن بعضها سوى بحار ضيقة وخلجان متعرجة . ويشكل اليابس نحو ٦٠٫٨٪ من مساحة نصف الكرة الشمالي في مقابل ٣٩٫٢٪ للماء . أما في نصف الكرة الجنوبي فالصورة مقلوبة حيث تصل نسبة الماء الى ٨٠٫٨٪ بينما لا تزيد نسبة اليابس فيه عن ١٩٫٢٪ فقط .

إن هذا التوزيع الحالي للماء واليابس يختلف تمام الاختلاف عن التوزيع الذي كان سائدا في العصور البعيدة . فقد تعرض كل من اليابس والماء الى تغيرات كثيرة في مختلف الأزمنة والعصور الجيولوجية نتيجة عوامل كثيرة ومتباينة .

ويستدل العلماء والباحثون على ما تعرض له توزيع اليابس والماء خلال العصور الجيولوجية بكثير من الأدلة والشواهد كالرواسب البحرية ، والمخلفات القارية ، وبقايا النباتات والحيوانات وما تركته من حفريات . فقد عثر الباحثون على رواسب بحرية في مناطق لا تغمرها مياه البحار والمحيطات في عصرنا الحاضر . فالخليج العربي - على سبيل المثال - كان يشمل مساحة اكبر بكثير من التي يشغلها الآن . فقد كان على شكل منخفض حوضي طولي تغطي مياهه مناطق كبيرة هي اليوم أراض واسعة تشكل معظم الاقطار العربية الواقعة على هذا الخليج ، علاوة على أجزاء لا يستهان بها من الأراضي الايرانية الواقعة على الشاطىء الشرقي من الخليج . كما وأن البحر المتوسط كان بحرا عظيما يمتد حتى يغطي مناطق واسعة في اوروبا وافريقية وآسيا حتى الهند ، بحيث غطت مياهه المنطقة التي تحتلها اليوم سلاسل جبال هيمالايا وقد اطلق عليه اسم بحر « تثيس » Tethys آنذاك . ومن الرواسب التي تراكمت خلال ملايين السنين وتعرضت للضغوط المختلفة برزت هذه الجبال الالتوائية التي تشمل فيما تشمل جبال الألب في اوروبا ، واطلس في افريقية وهيمالايا في آسيا .

الاقوام البشرية الاولى

ومن الامور الأخرى التي نستدل بها على تغير توزيع اليابس والماء عبر الأزمنة الجيولوجية الحفريات أو الاحافير ومفردها حفرية أو أحفورة . وهي عبارة عن هياكل وبقايا متحجرة للكائنات النباتية والحيوانية التي كانت تعيش في ذلك الزمن . وكان بعضها يعيش في البحار . وتوجد هذه الحفريات والمخلفات النباتية والحيوانية البحرية اليوم بعيدا عن البحار ومختلطة مع صخور اليابس . وهذا يدل على اغراق مياه البحار هذا الجزء من الأرض الذي يبدو لنا اليوم على شكل يابس .

وفي المقابل نجد اليوم مناطق تغمرها مياه البحار كانت في الماضي أرضا يابسة . ولعل شط الدوجر في بحر الشمال بين الجزر البريطانية والقارة الاوربية أكبر مثل على ذلك . فقد عثر في قاعه على بقايا ومخلفات حيوانات ونباتات كانت تعيش على الارض اليابسة ، مما يثبت أن هذه المنطقة البحرية كانت في زمن من الازمان أرضا يابسة .

ومن الأدلة على اختلاف توزيع اليابس والماء وجود العديد من المعابر والمضايق والأرخبيلات التي تصل بين بحار العالم ومحيطاته . وهذه المعابر مكنت الانسان من الانتقال والانتشار في انحاء العالم في اول مراحل توزيعه على سطح هذا الكوكب . ومن هذه المعابر نخص بالذكر - على سبيل المثال - باب المندب الذي عبرته الاقوام البشرية الأولى التي انتقلت من شبه جزيرة العرب الى افريقية . وقد تشكل فيما بعد على أثر تباعد أراضيه واختفاء بعض جزره تحت مياه البحر الى مضيق عدن الحالي . وكذلك معبر مضيق جبل طارق ومعبر تونس - صقلية - ايطالية ،

حيث كان يمكن للانسان الانتقال من افريقية الى اوروبا وبالعكس بواسطة العديد من الجزر واشباهها والممتدة على طول هذين المعبرين قبل ان تهبط وتختفي ، ويصبح الانتقال البرمائي غير ممكن . وبناء عليه فان شكل السواحل الافريقية والاوروبية المطلة على البحر المتوسط دخل في مراحل متعددة من عدم الاستقرار قبل ان تتخذ الشكل الحالي . كما وأن الفصل التام بين افريقيا واوروبا لم يظهر الا مؤخرا . . . ففي أول ظهور الانسان وبداية تكاثره وانتشاره على سطح الارض كان الاتصال واضحا بين القارتين .

عملية زحزحة القارات

اختلف العلماء في حجم التغييرات التي طرأت على توزيع اليابس والماء ، فمنهم من رأى بأن هذه التغيرات لم تكن جوهرية . أي ان الشكل العام لهذا التوزيع ظل ـ الى حد ما ـ ثابتا . وكل ما في الأمر أن تغيرات طرأت على حواف كل من اليابس والماء ، وان هناك مناطق من اليابس ظلت ثابتة لم يطرأ عليها أي تغير ، ولم يغمرها البحر بمياهه مثل الهضاب القديمة التي هي بمثابة الدروع ، مثل هضبة شبه الجزيرة العربية وهضبة الدكن بالهند . وفي المقابل فإن قيعان المحيطات لم تتعرض هي الأخرى لأي تغير فقد ظلت على الدوام منخفضات تغمرها المياه .

وهناك رأي آخر يرى بأن تغيرات جوهرية طرأت على توزيع اليابس والماء . وهذا التوزيع كان مختلفا تمام الاختلاف عما هو عليه اليوم . كما وأن شكل هذا التوزيع لا يتفق بأي حال من الاحوال مع الشكل الذي كان سائدا في الماضي . ويعتبر الباحث الألماني « الفرد فيجنر » **Alfred Wegener** من أكبر انصار هذا الرأي . فقال في عام ١٩٢٢ بأن نوعا من الزحزحة حدثت في الارض اليابسة نتيجة ضغوط وعوامل عديدة مما أدت الى حدوث التوزيع الحالي لليابس والماء . وقد أطلق على هذا الرأي نظرية « زحزحة القارات » أو « انحراف القارات **Drfling of the Continenls** » وبموجب نظرية زحزحة القارات يرى « فجنر » بأن اليابس كان يشكل كتلة واحدة في الزمن الجيولوجي الأول أي قبل نحو ٢٠٠ مليون سنة . وقد اطلق فجنر على كتلة اليابس الهائلة هذا اسم « بانجي **Pangae** » وتحتوي هذه الكتلة على قارتين هما : قارة جندوانا في الجنوب ، وقارة لوراسيا **Lautasia** في الشمال . وتتخلل كتلة اليابس هذه بحار داخلية لعل اهمها بحر « تيثس **Tethys** » بامتداده الكبير من الشرق إلى الغرب .

ويقع القسم الأكبر من هذا اليابس المظيم أو كتلة بانجي جنوب الاستواء بحيث يمتد حتى يصل إلى القطب الجنوبي . وفي منتصف الزمن الجيولوجي الثاني أى قبل حوالى ١٣٥ مليون سنة بدأت كل من قارتي جندوانا ولوراسيا بالتمزق بعد أن تعرضتا الى الانكسارات المتتالية . وأخذ كثير من أجزائها بالزحف بعيدا عن الكتلتين الأصليتين على امتداد تلك الانكسارات .

واتخذت حركات الزحزحة هذه ثلاثة محاور رئيسية ، أحدها نحو الشمال والثاني في اتجاه الشرق ، بينما الثالث والأخير فقد كان صوب الغرب . فالزحزحة المتجهة شمالا نتج عنها انتقال معظم اليابس تدريجيا ، وابتعاده عن القطب الجنوبي باستثناء اليابس الذي كون القارة القطبية الجنوبية انتاركتيكا **Antarctica** والتي كانت جزءا من قارة جندوانا ولكنها حافظت على وضعها وظلت في مكانها .

أما الزحزحة نحو الشرق فقد نتج عنها انفصال اليابس مكونا معظم القارة الاسترالية وهضبة الدكن الهندية ، وشبه الجزيرة العربية وجميعها كان كتلة واحدة وجزءا من قارة جندوانا .

اما الزحزحة نحو الغرب فقد نجم عنها انفصال اليابس الذي تشكل منه قارة امريكا الجنوبية وقد نتج عن هذه الزحزحة ايضا انفصال كتلتين من قارة (لوراسيا) وكونتا جزيرة جريتلند ، وقارة امريكا الشمالية .

وكما ظل الجزء الاكبر من قارة جندوانا على حاله وحيث هو مكونا قارة افريقية فان القسم الاعظم من قارة لوراسيا ظل على ما هو عليه مكونا كلا من قارة اوروبا وقارة اسيا وبناء عليه يمكن اعتبار قارات العالم القديم النواة الاساسية لكتلة « بانجي » والمكونات الاساسية لقارتي جندوانا ولوراسيا » .

الادلة على حدوث الزحزحة

بدأ « فجنر » منذ عام ١٩١٠ في البحث عن الدلائل والبراهين التي يدعم بها نظرية زحزحة القارات . وقد وجدها في نهاية الامر في صورة تبدو لنا غريبة في التوزيع الحالي والعالمي للحيوانات الجرابية **Marsupials** والتي

تحمل صغارها في كيس بجسمها كالكنغر والابوسوم **Opossum** . وقال فجنر بان هذه الحيوانات الغريبة اصبح وجودها قاصرا بشكل كبير على قارتي استراليا وامريكا الجنوبية اللتين تبعدان عن بعضهما الاف الاميال وتفصلهما مياه المحيط الشاسعة . وعلى الرغم من عامل المسافة هذا الا ان طفيليات الحيوانات الجرابية في كل من استراليا وامريكا الجنوبية واحدة واستنتج « فجنر » بأن هذه الظاهرة تعود الى الماضي حينما كانت استراليا لا تزال متصلة بامريكا الجنوبية عبر قارة القطب الجنوبي « انتاراكتيكا » .

وتعتبر قارة القطب الجنوبي بمثابة منطقة الوصل بين امريكا واستراليا وذلك قبل ٦٥ مليون سنة . ومنذ ذلك الحين بدأت قارة جندوانا بالتكسر مكونة افريقية وامريكا الجنوبية والهند واستراليا وقارة القطب الجنوبي . وقد اثبت تلك الكشوفات التي تمثلت في عظام الحيوانات الجرابية المتحجرة والتي وجدت في المعابر الارضية التي كانت تصل بين هذه الكتل عشية انفصالها التام .

ويبدو ان وضع جدول زمني بتاريخ عملية الانفصال القاري والزحزحة يسمح بحل بعض الامور الغامضة التي تتعلق بهجرة الحيوانات وتطورها . فعلى سبيل المثال يعتقد الدكتور كراكرافت **Joel Cracraft** بجامعة الينوي بالولايات المتحدة الامريكية بأن نظرية الزحزحة هي بمثابة مفتاح الحل الذي يفسر مسألة تطور الطيور . ويرى ان الطيور المسالمة التي تنتشر انتشارا واسعا عبر مناطق مترامية الامتداد تشترك في انتمائها الى اسلاف مشتركة وانها هاجرت الى مواطنها الحالية قبيل حدوث الانفصال التام لقارة جندوانا . ومن هذه الطيور نذكر على سبيل المثال النعام الافريقي والشبنم الاسترالي **Australian Cassowary** والريه الامريكية **Rhea** والكيوي النيوزيلندي وكلها تشبه النعام .

ومن البراهين الاخرى التي استند عليها « فجنر » في اثبات نظرية زحزحة القارات شكل واتجاهات وتعاريج السواحل المتقابلة على جانبي المحيط الاطلسي وعلى جانبي المحيط الهندي والتي تدل على تداخل هذه السواحل بنتوءاتها وفجواتها وعلى انها كانت رتقا قبل ان تتزحزح ولو كانت لتتقابل من جديد لتداخلت تلك السواحل وامتلأت فجواتها بنتوءاتها على نحو من الانسجام والاكتمال . ويبدو هذا واضحا بصفة خاصة بالنسبة لسواحل شمال شرق امريكا الجنوبية والسواحل المقابلة لها على خليج غانة في غرب افريقية .

بين اوروبا وامريكا

ولعل من احدث المكتشفات واشدها اثارة والتي تعطي تفسيرا منطقيا لتغير جغرافية سطح الارض تتمثل في حفائر الحيوانات التي كانت تستوطن جزيرة « السمير » **Elles-mere** في اقصى شمال قارة امريكا الشمالية منذ خمسين مليون سنة وتشمل هذه الحفريات الليمور الطائر **Lemur** وهو حيوان من فصيلة القردة يتميز بطول ذنبه وكذلك الزواحف التي تشبه التمساح الاسترالي والحيوانات الثدية القريبة من وحيد القرن علاوة على انواع اخرى تعيش في المناخ الدافيء وتشبه الحيوانات التي كانت موجودة في اوروبا الغربية في تلك الفترة نفسها . ويقول الدكتور « مالكولم ماك كينا » احد كبار المسؤولين بالمتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك ان هناك نحو ٣٤ نوعا من مجموع ٦٠ نوعا من انواع الثدييات الموجودة انذاك في اوروبا كانت تعيش ايضا في امريكا الشمالية واثنان فقط منها في اسيا .

وعلى الرغم من ابتعاد قارتي اوروبا وامريكا الشمالية عن بعضهما وظهور المحيط الاطلسي الشمالي الا ان الدكتور (ماك كينا) يعتقد ببقاء معبرين بريين سمحا للحيوانات بالتحرك فوقها والانتقال بين اوروبا وامريكا الشمالية . . وهذا هو التفسير المنطقي لظاهرة المكتشفات المتمثلة في حفريات تلك الحيوانات في اقصى شمال امريكا الشمالية وتشابهها مع حيوانات اوروبا الغربية اثناء فترة المناخ الدافيء . ويرى هذا العالم وغيره من العلماء بأن احد هذه المعابر الارضية كان يصل الاراضي الكندية القطبية بجنوب جرينلند وايسلند وجزر فارو واسكتلندا اما المعبر الثاني فيربط شمال جرينلند بشمال النرويج مرورا بأرخبيل سبتسبرغن .

ان ارض جزيرة (السمير) لم تغير موضعها ومكانها كما هي عليه منذ خمسين مليون سنة فهي مازالت قريبة ومجاورة للقطب الشمالي . ولكن وجود كائنات المناخ الدافيء في هذه الجزيرة يدل على ان عالم ما قبل التاريخ كان ادفأ من عالم اليوم .

وعلى خلاف جزيرة السمير « فان قارة القطب الجنوبي التي كانت تربط استراليا بأمريكا الجنوبية منذ نحو ٨٠ مليون سنة كانت تقع في عروض مناخية اكثر دفئا مما سهل مرور حيوانات المناطق المعتدلة وقد اهتمت المؤسسة العلمية القومية الامريكية بتمويل عملية البحث عن حفريات تبرهن على وجود تلك المعابر والروابط التي ركزت بحوثها على جزيرة « سمور **Seymour** قرب

قارة القطب الجنوبي والمشهورة بحفريات طائر البطريق الضخم .

قبل ٤٠ مليون سنة

وفي شهر فبراير من عام ١٩٨٢ قاد الدكتور « وليم زنسمستر » William J. Zinsmeister من معهد الدراسات القطبية بجامعة ولاية اوهايو الامريكية فريقا الى تلك المناطق القطبية الجنوبية ومكث بها اربعة اسابيع . ولم يعثر هذا الفريق على شيء حتى نهاية اقامته هناك . وفي اثناء عودته اكتشف الفريق موقعا غنيا بمخلفات طائر البنجوين .

وقد عثر « مايكل ووديبرن » Michael Wood-burne بجامعة كاليفورنيا على عظم فك لحيوان من فصيلة الكنغر (اي حيوان جرابي) كما عثر ايضا على اربع قطع من حيوانين يشبهان الحيوانات التي كانت تعيش في تلك الفترة ، اي قبل اربعين مليون سنة وذلك في الطرف الجنوبي لقارة امريكا الجنوبية .

وربما يبدو لنا غريبا ان الحيوانات الجرابية وليس حيوانات المشيمة هي التي عبرت وانتقلت من امريكا الجنوبية الى استراليا ويفسر العلماء ذلك بان اناث حيوانات المشيمة تعرضت لتطور عضو وعائي في رحمها وان المشيمة اصبحت تغذي الجنين ابتداء من شهره الثالث وحتى مرحلة متقدمة من تطوره في رحم امه اما صغار الحيوانات الجرابية فتولد مبكرة عن حيوانات المشيمة وتكمل نموها في جراب امها . ولكن كيف استطاعت هذه الحيوانات الجرابية التكيف مع مناخ البلاد لقارة القطب الجنوبي ؟ والجواب على ذلك هو ان اقليم القارة القطبية الجنوبية القريب من امريكا الجنوبية كان خاليا من الجليد وربما كان هو نفسه عبارة عن ارخبيل .

ونظرا الى ان اقدم الحفريات المعروفة للحيوانات الجرابية التي تشبه الابوسوم وجدت في امريكا الشمالية فقد افترض الباحثون ان تلك الثدييات ظهرت لاول مرة في تلك القارة منذ ٧٠ مليون سنة . الا ان « زنسميستر » يقول بان اربع عائلات من الحيوانات الجرابية ظهرت في امريكا الجنوبية مما يدل على انها نشأت وتطورت هناك قبل ابناء عمومتها في امريكا الشمالية . وبناء عليه فان الحيوانات الجرابية ظهرت اول الامر في امريكا الجنوبية وقارة القطب الجنوبي واستراليا واثناء انفصال الامريكتين عن بعضهما فان امريكا الجنوبية تمكنت من تطوير حيوانات جرابية لتملأ ما فيها من بيئات ايكولوجية .

والبحوث ما زالت مستمرة ومتصلة باثبات نظرية زحف القارات وتأكيدها ومحاولة رسم صورة جغرافية لما كانت عليه الارض منذ ملايين القرون ! ○

د . محمد علي الفرا

■ الحب أكثر من العاطفة ، والمرأة أكثر من الجنس .

(لورانس)

■ لا توقظوا المرأة التي تحب ، دعوها في احلامها حتى لا تبكي عندما تعود الى الواقع المر . .

(مارك توين)

■ الحب قناع تنزعه المرأة نفسها عن الرجل ، وهذا هو السر في عذاب العاشقين .

(ستندال)

■ قلب المرأة العاشقة محراب مذهب . . غالبا ما يحتضن صنما من طين . .

(ليميرك)

في عدد الشهر الماضى من العربي قدم الشاعر أحمد حجازى عددا من الشعراء المصريين الذين كتبوا بالفرنسية ، وفي هذا العدد يقدم نماذج من أشعارهم من ترجمته من الاصل الفرنسى .

مصر وشعرها الفرنسي

بقلم : احمد عبد المعطى حجازى

العلماء

للأمير حيدر فاضل

قرءوا تقريبا كل الكتب ، قرءوا دون انقطاع ،
حلوا لفائف الرموز ، وأحصوا نيران السماء .
عرفوا في النهاية ما يتألف منه العسل
وما يتشكل منه العصب المثلث في جمجمة سكران .

كتبوا دون توقف ليمتلكوا الخلود ،
واعتقدوا أنهم عرفوا الزائف والصحيح ،
تناقشوا حول الطاقة والحاشدة ،
وبحثوا إن كان في قدرة الانسان أن يحيا إلى الأبد ،

وفي الوقت الذى التهمت فيه الحرب عشرين مليونا !
كانوا هم يدرسون أجنحة الصراصير ،
ويحرثون أعماق المحيطات المترامية ،
يبعثروا أمعاء الخنزير والكلب
ليعثروا على أسرار الموت والميلاد
ولم يعرفوا في النهاية أنهم لم يعرفوا شيئا ! . . .

ديوان « باقة من الشرق »

الشاعر الذى كتب هذه الكلمات هو الامير حيدر فاضل بن الأمير أحمد رشدى ابن أخت الخديو إسماعيل . ولد عام ١٨٧٨ وحصل على البكالوريا من المدرسة الفرنسية التركية في استانبول ، ثم التحق بكلية الحقوق في باريس عام ١٨٩٧ لكنه مالبث أن تفرغ تماما للأدب . توطدت صداقته مع عدد من الكتاب ورجال القانون الفرنسيين مثل جوليت آدم ، وبيير لوتى ، وشارل ريشيه ، وجورج دوهاميل ، وكان يكتب رسائله اليهم أبياتا منظومة .

ترجم إلى الفرنسية نظما عدة سور من القرآن الكريم . كما ترجم إليها عدة خرفات مما كتبه ناصر الدين خوجة بالتركية على طريقة ابن المقفع ولافونتين ، وتوفي عام ١٩٢٩ مخلفا مجموعتين شعريتين ، الأولى هي « الورود المضرجة » وقد صدرت في القاهرة عام ١٩١٩ ، والأخرى « باقة من الشرق » الصادرة في القاهرة أيضا عام ١٩٢١ إلى جانب مؤلفات أخرى في الرحلات والتاريخ .

ينتسب شعره إلى المدرسة البارناسية التي نشأت في فرنسا في النصف الأخير من القرن الماضي ردا على الرومانتيكية ، وكانت تنزع بوحي من افتنان زعمائها بالفن الاغريقي والثقافة الهلينية عامة إلى خلق لغة شعرية تتميز بالرصانة والنبل والتنزه عن كل من الغاية العاطفية الذاتية أو الغاية الأخلاقية الاجتماعية ، وترى أن غاية الفن هي الجمال ، أو أن غايته هي اللاغاية . لكن الشاعر الأمير الذي حافظ بدقة على هذه الأصول المذهبية الفنية حاول أن يطوعها للتعبير عن روح شرقية إسلامية وذوق مترفع محتشم .

الكروان

لمحمد ذو الفقار

طائر ضبابي
لانتبينه أبدا
رغم القمر الساطع .
أبيض أم أسود ؟
لاندري . . .
شلال من هتاف
يمزق الليل
والصمت .
ضحك أم بكاء ؟

لاندري . . .
الكروان يضرب بالجناح
ويمضي نحو هذه
التي لم يعد لها وجود
هناك حيث الاسمار المشتعلة
وظلمات الغسق المحترقة
هناك حيث تذهب الأرواح
أرواح الذين نحبهم . . .

ولد محمد ذوالفقار في الزقازيق عام ١٨٩٣ ودرس في مدرسة الزراعة العليا . اختاره السلطان حسين كامل رئيسا للتشريفات ، وظل في هذه الوظيفة في عهد الملك فؤاد ثم تركها بعد وفاته ليصبح عضوا منتخبا في البرلمان . توفي عام ١٩٤٦ وترك مجموعة شعرية صدرت في القاهرة عام١٩٣٧ بعنوان « أوراق » .

يقول جورج دوماني عن شعره إنه « فطرة ودماثة » في آن واحد . حميمية واحترام للذوق ويظهر أن ثقافته العربية كانت تؤهله لمتابعة الشعر العربي المعاصر كما يبدو . وفي هذه القصيدة التي تدور حول موضوع سبق إليه العقاد وكتب فيه عدة قصائد ضمنها ديوانه « هدية الكروان » الذي صدر عام ١٩٣٣ بل إن التأثر يتعدى الموضوع إلى بعض معاني العقاد وصوره التي ترددت أصداؤها في قصيدة ذي الفقار الفرنسية ، كما نرى فيما هو مشترك بينها وبين الأبيات من قصيدة « الكروان المجدد » للعقاد .

هل يسمعون سوى هدى الكروان
صوتا يرفرف في الهزيع الثاني
من كل سار في الظلام كأنه
بعض الظلام تضله العينان
يدعواذا ما الليل أطبق فوقه
موج الدياجر دعوة الفرقان

المرأة بسكّين في القلب

لجورج حنين

هناك في ذاكرتي غرفة بلا شكل
تظل مشاركة في الشعور بمضيّ الوقت
و، في هذه الغرفة ، الى الوراء قليلا ،
امرأة ممدودة ، بعيون مغمضة ، كمن هو في نقاهة .
اسمها ريزموند . أو هذا على الأقل ما استنتج
بعد فشل أسماء أخرى عديدة
يهداها من طيور جزر تستيقظ مرة في العام
لتتخلص بتلذذ من ريشها . لابد من حضور
العرض ، ذلك لأن المطر يأخذ عندئذ في السقوط

وينتزع الخدم الصموتون الأسلحة من أغمادها ليضعوها
على أثاث واطىء ، وإلى هذا الحد لم يكن استعماله
مفسرا . المطر يتوطن ، والعجلات في أوقات الفجر لاتدور
الا ببطء شديد في بواخر يمكن من الشاطئين رؤية
تفاصيلها ، بما فيها من خطاب يتعفنون في البهو الكبير
عتل فظ يتدفع ويبدأ في تحطيم الشريات بايماءات
مزارع يقلم أشجاره . يرجى منه الجلوس . ينتزع
لحيته الطويلة ويتصدى على الفور للموضوعات المحرمة :
نهاية المطر ، توقف النهدين عن الحركة ، اختناق الطيور
هذا الجمهور ، جمهور موسم الأمطار ، كنا رغم
تشتته وتنافره نتعلم أن نتأسف عليه عندما أخذ
الطقس يعود إلى الصحو
كانت هناك الشابات اللعوبات اللاتى كن يذبن حتى
في وقت الجد كحفنة من رمال ، والنساء الرائعات
بنظامهن الذي كان وليد حركة طائشة ، واللاتى كن
يغبن في براقعهن كما يغيب المرء في داخل كاتدرائية . كانت
هناك أيضا نساء بأصابع عارية من الخواتم ، وأخريات
لم يضعن القدم أبدا في مياه نقية
كان من شأن هؤلاء اللعوبات أن يدسن أسئلة
ماكرة . والشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يوجعهن
حقا هو الرغبة في معرفة المزيد عن ريزموند
لكن ريزموند لم تكن تتكلم . كانت مرة واحدة قد
لمحت للسكّين ، للسكين ذات الحد الشبيه بوجه
من أغمده في قلبها . كنا نشعر جيدا أن ذلك كان بالنسبة
لها نوعا من الانتباه النبيل . شيء تحمله ، كما كان يفعل

في سالف الأيام حامل أختام المدينة فوق مخدة من
مخمل . في حالة ريزموند ، هذه الصورة لم تكن بلا
مقابل . ذات صباح ، كان شخص أعجف ومقدام
يندفع عبر الشوارع المقفرة . وخلف النوافذ ، كان
الكل يرقب سقطته الأولى
رأيت خطاه وقد صارت أكثر ترددا ، ثم ، في أحد
التقاطعات الوسخة ، انحنى فوق الزنزانة الأرضية لوردة
التصرفات المهلبة تصبح هنا خطرة وبالية . أن
تنتشل الوردة معناه أن تقتل الأكثر عطاء
العجلات في أوقات الفجر لا تدور الا بمياه حالة
انه موسم الأمطار ، موسم الطيور المتهيجة والخطاب
الذين يتعفنون على بعد متساو من كلا الشاطئين
ريزموند حركت رأسها . الأسلحة تصلنا الآن
على الركبة . إن لها ربما خفية أكثر خطرا من التهديد
لا أحد مضطهد

● ●

أظن أن جورج حنين هو أكبر شاعر مصرى بالفرنسية . كان ينتمى إلى الثقافة الفرنسية ككل ، وخاصة إلى الحركة السوريالية بأصولها الفلسفية ، وتعبيراتها الابداعية المختلفة في الشعر والرسم ، وصلاتها بالفكر الاجتماعى والسياسى وخاصة بأفكار تروتسكى . وقد اتصل جورج حنين بهذه الأفكار إبان ظهورها وانتشارها ، وتتلمذ على زعمائها وعرف بعضهم معرفة شخصية مثله مثل زملائه الفرنسيين من جيله ، مما أهله لأن يكون مؤسسا أصيلا لا مقلدا ، وصاحب شخصية لابد من الرجوع إليها لمعرفة الحركة السورياليةمعرفة شاملة دقيقة .

وشعر جورج حنين شعر عقلانى صارم ، تدل مفرداته على أشياء ومعانٍ محددة . . لكن الخيال الذى يؤلف بين هذه المفردات ، والذى يستمد منطقه من منطق الحلم والكابوس ، يجعل شعره مزيجا من العقلانى واللامنطقي ، وهو ما تجده أيضا في أشعار السورياليين وصورهم ورسومهم . وربما تميز شعر جورج حنين عن شعر زملائه بميزات لغوية خاصة ، وبما فيه من حس درامى له طابع عبثى أسيف .

ولد في القاهرة عام ١٩١٤ . ورحل وهو طفل مع والده إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا حيث تلقى دراسته ، وعاد إلى مصر ليكرس جهوده لخلق أدب وفن جديدين عن طريق إصدار مجلات لم تعمّر طويلا مثل مجلة « التطور » ونشرات ، وكتيبات ، فضلا عن تنظيم الندوات واقامة المعارض الفنية .

كانت له صلة شخصية بعدد من كبار الشعراء والمثقفين الفرنسيين مثل أندريه بريتون وبيريه . . وقد اضطر في أعقاب قيام ثورة ١٩٥٢ بايقاف النشاط السياسى والفكرى في البلاد ، للهجرة الى فرنسا حيث عاش مع زوجته حفيدة أمير الشعراء شوقي على الكتابة لبعض الصحف الفرنسية وخاصة مجلة « الاكسبريس » التي توفي وهو مدير لقسم التحقيقات فيها ، بالغاً من العمر حوالى ٥٦ سنة .

من مجموعاته الشعرية « غياب الكائن » و« النقيض » وله مجموعة قصصية بعنوان « زمن الفتاة الصغيرة » .

باريس ـ أحمد عبد المعطى حجازى

عن التبشير بين اللاجئين المسلمين

بقلم : فهمي هويدى

عندما أرسل رئيس جمعية « ارض البشر » السويسرية خطابا الى الرئيس اللبناني يعرض فيه استعداد جمعيته لتوفير « أسر بديله » لليتامى من الأطفال اللذين خلفتهم مأساة الحرب في لبنان ، فان الرجل ، واسمه ادمون كايزر ، ربما كان مدفوعا بدوافع انسانية وخيرة ، لكنه كان يهدف في النهاية لا إلى مجرد تدبير مأوى لهؤلاء الاطفال ، ولكنه كان يسعى ايضا الى فتح مجال جديد لنشاط جمعيته التبشيرية !

وما فعله ادمون كايزر ليس تصرفا فريدا من نوعه ، فقد سبقه الى الميدان ذاته آخرون ، يمثلون العديد من جمعيات التبشير في اوروبا وامريكا ، ولعلنا نذكر زيارة الأم « تيريزا » التي منحت جائزة نوبل للسلام ، الى بيروت الغربية اثناء القتال ، حيث قامت بنقل عدد من اطفال اللاجئين الى بيروت الشرقية ، لايوائهم وعلاج المصابين منهم ، « ورعايتهم » بعد ذلك . فضلا عن انه بين يدى نشرة صادرة في كندا باسم « اخوة الايمان » ، تاريخها يوليو - اكتوبر ٨١ ، تتحدث عن ٦٠٠ من اطفال المسلمين في بيروت وصيدا ، « ترعاهم » الكنيسة الانجيلية في مدارسها .

وما لبنان الا نموذج واحد ، وحقل واحد نشطت فيه جمعيات التبشير خلال السنوات الاخيرة ، لان النماذج المماثلة الأخرى كثيرة في انحاء العالم العربي والاسلامي . فحيث يوجد اللاجئون والفقراء ، تشمر جمعيات التبشير عن سواعدها ، وتتسابق لتقديم « خدماتها » ، مدعومة بامكانيات ضخمة ، وقدرات كبيرة على جمع المال

ولانه ليس هناك لاجئون وفقراء الا في العالم الثالث ولأن اكبر نسبة من هؤلاء هم من المسلمين ، كما تشير تقارير ودراسات عديدة ، فقد باتت ملايينهم البائسة ميدانا خصبا لنشاط جمعيات التبشير ومؤسساته.

ولأن الأقدار حكمت على هؤلاء أن يعيشوا في ظروف تعسة هددت أكثرهم بالموت وبالامراض وبمختلف البلايا ، فان الامكانيات المتوفرة لتلك الجمعيات ، تحدث تأثيرها السحرى بين اللاجئين ، وتمهد الطريق لما هو ابعد . اعني لزعزعة الاعتقاد ثم التنصير !

●●●

واللاجئون المسلمون في العالم الآن هم اساسا ضحايا نوعين من الكوارث : الحروب والمجاعات ، وليس هناك حصر لاعدادهم ، ولكنهم يقدرون بالملايين على اية حال . فاذا تابعنا مسرح تلك الكوارث على خريطة العالم الاسلامي فسوف تجد مايلي :

● بالنسبة للحروب: حرب لبنان أفرزت حوالى نصف مليون لاجىء ، حرب العراق وايران التي لم تنته ، ادت الى تشريد مليون شخص على الجانب الايراني ، الاحتلال السوفيتي لافغانستان ، والمقاومة المسلحة له ، كان من نتيجتها

نزوح مليون شخص على الأقل الى الحدود الباكستانية، حرب الحبشه وارتيريا ، لايعرف عدد ضحاياها من اللاجئين ، وإن كان عددهم لايقل عن نصف مليون آخرين - الصدام المسلح بين الحبشه والصومال يدفع الى العراء كل مرة بألوف اللاجئين ، مقاومة المسلمين في جنوب الفلبين تدفع الى حدود ماليزيا واندونيسيا بألوف اخرى في كل موجة .

● بالنسبة للمجاعات ، مسرحها الممتد بين غرب افريقيا وشرقها حافل منذ اكثر من سبع سنوات بصور رهيبة"، يظلل فيها شبح الموت ملايين المسلمين من موريتانيا ومالي ، الى الصومال واوغندا . فضلا عن مناطق المجاعات الدائمة مثل بنجلاديش ، وبعض ولايات الهند ومناطق باكستان . هذه الملايين الجائعة والمشردة ، هي المسرح الذى تستهدفه وتنشط عليه جمعيات التبشير . وهم يقولون ذلك علنا وبمنتهى الوضوح والصراحة". وقد تلقيت كتيبا بهذا المعنى طبع في كاليفورنيا ، في اغسطس ١٩٨١ ، والعنوان المكتوب على غلافه هو : « الفرصة العظمى للمسيحية » . وتحت العنوان خريطة للعالم الاسلامي ، كتب تحتها اسم الجمعية التي اصدرته وهي : « اخوة الايمان من اجل المسلمين » . وعلى الغلاف الخلفي اشارة الى ان لها فروعا في كندا واستراليا ونيوزيلندا . وبداخله مقال عنوانه عنوان الكتيب ، لشخص اسمه ريموند جويس ، يقول في الصفحة السادسة منه مانصه :

« ان الجمعيات المسيحية التي تعمل في ظروف صعبة وسط مناطق المجاعات ومعسكرات اللاجئين تقدم عطف المسيح وحنانه لأولئك المسلمين التعساء الذين يعيشون في بلدان مثل الصومال وبنجلاديش وباكستان » .

ويضيف كاتب المقال: « ان اوضاع العالم الاسلامي مواتية لنا بأكثر من اى وقت مضى ، بسبب التمزقات والاضطرابات التي تسوده ، من صراعات بين السنة والشيعة ، الى نزعات للتطرف روعت الجميع ، واثارت خوف الكثيرين من الاسلام » .

ثم يقول ريموند جويس بنفس القدر من الصراحة ، « ورغم ان العديد من المؤتمرات الاسلامية العالمية دعا الى وقف نشاطات المبشرين بمستشفياتهم ومدارسهم وملاجئهم ، التي تمارس عملها في بلاد المسلمين ، الا ان هذه المؤسسات لم تتوقف عن تقديم خدماتها - فضلا عن ان ثمة دلائل على ان تلك الخدمات اصبحت تؤدى الآن بموافقة الحكومات الاسلامية او بدعوة صريحة من جانبها !! » .

ان العالم الغربي يشهد في السنوات الأخيرة حملات متتالية تقوم بها جمعيات التبشير ، لجمع التبرعات المادية والمساهمات العينية ، من اجل اللاجئين المسلمين في آسيا وافريقيا . وقد اطلعت على نشرة صادرة عن « مشروع » « مواجهة الجوع العالمي » ، الذى يشرف عليه المجلس الانجيلي في الولايات المتحدة ، بتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٨٠ ، تضمنت تصويرا لمدير المشروع - واسمه الدكتور لاري وارد - يدعو الامريكان الى التبرع للاجئي الصومال ، ويقول : « ان هناك لاجئا بين كل اربعة صوماليين ، وان ٧٠٪ من هؤلاء اللاجئين من النساء والاطفال .

●●●

كما اطلعت على قسيمة لجمع تبرعات لاطفال المسلمين اللاجئين من افغانستان ، صادرة عن المشروع ذاته ، توضح للمتبرع ما يمكن ان يحققه اسهامه ، وكيف انه اذا تبرع بمائة دولار ، فسوف يمكن المختصين من انشاء مزرعة للخنازير « تغذى اللاجئين المسلمين !

وتلقيت تقريرا لمنظمة تحمل اسم « صندوق الاطفال المسيحيين » ، مقرها ريتشموند بالولايات المتحدة ، فيه دعوة للتبرع ، ومرفقة به بطاقة ترسل الى الصندوق في حالة الرغبة في تبني اى طفل او طفلة . وللشخص ان يختار الدولة التي يريد ان يتبنى منها . ومن بين تلك الدول المرشحة اندونيسيا والهند والفلبين والنيجر واوغندا . . وتلك مناطق تضم عشرات الملايين من المسلمين .

وفي نشرة تصدرها جمعية باسم « محبة العالم » تصدر في « سياتل » بالولايات المتحدة عثرت على خريطة مفصلة بمختلف انواع « الخدمات » التي تقدمها الجمعية للمناطق الاسلامية الفقيرة ، وهي لم تترك منطقة الا وضعت فيها موطىء قدم .

وهذه ليست الا امثلة لسيل الدعوات التي تتبناها جمعيات التبشير ، لتدعم امكانيات عملها وسط فقراء المسلمين وتعسائهم ، مستثمرين « الفرصة العظمى » .

وخارج دائرة اللاجئين هذه ، فان عملية التبشير مستمرة دون توقف داخل مجتمعات المسلمين ، بصورة لايلفت النظر فيها مجرد الاصرار والتركيز ، بل ايضا تلك التسهيلات التى تقدم لبعثات التبشير من قبل السلطات الحكومية المحلية .

ويمكن القول كقاعدة ان ثمة اختراقا تبشيريا للاغلبية الساحقة من الدول العربية . اذا لم يكن بالمدرسة او المستشفى والكنيسة ، فبالكتاب والاذاعات بكافة اللغات . وفي النشرة التي تسجل معالم النشاط التبشيرى في الفترة من يوليو ، الى اكتوبر ١٩٨١ ، والصادرة عن جماعة « أخوة الايمان » في تورنتو بكندا ، معلومات هامة عما تم « انجازه » خلال تلك الفترة في كافة انحاء الوطن العربي ، مشرقه ومغربه .

ولا مجال هنا للتفصيل ، وان كانت المعلومات متاحة لمن يشاء ، ولن أعرض الا ما تسجله تقارير الجمعيات التبشيرية عن نشاطها في ثلاث مناطق ، هي : سلطنة عمان ، ووسط مسلمى الصين ، وداخل الجمهورية الاسلامية في ايران !

في عدد من مجلة « نداء الكنيسة » (تشرش هيرالد) ، الصادر في ٢١ سبتمبر عام ١٩٧٩ ، مقال بعنوان « اخبار طبية من الشرق الاوسط » كتبه جون بوتين سكرتير التجمع العالمي للمبشرين في نيويورك ، استهله بقوله : في هذا العام ١٩٧٩ ، تمر ٩٠ سنة على نشاط البعثات التبشيرية الكاثوليكية في الشرق الاوسط ، وهذه مناسبة لاستعراض ما انجزته تلك البعثات خلال هذه الفترة .

عن سلطنة عمان يقول كاتب المقال مانصه : « لقد استطاع الجهد التبشيرى ان يخترق الواقع الثقافي باكثر مما كان متاحا له في اى وقت مضى . فالمبشرون مدوا خدماتهم من العاصمة مسقط الى امتداداتها وضواحيها حتى وصلوا الى منطقتى مطرح وروى . وهناك مبشرون آخرون يعملون في بلدتى صور ونزوى ، ويقومون بزيارات منتظمة الى صلاله . وبالرغم من ان اعداد المبشرين ليست كبيرة الا انهم استطاعوا ان يشكلوا خلايا للمسيحيين والمؤمنين في تلك المناطق . وهناك اجتماعات منتظمة لهذه الخلايا في المناطق الداخلية للسلطنة »

ويضيف كاتب المقال « انه تمت الموافقة على تقديم قطعة ارض هدية لهم في صلالة ، من اجل ان يقام عليها المركز المسيحى للعبادة » . وان الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتيه ستتعاونان في اقامة مقر متواضع على هذه الأرض ،

وفي ختام التقرير يقول الكاتب لقرائه : تذكروا ان ذلك يحدث في بقعة لم يكن مسموحا فيها لاى من الغرباء بالدخول حتى ١٩٧٠ باستثناء زيارات موسمية ، كانت تقوم بها البعثات الطبية لجمعيات التبشير .

وعن ايران يقول تقرير جمعية « اخوة الايمان » عن اعمالها في الفترة من يوليو ، الى اكتوبر ١٩٨١ « انه بالرغم من منع نشاط الكنيسة الانجيلية رسميا وابعاد ثلاثة من روادها ، لم يتوقف العمل الدؤوب من اجل تعميق فهم المسلمين وايمانهم بالكتاب المقدس » .

ويدعو التقرير الى الصلاة من اجل عدد من الاشخاص بينهم فتاتان ، اشار الى الحروف الاولى من اسمائهم. يقومون بالتبشير وعقد الاجتماعات في بيوتهم ، ولا يزالون رغم كل شيء مستمرين في توزيع الكتاب المقدس على بيوت المسلمين ! »

ويستغرب المرء لتلك المحاولات التى تبذل من جانب المبشرين لتنصير المسلمين في الصين . فالتقرير ذاته يقول : ان التقديرات تشير الى ان في الصين ٣٦ مليون مسلم . وفي الوقت الذى يروج للبعث الاسلامى ، فان هناك مئات

من المؤمنين الصينيين (المسيحيين) يعيشون وسط تجمعات المسلمين في اقصى الشمال الغربي من البلاد (مقاطعة سينكيانج) ، وبعد ان يدعو التقرير الى الصلاة من اجل تلك المئات ، يقول « ان هناك طالبا من بنجلاديش في بكين يستمع هو وأصدقاؤه الى برامج الاذاعات المسيحية » ، (لاحظ التدقيق في الرصد ، والاهتمام بالاشارة الى الطالب البنجالي ، وسط الف مليون صيني !)

ورغم أن التقرير حافل بالمعلومات الهامة ، الا أن بعضها بات معروفا وشائعا ، مثل صور النشاط التبشيري في اندونيسيا والفلبين وماليزيا وبنجلاديش . لكن ثمة اضافات أخرى تلفت الانتباه ايضا في التقرير ، منها اشارته الى الاستعداد لدخول مناطق المسلمين في وسط آسيا (جمهوريات جنوب الاتحاد السوفيتي) وكيف انه تم تنصير بعض الشباب الذين ينتمون الى قومية القرغيز ، وكيف انهم يواجهون مشكلة ترجمة مطبوعات البعثات التبشيرية الى اللغات المحلية ، وهو ما تتولاه الان الجمعيات التبشيرية في السويد !

الخبر الأخير في هذا السياق هو ما اشارت اليه نشرة « الفرصة العظمى للمسيحية » (ص ١٤) والذي يذيع على من يهمه الامر أن معهد صامويل زويمر في باسادنيا بولاية كاليفورنيا انشأ برنامجا تدريبيا اكاديميا ـ ـ ! للتبشير بين المسلمين !

●●●

لامجال للتعقيب على هذا القدر من المعلومات ، التي تنطق بالكثير مما يدمي القلب ويجرح كرامة المسلم . لكن اود ان انبه الى مجموعة من النقاط :

ـ ان المعلومات عما يجري داخل العالم العربي وفيرة ومثيرة ، وقد اوجزت في عرضها لاسباب لاتخفى على اللبيب .

ـ أن تلك النشاطات التي تمارسها الجمعيات التبشيرية ، لاعلاقة لها مباشرة بنشاطات غير المسلمين الذين يعيشون كمواطنين داخل مجتمعاتنا الاسلامية . وليس من الحكمة ان تحسب على هؤلاء مخططات جمعيات التبشير في اوروبا وامريكا ، كما أنه من الحماقة أن تستقبل تلك المخططات بمشاعر التعصب التي تفتح الباب لريح الفتنة التي تهدد الجميع .

ـ ان اللاجئين وفقراء المسلمين ليسوا مطالبين بالامتناع عن التداوي او الاكتساء او الاحتماء بالخيام التي تقدمها اليهم تلك الجمعيات التبشيرية ، ويعذرون اذا قبلوا منهم كل شيء . لكن المطالب حقا بالتحرك هو الحكومات العربية والاسلامية .

ـ وأن التحرك المطلوب ليس مجرد ايقاف نشاطات تلك الجمعيات ، ولكنه ينبغي أن يتمثل ـ اولا ـ في المسارعة الى تقديم الخدمة البديلة الى اولئك اللاجئين حتى تلبي الحد الادنى من احتياجاتهم . واذا تحركت المشاعر الانسانية النبيلة لدى أي طرف في أي مكان في العالم ، ورغبت هيئة او جمعية في تقديم مساعداتها العينية او النقدية . فينبغي ان تسلم تلك المساعدات الى مؤسسات محلية خاضعة للاشراف الوطني ، لتتولى توجيه المساعدات في مسارها الطبيعي ، بحيث نضمن الا تتعرض تلك المساعدات للتبديد والنهب من قبل بعض أدوات البيروقراطية المحلية غائبة الضمير .

ـ ان العشرين مليون دولار التي يدفعها برنامج الخليج العربي سنويا الى منظمات الامم المتحدة الانمائية ، ينبغي ان توجه على الفور الى اللاجئين المسلمين ، وليكن انفاقها تحت اشراف الامم المتحدة .

ان التقاعس العربي لم يعد يهدد دنيانا فقط ، وانما بات يهدد ديننا ايضا ! ○

رحلة داخل عالم الوجودية

تقديم : سيد محمود القمني

اذا أردت أن تتعرف على وجودك البشرى الأصيل ، فلا تتردد في المغامرة ، فحياتك كلها مخاطرة ، وارحل معنا داخل وجودك في رحلة فكرية رائعة ، داخل عالم الوجودية الكبير ، الممتلىء بك .



● سارتر

ولتطمئن قليلا ، فدليلك في هذه الرحلة مؤلف مقتدر ، ورجل دين له وزنه ، هو الأب جون ماكورى ، . ولمزيد من الاطمئنان ، فهو ليس ككل رجال الدين التقليديين ، لأنه يحملك مع أول فصول كتابه محترم - في بعضهم - هذه القدرة الفريدة على التحصيل العلمي ، والصبر والأناة في العرض السلس ، وذلك التمسك الفريد بالنزاهة والموضوعية خاصة وهو يعالج موضوعا كالوجودية !

أما الترجمة الصادقة الأمينة - والناجحة الى حد بعيد - في نقل الفكرة والاصطلاح إلى داخلك ، والتي أداها كأحسن ما يكون الأداء ، الدكتور . امام عبد الفتاح امام ، مع مراجعة رجل فلسفة عريق مثل الدكتور . فؤاد زكريا للترجمة ، فهي عوامل حاسمة لتأخذ قرارك بالرحيل معنا ، إلى داخلك الى عمق وجودك البشرى .

ورحلتنا من النوع المثير ، فهي مغامرة اذا قبلت دخولها ، اثارها متواصلة ، لا يقطع استمتاعك بها تعدد للفلاسفة وآرائهم المختلفة وأحيانا المتضاربة ، بل تتصل في سيرها مع المفاهيم الوجودية ، ذاتها ، عبر الأسلوب الوجودى في التفلسف ، فالقس ماكورى يسيح بك وسط عالمك المثير - ذاتك - حتى أنك لا ترى فيه صورا عتيقة تقليدية لفلاسفة وقورين ذوى جلال ومهابة ، ولا رأيا منفصلا يقطع عليك متعة الرحلة انما سيتراءى لك الفلاسفة بين الفينة والأخرى ، كصور أو لافتات أو علامات على الطريق ، تطالعك فقط بين الحين والحين ، لكن في لحظات وعيك ستدهشك الواقعة ، فتكتشف أن ما رأيته لم يكن صورا مختلفة ، بل مرايا ترى فيها ذاتك من جوانب مختلفة .

رحلة توقظ فيك الشعور بالحرية حتى الامتلاء ، امتلاء ليس حتى الثمالة - بل حتى الوعي ، الوعي بوجودك ، وهي تخفت كل المؤثرات الخارجية إزاء وميضه داخلك ، فلا تعود تسمع سوى صوت ضميرك ، ويتفجر وجدانك بالتحدى لكل شرائع القبيلة التي تولبوها لك سلفا .

ولكن ، بما أنها مغامرة ، فهي مخاطرة ، فالرحلة ستثير داخلك الخوف والقلق ، وضميرك سيتحول اليك ، ويضع على كاهلك مسئوليتك ، وهي في ثقل الجبال ،



● نيتشه

ويدفعك لتبذل نفسك بسخاء ، بعد أن كنت متراخيا تلقي بتبعات أعمالك على عاتق القدر وأضرابه .

وهنا قد تفكر في العودة في رحلتك ، وأنت في اتخاذ القرار حر ، حر بالعودة الى الآخرين ـ حيث الأمان المعتاد ـ من أول صفحات الكتاب ، أو الخروج اليهم من آخره ، ثم أنت حر في الانبثاق إلى الآخرين أو فيهم ، من نهاية الرحلة وهم داخلك ، أو بالعودة إليهم من بداية الرحلة وأنت داخلهم ، وعلى قدر شعورك بدوافع قرارك ، سيكون ندمك أو أملك !

من الحمل الى المخاض

عبر رحلتك في عالم الوجودية الهلامي ، لن تستطيع بداية أن تمسك شيئا محددا ، ففي هذا العالم لا تجد صورا دقيقة محكمة للفكر الوجودي ، ولا نظرية عامة ينتمي اليها أهل هذا العالم ، فقط ستشعر بجو العائلة الواحدة ، فالقسمات تتشابه ، والسمات تتقارب . لكن كلا منهم قد انهمك في عمل مستقل ، مديرا ظهره للآخر ، ومع كل منهم هوية مكتوب عليها : أنا لا أنتمي لهذه العائلة ، أنا لست وجوديا !

وقبل أن تتساءل يجيبك الأب ماكوري : إن في عالم الوجودية ، يريد كل فرد أن يؤكد عدم انتمائه ، ويرفض أي منهم أن يصنف داخل جماعة ، لهذا يحملون هذه الهويات !

نحن ضد العقلانية النظرية المجردة الجافة ، لذلك ، فنحن أيضا مع البراجماتيين ، لأن البراجماتية تتخذ من تحقيق الايمان لانسانيتنا أو حطه منها ، أساسا لتأكيد الايمان أوتزييفه و . . هذا ما يقوله لك الوجوديون ، لكن مع استدراك : إننا أيضا نخالف هذه المذاهب ، وحتى المتبتل المتصوف عميق الايمان أبوهم كيركجارد ، يعلن لك بكل عصبية أنه أول الثائرين على الصور التقليدية للايمان ، ويجب أن تصدقه عندما يؤكد أن ثورته هذه انما هي من أجل ايمان أنقى .

ولك أن تعجب : اذا كانوا عائلة واحدة ، فلماذا الخلاف ! ؟ والاجابة ـ وهنا براعة الاب ماكوري ـ تعود بك الى الوراء عبر دروب الزمان ، الى حيث الجذور الأولى للوجودية إلى ما قبل ظهور الفلسفات . من عصر الميثولوجيا الى عصر الأنبياء العبرانيين إلى بزوغ الفكر الفلسفي اليوناني الى ديانات الشرق القديم ، الى ظهور المسيحية ومن ثم العصور المظلمة الى عصر النهضة والتنوير ، حيث يلوح لك بين ركام هذا الكم الهائل من نتاج الفكر الانساني عبر تدرجه التطوري ، انسانا يبحث وينقب عن ذاته ووجوده ، عن هويته ومصيره .

ومن الطبيعي أن تتباين الفروع بتباين الجذور واختلاف تربتها وظروفها وطرق الفكر فيها . لهذا يصبح خلاف الوجوديين اليوم أمرا طبيعيا ، بل وبديهيا . فقد ظلت الوجودية طوال هذا التاريخ في فترة الحمل ، حتى جاءها المخاض في العصر الحديث والمعاصر وان اختلاف فلاسفتها الحالي وتنوع اتجاهاتهم انما يعكس تلك الاختلافات المبكرة ، أما ظهورها في هذا العصر بالذات مع الانتشار الواسع ، فنتائج طبيعي آخر لوضع ذلك الانسان الذي ظل يبحث عن ذاته ، حتى فوجيء أن وضعه قد أصبح مهددا اليوم ، حيث تقوضت بنية المجتمع رأسا على عقب ، وأصبحت اعادة تقويم القيم كلها مطلبا هاما وملحا ، فكان أن قام متمردا ، يعلن أنه قد عثر على وجوده ، لكنه عثر عليه ناقصا ، لذلك انتقل من البحث الى الوعي : الوعي بما هو ، وما سيكون وبأن وجوده لن يتحقق الا بالتجاوز المستمر من الحالة الراهنة الى حالة اخرى . . . تعاليا ، لأنه بين كل هذا الركام الفكري وجد وجوده لم يكتمل بعد ، وعليه أن يواجه أقسى عملية اختيار ، أن يكون أولا يكون . ولا يدري هل يستسلم لليأس والتشاؤم أم يتفاءل بالامل ؟ ومتى يكتمل والموت يقف متربصا به الدوائر ؟

أنا والعالم والآخرون

أنا والعالم مترادفان لمعنى واحد (هذا ما يؤكده لك الوجودي) ، لأن تعبير العالم يتضمن وجهة نظر البشرية ، فالعالم فيه وحدة ونظام ، لذلك فهو ذو معنى

(هذا ما يتطوع وجودى مؤمن باعلانه لك) ، فيعترضه آخر تخلى عن الايمان ليؤكد أن الانسان هو صاحب الدور الأول ، في إضفاء النظام والمعنى على كثرة الأشياء المبعثرة في العالم بلا معنى . الا أن سارتر يعترف : أنه بدون العالم لا وجود لي ، وبدوني لاوجود للعالم لأنه معنى أن أوجد ، هو أن أواجه شيئا يختلف عني ، ومع ذلك ـ وهنا المفارقة المؤسفة ـ فان هذا العالم الذى ارتبط به هو الذي يهدد وجودى ، لأن الأشياء التي خلقتها أخذت تستعبدني ، فأنا الذى اخترعتها وامتلكتها ، لكنى أقلق على ملكيتها ، فتبدأ هي في امتلاكي ورغم أني جسد في هذا العالم ، فان العالم يشغلني عن جسدى ، لذلك يجب أن أسعى للشعور بمزيد من الألفة مع جسدى .

والعالم ليس أشياء فقط ، بل أيضا موجودات بشرية ، وكما لا أوجد بدون العالم ، كذلك لا أوجد بدون الآخرين . لكن كيركجارد يجعل وجودهم لاحقا لوجود الفرد (ولكن أخرى) . . ألا يمكن اعتبار المذهبين الفردى والجمعى صورتين لخطأ واحد ؟ . . والحل الوجودى هو تجنب الخطأ بالبداية من الوجود البشرى العيني بوصفه وجودا مع الآخرين .

بوبر يعترف بوجودك ، بوجود الآخرين ، فهم ليسوا مجرد اضافات تلحق بالفرد . . والدليل على فكرة عدم اكتمال الفرد بدون الآخرين : الجنس واللغة ، والجنس لأني أملك أجهزة عضوية متكاملة في جسدى ، لكني لا أملك سوى نصف الجهاز الجنسي ، والنصف يحتاج الى النصف الآخر ، واللغة ، لأنها هي التي تجعل فكرى متاحا للآخر .

إذن البشر ليسوا كأشياء العالم يمكنني استخدامهم كأدوات ، لانهم فاعلون مثلي تماما .

بوبر لازال يطالعنا في رحلتنا ، يصر على إسماعنا الصوت الجماعي في الوجودية ، ويحاورنا ، لأنه يعتبر علاقة الفرد بالآخر حوارا وليست مسارا أحادى الاتجاه . فليس فيها نزوع للسيطرة بل تتميز بالانفتاح ، الاستماع والتلقي ، الحديث والعطاء فالوجود البشرى أنا وأنت ، ولا (أنا) بدون (أنت) .

مارسيل ايضا ، الوجود البشرى الأصيل عنده هو الذى يبذل نفسه بسخاء فيكون حاضرا في الآخرين . ألا تتعهد لبعضنا البعض دوما ؟ (أعدك أن القاك غدا ، وعدا مني ستقضى مصلحتك ، لا أستطيع ذلك فقد قطعت عهدا) صيغ مختلفة لعهود نقطعها باستمرار ، هي حقا أصالة الفعل البشرى الذى تقوم عليه الجماعة .

كيركجارد يعود مرتديا فكره الصوفي ، متوشحا مسيحيته ، يستدفء بإيمانه الأمان ، يحتج الآخر عائق ، ولا حوار الا مع الله ؟

ودليلك في رحلتك يعلق : هل الارتباط مع الله يستدعي الابتعاد عن الآخرين أم التحول إليهم ؟ سؤال لا يحتاج منك اجابة .

وسارتر ، مع لافتة أخرى على الطريق تقول (الجحيم هم الآخرون) ، لكنه يردف : ومع ذلك أعترف بالتزامي بصالح الآخرين وسعادتهم ، رغم أنهم عقبة تحول دون تحقيق وجودى .

الوجود الاصيل

إنه فعلا عالم غريب ، لكن هذا هو عالمك ووجودك ، واحساسك بالاغتراب أمر طبيعي . والاغتراب موضوع سارترى كبير ، بالطبع أنت تدرك جسدك بطريقة تختلف تماما عن ادراكك للأشياء وجسد الاخر ليس شيئا ، فجسمه موضوع لك وجسمك موضوع له ، ومن هنا تشعر باغترابك عن جسمك فتصاب بالخجل والحياء والارتباك ، لأنك تعي جسمك على نحو مايراه الآخر ، والمشكلة عند سارتر هي كيف أتخلص من كوني موضوعا للآخر ، الحل رومانتيكي جدا وسهل جدا ، . . الحب بالحب تتمثل نفسك في الآخر ، ولكن سارتر لا يتركك في هذا الشعور الحالم ، فيضيف أنه حب يمتزج بالكراهية ، لأنك كي تجعل الآخر يحبك لابد أن تصبح موضوعا يثير حبه فتتذبذب العلاقة بين رغبتك في امتلاكه ورغبتك في أن يمتلكك ، اضافة الى أن اكتمال الفعل الجنسي يحبط الاندفاع للوحده مع الآخر .

وتسقط في الفردية مرة أخرى ، ومن الوحدة ينتشلنا الأب ماكورى ، فينبهنا الى أن الفعل الجنسي ليس وحدة مكتملة بذاتها ، انما فعل في سياق سلسلة أفعال ، في علاقة بين شخصين هي أغنى بكثير من الفعل الجنسي ذاته ثم أليس الجنس مؤسسا لنظام الزواج ونظام الزواج مؤسسا للجماعية ؟

يبدو الان أن رحلتنا الفكرية أصبحت مشكلة ، فكيف نوفق بين الطابع الجماعي للوجود البشرى ، وبين الفردية الوجودية الواضحة؟ كيركجارد يزدرى الجماعة فيسميها



● كيركجارد



● ديكارت

حشدا ، نيتشه يزيد من ازدرائه فيسميها القطيع ، يسبرز يطلق على الآخرين : الجمع ، ويعني به سيطرة الدهماء غير المفكرين على معايير الحياة . ويسوقون تبريرات ، كيركجارد مثلا يؤكد أن الحشد يحول الفرد الى شخص غير مسؤول ، لايتوب ولا يندم ، ويضعف إحساسه بالمسئولية . بل قد يتحول الحشد إلى إله ! نعم . . ألم تؤله النازية الدولة ؟ إذن فما هو المعيار الوجودي للوجود مع الآخرين ؟ الاجابة أن يكون وجودك أصيلا ، بمعنى أن تؤكد وجودك بالحرية والمسئولية ، أما اذا أدت العلاقة بالآخرين إلى ضياع الجانب الشخصي الانساني ، فوجودك سيكون حتما وجودا زائفا ! والحل لبناء جماعة أصيلة هو كسر طوق الوجود المشوه مع الآخرين ، وتحطيم علاقة الاضطهاد ، للاحساس بالاستقلال والشعور بالكرامة .

وحتى لاتتحول رحلتنا الى متاهة ، يدلنا الأب ماكوري على نوعين من الوجودية : نوع يذهب إلى أن الخطوة الأولى للتحرر تبدأ بفسخ العلاقة مع الآخر ، مما يتيح للفرد تكوين علاقات حقيقية أصيلة جديدة ، ونوع يرى أن كل هذه المحاولات فاشلة تماما ، لكن لا تتشاءم ، هكذا ينصحك سارتر ! !

من المعرفة الى الفعل الحر

أبو الفلسفة العقلية الحديثة (ديكارت) صاحب التأملات المشهورة ، له قول أشهر (أنا أفكر إذن أنا موجود) . وتتجمع الأيدي الوجودية هذه المرة متكاتفة ، لتقلب هذه العبارة رأسا على عقب لتصبح : (أنا موجود اذن أنا أفكر) ! وهكذا تحل مشكلات كثيرة عتيدة في الفلسفة وتتفادى ثنائية الذهن والمادة ، الجسم والنفس ، الذات والعالم . . الخ .

وبفخر يؤكد الوجوديون أنهم قد حلوا مشكلة المعرفة بعد استعصائها طويلا . ومرد استعصائها أنها صيغت بطريقة خاطئة فصلت بين العارف والمعروف ، أما الوجودية فتبدأ من وحدة الوجود مع الآخرين في العالم ، فيشمل الوجود المعرفة ، ولكن . . أية معرفة يقصدون ؟

مرة أخرى يسبحون ضد التيار ، فلا يقصدون بالمعرفة : المعرفة العقلية المجردة ، ولا المعرفة الموضوعية بالوقائع التجريبية ، إنما هي المعرفة بك وبي ، بالأشخاص ، معرفة ذاتية استبطانية للذات ، لأن الرؤية التجريدية لن تفهم الجانب الانساني ، فهو جانب لا يعرف إلا بالمشاركة في الوجود البشري . أما الحقيقة فتتم في الداخل في الذات ، كيركجارد يؤكد هذا ، أما بردياييف ومارسيل فقد ذهبا إلى أنه رغم البعد الشخصي للحقيقة ، فهي تعتمد على جماعية الصدق .

الأب ماكوري لايتركنا ، فيتدخل منبها الى أن رفض الوجوديين للعقلانية خطر داهم يهدد الفكر الوجودي ، فقد يتحول إلى انفعال واقتناع شخصي بدلا من البرهان ، فيصبح الغموض عمقا ! والتيه مطلوب ازاء نقدهم للفكر المجرد ، لمجرد أنه يفصلنا عن الواقع .

إذن هذا هو الفكر عند الوجودي ، فكيف يتحول إلى فعل ؟ . . بالانفعال والقرار الذي يتضمن حرية الفعل والحرية عند سارتر لاتلحق بوجودي ، بل إن كوني إنسانا معناه أني حر . وهنا يأتينا صوت بردياييف رافضا كل الحجج التقليدية في حرية الارادة لأنها توضع الحرية ، بينما الحرية مسلمة مفترضة مقدما كشرط لوجودنا ، وليست موضوعا للبرهنة ، بل إنها موجودة قبل الفكر ، فلا إنسانية بلا حرية .

وتبدأ خطورة الرحلة فعلا . . . لكن مادمت معنا حتى الآن فلا مفر من استكمالها ، وعزاؤك أن لا كرامة بشرية بدون حرية .

إذن فالى التمرد ، والمتمرد كامي أمامك على الطريق يرفع راية الكفاح ضد المحرمات التي تقيد الحياة الأخلاقية ، فخذ قرارك من داخلك ، واستعد لتحمل مأساويته ، بل ستعاني لأن كل قرار تتخذه سيحد من الممكنات أما قراراتك المقبلة . وبل سينتابك القلق فتحاول إرجاء قرارك خشية الحرمان من بقية الممكنات . وبلى إنك لا ترجم بالغيب ، فكيف تلزم نفسك بظروف لم تتضح بعد دون قلق من المخاطرة ؟ ولكن سارتر ومارسيل يشيران اليك ، إن قرارك هو التزام بما ستختاره على المدى البعيد ، وان ما تختاره هو عين ذاتك ، لذلك ستسقط في ممكن دون آخر لكنك ستحدد ما ستكون عليه ، وهذه هي القضية .

بالطبع يمكنك الآن استنتاج أن الفعل الذي لا يتضح فيه قرارك الواعي هو فعل عبودية ، عبودية للعرف والعادة

والروتين ، ولن تتركك الضغوط الاجتماعية ، صحافة ، تلفاز ، إعلان وإعلام كلها تلتف حولك لتضعك في قالب نمطي ، فخذ حذرك فالقرارات اتخذت لك مقدما ، وعليك بالصحو والوعي لتختار وتقرر بنفسك .

من الفرد الى المجتمع

وإبان رحلتك الفكرية في كتاب الأب ماكوري ، تلتقي بمجرى مائي واسع يسبح فيه جميع الناس ، إنه التاريخ . لأن الوجود البشري نفسه موضوع التاريخ ، وامكان معرفة التاريخ انما تتاح بفضل التشابه بين التاريخ والوجود الفردي .

ولأن التاريخ مجرى يسبح فيه الجميع ، فقد كانت المشكلة التي تقلت اهتمام الوجوديين من الفرد إلى المجتمع ، والاهتمام بالتاريخ عندهم ليس اهتماما بالماضي ، انما للعثور على طريقنا في الحاضر والمستقبل ، من خلال دراسة الممكنات البشرية في التاريخ ، فالتاريخ يسترجع من الماضي الامكانات الأصيلة للوجود البشري ، التي يمكن تكرارها ، لكي يسقطها على المستقبل ، مع اتفاق وجودي على أن التاريخ لا يعرف الا بالاندماج فيه .

نيتشه هنا يشير إلى طرق ثلاثة للارتباط بالتاريخ : طريق المعالم الكبرى ، وفيه إمكان أن يوجد الشيء العظيم الماضي مرة أخرى ، والطريق الاثري ، وفيه يقف البعض ـ مثل حالتنا كعرب تماما ـ تقدم للماضي فروض الطاعة والتسليم ، سعيا وراء استقراء يمجد كل ما هو قديم لمجرد أنه قديم ، والطريق النقدي ، لكنه الطريق الذي يحتاج الانسان القوي الجريء ، الذي يقوم بوضع حد للماضي بل ويحاكم الماضي ويسائله بغير رحمة . واذا كنا ـ كعرب ـ نقف في الطريق الأثري ، فهل ثمة ما يمنع من اكتشاف الطريقين الآخرين ؟ ماكوري يؤكد أن الاستفادة مؤكدة من الطرق الثلاثة بحيث يصبح الماضي كاشفا للحاضر والحاضر كاشفا للماضي والآن نقف جميعا على الحافة الآنية من التاريخ ، ولحظتنا الآن في التاريخ مخيفة ، لا توازن بيئي ، نهب لموارد الارض يهدد بانتزاع الجانب الانساني في العالم ، فهل نستمر ؟ أم نعود إلى مرحلة ماضية من التاريخ ؟ هنا يصرح الوجوديون بعدم رفضهم لمجتمع التكنولوجيا ، لكن الرفض ينصب أساسا على تضييق نطاق الحياة الانسانية ، حتى أصبح الانسان مغتربا ، ولهذا يدعون إلى تدعيم الاحساس بانسانية الانسان ، وحمايته من المزيد من التآكل .

ولهذا أيضا يؤكد الوجودي أنه ليس فرديا بمعنى عدم اكتراثه بالتنظيمات السياسية والاجتماعية ولكن ليحتفظ لنفسه بحرية نقد أي حركة سياسية تقيد حريته بلا داع ، وتقلل من كرامة الانسان ، لذلك يعلن رفضه التحالف مع أي لون سياسي ، بل أن الوجوديين لم يخلقوا لانفسهم أيدلوجية خاصة وانما اكتفوا بالدفاع عن كرامة الانسان ضد جميع الانتهاكات السياسية ، ومن ثم اتبعوا أسلوبا آخر بكسر الدوائر الضيقة التي يحصر فيها الفلاسفة المحترفون أنفسهم ، ليمارسوا تأثيرا ثقافيا أوسع ، من خلال التعبير عن روح الثقافة أو نقدها ، لذلك كان أثرهم الواسع فعلا في علم النفس والتربية والادب والفن واللاهوت والاخلاق .

والأخلاق الوجودية في بلادنا هي محل الاعتراض ، حيث شاع أنها ترتبط بالانحلال والفوضى والخروج على الأخلاق ، لكن الوجودية حين ترفض التقيد الحرفي بالقواعد ، فذلك لأنها تنظر للقوانين كأشياء مفروضة علينا من الخارج ، تجبرنا على نمط محدد سلفا من السلوك ، وتمنع الفرد من تحقيق ذاته الفريدة الأصيلة ، كذلك هم لايدعون للفوضى والانحلال ، إنما يشجعون الموقف الأخلاقي الذي يتحدد تجاه الفعل الذي يجد فيه الفاعل نفسه ، أي أن الوجودية تعلي من شأن الموقف على القاعدة ، واذا كانت أخلاق الماضي تجلب الاستقرار ، فانها أيضا تجلب الركود ، أما أخلاق الموقف فتتجه نحو المستقبل وما هو جديد ، ويتحدد الفعل فيها آخذا في اعتباره هذا الجديد .

إلى هنا توشك الرحلة على الانتهاء ، وفي الزمن المتبقي للخروج من الجهة الاخرى ، يتطوع الأب ماكوري بعرض أهم ما وجه للوجودية من انتقادات : كونها ذات إتجاه لاعقلاني ، كونها متشائمة ، كونها لاتكترث للاخلاق الموروثة ، كونها سلبية . لكنه يذكر بأن لكل مذهب جوانب ضعفه وسلبياته ومبالغاته ، ومن ثم يشير الى ما أعطته لنا من استبصارات جديدة عميقة حول وجودنا البشري ، بتدعيم الموقف الانساني في مواجهة ما يتهدده وما قدمته من معايير تفسر بها أحداث العالم المعاصر ونقومها .

وفي نهاية الرحلة يفاجئك الأب ماكوري بابراز هويته ، هوية مكتوب عليها : أنا لا أنتمي لهذه العائلة ، أنا لست وجوديا ؟ ! ○

سيد محمود القمني

رسالة إلى صديق



بقلم : عبد الرزاق البصير

يسرني ايها الصديق العزيز أن تضحك بملء فيك ، فاني اذا استطعت أن أدعو الضحك اليك في هذا الاقتراح الذي أتقدم به والذي لم أر بأسا في أن أنشره بين الناس ، والذي ربما أضحك من يطلع عليه ، اني اذا استطعت أن افعل ذلك فاني أكون قد صنعت شيئا أشكر عليه . لأن الضحك الحقيقي في هذه الايام معدوم ، أو أنه نادر على الاقل ، فان ما يلقانا من أحداث فيما نشاهد وفيما نقرأ وفيما نسمع ، لابد وأن يبعدنا عن الضحك أشد البعد ، ويقربنا من الحزن كل القرب وغير خفي عليك ان في الضحك الحقيقي منافع كثيرة تحدث عنها علماء النفس وأطالوا الحديث ، ثم انني لست بحاجة الى أن أورد ما تحدث به علماء النفس عن الضحك ، لأن منافعه واضحة محسوسة يشعر بها كل أحد . فلنشرع الى تقديم هذا الاقتراح الذي أخذ يلح على الرغم مما اشعر به من سأم وملل ، لأتخفف منه ، سيما وانا قد قدمت بأنه اذا كان فيه ترفيه عن النفوس فانه حسبي وفيه الكفاية ، أما هذا الاقتراح فانه يتلخص في :

أن تنشيء جمعية تطلق عليها (جمعية استرداد الحقوق) يوضع لها قانون يتألف من عدة مواد حسب ما يتوصل اليه الاعضاء حين يفكرون في انشائه ولست أخفي عليك أيها الصديق بأني أتصور أن جدلا طويلا سينشأ بين الاعضاء حين يفكرون في مواد هذا القانون ، وذلك ان لفظة الحقوق تعني معاني واسعة كثيرة ، يخطئها العد والاحصاء ، اذ ان هذه اللفظة تشمل جميع نواحي حياة الانسان على هذه الارض ، فما من ناحية من نواحي الحياة الا وتنطبق عليها هذه اللفظة . لك أن تتصور مثلا حياة الاسرة ألا ترى أن فيها حقوقا وواجبات ، ولقد ضربت لك هذا المثل عامدا متعمدا لأنه أمر يواجه الانسان عند أول يوم يأتي فيه الى هذه الحياة التي ليتنا لم نأت اليها . وقد عرف الانسان بغريزته وهو طفل أن له حقوقا على من يرعاه ، سواء كان

من أسرته أو من غير أسرته ، لهذا نجده يحتج بكل شدة على كل من يتأخر عن إعطائه ما يحتاج اليه ، ويتمثل هذا الاحتجاج في البكاء الذي لا يكاد يبلغ اسماع من يربيه حتى يبادر الى تلبية رغبته . وحقوق الانسان في أول نشأته قليلة يسيرة لا تكلف من يرعاه الا الهيّن من الامور لكنها تأخذ في الاتساع والتكاثر حتى تتفرع الى فروع كثيرة متشعبة ـ أطلقنا على كل فرع من فروعها اسما من الاسماء ، ثم لم يلبث هذا الاسم أن أصبح علما من العلوم ، فهناك الصحة والتربية والاقتصاد والاجتماع وما الى ذلك من الأمور الكثيرة التي لا تحصى .

ولا تسل عما كتب في هذه العلوم من كتب ودراسات وبحوث تخصص فيها المتخصصون ونالوا بها أعظم المناصب وأعلى الدرجات ، منهم من نالها بحق ، ومنهم من نالها بغير حق .

اذن فالجدل بين الاعضاء المؤسسين لهذه الجمعية المقترحة سيطول ويمتد الى ما شاء الله عندما يجلسون ويفكرون في وضع قوانينها . فلا بد لي ولك من أن نطيل التفكير في أوصاف الاعضاء المؤسسين لتلك الجمعية ، وأولها على ما أظن أن يكون العضو واسع الصدر ، هاديء الطبع ، عميق الثقافة ، لنتصور في أن ما يجري بينهم من حوار سيثري العقول أعظم الاثراء . اذ ان ذلك الحوار سيكون شبيها بأسلوب افلاطون في جمهوريته ، والفارابي في مدينته الفاضلة ، وهو اسلوب جرى عليه كثير من الفلاسفة ، وانت يا صديقي حيث تقرأ هذه الكتب التي ترك أصحابها العنان لعقولهم الصافية فانك لا تسأم من الاستمتاع بها .

وقد تسألني ايها الصديق . . ما الذي دفعني الى التقدم بهذا الاقتراح الذي يثير الضحك في هذه الفترة الذي أصبح جنون القتل شائعا فيها ، أوليس ذلك أمرا يثير الضحك . . ؟

وأجيبك أني لا انكر بأني قد قدمت في أول هذه الكلمة ، بأن كل ما يستطيع أن يثير الضحك في الناس بانه يصنع شيئا يشكر عليه . وأضيف الى ذلك أن هناك أمرا آخر دفعني الى تقديم هذه الدعوة ، وهو أن آذاننا وعقولنا شبعت من ضجيج أقلام الشعراء والكتاب بأصواتهم الكثيبة من انتهاك الحرمات وهدر الحقوق ، ومن يدري . . . . فقد تكون هذه الجماعة قادرة على تعيين الحقوق وايضاحها ، فان هدر الحقوق أصبح ميدانا سهلا خاض فيه المخلصون وغير المخلصين .

وأخشى ايها الصديق أن تقول بأن وطننا العربي الكبير لا سيما مشرقه قد شهد في مطلع هذا القرن جماعات عديدة قاموا بنشاط واسع كان له اكبر الاثر على جماهير غفيرة غير أننا لم نحصد شيئا من هذا النشاط ، وجوابي على ذلك أنني أعلم بأن كثيرا من الناس يميلون الى هذا الرأي . الا أن لي تحفظات عليه يمنعني من الحديث عنها بالتفصيل خوف الخروج عن القصد ، وأنا أريد أن أجمله بأن ما ذكرته من رأي حول نشاط تلك الجماعات ينطبق على الميدان السياسي وهو ميدان متقلب بين المد والجزر ، ومن الواضح اننا في حالة جزر شديد ملأ

قلوبنا يأسا وقنوطا كادا ينسياننا كل شيء» وعلى كل حال فان الدعوة التي أتقدم بها اليك ـ وانني ارجو أن يشترك معنا فيها البعض ـ تخص الناحية الفكرية . وفي اعتقادي أنك تشاركني الرأي في أن هذه الناحية مظلومة ظلما عظيما بدليل ابعاد اصحابها عن دورهم ، واني لآمل من هذه الجماعة أن تجيب على هذا السؤال الذي أخذ يلح على منذ مدة طويلة وهو !

ما هي حقوق المواطن وما هي واجباته ؟

أريد ان تجيب عليه جوابا صريحا لكي يعرفه الجميع . ومن المحقق عندي أنك تدرك أن لهذا السؤال البسيط خطورته العظيمة . بل انه من أخطر الأمور فيما أتصور ، فنحن حين نتأمل معظم النشاط الفكري للانسان نجده يدور حول ذلك السؤال ، اذ أن جماعة من المفكرين اعتقدوا أن نشاط الفرد ينبغي ان يكون جزءا من نشاط المجتمع . ولقد آمن اولئك المفكرون بهذا الرأي ايمانا لا يشوبه شك أو توقف ، فكتبوا في ذلك الكتب ونشروا المقالات فاستطاعوا أن يجتذبوا اليهم أناسا كثيرين . واذا بهؤلاء الناس يسعون سعيا حثيثا لنشر هذه الفكرة بين اناس آخرين واذا بهم ينجحون اعظم النجاح حتى بلغ من عظم نجاحهم أن دولا كثيرة ارتكزت في مسيرة حياتها على تطبيق هذه الفكرة . وهذه الدول أصبحت تؤلف نصف سكان العالم على وجه التقريب ، أما النصف الآخر فان الكثير منه يرى أن ما على الفرد من حقوق وماله من واجبات هي الاساس الذي ينبغي أن يسير عليه الانسان ، ولقد نشأ من هذا الاختلاف صراع خطير واسع يتمثل في التسابق على القوة ، وفيما نشهده من نشاط في عالم الفكر والسياسة والاقتصاد . حتى أصبح لكل مذهب من هذين المذهبين عالم قائم بذاته له أدباؤه ومفكروه وزعماؤه وعلماؤه وجيوشه ، اذن فالسؤال الذي أود أن تجيب عليه تلك الجماعة له اهميته العظمى . على ان هناك الكثير من القضايا الفكرية ، يحسن بهذه الجماعة أن تطيل التفكير فيها وأن تجري حولها حوارا قد يمتد ويتسع ، ولكنه سيكون حتما حوارا خصبا ينتفع منه العقل البشري أعظم الانتفاع . على شرط أن ينشر هذا الحوار بين الناس ○

عبد الرزاق البصير

رواية الأديب الفلسطيني يحيى خلف

تفاح المجانين

أو تحولات بدر العنكبوت

بقلم : محمود الريماوي

تبدو رواية يحيى يخلف « تفاح المجانين » في قراءة عابرة أشبه بمجموعة من حكايات الطفولة ، التي وان جمعها خيط خفي واه ، فانها تظل حكايات متناثرة تتغير فيها المواقف وتختلف الأحداث ، لكن الاشخاص يتكررون هم أنفسهم ، ربما لتثبيت صورتهم في الأذهان .

ويستمد هذا الانطباع الأول بعض الوجاهة ، بما تحمله الرواية من مواقف طريفة ولقطات كاريكاتيرية تقترب من التصورات الطفولية . كمشهد حمار اعتاد الأطفال الهزء منه وينقلب فجأة من حالة الهدوء والدعة والخمول ، الى حالة من الجموح والهياج والعنفوان ، اذ يذرع شوارع البلدة على حين غرة ، بسرعة خاطفة تثير الدهشة والذعر بين الناس . أو بما تتضمنه الرواية من توظيف لعنصر الخرافة ودورها في توجيه اختيارات الناس وتحديد سلوكهم ، كما هو الشأن في القصص الخرافي للاطفال . ويتعزز هذا الانطباع مرة أخرى في كون الرواية مكتوبة بـ (منطق) وأداء شديد القرب من منطق الطفولة الذي يكسر حواجز الزمن ويلغي الحدود بين الحسي والتجريدي . الراوي ولد يتحدث عن نفسه وعن جاره وصديقه الولد . والاسماء طابعها طفولي . البطل هو بدر العنكبوت (الحشرات) .

الدكتور اسمه باز (الطيور) . الجار يحمل اسم تحصيل دار (اسم ذو أصل تركي لجابي الضرائب . وتركيب الاسم بالعربية يوحي بركاكة طريفة) . بائع السمك يعرف بلقبه المشط (كناية عن كونه قصيرا) .

هكذا يحيل القارىء هذه الرواية القصيرة التي تقل صفحاتها عن المائة ، الى نسيج شفاف من حكايات الطفولة الأسرة ، التي تختلط فيها المعاناة بالمسرات ، والاخفاق بالانتصارات وحيث يجري تمجيد شجاعة الطفل أمام الكبار ، مع سعيه الحثيث لكسر طوق الطفولة ، والضعف الى أن ينجح أخيرا في اكتشاف مثله الأعلى ، المتمثل في خاله العائد بعد غياب . ثم لايلبث أن يغيب مرة أخرى .

شجرة التفاح الغريبة

« كان صيفا جافا قاحلا . هام بعض الناس في البراري وأكلوا من ثمرة تفاح المجانين فاصابهم مس وقاموا بأفعال جنونية ، دبت فيهم قوة مؤقتة فدحرجوا الصخور واقتلعوا الأشجار من جذورها وأحدهم صارع ذئبا ولوى عنقه . كان أهلنا يحذروننا من الاقتراب من هذه الاشجار الشوكية الجافة التي كان مرآها يملأ النفس رعبا ، ويقولون بأن من يأكلها يصيبه الجنون ولا يكون مسؤولا عن أفعاله ، ويقولون أيضا بأن من يأكلها تصبح له قوة الاسود ودهاء الثعالب وزهو الطواويس وكبرياء النسور . وقد يدفعه ذلك الى القيام بأعمال جنونية وعلاج الممسوس في المراحل الأولى يكون بفصد دمه . . » (ص٣٨) . يتضح من هذا المقطع أن شجرة التفاح المقصودة هي احدى الأشجار السامة التي تحمل ثمرا له لون أو شكل التفاح ويصيب هذا الثمر آكله في البداية بهيجان شديد تعقبه حالة تسمم خطرة تقضي بفصد الدم لاخراج السم . انها شجرة ملعونة يتجنبها الراشدون والعقلاء لكن أطفال البلدة ومنهم الراوي وصديقه بدر العنكبوت يجذبهم السحر الطاغي لهذه الشجرة . فهم فقراء الحال يشكون الفاقة والهزال ، وازاء هذا تبدو الشجرة أو ثمارها بمثابة الحل السحري



الذي يحرق المراحل وينقل الطفل دفعة واحدة من عجز الطفولة ومحدوديتها الى قوة ورحابة عالم الرجولة . وعجز الأطفال لايرجع هنا الى أعمارهم القصيرة بل لبؤس الحياة التي يعيشون ، فهم يسكنون في حوش واسع . حوش يغص بالمستأجرين ، امرأة ترضع طفلا من ثديها الضامر ، وأخرى تغسل الملابس ببقايا صابونة تكاد تتلاشى . رجال يعبرون عابسين يجرجرون أقدامهم . رجال عاطلون ، حوش يمتلىء بحبال الغسيل والملاقط والذبول والانكسار (ص ١٢) .

في هذه البيئة التي تنخفض فيها فرص الحياة والطمأنينة والأمل يشب الأطفال يرتشفون الفقر ببطء وعمق مع قطرات الحليب ويتقصون البؤس مع فتات الخبز ، ومن عيون الأهل الكليلة ومن قساوة شاويش المخفر . وعنجهية الفورمن (أحد رجال مشروع النقطة الرابعة الأمريكي ، وهو مراقب العمال) ومن نكد الحاجة أم أمين صاحبة الحوش . ومن اهانات المدرّسة الست انجيل (مدرسة الارسالية) . ومن ابتزاز وارهاب زوجة « الفورمن » بجمالها الصاخب وثرائها الفاحش وتميزها الصارخ عن نساء الحارة ، في هذه الظروف التي عاشها بدر العنكبوت وصاحبه الراوي بعد سنوات من الخروج أو الهجرة ، بدأ البطل الصغير يبحث عن سر القوة ومصدرها ، في البدء أخذ يتعلم الملاكمة ورفع الأثقال حتى تصبح له قوة ثلاثة أحصنة وأربعة ثيران . الى أن جاء الى الحارة شمشون الجبار برفقة النوْر (الغجر) . لم يكن منهم لكنه جاء معهم . رجل طويل بعضلات مفتولة ولحية طويلة وقام بالعاب خارقة كسروا صخرة فوق بطنه ونام على سرير من المسامير .

كان بدر العنكبوت يحدق فيه مذهولا ولعله كان يفكر بالعملقة وبفعل الخوارق . هكذا تبدأ رحلة الفتى في اكتشاف مصادر القوة والسعي الى امتلاكها وتجسيدها يعززها شعوره المتنامي بفداحة البؤس المتمادي حوله وتقدمه في العمر سنة بعد أخرى .

ثمرة كأنها قنبلة

في احدى الليالي استدعى والد بدر تحصيل دار الى المخفر بطريقة مهينة لأمر يتعلق بمظاهرة جرت في اليوم ذاته . وفي صباح اليوم التالي سحبت المدرسة « ست انجيل » بدر العنكبوت من اذنه لأنه كان بلا منديل ولأنه متسخ الرأس والأظافر ولم يكن يحمل حقيبة كتبه طلبت منه أن يرفع ذراعيه الى أعلى . فما كان منه الا أن كسر مسطرة المدرسة وهرب من الخيمة هرب بعيدا الى البراري وجعل هناك يفكر بطريقة ينتقم فيها من شاويش المخفر ، يقول الراوي « . . كانت الاشجار الحمراء الوحشية تصهل وتزأر وتنفجر ، ثم تعيد تكوين نفسها . قفز من مكانه ودفعني نحوها ثم قطف واحدة وناولني اياها . ارتجفت يدي كأني أحمل قنبلة ، صاح بدر العنكبوت كلها والا لن تعود صديقي . أكلتها دفعة واحدة وفي الحال تحولت الى جمرة . ناولني ثانية وثالثة فصرت سفودا أحمر يقترب من درجة الذوبان ثم أحسست أني أتحول من ماء الى بخار . ومن حولي كان البرقوق يتحول الى عيون أبقار وكان نبات عرف الديك الذي يتوج رأس تلك الطيور الصلفة ينبت على كتفي وعلى رؤوس أصابعي » (ص ٤٨)
هكذا عبر الصاحبان التجربة القاسية وقد امتطيا الخرافة (الأجنحة الشمعية) محلقين الى الأعالي فوق صخور الواقع الصلدة وأشواكه الحادة يعمرهما الشوق ويملأهما الشوق لبلوغ آفاق الحرية والتجاوز . ولكن أجنحة الخرافة أشبه بأجنحة شمعية لاتلبث أن تذوب في وهج شمس الحقائق ! .

على هذا النحو تدفعها الظروف البائسة الضاغطة الى محاولة كسر شروط الواقع بأسلحة الواقع الفاسد ذاته . فترتد التجربة المريرة عليهما . فاذا بهما من جديد يفتحان عينيهما على وسعهما بغية اكتشاف وسائل أجدى للعملقة ، خارج معطيات الواقع الخادعة ، بعد أن أدركا ، بجسديهما ، عقم التجربة . الا أنه لم يكن أمامهما أن يخترعا مصدرا للقوة من بنات الأفكار » ، أو أن يسعيا لنموذج جاهز من خارج ، كان عليهما فقط مع دبيب الوعي المبكر والحماسة المرهفة أن يعمدا الى التمييز والتدقيق بين ما هو ميت وما يبعث الحياة . . بين عوامل

الانكفاء والضعف والتسليم ، وعناصر المبادرة والقوة والفعل ، في بيئتها ومحيطها الانساني والاجتماعي .

حتى دخل الى حياتها الخال عمران (خال الراوي) . دخل عبر رسالة تلقاها الوالد منه ، عن طريق الصليب الأحمر الدولي ، ذلك أن عمران مسجون في اسرائيل . ووصلت رسالة ثانية وثالثة من الخال وكانت الأحاديث تدور في الاماسي ، حول الذكريات الحية الدافئة لعمران ومن سبقه من مجاهدين . الرسالة الأخيرة حملت خبر اقتراب موعد الافراج عن عمران وابعاده . حتى خرج الخال حقا بعد شهرين . وبحث الوالد عن كفيل يمضي (إمضاء) كفالة بمائة دينار لاخراج الخال من المخفر . ولكن هيهات ! من أين مع الفقر الذي لم يترك دينارا في الجيوب ؟ عند ذاك سرح بدر العنكبوت في الشوارع ، غاب وغاب حتى خيل اليه أنه ذهب الى البراري وتساءل : كيف يكبلون أيدي الجبال الشاهقة ، كيف يشدون وثاقها . كيف يحبسون الفضاء الواسع . كيف . . كيف ؟ ثم استعانت الوالدة شقيقة الخال بزوجة القورمن لاقناع زوجها بكفالة الخال .

ولكن . . أين البندقية ؟

وتنعطف الأحداث مرة أخرى : يقع العم تحصيل دار (والد بدر) صريع المرض ويموت . يبكي بدر بصمت ثم بصوت عال : اذا لم يبك الفتى والده فمن يبكي اذن ؟ . وخرج بدر العنكبوت من خيمة الأحزان باحثا عن فضاء . أما الخال فعاد في المساء ملطخ الثياب بالقار والزيت بعد أن وجد عملا في رصف الطرق فتساءل بدر : يجوع الفدائي ويأكل التراب والحشيش والأفاعي ولا يشتغل مثل هذا الشغل . وذات يوم وجد بدر قطع حديد غريبة الشكل جاء بها الى البيت واجتهد بائع السمك المشط بأنها نوع من القنابل . ضحك الخال وقال انها (بواجي) سيارات . فأعرب المشط عن خجله لأنه بلغ هذا العمر ولا يتقن استعمال السلاح . وتمنى على الخال أن يشرح له كيفية استعمال البندقية فتساءل هذا : ولكن أين البندقية ؟ ثم حمل الخال قلم رصاص وأخذ يرسم بندقية . رسم فوهة . الماسورة . القبضة . كتلة الترباس . الأخمص . النابض الزناد . رسم الفرح والدهشة . رسم الفضاء والمسافات الشاسعة . رسم الرمال وقطرات المطر وفي النهار التالي عكف بدر على صنع بندقية خشب وأخذ يعلم أولاد الحارة صنعها بعد أن بدأ واضحا انه اكتشف سر القوة . . لم تكن هذه الأحداث هي وحدها التي أعقبت موت تحصيل دار فقد كان أمام عائلته ان تقي نفسها شر الفاقة اذا ما جرى شطب اسم الرجل . ووكالة الغوث من جهتها كانت تسعى آنذاك الى تقليص عدد المسجلين في احصائياتها لاذابة الناس خارج هويتهم ، حتى وقع الاختيار على الخال للعب دور تحصيل دار عندما تأتي لجنة الاحصاء لتحصي النفوس . ويالة من دور ! كان عليه أن يحني ظهره ليبدو شبيها بالمرحوم . . ليبدو هو نفسه . . . وما أن وصلت اللجنة حتى شحب وجه الرجل . فشلت التجربة بطريقة مؤلمة وبدا كما لو أن كبرياءه تحطمت فقد أخطأ مرتين : مرة عندما قبل لعب هذا الدور الذي يتناقض مع مبادئه . ومرة عندما أخفق في اتقان الدور وحرم العائلة من بطاقة الاعاشة ، فخرج من البوابة الكبيرة باحثا عن الفضاء والهواء والندى ركض الى البراري وركض المشط وراءه وبدر وراءهما ووجدت نفسي أركض وراءهم أيضا يقول الراوي :

ولم يستطع أحد اللحاق به . كانت البراري صافية ، وأوراق الشجيرات الوحشية أخذت تتساقط والثمار بدأت تذوي وتجف .

رصد للتحولات

تبدو هذه الرواية من القراءة العابرة كما ذكرنا في البداية أشبه بمجموعة من حكايات الطفولة المتناثرة . الا أن قراءة أكثر دقة للرواية (وهي الثانية لمؤلفها بعد نجران تحت الصفر) تكشف أن هذا العمل . يرصد التحولات التي طرأت على قطاع كبير من المجتمع الفلسطيني ، عقب الهجرة وحتى تجدد الكفاح المسلح في مرحلته المعاصرة . عين الطفولة البريئة النافذة هي التي ترصد هذه التحولات . كما تسجل انعكاسها على جيل جديد ولد وشب بعد هجرة ١٩٤٨ ولم يمتد به الوقت حتى يلتمس الطريق الصحيح الى وطنه .

. . واذا كان آدم وحواء قد طردا من الفردوس بعد خطيئة تناولها للتفاحة المحرمة فان تناول الجيل الفلسطيني الطالع لتفاحة الخرافة ، والحلول السريعة والسحرية قد

أدى الى بروز وعي مبكر يتلمس الطاقة الذاتية لأداء الفعل . واستنهاض قوى سائر أبناء الحارة » . للسير على طريق الخال عمران .

هكذا تحمل الرواية أكثر من مستوى للقراءة : فهي على مستوى أول مغامرات طفولة شقية وشيقة معا ، الأولاد يشبون بين مظاهر البؤس . لكن قوة الحياة الكامنة فيهم تدفعهم الى التمرد باشكال مختلفة . وعلى مستوى ثان فان الرواية تتابع عبر النقاط والتفاصيل وإضاءتها ، كل التحولات التي تصيب الحارة وأبناءها بعد صدمة الهجرة واكتشاف الواقع المر للمنفى .

على صعيد آخر : تكشف الرواية في مستوى أول مظاهر الغربة . والحنين الوطني الخفي ، والشعور بفقدان تقاليد الحياة الوطنية ، أمام ظروف لاترحم ، ويظل هذا الهاجس ينبت وينمو ببطء . كأنما تحت الجلد ، حتى يطل الخال عمران (وهو هنا فدائي يمثل مرحلة أوعقدا سابقا من النضال) . . وعندما يطل ينكشف المخبوء وتتفجر المشاعر الكامنة ، وتنثال أحاديث الذكريات ، وتتجه الأعين والأفئدة مرة أخرى صوب الوطن .

الى جوار هذا الهاجس الوطني ، يتولد وعي اجتماعي من خلال الصراع ضد الظروف البائسة ومسببيها . ويبدو التزاوج بين الشأن الاجتماعي والوطني حيا وعضويا . فالفورمن (مراقب العمال في المشروع الأمريكي) والشاويش حسن . والست انجيل (مدرسة الارسالية . .) هؤلاء معا يقومون بأدوار متكاملة في الضغط على أبناء الحارة وتهديدهم في رزقهم وكرامتهم الوطنية وفي غمرة الصراع مع هذه القوى يظهر الخال عمران بعد الافراج عنه . لكن هذه القوى تعمد الى تكبيل عمران من جديد بمعاملة كخارج على الأمن . ثم دفعه الى سوق العمل البائس الذي يستنزف قواه البدنية والروحية .

. . من نافل القول أن الرواية نجحت في حمل قضية وطنية دون الانزلاق الى الدعاية السياسية والأيديولوجية . كما برع كاتبها (وهو الأمين العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين) في رسم أشخاص أحياء . من لحم ودم وأعصاب وأحلام ، وتجنب تنصيب نماذج وأنماط جاهزة تمثل البؤس أو الشجاعة . كما حقق لروايته لغة شعرية رقيقة تنبثق من داخل العمل الروائي ، وتشيع في ثنايا المواقف والاحداث ، ولا تلتصق بالعمل كحلية بديعية خارجية وفي العرض الذي قدمناه غير مقطع يكشف هذا الحس الشعري المرهف أو الذوق الشعوري المتميز .

وبعد هذا العرض « للايجابيات » الكبيرة في العمل تبقى ملاحظتان . الأولى : حول عودة الخال من السجن . لقد بدا الأمر في الرواية ، كما لو أن الكاتب استدعى « الخال ليملأ » فراغا في الحارة ولينهض الهمم . فماذا لو أنه لم يفرج عنه ؟ . لقد انطلقت شرارة الكفاح كما هو معروف من « المنفى » من تجمعات الفلسطينيين في الخارج الذين استأنفوا كفاح آبائهم ، وأجدادهم في الوطن .

وهكذا فان مجيء عمران جاء أشبه بـ « حيلة » للتدليل على نضج الخيارات التي بلغها الراوي وصاحبه بدر وتشبيههم السريع به أضفى على العمل مسحة تعليمية « أضعفت قوة الايحاء في العمل .

الملاحظة الثانية : تتعلق بنزوع العمل في بعض المواقف الى المبالغة والتشهير الأيديولوجي اذا صح الوصف . اذ لم يكتف العمل بأن جعل زوجة الفورمن على جانب من الجمال الصارخ والثراء الفاحش (رغم أن زوجات الأثرياء ليس من المحتم أن يكن فاتنات في سائر الأحوال) ولكنه أضاف الى ذلك أنها تقدم جسدها بسهولة . . وأين ؟ في بيئة محافظة كـ « الحارة » موضوع هذه الرواية . وتكتمل المبالغة عندما تختار الخال لتعطيه جسدها ، فهل أن صورة الفدائي العامة هي النموذج الذي يجذب النساء ويفتنهن من اللحظة الأولى ؟ . هل هذا تحليل واقعي لشخصية الفدائي الذي هو في حقيقة الأمر أكثر النماذج طبيعية واعتيادية في مجتمعه ؟

كذلك الأمر مع الست انجيل التي بدت نموذجا صارخا للاستعلاء والقمع التعليمي !وحتى على فرض صحة ذلك واحتمال وجوده في الواقع ، فقد كان الاقرب الى المنطق تقديم صورة أقل اختزالا وابتسارا ، لا الاقتصارعلى استغلال السمعة الايديولوجية السيئة لمدرسة الارسالية .

هاتان الملاحظتان (أو المؤاخذتان) على الرواية لاتقللان بالطبع من جودتها وتميزها ، فبالاضافة الى ماسبق ذكره من ملاحظات ايجابية فان هذه الرواية تحمل قدرا كبيرا من الامتاع وتعيد قارئها الى العناصر الأولى للادب القصصي وأهمها الامتاع ، حيث تجري اعادة انتاج الواقع في الأثر ، ولكن بعد تحريره من ربقة عاديته اليومية وبعد استبعاد الآراء والتصورات السابقة ذات الطابع الفكري ، مع التركيز على العواطف البشرية الأساسية ومفارقات الحياة الكبرى ذات الدلالة . ○

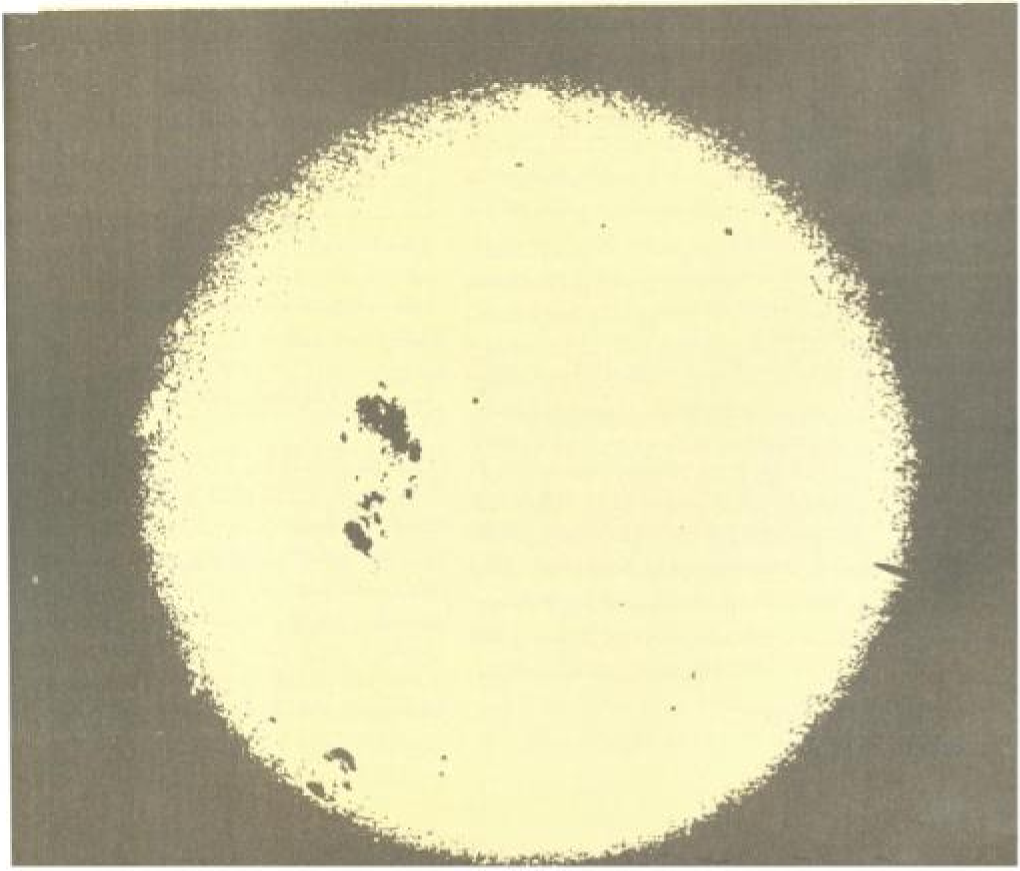
محمود الريماوي

اشترك في كتابة هذا المقال للعربي كل من الدكتور عبد القوي عياد بقسم الفلك في جامعة القاهرة ، والدكتور جوزيف كيزك بمرصد اندريوف في تشيكوسلوفاكيا

الشمس مفاعل نووي هائل لخدمة البشر

بقلم الدكتور / عبد القوي زكي عياد

والدكتور / جوزيف كيزك



الشمس كرة كبيرة من الغازات الساخنة تزيد في حجمها ملايين المرات عن كرتنا الأرضية . وما هذا القرص اللامع الذي يملأ الدنيا بالضوء من حولنا ، إلا نجم عادي ضمن ملايين النجوم الأخرى التي يتابعها الفلكيون من مجرة سكة التبانه ، ذلك الحزام اللامع والممتد خلال سماء الليل . إلا أن جميع النجوم الأخرى بعيدة جداً عنا لدرجة أننا نراها كنقط ضعيفة الاضاءة حتى بأكبر المناظير . ويحتاج ضوء تلك النجوم عدة سنوات حتى يصل الى الارض . أما ضوء الشمس فيصل الينا بعد مغادرة سطحها بثماني دقائق وعشرين ثانية فقط . لهذا فإن الشمس أقرب الينا عدة ملايين المرات عن النجوم الأخرى . ومن هنا أيضاً يأتي إحساسنا باشعاع الشمس وبمظهرها كقرص كبير في السماء . وتفوق الشمس في الأهمية بالنسبة للحياة على سطح الأرض ما يزيد على ١٥٠ بليون نجم أخرى في مجرة سكة التبانه وحدها . والمجرات الأخرى بعيدة جدا بحيث يقل تأثيرها عن نجوم مجرتنا .

٢ كيلو وات للفرد

وشمسنا ، شأنها في ذلك شأن النجوم الأخرى ، عبارة عن مفاعل نووي كبير . ففي أجزاء الشمس المركزية ، وعلى عمق ٦٥٠ ألف كيلو متر من السطح يتحول كل ثانية حوالي ٥٠٠ مليون طن من نوى الهيدروجين الى نوى الهليوم . ولا مجال هنا ، حيث درجة الحرارة بالملايين ، للحديث عن الذرات وإنما عن خليط من النوى والاليكترونات . وخلال تلك العملية من الاندماج النووي تتحرر كل الطاقة الشمسية ، أي كل ثانية ٣٨٠ تيراتيراوات (١) . ويطلق على هذه الكمية لمعان الشمس .

ومن مركز الشمس تنتقل الطاقة المتحررة على شكل إشعاع كهرو مغناطيسي في اتجاه السطح الذي يطلق عليه اسم الفوتوسفير أو الكرة المضيئة .

ومن الكرة المضيئة (الفوتوسفير) يتم إشعاع طاقة الشمس في الفضاء المحيط . وقليل جداً فقط من إشعاع الشمس هو الذي يصلنا على سطح الأرض . فلا يزيد هذا النذر اليسير عن جزء أو اثنين من بليون جزء من الاشعاع الشمسي كله أي ١٨٠ ألف تيراوات . وبرغم صغر هذا الجزء فانه يمثل فيضاً هائلاً إذا قارناه باستغلال البشرية من الطاقة . ذلك أن كمية الطاقة التي يستعملها الانسان تبلغ ٨ بلايين كيلو جول أو ٨ بلايين كيلو وات لكل ثانية ، أي ٨ تيراوات لكل ثانية . فإذا قسمنا هذه الكمية على ٤ بلايين آدمي يعيشون فوق هذا الكوكب لاتضح أن نصيب الفرد في المتوسط هو ٢ كيلووات . ويزيد معدل الاستهلاك في الدول الصناعية عن هذا المتوسط ليصل الى ١٠ كيلووات بينما يقل عن ذلك في الدول الفقيرة جدا ليصل فقط ١و . كيلووات .

وإذا كانت الأرض كما ذكرنا تتلقى من الشمس ١٨٠٠٠٠ تيراوات بينما كل البشرية تستهلك فقط ٨ تيروات فانه يبدو جليا أن الشمس تعطينا من الطاقة حوالي ٢٢ ألف مرة أكثر مما نحتاجه . لهذا فإن الطاقة الشمسية تعد أكثر من كافية لتغطية احتياجات الانسان على هذا الكوكب . بل وأكثر من ذلك فإن الاشعاع الشمسي مصدر لا ينضب للطاقة . فقد قدر الفلكيون أن الشمس بها هيدروجين في الجزء المركزي يكفي لانطلاق الطاقة بالمستوى الحالي لأطول من خمسة بلايين عام أخرى .

والشمس مصدر نظيف للطاقة ، نظرا لأنه لا يسبب أي تلوث للبيئة كما هو الحال في مصادر الطاقة الاخرى (كالفحم والزيت واليورانيوم . . . الخ) . وليس هناك شك في أن الشمس سوف تصبح أهم مصدر للطاقة للأجيال القادمة . ومن دراسة توزيع الاشعاع الساقط على سطح الأرض يمكننا أن نتبين أن البلاد العربية غنية جداً بالطاقة الشمسية .

(١) تيرا = مليون بليون

وقبل أن ندخل في بعض الاستخدامات العملية للطاقة الشمسية يجدر بنا التذكير بأن كل مصادر الطاقة التي نستخدمها حاليا (باستثناء مفاعلات الاندماج النووي والطاقة الحرارية الأرضية) مصدرها الشمس . فطاقة الرياح ، وطاقة الماء والزيت والفحم والغاز الطبيعي والخشب وقوة الحيوانات ما هي الا إشعاع الشمس الذي تحول واختزن في صورة أو أخرى .

تحويل الطاقة الشمسية

وتأتي الطاقة الشمسية من الشمس في صورة اشعاع . فعلى كل متر مربع خارج الغلاف الجوي الأرضي يسقط حوالى ١,٤ كيلووات ، وهذه الكمية هي ما يسمى بالثابت الشمسي . وشدة الاشعاع أقل من ذلك بالطبع على سطح الأرض بسبب فقد الاشعاع بالامتصاص والانعكاس جزئياً أثناء مروره خلال الغلاف الجوي الارضي . وأثناء الليل لا يصل اشعاع الشمس الى الجزء المظلم من سطح الارض . وبرغم ذلك فان الاشعاع الكلي الواصل الى الارض على متر مربع من الصحراء الكبرى أو شبه الجزيرة العربية خلال عام يبلغ ٢٠٠٠ كيلو وات ساعة ، أو ٨٢٢ جول كل ساعة . ومساحة الصحراء الكبرى وحدها تبلغ حوالي ٧ ملايين كيلو متر مربع . ومن هنا يسهل حساب أن جزءا صغيرا من الصحراء (مليون كيلو متر مربع مثلا) سوف يكفي لانتاج ٥٠ تيراوات من الكهرباء اي اكثر ٦ مرات مما تحتاجه البشرية في الوقت الحاضر .

ويصعب تخزين الطاقة الشمسية أو استعمالها مباشرة ، لذلك لا بد من تحويلها الى صور أخرى من الطاقة نحتاجها في الصناعة والنقل والزراعة واستهلاك المنازل . فنحن نحتاج طاقة حرارية وطاقة كيماوية وطاقة كهربائية وطاقة ميكانيكية . وللتوضيح نعطي هنا بعض الأمثلة على تحويل الطاقة الشمسية الى صور اخرى .

● تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة حرارية : بسقوط أشعة الشمس على جسم داكن اللون يتم امتصاص الطاقة الشمسية ، أي تتحول الى طاقة حركة لجزئيات الجسم الداكن اللون أي يزداد محتواه الحراري فترتفع درجة حرارته .

وفي الطبيعة من حولنا نلاحظ أن عملية الامتصاص من الأمور الشائعة . فحوالي ١٢٠٠٠٠ تيراوات من إشعاع الشمس (البالغ ١٨٠٠٠٠ تيراوات في أعلى الغلاف الجوي الأرضي) يتحول الى حرارة في الغلاف الجوي الارضي بقيم تتراوح بين ٣٥٠٠٠ تيراوات في الاجزاء العالية من الغلاف الجوي و ٨٥٠٠٠ تيراوات قريبا من سطح الأرض . وبدون هذا التحول للطاقة الشمسية بالامتصاص يصبح كوكبنا جسما باردا لا تزيد درجة حرارته عن ٢٦٣ درجة مئوية تحت الصفر .

وتوجد عدة تصميمات لاستغلال امتصاص أشعة الشمس بطريقة أكفأ مما يحدث في الطبيعة . وغني عن البيان ذلك المجمع الشمسي المسطح . والجزء الأساسي في هذا المجمع عبارة عن سطح أسود من لوح معدني . ويغطى الصندوق المعزول بزجاج يحمي السطح الماص من فقد الاشعاع . وبداخل الصندوق نظام من الانابيب المعدنية متصلة بالجهاز وتعمل على انتقال الحرارة بسهولة مع جريان الماء أو أي سائل آخر خارج الصندوق . ويمكن تخزين الماء لحين الاستخدام فيما يسمى مسخن الماء الذي بدأ استخدامه في البلاد العربية .

والمطبخ الشمسي تطبيق آخر يتم فيه طهي الوجبات بواسطة الاشعاع الشمسي ، وهذا الفرن عبارة عن مرآة على شكل قطع مكافىء ، ويتم بواسطة المرآة تركيز اشعة الشمس من بؤرة تمثل شعلة الطهي . وفي الاماكن المعزولة عن مصادر الطاقة الاخرى (مثل الجهات الصحراوية) أثبت المطبخ الشمسي انه فعال ونافع في طهي الوجبات .

وهناك افران شمسية كبيرة تصلح لاغراض التعدين والكيمياء ، وتصل درجات الحرارة في بؤرتها لحوالي ٤٠٠٠ درجة .

ومقطر الماء الشمسي يستخدم الاشعاع الشمسي لانتاج ماء صالح للشرب والزراعة من ماء البحر . وما ذلك الا محاكاة لما يحدث في الطبيعة من دورة للمياه ولكن على مقياس أصغر وبطريقة أكفأ . فالحرارة الناتجة من امتصاص الاشعاع الشمسي تعمل على تبخير جزيئات المياه تاركة وراءها كل الشوائب والأملاح والميكروبات . وتتكاثف جزيئات الماء عندما تقابل سطحا باردا . ويتم تجميع الماء النقي الصالح للشرب في خزانات . ويلزم إضافة بعض المعادن لهذا الماء ليصبح صالحا تماما للشرب .

● تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كيمائية : ويمكن تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كيمائية . ومثال ذلك استعمال الطاقة الشمسية لتحليل

الماء الى غازيه : الهيدروجين والاكسجين . فبتكسير جزيء الماء يتم تخزين طاقة . عندما يتحد كل من الهيدروجين والاكسجين (في احتراق الهيدروجين) تتحرر الطاقة المختزنة ثانية . . على شكل حرارة .

ولعل أحسن تحويل كيمائي لأشعة أو طاقة الشمس هو التمثيل الضوئي . فالنباتات الخضراء تستخدم ثاني اكسيد الكربون والماء كمواد خام تنتج منها ، باستعمال الطاقة الشمسية ، جزيئات عضوية معقدة (مثل السكر والنشا . . وغيرها) . وهذه الجزيئات تستخدم كغذاء لبقية الأحياء على سطح الأرض . وفي الغذاء تخزن الطاقة الشمسية التي تتحرر بالتنفس ، أي بتكسير الجزيئات المعقدة الى ثاني أكسيد الكربون والماء . والتمثيل الكلوروفيلي ، لهذا ، عبارة عن بوابة يدخل فيها الاشعاع الشمسي للمجال الحيوي كله . ففي النهاية تتغذى آكلات اللحوم على آكلات العشب الذي تكونت فيه المواد الغذائية بواسطة الاشعاع الشمسي .

● تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كهربائية : انه لمن الصعب تصور حياتنا حاليا بدون كهرباء . وهناك طرق عدة للحصول على الكهرباء من الاشعاع الشمسي . ففي البطاريات أو الخلايا الشمسية يتم تحويل الاشعاع الشمسي مباشرة الى كهرباء . وأفضل الأنواع المعروفة هي خلايا بلورات السيليكون المطلية من كلا سطحيها بعناصر خاصة . وينتج من الاشعاع الساقط على الخلية فرق جهد يمر بينه تيار كهربائي . وتبلغ كفاءة التحويل في الخلايا الجيدة جدا حوالي عشرين في المائة . وأحسن خلية معملية (خلايا التاندام) تعطي ٣٥٪ .

واذا كان كل متر مربع من الصحراء العربية يستقبل ٢٠٠٠ كيلو وات ساعة من الاشعاع الشمسي كل عام ، فإن هذا يمكن ان يعطي بكفاءة التحويل العادية (٢٠٪) حوالي ٤٠٠ كيلو وات ساعة من الكهرباء كل عام . وكل كيلو متر مربع يعطي بذلك ٤٠٠ مليون كيلو وات ساعة كل عام ، تساوي ٤ ملايين جنيه بحساب قرش واحد للكيلو . والصحراء الكبرى وحدها مساحتها ٧ ملايين كيلو متر مربع !!

ويمكن الحصول على كهرباء من الاشعاع الشمسي مرورا بالتحول الكيمائي بتحليل الماء الى جزيئيه: الهيدروجين والاكسجين ثم حرق الهيدروجين ليتحد بالاكسجين فيعطي طاقة حرارية تستعمل في تشغيل ميكانيكي لمحطات كهرباء حرارية . وقد تم بالفعل اختبار صلاحية مثل هذه الطرق وغيرها .

ويجدر بنا أن نذكر مشروعين حديثين لانتاج الكهرباء من الاشعاع الشمسي يستعين الاول بالفارق في درجة الحرارة بين سطح المحيطات واعمق الاماكن . فقد وجد ان درجة الحرارة عند سطح المحيط في المناطق الاستوائية تبلغ من ٢٥ ـ ٢٨ درجة . بينما درجة حرارة الأعماق حوالي ٥ درجات على عمق حوالي ٤٠٠ متر : ويمكن عمل ماكينة ضخمة تعمل بفارق درجتي الحرارة لتقوم بتوليد الكهرباء على نطاق واسع . وقد تم تصميم لمثل هذا المشروع في كل من كوبا وافريقيا .

أما المشروع الثاني فهو عبارة عن قمر صناعي يدور على ارتفاع حوالي ٤٢ الف كيلو متر فوق سطح الارض ويقوم هذا القمر بدورة حول الأرض كل ٢٤ ساعة وفي نفس اتجاه دورانها . وبذلك يظل ثابتا مكانه في الفضاء بالنسبة للارض . وبتغطية اجنحة كبيرة لهذا القمر بخلايا شمسية ، تستطيع تجميع قدر كبير من الطاقة الشمسية (التي لم تضعف بعد لعدم مرورها بالاجزاء الكثيفة للغلاف الجوي الارضي) . ويتم تركيز هذه الطاقة وبثها في صورة موجات كهرومغناطيسية قصيرة الموجة جدا الى محطات استقبال ارضية . ان مثل هذا القمر الصناعي يمكن ان يعمل ليلا ونهارا ويرسل حوالى ١٠ ملايين كيلوات من الطاقة الكهربائية الى سطح الارض . وعلى مثل هذا المشروع ان يجتاز مناقشات حامية قبل إقراره ليبدأ تشغيله في التسعينات .

● الطاقة الميكانيكية من الطاقة الشمسية : والاشعاع الشمسي لا يمكن تحويله مباشرة وفعالية عالية الى طاقة ميكانيكية . ولكن يمكن الحصول على الطاقة الميكانيكية بطريقة غير مباشرة مرورا بالتحول الكيميائي أو الكهربائي كما ذكرنا . وتوجد حاليا مختبرات لمثل هذه التحولات على شكل سيارات أو طائرات تستخدم الطاقة الشمسية كوقود ، وجدير بالذكر أن أحد الأمريكان كان قد صمم في بداية هذا القرن نظاماً للري يعمل بالطاقة الشمسية .

ان ماهية الطاقة الشمسية وكيفية استخدامها قد أصبحتا معروفتين ، ولكن شيوع استخدامها سوف يتطلب على الاقل نصف قرن . وعلينا ألا ننتظر حتى يقوم الآخرون لنا بهذه المهمة ، فعلينا ان نزيد من اهتمامنا بهذا المصدر النظيف ، وغير المكلف ، وغير المحدود من الطاقة ، بهذا المفاعل النووي ـ الشمس . ○

د . عبد القوي عياد
د . جوزيف كيزك

يد الإنسان

قصة بقلم عبد الحميد بن هدوقه

كان عامل البريد يبتسم ليونس كأنه يؤكد له أن البريد حافظ أمين وخطر بباله أن يسأله :

متى سيصل تقريبا ؟ . . .

ـ غدا .

ـ شكرا .

بقي يونس واقفا أمام الشباك ينتظر توصيل الارسال من عامل البريد ، وعيناه شاخصتان نحو سلة الطرود المحاذية للعامل . وردد في نفسه : « غدا سيصل . . . . . اختلط بغيره من الطرود وصار مثلها . من يستطيع أن يتنبأ بأن هذا الطرد يحمل نهاية صداقة ونهاية حياة ؟ عليه طوابع كغيره من الطرود . . . مثلها تماما سيفرح به قابضه كما يفرح جميع اصحاب هذه الطرود التي تنتظر في سلة البريد يد الانسان . . . »

وبدت له فكرة : « يد الانسان . فعلا هي التي عبأت هذه الطرود وربطتها وكتبت فوقها أسماء تدل على حيوات . وحملتها الى هنا كما ستحملها الى عناوينها . يد الانسان هي التي طبعتها وأعطتها صبغة شرعية لتنتقل بين أماكن وأيد مختلفة دون أن تخشى الضياع . يد الانسان هي التي تقبضها وتفتحها فيفرح البعض بمحتواها والبعض يموت . . . يد الانسان في البداية والنهاية . »

وتبعت هذه الفكرة أخرى لاتقل قساوة عن الأولى ، وانطبعت على شفتيه الرماديتين ابتسامة صفراء :

« أنا أيضا انسان . أشبه هذا الطرد . . . من يستطيع أن يعرف ما أضمر ؟ من بامكانه أن يسبر ضميري ويدرك أني انسان مجرم ؟ أشبه هذا الطرد تماما . هو يحمل الموت وأنا أحمل الجريمة ، فظاعة ما يخفي غطاها طرفه . وبشاعة ما أضمر يغطيها جسمي . بطوابعه البريدية يمشي حيث أردت ، وبابتسامتي أمشي أين أريد . لكنه يحمل موت غيره وأحمل بذرة موتي . »

أخذ توصيل الارسال وشيع الطرد بنظرة قاسية حمراء وقفل راجعا وفي نفسه يجري حديث طويل .

« الآن انتهى كل شيء . فترة من الندم تتبع هذه النهاية قد تمتد شهورا ثم تأخذ يد النسيان في محوها ، سوف تزول آلام أهله وذويه وأحزانهم عليه . سيمحى ذكره وفعله ولن يبقى له ظل في هذه الأرض . سيتخذ له مسكنا بعد غد أو بعد ثلاثة أيام في مستطيل لايزيد طوله عن مترين وعرضه عن ذراع . . . لن يستطيع أخذ شيء من هذه الأرض سيصير هو نفسه أرضا في أرض . . . أرضا لن



تراها الشمس أبدا . ستقبل وجهه التجدان . أما أنا . . . أنا سأبقى هكذا . أردد نفس الاغنية في ألحان جديدة . أبدا وأعيد الى النهاية ، سوف أعمل مع رؤساء جدد وربما سأقتلهم كما قتلت هذا . . . ثم ماذا ؟ ثم لاشيء »

بدأ القطار يتحرك . مبحوح الصوت ، مختنق الأنفاس ، كأنه يتألم من النار التي تتأجج في أحشائه . وبدأت الأفكار تتحرك في نفس يونس .

« اني جبان ، أمرت بقتله في مكتبه لابهذه الطريقة .

كان علي أن انفذ الأمر بكل دقة . أوامر الانسان أقوى من أوامر السماء ، كل توسع فيها يعد تمردا . لم أومر بارسال طرد له يحوي قنبلة . أمرت بقتله . ،كان علي أن أطبق الأمر وأعاين انجازه . كان علي أن أقتله بخنجر . اني جبان ، جئت من « البويرة » الى « الجزائر » لارسال الطرد . . . لأبعد عني كل شبهة ، لأحيا منافقا أبدا : أظهر الخير للناس وأمقتهم جميعا وأضمر لهم الشر واحدا واحدا . اني جبان . »

وأعاد هذه الكلمة بمرارة وألم عميقين : « اني جبان » .

خرج القطار من محطة الجزائر الرئيسية متجها الى غايته في عنف ، شاقا طريقه بين العمارات المطمئنة الحالمة والمعامل الصامتة ، في عويل وصخب بالغين كأن سائقه شعر فجأة بوجوده الأسود وبيده السوداء فحنق على جميع من في الأرض فانتقم ممن حوله من ساكني العمارات بارسال صيحات القطار تباعا ومضاعفة ضريره وحشرجته .

كانت الساعة الواحدة بعد الزوال ، وكانت أشعة الشمس نازلة الى الأرض كأعمدة من نار . كان العرق يتصبب من جباه راكبي القطار والعطش يلفح صدورهم . أما يونس فكان يحس كأن عرقه يسيل في قلبه ، وكأن أفكاره هبطت الى رجليه .

كان القطار يجري ، العمارات حوله تجري ، وعرق المسافرين يجري ، وأفكار يونس وذكرياته تجري . . . كان يراها بين رجليه مختلطة مع رماد وأعقاب السقاير : « ذكرياتي كأعقاب هذه السقاير . »

لم يكن الا أفراد قلائل من الأوربيين في هذه العربة : كانت من الدرجة الثالثة . . . وبالمقصورة حيث

---

(١) مدينة بمقاطعة الجزائر .

يونس كان يركب أربعة أشخاص وفتاة ، عجب يونس أن يرى فتاة أوروبية تركب مع العرب . كانت عيناها زرقاوين صافيتين عميقتي النظرات ، يعلوهما حاجبان أسودان . أنف عال يشعر بكبرياء صاحبته . أجزاء جسمها متناسبة متوائمة . لكن ملامحها كانت خالية من كل تعبير . تلبس قميصا أزرق من « النيلون » وفستانا قصيرا من « التيرقال » بلون البحر . تشد وسطها حيلة من « البلاستيك » بيضاء ، وتحتذي حذاء صيفيا أبيض . يداها لاتظهران ، كانت تلبس قفازا أبيض . لم تكن تنظر الى أي فرد ممن معها في المقصورة . بل تنظر الى الباب كأنها تنتظر مجيء أحد . لم تبد منها أية حركة أو خفقة تنم عن تضايقها من ركوبها المقصورة مع العرب .

الى يمينها يجلس جزائري صميم ناهز الستين . تبدو عليه آثار النعمة . كان بالرغم من حرارة الطقس يلبس برنسين فوق العباءة والبذلة ، شد رأسه بعمامة صفراء وخيوط من وبر . كان بكثرة ملابسه تلك كأنه يتحدى الحرارة الملتهبة التي لفحت الأرض في ذلك اليوم وكانت يداه على بطنه تتحركان تحت العباءة . أما الثلاثة الآخرون فكان لباسهم أوروبيا ضاحكا طافحا بالألوان وأيديهم قوية غليظة . . . كانوا عمالا بفرنسا . تعلو وجوههم فرحة العودة وبشرى الرجوع . كانوا يضحكون ويتحادثون بأصوات عالية وبلغة فرنسية حطمتها ألسنتهم القوية الصلبة . يتحدثون عن معامل « سيطروين » وعن سفرهم بالباخرة من مرسيليا الى الجزائر . . . لكن ضحكهم واستبشارهم ومرحهم ذاك لم يخفف تلك الخضرة الداكنة التي اصطبغت بها جلودهم كغيرهم من العمال الجزائريين بفرنسا .

وصل القطار الى محطة « لاغا » . كانت نائمة تحت الشمس : لم يكن بها سوى نفرين على الرصيف ، أحدهما يلبس سروال عمل مالت زرقته الى البياض من القدم ، يشد رأسه بمنديل فوق شاشيته ، أرسل جزءا منه على قفاه . ويداه تدفعان في كسل ظاهر عربة بضائع . أما الآخر فكان يرتدي لباسا صيفيا أصفر من نوع « كاكي » . على رأسه قباعة شركة السكة الحديدية . في يده اليمنى علم صغير وفي اليسرى صفارة .

لم يلبث القطار الا لحظات قصيرة ثم أعطيت له اشارة الانطلاق . فاستأنف شخيره وعويله من جديد . . .

كانت مدينة الجزائر نائمة في اللهب ، وكانت السماء أيضا نائمة . . . وكان ركاب القطار نائمين ما عدا مقصورة واحدة في الدرجة الثالثة لم يكن أصحابها نائمين . . . فشاء أحد العمال الثلاثة أن يداعب الفتاة :

(هل تعرفين باريس يا آنستي؟ . . .

فابتسمت الفتاة بالرغم منها ولكنها لم تجبه . فالتفت الى رفيقه قائلا : « ان الآنسة طيبة » .

واشتدت الحرارة ، واشتدت سرعة القطار ، وتزاحمت على يونس افكاره وذكرياته :

« ارادوا .. تخلصوا منا : واحد يقتل والآخر يسجن ، ولو كان غرضهم قتله هو وحده لاستطاعوا ذلك بغاية السهولة . أمروني بقتله أنا . . . لا ، لم يعتقدوا أبدا اخلاصي للثورة ، والا لاتخذوا كل الاحتياطات الضرورية لانقاذي بعد انتهاء المهمة »

« سيصله الطرد غدا أو بعد غد . . . سيصله الساعة الرابعة والنصف . لن يفتحه بالمكتب . سيأخذه الى بيته ويفتحه هناك لن يموت وحده . . . انني جبان ، أمرت بقتل شخص فانتسبب في قتل عدد من الأرواح قد يكون من بينهم طفل . لكن ليموتوا جميعا فلن اسلم نفسي للسجن ولا للموت . لا لن أموت ليمت جميع من في الأرض فلست وحدي مجرما . . . كم انا جبان . أذعنت لأمر قد لايكون أصلا من منظمة الثورة . قد يكون ذلك الراعي اللعين . . . راعي البقر ، أحب ان ينتقم مني فابلغني أمرا من محض خياله ونفسه القذرة .

« من قال سيصير ذلك البائس البليد يتأمر علي . راعي البقر . . . لكن من ينكر عليه تدبيره ؟ سوف يزداد شأنه خطرا وينال حظوة من رؤسائه . . ». حظوة بفعل باشرته يداي » . . .

سوف يقول لرئيسه : « تخلصنا من القايد وكاتبه بأيسر سبيل : أمرت كاتبه بقتله . أحدهما يموت والآخر يسجن ، دون أن نكلف أنفسنا عناء . آه راعي البقر اللعين .

« ولكن لن ينجو مني . سأعرف كيف أنتقم منه . لن ينجو ولو أخفى نفسه تحت الأرض »

(لايوجد « المترو » هنا يا آنسة ، في باريس هناك « المترو »

لم تجبه الفتاة . كانت عيناها الزرقاوان مصوبتين نحو الباب لم تحول نظرها عنه منذ أن ركبت .

أضاف : هناك ، كل أحد اذهب الى سان لازار وساحة كليش . نعم . أنا هناك ، كل أحد أمشي . . أمشي كامل النهار في باريس . ولذلك أنا أعرف باريس .)

ثم حدث نفسه : « بعد قتل راعي البقر اذهب الى باريس »

« غدا سيموت القايد أو بعد غد . . . . ترى من

سيتولى مكانه ؟ لن يقبل أحد أن يخلفه . الناس يخافون . . . يخافون من يد الانسان . لو عرض عليّ منصبه لقبلت . أصير قائدا . ولم لا ؟ لن أنصح لالفرنسا ولاللثوار ، أعمل مع كليهما ولن أخلص لواحد منهما . لن أرحم أحدا . اسحق كل من يعترض طريقي كهذا القطار . لن يردني أحد . ثم ماذا ؟ ثم لاشيء لست وحدي مجرما . الحياة نفسها جريمة ، جريمة من جرائم الانسان من أجل لذة عابرة رماني أبي في هذه الحياة هل فكر أثناء سعيه وراء لذته . ؟هل فكر لحظة في نتائج فعله ؟ كلا . . . كلنا مجرمون . خلقنا من جريمة من فعل يستحى منه أمام الأعين . »

***

ألا تحسين الحرارة ياآنسة ؟ أنا أحس حرارة شديدة . لاحرارة في باريس . الصيف جميل فيها . لكن الشرطة يظلمون . . . الجزائري الذي لايعمل يقاد الى السجن . ولذلك لم أبق هناك لقضاء عطلتي .)

وفي محطة «الحراش» ركب شرطيان ، واذ رأتهما الفتاة امتقع لونها . ركبا لتفقد أوراق المسافرين .

قامت الفتاة ، تود الخروج واذا بشرطي أشقر عريض المنكبين رأسه كرأس الثور يقف أمام الباب . كان قميصه الاصفر مبلول الابطين من شدة عرقه ، يمسك باحدى يديه رشاشه . . (أوراقكم)

أخرج جميع من في المقصورة أوراق تعريفهم ما عدا الفتاة . زعمت أنها نسيت أوراق تعريفها بالبيت . فاقتادها بعنف : كانت جزائرية . . .

وصاح العمال الثلاثة مدهوشين : « مثلنا عربية » .

كان عدد غفير من الجند على رصيف المحطة يتأهبون لركوب القطار ورأى يونس الفتاة تمشي بين الشرطيين مرفوعة الرأس لاتظهر عليها ذرة من الخوف بالرغم من فوهة رشاش أحد الشرطيين الملتصقة بجنبها . . .

« فتاة أشجع مني . لو قتلت القائد بخنجر في مكتبه لأظهرت بذلك اخلاصي للثورة وعدائي لفرنسا وأصبحت بطلا . . . أنا بطل . لا لم أخلق للبطولة ، خلقت للاجرام . . . . »

كاد أن يصيح في أوجه من معه : « أنا مجرم انظروا الى يدي . . . انني قتلت صديقي ورئيسي منذ عشر سنوات . لم أقتله من أجل الوطن قتلته جبنا ، قتلته لانقاذ نفسي القذرة انظروا الى يدي . . . ألا ترون عليها آثار الاجرام ؟ لاترون عليها الآثار لأنها يد مجرم جبان .

ولكن لم يستطع حلقه اخراج هذه الصرخات . . .

كان القطار يمزق الحقول أمامه تمزيقا عنيفا . وبدأت أشعة الشمس تنفذ مع النوافذ فتتغلغل الى أعمق أعماق المسافرين ، فضاقت الصدور وجفت الحلوق وانعقدت الالسنة وانطفأت الأبصار ما عدا بصرا واحدا لم ينطفيء : بصر الرجل المعمم . لم يكن يفكر . . كان ينظر حالما الى هذه الحقول الجميلة الشاسعة الممتدة امتداد البصر على جانبي الطريق : أراضي المعمرين .

وقال لرفاقه وعيناه سابحتان مع هذه السهول الثرية : « أخذوها كلها . . . أخذوا أرضنا ورموا بنا في الفيافي . »فلم يجبه أحد . أما يونس فسخر منه وتمتم في نفسه : « يحلم باسترجاعها . »

فأضاف الرجل المعمم قائلا : في لهجة تنم على الرضا والاطمئنان : « ولكنهم سيغادرونها عما قريب »

فلم يتمالك يونس أن قال له ساخرا : انظر ؟ . . .

وكان القطار وصل الى مكان ملتو . تظهر عرباته الأولى من هذه العربة مكتظة بالجند .

فلم يأبه الرجل المعمم بقول يونس ، وأعاد في نفس الاطمئنان السابق : سيغادرونها »

وأخذت العربات الأولى تختفي من جديد . وخطر في نفس يونس أن فرنسا كهذا القطار تسحق كل من يعترض سبيلها »

ولكن القطار كان قد وصل الى جسر ! ، وبالجسر كان لغم يتربص . . وتراءت ليونس اثر الانفجار يد سوداء تملأ الأفق . . . تنقض كالصاعقة على رأسه . . . وتمتم والدماء تسيل من فمه : « يد الانسان »

الجزائر ـ عبد الحميد بن هدوقة

معركة النباتات في الصحاري

بقلم الدكتور صلاح بركات

برغم قسوة الحياة في الصحاري نجد ان ثمة كائنات استطاعت ان تواجه التحدي وان تعيش فيها ، بل نجد أن هناك نباتات قد أتخمت جوفها بالمياه ، رغم ندرة الندى والطل ، ونباتات تبعث من موتها مع طلائع الورق المتساقط ، وأخريات تجعل الأرض كالبساط السندسي المزخرف بأزهارها الجميلة ، بعد ان تسمع صيحة السماء .



بعض أنواع النباتات الصبارية الاسطوانية الشكل :

١ ـ السيروس الاريزوني ٢ ـ أوكوتيلو

ان وجود كائنات نباتية في مكان ما على سطح الأرض مرتبط بتوفر شروط ثلاثة :

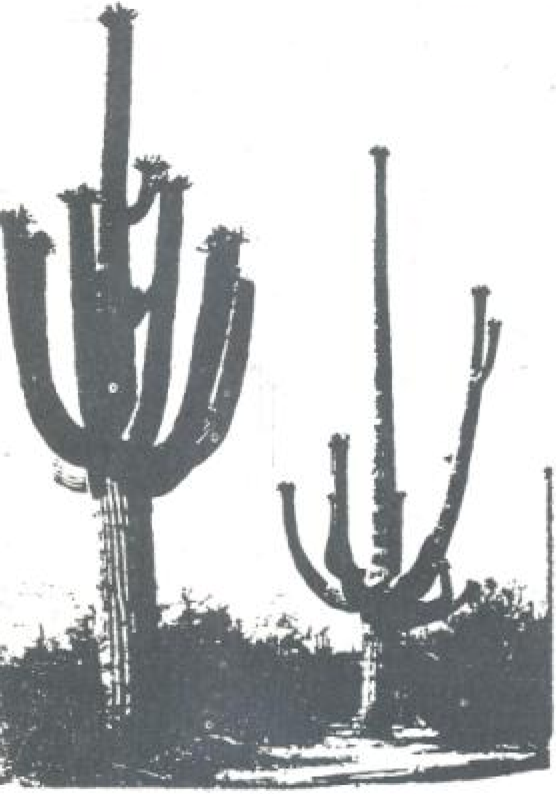
الماء ، وان يكون بصورة قابلة للامتصاص وصالحة للنبات ، ودرجة مناسبة من الحرارة مع توفر كمية كافية من الضوء . فتوفر الماء اساسي وعامل محدد لانتشار ونمو الكائنات ، والحرارة المناسبة لازمة أيضا لنموها بشرط أن تكون في حدود إمكانية التحمل لها فلا تكون عالية لا طاقة للنبات بتحملها فيجف عوده وتسقط اوراقه ويذبل ويموت ، ولا تكون منخفضة فلا يقوى على اتمام دورة حياته ونموه فيضعف ويموت أيضا ، وكذلك شدة الاضاءة فهي تلعب دورا هاما في تواجد النباتات ، فتكاد تكون شبه معدومة في قيعان البحار والمحيطات ، حيث يسود الظلام ويختفي النور . هذه الشروط تبلغ درجة المثالية في مناطق خط الاستواء ، ولهذا فان نمو النباتات يصل الى حده الأعظم فيها ، واذا ما افتقد شرط من الشروط السابقة في منطقة معينة فان وجود النباتات فيها يتناسب مع شدة غياب أو تأثير هذا العنصر .

الماء والحياة

ان الحياة على اليابسة كانت وما زالت مرتبطة ومتواجدة بالاماكن المحتوية على مصادر المياه ، وقد أشارت الدراسات سواء القديمة منها أو الحديثة الى أن أصول الحياة قد بدأت في المياه ومن ثم انتقلت الى اليابسة ، واستقراء سريع للحضارات الأولية في العالم يظهر لنا بأنها قد نمت وترعرعت بالقرب من ينابيع المياه سواء كانت أنهارا أو بحيرات أو بحارا . . . فكأن تلك الينابيع المائية كانت ينابيع الحياة والحضارة .

وأهمية الماء لاتعود فقط الى أنه يشكل وسطا للعيش والنمو بداخله لكثير من الكائنات ؛ وانما له دور آخر في داخل بنيانها ، فجزيء الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين H_2O ويشترك في كثير من التفاعلات الكيميائية الهامة جدا بالنسبة لحياة الكائنات ، ويلاحظ أن معظم أجسام الكائنات مركبة من حوالي ٨٠ ٪ من الماءعلى الأقل ، كما أن هناك بعض الحيوانات تبلغ هذه النسبة فيها الى ٩٩ ٪ويلعب داخل جسم الكائن ادوارا عديدة :

ـ فهو يعتبر وسيلة نقل للمواد الغذائية ، اذ يقوم بنقل المواد الأولية من الجذور الى الأوراق بفضل تماسك جزيئات الماء مع بعضها البعض ، هذا التماسك أدى الى



شجرة السيروس الكاليفورني ، تصل أطوالها الى ١٥ م .

ايجاد قوة معاكسة لقوة الجاذبية الأرضية ، كما أنه يقوم بنقل المواد المتكونة في الأوراق نتيجة عملية التمثيل الضوئي أو اليخضوري من سكريات وغيرها الى أعضاء النبات الأخرى .

ـ يشكل الماء وسطا عالي الاذابة ، فعن طريق الماء يتم اذابة وتصريف كثير من المواد الضارة لجسم الكائن والناتجة عن العمليات الحيوية كحمض البول السام لأجسام الحيوانات . . ان معظم التفاعلات الكيميائية لا تتم الا عندما تكون المواد المتفاعلة بصورة محاليل .

اذ يتم بذلك تشرد المركبات الى وحداتها الأولية وانتشارها وسط المحلول المائي حاملة معها شحناتها السالبة أو الموجبة ، هذا الانتشار يسهل عملية الربط ما بين هذه الشوارد لتشكيل مواد جديدة .

ولا يفوتنا هنا ذكر خاصية الماء الحرارية ، اذ يتصف بقدرته على امتصاص كمية كبيرة من الحرارة دون أن تتغير حرارته إلا بصورة طفيفة ، هذه الخاصية تعمل على حماية

المركبات العضوية الحساسة للحرارة من الارتفاع الزائد لها ، فالماء المتواجد داخل الخلايا يعمل على توصيل ونقل الحرارة الزائدة والناجمة عن العمليات الحيوية المنتجة للحرارة الى الخلايا والأوساط المجاورة لتلك ، وعملية النقل وحركة المياه هذه تزداد بازدياد انتاج الحرارة ، ولهذا فان درجة الحرارة للخلية تكاد لاترتفع عن درجة الوسط المحيط بها .

ويتبين من هذه الأمثلة القليلة على أهمية الماء وتوفره أمر أساسي لتحقيق الحياة واستمرارها عند الكائنات ، ولهذا فانها تسعى للحصول عليه بشتى الوسائل كما تحاول الحفاظ على مخزونها منه بشتى الوسائل أيضا وتتبع طرقا مختلفة تقلل من فقدان محتواها المائي وخاصة عندما يندر وجود الماء كما في المناطق الصحراوية .

الصحارى : الأرض المنبوذة

لو أخذنا الصحراء بالتعريف لقلنا بأنها عبارة عن منطقة منبوذة من قبل أغلب الكائنات الحية ، وخالية من الانسان تماما في بعض الأماكن منها ، والمعنى قريب من ذلك ، في كلتا اللغتين الفرنسية والانجليزية ، اذ يكون الفعل أو المصدر لها D šerter بمعنى غادر وهجر ، وعلى هذا يمكن أن نطلق على مناطق القطب الجليدية اسم الصحارى البيضاء مثلا ، الا أن هذا التعبير حصر على المناطق التي تتصف بقلة وندرة مياه الأمطار ، وجفاف أراضي هذه المناطق يكاد يكون مستمرا طوال العام باستثناء فترة قصيرة .

ان انخفاض كمية الأمطار الهاطلة وعدم انتظامها في كل سنة يزيد في قساوة العيش ، فقد تمر سنوات عديدة من دون هطول قطرة واحدة . اضافة لذلك فان معظم الصحارى تتواجد بالمناطق المدارية والتي تتعرض لرياح مستمرة ولدرجة عالية من الحرارة . . . هذه العوامل تزيد من كثافة التبخر للمياه - بالرغم من ندرة وجودها أصلا . وقلة وجود بخار الماء في طبقات الهواء للمناطق الصحراوية يسبب تغيرات حرارية يومية وفصلية حادة ، اذ ترتفع الحرارة نهارا بشكل كبير وتنخفض بشكل كبير أيضا خلال الليل ، وهذا الارتفاع والانخفاض سببه قلة وجود بخار الماء في صيفات الهواء كما ذكرنا اذ يعمل على امتصاص الحرارة اثناء وجود الشمس يعطيها أثناء الليل ، وبذلك يلعب دورا مساعدا ومخففا للفروق الحرارة خلال اليوم . هذه التغيرات تكون قليلة خلال فترات المطر وشديدة خلال الجفاف .



تشكل السوق الخضراء عند نبات ريبوتيا مستودعات للمياه .

وتبين من خلال الدراسات بأن سطح الأرض الصحراوية يمكن أن تصل درجة حرارته الى ٦٠ مْ ، بينما لا تتعدى حرارة طبقة الهواء المجاورة له مباشرة ٣٠ مْ ، ولذلك فان التربة تسخن أكثر من الهواء ، هذا التسخين للتربة تصل سماكته ما بين ٢٠ الى ٢٥ سم كما أن الفروق الحرارية اليومية عند هذا العمق من التربة لاتكون كبيرة ، بحيث أنها لاتتعدى في معظم الحالات الـ ٣٠مْ ، وهذا يتيح لكثير من الحيوانات فرصة العيش في تلك الأماكن .

ولا شك أخيرا بأن الهبوب الدائم والمستمر للعواصف الرملية في تلك المناطق أمر طبيعي نتيجة التغيرات الحرارية الكبيرة ، فيزيد في عملية التبخر للماء من الكائنات والتربة ، لذلك فان الرطوبة النسبية غالبا ما تكون ضعيفة ، وتتراوح ما بين ١٥ و ٥٠ ٪ ما عدا الأيام الماطرة .

تأقلم الكائنات النباتية

ان الانواع النباتية النامية في هذه الشروط القاسية ، هي النباتات التي استطاعت ونجحت في ايجاد طرق مناسبة للعيش وسط هذا المناخ الجاف ، والعالي الحرارة ، والمتصف بقلة الأمطار . هذا النجاح ولا شك جاء بهداية الله سبحانه وتعالى لها ، ويمكن أن نلاحظ بأن النباتات قد اتخذت صورا ثلاثة لتستطيع سكنى تلك الاصقاع :

ـ فهناك نوع من النباتات عملت على تقصير مدة دورة حياتها ، وفترة عيشها تكون متوافقة مع فترة هطول الأمطار ، فبذورها تنبت مع بداية سقوط المطر فتنمو وتكبر وتزهر وتثمر وتكون الخلف وتجف وتموت مع انتهاء تلك الفترة . هذه النباتات أطلق عليها النباتات المؤقتة أو السريعة الزوال .

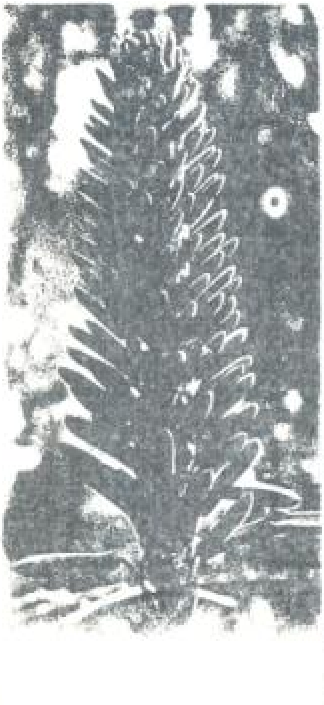
ـ فهناك نوع من النباتات عملت على تقصير مدة دورة حياتها ، وفترة عيشها تكون متوافقة مع فترة هطول الأمطار ، فبذورها تنبت مع بداية سقوط المطر فتنمو وتكبر وتزهر وتثمر وتكون الخلف وتجف وتموت مع انتهاء تلك الفترة . هذه النباتات أطلق عليها النباتات المؤقتة أو السريعة الزوال .

ـ وهناك أنواع أخرى نباتية تتميز بتواجد جهازها الخضري بشكل مستمر ودائم رغم كل شدة الحرارة وجفاف المياه . . . هذه النباتات تظهر تغيرات فيزيولوجية وشكلية وتشريحية تجعلها قادرة على تحمل الظروف المتواجدة فيها ، وقد دعيت بالنباتات الصحراوية ، وقسمت الى قسمين بسبب طريقة مقاومتها للجفاف ، فهناك النباتات العصارية التي اختزنت الماء داخل انسجتها ، والأنواع الأخرى تخشبت انسجتها وتغلظت ودعيت بالنباتات الخشبية . ولو أجرينا مقارنة ما بين هذه الأنواع الثلاثة لتبين لنا بأنه لا يمكن وصف النباتات السريعة الزوال ولا النباتات العصارية بأنها نباتات تتحمل الجفاف ، بمعنى أن خلاياها تتحمل فقدان كميات كبيرة من الماء لفترة طويلة ، بدون أن تتضرر كما هو الحال عند النباتات العائدة للحياة كالطحالب **Mousses** والحزازيات **Lichens** والأشنيات **Algues** فهذه النباتات يمكن أن تجف تماما خلال فترات الجفاف ، ولكنها تحتفظ بحيويتها وتستأنف فعاليات الحياة بسرعة عند عودة ظروف الرطوبة الملائمة .

وهناك أنواع نباتية أخرى راقية كشجرة الكريوست حيث تنخفض نسبة الماء في أوراق هذه الشجرة في فصل الجفاف الى ٥٠٪ من الوزن الجاف دون أن تتضرر ،علما بأن نسبة الماء في أوراق النباتات الخشبية النامية في المناطق المعتدلة تتراوح ما بين ١٠٠ و ٣٠٠ ٪ من وزنها الجاف .

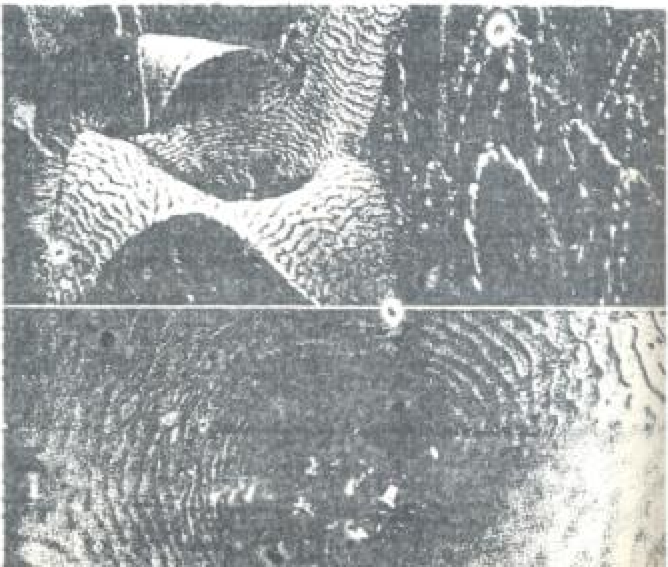
وتبين من خلال الدراسات بأن موت الخلايا النباتية لاينتج بالدرجة الأولى عن تجفيف الخلايا وفقدان الماء منها ، بل ينتج من تأثير الاضطرابات الميكانيكية المخربة الناتجة عن فقدان الماء من الخلايا وعودته اليها وعمليات الضغط والتقلص والتمزق لفجوات وسيتو بلازم الخلايا . . . هذه العوامل هي التي تكون السبب في اتلاف وموت الخلايا .

وحتى تدرك كيفية مقاومة النباتات للجفاف بشكل واضح علينا أن نتذكر تركيب النبات العام ، فهو يتركب بشكل مبسط من قسمين :



تعتبر أزهار نبات الالوة مستودعات للمياه .

تتلون أوراق نبات سيليا اللحمية باللون الأحمر أما كؤوس الأزهار فبلون أصفر .



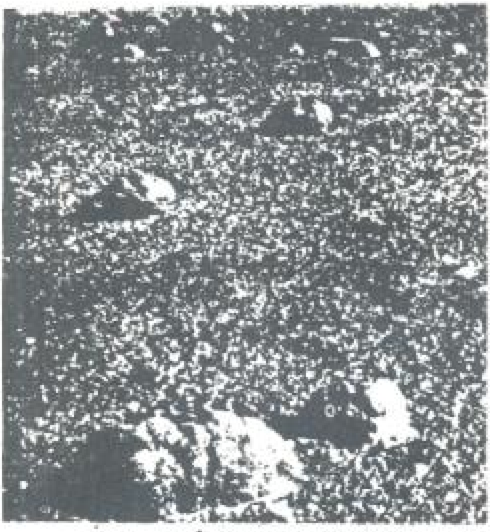
قسم يعلو سطح التربة (ساق ، فروع ، أوراق ، وأزهار) ويدعى بالقسم الخضرى أو الهوائي لتعرضه للهواء ، وهذا الجزء مسئول عن توفير الطاقة اللازمة للعمليات الحيوية عن طريق التقاط الأشعة الشمسية وتحويلها الى طاقة كيميائية . أما القسم الثاني فينفذ داخل التربة (الجذور) ويحصل للنبات على العناصر الغذائية الأولية من آزوت وفوسفور وبوتاسيوم وماء . . . . .

النباتات سريعة الزوال

هذه النباتات قصيرة الأجل ، تسرع باتمام دورة نموها خلال فترة وجيزة ، وهي الفترة التي تسقط بها الأمطار ، وتمضي فترة الجفاف الطويلة بصورة بذور (حولية) أو بصورة بصيلات كنبات البروق والريزومات (نباتات أرضية معمرة) .

ولهذا فان هذه النباتات تظهر بشكل فجائي بعد نزول الأمطار وتنمو بشكل سريع ملفت للنظر ، لاتمام دورة حياتها خلال فترة الامطار هذه ، وفترة النمو عندها متغيرة من نبات لآخر ، ولكن بشكل عام تكون من شهر واحد لأربعة أشهر ، وهناك أنواع نباتية تكمل دورة حياتها ما بين ثمانية أيام الى خمسة عشر يوما كالانواع التابعة لجنس بورافيا وتريبولوس ، في هذه الحالة فان النبات يتصف بحجم صغير جدا وتظهر أزهاره على الساق التي لم تحتو بعد الا على ورقة أو اثنين ، ويصل طول هذه الساق من ١ - ٢ سم ، هذه النباتات الصغيرة التي أعطت الأزهار والثمار يطلق عليها بالنباتات الوقتية .

ولقد تبين من مقارنة انبات ٥٠ نوعا من هذه النباتات ذات النضوج المبكر والمأخوذة من صحارى شمال أفريقيا مع أنواع دانمركية بأن ٨٨ ٪ من هذه الأنواع الصحراوية قد أنبتت وانتشت خلال ثلاثة أيام ، بينما لم ينبت الا ٦ ٪ من الأنواع الدانمركية ، هذه النباتات المؤقتة تماثل النباتات النامية في المناخات الرطبة والمعتدلة في التركيب التشريحي ،وبين الباحث ليمي حديثا بأنها لا تبدي أية تغيرات أو اختلافات فيزيولوجية واضحة ، وان احتياجاتها المائية تماثل نباتات المناطق المعتدلة وهي تشكل غالبا ما بعد فترة نزول الأمطار سجادة متصلة تغطي التربة وتشكل القسم الأساسي من الأعلاف لتغذية حيوانات تلك المناطق ويطلق عليها اسم العشب ، هذه النباتات تقضي فترة الجفاف بصورة بذور أو بصورة بصيلات أرضية أو ريزومات . . فيطلق عليها النباتات المختفية أو النباتات الأرضية أيضا



نبات فريدوليا ذو الشكل القسيدي يمكن أن يصل علو هذا النبات الى متر واحد .

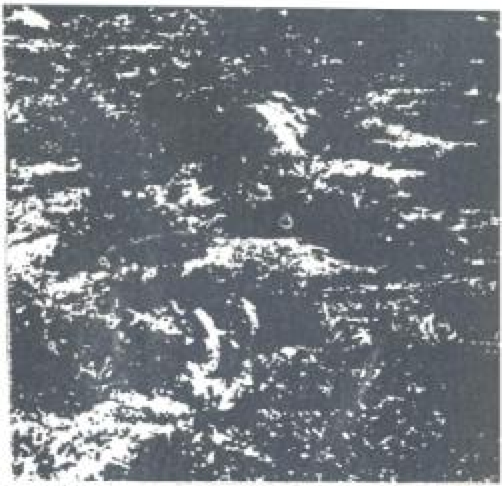
وبعض النباتات لها القدرة على تحمل الجفاف الشديد والطويل من دون أن تتضرر أو تتأذى خلاياها ، وتصل درجة انخفاض نسبة الماء في أعضاء بعض الأنواع المتحملة الى درجة الخلو منه تماما هذه النباتات تعود للحياة حالما تجد الماء فتنشط لتمارس كافة العمليات الحياتية ، هذا النوع من النباتات المنبعثة من مراقدها ، نجده خاصة عند الأنواع النباتية البدائية كالحزازيات - أو حزاز الصخر - وتتكون من كائنين مشتركين لا يمكن لكليهما العيش منفردا ، هما الفطر والاشنة ، والطحالب (نباتات لها سوق وورق وليس لها جذور حقيقية)هذه النباتات تتواجد في المناطق الرطبة وفي الصحارى القاحلة ونلاحظ أن هذه الظاهرة .موجودة عند أنواع قليلة من النباتات الراقية

ان طريقة مقاومة تلك النباتات للجفاف شدت انتباه الباحثين لها ، فأفاضوا الأبحاث عنها ودرسوا مراحل مقاومة تلك النباتات لنقصان المياه فيها .

الدخول في الحياة البطيئة

ان جفاف قسم من نبات الطحلب يؤدي أو يعطي الاشارة الى ايقاف النمو في كل أجزاء النبات ، وهذا يسبب ذبول الأوراق واصفرار كل الأجزاء المحتوية على الكلوروفيل .

ان دخول هذه النباتات في هذا النوع من الحياة البطيئة متناسب مع الرطوبة داخلها ، فكلما ازداد انخفاضا ؛ ازداد تباطؤ العمليات الحيوية بداخلها ، وذلك نتيجة لازدياد انخفاض امتصاص الأوكسجين الهوائي هذا التباطؤ يبدأ حالما تصل نسبة الرطوبة داخل الأعضاءالنباتية



نفس المنظر السابق انما بعد سقوط ونمو نباتات أخرى وخاصة كونفولفيولوس وأنواع من العائلة المركبة .

الى ١٧٠٪ من الوزن الجاف للنبات ويتعدم التنفس تماما حينا تصل نسبة الرطوبة الى ٢٠ ٪ من الوزن الجاف للنبات ولكن هذا لايعني موت الخلايا ، وانما عملت على ايقاف كل نشاطاتهاالحيوية مع الاحتفاظ بحياتها ، هذه النشاطات تبدأ مع عودة امتصاص الماء للخلايا وتزداد بازديادها حتى تبلغ الدرجة العظمى لها ما بعد نسبة الرطوبة ١٧٠ ٪ من الوزن الجاف .

ان ايقاف نمو النباتات في فترة الجفاف وانخفاض نسبة المياه فيها يحفظها من الموت وهذه العملية تقابل نباتات المناطق المعتدلة ، اذ توقف نشاطاتها الحيوية خلال الفصل البارد (الشتاء) كطريقة لمقاومة البرودة .

النباتات الصحراوية

تتميز الأراضي الجافة الصحراوية الواقعة في المناطق المدارية وفي منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط بوجود نباتات معمرة ودائمة القسم الخضري رغم الجفاف ، هذا الجهاز الخضري أو الهوائي يخفف من نشاطه حين تعرضه لجفاف شديد ، هذه النباتات تعمل على تحمل الجفاف بطريقتين :

ـ نباتات تعتمد على رفع امتصاصها للمياه الى الدرجة القصوى ، وتخفض الى الحد الادنى عملية فقدان الماء بواسطة النتح ، ولهذا فانها غالبا ما تكون شوكية الاوراق ، وذات سوق متخشبة وأطوال مختلفة يمكن أن تصل في بعض الأحيا الى ٧ امتار . هذا النوع من النباتات يطلق عليه النباتات الخشبية ـ نباتات سميكة الأوراق لحمية وهي تعمل على جمع الماء داخل أنسجة خاصة خلال هطول الامطار لتستعملها خلال فترة الجفاف . مثل هذه النباتات تدعى أيضا بالنباتات العصارية ويلاحظ ان العامل الاساسي الذى تحاول النباتات التحكم فيه ، هو السيطرة على فقدان المياه منها والذى يتم عبر مسامات موجودة على الأوراق والسوق ، ويطلق على عملية فقدان المياه . بتلك الصورة بالنتح . هذا الفقدان يزداد بزيادة أعداد المسامات وبارتفاع درجة الحرارة ، وبحركة الهواء ورقة طبقة الكتين المغطية لبشرة الأوراق نجد بان النبات قد عمل على تصغير سطحه النباتي وزيادة سمك طبقة الكتين حتى يقلل من فقدان الماء منه .

وتتألف الأجزاء الهوائية من أوراق وساق ، وتكون لحمية سميكة مملوءة بالماء وهي مكسيكية الأصل . تتواجد في الصحارى الأمريكية وتدعى بالصباريات وهي من النباتات ذوات الفلقتين وتتحمل الجفاف بفضل مخزونها العالي من المياه الموجودة بسوقها أو بأوراقها . وهناك بعض الأنواع تتصف بتحور أوراقها الى أشواك ، وتكون الساق في هذه الحالة خازنة للمياه . تتواجد هذه النباتات أيضا في أفريقيا ومدغشقر كنبات الافربيون ، كما أن هناك أنواعا أخرى تتواجد في المناطق الجافة المعتدلة من حوض البحر الأبيض المتوسط كنبات المخلدة ونبات سيدوم .

وهذه النباتات تمتص المياه بشكل كميات كبيرة أثناء سقوط الأمطار ، وتختزنه داخل أنسجة تدعى بالأنسجة البرانشيمية المائية ،وتتميز خلايا هذه الأنسجة بكبر حجمها وبنواها النامية جدا .

يتم حفظ المياه بشكل سوائل سكرية لزجة ، ذات ضغط حلولي ضعيف ، ويمكن تمييزمكان خزن المياه :

ـ في الأوراق : كما في نبات الأكاف والمخلدة والأيزون ، أما نبات كونوفيتوم (صورة ٤) ، ذو الأوراق الوردية الشكل ، فانه يتواجد في المناطق الجافة من أفريقيا الجنوبية . ويمكن لهذا النبات أن يشكل سجادة مزهرة خضراء اللون بعد هطول أمطار وفيرة ، بينما نجد أزهار نبات ستابيليا (صورة ٥) تتميز بضخامة كؤوسها الصفراء اللون ، وأعضاء التكاثر عندها تتواجد متعمقة في مركز الأوراق الكاسية . تعطي هذه الزهور رائحه كريهة لجذب الذباب وتأمين اللقاح لها . وهناك بعض الأنواع بالاضافة الى أوراقها اللحمية نجد أن زهورها لحمية أيضا ومقاومة للجفاف ، كما في نبات الالوة (صورة٦)

وتلقح هذه الزهور بواسطة العصافير الباحثة عن المياه والغذاء .



يمضي نبات البروق فترة الجفاف الطويلة بصورة بصيلات أرضية ، واعتبره القدماء رمزا للحياة الابدية .

- في السوق : تختزن بعض النباتات اللحمية الماء في سوقها ، وهذه السوق تكون عادة خضراء ومغطاة تماما بالأشواك ، والأوراق الصغيرة جدا التي تتساقط عندما يزداد الجفاف . وهي متنوعة الأشكال فمنها الدائري والكروي ، وبالاضافة الى خزنها للماء فانها تقوم أيضا بعملية التمثيل الضوئي لاحتوائها على مادة الكلوروفيل . من هذه النباتات نبات الشيخة (شروتة)والفربيون وكارالوما .

ويلاحظ أن كمية المياه المحفوظة داخل النباتات الصبارية هذه ، تتحدد عن طريق النسبة ما بين قدرة النبات على احتواء الماء ومساحة سطحه ، فكلما تناقصت مساحة سطحه نقصت بالتالي نسبة فقدان المياه منه . ولهذا تجد هذه النباتات قد هديت من قبل الخالق الى الأشكال والحجوم الأقل سطحا لحجم معين . فالأشكال الكروية والاسطوانية هي الأقل سطحا من غيرها من الأشكال . ويصل المخزون المائي فيها الى أكثر من ٩٠٪ من وزنها .

والنباتات العصارية تقلل من فقدان المياه منها عن طريق تقليص السطح النباتي المعرض للهواء ، ويغطى سطحها المكشوف ، من ساق وأوراق بطبقة سميكة من الكيوتين المغلف بمادة شمعية كتيمة ، وبأوبار كثيفة عند بعض النباتات الأخرى . هذه العوامل تحد لدرجة كبيرة من عملية النتح النباتي لدرجة أنه يكاد ينعدم تماما عند بعضها وخاصة عن انغلاق المسامات ، ويتم ذلك عندما ينخفض مستوى الماء في الخلايا عن حده الطبيعي من ١٠ الى ١٥ ٪ .

تتواجد المسامات عادة في نسج غائرة داخل الورقة أو الساق وتحاط غالبا بأوبار تقلل من حركة الهواء وبنتيجتها يتم تقليل فقدان المياه ، وهناك انواع من النباتات لاتفتح مساماتها إلا ليلا وذلك لتتجنب ارتفاع فقدان المياه عن طريق التبخر بواسطة أشعة الشمس القوية ، وعن طريق هذه المسامات المفتوحة ليلا يتم حصول الخلايا على غاز الفحم ويحتفظ به على شكل احماض عضوية ، يتم تفكيكها خلال النهار للحصول على غاز الفحم لاستخدامه في عملية التمثيل الضوئي لتكوين السكاكر .

ولا شك أن هذه النباتات تؤمن تلك المياه المختزنة عن طريق امتصاصها من التربة بفضل جذورها المتفرعة ، خاصة تلك القريبة من سطح الأرض والتي يطلق عليها جذور الندى وبفضل جذورها المتعمقة داخل التربة .

النباتات الخشبية

تتواجد مثل هذه النباتات في الصحارى القريبة من البحر المتوسط ، وهي لاتختزن المياه كما في الحالة السابقة ،

بل تقاوم جفاف الوسط بفضل بعض التغيرات الشكلية و التشريحية التي طرأت عليها ، والأمثلة كثيرة على هذه النباتات ولا شك بأن شجرة النخيل معروفة لدى اكثرنا ، وتعد من أكثر الأشجار انتشارا في صحارى شمال أفريقيا ، فقد قدر عدد الأشجار المتواجدة في المغرب العربي بحوالي ١٠ ملايين شجرة ، ثلث هذا العدد موجود بجنوب الجزائر . ويقارب هذا العدد من الأشجار ما يوجد بمصر وليبيا ، وقد قدر ما تحتويه آسيا من النخيل ما يفوق الـ ٥٠ مليون شجرة . وتتباين هذه النباتات بطريقة تحملها للجفاف ، فمنها ما اعتمد على زيادة مقدار حصولها على الماء ، ومنها ما عملت على تقليل فقدان الماء منها .

وتتميز هذه النباتات بجهاز جذري متنوع الأشكال وبنمو سريع ، اذ قدر نمو جذور شجرة الفستق خلال فصل واحد ١,٥ ، هذه الجذور تتميز بمناطق كثيفة من الشعيرات الماصة ، ولا شك بأن حجوم هذه الجذور تصل الى أحجام تعادل عدة مرات حجم الجزء الهوائي كما في نبات الارطماسية العطرى الرائحة ، اذ أن الجذر الوتدى أو الرئيسي لها يصل الى أعماق كبيرة بحثا عن المياه الجوفية فقد لوحظ أن بعض أنواع نباتات الحبوب الصغيرة والتي لايتعدى أطوال سوقها عدة سنتيمترات ، يمكن أن يصل طول جذورها الى أكثر من متر واحد ، أما في نبات الحجي فتصل الى عدة أمتار والى ١١ مترا في نبات الافدرا ، والنوع الشجري المسمى بروزوبس من العائلة البقولية المتواجد في المناطق الصحراوية من أمريكا الشمالية يصل طول جذره في بعض الأحيان الى ٣٠ مترا ، هذه النباتات تملك شبكة من الجذور السطحية الواسعة الانتشار تؤمن لها صيد وامتصاص الكمية العظمى من الأمطار الهاطلة قبل أن تغور في أعماق التربة . والمعروف أن ٩٧ ٪ من المياه الهاطلة في المناطق الجافة تحفظ بالطبقة السطحية من التربة .

ان نظام الامتصاص الأفقي والعمودي للمياه ، يؤمن التغذية المائية الكافية لهذه النباتات بحيث تصبح قادرة على تحمل شدة الجفاف وفترته الطويلة . هذه المياه الممتصة من قبل الجذور يتم نقلها الى الأوراق عبر أوعية خشبية متطورة وواسعة تسمح بجريان المياه السريع ، وذات شكل سامي مثلا كما في نبات الطرفاء .

وهناك بعض الأنواع يعتبر وجودها دلالة على وجود المياه الجوفية . فالنبات المسمى بنبات المياه الجوفية تمتد جذوره الرئيسية لأكثر من ٢٠ مترا بحثا عن المياه . وقد قام الباحث بافيليشينكو **Paveléchenko** بقياس جذور نبات « اكروبيروم » الموجودة داخل دائرة نصف قطرها ١,٢ م وبعمق ٢ م ، فوجد أن أطوالها تصل الى حوالي ٥٠٠ كم ، كما لاحظ بعض الباحثين عند كثير من الأنواع الصحراوية الرملية التصاق طبقة من حبيبات الرمال بالجذور .

والنوع الثاني من النباتات الخشبية يحاول أن يقلل من فقدان الماء منها الى الحد الأدنى ولهذا فقد اتخذت أشكالا وحجوما معينة لتقلل من فقدان الماء عن طريق النتح ، كما يلاحظ أن عدد أوراقها قد تناقص أو أصبح حرشفيا كما في حالة نبات الطرفاء ، وحتى هذه الأوراق الصغيرة تراها تسقط اذا طالت مدة الجفاف ، وهناك أنواع أخرى من النباتات خالية تماما من الأوراق وتدعى بالاسليات وهذه النباتات تكون عبارة عن غصون فقط وتحتوي على الكوروفيل بداخل طبقة البشرة ، وبذلك فان تلك الأغصان تقوم مقام الأوراق في عملية التمثيل الضوئي .

النباتات الوسيدية

هناك انواع من نباتات الصحراء اخذت شكل الكرة او الوسيدة (تصغير الوسادة) كما في حالة نبات فوغونا وفريدوليا وهو نبات معمر ، والقسم الخضري منه قد أخذ شكل الكرة أو الوسيدة وقد يصل حجم الكبير منه الى متر كامل وقد تبين من خلال التجارب التي أجريت على تلك النباتات ، داخل وسادته او وسيدته هذه بأن درجة حرارته لاتتعدى ال ٢٠ م عندما تكون حرارة التربة ٣٥ م عند الظهيرة . أما نسبة الرطوبة داخل هذه الوسائد فتبقى ثابتة تقريبا خلال ساعات النهار وتكون ما بين ٨٠ ٪ ، بينما تنخفض خلال ساعات الظهيرة في التربة الى ٥٪ .

بهذه الصورة يحصل النبات داخل وسيدته على مناخ خاص ملائم للنمو يستطيع فيه تحقيق كل عملياته الحيوية على اكمل وجه .

وهكذا يتبين لنا بأن نباتات الصحارى لها طبع خاص مختلف عن بقية النباتات الأخرى ، لأنها تعيش في مكان متميز فيه المياه قليلة ، والحرارة زائدة ، والشمس ساطعة طوال أيام السنة تقريبا ، ولهذا كان لابد لها من التهيؤ والاستعداد لتحمل هذه الظروف القاسية ، حتى تتمكن من العيش فيها ، فهداها الرحمن بأمره الى كيفية حفظ حياتها ، وبث في بذورها ، قبل أن يأتيها دبيب الحياة ، ما أنار لنسلها الطريق ، وجعلها تحذو حذو الآباء في استيطان تلك الاصقاع ، وتعمر الأرض فتطعم الغير ، وتقيه الحر والبرد ، وتسر الناظر بأزهارها فيتذكر ... ويحمد الخالق على ما أعطى وقدر . ○

الرباط ـ د . صلاح بركات

كلير اتشرللي

امرأة تدافع عن الثورة العربية وفقراء باريس والمتمردين في العالم

بقلم : محمود قاسم

كلير اتشرلي أدبية تجمع في أعمالها كل خصوصية عالم المرأة المطحونة التي تحاول أن تجد لنفسها مكانا وسط مجتمع قاس لا يعرف للعواطف ميزانا أو مقياسا .

اذا حاولنا التحدث عن السمات التي تجمع بين كتابات النساء الأديبات خلال السنوات الماضية .. فسوف نجد أنهن يتمتعن بعالم خاص جدا ، ويعبرن في أعمالهن عن مشاعرهن وأحاسيسهن بصدق أكثر مما يفعل الرجل .. والكثيرات من هؤلاء النسوة يفضلن كتابة الرواية أو ممارسة الاخراج السينمائي أكثر من ممارسة ألوان أخرى من الكتابة .. مثل الشعر أو الأقصوصة أو المسرح .. حتى من مارسن الفن التشكيلي منهن ، وجدن في الرواية عالما أفضل مثل جان شامبيون .

وكلير اتشرلي هي الوحيدة بين الكاتبات المعاصرات التي تتحدث عن التمرد والثورة والنضال من خلال البحث عن عالم أفضل . ونساؤها الثلاث اللاتي استعرضتهن في رواياتها الثلاث من صناع الثورة في الأماكن التي يعشن فيها .. لا يعترفن بالأمر الواقع .. يعشن في عالم يملؤه الفقر والاستغلال .. ولذا فان النضال هو وسيلتهن الأولى في التعبير .. كي يعشن في عالم آخر ليس فيه ظلم أو اضطرابات ..

سيرة ذاتية

وقد نشرت كلير ثلاث روايات فقط خلال خمسة عشر عاما . هي على التوالي « اليز أو الحياة الحقيقية عام ١٩٦٧ وفيها يتعلق بكليمانص عام ١٩٧٣ » .. ثم « شجرة مسافرة » عام ١٩٧٨ ولأن أولى رواياتها تدور بين فتاة فرنسية وشاب عربي جزائري ابان ثورة الجزائر فسوف تتناول هذه الرواية بشيء من التفصيل .. مع عرض موجز لروايتيها الأخيرتين .

ولدت كلير في الحادي عشر من يناير (كانون ثان) عام ١٩٣٤ بمدينة بوردو بفرنسا .. وقد اشترك أبوها في المقاومة الفرنسية المسلحة ضد الاحتلال النازي ابان الحرب العالمية الثانية .. لكن الألمان أسروه عام ١٩٤٢ وأعدم رميا بالرصاص في العام التالي . وكان هذا الحادث سببا في أن تتعلم كلير التمرد الذي تشربته من أبيها وهي لاتزال طفلة لم تعرف الكثير من الأشياء او الاسماء . فأبوها الثوري سوف تراه مجسدا بصورة واضحة في شخصية

لوسيان والجزائري ارزقي في روايتها « اليز » .

وبعد ان مات الأب ذهبت الصغيرة تعيش مع جدها في اقليم الباسك .. ثم رحلت فيا بعد الى أمها التي تولت رعايتها .

وفي وسط مجتمع فقير وأسرة متواضعة الحال استطاعت كلير أن تنال قدرا ضئيلا من التعليم سمح لها باستكمال دراستها .. ثم ما لبثت أن تركت التعليم لتتزوج وهي في الثامنة عشرة من عمرها .. وفي عام ١٩٥٢ حاولت نشر أولى رواياتها وكانت آنذاك في التاسعة عشرة من عمرها ، لكن الناشرين أعادوا اليها الرواية مرة أخرى . فاتجهت الى نظم الشعر ونشرت بعضا منه .. وفي عام ١٩٦٠ رزقت بطفل صغير ثم انفصلت عن زوجها ورحلت الى باريس لتعمل موظفة في فرع شركة ستروين للسيارات .. وتتفرغ تماما لتربية ابنتها مثلما ستفعل بطلات رواياتها فيا بعد .. وتقضي معظم أوقاتها تقرأ حتى تمخض هذه القراءات والمواقف عن أولى رواياتها « اليز أو الحياة الحقيقية » عام ١٩٦٧ .. لتعبر من خلالها عن مزيج من تجربة شخصية عاشتها بنفسها وتجارب أخرى عاشتها بعض صديقاتها

تدور أحداث هذه الرواية في نفس الأماكن التي عاشت فيها كلير .. مدينتا بوردو وباريس .. أما الوسط فهو نفس العالم الذي عبقت منه طيلة حياتها . الشخصيات الذين قابلتهم .. أكثرهم من الفقراء والعمال الباريسيين المطحونين .. فاليز تعيش في أسرة صغيرة تتكون من أخيها الأكبر لوسيان وجدتها . يعيش الثلاثة في ضنك شديد .. لكن اليز تحلم وتدرس .. وكل من الحلم والدراسة كفيل أن يجعلها تنتظر أن تحيا « حياة حقيقية » .

أما لوسيان فقد فشل في عدة أمور متلاحقة . مثل الدراسة وبعض العلاقات العاطفية .. يلتقي يوما بهنري أحد أصدقائه القدامى في المدرسة .. يدرس القانون الآن .. ويعتبر نفسه مناضلا لأنه يستعد للاشتراك في حرب الجزائر .

يرحل لوسيان الى باريس حيث يلتقي بآنا وهي بدورها مناضلة تنتمي الى إحدى النقابات .. يعيش معها تحت سقف واحد . فينضم إلى نفس النقابة ، ويرسل لأخته أن تلحق به في باريس .

تجد اليز نفسها في مدينة تستهلك الكثير من النقود .. وتتطلب ماديات كثيرة .. فعليها أن تعمل كي يمكنها أن تعيش بالمدينة التي يسميها - الآخرون - عاصمة الضباب .. في نفس المصنع الذي تعمل به مع أخيها تقابل ارزقي .. شاب جزائري في الثلاثين من العمر .. ومن خلال تعاطفها مع قضيته وسلوكه يرتبطان ارتباطا عاطفيا .. علاقته بها تنمو شيئا فشيئا الى أن تغدو شديدة الارتباط .. فهو شاب بسيط يفتح لها آفاقا مجهولة . « يبدو مشغوفا بحياتي البسيطةوبمشاعري الفياضة وبآفاقي المحدودة ، وبأحاسيسي الحية . هذه الأشياء فجرت هذا الحب الكامن » .

على طريق النضال

وتتحدث عن أرزقي قائلة : « كان وجهه جيلا حلوا لا يعرف الخجل .. لكنه يبدو أقل شبابا من الآخرين » .. يدعو اليزا لتناول القهوة بمناسبة عيد ميلاده الحادي والثلاثين .. ترى أنه يحمل صفات الانسان الكامل الحنون .. فهي تتعلم منه كلمات كثيرة باللغة العربية حول ماذا يعني « الواجب » .. وماذا تعني كلمة « أحبك » .. وهو يتعلم منها الحب والحنان والعطاء ..

أما هي فتحاول من خلال أرزقي أن تفهم زميلاتها قضية الشعب الجزائري الذي يحارب ضد فرنسا مطالبا بالاستقلال وأن تصبح بلادهم دولة لها سيادتها واستقلالها بعد مائة وثلاثين عاما من الاحتلال الفرنسي .

- « هل تريدون أن تنتشوا بعذاب الجزائريين »

- « يحب الفرنسي الجزائري كما يحب الحصان الذي يمتطيه » .

تقول له : « لو لم أعمل مع العرب أو الزنوج .. واذا لم أقف بجانبهم .. فماذا أفعل ؟ . »

فيقول : « النضال هو أن ينتمي المرء الى بلد مطحون »

ولكن العلاقة لاتدوم .. فذات مساء يتم القبض على الشاب ويتم ترحيله الى حيث لا تعلم .. وبعد فترة قصيرة يموت أخوها في حادث ابان قيام العمال الفرنسيين بثورة ضد أصحاب العمل .. « علمني ماذا تعني كل هذه المشاعر ، الفشل وابتلاع اللعاب .. وان يبقى القلب مزموما وهو الذي كان يضحك دائما .. كان جسدي كله يتألم » ..

واليز تجد سلواها في قراءة الصحف التي يشركها أخوها ، كي تعرف منها قضايا العالم الذي يحيطها .. فهي تعاني كثيرا من العمل في المصنع لكنها مضطرة كي تعيش : « الصباح دائما يجلب الضجة .. وبسبب التعب .. كنت أشعر بالعنف يفسد رأسي » ..

فبعد أن تجد اليز نفسها قد حشرت أقرب الناس اليها ، تقرر أن تعود الى بوردو كي تعيش مع جدتها .. بعد أن أدركت تماما أن الفقراء أمثالها لن يعيشوا « الحياة الحقيقية » قط .. لقد استغرقت الحياة الحقيقية بالنسبة لها تسعة أشهر فقط أحبت خلالها الشاب الجزائري « أرزقي » . لكن الأمل يرقد الآن تحت الرماد .. « أرفض أن أتخيل ما ينتظرني .. يجب أن أعمل فسوف أختار - دون شك -

وسيلة أرزقي في عالم لا توجد فيه علاقات إنسانية .. لقد دامت الحياة الحقيقية تسعة أشهر .. انسحبت داخل نفسي .. فأنا لم أمت بعد .. »

وعن حبيبها تقول : « كان ارزقي يختار كلماته بدقة .. فهو يحب أن يردد دائما كلمة أخي عندما يعبر عن شعبه .. الكلام لديه يمثل قدرة .. والكلمة يمكنها أن تمثل شيئا .. »

وفي القرية التي تعيش فيها مع جدها تجتر ذكرياتها وأحزانها « لقد سقط شاب جزائري » .. ولا تنسى تلك الأيام الرائعة التي عاشتها هناك .

اليزا - التي هي صورة مجسدة من كلير اتشرالي ذاتها - هي إحدى الشخصيات الرائعة التي تمثل مجتمعا ما .. وهي الشخصية الرئيسية في الرواية التي تقص حكاياتها .. فقد ربتها جدتها وأخوها في مجتمع فقير معزول .. وهم يعيشون جميعا في بيئة فقيرة يرتعون من عدمها .. تركت المدرسة في سن السادسة عشرة .. ولكنها عندما بدأت العمل تحولت الى إنسانة أكثر التزاما « .. لم أطلب يوما إجازة وأتطلع دائما نحو الأعلى » .. « في سن العشرين كنت أبدو أكثر شبابا .. وبدوت متكبرة بتقلي .. أرتدي ملابس غير ملونة وأبدو راضية إني لست مثل الأخريات » ..

ولوسيان هو الرجل الأول في حياتها .. فقد علمها أشياء كثيرة منذ أن استيقظت على الحياة وهي طفلة .. علمها كل القيم .. وناضل من أجلها .. ترك التعليم كي يتولى أمور الأسرة .. « في سن الرابعة عشرة كان للوسيان عاطفتان : صداقة نحو هنري .. وتلك كانت مشاعر نبيلة ثم التزلج فوق الجليد » .. وهو يميل أكثر إلى العمل في المصنع ويفخر بعضويته في نقابة العمال .. وقد قتلته سيارة ذات مساء في نفس الليلة التي هرب فيها كي يشارك في مظاهرة لاحدوى منها .

وكما أشرنا فان كلير عاشت ظروفا مشابهة .. وقد حصلت هذه الرواية على جائزة فمينا عام ١٩٦٨ .. وهذه الجائزة تمنح لأفضل الأعمال الأدبية التي تتولى الدفاع عن حق المرأة وعن وضعيتها .. وهي تمنح للرجال والنساء على السواء .. لكن شرط أن تتناول الفكرة الابداعية للرواية معاصرة حركة المرأة .. وقد أعجب المخرج الفرنسي ميشيل دراش بهذه الرواية فقدمها عام ١٩٧٥ في فيلم من بطولة زوجته ماري جوزيه بات .

ثائرة أيضا

في عام ١٩٧٣ قدمت كلير روايتها الثانية « فيما يخص كليمانتص » .. وفيها نرى اليز أخرى .. امرأة رقيقة ، شاعرة ، تعيش حياة بسيطة .. فهي عاملة بسيطة تعمل في مصنع .. تشعر أنها أسيرة للعديد من الأشياء .. الآلات في المصنع .. الرجل الذي يحاول أن يتحكم فيها .. وأن يقودها حسبما يشاء .. واذا كانت اليز قد أحبت جزائريا ثوريا .. فان كليمانتص تحب رجلا أسبانيا هاجر من بلاده بعد أن اشترك في التمرد ضد حكم الجنرال فرانكو أو الكوديللو الذي حكم أسبانيا سنوات طويلة .. وهي تتعلم منه ماذا يعني التمرد ؟ .. وما هي الثورة .. فتغدو امرأة تختلف .. أكثر ايجابية وموضوعية .. تعتنق افكار حبيبها ومبادئه .. لكنه في الوقت الذي ينسى فيه الرجل قضيته شيئا فشيئا بابتعاده عن بلاده .. تتحول هي الى أكبر مدافعة عن الثورة الأسبانية .

المرأة نفسها تظهر مرة أخرى في أحدث رواياتها « شجرة مسافرة » .. ففيها نرى امرأة ثائرة أيضا .. امرأة تحلم بالهدوء .. وأن تدخل حلبة الصراع .. فهي ترى نفسها جنديا يحارب في معركة خفية .. هي أم لثلاثة أطفال .. أنجبت أبناءها الثلاثة دون زواج .. « لا أحب هذه الحياة التي أعيشها » .. وهي ترى أن كل شيء ليس على ما يرام طالما أن هناك بطالة واجازات مرضية .. فقد اضطرتها الظروف الصعبة أن ترسل أبناءها كي يتوسلوا الى البقالين ليأتوا لأنفسهم بشيء يأكلونه .. ولتقضي فترة لا ترتبط خلالها بأي من الرجال .. فقد أصبح أبناؤها هم كل عالمها ..

وترتبط ميلي - وهذا هو اسمها - بامرأة تدعى آنا .. وهناك تقارب بين المرأتين .. لقد ولدتا أطفالا من رجلين أحباهما دون الزواج منهما .. وتبحث المرأتان بصفة دائمة عن وظائف .. تجد آنا عملا في احدى الأدوار السفلية على آلة طباعة .. وهذا العمل في رأيها لا قيمة له ويسبب لها الكثير من المتاعب .. بينما يعاني أبناؤها من مرض بسبب تلك الغرفة المظلمة الرديئة التهوية التي يعيشون فيها ..

من باريس الى براغ

ميلي امرأة أكثر مرونة وواقعية وصلابة .. فتقوم برسم الكثير من اللوحات حول الفقراء في أحياء باريس .. تقوم بتأجير منزل في إحدى القرى القريبة من العاصمة وتعيش مع أبنائها تتولى تربيتهم .. وفي القرية تلتقي بوالتر الفنان الذي يقوم بتحويل المباني القديمة الى مبان فاخرة .. وهو انسان يعيش حياته بمنطقه .. « نحن في عصر يجب أن نصبح فيه أثرياء » .. فهناك في باريس وحدها أكثر من مائة وعشرين ألف عاطل .

ميلي ترقب ما يحدث في مدينة باريس ابان مايو (أيار) ١٩٦٨ حيث قام الطلبة بثورتهم ضد الحكومة والأوضاع

البالية . . واتقلت ثورتهم الى العمال وفئات كثيرة . هذه الأحداث تغير من السلبية التي تعيشها ، فعليها أن تناضل من أجل مجتمع أفضل يسوده الحب ويموت فيه التعصب . . « وكل ما يحدث هنا سوف يخلصني » . . ولا يفهم والتر ما اعترى المرأة من تغير . . فقد ودت أن تشارك في أحداث الطلبة . . إنما تعتبر نفسها شجرة سافرة تظلل بظلها أبناءها وتغرق بجذورها في حياة ماضية عاشتها في الأقبية دون أن تستقبل قط الهواء النقي الذي يجلب حركة الآخرين » . .

ويبدي والتر قلقه من أبناء ميلي الذين يعيشون في عالم بدأت تترعرع فيه الراية الحمراء . . . أما هي فلم تعتقد أن يحكمها رجل ، ولم تعتقد أن تبقى في المنزل . . فتقرر العودة مرة أخرى إلى العاصمة . . لكن أمل تغيير الأشياء أصبح هشا بعد مرور مايو (أيار) . . لكن هناك حدثا آخر يصيبها بقلق شديد في أغسطس (آب) من العام نفسه حين دخلت الآليات الروسية إلى براغ لتحولها إلى مقبرة حية . . لقد حطمت القوات الروسية هناك ربيعا نبض في قلب الشباب حيث انتقلت ثورة الشباب الفرنسي إلى أكثر من مكان في العالم ووجدت طريقها إلى قلب الشباب التشيكوسلوفاكي . . لكن الجيش الروسي حطم أملا . وشعرت ميلي أن قلبها يتحطم أيضا . . لكنها تعيش دائما على أمل . .

وكلير اتشرلل تنهي رواياتها دائما بالأمل . . فتحكي بطلاتها بالحيوية . . حينما تقابل ميلي رجلا يدعى فانش أحبته منذ عدة سنوات وتحتفظ له بأحلى الذكريات . . لقد تغير فانش وأصبح انسانا يختلف . اتبذ عالم الخمر ، وتحول من إنسان ضائع الى انسان أكثر رقة وارتباطا بامرأة غيرتها ظروف بلادها . . وظروف العالم من حولها . . إنه رجل يختلف عن والتر الذي كان لا يؤمن بحريتها . . ولا برغبتها في التغيير .

وعن أسلوب كلير اتشرلل يتحدث الناقد هنري جوان في مجلة لونوفيل اوبزر فاتور ٣١ يوليو (تموز) ١٩٧٨ : « ان تقنياتها مؤكدة ، وأسلوبها محدد يجلب لب القارىء ، ويجذبه إلى عالمها . . وهو مليء بالدفء الانساني . . وبالنبل البشري . . وبطلات كلير اتشرلل ذوات شعور عام ولهن مشاعر لازمة . . إنهن لسن سلبيات . . ولا يمكنهن أن يفصلن مشاكلهن الخاصة عن المشاكل الاجتماعية » . .

ونحن اذا قارنا كتابات كلير بكتابات أخرى تكتبها النساء المعاصرات . . فسوف نرى أن بطلات رواياتها أكثر ثورية وتمردا ونسوية من كل النساء في روايات أديبات أخريات مثل مرجريت يورسنار أو نيكول افريل أو شانتال شواف . . وهؤلاء النسوة أقرب في صفاتهن إليها . . فهي امرأة تتطلع دائما لأعلى . . تميل إلى الثورة والتمرد . . وترى أن على المرء أن يرتبط بكل ما يحدث في العالم . . وألا يكتفي الانسان بالنظر فقط داخل نفسه . . وإنما أن يخرج هذه النفس بكل المعاناة التي يعانيها البشر في كل أنحاء العالم . . ○

الاسكندرية ـ محمود قاسم

عصر الإقتراض

بقلم : محمود المراغي

يبدو أن الاقتراض قد أصبح سمة من سمات العصر ، فمن بين (١١٩) دولة قام البنك الدولي بتحديد موقف معاملاتها المالية مع العالم الخارجي، كانت هناك ـ عام ١٩٨٠ ـ خمس وسبعون دولة تعاني من عجز في موازين مدفوعاتها الجارية ، وتعالج مشاكلها بالاقتراض !

في الستينات ، كانت المشكلة أقل حدة ، ولكن مع متغيرات السبعينات .. من زيادة كبيرة في أسعار الطاقة والمواد المصنوعة .. الى سياسة الباب المفتوح في الدول النامية ـ أو معظمها ـ الى انتشار أنماط غير مناسبة من الاستهلاك في الدول الفقيرة .. مع هذه المتغيرات فقد الكثير من الدول توازنه .. فعرف العجز ، وعرف الاقتراض على نطاق واسع .. وكلما واجه عجزا سارع الى اقتراض خارجي .

في مواجهة ذلك رفعت المنظمات الاقتصادية الدولية شعار التكيف .. فالصدمات التي تلقتها الدول النامية ـ أكثر من غيرها ـ لا حل لها بغير مجموعة من السياسات التي تقلل العجز وتعيد للاقتصاد توازنه وتدفع بالتنمية للأمام .. ولكن ، وفي مقدمة الأدوات اللازمة لذلك ـ من وجهة نظر هذه المنظمات ـ زيادة المساعدات الدولية التي تأخذ شكل الهبات أو القروض الميسرة (وهي الجزء الاعظم) .

والسؤال : من الذي منح ؟. ومن الذي أخذ ؟. وما هي الحصيلة النهائية لما تسمى مساعدات التنمية الرسمية ؟

حسب ارقام البنك الدولي فقد قدمت دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية والتي تضم الدول الصناعية الكبرى (٣ر٢٧) مليار دولار خلال عام ١٩٨٠ .. وقدمت دول الاوبك (٥ر٥) من المليار منها (٩ر٤) من المليار ، لمجموعة الاوابك العربية . الارقام المجردة تشير الى أن الدول الصناعية تدفع أكثر .. ولكن بحساب الناتج القومي وما تمثله هذه المساعدات كنسبة مئوية منه فان الوضع يختلف تماما .

لقد دفعت الدول الصناعية (دول منظمة التعاون) : (٣٨ ٪) من ناتجها للمساعدات عام ١٩٨٠ .. وحافظت على نسبة قريبة من ذلك طوال السبعينات وحتى عام ١٩٨١ .. بينما كان نصيبها في الاقراض والمنح الرسمية في الستينات في حدود ٥ر٪ من الناتج القومي .

على النقيض من ذلك كانت مساهمة الدول العربية المنتجة للبترول (الاوابك) . إنها تعطي في المتوسط ما يعادل ٣٪من ناتجها القومي من أجل المساعدات الخارجية .



في عام ١٩٧٥ كانت النسبة مرتفعة اذ قاربت ٥٪ من الناتج . وفي عام ١٩٨٠ كانت النسبة قد تراجعت لتهبط قليلا عن ٣٪ . . أو هي بالتحديد ٨٣ ٢٪ .

واذا انتقلنا من النسب للأرقام فاننا نجد أن أكبر المانحين (والمانحون هنا لفظ ابتكرته مؤسسات البنك الدولي والامم المتحدة) هو الولايات المتحدة الاميركية والتي أعطت من القروض والمعونات الرسمية عام ١٩٨٠ : ٧١٣٨ مليون دولار . . وكانت الدول التالية لها : فرنسا والمانيا الغربية واليابان ثم السعودية فالكويت .

وبالعودة للنسب المئوية قياسا مع الناتج القومي فاننا نجد أن أكبر المانحين(بالقياس الى دخلهم) هي دولة الامارات التي خصصت عام ١٩٨٠ : ٩٦ر٣٪ من دخلها للمساعدات الرسمية ودولة الكويت التي خصصت ٨٨ر٣٪ .

مازال السؤال مطروحا : هل غطت هذه المساعدات والتي يتشكل معظمها كما قلنا من قروض ذات فوائد احتياجات دول « العجز » ؟ . . وهل دفعت بالتنمية للأمام ، وهل ساعد هذه الدول للوصول الى حالة من التوازن ؟

والاجابة ان الفرق مازال شاسعا بين حجم العجز وحجم العون . . ويكفي ان نعرف أن عجز خمس دول هي البرازيل والمكسيك وكوريا والارجنتين والهند ، قد فاق كل ما قدم من معونات خلال عام ١٩٨٠ . . وأن عجز المكسيك وحدها قد فاق كل ما تقدمه الولايات المتحدة الامريكية . . وعجز البرازيل (١٣ مليارا) قد تساوى تقريبا مع ما يقدمه أكبر ثلاثة من المانحين (الولايات المتحدة ـ فرنسا ـ ألمانيا) .

أيضا ، فانه في التقييم النهائي تجد دول العجز في تزايد . . وعجزها يتحول ـ في كثير من الحالات ـ من عجز طاريء الى عجز مزمن . . والسباق بين نتائج التنمية وأعباء القروض يجري لغير صالحها .

فاذا أضفنا الى ذلك شروط المنح والمعونات والتي تصاحبها في كثير من الاحيان : التزامات سياسية وأسعار فائدة مرتفعة للاقتراض . . اذا أضفنا ذلك لاستطعنا أن نقول ان المعونات وحدها لا تفيد . . وأنه صحيح ما طالبت به الهيئات الدولية ـ وتابعته عن كثب ـ من ضرورة وجود سياسات للتكيف تخفف أثر الصدمة وتصنع اقتصادا سليم البنية في الدول منخفضة ومتوسطة الدخل . .

ولكن ، هل هذا هو التكيف ؟

أخشى ان اقول ان محصلة حقبة من المعونات كانت لصالح الدول الصناعية الكبرى في الاساس وأنه عندما تحتل الولايات المتحدة الامريكية وحدها نحو ربع المعونات الممنوحة فان الامر يلفت النظر .

وأخشى ان اقول ان المعونات في كثير من الاحوال لم تدفع بالتنمية للأمام ، ولم تساعد على توازن اجتماعي أو عدالة اجتماعية ، ولم تمثل غير عبء على أجيال قادمة ، ومساندة لأنظمة سياسية قائمة .

أخشى أن أقول ذلك ، لكن النتائج تؤيده .

فهل من سياسات أخرى ؟ ■ ■

فلندفن أساطيرنا بشجاعة

الدكتور : محمد مهدي

كتب الأستاذ راجي ظاهر ـ وهو أحد كبار المفكرين العرب في أمريكا وصاحب جريدة « البيان » المهجرية ـ مقالة سنة ١٩٦٧ بعد الهزيمة الشنعاء تحت عنوان « فلندفن أساطيرنا وبلا دموع » .

وبما أن العرب لم يدفنوا الأساطير وكرروها وأعادوا تكرارها ، حلت بنا الداهية الأخيرة حيث يأمرنا الرجل الذي جاء من بولونيا (مناحيم بيغن) وغزا فلسطين وضم الجولان واعتدى على لبنان أن نخرج من مدينتنا (بيروت) فنخرج ونحن مضطرون إلى الاصغاء إليه .

وقد بدأت الأساطير العربية قبل سنة ١٩٤٨ عندما كانت الدعاية العربية تشير إلى الصهاينة في فلسطين بـ « حفنة عصابات » . وقد خدعنا أنفسنا بالكلام الفارغ وكأننا عندما نقلل من شأن العدو بالأقوال ونكيل الكلام جزافا في ذمه ومدح القوى العربية فيضعف العدو وتزداد في الحقيقة قوة !

قضايا حيوية

اعداد : مصطفى نبيل

إننا أخطأنا منذ البداية عندما نظرنا الى الحركة الصهيونية وكأنها « مشكلة في فلسطين » وكانت في الواقع ومازالت حركة عالمية كالأفعى التي ذنبها في الشرق العربي ورأسها في العالم الغربي وخصوصا ـ الآن ـ في القارة الأمريكية .

ونتيجة لخداعنا أنفسنا خسرنا المعارك الأولى وضربتنا الجيوش الاسرائيلية ضربات بعد ضربات حتى إذا ما فتح العرب عيونهم وجدوا أنفسهم في جزيرة رودوس يوقعون معاهدات الهدنة الأولى !

ثم خدع العرب أنفسهم بعد الاعتداء الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ وجعلوا من الهزيمة العربية أمام أقوى دولتين كبيرتين (فرنسا وانكلترا) واسرائيل ـ جعلوا من الهزيمة نصرا !

وبعد النصر الاسرائيلي سنة ١٩٦٧ واحتلالهم سيناء والضفة الغربية والجولان ، قامت الدعاية العربية بنظرية جديدة غريبة لتبرهن النصر العربي والفشل الاسرائيلي : ان اسرائيل كانت ترمي الى قلب نظام الحكم في بعض العواصم العربية ، وقد فشلت في ذلك فشلا ذريعا . . . وانتصر العرب رغم الاحتلال الاسرائيلي لسيناء والجولان والبقية الباقية من فلسطين !

وبعد النجاح العربي الباهر سنة ١٩٧٣ وعبور القناة ودك خط « بارليف » تدخلت أمريكا وبنت الجسر الجوي الذي نقل الى اسرائيل خلال أيام معدودة ٥٢ ألف طن من الأسلحة عن طريق الجو والبحر . وكان التدخل الامريكي برهانا على صحة نظريتنا في أن رأس الأفعى الصهيونية في أمريكا ، وبأن العرب لن يستطيعوا التغلب على ذنب الأفعى (اسرائيل في فلسطين) ما لم تفصل رأس الأفعى عن ذنبها .

وكان الأجدر بالعرب أن يصرفوا المبالغ الهائلة لفتح ميدان جديد لهذه الحرب : الحرب الاعلامية في أمريكا وأوروبا لقطع شرايين الحياة التي تربط الدولة الدخيلة الغاصبة بالعالم الخارجي وإيقاف المساعدات الغربية وخصوصا الأمريكية التي تذهب الى اسرائيل وتغذيها وتعطيها المقدرة على الاعتداء والتوسع في الشرق العربي .

ولم يفهم العرب دروس سنة ١٩٧٣ وراحوا يرددون الأساطير القديمة : وقالوا « ان هناك علاقة عضوية بين أمريكا واسرائيل » ليبرروا الفشل دون أن يحاولوا مواجهة الحقيقة . والحقيقة هي أن أمريكا بلاد مفتوحة لمن اشتغل ، وقد اشتغل الصهاينة في حقل الدعاية بالأسلوب الأمريكي والعقلية الأمريكية والحجم الأمريكي فنجحوا . أما العرب فجلسوا واشتكوا وقالوا « لا يمكن العمل في أمريكا للفصل بين أمريكا واسرائيل » وبذلك خسروا نصف المعركة قبل أن يبدءوا بها . ويعلم الله أنه لاتوجد علاقات عضوية أو غير عضوية بين الدول ، والعلاقات هي باستمرار علاقات مصالح ، والمصالح تتغير . والمعلوم أن المصالح الاقتصادية للشعب الامريكي هي اليوم مع العرب ولا شك ، وليست مع الدولة المغلفة (اسرائيل) ، ولكن العرب لا يستغلون الظروف بحملة إعلامية كبرى أمريكية التفكير والأسلوب ، وأمريكية الحجم للتأثير على الصعيد السياسي على الرأي العام الأمريكي وبالتالي التأثير على السياسيين الأمريكيين والسياسة الأمريكية تجاه العرب .

فكيف يستطيع العرب النجاح في حرب السلاح وهم لم يستعدوا إلى الآن للحرب الاعلامية ضد العدو في عقر داره في أمريكا بالأسلوب العصري الأمريكي .

والآن وقد تغلب الصهاينة علينا سنة ١٩٨٢ وطردونا من بيروت ، سيبدأ العرب بخلق أساطير جديدة « تبرهن » بأن اسرائيل هي التي فشلت في الحرب ، ذلك لأننا أوقفناها عند حدها في بيروت .

ويجب أن نتذكر للحق والتاريخ بأن المحاربين الفلسطينيين الأشاوس أبلوا بلاء حسنا مشرفا . ولكن صواريخ المقاومة ضد الطائرات الأمريكية كانت كالرماح والنبال بوجه أكبر الدبابات وأضخمها وأفتك الطائرات العصرية . واذ يجب علينا أن نكرم القوى الفلسطينية التي دافعت عن شرف العروبة بشجاعة وبسالة ، يجب ألا نخدع أنفسنا بخلق أسطورة جديدة بأننا تغلبنا على اسرائيل لأنها لم تستطع القضاء على المنظمة أو تدخل بيروت قهرا . نحن لم نحاصر تل أبيب وهم حاصروا بيروت !

ويجب أن نعترف (أولا) بأن جهودنا الحربية ـ على أحسنها ـ هي غير قادرة على التغلب عسكريا على أمريكا واسرائيل ، وما دامت أمريكا تساعد الدولة الدخيلة ، فاسرائيل ستكون باقية وقادرة على التوسع . وأنها إذا

كانت جيوشها وصلت الى بيروت فستكون جيوشها غدا على مشارف دمشق وبغداد ، اذا ما استمر العرب على خلق الأساطير لخداع النفس ومواصلة التفكير القديم والتركيز على محاربة ذنب الأفعى الصهيونية في فلسطين وليس رأسها في أمريكا .

(ثانيا) : إننا بحاجة إلى استراتيجية جديدة وتفكير جديد : القلم قبل السيف ، والرأي قبل شجاعة الشجعان .

إن الصهاينة نجحوا في فلسطين بالبندقية لأنهم نجحوا قبل ذلك بالقلم والكلمة والدعاية في أوروبا وأمريكا .

ونحن ندعو الأخ المجاهد « أباعمار » والمنظمة والشعب العربي الفلسطيني بخاصة والعرب بصورة عامة لفتح ميادين جديدة للمعركة في الساحة الغربية وبسلاح القلم والكلمة الحسنة كخطوة أولى لقطع شرايين الحياة عن اسرائيل ولاسترجاع الحق العربي في لبنان والجولان وفلسطين .

ان حوالي ٨٠٪ من الشعب الأمريكي يتعاطف اليوم مع العرب ، والحاجة الآن هي الى توجيه هذه الأغلبية الأمريكية لتعمل على الصعيد السياسي وتطلب من الرئيس الأمريكي إيقاف المساعدات الأمريكية العسكرية والاقتصادية والسياسية عن إسرائيل ! ويجب أن نقوم نحن مثلا بحملة لارسال عشرة ملايين بطاقة ورسالة إلى البيت الأبيض لمطالبة الرئيس « ريغان » أن يوقف المساعدات عن اسرائيل وأن يطلب من « بيغن » أن ينسحب من لبنان والجولان وأن يعترف بحقوق الفلسطينيين في العودة الى فلسطين .

ان المقاومة الفلسطينية يجب أن تستمر رغم الخسارة في هذه المعركة في لبنان وفي بيروت .. ولكننا نكون كالعميان إذا ركزنا آمالنا على العمل الحربي لتحرير فلسطين من إسرائيل ولم نر بأن إسرائيل مدعومة من قبل أكبر دولة في العالم ... قوها هو الفصل . فاذا أيدت أميركا إسرائيل نجحت إسرائيل ، وإن أيد الآسيويون والأفارقة وكتل المنظومة الشرقية والعالم الثالث وحتى ـ أوروبا الغربية ـ الحقوق العربية الفلسطينية .

ان الواجب الأول على كل إنسان عربي هو أن يفكر في هذا السؤال : كيف نستطيع فصل أمريكا عن اسرائيل ؟ والواجب الثاني عليه هو أن يعمل ما بامكانه من جهاد بالمال

وقال الله سبحانه وتعالى : « وجاهدوا بأموالكم » .... وحق الكلمة الطيبة للعمل على ذلك الفصل .

وبعد ، فبعد مأساة بيروت يجب أن ندفن أساطيرنا بشجاعة وبلا دموع ، ونبدأ الآن بتفكير عصري جديد لمحاربة الصهيونية من رأسها وليس من ذنبها ـ وإلا فاننا اذا استمررنا في خداع النفس وحبك الأساطير تكررت مأساة بيروت في دمشق وفي عمان وبغداد وغيرها من العواصم العربية .

فهل أنتم يا اخواتنا وسادتي سامعون ؟

عودة الإبن المنفي

ضامن محمد

أثار الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في مقالته « عودة الابن المنفي » عدد ٢٨٤ من مجلة العربي القراء موضوعا من الاهمية بمكان ، لا من مغرب الوطن العربي فحسب بل من مشرقه لأن القضية بالدرجة الاولى هي مسألة مبدأ قومي شريف .

والذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع كونه شغلني من وقت ليس بالقريب كنت به مترددا بين مستنكر له ومحب ، وان كنت الى الثانية أميل الا أن لي معها بعض الملاحظات أبينها فيما يأتي :

١ ـ لا شك ان اللغة واسطة ثقافية كما هو معروف . غير أنها من الأدب واسطة مشروطة ان لم أقل مقدسة . فاذا كان المترجم ممن يتقن اللغتين كل الاتقان ويجيدهما كل

الاجادة ، وله من القدرة على استعمال اللغة الاجنبية مثل ماله في اللغة الأم فقد امتلك ناصية الامر ، وان كان هذا من القلة بمكان ، ذلك لان اللغة أحيانا تأسرنا من حيث لاندري ، وبدلا من أن تكون طيعة لنا خادمة لأغراضنا نصبح عبيدا لها تمتلكنا شعوريا وفكريا خاصة اذا تعلق الامر بالأدب وكل ماله صبغة أدبية ، ولنا من الكتاب الكبار أسوة ، فلقد تعبوا من ترجمة النصوص الى لغتهم وتقديمها الى القارىء الجديد في قالب يحافظ على جمال اللغة الأم ويخضع لقواعدها وأساليب تعبيرها وآفاق خيالها ومستويات التذوق والفهم .

نقول هذا واللغة من الأدب ـ كما قلنا ـ أصعب مراسا لانها تصبح في يد الكاتب الأديب أداة وليست وسيلة . فهو لايسعى الى تبليغ الحقائق فقط بل الى رسم لوحة فنية ، وتقديم أكلة شهية تناسب معدات المستهلكين وقدراتهم على الهضم والاستقلاب وهو أمر تختلف فيه لغة عن لغة اخرى بحكم تنوع الثقافات وتعدد طرق التعبير وأساليب التبليغ .

وهنا تصبح عملية ترجمة العمل الأدبي من أكثر الأعمال خطورة لأنها تستوجب الى جانب العمل القدرة على تمثل المعاني وتقديمها في قالب جديد يناسب الاحساس الجديد واللغة الجديدة المترجمة لها والا أصبحت الترجمة تحريفا وتشويها لروح النص وبنيته .

إن الأديب يخلق الكلمة ولا يستهلكها ، وبالتالي فهو مبدع على مستوى الكلمة كما هو مبدع على مستوى الفكرة ـ وفي ميدان الترجمة تتضاعف المؤهلات وتصبح الطريق أشد التواء حيث يصبح الابداع لا على مستوى الكلمة والفكرة فقط بل على مستوى تفريغ النص من قالبه الأصلي وصبه في قالب جديد ، وهنا تكون حظوظ النجاح قليلة جدا .

٢ ـ إننا للأسف الشديد ما نزال نتصرف في الكثير من أمورنا الفكرية بعاطفة متأججة هي من الأصل شعور بالهوية المسلوبة وحب في سد الفراغ وتطلع الى ملاحقة الغرب . إلا أننا للأسف الشديد نخطىء الهدف حيث لا تسلك له المسالك المطلوبة .

والنتيجة أن أكثر أعمالنا في هذا المجال تطغى عليها السرعة والعجلة والتباري إلى البسط وتحصيل الأولوية وهذا ما يجعل ترجماتنا أقرب إلى الهراء والسفاسف منها الى إدراك المسؤولية وتحمل التبعات الحضارية والفكرية .

أقول هذا ولنا في مغربنا الأقصى أمثلة أذكر منها كتب العروى الذى ترجمت أعماله إلى اللغة العربية وهي ترجمات ساهم فيها اخوة من المشرق والمغرب ، ولكن هذه الترجمات ـ وبكل أسف ـ مما يخجل المترجم والقارىء معا . فهي إما ترجمات كلمة بكلمة أو هي ترجمات معنى بغير استيعاب ومراجعة واستقصاء ، وفي كلا الحالين فهي تجني على الكاتب وما يكتب وتضلل القارىء بأسلوب أو بآخر .

لا أريد هنا تقديم النماذج فهي كثيرة ومتعددة مما لا يسمح به المقام ولكنها الاشارة إلى خطورة العملية من جانب المترجم والكاتب والقارىء معا حيث تنعدم الشروط العلمية ، وهي شروط أقسى مما يتصوره من يكتفون بقراءة العناوين وتصفح الكتب والانسياق وراء المظهر الخارجي البراق الذي تقدم به مثل هذه الكتب التي لا تستهدف إلا الربح السريع والشهرة الرخيصة .

إذن ما العمل ؟

وأرى أن نعالج المشكلة على الشكل الآتي :

ـ تأسيس هيئة علمية لها وزنها وماضيها في ميدان الترجمة لتقوم بهذا العمل الجليل ممن عرفت فيهم الأمانة العلمية والذوق الأدبي الرفيع . وهي هيئة يستحسن أن تشرف عليها جهة رسمية وترعاها بالمال ، الشيء الذي يعود ـ وبلا شك ـ على الفكر والثقافة في البلاد العربية بالشيء الكثير .

ـ عدم السماح للترجمات الفردية الرخيصة بالرواج والتداول في السوق إلا بعد عرضها على هذه الهيئة لتبدى فيها وجهة نظرها فتسمح لها بالانتشار أو تصادرها بموجب قوانين تسنها الدولة وتحميها .

إنشاء هيئة عليا على المستوى القومي تشرف على عملية التوزيع والتبادل على مستوى الترجمات وباسعار مناسبة ومن صورة ما يسمى بكتب الجيب تعميما للثقافة .

ـ تحديد وخلق مباريات ورصد جوائز مالية مغرية على المستوى الوطني أو القومي ، الشيء الذي يحفز ويغرى من يتوسمون في نفوسهم القدرة على القيام بهذه المهام الشاقة. بهذا الشكل يمكن للمكتبة العربية أن تستفيد حقا وتسد فراغا كبيرا وبالتالي تقدم للفكر العربي خدمة جليلة وهي مساهمة جادة ومثمرة لا تحد نتائجها ولا تحصى لاعلى المستوى الثقافي المحدود بل على المستوى الخلقي والانتاجي والحضاري .

وهذا في الحقيقة مطمح كل عربي يحمل في قلبه حبا لهذا الوطن الكبير وبهذا تصل الحاضر بالماضي ونعيد لفكرنا ولغتنا مكانتها العريقة .

الشورى بين التقريب والتغريب

الدكتور ـ جمال الدين محمد محمود

* من الامور التي تسهل ملاحظتها في بحوث الدراسات السياسية الاسلامية أن يربط الباحث بين مفهوم اسلامي له أصوله الاسلامية من النصوص وبين الصورة التي تبدو مشابهة له في النظم السياسية المعاصرة ، ومن ذلك مفهوم « الشورى » التي ورد ذكرها في نصوص القرآن والسنة وجرى تطبيقها في الصدر الاول على يد الخلفاء الراشدين . وحين يراد تقريب مفهوم الشورى الى العقل المعاصر يربط البعض بينه وبين مفهوم الديمقراطية التي تبلورت صورتها في النظم السياسية المعاصرة ، ويبدو الأمر في بعض الدراسات كما لو كنا نضع أجوبة غربية لأسئلة إسلامية أو العكس ويكون الخطر حين ينتهي الأمر الى تغريب المفهوم الاسلامي وليس تقريبه فحسب .

* الشورى في الاسلام : الشورى لغة طلب الرأي وإظهاره وفي الاصطلاح الذي يعتمده البعض أنها استطلاع رأي الامة أو من ينوب عنها في الامور العامة المتعلقة بها وهنا نجد فارقا بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي في بيان أن موضوع الشورى أمر عام يهم المسلمين وأنه يصح أن ينيب المسلمون من يبدي رأيه في أمورهم ومع ذلك فان المعنى الاصطلاحي هو الاقرب الى مفهوم الشورى التي وردت في الآية الكريمة « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » . وفي هذه الآية وردت الشورى في سياق أوصاف معينة تلزم في المجتمع المسلم وأولها الايمان وإقامة الصلاة وهي عمود الدين وأوسطها أن تكون أمور هذا المجتمع التي تهمه بشورى بين أهله ، وأخيرا فان هذا المجتمع ينفق فيه من يستطيع الانفاق في أوجه الخير ، وقد لفت هذا السياق والترتيب نظر بعض الباحثين ودفع الى القول بان الشورى تعد الفريضة السياسية للمجتمع وقد توسطت الفريضة الدينية وهي اقامة الصلاة والفريضة الاجتماعية وهي الانفاق في سبيل الله (أو الزكاة) ويضاف الى ذلك أن الامر بالمشاورة في الآية الكريمة « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » يتفق مع المفهوم الاسلامي للشورى والذي يجعلها فريضة اجتماعية في الامور العامة للمسلمين .

● ومع التسليم بأن الشورى الاسلامية تجمع الفضائل التي عددها الباحثون ومنها ان تمثل احتراما للعقل الانساني وانها تظهر المساواة الاسلامية وهي فضيلة انسانية واخلاقية فانه ينبغي ألا نتصورها في النظم السياسية فحسب أو أنها النظام السياسي للاسلام . فان ذلك التصور هو الذي يقود الى أنها البديل الاسلامي للديمقراطية أو حكم الاغلبية . فالواقع أن الشورى أعم وأوسع من أن تكون نظاما للحكم فحسب وهي فريضة اجتماعية قبل أن تكون صورة لنظام سياسي وقد ألمح الى ذلك المرحوم الاستاذ سيد قطب في « ظلال القرآن » حين ذهب الى أنها اعمق من ان تكون نظاما سياسيا وانها طابع أساسي للجماعة كلها . وهنا يجب ألا نربط بين الشورى وبين النظام السياسي للمجتمع أو نعني أوضح اختيار الحاكم وادارة الحكم فحسب . ذلك أن المفهوم الاسلامي للشورى يتسع للمسائل السياسية والعلمية والدينية . فطلب الرأي والاستعانة بخبرة الغير ورأيه فضيلة إسلامية على المستوى الفردي والجماعي . وفي كل مؤسسات المجتمع العلمية أو السياسية أو الدينية ينبغي أن تسود في ادارتها وتسييرها هذه الفضيلة وان كان النظام السياسي ومؤسساته بالذات أحوج من غيره الى الاخذ بالشورى بمفهومها الذي ذكرناه .

●● ويدل التطبيق الاسلامي الاول لمفهوم الشورى على أنها كانت تطبق على أوسع نطاق ولم تقتصر على ما يعد الآن من مسائل نظام الحكم أو المسائل السياسية بوجه عام بل تعدى التطبيق الى كل مسألة يكون فيها استطلاع الرأي ومعرفة الرأي الآخر مفيدا قبل اتخاذ القرار ممن يملكه سواء كانت المسألة ذات صبغة سياسية أو دينية أو علمية وان كانت الامثلة البارزة فيما يذكره الباحثون تتعلق في الغالب بالامور التي تعد سياسية وذلك كما استشار الرسول (ص) في أسرى بدر وفي الخروج لقتال أعدائه . ومع ذلك لا ننسى أن النبي (ص) شاور أصحابه في مسألة لا تعد من هذا القبيل ولا هي من المسائل العامة اذ استشار النبي (ص) اصحابه في أمر أم المؤمنين السيدة عائشة

رضي الله عنها في حديث الافك واستمع لرأيهم قبل ان ينزل القرآن الكريم بفصل الخطاب في الامر . واستشار أبوبكر الصديق الصحابة في جمع القرآن الكريم - وهي مسألة دينية ظاهرة . واستشار عمر بن الخطاب في مسائل تتعلق بالادارة والاقتصاد كما في انشاء الدواوين وتوزيع العطايا وفي قسمة الأراضي المفتوحة على المقاتلين الغانمين .

● بين الشورى والديمقراطية : واذا كانت الشورى تعد فريضة وفضيلة إسلامية على المستوى الفردي والجماعي كما بينا ويعد تطبيقها أكثر أهمية والحاحا في نظام الحكم الاسلامي بالذات فاننا نعتقد انها تختلف عن مفهوم الديمقراطية الغربية . فقد نشأت هذه الديمقراطية على اساس من التراث الاغريقي في الفلسفة وينبغي أن نقرر أن الصورة التي انتهت اليها الديمقراطية الغربية - ومن أهم سماتها حكم الاغلبية - لم تكن واردة في تلك التراث بل كان الامر على العكس . فكان المجتمع الاغريقي أبعد ما يكون عن الديمقراطية بمفهومها المعاصر كما يقول المؤرخ الهولندي « هندريك فان لون » فكان لا يعترف الا بطبقة واحدة من المواطنين لها حق مناقشة مسائل الحكم جميعا وهذه الطبقة هي الاحرار السادة وكانت نسبتهم الى الناس تعادل واحدا الى خمسة تقريبا - ومع التطور الاجتماعي والسياسي الطويل استقرت الديمقراطية الغربية بمعنى حكم الشعب للشعب ومن أهم سماته أن يكون الحكم للأغلبية وأن يكون الحق في المعارضة مضمونا .

● واذا كان مبدأ حكم الأغلبية والحق في المعارضة هما جوهر النظم الديمقراطية المعاصرة فان هذين المبدأين مع أهميتهما وسلامتهما لا يتفرعان عن مبدأ الشورى الاسلامي الأصيل والذي أوردنا مفهومه فيما سبق . فالشورى هي ميزان الحق لأن تعدد الرأي في المسألة الواحدة كفيل باظهار الصواب من الخطأ . أما مبدأ الكثرة أو الأغلبية فهو ميزان « الأمن » اذ يقصد به اتباع رأي الاكثرية مطلقا عند التنازع حفظا للأمن . وبهذا المعنى نوافق على ما أورده الدكتور عبد الحميد الانصاري من الاعتداد بالكثرة وتغليبها عند النزاع وليس عند البحث عن الحقيقة . فاذا كانت الشورى تضمن التوصل الى الحق فان الاغلبية تضمن الوصول الى « الأمن » على اقل تقدير . ومن هنا تظهر أهمية مبدأ الاغلبية في النظام السياسي الاسلامي الذي يرفض وقوع الفتنة في المجتمع رفضا حاسما .

● وقد يرتبط الحق في المعارضة بالشورى كمفهوم إسلامي لأن جوهرها استطلاع الرأي والاستماع اليه مع احتمال وقوع الاختلاف أو تعدد الرأي ولكننا هنا أيضا نقع في خطأ التقريب الذي يؤدي الى خطر التغريب . فالحق في المعارضة مضمون في الاسلام بنصوص تكفله كالولاية المتبادلة بين المؤمنين والتي تقررها القرآن الكريم والحق في التناصح كما بينته السنة النبوية . وهنا نجد أننا نبتعد عن المفهوم الاسلامي الأصيل حين نصف هذه الولاية المتبادلة والحق في التناصح بأنه « معارضة » فالاسلام يتيح ذلك لكل الأفراد في المجتمع وبصفتهم أفرادا وليس من اللازم أن يقوم حزب أو هيئة معينة لممارسته . وفضلا عن ذلك فان هذه المعارضة لا يقصد بها ازاحة سلطة معينة في المجتمع وحلول غيرها في ممارسة سلطاتها . والولاية المتبادلة وحق التناصح في الاسلام يفترض كلاهما التسوية بين الآراء حتى يتبين للعقل التمييز والاختيار بينها . وبهذا المفهوم قبل النبي صلى الله عليه وسلم وهو أغنى الخلق عن النصح ان يستمع لرأي أصحابه فيما عرضه عليهم من أمور عامة كمسألة أسرى بدر والخروج للقتال وغير ذلك من الامور كما قبل عمر بن الخطاب رأي امرأة ناقشته فيما نهى عنه من المغالاة في المهور وأقر علانية بصواب رأيها . وكل ذلك أدخل في باب الولاية المتبادلة وحق التناصح بين المسلمين منه الى « المعارضة » بمفهومها الذي استقر في النظم السياسية المعاصرة اذ لا يتصور أن يكون ابداء الرأي أو المشورة أمام النبي صلى الله عليه وسلم قائما على « حق المعارضة » لأنها محتمة بحكم الشرع وبنصوص واضحة من القرآن الكريم . (١)

(١) بقوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » سورة النساء ٦٥ والعديد من الآيات التي تقرن طاعة الرسول بطاعة الله .

أحكام الأسرة
في الجاهلية والإسلام
قراءة جديدة

عرض : محمد خليفة التونسي

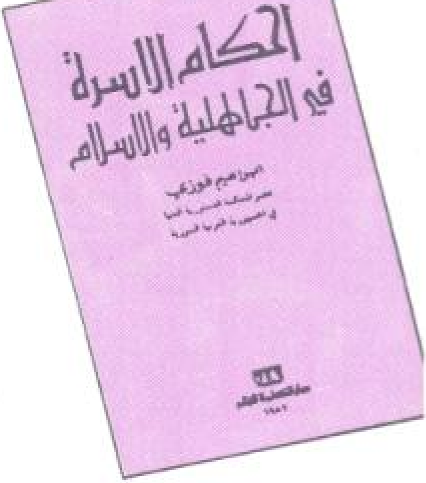
(هذا كتاب جديد مؤلفه هو الأستاذ محمد فوزي عضو المحكمة الدستورية العليا في سورية ، وقد جعل عنوان كتابه « أحكام الاسرة في الجاهلية والاسلام » وذيله بكلمات نؤثر نقلها كما جاءت على الغلاف ، لأنها توضح في ايجاز منذ البداية ، موضوع كتابه ومنهجه فيه معا ، والكلمات هي « دراسة مقارنة بين أحكام الأسرة في الجاهلية وفي الشريعة الاسلامية وفي الفقه الاسلامي ، وفي قوانين الأحوال الشخصية في البلاد العربية »

فاذا اعتبرنا هذه الكلمات وعدا من المؤلف لقارئه بوفاء هذا الموضوع ، ثم درسنا كتابه وجدنا أنه قد وفي بوعده خير وفاء ، والتزم فيه الصدق والأمانة ، بل انه قد وفي بأكثر من ذلك من موضوعات تشريعية أسرية وغير أسرية مشتركة بين الجاهلية والشريعة الاسلامية والفقه الاسلامي وقوانين الأحوال الشخصية ، بل قد وفي بما هو أعم وأهم وأنفع ولو في نظر بعض القراء القادرين على التعمق في التشريعات بفكر مستقل ، لأنه يرشدهم الى الطريقة المثلى في التفكير الحر الأصيل ، حين يدرسون أي موضوع من موضوعات الشريعة الاسلامية ، سواء كان من صميمها بحق ، أو نسب اليها بغير حق ، أو حين يدرسون موضوعا تشريعيا آخر ، وهذا مما يسهل المراجعة والحساب بينهم وبين المؤلف فيما يوافقونه فيه او يخالفونه ، لأن المناقشة هنا وفاقا أو خلافا قائمة على بينة من العقل الحر والتفكير المستقل ، مع الالتزام بأصول الاسلام .

قديما وصف بعضهم كتب الجاحظ بأنها تعلم العقل أولا ، والعلم ثانيا وهذا الكتاب جدير بمثل هذا الوصف فمن يدرسه ينل من العلم بموضوعه مغنما عظيما ومن يستوعب منهج مؤلفه في الدرس والفقه يفز لعقله بمغنم أعظم .

منهج البحث المقارن

والفضل في هذا يرجع الى التزام المؤلف في دراسة موضوعه بالمنهج المقارن (وان كان ذلك في حدود مسيرتنا



الحضارية) وهو منهج يكاد يكون فتحا جديدا من فتوح العصر الحديث في دراسة الموضوعات المتنوعة منذ انتشر بين الباحثين فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، اذ طبقوه في دراسة الآداب واللغات والفنون وغيرها من مجالات المعرفة ، فهو أشد المناهج توضيحا للموضوعات المقارنة ، وعلاقة بعضها ببعض فيما تتفق أو تختلف فيه ، بيئة واتجاها وأحوالا وهذا ماتظهره الدراسة المقارنة في كل مجال .

وهذا المنهج هو أصعب المناهج مسلكا وأحوجها الى قدرة فائقة على الاستيعاب والتأمل والاستنباط ، وهو أنفع من بحث كل موضوع على حدة من جانب واحد ، وأنفع من الموازنات أو المقابلات التي يجريها بعض الباحثين بيننا ، ويزعمونها « مقارنات » وليست هي في حقيقتها الا جمع عدة أقوال أو آراء في موضوع او مسألة أو أكثر ، بدلا من الاقتصار على قول أو رأي واحد ، كما نجد مثلا في كتاب « اختلاف الفقهاء » للامام الطبري المفسر المؤرخ ، وكما نجد اليوم في كثير من الكتب التي يزعم لها أصحابها صفة « المقارنة » وهي مجرد جمع وترتيب لعدة وجهات دون بيان أصولها وبيئاتها واوجه الاتفاق والاختلاف فيها ، ومن المؤسف أن بعضها دراسات أكاديمية لاساتذة من جامعاتنا العربية .

وقد مهد المؤلف لكتابه بمقدمة ، ثم قسم كتابه خمسة اقسام ، سمى كلا منها « كتابا » بدل أن يسميه بابا أو فصلا ، وكذلك يفعل كثير من المؤلفين عندنا ، كما فعل بعض أسلافنا ومنهم ابن عبد ربة مؤلف كتاب « العقد » ولا بأس بذلك ، لأنه لامشاحة في الاصطلاح كما يقال ، مادام المصطلح واضح الدلالة على مسماه .

موضوع القسم الأول ، الزواج في الجاهلية والاسلام ، وموضوع الثاني انحلال الزواج ، والثالث الوصية ، والرابع ، أحكام الارث . والمؤلف يعني بالجاهلية ماكان عليه العرب قبل الاسلام ويعني بالاسلام هنا أمرين : أولهما ما جاء في القرآن والسنة ، والامر الثاني ما استنه فقهاء المسلمين من أحكام باجتهادهم في فهم الكتاب والسنة ، وهذا الأمر الثاني هو الفقه على اختلاف مذاهبه وأئمته ، ويلحق بهذا الفقه في احكام الأسرة ما استحدثته فيها الشعوب الاسلامية في هذا العصر من قوانين الاحوال الشخصية ، وأما القسم الخامس والاخير من الكتاب فهو كما سماه المؤلف « ملحق عن تشريع السنة » لان له في فهم السنة وجهة قد تلقى بالاستغراب ، ولهذا رأي أن يأتي من السنة وتاريخها بما يوضح وجهته ويؤيدها ، وضم الى ذلك ترجمة « الاعلان العالمي للقضاء على التمييز ضد المرأة » ومن هنا تبدو الصلة الوثيقة بين الملحق وموضوع الكتاب ، فهي توسع نظر قارئه وتطلعه على أحدث الأحكام في الأسرة ، وما يرى لها محبو الخير للانسانية بجميع شعوبها وأممها من صلاح ، ولاشيء منها يعلو على ما جاء به الاسلام في القرآن والسنة النبوية لو وعيناها حق الوعي .

وموضوع المقدمة « التشريع العرفي في الجاهلية والفقه الاسلامي » ، وهي مدخل ضروري لمن يريد دراسة التشريع العرفي في الجاهلية والفقه الاسلامي فيما تضمناه من أحكام ، لافي مجال أحوال الاسرة فحسب ، كالزواج والطلاق والوصية والميراث ، بل في مجال الجنايات وعقوبتها ومجال المعاملات المدنية أيضا الى أن تصل الى القمة في نظام الحكومة ورياسة الدولة .

(الدائم والمتغير في الدين)

لقد جاء الاسلام عقب الجاهلية لاصلاحها ، بل لاصلاح البشرية فقدم لها وجهته الخاصة في مجالات أربعة : العقيدة والاخلاق ، والعبادة ، والمعاملات ، وتعاليمه في المجالات الثلاثة الأولى لاتتغير بتغير الازمان

والبيئات ، أو تغير المجتمعات ، لأنها تتجه للانسان بما هو به انسان ، وأما تعاليم الاسلام في مجال المعاملات وهي اجتماعية بالضرورة فتتوخى صلاح الجماعات ، فهي ترتبط بما تكون عليه كل جماعة بظروفها ، والظروف بين الجماعات متنوعة ، بل هي متغيرة في الجماعة الواحدة بين بيئة وبيئة ، أو زمن وزمن مع تغير المعايش ، ولهذا اختلف الفقهاء بعضهم عن بعض فيما يتصل بها ، بل نجد أحدهم وهو الامام الشافعي قد كانت له أحكام فقهية في بعض المسائل حين كان في العراق فلما ذهب الى مصر في سنواته الاخيرة كانت له أحكام فقهية أخرى في المسائل ذاتها ولاصلة لهذه الاحكام بالعقيدة أو الاخلاق ، أو العبادة ، بل بالمعاملات ، لاختلافها بين بيئة العراق يومئذ وبيئة مصر وان شملهما عصر واحد . ولو أن الشافعي حل في بلد آخر أو بلاد أخرى ، تختلف بيئة عن العراق ومصر لكان له في تلك المسائل أحكام ثالثة ورابعة على وفق تلك البيئات الجديدة ، وهكذا ينبغي أن يكون الفقيه المجتهد في تحمل مسئوليته بأمانة وبصيرة وشجاعة تجاه كل بيئة على انفراد ، فلا يوحد في الحكم بين أمرين مختلفين .

أما البلاء الذي أصاب شريعتنا العظيمة فمرجعه المتفقهة المقلدون على اختلاف طبقاتهم علوا وسفلا ، فانهم يسيرون على مثل الطريقة الصينية القديمة في الاحتفاظ بأقدام النساء صغيرة ، لاستحسانهم ذلك ، فكانوا يتركون أقدام الصغيرات حتى تنمو الى الحد الذي يستحسنونه ثم يشدون حولها لفائف محكمة تكون كالحذاء حتى لاتنمو ، أو تزيد على هذا الحد ، ويشير المؤلف الى بعض هذا فيقول : لقد التبس على رجال الفقه الاسلامي مجيء العبادات والمعاملات المدنية في الكتاب والسنة ، فمزجوا بينهما (أي العبادات والمعاملات المدنية) واعتبروهما شيئا واحدا هو الفقه الاسلامي ، دون أن يكون بينهما ثمة علاقة في الموضوع ولا في الغاية ، فالعبادات هي الواجبات الدينية المفروضة على الانسان تجاه خالقه وهي ثابتة لايعتريها تغيير ولاتبديل مهما تغير المجتمع ، ومهما تغيرت حياة الانسان ، أما المعاملات المدنية فهي القواعد والأحكام التي تفرض على الناس في علاقاتهم الاجتماعية ، وهي علاقات متغيرة ومتبدلة تبعا لتغير المجتمع وتبدل الحاجات الاجتماعية وهي لاتقف عند حد ، مازالت حياة الانسان تنمو وتتغير باستمرار وما زال المجتمع يخلق على الدوام حاجات جديدة كلما نما وازدهر » .

الخلط بين الدائم والمتغير في الدين

ويقول مؤلفنا في موضع آخر « الخلط بين العبادات والمعاملات ، واعتبارها (المعاملات) من الدين ، لم تقتصر على النصوص التي جاءت في الكتاب والسنة وانما أضيفت الصفة الدينية الى اجتهادات الفقهاء القدامى التي انقسم الناس حولها الى مذاهب دينية ، وقد استمدت قوانين الأحوال الشخصية في البلاد العربية احكامها من هذه الاجتهادات ، دون ان تخرج عليها بشيء ، ودون ان يعطي المشرعون انفسهم صفة المجتهدين ليفسروا الشريعة بالنسبة لحاجات العصر فجاءت هذه القوانين محافظة على اعراف الجاهلية في اكثر أحكامها .

ولايزال الكثيرون يتشبثون بهذه الأعراف ، توهما أنها من الدين ، ويعتبرون كل اجتهاد في تعديلها أو تبديلها وفاقا لضرورات العصر ، خروجا على الاسلام ، والاسلام بريء من هذه الاوهام/ ٢٧

والمؤلف يغوص في مراجعه الكثيرة من كتب التاريخ والتفسير والحديث والفقه والكلام وقوانين الاحوال الشخصية المعاصرة وغيرها ليبرهن على آرائه هذه وغيرها ، بما يزعزع الاطمئنان الى كثير من الاحكام الفقهية ، وما بنته عليها التشريعات الحديثة في أحوال الأسرة وغيرها ، وأنها لاتوافق روح الشريعة الاسلامية الحكيمة العادلة كما وضحها القرآن والسنة ، ان لم تكن تنافيها لأن تلك الأحكام أحكام جاهلية تسربت بحكم الألف والعادة الى الفقه الاسلامي ثم الى التشريعات الحديثة ، وهي الاحكام التي جاء الاسلام لتغيير بعضها بما يتلاءم والمرحلة التاريخية الجديدة عند ظهوره ، واقر مالم تدع الحاجة يومئذ الى تبديله لبقى الناس يتعاملون بها في الاسلام .

ويضرب المؤلف الامثلة على ·· التسرب بكثير من التشريعات الجنائية والمعاملات المدنية ونظام الحكم وأحكام الاسرة ، كما يشير المؤلف الى بعض ما استنبطه الفقهاء من علل لما وجدوه من أحكام شرعية ، وظنوا أنها العلل الحقيقية لهذه الاحكام ، وهي ليست كذلك بل هي شبهات وهمية أو قاصرة ، ومع ذلك تمسكوا بها وتمسك بها غيرهم حتى اليوم . والمؤلف يحذر من فرض حلول

تشريعية ثابته لمجتمع متغير (كحكاية القدم الصينية للمرأة في لفائفها المحكمة كالحذاء) ويرى أن الاصرار على هذه الحلول سيقود المجتمع لامحالة الى أحد أمرين : ـ

١ ـ إما الجمود والتوقف عن النمو والتقدم ، نتيجة حبس المجتمع في قوقعة من التشريعات الجامدة ، وعدم تطويرها مع تطور الحياة ، وهذا ماحدث للحضارة الاسلامية .

٢ ـ وإما الى الثورة لكسر قوقعة التشريعات الجامدة عندما تضيق عن استيعاب النمو الاجتماعي ، وهذا ما حدث في أوربا عند مطلع الحضارة الحديثة .

وترى نحن أن اقطارنا في أمان من الامرين بعد تأثرنا في وضع قوانين للمعاملات بالحضارة الحديثة فلا كهنوت في الاسلام وان حاول بعض المتفقهة حتى اليوم في بعض الاقطار ان يزعموا لأنفسهم مايشبه ذلك باعتبار أن آراءهم وحدها هي التي تمثل الشريعة الاسلامية ، مع أن أحدا من أعاظم فقهاء الاسلام لم يدع لنفسه الانفراد بالصواب ، بل ان معظمهم نهوا عن أن يقلدهم أحد في شيء مالم يعرف حجتهم فيه ويقتنع بها ، وكان منهم من يرى أنه لا أحد الا ويؤخذ من قوله ويترك منه الا النبي عليه الصلاة والسلام ، وميزوا بين ما هو شريعة من سنته وماليس بشريعة ، واقتصر بعضهم من السنة على أقواله .

ومن يتبع اطوار التشريع في مسيرتنا التاريخية لايسعه الا الشعور بالغبطة لقيام الهيئات أو السلطات التشريعية في كل قطر بتولي توحيد القوانين فيه وتدوينها أبوابا ومواد ، على اختلاف أنواع المعاملات ، لضبط أوجه النشاط الاجتماعي وأحكامها بدلا من ترك كل قاض يحكم فيها باجتهاده ، أو وفقا لمذهبه ، ولم يتحقق عندنا هذا المرجع التشريعي في أي عصر بعد النبي عليه الصلاة والسلام ، وكذلك نغتبط بتطور التشريع في كل قطر لتكون قوانينه أنسب لأحواله ثم السير بها كلما طرأ جديد وفقا لوجهة نظر اجتماعية وعلمية .

ونعرف من تاريخ التشريع في مصر أن الدولة في القرن الماضي حاولت مثل ذلك فرفض المتفقهة أي قانون موحد مبوب في مواد ولم يجدوا معهم ما يقدمونه اليها الا كتبهم الفقهية التي يدرسونها وكلها مما الف في الفترة المظلمة التي انهزم فيها العقل وضاعت الهمم وليس منها كتاب لفقيه مجتهد بل كلها لمقلدين ، بل لمقلدي المقلدين ، وكل حظهم من الفقه أن يحفظوا هذه الكتب ، فاضطرت الدولة الى القيام بسن قوانين مناسبة على أيدي آخرين من العارفين باصول الشريعة ، كما نعرف أن الدولة العثمانية يومئذ حاولت مثل ذلك فوضعت ما سمي « المجلة العدلية » واستمر الحال في هذا التطوير في أقطارنا حتى اليوم دون حاجة الى ثورة وهذا أفضل وأحفظ لبقاء الأواصر بين أجيال المجتمع في ماض وحاضر لتغير التقاليد دون هزاهز .

هل العقل قاصر عن التشريع ؟

يقول المؤلف عن الفقه الاسلامي « قام على قصور عقل الانسان ووجد أنه عاجز عن التمييز بين الخير والشر ، والعدل والظلم ، والحق والباطل ، وبالاستناد الى هذه الفطرية حصر الفقهاء حق التشريع بالله تعالى ، وحرموا على الانسان أن يشرع غير ما شرعه الله . ثم يشير آسفا الى أن هذا القول يعلم للطلاب في المدارس ، وتزيد أنه ما يزال شائعا بين الجماهير بسبب ترديده بينها على السنة المتفقهة ، يؤيدونه بحجج جدلية غير منطقية . ولا علمية ، ولا تعمق في الشريعة كما وردت في القرآن والسنة النبوية ، ثم نزيد أن هذا القول لم ينبع في المجتمع الاسلامي الا في عصر هزيمة العقل في الحرب بين المعتزلة وغيرهم من طوائف المتكلمين ، ولم ينتشر ويشتد الا بعد الانتصار على المعتزلة الذين كانوا يرون أن الحسن والقبح أمران عقليان ، على حين قال الأشاعرة وأنصارهم من المتكلمين « ان الحسن والقبح شرعيان » دون أن يفرز هؤلاء وهؤلاء مجال المعاملات ، ويربطونه بالمصلحة الاجتماعية ، وهي التي قامت لتحقيقها الشريعة الاسلامية مع أن دعوة الاسلام ـ كما يقول المؤلف ـ استهدفت الغاء النظام القبلي الذي كان يشتت شمل العرب ، واقامة نظام سياسي واجتماعي يقوم على وحدة الأمة كما نصت عليه الآية الكريمة « وان هذه أمتكم أمة واحدة » .

ويقول « وقد وضعت الشريعة في الكتاب والسنة المبادىء والقواعد العامة لاقامة مجتمع اسلامي يسوده العدل والمساواة في الحقوق بين الناس وهي ماثلة في أكثر سور القرآن أما التشريعات في العلاقات الاجتماعية والتي تخضع للتطور وتتبع المجتمع في نموه وتقدمه فقد جاء

الاسلام بأحكام خاصة في نطاق الاعراف القائمة بين الناس ، فالغى بعضها ، وعدل بعضها الآخر ، بما يتلاءم مع المرحلة التاريخية الجديدة ، وأقر ما لم تدع الحاجة الى تبديله أو تعديله آنذاك وبقيت عادات وأعراف كثيرة لم تتعرض لها الشريعة بالتعديل فبقي الناس يتعاملون بها في الاسلام » .

ونرى نحن أن ابقاء الاسلام على ما لا يصادمه وما لاضرر فيه من تلك العادات والأعراف ، هو عين الحكمة لتأليف المجتمع ، وعدم نفوره من التعاليم الجديدة ، ولكن خطأ المتأخرين من المقلدين ، هو عدم التحول كلما تغيرت الأحوال أودعت مناسبات ولو وقتية وأما المجتهدون الأول فقد اجتهدوا في هذه الأحوال الجديدة ، ومن هنا تعددت أحكام الفقه في العصر الواحد ، ثم في عصر بعد عصر ، ومن أمثلة ذلك ما فعله الخليفة عمر - رضي الله عنه عند فتح أرض السواد في العراق فأبقى الأرض ولم يقسمها بين المقاتلين ، لتكون ذخرا لكل المسلمين ، كما أنه أوقف حد السرقة في عام الرمادة وأوقف عطاء المؤلفة قلوبهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مع ورود حد السرقة وعطاء المؤلفة قلوبهم في القرآن الكريم ، ولم يقل أحد أن عمر عطل نصا قرآنيا، بل قيل أنه تعمق في هذه الأحكام ، فلما رأى انقطاع الدواعي أوقف الحكم . وهذا التطوير هو ما يعارضه المتفقهة المقلده بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ونزيد أيضا أن توقفهم هذا عند أقوال أئمتهم مع اختلاف الأحوال سبب ارتباك الأذهان ، مع أن من القضايا الأصولية في المعاملات « تغير الأحكام بتغير الأزمان » ثم نزيد أن هذه المعارضة من جانب المقلدين هي أهم الأسباب في تسرب أعراف قديمة ومنها العرف الجاهلي الى عصور متأخرة ، بل حتى اليوم .

ما سكتت عنه الشريعة

يرى مؤلفنا أن الشريعة لم تحدد عقوبة الا لخمس جرائم هي : القتل العمد والسرقة ، والزنا ، والقذف ، وشرب الخمر ، وان عشرات الجرائم بقيت دون تحديد عقوباتها وترك تجريمها وتحديد . عقوبتها للقاضي أو لولي الأمر لأن الشريعة لم تنص على تجريمها ولا تحديد عقوبة لها ، كما يشير مؤلفنا الى أن أوروبا في عصورها المظلمة عرفت مثل هذه الجرائم المسكوت عنها والتي يعاقب عليها بعقوبات كيفية (وهو ما يسمى عندنا التعزير) فكان ذلك هو « الركيزة الأساسية للحكم الفردي ومنشأ الظلم والطغيان . وقد كان من أول المبادىء التي نصت عليها حقوق الانسان في عصرنا مبدأ لاجريمة ولا عقوبة الا بقانون » .

ومن هنا لزم قيام سلطة تشريعية لسن قوانين موحدة ليقضي بها كل القضاة وهذا ما تسير عليه أقطارنا اليوم ولم يترك للقضاة اجتهاد الا في أضيق نطاق وقد كانت هذه السلطة غائبة في مجتمعاتنا بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا ونحن نعرف من تاريخ أديبنا عبد الله ابن المقفع أنه وجه الى المنصور ثاني ملوك بني العباس رسالة اسمها « رسالة الصحابة » يدعوه فيها الى جمع الاجتهادات في كل معاملة واعتماد رأي واحد منها ليأخذ به القضاة في الأحكام ، بدلا من ترك الأمور لهم ليحكموا باجتهادهم ، فتتباين أحكامهم في المسألة الواحدة ، ولكن المنصور لم يفعل ، وان حاول شيئا شبيها به فلم يوفق ، اذ طلب من الامام مالك أن يجعل كتابه « الموطأ » هذا المرجع العام الواحد فأبى الامام ذلك ، ولا نعرف أن هذه المحاولة تكررت في أي قطر اسلامي قبل العصر الحاضر عشرات وعشرات من القضايا يعرضها مؤلفنا في كل قسم من أقسام كتابه الاربعة وهي صلب الكتاب يتتبع تاريخ أكثرها من الجاهلية الى عصر الاسلام وما تلاه ، ويتعمق دراستها ، ويبين مواضع القوة والضعف فيها ، ويحدد رأيه فيها مستندا الى حجج حاسمة أو راجحة . ولا سبيل الى عرض ذلك بتفصيل ولا اجمال في مقالة مهما تطل ، ولهذا نكتفي ببعض الأمثلة من القسم الأول .

في الجاهلية والاسلام

القسم الأول موضوعه الزواج وفيه يعرض المؤلف حالة المرأة في الجاهلية وسقوط مكانتها كالرقيق ، خاضعة للولاية طول حياتها ، فهي في ولاية أبيها ما عاش فاذا مات فوليها أحد عصباتها الذكور ، فاذا تزوجت فوليها زوجها وكان لوليها قبل الزواج أن يحرمها الزواج اذا شاء وأن يزوجها لمن يشاء ويقبض ثمنها وهو المهر ويتصرف فيه كما يشاء ، يأخذه كله أو بعضه مع اعطائها بعضه لأن المهر ثمنها وقد يقع الزواج بمعاوضة زوجة بزوجة بين الوليين وهو ما يسمى (نكاح الشغار)وكان من تعديلات شريعة الاسلام : -

١ ـ انه اعتبرها انسانا كما أن الرجل انسان فلا بد في زواجها من رضاها والا بطل العقد .

٢ ـ ولم تعتبر المهر ثمنا للمرأة بل هدية لها وحرمت نكاح الشغار وهو مقايضة امرأة بامرأة

٣ ـ ولهذا لم يعتبر المهر شيئا الزاميا أو أساسا في الزواج بدليل أن النبي قال لرجل يريد الزواج « التمس ولو خاتما من حديد » وزوج رجلا من امرأة دون صداق وزوج آخر ليس معه مهر ولكنه يحفظ بعض سور القرآن فقال له : « اذهب فقد زوجتك اياها بما معك من سور القرآن »وبهذه التعديلات الثلاثة ضاع ركنان أساسيان من أركان الزواج من حيث هو عقد ، فالعقد لا محل له ، لأن المرأة أحد طرفيه وليست المعقود عليه ، ثم ان المهر هدية ولهذا لايعتبر الزواج عقدا بل اتفاقية أو كما قال الدكتور عبد الرزاق السنهوري « لايجوز أن يطلق على الزواج اسم « عقد » اذ لايسمى الاتفاق عقدا الا اذا تضمن التزاماماليا في نطاق الحقوق الخاصة وقد أحسن الجمهور حين سمى هذا الاتفاق كتابا » ، وقد ناقش المؤلف آراء المذاهب الفقهية وبين تجاوزها حين اعتبرت الزواج عقدا ولو رجعوا الى أصل المهر في الجاهلية وعللوه تاريخيا لما فاتهم ذلك ، فليست الشريعة الاسلامية هي التي شرعت المهر ، وانما كان المهر من الأعراف الجاهلية عند ما كان وضع المرأة كوضع الرقيق يشتريها الرجل من أهلها ويدفع لهم ثمنها وهو المهر فبقيت آثارها في اذهان الناس واستمد منها الفقهاء اجتهاداتهم أكثر مما استمدوه من الشريعة فاجمعوا على الزاميته وهو غير لازم وهو من آثار الزواج لا من أركانه .

فالشريعة أبقت عادة المهر المتوارثة من العصور القديمة ، ولم تلغها ، ولكنها بالمقابل لم تبطل ارادة المتعاقدين فيما لو اتفقا على الزواج بدون مهر للزوجة . واذا كان المسلمون في هذا العصر وفي كل العصور يتمسكون بعادة المهر للزوجة ، ويبالغون فيه ـ فما ذلك الا لأن الفقه الاسلامي ليس فيه ما يدرأ البؤس عن المرأة التي يمكن أن تتعرض له مهما كان الرجل متعسفا في طلاقه . وتقول : ان قانون الأحوال الشخصية في مصر أخيرا كان أحنى على المرأة في هذه الحالة وغيرها ، وأرعى لحقوقها ، حتى حقها في حضانة أولادها اناثا وذكورا .

ويرى مؤلفنا أن قانون الأحوال الشخصية (السوري) لم يكن دقيقا في تسميته الزواج عقدا ، وهذا نص القانون« الزواج عقد بين رجل وامرأة تحل له شرعا ، غايته انشاء رابطة للحياة المشتركة والنسل » ويعقب مؤلفنا على هذا النص فيقول اقحم القانون « النسل »في تعريف الزواج ، وهو مما لا يصح الاتفاق ولا التعاقد عليه فقد لا تكون غاية الزواج النسل ، كزواج رجل من امرأة دخلت سن اليأس ، أو كان أحد الزوجين عقيما ، فاذا لم يتناسلا لا يكون الزواج باطلا . » .

ويتناول المؤلف كل أمور الزواج لا يترك منها شيئا ، ومن ذلك علنية الزواج وكيف تتحقق ، والكفاءة بين الزوجين ، حتى الكفاءة في الدين ، والولاية على المرأة ، وحقها في ولاية نفسها ، وفي الولاية على بناتها في الزواج ، والحضانة ، ثم الولاية على القاصر ومحرمات الزواج في الجاهلية والشريعة والفقه ، والاجراءات الادارية في الزواج ، ونفقة الزوجة ، ومدة الحمل واثبات النسب .

وهكذا يمضي المؤلف في كل مسائل كتابه الفرعية فيستعرض كلا منها ، وشتى الأقوال فيها بشمول ودقة

وعمق ، ويصفى هذه الأقوال بعد مناقشتها ، حتى يخرج منها باللباب الذي يساير روح الاسلام واخلاقه ، ويربط بينها وبين المجتمع ومصالحه الانسانية ، دون أن يعارض شيئا من الشريعة ، وان عارض كثيرا من الأقوال الفقهية (اجتهادات الفقهاء) والقوانين الحديثة ، وقلما عالج مسألة الا صفاها وخرج منها برأي طريف مستنير ، يستحق التأمل والتقدير .

وقد اعتمد المؤلف ـ كما ذكر في آخر مقدمته ، وكما تدل هوامش الصفحات عند ذكر الشواهد ـ على كثير من « كتب تفسير القرآن والحديث ومصادر اسلامية أخرى لكشف عادات الجاهلية وأعرافها ، وما عدلته الشريعة وما لم تعدله » ، كما استعرض اجتهادات المذاهب الفقهية الأربعة هي (الحنفي ، والمالكي ، والشافعي والحنبلي) بالاضافة الى المذهب الشيعي الامامي الجعفري ، في تفسير النصوص وما اختلفت فيه تفسيرا واستنباطا للاحكام ، وما أخذت به منها قوانين الأحوال الشخصية في بلادنا العربية ، بل انه قد عرج على المذهب الظاهري (ابن

حزم) أحيانا ، كما عرج على كتب رجال القانون المعاصرين من أصحاب الاجتهادات ، وله اشارات كثيرة الى آراء بعض فلاسفة الغرب ومشترعيه .

يقول المؤلف « لقد اتخذنا قانون الأحوال الشخصية السوري الذي يتفق في أكثر أحكامه مع القانون المصري ، نموذجا للدراسة والمقارنة بالنسبة لباقي قوانين البلاد العربية ، اذا أن جميعها أخذت بفقه اصحاب المذاهب الأربعة ، ما عدا مسائل قليلة أخذت من فقه الشيعة الامامية (الجعفرية) .

وباستثناء القانون التونسي الذي خرج في الكلية من أحكامه عن الفقه الاسلامي لمنع تعدد الزوجات ، وحصر الطلاق بين القضاء ، واباحة التبني وغير ذلك . . .

للعبادة معنى خاص ومعنى عام

يقول المؤلف « ان اعتبار المعاملات المدنية في الفقه الاسلامي من الدين وأنها ثابتة كالعبادات لم يكن سوى وهم لا أساس له في الشريعة الاسلامية » وهذه الفكرة هي محور كتابه ، وقد أشرنا من قبل الى نقده لجملة الفقهاء والمتكلمين الذين مزجوا بين العبادات والمعاملات المدنية واعتبروهما أمورا شرعية لايدرك العقل حكمتها ، وأنها ثابتة لا تتغير ، ولعلنا لانبعد عن وجهة نظر المؤلف حين نفرق بين العبادة بمعناها الخاص الذي يشمل الصلاة والصوم والزكاة والحج . . والعبادة بمعناها العام ، وهي رعاية الله في كل تصرفاتنا بل نياتنا ، سواء فيما بيننا وبين أنفسنا أو بيننا وبين الآخرين ، لارتباط هذه العبادة بالعقيدة وبالاخلاق الاسلامية فروح هذه العبادة ينبغي أن تتمكن من ضمير المسلم في كل أنفاسه ، حتى حين يأكل أو يشرب أو ينام ، باعتبار أن كل أعماله الصالحة طاعات ، أو عبادة كما جاء في الأثر « ما عبد الله بمثل عمل صالح » ومثله « انّ الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ومثله « اتق الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » ومثله « الكلمة الطيبة صدقة » ومثله « لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » والآية « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » والآية « ان الله يأمر بالعدل والاحسان . . »كل هذه الاشارات تحمل المسلم على أن يستشعر هذا الجو من العبادة بالمعنى العام ، وهذه هي روح الدين ، فالمرء في معاملاته المدنية وغيرها ينبغي أن يكون موصول الوشائج بهذه الروح ، لأنه ان أفلت من حساب القانون في السر أو بحيلة ـ لن يفلت من حساب الاخلاق أو الضمير أو من حساب ربه . ■■

محمد خليفة التونسي

لو عُدتِ*

شعر : فاضل خلف

لو عُدتِ فرشتُ لكِ الدّربا   بالورد وعطّرتُ العُشبا
ولثمتُ جبينكِ في شغفٍ   ومسحتُ عن الوجهِ التّربا
وأزحتُ عن القلبِ المُضنى   أحزانكِ في زين القربى
خمسٌ وثلاثون انسلختْ   لم أنسكِ أو أنسَ الحُبّا
أنساكِ ؟ وهل أنسى قدري ؟   هل أنسى عالمكِ الرّحبا ؟
قد كنتِ عطاءً مُزدهرا   لم تبدي منّا أو عتبا
لولاكِ حياتي ما اكتملتْ   وفتاكِ لما عرف الدّربا
فمشى والحسنُ يسايرهُ   وغدا في الحبِّ فتىً صبّا
فصلاتكِ كانت لي نغما   وصيامكِ كان هوىً عذبا
وتهجّدكِ السّامي شدوا   وتسامحكِ الشّادي كتبا
ترويِنَ حكاياتٍ مثلَ   جعلتني أستوحي الشُّهبا
قصصٍ في اللّيلِ تسلّيني   فتزيدُ خيالاتي خصبا
فأنامُ على صدرٍ رحبٍ   ما كان شحيحا أو جدبا

× × × ×

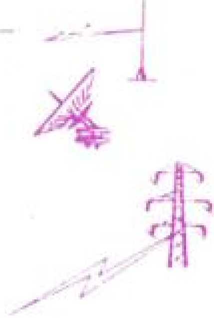
لو عُدتِ رأيتِ مرابعنا   سكبتْ فيها النُّعمى سكبا
والقريةُ أضحتْ شاديةً   مُلئتْ خيرا وزكتْ شخبا
جنّتها كلُّ منوّرةٍ   وقد ازدادتْ منها قربا
تُسقى والسّقيُ لها دأبٌ   ويسابقُ كوكبها الرّكبا
نفحاتُ الله تباركها   إن هبّتْ شرقا أو غربا

× × × ×

أماهُ وأنتِ مُلهمتي   أصبحتِ لأشعاري قُطبا
عذرا إن قصّر إنشادي   وبدتْ لكِ ألحاني نُهبى
فحياتكِ كانت مُترفةً   وعراقتها كانت سِربا
مازال خيالكِ يؤنسني   فيسهّلُ لي الزّمنَ الصّعبا
وحنانكِ ليس له أمدٌ   مازال بأعماقي رطبا
ورحلتِ إلى الأخرى سحرا   فطويتُ على الحبِّ القلبا

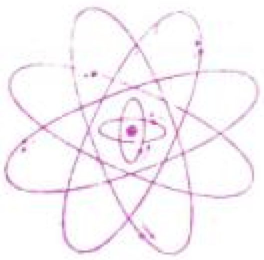
■ ■

* يزور الشاعر قبر جدته فينظم هذه القصيدة . وزين القربى في البيت الثالث كناية عن ابنها الوحيد الذي توفي شابا لم يبلغ العشرين .



الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي



حتى الدهن ... ابتكروا له بديلا ...

● نشرت احدى المجلات الطبية الامريكية American-Journal of Clinical-Nutriton مؤخرا مقالا عن بديل للدهن جديد ... اكتشفه حديثا فريق طبي من علماء جامعة سنسناتي في الولايات المتحدة ... برئاسة الدكتور شارلز جلوك (Dr.Glueck)

وقد أصابت التجارب الأولية التي أجراها الباحثون من النجاح ما حملهم على تسجيل نتائجها في المقال السالف الذكر ..

ومما ذكروه عن بديل الدهن الجديد أنه والدهن الطبيعي صنوان .. يتعذر التمييز بينهما من حيث الطعم ، حتى على الخبراء .. ومع ذلك فان البديل لا يحتوي على سعرات حرارية ، ويبشر بفوائد عظيمة للذين يعانون من مرض البدانة « البدانة العادية » التي لا صلة لها بافرازات الغدد الصم ، ومرض السكري وما إليهما . شأنه في ذلك شأن السكارين ، بديل السكر المعروف ، مع الفارق الكبير في نصيب كل من البديلين من جملة ما يتناول الانسان من طعام ، وهو نصيب أكبر بكثير في حالة بديل الدهن ، كما لا يخفى .. لا عجب إذن إن كان بديل الدهن يبشر البدينين بامكانية إنقاص وزنهم بحوالي ربع كيلو يوميا .. أي أن المرأة السمينة تستطيع التخلص من نحو ٧,٥ كيلو من وزنها شهريا إذا هي واظبت على استعمال البديل الجديد عوضا عن الدهون التقليدية الغنية بالسعرات الحرارية .

أما التجارب الاولية التي أجراها الدكتور جلوك ورفاقه على البديل الجديد (ويسمونه Surose Polyester) فقد شملت عشرة رجال كلهم سمان ولا يشكو أي منهم من أي اضطرابات في افرازات الغدد الداخلية ... واستغرقت تلك التجارب حوالي خمسين يوما .. وأعطى الرجال العشرة في العشرين يوما الأولى مأكولات معدة بالدهن الطبيعي ، ثم اعطوا في العشرين يوما الأخيرة المأكولات نفسها ولكنها معدة ببديل الدهن الاصطناعي . أما مدة العشرة ايام التي توسطت هاتين الفترتين فكانت بمثابة فترة انتقال استبدلوا فيها الدهن الطبيعي بالبديل الاصطناعي بمعدل ٥٦ جراما للرجل يوميا .. وقد بلغ من الشبه بين طعم الدهنين أن ثمانية من الرجال العشرة لم يستطيعوا التمييز بينهما اطلاقا .

وقد أدى تناولهم الدهن البديل إلى انخفاض كمية السعرات الحرارية التي اكتسبوها من وجبات الطعام بنسبة ٣٠٪ .. وترتب على ذلك إنقاص الوزن بمعدل ٠,٤ من الرطل (١٨, من الكيلو) لكل واحد من الرجال العشرة يوميا .

ويؤكد الدكتور جلوك أن (سوكروز البوليستر) يحد ـ بالاضافة إلى ذلك ـ من محتويات الكولسترول في الدم ، ويحد بالتالي من احتمالات الاصابة

بأمراض القلب . . . ولعل الاثر الجانبي الوحيد للدهن البديل انه يخفض مستوى الفيتامينات A,E في الجسم . ومهما يكن من أمر فإنه مازال بحاجة الى مزيد من تجارب للتأكد نهائيا من حسناته وسيئاته .

الاتحاد السوفياتي يحدث تغييرات جذرية في جغرافية بلاده

● ينوي الاتحاد السوفياتي إحداث تغييرات جذرية في جغرافية بلاده الطبيعية .. فقد قرر تحويل مجرى عدد من انهاره الشمالية بحيث تنطلق مياهها الى الجنوب بدلا من الانطلاق الى الشمال .. وتصب في بحر قزوين وبحر الاورال بدلا من ان تصب في بحار الشمال . . .

وتعود فكرة هذا المشروع الهندسي الضخم الى سنة ١٨٣٠ ، حين اقترح أحد مساحي الحكومة ، الكسندر شرنك ، العمل على ايصال نهر بشوار الى نهر الفولجا .. وعادت هذه الفكرة الى الظهور ثانية قبل نحو ١٥ سنة حين بدت اكثر قابلية للتنفيذ تبعا للتقدم التكنولوجي الذي احرزه السوفيات . واتجهت انظار العلماء إلى التفجير النووي للقيام بأعمال الحفر المطلوبة وهي هائلة وقد تستغرق أجيالا اذا تمت بالطرق العادية التقليدية . .

ويشمل المشروع في مرحلته الأولى نهر بشوار ونهر اونيجا ونهر دفنا ويستهدف إقامة ٢٥ سدا من السدود الضخمة. . . وستعمل هذه السدود على تجزئة تلك الأنهار بحيث يرتفع مستوى الماء في كل جزء لدي اكتماله ، نحوا من ٢٥ ـ ٣٢ قدما . وبذلك تصبح بحيرة اونيجا أعمق مما هي الآن بحوالي ٢٥ ـ ٣٢ قدما . . . ويتم فصل هذه البحيرة في مطلع التسعينات فتمنع مياهها المتكاثرة من الانطلاق الى المحيط المتجمد الشمالي ، وتضطر إلى الانطلاق جنوبا وتغرق في طريقها خمس بحيرات أخرى أصغر منها . . حتى تبلغ شبكة الأقنية المعقدة التي يتطلب المشروع إقامتها ،



حيث يوجد حاليا حوض رابنسك لتخرج المياه من تلك الشبكة وتصب آخر الامر في نهر الفولجا . . .

وستستغرق تلك المرحلة الأولى من المشروع حوالى عشر سنوات أو تزيد قليلا . . وستبلغ تكاليفها نحوا من (٣٠,٠٠٠) مليون دولار . . .

ولا مجال هنا للحديث عن مراحل المشروع الأخرى . . وحسبك أن السوفيات ينوون العبث بنهري سيبريا الكبيرين ، نهر الاوب ونهر ينيسي ، بحيث تنطلق مياههما في اتجاه الجنوب لتصب في بحر اورال عبر القناة الطويلة التي سيشقونها لهذا الغرض .

ومن شأن هذا المشروع ، لدى اكتماله أن ينقذ ٥٠ كيلومترا مكعبا من الماء العذب كانت تصب في الماضي في مياه البحر المالحة بلا طائل . . وسيوفرها المشروع السوفياتي لأغراض الشرب والزراعة في عصر شحت فيه مصادر الماء العذب إلى درجة كبيرة تنذر بمخاطر كبيرة . .

ولعل المشروع السوفياتي هو اضخم مشاريع القرن العشرين حقا . . . وقد ملأت تفاصيله نحوا من ١٤٠ مجلدا . . وسيستمر العمل فيه حوالي (٥٠) عاما . . .

ولا يخفى أن العلماء على علم بالكثير من النتائج التي ستترتب على تحقيق المشروع . . . فهم يعلمون حق العلم أن المياه ستغمر مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية قدروا مساحتها بملايين الفدادين . . . وستغرق مئات من المواقع والمباني التاريخية والاثرية . . وتشرد مئات الآلاف من سكان الأرياف . . .

أما أثر المشروع السوفياتي على البيئة . . فهذا ما يعجز العلماء عن الجزم بتفاصيله . . فهناك من يذهب إلى أن المشروع سيعبث لا بالبيئة السوفياتية أو الاوربية فحسب ، ولكن ببيئة نصف الكرة الشمالي ككل أيضا . . . ذلك أن أكثر الاوكسجين في البيئة الاوربية إنما هو من انتاج الغابات الشمالية في روسيا . . . وقد يؤدي المشروع السوفياتي إلى زيادة نسبة هذا الاوكسجين أو الانتقاص منها . . . وتستطيع ان تتصور ما قد يترتب على ذلك من نتائج . . .

ومن العلماء من يذهب أيضا إلى أن المشروع سيحدث تغييرات كبيرة في الطقس . . . فيقصر فترة نمو النباتات وهي قصيرة أصلا في تلك الاصقاع الشمالية . . وقد تزداد سرعة الرياح وتشح أمطار الربيع وتتضاعف أمطار الخريف بحيث تقضي على كثير من المحاصيل .

انتشار السعال الديكي في بريطانيا

● انتشر السعال الديكي في بلاد الانجليز حتى زاد مجموع المصابين به (شهر سبتمبر ١٩٨٢) على ٤٠,٠٠٠ . . أي حوالى أربعة أضعاف مجموعهم في مثل هذا الوقت من السنة الماضية . . . وهم في ازدياد بمعدل ٣٠٠٠ مصاب أسبوعيا . .

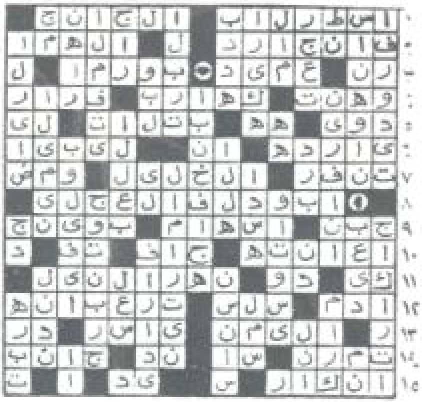
وغني عن البيان أن الوباء خطير وقد يسبب الوفاة . . .

أما السبب في هذا الانتشار المفاجيء فهو احجام الانجليز عن تلقيح أولادهم بلقاحه . . فقد تردد قبل حين أن ذلك اللقاح قد يسبب التلف للمخ . . . وما أسرع ما عادوا إلى تلقيحهم بلقاحه ثانية . . حين تكاثر عدد المصابين به وتبعا لحملة التوعية التي قامت بها الحكومة . . .

وبلغ من الاقبال على هذا التلقيح أن نفدت كمياته في الأسواق . . واضطرت المؤسسة الوحيدة التي تصنعه في بريطانيا (Wellcome Foundation) إلى الحد من تصديره إلى الخارج ، وذلك لصالح بريطانيا ، ريثما تنتهي الأزمة . . .

ويجري العمل على انتاجه بمعدل ١٢ ساعة يوميا . . وسبعة أيام اسبوعيا دون عطلة .

حل مسابقة العدد



اثنتان في واحدة :

حل مسابقة العدد ٢٨٦

(٨) أفقيا : أبو دلف العجلي . قائد وأديب وشاعر من الدولة العباسية ، وأمير الكرج . له عدة مؤلفات من بينها « سياسة الملوك » ، و« البزاة والصيد » ، و« السلاح والنزه » .

(٨) رأسيا : ابن خفاجة . شاعر أندلسي أبدع في وصف طبيعة بلاده . له شعر في الغزل والمدح ، ولكن أعظم شعره في وصف الطبيعة .

الفائزون بالجوائز

الجائزة الأولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : ـ عبد الرزاق داود أبو زيد ـ الزرقاء/الاردن

● الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : ـ أحمد خميس عيد ـ طرابلس/ليبيا

● الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : ـ أحمد عبد الرحيم الخطيب ـ صلالة/سلطنة عمان

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير فاز بها كل من :

١ ـ مجدي محمد أمين اسلامي ـ جدة السعودية

٢ ـ فاطمة يوسف الشبعان ـ المحرق/البحرين

٣ ـ كمال علي عبدالله علوان ـ عدن/اليمن الديمقراطي

٤ ـ احمد محمد عبد الله رحمة ـ الخرطوم/السودان

٥ ـ رضاب عبد الكريم فرحان ـ بغداد/العراق

٦ ـ صالح مصطفى صالح ـ الكويت

٧ ـ محمد علي محمد ـ بني سويف/مصر

٨ ـ عدنان محمد ـ نابلاط/الجزائر

الهونزا

وسط شوامخ الجبال العاتية يعيشون جميعا يعملون ، نساء ورجالا . والصورة لبعض النسوة في طريقهن الى قريتهن فوق الجب



مسلمون عند سطح العالم

استطلاع : فهمي هويدي   تصوير : صلاح آدم

لى على أباد العاصمة الحكومية للامارة ، والمشوار بسيط للغاية ، عشرة كيلو مترات في الذهاب ومثلها في العودة !



هذا الشعب اتصل بعالمنا الارضي في السبعينات من القرن الحالي ، بعدما عاشت اجياله طوال ألفي عام في عزلة أسطورية على عتبات سقف الدنيا ، جنبا الى جنب مع « دوماني » ام السحب « وشيفا » الهة الجبال وعالم الجن والتنين السجين ، ووسط أعتى الكتل الصخرية وأعظم القمم وأكثرها شموخا وجبروتا واثارة في الكوكب الارضي .

تعرفهم كتب التاريخ باسم شعب « الهونزا » ، ويسجل تراثهم أنهم من نسل جيش الاسكندر الأكبر . ويحيطهم الرحالة والرواتيون بهالة من الاكبار والانبهار . حتى يصف بلادهم جيمس هيلتون في روايته الشهيرة « الأفق المفقود » ، بأنها واحة السلام والنعيم والعمر الطويل في هذا العالم .

وأن يكون على وجه الارض شعب تحيطه هذه الظروف الفريدة ، فتلك مفاجأة بحد ذاتها . ثم ان يكون هؤلاء جميعا مسلمين موحدين بالله ، فتلك مفاجأة ثانية ، تسر بكل تأكيد لكنه سرور افسدته وعكرته المفاجأة الثالثة ، حيث اكتشفت انهم « اسماعيليون » ، ليس في جبالهم الممتدة مسجد واحد ، في حين يتجهون بقبلتهم الى حيث يقيم إمامهم في احدى ضواحي باريس !

أين تقع الهونزا ؟

السؤال طرحه نظام حيدر اباد على امير الهونزا ، المير نظيم خان ، حين التقيا في كلكتا في أواخر القرن الماضي ، في احدى المرات النادرة التي غادر فيها المير قلعته الحصينة - وربما كانت المرة الاولى - وكانت الرحلة قد تمت استجابة لدعوة من الحاكم البريطاني للهند وقتئذ .

تلقى سلطان الهونزا السؤال بعدم ارتياح فيما يبدو ، فاجاب على سؤال المهراجا المنتدي اجابة غامضة لا تخلو من تفخيم ، اذ قال ان بلاده تقع حيث تلتقي ثلاث امبراطوريات ومملكة واحدة (يقصد روسيا والصين والهند ، ومملكة التبت) .

ولأنه كان أغنى رجل في العالم وقتذاك ، فان نظام حيدر اباد أراد ان يكسب « نقطة » لصالحه في الحوار ، فسأل المير عن دخله الذي يحصله من مملكته الغامضة تلك . فاجاب سلطان الهونزا باعتداد قائلا : ان تحصيل الايرادات امر يتولاه الاتباع وصغار الموظفين ولا ينبغي ان يشغل الحكام بمثل هذه التفاصيل !

لكن الامر كان اكثر يسرا بالنسبة لي . فما من مرة زرت فيها باكستان الا وسمعت عن الهونزا روايات وحكايات تشبه الاساطير وعبر كتابات عديدة سعيت اليها كانت الاطلالة الاولى لي على مملكة الهونزا ، حيث تبينت أن الجانب المتعلق بالحقيقة اكبر بكثير من نصيب الاسطورة في قصة تلك المملكة الفريدة . وان كلمة الهونزا معناها « السهم » او المتماسكون كالسهم ،في لغة بروشسكي السائدة بالمنطقة . وقد كانت المنطقة الواقعة في اقصى شمال الهند وقتئذ تحت حكم اسرة واحدة منذ حوالي الف عام . ولكن احفاد الاسرة اختلفوا فقسموا المملكة بين اثنين من الاشقاء في القرن السادس عشر الى شطرين : هونزا ونجر . وظلت هونزا هي الأقوى الى الآن ، حيث يمتد سلطانها الى مسافة ٧ آلاف كيلو متر مربع ، تنتهي بمقاطعة سنيكيانج الصينية . اما سكانها فعددهم ٣٠ الفا ، موزعين على ٤٤ قرية .

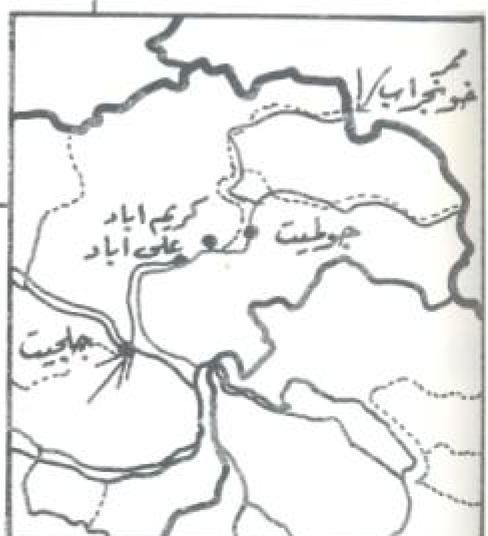
ليسوا أحفاد الاسكندر

وثمة اعتقاد سائد بأن أهل الهونزا ذوو اصول اغريقية . والقصة الشائعة تقول ان خمسة من جنود الاسكندر الاكبر (القرن الرابع قبل الميلاد) ضلوا طريقهم في الهونزا ، وانهم مرضوا واستقروا هناك ، حيث تزوجوا وتناسلوا ، وزرعوا جذور بعض القبائل الحالية .

لكن الدراسات التاريخية لا تتفق على صحة هذه المقولة بشكل مطلق . وأكثر الباحثين اعتدالا لايستبعد هذا



منطقة الهونزا وخط السير من جلجيت الى خـونجـراب مـرورا بكـريـم ابـاد



الاصل الافريقي لقلة من الهونزاكوتيين ، لكنه يرجح أن تكـون الملامح الاوربية البـادية عـلى الاكثرية متـأثرة بالاصول الطورانية (التركية) التي تتفـرع عنها قبـائل عديدة في المنطقة . خاصة وأن الاتراك أساسا قادمون من قلب آسيا ، وسكان مقاطعة سينكيانج الصينية الملاصقة للهونزا (أربعة ملايين) اتراك عرقا ولغة وتقاليد ، الى الآن .

وسواء كانوا من اصول طورانية او آرية او ايرانية ، كما يقول الباحثون ، فان الحد الادنى المتفق عليه هو أن شعب الهونزا من أصـول آسيويـة وليست أوروبية ، رغم أن الارستقراطية الهونزاكوتية الممثلة من الأسرة الحاكمة اساسا ، تصر على أنها من تلك الأصول الاغريقية .

لكن الأصول لم تكن هي الجانب الاكثر اثارة في قصة الهونزا ، لان هناك جوانب اخرى عديدة تفرد بها شعب تلك المنطقة ، وأشاعت حوله ذلك الجو الأسطوري الذي لا يتوفر لأي من شعوب الأرض . وتلك ان تتصور تلك الملامح الفريدة التي يمكن ان يتسم بها مجتمع عاش في عزلة عن العالم لمدة ألفي عام ، لا يعرف سلطة الحكومة ولا لغة النقود او الضرائب ، ولم يسمع باسم السجون ، ويعتمد في غذائه ودوائه على فاكهة المشمش ، وتطول حياة الناس فيه حتى يبلغ متوسط العمر مائة عام ! ويقضي الجميع اعمارهم بين الصخور والثلوج وفي خدمة الأمير !

ثم تقدر هذه الصورة التي بهرت عديدا من الباحثين ◄◄



جيل الغد الذي لم يعرف العزلة وعصر التحدي الحقيقي بين الانسان والطبيعة . صبية من بنات الهونزا اسمها زهرة ، ارتدت الزي القومي ، غطاء الرأس المطرز والخمار الشفاف ، وابتسمت لعالم اكثر اشراقا .





عدة وجوه من الهونزا ، الى اليمين (فوق) النقيب نصرت ضابط أمن المنطقة و (تحت) ملامح اغريقية صرفة لواحد ربما كان من احفاد جند الاسكندر ، والى اليسار علي مراد شيخ المعمرين في الهونزا ، يحتضن واحدا من احفاد احفاده .




والأدباء والمغامرين أن تتغير تماما في السبعينات ، التي شهدت تحولين هامين في تاريخ مملكة الهونزا ، الاول هو اخضاع المملكة للسلطة الادارية لحكومة باكستان ، والغاء مناصب الامراء والنواب والخانات ، وهو القرار الذي أعلنه رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو في عام ١٩٧٤ ، والذي أنهى به آخر ما تبقى للهونزا من خصوصية واستقلالية . والحدث الثاني والأهم هو افتتاح طريق كراكورام الدولي في عام ١٩٧٨ ، الذي أنهى تماما عزلة هذه المنطقة ، وأحدث انقلابا شاملا في كل نواحي الحياة بها .

كانت اكثر تلك الكتابات لضباط في الجيش البريطاني ، قدر لهم ان يتولوا مناصب مختلفة في ادارة المنطقة خلال فترة الاستعمار البريطاني للهند . ولم يتح لأهل الهونزا ان يسجلوا تاريخهم او تراثهم ، لأن لغاتهم - وفي مقدمتها لغة بروشسكي - منطوقة وليست مكتوبة . حتى بات على الباحث عن تاريخ المنطقة ان ينقب عنه بين الوثائق الانجليزية اولا ، ثم الصينية والتركية

مفاجآت في الطريق

لكن الرحلة الى كريم اباد عاصمة الهونزا لم تكن بالامر الهين ، وان بدت ميسورة عندما جرى حولها الحديث لاول مرة في مقر وزارة الاعلام الباكستانية بالعاصمة اسلام اباد . قال محدثي ونحن جلوس حول طاولة صغيرة : ان الرحلة ستتم على مرحلتين احداهما طولها ٦٠٠ كيلو متر ،من روالبندي (الملاصقة لاسلام اباد) الى جلجيت ، مقر الادارة في المقاطعة الشمالية الغربية ، التي كانت تعرف باسم دارد ستان حتى منتصف القرن الحالي ، وهذه ستتم بالطائرة التي لن تستغرق رحلتها اكثر من ساعة ونصف . والثانية طولها١١٢كيلو مترا من جلجيت الى كريم اباد عاصمة الهونزا ، وهذه يجب ان تتم بواسطة سيارة « جيب » ، وتستغرق ما بين ثلاث واربع ساعات حسب الظروف . اما اذا اردت ان تواصل الرحلة الى سقف الدنيا عند الحدود فيما بين باكستان والصين - اضاف محدثي - فان الرحلة سوف تستغرق اربع ساعات اضافية تقريبا ، ويلزمكم ان تقطعوا ١٧٥ كيلو مترا من كريم اباد على الطريق ذاته .

ركبنا الطائرة ونحن نمني انفسنا برحلة هادئة ، لكن اكثر من مفاجأة كانت في انتظارنا . فكما يحدث في افلام الرعب ، بدأت الرحلة بواحد من تلك المشاهد التي تشد الاعصاب وتوقف شعر الرأس . اذ لم تكد الطائرة تخترق السحابات ناصعة البياض ، حتى رفع الستار عن ذلك المشهد المروع . فالطائرة باتت محاصرة بكتلة هائلة من الجبال السوداء التي كانت بمثابة لوحة متجهمة صماء تسد الافق ، وتوحي للناظر من النافذة بان كارثة محققة ستقع بعد ثانية واحدة . ادرت وجهي من النافذة بسرعة متوقعا أن أجد الجالسين وقد قفزوا من فوق مقاعدهم ، وان الهرج سوف يسود الطائرة ، لكن ما أدهشني أن الجميع كانوا في حالة من الهدوء والسكينة البالغين . البعض كان يتسلى بالنظر الى النافذة ، وكأنه يشاهد شريطا مسليا لاحدى حلقات الرسوم المتحركة . في حين كان آخرون يواصلون القراءة في الصحف الاردية والانجليزية التي وزعتها احدى المضيفات . اما الباقون ، فكانوا بين متأهب للتعاس ، او مداعب للاطفال الذين انفلت عيارهم بعد فك الاحزمة ، أو غير مبال بكل ما يجري .

ادركت انه ليس ثمة خطأ او خطر في الجانب المتعلق بالطائرة ، وان الخطأ كان من نصيبي وزميلي صلاح آدم مصور العربي ، وقد كنا الأجنبيين الوحيدين في الطائرة ، بينما الباقون كانوا من ابناء المنطقة الذين الفوا هذا الخطر ، وباتوا يستقبلونه بهدوء وبغير اكتراث .

زالت الغمة ، وخرجنا من ذلك النفق الصخري الكئيب الى مشهد آخر يبهر العين ويملؤها بالضياء ، فقد ظهرت - اخيرا ! - صفحة السماء ناصعة البياض ، بينما الكتل الصخرية الضخمة بدت من بعيد مكسوة بسط هائلة من الثلج ، فيما برزت قمم الجبال كمنارات متصوبة فوق الصخور ، وقد استسلمت لأغطية الثلج الكثيفة .

كانت الطائرة في صعود مستمر ، حتى تصبح في مستوى يرتفع فوق تلك الابراج الثلجية المتناثرة . لكن ثمة قمة واحدة صادفتنا ، لم تحاول الطائرة ان تتخطاها ، وهي القمة المعروفة باسم « نانجا باربات » . ومعناها القمة العارية ، وهي التي لا يخلو كتاب عن الشمال الباكستاني من ذكرها ، اولا لارتفاعها المدهش (٦،٦٦٠

قدما) ثم لكمّ القصص والاساطير التي نسج حولها ، والذي تلعب فيه الجنيات دورا أساسيا ، حيث تتولى ، في كل قصة ، اختطاف كل من يحاول بلوغ تلك القمة العالية . وقد شاعت تلك الاساطير بعد فشل كافة محاولات المتسلقين والمغامرين في الوصول الى ذروة الجبل ، ولكنها خبت ، وتحولت الى روايات تاريخية ، بعد ما نجح بعض الالمان في تحدي الجنيات ، والوصول الى القمة العارية في عام ١٩٥٢ !

مرت الطائرة الى جوار القمة الثلجية التي بدت منتصبة بينما الكل سجود حولها في سكون ابدي ، واتجهت الى حيث حلقت فوق وادي نهر الاندوس (الكبير) الذي بدا شريطا رفيعا ومتواضعا ، تظله الرؤية بالعين من ذلك البعد الشاسع ، فضلا عن ظلم آخر يحيف به من جانب سلاسل الجبال العملاقة التي تكاد تطبق عليه من الجانبين ، في اكتساح لمسرح المنطقة لا يقبل المنافسة !

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان الجبل هو السيد الحقيقي في تلك المقاطعة الشمالية . تلك شهادة التاريخ والجغرافيا معا . واذا كانت الاسطورة الهندية لم تجد لالهة الجبال « شيفا » مقرا ومستقرا سوى هذه المنطقة ، فان ذلك الاختيار لم يتم اعتباطا ، بل هو نموذج لاحدى ممارسات الحكمة الهندية العريقة . فاذا كان لابد ان يكون للجبال اله ، فلن يجد له عرشا جديرا به ، ولا بلاطا وحاشية ، ولا حتى رعية (!) اجدر ولا افضل مما سيجده في هذا المكان .

فهذه المنطقة من الشمال الباكستاني تشهد منذ آلاف السنين « مؤتمرا » لشوامخ الجبال في العالم . والوصف لمؤلف كتاب « كراكورام هونزا » ! .

جلجيت : مدينة العابرين

من فوق وادي نهر الأندوس ، انحرفت الطائرة لتعبر ممر « بابوسار » الذي يتخلل كتل الصخور الشاهقة ، على ارتفاع ١٤ الف قدم . وكان الممر هو الباب الذي دلفنا منه الى وادي جلجيت ، المليء بالحدائق ومجاري المياه التي تنساب من فوق القمم العالية ، لتتعانق في الوادي وتروي ظمأه .

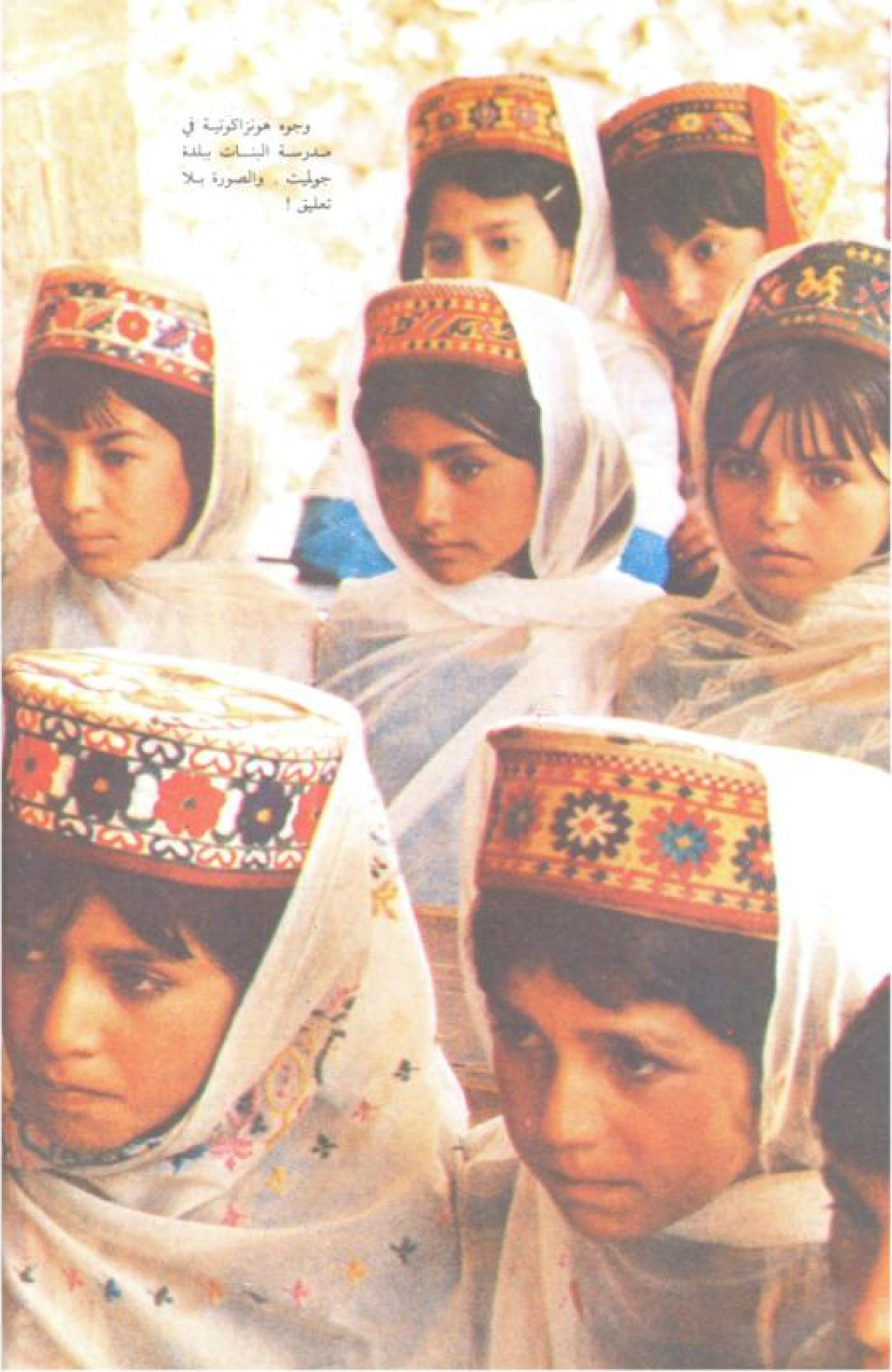
بعد دقائق محدودة كنا في جلجيت المدينة ، التي تتمدد في بطن الوادي بينما هامات الجبال العظيمة تطل عليها من كل اتجاه . هنا محطة انطلاقنا الى الهونزا . وتلك وظيفة المدينة منذ الأزل . لاأحد يقصدها لذاتها ، وانما هي دائما ويحكم موقعها الجغرافي مدينة العابرين ، ومفتاح جبهة الشمال . ومن هذا الباب دخلت التاريخ واصبحت محطا للانظار . الجغرافيا هي التي صنعت لها تاريخا .

ولا نظلمها اذا قلنا ان جلجيت قد حازت لقب « مدينة » ـ ايضا ـ لاسباب جغرافية وليس لاسباب عمرانية . اذ هي في الحقيقة قرية متواضعة ، شوارعها مترية وبيوتها مبنية من الطين واهلها فقراء يزرعون في الوادي او يتعيشون من تجارة العبور . لكنه ـ مع ذلك ـ مقر لعدد من الأجهزة الادارية العامة التي يمتد سلطانها الى مختلف أجزاء المقاطعة الممتدة الى حدود الصين ، فضلا عن أنها مركز قيادة الجيش في القطاع الشمالي ، ولاهميتها الاستراتيجية فانها خاضعة للحكم العسكري ، ويصرف امورها ضابط كبير برتبة لواء ، باسمه يصدر التصريح للاجانب بالتجول في المنطقة ، وشأن كافة محطات الوقوف والعبور ، فان الناس فيها خليط من كافة اجناس واعراق المنطقة .

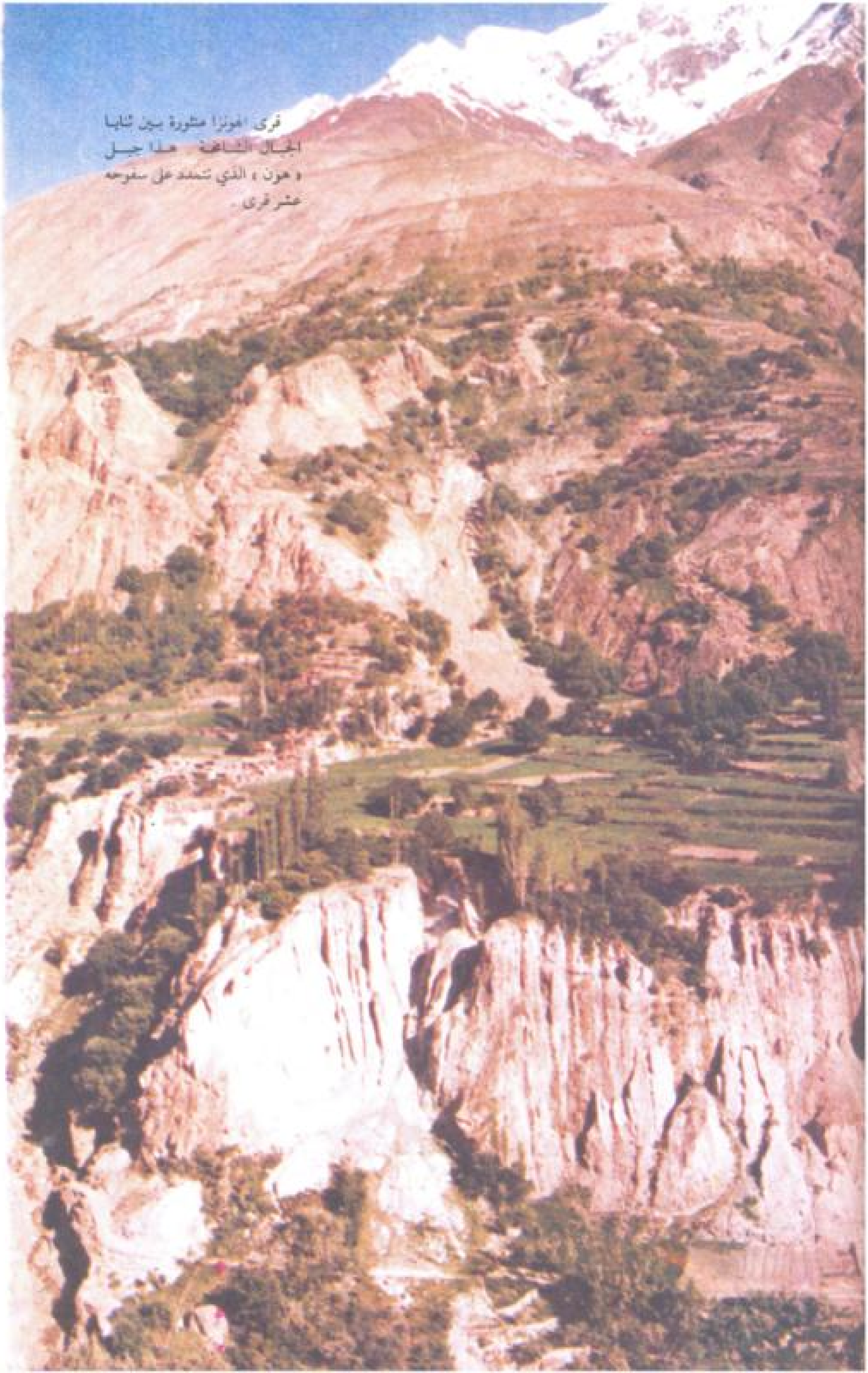
وتاريخيا فان جلجيت وما حولها كانت منطقة صراع النفوذ بين الامبراطوريتين البريطانية والروسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، الأمر الذي دفع بريطانيا الى ارسال حامية لتعسكر فيها تحسبا لأية احتمالات ، في أواخر القرن التاسع عشر .

وكانت الهونزا لها أهمية خاصة في استراتيجية المتصارعين ، حيث انها تقع مباشرة امام خط التقدم السوفيتي في اتجاه جنوب آسيا . ولهذا السبب قامت بريطانيا باحتلالها في سنة ١٨٩١ .

لم يعد الوصول الى الهونزا هو تلك المغامرة الخطرة التي يتمنى همها المسافر ، بعد ان حدثت متغيرات اساسية في خريطة المنطقة ، وهذه المتغيرات دخلت من باب سحري اسمه طريق كراكورام ، الذي يضمه الباكستانيون الى عجائب الدنيا السبع ، ويعتبرونه ـ عن حق ـ ثامن تلك العجائب !



وجوه هونزاكوتية في مدرسة البنات بلدة جوليت . والصورة بلا تعليق !



قرى "هونزا منثورة بين ثنايا الجبال الشاهقة . هذا جبل " هون " الذي تتمدد على سفوحه عشر قرى .

على طريق كراكورام

وعندما يكتب التاريخ الحديث لهذه المنطقة ، فإن طريق كراكورام لابد وان يستأثر باهتمام يليق بخطورة الدور الذي يؤديه ، بل لا بد وان يخرج ـ في التصنيف ـ من دائرة المشروعات العمرانية الاسطورية ، التي فكت إسار عشرات الألوف من البشر ، ظلوا يعيشون في ثنايا تلك الجبال العالية منذ قرون عديدة ، ليدخل في دائرة التحولات الاستراتيجية بالغة الأهمية في القارة الأسيوية ، يكفي أن يفتح طريق كراكورام الابواب لكي تصل الصين الى بحر العرب . والذين يعرفون ما هي الصين ودورها في موازين القوة في آسيا والعالم بأسره ، ويعرفون موقع بحر العرب من قلب العالم النفطي ، يدركون ابعاد ذلك الحدث الضخم .

كراكورام ، التي تكتب بالاردية ذات الحروف العربية « قراقرم » (بضم القاف الثانية) كلمة تركية معناها « الصخرة السوداء المبعثرة » . اطلقها اتراك وسط آسيا منذ الأزمنة القديمة على حزام الصخور الوحشية الذي يشكل الذراع الغربي لجبال الهملايا توأم جبال هندوكش والبامير .

انطلقت بنا السيارة من جلجيت ذات صباح حيث بلغنا الطريق الكبير ، وصرنا فوق ذلك المسرح الاسطوري ، حيث غاصت السيارة في بطن حزام الصخور الوحشية والسوداء ، وحيث تختلط لدى الانسان مشاعر الرهبة والدهشة والانبهار في آن واحد ، رهبة موقف يجد فيه المرء نفسه وقد تضاءل الى جانب تلك الجدران الصخرية العملاقة . والدهشة ازاء تلك القسمات التي كانت تطل علينا بين الحين والآخر مخترقة ومتحدية طبقات الصخر المتراكمة عبر ملايين السنين ، لتدلك على أن البشر ، برغم كل شيء ، أقوى من الحجر ! . فلا بد أن يأخذك العجب من زراعات شيطانية تنشق عنها الصخور . ليست شجرة او مجموعة اشجار ، وذلك بحد ذاته أمر مدهش ، وإن لم يكن للانسان يد فيه . لكن ما هو مستغرب ومدهش حقا هو تلك المربعات المزروعة التي كانت تظهر وسط الصخور . حيث لا تعرف أولا كيف ومن أين وصل الانسان ـ أو هبط ـ الى تلك المواقع ؟ ثم تعجز عن أن تعرف كيف أقام مزرعة فوق الصخر ، كما تعجز عن ان تتصور الامكانيات التي توفرت له ليحقق هذا الانجاز الكبير ، وهي امكانيات لا بد وان تكون بدائية ، الثابت منها الى الآن هو قرون الكباش والبقر ! ، اما الانبهار فلا بد أن يتملك الانسان وهو يتطلع الى القمم الثلجية البيضاء التي تتوج المشهد كله ، مغلفة بالغيوم حينا ، ولامعة كالفضة تحت أشعة الشمس حينا آخر . وفي كل حين تنساب جداول المياه من تلك القمم تتهادى فيها خيوط الفضة في دلال ، قادمة من الذروة الى التلال والسفوح ثم النهر .

لكن ذلك كله في جانب ، والطريق الذي نحن عليه في جانب آخر ، اذ يظل مثيرا للدهشة أن يخترق تلك الكتل الصخرية طريق ناعم وممهد بطول ٩٥٥ كيلو مترا ، وهي المسافة بين شمال العاصمة الباكستانية ، وحدود الصين .

وتعجز الكلمات عن وصف سلسلة جبال كراكورم ، بقدر ما تقصر عن تصور الجهد الهائل الذي من أجل مد الطريق ، ليصل بارتفاع أكثر من ١٥ الف قدم الى حدود الصين . فهذه الجبال التي تشكل المسرح الحقيقي للمشروع ، تغطي ثلاثة ارباع مقاطعة شمال باكستان . ولكي نتصور مدى ضخامة هذا المسرح واستحالة عملية اقتحامه ، فينبغي أن نتذكر انه من بين أعلى ٣٠ قمة للجبال في الكوكب الأرضي ، تستأثر جبال كراكورام بالثنى عشرة قمة . كما ينبغي ان نتذكر ان ذلك الحزام الجبلي الاسطوري يضم بين جنباته أضخم وأطول أربعة انهار جليدية في العالم (في منطقة الهونزا ١٢ نهرا جليديا) خارج المنطقة القطبية . وعلى سبيل المثال ، فانه اذا كان أطول الانهار الثلجية في جبال الألب السويسرية لايتجاوز عشرة أميال ونصفا ، فانها تصل في جبال كراكورام الى ٣٠و٥٠ وحتى سبعين ميلا .

لهذا كله ليس مستغربا ان يستمر العمل في المشروع ١٨ عاما ، وليس كثيرا ان يحشد له جيش من البشر يضم ٢٤ ألفا و ٥٠٠ انسان ، بينهم ١٤ الف باكستاني والباقون من الصينيين . وليس مفاجئا ان يصل عدد الذين فقدوا حياتهم في مختلف مراحل المشروع الى عدد يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ شخص . وازاء الانجاز الذي تحقق فانه عندما تصل تكاليف المشروع الى مليار دولار ، فان الرقم لا يذكر ، وعندما يستخدم في محاولات اختراق الصخور ٨ آلاف طن من المتفجرات ، فان الأمر يستحق ما هو أكثر .

تحت أقدام راكابوشي

تخطف البصر على الطريق قمة « جبل راكابوشي » التي يطلقون عليها اسم « دوماني » ومعناها ام السحب . وما يدهش المرء فيه ليس فقط ارتفاعه المذهل الذي يبلغ ٢٥ ألفا و ٥٥٠ قدما ، ، ولاجماله الباهر الذي تختلط فيه

الثلوج بثراء الاشجار والخضرة ، ولكن الصـورة التي بدت عليها قمته كانت اخاذة بصورة لا تصدق . ذلك ان قمة راكابوشي تتجه باستقامة معجزة من بين مجموعة من القمم المحيطة في وصل مدهش بين الارض والسحاب . حتى شبهها البعض بأنها بمثابة سيف ثلجي اسطوري حاد ، متدفع من الارض ومغروس في كبد السماء . ولطبيعتها الفريدة تلك ، فقد فشلت جميع المحاولات التي بذلها المغامرون لبلوغ تلك القمة وقهر ارتفاعها الشاهق ، رغم ان المغامرين نجحوا في الوصول الى قمم أعلى منها ، ولكنها كانت ذات تضاريس او طبيعة مختلفة .

يقف جبل راكابوشي في الطرف الغربي لسلسلة جبال « كيلاش » ـ المتفرعة عن جبال كراكورام ـ وبها موطن « شيفا » الهة الجبال في الاساطير الهندية القديمة ، التي تقول انه هنا ـ عند سفح راكابوشي ـ احرق « شيفا » آلهة الحب لانها سببت له ازعاجا لم يحتمله . اما « جانيش » إلهة الحكمة التي يصورونها برأس فيل ضخم ، فانها ولدت في احضان كاليش ، و « بحكمتها » استطاعت ان تتعايش مع « شيفا » الجبار !

ولا تزال رائجة بين الناس الى الآن اسطورة التنين الذي سجن في الثلوج منذ ثلاثمائة عام قرب قمة راكابوشي ، وهم يعتقدون انه ينتهز فرصة حلول الربيع كل عام ليحطم أغلاله ويتخلص من سجنه ، الامر الذي يصيب الناس بذعر خفي : مما يدفعهم الى اشعال نيران هائلة مع بداية فصل الربيع ـ في مهرجان خاص ـ لاخافة التنين واجباره على التراجع عن محاولته تلك !

الهونزا .. أخيرا !

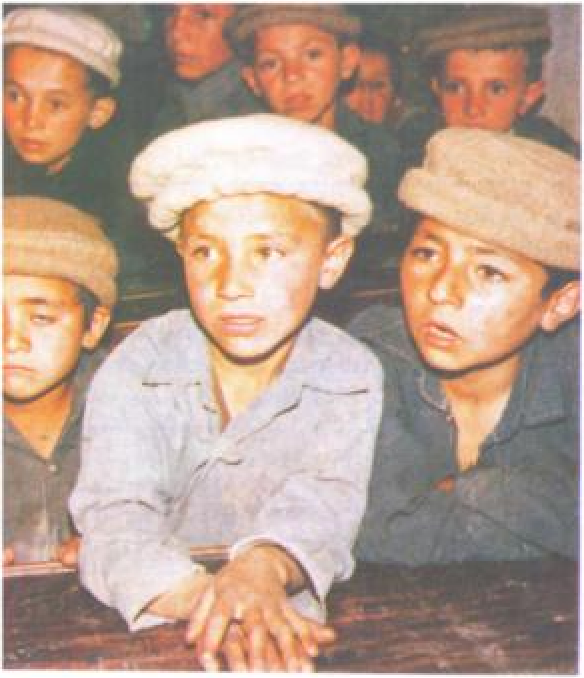
بعد أربع ساعات كنا على مشارف كريم اباد عاصمة أمير الهونزا . ظلت السيارة تصعد وتصعد ، ثم تدور في حذر بالغ مخترقة طرقا ضيقة وغير مستوية ومتجنبة حواف الصخور والاشجار ، فيما كان خرير المياه الهابطة من قمة الجبل يكاد يطغي على صوت المحرك ، حتى وصلنا الى ارتفاع ثمانية آلاف قدم ، في حالة يرثى لها . وعندما ظهرت امامنا بعض البيوت الحجرية المبنية خارج الجبل وداخله ، ولمحنا بعض النسوة بثيابهن ذات الالوان الزاهية ، اللاتي اشحن بوجوههن ثم اختفين في لمح البصر ، بينما ركض الصغار مخترقين سحابات التراب والدخان التي خلفتها السيارة وراءها في محاولة للتعلق بمؤخرتها . . . وقتئذ لكزني مرافقي وقال : هذه هي العاصمة التقليدية لامارة الهونزا !

لم يعد للهونزا أمير ، بعدما صارت السلطة بيد الحكومة . وصار للهونزا مسئول اداري وضابط شرطة ، ودوائر وقانون وخفر ونفوذ . ولم يعد أمير الهونزا يمارس أي نفوذ حقيقي . حتى قرار تعيينه عضوا بمجلس المقاطعة جاء تعبيرا عن التقدير ـ أو التعويض ـ الأدبي ، وبالمنطق ذاته عينت له الحكومة ١١ رجلا لحراسته ، بديلا عن « الحاشية » . وربما ادرك الأمير الشاب ـ واسمه راجا غزان ـ ان الدنيا تغيرت ، وأن الناس صاروا اتباع الحكومة وليسوا اتباعه ، فاختار ان يُشْغَل بالموسيقى وان يقضي وقته في هوايته المفضلة وهي العزف على الجيتار . وتحسبا للمستقبل ـ من يدري ؟ ـ فقد التحق بفرقة موسيقية في اسلام اباد ، التي يقضي فيها فصل الشتاء من كل عام ، ثم يهرب هو وزوجته ـ وتلقب راني ـ من حر العاصمة والرطوبة الخانقة فيها الى قصره الذي ورثه عن أبيه في كريم اباد ، والذي تطل واجهته على قمة راكابوشي الثلجية العملاقة .

« امير » الهونزا الحقيقي الآن ، ، واحد ليس من ابنائها ، هو النقيب نصرت علي خان ، ضابط الشرطة المسئول عن الأمن في المنطقة كلها ، ومقره في علي آباد ، وهي العاصمة الحكومية للهونزا ، وقع الاختيار عليها منذ سنة ٧٥ ، بعد الغاء الامارة ، بديلا عن كريم آباد التي كانت عاصمة في ظل الحكم السابق .

تولى النقيب نصرت ايضاح بعض تضاريس المنطقة ، التي قال انها تضم ٣ أقسام ، هونزا العليا الملاصقة لمقاطعة سينكيانج الصينية ، ـ سكانها يتكلمون لغة « واخي » ، والوسطى ، التي كنا فيها وهي القسم الأكبر ، وتتكلم لغة « بروشسكي » ، والسفلى ، الأقرب الى جلجيت ، وأهلها يتحدثون لغة « شينا » . واللغات الثلاث منطوقة وليست مكتوبة . وتضم المناطق الثلاث ٤٤ قرية ، يسكنها ٣٠ الف شخص . أكثر من نصفهم بروشيون (يتكلمون لغة بروشسكي) .

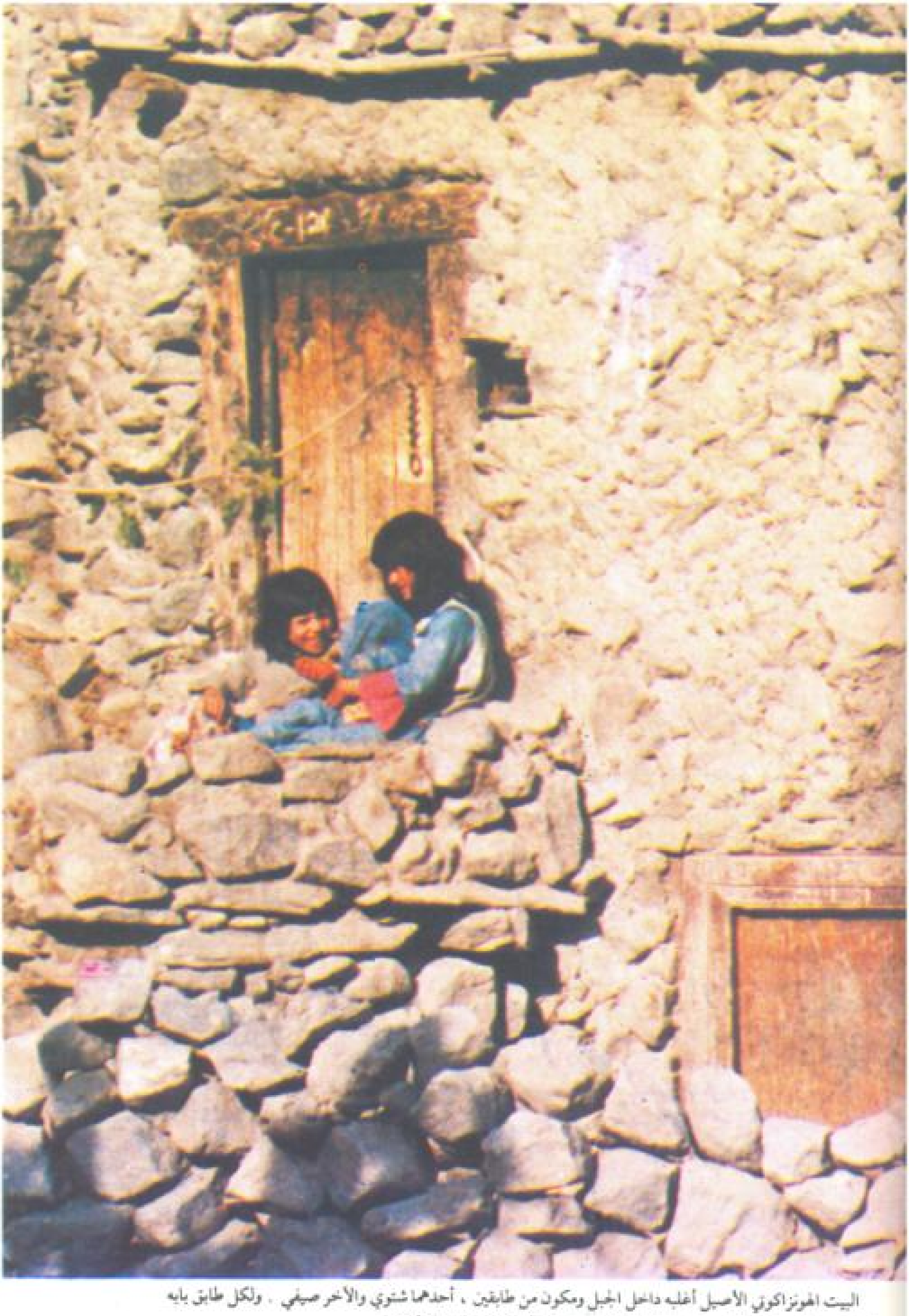
سألته عن السبب في قلة عدد سكان الهونزا ، فقال ان افراد الطائفة الاسماعيلية ـ أهل المنطقة ـ لا يتزوجون بأكثر من واحدة ، فضلا عن ان الأم تنجب مرة كل ثلاث سنوات ، لان الواحدة ترضع طفلها لمدة سنتين كاملتين ، وهو تقليد التزم به الجميع وهم لا يعرفون انه مبني على نص الآية « والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين . . . » واذا اضفنا سنة الحمل الى سنتي الرضاعة ، فان المجموع يصبح ثلاث سنوات . ولذا فان متوسط عدد أطفال الاسرة في الهونزا في حدود اثنين ، قد يرتفع الى ثلاثة وقد يهبط الى واحد . في حين ان متوسط عدد ابناء





احدى مدارس الطائفة الاسماعيلية ، التي أنشأتها مؤسسة الحاخان ، الواجهة مكتوبة بالاردية وان كانت « مدل سكول » ليست الا كتابة عربية للمدرسة المتوسطة بالانجليزية ، الى اليسار (فوق) بعض التلاميذ في الفصل . وصورة النصف الاسفل لفريق من سيدات النسوة في رحلة بين قريتين . لاحظ القوام المشوق والجمال الفائق .





البيت الهوزناكوتي الأصيل أغلبه داخل الجبل ومكون من طابقين ، أحدهما شتوي والآخر صيفي . ولكل طابق بابه كما توضح الصورة . الواجهة من الحجارة التي رصت بطريقة دقيقة ومثيرة للانتباه .

الأسرة الباكستانية بوجه عام ، يتراوح بين ٥ و٧ أطفال ، مع ملاحظة ان تعدد الزوجات قائم في الكثير من المقاطعات الباكستانية .

اغلقوا مكتب البريد !

عن المدارس ومراكز الرعاية الطبية ، قال ان المنطقة لم تعرف المدارس الا في اواخر الخمسينات واوائل الستينات ، وان الطائفة الاسماعيلية هي التي تلعب الدور الأكبر في انشاء المدارس والانفاق عليها ، وان الحكومة تسهم بقدر في هذه العملية . وقد اصبح الآن في كل قرية مدرسة ابتدائية ، وفي منطقة الهونزا كلها ثلاث مدارس ثانوية . اما مراكز الرعاية الطبية فقد أصبح في كل مجموعة من القرى مركز طبي ، وبلغ عدد هذه المراكز خمسة ، وهي ايضا خاضعة لاشراف مؤسسات الطائفة الاسماعيلية .

ألحت على ملاحظة حول كَريم أباد ، بعدما تعدد ذكر كلمة « القرى » ، فقال احد الجالسين ان مفهوم القرية فوق ٩ أو عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر ، لا بد وان يختلف عنه في أي مكان آخر . فأي تجمع بشري مستقر يمكن ان يشكل قرية . وقضية المعمار ليست واردة ، فاغلب بيوت الهونزا محفورة داخل الجبال ، او مبنية من الصخور والاحجار على السفوح ، ثم ان القرى منثورة حول مجموعة الجبال ، تكثر حيث يمكن زراعة الأرض وحقول الفاكهة ، وتندر اذا حدث العكس . خذ مثلا جبل « هون » الذي نعيش في كنفه ـ اضاف محدثي ـ لأن الناس نجحوا في تطويعه وزراعة جوانبه ، فانك حيثما ذهبت ، في شرقه أو غربه ، شماله أو جنوبه ، تجد القرى لصيقة بسفوحه ، حتى بلغ عددها حوالي عشر ، في مقدمتها كريم أباد ، وحيدر أباد ، وحسن أباد ، ومرتقى أباد . . . الى آخر القائمة . . .

وقبل ان أسأله عن كلمة « أباد » ـ القاسم المشترك في اسماء القرى ـ وهذا الربط بينها وبين اسماء الاشخاص ، قال ان الكلمة معناها بالاردية « مستقر او موطن » ، اما هؤلاء الاشخاص فهم من ائمة الطائفة الاسماعيلية .

وكنت قد قرأت فيما كتب عن الهونزا امتداحا شديدا لاهلها . فقد وصفهم اللورد كيرزون بانهم أكثر الناس شجاعة وجاذبية في قبائل الهندوكوش ، وقال الكولونيل سكومبرج عن رجالها ـ انهم يمثلون واحة من الشجاعة في صحراء من النسوة لابسات السراويل . اما اريك شيبتون فقال عنهم : انهم شديدو الاعتزاز بأنفسهم والولاء لمجتمعهم وتقاليدهم ، وبالغو الشجاعة والصفاء » .

ضابط الشرطة ، النقيب نصرت الذي قد يكون محايدا بحكم عدم انتمائه العرقي للمنطقة ضم صوته الى أصوات المتحدثين لأهل الهونزا ، قائلا انهم طراز فريد من البشر ، أفادتهم العزلة الطويلة ، التي جعلت للاستقامة دورا اساسيا في حياتهم . « فالهونزاكوتي على خلق رفيع . لا يعرف الكذب ولا المداورة . حياته هو واسلافه وسط الصخور جعلته شديد الاستقامة والاعتماد على ذاته ، وقادرا على ان يواجه كل الصعاب بثبات وشجاعة نادرين . وهذه القسوة في الحياة اسهمت في تكوينه كمقاتل باسل لايهاب الموت . وحولته الى طاقة مليئة بالحيوية والنشاط لأن اي تراخ من جانبه سيهزمه امام التحدي اليومي الذي تمثله الطبيعة الجبارة من حوله . واضاف النقيب نصرت ان الهونزاكوتي كان منذ الازل شديد الالتصاق بارضه واسرته وقبيلته ، ولذا لم يكن يقبل على التوطن في الخارج ، وبسبب طول الأجل بهذه التقاليد ، فان الهونزاكوتيين لم تكن لهم اية علاقات بغيرهم خارج مملكتهم . حتى ان مكتب البريد الذي فتح في علي أباد في منتصف السبعينات ظل بلا عمل طوال سنتين ، فاضطرت الحكومة الى اغلاقه . . فلم يكن الناس راغبين في الكتابة الى أحد ، فضلا عن ان المكتب لم يتلق خطابا واحدا من الخارج خلال هذه الفترة .

يضاف الى ذلك ان نمطية الحياة جعلت الهونزاكوتي انسانا محافظا بالغ التمسك بقيم مجتمعه وتقاليده ، وكان من نتيجة ذلك ـ مثلا ـ ان هذا المجتمع لا يعرف الجرائم الاخلاقية على الاطلاق .

طرحت قضية الأمن نفسها في السياق ، فقال ضابط شرطة المنطقة ان الناس وديعون للغاية ، وانه ليست هناك جريمة بالمعنى الحقيقي . وانما هناك منازعات قد تحدث بين الحين والآخر بسبب توزيع المياه وملكية الاراضي ، لأن حدود الاراضي ليست مسجلة فضلا عن ان المياه يشترك فيها الجميع بغير حساب ، لكن الملاحظ ان ثمة تغييرا بدأ يظهر مؤخرا ، فقد سجل المخفر لاول مرة حادثتي سرقة خلال السنوات الثلاث الأخيرة .

عندئذ تمتم أحد العجائز الجالسين محتجا وظل يتحدث ملوحا بيده لبعض الوقت ، وتبين بعد الترجمة انه كان يتحسر على الزمن الذي مضى ، ويقول ان الشرور كلها من ذلك الطريق الذي يمر تحت الجبل (يقصد طريق كراكورام) .



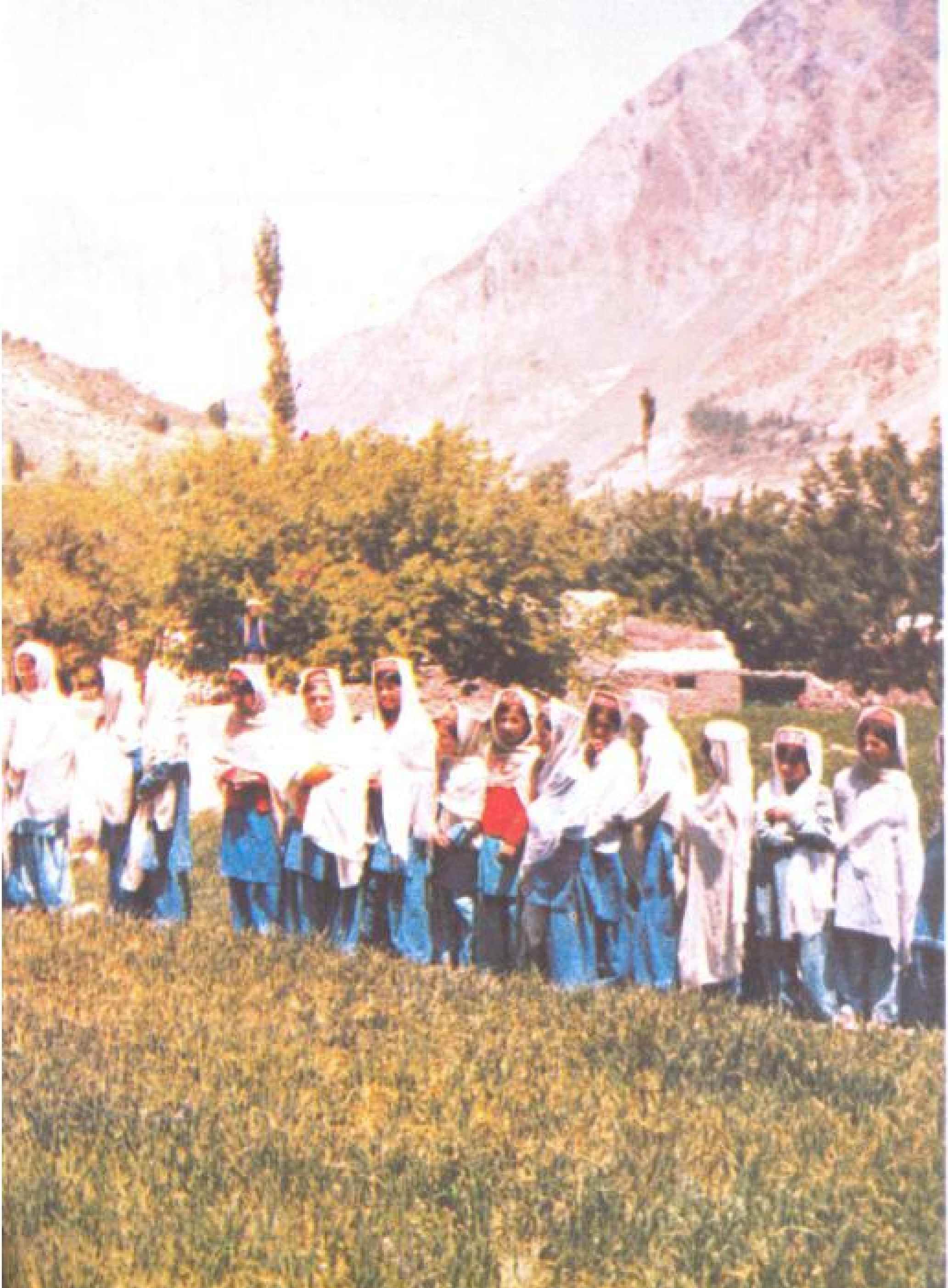
في الوحدة الصحية التابعة لمؤسسة أغا خان في بلدة جولبت بمنطقة الهونزا . . الفريق الطبي من كراتشي ، والأم وضعت حديثا .

لم تكن تلك وجهة نظر الرجل وحده ، ولكنه رأي جيل كامل في منطقة الهونزا ، لا تزال صورة مرحلة ما قبل الطريق ماثلة في ذاكرته واعماقه ، ولا يزال يعتبر أن سنوات العزلة كانت عصر راحة البال والحيوية والصحة والأمان ، وأن عصر ما بعد الطريق فتح الأبواب لمختلف المثالب والشرور ، التي أطل بعضها برأسه ، والباقي في علم الغيب ، وان كانت نذره لا تطمئن ولا تسر !

أكبر المعمرين سنا في الهونزا يتبنى هذا الرأي ويدافع عنه بقوة . ليس فقط لأن الروماتزم أصاب ساقيه في مرحلة ما بعد الطريق ، ولكن ايضا لأنه كان وزيرا « للمير » جمال خان في اوائل القرن الحالي . الرجل اسمه علي مراد ، وشهرته جونو . عمره مع نهاية العام الحالي ١١٠ سنوات ، ومنذ مات صديقه كمال جان ، في منطقة نجر المقابلة للهونزا ، في العام الماضي عن ١٢٠ سنة ، أصبح « جونو » هو شيخ المعمرين بلا منافس في الهونزا وحتى سينكيانج .

في بيت شيخ المعمرين

لقيناه في بيته . كان المكان يفوح برائحة التاريخ . فالرجل ولد هنا منذ ١١٠ سنوات ، ولم يغير بيته طوال تلك السنوات ، بل انه لم ينم خارج هذا البيت الا نادرا ، ولم يغادر قريته خلال ربع القرن الأخير . كان البيت مكونا من طابقين : ـ شأن البيوت العتيقة في المنطقة ـ



الصورة من بلدة جوليت الراقدة على سفوح سلسلة جبال كراكورام العملاقة ، وهؤلاء بنات المدرسة الاعدادية التي اقامتها مؤسسة اغا خان ، في وقفة وسط احد حقول القمح التي تحيط بالقرية ، وتشكل مع الجبال وقممها الثلجية « بانوراما » بديعة



للغاية . في جوليت ايضا احد المراكز الصحية لمؤسسة اغا خان ، التي تدير نشاطات الطائفة الاسماعيلية ، وتمول من اموال « الامام » ، ومن مساهمات الاتباع .

طابق سفلي في بطن الجبل ، وله باب يؤدي الى الخارج مباشرة ، وهو مكون من ٦ حجرات ، يقضون فيها فصل الشتاء القارس ، الذي تهبط فيه درجة الحرارة الى ما تحت الصفر بصفة دائمة . يشعلون النار في خشب الشدفة (جذوع الأشجار الجافة) الموضوع في الحجرة الوسط ، ومنها يتسرب الدفء الى الحجرات الخمس المحيطة بها .

والطابق العلوي ـ الصيفي ـ بارز على سطح الجبل ، وهو مكون من أربع حجرات ، واحدة جلسنا فيها ، وباقي الحجرات يؤدي كل منها الى الآخر ، ويصل اليها الصغار والكبار عبر النافذتين الصغيرتين . وثمة رقعة خشبية توسطت أرضية المكان الذي كنا فيه ، هي المنفذ الذي يوصل فيما بين الطابقين .

كانت الى جوار الرجل علبة دخان ، فسألته : ألا تخشى على صحتك من الدخان . فقال بصوت صامد للزمن ـ إنه يدخن منذ ستين عاما . وعندما كررت سؤالي عن خطر التدخين على صحته ، أجاب بنبرة أسف واضحة : ان زمن العافية الحقيقية قد ولى . وانه شخصيا لم تتدهور صحته الا بعد ان اكل اطعمة هذا الزمان فمنذ ولد وهو يأكل الخضر الطازجة ، والمشمش ، فاكهة وعصيرا (شوموس) ، ويتعاطى منقوع القمح (دنديوم) ، وطول تلك السنوات التي لم يذق فيها طعم اللحم الا فيما ندر ، لم يشعر بشيء على الاطلاق ، لكنهم منذ عرفوا الطبخ والسمن والأرز وغيره من البلايا التي جاءت عن طريق كراكورام ، منذئذ اصابه الروماتزم وهزمته اوجاع المفاصل !

ثم أضاف ان آخر البلايا التي رزيء بها هو القرار الذي اصدرته الحكومة الباكستانية ـ تطبيقا للشريعة الاسلامية ـ بمنع المسكرات ، ومن بينها النبيذ الذي يتعاطاه الجميع في الهونزا (يسمونه باتي) ويقال انه عرف في المنطقة منذ استوطن فيها جند الاسكندر الأكبر .

واخذ الرجل نفسا عميقا ثم قال : اكتب اننا في زمن قلت فيه البركة وندر الخير . وعندما استوضحته قال : منذ ذهب الملوك واولاد الاصول انقلب حال الدنيا . كثرت الثورات واريق دم الوف البشر ولم تتوقف الحروب والمحن ، حتى يكاد المرء يتصور ان هذه هي نهاية العالم . سألته ان كان اسفا على انتهاء عصر « المير » فرد بسرعة قائلا : بكل تأكيد ، المير كان رجلا له كلمته وهيبته . . كانت اي مشكلة تحل بكلمة منه . الآن لن تستطيع ان تجد حلا لمشكلة خصوصا اذا ذهبت الى الحكومة . فهناك النيابة والشرطة والقضاء والتقارير والاضابير ، التي تروح وتجيء من الهونزا الى جلجيت . . وقد تمر شهور طويلة قبل ان يسترد صاحب الحق حقه .

أخيرا عندما تحدث عن اسرته ، قال ان زوجته الوحيدة ماتت ، وان مجموع من بقي معه من الاولاد والاحفاد لا يزيد على عشرة اشخاص . ثم قال بحزن بالغ : تصور ان لي ابنا مات وعمره ثمانون سنة فقط . اليست هذه من كوارث هذا الزمان ؟ واضاف ان الواحد في الزمن القديم كان يعمل في الحقل حتى سن التسعين ، وكنت ترى عشرات في كريم اباد وغيرها فوق المائة ، « الان يعتبرونني شيئا عجيبا في الهونزا » . وتساءل ساخرا : هل يمضي الزمن الى الامام ام الى الوراء ؟ . . لقد قالوا اننا اصبحنا على صلة بالعالم بعد فتح الطريق ، واكتشفت فيما بعد ان ذلك يعني اشياء كثيرة بينها ان نصاب بالأمراض ، وان نموت مبكرا !

الصورة من الداخل

كان علي بعد ذلك ان أستوضح من الآخرين الكثير مما اجمله العم جونو او اشار اليه اشارات عابرة . كانت مسألة طول عمر الهونزاكوتيين ـ مثلا ـ لغزا بحاجة الى شرح ، وكانت الحياة تحت الصفر طلسما آخر يثير أكثر من سؤال . ثم كانت تجربتهم تحت الحكم المطلق للامير بحاجة الى مزيد من الضوء . باختصار ، كان المجتمع من الداخل بحاجة الى مزيد من الاقتراب والتدقيق والفهم .

هم لا يزالون يذكرون تلك الطبيبة الالمانية التي جاءت اليهم في السبعينات لتدرس ظاهرة تزايد اعداد المعمرين في مملكة الهونزا ، عاشت تلك الطبيبة بينهم ستين تأكل من طعامهم وتقوم بتحليله لتعرف منه سر تلك الظاهرة . لكنهم لا يعرفون النتائج التي وصلت اليها ، لانها غادرتهم الى المانيا وانقطعت اخبارها . ومع ذلك فثمة اتفاق على أن طعامهم ونمط حياتهم يعطيانهم صحة وعافية غير عادية ، فعندما يعيشون حياتهم يأكلون الخضر الطازجة والفاكهة ويشربون اللبن ، ثم عندما يقطع الواحد منهم عشرات الكيلومترات مشيا على قدميه كل يوم ، ويتنفس هواء نقيا لا يعرف التلوث ، عندما يتحقق للمرء هذا كله ، الا يوفر له ذلك فرصة نادرة يتمتع فيها بالعمر الطويل ؟

ورغم انهم يعرفون البطاطس والبازلاء والقمح والفول ، الا ان الفاكهة تلعب دورا هاما في حياتهم . وأهم فواكههم المشمش والتفاح والكرز والكمثري والعنب ، والمشمش تتجاوز انواعه عشرين صنفا ويحتل الصدارة في غذائهم . فهو يؤكل طازجا في الصيف ، ويجفف منه كميات كبيرة لتستخدم كحساء اثناء الشتاء . وهم يشربونه كعصير ويستخدمون الزيت المستخرج من

بـذوره في الطبـخ ، كما يستخـدمونـه كعلاج للمغص ، ويـدهنون بـه اجسام الاطفـال بعـد الحمـام . وعندما يصعـدون الجبال يختـزنـون حبـات المشمش المجففـة في افواههم ، ويستحلبونها لفترة طويلة .

اما اللبن فيشربونه طازجا ، ويجيدون اعداد مشتقاته : الحامض والزبد والجبن . والزبـد يسمونـه « مالتـاش » ويخزنونه عدة سنوات ثم يأكلونه ، وفي الصيف يضعونه في أوعيـة ترص تحت الجسـور الصغيرة التي تقـام فـوق المجاري المائية التي تزود من ذوبان الجليد في قمة الجبل . الآن يأكلون الخبز ، وهـو متعدد الانـواع ، بينها نـوع دائري سميك ارتفاعه ثلاث بوصات وقطره أربع اقدام .

أما اللحم او الدجاج ، فلا يأكلونه الا نـادرا . حتى تكاد تقول ان أكثرهم « نباتيون » ليسوا من أكلة اللحوم . أحيانا في فصل الشتاء عندما يشتد البرد ، تذبح الأسـرة القادرة شاة او اثنين يأكلون منها طوال اشهر الصقيع .

في الماضي كانوا يمتنعون عن تـربيـة الـدواجن ، لانها كانت تعتدي على حبوب القمح ، وهو ما لم يكن مسموحا به . لكن قرى الهونزا زحفت عليها الآن مختلف انواع الطيور واصبحت تنتشر في ممراتها الضيقة جنبا الى جنب مع الأبقار والأغنام .

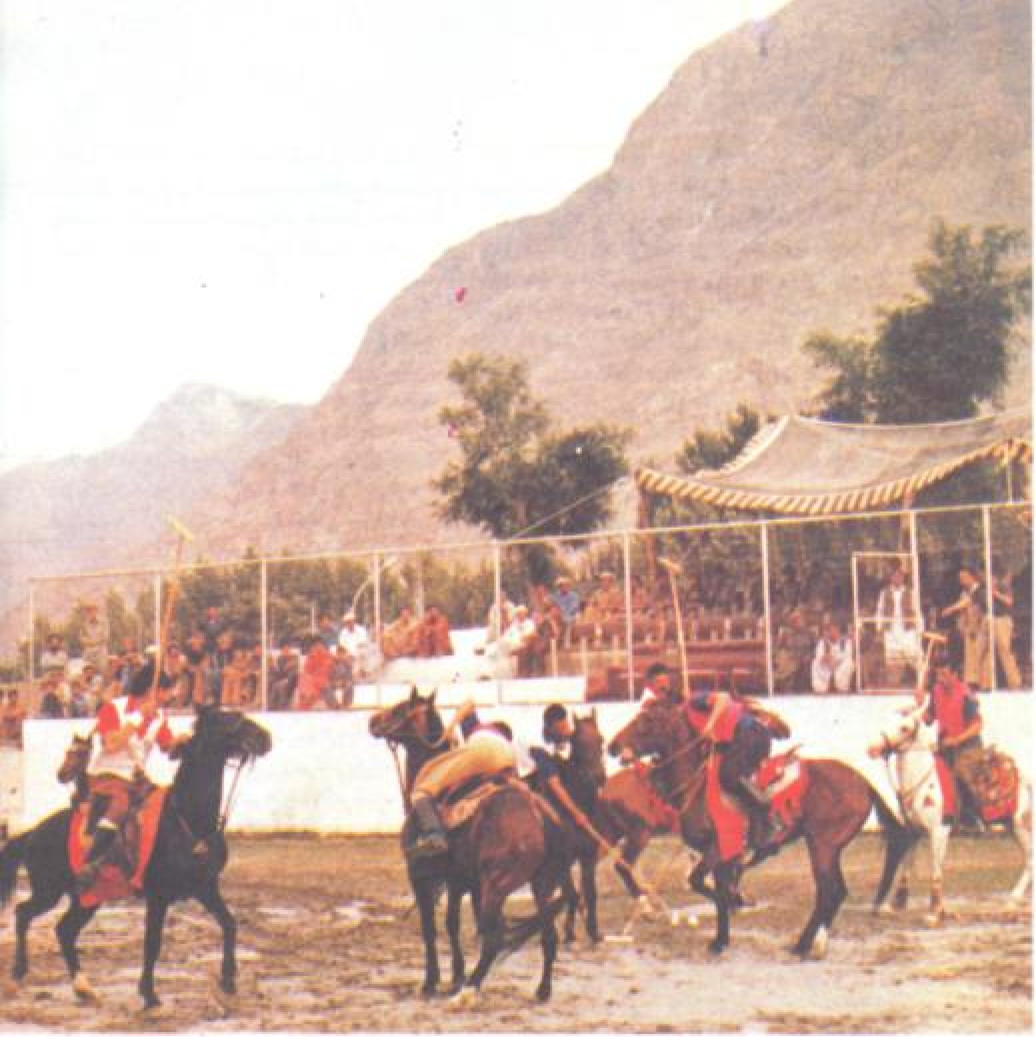
وفي المناطق الأكثر ارتفاعا من الهـونزا العليـا يوجد حيوان اشبه بـالبقرة يسمونـه « يـاكي » ذو رأس صغير مكسو بالشعر ويتدلى منها شيء كاللحية ، قبيح المنظر وكريه الرائحة ومع ذلك فهو عظيم الفـائدة للنـاس . فالياكي بأرجله القصيرة وضخامة جسمه يعد من أقدر الحيوانات على المشي فوق الثلوج ولذا فهم يستخدمونه في الركوب وحمل الاثقال ! ، ومنه يحلبون كميات كبيرة من الالبان التي تستخدم في صنع الاجبان الممتازة ، فضلا عن أن لحمه غني بالشحوم والسعرات الحرارية التي ترشحه ـ اذا تيسر ـ ليكون ضمن اطعمة الشتاء .

وعلى ارتفاع يتراوح بين ١٦ و ١٧ الف قدم يعيش نوع من الكباش الوحشية ذات القرون الضخمة يعرف باسم « اوفيس بـولي » ، ولكن اسمهـا الشـائـع هـو كبـاش ماركوبولو . لأن الرحالة الايطالي كان أول من اشار اليها في مذكراته عند مروره بالمنطقة في القرن الثالث عشر .

أما الخيول فقليلة لأنها باهظة الثمن ، وتفـوق قـدرة الأغلبية الفقيرة ، رغم انها اساسية في لعبة البولـو ذات الشعبية الواسعة في وسط آسيا عامة ، وفي هذه المنطقة بوجه أخص .

من يصـدق ان هذه الأراضي المزروعـة تمتـد على سفوح مجموعة من أعتى الجبال الصخريـة ؟









الى اليمين مباراة « للبولو » في جلجيت ، حيث يتصارع فريقان من راكبي الخيول حول كرة من نوع خاص ، ويسعى كل فريق لأن يلقي بالكرة في مرمى الآخر . وتحت الصورة احدى الرقصات الشعبية الهونزاكوتية التي تتخلل مثل هذه المباريات والى أعلى صورتان للاجئين الافغان في معسكرهم قرب جلجيت ، واحدة داخل احدى الخيام ، والثانية لفصل دراسي في العراء .



وثمة تقاليد واعراف باتت تحكم الجميع بغير تمييز . وعلى سبيل المثال فانه اذا كان الشاب يتزوج من ابنة عمه كقاعدة في الكثير من المجتمعات المتخلفة والنامية ، الا انهم هناك لا يرحبون بهذا الزواج ، وكلما كانت صلة القرابة بعيدة كان الترحيب بالزواج أكبر . والمرأة لا تمتلك

الأرض ولا ترثها ، وان كان لها ان تمتلك اشجار المشمش . وفي ظل حكم الامارة كان بيع الأرض لأي شخص لا يتم الا بموافقة الأمير ، ولا يسمح به الا للأقارب .

في الماضي ايضا كان الزواج لا يتم الا في الشتاء ، بين ١٠ و ٢٠ ديسمبر ، وموسم الزواج هذا يسمونه « دوموشينج » . والأمير له اتاوة عن كل عرس ، تتضاعف اذا ما رغبت الاسرتان في عقد القران قبل الموعد المحدد او بعده . وكانت الاتاوة بمثابة ١٠ كيلوجرامات من القمح ، وكمية من الزبد المخزون ، غير نصف ذبيحة من البقر . ولكن هذا التقليد توقف في بداية الخمسينات ، في عهد المير جمال خان .

اسماعيليون وباطنيون

وأعياد الهونزا الرسمية ثمانية : عيدا الفطر والاضحى (الذي يسمونه عيد البقر) ، ثم عيدان موروثان عن الاسلاف هما الغدير والنوروز ، وعيد ميلاد النبي ، ويوم الامامة (ذكرى تولي الامام علي الخلافة) ، وعيد ميلاد مولانا حضرة الامام (آغا خان) والذكرى السنوية للزيارة الأولى التي قام بها مولانا حضرة الامام للهونزا وجلجيت . في ٢٠ أكتوبر ١٩٦٠ .

والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى ليس له أهمية الاحتفالات الأخرى ، خاصة تلك التي تهم الطائفة الاسماعيلية دون غيرها . والسبب في ذلك ان الاسماعيليين يشكلون ٩٥٪ من سكان منطقة الهونزا . وللدقة فان قرية واحدة فقط في منطقة الهونزا ينتمي أهلها الى مذهب الشيعة الجعفرية او الاثنى عشرية ، وهي قرية جانيش . وقد « اكتشفت » هذه الحقيقة عندما تنبهت الى ان كافة قرى الهونزا التي مررت بها ليس فيها مساجد ، ولا ترتفع فيها مئذنة ، ولا يرفع فيها الاذان لأي من الصلوات . ثم لاحظت أن في « جانيش » مسجدين ، وعندما سألت من معي من أهل المنطقة ، روي لي تلك الحقيقة المحزنة ، التي أثارت لدي رغبة ملحة في محاولة فهم تعاليم الطائفة ، مما قادني في النهاية الى اكتشاف عديد من الحقائق المثيرة والخافية على الكثيرين .

في البدء قالوا لي ان تلك البقعة القصية من الشمال الباكستاني تنتمي الى المذهب الشيعي ، بتأثيرات قادمة من خراسان وايران ، منذ حوالي سبعة قرون تقريبا ، وانهم كانوا شيعة جعفرية في البداية ، أي من اتباع الامام جعفر الصادق ، الذين تنتشر تعاليمهم بين الأغلبية الساحقة من الشيعة في العالم ، ومركزهم الأساسي في ايران الآن ، ثم العراق . ولا تزال امارة « نجر » المواجهة للهونزا تنتمي الى المذهب الشيعي الجعفري الى الآن . ومساجدهم قائمة وصلواتهم وصيامهم وحجهم كغيرهم من المسلمين .

ولكن امارة الهونزا اعتنقت المذهب الاسماعيلي في حوالي منتصف القرن التاسع عشر . أي انهم انتقلوا من المذهب الشيعي الذي يعتقد في استمرار الامامة الى الامام الثاني عشر ، الذي هو الآن في غيبة كبرى ، واعتنقوا مذهب الشيعة الذين يقفون بسلسلة الامامة عند اسماعيل الابن الأكبر للامام السادس جعفر الصادق .

هناك الكثير مما يمكن الوقوف عنده في معتقدات الاسماعيلية مما ارجو ان اعود اليه مستقبلا ، وان لم يكن من اليسير ان يتقبل المسلم العادي مثل هذه المعتقدات ، التي تتصادم مع الكثير من اسس الاعتقاد واركان الاسلام وتعاليمه . اذ يظل من غير المفهوم الغاؤهم للمساجد ، وغير المقبول قولهم بأن هناك قبلتين ، احداهما ظاهرية في الكعبة ، والأخرى يتجهون اليها بقلوبهم حيث يوجد امامهم التاسع والاربعون في إحدى ضواحي باريس . فضلا عن أنه مما يثير الريبة تلك الدولة التي يقيمونها داخل الدولة ، وتلك الأنظمة الحديدية التي يقيمونها بعيدا عن الأعين ، وهذا الرفض القاطع لادخال غيرهم من المسلمين داخل الجماعة خانه .

تنتهي بلاد الهونزا عند سقف العالم !

وسقف العالم هذا يبعد عن كريم آباد بمسافة ١٧٥ كيلومترا ، ويقع على الحدود فيما بين باكستان والصين ، في منطقة تعرف باسم « خو نجراب » والكلمة معناها « وادي الدم » في لغة واخان السائدة في الهونزا العليا . واسم الوادي ليس بحاجة الى شرح او تعقيب ، فدلالته كافية في الاشارة الى انه كان ـ تاريخيا ـ مقبرة للعابرين !

والتجربة مثيرة بحد ذاتها ، ان يجد المرء نفسه متربعا فوق سقف العالم ، وواقفا في موقع ارض يطل منه على

الكرة الأرضية كلها . حيث تصبح باكستان تحت شرفة سقف العالم ، كما تقول مطبوعاتها السياحية ، وتصبح الهند تحت شرفة ثانية ، فيما تتمدد افغانستان في فناء تحت الشرفة ، وتقبع الصين بملايينها الألف وراء ظهر السقف . . وهكذا . . .

بدأنا الرحلة من كريم آباد الى خونجراب ذات صباح باكر . سلكنا طريق كراكورام ، الى جوار نهر الهونزا ، مارين بمجلس شوامخ الجبال العملاقة في العالم ، الذي اعتدنا عليه خلال ايام تجوالنا في الهونزا الوسطى . الأمر الذي بدد من اعماقنا مشاعر الرهبة التي تملكتنا ونحن نتحرك في ظلها ككائنات صغيرة وبالغة التواضع ، حتى بدت تلك الجبال كما لو كانت أكثر ودا وجمالا ، وأقل قساوة وجهامة .

لم تكن مشكلة الطريق هي الارتفاع وحده كما توقعنا ، ولكن تبين ان الانهار الثلجية كثيرا ما تسرب بعض مياهها ، في لحظات طلوع الشمس ، التي تقطع الطريق وقد تتجمد عليه بين الحين والآخر . مما يعرض السيارات العابرة لمخاطر عديدة ، لا بد لتجنبها من تغطية تلك المواضع بأي شيء يحول دون انزلاق السيارة وفقدان السيطرة عليها ، مثل قطع الحجارة او الالواح الخشبية ، وهو ما يتعذر الحصول عليه في تلك المنطقة التي يكسوها الثلج بصفة دائمة . ولهذا السبب لا تتوقف على الطريق دوريات رجال الجيش الباكستاني ، الذين يتولون بوسائلهم ازاحة الثلوج من عليه ، او وقف حركة المرور اذا كان الخطر أكبر ، وفاض أحد الانهار الثلجية على سبيل المثال .

انعطفت بنا السيارة يمينا ، حيث أصبحت بمحاذاة نهر خونجراب ، الذي يؤدي بنا الى الموقع المنشود ، وينتهي بممر خونجراب على الحدود مع الصين . كان الصعود مستمرا وكانت المساحات البنية اللون تتقلص أمام أعيننا ، في حين ظلت تتزايد بالمقابل المساحات البيضاء التي تكسوها الثلوج . ورويدا صرنا نشعر بأن الجبال الشامخة بدأت تصغر وتتحول الى تلال وهضاب وكان هذا خداعا للبصر ، لأن الحقيقة اننا كنا نحن الذين نصعد الى أعلى ، مما أبعدنا عن قاعدة سلسلة الجبال ، وقربنا رؤوسنا وقممها . حتى وصلنا الى نقطة بدأت فيها السيارة تسلك في الصعود طرقا دائرية وشديدة الالتواء ، الأمر الذي دعا مرافقنا لأن يقدم الينا دفعة أكبر من المشمش الجاف ، لمضغها واستحلابها . ومنذئذ لم تعد اعيننا تقع الا على ثلوج في الارض ، وغيوم بيضاء مطبقة على قمم الجبال وتكاد تلامسها .

قبل الصعود كنا نرى حقولا في مدرجات بديعة او قرى مبثوثة هنا اوهناك ، وكنا نلمح وعلا يركض أو طيرا يحلق في السماء لكننا منذ دخلنا الى ذلك المشهد الثلجي ، لم نعد نرى او نسمع شيئا ، ولشدة الدوار لم نعد نتكلم أيضا !

قطعنا سبعة عشر كيلو مترا في طواف حول سلسلة الجبال الثلجية ، قبل ان نلمح عن بعد عددا من الجنود الصينيين يقفون على نقطة الحدود ، الى جوار قائم خشبي احمر اللون كتبت عليه كلمة « خونجراب » .

أخيرا صرنا فوق سقف العالم !

لم يكن السقف هو أعلى قمة ، لأنه على ارتفاع ١٥ الف قدم ، وهناك جبال تعلو قممها هذا المستوى بكثير ، ولكنه كان أعلى بقعة أو مساحة من الأرض في العالم . كان المسرح شاسعا مترامي الاطراف ، تناثرت فيه التلال الصغيرة ، التي اكتست كلها ببساط ثلجي لانهائي . ولم يكن هناك سوى هؤلاء الجنود الصينيين الستة ، الذين تدثروا بأغطية ثقيلة ، وبدوا بأجسامهم الصغيرة ، والقدر الذي ظهر من وجوههم ، مثل دمى تتحرك في بطء فوق مسرح للعرائس في الخلاء !

حاولنا دون جدوى أن نتفاهم مع الجنود الصينيين ، اذ قطعت اللغة طريق التفاهم . وحاولنا ان نلتقط لهم بعض الصور فرفضوا أيضا . والشيء الوحيد الذي قبلوه هو لفائف الدخان التي عرضناها عليهم .

وقال مرافقنا ان الحيوانات هنا أكثر من البشر . فحول التلال المختلفة توجد الدببة ، وكباش ماركوبولو الوحشية ، وحيوان اسمه مارخور لا يتغذى الا على الثعابين والأفاعي ، وذلك غير الذئاب والياك . .

وبدا سقف العالم للحظة ، كما لو كان مماثلا لسقف أي بناية قديمة في بلادنا . مهجورا كقاعدة ، ولا يصعد اليه الا حراس البناية ، ولا تسكن فوقه الا الحيوانات والطيور !

لكن ثمة فرقا اساسيا بين السقفين ، ليس فقط في الارتفاع ، ولكن أيضا في تلك الوحدة القاتلة التي يشعر بها الانسان الذي يكتب عليه ان يقضي ايامه فوق سقف العالم .

وقلت لمرافقي انه شيء جميل ومشوق أن يصل المرء الى سقف العالم ، لكن الاجمل من ذلك ان يعود المرء الى حيث كان في قاع العالم !

ملأنا اعيننا بالمشهد ، وملأنا صدورنا بهواء سقف العالم ، ثم استدارت بنا السيارة قاصدة جلجيت ، قبل ان نعود الى اعشاشنا في قاع العالم . ○



«نادي الكويت» في ريف مصر!

استطلاع : منير نصيف

تصوير : عبد الناصر شقرة

الأيدي الصغيرة المدربة مع الخيوط على النول اليدوي تنسج الفن في القرية المصرية الصغيرة القابعة في بطن الدلتا .. والعاملات (الى اليسار) مثل زميلتهن تماما .. من الحقل الى مركز التدريب المهني الذي تخرجن فيه بعد أن أجدن هذا الفن وبرعن فيه .. هنا في المطعم أثناء فترة الغداء حيث تقدم لهن وجبة غذائية كاملة بالمجان ..





لم يكن الطريق الذي وجدنا أنفسنا نسير فيه ، طريقنا . . . ولا كانت هذه القرية الصغيرة القابعة في قلب دلتا النيل هي وجهتنا . . لقد وجدنا أنفسنا ، ولا ندري كيف ، نقف فجأة أمام لافتة صغيرة شدتنا اليها شدا ، ونحن تنطلق بالسيارة في الطريق الى أكبر مصنع للاسمدة في مصر بمدينة طلخا ، محافظة الدقهلية . . كان اسم اللافتة جديدا على هذه المنطقة الريفية . . كانت تحمل اسم « نادي الكويت الرياضي » ، ولم نتصور أن يقوم في هذه الأرض البعيدة عن كل مظاهر الحضارة ، ناد رياضي يحمل اسم الكويت . . ولو أنه قام في القاهرة مثلا أو في احدى مدن مصر الكبيرة ، لما استوقفنا . . ولكن هنا . . في قلب الريف ناد ، رياضي كويتي . . شيء لابد وان يكون وراءه قصة . . ترى ما هي ؟

كانت هذه الوقفة هي بداية لقائنا مع قصة أكبر وأجمل مما تصورنا . . قلنا نسأل الرجل العجوز الذي أمسك بعصاه وجلس في هدوء أهل الريف على الكنبة الخشبية تحت ظلال شجرة وارفة . . انه الحارس الذي عاش حكاية هذه الأرض الطيبة مع أهلها منذ عشرات السنين . . قلنا نسأله : « أين نحن في هذا المكان ؟ » .

المسجد والنادي

وانطلق الرجل بكل ما عرفه ويعرفه ، في حديث طويل يروى لنا القصة . . قصة النادي والمسجد الصغير الذي يجري بناؤه في بقعة واحدة ويطل على أرض النادي مباشرة . . . قال : « هذا النادي الجديد يحمل اسم الكويت ، لأن بعض أبناء الكويت هم الذين يبنونه من أجل أبناء هذه القرية والقرى الصغيرة المجاورة . . وهذا المسجد ايضا يبنيه ابناء الكويت . . لم يكن هنا شيء على الاطلاق . . مجرد قطعة من الأرض البور تتوسط مجموعة من القرى المتناثرة هنا وهناك . . وفجأة وجدنا الحياة تدب فيها ، والرجال قادمين اليها يحملون معدات البناء . . وبدأوا بالمسجد ثم انتقلوا الى النادي . . أول ناد اجتماعي ثقافي رياضي من نوعه في هذه الأرض الحادثة في ريف مصر . . هل تريدون أن تعرفوا المزيد ؟ » قلنا : « امض . . احك لنا كل ما تعرفه . . »

قال : « كل أهل القرية يعرفون القصة » .

قلنا : « أية قرية ؟ » .

قال في لهجة يشوبها الاستنكار وكأنه في دهشة من جهلنا : « قرية البوز . . كلهم يعرفون قصة أهل الخير مع قريتهم ، وما صنعوا بها وفيها . . هنا في هذا المكان يقولون ان مواطنا كويتيا كريما من أبناء الغنام زارنا وقضى يوما بيننا ، ثم عاد الى بلده ، ولكنه قبل أن يعود شاء أن يكرم الله في أرضه . . فدفع بسخاء من أجل بناء بيت من بيوت الله يحمل اسم والده الراحل زكاة على روح أبيه . . »

ويمضي الرجل العجوز وكأنه يقرأ من كتاب : « ثم قام النادي ، بعد أن دفع أبناء المرزوق تكاليف بنائه لأحد أبناء القرية الأوفياء الذين ثبتوا في ترابها . ويقيت قريتهم في قلوبهم ودمائهم ثم لم ينسوها أبدا . . وحمل ابن القرية البار ما جمعه من مال . . وعاد الى قريته كما يفعل دائما منذ أن تركها قبل أربعين عاما أو أكثر . . ليفي بالوعد الذي قطعه على نفسه وهو يتركها صبيا لأول مرة : « أن أعيش لقريتي . . ومن أجل أبنائي وأهلي فيها ، ما دام في العمر بقية . »

« وكان صادقا مع قريته دائما . . فقد كان يعود اليها حاملا الخير الذي رأيناه وعشناه »

في قرية البوز

ويمضي الرجل العجوز الطيب : « أنتم هنا على أبواب القرية ، لم تدخلوها بعد . . ولا تعرفوا شيئا عنها . . اذا أردتم ، صحبتكم في جولة الى قلبها ومع أهلها . . . وسار أمامنا وتبعناه وقلنا : « وماذا عندك بعد الذي رأيناه هنا ؟ قال : « الكثير . . »

والحق كانت مفاجأة .. ولكن كان حماس عم سيد أبي عطية أكبر من القرية نفسها ومن كل ما رأيناه في رحلتنا القصيرة .. لقد رحنا نمشي وسط أهلها .. ونحن نقترب وندخل قريتهم بشوارعها الضيقة وحقولها الواسعة ونقف عند ملامحها الجديدة ونسأل ونستفسر عن كل صغيرة مرت وتمر بنا .... وتطوع الكثيرون .. كانت الاجابات دائما جاهزة على ألسنتهم .. ومعها دعاء لأهل الخير الذين أضفوا على هذه البقعة الصغيرة من ريف مصر في قلب دلتا النيل تلك المسحة « الحضارية » .. هنا ويشير صاحبنا - وهو في هذه المرة احد شبان القرية الذين التفوا حولنا وساروا معنا - قامت المدرسة الابتدائية بمبانيها وفصولها الحديثة .. انها تضم اليوم أكثر من ثلاثمائة تلميذ وتلميذة من أبناءالقرية ، والقرى المجاورة ودخلنا المدرسة ، وجلنا في فصولها .. ووقف التلاميذ تحية ، ولم تكن التحية لنا ، وانما كانت للشاب الذى جاء معنا مرافقاً إنه أحد المدرسين الذين كرسوا وقتهم وحياتهم لتعليم وتربية الجيل الجديد الناشىء في قرية البوز .. انه أحد أبناء القرية ذاتها درس في الكتاب وأكمل تعليمه الثانوي في مدرسة الزقازيق وسافر الى القاهرة ليكمل تعليمه العالي فلما أتمه سارع بالعودة الى قريته ليعطي أبناءه واخوته الصغار بعض ما تعلمه ...

ضيفتان من الكويت

ورحنا نتطلع الى هذه الوجوه الصغيرة النضرة .. كلها تنبض بالصحة والحياة .. كلهم يرتدون الملابس النظيفة تحت الزي المدرسي .. الفصول رحبة وواسعة تدخلها الشمس .. يجلسون فوق مقاعد خشبية نظيفة أمام مكاتب صغيرة .. كل ثلاثة على مقعد مشترك .. انهم سعداء بمدرستهم الجديدة . وفي المدرسة التقينا بفتاتين جميلتين .. أحسسنا للوهلة الأولى انهما ربما كانتا صحفيتين جاءتا مثلنا لتسجلا صورة لما يجري في هذه القرية .. ولكن المدرس الشاب الذي كان يرافقنا سارع بتقديمنا اليهما .. قال : انهما طالبتان كويتيتان شقيقتان جاءتا من الكويت خصيصا لزيارة قرية البوز .. الآنستان نادية ونوال الشراح .. على أية حال انها ليست المرة الأولى التي يجيء الينا فيها زائرون من الكويت .. فقد زارها الكثيرون .. جاءوا ليروا ماذا صنع اخوانهم بالقرية .... وماذا صنعت القرية بأهلها .. »

وتركنا المدرسة وضيوفها والمرافق « عطوة » يتقدمنا ، وعم سيد يسير بيننا وهو لايكف عن تذكير عطوة بما يكون قد نسيه وهو يحكي لنا ويحكي : « الذين شيدوا هذه المدرسة النموذجية التي قامت في الكثير من القرى المصرية الكبيرة السعيدة الحظ ، والتي لم نكن نتوقع أنها ستقوم أيضا هنا في قريتنا المنسية الصغيرة ... الذين قدموا لنا هذا البناء كانوا مجموعة من أهل الخير لا نعرفهم .. ولكننا نعرف أنهم من أبناء الكويت الشقيق .

القرية الصغيرة الكبيرة

وكنا قد وصلنا الى مبنى آخر حديث .. لا يوحي مظهره الخارجي بشيء خاص .. ولكن كان فعلا يستحق

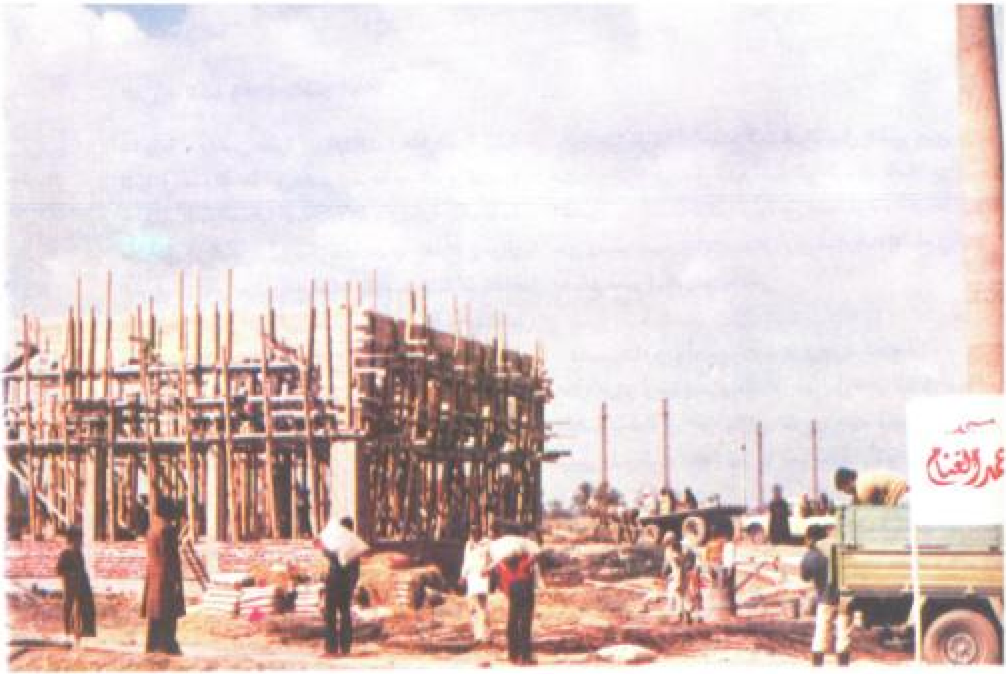
المستشفى .. اكتمل البناء





مدرسة البوز الابتدائية .. جمعت اطفال القرية وكل القرى المجاورة (الى أعلى) ثم مسجد أحمد الغنام في أول مراحل انشائه ، وقد اكتمل العمل فيه . وجهان من الريف .. الأول في الحقل مع جاموستها والثاني في البستان مع البرتقال .. (الى





اسفل) والاثنتان هما صانعتا هذه السجادة الجميلة التي وقفت الفتاتان الضيفتان القادمتان من جامعة الكويت تتأملانها في اعجاب .





منا وقفة ، ويمضي عطوة : « انها أول وحدة صحية ريفية تشيد في هذه المنطقة التي تضم مجموعة من القرى المنتشرة حولها ، تقدم خدماتها الصحية لأكثر من ثمانية آلاف نسمة من أهل الريف .. ويعمل فيها طبيب متفرغ وحوالي عشرة من الممرضين والممرضات يقيم منهم ثلاثة بصفة دائمة في سكن أعد لهم خصيصا وألحق بالوحدة .. وهكذا صرنا فجأة نقف على قدم المساواة مع القرى الكبرى في ريف مصر في الدلتا وفي الصعيد .

قلنا : ومن كان صاحب هذا المشروع في هذه المرة ؟ »

قالوا : « لانعرفهم .. ولكننا نعرف أنهم أيضا من أبناء الكويت » .

وخرج عم سيد متحمسا ، وقال « لقد حان موعد الصلاة .. وأريد أن أؤذن للصلاة » .. وتبعناه الى المسجد .. ولكنه توقف فجأة وكأنه تذكر شيئا هاما وأشار باصبعه الى صحن المسجد وقال : « هنا تقوم الآن مدرسة تحفيظ القرآن الكريم فنحن نحرص على أن يحفظ ابناؤنا القرآن قبل أن يدخلوا المدرسة ..

وتركنا ونذهب يؤذن في المسجد ويؤدي الصلاة ويؤم المصلين ..

ومضينا نكمل الرحلة .. الى أين ؟

مع الأطفال الحرفيين

الى أول مركز للتدريب المهني في هذه القرية الصغيرة التي لا يتجاوز تعداد سكانها أربعمائة نسمة موزعين على خمسين بيتا ريفيا صغيرا ..

ومراكز التدريب المهني ليست جديدة على قرى مصر .. فهي هناك في قرى دمنهور وفي قرى أسيوط وفي كفر الحمام بمحافظة الشرقية .. وغيرها كثير ولكن هنا في هذه القرية الصغيرة .. شيء جديد يستحق التسجيل .. وخاصة لأن المركز أو ما قدمه ويقدمه من انتاج ابناء القرية الصغار ، كان فعلا شيئا رائعا بلا مبالغة ..

ودخلنا المركز أو مصنع السجاد اليدوي الذي يحوي عشرين نولا ويعمل عليه أكثر من خمسين طفلا من الجنسين .. أطفال صغار دربوا على هذه الحرفة وأجادوها حتى وصلوا بمستوى انتاجهم الى أرقى مستويات الانتاج في مصانع مصر في الريف والحضر .

انهم يتقاضون أجرهم بقدر ما ينتجون ، وتقدم لهم ادارة المركز وجبة الغداء بالمجان ، ويصل دخل الطفل أو الطفلة العاملة في المتوسط الى عشرين جنيها شهريا .. وهو رقم طيب اذا ما قورن ببساطة الحياة بين أهل الريف .

وفي الثانية بعد الظهر تماما دق الجرس .. وأسرع العمال الأطفال الى المقصف .. وتبعناهم .. وهناك كانت أطباق الطعام في انتظارهم .. طبق فني يحوي قطعة من اللحم والارز والخضروات ثم الفاكهة .

ولم يتركنا العم سيد .. فقد حان موعد طعام الغداء .. وكرم أهل الريف لايرضى بأن يمر غريب على بيت في موعد الطعام ولا يدعونه لمشاركتهم .. ودخلنا بيوتهم وأكلنا معهم وشكرناهم وقمنا نكمل الجولة ..

المشروع الكبير

لقد اقتربت من نهايتها .. وركبنا السيارة نكمل رحلتنا الى طلخا .. ولكن عم السيد صاح بنا « أنتم لم تروا بعد أكبر مشروع يجري بناؤه الآن في قرية البوز .. »

وقلنا : « وماذا يكون ؟ » .

قال : « اتبعوني .. » ولا ندري من أين جاءت السيارة التي استقلها عم سيد وعطوه ومجموعة كبيرة من الشباب المتحمس الذي يحرص على ألا يفوتنا شيء لم نره ، وخاصة بعد أن شاهدوا آلة التصوير في أيدينا ونحن

تسجل بها كل شيء توقفنا عنده حتى الفلاحة الصغيرة وهي تقود جاموستها الى الترعة لتشرب وترتوي .
« فالريف هو الريف وكل شيء جديد غريب على الطبيعة التي يعيش أهله في أحضانها يشدهم اليه .

وانطلقنا في الطريق المعبد الذي جئنا منه .. وبعد رحلة قصيرة استغرقت حوالي عشر دقائق كنا قد قطعنا خلالها ما يقرب من خمسة كيلومترات .. توقفت بنا السيارة فنزلنا .. وهنا حدثت المفاجأة .. فقد وجدنا أنفسنا أمام أكبر مبنى يمكن أن تقع عليه عين انسان في الريف .. الريف الذي اشتهر بصغر حجم مبانيه وبساطتها وبعدها عن الترف .. الفلاح هو الفلاح الذي قضى حياته كلها ينتظر .. يحرث الأرض وينتظر .. وينثر الحب وينتظر .. ويروى الزرع وينتظر ، وتمضي شهور طويلة وهو ما زال ينتظر حتى يجني في النهاية ثمار كده وتعبه .

في هذا الذي شاهدناه في قرية البوز الجديدة لم ينتظر الفلاح مجيء هذا الخير الجديد طويلا .. ان هذا المشروع الانساني الكبير جاء الى القرية من حيث لا يدري أحد ..

تحية لأهل الكويت

وكانت المفاجأة عندما أشار المهندس عبد الدايم الى المبنى الكبير الماثل أمامنا وقال : « هذا هو أكبر مستشفى يقام في الريف من جنوب مصر الى شماله انه مستشفى الحميات الذي سوف يتسع عندما يكتمل لأكثر من مائة وعشرين سريرا .. لقد بلغت مساحة الأرض التي شيد عليها أكثر من ١٧ الف متر مربع .. خصص قسم منها لبناء مساكن الأطباء الذين سيعملون فيه .. كما خصص قسم آخر لبناء مساكن تتسع لأكثر من ثلاثين عرضة مقيمة .. ويحوي غرفة للعمليات سوف تجهز بكل المعدات والآلات الحديثة » .

ويقول عبد الدايم : « سوف تبلغ تكاليف هذا المستشفى عندما يكتمل البناء حوالي مليون دولار » .

ومن أين توفر هذا المبلغ ؟ .

ـ من أهل البلد الشقيق الكويت .. من أولاد سلطان ابن عيسى القناعي وهم لم ينسوا أبدا الله عز وجل فهم باسم الله أقاموا هذا المستشفى الكبير في قلب ريفنا الحبيب وباسم الله سيقيمون المسجد الخاص بالمستشفى وساكنيه » .

ـ كيف قام هذا المشروع الخيري ، ولماذا تقرر أن يكون المستشفى للحميات دون غيرها من أمراض أخرى ؟

ويقول المهندس عبد الدايم : « انهم لم يشترطوا شيئا محددا عندما قدموا أموالهم لهذا المشروع ولكننا نحن هنا الذين اخترنا أن يكون المستشفى لعلاج مختلف أنواع الحميات المتوطنة نظرا لحاجة هذه المنطقة الى هذا النوع من الخدمات الصحية . ان هذا المستشفى الذي سد فراغا كبيرا في مركز أبو حماد والتل الكبير والقرين » ، وما قريتا البوز القديمة والجديدة سوى قريتين صغيرتين تابعتين لمركز أبو حماد ـ انما شيد لتخليد ذكرى رجل كريم ، وسوف يحمل اسمه ويدعو له الناس دوما برحمة الله ورضوانه .

ووقفنا نودع أهل الريف .. وقلنا ونحن نشد على أيديهم ونشكرهم على حفاوتهم بنا وتكريمهم لنا : « نراكم على خير مع أهل الخير باذن الله » .

قالوا : « الم تنسوا شيئا .. اننا لا نعرف من أنتم ومن أين جئتم ؟ »

قلنا : « نحن صحفيون من الكويت » . وتمنوا في هذه اللحظة أن يعودوا بنا الى بيوتهم ليكرمونا من جديد .. وودعونا وهم يحملوننا تحية أهل مصر وريف مصر الى أشقائهم في الكويت .

قصة تكررت ويمكن أن تتكرر في كل ريف عربي ■ ■

منير نصيف

خطر السكري

على العين

بقلم الدكتورة : سرى فايز سبع العيش

مع أن العين تتأثر كثيرا بالأمراض العامة التي تصيب أجهزة الجسم المختلفة إلا أنها شديدة الانفعال والتأثر خاصة بالأمراض التي يتغير فيها كيمياء الدم وتختل أوزانه وعلى رأس هذه الأمراض الداء السكري .

يحدث في الداء السكري حدثان هامان من التغيرات :- الأول : تغير كيمياء النهر الدموي ، والثاني تغير في العروق الدموية الحاوية . أي تغير جدر الأوعية التي يمر فيها الدم سواء منها العروق الكبيرة أو الشعرية في الجانب الشرياني أو الوريدي .

ففي الداء السكري تزداد كثافة الدم فيتراكم السكر الذي لا يستهلك بشكل صحيح فعال وتظهر فيه مواد عضوية لم يتم احتراقها ولا يستفيد الجسم منها ، ويزداد انطراح الماء والسكر من الجسم ، بالادرار البولي ، فيحدث الجفاف في الدم ، وتتغير طبقا لذلك لزوجة الدم وحموضته ومركباته وتوتره الحلولي إضافة لما يصيب العروق الدموية من تصلب عصيدي وتنخر يعيق الدوران الطبيعي فتحدث الاختلاطات الكثيرة في الأجهزة الهامة كالدماغ ، والقلب ، والعينين والكليتين .

أما أجزاء العين الأكثر تأثرا في الداء السكري فهي ما يلي :-

● عدسة العين :-

وهي عادة تكون صافية محدبة الوجهين ذات قوة مقدرة تتناسب مع حجم العين وأبعادها وشكلها وتقدر قوتها الكاسرة بقوة عدسة مقربة ذات ١٨ ـ ٢٠ كسيرة وهي في داخل العين . ولما كانت لا تحوي عروقا دموية بل تتغذى رأسا من ماء العين الذي يغمسها ، لذلك تتأثر بسرعة عندما يتغير تركيب ماء العين فاذا زادت حلاوة الدم كثيرا ترتفع كثافة السكر في ماء العين أيضا فيختل انكسار عدسة العين ، وتصبح أكثر تكورا وبالتالي اشد انكسارا فيصاب الشخص بقصر البصر ، أما اذا اخذ المصاب كمية كبيرة من الأنسولين وأصيب بنقص شديد في سكر الدم ، عندها تخف كثافة ماء العين ويختل أيضا تكور العدسة فتصبح أكثر انبساطاً وأقل تحدبا . وبالتالي تضعف قوتها الكاسرة فيصاب الشخص بمد البصر ، إذاً فالتغير المتواتر السريع في قوة النظارات الطبية التي يلبسها الانسان والحاجة إلى تغيير النظارات أو العدسات الطبية باستمرار وفي فترات متقاربة ، مدعاة لفحص سكر الدم والتأكد من اعتداله .

هذه التغيرات قابلة للمعالجة بضبط السكر الدموي والانتباه اليه فتعود العدسة سيرتها الأولى . ولكن هنالك تغيرات أكثر خطورة وهي التي يتأثر بها غلاء عدسة العين ويضطرب استقلابها نتيجة لتغير كيمياء ماء العين الذي تتغذى منه العدسة ، فيختل صفاؤها وتقل شفافيتها فتتكثف وبيبض نسيجها ويختل الانكسار الضوئي عبرها فتصبح كثيفة تمتص الاشعة الواردة إليها وتبعثر مسيرها ، فتعيق نفاذها للعين وبالتالي يحدث ضعف البصر الشديد ومن ثم العمى فيضطر جراح العيون لاستئصال العدسة المريضة ليعيد البصر للعين بعد أن حرمت منه . هذه الحال

المرضية تسمى داء الساد المختلط تمييزا له عن داء الساد الشيخي الذي يحدث عند المسنين دون ان يعتريهم الداء السكري للذلك كان لا بد من الاسراع بتحري سكر الدم عند كل انسان تظهر لديه بوادر داء الساد العيني ، في سن مبكرة . ولعل أول ما يشكو منه المصاب بالسكري عند حدوث التغيرات الأولى في العدسة البلورية هو صعوبة القراءة بسبب تصلب العدسة وضعف قدرتها على المطابقة ثم يشكو المصاب من تغيم في الرؤية البعيدة ايضا .

● **عضلات العين وأعصابها :ـ** لما كان التغير المرضي في كيمياء الدم يؤثر فعليا على تغذية الجسم جميعه وخاصة الأجهزة المركزية الهامة فيه ومنها الدماغ ، والجهاز العصبي العضلي . كان لا بد من تأثر أعصاب العين وعضلاتها إذا لم يضبط السكر الدموي واذا تركت أنصاف مستقلباته تجوب الدم وتعيث في خلايا الجسم فسادا . ولعل أهم أعراض إصابة عضلات العين وأعصابها حدوث « الشفع » أي الرؤية المزدوجة والتي قد تحدث نتيجة شلل خفيف في الاعصاب المحركة لعضلات العين ، وقد تكون الاصابة شديدة فتتحدد حركات العين ويصاب الشخص بالحول الصريح وقد يحدث انسدال الجفن وذلك حسب العصب المصاب والعضلات العينية المتأثرة بتلك الاصابة وقد تنفرد عضلات العين الداخلية بالاصابة فيحدث توسع في الحدقة وتشل المطابقة فتقتصر الاعراض على صعوبة القراءة أو انعدام الرؤية للقريب .

● **شبكية العين :ـ** تختلف الاختلاطات الشبكية في الداء السكري عن تلك التي سبق ذكرها بأنها ذات علاقة سببية بالزمن الذي طال فيه السكري في الجسم إضافة إلى الشدة التي صال فيها السكري دون أن يضبط . علما بأن حدوث الاختلاط هذا لا يقتصر على سن معينة ، فكثيرا ما يحدث في السكرى الشباب وكثيرا ما لاحظناه في أطفال لم يتعد عمر الواحد منهم بضعة عشر عاما . المهم في حدوثه طول فترة المرض أولا . فهو قلّ ان يحدث قبل مضي عشر سنين على الاصابة بالداء السكري . ولعل الحدث الزمني مرتبط بتغيرات تحدث تدريجيا في جدر العروق الدموية الشعرية فتتأكل الخلايا الجدارية الداعمة فيها ، ويتنخر الغشاء القاعدي فترق جدر العروق الدموية وتفقد مرونتها وتحدث اتساعات وانتباجات فيها بشكل أجربة وكييسات تسمى أمهات الدم ينز الدم من خلالها وتتسرب عبرها السوائل وما تحويه من مواد دهنية وزلالية وقد تنفجر فتحدث النزوف الصغيرة فلا تستفيد الشبكية من الدم الذي انبثق عن وعائه وانسكب عبر طبقاتها فتصاب بالعوز الغذائي وتفتقر الى الأوكسجين والمواد الضرورية المفيدة . وقد تنسد العروق الدموية الكبيرة في الشبكية فتتخثر الشرايين والأوردة نتيجة ركودة الدم ولزوجته ، وكذلك نتيجة مرض الجدار الوعائي الحاوي له فيحدث اضطراب شديد في تغذية الشبكية وقد يحدث نزيف صاعق في المائع الزجاجي فيحدث العمى الفجائي . ولكن العادة هو أن يتسلل المرض الشبكي بأنزفته الصغيرة وتنوحاته المتعددة ، وتتراكم ارتشاحات الدم الدهنية في طبقات الشبكية مع تكرر الانزفة التي تحدث التليفات في الشبكية وهذه تؤدي لانفصال الشبكية . وهكذا يتسلل المرض الشبكي دون ان يحس به الانسان إذ أن الانسان يتأثر فعليا ويضطرب بصره عندما تتسرب مركبات الدم إلى منطقة اللطخة الصفراء المركزية ذات الحس البصري العالي ، فهنا يحدث التشوش الفعلي في الرؤية ويأتي المريض طالبا النجدة من الطبيب وكثيرا ما يكون ذلك بعد استفحال الداء وفوات الأوان .

إن أمراض الشبكية يمكن أن يتعرف عليها إخصائي العيون بسهولة لأن الأوعية الدموية في الشبكية هي الأوعية الوحيدة العارية التي يمكن للفاحص أن يراقب فروعها وتغصناتها ويمكن تصويرها بالوانها الطبيعية ويمكن استقصاء صحة الأوعية وسلامتها بتصوير قعر العين بعد حقن الوريد العضدي بمادة الفلورسين إذ تتألق المادة في عروق المشيمة والشبكية بعد ١٠ ـ ١٢ ثانية من الحقن . فتكشف عيوب الشجرة الوعائية التي أحدثها الداء السكري ، وبالتالي يتعرف الدارس والمعالج على مواضع الداء الاخرى .

ولقد أصبح التصوير بالفلورسين ملازما للمعالجة بطريقة كيّ الشبكية بأشعة ليزر حيث تحرق التنشؤات الوعائية الداخلية فتمنع حدوث الأنزفة الصاعقة وتقي الانسان من العمى أي أن المعالجة الحكيمة بأشعة ليزر تستأصل الاجزاء العاطلة المريضة من الشبكية فتوفر الغذاء الضروري للاجزاء الحية من الشبكية . ولقد منعت هذه المعالجة حدوث العمى عند نسبة كبيرة من المرضى السكريين ، علما بأن أكثر الأمراض إحداثا للعمى في البلدان المتقدمة هو الداء السكري .

وهذا فالداء السكري وخيم إذا لم يضبط ، اذ كلما ازداد الدم سكرا وطفح حلاوة ، أعقب العين أذى ومرارة واستل الكثير من نعمة البصر فيها . ■■

عمان :ـ د . سرى فايز سبع العيش

الشاعر ظافر أبو ريشة

من صوفية ابن الفارض الى الهامات دوفيني

بقلم : الدكتور نسيب نشاوى

ربما لأن شهرة اخيه الشاعر عمر ابو ريشه طبقت الافاق ، فان كثيرين لم يلفت انظارهم شعر شقيقه الطبيب ظافر أبي ريشه .

ولد الطبيب ظافر عام ١٩١٩ م ببلدة الباب التابعة لمدينة حلب شمالي سوريةوهو يقيم الآن مع أسرته شرقي العاصمة دمشق ، كان والده الشاعر الكبير الشافع ابن الشيخ مصطفى أبي ريشة الذى شغل منصب قائمقام بالباب يلح عليه لدراسة الطب ، ولكن الشاعر ظافرا الذي قضى سنوات دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس حلب شغف بالمطالعات الأدبية ونظم القصيد ، ومن شعره المبكر منظومة من الغزل العفيف قالها ولما يجاوز الثامنة عشرة مطلعها :

صبابتي فجرها باكية
بالنظرة المشفقة القاسية
حورية يا حسن يا قدها
يختال في أبراده الزاهية

وأدخل الجامعة السورية بدمشق لدراسة طب الأسنان فتخرج فيها عام ١٩٣٩ م ، وافتتح عيادته بحلب حتى عام ١٩٥٨ م ، ثم انتقل الى دمشق طبيبا للاسنان في حي الحريقة ، وظلت روحه تحلق في أجواء الشعر فيلهج به ويبث فيه احساسه المرهف وشكواه الرومانسية ونبضات قلبه المترع بالحب والحنان فتنساب العواطف مع القوافي كانسياب النور بين الأزاهر ، وحملت الصحف الدمشقية بعض هذا الشعر الذى تناغم فيه الاحساس الصوفي الحالم والوجدان الانساني المرهف .

تأثر بالشعر الفرنسى

أجاد الشاعر الدكتور ظافر أبو ريشة اللغة الفرنسية كتابة ونظما لسعة اطلاعه عليها ، ثم راح يدور في زوبعة الشاعر ألفرد دو فيني **Alfred de Vigny** ١٧٩٧ - ١٨٦٣ م حتى انتشى ، واذا كنا لا نستطيع الآن تقدير آثار المدرسة الفرنسية البرناسية في أدبه ولاسيما شاعرها الأكبر لوكنت دوليل - لأن آثار الشاعر ظافر لم تطبع كلها - فان في ديوانه الأول أثرا بارزا لالفرد دوفيني الشاعر الفرنسي الذى أحس أن في الكون حقائق خفية تكمن وراء الظواهر الحسية والذى جعل من اشاراته الرمزيه صورا مجسمة تعينه على توضيح أفكاره الفلسفية وبخاصة في قصيدته « موت الذئب » التي كان يطمح فيها الى أن تكون أشبه بدرس في الرواقية وفي تحمل مصائب الحياة ، وقد نقلها الشاعر الدكتور ظافر أبو ريشة الى اللغة العربية شعرا

ونشرها في ديوانه « من نافذة الحب » الذى أصدره في العام الماضي ١٩٨١ م ، وقدأظهر فيها روح التشاؤم المشبع بالزهو والذى لا يؤول الى اليأس ولا يرجع الى العقيدة بل يدفع صاحبه ـ على نحو ما نادت به فلسفة زينون الرواقي ـ الى الصبر وتحمل الشدائد والى العطف والبذل والتضحية . .

تنطلق قصيدة « موت الذئب » التي ترجمها الدكتور ظافر من لوحة تصويرية بارعة ترسم الشاعر يسير مع صحبه وسط الغابات الصامتة ، حتى اذا بدا لهم شجر الصنوبر لاحت حياله رسوم أظفار الذئاب التي جاؤوا يطاردونها بكلابهم وبنادقهم :

وأكب فوق الرسم منا
رأس صياد خبير
يلقي على الأثر الحديث
فراسة الطرف البصير
ويشير لي : انظر
مخالب ذئب أوصال خطير
وهنا مواطىء ذئبة
واثنين من جرو صغير

وهيأت سكاكين الصيادين وبنادقهم وكلابهم وساروا جميعا يقتفون الأثر ، ولمح الشاعر الذئبة الحسناء مع صغيريها وقد ركنت بهما الى شجيرة تحنو عليهما بغيرة وهما يعبثان بدرة أثدائها ، وانتبه الذئب الوالد لهؤلاء البشر الثعالب اللذين أغلقوا باب النجاة عليه وعلى صغاره ، فانتفض واستعد للقاء ، وكانت معركة جارحة بينه وبين الكلب السلوقي المهاجم الذى أرسله الصيادين :

وجرى سلوقي اليه
طائش متهالك
فانقض من ذئب الوعو
ل عليه ناب فاتك

وتلقاه الذئب بفك قوى أنشبه في عنقه ، ومع أن نار البنادق المتشابكة الكثيفة انطلقت الى أحشائه لتخليص الكلب من أنيابه فقد ظل يعض بصبر وثبات وعيناه اللامعتان تنظران شزرا الى الصيادين الخصوم ، لقد صمم على الانتقام لصغاره بلا يأس ولا عجز غير عابىء بالدم تدفق غزيرا من جسده الذي بدأت الحياة تفارقه :

لم يثنه نار البنادق والحديد السافك
ينهال منا غمسه المتصالب المتشابك

ولما شعر الذئب أنه بصبره وثباته قضى وطره الانتقامي بقتل الكلب نظر الى الصيادين الفاتكين يرمقهم حقدا وهو يودع الحياة بصمت يجرح آذان الفضاء :

فاذا انتهى ألقاه شلوا
قبله زمنا قضى
ورنا وحر شفارنا
شدت عليه المقبضْ
تستنزف الدم كاسيا
ما انهار منه وقوضْ
ويظل يرمقنا وقز
ت مقلتاه فأغمضْ
ومضى بصمت جارح
باللحن آذان الفضا

ويتلقى الشاعر درسا في الشجاعة والصبر بعد ما نجت الذئبة بصغارها ويقع في بحر من التفكر والتأمل فيخاطب نفسه :

يا قلب ما أقصاك عن
جبن وما أوهاك قلبا
انظر الى الوحشي كيف
يغادر الدنيا وتأبى
عيناه أن ترياه بر
جف منخنا طعنا وضربا

وتتجده في هذا التأمل فلسفة زينون الرواقي الافريقي ٣٣٥ ـ ٢٦٤ ق . م صاحب الفلسفة الرواقية القائمة على شكل من الحلول **Pantheisme** الذى يشمله ضياء جوهري يمنح قدرة ذاتية تحول دون التأثر بالظروف الخارجية من أوجاع وفقر ومرض . . ويلقي درسا في الصبر تعلمه من الذئب :

احبس دموعك عن مآقيها ولا تجهر بصوت
واعمل بقلب في حياتك صادق العزمات ثبت
واقطف زهورك واعتصر في الدرب شوكة كل نبت
واذا سيرك حظ في أحد يقلص ظل سبت
فاصبر تحمل بعض أوجاعي ومت مثلي بصمت

وفي القصيدة أبعاد رمزية أخرى منها تصوير القوة النفسية الكامنة في الانسان كاللظى . . وتصوير عواطف

الأم التي نجت بصغيريها اللذين تعطيهما درسا في البطولة والصبر على الشدائد مستمدا من الأدب .

وفي ديوان الدكتور ظافر أبي ريشة ترجمات شعرية أخرى لروائع الفرد دوفيني منها قصيدة « جبل الزيتون » التي تصور السيد المسيح عليه السلام في مناجاة الله وبعثه لعازر من القبر ، وقصيدة « بنت يفتاح » ، ويعكف في هذه الأيام على نشر ترجمة قصيدتي « بيت الراعي » و« الطوفان » .

وبالصوفيين العرب

غير أن هناك جانبا مهما آخر في شخصية الشاعر الدكتور ظافر أبي ريشة وهو تأثره بالفكر الصوفي العربي ، ويعود ذلك الى ما أحيط به في نشأته من أجواء الانشاد الديني والحضرات الصوفية في عكا والقرعون وزوايا الشاذلية المنتشرة ببيروت وغيرها .. ومن أجمل الآثار الروحية في شعره قصيدة « ما افتر الا عن مشاهدة الحبيب » أما قصيدة « الى أين » فتصف الرحلة الى المصير الذي ينتهي بالانسان بعد الموت اذ يتجرد من قواه النفسية والمادية ويرحل متهكا تعبا على مركب عار ، ونلمح في القصيدة التوق الذي هو أشبه ما يكون بحالة نفسية صوفية تجعل الفرد يتلاشى في العالم الأكبر متخليا عن رغباته وأفكاره وشخصيته كما يتذوق ذاك النعيم الأبدي يقول :

أنا في مركبي ساري
وموج البحر يصطخبُ
ولا مجداف أو صاري
ولا درب ولا أرب
وحولي ليل إعصاري
وفوقي أطبقت سحب
تكاد تشف أستاري
وتجلى دونها الريب
فيخفق قلب أشعاري
ودمعي حائر يثب

وكان لانتقاله الى الكويت أثر كبير في أدبه حيث أمضى فيها أربعة عشر عاما منذ ١٩٦٤ الى ١٩٧٨ م اذ أتاح له هذا الانتقال فرصة التعرف والاحتكاك بالتيارات الفكرية العربية مع أبناء الكويت ومصر والسودان والعراق وفلسطين وسائر المثقفين الذين تستقطبهم هذه الدولة الفتية ، فتلون شعره ببعضها وظهر ذلك في قصائد تلح على مبدأ استعمال القوة ضد الاستلاب كتلك المنشورة في ديوانه تحت عنوان « نشيد العودة » وان كانت روح دو فيني تطل بين حروفها ومطلعها :

يا من تشيدك في أذني بوجعني
وخزا ودارك تبكي حافي الدار
ما أهجن الميت لم يدرج برايته
وأحقر العيش لم يعهد لبتار
نحن اللبن عن المأساة نسأل من
مخاذل ومعاداة لأحرار

ومنذ أربعة أعوام عاد الى دمشق ينظم الشعر ويجمع ما تفرق منه فأصدر عام ١٩٨١ م ديوانه الأول « من نافذة الحب » ، وهو الآن بصدد نشر بقية آثاره ومنها « زورق الأحلام » ، و« لحن المساء » ، وترجمة قصائد أخرى أشرنا اليها .

لقد اتسم شعر الدكتور ظافر أبي ريشة بطابع انساني عام تماوجت فيه صوفية ابن الفارض ورواقية والهامات دوفيني .. مع اشارات رمزية شفت عن الانطباعات النفسية والضغوط المختلفة التي صورها لوحات شاخصة جيلة نحتها بأدوات فنية راقية . ■■

دمشق ـ د . نسيب نشاوي
مجمع اللغة العربية

الالمان :

ـ حب الزوج ، حياة الزوجة .
ـ من اراد ان يكون سيد بيته ، فلا يتزوج المال .
ـ من تزوج امرأة غنية ، باع حريته .

عجائب البحر في ألف ليلة وليلة

بقلم عباس خضر

كان « عبد الله البري » الصياد الذي صار وزيرا وصهرا للملك - يلتقي بصديقه « عبد الله البحري » - الذي يعيش مع أهله في أعماق البحر - على الشاطىء كل يوم ، حيث يبادله الفاكهة البرية بالجواهر البحرية ، ثم استأذن عبد الله البري صاحبه في ان يذهب الى مكة والمدينة المنورة لأداء الحج ، وزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فطلب منه الدعاء وقال له :

- عندي أمانة ارجو ان تأخذها وتضعها على قبر الرسول ، فادخل معي في البحر لاعطيك الامانة .



فأبدى عبدالله البري خوفه من البحر ، فقال له صاحبه :

- لاتخف فاني آتيك بدهان تدهن جسمك فلا يضرك الماء .

ثم جاءه بالدهان ، فخلع عبد الله ثيابه وحفر لها في الشاطيء وأخفاها في الحفرة ، ثم نزل في الماء ،

عند هذا الحد وقفنا في الفصل السابق على أن نعود الى بقية الحديث لنشاهد عجائب البحر مع عبد الله البري .

واليوم نسير - باذن الله في عالم البحر العجيب ، كما تحدثت شهرزاد الى الملك شهريار في ليلة من ليالي الف ليلة .

عندما هرب السمك

ما أن سار الصديقان الا قليلا حتى رأيا مخلوقا كبيرا يشق الموج ويهدر هديرا .. فارتعب منه عبد الله البري ، فسأل رفيقه بصوت متحشرج :

- ما هذا يالله يا أخي ؟

- انه « الوندان » اعظم انواع السمك جسما وأشدها بأسا .

- انه يقترب منا ... ماذا افعل ؟

-- لاتخف فانه متى رآك عرف انك ابن آدم فيخشاك ويهرب ، لأنه اذا أكل ابن آدم مات من ساعته . إن وقع ابن آدم غريقا في البحر تتغير صورته ، ولم يعرف الوندان حقيقته فيأكله ظانا انه من حيوان البحر ، فيموت « فتأخذ شحم كبده ، وهو الذي أتيتك به ودهنت به جسمك .

ثم قال البحري للبري :

- ماذا ترى يا أخي ؟

- أرى خيرا يا أخي ، قد صدقت فيما قلت ، فإن الوندان قد ذهب عنا ، ولم يضرنا في شيء

- حسن اتبعني .

فتتبعه ، ومازالا يمشيان من مكان الى مكان ، وعبد الله البري يرى أمامه وعن يمينه وعن شماله جبالا من الموج وأصنافا من السمك تلعب في الماء ، بعضها كبير ، وبعضها صغير ، منه شيء يشبه الجاموس ، وشيء يشبه الآدميين ، والكل يهرب حين يرى عبدالله البرى ، فقال :

يا أخي مالي أرى السمك يهرب منا ؟

- انه يخافك ، لان جميع ما خلق الله في البحر يخاف من ابن آدم . ولولا انني عرفتك وخبرتك ما وثقت بك وأطمأننت على نفسي منك ..

وصارا يمشيان حتى وصلا الى جبل مرتفع ، فمشى عبد الله البحري بجانبه ، وضيفه يتبعه ، فسمعا صيحة عظيمة ، فالتفت البري نحو الصوت فرأى شيئا اسود متحدرا الى جهة البحرى من ذلك الجبل وجسمه كالجمل ، فقال : - ما هذا يا أخي ؟

- هذا الوندان . انه يقصدني ليأكلني ، فصح عليه يأخي قبل ان يصل الينا . فصاح عبد الله البري ، فوقع الوندان ميتا ، فتعجب من ذلك وقال : - سبحان الله .. ما ضربته بسيف ولا بسكين ... كيف مات هذا المخلوق من صيحتي ؟

- لا تعجب ، فوالله لو كان من هذا النوع الف او أكثر - لماتوا من صيحة ابن آدم ، ثم بلغا مدينة اهلها جميعا إناث لا ذكر فيهن . فقال :

- ما هذه المدينة ؟

- هذه مدينة البنات ، أهلها من بنات البحر ، لا يحملن ولا يلدن ، يتفيهن ملك البحر ، كلما غضب على واحدة منهن يرسلها الى هذه المدينة ، وهي لاتستطيع الخروج منها .

- هل في البحر مدن أخرى ؟ - كثير ، وفيها ذكور واناث .

- يا أخي اني رأيت في البحر عجائب كثيرة .

- وماذا رأيت من العجائب ؟ أما سمعت المثل يقول : عجائب البحر اكثر من عجائب البر ؟



ثم اتجه عبدالله البري الى ناحية البنات ، فرأى وجوههن مثل الاقمار ، وشعورهن كشعور النساء ، ولكن ايديهن وأرجلهن في بطونهن ، ولهن أذناب مثل أذناب السمك كسائر أهل البحر .

مشى عبد الله البحري الى مدينة أخرى ممتلئة ذكورا واناثا ، صورهم مثل صور اولئك ، الكل عرايا مكشوفو العورات .

ـ يا أخي ، لماذا هم عرايا ؟

ـ لان اهل البحر لا قماش عندهم .

ـ ماذا يصنعون اذا تزوجوا ؟

ـ هم لايتزوجون ، بل كل من اعجبته انثى يتصل بها .

ـ هذا حرام ، لماذا لايخطبها ويمهرها ويتزوجها على سنة الله ورسوله ؟ ـ ليس كلنا ملة واحدة ، بل فينا مسلمون ، وفينا نصارى ويهود ، وغير ذلك ، واللذين يتزوجون منا هم المسلمون .

ـ أي شيء يكون مهر نسائكم ؟ هل تعطوهن جواهر ومعادن ؟

ـ ان الجواهر عندنا أحجار لا قيمة لها ، انما الذي يريد ان يتزوج يجعلون عليه قدرا من السمك يصطاده : الفا أو الفين من مختلف الاصناف ، بعين المقدار والصنف حسب الحال والاتفاق بين طالب الزواج وأبي الزوجة . وعندما يجمع المطلوب يجتمع أهل العروسين ويأكلون ثم يدخلونه على عروسه .

أزعر بلا ذنب

وما زال عبد الله البحري يأخذ عبد الله البري ويريه المدن البحرية ، فيرى كل مدينة مختلفة عن الاخرى ، وغير ذلك من عجائب البحر ، ثم قال البري :

ـ مضى لي في صحبتك ثمانون يوما ، وانت لا تطعمني صباحا ومساء الا سمكا طريا ، لا مشويا ولا مطبوخا .

- أي شيء يكون المشوى والمطبوخ ؟

- نحن نشوي السمك في النار ونطبخه ونجعله أصنافا كثيرة .

- وأنى لنا النار ؟ وكيف توقدها في الماء ؟

- دعنا من هذا ، إنك يا أخي قد أطلعتني على مدن كثيرة ، ولكن لم ار مدينتك .

- اننا مررنا بها وتجاوزناها بمسافة ، وهي قريبة من البر ، إنما اردت أولا أن اطلعك على المدن الأخرى .

- يكفيني هذا ، فهيا الى مدينتك .

رجع به الى مدينته ، وصارا يجوسان خلالها ، حتى وصلا الى مغارة ، فقال البحري :

- هذا بيتي ، وهو كما ترى مثل بيوت المدينة .

- إني اراها كالمغارات المنحوتة ، فلم هي هكذا ؟

- كل من اراد ان يصنع له بيتا يذهب الى الملك ، ويقول له : مرادي أن أتخذ بيتا في مكان كذا ، فيرسل الملك طائفة من السمك يسمون « النقارين » لهم مناقير تفتت الحجر ، فيأتون الى الجبل الذي يريده صاحب البيت ، وينقرون فيه المغارة ، وفي خلال ذلك يطعمهم صاحب البيت سمكا يصطاده لهم ، وجميع اهل البحر يتعاملون بالسمك ، وكلهم سمك .

قال عبد الله البحري ذلك ثم قال لضيفه : - تفضل ادخل . ونادى ابنته فاقبلت ولها وجه مستدير مثل القمر ، وشعر طويل ، وطرف كحيل ، لكنها عريانه ولها ذنب فلما رأت عبدلله البري مع أبيها قالت له :

- يا أبي ، ماهذا « الأزعر » الذي جئت به معك ؟

- يا ابنتي ، هذا صاحبي البري الذي كنت أجيء لك من عنده بالفاكهة البرية . تعالي سلمي عليه . فتقدمت وسلمت عليه ، فقال لها ابوها :

- هاتي زادا لضيفنا الذي حلت علينا البركة بقدومه .

فجاءت بسمكتين كبيرتين ، فقال له : كل . فأكل مضطرا لجوعه ، وليس عند القوم الا السمك . ثم أتت زوجة المضيف فاذا هي جميلة ، ومعها ولدان كل منهما في يده سمكة يقضمها . فلما رأت الرجل البري هي وولداها صاروا يضحكون ويقولون : أي والله هذا « أزعر » ، فخجل عبد الله البري وقال لصاحبه :

- هل جئت بيّ لتجعلني سخرية لزوجتك وأولادك ؟

- العفو يا أخي ، ان كل من عندنا له ذنب ، فاذا رأوا مثلك لا ذنب له تعجبوا . . ثم أقبل عشرة أشخاص غلاظ شداد وقالوا لعبد الله البحري :

- بلغ الملك ان عندك « أزعر » من أهل البر فأراد أن يراه .

نعم هذا هو ضيفي .

- اننا لا نستطيع أن نعود الا به ، ويمكنك ان تأتي معنا وتقابل الملك .

- لا بأس ، والتفت الى ضيفه وقال له يطمئنه :

- لا تخف فان الملك متى علم أنك بري أكرمك وردك الى البر

- كما ترى ، اني اتوكل على الله وأمشي معك .

ثم مضوا الى ان وصلوا الى الملك ، وما رأى الملك الرجل البري حتى ضحك وقال متلطفا :

- مرحبا بالأزعر !

وصار كل الحاضرين يضحكون ويقولون : أي والله إنه أزعر !

اذا مات اهل البحر

ثم تقدم عبد الله البحري الى الملك وأخبره بأحواله وقال له :

- هذا من أولاد البر ، وهو صاحبي ، لا يمكث بيننا الا فترة الضيافة ، وقد تعب من أكل السمك نيئا ، فهو لا يحبه كسائر قومه الا مقليا او مطبوخا ، فأرجو ان تأذن لي في أن أرده الى البر .

ـ أذنت لك في ذلك .

ثم التفت الملك الى عبد الله البري وقال :

ـ تمن علي ايها البري .

ـ أتمنى عليك أن تعطيني جواهر .

نظر الملك الى رجاله وقال لهم :

ـ خذوه الى دار الجواهر ، ودعوه يختار ما يحتاج اليه .

ـ سمعا وطاعة .

وأخذ من الجواهر ما استطاع حمله ، ثم رجع به صاحبه الى مدينته وأخرج له صرة وقال : ـ خذ هذه امانة ، وأوصلها الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

فأخذها وهو لا يعلم ما فيها .

ثم خرج معه صاحبه ليوصله الى البر ، فرأى في طريقه رقصا وسمع غناء ، وشاهد سماطا ممدودا من السمك والناس يأكلون ويغنون وهم في فرح عظيم ... فقال لصاحبه :

ـ ما هؤلاء ؟ هل عندهم عرس ؟

ـ كلا ليسوا في عرس ، انما مات عندهم ميت !

ـ هل انتم اذا مات عندكم ميت تفرحون له وتغنون ؟

ـ نعم وانتم يا أهل البر ماذا تفعلون ؟

ـ اذا مات عندنا ميت نحزن عليه ونبكي ، والنساء يلطمن وجوههن ، ويشققن جيوبهن من شدة الحزن .

فحدق البحري في عبد الله البري وقال له غاضبا :

ـ هات الأمانة ..

فأعطاه اياها وهو مندهش لغضبه ... ولما وصلا الى البر ، وهم البري بالخروج من الماء قال له البحري وهو يدير عنه وجهه :

ـ ما انتم يأبناء البر بأهل للأمانة ... قد قطعت صلتي بك ، فبعد اليوم لا تراني ولا أراك !

ـ لم هذا يا أخي ؟

ـ كيف لا يهون عليكم أن الله يأخذ امانته فتبكون وتحزنون اذا استردها ؟ وكيف اعطيك أمانة النبي صلى الله عليه وسلم وانتم اذا اتاكم المولود تفرحون به ، والله تعالى يضع فيه الروح أمانة ، فاذا اخذها يصعب عليكم الامر وتحزنون وتبكون كأنكم تحتجون عليه سبحانه وتعالى ؟ مالنا في صحبتكم حاجة ...

قال عبد الله البحري ذلك وغطس في الماء ، على حين وقف عبد الله البري حائرا مشدوها .ثم قصد الى الحفرة التي خبأ فيها ثيابه ، فأخرجها ولبسها وأخذ جواهره وتوجه الى الملك ، فتلقاه هذا باشتياق وفرح به ، وقال له :

ـ كيف انت وما سبب غيابك ؟

فأخبره بقصته وما رأى من العجائب في البحر ، فتعجب الملك من ذلك ، ولما اخبره بغضب البحري وبما قاله أسف الملك وقال :

ـ انك أخطأت فيما قلت له عما يجري عندنا اذا مات ميت .

جعل عبد الله البحري يغدو الى شاطىء البحر كل يوم وينادي عبد الله البحري ، فلا يرد عليه ولا يأتي اليه ... وأستمر على ذلك مدة من الزمان ، حتى انقطع رجاؤه فانقطع عن الذهاب ، وأقام هو والملك صهره وأهلها في أحسن حال ، لا يعكر صفوه الا ذكرى ما كان منه اذا استنكر على أهل البحر أن يفرحوا بموت الميت وعودة الروح الى خالقها رب العالمين ، ويتساءل في نفسه :

أليسوا هم على حق ونحن على ضلال !

وبعد افلا ترى معي أن هذه « الشريحة » من الف ليلة وليلة تمثل قصة قصيرة موضوعها « الأمانة » وانها خير من بعض ما يكتب وينشر في هذه الايام بدون أمانة ... ؟ ■■

عباس خضر



التصوير والتعبير

فى ألحان سيّد درويش

بقلم الدكتورة : سهير عبد الفتاح

يختلف المهتمون بالموسيقى حول قدرة هذا الفن على التعبير عن الأفكار والعواطف وتصوير المشاهد الطبيعية فهناك من يرى أن الموسيقى مؤلفة بطريقة خاصة من أصوات لايمكن أن تعبر عما تعبر عنه اللغة ونحن نستمتع بهذه الأصوات دون أن نفهم منها مانفهمه من الفنون التي تعتمد على اللغة كالقصة أو الشعر - لكن هناك من يرى أن الموسيقى تستطيع أحيانا أن تعبر عما تعبر عنه اللغة. فبعض الباحثين في الموسيقى الأوروبية يقول مثلا عن أغاني عصر النهضة « أصبحت الكلمات والجمل تترجم الى الموسيقى ترجمة دقيقة اعتمادا على تأثيرات من التلوين والالقاء والنبر فاقت جميع المحاولات التي سبق القيام بها »[1] وكثير من هؤلاء الباحثين مقتنعون بان مبادىء الثورة الفرنسية انعكست في موسيقى بتهوفن ، وهناك كلام عن « امبريالية » ريتشارد شتراوس الالماني ، وصوفية رحمانينوف الروسي .. الخ

كما أن مثل هذا التفسير موجود أيضا عند العلماء العرب الذين اعتقدوا ان كل عاطفة من عواطف النفس لها مايقابلها من الايقاعات والمقامات . وذلك بسبب اعتقادهم بوجود علاقة بين طبائع النفس وحركات الفلك التي لها علاقة بالموسيقى كما كان يرى بعض الفلاسفة اليونانيين . وهذا يقول الكندي في الفصل الثالث من

(١) الموسيقى والحضارة .. تأليف هوجو لاختنتريت ترجمة احمد حمدي محمود / القاهرة ص ١٦٤

مقالته الأولى في الموسيقى ، انه يجب ان تكسى الأشعار المفرحة . بمثل الأهزاج والأرمال والخفيف ، وما كان من المعاني المحزنة بمثل الثقيل الأول والثاني »[٢] .

والحقيقة أنني أعتقد أيضا بقدرة الموسيقى على التعبير عن العواطف وتصوير المشاهد والمواقف بطريقتها الخاصة وقد حاولت دراسة هذه المسألة دراسة تطبيقية وذلك في بحثي عن الدلالة الاجتماعية في ألحان الفنان المصري الشهير سيد درويش (١٨٩٢ - ١٩٢٣م)

بين اللغة والموسيقى

اذا كانت الموسيقى جزءا لايتجزأ من الثقافة القومية تخضع للمؤثرات الروحية والمادية التي تخضع لها الثقافة بمجالاتها المختلفة ، فنحن نستطيع أن نقول أولا بشكل عام ان الموسيقى المصرية في الربع الأول من القرن العشرين عرفت من التطور والتجديد ماعرفه الأدب والمسرح والفنون التشكيلية ، وانفعلت بالموضوعات التي انفعل بها شوقي وحافظ والمنفلوطي وطه حسين والعقاد ويوسف وهبي والكسار ومختار وسواهم من أعمدة الادب والفن ، كانت الثقافة المصرية في هذا الوقت (الربع الاول من هذا القرن) تحاول ان تتخلص من القيود البالية ، لتعبر عن الموضوعات والمعاني الجديدة ، وترتبط بجماهير الشعب وتعالج مشاكله وقضاياه . وهذا هو ماحدث في الموسيقى وخاصة في موسيقى سيد درويش التي حاولت أن تساهم في معركة التجديد ، والارتباط بالجماهير بطريقتها طبعا ، فالموسيقى تتأثر بالعوامل التي تؤثر في المجتمع وتنفعل بها وتحاول نقل هذا الانفعال الى المستمع ، وتنجح في التصوير والتعبير خاصة اذا كانت موسيقى لحنية ، أي تلحينا للكلمات ، كما هو الحال في معظم الموسيقى العربية ، وفي موسيقى سيد درويش .

واذا كان التفاعل بين اللغة والموسيقى محدودا أو غير واضح عند بعض الملحنين فقد كان قويا جدا عند سيد درويش الذي كان يريد أن تقول الموسيقى مايقوله الكلام او أن ينطق الاثنان بمعنى واحد .

نلاحظ أولا أن الموضوع السياسي والاجتماعي يتأثر بمعظم ألحان سيد درويش ، وخاصة في أعماله المسرحية التي تحتل فيها أكبر نسبة من ألحانه .

وقد قمت باختيار للموضوعات في ألحان سيد درويش المسرحية فوجدت أن مسرحياته واستعراضاته تحتوي على ٢٥٦ لحنا ، منها ١٦٨ لحنا تدور حول القضية الوطنية وحول قضايا المجتمع والطوائف والطبقات وتصوير حياتها والدفاع عن حقوقها . أي أن هذه الألحان الوطنية والاجتماعية تمثل حوالى٦٤٪ من ألحانه المسرحية كلها . هذه النسبة ترتفع جدا في بعض أعماله ، ففي ١٢ مسرحية ، واستعراضا ، من بينها : ولو ، اش ، قولوا له ، كله من ده ، كلها يومين ، رن ، ولسه ، أم أربعة واربعين ، احلاهم . ووجدت ٦٣ لحنا ، منها ٥٣ لحنا تدور حول الموضوعات الوطنية والاجتماعية ، والنسبة هنا تبلغ حوالى ٨٠٪ .

من المقهى الى المسرح

لكن السؤال هنا كيف عبرت موسيقى سيد درويش عن هذه الموضوعات ؟

ان أول وسيلة استخدمها سيد درويش في التعبير عن هذه الموضوعات أنه نقل موسيقاه من المقهى الى المسرح ، وبالتالي تغيرت أشكال موسيقاه ، فبدلا من الدور والموشح أصبح يلحن الاستعراضات والحوار والمواقف ويصور الشخصيات . وأصبحت الفرقة الموسيقية تؤدي ألحانه بدلا من « التخت » ، وزادت أهمية « الكورس » الذي أصبح يشارك المغني الفرد مشاركة فعالة ، ولهذا تتميز ألحان سيد درويش عامة ومنها « الطقاطيق » - بامكان أدائها عن طريق المجموعة ، أو عن طريق المغني الفرد سواء بسواء ، كما نجد في أداء فيروز مثلا « الحلوة دي قامت تعجن » ، « وزوروني كل سنة مرة » . وفي أداء فرقة الموسيقى العربية لهذه الألحان نفسها .

هذا الانتقال من التخت الى المسرح ومن الاعتماد التام على المغني الفرد الى توزيع الاداء بينه وبين الكورس - أدى من الناحية الفنية الى خروج سيد درويش على القواعد الضيقة الموروثة في تركيب اللحن . هذه القواعد التي كانت تفرض على الملحن ان يبدأ اللحن بداية معينة وأن يسير فيه وينتقل من مقام الى مقام بحسب قانون ثابت الى أن يصل الى الختام ، ومن ذلك تلعب آلات التخت على اختلافها والمغني والبطانة ، أدوارا محددة من قبل ، لكن سيد درويش أعطى لنفسه الحرية في التنقل والقفز والتدفق مع احترام المقامات العربية ، وابتعد عن الزخرفة والبطء

---

(٢) مؤلفات الكندي الموسيقية . حققها زكريا يوسف ، بغداد ، ١٩٦٢ صفحة ٩٩

والرتابة ، مما حقق للألحان التنوع والحركة ، ومكنه من تصوير الانفعالات والمواقف .

في لحن « أنا المصري » من أوبريت « شهرزاد » يبدأ اللحن الذي يغنيه«زعبلة»بطل الأوبريت ـ بنغمة افتتاحية خاطفة تؤديها الآلات ، ثم تتراجع لتفسح مجالا لصوت البطل يؤدي الجزء الأول من الأغنية ، وهو على شكل نشيد ملء بالجلال ، يفتخر فيه بمجد وطنه القديم والحديث . وهذا الجزء يتكون من جمل عريضة يؤديها صوت البطل مع خلفية من آلات النفخ ، والوتريات ، التي تقوم بإثارة ذكريات المجد الماضي ، والحنين الى الوطن ، ثم ينتقل اللحن انتقالا فجائيا الى جملة راقصة يوجه فيها البطل الخطاب الى شهرزاد ليحدثها عن محبوبته التي تنتظره ، حتى يصل الى ختام هذا الجزء الذي يقطع فيه عهدا على نفسه بعدم التحول ، ويستغل سيد درويش الفرصة فيلحن هذا الجزء الختامي على شكل قسم يؤديه الجندي العاشق ، ويعود به بذلك الى نغمة النشيد الذي بدأ به . ويمكنني أن أقول إن العواطف الوطنية والغرامية واضحة تماما حتى لو رفعنا الكلمات واستمعنا الى الموسيقى تؤديها الآلات دون كلام .

وهناك وسيلة اخرى استفاد بها سيد درويش في تصوير الجو الشعبي والشخصيات والمعاني الاجتماعية وهي الاستفادة من بعض الألحان الشعبية كما نجد مثلا في لحن « دقت طبول الحرب » من أوبريت « شهرزاد » أيضا وقد استفاد فيه من ايقاعات « النقارية » وهي آلة ايقاع شعبية قديمة هي « طبلة » ذات طابع بدوي تثبت منها واحدتان على سنام جمل يركبه العازف وينقر على الطبلتين بعودين من خشب يمسك كلا منه بيد . وفي لحن « هلا بتضلو معانا » من الاوبريت نفسها يستفيد من الأغنية الشعبية الشامية « دخلك يامه خبيني » وفي لحن « يأبو الكشاكش » من أوبريت « اش » يستفيد من مداعبات الاطفال لخروف عيد الاضحى « وفي لحن « الشيالين » يستفيد من صيحة التشجيع الجماعية « هيلا هيلا » وفي لحن « دنجي دنجي » عن وحدة وادي النيل يستفيد من ايقاعات الرقصات النوبية . . هكذا .

بهذه الوسائل وغيرها استطاع سيد درويش أن يحول موسيقاه الى أداة للتصوير والتعبير عن العواطف الوطنية والاجتماعية والذاتية ، وأن يخلصها في الوقت نفسه من كثير من القيود والتقاليد القديمة البالية . ■■

باريس ـ د . سهير عبد الفتاح

طبيب الأسرة

الأسنان بين الفلور والفرشاة الكهربائية

كثيرا ما نشاهد إعلانات معجون الاسنان تتبارى في إظهار فاعليتها في الحفاظ على الاسنان .. ونسبة الفلور المرتفعة فيها ، فهل يعني هذا شيئا في الحقيقة ؟ وهل الفرشاة الكهربائية افضل ؟

ـ بالفعل يعد الفلور أكثر المواد فعالية في معجون الاسنان اذ أنه يقي ويحافظ على الأسنان من التسوس لأنه ـ أيون الفلور ـ يتجمع بسرعة كبيرة على السن فيغنيها به لتقاوم الاحماض المسببة للتسوس كما أن تجمعه على السطح الخارجي للسن يقوم بتحييد الميكروبات وابطال مفعولها فتفقد قدرتها على نخر عظام السن وتركها عرضة للتسوس .

وحسب احصائيات الصحة العالمية الاخيرة فان الفلور في معجون الاسنان يخفض نسبة التسوس من ٢٠ ـ ٣٠٪ لكنه يعمل بصورة أفضل اذا ما استعمل في شكل حبوب أو غسول موضعي أو أضيف للمياه فانه يخفض نسبة التسوس حتى نسبة ٧٠٪ بالطبع مع استعمال الفرشاة بانتظام وبصورة جيدة تتلخص في أنها يجب أن تطاول أسطح السن جميعها بما فيها الداخلية والجانبية وقد يعد هذا أمرا مستحيلا مما يجعل استخدام الخيط مع الفرشاة أمرا ضروريا في مواجهة مرآة كبيرة ليتأكد الشخص من أنه قد قام بتنظيف أسنانه على ما يرام .

وكما ان الألم ليس هو أول علامة على تسوس الاسنان ـ فالحامل مثلا تشعر بآلام الاسنان حينما يبدأ الجنين في سحب رصيدها من الكالسيوم المتخزن في العظام والاسنان ، فان تسوس الاسنان قد يكون مؤلما أو صامتا ، لذا يجب العرض على اخصائي أسنان مرة كل عام بدون شكوى .

وتسوس الأسنان في الواقع مسئول عن احداث جسام بعيدا عن الفم ... فقد لوحظ أن أكثر من ٢٠٪ من التهابات الغشاء المغلف للقلب قد يكون مسؤولا عنها بؤرة صديدية تحت أحد الضروس بل والتهابات المفاصل وأمراض الروماتزم والمعدة والقولون أيضا .

واكتشاف السن المسوسة لا يعتمد فقط على رؤيتها أو الألم أو تتبعها باللسان ، ولكن في الأسواق الآن حبة يمكن مضغها فتتلون في الحال السن المسوسة .

ولكن هل تظل الفرشاة والخيط أو ربما السواك افضل طريقة لغسل الاسنان وتنظيفها دائما ...؟

الاجابة : نعم ، متى كان ذلك يتم بصورة مرضية ، اذ أن ما يتوافر الآن من فرش كهربائية يعد من ألوان المبالغة . لكن المفيد حقا هو جهاز يستخدم الماء الذي يندفع بقوة لتنظيف اللثة وما بين الاسنان بقوة يمكن التحكم فيها لكنه مكمل لعمل الفرشاة العادية وليس بديلا لها .

وأخيرا هناك منشط اللثة وهو قطعة من المطاط تساعد على تدليك اللثة وتحسين الدورة الدموية فيها كما تقوى بطانتها . لكنه بالطبع يحتاج ارشاد طبيب لتعلم طريقة استعماله خاصة مع أولئك الذين يعانون من انتفاخات وجيوب في نسيج اللثة تحتمي فيها الميكروبات لتحدث فيها ما يتراءى لها من فساد .

تظل في النهاية قواعدنا القديمة محل احترام .. فالوقاية بالطبع خير من العلاج ، وتعليم الطفل كيف يمكنه تنظيف أسنانه جيدا .. يقينا الكثير من متاعب النمو .

●

الجزر وعلاج السرطان

قرأت في احدى المجلات الأجنبية أن الجزر هو إحدى المواد الغذائية المقاومة للسرطان؛ مامدى صحة هذا الرأي ؟ وهل هناك بالفعل مواد غذائية يمكنها أن تقي من شر السرطان ؟

- يظل السرطان اليوم وغدا هو الموضوع الأهم على طاولة البحث العلمية العالمية .. اذ انه حتى الآن سر مستعص ، كلما حل منه لغز قادنا الآخر في دائرة مفرغة لا حد لها ولا محيط . . .

كل يوم يحمل معلومة جديدة عن السرطان .. لكنها دائما معلومة تقريبية تكشف جزءا ملاصقا لآخر . والثابت ان السرطان هو انفجار مجنون في الخلايا يحولها الى جحيم مشتعل من النشاط يستشري بسرعة تختلف وتعتمد على كثير من الاسباب التي يدور حولها العلم ويختلف كل العلماء .

فلا احد حتى الآن يدري ، فهو ليس مرضا وراثيا .. وإن كانت نسبته أعلى في عائلات دون اخرى . وليس ناجما من ميكروب رغم انهم أخيرا عزلوا بعض الاجسام التي يمكن أن تكون فيروسات في بعض أنواعه .

ليس له سبب مباشر .. وان ارتبط مثلا سرطان الرئة بكثرة التدخين ، رغم انه قد يحدث أيضا لمن لا يدخن والامر في حد ذاته حتى الآن لا يعدو كونه مجموعة ملاحظات علمية حول انتشار السرطان كظاهرة .. حتى انه هناك نظرية تربط بين السرطان والضغط العصبي .

من بين هذه الملاحظات العلمية نسوق على سبيل المثال أنه قد لوحظ أن السرطان قد تعلو نسبة الاصابة به بين من يأكلون الطعام المقدد الغني بالاملاح والمعامل بالخل أو الدخان بالتحديد لسرطان المعدة والمريء وأن المواد الحافظة للأغذية المعلبة قد تكون سببا محفزا للسرطان .

كما أن دراسة أمريكية ظهرت أخيرا أثبتت أنه لا علاقة بين السرطان وشرب القهوة برغم أن نشرة أمريكية سابقة أكدت أن شرب القهوة بكثرة هو أهم الأسباب لسرطان البنكرياس ! .

ذات الدراسة نفت أي علاقة بين سكر السكارين والسرطان ونسبت الى الكاروتين وفيتامين (ج) شرف مقاومة السرطان بشجاعة اكبر من بقية الفرسان . بل وحددت الأطعمة المقاومة

للسرطان والتي تتوافر فيها نسبة عالية من الكاروتين وفيتامين « ج » كالمشمش والحمضيات كلها والبازلاء والقرع والفراولة والجزر والشمام والطماطم،كما أوصت بمحاولة أكل الطعام في أبسط صوره في قائمة خضراء .. أي مليئة بالخضراوات .

وقد اعتبرت اللجنة المعنية باعداد تلك الدراسة أن المواد الدهنية هي المسئول الاول عن سرطانات الثدي والامعاء والبروستاتا اذ تبين أن نسبة السرطان قد قلت باستخدام رجيم غير دهني لحيوانات التجارب .

كل هذا حسن وجهد مشكور ، لكنه حتى الآن لايحمل الصبغة العلمية المؤكدة التي تجعلنا نجزم بأن هناك عوامل مسئولة أو مقاومة للسرطان .. ما زال العلم والعلماء على طاولة البحث ... يبحثون في كل الاتجاهات يبدأون وينتهون الى ان السرطان لغز ومازال .

حول تضخم البروستاتا

أبلغ من العمر الخامسة والخمسين .. كنت قد اصبت بتضخم البروستاتا منذ خمسة أعوام لكني أجلت التدخل الجراحي لما له من آثار ضارة على الحياة الاجتماعية .. . بدأت اشعر بأعراض اكثر خطورة مثل انحباس البول بعض مرة ونزول بعض الصديد في نهاية التبول .. فهل هذه أعراض المرض الخبيث ؟ وكيف يمكنني الحكم والتأكد ؟

ـ ليس من الضروري أن تكون هذه أعراض سرطان البروستاتا حيث ان تورم البروستاتا لدرجة كبيرة وتأثر المثانة والحالبين والكلى كاف لاحداث مثل هذه الأعراض . لذا تجب المسارعة بعرض نفسك على طبيب اخصائي في المسالك البولية وعمل منظار لمعرفة وتحديد مدى وخطورة التغييرات التي حدثت نتيجة اهمالك في اجراء العملية .

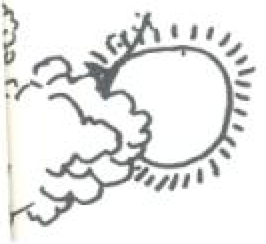
والثابت علميا أن عملية ازالة تورم البروستاتا لا علاقة له إطلاقا بالقدرة الحسية على العكس فان زوال الألم والخوف يكون دائما عاملا إيجابيا لصالح المريض بعد العملية . أما الانجاب فهو حقا المشكلة اذ ان الرجل يصبح عقيما بعدها لأن العملية تسفر عن اتصال مباشر بين عضو التناسل والمثانة مما ينتج عنه انتشار الحيوانات المنوية في البول وبالتالي نزولها معه اثناء التبول .

يحدث مع ذلك بالطبع بعض الاستثناءات يمكن معها الانجاب لكنها متروكة حقا للصدفة وليس للتوقع . أما سرطان المثانة فانه يعد نسبيا أحد السرطانات التي يمكن التعامل معها بحزم متى اكتشف مبكرا فانه يعالج إما بالهرمونات الانثوية ـ الاستروجية ـ ولا تؤدي هذه الطريقة الى شفاء كامل لكنها تساعد على التخفيف من حدة الالم بدلا من المسكنات والتي أهمها وأخطرها المورفين الى غير ذلك من العلاج بالجراحة او الاشعة أو كليهما معا حسب الحالة .

وأفضل الحالات هي التي يبدأ علاجها مبكرا بالجراحة الكاملة مع الاشعة لكن العملية التي تؤدي الى استئصال البروستاتا بشكل كامل ، هي التي تؤدي الى العجز الحسي لان معها تتلف الاعصاب المسئولة عن تتابع العملية الحسية وبالتالي تلغيها ؟

وليس هناك في الواقع أي وسيلة للوقاية من سرطان المثانة ابتداء من سن الخمسين اذ يندر تماما قبل ذلك . لكن القاعدة الذهبية هي الفحص الدوري كل ستة أشهر حتى بدون أي أعراض لتضخم البروستاتا بداية من سن الاربعين . فوجود تصلب بسيط على سطح المثانة ـ عادة سطحها مرن ـ قد يكشف عن بداية سرطان البروستاتا . وذلك يحدد نوع العملية وآثارها .

في النهاية يمكننا القول إنه لا الحياة الحسية أو نظام الطعام أو نمط الحياة له أدنى علاقة بتضخم البروستاتا . لذا فالحذر منها واجب ، وعلاجها مبكرا أفضل كثيرا من التباطؤ والتأجيل .



الموت الثاني

تأليف ـ جراهام جرين

ترجمة ـ شوقي جلال

لقيتني عند المساء تحت الاشجار المزروعة خارج القرية . لم أعبأ بها في حياتي ، ولعلني كنت أخفيت نفسي عنها لو رأيتها قادمة . فأنا على يقين من أنها ستشكو لي من رذائل ابنها ، هذا لو اعتبرناها رذائل حقا ، وان كنت استبعد تماما أن تكون كذلك . لقد كان على أية حال كريما شجاعا لايعرف البخل أو الخنوع شأن آخرين في القرية . استطيع أن أذكرهم لو شئت .

كنت أحلق بشدة في ورقة شجرة ، ولولا ذلك ما صادفتني . تدلت الورقة من غصنها وقد انشطر عنقها ربما بفعل الرياح ، أو لأن طفلا من أطفال القرية طوح حجرا فأصابها . ولم يبق غير اللحاء الاخضر السميك للعنق يمسك بها وهي معلقة في الهواء . ظللت أحلق فيها وأرقبها عن كثب متأملا يرقانة تزحف فوق سطحها ، فتأرجح الورقة هنا وهناك . كانت اليرقانة تزحف صوب الغصن وأنا في دهشة أتساءل ترى هل ستصل الى هدفها آمنة في سلام أو ستسقط بها الورقة في الماء ؟ فقد كانت الأشجار تظلل غديرا يميل ماؤه دائما الى الاحمرار بسبب الطين الكثيف في التربة .

لاأعرف هل بلغت اليرقانة الغصن أم لا ، اذ قطع على تأملي وصول تلك المرأة البائسة . عرفت وصوفا أول الأمر عند سماع صوتها خلف أذني مباشرة . قالت بصوتها الهرم الثاقب :

« بحثت عنك في كل الحانات » .

وهذا هو اسلوبها المميز أن تقول « كل الحانات » بينما لاتوجد غير حانتين فقط في القرية . فقد دأبت على الادعاء بأن لها شرف تحمل عناء ليس لها منه نصيب في واقع الأمر .

أحسست بالضيق ولم أتمالك نفسي ، وانطلق لساني بكلمات خشنة :

« كان بوسعك أن تعفي نفسك من تحمل كل هذا العناء . وأحرى بك أن تدركي أنني ما كنت لارتاد حانة في ليلة صافية كهذه » .

بدا التواضع على العجوز الحيزبون . وهذه عادتها دائما أن تبدو طيعة ذليلة اذا ما كانت لها حاجة تريد أن تقضيها .

وقالت :

« هذا من أجل ابني المسكين » .

وهو ما يعني أن ابنها مريض . فأنا لم اسمعها تنعته ، وقتما كان صحيحا معافى ، الا بنعوت أفضلها « هذا الولد اللعين » . وكانت تحرص على أن يلزم البيت عندما ينتصف الليل كل أيام الأسبوع ، وكأن اذى خطيرا قد يصيب رجلا كهذا يعيش في قرية صغيرة مثل قريتنا . ولم نعدم حيلة لخداعها بطبيعة الحال . غير أن الشيء الوحيد والأساسي الذي كنت أعترض عليه ـ أن رجلا كبيرا ناضجا ناهز الثلاثين من عمره تحكمه أمه لالشيء الا لأنها



جراهام جرين **Graham Green**

كاتب وأديب روائي انجليزي . ولد عام ١٩٠٤ . عمل أربع سنوات ضمن مجلس تحرير صحيفة التايمز من ١٩٢٦ - ١٩٣٠) اعماله الأدبية مؤشرات حياته وسجل أحداثه . قام برحلات كثيرة في كل أنحاء العالم وأكثر رواياته انعكاس لخبراته .

زار المكسيك عام ١٩٣٨ وكتب تقريرا عن الاضطهاد الديني هناك وأصدر روايتين بعد ذلك حكى فيهما خبرته وانطباعاته هما،

The Lawless Roads. The Power & The Glorg,

وفي عام ١٩٤١ ترك وظيفته كمحرر أدبي في صحيفة (سبكتاتور) وسافر الى سيراليون ثلاث سنوات . وانتجت رحلته هذه رواية **The Heart of The Matter** ثم رواية **Brighton Rock** والتي يرى بعض النقاد انها أفضل أعماله . وفي عام ١٩٥٥ أصدر رواية

The Quiet American وهي عن حرب فيتنام وقد عاش هناك فترة . . . . وله غير ذلك اعمال كثيرة من الروايات والقصص القصيرة وقصة « الموت الثاني » هي من أعماله الباكرة التي كتبها عام ١٩٢٩ وتعكس اهتمام المؤلف بالمصير الروحي للانسان .

بغير زوج تتحكم فيه . ولكن اذا الم بابنها مرض ، وحتى ولو كان بردا خفيفا ، أصبح « ابني المسكين » .

قالت : « انه يموت ، والله وحده يعلم ماذا عساي أن أفعل بدونه » .

قلت لها : « حسن . لست أدري كيف اساعدك » .

كنت غاضبا لأنه مات مرة قبل هذه ، وفعلت الأم كل شيء الا مواراته التراب فعلا وعملا . وظننت أن موته هذه المرة من نفس ذلك النوع المألوف ، هذا النوع الذي ينهض بعده المرء صحيحا معافى . سبق أن رأيته الاسبوع الماضي وهو في طريقه الى التل ليمتع عينيه بفتاة المزرعة ذات الصدر الفائر الممتلىء . كنت أرقبه حتى يستحيل الى نقطة سوداء صغيرة على البعد تستقر فجأة الى جوار صندوق رمادي مربع وسط الحقول ، هو الحظيرة التي اعتادا اللقاء عندها . لي عينان حادتان يحلو لي كثيرا أن أمتع نفسي بالنظر بهما لأرى كيف وعلى أي بعد يمكنني أن أرى بهما في وضوح وجلاء . وقابلته بعد ذلك ذات مرة بعد منتصف الليل ، وساعدته على دخول البيت خلسة دون أن تحس به أمه . وتحسنت حالته الا من شعور طفيف بالنعاس والتعب يلازمانه .

عاودت العجوز الحيزبون الكلام بصوتها الحاد الثاقب :

« كان يسأل عنك » .

قلت لها : « اذا كان مريضا على نحو ما ذكرت فالأفضل دعوة طبيب لزيارته » .

« الطبيب هناك ، ولكنه عاجز عن فعل أي شيء » .



أفزعتني كلماتها للحظة وكنت على وشك أن أصدقها حتى قلت في نفسي « الشيطان العجوز يتمارض . لعله يدبر خطة لأمر ما في نفسه ، انه بارع وقادر على خداع اي طبيب تنبهت على صوتها وهي تقول :

« استحلفك بالله أن تأتي فهو خائف فزع على ما يبدو » .

بدا الصدق في نبرتها ، وأنا أعرف مدى حبها اياه . لم أتمالك نفسي عن الاحساس ببعض الأسى نحوها . فأنا أعرف أنه لم يبق على قرش واحد لها ، ولم يحاول قط اخفاء الخديعة عنها .

خلفت ورائي الأشجار والغدير الضارب الى الحمرة والبرقانة التي تكابد لتشق طريقها نحو هدفها . . . . وسرت معها لأني أعرف أنها لن تتركني لشأني أبدا ، خاصة وأن « ابنها المسكين » يسأل عني . منذ اسبوع واحد فقط لم تدع وسيلة لتباعد بيني وبينه . وذهب ظنها الى أنني المسئول عن سلوكه ، وكأن أي امرىء قادر على أن يصده عن امرأة فاتنة ، ويباعد بينه وبينها بعد أن يشبع شهوته .

أحسب أن هذه أول مرة أدخل فيها كوخهم من الباب الأمامي ، منذ أن وفدت الى هذه القرية طوال عشر سنوات خلت . رمقت شباكه بنظرة خاطفة لاهية . خيل الى أنني أرى على الجدار الآثار التي تركها السلم الخشبي الذي استخدمناه الأسبوع الماضي . كنا نواجه بعض الصعوبات ونحن نحاول أن نثبته على الجدار وأمه تغط في نوم عميق . اعتاد أن يأتي بالسلم من الحظيرة ، وبعد أن يدخل في سلام أحمله عائدا الى مكانه . وعندما أبلغ الحظيرة أجد فتاته قد رحلت . بيد أنك لاتثق في كلمته فقد يكذب على أخلص أصدقائه . انه لو عدم حيلة لرشوتك بمال أمه ، فقد يرشوك بوعد الآخرين من الناس .

ما ان دخلت من الباب حتى ساورني احساس بالقلق . وطبيعي أن يكون البيت هادئا ، فليس لأحدهما أصدقاء ليبقى معهما على الرغم من أن العجوز لها أخت لزوجها تعيش على بعد بضعة اميال . كرهت سماع وقع أقدام الطبيب وهو ينزل الدرج لملاقاتنا . لوى وجهه وكساه بوقار زائف وكأنه يريد أن يبلغنا شيئا عن رهبة الموت حتى ولو كان موت صديقي .

ابتدرنا بقوله : « لايزال في وعيه ، ولكنه يوشك أن يرحل . اذا أردتم له الموت في سلام فالأفضل أن يصعد اليه صديقه توا . انه يستشعر خوفا وفزعا من شيء ما » .

صدق الطبيب القول . أحسست بصدقه عندما دخلت غرفة صديقي . رأيته جالسا على سريره مسندا ظهره الى حشية وعيناه مثبتتان على الباب ينتظر قدومي . . . . . . عيناه فيهما بريق وخوف ، وشعره أشمث تدلت خصلات لزجة ملبدة فوق جبهته . لم أكن أتصور أن له مثل هذا القبح . كانت له عينان تفيضان مكرا ودهاء ، ينظر اليك فيستشف خبيئتك . وعندما يكون صحيحا معافى ترى في عينيه وميضا ينسيك ما فيهما من مكر ودهاء . ويكشف وميض عينيه عن دماثة صافية وتحد وقح وكأنه يقول « اعرف انني ماكر قبيح ، ولكن ما قيمة هذا كله ؟ لقد تفتيت وطري من الحياة » وأحسب أن بعض النساء كان يأسرهن هذا الوميض ويستثيرهن . والآن وقد خبا وميض عينيه بدا وكأنه وغد شريد ولاشيء آخر .

رأيت من واجبي أن أرفع روحه المعنوية ، فأطلقت دعابة ساخرا من رقدته وحده على السرير . خلت أنه لم يستسغ الدعابة ، وداخلني خوف من أنه بدأ ينظر الى موته نظرة جادة وذلك عندما طلب مني أن أجلس الى جانبه ليتحدث الى حديثا هادئا قاطعا .

قال والكلمات تتتابع سريعة على لسانه :

« ها أنذا أقضي نحبي وأود أن أسألك شيئا . هذا الطبيب ليس طبيبا حاذقا ، فقد ظن أنني أهذي . انني عجوز استبد به الخوف . وأريد أن أسترد يقيني وهدوئي » .

وصمت فترة طويلة ليعاود حديثه قائلا :

« . . . . أن أعود انسانا سليم الفطرة . . . . »

ونزل قليلا عن الحشية داخل فراشه . قال :

« مرة واحدة في حياتي ألم بي فيها مرض عضال . . . .

وكان ذلك قبل أن يستقر بك المقام هنا . . . .



كنت لاأزال صبيا . يحكي لي الناس أنهم اقتنعوا بموتي وحملوني ليواروني التراب لولا أن أوقفهم طبيب وحال دونهم وذلك في الوقت المناسب » .

سمعت عن حالات كثيرة مماثلة ولم أر سببا يبرر رغبته في أن يروي لي حكايته هذه ثم خيل الى أنني أدركت مرماه . فأمه لم تكن يوما شديدة القلق مثلما هي اليوم للتأكد من موته حقا ، وان كان لايراودني شك كثير في أنها كشفت عن حزن عميق « ابني المسكين » ، ولست أدري ماذا أنا فاعلة من بعده . وأنا على يقين من أنها صادقة مع نفسها الآن . انها ليست قاتلة ولكنها فقط تميل الى سبق الأحداث .

أمسكت به لأرفعه قليلا فوق الحشية التي يستند اليها ظهره ، وقلت له :

« انتظر . . . . لاداعي للخوف . لن تموت . وعلى أية حال فسوف أتحقق اذا ما كان الطبيب قد قطع لك شريانا أو شيئا من هذا القبيل قبل أن يودعوك الى مثواك الأخير . ولكن هذا كله هراء مرضى . اني أراهن بكل ما أملك أنك لاتزال أمامك سنوات طويلة . . . . . . بل وفتيات كثيرات أيضا » .

أردفت حديثي بالعبارة الأخيرة عله يبتسم . ولكنه قال :

« ألا تكف عن هذا كله » .

وهنا عرفت أنه عاد متدينا . وقال :

« لماذا . . . . لو قدرت لي الحياة فلن أقرب فتاة أبدا . لن أفعل ذلك ولو مرة واحدة » .

حاولت أن أمسك عن الابتسام لكلامه هذا ، ولكن كان عسيرا أن أحتفظ بوجهي جامدا لا ينم عن رغبة في الابتسام . فهناك دائما ما يثير بعض الضحك في معنويات الرجل المريض .

وقلت له :

« على أية حال لاداعي للخوف » .

وأجاب قائلا :

« ليس هذا هو الموضوع أيها العجوز فأنا عندما عدت في المرة الماضية ظننت أنني مت . لم تكن المسألة شأنها شأن

النوم على الاطلاق ، أو الراحة في سكينة وسلام . كأن ثمة شخصا ما حولي ، يحيط بي ، عليما بكل شيء ؛ يحصي على كل فتاة عاشرتها ، حتى تلك الصبية الصغيرة التي لم تفهم شيئا . حدث ذلك قبل مجيئك . كانت تسكن على بعد ميل من بداية الطريق ، حيث تعيش جانيت الآن ، ولكنها رحلت عن هنا هي وعائلتها . . . . . بل كان يعرف النقود التي أخذتها من أمي . أنا لا أعتبر هذا سرقة فهي أمور داخلية من شئون العائلة . لم تكن لدى الفرصة لأوضح الأمور ، أو حتى أن أفصح عن أفكاري ، فالمرء عاجز حتى عن التفكير » .

قلت له :

ـ « هذا كابوس »

ـ « نعم ، لابد وانه كان حلما . ألا يمكن أن يكون كذلك ؟ نوع الحلم الذى يتراءى للناس في حالة المرض . ورأيت ما سوف يحدث لى . أنا لا أحتمل أن يصيبنى أذى . فليس هذا من العدل في شيء . وأردت أن أغيب عن الوعى ويغمى على ، ولكننى لم استطع لأننى كنت ميتا » .

قلت له وقد استثارنى خوفه .

ـ « في الحلم ؟ . . . ثم رددت قولى . . . . . « في الحلم !! » .

ـ « نعم . لايبدو أنه كان حلما ـ ألا يمكن ذلك ؟ لأننى استيقظت . الشيء الغريب والمثير انى أحسست أننى صحيح معافى وقوى . نهضت ووقفت في الطريق ، ورأيت على مسافة قصيرة حشدا صغيرا يثير عجاجا يشيع رجلا أمامه . . . . . ثم كان الطبيب الذى أوقفهم وحال بينهم وبين دفنى » .

قلت له : « حسن » .

قال : « افترض أيها العجوز صدق ما أقول . هب أننى مت . تعرف أننى صدقت هذا يومذاك وصدقته أمى أيضا ولكنك لن تثق فيها . ومضيت على حالى هذا عامين . حسبت أنها قد تكون فرصة ثانية . ثم غامت الأمور أمام عينى . . . . . وبدت لي على نحو ما أنها غير ممكنة فعلا . انها غير ممكنة . وطبيعي أنها غير ممكنة . وأنت تعرف أنها غير ممكنة ـ اليس كذلك ؟ » .

قلت له : « لم لا ؟ المعجزات من هذا النوع لاتحدث هذه الأيام وعلى أية حال فليس من المحتمل أن تقع لك . أتحسب أنها قد تقع لك ؟ وهنا في أي مكان تحت الشمس .

رد على قائلا :

« انه لأمر مفزع حقا لو صح ما تقول ، وسيكون لزاما على أن أعاني كل ذلك مرة ثانية ، أنت لاتعرف ماذا كان سيحدث في الحلم ؟ وقد يكون الحال الآن أسوأ كثيرا .

توقف عن الكلام هنيهة ثم أردف وكأنه يقرر واقعة :

« عندما يموت المرء ينتفي اللاشعور الى الأبد » .

ضغطت على يده وأنا أقول « كان هذا حلما بطبيعة الحال » .

ولكنه كان يفزعني بخيالاته . وددت لو مات سريعا حتى أفر من عينيه الماكرتين المروعتين المحتقنتين بالدم ، وأبحث عن شيء بهيج يدخل الى نفسي السرور مثل جانيت التي حدثني عنها وتعيش على بعدميل واحد من الطريق .

قلت له : « ولماذا . ؟ . لو كان ثمة رجل يصنع مثل هذه المعجزات فاننا كنا سنسمع عن معجزات أخرى كثيرة حتى ولو في مكان بعيد من تلك المنطقة التي تبلغها الرب » .

قال لي : « هناك معجزات أخرى . ولكن القصص سارت على ألسنة الفقراء فقط وهم سيصدقون كل شيء . أليس كذلك ؟ وروى أن الكثيرين من المرضى والعجزة قد أبرئوا ونعموا بالشفاء . وهناك رجل ولد أكمه وسرعان ما أبصر بعد لمسة لجفنيه ثم التفت ناحيتي وقال « تلك كانت قصص عجائز النساء ـ اليس كذلك ؟ وتعثرت الكلمات على شفتيه خوفا ، ثم رقد فجأة ساكنا بغير حراك وتكوّم حول نفسه فوق السرير .

شرعت أفتح فمي لأقول له « طبعا هذه كلها أكاذيب » ولكني امسكت لساني وتوقفت عن الكلام اذ لم تعد ثمة حاجة بي الى ذلك . وكل ما استطعت أن أفعله هو أن أنزل الدرج وأطلب من أمه أن تصعد اليه لتسبل له جفنيه . لم أستطع أن ألمسهما حتى ولو كان لقاء ذلك كل مال الأرض . ومضى زمن طويل منذ أن طاف بخلدي ذلك اليوم ، دهور ودهور مضت عندما أحسست لمسة باردة ببرودة اللعاب على جفني ، وفتحت عيني لأرى رجلا مثل شجرة سامقة تحف بها أشجار كثيرة يرحل بعيدا ■■

ترجمة ـ شوقي جلال

واحة القراء

اعداد :
يوسف الشهاب

سعر العربي

● بالرغم مما يكتب في صفحة الفهرس حول سعر مجلتنا العربي في كل بلاد العرب ، إلا أن بعض الموزعين في بلادنا يخالفون في الثمن ، فالمجلة تباع هنا بخمسة ريالات بينما السعر الحقيقي هو ثلاثة ريالات ، ولا يهمنا زيادة وانما الأهم هو التعامل بالصدق والحق .

ونحن لا نعرف من نصدق بسعر المجلة الحقيقي ، هل الموزع أم القيمة المكتوبة في فهرس المجلة ؟

جلال الرويشان - اليمن / صنعاء

العربي

مشكلة القارىء العزيز ، هي مشكلتنا مع بعض الموزعين في بلادنا العربية ، فالسعر معلن بالمجلة لكن هذا البعض يستغل طلبات السوق .. وهذا أمر لا حيلة لنا به لأن القضية تتوقف على الأمانة والصدق في البيع والشراء ....

عن الضمير الأدبي

● لاحظت مع شديد الأسف ، ان مجلة العربي ومجلة الدوحة نشرتا مقالا واحدا لكاتب واحد في شهر واحد .. المقال يتناول العلاقات الوثيقة بين الشعبين المصري والفلسطيني وهو موضوع له قيمته وحرمته ، مما يفترض ان كاتبه لم يكتبه الا عن الاحساس العميق بالرسالة وهو موضوع بطبيعته بعيد كل البعد عن أي شبهة متاجرة أو تحقيق الكسب المادي ...

هذا عن المقال ، أما عن الكاتب فهو لواء سابق في الشرطة ، وهي المهنة التي يتربى صاحبها على احترام القانون والنظام وملاحقة المخالفات ، وهو في الوقت نفسه من أسرة أحد شيوخ الازهر الشريف . فمن مهنته السابقة وعائلته ، نتوقع منه أن يكون الدافع الوحيد لنشر المقال ، هو اثراء الحياة الثقافية . والغريب أن المقال لم ينشر في مجلتين ثقافيتين متباعدتين ، في الكويت وتونس مثلا ، بل في مجلتين متقاربتين في كل من الكويت وقطر . وليس من المبالغة القول ان هذه الظاهرة المؤلمة قد انتشرت في العديد من المجلات الثقافية ، تقف خلفها الاموال النفطية . مما يضع القائمين على شؤون المجلات الثقافية في حيرة من امرهم ، أمام المقالات التي تصلهم بعد ان انعدمت الثقة او كادت ...

عبد الرزاق البصير

العربي

نأسف معك لهذا الذي وقع ، ونعتذر لقاريء العربي عما أوقعتنا فيه ثقتنا ببعض الكتاب . ونعد القاريء بان نبذل اقصى جهدنا لكي لا يتكرر ذلك . وستمتنع العربي عن نشر أي مقال للكاتب الذي يثبت لدينا أنه يوزع مقالاته بلا ضابط أو حرص على التقاليد .

هدية العدد الممتاز

● أصبحت مجلة العربي ، سفيرا عربيا متنقلا بين جميع العرب فهي تعبر عن أحوالهم وعن حياتهم ، وتحمل الآخرين يتصرفون في أمورهم ، ولأن مجلتنا تقدم هدية كل عام مع العدد الممتاز الذي يصدر في يناير ، فاننا نقترح عليكم ... تقديم روزنامة (تقويم) لأشهر السنة يستطيع من خلالها كل قارىء أن يعرف أيام السنة والمناسبات العربية والدولية فيها .

عبد الحميد محمود مراد ـ العراق / بغداد

●

الكمبيوتـــر

● أشعر حين أقرأ .. العربي » في مطلع كل شهر ، أن الثقافة ما زالت موجودة بالصحراء وما زال هناك أمل في مجتمع ثقافي وفي حياة ثقافية راقية يحياها أبناء هذه الأمة ..

وأنا طالب في احدى المدارس البريطانية ، وقد هالني ذلك الاهتمام بالثقافة وبالعلم ، فكان من برامج الحكومة الحالية ان يكون هناك جهاز كمبيوتر لكل مدرسة ثانوية داخل المملكة المتحدة ، من أجل الحصول على معلومات سريعة ـ فهل هناك أمل في أن يطبق مثل هذا الامر في الكويت ، خاصة ان هذا البلد لديه القابلية للحصول على الاجهزة اللازمة ، وأن مثل هذه الاجهزة الحديثة في الخليج سيجعلها شيئا طبيعيا مما سيؤدي الى تواجدها في الجامعات بصورة دراسة مستقلة لتهيئة كوادر بشرية ، وهذا وحده سيكون بداية تقدم حقيقي وحضاري في الوقت نفسه ....

محمد معروف مصطفى ـ لندن

●

أبواب ... جديدة

أود أن أعبر عن تقديري للاستطلاعات المصورة ، وخاصة للبلدان التي كانت في الماضي القريب بلدانا اسلامية ، انحسر عنها المد الاسلامي وتغلبت عليها الفرنجة واعداء الاسلام ، وأطمع في ان تحققوا بعض الرغبات حتى تغرسوا في قلوب القراء عزة ومجد العروبة والاسلام وهي إعادة الصفحة الخاصة بالطرائف والحكم العربية التي كانت تبرز فيها روعة وبلاغة وفصاحة اللغة العربية وقدرة العرب البلاغية .

اعادة الصفحة الخاصة بالطرائف والنوادر التي كانت

حول مقالة « الخيول المملوكية »

● « يؤسفني غاية الاسف أن أقرر لسيادتكم أن موضوع « الخيول المملوكية » الذي نشر بمجلتكم «العربي» في شهر رمضان سنة ١٤٠٢ هـ (يوليو سنة ١٩٨٢ م) بقلم السيد جمال الغيطاني منقول من كتابي « الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك »وقد نشرته « مكتبة الانجلو المصرية » سنة ١٩٧٦ .

هذا ومرفق طيه الصفحات التي قام السيد/ جمال الغيطاني بالنقل منها ، للتأكد من صدق ما أقوله ، وعشمي في الله وفيكم كبير أن تنبهوا الى هذا في مجلتكم ، حتى يرتدع كل من تسول له نفسه التكسب أو تحقيق مجد ادبي على حساب الآخرين .

● الدكتور نبيل محمد عبد العزيز

عميد كلية الآداب بسوهاج ـ مصر

تقدم فيها ضحكات وابتسامات تزيل عنا الكآبة وليكن ذلك من خلال القراء .

نريد صفحات تبرز فيها ثروات الأمة العربية من معادن وزراعة وصناعة ونسب هذه الثروات في العالم ، وأماكن وجودها في الوطن العربي .

تناولوا ما دار من فتوحات وبطولات ومعارك إسلامية وعربية وفضل العرب على الاسبان والبرتغال في اكتشافاتهم الجغرافية وفضل المسلمين في نشر نور الحضارة على ظلمات الجهل التي كانت سائدة في أوروبا .

رمضان محمد سليمان
مصر / الاسكندرية

الطفل والمرضعات ... ومسابقة العربي

● جاء في العدد (٢٨٣) من العربي ، مقال بعنوان .. الطفل والمرضعات في الطب العربي ، للدكتور سامي خلف حمارنة ، وبعد حوالي شهرين نشر نفس المقالة في العدد الثامن ، السنة التاسعة من مجلة « الثقافة العربية » الصادر بطرابلس - ليبيا في شهر أغسطس / ٨٢ تحت عنوان « العناية بالطفل والمرضعات في الطب العربي . » للدكتور سامي خلف أيضا وبعد هذا ألا يحق لمتتبع مجلتكم باهتمام أن يتساءل كيف ولماذا يحدث مثل هذا ؟ علما بانها ليست المرة الاولى ، ولا أضع الوزر على كاتب المقال بل على التخبط واللامبالاة في الكثير من الصحف العربية ، فبدلا من العبارة التي تتصدر معظم المجلات العربية « المقالات التي ترد الى المجلة لا ترد الى صاحبها سواء نشرت أو لم تنشر » أرى أنه من المناسب أن تلزم المجلات نفسها - ولو كان ذلك صعبا - في ان ترد على كاتب المقال وتعلمه بوصول مقالته وأنها صالحة للنشر مع تحديد عدد النشر ، أو انها غير صالحة فهنا يتصرف الكاتب على ضوء الاجابة ولا يكون مضطرا لارسال عدة نسخ الى عدة مجلات في آن واحد .

وأود ان اقول لكم أيضا عبر رسالتي هذه أن مسابقة العربي الحالية طالب الكثيرون بالغائها ، على ان تستبدل بها الاسئلة الاعتيادية التي يجد فيها القارىء ثقافته بالبحث والتحري عن الاجابة ......

سهيل محمد - سوريا

(العربي)

جاءتنا هذه الرسالة ومعها قائمة ، ذكر الدكتور فيها أرقام الصفحات التي نشرت فيها المقالة في العربي ، وأمام رقم كل صفحة منها أرقام صفحات الكتاب التي يرى أنه قد نقل عنها كاتب المقالة ، وقد راجعنا أصل المقالة التي أرسلت الينا ، فوجدنا كاتبها قد اشار في ذيلها الى سبعة مراجع بأسمائها واسماء مؤلفيها ، ومن بينها اسم الدكتور واسم كتابه ، وعند رجوعنا الى المقارنة بين صفحات المجلة وصفحات الكتاب كما حددها الدكتور ، وجدنا أن كاتب المقالة لم ينقل حرفيا عن الكتاب الا في مواضع قليلة ، والمنقول في كل موضع جملة أو جملتان لم يغير فيها الكلام ، إلا موضعا واحدا نقل فيه حرفيا ستة أسطر كوامل ، ولا يخلو الامر من شبهات في المواضع الأخرى ، ويكفي في هذا أن نذكر أن الدكتور أشار الى أولى صفحات المقالة مثلا (ص ١٣٧) ثم أشار الى ما يقابلها من أرقام صفحات كتابه على هذا المنوال (١٣٩ ، ١٢ ، ٣٥ ، ١٣ ، ٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٣ ،)فهذه خمسة عشر موضعا لا تتوالى فيها الارقام على الترتيب الحسابي بل تسير مقبلة مدبرة « والعربي » لاتتساهل من جانبها في التعامل مع أى كاتب يرسل اليها نتاجا ليس له ، أو نتاجا لا يكون لها خاصة .

مقالات في كلمات

■ حياة المرأة كتاب ضخم . . مكتوب على كل صفحة من صفحاته كلمة : أحب .

(شوبان)

■ المرأة تحب الرجل . . والرجل يحب الله .

(رينان)

■ خلقت المرأة لتحب الرجل ، وتخضع له .

(فولتير)

■ المرأة متطرفة في الحب والكراهية ، ولا تعرف الوسط بينهما . .

(سيروس)

■ حب المرأة الساقطة يقتل غيرها ، حب المرأة الشريفة يقتلها هي .

(جورج صاند)

■ قلب المرأة لا يسمع الا صدى الحب ، وعقلها لا ينفتح الا لكلمة الزواج ، أما اذناها فإنهما تستقبلان كل نداء .

(لوثر)

■ تمقت المرأة الرجل الغيور الذي لا تحبه ، ويغضبها الحبيب الذي لا يغار .

(لنكولن)

■ الرجال يحبون قليلا وغالبا . . والنساء كثيرا ونادرا .

(جورج اليوت)

■ عندما يحب الرجل امرأة فانه يفعل أي شيء من أجلها ، اللهم الا شيئا واحدا هو ان يستمر على حبها .

(اوسكار وايلد)

كتاب الشهر



مقتل نابليون

تأليف :

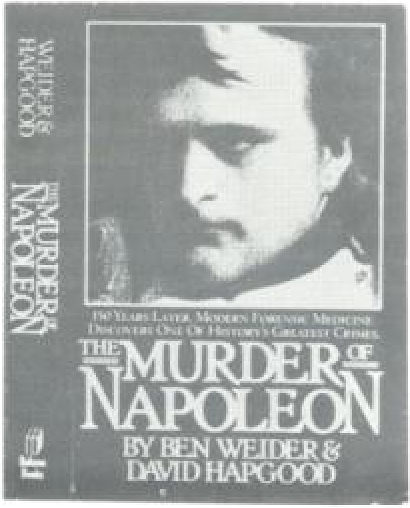
بين ويدر وديفيد هايجود

تقديم : الدكتور

احمد عبد الرحيم مصطفى

تحليل شعرة من رأس نابليون كشف الستار عن السر المثير بعد قرن ونصف ثبت أنه قُتِل بسم الزرنيخ

هذا كتاب جديد احدث ضجة في الأوساط العلمية والتاريخية ، أعلن فيه مؤلفاه ـ لأول مرة ـ أن نابليون بونابرت ، أشهر قادة فرنسا وأبطالها ، قتل بسم الزرنيخ ولم يمت بقرحة المعدة كما هو شائع .





شغل نابليون المؤرخين والكتاب اكثر مما شغلتهم شخصية أخرى في التاريخ الحديث . فهو ابن الثورة الفرنسية « العامد » وقائد جيوشها المظفرة منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى هزيمته النهائية في ووترلو عام ١٨١٥ . وقد أثبت نابليون طيلة حياته العامة أنه ليس قائدا عسكريا فذا فحسب ، بل إنه استرعى الأنظار وحاز الاعجاب بصفته مشرعا واداريا عبقريا . كما أن شخصيته الفذة جعلت الكثيرين يتعلقون به ويسجلون بعض فترات حياتهم معه ، في الوقت الذي زودت فيه مراسلاته ومذكراته وما كتب عن حياته الخاصة وغرامياته المكتبة التاريخية والقصصية بالكثير . وفوق ذلك فان حياة « رجل الأقدار » قد استكملت ملامحها الدرامية لما فيها من تعارض ضخم بين ذروات المجد التي بلغها نابليون وبين النهاية البائسة لحياته في منفى سانت هيلانه ، وهي جزيرة قريبة من خط الاستواء شبه معزولة عن العالم الخارجي ، يناصب حاكمها الانجليزي نابليون العداء ويفرض عليه حراسة مشددة لامجال فيها للراحة . وهكذا نجد حياة نابليون تستكمل أبعادها الدرامية التي ألهمت الكثير من القصاصين وعباد البطولة في أقطار عديدة ، فكتبوا ماشاءت لهم الكتابة ـ وفي القصص مجال للخيال والتعدي على الحقائق ، بحيث يتسع لما قد لا يتسع له التاريخ بمناهجه الصارمة . بل إن اسطوره نابليون لاتزال تتمثل في الجمعيات النابليونية الموجودة في فرنسا وغيرها .

ويبدو أن سيل المؤلفات المرتبطة باسم نابليون لم ينقطع بعد ـ ومن ذلك ظهور كتاب مثير[١] هذا العام (١٩٨٢) سعى فيه مؤلفاه إلى اثبات أن نابليون قد قضى عليه سم « الزرنيخ » في جزيرة سانت هيلانه ، وأن وفاته كانت النهاية المنطقية لمؤامرة محبوكة استلزم تنفيذها عدة سنوات دون ان تترك من الآثار ما ينم عنها ، إلى أن أماط التقدم العلمي الذي شهدته العقود الاخيرة اللثام عنها .

أما مؤلفا الكتاب فهما « بين ويدر » رئيس الجمعية النابليونية في كندا وعضو مجلس الجمعية النابليونية في فرنسا ـ والآخر هو « ديفيد هابجود » رئيس تحرير مجلة فوكس **Focus** التي تصدرها الجمعية الجغرافية الأمريكية ، وله مقالات في قسم عرض الأحداث الأسبوعية في جريدة النيويورك تايمز إلى جانب عدة مؤلفات وترجمات .

---

1 .Ben Weider and David Hapgood, The murder of Napoleon(Robson Books Ltd. London1982)

قصة بوليسية

وكتاب ويدر وهايجود هذا يحكي قصة موت نابليون المؤلم والبطيء نتيجة لمؤامرة مبرمجة وهي قصة شبيهة بالأفلام السينمائية البوليسية وينقل المؤلفان مسرح القصة على التوالي ما بين بلاط سانت هيلانه والأبحاث الحديثة التي أجراها طبيب الأسنان السويدي « ستن فرشفوت » وأثبت في نهايتها أن نابليون كان ضحية جريمة قتل .وإذا صحت نتائج تجارب فرشفوت نكون قد وضعنا أيدينا على حقيقة تاريخية جديدة . فقد استقر الرأي فيما مضى على أن نابليون قد أصيب بقرحة في المعدة كان مقيضا لها أن تفضي إلى إصابته بالسرطان ، وأن هذه العلة هي التي قضت عليه في سن الحادية والخمسين ، وهي سن وفاة مبكرة بالنسبة إلى شخص كان طيلة حياته يتمتع بصحة جيدة وبنيان قوى وحيوية خارقة للعادة .

ولما كانت صحة نابليون قد تدهورت في سانت هيلانه بالصورة التي أثارت قلق كل من الفرنسيين المرافقين لنابليون والحراس الانجليز ، فقد عزيت علة نابليون إلى مناخ الجزيرة وإلى الحكومة الانجليزية التي قيل إنها قد أرسلت نابليون إلى هذا المكان القريب من خط الاستواء بهدف التعجيل بوفاته . وما أن توفي حتى جرى تشريح جثته وقدم كل من الاطباء السبعة الذين حضروا عملية التشريح تقريره عن أسباب الوفاة . حقيقة انهم اتفقوا جميعا على وجود قرحة في المعدة ، إلا أنهم لم يتفقوا على كتابة تقرير واحد . كما أن الطبيب الكورسيكي « انتومارشي » حمل الانجليز مسئولية الوفاة ، خاصة وأن نابليون صرح قبيل وفاته بما يلي : « انني أموت قبل الأوان ـ لقد قتلتني الاوليجاركية الانجليزية والمجرم الذي استأجرته » ، وأن الطبيب الانجليزي توماس شورت وجد الكبد متضخما مما جعل انتومارشي يعزو الوفاة الى المناخ الاستوائي المحيط بسانت هيلانة .

وظلت هذه الحقائق مستقرة في الاذهان إلى أن ألقى عليها ستن فوشفورت ظلالا من الشك بل وأثبت أن نابليون مات مسموما . وكان فرشفورت ـ حتى اهتمامه بأسباب وفاة نابليون ـ قد وزع نشاطه ما بين مهنة جراحة الأسنان التي كان يتعيش منها وبين البحوث التي كان يجريها في مجال الأمصال وفحص الدم وما يتصل به من علم السموم . ولما كان فرشفوت متمردا على الآراء المتداولة في مهنته ، فانه لم يصب حظا من الشهرة ، ومن ثم كان انصرافه الى مجال آخر استرعى اهتمامه . وهكذا كان كل من يدخل منزله يدرك للوهلة الاولى أن نابليون يخيم على جو المسكن : فصوره وتماثيله والنحلة (الرمز الخاص لنابليون) كانت منتشرة انتشارا غير عادي في غرفة المعيشة ، كما كانت غرفة المكتب بالطابق الثالث تعج بالكتب المتصلة بنابليون وعصره وليس في ذلك من عجب ، خاصة وأن فرشفوت قد ورث الولع بنابليون عن والده .

وبينما فرشفوت يجلس في غرفة معيشة تحت أنظار صور نابليون وتماثيله ، إذا بيده تمتد إلى مذكرات لويس مارشان ـ رئيس خدم نابليون ـ وهذه المذكرات التي أشرف حفيد مارشان على نشرها خلال ذلك العام ، هي آخر ما نشر من مذكرات مرافقي نابليون في سانت هيلانة . وقد اهتم فرشفوت اهتماما خاصا بما كتبه مارشان عن المرض الاخير الذي ألم بالامبراطور ـ وكان الخادم المخلص قد قضى بالقرب من فراش نابليون وقتا أطول مما قضاه أي شخص آخر . ولم يكن مارشان ينوي نشر مذكراته التي لايبدو فيها أي تحامل على أحد . وما أن مضى فرشفوت في قراءة المذكرات حتى راودته الآمال في أن تلقي بعض الضوء على أسباب وفاة نابليون ، خاصة وأنه خلال تتبعه الوثيق للمساجلات التي جرت بين بعض المتخصصين حول كيفية وأسباب وفاة نابليون لم يقتنع بشيء مما ذهب إليه المتساجلون .

بحث عن خصلة الشعر

حقيقة انه لم يقتنع بأن السرطان هو سبب الوفاة إلا أنه لم يشف غليله أي فرض آخر ـ ومن ثم نجده يبحث في مذكرات مارشان عن أي دليل على احتمال جديد ، خاصة وقد وجد فيها تفاصيل عن حياة نابليون من يناير إلى مايو ١٨٢١ لم يرد لها ذكر فيما كتب من قبل . وقد ذكر مارشان بالتفصيل كيف كان نابليون عرضة لدورات متتالية من الرغبة في النوم فالأرق ، وكيف تورمت قدماه وأنه فقد كل شعر جسمه باستثناء شعر رأسه[٢] ، كما عرض لاستجابة نابليون في أيامه الاخيرة لسلسلة الادوية المتلاحقة التي قدمت له . وخلال قراءته تبادرت الى ذهنه أفكار استقاها

٢) ذهب البعض في هذا الصدد الى ان نابليون كان عرضة للتغيرات الفسيولوجية التي كانت تمهد لتحوله الى انثى .

من دراسته للسموم وتساءل : هل كان نابليون ضحية للسم ؟ للاجابة على هذا السؤال تراءى له أن نابليون لم تقدم له جرعة سم واحدة قاتلة ، خاصة وأن أدلة ذلك كان لابد أن تبدو واضحة للعيان عند فحص جسده بعد وفاته أو فيما يسجله من يشهده وهو يعاني سكرات الموت . ولكن ماذا عن قتل بطيء يستغرق سنوات وشهورا بأن تقدم له جرعات صغيرة من السموم التي كان الزرنيخ أكثرها تداولا في عصر نابليون ؟ لقد وجد الاجابة على ذلك في مذكرات مارشان : الميل للنوم ثم الارق ، والاقدام المتورمه وفقدان شعر الجسم - وكان يعلم أن ذلك من الشواهد المعروفة للتسمم بالزرنيخ . ويذكر أن الطبيب أنتومارشي وجد كبد نابليون متضخما ، وهذا دليل اخر على التسمم بالزرنيخ الذي شاع استعماله حينئذ باعتباره دواء وسما ، وان تكن أعراضه شبيهة بأعراض أمراض كثيرة مألوفة مما يجعل تشخيصه مختلطا بتشخيصات أمراض أخرى . وكل ذلك مما جعل فرشفوت يربط بين ما ذكره مارشان وبين ماعرفه مؤخرا عن ظروف وفاة نابليون . وبعد تردد استمر أربع سنوات بدأ فرشفوت البحث عن قاتل نابليون - وحينئذ قرر أن تكون نقطة البدء هي :

أن يعيد دراسة حياة نابليون منذ أن صعد على ظهر السفينة الحربية الانجليزية بلروفون قاصدا السواحل الانجليزية بعد هزيمة ووترلو في انتظار تقرير مصيره - وكان يأمل أن يسمح له بالاقامة في انجلترا . لهذا اطلع فرشفوت على الدراسات العلمية والسير الشعبية الخاصة بنابليون ، كما اطلع على الدراسات الخاصة بالزرنيخ وأعراضه كسم واستعمالاته القانونية والاجرامية في عصر نابليون . وحين أعاد دراسة ما كتب عن الشخصيات المحيطة بنابليون تبادر إلى ذهنه أن احدهم هو القاتل وانه قد بدت عليه في أواخر أيامه أعراض لا تقل عن ٢٢ من الأعراض الثلاثين المعروفة للتسمم بالزرنيخ . ولما كان فحص بقايا جثة نابليون يكاد يكون أمرا مستحيلا ، فقد قرر فحص عينات من شعره ، خاصة وأن خصلة الشعر في عصر نابليون كانت من الهدايا المعروفة التي يقدمها العظماء ، وأنها كانت بديلا للصورة الممهورة بالامضاء التي يهديها الساسة في عصرنا . ومن المعروف أن نابليون قد أهدى كثيرا من خصلات شعره - وقد أورد مارشان في مذكراته أنه جلب معه إلى فرنسا كثيرا من شعر نابليون الذي جرت حلاقته بعد وفاته وأنه وزع معظم هذه الشعرات على أسرة بونابرت وإن يكن قد خلف خصلة واحدة لابنته ، وكانت دراسات فرشفوت قد هدته الى أنه من المعروف أن الشعر أداة ممتازة لقياس ما يحتويه الجسم من الزرنيخ ، خاصة وأن الجسم يسعى إلى طرده عن طريق مسام الشعر - وكانت طريقة تحليل الشعر بحثا عن الزرنيخ قد غدت معروفة ومطبقة منذ عدة أجيال .

اول الخيط

ولكن كيف يتسنى له الحصول على الشعر المطلوب ؟ لقد أرشدته مجلة علمية في نهاية المطاف الى أن شعرة واحدة تكفي لاجراء التحليل - وكان كاتب المقال الذي وردت فيه هذه الحقيقة هو الدكتور « هاملتون سميث » العالم بقسم الطب الجنائي بجامعة جلاسجو في اسكتلنده ، وهو شخصية كانت تحظى بقدر كبير من الاحترام في مجال عالم السموم كان قد توصل الى أن استخدام الطاقة الذرية في تحليل الشعر كفيل بتحريك ما يحتويه من زرنيخ بالصورة التي تتيح قياسه بدقة - لهذا قرر فرشفوت طلب مساعدة هاملتون سميث في تحليل إحدى شعرات نابليون ، والحصول على الشعرة قبل كل شيء وهكذا نجده يتوجه إلى باريس حيث حصل بعد لأي على شعرة نابليون من القومندان لاشوك أحد الاعضاء البارزين في دائرة المهتمين بالدراسات النابليونية في باريس ، وكان مديرا لمتحف الجيش في « الانفاليد » حي مقبرة نابليون وساعد في تحقيق مذكرات مارشان ، وبعد أن حصل فرشفوت على الشعرة أرسلها الى هاملتون سميث لكي يقوم بتحليلها ، ثم وصله منه رد كتابي جاء فيه أن الشعرة تحتوي على نسبة عالية من الزرنيخ .

ولا شك أن فرشفوت قد سر كثيرا لهذه النتيجة ، وان يكن قد سعى الى التأكد من النتيجة لاسكات المتشككين الذين بامكانهم مواجهته بالتعليقات التالية : لا تكفي تجربة واحدة .. العينة صغيرة جدا .. ربما كانت الشعرة ملوثة .. ربما جاء الزرنيخ من البيئة : من المياه أو شيء آخر .. قد تكون شعرة شخص آخر غير نابليون .. الخ الخ . لهذا توجه فرشفوت إلى جلاسجو ليتعرف من هاملتون سميث على تفاصيل تحليله ومغزاه ، وهناك تأكد من أن الزرنيخ كان في الشعر الذي دخله عن طريق مسام الجسم ، وطلب منه سميث مزيدا من الشعر للتأكد من أنه من نفس الجسم وأفاده بأن بامكانه تحليل أجزاء الشعرة مما يمكنه من قياس كميات الزرنيخ التي تناولتها الضحية خلال فترات نمو الشعر . لهذا سعى بمختلف الوسائل الى الحصول على خصلات اخرى من شعر نابليون أجريت عليها مائة وأربعون تجربة - وبعد عمليات الفحص الدقيق تبين أن نابليون تناول السم بجرعات قليلة على فترات ،

وحين جرت مقارنة بين نتائج التجربة وبين المعلومات الواردة في المذكرات الخاصة بحياة نابليون وفترات المرض ودلائل التسمم الواضحة بين فترة وأخرى تطابقت النتائج .

وما أن ثبت ذلك لفرشفوت حتى انتقل إلى ناحية اخرى الهدف منها الاجابة على التساؤلات التالية : هل جرى دس السم لنابليون في أواخر حياته ؟ أو أنه نفذ قبل ذلك بوقت طويل ؟ ومن هو القاتل ؟ وهنا تبادر الى ذهنه السؤال التالي : من هو صاحب المصلحة في التخلص من نابليون ؟

من القاتل ؟

للاجابة على هذا السؤال أحاطت الشكوك بأسرة البوربون الحاكمة في فرنسا في أعقاب سقوط نابليون فقد عادت هذه الاسرة الى البلاد ، في ركاب الحلفاء ، وتصرفت كما لو كانت الثورة الفرنسية لم تنشب على الاطلاق . واعتلى عرش فرنسا الملك لويس الثامن عشر الطاعن في السن ، وعاد الى البلاد أخوه الاصغر الكونت دارتوا ألد اعداء نابليون . الذي أبدى رغبة شديدة في اجتثات الأفكار الثورية والانتقام لما أصاب اسرته على أيدي الثوار الفرنسيين . وكل ذلك جعل نابليون يردد قوله المشهور « ان البوربون لا ينسون شيئا ولا يتعلمون شيئا » ، على حين صرح دارتوا بقوله : « ان سلام العالم يقتضي القضاء على هذا الوحش (أي نابليون) » .

وسرعان ما أدت أعمال البوربون والنبلاء ورجال الدين العائدين الى العطف على الامبراطور المنفي ، خاصة وقد ساءت أحوال فرنسا التي أرهقتها ديون الحرب في الوقت الذي رزحت فيه تحت شروط صلح مهين ، وازدادت الضرائب في الوقت الذي هبطت فيه قيمة الممتلكات نتيجة لاحتمال اعادتها الى ملاكها السابقين ، وحاول فيه القساوسة إعادة الممارسات الدينية السابقة والعشور الكريهة السارية خلال العهد البائد . وهبطت الحياة السياسية الى مستوى تيارات من الشكوى والاتهامات والمؤمرات ، وأبدى الليبراليون سخطهم على رجعية واستبداد حكم البوربون ، وعم السخط الجيش الملكي ، وأبدى رجاله حسرتهم على أمجاد الامبراطورية الضائعة . هذه الأوضاع العامة هي المسئولة في السابق عن عودة نابليون الى الحكم بعد فراره من جزيرة ألبا دون أن تراق نقطة واحدة من الدم ، ورغم هزيمة نابليون ونفيه الى جزيرة سانت هيلانة فان مجرد وجوده على قيد الحياة كان يشكل شبحا مخيفا بالنسبة الى أسرة البوربون بوجه عام والكونت دارتوا بوجه خاص . فهو الذي طالما دبر المؤامرات لاغتيال نابليون حين كان قنصلا أول ثم امبراطورا ، بل وبعد نفيه إلى جزيرة ألبا . وهنا يكمن الخيط الأول للمؤامرة . فالبوربون يخشون نابليون والتيار البونابرتي ، وقتله دفعة واحدة بجرعة سم كفيل بكشف المؤامرة حين تبدو آثار الزرنيخ واضحة في الجسد ، مما يؤدي الى نشوب ثورة شعبية يتزعمها المحاربون القدماء والاطاحة بحكم البوربون وربما القضاء عليهم بقتلهم . لهذا تركزت شكوك فرشفوت في الكونت مونتولون . المشرف على أبنية نابليون ، خاصة وانه لم يكن من رجال نابليون السابقين المخلصين . وذهب الى أنه توجه الى سانت هيلانة لتنفيذ مؤامرة قتل نابليون التي كلفه بها الكونت دارتوا وقطع في نهاية المطاف بأن الكونت مونتولون هو الذي دس السم لنابليون على جرعات صغيرة حسب خطة متقنة كان لايشك في أنها ستفضي في النهاية الى تضعضع صحة نابليون مما يرغمه على البقاء في سانت هيلانة وافشال محاولات نقله سواء الى أوروبا أو الى أمريكا ، ثم الى وفاته في نهاية الأمر دون أن تبدو على جسده أية آثار للجريمة .

إن ما توصل إليه الطبيب السويدي فورشفوت يحتوي على كثير من العناصر الايجابية ، وان التأكد من صحة ما توصل اليه ، الى جانب كشفه عن حقيقة تاريخية هامة ، كفيل بفتح نافذة جديدة على بعض الحقائق التاريخية الغامضة . وهنا يكون قد تم التزاوج بين المناهج التاريخية التقليدية ومناهج العلوم التطبيقية التي تعتمد على التجربة والاختبار ولم يسبق تطبيقها على التاريخ بحكم أن الحادثة التاريخية لا تتكرر وأن الأموات لا يتكلمون ■■

د . احمد عبد الرحيم مصطفى

من مكتبة العربي



الحركة العمالية والنقابية في فلسطين ـ (١٩٤٠ ـ ١٩٤٨)

تأليف : الدكتور فايق حمدي طهبوب

الناشر ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع

يقول المؤلف في مقدمة كتابه إن لتاريخ فلسطين جوانب كثيرة تستحق الدراسة والبحث وقد استحوذ الجانب السياسي من تاريخ البلاد على القسم الاكبر من العناية وحظي باهتمام الباحثين والدارسين من عرب ويهود ، وبذلك أهملت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من هذا التاريخ ، فكان لا بد أن تتجه البحوث إلى دراسة البنيان الاجتماعي للشعب الفلسطيني في مختلف صوره ويتضمن هذا البنيان الفئات التي يتكون منها هذا المجتمع كالعمال والفلاحين وغيرهم .

واذا كان العمال اليوم ركيزة البنيان والعمود الفقري للاقتصاد والقوى المؤثرة في الانتاج والاستهلاك وهم وقود الثورات ، فقد اصبح من الضروري التعرف على حركتهم في فلسطين ، نموها وتطورها ، لمعرفة مدى اثرهم ودورهم في تاريخ فلسطين السياسي .

لهذه الاسباب مجتمعة وقع اختيار المؤلف على موضوع هذا البحث فطرق هذا الجانب في بحث شامل عن الحركة العمالية والنقابية في فلسطين بحيث يشمل الحركة العمالية العربية والحركة العمالية اليهودية .

قسم المؤلف أطروحته إلى سبعة فصول ومقدمة وهي معنونة كالتالي : القوى الرئيسية المؤثرة على الحركة العمالية في فلسطين ، نشأة الحركة العمالية والنقابية في فلسطين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٣ ، تدهور الحركة العمالية والنقابية العربية ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ ، ازدهار الحركة العمالية والنقابية العربية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٨ ، الحركة العمالية اليهودية الهستدروت ، الهستدروت حكومة ظل ، القوى الصهيونية المساندة للحركة العمالية اليهودية . والكتاب بالتالي أطروحة نال بها المؤلف درجة الدكتوراه في الادب من جامعه القاهرة ■■ .



الكتاب في الحضارة الاسلامية

تأليف : عبد الله الحبشي .

الناشر : شركة الربيعان للنشر والتوزيع

يدرس الكتاب طريقة البحث عند علماء المسلمين واسلوبهم في التأليف والكتابة وكل ما له صلة بالكتاب . فعلماء الاسلام في كتاباتهم اعتمدوا على قدراتهم الذاتية في مجال الكتابه والتأليف بأدوات بسيطة قوامها المحبرة والقلم القصب ، ومع ذلك فقد تركوا لنا تراثا ضخما ما زال فخرا للعرب ، كما تركوا ضمن مؤلفاتهم فصولاً توجيهية توضح كيفية إعداد آلات الكتابة ابتداء من القلم القصب ومرورا بالمداد وتنويعه وفن التجليد ، وانتهاء بالمواد التي تستخدم لازالة الحبر ونحوه . ثم النساخة وهي الوسيلة الوحيدة لنشر وتدوين مؤلفاتهم وقد كانت مهنة فئة احترفها رجال اشتهروا بجودة الخط ودقة الصنعة في تزيين خطوطهم ، كما أن لهم حكايات طريفة تتعلق بمزاولتهم لهذه المهنة وما لاقوه من دعم سخي كانوا يتلقونه من الملوك والخلفاء . ثم كيف كانت النساخة سببا في تكوين وانشاء تلك المكتبات الضخمة مثل دار الحكمة وجامعة القيروان وغيرهما اما طريقة التأليف فكانت تعتمد على الحفظ غالبا والنقل كان نادرا وقد كان النقل معيبا ومن هنا كتب البلاغيون ابوابا خاصة بالسرقة اللفظية والمعنوية كما أن اخفاء المراجع التي تم الاعتماد عليها شيء غير لائق يتنافى مع قواعد التأليف وحقوق المؤلف .

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

○ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) . . والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا . . ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منه أما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري أن يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الأولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٨٩ » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول فبراير (١٩٨٣)

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم مملوك حكم مصر . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم رحالة وجغرافي عربي .

كلمات أفقية

(١) دولة أوروبية ـ فلكي قديم أثبت دوران الأرض حول الشمس .

(٢) من سلالات الدجاج ـ شهرهجري .

(٣) جلد يستخدم في حمل الماء ـ كثيرة الدهن ـ حيوان ـ حرف عطف وتخيير .

(٤) يتأكد ـ طائر ـ نصف كلمة (ظاهر) .

(٥) رقع ـ أسلب ـ ناشد .

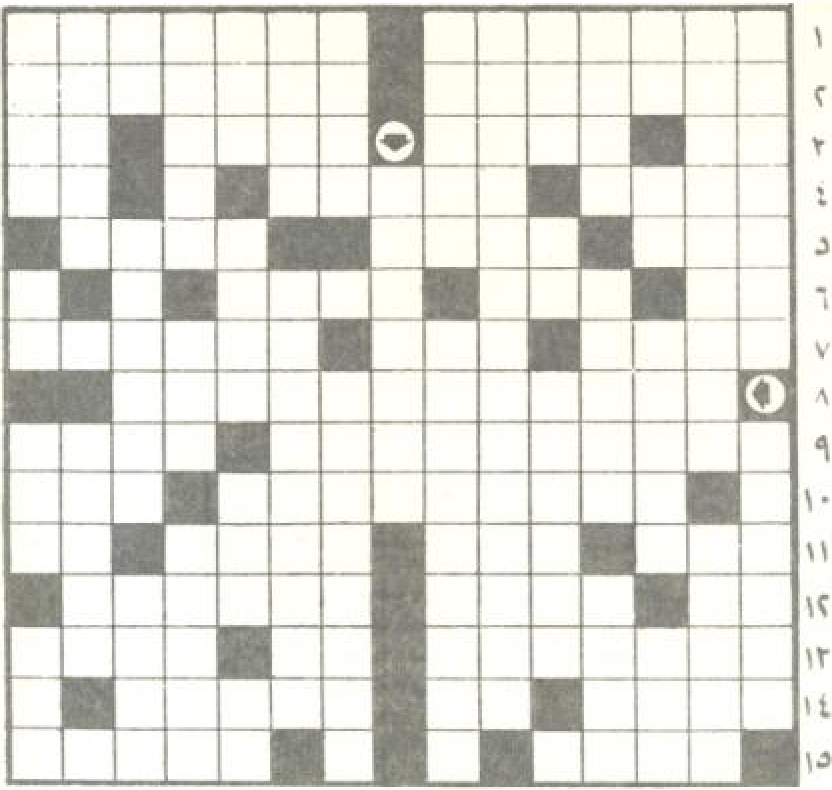
(٦) للنداء ـ رفض ـ تبرر .

(٧) مشعوذون ـ كنس ـ يسهلها .

(٨) مملوك حكم مصر .

(٩) في الجهاز الدوري ـ ندرة ـ اسرة حاكمة صينية .

كوبون مسابقة العدد ٢٨٩



(١٠) الاسم القديم لفرنسا ـ حرف أبجدي .

(١١) رجوع عن الايمان ـ حرف أبجدي ـ رضيع ـ رمز جبري .

(١٢) للنداء ـ حيوانات ـ رائد الهندسة التقليدية .

(١٣) الذي لايتصل بالشئون الداخلية ـ أوقف ـ طيور .

(١٤) عملة عربية ـ نص كلمة (نرجس) ـ أعداد .

(١٥) أشير وأنصح ـ مكانة .

كلمات رأسية :

(١) اله فرعوني يمثل شروق الشمس ـ من شخصيات الف ليلة وليلة .

(٢) من الأحجار الكريمة ـ من الزهور .

(٣) مقام موسيقي ـ حرفان متشابهان ـ واسعة ـ خشى .

(٤) عاصمة أوروبية ـ تقصير ـ طاقت .

(٥) نخفى ـ من الأقارب ـ فيلم شهير لأم كلثوم .

(٦) دولة أمريكية ـ طيور منزلية .

(٧) أدينه ـ شتم ـ الاسم الأول لشخصية نسائية آسيوية معروفة .

(٨) رحالة وجغرافي عربي .

(٩) من الموازين ـ من الأسلحة البحرية .

(١٠) من أدوات الحياكة ـ مناسبة دينية إسلامية .

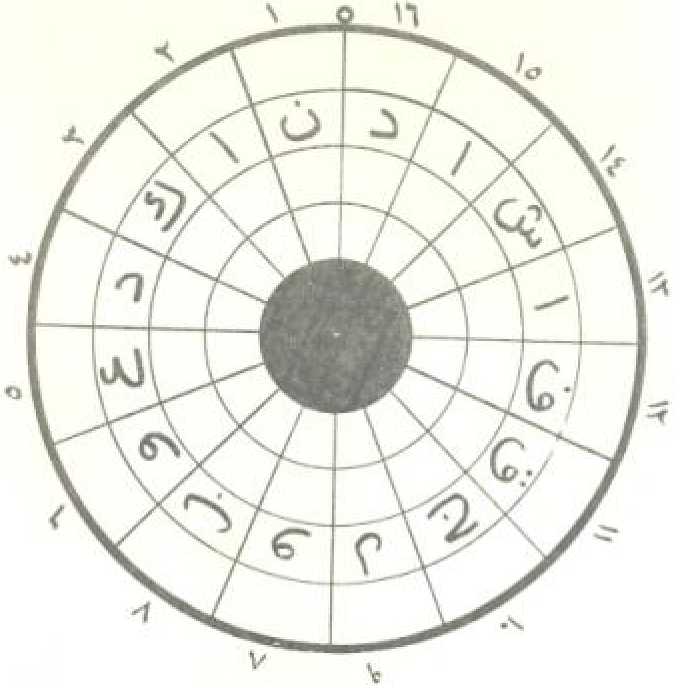
(١١) رخو ـ من أجزاء الذراع ـ نصف يوم ـ انهض .

(١٢) يجتازه ـ من الأوراق المالية ـ عملة عربية .

(١٣) مقام موسيقي ـ من الفصول ـ ساندت .

(١٤) ينتظم ـ بحيرة افريقية .

(١٥) انصرفوا ـ حرفان متشابهان ـ نوع ـ فترة من الزمن .



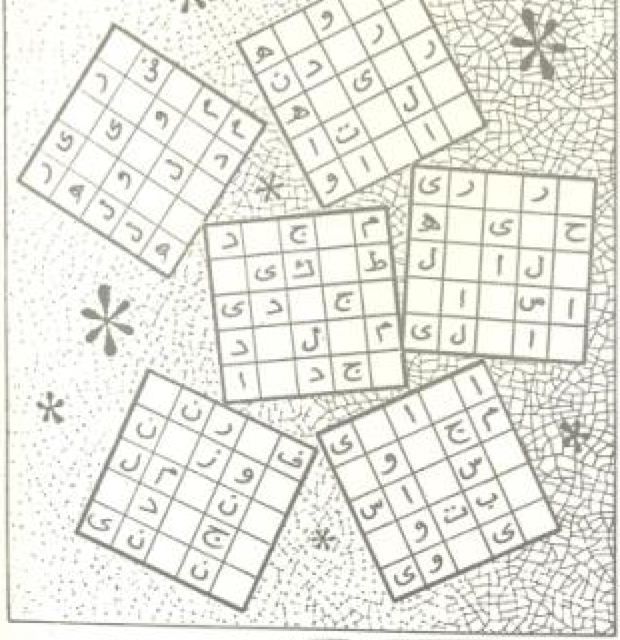
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الحروف الأربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

كاتب يوناني معاصر ، له قصائد وروايات فلسفية

(١) أعوام (٢) مرتفع (٣) ريب (٤) أقترب (٥) نوم (٦) غيرك (٧) أشرع (٨) وثيقة (٩) ألوذ (١٠) خلاعة (١١) مكروه (١٢) أكسب (١٣) مشيا (١٤) قريب الوقوع (١٥) مرتفع (١٦) بطأ .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية سميكة . في كل مربع منها خمس كلمات ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتبها لتحصل على اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في مواضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل المطلوب اذا عرفت أنه يضرب :

للشيء العتيق المستهلك الذي طال به الزمن

الحلول

العواصم :

حول الدائرة السوداء :

مثل عربي :

العربي

فهرس سنة ١٩٨٢

من العدد ٢٧٨ إلى العدد ٢٨٨

اعداد : صلاح صادق

حديث الشهر

بقلم : رئيس التحرير

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
اللغة العربية .. حين نريدها سلاحا سياسيا واستراتيجيا وحضاريا !	احمد بهاء الدين	٨٢/١	٢٧٨	٦
عندما يكتب الكاتب في غير اختصاصه : الجواد العربي .. سيد جياد التاريخ !	احمد بهاء الدين	٨٢/٢	٢٧٩	٦
فكرة القانون وقضية الشرعية في العالم العربي	احمد بهاء الدين	٨٢/٣	٢٨٠	٦
التراث العربي يغزو أوروبا	احمد بهاء الدين	٨٢/٥	٢٨٢	٦
حصاد رحلة الخريف : المستقبل .. وصل !	احمد بهاء الدين	٨٢/٦	٢٨٣	٦
عزيزي القارىء : مع أطيب تمنياتي ..	احمد بهاء الدين	٨٢/٧	٢٨٤	٣
العربي .. في عالم متغير	د . محمد الرميحي	٨٢/٨	٢٨٥	٦
نبوءة توينبي التي لم تتحقق .. حديث عن الماضي من أجل الحاضر والمستقبل	د . محمد الرميحي	٨٢/٩	٢٨٦	٦
الواقع العربي .. ومحاذير المستقبل	د . محمد الرميحي	٨٢/١٠	٢٨٧	٦
الثقافة العربية	د . محمد الرميحي	٨٢/١١	٢٨٨	٦

دين ورجال دين

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
العربي تطرح أوسع حوار حول قضية التطرف الديني :		٨٢/١	٢٧٨	٣١
٦ علامات للتطرف الديني	د . يوسف القرضاوي	٨٢/١	٢٧٨	٣٢
التطرف غير الجريمة والتشخيص الدقيق مطلوب .	د . احمد كمال ابو المجد	٨٢/١	٢٧٨	٣٦
حذار من التدين المغشوش	محمد الغزالي	٨٢/١	٢٧٨	٤١
وراء القضبان ولدوا وهكذا يتكلمون	سالم البهنساوي	٨٢/١	٢٧٨	٤٤
الوسيط الغائب بين الشباب والسلطان	د . عبدالعزيز كامل	٨٢/١	٢٧٨	٤٨
أسباب أربعة للتطرف	خالد محمد خالد	٨٢/١	٢٧٨	٥٢
القمع سبب للتطرف وليس علاجا له	د . محمد فتحي عثمان	٨٢/١	٢٧٨	٥٦
سيبقى الغلوما بقي التغريب	طارق البشري	٨٢/١	٢٧٨	٥٨

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
التطرف الديني والسياسة : من الضابط أنور السادات إلى الضابط خالد الاسلامبولي صفحات مطوية من ماضينا القريب لفهم العوامل والاسباب .	د . سعد الدين ابراهيم	٨٢/٢	٢٧٩	٣٥
التطرف الديني كرد فعل للتطرف اللاديني	د . ادريس الكتاني	٨٢/٣	٢٨٠	٤٦
ليس كل جديد بدعة .	د . محمد سعيد رمضان البوطي	٨٢/٣	٢٨٠	٥٨
المماليك رواد النهضة الثانية في الاسلام	د . سعيد عاشور	٨٢/٤	٢٨١	٦٣
المنبر والزهر والصخر	د . عبد العزيز كامل	٨٢/٥	٢٨٢	١٤
هل يعجز المسلمون عن الاتفاق على أوائل الشهور العربية ؟	م . . سعد شعبان	٨٢/٥	٢٨٢	٤٧
بحث عن هيكل سليمان أم طمس للمعالم الاسلامية في القدس ؟	عبد الغني محمد عبد الله	٨٢/٥	٢٨٢	٦٥
حوار مع كتاب « الفريضة الغائبة » : الاسلام والسيف !	د . محمد عمارة	٨٢/٦	٢٨٣	٢٠
أول جمعية اسلامية تنشأ في المجر	د . محمد التونجي	٨٢/٦	٢٨٣	٨٢
حوار مع كتاب « الفريضة الغائبة » : حكام العصر تتار أم مماليك ؟	د . محمد عمارة	٨٢/٧	٢٨٤	٢٥
الانعاش الصناعي والشريعة	د . احمد شرف الدين	٨٢/٧	٢٨٤	٣٢
قونيا في رمضان	احمد سعيد رزق	٨٢/٧	٢٨٤	٧٧
اعتبارات غائبة في تقييم الحركات الاسلامية	حسين احمد أمين	٨٢/٧	٢٨٤	٨٨
فقه العمل باب لازدهار الفكر الاسلامي	د . محمد فاروق النبهان	٨٢/٨	٢٨٥	٢٢
الطريقة القادرية في يوغسلافيا	د . محمد موفاكو	٨٢/٨	٢٨٥	٨٣
الأغلبية مبدأ اسلامى أصيل	د . عبد الحميد اسماعيل الانصارى	٨٢/٩	٢٨٦	٢٦
قراءة في فكر الزيدية	د . عبد العزيز المقالح	٨٢/٩	٢٨٦	٥٢
المهدى المنتظر في حياتنا المعاصرة	حسين احمد أمين	٨٢/١٠	٢٨٧	٢١
الجامع الازهر ورحلة الالف عام	محمد عبدالله عنان	٨٢/١٠	٢٨٧	٥٤
المطوعة ودورهم في حراسة ديار العروبة والاسلام .	د . احسان صدقي العمد	٨٢/١٠	٢٨٧	١٥٥
خواطر : اسلاميات	د . حسان حتحوت	٨٢/١١	٢٨٨	١٢
المغزى العصرى لهذا الموقف : لماذا اعتبر الاسلام العودة الى البداوة من الكبائر ؟	د . محمد جابر الانصارى	٨٢/١١	٢٨٨	١٤

العــدد القــادم : عــدد ممتـاز

للمناقشة
بقلم : فهمي هويدى

سياسة واقتصاد

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
أرقام : نقود سريعة الانتشار	محمود المراغى	٨٢/٦	٢٨٣	٤٢
رحلة التوسع الصهيونى : من مشروع « وطن يهودى الى اقامة امبراطورية اسرائيلية »	د . اسعد عبد الرحمن	٨٢/٨	٢٨٥	١٤
الاقتصاد هل هو علم أخلاقى ؟	د . عارف دليلة	٨٢/٨	٢٨٥	٣١
أرقام : النفط ينزل عن عرشه	محمود المراغى	٨٢/٩	٢٨٦	٥٠
انتحار أم بقاء ـ تحديات عام ٢٠٠٠ م	د . عبد العزيز كامل	٨٢/١٠	٢٨٧	١٤
مصير مليار جائع أمام حركة ٥٠٠ مليار دولار . .	د . عارف دليلة	٨٢/١٠	٢٨٧	٢٥
القمة الصناعية الغربية من أجل ماذا ؟ وضد من ؟	د . عارف دليلة	٨٢/١١	٢٨٨	٢٢

عروبة

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
الامن الثقافى . . من يحميه ؟	د . شاكر مصطفى	٨٢/١	٢٧٨	١٦
رأى جديد فى قضية نقل التكنولوجيا الحديثة الى العالم العربى	د . أسامه أمين الخولى	٨٢/٢	٢٧٩	٢٤
الا يكفى ٢٠ عاما لدراسة مشروع الموسوعة العربية ؟	مصطفى نبيل	٨٢/٣	٢٨٠	٥٦
الثقافة العربية فى الفكر الاسبانى المعاصر	د . محمد عبد الله الجعيدى	٨٢/٣	٢٨٠	١٧٣
المعلومات فى الوطن العربى : الازمة والبدعة ، والرسالة !	د . اسامة أمين الخولى	٨٢/٤	٢٨١	٦
من التراث الحديث : الوحدة العربية	عبد الحميد بن باديس	٨٢/٤	٢٨١	٨٥
تجربة يجب أن تعمم فى العالم العربى : الثقافة الجماهيرية	سعد كامل	٨٢/٥	٢٨٢	٥٤
الانجاز الحق هو معيار الشرعية	د . عبد الغفار رشاد محمد	٨٢/٥	٢٨٢	٩٤
شخصية مصر فى كتاب الدكتور جمال حمدان	د . نعمات احمد فؤاد	٨٢/٦	٢٨٣	٤٤
هم العرب فى كل مكان	المختار بن حيتا	٨٢/٦	٢٨٣	٧٧
العروبة فى لبنان	حسن عيتانى	٨٢/٦	٢٨٣	٩٤
خواطر : الاستقلال الاخضر	د . حسان حتحوت	٨٢/٧	٢٨٤	١٠
قناة البحرين الميت والمتوسط خطر اسرائيلى يهدد العرب	سمير صارم	٨٢/٧	٢٨٤	١٢
محنة العلم ومسيرته المتعثرة فى الوطن العربى	د . اسامة أمين الخولى	٨٢/٨	٢٨٥	٢٦

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
الدكتور جمال حمدان في أعماله الكاملة	د . نعمات احمد فؤاد	٨٢/٨	٢٨٥	٣٧
المعاهد الأجنبية	حسن عيتاني	٨٢/٨	٢٨٥	٧٨
بين صديقين	د . حسان حتحوت	٨٢/٩	٢٨٦	١٠
مواجهة التخلف في الوطن العربي	د . عبد المالك التميمي	٨٢/٩	٢٨٦	٩٤
اسرائيليات	د . حسان حتحوت	٨٢/١٠	٢٨٧	١٢
المصريون والفلسطينيون شعب واحد	ابراهيم محمد الفحام	٨٢/١٠	٢٨٧	٤٢
على هامش مؤتمر التعريب في دمشق : نحو منظمة عربية للدفاع عن اللغة	د . احمد خطاب	٨٢/١٠	٢٨٧	٧٨
القيم الراسخة سلاحنا في مواجهة الغزو الثقافي	تركي علي الربيعو	٨٢/١١	٢٨٨	٨٢

استطلاعات الكويت المصورة

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
زرع الكلى ، أحدث انجاز طبي في الكويت ...	منير نصيف تصوير : صلاح آدم	٨٢/١	٢٧٨	١٣٢
عشرون عاما في عمر تلفزيون الكويت	منير نصيف تصوير : اوسكار متري	٨٢/٢	٢٧٩	٧٢
الملاحة العربية سفير الخليج الى موانىء العالم	يوسف الشهاب تصوير اوسكار متري	٨٢/٣	٢٨٠	١٢٢
رحلة الفريق الكويتي الى كأس العالم في كرة القدم	صادق يلي	٨٢/٥	٢٨٢	١٢٤
الكويت تدخل عصر التكنولوجيا التطبيقية	يوسف زعبلاوي تصوير اوسكار متري	٨٢/٦	٢٨٣	١٢٠
الأندية الصيفية في الكويت تنمية مواهب ونشاط حر	يوسف الشهاب تصوير اوسكار متري	٨٢/٩	٢٨٦	١٤٨
٣ فنانات كويتيات	صادق يلي تصوير صلاح آدم	٨٢/١٠	٢٨٧	١٢٠

العدد القادم : عدد ممتاز

الاستطلاعات العربية والخارجية

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
السنغال في مصيدة التغريب !	فهمي هويدي تصوير : اوسكار متري	٨٢/١	٢٧٨	٧٦
من الكويت على الخليج .. الى « اصيلة » على المحيط !	مصطفى نبيل تصوير : اوسكار متري	٨٢/١	٢٧٨	١٤٤
مسلمو السنغال بين الحقيقة والطريقة	فهمي هويدي تصوير : اوسكار متري	٨٢/٢	٢٧٩	١٣٢
٥٠٠ قلعة وحصن تروى التاريخ في سلطنة عمان	صادق بل تصوير فهد الكوح	٨٢/٣	٢٨٠	٩٩
ديرسانت كاترين .. رحلة في سيناء	مصطفى نبيل تصوير : اوسكار متري	٨٢/٤	٢٨١	١٠٠
النيجر : الناس والنهر !	فهمي هويدي تصوير : اوسكار متري	٨٢/٥	٢٨٢	١٠٠
تونس : التجربة والمستقبل !	مصطفى نبيل تصوير : اوسكار متري	٨٢/٦	٢٨٣	١٠٠
مالي : عناق المجد والفقر !	فهمي هويدي تصوير : اوسكار متري	٨٢/٧	٢٨٤	١٠٠
السويداء قلعة سلطان الاطرش	صادق بل تصوير فهد الكوح	٨٢/٨	٢٨٥	١٠٠
رسالة جنيف : بلد في القمة ماذا يريد ؟	منير نصيف	٨٢/٨	٢٨٥	١٢٤
عالم مزاب المسحور .. رحلة الى الصحراء الجزائرية	مصطفى نبيل تصوير : اوسكار متري	٨٢/٩	٢٨٦	١٠٠
الزهد في السودان ورحلة مع الارض والماء ...	منير نصيف تصوير طالب الحسيني	٨٢/١٠	٢٨٧	١٠٤
بيروت بعد المذبحة .. صورة من قريب كيف يرون الغد ؟	منير نصيف تصوير طالب الحسيني	٨٢/١١	٢٨٨	١٠٠

أدب ولغة

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
الموديانية .. قراءة في أدب باتريك موديانو	محمود قاسم	٨٢/١	٢٧٨	١٠٩

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
اللغة العربية والوافدون	ممدوح محمد خسارة	٨٢/٩	٢٨٦	٩١
العام الخامس	فريدة النقاش	٨٢/٩	٢٨٦	١٢٨
السير الشعبية العربية	يوسف الشاروني	٨٢/٩	٢٨٦	١٣٨
أديب من شيلي : خوزيه دونوزو .. العنف والجنس بسودان العالم	محمود قاسم	٨٢/١٠	٢٨٧	٦٧
من التراث الحديث : الكتيبة الأدبية	د . زكي مبارك	٨٢/١٠	٢٨٧	٧٢
بصمات القصة العربية على الانتاج الأدبي الاوروبي	على شلش	٨٢/١٠	٢٨٧	٧٤
هل تتضافر الجهود لاصدار معجم تاريخي للغة العربية ؟	احسان جعفر	٨٢/١٠	٢٨٧	٧٩
عبد الله كلهم اخوان	عباس خضر	٨٢/١٠	٢٨٧	٩٠
معجم الجمهرة ثاني عمل موسوعي في تاريخ العرب	قسطنطين تيودوري	٨٢/١٠	٢٨٧	١٣١
المعرفة الانسانية بين الرواية شفويا والتدوين كتابيا	محمد خليفه التونسي	٨٢/١٠	٢٨٧	١٤٢
أصالة لغوية في اللهجات الأردنية	توفيق ابو الرب	٨٢/١٠	٢٨٧	١٥٩
حديث عن اللغة : حروف الحاضر وحروف المضارع	عبد الله زكريا الانصاري	٨٢/١١	٢٨٨	٤٣
أعمال لم تنشر لغسان كنفاني	سليمان الشيخ	٨٢/١١	٢٨٨	٥٤
البحث عن طريق جديد للرواية العربية المعاصرة	عبد الرحمن ابو عوف	٨٢/١١	٢٨٨	٥٨
من التراث الحديث : الوسائل والغايات	طه حسين	٨٢/١١	٢٨٨	٦٨
الترجمة في عالم اليوم	د . مصطفى كامل فوده	٨٢/١١	٢٨٨	٨٣
هان سوين أديب من الصين	محمود قاسم	٨٢/١١	٢٨٨	١٤٠
الروض العاطر ومسائل تفزاوية	د . حسام الخطيب	٨٢/١١	٢٨٨	١٦٠

صفحة في اللغة

بقلم : محمد خليفة التونسي

الموضـــوع	الشهر السنة	العدد	الصفحة
أسرة اللغة العروبية « السامية »	٨٢/١	٢٧٨	١٦٨
لغتنا بين صيادلتها وأطبائها	٨٢/٢	٢٧٩	١٢٠
اللغويون أدلاء لا أوصياء	٨٢/٣	٢٨٠	١٦٤
لا كهنوت في اللغة	٨٢/٤	٢٨١	٧٨
المكوف على علوم اللغة يضير المواهب الأدبية	٨٢/٥	٢٨٢	١٦٨
اللغات تكتسب بالممارسة .. لا بدراسة علومها	٨٢/٦	٢٨٣	١٦٦

شعر وشعراء

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
القريب البعيد	حسن عبد الله القرشي	٨٢/٧	٢٨٤	١٤٣
من التراث الحديث : بيروت نجمتنا الاخيرة ..	محمود درويش	٨٢/٨	٢٨٥	٤١
صلاح ستيتية والخيام	احمد عبد المعطى حجازى	٨٢/٨	٢٨٥	٥٩
مواساة	احمد بن محمد الشامى	٨٢/٨	٢٨٥	١٥٠
عندما تحبى المبالغة على الشعراء	عبد الوهاب شكرى	٨٢/٨	٢٨٥	١٦٣
الامانة	محمد عبده غانم	٨٢/٩	٢٨٦	١٩
الدكتور خليل حاوى بشر في شعره بالحياة والتجديد ثم انتحر	محمود الريماوى	٨٢/٩	٢٨٦	٢٩
عربي نعم .. لكنه شاعر فرنسي	احمد عبد المعطى حجازى	٨٢/٩	٢٨٦	٤٢
من التراث الحديث : ذكرى الشاعرين شوقي وحافظ	عبد الحميد بن باديس	٨٢/٩	٢٨٦	٧٢
لماذا لا يكتب أمين خان بالعربية ؟	احمد عبدالمعطى حجازى	٨٢/١٠	٢٨٧	٣٠
بدوى الجبل شاعر العروبة والشام	احمد محمد قدور	٨٢/١٠	٢٨٧	٦٠
غاب فجرى	مصطفى عبد الرحمن	٨٢/١١	٢٨٨	٢٧
مصر وشعرها الفرنسي	احمد عبد المعطى حجازى	٨٢/١١	٢٨٨	٣٤
الامام الشوكاني .. شاعرا	احمد بن محمد الشامى	٨٢/١١	٢٨٨	٧٦
اذا ... قصيدة روديارد كبلنج الخالدة (مترجمة)	د . صفاء خلوصى	٨٢/١١	٢٨٨	٩٩
السرقة الشعرية لم يسلم منها شاعر	د . كمال نشأت	٨٢/١١	٢٨٨	١٣٢

قصص

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
أبي يبحث عن « عروسة »	سعد كامل	٨٢/١	٢٧٨	٦٢
أبو العريف ـ تأليف سومرست موم (مترجمة) ..	شوقي جلال	٨٢/١	٢٧٨	١٧٨
غرباء في المولد	سعد مكاوى	٨٢/٢	٢٧٩	٦٢
الوصية	عبد الحميد بن هدوقة	٨٢/٢	٢٧٩	١٦٦
على الربابة	عباس خضر	٨٢/٣	٢٨٠	٦٣
مأساة ـ تأليف اوهنرى (مترجمة)	جمال الكتاني	٨٢/٣	٢٨٠	١٦٦
الغزال	فريدة النقاش	٨٢/٤	٢٨١	٥٩
حسنة باجي ـ قصة عميد الادب التركي نجيب فاضل (مترجمة)	محمد حرب	٨٢/٤	٢٨١	١٧٢
التحقيق	سعيد سالم	٨٢/٥	٢٨٢	٦٢
عم الحلاق ـ تأليف وليام ساروبان (مترجمة) ..	نعوم ابراهيم عبود	٨٢/٥	٢٨٢	١٧٨
الحل الاخير	د . شكرى محمد عياد	٨٢/٦	٢٨٣	٥٦
قصة خليجية : الافق والخيمة	فهد الدويرى	٨٢/٦	٢٨٣	٨٦

علوم

أنباء الطب والعلم

اعداد : يوسف زعبلاوى

طبيب الاسرة

الموضـــوع	الشهر السنة	العدد	الصفحة
القلق النفسي ـ الازمات الصحية التي تصيب الجنين ـ رسام القلب ـ	٨٢/٩	٢٨٦	١٤٥
اضرار الاشعاعات ـ الحياة في الجو الحار	٨٢/١٠	٢٨٧	١٥٢
هل يفقد الانسان حساسة الذوق ؟ ـ اللغط على القلب	٨٢/١١	٢٨٨	١٥٣

تاريخ

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي	د . احمد عبد الرحيم مصطفى	٨٢/٢	٢٧٩	١٢٢
وثيقتان : الرحلة الطنجوية رحلة الحج في القرن ١٩	د . عبد العزيز التمسمان	٨٢/٢	٢٧٩	١٧٥
واقع المغرب في القرن ١٦	د . أمين الطيبي	٨٢/٢	٢٧٩	١٨١
قصة الخط الحديدي الحجازي لم تتم فصولا ـ الباحثون الغربيون يجمعون أن انجلترا وفرنسا ـ وليس العرب ـ هم الذين خربوا الخط وأوقفوه	سعيد الافغاني	٨٢/٣	٢٨٠	٨٢
ابن بطوطة يظهر في مدريد	محمد بن عبد الله الطنجي	٨٢/٣	٢٨٠	١٧٦
عصر الجزار . . مزيج من الطغيان والمثابرة مع النذالة والجرأة	قسطنطين خمار	٨٢/٤	٢٨١	١٦٦
« دار النيابة السعيدة » بطنجة واجهة دبلوماسية لمخاطبة قناصل اوروبا	د . عبد العزيز التمسماني	٨٢/٥	٢٨٢	٣٧
صورة من الماضي : عندما جاءت السيارات الى بلادنا	د . طلال المجذوب	٨٢/٥	٢٨٢	٥٨
خواطر : جذور	د . حسان حتحوت	٨٢/٦	٢٨٣	١٢
السلطانة الروسية في البلاط العثماني	د . احمد عبد الرحيم مصطفى	٨٢/٦	٢٨٣	٨٩
في عالم الخيول المملوكية	جمال الغيطاني	٨٢/٧	٢٨٤	١٣٦
فتح طشقند	محمود شيت خطاب	٨٢/٨	٢٨٥	١٣٤
اليهودي التقليدي بين الخرافة والتاريخ تغيرات جذرية طرأت على العقل اليهودي بعد قيام اسرائيل	احمد محمد رمضان	٨٢/٩	٢٨٦	٣٣
باحثة البادية أول صوت نسائي يشارك في معركة تحرير المرأة	شفيق العمروسي	٨٢/١٠	٢٨٧	١٤٧
حتى نفهم قضية الاندلس	محمد عبد الله عنان	٨٢/١١	٢٨٨	٨٠

تاريخ اشخاص

تربية وعلم نفس

فلسفة

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
موسوعة تاريخ الفكر الاسلامي	ميغل كروث ارناندث	٨٢/٣	٢٨٠	١٧٨
هل الفلسفة أدب ؟	يوسف ميخائيل سعد	٨٢/٥	٢٨٢	٩٦
من التراث الحديث : عقلية الجماعات	علي أدهم	٨٢/٦	٢٨٣	٥٠
الحرية الاكاديمية	د . السيد عمار	٨٢/٨	٢٨٥	٧٦
ميشيل فوكو : فلسفة القوة والقهر الاجتماعي ..	د . احمد ابو زيد	٨٢/٩	٢٨٦	٤٥
اسحق باشفيز سنجر فيلسوف « الجيتو » ومؤرخه	نوح الحزين	٨٢/١٠	٢٨٧	٣٣

مجتمع واجتماع

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
علبة النوم	حافظ أحمد أمين	٨٢/٢	٢٧٩	٥٧
الهدية .. موضة العصر أم تقليد وراثي ؟	د . فخري الدباغ	٨٢/٢	٢٧٩	١٠١
أرحام للايجار	متيب حمدان	٨٢/٢	٢٧٩	١١٢
الآثار السلبية لغزو العمالة الاسيوية للخليج والعالم العربي	د . محمد الرميحي	٨٢/٣	٢٨٠	١٤
أرقام : تلد النساء .. ولا يزيد العالم	محمود المراغي	٨٢/٣	٢٨٠	٤٤
الأم في عيدها	د . عمر الدقاق	٨٢/٣	٢٨٠	٥١
انتشار الآلة ، هل جعل الحياة اكثر آلية ؟	حافظ أحمد أمين	٨٢/٣	٢٨٠	٦١
عودة التنجيم الى الغرب قفزة كبيرة الى الوراء	محمود مساد	٨٢/٣	٢٨٠	١٦٠
خواطر : القفاز	د . حسان حتحوت	٨٢/٤	٢٨١	١٢
أرقام : من يعيش أكثر ؟	محمود المراغي	٨٢/٤	٢٨١	٤٦
خواطر : الغالي والرخيص	د . حسان حتحوت	٨٢/٥	٢٨٢	١٨
أرقام : عالم من المدن	محمود المراغي	٨٢/٥	٢٨٢	٥٢
دفتر « النسوان » الشامي	عبد الغني العطري	٨٢/٦	٢٨٣	١٣٤
أرقام : ديون الفقراء ومشورة الاغنياء	محمود المراغي	٨٢/٧	٢٨٤	٤٨
خواطر : في منع الحمل والسياسة	د . حسان حتحوت	٨٢/٨	٢٨٥	١٢
أرقام : العالم يتاجر	محمود المراغي	٨٢/٨	٢٨٥	٧٤
هموم خليجية . الانسان والتنمية ـ التعليم مفتاح التنمية	د . علي فخرو	٨٢/٩	٢٨٦	١٢
كيف نجعل العمر ربيعا دائما ؟	خضر منصور	٨٢/٩	٢٨٦	٨٩
أرقام : انهم يقرأون أكثر	محمود المراغي	٨٢/١٠	٢٨٧	٥٢
مستقبل تنظيم الاسرة حتى سنة ٢٠٠٠	د . أنيس فهمي	٨٢/١٠	٢٨٧	١٣٤
أرقام : الأمن قبل كل شيء	محمود المراغي	٨٢/١١	٢٨٨	٤٦

العدد القادم : عدد ممتاز

ركن الاسرة والمرأة

بقلم منير نصيف

الموضوع	الشهر السنة	العدد	الصفحة
من أجل أبنائي	٨٢/٢	٢٧٩	١٠٨
الأم التي عزفت لحن الحياة	٨٢/٣	٢٨٠	١٣٨
خيوط من ضوء وسط الظلام !	٨٢/٤	٢٨١	١٤٠
نبض الحياة . . كيف نسمعه ؟	٨٢/٥	٢٨٢	١٣٤
غدا . . يوم جديد !	٨٢/٦	٢٨٣	١٣٦
العصافير وشجرة الليمون !	٨٢/٧	٢٨٤	١٣٢
هذه هي المرأة التي أبحث عنها	٨٢/٨	٢٨٥	١٣٨

كتب وكتاب الشهر

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
كتاب الشهر : عربة اسرائيل ارض الحليب والعسل من هددها وكيف ؟ تأليف هارولد ويلسون	مازن حماد	٨٢/١	٢٧٨	١٠٥
كتاب جديد : تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي	د . احمد عبد الرحيم مصطفى	٨٢/٢	٢٧٩	١٢٢
من مكتبة العربي : عن التنبؤ العلمي ومستقبل الانسان	د . محمود زكي	٨٢/٣	٢٨٠	١٣٣
الثقافة العربية في الفكر الاسباني المعاصر	د . محمد عبد الله الجميدى	٨٢/٣	٢٨٠	١٧٣
رسالة من بيروت : كتب . . كتب . .	جهاد فاضل	٨٢/٤	٢٨١	١٤٦
الولد الشقي في السجن ـ تأليف محمود السعدني	عبد العاطي ابو النجا	٨٢/٥	٢٨٢	٩١
كتب . . كتب	جهاد فاضل	٨٢/٥	٢٨٢	١٧٠
كتاب الشهر : اكتشاف الجزيرة العربية	د . هاشم حمادى	٨٢/٧	٢٨٤	١٨٠
من مكتبة العربي : الروض العاطر ونزهة الخاطر موسوعة عربية فريدة في الثقافة الجنسية للشيخ الامام ابن عبد الله محمد بن عمر النفزاوى	احمد عمر الشاهين	٨٢/٨	٢٨٥	١٧٤
كتب صدرت في بغداد	محمد رجب السامرائى	٨٢/٨	٢٨٥	١٧٩
كتاب يحمل آخر انذار للبشرية : مصير				

الفنون واللوحات الفنية

نذكر فيما يلي الابواب التي أغفلها هذا الفهرس العام لتعذر فهرستها ونذكر الى جانبها أسماء محرريها :

نزهة العقل الذكي .... راجي عنايت
طرائف عربية .... صادق يلي
مقالات في كلمات .... منير نصيف
قضايا حيوية .... مصطفي نبيل

حوار القراء : من العدد ٢٧٨ ـ ٢٨٥ عبد الحفيظ يونس
من العدد ٢٨٦ ـ ٢٨٨ يوسف الشهاب

العربي الصغير .... يوسف زعبلاوى
الفهرس العام من إعداد .... صلاح صادق

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الاصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية .

تصدر عن جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١

- تتناول المجلة الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية مما يخدم القاريء والمثقف والمتخصص .
- تعالج موضوعات المجلة الميادين التالية :

اللغويات النظرية والتطبيقية - الآداب والآداب المقارنة - الدراسات الفلسفية الدراسات النفسية - الدراسات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانية - الدراسات التاريخية - الدراسات الجغرافية - الدراسات التربوية - الدراسات حول الفنون (الموسيقى - التراث الشعبي - الفنون التشكيلية - النحت ... الخ) - الدراسات الاثارية (الاركيولوجية) .

- تقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر :

البحوث والدراسات - مراجعات الكتب - التقارير العلمية - المناقشات الفكرية .

- مواعيد صدور المجلة : كانون ثاني - نيسان - تموز - تشرين أول .
- تنشر المجلة ملخصات للبحوث العربية بالانجليزية ، وملخصات بالعربية للبحوث الانجليزية .

ثمن العدد : للأفراد ٤٠٠ فلس
للطلاب ٢٠٠ فلس

الاشتراكات السنوية

	داخل الكويت	في الخارج
- للمؤسسات	١٠ د.ك.	٤٠ دولاراً أمريكيا
- للأفراد	٢ د.ك.	١٥ دولار أمريكيا
- للاساتذة والطلاب	١ د.ك.	١٠ دولارات أمريكية

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عدة سنوات .
- قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .
- جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير :-

ص.ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة)

الكويت - الشويخ - ت : ٨٢١٦٣٩ - ٨١٧٦٨٩ - ٨١٥٤٥٣

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

ديسمبر - كانون أول
١٩٨٢ م

الأيديولوجيّة الصّهيونيّة

تأليف :
د. عبد الوهاب محمد المسيري

٥٠٠ فلس

الكتاب الستون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مِنَ المسرح العالمي
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول ديسمبر ١٩٨٢

١٥٩

عيد الميلاد في بيت كوبيللو

تأليف : ادواردو دى فيليبو
ترجمة وتقديم : د. سلامه محمد محمد سليمان
مراجعة : د. محمد سعيد سالم الباجوري

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدر عن جامعة الكويت

فصلية اكاديمية علمية مختصة بالشؤون النظرية والتطبيقية
في مختلف حقول العلوم الاجتماعية

رئيس التحرير د. أسعد عبد الرحمن

سكرتير التحرير عبد الرحمن فايز

يحوي العدد حوالي ٢٠٠ صفحة تشتمل على :

- ابحاث بالعربية تعالج مختلف حقول العلوم الاجتماعية.
- مراجعات لكتب حديثة تبحث الموضوعات التي تعالجها المجلة.
- ملخصات .
- ابواب ثابتة : تعاليق علمية . دليل الجامعات والمؤسسات التعليمية العليا .
- ندوة العدد .

الاشتراكات :

للمؤسسات والدوائر الحكومية : في الكويت ١٢ دينارا ، في الخارج ٤٥ دولار أو ما يعادلها.

للأفراد : في الكويت ديناران كويتيان ، دينار للطلاب .

في الوطن العربي : ديناران ونصف كويتيان أو ما يعادلها ، ديناران للطلاب،
في الدول الاخرى : ١٥ دولارا امريكيا أو ما يعادلها.

توجه جميع المراسلات والابحاث باسم رئيس التحرير على العنوان التالي :
مجلة العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت - ص.ب ٥٤٨٦ - الكويت
هاتف : ٥١٠١٨٨ / ٣٧٣ / ٢٥٠


AUTO REVERSE
AUTO REVERSE
RT-200S
BOMBEAT
DR-01
● 4-band (FM/MW/SW1/SW2) radio reception ● Powerful 14W output (7W × 2) ● 2-way 4-speaker system
TOSHIBA
توشيبا
TOKYO, JAPAN

إنه نقال، مسلٍّ، في البيت والترحال





نظام سانيو C5 الميني الجديد لأجهزة الستيريو النقالة المتكاملة

طاقة صوتية هائلة تبلغ ١٢ واط للقناة.
ستيريو FM/MW/SW1/SW2 . خمس موجات متوازنة
ستيريو كاسيت دك لانتقاء الموسيقى آلياً AMSS
ودولبي* NR . قارئ للأشرطة المعدنية . نظام لمكبري
الصوت ثنائي الاتجاه . يعمل على البطارية أو التيار
الكهربائي أو بطارية السيارة (إختياري).
ملائم لتجميعه كوحدة متكاملة للإنتقال به حيثما تشاء.

* دولبي هي العلامة التجارية لمعامل دولبي

SANYO سانيو